الجامع

في أخبار أبي العلاء المعرّي وآثاره

ألفه
محمد سليم الجندي

الجزء الأول

علق عليه وأشرف على طبعه
عبد الهادي هاشم

دار صادر
بيروت



مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق

الجامع

في أخبار أبي العلاء المعري وآثاره

ألفه

محمد سليم الجندي

الجزء الأول

علق عليه وأشرف على طبعه

عبد الهادي هاشم



دار صادر

بيروت

الجامع

في أخبار أبي العلاء المعري وآثاره

١

الطبعة الأولى دمشق ١٣٨٣هـ - ١٩٦٣م
الطبعة الثانية بيروت ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

طبع بإذن من المجمع العلمي العربي بدمشق
رقم ٥٠٤/ص بتاريخ ١٩٩١/١٢/٨





ص.ب. ١٠ بيروت ، لبنان / فاكس : ٠٤-٩٢٠٩٧٨
هاتف : ٠٤-٩٢٨٢٧١ ، ٠١-٤٤٨٨٢٧ ، ٠١-٤١٣٢٥٦


بسم الله الرحمن الرحيم



تمهيد

١ — لم تنجب الحضارة العربية في العصور الخوالي من يفوق أبا العلاء المعري « ٣٦٣ — ٤٤٩ هـ » في أصالة الرأي ، ونفاذ البصيرة ، وصدق النظرة ، وروعة الخيال ، وإحكام القول ، وسلامة التعبير ، والإحاطة بالعربية وعلومها . ولم يشغل النقادَ والباحثين أديبٌ عالمٌ وفيلسوف مفكر كما شغلهم رهين المحبسين . فقد أربت مصادر دراسته على « ٣٥٠ » مصدرا ، ونيفت مؤلفاته المعروفة على السبعين . ولعل مقبلات الأيام تقفنا على مصادر ومؤلفات أخرى لا نحيط الآن بها خبرا .

وقد كتب في أخبار المعري وآثاره كثير من الأفاضل على توالي العصور ، واختلف في أمره الباحثون والناقدون ، على أنه لم يظهر إلى يوم الناس هذا — فيما نحسب — كتاب جامع لذلك كله يتسم بالنصفة ، ويتصف بالاستقصاء ، ويزن ما قال المعري وما قيل فيه بالقسطاس المستقيم مثل هذا الكتاب الذي خلفه الأستاذ المرحوم سليم الجندي . فقد قضى في تصنيفه سنين طوالاً ، وتوفي بعد أن فرغ أو كاد من تبييضه ، ولم يفسح له الأجل أن يدفعه إلى الطبع ، فشاء المجمع العلمي العربي — وفاءً بحق الزميل الراحل ، وخدمةً للباحثين والدارسين — نشر هذا الكتاب ، وعهد اليَّ النظر في مخطوطة الكتاب ، وضبط شواهدها ، والتعليق عليها في ايجاز ، والإشراف على طبعها ، فقمت بذلك على قدر ما أعانت عليه الطاقة ،

واتسع له الوقت . وقد آزرني في ذلك كله الصديق الكريم الاستاذ عدنان الدرويش .

٢ — والأستاذ محمد سليم الجندي (١٢٩٨ — ١٣٧٥ هـ) مثال العالم المتمكن ، والمحقق الثبت والباحث الثقة . كان واسع المعرفة والرواية ، ضليعاً في اللغة وعلومها وآدابها ، بصيراً بأسرارها ، وكان الى ذلك كله معجباً بالمعري ، حافظاً لأشعاره ، متتبعاً لآثاره وأخباره ، عارفاً بما قاله وما قيل فيه .

ولد الأستاذ الجندي في معرة النعمان بلدة أبي العلاء ، ونشأه والده تنشئة أدبية صالحة ، وحضه منذ الصغر على حفظ البارع من الشعر والحكم من النثر ، وأولع الجندي الفتى « بشعر أبي العلاء المعري منذ حداثة سنه وحفظ منه شيئاً كثيراً . . . وقد تخرج بالشعر والأدب واللغة بما درسه وحفظه من شعر أبي العلاء وغيره »[1] .

وتحول عن المعرة مهاجراً مع والده الى دمشق عام ١٣١٩ هـ ، وقد نيف على العشرين من سني حياته ، ولقي فيها جماعة من علمائها الأعلام ، فتخرج بهم ، وأفاد من صحبتهم ، وقرأ عليهم الكثير من الكتب التي كانوا يقررونها لطلابهم في شتى العلوم المعروفة يومئذ ، وذاع صيته وعُرف فضله .

فلما قامت الحكومة العربية في دمشق ، بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى ، أرادت تعريب الدواوين وتقويم أسلوب الكتابة فيها ، فوكلت الى الأستاذ الجندي وبعض زملائه أن ينهضوا بهذا العبء ، وسمته (منشئاً أول)

---

(١) من ترجمة المرحوم الجندي لنفسه لم تنشر في حياته .

في ديوان رئاستها ؛ ثم انضم الى الرعيل الأول من علماء الشام الذين أقاموا المجمع العلمي العربي الذي ما يزال الى يوم الناس هذا موئل العاملين في الحفاظ على اللغة وآدابها ، ونشر تراث أعلامها .

ولما دالت الدولة العربية على يد الغاصبين الدخلاء ، انتقل الأستاذ الجندي من ديوان رئاسة الحكومة الى التدريس في المدارس الثانوية ، وفي مدرسة الأدب العليا من بعد ، وخرّج الكثيرين من أدباء الشام وعلمائها وباحثيها ، ثم أحيل الى التقاعد في أوائل الحرب العالمية الثانية ، فتفرغ للتأليف فيما اتسع له من وقت لم يتوفر له قبلَ أن يتحلل من قيود الوظيفة ، ومن ذلك إتمامه تأليف هذا الكتاب عن المعري .

وكان قد ألف قبل ذلك الكثير من التصانيف والرسائل ؛ فمن ذلك ثلاثة كتب سماها (عدة الأديب) جمع فيها مع زميل له طائفة من كلام البلغاء والحكماء والعلماء والشعراء وطبعها سنة ١٣٤٥ ﻫ ، ثم ألف سلسلة أخرى من الكتب سماها (عمدة الأديب) جمع في كل جزء منها ما يتعلق بكاتب واحد أو شاعر واحد من أخباره وأشعاره ودراسة آثاره ، كامرىء القيس وابن المقفع والنابغة الذبياني وعلي بن أبي طالب . وهنالك الكثير من الكتب والرسائل القيمة الأخرى التي نشرها في حياته ؛ وأكثر منها ما لم ينشر إلى اليوم ، ككتابه الوافي في (تاريخ المعرة) الذي لا يزال مخطوطا . وله في مجلة المجمع العلمي العربي وفي غيرها دراسات وانتقادات لغوية وأدبية كثيرة .

ووقعت له مخطوطة تامة نادرة من (رسالة الملائكة) للمعري، فشرحها وحققها وفسر شواهدها وأبان عن أصحابها وترجم لهم . وقد طبعها المجمع

العلمي العربي في دمشق عام ١٣٦٣ هـ بمناسبة المهرجان الذي أقيم يومئذ لمرور ألف عام على ولادة المعري .

٢ — ومن أعظم الكتب التي ألفها الأستاذ الجندي ولم تنشر في حياته هذا الكتاب الذي يرى القارىء جزاه الأول في الصفحات التالية ، وهو أجمع كتاب فيما نعلم لأخبار أبي العلاء ودراسة أشعـــاره وأدبه ، وفيه تحقيق كثير لما كُتب في أبي العلاء أو نسب اليه ، وتصحيح لما اعتور هذا أو ذاك من الخطأ .

وقد تتبع المرحوم الجندي ما كُتب عن حكيم المعرة ، وقص آثاره أثراً بعد أثر ، ووضع هذه المادة الضخمة الغزيرة من الأخبار والآثار في ميزان المحاكمة والمناقشة العلميتين ، فخرج منها إلى نتائج فيها الجدة والإصابة والحجة القاطعة .

وهو إذ قص آثار هذه الأخبار في مظانها التي استطاع الوقوف عليها وأفاد منها وتكلم عنها أشار أحياناً إلى هذه المظان وأحال عليها ، إلا أنه كثيراً ما اقتصد في ذلك ، كما ترك جل النصوص والمقطعات والأبيات العلائية وغيرهـا مهملة من الضبط بالشكل . ويبدو أن الأستاذ الجندي بعد أن أنجز كتابه الجليل هذا ، وأتم تتبعه ، لم يقطع برأي في تسمية الكتاب ، ولذلك ترك مكان اسم الكتاب في التوطئة ص ٩ أبيض ، فرأى المجمع معنا أن يسمى (الجامع في أخبار أبي العلاء المعري وآثاره) توخياً للدلالة بالعنوان على المضمون .

وحينما شرعنا في النظر في الكتاب وإعداده للطبع استوفينا ما اقتصد فيه الأستاذ الجندي ، فضبطنا النصوص العلائية المنظومة والمنثورة بالشكل

الكامل ، وأما النقول فضبطنا منها ما نحدس أن فيه بعض اللبس على القارىء ، وأحلنا النقول إلى مظانها ،. وأكملنا بعض النصوص العلائية حسبما يقتضيه مقام إيرادها ، وأشرنا إلى مواضعها في آثار أبي العلاء .

ثم أوضحنا بعض ما يشكل في إيراد النصوص ومعانيها بالتعليق والشرح ، وأثبتنا كل ذلك في حواشي الكتاب .

ولكيلا يقع اللبس بين ما صنعه الأستاذ الجندي من تعليقات وشروح وإحالات ، وبين ما وضعناه ، أشرنا إلى ذلك بإشارة مميزة ، فألحقنا بكل تعليق أو إحالة أو شرح للأستاذ الجندي الحرف (ج) المحاط بهلالين أسودين .
وتركنا ما أضفناه من تعليقات وإحالات وشروح غفلاً من أي رمز أو إشارة .

وكانت عدتنا في هذا العمل الكتب والمصادر التالية :

ديوان اللزوميات — الطبعة الهندية سنة ١٣٠٣ هـ وقد رُمز اليها في الحواشي بالحرف (هـ) .

رسالة الغفران للمعري — تحقيق بنت الشاطىء — الطبعة الأولى سنة ١٩٥٠ القاهرة .

رسالة الغفران ورسائل أخرى — تحقيق كامل كيلاني طبع القاهرة سنة ١٣٥٩ هـ .

ملقى السبيل — للمعري — تحقيق كامل كيلاني طبع القاهرة سنة ١٣٥٩ هـ .

رسائل أبي العلاء المعري — شرح شاهين عطية طبعة بيروت سنة ١٨٩٤ م .

رسالة الملائكة — للمعري — تحقيق سليم الجندي — المجمع العلمي العربي سنة ١٣٦٣ هـ .

الفصول والغايات — للمعري — شرح زناتي — طبعة القاهرة سنة ١٣٥٦ هـ .

شروح سقط الزند — طبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة سنة ١٩٤٥-١٩٤٨م .

تعريف القدماء بأبي العلاء — طبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة سنة ١٩٤٤ م .

أبو العلاء وما اليه ، وضميمه فائت شعر أبي العلاء — للميمني الراجكوتي — طبعة مصر سنة ١٣٤٤ هـ .

ذكرى أبي العلاء — للدكتور طه حسين — الطبعة الثانية — مصر سنة ١٩٢٢م .

أوج التحري عن حيثية أبي العلاء المعري — يوسف البديعي — تحقيق الدكتور ابراهيم الكيلاني نشر المعهد الفرنسي بدمشق سنة ١٩٤٤م .

زبدة الحلب في تاريخ حلب — لابن العديم — تحقيق سامي الدهان — منشورات المعهد الفرنسي بدمشق سنة ١٩٥٤ م .

ديوان عمر بن الوردي — طبعة الجوائب بالقسطنطينية سنة ١٣٠٠ هـ .

العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب — اليازجي — طبعة بيروت سنة ١٣٠٥ هـ .

ديوان أبي تمام — شرح الخياط — طبعة بيروت سنة ١٣٢٣ هـ .

الأعلام — خير الدين الزركلي — الطبعة الثانية ، القاهرة سنة ١٣٧٨ هـ .

ديوان البحتري — طبعة بيروت سنة ١٩٢٤ م .

ديوان ذي الرمة — طبع مطبعة كامبردج سنة ١٩١٩ م .

ديوان جرير طبعة القاهرة سنة ١٩٣٥م الطبعة الاولى .

ديوان ابن الرومي — شرح كامل كيلاني — طبعة القاهرة .

ديوان ابن أبي حصينة — تحقيق محمد أسعد طلس — منشورات المجمع العلمي العربي بدمشق سنة ١٣٧٥ ه .

هذا ونقدر أن يقع الكتاب في ثلاثة أجزاء او أربعة ، وفيما يلي الجزء الأول .

دمشق في { صفر سنة ١٣٨٢
وتموز سنة ١٩٦٢ }

عبد الهادي هاشم

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة

الحمد لله على نِعمه التي لا أحيط بها عدّاً ، ولا أحصي عليها ثناء ، ولا أطيق لها شكراً ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي اصطفاه مِنْ صفوة خلقه ، وأرسله رحمة للعالمين ، وهاديا للضالين ، فأوضح الحجة ، وانار المحجّة ، وأخرج الناس من الظلمات إلى النور ، بآياته البينة وحكمته الباهرة ، وموعظته الحسنة ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وتابعيه الى يوم الدين .

أول اتصالي بأبي العلاء المعري وسببه

وبعد ، فان والدي ، تغمده الله برحمته ، كان مُولعاً بأبي العلاء ، حريصاً على الاطلاع على أخباره وآثاره ، وقد كنتُ شرعت في الدراسة في المعرة منذ سنة ١٣١٠ هـ الى سنة ١٣١٩ هـ تقريبا ، ولم يكن في ذلكَ العهد في المعرة ، مِن أدناها الى أقصاها ، شيء من كتب أبي العلاء [سوى نسخة مخطوطة من (سقط الزند) مكتوبة منذ ستمائة سنة كانت ملكا لعم أبي السيد أمين الجندي مفتي المعرة ودمشق ، استولى عليها بعض أقاربنا ، وأخفاها عنا هو وعقبه ، ثم رأيتها عند بعض حفدته في نحو سنة ١٣٦٥ هـ] .

فكان والدي كلما وقع إليه شيء من كلام أبي العلاء نكتة ودفعه إليّ لأحفظه . ثم هاجرتُ إلى دمشق سنة ١٣١٩ هـ ، فاطلعتُ على جملة من

كتب الأدب ، وعلى طائفة مما كتبه العلماء في أبي العلاء ، وعلى جملة من آثاره المخطوطة والمطبوعة ، وكنت شدوتُ شيئا من العلوم الشرعية واللغوية والاجتماعية ، ورأيتُ فريقا من العلماء يستشهد بأقوال أبي العلاء في المباحث اللغوية والأدبية والدينية والاجتماعية والسياسية ؛ وفريقا آخر ينقد أقواله ويفند آراءه .

وكان قد اجتمع لديّ جملة صالحة من كلامه المنظوم والمنثور ، واطلعت على ما طبع من آثاره وأشعاره ، فأمعنتُ النظر في أقواله وآرائه وتفكيره ، فهالني من ذلك أمران : (١) ألفاظ أبي العلاء ومعانيه ، (٢) تألب العلماء والأدباء عليه ، والدعوة السيئة إلى شعره للتنفير منه :

(١) ألفاظ أبي العلاء ومعانيه :

الأمر الأول : ما رأيته في كلامه من الدقة في استعمال الكلمات وإحكام وضعها في المواضع اللائقة بها ، ومن قوة التأليف مع طلاوة وانسجام ؛ وكثرة المعاني المبتكرة ، وروعة الصور المتخيلة ، ووفرة الأمثال والحكم ، والتلميح إلى مصطلحات علوم متعددة ، وحوادث تاريخية .

ومن غريب ما رأيتُهُ من قدرته وتفننه تصغيره المعنى الكبير وإفراغه في قالب موجز مصقول واف بالمقصود ، كما يتراءى ذلك في قوله من أبيات يصف فيها خَرْقا : أي فلاة واسعة :

وتَكَتَّم فيه العاصفاتُ نفوسَها　　فلوعبثتْ بالنبتِ لم يَتَأَوَّدِ(١)

فقد صغّر العواصف ، وأضعف تأثيرها ، وأفرغ هذا المعنى الضخم في هذا البيت الموجز السهل المنسجم ، وأبدع في قوله : (وتكتم ..)

---

(١) شروح سقط الزند ق ١ ، ص ٣٧٧ ، وفيها : « فلو عصفت بالنبت » . وفي شرح الخوارزمي : « ولو عصفت » .

ولا يقل عنه في ذلك قوله من أبيات يصف فيها مَنْهلا :

يَمُرّ به رَأْدُ الضُّحى متنكّرا مخافةَ أن يغتالَه بقَتَامِهِ[1]

فإنه جعل الضحى متنكرا يخفي نوره مخافة اغتياله ، وأمثال هـذا كثير في كلامه .

ومن الغريب أيضا ، الكثيرِ في كلامه ، انتزاعُه من الأشياء القريبة التي لا يكترث بها غيره معانِيَ عالية أو استعمالُها في أغراض عالية كالحكمة والتشبيه وما أشبهها ؛ فانظر إلى المعاني التي انتزعها من الإنسان وأعضائه حيث قال في العين :

أُحسِنْ جِواراً للفتاة وعُدَّها أختَ السِّماك على دُنوّ الدار

كتجاوُرِ العينيْن لن تتلاقيا وحجازُ بينِهما قصيرُ جدار[2]

***

والنجم تستصغِرُ الأبصارُ رؤيتَه والذنب للطرفِ لا للنجم في الصِّغَر[3]

وفي الجفن :

كما أغضى الفتى ليذوقَ غُمضاً فصادفَ جَفْنُه جَفْناً قريحا[4]

***

حصلنا على التمويهِ وارتاب بعضنا ببعض فعند العَيْن ريبٌ من الشُّفْرِ[5]

---

(١) شروح سقط الزند ، ق ٢ ، ص ٤٩٨ . والقتام كسحاب : الغبار .

(٢) اللزوميات هـ ص ١٦٤ وفيها : «بَيْنَهما» . وفي القاموس : البين : الناحية والفصل بين الأرضين .

(٣) شروح سقط الزند ، ق ١ ، ص ١٦٢ ، وفيها : «الأبصار صورته» ، ولعلها أصح .

(٤) شروح سقط الزند ، ق ١ ، ص ٢٣٨ .

(٥) اللزوميات هـ ص ١٤٧ ، والشُّفْر بالضم : أصل منبت الشعر في الجفن .

وفي الأُذُن والفم :

أُصمُتْ وإن تأبَ فانْطِقْ نصفَ مَاسَمِعتْ
أُذْنَاكَ فالفَمُ نصفُ اثنين في العَدَدِ[١]

وفي الريق :

فربَّما ضرَّ خِلٌ نافعٌ أبداً كالرِّيقِ يحدُثُ منه عارِضُ الشَّرَقِ[٢]

★ ★ ★

كانفاقه من عمره ومَسَاغِه من الريق عذباً لا يُحِسُّ له طَعْما[٣]

وفي النواجذ من أبيات يصف فيها حصن افامية :

وحيداً بثغر المسلمين كَأَنَّه بِفيهِ مُبَقًى من نواجذِ أدْرَدِ[٤]

وفي القلب :

وسُهَيْلٌ كوجنة الحِبِّ في اللو ن وقلبِ المحب في الخفقان[٥]

★ ★ ★

مهجتي ضِدٌ يحاربني أنا منِّي كيف أحتَرِسُ[٦]

وفي اليد :

والكفُّ تُقْطَعُ إن خيفَ الهلاكُ بها على الذراع بتقدير وتسبيب[٧]

★ ★ ★

فلو بان عَضْدي ما تأسف مَنْكِبي ولو بان زَنْدي ما بكته الأنامل[٨]

---

(١) اللزوميات هـ س ١٠٩ ، وفيها : « شطر ما سمعت » .
(٢) شروح سقط الزند ق ٢ ، س ٦٨٧ ، وفيها : « تحدث عنه عارض » .
(٣) اللزوميات هـ س ٢٣٩ .
(٤) شروح سقط الزند ق ١ ، س ٣٦٣ .
(٥) شروح سقط الزند ق ١ ، س ٤٣٣ .
(٦) اللزوميات هـ س ٣١١ .
(٧) اللزوميات هـ س ٥٠ .
(٨) شروح سقط الزند ق ٢ ، س ٥٣١ ، وفيها : « ولو مات زندي » .

وفي الظُفُر :

أنفِقْ لِترْزَقَ فالثَّراء الظُفْرُ إنْ يُتْرَكْ يَشِنْ ويعودُ حين يُقَلَّمُ[١]

وفي الرِّجْل :

وقِسْ بمـا كان ، أمراً لم تكن ، تَرَهُ

فالرِّجلُ تَعرِفُ بعضَ الموت بالخَدَرِ[٢]

وفي الأنفاس :

يَفنَى الزمانُ وأنفاسُ الأنام له خُطىً بهن إلى الآجال يَزْدَلِفُ[٣]

★ ★ ★

عمري غديرٌ كلُّ أنفاسي به جُرَعٌ تغادره كأمسِ الناضب[٤]

وفي الشيب :

هذا البياضُ رسولُ الموت يَبْعَثُهُ في كل عصرٍ إلى الأجيال والأمم[٥]

وفي الجسم :

والجسم ظَرفُ نوائبٍ وكأنه ظرفٌ يؤخَّرُ تارةً ويقدَّمُ[٦]

وأمثال هذا كثير في شعره . وربما استعمل العضو الواحد في أغراض مختلفة ، وصور متعددة .

ومن الغريب ايضاً انتزاعه الحكمةَ او المثلَ من أصغر شيء وأتفهه الى أكبر شيء وأعظمه ، وذلك مثل قوله :

---

(١) اللزوميات ص ٢٣٦ .

(٢) اللزوميات ص ١٤٩ ، ولعل صحيح الرواية : « لم يكن »

(٣) اللزوميات ص ٢٩١ .

(٤) اللزوميات ص ٥١ .

(٥) اللزوميات ص ٢٤٨ .

(٦) اللزوميات ص ٢٣٦ .

من يفقدِ الحسَّ لا يُعرَفْ بمخزية   إنّ الذبابَ متى يَعْلو الجنى يَنِمِ [1]

* * *

والنحل يَجْني المُرَّ من نَوْر الرُّبى   فيعودُ شُهْداً في طريق رُضابه [2]

* * *

فإن أبا الأشبال يخشاه مثلُهُ   ويأمنُ منه آرِضٌ ونِمال [3]

* * *

حساطامِرٌ في صمته من دَمِ الفتى   فصغّر ذاك الصمتُ مُعْظَمَ ذنبه

ولم يكُ في حال البعوض إذا شدا   له نَغَمٌ عالٍ وأنت أذٍ به [4]

* * *

ولا تحتقر شيئاً تساعِفُه به   فكم من حَصاةٍ أيّدتْ ظَهْرَ مِجْدَل [5]

ومن الغريب أنه يذكر الكلمة التي لها أكثر من معنى واحد ويريد بها معنى معينا ، ولكنه يذكر شيئا من خصائص معنى آخر ليوهم أنه يريده ، وذلك مثل قوله المتقدم : (وحيد بثغر المسلمين . . . الخ) فإن الثغر يطلق على الموضع الذي يُخافُ منه هجوم العدو . وهو المراد هنا ، ويطلق الثغر على المبسم وعلى الثنايا ، فلما ذكر الثغر ذكر بعده الفم والنواجذ والأدرد وهي من خصائص المعنى الآخر . وقد أبدع في التشبيه والترشيح ، ومنه قوله :

إذا صدق الجدُّ افترى العم للفتى   مكارِمَ لا تُكرِي وإن كذب الخال [6]

(١) اللزوميات هـ ص ٢٤٨ ، وفيها : « تعلو » .

الجنى : العسل وما يجنى من الشجر مادام غضا . ونِمَ الذباب يَنِمُ كوعد وَنِماً : خرىء (ج)

(٢) شروح سقط الزند ق ٢ ، ص ٧٢٠ ، وفيها : « فيصير شهداً » .

(٣) شروح سقط الزند ق ٣ ، ص ١٠٦٤ ،

الآرض : قال في التنوير : ضرب من الدود يقع في الورق ، ولم أر هنا الجمع ولعله جمع أرْض ، وهي دودة تأكل الخشب ودودة تنوص في الرمل : بنات النقا (ج)

(٤) اللزوميات هـ ص ٤٨

حسا : شرب شيئاً بعد شيء ، الطامر : البرغوث ، أذٍ من أذِيَ : الشديد التأذي .

(٥) اللزوميات هـ ص ٢١١ ، والمجدل كمنبر : القصر .

(٦) شروح سقط الزند ق ٣ ، ص ١٢٦٢ ، وأكرى هاهنا : نقص .

فان الجد يطلق على الحظ وهو المراد هنا ، ويطلق على أبي الوالد ، وقد ذكر العم والخال ليوهم أنه يريد المعنى الآخر ، وكذلك العم يطلق على الجماعة وعلى أخي الأب ، وكذلك الخال يأتي بمعنى الظن وبمعنى أخي الأم ، وهنا أبدع في كل وأجاد . ومن هذا القبيل قوله في النوق :

حُروفُ سُرى جاءت لمعنىً أردْتُه بَرَتْني أسماءٌ لهنّ وأفعالُ[1]

وقوله :

كلُّ البَرِيّة شاكٍ لو سما زُحَلٌ إلى السِّماكِ رآه يشتكي العَزَلا[2]

فإن الحُروف جاءت بمعنى النوق ، وبمعنى الألفاظ المعروفة عند النحويين ، وقد ذكر المعنى والأسماء والأفعال وهي من خصائص المعنى الثاني . وإن لفظ (شاكٍ) جاء من شكاه إذا أخبر عنه بسوء فعلَهُ به ، وجاء مقلوبا من شائك من الشوكة وهي الحد والقوة في السلاح ، يقال : «شائك السلاح وشاكي السلاح» ، وقد ذكر « العَزَل » وهو الاسم من قولهم : رجل أعزل أي لا سلاح معه أو الذي لا رمح له . وفي النجوم سماكان : أحدهما السماك الرامح وهو الذي قدامه كوكب كأنه رمح له ، والثاني السماك الأعزل وهو الذي لا كوكب أمامه ، وسُمي « أعزلَ » لأنه لا شيء بين يديه من الكواكب كالأعزل الذي لا سلاح معه ، ولما ذكر العَزَل ذكر لفظة شائك ليوهم أنه من شاكي السلاح .

ولو استقرينا ما في أقواله التي أتيح لنا الوقوف عليها من هذا النوع لتحصّل لدينا منه ديوان واسع جامع لأنواع مختلفة من الحكم والأمثال والتشبيهات الرائعة والصور الخيالية ونحو ذلك من أفانين الشعر وبدائعه .

وقد تبين لي بعد البحث والإمعان أن أبا العلاء متمكن في علوم

---

(١) شروح سقط الزند ق ٣ ، ص ١٢٥٥ .
(٢) اللزوميات ﻫ ص ٢٠٤ .

كثيرة ، وله في كل فن مناقشات ومعارضات وآراء تدل على رسوخه فيه ، لا سيما العلوم الشرعية واللغوية . وإن سعة لغته واستئناسه بالألفاظ التي يراها غيرُه غريبة ، وحبه للجناس والتورية ومراعاة النظير وغيرها من الصناعات البديعية ، وميله الى الأسلوب المتين الجزل حمله على استعمال ألفاظ وجمل أدى الى أن يخفي كثيرا من حكمته الفائقة ومعانيه البديعة فلا يتسنى لكل أحد فهمها إلا باستعانته كتبَ اللغة والأدب لفهم المراد منها وإدراك النكتة التي تشتمل عليها . وكذلك كثرة ما في كلامه من الإشارة إلى المصطلحات العلمية والحوادث التاريخية جعل فهم المقصود منها موقوفا على معرفة ذلك ، إذ لا يمكن فهمها إلا للعالم بها .

ورأيت بعض أقواله يناقض بعضاً آخر بحسب الظاهر ، ولكنه عند التأمل لا تظهر عليه صحة التناقض ، لأنه استعمل كل مقال في مقام يوائمه .

(٢) تألب العلماء والأدباء عليه والدعوة السيئة الى شعره للتنفير منه

الأمر الثاني : أني رأيت كلمة العلماء في أبي العلاء مختلفة ، وآراءهم متفاوتة ، وعلى أكثر أقوالهم مسحة من الحسد أو التعصب الشديد والتقليد الأعمى والجهالة .

فإن فريقا منهم ينقل عنه ما رأى أو ما سمع من غير تبين ولا تمحيص ، وفريقا يلحق بكلامه ما ليس منه وآخر ينسب إليه أمورا لا يؤيدها العقل ولا يثبتها التاريخ والنقل ، وفريقا استباح لنفسه التصرف في أقواله ، فهو يروي منها ما يشاء كما يشاء ، ويفسرها بما يطابق فهمه لا بما يوافق الحقيقة والواقع . وأن جمهوراً عظيما من هؤلاء اعتقد أن أبا العلاء زنديق أو كافر ، فرسخت هذه العقيدة في نفسه ، فهو يصرف كل أقواله إليها ، ويفسرها بما يرجعها إلى هذه العقيدة ، وإن كان خطؤه في ذلك أوضح من الفلق . ومنهم من إذا رأى في أقوال أبي العلاء ما يدل على اعتقاد حسن قال : إنه تَقِيَّة ، أو لا يقيم له وزنا . ومنهم من لو استطاع

أن ينسبَ إلى أبي العلاء كل قول فيه كفر أو ما يوهم الكفر لما تأخر، بناء على ما رسخ في نفسه .

وأغرب ما رأيت في هذه العصبة أن فيهم من يكفر أبا العلاء متابعة لغيره، وربما كان لم يطلع على شيء من كلامه، وفيهم من طعن فيه ليقال إنه انتقد أبا العلاء، وربما سجل على نفسه بسبب انتقاده هذا أنه جاهل لا يدري ما يقول . وفيهم من قصر فهمه عن إدراك ما يريده أبو العلاء من كلامه، فخبط خبط عشواء؛ وسنذكر فيما يأتي طائفة من هؤلاء وغيرهم وأقوال كل منهم فيه .

ورأيت أكثر العلماء الشرعيين يستفرغون الجهود في التنفير من شعره لئلا يطلع الناس على ما فيه من نقد العلماء ورؤساء المذاهب والحكومات وحرية الفكر في المباحث الدينية والسياسية والاجتماعية ونحو ذلك مما لا نظير له في غير كلام أبي العلاء . وقد تبين لي أن سبب هذا كله يكاد ينحصر في أمور من أعظمها الحسد من أعدائه، والتعصب من رؤساء الأديان والمذاهب، وطلبُ الشهرة على حسابه، وتقصير الفهم عن إدراك معانيه ومقاصده .

سبب تأليف هذا الكتاب

فلما رأيت كثيرا من هذا وأمثاله أشفقتُ على أدبه النادر وعلمه الواسع وحكمه الرائعة وآرائه الحرة، وحرصت على إظهار الحقيقة من معتقده، وإيضاح الغامض من قوله، والدلالة على مواطن الروعة والعبقرية منه، والإشارة إلى مواضع الدقة من علمه، والسداد من رأيه، وتبيين كذب المفترين عليه، وتحريف العابثين بأقواله بقدر ما تسامحني به الأيام، فعزمت على وضع هذا الكتاب وسميته [. . . . .] (١) .

وقد اضطرني ما ألزمت به نفسي إلى أمور :

(١) بياض في الأصل وقد اخترنا تسميته بكتاب (الجامع في أخبار أبي العلاء وآثاره) .

١ - أن أعزو أكثر النصوص إلى مظانها ومصادرها ، كيلا يظن أني حرفتها أو صرفتها إلى ما أريد .

٢ - أن أذكر قول أبي العلاء بنفسه ، وربما اضطررت إلى ذكر ما قبله أو ما بعده ليتضح الغرض المقصود من ذكره أو ليتم .

٣ - أن أكرر ذكر البيت أو ما هو أكثر منه في مواطن متعددة ، للاستدلال به في كل موطن ، لأن الحاجة قد تدعو إلى الاستشهاد بالبيت الواحد في أغراض متعددة .

٤ - أن أكرر النصوص المنقولة للاستشهاد بها أيضا في مواطن مختلفة .

٥ - أن أشرح بعض الكلمات لغرض يقتضي إيضاح معانيها ، وربما دعت الضرورة إلى ذكر أصل المعنى في اللغة .

٦ - أن أوضح بعض العقائد والمذاهب والمزاعم ، لتتبين علاقة قول أبي العلاء بها .

الغاية من وضع هذا الكتاب :

والذي أرمي إليه من وراء هذه الأمور المذكورة أمور ضرورية ، منها :

١ - إطلاع القارئ على مآخذ الكتّاب في الأقوال والآراء المنقولة ، لتكون تبعة كل قول على صاحبه .

٢ - وإطلاعه على أقوال أبي العلاء بنفسها ليأمن التحريف والتلاعب بالنقل ، وليطلع على ما لم يطلع عليه من أقواله ، ويستغني عن الرجوع إلى كتبه لمعرفة قوله ، وليرى بعينه ما فيها من جمال تأليفه وطلاوة ديباجته وإشارات ونكت وإيجاز ونحو ذلك من محسنات وأضدادها وتحريف وعبث .

٣ - وإطلاعه على ما وقع لبعض العلماء من تصرف في كلام أبي العلاء بزيادة أو نقص أو تحريف أو تصحيف ، ومن افترائه عليه ، وصرف

لأقواله إلى ما لم يرد ، ومن ضعف مدارك بعضهم عن فهم كلامه حتى عبثوا به وكفروه ظلما وجهلا .

وإيضاح مثل هذا وتأييده أو إدحاضه ، وإقامة الأدلة عليه إثباتا أو نفيا ، والاستشهاد له أو عليه وما شاكل ذلك ، يعوز إلى بسط وتطويل وإعادة وتكرير .

تقسيم الكتاب وترتيبه

ويشتمل هذا الكتاب على مقدمة وأربع مقالات وخاتمة : ـ

أما المقدمة فانها تتضمن لمحة موجزة من أحوال الشعر والشعراء وعلاقة أبي العلاء بها ومنزلته منها . وفيها ذكر مولده واسمه ونسبه وميلاده وعماه ، وتشتمل على اعتراض بجمل الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية والعقلية في عصره ، وتحت هذا أنواع من العلوم المعروفة في عصره ، والخطابة والكتابة والشعر والرواية لتتمثل أمام القارىء صورة من حياة الأمة بجميع انواعها المذكورة .

وأما المقالات ، فالمقالة الأولى منها تشتمل على جزء من حياته من سنة ٣٦٣ هـ إلى ٤٠٠ هـ وفيه الكلام على نشأته وتعلمه وبعض علماء المعرة وأدبائها في عهده ، والطريقة التي تعلم عليها ، وشيوخه والزمان والمكان اللذين أتم فيهما تعلمه ، ورحلاته إلى بعض البلاد الشامية وبغداد ومن عرفه فيها والمجالس العلمية فيها ، ووداعه إياها وحنينه إليها .

وأما المقالة الثانية : فإنها تشتمل على حياته في المعرة بعيد رجوعه من بغداد سنة ٤٠٠ هـ إلى آخر عمره سنة ٤٤٩ هـ . وفيها الكلام على ماله وطعامه ولباسه وفراشه ومسكنه وأخلاقه واعتقاده في الخير والشر وتشاؤمه ورأفته ورجائه وخوفه ومعتقده ومزاعم الناس فيه ورميه بالإلحاد والشك ، ونعته بأنه معتزلي وجبري وبوهمي ونحو ذلك ، ووصفه بالتقية .

وخلاصة ما أراه في اعتقاده بالله ورسله والملائكة والجن والحشر والنشر ولزومه بيته وحليته ومرضه ووصاياه ووفاته وقبره وما رثي به والراثون وكيف رؤي في النوم بعد موته .

وأما المقالة الثالثة : فتشتمل على شهرته ، وتلاميذه والذين كاتبوه نظما ونثرا ، وزواره في المعرة ، ومنزلته عند الملوك والعظماء ، وأقوال العلماء فيه مدحا وذما ، وقصة الضيوف الحسين وسقوط الدار عليهم ، وما ألف في مدحه وذمه ، والذين ردوا عليه بعض اقواله ، وذكائه وبداهته وثقته بعلمه ونفسه وما كتبه وما ألفه من الكتب ، وتفننه في اسمائها واساليبها واغراضها ، وكتّابه وثقافته في العلوم الشرعية واللغوية وغيرهما ومصادرها ، والكتب التي ذكرناها في كلامه وأسماء العلماء والأدباء والشعراء الذين ذكرهم .

وأما المقالة الرابعة : فهي تشتمل على بحث ودراسة لكلامه في نثره وبيان خصائصه والأغراض التي كتب فيها ، والتقليد والتجديد في نثره وتقسيمه بحسب الزمان ومميزات كل طور ، وما ألفه العلماء في الاحتذاء على مثاله أو معارضته .

وتشتمل أيضا على مباحث في علاقته بالشعر ، وابتداء قوله إياه ، وتقسيم شعره بحسب الزمن وخصائصه وأطواره وتاريخ بعض قصائده وابياته ، والكلام في (ديوان الغزل) ، و (سقط الزند) ومقدمته وشخصيته فيها وأسلوبه فيه ، والتقليد في شعره وما أخذه من غيره ، والأغراض التي يشتمل عليها من غزل ومدح ورثاء وغيرها ، وفيها الكلام على (لزوم ما لا يلزم) ، ومقدمته وشخصيته فيها وترتيبه وأسلوبه ، ونسخ اللزوم وما فيها من تحريف وخطأ في المتن والشرح ، ومسرقة أقواله ، وفلسفته ومنشئها ومصادرها واتصاله بها ومصادمها وموضوعها ، والفلسفة الطبيعية والرياضية ،

واعتقاده في الكواكب وتأثيرها ، والفلسفة الإلهية : الروح والجسم بعد الموت وحس النبات والجماد والتناسخ والحلول والملائكة والجن والنبوات والكتب والشرائع والمزاعم والاديان والمذاهب ، وما أنكر عليه من كلامه بعض الفرق المسلمة والحشر والنشر . والفلسفة العملية : أصل الانسان وغرائزه ونقد المجتمع وطبقات الناس ورؤساء الأمم غير المسلمة ، وأحكام عامة على الناس ، ومحاولة إصلاح البشر والإخفاق فيها وتفاوت الناس وتساويهم في رأيه ، والزواج والمرأة والنسل والعدم والوالدان والولد والرفق بالانسان وترك الحروب والاشتراك بها والرفق بالحيوان والاخلاق والعزلة والسياسة وولاة الأمر والرعية والدنيا والإسلام والحظ في الإنسان والحيوان والجماد والصمت والنطق والحسد والمال والخمر .

وأما الخاتمة فهي تشتمل على طائفة مما يمكن استنتاجه من أقواله من الأخلاق والعادات والمواضعات والمزاعم .

مقدمة الكتاب

لمحة عن الشعر والشعراء

أتى على الأمة العربية حين من الدهر كان فيه الشعر أعظم مظهر للحياة العقلية عندها ، وأجل معرض تعرض فيه ثمرات القرائح ونتائج الفكر ، وأوسع ميدان يتبارى فيه ذوو الفصاحة واللسن . وقد كان الشعر العربي ، ولا يزال ، يحتفظ لنفسه بأكثر هذه الخصائص . وإذا استقرينا أحواله وأطواره في العصور الغابرة والحاضرة رأيناه قبل الإسلام خاضعا لسنن الجاهلية ، جاريا على وفق الأهواء التي يستسيغها أهل ذلك العصر ، بعيدا عن الاتصال بالعلم إلا ما وقع على سبيل الاتفاق ، لأن جمهرة الأمة في ذلك العهد ليست لها صلة بالعلم ، ولا بينها وبينه جامعة تجمعها .

ثم لما جاء الإسلام واستنقذ العرب من هوة الجهل ، وفتح لهم طريقاً لاحباً إلى العلم ، اتجه الشعر نحو العلم ، واتصل بأجزائه ، وقد غرست مقدمات ذلك في بدء الإسلام ، ثم اخضل عودها في أخريات العصر الأموي ثم أينعت في النصف الأول من العصر العباسي ، وبلغت ما لم تبلغه في عصر قبله . ثم ذبل عودها وصوّح نبتها بعدُ ، حتى أصبح هشيما تذروه الرياح . ولم أر شاعرا يضاهي أبا العلاء المعري أو يدانيه في إخضاع العلم والفلسفة للشعر .

تقسيم الشعراء

وإذا استقصينا أحوال الشعراء ، وسبرنا أغوارهم في كل عصر منذ

عرف العرب الشعر إلى هذا العهد ، تبين لنا أن الشعراء أربعة : شاعر قصر أكثر شعره على أغراض نفسه وأهوائها فهو شاعر فردي . ومن هذا النوع شعراء الغزل : كعمر بن ابي ربيعة ومن طبع على غراره ، وشاعر أضاف الى أغراض نفسه ما يتعلق ، بقبيلته فهو شاعر قَبَلِيّ أو شاعر قبيلة ، كالنابغة ومن نسج على منواله ؛ وشاعر تجاوز ذلك إلى ما يتعلق بالأمة كلها أو جلها فهو شاعر أمة ، كالفرزدق ومن احتذى على مثاله ، فإنه لم يقتصر في شعره على حاجة نفسه وقبيلته ، وانما تعداها الى غيرها من القبائل ، وتصدى في شعره الى اعمال العمال والولاة والأمراء والخلفاء ، ولكنه لم يتعرض كثيرا الى غير العرب ؛ وشاعر لم يقصر شعره على أمة واحدة وإنما تناول في شعره أمما مختلفة ، فتصدى لعاداتها وآدابها وعقائدها وما شاكل ذلك فهو شاعر عالمي .

علاقته بالشعر ومنزلته بين الشعراء

ولا أعرف أحدا من شعراء العرب أجدر بلقب (الشاعر العالمي) من أبي العلاء ، ولا من ساواه في شمول مباحثه الأمم التي كان لها في عهده شأن يؤهلها للتصدي لذكرها ، وليست لأبي العلاء هاتان الخاصتان فحسب ، وإنما له من الخصائص والمزايا كثير مما ليس في غيره من الشعراء ، وسنذكر جملة منها نبين فيها أنه جدير بالدرس والبحث والعناية بإظهار قيمته العلمية والأدبية أكثر من غيره من الشعراء ، وأن حقيقته العلمية لا تزال بعيدة عن متناول كثير من الناس ، وإنما عرفوا منها ما قرب وهان ، وألموا به إلمامة الطغرائي بالجزع ، أو إلمام طير الماء بالعلس [1] .

عناية العلماء بأبي العلاء

وقد عني جماعة من المستشرقين بأبي العلاء ، فترجموا (لزوم ما لا يلزم)

(١) والعَلَس : ضرب من البُر (اللسان) .

إلى اللغة الألمانية ، وترجموا (رسالة الغفران) إلى اللغة الإنكليزية ، وترجموا قطعا من نظمه ونثره إلى الإفرنسية ، وأفاضوا في بيان فلسفته ، وأطالوا القول في بيان نُبْغِه وعبقريته .

وعني جماعة من علماء العرب وأدبائهم في القديم والحديث بأبي العلاء عناية شديدة ، وأكثروا القول في زندقته وإلحاده ، وتولى الانتصار له فريق منهم .

وفي هؤلاء فريق حاول أن يظهر فضل أبي العلاء ، وآخر أراد أن يظهر فضل نفسه على حساب أبي العلاء ، وفي كلا الفريقين من لم يوفق في بعض عمله ، وفيهم من أخطأ في كثير من الآراء والاستنباط ، ومن أخطأ لاعتماده على قول غيره من غير تثبت ، شأن العلماء والمؤلفين ، وسنبين ذلك في فصل خصصناه بمن كتب في أبي العلاء ، إن شاء الله تعالى .

وقد غَرِيتُ بأبي العلاء ، وغَرِيَ حبه في صدري [١] قبل أن أبلغ الحلم ، لأن شعره ونثره كانا في المعرة في ذلك العهد أعز من الأبلق العَقوق [٢] ، ومن بَيْضِ الأنوق [٣] ، فكان والدي رحمه الله إذا ظفر بشيء من شعره حضني على حفظه ، فشببتُ وشبت على حبه وحب شعره . وزادني ولعا به ما بيني وبينه من الصلات والجوامع ، إذ تجمع بيننا وحدة الدين والوطن والجنس ، وقد نتحد في الهوى والنزعات كثيرا ، وقد تخرجت به في الشعر .

ولما شرعت في تدوين تاريخ المعرة [٤] رأيت أن صدره لا يتسع

(١) غَرِيَ بالشيء : أولع به وغَرِيَ الشيء في صدره : لصق به كأنما ألصق بغراء (ج)
(٢) الأبلق العقوق : تقول العرب : طلب الأبلق العقوق : أي ما لا يمكن ، لأن الأبلق الذكر ، والعقوق : الحامل .
(٣) بيض الأنوق : الأنوق : الرخمة ، وقيل : ذكر الرخم ، وفي المثل : أعز من بيض الأنوق ، لأنها تحرزه فلا يكاد يظفر به لأن أوكارها في رؤوس الجبال (اللسان:أنق) .
(٤) كتاب جليل خطه المؤلف مخطوطاً ، ولم ينهد أحد بعدُ إلى طبعه

لترجمة أبي العلاء ، وأحببت أن أدلي دلوي في الدلاء ، وأزج برأيي بين الآراء ، ولا أبالي أن أعد ممن كتب فيه ليظهر فضله ، أو ليظهر فضل نفسه على حسابه ، بعد أن استفرغت المجهود في البحث والاستقراء والجمع لما تفرق من أخباره وأقوال الناس فيه بقدر ما ساعدتني به الأيام .

وآثرت الابتداء بذكر بلده ومحتده ، وما يتصل بها ، لأني رأيت بعض من كتب فيه لم يصب شاكلة الصواب في بعض المباحث المتعلقة بها .

★ ★ ★

مولد أبي العلاء (١)

ولد أبو العلاء في مدينة معرة النعمان . وقد اختلف العلماء في الأصل الذي اشتق منه لفظ المعرة ، وفي المراد منه ، والأصل اللغوي في لفظ المعرة هو موضع العَرّ أي الجرب ، وقد جاء في اللغة لمعان كثيرة ، منها : الإثم والغرم والدية والجناية وتلون الوجه من الغضب والأمر القبيح والأذى والشدة والمسبة والأمر المكروه وكوكب دون المجرة من ناحية القطب الشمالي ، وقد قيل لرجل نزل بين حيين من العرب : أين نزلت ؟ فقال : نزلت بين المَعَرّة والمَجَرّة ؛ والمجرة التي في السماء : البياض المعروف ، والمعرة ما وراءها من ناحية القطب الشمالي ، سميت معرة لكثرة النجوم فيها . وقد أراد أنه نزل بين حيين عظيمين لكثرة النجوم . والعرب تسمي السماء الجرباء ، لكثرة النجوم فيها تشبيها بالجرب في بدن الإنسان . وقالوا : أرض معرة ، إذا انجرد نباتها ، وأرض معرة ، اذا كانت قليلة النبات .

وقد جاء في كلام عمر بن الخطاب [ض] : « اللهم إني أبرأ اليك من معرّة الجيش » ، قيل : هي أن ينزلوا بقوم فيأكلوا من زروعهم شيئا بغير علم ، وقيل : أن يقاتلوا بدون إذن الأمير .

والمعرة اسم لهذه المدينة ولقرى كثيرة من عملها وعمل حماة ودمشق ونصيبين وحلب وغيرها ، منها ما هو باق إلى هذا العهد ، ومنها ما انطمست معالمه واندرس أثره ولم يبق إلا ذكره وخبره .

---

(١) المولد يأتي بمعنى زمان الولادة ومكانها والثاني هو المراد هنا . (ج) .

وفي عمل المعرة إلى هذا اليوم قرية يقال لها معرة حرمة ، وأخرى معرة بيطر ، وثالثة معرة ماتر ، ورابعة معرة الصين وغيرها . وكان في المعرة محلة يقال لها معرة علياء أو قرية ولا تعرف الآن .

وفي عمل المعرة قرى كثيرة يقال لها مَعَر بلاهاء مضافة إلى اسم آخر مثل معرشمشى (١) ومعر شمارين وغيرهما ، وقد ذكرنا أسماء كثير منها في كتابنا (تاريخ المعرة) ، ونقلنا عن التاج أن متعَر بلاهاء اسم لإحدى عشرة قرية كلها بأعمال حماة . وأن معرين اسم لقرى فيها وفي غيرها .

وهذه المدينة مسماة بهذا الاسم قبل الإسلام ، وفي أول الفتح كان يقال لها معرة حمص كما سيأتي ، وإذا تأمل الإنسان في المعاني المتقدمة التي يدل عليها لفظ المعرة لا يكاد يجد معنى مناسبا تمام المناسبة لأن يكون هذا الاسم مشتقا منه .

وقد تكلف بعض الأدباء في عصرنا من المستشرقين وغيرهم وأعنتوا أنفسهم لإيجاد مناسبة بين هذا الاسم ومسماه ، ولكنهم سلكوا في التأويل سبلا بعيدة لا تستند إلى دليل يؤيدها .

فقال بعضهم : ان لفظ المعرة أصله في السريانية « مَعَرتا » ثم حرف إلى معرة ، ومعناه الكهف ويرادفه المغارة . وزاد آخر على هذا فقال : وسميت بذلك لأن هذه المدينة مشتملة على كثير من المغاور . وتاؤها في اللغتين للتأنيث . وأخبرني عالم باللغة السريانية أن لفظة المعرة سريانية أصلها « معرتا » ومعناها : المغارة ، والجمع مُعَرّى بإمالة الراء نحو الكسرة الخالصة .

وقال آخر (٢) : يخيل إلينا أن أصله مُعَرّس النعمان ، ثم أبدلت

---

(١) ولعلها التي يقال لها الآن مَعر شمشى . (ج) .

(٢) صاحب ذكرى أبي العلاء ص ١٠٤ . (ج) .

التاء من السين ، وتلك لغة من لغات العرب ، ثم لما طال العهد على استعمال هذه الكلمة فتحت الميم لتتفق مع الألفاظ التي يألفها العرب المتكلمون بها ...

وقال آخرون : كان أهل المعرة يسكنون «سيات» ، فلما افترس الأسد ولداً للنعمان بن بشير دفنه في موضع المعرة ، وقال لأهل سيات : من كان يودني فليبن له موضعاً عند الموضع الذي ابتنيته . فبنى الناس المعرة وسميت بذلك لما لحق النعمان من معرة الحزن على ولده ، وذهب آخرون إلى غير ذلك . وهذا كله من باب الظن وحب الإتيان بالغريب ، ومثله لا يصح أن يبنى عليه حكم قاطع ، وإنما يحتاج إلى دليل تاريخي موثوق به . وإذا سلمنا إمكان القول الأول والثاني فإننا لا نستطيع معرفة الذي حرف اللفظ ولا الزمن الذي حُرِّف فيه ، ولا نعلم من أين جاء تشديد الراء مع أن الغالب في التحريف التخفيف لا التشديد .

ولو أننا سلمنا إمكان القول الثالث والرابع لاستعصى علينا ذلك التوجيه والتأويل في بقية البلدان المسماة بالمعرة مضافة إلى لفظ آخر ، مثل معرة الصين ومعرة الإخوان ومعرة بيطر ، ومعرة مصرين ، إذ لم يحدثنا التاريخ أن الصين نزلوا المعرة ، ولم يعرفنا من هم الإخوان ومن هو بيطر ، ومصرين و . و . ، ولانعلم السبب الذي أوجب إضافة المعرة إلى كل واحد منها .

وظاهر قول أبي العلاء :

يُعيّرنا لَفظَ المعرّةِ أنّه مِنَ العَرّ قومٌ في العُلا غُرَباء
وما لحق التثريبُ سكان يَثرب من الناس لا بل في الرجال غباء [1]

يدل على أن هذا اللفظَ مأخوذ من العَر ، وهو [2] لا يعيب أهل هذه المدينة ، كما أن أخذ يثرب من التثريب لم يَضِرْ أهلها ولم يَعِبْهم ،

(١) اللزوميات ه س ٢١ ، وفيها : « للمرة أنها . . » و « هل لحق التثريب » .

(٢) يريد أن اشتقاق المعرة من العر . (ج) .

ولا يصح أن يراد غير هذا المعنى من هذا البيت ، إذ لا يستقيم التمثيل بالبيت الثاني إلا على هذا التأويل .

والذي أعتقده أن جميع الأسماء لا تعلل ، ولا يجب أن يكون بينها وبين مسمياتها مناسبة ، وإذا استقام لنا ذلك في قليل من الأسماء فانه لا يستقيم في كثير منها ، ولا سيما أسماء الأعلام للاشخاص والأماكن .

واذا لم يكن لنا بد من التعليل وردّ الاسم إلى أصل ، فأقرب الوجوه أن تكون مأخوذة من السريانية ثم حرفها العرب على ما في ذلك من التكلف والتعسف .

وأما النعمان الذي أضيفت إليه لفظة المعرة فقد اختلف فيه العلماء ، فذهب قوم إلى أنه النعمان بن بشير الأنصاري [١] ، كان والياً في حمص فاجتاز بالمعرة فمات له ولد فيها ، فدفنه وأقام عليه حزيناً اياماً فسميت به . وقيل :إنه تديّرهافنسبت إليه، وكانت قبل ذلك تسمى « معرة حمص » . وقد ذكر هذه الإضافة جماعة ، منهم ابن خلكان [٢] والبلاذري [٣]

(١) هو وأبوه وأمه صحابيون ، ولد على رأس أربعة عشر شهراً من الهجرة ، وهو أول مولود من الأنصار بعدها ، وكان كريماً شجاعاً شاعراً ، استعمله معاوية على حمص ثم على الكوفة سنة ٥٩ هـ ، ومات معاوية وهو على الكوفة ، ثم عزله يزيد وأرسله الى المدينة سنة ٦٢ هـ ليمنع قومه عن الخروج عليه ، ثم استعمله على حمص ، فلما مات معاوية بن يزيد دعا إلى ابن الزبير ، وقيل إنه دعا بعد ذلك إلى نفسه ، فواقعه مروان ، ثم قتله عمرو بن الجلّي الكلاعي سنة ٦٤ هـ ، ونجد أخباره وشيئاً من شعره في (تهذيب الأسماء واللغات) للنووي وأسد الغابة ، و (الاصابة وابن جرير والكامل ، والشذرات والأغاني ، والكامل للمبرد) (ج)

(٢) هو أبو العباس أحمد بن محمد بن ابراهيم البرمكي الاربلي . المعروف بابن خلّكان المتوفى سنة ٦٨١ هـ ، له (وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان) كتاب في الأعيان فرغ من تأليفه سنة ٦٧٢ هـ . (ج) .

(٣) هو أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري المتوفى سنة ٢٧٩ هـ له كتب منها (فتوح البلدان وتاريخ الأشراف) وغيرها . (ج) .

وأبو الفداء [١] ، وابن بطوطة [٢] في رحلته ، وابن العديم [٣] وابن الأثير في (الكامل) [٤] .

وقال ياقوت [٥] : « هذا في رأيي سبب ضعيف لا تسمى بمثله مدينة ، والذي أظنه أنها مسماة بالنعمان وهو الملقب بالساطع وهو النعمان بن عدي ابن غطفان التنوخي » .

سياث أو المعرة القديمة

وقال ياقوت في (معجم البلدان) [٦] : سِيَاث كانت بليدة بظاهر معرة النعمان وهي القديمة ، والمعرة اليوم محدثة ، كذا ذكره ابن المهذب في تاريخه ، اجتاز بها القاضي أبو يعلى عبد الباقي بن أبي حصين المعري ، والناس ينقضون بنيانها ليعمروا به موضعاً آخر ، فقال [أربعة أبيات أولها] [٧] :

مررتُ برسمٍ في سياثَ فراعني ... به زجلُ الأحجار تحت المعاول

---

(١) هو الملك المؤيد اسماعيل بن علي صاحب حماة المتوفى سنة ٧٣٢ هـ له كتب منها : (تقويم البلدان) ومنها (المختصر في أخبار البشر) رتبه على السنين وانتهى فيه إلى سنة ٧٠٩ هـ على ما قاله ابن الوردي في (تتمة المختصر) . (ج) .

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي المعروف بابن بطُّوطة ، بدأ رحلته سنة ٧٢٥ هـ واستغرقت خمساً وعشرين سنة . (ج) .

(٣) هو الصاحب كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله الحلبي المعروف بابن العديم ، وبابن أبي جرادة المتوفى سنة ٦٦٦ هـ ، له كتب منها : (بغية الطلب في تاريخ حلب) ومنها (رفع الظلم والتجري عن أبي العلاء المعري) وورد اسمه : كتاب (الانصاف والتحري في دفع الظلم والتجري عن أبي العلاء المعري) . (ج) .

(٤) هو أبو الحسن علي بن محمد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري المتوفى سنة ٦٣٠ هـ له كتب كثيرة ، منها كتاب (الكامل في التاريخ) أو تاريخ الكامل ، ابتدأ فيه من أول الزمان الى سنة ٦٢٨ هـ . (ج) .

(٥) هو أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي المتوفى سنة ٦٢٦ هـ له كتب كثيرة منها (معجم البلدان) و (معجم الأدباء ـ إرشاد الأريب الى معرفة الأديب) وغيرهما . (ج) .

(٦) تعريف القدماء بأبي العلاء ، حاشية ص ٤٩٤ عن معجم البلدان ـ لياقوت .

(٧) الصحيح أن الأبيات المذكورة لأبي الهيثم أخي أبي العلاء الصغير . (ج) .

وقد أنكر ابن العديم قول ياقوت وشنع على قائله ، حيث قال في (الانصاف) عند كلامه في الساطع [النعمان] [١] : وبعض الجهال يقول : إن معرة النعمان تنسب إليه ، وليس بصحيح بل تنسب إلى النعمان ابن بشير الأنصاري ، وكان والياً على حمص وقنسرين في ولاية معاوية وابنه يزيد . ومات للنعمان بها ولد ، وجدّد عمارتها فنسبت إليه ، وكانت تسمى أولاً « ذات القصور » . وقيل : إن سياث كانت المدينة ، وهي آهلة فخرج ابن للنعمان بن بشير للتصيد ، وكان موضع المعرة أجمة ، فافترسه السبع فجزع عليه وبنى له موضعاً عند قبره ، فبنى الناس لبنائه ، فنسبت معرة النعمان إليه لذلك ، وإنما نسبت الجهال المعرة إلى النعمان بن عدي المعروف بالساطع لأن أهلها كلهم أو بعضهم من بني الساطع فظنوا أنها منسوبة إليه .

وقال أبو العباس الشريشي في (شرح المقامة المعرية) للحريري : النعمان اسم للجبل المطل على المعرة فأضيفت إليه ، وقال ابن بطوطة في رحلته مثل هذا [٢] .

وقال مغلطاي في (تاريخ سلاطين مصر والشام) في ذكر ما فتحه الفرنج : معرة النعمان بن المنذر . ونسبها آخر إلى النعمان بن امرىء القيس لأنه غزا بلاد الشام غير مرة وأكثر المصائب والسبي في أهلها . وقال .. وقال ..

هذا كلام طائفة من العلماء والمؤرخين في المعرة والنعمان . ويظهر للمتأمل أن كل ما ذكروه من الوجوه والعلل في تسميتها وإضافتها قائم على الظن ، لا يعتمد على دليل يوثق به ، ولا نص يعول عليه ، وكله بعيد عن الحقيقة . أما قول ياقوت [٣] : إن هذا سبب ضعيف لا تسمى

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٤٨٧ عن الإنصاف والتحري ـ لابن العديم .
(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٩٧ عن تحفة النظار ـ لابن بطوطة .
(٣) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٨٠ عن معجم البلدان ـ لياقوت ـ مع اختلاف يسير في النقل.

بمثله مدينة ، تواضع وهو صحيح ، ويؤيده أنه لا يعرف الآن في المعرة أجمة . وموقعها بعيد عن أن يكون أجمة ، وليس فيها ماء يسيح على وجه الارض وفي شماليها وغربيها أودية يفيض ماؤها في الشتاء والربيع ، ولكن المدينة أعلى من هذه الأماكن .

ولا يعرف فيها قبر لابن النعمان ، ولو كان ذلك حقاً لاحتفظ الناس به أو بآثاره ، كما احتفظوا بكثير من القبور المنسوبة إلى جماعة من الصالحين وإن لم يكونوا مقبورين فيها حقيقة ، وفيهم كثير ممن هو أدنى منزلة في اعتقاد الناس من ابن النعمان . وإذا فرضنا أن بني مروان درسوا هذا القبر وطمسوا معالمه فليس لدينا ما يثبت به مايدعونه من إضافتها إلى النعمان .

وإذا تأملنا قول ياقوت تبين لنا أن فيه تناقضاً ، فانه ذكر أولاً أنها منسوبة إلى النعمان (١) بن بشير ، ثم بين أن ذلك ضعيف ، ورجح أن تكون منسوبة إلى الساطع ، وهذا توفي قبل الإسلام ولم تثبت وفاته في المعرة ولا نزوله فيها . ثم قال في سيات (٢) : بليدة بظاهر معرة النعمان وهي القديمة والمعرة اليوم محدثة ، ثم ذكر أن القاضي أبا يعلى اجتاز بها ورأى الناس ينقضون بنيانها ليعمروا به موضعاً آخر ، وقد كان ابو يعلى هذا في القرن الخامس . ونسب ابن العديم (٣) هذه الأبيات إلى أبي الهيثم عبد الواحد أخي أبي العلاء وكانت وفاته سنة ٤٠٥ هـ ، فكلام ياقوت يدل أوله على أن المعرة كانت عامرة قبل الإسلام منذ عهد الساطع ثم يقول : إن سيات هي القديمة والمعرة اليوم محدثة ، ثم يقول : إن أبا يعلى رآهم ينقضون بنيانها ليعمروا به موضعاً آخر في القرن الخامس ، ولم يبين ذلك الموضع ، وكلامه يدل على أن بنيان سيات كان بعضه باقياً

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٨٥ ، عن معجم البلدان — لياقوت — .

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٩٤ الحاشية ، عن معجم البلدان — لياقوت .

(٣) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٤٩٤ عن الانصاف والتحري — لابن العديم .

في زمن أبي يعلى . فلم يتضح لنا أي أقواله أرجح لنأخذ به ونعول عليه ، وإذا كانت سياث هي المدينة القديمة والمعرة محدثة فكيف يجوز أن نسميها معرة ونضيفها إلى النعمان الساطع قبل أن توجد ؟ .

وكلام ابن العديم يشبه كلام ياقوت في تناقضه ، فإنه ذكر أولاً أنها كانت تسمى ذات القصور [١] ، ثم لما مات للنعمان ولد فيها جدد عمارتها فنسبت إليه ، ولم يبين من أين جاء لفظ المعرة والاستعاضة به عن ذات القصور ، وكلامه هذا يدل على أنها كانت موجودة وجدد عمارتها .

ثم قال [٢] : وقيل إن سياث كانت المدينة وهي آهلة . وكان موضع المعرة أجمة ، فلما افترس السبع ابن النعمان بنى له موضعا عند قبره فبنى الناس لبنائه فسميت معرة النعمان لذلك . وهذا يدل على أن المعرة لم تكن موجودة قبل ذلك وإنما كانت سياث . فتأمل كيف خفيت الحقيقة لتناقض الأقوال والآراء ، وسيأتي في الكلام على قلعة المعرة أن الملك المظفر لما بنى قلعة المعرة نقل حجارتها من سياث .

والمؤرخون تكاد تتفق كلمتهم على أن أبا عبيدة لما فرغ من فتح حماة مر بالمعرة فصالح أهلها سنة ١٥ ﻫ ، وهذا يدل على أن هذه المدينة كانت موجودة عامرة مسماة بهذا الاسم قبل أن يتولى النعمان بن بشير حمص وغيرها . ويدلك على انها كانت عامرة قبل ذلك ما زعمه بعض المؤرخين من أن فيها قبر عبد الله بن عمار بن ياسر الصحابي وقبر يوشع بن نون .

وأما قول الشريشي : إن النعمان جبل مطل عليها فهو أقرب إلى القبول من سائر الأقوال لو صح أن هناك جبلا يسمى بهذا الاسم ، ولم أوفق للعثور على مستند تاريخي يثبت ذلك ، على أني سمعت من بعض أهل

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٨٨ ه عن بغية الطلب - لابن العديم .

(٢) المصدر ذاته ، وقد تصرف المؤلف بنقل الخبر .

المعرة أن الجبل الغربي الذي يقع غربي وادي الحطيب إلى جهة المحيا يقال له النعمان ، ولكن نفسي لم تطمئن إلى هذا الخبر .

وقول من قال : إنها مضافة إلى النعمان بن المنذر أو النعمان بن امرىء القيس لا يصح أن يعول عليه حتى يؤيده دليل ، ولم نعثر على هذا الدليل .

والذي نستطيع فهمه من مجموع ما تقدم أن هذه المدينة كانت قبل الفتح الإسلامي عامرة ، وكانت تسمى المعرة وذات القصور ، ولا يمتنع أن يكون لها اسمان فأكثر كما أن لدمشق ومصر وبغداد أسماء متعددة ، ثم لما جعلت من عمل حمص قيل : معرة حمص . وأما اضافتها الى النعمان فلم أعلم في أي وقت كان وأن كل ما ذكره العلماء في سبب تسميتها واشتقاق اسمها وإضافته لا يخرج عن حدود الظن ولا يجوز الجزم بشيء منه ، غير أن أكثر المؤرخين قالوا إنها مضافة إلى النعمان بن بشير ولا يضيرنا أن نوافقهم حتى يظهر الدليل القاطع لكل احتمال وظن .

اضافتها الى حمص وغيرها

ذكر فريق كبير من المؤرخين أن هذه المدينة كان يقال لها معرة حمص ، منهم ابن خلكان والبلاذري وأبو الفداء وابن بطوطة وابن الأثير وغيرهم ، وقد أشرنا إلى ذلك فيما سبق .

ووقع إضافتها إلى حلب في (فتوح الشام) للواقدي .

تسميتها « ذات القصور »

وذكر جماعة من المؤرخين أنها كانت تسمى « ذات القصور » منهم ابن العديم[1] ، ونقله ابن بطوطة[2] عن ابن جزي ، وذكره شيخ الربوة

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٨٨ عن بغية الطلب — لابن العديم .
(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص٥٩٧ عن تحفة النظار — لابن بطوطة .

في (نخبة الدهر في عجائب البر والبحر) . وقال ابن الوردي المعري من قصيدة :

سلام على ذاتِ القصورِ وأهلِها   ومستقبلٍ من حسنِ حالٍ وما مضى

المعرة من العواصم

العواصم حصون وولاية تحيط بها بين حلب وانطاكية ، وقد كانت قصبتها انطاكية ، وعند البلاذري قصبتها منبج ، والمعرة منها ، كما ذكره ابن خرداذبه وابن خلكان (ج ١ ص ٤٤٥) وغيرهما . وقد قال التبريزي في شرح سقط الزند عند قوله : « ولكن بالعواصم من عدي . . . » العواصم حصون بين حلب الى حماة سميت عواصم لاعتصام الناس بها والالتجاء اليها . . ثم قال : سألته عن العواصم وقت القراءة عليه ، فقال : العواصم من حلب الى حماة لانها حصون وجبال يعتصم بها الناس . وفسر العواصم بمثل هذا في غير موضع من شرحه ويشير الى هذا قول ابي العلاء :

مَتى سَأَلَتْ بَغْدادُ عني وأهلُها   فانيَ عن أهلِ العواصِمِ سآلُ [1]

وغيره من الأبيات الآتية .

المعرة من الثغور

قال الطبري : ان هارون الرشيد عزل الثغور كلها من بلاد الجزيرة وقنسرين وجعلها حيزاً واحداً وسميت العواصم ، وذلك سنة ١٧٠ هـ ، وذكر ذلك في (صبح الاعشى) ونقله عن صاحب حماة . وهذا يقتضي أن تكون الثغور والعواصم اسمين لمسمى واحد .

النسبة الى معرة النعمان

نقل السمعاني عن ابي نصر الراشي : ان النسبة الصحيحة الى معرة

(١) شروح سقط الزند ق ٣ ، ص ١٢٥٣ .

النعمان « مَعَرْنَي » ليفرق بينهـا وبين النسبة الى معرة مسرين اذ يقال : مَعَرْمَسي . ورواه ابو الفداء في (تقويم البلدان) : معرنسي ، وقال : ان أكثر أهل العلم لا يعرف ذلك . وأنا أقول : إن المعروف في الثانية معصرين لا مسرين ولا نسرين ، كما ذكرها ياقوت . وان هذه النسبة لم يرض بها غير قائلها ، ولذلك لم تلق رواجا عند المتقدمين والمتأخرين ، ولم تقع في كلام فصيح ، والمشهور أن النسبة الى معرة النعمان معرّي فقط ، وقد درج عليه المتأخرون تبعا للمتقدمين .

المعرة في شعر أبنائها

لم أقف على ذكر المعرة في شعر أحد من أبنائها قبل القرن الرابع لأني لم أعثر على تراجم وافية لكثير منهم ، وفيهم طائفة من الشعراء . ومن البعيد أن يُخلوا أشعارهم من ذكر موطنهم والحنين إليه أو التذمر منه .

وأكثر من ذكرها أبو العلاء ، فقد ذكرها في مواطن من شعره في السقط مثل قوله : (١)

سرىْ بَرْقُ المعرةِ بعد وَهْنٍ ... فبات برامةٍ يَصِفُ الكلالا

وقوله وهو في بغداد : (٢)

فهل فيكَ من ماء المعرة قطرةٌ ... تغيثُ بها ظمآن ليس بسال

وذكرها في اللزوم في مثل قوله المتقدم : (٣)

يعيّرنا لفظَ المعرةِ أنهـا ... من العَرِّ قومٌ في العُلا غرباء

---

(١) شروح سقط الزند ق ١ ص ٧٨ .

(٢) شروح سقط الزند ق ٣ ، ص ١١٩٥ .

(٣) شرح لزوم ما لا يلزم _ طه حسين _ الأبياري _ ١ ٦٦ .

والعر بالفتح والضم: الجرب .

وقوله في رواية : (١)

نجّيْ المعرةَ من براثن صالحٍ   ربٌّ يُفرّجُ كُلّ أمرٍ مُعْضِلِ

وذكرها الأمير أبو الفتح بن أبي حصينة ، وكان معاصراً لأبي العلاء ، بقوله : (٢)

وزمانِ لهو بالمعرة مونق   بسيائها وبجانبي هرماسها

وقوله في رثاء أبي العلاء : (٣)

وعجبت أن تَسَعَ المعرةُ قبرَه   ويضيق بطن الأرض عنه الأوسع

وذكرها محمود بن علي بن المهنا المعري المتوفى سنة ٥٥٥ هـ ، بعد أن أخذها الفرنج :

معرة الأذكياء قد حَرِدَت   عنا وحق المليحة الحرد

في يوم الأثنين كان موعدهم   فما نجا من خميسهم أحد

وذكرها القاضي أبو سهل عبد الرحمن بن مدرك التنوخي في قصيدة بقوله :

ما للمعـــرة مشبـه   في أرض مصر ولا العراق

وذكرها أبو محمد عبد الله بن أخي أبي العلاء بقوله : (٤)

واحلفْ بأنك لا تعـو   د إلى المعرة بالطـلاق

---

(١) الزوميات هـ ص ٢٢٠ ، وفيها : « نجيّ المناشر » .

(٢) ديوانه ١/٣٥٥ .

(٣) ديوانه ١/٣٧٣ .

(٤) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٤٩٨ عن الانصاف والتحري ـ لابن العديم

وذكرها ابن الوردي بقوله :

رأى المعرة خوداً زانها حَوَر ... لكن حاجبَها بالجور مقرون

وذكرها السيد أمين الجندي عم أبي المتوفى سنة ١٢٩٥ هـ في قوله من أبيات يهجو بها فريقاً من أهلها :

أهلَ المعرة لا بوركتم أبداً ... .[1]

وذكرها السيد محمد بن عمر اليوسفي بقوله من أبيات يفتخر بها :

إن المعرة والذي فلق النوى ... بلد بها أهل المكارم لم تزل

يا من تجاهل فضلها سفهاً فسل ... ركباً بأطلال الحمى نزل[2]

وقد ذكرها أبو العلاء في بعض رسائله مرة بلفظ المعرة فقط ، كما في رسالة (الإغريض) ص ١٥ - ١٦ ، ورسالته (إلى أهل المعرة) ص ٨١ . ومرة أخرى بلفظ معرة النعمان كما في رسالته إلى خاله أبي القاسم ص ٦٧ . وثالثة بلفظ البلدة المضافة إلى النعمان ، كما في رسالته إلى القاضي أبي الطيب حيث يقول ص ١٠٠ : من المستقر في البلدة المضافة إلى النعمان . وقوله في (رسالة الاغريض) ص ٥٢ : وغير ملوم سيدنا لو أعرض عن شقائق النعمان الربعية ومداغه اليربوعيه مللًا من أهل البلد المضاف إلى هذا الاسم .

أما في رسالة الغفران فقد ذكرها بلفظ معرة النعمان في ص ١٣٥ و ص ١٩٢ [3] . وفي الفصول والغايات ص ٣٠٧ بقوله : ما أنا والبلدَ المضافَ إلى النعمان بعد صُحْبة قُرَيْطٍ والمِرّاج .

---

(١) روى للمؤلف صدر البيت ولم يُتمّ .

(٢) العجز مكسور ، ولم نقف على صحته .

(٣) وفي رسالة الغفران ط ١ تحقيق بنت الشاطئ ص ٥

أما ذات القصور فلم أره الا في بيت ابن الوردي المتقدم . وأما العواصم فقد ذكرها أبو العلاء في مواطن كثيرة من سقط الزند ، كقوله وهو في بغداد :

متى سألتْ بغدادُ عني و أهلها ... فإنيَ عن أرض العواصمِ سآلُ[1]

وقوله :

ندمتُ على أرض العواصم بعدما ... غدوتُ بها في السَّوْمِ غيرَ مغالِ[2]

وقوله :

ولكن بالعواصم من عدي ... أمير لا يكلفنا السؤالا[3]

وقوله يصف ابلا :

تَذَكَّرْنَ من ماء العواصم شَرْبَةً ... وَزُرْقُ العَوالي دُونَ زُرْقِ جِمامِهِ[4]

وقوله في اللزوم :

لو قام أموات العواصم وحدها ... ملأوا البلادَ حزونَها وسهولَها[5]

المعرة قبل الاسلام

لم نقف على شيء مفصل من أخبار المعرة قبل أن يمتد فوقها رواق الإسلام ، ولا أحطنا علما بما بلغت إليه من الحضارة والعمران في القرون الخالية ، ولا بمن نبغ فيها من العلماء والعظماء . وكل ما استطعنا معرفته

---

(١) شروح سقط الزند ق ٣ ، ص ١٢٥٣ .
(٢) شروح سقط الزند ق ٣ ، ص ١٢٠٧ .
(٣) شروح سقط الزند ق ١ ، ص ٨٥ .
(٤) شروح سقط الزند ق ٢ ، ص ٤٩٥ .
(٥) اللزوميات ﻫ ص ٢٠٧ .

من ذلك معرفة مجملة لا تزيل اللبس ولا تشفي علة النفس ولا تروي غلة الباحث .

كل ما استطعنا معرفته أن هذه المدينة كانت ولا تزال جزءاً من بلاد الشام شاركها فيما تعاقب عليها من الأطوار ، وانضوى تحت اللواء الذي كان يرفرف على أرجائها الفسيحة التي كانت منذ برأ الله الخلق ، ولم تزل إلى يوم القيامة مطمحا لأنظار الغزاة والفاتحين ، ورحىً تطحن فيها المطامع الدول والأمم ، ومجزرة للبشر ، يقرب فيها القوي الضعيف ضحية لأطماعه وشهواته ، وقد شهدت هذه البقعة المباركة من الوقائع والفظائع ما لم تشهده أرض غيرها ، وضمت بين جوانحها من الأنبياء والصالحين والملوك والأبطال والعظماء ما يخيل إلى المرء أن أديم أرضها من تلك الأجساد .

ضن علينا التاريخ فلم ندر هل كانت المعرة عامرة قبل الطوفان آهلة بالسكان ، لقربها من مهد الإنسان أم لا ؟ وكذلك حالتها بعد الطوفان محفوفة بالغموض والإبهام . إلا أن الباحث يستطيع أن يدرك من خلال الكلام المجمل في سورية عامة أن هذه المدينة خضعت للحثيين الذين امتد سلطانهم من جنوبي سورية إلى البحر الأسود فيما يقال ، وأصابها ما أصاب سورية من النكبات والكوارث بسبب الحروب التي شبت بين أهلها وبين الفراعنة والأشوريين والرومانيين وغيرهم ممن بسطوا سلطانهم على تلك الأصقاع . ولكننا لا نعلم شيئاً خاصاً بالمعرة ، وفيها كثير من الآثار القديمة والعاديات والمتحاتات التي خلفتها الأمم التي تديرتها أو تغلبت عليها ، إلا ان جهل أهلها بل أهل بلاد الشام عامة بمعرفة الآثار وقيمتها حملهم على التهاون بالآثار القديمة وتقويض العامر منها وتحطيم كثير مما سلم منها من عاديات الدهر ، وجعلهم يضيفون كل قديم من بناء وغيره إلى الرومانيين ، لأنهم أقرب أمة كانت مستولية عليها قبل الإسلام ، ويشجعهم على ذلك كثرة ما للرومانيين من الآثار الخالدة في المدينة وضاحيتها .

المعرة بعد الاسلام

لما افتتح أبو عبيدة دمشق وحمص ، مضى إلى حماة ، فصالح أهلها ، ثم مر بالمعرة سنة ١٥ ﻫ فصالح أهلها على مثل صلح حماة ، ثم لما استخلف معاوية ، ولى النعمان بن بشير حمص وأضاف إليه المعرة كما سبق .

ولما استخلف هرون الرشيد أفرد العواصم ، وجعل المعرة منها على نحو ما أسلفنا ، ثم تعاقبت عليها أطوار شتى ، وتداولتها دول مختلفة ، فكانت مرة من عمل حمص ، وثانية من عمل حماة ، وثالثة من عمل حلب ، ورابعة إقطاعا لأمير ، وخامسة طُعْمة لمتغلب . وكان لها في كل عهد نصيب وافر من قتل أهلها وسبيهم وظلمهم وخراب عمرانها ، وإذا سلمت من فظائع هؤلاء ، لقيت الأمرين من عيْث البُداة وغاراتهم ، فإذا قدر لها النجاة يوما من كلا الأمرين ، نالت قسطاً وافراً من ظلم الطبيعة ما بين زلزال يقوض بنيانها ، وطاعون يفني سكانها ، وقحط يبيد إنسانها وحيوانها ، فإن سلمت من ذلك كله قيض الله لها من خصام أبنائها وتناحرهم وكيد بعضهم لبعض ما يغني من الزلزال والطاعون والطبيعة [1] وهي لا تزال إلى هذا اليوم تنسج على هذا المنوال ، وتحتذي على هذا المثال ، ومن استقرى ما لقيته من البلاء يتعجب كيف كتب لها الخلود ، ولم تمح من صحيفة الوجود .

موقع المعرة ووصفها في كلام المتقدمين

لم أقف على وصف هذه المدينة في كلام المتقدمين وصفاً يوضح كيف

---

(١) والظاهر انها كانت على هذا النمط في عهد ابن الوردي لأنه يقول فيها في رواية :

ان المعرة خَوْد زانها حَوَرٌ ... لكنّ حاجبَها بالجوْر مقرون
ماذا الذي يفعل الطاعون في بلدٍ ... في كل يومٍ له بالظلم طاعونُ

(ج)

كان عمرانها وسكانها ، وأكثرهم ذكر لها وصفاً مجملاً ، منهم ابن حوقل المتوفى سنة ٣٨٠ هـ ، قال : هي مدينة كثيرة الخير والسعة والتين والفستق وما شاكل ذلك من الكروم .

ومنهم الرحالة ناصر خسرو الفارسي ، فقد دخل المعرة سنة ٤٣٨ هـ ، وذكرها في رحلته ، فقال ما خلاصته[1] : إن المعرة مدينة عامرة يحيط بها سور من حجر ، وعلى بابها سارية من الحجر ارتفاعها نحو عشرة أذرع كتب عليها بحروف غير عربية ، فسألت عنها ، فقيل لي : إنها طلسم يدفع العقارب عن المدينة فلا تدخلها ، فإذا جيء إليها بعقرب من خارجها فر منها وابتعد عنها ، وأسواق المدينة طافحة بالأرزاق ، وجامعها الأعظم مبني على نشز من الأرض في وسطها ، ومن أية جهة أتيته ارتقيت اليه ثلاث عشرة درجة . ولا يزرع في أرضها إلا الحنطة ، وهي تغل غلة عظيمة ، ويكثر فيها شجر الزيتون والتين والفستق واللوز والعنب ، وماؤها من الأمطار والآبار .

وقد وصفها كثير من المؤرخين وأصحاب الرحل ، منهم ياقوت[2] وأبو الفداء[3] والاصطخري[4] وابن جبير[5] وابن بطوطة[6] وغيرهم ، وكلامهم بعضه قريب من بعض ، كلهم يصفها بكثرة التين والفستق واللوز والثمار ، وكلهم متفقون على أن ماءها من الآبار وليس فيها ماء جار على سطح الارض .

---

(١) هذه الرحلة ترجمها كثيرون وقد لخصنا من مجموع أقوالهم ما ذكرناه . (ج) .
وفي تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٨١ عن سفرنامه — لناصر خسرو

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٨٥ عن معجم البلدان — لياقوت .

(٣) تقويم البلدان ص ٢٦٥ — لأبي الفداء .

(٤) المسالك والممالك للأصطخري ص ٦١ ، ط برل ١٩٢٧ م .

(٥) رحلة ابن جبير طبعة ليدن ص ٢٥٤ .

(٦) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٩٧ عن تحفة النظار — لابن بطوطه .

وزعم بعض شراح (سقط الزند) ان المخاض الذي ذكره أبو العلاء في قوله :

كأنْ لم يكنْ بين المَخاض وحارم كتائبُ يُشْجين الفلا وخيامُ[1]

هو نهر بالقرب من معرة النعمان . وقال الفيروز ابادي في القاموس : مخاض كسحاب نهر بقرب المعرة . ولكن لا يعلم أحد اليوم أثراً لهذا النهر . ثم رأيت في شرح سقط الزند للبطليوسي [2] والتبريزي وغيرهما ان المخاض : نهر بمخاض ، في الأرض التي تعرف بالروج ، وهي قريبة من معرة النعمان ، وقد التقى في هذا الموضع عسكر للمسلمين وعسكر للروم وكان أمير عسكر المسلمين بنجوتكين التركي الذي اصطنعه أبو منصور نزار الملقب بالعزيز ابن معد الملقب بالمعز ، فاقتتل العسكران والمخاض بينهما ، ثم عبر اليهم المسلمون ، فانهزموا ، وذكر في (ذيل تجارب الأرض) هذه الوقعة في حوادث سنة ٣٨١ هـ ، وقال : وطرحت العرب خيولهم في النهر ، وهجم العسكر على المخاض ، وحصلوا على الروم في أرض واحدة . وبهذا يتبين أن المخاض ليس بنهر قريب من المعرة قرب اتصال بل بينهما مسافة بعيدة .

ووصفها أبو العلاء في بعض رسائله ، فقال : اسمها طيرة ، وعند الله ترجى الخيرة ، المورد بها محتبس ، وظاهر ترابها في الصيف يبس ، ليس لها ماء جار ، ولا تغرس بها غرائب الأشجار ، إذا أبوز لأهلها ذبح يؤمل به لديهم الربح ، تحسبه صبغ بخطر ، فكأنما يرمق به هلال الفطر ، وقد يجيئها وقت يكون فيها جدي المعز في العزة كجدي الفرقد ، ومثل حل الكواكب حل النقد . ويبكر فقيرها على المداينة ، قبل أبي الفرخين

---

(١) شروح سقط الزند ق ٢ ، ص ٦٠٣ .

(٢) شروح سقط الزند ق ٢ ، ص ٦٠٣ ، ٦٠٤ .

ابن دابة ، حتى يقف ببائع الرسل ، فكأنما وقف برضوان يستوهبه ماء الحيوان ، فإن سبقه ضياء الفجر فإنه يرجع خائباً . . .»[1]

وهذا وصف حقيقي ، وإن خالف بعضه أهل زماننا . فليس في المعرة ماء جار على وجه الأرض ، ولكن فيها ينابيع ثرارة في باطن الأرض ، يستخرج ماؤها بالدواليب ، الدلاء وغيرهما . وقد زرع فيها غرائب الأشجار ، إلا أنها لا تدوم طويلا لسببين ، أحدهما : طبيعة الإقليم ، فإنه لا يعيش فيه الليمون والبرتقال وما أشبهها ، وكذلك لا يعيش فيه النخل وما شاكله وثانيها : أن بعض أهلها اذا أراد أن ينتقم من خصمه قلع أشجاره . . أما اللحم فيكثر في زمن الربيع والصيف حتى يزيد عن حاجة أهلها ، وكان يقل في الشتاء لذهاب البدو إلى جهة الشرق وصعوبة الطرق وقلة الوسائط النقلية بين البلاد ، وكذلك اللبن والسمن وكل ما خرج من الضرع أو الزرع ، يكثر في أوانه ويقل في غيره . وأهلها يبكرون لأخذ ما يحتاجون إليه من الأسواق من طعام وغيره ، وربما لا يجد المتأخر منهم بعض حاجته ، ولكنهم يفعلون ذلك بعد الفجر لا قبله . هذه حالة المعرة في السنة التي هاجرت فيها منها إلى دمشق وهي سنة ١٣١٩ هجرية . أما الآن فإن فيها كثيرا من الأشجار المثمرة ، كالتفاح والخوخ والكمثرى والمشمش والكرز والفستق والزيتون والرمان ، وفيها أنواع من العنب والتين والبطيخ والخضراوات ، وقد تستطيع أن تستغني بما تنبته أرضها عن غيرها ، بل تصدر ما يزيد عن حاجتها إلى غيرها من البلدان ، ويكثر فيها الخضراوات الأعذاء[2] ، وثمرها أطيب من المسقوي . وقد وصفها الوزير أبو القاسم الحسين بن علي المعروف بالوزير المغربي الآتية ترجمته ، وقد كان زار المعرة

---

(١) أبو العلاء وما اليه ـ الميمني ـ ص ١٧ عن رسائل المعري ، أكسفورد ١٨٩٨ م.ص٥٥.

(٢) العذي بكسر اوله وفتح : الزرع لا يسقيه إلا المطر .

قبل سنة ٤٠٠ هـ بأبيات ، نقل ابن العديم في (بغية الطلب) هذه الأبيات منها :

ما على ساكني المعرّةِ لو أنّ ... دياراً نبَتْ بهم وَطُلُولا[1]
يَسْكنون العُلا معاقلَ شُمًّا ... ويرَوِن الآدابَ ظلاً ظليلا
منزلٌ شاقني أنيسٌ وما كا ... ن رُسوماً نواحِلاً وطُلُولا
حيث يُدعى النسيمُ فظًّا ويُلفى ... سَبَلُ الغادياتِ شَكساً بخيلا[2]
أينما تلتفتْ تجدْ ظلَّ طوبى ... وتجدْ كوثراً أغرَّ صقيلا
تُربُها طَيِّبَ الشَّبابَ فما يصــــحبُ إلا السرورَ فيها خليلا
فترى اللهوَ إن أردتَ طليقاً ... والتُّقى إن أردته مغلولا
وإذا ما اعتزى بها الأدبُ العذ ... ريُّ جاءوا عِمارةً وقَبيلا
ليتَ لا يَعْنُفُ السَّحابُ عليها ... ليتَه جادَها عليـلاً كليلا
وسلام على بنيهـا ولا زا ... لَ نَعيمُ الحياةِ فيهم نَزيلا

وقال ابن جبير[3] في (رحلته) التي أنشأها سنة ٥٧٨ هـ : ورأينا عن يمين طريقنا ، بمقدار فرسخين ، بلاد المعرة ، وهي سواد كلها بشجر الزيتون والتين والفستق وأنواع الفواكه ، ويتصل التفاف بساتينها وانتظام قراها مسيرة يومين ، وهي من أخصب بلاد الله وأكثرها أرزاقاً . . .

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٩١ عن بغية الطلب — لابن العديم .
(٢) السبل ، بالتحريك : المطر . والشكس ، ككتف : البخيل وسيء الخلق .
(٣) رحلة ابن جبير طبعة ليدن ص ٢٥٤ .

المعرة مركز للبريد في القديم

وذكر في صبح الأعشى (ج ١٤ ص ٣٨١) ، أن المعرة من مراكز البريد ، وفيها برج مقرر للحمام الرسائلي . والطلّسم الذي ذكره ناصر خسرو ، قال صاحب (الذكرى) [١] : إنه لم ير من ذكره من مؤرخي العرب . وأنا أقول : قد ذكره جماعة منهم ابو الفضل محمد بن الشحنة في تاريخه المسمى (الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب) ، حيث قال ص ١٢٩ : وبمعرة النعمان عمود فيه طلّسم للبق [٢] . وذكر عن أهل المعرة أن الرجل كان يخرج يده وهو على سور المعرة الى خارج السور فيسقط عليها البق ، فاذا أعادها زال عنها . وأخبرني رجل من أهلها ، قال : رأيت أسفل داري عمودا ، ففتحت موضعه لأستخرجه ، فانخرق إلى مغارة ، فأنزلت إليها انسانا ظنّا مني أنها مطلب فوجدناها مغارة كبيرة ولم نجد فيها شيئاً ، ورأيت في الحائط صورة بقة ، فمن ذلك اليوم كثر البق في المعرة . وذكر أهل المعرة أن حيّاتها لا تؤذي إذا لدغت كما يؤذي غيرها .

ومنهم ابن العديم ، قال : سمعت إبراهيم بن أبي الفهم رئيس المعرة يقول : إن العمود القائم في مدينة المعرة هو طلّسم الحيات ، وهو قائم مستقر على قاعدة بزبرة حديد في وسطه ، يميله الإنسان فيميل ، وكذلك تعمل فيه الريح القوية ، وإذا مال يضع الناس تحته الجوز واللوز فينكسر . اهـ . وأمر هذا الطلسم غريب ، وتناقض الأقوال فيه أغرب ، فقد جعله ناصر خسرو سارية بالقرب من باب السور وطلسما للعقارب ، وفي كلام ابن الشحنة : أنه عمود قريب من السور وهو طلسم البق ، وفي

(١) ذكرى أبي العلاء ـ لطه حسين ط ٢ ص ١٢٣

(٢) البقة : البعوضة ودويبة مفرطحة حمراء منتنة .

قول ابن العديم : أنه عمود عليه الإنسان والربع وهو طلسم الحيات ، وصاحب (نهر الذهب) جعلها عمودين ، أحدهما للبق والثاني للحيّات . ولعل هذا العمود من المزاعم الموروثة عند أهل ذلك العصر ، أما في عصرنا الحاضر فإن العقارب والحيات في المعرة أكثر من الحصى عند جمرة العقبه [١] ، وهي تفتك في الناس فتكاً ذريعاً ، وكثيراً ما أودت بحياة لديغها ، وكذلك البق ينتشر في الصيف انتشاراً عظيماً ، فينقل جراثيم الملاريا ، وقلّ من يسلم من أهلها من شره ولعل هذا الطلسم انعكس أمره في أيامنا ، أو أن العقارب والأفاعي تألبتا على الطلسم ، فكانت لها الدولة والغلبة عليه ، أو أن طبيعة الإقليم تبدلت بكثرة ما تعاقب عليه من الحوادث والكوارث .

اتهام أهلها بالبخل

ونقل صاحب (الذكرى) [٢] عن القفطي [٣] والذهبي [٤] أن أهل المعرة كانوا بخلاء في عهد أبي العلاء ، فكان يضيق ذرعا لكثرة الوافدين عليه وقلة ما يملكه . وأن مرجليوث استبعد ذلك وقال : إن بلدا يخصص أهله عطاء غير قليل للبحتري حين كتب إليهم بذلك أبو تمام لا ينتظر أن

(١) جمرات المناسك ثلاث : الجمرة الاولى والجمرة الوسطى وجمرة العقبة .

(٢) ذكرى أبي العلاء ـ لطه حسين ط ٢ ص ١٢٢

(٣) هو أبو الحسن علي بن يوسف بن ابراهيم الشيباني القفطي ، نسبة الى قفط بلد بالصعيد الأعلى من مصر ولد سنة ٥٦٨ هـ وتوفي سنة ٦٤٦ هـ ، وولي القضاء والوزارة في حلب ، وله كتب كثيرة ، منها (تاريخ مصر) و (إنباه الرواة على أنباه النحاة) وقد سماه بعضهم (أخبار النحويين) ، وآخرون (تاريخ النحويين) . وغيره . (ج)

(٤) هو أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز المتوفى سنة ٧٤٨ هـ له تصانيف كثيرة منها (تاريخ الاسلام) و (طبقات المشاهير والأعلام) ابتدأ فيه من الهجرة النبوية وانتهى إلى سنة (٧٠٠ هـ) وقسمه إلى سبعين طبقة ، وجعل من كل عشر سنين طبقة مرتبة على الحروف ، وله (تذكرة الحفاظ) ، و (ميزان الاعتدال) و (المشتبه) و (دول الاسلام) وغيرها . (ج)

يكونوا بخلاء . ولم يستبعد ذلك صاحب (الذكرى) واحتج لوقوعه بأن الحال قد تتحول ، وأن المصائب التي اختلفت على أهل المعرة بسبب اختلاف الحدانية والعبيدية والمرداسية والروم على حلب أيام أبي العلاء حرية أن ترد الكريم بخيلا . وتابعه على ذلك الأستاذ الميمني . وهذا قول من لم يعرف حقيقة أبي العلاء وحقيقة أهل بلده ، فإن أبا العلاء ما كان ليضيق ذرعا بالإنفاق على الوافدين من بخله ، وإنما كان يحب الإنفاق ولا يكفيه ما له من المال والغلة ، ويأبى أن يأخذ من أحد شيئاً فيضيق صدره لذلك ، أي لأن ماله لا يساعده على كل ما يريده من الإنفاق . ولو كان يضيق من الإنفاق بسبب بخله لما أقدم على أمور هو في غنى عنها وليس ثمة ما يجبره عليها . فقد أنفق على أبي زكريا التبريزي مدة مقامه عنده ، وكان يجري رزقا على جماعة ممن كان يقرأ عليه ويعطي الفقراء والمُعْتَرّين كما سيأتي إيضاح ذلك . ولو كان بخيلا لكان محباً للمال ، لأن حب المال والحرص على جمعه من لوازم البخل ، وأبو العلاء كان على خلاف ذلك فقد بذل له المستنصر ما في بيت المال بالمعرة فأباه وكتب داعي الدعاة إلى تاج الأمراء أن يجري على أبي العلاء كل ما يحتاج إليه فأبى ، وكتب الوزير الفلاحي إلى عزيز الدولة أن يحمل أبا العلاء إلى مصر وسمح له بخراج المعرة فأبى ذلك ، ولو كان بخيلا أو محباً للمال لكان شأنه غير ذلك . وأما أهل المعرة فالمعروف عنهم في عهد أبي العلاء وبعده أنهم غير بخلاء ، يدلك على ذلك ما ذكره ابن خلكان وغيره من أن أبا تمام كتب إلى أهل المعرة كتابا يشهد فيه بحذق البحتري ، فلما صار إليهم البحتري أكرموه ووظفوا له أربعة آلاف درهم . وذكر الصفدي في (نكت الهميان [1]) وغيره : أن محمود بن صالح صاحب حلب أرسل خمسين فارساً ليحملوا أبا العلاء إليه ، فلما أتوا المعرة أنزلهم أبو العلاء دار

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٢٩٣ عن نكت الهميان ـ للصفدي .

الضيافة . . ولم يحدثنا التاريخ أن لأبي العلاء داراً للضيافة . فلا شك في أنها لرجل من أهل المعرة من أقربائه أو من غيرهم ، ولو كانوا بخلاء لأحجموا عن مثل ذلك .

ومن عادة أهل المعرة في عهدنا أن الرجل إذا نزل به ضيوف ولم يكن موسرا بحيث يستطيع أن يقدم لهم من القِرى ما يقدمه أمثاله ، سارع الناس من أصحابه أو أقاربه إلى مساعدته من حيث لا يشعر ضيوفه بذلك . وقد علمت رجلا من أعيان المدينة ضافه جماعة كثيرون من وجوه إدلب وأريحا ، وكان لا يملك شروى نقير ، فأمده رجل آخر من الأعيان بكل ما يحتاج إليه القرى . وكانت بينهما في ذلك الوقت عداوة عظيمة وخصومة شديدة . وأظن أن هذا الخُلُقَ موروث عن الأقدمين ، يدل على ذلك دار الضيافة التي أنزل أبو العلاء بها الحسين فارساً ، ولدينا أدلة كثيرة تدل على أن أهل المعرة بريئون من البخل في القديم والحديث ولكن سردها يخرجنا عن الغرض المقصود من هذه الرسالة . ويقربنا من تهمة التعصب لهم لأنهم أهل بلدتي وأبناء جلدتي . .

وصف المعرة الأثرية

رأيت كثيراً ممن كتب في المعرة لم ينج من غلط في رأيه ، أو خطأ في قوله ، لأن معظمهم نقلوا ما يكتبونه عن العامة أو عن أناس لم ينقبوا عن الحقيقة ، ولم يأخذوا عمن يوثق به .

منهم الأستاذ صاحب (ذكرى أبي العلاء) [1] نقل عن غيره أن قلعة المعرة متخربة من عهد الصليبين ، وأنها تعرف بقامة النعمان . . . ومنهم الأستاذ الميمني [2] نقل عن غيره أيضا أن من مبانيها الخان الذي

---

(١) ذكرى أبي العلاء ـ لطه حسين ط ٢ ، ص ١٢٤

(٢) أبو العلاء وما إليه ـ عبد العزيز الميمني ص ١٩

شيده مراد المعروف بالجلبي منذ نيف وثلثمائة سنة ، وبإزائه خان آخر بناه سنان باشا ، وقلعة متخربة من عهد الصليبيين تعرف بقلعة النعمان ...

ومنهم صاحب (نهر الذهب) ، زعم أن في المعرة جامعاً فيه غار يشتمل على قبر عطا الله بن أبي رباح حامل لواء النبي (ﷺ) .. وأن القلعة كانت في وسط البلدة ، وذكر في أبوابها ما تزعمه العامة . وقد تابعه على ذلك أصحاب مجلة (العاديات) التي تصدر في حلب في العدد الأول من السنة الثانية سنة ١٣٥٠ ه وزعموا أن القلعة من عهد الملك الظاهر ....

وإذا كان لبعض هؤلاء عذر لأنهم كتبوا ما سمعوا ، فليس لهم عذر في الأخذ ممن لا يوثق بنقله ، ولا في عدم البحث والتنقيب عن الحقيقة .

ونحن نصفها الآن على وفق ما رأينا أو نقلنا عن الثقات أو المآخذ الرسمية ، ونتصدى لأكثر ما وقع فيه الخطأ سواء أكان ذلك في الأماكن أم غيرها لإيضاح الحقيقة فقط .

فالمعرة الآن أي في سنة ١٣٦٣ هجرية و سنة ١٩٤٤ ميلادية فما بعد ذلك مدينة بين حلب وحماة ، بينها وبين حلب ثمانون كيلو متراً ، وبينها وبين حماة ثمانية وخمسون كيلو متراً بحسب قيد وزارة النافعة في الدولة السورية سنة ١٣٥٤ و سنة ١٩٣٥ ، ويمر طريق السيارات من طرفها الشرقي ، وهذا الطريق حدث مجدداً ، وهو شرقي الطريق القديم الذي كان يذهب من المعرة إلى حماة وقد حولته الحكومة الى شرقي المدينة وهو الآن يبلغ نحو ٦٣ كيلو متراً وطولها إحدى وستون درجة وأربعون دقيقة وعرضها خمس وثلاثون درجة وخمس وأربعون دقيقة كما في تقويم البلدان . وارتفاعها عن سطح البحر نحو خمسة وستين وثلثمائة متر على ما قاله صاحب (الذكرى)[1] هو غير سديد والصواب :

(١) ذكرى أبي العلاء ـ لطه حسين ، ط ٢ ، ص ١٢٤

أن ارتفاعها نحو اربعمائة وستة وتسعين متراً على حسب قيد وزارة النافعة السورية .

وهي مركز قضاء تابع لحلب يبلغ عدد نفوسه كله نحو [٢٨٥٣٠] وعدد نفوس المدينة منه نحو ستة آلاف وسبعمائة . وقد أخذت هـذا الإحصاء من قيود الحكومة سنة ١٣٥٢ هـ وربما زاد بعد ذلك لأن المكتومة أسماؤهم كثيرون . وفيها حاكم إداري [قائم مقام] ، وحاكم صلح يقوم بأعمال القاضي الشرعي .

ودار للحكومة شرقي المدينة والخان ، بنيت نحو سنة ١٣٤٣هـ ، ومكتبان ابتدائيان ، أحدهما للذكور وعدد الطلاب فيه [٣١٢] والثاني للإناث وعـدد الطالبات فيه [١١٨] ، ولم تعن الحكومة بها ولذلك كانت فائدتها قليلة .

وفيها كتاتيب يعلم فيها على الغالب جماعة من البصراء القرآن والقراءة ولا نبالغ إذا قلنا : إن التعليم الحقيقي مفقود فيها وفي قراها وإن النهضة الثقافية فيها لم تختلف عما كانت عليه في العهد التركي ، وفي قرى المعرة أربعة كتاتيب يبلغ عدد الطلاب فيها نحو ٤٠٥ وهذا بحسب إحصاء الحكومة سنة ١٣٦٠ هـ سنة ١٩٤١ م والعناية بها أقل منها في مكاتب المعرة .

وقد كان في المعرة مدارس ولم يبق منها إلا مدرسة بناها ابن نجا ابن عز الدين بن علي بن معافا سنة ٥٧٥ هـ في أيام محمد ابن أبي ايوب ، ويزعم الناس أنها من بناء نور الدين الشهيد ، وأطلال مدرسة أخرى بناها الشيخ عمر بن الوردي المعري في النصف الأول من المائة الثامنة . وفيها زوايا بقي منها إلى الآن زاوية بني الكيال والداودية وزاوية العجمي ، وقد تقام الصلاة في بعضها .

وفيها مساجد كثيرة أكبرها وأشهرها الجامع الكبير المعري ، وفيه أنماط مختلفة من البناء في عصور متعددة ، وفي ساحته قبة قائمة على ثمانية

أعمدة من حجر تشبه القبب التي كانت في عهد عمر بن الخطاب ، ويليها قبة أكبر منها يسيل إليها الماء قائمة على أعمدة من حجر يتوضأ الناس منها .

وقد ذكر المؤرخون أن أبا عبيدة صالح أهل المعرة على أن تكون كنيستهم العظمى جامعاً . وذكروا أن ملك الروم أحرق هذا الجامع سنة ٣٥٧ هـ ، وأن الفرنج أحرقوه سنة ٤٩٢ هـ . والظاهر أنه بقي منه شيء من آثار عهد عمر وشيء من آثار الكنيسة . وأكثر البناء القائم يشهد على نفسه بأنه حدث بعد عمر ، ولا شك أن المسلمين أضافوا إلى الكنيسة أكثر منها .

وفي هذا المسجد منارة من أجمل الآثار العمرانية التي خلفها ذلك الزمن في المعرة ، لتدل على ما بلغت إليه صناعة البناء من الإتقان والإبداع في المعرة في الأيام الخالية . وبناؤها إسلامي ، وقد وجدت نقوش كتابة عربية على أطرافها وفي أعلاها مثل : صنعة قاهر بن علي بن قانت رحمه الله . الحمد لله رب العالمين . ومثل : جدد هذه الشبكة العبد الفقير إلى الله تعالى الحاج خليل بن الحاج محمد النطار عفا الله عنه وعن المؤمنين . وقاهر هذا هو الذي بنى المدرسة التي بناها ابن نجا سنة ٥٧٥ هـ كما قدمنا ذلك ، ولم أعثر على تاريخ بنائها ، وأصحاب مجلة (العاديات) زعموا أنها منذ سنة ٤٢٧ هـ وأن على البرج الثالث منها هذه الجملة « محمد بن قانت بن قاهر بن علي » . وفيها كتابات غير ما ذكرنا لم نستطع قراءتها . والجامع بجملته ومنارته إسلامي عربي ، إلا ناحية في الجهة الشرقية منه تشبه أن تكون قبل ذلك .

وفيها مسجد يقال له مسجد الشيخ عطا قائم على نشز في الجهة الغربية زعم أصحاب مجلة (العاديات) أن فيه غاراً يشتمل على قبر عطا الله بن أبي رباح حامل لواء النبي . . وهذا الكلام مجموعة أغلاط ، لأن عطاء بن أبي رباح ولد في آخر خلافة عثمان وتوفي في مكة نحو سنة ١١٥ هـ كما

ذكر ذلك النووي في (تهذيب الأسماء واللغات) ص ٣٣٣ ، فهو لم يكن في عهد النبي ولم يحمل لواءه ، ولم يدفن في المعرة ، ولا قبر في غار ، وليس في هذا المسجد غار ، وهذا المسجد حادث بعد صدر الاسلام فقد كتب على منارته ما يدل على أنه بني بعد القرن الخامس .

وفي المعرة قلعة خربة يحيط بها خندق عميق ، وهي في شمالي المعرة الغربي ، وبينهما مسافة بعيدة يفصل بينهما مقابر وأرضون فيها آثار أبنية قديمة .

وهذه القلعة بناها الملك المظفر صاحب حماة ، أشار عليه ببنائها سيف الدين علي بن أبي علي الهذباني فبناها وتم بناؤها سنة ٦٣١ هـ ، وشحنها بالرجال والسلاح ، وكان بناؤها بلية على المدينة ، لأن الحلبيين حاصروها سنة ٦٣٥ هـ وأخذوها وخربت المعرة بسببها . ثم هدم التتر القلعة المذكورة سنة ٦٥٨ هـ حين استيلائهم على حلب وحماة ، فتكون مدة بقائها عامرة نحو سبع وعشرين سنة كما يظهر من كلام أبي الفداء وابن الوردي في تاريخيهما وذكر ابن العديم في (بغية الطلب)(١) ان الملك المظفر محمود بن ناصر الدين محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه حين بنى القلعة نقل حجارتها من سيات مدينة خربة كانت قريباً منها ومن أبنية الروم التي في الكنائس المتهدمة في بلدها .

وبهذا يتبين أن ما ذكره الأستاذ طه حسين نقلا عن أستاذه إسماعيل بك رأفت ، والأستاذ الميمني نقلا عن مجلة المشرق ، لا نصيب له من الحقيقة . وقد أخبرني بعض شيوخ المعرة أن حجارة هذه القلعة أخذت وبني بها خان اسعد باشا المقابل لخان مراد جلبي الآتي ذكره .

وفي المعرة خان جميل البناء والوصف في شرقي المعرة إلى الشمال ، بناه حامي دفاتر الديوان السلطانية مراد جلبي سنة ٩٧٤ هـ ، كما هو منقوش على حجر فوق بابه ، وجعله وقفا على أبناء السبيل ، ويقال له خان التكية

---

(١) تعريف القدماء بابي العلاء ص ٥٨٧ عن بغية الطلب ـ لابن العديم ـ مع اختصار في النقل .

لأن في جانبه تكية وحماماً ، يقال : إن الغريب كان ينزل في الخان مجانا ، ويغتسل في الحمام مجانا ، ويأكل من التكية مجانا . ولكن الحمام في عهدنا يؤجر كغيره من أبنية الوقف ، والخان لا يزال الناس ينزلونه بغير أجر وأمامه خان آخر بناه أسعد باشا العظم المعري سنة ١١٦٦ هـ ، كما يظهر من الأبيات المنقوشة فوق الباب . وقد اتخذته الحكومة العثمانية ثكنة ثم الحكومة السورية . وقد رأيته سنة ١٣٥٧ هـ وقد أخرج الجند منه وصار سوقا تباع فيها الدواب ، وهو على وشك التداعي والانهيار .

وبهذا يتبين أن ما قاله الأستاذ الميمني [1] : « إن هذا الخان بناه سنان باشا » ، بعيد عن الصواب .

وكان الجامع الكبير الذي سبق ذكره يصعد إليه من أية ناحية أتيته بثلاث عشرة درجة في عصر أبي العلاء ، واليوم ينزل إليه من الباب الشمالي بخمس درجات ، ومن الباب الغربي بعشر درجات .

وهذا يدل على تغير المدينة بسبب الحروب والزلازل ، فكان أهل المدينة كلما خربت أو احترقت يبنون البناء الجديد على أنقاض القديم ، حتى ارتفع البناء عن المسجد بعشر درجات فأكثر ، بعد أن كان يصعد إليه بثلاث عشرة درجة ، وقد كشف في أيامنا على مقربة من الجامع من الجهة الشرقية الشمالية عن حمام خربة وحوانيت متهدمة ، سقفها أدنى من أرض المسجد ، وهذا يؤيد ما قاله ناصر خسرو . وما رأينا أحداً أراد أن يحفر أساساً لبناء إلا وقد عثر على آثار أبنية مردومة .

وكانت المعرة تنقسم إلى محلتين كبيرين يقال لإحداهما : المحلة أو الحارة الشمالية ، والثانية القبلية . وكل منها يقسم إلى محلات عديدة تسمى بأسماء مختلفة ، فلما أرادت الحكومة فتح شارع أبي العلاء أنشأت شارعا من شرقي المعرة يمر من أمام دار الحكومة ومن بين الخانين السابق ذكرهما

---

(١) أبو العلاء وما إليه - الميمني ص ١٩ .

ويمتد إلى غربي المدينة حيث يمر جنوبي مقبرة بني الجندي ويمر من شرقيها إلى أربعا فشطرت المدينة شطرين أحدهما شمالي والثاني جنوبي ، وفيه ضريح أبي العلاء . وأخذ الناس يشيدون أبنية على الطراز الحديث على جانبي الشارع . كما أقيم بناء دار الحكومة فيه ، وقد شرعت في هدم مسجد أبي العلاء ومدفنه في ٦ آب سنة ١٩٣٨ م . وبدأت إعادة بنائه في ٧ شوال سنة ١٣٥٨ ﻫ و ١٨ تشرين الثاني سنة ١٩٣٩ م وارصدت له عشرة آلاف ليرة سورية ، وأحدثت طابعاً باسم أبي العلاء وباعته لهذه الغاية . ولم يتم بناؤه إلا بعد مدة . وفي سنة ١٣٦٧ ﻫ هدمت القسم الشمالي منه وبنت فيه غرفاً بجانب الباب اما المسجد القديم الذي كان فيه ضريح أبي العلاء فقد كان يشتمل على ساحة صغيرة وغرفة أمام الباب فيها قبر أبي العلاء وإلى جنوبيها غرفة كانت كُتّاباً يعلم فيه الصبيان . ومن شرقيها ساحة خربة فيها بئر ماء وشجرات من الرمان والتين ، وفي جنوبيها إلى الغرب غرفة كبيرة كان الناس يصلون فيها ، وفيها قبر عليه كتابة بالخط الكوفي لم نستطع أن نقرأ منها غير سورة الإخلاص ، ولا حاجة للإطالة في وصفه بعد ما هدم . ويكفي ان نعلم أن هذا المدفن كان من دور بني سليمان التنوخي أهل أبي العلاء ، أو في ساحة من دورهم . وإذا صح هذا فهو أقدم بناء أبقته الأيام في المعرة ، ولذلك لم يكن هدمه من الحكمة ولا جرى على سنن الرشد ، ولو أبقي وأضيف إليه البناء الجديد لكان ذلك أقرب إلى السداد والعقل وأرضى للتاريخ والعلم .

ترجمة أبي العلاء

اسمه وكنيته ولقبه

سماه أبوه احمد ، وكناه بأبي العلاء منذ ولده ، وقد جرى في ذلك على عادة أهل بلده ، إذ قلما وجدنا نابهاً فيهم في ذلك العهد إلا وله كنية . والظاهر أنهم كانوا يكنون الأولاد منذ الحداثة أو قبل ان يولد لهم كما قال في اللزوم :

من عثرة القوم أن كنوا وليدهُمُ أبا فلان ولم يُنسِل ولا بلغا[1]

ويبدو ان أبا العلاء كني بمقتضى هذه العادة وهو صغير كما سيتضح ذلك من حادثته مع الحلبيين الذين جاءوا ليختبروه ، على أنه صرح بهذا في قوله في الفصول والغايات ص ٢٠٩ ، حيث قال : « كُنيتُ وأنا وليد بالعلاء ، فكأنّ علاءً مات ، وبقيت العلامات . لا أختارُ لِرَجُلٍ صدْقٍ ما وُلِدَ له أن يُدعى أبا فلان . ورب شجرة شاكٍ ثمرها غير عذب ، وليس ظلّها برحب ، اسمها السَّمُرة ، وكنيتها أمُّ غيلانَ » . ويظهر من كلامه أنه كان غير راض بهذا الاسم ولا بتلك الكنية لما يشعران به من المدح والتعظيم ، فقد قال في الأول :

وأحمد سَمّاني كبيري ، وقلَّما فَعلْتُ سوى ما أسْتَحِقُّ به الذمّا[2]

---

(١) اللزوميات هـ س ٢٨٨ .

(٢) اللزوميات هـ س ٢٣٨ .

وقال في الثانية :

دُعيتُ أبا العلاء وذاك مَينٌ ولكنَّ الصَّحيحَ أبو النزول[1]

وهذه شنشنة أبي العلاء في كرهه كل ما يشعر بتكريمه وتعظيمه .

وقد كتب أبو الحسين أحمد بن عثمان النكتي البصري كتاباً إلى أبي العلاء ، وجعل فيه اسمه محمداً ، وكنيته أبا العلى بالقصر في نظمه ونثره [2] ، فتوهم أبو العلاء أن في هذا التغيير والقصر تعمداً يراد منه تحقيره ، فأنكر عليه ذلك ، وانهال عليه بضروب من الاستخفاف ، وأعقبها بشيء من الاعتذار كما سيأتي .

لقبه

لم أر أحدا من المتقدمين ذكر لأبي العلاء لقبا ، كما أني لم أر ذلك كثيراً فيمن كان من العلماء في المعرة في ذلك العهد ، ولعل العناية بالكنى كانت أشد من العناية بالألقاب في ذلك العصر والمصر .

ولما عاد أبو العلاء من بغداد [3] ، وعزم على لزوم منزله ، لقّب نفسه رَهْن المحبِسَين [4] ، للزومه منزله ، وذهاب عينيه ، ثم لمّا أمعن

---

(١) اللزوميات هـ س ٢١٩ .

(٢) اعتذر الأستاذ الميمني عن هذا الرجل بأن صنيعه هذا كان في الشعر . . وهو غير صحيح لأن أبا العلاء صرح في جوابه بقوله : ولو كان تَغيّر اسمي في النظم دون النثر لكان عذره منبسطاً . فقوله هذا وتتمته يدلان دلالة صريحة على أن التغيير والقصر ليسا في النظم وحده . (ج) .

(٣) ابن العديم . (ج) .

(٤) في معاهد التنصيص رهن المحبسين يعني حبس نفسه في منزله وحبس بصره بالعمى ورهن : مرهون . ملزم ثابت دائم والحَبْس والمحبس : الموضع . (ج) .

في البحث عن أسرار الحياة ، وأنفذ أشعة عقله إلى أعماقها ، رأى أنه في ثلاثة سجون لا في محبسين ، وذلك قوله :(١)

أراني في الثلاثة من سُجوني فلا تَسأل عن الخبرِ النَّبيث
لفقْدي ناظري ولزوم بيتي وكونِ النفسِ في الجسدِ الخبيث

وقد كنّي بأبي العلاء جماعة من أهل المعرة ، منهم : أبو العلاء بن عبد الله بن الحسن ، وأبو العلاء بن أبي الندى ، وأبو العلاء أحمد بن أبي اليسر شاكر ، وأبو العلاء الحسن بن الحسين بن محمد بن أحمد بن جعفر ، وأبو العلاء سعد بن حماد .

والظاهر أنهم كنّوا أولادهم بهذه الكنية ، تيمناً بأن يكونوا مثل أبي العلاء هذا ، والأخير روى (ملقى السبيل) عن أبي العلاء .

نسبه من قبل أبيه

هو أحمد بن عبد الله بن سليمان [الثالث] بن محمد بن سليمان [الثاني] ابن أحمد بن سليمان [الأول] بن داود بن المطهر بن زياد بن ربيعة بن الحرث بن ربيعة بن أنور بن أسحم بن أرقم بن النعمان ـ وهو ساطع الجمال ـ بن عدي بن غطفان بن عمرو بن بَرِيح بن جذيمة بن تيم الله ابن أسد بن وَبَرَة بن تغلب بن حُلوان بن حِمْيَر بن سَبَأ بن يَشْجُب ابن يَعْرُب بن قَحْطان ، وهو مجتمع قبائل اليمن .

وقد اختلفت كلمة العلماء في هذا النسب على وجوه كثيرة ، فمنهم من جعل سليمان واحداً ، ومنهم من جعل أرقم ابن أنور بن أسحم ، ومنهم من جعل خزيمة بدلاً من جذيمة ، ومنهم من جعل مالك ابن مرة ،

(١) اللزوميات هـ ، ص ٧٢ . يقال نبث التراب : أي استخرجه من بئر أو نهر فهو نبيث . وخبيث نبيث : ينبث شره أي يستخرجه (ج) .

ومنهم . . ومنهم . . . وقد آثرنا رواية صاحب الوفيات[1] ، لأنها موافقة لرواية ابن العديم[2] إلا في جمل أسحم ابن أرقم . وهما أكثر من كل من كتب في هذا الموضوع تحرياً وتثبتاً ، وروايتهما موافقة لرواية السمعاني والعيني في الأكثر .

وكذلك اختلفت كلمتهم في تَنُوخ ، فقيل : إنها مشتقة من تَنَخ في المكان تنوخا أي أقام ، وقيل : إن تنوخ قبيلة . وقيل قبائل . وإنما سمّوا بذلك ، لأنهم اجتمعوا وتحالفوا على التناصر وأقاموا في مكان ، والتَّنوخ : الإقامة .

واختلف في هذه القبائل ، فقيل : إنهم ثلاثة أبطن من القحطانية نزار والأحلاف ، وقيل غير ذلك .

واختلف في المكان ، فقيل : في الشام ، وقيل في البحرين ، وقيل في الحيرة .

واختلف في قضاعة ، فقيل : إنها من معد بن عدنان ، وقيل من قحطان . وجعل بعضهم قحطان من ولد إسماعيل .

وتحصيل الحقيقة من بين هذه الأقوال المتضاربة أصعب من عقد الشَّعَيْرة ، ولسنا في حاجة إلى الإطالة في تحقيقها ، وحسبنا الآن أن نعلم أن قبائل من قضاعة تنخوا على مالك بن زهير بن عمرو بن فهم بن تيم الله ، ونزلوا معه الحيرة ، فاختطوها وعمروها ، وكانوا أولي قوة وبأس ، فغزاهم سابور الأكبر ، حتى ضعفوا عن مقاومته ، فسار معظمهم إلى الضيزن بن معاوية ، وهو صاحب الحضر ، والحضر حصن عظيم بين دجلة والفرات ، والضيزن من الذين تنخوا بالسواد . وقد قتله سابور واستباح الحضر ،

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ١٨٢ عن الوفيات ـ لابن خلكان .

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٤٨٦ عن الانصاف والتحري ـ لابن العديم .

وقتل كثيراً من قضاعة ، ثم إن تنوخ ملكوا ما جاورهم من البـلاد ، واشتدت شوكتهم ، فملكوا عليهم الساطع وهو النعمان بن عدي ، وإنما سمي ساطعاً لجماله وبهائه ، فملك عليهم برهة ، وكانت له حروب مع الفرس .

ولما هلك الساطع تفرقت كلمة تنوخ وتنازعوا الرياسة من بعده . ثم إن ملك الفرس غزا الروم فقتل وسبى منهم كثيراً ، فاستنجد ملك الروم تنوخَ على الفرس ، لأنهم أقرب القبائل اليه ، فأنجدوه وقاتلوا معـه قتالاً شديداً ، ثم سألوه أن يتركوا حرب الفرس منفردين ، فأجابهم إلى ذلك ، فقاتلوا الفرس وظفروا بهم ، فأعجب بهم ملك الروم ، وفرق فيهم الدنانير والثياب ، وقربهم وأقطعهم سورية وما جاورها من البلاد إلى الجزيرة ، وسورية مدينة بقرب الأحَصّ (١) على جانب البرّية ، وإليها ينسب اللسان السورياني .

ونزل جماعة منهم المعرة ؛ فلما جاء الإسلام ، نزلوا قنسرين ومنبج وسورية وحماة ومعرة النعمان وكفرطاب وغيرها ، وتغلبوا عليها ، وامتنعوا عن أداء ما يقع عليه اسم الجزية ، وقبل عمر بن الخطاب أن يأخذها على اسم الخراج ، ثم أسلم بعضهم بعد بعض وأقاموا بديارهم ، وكان منهم أجداد أبي العلاء ، وأجداد بني النصيص ولاة قنسرين . وبيوت المعرة منهم ، وهم يرجعون الى أسحم وعدي وغنم أولاد الساطع . فبنو سليمان جد أبي العلاء ، وبنو أبي حصين ، وبنو عمرو ، ينسبون إلى أسحم . وبنو المهذب ، وبنو زريق ، ينسبون إلى عدي . وبنو حوارى ، وبنو جهير ينسبون إلى غنم .

مزايا تنوخ

قد اتضح مما سبق أمرهم في الجاهلية وفي صدر الاسلام ، وقد قال

---

(١) الأحصّ وشبيب : موضعان بحلب (عن القاموس) .

ابن العديم (١) : تنوخ من أكثر العرب مناقب وحسباً ، ومن أعظمها مفاخر وأدبا ، وفيهم الخطباء والفصحاء والبلغاء والشعراء ... وبنو الساطع هم المشهورون بالشرف والسؤدد والرياسة والشجاعة والجود والفضل . . . وأكثر قضاة المعرة وفضلائها وعلمائها وشعرائها وأدبائها من بني سليمان بن داود بن المطهر . وقد ظلت الفتيا فيهم نحو مائتي سنة ، وكانوا على مذهب الإمام أبي حنيفة ، كما قال ابن العديم في ترجمة سالم بن عبد الجبار (٢) وقد ذكرناها في (تاريخ المعرة) .

وقد ولي قضاء المعرة وحمص جماعة منهم . منهم : أبو الحسن سليمان (٣) [الثاني] بن أحمد بن سليمان بن داود بن المطهر ، وهو أول من تولى منهم قضاء المعرة ، وليه سنة ٢٩٠ هـ إلى أن مات ، فوليه بعده ابنه أبو بكر محمد بن سليمان بن أحمد بن سليمان . وقيل هذا الذي تولى سنة ٢٩٠ هـ وتوفي سنة ٣٣١ هـ ومدحه أبو بكر الصنوبري (٤) بأبيات منها قوله :

بأبي يا بن سليمـــا ... نَ لقد سُدْتَ تَنوخا

وهم السـادةُ شُبّا ... ناً لعمري وشُيوخا

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٤٨٩ عن الانصاف والتحري ـ لابن العديم .

(٢) بغية الطلب ـ لابن العديم ٩/١٩٠ وجه المخطوطة .

(٣) جعل ياقوت في (معجم الأدباء) عبد الله أبا أبي العلاء ابن سليمان بن داود .
وجعل مرة ثانية سليمان بن أحمد بن سليمان جد أبي العلاء .
وجعل أبا بكر محمد بن سليمان عم أبي العلاء .
وتبعه في ذلك صاحب (ذكرى أبي العلاء) وهو خطأ ، والصواب أن سليمان بن داود جد سليمان الثاني بن أحمد ، وسليمان الثاني جد سليمان الثالث بن محمد وهذا هو جد أبي العلاء .
وأن أبا بكر محمد بن سليمان جد عبد الله والد أبي العلاء (ج) .

(٤) هو أحمد بن محمد الحلبي الصنوبري ، شاعر رقيق الشعر ، توفي سنة ٣٣٤ هـ ، وقد ذكر في (فوات الوفيات) طائفة من شعره (ج) .

أدْرَكَ البُغْيةَ مَن أضـــحى بناديكَ مُنيخـا

ثم وليه أبو الحسن سليمان بن محمد بن سليمان ، بعد موت أبيه أبي بكر ، ثم ولي بعد ذلك قضاء حمص وتوفي فيها ، وهو على قضائها سنة ٣٧٧ هـ ، ودفن ظاهر باب الرستن ، وقد كانت ولادته سنة ٣٠٥ هـ .

ومنهم أبو محمد عبد الله بن سليمان بن محمد .. والد أبي العلاء ، ولد في المعرة سنة ٣٢٠ هـ ، وولي قضاء حمص ، وتوفي فيها سنة ٣٧٧ هـ ، على قول ياقوت[١] ، و سنة ٣٩٥ هـ على قول ابن العديم[٢] في المعرة .

ومنهم عبد الله بن محمد أخي أبي العلاء ، ولي قضاء المعرة سنة ٤٤٣ هـ على كره من عمه أبي العلاء ، ووليه بعده ابنه ابو مسلم وادع ، ثم أخو وادع محمد الملقب بمجد القضاة .

ومنهم علي بن محمد أخي أبي العلاء ، ولي قضاء المعرة وحماة .

هؤلاء كلهم من بني سليمان الأول جد أبي العلاء ، ولهم أولاد وأعقاب تولوا القضاء بعد عصر أبي العلاء .

وولي القضاء منهم ومن أبناء عمهم جماعة منهم : القاضي أبو يعلى عبد الباقي بن أبي حصين ، ولي قضاء المعرة وهو ابن خمس وعشرين سنة ، وكان عالما شاعرا . وأبو المحاسن المفضل بن محمد بن مسعر المتوفى سنة ٤٤٣ هـ . وأبو غانم ، عبد الرزاق بن أبي حصين ولد سنة ٤١٨ هـ ، وتوفي سنة ٤٩١ هـ أو أكثر ، وكان شاعرا مجيدا .

وأبو حمزة الحسن بن عبد الله بن محمد بن عمرو بن سعيد بن محمد ابن داود بن المطهر المتوفى قبل الأربعمائة ، وهو الذي رثاه أبو العلاء بقصيدته الدالية .

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٦٩ عن إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب — لياقوت .
(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ١٩٣ عن الانصاف والتحري — لابن العديم .

وأبو سعيد الحسن بن إسحاق بن بلبل .

وأبو محمد عبد الله بن أخي أبي العلاء ، الذي كان يتعهد عمه .

وأمثالهم وهم كثيرون ، منهم من ولي القضاء في معرة النعمان . وفي معرة مصرين ، وحماة ، وحمص ، وبعلبك ، ودمياط ، وغيرها . وقد اقتصرنا على هذا القدر خشية الإطالة . واستوفينا ذكر من وقفنا عليه منهم في (تاريخ المعرة) .

ومنهم من تولى غير القضاء ، كأبي القاسم علي بن الحسن بن جَلَبات التنوخي ، فإن عضد الدولة بن بويه استعمله على بغداد وورد أمورها إليه ، ومنهم . ومنهم . .

وأما الشعراء منهم ، فأكثر من أن يحصوا ، واظن أن الثمانين شاعراً الذين وقفوا على قبر أبي العلاء ورثوه كلهم تنوخيون . وقد جاء من أعقابهم وأبنائهم عدد كبير من العلماء والشعراء والكتاب والقراء إلى ما بعد القرن الثامن .

نسبه من قبل أمه

لم نقف على تفصيل لأسرة أمه في كلام المتقدمين ، إلا ما قاله ابن العديم[1] : وهو أن أمه بنت محمد بن سبيكة ، وأظن أن اباها من أهل حلب ، وخاله علي بن محمد بن سبيكة الذي يقول فيه [من قصيدة في سقط الزند] :

أرانا يا علي وإن أقمنا نشاطرك الصبابة والسُّهادا [2]

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥١١ عن الانصاف والتحري ـ لابن العديم .

(٢) شروح سقط الزند ، ق ٢ ص ٧٧١ .

ويقول أيضا :

كأن بني سَبيكَةَ فوقَ طيرٍ   يَجُوبون الغَوَائرَ والنِّجادا [١]

وأما المتأخرون فقد استنتجوا من كلام المعري نتائج غريبة منهم صاحب (ذكرى أبي العلاء) ، قال [٢] : إن شعر المعري ونثره يمثلان من هذه الأسرة ثلاث خصال ، الأولى : كثرة الرحلة . واستدل على ذلك بما في بعض رسائله ، وبما في قصيدته التي بعث بها إلى أحد أخواله ، وقد عاد من سفره إلى المغرب . الثانية : الكرم والحرص على صلة الرحم . وقد استنتج ذلك من رثاء أبي العلاء لأمه ، ومن شكره لخاله . غير مرة على معونته إياه ، وذهب إلى أبعد من ذلك فجعل سفره إلى بغداد ومقامه بها ورجوعه منها من نوافل خاله . الثالثة : حب العلم والنبوغ فيه . واستظهر ذلك من المكاتبة التي اتصلت بين المعري وبين خاله أبي طاهر في بغداد ، ومن لفظ الرسائل التي كتبها إلى أخواله . واستنتج من هذه الرسائل ، أن أبا العلاء يرى لهم التفوق وإتقان العلم ، وأنهم أصحاب ثروة ويسار ، وزاد على هذا كله قوله : ولا بد لنا من أن نلاحظ أن رسائل أبي العلاء ولزومياته وديوانه المعروف بسقط الزند ، تخلو كلها من ذكر أسرته لأبيه ، إلا ما كان من رثاء والده ، بينما تستغرق أسرته لأمه ، من ديوانه ورسائله ، مقداراً غير يسير ، فلا شك في أن أيادي أمه وأخواله كانت متظاهرة عليه ، وأن معونة أسرته لأبيه كانت منقطعة عنه لفقر أو جفاء . اهـ .

وجرى قريبا من هذا الأستاذالميني في (أبي العلاء وما إليه) [٣] .

---

(١) شروح سقط الزند ، ق ٢ ص ٧٨٢ .

(٢) ذكرى أبي العلاء ـ لطه حسين ـ ط ٢ ، ص ١٣٢ .

(٣) انظر أبو العلاء وما إليه ـ للميمني ـ ص ٣٧ .

والحق أن مثل ذلك لا يصح استنتاجه من قول المعري في خاله :(١)

كأن بني سبيكةَ فوق طيرٍ يجوبون الغَوَائرَ والنِّجَادا
أبالإسكندرِ الملكِ اقْتَدَيْتُم فما تضعون في بلدٍ وِسادا

حتى يعضده مستند تاريخي ولم نره . لأن هذه القصيدة طافحة بالغلو والمبالغة مثل قوله : (٢)

إذا سارَتْكَ شُهْبُ الليل قالت أعان اللهُ أبعَدَنا مُرادا
وانْ جَارَتْكَ هُوجُ الريح كانت أكَلَّ ركائبـاً وأقلَّ زادا

وقوله (٣) :

ويبكي رقّةً لكَ كلُّ نَوْء فتملأ مِنْ مدامِعه المزادا

ويجوز أن يكون خاله علي سافر مرة إلى مصر ، وأخرى إلى المغرب ، ولم يسافر إلى غيرهما ، فأراد أبو العلاء أن يبالغ ، جريا على أسلوبه في هذه القصيدة ، فأوهم كثرة الرحل ، كما يجوز ان يكون هذا خاصا بخاله علي دون غيره ، ولا يميط اللثام عن وجه الحقيقة إلا النص التاريخي ، وهـذا لم نعثر عليه ، ولذلك لا يصح أن تكون كثرة الرحل خصلة عامة في الأسرة كلها .

وأما الاستدلال بشكر أبي العلاء لخاله على معونته إياه ، وأن سفره إلى بغداد إلى رجوعه من نوافل خاله فأمر غريب ، وأغرب منه قوله(٤) : إن رسائل المعري وديوانيه خالية من ذكر أسرته لأبيه . واستنتاجه من

(١) شروح سقط الزند ، ق ٢ ص ٧٨٣ .
(٢) شروح سقط الزند ، ق ٢ ص ٧٧٣ . وسارتك : أى تكلفت معارضتك في سرى الليل ، وهي صيغة المفاعلة من السُّرى .
(٣) شروح سقط الزند ، ق ٢ ص ٧٧٦ .
(٤) انظر صفحة ٥٧ الحاشية ٢ .

ذلك أن أيادي أخواله كانت متتابعة عليه ، بخلاف أسرة أبيه فإنها كانت منقطعة . .

وإذا تأملت ، وجدت هذا كله غير صحيح لأسباب كثيرة :

منها : أن رسائل المعري وشعره لم يصلا إلينا وافرين كليهما ، وما وصل منها ، فالذي يتعلق بأسرة أبيه أكثر مما يتعلق بأسرة أمه ، لاننا لا نجد في شعره إلا قصيدته الدالية التي أرسلها إلى خاله علي ، في حين أن في شعره قصيدة رثى بها جعفر بن علي بن المهذب التنوخي . مطلعها :(١)

أَحسَنُ بالواجدِ مِنْ وَجْدِهِ صَبْرٌ يُعيدُ النارَ في زَنْدِهِ

وأخرى رثى بها أبا حمزة الحسن بن عبد الله التنوخي أحد بني عمه مطلعها : (٢)

غيرُ مُجْدٍ في مِلَّتي واعتقادي نَوْحُ باكٍ ولا تَرَنُّمُ شادِ

وهاتان القصيدتان من أفضل ما قيل في الرثاء ، ورثى أباه بقصيدة مطلعها : (٣)

نقَمْتُ الرِّضى حتى على ضاحِكِ المُزْنِ فلا جادَني إلا عَبوسٌ من الدَّجْنِ

وله قصيدة مدح بها أبا الرضي النصيبي التنوخي مطلعها : (٤)

يا ساهِرَ البرْقِ أيقظ راقدَ السَّمُرِ لَعَلَّ بالجزْعِ أعواناً على السَّهَرِ

ومدح أبا القاسم علي بن الحسن بن جَلَبات التنوخي بقصيدة مطلعها : (٥)

يَرومُكَ والجوزاءُ دونَ مَرامِهِ عدوٌّ يَعيبُ البدرَ عندَ تمامِهِ

---

(١) شروح سقط الزند ، ق ٣ ص ١٠٠٦ .
(٢) شروح سقط الزند ، ق ٣ ص ٩٧١ .
(٣) شروح سقط الزند ، ق ٢ ص ٩٠٧ .
(٤) شروح سقط الزند ، ق ١ ص ١١٤ .
(٥) شروح سقط الزند ، ق ٢ ص ٤٧٣ .

وبأخرى مطلعها :[١]

أيَدْفع معجزاتِ الرُّسْلِ قومٌ وفيك وفي بَديهتكَ اعتبار

ومدح المفضّل بن سعيد بن عمرو التنوخي فيما قيل - وكان قد مدح أبا العلاء - بقصيدة أجابه فيها مطلعها : [٢]

يا للمُفَضَّل تكسوني مدائحُه وقدخلعتُ لِباسَ المنظرِ الانِق

ومدح أبا القاسم التنوخي بقصيدة هناه فيها بمولود مطلعها : [٣]

متى نزلَ السِّماكَ فحلَّ مَهْدا تُغذِّيهِ بِدِرَّتهـــا الثَّدِيُّ

وبأخرى مطلعها : [٤]

هاتِ الحديثَ عن الزَّوْراءِ أوْهِيتا ومُوقِـدِ النَّارِ لا تَكْرَى بِتَكْرِيتا

وبثالثة مطلعها : [٥]

لولا مَساعيكَ لم نَعدُدْ مساعِينَا ولم نُسامِ بأحكام العُلا مُضَرا

ومدح ابن أخيه عبد الله بن محمد ، وهو الذي كان يخدمه ، بأبيات يقول فيها : [٦]

وقاضٍ لا ينامُ الليلَ عنّي وطولَ نهـارِهِ بَيْنَ الخُصُوم

---

(١) شروح سقط الزند ، ق ٢ ص ٨١٠ .

(٢) شروح سقط الزند ، ق ٢ ص ٦٧٣ ، وفيها قبل هذا البيت :

ارْفُد هنيئاً فإني دائم الأرق ولا تشفني وغيري سالياً فنق

وفي الشروح أيضاً : « يكسوني مدائحه » .

(٣) شروح سقط الزند ، ق ٣ ص ١٣٢١ .

(٤) شروح سقط الزند ، ق ٤ ص ١٥٩٣ .

(٥) شروح سقط الزند ، ق ٤ ص ١٧٣٦ .

(٦) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ١٩٧ عن الانصاف والتحري - لابن العديم .

وبأبيات أخرى يقول فيها : (١)

أَعَبْدَ اللهِ ما أَسدَى جَميلاً   نَظيرَ جَميلِ فِعْلِكَ غَيرُ أُمٍّ

ولو استقرينا كلامه لوجدنا فيه غير ما ذكرنا ، ومن هذا يتضح لنا ان أبا العلاء مدح في شعره أسرة أبيه أكثر من أسرة أمه ، وإن كان يريد ذكر اسم الأسرة ، فإنه قد ذكر تنوخ في شعره كثيرا كقوله في السقط :(٢)

إِلى التنوخيِّ واسأله أُخوَّته   فقبلَه بالكرام الغُرِّ أُوخِيتا

وقوله فيه : (٣)

وَحمَلَكَ الشعرَ من أشعار طائفة   وحشيّةٍ من تنوخٍ تُنْكِرُ الجُدُرا

وقوله في اللزوم : (٤)

فَشِعاري قاطِعٌ ، وكَانَ شعاراً   لتنوخٍ في سالف الدهر ، واصلْ

وقوله في غيره : (٥)

فقالَ : أُريدُ عندكمُ تنوخاً   فقلتُ : أصبتَ إِنَّا من تنوخ

وإيراد كل ما ذكره من هذا النوع يخرجنا عن الغرض المقصود ، وبهذا القدر يتضح أن أبا العلاء ذكر أسرة أمه في موطن واحد من شعره وأسرة أبيه في مواطن كثيرة ، أما كتاب التعزية إلى خاله أبي القاسم بأمه وبخاله فهذا أمر طبيعي ، لأن الميت أخته وأخوه فحكمه حكم الغرباء الذين عزاهم أو رثاهم .

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ١٩٦ عن الإنصاف والتحري ـ لابن العديم .
(٢) شروح سقط الزند ق ٤ ص ١٦٣٠ .
(٣) شروح سقط الزند ، ق ٤ ص ١٧٣٨ وفيها : « وحملك الجزء » . أما في التنوير فكما ورد في المتن .
(٤) اللزوميات هـ ص ٢٢٦ .
(٥) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ١٢ عن الأنساب ـ للسمعاني ، وفيه : « إني من تنوخ » .

وسيأتي ما يدل على أن أبا العلاء لم يكن مغمورا بنوافل أخواله ولا غيرهم ، وأن معونة خاله في استنساخ الكتاب وفي سفر بغداد كانت من قبيل التوصية به لمساعدته في حله وترحاله ، ولم تكن نفقته من غير ماله ، ولكنه كان يعظم الصنيعة ويكثر الشكر على كل شيء ، وهذا لا يمنع أن يكون خاله أهدى اليه شيئا فقبله أو أعانه بشيء في رحلته ، ولكن الذي نستبعده هو أن يكون عاش في ظلالهم ورحل بأموالهم . على أنه يقول في كتابه المتعلق بشرح السيرافي (١) : وإنما رجوت بيوكنه أن يتفق أناس كما قال الله تعالى : « وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين » . وهذا يشعر بأنه هو الذي يريد دفع ثمن الكتاب ولذلك تمنى أن يكون بخسا ، ولو كان طلبه من أبي طاهر مجانا لما تصدى لمثل ذلك .

وقد ذكر المتأخرون أن له أخوالاً ثلاثة : الأول ، أبو القاسم علي وهو الذي أرسل إليه القصيدة الدالية وفيها يقول :(٢)

أَرَانا يا عليُّ وإن أَقَمْنا   نُشاطِرُكَ الصَّبابَةَ وَالسُّهادا

وأرسل إليه رسالة عند طلوعه من العراق (٣) ، وفيها يذكر موت أمه ويصف بعض ما لقيه في بغداد وطريقها ، ويعتذر عن عدم مروره بحلب في الذهاب والإياب .

ورسالة أخرى يعزيه فيها بأخيه أبي بكر .

الثاني : أبو بكر ، وهـذا لم نعثر له على خبر ولكن يظهر من الرسالة التي كتبها إلى خاله أبي القاسم يعزيه فيها به أنه كان يكنى بأبي بكر وأنه توفي في دمشق وأن له ولدا كهلا ولولده أبناء .

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٩٣ عن إرشاد الأريب ـ لياقوت .

(٢) شروح سقط الزند ، ق ٢ ص ٧٧١ .

(٣) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٨٣ عن إرشاد الأريب ـ لياقوت .

الثالث : أبو طاهر ، ولم أر أحدا من المتقدمين ذكر أن له خالا يكنى بأبي طاهر ، ولكن المتأخرين استنتجوا ذلك من رسائله .

وأبو العلاء أرسل إلى أبي طاهر [1] هذا كتابا وهو ببغداد ، يبحث فيه عن كتاب يقال إنه شرح السيرافي لكتاب سيبويه ، وليس في هذا الكتاب ما يدل على أنه خاله ، ولكن جاء في عنوان الكتاب . كتب إلى ابي طاهر الشرف بن سبيكة . . وذكره في رسالته إلى خاله أبي القاسم التي كتبها اليه حين طلوعه من العراق ، وفيها يقول [2] : وأما سيدي أبو طاهر فقد حملني من الأنعام أوْقا . . وما ورث بري عن كلالة . . انما تقيل أباه . . ومن أشبه أباه فما ظلم . ويقول في آخرها : وأن أحمل إلى مولاي ، ادام الله عزه ، وإلى مولاي أبي طاهر عضدني الله ببقائه سلاما . . .

وذكره في رسالته التي عزى فيها خاله بقوله . والله يبقيه ولا يشقيه . . . ويريه في مولاي أبي طاهر وولده ما رآه في ولده سعدُ العشيرة . . وهو أدام الله عزه شجرة لا تثمر إلا طيبا . ومن أشبه أباه فما ظلم . . .

وهذا يدل على أن أبا طاهر ابنُ أبي القاسم لا أخوه ، لأن كلمة ومن أشبه أباه فما ظلم ، إنما تقال في مشابهة الولد أباه ، لا في مشابهة الأخ أخاه . وسعد العشيرة إنما سمي كذلك لكثرة ولده وولد ولده ، لا لكثرة أولاد أخيه .

★★★

(١) انظر الحاشية (١) من صفحة (٦٢) .
(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٨٨ عن إرشاد الأريب ـ لياقوت
والأوق بالفتح : الثقل .

ميلاد أبي العلاء

اتفق جمهور من المؤرخين على أن أبا العلاء ولد في المعرة عند غروب الشمس من يوم الجمعة لثلاث بقين من شهر ربيع الأول سنة ٣٦٣ ﻫ، وقد نقل ذلك أبو الخطاب العلاء بن حزم عن أبي العلاء نفسه ، وذكره أبو غالب همام بن الفضل بن جعفر بن المهذب المعري التنوخي ، وذكره كذلك أصحاب (نزهة الألباء)[١] و (الوفيات) [٢] و (نكت الهميان) [٣] و (مسالك التنصيص)[٤] و (ابن الوردي)[٥] و (الشذرات) [٦] و (معجم الأدباء) [٧] و (دول الاسلام) و (الكامل) [٨] لابن الأثير و (بغية الوعاة) [٩] و (لسان الميزان) [١٠] و (النجوم الزاهرة) [١١] و (مرآة الزمان) [١٢] و (البداية والنهاية) [١٣] وغيرهم .

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ١٧ عن نزهة الألباء ـ لابن الأنباري .
(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ١٨٣ عن وفيات الأعيان ـ لابن خلكان .
(٣) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٢٩٥ عن نكت الهميان ـ للصفدي .
(٤) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٣٣٥ عن معاهد التنصيص ـ لأبي الفتح العباسي .
(٥) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٢٠٧ عن تتمة المختصر ـ لابن الوردي .
(٦) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٣٤٧ عن شذرات الذهب ـ لابن العماد .
(٧) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٦٧ عن معجم الأدباء ـ لياقوت .
(٨) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ١٤٢ عن الكامل ـ لابن الأثير .
(٩) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٣٣٢ عن بغية الوعاة ـ للسيوطي .
(١٠) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٣١١ عن لسان الميزان ـ لابن حجر .
(١١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٣٣٠ عن النجوم الزاهرة ـ لابن تغري بردي .
(١٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ١٤٣ عن مرآة الزمان ـ لسبط ابن الجوزي .
(١٣) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٣٠١ عن البداية والنهاية ـ لابن كثير .

وقال فريق : إنه ولد لثلاثة أيام مضت من شهر ربيع الأول ، وقيل : سنة ست وستين . ونقل أبو الفداء القولين ، وقال ابن العديم :[١] الصحيح الأول أي سنة ٣٦٣ هـ وهو الذي اعتمده الجمهور .

عماه

حياة أبي العلاء كلها مصائب ، وأول فاجعة منها ذهاب بصره بسبب الجدري .

وقد اختلفت الكلمة في زمن عماه ، فقيل : إنه ولد أعمى[٢] ، وقيل : عمي وهو ابن ثلاث سنين[٣] ، وقيل : ابن أربع ، وقيل : ابن أربع وشهر[٤] ، وقيل ابن سبع[٥] ، وقال الخطيب البغدادي :[٦] إنه عمي في صباه ، وقيل : عمي وهو ابن سبعين عاماً[٧] .

وأصح الأقوال أنه أصيب بالجدري وذهب بصره وهو ابن أربع سنين ، وقد قال أبو العلاء نفسه في رسالته إلى داعي الدعاة[٨] : وقد علم الله أن سمعي ثقيل ، وبصري عن الأبصار كليل[٩] ، قضي علي وأنا ابن

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥١١ عن الانصاف والتحري ـ لابن العديم .
(٢) نقل ذلك أبو الفداء ج ٢ ص ١٧٦ والشذرات (ج) .
(٣) أبو الفداء ، وقال : إنه الصحيح (ج) .
(٤) ابن العديم (ج) .
(٥) البداية والنهاية ـ لابن كثير (ج) .
(٦) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٧ عن تاريخ مدينة السلام ـ للخطيب البغدادي .
(٧) نقله اليمني عن صاحب آثار العجم (ج) .
(٨) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ١٢١ عن إرشاد الأريب ـ لياقوت .
(٩) في ارشاد الأريب « قليل » ، والقليل : الغريب .

اربع ، لا أفرق بين البازل[١] والرُبَع[٢] . وأبو العلاء أصدق الناس فيما يحدث به عن نفسه ، على أنه يجوز أن يكون قد تسامح ببعض الأيام التي تزيد على الأربع او تنقص عنها .

أثر الجدري في وجهه

كان من آثار هذه النكبة التي ابتلي بها أبو العلاء في فاتحة حياته ، أنه غشي عينه اليمنى بياض فندرت ، وذهبت اليسرى جملة فغارت ، وظهر في أديم وجهه أثر الجدري . وقد نقل ابن العديم عن ابن منقذ أنه رأى أبا العلاء وهو صبي دون البلوغ ، وأنه وصفه فقال[٣] : وهو صبي دميم الخلقة مجدور الوجه ، على عينيه بياض من أثر الجدري كأنه ينظر بإحدى عينيه قليلا ، وظل موسوماً بهذه السمة الى آخر حياته .

فقد نقل المؤرخون عن أبي محمد عبد الله بن الوليد بن عريب الأيادي المعري أنه دخل على أبي العلاء يزوره ، وهو شيخ فان ، فرأى إحدى عينيه نادرة والأخرى غائرة جداً ، وهو مجدر الوجه نحيف الجسم .

أثر الجدري والعمى في نفسه

سيأتي عن أبي الحسن الدلفي المصيصي الشاعر أنه سمع أبا العلاء يقول[٤] : أنا احمد الله على العمى كما يحمده غيري على البصر ، فقد صنع لي وأحسن

---

(١) البازل من الابل : ما كان في تاسع سنيه .

(٢) الربع من ذوات الخف : ما بلغ السابعة من سنه

(٣) تعريف القدماء بأبي العلاء ص٥١٤ عن الإنصاف والتحري — لابن العديم

(٤) تعريف القدماء بابي العلاء ص ٥٥٨ عن الانصاف والتحري — لابن العديم .

بي إذ كفاني رؤية الثقلاء والبغضاء .... ونسبوا إليه هذين البيتين : [١]

قالوا العمى منظر قبيح   قلت بفقدانكم يهون
والله ما في الوجود شيء   تأسى على فقده العيون

وقد نسبها الشريشي إلى بشار . و (الوطواط) لأبي العيناء [٢] .

وقال في لزوم مالا يلزم :

ذهابُ عينيَّ صانَ الجسمَ آونةً   عن التطوّح في البيدِ الأماليس
وأنْ أبيتَ سميرَ الكُدْرِ في بلدٍ   تُطوى فلاه بتهجير وتغليس [٣]

وحمدُ الله على العمى ليس عن سرور واغتباط به ، وإنما هو من تلقي القضاء بالرضى والاستسلام إلى مالا يستطاع دفعه ، وكم من مكروب يحمد الله على ما أصابه ، وليس معنى هذا أنه راض به ، مبتهج بحصوله ، وإنما هو نفثة مصدور ، لا يشذ صاحبها عن طريق الدين والأدب مع ربه .

ومن تتبع شعر أبي العلاء الذي يعرض فيه لذكر الجدري والعمى يجده مضموراً بالألم الشديد والحزن العميق طافحاً بالحسرات والزفرات . وهذا يدل على أن لهما في نفسه أشد وقع وامضَّ أثر ، فانظر إلى قوله في ذم الخمر :

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٣٥٣ عن نزهة الجليس ـ لابن مكي ، وص ٤٠٧ عن الغيث المسجم ـ للصفدي ، وص ٤٠٨ عن نكت الهميان ـ للصفدي .

(٢) وفي روايته تغيير فراجع فيه ص ١٦١ (ج) .

(٣) اللزوميات هـ ص ٣٠٠ ، وفيها : « عن التطرح » بالراء .
والأماليس : التي لاتنبت شيئاً .

أَضَرُّ من جُدَرِيٍّ شانَ حامِلَه ... بحمله جَدَرِيٌّ جاء من جَدَرِ [١]

وقوله :

الحظ لي ولأهل الأرض كلهم ... أن لا يراني أخرى الدهر أصحابي

وشقوةٍ غشيَتْ وجهي بنَضْرته ... أبرُّ بي من نعيم جَرَّ إِشْحابي [٢]

وقوله :

غدا رَمَضاني ليس عني بمنقضٍ ... وكلُّ زماني لَيْلَتي آخرَ الشهرِ [٣]

وقوله المتقدم :

أراني في الثلاثة من سجوني

وقوله :

عمى العين يتلوه عمى الدين والهدى ... فليلتِيَ القُصوى ثلاثُ ليال [٤]

وقوله :

مالي غدوتُ كقاف رُؤْبَةَ قُيِّدت ... في الدهر لم يُقْدَر لها إِجراؤها

أُعلِلْتُ عِلَّةَ قال وهي قديمةٌ ... أعيا الأطبةَ كلَّهم إِبراؤها [٥]

---

(١) جدر : قرية بين حمص وسلمية تجلب منها الخمر . (ج)، والبيت في اللزوميات ﻫ ص ١٤٩.

(٢) هكذا في الديوان ، وزعم اليمني أنه تصحيف ، والصواب : أشجاني . وهو خطأ لأن البيت من أبيات خمسة التزم فيها الحاء قبل الألف ورويها الباء (ج) . والبيتان في اللزوميات ﻫ ص ٤٩ .

(٣) اللزوميات ﻫ ص ١٤٦ وفيها على رواية : « ليلتا آخر الشهر » .

(٤) اللزوميات ﻫ ص ٢١٢ وفيها « فليلتي القصرى » بالراء .

(٥) اللزوميات ﻫ ص ٢٣ .

وقوله :

ومابي طِرْقٌ للمَسير ولا السُّرى   لأني ضريرٌ لا تضيء لي الطُرْق (١)

وقوله :

وأوْقَدْتِ لي نارَ الظلام فلم أجِدْ   سَناكِ بطرفي بل سِنا نَكِ في ضِبني (٢)

وقوله :

اذا كُفَّ صِلٌّ أفعوانٌ فما له   سِوى بيتِه يقتاتُ ما عَمِرَ التُربا

ولو ذهبت عينا هِزَبْرٍ مساور   لما راع ضأناً في المراتع أو سِربا

أو التمعت أنوار عَمْرو وعامرٍ   لما حملا رُمحا ولا شهدا حربا (٣)

وقوله :

وكيف أُرَجّى من زماني زيادة   وقد حَذَفَ الأصليَّ حذفَ الزوائدِ (٤)

وقوله في السقط :

فليتَ الليالي سامحتني بناظر   يراكِ ومن لي بالضُحى في الأصائل (٥)

وقوله في السقط :

ويا أسيرةَ حِجْلَيْها أرى سَفَها   حَمْلَ الحُلِيِّ لمن أعيا عن النظرِ (٦)

---

(١) اللزوميات هـ ص ٢٩٨ . والطرق : الشحم والقوة والسمن .
(٢) اللزوميات هـ ص ٢٧١ .
(٣) اللزوميات هـ ص ٣٨ .
(٤) اللزوميات هـ ص ١٠٥ وفيها : « من زمان » .
(٥) شروح سقط الزند ، ق ٣ ص ١٠٨٤ .
(٦) شروح سقط الزند ، ق ١ ص ١١٦ وفيها : « بمن أعيا » .

إلى غير ذلك من الأبيات الكثيرة ، ولا تكاد تجد بيتاً يذكر فيه الجدري أو العمى إلا وهو يفيض بالحزن والألم ، وترى آثار التبرم والتلهف تترقرق في أضعاف كلماته .

والظاهر أن بين هذا المرض [الجدري] وبين المعرة صداقة أو قرابة ، فهو يعتادها حيناً بعد آخر ، ولقد تفشى بالمعرة وضاحيتها نحو سنة ١٣١٢ هـ ، فذهب بعيون كثير من الناس ، وشوه وجوهاً كثيرة ، وعمي بسببه كثيرون لفقد الأطباء وجهل الدواء وعدم اكتراث الحكومة بمثل هذا الأمر الجلل ، ولقد رأيت كثيراً من الناس ممن أصيب بهذه العلة أصبحت وجوههم بعد نضرتها تشبه ما وصف به وجه أبي العلاء .

ما يعلم من الألوان

كان أبو العلاء يعد اللون الأحمر ملك الألوان ، فقد نقل ابن العديم (١) عن الحسن بن الخشاب الحلبي أن أبا العلاء قال لجماعة حضروا عنده : عدوا عليّ الألوانَ ، فقالوا : أبيض وأخضر وأصفر وأسود وأحمر ، فقال : هذا هو ملكها ، يعني الأحمر ، ولعل سبب ذلك هو أنه لما أصيب بالجدري أُلبس ثوباً أحمر ، أو مصبوغاً بالعصفر ، فهو يعرف اللون الأحمر من ذلك الثوب ، ولا يفضل غيره على ما نقله عنه ابن العديم وصاحب (المعاهد) (٢) وغيرهما . وهذا غريب جداً لأن أبا العلاء تصدى في شعره إلى وصف كثير من الأشياء الملونة بغير الأحمر وأحكم فيها الوصف والتشبيه ، وسيأتي تحقيق ذلك وإيضاحه .

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٦٢ عن الأنصاف والتحري ـ لابن العديم .
(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٣٣٥ عن معاهد التنصيص ـ للعباسي .

الحياة السياسية

في عصر أبي العلاء

لا يشبه أبو العلاء غيره من الشعراء ، فإنه تناول في شعره طرفاً من أخبار الملوك والدول التي أظله عصرها ، وذكر طائفة من الأحداث التي وقعت في ذلك العهد ، وهذا يجعل التصدي لذكر الحالة السياسية ضرورياً ليتسنى فهم المراد من كلامه حين يعرض لذكرها ، وليتبين أثر ذلك في تكوين مزاجه الخلقي والفلسفي . ولما كان أبو العلاء أدرك جملة من الملوك والأمراء ، وشاهد كثيراً من مهلك دولة وقيام أخرى ، رأينا أن نسرد أسماء الخلفاء والملوك الذين تبوّؤوا العروش من فاتحة حياته إلى خاتمتها ، ونضيف إلى ذلك ما يتوقف عليه ربط الحوادث والدول وتسلسلها ، ليكون الكلام بريئاً من الغموض والنقص . وابتدأنا بملوك حلب والشام لأن المعرة في ذلك العهد تابعة لحلب ، وقد تكون حلب تابعة لدمشق ، وليس غرضنا من ذلك تحقيق الحوادث التاريخية أو استيفاؤها ، وإنما الغرض المقصود توضيح القضايا ولو بصورة مجملة ليتضح كلام أبي العلاء المتعلق بها وليعلم مبلغ أثرها فيه كما قلنا .

الدولة الحمدانية

في سنة ٣٣٣هـ استولى سيف الدولة على حلب ، وانتزعها من يد أبي الفتح[١]

---

(١) كذا في (أعلام النبلاء) عن زبدة الحلب وفي ابن الوردي « من يد أحمد بن سعيد الكلابي نائب الأخشيد » (ج) .

عثمان بن سعيد الكلابي ، ثم انتزعها منه الإخشيد بعد انتصاره عليه ، ثم استقر بينهما الصلح على أن تكون حلب وحمص وأنطاكية لسيف الدولة ، ودمشق للإخشيد . ثم استولى سيف الدولة على دمشق فحاربه كافور سنة ٣٣٥ هـ وكسره ودخل حلب وولّى عليها يانس المونسي .

وفي سنة ٣٣٦ هـ تغلب عليها سيف الدولة وانهزم يانس واستقر سيف الدولة بحلب إلى أن مات سنة ٣٥٦ هـ ، ثم مالك بعده ابنه أبو المعالي سعد الدولة شريف ، وكان له غلام يقال له قَرْعُوَيَة (١) فتغلب عليه واستولى على حلب وأخرجه منها سنة ٣٥٨ هـ الى حماة ، ثم صالحه سنة ٣٥٩ هـ ، وكان أبو المعالي في حمص ، وخطب له في حلب ، ثم اتفقا على أن يخطبا في أعمالهما للمعز العلوي صاحب مصر .

وكان قَرْعُوَيَة استناب غلامه بكجور ، فقوي أمره وقبض على قرعوية وحبسه في قلعة حلب ، وأقام بها نحو ست سنين ، ولما استبد بكجور بالأمر كتب أهل حلب إلى أبي المعالي شريف أن يقصد حلب ، فسار إليها فحصرها أربعة أشهر ثم ملكها سنة ٣٦٦ هـ ، وبقيت القلعة بيد بكجور ثم طلب الأمان ، وأن يوليه حمص ، فأجابه إلى ذلك وسيره إلى حمص واستلم القلعة ، وكان بكجور يتقرب إلى العزيز صاحب مصر ، وطلب منه أن يوليه دمشق ، فوعده بذلك فلما كانت سنة ٣٧٢ هـ وقعت بين أبي المعالي وبكجور وحشة ، فكتب إليه أن يخرج من بلده ، فأرسل إلى العزيز أن ينجز ما وعده به فولاه دمشق سنة ٣٧٣ هـ وبقي فيها إلى سنة ٣٧٨ هـ ، وقد أساء السيرة ، فسير إليه العزيز عسكراً مع القائد منير الخادم ، فالتقيا عند داريا ، والتحم القتال بينهما فانهزم بكجور

---

(١) كتبه بعضهم قرعويه وفرعويه وفرغويه و . و . والصواب ما ذكرناه كما ضبطه ابن الشحنة (ج) .

وطلب الأمـان من منير ليسلم البلد اليه ، فأجابه الى ذلك ، فجمع ماله وسار خفية إلى الرقة فاستولى عليها وعلى ما يجاورها ، وكتب إلى بهاء الدولة ابن بويه أن ينضم اليــه ، والى باذ الكردي المتغلب على ديار بكر والموصل ان يسير اليه . وكتب إلى سعد الدولة أن يعود إلى طـاعته ويقطعه مدينة حمص كما كانت له ، فلم يجبه أحد ، فكتب إلى صاحب مصر يطمعه في حلب ، ويطلب انجاده بالعساكر ، فأجـابه وسار إلى حلب ، فخرج عنها سعد الدولة وكتب إليه يستميله ويدعوه إلى الموافقة ويقطعه من الرقة الى حمص ، فأبى . فلما التقى الجيشان تباطأ جيش مصر عن اللحاق ببكجور ، وانقلب العرب الذين كانوا معه فنهبوا سواده لأن سعد الدولة أطمعهم واستمالهم ، ثم وقعت بين الفريقين معركة ، انتهت بانهزام بكجور ماشياً[1] ثم قبض عليه سعد الدولة فقتله ، ثم سار إلى الرقة فاستلمها بأمان وعهود . ثم أصابه الفـالج فمات ، وعهد إلى ولده أبي الفضائل سعيد الدولة ، ووصّى به لؤلؤ بن عبد الله السيفي الكبير مولى سيف الدولة . وكان ذلك سنة ٣٨١ هـ كما سيأتي .

ثم إن الوزير أبا الحسن المغربي سار إلى العزيز بمصر ، وأطمعه في حلب ، فسير إليها جيشاً عليه منجوتكين أحد أمرائه فحصرها ، فاستنجد أبو الفضائل ولؤلؤ بملك الروم ، ثم بذل لؤلؤ إلى أبي الحسن المغربي وغيره مالا ليردوا منجوتكين ، فسار إلى دمشق ، وبلغ الخبر إلى العزيز بالله فغضب وكتب بعود العسكر إلى حلب وإبعاد المغربي ، فنازل[2] العسكر حلب وأقاموا عليها ثلاثة عشر شهراً ، ولما استنجد لؤلؤ بملك الروم سار إلى حلب فوصل إليها فرحل عنها منجوتكين كالمنهزم ، فعظم ذلك على العزيز

---

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ٣٥ (ج) .

(٢) كذا في الأصل والصواب (نزل) .

با لله ، فخرج من القاهرة لغزو الروم الذين استنجد بهم لؤلؤ وأبو الفضائل ، ثم حدثت به أمراض منعته من المسير ، ثم أدركه الموت سنة ٣٨٦ هـ . وأبو العلاء مدح سعيد الدولة بقصيدة أولها :

أعَنْ وَخْدِ القلاص كشفتِ حالا [1] ...

وأشار فيها إلى إخفاق المصريين في حربه كما سيأتي .

أما لؤلؤ بن عبد الله فقد كان مولى لسيف الدولة مقدماً عنده ، وعند ولده سعد الدولة ، وقد قدمه على أصحابه ، وجعله مدبر الملك بعده كما تقدم ، فلما ولي أبو الفضائل كان هو المدبر لملكه . وقد تزوج أبو الفضائل ابنته وأقام بحلب إلى أن توفي في سنة ٣٩١ هـ مسموماً ، ويقال : إن لؤلؤاً سمّه وسمّ ابنته زوجة أبي الفضائل فماتا جميعاً .

واستولى لؤلؤ بعد موت أبي الفضائل على تدبير ابنيه : أبي الحسن علي وأبي المعالي شريف ، ثم استقل بالأمر وأخرجهما إلى مصر سنة ٣٩٤ هـ ، وبقي إلى أن توفي سنة ٣٩٩ هـ ، فملك حلب بعده ابنه منصور أبو نصر مرتضى الدولة ، وكان خطب للحاكم العبيدي ، فلقبه مرتضى الدولة ، ثم فسد ما بينه وبين الحاكم .

وكان لابن لؤلؤ غلام اسمه فتح ، وكان دزدارَ قلعة حلب ، فعصى استاذه وكاتب الحاكم ، وخطب له وأخذ منه صيدا وبيروت وكل ما في حلب من الأموال ، واستولى على حلب ولقب بمبارك الدولة وسعيدها وعزها ، ثم سلمها إلى نواب الحاكم ، وسار مولاه أبو النصر بن لؤلؤ إلى أنطاكية ، وكانت للروم ، فأقام عندهم ، وكان ذلك سنة ٤٠٦ هـ وفي (النجوم الزاهرة) ج ٤ ص ٢٣٥ استولى الحاكم على حلب ، وزال ملك بني حمدان منها في سنة ٤٠٤ هـ .

---

(١) شروح سقط الزند ، ق ١ ص ٢٥ ، وعجزه : ومن عند الظلام طلبتِ مالا .

ثم تنقلت حلب بأيدي نواب الحاكم . منهم مختار الدولة والي طرابلس ، ومرهف الدولة والي صيدا ، حتى صارت بيد رجل من الحمدانيين يعرف بعزيز الملك (١) وبقي نائب الحاكم فيها حتى قتل الحاكم سنة ٤١١ هـ وولي

(١) هكذا ذكره أبو الفداء ج ٢ ص ١٤١ وابن الوردي ج ١ ص ٣٢٣ وابن الأثير ج ٩ ص ٩٥ في حوادث سنة ٤٠٢ هـ . وذهب الأستاذ الميمني إلى أنه عزيز الدولة فاتك أبو شجاع ، وكان رومياً ، واحتج لذلك بأمور :

أولها : ان ابن القلانسي ذكره في تاريخه مراراً عزيز الدولة .

ثانيها : أن ياقوت ذكر في (معجم الأدباء) أن أبا العلاء صنف كتاب (الصاهل والشاحج) لأبي شجاع فاتك الملقب بعزيز الدولة والي حلب من قبل المصريين وكان رومياً .

ثالثها : نقل عن ابن العديم في تاريخه ، أنه كان عبداً أرمنيـاً لمنجوتكين الذي أرسل مع عسكر مصر لحصار حلب سنة ٣٨٤ هـ . وكان العزيز قلد ولاية حلب من الحاكم سنة ٤٠٧ هـ .

رابعها : أن صاحب (التتمة) ذكره كذلك : عزيز الدولة .

خامسها : أن عزيز الدولة ورد ذكره في رسالتين لأبي العلاء ، وهو الذي طلب أبو نصر صدقة بن يوسف الفلاحي أبا العلاء إلى حضرته ، فاعتذر بضعفه وعجزه . أ هـ .

ونزيد على ذلك أن ابن العديم صرح في (الإنصاف) بأن كتاب (الصاهل والشاحج) صنف للأمير عزيز الدولة أبي شجاع فاتك بن عبد الله الرومي مولى منجوتكين العزيزي ، وكان أبو شجاع هذا والي حلب من قبل المصريين في أيام الحاكم وبعض أيام الظاهر الذي قتله بقلعة حلب سنة ٤١٣ هـ مملوك له هندي يقال له توذوك . ا هـ ؛ وأن الذهبي قال : قتل فاتك متولي حلب سنة ٤١٢ هـ . قتله مملوك له هندي . وأن صاحب (النجوم الزاهرة) قال في ج ٤ ص ١٩٤ : قال ابن الصـابي : وكان على حلب عند هلاك الحاكم عزيز الدولة فاتك الوحيدي ، ثم ذكر أنه عظم أمره وحدثته نفسه بالعصيان ، فلاطفته ست الملك ، وبعثت إليه بالخلع والخيل بمراكب الذهب ، ثم أفسدت عليه غلامه بدراً ، وكان مالك أمره ، وكان لفاتك غلام هندي يهواه ، فاستغواه بدر حتى قتل فاتكا ، ثم استدعى الغلمان فقتلوا الهندي ، وولت بدراً مكان فاتك . وفيها تفصيل الحادثة فلتراجع .

أما صاحب (ذكرى أبي العلاء) فقد رأى تناقضاً بين التاريخ وبين ما عرف من آثار —

مكانه الظاهر لإعزاز دين الله فشق عصا الطاعة عليه ، وواطأت ست الملك أخت الحاكم فراشاً له على قتله فقتله سنة ٤١٢ هـ ، ثم ولي مدينة حلب للمصريين رجل يعرف بابن ثعبان[1] . وولي القلعة خادم يعرف بموصوف وبقيا فيها إلى أن انتزعها منها صالح بن مرداس سنة ٤١٤ هـ .

— أبي العلاء لسبب ذكر عزيز الدولة ، وسأل من هو عزيز الدولة ؟ وزعم أن المصريين لم يحملوا على حلب رجلاً يعرف بعزيز الدولة . ثم ذكر أن المؤرخين حرّف عليهم لفظ عزيز الدولة فسموه معز الدولة ، وأطال في استنتاج رأي له ، رجحه على ما وقع للمؤرخين ، خلاصته أنه جعل عزيز الدولة ثمال بن صالح بن مرداس .

وقد ذكر الأستاذ الميمني في ذيل ص ٢٣٠ في الرد على صاحب الذكرى أن (اللامع العزيزي) منسوب إلى عزيز الدولة بن ثابت بن ثمال بن صالح . .

وإذا رجعت إلى كتب التاريخ ، تبين لك أن عزيز الدولة لقب بـه اثنان : أحدهما : فاتك بن عبد الله مولى منجوتكين ، وقد تقدم ذكره ، وهذا صنف له أبو العلاء كتاب (الصاهل والشاحج) وكتاب (لسان الصاهل والشاحج) وكتاب (القائف) ولم يؤلف منه سوى أربعة أجزاء ، لأن أبا شجاع هـذا قتل ، وكان هو الذي أمر بانشائه . الثاني : أبو الدوام ثابت بن ثمال بن صالح بن مرداس ، لقب بعزيز الدولة أيضاً ، وهذا ألف له أبو العلاء كتاب (اللامع العزيزي) ويقال له (الثابت العزيزي) وأبو ثمال يقال له معز الدولة ، وقد كتب له أبو العلاء (رسالة الضبعين) وسيأتي إيضاح ذلك عند الكلام في كتبه ورسائله . ومما ذكرناه يتبين لك ما في كلام الأستاذين طه حسين والميمني من الخطأ . .

أما ما ذكره ابن الأثير وغيره من أن حلب صارت بيد انسان من الحمدانيين يعرف بعزيز الملك ... فلم نهتد إلى ما يثبته ، ولم نتبين وجه التحريف فيه (ج) .

(١) هكذا ذكره ابن الأثير وأبو الفداء وابن الوردي : وقال ابن خلدون : عبد الله ابن علي بن جعفر الكتامي وهو المعروف بابن شعبان ولعلهم حرفوا شعبان بثعبان. لأن أعماله كانت أعمال ابن ثعبان .

وسيأتي أن ابا العلاء كتب (الرسالة السندية) إلى سند الدولة بن شعبان الكتامي الذي جعل والياً على حلب سنة ٤١٤ هـ من قبل المصريين (ج) .

الدولة المرداسية

كان أسد الدولة أبو علي صالح بن مرداس بن أدريس من بني كلاب ابن ربيعة بن عامر بن صعصعة من مضر ومن عرب البادية .

وفي سنة ٣٩٩ هـ . قتل أبو علي بن ثمال الخفاجي[١] ، وكان الحاكمُ صاحبُ مصر ولاه الرحبة ، فسار اليها فخرج إليه عيسى بن خلاط العقيلي فقتله ، وملك الرحبة ، ثم أخذها منه بدران بن المقلد العقيلي ، فأمر الحاكم لؤلؤاً البشاري نائبه في دمشق بالمسير إليها وملكهـا وملك الرقة ثم عاد إلى دمشق ، وكان بالرحبة رجل من أهلها يعرف بابن محكان فملك البلد واحتاج إلى من يستعين به على من يطمع فيه ، فكاتب صالح ابن مدراس فقدم عليه وأقام عنده مدة ، ثم تغير صالح وسار إلى ابن محكان وقاتله على البلد وقطع الأشجار ، ثم تصالحا وتزوج ابنة ابن محكان ودخل البلد ، الا أن أكثر مقامه كان بالحلة . ثم راسل ابن محكان أهل عانة ، فأطاعوه ونقل ماله وأهله إليهم وأخذ رهائنهم ، ثم خرجوا عن طاعته وأخذوا ماله واستعادوا رهائنهم وردوا أولاده ، فاجتمع ابن محكان وصالح على قصد عانة ، فسارا إليها ، فوضع صالح على ابن محكان من يقتله ، فقتله غيلة وسار صالح إلى الرحبة ، فملكها وأخذ أموال ابن محكان وأحسن إلى الرعية ، واستمر على ذلك ، إلا أن الدعوة كانت للمصريين .

وفي سنة ٤٠٢ هـ فسد ما بين الحاكم ومرتضى الدولة أبي نصر بن لؤلؤ صاحب حلب ، فطمع فيه صالح بن مدراس وبنو كلاب ، وكانوا يطالبونه بالصلات والخِلَع ، ثم اجتمعوا في خمسمائة فارس ، ودخلوا حلب ،

---

(١) ابن الأثير ٩/٨٢ (ج) .

فأمر مرتضى الدولة بإغلاق الأبواب ، وقبض على مائة وعشرين رجلاً ، منهم صالح بن مدراس ، وحبسهم وقتل مائتين وأطلق من لم يفكر به ، وكان صالح تزوج ابنة عم له تسمى جابرة ، وكانت جميلة ، فوُصفت لمرتضى الدولة ، فخطبها إلى أبناء أخوتها ، وكانوا في حبسه ، فقالوا : إن صالحاً قد تزوجها ، فلم يقبل منهم ، وتزوجها ثم أطلقهم وبقي صالح في الحبس ، حتى صعد من السور وألقى نفسه من أعلى القلعة إلى تلها ، واختفى في مسيل ماء ، فأرسل مرتضى الدولة الخيل في طلبه فلم يظفروا به ، فلما سكن عنه الطلب سار بقيده ولبنة حديد في رجليه الى قرية الياسرية ، فعرفه جماعة من العرب وحملوه إلى أهله في مرج دابق[1] .

فجمع ألفي فارس ، وحاصر حلب اثنين وثلاثين يوماً ، فخرج إليه مرتضى الدولة فقاتله صالح وأسره وقيده بقيده الذي كان في رجله ولبنته ، ثم بذل له مائتي ألف دينار ومائة ثوب ، وأطلق كل أسير عنده من بني كلاب فأخذ صالح ذلك وأطلقه ورحل . ثم عصى فتح مولاه مرتضى الدولة ابنَ لؤلؤ كما قدمنا .

وفي سنة ٤١٤ م كان للمصريين نائب بالشام يعرف بأنوشتكين[2] الدزبري وبيده دمشق والرملة وعسقلان وغيرها . فاجتمع حسان أمير بني طيء ، وصالح بن مرداس أمير بني كلاب ، وسنان بن عليان أمير

---

(١) الكامل ٩٤/٩ . والياسرية : هي قرية على نهر عيسى ، بينها وبين بغداد ميلان . ودابق : قرية قرب حلب من عمل إعزاز بينها وبين حلب أربعة فراسخ عندها مرج معشب فيه قبر سليمان بن عبد الملك بن مروان (ج) .

(٢) ابن عبد الله الأمير المظفر منتجب الدولة ولد ببلاد الترك وحمل إلى بغداد ثم إلى دمشق سنة ٤٠٠ هـ فاشتراه القائد دزبر ثم اتصل بالحاكم فبعثه إلى دمشق سنة ٤٠٦ هـ ثم أرسله إلى قتال صالح (ج) .

بني كلب . وتحالفوا واتفقوا على أن يكون من حلب إلى عانة لصالح ، ومن الرملة إلى مصر لحسان ، ودمشق لسنان .

فسار حسان إلى الرملة فحصرها ، وكان أنوشتكين بها ، فسار عنها إلى عسقلان ، واستولى عليها حسان ونهبها ، وقتل أهلها ، وذلك سنة ٤١٤ هـ وحاصر سنان دمشق سنة ٤١٦ هـ وجرت بينه وبين أهلها حرب شديدة ، وخرب داريا وأعمالها ومات سنان سنة ٤١٩ هـ فاتصل ابن أخيه رافع بن أبي الليل بن عليان بالظاهر ، فأمّره على الكلبيين وسير معه جنداً لقتال حسان بن المفرج بن الجراح امير طيىء ، وقصد صالح حلب ، وبها ابن شعبان الكتامي وموصوف بالقلعة . فسلم أهل حلب المدينة إلى صالح ، لإحسانه اليهم وسوء سيرة المصريين معهم . وصعد ابن شعبان إلى القلعة ، فحصره صالح فيها ، فغار الماء الذي بها فلم يبق لهم ما يشربون ، فسلم الجند القلعة إليه وذلك سنة ٤١٤ هـ ، وملك من بعلبك إلى عانة وأقام فيها ست سنين .

وفي سنة ٤١٥ هـ قبض على قاضي حلب ابن أبي أسامة ، ودفنه حياً في القلعة ، وفي سنة ٤١٦ هـ استوزر صالح تاذرس النصراني ، وكان عنده صاحب السيف والقلم .

وفي سنة ٤١٨ هـ خرج صالح إلى المعرة ، وأمر باعتقال أكابرها ، لأنهم هدموا ماخوراً أراد صاحبه أن يغصب امرأة نفسها ، وشفع عنده أبو العلاء كما سيأتي .

وفي سنة ٤٢٠ [1] جهز الظاهر صاحب مصر جيشاً إلى الشام اضافه إلى رافع أمير الكلبيين لقتال صالح وحسان ، وكان مقدم العسكر انوشتكين ،

---

(١) هكذا قال ابن الأثير ج ٩ ص ٩٦ ثم ذكر في ج ٩ ص ١٥٣ انه في سنة ٤١٩ هـ و أنهما قولان (ج) .

فاجتمع صالح وحسان على قتاله ، فاقتتلوا بالأقحوانة على الأردن عند طبرية ، فقتل صالح وولده الأصغر ، ونفذ رأساهما إلى مصر ، ونجا ولده أبو كامل نصر بن صالح ، فجاء إلى حلب فملكها وكان لقبه شبل الدولة ، فلما علمت الروم بأنطاكية الحال ، تجهزوا إلى حلب في عالم كثير ، فخرج أهلها اليهم فحاربوهم فهزموهم ونهبوا أموالهم فعاد الروم الى انطاكية ،

وقد أشار أبو العلاء الى هذه الفتن والحوادث في موطن من شعره . منها قوله من أبيات (١) :

أرَى حَلَباً حازَها صَالحٌ وَجَالَ سِنَانٌ عَلَى جِلَّقَا
وَحسّانُ في سَلَفَيْ طَيِّىءٍ يُصَرِّفُ مِنْ عِزِّهِ أبْلَقَا
فَلَمّا رأت خَيلُهم بالغُبارِ ثغاماً على جَيْشِهِم عُلِّقَا
رَمَتْ جامِعَ الرَّمْلَةِ المُسْتَضَامَ فَأَصْبَحَ بالدّمِ قدْ خُلِّقَا
وما يَنفَعُ الكاعِبَ المُستَباةَ هامٌ على عَضَبٍ فُلِّقَا
وطُلَّ قَتيلٌ فَلَمْ يُدَّكَرْ وغُلَّ أسيرٌ فما أُطْلِقَا
وكَمْ تَرَكَتْ آهِلاً وَحْدَهُ وكم غَادَرَتْ مُثْرِيا مُمْلِقا
يسائلُ في الحيّ عَنْ مالِهِ وما القولُ في طائرٍ حَلَّقا

وقوله من أبيات أخر : (٢)

والرَّمْلَةُ البَيْضاءُ غُودِرَ أَهْلُها بعدَ الرَّفاغَةِ يأكُلونَ قفارَها (٣)

(١) اللزوميات ﻫ ص ٣٠٥ .
(٢) اللزوميات ﻫ ص ١٤٣ .
(٣) القفار : يقال : خبز قفر أو قفار ، أي غير مأدوم .

والعُرْبُ خالفتِ الحضارةَ واتّقَتْ سُكنى الفَلاةِ وَرَغْلَها وَصفَارَها
كانت إماؤهُمُ زوافرَ مَوْرِدٍ فالآن أثقلَ نَضْرُها أزفارَها
أهلَتْ بها الأمصارُ فهي ضَوارِبٌ عَمَدَ الممالكِ لا تُريدُ قِفَارَها
لمْ يَبْقَ إلا أن تؤُمّ جيادُهُمْ رُمْحاً[1] لِتَقْطع رَمْلَها وجفارَها
عَتَروا الفوارسَ بالصوارمِ والقنا والمَلْكُ في مِصرٍ يُعَتِّرُ فارَها
جعلوا الشِفار هواديا لتنوفةٍ مَرْهاء تكحَل بالدجى أشفارَها
يكبو رتاء القادحين وعامِرٌ بالشام تقْدَحُ مَرْخَها وعَفَارَها

وقوله [2] :

قد أشْرَعَتْ سِنْبِسٌ ذوابلَها وأرْهَفَتْ بُحْتُرٌ مَعَابِلَها[3]
لِفتنةٍ لا تزال باعثـة رَامِحَها في الوغى ونابلَها
حَسَّان في المُلْكِ لا يَحسّ لها تُزجي إلى موتِها قنابلَهـا

وقوله [4] :

أصاب الرملةَ الحَدَثانُ يوماً فَخَصّ وما يزال أخا اشتمال

---

(١) رُمح قرية بالشام (ج) .

(٢) اللزوميات هـ ص ٢٠٨ .

(٣) سنبس وبحتر قبيلتان من طيء ، (ج) وفي الأصل: «بحتر عواملها» والصواب ما أثبتناه.

(٤) اللزوميات هـ ص ٢١٨ .

وقوله (١) :

أَلم تَرَ طَيِّئاً وبني كلابٍ   سَمَوا لِبلادِ غزةَ والعريشِ
ولو قَدَروا على الطَّيْرِ الغوادي   لما نَهَضَتْ إلى وَكْرٍ بريش

وقوله في سقط الزند ، من قصيدة يمدح بها خازن دار العلم ببغداد (٢) :

وما أَذْهَلَتْني عن وِدادِكَ رَوْعَةٌ   وكيف وفي أمثالها (٣) يجب الغَبْطُ
ولا فتنةٌ طائيّةٌ عامريّةٌ   يُحرّق في نيرانها الجَعْدُ والسَّبْط
وقد طَرَحتْ حول الفراتِ جِرانَها   إلى نيلِ مصرٍ فالوَساعُ بها تقطو
فوارسُ طعّانون ما زال للقنا   مع الشَّيْبِ يوماً في عوارِضهم وَخْط
وكلُّ جوادٍ شفَّه الركضُ فيهم   وجٍ يتمنّى أنَّ فارسه يَسقُطُ
ونَبّالةٍ من بُحتُرٍ لو تَعَمَّدوا   بليلٍ أُناسيَّ النواظِرِ لم يُخْطُوا

أراد بالطائية قوم حسّان أمير طيء ، وبحتر قبيلة من طيء ، وأراد بالعامرية قومَ صالح بن مرداس وهم بنو كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة .

وبقي شبل الدولة مالكاً حلب إلى سنة ٤٢٩ هـ ، فأرسل اليه الدزبري العساكر المصرية ، وكان صاحبُ مصر حينئذ المستنصر بالله ، وليَ سنة ٤٢٧ هـ بعد وفاة الظاهر ، فلقيهم عند حماة ، وقُتِلَ في شعبان وملك الدزبريُّ حلبَ في رمضان سنة ٤٢٩ هـ . ولما كان أنوشتكين في دمشق

---

(١) اللزوميات هـ ص ٣٢٧ .
(٢) شروح سقط الزند ، ق ٤ ص ١٦٧٥ .
(٣) كذا في الشروح ، وفي الأصل : «أمثاله» .

كان يوجه إلى أبي العلاء بالسلام ، ويحفي المسألة عنه ، فأراد جزاءه على مافعل ، فعمل له كتاباً سماه (شرف السيف) كما سيأتي . وبقيت حلب في ملك الدزبري حتى توفي في جمادى الأولى سنة ٤٣٣ هـ .

وكان أبو علوان ثمال بن صالح بن مرداس الملقب بمعز الدولة بالرحبة ، فلما بلغه موت الدزبري جاء إلى حلب فملكها تسلماً من أهلها ، وحصر امرأة الدزبري وأصحابه بالقلعة أحد عشر شهراً ، ثم ملكها في صفر سنة ٤٣٤ هـ وبقي إلى سنة ٤٤٠ هـ . وجهز ثمال إلى المعرة والياً فأساء التدبير ، فانحرف عنه الناس وهرب ، فبادر جعفر أمير حمص وتجهز إلى المعرة بنفسه ولقيه مقلد بن كامل بن مرداس فأوقع به وقتله وشهر رأسه بحلب .

ثم أنفذ المصريون إلى محاربته أبا عبد الله بن ناصر الدولة بن حمدان ، فخرج أهل حلب إلى حربه ، فهزمهم واختنق بالباب منهم جماعة ، ثم إنه رحل عن حلب وعاد إلى مصر .

فأنفذ المصريون إلى قتال معز الدولة خادماً يعرف برفق ، فخرج إليه في أهل حلب فقاتلوه فانهزم المصريون وأسر رفق في ربيع الأول سنة ٤٤١ هـ . ومات عندهم .

ثم إن معز الدولة أصلح أمره مع المصريين ، وأرسل إليهم الهدايا ، ونزل لهم عن حلب فأنفذوا اليها أبا علي الحسن بن علي بن ملهم ولقبوه مكين الدولة ، فتسلمها من ثمال في ذي القعدة سنة ٤٤٩ هـ وسار ثمال إلى مصر في ذي الحجة ، كذا في ابن الأثير وقال : (ج ٩ ص ٢٢٣) في سنة ٤٤١ هـ وصل عسكر مصر إلى حلب فخافهم ثمال ، فانصرف عنها ، فملكها المصريون . وفي (النجوم الزاهرة) ج ٥ ص ٤٥ : وفي سنة ٤٤١ هـ صرف المستنصر طارقاً الصقلبي عن إمرة دمشق وولى مكانه عدة الدولة المستنصري ، ثم صرفه عنها وبعث به إلى حلب ، وولّى دمشق حيدرة بن

الحسين بن مفلح ويعرف بأبي الكرم المؤيد ، فأقام عليها حيدرة تسع سنين .

وقد تقدم أن أبا العلاء ولد سنة ٣٦٣ هـ وسيأتي أن وفاته في سنة ٤٤٩ هـ في ربيع الأول ، فيكون مولده في زمن أبي المعالي سعد الدولة ابن سيف الدولة ، في العهد الذي تغلب فيه قَرْعُويَه على مولاه سعد الدولة ، وتغلب بكجور على قرعوية . وتكون وفاته في عهد معز الدولة ثمال بن صالح بن مرداس .

ولقد تولى حلب في هذا العهد جماعة كثيرون منهم :

(١) أبو المعالي سعد الدولة شريف بن سيف الدولة .

(٢) وقرعوية غلام سعد الدولة .

(٣) وبكجور غلام قرعوية .

(٤) وأبو الفضائل ، سعيد بن سعد الدولة سنة ٣٨١ هـ .

(٥) ولؤلؤ بن عبد الله مولى سيف الدولة سنة ٣٩٤ هـ .

(٦) وابنه منصور أبو نصر مرتضى الدولة .

(٧) وغلامه فتح مبارك الدولة وسعدها وعزها سنة ٤٠٦ هـ .

(٨) ومختار الدولة والي طرابلس .

(٩) ومرهف الدولة والي صيدا .

(١٠) وعزيز الدولة فاتك أبو شجاع مولى منجوتكين سنة ٤٠٧ هـ .

(١١) وابن شعبان الكتامي سنة ٤١٢ هـ .

(١٢) وصالح بن مرداس سنة ٤١٤ هـ .

(١٣) وابنه أبو كامل نصر شبل الدولة سنة ٤٢٠ هـ .

(١٤) وأنوشتكين الدزبري سنة ٤٢٩ هـ .

(١٥) وأبو علوان ثمال بن صالح معز الدولة سنة ٤٣٤ هـ ، وبقي فيها إلى ذي القعدة سنة ٤٤٩ هـ أي بعد وفاة أبي العلاء بنحو ثمانية أشهر ،

وقد سماه أبو العلاء تاج الأمراء في شرحه لشعر الأمير أبي الفتح بن أبي حَصينة وكناه بأبي الطوان .

وإذا تأملت وجدت في التاريخ تناقضاً بيّنا وغموضا ظاهرا ، فإن ابن الأثير ذكر أولاً أن معز الدولة نزل عن حلب وتسلمها مكين الدولة سنة ٤٤٩ هـ وذكر بعد ذلك أن معز الدولة في سَنَة ٤٤١ هـ خاف عسكر مصر فانصرف عن حلب وملّكها المصريين ، وصاحب (النجوم الزاهرة) ذكر أن :

١٦ — طارقاً الصقلبي ولي حلب سنة ٤٤١ هـ ، ولم يعلم هل أخذها من ثمال أم من غيره .

وقد ذكر أبو العلاء طائفة من ملوك حلب والأمراء المتغلبين عليها ، منهم

١٧ — أبو الفضائل سعيد بن سعد الدولة ، مدحه بقصيدة مذكورة في أول سقط الزند ، وفيها يقول على لسان النوق :[1]

سَألْنَ فَقُلتُ مقصِدُنا سعيدٌ فكان اسْمُ الأميرِ لهن فالا

ويقول فيها :

ولكن بالعواصم من عَدِيٍّ[2] أميرٌ لا يكلّفنا السؤالا

وفيها يشير إلى وقعة بينه وبين عسكر مصر والمغرب بقوله :

إذا خفقت لَمغرِبها الثُّريا توقّتْ من أسِنّته اغتيالا

ولعلها الوقعة التي جاء فيها منجوتكين مع عسكر مصر إلى حلب وكانت بينها مابين سنة ٣٨٣ هـ وسنة ٣٨٦ هـ .

---

(١) شروح سقط الزند ، ق ١ ص ٤١ .

(٢) سيف الدولة ينسب إلى عدي بن أسامة من أحفاد غنم بن تغلب (ج) .

١٨ - ومنهم عزيز الدولة فاتك مولى منجوتكين ، وهذا ألف له كتاب (الصاهل والشاحج) و (القائف) وذكره في رسالة إلى أبي نصر صدقة ابن يوسف الفلاحي لما دعاه إلى حضرة عزيز الدولة بقوله ص ٩٦ : وإنما ذكرت ذلك لينتهي إلى حضرة عزيز الدولة .. إني تخلفت عن خدمته بمرض منع من أداء المفترض . وذكره في رسالة ثانية ص ٢٢٩ ، وهو طلب من أبي الحسن بن سنان أن يطلب من أبي العلاء اختصار كليلة ودمنة .

١٩ - ومنهم عبد الله بن شعبان الكتامي عمل له الرسالة السندية .

٢٠ - ومنهم صالح بن مرداس ذكره في مواطن من شعره تقدم بعضها ، ومنها قوله :

بُعِثْتُ شفيعاً إلى صالحٍ وذاك من القوم رأيٌ فَسَد [1]

وقوله :

نجّى المعرةَ من بَراثنِ صالح ربٌّ يعافي كلّ داء مُعضل [2]

وقال ابن العديم [3] : إن كتاب (تاج الحرة) وضعه أبو العلاء لبعض الخليلات من النساء ويغلب على ظني أنها «طَرُود» زوج صالح بن مرداس .

٢١ - ومنهم شبل الدولة نصر بن صالح بن مرداس ، ذكره في (رسالة الغفران) حيث قال ص ٥٨ : [4] « فأقام هاتفاً يهتف في الموقف : ياعبدَ المنعم بنَ عبد الكريم قاضيَ حلب في زمان شبل الدولة ... » وقد كرر ذكره .

٢٢ - ومنهم أنوشتكين الدِزْبري عمل له كتاب (شرف السيف)

٢٣ - ومنهم معز الدولة ثمال بن صالح بن مرداس عمل له رسالة (الضبعين).

* * *

(١) اللزوميات ٥ ص ١١٦ .

(٢) اللزوميات ٥ ص ٢٢١ ، وفيها : «نجى العاشر ... رب يفرج كل أمر معضل » .

(٣) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٢٩ عن الانصاف والتحري - لابن العديم .

(٤) في الطبعة الأولى لرسالة الغفران تحقيق بنت الشاطىء ص ١٥٥ .

طائفة من الأحداث التي حدثت في حياة أبي العلاء
في حلب والمعرة وما يتعلق بهما منها

قدمنا أن أبا المعالي شريفاً استولى على حلب ، وكان حاصرها أربعة أشهر ثم ملكها هي والقلعة ، وتولى بكجور حمص سنة ٣٦٦ هـ . وفي سنة ٣٦٨ هـ وقعت حرب بين سعد الدولة وسلامة البرقعيدي أبي تغلب ابن حمدان متولي ديار مضر ، وساعد عضدُ الدولة سعدَ الدولة فأخذ عضُد الدولة الرقة لنفسه ، وترك مافيها لسعد الدولة .

وفي سنة ٣٧٣ هـ نزل فردوس الدمستُق على باب حلب في خمسمائة الف ، فالتقى في الميدان مع عسكر سعد الدولة ، ثم رجع عسكر فردوس ، وأتبعه سعد الدولة جيشاً من قبله غازيا حتى بلغ عسكره أنطاكية .

وفي سنة ٣٧٨ هـ التقى عسكر مصر مع القائد منير الخادم مع عسكر بكجور عند داريا ، فاقتتلوا وفرّ بكجور إلى الرقة فاستولى عليها ، وكان له رفقاء في حلب ، فكتبوا اليه يُطمِعونه في حلب ، وأعلموه أن سعد الدولة مشتغل بلذاته ، فكتب إلى صاحب مصر يبذل له فتح حلب ويستعينه فكتب صاحب مصر إلى نزال القوري صاحب طرابلس بالمسير اليه متى استدعاه ، وكان نزال من صنائع الوزير عيسى بن نسطورس ، فكتب اليه عيسى أن يظهر المسارعة ، فإذا تورط بكجور مع مولاه تأخر عنه وأسلمه . فكتب بكجور إلى نزال أن يسير من طرابلس ليكون وصوله إلى حلب في وقت واحد وسار اليها ، ورحل نزال من طرابلس وأبطأ في سيره وكان يكتب إلى بكجور بنزوله في منزل بعد منزل .

أما سعد الدولة فقد كتب إلى بسيل عظيم الروم يعلمه بعصيان بكجور ، ويطلب منه ألا يكتب إلى البرجي صاحب أنطاكية بالمسير اليه متى استنجده ، فكتب اليه بسيل بذلك . فلما وصل بكجور كتب سعد الدولة إلى البرجي فسار اليه ، وبرز سعد الدولة في غلمانه وعساكره ومعه

من العرب عمرو بن كلاب وعدتهم خمسمائة فارس ، ثم استدعى كاتبه فكتب الى بكجور عنه يستعطفه ويذكّره الله ويقطعه من الرقة إلى باب حمص ، ويدعوه إلى الموادعة ورعاية حق العبودية . فلما وقف على الكتاب قال للرّسول : الجواب مايراه عيانا . فلما عاد الرسول أخبر سعدَ الدولة بما قاله. فتقدم سعد الدولة وتقارب العسكران ، وكان سعد الدولة كاتب العرب الذين مع بكجور وأمّنهم ووعدهم ، فانقلبوا على بكجور ونهبوا سواده واستأمنوا إلى سعد الدولة ، فلما رأى بكجور تقاعد نزال عن نصرته وانقلاب العرب عليه وإخلاف رفقائه الذين وعدوه ، قال لكاتبه أبي الحسن المغربي : لقد غَرَرْتني ، فما الرأي الآن ؟ فأشار عليه بالرجوع إلى الرقة وإخبار صاحب مصر بما فعله نزال واستنجاده مرة أخرى . ثم اختار بكجور جماعة من غلمانه وشجعانه وأخبرهم انه يريد أن يحمل على سعد الدولة بنفسه فوافقوه على ذلك ، وأخبر لؤلؤاً الجراحي بما عول عليه ، فأخبر لؤلؤ سعد الدولة ، فانتقل إلى مكان غير مكانه ، ووقف لؤلؤ مكانه ، فحمل بكجور في أربعمائة غلام ، فأخرجت له العساكر حتى وصل إلى لؤلؤ وهو يظن أنه سعدالدولة فضربه فقدّ الخوذة ووصل السيف إلى رأسه فوقع لؤلؤ على الأرض وأظهر سعد الدولة نفسه وعاد إلى مكانه . فلما رآه غلمانه اشتدت شوكتهم وحملوا على بكجور حتى انهزم في سبعة نفر وتبعه عشرة فوارس من العرب فسلبوه وأصحابه واختبأ . ثم رأى جماعة من العرب وفيهم رجل من بني قطن كان يستخدمه ، فعرّفه بنفسه وجعل له حمل بعيره ذهبا إن أوصله إلى الرقة . فأردفه وحمله إلى بيته وكساه . وكان سعدُ الدولة بثّ الخيل في طلبه ، وجعل لمن أحضره حكمه . وكان بكجور بخيلًا فخاف البدوي أن يغدر به ، فأسرع إلى سعد الدولة وأخبره بحال بكجور واحتكم عليه مائتي فدان زراعة ومائة ألف درهم ومائة راحلة محملة براً وخمسين قطعة ثيابا ، فبذل له سعد الدولة ذلك كله . ثم جاء لؤلؤ الجراحي فأخبر بما قاله البدوي فقال : أين أهلك ؟ قال : في المرج على بعد فرسخ . فأمر جماعةً من غلمانه أن يسرعوا ويقبضوا على بكجور ويحملوه . فتوجهوا وبلغوا

قابضاً على يد البدوي خشية أن يطمعه بكجور فينجو حتى جازا به فقتله (١) ثم ذهب سعد الدولة إلى الرقة ، وفيها سلامة الرشيقي ، وأبو الحسن المغربي وأولاد بكجور وحرمه ، فحلف لسلامة يميناً يؤمنهم فيها ثم غدر بهم وأخذ أموالهم . وكان أبو الحسن المغربي فر من الرقة إلى المشهد بالكوفة ، فلما مات سعد الدولة خلفه ابنه أبو الفضائل ، فعظّم أبو الحسن المغربي أمر حلب عند صاحب مصر وكثر أموالها وهوّن حصولها عليه ، فقدم غلاماً يسمى منجوتكين وولاه الشام وأمر القواد والأكابر بالترجل له واستكتب اليه أحمد بن محمد القشوري (٢) وسيّره إلى حلب ، وضم اليه أبا الحسن المغربي ، فوصل إلى دمشق وأقام بها مدة ثم رحل إلى حلب ونزلها في ثلاثين الفاً ، وتحصن أبو الفضائل ولؤلؤ بالبلد وكان لؤلؤ حين علم بورود العساكر المصرية كتب إلى بسيل عظيم الروم يذكره بما كان بينه وبين سعد الدولة من المعاهدة ، ويبذل له عن أبي الفضائل الجري على تلك العادة وحمل اليه ألطافاً كثيرة واستنجده وأرسل اليه ملكوتا (٣) السرياني رسولا ، فقبل ذلك وكتب إلى البرجي صاحبه بأنطاكية بجمع عسكر الروم ، وقصد حلب فسار البرجي في خمسة آلاف . وفي (الكامل) لابن الأثير ج ٩ ص ٣٧ في خمسين الفاً ، ونزل بجسر الحديد بين انطاكية وحلب ، فعرف منجوتكين وأبو الحسن

---

(١) في (النجوم الزاهرة) ج ٤ ص ١٦٠ بكجور التركي ولي إمرة دمشق لأستاذه العزيز [صاحب مصر] نقل إليها من حمص . . ولما كثر ظلمه عزله العزيز وولى مكانه منيراً الخادم سنة ٣٧٨ هـ فلم يسلم بكجور البلد إلا بعد قتال ، وتوجه إلى جهة حلب ، ثم قتل بمكان يقال له الناعورة وكان أصل بكجور من موالي سعد الدولة . . توفي سنة ٣٨١ (ج) .

(٢) في (النجوم الزاهرة) : النعوري ، وفي (مرآة الزمان) القسوري (ج) .

(٣) في (النجوم) : ملكون (ج) .

ذلك فجمعا وجوه العسكر وتشاوروا في الأمر ، فأجمعوا على الانصراف عن حلب ومقاتلة الروم أولا ، فساروا اليهم وخاض المسلمون النهر المقلوب (١) وهجموا على المخاض ، وقد سبق أنه نهر يخاض في الأرض التي تعرف بالروج فالتحموا بالروم ، فقتلوا منهم نحو عشرة آلاف رجل ، وأفلت البرجي في عدد قليل (٢) . ومضى منجوتكين إلى انطاكية فنهب رساتيقها (٣) وأحرقها ، ثم رجع إلى حلب ، فكتب لؤلؤ إلى أبي الحسن والقشوري وبذل لهما من المال ما استمالهما به ، وسألهما أن يشيرا على منجوتكين بالانصراف عن حلب في هذا العام والمعاودة في العام القابل لعلة تعذّر الأقوات والعلوفات ، فخاطبا منجوتكين بذلك فقبل وعاد .

فلما بلغ ذلك صاحب مصر استشاط غضباً ، فصرف أبا الحسن وجعل مكانه صالح بن علي الروزباري ورجع منجوتكين في السنة الثانية إلى حلب ، وأقام عليها ثلاثة عشر شهراً ، وأبو الفضائل ومن معه متحصنون بالبلد ، ثم أنفذ لؤلؤ ملكونا إلى بسيل يستنجده مرة ثانية ، وكان في بلاد البلغر ، فقال له : متى أخذت حلب فتحت أنطاكية بعدها . فسار إلى حلب وقطع ثلاثمائة فرسخ في ستة وعشرين يوماً ، وكان الزمان ربيعاً ، وقد أنفذ منجوتكين وعسكره كراعهم إلى المرج ، وقرب هجوم بسيل وهم لا يشعرون . فأرسل لؤلؤ إلى منجوتكين أن بسيل أظلكم بجيوش الروم فخذوا حِذْركم ، وأن عصبة الإسلام الجامعة لنا تدعوني إلى إنذاركم ونصحكم . وجاءت طلائع منجوتكين بمثل هذا الخبر ، فأحرق الخزائن والأسواق والأبنية التي كان أحدثها وعاد منهزماً ، ثم نزل بسيل على باب

---

(١) النهر المقلوب هو النهر المعروف اليوم بالعاصي .

(٢) هذا يؤيد قول ابن الأثير أن البرجي قدم في خمسين ألفاً (ج) .

(٣) الرساتيق مفردها رُستاق بالضم : الرزداق وهو السواد والقرى ، معرب .

حلب فخرج إليه أبو الفضائل ولؤلؤ ولقياه ، ثم عاد ورحل في اليوم الثالث ، ففتح حمص ونهبها وسباها . ثم نزل على طرابلس فأقام عليها نيفاً وأربعين يوماً . فلما أيس منها عاد إلى بلاد الروم . اما صاحب مصر العزيز ، فلما بلغه انهزام منجوتكين أعظم ذلك واستنفر النـاس ، فنفروا وخرج مع عساكره وعُدَدِه حتى نزل بلبيس ، فأقام بظاهرها ثم اعترضه عِلَل فقضى نحبه ، واشتغل المصريون بأنفسهم بسبب موته وبطلت تلك الحملة .

وفي سنة ٤٢١ هـ خرج ملك الروم من القسطنطينية في ثلاثمائة ألف مقاتل إلى الشام ، فبلغوا قريباً من حلب وصاحبها شبل الدولة نصر بن صالح بن مرداس ، فنزلوا على يوم منها ، وكان الزمان صيفا ، فلحقهم عطش شديد ، وكان أصحابه مختلفين عليه . وكان معه ابن الدوقس ، يريد هلاك الملك ليملك بعده ، فأشار الملك بالإقامة حتى تجيء الأمطار ، فقبح ابن الدوقس هذا الرأي ، وأشار بالإسراع قصداً لشر يتطرق اليه ، ولتدبير كان دبره ، فسار ففارقه ابن الدوقس وابن لؤلؤ في عشرة آلاف فارس ، وسلكوا طريقاً آخر . فجاء بعض أصحاب الملك ، وأخبر الملك بأن ابن الدوقس وابن لؤلؤ حالفا اربعين رجلا وهو أحدهم على الفتك به ، فخاف ورحل من يومه راجعاً ، وتبعه ابن الدوقس ، وسأله عن سبب عودته ، فقال : قد اجتمعت علينا العرب وقربوا منا ، وقبض عليه وعلى ابن لؤلؤ ، فاضطرب الناس ، ورحل الملك ، وتبعهم العرب وأهل السواد والأرمن ، يقتلون وينهبون ، ونجا الملك ولم يَسْلَم من أمواله شيء ، وقد ذكر هذه الحادثة ابن الأثير في سنة ٤٠٢ و ٤٢١ و ٤٢٦ هـ .

وذكر ابن الوردي [1] عن ابن المهذب المعري ، أن ملك الروم اسمه أرمانوس ، وكانوا ستمائة الف ، وخرج في شهر تموز ومعه ملك البلغر وملك

---

(١) انظر ديوان ابن أبي حصينة الحاشية ص ٣٤٧ عن تاريخ ابن الوردي .

الروس والألمان والخزر والأرمن والبلجيك والفرنج ، وغنم المسلمون منهم مالا يحصى ، وأسروا جماعة من أولاد ملوكهم ، وفي ذلك يقول الأمير أبو الفتح الحسن بن عبد الله بن أبي حَصِينة المعري التنوخي ، من قصيدة أنشدها شبلَ الدولة بظاهر قنسرين مطلعها :[1]

دِيارُ الحيِّ مقفرةٌ يَبابُ كأن رسومَ دِمْنَتِها كتابُ

وفيها يقول :

وأرمانوسُ كان أشدَّ بأساً وحَلَّ به على يدِك العذابُ
أتاك يجرُّ بحراً من حديدٍ له في كلِّ ناحية عُبابُ
إذا سارت كتائبهُ بأرضٍ تَزَلْزَلَتِ الأباطحُ والهِضابُ
فعاد وقد سَلبْتَ الملكَ عنه كما سُلِبَتْ عن الميْتِ الثياب
فما أدناه من خيرٍ مجيءٌ ولا أقصاه عن شرٍّ ذهابُ

ولعل أبا العلاء يشير إلى هذه الحادثة بقصيدته التي يقول فيها :[2]

أيُوعِدُنا بالرّومِ ناسٌ وإنما همُ النَّبْتُ والبيضُ الرِّقاقُ سَوامُ
كأن لم يكنْ بين المَخاضِ وحارمٍ كتائبُ يُشْجينَ الفَلا وخِيامُ
كتائبُ من شَرقٍ وغربٍ تألّبتْ فُرادى أتاها الموتُ وهو زُؤام[3]

---

(١) ديوانه ١/٣٤٧ ، ٣٤٨ .

(٢) شروح سقط الزند ، ق ٢ ص ٦٠٢ .

(٣) في الشروح : « أتاها الموت وهي تُؤام » .

لأنه يقول فيها :

وظنّوك ممن يُطفيء البَردُ نارَهُ إذا طَلَعَتْ عندَ الغُروبِ جَهامُ

ويجوز أن يكون يشير بها إلى الحادثة التي قبلها ، لأنه ذكر فيها المخاض ، ويقول فيها بعد قوله : وظنوك ممن ... :

وأنّكَ تَثْنيها قُبالةَ جِلّقٍ متى لاحَ بَرْقٌ واستَهَلَّ غَمامُ(١)

وهذه الحادثة تدل على أن المخاض موضعٌ على النهر المقلوب (٢) لأنه بقرب المعرة .

وفي سنة ٤٣٢ هـ دخل جماعة من بني جعفر بن كلاب ولاية أفامية ، فعاثوا فيها ونهبوا عدة قرى ، فخرج عليهم جمع من الروم ، فأوقعوا بهم وأزالوهم عن بلادهم ، فأرسل الناظر بحلب إلى الدزبري يعرفه الحال ، فجهز جيشاً وسيّره على مقدمته ، فالتقوا بجيش الروم بين مدينة حماة وأفامية ، واشتد القتال ، فانهزم الروم وأُسر ابن عم الملك ، وقتل منهم خلق كثير .

الاحداث التي وقعت في المعرة في عهد أبي العلاء

في سنة ٣٩٣ هـ خرّب لؤلؤ السيفي الجراحي المتغلب على حلب بعد أبي الفضائل كفر روما ، وهي قرية من قرى المعرة ، وقد كانت حصناً حصيناً ، وحصن أروح ، مخافة أن يقصد فيها .

وفي سنة ٤١٧ هـ صاحت امرأة يوم الجمعة في جامع المعرة ، وذكرت أن صاحب الماخور أراد أن يغصبها نفسها ، وكان نصرانياً ، فنفر كل من في الجامع ، إلا القاضيَ والمشايخ ، وهدموا الماخور ، وأخذوا خشبه ونهبوه

(١) في الضروح : « واستقل غمام » .
(٢) النهر المقلوب هو كما مر بنا : النهر المعروف اليوم بالعاصي .

وحرقوه وقتلوا الضامن ، وكان صالح بن مرداس صاحب حلب يومئذ في نواحي صيداء ، وكان له وزير يقال له : تازروس [أو تاذروس ، أو تادروس] ابن الحسن النصراني ، وكان متمكنا عنده ، وكان صاحب السيف والقلم ، وكان أهل المعرة قتلوا حماه الحوري ، فكان في نفس تازروس شيء من أهل المعرة من أجل حميه ، فكان يؤذيهم ، ويتتبع قتلته حتى قتلهم وصلبهم ، فلما أنزلوا عن الخشب ليصلّى عليهم ويُدْفنوا ، قال الناس : قد رأينا عليهم طيوراً بيضا ، وما هي إلا الملائكة ، يريدون بذلك كيد النصارى ، فبلغت هذه الكلمة تازروس ، فنقمها على أهل المعرة واعتدّها ذنبا لهم ، وتربص بهم السوء ، فلما وقعت حادثة الماخور ، على ماذكرنا ، وسوس الوزير لصالح وأوغر صدره على أهل المعرة . وكان صالح قد وصل إلى حلب سنة ٤١٨ هـ فحاصر المعرة ونصب المناجيق وشدد الحصار عليها واعتُقِلَ سبعون رجلًا من شيوخها وأعيانها [١] ، ولبثوا سبعين يوماً في محبس الحصن ، وذلك بعد عيد الفطر بأيام ، وقد دُعِيَ للمعتقلين على المنابر بآمَدَ وميّافارقين ، وكان تازروس أشار على صالح أن يقتلَ المهذب الشيخ أبا الحسن وأبا المجد محمد بن عبد الله بن سليمان أخا أبي العلاء ، وأوهمه أن في ذلك إقامةً للهيبة ، فأبى صالح أن يوافقه على القتل ، وقطع تازروس الف دينار [٢] على أهل المعرة وكان بعضُ بني سليمان جدّ أبي العلاء ممن اعتُقِل ، فلما اشتد الحصار على أهلها ، وآنسوا من نفوسهم العجز عن مقاومته ، لأنه جاءهم بما لاقبل لهم به ، جاءوا إلى أبي العلاء ، وقالوا له : إن الأمر قد عَظُم ، وليس له غيرك ، وسألوه أن يخرج إلى صالح

---

(١) في الوافي والوفيات : قبض أحد كبار كتاب صالح على سبعين . . (ج)

(٢) في طبقات النحاة واللغويين : ص ١٧٠ عشرة آلاف دينار (ج) .

بنفسه، ويدبر الأمر برأيه، إما بأموال يبذلونها، أو طاعة يعطونها. فخرج أبو العلاء ويدُه في يد قائده، فلما فتح له باب من أبواب المعرة وخرج منه، رأى صالح شيخاً قصيراً يقوده رجل. فقال: هذا أبو العلاء، فجيئوني به، فلما مثل بين يديه، سلم عليه ثم قال:

الأمير، أطال الله بقاءه، كالنهار المانع اشتد هجيرُه، وطاب أبرادُه، وكالسيف القاطع، لان صفحُه وخشن حدّاه، ﴿خُذِ العَفْوَ وأمُرْ بالعُرْفِ وأعرِض عن الجاهلين﴾ فقال صالح: ﴿لاتثريبَ عليكم اليوم﴾ وقد وهبت لك المعرة وأهلها. ثم قال له: أنشدني شيئاً من شعرك، فقال أبو العلاء: [1]

تَغَيَّبْتُ في مَنْزِلي بُرْهَةً سَتيرَ العُيُوبِ فَقيدَ الحَسَدْ
فلمّا مضى العُمْرُ إلا الأقَلّ وحمّ لِروحي فِراقُ الجَسَدْ
بُعِثْتُ شَفيعــاً إلى صالحٍ وذاكَ مِنَ القوم رَأْيٌ فَسَدْ
فَيَسْمَعُ مِنّيَ سَجْعَ الحَمامِ وأسْمَعُ منْهُ زَئيرَ الأسَدْ

فقال له صالح: بل نحن الذين تسمعُ منا سجْعَ الحمام ونسمع منك زئيرَ الأسد. ثم أمر بتقويض الخيام والمناجيق، فنقضت، ورحل ولم يعلم أبو العلاء أن المال قد قطع عليهم، ولو علم ذلك لسأل صالحا ردّه، ولما رجع أبو العلاء قال: [2]

نَجّى المَعَرّةَ من براثِنِ صالحٍ رَبٌّ يُعَافي كلّ داءٍ مُعْضِلِ

---

(١) اللزوميات هـ ص ١١٦ .

(٢) اللزوميات هـ ص ٢٢٠ ، وانظر الحاشية (٤) ص ٤٨ .

ماكان لي فيها جَنَاحُ بَعُوضَةٍ   اللهُ أَلْبَسَهُمْ جَنَـاحَ تَفَضلِ

وبعض الرواة يقول: [1] إن صالحا استدعى اليه أبا العلاء، وهو بظاهر المعرة. وآخر يقول: [2] استدعـاه اليه وهو في حلب. ولم يثبت أن أبا العلاء خرج من المعرة إلى حلب بعد رجوعه من بغداد. وعلى كل رواية ثبت أنه خرج الى لقاء صالح، ولقيه وقال له ماتقدم معناه، على اختلاف في الروايات.

وروى بعضهم كلمة أبي العلاء لصالح على غير هذا الوجه، وذكر آخرون: أنه قال الأبيات الدالية بعد مفارقته صالحـا، وهذا أقرب الى القبول، لأن بعدها بيتا خامسا ذكره في (لزوم مـالا يلزم) ورواه ابن العديم وهو قوله:

فَلا يُعْجِبَنِّيَ هذا النِّفـاقُ   فَكَمْ نَفَّقَتْ مِحْنَةٌ ما كَسَدْ [3]

والظاهر من مواضعات أهل ذلك العصر أن مثل هذا البيت لايقـال لمثل صالح في مثل هذا الموقف الخطير، وفي (لزوم مالا يلزم) قبل البيتين الآخرين اللذين على روي اللام، بيت آخر وهو:

آليتُ أرغبُ في قميصٍ مُمَوَّهٍ   فأكونَ شارِبَ حنظلٍ في حَنْضَلِ [4]

الحنضل: الغدير الصغير وجمع حنضلة وهو الماء في الصخرة، والحنظل نبات مر معلوم.

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٦٧ عن الانصاف والتحري ـ لابن العديم.
(٢) روى هذا الخبر ابن العديم في الانصاف والتحري وأثبت في ص ٥٦٦ من تعريف القدماء بأبي العلاء.
(٣) اللزوميات هـ ص ١١٦، وروى هذا الخبر تعريف القدماء بأبي العلاء ص ١٤١ عن إرشاد الأريب ـ لياقوت.
(٤) اللزوميات هـ ص ٢٢٠ وفيها: «حنظل من...» بدل: «حنظل في...»

وهذه القصة رواهـا ياقوت في (معجم الأدباء) وابن العديم والقفطي والذهبي والوردي والصفدي وغيرهم ، ونقلت عن أبي غـالب بن المهذب المعري في تاريخه وهو أوثق الجميع ، لأن الحادثة وقعت في حياته ، وكلهم أخذوا عنه ، وتصرف بعضهم بما لا يغير في إثبـات الحادثة ، وقد خصّ ما ذكرناه من أقوال الجميع . ولم يتبين لنا ظاهر المعرة الذي كان به صالح : هل هو في الشرق أم في الغرب ، أم في غيرهما ، ويغلب على الظن أنه من جهة الشرق ، فإن لم يكن فمن جهة الشمال لأنها أول ما يتامل القادم من حلب إلى المعرة . والأبيات اللامية المذكورة رويت بروايات مختلفة

وقد ذكر أبو العلاء هذه الحادثة في قصيدة في (لزوم مـالا يلزم) فقال : [1]

أَتَتْ جامِعٌ يوم العَروبةِ جامِعاً ... تَقُصُّ على الشُّهّادِ بالمصر أمْرَها

فلولم يقوموا ناصرين لِصَوْتِها ... لَخِلْتُ سماءَاللهِ تُمْطِرُ جمرَها

فهَدُّوا بناءً كان يأوي فِنـاءَه ... فواجرُ ألقَتْ للفواحِشِ خُمْرَها

وزامرةٍ ليستْ من الزُّبدِ خضّبَتْ ... يَدَيْها ورِجْلَيْها تنَفِّقُ زَمْرَها[2]

أَلِفْنَا بِلادَ الشام إِلْفَ وِلادة ... نلاقي بها سُودَ الخطوب وحُمْرَها

فطَوْراً نداري من سُبَيْعَةَ لَيْثَها ... وحيناً نُصَادِي[3] من ربيعةَ نَمْرَها

---

(١) اللزوميات هـ ص ١٣٨ .

(٢) زمر يزمر ويزمُر غنى في القصب وامرأة زامرة وزمرت النعامة صوتت والزمارة الزانيـة (ج) .

(٣) نداري (ج) .

أليس تميمٌ غيّر الدهرُ سَعدَها ... أليس زُبَيدٌ أهلَكَ الدهرُ عَمرَها
وددتُ بأني في عَمَايَة[1] فاردٌ[2] ... تعاشِرني الأروى[3] فأكرهُ قَمرَها[4]
أفِرُّ من الطغوى[5] إلى كل قفرةٍ ... أُوانِس طُغْياها[6] وآلفُ قُمرَها
فإني أرى الآفاقَ دانتْ لظالمٍ ... يَغُرُّ بغاياها ويشرَبُ خَمرَها
ولو كانت الدنيا من الإنسِ لم تكُنْ ... سِوى مومِسٍ أفنت بما ساء عُمرَها
تَدين لمجدودٍ وإنْ باتَ غيرُهُ ... يَهُزُّ لها بيضَ الحروبِ وسُمرَها
وما العيشُ إلا لجةٌ باطِليّةٌ ... ومن بَلَغَ الخمسين جاوزَ غَمرَها
وَمَا زالتِ الأقدارُ تَترُكُ ذا النهى ... عَديماً وتعطي مُنْيَةَ النفسِ غُمرَها
إذا يسَّر اللهُ الخطوبَ فكم يدٍ ... وإن قَصُرَت تجني من الصابِ تَمرَها
ولولا أصولٌ في الجيادِ كوامِنٌ ... لما آبتِ الفُرسانُ تَحمَدُ ضُمرَها

وقد استنبط صاحب (الذكرى)[7] من هذه الأبيات أن اسم المرأة التي صاحت (جامع) ، وذهب الأستاذ الميمني[8] إلى أن الجامع هي الحامل ،

---

(١) جبل (ج) .
(٢) منفرد (ج) .
(٣) الوعل (ج) .
(٤) قمر الطائر : عشاه في الليل بالنار ليصيده ، وقمره خدعه (ج) .
(٥) اسم من طغى إذا جاوز وارتفع وغلا في الكفر وجاوز الحد في العصيان (ج) .
(٦) طغْيا : بقرة الوحش أو الصغير من بقر الوحش ، والقُمْرة لون إلى الخضرة أو بياض فيه كدرة ، حمار أقمر وأتان قمراء (ج) .
(٧) ذكرى أبي العلاء — لطه حسين — ط ٢ ص ٢٠٩ .
(٨) أبو العلاء وما إليه — للميمني — ص ٢٤٠ .

وقد قال في (لسان العرب) : وامرأة جامع في بطنها ولد . وكلا القولين لا يخرج عن حدود الظن والاحتمال لأن لفظ الجامع جاء علماً ، وجاء لمعان غير ما ذكر ، وإنما يجلي الحقيقة النص التاريخي وليس لدينا ذلك .

الخلفاء الفاطميون الذين أدركهم أبو العلاء

هم خمسة : الأول : المعز لدين الله أبو تميم معدّ بن المنصور إسماعيل ، ولي الخلافة سنة ٣٤١ هـ وتوفي سنة ٣٦٥ هـ وفي آخر عهده ولد أبو العلاء سنة ٣٦٣ هـ

الثاني : العزيز بالله نزار بن المعز ، ولي بعد أبيه سنة ٣٦٥ هـ وتوفي سنة ٣٨٦ هـ .

الثالث : المنصور الحاكم بأمر الله ابن العزيز ولي سنة ٣٨٦ هـ وتوفي سنة ٤٢١ هـ .

الرابع : الظاهر لإعزاز دين الله علي بن المنصور ولي سنة ٤٢١ هـ وتوفي سنة ٤٢٧ هـ .

الخامس : المستنصر بالله معد بن الظاهر ولي سنة ٤٢٧ هـ وتوفي سنة ٤٨٧ هـ . وقد توفي أبو العلاء في عهده سنة ٤٤٩ هـ .

وقد استولى الفاطميون على دمشق سنة ٣٥٨ هـ ، وخطب في حلب أبو المعالي وقَرْعونة للمعز الفاطمي سنة ٣٥٩ هـ وسلم فتحُ غلامُ مرتضى الدولة حلبَ إلى نواب الحاكم سنة ٤٠٦ هـ على نحو ما تقدم .

الخلفاء العباسيون الذين أدركهم أبو العلاء :

في منتصف ذي القعدة سنة ٣٦٣ هـ كلّف سبكتكين التركي الخليفة المطيعَ لله الفضلَ بنَ المقتدر أن يخلع نفسه ففعل ، وهو الثالث والعشرون من خلفاء بني العباس ، وكانت ولادة أبي العلاء في ربيع الأول سنة ٣٦٣ هـ فيكون أدرك من خلافته نحواً من سبعة أشهر ونصف على اختلاف في الأقوال .

وخلفه في هذه السنة ولده الطائع لله عبد الكريم وهو الرابع والعشرون ، ثم قبض عليه بهاء الدولة ابن عضد الدولة سنة ٣٨١ هـ وحبسه في داره وأشهد عليه بالخلع ، ونهب دار الخلافة واستمر الطائع سجيناً في منزله إلى أن توفي سنة ٣٩٣ هـ .

وبويع القادر بالله أحمد بن إسحاق بن المقتدر في تلك السنة وتوفي سنة ٤٢٢ هـ . ثم خلفه ابنه القائم بأمر الله عبد الله بن القادر في تلك السنة وتوفي سنة ٤٦٧ هـ وقد كانت وفاة أبي العلاء في سنة ٤٤٩ هـ . فيكون أدرك أربعة خلفاء منهم .

طائفة من الأحداث

التي وقعت في عهد أبي العلاء في العراق وغيرها

في سنة ٣٣٤ هـ وصل معز الدولة بغداد وبايع المستكفي بالله ثم خلعه ونهب داره ، وبايع المطيع لله واستلم نواب المعز العراق بأسره ، ولم يبق في يد الخليفة غير ما أقطعه إياه معز الدولة مما يقوم ببعض حاجته ، ثم مات معز الدولة وولي بعده ابنه عز الدولة بختيار .

وفي سنة ٣٦٣ هـ سار بختيار إلى الأهواز وتخلف سبكتكين التركي عنه ببغداد . فأوقع بختيار بمن معه من الأتراك واحتاط على أقطاع سبكتكين فخرج عليه سبكتكين ببغداد فيمن بقي معه من الأتراك ونهب دار بختيار ببغداد ، وألزم المطيع أن يخلع نفسه ويسلم الخلافة إلى ولده الطائع ففعل .

وفي هذه السنة سارت القرامطة إلى بلاد مصر فحاربهم المعز العلوي ، فانهزموا ، فأرسل في إثرهم عشرة آلاف فارس ، فسارت القرامطة إلى الأحساء والقطيف ، فأرسل المعز القائد ظالم بن موهوب العقيلي إلى دمشق فدخلها وعظم أمره . ثم وقع بين أهل دمشق والمغاربة وعاملهم المذكور فتن دامت إلى سنة ٣٦٤ هـ أحرقوا خلالها بعض مدينة دمشق .

انحدر سبكتكين في سنة ٣٦٣ هـ بالأتراك إلى واسط ، وأخذ معه الخليفتين الطائع والمطيع ، فمات المطيع وسبكتكين ، وولى الترك عليهم أفتكين ، وساروا إلى واسط وبها بختيار ، فاقتتلوا نحو خمسين يوماً ، وكان الظفر للأتراك ، فاستنجد بختيار بابن عمه عضد الدولة ، فسار في سنة

٣٦٤ﻫ بعساكر فارس ، فلما قارب واسط رجع أفتكين إلى بغداد ، فسار إليها عضد الدولة من الجانب الشرقي ، وسار بختيار من الجانب الغربي ، وخرجت الأتراك فقاتلوا عضد الدولة فهزمهم ، ثم شغب الجند على بختيار يطلبون أرزاقهم ، فأشار عليه عضد الدولة أن يتبرأ من الإمرة ليصلح الحال مع الجند ففعل . فأشهد عضد الدولة الناسَ على بختيار أنه عاجز وقد استعفى من الإمرة ، ثم قبض على بختيار وإخوته واستتب له الأمر ببغداد . وكان لبختيار ولد يقال له المرزبان ، كان متولياً بالبصرة ، فكتب إلى ركن الدولة أبي عضد الدولة بذلك ، فما زال يلح على ولده عضد الدولة حتى أخرج بختيار من حبسه ، وأعاده إلى ملكه ، وسار عن العراق .

وأما أفتكين التركي فقد كان مولى لمعز الدولة بن بويه ، فلما انهزم من بختيار سار إلى دمشق ، فاتفق مع أهلها وأخرجوا ريان الخادم أميرها من قبل المعز العلوي الذي مات في هذه المدة سنة ٣٦٤ﻫ .

فلما ولي ابنه العزيز جهز القائد جوهراً إلى الشام ، فوصل إلى دمشق وحصر أفتكين فيها ، فاستنجد بالقرامطة ، فلما قربوا منها رحل جوهر إلى مصر ، وتبعه أفتكين والقرامطة ، فأدركوه قرب الرملة ، فدخل عسقلان فحصروه فيها ، فبذل إلى أفتكين أموالاً عظيمة ، فأخذها ورحل عنه .

وسار جوهر إلى مصر فأعلم العزيز بما وقع ، فخرج بنفسه إلى الرملة ، فالتقى بأفتكين والقرامطة ، فهزمهم والتجأ أفتكين إلى مفرج بن دغفل الطائي ، فأعلم العزيز به ، فأرسل من أحضره وخلع عليه واصطحبه إلى مصر وبقي عنده مكرماً حتى مات .

وفي سنة ٣٦٦ﻫ سار عضد الدولة بعد موت أبيه إلى العراق ، فخرج بختيار إلى قتاله بالأهواز ، ثم انهزم بختيار إلى واسط وبعث عضد الدولة عسكراً فاستولى على البصرة ، ثم سار إليها وقرر أمورها وذهب بختيار إلى بغداد .

وفي سنة ٣٦٧ ﻫ كتب عضد الدولة إلى بختيار يقول له : اخرج من هذه البلاد وأنا أعطيك أي بلاد اخترت غيرها . فرضي وسار إلى نحو الشام ، ودخل عضد الدولة بغداد واستقر فيها ، ولعل أبا العلاء يشير إلى هذه الحوادث بقوله : (١)

لو بُعِثَ المنصورُ نادى أبا   مَدينَةَ التسليمِ لا تَسْلَمِي
قَدْ سَكَنَ القفرَ بنوهاشِمٍ   وانتقل الملكُ إلى الدَّيلَمِ
لو كُنْتُ أدري أن عُقباهُمُ   كذاكَ لم أقْتُلْ أبا مُسلمِ
قد خَدَمَ الدولةَ مستنصِحاً   فألْبَسَتْهُ شِيَةَ العِظْلِمِ

ثم أطمع حمدانُ بنُ ناصر الدولة بختيارَ في ملك الموصل وهوّن عليه أمر أخيه أبي تغلب ، وأرسل أبو تغلب إلى بختيار يقول له : إن سلّمت إلى أخي حمدان صرتُ معك وقاتلتُ عضدَ الدولة . فغدر بحمدان وسلمه إلى أخيه فحبسه ثم سار أبو تغلب وبختيار إلى بغداد فخرج منها عضد الدولة والتقوا بقصر الجص من نواحي تكريت فقُتِل بختيار وهرب أبو تغلب إلى ميافارقين ، فأرسل جيشاً في طلبه مقدّمه أبو الوفاء ، فهرب أبو تغلب إلى بدليس فتبعه ، فهرب إلى نحو بلاد الروم فتبعه وجرى بينهما قتال ، فانتصر أبو تغلب وهزم العسكر وسار إلى حصن زياد ، وهو خرت برت ، ثم إلى آمد فأقام بها . وكان عضد الدولة بعد قتل بختيار سار إلى الموصل فملكها .

وفي سنة ٣٦٨ ﻫ فتح أبو الوفاء المذكور ميافارقين بالأمان فسار أبو تغلب إلى الرحبه ، ثم فتح أبو الوفاء آمد واستولى عضد الدولة على جميع ديار بكر ثم ديار مضر والرحبة ، فاستخلف أبا الوفاء على الموصل وعاد إلى بغداد . أما أبو تغلب فإنه سار إلى دمشق ، وقد كان قسام استولى عليها ،

(١) اللزوميات ﻫ ص ٢٠٢ ، وفيها : «فذاك لم أقتل ...» والعظلم: الليل المظلم ونبت يصبغ به

فقاتل أبا تغلب ومنعه من دخولها ، فسار إلى طبرية ، ثم سار إلى الرملة سنة ٣٦٩ هـ ، ولم يبق معه إلا سبعمائة رجل من غلمانه وغلمان أبيه . وكان في تلك الجهة دغفل بن مفرج الطائي وقائد من قواد العزيز اسمه الفضل ، جهزه العزيز إلى الشام فساروا لقتال أبي تغلب فولى منهزما ، ثم اسر فقتله دغفل ، وكان معه أخته جميلة بنت ناصر الدولة وزوجته بنت عمه سيف الدولة ، فحملها بنو عقيل إلى حلب ، وبها ابن سيف الدولة فأبقى أخته عنده وأرسل جميلة إلى بغداد ، فاعتقلت في حجرة في دار عضد الدولة .

وفي سنة ٣٧٢ هـ سير العزيز العلوي جيشاً إلى الشام مع بكتكين ، فوصل إلى فلسطين وعليها مفرّج بن الجراح فانهزم وكثر القتل في أصحابه ، ثم سار بكتكين إلى دمشق وعليها قسام ، فغلبه بكتكين ، وأرسله إلى العزيز بمصر ، واستقر بدمشق ، وفيها توفي عضد الدولة وولي الإمارة بعده ولدُهُ كاليجار المرزبان ، ولقبوه صمصام الدولة ، وكان أخوه شرف الدولة شيرزيك بكرمان ، فسار إلى فارس فملكها .

وفي سنة ٣٧٥ هـ قصد القرامطة الكوفة ففتحوها ونهبوها ، فجهز صمصام الدولة جيشاً فهزمهم وأكثر القتل فيهم .

وفي سنة ٣٧٦ هـ سار شرف الدولة شيرزيك من الأهواز إلى واسط فملكها وركب اليه أخوه صمصام الدولة بخواصه مستأمناً ، فطيب قلبه ، فلما خرج من عنده غدر به وقبض عليه ، وسار إلى بغداد ودخلها ، وأخوه معتقل معه ، ثم أرسله إلى فارس ، فاعتقله في قلعة هناك .

وفي سنة ٣٧٩ هـ أرسل شرف الدولة محمد الشيرازي ليسمل أخاه صمصامَ الدولة ، فوصل إليها بعد موت شرف الدولة وسمله فأعماه ، ولما توفي شرف الدولة خلفه أخوه أبو نصر بهاء الدين ، وقيل اسمه خاشاذ ، وفيها وقعت الفتنة في بغداد بين الترك والديلم واقتتلوا خمسة أيام ، وظل

بهاء الدولة في داره اثني عشر يوما يراسلهم في الصلح فلم يسمعوا ، ثم صار مع الترك ، فضعف أمر الديلم ، وأجابوا إلى الصلح ، وأخذ بعد ذلك أمرُ الترك يقوى ، وأمرُ الديلم يضعف .

وفي هذه السنة شخص أبو الطاهر إبراهيم وأبو عبد الله الحسين ابنا ناصر الدولة إلى الموصل فاستوليا عليها وطردا العامل والعسكر الذي قاتلهما إلى بغداد واستقرا في الموصل .

وفي سنة ٣٨٠ ﻫ استولى أبو الذواد محمد بن المسيب بن رافع أمير عقيل على الموصل ، وقتل أبا الطاهر وأولادَه وعدة من قواده بعد قتال شديد .

وفي سنة ٣٨١ ﻫ خلع بهاءُ الدولة الطائعَ طمعاً في ماله ، وبويع بعده القادر بالله .

وفي سنة ٣٩٠ ﻫ ولى الحاكمُ نيابةَ الشام فحلَ بنَ تميم فمرض ومات .

وفي سنة ٣٩٢ ﻫ ولى الحاكم عوضَه على دمشق عليّ بن جعفر بن فلاح .

وفي سنة ٣٩٩ ﻫ ولى الحاكم القائدَ أبا الجيش حامد بن ملهم أميراً على دمشق بعد علي بن جعفر فوليها سنة وأربعة أشهر ، ثم عزل بمحمد بن بزال .

وفي سنة ٤٠١ ﻫ ولى الحاكمُ لؤلؤَ بنَ عبد الله الشيرازي البشاري أو البشراوي منتجبَ الدولة ثم عزله وولى أبا المطاع ذا القرنين ابن حمدان التغلبي (وحيد الدولة) .

وفي سنة ٤٠٣ ﻫ توفي بهاء الدولة ، وولي الملكَ بعده ابنُه سلطانُ الدولة أبو شجاع .

وفي سنة ٤٠٦ ﻫ قتل سلطانُ الدولة نائبه بالعراق فخرَ الملك أبا غالب واستوزر أبا محمد الحسن بن سهلان .

وفي هذه السنة ولى الحاكمُ دمشقَ سانكين سهم الدولة ، وعزله سنة ٤٠٨ﻫ .

وفي سنة ٤١١ هـ شغب الجند ببغداد على سلطان الدولة ، فاستخلف أخاه مشرف الدولة على العراق ، وسار إلى الأهواز ، واستوزر في طريقه ابن سهلان ، ثم أرسله ليُخرج أخاه مشرفَ الدولة من العراق ، فاقتتلا فانتصر أخوه وأمسك ابن سهلان وسمله ، ففر سلطان الدولة إلى الأهواز في أربعمائة فارس ، واستقر أخوه في ملك العراق ، وخطب له في أواخر المحرم سنة ٤١٢ هـ ثم في سنة ٤١٣ هـ اصطلحا على أن يكون العراق لمشرف الدولة ، وكرمان وفارس لسلطان الدولة ، وفيها استوزر مشرفُ الدولة أبا الحسن بن الحسن الرخجي ، ولقّب مؤيدَ الملك ، ثم قبَض عليه سنة ٤١٤ هـ واستوزر أبا القاسم المغربي ، وتوفي مشرف الدولة سنة ٤١٦ هـ .

وفي سنة ٤١٧ هـ تسلط الأتراك في بغداد ، فأكثروا مصادرات الناس بسبب خلو بغداد من سلطان .

وفي سنة ٤١٨ هـ استدعى الجند بأمر الخليفة جلالَ الدولة أبا طاهر ابن بهاء الدولة إلى بغداد ، فحلّفه الخليفةُ القادرُ واستوثق منه . واستقر في بغـداد .

وفي سنة ٤٢٣ هـ شغب الجند ببغداد على جلال الدولة ، ونهبوا داره ، وأخرجوه من بغداد إلى عكبراء ثم اتفقوا معه ، وعاد إلى بغداد .

وفي سنة ٤٢٦ هـ انحل أمر الخلافة والسلطنة ببغـداد وعظم أمر العيّارين(١) ، فصاروا يأخذون أموال الناس ليلًا ونهاراً ، والسلطان جلال الدين عاجز ، والخليفة أعجز منه ، وانتشرت العرب في البلاد ، ونهبوا النواحي وقطعوا الطريق .

---

(١) العيار كشداد الرجل الذكي الكثير التطواف والحركة والعرب تمدح وتذم بالعيار . قال ابن الأنباري : العيار من الرجال الذي يخلّي نفسه وهواها لا يروعها ولا يزجرها ، كذا في المصباح ولعله : لا يردعها . (ج)

وفي سنة ٤٣٥ هـ توفي جـلالُ الدين ، وكان ابنُه العزيزُ أبو بكر منصور بواسط ، فكاتبه الجند فيما يحمله اليهم ، فلم ينتظم له أمر فسار يطلب النجدة من الملوك ، مثل قرواش وأبي الشوك ، فلم ينجده أحد . فقصد نصرَ الدولة بنَ مروان وتوفي عنده بميافارقين سنة ٤٤١ هـ .

ولما لم ينتظم أمره كاتب الملك أبو كاليجار بنُ سلطان الدولة بن بهاء الدولة ابن عضد الدولة عسكرَ بغداد ، فاستقر له الأمر ،وخطب له ببغداد سنة ٤٣٦هـ .

وفي سنة ٤٤٠ هـ خرج بهرام الديلمي عامل أبي كاليجار عن طاعته ، فسار أبو كاليجار إلى بلاد كرمان ، فقويت به الحمى فمات بمدينة جناب من كرمان ، ونهب الأتراك الخزائن والسلاح والدواب من العسكر . وكان معه ولده أبو منصور فلاستون ، فذهب إلى شيراز فملكها . وله ولد آخر كان ببغداد وهو الملك الرحيم أبو نصر خسرو فيروز بن أبي كاليجار ، فاستولى على بغداد ، ثم أرسل عسكراً إلى شيراز ، فقبض على أخيه فلاستون وعلى والدته .

وفي هذه السنه أي سنة ٤٤٠ هـ ولى المستنصرُ طارقاً الصقلي دمشقَ وعزله عنها ناصر الدولة الحسن بن الحسن بن حمدان .

وفي سنة ٤٤١ هـ سار البساسيري كبيرُ الأتراك ببغداد وملك الأنبار وقرر قواعدها ، وعاد إلى بغداد .[1]

وفيها وقعت فتنة ببغداد بين السنة والشيعة ، وعظم الأمر حتى بطلت الأسواق ، وشرع أهل الكرخ في بناء سور عليهم محيطاً بالكرخ ، وشرع السنية من القلايين ومن يجري مجراهم في بناء سور على سوق القلايين ، وكان

---

(١) البساسيري مملوك تركي من مماليك بهاء الدولة بن عضد الدولة اسمه أرسلان ، ينسب إلى مدينة بسا بفارس وكان سيدُ هذا المملوك منها فقيل له البساسيري . (أبو الفداء ٢ ـ ١٧٩) . (ج)

الاذان بأماكن الشيعة بـ (حي على خير العمل) ، وبأماكن السنية : (الصلاة خير من النوم) .

وفي هذه السنة صرف المستنصرُ طارقاً الصقلي عن دمشق ، وولى مكانه عدةَ الدولة المستنصري ، ثم صرفه وبعث به إلى حلب ، وَوَليَ دمشقَ حيدرةُ بن الحسين بن مفلح أبو الكرم المؤيد فأقام بها تسع سنين .

وفي سنة ٤٤٣ هـ وقعت فتنة بين الشيعة والسنية وعظم الأمر ، وأُحْرِق ضريحُ موسى بن جعفر وقبر زبيدة وقبور بني بويه وجميع الترب التي حواليها ووقع النهب ، وقصد أهل الكرخ إلى خان الحنفيين وقتلوا مدرّس الحنفيين أبا سعيد السرخسي وأحرقوا الخان ودور الفقهاء ، ثم صارت الفتنة إلى الجانب الشرقي فاقتتل أهل باب الطاق وسوق يحيى والأساكفة ، وعادت الفتنة سنة ٤٤٤ هـ .

وفي سنة ٤٤٧ هـ ثارت جماعة من السنية ببغداد وطلبوا من الخليفة أن يأذن لهم أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر ، فأذن لهم وزاد شرهم وأذن لهم في نهب دور البساسيري ، وقد كان غائباً في واسط فنهبوها وأحرقوها ، وأرسل الخليفة إلى الملك الرحيم يأمره بإبعاد البساسيري فأبعده ، وسار إلى جهة دبيس بن مرثد لمصاهرة بينهما .

وفي هذه السنة نزل طغرلبك حلوان ، فعظم الإرجاف ببغداد ، وأرسل قوادُ بغداد يبذلون له الطاعة والخطبة فأجابهم إلى ذلك ، ثم أرسل طغرلبك واستأذن في دخول بغداد ، فتوجهت إليه الرسل فحلّفوه للخليفة القائم وللملك الرحيم فحلف لهما ، ودخل بغداد ، ونزل بباب الشماسية . ثم جرى بين عسكره وبين بعض السوقية هوشة ، وثار أهل تلك المحلة على مَن فيها من الغز عسكر طغرلبك ونهبوهم ، وثارت بينهم الفتنة ببغداد ، وخرجت العامة إلى وطاقات طغرلبك ، فركب عسكره وتقاتلوا ، فانهزمت العامة ، وأرسل طغرلبك يقول : إن كان هذا من الملك الرحيم فهو لا يقدر على

الحضور إلينا ، وإن كان بريئاً من هذا فلا بد من حضوره . فأرسل الخليفة إلى الملك الرحيم أن يخرج هو وكبار القواد وهم في أمان الخليفة ، فخرجوا إلى طغرلبك ، فقبض عليهم ، فعظم ذلك على الخليفة القائم ، وأرسل إلى طغرلبك في أمرهم ، وشكا من عدم حرمته وعدم الالتفات إلى أمانه ، فأفرج عن بعض القواد واستمر الباقون والملك الرحيم في الاعتقال .

وفي هذه السنة وقعت فتنة بين الشافعية والحنابلة ببغداد ، فأنكرت الحنابلة على الشافعية الجهـر بالبسملة والقنوت في الصبح والترجيع في الأذان .

ثم لما أقام طغرلبك في بغداد ثقلت وطأة عسكره على الرعية إلى الغاية ، فرحل في العاشر من ذي القعدة سنة ٤٤٨ هـ إلى نصيبين ثم إلى ديار بكر ، ولم يلق الخليفة مدة مقامه في بغداد ثلاثة عشر شهرا وأياما .

وفي سنة ٤٤٩ هـ عاد إلى بغداد بعد أن استولى على الموصل وأعمالها ، وسلمها إلى أخيه إبراهيم ينال . ولما قارب القفص خرج لتلقيه كبراء بغداد ، فلما دخلها قصد الاجتماع بالخليفة القائم ، فجلس له على سرير عال عن الأرض نحو تسعة أذرع وعليه البردة . ودخل طغرلبك في جماعته وأحضر أعيان بغداد وكبراء العساكر ، وذلك يوم السبت لخمس بقين من ذي القعدة ، فقبل الأرض ويد الخليفة ، ثم جلس على كرسي ثم قال له رئيس الرؤساء : إن الخليفة قد ولاك جميع ما ولاه الله تعالى من بلاده ، ورد إليك مراعاة عباده ، فاتق الله فيما ولاك ، واعرف نعمته عليك . وخلع على طغرلبك ، وأعطى العهد ، فقبل الأرض ويد الخليفة ثانياً وانصرف . ثم بعث إلى الخليفة خمسين ألف دينار وخمسين مملوكاً من الأتراك ، ومعهم خيولهم وسلاحهم مع ثياب وغيرها .

وكان أبو العلاء توفي في الثالث أو الثالث عشر من ربيع الأول من هذه السنة .

وقد أشار في شعره إلى ما كان يقع من الحوادث والفتن في مثل قوله[١] :

إنّ العراقَ وإنّ الشامَ مُذْ زَمَنٍ صِفرانِ ما بهما للمُلْكِ سلطانُ

وقوله[٢] :

والشامُ فيه وَقودُ الحربِ مُشتَعِلٌ يَشُبُّهُ القومُ شُدّتْ منهمُ الحُجَزُ
وبالعراقِ وميضٌ يَستَهِلُّ دماً وراعِدٌ بلقاءِ الشرِّ يَرْتَجِزُ

وقوله[٣] :

ومَهْلَكُ دولةٍ وقيامُ أُخرى كذاكَ الدهرُ أمرٌ بعد أمرِ

وقوله[٤] :

دَعي وذَري الأقدارَ تمضي لشأنِها فلم تَحْمِ مُلكاً لا دمشقُ ولا مِصْرُ
ولا الحَرَّةُ السوداءُ حاطتْ سيادةً ولا البَصْرَةُ البيضاءُ حصّنها البِصْرُ

---

(١) اللزوميات ٢ ص ٢٦٢ .
(٢) اللزوميات ٢ ص ١٧٢ .
(٣) اللزوميات ١ ص ١٥٣ .
(٤) اللزوميات ١ ص ١١٩ ، والبِصْر والبَصْر : الحجارة البيض .

الحياة السياسية في شعر أبي العلاء

اتضح مما تقدم أن أبا العلاء عاصر دولاً متعددة ، وشهد انقراض دول وقيام أخرى ، وما يستتبعه ذلك من إراقة دماء وتمزيق أشلاء ، وسمل عيون ودفن أحياء وهتك أعراض واستباحة محارم وخراب عامر وإحراق أموال وسلب ذخائر ومجاعات وما شاكل ذلك من الفظائع التي يقترفها الغالب والفاتح ، والفجائع التي يرتكبها الموتور والمغلوب إذا سنحت له الفرصة ، أضف إلى ذلك ما كانت تجره الفتن التي تضطرم باسم الدين ويشمل أذاها القاصي والداني ، حتى أفضى ذلك إلى خراب البلاد وهلاك العباد . ولم يكن هذا الويل مختصاً بالشام أو العراق أو مصر ، بل كل الأصقاع كانت مغمورة بفتن كقطع الليل المظلم . ولم تكن الأندلس أحسن حالاً من الشام وإنما كانت فيها عروش تنهار ودماء تراق وعمران يتداعى وأمراء تسوقهم أطماعهم إلى أن يخربوا بيوتهم بأيديهم وأيدي الفرنجة الذين يتربصون بهم السوء ولا يفترون عن الكيد لهم .

وفي افريقية كانت تلتهب نيران الفتن يشبها البربر وغيرهم ، فتلتهم الأخضر واليابس ، وما شئت أن تقول عن بلاد الأعاجم وما كان فيها من حروب طاحنة وفتن مبيدة فحدث ولا حرج .

كل هذا أدركه أبو العلاء ، وكان شديد العناية بحالة المسلمين عامة ، كثير التقصي لأخبارهم في الأصقاع المختلفة ، إلا أنه كان يطلع على أخبار البلاد العربية أكثر من غيرها ، لأنها كانت مقر الخلافة والملك ، ولأنها أقرب من غيرها إليه ، وكان أكثر اتصالاً بالرجال العالمين بأحوالها من أبنائها وغيرهم ، ولذلك تصدى في كلامه إلى ما كان فيها أكثر من غيرها .

وقد أورثه ما كان يسمعه من أمورها أسى وحزناً وليس لديه ما يفرج كربه إلا ما كان ينعاه على الملوك والأمراء وأعوانهم ، ولقد صور في

شعره الحياة السياسية أجمل تصوير ، فبيّن لنا أن شأن الملوك عَزْفٌ ونَزْفٌ ، ونهب الأموال واستباحة الفروج وظلم المستضعفين وتكليف الرعية ما لا تطيق وعدم حياطتها وإقامة العدل فيها وكثرة القتل وخضوع الآفاق للظالم المنهك في ملاذه ، حتى مل المقام لما يراه من جور الحكام الذين هم أجراء الأمة .

وإن الشام والعراق خاليان من سلطان يقيم العدل ، وإنما يسوس كل مصر شيطان لا يهمه إلا ملء بطنه بالخمر وغيرها ، وأنه لا يرى موضعاً إلا وهو مغمور بالفتن والمنكرات .

وإن مصر والعراق والشام والحجاز عاجزة عن حماية الملك واستقراره ، فهو ينتقل من يد غاصب متغلب إلى يد أقوى منه سلطاناً وأشد جشعاً وعنفاً ، وستأتي أمثلة من ذلك في شعره في السياسة وفي غيره .

الحياة الاقتصادية في عصره وشعره

لا يتسنى لأمة أن تحيا حياة الراحة والدعة إلا إذا خيم فوق ربوعها السلم ، وكانت الغلبة فيها للحق والعدل ، وتفيأ أهلها ظلاًّ ظليلا من الأمن والطمأنينة ، وتمتعوا بنعمة الأمانة والوفاء ، فتتسع بذلك موارد الثروة ، وتخصب مرافق الحياة ، ويصبح كل إنسان آمناً في سربه على نفسه وعرضه وأهله وماله ،

وللحياة الاقتصادية صلة محكمة بالحياة السياسية ، وقد عرفنا مما تقدم أنها كانت على أسوأ حالة ، تثل فيها عروش ، ويهدم عامر ، وتستباح دماء وأموال ، قضاء لشهوة وإشباعاً لنهمة ، وربما فعل الواحد بقريبه ما لا يفعله أشد عدو بعدوه . وكثيراً ما تفضي هذه الأمور إلى وقوع الناس بين أنياب الفاقة والجوع . وفي التاريخ عجائب وعبر مما وقع في هذا العهد من البؤس والجوع الذي اضطر الناس إلى أن يأكلوا أنواع الحيوان حياً وميتاً وأن يأكل بعضهم بعضاً . وربما كانت الطبيعة

عوناً للإنسان الظالم على الضعفاء المظلومين فأعانته بزلزال أو قحط أو طاعون أو مطر عظيم أو عواصف شديدة أو نحو ذلك مما يزيدهم ضغثاً على إبالة .

وهذه جملة موجزة من الحوادث توضح فيها الحياة التي صحبها أبو العلاء من أول عمره إلى آخره ، وما وقع منها في الأمصار العربية أو ما يجاورها .

ذكر ابن الأثير في حوادث سنة ٣٦٣ ه الفتنة التي أثارها المغاربة جنود المعز في دمشق ، وأحرقوا البلد من ناحية باب الفراديس ، فامتدت النار إلى جهة القبلة ، فأحرقت كثيراً من البلد وهلك من الناس والأثاث والأموال ما لا يحد . ثم عادت الفتنة سنة ٣٦٤ ه فأحرقوا من البلد ما كان قد سلم ، وخربت المنازل وانقطعت الموارد وانسدت المسالك وقطع الماء عن البلد ومات كثير من الفقراء على الطرقات من الجوع والبرد .

وفي سنة ٣٦٥ حصر جيشُ العزيز مكةَ ومنع الميرة عن أهلها فغلت الأسعار ولقي أهلها شدة شديدة .

وفي سنة ٣٦٧ ه وقعت زلازل في المهدية وامتدت أربعين يوماً .

وفي سنة ٣٦٨ ه وقعت زلازل وكان أشدها في العراق .

وفي سنة ٣٧١ ه وقع حريق في الكرخ دام اسبوعا هلك فيه خلق كثير ومال أكثر .

وفي سنة ٣٧٣ ه غلت الأسعار بالعراق وما يجاوره وعدمت الأقوات فمات كثير من الجوع .

وفي سنة ٣٧٦ ه كانت بالموصل زلزلة شديدة هدم فيها كثير من المنازل وهلك كثير من الناس واشتد الغلاء بالعراق حتى جلا أكثر أهله عنه .

وفي سنة ٣٧٧ ه اشتد الغلاء كذلك وتأخر المطر .

وفي سنة ٣٧٨ ه كثر المطر والبَرَد الكبار حتى امتلأت الأنهار والآبار

بلاد الجبل ، وخربت المساكن وانقطعت الطرق ، وكثرت العواصف بفم الصلح ، فأهلكت كثيراً من الناس وأغرقت كثيراً من السفن الكبيرة المملوءة

وفي سنة ٣٨١ ﻫ كثرت الفتن والحريق في بغداد ووقعت حرب بين الروم ومنجوتكين وعبر المسلمون الخاض بالروج كما سيأتي .

وفي سنة ٣٨٢ ﻫ غلت الأسعار ببغداد فبيع رطل الخبز بأربعين درهماً .
وفي سنة ٣٨٣ ﻫ اشتد الغلاء فيها حتى بيع كر الحنطة بستة آلاف وستمائة درهم غياثية .

وفي سنة ٣٨٤ ﻫ اشتد أمر العيارين[1] ببغداد ووقعت فتنة بين أهل الكرخ وأهل باب البصرة واحترق كثير من المال .

وفي سنة ٣٩٥ ﻫ كان بإفريقية غلاء شديد هلك فيه الناس وذهبت أموال الأغنياء وكثر الوباء .

وفي سنة ٣٩٧ ﻫ اشتد الغلاء فضج العامة وشغب الجند وكانت فتنة .

وفي سنة ٣٩٨ ﻫ زلزلت الدينور زلزلة شديدة خربت بها المساكن وهلك خلق كثير من أهلها وكان الذين دفنوا ستة عشر ألفاً سوى من بقي تحت الهدم ولم يشاهد .

وفي سنة ٤٠١ ﻫ اشتد الغلاء بخراسان جميعها وعدم القوت حتى أكل الناس بعضهم بعضاً ، ثم تبعه وباء عظيم حتى عجز الناس عن دفن الموتى .

وفي سنة ٤٠٢ ﻫ نهب حسان أمير طيء عسقلان وقتل أهلها .

وفي سنة ٤٠٨ ﻫ عظم أمر العيارين ببغداد فأفسدوا ونهبوا الأموال .

وفي سنة ٤١٣ ﻫ وقع غلاء شديد ومجاعة عظيمة بإفريقية لم يكن مثلها في تعذر الأقوات .

وفي سنة ٤١٤ ﻫ استولى حسان أمير طيء على الرملة ونهبها وقتل أهلها .

---

(١) انظر الحاشية (١) ص ١٠٦ في التعريف بالعيارين .

وفي سنة ٤١٦ هـ عظم شر العيارين ببغداد فقتلوا النفوس ونهبوا الأموال وأحرقوا الكرخ وغلا السعر حتى بيع كر الحنطة بمائتي دينار قاسانية ، وفيها حاصر سنان دمشق ، ووقعت بينه وبين أهلها حروب طاحنة وخربت داريّا وأعمالها كما تقدم .

وفي سنة ٤١٨ هـ سقط في العراق جميعه بَرَد كبار أصغره كالبيضة وفيه الواحدة تبلغ رطلًا أو رطلين ، فأهلك الغلات . وفي آخر تشرين الثاني هبت ريح باردة في العراق تجمّدَ منها الماء والخل وبطل دوران الدواليب على دجلة .

وفي سنة ٤١٩ هـ عدمت الأرطاب بالعراق للبرَد الذي كان في السنة السابقة .

وفي سنة ٤٢٠ هـ سقط في البلاد بَرَد عظيم وكان أكثره بالعراق ، وأعقبته ريح شديدة سوداء قلعت كثيراً من الأشجار ، وكانت فتنة ببغداد قوي فيها أمر العيارين واللصوص .

وفي سنة ٤٢١ هـ ظهر ببغداد متلصصة من الأكراد فكانوا يسرقون دواب الأتراك .

وفي سنة ٤٢٢ هـ تجددت الفتنة ببغداد بين السنية والشيعة ، فنهبت دور وهدمت أسواق وأحرقت أماكن وقتل خلق كثير .

وفي سنة ٤٢٣ هـ كان في البلاد غلاء شديد ووباء عظيم في العراق والشام والجبل وخراسان وغزنة والهند وكثر الجدري ولم تخل دار من مصيبة .

وفي سنة ٤٢٤ هـ ثار العيارون ببغداد وأخذوا أموال الناس ظاهراً واشتد شرهم .

وفي سنة ٤٢٥ هـ كثرت الزلازل بمصر والشام ، وكان أكثرها بالرملة ، فقد انهدم نحو ثلثها وهلك تحت الهدم خلق كثير وهبت ريح بالموصل فقلعت كثيراً من الأشجار ، وكثر الموت بالخوانيق في العراق والشام والموصل وخوزستان وغيرها حتى كانت الدار يُسد بابها لموت أهليها .

وفي سنة ٤٢٦ هـ ضعف أمر الخلافة والسلطنة ببغداد وعظم أمر العيارين ، فصاروا يأخذون الأموال ليلاً ونهاراً ، ونهب العرب النواحي وقطعوا الطرق ووصلوا إلى جامع المنصور وأخذوا ثياب النساء في المقابر .

وفي سنة ٤٣٢ هـ اشتد الغلاء بإفريقية لعدم الأمطار فسُمّيت سنة الغبار ، ودام ذلك إلى سنة ٤٣٤ هـ .

وفي سنة ٤٣٩ هـ كان بالعراق كله والجزيرة غلاء عظيم أكل الناس فيه الميتة وتبعه وباء مات فيه كثير .

وفي سنة ٤٤٨ هـ انقطعت الطرق عن العراق خوف النهب فغلت الأسعار وتعذرت الأقوات وغيرها ، وأكل الناس الميتة ولحقهم وباء عظيم ، وكان بمصر وباء شديد يموت فيه كل يوم ألف نفس ، ثم عم ذلك سائر البلاد من الشام والجزيرة والموصل والحجاز واليمن وغيرها .

وفي سنة ٤٤٩ هـ زاد الغلاء ببغداد والعراق حتى أكل الناس الميتة والكلاب وغيرها ، وكثر الوباء حتى عجز الناس عن دفن الموتى ، فكانوا يجعلون الجماعة في الحفيرة الواحدة .

أما مصر فقد أصابها من الكوارث والنكبات ما يجعل الولدان شيباً ، وحسبك منه ما أصابها من المصائب في عهد الحاكم حين قطع الكروم ومنع بيع العنب ، ولم يُبْقِ في ولايته كَرْماً ، وأراق خمسة آلاف جرة من العسل في البحر خوفاً من أن تعمل نبيذاً ، ونهى عن السمك والملوخيا والفُقّاع (١) ، وقتل من باع ذلك ومنع بيع الرطب .

وأمر قواده وعرفاءه بالمسير إلى مصر لحرقها ونهبها ، فذهب العبيد

---

(١) الفقاع كرمان : شراب سمي بذلك لما يرتفع في رأسه من الزبد ونبات إذا يبس صلب فصار كأنه قرون .

والروم والمغاربة ، وأوقعوا النار في أطراف البلد ، واستمرت الحرب بينهم وبين المصريين ثلاثة أيام . وكان الحاكم يركب كل يوم إلى القرافة ويشاهد النار من الجبل ويسأل عن ذلك ، فيقال له : العبيد يحرقون مصر فيلعنهم ثم أنذرته كتامة والأتراك بأنهم يستنفرون العرب ويحرقون القاهرة إذا لم يكفهم ، فركب حماره ، ووقف بين الصفين ، وأشار إلى العبيد بالانصراف فانصرفوا .

واحترق ثلث مصر ونهب نصفها ، ثم تتبع المصريون من أخذ أزواجهم وبناتهم وأخواتهم وابتاعوهن من العبيد بعد أن فضحوهن ، وقتل بعضهن نفوسهن خوفاً من العار .

وفي سنة ٤٤٨ هـ أصاب مصر والشام ما أصاب غيرهما من القحط والوباء حتى أكل الناس الميتة وبلغت الرمانة والسفرجلة ديناراً ، وكذا الخيارة والليونوفرة [١] وانقطع ماء النيل .

هذا غيض من فيض مما كان يعانيه أهل الأمصار المذكورة من أحكام الطبيعة العاتية . أما ما كانوا يقاسونه من جور الحكام واستصفاء الأموال وذهاب الكثير منها بين الحرق والنهب وغير ذلك فما لا يحيط به وصف .

وقد قدمنا ذكر شيء من هذا القبيل وسيأتي ذكر شيء آخر منه . ومن طبيعة هذه العوامل أن توقع الناس في ضنك وفاقة وشظف . وعلى هذا يمكن أن يقال : إن الحياة الاقتصادية في العهد الذي أظل أبا العلاء كانت على أسوإ حالة ، وقد أثرت في نفسه أثراً بيناً في شعره حين يتصدى لذكر المال وأعمال الملوك والولاة وتطاولهم على أموال الرعية وإسرافهم في النهب والسلب وأخذ المكوس وما شاكل ذلك . وكونت في نفس

(١) كذا في الأصل ولعلها النيلوفرة ؟ وهي نوع من الزهر ينبت في المياه يستعمل في الدواء .

أبي العلاء رأياً في تقسيم الثروة حين رأى الناس بين غني موسر وفقير معسر ومتوسط بينهما ، فأحب أن يشترك الناس في النعمة ، وحض على الزكاة والوصية والرأفة بالمعدم على نحو ما سنذكره في فلسفته وفي مباحث أخرى وذلك مثل قوله(١) :

كَذٰلِكَ مَجْرَى الرِّزْقِ وادٍ بلا نَدىً ووادٍ به فيضٌ وآخرُ ذُو حَفْرِ

ومنه :

يعاني مقيمٌ بالعراقِ وفارسٍ وبالشام ما لَمْ يَلْقَهُ ساكُن القَفْرِ

وقوله(٢) :

يا قُوتُ ما أنت ياقوتٌ ولا ذهبٌ فكيف تُعْجِزُ أقواماً مساكينا...

وقوله(٣) :

لقد جاءنا هذا الشتاء وتحتَه فقيرٌ معرّىً أو أمير مُدَوَّجُ
وقد يُرزَقُ المجدودُ أقواتَ أُمَّةٍ و يُحرَمُ قوتاً واحدٌ وهو أحوجُ

ومثل قوله(٤) :

فأَطْعِمْ من عَرَاكَ ولو كَظُفْر

---

(١) اللزوميات ﻫ س ١٤٧ .
(٢) اللزوميات ﻫ س ٢٦٧ .
(٣) اللزوميات ﻫ س ٧٣ والمُدَوَّج كرمان وغراب : المعاف الذي يُلبَس .
(٤) اللزوميات ﻫ س ١٥٥ وصدره : إذا أوتيتَ ملءَ يدٍ طعاماً .

وقوله[١] :

أغثتُ لهيفَه بالمُستَدَفّ ..

يدل على أن لهذا القدر القليل شأناً كبيراً في زمن الشدائد ، وقد قدمنا ذكر طائفة منها ، اضطرت الناس إلى أن يأكلوا الإنسان والحيوان حياً وميتاً .

الحياة الدينية في عصر أبي العلاء

ظهر الإسلام في الحجاز بظهور النبي ﷺ ، وكان الناس يدخلون في دين الله أفواجاً ، رغبة في الدين وطمعاً فيما أعده الله للمؤمنين من الثواب ، حتى كان الرجل يغامر بنفسه في الحرب لينال الشهادة ، رغبة في ثوابها .

وكان جمهور المسلمين في عهد النبوة والخلفاء الراشدين ، يقنعون بفهم ظاهر الآيات والأحاديث ، ولا يتنطعون في دراسة ما تشابه منها ، وغاية العالم منهم أن يستنبط شيئاً من الأحكام منها بقدر ما كانت تدعو الحاجة إليه . وكان المسلمون عامة يرجعون فيما أغلق عليهم فهمه من الكتاب أو السنة إلى النبي ﷺ مدة حياته ، وإلى الصحابة وفقهائهم من بعده . كما يرجعون إليهم فيما استعصت عليهم معرفته من الأحكام الشرعية .

ظهور الزندقة والخلاف في العقائد

ثم لما قتل عثمان رضي الله عنه وقامت خلافة بني أمية على غير إجماع من المسلمين ، انقسم المسلمون إلى فرق ثلاث ؛ إحداها مع علي ، والثانية

---

(١) اللزوميات ه ص ٢٩٥ وصدره : إذا وَرَدَ الفقير على احتياجي ، والمستدف : الممكن والمتسهّل .

مع معاوية ، والثالثة أمسكت عن الفريقين ، وهي أقلها ، ثم اندمج أكثرها مع إحداها ، وانقسم أصحاب عليٍّ على أنفسهم في حياته ، فخرج عليه فريق منهم .

وكان امتزاج العرب بغيرهم من الأمم التي خضعت لسلطانهم آخذاً في الازدياد ، وفي هؤلاء من لم يكن راضياً عن بقاء السلطان في العرب ، ولم يستطع انتزاعه منهم بالقوة ، فعمد إلى تمزيق الوحدة العربية من طريق الدين وبواسطة ترجمة كتب الأديان المختلفة وكتب الزنادقة والمُجّان ونشرها بين الدهماء . وقد فسح بنو أمية المجال للمناظرة في العقائد والمجاهرة بها ، كما رأينا ذلك فيما وقع بين الحسن البصري المتوفى سنة ١١٠ هـ ، وواصل بن عطاء من رؤوس المعتزلة المتوفى ١٣١ هـ حين اعتزل مجلس الحسن ، وضم إليه نفراً يقرر لهم المنزلة بين المنزلتين ، كعمرو بن عبيد وغيره .

وكذلك فقد كان عبد الصمد بن عبد الأعلى مؤدب الوليد بن يزيد يتهم بالزندقة كما اتهم بها الوليد ، ومروان بن محمد يشايع الجعد بن درهم على زندقته وعقيدته حتى نسب إليه ، فقيل : مروان الجعدي ، وكان مؤدباً له ولولده وكان خالد بن عبد الله القسري يُرمى بالمانوية كثيراً ، وكان يرمى بالزندقة .

ثم لما قامت الدولة العباسية اتسع الخرق على الراقع ، لأن امتزاج العرب بغيرهم من الأعاجم بلغ أقصى غايته ، فقد ألقى العباسيون حبل كلٍّ على غاربه في البحث ، فجاهر الناس بما تكنه صدورهم من الزيغ والانحراف ، ولما ترجمت كتب الفلسفة والعقائد وغيرهما ، زاد ذلك الزنادقة والملحدين ضغثاً على إبّالة ، وأخذ أعداء الاسلام والعرب يغوون الضعفاء بما يُلبّسون عليهم من أمور دينهم ، ويلقون حبائل الشبه والشكوك ليوقعوا فيها الدهماء ، فيتمكنوا من تمزيق الوحدة الاسلامية وإضعاف

القوة العربية ، فكانوا ينقبون عن المتناقض من الحديث والمتشابه من القرآن ، ويشغَبون على القويّ ويلبّسون على الضعيف ، ثم أخذوا ينشرون كتب المرقونية (١) والدّيصانية (٢) والمانية (٣) وغيرها من الفرق الزائغة بين أيدي المسلمين على أيدي جماعة من العجم والعرب ، من مجوس ونصارى وإسلام زنادقة من أرباب المجانة وغيرهم .

وقد اشتهر جماعة منهم بالعراق ، منهم حماد عجرد (٤) وبشار بن برد (٥)

---

(١) المرقونية : طائفة من النصارى زعمت أن الأصلين القديمين هما النور والظلمة ، وأن كوناً ثالثاً مزجهما ، واختلفوا فيه فقيل هو الحياة ، وقيل عيسى [ص] ، وقيل عيسى رسوله وقالوا بتنزيه الله عن الشرور ، وأن خلق جميع الأشياء ضرر . (ج)

(٢) الديصانية : أصحاب ديصان ، أثبتوا أصلين : النور والظلام ، فالنور يفعل الخير قصداً واختياراً ، والشر يفعله طبعاً واضطراراً ، فالخير والنفع والحسْن والطيب من النور ، والشر والضر والقبح والنتن من الظلام . والظلام ميت جاهل عاجز جماد لا فعل له ولا تمييز ، وقد ظهر ديصان بعد مرقيون بنحو ثلاثين سنة . (ج)

(٣) المانية : نسبة إلى ماني ، وهذا ظهر بعد مرقيون بنحو مائة سنة ، وظهر ديصان بعد مرقيون بنحو ثلاثين سنة كما قدمنا ، وزعم أنه الفارقليط الذي بشر به عيسى واستخرج مذهبه من المجوسية والنصرانية ، وقد قال : مبدأ العالم كونان ؛ نور وظلمة ، وكل منهما منفصل عن الآخر ، فالنور هو العظيم الأول ، وهو الإله ملك جنان النور وله خمسة أعضاء ، والظلمة له أعضاء أيضاً ، وإذا أردت إيضاح هذا فالتمسه في (الملل والنحل) للشهرستاني ، و (فهرست) ابن النديم وكتب العقائد . (ج)

(٤) هو حماد بن عمر بن يونس المعروف بعجرد ، نادم الوليد بن يزيد الأموي وقدم بغداد أيام المهدي وبينه وبين بشار أهاج مقذعة توفي سنة ١٦١ هـ . (ج)

(٥) بشار بن برد العقيلي ، أشعر المولّدين ومخضرم الدولتين ، ولد سنة ٩٥ هـ ، وكان شاعراً راجزاً سجّاعاً خطيباً ، قتل على الزندقة في البصرة سنة ١٦٧ هـ . (ج)

ويونس بن فروة (١) وأشباههم وكان خلفاء بني العباس لا يهملون معاقبة هذه الفئة ، فكانوا كما قال الجاحظ بين مقتول وهارب ومنافق .

وقد نجم عن هذا أن المسلمين فرقوا دينهم ، وكانوا شيعاً في أهوائهم ، حتى بلغ عدد الفرق أكثر من سبعين ، ما بين معتزلة وشيعية وجبرية ومرجئة وإباضية وغيرها . وأن الناس تهاونوا بأمر الحلال والحرام ، وأخذوا بالفاسد من الأخلاق ، واستباحوا إنهاك المحارم ، فكان ذلك جناية على الدين والأخلاق معاً .

ثم أخذ المعتزلة يرتبون أقوالهم وأدلتهم على أسلوب المناطقة والحكماء ، فاضطر السنيون إلى محاربتهم بمثل هذا السلاح ، وجرى بجرائم غيرهم من من الفرق الأخرى . وانتظم أمر الجدل واتخذت له قواعد وآداب للبحث ، وعقدت له مجالس يشهدها صفوة الصفوة من علماء كل فريق . وكان الخلفاء كثيراً ما يشايعون فريقاً وينصرونه على غيره ، فتفاقم أمر الخلاف واستطار شره ، حتى انقلب إلى فتن وحروب واستباحة كل فريق دم الآخر وماله وعرضه ، وتفرع عن هذه الفرق فرق أخرى استغوت بعقائدها فريقاً من الدهماء ، واتخذت منهم عدة لاشباع نهمها ، والانتقام من خصومها .

ثم لما أخذ أمر العباسيين يضعف ، منذ منتصف القرن الثالث ، جاهر بعض الفرق بعقائدهم ، وجردوا السيف على خصومهم ، فأغاروا على البلاد الآمنة المطمئنة ، فنهبوا أموالها واستحيّوا نساءها ، وخربوا كل عامر فيها ، وزاد فريق منهم ، فتصدى للاستخفاف بأعظم ما يقدسه المسلمون من شعائرهم .

---

(١) كذا في الأصل والصواب: ابن أبي . وهو يونس بن محمد بن كيسان (الملقب بأبي فروة) كاتب متزندق ، عمل كاتباً للأمير العباسي (عيسى بن موسى) وخالط ابن المقفع ، ووالبة بن الحباب ، وبشاراً ، وحماداً الراوية وغيرهم ، توفي نحو سنة ١٥٠ هـ .

فهؤلاء القرامطة أغاروا على بلاد العراق ، وجعلوا أعزة أهلها أذلة ، واستباحوا كل محرم فيها ، ولم تسلم الشام ولا مصر من شرورهم ، وتعدى تطاولهم وأذاهم إلى بيت الله الحرام ، فقتلوا الحُجّاج وسلبوهم أموالهم ، وأخذوا الحجر الأسود إلى بلادهم ، وقد لقيت البلاد منهم فتناً التهمت الأخضر واليابس ، حتى أباد الله خضراءهم .

وكذلك الاسماعيلية ، اتخذوا معاقل في بلاد الفرس ومصر ، والإباضية أقاموا دولة في جبال البربر ، وفعل كل فريق منهم الأفاعيل في البلاد التي كانوا يقطنون بها أو يجاورونها .

ومن رجع إلى التاريخ ، رأى عجائب من الفظائع والفتن التي وقعت بين الشيعة وأهل السنة في العراق ، وبين الحنابلة والشافعية ، وبين الحنابلة والحنفية ، حتى هُدم أكثرُ بغداد ، وأحرق كثيرٌ من الأموال والمساكن ، ومنيت البلاد بضروب من البلايا ذهبت بحضارتها ورونقها ، وأضعفت الأمة ، حتى استطاع التتار أن يخضد شوكتها ويذهب بسلطانها في وقت قصير وعمل قليل . ومن المؤسف جداً أن تكون كل هذه الأعمال باسم الدين ، وعلى حساب الدين .

وهذا على مافيه من شر ، يدل على أن علم الكلام والجدل نضجا في هذا العهد ، وتعديا الحياة العلمية ، إلى الحياة العملية ، فكان له ماكان من الأثر الذي ألمعنا إليه . وكذلك غيرهما من العلوم اللسانية والعقلية والدينية ، فقد بلغ كل منها الغاية القصوى من الازدهار . ونبغ في كل علم طائفة كبيرة كانوا معتصمين بحبل الدين ، فكانوا يذودون عن حياضه ، ويدفعون عنه مزاعم أهل الزيغ وشُبَه الزنادقة والملحدين . وزعم بعض المتأخرين أن بعض علماء المسلمين اطلعوا على مذاهب الهند واليونان وما

فيها من الآراء المتعلقة بوحدة الوجود ـ أي اتحاد الموجد والموجود في نفسه ، وإن اختلفا في الاعتبار ـ وعلى الأقوال المتعلقة بتهذيب النفس وإبعادها عن عالم المادة وما يتصل به حتى تتصل بخالقها . وأضافوا إلى ذلك شيئاً من الدين الإسلامي يتلاءم مع تلك الآراء ، فتكوّن المذهب الصوفي وأخذ به جماعة من المسلمين ، فمنهم من غلا فيه حتى تجاوز حدود الدين ، ومنهم من سلك سبيل القصد كالجُنَيْدِ وأمثاله . ثم تفرعت من كل فرقة فِرقٌ ، وجعلت كل واحدة لنفسها شِرْعةً ومنهاجاً ، تخالف غيرها في الفروع وتوافقها ، ثم نشأت منها فرق تخالف غيرها في بعض الأصول ، وتوسع فريق في تأويل الكتاب العزيز والسنة الشريفة التي جعَلَتْها مطابقةً لما يذهب إليه ، وسيأتي شيء يوضح هذا المقال .

وصفوة القول أن علوم الدين في هذا العهد تم نضجها وتعددت فنونها ، وأن المسلمين تعددت فرقهم واختلفت نحلهم وتباينت مناهجهم وتنوعت مذاهبهم في الكلام والفقه . فكان فيهم الورع والصالح والزاهد والأشعري والماتريدي والمعتزلي والشيعي والحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي والصوفي ونحو ذلك من الفرق المسلمة ، وكان فيهم الزنديق والملحد والمارق والشاك ومن لف لفّهم . وأن غير المسلمين وبعض المسلمين كانوا يكيدون للاسلام ، وأن في الولاة والحكام والخلفاء من كان يعنى بالدين ، وأكثرهم كان يتخذ الدين وسيلة للدنيا ، فلا ينظر إليه إلا من الجهة التي يتخذ منها سبيلا إلى مال يسلبُه أو عِرْض يستبيحه أو خصم ينتقم منه ، أو ما أشبه هذا من الأمور التي تعود إلى حظوظه النفسية وشهواته الحيوانية .

وقد أثرت هذه الحياة المختلفة الألوان في أبي العلاء ، وأثارت حفيظته حتى ضاق ذرعاً بالناس واعتدّ ماتركوه من الآثار العلمية عملًا غير خالص

لله ، وإنما أراد به اصحابه التنافسَ في الدنيا أوجذبهـا إلى الرؤساء ، ورأى أن رؤساء الفرق يهزلون بأصحابهم ، واشتدت نقمته عـلى المتصوفة والقرامطة وأصحاب مذهب الحلول ، حتى سمعنا مثل قوله :

لو لا التنافسُ في الدُّنيا لما وُجِدَتْ   كتبُ التناظرِ لا المُغني ولا العُمَدُ[١]

* * *

إنما هـذه المذاهبُ أسبا   بٌ لجذب الدنيا إلى الرؤَساءِ[٢]

* * *

شهِدْتُ بأَنَّ ابنَ المُعَلِّم هَازِلٌ   باصحابه والباقِلانيُّ أهزَلُ[٣]

* * *

نحن قُطْنِيَّةٌ ، وصوفِيَّةٌ أنـ   ـتُمْ فقَطْني من التجمُّلِ قُطْني...[٤]

* * *

ودينُ مكةَ طاوَعْنا أئمتَه   عصراً فما بالُ دينٍ جاء من هَجَرا[٥]

وستأتي جملة من أقواله في هذا الباب . وقد نشأ في هذا العهد غلاة من بعض الفرق ، فكان بعضهم ينال من مخالفه ويتطـاول عليه بالقذف

---

(١) اللزوميات هـ س ٩٢ .

(٢) اللزوميات هـ س ٢٦ .

(٣) اللزوميات هـ س ١٩٥ ، وفيها « وأعلمُ أنَّ » .

(٤) اللزوميات هـ س ٢٨١ ، قَطْني بالفتح : أي حسْبي ، يكفيني .

(٥) اللزوميات هـ س ١٤٠ .

والطعن . ومنهم من تعدى ذلك إلى القدح في رؤســاء الفرق ، ومنهم من تجاوز هذا ، حتى قال الذهبي : وفي هذا الزمان كانت البِدَعُ والأهواء فاشية ببغداد ومصر من الرفض والاعتزال والضلال . وقد فسر صــاحب (النجوم الزاهرة) قول الذهبي ببغداد ، انه أراد ما كان بسبب عضد الدولة ، فإنه كان يتشيع ويكرم جانب الرافضة ، وبمصر ما كان يظهره خلفاءُ بني عُبيد من الرفض وسب الصحابة ، وكذلك أعوانهم وعمّالهم .

★ ★ ★

الحياة الاجتماعية

لاتكون الصلاتُ بين أفراد الأمة حسنة ، والروابط محكمة ، إلا إذا هيمن عليها الوازع الديني ، وخشيت بأس الوَازع الدنيوي ، وهو السلطان ومن يقوم مقامه في نشر العدل والأمن وإحقاق الحق ونصرة الضعيف والضرب على أيدي العابثين بالشرائع والنظم والعاثين في الأرض فساداً ، وكان بعد ذلك كل فرد يتمتع بنصيب من الحياة الاقتصادية لاينتزعه منه متغلب ، ولا يمنعه منه متسلط ، فإذا توفرت هذه العوامل ، وأتيح للأمة ان يقوم فيها من يُرشِدُها إلى الأخلاق الفاضلة ، عاشت عيشة راضية واستقامت أمورها واستفاضت فيها مكارم الأخلاق والسجايا المرضية ، وأصبحت كلها كالجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى .

وفيما أسلفنا برهان واضح على اختلال الحياة السياسية وضعف الوازع الديني وفساد النظام الاقتصادي ، ومن مقتضيات هذه الأمور أن تسود الفوضى في كل عمل ، ويضطرب حبل الأمن ، وتتفكك عرى المحبة ، ويعم التدابر والتقاطع ، وتشرئب اعناق المطامع ، فيسعى كل فرد إلى انتزاع ما في يد غيره من سلطان ونعمة ولو أدّى ذلك إلى محوه من صحيفة الوجود .

ومن رجع إلى التاريخ ، في العهد الذي أظل أبا العلاء ، يجد عِبراً من تكالب الملوك وتفانيهم في سبيل الملك ، حتى أن الرجل يحارب حميه أو يقتله ، ويثور على سيده ويمالىء أعداءه عليه ، ليخلفه في سلطانه .

وهذا عضد الدولة ، أخرج ابن عمه بختيار من الملك بالحيلة أولاً وبالقوة ثانياً . وشرف الدولة ، اعتقل أخاه بعد أن جاءه مستأمناً ، ثم سجنه وسمل عينيه . وقد تغلب قرعونةُ على مولاه سعدِ الدولة ، ثم تغلب بكجور على قرعونة ، وتغلب لؤلؤ وابنه على أبي الفضائل وابنيه ، واستعان لؤلؤ بالروم لمحاربة المصريين ، وست الملك انتدبت ابن دواس لقتل أخيها الحاكم ، ثم قتلته وقتلت وليَّ العهد .

وهناك ألوف من الأمور المنكرة والفظائع التي كانت تقع في بيوت الخلافة والملك والإمارة ونحوها في الأصقاع عامة . ولا شك أن الحكام صورةٌ مصغرةٌ عن الأمم التي يحكمونها ، لأن الحاكم فرد منها ينطوي على كثير مما تنطوي عليه من خصائص وسجايا في كل عصر ومصر ، فبينهما تشابه قوي على نحو ما جاء في الآثار النبوية من مثل قوله (ﷺ) : (أعمالكم عمالكم . وكما تكونوا يولى عليكم [١]) . ولم تكن هذه الخلال الذميمة منحصرة في الأسر المالكة فحسب ، بل كانت الأمة كلها تطبع على غرار واحد ، ولو لم تكن أواصر المحبة فيها واهية وعرى الأخلاق مفككة ، لما لبَّتْ كل داع وتبعت كل ناعِب . ولكن تمكن من قلوبها افتراق الكلمة ، وزين لها الثورة على كل سلطة وكره الحاكم الحاضر وحب الجديد ، فكانت لا تسمع بتغلب خرج على السلطان إلا ودخلت في طاعته ولو كان صعلوكا أو عبداً مملوكا .

---

(١) روى الطبراني عن كعب الأحبار أنه سمع رجلاً يدعو على الحجّاج ، فقال : لا تفعل ، إنكم من أنفسكم أتيتم ، فقد رُوي : أعمالُكم عمّالُكم وكما تكونوا يولى عليكم ، وروى قوله كما تكونوا . على هذا الوجه : كما تكونون كذلك يؤمر عليكم . وقد نظر العلماء في هذا الحديث بجميع رواياته ورأوا أنه ليس بصحيح ، وإن روى بعضه الديلمي والبيهقي وابن جميع والقضاعي . (ج)

وقد ذكر ابن الأثير وصاحب (النجوم الزاهرة) أن العزيز العلوي خرج عليه رجل يقال له قسام الحارثي ، وهو من قرية تلفيتا من قرى جبل سنّير ، كان ينقل التراب على الحمير ، وكان شجاعاً . وقيل كان من العيّارين ، فتغلب على دمشق حتى لم يبق لنواب العزيز معه حكم ، فسير اليه العزيز جيشاً مع قائد اسمه الفضل فلم يظفر به فعاد عنه . ثم سير سليمان ابن جعفر بن فلاح ، فنزل بظاهر دمشق ، ثم أخرجه أصحاب قسام وقاتلوه ، ثم أرسل اليه بلتكين أو تكين فأخرجه .

ولفساد الحياة الاجتماعية في هذا العصر أسباب كثيرة من أعظمها :

١ — تولي الأعاجم على العرب ، فقد كان المسيطر منهم لا يبالي أفسدت أخلاق الأمة أم صلحت ، وإنما همه مال ينهبه وعرض يستبيحه وسلطان يبسطه من أي طريق كان وبأية وسيلة كانت ، ومنهم من كان يسعى لإفساد الحياة الاجتماعية حتى يسهل عليه التوصل إلى ما يريده ، ولا يجد من ينكر عليه ، وأعوان الضلال أكثر من أعوان الهدى .

٢ — توسيد الأمور إلى الغرباء عن البلاد ، فإن العبيديين كانوا يتخذون ولاة على دمشق وحلب وغيرهما من المغاربة أو الترك أو الروم ، ويتخذون القواد والأمراء وذوي الكلمة النافذة من هؤلاء الذين يؤثرون مصالحهم الخاصة على مصلحة الدولة ، أو من أمثالهم ممن لا يهمهم خراب البلاد وموت أهلها من الجوع أو الحرب إذا عمرت خزائنهم بالأموال ، وامتلأت بطونهم بالطعام الطيب والشراب اللذيذ ، وقضوا أوطارهم من الملاذ والشهوات ، وكان أحدهم يتصرف بالناس تصرف التاجر بسلعته ، ويبذل في سبيل الوصول إلى غاياته الخسيسة ما عز وهان ، ويتجرد عن كل خلق إنساني لأجل ذلك ، وربما رآه غيره فاستهان بما استهان به صاحبه ليصل إلى ما وصل إليه ، وهذا شأن من تولى العراق من الأعاجم .

٣ ـ كثرة الجواري الحسان ورخص أثمانهن ، فكان العربي يجمع الكثير منهن لقضاء شهوته ، ويدع أمر كل واحد من بنيه إلى أمه فهي تنشئه كما تشاء ، وتغذيه من طباعها وأهوائها ونزعاتها كما تهوى ، فيكون هذا فارسي النزعة كأمه وذاك تركياً والثالث هندياً والرابع رومياً والخامس عربياً وهكذا . وربما كان الولد لا يجد من العطف على أخيه من أبيه ما يجده من العطف على شقيقه . والخلاصة أن البيت الواحد كان يضم أهواء مختلفة ونزعات متباينة ، ويفقد كل أصرة من أواصر المحبة التي يجب أن تكون بين الإخوة ، وكثيراً ما تحقد المرأة على زوجها لميله إلى ضرتها ، فتنشىء أولادها على كره أبيهم وأولاده وزوجاته فيكون أعدى عدو لأبيه وإخوته منه . وكثيراً ما هان على الأخ قتل أخيه في سبب تافه .

٤ ـ كثرة الغلمان ، فقد كانت ولاة الأعاجم المختلفة تهدي إلى الخلفاء والأمراء الوصائف والوصفاء ، تتخيرهم من ذوي الجمال الرائع ، وتبعث بهم وبهن زرافات ووحدانا ، والخلفاء والأمراء يصطفون لأنفسهم خيرة الخيرة منهم ، ثم يهبون مازاد عن حاجتهم إلى غيرهم . وكانت هؤلاء الجواري والغلمان أقتل من السم ، لأنهم كانوا ينقلون إلى الأمة العربية ماعند أممهم من الأخلاق الفاسدة والأعمال المنكرة ، ففشت في الأمة العربية بسببهم الدعارة والخلاعة والمجانة والعهر واللواطة وما أشبه ذلك من الأخلاق السيئة ، فازداد العرب بذلك ضغثاً على إبالة . وكان أكثر العمال يقلدون هؤلاء الغلمان أعمالهم العظيمة ، ويمنحونهم من السلطة أعظم مالديهم ، فكانوا لايحجمون عن منكر ولا يتورعون عن قبيح ، ويستخفون بالأعراض ويستبيحون الأموال ، وفيهم من دُرّب وعلّم في بلاده ليكون أداة شرّ في البلاد العربية ، ومن كان على شاكلة هؤلاء وارتقى إلى الولاية بمثل ما ارتقوا

لاينتظر منه أن يصلح المجتمع ويهذبه لأن ذلك مخالف لنشأته وجبلته ، ولا ينكر عليه أن ينزع الملك والنعمة من سيده ولا أن يقتله ويسجنه أو يشرده . ثم بعد حين يعد في رجالات العرب وتسجل أعماله الفظيعة في حساب العرب .

٥ - تعدد الزوجات لاسيما غير العربيات ، فقد دلت الحوادث التاريخية على أن الرجل قد تكون نزعته إلى أخواله أشد من نزعته إلى أعمامه ، بسبب تعليم أمه وإهمال أبيه تربيته ، حتى لايشق عليه معاداة عمه لموالاة خاله . على أن الرجل لايستطيع أن يعدل بين النساء ، ولا أن يجمع بين رضاهن جميعاً ، ومتى فسد رأيه في واحدة أو آثر عليها تنكرت له واستفرغت ماعندها من كيد وأذىً ، وغيّرت قلب ولده عليه حتى تصبح الأسرة الواحدة في البيت الواحد منلسة على أنفسها مضطغناً بعضها على بعض ، وفي قلب كل ولد من الحقد والبغض لمن تبغضه أمه مالا يحد ، وربما خانته في أعز شيء عليه نكاية له أو جريا مع شهواتها اللاتي لم يوفها حقها منها ، ونحو ذلك من الأعمال التي أشار إليها ابو العلاء في كلامه .

٦ - جور الحكام والخوف من ظلمهم ، فإن ذلك يحمل الناس على الخنوع والكذب والنفاق ومجاوزة حدود الدين والمروءة والأدب اتقاء لشرهم أو للتخلص منه أو ابتغاء لمرضاتهم .

وهناك كثير من الأسباب والعلل ، فإذا أضفنا هذا إلى ما تقدم من فساد السياسة وضعف الدين هان علينا أن نرى الأخلاق في هذا العهد بلغت من الفساد والانحطاط إلى أسفل الدركات . ولو أردنا أن نستقصي الناحية الخلقية لأفضى بنا ذلك إلى الإطناب الممل ، وحسبنا أن نسمع من أبي العلاء شيئاً من أخلاق أهل عصره كقوله :

وجوهُكُم كُلْفٌ وأفواهُكُم عِدىً　　وأكبادُكم سودٌ وأعينكُم زُرقُ[١]

* * *

سجايا كلُّها غدرٌ وخُبثٌ　　تَوَارثها أُناسٌ عن أُناسِ[٢]

* * *

فَأَميرُهُم نال الإمَارة بالخنا　　وَتقيُّهُم بِصَلاتِهِ يتصيَّدُ[٣]

* * *

أُنافِقُ في الحياةِ كَفِعلِ غيري　　وكل الناسِ شأنُهُمُ النِّفاقُ[٤]

* * *

قدأعرَستْ عِرسُ الأميرِ بتابِعٍ　　ضَرَعٍ فأَينَ حَليلُها المِغيارُ[٥]

* * *

واعتاضَ حِلّ النِّكاحِ قَوْمٌ　　بنِسْوةٍ مالهـــا مُهُورُ[٦]

* * *

---

(١) اللزوميات ﻫ ص ٢٩٨ ، والكُلْف : ج أكلف وهو من علت وجهه حمرة كَدِرَة .

(٢) اللزوميات ﻫ ٣٢٢ .

(٣) « « ٩٧ وفيها « متصيد » .

(٤) « « ٣٠٠ .

(٥) « « ١٣١ .

(٦) « « ١٢٤ .

قَوْمُ سوءٍ فالشِّبْلُ منهم يغول اللَّـ ـيثَ فَرْساً والليث يأكل شِبلَهْ[١]

• • •

وبيعَتْ بالفلوسِ لكلِّ خِزْيٍ وجوهٌ كالدنانيرِ الحسانِ[٢]

• • •

وَلِحُبُّ الصَّحيحِ آثرتِ الرُّو مُ انتسابَ الفتى إلى أُمَّهاتِهْ[٣] ...

ونحو ذلك من الأبيات الآتية في الناس ، والسياسة والأخلاق ، التي تدل على أن هذا العصر فُقِد فيه الفاضل والصادق والتقي والجيد والوفي والطاهر والمخلص والكريم والعالم العامل .

★ ★ ★

(١) اللزوميات هـ ٢ ص ٢٠٩ .

(٢) اللزوميات هـ ٢٧٩ .

(٣) « « ٧٠ .

الحياة العقلية

لم يمر على الأمة العربية عصر كانت الحياة العقلية فيه والنهضة الفكرية أشد ازدهاراً مما وصلت إليه في العصر العباسي عامة وفي هذا العصر خاصة ، فقد استبحرت فيه العلوم ، ونضجت العقول ، واجتنت الأمة العربية فيه أطيب الثمرات التي غرست نواتها فيه وفي العصر الذي قبله ، وقد أثرت في هذه الحياة عوامل كثيرة كان لها أبلغ الأثر في إيقاظ الشعور وتنمية العقل وإرهاف الذهن وتلطيف الذوق . منها تنافس بعض الملوك في ترقية العلم وتقوية العقل ، وعناية بعضهم برفع المستوى العقلي ، فكانوا يقربون العلماء والأدباء ويتخذون المكاتب الحافلة بأنواع الكتب ، ويصطفون خلصاناً لهم من حملة العلم ويسبغون عليهم نعماً ضافية ، فأخذ الناس يجدُّون في التعلم والتعليم والتأليف حتى امتلأت الخزائن العربية بالكتب المتنوعة من كل فن من فنون العلم التي اهتدى إليها العقل البشري في ذلك العهد .

واطلع العلماء على ثقافات الأمم وتنخلوا منها ما يلائم دينهم ولغتهم وعقولهم وأذواقهم ، ثم صهروا ذلك في بوتقة الإسلام وصبغوه بالصبغة العربية ، فخرج عربي النشأة والصبغة ، ولو شاء العرب أن ينسبوا أكثر المسائل من تلك العلوم وكثيراً من العلوم إليهم لجاز ذلك على كثير من الناس ، ولكنهم لم يجحدوا فضل أمة من الأمم كان لها أثر محمود في العلم فعزوا كل شيء إلى مصدره ، وإن هم نقحوه وهذبوه وصححوه وأنموه . وادخروه إلى الأجيال التي تأتي من بعدهم .

أنواع العلوم

أما العلوم التي اشتغلوا بها فكثيرة ، ولكن كان اهتمامهم ببعضها أشد منه ببعض آخر ، فمن ذلك :

الخط

علم الخط : وقد نبغ في هذا العصر والذي قبله طائفة جودوا الخط وافتنوا في أنواعه ووضعوا له أصولاً وقواعد . منهم الوزير أبو علي محمد ابن مقلة المتوفى سنة ٣٢٨ هـ . وأخوه أبو عبد الله الحسن المتوفى سنة ٣٣٨ هـ ، وقد أخذ عن الوزير ابن مقلة أبو عبد الله محمد بن أسد القارىء المتوفى سنة ٤١٠ هـ ، وأخذ عن ابن أسد أبو الحسن علي بن هلال المعروف بابن البواب الكاتب المتوفى سنة ٤١٣ هـ ، ولم يكن في المتقدمين والمتأخرين من كتب مثله أو قاربه ، وهو الذي هذب طريقة ابن مقلة ونقحها ، وإليه انتهت الغاية . وقد ذكره أبو العلاء بقوله :

ولاحَ هِلالٌ مثلُ نُونٍ أجادَها　　بجاري النُّضارِ الكاتبُ ابنُ هلالِ(١)

ولابن هلال قصيدة رائية في علم الخط استقصى فيها أدواته .

القراءة والتجويد

ما عنيت أمة من الأمم بكتاب بقدر ما عني المسلمون بالقرآن الكريم ، فانهم استفرغوا كل مجهود في ضبط روايته وتفسير غريبه وإيضاح معانيه ومقاصده ، وألفوا كتباً كثيرة في عدد حروفه وآياته ، وبيان الناسخ

---

(١) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١١٩٢ ، والنضار : الذهب .

والمنسوخ منه وأسباب نزول آياته وما نزل منه في مكة والمدينة ، ومواطن الفصل والوقف والابتداء والمد فيه ، وتحقيق مخارج حروفه وإعرابه ، ولم يدعوا شيئاً يتعلق به إلا أفردوه بتآليف متعددة .

وحسبك أن تقرأ الفن الثالث من المقالة الأولى من كتاب (الفهرست) لابن النديم . و (الإتقان في أحكام القرآن) للسيوطي ، و (منار الهدى في بيان الوقف والابتدا) لأحمد بن محمد الأشموني ، و (المرشد في الوقف والابتداء) للحسن بن علي العماني ، و (المقصد لتلخيص ما في المرشد) لزكريا الأنصاري ، و (النشر في القراءات العشر) لابن الجوزي ، و (إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربع عشر) للشيخ أحمد الدمياطي البناء ، و (شرح الشاطبية) لابن القاصح . و (المقنع في معرفة مرسوم مصاحف أهل الأمصار) لأبي عمرو الداني . وكتاب (الشكل والنقط) له . فإن في هذه الكتب مايدل على مقدار مابذله المتقدمون من العناية بالقرآن الكريم ، وعلى مقدار تفننهم في التاليف . وقد جعلوا الكلام فيه على أنواع : فما يتعلق بإعطاء كل حرف حقه وترتيله ، ورده إلى مخرجه وأصله وتلطيف النطق به على كمال هيئته من غير إسراف ولا تعسف ولا إفراط ولا تكلف يسمونه « التجويد » ، وهو حلية القرآن . وما يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ومدلولاتها وأحكامها الإفرادية والتركيبية ومعانيها التركيبية يسمونه : «التفسير والتأويل» وقيل : التفسير توضيح معنى الآية وشأنها وقصتها والسبب الذي نزلت فيه بلفظ يدل عليه دلالة ظاهرة . والتأويل صرف اللفظ الظاهر إلى معنى يحتمله إذا كان المحتمل الذي يراه موافقاً للكتاب والسنة ، مثل قوله تعالى ﴿ يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ ﴾ إن أراد به إخراج الطير من البيضة كان تفسيرا ، وإن أراد به إخراج المؤمن من الكافر أو العالم من الجاهل كان تأويلا ، وقيل غير ذلك .

وقد ألف المتقدمون كتباً كثيرة في غريب القرآن ومجاز القرآن ومعانيه ومشكله ولغاته وآياته وتفسيره وغير ذلك ، وكان العصر الذي أظل أبا العلاء عصر تنافس في ذلك ، ونبغ فيه من المُجَلِّين في هذا العلم أبو عبد الله أحمد بن محمد الثعلبي المتوفى سنة ٤٢٧ هـ ، وأبو الحسن علي بن أحمد الواحدي المتوفى سنة ٤٦٨ هـ .

وقد نبغ فيها في المعرة طائفة واشتهر منهم أبو الحسين ابن علي بن الفضل بن جعفر بن المهذب المتوفى سنة ٤٥٥ هـ ، وسيأتي أن أبا العلاء قرأ القرآن بكثير من الروايات . وفي (رسالة الملائكة) و (لزوم مالا يلزم) شواهد وإشارات تدل على أنه كان عالماً بما وراء القراءات العشر .

الحديث

وكانت عناية المسلمين بأحاديث النبي (ﷺ) تلي عنايتهم بالقرآن الكريم ، فقد تجرد جماعة من الحفظة الثقات الأعلام المتقدمين لبيان الحديث الصحيح من غيره ، ووضعوا كتباً للجرح والتعديل وعنوا بضبط الألفاظ وتفسير الغريب وشرح معاني الحديث وبيان مافيه من المجاز ، وقسموا الحديث إلى أقسام بحسب المتن والإسناد ، وفي عصر أبي العلاء كان اهتمام العلماء بذلك لا يقل عمن سبقهم ، وسيأتي في « ثقافته » أسماء الذين نبغوا في عهده في المعرة وأسماء شيوخه الذين روى عنهم وبيان شأن الرواية .

الفقه

هو العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسب من أدلتها التفصيلية ، وقيل غير ذلك . وقد كان المسلمون يرجعون في معرفة الأحكام إلى القرآن الكريم والنبي (ﷺ) مدة حياته ، ثم إلى فقهاء الصحابة ، ثم التابعين فتعددت

بذلك مذاهب الفقهاء في آخر العهد الأموي وأول العهد العباسي . ثم اتفقت كلمة جمهور من المسلمين على ترجيح أربعة مذاهب على غيرها : مذهب أبي حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي المتوفى سنة ١٥٠ هـ ، ومالك بن أنس الأصبحي المتوفى ١٧٩ هـ ، والشافعي محمد بن إدريس الهاشمي القرشي المتوفى سنة ٢٠٤ هـ ، وأحمد بن محمد بن حنبل المتوفى ٢٤١ هـ .

فاقتصر الناس على هذه المذاهب الأربعة ، ونبغ في كل مذهب طائفة من الأعلام من أصحاب الأئمة الأربعة وأتباعهم في كل عصر . وكانت للناس عناية كبرى بدراسة الفقه ومعرفة الأحكام الشرعية الفرعية ، لأن القضاء والفتوى كان على واحد من تلك المذاهب في كل صقع ، وكان الناس في عهد أبي العلاء يتنافسون في التفقه إما رغبة في قضاء أو فتوى ، أو طلباً لرجحان في حظوة أو مناظرة أو غير ذلك من المقاصد الدنيوية ، وكان فيهم فريق يتفقه لمعرفة الحلال والحرام وصحة الأعمال وبطلانها ، وقد نبغ في القرن الخامس جماعة من الفقهاء ، على مذهب الإمام الشافعي ، منهم أبو حامد أحمد بن محمد الاسفرائيني المتوفى سنة ٤٠٦ هـ ، وهو الذي كتب إليه أبو العلاء قصيدة في أمر السفينة كما سيأتي ، ومنهم أبو إسحق إبراهيم بن علي الشيرازي المتوفى سنة ٤٧٦ هـ ، ومنهم عبد الملك بن عبد الله إمام الحرمين المتوفى سنة ٤٧٨ هـ .

ونبغ فريق من الفقهاء على مذهب أبي حنيفة ، منهم : أبو الحسين أحمد ابن محمد القدوري المتوفى سنة ٤٢٨ هـ ، وأبو بكر محمد بن أحمد بن سهل السرخسي صاحب كتاب (المبسوط) المتوفى سنة ٤٨٣ هـ .

(١)

---

(١) في الأصل فراغ مقداره تسعة أسطر ولعل المرحوم المؤلف كان ينوي أن يضيف شيئاً .

واشتهر في المعرة جماعة من الفقهاء في هذا العصر ، منهم أبو حمزة الحسن بن عبد الله التنوخي الذي رثاه أبو العلاء بداليته ، ومنهم أبو المحاسن المفضل بن محمد بن مسعر التنوخي الآتي ذكره .

أصول الفقه

ويتصل بعلم الفقه علم أصول الفقه ، وهو العلم بالقواعد التي يُتوصل بها إلى استنباط الأحكام الشرعية الفرعية من أدلتها التفصيلية ، وهذا العلم يتوقف على معرفة العلوم العربية ، وبعض العلوم الشرعية ، كأصول الكلام والتفسير والحديث وبعض العلوم العقلية كالمنطق ، وقد عني به المسلمون عناية كبرى ونبغ فيه في القرن الرابع والخامس جماعة من الأئمة منهم :

أبو بكر محمد بن علي القفال الكبير المتوفى سنة ٣٦٥ هـ ، وأبو بكر أحمد بن علي الجصاص المتوفى سنة ٣٧٠ هـ ، وأبو زيد عبد الله بن عمر الدبوسي المتوفى سنة ٤٣٠ هـ ، وعلي بن محمد البزدوي المتوفى سنة ٤٨٢ هـ ، وشمس الأئمة السرخسي المتوفى سنة ٤٨٣ هـ .

اللغة

أول ما ابتدأ به علماء العرب في تدوين اللغة أنهم كانوا يضعون رسائل صغيرة في مواضيع خاصة ، كالرسائل التي وضعت في خلق الإنسان أو الفَرَس أو الإبل ، وكرسالة الكرْم أو النخل أو ما شابه ذلك .

وأول من وضع كتاباً جامعاً في اللغة الخليل بن أحمد الفراهيدي المتوفى سنة ١٧٠ هـ ، فإنه وضع كتاب (العين) ، ومات قبل أن يتمه ، فأتمه بعض تلاميذه ، فجاء مضطرباً مختلاً ، ولم يسلم من النقد .

وقد استدرك عليه المفضّل بن سلمة بن عاصم المتوفى سنة ٢٥٠ هـ ، وللمفضل كتب كثيرة منها كتاب (البارع في اللغة) و (الفاخر فيما تلحن به العامة) و (ما يحتاج إليه الكاتب) و (الرد على الخليل) في نقد كتاب العين ، و (ضياء القلوب) في معاني القرآن و(الزرع والنبات) ، وغيرها.

ثم وضع أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي المتوفى سنة ٣٢١ هـ ، كتاب (الجمهرة في اللغة) ، وله كتب كثيرة منهـــا : (الاشتقاق) و (المقصور والممدود) و (اللاحن) و (صفة السرج واللجام) و (السحاب والغيث) و (تقويم اللـــسان) و (اللغات) و (المجتنى) وغيرها .

ثم وضع إسحاق بن إبراهيم الفارابي خال الجوهري المتوفى سنة ٣٥٠ هـ ، (ديوان الأدب) .

ثم وضع أبو علي القالي إسماعيل بن القاسم المتوفى سنة ٣٥٦ هـ كتاب (البارع في اللغة) ، وله كتب كثيرة منها : (الأمـــالي والنوادر) ، و(المقصور والممدود والمهموز) .

ثم وضع أبو منصور الأزهري محمد بن أحمد بن الأزهر المتوفى سنة ٣٧٠ هـ كتاب (التهذيب في اللغة) . وله (غريب الألفاظ) التي استعملها الفقهاء و (تفسير القرآن) .

ووضع خلال هذه المدة جماعة من أئمة اللغة كتباً في النوادر والفصيح وغريب القرآن والخيل والإبل والسلاح والشجر والنبات ، وما أشبه ذلك من المواضيع الخاصة .

ثم عني أهل اللغة بالترتيب والتنقيح والضبط والجمع والتقريب والاختصار ، فاختصر أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي الإشبيلي المتوفى سنة ٣٧٩ هـ كتاب (العين) ، وهذا أخذ عن القالي ، وله (طبقات النحويين) و(لحن العامة).

ووضع الصاحب اسماعيل بن عباد المتوفى سنة ٣٨٥ هـ (المحيط) وهو سبع مجلدات .

ووضع أحمد بن فارس المتوفى سنة ٣٩٥ هـ (المجمل في اللغة) . وله (مقاييس اللغة) و (الصاحبي) و (الفصيح) و (تمام الفصيح) و (فقه اللغة) و (جامع التأويل في تفسير القرآن) ، وغيرها .

ووضع أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري المتوفى مابين سنة ٣٩٣ هـ ، إلى سنة ٣٩٨ كتاب (الصحاح) وله كتاب في العروض ومقدمة في النحو .

ووضع أبو منصور الثعالبي عبد الملك بن محمد بن اسماعيل المتوفى سنة ٤٢٩ هـ ، (فقه اللغة) وله كتب كثيرة منها (يتيمة الدهر) و (المضاف والمنسوب) و (الكناية والتعريض) وغيرها .

وقد أجاد علماء القرن الرابع والخامس في الترتيب والجمع وفاقوا من تقدمهم في التقريب والتسهيل ، ونبغ فيها طائفة من اللغويين البارعين ، منهم أبو الحسن علي بن سيده الأندلسي المتوفى في دانية سنة ٤٥٨ هـ وكان ضريراً كأبيه ، وله كتاب (المخصص في اللغة) وكتاب (المحكم) و (شرح ما أشكل من شعر المتنبي) و (الأنيق) شرح حماسة أبي تمام وغيرها .

ونبغ في المعرة في القرن الرابع والخامس طائفة من اللغويين ، منهم أبو المحاسن المفضل بن محمد بن مسعر التنوخي ، وأبو العلاء ، وأبوه عبد الله بن سليمان .

النحو والصرف

ألف أهل القرن الثاني والثالث في هذين العلمين كتباً كثيرة ، والغالب فيها أن يكون التأليف إما على مذهب البصريين أو الكوفيين . فلما كان القرن الرابع أخذ فريق من العلماء يجمعون بين المذهبين ، وقد نبغ فيه

طائفة من الأئمة ، منهم الحسن بن عبد الله أبو سعيد السيرافي المتوفى سنة ٣٦٨هـ ، وأبو عبد الله الحسين بن أحمد بن خالويه بن حمدان المتوفى سنة ٣٧٠هـ وله كتب منها (شرح مقصورة ابن دريد) ، و (ليس في كلام العرب) و (الاشتقاق) . وأبو علي الفارسي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار المتوفى سنة ٣٧٧ هـ ، وأبو الفتح عثمان بن جنّي المتوفى سنة ٣٩٢ هـ .

ويزيد علماء هذا العصر على من تقدمهم بما بحثوا فيه من المناسبات بين الألفاظ ومدلولاتها ، وما بين أصوات اللغة والطبيعة من التشابه أو التقارب .

وبالبحث عن علل الإعراب والبناء ، وبما أدخلوه من مصطلحات المناطقة والأصوليين في النحو ، وجروا على طريقة المناطقة بتحرير الحدود والقواعد .

ويصح أن يقال : إن هذا العصر أسبق العصور إلى البحث في الفلسفة اللغوية ، وفي كتاب (الخصائص) مايقنع المرتاب ويبين الحد الذي انتهى اليه علماء هذا العصر في مثل هذه المباحث .

ويتصل بعلم الصرف علم الاشتقاق ، ومن العلماء من أفرده بتأليف مستقل كالمفضّل بن سلمة والأصمعي [١] والمبرد [٢] وابن دريد والأخفش المجاشعي [٣] وابن خالويه ، وفي (رسالة الملائكة) شواهد جمة تدل على أن أبا العلاء كان إماماً في هذه العلوم .

---

(١) هو عبد الملك بن قريب بن علي بن أصمع الباهلي راوية العرب وأحد أئمة اللغة له تصانيف كثيرة وتوفي سنة ٢١٦ هـ . (ج)

(٢) هو محمد بن يزيد الثمالي الأزدي إمام العربية وأحد أئمة الأدب ، توفي في بغداد سنة ٢٨٦ هـ ، وله كتاب (الكامل) و (المقتضب) و (إعراب القرآن) وغيرهما . (ج)

(٣) هو سعيد بن مسعدة المجاشعي عالم بالنحو واللغة والأدب أخذ عن سيبويه وله كتب منها (تفسير معاني القرآن) و (الاشتقاق) و (معاني الشعر) توفي سنة ٢١٥ هـ . (ج)

علم المعاني والبيان والبديع

عني المسلمون أولاً بتدوين العلوم التي تحفظ الكلام من الخطأ في مخارج حروفه وفي إعرابه وتصريفه وتفسير المغلق والغريب منه ، حتى إذا فرغوا من ذلك وجهوا عنايتهم إلى البحث في فصاحة الكلام وبلاغته وبيان وجوهها . وكان غرضهم من ذلك كله وضع قواعد عامة لمعرفة اللغة وضبطها بقواعد كلية ليدرأوا عنها اللحن والخطأ ، ويدربوا الأعجمي ومن في حكمه على التكلم بالفصيح والصحيح ، وعلى إدراك مافي القرآن الكريم من أسرار البلاغة وأدلة الإعجاز . وكان البحث في ذلك قديماً عند المتقدمين إلا أن مسائله غير مجموعة ولا محررة .

ولعل أول كتاب وضع في البيان (المجاز في غريب القرآن) لأبي عبيدة معمر بن المثنى المتوفى سنة ٢١٠ هـ تقريبا . وقد تصدى الجاحظ في البيان والتبيين إلى ذكر شيء من عيوب اللسان ومحسنات البيان . واحتذى على مثاله جماعة من العلماء ، مثل قدامة بن جعفر المتوفى سنة ٢٥٦ هـ ، وابن دريد ، وأبو هلال العسكري الحسن بن عبد الله المتوفى سنة ٣٨٢ هـ .

ثم جاء عبد القاهر الجرجاني المتوفى سنة ٤٧١ هـ فجمع ماتشتت من مسائل المعاني والبيان ووضع لها قواعد ، وألف كتابين (دلائل الإعجاز) و (أسرار البلاغة) ، ثم تم تحرير هذه العلوم وتمييز كل واحد منهما من الآخر بعد هذا العصر .

أما البديع فأول من ألف فيه كتاباً عبد الله بن المعتز العباسي المتوفى سنة ٢٩٦ هـ ، ثم زاد عليه قدامة بعض الأنواع ، وكذلك العسكري وابن رشيق القيرواني المتوفى سنة ٤٥٦ هـ .

وسيأتي أن لأبي العلاء يداً طولى في هذا العلم والإرشاد إلى طرقه بما أورده من نقد العلماء والكتب .

العروض والقوافي

أول من وضع هذا العلم الخليل بن أحمد ، ثم جاء من بعده الأخفش المجاشعي فزاد واستدرك عليه بحرا . ثم ألف فيه جماعة ، منهم المازني بكر ابن محمد المتوفى سنة ٢٤٩ ﻫ ، والمبرد ، وأبو إسحق إبراهيم بن محمد الزجّاج المتوفى سنة ٣١٠ ﻫ ، والجوهري صاحب الصحاح وغيرهم .

وعني أبو العلاء بهذا العلم عناية كبرى . واشتهر به من علماء المعرة في هذا العصر أبو يعلى عبد الباقي بن أبي حصين ، وله كتاب في العروض والقوافي يذكر فيه أنه سأل أبا العلاء عن بعض مسائل هذا الفن . ومنه نسخة خطية في المكتبة الظاهرية في دمشق .

التاريخ

أول ما شُرع في التاريخ في عهد بني أمية ، يقال : إن معاوية استقدم عبيد بن شرية الجرهمي فكتب له كتاب (الملوك وأخبار الماضين) ، وإن وهب بن منبه المتوفى نحو سنة ١١٤ ﻫ وضع كتباً في ذلك . ولكن ما كتب في ذلك العهد كان أولياً بسيطاً ، ينقل المؤرخ ما يرويه عن غيره بالسند ، ولما جاء العصر العباسي اتجهت نفوس العرب إلى العناية بالتاريخ فقسموه إلى أنواع : المغازي والفتوح وطبقات الرجال [ويقال إن العرب لم يسبقوا إلى هذا النوع] والأنساب وأيام العرب وتاريخ الملوك والأمم والبلدان وسيرة النبي ﷺ لأنهم كانوا يريدون معرفة الأزمنة والأمكنة التي نزلت فيها آيات القرآن أو قيلت فيها أحاديث الرسول ﷺ ، والبلدان التي فتحت صلحاً أو عنوة لتنظيم أمر الجزية والخراج . والتعرف برواة الحديث وحملة الشريعة للبحث عن عدالتهم وطبقاتهم ، ومعرفة القبائل

الكريمة من غيرها ، والارشي من غيره ، وما كان لأنجاد(١) العرب وأمجادهم وأجوادهم من الأعمال الجليلة ، ومعرفة أسباب الشعر ومواقعه ونحو ذلك من المقاصد .

وقد ألف في كل نوع منه طائفة ، منهم محمد بن يسار المطلبي المدني المتوفى سنة ١٥١ هـ صاحب (السيرة النبوية) ومحمد بن سعيد المتوفى سنة ١٦٨ هـ ، وهشام بن محمد الكلبي المتوفى سنة ٢٠٦ هـ ، والواقدي محمد بن عمر المتوفى سنة ٢٠٧ هـ ، وأبو عبيدة معمر بن المثنى ، والأصمعي ، وعبد الملك بن هشام الحميري المعافري المتوفى سنة ٢١٣ هـ ، وهو صاحب (السيرة النبوية) ، والمدائني علي بن محمد المتوفى سنة ٢٢٥ هـ ، ومحمد بن سعد بن منيع الزهري صاحب (طبقات الصحابة) المتوفى سنة ٢٣٠ هـ ، وأحمد بن واضح اليعقوبي المتوفى سنة ٢٨٧ هـ ، ومحمد بن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠ هـ ، وأبو زيد البلخي أحمد بن سهل المتوفى سنة ٣٢٢ هـ ، والمسعودي علي بن الحسين المتوفى سنة ٣٤٦ هـ ، وابن مسكويه أحمد بن محمد المتوفى سنة ٤٢١ هـ .

وكان سبيل العرب في التاريخ أن يسرد المؤرخ ما وقع إليه من الحوادث في كل سنة أو ما انتهى إليه علمه من حوادث أمة وأخبار دولة ، ويقل عندهم نقد الرجال والتوسع في البحث عن أحوال الأمم الاقتصادية والاجتماعية ، وتعليل الحوادث والإمعان في تحقيقها ما خلا المحدثين فإنهم بالغوا في الاستقصاء والتحري والبحث عن أحوال الرجال وعدالتهم وما تتوقف عليه معرفة ذلك .

وكأنّ المؤرخ العربي يرى أن التاريخ عبارة عن نقل الحوادث كما هي ، وهذا لايقتضي أكثر من الأمانة في النقل والتحري في ضبط الرواية وهم لم يقصروا في ذلك . على أن نمط التاريخ تغير في هذا العصر عما

---

(١) الأنجاد : مفردها نجِدٌ ونَجُدٌ وهو الشجاع الماضي فيما يعجز غيره .

كان عليه من قبل ، فإن أكثر المؤرخين فيه كانوا يرحلون إلى كثير من الأقطار ليكتبوا مايشاهدون . وإن كثيراً منهم درس الفلسفة فنتقت ذهنه ووجهت نفسه إلى شيء من نقد الحوادث وتعليلها وإلى ما في بعض الأقاليم من الحوادث الاجتماعية والطبيعية ، كما يتمثل ذلك في كتاب (مروج الذهب) المسعودي ، فإنه رحل إلى بلاد الفرس والشام ومصر وغيرها وذكر في كتابه طائفة مما شاهده من العادات والمعتقدات والأخلاق. وما رآه من آثار الطبيعة كالزلازل والمد والجزر ونحوها .

ومنهم من أدخل في التاريخ شيئاً من المباحث العلمية والأدبية .

وقد ألف فيه جماعة من أهل المعرة في عصر أبي العلاء ، منهم أبو غالب همام بن جعفر بن المهذب التنوخي المعري . ومنهم يحيى بن علي ابن زريق التنوخي المعري .

وآثار أبي العلاء تدل على أن له عناية كبرى بمعرفة الرجال والأمم وأخبارهم وأحوالهم .

تقويم البلدان والجغرافيا

ازدهر في العصر العباسي علم تقويم البلدان ، وعني المؤرخون به خاصة حتى أن كثيراً منهم من جمع بينه وبين التاريخ في كتاب ، وقلَّ من لم يكن منهم له باع طويل في هذا الفن ، وقد ألف فيه جماعة منهم : أبو زيد أحمد بن سهل البلخي ، له كتاب (البدء والتاريخ) . ومن العلماء من ينسبه إلى المطهّر بن طاهر المقدسي ، وابن واضح اليعقوبي له كتاب (البلدان) وعبيد الله بن أحمد بن خرداذبة المتوفى سنة ٢٨٠ هـ له كتاب (المسالك والممالك) ، ومحمد بن حوقل المتوفى سنه ٣٨٠ هـ[١] له (المسالك

(١) كذا في الأصل ، وفي الأعلام للزركلي (المتوفى بعد سنة ٣٦٧ هـ) .

والممالك) ، ومحمد بن أحمد بن أبي بكر البناء المقدسي المتوفى سنة ٣٨٠ هـ له كتاب (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) . وأبو الريحان محمد بن أحمد البيروني المتوفى سنة ٤٤٠ هـ .

الفلك

كان العرب الأقدمون يعرفون كثيراً من أسماء الكواكب وأوقات طلوعها وسقوطها وقران بعضها ببعض ، ويهتدون بها في ظلمات البر والبحر ، وكانوا ينسبون كثيراً من الحوادث الطبيعية إليها ، كالحر والبرد والمطر ، ولهم فيها عقائد وأساطير ملأوا الأدب العربي بها ، ولم يحدثنا التاريخ بأكثر من هذا .

فلما جاء العصر العباسي وترجمت كتب الهند والفرس واليونان جعل بعض الناس يتكهنون بحوادث النجوم ويرتزقون بها ، والظاهر من أقوال أبي العلاء أن ذلك كان مستفيضاً في عهده ، لأنه أكثر التذمر من المنجمين ، وحض الحكام على إزالتهم عن الطرق ، وحذّر النساء منهم وحرضهن على اجتنابهم . ويقال : إن هذا النوع مقتبس من الهنود والفرس ، وقد لقي رواجاً عند الخلفاء العبيديين ، كالحاكم وغيره ، كما لقي رواجاً عند غيرهم .

أما علم الفلك الذي اقتبسه العرب من اليونان فقد كسبهم معرفة رصد الكواكب وتوقيت الحوادث ، وكان علم الفلك بأقسامه مزدهراً في القرن الرابع والخامس لا سيما في مصر . وقد تأثر أبو العلاء بهذا الفن ، ولذلك نجد في كلامه كثيراً من أسماء الكواكب وتشخيصها ، وذكر شيء من خصائصها والبحث في قدمها وفنائها ، والعناصر التي تركبت منها ، وفي حسّها وما يزعمه الناس فيها ، ونحو ذلك مما يأتي . وقد نبغ في هذا الفن أبو الحسن علي بن عبد الرحمن الشهير بابن يونس المصري المتوفى سنة ٣٩٩ هـ

وهو صاحب (الزيج الحاكمي) المعروف (بزيج ابن يونس) صحح به أغلاط من سبقه من مصنفي الأزياج ، وأبو الريحان البيروني .

وإنما ذكرنا هذا الفن عقب التاريخ وتقويم البلدان لشدة تأثرهما به ، وكثرة مباحثه التي أدخلها المؤلفون فيه .

الفلسفة

الترجمة

أول من عني من العرب بترجمة كتب العلم إلى العربية خالد بن يزيد ابن معاوية المتوفى سنة ٨٥ ﻫ ترجم بعض الكتب في النجوم والطب والكيمياء[١] ، ثم ترجم ماسرجويه كتاب (أهرون) في عهد عمر بن عبد العزيز . ثم لما قامت الخلافة العباسية اهتم الخليفة الثاني المنصور بالترجمة واستقدم نفراً من الهنود والسريان والفرس وغيرهم فترجموا له كتباً كثيرة ، وسأل ملوك الروم أن يصلوه بما لديهم من كتب الفلسفة فبعثوا إليه ما لديهم من كتب أفلاطون وأرسطاطاليس وأبقراط وجالينوس وأوقليدس وبطليموس وغيرهم . وأول ما عني بترجمته من العلوم المنطق والنجوم . وكانت للترجمة طريقتان : الأولى ، أن تفسر كل لفظة من اللغة المنقول عنها بما يرادفها من اللغة العربية ، ومن رجال هذه الطريقة يوحنا بن البطريق وابن ناعمة الحمصي .

---

(١) البيان والتبيين ١ / ٢١٢ . والوفيات ١ / ٢١١ . وطبقات الأطباء ١ / ١٠٩ .

والثانية ، أن يترجم كل جملة من غير أن يتقيد بتفسير كل كلمة على حدة ، ومن رجالها العباس بن سعيد الجوهري ، وحنين بن إسحاق . وهذه الطريقة أسلم عاقبة من الأولى وأكثر فائدة منها . ثم فترت الترجمة بعد موت المنصور ، حتى قام الرشيد فبعثها من مرقدها وترجم في عهده كل ماعثر عليه من كتب الطب والنجوم والكيمياء وغيرها . فلما جاء عهد المأمون أوفد إلى بلاد الروم طائفة ليختاروا له الكتب ويحملوها اليه ، منهم الحجاج بن مطر ، وسلم صاحب بيت الحكمة ، وابن البطريق ، وبنو شاكر المنجم وغيرهم[1] . فلما تم له ما أراد اختار أفضل التراجمة فترجموا له خير الكتب ، ونبغ في عهده طائفة من العلماء المحققين فأصلحوا ما في ترجمة من تقدمهم وما في الكتب المترجمة نفسها من الخطأ . وكان من هؤلاء يعقوب بن اسحق الكندي المتوفى سنة ٢٦٠ هـ وله ٢١٣ كتاباً في الطب والفلسفة والحساب والفلك والهندسة والموسيقى ، وقد ترجم كثيراً من كتب الفلاسفة وأوضح المشكل منها ، وكان أبرع الناس في الترجمة عن اليونانية ، ثم تتابع من بعده العلماء على التأليف والتنقيح والإصلاح . وكانت التراجمة ينعمون بما يغدقه عليهم الخلفاء وغيرهم ، وفي الفهرست ص ٣٤٠ أن بني المنجم كانوا يرزقون جماعة من النقلة في الشهر نحو خمسمائة دينار للنقل والملازمة . ولم يأت العهد الذي كان فيه أبو العلاء إلا وقد انتهى نقل ماكان عند اليونان والهند وغيرهما من أنواع الفلسفة والحكمة ، وأصبح الناس يدرسونه في المدارس والمساجد والمنازل ويبينون خطأ من تقدمهم من الفلاسفة ، وقد ألف جماعة من العرب كتباً كثيرة في فنون مختلفة .

---

(١) الفهرست ٣٣٩ . (ج)

العلوم الفلسفية عند المتقدمين

قسم المتقدمون العلوم الفلسفية إلى أربعة أنواع [١]: رياضية ومنطقية وطبيعية والٰهية . وقسموا الرياضية إلى أقسام أربعة : الأول علم الأرتماطيقي ، وهو معرفة خواص العدد ، وتحته علم الوفق والحساب .

الثاني : علم الهندسة بالبراهين ، وقسموها إلى علمية وعملية ، وتحتها علم رفع الأثقال وعلم الحيل المائية والهوائية والمناظر والحرب .

الثالث : علم النجوم ، وتحته علم الهيئة والميقات والزيج والأحكام والتحويل .

الرابع : علم الموسيقى ، وتحته علم الإيقاع والعروض .

وقسموا العلوم المنطقية إلى خمسة أنواع : معرفة صناعة الشعر . والخطب . والجدل . والبرهان . والمغالطة : سوفسطيقا .

وقسموا العلوم الطبيعية إلى سبعة أنواع : الأول : علم المبادىء ، وهو معرفة خمسة أشياء لاينفك عنها جسم ، وهي الهيولى والصورة والزمان والمكان والحكمة . الثاني : علم السماء والعالم وما فيها . الثالث : علم الكون والفساد. الرابع: حوادث الجو . الخامس : علم المعادن . السادس : علم النبات. السابع : علم الحيوان ، ويدخل فيه علم الطب وفروعه .

وقسموا العلوم الإلهية إلى أنواع : علم الواجب وصفته ، وعلم الروحانيات، وهي معرفة الجواهر البسيطة العقلية وهي الملائكة . والعلوم النفسانية ، وهي معرفة النفوس المتجسدة . والأرواح السارية في الأجسام الفلكية والطبيعية من الفلك المحيط إلى مركز الأرض . وعلم السياسات : وهو أنواع سياسة الذوة وسياسة الملك وتحته الفلاحة والرعايا وهو الأول المحتاج اليه

---

(١) راجع كشف الظنون . (ج)

في أول الأمر لتأسيس المدن ، وعلم قود الجيش ومكايد الحرب والبيطرة والبيزرة وآداب الملوك . والعلم المدني كعلم سياسة الخاصة وهي سياسة المنزل . وعلم سياسة الذات وهو علم الأخلاق .

وقد عني العرب بهذه العلوم وألفوا فيها كثيراً من الكتب . ونبغ منهم في كل عصر طائفة كبيرة ، ومن أفضل الفلاسفة في القرن الرابع والخامس . أبو بكر محمد بن زكريا الرازي المتوفى في بغداد سنة ٣١١ هـ وأبو نصر محمد بن محمد الفارابي المتوفى في دمشق سنة ٣٣٩ هـ وأبو علي الحسين ابن سينا المتوفى سنة ٤٢٨ هـ وقد ذكر ابن النديم في (الفهرست) والقفطي في (أنباء الحكماء) وابن أبي أصيبعة في (طبقات الأطباء) عدداً كبيراً من أعلام الفلاسفة وكتبهم ، كما ذكر غيرهم من المؤرخين كثيراً منهم .

طريقة فلاسفة المسلمين

وكانت لفلاسفة المسلمين طريقتان : إحداهما لم يتقيد أصحابها بدين ولا غيره ، وإنما جعلوا العقل هو المتصرف المطلق . ومن رؤساء هذا الفريق الفارابي وابن سينا ، وقد شذ أهل هذا المذهب في كثير من القضايا عن سنن الإسلام ، فأثبتوا كثيراً مما نفاه المسلمون كقدم العالم ، ونفوا كثيراً مما أثبته المسلمون كحشر الأجساد ، ولذلك رمي أكثرهم بالإلحاد والزندقة .

والثانية أراد أصحابها أن يوفقوا بين الدين والفلسفة فتكلفوا لذلك وجوهاً وفّقوا في بعضها دون بعض آخر ، ومن هذا الفريق علماء الكلام فإنهم حاولوا ذلك في كثير من المسائل وأرادوا أن يسيّروا الفلسفة وراء الدين . ومن رجال هذه الطريقة أبو الحسن الأشعري علي بن اسماعيل ، وأبو منصور الماتريدي محمد بن محمد ، وأبو بكر الباقلاني محمد بن الطيب ، وأبو إسحق الإسفرائيني ابراهيم بن محمد ، ومحمد بن عبد الوهاب الجبّائي ، وابن المعلم أبو عبد الله محمد بن محمد .

ومن رجال هذا الفريق المتصوفة ، وقد ذكر صاحب (الذكرى) [١] أن الفلسفة الصوفية تتألف من عنصرين يونانيين ؛ أحدهما وحدة الوجود ، وهو مذهب الرواقيين أصحاب زينون ، زعموا أن ليس في الوجود إلا قوة واحدة ذات وجهين ؛ أحدهما عقل صرف به الحركة ، والثاني صورة تظهر فيها هذه الحركة . وعلى هذا يكون الموجود وموجده شيئاً واحداً في نفسه وإن اختلفا في الاعتبار . وهذا المذهب ظهر عند الهند قبل اليونان فإن البوذيين يرون اتحاد العالم بموجده . والثاني هو الإشراق ، ويقوم هذا المذهب على قاعدة فرضها أفلاطون وهي أن هناك عالماً عقلياً مجرداً يماثل عالم المادة المركب ومنه أهبطت النفس الإنسانية إلى عالم المادة لتبتلى وتمحص ، فلما جاء الاسكندريون قالوا لاشك أن هذا حق فمن اليسير أن تتصل النفس بعالمها العقلي في أثناء حياتها المادية ، وسبيل ذلك أن يصفى جوهرها بهجر اللذات وحصر الفكر في موضوع واحد فإذا تم ذلك — وهو لا يتم إلا بعد جهاد — فقد تطلع النفس على ما في العالم العقلي من جمال وتتصل بمبدعها وفي ذلك لذة لاتعدلها لذة أخرى ، وهذا المذهب هندي أيضاً لأن المعروف عن نساك الهند الأقدمين أنهم يعتكفون في كهف مظلم وينقطعون عن اللذات ويعرضون عن المادة ليتصلوا بالإله .

وهذان العنصران نقلا إلى المسلمين في القرن الثالث ، وأضيف إليهما شيء من ظاهر الدين فنشأ مزاج فلسفي خاص أظهر الحلاج والجنيد [٢]

---

(١) ذكرى أبي العلاء — لطه حسين — ط ٢ ص ٨٩ — ٩٢ . وما أثبته المؤلف تلخيص لما جاء في الذكرى .

(٢) الحلاج : هو الحسين بن منصور توفي سنة ٣٠٩ هـ ، واختلفت الكلمة فيه ، ففريق يعده من الزهاد المتعبدين ، وفريق آخر يعده من الزنادقة الملحدين وانه كان يقول بالحلول وقتل على الزندقة ، وقد ذكره أبو العلاء وذكر كتبه في رسالة الغفران ص ١٥٠ ، والجنيد هو أبو القاسم بن محمد البغدادي المتوفى سنة ٢٩٧ هـ ويعرف بالقواريري لعمله القوارير ويعرف بالخزاز لعمله الخز وهو أول من تكلم بالتوحيد ببغداد ، وشيخ منهب التصوف لضبط مذهبه بقواعد الكتاب والسنة . وكان الكتبة يحضرون مجلسه لألفاظه والشعراء لفصاحته والمتكلمون لمعانيه .

وغيرهما من متصوفة القرن الرابع ، والمتصوفة أقرب إلى الشيعة منهم إلى أهل السنة ، فظهر فيهم مذهب الباطنية وكثر تأولهم للكتاب والحديث وانتشر مذهبهم في العامة فأدى إلى فنون من الإباحة ومخالفـــة الدين ، واخترعوا اشكالاً للعبادة التي توصلهم الى الله فنشأت طرقهم في الذكر واتخذوا الحشيش وسيلة الى غاياتهم فكثرت منهم الحماقات والأباطيل وضاق بهم أبو العلاء ذرعاً فأشبعهم رداً وازدراء . . . ولئن كثرت أضاليلهم فإن فيهم قوماً بررة استثناهم أبو العلاء من ذمّه اه .

وفي هذا الكلام نظر من وجوه . منها : أننا لا نسلم بأن العنصرين المذكورين نقلا الى الاسلام في القرن الثالث ثم نشأ عنها مزاج فلسفي خاص . لأن الانقطاع عن الناس واللذات أمر قديم في الإسلام ، فقد ثبت في الأخبار الصحيحة أن النبي (ﷺ) حبب اليه الخلاء فكان يأتي حراء فيتحنث[1] فيه حتى جاءه الملك بالوحي ، وبعد النبوة كان يعتكف في المسجد في العشر الأواخر من رمضان . ومنها أن المتصوفة كانوا يطبعون على غرار الصحابة لا سيما أبي بكر وعمر وعلي . ومنها : أننا لم نعرف عن المتقدمين من المتصوفة أنهم اتخذوا الحشيش أو غيره من المنكرات . ومنها أن الحلاج والجنيد على طرفي نقيض ، فالأول في رأي الجمهور زنديق ملحد ؛ والثاني تقي ورع ضبط مذهبه بقواعد الكتاب والسنة .

على أننا لا ننكر أن في الصوفية أناساً عبثوا بالشريعة وصرفوا آيات القرآن وأحاديث الرسول ﷺ عن وجوهها وتأولوا أقوال الصحابة والعلماء على ما تقتضيه أهواؤهم ، ولكن هؤلاء فريق قليل في المتقدمين ، ومثلهم كمثل فريق من العلماء زاغوا عن سبيل الهدى وشذوا عن طريق الجماعة ، وذلك يعود إلى خصائص في نفوسهم لا الى أصل مذهبهم وطريقتهم ،

---

(١) تحنث : تعبد الليالي ذوات العدد أو اعتزل الأصنام .

وهؤلاء انتقدهم أبو العلاء كما انتقد فريقاً من العلماء ؛ أما المتأخرون من المتصوفة فحدث عنهم ولا حرج .

الأدب

عرّفه المتقدمون بأنه علم يحترز به عن الخلل في كلام العرب لفظاً أو كتابة ، واختلفوا في أقسامه فقيل : ثمانية ، وقيل : اثنا عشر ، وقيل : أربعة عشر ، وقد جعلوا له أصولاً وفروعا ، أما أصوله ، فاللغة والصرف والاشتقاق والنحو والمعاني والبيان والعروض والقافية ، والبديع ذيل للمعاني والبيان ، وأما فروعه ؛ فالخط وقرض الشعر والانشاء والمحاضرات ، منها التواريخ (١) .

الخطابة

كان للخطابة شأن عظيم في فاتحة العصر العباسي ، ونبغ طائفة من الخطباء المصاقع كداود بن علي العباسي وشبيب بن شيبة والفضل بن عيسى الرقاشي ، وكان في الخلفاء العباسيين خطباء بلغاء كالمنصور والرشيد والمأمون وكذلك كان في رجال الدولة وأمرائها وقوادها مقاول أبيناء كعبد الله ابن طاهر وعبد الملك بن صالح العباسي .

ثم لما تولى قيادة الجيوش وعمالة الولايات كثير من الأعاجم والموالي واستعجم السلطان ، أخذ شأن الخطابة يتناقص ويضمحل حتى لم يبق منها إلا الخطب الدينية في الجمع والعيدين والزواج . وزادها سقوطاً وانحطاطاً شدة اختلاط العجم بالعرب وقلة الجند من العرب .

ولما كان عهد أبي العلاء كانت الغاية من الخطب الدينية إظهار ماعند

---

(١) راجع كليات أبي البقاء ص ٢٥ وكشف الظنون ١ / ٧١ . (ج)

الخطيب من فصاحة مصنوعة وبلاغة مسجوعة . ومنهم من كان يستعين بغيره فيعد له الخطب ويهيئها ، وسيأتي أن أبا العلاء ألف كثيراً من الخطب لغيره .

وقد خلف الخطابة في الأمور السياسية المناشير التي كانت تصدر عن الخلفاء والأمراء ، وفي الأمور الدينية مجالس المناظرة والجدل بين المتكلمين والفقهاء وبين الفقهاء أنفسهم وبين السنية والشيعة ونحو ذلك ، كالمناظرة التي وقعت بين أبي الحسن الأشعري وأبي علي الجبائي في الأصلح والتعليل وفي أسماء الله هل هي توقيفية أم لا [١] ، وكالمناظرة بين الأشعري وأبي بكر الصيرفي محمد بن عبد الله المتوفى سنة ٣٣٠ هـ [٢] والمناظرة بين أبي إسحق الشيرازي وأبي عبد الله الدامغاني محمد بن علي المتوفى سنة ٤٧٨ هـ . وبين أبي إسحق وإمام الحرمين عبد الملك الجويني . والمناظرات التي وقعت بين أبي الطيب الطبري طاهر بن عبد الله المتوفى سنة ٤٥٠ هـ وأبي الحسن الطالقاني . وبين الطبري وأبي الحسن القدوري الحنفي [٣] .

وكان للعلماء مجالس للوعظ والتعزية والإملاء وغيرها .

الكتابة

نبغت في العصر الأول العباسي والذي بعده طائفة من الكتاب

---

(١) طبقات السبكي ٢ / ٢٥ . (ج)
(٢) طبقات السبكي ٢ / ١٧٠ . (ج)
(٣) طبقات : ١٨٢ . (ج)

والمجودين كابن المقفع (١) ويحيى (٢) وجعفر (٣) والفضل (٤) البرمكيين وإسماعيل (٥) ابن صبيح وعمرو (٦) بن مسعدة وأحمد (٧) بن يوسف ومحمد (٨) بن عبد الملك الزيات والجاحظ ومحمد (٩) بن العميد .

---

(١) هو عبد الله بن المقفع الكاتب الشهور المتوفى سنة ١٤٢ هـ تقريباً وقد وضعت كتاباً خاصاً سميته (عمدة الأديب) (عبد الله بن المقفع) جمعت فيه طائفة من آثاره وأخباره ودراسة أدبه ودللت على مواطن العبقرية في كتبه وهو أجمع كتاب في هذا الغرض ؛ وقد طبع في دمشق سنة ١٣٥٥ هجرية . (ج)

(٢) ويحيى بن خالد بن برمك مؤدب الرشيد سجنه الرشيد يوم نكبة البرامكة في الرقة إلى أن مات سنة ١٩٠ هـ . (ج)

(٣) جعفر هو ابن يحيى بن خالد البرمكي وزير الرشيد كانت له توقيعات جميلة وهو مشهور بفصاحة اللسان والقول قتله الرشيد فيمن قتله من البرامكة سنة ١٨٧ هـ . (ج)

(٤) والفضل هو ابن يحيى بن خالد البرمكي وزير الرشيد توفي سنة ١٩٣ هـ في سجن الرقة مع أبيه . (ج)

(٥) إسماعيل بن صبيح ، كان وزيراً للرشيد بن جعفر . (ج)

(٦) عمرو بن مسعدة بن سعد بن صول كان يوقع بين يدي جعفر البرمكي في عهد الرشيد ثم اتصل بالمأمون فكان وزيراً له وكان في إنشائه يختار الإيجاز والجزل من الألفاظ ، توفي في آذنة أي أطنة في تركية سنة ٢١٧ هـ . (ج)

(٧) أحمد بن يوسف بن القاسم بن صبيح من أهل الكوفة كان كاتباً مجوداً وشاعراً وزر للمأمون وتوفي سنة ٢١٣ هـ . (ج)

(٨) محمد بن عبد الملك بن أبان . . المشهور بابن الزيات ، نبغ في الإنشاء والأدب واللغة ، ووزر للمعتصم وعول عليه في أموره . وكذلك ابنه الواثق ، ولما مرض الواثق أراد أن يولي ابنه ويحرم المتوكل فلم يوفق فلما ولي المتوكل نكبه وعذبه ومات في بغداد سنة ٢٣٣ هـ . (ج)

(٩) ابن العميد محمد بن الحسين العميد كان عالماً كاتباً حتى قيل فيه : بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد ، وكان يلقب بالجاحظ الثاني لتوسعه في العلم والأدب وتقدمه في الكتابة ولي الوزارة لركن الدولة البويهي وبه تخرج عضد الدولة توفي سنة ٣٦٠ هـ . (ج)

وفي العهد الذي كان فيه أبو العلاء نبغت طائفة طبعت على غرار من تقدمها وزادت عليه ما أدخلته في فن الكتابة من مسائل العلم ومصطلحاته ومن الصناعة البديعية ، وإن سمجت عند بعض المتكلفين منهم ، والمستقري لتاريخ الكتّاب وآثارهم في هذا العهد يجد كثيراً منهم ممن استطاع أن يجمع بين تخير الألفاظ السهلة وجمال الجمل الرشيقة وروعة المعاني اللطيفة وأن يتصرف في فنون القول بأسلوب عذب ورصف محكم .

وبين أيدينا آثار أبي بكر الخوارزمي محمد بن العباس المتوفى سنة ٣٨٣ هـ ، والصابىء إبراهيم بن هلال المتوفى سنة ٣٨٤ هـ ، والصاحب إسماعيل ابن عباد المتوفى سنة ٣٨٥ هـ ، والبديع الهمذاني أحمد بن الحسين المتوفى سنة ٣٩٣ هـ .

وهي أفضل ماتركه ذلك العهد من التراث الأدبي النثري . وبعد هذا في وسعنا أن نقول : إن صناعة الإنشاء في هذا العهد لم تنحط عما كانت عليه في العهد الذي كان قبله وإن كان في رجاله بعض المتكلفين في الصناعة وقلما وجد عصر غير مطبوع بطابع التفاوت في نظمه ونثره .

الشعر

لم يصل الينا من الأدب الجاهلي إلا الشعر وقليل من النثر ، والشعر الذي وصل الينا محكم التأليف متلاحم الأجزاء مصقول الديباجة صحيح المعنى مشذب مهذب ، وقد جعل العلماء أقصى مداه قبل الإسلام بقرن ونصف ، وليس من المعقول أن يولد الشعر ويبلغ في الجودة والإتقان وتعدد الأنواع والأغراض والأوزان إلى هذا الحد في مثل هذه المدة بل لابد أن يكون قد مرت به أطوار مختلفة من التحرير والتنقيح والتهذيب في أوزانه وقوافيه وفي ألفاظه مفردة ومركبة ، وأطوار متعددة من

التقويم والتصحيح في معانيه حتى جاء على هذه الصورة الرائعة ، فإذاً من المتيقن أن الشعر مر بضروب من النقد الأدبي في العصر الجاهلي . غير أننا لم نجد لهذا النوع مسائل مجموعاً بعضها إلى بعض محصورة تحت كل نوع منها أفراد متقاربة أو متشابهة كما هو الشأن في كل علم من العلوم . وإنما نقلت الينا مسائل مبعثرة مرتبط كل منها بحادثة ، منها انتقاد أم جندب زوجها امرأ القيس الكندي (١) أنه جهد فرسه بسوطه ، وحرك رجليه وزجره بخلاف علقمة .

ومنها ما انتقده طرفة على المسيب بن علس (٢) حين قال له : استنوق

---

(١) امرؤ القيس : حندج بن حجر الكندي إمام الشعراء الجاهليين ، قالوا : إنه تنازع هو وعلقمة بن عبدة في الشعر وادعاء كل منهما على صاحبه . فقال علقمة : قل شعراً تمدح به فرسك والصيد ، وأقول في مثل ذلك ، وحكّما أم جندب في ذلك فقال امرؤ القيس قصيدته :

خليليّ مرّا بي على أم جُندُبِ . . وفيها يقول :

فللساق ألهوب وللسوط دِرّة ... وللزجر منهُ وقعُ أهوجَ مُتعبِ

وقال علقمة قصيدته :

ذهبتَ منَ الهجرانِ في كلِّ مَذهَبِ . . وفيها يقول :

فأقبلَ يهوي ثانياً من عنانِهِ ... يمرُّ كمرِّ الرائحِ المتحلبِ

فقالت لزوجها : علقمة أشعر منك ، لأنك ضربت فرسك بسوطك ، وامتريته بساقك ، وزجرته بسوطك ، وأدرك علقمة الصيدَ ثانياً من عنانه . فغضب امرؤ القيس وقال ليس كما قلت ولكنك هويته . فطلّقها وتزوّجها علقمة . وبهذا سمي علقمة الفحل اهـ ، وتفصيل هذه القصة في كتابنا (عمدة الأدب) : امرؤ القيس . وقد طبع في دمشق سنه ١٣٥٤ هـ = ١٩٣٦ م . (ج)

(٢) طرفة بن العبد البكري الوائلي أحد أصحاب المعلقات توفي قبل الإسلام بأكثر من نصف قرن . وهو شاعر فحل . والمسيب بن عَلَس من ضبيعة بن ربيعة ابن نزار كان ينشد أبياتاً في وصف جمل فقال فيها :

وقد أتناسى الهمَّ عند احتضاره ... بناجٍ عليه الصَّيْعَرِيَّةُ مُكدَمِ

فقال له طرفة : استنوق الجمل . أي انك كنت في وصف جمل ، فلما قلت الصيعرية عدت إلى ما توصف به النوق لأن الصيعرية سمة لا تكون إلا في عنق الناقة . (ج)

الجمل . ومنها انتقاد أهل المدينة شعر النابغة الذبياني (١) لما فيه من الاقواء . ومنها انتقاد الخنساء بيت حسان (٢) :

لنا الجفنات الغرُّ يلمعن في الضحى وأسيافنا يَقطِرْنَ من نَجْدةٍ دَمَا

وفي هذا المنقول ما يرجع إلى اللفظ ، وفيه ما يرجع إلى المعنى . وكان المرجع في النقد عند الجاهليين هو الذوق الفني فقط ، وليس لديهم قواعد يرجع إليها في ذلك ، ولا كانوا يعمدون إلى حل الشعر والتفكير فيما بين

---

(١) نظم النابغة الذبياني قصيدته :

من آل ميّةَ رائحٌ أو مُغتدِ . . . . . على الدال المكسورة وفيها يقول :

زَعَمَ الغُدافُ بأنّ رحلتَنا غداً وبذاكَ خبّرنا الغدافُ الأسودُ

ويقول :

بمخضّبٍ رَخصٍ كأنّ بنانَهُ عَنَمٌ يكادُ من اللطافةِ يعقدُ

وفي كلا البيتين إقواء ، وهو اختلاف حركة الروي بضم وكسر . فلما دخل المدينة نُبّهَ إلى ذلك فغيّر البيتين . وإيضاح هذه القصة وتحقيقها مبسوط في كتابنا (النابغة الذبياني) ج ١ ص ٨٤ ، وقد طبع في دمشق سنة ١٣٦٤ هـ = ١٩٤٥ م . (ج)

(٢) الخنساء : تماضر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد من بني سُليم ، أدركت الجاهلية والإسلام وهي أرقى وأرثى شاعرات العرب . توفيت قبل الخمسين من الهجرة . وحسان بن ثابت الأنصاري الخزرجي عاش ستين سنة في الجاهلية ومثلها في الإسلام أنشد النابغةَ في سوق عكاظ قصيدته الميمية :

ألم تسأل الرّبعَ الجديدَ التكلما

ثم أنشدته الخنساء قصيدتها الرائية :

قذى بعينيك أم بالعين عوار

فقال النابغة : أنت أشعر ذات مثانة . فقالت : وذي خصية . فقال : وذي خصية . فغضب حسان وقال : أنا أشعر منك ومنها ؛ ثم قال النابغة للخنساء : خاطبيه ! فسألته : ما أجود بيت في قصيدته فقال :

لنا الجَفَنات الغُرُّ يلمعْنَ في الضحى

فانتقدته في مواضع . وتفصيل هذه الحادثة وتحقيقها في رسالتنا في (الخنساء وحسان) وفي كتاب (النابغة) المتقدم ذكره . (ج)

أجزائه وعناصره من التلاحم والتوافق ونحو ذلك من عمل الفكر الذي لم يهتد إليه مفكر الجاهلي أو لم نهتد نحن إلى معرفته . والحوادث تدلنا على أن ذلك الذوق كان صحيحاً سليما دقيقا . فإن امرأ القيس وعلقمة لما تحاكما إلى أم جندب ، وضعت لهما مقياساً دقيقاً لتعول عليه في الموازنة بينهما وتستند اليه في تفضيل أحدهما على الآخر ، فأمرت كلا منهما أن يقول شعراً على روي واحد ووزن واحد في غرض واحد وهو وصف الفرس والصيد أو هما اقترحا ذلك ، ويتضح من ذلك أن الذي اتخذ مقياساً للموازنة والمفاضلة في هذه القصة أمور ثلاثة : وهي وحدة الوزن والقافية والغرض . وهذا وأشباهه يدل على أن للنقد نواة صحيحة في العصر الجاهلي وإن لم نعلم كنهها على التحقيق .

فلما جاء الإسلام واطلع العرب على القرآن الكريم ، ارتقى العقل والذوق العربيان لأن الإسلام أمرهم بالنظر والاعتبار في ملكوت السموات والأرض ، ووجه نفوسهم إلى طلب العلم وأراهم مالم يروا من مشاهد الطبيعة وحضارة الأمم التي كانت تجاورهم . والقرآن لطف أذواقهم وشحذ أذهانهم ، فاتسعت دائرة النقد لديهم ، وحسبك أن تقرأ ما كان يقع من تفضيل شاعر على آخر أو تفضيل شاعر على جميع الشعراء مع بيان الأسباب التي تقتضي ذلك ، كما فعل عمر بن الخطاب في تفضيل زهير على غيره (١).

---

(١) قال عمر بن الخطاب لابن عباس : هل تروي لشاعر الشعراء ؟ قال : ومن هو ؟ قال : الذي يقول :

ولو أن حمداً أخلدَ الناسَ أخلدوا . .

قال : ذاك زهير . قال : فذاك شاعر الشعراء ، قال : وبم صار كذلك ؟ قال : لأنه كان لايعاظل في الكلام ويتجنب وحشي الشعر ، ولا يقول الا مايعرف ، ولا يمتدح الرجل إلا بما فيه (ج)

وكما فعل جماعة بعمر بن أبي ربيعة [(١)] ونحوه . وما كان يفعله الخلفاء والأمراء من إرشاد الشاعر إلى الجيد من المدح واطّراح الرديء منه كما فعل معاوية بالأخطل [(٢)] أو استهجان لفظ أو معنى لما يوهمه مما لا يلائم المقام أو لا يوافق مراد الشاعر كما فعل عبد الملك بجرير [(٣)] وذي الرُّمة [(٤)]

---

(١) قال ابن أبي عتيق : لشعر عُمر لوطةٌ في القلب وعلوق بالنفس ودرك للحاجة ليست لغير . وقال عمر بن مصعب : إن لشعر عمر لموقعاً في القلب ومخالطة للنفس ليسا لغيره ، ولو كان شعر يسحر لكان شعره سحراً . (ج)

(٢) قال الأخطل لمعاوية : إني امتدحتك بأبيات فاسمعها ! فقال : إن كنت شبهتني بالحية والأسد والصقر فلا حاجة لي بها ، وإن كنت قلت كما قالت الخنساء :

فما بَلَغَ المُهدونَ للناسِ مِدحةً ... وإن أطنبوا إلا الذي فيكَ أفضل

فعل ! فقال الأخطل : والله لقد أحسنتْ ، وقد قلت فيكَ بيتين ماهما بدونها ، وأنشد :

إذا متْ ماتَ العُرْفُ وانقطعَ النَّدى ... فلمْ يبقَ إلا من قليلٍ مُصرَّدِ

نسبها إلى الأخطل في زهر الآداب ج ٦٤/٤ ، وأمالي المرتضى ج ١١٣،٣ ، وفي كتاب المعمرين : إن نصر بن الحجاج السلمي قالها لمعاوية ، فلما سمعها قال لابنته قرظة وهي تبكي : اسمعي إلى مرثيتي وأنا حي . (ج)

(٣) دخل جرير على عبد الملك ، فأنشده قصيدته :

أتصحو أم فؤادك غير صاح

فقال بل فؤادك يابن الفاعلة . وجرير بن عطية بن حذيفة الكلبي اليربوعي أشعر أهل عصره ولد باليمامة سنة ٢٨ هـ ومات بها سنة ١١٠ . (ج)

(٤) ذو الرمة : غيلان بن عقبة العدوي من مضر شاعر فحل قيل : بدىء الشعر بامرىء القيس وختم بذي الرمة توفي سنة ١١٧ هـ ودخل على عبد الملك فاستنشده شيئاً من شعره ، فأنشده قوله :

مابالُ عينِكَ منها الماءُ يَنْسكبُ .

وكانت بعين عبد الملك ريشة وهي تدمع أبداً ، فتوهم أنه عرض به ، فقال : وما سؤالك عن هذا ياجاهل ؟ وأمر بإخراجه . العمدة ١ : ١٤٨ (ج)

والحجاج بليلى الأخيليــة (١) . ونحو ذلك مما طفحت به كتب الأخبار والأدب .

وقد ينجلي للممعن في استقصـــاء هذه المباحث أن النقد في العصر الإسلامي لم يقتصر على نقد الألفاظ والمعاني فحسب بل تعدى ذلك إلى الشعور والحس ، كما سمعنا من قول ابن أبي عتيق ، ومصعب بن مصعب في عمر بن أبي ربيعة من تفضيل شعر عمر بما ذكراه فيه على غيره لخلوه من ذلك . ولكن النقد في هذا العصر - وإن تعددت وجوهه - لم يعتمد على قواعد فنية ، وإنما كان يعتمد على الذوق والسليقة والفطرة وكثرة الممارسة التي تجعل في النفس ملكة يتميز بها الجيد من الرديء .

ولما قامت الدولة العباسية وزخرت بحور العلوم التي وضعها العرب أو ترجموها عن الأعاجم ونضجت علوم اللغة أخذ فن النقد يتقدم وينمو على أيدي اللغويين والأدباء من كتاب وشعراء ، وتعددت وجوهه ، وكان في أول هذا العهد يعتمد على الذوق ويستند في بعض مناحيه إلى العلم . وقد كان العصر العباسي الأول أي من سنة ١٣٤ هـ إلى سنة ٢٣٢ هـ عصر ترجمة وتدوين وسماع للغة من أفواه أهل البادية الذين لم تفسد سلائقهم بمخالطة العَجَم والمستعجمين ، فهو عصر غرس وتعهد .

وأما العصر الثاني فقد كان عصر بحث وإعمال للعقل وإنتاج للفكر ، فهو عصر نضج وإزهار وإثمار . ولذلك دون فيه من الكتب والرسائل

---

(١) وَفَدت ليلى الأخيلية على الحجاج فمدحته بأبيات منها قولها :

شفاها من الداء العقام الذي بها غلامٌ إذا هز القناة ثناها

فقال لها : لاتقولي. غلام قولي همام . الكامل ١٧٦/٣ . وليلى بنت عبد الله شاعرة ذكية لها أخبار مع توبة بن الحُمَيِّر توفيت سنة ٧٥ هـ . (ج)

مالم يعرفه أهل العصر السابق ، وحدث فيه من الفنون مالم يكن من قبل، ومن ذلك المسائل العائدة إلى علم البلاغة الشامل لعلم المعاني والبيان والبديع [١] فهذا من ثمرات هذا العصر ونتاج عقول بنيه . أما كتاب أبي عبيدة معمر بن المثنى (مجاز القرآن) فإنه وإن أراد بالمجاز اللفظ المستعمل في غير ماوضع له إلا أنه لم يفرق بين أنواع المجاز التي قسمها علماء هذا الفن بعده . والجاحظ تصدى كما قلنا في (البيان والتبيين) إلى شيء من مباحث البيان إلا أنه لم يجر فيه على طريقة علمية تميز كل نوع من غيره وتلحق كل مفرد بنوعه ، وكذلك ماجاء في مثل كتاب (الكامل) للمبرد (والشعر والشعراء) لابن قتيبة لايتعدى كونه مسائل انتقد فيها من بعض الوجوه ، لاترجع إلى قاعدة عامة ولا إلى ضابط كلي ، وقد كانت هذه المباحث في الأدب . ثم لما اختلفت كلمة العلماء في إعجاز القرآن ووجوه إعجازه وطرقه استمد كل منهم من مسائل علم البلاغة مايؤيد به رأيه ويضعف رأي غيره ، فكان ذلك باعثاً لوجود هذا العلم .

ويمكن أن يقال : إن مسائل هذا العلم التي فاضت بها كتب الجاحظ والمبرد وابن قتيبة وغيرهم ، كانت نواة له في القرن الثالث والرابع ، ولم يكد يبزغ فجر القرن الخامس حتى أصبحت هذه المسائل علوماً متميزة بمبادئها وموضوعاتها ومسائلها وغاياتها فطلع عبد القاهر الجرجاني بكتابيه وجعلها أساساً للمعاني والبيان . ثم بلغت هذه العلوم غايتها من تحرير

---

(١) كثير من العلماء يسمى الجميع علم البيان . وكثير من يسمي الثلاثة علم البديع . وبعضهم يسمي الأول علم المعاني ، والثاني والثالث علم البيان كما ذكر ذلك السعد وغيره من شراح التلخيص ج ١ ص ١٥١ . (ج)

المباحث وتمييز مسائل كل علم منها على حدة على يد أبي يعقوب يوسف السكاكي المتوفى سنة ٦٢٦ هـ وأشباهه .

وزعم بعض الأدباء أن البيان والنقد شيء واحد . والحق أنهما قد يلتقيان ويجتمعان في بيان وجوه الحسن ، وينفرد علم البيان في بيان تأدية المعنى بطريق أوضح من غيره ، وفي بيان أقسام المجاز والاستعارة والكناية ومسائل العلوم الثلاثة كالفصل والوصل والذكر والحذف وغيرها فليس شيء من هذا يسمى نقداً . وينفرد النقد بكثير من المباحث التي لاعلاقة لها بالبيان فبينهما عموم وخصوص من وجه .

ونقل الإنبابي في حاشيته على (رسالة البيان) للصبان عن السيوطي : أن المتقدمين كانوا يسمون علم البلاغة وتوابعها علم نقد الشعر ، وصنعة الشعر ونقد الكلام ، وفيه ألف قدامة بن جعفر المتوفى سنة ٣١٠ هـ كتاباً سمّاه (نقد الشعر) وألف الحسن بن عبد الله العسكري المتوفى سنة ٣٨٢ هـ كتاباً سماه (الصناعتين) يعني صناعتي النظم والنثر ، وإنما التسمية بالمعاني والبيان والبديع حادثة من المتأخرين . وفي هذا الكلام نظر لأن عبد الله بن المعتز المتوفى سنة ٢٩٦ هـ ألف كتاباً في البديع .

ومن الحق أن يقال : إن العرب في العصر الجاهلي والإسلامي وأول العصر العباسي عرفوا فن النقد بأذواقهم وسلائقهم وإن لم يعرفوه علماً مستقلاً ، له من الخصائص والميزات ما لكل علم .

وإن ما قدمناه من الأمثلة التي انتقدت على امرىء القيس والنابغة والمسيب وجرير وغيرهم . وما ذكره محمد بن سلام الجمحي المتوفى سنة ٢٣٢ في (طبقات الشعراء) والجاحظ عمرو بن بحر المتوفى سنة ٢٥٥هـ في (البيان والتبيين) وابن قتيبة عبد الله بن مسلم المتوفى سنة ٢٧٦ هـ في (أدب الكاتب) والمبرد محمد بن يزيد المتوفى سنة ٢٨٦هـ في (الكامل)

وأبو الفرج الاصفهاني علي بن الحسين المتوفى سنة ٣٥٦ ه في (الأغاني) وعلي ابن عبد العزيز الجرجاني المتوفى سنة ٣٦٦ ه في(الوساطة بين المتنبي وخصومه) والآمدي الحسن بن بشر المتوفى سنة ٣٧١ ه في (الموازنة بين أبي تمام والبحتري) والصاحب اسماعيل بن عباد المتوفى سنة ٣٨٥ ه في (كشف مساوىء المتنبي) والحاتمي أبو علي محمد بن الحسن بن المظفر البغدادي المتوفى سنة ٣٨٨ في الرسالة التي انتقد فيها المتنبي وبيّن سرقاته ، وما شاكل هذا من الكتب والرسائل . كل هذا يدل على معرفتهم النقد قبل أن يكون علما .

ولقد أظل أبا العلاء طرف من العهد الذي كان فيه علم البلاغة بأنواعه علماً كاملا . وقد تأثر بالنقد العلمي والأدبي كما سيأتي ، وكان لنقده أثر كبير مهد به السبيل للجرجاني والسكاكي ومن لف لفّهما . وسنذكر بقية العلوم التي كانت في هذا العصر في الكلام على ثقافته .

الشعر

ابتدأ تقدم الشعر في ألفاظه ومعانيه وأخيلته ، وتعددت أوزانه وقوافيه وأغراضه من فاتحة العصر العباسي ودبت إليه صناعة البديع من عهد بشار ابن برد ، ونمت على يد مسلم بن الوليد . وتمّت على يد أبي تمام واستعذب الشعراء طريقته فاحتذوا على مثالها . ونبغت في القرن الرابع والخامس طائفة من الشعراء المفلقين كأبي الطيب المتنبي وأبي فراس الحمداني وأبي الفتح بن أبي حَصينة والشريف الرضي وأمثالهم . ولم يخل شعر هؤلاء من أثر بين للصناعة البديعية ، ولكن على الغالب كان حظها قليلا من التكلف الذي يورث الكلام سماجة . ومنها مايزيد الشعر رونقا وطلاوة .

ألفاظ الشعر

وكان الغالب على هذه الطبقة النزوع إلى الإيجاز واطّراح الفضول من القول والعناية بتخير الألفاظ القليلة المبنى الكثيرة المعنى ، واستعمال كثير من الاصطلاحات العلمية المتعددة وذكر كثير من أسماء رجال التاريخ كأرسطو وجالينوس ، والإشارات إلى أصحاب النحل والمذاهب كالمانوية والدهرية والقصدية ونحو ذلك مما اكتظ به شعر المتنبي والرضي والمعري وغيرهم.

المعاني

وأما المعاني فقد تأثرت بالحضارة العباسية والنهضة الفكرية والحياة السياسية والاجتماعية ، ولقد أمدت هذه المؤثرات قرائح الشعراء وشحذت فطنهم ونمت ثقافاتهم فغزرت لديهم المادة واتسعت آفاق الخيال وتعددت صوره ، فجاءت معاني الشعر وأخيلته آية في الوضوح والروعة .

ومما زاد الشعر تقدماً ورقيّـاً في هذا العهد تعدد الملوك والأمراء والمتغلبين وحرص كل منهم على أن يتخذ من الشعراء لساناً ينوه بذكره ويعدد مناقبه ويقرظ أفعاله وينال من خصومه لتصغر منزلتهم في أعين الناس . وكان كثير من هؤلاء الرؤساء على شيء من العلم والأدب ، فكانوا يجلون الشاعر بقدر إجادته ، ويغدقون عليه من الصلات والأعطيات ما يملك لسانه على مدح غيرهم ، وكانوا يخشون معرّة الشعراء ويتقون أذاهم، كما وقع للمتنبي عند سيف الدولة أولاً وعند كافور ثانياً وابن العميد ثالثاً وعضد الدولة رابعاً . فكانت هذه العوامل مع ما للشاعر من المنزلة عند العامة والخاصة تدفع الشعراء إلى التسابق في الإجادة والإفتنان في الابتكار ، وكثر بذلك سواد الشعراء ، ويكفيك برهاناً على كثرتهم في كل مصر أن الصاحب ابن عباد بنى قصراً فهنأه به خمسون شاعراً ، وأنه قال : مُدحت

والعلم عند الله بمائة ألف قصيدة شعراً عربية وفارسية . وأن سيف الدولة اجتمع ببابه خلق كثير من الشعراء النوابغ ، وأن أبا العلاء وقف على قبره ثمانون شاعراً أو أكثر .

فنون الشعر

أما فنون الشعر في هذا العهد فقد تناولت جميع مانظم فيه المتقدمون ، وارتقت عليها من كل جانب ، ولم يزد الشعراء فناً جديداً على من تقدمهم . إلا أن أبا العلاء أحدث الشعر الفلسفي ولم يكن معروفاً قبله بهذا الشكل.

وليست النهضة الشعرية في هذا العهـــد مختصة بالشعر العربي فحسب وإنما كانت شاملة غير العرب إذ فيه نظمت الشاهنامة الفارسية ، وهي ستون ألف بيت في سنة ٣٨٤ هـ .

ويمكن أن يقال باختصار : إن الشعر في هذا العهد بلغ أقصى غاية في الافتنان في التشبيه وتنويع المجاز والاستعارة ولطف الكناية وروعة الخيال وصحة المعاني ونيل المقاصد ، واستخلاص اللباب من الثقافات الأعجمية والعربية وإدماج مسائل العلم واصطلاحاته في الشعر . كل ذلك بأسلوب رائع جامع بين الرقة والمتانة والإيجاز الوافي بالغرض في أكثر الأحيان .

الرواية

كان لكل شاعر في الجاهلية راوية فأكثر ، ودرج على ذلك الناس في العصر الأموي وقسم من العصر العباسي . ولكن لما جاء الإسلام تعددت أنواع الرواية ، فكان للقرآن رواة وللحديث رواة وللغة رواة وللأدب رواة ؛ وقد عني أهل الحديث عناية كبرى بالرواية وشروطهـــا وشروط

الراوي ، وقسموا المروي بحسب السند والمتن إلى أقسام متعددة . وجعلوا طرق تحمل الحديث المروي ثمانية ، الأول : سماع لفظ الشيخ وهو أعلاها. الثاني : القراءة على الشيخ ويسميه بعضهم عرْضا . الثالث : الإجازة كأن يقول لرجل : أجزتك صحيح مسلم أو أجزت لك أن تروي عني صحيح البخاري مثلاً . الرابع : المناولة ؛ كأن يدفع الشيخ إلى الطالب أصل سماعه ويقول له : هذا سماعي أو روايتي عن فلان فاروه عني أو أجزت لك روايته عني . الخامس : الكتابة ؛ وهي أن يكتب الشيخ مسموعه لرجل ، ويقول له : أجزتك ما كتبت به إليك . السادس : إعلام الشيخ الطالب أن هذا الحديث أو الكتاب سماعه من فلان . السابع : الوصية ؛ وهي أن يوصي الشيخ عند موته أو سفره بكتاب يرويه لشخص آخر . الثامن : الوجادة ؛ وهي أن يقف على أحاديث بخط راويها . ولكل واحد من هذه الأقسام شروط وأنواع مبسوطة في كتب المحدّثين ؛ وفي بعضها خلاف بين العلماء . وفي كتاب (تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي) للسيوطي ص ١٢٩ ما يكفي لإيضاح هذا المقام .

وقد جرى بعض الأدباء على شيء من طريقة المحدّثين وإن قصروا عنهم في الضبط والتحري والبحث عن عدالة الراوي وصفاته التي تدعو إلى الوثوق بروايته . وكانت رواية الأدب في فاتحة العصر العباسي باللغة أشدّها من العناية وتحري الصدق ؛ إلا أن كتب الأدب كانت صغيرة وأكثرها في موضوع خاص .

ثم تغيرت في العصور التي بعده رغبة الأدباء من التأليف في غرض واحد أو نوع واحد إلى جمع أنواع متعددة من الأدب ، فظهر مثل كتاب (البيان والتبيين)و (الحيوان) للجاحظ وكتاب (المنظوم والمنثور) لأحمد ابن طيفور المتوفى سنة ٢٨٠ هـ وهو من تلاميذ الجاحظ ، ومثل كتاب

(الكامل) للمبرد و (الأغاني) و (أمالي القالي) و (العقد الفريد) و(يتيمة الدهر) . كثير من أمثال هذه الكتب التي جمعت ماتفرق من الروايات كما جمعت صوراً مختلفة من الأدب .

وسنرى أن أبا العلاء كان متأثراً بطريقة أهل عصره وما قبله في الرواية في الحديث والأدب ، وأنه قال في كتاب (غريب الحديث) : قرأه علينا عثمان بن عبد الله وهو سمعه من عدي بن عبد الباقي وهو سمعه من علي بن عبد العزيز صاحب أبي عبيد . وأنه قال في الجزء الثاني من ذكرى حبيب : قرأ علي هذا الجزء أبو الحسن يحيى بن محمد الرازي من سنة ٤٤٦ هـ إلى سنة ٤٤٧ هـ وأجزت له أن يرويه عني على حسب ماقرأه .

★ ★ ★

المقالة الأولى

نشأته وحياته :

لم نقف في كلام الذين كتبوا في أبي العلاء قديماً وحديثاً على مايفصل لنا نشأته في فاتحة حياته ، ولا ما اجتازه من الأطوار وألم به من المصائب في حياته كلها . وكل ماذكروه في ذلك أنه ولد سنة ٣٦٣ ﻫ ورمي بالجدري في السنة الرابعة من عمره ، وأنه رحل إلى حلب وبغداد ، ثم لزم منزله في المعرة حتى توفي . وأشباه ذلك من الحوادث التي لاتنقع غلة الباحث وما قطعه من مراحل الحياة ، ومر به من الأطوار والأحوال لايزال سراً غامضاً لم تساعدنا الأيام بالاطلاع عليه .

وقد كان أبوه يحدب عليه حتى توفي في حمص سنة ٣٧٧ ﻫ على قول ياقوت في (إرشاد الأريب) جزء ١ ص ١٦٣ . وفي معرة النعمان سنة ٣٩٥ ﻫ على قول ابن العديم[١] ، فيكون عمره عند وفاة أبيه أربعة عشر عاماً على قول ياقوت ، ونحو اثنين وثلاثين عاماً على قول ابن العديم . ولعل موته في المعرة أقرب إلى الصواب لأنه لو كان ميتاً في حمص لأشار إليه أبو العلاء في مرثيته أو غيرها ؛ ولم أر في كلامه مايدل على ذلك بل قال صاحب (التنوير) في شرح قوله :[٢]

مُجاوِرَ سَكْنٍ في دِيَارٍ بَعِيدَةٍ   مِنَ الحَيِّ سَقْياً للدِّيارِ وللسَّكْنِ

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٤٩٣ عن الانصاف والتحري — لابن العديم — .

(٢) شروح سقط الزند ، ق ٢ ص ٩٢٤ والتنوير ٢٨٧/١ . والسَّكن : أهل الديار .

أي حللت في البيت الجديد مجاوراً لقوم ساكنين في ديار ، يعني المقابر ، وهي بعيدة من الحي على قربها بالمسافة . وهذا يشعر بأن المقابر التي دفن فيها قريبة فهي في المعرة ولو كانت في حمص لكانت بعيدة .

وسيأتي أن أمه توفيت سنة ٤٠٠ هـ ، وهو في بغداد ، أي قبل رجوعه إلى المعرة .

لعبه في حداثته وبعدها

وذكروا أنه في حداثة سنه كان يلعب مع الصبيان ، كما يأتي ذلك في قصة الحلبيين الذين جاءوا ليختبروه ، ونقل الثعالبي في (تتمة اليتيمة) [١] عن أبي الحسن الدلفي المصيصي أنه قال : « لقيت بمعرة النعمان أعمى شاعراً ظريفاً يلعب بالشطرنج والنرد ويدخل في كل فن من الهزل والجد ، يكنى أبا العلاء » ، وسيأتي تمام قوله في الكلام على من زاره في المعرة .

قال ابن العديم : [٢] « وهذا إن صح عن أبي العلاء فقد كان في حال الحداثة لأن أبا العلاء كان بعيداً عن اللهو والهزل » . وشك صاحب (الذكرى) في صحة ذلك فقال : [٣] « وما نشك في إحدى اثنتين : إما أن تكون الرواية مكذوبة ، وإما أن يكون لعبه بالشطرنج قد كان بأحجار معلمة تميزها الأيدي ، وذلك شيء لم نصل إلى معرفته الآن . وربما كان يلعب الشطرنج بلسانه كما يلعبه أهل الغرب الآن برسائل البرق والبريد » . اهـ

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٣ عن تتمة يتيمة الدهر – للثعالبي – .

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٥٨ عن الانصاف والتحري – لابن العديم – .

(٣) ذكرى أبي العلاء – لطه حسين – ط ٢ ص ١٦١ ، باختصار في النقل .

أما أن الرواية مكذوبة فيحتاج إلى مايؤيده ، والقول المجرد في مثل هذا لايفيد شيئاً ، وأما أن يكون اللعب بأحجار معلمة أو باللسان فأيهما ارتضيناه فإنه يدل على أنه كان يلعب به . وقد ذكر الشطرنج ورقعته وأسماء قطعه في مواطن من شعره ، منها قوله في السقط :[1]

أيها اللاَّعِبُ الذي فَرَسُ الشَّطْـــرَنْجِ هَمَّتْ في كَفِّهِ بِالصَّهِيلِ
مَنْ يُبَارِيكَ والبَيَاذِقُ في كَفَّيْـــكَ يَغْلِبْنَ كلَّ رُخٍّ وفِيلِ
تَصْرَعُ الشَّاهَ في المجالِ ولوجا ءَ مُرَدًّى بالتَّاجِ والإكْلِيلِ
لُطْفُ رَأْيٍ يَسْتَأْسِرُ الملِكَ الأعْـــظَمَ بِالواحِدِ الحقِيرِ الذَّلِيلِ ...

وقوله في اللزوم[2] :

إنْ لَمْ تَحَوَّلْ فَرَازِيناً بَيَاذِقُهُمْ فالشَّاهُ فيلٌ وذاكَ الفيلُ فِرْزانُ

وقوله[3] :

في بُقْعَةٍ مِنْ رُقْعَةٍ يَسَّرَتْ لِلْبَيْذَقِ الفَتْكَ بِفِرْزَانِهـــا

فمثل هذه الأبيات لايتأتى قولها إلا لعارف منزلة الرخ والفيل والفرز والبيذق ، عالم بأن البيذق أضعفها وأن الفرز أقواهـا ، وأن البيذق قد يفتك بالفرز . وقد يحول فرزا ، وقد يقتل الشاه لأن غير العالم بذلك لايستطيع أن يصوغ هذه المعاني المطابقة للعب الشطرنج . وقد استوفى

---

(١) شروح سقط الزند ، ق ٤ ص ٢٠٦٨ ، والرخ : حيوان على صورة البعير له سنامان وسمي به شخص من أشخاص الشطرنج .

(٢) اللزوميات هـ ص ٢٦٢ .

(٣) اللزوميات هـ ص ٢٨٠ .

أسماء الرقعة والقطع التي يلعب بها وهي الشاه والفرز والرخ والفيل والبيذق.
وقد ذكر الصفدي أنه رأى في مصر أعمى يلعب بالشطرنج مع العوالي
ويغلبهم وقال في (نكت الهميان) ص ٨٦ : «إنه كان عالية في الشطرنج
يلعب ويتحدث وينشد الشعر ويتوجه إلى بيت الخلاء ويعود إلى اللعب
ولا يتغير عليه نقل شيء من القطع ...»

وكان أبو العلاء غزير العلم واسع الاطلاع على أخبار الأمم وعقائدها
ومزاعمها وأيامها كثير الحفظ للنوادر والحوادث ، فكان لجلسه منه مَعين
لاينضب ومورد لايمل ، ولكننا لم نوفق إلى معرفة حياته بصورة مفصلة .

تعلمه

لم يفصّل لنا التاريخ الطريقة التي سلكها أبو العلاء في تعلمه ، ولا بين
جميع الشيوخ الذين تخرج بهم في العلوم التي تعلمها ، ولا أوضح لنا ما أخذه
عن كل واحد منهم ، ولا أي كتاب درسه في كل فن . وجمل ما ذكره
المؤرخون في هذا الباب محفوف بالغموض والإبهام ، وأكثره قائم على الظن
يتابع فيه اللاحق السابق من غير بحث ولا تمحيص ولا توضيح وتحقيق،
وأكثر من كتب في أبي العلاء من المتأخرين طبع على غرار المتقدمين
واقتفى آثارهم ، ولم يبين لنا من أين استمد أبو العلاء ثقافته الواسعة
واقتبس علومه المتعددة ، ولهم في ذلك عذر لأن المتقدمين غفلوا عن ذكر
هذه الناحية أو أغفلوها . وكل ماذكروه أنه قرأ القرآن بكثير من
الروايات على شيوخ يشار اليهم في القراءات ، وأنه قرأ النحو واللغة بالمعرة
على أبيه وعلى جماعة من أهل بلده كبني كوثر أو من يجري مجراهم من

أصحاب ابن خالويه وطبقته ، وأنه قرأ بحلب على ابن سعـــد . ولم يعرفونا بواحد من هؤلاء إلا قليلًا وإلا بصورة مجملة . ومثل ثقافة أبي العلاء المبثوثة في نظمه ونثره والمستمدة من علوم مختلفة لا يمكن أن تنال إلا بطريق الدراسة ، ولا يمكن إحرازها كلها من علم القراءة والنحو واللغة . وأراد بعضهم أن يتوسع ، فزعم أن أبا العلاء قرأ في غير المعرة : في اللاذقية أو بغداد أو غيرهما ، وهذا يكذبه أبو العلاء نفسه كما سيأتي .

وإذا كان أبو العلاء تخرج في هذه العلوم المتعددة في المعرة وجب أن تكون المعرة في عهده حافلة بالأدباء مكتظة بالعلماء ، ولم نعثر على نص تاريخي يوضح لنا الحياة العقلية فيها في ذلك العهد . ولكننا وقفنا على تراجم فريق ممن كان في عصره من العلماء والشعراء ، وفيهم القراء والفقهاء واللغويون والنحاة والمحدثون والمؤرخون وغيرهم من العلماء في علوم مختلفة ، وهذه أسماء طائفة منهم :

العلماء الذين كانوا في المعرة في عهده

١ ــ أبو نصر أحمد بن علي ... بن أبي الفضل الكفرطــابي المعري المتوفى سنة ٤٥١ هـ كان عالمًا فاضلًا راسخًا في علم الحديث ، روى عنه جماعة من الأفاضل .

٢ ـ أبو الفضل أحمد بن علي بن عبد اللطيف ... بن زريق قرأ على أبي العلاء وروى عنه سبعة أجزاء خرجها من حديث أخيه أبي الهيثم .

٣ ـ جعفر بن أحمد بن صالح .. يجتمع مع أبي العــلاء في جده سليمان الأعلى . وكان من أعيان كتابه وقرأ عليه كثيرًا من كتب الأدب وروى عنه .

٤ — جعفر بن علي بن المهذب المعري ، روى عن سليمان بن محمد جد أبي العلاء ، وهو الذي رثاه أبو العلاء بقوله من قصيدة في السقط : (١)

فَلْيَذْرِفِ الجفنُ على جَعْفَرٍ إِذ كانَ لَمْ يُفْتَحْ على نِدِّهِ

٥ — أبو حمزة الحسن بن عبد الله بن محمد .. للتنوخي المعري الذي رثاه بالدالية المشهورة ، وفيها يقول : (٢)

قَصَدَ الدَّهْرُ مِنْ أبي حَمزَةَ الأوّ ابِ مَوْلَى حِجىً وخِدْنَ اقْتِصادِ

٦ — أبو سعد عبد الغالب بن عبد الله بن الحسن بن أبي حصين المعري .

٧ — عبد القاهر أخو عبد الغالب .

٨ — أبو الحسن علي بن محمد أخي أبي العلاء ، سمع على عمه جميع أماليه وولي قضاء المعرة وحماة .

٩ — أبو الحسين علي بن محمد بن عبد اللطيف .. ابن زريق المعري ، قرأ على أبي العلاء .

١٠ — أبو الحسن علي بن عبد الله بن أبي هاشم كتب كُتُبَ أبي العلاء بأسرها .

١١ — الفضل بن أبي الحسين بن محمد المعري ، أحد من روى الحديث عن أبي العلاء .

١٢ — أبو الفتح محمد بن الحسن ... بن روح المعري .

١٣ — أبو الفتح محمد بن علي .. بن أبي هاشم ، وكان يكتب لأبي العلاء ووضع له كتاب (المختصر الفتحي) و (عون الجمل) .

١٤ — أبو المحاسن المفضل بن محمد بن مِسْعر المعري ، قرأ على القدوري والصيمري ، وصنف كتابا في الرد على الشافعي وتاريخا للنحاة واللغويين وتوفي سنة ٤٤٤ هـ .

---

(١) شروح سقط الزند ، ق ٣ ص ١٠٠٧

(٢) شروح سقط الزند ، ق ٣ ص ٩٨٥

١٥ — أبو الحسن ميسر بن هبة الله بن محمد بن مسمر المعري، صنف كتاباً في معاني الشعر الذي ابتكره قائله وأبدع فيه، فرغ من تصنيفه سنة ٤٥٠ هـ .

١٦ — أبو غالب همام بن الفضل بن جعفر بن علي بن المهذب المعري، كان معاصراً لأبي العلاء وله تاريخ نقل عنه ابن العديم وابن الوردي وياقوت وغيرهم .

١٧ — أبو الحسن يحيى بن علي بن محمد بن عبد اللطيف .. بن زريق المعري كان عالماً بالأخبار، وقد جمع تاريخاً على ترتيب السنين . وأدرك أبا العلاء .

١٨ — أبو زكريا يحيى بن مسعر التنوخي المعري، روى عنه أبو العلاء وغيره .

١٩ — أبو الحسين بن علي بن الفضل بن جعفر بن المهذب المعري، كان من القراء المجودين والشعراء المجيدين . قرأ القرآن للسبعة ولغيرهم وكان مفسراً خطيباً وتوفي نحو سنة ٤٥٥ هـ .

٢٠ — أبو طالب المعري شاعر مجيد أورد له صاحب (دمية القصر) أبياتاً جيدة .

٢١ — أبو الحسن سليمان بن محمد جد أبي العلاء المتوفى سنة ٣٣٧هـ روى عنه أبو العلاء وغيره .

الشعراء الذين كانوا في عهده في المعرة

١ — إبراهيم أبو الفضل المعري، كان جيد الشعر وله مدائح في شبل الدولة نصر بن صالح المقتول سنة ٤٢٩ هـ .

٢ — إبراهيم بن عبد الرحمن المعري ، وذكره الباخرزي وقال : إنه من مُدّاح الصاحب .

٣ — أبو اليقظان أحمد بن علي التنوخي المعري كان شاعراً محسناً ، سمع من أبي العلاء ثلاث قصائد .

٤ — أبو الحسن أحمد بن محمد بن الدويدة المعري ، شاعر مفلق خفيف الروح كثير الدعابة .

٥ — الأمير أبو الفتح الحسن بن عبد الله ... بن أبي حَصِينة ، شاعر مفلق نال الإمارة بشعره وقد رثى أبا العلاء كما سيأتي .

٦ — أبو يعلى حمزة بن عبد الرزاق بن أبي الحصين المعري وهو الذي رثى مقلد بن منقذ والد ملوك شيزر المتوفى سنة ٤٣٥ هـ .

٧ — أبو الغنائم سالم بن المفرج بن عشاير الحصيني التنوخي المعري ، شاعر مجيد وكان متصلا بأبي الفتح بن أبي حَصينة .

٨ — أبو المظفر سعد بن أحمد بن حماد المعري ، وهو الذي روى (ملقى السبيل) عن أبيه عن أبي العلاء .

٩ — القاضي أبو يعلى عبد الباقي بن أبي حصين ، أحد حسنات وقته كان عالماً شاعراً .

١٠ — القاضي أبو غانم عبد الرزاق بن عبد الله بن المحسن .. ابن أبي الحصين التنوخي المعري ولد سنة ٤١٨ هـ وتوفي سنة ٤٩١ هـ وكان شاعراً مجيداً .

١١ — أبو سالم عبد الله بن أحمد بن الدويدة المعري .

١٢ — علي بن أحمد بن الدويدة أخو عبد الله .

١٣ — أبو محمد عبد الله بن محمد أخو أبي العلاء الذي تولى خدمته .

١٤ — أبو الهيثم عبد الواحد أخو أبي العلاء المتوفى سنة ٤٤٢ هـ .

١٥ — أبو الرضا عبد الوهاب بن نوت ، وسيأتي فيمن رثى أبا العلاء .

١٦ — أبو القاسم علي بن الحسن بن جلبات ، وبينه وبين أبي العلاء مراسلات شعرية .

١٧ — أبو الحسن علي بن همام تلميذ أبي العلاء وأحد من رثاه ، وسيأتي.

١٨ — القاضي أبو القاسم الحسن بن عبد الله . . بن عمرو التنوخي الحنفي المتوفى سنة ٤١٩ ﻫ ، كان من أوعية العلم وله مصنفـات كثيرة ووصايا وأشعار .

١٩ — أبو المجد محمد أخو أبي العلاء المتوفى سنة ٤٣٠ ﻫ .

٢٠ — أبو المجد محمد بن عبد الله بن محمـد أخي أبي العلاء ، روى عن عم أبيه مصنفاته وأشعاره وكان شاعراً ناثراً فقيهاً راوياً للحديث مفتياً خطيباً .

٢١ — أبو صالح محمد بن المهذب المعري ابن عمـة أبي العلاء ، وسيأتي شيء من شعره .

٢٢ — أبو الخير المفضل بن سعيد بن عمرو الملقب بالعزيزي لاختصاصه بعزيز الدولة أبي شجاع فاتك .

٢٣ — أبو نصر مهنا بن علي بن المهنا المعروف بالناظر الشاعر المجيد المتوفى سنة ٤٥١ ﻫ .

٢٤ — القاضي الرئيس أبو مسلم وادع بن عبد الله بن محمد أخي أبي العلاء كان رجل زمانه همة وعلماً وأدباً وكرماً وحلماً وله شعر ونثر ولد سنة ٤٣١ ﻫ .

٢٥ — أبو المقدم وجيه بن عبد الله بن نصر أو مسعر التنوخي كان شاعراً فاضلاً فصيحاً ولد سنة ٤٣٠ ﻫ .

٢٦ — أبو الحسن المعري المعروف بالقنوع ، له شعر جيد وكان معاصراً لأبي العلاء .

٢٧ — البليغ المعري المذكور في وقائع الفرنج في نصر بن صالح .

٢٨ — أبو العباس أحمد بن خلف الممتع .

٢٩ — إبراهيم بن الحسن البليغ .

وقد ذكرنا طائفة في (تاريخ المعرة) من العلماء والقراء والشعراء غير هؤلاء .

وأكثر هؤلاء الذين ذكرناهم هنا جمع بين العلم والشعر ، وهناك طائفة كبيرة لم نعثر على تراجمهم منفصلة وإنما ذُكروا في الشيوخ الذين روى غيرهم عنهم ، وفي أقوال من وقفنا على تراجمهم مايدل على أن لهم حظاً وافراً من العلوم العقلية . وسيأتي أن ثمانين شاعراً رثوه على قبره ، وأكبر ظني أنهم كلهم من المعرة ومن تنوخ أيضاً ، وهذا وإن لم يوضح لنا الحياة العقلية في المعرة في ذلك العهد توضيحاً حقيقياً ، يدلنا على أن أهل المعرة فيه قد ضربوا بسهم وافر في كل علم وأخذوا حظاً جزيلًا من كل فن ، ونبغ فيهم عباقرة وأفذاذ في العلم والشعر ، وألفوا كتباً عظيمة في فنون كثيرة ، وابتكر بعضهم تأليفاً في موضوع لم يسبق اليه كالكتاب الذي ألفه مُبَشّر بن هبة الله في معاني الشعر الذي ابتكره قائله ، فإني لاأعلم أحداً تقدمه في ذلك .

ويدلنا أيضاً على أن العلماء فيها كانوا أحراراً في تفكيرهم وفي إبداء آرائهم في كل علم ، وعلى مدى تفكيرهم وجرأتهم ، حتى رأينا أبا المحاسن المفضل بن محمد بن مسعر يصنف كتاباً في الرد على الإمام الشافعي .

وقد رأينا المؤرخين يقولون في ترجمة بعضهم : كان من أوعية العلم ، وفي ترجمة آخر : صنف كتاباً في كذا . . وفي ترجمة آخر : له مصنفات

كثيرة ، وفي ترجمة آخر : كان رحل زمانه علما وأدبا وشعرا ، وفي هذا : كان شاعراً مجيداً ، وفي ذلك : كان مفسراً أو خطيباً أو مؤرخاً أو كان أحد حسنات وقته ، أو نحو ذلك من الصفات ولكننا لم نعثر على أثر لواحد منهم ولا على حسنة من حسناته ، ولا عرفنا مقدار ما ألفه كل واحد منهم ولا نوع ما ألفه ولا شيئاً من شعر شاعر إلا قليلا . وأظن أننا لو أتيح لنا الاطلاع على كل من نبغ في العلم والأدب في ذلك العهد وعلى آثار كل واحد منهم لرأينا علماً جماً وأدباً واسعا وشعراً رائعا وبيانا معجزا وابتكارا بارعا .

ولسهل علينا أن نصدق أبا العلاء على كثرة علمه وأدبه ، بقوله[1] : « وقد فارقت العشرين من العمر ما حدثت نفسي باجتداء علم من عراقيّ ولا شام » . لأنه استغنى بما في بلده من أنواع العلوم وبمن فيها من العلماء والعباقرة عن غيرهم . على أننا سنذكر بعضا من شيوخه الذين عرفناهم وما عرفناه من مزاياهم وخصائصهم .

الطريقة التي درس العلوم فيها :

لم يوضح لنا التاريخ الطريقة التي سلكها أبو العلاء في تعلمه . والعادة المتبعة التي أدركناها في معرة النعمان منذ أول هذا العصر في تعليم الأطفال المبصرين والمكفوفين أن الطفل إذا بلغ السابعة من عمره وضعه أبوه في مكتب عند شيخ . وأول ما يعلمه حروف الهجاء ، ثم يعلمه القرآن ، ثم يعلمه أحكام القراءة والتجويد ، فإذا أتم ذلك نقله إلى شيخ آخر في مسجد أو مدرسة ، فيعلمه شيئا من النحو والفقه ، ثم إذا شاء نقله إلى شيخ آخر فدرس عليه ما أراد من علوم الدين واللسان وغيرهما .

---

(١) من رسالته إلى خاله أبي القاسم علي بن سبيكة - رسائل أبي العلاء المعري - شرح شاهين عطية ص ٧٨ .

وأظن أن هذه الطريقة موروثة عن المتقدمين من أهل المعرة ، لأن أبي وقبله جدي تعلما على هذه الطريقة ، وأن أبا العلاء درج عليها في فاتحة تعلمه كما درجت عليها أنا وأمثالي من أهلها . ومن الجائز القريب أن يكون أبو العلاء تعلم الهجاء بالحروف النافرة التي يعلّم بها المكفوفون في هذا العصر ، لأنها كانت معروفة في ذلك العهد على ما يشعر به كلام أبي العلاء حيث يقول (١) :

كَأَنَّ مُنَجِّمَ الأَقْوامِ أَعْمَى ... لَدَيْهِ الصُّحْفُ يَقْرَؤُها بِلَمْسِ

ويزيد هذا تصويره أشكال بعض الحروف كقوله (٢) :

وَلاحَ هِلالٌ مِثْلُ نُونٍ أَجادَها ... بِجارِي النُّضارِ الكاتِبُ ابنُ هِلالِ

وقوله (٣) :

أَنا مَنْ أَقامَ الحَرْفَ وَهْيَ كَأَنَّها ... نُونٌ بِدارِكَ والمَعالِمُ أَسْطُرُ

وقوله (٤) :

وَحَرْفٍ كَنُونٍ تحتَ رَاءٍ وَلَمْ يَكُنْ ... بِدالٍ يَؤُمُّ الرَّسْمَ غَيَّرَهُ النَّقْطُ

وأما العلوم التي أتقنها وأشار إلى بعض ما اصطلح عليه أهل كل فن فكثيرة ؛ وسنذكر جملةً منها مع ما في كلامه من الاشارات إلى ما اصطلح عليه أهلها ، ونشير إلى جماعة ممن أخذ عنهم وأخذوا عنه ممن عرفناهم .

---

(١) اللزوميات ﻫ ص ٣٠١

(٢) شروح سقط الزند ق ٣ ص ١١٩٧ .

(٣) شروح سقط الزند ق ٣ ص ١١١٧

(٤) شروح سقط الزند ق ٤ ص ١٦٥١

شيوخه

قال في (ذكرى أبي العلاء)[1] بعد مقدمة استنتج منها أمرين ، أحدهما : أن العلم هو الذي ملك حياة أبي العلاء . والثاني : أنه اعتمد على نفسه في تحصيل علمه أكثر مما اعتمد على الأساتذة والشيوخ : .. « ويؤيد هـذا أنا لا نعرف له من الأساتذة إلا أباه ومحمد بن سعد في اللغة ، ويحيى بن مصير في الحديث » .. إلى آخر كلامه .. والصواب يحيى بن مسعر كما سنبين ذلك ؛ ومن المقرر عند العلماء أن عدم معرفة الشيء لا تستلزم عدمه . وقد عرفنا بعض شيوخه في بعض العلوم .

الحديث

ذكر ابن العديم[2] أنه أخذ الحديث عن أبيه أبي محمد ، وعن جده سليمان بن محمد ، وعن أخيه أبي المجد محمد بن عبد الله ، وعن جدته أم سلمة بنت الحسن بن اسحاق بن بلبل . وعن أبي زكريا يحيى بن مسعر بن محمد ابن يحيى بن الفرج المعري التنوخي ، وعن أبي الفتح محمد بن الحسن بن روح المعري ، وعن أبي الفرج عبد الصمد بن احمد بن عبد الرحمن الضرير الحمصي ، وعن أبي بكر محمد بن عبد الرحمن الرحبي ، وعن أبي عبد الله محمد بن يوسف بن كركير الدقي ، وعن القاضي أبي عمرو عثمان بن عبد الله الطرسوسي قاضي معرة النعمان . وروى عن أخيه أبي الهيثم شيئاً من شعره ، وخرج من حديثه سبعة أجزاء رويت عنه .

اللغة والنحو

ذكر ابن العديم[3] انه قرأ اللغة والنحو في المعرة على أبيه وعلى أبي

(١) ذكرى أبي العلاء ـ لطه حسين ـ ط ٢ ص ١٤١ ـ ١٤٨
(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥١٦ عن الانصاف والتحري ، لابن العديم .
(٣) المصدر السابق ص ٥١٥ عن الانصاف والتحري ، لابن العديم

بكر محمد بن مسعود[١] بن محمد بن يحيى بن الفرج النحوي ؛ وأنه دخل حلب صبياً وقرأ بها على محمد بن عبد الله بن سعد راوية[٢] أبي الطيب ؛ وسيأتي تحقيق ذلك في الكلام على ثقافته في النحو . ونقل القفطي عن الخطيب التبريزي أنه قال[٣] : كنتُ قرأتُ كتاب (غريب الحديث) لأبي عبيد على أبي العلاء سنة ٤٤٥ هـ ، قال : قرأ علينا سنة ٣٨٥ هـ كتاب (غريب الحديث)القاضي أبو عمرو عثمان بن عبدالله الكرجي . وذكر أنه سمعه من أبي عمير عدي بن عبد الباقي ، وسمعه أبو عمير من علي بن عبد العزيز صاحب أبي عبيد . وذكر القفطي أيضاً أنه أخذ اللغة عن قوم من بلده كبني كوثر أو من يجري مجراهم من أصحاب ابن خالويه وطبقته ..

هؤلاء عرفناهم من شيوخه في الحديث واللغة والنحو ، ولم نقف على اسم أحد من شيوخه في بقية العلوم ، وزعم القفطي وغيره أنه ذهب إلى طرابلس واللاذقية وأخذ العلم عن راهب . وزعم ابن العديم [٤] أنه سافر إلى بغداد للاستكثار من العلم فأخذ بها عن علي بن عيسى الربعي وأبي أحمد عبد السلام البصري المعروف بالواجكا ، وأبي علي عبد الكريم بن الحسن ابن حكيم السكري النحوي اللغوي . وزعم السيوطي [٥] أنه سمع من عبد السلام البصري في بغداد . وزعم صاحب (الضرام) أنه تلمذ على عبد الوهاب بن نصر المالكي ، وقال أبو الفداء وابن الشحنة في (روض

---

(١) كذا في الأصل وأظن أنه سعد بدلاً من مسعود والده أخو يحيى المتقدم (ج)

(٢) ورد في الأصل : رواية ، وصحيحها : راوية ، كما في التعريف .

(٣) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٢ عن إنباه الرواة على أنباء النحاة — للقفطي مع اختلاف يسير في النقل .

(٤) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥١٥ عن الانصاف والتحري — لابن العديم .

(٥) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٣٣٢ عن بغية الوعاة — للسيوطي .

المناظر) [١] : إنه لم يتلمذ لأحد أصلا . وجميع هذه الأقوال قائمة على الظن والوهم وسنبيّن بطلانها في الكلام على رحلاته وفيمن اجتمع به .

متى أتم تعلمه

لم يحدثنا التاريخ متى أتم ابو العلاء دراسته وتحصيله ، وقد ذكر في رسالته التي أنفذها إلى خاله أبي القاسم بعد رجوعه من بغداد ما يدل على الزمن الذي استغنى فيه عن أخذ العلم عن غيره دلالة إجمالية حيث يقول [٢] : وقد فارقت العشرين من العمر ما حدثت نفسي باجتداء علم من عراقي ولا شآم . وهذا يدل على أنه أتم تعلمه في العشرين أو قبلها .

أين أتم تعلمه

قد سمعنا أقوال المؤرخين أنه قرأ على أبيه وجماعة من أهل بلده ، وعلمنا من التاريخ أن المعرة في عهده كانت تمج بالعلماء والشعراء ويدل ظاهر قوله المتقدم : وقد فارقت العشرين من العمر . . على أنه لم يرحل بعد العشرين لطلب علم . وأما قبلها فسيأتي أنه لم تثبت له رحلة إلى مكان لطلب علم أو تحصيله . فهو إذن أتم تعلمه في المعرة وعلى علمائها .

وقد وقع في كلام أبي العلاء مثل قوله في رسالة الإغريض [٣] : وقد كنت عرفت سيدنا أن الأدب كعهود في غب عهود . وإني نزلت من ذلك الغيث ببلد طسم . . . وقوله في رسالته إلى أبي نصر صدقة

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٣٠٩ عن روضة المناظر لابن الشحنة . وذكر صاحب كشف الظنون أن الكتاب هو روض المناظر ، كما جاء في المتن .

(٢) انظر الحاشية ص ١٨٣ .

(٣) رسالة الإغريض في الجزء الرابع من رسالة الغفران ص ٦٠٦ ـ شرح كامل الكيلاني .

الملاحي [١] : .. وكيف يتأدى العلم إليّ وأنا رجل ضرير .. ونشأت في بلد لا عالِمَ فيه .. وأمثال ذلك من الأقوال الدالة على قلة العلم والعلماء في بلده. وهذا من باب المغالاة في تواضعه ، نظير قوله في رسالة الغفران[٢] : يظن أني من أهل العلم وما أنا بالصاحب له ولا بالخِلم . وقوله فيها : وقد علم الله أني لا في العير ولا في النفير . . وقوله الآتي في رسالة الملائكة ، وقوله في لزوم ما لا يلزم :[٣]

مَاذَا تُرِيدُونَ لا مالٌ تَيَسَّرَ لي ... فَيُسْتَماحُ وَلاَ عِلْمٌ فَيُقْتَبَسُ

وغير ذلك من الأقوال التي يريد بها تحقير شأنه والتواضع ولا يريد النفي الحقيقي لأن الواقع يكذبه ، وستأتي أمثلة من ذلك في الكلام على تواضعه .

رحلاته

زعم كثير ممن كتب في أبي العلاء أنه بعد أن أتم ما أخذه عن علماء بلده رحل إلى حلب وأنطاكية واللاذقية وطرابلس من البلدان الشامية ، وإلى بغداد لأجل طلب العلم ، وهذا ما قالوه وما نراه فيه .

رحلته الى حلب

قال ابن العديم [٤] : إنه دخل حلب وهو صبي وقرأ على محمد بن عبدالله

---

(١) رسائل أبي العلاء المعري ، شرح شاهين عطية ص ٩٦ .
(٢) رسالة الغفران تحقيق بنت الشاطىء ط ١ ص ٣١٦ ، والخِلم : الصديق والصاحب
(٣) اللزوميات ﻫ ص ٢٩٣ .
(٤) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥١٥ عن الانصاف والتحري – لابن العديم ، وفيه : راوية ديوان المتنبي .

ابن سعد رواية ديوان المتنبي . وذكر هذه الرحلة ابن خلكان والسيوطي وغيرهما . ولم يذكر أحد منهم أنه قرأ عليه شيئاً من العلوم ، ولا عين نوع العلم ولا الكتاب الذي قرأه ، كما أنه لم يعين أحد منهم الزمن الذي رحل فيه لأن لفظ الصبي يقال للولد من حين يولد إلى أن يُفطم ، ويقال للغلام الذي طر شاربه صبي أيضا ، وقد بينا في غير هذا الموضع أنه اختلف هو ومحمد بن عبد الله بن سعد في رواية بيت للمتنبي ، وكان القول ما قاله ابو العلاء (١) . وقد ذكر حلب في مواطن من شعره ، منها قوله في السقط (٢) :

لَيتَ التَّحَمُّلَ عَنْ ذَرَاكَ حُلُولُ ... والسَّيْرَ عَنْ حَلَبٍ إِلَيْكَ رَحِيلُ

وقوله من قصيدة يجزىء بها واليا بعرس (٣) :

يا شَاكِيَ النُّوَبِ انهضْ طَالِباً حَلَباً ... نُهُوضَ مُضْنًى لِحَسْمِ الدَّاءِ مُلْتَمِسِ

وقوله من قصيدة يجزىء بها ملكا بزفاف (٤) :

حَلَبٌ لِلْوَلِيِّ جَنَّةُ عَدْنٍ ... وَهْيَ لِلْغَادِرِينَ نَارُ سَعِيرِ

وقوله من قصيدة يرثي بها أبا إبراهيم العلوي (٥) :

دَعَا حَلَباً أُخْتَ الغَرِيَّيْنِ مَصْرَعٌ ... بِسِيفِ قُوَيقٍ لِلْمَكَارِمِ وَالحَزْمِ

---

(١) ساق القصة المصدر السابق .

(٢) شروح سقط الزند ق ٢ ، ص ٨٦٧ . وفي رواية البطليوسي (والسير من حلب إليك قفول) .

(٣) شروح سقط الزند ق ٢ ص ٦٩٠ .

(٤) شروح سقط الزند ، ق ١ ص ٢٣٥ .

(٥) شروح سقط الزند ق ١ ص ٩٥٧ ، والغريان : قبرا مالك وعقيل نديمي جذيمة الأبرش . والسيف : شاطىء البحر .

وقوله في (لزوم ما لا يلزم) في الحر [١] :

حَلَبِيَّةٌ في النِّسْبَتَيْنِ لأَنَّها حَلَبُ الكُرُومِ وأَنَّ مَوْطِنَها حَلَبْ

وقوله فيه في الصوفية [٢] :

جُنْدٌ لإِبْلِيسَ في بِدْلِيسَ آوِنَةً وتارةً يَحْلِبُونَ العَيْشَ في حَلَبا

وشعره هذا لا يدل على أنه شعر صبيّ ، كما لا يدل على أنه دخل حلب .. وذكر حلب أيضا في مواطن من نثره منها قوله في رسالته إلى خاله : ما نكبت حلب في الإبداء والاكتفاء [٣] . وقوله في رسالة إلى أبي عمرو : لم يطل به عن زيارة حلب انقطاع [٤] . وذكر في رسالة الغفران أسماء طائفة من رجالها . ولكن ذلك كله لا يوجب أن يكون عرفهم ، ولا أن تكون معرفته بهم في حلب ، ولا أن يكون أخذ علماً عن أحد من علمائها . وقد كانت في حلب مكاتب كثيرة في عهد أبي العلاء ، منها مكتبة بجامع حلب وقفها سيف الدولة وغيره وقد أحرقتها الشيعة سنة ٤٦٠ هـ ، على ما يفهم من كلام الذهبي . وأشار ابن العديم [٥] إلى أن خزانة الكتب في حلب نهبت في زمن أبي العلاء ، ولم يبق فيها إلا القليل ثم جدد الكتب فيها هبة الله بن بديع وزير الملك رضوان ثم وقف غيره كتبا أخرى . فلا يبعد أن يكون أبو العلاء دخلها للاطلاع على مكاتبها . والذي يتحصل معنا الآن أن أبا العلاء لم تثبت رحلته إلى حلب لطلب العلم بطريق صحيح واضح ، وإن نُقل أنه رحل إليها فرحلته لغير ذلك .

---

(١) اللزوميات هـ ص ٥٥ .

(٢) اللزوميات هـ ص ٣٩ .

(٣) رسائل المعري ص ٦٩ شرح شاهين عطية .

(٤) رسائل للمعري ص ٨٨ شرح شاهين عطيه .

(٥) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٥٦ عن الإنصاف والتحري — لابن العديم .

رحلة الى انطاكية

روى البديعي في (الصبح المنبي) عن الأمير أسامة بن منقذ قصة خلاصتها (١) : أنه كانت بأنطاكية خزانة كتب ، وكان الخازن بها رجلا علويا ، فقال الأمير يوما : قد خبأتُ لك خبيئة غريبة لم يسمع بمثلها ، قلت : وما هي ؟ قال : صبي دون البلوغ ضرير يتردد إليّ وقد حفظته في أيام قلائل عدة كتب ، وذلك أني أقرأ عليه الكراسة والكراستين مرة واحدة فلا يستعيد إلا ما يشك فيه ، ثم يتلو عليّ ما سمعه كأنه كان محفوظا له . قلت : لعله قد يكون محفوظا له . قال : سبحان الله أيكون كل كتاب في الدنيا محفوظا له ؟ ولئن كان كذلك فهو أعظم . ثم حضر ذلك الصبي وهو دميم الخِلقة مجدَّر الوجه على عينيه بياض من أثر الجدري كأنه ينظر بإحدى عينيه قليلا وهو يتوقد ذكاء ، يقوده رجل طويل أحسبه يقرب من نسبه . فقال له الخازن : يا ولدي هذا السيد رجل كبير القدر ، وقد وصفتك عنده وهو يحب أن تحفظ اليوم ما يختاره لك . فقال له : سمعا وطاعة فليختر ما يريد ؛ قال أسامة : فاخترت شيئا وقرأته عليه وهو يموج ويستزيد فإذا مر بشيء يحتاج إلى تقريره في خاطره قال : أعد هذا ؛ فأردده مرة أخرى حتى انتهيت إلى ما يزيد على كراسة ، فقلت له : أيقنع هذا ، قال : أجل ، ثم تلا علي ما أمليته عليه حرفا حرفا ، وأنا أعارضه بالكتاب حتى انتهيت حيث وقفت عليه فكاد عقلي يذهب لما رأيت منه ، وعلمت أن ليس في العالم من يقدر على ذلك . وسألت عنه فقيل لي : هذا أبو العلاء المعري التنوخي من بيت العلم والقضاء والثروة والغنى . وذكرها البديعي أيضا في (أوج

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٤٢٣ عن الصبح المنبي ـ للبديعي .

التحري) عن ابن منقذ ولكنه لم يذكر اسمه . وذكرها ابن العديم (١)
عن كتاب وضعه الشريف أبو علي المظفر بن الفضل بن يحيى العلوي
الإسحاقي نزيل بغداد ، ورواها والده عن ابن منقذ ولم يذكر اسمه ،
وعبارته مقاربة لما نقلناه عن البديعي وبعد أن اوردها ابن العديم قال :
وهذه الحكاية فيها من الوهم ما لا يخفى ، وذلك أنه كان بأنطاكية خزانة
كتب ... إلى آخر ما ذكرناه . وهذا شيء لا يصح فإن أنطاكية أخذها
الروم من أيدي المسلمين في ذي الحجة سنة ٣٥٨ ﻫ وولد أبو العلاء بعد
ذلك بأربع سنين وثلاثة أشهر في شهر ربيع الأول سنة ٣٦٣ ﻫ وبقيت في
أيدي الروم إلى أن فتحها سليمان بن قطلمش في سنة ٤٧٧ ﻫ ، وكان أبو العلاء
قد مات قبل ذلك في سنة ٤٤٩ ﻫ وأخلاها الروم من المسلمين حين استولوا
عليها فلا يتصور أن يكون بها خزانة كتب وخازن وتقصد للاشتغال
بالعلم . ثم ذكر احتمالين ، أحدهما : أن يكون ذلك في كفرطاب لأنها
كانت مشحونة بالعلماء قبل أن يجيها الفرنج في سنة ٤٩٢ ﻫ وهي قريبة
من المعرة ، فيحتمل أن يكون تصحف كفرطاب بأنطاكية فإن كان
كذلك فابن منقذ الحاكي لهذه الحكاية أبو المتوج مقلد بن نصر بن منقذ .
والاحتمال الثاني : أن يكون ذلك بحلب ، فان أبا العلاء دخلها وهو صبي
واجتمع بمحمد بن عبد الله بن سعد ورد عليه خطأ في شعر المتنبي ،
فيحتمل أن تكون هذه الحكاية التي حكاها ابن منقذ في حلب ، وأبو المتوج
كان في حلب وله فيها دار ومنزل ، وكان بها خزانة كتب في الشرقية
التي في جامع حلب ، ثم نهبت في زمن أبي العلاء وجددها أبو النجم هبة الله
ابن بديع وزير الملك رضوان ، فيحتمل أن أبا العلاء لما دخل حلب وهو
صبي اتفق له في خزانة الكتب ما ذكره ابن منقذ . هذه خلاصة ما قاله
ابن العديم ، ومحصلها أن الرحلة إلى أنطاكية لم تثبت ، لأن البلد

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٠٤ عن الانصاف والتحري ـ لابن العديم .

كانت في أيدي الروم ، ويستبعد أن تكون بها خزانة كتب يقصدها المسلمون البصراء البالغون ، فما بالك بضرير دون البلوغ ؟ .

وقد قال صاحب (الذكرى) ص ١٤٤ : ولا شك أن هذه الرواية إما أن تكون منتحلة وإما أن يكون اسم أسامة وقع خطأ موقع اسم أحد آبائه من أبناء منقذ ، لأن أسامة ولد سنة ٤٨٨ هـ ، ولكنه قال قبل ذلك : قالوا : وكانت بها مكتبة عربية تشتمل من نفائس الكتب على عدد غير قليل ، فحفظ أبو العلاء منها ماشاء الله أن يحفظ . وقال بعد ذلك : لم ير أبو العلاء بأنطاكية تلك الحضارة الراقية ... ولكنها وصفت له .. وعرف آثارها بلا ريب ولعل تلك البنايات .. قد أظلت أبا العلاء حيناً ، وامل قائده قد ذكر له محاسنها .. ولقد كان جمهور أهل أنطاكية من الروم تمثلهم لأبي العلاء طنطنتهم الإغريقية .. وكانوا .. ظاهرين على أهل العواصم من المسلمين .. فمن الواضح أن بؤس المسلمين قد كان ظاهراً يستطيع هذا الصبي .. أن يتردد إلى المكاتب ويدرس فيها العلم [ملاحظته والتنكير فيه] . فكل هذه المؤثرات قد عملت من غير شك في تكوين المزاج الخلقي والعقلي لأبي العلاء قليلاً أو كثيراً .. ، إلى آخر كلامه .

وظاهر قوله أنه استبعد أن يكون أسامة بن منقذ صاحب الحكاية ، لولادته بعد موت أبي العلاء . وأما الرحلة إلى أنطاكية فقد قبلها بعدما شك فيها واستنتج منها ماستنتج .

والأستاذ الميمني أورد كلام البديعي في ص ٤٥ وقال في ذيل الصفحة(١): وهذه الحكاية توجد باختلاف يسير منسوبة إلى التبريزي في (غرر الخصائص) ص ١٨٧ . وليست هذه القصة في الموضع المذكور في غرر الخصائص ، وإنما فيه قصة الأعجمي الذي سأل عن التبريزي في حلقة أبي العلاء ، وحفظ أبو العلاء كلامه بالفارسية وستأتي .

---

(١) انظر أبو العلاء وما إليه - للميمني .

ثم قال في ص ٤٦ : أقول : جمع البديعي بين الضب والنون ، وحاول أن يجري في البراري الفلك المشحون ، فإن صاحبنا توفي سنة ٤٤٩ هـ وأسامة ولد سنة ٤٨٨ هـ ، فلعل الحكاية عن بعض متقدمي بني منقـــذ قبل أن يملكوا شيزر بنحو نصف قرن أو أكثر ، أو الأصل ممن حدثه عن أبي العلاء فيوجد ثمّ واسطةٌ بينهما ، ثم رجع الأول وأشار إلى قول ابن العديم : أن صاحب أبي العلاء هو أبو المتوج مقلد بن نصر بن منقذ ، وان الخزانة في كفر طاب أو حلب . ثم قال ص ٦٩ : وأمـــا رحلته إلى أنطاكية وتملكها الروم سنة ٣٥٣ — سنة ٤٧٧ [1] فقد مر ذكرها في حكاية أسامة ، ولم أر أحداً من أصحاب التراجم ذكرها ولكن شعره يشهد لها ، قال [2] :

لا يَنْزِلَنَّ بِأَنْطَاكِيَّةٍ وَرِعٌ   كَمْ خَلَّلَ الدِّينَ مَقْدٌ لِلزَّنَانِيرِ

الأبيات الثلاثة . . وظاهر كلامه أنه سلم بهذه الرحلة . هذا ماقاله بعض المتقدمين والمتأخرين في رحلته إلى أنطاكية .

والذي يظهر لي أن رحلته إلى أنطاكية غير صحيحة لأسباب :

١ — منها : أنها لو كانت حقيقية لتضافرت الروايات على نقلها ، كما تضافرت على ذكر رحلته الى بغداد ، في حين أن كثيراً ممن كتب في أبي العلاء لم يتعرض لها .

٢ — وأنها لو كانت أمراً واقعاً حقيقة لذكرها أبو العلاء في مواطن من نثره ونظمه ، كما ذكر بغداد ولكنه لم يذكرها فيما وصل إلينـــا من

---

(١) هكذا في معجم البلدان وهو تحريف والصواب أن الروم تملكوها سنة ٣٥٨ كما ذكر ذلك ابن العديم وأبو الفداء . (ج)

(٢) اللزوميات هـ س ١٥٢ .

كتبه إلا في أبيات اللزوم السابقة . وذكرها في رسالة الغفران ص ١٩٠ بقوله (١) : وكأني به وقد مر بأنطاكية ، فذكر قول امرىء القيس :

عَلَوْنَ بِأَنْطاكِيَّةٍ فَوْقَ عَقْمَةٍ ... كَجِرمةِ نخلٍ أوْ كَجَنَّةِ يثرِبِ (٢)

وخطرَ له أن النَّطكَ ، وهو اللفظ الذي يجب أن يشتقّ منه أنطاكية — لو كانت — عربية مهمل لم يحكِهِ مشهور من الثقات .

على أن ذكرها في كلامه لا يوجب أن يكون قد رحل إليها أو نزل بها ، لأنه ذكر كثيراً من البلدان العربية والعجمية وبحث عن أحوالها المختلفة ولم يدخلها ، مثل مصر ومكة والمدينة والقدس والشام وغانة وأسوان وقُم وبدليس والهند وغيرها .

٣ — ومنها : أن نسبة الحكاية إلى أسامة ، وقد تقدم ، أنه ولد بعد وفاة أبي العلاء .

٤ — ومنها : أن قول ابن العديم يحتمل أن تكون أنطاكية تصحفت بجاب أو كفرطاب يدل على أنها لم تكن أنطاكية يقيناً .

٥ — ومنها أن الروم بعد أن ملكوا أنطاكية أخلوها من المسلمين . وإذا جوزنا بقاء فريق منهم ووجود مكتبة (٣) فمن البعيد أن يتسنى لصبي

(١) وفي الرسالة تحقيق بنت الشاطىء ص ٥٠٠ الطبعة الأولى .
(٢) ديوانه ص ٥٨ وفي اللسان (جرم) : وجرمة النخل : ما جرم منه واصطرم .
(٣) ذكر القفطي في (أخبار الحكماء) في ترجمة ابن بطلان ، أنه شاهد في كتاب الربيع لمحمد بن هلال بن المحسن نسخة سفره إلى الرئيس هلال وقد ذكر فيها أن في أنطاكية شيخاً يعرف بأبي نصر بن العطار قاضي القضاة فيها له يد في العلوم ... وكانت هذه السفرة سنة ٤٤٠ هـ . (ج)

ضرير أن ينتابها ، والروم كانوا يضطهدون المسلمين في البلاد التي أخذوها منهم .

٦ — ومنها أنه لم يعيّن أحد زمن هذه الرحلة ، ولا أي كتاب وقع عليه اختيار ابن منقذ . وأما قولهم : صبي دون البلوغ ، فيحتمل منـــذ زمن الولادة إلى قبيل البلوغ ، وكان ينبغي أن يكون أبوه معه في هذه الرحلة ، ولو ذكرت أمارة في التاريخ أو في كلام أبي العلاء تدل على هذه الرحلة لسرنا على ضوئها في الحكم على صحتها ؛ ولكننا لم نجد غير مانقله البديعي وابن العديم وهو محفوف بالأدلة الواضحة على بطلانه ، وبناء الحكم على الظن البعيد غير صحيح ، وبناؤه على الشيء الباطل باطل . ويتحصل معنا أن رحلته إلى أنطاكية لم تثبت من وجه صحيح .

رحلته الى اللاذقية

ذكر القفطي [١] والذهبي [٢] والصفدي [٣] والسيوطي [٤] والعثماني وغيرهم ماخلاصته : أن أبا العلاء بعد أن أخذ عن علماء بلده رحل إلى طرابلس ، وكانت بها خزائن كتب وقد وقفها ذوو اليسار ، واجتاز في طريقه باللاذقية ، ونزل في دير فيها [سماه القفطي دير الفاروس ، وهو على مقربة منها] . وكان فيه راهب له علم بأقوال الفلاسفة ، فسمع منه أبو العلاء كلامه ، أو أخذ عنه ماشككه في دينه وغيره من الديانات ، فحصل له بعض الانحلال . وقال ياقوت [٥] : وقال المعري الملحد : إذ كانت اللاذقية

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٣٠ عن إنباه الرواة على أنباه النحاة — للقفطي .
(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ١٩٠ عن تاريخ الإسلام — للذهبي .
(٣) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٢٦٧ عن الوافي بالوفيات — الصفدي .
(٤) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٣٢٣ عن بغية الوعاة — السيوطي .
(٥) معجم البلدان — لياقوت الحموي (اللاذقية) .

بيد الروم ، بها قاض وخطيب ، وجامع لعباد المسلمين ، إذا أذّنوا ضرب الروم النواقيس كياداً لهم فقال :

في اللاذقيّـةِ فِتْنَـةٌ ... مَا بَيْنَ أَحْمَدَ والمسيحْ

هـذا يُعالِجُ دُلْبَـةً ... والشيخُ مِنْ حَنَقٍ يَصيحْ

الدلبة : النـاقوس ، والشيخ الذي يصيـح : أراد به المؤذن . ا هـ . وفي كلام صاحب (الذكرى[1]) مايدل على قبول هذه الرحلة ، وأنه لايشك في أن الصلة قد اشتدت بين أبي العلاء وبين النصارى قبل رحلته إلى بغداد ، بحيث استطاع أن يدرس دينهم ودين اليهود ويناقشهم فيها ، وأنه لم يدرسها في المعرة لأن حياتها العلمية لم تكن تسمح بذلك ، فلا شك في أنه قد درس هاتين الديانتين في أسفاره الأولى ، إمـا في انطاكية أو في اللاذقية ، ورجح الثاني لأمرين ، أحدهما : رواية المؤرخين المذكورين . والثاني : البيتان المتقدمان اللذان رواهما ياقوت .

وروى الأستاذ الميمني قول القفطي والذهبي وغيرهما ، ثم قال : [2] ولا نستبعد أصلا أن يستهوي راهب ناشئا مَّ أترابه في اللهو واللعب . وذكر كلاهما كيد الروم وضربهم النواقيس إذا أذن المسلمون . وذكر أن بعض المستشرقين شك في هـذا الخبر ، وزعم أن العرب تضيف إلى الرهبان كثيراً من الآراء التي يبعد مابينها وبين الإسلام . وأن المعري احتذى في هذه الشكوك على مثال المتنبي فإنه كان لايبجل الأنبياء . وكلام الجميع يشعر بأن هذه الرحلة قبل رحلته إلى بغداد . وإذا أنعم

(١) ذكرى أبي العلاء — لطه حسين — ط ٢ ص ١٤٦ .

(٢) أبو العلاء وما إليه — للميمني — ص ٦٨ باختلاف يسير في النقل .

الإنسان النظر تبين له أن هذه الرحلة على هذا الوجه ، إن لم تكن باطلة ، فبينها وبين الباطل رحم واشجة ، ويدل على ذلك أمور ، منها :

١ — أن هذه الرحلة لم يعين زمنها على التحقيق ، ولم تتبين مدة إقامته في اللاذقية ، بل ليشعر كلام بعضهم أنه بأت ليلة عند الراهب ، ولم يبين ذلك الراهب ، ولا ما سمعه من أقواله ، ولا علم ماهو الذي أخذه عنه في هذه المدة القليلة ، فشككه في دينه وغيره ، وحصل له بسببه انحلال .. ولا علم أيضاً بأية لغة كان يخاطب الراهب والراهب يخاطبه ، لأن الراهب كان رومياً وأبو العلاء لايعرف غير العربية . ولا علم من كان يصحبه في هذه الرحلة ، ولا كيف اتصل بالراهب ، بل هذه الرحلة كلهـــا مغمورة بالإبهام والغموض . وقد علمنا أن أبا العلاء لم تحدثه نفسه باجتداء علم منذ فارق العشرين .

٢ — وأن هذه الرحلة مبنية على رحلة طرابلس ، وسيأتي أنها باطلة ، وما بني على الباطل باطل .

٣ — وأن اللاذقية كانت بيد الروم ، وكانوا يشتدون في إيذاء المسلمين وكيدهم ، فقد ذكر القفطي في (أخبار الحكماء) ص ١٩٥ عن ابن بطلان أنه قال : وخرجت من أنطاكية إلى اللاذقية ، وهي مدينة يونانية ، ولها ميناء وملعب وميدان للخيل مدور ، وبها بيت كان للأصنام وهو اليوم كنيسة ، وكان في أول الإسلام مسجداً ، وفيها قاضٍ للمسلمين وجـــامع يصلون فيه ، وأذان فى أوقات الصلوات الخمس ، وعادة الروم إذا سمعوا الأذان أن يضربوا الناقوس ، وقاضي المسلمين الذي كان بها من قبل الروم . ومن عجائب هذا البلد أن المحتسب يجمع القحاب والغرباء المؤثرين للفساد

من الروم في حلقة ، وينادي على كل واحدة منهن ، ويتزايد الفسقة فيهن لليلتها تلك ، ويؤخذن إلى الفنادق التي هي الخانات لسكنى الغرباء ، بعد أن تأخذ كل واحدة منهن خاتماً من المطران حجة بيدها من تعقب الوالي لها . فإنه متى وجد خاطياً مع خاطية بغير ختم المطران ألزمه جناية .. اه .

هذه حالة اللاذقية في عهد أبي العلاء . ومن البعيد أن يتسنى لمثله أن يجتمع براهب ويتلقى عنه ، والروم لا يألون جهداً في كيد المسلمين ، وهم على ما نعلم من الصلف والعجرفة في ذاك العهد .

٤ — وأن هذه الرحلة لو كانت واقعة حقيقة لاجتمعت الروايات على نقلها ، ولذكرها أبو العلاء كما ذكر بغداد ، لاسيما قضية القحاب والفسقة . واننا لنجد كثيراً ممن ترجم أبا العلاء لم يذكر هذه الرحلة . كما أن ذكر اللاذقية في كلامه قليل ، فقد ذكرها في رسالة الغفران[1] ص ١٣٨ في قصة الكاتب الذي نقل المتنبي على جرحه ذبرىء . والرجل الذي أخبره المتنبي بأن الكلب سيموت فمات .

٥ — وأن بيتي المعري اللذين ذكرهما ياقوت لا يصح الاحتجاج بهما على اجتيازه باللاذقية ، ولا على اجتماعه براهب فيها ، لأن أبا العلاء ، كما قلنا من قبل ، ذكر بلاداً كثيرة ، وانتقد كثيراً من الأعمال والعادات والمعتقدات من غير أن يجتاز بها ، على أن البيتين المذكورين لا يظهر عند التأمل أن بينهما وبين شعره في مثل هذا الغرض شيئاً من الشبه ، وأهل المعرة يروونهما على هذا الوجه .

في القُدْسِ قامَتْ ضجَّةٌ ما بَيْنَ أحمَدَ والمسيحْ
هٰـذا بِناقُوسٍ يَدُقُّ وذَا بِمِئْذَنَةٍ يصيحْ

(١) وفي الرسالة تحقيق بنت الشاطىء ط ١ ص ٣٥٥ .

ويزيدون بيتاً ثالثاً وهو :

كُلٌّ يُعَظِّمُ دينَـهُ يا لَيتَ شِعْري ما الصَّحيحْ

ولم أر أحداً من المتقدمين رواها على الوجه الأخير ، وإنمـا سمعت كثيراً من الناس يروونها كذلك ، واستبعد بعض المستشرقين هذه الرواية ، وزعم أن لفظ القدس لم يطلق على المدينة المشهورة إلا في القرن السادس فما بعده . وهذا غير صحيح لأن أبا العلاء ذكرها في مواطن من شعره في (السقط) و (لزوم مالا يلزم) .

كقوله (١) :

واخْلَعْ حِذاءَكَ إنْ حاذَيْتَها شَرَفاً كَفِعْلِ موسى كَليمِ اللهِ في القُدُسِ

وقوله (٢) :

وَصاحِبُ الشَّرْعِ كانَ القُدْسُ قِبْلَتَهُ صَلى إِلَيْها زَماناً ثُمَّ حَوَّلَها

وقوله (٣) :

القُدْسُ لَمْ يُفْرَضْ عَلَيْكَ مَزارُهُ فاسْجُدْ لِرَبِّكَ في الحَياةِ مُقَدِّسا

٦ — وليس في هذين البيتين ما يحتاج إلى اطّلاع واسع على الديانة المسيحية أو درس عميق لها ، وإنما يتأتى لأي رجل كان أن يذكر ما فيهما . على أن المعرة في عهد أبي العلاء ، كان فيها وفي ضاحيتها نصارى ورهبان ، والدليل على ذلك قصة صاحب الماخور المتقدمة في حوادث سنة ٤١٨ هـ ،

---

(١) شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٦٩١ وفيها « حذيتها وَرَعاً » .

(٢) اللزوميات هـ ص ٢٠٤ .

(٣) اللزوميات هـ ص ٢٩٦ .

وفي رسائل أبي العلاء ص ١٥٢[1] رسالة كتبها في رجل نصراني محبوس سرقت لأمه أربع دجاجات فطلب إطلاقه. وقد ذكرنا أن القفطي رأى راهباً ينسج الحصر في مسجد المعرة.

وقد ذكرنا في (تاريخ المعرة[2]) في حوادث سنة ٤٢٠ هـ أن أهل كفرنبل كانوا نصارى، فأكثروا القتلى من المسلمين ورحلوا سراً إلى الروم. وذكرنا في حوادث سنة ٤٩٢ هـ أن الصليبيين لما هجموا على المعرة انضم إليهم الأرمن وبعض نصارى البلاد...

ولا يبعد أن يكون لأبي العلاء اتصال بهم، تمكن به من أن يطلع على شيء من عقائدهم، ثم أتمه من دراسته. كما لا يبعد أن يكون اطلع على ذلك من كتب الكلام والفقه وغيرهما، أو تلقاه من أفواه الرواة، كما كان ذلك بالنسبة إلى عقائد الشيعة والباطنية والحلولية والتناسخية والقرامطة والمجوس وغيرهم، فإنه لم يرحل إلى مدينة من أجل ذلك ولم يجتمع برهبان ولا غيرهم من أجلها.

٧ — أن الشك مستفيض في كلام أبي العلاء في الديانات وغيرها منذ حداثة سنه، وكثيراً ما يريد به غيرَ ظاهره، وكثيراً ما يتخذه وسيلة لليقين، كما بينا ذلك في غير هذا المكان.

ومما ذكرناه يتضح أن الذي يمكن قبوله من هذه الرحلة — إذا أمكن قبول شيء منها — أنه اجتاز باللاذقية في رحلته الى طرابلس، إن صحت تلك الرحلة، على ما فيها من غموض وإبهام، وقد يشعر بضعف هذه الرحلة قول البديعي: قيل: واجتاز باللاذقية ونزل ديرا ..، فتعبيره بلفظه «قيل» دليل على عدم جزمه بوقوعها.

---

(١) رسائل أبي العلاء المعري شرح شاهين عطية.
(٢) كتاب مخطوط للمؤلف لم ينشر بعد.

رحلة الى طرابلس

قد سمعنا قول القفطي والذهبي والسيوطي والصفدي وغيرهم في رحلة أبي العلاء إلى طرابلس ، وذكرها غيرهم على نحو النمط الذي ذكره هؤلاء ، وقد قال ابن العديم [١] : ذكر بعض المصنفين أن أبا العلاء رحل الى دار العلم بطرابلس للنظر في كتبها .

واشتبه عليه ذلك بدار العلم في بغداد ، ولم يكن بطرابلس دار علم في أيام أبي العلاء ، وإنما جدد دار العلم بها القاضي جلال الملك أبو الحسن علي بن محمد بن أحمد بن عمار في سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة ، وكان أبو العلاء قد مات قبل ذلك سنة ٤٤٩ هـ ، أي قبل تجديدها بثلاث وعشرين سنة . ووقف بها من تصانيف أبي العلاء (الصاهل) و(الشاحج) و(السجع السلطاني) و (الفصول والغايات) و (السادن) و (إقليد الغايات) و(رسالة الإغريض) .

وقد ذكروا أن هذه المكتبة كانت تسمى دار العلم ، وأن فيها كتباً قيل إن عددها نحو ثلاثة آلاف ألف كتاب . وفيها خمسون ألف مصحف ، وعشرون ألف تفسير ، وإنه لم يكن في جميع البلدان مثلها ، وقد ذهبت بها ريح الحروب الصليبية .

وقد قبل صاحب الذكرى هذه الرحلة وقال [٢] : فدرس بها أبو العلاء ماشاء ثم عاد إلى بلده . وكذلك الأستاذ الميمني قبلها ، ثم قال في ص ٦٩ [٣] : وعندنا مايعضد قول القفطي والذهبي ، وهو أنه نقل عن كتاب

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٥٧ عن الانصاف والتحري ـ لابن العديم .

(٢) ذكرى أبي العلاء ـ لطه حسين ـ ط ٢ ص ١٤٧ .

(٣) أبو العلاء وما إليه .

بدء الخلق من كتب التوراة في رسالة الغفران ص ١٨٠ ، قال : وذكر من نظر في كتاب المبتدأ حديث طالوت لما أمر ابنته – وهي امرأة داود [ص] – أن تدخله عليه وهو نائم ليقتله ، فجعلت له في فراش داود زق خمر ودسته عليه ، وضربه بالسيف ، وسال الخمر ، فظن أنها الدم ، فأدركه الأسف والندم ، فأومأ بالسيف ليقتل نفسه ومعه ابنته فأمسكت يده وحدثته مافعلته فشكرها على ذلك . ثم قال : ولا يستغرب إن قلنا إنه أحال على غيره من ناظري الكتاب تنصلا من القذف بالإلحاد ، أو الارتياب ، على أن الرجل أعمى لاينظر ، أي إن صنيعه [هذا] أحد الملاحن والمعاذير ، وهي في الناس تكثر ، واستعمال كلمة عبرية وأخرى حبشية .. يشهد لمخالطة القوم بالبلدتين النصرانيتين ، وهذا على كثير من عاداتهم وأخلاقهم التي ألم بها في اللزوم . اهـ .

وأراد بالكلمة العبرية لفظ « مُنَش » في قوله في اللزوم من أبيات يذم فيها الزواج والنسل ثم يقول :[١]

لعَمْرِي لقَدْ أمِنَ العائذونَ　　وعُونِشَ ذو بِغْضَةٍ فاعْتَنَشْ
فَيَاقَسُّ وَقِّعْ بِرِزْقِ الخطِيـبِ وانْظُرْ بِمَسْجِدِنا يامُنَشْ

قالوا : مُنش كلمة عبرية ومعناها الناظر . وأراد بالكلمة الحبشية لفظ « أبي ضابط » في قوله في اللزوم من أبيات[٢] :

وتَغْبِطُ كُلاًّ على ما حَوَاهُ　　ومَالكَ في العَيْشِ مِنْ غابِطِ
وقَفْتَ على كُلِّ بابٍ رَأَيْـتَ حتّى نَهاكَ أبُوضابِطِ

---

(١) عانش : عانق ، واعتنشه اعتنقه في القتال وظلمه .(ج)، والبيتان في اللزوميات ص ٣٢٩ .

(٢) اللزوميات ص ١٨٠ .

قالوا : أبو ضابط كنية الموت بالحبشية . وهذا الاستنباط غريب لأسباب، أولها : أن قول أبي العلاء : وذكر من نظر في كتاب المبتدأ الخ .. لايتوقف على مخالطة النصارى ولا الرحلة الى بلادهم ، بل مثل هذا الحديث يمكن ان يؤخذ عن أي شخص نظر في ذلك الكتاب في أي بلد كان واي زمن كان .

ثانيها : أن هذا الخبر لايحتاج فيه إلى إحالته على غيره ليتنصل من القذف بالإلحاد ، لأن أبا العلاء صرح بما هو أعظم منه في رسالة الغفران وغيرها ، ولم يحسب لأحد حسابا ، ولا التجأ إلى التعريض أو إلى التلميح . فهذا ضرب من الإسراف في سوء الظن بأبي العلاء بغير موجب .

ثالثها : أن استعمال كلمة «منش» العبرية وكلمة «أبي ضابط» الحبشية لا يوجب أن يكون قد خالطه القوم بهاتين البلدتين النصرانيتين خاصة ، إذ يجوز أن يكون سمعها أو علمها في غيرهما من أحد أو من كتاب ، بل هذا أقرب إلى العقل ، لأننا نرى في كلامه بعض الكلمات الفارسية مثل كلمة «آرا» في قوله (١) :

إِذَا قِيلَ لَكَ : اخشَ اللهَ مَوْلاَكَ فَقُـــلْ : آرَا

فقد ذكرها في موضعين في اللزوم وفي "الفصول والغايات ، وقال : إنها فارسية بمعنى نعم ، واستعملها في نظمه ونثره من غير أن يذهب إلى بلاد فارس ويخالط أهلها ويطلع على دياناتهم .

الرابع : أن أبا العلاء ، كما قلنا غير مرة ، ذكر كثيراً من عـــادات الأمم المختلفة وأحوالها وأخلاقها وعقائدها ، من غير أن يخالط أحداً منهم .

---

(١) اللزوميات ﻫ ص ٢٨ ، وأبو العلاء وما إليه ـ للميمني ـ ص ٥٦ .

على أننا لا نسلم أن «أبا ضابط» حبشية لأنها مركبة من لفظين عربيين ، ولم نر في (اللسان) و(تاج العروس) و(الأساس) و(المصباح) وغيرها من ذكر أنها كنية الموت بالحبشية أو غيرها ، وإنما ذكرها شارح لزوم ما لا يلزم [1] ، وهو مع أنه ليس بثبت ، بعيدٌ عن معرفة اللغة ، كما سيتضح لك ذلك عند الكلام في اللزوم . وقد جاء الضابط في اللغة بمعنى القوي الشديد ، والشديد البطش . واللازم للشيء لا يفارقه . ولا يبعد أن يكون أبو العلاء كناه بهذا أو سمعه عن العرب . غير أننا لم نعثر على نص بذلك .

ومما تقدم يتضح أن صاحب (الذكرى) وصاحب (أبي العلاء وما إليه) لم يوفقا كثيراً في استنباطهما في هذا الباب . وأن رحلة أبي العلاء إلى أنطاكية واللاذقية وطرابلس وقصة حفظه ما بلي عليه .. وتعلمه من الراهب .. وأخذه من مكتبة طرابلس .. لا تطمئن النفس الى شيء منها ، وليس هناك ما يوجب القطع بصحتها ، وإنما سداها الوهم ولحمتها الباطل . وأن قول ابن العديم في مكتبتي أنطاكية وطرابلس أقرب إلى الصواب والواقع . وأن شك بعضهم في رحلة اللاذقية وقول بعضهم : ان العرب تضيف إلى الرهبان كثيراً من الآراء .. قريب من الحق ، لأن الذي نسب ذلك إلى أبي العلاء أراد أن يتخذ منه وسيلة للطعن في دينه ونسبة الشك والإلحاد إليه . وقد قال ابن قاضي شهبة في (الطبقات) ص ١٧٦ : ويقال إن راهباً اجتمع به في بعض الصوامع ، آواه الليل ، فشككه في دينه . ورواها غيره على هذه الصورة ولم يذكر اللاذقية ولا غيرها . ولا نستطيع أن نتصور مقدار أو نوع العلم الذي تعلمه في ليلة واحدة من راهب اجتمع به مرة واحدة ، ثم خرج من عنده وقد امتلأ علماً وفلسفة وشكاً وإلحاداً .

---

(١) انظر الحاشية (٢) ص ٢٠٣

رحلته الى صنعاء

قال ابن حجر في (لسان الميزان) ج ١ ص ٢٠٤ في ترجمة أبي العلاء : مكث بصنعاء سنة لايأكل اللحم .. ولم يزد على هذا . فنقل الأستاذ الميمني في ص ٧٠ ذلك وقال بعده [١] : أقول : ولعله يريد قبل رحلته إلى بغداد ، فإنه بعد الرحلة لم يختص بتركه في موطن دون آخر ، على أن أحداً من مترجميه لم ينقل عنه رحلته بعد الرجوع منها .

وظاهر كلامه يشعر بقبول هذه الرحلة ، ولكنه لم يجد من ذكرها ليقوي بها هذه الرواية . وقد بحثت كثيراً في أقوال الذين كتبوا في أبي العلاء فلم أر من ذكر هذه الرحلة غير ابن حجر . ونقبت عن صنعاء فإذا هي اسم لموضعين ، أحدهما في اليمن وهي المدينة المشهورة . والثاني اسم لقرية كانت على باب دمشق دون المزة ، ثم خربت وصارت مزرعة وبساتين . ومما لاشك فيه أن هذه الرحلة غير صحيحة ، ولا يجوز أن يعول عليها لانفراد الرواية بها ، وللأسباب التي قدمناها في الرحلات السابقة . وابن حجر ، وإن كان ثقة في رواياته ، غير معصوم من الخطأ ولا من خطأ النساخ وتحريف الرواة . وأظن أن أصل عبارته هكذا : ومكث بضعاً واربعين سنة لايأكل اللحم ، ثم سقطت كلمة أربعين فتوهم الناسخ أو الطابع أنها بصنعاء . وهذا هو الموافق لما ذكره ابن حجر أيضاً في ص ٢٠٦ عن هلال الصابي في تاريخه .

ويحصل من مجموع ماقدمناه في الرحل أن أبا العلاء لم تثبت له رحلة حقيقية إلا إلى حلب وبغداد وكلتاهما ليست لطلب علم كما مر وكما يأتي .

---

(١) أبو العلاء وما إليه .

رحلته إلى بغداد

كانت بغداد في عهد أبي العلاء عاصمة الخلافة الإسلامية ، ومقر الأشراف ، وملتقى الأمم من عرب وعجم ، ومجمع العلماء والأدباء والرواة والمترجمين والمعربين ، ومبعث النور إلى القاصية والدانية ، وكعبة القاصدين ، وزهرة الدنيا في حضارتها ونضرتها . وفيها من مجالس العلم والأدب والمناظرة والوعظ ماليس في غيرها . وكان كل إنسان يهوى أن يلم بها التماساً للعلم أو الرزق أو الشهرة ، أو تقربا من الخلافة أو ما شاكل ذلك من الأسباب والأماني . وإذا كان حبل السياسة مضطربا فيها في ذلك العهد فإن النهضة العلمية فيه كانت على خير ما كانت عليه في عصر من العصور .

وكانت فيها خزائن كتب كثيرة ، منها مكتبتان عامتان ، إحداهما بيت الحكمة ، وهي التي أسسها الرشيد وهي خزانة الخلفاء ، وكان فيها من الكتب مالا يوصف كثرة . قال في (صبح الأعشى) ج ١ ص ٤٦٦ : ويقال : إن أعظم خزائن الكتب في الإسلام ثلاث خزائن ، إحداها خزانة الخلفاء العباسيين ببغداد ، فكان فيها من الكتب مالا يحصى كثرةً ، ولا يقدم عليه نفاسة ، ولم تزل على ذلك إلى أن دهمت التتر بغداد ، وقتل ملكهم هولاكو المستعصمَ آخر خلفائهم ببغداد ، فذهبت خزانة الكتب فيما ذهب ، وذهبت معالمها وأعفيت آثارها . وقد ذكروا في ترجمة نصير الدين الطوسي محمد بن محمد أنه اتخذ خزانة كتب مما نهب من بغداد وغيرها ، اجتمع فيها أربعمائة ألف مجلد . وذكر صاحب (الفهرست) جماعة ممن كان يعمل في هذه الخزانة أي خزانة الحكمة ، منهم : علان الشعوبي ، ص ١٥٠ ، كان ينسخ فيها . وابن أبي الحريش ، ص ١٤ ، كان يجلد فيها ، ومنهم : سهل بن هرون وشريكه فيها سعيد بن هرون ص ١٧٤ و ص ١٨٢ ، ومنهم :

الفضل بن نوبخت ص ٣٨٢ ، وسالم ص ٣٣٩ و ٤٢٤ ، ومنهم : محمد بن موسى الخوارزمي كان منقطعاً إليها ص ٣٨٣ .

الثانية : مكتبة سابور بن أزدشير وزير بهاء الدولة في الكرخ في محلة بين السورين ، وقد احترقت فيما احترق من محال الكرخ عند ورود طغرل بك أول ملوك السلاجقة إلى بغداد سنة ٤٤٧ هـ . وفي ابن الاثير سنة ٤٥٠ . قال ياقوت : ولم يكن في الدنيا أحسن كتباً منها ، كانت كلها بخطوط الأئمة المعتبرة وأصولهم المحررة . وقال ابن الأثير في سنة ٣٨٣ هـ : بنى أبو النصر سابور ببغداد داراً للعلم ، ووقف فيها كتباً كثيرة ، وجعل فيها أكثر من عشرة آلاف مجلد . ونقل عن الوافي أن فيها [١٠٤٠٠] غير مائة نسخة من المصاحف المكتوبة بخط بني مقلة ، وقد اختلفت كلمة ابن الاثير فيها فقال مرة : بنيت سنة ٣٨١ هـ ثم قال : سنة ٣٨٢ ثم قال في حوادث سنة ٤١٦ هـ : وعمل دار الكتب سنة ٣٨١ هـ . وقد أشار إليها أبو العلاء بقوله (١) :

وَغَنَّتْ لَنا في دَارِ سابورَ قَيْنَةٌ ... مِنَ الوُرْقِ مِطْرابُ الأَصائِلِ مِيهالُ

وقد وقعت تسميتها بدار العلم في كلام ابن الأثير وابن خلكان وياقوت . إذ قال عن ابن الجوزي في ج ٦ ص ٣٥٨ : محمد بن أحمد بن طاهر بن حمد أبو منصور الخازن لدار الكتب القديمة من ساكني درب منصور بالكرخ . ثم قال بعد ذلك : وحدث عن غرس النعمة أبو الحسن محمد بن الصابيء في كتاب (المفوات) قال : كان بدار العلم التي وقفها سابور .. خازن يعرف بأبي منصور ...

---

(١) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١٢٣٩ . وميهال : مفعال من الوهل ، وهو الفزع .

أما أبو العلاء فقد قال في رسالته إلى خاله [١] : والذي أقدمني تلك البلاد مكان دار الكتب بها . وقال في كتابه إلى أهل المعرة[٢] ص ٨٣ : ولكن آثرت الإقامة بدار العلم . وقال في رسالة الغفران [٣] ص ١٠ : ولم تكن في النسخة التي في دار العلم . ونقل عنه في الوفيات ج ٢ ص ٤٦٢ ، قال أبو العلاء : حدثني عبد السلام البصري خازن دار العلم ببغداد ، وقال من قصيدة كتبها إلى عبد السلام المذكور [٤] :

أَخازِنَ دارِ العِلْمِ كَمْ مِنْ تَنُوفَةٍ أَتَتْ دُونَنا فيها العَوازِفُ واللَّغْطُ

وقال في رسالة الغفران [٥] ص ٧٢ : أنا « توفيق السوداء » التي كانت تخدم في دار العلم ببغداد ، على زمان أبي منصور الخازن . وذكرها في غير هذه المواطن . وفي تاريخ بغداد ج ١١ ص ٥٨ ، وفي نزهة الألباء ص ٤١٢ في ترجمة عبد السلام البصري : وكان يتولى ببغداد دار الكتب . وفي القفطي [٦] : وحضر خزانة الكتب التي بيد عبد السلام البصري .

وما تقدم يدل على أن دار الكتب القديمة ودار العلم واحدة ولكنه يشكل من حيث إن أبا منصور بن حمد سئل عن مولده فقال سنة ٤١٨ هـ فتأمل .

---

(١) رسائل أبي العلاء المعري ــ شاهين عطية ــ ص ٧٨ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) رسالة الغفران ــ تحقيق بنت الشاطئ ــ ط ١ ص ٢٣ .

(٤) شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٦٧٢ ، التنوفة : البرّيّة ، والعوازف : الجن .

(٥) الغفران تحقيق بنت الشاطئ ــ ط١ ص ١٩٣ وفيها : « على زمان أبي منصور محمد ابن علي الخازن » .

(٦) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٣١ عن إنباه الرواة ــ للقفطي .

وكان في بغداد غير هاتين المكتبتين كثير من المكاتب الخاصة . منها مكتبة أبي الحسين عبد العزيز بن إبراهيم المعروف بابن حاجب النعمان . ولم يشاهد خزانة للكتب أحسن منها ، لأنها كانت تحتوي على كل كتاب عين ، وديوان فرد ، بخطوط العلماء المنسوبة . وأبو الحسين هذا أحد أفراد الزمان في الفضل والنبل ، وكان إليه ديوان السواد أيام معز الدولة ، وله كتب كثيرة ، توفي سنة ٣٥١ هـ وترجمته في الفهرست ١٩٣ ، وتاريخ بغداد ج ١٠ ص ٤٥٦ . وقد ذكره أبو العلاء في رسالة الغفران[١] ص ١٠ ، وذكر دار العلم في هذا الموضع .

ومنها خزانة حكمة للفتح بن خاقان ، جمعها له علي بن يحيى المنجم ، لم ير أعظم منها كثرة وحسنا ، كما في معجم الأدباء . ج ٦ ص ١١٧ ، والفهرست ص ١٦٩ و ص ٢٠٥ .

ومنها خزانة لأبي حسّان الحسن بن عثمان الزيادي وهي خزانة حسنة كبيرة كما في الفهرست ص ١٦٠ .

سمع أبو العلاء بهذه الخزائن ، لا سيما دار الكتب ، فاشرأبت نفسه إلى زيارة بغداد والاطلاع على ما فيها ، فعقد النية على ذلك واستأذن أمه كما جاء في رسالته إلى خاله أبي القاسم[٢] ص ٦٩ : على أني والله قد أعْلَمْتُها أني مُرْتَحِل وأنَّ عزمي على ذلك جادٌ مزمع ، فأَذِنَتْ فيه ، وأحْسَبُها ظَنَّتْهُ مَذْقَةَ الشَّارب ، ووَمِيض الخالِبِ ﴿ ولكل أجل كتاب ﴾ .

(١) الغفران — تحقيق بنت الشاطيء ، ط ١ — ص ٢٣ .

(٢) الرسائل — لشاهين عطية — والمذقة : اللبن الممزوج بالماء ، ويريد أنها كانت تظن أنه لن يسافر .

أسباب رحلته الى بغداد

لم تسلم هذه الناحية من اختلاف في الأقوال وتضارب في الآراء ، فقد ذكر جماعة منهم القفطي (١) والذهبي (٢) وغيرهما أن عامل أو أمير أو نائب حلب عارض أبا العلاء في وقف له ، فسافر إلى بغداد متظلماً شاكياً ، ولم يعين أحد منهم ذلك العامل أو النائب في ذلك العهد ولا في أية سنة وقعت المعارضة ولا نوعها ولا نوع ذلك الوقف .

وقد كنا قدمنا أن أبا المعالي سعد الدولة مَلَكَ حلب سنة ٣٥٦ ﻫ وتغلب عليه غلامه قرعونة واستولى عليها سنة ٣٥٨ ﻫ ثم ملكها أبو المعالي سنة ٣٦٦ ﻫ ، وبقيت القلعة بيد بكجور ، ثم ولاه حمص ، وبقي أبو المعالي إلى أن توفي سنة ٣٨١ ﻫ ، وعهد إلى ولده أبي الفضائل ، ووصى به لؤلؤ ابن عبد الله السيفي الكبير مولى سيف الدولة ، فكان المدبر لملكته ثم سمه فمات سنة ٣٩١ ﻫ ، واستولى لؤلؤ على حلب واستقل بالأمر إلى أن توفي سنة ٣٩٩ ﻫ ، ثم ملك حلب بعده ابنه أبو منصور نصر مرتضى الدولة ، وكان خطب للحاكم العبيدي ثم تغلب عليه غلامه واستولى على حلب ثم سلمها إلى نواب الحاكم سنة ٤٠٤ ﻫ أو بعدها .

وكان العزيز صاحب مصر يَطْمع في الاستيلاء على حلب ويُطمعه بعض ولاتها من عهد بكجور ، وكان يرسل الجيش تلو الجيش للاستيلاء عليها ، وتم ذلك للحاكم على يد نصر بن لؤلؤ كما تقدم . وعلى هـذا ينبغي أن يكون عامل حلب الذي عارض أبا العلاء هو لؤلؤ المتوفى سنة ٣٩٩ ﻫ ، لأن أبا العلاء سافر من المعرة في أواخر سنة ٣٩٨ ﻫ . وتكون

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٣١ عن إنباه الرواة — للقفطي .
(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ١٩٠ عن تاريخ الاسلام — للذهبي .

حلب غير خاضعة لسلطان بغداد، بل هي على وشك الدخول في حوزة المصريين . ومن البعيد أن يذهب أبو العلاء الى بغداد متظلماً من عامل ليس لحكومة بغداد سلطان عليه . ولو كان ذهابه من أجل ذلك لتعرض لذكره أو لذكر ما وقع له من أجله، كما فعل بسفينته التي اغتصبها رجال الحكومة في سفره إلى العراق . ولكن شيئاً من ذلك لم يكن . وهذا دليل على أن سفره إلى بغداد لم يكن للتظلم ، أما الوقف فسيأتي أن لأبي العلاء وقفاً يغل نحو ثلاثين ديناراً أو اقل في كل عام .

وقال أبو غالب همام بن المهذب المصري [١] : إن أبا العلاء حدثه أنه ذهب إلى بغداد ليقرأ بها العلم فلم يصادف بها مثله . وقال ابن العديم [٢] : إنه رحل إليها لطلب العلم والاستكثار منه والاطلاع على الكتب التي ببغداد، ولم يرحل لطلب دنيا ولا رفعة .

وزعم بعض المستشرقين أن سيره الى بغداد كان تبرماً من أمر اختلال معيشته، لاتظلماً الى الخليفة في استرداد مال . وقال صاحب الذكري في ص ١٦٣ : ونحن نعتقد أن حب العلم وطلب الشهرة وسعة العيش وبغض الحياة السياسية بحلب وما آلت اليه من الاختلاف والفتن هي التي كونت في نفس أبي العلاء عزمه على الرحلة من بلاد الشام الى العراق . .

وذكر الاستاذ الميمني في ص ١٠٢ [٣] أسباباً كثيرة لرحلته ، منها دار الكتب ولقاء العلماء والإفادة والاستفادة لهم ومنهم ، والسأم والتبرم من الفتن ، والغارات والحروب التي يثيرها البدو والروم والمصريون . وأعجبه قول المستشرق : أنه رحل تبرما لا تظلما . ولقد أكثر هو وصاحب الذكرى من الأسباب حتى اذا لم تكن كلها حقيقة كان بعضها . . .

---

(١) ابن الوردي ج ١ ص ٣٢١ .

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٤٢ عن الانصاف والتحري ـ لابن العديم .

(٣) أبو العلاء وما إليه ـ للميمني .

هذه خلاصة ما قاله جمهور من المؤرخين والعلماء في أسباب رحلته ، وفيها ما يستسيغه الذوق ويجوّزه العقل لو كان له دليل يؤيده أو نص يعضده . ولقد ذكر أبو العلاء سبب رحلته وأغنى عن التكلف لالتماس وجوه بعيدة عن الحقيقة والواقع ، وذلك حيث قال في رسالته إلى خاله أبي القاسم عند رجوعه من العراق (١) ص ٧٧ : وقد فارقت العشرين من العمر ما حدثت نفسي باجتداء علم من عراق ولا شام .. والذي أقدمني تلك البلاد مكان دار الكتب بها . وقال في كتابه الذي أرسله إلى أهل المعرة من بغداد (٢) ص ٨٣ : وأحلف ما سافرتُ أستكثر من النشب ، ولا أتكثر بلقاء الرجال ، ولكن آثرتُ الإقامة بدار العلم فشاهدت أنفس مكانٍ لم يسعفِ الزمن بإقامتي فيه .. وقال من قصيدة أرسلها إلى عبد السلام المصري بعد عودته من بغداد إلى المعرة :(٣)

وما أربي إلاّ مُعَرَّسُ مَعْشَرٍ هُمُ النَّاسُ لا سُوقُ العَروسِ ولا الشَّطُّ

قال التبريزي في شرح السقط : يعني بقوله : معرس ، معشر ، دار العلم ، لأنه كان يجتمع مع أهل العلم فيها .

وقال في التنوير : أي ليست حاجتي إلا معرس معشر ، يعني دار الكتب ببغداد . وسوق العروس : سوق فيها تباع فيها الطُّرَف .

وأما طلب العلم والأدب والمال والشهرة وسعة العيش وما نا كل ذلك فقد صرح في مواطن من كلامه بنفيه والتبرؤ منه .

---

(١) الرسائل — لشاهين عطية .

(٢) المصدر السابق .

(٣) شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٦٢١ والتنوير ج ٢ ص ١٧٢

وقد كان أبو العلاء بعيد النظر شديد الاحتراس والحذر ، فكان في كل موطن وموقف يصرح بأنه لا يريد المال ولا الجاه ولا غيرهما . وقد قال في كتابه إلى خاله : وانصرفت وماء وجهي في سقاء غير متربّ . ما أرقت منه قطرة في طلب أدب ولا مال . وقال في كتابه إلى أهل المعرة : وأحلف ما سافرت أستكثر من النشب ولا أتكثر بلقاء الرجال . وقال في قصيدته الآتيه إلى أبي حامد الإسفرائيني (١) :

وَلم أكُنْ ورَسُولي . . . . كالفَرَزْدَقِ في إرْسالِ وَقّاعِ

ولا أُثَقِّلُ في جاهٍ ولا نَشَبِ (٢) . . . .

وقال في مرثية الشريف أبي أحمد الموسوي (٣) :

أوْضَعْتُ في طُرُقِ التَّشَرُّفِ سامِياً بِكُما وَلَمْ أسْلُكْ طَريقَ العافي

وقال من قصيدة أنشدها في العراق :(٤)

أإخوانَنا بَيْنَ الفُراتِ وجِلَّقٍ يَدَ اللهِ لا خَبَّرْتُكم بِمُحالِ

---

(١) شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٧٦٠ وفيها :

ولم أكن ورسولي حين أرسله مثل الفرزدق في إرسال وقّاع

ووقاع : غلام للفرزدق : كان يوجهه في أشياء ليست بالجليلة .

(٢) شروح سقط الزند :ق ٢ ص ٧٥٦ وعجزه : ولو عددت أخا عُدْمٍ وإدقاع .

(٣) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١٣٢٠ .

(٤) جلق : دمشق ، وأراد باخوانه الذين هم بين الفرات وجلق المعرة وأهلها لوقوعها بينهما ، ويد : بمعنى العهد منصوبة بفعل مضمر أي ألزم نفسي عهد الله . وغيلان : هو ذو الرمة بن عقبة الشاعر الذي قال فيه أبو عمرو بن العلاء : فتح الشعر بامرئ القيس وختم بذي الرمة توفي سنة ١١٧ هـ . وبلال بن أبي بردة عامر ابن أبي موسى الأشعري ، كان قاضياً بالبصرة وأميرا ، توفي سنة ١٢٥ هـ وكان ذو الرمة ينتجعه ويمدحه ويأخذ صلاته وجوائزه (ج).

والأبيات في شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١٢٠٤ — ١٢٠٥ وروى التبريزي : « أجيراننا » .

أُنبّئُكم أني على العَهْدِ لم أزَلْ[1] وَوَجهيَ لَمّا يُبْتَذَلْ بِسؤالِ
وأني تيممْتُ العراقَ لغيرِ ما تَيَمّمَهُ غَيْلانُ عِنْدَ بِلالِ

وقال من قصيدة قالها في العراق : [2]

وَكَمْ ماجدٍ في سِيفِ دِجلَةَ لم أشِمْ لَهُ بارِقاً وَالمرْءُ كالمزْنِ هَطّالُ

وقال من قصيدة أرسلها إلى أبي القاسم التنوخي بعد عودته إلى المعرة: [3]

رَحَلْتُ لمْ آتِ قِرْوَاشاً أُزاوِلُهُ وَلاَ المهَذّبَ أبغي النَّيْلَ تَقْويتا

فهذا القدر الذي أوردناه من كلامه يدل دلالة صريحة واضحة على أن الذي أقدَمَهُ بغداد حبُّ الاطلاع على دار الكتب فحسب . ولم يرحل إليها رغبة في طلب علم أو أدب او شهرة أو مال او غيرها ، ولا تظلماً من عامل ولا تذمراً من حياة سياسية في المعرة أو غيرها . وأبو العلاء أصدق الناس فيما يحدّث به عن نفسه ، وأخبرهم بدخيلته وما يكنّه صدره .

ولو كان التذمر من الحياة هو السبب لما عاد إلى بلده ، لأن الحياة بأنواعها لم تتغير فيها خلال المدة التي غاب فيها عنها ، ولأن البغداديين

---

(١) في شروح السقط « أني علي العهد سالم » .

(٢) شام البرق : نظر أين يمطر سحابه ، وشام برق فلان : رجا معروفه (ج)
والبيت في شروح السقط ق ٣ ص ١٢٥٩ .

(٣) قرواش بن المقلد العقيلي صاحب الموصل والكوفة والمدائن وسقي الفرات ، وليها من سنة ٣٩١ هـ إلى سنة ٤٤١ هـ ، ثم سجنه أخوه فتوفي سنة ٤٤٤ هـ والمهذب : علي بن نصر أمير البطيحة ، وليها بعد وفاة خاله المظفر سنة ٣٧٦ هـ بعهد منه ، وتوفي فيها سنة ٤٠٨ هـ ، وفي التنوير ج ٢ ص ١١٩ قرواش اسم أمير كان والي بغداد والمهذب وزيره . (ج) والبيت في شروح السقط :ق ٤ ص ١٦٣٩.

أرادوه على المقام بين ظهرانيهم ، وعرضوا عليه أموالاً كثيرة فأبى ، وسيتضح لك ذلك في الكلام على عفافه وزهده ، ويتبين مبلغه من الأنفة والقناعة.

ويتحصل من مجموع ما ذكرناه ان ما قاله العلماء المتقدم ذكرهم في أسباب رحلته إلى بغداد يخالف للحقيقة والواقع ولقول أبي العلاء نفسه. على أننا لا نستبعد أن يكون للشيء الواحد أسباب متعددة ، ولكن السبب الأول الذي عليه المعول في هذه الرحلة هو ما ذكره أبو العلاء ، وهو الاطلاع على دار الكتب.

ويشهد لهذا قول أبي الهيثم عبد الواحد أخي أبي العلاء من قصيدة أرسلها إلى أبي العلاء وهو في بغداد (١) :

بَغْدادُ لا سُقِيَتْ رُبوعُكِ دِيمَةً ... وغَدَتْ رِياضُكِ حَنْظَلاً ومُرارا
أَضْرَمْتِ قلبي باجتِذابِكِ ماجِداً ... كالسَّيفِ أُعجِبَ رَوْنَقاً وغِرارا
مَنَّيْتِهِ مَحْضاً فلمّا شَفَّهُ ... ظَمَأٌ أتاكِ بهِ سَقَيتِ سَمَارا (٢)
وَجَلَبْتِهِ فَنَحاكِ يَعْتَسِفُ الرَّدَى ... وَيَخوضُ مِنْهُ لُجَّةً وغِمارا
شَغَفاً بِدارِ العِلْمِ فيكِ وقَلْبُهُ ... ما زالَ رَبْعاً للعلومِ ودارا
ما زِدْتِ عَمّا عِندَهُ فَسَقاكِ مَنْ ... رَفَعَ السماءَ نَقيصةً وعِثارا
وأجارَ أهلَكِ في المعادِ فإنَّهُم ... أوفى الخلائِقِ ذِمَّةً وجِوارا

* * *

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٤٥ عن الإنصاف والتحري لابن العديم ، والأبيات من مُطَوَّلة مطلعها :

يا رَبِّ قد جَنَحَ الوميض وغارا ... فاسقِ المواطِرَ زَيْنَباً ونَوارا

(٢) السَّمار : اللبن الكثير الماء.

ابتداء سفره :

لم يتبين لنا اليوم الذي شخص فيه أبو العلاء من المعرة ، ولا على أي شيء اجتاز منها إلى بغداد . ولكنا رأينا رسالة كتبها جواباً إلى القاضي أبي الطيب الطبري طاهر بن عبد الله بن طاهر (١) قال فيها : إنه كتبها لتسع خلون من رمضان . وقد جاء فيها : وإلى الله أرغب في تسهيل الهجرة إلى فنائه السعيد على أمون مِقْلات (٢) .. أو أخرى طليت بالقار من غير داء ، ولم تَخُطْ وجه البيداء ... وكيف تقرّق من الأظماء وإنما تخِدُ في الماء (٣) . ثم قال : وفي هذا اليوم وهو يوم كذا ورد إليه الشيخ أبو سعيد الخوارزمي (٤).. قاصد البيت الحرام .. فخبرني سلامة سيدي القاضي، وعرفني أن كتابه كان معه .. وأن البادية ظفرت به .. فأخذته في جملة كتبه .

ولكننا لم نعلم منها في أي رمضان كتبت . وقد ذكر الميمني (٥) ص ١٠٨ أن أبا سعيد الخوارزمي زار أبا العلاء في المعرة سنة ٣٩٨ هـ ، وهذه الرسالة تدل على أن أبا العلاء كان يحدث نفسه بالهجرة إلى بغداد وأن بينه وبين القاضي الطبري معرفة ومكاتبة .

---

(١) الطبري كان إماماً جليلا أخذ عنه العراقيون العلم وحملوا مذهب الشافعي ولد بآمل سنة ٣٤٨ هـ وتوفي سنة ٤٥٠ هـ ، وقد روى عنه جماعة كثيرون ، منهم الخطيب البغدادي وأبو إسحق الشيرازي ، راجع طبقات السبكي ١ / ١٧٦ ورسائل المعري ص ٩٩ ـ لشاهين عطية ـ (ج)

(٢) ناقة أمون : موثقة يؤمن عثارها ، المقلات التي تضع ولداً ثم لا تحمل غيره .(ج)

(٣) يريد سفينة . (ج)

(٤) أبو سعيد هذا اسمه أحمد بن محمد .. ابن عم الخوارزمي الضرير تفقه على أبي حامد الاسفرائيني، ومات في العاشر من صفر سنة ٤٤٨ هـ . طبقات السبكي ج ٢ ص ٢٣٠ (ج)

(٥) انظر أبو العلاء وما إليه .

طريقه الى بغداد :

رحل أبو العلاء إلى بغداد من المعرة ولم يتبين لنا على أي شيء كان رحيله ولا أي طريق سلك . والظاهر من رسالته إلى القاضي الطبري السابق ذكرها ، ومن رسالته إلى خاله أنه ركب أولاً مطيّة ثم ركب سفينة ، فإنه قال فيها(١) :

وما هبطت من طريقي واديا ، ولا قَرَعتُ جبلًا ولا حملتني سفينة ولا ذات لي مطية إلا بمنّ الله . . .

وسيأتي أنه مر بشجرة وهو على جمل فقيل له : طأطىء راسك . .

ويظهر أنه لم يمر بحلب في ذهابه إلى بغداد ، كما لم يمر بها في إيابه ، لأنه يقول في رسالته : فوالذي أخرج الجذع من الجرية (٢) والنار من الوثيمة(٣) ما نكّبت حاب في الإبداء والانكفاء ، إلا كما تنكّب خريدة المحار لما دونها من هول البحار .

ولكنه نزل بالرّقة وكتب منها كتاباً إلى خاله يشرح له فيه ما حمله على النزول .

وكذلك يقول في قصيدته لأبي حامد (٤) .

يا ناقُ جِدّي فَقَدْ . . .

وقد ركب في رحلته هذه سفينة ، فسارت به إلى الأنبار ، ثم اعترضه نفر من أصحاب السلطان ، فأخذوا السفينة إلى موضع يقال له الفارسية(٥) .

---

(١) رسائل أبي العلاء ـ لشاهين عطية ـ ص ٧٥ ، وقَرعَ الجبل : صعده .

(٢) النواة . (ج)

(٣) الحجارة . (ج) والنص في الرسائل ـ لشاهين عطية ـ ص٦٩

(٤) شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٧٤٢ ، والبيت :

يا ناق جدي فقد أفنت أناتك بي   صبري وعمري وأحلاسي وأنساعي

(٥) الفارسية بالفاء والراء وهكذا رواها التبريزي وذكرها في شرحه ، وقال الخوارزمي : الفارسية موضع وهو بالفاء والراء عن الامامين صاحب الايضاح والتنوير . ثم قال : كان الاستاذ البارع قد أسمعنيه بالقاف والدال ، وهو —

دخوله بغداد

اختلفت كلمة العلماء في الوقت الذي دخل فيه أبو العلاء بغداد وفي مدة إقامته فيها وفي أسباب خروجه منها .

فقال الخطيب في (تاريخ بغداد)[1] : إنه دخلها سنة ٣٩٩ هـ ووافق في ذلك (لسان الميزان) ، و(مرآة الزمان) ، و(مرآة الجنان) ، والقفطي ، والذهبي ، وأبا الفداء ، و (البداية والنهاية) ، و (عقــد الجمان) ، و (الأنساب) ، و(المنتظم) .

وقال ياقوت[2] : رحل إلى بغداد سنة ٣٩٨ هـ وأقام بها سنة وسبعة أشهر . وقال في (نزهة الألباء)[3] : رحل إلى بغداد سنة ٣٩٨ هـ ودخلها سنة ٣٩٩ وأقام بها سنة وتسعة أشهر . وروى ابن العديم عن الخطيب التبريزي[4] أنه رحل إليها سنة ٣٩٨ هـ ودخلها سنة ٣٩٩ هـ وأقام سنة وستة أشهر . وقال ابن خلكان[5] : دخلها سنة ٣٩٨ هـ ودخلها ثانياً

ــ سهو ، لأن القادسية أول منزل في البادية بينها وبين الكوفة مرحلة ، وما للسفينة والبادية ؟

وقد جاءت في شرح السقط للخوبي المسمى بالتنوير ص ٢٣٤ القادسية بالقاف والدال فهي خطأ على قول الخوارزمي .

وقال ياقوت : الفارسية : قرية غناء نزهة ، ذات بساتين مونقة ورياض مشرفة ، على ضفة نهر عيسى بعد المحول من قرى بغداد ، بينها فرسخان .

والمحول : بلدة كثيرة البساتين والفواكه والأسواق بينها وبين بغداد فرسخ . (ج)

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥ عن تاريخ بغداد ـ للخطيب البغدادي .

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٦٨ عن إرشاد الأريب ـ لياقوت .

(٣) « « « « ص ١٧ عن نزهة الألباء ـ لابن الانباري .

(٤) « « « « ص ٥٤٣ عن الانصاف والتحري ـ لابن العديم .

(٥) « « « « ص ١٨٣ عن وفيات الأعيان ـ لابن خلكان .

سنة ٣٩٩ هـ . وقال غير واحد : اتفق يوم وصوله إلى بغداد موت الشريف الطاهر والد الرضي والمرتضى ، ورثاه بقصيدته الفائية ، وكانت وفاته سنة ٤٠٠ هـ . ونقل ذلك ابن الوردي عن أبي غالب همام بن . . المهذب المعري . وهنالك أقوال متضاربة تحول بين الباحث وبين الحقيقة سداً منيعاً من الشكوك والتناقض وقد أضربنا عن سردها مخافة التطويل

والذي يظهر لي أنه شرع في رحلته في آخر سنة ٣٩٨ هـ ، وانتهت هذه السنة وهو في الطريق ، ثم دخل بغداد في صفر سنة ٣٩٩ هـ . ويؤيد هذا قول بعضهم أنه رحل أو سافر إلى بغداد سنة ٣٩٨ هـ . وبعضهم يقول دخلها سنة ٣٩٩ هـ . ومنهم من التبس عليه الأمر بين رحل ودخل . ولكن يشكل على هذا قول بعضهم أنه دخلها سنة ٤٠٠ هـ ، ولعل هذا التضارب أوهم ابن خلكان أن أبا العلاء رحل مرتين إلى بغداد . وتابعه في ذلك من تابعه من غير تمحيص ولا تثبت كصاحب (الشذرات) وابن الوردي بعد نقله عن أبي غالب ما تقدم . وأكثر الأقوال يؤيد ما استظهرناه .

ولم أرَ أحداً عيّن اليوم الذي دخلها فيه ، ولا الشهر ، وإنما اكتفوا بذكر السنة عن ذلك .

منزله في بغداد

سيأتي عن القاضي أبي الطيب الطبري أن أبا العلاء نزل في سويقة غالب ، وهي من محالّ بغداد . وقال في قصيدته إلى القاضي التنوخي[1] :

أيّامَ واصلْتَني وُدًّا وتَكْرِمَةً ‌ ‌ ‌ ‌ وَبالقَطِيعَةِ داري تَحْضُرُ النَّهَرا

(١) شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٧٣٧ ، وفي التنوير ج ٢ ص ١٩٣ .

قال في (التنوير) : القطيعة ، محلة في بغداد على شط دجلة . وقد ذكر ياقوت مواضع تسمى قطيعة ، مضافة إلى أسماء ، مثل قطيعة إسحاق قرب الكرخ ، وقطيعة الربيع بالكرخ ، وقطيعة الفقهاء بالكرخ وغيرها . ورجح الأستاذ الميمني أنها قطيعة الفقهاء ، واستدل على ذلك بقول أبي العلاء من قصيدة يجيب بها أبا تميم البرقي (١) :

بِمَحَلَّةِ الفُقَهاءِ لا يَغْشَو الفتى   ناري ولا تُنْضي المَطِيَّ عَزائمي

وقال : وإن كان صاحبا التنوير والضرام أرادا بمحلة الفقهاء بغداد ، وأظن أن هذا من عدم علمهما بمقامه ، وإلا فظاهر أن المحلة لا يراد بها مدينة عادة اهـ .

وهذا استنباط لا بأس به ، ولكني أعتقد أن أبا العلاء لو أراد قطيعة الفقهاء لأمكنه أن يقول :

بِقَطِيعَةِ الفُقَهاءِ لا يَغْشو . . . . .

وأطاعه اللفظ والمعنى والوزن ، أما إطلاق المحلة على المدينة فقد يسعه المجاز المرسل . ويجوز أن يقال : جعلها كلها محلة الفقهاء لكثرتهم بها كما قال صاحب (التنوير) . وأما الكرخ فالظاهر من كلام المعري أنه نزلها ، لأنه قال من قصيدة في السقط (٢) :

دَمَاه بِلادي كان أنجَعَ مَشْربا   وَلَوْ أنّ ماءَ الكَرْخِ صَهْباءُ جِرْيالُ

وقال من أخرى فيه (٣) :

فَيا بَرْقُ لَيسَ الكرخُ داري وإنما   رَماني إليه الدَّهْرُ مُنْذُ ليالِ

---

(١) أبو العلاء وما إليه — للميمني — ص ١١٣ ، والبيت في الشروح ق ٤ ص ١٥٢٣ .
(٢) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١٢٠٤ والجريال : صبغ أحمر وماء الذهب ، وسميت الخمر جريالا لشبهها بالذهب ومائه .
(٣) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١١٩٥ .

وقال في لزوم ما لا يلزم [1] :

مالي وللنَّفَر الذين عَهِدْتُهم بالكَرْخِ مِنْ شَاشٍ ومن إيلاق

ولعل أقرب الأقوال إلى الصواب ما قاله البطليوسي [2] فقد قال : القطيعة موضع ببغداد يعرف بقطيعة الربيع بقرب من دجلة ، وكان أبو العلاء ساكنا فيه . وقال التبريزي [3] : المراد بالنهر نهر القلائين ، والربيع هو ابن يونس حاجب المنصور .

حياته في بغداد

ذكرنا أن القاضي أبا الطيب الطبري كانت بينه وبين أبي العلاء معرفة ومكاتبة قبل أن يصل إلى بغداد ، وكتب إليه أبياتا حين وافى بغداد ، فأجابه عنها في الحال ، ثم كتب إليه أبياتا أخر فأجابه عنهـا مرتجلا كما سيأتي .

وقول أبي العلاء في رسالته إلى خاله [4] : وأما سيدي أبو طاهر فقد حملني من الإنعام أوْقاً (= ثقلا) ما زالت كتبه تطرف أصدقاءه محافظة على المكارم .. حتى جعلهم إلي كعُرْفِ الفرس ، أو قُوَى المرس .. ، يفهم منه أن أصدقاء أبي طاهر كثيرون ، وأنهم كانوا يلازمون أبا العلاء .

---

(١) اللزوميات هـ ص ٣٠٨ وشاش : بلدة في ما وراء النهر .

(٢) شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٧٣٧ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) الرسائل ـ لشاهين عطية ـ ص ٧٥ وفيها وفي معجم الأدباء « تطرق أصدقاءه » .

ولا شك أن شهرة أبي العلاء سبقته إلى بغداد ، لأن المعرة في عهده كانت ملتقى السبل بين الشام وما وراءها ، والعراق وما وراءه . وكان الحُجاج والتجار والرحال ورسل الملوك وغيرهم يمرون بها ، وقد كان ذكر أبي العلاء ملأ تلك النواحي ، وتخطّى إلى مسامع كثير من الفضلاء في العراق وغيره ، منهم القاضي الطبري ، وأصدقاء أبي طاهر الذين كتب إليهم . ولما دخل بغداد كتب قصيدة إلى أبيَ حامد الإسفرائيني [١] ذكر فيها أنه أنشأ الرحلة على ناقة ، فهو يحثها على السير ويأمرها أن تسرع في الليل ولا تهابَ بياض الصبح ، وإن كان شبيها بالسيف ، يشير بذلك إلى جِدّه ومضائه حيث يقول [٢] :

لاوَضْعَ لِلرَّحْلِ إلا بَعْدَ إِيضاعِ [٣]
فَكَيْفَ شَاهَدْتِ إِمْضائي وإِزْمَاعي [٤]

يا نَاقُ جِدِّي فَقَدْ أَفْنَتْ أَنَاتُكِ بي
صَبْرِي وعُمْرِي وأَحْلاسي [٥] وأَنْسَاعي [٦]

---

(١) ترجمته في الوفيات وطبقات ابن السبكي . والخطيب البغدادي وشذرات الذهب وأبي الفداء ، وهو أحمد بن محمد الإسفرائيني الفقيه الشافعي الذي انتهت إليه رئاسة الدنيا والدين ، وكان يحضر مجلسه ثلاثمائة فقيه وقيل سبعمائة توفي سنة ٤٠٦ هـ في بغداد . (ج)

(٢) شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٧٤١ .

(٣) سير سريع . (ج)

(٤) عزمي . (ج)

(٥) الحلس : كساء يطرح على ظهر البعير . (ج)

(٦) النسع : سير ينسج عريضاً للتصدير . (ج)

إذا رأيتِ ظلامَ الليلِ فانصلتي[1]

وإنْ رأيتِ بياضَ الصُبحِ فانصاعي[2]

ولا يهولنّكِ سيفٌ للصباحِ بدا فإنّه للهوادي غيرُ قطّاعِ

إلى الرئيسِ الذي أسفارُ طلعتِهِ

في حندسِ الخطبِ ساعٍ بالهُدى شاعي[3]

ثم أشار إلى ركوبه السفينة ووصفها فقال :

يمّمتُهُ وبودّي أنني قلمٌ أسعى إليهِ ورأسي تحتيَ الساعي

على نجاةٍ[4] من الفرصادِ[5] أيدَها ربُّ القدومِ بأوصالٍ وأضلاعِ

تُطلى بقارٍ ولم تجربْ كأنْ طُليتْ

بسائلٍ من ذفارى[6] العيسِ منْباعِ[7]

---

(١) وأسرعي . (ج)

(٢) دعي السير وخذي في ناحية . (ج)

(٣) مقلوب شائع : أي منتشر . (ج)

(٤) ناقة سريعة يريد بها السفينة . (ج)

(٥) التوت . (ج)

(٦) جمع ذفرى . عظم نات خلف الأذن ، يريد مآخير الآذان . (ج)

(٧) ممتدٌ منبعث . (ج)

ولا تُبَالي بِمَحْلٍ إنْ أَلَمَّ بِها ... ولا تَهِشُّ[1] لإخصابٍ وإمراعِ

ثم ذكر المواضع التي مر بها، وتعرّض أصحاب السلطان لها وأخذها، فقال:

سارَتْ فزَارَتْ بنا الأنبارَ سالِمَةً ... تُزْجَى وتُدْفَعُ في أمواجِ دُفّاعِ[2]

والفارِسِيَّةِ[3] أدَّتْها إلى نَفَرٍ ... طافُوا بها فأَناخُوها بجَعْجَاعِ[4]

وأراد أن يصف ما عرض له في رحلته من الاستعجال والخوف في الطريق، فعبر عن ذلك بما يتعلق باصطلاح الفقهاء الشافعية لأن أبا حامد فقيه شافعي فقال:

وَرُبَّ ظُهْرٍ وَصَلْنَاها عَلَى عَجَلٍ ... بِعَصْرِها في بَعيدِ الوِرْدِ لمَّاعِ

بِضَرْبَتَيْنِ: لِظُهْرِ[5] الوَجْهِ واحِدَةٌ ... ولِلذِّراعَيْنِ أخرى ذاتُ إسراعِ

وكَمْ قَصَرْنا صلاةً غَيْرَ نافِلَةٍ ... في مَهْمَهٍ كَصَلاةِ الكَسْفِ شَعْشَاعِ

وما جَهَرْنا ولَمْ يَصْدَحْ مُؤَذِّنُنا ... مِنْ خَوْفِ كُلِّ طَويلِ الرُّمحِ خَدَّاعِ

---

(١) ترتاح . (ج)

(٢) ما يدفع بعضه بعضاً (ج) . وفي شروح السقط : « تزجى وتدفع في موج ودفاع »

(٣) تقدم تفسيرها وأنها بالفاء والراء (ج)

(٤) الجعجاع : المحبس الضيق الخشن (ج)

(٥) في شروح السقط : « لظهر » .

في[1] مَعْشَرٍ كجِمَارِ الرَّمْلِ أَجْمَعُها ... ليلاً وفي الصُّبْحِ أُلقِيها إلى القَاعِ

ولقد أجاد غاية الإجادة في هذا ، فإنه ذكر جمع الظهر مع العصر وذلك يكون للمسافر . والتيمم بضربتين لفقد الماء ، وقصر الفريضة ، وأشار إلى طول صلاة الكسوف وهي عند الشافعي ركعتان في كل ركعة قيامان وقراءتان وركوعان طوال ، يقرأ في القيام الأول بعد الفاتحة سورة البقرة ، وفي الثاني آل عمران ، وفي الثالث النساء ، وفي الرابع المائدة ، ويسبّح في الركوع الأول قدر مائة آية من البقرة ، وفي الثاني قدر ثمانين ، وفي الثالث سبعين ، وفي الرابع خمسين ، ويسبّح في كل سجود على قدر الركوع الذي قبله ، ففي الأول قدر مائة وفي الثاني قدر ثمانين وهكذا .

وهناك أقوال أخر في الكيفية والمقدار كما هو مبسوط في كتب الشافعية . وهي عند الحنفية ركعتان كالنفل بركوع واحد . وأشار إلى جمع الجمار ليلاً ورميها نهاراً ، وهذه كلها على مذهب الشافعي . ولعله تعمد ذلك لأنه يخاطب فقيهاً شافعياً ، ولقد برع وأجاد وأبدع وزاد في تشبيه معشره بالجمار يجمعها ليلاً ويفرقها نهاراً .

ثم تصدّى لذكر البادية وحمد المقام فيها ، وانتقل إلى بيان من يحبهم في العراق وهجره أشياعه في حبهم فقال :

وبالعِراقِ رِجَالٌ قُرْبُهُمْ شَرَفٌ ... هَجَرْتُ[2] في حُبِّهِمْ رَهْطِي وأشياعي

على سِنينَ تَقَضَّتْ عِنْدَ غَيْرِهِمُ ... أَسِفْتُ لا بَلْ عَلَى الأَيّامِ والسَّاعِ

(١) كذا في الأصل وفي شروح السقط : « من معشر كجمار الرمي أجمعها » ؛ وجمار الرمي : الحصوات التي ترمى في مناسك الحج .

(٢) في شروح سقط الزند : « هاجرت » .

وخشي أبو العلاء أن يفهم أبو حامد من مدحه هذا أنه يبتغي ثواباً، فبين له أنفته وشمائله، وعرض عليه أخلاقه في صورة فتوى، وأردف ذلك بالتلميح إلى قول ابن أسلت، وهدية المسيّب، وإرسال الفرزدق غلامه. بسط ذلك له حتى لا يسبق إلى ظنه ما هو بعيد عنه، وحتى يفهمه أن الحاجة التي يبتغيها عنده هي مودته ومعونته على إعادة السفينة، وأنه يشكره ويدعو له وإن لم يبلغه مأمله. وهذا ما يريده بقوله:

اسمعْ أبا حامدٍ فُتيا قصدتُ بها مِنْ زائرٍ لجميلِ الوُدِّ مُبتاعِ
مُؤدّبِ النفسِ أكّالٍ على سَغَبٍ لحمَ النوائبِ شرّابٍ بأنقاعِ (١)
أُرضي وأُنصِفُ إلا أنني رُبما أربيتُ غيرَ مُجيزٍ خرقَ إجماعِ
وذاكَ أنّيَ أُعطي الوَسْقَ مُنتَحِياً منَ المَودّةِ مُعطي الوُدِّ بالصّاعِ (٢)
ولا أُثقِّلُ في جاهٍ ولا نَشَبٍ ولو غَدَوتُ (٣) أخا عُدْمٍ وإدْقاعِ
مَنْ قالَ صادقْ لئامَ الناسِ قُلتُ له قولَ ابنِ أسلتَ قد أبلغتَ أسماعي (٤)
كأنَّ كُلَّ جوابٍ أنتَ ذاكِرُهُ شَنْفٌ يُناطُ بأُذْنِ السامعِ الواعي
إنَّ الهدايا كَراماتٌ لآخذِها إنْ كُنَّ لسنَ لإسرافٍ وإطماعِ

---

(١) جمع نِقع الماء: أي المستنقع يضرب للرجل الجوال (ج).

(٢) الوسق: ستون صاعاً. (ج) وفي شروح السقط: «المُدّ بالصاع».

(٣) في الشروح: «ولو عُدِدْتُ».

(٤) هو أبو قيس بن الأسلت، صيفي بن عامر الأوسي، شاعر حكيم اجتمع برسول الله (ص) ومات قبل أن يسلم، يقول من قصيدة:

قالت ولم تقصد لقيل الخنا مهلاً فقد أبلغت أسماعي (ج)

وهي القصيدة (٧٥) من المفضليات. وفي شروح السقط: «قول ابن الاسلت ...»

ولا هَدِيَّةَ عِنْدي غيرَ ما حَمَلَتْ عَنِ المُسَيَّبِ أرْواحٌ لِقَعْقاعِ [1]
ولَمْ أكُنْ ورَسُولي حينَ أُرسِلُهُ مِثْلَ الفَرَزْدَقِ في إرسالِ وَقَّاعِ [2]
مَطِيَّتي في مَكانٍ لَسْتُ آمَنُهُ على المَطَايا وسِرْحانٌ لَهُ رَاعِ [3]
فارْفَعْ بكَفِّي فإنِّي طائشٌ قَدَمي وامْدُدْ بِضَبْعي فإنِّي ضَيِّقٌ باعي
وما يكُنْ فَلَكَ الحَمْدُ الجميلُ بِهِ وإنْ أُضِيعَتْ فإنِّي شاكرٌ دَاعِ [4]

إذا أمرّ الإنسان على ذاكرته منزلة أبي حامد في بغداد ، وتملق الشعراء في ذلك العهد ومغالاتهم في المدح ، ثم اعترض حالة أبي العلاء البصير الفقير الغريب ، وما يوهمه مدحه لمثل أبي حامد ، ثم أمعن النظر في هذه القصيدة ، ورأى ما فيها من الإشارات اللطيفة ، والاحتراس الدقيق ، تجلى له أن أبا العلاء رأى ببصيرته ما يعتلج في الصدور ويدور في الأخلاد ، فاحترس أشد الاحتراس ، فلم يسرف في المدح ولم يغال في التملق ، وتلطف غاية التلطف في عرض حاجته بعد أن بين في فاتحة كلامه أنه زائر مبتاع لجميل الود ، مؤدب النفس عنك يقابل الود بأضعاف ،

---

(١) المسيب بن علس : خال أعشى قيس ، مدح القعقاع بن معبد التيمي فقال من قصيدة :

فلأهدينّ مع الرياح قصيدة مني مغلغلة إلى القعقاع (ج)

وهي القصيدة (١١) من المفضليات .

(٢) وقاع : غلام للفرزدق كان يراسل به في الجنايات (ج) .

(٣) مطيتي ، يريد سفينته . (ج) وفي شروح السقط : « ... لها راع » .

(٤) وفي شروح السقط : « الحمد الجزيل » .

ولا يثقل في جاه ولا نشب . ثم ختم كلامه بأنه يحمد الممدوح ويشكره سواء أنجح في قضيته أم أخفق . وإنما نعمد ذلك ليفهم الفقيه وغيره أنه لم يكن كغيره من الشعراء إذا نجح مدح وإذا أخفق قدح . ولم يعرفنا التاريخ ما لقيت هذه القصيدة من أبي حامد ، والظاهر أنها ذهبت كصيحة في واد .

أما السفينة فقد اجتهد آل حكار في إعادتها إليه ، وشكرهم على ذلك في قصيدة أنفذها بعد رجوعه إلى المعرة إلى خازن دار العلم في بغداد ، حيث يقول : (١)

وعَنْ آلِ حَكَّارٍ جَرى سَمَرُ العُلا ... بأَكْمَلِ مَعْنًى لا انْتِقاصٌ ولا غَمْطُ

فَإِنْ يُنْسِهِمْ أَمْرَ السَّفِينَةِ فَضْلُهُمْ ... فَلَيْسَ بِمُنْسِيَّ الفِراقُ ولا الشَّحْطُ

أُولَئِكَ إِنْ يَقْعُدْ بِكَ الجاهُ يَنْهَضُوا ... بِجاهٍ وإِنْ يُبْخَلْ بِنائِلَةٍ يُعْطُوا (٢)

إلى أن يقول :

شَكَرْتُهُمُ شُكْرَ الوَلِيدِ بِفارِسٍ ... رِجالاً بِحِمْصٍ كانَ جَدُّهُمُ السِّمْطُ (٣)

---

(١) شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٦٩١ وآل حكار : قوم من آل بغداد كانوا خلصوه من الشارين .

(٢) في شروح السقط : « وإن يبخل بنافلة » ، والرواية الأولى في التنوير ص ١٧٨ .

(٣) الوليد : البحتري ، شكر بني السمط ببيتين وهما :

جزى الله خيراً والجزاء بكفه ... بني السمط إخوان المكارم والمجد

هم وصلوني والتنائف بيننا ... كما ارفض غيث من تهامة في نجد

ويقال : إنهما لنهشل بن حري ولعله تمثل بهما . (ج) ، وبنو السمط : قوم من أهل حمص .

ولا خَيرَ فِيمَنْ ليس يَبسُطُ شُكرَهُ على القُلّ إنّ الخيرَ ناقتُهُ بِسْطُ [1]

وكان من عادة البغداديين أن يتعرفوا إلى من طرق ديارهم من الشعراء، وأن ينشدوه ويستنشدوه. وسيأتي في قصة الوزير المنازي أنه أنشده شعره في جملة من أنشده، فقال له:

وَمَنْ بالعراق . . . .

وكانت لهم مجالس يتناشدون فيها الأشعار، ويتذاكرون في الأدب، ويبحثون فيها مع العلماء في فنون مختلفة. وسيأتي أنه كان يحضر مجتمعاً في يوم الجمعة، وأنه كان في حلقة القاضي التنوخي، فاعترض عليه في لفظ «بوح». ومات الشريف أبو أحمد الموسوي فرثاه، وعرف ابنيه الرضي والمرتضى، وكان يغشى دار الكتب ودور العلم ويجتمع بخزنتها، وأنهم أحضروا له دستور الخراج ليختبروا حفظه.

فهذه الأسباب التي عرفناها وغيرها مما أغفل التاريخ ذكره، مهدت له السبيل إلى أن يخالط رجال العلم والأدب والفلسفة.

وقد قال البديعي في (أوج التحري) عند الكلام على دخوله بغداد[2]: «ولما دخلها تسامعت به أماثلها، وأقبلت عليه أفاضلها، ونظم بها قصائد لا يخلق جدتها مرور الدهور ولا يذهب بهجتها تكرار العصور، منها القصيدة التي رثى بها الشريف أبا أحمد الموسوي. وذكر أنه نظم في بغداد قصيدته الضادية[3]:

مِنْكِ الصُّدُودُ ومِنّي بالصُّدودِ رِضى مَنْ ذا عَلَيَّ بهذا في هواكِ قَضَى

وكانوا يتغنون بها لحسنها ورقتها ....».

---

(١) ناقة بسط: لا يمنع منها ولدها (ج).

(٢) أوج التحري ـ للبديعي. ص ١٨.

(٣) شروح سقط الزند: ق ٢ ص ٦٥٤، وفي أوج التحري ص ٦.

الذين عرفهم ببغداد

لا شك أن أبا العلاء عرف خلقاً كثيراً في بغداد من العلماء والأدباء والشعراء والكتاب ، ولكن الذين عرفناهم منهم قلٌ من كثر ، منهم :

١ — القاضي أبو الطيب : طاهر بن عبد الله الطبري السابق ذكره قال :

« كتبت إلى أبي العــلاء المعري الأديب حينَ وافى بغداد وكان قد نزل سويقة غالب (١) :

وما ذاتُ دَرٍّ لا يَحِلُّ لِحالبٍ   تَنَاوُلُهُ واللحمُ منها مُحَلَّلُ

لِمَنْ شاء في الحالَيْنِ حيًّا ومَيِّتاً   ومَنْ شاء شُربَ الدَّرِّ فهو مُضَلَّلُ (٢)

إذا بَلَغَتْ في السِّنِّ فاللحمُ طَيِّبٌ   وآكِلُهُ عِندَ الجميعِ مُعقَّلُ (٣)

وخِرفانُها في الأكلِ فيها كراهَةٌ   فما لِسَخيفِ الرَّأيِ فيهنَّ مأكَلُ (٤)

وما يَجتَني مَعناهُ إلاّ مُبَرِّزٌ   عَليمٌ بأسرارِ القلوبِ مُحَصِّلُ

فأجابني وأملى على الرسول في الحال ارتجالاً (٥) :

جوابانِ عَنْ هذا السُّؤالِ كِلاهُما   صَوابٌ وبَعضُ القائِلينَ مُضَلَّلُ

---

(١) الوفيــات ١ / ٢٩٢ ، ابن الوردي ١ / ٣٦١ ، بدائع البدائه ٢٠٤ ، شذرات الذهب ٣ / ٢٨٥ ، أوج التحري [ص ٣٠] (ج) .

(٢) رويت هذه الأبيات بروايات مختلفة ، وفي بعضها : « فمن رام شرب الدر » (ج) .

(٣) روي : « طعنت في السن » . عند الجميع « مغفل » (ج) .

(٤) روي : « .. للاكل منها كرازة   فما لحصيف الرأي ... » (ج) .

(٥) الأبيات مما لم يرو في الديوانين .

فَمَنْ ظَنَّهُ كَرْماً فَلَيْسَ بِكاذِبٍ　　وَمَنْ ظَنَّهُ نَخْلاً فَلَيْسَ يُجَهَّلُ
لُحومُهما الأعْنابُ وَالرُّطَبُ الذي　　هُوَ الحَلُّ وَالدَّرُّ الرَّحيقُ الُمسَلْسَلُ
ولكِنْ ثِمارُ النَّخْلِ وهِيَ غَضيضَةٌ
تُعافُ[1] وغُصْنُ الكَرْمِ يُجْنَى وَيُؤْكَلُ
يُكَلِّفُنا القاضِي الجليلُ مَسائِلاً　　هِيَ النَّجْمُ قَدْراً بَلْ أَعَزُّ وأَطْوَلُ
وَلَوْ لَمْ أُجِبْ عنها لَكُنْتُ بِجَهْلِها　　جَديراً ولكِنْ مَنْ يُجيبُكَ[2] يُقْبَلُ

فأجبته ثانياً بقولي :

أثارَ ضَميري مَنْ يَعِزُّ نَظِيرُهُ　　مِنَ النَّاسِ طُرّاً بَلْ أَعَزُّ وأَفْضَلُ
تَساوى لَهُ سِرُّ المَعالي وَجَهْرُها　　وَسائِرُها بادٍ لَدَيْهِ مُفَصَّلُ
وَمَنْ قَلْبُهُ كُلُّ العُلومِ بِأَسْرِها　　وَخاطِرُهُ في حَدِّهِ النَّارُ يَشْعَلُ
ولما أثارَ الحُبُّ قادَ صَنيعَهُ　　أَسيراً بِأنْواعِ البَيانِ يُكَبَّلُ[3]
وَقَرَّبَهُ مِنْ كُلِّ فَهْمٍ بِكَشْفِهِ　　وَإِيضاحِهِ حَتَّى رَآهُ المُغَفَّلُ

---

(١) يروى : « وهي رطيبة　　تمرّ . . . . . . »
وهكذا روي « غصن » ، ويجوز أن يكون وغض الكرم ، ولكني لم أر من ذكره (ج)
وفي أوج التحري ص ٣١ : « وغض »

(٢) يروى « من يودك » (ج) الأوج ص ٣٠ .

(٣) كذا في الأصل ، وفي تعريف القدماء ص ٢١٣ عن تتمة المختصر - لابن الوردي « ولما أثار الحب نادى معينه » .

وأعجبُ مِنهُ نَظمُهُ الدُّرَّ مُسْرِعاً ... ومُرْتجِلاً مِنْ غَيرِ ما يَتَمَهَّلُ
فَيَخْرُجُ مِنْ بحرٍ ويَسْمو مكانُهُ ... جَلالاً إلى حيثُ الكواكِبُ تَنْزِلُ
فَهَنَّأَهُ اللهُ الكَريمُ بِفَضْلِهِ ... محاسِنَهُ والعُمْرُ فيها مُطَوَّلُ

فأجابني مرتجلا وأملاه في الحال :

ألا أيُّها القاضِي الذي بَدَهاتُهُ ... سُيوفٌ على أهْلِ الضَّلالِ تسلَّلُ[1]
فُؤادُكَ مَعمورٌ منَ العِلْمِ آهِلٌ ... وَجدكَ في كلِّ المسائلِ مُقْبِلُ
فإنْ كُنْتَ بَيْنَ النّاسِ غيرَ مُمَوَّلٍ ... فأنتَ مِن الفَهْمِ المصُونِ مُمَوَّلُ
إذا أنتَ خاصَمْتَ الخُصومَ مُجادِلاً ... فأنتَ، وهُمْ مثلُ الحمائمِ، أجْدَلُ[2]
كأنكَ علمُ الشّافعي مُخاطِباً ... ومِنْ قلبِهِ تُمْلي فما تَتَمَهَّلُ[3]
وكَيْفَ يُرى علمُ ابْنِ إدريسَ دارِساً ... وأنتَ بإيضاحِ الهُدَى مُتَكَفِّلُ
تَفَضَّلْتَ حتّى ضاقَ ذَرْعِي تكرُّماً ... وقُلْتَ وكُفْئِي عنْ جوابِكَ أجْمَلُ[4]
لأنَّكَ في كُنْهِ الثُّرَيّا فَصاحةً ... وأعلى، ومَنْ يَبْغِي مكانَكَ أسْفَلُ

---

(١) وفي تتمة المختصر - لابن الوردي - : « بدهاته .. على أهل الخلاف » ، تعريف القدماء ص ٢١٤ .

(٢) وفي تتمة المختصر - لابن الوردي : « خاطبت » . والأجدل : الصقر .

(٣) وفي تتمة المختصر - لابن الوردي : « كأنك من في الشافعي مخاطبٌ » .

(٤) وفي تتمة المختصر - لابن الوردي : « ... بشكر ما فعلت ... » .

فَعُذْرِيَ فِي أَنِّي أَجبتُكَ واثقاً ... بِفَضْلِكَ فالإِنسانُ يَسهو ويَذْهَلُ[1]
وأخطأتُ في إِنفاذِ رُقعتِكَ التي ... هي المجدُ لي منها أخيرٌ وأوّلُ
ولكِنْ عداني أنْ أرومَ احتفاظَها ... رَسُولُكَ وهوَ الفاضِلُ المتَفضِّلُ
ومِنْ حَقِّها أنْ يُصبِحَ المِسْكُ غامِراً ... لها، وهي في أعلى المنازِلِ تُجْعَلُ[2]
فَمَنْ كانَ في أشعارِهِ مُتَمَثِّلاً ... فأنتَ امرُؤٌ في العِلْمِ والشِّعْرِ أَمْثَلُ
تَجمَّلَتِ الدُّنيا بأنَّكَ فوقَها ... ومِثلُكَ حقاً مَنْ بِهِ يُتَجمَّلُ ..».

٢ — ومنهم أبو أحمد عبد السلام بن الحسين المعروف بالواجكا البصري .

قال في البغية ص ٣٠٥ : «عبد السلام بن الحسن[3] بن محمد البصري اللغوي أبو أحمد القرميسي ، ويلقب بالواجكا ، كان عالماً باللغة والآداب والقرآن صدوقاً أديباً سخياً ، قرأ على الفارسي والسيرافي وسمع محمد بن إسحاق التمار وغيره ، ومات في المحرم سنة ٣٢٩ هـ » وعلى هذه الرواية تكون وفاته قبل ولادة أبي العلاء بأربع وثلاثين سنة .

والصواب ما قاله الخطيب البغدادي[4] ج ١١ ص ٥٨ : عبد السلام بن الحسين بن محمد أبو أحمد البصري اللغوي ، سكن بغداد وحدث بها عن محمد ابن إسحق التمار وجماعة من البصريين .. وكان صدوقاً عالماً أديباً قارئاً للقرآن عارفاً بالقراءات ، وكان يتولى ببغداد النظر في دار الكتب ، وإليه

---

(١) وفي تتمة المختصر ـ لابن الوردي : « والإنسان » .
(٢) وفي تتمة المختصر ـ لابن الوردي : « المواضع » .
(٣) كذا في الكامل والتنوير ، وذكره في البغية في ترجمة أبي العلاء بن الحسين (ج) .
(٤) انظر تاريخ بغداد .

حفظها والإشراف عليها ، سمعت أبا القاسم عبيد الله بن علي الرقي الأديب يقول : كان عبد السلام البصري من أحسن الناس تلاوة للقرآن وإنشاداً للشعر ، وكان سمحاً سخياً ، وربما جاءه السائل وليس معه شيء يعطيه فيدفع إليه بعض كتبه التي لها قيمة كثيرة وخطر كبير . . وتوفي يوم الثلاثاء في التاسع عشر من المحرم سنة ٤٠٥ هـ ، وكان مولده سنة ٣٢٩ هـ كما قال البطليوسي وغيره . وترجمته في (نزهة الألباء) ص ٤١٢ قريبة من هذه ، فلعل السيوطي اشتبه عليه المولد بالوفاة ، أو وقع في النسخة نقص في العبارة . وهذا أقرب . ولم يذكر الواجكا غير السيوطي ، وفي فهرست أبي الخير الاشبيلي : قال أبو بكر المصحفي ، قال لي الفقيه الراوية أبو الحسن علي بن إبراهيم في بعض ما كان يخبرني به : أكبر من لقيت من رواة كتب اللغة والنحو والتفسير والأخبار ونوادر العرب وأيامها الشيخ أبو احمد عبد السلام بن الحسين البصري وكان راوية بغداد يومئذ .

وقد ذكره أبو العلاء في (رسالة الغفران) ص ١٨٤ حيث قال (١) : «وقد شاهدت عند أبي أحمد عبد السلام بن الحسين المعروف بالواجكا رحمه الله ، فلقد كان من أحرار الناس ، كتباً عليها سماع لرجل من أهل حلب . . » وذكره في قصيدة أرسلها إلى أبي القاسم علي التنوخي ، وكان حمل إليه وهو ببغداد جزءاً من أشعار تنوخ في الجاهلية ، فتركه أبو العلاء عند عبد السلام البصري وسأله أن يردّه إلى أبي القاسم فقال :

أُهْدِي السَّلامَ إلى عَبْدِالسَّلامِ فَمَا ... يَزالُ قَلْبي إليْهِ الدَّهْرَ مَلفوتا (٢)

---

(١) رسالة الغفران تحقيق بنت الشاطىء ط ١ ص ٤٨٦ .

(٢) رواه القفطي : تحقيق عبد السلام « فلي جد إلى نحوه مازال ملفوتا » . (ج)
والبيتان من قصيدة في شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٦٤٣ .

سَألتُهُ قَبلَ يَومِ السَّيرِ مَبعَثَهُ إليكَ ديوانَ تَيمِ اللاتِ ماليتَا؟[١]

وذكره مرة ثانية في (السقط)، ولكنه لم يصرح باسمه وإنما كنى عنه بالثقة في قوله من قصيدة أرسلها إلى التنوخي: (٢)

وحَملَكَ الشِّعرَ مِن أشعارِ طائفَةٍ وَحشيَّةٍ مِن تَنوخٍ تُنكِرُ الجُدُرا

جُزءٌ بِدَربِ جَميلٍ في يَدَي ثِقَةٍ سَألتُهُ رَدَّ مَضمونٍ إذا قَدَرا

وكان أبو العلاء يكثر إقامته عنده أيام كان ببغداد، ويظهر من أقواله أن عبد السلام كان في درب جميل بالكرخ، بدليل قوله السابق: جزء بدرب جميل .. وأنه كان يجتمع به في كل جمعة بدليل قوله: (٣)

تُهَيِّجُ أشواقي عَرُوبَةُ إنَّها إليكَ ذَوَتني عَن حُضورٍ بِمَجمَعِ

وفي (التنوير) ج ٢ ص ١٢١: وقال، وهو محتجب بمعرة النعمان يخاطب خازن دار العلم ببغداد، ويصف حال الفتنة بالشام، وأمر الزورق، ثم ذكر قصيدته الطائية التي يقول فيها: (٤)

أخازِنَ دارِ العِلمِ كَم مِن تَنوقَةٍ أتَت دونَنا فيها العَوازِفُ واللَّغَطُ

وقد ذكر جماعة كالميمني (٥)، أن المراد بخازن دار العلم عبد السلام. وليس في القصيدة مايدل دلالة صريحة على ذلك، وإن كان عبد السلام

---

(١) تيم اللات: مجتمع تنوخ في النسب (ج).

(٢) شروح سقط الزند: ق ٤ ص ١٧٣٨ وفيها: «وحملك الجزء».

(٣) شروح سقط الزند: ق ٤ ص ١٥٨٣.

(٤) انظر ما سبق ص ٩ الحاشية (٤).

(٥) أبو العلاء وما إليه — الميمني — ص ١٢١.

خازن دار العلم ، بل في أبياتها مايدل على أن المراد غيره ، لأنه يذكر فيها فتنة طائية عامرية امتدت من الفرات الى مصر ، وأظنه يريد بها الفتنة التي أثارها صالح بن مرداس الكلابي من بني عامر بن صعصعة ، وحسان أمير طيء ، وسنان بن عليان ، واتفقوا على أن يكون لصالح من حلب إلى عانة ، ولحسان من الرملة الى مصر ، ولسنان دمشق ، ثم وقع ماوقع من الحروب التي ذكرناها في سنة ٤١٤ هـ فما بعدها . وقد قدمنا عن الخطيب البغدادي و (نزهة الألباء) أن عبد السلام توفي سنة ٤٠٥ هـ ، فلعله يشير إلى فتنة غير هذه ، أو ان هذه الفتنة ابتدأت في سنة ٤٠٤ هـ ثم استفحل أمرها بعد ذلك . وجاء في (التنوير) أيضاً ج ٢ ص ١٠١ : « وقال يخاطب أبا أحمد عبد السلام بن الحسين البصري صاحب الدولة » ، ثم ذكر قصيدته العينية .

ولم أعلم ما أراد بهذه الدولة ، ولا رأيت أحداً ذكرها غيره ، وقال الخوارزمي والبطليوسي (١) : وقال أبو العلاء يخاطب أبا أحمد عبد السلام بن الحسين البصري صاحب الرواية ، وكان يكثر الجلوس عنده أيام إقامته ببغداد .

وقال القفطي (٢) : وحضر خزانة الكتب التي بيد عبد السلام البصري ، وعرض عليه أسماءها ، فلم يستغرب فيها شيئاً لم يره في دور العلم بطرابلس سوى (ديوان تيم اللات) ، فاستعاره منه ، وخرج عن بغداد ، وقد سها عن إعادته ، ولم يذكره حتى صار بالمعرة فأعاده إليه ، وفي صحبته القصيدة الثانية التي أولها :

هاتِ الحديثَ عنِ الزَّوْراءِ أوْهِيتَا ... ومُوقَدِ النَّارِ لا تَكْرَى بتَكْرِيتَا

(١) شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٦٤٦ الحاشية .

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٣٢ عن إنباه الرواة ـ للقفطي ، وفي شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٦٣٠ .

ويقول فيها :

إقرَ السّلامَ على عَبْدِ السّلامِ فَلي   جيدٌ إلى نَحْوِهِ ما زال مَلفوتا[1]

وذكر فيها (ديوان تيم اللات) فقال :

سَأَلْتُهُ قَبْلَ يَوْمِ السَّيْرِ مَبْعَثَه   إليْكَ ديوانَ تَيمِ اللاّتِ ما إيتَا؟

هذا ماقاله القفطي . وفيه خطأ من وجوه .

أولها : ماقدمناه من أنه لم يكن في طرابلس دار للكتب في عهد أبي العلاء .

ثانيها : أن أبا العلاء استعار (ديوان تيم اللات) من أبي القاسم التنوخي ، وأودعه عبد السلام ، ورغب إليه أن يرده إلى صاحبه ، وأنه لم يصحبه إلى المعرة .

ثالثها : أن القصيدة التائية المذكورة إنما قالها في التنوخي لا في عبد السلام ، لأنه يقول فيها :

إلى التّنوخيِّ واسأَلْهُ أُخُوَّتَهُ   فَقَبْلَهُ بالكرامِ الغُرِّ أوخيتا

يا بْنَ المُحَسِّنِ ماأُنسيتَ مَكْرُمَةً   فاذكُرْ مَوَدَّتَنا إنْ كُنْتَ أُنسيتا

ثم يقول فيها :

إقرِ السلام على عبد السلام   . . . .

ويقول بعده :

سَأَلْتُهُ قَبْلَ يَوْمِ السَّيْرِ مَبْعَثَهُ   إلَيْكَ ديوانَ تيم اللاّت . . .

وهذا عجيب من القفطي .

وقال في (الوفيات) ج ٢ ص ٤٦٢ في ترجمة أبي محمد يوسف بن أبي سعيد

---

(١) انظر ما سبق ص ١٢٢ حاشية ٢ .

الحسن السيرافي : قال أبو العلاء المعري : حدثني عبد السلام البصري خازن دار العلم ببغداد ، وكان لي صديقاً صدوقاً ، قال : كنت في مجلس أبي سعيد السيرافي ، وبعض أصحابه يقرأ عليه (إصلاح المنطق) لابن السكيت ، فمضى بيت حميد بن ثور وهو :

ومَطْوِيَّةُ الأقرابِ أمّا نَهارُها فَسَبْتٌ وأمّا لَيْلُها فَذَمِيلُ

فقال أبو سعيد : ومطويةٍ : أصْلِحْهُ بالخفض ! ثم التفت الينا فقال : وَاو رُبَّ . فقلت : أطال الله بقاء القاضي إن قبله مايدل على الرفع ، فقال : وما هو ؟ فقلت :

أتاكَ بِيَ اللهُ الذي أنْزَلَ الهُدى ونُورٌ وإسْلامٌ عَلَيْكَ دَليلُ

ومطويَّةُ الأقراب . . . .

فعاد وأصلحه . وروي عنه غير هذا ، فتوهم بعض العلماء والمؤرخين ، كالسيوطي في (البغية) ، والخضر الموصلي في (الإسعاف في شرح أبيات الكشاف) ، أنه سمع أو قرأ على عبد السلام وهو غير صحيح .

وقد ظن الأستاذ الميمني (١) أن الواجكا خازن خزانة الخلفاء . وقد تقدم مايدحضه ، وقال البطليوسي في (شرح السقط) صفحة ١٦٧٣ : « ويعني بخازن دار العلم هلال بن المحسّن الصابي ، وكان شيخ بغداد في عصره » . وأظنه قد وهم ، إذ لم يثبت اجتماعه بأبي العلاء في بغداد . ولو اجتمع به لذكره في كتبه وأسفاره .

---

(١) أبو العلاء وما إليه — للميمني — ص ١١٥ .

٣ —ومنهم القاضي التنوخي .

وهو أبو القاسم علي بن المحسّن التنوخي ولد سنة ٣٥٥ (١) ، وكان شيعياً معتزليّاً ، ساكناً وقوراً ، ثقة في الحديث متحفظاً في الشهادة محتاطاً، صَدوقاً ، ظريفاً ، جيد النادرة . ولي القضاء في نواح كثيرة وتوفي سنة ٤٤٧ ﻫ .

وقد ذكر العلماء أنه قرأ على أبي العلاء شعره أو ديوان شعره ، ومنهم من قال : أخذ عنه . ولم أر من قال : إنه قرأ عليه (سقط الزند) فقط . على أن في (سقط الزند) ماقيل بعد رجوع أبي العلاء من بغداد ، ومنه قصائد أرسلها إلى التنوخي هذا ، وكان يزور أبا العلاء في القطيعة ، كما قال (٢) :

أَيَّامَ واصَلْتَني وُدًّا وتَكْرُمَةً ... وبالقَطِيعةِ داري تحضُرُ النَّهرا

وحمل إلى أبي العلاء جزءاً من أشعار تنوخ في الجاهلية ، كان أبوه المحسّن جمعه ، فلمّا رحل أبو العلاء إلى المعرة ترك الجزء عند عبد السلام البصري ليوصله الى أبي القاسم . وكتب إليه من المعرة قصيدة يذكر فيها الجزء حيث يقول :

سَأَلْتُهُ قَبْلَ يوم السَّيْرِ مَبْعَثَهُ ... إِلَيْكَ دِيوانَ تَيْمِ اللاّتِ مالِيتا؟

وقد تقدم ذلك ، وذكر هذا الجزء في قصيدة ثانية يقول فيها :

---

(١) وقيل ولد سنة ٣٦٥ ﻫ ، وتجد ترجمته وشيئاً من أخباره في (ياقوت) ج ٥ ص ٣١٠ ، وتاريخ بغداد ج ١١ ص ١١٥ ، ونزهة الألباء والوفيات ج ١ ص ٦٥ ، والفوات ص ٦٨ ، والشذرات ج ٣ ص ١١٣ ، وابن الوردي ج ٢ ص ٣٥٧ ، ولسان الميزان (ج) .

(٢) شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٣٣٧ .

وَحَمَلَكَ الشِّعْرَ مِنْ أَشْعارِ طائِفَةٍ ... وَحْشِيَّةٍ مِنْ تَنُوخٍ تُنْكِرُ الجُدُرا[1]

إلى أن قال :

وكَمْ بَعَثْتُ سُؤالاً كَاشِفًا نَبَأً ... عَنْهُ فلَمْ أقضِ مِنْ عِلْمِي بِهِ وَطَراً

وفي التنوير ج ٢ ص ٦٦ : وقال ببغداد يهنىء أبا القاسم بن القاضي التنوخي بمولوده ، ثم ذكر قصيدة يقول فيها :[2]

كَنِيُّ مُحَمَّدٍ نَسَبِي مُفِيدِي ... وِدَادُكَ والهَوَى أَمْرٌ بَدِيُّ

عُلُوٌّ زائِــدٌ بأبي عَلِيٍّ ... أتاكَ بِفَضْلِــهِ اللهُ العَلِيُّ

فَعاشَ مُحَمَّدٌ عُمْرَ الثُّرَيّا ... فإنَّ ثرى الكِرامِ به ثَرِيُّ

يريد بقوله : كني محمد ، أبا القاسم . وبنسبي : نسبته الى تنوخ ، وبأبي علي : كنية المولود ، ومحمد اسمه ، وقوله بعد ذلك فيها :

إذا نَأَتِ العِراقَ بِنا المَطَايا ... فَلا كُنّا ولا كانَ المَطِيُّ

عَلَى الدُّنْيا السَّلامُ فما حَيَاةٌ ... إذا فَارَقْتُكُمْ إلاّ نَعِيُّ[3]

يشعر بأنه قال هذه القصيدة وهو في بغداد . وقد ذكر ياقوت في ترجمة أبي القاسم ، أنه ولد له ولد من جاريته سنة ٤٠٤ هـ وهو أبو الحسن محمد بن علي . والمذكور في الأبيات أبو علي محمد ، فلعله أكبر أولاده فتأمل .

---

(١) انظر ما سبق ص ٢٣٦ الحاشية ٢ .

(٢) وفي شروح السقط ق ٣ ص ١٣٢٣ .

(٣) وفي شروح السقط ق ٣ ص ١٣٣١ : « إلا النَّعِيُّ » .

٤ — ومنهم الشريف المرتضى .

أبو القاسم علي بن الطاهر أبي أحمد الحسين بن موسى .. العلوي ولد سنة ٣٥٥ هـ ، وتوفي في بغداد سنة ٤٣٦ هـ ، وكان إماماً في علم الكلام والأدب والشعر ، وكان نقيب الطالبيين بعد أبيه أبي أحمد الموسوي . قيل : إنه هو الذي جمع (نهج البلاغة) ، وقيل : جمعه أخوه الرضي . وله الكتاب الذي سماه (الغُرَر والدُرَر) وهو مجالس أملاها في فنون من معاني الأدب[1].

وقد ذكر كثير من المؤرخين اجتماع أبي العلاء بالمرتضى أكثر من مرة ، ولكن لم يعين واحد منهم تاريخ كل اجتماع ليتسنى لنا ربط الحوادث وترتيبها ، ومنهم من جمع بين اللقاءين فصيّرهما واحداً . ونحن نذكرها على حسب مايتراءى لنا ترتيبه .

الاجتماع الاول

قال ياقوت ج ١ ص ١٦٩ : ودخل على المرتضى ، فعثر برجل ، فقال : من هذا الكلب ؟ فقال المعري : الكلب من لايعرف للكلب سبعين اسماً[2]. وسمعه المرتضى ، فاستدناه واختبره ، فوجده عالماً مشبعاً بالفطنة والذكاء ، فأقبل عليه إقبالاً كثيراً وهذا يدل على أنه لم يعرفه من قبل . ويؤيد ذلك مافي

---

(١) ترجمته في (الوفيات) وتاريخ بغداد والخزانة لابن حجة ٢٣١ وفي (أوج التحري) أنه توفي عن ثمانين سنة ص ٢٤ (ج) .

(٢) وهي مذكورة في نزهة الألباء ، والبغية ، ومعاهد التنصيص ص ٦٠٣ ، وحياة الحيوان ج ٢ ص ٢٣٠ ، وفي طبقات النحاة واللغويين ص ١٦٩ : أنه سرد أسماءها وقد تتبع السيوطي اللغة فحصل أكثر من ستين اسماً للكلب ، فنظمها في أرجوزة سماها (التبري من معرة المعري) كما قال في كشف الظنون ، ومنها نسخة بخزانة برلين ، وأخرى في بانكي بور في الهند ، وثالثة في حيدرآباد ، ونسختان في مصر ، وقد طبعت فيها في كتاب تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٤٢٩ (ج).

(أوج التحري) ، أنه أول مادخل عليه قبل معرفة المرتضى . وذكر ابن العديم عن أبيه عن أسلافه [١] ، أنه اتفق يوم وصول أبي العلاء إلى بغداد وفاة الشريف الطاهر والد الرضي والمرتضى ، فدخل الى تعزيتها ، والمجلس غاص بأهله ، فتخطّى بعض الناس ، فقال له بعضهم ولم يعرفه : إلى أين يا كلب ! فقال : الكلب ...، ثم جلس في أخريات المجلس ، إلى أن قام الشعراء وأنشدوا ، فقام وأنشد قصيدته الفائية التي أولها :

أودَى فَلَيْتَ الحادِثاتِ كَفَافِ ... مالُ المسيفِ وعَنْبَرُ المستافِ [٢]

يرثي بها الشريف المذكور ، فلما سمعها ولداه قاما إليه ورفعا مجلسه ، وقالا له : لعلك أبو العلاء المعري ، قال : نعم . فأكرماه واحترماه . ثم طلب أن تعرض عليه الكتب التي في خزائن بغداد ، فأدخل إليها ، وجعل لايقرأ عليه كتاب إلا حفظ جميع مايقرأ عليه . وفي (مسالك الأبصار) نحو [٣] من هذا . فهذه الرواية والتي قبلها تفيدان أن العثور يوجل وقوله : الكلب من لايعرف ... في أول اجتماعه بالمرتضى وتعرفه إليه . ولا يبعد أن يكون أول دخوله على الشريف كان يوم التعزية بأبيه سنة ٤٠٠ هـ . ولكن قول ابن العديم : واتفق يوم وصوله إلى بغداد موت الشريف ..، إلى آخره غير صحيح لأن المرجح أنه دخل بغداد قبل ذلك كما قدمنا .

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٤٣ عن الانصاف والتحري — لابن العديم .

(٢) البيت مطلع قصيدة في شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١٢٦٤ ، ومالُ المسيف : أي مالُ من ذهب ماله ، والمستاف : الشامُّ .

(٣) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٢٢٣ عن مسالك الأبصار — للعمري .

الاجتماع الثاني

قال في (المعاهد) ص ٦٠٣ : إن أبا العلاء كان يتعصب للمتنبي ، وشرح ديوانه ، وسماه (معجز أحمد) ، فحضر يوما مجلس الشريف المرتضى ، فجرى ذكر المتنبي ، فهضم المرتضى من جانبه ، فقال المعري : لو لم يكن له من الشعر إلا قوله :

لَكِ يامَنازِلُ في القُلُوبِ مَنازِلُ . . . .

لكفاه فغضب المرتضى وأمر بسحبه [بسحبه] وإخراجه ، وقال للحاضرين : أتدرون ماعنى هذا بذكر هذا البيت ؟ قالوا : لا . قال عنى به قول المتنبي :

وإذا أَتتْكَ مَذمّتي مِنْ ناقِصٍ فهيَ الشَّهادَةُ لي بأنّي كامِلُ

وأوردها ابن حجة في (الخزانة) ٢٣٠ على هذا النحو ، وكثير ممن جمع هذه الحادثة إلى حادثة عثوره برجل ، وقوله : الكلب من لا .. كياقوت و (البغية) والدميري ، ومنهم من أفرد كل واحدة ، (كالمعاهد) و (النزهة) و (الصبح المنبي) و (أوج التحري) ، ولا يبعد أن تكونا حادثتين في وقتين لقول صاحب (المعاهد) : فحضر يوماً . وفي (الوافي بالوفيات) و (نكت الهميان) بعد أن ذكر هذه الحادثة ، أي عثوره برجل وقوله الكلب[1] : « وكان المعري يتعصب لأبي الطيب . والمرتضى يبغضه ويتعصب عليه ، فجرى ذكره يوما .. » وكثير ممن قال ذلك .

الاجتماع الثالث أو الأخير

روى أبو منصور الطبرسي في (الاحتجاج) [2] أن أبا العلاء دخل

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٢٦٧ و ٢٨٧ عن الوافي بالوفيات ونكت الهميان .

(٢) هو أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي من رجال المائة الخامسة وأدرك أوائل السادسة . له كتاب (الاحتجاج) في حجاج الشيعة مع مخالفيهم . (ج) والخبر في تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٣٨٠ عن الاحتجاج .

علي المرتضى ، فقال : أيها السيد ! ما قولك في الكل ؟ فقال السيد : ماقولك في الجزء ؟ فقال : ماقولك في الشعرى ؟ فقال : ما قولك في التدوير ؟ فقال : ما قولك في عدم الانتهاء ؟ فقال : ما قولك في التّحيُّزِ والناعورة ؟ فقال : ما قولك في السَّبْع ؟ فقال : ماقولك في الزائد البري على السبع ؟ فقال : ماقولك في الأربع ؟ فقال . ماقولك في الواحد والاثنين ؟ فقال : ماقولك في المؤثر ؟ فقال : ماقولك في المؤثّرات ؟ فقال : ماقولك في النّحْسَيْن ؟ فقال : ماقولك في السّعْدَيْن ؟ فبهت أبو العلاء ، فقال السيد المرتضى عند ذلك : ألا كل ملحد ملهد ، فقال أبو العلاء : من أين أخذته ؟ قال : من كتاب الله عز وجل : ﴿ يابُنَيَّ لاتُشْرِكْ باللهِ إنّ الشّرْكَ لظُلْمٌ عظيم[1] ﴾ . ثم قام وخرج ، فقال السيد : قد غاب عنا الرجل ، وبعد هذا لا يرانا . فسئل السيد عن شرح هذه الرموز والاشارات ، فقال : سألني عن الكل ، وعنده الكل قديم ، ويشير بذلك إلى عالمٍ سماه العالمَ الكبير ، فقال لي : ما قولك فيه ؟ أراد أنه قديم ، فأجبته عن ذلك ، وقلت له : ما قولك في الجزء ؟ لأن الجزء عندهم محدث ، وهو متولد عن العالم الكبير ، وهذا الجزء عندهم هو العالم الصغير ، و كان مرادي بذلك أنه إذا صح أن هذا العالم محدَث ، فذلك الذي أشار إليه ، إن صح فهو محدث أيضا ، لأن هذا من جنسه على زعمه ، والشيء الواحد والجنس الواحد لا يكون بعضه قديما وبعضه محدثا ، فسكت لما سمع ما قلته .

وأما الشعرى : أراد أنها ليست من الكواكب السيارة ، فقلت له

---

(١) سورة لقمان / ١٣ .

ماقولك في التدوير ؟ أردت أن الفلك في التدوير والدوران ، والشعرى لايقدح في ذلك [١] .

وأما عدم الانتهاء : أراد بذلك أن العالم لاينتهي لأنه قديم ، فقلت له : قد صح عندي التَّحَيُّز والتدوير ، وكلاهما يدلان على الانتهاء .

وأما السَّبْع : أراد بذلك النجــوم السيارة التي هي عندهم ذوات الأحكام ، فقلت له : هذا باطل بالزائد البري الذي يحكم فيه بحكم لايكون ذلك الحكم منوطا بهذه النجوم السيارة التي هي : الزهرة ، والمشتري ، والمريخ ، وعطارد ، والشمس ، والقمر ، وزحل .

وأما الأربع : أراد بها الطبائع ، فقلت له : ما قولك في الطبيعة الواحدة النارية يتولد منها دابة بجلدها تمس [٢] الأيدي ثم يطارح ذلك الجلد على النار فتُحرق الزُّهومات [٣]، فيبقى الجلد صحيحا لأن الدابة خلقها الله على طبيعة النار ، والنار لاتحرق النار ، والثلج أيضا تتولد فيه الديدان وهو على طبيعة واحدة ، والماء في البحر على طبيعتين ، يتولد منها السموك والضفادع [٤] والحيات والسلاحف وغيرها ؟ وعنده لايحصل الحيوان إلا بالأربع ، فهذا مناقض بهذا .

---

(١) هكذا في الأصل ، وهو غير واضح فلعل أصله ، والشعرى لا تخرج عن ذلك أو نحوه ، فتأمل (ج) .

(٢) لعل أصلها تمش أي تمسح ، ولعل هذه الدابة هي التي يسمونها السندل (ج) .

(٣) الزهومة والزهمة بالضم : ريح لحم سمين منتن .

(٤) في نسخة : « الضفدع » (ج) .

وأما المؤثّر : أراد به الرجل ، فقلت له : ماقولك في المؤثّرات ؟ أردت بذلك أن المؤثّرات كلهن عنده مؤثرات ، فالمؤثر القديم كيف يكون مؤثراً .

وأما النحسَين : أراد أنها من النجوم السيارة ، إذا اجتمعا يخرج من بينها سعد ، فقلت له ماقولك في السعدين اذا اجتمعا خرج من بينها نحس ؟ هذا حكم أبطله الله تعالى ، ليعلم الناظر أن الأحكام لاتتعلق بالمسخرات ، لأن الشاهد يشهد أن العسل والسكر إذا اجتمعا لايحصل منها الحنظل والعلقم ، والحنظل والعلقم إذا اجتمعا لايحصل منها الدبس والسكر ، هذا دليل على بطلان قولهم .

وأما قولي : الا كلُّ ملحد ملهد ، أردت أن كل مشرك ظالم ، لأن في اللغة ألحد الرجل : إذا عدل عن الدين . وألهد : إذا ظلم . فعلم أبو العلاء ذلك ، وأخبرني عن عله فقرأت ﴿ يَا بُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللهِ ... ﴾ ، الآية . وقيل : إن المعري لما خرج عن العراق سئل عن السيد المرتضى ، فقال :

يَاسَائِلي عَنْهُ لَمَّا جِئْتُ أَسْأَلُهُ ... أَلاَ هُوَ الرَّجُلُ العَارِي عَنِ العَارِ (١)

لَوْ جِئْتَهُ لَرَأَيْتَ النَّاسَ فِي رَجُلٍ ... وَالدَّهْرَ فِي سَاعَةٍ وَالأَرْضَ فِي دَارِ

وهذان البيتان لم يذكرا في ديوانه ، ولا رأيتها في غير هذا المكان

٥ — ومنهم علي بن عيسى بن فرج بن صالح الربَعي : (٢) ولد سنة ٣١٨ هـ وتوفي سنة ٤٢٠ هـ في بغداد عن نيف وتسعين سنة ، وكان

---

(١) وفي تعريف القدماء بأبي العلاء وفي (أبو العلاء وما إليه) : « العاري من العار » .

(٢) ترجمته في تاريخ بغداد ١٢ / ١٨ ، ومعجم الأدباء ٥ / ٢٨٧ ، والبغية ٣٤٤ ، والوفيات ، والكامل (ج) .

من أكابر النحاة ، درس على أبي علي الفارسي في شيراز عشرين سنة تقريبا ، وعاد إلى بغداد . وقد ذكروا له قصصاً تدل على أنه كان مجنونا أوقريباً من المجنون ، منها : أنه شرح (كتاب سيبويه) ثم نازعه تاجر في مسألة ، فجعل الشرح في إجّانة (١) وصب عليه الماء ، وجعل يَلْطم به الحيطان ، ويقول : لا أجعل أولاد البقالين نحاة .

وسأل أولاد الأكابر الذين يحضرون مجلسه أن يمضوا معه إلى كلواذي ، فركبوا خيولهم وهو يمشي بين أيديهم ، حتى وصل إلى خرابها ، فوقفهم على ثَلم وأخذ عصا وكساء ، وتبع كلبا ، ووقع بينه وبينه مواثبة حتى أعياه ، وعاونوه حتى أمسكوه فجعل يعض الكلب بأسنانه ، والكلب يستغيث ، حتى اشتفى ، وقال : هذا عضني منذ أيام ، وأريد أن أخالف قول الأول :

شاتَمَني كَلْبُ بَني مَسْمَعٍ ... فَصُنْتُ عَنْهُ النَّفسَ والعِرْضا
ولَمْ أُجِبْهُ لاحْتِقاري بِهِ ... مَنْ ذا يَعَضُّ الكَلْبَ إِنْ عَضّا

وقال أبو منصور موهوب الجواليقي فيه : كان يحفظ الكثير من أشعار العرب مما لم يكن غيره من نظرائه يقوم به ، إلا أن جنونه لم يكن يدعه يتمكن منه أحد في الأخذ عنه والإفادة منه . وقال ياقوت ج ٣ ص ١٦٩ : « إن أبا العلاء لما ورد بغداد قصد أبا الحسن علي بن عيسى الرَّبَعي ليقرأ عليه ، فلما دخل إليه قال علي بن عيسى : ليصعد الإصطبل ! فخرج مغضبا ولم يعد إليه . والإصطبل في لغة أهل الشام : الأعمى ، ولعلها معربة » . ولم يبين ياقوت ما كان يريد أن يقرأ على الرَّبَعي ،

---

(١) الإجانة : آنية من زجاج .

وقد بينه ابن الأنباري في (الطبقات) ص ٤٢٦ وابن العديم ، فقالا : دخل على الرَّبَعي ليقرأ عليه شيئاً من النحو . وهذا ينافي قول أبي العلاء : « وقد فارقت العشرين من العمر ما حدثت نفسي باجتداء علم من عراقي ولا شآم » . ولا يبعد أن يكون قصده للزيارة أو الاطلاع على ما عنده ، لا للأخذ عنه . وقال الخفاجي في (شفاء الغليل) ص ٣٣ : اصطبل بلغة أهل الشام ، معناه الأعمى كما في كتاب (الهميان) ، ولذا قال ابن عباد : جرّوا الإصطبل ، في قصته مع المعري ، وهذا خطأ لأن ابن عباد توفي سنة ٣٨٥ قبل ذهاب المعري إلى بغداد ولم يثبت اجتماعه بـه في مكان مطلقا .

٦ — ومنهم ابن فورّجة

قال في (فوات الوفيات) ج ٢ ص ١٩٨ : محمد بن حمد بن فورجّة بالفاء المضمومة وبعد الواو المضمومة والزاي جيم مشددة البروجردي ! ونقل عن الثعالبي في اليتيمة أبياتاً من شعره ، ثم قال : قال ياقوت : وفاة ابن فورجة بنهاوند في ذي الحجة سنة ٣٨٠ هـ وله (التجني على ابن جني) (والفتح على أبي الفتح) ، والكتابان يرد فيهما على ابن جني في شعر المتنبي اهـ .

وعلى هذا القول لا يمكن اجتماعه بأبي العلاء في بغداد لأن أبا العلاء كان فيها سنة ٤٠٠ هـ كما تقدم .

وقال السيوطي في (البغية) ص ٣٩ : محمد بن حمد بن محمد بن عبدالله بن محمود ابن فورّجة ، بضم الفاء وسكون الواو وتشديد الراء المهملة وفتح الجيم البروجردي ، ونقل عن ياقوت أن له كتابي (الفتح والتجني) . ثم قال : وذكره الشيخ مجد الدين الشيرازي في كتابه (البلغة في أئمة اللغة) . لكن سماه حمد بن محمد ، ثم قال : مولده في ذي الحجة سنة ٣٣٠ هـ ، وقال

الثعالبي : هو من أهل أصبهان المقيمين بالري ، المتقدمين في الفضل ، المبرزين في النظم والنثر ، كان موجودا في سنة ٤٥٥ ﻫ وذكر له ثلاثة أبيات آخرها :

إنَّ لي غِيرَةً عَلَيْكَ مِن اسْمِي　　　إِنَّهُ دائِمٌ يُقَبِّـــلُ فَاكَ

وقال : قلت هذا الشعر يؤيد أن اسمه حمد ، ا ﻫ .

وقال الباخرزي في (دمية القصر) ص ٩١ : حمد بن فورجة ، هو في الصنعة من الفحول ، والتنبيه على فضله طرف من الفضول ، وشعره فرخ شعر الأعمى ، أعني شاعر معرة النعمان ، وإن كان هذا الفاضل متزها من معرة العميان ... ، ثم أورد له أبياتا منها ما سمعه بالري .

وفي رواية (البغية) عن الثعالبي أنه كان موجودا سنة ٤٥٥ ﻫ خطأ ، لأن الثعالبي توفي سنة ٤٢٩ ﻫ ، على ما ذكره ابن خلكان ، وكذلك قوله إنه ولد سنة ٣٣٠ ﻫ لأنه اجتمع بأبي العلاء سنة ٤٠٠ ﻫ ولم يكن عمره سبعين بل كان شابا .

وفي (كشف الظنون) ج ١ ص ٥٢٢ : محمد بن أحمد المعروف بابن فورّجة النحوي وكان حيا في سنة ٤٣٧ ﻫ ، في ج ٢ ص ١٧٢ محمد بن حمد وكان حيًا في سنة ٤٢٧ ﻫ فقـــد جعل أباه مرة أحمد ومرة حمداً ، وجعله حيا سنة ٤٢٧ ﻫ وسنة ٤٣٧ ﻫ .

وذكر العكبري ج ٢ ص ٤٣٠ عن ابن فورّجة أنه قال : قرأت على أبي العلاء المعري ، ومنزلته في الشعر ما قد علمه من كان ذا أدب ، فقلت له يوما في كلمة : ماضرّ أبا الطيب لوكان قال مكان هذه الكلمة كلمة أخرى أوردتها ، فأبان لي عوار الكلمة التي ظننتها ثم قال : لا تظنن أنك تقدر على إبدال كلمة واحدة من شعره بما هو خير منها ، فجرب إن كنت مرتابا ... .

وقال البديعي في (الصبح المنبي) : قال ابن فورّجة في كتاب (التجني) عن أبي العلاء المعري عن رجل من أهل الشام .. ، ثم أورد قصة خلاصتها : أن المتنبي استدعى غلاماً ، وبات معظم ليلة يكتب من دفاتره لا يلتفت إلى الغلام ، ثم نام وكان وكيل المتنبي معه شاهدا ... .

هذه جملة مما قالته العلماء في ابن فورّجة وأبي العلاء ، وقد رأينا ما فيها من الاختلاف والتباين . وإذا رجعنا إلى قول أبي العلاء نجد فيه ما يقنع الباحث من بعض الوجوه ويدفع الشك من بعض النواحي .

فقد ذكر في (التنوير[1]) ج ٢ ص ٨٠ أن أبا علي النهاوندي محمد بن حمد بن فورجة مدح أبا العلاء بقصيدة أولها :

أَلا قَامَتْ تُجاذِبُني عِنانِي وتَسأَلُني بِعَرْصَتِها مَقيلا

فأجابه أبو العلاء ، وهو في مدينة السلام ، بقصيدة أولها :

كَفىٰ بِشُحُوبِ أَوْجُهِنا دَليلاً عَلى إِزْمَاعِنا عنْكَ الرَّحيلا

وفيها يقول ، وقد بين كنية ابن فورجة ، وأنه كان بالعراق :

كَلِفْنا بِالْعِراقِ ونَحْنُ شَرْخٌ فَلَمْ نُلْمِمْ بِهِ إِلاّ كُهُولا

وشَارَكَنَا فِراقُ أَبي عَلِيٍّ فَكانَ أَعزَّ داهِيَةٍ نُزُولا

ثم وصف السيف بما لم يسبَق إليه ، وبين اسم ابن أبي فورجة بقوله :

فَذٰلِكَ شِبْهُ عَزْمِكَ يابنَ حَمْدٍ ولكِنْ لا نُبُوَّ ولا فُلُولا

---

(١) وفي التنوير ٢ ص ١١٠ طبعة المكتبة التجارية ـ مصر .

ثم بين أن هذه القصيدة جواب عن قصيدة ابن فورّجة بقوله :

وقَدْ كافَأْتُ عَنْ شِعْرٍ بِشِعْرٍ　　ولكِنْ حازَ مَنْ بَدَأَ الجَميلا

وأشار إلى عمر ابن فورّجة بقوله :

بَهَرْتَ ويَوْمُ عُمْرِكَ في شُرُوقٍ　　فَدامَ ضُحىً وَلاَ بَلَغَ الاصِيلا

ويتبين من هذه الأبيات أن كنية الرجل أبو علي ، وأن أباه حمد ، وأنه لقي المعري في شروق عمره وضحوته ، وأن اللقاء في بغداد . فأقرب الأقوال في حياته أن يكون حيــاً سنة ٤٢٧ هـ ليصح كلام الثعالبي وغيره .

اجتماعه بالخليفة

لم أر أحداً من مؤرخي العرب وأدبائهم ذكر أن أبا العلاء اجتمع بالخليفة أو بأحد من وزرائه إبان إقامته في بغداد . وقد قدمنا أن الخليفة في ذلك العهد هو القادر بالله أحمد بن إسحق بن المقتدر بالله . ولكن دولت شاه الفارسي قال في كتابه (تذكرة الشعراء) ما هذه ترجمته :(١) المعرة من جملة بلاد الشام في جوار حمص ، ومنها أبو العلاء ، وكان ذا فضل كامل وعلم شامل ، وله تصانيف في علمي المعاني والبيان ، وكان أمير المؤمنين القائم بأمر الله العباسي يعزه ، وكان ولي نعمته ، ولأبي العلاء قصائد في مدح البيت العباسي .

ويحكى أن أبا سعيد الرستمي كان تلميذاً لأبي العلاء ، وأبو سعيد هذا من أكابر الشعراء الفضلاء ، وفي نهاية الحال عمي أبو العلاء ويسمى لذلك أبا العلاء الضرير . وكان أبو العلاء كلما نظم قصيدة في مدح الخليفة قاده أبو سعيد الرستمي

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٤٦٦ عن تذكرة الشعراء — لدولت شاه .

وأحضره مجلس الخليفة . ويحكون أنه كان لدار الخلافة أبواب عالية بحيث يتمكن حاملو الأعلام أن يمروا تحتها دون أن ينكسوا أعلامهم ، إذ كانوا يتشاءمون بخفض العَلَم . وكان أبو سعيد الرستمي كلما بلغ بأبي العلاء الباب يقول : أيها الأستاذ ، انحن ! فينحني أبو العلاء ، فيضحك الخليفة وأركان الدولة ، فيقول أبو العلاء : أحسنت كثيراً نعم التلميذ البار أنت ! ثم قال : قال المعري هذه القطعة في عماه وهجاء أهل زمانه :

أبا العَـلا يابنَ سُلَيْمـانا　　عَماكَ قَدْ أَوْلاكَ إِحْسانا[1]

إِنَّكَ لَوْ أَبصَرْتَ هٰذا الوَرىٰ　　لَمْ يَـرَ إِنسانُكَ إِنْسَانا

وقال ايضاً[2] :

أَلا إِنَّما الأَيّامُ أَبناءُ واحِدٍ　　وهٰذي الليالي كُلُّها أَخَواتُ

فَلا تَطْلُبَنْ مِنْ عِنْدِ يَومٍ ولَيلَةٍ　　خِلافَ الذي مَرَّتْ بِهِ السَّنَواتُ

وقال[3] :

مَنْ راعَهُ سَبَبٌ أو هالَهُ عَجَبٌ　　فلي ثمانونَ حَوْلاً لا أرى عَجَبا

الدَّهرُ كالدَّهرِ والأَيّامُ واحِدَةٌ　　والنَّاسُ كالنَّاسِ والدُنيا لِمَنْ غَلَبا

هذه خلاصة ما ذكره .

---

(١) وفي تعريف القدماء ص ٤٦٥ : « أبا العلاء ابن سليمانا » .

(٢) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١٠٣٨ .

(٣) البيتان مما لم يرو في الديوانين .

ودولت شاه هذا، ابن علاء الدين بخت شاه من أدباء الفرس، وضع (تذكرة الشعراء) وهو كتاب في طبقة شعراء الفرس. بدأ في تأليفه حين أشرف على الخمسين، وأتمه في سنة ٨٩٢ هـ، وقد ذكر في مقدمته فضل العرب على الشعر الفارسي وأثرهم العظيم فيه. وصدّر كتابه هذا بذكر جماعة من شعراء العرب، كلبيد، والفرزدق، ودعبل، وابن الرومي، والمتنبي، وأبي العلاء المعري، والحريري، والبستي، وزهير بن أبي سلمى.

أما أبو سعيد الرستمي، فلا أعلم مكنىً بهذه الكنية، إلا محمد بن محمد بن الحسن .. بن رستم من فضلاء أصبهان. وقد ذكره الثعالبي في يتيمة الدهر ج ٣ ص ١٢٩ في المختصين بالصاحب ابن عباد، ولم أرَ من ذكر أنه كان يختلف إلى الخليفة القائم بأمر الله، ولا من ذكر أنه كان تلميذاً لأبي العلاء، ولا من ذكر أن أبا العلاء اجتمع بالخليفة المذكور. وفيما ذكره دولت شاه أغلاط كثيرة، منها قوله: إن المعرة في جوار حمص، وهو غير صحيح لأن حماة وضاحيتها، كلها تنصل بين حمص والمعرة، ومسافة الطريق من حمص إلى المعرة نحو من ١٣٥ كيلو مترا. ومنها قوله: ان لأبي العلاء تصانيف في علمي المعاني والبيان، وهذا لم يذكره أحد غيره، ولا يعرف لأبي العلاء كتاب في هذين العلمين. ومنها قوله: إن لأبي العلاء قصائد في مدح البيت العباسي، وان القائم بأمر الله ولي نعمته وكان يعزه .. وإن الرستمي تلميذه .. فكل هذا مما انفرد بروايته ولم نره لغيره. وأغرب ما في كلامه قوله: وفي نهاية الحال عمي أبو العلاء. لأن المؤرخين مجمعون على أنه عمي في بداية الحال. وفي كلامه تناقض بيّن لأنه يقول: إن الخليفة يعزه، وإن الرستمي كان يقول: اخرج. فيخرج، فيضحك الخليفة. ومن البعيد أن يقع مثل هذا مرات في حضرة الخليفة مع من يعزه.

ومجموع ما ذكرناه يشهد بأن ما ذكره دولت شاه لا نصيب له من الحقيقة ، ولو كان شيء منه واقعاً لتضافرت الروايات على نقله ، ولذكره أبو العلاء في شيء من كلامه ، لا سيما اجتماعه بالخليفة ومدحه إياه . وأكبر غلط فيه جعل الحادثة مع القائم بأمر الله مع ان أبا العلاء كان في بغداد في سنة ٤٠٠ هـ ، والقائم بأمر الله ولي الخلافة في سنة ٤٢٢ هـ بعد وفاة أبيه القادر بالله فتأمل .

ويقرب من هذا ما ذكره ابن كثير في (البداية والنهاية) في ترجمة أبي العلاء ، حيث قال [١] : ودخل بغداد سنة ٣٩٩ هـ فأقام بها سنة وسبعة أشهر ، ثم خرج منها طريداً منهزماً لأنه سأل سؤالاً بشعر ، يدل على قلة دينه وعلمه وعقله فقال [٢] :

تَناقُضٌ مَا لَنا إلا السُّكوتُ لهُ . . . .

البيتين

ثم قال : ولما عزم الفقهاء على أخذه بهذا وأمثاله ، هرب ورجع إلى بلده ولزم منزله ، فكان لا يخرج منه ، [٣] وكان يوماً عند الخليفة ، وكان الخليفة [٤] يكره المتنبي ويضع منه ، وكان أبو العلاء يحب المتنبي

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٣٠٢ عن البداية والنهاية ـ لابن كثير .

(٢) اللزوميات هـ ص ١٥٢ ، والبيتان :

تناقض مالنا إلا السكوت له — وأن نعوذ بمولانا من النار

يد بخمس مئين عسجد فديَتْ — ما بالها قطعت في ربع دينار

(٣) نقل هذا في طبقات النحاة واللغويين ص ١٧٥ عن ابن الجوزي في المنتظم ، ولم أجده في القسم المطبوع منه في تعريف القدماء بأبي العلاء ونقله العيني في عقد الجمان عن ابن كثير (ج) .

(٤) كذا ، وإنما هو الشريف المرتضى .

ويرفع من قدره ويمدحه ، فجرى ذكر المتنبي في ذلك المجلس ، فذمه الخليفة ، فقال أبو العلاء : لو لم يكن للمتنبي إلا قصيدته التي أولها :

لَكِ يا مَنَازِلُ في القُلوبِ مَنازِلُ . . . .

لكفاه ذلك ، فغضب الخليفة وأمر به ، فسحب برجله على وجهه . وقال : أخرجوا عني هذا الكلب ، وقال الخليفة : أتدرون ماذا أراد هذا الكلب من هذه القصيدة وذكره لها ؟ أراد قول المتنبي فيها :

وإذا أَتَتْكَ مَذَمَّتي مِنْ ناقِصٍ فَهِيَ الدَّليلُ عَلَى أني كامِلُ[1]

وإلا فالمتنبي له قصائد أحسن من هذه ، وإنما أراد هذا ، وهذا من فرط ذكاء الخليفة حيث تنبه لهذا . وقد كان المعري أيضاً من الأذكياء اهـ .

ولم أر أحداً ذكر أن فقهاء بغداد عزموا على أخذه من أجل شعره ، ولا أنه هرب إلى المعرة ، ولا أنه اجتمع بالخليفة الذي لم يسمه ابن كثير ، وقد قدمنا أن هذه الحادثة وقعت مع الشريف المرتضى ، ورواها جمهور كبير من المؤرخين والعلماء ، وابن كثير انفرد بهذه الرواية ، وأغفل ذكر اسم الخليفة ، واختلق هرب أبي العلاء . وأخل بوزن بيت المتنبي المشهور . فلا يقام لكلامه وزن ولا يعوّل عليه .

* * *

---

(١) المشهور في رواية البيت : « فهي الشهادة لي بأني كامل » . ورواية ابن كثير مختلة الوزن (ج) .

المجالس العلمية في بغداد

لم يكن في ملوك الأرض قاطبة ، في ذلك العهد ، من يشبه الخلفاء العباسيين في ترقية العلم وتنميته ، ولا في إعلاء شأن العلماء ، وكتب التاريخ والأدب طافحة بمالهم من الأعمال الجليلة ، وبما أنفقوه من الأموال الجزيلة في هذا السبيل . وحسبك دليلا على ذلك أن الرشيد ، على عظم شأنه وجلالة سلطانه ، صب الماء على يدي أبي معاوية الضرير بعد أن أكل طعاماً عنده ، ثم قال له : أتدري من يصب الماء على يدك ؟ قال : لا ، قال : أنا . فقال : أنت ياأمير المؤمنين ؟ قال : نعم ، إجلالا للعلم .

وعهد إلى الكسائي بتأديب ولديه الأمين والمأمون ، ثم أشرف عليه ، وهو لا يراه ، فقام الكسائي ليلبس نعله ، فابتدراها ، فوضعاها بين يديه ، فأقسم عليهما أن لايعاودا ذلك . فلما جلس الرشيد مجلسه قال : أي الناس أكرم خادما ؟ قالوا : أمير المؤمنين ، قال : بل الكسائي ، يخدمه الأمين والمأمون . ثم حدثهم الحديث .

وكذلك فعل المأمون ، بل زاد على أبيه ، حين عهد إلى الفراء أن يلقن ولديه النحو ؛ فأراد يوما أن ينهض إلى بعض حاجته ، فابتدرا إلى نعله وتنازعا أيهما يقدمها له ، ثم اتفقا على أن يقدم كل واحد منهما واحدة . فكتب صاحب الخبر إلى المأمون ذلك . فاستدعى الفراء ، فلما دخل عليه قال له : من أعز الناس ؟ قال : لا أحد أعز من أمير المؤمنين . قال : بل من إذا نهض تقاتل على تقديم نعله وليّا عهد المسلمين ، حتى رضي كل منهما أن يقدم له فردا . فقال يا أمير المؤمنين ، لقد أردت منعهما عن ذلك ، ولكن خشيت أن أدفعهما عن مكرمة سبقا إليها . فقال له المأمون :

لومنعتها عن ذلك لأوجعتك لوما وعتبا ، وما وضع ما فعلاه من شرفهما بل رفع قدرهما . ثم عوض كلًا منهما عشرين ألف دينار ، وأعطى الفراء عشرة آلاف درهم على حسن تأديبه إياهمـــا . ثم طبع من بعده من الخلفاء على غراره .

ولما فشت الزندقة ، واتسعت شقة الخلاف بين أصحاب المذاهب والآراء ، أخذ الخلفاء يحضون العلماء على تصنيف كتب في مواضيع متعددة . وكانت هناك مجالس يجتمع فيها العلماء المناظرة ؛ حتى إذا كان عهد المأمون ، وظهر القول بخلق القرآن ، أخذ يعقد مجالس للمناظرة فيه وفي سواه ، وعين لذلك يوم الثلاثاء من كل أسبوع ، فإذا حضر الفقهاء ومن يناظر من أهل المقالات ، أدخلوا حجرة مفروشة ، وقيل لهم : انزعوا أخفافكم ! ثم أحضرت الموائد ، وقيل لهم : أصيبوا من الطعام والشراب ، وجددوا الوضوء ، ومن كان خفه ضيقا فلينزعه ، ومن ثقلت عليه قلنسوته فليضعها ، فإذا فرغوا أتوا بالمجامر فتبخروا وتطيبوا ثم خرجوا ، فاستدناهم حتى يدنوا منه ، ويناظرهم أحسن مناظرة وألطفها وأبعدها من مناظرة المتجبرين ، فلا يزالون كذلك إلى أن تزول الشمس ، ثم تنصب الموائد ثانية فيطعمون وينصرفون .

ثم استفاضت مجالس العلم في بغداد ، فكانت تعقد عند الحاجة إلى إثبات رأي جديد ، أو إدحاض شبهة أو ما ماثل ذلك .

وقد كان ليحيى بن علي بن المنجم مجلس يحضره جماعة من المتكلمين بحضرة المكتفي . ولأبي حامد الإسفرائيني مجلس يحضره ثلاثمائة فقيه أو سبعمائة ، وقد أشار ابن السبكي في طبقات الشافعية ج ٣ ص ٢٤ فما بعد إلى ما كان يقع بينه وبين غيره من المناظرات ، وذكر شيئا من المناظرات التي وقعت بين أبي إسحق الشيرازي والدامغاني ، وبين أبي الطيب الطبري وأبي عبد الله الصيمري ، وبين أبي إسحق وعبد الجبار المعتزلي ، وبين الطبري وأبي الحسن الطالقاني ، وبين الطبري والقدوري ، وغيرها .

وكان للشريف المرتضى علي بن الحسين مجالس ، يملي فيها ضروبا من المسائل . وكتابه الذي سماه (الغرر والدرر) مجالس أملاها في فنون من معاني الأدب كالنحو واللغة وغيرهما .

وكانت لأبي القاسم علي بن المحسّن التنوخي حلقة يحضرها طائفة من العلماء والأدباء . وقد ذكر في (معاهد التنصيص) ص ٥٩٨ أن البغداديين اعترضوا على أبي العلاء في كلمة (بوح) في حلقة التنوخي ، وكذلك ذكر البطليوسي في (شرح السقط)ج ١ ص ٢٧٩ هذه الحادثة في حلقة التنوخي .

اخوان الصفاء

وقد ذكر صاحب (ذكرى أبي العلاء) ص ١٧٩ وتجديده ص ١٥٠ ان أبا العلاء كان يحضر الجمع الخاص الفلسفي الذي كان يأتلف يوم الجمعة بدار عبد السلام البصري ، وفيه يقول من قصيدة بعث بها إليه : [1]

تُهَيِّجُ أَشْواقِي عَرُوبَةُ إِنَّهــا إِلَيْكَ زَوَتْنِي عَنْ حُضُورٍ بِمَجْمَعِ

ثم قال : وهذا الجمع السري الذي أسماه «إخوان الصفاء» لشيوع هذا اللفظ بين المسلمين في ذلك العصر ، ودلالته الخاصة على جماعة فلسفية تشترك في الأغراض والآراء ، وذلك حيث يقول من أبيات ثلاثة [2]

وَإِذا أَضاعَتْنِي الْخُطُوبُ فَلَنْ أَرى لِعُهُودِ إِخْوانِ الصَّفاءِ مُضِيعا

---

(١) انظر ما سبق ص ٢٣٦ الحاشية ٣ .

(٢) شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٧٢١ ، والأبيات :

كم بلدةٍ فارقتُها ومعاشرٍ يُذرون من أسف عليّ دموعا

وإذا أضاعتني . . . .

خالفت توديع الأصادق للنوى فمتى أودّعُ خلّيَ التوديعا

وزاد على ذلك في المقدمة التي وضعها لكتاب (رسائل إخوان الصفاء) فقال في ص ٧ : « فهذا الكتاب . . . يمثل من جهة فساد الحياة السياسية الإسلامية في ذلك الوقت ، لأن الذين كتبوه جماعة لا نعرف منهم أحدا ، لأنهم كانوا يعملون من وراء ستار . وكانوا يعملون لغرض سياسي قبل كل شيء ... وإذا كانت لهم أغراض سياسية متطرفة ، مسرفة في التطرف ؛ فهم من غلاة الشيعة ، ولعلهم من الإسماعيليين ... » .

وقال في ص ٨ : « كان هؤلاء الناس إذن يعملون من وراء ستار ، ويؤلفون جماعة سرية ، وكان قوام جماعتهم هذه ، فيما يظهر ، سياسي عقلي (١) ، فهم يريدون قلب النظام السياسي المسيطر على العالم الإسلامي يومئذ . . . » .

وقال في ص ٩ : « وقد احتاط هؤلاء الناس في التستر والاستخفاء ، فلم نكد نعرف منهم أحدا — كما قلنا — وإنما سميت أسماء لاتتجاوز الخمسة ، ولاتخلو من أن يحيط بها الشك . وكل ما نستطيع أن نعرفه من أمر هذه الجماعة ، أنها نشأت في البصرة في منتصف القرن الرابع ، وعرف لها فرع في بغداد . وليس عندي شك في أن أبا العلاء قد اتصل بهذا الفرع حين ارتحل إلى بغداد آخر هذا القرن . وكان يحضر اجتماعه يوم الجمعة من كل أسبوع . نرى ذلك في (سقط الزند) ، بل نرى بعض أسماء الذين كانوا يحضرون جلسات هذا الفرع ؛ ونكاد نعرف المكان الذي كانوا يجتمعون فيه يوم الجمعة من كل أسبوع ؛ ونكاد نلمح في هذه الاجتماعات شيئا من اللهو المعتدل ... . وقد أشرت إلى شيء من ذلك في (ذكرى أبي العلاء) على أني أشد استيقانا به الآن ، وأعتقد أنا نجد في رسائل إخوان الصفاء أحسن تفسير لكثير من غوامض اللزوميات . . . » ، إلى آخر كلامه .

---

(١) كذا في الأصل (ج) .

ويُلخّص قوله : بأن جماعة إخوان الصفاء من غلاة الشيعة أو من الاسماعيليين ؛ وأنهم يعملون لغرض سياسي وهو قلب نظام الحكم ، وأنهم يجتمعون سراً في دار عبد السلام ، وهو مجمعهم الخاص في كل يوم جمعة ؛ وأنهم احتاطوا في التستر والاستخفاء . . .

وهذا كله وهم باطل ، والدليل على ذلك أمور كثيرة منها :

أن قول المعري « عنْ حُضُور بمَجْمَع » ليس فيه تصريح بأن المجمع دار عبد السلام ، ولا أنه مجمع فلسفي . والأقرب أن يكون ذلك المجمع دار الكتب التي كان عبد السلام خازناً لها . وتخصيص يوم الجمعة يجوز أن يكون عبد السلام اختاره للمعري ليتمكن من زيارته بسبب فراغه في ذلك اليوم ، أو ليجمعه برجال من العلماء والأدباء كانوا يجتمعون فيه في دار العلم أو غيرها للمحادثة والمذاكرة والمفاكهة ونحوها . وهذا أقرب إلى القبول ، وأكثر ملاءمة لما عرف به عبد السلام من الصدق والتقوى ، والاشتهار بالقراءة ورواية الأحاديث والتفسير والأخبار وغيرها ، ولو شعر الناس أنه ينحو منحى الفلاسفة في عقيدته لأعرضوا عن روايته .

ومنها أن هذا اليوم ، لوكان يوم المجمع السري ، لما صرح بذكره أبو العلاء ، كيلا يتنبه له خصومه . على أن من البعيد أن يركن إخوان الصفاء إلى أبي العلاء ، وهو غريب عنهم ؛ وقد نقل عن أبي حيان أنهم كانوا يجتمعون في منزل أبي سليمان النهرجوري ، فإذا اجتمع معهم أجنبي التزموا الكنايات والرموز والإشارات . . .

ومنها أن كلمة « إخوان الصفاء » في أبيات المعري المتقدمة ، لاتدل على ما أراده الأستاذ . بل الأقرب أن يراد بالصفاء هنا مصافاة المودة ؛ وقد وقعت هذه الكلمة في كلام كثير من الشعراء والكتاب ، منهم عمرو بن شأس الأسدي حيث يقول : (١)

---

(١) معجم البلدان (أزمات) . (ج)

تذكّرتُ إخوانَ الصّفاء تيمّمُوا ... فوارسَ سعدٍ واستبدَّ بِهِمْ جَهْلا

ومنهم الخنساء حيث تقول : (١)

ولَمْ يُجزِ إخوانَ الصّفاءِ ويكتسي ... عَجَاجاً أثارتْهُ السّنابكُ أكْدَرَا

ومنهم البراء بن ربعي الفقعسي حيث يقول : (٢)

أولئكَ إخوانُ الصّفاءِ رُزِئْتُهُمْ ... وما الكَفُّ إلاّ إصْبَعٌ ثُمَّ إصْبَعُ

ومنهم إسماعيل بن بشار أو يسار ، حيث يقول : (٣)

وإنْ أيقنْتَ أنَّ الغَيَّ فيما ... دَعاكَ إليهِ إخوانُ الصّفاء

ومنهم عبد السلام بن رغبان ، حيث يقول : (٤)

فَهاكَ أخاً لَمْ تَحْوِهِ بِقَرَابَةٍ ... بَلَى إنَّ إخوانَ الصّفاءِ أقَارِبُ

ومنهم ابن الرومي حيث يقول (٥) :

لو أنَّ إخوانَ الصّفاءِ تَناصفُوا ... لَمْ يَفْرَحُوا بِتَفاضُلِ الأعْمارِ

ومنهم ابن المقفع حيث قال في باب الحمامة المطوقة من كتاب (كليلة ودمنة): « فهذا مثل إخوان الصفاء وائتلافهم في الصحبة » .

---

(١) ديوان الخنساء ص١٢٢ (ج) .
(٢) حماسة أبي تمام ـ شرح التبريزي ـ ج ١ ص ٣٥٢ . (ج)
(٣) حماسة البحتري (ج) . ص ٢٥٣ من مقطعة مطلعها :
فدع عنك المراء ولا ترده ... لقائلة خير أسباب المراء
(٤) زهر الآداب ج ٣ ص ١٧١ . (ج)
(٥) ديوانه ص ٥٣ — كامل كيلاني .

فهؤلاء كلهم ذكروا إخوان الصفاء ، وهم يريدون إخوان المودة الصافية الخالصة قبل أن تؤلف جمعية إخوان الصفاء . وأبو العلاء احتذى على مثـالهم .

على أن ياقوتا روى في (معجم الأدباء) ج ١ ص ١٧٥ من أبي الوليد الدربندي ، قـال : « أنشدني أبو العلاء التنوخي في داره عند وداعي إياه » . وذكر الأبيات الثلاثة العينية التي ذكرفيها إخوان الصفاء . وأبو الوليد هذا هو الحسن بن محمد البلخي الدربندي المحدّث الصوفي طاف الآفاق في طلب الحديث ، ثم رجع إلى سمرقند ، وتوفي بها سنة ٤٥٦ هـ ، كما قـال ابن عساكر في ج ٤ ص ٢٤٧ ، وذكره ياقوت في (دربند) . وفي (سقط الزند) ج ٢ ص ١٣٦ : أنه قال هذه الأبيات على لسان البلخي .

وفي كلام الدوكتور تناقض صريح يتمثل في أقواله : « لانكاد نعرف منهم أحدا ... احتاط هؤلاء في التستر . . فلم نكد نعرف أحداً منهم . . لاتخلو من أن يحيط بها الشك .. وكل ما نستطيع أن نعرفه ... أنها نشأت في البصرة ... وعرف لها فرع في بغداد » .

وفي أقواله : « ليس عندي شك في أن أبا العلاء اتصل بهذا الفرع وكان يحضر اجتماعه . . . نرى ذلك في سقط الزند . . نرى بعض أسماء الذين كانوا يحضرون . . . ونكاد نعرف المكان ... ونكاد نلمح . . على أني أشد استيقانا » . إلى آخر ما قال .

والواقف على كلامه لايدري على أيها يعول ، أعلى قوله: «لانكاد نعرف » ? أم على قوله : « نكاد نعرف . . ونرى . . ونلمح » ومن الغريب حكمه على إخوان الصفاء بأنهم من غلاة الشيعة أوالإسماعيليين؟ثم جعله أبا العلاء منهم ، وهو أشد الناس إنكاراً على الفريقين .

وأغرب منه ، أن يكون ممن يعمل لأغراض سياسية متطرفة .

وأغرب من كل ذلك ، أن يرى الدوكتور ، بعد ألف سنة تقريباً وهو في مصر ويعرف ويلمح . مالم يره ويعرفه ويلمحه أهل البصرة وبغداد من هذه الجماعة مع شدة تحري الحكومات والعلماء والبحث عنهم .

وقد بينت بطلان هذه المزاعم بأوسع من هذا في مقالة نشرت في مجلة المجمع العلمي الدمشقي في الجزء ٧ من المجلد ١٦ ص ٣٤٦ .

وقد ذكر ابن تيمية في (منهاج السنة) ج ١ ص ٢٣١ : أن الرافضة كذبوا على جعفر بن محمد الصادق حتى نسبوا إليه كتاب (الجفر والبطاقة والهفت) . وحتى زعم بعضهم أن كتاب (رسائل إخوان الصفاء) من كلامه ، مع علم كل عاقل بنهيها ، ويعرف المسلم أنها تناقض دين الإسلام . وأيضا فهي إنما صنفت بعد موت جعفر بن محمد ، رضي الله عنه ، بنحو مائة سنة ، فإن جعفر بن محمد توفي سنة ١٤٨ هـ وهي صنفت في أثناء المائة الرابعة ، لمـــا ظهرت الدولة العبيدية بمصر وبنوا القاهرة ، فصنفت على مذهب أولئك الاسماعيلية ، كما يدل على ذلك ما فيهـــا . وقد ذكروا فيها ما جرى على المسلمين من استيلاء النصارى على سواحل الشام ، هذا إنما كان بعد المائة الثالثة في الجملة .

حنينه الى المعرة وهو في بغداد

كان أبو العلاء ، وهو في بغداد ، يكثر الحنين إلى وطنه ، ويفيض شعره بالشوق إليه . والذي ظهر لي أن ذلك لأمرين .

أحدهما : فقد أمه التي كانت تتعهده ، وفقد أسرته الذين كان يفضي

إليهم بشقوره (١) ، وفقد أصحابه الذين ألفهم وألفوه منذ الصبا ، ورضي عنهم ورضوا عنه .

ثانيها : أن أبا العلاء كان شديد الأنفة والإباء ؛ وقد ضاق المال الذي اصطحبه إلى بغداد عن حاجاته الكثيرة في السفر ولم يستطع أن يستقدم غيره من المعرة لبعد الشقة ، أولعدم وجود ما يسد حاجته ؛ كما أنه لم يستطع أن يبذل ماء وجهه بسؤال أحد . ويدل على هذا أقواله في بغداد ، منها قوله من قصيدة :(٢)

تَمَنَّيتُ أنَّ الخَمْرَ حلَّتْ لِنَشْوَةٍ ... تُجَهِّلُني كَيفَ اطْمأَنَّتْ بيَ الحالُ
فَأَذْهَلُ أنّي بالعِراقِ عَلَى شَفاً ... رَذِيُّ الأَماني لا أَنِيسٌ ولا مالُ(٣)
مُقِلٌّ مِن الأَهلَيْنِ يُسْرٍ وأسرةٍ ... كَفَى حزَناً بَيْنٌ مُشِتٌّ وإِقلالُ .

• • •

مَتى سَأَلَتْ بَغْدادُ عَنّي وأَهْلُها ... فَإِنِّي عَنْ أَهْلِ العَواصِمِ سَآّلُ
إِذا جَنَّ لَيْلِي جُنَّ لُبّي وَزائِدٌ ... خُفُوقُ فُؤادِي كُلَّما خَفَقَ الآلُ(٤)
وَماءُ بِلادِي كانَ أَنْجَعَ مَشْرَباً ... وَلَوْ أنَّ ماءَ الكَرْخِ صَهْباءُ جِرْيالُ

---

(١) الشقور بالضم : الحاجة والأمور اللاصقة بالقلب .

(٢) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١٢٥١ .

(٣) شفاً : بقية الشيء ، وإذا قارب الرجل الهلكة ، والرذي : البعير الذي أضعفه السفر فلا يقدر على القيام ، شبه به أمله .

(٤) خفوق الآل : اضطرابه في الهاجرة .

إلى أن قال :

فَياوَطني إِنْ فاتَني بِكَ سابِقٌ[١] مِنَ الدَّهرِ فَلْيَنْعَمْ لِساكِنِكَ البالُ
فإِنْ أَستَطِعْ في الحَشْرِ آتِكَ زائراً وهَيْهاتَ لي يَومَ القِيامَةِ أَشْغالُ[٢]

ولما ذكر الإقلال من اليسر ، خشي أن يسبق إلى الظن مالا يتفق مع كرامة نفسه ؛ فصرح بإبائه وشممه في هذه القصيدة بقوله :

وكَمْ ماجِدٍ في سِيفِ دِجْلَةَ لَمْ أَشِمْ لَهُ بارِقاً والمَرْءُ كالمُزْنِ هَطَّالُ

إلى آخر الأبيات الآتية منها .

ومنها قوله من قصيدة ثانية : [٣]

ومَنْ لي بأَنِّي في جَناحِ غَمامَةٍ تُشَبِّهُها في الجُنْحِ أُمُّ رِئالِ[٤]
تَهاداني الأَرواحُ حَتَّى تَحُطَّني عَلى يَدِ رِيحٍ بالفُراتِ شَمالِ
فَيا بَرْقُ لَيْسَ الكَرْخُ دارِي وإِنَّما رَماني إِلَيْهِ الدَّهرُ مُنْذُ لَيالِ
فَهَلْ فِيكَ مِنْ ماءِ المَعَرَّةِ قَطْرَةٌ تُغِيثُ بِها ظَمْآنَ لَيْسَ بِسالِ

وكلمة : « رماني إليه الدهر . . » تدل على حزن عميق لفراق داره ،

---

(١) رواه البطليوسي « فائت » .

(٢) في الشروح : « وإن أستطع » .

(٣) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١١٩٢ .

(٤) الجُنح بالكسر والضم : اقبال الليل ، وأم رئال : النعامة .

وأسف شديد من مقامه في الكرخ التي اجتواها. ثم أشفق أن يظن ظان أنه ذهب إلى بغداد ليتخلى عن شممه وعزة نفسه فقال:

أإخواننا بين الفرات وجلّق يد الله لا خبّرتكم بمحال[1]
أنبئكم أني على العهد سالم ووجهي لمّا يبتذل بسؤال ...

. . .

ندمت على أرض العواصم بعدما غدوت بها في السوم غير مغال ...

عزم على مفارقة بغداد وأسبابها

اختلفت كلمة القوم في أسباب رحلته عن بغداد؛ كما اختلفت في أسباب شخوصه إليها، كما قدمنا. فذهب صاحب (الذكرى) إلى أن أبا العلاء إنما رحل إلى العراق يلتمس الشهرة وخفض العيش، وليفر من الحياة السياسية السيئة بحلب. وقال [2]: «فأما الشهرة فقد ظفر بها، إذ لم يبق من أدباء بغداد وعلمائها وفقهائها من لم يعرفه ولم يعجب بـه. وأما الدعة السياسية، وخفض العيش فلم يوفق إليهما. ذلك أن حال العراق لم تكن خيراً من حال الشام؛ ولاسيما في عهد أبي العلاء ... وكذلك لم يتح لأبي العلاء من الثراء ما كان يريده؛ فإن تشدده في العفة، وإباءه التكسب بالشعر، وامتناعه عن سؤال الناس، جعل وصوله إلى الثراء أمراً لاسبيل إليه. وفوق كل هذا لم يسلم من حسد الحساد، ومن أن

(١) يد الله: أي ألزم نفسي عهد الله. والمراد بقوله «بين الفرات وجلق» للمعرة. (ج) ورواه البطليوسي: «أجيراننا».

(٢) ذكرى أبي العلاء — لطه حسين — ط ٢ ص ١٨١ وما بعدها.

يتلقاه بعض الناس بما يكره؛ إما لخطأ منه أو لحسد من خصومه». واستشهد للأول بقصته مع الشريف المرتضى وتعصبه للمتنبي. وللثاني بقصته مع علي بن عيسى الربعي ... ثم قال: «وإنما كل تلك خصال قهرية، اجتمعت لإزعاج أبي العلاء عن بغداد، وانضم إليها خبر جاءه من المعرة ينبئه بمرض أمه ...». وذهب الميمني [1] إلى أنه لقي في مجلس المرتضى غضاضة، ورأى ببغداد مظاهر العز والخفض، وليس بيده غير أصفار الراحة. ثم أضاف إلى هذا حسد حساده، وورود خبر بمرض أمه، وأنه كان يرغب أن لو آتاه الله رغدا من العيش من وجهه؛ ولكن مظنته أخفقت ...

وقد قدمنا عن ابن كثير وغيره، أنه هرب إلى بلده لما عزم الفقهاء على أخذه.

هذه جملة مما قاله العلماء في الأسباب التي أزعجته من بغداد. أما أبو العلاء، فقد بيّن الأسباب التي حملته على مفارقة بغداد، فقال من قصيدة كتبها إلى القاضي التنوخي بعد عودته إلى المعرة: (٢)

أثارَني عَنكُمُ أمرانِ: وَالِدَةٌ ... لَمْ أَلْقَها وثراءٌ عادَ مَسْفُوتا(٣)
أَحياهُما اللهُ عَصْرَ البَيْنِ ثُمَّ قَضى ... قَبْلَ الإيابِ إِلى الذُخْرَيْنِ أَنْ مُوتا
لَوْلا رَجاءُ لِقَائيهِمَا لَمَا تَبِعَتْ ... عَنسِي دَليلاً كَسِرِّ الغِمْدِ إِصْليتا(٤)

(١) أبو العلاء وما إليه — للميمني ص ١٧٢ .
(٢) شروح سقط الزند: ق ٤ ص ١٦٣٤ .
(٣) وفي الشروح: «أسارني». ومسفوتا: قليل البركة. (ج)
(٤) سر الغمد: السيف. (ج) الاصليت: السيف المنصلت الماضي .

وقد تقدم في قصيدته اللامية المرفوعة ، شكواه من فقد المال والأهل ، حتى تمنى حلَّ الحر ليذهل أنه في العراق مُقِلٌّ من الأهلَيْن اليسر والأسرة .

وقال في رسالته التي كتبها إلى خاله ، بعد رجوعه إلى المعرة[1] : « وكنت أظن أن الأيام تسمح لي بالإقامة هناك ، فاذا الضارية (٢) أحجأ بعُراقها ، والأمة أبخل بِضَرْبَتِها (٣) ، والعبد أشح بكُراعه (٤) ، والغراب أضن بتمرته ، ووجدت العلم ببغداد أكثر من الحصى عند جمرة العقبة ، وأرخص من الصَّيْحاني (٥) بالجابرة (٦) ، وأمكن من الماء بخُضارة (٧) ، وأقرب من الجريد (٨) باليمامة ، ولكنْ على كل خيرٍ مانع ، ودون كل درة خرساءُ (٩) مُوحِيَة (١٠) أو خضراءُ طامية (١١) .

---

(١) رسائل أبي العلاء المعري — لشاهين عطية — ص ٧٣ ، وفيها « ظننت » .

(٢) الضاري : المفترس المولع بأكل اللحم ، وحجئ بالشيء : ضن به وتمسك به ، والعُراق : اللحم والعظم . (ج)

(٣) لعل المراد بالضربة العسل ، وفي نسخة بصربتها ، بالصاد المهملة ، وهي واحدة الصرب ، وهو اللبن الحقين الحامض . (ج)

(٤) الكراع : مستدق الساق . (ج)

(٥) تمر أسود صلب الممضغ . (ج)

(٦) اسم للمدينة . (ج)

(٧) البحر . (ج)

(٨) سعف النخل ، وهو كثير باليمامة ، قصير الساق . (ج)

(٩) سحابة لا رعد فيها ولا برق ، تمنع من التقاط الدر . (ج)

(١٠) معجلة . (ج)

(١١) لجة مرتفعة . (ج)

إذا لَمْ تَستَطِعْ شَيئًا فَدَعْهُ   وَجاوِزْهُ إلى ما تَستَطِيعُ (١)

يكفيك ما بلّغك المحل ، إن عجز ظلٌّ عن شخصك ، فلا يعجـزن عن عضو منك . فلما زَبَنَتِ (٢) الضروس (٣) الحالب . ونَزت (٤) العنودُ (٥) تحتَ الراكب ، ومنعت القَلوع (٦) النازعَ ، ولم تعمَّ الفلوتُ (٧) شاكي الأزيز (٨) وغشيَ القولُ (٩) وجهَ المُشتارِ ، وخيَّبتْ رائداً سحابٌ ، وكذَّبَ شائماً برْقٌ ، وأخلف ربيعيًا (١٠) مَظِنّة . عادَتْ الى عِترِها لَميسُ (١١) ،

---

(١) هذا البيت لعمرو بن معدي كرب . (ج) . من عينيته وهي في الخزانة ، وروايتها : « فذره » .

(٢) دفعت برجلها . (ج)

(٣) الناقة السيئة الخلق . (ج)

(٤) وثبت . (ج)

(٥) العنود بالنون : الدابة المتقدمة في السير ، وناقة عنود : تنكب الطريق من نشاطها وقوتها ، والعنود من الإبل الذي لا يخالطها ، ولا يزال ينفرد عنها ، وفي نسخة (العتود) بالتاء ، وهو من أولاد المعز ما أتى عليه حول ، وفي حديث عمر ، وقد ذكر سياسته فقــال : « وأضم العتود » ، أي أرده إذا ند وشرد . (ج)

(٦) القوس إذا نزع فيهــا انقلبت . (ج)

(٧) كساء لا ينضم طرفاه صغراً وضيقاً . (ج)

(٨) المقيع والبرد . (ج)

(٩) هكذا في النسخ ، ولا معنى للقول هنا ، ولعله محرف عن الثول : وهو جماعة النحل . والمشتار : من يشتار العسل ، أي يجتنيه ويخرجه من وقبته . (ج)

(١٠) ممطر راع ، والمظنة : الموضع يظن فيه الشيء . (ج)

(١١) أي إلى أصلها ، وهو مثل يضرب لمن رجع إلى خلق كان تركه . (ج)

وذكر وِجاره (١) ثعالة (٢)، وطرب لِوَكنته (٣) ابن دَأْية (٤) ».

فهذه النصوص تدل على أن أبا العلاء ضاق ذرعه ببغداد لضيق ذات يده ، وأن إفراطه في التعفف مع قلة ماله ، لاشك بما يحرج صدره ، ويضيّق بغداد على رحبها به . وفوق هذا حنينه إلى أمه ، ورجاؤه لقاءها كان من أكبر البواعث على إزعاجه من بغداد . وليس في كلامه ما يدل على تذمره من الحياة السياسية أو الاجتماعية في بغداد أو المعرة ، ولارغبة في تظلم من عامل ، أو على أن لحسد الحساد أثراً في ذلك . ولكن قوله المتقدم : «على كل خير مانع .. فلما زبنت الضروس الحالب .. » يدل على أنه كان منغصا لفقد الدّعة والخفض ، آسفا لحيلولة الفاقة بينه وبين كثير مما كان يتمناه .

احتفاء البغداديين به

لم نعثر فيما وصل إلينا من تاريخ أبي العلاء ، على تفصيل مقامه في بغداد ، ولا على ما كان يلقاه من كل واحد ممن عرفه فيها ، ولكننا رأينا في كلامه شذرات يدلنا مجموعها على أنه كان يلقى من ضروب الحفاوة القولية شيئا كثيرا ، وأنهم عرضوا عليه أموراً أبتهــا قناعته ، ولعلهم عرفوا أنه لايقبل من أحد هبة ولا صلة ، فعرضوا عليه ماعرضوا ولم يتعدوا حدود القول . يشير إلى ذلك قوله السابق : « ... على كل خير مانع

(١) جحره . (ج)
(٢) الثعلب . (ج)
(٣) عشه . (ج)
(٤) الغراب . (ج)

ودون كل درة خرساءُ موحية ، فلما زينت الضروس الحالب . . وخيبت رائداً سحابٌ ، وكذب شائماً برق .. »

أما مالقيه من الإيناس في مقامه ، والأسف لفراقه ، فقد ذكره في رسالته إلى خاله أبي القاسم وأشار فيها إلى ارتيابه فيما لقيه منهم ، وهذا كلامه في الرسالة بعد أن ذكر فيها أن أبا طاهر مازالت كتبه تطرق أصدقاءه محافظة على المكارم ، ومراعاة لأمر غير لازم ، قال:[1]

« وكلما عرضوا قضاء حاجة ، أعرضتُ عن تكليف المشقة ، لأني أعتقد حكمة زهير في قوله :

وَمَنْ لا يَزَلْ يَسْتَحْمِلُ النَّاسَ نَفْسَهُ ... ولا يُعْفِهَا يَوْمًا مِنَ الذَّمِّ يُسْأَمِ

ولو علمت أني أرجع على قَرْوَائي [2] لم أتوجه لهذه الجهة . ولكن البلاء موكل بالمنطق ، والحيرةَ مُغيِّبة . والخطوبَ مثلُ دَوْك[3] النَّوْفل ، يُفتح بعضُه عن مثل نبات الفَمَق [4] وبعضُه عن ذوات النسق . لا يدري الرجل بمَ يُولَع هرمُه [5] . ولا إلى أي اجمة يسوقه جَدُّه ، ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾[6]

يا أيها المُضمِرُ هَمًّا لا تُهَمْ ... إنكَ إنْ تُقْدَرْ لكَ الحُمَّى تُحَمْ[7]

---

(١) الرسائل — لشاهين عطية . ص ٧٦ ، وتعريف القدماء بأبي العلاء ص ٨٣—٩١ .

(٢) قفاي (ج) .

(٣) الدوك : ضرب من محار البحر ، والنوفل : البحر (ج) .

(٤) النسق : ركوب الندى الأرض ، ومحق النبات : فسد من كثرة الأنداء عليه فوجدتْ لريحه خمةٌ وفساد (ج) .

(٥) عقله (ج) .

(٦) سورة الأعراف الآية ١٨٨ .

(٧) في تعريف القدماء ص ٨٨ عن إرشاد الأريب — لياقوت — زيادة وهي : « وجد في لوح :

يأيها المضمر همـاً لا تهم ... إنك إن تقدر لك الحمى تحم »

وانظر الرسائل — لشاهين عطية ص ٧٦ .

ولوْ عَلَوْتَ شاهِقًا مِنَ العَلَمْ　　كَيفَ تَوَقِّيكَ وقدْ جَفَّ القَلَمْ
وخُطَّ أيامُ الصِّحاحِ والسَّقَمْ(١)

ورعايةُ الله شاملةٌ لمن عرفته ببغداد؛ فلقد أفردوني بحُسْنِ المُعامَلَةِ، وأثنَوْا عليَّ في الغَيبة، وأكرموني دونَ النُّظراء والطَّبقة. ولما آنسوا تشميري للرحيل، وأحسوا بتأهبي للظعن، أظهروا كسوف بالٍ، وقالوا من جميل كل مقال، وتلفعوا من الأسف ببُرد قشيب، وذرفت عيونُ أشياخ وشيب. فلا إله إلا الله، أيَّ نابتةٍ لبست لها راعية الا تخلو نُاغية(٢) من سائفة(٣). ولا تعدمُ الخرقاءُ(٤) ثَلَّة(٥)، ولا الثِّقال(٦) سائفة، ولا السَّمِجة قانية.

وأمروني، لرغبتهم في صقبي(٧) منهم، بأمور تنهى عنها القناعة، وتكف دونها العادة، وما أبعدَ نضَادِ(٨) من جبال الضَّريب(٩)، وأشدَّ اختلافَ الغائر والمُنجدين.

---

(١) لم ترد هذه الشطرات الثلاث في الرسائل ولعريف القدماء.

(٢) زهر الحناء (ج).

(٣) شامّة، ساف: شم (ج).

(٤) الخرقاء: الأرض الواسعة (ج).

(٥) جماعة الغنم، والمثل المشهور: «لا تعدم الخرقاء علة» والخرقاء: الحمقاء، والعلة الحدث يشغل صاحبه عن حاجته، كأن تلك العلة صارت شغلاً ثانيـاً منعه عن شغله الأول. والمعنى: أن العلل كثيرة موجودة تحسنها الخرقاء، فضلاً عن الكيس، وهذا مثل يقال لكل معتل معتذر وهو يقدر (ج).

(٦) البطيئة (ج).

(٧) قربي (ج).

(٨) جبل بالعالية (ج).

(٩) الثلج (ج).

شَتانَ ما يَومي عَلىَ كُورِها ... ويَومُ حَيّانَ أخي جابر[1]

• • •

عَلى حِينَ أنْ ذَكّيتُ[2] وابْيَضَّ مَفْرِقي ... أُسامُ الذي أعْيَيْتُ إذْ أنا أمْرَدُ

• • •

أماويّ ما يُغْنِي الثَّراءُ عَنِ الفَتَى ... إذا حَشْرَجَتْ[3] يوماً وضاقَ بها الصَّدْرُ

والله يحسن جزاءهم . إن كان مافعلوه حِفاظاً [4] فهو منّة عظيمة ، وإن كان نفاقا فهو عشرة جميلة . وانصرفتُ ، وماء وجهي في سقاء غير مَرِب [5] ، ما أرَقتُ منه قطرة في طلب أدب ولا مال . وقد [6] فارقت العشرين من العمر ، ماحدثت نفسي باجتداء علم من عراقي ولا شآم.

﴿مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾[7]

والذي أقدمني تلك البلاد مكانُ دار الكتب بها .

ولَستُ وإنْ أحبَبْتُ مَنْ يَسكُنُ الغَضا ... بِأوّلِ راجٍ حاجَةً لا يَنالُها

---

(١) البيت للأعشى ، ومعنى شتان : تباعد ما بينهما (ج) ديوانه ص ١٠٤–١٠٨.

(٢) كبرت ، وفي نسخة : الذي أعيت ، وفي نسخة : أعبت (ج) . وأعييته : أراد ، عددته عيباً . والقياس : « أعبت » تعريف القدماء ص ٨٩ .

(٣) غرغرت عند الموت ، البيت لحاتم الطائي . (ج) . من قصيدة له في مجموع خمسة دواوين العرب ص ١١٨ .

(٤) غيرة . (ج)

(٥) سائل . (ج)

(٦) وفي نسخة : « ومنذ فارقت » .(ج) . ورواها هكذا ياقوت في إرشاد الأريب . انظر تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٨٩ .

(٧) سورة الكهف ، الآية ١٧ .

شرفاً لذلك المنزل منزلا ، وللساكنين به نفرا ، ولماء دجلة وادياً ومشرَبا .

وإني و تَهيامي بعزَّةَ بَعدَما ... تَخلَّيتُ من حَبلِ الهَوى وتخلّتِ

لَكالمرتَجي ظِلَّ الغَمامةِ كلّما ... تَبوّأَ منها للمَقِيلِ اضمَحلّتِ[1]

وكنتُ إذا خبّرتُ رجلا بسيري بانت فيه كآبة ، وبدت عليه كبوة ، فكتمت ذلك عنهم كتمان المرأة ضرتها بالغيب ، ما في جسدها من سوء وعيب ، فلما علق حِرْباءُ البين تَنْضُبَته [2] ، ووقف صرَد [3] الفراق موقفه ، كنت وإياهم كأبي قابوس [4] وبني رواحة :

قالَ لَهُمْ خَيْراً وأثنى عَلَيْهِمُ ... وودَّعهُمْ وداعَ أنْ لا تلاقيا » .

فهذا صريح في أن أبا العلاء لم يُرِقْ ماء وجهه في سؤال مال ولا علم ولا أدب . وأن القوم جاملوه بالعشرة الحسنة ، ولم يتعدوا حدود القول ، وأنه غير جازم بأن ما فعلوه كان حفاظا أو نفاقا . وأظن أنه لم يورد هذا الشك إلا وهو يعتقد الشق الثاني منه ، ولكنه كان كثير الاعتراف بالجميل ، كثير الشكر لأية يد أسديت إليه . وفي قوله السابق :

---

(١) البيتان لكثير عزة . ويروى : « لكالمبتغي ظل » . (ج) . انظر أمالي القالي ج ٢ ص ١٠٧ — ١١٠ .

(٢) الحرباء : هي ذكر أم حبين تستقبل الشمس وتدور معها كيفما دارت ، وتتلون ألوانا ، والتنضب : شجر له شوك تألفه الحرابي ، واحدته تنضبة . (ج)

(٣) طائر يتشاءم به . (ج)

(٤) النعمان بن المنذر ، طلبه كسرى ، فجعل يطوف على القبائل ولا يقبله أحد منهم غير أن بني رواحة بن قطيعة بن عبس قالوا له : إن شئت قاتلنا معك ، لمنة كانت له عندهم في أمر مروان القرظ ، فقال : ما أحب أن أهلككم ، فإنه لا طاقة لكم بكسرى . أغاني ٢ / ٢٩ . (ج)

« ولو اعلم أني أرجع على قرواني . . » ما يشعر بأنه آسف على ذهابه إلى بغداد ، وأن بقاءه فيها كان عضا له . ولذلك جعلها أجمة ساقه إليها جده » .

وفي قصيدته اللامية ما يشعر بمثل ذلك كقوله : (١)

نَدِمْتُ عَلَى أرْضِ العَوَاصِمِ بَعْدَمَا غَدَوْتُ بِهَا فِي السَّوْمِ غَيْرَ مُغَالِ

وصرح في رسالته التي أنفذها (٢) إلى أهل المعرة ، بأنه ما سافر إلى بغداد ليستكثر من المال ، ولا ليتكثر بلقاء الرجال ، وإنما آثر الإقامة بدار العلم . وأشار في هذه الرسالة إلى أن القوم ألحوا عليه بالأموال ، فأبى . وسنذكر هذه الرسالة .

ونستنتج من هذه الآثار أن البغداديين أجملوا عشرته ، وعرضوا عليه الأموال رغبة في بقائه عندهم ، وأنه لم يقبل شيئا ، ويعترف بالجميل كيف ما كان ، وأن الذي أشخصه إلى بغداد دارُ العلم والإقامةُ فيها ، والذي أزعجه منها إقلالهُ من المال والآل ، وشوقُه إلى أمه . وليس فيها ما يدل على أن لاضطراب الحياة السياسية أو الاجتماعية في بلده أو بغداد أثرا في رحيله إليها أو عنها ، ولا أثر فيهما للتظلم من عامل أو غيره .

متى خرج من بغداد

قال في رسالته إلى خاله (٣) : « وسرت عن بغداد لستٍ بقين من شهر رمضان » . كما سيأتي . وكفانا بذلك مؤونة الاختلاف . فعلى قول

---

(١) شروح سقط الزند : ق ٣ ، ص ١٢٠٧ .

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٩٢ عن إرشاد الأريب — لياقوت . وفي الرسائل لشاهين عطية ص ٨١—٨٣ .

(٣) انظر ما سبق ص ٢٧٢ الحاشية (١) .

من قال : إنه أقام فيها سنة وتسعة أشهر ، يكون وصوله إليها في ٢٤ ذي الحجة سنة ٣٩٨ هـ . وعلى قول من قال : إنه أقام فيها سنة وسبعة أشهر ، يكون وصوله إليها في ٢٤ صفر سنة ٣٩٩ هـ . وعلى قول من قال : إنه أقام فيها سنة وستة أشهر يكون وصوله إليها في ٢٤ ربيع الثاني سنة ٣٩٩ هـ . والخطب يسير على جميع هذه الأقوال . أما من قال : إنه دخلها سنة ٤٠٠ هـ أو إنه رحل إليها مرتين ، فلا يتفق مع شيء مما ذكر ، لأنه قال في ثبت كتبه : « لزمت مسكني منذ سنة أربعمائة » . وهذا كان بلا شك بعد رجوعه من بغداد وإقامته فيها سنة فأكثر .

مسيره عن بغداد وطريقه الى المعرة

يفهم من قوله في قصيدته اللامية المكسورة : (١)

دعا رَجَبٌ جَيْشَ الغَرامِ فأقْبَلَتْ رِعالٌ تَرُودُ الهَمَّ بَعْدَ رِعالِ
يُغِرْنَ عَلَيَّ اللَّيْلَ إذْ كُلُّ غارَةٍ يَكُونُ لَها عِنْدَ الصَّباحِ تَوالي

أن شوقه إلى بلاده وأهله ازداد لما دخل شهرُ رجب . وقد ذكر رحلته من بغداد إلى المعرة في رسالته إلى خاله أبي القاسم ، وبيّن الطريق التي سلكها ، والمطية التي ركبها فقال : (٢)

«وسرتُ عن بغداد لِستٍّ بقين من رمضان ، سيرا تَنْحِط إبله ،

(١) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١١٦٥ ، والرعال : واحدها رعلة ورعيل وهي جماعات الخيل وغيره .
(٢) انظر ما سبق ص ٢٧٢ الحاشية (١) .

وتَنِطّ نسوعه (١) ، وتوقّعُ الغرقَ سفنُه ، يود الماشي الرجيل (٢) فيه أنه بعض الركب ، ولو كانوا ركبانَ الجذوع ، وأنه انتقل (٣) ولو بأديم الوجه والجبين ، واضطجع ولو على القَصَد والشّبَهان (٤) عند الصباح يَحْمَدُ القومُ السُّرى . الغمرات ثم ينجلين . ومررتُ بطرف الشهباء ، لأني سلكت طريق الموصل وميافارقين ، وفيها أمواه كأمواه الطَّنْزة والعُذيب (٥) . . » ثم قال : « ولما نزلنا بالحَسَنِيّة تساوى حامل المال وحامل الرمال ، وقل بلاء الغادي أين قال ، والرائح أين عرّس وبات . فلم نزل كذلك حتى بلغنا آمد ، ثم لما (٦) عادت السبيل إلى غوائلها ، وسَدِكَت (٧) الرفاق بمخاوفها .

فَما بَلَّغَتْنا إلاّ جَرِيضاً بلانِقْيِ العِظامِ ولا سَنامِ ». (٨)

فتكون رحلته هذه من بغداد على طريق الموصل ، وهي مدينة على طرف دجلة ، تقابل من الجانب الشرقي نينوى وميافارقين ، وهي بلدة

---

(١) نطّ ينط كضرب : زفر ، وأطّ يئط : صوّت ، والنسوع : جمع نسع ، سَيْر يضفر على هيئة أعنة النعال ، تشد به الرحال . (ج)

(٢) القوي على المشي الصبور . (ج)

(٣) هكذا في رسائله ، وفي ياقوت : انتعل ، وهو الأقرب إلى الصواب . (ج)

(٤) القَصَد : العوسج ، والشبهان : نبت يشبه الثمام أو ضرب من العضاه . (ج)

(٥) طنزة : وادٍ في ديار بني أسد . والعذيب : ما بين القادسية والمغيثة ، وقيل : وادٍ لبني تميم وهو من منازل الحاج الكوفة . (ج)

(٦) كذا في الاصل ، وفي الرسائل ــ لشاهين عطية ، والارشاد ــ لياقوت : « ثم عادت »

(٧) سدك بالشيء : لزمه . (ج)

(٨) الجريض : غصص الموت . والجريض : الهلك بعد شر ، وأفلت فلان جريضاً : أي يكاد يقضي . والنقي : مخ العظام وشحمها . (ج)

بديار بكر بقرب آمد . ثم إلى الحسنية ، وهي بلدة شرقي الموصل على يومين بينها وبين جزيرة ابن عمر . ثم منها إلى آمِد ، وضبطها بعضهم بضم الميم ، وهي بلدة بالثغور في ديار بكر، ودجلة محيط بأكثرها ثم منها الى الرقة ، وهي مدينة على الفرات معدودة في بلاد الجزيرة ولما وصلها كتب فيها إلى خاله كتابا شرح له فيه ماحمله على النزول . وليس في كلامه ما يدل على أنه نزل بالموصل أو ميافارقين .

والظاهر من كلامه أنه عاد من بغداد على ناقة ، فإنه قال : « سرت عن بغداد سيراً تنحط إبله وتشط نسوعه » . وقال في قصيدته العينية : [١]

وليتَ قِلاصا مِلْعِرَاقِ خَلَعْنَني ... جُعِلْنَ ولَمْ يَفْعَلْنَ ذاكَ مِنَ الخَلْعِ

وقد وصل المعرة ، فوجد أمه قد توفيت قبل مقدمه بمدة يسيرة ، ولم يعلم بذلك قبل قدومه ، كما يدل على ذلك عنوان رسالته الى خاله أبي القاسم (٦٧) [٢] ، وعنوان مرثيته في التنوير ج ٢ ص ٨٧ ، وقوله في رسالة إلى بعض العلوية أنفذها إليه من المعرة قال فيها ص (٨٤) [٢] ، « ووجدت الوالدة رحمها الله قد سبق بها القدر الى الدر ، فأتت النية بالمنية » . فقول صاحب (الذكرى) والميمني : [٣] « ورده خبر مرض أمه » . يحتاج الى مايؤيده . وقال البطليوسي في شرحه ص ١٤٥٣ : « قال أبو العلاء على قافية الميم في أمه ، وكانت توفيت قبل مقدمه من العراق . ولذلك قال في بعض شعره :

ووالِدَةٌ مَنَّيْتُ نَفْسِي لِقَاءَهَا ... فَعاجَلَهـا يَومٌ أَلَمٌ خَؤُونُ »

وهذا البيت لم نجده في ديوانه .

(١) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١٣٦٥ ، وخلعنني : أي أخرجني .
(٢) الرسائل ـ لشاهين عطية .
(٣) الذكرى ـ لطه حسين ـ ط ٢ ص ١٩١ ، وأبو العلاء وما إليه ـ للميمني ص ٢٦ .

اجماعه على الانفراد والعزلة وسبب ذلك

قضى أبو العلاء نحو خمس وثلاثين سنة في المعرة ، ونحو سنة وتسعة أشهر في بغداد . وكان دقيق الحسّ شديد الفطنة كثير الشك ، لاتكاد تمر به حادثة إلا أشبعها بحثاً ودراسة وتفكيرا ، وربما فهم من همس الشفاه وحركات الأعضاء أكثر مما يفهمه البصراء . وكان منذ حداثة سنه سيء الظن بالناس لا ينظر إليهم نظر الرضي والطمأنينة ، وكان كما قال : « وحشي الغريزة أنسيّ الولادة .. » . فزين ذلك كله له الانقباض عن الناس ، وحبب إليه العزلة .

فلما رحل إلى بغداد ، وكانت ملتقى الأمم من عرب وعجم ، ورأى ما رأى أو سمع ما سمع ازداد مقته للناس بقدر ما ازداد علمه بهم ، واطلاعه على ماتكنه صدورهم من أخلاق لاتتفق مع شيمه ، ومعرفته من أعمالهم ماتأباه الإنسانية . وقد صرح في قصيدة درعية بسبب سجنة فقال :(١)

بَنُو الوَقْتِ إِنْ غَرُّوكَ مِنْهُمْ بِحِكْمَةٍ فَمَا خَلْفَهَا إِلاَّ غَرائِزُ جُهَّالِ
لِذَاكَ سَجَنْتُ النَّفْسَ حَتَّى أَرَحْتُهَا مِنَ الإِنْسِ مَا أَخْلاهُ رَبْعٌ بِإِخْلالِ
إِذَا مَا حَلَلْتَ الجِذْبَ فَرْدًا بِلاَ أَذىً فَسَقْياً لَهُ مِنْ رَوْضَةٍ غَيْرِ مِحْلالِ

وكان فوق ذلك كله قليل المال كثير الأنفة ، مفرطاً في التعفف والإباء ، شديد الحسرة لفقد ناظريه ، وضيق ماله عن بلوغ آماله ، وتلبية سؤّاله ، كثير الحساد ، كثير الحياء ، شديد الاحتياط والحذر . يكره أن يرى الناس منه مالا يحمدون ، أو مايجعله عرضة للازدراء والاستهزاء به .

ولم يجد شيئاً ينجو به من كل ذلك أو من جله إلا اعتزال الناس . وزاده ضغثاً على إبّالة فقد أبيه ، وما لقيه في بغداد من الخشونة في بعض

(١) شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٨٨٠ .

الطبقة التي كان يتوقع أن تقدره حق قدره ، وتعرف له فضله وأدبه وعلمه، فاسودت الدنيا عنده ، كما اسود أهلها ، وقوى ذلك في نفسه الميل إلى الانفراد عن الناس ، وربما كانت نفس أبي العلاء تطمح إلى أسمى مكانة في الحياة ، ولكن الدهر ضرب بينه وبين أمانيه بالأسداد ، فزهد في الدنيا كلها ، لأنه لايرضيه الا أن ينال الإنسان أعظم منزلة فيها ، أو يعرض عن كل مافيها . ولعله فكر في الزمان وتصرفاته ، فلم يجد فيه سبيلا إلى الحياة الطيبة التي يبتغيها ، وجرب الناس ، فلم يزده ذلك الا زهداً في الدنيا وأهلها ، ولقد أشار إلى هذا بأبيات من قصيدة قالها في بغداد جواباً لابن فورجة ، حيث يقول :[1]

تَأَمَّلْنا الزّمانَ فَمَا وَجدْنا ... إلىْ طِيبِ الحياةِ بِهِ سَبيلا

ذَرِ الدُّنيا إذا لَمْ تَحظَ مِنْها[2] ... وَكُنْ فِيها كَثِيراً أوْ قَلِيلا

وأصْبِحْ واحِدَ الرَّجلَيْنِ إمّا ... مَلِيكًا في المَعاشِرِ أوْ أبيلا[3]

وبقوله من قصيدة قالها في بغداد أيضا :[4]

جرَّبْتُ دَهْرِي وأهلِيهِ فما تَرَكَتْ ... لِيَ التَّجارِبُ في وُدِّ امرِئٍ غرَضا

متى حدثت له فكرة العزلة وأين كان ذلك ؟

زعم بعضهم أن فكرة العزلة حدثت لأبي العلاء في بغداد ، وأنها أثر من آثار اطلاعه على كتب الفلسفة فيها واحتكاكه بالفلاسفة . وأطال في

(١) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١٢٧٠ .

(٢) البطليوسي : « فيها » .

(٣) الأبيل : المتدين أو القس ، والمراد به الراهب هاهنا .

(٤) شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٦٥٦ .

إثبات ذلك . ويظهر عند التأمل أن ذلك غير صحيح ، وأن هذه الفكرة قديمة في نفس أبي العلاء ، تدور في خلده قبل ذهابه إلى بغداد . ولعله لم يتمكن من المجاهرة بها قبل سفره . يدلنا على ذلك قوله في كتابه الآتي إلى أهل المعرة :[1] « وهو أمر أمري عليه بليل ... ليس بنتيج الساعةِ ، ولا ربيب الشهر والسنة ، ولكنه غذِيُّ الحِقبِ المتقادِمة ، وسليل الفِكَرِ الطويل » .

متى جاهر بالعزلة وأين كان ذلك ؟

أجمع أبو العلاء على اعتزاله الناس وانفراده عنهم ، وجهر بهذه الفكرة ، وهو في بغداد ، كما يتبين ذلك من رسالة كتبها إلى علوي يقول له فيها :[2] « وقد كنتُ عرَّفتُه بالعراق ، ما عزمت عليه من انفراد ، يَحجُز عن المراد ، ووجدت الوالدة ، رحمها الله ، قد سبق بها القدر الى المدر ، فأتت النبْوة بالمنِيّة ، فانطويت على يأس ومجانبة للناس .... » . وفيها يقول :[3] « ولما فاتني المقام بحيث اخترت ، أجمعت على انفراد يجعلني كالظبي في الكناس ، ويقطع مابيني وبينَ الناس ، إلا من وصلني الله به وصل الذراع باليد ، والليلة بالغد ... » .

وكتب إلى أهل المعرة كتاباً مَقْدَمَه من بغداد ، ولم يصل إليهم . وقد رسم في هذا الكتاب خطته التي يسير عليها مدة إقامته بين ظهرانيهم ،

(١) الرسائل ــ لشاهين عطية . ص ٨٢ ، وتعريف القدماء ص ٩٢ عن إرشاد الأريب ــ لياقوت ، وبه : « سُرِي عليه » .

(٢) رسائل أبي العلاء ــ لشاهين عطية ، ص ٨٤ .

(٣) النص من رسالته إلى خاله أبي القاسم كما في الرسائل ــ لشاهين عطية ، ص ٨٠ ، وكما في تعريف القدماء ص ٩١ ، وليس من رسالته إلى العلوي كما ذكر المؤلف ، والكناس : مأوى الظبي .

ويخبرهم فيه عما أجمع عليه من العزلة، وينهاهم عن زيارته؛ ويبين لهم السبب الذي رحل من أجله إلى العراق، وما لقيه فيها. وهذا الكتاب. وإن لم يصل إلى أهل المعرة، درج عليه أبو العلاء مدةَ حياته. وهذا هو الكتاب: (١)

« بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب إلى السَّكْنِ المقيم بالمعرة، شَمِلَهم الله بالسعادة، من أحمدَ بن عبد الله بن سليمان، خَصَّ به من عرفه وداناه، سلَّم اللهُ الجماعةَ ولا أَسْلَمَها، ولم شعثها ولا آلمها.

أما الآن فهذه مُناجاتي (٢) بعد منصرفي عن العراق، مجتمع أهل الجدل، وموطن بقيَّة السَّلف، بعد أن قَضَّيتُ الحداثة فانقضت، وودَّعت الشَّبيبةَ فمَضَتْ، وحَلَبْت الدهر أشطُره، وجرَّبت خيره وشرَّه، فوجدت أوفق (٣) ما أصنعه في أيام الحياة عُزلةً تجعلني من الناس كبارح الأرْوى (٤) من سانح النَّعام، وما ألَوْت نصيحة لنفسي، ولا قصَّرت في اجتذاب المنفعة إلى حيِّزي؛ فأجمعت على ذلك، واستخرت الله فيه، بعد جلائه على نفر يوثَق بخصائلهم، فكلهم رآه حزماً، وعده إذا تم رشدا،

---

(١) انظر ما سبق ص ٢٨٢ الحاشية (١).

(٢) كذا في الأصل، وفي الرسائل، وإرشاد الأريب: « مناجاتي إيام مُنْصَرَفي ».

(٣) في ابن العديم: «أقوى ما أصنعه أيام الحياة أن أخذت». (ج)

(٤) البارح من الصيد: ما مرَّ من ميامنك إلى مياسرك، وبعض العرب يتطيرون به، والأروى: الوعول. والسانح: ما مر من مياسرك إلى ميامنك. ومن أمثالهم « من يجمع بين الأروى والنعام »، وذلك أن مساكن الأروى شعف الجبال، ومساكن النعام السهولة، فهما لا يجتمعان أبداً. (اللسان، نعم).

وهو أمر أسري عليه بليل (١) ، قضي بِبَقّة (٢) ، وخِبْتَ (٣) به النعامة ، ليس بنتيجة الساعة ، ولا ربيب الشهر والسنة ، ولكنّه غذِيُّ الحقب المتقادمة ، وسليل الفكر الطويل . وبادرت إعلامهم ذلك ، مخافة أن يتفضل منهم متفضل بالنهوض إلى المنزل الجارية عادتي بسكناه ، ليلقاني فيه ، فيتعذر ذلك عليه ، فأكون قد جمعت بين سَمْجين (٤) : سوء الأدب وسوء القطيعة . وربَّ مَلومٍ لاذنب له . والمثل السائر : خلِّ امرأً وما اختار . وما أسمحت (٥) القرون بالاياب حتى وعدتها أشياء ثلاثة : نَبْذةً كنبذة (٦) فنيق النجوم ، وانقضاباً (٧) من العالم كانقضاب القائبة من القُوب ، وثباتاً في البلد إنْ حال (٨) أهله من خوف الروم . فإن أبي من يُشْفق عليّ أو يظهر الشفق إلا النّفرة مع السّواد كانت نفرة الأعفر (٩) أو الأدماء .

---

(١) في مجمع الأمثال : أمر سري عليه بليل . أي قد تقدم فيه ، وليس فجأة . (ج)

(٢) في نسخة « بِبقّة » وهو الصواب . وبقّة : موضع قرب الحيرة ، كان به جذيمة الأبرش ، فاستشار قصيراً بالمسير الى الزباء ، فأشار عليه فلما قرب منها ، وأحاط به جيشها ، قال : ما الرأي يا قصير ؟ فقال له : ببقّة خلفت الرأي . ولفظه في مجمع الامثال : ببقة صرم الأمر . وقال : بقة موضع بالشام من شاطئ الفرات ، وذكره مرة أخرى فقال : ببقة خلفت الرأي . (ج)

(٣) من الخبب : وهو ضرب من المشي .

(٤) قبيحين .

(٥) كذا ، وفي الرسائل - لشاهين عطية ، وإرشاد الأريب : « سمحت » والقرُون : النفس .

(٦) نبذة : من نبذ الشيء إذا طرحه ، والفنيق : ما انشق عن الشيء ، والنجوم : مفردها نجم ، ما نجم من النبات على غير ساق ، يريد أنه يطرح نفسه كما يطرح هذا النبات على وجه الارض بعد أن تنشق الحبة عنه وينجم .

(٧) انقضاباً : انقطاعاً ، القائبة : البيضة ، القوب : الفرخ .

(٨) في الدمع : « إن جلا أهله » . (ج) وحال أي تحول .

(٩) ونبه : « الأصحب » . (ج) ، والأعفر : الظبي تعلو بياضه حمرة ، ونفرة الأعفر : شروده .

وأحلف ماسافرت أستكثر من النشب ، ولا أتكثر بلقاء الرجال . ولكن آثرت الإقامة بدار العلم فشاهدت أنفس مكان[1] لم يسعف الزمن بإقامتي فيه ، والجاهل مُغالِب القدر . فلَهِيت عما استأثر به الزمان . والله يجعلهم أحلاسَ الأوطان ، لا أحلاسَ الخيل والركاب . ويسبغْ عليهم النعمة سبوغ القمراء[2] الطلقة على الظبي الغرير ، ويحسن جزاء البغداديين ، فلقد وصفوني بما لا أستحق ، وشهدوا لي بالفضيلة على غير علم ، وعرضوا عليّ أموالهم عرض الجد ، فصادفوني غير جَذِلٍ بالصفات ، ولا هشٍّ إلى معروف الأقوام ، ورحلت وهم لرحيلي كارهون ، وحسبي الله وعليه يتوكل المتوكلون » .

وقال في الفصول والغايات ج ١ ص ٢٧٣ : « طفت الآفاق ، فإذا الدنيا نفاق ، ومللت من مداراة العالم بما يضر غيرَه الفؤاد ، فاخترت الوحدة على جليس الصدق ، ليتني مع الظليم المجفاج[3] » .

وقال في ص ٢٩٧ : « إنما أنا حي كالميت ، أو ميّت كالحي ، وما اعتزلت إلا بعد ما جَدَدْتُ وهَزَلْت ، فوَجَدْتُني لا أنفُذُ في جِدٍّ ولا هَزْل ، ولا أخْصِبُ في التصريح[4] ولا الأزْل ، فعليّ بالصبر ، لا بد للمُبْهَمَةِ مِنَ انفراج » .

ومحصل ما يستنتج من أقواله : أن فكرة العزلة كانت تدور في خلده قبل أن يشخص إلى بغداد ، وأنه عزم على إخراجها إلى حيز الوجود في بغداد ، ثم في المعرة . وليست أثرا من آثار احتكاكه بالفلاسفة واطلاعه على كتبهم .

---

(١) وفي ابن النديم : « أنفس ما كان » . (ج)

(٢) البيضاء . (ج) . والطلقة : الليلة لا حر فيها ولا برد .

(٣) الظليم : ذكر النعام ، والمجفاج : النفور أو الكثير الصياح . (ج)

(٤) كذا في الأصل ، وفي الفصول : « في التسريح » . والأزْل : الحبس .

ماذا فعل بعد رجوعه الى المعرة ؟

بعد أن عاد إلى المعرة ، وجد أمه قد ماتت ، أقام في منزله حينا لا يدخل عليه ، ثم اضطره أقرباؤه وأصحابه إلى فتح بابه لزائرين والمتعلمين ولم يوفق إلى الاعتزال ، كما سيأتي في لزومه بيته .

حنينه الى بغداد

قدمنا فيما سبق شيئاً من حنينه إلى المعرة والعواصم حين كان ببغداد ، وبعد أن عاد إلى المعرة ، وألقى عصا التسيار فيها ، تذكر بغداد ومن كان يلقاهم فيها من إخوان الصفاء والمودة ، وما مر له معهم فيها من الأوقات الطيبة والمجالس المستعذبة ، فهاجت الذكرى أشواقه ، وجعل يبعث الزفرة تلو الزفرة ، والحسرة بعد الحسرة على مفارقتهم . وكان كلما ضاق ذرعا ببغداد تشوق إلى المعرة وهلها ، فصار كلما ضاق ذرعه في المعرة تشوق إلى بغداد ومن عرفه فيها . شأن كل إنسان يجتوي مكانه ويسأم مَن حوله من إخوانه وأخدانه . وقد أكثر في شعره من اللوعة والحنين إلى بغداد ومن فيها ، ومدحها ومدحهم . من ذلك قوله في قصيدة كتبها إلى القاضي التنوخي (١) :

سَقْياً لِدِجْلَةَ والدُّنْيا مُفَرَّقَةٌ ... حَتَّى يَعُودَ اجْتِماعُ النَّجْمِ تَشْتِيتا (٢)

وبَعْدَها لا أُرِيدُ الشُّرْبَ مِنْ نَهَرٍ ... كَأَنَّما أَنا مِنْ أَصْحابِ طالُوتا (٣)

* * *

(١) شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٦٣٨ .

(٢) النجم : الثريا . يريد أن الدنيا تفرق كل مجتمع حتى الثريا . (ج)

(٣) طالوت : ملك ، يشير إلى الآية الكريمة (فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فانه مني) . (ج)

ذَمَّ الوَلِيدُ[١] ولمْ أذُمُمْ جوارَكُمْ   فَقالَ مَا أنصَفَتْ بَغْدادُ حُوشِيتا
فَإنْ لَقِيتُ وَلِيداً والنَّوَى[٢] قَذَفٌ[٣]   يَوْمَ القِيامَةِ لَمْ أعدِمْهُ تَبكِيتا

وقوله من قصيدة أرسلها إلى أبي أحمد عبد السلام البصري : [٤]

أَلَمْ يَأْتِكُمْ أنّي تَفَرَّدْتُ بَعْدَكُمْ   مِنَ الإِنسِ مَنْ يَشْرَبْ مِنَ العِدِّ يَنْقَعِ[٥]
نَعَمْ حبّذا قَيْظُ العِراقِ وإنْ غدا   يَبُثُّ جماراً في مَقيلٍ ومَضْجَعِ
فَكَمْ حلَّهُ مِنْ أصمَعِ القَلْبِ آيسٍ   يَفُوقُ ابنَ أوْسٍ فَضْلُهُ وابنَ أصْمَعِ[٦]
أخَفُّ لِذِكْراهُ وأحفَظُ غَيْبَهُ   وأنهَضُ فِعْلَ النّاسِكِ المُتَشَرِّعِ[٧]

* * *

---

(١) الوليد : البحتري ، قال من أبيات :
ما أنصفت بغداد حين توحشت   لنزيلها وهي المحل الآنس . (ج)

(٢) الخوارزمي : « والمدى » والقذف : البعيدة .

(٣) البطليوسي : « كثب » .

(٤) شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٥٨٨ .

(٥) العد : الماء الذي لا ينقطع ، وينقع : يروى ويشفي غله . (ج) . وفي الشروح : « عن الإنس » .

(٦) ابن اوس : أبو تمام حبيب بن أوس : وابن أصمع : عبد الملك بن قريب الأصمعي . ورواه التبريزي : « يطول ابن أوس » وقال : هو حبيب بن أوس الطائي ، وكذلك البطليوسي . وقال الخوارزمي : ابن أوس ، هو أبو زيد سعيد بن أوس بن ثابت ابن زيد الأنصاري ولد سنة ١٢١ هـ ومات سنة ٢١٤ هـ ، ثم قال : ويحتمل أن يريد أبا تمام حبيب بن أوس فراجعه ص ١٥٨٩ . (ج)

(٧) وفي الشروح : « المتخشع » .

ومنها :

لَقَدْ نَصَحَتْنِي في المُقامِ بأَرْضِكُمْ ... رِجالٌ ولكنْ رُبَّ نُصْحٍ مُضَيَّعِ
فلا كان سَيْرِي عَنْكُمُ سَيْرَ(١) مُلْحِدٍ ... يَقُولُ بيأسٍ من مَعادٍ ومَرْجِعِ

وقوله من قصيدة كتبها إلى خازن دار العلم : (٢)

وَلي حاجةٌ عِنْدَ العِراقِ وأَهْلِهِ ... فإنْ تَقْضِياها فالجَزاءُ هُوَ الشَّرْطُ
سَلا عُلَماءَ الجانِبَيْنِ وفِتْيَةً ... أَبَنُّوهُما(٣) حتَّى مَفارِقُهُمْ شُمْطُ
أَعِنْدَهُمُ عِلْمُ السُّلُوِّ لِسائِلٍ ... بهِ الرَّكْبَ لَمْ يَعْرِفْ أَماكِنَهُ قَطُّ
وَمَا أَرَبي إلاَّ مُعَرَّسُ مَعْشَرٍ ... هُمُ النَّاسُ لا سُوقُ العَرُوسِ ولا الشَّطُّ

. . .

ومنها :

ألا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَدِينُ رَكائِباً ... أَمُطُّ بها حَتَّى يُطَلِّحَها المَطُّ(٤)
وَهَلْ يُنْشِطَنِّي مِنْ عِقالي إليكُمُ ... رِضى زَمَنِي أَمْ كُلُّ شِيمَتِهِ سُخْطُ

. . .

(١) وفي شروح السقط : « رأي » .
(٢) شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٦٦٨ .
(٣) أبنّ : أقام . (ج)
(٤) المط : المد . طلّحه : أتعبه حتى أعيا . (ج)

ومنها :

وإنْ خلَطتْني بالتُّرابِ مَنِيَّةٌ ... فبَعضُ تُرابي مِن مَوَدَّتِكُم خِلطُ
فيا لَيتَني طارَتْ بِكوري إذا دَنا ... بُكوري قَطاةٌ بالصَّراةِ لها وَقْطُ[1]
لأقضِيَ هَمَّ النَّفسِ قَبلَ مَجَلَّةٍ[2] ... كأنَّ عِظامي البالياتِ بها خَطُّ

ومما جاء في (لزوم مالا يلزم) قوله : [3]

يا لَهفَ نَفسي عَلى أنِّي رَجَعتُ إلى ... هذي البِلادِ ولَم أهلِكْ بِبَغداذا
إذا رَأيتُ أُموراً لا تُوافِقُني ... قُلتُ الإيابُ إلى الأوطانِ أدّى ذا

وقوله : [4]

شُئِمتِ يا هِمَّةً عادَتْ شآمِيَةً ... مِن بَعدِما أوطَنَتْ عَصراً بِبَغداذِ
ولَستِ ذاتَ نَخيلٍ لا ولا أُنُفٍ ... كَرْمِيَّةٍ فَتَقولي شَفَّني داذي[5]

---

(١) الوقط : نقرة في صخرة يجتمع فيها ماء المطر ترده القطا . (ج) ، ورواية الشروح : « بكوري إذ دنا » ، والكور : الرحل ، والصراة : مجتمع دجلة والفرات .
(٢) أراد بالمجلة : القبر ، وشبه عظامه البالية بعد موته بالخط الذي درس معظمه وبقيت منه آثار يستدل بها عليه . وفي الخوارزمي : السماع « محلة » بالحاء وروي بالجيم وهي الصحيفة التي فيها الحكمة . (ج)
(٣) اللزوميات ١ ص ١١٦ .
(٤) اللزوميات ١ ص ١١٧ .
(٥) الداذي : نبت . وقيل هو شيء له عنقود مستطيل وحبه على شكل حب الشعير ، يوضع منه مقدار رطل في الفَرَق ، فتعبق رائحته ويجود إسكاره ، جاء على لفظ النسب وليس بنسب . (ج)

حزنه في بغداد على مفارقتها ومفارقة أهلها

كان قبل أن يفارق بغداد يكثر من إظهار اللوعة لفراقها ، ويكثر الولوع بمن فيها ، ويعبّر بشعره عما يعتلج في صدره من الأسف على فراقها ، وعما يضمره في نفسه من الولاء والحب والاعتراف بالجميل لأهلها ، من ذلك قوله من قصيدة قالها في بغداد يجيء القاضي التنوخي : (١)

إِذا نَأَتِ العِراقَ بِنا المَطَايا ... فَلا كُنَّا وَلاَ كَانَ المطِيُّ
عَلَى الدُّنيا السَّلامُ فَمَا حَياةٌ ... إِذا فَارَقْتُكُمْ إِلاَّ نَعِيُّ (٢)

وقال من قصيدة قالها ببغداد يودعها : (٣)

أُوَدِّعُكُمْ يَا أَهْلَ بَغْدادَ والحَشَى ... عَلَى زَفَراتٍ مَا يَنِينَ مِنَ اللَّذْعِ (٤)
وَدَاعَ ضَنٍ لَمْ يَسْتَقِلَّ وإِنَّما ... تَحامَلَ مِنْ بَعْدِ العِثارِ عَلَى ظَلْعِ (٥)
إِذا أَطَّ نِسْعٌ قُلْتُ واللَّوْمُ كَارِبِي ... أَجِدَّكُمُ لَمْ تَفْهَمُوا طَرَبَ النِّسْعِ (٦)
فَبِئْسَ البَدِيلُ الشَّامُ عَنْكُمْ وَأَهْلُهُ ... عَلَى أَنَّهُمْ قَوْمِي وَبَيْنَهُمُ رَبْعِي (٧)

---

(١) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١٣٣٠ .

(٢) كذا في التنوير والتبريزي ، وروايته في الشروح : « النَّعِيُّ » .

(٣) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١٣٤٩ .

(٤) ينين : يفترن . (ج)

(٥) الضنى : مرض ملازم ، وضنٍ : مضنى . والظلع : الغمز في مشي الدابة ، وهو شبيه بالعرج . (ج) . ورواية الشروح : « وداع ضنىً » .

(٦) أطّ : صوّت ، والنسع : سير مضفور . (ج)

(٧) في الشروح : « الشَّأْمُ منكم » .

أَلا زَوِّدُوني شَرْبَةً ولَوَ انَّنِي قَدَرْتُ إِذاً أَفْنَيْتُ دِجلَةَ بِالجَرْعِ
وأَنَّى لَنا مِنْ مَاءِ دِجْلَةَ نَغْبَةٌ عَلى الخِمْسِ مِنْ بُعْدِ المَفاوِزِ والرِّبْعِ (١)

. . .

ومنها :

سَأُعْرِضُ إِنْ نَاجَيْتُ مِنْ غَيرِكُمْ فَتًى
وأَجْعَلُ زَوًّا مِنْ بَنانِيَ في سَمْعِي (٢)

. . .

ومنها :

أَبَيْتُ فَلَمْ أَطْعَمْ نَقِيعَ فِراقِكُمْ مُطاوَعَةً حَتَّى غُلِبْتُ عَلى النَّشْعِ (٣)

. . .

ومنها :

لَبِسْتُ حِداداً بَعْدَكُمْ كُلَّ لَيْلَةٍ
مِنَ الدُّهْمِ لا الغُرِّ الحِسانِ ولا الدُّرْعِ (٤)

---

(١) نغبة : جرعة . والخِمس والرِّبْع : من أظماء الابل . (ج)
(٢) الزوّ : الزوج . (ج)
(٣) النقيع : ما نقع في ماء أو ما يجري مجراه . والنشع : الاسعاط . (ج)
(٤) الدهم : السود . والغر : البيض . والدرع : قيل : التي تسود أوائلها وبيض سائرها وقيل : والغر ، ليلة ثلاث عشرة وأربع عشرة وخمس عشرة . والغرر : ثلاث ليال من أول الشهر ، والدرع : الثلاث من ليالي الشهر بعد البيض . وقال الخارزنجي : ثلاث ليال أول الشهر درع وثلاث من آخره درع . (ج)

ثم تمنى في بقية هذه القصيدة أن يحم له أجله في العراق ، حتى لايفارق أهلها ، وتمنى للنوق التي حملته من العراق أن تنحر ويطبخ لحمها في الخلع (١) .

ومنها قوله من قصيدة أجاب بها ابن فورجة : (٢)

وَرَدْنا مَاءَ دِجلَةَ خيْرَ ماءٍ ... وزُرْنا أشرَفَ الشَّجَرِ النَّخيلا
وزُلْنا بِالغَليلِ ومَا اشْتَفَيْنا ... وغايَةُ كُلِّ شَيْءٍ أنْ يَزُولا

ولا أعلم شاعراً زار مدينة من المدن فأكثر من الثناء عليها وعلى أهلها ، ومن الحنين إليها وإليهم مثل أبي العلاء . فإنه أكثر من الثناء والمدح على بغداد وأهلها ، واعترف لهم بكل جميل ، وأكثر اللوعة والحزن على مرافها ، وتمنى أن يموت فيها في نظمه ونثره . وقد رأيتَ مثالاً من ذلك .

* * *

(١) الخلع : أن ينحر الجزور ويطبخ لحمها بشحمها ويطرح فيها توابل ثم يفرغ في جلد .
(٢) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١٣٩٩ .

المقالة الثانية

حياة أبي العلاء في المعرة

بعد عودته من بغداد

قدمنا شيئاً من الكلام على حياة أبي العلاء، من أول نشأته إلى أن عاد من بغداد. ورافقناه في أكثر المواقف التي استطعنا معرفتها، ووصفنا المشاهد التي أمكننا وصفها. وألممنا بما وقع له وعليه في هذا الطور، إلى أن رجع من بغداد، وألقى عصاه في وطنه. والآن نذكر ما انتهى إلينا من أخباره وأطواره، وما اكتنف حياته كلها إلى أن فارق الحياة. ولما كان المال أساس كل شيء في هذه الحياة، وبسبب اختلافه في القلة والكثرة، تختلف أحوال الإنسان، رأينا أن نقدم الكلام على ماله، فنقول:

ماله

اختلفت كلمة القوم في مال أبي العلاء. فقال القفطي (١): «لم يكن من ذوي الأحوال في الدنيا، وإنما خلّف له وَقْف يشاركه فيه غيره من قومه ... وكان الذي يحصل له في السنة مقدار ثلاثين ديناراً، قدر لمن يخدمه النصف، وأبقى النصف الآخر لمؤونته».

وقال الذهبي وابن حجر في لسان الميزان نحواً من هذا (٢). وسيأتي أنه كتب الرسالة السندية إلى سند الدولة في معنى خراج على مُلكه في

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٣١ عن إنباه الرواة — للقفطي.

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ١٩٠، ٣١٢، عن تاريخ الاسلام — للذهبي — ولسان الميزان — لابن حجر.

معرة النعمان ، ولم أر أحداً عين هذا الملك ، ولا ذلك الوقف . وسيأتي أيضاً أن له داراً فوراء ، وخدماً ونحو ذلك . وكل هذا كلام مجمل غامض قائم على الظن .

أما أبو العلاء ، فقد قال في جوابه إلى داعي الدعاة (١) : « ومما حثّني على ترك أكل الحيوان أن الذي لي في السنة نيفٌ وعشرون ديناراً ، فإذا أخذ خادمي بعضَ مايجب ، بقي مالا يعجب » .

والنيف مازاد على العقد ، ولم يبين مقداره ، ولا بيّن الجهة التي يحصل له منها هذا المقدار ، هل هي ملك أم وقف ؟ . ولما كان هذا المبلغ قليلا لايسد حاجات أبي العلاء لأنه كان يجري على كتّابه أرزاقاً معينة ، وينفق على طلابه ، ويعطي قاصديه ، وهم كثر ، كان يعد هذا المال كلا مال . ولذلك كان يشكو قلة المال حينا ، وينفيه حيناً آخر ، كقوله من أبيات قالها بعد أن وهب له المعرةَ صالحُ بن مرداس : (٢)

ما كانَ لي فيها جَناحُ بَعُوضَةٍ ... واللهُ أَلْبَسَنِي جَناحَ تَفَضُّلِ

وقوله : (٣)

مَاذا تُرِيدُونَ لا مَالٌ تَيَسَّرَ لِي ... فَيُستَماحُ وَلاَ عِلْمٌ فَيُقْتَبَسُ

وقوله في كتابه إلى صدقة بن يوسف : (٤) « ولم أكن صاحب ثروة فكيف الحُداء بغير بعير .. » وسنأتي في الكلام على المال طائفة من كلامه في ذلك .

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ١٢٥ ، ٣١٦ ، عن إرشاد الأريب — لياقوت — ولسان الميزان — لابن حجر .

(٢) اللزوميات ٥ ص ٢٢٠ ، وفيها « ألبسهم » .

(٣) اللزوميات ٥ ص ٣١٣ .

(٤) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٢٠٤ عن مسالك الابصار — للعمري .

فالذي يمكن التعويل عليه، هو أن ماله نيف وعشرون دينارا، يأخذ خادمه بعضها، والباقي يسد به رمقه، ويؤدي بها حقوق أضيافه وقاصديه، ويجري على كتّابه، ويقوم بكل مايحتاج إليه منها.

طعامه

بعد أن علمنا ما كان لأبي العلاء من المال في السنة، لانستنكر أن نراه يعيش عيشة الشظف والخشونة، ويصاحب صوم الدهر منذ بلغ ثلاثين عاما، ويقتصر على النبات حتى صار ذلك طبعا له. وقد قال في رسالته إلى داعي الدعاة [1] : «فلمـا بلغ العبد الضعيف العاجز اختلاف الأقوال، وبلغ ثلاثين عاما، سأل ربه إنعاماً، ورزقه صوم الدهر، فلم يفطر في السنة ولا في الشهر إلا في العيدين... وظن اقتناعه بالنبات يثبت له جميل العافية .... فاقتصرت على فول وبُلسن، ومـا لا يعذب على الألسن ...».

وقال في رسالة ثانية إليه [2] : «فالعبد الضعيف العاجز ماله رغبة في التوسع ومعاودة الأطعمة، وتركها صار له طبعا ثانياً. وإنه ما أكل شيئاً من حيوان خمساً وأربعين سنة».

وذكر الرحالة الفارسي، أنه لم يكن يأكل غير نصف مَنٍّ [3] من خبز الشعير، وربما أكل طعاماً بلا إدام ليلا.

---

(١) ياقوت ١ : ١٩٩، لسان الميزان ١ : ٢٠٦. (ج) وفي تعريف القدماء ص ١٢٣ عن الإرشاد ــ لياقوت ــ «فلم يفطر في السنة ولا الشهر إلا العيدين».

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ١٣٢ عن إرشاد الأريب — لياقوت.

(٣) المنّ : الذي يوزن بـه رطلان، والرطل ١٢٨ درهما تقريباً (ج) تعريف القدماء ص ٤٦١ عن سفرنامة — لناصر خسرو، وفي النص اختلاف.

وفي (لسان الميزان) (١) : « بقي خمساً وأربعين سنة ، لا يأكل اللحم ولا البيض ولا اللبن ، ويقتصر على ماتنبت الأرض ، ويلبس خشن الثياب ، ويديم الصوم » . وذكر ابن الجوزي في (المنتظم) ، وياقوت نحواً من هذا . وقال القفطي والصفدي (٢) : « كان أكله العدس إذا أكل مطبوخاً ، وحلاوته التين » . وسيأتي أنه أكل دبسا .

هذا ماقاله العلماء في طعامه ، وما نقلوه عنه ، وقد أشار في شعره إلى ما كان يرتضيه من الأطعمة ، وما كان يأباه منها . فمن الأول قوله :

يُقْنِعُنِي بُلْسُنٌ يُمارَسُ لي وإنْ أتَتْنِي حَلاوَةٌ فَبَلَس (٣)

فَلُسَّ ماأخْتَرْتَ إنْ أرَوْحَ مِنْ يَسارِ قارُونَ عِفَّةٌ وَفَلَس (٤)

. . .

وقوله : (٥)

وقُوتِيَ الشَّيْءُ أبى مِثْلَهُ فَصِيحُ هذا الخَلْقِ والألْكَنُ

. . .

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٢١٥ عن لسان الميزان — لابن حجر .

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٣١ ، ٢٧٤ عن إنباه الرواة — للقفطي ، والوافي — للصفدي .

(٣) البلسن : العدس أو حب مثله ، والبلس : التين (ج) والبيتان في اللزوميات ه ص ٣٢٦ ، وفيها « فإن » .

(٤) لسَّ : أكل . ولسّت الدابة الحشيش : تناوله وتنفه بجحلتها ، والفلس : عدم النيل (ج) .

(٥) اللزوميات ه ص ٢٦٣ ، والألكن : من لا يقيم العربية لعجلة لسانه .

وقوله : (١)

أقفَرْتُ مِنْ جِهتَيْنِ قَفرِ مَفازَةٍ وطَعَامِ لَيْلٍ جاء وهْوَ قَفَارُ

• • •

وقوله : (٢)

ومَا عِرسِيَ حَوْراء ولا خُبزِيَ حُوّارَى

• • •

وقوله :

وإِذا غَلا البُرُّ النَّقِيُّ فَشَارِكِ الْـــفَرَسَ الكَرِيمَ وَسَاوِطَرْفَكَ تَمْجُدِ (٣)

واجعَلْ لِنَفسِكَ مِنْ سَلِيطٍ ضِيائها أُدْمًا ونَزْرَ حلاوةٍ مِنْ عَنْجَدِ (٤)

• • •

(١) أقفر الرجل : صار إلى القفر ، وهو الخلاء من الأرض ، وأقفر : أكل طعامه بلا إدام . (ج) والبيت من قصيدة في الزوميات ﻫ س ١٣١ .

(٢) حوراء : من الحور ، وهو شدة سواد المقلة في شدة بياضها في شدة بياض الجسد . والحوراء : البيضاء ، والحوارى : الدقيق الأبيض ، وهو لباب الدقيق وأجوده وأخلصه . (ج) الزوميات ﻫ س ٢٨ .

(٣) البر : الحنطة ، والطرف : الفرس ، والمراد مساواته في أكل الشعير . (ج) والبيتان في الزوميات ﻫ س ١١٣ .

(٤) السليط : الزيت ، والعنجد كجعفر وقنفذ : حب العنب والزبيب ، والادام : ما يؤتدم به مائعاً كان أو جامداً ، وجمعه أُدُم مثل كتاب وكتب ويسكن للتخفيف فيعامل معاملة المفرد ، ويجمع على آدام ، مثل قفل وأقفال (ج) .

وقوله : (١)

يَكفيكَ أُدمًا سَليطٌ مَا أُريقَ لَهُ دَمٌ ولا مَسَّ رُوحًا إذْ جَرَى أَلَمُ

* * *

وقوله : (٢)

فَاترُكْ لِأهلِ المُلكِ لَذّاتِهِمْ فَحَسْبُنَا الكَمأةُ والأحْبَلُ

* * *

وقوله : (٣)

طَهَتْ لَكَ الشَّمسُ ما يُغنِي أَخادَعَةٍ عَنْ أنْ يَكُونَ لَهُ في الأرضِ طاهُونَا

* * *

وقوله : (٤)

غَدَوْتُ أُعِدُّ الحُرْفَ سَعْدًا كَأَنَّنِي ظَلِيمٌ تَغَذَّى راضِيًا بِهَبِيدِ

ومن الثاني قوله (٥) :

أَبَى اللهُ أكلِي دَرَّ ضَأْنٍ ومَاعِزٍ وإِذخَالِيَ الأَمرَ المُضِرَّ عَلَى السَّخْلِ

* * *

---

(١) اللزوميات هـ ص ٢٣٢ .

(٢) الأحبل كأحد وإثمد : اللوبياء (ج) اللزوميات هـ ص ٢٠٠ .

(٣) طهت : طبخت وأنضجت ، والدعة : الخفض في العيش والراحة . (ج) اللزوميات هـ ص ٢٦٤ .

(٤) الحرف : حب الرشاد ، وهو حب كالخردل ، والظليم : ذكر النعام ، والهبيد : الحنظل . (ج) اللزوميات هـ ص ١٠٦ .

(٥) الدر اللبن ، والسخل جمع سخلة : ولد الشاة من الضأن والمعز . اللزوميات هـ ص ٢١٠ وفيها : « أبى الله أخذي » .

وقوله : (١)

لا أشْرَكُ الجدْيَ في دَرٍّ تَعِيشُ بِهِ ... ولا أرُوعُ بَناتِ الوَحْشِ والضَّانِ

. . .

وقوله : (٢)

لا أفجَعُ الأمَّ بِالرَّضِيعِ وَلا ... أشْرَكُ هنا الفَرِيرَ بِاللَّبَنِ
أقتاتُ مِنْ طِيبِ النَّباتِ وَهَلْ ... يَسْلَمُ عُودُ الفَتى مِنَ الأُبَنِ (٣)

. . .

وقوله : (٤)

تَقِ اللهَ حتَّى في جَنَى النَّحْلِ شُرْتَهُ ... فما جَمَعَتْ إلا لأنفُسِها النَّحْلُ

. . .

وقوله : (٥)

أعْرِضْ عَنِ الثَّوْرِ مَصْبُوغاً أطايِبُهُ ... بِالزَّعْفَرانِ إلى ثَوْرٍ مِنَ الأَقِطِ

. . .

---

(١) الجدي : الذكر من أولاد المزى . (ج) الزوميات هـ ص ٢٧٧ .
(٢) الفرير: ولد البقرة الوحشية . (ج) البيتان في الزوميات هـ ص ٢٨١ . وفيها : « في اللبن »
(٣) الأبن جمع أبنة : العقدة ، وفي الزوميات « طيب النهات » ولعلها تصحيف .
(٤) الجنى : العسل ، وشاره يشوره : استخرجه من الوقبة واجتناه . (ج) الزوميات هـ ص ١٩٤ .
(٥) الثور : ذكر البقر ، والقطعة العظيمة من الأقط ، وهو لبن جامد مستحجر ، وأطايب الجزور : خيره . (ج) الزوميات هـ ص ١٧٩ .

وقوله : (١)

فَلاَ تَأْكُلَنْ مَا أَخْرَجَ البَحْرُ ظَالِمًا ولا تَبْغِ قُوتًا مِنْ غَرِيضِ الذَّبَائِحِ

* * *

إلى آخر هذه الأبيات الآتية في الرفق بالحيوان .

ترك أكل لحم الحيوان وما تولد منه

يحدثنا أبو العلاء أنه ما أكل حيوانا ، ولا ماتولّد من حيوان ، خمسا وأربعين سنة ، وظل متشدّداً في اجتناب اللحم إلى ان مات . وقد ذكر ياقوت[٢] ج ١ ص ١٧٠ ، أنه مرض مرة ، فوصف له الطبيب فرُّوجا ، فلما جيء به لمسه بيده وقال : استضعفوك فوصفوك ، هلا وصفوا شبل الأسد ؟!. وفي (نزهة الألباء) : « وصف لمريض فرّوج ... » .

سبب ترك اللحم

ذهب بعض الأدباء إلى أن أبا العلاء كان برهميا ، فكان لايأكل الحيوان ولا ماتولد منه تدينا واعتقادا . وذهب بعض آخر إلى أنه كان لايأكل ذلك زهادة .

وذكر أبو العلاء نفسه ، في رسائله إلى داعي الدعاة ، أن السبب الأول الذي حمله على ترك أكل الحيوان وما تولد منه ، هو الرأفة به ، لأن الحيوان كله حساس يقع به الألم ، ولم يوصل إلى اللحوم إلا بايلام الحيوان ، وأنه تركه اجتهادا في التعبد ورحمة للمذبوح . وأن مما حثه على ترك أكله

(١) الغرض : الطري . (ج) اللزوميات هـ ص ٨٤ ، وفيها : « أخرج الماء » .
(٢) انظر معجم الأدباء .

أن الذي له في السنة نيف وعشرون ديناراً ، يأخذ بعضها خادمه . وقد أشار تلميذه علي بن همام المعري بقوله الآتي في رثائه (١):

إنْ كُنْتَ لَمْ تُرِقِ الدِّمَاءَ زَهَادَةً . . . .

إلى أن ذلك كان منه زهادة ، وقال ابن الوردي في تاريخه ج ١ ص٣٥٨ أن قول تلميذه : «لم ترق الدماء زهادة» ، يدفع قول من قال : إنه لم يرق الدماء فلسفة ونسبة إلى رأي الحكماء . وتلميذه أعرف به ممن هو غريب يرجم بالغيب . . . وسيأتي تتمة القول في هذا عند الكلام في دينه وزهده . وسيأتي أنه لم يأكل من البطيخ الذي استقدمه من حلب للجماعة ، وأنه كان يتناول ما يقوم بأوده من أيسر الموجودات .

شرابه

لم تكن زهادة أبي العلاء في اللاذ منحصرة في ترك اللحم واللبن ونحوه مما يتولد من الحيوان ، بل تعدى ذلك إلى هجر الأشربة وما يتصل بها من لذة وسرور ، وحكم على نفسه في ذلك حكما قاسيا . فلم يحدثنا التاريخ أنه شرب خمراً أو نبيذا ، ولا شهد مجلساً تدار فيه كؤوس الخمر . بل كتابه اللزوم يحدثنا أنه يعتقد في الخمر أنها باب كل بلية ، وأنها سم يردي باللب ، وأنها تجر ملاحاة الصديق ، وأنها ، وأنها ... ولو كانت حلالاً لما شربها ، لأنها تخفف ميزان حلمه . وأما قوله ، وهو في العراق :

تَمَنَّيْتُ أَنَّ الخَمْرَ حَلَّتْ لِنَشْوَةٍ . . . .

فلا يناقض اعتقاده في الخمر ، لأنه أراد بهذه الأبيات أن يبين مابلغ به الضيق والوحدة ، فتمنى أن تحل الخمر لتخفف من عنائه شيئا ، على كرهه لها ، والتمني ليس بفعل ، وإنما هو طلب مستحيل أو ما في حكمه في الغالب . وسيأتي في الكلام على مرضه أن ابن أخيه أتاه بقدح من سكنجبين ، حين حضرته الوفاة ، فامتنع . فحلف ابن أخيه أن لابد من أن يشربه ، فأجابه ببيتين .

(١) عجز البيت : «فلقد أرقت اليوم من جفني دما» انظر تعريف القدماء ص ٢٥ عن ياقوت .

آنيته

ولما كان أبو العلاء زاهداً في المطعم الطيب والمشرب الطيب ، كان زاهداً في اتخاذ الآنية النفيسة ، معرضاً عن اقتناء الفاخر منها ، ولقد بين في شعره ما كان يرتضيه وما لا يرتضيه منها فقال :[1]

وَنَشْرَبُ الماءَ بِراحاتِنــا إنْ لَمْ يَكُنْ مَا بَيْنَنَا جُنْبُلُ

. . .

وارْسُمْ بِفَخّارٍ شَرابَكَ لا تَرِدْ قَدَحَ اللُّجَيْنِ ولا إِناءَ العَسْجَدِ[2]

. . .

مِنْ مَذْهَبِي أن لا أشُدَّ بِفِضَّةٍ قَدَحِي ولا أُصْغِي لِشَرْبِ مُعَوَّجِ[3]

. . .

فَعُجْ يَدَكَ اليُمْنَى لِتَشْرَبَ طَاهِراً فَقَدْ عِيفَ لِلشُّرْبِ الإناءُ المُعَوَّجُ[4]

. . .

---

(١) الجنبل : قدح عظيم من خشب (ج) اللزوميات هـ ص ٢٠٠ .
(٢) اللزوميات هـ ص ١١٢ .
(٣) شده : أوثقه وقواه . وصغى إليه : مال ، وأصغى إليه رأسه : أماله . ومعوج : ركب فيه العاج وهو ناب الفيل أو عظمه . (ج) اللزوميات هـ ص ٧٨ وفيها « الا أشد » .
(٤) اللزوميات هـ ص ٧٣ .

قَدْ شَرِبْتُ المِيَاهَ بِالخَزَفِ الوَخْـــشِ فَأَغْنَى عَنْ مُحْكَمَاتٍ بِخَرْشِ [1]

ومنها يتبين أن إناءه الذي يشرب به من خشب أو فخار ، فإن لم يكن أحدهما شرب بيده ، ولا يتخذ قدحاً من فضة أو ذهب ولا مذهّبا ولا مُعَوَّجاً .

وقد وصف الماء الذي كان يشربه في الشتـــاء ، والكوز الذي كان يشرب به في السقط فقال : [2]

وَالمَاءُ وِرْدِي لا تَزَالُ نَوَاجِذِي فِي مُنْتَضَاهُ سَوَابِحًا كَأَوَازِمِ

يُمْسِي وَيُصْبِحُ كُوزُنَا مِنْ فِضَّةٍ مَلأَتْ فَمَ الصَّادِي كُسُورَ دَرَاهِمِ

يقول : إنه يشرب الماء وقد جمد بعضه لشدة البرد ، فنواجذه سابحة فيه عاضة عليه . والكوز قد جمد عليه الماء ، فكأنه معمول من فضة ، فإذا شرب امتلأ فمه فضة ككسور الدراهم .

لباسه وأثاثه وفراشه

ولد الإنسان عاريا من كل ساتر ، ثم استفظع أن تكون سوأته بادية ، لأن الله لم يجعل لها في بنيته ما يسترها ، فاتخذ لها لباساً يسترها من جهة ، ويقيه أذى الحر والبرد ، ويدفع عنه عادية الحيوان والطبيعة من جهة ثانية . ثم أخذ الناس يتنافسون في الملابس ، ليظهر فضل الغني على الفقير ؛ ولم

---

(١) الوخش : الرديء ، والخرش : الخدش . (ج) اللزوميات ﻫ ص ٣٢٨ .

(٢) شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٥١٨ ، والأوازم : العاضّة ، يقال ، أزم عليه إذا عض .

يقتصروا في ذلك على الأحياء ، بل تعدى إلى أكفان الموتى كما سيأتي .

وأبو العلاء يرى أن الغاية المقصودة من اللباس تحصل بأي نوع كان ، واتخاذ اللباس الفاخر ، فيه كسر لقلب الفقير وإسراف فيما يمكن الاستغناء عنه ، ولذلك كان لباسه خشن الثياب من القطن . وكان فراشه من لبـــاد في الشتاء وحصير من البردي في الصيف . وقد قص علينا في شعره ما كان يختاره من لباس وأثاث ، وهو يمثل صورة قاسية من الزهد ألزم بها نفسه ، من ذلك قوله :

لَمْ يَكُنْ لِي عَرْشٌ فَيُثْلَمَ عَرْشِي   كَمْ جُرُوحٍ جُرِحْتُهَا ذاتِ أَرْشِ (١)
مُقْنِعِي في الزَّمَانِ سِتْرِي ودِفْئِي   مِنَ لِباسٍ رَاقَ العُيُونَ وفَرْشِ (٢)

وقوله : (٣)

لِبَاسِيَ البِرْسُ فلا أَخْضَرٌ   وَلاَ خَلُوقِيٌّ ولا أَدْكَنُ

وكان يلبس ثوباً ليست له بطانة ، فيقاسي في الشتاء من شدة البرد

---

(١) العرش : البيت والمنزل وسرير الملك ، وشبه بيت من جريد يُجعل فوقه الثمام . ويثلم : يحدث فيه خلل . والأرش : الفساد ، ثم قيل لدية الجراحات : أرش . (ج) البيت والذي بعده في اللزوميات ۵ ص ٣٢٨ .

(٢) الفرش : المفروش من متاع البيت . (ج)

(٣) البِرْس : القطن ، والخلوقي : نسبة إلى الخَلُوق ، وهو طيب يتخذ من الزعفران وغيره وتغلب عليه الحمرة والصفرة . والدكنة : لون يضرب الى الغبرة بين الحمرة والسواد وقيل يضرب الى السواد ، دكِنَ كفرح فهو أدكن . (ج) اللزوميات ۵ ص ٢٦٣ .

مالا يحتمله غيره ، ولذلك كان يتمنى انقضاء الشتاء ، وقدوم الربيع والصيف ليدفأ ، كما يصور ذلك قوله : (١)

أُجاهِدُ بالظِّهارَةِ حِينَ أَشْتُو   وذَاكَ جِهادُ مِثْلِي والرِّباطُ
مَضى كانُونُ ما اسْتَعْمَلْتُ فِيهِ   حَمِيمَ المَاء فَاقْدَم يا سُباطُ
تُشابِهُ أَنْفَسَ الحَشَراتِ نَفْسِي   يَكُونُ لَهُنَّ بالصَّيْفِ ارْتِباطُ (٢)

وسيأتي أن عبد الله بن الوليد بن عريب رأى أبا العلاء قاعداً على سجادة لبد يسبح . وقال الرحالة ناصر خسرو : « إنه تردى ببرجد » . ويأتي عن (النور السافر) أن لأبي العلاء سريراً يجلس عليه . ولكن لم يبين لنا نوع ذلك السرير . وكلامه في السقط يدل على أن له بساطاً ونمرقة أثرت فيها ناره مع ضعفها ، وذلك قوله : (٣)

وَلَدَيَّ نارٌ لَيْتَ قَلْبِي مِثْلُها   فَيَكُونَ فَاقِدَ وَقْدَةٍ وسَخَائِمِ
عَبِثَتْ بِثَوْبِي والبِساطِ وغَادَرَتْ   في نُمْرُقِي أَثَراً كَوَسْمِ الوَاسِمِ

---

(١) الجهاد : محاربة العدو ، والمبالغة ، واستفراغ ما في الوسع والطاقة من قول أو فعل ، والظهارة في الثوب : ماعلا وظهر ولم يل الجسد نقيض البطانة ، وهي ماولي الجسد منه وكان داخلاً . أشتو : أقيم في الشتاء . والرباط : ملازمة ثغر العدو . (ج) اللزوميات ٥ ص ١٧٧ .

(٢) الحشرات : هوام الأرض . (ج)

(٣) شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٥٢٠ ، والسخائم : مفردها سخيمة ، وهي العداوة والحقد . وفي البطليوسي : « كوشم الواشم » .

مسكنه

ماوقفنا عليه من تاريخ أبي العلاء لايصور للباحث حياته تصويراً كاملا يجعله كأنه يراه في مطعمه وملبسه ومسكنه وغير ذلك مما يقتضيه البحث. وزادنا ضغثاً على إبالة مافي أقوال المؤرخين والعلماء من التناقض في ثروة أبي العلاء ويساره. ولم يصف أحد ممن زاره الدار التي كان يسكنها، إلا أن أبا الفرج محمد بن أحمد قال: «إن لأبي العلاء داراً حسنة». كما سيأتي. وذكر العلماء في قصة الضيوف الخمسين الآتية، أنه أنزلهم في دار الضيافة، ولم يُبيِّن ماهي ولا اين هي. ومنهم من جعل له عبيداً وخدماً كثيرة، وهذا يحتاج إلى مسكن واسع. ومنهم من جعله حاكماً في المعرة، وجعل سكانها خدما له. ونحو ذلك من المبالغات والإسراف القائم على التخيل والظن. وهذا يقتضي أن تكون له دار حسنة قوراء. والغريب الملائم لحياة أبي العلاء وزهده في كل شيء، أن تكون داره مشابهة بقية النواحي من حياته. وكلامه في (الفصول والغايات) ص ٤٧ يدل على أنه ليس له مسكن يأوي اليه، وذلك حيث يقول: «الله مَلِكُ الملوك، وأنا معترِفٌ مُقِرٌّ أن شُهْدَ الدنيا مَقِرٌ(١)، وأن غنيها مفتقر، أعوزني فيها مسكن آرِزُ اليه(٢) وأستكن، وتبوَّأتِ الناسجةُ بينَ المثاب».

ومن الغريب أن يدفن في دويرة من دور أهله، أو في ساحة منها، ولا يدفن في داره التي وصفها أبو الفرج. وذكر الذهبي وابن حجر (٣)

---

(١) المقر: الصبر وهو عصارة شجر مر.

(٢) آرز: أوى، والناسجة: دودة القز أو العنكبوت، والمثاب جمع مثابة: المنزل. (ج)

(٣) تعريف القدماء بأبي العلاء ص: ١٩٢، ٣١٢ عن تاريخ الإسلام — للذهبي — ولسان الميزان — لابن حجر.

أن لأبي العلاء مغارة كان ينزل اليها ويأكل فيها منفردا ، ويقول : « الأعمى عورة ، والواجب استتاره في أحواله » . وقال القفطي مرة : سرداب ، ومرة : مغارة . ولما أرادت الحكومة السورية بناء ضريحه الجديد ، وجدوا مغارة تحت قبره ، فملؤوها ترابا ولم يحفروها ليعلموا مافيها . ولا نعلم إن كانت هي المغارة التي أكل فيها دبسا أم لا .

عفافه وإباؤه

لايعرف التاريخ شاعراً ولا عالما قليل المال كثير العفاف والجود مثل أبي العلاء ، فقد كان يعيش عيشة الشظف ويتجلد ، ولا يبذل ماء وجهه بسؤال ، ولا يمد يده لقبول صلة او منحة ، ولو كانت من أمير أو ملك ، بل يكتفي بما يحبوه به الله كما قال :(١)

وَلَمْ يَحْبُنِي أَحَدٌ نِعْمَةً   وَلٰكِنَّ مَوْلَى الْمَوالي حَبَا

وأبو تمام والبحتري والمتنبي وأمثالهم ، كانوا يجوبون الآفاق ، ويتندون الأكف بعد أن أصبح كل منهم يملك من الأموال أو الاقطاع والضياع شيئا كثيرا . وأبو العلاء ، يعرض عليه الخلفاء والأمراء وغيرهم أموالاً جمة ، فيأبى على شدة فاقته وحاجته .

فقد ذكر ياقوت وابن العديم أن المستنصر المتولي على مصر أحد العبيديين بذل لأبي العلاء مابيت المال بمعرة النعمان من المال الحلال ، فلم يقبل منه شيئا ، وقال :

---

(١) اللزوميات ﻫ ص ٤٤ .

كَأَنَّما غَانَةُ لي مِنْ غِنىً   فَعَدِّ عَنْ مَعْدِنِ أُسْوانِ
سِرْتُ بِرَغْمِي عَنْ زَمَانِ الصِّبا   يُعْجِلُنِي وَقْتِي وأكْوَانِي
صَدَّ أَبِي الطَّيِّبِ لَمَّا غَدا   مُنْصَرِفًا عَنْ شِعْبِ بَوّانِ[1]

وكتب داعي الدعاة بمصر إلى تاج الأمراء ، ثمال بن صالح ، وكان إذ ذاك نائبا عن العبيديين بحلب ومعرة النعمان ، بأن يجري لأبي العلاء ماندعو اليه حاجته ، بجميع مهامه وأسبابه ، وما يحتاج اليه مما هو بُلغة له من ألذ الطعام ، وأن يضاعف حرمته ويرفع منزلته عند الخاص والعام ، فامتنع من قبول ذلك .

---

(١) البيت الثالث في رواية ياقوت ، وفيه بعدها : وقال :

لا أطلب الأرزاق والـ   مولى يُفيض علي رزقي
إن أعط بعض القوت أعـ   لم أن ذلك ضعف حقي

وفي نسخة (الإنصاف) لابن العديم ، البيتان الأولان فقط . والأبيات الخمسة ليست في ديوانه . وغانة : بلاد يكثر فيها الذهب ، وقد ذكرها أبو العلاء ، في لزوم مالا يلزم فقال ص ١٢١ :

لي القوت فليغمر سرنديب حظها   من الدر أو يكثر بغانة تبرها

وقال ياقوت : انها مدينة كبيرة في جنوبي بلاد المغرب ، متصلة ببلاد السودان ، يجتمع اليها التجار ، ومنها يدخل في المفازات الى بلاد التبر . وقد ذكر في « تبر » أن الذهب ينبت في رمل تلك البلاد ، وبين كيف يأتي به التجار منها فراجعه . وأُسوان : مدينة وكورة في آخر صعيد مصر ، وأول بلاد النوبة ، في جبالها مقاطع العمد التي بالاسكندرية ، وزعم بعضهم أن فيها معادن الذهب . وسرنديب : جزيرة عظيمة في أقصى بلاد الهند . قال ياقوت : وفي سرنديب الجبل الذي هبط عليه آدم (ص) ، والياقوت الأحمر على هذه الجبال ، تحدره السيول والأمطار وفيه الماس ومنه يجلب العود . (ج)

انظر في ذلك تعريف القدماء بأبي العلاء ، ص ٩٩ ، ٥٦٥ عن الارشاد لياقوت ، والانصاف والتحري — لابن العديم .

وكتب الوزير الفلاحي الى عزيز الدولة أبي شجاع فاتك متولي حلب وأعمالها ، بأن يحمل أبا العلاء الى مصر ليبني له دار علم يكون متقدما فيها ، وسمح له بخراج معرة النعمان في حياته وبعده . فسار عزيز الدولة إلى المعرة ، واجتمع بأبي العلاء ، وقرأ عليه السجل فاستمهله وكتب الى الوزير الفلاحي يستعفيه من ذلك ، فأعفاه وسمح بترك ذلك كله .

وقال أبو اليسر شاكرُ بنُ عبد الله المعري التنوخي في أبي العلاء : « لم يكن من شأنه ان يلتمس من أحد من خلق الله شيئا ، ولم يمدح احداً لأخذ عطاء أو جائزة ، ولم يقبل هدية أو صلة من شريف » . وقد صرح في رسالته الى أهل المعرة بقوله (١) : « ما سافرتُ أستكثر من النشب . . » وقال فيها عن البغداديين : « وعرضوا عليّ أموالهم عرض الجدّ ، فصادفوني غير جَذِلٍ بالصفات ، ولا هشّ الى معروف الاقوام » . وصرح وهو في بغداد بقصيدة قالها فيها بقوله : (٢)

أُنَبِّئُكُمْ أَنِّي عَلى العَهْدِ سَالِمٌ ووَجْهِيَ لَمَّا يُبْتَذَلْ بِسُؤَالِ

وقال في قصيدته إلى أبي حامد الإسفرائيني : (٣)

ولَمْ أكُنْ ورَسُولي في رِسَالَتِهِ مِثْلَ الفَرَزْدَقِ في إِرْسَالِ وَقّاعِ

وقال في قصيدته (٤) إلى التنوخي ، يذكر فيها بغداد ورحيله إليها :

---

(١) رسائل أبي العلاء المعري ــ لشاهين عطية ــ س ٨٣

(٢) شروح سقط الزند : ق ٣ س ١٢٠٥

(٣) شروح سقط الزند : ق ٢ س ٧٦٠ وفيها : « ورسولي حين أرسله . . »

(٤) شروح سقط الزند : ق ٤ س ١٦٣٩

رَحلتُ لمْ آتِ قِرْواشاً أُزاوِلُهُ ‏ ‏ ولا المُهذّبَ أبغي النيلَ تَقوِيتا
والمَوتُ أحسَنُ بالنّفسِ التي ألِفَتْ ‏ ‏ عِزّ القَناعةِ مِنْ أنْ تَسألَ القُوتا

وذكر في مقدمة السقط ما يدل على أنه لم يمدح أحداً ابتغاء ثواب أو صلة ، وذلك حيث يقول : (١) « ولم أطرُقْ مسامعَ الرؤساء بالنشيد ، ولا مدحتُ طالباً للثواب ، وإنما كان ذلك على معنى الرياضة وامتحان السوس . (٢) فالحمد لله الذي ستر بغُفّةٍ (٣) من قوام العيش ، ورزق شعبةً من القناعة أوفت بي على جزيل الوفر » . كثيراً ما كان يصرح بالفاقة والعدم ، ويفتخر بالقناعة والصبر في مثل قوله في اللزوم : (٤)

أعانَنا اللهُ كُلٌّ في مَعيشتِهِ ‏ ‏ يَلقى العَناءَ فدُرّي فوقَنا دُبَسُ
مَاذَا تُرِيدُونَ لا مَالٌ تَيَسّرَ لِي (٥) . . . .

وقوله : (٦)

الحَمدُ لِلهِ قَدْ أصبَحتُ في دَعَةٍ ‏ ‏ أرضى القَليلَ ولا أهتَمُّ بالقُوتِ

وقوله : (٧)

لكِنْ أُقَضّي مُدّتي بِتَقَنُّعٍ ‏ ‏ يُغْنِي وأفرَحُ بالْيَسِيرِ الأروَجِ

---

(١) شروح سقط الزند : ق ١ ص ٢٢

(٢) السوس : الطبيعة . (ج)

(٣) الغُفّة : البلغة من العيش والقليل منه . . (ج)

(٤) اللزوميات ھ ص ٢٩٣ ، يقال : درّي دبس ، ودُبّس : اسم السماء .

(٥) عجزه : « فيُستماح ولا علمٌ فيُقتبسُ »

(٦) اللزوميات ھ ص ٦٦ .

(٧) اللزوميات ھ ص ٧٨ .

وقوله : (١)

مَا سَرَّنِي بِقَنَاعَةٍ أُوتِيتُهَا في العَيْشِ مُلْكًا غَالِبٍ وَذَمَارِ

وأحياناً يَعُدُّ الجوعَ قربة : (٢)

إذا خَمِصْتُ قَلِيلاً عَدَدْتُ ذَلِكَ قُرْبَه

وأحياناً يكتم ذلك حتى لا يشمت به حساده ، كقوله : (٣)

إِنِّي أُوارِي خَلَّتِي فَأُرِيهِمُ رِيًّا وفي سِرِّ الفُؤَادِ أُوارُ

ويعتقد أن التقنع يشق على النفس كما يشق عليها الجهاد في العمل ، ولكنه يورث النفس عزة ورفعة لصيانتها عن الابتذال كما قال : (٤)

قَنِعْتُ فَخِلْتُ أَنَّ النَّجْمَ دُونِي وَسِيَّانِ التَّقَنُّعُ والجِهَادُ

* * *

قبول الهدايا

تقدم قول أبي اليسر ، أن أبا العلاء لم يقبل هدية أو صلة ، وذكر ذلك البديعي في (أوج التحري) . ولم يحدثنا التاريخ أنه قبل شيئاً من المال .

(١) غالب : موضع نخل دون مصر . وموضع بالحجاز . وذمار كسحاب أو قطام : مدينة باليمن على مرحلتين من صنعاء ، سميت بقيل من أقيال اليمن ، وقيل : ذمار اسم صنعاء ، ولعل أبا العلاء أراد بغالب وذمار ماذكرناه . (ج) اللزوميات هـ ص ١٦٠ .

(٢) اللزوميات هـ ص ٤٣ ، وخمص البطن مثلثة : خلا .

(٣) اللزوميات هـ ص ١٣٠ .

(٤) شروح سقط الزند : ق ١ ص ٢٨٣ .

والأثاث والرياش . وربما كان يقبل بعض الهدايا من أصحابه ، ولكننا لم نوفق إلى معرفة نوعها . ومما لا شك فيه أنها تكون من أنواع الطرف والألطاف والتحف من الأطعمة ، وليست من الذهب والفضة . وقد زعم صاحب (شرح التنوير على سقط الزند ج ٢ ص ٥١) في شرح قوله :

لكَ الخيرُ قدْ أنفذْتَ ماهوَ مُلْبِسِي حَياءً وعِنْدَ اللهِ مِنْ قائلٍ عِلْمُ[1]

أن هذا الشاعر قد بعث تحفة إلى أبي العلاء . فهو يحمده على ذلك . وعلى هذا يجب أن تقرأ كلمة « أنفذت » ، بفتح التاء ، وعلى فرض أن ذلك صحيح فقد بين أنها ليست من النقدين بقوله بعده :

ولوْ أنَّهُ أضعافُ[2] . . . . .

وفي (ضوء السقط) ما يدل على أن شاعراً عراقياً كتب إلى أبي العلاء قصيدة ذكر فيها مضض الغربة ولبسه السواد خشية سرعة الاتساخ ، فكتب إليه أبو العلاء أبياتاً وأرسل معها شيئاً من النفقة .

وقال الخوارزمي :[3] «والرواية في (أنفذت) ضم التاء على الحكاية. ورواه بعضهم (أنفذت) بفتح التاء على الخطاب ، وهو سهو لأن الأبيات التي تردف هذا البيت تدفع ذلك ، ولا سيما قوله :

فَمِنِّيَ تَقْصِيرٌ ومِنْكَ تَفَضُّلٌ بِعُذْرٍ فَلا حَمْدٌ لَدَيَّ[4] ولا ذَمُّ

. . .

ولَوْ أنَّهُ أضعافُ أضعافِ مِثْلِهِ مِنَ التِّبْرِ لَمْ يَثْبُتْ لَهُ مِنْ[5] نَداكَ اسْمُ

---

(١) وفي شروح السقط ق ٣ ص ١١٥٧ « أنفذتُ » بالضم

(٢) وتمامه : « ... أضعاف مثله من التبر لم يثبت له في نداك اسم » .

(٣) المصدر السابق .

(٤) في الشروح : « عليَّ » .

(٥) في الشروح والتنوير : « في » .

ويؤيد ما قاله في (ضوء السقط) أن عنوان هذه الأبيات جاء في الديوان هكذا : « وقال في هذا المعنى » وفي شرح البطليوسي : « وقال أيضاً » . وفي الخوارزمي : « وقال أيضاً في المعنى » والمشار إليه بكلمة أيضاً ، وبكلمة في المعنى ، أبيات تقدمت هذه الأبيات ، قالها أبو العلاء لشاعر « صريع البين (١) » ، وأرسل إليه معها شيئاً من النفقة . فهذه الأبيات في معنى تلك ، ويكون المُهدِي أبا العلاء .

وقال التبريزي : « وكان هذا الشاعر قد لبس السواد كما يلبسه الغرباء ، وذكر ذلك في شعره إلى أبي العلاء مع ما ذكره من شكاية من الزمان . وسواد الثياب كناية عن اتساخها » .

ومن البعيد بعد ما تقدم أن يكون هذا الشاعر هو الذي أهدى إلى أبي العلاء مع حاله هذا . وبذلك يتبين عدم صحة ما قال في التنوير ، وأن الأبيات لا تصلح دليلًا على قبول المعري هدية .

كرمه وسخاؤه

عرفنا أن لأبي العلاء نيفا وعشرين ديناراً في السنة ، يعطي بعضها خادمه ، ويعيش بالصبابة الباقية منها ، ويجري منها على جماعة من الكتّاب الذين يكتبون عنه ما يمليه وما ينظمه . وقد ذكر ابن العديم (٢) ، أن له أربعة رجال من الكتاب الموجودين في جرايته وجاريه . وكان فوق ذلك يدفع شيئاً لذوي الحاجات ممن يتردد إليه . فقد قال أبو زكريا التبريزي : « إن المعري كان يجري رزقا على جماعة ممن كان يقرأ عليه ، ويتردد لأجل

---

(١) صريع البين : شاعر كان يلقب بهذا اللقب ، الشروح ق ٣ ص ١١٤١ .
(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٢٤ و ٥٧٥ عن الانصاف والتحري لابن العديم

الأدب إليه » . وذكر البديعي ذلك أيضا [١] . ونقل عن أبي الفرج محمد ابن أحمد بن الحسن الكاتب [٢] ، أنه رحل في سنة ٤٢٨ هـ من أذربيجان إلى الحج ، ومر بمعرة النعمان ، واجتمع بأبي العلاء ، وأنه ذكر فصلاً في تقريظه والثناء عليه ؛ ومن جملة قوله : « وقصر همه على أدب يفيده ، وتصنيف يجيده ، ومتعلم يفضل عليه ، ومسترفد صعلوك يحسن إليه ؛ وله دار حسنة يأويها ، ومعاش يكفيه ويمونه ، وأولاد أخ باق يخدمونه ، ويقرؤون بين يديه ، ويدرسون عليه ويكتبون له ، ووراق برسمه مستأجر ، ثم ينفق على نفسه من دخل معاشه نفقة طفيفة ، وما يفضل عنه يفرق على أخيه وأولاده ، واللائذين به ، وللفقراء والقاصدين من الغرباء » . اهـ

انفاق على الخطيب التبريزي مدة مقامه عنده

نقل المؤرخون [٣] أن الخطيب أبا زكريا التبريزي قدم على أبي العلاء ، وأقام عنده مدة يقرأ عليه ، وقد أعطاه الخطيب صرة فيها ذهب ، وقال له : أوثر من الشيخ أن يدفعها إلى بعض من يراه ليشتري لي بها خبزاً ولحما ، وما تدعو حاجتي اليه ، ويجري ذلك علي في كل يوم ، لأتناوله مدة مقامي عنده للقراءة ، وأتوفر بذلك على الاشتغال ويتفرغ بالي للاستفادة ، ويترفه خاطري ، ولا يكون في شغل غير ما أنا بصدده ، فأخذ أبو العلاء الصرة منه ووضعها عنده ، وتقدم إلى وكيله ، وأجرى للخطيب ماتدعو اليه حاجته ، فتناول ذلك مدة مقامه بمعرة النعمان ، وهو يظن أنه من ذهبه الذي دفعه إلى أبي العلاء ، فلما أراد الانصراف ودع أبا العلاء ، فدفع اليه صرته بعينها ، فقال الخطيب للشيخ : ماظننت أنك تفعل هذا ، ولا أردت

(١) أوج التحري ـ ليوسف البديعي ـ ص ١٢ تحقيق ابراهيم الكيلاني .
(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٧٥ عن الإنصاف والتحري ـ لابن العديم .
(٣) انظر من ذلك الإنصاف والتحري لابن العديم . في تعريف القدماء ص ٥٧٦ .

الثقيل عليك بغير الاستفادة من علمك، وعرض له بأخذها، فقال أبو العلاء: قد كان ذلك ولا سبيل إلى رد هذه الصرة عليّ، وهذا ذهبك بعينه، وانصرف وكان فقيراً محتاجا .

وسيأتي بيان المدة التي أقامها عنده وزمنها . ويأتي أيضا ان أبا العلاء أعطى صريع البين أو الدلاء، والقاضي عبد الوهاب، وبعض شعراء العراق وغيرهم شيئاً من المال، وقد تقدم بعض من هذا .

وذكر القفطي (١) أن ابا العلاء سمع الجماعة يذكرون بطيخ حلب، فتكلف وسيّر من ابتاع منه حملا، وأحضرهم إياه، فأفردوا له منه عدداً يسيرا، وتركوه في سرداب كان يأكل فيه، فنزل الخادم بعد أيام لتفقد المغارة فوجد البطيخ بحاله لم يعرض له وقد فسد، فراجعه في ذلك فلم يجبه . واستدل الجماعة بذلك على أنه ماكان يتفكه . وربما كان يتناول مايقوم بالأود من أيسر الموجودات .

وزار الرحالة الفارسي ناصر خسرو المعرة في سنة ٤٣٨ هـ، وقال في رحلته : (٢) « وكان بها - أي المعرة - رجل ضرير، يدعى ابا العلاء وكان أمير البلدة، وله من النعمة والعبيد والخدم مايستكثر . وكان جل أهلها كالعبيد له، إلا أنه سلك طريق النسك، وتردى بيرجد في بيته، وكان يأكل كل يوم نصف منّ من خبز الشعير . وبلغني أنه فتح بابه، ويتولى عنه نوابه وعماله أمور البلدة إلا فيما يهم، فيرجعون اليه، وهو لايمنع أحداً مما آتاه الله . ويصوم الدهر، ويقوم الليل، ولا يشغل نفسه بشيء من أمور الدنيا . وقد قيل له : إن الله خولك ماترى من المال والنعمة، فلماذا

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٣٦ عن إنباه الرواة - القفطي .

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٤٦١ عن سفر نامة - لناصر خسرو

تعطي الناس ولا تتمتع أنت بنفسك ؟ فقال : ليس لي منه إلا ما أتبلغ به من القوت فحسب » .

وقد ظن صاحب (الذكرى)[1] من كلام الرحالة الفارسي أن أبا العلاء ملك المعرة ، وذهب يلتمس لذلك وجها ، فتأول قول صالح بن مرداس لأبي العلاء حين شفع عنده في المعرة « قد وهبتها لك » أنه أقطعه إياها إقطاعاً ثم أعنت نفسه في تلفيق هذه القضية . وظن أيضا أن أبا العلاء غني ، واستأنس لهذا الرأي بقول الرحالة المتقدم ، وبما كان يعطيه أبو العلاء من الصلات والهدايا ، حتى لايناقض حاله هذا أقواله الدالة على قلة ماله ، وأغرب شيء في كلامه اعتقاده أن أبا العلاء كان يقبل الهدايا ويشكر عليها ، وأن أخواله كانوا يواصلون البر إليه . وأظن أنه لم يقبل من أخواله براً إلا ما كان من باب الطرف والاطعمة والفواكه . وما في رسائله بما يوهم ذلك ، جرى فيه أبو العلاء على عادته في عد كل شيء نعمة يجب شكرها ، ولو كانت سؤالاً عن حاله .

وأنا أقول : إن العادة جارية في المعرة ، على عهدنا هذا ، أن الرجل منهم إذا كان وجيهاً في قومه ، وكان غير موسر ونزل به ضيوف ، هب أهله وأصحابه إلى القيام بما يجب للضيف من الحفاوة والإكرام من غير أن يشعر الضيف بشيء من هذا ، وقد لايشعر المضيف نفسه إلا بالارزاق والطرف والطعام تتوافد إلى بيته من غير أن يعلم بمن هي . وإذا لم يكن بيته أو أثاث بيته لائقــا بالضيف أنزله قريبه أو صديقه في داره ، ولا يشك الضيف في أنها دار المضيف . وأن كل مارآه من ماله ، وربما ظن بعض القائمين بخدمته أنهم خدم لصاحب الدار . وأهل المعرة كرماء ولو مع الفاقة ، ولهم ولع شديد بإيناس الضيف والمبالغة في إكرامه وقِراه . وهم لايعدون ذلك من باب الصلة أو الصدقة أو التفضل ، وإنما يرونه من باب الواجب ، لأن للضيف حقا على البلدة كلها لا على المضيف وحده .

---

(١) ذكرى أبي العلاء ط ٢ ص ٢١٢ ـ ٢١٦ - لطه حسين .

والعادة جارية أيضا أن الناس يحدقون بالرجل السري أو العالم ، ويجعلون كلمته نافذة وإن لم يل شيئا من عمل الحكومة وإن لم يكن غنيا .

فإذا جاز قياس الماضي على الحاضر ، جاز لنا أن نقول : إن أبا العلاء نفسه كان فقيراً لايملك غير نيف وعشرين ديناراً كما أسلفنا ، وكان يقتر على نفسه ، لانه لايأكل إلا من ماله لامن مال عمه ولا خاله ، وان الناس كانوا يجلونه ويصدرون عن أمره لمكانته ولمكانة أسرته في المعرة . أما مكانته فقد ذكرنا في غير هذا الموضع ان ملوك دمشق وحلب وأمراءها كانوا يجلونه ويبالغون في الحفاوة به ، ويكلفونه أن يضع لهم كتباً ، وأن خليفة مصر أراد أن يعطيه ما في بيت المال في المعرة ، وأنه لايمر بالمعرة رجل خطير إلا يزوره . وحسبك دليلاً على علو مكانته في المعرة وغيرها انهم بعثوه شفيعاً إلى صالح فوهبه المعرة ، ورفع الحصار عنها .

وأما مكانة أسرته فقد كان فيهم المفتون والقضاة والعلماء والشعراء والمؤرخون ، وفيهم عمداء المعرة وأصحاب الكلمة النافذة فيها مثل الحوارى بن حطان ابن المعلى التنوخي المعدود من رجال الدهر ، ومن ولده أبو بشر الحوارى ابن محمد بن علي .. التنوخي عميد المعرة . ووادع بن سليمان من أحفاد أخي أبي العلاء ، كان قاضي المعرة والمستولي على أمورها في عصره ، وكان رجل زمانه همة وعلماً كما قال ابن الأثير ، وهم كثيرون .

فإذا نزل به ضيوف قام إخوته وبنوهم وذوو قرباه بما يجب من القِرى ، وأحاطوا به هم وخدمهم وأشياعهم ، حتى يخيل إلى الضيف أنه ملك مطاع ، وأن كل من يراه من الخدم والحشم والعبيد مُلك له وما يراه من غيرهم أعوان له ، وما يراه من أثاث ورياش وأبنية ملك له . ولا يرى أبو العلاء في ذلك غضاضة بحكم العادة المتبعة . وإذا سلمنا هذا لانرى تناقضاً بين أحواله وأقواله . وأظن ان دار الضيافة التي أنزل بها الضيوف الحسين الذين جاءوا ليحملوه إلى حلب كانت لأحد إخوته أو

أعمامه أو بني عمه . وفي كلام أبي العلاء ما يدل على أنه كان يتضجر من قلة ماله ، لأنه كان يجب أن يقوم من ماله بكل ماتوجبه الضيافة عليه لأضيافه وهم كثيرون ، وأن يعطي كل سائل ما يسأله أو فوق ما يأمله ، وسائلوه كثيرون ، ولكنه لا يجد ما يلبي به طاب كل طالب ، ويشق عليه أن يأخذ من أحد شيئاً . فهذا هو السبب في تذمره من قلة المال ، وقد كثر ذلك في شعره كقوله :

صَدَقْتُكَ صَاحِبي لامَالَ عِنْدي وقَدْ كَثُرَ الضَّيافِنُ والضُّيُوفُ[1]

وكان الناس يظنون به اليسر وكثرة المال ، فيكلفونه ما لا يطيقه إلا الموسرون ، وكان ذلك يزيده تذمراً لأنه لا يستطيع أن يجيب ما يطلب منه ، ويشعر بذلك مثل قوله :

واتهامي بِالمَالِ كَلَّفَ أَنْ يُطْـــلَبَ مِنِّي مَا يَقْتَضِي التَّمْوِيلُ[2]

أما أبياته الدالة على كرمه فكثيرة ، منها قوله :

إِذا وَرَدَ الفَقِيرُ عَلَى احْتِياجي أَغَثْتُ لَهِيفَهُ بِالْمُسْتَدَفِّ[3]
وَلَوْ كَانَ الكَثِيرُ لَقَلَّ عِنْدِي وأَهْوِنْ بِالطَّفِيفِ الْمُسْتَطَفِّ[4]

• • •

(١) الضيف من نزل بغيره ، وهو الضيِّف ، يكون للواحد والجمع ويكسر على أضياف وضيوف وضيفان . والضيفن الذي يجيء مع الضيف والنون زائدة ، والجمع ضيافن . (ج) اللزوميات ٢ ص ٢٩٢ .

(٢) اللزوميات ٢ ص ٢٠٢ .

(٣) اللزوميات ٢ ص ٢٩٥ ، والمستدف : الممكن .

(٤) الطفيف : القليل والنزر التام ، والمستطف من استطفَّ : أي أمكن ودنا .

وقوله (١) :

فَما دِرْهَمِي إِنْ مَرَّ بِي مُتَلَبِّثاً ... ولاطِفلَ لِي حتَّى تُرى الشَّمسُ مُطفِلا
وَيرزُقُنِي اللهُ الذِي قَامَ حُكْمُهُ ... بِأرزاقِنا في أرضِهِ مُتكَفِّلا

• • •

وقوله (٢) :

إذا وَهَبَ اللهُ لي نِعْمَةً ... أفَدْتُ المَسَاكِينَ مِمَّا وَهَبْ

تولي المناصب

حدثنا التاريخ أن أكثر قضاة المعرة وعلمائها وأدبائها وشعرائها في عهد أبي العلاء كانوا من أمرائه تنوخ ومن بني سليمان جد أبي العلاء الأعلى ، وأن الفتاوى كانت في بيتهم على مذهب الشافعي أكثر من مائتي سنة بالمعرة. ولم أر أحداً ذكر أن أبا العلاء ولي الإفتاء أو القضاء أو شيئاً آخر من الأعمال ، وإنما كلامه في اللزوم يدل على أنه كان يكره أمثال هذه الأمور لأقاربه وأصادقه ، فمن الأولى أن يكرهها لنفسه ، يشعر بذلك من قوله : (٣)

أنهاكَ أنْ تَلِيَ الحُكُومَةَ أوْ تُرَى ... حِلْفَ الخَطَابَةِ أوْ إمامَ المَسْجِدِ
وَذَرِ الإمَارَةَ واتِّخَاذَكَ دِرَّةً ... في المِصْرِ تَحْسِبُها حُسَامَ المُنْجِدِ
تِلكَ الأُمورُ كَرِهْتُها لِأقارِبِ ... وأصادِقٍ فَابْخَلْ بِنَفْسِكَ أوْ جُدِ

---

(١) اللزوميات ﻫ ص ٢٠٣ .
(٢) اللزوميات ﻫ ص ٥٧ .
(٣) اللزوميات ﻫ ص ١١٢ .

ولكنني رأيت قوله في اللزوم :[1]

قَلَّدَتنِي الفُتيا فَتَوَّجنِي غَدًا تاجًا بِإعفَائِي مِنَ التَّقلِيدِ

وهذا يدل على أنه ولي الفتيا . وربما كانت على مذهب الشافعي أسوة بأقاربه ، ولعله استقال منها فأقيل ، لأنه كرهها لأقاربه ، ولأنه كان ينفرُ عقله من تركه سدى واتباع غيره كما قال :[2]

وَيَنفِرُ عَقلِي مُغضَبًا إِنْ تَرَكتُهُ سُدًى واتَّبَعتُ الشَّافِعِيَّ وَمَالِكا

ولعله كان يلي الفتيا حين زار الرحالة الفارسي (ناصر خسرو) مدينة المعرة ورأى ما رأي من مكانة أبي العلاء فيها .

★ ★ ★

---

(١) اللزوميات هـ ص ١١٤ .

(٢) اللزوميات هـ ص ١٨٥ .

القول الجامع في أخلاقه وسيرته

توفر أبو العلاء منذ حداثة عهده على الدرس، وأدبه أبوه فأحسن أدبه، وأدب هو نفسه فجمع بين أدب النفس وأدب الدرس. وتوفر فيه من مكارم الأخلاق مالم يتسن لغيره من العلماء والحكماء والشعراء بعضه.

صبره

الصبر في الأصل الحبس. ويختلف اسمه باختلاف موقعه، فحبس النفس عن الجزع عند المصيبة يسمى صبرا، وإمساكها في وقت المحاربة يسمى شجاعة، وإمساكها عن الفضول قناعة وعفة، وإمساك كلام الضمير يسمى كتمانا. وقال بعض المحققين: الصبر ترك الشكوى من ألم البلوى لغير الله تعالى. وقد كان أبو العلاء قليل المال كثير العلل والخصوم. فكان يصبر على محن الأيام والأنام، وكثيراً ما ألمع في شعره إلى صبره كقوله: (١)

طَالَ صَبْرِي فَقيلَ: أكْتَمُ شَبْعَا نُ وإنِّي لَمُنْطَوٍ طَيَّـــانُ

وقوله في الزمان: (٢)

غَدَوْتُ وَرَيْبَهُ فَرَسَيْ رِهانٍ يُجيدُ نَوائِبًا وأُجيدُ صَبْرا

وفي نثره كثير من هذا فقد قال في (رسالة الإغريض ص ٥١): (٣) «فأما في التَّشَبِ فلمْ تَزل لي بحمد الله وبقاء سيدنا بلغتان؛ بلغة صبر

---

(١) اللزوميات هـ ص ٢٦٣، والأكتم: الواسع البطن والشبعان. ورجل طيان: لم يأكل شيئا.

(٢) اللزوميات هـ ص ١٤٢.

(٣) رسائل أبي العلاء المعري ـ لشاهين عطية ـ . وبلغة الدهر: قوامه ومايكتفى به.

وبلغة وفر . . » . وهو يعد الصبر من خير حالاته التي يكون عليها ، كما يشعر بذلك قوله في السقط : (١)

وَحالي خَيْرُ حالٍ كُنْتُ يَوْمًا   عَلَيْها وَهيَ صَبْرٌ واعْتِزالُ

وبديهي أن مصائب الدهر تختلف . فمنها مالا تستطيع النفس احتماله والصبر عليه ولا رده ، ولكنها تصبر عليه كرهاً لا طوعا ، كما قال : (٢)

والنَّفْسُ لَيْسَ لَها عَلَى مَا نالَها   صَبْرٌ ولٰكِنْ بِالْكَرَاهَةِ تَصْبِرُ

وهذا النوع لايرى في الصبر عليه فضلا ، لأن الصبر فيه عن عجز واضطرار . ومنها مايستطيع الانسان احتماله أو رده . وهذا النوع يرى الصبر فيه فضلًا لأنه عن قدرة واختيار . كما يشير اليه قوله : (٣)

وَصَبْرُكَ فَضْلٌ فيكَ إِنْ كُنْتَ قادِرًا   وإِلاَّ فَعَجْزٌ مِنْ خَلائِقِكَ الصَّبْرُ

احتماله للأذى

وكان شديد الاحتمال للأذى من خصومه ومن غيرهم ؛ فقد قال له الوزير المنازي (٤) في قصة تأتي : علام حسدوك وقد تركت لهم الدنيا والآخرة ؟ فلم يكلمه حتى قام . وقال للقاضي عبد السلام القزويني : (٥) لم اهج أحدا . فقال له : صدقت إلا الأنبياء . فلم يرد عليه شيئا . ووقع له كثير من مثل هذا فاحتمله .

(١) شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٦٩٩ .
(٢) اللزوميات ﻫ ص ١٢٧ .
(٣) اللزوميات ﻫ ص ١١٨ .
(٤) هو أبو نصر أحمد بن يوسف الوزير الشاعر ، ينسب إلى منازجرد من أرمينية توفي في ميافارقين سنة ٤٣٧ ﻫ ، انظر وفيات الأعيان .
(٥) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٧٧ ، عن إرشاد الأريب — لياقوت .

قناعته وعفافه

قدمنا طائفة صالحة مما يدل على قناعته وعفافه وإبائه . وفي (اللزوم والسقط) أمثلة كثيرة من ذلك .

لين جانبه

لم نجد في كلام خصومه الذين يتسقطون هفواته وسيئاته ، فضلاً عن محبيه وأنصاره ، مايدل على أنه كان شرساً شكساً جافي الطبع متكبراً صلفا . بل المعروف أنه كان دمث الأخلاق لين الجانب .

طهارة يده وذيله ولسانه

لايعرف التاريخ أن أبا العلاء لوث يده باقتراف منكر ، ولا دنس ذيله بارتكاب فسوق أو فجور ، بل كان يترك كثيراً من الحلال خشية الوقوع في الحرام . وربما بنفسه عن كثير من اللاذ المباحة زهداً فيها واحتقاراً لشأنها . ولم يحدثنا التاريخ أنه تصدى لإيذاء أحد بلسانه أو بغيره . ولم يعرف أنه هجا أحداً مطلقا . وقد رويت له أبيات في السقط مطلعها :(١)

وَرَائِي أَمَامٌ والأَمامُ وَرَاء ... إِذَا أَنَا لَمْ تُكْبِرْنِيَ الكُبَرَاء

ولم يعيّن فيها أحد . وأظن أنه يخاطب بها رجلاً متخيلاً ، كما فعل في قصائده الفخرية ، وفي بعض أبياته التي يفتخر بها أو يعرض بحساده أوأعدائه . وهذا شائع مستفيض بين الشعراء . أما البيتان اللذان قالهما في أبي القاسم :(٢)

هذا أَبُو القَاسِمِ أُعْجُوبَةٌ ... في كُلِّ مَا يَدْرِي وَلاَ يَدْرِي ...

---

(١) شروح السقط ق ١ ص ٣٩٢ .

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٩٧ ، عن إرشاد الأريب – لياقوت – وفيه : « لكل من يدري ولا يدري » . وثاني البيتين :

لاينظم الشعر ولا يحفظ الـ ... ـقرآن وهو الشاعر القاري

والبيتان مما لم يرو في الديوانين .

فقد أراد بها التظرف والمزاح . وأغرب من ذلك كله أنك لاتجد في كلامه على كثرته لفظاً بذيئا ، ولا لفظاً يدل على شيء من أعضاء الإنسان أو الحيوان التي يستهجن ذكرها . وقد اضطر في (رسالة الملائكة) إلى ذكر كلمة فاؤها ولامها من جنس واحد ، وقد تحذف لامها ، وليس لديه إلا كلمة « حرح » فلم يصرح بها وإنما كنى عنها بما يدل عليها .

زهده

الزهد في اللغة : ترك الشيء والإعراض عنه . وفي (اللسان) الزهد : ضد الرغبة والحرص على الدنيا . وأما عند العلماء والمتصوفة فقد اختلفت كلمتهم فيه بحسب أحوالهم ومقاماتهم على أكثر من أربعين قولا . فقيل : الزهد في الدنيا هو الزهد في الناس ، لأن لقاءهم من الدنيـــا وهو مرغوب فيه . وقيل : الزهد في الدنيا هو الزهد في الجوف ، فبقدر ماتملك من بطنك تملك من الدنيا ، وقيل : الزهد في الدنيا أن تبغض أهلها وتبغض مافيها . وقيل: هو قصر الأمل . وقيل : هو النظر الى الدنيا بعين الزوال . وقيل :هو أن لاتفرح بموجود من الدنيا ، ولا تأسف على مفقود . وقيل : هو بغض المحمدة . وقيل.وقيل.وقيل .

وإذا تصفحنا أقوال أبي العلاء في الزهد تبين لنا أنه زاهد على كل قول . فإن مثل قوله : [١]

بُعْدِي عَنِ النَّاسِ بُرْءٌ مِنْ سَقَامِهِمُ ... وَقُرْبُهُمْ لِلْحِجَا وَالدِّينِ أَدْوَاءُ

• • •

طَهَارَةُ مِثْلِي فِي التَّبَاعُدِ عَنْكُمُ ... وَقُرْبُكُمُ يَجْنِي هُمُومِي وَأَدْنَاسِي [٢]

• • •

---

(١) اللزوميات ﻫ س ٢٣ ، وفيها : « بعدي من الناس » . وفي شروح اللزوم — لطه حسين والأبياري : « بعدي من الناس » .

(٢) اللزوميات ﻫ س ٢٩٨ .

وَخَيْرُ بِلادِ اللهِ ماكانَ خالِياً
مِنَ الإِنْسِ فَاسْكُنْ في القِفارِ البَسابِسِ[1]

يمثل زهده في الناس وكراهيته لهم. ومثل قوله: [2]

الحَمْدُ لِلهِ قَدْ أَصْبَحْتُ في دَعَةٍ أَرْضَى القَلِيلَ ولا أَهْتَمُّ بِالقُوتِ

. . .

فَاتْرُكْ لِأَهْلِ المُلْكِ لَذّاتِهِمْ فَحَسْبُنا الكَمْأَةُ والأَحْبَلُ[3]

والأبيات التي تقدمت في طعامه وشرابه تمثل قناعته وزهده في الجوف ومقدار مايملك من بطنه. ومثل قوله: [4]

ونَحْنُ كَرَكْبِ المَوْجِ مابَيْنَ بَعْضِهِمْ وبَيْنَ الرَّدَى إِلاّ الذِّراعُ أَوِ الشِّبْرُ

. . .

وأَيّامُ الحَياةِ ظِلالُ عِتْرٍ ومَنْ لي أَنْ تَكُونَ ظِلالَ دَوْمِ[5]

. . .

ومَنْ لَمْ تُبَيِّتْهُ الخُطُوبُ فَإِنَّهُ سَيَصْبَحُهُ مِنْ حادِثِ الدَّهْرِ صابِحُ[6]

---

(١) اللزوميات هـ ص ٢٩٨.
(٢) اللزوميات هـ ص ٦٦.
(٣) للزوميات هـ ص ٢٠١، والأحبل كاثمد وأحمد: اللوبياء.
(٤) لم نعثر على هذا البيت في الديوانين أو فيما لم يرو فيهما، وقد ورد في اللزوميات هـ ص ١١٨ بيت في لزومية يوافق في معناه ما رواه المؤلف ويختلف في مبناه:
عجبت لركب الموج يجبون كوكبا وجيش المنايا من قموسهم يخثر
(٥) اللزوميات هـ ص ٢٥١، والعتر: نبات قصير يرتفع عن الأرض قدر ذراع، والدَّوْم: شجر عظيم يعلو في السماء وظله مستحسن.
(٦) اللزوميات هـ ص ٨١.

يمثل قصر أمله في الحياة . ومثل قوله : (١)

يَسعَى الفَتَى لابتِغَاءِ الرِّزْقِ مُجْتَهِداً
بِالسَّيْفِ والرُّمحِ فوْقَ الطِّرْفِ والجَمَلِ
ولَوْ أقامَ لَوافَاهُ الَّذِي سَمَحَتْ   بهِ المَقَادِيرُ مِنْ نَقْصٍ ومِنْ كَمَلِ

• • •

ويَأتي الفَتَى رِزْقُهُ وَادِعًا   ولَوْ كانَ فِي النِّيقِ عِنْدَ الفُدُرْ (٢)

يمثل ترك طلب المضمون . ومثل قوله : (٣)

ولَوْ كَانَتِ الدُّنيا مِنَ الإنْسِ لَمْ تَكُنْ   سِوَى مُومِسٍ أفْنَتْ بِمَا سَاءَ عُمْرَهَا

• • •

بِئْسَتِ الامُّ لِلأنامِ هِيَ الدُّنْـــيا وبِئْسَ البَنُونُ لِلأُمِّ نَحْنُ (٤)

يمثل بغض الدنيا . ومثل قوله : (٥)

ومَا سَرَّني أنِّي ابنُ سَاسَانَ أغْتَدِي   عَلَى المُلْكِ فِي الإيوانِ أُصْبِحُ أمْ أُمْسِي

• • •

---

(١) اللزوميات ﻫ ص ٢١٤ ، والطرف : الكريم من الخيل .
(٢) اللزوميات ﻫ ص ١٧١ ، والنيق : أرفع موضع في الجبل ، الفُدُر : مفردها فَدَر وهو الوعل الداقل في الجبل .
(٣) اللزوميات ﻫ ص ١٣٨ .
(٤) اللزوميات ﻫ ص ٢٦٣ .
(٥) اللزوميات ﻫ ص ٢٩٧ وفيها « أو أمسي » .

وأفضلُ مِن عَيشِ الغِنى عَيشُ فاقةٍ ومِن زِيِّ مَلْكٍ رائقٍ زِيُّ راهِبِ[1]

يمثل حبه للفقر . ومثل قوله :[2]

أأخشى عذابَ اللهِ واللهُ عادلٌ وقد عِشتُ عيشَ المُستضامِ المُعذَّبِ

• • •

وَإِنِّي وَلَمْ آتِ خيراً أُعِدُّهُ لآمُلُ إِرواءً بِغَيرِ ذُنوبِ[3]

يمثل ثقته بالله . ومثل قوله :[4]

وَكَيفَ أُجيدُ في دارٍ بِناءً وَرَبُّ الدارِ يُؤذِنُني بِنَقلِ

• • •

هَوِّنْ عليكَ فما الدُّنيا بدائمةٍ وإنّما أنتَ مثلُ النّاسِ مَغرورُ[5]

يمثل نظره إلى الدنيا بعين الزوال . ومثل قوله :[6]

لا تفرحَنَّ بما بلغتَ من العُلا وإذا سبقتَ فعن قليلٍ تُسبَقُ

• • •

---

(١) اللزوميات هـ ص ٤٦ .

(٢) اللزوميات هـ ص ٤٥ .

(٣) اللزوميات هـ ص ٤٧ ، وفيها :

« وإني وإن لم آت خيراً أعده لآمل إرواء بغير ذنوب »

ويبدو أن المؤلف قد أسقط سهواً (ان) من الشطر الأول لأنه لايستقيم وزنه بدونها .

(٤) اللزوميات هـ ص ٢١٨ .

(٥) اللزوميات هـ ص ١٢٣ .

(٦) اللزوميات هـ ص ٣٠١ .

لا يَفرَحنْ بالحيَاةِ غِرٌ فَإنّهَا مَهلَكاً تَسُوقُ[1]

. . .

لا تأسفنّ لِفَائِتٍ مَا وَاجِدٌ يُقْضَى لَهُ في نَفْسِهِ إيثَارُ[2]

يمثل لنا أنه لايفرح بوجود، ولا يأسف على مفقود. ومثل قوله : [3]

إنْ مَدَحُوني سَاءنِي مَدْحُهُمْ وَخِلتُ أنّي في الثَّرَى سُخْتُ

. . .

دُعِيتُ أبَا العَلاءِ وَذَاكَ مَيْنٌ وَلَكِنّ الصّحِيحَ أبُو النُّزُولِ[4]

يدل على أنه يبغض المحمدة. وهناك أبيـات تدل على أنه جرى في الزهد على مذهب قوم آخرين. وعلى هذا يمكن أن يقال: إنه زاهد على كل قول ورأي. وإنّ تعدد قوله في هذا الغرض ليس من باب التكرار المجرد عن الفائدة. وإنما هو للدلالة على أنه زاهد على كل وجه وفي كل رأي.

حض على العمل والكسب

رأى بعض الأدباء أن أبا العلاء أكثر من الزهد والتزهيد في الدنيا، وحض على عدم الاسترسال اليها، والانصراف إلى الآخرة. فظُن أنه هدام للمجتمع، داعية إلى الخمول والكسل. ومن نظر في أقواله نظر مدقق

(١) اللزوميات ﻫ ص ٣٠٠ .

(٢) اللزوميات ﻫ ص ١٢٩ .

(٣) اللزوميات ﻫ ص ٦٢ ، وسخت : غبت .

(٤) اللزوميات ﻫ ص ٢١٩ .

منصف تبين له بأجلى وجه أنه على غير مايظن ، وأنه يريد بترهيده في الدنيا وتنفيره عنها أن لاينخدع بها الإنسان فيجعلها أكبر همه وأقصى أمله ، ويغفل عما تقتضيه الواجبات الإنسانية في الدنيا ، وعما يجب للآخرة . يدل على ذلك ماتراه في أقواله من الحث على العمل ، واطراح التوكل ، وامتهان النفس في المسألة . كما ترى ذلك في مثل قوله في اللزوم : (١)

اعْمَلْ لِأُخراكَ شِرْوَى مَنْ يَمُوتُ غداً
واذأبْ لِدُنيـاكَ فِعْلَ الغَابِرِ البَاقي

. . .

وقوله : (٢)

تَرُومُ رِزْقاً بِأَنْ سَمّوْكَ مُتَّكِلاً   وأَيْنَ النّاسِ مَنْ يَسْعَى ويَحْتَرِفُ

. . .

وقوله : (٣)

إِذا قِيلَ : إِنّ الفَتَى نَاسِكٌ   وَرَامَ الجَمَالَ فَلاَ نُسْكَ لَهْ
يُصَلّي وَهِمّتُـهُ أَنْ يُقَا   لَ سَابِقُ خَيلِ رِضا(٤) فِسْكِلَهْ(٥)

(١) اللزوميات ﻫ ص ٣٠٧ ، وشروى : مثل .
(٢) اللزوميات ﻫ ص ٢٩١ .
(٣) اللزوميات ﻫ ص ٢٠٩ .
(٤) كذا . (ج)
(٥) الفسكل ، كقنفذ وزبرج : الفرس الذي يجيء في الحلبة آخر الخيل .

وأفضَلُ مِنْـهُ امرُؤٌ خامِلٌ يَقُوتُ بِمَكْسَبِـهِ حِسْكِلَهْ[١]

• • •

وقوله : [٢]

لا تَكُوني رَوّادَةً هَزّالَهْ واحْذَري مِنْ نَوائِبَ جَزّالَهْ
اغزِلي[٣] في الحياةِ فالشّمسُ قِدمًا غَزَلَتْ خَيْطَها فقِيلَ غَزالَهْ

• • •

وقوله : [٤]

لاتَقُومَنَّ في المَسَا جِدِ تَرْجُو بِهـا الزُّلَفْ
مُعْمِلاً بَسْطَ راحَتَيْـ ـكَ إلى نائِـلٍ يُلَفْ
وَرُمِ الرِّزْقَ في البِلا دِ فَإنْ رُمْتَـهُ ازْدَلَفْ

• • •

وقوله : [٥]

خَيْرَ فِيما أَراهُ لامرَأَةِ الجُنْـ ـدِيِّ مِنْ بَعْدِ زَوْجِها المَقْتُولِ
إذْ[٦] أغارَتْ حَبْلَ القَناعَةِ تَبْغِي الرْ رِزْقَ مِنْ عِنْدِ خَيْطِها المَفْتُولِ

---

(١) الحسكل : بالكسر الصغير من ولد كل شيء جمع حساكل وحسكلة .
(٢) اللزوميات ٥ ص ٢٠٩ .
(٣) في اللزوميات « اعتلي » وما رواه المؤلف أصح .
(٤) اللزوميات ٥ ص ٢٩٧ .
(٥) اللزوميات ٥ ص ٢٢٣ .
(٦) أغار : شد الفتل .

وقوله في (الفصول والغايات ج ١ ص ٨٥) :

«وَحَارِثُ الأَرْضِ عِنْدَ رَبِّهِ أَوْجَهُ مِنَ الحَارِثِ الحَرَّابِ(١)»

وقوله في سقط الزند :(٢)

وَالموْتُ أَحسَنُ بِالنَّفْسِ التي أَلِفَتْ ... عِزَّ القَنَاعَةِ مِنْ أَنْ تَسْأَلَ القُوتَا

ولكنه كان يكره طلب الرزق من الحروب كما كان يكره الحروب. يدل على ذلك قوله :(٣)

وَاطْلُبِ الرِّزْقَ بِالمُرُورِ مِنَ الشَّـــجْرَاءِ لا مِنْ أَسِنَّةٍ وَمَنَاصِلْ

وقد ذكرنا في الكلام على الحروب شيئاً مما يتعلق بهذا .

التشاؤم أو التطير

الشؤم في اللغة : خلاف اليمن ، كما في (اللسان) . ونقيض اليمن كما في (الصحاح) . وضد اليمن كما في (القاموس) . وعلماء اللغة قد يتسامحون فيستعملون كلاً من الألفاظ الثلاثة : الخلاف ، والنقيض ، والضد ، مكان الآخر . والمناطقة والمتكلمون ومن طبع على غرارهم يفرقون بينها . فالنقيضان عندهم لايجتمعان ولا يرتفعان ، كالعدم والوجود ، والضدان لايجتمعان ولكن يرتفعان ، كالسواد والبياض . والخلاف ، بمعنى المخالف ، أعم من الضدين ، لأن كل ضدين مختلفان . وأهل اللغة المفسرون كثيراً مايفسرون التطير بالتشاؤم والتشاؤم بالتطير . والسبب في ذلك أن العرب كانوا يزجرون الطير ، فكان أحدهم إذا أراد عملا أو سفراً أثار الطير من مجاثمها ، فكانوا

---

(١) الحارث الحراب : ملك من ملوك كندة .

(٢) شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٦٤٠ .

(٣) اللزوميات هـ ص ٢٢٦ .

يتشاءمون ببارحها ، فسموا الشؤم طائراً وطيراً لتشاؤمهم بها . قال الجوهري: وتطيرت من الشيء وبالشيء ، والاسم منه الطيرة ، مثال العِنَبَة . وهو مايتشاءم به من الفأل الرديء .

وفي (المصباح) : الشؤم الشر .. وتشاءم القوم به مثل تطيروا به . وفيه : وتطير من الشيء واطّير منه والاسم الطيرة وزان عنبة ، وهي التشاؤم . فالتطير والتشاؤم مختلفان من جهة اللفظ ، لأن المادة التي اشتق منها أحدهما غير المادة التي اشتق منها الآخر . ولكنها متفقان فيما يصدقان عليه ، وهو مايتشاءم به .

وقد ذكر العلماء أمثلة للتطير أو التشاؤم . منها : أن النابغة الذبياني ، وزبان بن يسار ، خرجا يريدان الغزو ، فرأى أحدهما جرادة ، فتطير وقال : حرب ذات ألوان ، ثم رجع عن عزمه . ومنها : أن ابن الرومي تطير من لفظ « إقبال » لأنه ينقلب إلى « لابقا » . ومن قول العصافير « سيق سيق » ومن رؤية الدرفنين كهيئة « اللام الف » وتحتها نوى تمر . وقال : هذا يشبه « لا تمرّ » .

وإذا تأملنا أقوال العلماء في التطير أو التشاؤم ، وما ذكروه من الأمثلة لها ، تبين لنا أن المراد منها أن يتوهم الإنسان وقوع شر من شيء أو أمر يجهل عاقبته ، وهو في ذاته ليس شراً متيقناً ، ولا دليل له على مايتوقعه منه كما توقع النابغة أو زبان حربا ذات ألوان ، لأنه رأى الجرادة ذات ألوان ؛ وليست الجرادة في نفسها شرا ، وليس لديه دليل قاطع على وقوع ماتوهمه ، بل كان الأمر بالعكس ، لأن رفيقه مضى فغزا وغنم وعاد سالماً غانماً . وكذلك ماتوهمه ابن الرومي .

وكلام أبي العلاء في (رسالة الغفران [1] ص ١٦١) يدل على أنه كان ينكر التشاؤم فقد قال : « ومن أولع بالطِّيَرَة ، لم يرَ فيها من خِيرَة ، وإنما هي شر متعجَّل ، وللأنفس أجل مؤجَّل ، وكل ذلك حَذَرٌ من الموت الذي هو رِبَقٌ في أعناق الحيوان ، حكَمَ لقاؤه في كل أوان ، وفي الناس من يظن أن الشيء إذا قيل جاز أن يقع ، وكذلك [2] قالت العامة : الإرجاف أول الكون ... » ثم قال : « وكان ابن الرومي معروفاً بالتطير ، ومَنِ الذي أجريَ على التخير ! ? وقد جاءت عن النبي - ﷺ - أخبار كثيرة تدل على كراهة الاسم الذي ليس بحسن ، مثل « مرة » و « شهاب » و « الحُباب » لأنه يتأوله في معنى الحية ». ثم قال : « وإذا كان الرجل خُتارماً [3] لم يزل في الكثكث آرما : [4] إن رأى سَمَامة [5] من الطير ، حسبها من السِّمام ، أو حمامة فَرِقَ من الحِمام » . إلى أن قال : « ولهذه الطوية جعل « ابن الرومي » جعفراً من الجوع والفرار ، ولو هُدِيَ صرفه إلى النهر الجرار ، لأن الجعفر النهر الكثير الماء . ولكن إخوان هذه الخليقة ، لايحملون الأشياء الواردةَ على الحقيقة » .

ثم ذكر أن الرجل قد يحتفرُ قبراً له في الشام فيموت في اليمن أو الهند ، وقد يظن أنه يهلك بسيف فيهلك بحجر ، أو أنه يموت على مهاد فيموت في وهاد .

---

(١) الرسالة تحقيق بنت الشاطئ ط ١ ص ٤١٩ .

(٢) في المصدر المتقدم : ولذلك .

(٣) الختارم : الرجل المتطير (ج) .

(٤) الكِثْكِث والكَثْكَث : رِقاق التراب ، وفتات الحجارة أو التراب مع الحجر . وأرَم : أكل وعض وبلي وشد (ج) .

(٥) السامة بفتح السين : ضرب من الطير دون القطا وجمعها سمام . والسِّمام بالكسر : جمع سم .

وكلامه في (لزوم مالا يلزم) صريح في إنكار الطيّرة، وهو كثير، منه قوله: (١)

أسُرِرتَ إذ مرّ السّنيحُ تفاؤلاً والفألُ مِن رأيي لعمرك فائِلِ
أرأيتَ فعلَ الدّهرِ في أُمَمٍ مضتْ قبلاً ومرْجَ قبائِلٍ بقبائِلِ

. . .

وقوله: (٢)

إنْ تَطَيّرْ أوْ تفاءلْ فما تملكُ ريْبَ الدّهْرِ أنْ ترْسُنَهْ
خيرِيّةٌ في لفظِها خِيرَةٌ جاءتْكَ بالسُّوءِ مِنَ السّوسَنَهْ

. . .

وقوله: (٣)

لا تفرحَنّ بفألٍ إنْ سَمِعْتَ بِهِ ولا تَطَيّرْ إذا مانَاعِبٌ نَعَبَا
فالخطبُ أفظعُ مِنْ سرّاءَ تأمُلُها والأمرُ أيسرُ مِنْ أنْ تضمرَ الرُّعُبا

. . .

---

(١) اللزوميات ﻫ ص ٢٢١ ، والسنيح والسانح : ما أتاك عن يمينك من طائر أو ظبي وأكثر العرب على التيمن به . والمرج : الخلط .
(٢) اللزوميات ﻫ ص ٢٧٠ . والخيريّ : المنثور الأصفر .
(٣) اللزوميات ﻫ ص ٣٩ .

وقوله : (١)

زُجِرَ الغُرابُ تَطَيُّرًا ونَقِيضُهُ ... دِيكٌ لأَهلِ الدَّارِ أَبيضُ أَفرَقُ

* * *

وقوله : (٢)

تَعَرَّضُ لِلطَّيرِ السَّوانِحِ زَاجِرًا ... أمالكَ مِنْ عَقلٍ يَكُفُّكَ زَاجِرُ

* * *

وقوله : (٣)

آلَيتُ لا يَدرِي بِما هُوَ كائِنٌ ... مُتَفَائِلٌ بِالأَمرِ أَوْ مُتَطَيِّرُ

كالدَّارِ صَبَّحَها سِوىٰ قُطَّانِها ... فَثَوَوْا بِهَا وتَحَمَّلَ المُتَدَيِّرُ

* * *

وقوله : (٤)

لِلْحَالِ بِالقَدَرِ اللَّطِيفِ تَغَيُّرٌ ... فَلْيَنْأَ عَنكَ تَفاؤُلٌ وتَطَيُّرُ

* * *

وقوله : (٥)

لا يَتَطَيَّرْ بِنَاعِبٍ أَحَدٌ ... فَكُلُّ مَا شَاهَدَ الفَتَى طِيَرَهْ

رُؤْيَتُكَ المَيْتَ فِي الكَرىٰ سَبَبٌ ... يَقُولُ مَنْ يَفْقِدِ الحَياةَ يَرَهْ

* * *

(١) اللزوميات هـ ص ٣٠١ ، وديك أفرق : عرفه مفروق بين الفرق .

(٢) اللزوميات هـ ص ٢٢١ .

(٣) اللزوميات هـ ص ١٢٦ .

(٤) اللزوميات هـ ص ١٢٥ .

(٥) اللزوميات هـ ص ١٤٤ .

وقوله :(١)

وَمَا طَيْرُ اليَمِينِ بِمُنْجِياتي فَأَخْشَى الهَمَّ مِنْ طَيْرِ الشِّمالِ

• • •

وقوله : (٢)

هَلْ تَرَى نَاعِبًا كَعَنْتَرَةَ العَبْسِيِّ يَبْكِي عَلَى مَنازِلِ عَبْلَهْ

أَوْ خُفافٍ يَرثي رِجالَ سُلَيْمٍ أَوْ سُحَيْمٍ يَحْدُو مَعَ الرَّكْبِ إِبْلَهْ

لا تَهَبْهُ وَلاَ سِواهَ مِنَ الطَّيْرِ فَمَا يَتَّقِي أَخُو اللُّبِّ تَبْلَهْ(٣)

وقد زعم بعض الأدباء أن أبا العلاء كان من المتشائمين . وزعم آخر أنه في طليعة المتشائمين . وجعلوا موازنة بينه وبين بعض فلاسفة الغرب المتشائمين ؛ وذكروا الوجوه التي يتشابه فيها الرجلان ، والوجوه التي يختلفان فيها ، وقالوا : إن أبا العلاء ينظر إلى الدنيا بمنظار قاتم ، وقالوا غير ذلك .

وإذا استقرينا أقوال أبي العلاء في هذا الباب ، وجدناها ثلاثة أنواع :

الأول منها مثل قوله في السقط (٤) :

سَنَحَ الغُرابُ لَنَا فَبِتُّ أَعِيفُهُ خَبَرًا أَمَضُّ مِنَ الحِمامِ لَطِيفُهُ

زَعَمَتْ غَوادِي الطَّيْرِ أَنَّ لِقاءَها بَسَلٌ تَنَكَّرَ عِنْدَنَا مَعْرُوفُهُ(٥)

• • •

---

(١) اللزوميات هـ ص ٢١٩ .

(٢) اللزوميات هـ ص ٢٠٩ .

(٣) التبل : الترة والذحل والعداوة وتبله الدهر : رماه بصروفه وأفناه .

(٤) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١١٠٣ ، وسنح : عرض ، وعِفْتُ الطير : زجرته .

(٥) في الشروح « بعدنا معروفة » . والبسل : الحرام ، وهو من الأضداد .

وقوله فيه [١] :

نَبيٌّ مِنَ الغِرْبانِ لَيسَ عَلى شَرْعٍ   يُخَبِّرُنا أنَّ الشُّعُوبَ إلى الصَّدْعِ
أُصَدِّقُهُ في مِرْيَةٍ وقَدْ امْتَرَتْ   صَحابَةُ مُوسى بَعْدَ آياتِهِ التِّسْعِ

إلى آخر الأبيات . ولا شك أن هذه الأقوال وأشباهها لا تدل على أنه كان يعتقد صحة الطيرة ، ولا أنه كان يتطير ، وإنما أراد أن يتلاعب بهذا المعنى في أبياتـه ، جريا على عادة الشعراء المتقدمين في نسبة الفراق إلى الغراب ، فجعل الغراب نبيًّا ، ووصفه به في هـذه الصورة الخيالية البديعة ، ودل على أنه لا يعتقد صحة ذلك بقوله في البيتين الأولين : « زعمت عوادي الطير . . . » وبقوله في البيتين الأخيرين . « أصدقه في مريـة . . . » وبقوله في الدرعيات[٢] :

وَلَيْسَ غِرْباني بِمَزْجُورَةٍ   ما أنا مِنْ ذي الخِفَّةِ الأسْحَمِ

النوع الثاني مثل قوله في (لزوم ما لا يلزم) [٣] :

يَدْعُو الغُرابَ أُناسٌ حاتِماً سَفَهاً   لأنَّهُ بِفِراقٍ عِنْدَهُمْ حَتَما
هٰذا التَّكَذُّبُ ما لِلْجُونِ مَعْرِفَةٌ   ولا يُبالي أنالَ المَدْحَ أمْ شُتِما

وقوله المتقدم : « وَيُغْنيكَ عَنْ طَرْحٍ فألٌ يعود باليمن طعنك في القائل » .
وقوله في رسالة الغفران المتقدم . « وهـذا النوع صريح في إنكار التطير أو التشاؤم » .

---

(١) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١٣٣٢ وفيها « إلى صدع » ، والمرية : الشك .
(٢) شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٨٠٩ ، وذو الخفة الأسحم : الغراب .
(٣) اللزوميات ٢ ص ٢٤١ وفيها : « أو شتما » والجون : مفردها جَوْن وهو الأسوَد .

النوع الثالث ما نراه في مثل قوله (١) :

وكَيفَ أقضِّي ساعَةً بِمَسَرّةٍ وأعلَمُ أنّ المَوتَ مِن غُرَمائي

. . .

وإذا الفَتى كانَ التُّرابُ مآلَهُ فَعلامَ تَسهَرُ أُمُّهُ وتُرَبِّتُ (٢)

. . .

تَهوَى السّلامَةَ والقُبُورُ مَضاجِعٌ سَلَبَتْ عَنِ اليَقَظاتِ مُضطَجِعاتِها (٣)

وَكَيفَ أُرَجِّي مِنْ زَمانِي زِيادَةً

وَقَدْ حَذَفَ الأصْلِيَّ حَذفَ الزَّوائدِ (٤)

. . .

تَعَبٌ كُلُّها الحياةُ فَمَا أعْـ ـجَبُ إلاّ مِن راغِبٍ في ازْدِيادِ (٥)

. . .

وَجَدتُ المَوْتَ لِلحَيَوانِ داءً وكَيفَ أُعالِجُ الدّاءَ القَدِيما (٦)

وَمَا دُنياكَ إلاّ دارُ سُوءٍ وَلَسْتَ عَلى إساءَتِها مُقِيما

---

(١) اللزوميات ﻫ ص ٢٦ .

(٢) اللزوميات ﻫ ص ٦١ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) اللزوميات ﻫ ص ١٠٥ .

(٥) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ٩٧٧ .

(٦) اللزوميات ﻫ ص ٢٤٢ .

الى آخر الأبيات .

فهذا وما أشبهه ، كله لا يرى فيه المتأمل شيئاً مما يراه في قصة النابغة وابن الرومي وأشباههما ، ولا يرى شبهاً بينه وبينهما . لأن كلامه هذا ، إما بيان للحقيقة الواقعة في الحال ، وإما بيان للحقيقة المتوقعة في المستقبل . فمثله في ذلك مثل الطبيب الحاذق إذا عرض عليه مريض فرأى من حاله ما يدل على تفاقم مرضه ، أو على هلاكه بسبب المرض بحسب ما أرشده إليه طبه ودله عليه علمه ، فإذا سألنا هذا الطبيب عن حقيقة حالة المريض ، وعن السماح له بأكل ما يشتهيه ، فإن أخبرنا بخلاف الواقع كان كذاباً خداعا ، وإن أخبرنا بالحقيقة كان صادقا ، ولكن هل نعده متشائماً لأنه قال الحق وأخبرنا بالحقيقة ؟ والحكماء والشعراء في باب الوعظ والإرشاد قد يجنحون إلى التهويل والمبالغة ، ويجعلون حكم الأكثر للجميع . وقد يقتصرون في باب التحذير والتنفير من الشيء على ذكر مساوئه ومضاره ، ويمسكون عما يكتنفه من ملاذ ومنافع . وقد ذكرنا غير مرة أن كتب أبي العلاء ليست كتبا شرعية تقدر فيها الألفاظ على قدر الحقيقة ، وإنما هي كتب أدب ، وحكمة يجري فيها على طريقة الأدباء والحكماء .

وقد كان علي بن أبي طالب (ض) يخطب مرة ، فقال له رجل : « يا أمير المؤمنين ، صف لنا الدنيا ، فقال : ما أصف من دار أولها عناء وآخرها فناء ، في حلالها حساب وفي حرامها عقاب ، من صحّ فيها أمِن ، ومن مرض فيها ندم ، ومن استغنى فيها فُتن ، ومن افتقر فيها حزن »(١)

---

(١) الكامل للمبرد ج ٢ ص ١٥٠ (ج)

وقال في خطبة أخرى : « انظروا إلى الدنيا نظر الزاهدين فيها ، الصادفين عنها ، فانها والله ، عما قليل تزيل الثاوي الساكن ، وتفجع المترف الآمن ، لايرجع ماتولى منها فأدبر ، ولا يُدرى ماهو آت منها فينتظر ، سرورها مشوب بالحزن ، وجلد الرجال فيها الى الضعف والوهن ».

وقال في خطبة أخرى : « ألا فما يصنع بالدنيا من خلق للاخرة ، وما يصنع بالمال من عما قليل يُسلَبه ، وتبقى عليه تبعته وحسابه ؟ ».

فانظر كيف نظر علي (ض) إلى الدنيا وهو أمير المؤمنين ومن الأئمة الزاهدين والمرشدين وكيف وصفها . ولم يعد من المتشائمين .

وللشعراء والحكماء في باب التزهيد والوعظ ألوان مختلفة وصور متعددة من التحذير من الدنيا ، والتخويف من الاغترار بما فيها من نعيم زائل ، وتذكير بالمصير والمآل ، وربما كان المزهد أو الواعظ منغمساً في ملاذها مستميتاً في سبيلها ، فهذا أبو تمام يقول من قصيدة مطلعها : (١)

أَتَأْمَلُ فِي الدُّنيا تَجِدُّ وتَعْمُرُ ... وأَنتَ غداً فِيها تَمُوتُ وتُقْبَرُ

وهٰذا صباحُ اليَوْمِ يَنعاكَ ضَوْؤُهُ ... ولَيلَتُهُ تَنعاكَ إِنْ كُنتَ تَشعُرُ

فَلا تَأْمَنِ الدُّنياوإِنْ هِيَ أَقْبَلَتْ ... عَلَيكَ فَمَازَالَتْ تَخُونُ وتَغدرُ

فَمَا تَمَّ فِيها الصَّفْوُ يَوْمًا لِأَهْلِهِ ... ولا الرَّنقُ إِلاَّ رَيْثَمَا يَتَغَيَّرُ

فَهٰذِي اللَّيالي مُؤْذِناتُكَ بِالبِلَى ... تَرُوحُ وأَيَّامٌ كذٰلِكَ تُبكِرُ

ويقول من قصيدة ثانية مطلعها : (٢)

أَلَمْ يَأْنِ تَرْكِي لا عَلَيَّ ولا لِيا ... وعَزمِي عَلَى مَا فِيهِ إِصْلاحُ حالِيا

---

(١) ديوانه شرح محيي الدين الخياط ص ٤٨٢

(٢) المصدر السابق ص ٤٨٣

وَمَا تبرَحُ الأيّامُ تحذِفُ مُدّتي بعدَّ حِسَابٍ لا كَعَدّ حِسابيا
لِتَمْحُوَ آثاري و تُخلِقَ جِدّتي وتُخلِيَ مِنْ رَبْعِي بكُرْهٍ مَكانيا
أقولُ لِنَفسِي حِينَ مَالتْ بصَفْوِها إلى خَطَراتٍ قَدْ قَتَحْنَ أمَانيا
هَبِينِي مِنَ الدُّنيا ظَفِرْتُ بكُلِّ مَا تَمَنَّيْتُ أوْ أُعْطِيتُ فوقَ الأمَانِيا
ألَيْسَ اللّيَالِي غَاصِباتِيَ مُهْجَتِي كَمَا غَصَبَتْ قَبْلي القُرُونَ الخَوَالِيا

* * *

ويقول : (١)

إنْ شِئْتَ أنْ يَسْوَدَّ ظَنُّكَ كُلُّهُ فَأَجِلْهُ في هذا السَّوادِ الأعْظَمِ

وهذا البحتري يقول من قصيدة : (٢)

أطِلْ جَفْوَةَ الدُّنيا وتَهْوِينَ شَأنِها فما العاقِلُ المَغْرُورُ مِنْها بعاقِلِ
يُسَارُ بِنا قَصْدَ المَنُونِ وإنّنا لَنَشْغَفُ أحياناً بِطَيّ المراحِلِ
عِجالاً مِنَ الدُّنيا بأسْرَعِ سَعْيِنا إلى آجِلٍ مِنْها شَبِيهٍ بعاجِلِ
غَفِلْنا عَنِ الأيّامِ أطْوَلَ غَفْلَةٍ ومَا خَوْنُها المَخْشِيُّ عَنّا بِغَافِلِ
تَغَلْغَلَ رُوّادُ الفَناءِ و نَقّبَتْ دَواعِي المَنُونِ عَنْ جَوادٍ وبَاخِلِ

---

(١) ديوانه - شرح محي الدين الخياط ص ٣١٢ وهو البيت السابع من قصيدة مدح بها ابن شبانة أبا الحسن محمد بن الهيثم .
والسواد الأعظم : العالم الآدمي ، أصل السواد ، العفص .

(٢) ديوانه ٢/٦٣٨ طبعة بيروت . والأبيات من قصيدة يمدح بها الشاه بن ميكال ، مطلعها :
تقضّى الصبا إلا تلوم راحل وأغنى للشيبُ عن ملام العواذل

وكتب الوعظ والأدب مكتظة بمثل هذا من التنفير من الدنيا والنظر إليها بمنظار قاتم، حتى من أناس مغمورين بنعيم الدنيا، غرقين في ملاذها ومسراتها. ولم يعد أحد منهم متشائماً، لأن طبيعة الوعظ تقتضي ذلك. وما رأينا ولا سمعنا واعظاً يعدد أصناف النعيم في الحياة ويحض عليها، لأن النفوس البشرية لاتحتاج إلى ذلك.

نفي التشاؤم عنه

إذا تأملنا سبيل الزاهدين والوعاظ والمزهّدين من الأئمة والحكماء والعلماء والشعراء، وأنعمنا النظر فيما قاله المغوبون في معنى التشاؤم والتطير، وفيما ضربوه لهما من الأمثال اتضح لنا أن أبا العلاء غير متشائم، وأن مافي كلامه مما يوهم ذلك بيان للحقيقة الواقعة في الماضي أو الحال أو المتوقعة في المستقبل. وقد فرض عليه التشاؤم فرضا، وألزم به وهو لم يلتزمه، وأن سبيله في التزهيد سبيل غيره. إلا أنه أكثر منه، لأن اختباره للدنيا وأهلها كان أكثر، وتفكيره فيها كان أدق وأعمق، وكرهه لها أشد لأنها فجعته ببصره وهو صغير، ثم فجعته بـأبيه ثم بأمه فتركته عاجزا لايستطيع شيئاً إلا بغيره. وهناك شيء آخر وهو أنه كان غزير المادة، واسع الاطلاع قوي البديهة فياض القريحة كثير الابتكار والاختراع محباً للحكمة والأمثال، وكان يحب أن يعرض عبقريته على الناس في نثره ونظمه، وكان يربأ بنفسه عن المدح إلا لضرورة، ولا يحب الهجاء ولا الغزل إلا قليلا، فلم ير في الأغراض أوسع مجالاً من نقد الدنيا وأهلها، والتحذير منها. واستطاع أن يكون مجلّياً في هذا الغرض، وأن يعرض صوراً رائعة من أمثلته وحِكَمِه وأخيلته وافتنانه، على أن هذا الغرض أقرب إلى الله، وأبعد عن الناس، وهذا مايحبه ويرتضيه.

ولعل أول من نعته بالتشاؤم فريق من المستشرقين ، ثم تبعهم جماعة من المشارقة المولعين بكل غريب ، ولو كان باطلا صريحــا . وظنوا أنهم أطرفوا الأدب العربي بما لم تستطعه الأوائل .

ويظهر لمن استقرى آراء المتشائمين وأقوالهم ، أنهم فريقان : فريق متشائم مطلق ، وهذا يعتقد أن الوجود كله شر محض وأن العدم خير منه . وفريق متشائم في بعض الأشياء دون بعض ، وهذا لايعتقد أن الوجود شر مطلق، وإنما يعتقد أن في الدنيا شيئاً من الخير وشيئاً من الشر ، وأن العــاقل يستطيع أن يتغلب على الشر بسعيه وجده .

اعتقاده في الخير والشر

بينا أن أبا العلاء غير متشائم للأسباب التي ذكرناها ، وأما اعتقاده في الخير والشر ، فالظاهر من أكثر أقواله أنه لايعتقد أن الوجود شر مطلق ، وإنما يعتقد وجود الأمرين معا ، فيوافق الفريق الثاني من المتشائمين أو هم يوافقونه ويدل على هذا أمور :

١ — منها : أنه يعتقد تنزه الله عن الشر ، ولا ينسب اليه إلا الخير . ولو اعتقد فيه الشر المطلق لما أثبت له صفات الكمال والخير ، ولما اعتقد أنه عادل حكيم رحيم يثيب الطائع ويجزي المحسن ويضاعف الأجر .

٢ — ومنها : أنه أثبت وجود الخير في الدنيا ، كما أثبت وجود الشر ، في مثل قوله : (١)

خيرٌ وشرٌّ وليلٌ بعدهُ وَضَحٌ ... والنّاسُ في الدّهرِ مثلُ الدّهرِ صِنْوانِ

• • •

(١) اللزوميات « س ٢٧٧ ، ورنها : « قنمان » .

وَيعلَمُ كُلٌّ أنّ للخيرِ مَوضِعاً   وفضلاً على إثباتِهِ أجمعَ الدهرُ[1]

. . .

وَلاَ تكُنْ لسَبِيلِ الشرِّ مُبتَكِـــراً
واصرِفْ إلى الخيرِ مِنْ نَهجِ الهُدَى سُبُلَكْ[2]

٣ – ومنها : أنه أثبت للخير أحكاماً إيجابية ، في مثل قوله : [3]

والخيرُ مَحبُوبٌ ولكِنَّـــهُ   يَعجِزُ عَنْهُ الحيُّ أوْ يَكسَلُ

. . .

والخيرُ أزهَرُ مَا إليهِ مُسارِعٌ   والشرُّ أكدرُ لَيسَ عَنهُ مُحجِمُ[4]

. . .

والخيرُ بَينَ النّاسِ رَسمٌ دائِرٌ   والشرُّ نَهجٌ والبرِيّةُ مَعلَمُ[5]

. . .

والخيرُ يغدِي كَغادِي مُزنَةٍ هطَلَتْ   أرضاً فلَمّا رآها رائحٌ هطَلا[6]

. . .

مَا الخيرُ صَومٌ يَذُوبُ الصّائِمُونَ لَهُ   ولا صلاةٌ ولا صُوفٌ على الجسَدِ[7]
وإنّما هُوَ تَركُ الشرِّ مُطّرَحاً   ونَفضُكَ النّفسَ مِنْ غِلٍّ ومِنْ حَسَدِ

---

(١) اللزوميات هـ ص ٢٢٨ .
(٢) اللزوميات هـ ص ١٩٠ .
(٣) اللزوميات هـ ص ٢٠١ .
(٤) اللزوميات هـ ص ٢٣٥ ، الزهرة بالضم : الحسن والبياض ، ومنه زهر فهو أزهر .
(٥) اللزوميات هـ ص ٢٣٥ ، والعلم : مايستدل به .
(٦) اللزوميات هـ ص ٢٠٤ .
(٧) اللزوميات هـ ص ١٠٩ .

والقاعدة عند العلماء أن ثبوت شيء لشيء فرع عن ثبوت المثبت له ، يعني ، إذا قلت : الشمس مضيئة ، فقد أثبت الإضـــاءة للشمس ، وثبوت الإضاءة للشمس دليل على ثبوت الشمس وفرع عن وجودها .

وقد حضّ على الخير في مواطن من شعره مثل قوله :[1]

بَدَارِ بِدَارِ الخَيْرَ يا قَلْبُ تائِباً … أَلَسْتَ بِدَارٍ أَنَّ مَنْزِلِيَ الرَّمْسُ

ولا يناقض هذا مثل قوله :[2]

مَنِ ادَّعَى الخَيْرَ مِنْ قَوْمٍ فَهُمْ كُذُبٌ … لا خَيْرَ في هَذِهِ الدُّنْيا وَلا خَيْرُ

وقوله :[3]

مَا كانَ في الأَرْضِ مِنْ خَيْرٍ وَلا كَرَمٍ

فَضْلٌ مَنْ قالَ إِنَّ الأَكْرَمِينَ فَنُوا

فإنه من باب الغلوّ المراد به المبالغة في القلة والندرة ، كما في قوله : « ما في البرية جيد ... فما في هذه الدنيا تقي ... » ونحو ذلك من الأبيات الآتية . وإنما قلنا هذا لأنه صرح مرة بوجود الخير في الأبيات المتقدمة وغيرها ، وصرح مرة أخرى بندرته في مثل قوله :[4]

والخَيْرُ يَنْدُرُ تاراتٍ فَنَعْرِفُهُ … وَلا يُقاسُ عَلَى حَرْفٍ إِذَا نَدَرَا

* * *

(١) اللزوميات ﻫ ص ٣٠٩ .

(٢) اللزوميات ﻫ ص ١٢٢ .

(٣) اللزوميات ﻫ ص ٢٦١ .

(٤) اللزوميات ﻫ ص ١٤١ .

حياؤه

وكان شديد الحياء، دقيق الحس، شديد الاحتراس، حتى حمله ذلك على أن يأكل وحده في مغارة خجلاً من أن يرى مؤاكله أو غيره مايكرهه منه. وكثيراً ما كلفه الناس نظم قصائد وكتابة رسائل وإنشاء خطب وتأليف كتب فكان الحياء يمنعه من أن يمنع أحداً منهم. ولم يخبرنا التاريخ أنه رد سائلاً أو صد مستنجدا.

صدقه

لم ينقل الينا التاريخ أن أبا العلاء كذب بشيء مطلقا، وأن اعتصامه بحبل الصدق لم يدع له صديقا، ولو ظفر أحد من حساده وأعدائه على كثرتهم بكذبة منه لنشرها في القاصية والدانية. أما قوله: (١)

أُصدُقْ إلى أنْ تظُنَّ الصدقَ مَهلَكةً ... وبعدَ ذلكَ فاقعُدْ كاذِباً وقُمِ

فالمَينُ مَيتةُ مُضطَرٍّ ألَمَّ بِها ... والحقُّ كالماءِ يُجفى خِيفةَ السَّقَمِ

فإنه حض على الصدق وتنفير من الكذب إلا عند الضرورة الملجئة، وإبداع في التشبيه، وإحكام للمطابقة، وبيان للحقيقة الواقعة في عصره. وهو قول محض لايدل على أنه فعل الكذب.

وقد قدمنا قوله في (الفصول والغايات ج ١ ص ٢٠٩): «كنيت وأنا وليد بالعلاء، فكأن علاء مات ... لا اختار لرجل صدق ما ولد له أن يدعى أبا فلان ...»

يدل على حبه الصدق في كل شيء، حتى في الكتبة،

---

(١) اللزوميات ٥ ص ٢٤٨.

وكذلك قوله في اللزوم . (١)

عَلَيْكَ بِالصِّدْقِ فَلا حَظَّ لي ... في كَذِبٍ يَنْظِمُهُ السَّارِدُ

وقد جعل الكذب مساويا للظلم ، وفضّل الصخرة على أفضل الناس لأنها لاتكذب ولا تظلم .

فقال (٢) :

أَفْضَلُ مِنْ أَفْضَلِهِمْ صَخْرَةٌ ... لاَ تَظْلِمُ النَّاسَ وَلا تَكْذِبُ

جرأته

وكان على ضعف جسمه جريئاً قوي القلب ، لايخـاف في الحق لومة لائم ، وفي حديثه مع الشريف المرتضى حين أراد أن يغض من كرامة المتنبي دليل أوضح من الفلق على رباطة جأشه وجرأته ، وكذلك قوله في مجلس المرتضى : « الكلب من لا يعرف للكلب سبعين اسما » . وأدل من ذلك كله تصريحه بما يعتقده ، ومجاهرته بانتقاد الشرائع والنظم الاجتماعيه ، وغمزه قناة الأمراء والوزراء والشعراء وسائر أصناف الناس من غير مبالاة ولا جزع . وفي هذا مثال جلي يدلنا على مقدار ما كانت تكنه النفس الضعيفة من القوة والجرأة .

التقية

وزعم صاحب (الذكرى) (٣) أن أبا العلاء كان يضطر إلى المصانعة أحيانا ، ويلجأ إلى إخفاء آرائه تقيّةً وضناً بنفسه . وقد بينا بطلان ذلك في مواضع من هذا الكتاب .

---

(١) اللزوميات هـ ص ١٠٠ .
(٢) اللزوميات هـ ص ٣٦ .
(٣) انظر ذكرى أبي العلاء ـ لطه حسين ـ ط ٢ ، ص ٣٢٤ ـ ٣٢٧ .

وفاؤه واعترافه بالجميل

قلما وجد الإنسان رجلا وفيا لأصحابه ، شكورا للجميل ، مقراً بالنعمة مثل أبي العلاء . فإنه خالط جماعة من علماء العراق وغيرهم ، فكان كثير التشوق والنزوع إليهم كثير الثنـاء على ما أسدوه إليه من جميل العشرة والمؤانسة ، وقد أثنى عليهم في قصائده ورسائله ، وذكر ان لهم أيديا جميلة عنده ؛ وليس لهم غير ماذكرنا .

وكان أبو الحسن علي بن أبي هاشم وولده أبو الفتح يكتبان للمعري ، فأثنى عليهما كثيراً وشكرهما ، ووضع للولد كتابين (المختصر الفتحي) و(عون الجمل) . وكان ابن أخيه يخدمه ، فأطال الثناء عليه والدعاء له ، وإذا كتب إليه أحد كتابا عده نعمة تستوجب الشكر ، وبالغ في الثناء عليه وعلى أدبه . وإذا ابتدأه أحد بالمدح غالى في شكره ومدحه . وقد ذكرنا طرفاً من ذلك يدلنا على أنه صادق حين حدثنا عن نفسه بقوله [1] :

وَإِنْ وُصِلْتُ فَشُكْرِي شُكْرُ بَرْوَقَةٍ ... تَرْضَى بِبَرْقٍ مِنَ الأَمْطَارِ خُلَّبِ

تواضعه

كان أبو العلاء شديد التواضع ، يحب أن يتضاءل ويصغر شأنه حتى يكاد يخفى لا سيما في علمه وأدبه ، وقد قال التبريزي [2] : « إنه كان يكره أن يقرأ شعره في صباه الملقب « بسقط الزند » ..... ويقول معتذراً من امتناع سماعه : مدحت نفسي فيه فلا أشتهي أن أسمعه »

وقد بلغ من تغاليه في تواضعه أن أنكر اسمه وكنيته لما يُشعِران به من المدح

---

(١) اللزوميات ﻫ ص ٤٨ ، والبَرْوَقة : واحدة البروق ، وهي شجيرة ضعيفة إذا غامت السماء اخضرت ، ومنه « أشكر من برَوقة » .

(٢) انظر مقدمة التبريزي لشرح سقط الزند ، شروح السقط ق ١ ص ٣ .

فقال [1] :

وأحمدُ سمّاني كبيري وقلّما فعلتُ سوى ما أستحقُّ به الذمّا

. . .

دُعيتُ أبا العلاءِ وذاكَ مَينٌ ولكنّ الصحيحَ أبو النُزولِ [2]

وسأل ذويه أن لا يميلوا إلى تكرمته :

سألتُكمْ لا تكنُوني لتكرِمَةٍ وصغّروني تصغيراً بترخيمِ [3]

وَما ألومُكَ في خفضي ومنقصتي لكنْ ألومُكَ في رفعي وتفخيمي

وكتبه مفعمة بما يدل على تواضعه ، منها قوله في رسالة المنيح [4] : « هل أدبي في أدبه إلا كالقَطْرة في المَطْرة ، والنحلة عند النخلة . . » وقوله في رسالة الإغريض [5] : « كنتُ عرفْتُ سيدَنا أن الأدب كعُهودٍ في غِبِّ عهود ... وأني نزلتُ من ذلك الغيث ببلد طسم كأثر الوسم » . وقوله في رسالته إلى صدقة بن يوسف الفلاحي [6] : « وإن العامة عَهِدَتني في صَدْرِ العمر أستصحب شيئاً من أساطير الأولين ، فقالت عالم ، والناطق بذلك هو الظالم ... ، ونشأت في بلد لا عالم فيه وانما تَشَبَّثُ النامية بالجوازع السامية .. » وقوله في (الفصول والغايات ص ٢٦٦) : « لو كنت عبداً لغير الخالق لم يجزىء عتقي في الكفارة ، ولو كنت ضائنة لم أجزىء

---

(١) اللزوميات هـ ص ٢٣٨ .

(٢) اللزوميات هـ ص ٢١٩ ، والمَيْن : الكذب .

(٣) اللزوميات هـ ص ٢٥٠ .

(٤) رسائل أبي العلاء المعري ـ لشاهين عطية ـ ص ٢٩ .

(٥) المصدر السابق ـ ص ٥١ ، والعهود : مفردها عهد وهو مطر بعد مطر يدرك آخره بلل أوله . والطسم . الندرس .

(٦) رسائل أبي العلاء ـ لشاهين عطية ـ ص ٩٥ ـ ٩٧ ، وتعريف القدماء بأبي العلاء ص ٢٥٤ ـ عن مسالك الأبصار ـ العمري .

في الأضحية » وقوله في (رسالة الملائكة ص ٥) : « وحق لمثلي أن لا يُسأل ، فإن سئل تعين عليه أن لا يجيب ، فإن أجاب ففرض على السامع أن لا يسمع منه ، فإن خالف باستماعه ففريضته أن لا يكتب ما يقول ... »

وفي (لزوم ما لا يلزم) ألوان مختلفة من ذلك كقوله (١) :

مَاذَا تُرِيدُونَ لاَمَالٌ تَيَسَّرَ لِي ... فَيُسْتَمَاحُ وَلاَ عِلْمٌ فَيُقْتَبَسُ

وقوله : (٢)

أَجْهَلُ مِنِّي رَجُلٌ يَبْتَغِي ... عِنْدِيَ مَا لَسْتُ لَهُ مُحْسِنَا

وقوله : (٣)

مَنْ يَبْغِ عِنْدِي نَحْواً أَوْ يُرِدْ لُغَةً ... فَمَا يُسَاعَفُ مِنْ هَذَا وَلاَ هَذِي

وقوله : (٤)

لَوْ يُنَادَى فِي كُلِّ سُوقٍ عَلَيْنَا ... مَا اشْتَرَاهَا أَخُو رَشَادٍ بِفَلْسِ

فخره

ولا يرد على ماذكرناه من تواضعه ماورد في كلامه في باب الفخر من الأشياء الدالة على تعاظمه وإكباره نفسه ، لأن ذلك شيء كان في عهد الحداثة ، ولأن طبيعة الفخر تقتضي ذلك . والفخر غرض من أغراض الشعر يتنافس فيه الشعراء وقلما خلا شعر شاعر مجوّد منه ، والإتيان به لايكون

---

(١) اللزوميات هـ ص ٢٩٣ .
(٢) اللزوميات هـ ص ٢٧٠ .
(٣) اللزوميات هـ ص ١١٧ .
(٤) اللزوميات هـ ص ٣٢٥ .

إلا في مدح المرء نفسه وقومه ، وسنأتي أمثلة رائعة من كلامه في الفخر كقوله من قصيدة يقول فيها (١) :

وقدْ سارَ ذكْري في البلادِ فمنْ لَهُمْ بإخفاء شمسٍ ضوْؤها مُتكاملُ

وقوله من قصيدة ثانية (٢) :

وَكَمْ مِنْ طالبٍ أمَدِي سَيلْقى دُوينَ مَكانيَ السّبْعَ الشّدَادَا

وما شاكل هذا من أبيات القصيدتين وغيرهما ، وقد قدمنا أنه كان لايجب أن يتسمعَ شعرَه هذا لما فيه من المدح لنفسه .

كره الظلم

اتفقت الشرائع السماوية ، وأجمعت أهل العقول على تحريم الظلم وتقبيحه ولم تتشدد شريعة من الشرائع في تحريمه بقدر الشريعة الإسلامية ، فإن القرآن الكريم نهى عنه في غير موطن ، وحذّر وأنذر وبيّن عاقبة الظالمين .

وكتب الأحاديث النبوية طافحة بمثل ذلك ، منها قول النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه تعالى (٣) : « ياعبادي إني حرّمتُ الظلمَ على نَفْسي وجعَلْتُه فيما بينكُم محرّماً فلا تظالموا » . ومنها قوله (٤) لمعاذ لما بعثه إلى اليمن : « اتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب » . . ومنها قوله (٥) : « اتق دعوة المظلوم فإنها تصعدُ إلى السّماء كأنها شرارة » .

---

(١) شروح سقط الزند ، ق ٢ ص ٥٢٣ .

(٢) شروح سقط الزند ، ق ٢ ص ٥٦٥ .

(٣) رواه مسلم والترمذي وابن ماجة (ج) .

(٤) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي والترمذي مختصراً ومطولا . (ج)

(٥) رواه الحاكم (ج) .

ومنها قوله[١] « اتقوا دعوة المظلوم فإنها تحمل على الغمام ، يقول الله : وعزتي وجلالي لأنصرنك ولو بعد حين » ومنها قوله[٢] : « إن الله ليملي للظالم فإذا أخذه لم يفلته » ثم قرأ ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾ . إلى غير ذلك مما هو مذكور في كتب السنة .

وأبو العلاء كان يكره الظلم ولو كان من ورائه فوائد جمة ، ويقبحه ولا يجوزه في حال من الأحوال ، وينعي على الظالمين وذلك حيث يقول[٣]:

وَمَا سَرَّنِي أَنِّي أَصبتُ مَعاشِراً بِظُلْمٍ وأَنِّي في النَّعِيمِ مُخَلَّدُ

ويقول :[٤]

والظُّلْمُ عِنْدِي قَبِيحٌ لا أُجوِّزُهُ وَلَوْ أُطِعْتُ لَمَا فَاؤُا بِأَجلابِ

ولقد فضل الحجارة على الإنسان لأنها لا تظلم غيرها في مثل قوله:[٥]

أَفضَلُ مِنْ أَفضَلِهِمْ صَخْرَةٌ لا تَظلِمُ النَّاسَ ولا تَكذِبُ

---

(١) رواه الطبراني . (ج)

(٢) رواه البخاري ومسلم والترمذي .

والمراد من قوله : ليس بينها وبين الله حجاب أن ليس بينها وبين القبول حجاب مانع . وقوله : كأنها شرارة كناية عن سرعة الوصول ، شبه سرعة صعودها بسرعة طيران الشرارة . وقوله : تحمل على الغمام . . كناية عن إثارة الآثار العلوية وجمع الأسباب السماوية على الانتصار له والانتقام من الظالم ويجوز غير هذا الوجه . (ج)

(٣) اللزوميات هـ ص ٨٩ .

(٤) اللزوميات هـ ص ٤٨ ، وفاؤوا : أي رجعوا ، وأجلاب : مفردها جلَب وهو ما جلب من خيل أو غيره ، والجلْب بسكون اللام : الجناية ولعله المقصود ها هنا .

(٥) انظر ما سبق ص ٣٤٩ .

وفضّل صاحب الشرطة العادل على العدل الجائر فقال :(١)

صَاحِبُ الشُّرْطَةِ إِنْ أَنصَفَنِي فَهُوَ خَيْرٌ لِيَ مِنْ عَدْلٍ ظَلَمْ

وقد تعرض للظلم في مواضع من شعره ، منهـا قوله في وصف ناقة بالسرعة : (٢)

رُوحُ الظَّلُومِ إِذَا هَوَتْ فَإِذَا ارْتَقَتْ فَكَأَنَّمَا هِيَ دَعْوَةُ الْمَظْلُومِ

وفيه إشارة إلى الحديث الثالث : « تصعد إلى السماء كأنها شرارة » ومنها قوله : (٣)

لاشَيْءَ فِي الْجَــوِّ وَآفَاقِهِ أَصْعَدُ مِنْ دَعْــوَةِ مَظْلُومِ

وقوله : (٤)

وَالظُّلْمُ يُمْهِلُ بَعْضَ مَنْ يَسْعَى لَهُ وَمَحَلُّ نِقْمَتِهِ بِنَفْسِ الظَّالِمِ

وفيه إشارة إلى الحديث الرابع والخامس ، ومن الغريب قوله :(٥)

عَجِبَ النَّاسُ لِلْجَنِيـــنِ إِذَا مَسَّهُ الأَلَمْ

عَلِمَ اللهُ أَنَّــهُ إِنْ يُطِلْ عُمْرَهُ ظَلَمْ

---

(١) اللزوميات ﻫ س ٢٥٦ .
(٢) اللزوميات ﻫ س ٢٥٣ .
(٣) اللزوميات ﻫ س ٢٥٤ .
(٤) اللزوميات ﻫ س ٢٥٣ .
(٥) اللزوميات ﻫ س ٢٥٨ .

فإن كان من نوع حسن التعليل عند أهل البديع فهو حسن جداً ، وإن كان يعتقد أن ألم الجنين عقاب له على ما يفعله إذا طال عمره فهو غير صحيح ، لأن الله لا يعاقب على ذنب قبل اقترافه ، ولا يعاقب غير مكلف بلغ سن التكليف . ويعتقد أن الظلم كامن في كل نفس ، تظهره عند إمكان إظهاره ، وتخفيه عند عدم ذلك .

كانَ تَقِيًّا قَبْلَ إِمْكانِهِ حَتَّى إِذَا مُكِّنَ مِنْها ظَلَمْ[1]

وهو يشير إلى قول المتنبي :[2]

الظُّلْمُ مِنْ شِيَمِ النُّفُوسِ فَإِنْ تَجِدْ ذَا عِفَّــةٍ فَلِعِلَّةٍ لا يَظْلِمُ

ويقبح الظلم مهما كان صاحبه ، سواء أكان تقياً صالحاً أم شقياً طالحاً ، فهو يعتقد أن :

ظُلْمُ الحَمامَةِ في الدُّنيا وإِنْ حُسِبَتْ
في الصَّالِحاتِ كَظُلْمِ الصَّقْرِ والبَازِي[3]

رأفته ورقة قلبه

من نظر إلى شعر المعري حين يتكلم في الناس ، يظن ان قلبه قُدَّ من صخر ، ولكن من يتقرّى أبياته بدقة لا يجد قلباً من قلوب البشر وعى من الرأفة والرفق والعطف على كل حي معشار ما وعاه قلب المعري ،

---

(١) اللزوميات ٥ ص ٢٥٧ .

(٢) من قصيدة مطلعها :

لهوى النفوس سريرة لا تعلم عرضاً نظرت وخلت أني أسلم

انظر العرف الطيب ـ اليازجي ـ ص ٦٣٠ .

(٣) اللزوميات ٥ ص ١٧٤ .

والذي حمله على ما يرى من القسوة على الإنسان في كلامه ، حرصه على أن يكون الإنسان إنساناً كاملاً طاهراً من أدناس الخداع والرياء والخيانة وما أشبه ذلك من الخلال السيئة ، فهي قسوة ولدتها الرحمة له ، لأنه لا يريد أن يكون الآدمي ذئباً في مسلاخ إنسان . وربما ظهر عطف المعري على الحيوان الأعجم الضعيف الغر أكثر من عطفه على الإنسان العاقل القوي المحتال . فهو يرفق بالحيوان ويرحمه ، فلا يأكل من لحمه ، لأنه لا يصل إلى ذلك إلا بذبحه ، وفي الذبح إيلام لحيوان يحس كما يحس الإنسان بالألم ، ويحرص على الحياة كما يحرص الإنسان عليها ، ويتوقى من الأذى كما يتوقى الإنسان . ويزيد رأفة بالحيوان الضعيف ، فلا يرى من الرحمة أن تُفجع الطير بأوكارها ، والسمك في مقارها ، ويشق عليه أن تذهب الأم لتكسب لأفراخها أو اولادها ما تسد به الرمق من طعام أو شراب فيفاجئها صياد فيودي بحياتها ويتلذذ بلحمها ، وتبقى أولادها وليس لها من يعولها ، فتموت جوعاً أو عطشاً .

ويؤلمه أن يُذبح ولد الحيوان أو يمنع من ابن أمه ليتمتع غيره بلبنها أو ايرفه به غيره ، ويكره أن تدأب النحلة الضعيفة على جمع العسل ليكون غذاء لها ولصغارها ، ثم ينتزع منها قسراً ، ويعطى من يمكنه الاستغناء عنه بغيره أو يمنح لمن لا حاجة له به إلا نقضاء الشهوة . وقد قدمنا أبياتاً بين فيها ما يكرهه من هذا النوع وسيأتي في باب الرفق بالحيوان والإنسان ما يدل على أمره بالإحسان لكل ذي روح ونهيه عن الإساءة إلى الحيوان وغيره . ولقد غالى في عطفه على الحيوان حتى جعل تسريح البرغوث أبر من درهم يعطى لمحتاج إليه ، وسوّى بين الملك المطاع والبرغوث اللذاع . على أنه يجوز أن يكون مراده بمثل هذه الأقوال الدلالة على

شدة تذمره من أعمال الإنسان ، أو أن يريد إفناء غير الصالح منه ، وقد سبقه إلى مثل هذا سيدنا نوح ﷺ حين قال ﴿ لا تَذَرْ عَلى الأرْضِ مِنَ الكافِرينَ دَيّارا ﴾[1] .

رأفته بالانسان

لا يقل عطفه على الإنسان عن عطفه على الحيوان ، فهو يحض على الإحسان للضعيف والمعتر والعاري والظامىء في مثل قوله :[2]

إذا كُنْتَ في نَخْلٍ جَناهُ مُيَسَّرٌ ... لِكَفِّكَ فاهْتِفْ بالضَّعِيفِ إلى النَّخْلِ

* * *

إذا أُوتِيتَ مِلْءَ يَدٍ طَعامًا ... فَأَطْعِمْ مَنْ عَراكَ ولَوْ كَظُفْرِ[3]

* * *

وانبِذْ إلى مَنْ تَشَكّى قِرَّةً سَمَلاً ... مِنَ الثِّيابِ وأوْرِدْ ظامِئًا سَمَلَكْ[4]

---

(١) تمام الآية : « وَقالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلى الأَرْضِ مِنَ الكافِرينَ دَيّارا » . الآية ٢٦ سورة نوح .

(٢) اللزوميات ﻫ ص ٢١٠ .

(٣) اللزوميات ﻫ ص ١٥٥ ، وعراك : أي غشيك طالباً معروفك .

(٤) اللزوميات ﻫ ص ١٩٠ ، والقِرة : بالكسر ما أصابك من البرد . والسمل : الثوب الخلق . والسمل في آخر البيت : بقية الماء .

ويحض على معاملة الرقيق بالحسنى في أبيات كثيرة منها قوله :[1]

أَسأتَ بِعَبْـــدِكَ في عَسْفِهِ   وَحمّلْتَ غيرَكَ مَا لَمْ يُطِقْ ...

. . .

إِذَا كَسَرَ العَبْدُ الإِناءَ فَعُدّهُ   أَذاةً لَهُ إِنّ الإِناءَ إِلى الكَسْرِ ..[2]

رَقيقُكَ أَسرى في يَدَيْكَ فلا تَكُنْ   غَليظاً عَلَيْهِمْ واتّقِ اللهَ في الأَسْرِ

. . .

وَلا تَكُ مِمّنْ قَرّبَ العَبْدَ شَارِخاً   وَضَيّعَهُ إِذْ صَارَ مِنْ كِبَرٍ هِمّاً[3] ..

ويحض على رحمة الأعمى والأصم :

تَصَدّقْ عَلَى الأَعمى وَخُذْ بِيَمِينِهِ   لِتَهْدِيَهُ وامْنُنْ بِإِفْهامِكَ الصُّمّا

وعلى مشاركة المضيقين في النعم، وعلى إكرام الطفيلي، ويقبح الحروب وإراقة الدماء في طلب دولة، ويعد الإقدام على ذلك بعداً عن السداد والرشاد :

فَإِنْ تَرْشُدُوا لَمْ تَخضِبُوا السّيفَ مِن دَمٍ

وَلَمْ تُلْزِمُوا الأَميالَ سَبْرَ الجَرائِحِ[4]

---

(١) اللزوميات هـ ص ٣٠٨ .

(٢) اللزوميات هـ ص ١٤٧ وفيها : « إلى كسر » .

(٣) اللزوميات هـ ص ٢٣٨ ، والشارخ : الشاب . والهِمّ : الشيخ الفاني .

(٤) اللزوميات هـ ص ٨٤ وفيها : « لاتخضبوا ... ولا تلزموا » . والسبر : امتحان غور الجرح وغيره .

وسيأتي في الكلام على أغراض شعره ما يدل على شدة عطفه على الإنسان والحيوان .

رأفته بالمرأة

وقد نظر الى المرأة من حيث انها سبب النسل الذي دنس وجه البسيطة بأعماله ، فأمطرها وابلًا من سخطه وقسوته ونظر إليها من حيث انها حي فيه حس وشعور ، وموضع لصنع البر والجميل ، فأولاها من العطف والشفقة نصيباً أوفر مما أعطاه الرجل ، لأنه يعتقد أن الأجر يلتمس في كل نفس حية ، وإذا تأملنا حملاته في شعره على المرأة تبين لنا أن السبب في ذلك إفراطه في الغيرة عليها لأنها موطن العار والشنار ، وإفراطه في سوء الظن في الرجل بالنسبة لما علمه من أهل عصره ومن قبله . على أنه أوصى بها خيراً ، ونهى عما يجلب لها الضر والتنغيص ، ونهى عن مضارتها وفضل الأم على الأب ، وأوصى أن يزاد برها وحظها من الإرث ؛ كما سترى ذلك في الكلام على المرأة في أغراض شعره . ولعل الإنسان لا يبالغ إذا قال : إن في قلب المعري من الرحمة والرأفة بكل ذي نفس حية ما لا يجده في كثير من قلوب الناس ، وحسبك دليلًا على هذا إعراضه عن أكل الحيوان وما تولد منه ، وامتناعه عن أكل الفرّوج لما وصفه له الطبيب . وسترى في كلامه ما يدل على أن سبب كرهه الإنسان هو الإشفاق على النسل مما يعانيه في حياته .

عدم تزوجه

كان أبو العلاء فقيراً أبيّا عفيفاً زاهداً في الحياة وما فيها ، وكانت أمه تقوم بأوده مدة حياتها ، فلما توفيت كانت حاجته شديدة إلى من يخدمه

ويصلح أموره ، ولا يتــأتى مثل ذلك إلا من امرأة . ولو أراد الزواج لوجد في بنات عمه وغيرهن من لاياباه ، ولكنه أشفق أن يحمله الزواج على إنفاق أكثر مما كان يستغله ، فيضطر إلى أن يقبل شيئاً من إخوته أو بني عمه أو أخواله أو غيرهم ، فآثر أن يصاحب الجهد والتعب مدة حياته ، ولا يبذل ماء وجهه بسؤال .

وربما أضاف الى هذا مايحتاج اليه الولد من العناية بتربيته والإنفاق عليه ، وهو عاجز عن القيام بأمر نفسه مستطيع بغيره . وهناك شيء آخر ربما كان له أعظم أثر في إعراضه عن الزواج ، وهو رأفته بالولد وإشفاقه مما يعانيه في حياته ، شأن كل حي ، كما يشير الى ذلك قوله : (١)

إِذَا مَا اسْتَهَلَّ الطِّفْلُ قَالَ وُلاتُهُ ... وإنْ صَمَتُوا: عَانِ الخُطُوبَ وَرَشْقَهَا

وقوله في أبيات منها : (٢)

فَإِمَّا أَنْ يُرَبِّيَهُ عَدُوّاً ... وإِمَّا أَنْ يُرَبِّيَهُ سَقِيما ...

وربما خاف ألاّ ينجب في نسله ، فيكون ذلك منقصاً له في حياته مسيئاً لسمعته في حياته وبعد مماته ، ويشعر بهذا قوله : (٣)

لَوَ انَّ بَنِيَّ أَفْضَلُ أَهْلِ عَصْرِي ... لَمَا آثَرْتُ أَنْ أَحْظَى بِنَسْلِ
فَكَيْفَ وَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ مِثْلِي ... خَسِيسٌ لايُجِيءُ بِغَيْرِ فَسْلِ

---

(١) اللزوميات ﻫ ص ٣٠٣ .
(٢) اللزوميات ﻫ ص ٢٤٣ ، وفيها : « أن يُخَلِّفَهُ يتيما » .
(٣) اللزوميات ﻫ ص ٢١٨ . والفسل : الرذل .

وشيء آخر ربما كان هو أعظم باعث له على عدم الزواج وهو أنه كان شديد الغيرة ، مسرفاً في إساءة الظن بالمرأة ، حتى لا يريد منها التعلم ولا الخروج إلى الحج والمسجد والحمام والسطح والعراف والمنجم ونحو ذلك مما رآيته وسطراه في كلامه ، فربما خشي منها ما لا يرضاه ولا يساعده على مراقبتها عماه . وقد كانت حالة المرأة في عصره ، على ما وصفه في شعره ، تدعو إلى إساءة الظن ، فهذه جملة من الأسباب التي دعته إلى عدم الزواج . وهناك أسباب أخر ، وسيأتي تفصيل هذا في الكلام على الزواج والنسل والمرأة .

تقواه

أشرنا فيما تقدم وفيما يأتي إلى أن أبا العلاء كان شديد التمسك بدينه ، محافظاً على شعائره ، وقد كانت الصلاة عنده أنفس شيء وأفضله ، يدل على ذلك مثل قوله (١) :

وَشَاهِدٌ خالِقِي أنَّ الصَّلاةَ لَهُ ... أبَرُّ عِنْدِيَ مِنْ دُرِّي ويَاقُوتي

وقد حض عليها في مواطن من شعره كقوله (٢) :

خُذُوا سِيَرِي فَهُنَّ لَكُمْ صَلاحٌ ... وَصَلُّوا في حَياتِكُمُ وَزَكُّوا ...

وقوله (٣) :

إذا كُنْتَ في دَارِ الشَّقاءِ مُصَلِّياً ... فَإنَّكَ في دارِ السَّعادةِ سَابِقُ

إذا الحُرُّ لَمْ يَنْهَضْ بِفَضْلِ (٤) صَلاتِهِ ... فَذَلِكَ عَبْدٌ مِنْ يَدِ الدَّهْرِ آبِقُ

(١) اللزوميات ﻫ س ٦٦ ، وفيها : « أجل عندي » .

(٢) اللزوميات ﻫ س ١٨٤ .

(٣) اللزوميات ﻫ س ٢٩٨ .

(٤) في اللزوميات : « بغرض » . والآبق : من أبق العبد أي ذهب أو استخفى .

ولم يحدثنا التاريخ أنه ترك صلاة في سفر ولا حضر ولا صحة ولا مرض ، ولما عجز عن القيام كان يصلي قاعداً ، وكان يصوم الدهر ما عـــدا أيام الأعياد ، ولم تجب عليه زكاة ولا حج . ومن تتبع أعماله لم يجد فيهـــا ما يخالف التقى ، وفي أقواله ما يدل على أنه كان يحب التقى والنسك وعمل الخير والإخلاص في العمل ، وأنه يرى التقى أفضل ذخيرة ، وذكر الله خير ما يتكلم به المرء ، وهذه طائفة من كلامه في ذلك :

لِيُشْغَلْ بِذِكْرِ اللهِ عَنْ كُلِّ شَاغِلٍ   فَذَلِكَ عِنْدَ اللُّبِّ خَيْرُ كَلامِ[1]

. . .

وَمَنْ يُبْلَ بِالدُّنيا وسُوءِ فَعالِها   فَلَيْسَ لَهُ إِلاَّ التَّعَبُّدُ والنُّسْكُ[2]

. . .

فَعَلَيْكَ بِالتَّقْوَى ذَخِيرَةَ ظَاعِنٍ   إِنَّ التَّقِيَّةَ أَفْضَلُ الأَذْخَارِ[3]

. . .

وَمَنْ يَذْخَرْ لِطُولِ العَيْشِ مَالاً   فَإِنَّ تُقَايَ عِنْدَ اللهِ ذُخْرِي[4]

. . .

أُعِدُّ أَسْنَى الرِّبْحِ فِعْلَ التُّقَى   فَلا أَكُنْ رَبِّ مِنَ الخَاسِرِينْ[5]

---

(١) اللزوميات ‍هـ س ٢٤٦ .
(٢) اللزوميات ‍هـ س ١٨٢ .
(٣) اللزوميات ‍هـ س ١٦٤ .
(٤) اللزوميات ‍هـ س ١٥٤ .
(٥) اللزوميات ‍هـ س ٢٨٥ .

وأنه يرى الناسكين خير الناس :

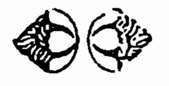
ذَوُو النُّسْكِ خَيْرُ النَّاسِ فِي كُلِّ مَوْطِنٍ
وَزِيُّهُمُ بَيْنَ المَعَاشِرِ خَيْرُ زِيِّ [1]

وأن المصيبة بالدين أجل من المصيبة بالموت :

مُصِيبَةُ دِينِهِ لَوْ كَانَ يَدْرِي أَجَلُّ مِنَ الْمُصِيبَةِ بِالدَّفِينِ [2]

★ ★ ★

وقد ذكرنا عند الكلام في اعتقاده بالله ما يشهد بأنه من الأتقياء البررة .



---

(١) اللزوميات هـ س ٣٤٧ .

(٢) اللزوميات هـ س ٢٧٩ .

رجاؤه وخوفه

الرجاء

الرجاء في اللغة الأمل والإرادة ، يقال : رجا الشيء إذا أراده ، وقال بعضهم : هو ظن يقتضي حصول ما فيه مسرة ، وقال آخر : هو ترقب الانتفاع بما تقدم له سبب ما ، وقال آخر : هو لغة الأمل ، وعرفاً : تعلق القلب بحصول محبوب مستقبلا ، وفي المصباح : « ويستعمل الرجاء بمعنى الخوف ، لأن الراجي يخاف أنه لا يدرك ما يترجاه » ، وفي التاج : « إنما يستعمل الرجاء بمعنى الخوف إذا كان معه حرف نفي ، ومنه قوله تعالى ﴿ مالَكُمْ لا تَرْجُونَ لله وقاراً [1] ﴾ المعنى : مالكم لا تخافون لله عظمة » ونقل نحو ذلك عن الفراء .

والرجاء مقام من مقامات السالكين ، وهو عند فريق من الصوفية ارتياح القلب لانتظار ما هو محبوب عنده بعد أن تتوفر فيه جميع الأسباب التي تكون داخلة تحت اختياره ، فإذا آمن الإنسان بالله ، وقام بكل ما يجب عليه من الأعمال الظاهرة ، ونزع ما في صدره من غل وحقد ، وطهره من الأخلاق الذميمة والعقائد الزائفة ، ثم انتظر ثواب الله وعفوه كان انتظاره هذا رجاء محمودا ، فإن لم تتوفر جميع هذه الأسباب وانتظر الثواب أو العفو كان انتظاره هذا غروراً مذموما ، وهذا ما أراده يحيى ابن معاذ [2] بقوله : « من أعظم الاغترار التمادي في الذنوب مع رجاء العفو

---

(١) سورة نوح الآية (١٣) .

(٢) أبو زكريا يحيى بن معاذ بن جعفر الرازي ، واعظ زاهد ، من أهل الري ، أقام ببلخ ومات في نيسابور سنة ٢٥٨ ه انظر : العروسي على شرح الرسالة القشيرية : ١/١١٩ ، وطبقات الصوفية ١٠٧ ـ ١١٤ .

وتوقع القرب من الله بغير طاعة . . » .

وفي كلام أبي العلاء أمثلة مختلفة تدل على أنه كان حسن الظن بالله ، واسع الرجاء في رحمته وعدله ، كثير الطمع بعفوه ، وهذه جملة منها :

وَمَا كَانَ الْمُهَيْمِنُ وَهْوَ عَدْلٌ لِيَقْصُرَ حِيلَتِي وَيُطِيلَ لَوْمِي[(١)]

. . .

إِنْ أَدْخُلِ النَّارَ فَلِي خَالِقٌ يَحْمِلُ عَنِّي مُثْقَلَاتِ الْعَذَابْ[(٢)]

. . .

أُؤَمِّلُ عَفْوَ اللهِ والصَّدْرُ جَائِشٌ إِذَا خَلَجَتْنِي لِلْمَنُونِ الْخَوَالِجُ[(٣)]

. . .

أَأَخْشَى عَذَابَ اللهِ واللهُ عَادِلٌ
وَقَدْ عِشْتُ عَيْشَ الْمُسْتَضَامِ الْمُعَذَّبِ[(٤)]

. . .

وَإِنِّي وَإِنْ لَمْ آتِ خَيْراً أُعِدُّهُ لَآمُلُ إِرْوَاءً بِغَيْرِ ذَنُوبِ[(٥)]

. . .

لِيَفْعَلِ الدَّهْرُ مَا يَهُمُّ بِهِ إِنَّ ظُنُونِي بِخَالِقِي حَسَنَهْ[(٦)]
لَا تَيْأَسُ النَّفْسُ مِنْ تَفَضُّلِهِ وَلَوْ أَقَامَتْ فِي النَّارِ أَلْفَ سَنَهْ

. . .

---

(١) اللزوميات هـ ص ٢٥٢ .
(٢) اللزوميات هـ ص ٥٦ .
(٣) اللزوميات هـ ص ٧٣ .
(٤) اللزوميات هـ ص ٤٥ .
(٥) اللزوميات هـ ص ٤٧ ، وفيها : « ... بغير ذنوب » ، والذنوب : الدلو إذا كان فيها ماء .
(٦) اللزوميات هـ ص ٢٧١ .

الخوف

والخوف في اللغة الفزع ، وقال الراغب : الخوف توقع مكروه عن أمارة مظنونة أو معلومة ، كما أن الرجاء توقع محبوب عن أمارة مظنونة أو معـــلومة .

والخوف مقام من مقامات السالكين ، وهو عند بعض المتصوفة عبارة عن تألم القلب بسبب توقع مكروه في المستقبل . وليس الرجاء مضاداً للخوف ، بل كل منهما باعث على مجاهدة النفس والحض على الطاعة المقربة من الله ولكن أحدهما بطريق الرغبة والثاني بطريق الرهبة .

والخوف قد يكون من المخـــلوق ، وهو إما أن يكون سببه ذنب الخائف ، كمن جنى على رجل أقوى منه فإنه يخاف انتقامه ، وإما أن يكون سببه طبيعة المخوف منه كالأسد والنار والحية .

وقد يكون الخوف من الخالق ، وهذا قد ينشأ عن ارتكاب الإنسان ما نهاه الله عنه . وقد ينشأ عن معرفة الله وصفاته ، فإن من يعلم أن الله شديد العقاب ، وأنه لا يسأل عما يفعل ، وأنه لا تجب عليه إثابة الطائع بل تجوز عليه معاقبته . لا يأمن عقاب الله . وقد ينشأ الخوف مما يتوقعه الانسان من المكاره قبل الموت ، كزوال النعم وتتابع النقم من الآفات والسقم . أو بعد الموت كالقبر وما في القيامة من حساب وعذاب ودخول نار .

والخوف من الله إما أن يكون خوفاً من عذابه ، وهو خوف عامة الناس ، وإما أن يكون خوفاً من الله نفسه ، وهو خوف الخاصة العارفين من صفات الله ما يوجب الحذر منه والمدركين معنى قوله تعالى : ﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾ وأشد الناس خوفاً الأنبياء ثم العلماء العارفون صفات الله التي توجب الخوف منه .

والخائفين أحوال مختلفة ، وقد وقع في كلام المعري ما يدل على أنه شارك القوم في نواح كثيرة ، فقد كان فريق منهم يرى أنه حقير في نفسه ، وأن أعماله لا تؤهله لدخول الجنة فيستعيذ بالله من النار . وقد روي عن عبد الله بن المبارك (١) أنه خرج يوماً على أصحابه فقال لهم : « إني اجترأت البارحة على الله وسألته الجنة » . ومن هذا النوع قول أبي العلاء :(٢)

يا رِضْوَ لا أرْجُــو لِقَا ءَكَ بَلْ أخافُ لِقَاءَ مالِكْ

وفريق منهم تذكر ما بينه وبين الموت من الخطر الذي يخاف منه سوء الخاتمة ، وعدم الثبات على الهدى ، وتذكر ما بعد الموت من حساب وعذاب فغلب عليه الوجوم ، وقد روي أن الحسن البصري (٣) ما ضحك أربعين سنة . وقيل لسعيد بن جبير (٤) : إنك لم تضحك قط . فقال : كيف أضحك وجهنم قد سعرت ، والأغلال قد نصبت والزبانية قد أعدت ؟

وإليك أمثلة من كلام أبي العلاء تمثل الخوف مما يعانيه المرء في حياته وبعدها ويتوقعه من شر ومكروه فيها وما يخشاه من ربه .

---

(١) هو أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك بن واضح المروزي الحنظلي بالولاء ، التميمي . ولد سنة ١١٨ هـ وتوفي بهيت سنة ١٨١ هـ . انظر تذكرة الحفاظ ٢٥٣/١ والشذرات ٢٩٥/١ .

(٢) اللزوميات هـ ص ١٩١ .

(٣) هو الحسن بن يسار البصري أبو سعيد ، تابعي ، إمام ولد سنة ٢١ هـ وتوفي سنة ١١٠ هـ .

(٤) هو أبو عبد الله سعيد بن جبير الأسدي بالولاء ، تابعي ، ولد سنة ٤٥ هـ وتوفي سنة ٩٥ هـ ، انظر الوفيات ٢٠٤/١ .

الخوف من عناء الحياة :

ضَحِكْنا وكانَ الضَّحْكُ مِنّا سَفاهَةً[1] . . . .

إلى آخر البيتين .

الخوف من الله :

أمّا الحَياةُ فَلا أرْجُو نَوافِلَهَا لَكِنَّنِي لِإلـٰهِي خائِفٌ راجِ[2]

الخوف من الخلود في النار :

يا هُونَ ما أوْعَدَ اللهُ العِبادَ بِهِ إنْ صارَ جِسْمِي في تَحْرِيقِهِ رِمَما[3]

وإنّما هُوَ تَخْلِيدٌ بِلا أمَدٍ تَمْضِي الدُّهُورُ وَصالي النّارِ ما رُحِما

الخوف من تغير الحال :

لا يُعْجِبَنْكَ إقْبالٌ يُرِيكَ سَناً إنَّ الخُمُودَ لَعَمْرِي غايَةُ الضَّرَمِ[4]

• • •

يَبْتَنِي راغِبٌ فَما تَكْمُلُ الرَّغْـ ـبَةُ حَتّى يُهَدَّمَ البُنْيانُ[5]

• • •

---

(١) اللزوميات هـ س ١٨٢ ، وعجز البيت : وحقّ لسكان البسيطة أن يبكوا .

(٢) اللزوميات هـ س ٧٧ .

(٣) ورد البيتان في لزومية واحدة : الميم المفتوحة واللازم لها س ٢٤١ — ٢٤٢ وبينها كانت ثانية البيت الأول فيها : « نعما » .

(٤) اللزوميات هـ س ٢٤٧ .

(٥) اللزوميات هـ س ٢٦٣ .

فَرَاقِبِ اللهَ إِنَّ السَّعْدَ يَتْبَعُهُ نَحْسٌ وَإِنَّ لِجَمْعِ الدَّهْرِ تَفْرِيقَا[1]

الخوف من الله وسخطه ومن تفريطه في حقوق الله وإفراطه في هوى نفسه :

أَعُوذُ بِرَبِّيَ مِنْ سُخْطِهِ وَتَفْرِيطِ نَفْسِي وإِفْرَاطِهَا[2]

. . .

لَوْلَا حِذَارِيَ أَنَّ اللهَ يَسْأَلُنِي عَمَّا فَعَلْتُ لَقَلَّتْ عِنْدِيَ الكُلَفُ[3]

وهناك أمثلة مختلفة من خوفه تدل على أنه كان كثير الحزن والوجوم من خوفه من الله ومن عقابه . وقد ظن بعض الأدباء أن هذا من باب التشاؤم ، وقد تقدم الكلام فيه .

الإخلاص في الأعمال

الأعمال التي تصدر عن الإنسان أنواع : منها ما هو من عمل القلب ، وهو النية والقصد ، ومنها ما هو عمل الجوارح ، وهذه ثلاثة أنواع : طاعة ، ومباح ، ومعصية . وكل واحد منها لا يخلو في الغالب عند وقوعه من نية وقصد ، وللنية مع كل واحد شأن .

أما الطاعة فتتوقف صحتها أو ثوابها على النية ، وتنقلب مع النية معصية ، كما لو صلى وأراد بالصلاة أن يظهر أنه من أهل النسك .

وأما المباح فينقلب بالنية إلى طاعة ومعصية ، كما لو أعطى درهماً إلى فقير ليسد به رمقه ، أو ليشتري به خمرا .

---

(١) اللزوميات هـ س ٣٠٤ .

(٢) اللزوميات هـ س ١٨٠ .

(٣) اللزوميات هـ س ٢٩١ .

وأما المعصية فلا تؤثر فيها النية ولا تقلبها طاعة ، كما لو سرق درهماً ليتصدق به .

فالنية هي التي تميز الغرض المقصود من الطاعة والعمل المباح .

الإخلاص

وقد اختلفت كلمة القوم في معنى الإخلاص وتعريفه ، لسبب اختلاف مقاماتهم وأحوالهم ، وبالنظر إلى تنوع درجات الإخلاص ، واختلاف السائلين عنه ، ولعل أقرب ما يقال فيه إلى الصواب هو أن يريد الإنسان بعمله وجه الله تعالى فقط ، ولا يمر بباله شيء من الحظوظ النفسية العاجلة أو الآجلة ، وهو شرط في كل عبادة ، وقد قال الله تعالى : ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾(١).

ومما لا ريب فيه أن الإنسان محفوف بالشهوات منغمس في الحظوظ ، فلا يتسنى له تنقية قلبه منها بسهولة ، ولذلك قال بعض العلماء : من سلم له من عمره لحظة واحدة خالصة لوجه الله نجا .

ثم إن العمل قد يكون خالصاً محضاً بأن لا يريد به إلا الله ، وقد يكون رياء محضاً بأن يريد به غير الله ، وقد يكون ممزوجاً منهما بأن يريد به وجه الله وشيئاً آخر من الحظوظ الدنيوية أو الأخروية أو منهما . وقد اتفقت كلمة الجمهور على أن الإخلاص سبب للثواب ، وأن الرياء سبب للعقاب . واختلفوا في المشوب منهما ، فقيل : إنه لا ثواب له . وقال قوم : إذا كان الباعث دينياً ونفسياً فإن كانا متساويين تساقطا ، وكان العمل لا له ولا عليه ، وإن كان الرياء هو الغالب ، فالعمل ليس بنافع ، بل يفضي إلى العقاب لكنه أخف من عقاب الرياء المحض ، وإن

---

(١) سورة الكهف ١٨/١١٠ .

كان الباعث الديني هو الغالب فله ثواب بقدر ما فضل من قوة الباعث الديني . والأقرب إلى العقل أن العمل إذا لم يكن خالصاً لله فليس بنافع .

وأبو العلاء كان يحب الاخلاص في العمل ويحض عليه في مثل قوله :

إِذا مَا فَعَلْتَ الخَيْرَ فَاجعَلْهُ خالِصاً
لِرَبِّكَ وازْجُرْ عَنْ مَدِيحِكَ أَلْسُنا[1]

• • •

إِذَا أَخلَصْتَ لِلْخَلاَّقِ سِرّاً فَلَيْسَتْ مِنْ ضَوَائِرِكَ الضَّوَارِي[2]

وقد وافق القومَ في أن الرياء محبط للعمل في مثل قوله :

إِذَا قِيلَ : إِنَّ الفَتَى نَاسِكٌ وَرَامَ الجَمَالَ فَلا نُسْكَ [له][3]

وله في باب الأعمال أقوال وآراء يمكن ان تلخص بما يأتي .

١ - إن النسك الظاهر والتلبس بشعار الصالحين ليسا من الخير في شيء ، وإنما الخير في تزكية النفوس وتطهيرها من الأخلاق الذميمة ، وهذا يتجلى في مثل قوله[4] :

مَا الخَيْرُ صَوْمٌ يَذُوبُ الصَّائِمُونَ لَهُ وَلاَ صَلاَةٌ وَلاَ صُوفٌ عَلَى الجَسَدِ
وَإِنَّمَا هُوَ تَرْكُ الشَّرِّ مُطَّرَحاً وَنَفْضُكَ الصَّدْرَ مِنْ غِلٍّ وَمِنْ حَسَدِ

---

(١) اللزوميات ﻫ ص ٢٦٤ .

(٢) اللزوميات ﻫ ص ١٥٦ .

(٣) اللزوميات ﻫ ص ٢٠٩ .

(٤) اللزوميات ﻫ ص ١٠٩ .

فالصوم في رأيه كف النفس عن شهواتها الظاهرة ، وتطهيرها من الشرور الباطنة والظاهرة ، وليس هو عبارة عن منعها عن الطعام والشراب والجماع فقط ، وعلى هذا يرى أن القول الباطل مبطل للصوم ، مفيت للغاية المقصودة منه ، مذهب للثواب المتوقع منه وهذا مجمل قوله[1] :

إِذا القَوْمُ صَامُوا فَعَافُوا الطَّعَامَ   وَقَالُوا المُحالَ فَقَدْ أفطَرُوا

وقال في (الفصول والغايات ص ٢٨) : « صوم الآبد أفضل من صوم المفطر على حرام فاذا صمت عن المآثم فعند ذلك صم عن الطعام . . »

وقد قال بعض المحققين : الصوم أقسام ، صيام العوام وهو الصوم عن مفسدات الصيام ، وصيام الخواص وهو الصوم عنهـا وعن إطلاق الجوارح في غير طاعة ، وصيام خواص الخواص ، وهو حفظ قلوبهم عما سوى الله ، ففطرهم ظاهرا كفطر المسلمين ، ولا يفطرون باطناً إلى يوم الدين ، فاذا شاهدوا مولاهم ونظروا إليه عياناً أفطروا .

فأبيات أبي العلاء المتقدمة تدل على أنه يريد بالصوم صوم الخواص ، ويجوز أن يكون أراد به صوم خواص الخواص .

وأما قوله :

أَنَا صَائِمٌ طُولَ الحَياةِ وإِنّما   فِطْرِي الحِمَامُ ويَوْمَ ذَاكَ أُعَيِّدُ

فالظاهر أنه يريد به القسم الأخير .

٢ ـ إن الإنسان مهما فعل من أنواع النسك لا يعد ناسكا إذا لم يمسك نفسه عن أطماعها ، بل يعد جاهلاً بحقيقة الدين وهذا يظهر في

---

(١) اللزوميات هـ ص ١٣٥ .

مثل قوله (١) :

سَبِّحْ وَصَلِّ وطُفْ بِمَكَّةَ زَائراً ... سَبْعِينَ لا سَبْعاً فَلَسْتَ بناسِكِ

جَهِلَ الدِّيَانةَ مَنْ إذا عَرَضَتْ لهُ ... أَطْمَاعُهُ لَمْ يُلْفَ بِالْمُتَمَاسِكِ

٣ ـ إن كل عبادة يجب أن تكون خالصة لله ، لا يراد بها إلا تعظيمه وامتثال أمره ، يدل على هذا قوله (٢) :

وأَعْبُدُ اللهَ لا أَرْجُو مَثُوبَتَهُ ... لكِنْ تَعَبُّدَ إِعْظامٍ وإِجْلالِ

٤ ـ إن الواجب على الإنسان أن يفعل الخير ، لأنه خير ، لا طمعاً في الثواب المترتب عليه :

فَلْتَفْعَلِ النَّفْسُ الجَمِيلَ لِأَنَّهُ ... خَيْرٌ وأَحْسَنُ لا لِأَجْلِ ثَوَابِها (٣)

٥ ـ إن ترك الواجب أقرب إلى الله من فعله إذا لم يكن خالصاً لله :

إِذَا رامَ كَيْداً بِالصَّلاةِ مُقيمُها ... فَتارِكُها عَمْداً إِلى اللهِ أَقْرَبُ (٤)

فإنّ ترك الصلاة عمداً كبيرة ، والصلاة لغير الله شرك ، وهو أعظم من تركها عمدا . وقال في (الفصول والغايات) : « صلاة المنافق صلاء النار ، وطهارة الخلد أبلغ من طهارة الجسد بالماء » .

الرياء

يقال راءيت الرجل إذا أريته أني على خلاف ما أنا عليه . هذا هو الأصل فيه ، والرياء عند المحققين ترك الإخلاص في العمل بملاحظة غير الله

---

(١) اللزوميات ٥ ص ١٨٩ .

(٢) انظر فائت شعر أبي العلاء ص ١١ جمع عبد العزيز الميمني . وفيه « تعبد إكرام » .

(٣) اللزوميات ٥ ص ٥٢ .

(٤) اللزوميات ٥ ص ٣١ .

فيه ، وقال بعضهم : هو إظهار العمل للناس ليروه ويظنوا به خيرا . فالعمل لغير الله . وقد يكون الرياء فيما لايوجب كفرا ، كما إذا أراه أنه غني وهو فقير ، أو أنه قوي وهو ضعيف . ومن هذا النحو مارواه البخاري في صحيحه عن عمر بن الخطاب (ض) أنه قال : فما لنا وللرَمل إنما كنا راءينا به المشركين وقد أهلكهم الله . ثم قال : شيء صنعه النبي ﷺ فلا نحب أن نتركه . ومعنى قوله : كنا راءينا ... أردنا ان نظهر القوة للمشركين بالرمل ليعلموا أنا لانعجز عن مقاومتهم ولا نضعف عن محاربتهم ، وقد أهلكهم الله ، فما لنا من حاجة اليوم الى ذلك .

وفي كلام أبي العلاء أبيات كثيرة تدل على أنه كان يحكم على نفسه بما يحكم به على الناس للمشاكلة ، وهو يريد ذمهم بتلك الصفة كقوله (١) :

إِذَا سَأَلُوا عَنْ مَذْهَبِي فَهْوَ بَيِّنٌ وَهَلْ أَنَا إِلاّ مِثْلُ غَيْرِي أَبْلَهُ

ومن هذا النوع قوله (٢) :

أُرَائِيكَ فَلْيَغْفِرْ لِيَ اللهُ زَلَّتِي بِذَاكَ وَدِينُ الْعَالَمِينَ رِئَاءُ
وَقَدْ يُخْلِفُ الإِنْسَانُ ظَنَّ عَشِيرِهِ وَإِنْ رَاقَ مِنْهُ مَنْظَرٌ وَرُوَاءُ

فإنه لايراد منه أنه مراء حقيقة . إذ من البعيد أن يصرح بمثل هذا لو كان حقيقيا ، وإنما يراد منه أن هذه الخصلة الذميمة تفشت في جميع الناس حتى يكاد كل واحد منهم يعمل بها ليجاري الناس ، لأنهم لم يألفوا غيرها ، أو لم يرُج في أسواقهم سواهـا ، يدل على هذا قوله بعد البيتين المتقدمين :

إِذَا قَوْمُنَا لَمْ يَعْبُدُوا اللهَ وَحْدَهُ بِنُصْحٍ فَإِنَّا مِنْهُمُ بُرَءَاءُ

---

(١) اللزوميات ﻫ ص ٣٢٩ .

(٢) اللزوميات ﻫ ص ٢١ .

النفاق

ومن هذا القبيل ما جاء في كلامه من ذم النفاق وأهله وفشوه في أصناف الناس وطبقاتهم . والنفاق ، في الأصل ، مصدر نافق اليربوع إذا دخل في نافقائه ، وهو موضع يرققه من جحره ، فإذا أتي من قبل القاصعاء ضرب النافقاء برأسه فخرج ، وقيل إن جحرة اليربوع سبعة : القاصعاء والنافقاء وغيرهما . ومن النافقاء اشتق المنافق في الدين ، والنفاق فعله ، وهو الدخول في الإسلام من وجه والخروج عنه من وجه آخر ، فقيل نافق منافقة ونفاقا ، وهو اسم إسلامي لم تعرفه العرب بالمعنى المخصوص به ، وهو ستر الكفر وإظهار الإيمان ومحله القلب [١] .

وقد تكرر ذكر هذا اللفظ وما تصرف منه اسماً أو فعلاً في الأحاديث النبوية ، ولا يلائم تفسيره بهذا المعنى في كثير من المواطن كقوله ﷺ : « أكثر منافقي أمتي قراؤها » وهذا الحديث رواه الإمام أحمد والطبراني [٢] وقوله : « آية المنافق ثلاث إذا حدّث كذب ... » . وهذا حديث صحيح [٣] . وقوله : « أربع من كُنَّ فيه كان منافقاً خالصا ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها ، إذا حدّث كذب ... » وهذا حديث صحيح [٤] . إلى غير ذلك من الأحاديث ، ولا يصح تفسيره هنا بالمعنى السابق ، أي إظهار الإيمان

---

(١) وبهذا يتبين أن قول الحافظ ابن حجر الآتي وهو : « النفاق لغة مخالفة الباطن » إلى آخره : فيه نظر لأن اللفظ إسلامي . (ج)

(٢) والبيهقي وغيرهم وأحد أسانيد أحمد ثقات . (ج)

(٣) رواه البخاري ومسلم وأحمد والترمذي وغيرهم . (ج)

(٤) رواه البخاري ومسلم والامام أحمد وأبو داود والنسائي . (ج)

وإبطان الكفر ، ولذلك فسر ابن الأثير الحديث الأول ، فقال : أراد بالنفاق ها هنا الرياء لأن كليهما إظهار غير ما في الباطن . ونقل المناوي ذلك عن الزمخشري ، وقال الحافظ ابن حجر : النفاق لغة مخالفة الباطن للظاهر ، فإن كان في اعتقاد الايمان فهو نفاق الكفر ، وإلا نفاق العمل ، ويدخل فيه الفعل والترك وتتفاوت مراتبه .

وقال القرطبي في (الجامع لأحكام القرآن ج ٨ ص ٢١٢) : النفاق إذا كان في القلب فهو الكفر فأما إذا كان في الأعمال فهو معصية ، ثم أورد الحديث المتقدم « أربع من كُنَّ فيه ... »

وقد توسع بعض الأدباء فاستعمل لفظ النفاق وما اشتق منه في كل ما كان فيه إظهار غير ما في الباطن وإبطان غير ما في الظاهر ، سواء أكان من الأعمال الدينية أم من غيرها ، فإذا أظهر له المحبة وأبطن غيرها عدّه منافقاً ، وإذا جاراه في استحسان شيء أو استقباحه عده منافقا ، وهكذا .

وأبو العلاء أكثر التذمر ممن كان على هذه الشاكلة في مثل قوله في السقط (١) :

وُيظْهِرُ لي مَوَدَّتَهُ مَقَالاً وَيُبْغِضُني ضَمِيراً واعْتِقَادا

وقوله في اللزوم (٢) :

أرَاهُمْ يَضْحَكُونَ إلَيَّ غِشًّا وتَغْشَانِي المَشَاقِصُ والحِظَاء
فَلَسْتُ لَهُمْ وإنْ قَرُبُوا أليفاً كَمَا لَمْ تَأْتَلِفْ ذَالٌ وَظَاء

---

(١) شروح سقط الزند ، ق ٢ ص ٥٦٧ .

(٢) اللزوميات هـ ص ٢٢ ، والمشاقص : مفردها مشقص . وهو الطويل أو العريض من السهام أو النصال . والحظاء : القصار .

ومن يتأمل اقوال أبي العلاء في هذا الموضوع يتبين له بجلاء تام أن هذا الخلق الذميم تفشّى بين الناس واستطار شره ، وقلما خلا منه أحد حتى الأخلاء والخلصان فكم :

يُضاحِكُ خِلٌّ خِلَّهُ وَضَمِيرُهُ عَبُوسٌ وَضَاعَ الوُدُّ لَوْلا مَرافِقُهْ(١)

وإذا امتحن خليله لايجد عنده غير النفاق :

وَمَا عِنْدَ خِلِّكَ غَيْرُ النِّفاقِ وما خِلْتُهُ نَاسِياً فَادَّكَرْ(٢)

وقد تفاقم هذا الشر حتى أضحى النفاق جُنّة يتقي بها شر الأعداء ، وعادية الأحباب ، وقد ضعف تأثيره وحده لطول العهد ، فأخذ الناس يؤيدونه بالأيمان الكاذبة :

أضحَى النِّفَاقُ دُرُوعاً يُستَجَنُّ بِها مِنَ الرَّدَى ويُقَوِّي سَرْدَهَا الحَلِفُ(٣)

وأصبح الإنسان عُرضة الردى والحسرات إذا لم يلجأ الى هذا الحصن الحصين ، ويتجر بهذه البضاعة التي لايروج غيرها في أسواق الناس ، وقد اضطر أبو العلاء الى مجاراة الناس والتظاهر بما يألفون ويحبون على مايشعر به قوله (٤) :

أُنافِقُ فِي الحَياةِ كَفِعْلِ غَيْرِي وَكُلُّ النَّاسِ شَأْنُهُمُ النِّفَاقُ

لأنه إذا لم يجارهم في هذا المضمار اضطر إلى أن يعيش منعزلا عنهم ،

---

(١) اللزوميات هـ ص ٣٠٠ .

(٢) اللزوميات هـ ص ١٧٠ .

(٣) اللزوميات هـ ص ٢٩٢ ، وسرد الدرع : نسجها .

(٤) اللزوميات هـ ص ٣٠٠ .

منفرداً ، لأنه لايجد رجلا بريئا من هذه الخصلة كما يشعر به قوله(١) :

تَخَيَّرْ فإمَّا وَحدَةٌ مِثْلُ مِيتَةٍ   وإمَّا جَلِيسٌ في الحَياةِ مُنافِقُ

وقد قدمنا أنه كان يحكم على نفسه بما يحكم به على غيره من أبناء زمانه ، ولا يريد حقيقة ، وإنما يريد أن هذه الخصلة عمت أبناء زمنه كلهم فهو يذمهم ويذم نفسه معهم لأنه منهم ، ولا يكاد واحد منهم يكون خالياً منها . وإنما قلنا ذلك لأنه كان يعتقد أن النفاق يجلب ضيراً ولا يجر خيراً ، وأنه داء عضال وعثرة لا تقال ، كما قال (٢) :

يُنافِقُونَ وَمَا جَرَّ النِّفَاقُ لَهُمْ   خَيْراً فَعَثْرَتُهُمْ مُعْيٍ تلافِيها

وقوله في الفصول والغايات :

« طُفْتُ الآفاق ، فإذا الدنيا نفاقٌ ، وملَلْتُ من مداراةِ العالم ، بما يُضير غيرَهَ الفؤاد ، فاخترتُ الوحدةَ على جليسِ الصدق(٣) » . الى آخر ماتقدم يدل على أنه اختار الوحدة لله من مداراة الناس بما لايضيره فؤاده .

دينه ومعتقده

اتفقت كلمة المتقدمين والمتأخرين على أن أبا العلاء واسع العلم ، كثير الاطلاع والحفظ ، ذكي فطن ، شاعر مفلق . واختلفوا في دينه واعتقاده على أنحاء شتى ، فنقل ابن الجوزي عن أبي زكريا أنه قال : « قال لي المعري : ما الذي تعتقد ؟ فقلت له : ما أنا إلا شاك . فقال : وهكذا شيخك » . وزعم

(١) اللزوميات هـ س ٢٩٩ .
(٢) اللزوميات هـ س ٣٣٦٠ .
(٣) كذا في الأصل . (ج)

فريق أنه في حيرة ، ومنهم ابن دقيق العيد محمد بن علي المتوفى سنة ٧٠٢ هـ .

وقال فريق : إنه كان لايثبت على نحلة ، ولا يبقى على قانون واحد ، بل يجري مع القافية إذا حصلت . ونقل هذا القول عن السّلفي . وقيل إنه شيعي ، وقيل معتزلي ، وقيل جبري ، وقيل يرى رأي البراهمة في إثبات الصانع وإنكار الرسل (١) وتحريم الحيوان وإيذائه حتى الحيات والعقارب (٢) وقال ابن الشحنة في روضة الناظر (٣) : إنه ترك أكل اللحم خمساً وأربعين سنة على مذهب الهنود ، وترك البيض واللبن ، وحرم إتلاف الحيوان .

وقال ابن كثير (٤) : إنه لايأكل اللحم ، ولا اللبن ولا البيض ، ولا شيئاً من حيوان ، على طريقة البراهمة الفلاسفة . وقال اليافعي (٥) يرى رأي الحكماء المتقدمين اذ لايأكلون اللحم لكيلا يذبحوا الحيوان إذ لايرون إيلام الحيوان . وقال ياقوت : (٦) كان منها في دينه ، يرى رأي البراهمة ، لايرى إفساد الصورة ، ولا يأكل لحما ولا يؤمن بالبعث والنشور . وقال في مرآة الزمان (٧) : إنه يرد على الرسل ، ويعيب الشرائع ، ويجحد البعث . وقال الذهبي (٨) : رســالة الغفران في مجلد ، قد احتوت على مزدكة

---

(١) لسان الميزان . (ج)

(٢) الذهبي . (ج)

(٣) انظر تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٣٠٩ عن روضة الناظر — لابن الشحنة

(٤) المصدر السابق ص ٣٠٣ عن البداية والنهاية — لابن كثير

(٥) « « ص ٢٩٩ ، عن مرآة الجنان — لليافعي

(٦) « « ص ٧٦ ، عن إرشاد الأريب — لياقوت

(٧) « « ص ١٤٤ ، عن مرآة الزمان — لسبط ابن الجوزي

(٨) « « ص ١٨٩ ، عن تاريخ الإسلام — للذهبي — والمزدكة : منهب مزدك المجوسي الفارسي ، الذي يقول بالثنوية التي ترد العالم الى أصلين هما النور والظلمة ، وأن للخير إلاهاً وللشر إلاها .

واستخفاف . وقال في المنتظم عن ابن عقيل[١] : إن أبا العلاء كافر في الظاهر ، مسلم في الباطن ، على عكس المنافقين .

ومنهم من قال : إنه ساحر ، واستدل على ذلك بأنه قتل الضيوف الحسين بسحره ورصده .

وزعم بعض المستشرقين أنه قرمطي . وزعم آخرون أنه درزي ، وآخرون أنه من أصحاب التقية . وزعم بعض المتأخرين أنه جامع للمتناقضات فهو مؤمن كافر ، برّ فاجر ، تقي زنديق ، وما شئت أن تقول فيه فقل . وزعم آخرون غير ماتقدم .

ومنهم من جزم بصحة دينه وقوة يقينه ، ومنهم من قال : إنه تاب وارعوى وأناب . ومنهم من قال : هو جوهرة جاءت إلى هذا الوجود وذهبت ، وهذا القائل هو الشيخ كمال الدين الزملكاني المتوفى سنة ٧٢٧ هـ ، ومن احتذى على مثاله .

وأكثرهم على أنه كافر أو زنديق أو ملحد أو متهم في دينه ، وقلما تكلم أحد فيه وبرأه من مثل هذه النعوت . وفيهم من لو طولب بدليل على ما يقول لما استطاع أن يأتي بشيء .

أسباب تكفيره ورميه بالزندقة ونحوها

ولعل قائلاً يقول : ما السبب في تألب الناس على تكفيره والطعن في دينه ؟ فنقول : من استقرى حياة أبي العلاء ، وأمعن النظر فيما وهبه الله من المواهب الفطرية والكسبية ، وما أتيح له من الحظوة عند الملوك والأمراء وأعيان الأمة ، وجد أسباباً كثيرة للطعن فيه . من أعظمها الحسد ، وتشدد العلماء في الدين ، وحب الظهور ، والولوع بالإغراب والهوّم . ولكل واحد من هذه الأمور سبب يوجبه أو أسباب تقتضيه .

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٢٠ ، عن المنتظم — لابن الجوزي — وما نقله المؤلف تلخيص للخبر .

الحسد

أما سبب الحسد ، فإن الله وهب أبا العلاء من الفطنة ، وقوة الحافظة ، وحصافة العقل ، ودقة التفكير ، وسعة الخيال ، وغزارة القريحة ، وفيض الخاطر ، وسعة العلم ما لم يهبه لكثير من الشعراء والعلماء . وآتاه من العفاف والقناعة والشمم ما لم يؤته كثيراً منهم . ورزقه بسبب ذلك من الحظوة عند أعيان الدولة والأمة ما لم ينل معشاره كثير من العلماء والشعراء . ومنحه من سيرورة الذكر والشهرة ما لم يتح لغيره في عصره ، فكانت الملوك والأمراء وعظماء الأمة يبالغون في إكرامه والاحتفاء به ، ويكلفونه أن يصنف لهم الكتب والرسائل . وكان الفضلاء يؤمونه من كل حدب وصوب ، حتى قال ابن العديم[١] : « ما علمت وزيراً مذكوراً ، أو فاضلاً مشهوراً ، مر بمعرة النعمان في ذلك [العصر و] الزمان ، إلا وقصده واستفاد منه ، أو طلب من تصنيفه ، أو كتب عنه » .

وقد بذل له الخلفاء والأمراء وأصحاب الكلمة النافذة أموالاً جمة فأباها على ضيق ذات يده ، وكان غيره من العلماء والشعراء يبذل ماء وجهه في عتبات الأمراء والمثرين ، ويجوب الآفاق ليزيد ثروته الزائدة عن حاجاته . فهذه الحظوة عند الأمراء ، والمنزلة عند الكبراء ، وتلك المواهب ، أججت نار الحسد في قلوب أعدائه وخصومه ، فكانوا يكيدون له ، ويتربصون به السوء ، وقد يدفع الحسد صاحبه إلى استصغار كل كبير ، واستحسان كل قبيح ، ويزين له ما يأباه الدين والمروءة ، وزادهم حسداً وحقداً عليه أنه أحدث في النظم والنثر ما لم يوفقوا إلى مثله ، حتى

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٦٥ ، عن الإنصاف والتحري — لابن العديم

أخمد جذوتهم ، وأخمل ذكرهم ، فكانوا يدأبون في إخمـاد جذوته ، وإخمال ذكره ، ولم يجدوا سبيلاً يوصلهم إلى غاياتهم أيسر من الطعن في دينه .

التشدد في الدين

كان أبو العلاء يعتقد أن كل عقل نبي ، ولذلك كان يعول في أحكامه على العقل ، ويأبى أن يتركه سدى . وكان حراً في تفكيره جريئاً في إبداء آرائه ، فلا يماري ولا يداري ، وقد تصدى في كلامه إلى كثير من المِلل والنِّحل ، واعترض على كثير مما يعتقده أهل كل ملة ، وجبّه رؤساء المذاهب والنحل والملوك والأمراء والعلماء والشعراء بالنقد اللاذع ، والتهكم المحض ، في مثل قوله (١) :

إِنَّما هَـذِهِ المَذاهِبُ أَسبا ... بٌ لِجَذْبِ الدُّنيا إِلى الرُّؤَساءِ

وقوله (٢) :

ظَلَمُوا الرَّعِيَّةَ واسْتَجازُوا كَيْدَها ... فَعَدَوْا مَصالِحَها وَهُمْ أُجَراؤُها

وقوله (٣) :

وَلَمْ آمَنْ عَلَى الفُقَهاءِ حَبْساً ... إِذا ما قِيلَ لِلأُمَناءِ جُوزُوا

وقوله (٤) :

وَمَا شُعَراؤُكُم إِلاّ ذِئابٌ ... تَلَصَّصُ في المَدائِحِ والسِّبابِ

---

(١) اللزوميات ﻫ ص ٢٦ .

(٢) اللزوميات ﻫ ص ٢٣ .

(٣) اللزوميات ﻫ ص ١٧٣.

(٤) اللزوميات ﻫ ص ٥١ .

وقوله (١) :

تَقُولُ الغُواةُ الخضرُ حيٌّ عليهِمُ عفَاءٌ نعمْ ليلٌ منَ الفتنِ أخضرُ

وقوله (٢) :

مَا اسودّ حامٌ لذنبٍ كانَ أحدثهُ لكنْ غريزةُ لونٍ خطّهُ المَلِكُ

وقوله (٣) :

لمْ يسقِكمْ ربُّكمْ عنْ حسنِ فعلِكمُ ولا حماكمْ غماماً سوءُ أعمالِ

إلى غير ذلك مما يأتي عند الكلام على إيمانه واعتقاده في المزاعم ، وقد يتضح مما ذكرنا ومما يأتي أنه لم يتخير لنقده قولاً ليناً ، ولا سلك أسلوباً لطيفاً ، وإنما كان يجبهم بالحقائق الصريحة ، ويقرعهم بالحجج الدامغة ، وربما واجههم بالتهكم اللاذع ، فوقع في أضعاف كلامه كثير مما لا يرتضيه المتشددون في الدين ، فحكموا عليه بالكفر ، وإن لم يكن فيه ما يوجب الكفر أو المروق . والعلماء ، لا سيما الفقهاء منهم ، يسارعون إلى التكفير على الشبهة ، ويحكمون بالإلحاد على الظن ، ويضيقون الخناق على الباحث ، ولا يتحرون في البحث والتحقيق ؛ وهم أسخى الناس بالتكفير والرمي بالزندقة ، وسترى ما يدل على ذلك .

يجب أن لا ننسى أن تخطئة الناس في مزاعمهم وإنكار شيء من معتقداتهم من شأنه أن يثير سخطهم ونقمتهم ويجعل صداقتهم عداوة . وقديماً قال الأول : ما ترك لي قول الحق صديقاً .

(١) اللزوميات هـ س ١٣٧ ، وفيها : « يقول . . . »
(٢) اللزوميات هـ س ١٨٣ ، وفيها : « خطها الملك . . . »
(٣) اللزوميات هـ س ٢١٥ .

حب الظهور

إذا نظر الإنسان نظر مدقق منصف فيما كُتب في أبي العلاء، وفيمن كتب فيه، رأى كثيراً منهم لم يستطع أن يفهم كلام أبي العلاء على وجه صحيح، ولا أن يدرك مرامي كلامه الدقيقة وكناياته اللطيفة، وقد يأتي أحدهم بشيء من كلام المعري على أنه حجة له فيما يزعم، فيكون حجة عليه، وقد يتصرف في القول على وفق ما يريده، لا على وفق ما يدل عليه اللفظ والمقام، وتؤيده القرائن، ولكنه اعترض على المعري ليقال: إنه اعترض عليه، وانتقده ليقال: إنه انتقد أبا العلاء. ولو أنعم النظر فيما يقول لتكشف عن مخزيات يندى لها الجبين، وسخافات تدل على جهل فاضح وفهم سقيم.

الولوع بالاغراب

وقد رأينا فريقاً من الكتاب والعلماء يتسقط لأبي العلاء هفوة، أو ينقب عن شبهة، فإذا ظفر بشيء يوجب الطعن في دينه، بجبخ وتفخفخ، كأنما اهتدى إلى ما لم يهتد إليه غيره من أسرار الكائنات، أو أتى بما لم يستطعه أحد من المعجزات، وقد يظهر للمتأمل أن كثيراً من هؤلاء أعرب بما كتب عن غباوة، وعثر فيما قال عثرة لا تقال، ودل فيما استدل به على جهل في العلم وسقم في الفهم ووهن في التفكير.

اللؤم

ورأينا فريقاً آخر يلصق بأبي العلاء ما هو بريء منه، وآخر يحرف كلامه عن مواضعه، وآخر يتقول عليه أقوالاً لا علم له بها، يريد بذلك

إهلاكه وتغيير نية إخوانه ، وقد قال للنازي (١) : « حدثني قوم فكذبوا عليّ وأساؤا إليّ » . ومن هؤلاء كثير من تلامذته وأوليائه .

وقد نقل ياقوت (ج ١ ص ١٧٩) وغيره عن ابن العديم عن أبي اليسر المعري ، وهو شاكر بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن محمد أخي أبي العلاء : أن أبا العلاء كان يرمى من أهل الحسد له بالتعطيل ، وتعمل تلامذته وغيرهم على لسانه الأشعار يضمنونها أقاويل الملحدة ، قصداً لهلاكه ، وإيثاراً لإتلاف نفسه فقال :

حَاوَلَ إِهْوانِيَ قَوْمٌ فَمَا   وَاجَهْتُهُمْ إِلاَّ بِإِهْوَانِي
يخرشوني (٢) بِسِعَايَاتِهِمْ   فَغَيَّرُوا نِيَّـةَ إِخْوانِي
لَوِ اسْتَطَاعُوا لَوَشَوْا بِي إِلَى الـ   ـمَرِّيخِ والشُّهْبِ وكِيوانِ

وقال أيضاً (٣) :

غَـرِيَتْ (٤) بِذَمِّي أُمَّةٌ   وبِحَمْدِ خَالِقِها غَرِيتُ
وعَبَدْتُ رَبِّي مَا اسْتَطَعْـ   ـتُ وَمِنْ بَرِيَّتِهِ بَرِيتُ
وَفَرَتْـنِيَ الْجُهَّـالُ حَا   شِدَةً عَلَيَّ وَمَا فَرِيتُ
سَعَرُوا عَلَيَّ فَلَمْ أُحِسَّ وعِنْدَهُمْ أَنِّي هَرِيتُ

---

(١) هو الشاعر أحمد بن يوسف النازي ، المتوفى سنة ٤٣٧ هـ ، انظر الوفيات ، والقفطي في إنباه الرواة .

(٢) في معاهد التنصيص : « يحرشوني » . (ج) انظر تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٣٤٠ ، والأبيات مما لم يرد في الديوانين .

(٣) انظر تعريف القدماء بأبي العلاء ص ١٠٠ ، ٢٧٠ ، ٢٩٠

(٤) غريَ به : أولع به .

وهذه الأبيات السبعة ليست في ديوانه ، وفيها روايات مختلفة ، وهي مذكورة كلها أو بعضها في (الوافي بالوفيات) ، و (النكت) و (المعاهد) و (أوج التحري) وغيرها . وروى الصفدي في النكت بعد الأبيات الأخيرة هذا البيت :

وَجَمِيعُ مَا فَاهُوا بِهِ كَذِبٌ لَعَمْرِي حَنْبَرِيتُ[1]

وقد أكثر أبو العلاء من ذم الحسد والحساد ومكايدهم ، مما يدل على أن للحسد في نفسه أثراً بمضاً ، وسنذكر شيئاً من كلامه في ذلك .

ما كان يفعله حساده وأعداؤه

حاول أعداء أبي العلاء أن يلتمسوا مغمزاً في علمه ، واجتهدوا ليجدوا مطعناً في سيرته ، فلم يجدوا . فاتخذوا من الدين سلاحاً لمحاربته ، والغض من كرامته ، وهو أقرب شيء تستثار به العامة ، وأقدم سلاح يتخذه المدلسون لمحاربة أهل الفضل ، فتألبوا على تكفيره أو رميه بالإلحاد أو الزندقة ، أو ما شاكل ذلك من النعوت المقوتة . وقد اختلفوا في الأسباب التي توجب تكفيره ، والطرق التي تؤدي اليها .

فنهم من كفره بأبيات لا توجب التكفير ، وفي نسبتها إليه شك ، وفي مقدمة هؤلاء ياقوت ، فقد جعله ملحداً ، وروى له البيتين المتقدمين[2] :

فِي اللاَّذِقِيَّةِ فِتْنَـــةٌ مَا بَيْنَ أَحْمَدَ والمَسِيحْ

. . . .

وليس فيها مايدل على إلحاد أو كفر ، وما فيها من ركاكة يشهد بأن المعري بريء منها ، وأنها ليسا من سنخ كلامه .

---

(١) كذب حنبريت : أي خالص .

(٢) معجم البلدان « اللاذقية » .

ومنهم من زعم أن المعري عارض القرآن الكريم ، أو السور والآيات بكتاب (الفصول والغايات) كابن الجوزي [١] ، والباخرزي ، والذهبي ، وياقوت . وزعم بعض المعاصرين أنه لم يذكر النبي - ﷺ - في (الفصول والغايات) إلا خمس مرات ، وأنه لم يعارضه بمعارضة ، وإنما بينهما مشابهة . وقد بينا بطلان هذا كله في الكلام على (الفصول والغايات) .

ومنهم من ألصق بالمعري شيئاً من أقوال غيره ، ليتمكن من الطعن فيه . ومن هؤلاء ياقوت ، فقد أورد أبو العلاء في (رسالة الغفران) أبياتاً لسير بن أدكن مطلعها [٢] :

يَصُولُ أَبُو حَفْصٍ عَلَيْنَا بِدِرَّةٍ ... رُوَيْدَكَ إِنَّ الْحَقَّ يَطْفُو وَيَرْسُبُ

فقال ياقوت : « وهذا يشبه أن يكون شعر المعري ، قد نحله هذا اليهودي ، أو أن إيراده واستلذاذه به من أمارات سوء عقيدته ومذهبه » . وهذا خطأ من ياقوت ، لأنه هو أورد هذه الأبيات ، فيجوز لقائل أن يقول : إن إيراده الأبيات المذكورة من أمارات سوء عقيدته ومذهبه ، كما قال ذلك في أبي العلاء . وياقوت أحد المفرطين في التعصب على أبي العلاء ، ولو استطاع أن يجعل كل أقواله مكفرة لما تأخر .

ومنهم عبد الوهاب السبكي ، فإنه نسب في (طبقات الشافعية ج ٣ ص ٩٧) هذين البيتين :

كَمْ عَاقِلٍ عَاقِلٍ أَعْيَتْ مَذَاهِبُهُ ... وَجَاهِلٍ جَاهِلٍ تَلْقَاهُ مَرْزُوقَا

هٰذَا الَّذِي تَرَكَ الْأَوْهَامَ حَائِرَةً ... وَصَيَّرَ الْعَالِمَ النِّحْرِيرَ زِنْدِيقَا

---

(١) انظر تعريف القدماء بأبي العلاء ص : ٨ ، ٩٨ ، ١٥١ ، ١٩٢ .

(٢) رسالة الغفران ـ تحقيق بنت الشاطئ ـ ط ١ ص ٣٧٧ .

الى أبي العلاء ، وقال : قبحه الله ما أجرأه على الله ! . وهذان البيتان لابن الراوندي ، كما ذكر ذلك في (معاهد التنصيص ص ٧١). وأورد ابن السبكي ببيتين نقضا على أبي العلاء ، في وزنها خلل ، وفي إعرابها لحن ، وفي تأليفهما ركاكة وسخف ظاهر لمن اطلع عليهما .

ومنهم أبو الحسين الجزار ، فقد قال من قصيدة مدح بها برهان الدين ابن الفقيه نصر (١) :

وفي عِلْمِ العَرُوضِ دَخَلْتُ جَهْلاً   وَعُمْتُ بِخِفَّتِي في كُلِّ بَحْرِ
فَأَذْكَرَني بِهِ التَّفْعِيلُ بَيْتاً   تَضَمَّنَ نِصْفَهُ الشَّيْخُ المَعَرِّي
مُفَاعَلَتُنْ مُفاعَلَتُنْ فَعُولُنْ   حَدِيثُ خُرَافَةٍ يا أُمَّ عَمْرِو

وقد نسب الشطر الأخير الى أبي العلاء ، وهو من بيت لعبد الله ابن الزبعرى ، على ما قاله المحبي في كتاب (مايعول عليه) وأوله :

حَيَاةٌ ثُمَّ مَوْتٌ ثُمَّ نَشْرٌ   حَدِيثُ خُرَافَةٍ يا أُمَّ عَمْرِو

وروي بغير هذا الوجه ، ونسبه ابن قتيبة في كتاب (الأشربة ص ٤٣) الى أبي نواس وروايته :

حَيَـاةٌ ثُمَّ مَوْتٌ ثُمَّ بَعْثٌ   حَدِيثُ ...

وأكثر الناس يتعصب لكل من أنكر على غيره شيئاً باسم الدين ، ويشايعه على أقواله من غير تثبت ولا تبين . وإذا اشتهر إنسان بشيء ألحق الناس به كل ما هو من جنس ما اشتهر به بغير تحقيق . وعلى

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٤٨ عن المُغرب في حُلى المغرب ، والمشرق في حُلى المشرق .

هذه الطريقة إذا رأوا بيتاً فيه مجون أو خلاعة ألحقوه بأبي نواس ، وإذا رأوا بيتاً فيه إلحاد أو زندقة ألحقوه بأبي العلاء .

وزعم بعض المتعصبين على أبي العلاء أنه خرج ليلة الى بعض مراقب موسى عليه السلام ، ورفع رأسه الى السماء ، وقال : يارب كلمني ، فإني أفصح من موسى ، قال ذلك مرارا ، فلم يجبه أحد ، فأنشد هذين البيتين[1] :

لَقَدْ أَسْمَعْتَ لَوْ نَادَيْتَ حَيًّا ولٰكِنْ لا حَياةَ لِمَنْ تُنَادِي

وَلَوْ نَاراً نَفَخْتَ بِهَا أَضَاءتْ ولٰكِنْ أَنتَ تَنْفُخُ في رَمَادِ

وهذا افتراء محض من قائل ذلك ، والبيتان هما من نظم عمرو بن معدي كرب ، وقيل لدريد بن الصمة ، كما ذكر ذلك ابن نباتة في (سرح العيون ، شرح رسالة ابن زيدون ص ٢٣١ و ص ٣٢٧).

ومنهم من نسب اليه أقوالاً ليست في شيء من كتبه التي وصلت الينا . ومن هؤلاء : القفطي ، وياقوت ، وابن الجوزي ، وسبط ابن الجوزي ، ومن لف لفهم ، فقد رووا له هذين البيتين [2] :

فَلا تَحْسَبْ مَقَالَ الرُّسْلِ حقًّا ولٰكِنْ قَوْلُ زُورٍ سطَّرُوهُ

وكَانَ النَّاسُ في عَيْشٍ رَغِيدٍ فَجَاؤُوا بِالمُحَالِ فَكَدَّرُوهُ

ورووا له كثيراً من مثل هذا .

---

(١) ورد البيت الأول في الفصل الذي كتبه إلى أبي نصر صدقة بن يوسف الفلاحي لما استدناه إلى حضرة الأمير عزيز الدولة . انظر رسائل أبي العلاء المعري ـ لشاهين عطية ـ ص ٩٧ ، وتعريف القدماء بأبي العلاء ص ٢٥٥ ، ٥٧٤ .

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء : الصفحات ٢٢ ، ٦٢ ، ١١٧ ، ١٥٠ .

ومنهم من كان يحرف قول أبي العلاء من صورة لاتخالف ما يقتضيه الإيمان الى صورة توجب الحكم عليه بالكفر ، ومن هؤلاء : ابو الفداء ، والذهبي ، وابن الشحنة ، فقد رووا هذه الأبيات (١) :

أَتَى عِيسَى فَبَطَّلَ شَرْعَ مُوسَى وَجَاءَ مُحَمَّدٌ بِصَلَاةِ خَمْسِ
وَقَالُوا لَا نَبِيٌّ بَعْدَ هَـذَا فَضَلَّ القَوْمُ بَيْنَ غَدٍ وَأَمْسِ

الى آخر الأبيات على هذا الوجه ، والمعروف في البيت الثاني :

وَقِيلَ يَجِيءُ دِينٌ غَيْرُ هٰذا . . . .

وهو المذكور في ديوانه (لزوم مـالا يلزم) ، وهو على هذه الرواية صحيح لاشك فيه ، ولكنهم حرفوه ليكفروا صاحبه .

ومنهم من كفره بغير سبب ولا مناسبة ، ومن هؤلاء الزمخشري ، فإن أبا العلاء رثى الشريف الموسوي ، وهو ببغداد ، بقصيدة وصف فيها نار القِرى بأبيات ، منها قوله (٢) :

حَمْرَاءُ سَاطِعَةُ الذَّوَائِبِ فِي الدُّجَى تَرْمِي بِكُلِّ شَرَارَةٍ كَطِرَافِ

فأورده الزمخشري في تفسيره في سورة المرسلات . ثم قال : « شبهها بالطراف ، وكأنه قصد بخبثه أن يزيد على تشبيه القرآن ، ولقد عمي ، جمع الله له عمى الدارين ... »

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء : الصفحات ١٨٧ ، ١٩٦ ، ٢١٠ . واللزوميات ١ ص ٣٠١ وفيهـا :

دعا موسى فزال وقام عيسى وجاء محمـدٌ بصلاة خمس
وقيل يجيء دينٌ غير هذا وأودى الناس بين غدٍ وأمس

(٢) شروح سقط الزند ، ق ٣ ص ١٣٠٧ ، والطِّراف : قبة من أدَم .

وهذا البيت أجل بيت قالته العرب في وصف النار فيما أعلم، وليس فيه، بل ولا في القصيدة كلها، ما يدل على شيء مما زعمه الزمخشري .

ولهذا أنكر عليه هذا الافتراء جماعة منهم فخر الدين الرازي في تفسيره (مفاتيح الغيب) حيث قال : « زعم صاحب (الكشاف) أنه ذكر ذلك معارضة لهذه الآية ﴿ تَرْمي بِشَرَرٍ كالقَصْرِ (١) ﴾ وكان الأولى له أن لايذكر ذلك » . وأطال الكلام في تفسيره ج ٨ ص ٣١٧ . ومنهم صدر الأفاضل الخوارزمي ، حيث قال ، بعد أن نقل قول الزمخشري : ولا أدري من أين له أنه قصد الزيادة على تشبيه القرآن . فمن المعلوم أن القصر أعظم من الطراف ، ولكن الزمخشري مع فضله كان حديد المزاج كثيرا .

وأنا أعتقد أن أبا العلاء ، لما نظم هذا البيت ، لم تخطر بباله هذه الآية الكريمة ، ولكن الزمخشري عمي عما في البيت من جمال وروعة ، وأبصر ما ليس فيه ، فافترى على صاحبه . ومنهم الشيخ البناني ، فإن سعد الدين التفتازاني ذكر في شرحه (المختصر على متن التلخيص) قول أبي العلاء (٢) :

وَالَّذي حارَتِ البَرِيَّةُ فيهِ   حَيَوانٌ مُسْتَحْدَثٌ مِنْ جَمادِ

ثم قال : يعني تحيرت الخلائق في المعاد الجسماني ، والنشور الذي ليس بنفساني ، بدليل ماقبله :

بانَ أمْرُ الإلٰهِ واخْتَلَفَ النّا   سُ ، فَداعٍ إلى ضَلالٍ وَهادِ

---

(١) سورة المرسلات .

(٢) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١٠٠٤ .

يعني : بعضهم يقول بالمعاد وبعضهم لايقول به » ا هـ .

فقال الشيخ مصطفى بن محمد البناني في (تجريده على المختصر ج ١ ص ١٨٨) : « قوله : يعني بعضهم يقول بالمعاد ؛ وبعضهم لايقول به ، لايبعد أن يكون تقديم القول بالمعاد في تفسير البيت ، مع أن الظاهر هو اللف والنشر المرتب إيماء إلى أن مراد الشاعر بالداعي الى الضلال هو القائل بالمعاد بناء على ما اشتهر في التواريخ من أن أبا العلاء ملحد منكر للحشر ، ويومىء اليه بيته المشهور عند من له ذوق سليم وهو قوله[1] :

يَدٌ بِخَمْسِ مِئِينَ عَسْجَدٍ وُدِيَتْ ... مَا بَالُهَا قُطِعَتْ فِي رُبْعِ دِينَارِ

ونقل ذلك عن الفنري . وهو استنباط غريب من البناني والفنري ، لأن أبا العلاء ذكر في هذه القصيدة ما يدل على المعاد كقوله[2] :

خُلِقَ النَّاسُ لِلْبَقَاءِ فَضَلَّتْ ... أُمَّةٌ يَحْسَبُونَهُمْ لِلنَّفَادِ

إِنَّمَا يُنْقَلُونَ مِنْ دَارِ أَعْمَا ... لٍ إِلَىٰ دَارِ شِقْوَةٍ أَوْ رَشَادِ

وأمثال هذا كثير في أقوال المتقدمين والمتأخرين ، وسيأتي أن الصفدي نقل عن كتاب (الأربعين) قول الفخر الرازي في قول أبي العلاء[3] : «قلتم لنا صانع قديم» وزعم أن الرازي قال عن أبي العلاء : « وقد هذى هذا في شعره » . وليست هذه الجملة في كلام الرازي .

---

(١) اللزوميات هـ ص ١٥٢ وفيها : « فُديت » .

(٢) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ٩٧٨ .

(٣) انظر في ذلك تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٢٦٧ والحاشية (٢) و (٣) عن الوافي بالوفيات - للصفدي ، ورواية هذا الشطر في اللزوميات هـ ص ١٩٨ : « قلتم لنا خالق حكيم » وتمامه : « قلنا صدقتم كذا نقول » .....

النظر في الأقوال والمزاعم المتقدمة وفي أدلتها

الشك

أما من ذهب إلى أنه شاكّ ، فدليله قول التبريزي : « ما أنا إلا شاك » ، وقول أبي العلاء : « وهكذا شيخك » . وقد روى هذا الخبر جماعة (١) منهم ابن الجوزي في (المنتظم) وياقوت في (إرشاد الأريب) وسبط ابن الجوزي في (مرآة الزمان) وغيرهم ، وكلهم اقتصر على هذا القدر ، ولم يبين الشك في أي شيء حتى يتبين مايترتب عليه من تكفير أو تفسيق أو غيرهما ، فإن أراد أنه شاكّ في الله ، فهو باطل وافتراء ، لأن له كثيراً من الأقوال الدالة دلالة صريحة لاتحتمل الشك على وجود الله وصفاته ، وسنأتي أمثلة منها . وإن أراد الشكّ في الكتب أو الأنبياء أو الرسل أو الملائكة أو الآخرة فهو باطل أيضاً ، بشهادة أقواله الكثيرة الصريحة في ذلك ، وسترى كثيراً منها . والتكفير بشيء مبهم لايعتدّ به عند العلماء . وإن أراد الشكّ بغير ماذكر ، فلا نستطيع الحكم عليه حتى نعلم ماهو . واستدل بعض المعاصرين على شكه في الآخرة بقوله في مرثية أبيه (٢) :

طَلَبْتُ يَقِيناً مِنْ جُهَيْنَةَ عَنْهُمُ ... وَلَنْ تُخْبِرِيني يَا جُهَيْنُ سِوى الظَّنْ
فَإِنْ تَعْهَدِيني لا أَزالُ مُسَائِلاً ... فَإِنِّيَ لَمْ أُعْطَ الصَّحِيحَ فَأَسْتَغْنِي

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ، الصفحات : ١٩ و ٧٧ و ١٤٤ .

(٢) شروح سقط الزند : ق ٢ س ٩٢٥ ـ ٩٢٧ وفيها : « سوى ظنّ » .

وهذا وهم وباطل ، لأنه يريد بقوله هذا أنه طلب من جهينة التي يقال في المثل : « عندها الخبر اليقين » أن تخبره خبراً عمن مات ، فلم تستطع أن تخبره ، لأن أحوال الموتى لايعلمها إلا الله ، وهو يحرص على أن يعلم مصير أبيه ، ليطمئن باله ؛ ولذلك يلح بالمسألة ، ما دام لم يقف على الصحيح . وليس في هذا شيء من الكفر ولا الشك في الآخرة بل صرح في هذه القصيدة بالآخرة وما فيها في مواطن ، منها قوله [١] :

فَيَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ يَخِفُّ وَقَارُهُ إِذَا صَارَ أُحْدٌ فِي القِيَامَةِ كَالْعِهْنِ

وقوله [٢] :

وَهَلْ يَرِدُ الحَوْضَ الرَّوِيَّ مُبادِراً . . . . . .

وقوله [٣] :

. . . . . وَقَدْ وُعِدَا مِنْ بَعْدِهِ جَنَّتَيْ عَدْنِ

إلى غير ذلك من الأبيات .

وحاول فريق من الأدباء أن يجعل الشك مذهباً لأبي العلاء ، واستدل على ذلك بمثل قوله [٤] :

إِنَّمَا نَحْنُ فِي ضَلالٍ وتَعْلِيـــــلٍ فَإِنْ كُنْتَ ذَا يَقِينٍ فَهاتِهْ

وَلِحُبِّ الصَّحِيحِ آثَرَتِ الرُّو مُ انْتِسَابَ الْفَتَى إِلَى أُمَّهاتِهْ

جَهِلُوا مَنْ أَبُوهُ إِلاَّ ظُنُونَا وَطَلا الوَحْشِ لاحِقٌ بِمَهاتِهْ

---

(١) المصدر السابق ص ٩١١ .

(٢) شروح سقط الزند ق : ٢ ص ٩١١ وعجزه : « مع الناس أم يأبى الزحام فيستأني » .

(٣) المصدر السابق ص ٩٢٢ ، وصدر البيت : « وما استعذبته روح موسى وآدم » .
وورواه البطليوسي : « نفس موسى » ، والتبريزي « وعنوه » .

(٤) اللزوميات هـ ص ٧٠ .

ومن البديهي أن أبا العلاء لايريد أن يقرر عقيدة دينية في هذه الأبيات ، حتى يترتب عليه حكم بالكفر أو نحوه . وإنما يريد أن يبيّن فيها أمرين :

أحدهما : حالة الناس في عصره ، فإنهم في ضلال وتعليل ، يبنون أمورهم على الظن ، ولا يتحرون اليقين فيها ، أو لايجرؤن على إظهار اليقين ، لما يترتب عليه من المفاسد والمضار .

والثاني : تهاون المرأة بالاحتفاظ بعفافها ، لاسيما المرأة الرومية ، وكلا الأمرين لاعلاقة له بالعقائد الدينية ، وإنما هو من باب الإسراف في الظن أو من باب التصريح بالحقيقة الواقعة في الغالب ، وهو إن أساء إلى المرأة فقد أحسن إلى الأدب والحقيقة بهذه الصورة الرائعة والمعنى البديع . وزعم صاحب (ذكرى أبي العلاء) [١] أن أبا العلاء لم يؤمن بأن آدم شخص حقيقي ، واستدل على ذلك بقوله [٢] :

قَالَ قَوْمٌ ، وَلا أَدِينُ بِمَا قَا ... لُوهُ : إِنَّ ابْنَ آدَم كَابْنِ عِرْسِ
جَهِلَ النَّاسُ مَا أَبُوهُ عَلَى الدَّهْـ ... ـرِ وَلَكِنَّهُ مُسَمًّى بِحَرْسِ
فِي حَدِيثٍ رَوَاهُ قَوْمٌ لِقَوْمٍ ... رَهْنَ طِرْسٍ مُسْتَنْسَخٍ بَعْدَ طِرْسِ

وابن عرس : دُوَيبة دون السنور ، أشتر أصلم أصَكّ لها ناب ، وتجمع على بنات عرس . والحرس : الدهر ، يريد أن قوماً زعموا أن ابن آدم لا أب له ، كما أن ابن عرس لا أب له ، فآدم على زعمهم شيء لاحقيقة . وأبو العلاء صرح بأنه لايدين بما قاله هؤلاء . فادعى صاحب

---

(١) ذكرى أبي العلاء ـ طه حسين ـ ط ٢ ص ٣٧٠ .

(٢) اللزوميات ﻫ ص ٣٢٥ .

(الذكرى) أن المعري لايؤمن بأن آدم شخص حقيقي ، وجعل قوله : « لا أدين بما .. » من باب التقية ، وهذا غريب وأغرب من كل غريب ، لأن أبا العلاء أثبت وجود آدم في عدة مواطن في كلامه وجوز أن يكون قبله آدم ، بل صرح بقوله (١) :

وما آدَمٌ في مَذْهَبِ العَقْلِ وَاحِداً . . . .

كما سيأتي .

وبعد ما تقدم فإن الشك باب من أبواب البلاغة ، وأسلوب بديع من أساليب البلغاء ، قد يتخيرونه لنكتة طريفة ، لا تؤدى بغير الشك كما تؤدى به ، ألا ترى أن زهيراً قال في هجاء آل حصن :

وَمَا أَدْرِي وَلَسْتُ إِخَالُ أَدْرِي أَقَوْمٌ آلُ حِصْنٍ أَمْ نِسَاءُ

فاظهر أنه لم يعلم أن آل حصن رجال أم نساء ، مع أنه يعلم ذلك ، لأن في هذه الصورة دلالة على قرب الشبه بين الرجال والنساء ، حتى لا يكاد يفرق بينهما ، ولا يستطيع ان يميز أحدهما من الآخر ، فهو أجمل من قوله : « هم نساء » وأقرب الى التصديق . وأجمل من قوله : هم يشبهون نساءهم ، أو ما شاكل ذلك من الصور .

وكان المتقدمون يسمون هذا النوع التشكك . والمتأخرون يسمونه : تجاهل العارف ؛ وهو من مُلح الشعر وطرف الكلام . وكلام البلغاء طافح بمثل هذه الصور ، ولا يراد بها الشك حقيقة ، وإنما يراد بها نكتة طريفة إما مبالغة في تقارب الشبهين ، أو الإيناس أو إظهار العجز الذي لا يعلمه المخاطب ، أو التوبيخ لمن يدعي الشكوك فيه ، أو المبالغة في مدح أو ذم

---

(١) اللزوميات ٢ ص ٣٢١ : وعجز البيت : « ولكنه عند القياس أوادم » .

أو تحقير ، أو تدله في الحب ، أو غير ذلك مما هو مبسوط في كتب البديع والأدب . وفي القرآن الكريم كثير من هذه الصور مثل قوله تعالى لعيسى : ﴿ أأنتَ قلتَ للناسِ . . . ﴾ [١] وقوله : ﴿ أأنتم أشدُّ خلقاً أمِ السماء ﴾ [٢] فإن هذه الصور . وأمثالها لا يصح أن يراد بها الشك حقيقة ، لاستحالة ذلك على الله . وكذلك نفي اليقين قد يراد به غير ظاهره . فقد يراد به جعل الخبر أو الأمر ضعيفاً حقيقة أو ادعاء ، وقد يراد به تعجيز المخاطب أو تكليفه إثبات اليقين فيما يتعذر عليه أو يشق ، كنفي اليقين عن حالة الموتى والآخرة ، ومعرفة الأب الحقيقي ، وما يكون في المستقبل . وأبو العلاء يحتذي على مثال البلغاء في كلامه ، ولا يسعنا أن نجعل كل شك ، أو نجعل نفي اليقين في كل موضع ، موجباً للكفر ، ألا ترى أن قوله [٣] :

أصبحتُ في يومي أسائلُ عن غدي ... متخبِّراً عن حالهِ متندِّسا

أمّا اليقينُ فلا يقينَ وإنّما ... أقصى اجتهادي أنْ أظنَّ وأحدِسا

وهو صحيح ، لأنه لا يعلم ما في غد إلا الله .

الحيرة

وأما قول من قال : إنه في حيرة ، فإنه رأى في كلام أبي العلاء ما يدل على تناقض في الرأي - بحسب زعمه - فحكم على ما رآه بحسب

---

(١) سورة المائدة / ١١٦ .

(٢) سورة النازعات / ٢٧ .

(٣) اللزوميات ﻫ ص ٢٩٦ ، والمتندس : المتتبع للخبر يستخبره . وأحدس : أظن وأخمن .

الظاهر . ولكن هذا القائل لم يعيّن الحيرة في شيء ، لنعلم ما هي وما يترتب عليها . وظاهر كلامهم أنه في حيرة في اعتقاده بالله ، أو بالآخرة ؟ وقد مرّ وسيمر ما يدل على بطلان هذا .

عدم الثبات على نِحلة واحدة

وأما من قال : إنه كان لا يثبت على نِحلة واحدة ، بل يجري مع القافية إذا حصلت . . . . فقد قربه إلى الإسلام والتقوى أكثر من غيره . لأننا إذا استقرينا قوافيه المتعلقة باعتقاده لا نجد في المائة منها واحدة صريحة توجب الطعن في دينه . وإذا جهلنا المتأخر منها ، ونظرنا إلى قوة الأدلة وتعددها وصراحتها اضطررنا إلى الحكم بصحة إيمانه وسلامة اعتقاده ، وإذا أسقطنا الأدلة لتعارضها ، اضطررنا إلى أن نحكّم التاريخ ، وهو يخبرنا بأنه كان صوّاماً قوّاماً برّاً تقياً . وسيأتي إيضاح هذا وبسطه .

التشيع

وأما من قال : إنه شيعي ، فقد استدل على تشيعه بقوله في لزوم ما لا يلزم (١) :

لَقَدْ عَجِبُوا لِأَهْلِ البَيْتِ لَمَّا ... أَتَاهُمْ عِلْمُهُمْ في مَسْكِ جَفْرِ (٢)
وَمِرْآةُ المُنَجِّمِ وهْيَ صُغْرَى ... أَرَتْهُ كُلَّ عامِرَةٍ وَقَفْرِ

---

(١) اللزوميات هـ ص ١٥٤ .

(٢) إذا بلغ ولد المعزى أربعة أشهر ، وجفر جنباه وفصل عن أمه وأخذ في الرعي فهو جَفْر والأنثى جفرة . قال الدميري في حياة الحيوان ج ١ ص ٢٩٠ : قال ابن قتيبة في أدب الكاتب : وكتاب الجفر جلد جفر كتب فيه الإمام جعفر بن محمد الصادق لآل البيت كل ما يحتاجون إلى علمه وكل ما يكون إلى يوم القيامة ، وإلى هذا الجفر ـــ

ـ أشار أبو العلاء المعري في قوله : لقد عجبوا لأهل البيت . . . وظاهر كلامه يدل على أن قوله : وإلى هذا الجفر أشار ... من كلام ابن قتيبة ، وذلك لا يصح لأن ابن قتيبة توفي سنة ٢٧٦ هـ قبل ولادة أبي العلاء وقد ذكر ذلك ابن قتيبة في كتابه تأويل مختلف الحديث ص ٨٤ حيث قال : وأعجب من هذا التفسير تفسير الروافض للقرآن وما يدعونه من علم باطنه بما وقع إليهم من الجَفْر الذي ذكره هرون بن سعد العجلي ، وكان رأس الزيدية ، ثم أورد ثمانية أبيات ، ثم قال : قال أبو محمد ، وهو جلد جفر ادّعوا أنه كتب فيه لهم الإمام كل ما يحتاجون إلى علمه وكل ما يكون إلى يوم القيامة .... إلى آخر كلامه ، ونقل شيئاً من ذلك في مرآة الجنان ج ٣ ص ٣١٧ مع تغيير قليل فراجعها . ثم قال الدميري : وقيل ، ابن تومرت المعروف بالمهدي ظفر بكتاب الجفر فرأى فيه ما يكون على يد عبد المؤمن صاحب المغرب وقصته وحليته واسمه . . .

وقال ابن تيمية في (منهاج السنة ج ١ ص ٢٣١) : ويقال : ثالثاً الكذب على هؤلاء في الرافضة من أعظم الأمور ولا سيما على جعفر بن محمد الصادق فانه ما كذب على أحد ما كذب عليه حتى نسبوا إليه كتاب الجفر والبطاقة والهفت واختلاج الأعضاء وأحكام الرعود والبروق وما يذكر عنه من حقائق التفسير التي ذكر كثيراً منها أبو عبد الرحمن السلمي . . . وحتى زعم بعضهم أن كتاب (رسائل إخوان الصفاء) من كلامه . . .

وقال السيد الشريف الجرجاني في (شرح المواقف ج ٦ ص ٢٢) عند قول العضد : « إذ من علم شيئاً علم علمه به بالضرورة وإلا جاز أن يكون أحدنا عالماً بالجفر والجامعة » وهما كتابان لعلي رضي الله تعالى عنه ، قد ذكر فيهما على طريقة علم الحروف الحوادث التي تحدث إلى انقراض العالم ، وكانت الأئمة المعروفون من أولاده يعرفونهما ويحكمون بهما . وفي كتاب قبول العهد الذي كتبه علي بن موسى ـ رضي الله عنهما ـ إلى المأمون : أنك قد عرفت من حقوقنا ما لم يعرفه آباؤك فقبلت منك عهدك . إلا أن الجفر والجامعة يدلان على أنه لا يتم . ولمشايخ المغاربة نصيب من علم الحروف ينتسبون فيه إلى أهل البيت . ورأيت أنا بالشام نظماً أشير فيه بالرموز إلى أحوال ملوك مصر وسمعت أنه مستخرج من ذينك الكتابين اهـ .

وفي كشف الظنون : « الجفر والجامعة عبارة عن العلم الإجمالي بلوح القضاء والقدر المحتوي على كل ما كان وما يكون كلياً وجزئياً . والجفر عبارة عن لوح القضاء الذي هو عقل الكل ، والجامعة لوح القدر الذي هو نفس الكل . وقد ادعى طائفة أن الإمام علياً (رضي الله عنه) وضع الحروف الثمانية والعشرين على طريق البسط الأعظم في جلد الجفر يستخرج منها بطرق مخصوصة وشرائط معينة وألفاظ مخصوصة ما في لوح القضاء والقدر ، وهذا علم توارثه أهل البيت ومن ينتمي إليهم وقيل : لا يقفه في هذا الكتاب حقيقة إلا المهدي المنتظر .... » .

قال صاحب (نزهة الجليس ومنية الأديب الأنيس) العباس بن علي المكي الحسيني من رجال القرن الثاني عشر: «هذان البيتان» على تشيع أبي العلاء يدلان». ثم قال: «ومما يدل على تشيعه أيضاً قوله من قطعة: (١)

أَمَرَ الوَاحِدُ فَافْعَلْ مَا أَمَرْ وَاشْكُرِ اللهَ إِنِ الفِعْلُ أَمَرْ
أَظْهِرِ الخِيفَةَ وَاضْمُرْ قَلَّمَا أَدْرَكَ الطَّرْفُ المَدَى حَتَّى ظَهَرْ
أَيُّهَا المُلْحِدُ لا تَعْصِ النُّهَى فَلَقَدْ صَحَّ قِيَاسٌ وَاشْتَهَرْ
إِنْ تَعُدْ فِي الجِسْمِ يَوْماً رُوحُهُ فَهْوَ كَالرَّبْعِ خَلا ثُمَّ عَمَرْ

— قال ابن طلحة: الجفر والجامعة كتابان جليلان أحدهما: ذكره الإمام علي وهو يخطب بالكوفة على المنبر، والآخر: أسره إليه رسول الله ﷺ وأمره بتدوينه فكتبه... حروفاً متفرقة على طريق سفر آدم في جفر يعني في رق قد صبغ من جلد البعير فاشتهر بين الناس به، لأنه وجد فيه ما جرى للأولين والآخرين. والناس يختلفون في وضعه وتكسيره، فنهم من كسره بالتكسير الصغير وهو جعفر الصادق...» وتتمة هذا القول في كشف الظنون ج ١ ص ٣٩٥. (ج)

(١) قالوا في كتاب (تعريف القدماء بأبي العلاء) في ذيل ص ٣٥٣: هذه الأبيات مما لم يرد في الديوانين، ولم نعثر عليها في غير هذا الموضع. والصحيح أنها مذكورة في لزوم ما لا يلزم وهي مطلع قصيدة عدد أبياتها أربعة عشر بيتاً ولكن بعض الأبيات المذكورة هنا محرفة عما في الديوان، فالشطر الأخير من البيت الثاني روي في الديوان هكذا: أحرز الطرف المدى حتى ضمر. ومن البيت الثالث هكذا: نلقد صح قياس واستمر، وعلى هذه الرواية يكون في البيتين لزوم ما لا يلزم. (ج)، وفي اللزوميات ه ص ١٦٨ هذه الأبيات مع اختلاف إيراد بعض ألفاظها عما لم تثبته هذه الحاشية وذلك في قوله:

أمر الواحد فاقبل ما أمر واشكر الله إن الذنبُ أمرّ
أضمر الخيفة واضمُر قلّما أحرز الطِّرْف المدى حتى ضمر

والطِّرف: بالكسر الكريم من الخيل.

وَهِيَ الدُّنْيَا أَذَاهَا أَبَداً ... زُمَرٌ وَارِدَةٌ إِثْرَ زُمَرْ
يا أَبَا السِّبْطَيْنِ لا تَحْفِلْ بِهَا ... أَعَتِيقٌ سَادَ فِيهَا أَمْ عُمَرْ

والشيعة فرق متعددة عند المتقدمين ، ولم يبيّن لنا من أي فرقة هو. وسيأتي عند الكلام على الأديان والملل عن (رسالة الغفران) و (لزوم مالا يلزم) مالا يدل على ذلك ، كقوله في (رسالة الغفران) وقد ذكر التناسخ : (١) « وهو مذهب عتيق يقول به أهل الهند ، وقد كثر في جماعة من الشيعة » . وقوله : (٢) « أما الذين يدّعون في علي مايدّعون ، فتلك ضلالة قديمة » . وقوله : (٣) « واعتقاد الكيسانية في محمد ابن الحنفية عجيب ، لايصدق بمثله نجيب » . وقوله في (لزوم مالا يلزم) : (٤) .

لَعَمْرُكَ مَا أُسَرُّ بِيَوْمِ فِطْرٍ ... ولا أَضْحَى ولا بِغَدِيرِ خُمِّ
وَكَمْ أبدى تَشَيُّعَهُ غَوِيٌّ ... لِأَجْلِ تَنَسُّكٍ بِبِلَادِ قُمِّ

وهو ينكر مجيء الإمام المنتظر . ومن البعيد أن يكون شيعياً وهو يقول : (٥) .

وَالنَّاسُ فِي ضِدِّ الْهُدَى مُتَشَيِّعٌ ... لَـزِمَ الْعُلُوَّ (٦) وَنَاصِبِيٌّ شَارِ

(١) رسالة الغفران تحقيق بنت الشاطىء ط ١ ص ٣٩٧ .
(٢) المصدر السابق ص ٤٣٩ .
(٣) المصدر السابق ص ٤٤٠ .
(٤) اللزوميات هـ ص ٢٥١ وفيها : « لأجل تَنَسُّبٍ » .
(٥) اللزوميات هـ ص ١٦٢ .والناصبي:واحد الناصبية وهم قوم متدينون ببغضة علي-عليه السلام.
(٦) كذا في الاصل وفي اللزوميات أيضاً ، ولعلها : « الغلو » .

على أن أبا العلاء مدح ورثى كثيراً من أهل البيت الطاهر .

من ذلك قصيدته الحائية التي أجاب بها الشريف أبا إبراهيم موسى بن أحمد أو إسحق ؟ وهي في (السقط [1] ج ١ ص ٥٦) .

وقصيدته النونية التي أجاب بها الشريف أبا إبراهيم موسى أيضاً : وهي في (السقط [2] ج ١ ص ٩)

وقصيدته الميمية التي يهنىء بها محمداً بيونه : وهي في (السقط [3] ج ١ ص ١٤٠)

وقصيدته الميمية التي رثى بها أبا إبراهيم : وهي في (السقط [4] ج ١ ص ٢٠١)

وقصيدته القافية التي رثى بها الشريف أبا أحمد والد المرتضى والرضي : وهي في (السقط [5] ج ٢ ص ٥٥)

وسيأتي أن له كتابا جمع فيه فضائل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) . وروى له القفطي هذه الأبيات : [6]

شَهِدتُ بِأَنَّ الكَلبَ لَيسَ بِنَابِحٍ ... يَقِينًا وأَنَّ اللَّيثَ في الغَابِ مَازَارْ

---

(١) شروح سقط الزند : ق ١ ص ٢٣٧ ، ومطلع القصيدة :

ألاحَ وَقَدْ رأى بَرْقاً مُليحاً ... سرى فأتى الحِمَى نضواً طليحاً

(٢) شروح سقط الزند : ق ١ ص ٤٢٥ ، ومطلع القصيدة :

عَلِّلاني فان بيضَ الأماني ... فنيَت والظلام ليس بفانِ

(٣) شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٦٦٣ . ومطلع القصيدة :

عظيم لعمري أن يُلِمّ عظيم ... بآل عليّ والأنام سليم

(٤) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ٩٤٩ ، وفيها : « قال يرثي أبا إبراهيم العلوي ويخاطب أولاده . . » . ومطلع القصيدة :

بني الحسَبِ الوضّاح والعرف الجمّ ... لسانيَ إن لم أرث والدكم خصمي

(٥) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١٢٦٤ ، ومطلع للرثية :

أودى فليت الحادثات كفاف ... مال المسيف وعنبر المستاف

(٦) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٦١ عن إنباه الرواة - القفطي .

وأنَّ قُرَيْشاً لَيسَ مِنْهَا خَليفَةٌ وأنَّ أبا بَكْرٍ شَكا الحيفَ مِنْ عُمَرْ
وَأنَّ عَلِيًّا لَمْ يُصَلِّ بِصَحْبِهِ وَمَا هُوَ واللهِ العَظِيمِ مِنَ البَشَرْ

وهذه الأبيات انفرد بروايتها القفطي ، ولم أر من ذكرهـا غيره ، وليست في شيء من كتبه التي وصلت الينا ، وهي شبيهة بهذيان المحموم .

الاعتزال

وأما من قال : إنه يذهب مذهب المعتزلة ، واستدل بما يوهم ذلك من كلامه ، فلم يبين إلى أي فريق منهم ينتسب ، ولا بأي شيء ذهب مذهبهم ؛ وإنما رأى جملة من كلامه توافق شيئاً من آرائهم ، فعده من الذاهبين مذهبهم ، ومن هذا النوع قول الصفدي في (الغيث المسجم) : (١)
« ووجدت منسوبا الى ابي العلاء المعري [أيضاً] :

زَعَمَ الجهُولُ وَمَنْ يَقُولُ بِقَوْلِهِ أنَّ المعَاصِي مِنْ قَضاءِ الخَالِقِ
إنْ كانَ حَقًّا مَا يَقُولُ فَلِمْ قَضَى حَدَّ الزِّنا، وقَطْعَ كَفِّ السَّارِقِ

وهذه من مسائل الاعتزال ، والجواب عنها مذكور في مسألة خلق الأفعال » . وهذان البيتان لم نرهما فيما وصل الينا من كتبه .

وقد قال صاحب (نزهة الجليس) : (٢) « ومما يدل على حسن مذهبه وإلزامه لأهل الكسب والجَهْمية قوله . . . » ثم أورد هذين البيتين ، ورواية الثاني عنده هكذا :

إنْ كانَ حَقًّا مَا زَعَمْتَ . . . .

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ١٠٦ ، عن الغيث المسجم — للصفدي .
(٢) المصدر السابق ص ٣٦٣ ، عن نزهة الجليس — للعباس المكي .

فقد جعلها دليلًا على حسن مذهبه ، وأسلوبها أضعف من أسلوب أبي العلاء ، وعلى فرض أنها من شعره لانجد فيها مـا يوجب القدح في دينه ، ولا ما يوجب جعله من المعتزلة . وسيأتي إيضاح هذا عند قوله : (١)

إنْ كانَ مَنْ فَعَلَ الكَبائِرَ مُجْبَراً فعِقابُهُ ظُلْمٌ عَلَى مَا يَفعَلُ

وأبو العلاء يوافق المعتزلة في التعويل عـلى العقل ، وفي بعض المسائل ، ولكنه يخـالفهم في كثير من آرائهم ، وقد صرح بأنه لم يوافقهم وتبرأ منهم . وَعدَّ رؤساءهم من الهازلين بأصحابهم ، وأن ما ألفوه من كتبهم سببه التنافس في الدنيا ، وحسبك الآن من الأدلة على ذلك قوله : (٢)

ومُعْتَزِلِيٍّ لَمْ أُوافِقْهُ سَاعَةً أقولُ لَهُ في اللَّفظِ: دِينُكَ أجزَلُ

وقوله : (٣)

واسْتَغْفِرِ اللهَ واتْرُكْ مَا حَكَى لَهُمُ أبو الهُذَيْلِ وَمَا قَالَ ابْنُ كَلَّابِ

وإذا وافق الإنسان أصحـاب مذهب أو نحلة في قول أو رأي ، لايجب أن يكون من أهل ذلك المذهب ، لأن المذاهب والنحل تتوافق في كثير من الأصول والفروع ، ولا يكون الإنسان من أهل مذهب حتى يلتزم كل ما التزمه أهله . وعلى هذا لايصح أن يقال : إن أبا العلاء معتزلي . وستأتي تتمة القول في هذا عند الكلام على الاعتزال في شعره .

---

(١) اللزوميات ﻫ ص ١٩٨ .

(٢) المصدر السابق ص ١٩٤ .

(٣) اللزوميات ﻫ ص ٤٨ ، وفيها : « استغفر الله » .

الجبر

وأما من قال : إنه جبري ، فإنه رأى في بعض أقواله ما يوهم الجبر ، فحكم عليه بذلك من غير أن يستقري جميع أقواله . وسيأتي في الكلام على الجبر أن أقواله في ذلك مختلفة ، منها ما يوهم الجبر المحض ، ومنها مايقف فيه موقف الشاك ، ومنها ماينقل فيه آراء غيره ، ومنها مايصرح فيه بأنه غير جبري كقوله[١] :

وإنْ سأَلوا عنْ مَذْهبي فَهوَ خشْيَةٌ ... مِنَ اللهِ لا طَوْقاً أُبثُّ ولا جَبْرا

وأنه يرى في الجبر نسبة الظلم إلى الله تعالى في مثل قوله[٢] :

إنْ كانَ مِنْ فِعْلِ الكَبائِرِ مُجْبَراً ... فَعِقَابُهُ ظُلْمٌ عَلَى ما يَفْعَلُ

وأكثر أقواله وأصرحها يدل على أنه غير جبري كما سيأتي .

البرهمية

وأما من قال : إنه برهمي ، فقد استدل على ذلك بأنه لم يأكل اللحم خمساً وأربعين سنة ، وأنه كان لايرى إيلام الحيوان ... وهذا كلام أبي العلاء في جوابه الى داعي الدعاة[٣] : « . . ومشهورٌ ان الأم إذا ذُبِحَ وَلدُها وجِدَتْ عليه وجداً عظيما ، وسهرت لذلك ليالي ، وقد أخِذَ لحمه ، وتوفّر على أصحاب أمه ما كان يرضع من لبنها ، فأي

---

(١) اللزوميات هـ ص ١٣٦ .
(٢) أنظر ماسبق ص ٤٠٥ الحاشية (١) .
(٣) داعي الدعاة : هو أبو نصر بن أبي عمران داعي الدعاة بمصر ، أنظر تعريف القدماء بأبي العلاء ص ١١٩ و ١٢٩ عن إرشاد الأريب — لياقوت الحموي .

ذنب لمن تحرّج عن ذبح السليل ، ولم يرغب في استعمال اللبن ، ولا يزعم أنه محرم ، وإنما تركه اجتهاداً في التعبد ، ورحمة للمذبوح ، رغبةً أن يجازىَ عن ذلك بغفران خـالق السموات والأرض ... » ثم ذكر الحديث الشريف : « أقِرّوا الطيرَ في وُكناتها » والآية الكريمة : (١) ﴿ يا أيها الذينَ آمنُوا لاتقتلُوا الصَّيْدَ وأنتُمْ حُرُم ﴾ ثم قـال : « فإذا سمع من له أدنى حس هذا القول ، فلا لوم عليه إذا طلب التقرب من رب السموات والأرضين ، بأن يجعل صيد الحل كصيد الحرم ... وإن كان ذلك ليس بمحظور » . وقال في كتاب آخر له (٢) : « وربما حثّني على ترك أكل الحيوان ، أن الذي لي في السنة نَيّف وعشرون دينارا ، فإذا أخذ خادمي بعض مايجب ، بقي مالا يعجب . » . وقد تقدم هذا . فكلامه هذا صريح في أنه ترك اللحم اجتهاداً في التعبد ، ورحمة للمذبوح ، ورغبة بغفران الله . وأن ماله يضيق عن التوسع في النفقة ، ولا يرضى أن يسأل الناس ، أو يأخذ منهم شيئاً ليأكل به لحما . وقد ذكر أن النبي ﷺ أبى شُربة من لبن وعسل تواضعاً لله . وأن عمر بن الخطـاب (رضي الله عنه) أبى شربة من ماء بارد وعسل (٣) وروى ابن الوردي أن أبا طالب المكي محمد بن علي المتوفى سنة ٣٨٦ هـ ألف كتابه (قوت القلوب) وقوته إذ ذاك عروق البردي ، وقـال السيوطي في (البغية ص ٦) : « إن بهاء الدين بن النحاس محمد بن ابراهيم المتوفى سنة ٦٩٨ هـ لم يتزوج ولم يأكل العنب قط . قال : لأني أحبه فآثرت أن يكون نصيبي في الجنة . وكان ثقة حجة .. » وفي (بغية الوعاة

---

(١) سورة المائدة الآية « ٩٥ » .

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ١٢٥ عن الارشاد — لياقوت .

(٣) تتمة المختصر لابن الوردي وأوج التحري ص ٣٨ (ج) .

ص ٢٤٦) أن داود بن يزيد الغرناطي السعدي المتوفى سنة ٥٧٣ ه كان يأكل الشعير ولم يأكل لحماً من الفتنة الأولى ، لأجل المغانم والمكاسب . وفيها في ص ٢٧٨ أن عبد الله بن أحمد المالقي المتوفى سنة ٦٤٨ ه كان عالماً جمع الله له العلم والعمل ، وهو آخر الورعين بالاندلس ؛ وكان لا يأكل ممن لايتحقق طيب كسبه ، ولا سيما بعد حدوث الفتن ، فإنه قطع أكل اللحم .

وقال البديعي : « وقول تلميذه : لم ترق الدماء زهادة ، لم يعط من المعنى ماقالوه ، ولو أراده لقال : فلسفة . ثم ماذا على من ترك اللحم وهو من أعظم الشهوات خمساً واربعين سنة زهادة ؟ خصوصاً وقد قال صاحب (قوت القلوب) : إباحة حلال الدنيا حسن والزهد فيه أحسن . ثم ذكر أن رسول الله ﷺ ترك شرب القدح الذي فيه لبن وعسل . وأن عمر رضي الله عنه أبى أن يشرب ماء بارداً وعسلا في يوم صائف . ثم قال : وقد نهى النبي ﷺ عن التنعم ، والكتب مشحونة بترك السلف الصالح للشهوات والملاذ الفانية ، رغبة في النعيم الباقي ، والرحمة للحيوان من الخصال المندوبة ، كما قيل : والشاة إن رحمتها رحمك الله . وقد ترك جماعة من الزهاد والعباد أكل الطيبات تقربا إلى الله تعالى ، وعد ذلك في مناقبهم ومحاسنهم ، ولم ينكر عليهم فكيف يجعل الامتناع من أكل اللحم تركا للآخرة على رأي المنازي » اهـ .

وقوله : « والشاة إن رحمتها . . » لعله يشير به إلى ما روي عن معاوية بن قرة عن أبيه أن رجلا قال : يارسول الله إني لأرحم الشاة أن أذبحها ، فقال : إن رحمتها رحمك الله . رواه الحاكم ، وقال صحيح الاسناد ، ورواه الأصبهاني . ولفظه : « قال : يارسول الله إني آخذ شاة واريد أن أذبحها ، فأرحمها . قال : والشاة إن رحمتها رحمك الله » .

والتاريخ مكتظ بأخبار المتدينين الذين أمسكوا عن تناول الأطعمة والأشربة المباحة، زهادة فيها ورغبة في التقرب إلى الله، ولم ينكر عليهم أحد ذلك . وأبو العلاء المسكين يقول للناس : أنا لا أعتقد أن اللحم حرام ، وأتركه اجتهاداً في التعبد ... وهم يقولون له : أنت يرهمي تعتقد حرمته ، شئت أم أبيت .

المزدكية

وأما نسبته إلى المزدكية ، فأغرب من نسبته إلى ما قبلها ، لأن مزدك كان يستحل المحارم ، ويسوّي بين الناس في الأموال والنساء ، فيأخذ امرأة هذا ويسلّمها إلى ذاك . . والمعروف من أحوال أبي العلاء وأقواله أنه كان يتشدد في حجاب المرأة ، فيمنعها من الصعود إلى السطح ، ومن الخروج إلى الحمام ، والعراف ، والمنجم، والمسجد ، ومن الذهاب إلى الحج ومن التوسع في تعلم القراءة والكتابة ، ومن دخول الوليد عليها ، ونحو ذلك مما بينه في كلامه . كل هذا غيرة عليها ، وكان يأبى زواج الحرائر وقد قال في اللزوم[1] :

بَرِئْتُ إلى الخَلاَّقِ مِنْ أَهْلِ مَذْهَبٍ يَرَوْنَ مِنَ الحقِّ الإِبَاحَةَ لِلأَهْلِ

وقال في اللزوم[2] :

قَدْ أَعْرَسَتْ عِرْسُ الأَمِيرِ بِتَابِعٍ ضَرَعٍ فَأَيْنَ حَلِيلُهَا المِغْيَارُ

فالحكم عليه بعد هذا بأنه مزدكي لا يعدو أحد أمرين : إما أن يكون قائله جاهلاً بالمزدكية وبأبي العلاء معاً . وإما أن يكون مفترياً على أبي العلاء .

---

(١) اللزوميات ٥ ص ٢١١ .

(٢) المصدر السابق ص ١٣١ .

وستأتي تتمة القول في هذا ، عند الكلام على رأيه في الزواج ، وفي المذاهب والنحل .

الدرزية

لبعض الأدباء ولع شديد بالإتيان بالغريب ، واستنباط الأحكام من الأدلة والحوادث ، ولو كانت على وجه بعيد ، كأن أحدهم يظن أن الناس يتقبلون منه كل مايقوله من غير أن يعرضوه على محك العقل والنقل والنقد . وإذا لم ير من يرد عليه قوله اعتقد ان قضيته مسلمة لايختلف فيها اثنان . وربما كان السكوت عنه احتقاراً لقوله أو رأيه . وقد ذهب بعض المتأخرين إلى أن أبا العلاء كان يعتنق المذهب الدرزي ، واستدل على رأيه هذا بأنه عاصر الدعوة الدرزية في عنفوانها ، وأنه تنوخي ، وأكثر التنوخيين أجابوا هذه الدعوة ، وأنه من المعرة ، وقد كان شمالي سورية من ميادين تلك الدعوة ، وأن في شعره شبهاً لما جاء في المذهب الدرزي ، وأنه ذكر العقل ، وجعله إماما . ولهذه الكلمة عندهم معنى خاص ، وأعظم منزلة عندهم رتبة شيخ العقل إلى غير ذلك من الاستنباط الغريب .

وأنا لم أطلع على حقيقة المذهب الدرزي ، حتى أعلم منزلة هذه الأقوال من الصحة وعدمها ، ولكن ما سمعته وما رأيته في أقوال العلماء والأدباء يدل دلالة قاطعة على أنه لم يعتنق هذا المذهب .

ومن ذلك أنه أنكر التناسخ في مواطن من شعره . وأنه ترك الزواج ، وحض على تركه وعلى قطع النسل ، وعلى عدم تعليم المرأة ، ونحو ذلك مما لا يتفق مع المذهب الدرزي . وذكر في (رسالة الغفران ص ١٥٢) مذهب الحلولية ، ثم قال (١) : « وتؤدي هذه النحلة إلى التناسخ ، وهو

---

(١) أنظر ما سبق ص ٤٠٢ الحاشية (١) .

مذهب عتيق يقول به أهل الهند ، وقد كثر في جماعة من الشيعة ، نسأل الله التوفيق والكفاية ». ثم قال في ص ١٥٧ : « والحلولية قريبة من مذهب التناسخ » . ثم أورد قصتين ممن يقول بالتناسخ ، وقال في (لزوم ما لا يلزم)(١) :

يَقُولُونَ: إِنَّ الجِسْمَ يُنْقَلُ رُوحُهُ ... إِلَى غَيْرِهِ حَتَّى يُهَذِّبَها النَّقْلُ
فَلَا تَقْبَلَنْ مَا يُخْبِرُونَكَ ضَلَّةً ... إِذَا لَمْ يُؤَيِّدْ مَا أَتَوْكَ بِهِ العَقْلُ

وقال فيه(٢) :

مَضَى قَيْلُ مِصْرَ إِلَى رَبِّهِ ... وَخَلَّى السِّيَاسَةَ لِلْخَائِلِ
وَقَالُوا يَعُودُ فَقُلْنَا يَجُوزُ ... بِقُدْرَةِ خَالِقِنَا الآئِلِ
إِذَا هَبَّ زَيْدٌ إِلَى طَيِّئٍ ... وَقَامَ كُلَيْبٌ إِلَى وَائِلِ

وهذا وأمثاله ، مما سيأتي ، يدل على أنه لم يكن يعتقد ما يعتقده أهل هذه النحلة .

القرمطية

زعم بعض المستشرقين أن أبا العلاء كان يدين بمذهب القرامطة ، وبنى قوله هذا على شُبَهٍ واهية ، وتلقفها فريق من المولعين بكل غريب من غير بحث ولا تدبر . والدليل على بطلان هذا الزعم أن أبا العلاء كفّر القرامطة ، ولعنهم وفضل عليهم الجاهلية ، وافتنّ في التنديد بهم في

(١) اللزوميات ٥ ص ١٩٥ .
(٢) اللزوميات ٥ ص ٢٢٤ والآئل : السائس من آل الملك الرعية إذا ساسها .

(رسالة الغفران [١] ص ١٤٥ و ص ١٤٧) وفي (لزوم ما لا يلزم)
ولا أعلم كيف يستجيز هؤلاء أن يقولوا : إن أبا العلاء يدين بمذهب يسب أصحابه ويكفرهم ويقول فيهم [٢] :

إنَّمَا هـذِهِ المَذَاهِبُ أَسْبا ... بٌ لِجَذْبِ الدُّنيا إلى الرُّؤساءِ
كالذي قامَ يَجْمَعُ الزِّنجَ بالبَصْـرَةِ ... والقَرْمَطِيِّ بالأَحْسَاءِ

وسنأتي تتمة القول في القرامطة على وجه لا يبقى معه شك في أنه لم ينتحل هذه النحلة .

التقية

وقد زعم فريق أن أبا العلاء كان من أهل التقية ، يبطن غير ما يظهر من العقائد ، كما أنه كان يستعمل الغموض في كلامه والغريب في لغته ليخفي مقاصده وأغراضه ولا يصرح بها تقية ، واستدلوا على ذلك بأدلة هي أوهى من بيت العنكبوت . ومن البديهي أن الإنسان لا يلجأ إلى التقية إلا في موطن يخاف فيه فتنة أو شراً ، أو يخشى أذية وانتقاماً . وأعظم هذه المواطن خطراً الملوك والأمراء والكبراء ، ورؤساء المذاهب والعقائد والأديان والشرائع ونحوها من المواطن التي تثير أهل الحول والطول ، أو تستثير الدهماء والغوغاء . وقد رأينا أبا العلاء في كثير من هذه المواطن ، إن لم نقل في كلها ، غير هيابة في بحثه ، ولا وجل في إبداء رأيه . وقد صرح بكثير من الأمور التي هي أجدر من غيرها بالتقية ،

---

(١) أنظر الرسالة تحقيق بنت الشاطئ ط ١ ص ٣٧٨ و ٣٨٥ .
(٢) اللزوميات ١ ص ٢٦ .

وجبَهِ الكبراء والرؤساء بالنقد اللاذع والتنديد القارس؟ ولم يحسب لأحد حسابًا . فأين التقية ممن يقول في ملوك عصره :

ظَلَمُوا الرَّعِيَّةَ واستَجَازُوا كَيْدَهَا   فَعَدَوْا مَصَالِحَهَا وهُمْ أُجَرَاؤُهَا[1]

. . .

سَاسَ البِلادَ شَيَاطِينٌ مُسَلَّطَةٌ   في كُلِّ مِصْرٍ مِنَ الوَالِينَ شَيْطَانُ[2]

. . .

فَإِنِّي أرَى الآفَاقَ دَانَتْ لِظَالِمٍ   يَغُرُّ بَغَايَاهَا وَيَشْرَبُ خَمْرَهَا[3]

إلى غير ذلك من الأبيات الآتية في الكلام على السياسة . ويقول في الشرائع[4] :

إِنَّ الشَّرَائِعَ أَلْقَتْ بَيْنَنَا إِحَناً   وَعَلَّمَتْنَا أَفَانِينَ العَدَاوَاتِ

ويقول في الأديان[5] :

هَفَتِ الحَنِيفَةُ والنَّصَارَى ما اهْتَدَتْ   وَيَهُودُ حَارَتْ وَالمَجُوسُ مُضَلَّلَهْ

ويقول في رؤسائها[6] :

يَتْلُونَ أَسْفَارَهُمْ والحَقُّ يُخْبِرُنِي   بِأَنَّ آخِرَهَا مَيْنٌ وأَوَّلَهَا

. . .

---

(١) اللزوميات هـ ص ٢٣ .

(٢) اللزوميات هـ ص ٢٦٢ ونبها : « ساس الأنام . . . » .

(٣) اللزوميات هـ ص ١٣٨ .

(٤) اللزوميات هـ ص ٦٧ ونبها : « .. وأودعتنا .. » .

(٥) اللزوميات هـ ص ٢٠٦ .

(٦) اللزوميات هـ ص ٢٠٤ .

فَمَا العِظَاتُ وإِنْ رَاعَتْ سِوى حِيَلٍ مِنْ ذِي مَقَالٍ عَلى نَاسٍ تَحَوَّلَهَا

• • •

يَدْعُونَ في جُمُعَاتِهِمْ بِسَفَاهَةٍ لِمَلِيكِهِمْ فَيَكَادُ يَبْكِي المِنْبَرُ[1]

• • •

ولَمْ آمَنْ عَلَى الفُقَهَاءِ حَبْسًا إِذَا مَا قِيلَ لِلْأُمَنَاءِ جُوزُوا[2]

ويقول في الناس عامة :

قَالُوا: فُلانٌ جَيِّدٌ فَأَجَبْتُهُمْ لا يَكْذِبُوا مَا في البَرِيَّةِ جَيِّدُ[3]

• • •

فَسْلٌ أَبُو عَالَمِنَا آدَمٌ وَنَحْنُ مِنْ وَالِدِنَا أَفْسَلُ[4]

ولم يدع صنفاً من الناس إلا قرّعه بمثل هذه الصراحة القارصة . وقد تناول الملوك والكبراء والشعراء والخطباء والوعاظ والقضاة والفقهاء والمتكلمين والنحاة والعدول والتجار ورؤساء النصارى واليهود وغيرهم من أرباب النحل ، ولم يسلم من نقده حي ولا ميت ، وسلك في جميع هذه المواطن سبيل الصراحة الواضحة ؛ ولو كان عنده شيء من التقية لكانت

---

(١) اللزوميات هـ س ١٢٦ وفيها : « لأميرهم .. » .
(٢) المصدر السابق س ١٧٣ .
(٣) اللزوميات هـ س ٩٧ ، وفيها : « .. جيد لصديقه » .
(٤) اللزوميات هـ س ٢٠١ ، والفسل : الرذل الذي لا مروءة له .

في هذه المواضع أولى منها في غيرها . ومن الأدلة الواضحة على براءته من التقية قوله في حضور الجمعة (١) :

وَهَلْ لِيَ خَيْرٌ في الحُضُورِ وإنَّما أُزاحِمُ مِنْ أَخْيارِهِمْ إِبِلاً جُرْبا

فقد صرح بأنه لا يرى خيراً في حضورها ، وكان في وسعه أن يقول : إنها لا تجب عليه ، لأن بعض الأئمة اشترط لوجوبها سلامة العينين ، ولكنه أراد أن يحافظ على القصد الذي أراده من ذم الناس حتى خيارهم .

وأصرح منه قوله (٢) :

ويَنْفِرُ عَقْلي مُغْضَباً إِنْ تَرَكْتُهُ سُدًى واتَّبَعْتُ الشَّافِعِيَّ ومَالِكا

وقوله (٣) :

سأَتْبَعُ مَنْ يَدْعُو إلى الخَيرِ جاهِداً وأَرْحَلُ عَنْها مَا إمَامِي سِوَى عَقْلي

وقد أشرنا إلى ذلك في مواطن من هذا الكتاب فدل على أن أبا العلاء نسيج وحده في جرأته الأدبية .

★ ★ ★

---

(١) اللزوميات ﻫ ص ٣٨ .
(٢) المصدر السابق ص ١٨٥ .
(٣) المصدر السابق ص ٢١٠ .

خلاصة ما أراه في اعتقاد أبي العلاء

رأينا من المفيد ، قبل أن نبين رأينا في اعتقاده ، أن نذكر مقدمات تيسر لنا الوصول إلى النتيجة بسهولة ، وهي :

الأولى : اتضح لنا جلياً مما ذكره المؤرخون أن أبا العلاء كان محسوداً على فضله ، وأن حساده وأعداءه كانوا لا يتورعون عن الافتراء عليه . وكانوا يعملون على لسانه الأبيات قصداً لإهلاكه . ولكن لم يبين لنا واحد منهم شيئاً من تلك الأبيات ، لنعلم مدى ذلك الافتراء ، ولنميز بينها وبين شعره الحقيقي .

وأن اثنين حرّفا بيتاً من (لزوم ما لا يلزم) ليكفراه ، فكتب (رسالة الضبعين) إلى معز الدولة يشكوهما اليه ، وذكر أن في حلب نسخاً من هذا الكتاب بريئة من التحريف والعبث .

وأنه ألف كتابا في الرد على من نسبه إلى معارضة القرآن . وفي الجواب عن أبيات استخرجوها من (لزوم مالا يلزم) وكفروه بسببها . وقد سماه (زجر النابح) ثم طعنوا فيه بأبيات أخر ، فوضع كتاباً آخر سماه (نجر الزجر) و (بحر الزجر) وبين فيه التحريف ووجوه الأبيات ومعانيها التي يريدها منها . ولو أتيح لنا الاطلاع على تلك الرسالة وهذين الكتابين لكشفت لنا نواح عديدة تعين على الدرس وتزيل اللبس .

الثانية : اتضح لنا وسيتضح مما ذكرناه ومما سنذكره أن كثيراً حرفوا أبياتاً من كلام المعري لأسباب مختلفة . فمنهم من فعل ذلك ليتخذ منه مغمزاً في دين المعري . ومنهم من فعله متابعة لغيره . ومنهم من فعله

لعدم فهمه كلامه ولولا خشية الإطالة لاوردنا أمثلة كثيرة من هذا القبيل ولكننا نكتفي بالإشارة إلى ماسبق وما سيلحق .

الثالثة : أن كتب المعري التي وصلت الينا مغمورة بالشعور الإسلامي وليس في شيء منهـا متمسك لاعدائه إلا ثلاثة : (الفصول والغايات) و (رسالة الغفران) و (لزوم ما لا يلزم) .

أما الفصول والغايات : فقد زعم بعض المتقدمين أنه عارض به السور والآيات ، واقتفى اثرهم بعض المتأخرين ، وزعم فريق أنه ليس بين الفصول والغايات وبين القرآن الكريم معارضة ، وإنما بينهما مشابهة ، وهذا يدل على أن باب التقوّل لا يزال مفتوحاً إلى هذا اليوم ، وقد بينا بطلان هذا كله في الكلام على الفصول والغايات .

وأما رسالة الغفران : فقد زعموا أن فيها تهكماً واستخفافا . وهما من الأمور النفسية الخفية التي لا يستطيع أحد أن يعلمها ، إلا إذا أخبره بها صاحبها . ولم ينقل عن المعري أنه قال : أريد برسالة الغفران التهكم والاستخفاف . وإذا قيل : إن كلامه في بعض المواطن يحتمل ذلك ، فنقول : إن الاحتمال يضعف الدليل ، ويسقط الاستدلال به ، وأكثر كلام الناس يحتمل مثل ذلك ، والتكفير على الاحتمال لا قيمة له في نظر العلم ..

وأما لزوم ما لا يلزم : وهو أكثر ما يعول عليه الطاعنون في دين أبي العلاء ، وأكثر ما عبث به وحرّف من كلامه ، فقد طبعت منه نسخة مغمورة بالتحريف والغلط ، وعبّث الشارح بضبط بعض الكلمات وفي تفسيرها وشرحها ، كما سترى ذلك في الكلام على لزوم ما لا يلزم ، وعلى هذا فلا يأمن الانسان من تحريف يقع في الأبيات التي تتعلق باعتقاد أبي العلاء ، أو خطأ في تفسيرها .

الرابعة : أن لزوم ما لا يلزم ديوان شعر ؛ والشاعر فيه يبالغ في بعض الأمور ، ويتجوز في بعض آخر ، وقد يتخيل غير الواقع واقعا ؛ ويقول ما لا يعتقده حرصاً على نكتة أو نادرة ، وينظم المعنى ولا يخطر في باله ما يترتب عليه ، ويقول ما لا يفعل ، ويهيم في كل واد ، وقد يعرض نفسه للمؤاخذة في كلامه لحرصه على نكتة أو غرض يريده ، كما وقع لذي الرمة في قوله (١) :

مَا بَالُ عَيْنَيْكَ مِنْهَا المَاءُ يَنْسَكِبُ . . . .

ولجرير في قوله (٢) :

أتصحُو أم فُؤادكَ غَيْرُ صَاحِ . . . .

وقوله (٣) :

تَعَرَّضَتْ تيمٌ لِي [عمداً] لِأَهْجُوَها كما تَعَرَّضَ لَاسْتِ الخَارِىءِ الحَجَرُ

وقد يلجأ إلى كناية دقيقة أو مجاز ، كما قال أبو العلاء (٤) .

لا تُقَيِّدْ عَلَيَّ لَفْظِي فَإِنِّي مِثْلُ غَيْرِي تَكَلُّمِي بِالمَجَازِ

وإذا كان الأمر على ما ذكرنا ، فليس من الحق والعدل أن نزن أقواله في (لزوم ما لا يلزم) بما نوزن به النصوص الشرعية ، من آيات القرآن الحكيم ، وأحاديث النبي الكريم ، ولا أن نحترز في كلامه بمثل

---

(١) ديوانه طبعة أوربا ص ١ وعجز البيت : « كأنه من كلى مفرية سرب » .

(٢) ديوانه ص ٩٧ والبيت مطلع قصيدة يمدح بها عبد الملك بن مروان وعجزه : « عشية هم صحبك بالرواح » .

(٣) ديوانه ص ٢٨٣ وهو البيت الرابع من قصيدة يهجو بها الفرزدق ، وروايته في الديوان : « تعرض التيم لي عمداً ليهجوني . . . » .

(٤) اللزوميات ٢ ص ١٧٥ .

ما يحترز به في أقوال العلماء في كتب الدين . ولا أن ندقق في مفاهيمها وقيودها مثل ما يدقّق في كتب العقائد ؛ لاننا لو سلكنا هذا السبيل لوجدنا أكثر الشعراء كفاراً وملحدين ، من حيث لا يشعرون ولا يقصدون .

وأن تشدد بعض العلماء في مثل هذا تَهوّل على بعض آخر أن يطعن في عقيدة الإمام الغزالي لقوله : « ليس في الإمكان أبدع مما كان » . ولا يعتقد عاقل منصف أن الغزالي يريد بكلمته هذه نسبة العجز إلى الله تعالى . وكذلك كفر بعضهم ابن الرومي بقوله (١) :

كَثُرَتْ مُوبِقَاتُ بُورانَ حَتَّى   ضَاقَ عَنْهَا عَفْوُ الغَفُورِ الرَّحِيمِ

وكفر فريق أبا الطيب بقوله (٢) :

وكُل مَا خَلَقَ اللهُ وَمَا لَمْ يَخْلُقِ
مُحْتَقَرٌ في هِمَّتي كَشَعْرَةٍ في مَفْرِقي

وكفر فريق ابن النبيه بقوله (٣) :

اللهُ أكْبَرُ لَيسَ الحُسْنُ في العَرَبِ . .

وأمثال هذا كثير .

الخامسة : أن أبا العلاء جرى على طريقة المعتزلة والحكماء النظريين ، فجعل العقل أساساً لجميع آرائه ، وزاد عليهم فجعل كل عقل نبيا . وعلى هذا الأساس ذهب في (الفصول والغايات) إلى أن الله يقدر على المستحيلات ،

---

(١) ديوانه شرح كامل كيلاني طبعة القاهرة ص ٤١٥ القصيدة ٤٣٩ .
(٢) انظر العرف الطيب ص ٣٤ ، ومطلع القطعة : « أي محل أرتقي   أي عظيم أتقي »
(٣) ديوانه طبعة القاهرة .

لأن عدم القدرة عليها عجز ، والعجز صفة نقص يجب أن ينزه الله عنها . فقد قال في (الفصول ص ١٧٤) : « يقدر الله على المستحيلات ، رد الفائت وجمع الجسمين في مكان وما لا تحتمله الالباب ، إذ كان لا ينسب إلى عجز ولا انتقاص . . . » وفي اللزوم كثير من هذا القبيل .

ولا نستطيع أن ننكر أن كثيراً من الأمور الشرعية يقصر العقل عن إدراك حكمة الشارع فيه . فإنكار أبي العلاء بعض القضايا لقصور عقله عن إدراك حكمتها ، لا لمجرد الاعتراض على الشرائع . ولو تسنى لإنسان أن يطلع على قلوب العلماء ، لرأى فيها من الإنكار أضعاف ما ظهر على لسان المعري ، ولكنهم يستترون ولا يبدون ما في ضمائرهم . وأبو العلاء اجترأ واظهر للناس ما في قلبه .

السادسة : قد يكون فيما انتهى إلينا من أقوال المعري ، بيت أو شطر أو جملة ، توهم الحكم عليه بسوء الاعتقاد ، ويكون إلى جانبها أبيات وأقوال كثيرة صريحة في الدلالة على حسن اعتقاده ، فيتمسك الطاعنون بالبيت أو الشطر على ما فيه من احتمال أو نظر أو شبهة ، ويعرضون عن الأبيات الصريحة الكثيرة . ولم يلتفتوا إلى قوة الادلة ولا إلى تكافئها ولا إلى رجحان الصريح على غيره ، ولا إلى ترجيح المتأخر على المتقدم .

مع أن القاعدة عند العلماء ، أن الدليل إذا طرقه الاحتمال كساه ثوب الإجمال ، وسقط به الاستدلال ؛ وأن الصريح من الأدلة يرجح على غيره ، إذا كانا متساويين في القوة . وأن الأدلة المتعددة أقوى من الدليل الواحد ، إذا كانت مساوية له في طريق الإثبات . وأن الأدلة المتساوية في القوة إذا تعارضت تساقطت . وليست لدينا نصوص تاريخية موثوق بها تعيّن لنا زمن كل قول من أقوال أبي العلاء حتى نجعل المتأخر منها

ناسخاً للمتقدم ، فإذا فرضنا أن أقواله الدالة على إيمانه مساوية لأقواله الدالة على كفره من كل وجه ، وجب أن نحكم بسقوطها معاً حتى لا يكون العمل بأحدهما ترجيحاً بغير مرجح ، ووجب أن نلتمس دليلاً آخر من غير أقواله نستدل به على إيمانه أو كفره ، ولم يبق لدينا إلا حياته العملية . والتاريخ يحدثنا أنه كان يصوم الدهر ، ولم يعهد أنه ترك الصلاة حتى ترك الحياة ، وكان طاهر اللسان واليد والذيل ، ولم يعرف أنه أساء إلى أحد أو أضر بأحد او انهمك في منكر ، أو اقترف كبيرة ، أو ارتكب ما يخالف الدين والأدب ، ولم ينقل عن أحد من الناس على كثرة من كانوا يتسقطون عثراته ، وينقبون عن زلاته ومساوئه ، أنه شذ في شيء من أعماله عن سنن الشريعة الإسلامية .

وهذا القدر كاف في الدلالة على صحة إيمانه وبراءته مما تقوّل عليه المفترون من حساده وأعدائه ، على أن أقواله الدالة على إيمانه أكثر عدداً من أضدادها ، وأشد ثبوتاً وأكثر صراحة وإحكاما .

السابعة : أن بعض خصومه أو حساده ، إذا رأوا في كلامه شبهة ، توهم نسبته إلى الإلحاد تمسكوا بها ، وجعلوها من الأدلة القاطعة . وربما أيدوها بما لا حقيقة له ، كما فعل الزمخشري في البيت الذي وصف فيه النار[1] ،

(١) البيت من فائيه أبي العلاء التي رثى بها النقيب أبا أحمد الموسوي والد الشريف الرضي والمرتضى وهو :

حمراء ساطعة الذوائب في الدجى ترمي بكل شرارة كطراف

وقد علق الزمخشري عليه بما نصه : « إنه أراد وقصد الزيادة على تشبيه القرآن المعظم بالقصر » . وذلك في الآية : « إنها ترمي بشرر كالقصر » .
انظر شروح السقط : ق ٣ ص ١٣٠٧ ، وتعريف القدماء بأبي العلاء ص ٣٦١ .

وياهوت في أبيات سمير بن دكين (١) . والبناني في قوله (٢) :

. . . . فداعٍ إلىٰ ضَلالٍ وَهادِ

وإذا رأوا في كلامه ما يوجب إيمانه من الأدلة القاطعة قالوا : هذا تقية ، وإننا إذا جرينا على هذه الطريقة الفاسدة ، نستطيع أن نحكم بالكفر على كل إنسان ، حتى في قوله : « لا إله إلا الله » فنجعل قوله « لا إله » نفياً للاله ، وهو موجب للكفر ، ونجعل قوله « إلا الله » من باب التقية . وهذا غاية في السخف والعسف .

الثامنة : قد أنكر الناس على أبي العلاء مواطن كثيرة من قوله ، يكاد ينحصر معظمها في أمور :

الأول : ما يتعلق باعتقاده بالله ، والناظر في أقواله يجد أنه أثبت لله جميع الصفات التي اثبتها أهل السنة ، ونفى عنه ما نفوا ، ولم يشذ عنهم

---

(١) كذا في الأصل ، وفي رسالة الغفران تحقيق بنت الشاطىء ط ١ ص ٣٧٦ أن اسمه سمير بن أدكن ، وجاء فيها : « ولما أجلى عمر بن الخطاب - رحمة الله عليه - أهل الذمة عن جزيرة العرب ، شق ذلك على الجالين ، فيقال إن رجلاً من يهود خيبر يعرف بسمير بن أدكن قال في ذلك :

يصول أبو حفص علينا بدرة ... رويدك أن المرء يطفو ويرسب
كأنك لم تتبع حمولة مائط ... لتشبع ، إن الزاد شيء محبب
فلو كان موسى صادقاً ماظهرتم ... علينا ولكن دولة ثم تذهب
ونحن سبقناكم إلى اليمن فاعرفوا ... لنا رتبة البادي الذي هو أكذب
مشيتم على آثارنا في طريقنا ... وبغيتكم في أن تسودوا وترهبوا

وعلق ياقوت في إرشاد الأريب ج ٣ ص ١٦٥ على هذه الحادثة بقوله : وهذا يشبه أن يكون شعره قد نحله هذا اليهودي ، أو أن إيراده لمثل هذا واستلذاذه به من أمارات سوء عقيدته وقبح مذهبه . اهـ .

(٢) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١٠٠٤ ، والبيت :

بان أمر الإله واختلف النا ... س فداع إلى ضلال وهاد

إلا في مسألتي الزمان والمكان ، وجعل الله قادراً على المستحيل . وقد نسبه بعضهم إلى الجبر ، وصرح هو ببراءته منه ، واستدل على بطلانه . وما يراه الإنسان في بعض أبياته ، مما يوهم الجبر ، فهو من نوع ما يقوله العلماء في إثبات الجزء الاختياري أو الإرادة أو الكسب ، وسيأتي إيضاح هذا والاستدلال عليه .

الثاني : ما يتعلق بالكتب السماوية .

أما القرآن فقد عظمه في مواطن كثيرة ، وأنكر جواز نسخه ، ووصفه في (رسالة الغفران في ص ١٥٨)[١] وصفاً يدل على أنه خرج من قلب مفعم بالايمان الصحيح ، وقد تقدم أن السروجي دخل عليه في وقت خلوته فسمعه ينشد أبياتاً ثم تلا شيئاً من القرآن ثم قال : « سبحان من تكلم بهذا في القدم . . . . » وسنتكلم على هذا مفصلا . واما بقية الكتب السماوية فلم ينكرها ، وإنما انكر ما أدخله أهلها عليها : في مثل قوله[٢]:

آلَيْتُ مَا الحِبْرُ المِدَادُ بِكَاذِبٍ بَلْ تَكْذِبُ العُلَمَاءُ والأَحْبارُ

وقوله[٣] :

آلَيْتُ مَا تَوْرَاتُكُمْ بِمُنِيرَةٍ إِنْ أُلْفِيَتْ فِيهَا الكُمَيْتُ مُحَلَّلَه

الثالث : ما يتعلق بالنبوات والرسل .

لا يجد الباحث في كلام ابي العلاء شيئاً يدل على إنكاره الرسل ، أو على تحقيره واحداً منهم ، بل لم يذكر واحداً منهم إلا أردفه بالصلاة عليه .

---

(١) انظر الرسالة تحقيق بنت الشاطىء ط ١ ص ١٤٣ .

(٢) اللزوميات هـ ص ١٣٠ .

(٣) المصدر السابق ص ٢٠٦ .

وقد مدح محمداً ﷺ في مواطن من شعره ، وحسبك منها قصيدته التي يقول في أولها [1] :

دَعَاكُمْ إِلى خَيْرِ الأُمُورِ مُحَمَّدٌ وَلَيْسَ العَوالي في القَنا كالسَّوافِلِ

وتوعد بالعقاب ، لو استطاعه ، من أنكر نبوة موسى وعيسى صلى الله عليهما وسلم في قوله [2] :

قَالَتْ مَعَاشِرُ: لَمْ يَبْعَثْ إِلهُكُمُ إِلى البَرِيَّةِ عِيساهَا وَلاَ مُوسَى
وإِنَّما جَعَلُوا لِلْقَوْمِ مَأْكَلَةً وَصَيَّرُوا لِجَمِيعِ النَّاسِ نَامُوسَا
وَلَوْ قَدَرْتُ لَعَاقَبْتُ الذِينَ طَغَوْا حَتى يَعُودَ حَلِيفُ الغَيِّ مَرْمُوسا

ولا أذكر أني رأيت في كلامه شيئاً يؤاخذ به في أحد من الأنبياء ، إلا أقواله في آدم ﷺ حين يتكلم في النسل والإنسال ، ففيها شيء من الشذوذ . ولكن يمكن تأويلها تأويلاً حسنا . وإلا أبياتاً انفرد بروايتها راو واحد ، وقد ذكر له ياقوت أبياتا من هذا النوع ولكنها ليست في شيء من كتبه التي رأيناها .

الرابع : الملائكة .

لقد اثبت أبو العلاء الملائكة في نثره ونظمه ، ولم ينف عن قدرة الله إيجادها ، وأثبت وجودها في الأرض ، وذكرها في مواطن من كلامه ، وقلما خلا كتاب له من ذكرها . فقد قال في لزوم ما لا يلزم [3] :

لَسْتُ أَنْفِي عَنْ قُدْرَةِ اللهِ أَشْبا حَ ضِياءٍ بِغَيْرِ لَحْمٍ ولا دَمْ

---

(١) اللزوميات هـ ص ٢١٢ .
(٢) المصدر السابق ص ٢٩٦ .
(٣) المصدر السابق ص ٢٥٨ .

وقال فيه [١] :

إنْ لمْ يَكُنْ في سَماءِ فوقَنا بَشَرٌ   فَلَيْسَ في الأرْضِ أوْ ما تحتَها مَلَكُ

وقال في السقط [٢] :

هُوَ مِثْلُهُ في الفَضْلِ إلاّ أنّهُ   لَمْ يَأْتِهِ بِرِسَالَةٍ جِبْرِيلُ

وفي (رسالة الملائكة) [٣] سمى طائفة منهم ، وذكر أسماء بعضهم وأوزانها في ص ٥ – ٨ – ٩ – ٢٣ – ٢٥ – ٤٣ وغيرها .

وفي (رسالة الغفران) ذكر رضوان والملائكة في ص ٨ – ١٨ – ٥٤ – ٥٥ – ٥٦ – ٥٩ – ٦٠ – ٧٣ – ٧٤ وغيرها .

وذكر الملك في (ملقى السبيل) ص ١٤ – ١٥ .

وذكره في (الفصول والغايات ج ١ ص ٧٣) .

وذكر الملك والملائكة في رسائله [٤] في ص ٩ – ١٠٦ – ١٦٠ وغيرها .

الخامس : الجن

زعم بعض الأدباء أن أبا العلاء ينكر الجن ، وهذا الزعم باطل لأنه صرح بذكر الجن في مواضع من كلامه منها قوله في (لزوم ما لا يلزم [٥]) :

مَنْ لي بأنّي وَحيدٌ لا يُصاحِبُني   حَيٌّ سِوَى اللهِ لا جِنٌّ ولا إِنْسُ

---

(١) اللزوميات هـ ص ١٨٣ .

(٢) شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٨٧٣ .

(٣) انظر رسالة الملائكة تحقيق المؤلف .

(٤) الرسائل – لشاهين عطية .

(٥) اللزوميات هـ ص ٣٠١ .

وقوله في سقط الزند(١) :

وقَدْ كانَ أرْبابُ الفَصَاحَةِ كُلّما   رَأَوْا حَسَنًا عَدُّوهُ مِنْ صَنْعَةِ الجِنِّ

وذكر الجن في (رسالة الغفران) في مواطن متعددة وذكر أشعاراً على ألسنتهم ، وذكرهم في (رسالة الملائكة ص ٤٠ - ٤١) ولم ينكر وجودهم لا تصريحاً ولا تلميحا ، وإنما قال : إنه لم يعلم حسا يحس الجني ، وما صح عنده أن المرأة تُقْفَى بتابع من الجن ، وكلا الأمرين لا يوجب كفراً ولا زندقة ، وستأتي تتمة القول في هذا الموضوع .

السادس : الحشر .

في (لزوم ما لا يلزم) وحده أكثر من مائة بيت كلها صريحة في ذكر الحشر ، أو ما يكون فيه من جنة او نار أو حساب او ميزان ، أو ذكر الآخرة وما يقع فيها ، كقوله (٢) :

اِعْمَلْ لِأُخْرَاكَ شَرْوَى مَنْ يَمُوتُ غَداً
وادْأَبْ لِدُنْياكَ فِعْلَ الغابِرِ الباقِي

وقوله (٣) :

ومَتَى شاءَ الذي صَوَّرَنا   أَشْعَرَ المَيْتَ نُشُوراً فَنُشِرْ

وفي (سقط الزند) عدد كبير من ذلك كقوله (٤) :

فإنْ أسْتَطِعْ في الحَشْرِ آتِكَ زائِراً   وَهَيْهاتَ لِي يَوْمَ القِيامَةِ أشْغالُ

---

(١) شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٩١٧ .
(٢) اللزوميات ه ص ٣٠٧ .
(٣) المصدر السابق ه ص ١٦٨ .
(٤) انظر ماسبق ص ٢٦٥ الحاشية -٢- .

وفي (ملقى السبيل) ذكر الآخرة في مواطن كقوله[1] :

نِمتُ عَنِ الأُخرَى فَلَمْ أَنْتَبِهْ   وَفِي سِوى الدِّينِ هَجَرْتُ الكَرَى

. . .

« والعين للحَذَرِ تدمع . والسُّحبُ بالأقضية هُمّع . وفي الآخرة يكون الجَمْع[2] » . و (رسالة الغفران) كلها قائمة على الحشر وما فيه . وفي (رسالة الملائكة) ذكر الملائكة والجنة ، وما فيها من فاكهة ومتع ، وماء الحيوان ، وطوبى ، والنار ، وغيرها . وذكر في (الفصول والغايات) النار ([ج ١] ص١) والآخرة (ص ٢٣ و ١٤٣) ، والحشر (٤١ و ١٣٥) ، والقيامة (٤٨ و ٨٠) ، والبعث (١٣٥)، وفي غير هذه المواضع ، وذكر مثل ذلك في (رسالة المنيح)[3] ورسالته الى خاله ، والى أبي عثمان النكتي وغيرها . ولو جمعنا أقواله في الحشر وما يتعلق به فيما وصل إلينا من كتبه ، على قلتها ، لخرج منها كتاب عظيم ، وكلها صريحة في الدلالة على ما تقدم ، وقد تمسك بعض الباحثين بقوله[4] :

تُحَطِّمُنا الأَيّامُ حَتّى كَأَنَّنا   زُجاجٌ وَلكِنْ لا يُعادُ لَنا سَبْكُ

فجعله منكراً للبعث فيه ، وسيأتي بطلان ذلك ، وإيضاح هذه المسألة والاستدلال عليها .

---

(١) ملقى السبيل — تحقيق كامل كيلاني — ج ٤ ص ٣٢٨ وفيه : « نمتَ . . فلم تنتبه » .

(٢) المصدر السابق ج ٤ ص ٣٤٣ ، والسحب الهمع : المطرة .

(٣) انظر الرسائل — لشاهين عطية — ص ٥ ، ٦٧ ، ١٠٥ .

(٤) اللزوميات ٥ ص ١٨٢ ، ورواية البيت فيها :

يحطمنا ريب الزمان كأننا   زجاج ولكن لا يعادُ لهُ سبكُ

وبعد هذه المقدمات نقول :

إن الحكم على إنسان بالتكفير أو الزندقة حكم شرعي ، والأحكام الشرعية طرق معروفة وشروط لابد من رعايتها حتى يكون الحكم صحيحا .

منها : أن الإنسان لايجوز أن يحكم عليه بالكفر ، إلا إذا أنكر أمراً معلوماً من الدين بالضرورة ، أو أمراً مجمعاً عليه .

ومنها : أن الحكم على إنسان بالكفر بسبب قوله لايكون صحيحاً إلا إذا أثبت بدليل صحيح أنه تكلم بذلك القول على هذا الوجه المكفر .

ومنها : أن الدليل لايكون موجباً للحكم إلا إذا كان صريحا في دلالته على التكفير ، سالما من الاحتمال والمعارضة بدليل يساويه في القوة أو يزيد عليه . ولم يتوفر ذلك كله في شيء من الأبيات المنسوبة الى أبي العلاء ، بعد أن علمنا ما علمنا من عبث النساخ والشراح ، وتقوُّل المتقوِّلين ، وافتراء المفترين ، وتحريفهم عمداً أو جهالة ، وتعارض الأدلة المتناقضة . وعلى هذا لانستطيع أن نحكم حكما جازما بكفر أبي العلاء أو بزندقته ، لفقد الدليل الصحيح على ذلك ؛ فترجع القضية الى تكفيره على سبيل الشك والاحتمال ، وهذا لاقيمة له في نظر العلم . ولا يزن جناح بعوضة عند العلماء .

ولسنا نحاول في كلمتنا هذه أن نبرىء أبا العلاء من كل ما ألصق به ، ولا أن نجعله في مصاف الأنبياء والمرسلين ، ولا في منزلة الأولياء المقربين ؛ ولا أن ننكر أن في كلامه ما يوجب المؤاخذة ، والحكم عليه بمثل ماحكموا ، إن صح ما قالوه ، وإنما نريد أن نبين أن تكفيره يتوقف على ثبوت ما نسب اليه من الاقوال المكفرة بطريق صحيح . وهذا لم يكن للأسباب التي قدمناها . وإننا لاننكر فوق ذلك أن في أبياته التي

نسبوه الى الكفر بسببها ، وفي غيرها أيضا ، مالم تستعد مدارك الامة بعدُ لإدراك غايته منها . ومنها مالم تستعد الامة لقبوله . ولا بد أن يأتي يوم يدرك الناس فيه مراميه من أقواله ويفهموهـا حق الفهم ، فيعلمون من هو أبو العلاء وما هو .

والذي أعتقده أن أبا العلاء ما كان يتعمد الكفر في تلك الأقوال ، ولا يرى فيها ما يوجب الكفر ، لاننا رأينا كثيراً من العلماء والحكماء والشعراء من يتكلم بالكلمة ، يريد أن يقرر بها رأيا ، أو يعرب فيها عن معنى استجاده ، ولا يلتفت إلى ما يترتب عليها من الوجهة الدينية أو الادبية . وقد يجوز ان لاينتبه الى ذلك . ومن هذا القبيل ما وقع من الغزالي ، وابن رشد ، وابن سينا ، وأمثالهم . فإن المشهور من حال كل منهم أنه كان مؤمنا بالله ، وأنه يريد ان يوفق بين الحكمة والشريعة الإسلامية ؛ ولكنه وقع في كلامه مالا يوافق الشريعة ، إما لعدم تنبهه ، وإما لأنه كان يعتقد أن ذلك القول لا يوجب الكفر ، ولكنه لم يتعمد الكفر في قوله . وفرق عظيم بين تعمد القول المكفر وبين وقوعه من غير انتباه الى ما يترتب عليه ، أو وقوعه مع اعتقاد أنه غير مكفر لشبهة .

وقد بينا في الكلمة التي قلناها في المهرجان الألفي لأبي العلاء المعري ونشرت في (ص ٢٨١) من الكتاب الذي نشره المجمع العلمي العربي في دمشق سنة ١٣٦٤ هـ = ١٩٤٥ م وسماه بهذا الاسم ، طرفا مما ذكرناه هنا ، وزيادة في بعض النواحي ؛ وسنـأتي تتمة القول في معتقـده ؛ ونبين فيها ما آخذه به العلماء من أقواله ، عند الكلام على فلسفته إن شاء الله تعالى .

لزوم بيته

كان أبو العلاء ، في عنفوان حياته ، يتخبط في ظلمة سجن واحد وهو العمى فلما عاد من بغداد وأجمع على الانفراد أضاف إلى الأول سجناً ثانيا وهو لزوم بيته ، وسمى نفسه رهن المحبسين . وقد بين سبب ذلك بقوله من قصيدة درعية في (السقط ج ٢ ص ١٧٣ [١]) :

لِذاكَ سَجَنْتُ النَّفْسَ حَتَّى أَرَحْتُها
مِنَ الإِنْسِ ما إِخْلاءُ رَبْعٍ بِإِخْلالِ

وقد تقدم بعض أبيات منها في الكلام على إجماعه على الانفراد والعزلة

ثم لما أمعن في التفكير ، ودَرس الحياة وما فيها درساً عميقا ، أضاف إليها سجناً ثالثاً ، وهو حبس الروح في الجسد فأصبح في ثلاثة سجون كما قال [٢] :

أَرَاني في الثَّلاثَةِ مِنْ سُجُوني ... فَلاَ تَسْأَلْ عَنِ الخَبَرِ النَّبِيثِ
لِفَقْدِي نَاظِرِي وَلُزُومِ بَيْتِي ... وَكَوْنِ الرُّوحِ فِي الجَسَدِ الخَبِيثِ

ولما عاد من بغداد أرسل كتابا إلى أهل المعرة ، يؤذنهم فيه بما عزم عليه من الانفراد والعزلة ، وينذرهم بعدم زيارته . ثم أقام في منزله مدة طويلة مختفيا لا يدخل عليه أحد . ولكن الناس توسلوا بوسائل شتى حتى دخلوا إليه للزيارة والشفاعة وغيرهما . وقد كتب ابن عمته أبو صالح محمد ابن المهذب إلى أخيه أبي الهيثم قصيدة يذكر فيها شوقه إلى لقاء أبي العلاء

---

(١) انظر شروح السقط ق ٤ ص ١٨٨١ وفيها : « ما أخلاه . . » .
(٢) اللزوميات هـ ص ٧٢ وفيها : « وكون النفس . . » .

وفيها يقول[١] :

فَكُنْ حَامِلاً مِنِّي إِلَيْهِ رِسالَةً تَبين ليبا[٢] في هِضاب أبانِ
فإنْ قالَ: أخشى مِنْ فلانٍ تَشَبُّهاً فَقُلْ: مَا فُلانٌ عِنْدَنا كَفُلانِ
هُوَ الخِلُّ مَا فِيهِ اخْتِلالُ مَوَدَّةٍ فَلا تَخْشَ مِنْهُ زَلَّةً بِضَمانِ
فَإِنْ خُنْتُ عَهْداً أوْ أَسَأْتُ خَلِيقَةً ولَمْ يَكُ شَأنِي في المَوَدَّةِ شاني
فلا أحْسَنَتْ في الحَرْبِ إِمْساكَ مَقْبِضي
يَمِينِي ولا يُسْرايَ حِفْظَ عِنانِ
لَعَلَّ حَياتي أنْ تَعُودَ نَضِيرَةً لَدَيْهِ كما كانَتْ وطِيبَ زَمانِي

ثم فتح بابه للزائرين والمتعلمين ، فكانوا يفدون إليه من كل حدب وصوب . ولم أوفق لمعرفة اليوم الذي قبل فيه الزائرين ، ولا معرفة السبب الأخير الذي حمله على ذلك . وكان يتذمر أحيانا من ملازمة البيت ، ويتخذها أحيانا حجة لأمر يريده ، قال في (سقط الزند ج ٢ص١٥٦) [٣] :

مَا لِيَ حِلْسَ الرَّبْعِ كالمَيْتِ بَعْـــدَ السَّبْعِ لَمْ آسَفْ وَلَمْ أَنْدَمِ
عَلى أُنَاسٍ مَنْ يُعاشِرْهُمُ تُعْوِزْهُ فِيهِمْ عِشْرَةُ الْمُكْرِمِ

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٤٨ ، وقد أورد ابن العديم هذه القصيدة في الإنصاف والتحري ، ومطلعها :

بشمس زرود لا ببدر معان ألما وإن كان الجميع شجاني

(٢) كذا في الأصل ولعلها : « إلينا » ،وفي تعريف القدماء : « تبين اليه . . . » .
(٣) شروح السقط ق ٤ ص ١٨١٠ .

وتطرق إلى هذا المعنى في رسالته إلى أبي نصر صدقة بن يوسف الفلاحي حيث قال :[1] « فقَعَدْتُ حِلسَ رَبع ، كالميت بعد ثلاث أو سبع ... » وقال في (الفصول والغايات [ج ١] ص ٢٩٧) : « إنما أنا حي كالميت ، أو ميت كالحي ، وما اعتزلت إلا بعد ما جددت وهزلت » وقد تقدم .

وقال نحواً من هذا في (رسالة الملائكة ص ٣) « فأما أنا فحِلْس البيت إن لا أكن الميت ، فشبيه بالميت » . وقد قال البطليوسي في (شرح السقط ص ١١٩٦) : « وكان المعري متدينا كثير الصيام والصدقة ، تسمع له بالليل هينمة لا تفهم ، وكان لا يقرع أحد عليه الباب حتى تطلع الشمس ، فإذا سمع قرع الباب علم أن الشمس قد طلعت فقطع تلك الهينمة ، وأذن في الدخول عليه . وكان لا يرى أكل اللحم ولا شرب المسكر ولا النكاح . وكان ذا عفة ونزاهة نفس ، إلا انه كان مخالفاً لما عليه أهل السنة » .

حلية أبي العلاء

لم أعثر في كلام أحد من المتقدمين على وصف جامع لحلية أبي العلاء ، وإنما ورد منها طرف في كلامهم ، وفي كلامه طرف آخر ، وهذا ماعثرت عليه من الكلامين :

قامته

روى ياقوت (ج ١ ص ٢٠٧)[2] أن صالح بن مرداس لما حاصر المعرة خرج شيخ قصير أعمى يقوده رجل . فقال : هذا أبو العلاء . وكان كما قال . وقال أبو العلاء في رسالته إلى أبي الحسين النكتي وقد قصر اسمه[3] : « فما كفاني ذلك ، مع قصر الجسم ، حتى يضاف إليه قصر الاسم ؟! » .

---

(١) رسائل أبي العلاء المعري ـ لشاهين عطية ـ ص ٩٦ ، والحلس : من يلزم مكانا لايبرحه .

(٢) إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب .

(٣) رسائل أبي العلاء المعري ـ لشاهين عطية ص ١٣٤ .

نحافته

يدل قوله في اللزوم (١) :

تَحَفَّوْا بِالكَلامِ وأَكْرَمُونِي عَلَى مَا كَانَ مِنْ جَسَدٍ نَحِيلِ

وقوله في رسالته إلى داعي الدعاة عن نفسه (٢): « فإذا بسط يده انهضة ، ضربت عظامه ، لأنها عارية من كسوة كانت عليها . . » يدل على أنه كان قليل اللحم نحيف الجسم . وهذا أمر طبيعي ان يقل الغذاء ويكتفي بما تطهوه ذكاه .

انحناء قامته

وقد انحنت قامته من الضعف ، وعجز عن القيام والقعود في آخر عمره . كما قال نفسه في رسالته إلى داعي الدعاة (٣) إن شخصه أشبه العود المنحني ، وإنه ضعف حتى عُجز عن القيام في الصلاة ، فإنما يصلي قاعداً ، وإذا اضطجع عجز عن القعود ، فربما استعان بانسان .

عيناه

تقدم أن الجدري أصابه في السنة الرابعة ، فذهب ببصره ، فكانت عينه اليمنى نادرة ، وقد غشيها بياض . وكانت اليسرى غائرة ، فكان كأنه ينظر بإحدى عينيه قليلا .

---

(١) اللزوميات هـ ص ٢١٩ .

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ١٣١ عن إرشاد الأريب ـ لياقوت .

(٣) المصدر السابق ص ١٢٢ .

وجهه

وقد أثر الجدري في وجهه ، فلم تكن أدمة وجهه مستوية ، بل كان فيها نتوء وانخفاض .

أسنانه

ولم تشأ الايام أن تترك أسنانه سليمة ، حتى لاتسلم له جارحة من آفة . وقد قال في اللزوم (١) :

فَمِي أَخَذَتْ مِنْهُ اللَّيالي وَإِنَّنِي   لَأَشْرَبُ مِنْهُ في إِنَاءٍ مُثَلَّمِ
وَأَوْدَى بِظَلْمِ الثَّغْرِ صُبْحٌ وحِنْدِسٌ   مَتى يَنْظُرَا في نَيِّرِ العَيْنِ يُظْلِمِ

والظاهر أن أسنانه وأضراسه دب اليها الفساد قبل أن يبلغ الخمسين. يدل على ذلك قوله في رسالة أرسلها جواباً لأبي الحسن محمد بن سنان الحلبي (٢) : « الآن علت السن ، وضُعف الجسم .. وعُطّلت رحى .. كنتُ أقصر طحنها على نفسي .. ولم يبقَ إلا أن يخلو مكانها العامر .. وإن تَتشبه بها في الظعن أخواتها ، صار لفظي من أجل ذلكَ مشيناً ، وجعلتُ سين الكلمة شيناً .. فإذا قلتُ العَسَل ظُن أني أقول العَشَل ، بالشين المعجمة ... » .

وهذه الرسالة جواب عن كتاب كتبه إليه محمد بن سنان ، يخبره فيه أن سلطان حلب يطلب من أبي العلاء أن يضع له كتابا يُذكر فيه أمثال على معنى (كليلة ودمنة) ، فوضع له كتاب (القائف) .. وهذا

---

(١) اللزوميات ﻫ س ٢٤٤ ، والظَّلْم : بفتح وسكون ، ماء الأسنان وبريقها .
(٢) رسائل أبي العلاء المعري ـ لشاهين عطية ـ ص ٢٢٢ .

السلطان هو عزيز الدولة أبو شجاع فاتك بن عبد الله الرومي ، مولى منجوتكين ، ولي حلب من قبل المصريين سنة ٤٠٧ هـ ، وقتله مملوكه الهندي سنة ٤١٣ هـ وكان أبو العلاء عمل لعزيز الدولة كتاب (الصاهل والشاحج) كما سيأتي . فيكون جوابه لابن سنان نحو سنة ٤١٠ هـ أو سنة ٤١٢ هـ ، ويكون مبدأ ذهاب أسنانه في ذلك العهد تقريبا .

سمعه

يدل قوله في رسالته الى داعي الدعاة (١) : « وقد علم الله أن سمعي ثقيل ... » ، وقوله لابن أخيه (٢) :

أَجِدَّكَ مَا تَرَكْتَ وأَنْتَ قاضٍ   تَعَهُّدَ مُقْعَـدٍ أَعْمَى أَصَمِّ

على أن سمعه ثقل في آخر عمره .

شَعره

كان شعره أسود ، وقد وخطه الشيب قليلا قبل رحلته الى بغداد ، ولذلك قال في قصيدة قالها فيها (٣) :

طَوَيْتُ الصِّباطَيَّ السِّجِلِّ وَزَارَني   زَمَانٌ بِهِ لِلشَّيْبِ حُكْمٌ وإِسْجالُ

---

(١) انظر ما سبق ص ٤٣٣ الحاشية -٢- .

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٤٩٧ عن الإنصاف والتحري - لابن العديم ، والبيت من مقطعة لم ترو في الديوانين مطلعها :

أعبد الله ما أسدى جميلاً   نظير جميل نسلك غير أمي

(٣) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١٢٥٢ .

ولكن شعره لم يبيض كله، وإنما تأخر شيبه، وقد قال في قصيدة أرسلها إلى أبي القاسم التنوخي بعد رجوعه من بغداد (١) :

وَحُلْتُ كُلِّي سِوَى شَيْبٍ تَجَاوَزَنِي   وَلَمْ يُبَيِّضْ عَلَى طُولِ الْمَدَى الشَّعَرَا

ويغلب على ظني أن هذه القصيدة قالها في سنة ٤٢٠ هـ . ويظهر من كلامه أنه كان غير مستحسن تأخر الشيب عنه وقته، فقد قال من أبيات(٢):

أَيَا مَفْرِقِي هَلاَّ ابْيَضَضْتَ عَلَى الْمَدَى   فَمَا سَرَّنِي أَنْ بِتَّ أَسْوَدَ حَالِكَا
قَبِيحٌ بِفَوْدِ الشَّيْخِ تَشْبِيهُ لَوْنِهِ   بِفَوْدِ الْفَتَى وَاللهُ يَعْلَمُ ذَلِكَ

وقال (٣) :

تَأَخُّرُ الشَّيْبِ مِنِّي مِثْلُ مَقْدَمِهِ   عَلَى سِوَايَ وَوَقْتُ الشَّيْبِ قَدْ حَضَرَا

وذلك لأنه لا يسره أن يكون لون شعره لون شعر الشباب، وأن يكون ضعفه ضعف الشيوخ كما قال (٤) :

وَمَا يَنْفَعُ الْغِرْبِيبَ وَالضَّعْفُ وَاقِعٌ   إِذَا كَانَ لَوْنُ الرَّأْسِ غَيْرَ هِجَانِ

وكان لا يخضب شعره، وإنما يعتقد أن

مَنْ يَخْضِبِ الشَّعَرَاتِ يُحْسَبْ ظَالِماً   وَيُعَدَّ أَخْرَقَ كَالظَّلِيمِ الْخَاضِبِ(٥)

---

(١) شروح السقط : ق ٤ ص ١٧٤٣ ، ورواه الخوارزمي : « .. يجاورني » .
(٢) اللزوميات هـ ص ١٨٥ .
(٣) اللزوميات هـ ص ١٤٠ وفيها : « .. الشيب عني .. ما حضرا ».
(٤) اللزوميات هـ ص ٢٧٥ . والغربيب : الشيخ يسود شيبه بالخضاب . والهجان : ككتاب ، الخالص من كل شيء ووردت (الغربيب) مضمومة الآخر في اللزوميات .
(٥) اللزوميات هـ ص ٥١ ، والظليم الخاضب : ذكر النعام إذا اغتلم فاحمرت ساقاه ، أو أكل الربيع فاحمر ظنبوباه . والنجيع : الدم الطري .

والشَّيبُ في لَوْنِ الحُسامِ فَلا تَدَعْ جَسَدَ النَّجيعِ عَلى الحُسامِ القاضِبِ

ولعله يكره الخضاب ، لأن فيه تغييراً لما ارتضته الطبيعة ، وشيئاً من الغش والتمويه . وقد رغب المتنبي قبله عن الشعر المكذوب فقال [١] :

وَمِنْ هوَى الصِّدْقِ في قَوْلي وَعادَتِهِ رَغِبْتُ عَنْ شَعَرٍ في الرَّأْسِ مَكذُوبِ

وقد قطع على نفسه عهداً لشعره أن لا يروعه بمقراض بنانيه ، ولا بحناء يخفيه ، حيث يقول [٢] :

أيُّها الشَّيْبُ لا يُرِيبُكَ مِنْ كَفِّـــي مِقَصٌّ وَلا يُوارِيكَ خِطْرُ

وله أبيات يفضل بها الشيب على الشباب وهي في (السقط ج ٢ ص ٢٢٦) [٣] :

خَبِّرِيني ماذا كَرِهْتِ مِنَ الشَّيْـــبِ فَلاَ عِلْمَ لي بِذَنْبِ المَشِيبِ
أضِياءُ النَّهارِ أمْ وَضَحُ اللُّؤْ لُؤِ أمْ كَوْنُهُ كَثَغْرِ الحَبيبِ
واذْكُرِي لي فَضْلَ الشَّبابِ وَما يَجْـــمَعُ مِنْ مَنْظَرٍ يَرُوقُ وطِيبِ
غَدْرُهُ بالخَلِيلِ أمْ حُبُّهُ لِلْـــغَيِّ أمْ أنَّهُ كَدَهْرِ الأرِيبِ

ومن مراجعاته الرائعة قوله في (السقط ج١ ص ١٢٧) [٤]

هِيَ قالَتْ لَمّا رَأَتْ شَيْبَ رَأْسِي وَأرادَتْ تَنَكُّراً وَازْوِرارا

---

(١) العرف الطيب ص ٤٨٢ .
(٢) الخطر : نبات يجعل ورقه في الخضاب الأسود يختضب به الشيوخ . (ج) انظر اللزوميات ٥ ص ١٣٤ .
(٣) وفي العروح ق ٥ ص ٢٠٧٣ .
(٤) المصدر السابق ق ٢ ص ٦٥٢ .

وقد ذكرت الأبيات في [الكلام على] أسلوبه . ويدل قولــه من قصيدة درعية في (السقط ج ٢ ص ١٧٢)[١]

وَقَدْ طَالَ فَوْقَ الأَرْضِ كَوْنِي وَشَبَّهَتْ
ثَغَاماً بِجَوْنِي عَاذِلاَتِي وعُـــذَّالي

. . .

وَلَمْ تُغْدِرِ الأَيَّامُ بَيْنَ مَفَارِقي وأَرْجَائِها كِنًّا لِأَدْهَمَ جوّالِ

على أن الكبر ذهب بشعر رأسه حتى لم يدع فيه ، كِـنّا لِبُرغوث أدم . وقد أجمل ما أثره الكبر في شعره وجسمه بقوله[٢] :

بَقِيتُ حتّى كَسَا الخدَّينِ جَوْنُهُما ثُمَّ اسْتَحَالَ ومَسَّ الجِسْمَ تَخْدِيدُ

ضعفه وإقعاده

يدل قوله المتقدم في ابن أخيه :

« تَعَهَّدَ مُقْعَدٍ أَعْمَى أَصَمَّ[٣] »

وقوله في رسالته الى داعي الدعاة : « ومُنيت في آخر عمري بالإقعاد ، وعداني عن النهضة عاد » . وقوله في رسالة أخرى إليه : « أنه عجز عن القيام في الصلاة وإذا اضطجع عجز عن القعود .. » . على أنه مني بالإقعاد فلم يستطع القيام ولا القعود بنفسه .

---

(١) الشروح ق ٤ ص ١٨٧٨ و ١٨٨٠ ، والثغــام : نبت أبيض . والجون : الأسود . وتغدر : أي تترك ، وقال الخوارزمي : « عنى بأدهم جوال : القمل » .

(٢) اللزوميات هـ ص ٩٥ .

(٣) انظر ما سبق ص ١٣٥ الحاشية — ٢ — .

وقد صور شخصه بصورة تنم على ما كان يعتوره من البلايا ، في مثل قوله (١) :

شَخْصِيَ هٰذَا غَرَضٌ لِلرَّدَى ... وَلَمْ يَزَلْ مَعْدِنَ عِصْيَانِ
مِنْ كُلِّ فَنٍّ فِيهِ أُعْجُوبَةٌ ... كَأَنَّهُ جَامِعُ سُفْيَانِ

هذا ما أمكنت معرفته من حايته الظاهرة ، وما أثره فيها الزهد والهرم . وأما القوى الباطنة فلم يعتره خلل ولا آفة في شيء منها ، الا قبيل موته ، فإنه أملى على بعض طلابه شيئا فغلط فيه ، فأخبر بذلك المختار ابن بطلان ، فأخبرهم بقرب موته كما سيأتي .

من كان يتعهده ويخدمه

رجع أبو العلاء من بغداد ، فوجد أمه قد ماتت ، وقد عُمِّيَ علينا تفصيل حياته البيتية ، لأن ما وصل الينا من تاريخ حياته لم يكفل بيان ذلك . وكل ما علمناه من النتف المبثوثة في أقوال المؤرخين والعلماء ما يأتي :

قال الميمني (٢) : « ذكر في رسالة له الى خاله أبي القاسم أنه كانت له خادمة عجوز تسمى سكينة ، فاستدعاها الى حلب لضبط منزله ، فاعتل أخوها ، فأرادت الخروج اليه . ولحقت أبا العلاء علة ، فأظهرت أن خروجها اليه وأنه محتاج اليها ، وكانت [هذه العجوز] تسخن له الماء وتصلح له القدر ، وتوقد النار ، وعزم على خاله ألا يوقفها على كتابه ، لئلا يدركها ما يدرك الآدميين اذا سمعوا في أنفسهم مثل ذلك » .

وجاء في بعض الروايات في قصة وزير محمود والضيوف الحسين ، أنه قال

---

(١) اللزوميات ج ٢ ص ٢٨١ .
(٢) انظر (أبو العلاء وما اليه) ص ١٨٩ .

لغلامه قنبر : « قدم الماء . وانظر المريخ أين هو . . »[(١)] وذكر في جوابه الى داعي الدعاة أن خادمه كان يأخذ من ماله بعض ما يجب . وذكر ابن العديم في ترجمة أبي محمد عبد الله بن أبي المجد أخي أبي العلاء أنه تولى خدمة عمه بنفسه وكان براً به [(٢)] . وذكروا أن رجلًا كان معه في رحلاته ، ولكن التاريخ لم يبين لنا اسم واحد ممن صحبه الى بغداد أو حلب أو غيرهما ، ولعله كان يكابد عناء من خادم كان لا يطيعه ، كما يشعر به قوله [(٣)] :

وَمِنْ عَنَاءِ اللَّيالي خَادِمٌ ضَغِنٌ   إِنْ يُؤْمَرِ الأَمْرَ يَفْعَلْ غَيْرَ مَا أُمِرَا

ومن مجموع هذه الأقوال لانستطيع معرفة الحقيقة ، لأن ابن أخيه كان قاضيا ، ومن البعيد أن يقوم بنفسه بكل ما يتطلبه عمه من تهيئة طعام وغسل ثياب وآنية وما شاكل ذلك ، والذي أظنه أن ابن أخيه كان يخدمه في تقديم طعامه ولباسه وما يحتاج اليه في مجالسه ، وهذا يتولاه بنفسه . وأما ماعداه فإنه يقوم به خدم ابن أخيه أو خدمه ، وهو يتولى الإشراف على ذلك ويتعهده .

مرضه الأخير ووفاته

حالف أبو العلاء البؤس من المهد الى اللحد ، وكانت الأوصاب والعلل تنتابه حيناً بعد آخر . قال أبو اليسر شاكر التنوخي : « كان أبو العلاء كثير الأمراض . . » وقد أشار في مواطن من شعره الى ما بلغ به

---

(١) ورد هذا الخبر في تعريف القدماء في الصفحات (١٥٣ ، ٢٨٠ ، ٢٩٣ ، ٣٢٦) . ولم يذكر اسم الغلام قنبر .

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٤٩٦ عن الانصاف والتحري ـ لابن العديم .

(٣) اللزوميات ٥ ص ١٤١ .

مر الزمان وتعب الحياة ، وما كان يعتوره من العلل ، من ذلك قوله في اللزوم [1] :

وَأَخلَقَني مَرُّ الزّمانِ وَكَدُّهُ فَصَارَ أديمِي كالسِّقاءِ المُرَمَّمِ

وقوله في (السقط ج ٢ ص ١٧٣) [2] :

أُبِلُّ مِنَ الأَمراضِ والعِلَلُ واقِعٌ بِعِلّةِ يَومٍ جانَبَتْ كُلَّ إبلالِ ...

وقد قدمنا شيئاً مما كان ينتابه من الضعف والخلل ، ولم يتبين لنا ما هو مرضه الذي توفي به ، غير أنهم ذكروا أن الأطباء وصفوا له في مرضه فرُّوجا ، فلمسه بيده وقال : « استصغروك ... » ويروى : « استضعفوك فوصفوك ، هلا وصفوا شبل الأسد ؟ » . ولم ينص أحد على أن هذا الوصف في مرضه هذا . ذكر القفطي أنه : « لما حضرته الوفاة ، أتاه ابن أخيه عبد الله بقدح من سكنجبين فامتنع من شربه فحلف ابن أخيه ايماناً مؤكدة أنه لا بد أن يشربه ، فقال مجيباً له عن يمينه :

أَعَبْدَ اللهِ خَيْرٌ مِنْ حَيَاتِي وطُولِ ذَمَائِها موْتٌ مُرِيحُ

تُعَلِّلُني لِتَسقِيَنِي [3] فَذَرْنِي لَعَلِّي أَسْتَرِيحُ وَتَسْتَرِيحُ

وقد مرض ثلاثة أيام ، ومات في اليوم الرابع ، وكان عنده بنو عمه . فقال لهم في اليوم الثالث : اكتبوا عني ، فتناولوا الأقلام والدُّوِيّ ،

---

(١) اللزوميات ه ص ٢٤٥ .

(٢) وفي الشروح ق ٤٠ ص ٨٧٩ .

(٣) كذا في الأصل ولعلها محرفة عن « لتشفيني » فتأمل (ج) انظر تعريف القدماء ص ٦٤ ، عن إنباه الرواة ــ للقفطي . والذماء : بقية النفس .

فأملى عليهم غير الصواب ، فقال ابن أخيه القاضي عبد الله : أحسن الله عزاءكم في الشيخ ، فأنه ميت ، فمات في اليوم الثاني .

وكان المختار بن بطلان إذ ذاك في المعرة ، فحدثه بعض الطلبة أن أبا العلاء قد أملى عليهم شيئاً فغلط فيه ، فتنبأ ابن بطلان بأن ذبالته قاربت الذبول ، لأن من كان مثله في قوة العقل والذكاء لا يدركه الخطأ فيما يملي إلا إذا اضطربت قواه وفسد مزاجه . ولم يبين لنا أحد ما الذي أملاه وغلط فيه وإنما روى ذلك المتأخر عن المتقدم ، على ما فيه من غموض وإبهام .

سبب موته

وقد اتفقت كلمة القوم على أنه مرض فمات ، إلا ابن المبارية[1] ، فإنه زعم أنه سم نفسه فمات لما أمر داعي الدعاة بإحضاره إلى حلب ، وقد تبين بطلان ذلك .

يوم وفاته

اختلفت كلمة القوم في يوم وفاته ، فقيل : ليلة الجمعة ، وقيل : يوم الجمعة ثاني ربيع الأول سنة ٤٤٩ هـ ، وقيل : في ثالثه ، وقيل : في الثاني عشر منه ، وقيل : في الثالث عشر منه .

مجموع عمره

قدمنا أنه ولد في ربيع الأول سنة ٣٦٣ هـ ، وذكرنا هنا أن وفاته في ربيع الأول سنة ٤٤٩ هـ مع الاختلاف في يومي الولادة والوفاة ، فيكون مجموع عمره ٨٦ سنة تقريبا .

---

(١) انظر تعريف القدماء بأبي العلاء ص ١٥٦ عن مرآة الزمان ، وص ٣٢٧ عن عقد الجمان .

وصاياه

ذكر ابن خلكان ، والذهبي ، والبديعي وغيرهم (١) : أن أبا العلاء لما قارب الموت أوصى ان يكتب على قبره هذا البيت :

هٰذَا جَنَاهُ أَبِي عَلَيَّ وَمَا جَنَيْتُ عَلَى أَحَدْ

ورواه بعضهم :

هٰذا جَنَاةُ أبي عَلَيَّ . . . .

بالتاء لا بالهاء ، والجَناة : ما يجنى من الشجر كالجَنَى ، أو واحدة الجنى . وقال (في نسمة السحر) : « إنه كان يقوله ويكرره في مرض موته » . ولم أر هذا البيت على قبره ، ولا اعرف أحداً ذكر أنه رآه عليه ، وهو غير موجود في شيء من كتبه التي اطلعنا عليها فلعل من أوصاهم بكتبه لم ينجزوا وصيته .

وفي (أوج التحري) وغيره أن هذا البيت متعلق باعتقاد الحكماء ، فإنهم يقولون : « ايجاد الولد واخراجه الى هذا العالم جناية عليه لأنه يتعرض للحوادث والآفات » .

وقال في (الفصول والغايات ص ٧٩) : « أوصيكُم إنْ نَفَعَت الوَصَاة ، إذا أُسْنِيتُ على موردِ جُرْهُم وعادٍ ، ألاّ يَلِجَ عليَّ آسٍ ، ولا يكثُر حوليَ العُوّاد ، ولا تبكيَنَّ عنديَ باكية ، ولا يُحسّ ناديّ في النُدّاب » .

---

(١) انظر الصفحات ١٥٦ ، ١٨٤ ، ٢٠٨ ، ٣٠٦ ، ٣٠٨ ، ٣٢٥ ، ٣٣٤ ، ٣٤٥ ، ٣٤٨ من تعريف القدماء بأبي العلاء .

وله وصايا أخر يحض بها على أخذ سيره ، ومتابعته على آرائه ، وسيُذكَر بعض منها في مواطنه .

قبر أبي العلاء

في المعرة مسجد ، يقال له مسجد أبي العلاء ، ومقام أبي العلاء ، وضريح أبي العلاء ، وهو في المحلة القبلية . وله باب صغير من الغرب ، يدخل منه الى ساحة ، ويقابل الباب المذكور غرفة صغيرة لها قبة ، وفي وسط الغرفة قبر أبي العلاء ، وطوله « ١٢٥ سانتيم » وعرضه « ٧٥ » وفوقه حجران قائمان مكتوب عليهما بالخط الكوفي ، وطول الحجر الذي عند رأسه متر واحد . وفي جنوبي هذه الغرفة غرفة ثانية تزيد في طولها عن الأولى نحو متر . وكلتا الغرفتين متجهتان إلى الغرب . وفي جنوبي الساحة مسجد فيه محراب يتجه بابه إلى الشمال . وفي شرقيه وشرقي الغرفتين ساحة فيها بئر ماء ، وبعض شجرات من التين والرمان . وكانت فيها قبور كثيرة ، فأخذ حجارتها جيران المسجد ، وجعلوها في عمائر دورهم ، وبقي فيها قبر طوله نحو مترين ، وارتفاع شاهدته نحو متر .

هذه خلاصة صفة المسجد التي كان عليها يوم هاجرت من المعرة سنة ١٣١٩ هـ ، ورأيته مراراً بعد ذلك على هذه الصفة . وأصل هذا المسجد ، ساحة من دور أهله بني سليمان . والغرفة التي فيها القبر ليس لها إلا باب يتجه إلى الغرب . وبناؤه حادث ، وقد زاره القفطي بعد الستمائة ، فرأى عليه خبّازى يابسة ، وهو على غاية من الاهمال . ثم زاره علاء الدين بن المظفر الوداعي سنة ٦٧٩ هـ فرآه قد دثر ولصق بالأرض ، وهذا يؤيد أن البناء الذي فوق القبر حادث ، وقد رأيته مراراً كما رآه القفطي والذهبي . وفي سنة ١٣٤٤ هـ الموافق سنة ١٩٢٥ ميلادية ، عزمت الحكومة السورية

على بناء ضريح لأبي العلاء ، ثم وقفت عن العمل بسبب الثورة السورية ، ثم أصدرت طوابع بريدية في سنة ١٣٥٣ ﻫ الموافق سنة ١٩٣٤ م نقش عليها اسم أبي العلاء ، ثم هدمت المسجد. وفي سنة ١٣٥٨ ﻫ الموافق سنة ١٩٣٩ م وضع الحجر الأساسي من البناء المذكور ، ثم تم بناؤه على شكله الحاضر بعد حين .

أما الحجارة التي على قبره ، وما عليها من كتابة ، فقد بسطنا القول فيها وفي هذا القبر والمسجد الجديد في (تاريخ المعرة) . على أن الحكومة هدمت بناءه الأخير وبنته على نمط أجمل مما قبله ، وإن كان لا يرتضيه أبو العلاء والناس أيضاً .

ما فعل على قبره بعد موته

روى ياقوت (ج ١ ص ١٧١) [١] أن أبا العلاء لما مات أنشد على قبره أربعة وثمانون شاعراً مراثي . وفي تاريخ ابن الوردي [٢] : « قرىء على قبره سبعون مرثية » . وقال غيره [٣] : « ختم على قبره في اسبوع واحد مائتا ختمة » . وفي (أوج التحري [٤]) : « اجتمع على قبره ثمانون شاعراً ، وختموا في أسبوع واحد مائتي ختمة ، وقرىء على قبره سبعون مرثية » . والغالب على الظن أن أكثر من رثاه من أهل المعرة ، ومن التنوخيين الذين كانوا يقرؤون عليه . فقد ذكر ناصر خسرو [٥] أنه كان في جميع أوقاته يحيط به مائتان من الطلاب .

---

(١) إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب .
(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٢٠٨ عن تتمة المختصر في أخبار البشر ـ لابن الوردي .
(٣) انظر تعريف القدماء بأبي العلاء ، الصفحات ٢٠٠ ، ٢١٤ ، ٢٤٠ عن تاريخ الاسلام ـ للذهبي ، ولسان الميزان ـ لابن حجر ، ومعاهد التنصيص ـ للعباسي .
(٤) أوج التحري ـ للبديعي ـ ص ٣٧ تحقيق الدكتور ابراهيم كيلاني .
(٥) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٤٦٣ ، عن سفرنامه ـ لناصر خسرو .

الذين رثوه

ذكرنا أن الذين رثوه على قبره أربعة وثمانون أو سبعون ، ولم يتبين لنا من رثاه بعد ذلك على غير قبره ، كما أننا لم نعلم من رثاه إلا نفراً يسيرا منهم : علي بن المهام على قول ياقوت [(١)] ، وعلي بن همام على قول غيره [(٢)] وقد نقلوا عنه هذه الأبيات من قصيدة طويلة :

إِنْ كُنْتَ لَمْ تُرِقِ الدِّمَاءَ زَهَادَةً ... فَلَقَدْ أَرَقْتَ اليَوْمَ مِنْ عَيْنِي دَمَا

سَيَّرْتَ ذِكْرَكَ فِي البِلَادِ كَأَنَّهُ ... مِسْكٌ مَسَامِعَهَا تُضَمِّخُ أَوْ فَمَا [(٣)]

وَتَرَى الحَجِيجَ إِذَا أَرَادُوا لَيْلَةً ... ذِكْرَاكَ أَوْجَبَ فِدْيَةً مَنْ أَحْرَمَا

يريد أن ذكرك طيب ، والطيب لا يحل للمحرم فإذا ذكرك وجبت عليه فدية . وقيل إنه أشار في البيت الأول إلى ما كان يعتقده ويتدين به من عدم الذبح . وقال البديعي [(٤)] : « قول تلميذه : لم ترق الدماء زهادة ،

---

(١) إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ، انظر تعريف القدماء ص ٧٧ .

(٢) رأيت في التنوخيين همام بن عامر جد بني المهذب ، وهذا توفي سنة ٢٣٤ هـ ، وهمام بن الفضل بن جعفر بن علي بن المهذب ، وهذا هو صاحب التاريخ ، وقد أدرك أبا العلاء ، وأظن أن عليا الذي رثى أبا العلاء هو ابن هذا وبنو المهذب ينتسبون إلى عدي بن الساطع التنوخي ، وبنو سليمان جد أبي العلاء ينتسبون إلى أسحم بن الساطع التنوخي (ج) .

(٣) في المعاهد وأوج التحري : « فسامعه يضمخ » وروي « فسامعه بمصر » وروي « مسك يضمخ منه سمعاً أو فما » . وفي ابن الوردي « فسامعة يضمخ . . » وهذه الأبيات رواها ياقوت في (معجم الأدباء) وصاحب (معاهد التنصيص) و (نكت الهميان) ، (الوفيات) و (اليافعي) و (أوج التحري) وغيرهم ، وكلهم قالوا علي بن همام . إلا ياقوت فإنه قال : ابن المهام (ج) .

(٤) البديعي — أوج التحري عن حيثية أبي العلاء المعري ص ٣٧ تحقيق الدكتور ابراهيم الكيلاني .

لم يعط من المعنى ما قالوه ولو أراده لقال فلسفة ... وقوله « زهادة » رد على من يقول : إن عدم إراقة الدماء مجاراة للبراهمة » .

ورثاه الأمير أبو الفتح الحسن بن عبد الله بن أحمد ... بن أبي حصينة المعري . وبنو حصين ينتسبون الى أسحم بن الساطع التنوخي جد أبي العلاء . وكان أبو الفتح من الشعراء المجودين ولد قبل سنة ٣٩٠ هـ وتوفي سنة ٤٥٧ هـ وقد قيل : إن أبا العلاء جمع شعر الأمير هذا ، وشرح مواضع منه في ثلاث مجلدات . وهذا ما وقفنا عليه من رثائه لأبي العلاء (١) :

العِلْمُ بَعْدَ أبِي العَلاَءِ مُضَيَّعُ ... والأرْضُ خَالِيَةُ الجَوانِبِ بَلْقَعُ
أوْدَى وَقَدْ مَلأَ البِلادَ غَرَائِباً ... تَسْرِي كَمَا تَسْرِي النُّجُومُ الطُّلَّعُ
مَا كُنْتُ أعْلَمُ وَهْوَ يُودَعُ في الثَّرَى ... أنَّ الثَّرَى فِيهِ الكَوَاكِبُ تُودَعُ
جَبَلٌ ظَنَنْتُ وقَدْ تَزَعْزَعَ رُكْنُهُ ... أنَّ الجِبَالَ الرَّاسِياتِ تُزَعْزَعُ
وَعَجِبْتُ أنْ تَسَعَ المَعَرَّةُ قَبْرَهُ ... ويَضِيقَ بَطْنُ الأرْضِ عَنْهُ الأوْسَعُ
لوْ فَاضَتِ المُهَجاتُ يوْمَ وَفَاتِهِ ... مَا اسْتُكْثِرَتْ فِيهِ فَكَيْفَ الأدْمُعُ
تَتَصَرَّمُ الدُّنيا وتَأتِي بَعْدَهُ ... أُمَمٌ وأنتَ بِمِثْلِهِ لا تَسْمَعُ
لا تَجْمَعِ المَالَ العَتِيدَ وَجُدْ بِهِ ... مِنْ قَبْلِ تَرْكِكَ كُلَّ شَيْءٍ تَجْمَعُ
وَإنِ اسْتَطَعْتَ فَسِرْ بِسِيرَةِ أحْمَدٍ ... تَأمَنْ خَدِيعَةَ مَنْ يَغُرُّ (٢) ويَخْدَعُ

---

(١) انظر أوج التحري للبديعي ص ٣٨ ـ تحقيق الدكتور ابراهيم كيلاني .

(٢) في معجم الأدباء « يضر »

رَفَضَ الحياةَ وَمَاتَ قَبْلَ مَمَاتِهِ ... مُتَطَوِّعاً بِأَبَرِّ مَا يُتَطَوَّعُ
عَيْنٌ تُسَهَّدُ لِلعفَافِ ولِلتُّقَى ... أَبداً وقَلْبٌ لِلْمُهَيْمِنِ يَخْشَعُ
شِيَمٌ تُجَمِّلُهُ فَهُنَّ لِمَجْدِهِ ... تَاجٌ وَلَكِنْ بِالثَّنَاءِ يُرَصَّعُ
جَادَتْ ثَرَاكَ أَبَا العَلاءِ غَمَامَةٌ ... كَنَدَى يَدَيْكَ ومُزْنَةٌ[1] لا تُقْلِعُ
مَا ضَيَّعَ البَاكِي عَلَيْكَ دُمُوعَهُ ... إِنَّ الدُّمُوعَ عَلَى سِوَاكَ تُضَيَّعُ[2]
قَصَدَتْكَ طُلَّابُ العُلُومِ وَلا أَرَى ... لِلْعِلْمِ بَاباً بَعْدَ بَابِكَ يُقْرَعُ
مَاتَ النُّهَى وتَعَطَّلَتْ أَسْبَابُهُ ... وَقَضَى التَّأَدُّبُ والمَكَارِمُ أَجْمَعُ[3]

وهذه الأبيات رواها ياقوت في (معجم الأدباء) وابن الوردي في تاريخه [4] .

ورثاه أبو الرضا عبد الواحد بن الفرج بن نوت المعري المتوفى سنة ٤٨٠ هـ ، هكذا ذكره صاحب (فصول الحكماء) وذكره العماد في (الخريدة) في رجال بني أبي حصين المعريين ، ونقله عن العماد صاحب (بدائع البدائه ص ١٧١) وذكر الصفدي في (نكت الهميان) اسمه

---

(١) في أوج التحري : « سرية » (ج) .
(٢) في معجم الأدباء : « إن البكاء على سواك مضيع » .
(٣) « « : « وقضى العلا والعلم بعدك أجمع » .
(٤) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٢٠٩ ، عن تتمة المختصر في أخبار البشر — لابن الوردي .

عبد الوهاب بن نوت المعري . . وذكر في الوافي اسمه عبد الواحد ، ولم أقف على شيء من مرثيته الا قوله [١] :

سُمْرُ الرِّمَاحِ [٢] وبيضُ الهِنْدِ تَشْتَوِرُ ... في أَخْذِ ثَأرِكَ والأَقدارُ تعتَذِرُ
والدَّهرُ فَاقِدُ [٣] أهْلِ العِلْمِ قَاطِبَةً ... كَأَنَّهُمْ بِكَ فِي ذَا القَبْرِ قد قُبِرُوا
فَهَلْ تُرى بِكَ دَارُ العِلْمِ عَالِمَةً ... أَنْ قَدْ تَزَعْزَعَ مِنْهَا الرُّكْنُ والحَجَرُ
والعِلْمُ بَعْدَكَ غِمْدٌ فَاتَ مُنْصُلُهُ ... والفَهْمُ بَعْدَكَ قَوْسٌ مَالَهُ وَتَرُ

كيف رؤي في النوم بعد موته

مات أبو العلاء ، وانقطع عمله في هذه الدنيا ، وكبد أعدائه وحساده حيّ لم يمت ، وافتراؤهم عليه لم ينقطع . وكان أذاهم في حياته مقتصراً على ما كان في اليقظة ، فتعدّى ذلك إلى النوم . ومن طبيعة السخفاء أن أحدهم إذا عجز عن الدليل في اليقظة لجأ إلى المنام والأحلام ، فافترى ما شاء من زور ، وخلق ما شاء من إفك ، ورأى حوله كثيراً ممن يصدق ما يقول ، وإن كذبته العقول . وقد رؤي أبو العلاء في النوم على حالتين : إحداهما سيئة ، وهي السابقة على أختها في الزمن . والثانية حسنة ، وهي المتأخرة .

---

(١) انظر تعريف القدماء الصفحات ٢٨٤ ، ٢٩٦ .
(٢) ويروى : « العوالي » (ج) .
(٣) في بعض الروايات : « ناقد » (ج) .

الرؤيا السيئة

نقل القفطي ، والذهبي ، وسبط ابن الجوزي ، والعيني ، وصاحب (معاهد التنصيص) وغيرهم (١) عن غرس النعمة قال في كلامه على أبي العلاء : « أذكر عند ورود الخبر بموته ، وقد تذاكرنا إلحاده ، ومعنا غلام يعرف بأبي غالب بن نبهان ، من أهل الخير والعفة ، أو الفقه ، فلما كان من الغد ، حكى لنا ، قال : رأيت في منامي البارحة شيخاً ضريراً ، وعلى عاتقه أفعيان متدليان إلى فخذيه ، وكل منهما يرفع فمه إلى وجهه ، فيقطع منه لحماً يزدرده ، وهو يستغيث ، فقلت وقد هالني ما رأيت منه : مَنْ هذا ؟ فقيل لي هذا المعري الملحد ، فعجبنا من ذلك ، واستطرفناه ، حيث وقع عقب ما تفاوضناه من أمره » .

الرؤيا الحسنة

وقال القفطي في (إنباه الرواة) (٢) : « كنت في سنّ الصبا ، وذلك في حدود سنة خمس وثمانين وخمسمائة ، أقدح في اعتقاد أبي العلاء ، لما أراه من ظواهر شعره ، وما ينشد له في محافل الطلب ، فرأيت ليلة في النوم ، كأنني قد حصلت في مسجد كبير ، في شرقيه صفة كبيرة ، وفي الصفة سلّ الحصر مفروش من غير نسج ، وعليه رجل مكفوف سمين ،

---

(١) انظر تعريف القدماء بأبي العلاء الصفحات : ٦٤ ، ١٩٦ ، ١٥٢ ، ٣٢٨ ، ٣٤٤ .

(٢) توهم صاحب (ذكرى أبي العلاء) فظن قائل هذا هو أبو عمرو عثمان الكرجي لتقدم ذكره في كلام القفطي ، والصواب ما ذكرناه ، لأن أبا عمرو توفي قبل ذلك التاريخ . والذي زار المعرة سنة ٦٠٥ هـ هو القفطي كما قاله الذهبي فتأمل (ج) . انظر تعريف القدماء ص ٥٢ ، عن إنباه الرواة ـ القفطي .

متوسط البياض ، ورأسه مائل إلى جهة كتفه الأيسر ، وهو مستقبل القبلة في جلسته ، وإلى جانبه طفل ، وكأني فهمت أنه قائده ، وكأني واقف أسفل الصفة ، ومعي ناس قليل ، ونحن ننظر إليه ، وهو يتكلم بكلام لم أفهم منه شيئاً . ثم قال في أثناء كلامه مخاطباً لي : ما الذي يحملك على الوقيعة في ديني ؟ وما يدريك لعل الله غفر لي ؟ فخجلت من قوله ، وسألت عنه من إلى جانبي ، فقال لي أحدهم : هذا أبو العلاء المعري . فابتسمت متعجباً للرؤيا ، واستغفرت الله لي وله ولم أعد إلى الكلام في حقه إلا بخير . ومرت على ذلك سنون ، فلما كان في سنة خمس وستمائة أرسلني من كنت في صحبته بحلب إلى القوم المقيمين في جبل بهراء[1] في حصرنهم ، لإصلاح ما بينهم وبين أمير من أمراء الدولة ، يعرف بأحمد بن علي بن أحمد ، وكان قد خشي عاديتهم ، فلما عدت ، اجتزت بالمعرة ، فدخلت للصلاة في جامعها ، وعندما شاهدته رأيته قريباً مما رأيته في المنام ، فأذكرني من ذلك ما أنسيته على طول المدة . ونظرت فإذا الصفة إلى جانبه الشرقي ، وهي قريب مما رأيته ، وإذا فيها رجل عليه هيئة الرهبان ، وبيده قش يفتله ، فقصدته وسألته عما يفعله ، فقال : إن هذا الجامع إذا احتاج إلى حصر حصل له النواب هذا البردي ، وعلى رهبان الدير الذي أنا منهم عمل ذلك ، وقد آلت النوبة إلي ، فحضرت لذلك ، فعجبت من أمر الرؤيا . وقربها مما رأيته من الصحة بعد حين . . » .

* * *

(١) بهراء قبيلة من العرب يضاف إليها هذا الجبل ، قال الاصطخري : جبل اللكام داخل في بلاد الروم – ويظهر في بلد الإسلام بين مرعش والهارونية وعين زربة فيسمى اللكام إلى أن يجاوز اللاذقية . ثم يسمى جبل بهراء وتنوخ إلى حمص ، ثم يسمى إلى جبل لبنان ، ثم يمتد على الشام حتى ينتهي الى بحر القلزم (ج) .

المقالة الثالثة

شهرة أبي العلاء ومن أخذ عنه

اشتهر أبو العلاء ، منذ حداثة سنه ، بالنباهة والذكاء ، حتى بلغ جماعة من أعيان حلب ما لم يصدقوه من فطنته وعبقريته ، فقصدوه واختبروه ، فرأوا من حدة ذهنه وقوة قريحته فوق ما سمعوا ، فانصرفوا وهم معجبون بما رأوا منه .

ولم يكد يبلغ العشرين من عمره ، حتى ظهر نبوغه ، وأبرز من علمه وأدبه ما حدثنا به بقوله (١) :

وَإِنّي وإِنْ كُنْتُ الأَخِيرَ زَمَانُهُ ... لَآتٍ بِما لَمْ تَسْتَطِعْهُ الأَوائِلُ

فملأ صيته الآفاق ، وذاعت شهرته في الأصقاع القاصية والدانية ، كما قال(٢) :

وَقَدْ سَارَ ذِكْرِي فِي البِلادِ فَمَنْ لَهُمْ ... بِإِخْفَاءِ شَمْسٍ ضَوْؤُهَا مُتَكَامِلُ

وكانت المعرة في عهده مجازاً يصل ما بين حلب وما يليها إلى العراق والفرس والهند والترك ، بما بين دمشق وما يليها إلى أقصى جزيرة العرب ومصر والمغرب والأندلس . فكان الناس ينقلون أخباره ، ويروون أشعاره . كما كان كثير من العلماء والشعراء والأمراء يكاتبونه ويقارضونه الشعر ، ويعجبون عوده ، ويرجعون إليه في المعضلات العلمية ، والمشكلات الأدبية .

---

(١) شروح سقط الزند : ق٢ص ٥٢٥ .

(٢) المصدر السابق ص ٥٢٣ .

ولما ذهب إلى بغداد ، وكانت يومئذ ملتقى الشعوب والأمم ، وينبوع المدنية العربية ، اتصل بكثير من رجالها ، وحضر كثيراً من مجالسها العلمية ، وأبان في بعضها عن علم واسع وأدب جم ، وتَثَبُّتٍ في الرواية والحفظ ، وذكاء باهر ، فازدادت بذلك شهرته .

ثم لما عاد إلى المعرة ، قصده طلاب العلم من عرب وعجم ، وأقبل الناس عليه يأخذون عنه ، وكاتبه العلماء والوزراء وأهل الأقدار ، وأتاح الله له ألسنة حساده ، فانتشر بذلك فضله ، وازداد صيته ذيوعا ، حتى ضرب المثل بذكائه ونباهته ، قال ابن سعيد (١) في أبي بكر المخزومي وهما أندلسيان :

يا ثانِيـــاً للمَعَرِّي   في حُسْنِ نَظْمٍ ونَثْرِ

وسترى أن رجالاً من الفرس ، والأندلس ، واليمن ، وغيرها من الأصقاع القاصية ، كانوا يؤمونه لدراسة ، أو رواية ، أو زيارة ، أو استرشاد ، أو شفاعة ونحو ذلك . وأن جماعة مختلفين كانوا يكاتبونه نثراً ونظما ، طلباً للاستفادة من علمه ، أو الاستهار بمكاتبته وإجابته . ولما نظم قصيدته الحائية (٢) .

غَدَوْتُ مَرِيضَ العَقْلِ والدِّينِ فالْقَنِي   . . . .

انتقلت إلى مصر بأسرع من لمح البصر ، واعترض عليه داعي الدعاة من أجلها .

---

(١) البيت أول أبيات ثلاثة رواها المقري في نفح الطيب ١/١١٧ وتمامها :

وفرط ظرف ونبل   وغوص فهم وفكر
صل ثم واصل حبيّاً   بكل شكر وبرّ

(٢) اللزوميات ص ٨٤ ، وعجزه : « لتسمع أنباء الأمور الصحائح »

تلاميذه

لم نوفق إلى الوقوف على أسماء جميع الذين قرؤوا على أبي العلاء ، ورووا عنه ، وهم كثير بلا شك ، وفيهم عدد عظيم من أهل المعرة ، من أقاربه وغيرهم . وقد ذكر ابن الورديّ أنه «كان يملي على بضع عشرة محبرة [1]» . وقال الرحالة الفارسي في كلامه على أبي العلاء [2] : «ولا يزال جماعة وافرة من الطلبة يقيمون ببابه ، ويقرؤون عليه كتب الشعر والأدب وهم أكثر من مائتي رجل» .

وسنذكر فيما يلي أسماء الذين عرفناهم من تلاميذه :

أسماء من أخذ عنه في المعرة .

أما الذين أخذوا أو رووا عنه في المعرة - وإن لم نعرف ما أخذوه على وجه التفصيل - فمنهم :

ابو المظفر إبراهيم بن أحمد بن الليث الأزدي .

وفي بعض النسخ «الأذري» ولعله نسبة إلى أذربيجان .

إبراهيم بن الحسن البليغ المعري ابن أخت المتمم .

إبراهيم بن علي بن إبراهيم الخطيب المعري (كاتب) .

وكان كاتباً حسن الخط ، متقناً في الضبط ، كتب معظم كتب المعري وتصانيفه بخطه ، وكتب عنه في السماع عليه ، والإجازة منه ، وقرأ عليه . وقد ذكر في جملة كُتّابه .

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٢٠٧ عن تتمة المختصر - لابن الوردي .

(٢) المصدر السابق ص ٤٦٣ عن سفر نامه - لناصر خسرو . مع اختلاف يسير في رواية الخبر .

القاضي أبو الفتح بن أحمد بن أبي الروس السروجي .

أبو سعد أحمد بن حماد المعري (راو) .

وهو الذي روى عنـــه (ملقى السبيل) وفي نسخة الأسكوريال : أحمد بن كمال .

أبو العباس أحمد بن خلف الممتع المعري .

ذكره ابن العديم [١] فيمن قرأ على أبي العلاء وروى عنه من أهل المعرة . وذكره أبو العلاء في (رسالة الغفران ص ١٧٤)[٢] بقوله : « وسيدي الشيخ أبو العباس الممتع ، في السن ولد ، وفي المودة أخ ، وفي فضله جد وأب ..» .

أبو مالك أحمد بن الصنديد العراقي (شارح).

قال ياقوت (ج ١ ص ١٥)[٣] كان من أهل الأدب والشعر ، روى شعر المعري عنه . وله فيه شروح ، وله مع الحصري مناقضات ، دخل الأندلس ، وكان عند بني طاهر ، ومدح الرؤساء والأكابر .

أبو الفضل أحمد بن علي بن عبد اللطيف المعري المعروف بابن زريق .

قرأ على أبي العلاء ، وروى عنه سبعة أجزاء من حديث أخيه أبي الهيثم .

أبو اليقظان أحمد بن محمد بن حواري المعري .

أبو الخطاب أحمد بن أبي المغيرة الأندلسي .

---

(١) تعريف القدماء ص ٥١٨ عن الانصاف والتحري _ لابن العديم .
(٢) الغفران تحقيق بنت الشاطيء ط ١ ص ٤٥٩ .
(٣) ارشاد الأريب الى معرفة الأديب .

أبو عثمان اسماعيل بن عبد الرحمن الصابوني : المتوفى سنة ٤١٩ هـ .

قال ياقوت (ج ٢ ص ٣٤٨)(١) أنه دخل المعرة ، فلقي أبا العلاء . وروى عنه الباخرزي في (دمية القصر ص ٥١)(٢) ثلاثة أبيات من (اللزوم) وثمانية عشر بيتاً من قصيدة :

ياساهرَ البرقِ أيقِظْ راقدَ السمر(٣) . . . .

وقوله :

حيٍّ من أجل أهلهنّ الديارا (٤) . . . .

وهو اربعة أبيات . وقوله في وصف الشمعة :

وصَفْرَاء لونَ التبر مثلي جليدة(٥) . . . .

وهو أربعة أبيات .

الشيخ الزاهد أبو سعد إسماعيل بن علي بن الحسين . . الرازي السمان المتوفى سنة ٤٠٥ هـ .

---

(١) إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب .

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٩ عن دمية القصر ، ومطلع الأبيات :

محمودنا الله والمسعود خالقه — فعد عن ذكر محمود ومسعود

وانظر اللزوميات ص ١١٠ .

(٣) شروح سقط الزند : ق ١ ص ١١٤ وعجزه : «لعل بالجزع أعواناً على السهر» ، وهي قصيدة طويلة روى منها الباخرزي في الدمية ثمانية عشر بيتاً ، انظر تعريف القدماء ص ٩ — ١٠ .

(٤) وعجزه : « وابك هنداً لا النؤي والأحجارا » .
انظر شروح السقط ق ٢ ص ٦٥٢ .

(٥) عجزه : « على نوب الأيام والعيشة الضنك » . انظر شروح السقط ق ٤ ص ١٧٢٣ .

كان شيخ المعتزلة في الري ، وكان حافظاً رحّالا ، روى عن أبي العلاء ، وقرأ عليه بالمعرة ، وقد ذكرنا له حديثاً رواه ابن العديم في الإنصاف (١) .

جعفر بن أحمد بن صالح بن جعفر بن سليمان المعري .

قرأ على أبي العلاء ، وكتب الكثير عنه

أبو عبد الله الحسن بن ابراهيم بن محمد الحاجي .

وذكر الميمني (٢) (ص ٢٢١) ، ممن أخذ عنه .

الامير أبا الفتح الحسن بن عبد الله بن أبي حصينة المعري .

شاعر أسد الدولة ، وقد ولاه المعرة وتوفي حدود سنة ٥٠٠ هـ .
والصحيح أنه توفي سنة ٤٥٧ هـ ولم يتول المعرة ، وإنما مدح نصر بن صالح ابن مرداس فقال : تمن عليّ ! قال : أتمنى أن أكون أميراً . فجعله أميراً ، واستلم السجل بتأميره سنة ٤٥١ هـ من قبل المستنصر العلوي ، وكان وفد إليه رسولاً من قبل تاج الدولة ومدحه سنة ٤٣٧ هـ ، ثم مدحه سنة ٤٥٠هـ ، ولم أر من ذكر أنه أخذ عن أبي العلاء ، وإنما قال ابن العديم (٣) : إن ابا العلاء جمع شعر الأمير في ثلاث مجلدات ، وشرح مواضع منه كما سيأتي .

ابو محمد الحسن بن علي بن عمرو المعروف بقحف العلم .

قال ابن العديم في (ملقى السبيل) : «اخبرنا به أبو إسحاق ابراهيم بن عثمان

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٢٤ عن الانصاف والتحري — لابن العديم .
(٢) انظر (أبو العلاء وما اليه) .
(٣) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٤١ عن الإنصاف والتحري — لابن العديم .

السكامري (كذا) قال أخبرنا نحف العلم ، قال : أخبرنا أبو العلاء » .
وقال الذهبي في (ميزان الاعتدال ج ١ ص ٢٤٦) : « الحسن بن علي ... كثير المحفوظ ، واعظ قصاص » . وقال ابن السمعاني : « لم يكن موثوقاً به ، وزعم أنه لقي أبا العلاء بن سليمان . ومات سنة ٥١٥ هـ » .

أبو الوليد الحسن بن محمد بن علي بن محمد الصوفي البلخي الدربندي الحافظ المتوفى سنة ٤٥٦ هـ .

روى عنه ياقوت في (معجم الأدباء) أنه قال : أنشدني أبو العلاء التنوخي في داره عند وداعي إياه [١] :

كَمْ بَلْدَةٍ فارَقْتُها ومَعَاشِرٍ   يَذْرُونَ مِنْ أَسَفٍ عَلَيَّ دُمُوعا

الأبيات . وستأتي . وذكر في (معجم البلدان) أنه كان يكنى قديماً بأبي قتادة ، وكان ممن رحل في طلب الحديث . وذكر ابن عساكر (ج ٤ ص ٢٤٧) ، أنه شيخ مشهور معروف من المشايخ الجوالين في طلب الحديث ، المكثرين منه ، طاف في الآفاق ، ودوخ البلاد والأطراف ، وحصّل الأسانيد والغرائب والحكايات ، ثم رجع إلى سمرقند ومات بها ، وفي (سقط الزند ج ٢ ص ١٢٦) أنه قال الأبيات المذكورة على لسان البلخي [٢] .

أبو إبراهيم الخليل بن عبد الجبار القزويني .

ذكره في (لسان الميزان) [٣] في جملة من أخذ عن أبي العلاء ، وروى

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٨٢ عن ارشاد الأريب ـ لياقوت .
(٢) في شروح السقط ق ٤ ص ١٧٢١ .
(٣) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٣١٥ عن لسان الميزان ـ لابن حجر .

السلفي عنه حديثاً رواه عن أبي العلاء بالمعرة ، يرويه عن أصحاب خيثمة ابن سليمان القرشي الطرابلسي . وقال ابن العديم (١) : « الخليل بن عبد الجبار ابن عبد الله التميمي القراني . . » . وهذا توفي سنة ٥١٠ هـ .

أبو الحسن رشأ بن نظيف بن ماشاء الله المقرىء .

وفي (مختصر ابن عساكر): المعري انتهت إليه الرآسة في قراءة ابن عامر . وكان ثقة وقرأ على جماعة من قراء العراق ومصر بعدة روايات ، وهو صاحب دار القرآن الرشئية التي كانت في دمشق ، شمالي السيساطية ولد نحو سنة ٣٧٠ هـ وتوفي سنة ٤٤٤ هـ وذكره ابن العديم (٢) فيمن قرأ على أبي العــلاء .

أبو الربيع سليمان بن أحمد السرقسطي المتوفى سنة ٤٧٩ هـ عن ثمانين سنة .

نقل الذهبي وابن حجر في (اللسان ج ٣ ص ٧٥) عن أبي القاسم الأرجي عن هبة الله بن علي المقرىء قال : أنشدنا أبو الربيع السرقسطي ، أنشدنا أبو العلاء المعري لنفسه (٣) :

أَنَا صَائِمٌ طُولَ الحياةِ وإِنَّمَا ... فِطْرِي الحِمَامُ ويَوْمَ ذَاكَ أُعَيِّدُ

وأورد أربعة أبيات أخر .

القاضي أبو يعلى عبد الباقي بن أبي حصين عبد الله بن أبي القاسم المحسن بن عمرو بن سعيد التنوخي المعري .

كان عالماً جليلا وشاعراً مجيداً ، ولي قضاء المعرة ، وهو ابن خمس

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥١٨ عن الإنصاف والتحري ـ لابن العديم .
(٢) المصدر السابق .
(٣) المصدر السابق ص ٣٧٨ ـ عن سر العالمين للغزالي .

وعشرين سنة ، ورأيت له كتاباً في القوافي في المكتبة الظاهرية في دمشق . يقول في خاتمته : « سألت الشيخ أبا العلاء ، ما تسمى القصيدة من الرجز تجتمع فيها القافية المتكاوسة ، والمتراكبة والمتداركة .. ؟ » .

أبو القاسم ، عبد الدائم بن مرزوق بن خير القيرواني [1]

نحوي قديم ، روى عنه (السقط) أخو ابن السيد البطليوسي أبو الحسن علي بن محمد وتوفي بطليطلة سنة ٤٧٢ هـ .

القاضي أبو سعد عبد الغالب بن أبي حصين عبد الله بن أبي القاسم السابق ذكره .

عبد الله بن أبي القاسم المحسن بن عمرو بن سعيد التنوخي .

أبو محمد عبد الله بن محمد بن حسنون بن بازل .

أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي .

القاضي أبو محمد عبد الله بن أبي المجد محمد أخي أبي العلاء .

ولد بالمعرة سنة ٣٩٧ هـ ، وكان أديباً شاعراً وله ديوان شعر ، ورسائل ، وولي القضاء في المعرة سنة ٤٤٣ هـ ، وروى عن أبيه أبي المجد محمد ، وعن عمه أبي العلاء ، وتولى خدمة عمه بنفسه ، وكان يكتب له تصانيفه ، ويكتب عنه بإذنه السماع والإجازة لمن يطلب ذلك من عمه . وكان يخدمه ويعطفه في مرضه ، فقال فيه أبو العلاء : [2]

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٣٨٦ عن الفهرست ـ لابن خير الاشبيلي .

(٢) المصدر السابق الصفحات ٦٥ ، ٤٩٦ ، وانظر (أبو العلاء وما إليه) للميمني ص ١٢ في فائت شعر أبي العلاء .

وَقاضٍ لا يَنامُ اللَّيلَ عَنّي وَطُولُ نَهارِهِ بَيْنَ الخُصُومِ
يكُونُ أبَرَّ بِي مِنْ فَرْخِ نَسْرٍ بِوالِدِهِ وأَلْطَفَ مِنْ حَمِيمِ
سأَنشُرُ شُكْرَهُ في يَومِ حَشْرٍ أَجَلْ وَعَلى الصِّراطِ المُستَقِيمِ

وقال فيه :

أَعَبْدَ اللهِ مَا أَسْدَى جَمِيلاً نَظِيرَ جَميلِ فِعلِكَ غَيْرُ أُمّي
سَقَتْنِي دَرَّها ودَعَتْ وَبَاتَتْ تُعَوِّذُنِي وتَقْرَأُ أوْ تُسَمّي
هَمَمْتَ بِأَنْ تُجَنِّبَنِي الرَّزَايا فَرُمْتَ وِقايَتِي مِنْ كُلِّ هَمِّ
كَأَنَّ اللهَ يُلْهِمُكَ اختِيارِي فَتَفْعَلُهُ ولَمْ يَخْطُرْ بِوَهْمِي
حَمِدْتُكَ في الحَياةِ أَتَمَّ حَمْدٍ وَأيّامِي ذَمَمْتُ أَتَمَّ ذَمِّ
أجِدَّكَ مَا تَرَكْتَ وأنتَ قاضٍ تَعَهُّدَ مُقْعَدٍ أعْمَى أَصَمِّ
جَزاكَ البَارِئُ ابنَ أخٍ كَريمٍ أَبَرَّ بِمُعْجَزٍ في بِرِّ عَمِّ

وتقدم قوله فيه لما أراد أن يسقيه السكنجبين . وتوفي عبد الله سنة ٤٦٥ هـ . وقد ترجمته في (تاريخ المعرة) .

أبو المنصور عبد المحسن بن محمد بن علي الصوري البغدادي .

أبو المكارم عبد الوارث بن محمد الأسدي .

وقيل : ابن محمد بن عبد المنعم الأسدي المالكي الأبهري . روى السلفي جملة من الأشعار والأخبار عنه عن أبي العلاء وقد روى (السقط)

وكثيراً من غيره عن أبي العلاء ، قال السمعاني (١) : «تلمذ لأبي العلاء وقرأ عليه الأدب» وروى أبو عبد الله الحسن بن عبد الملك الخلال بأصبهان قال : أنشدنا أبو العلاء المعري لنفسه :

غَيْرُ مُجْدٍ فِي مِلَّتِي وَاعْتِقَادِي (٢) . . .

وروى ابن العديم (٣) عن مزيد بن نبهان ابن أخ أبي المكارم الأبهري قال : « بقي عمي - يعني أبا المكارم - عند أبي العلاء أربع سنين يقرأ عليه ، وكان الحافظ يثني على أبي المكارم كثيرا وقال أحمد بن محمد الأصبهاني الحافظ : هذان الإمامان - يعني أبا زكريا التبريزي وأبا المكارم الأبهري - من أجلاء من رأيته من أهل الادب والمتبحرين في علوم العرب ، وإلى أبي العلاء انحيازهما ، وقد أقاما عنده برهة من الزمن للقراءة والأخذ عنه والاستفادة . وقد أدركت سواهما جماعة من أصحابه الناقلين عنه بمكة والعراق ، والجبل والشام ، وديار مصر ، وأنشدوني عنه ما أنشدهم وحدثهم . ومن جملتهم أبو ابراهيم الخليل بن عبد الجبار القراني ، رأيته بقزوين ، وروى لي عنه حديثاً واحداً مسنداً يرويه عن أصحاب خيثمة ابن سليمان القرشي الطرابلسي » .

أبو القاسم عبيد الله بن علي بن عبد الله الرقي الأديب (٤) .

سكن بغداد وكان من العلماء بالنحو والأدب واللغة والفرائض وكان

---

(١) الأنساب .

(٢) شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٩٧١ وعجزه : « نوحُ باكٍ ولا ترنم شادِ »

(٣) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٢٠ ، عن الإنصاف والتحري - لابن العديم وقد اختصر المؤلف رواية النص .

(٤) البغية ٣٢٠ والأنساب ٢٧٥ (ع) .

صدوقا ، أخذ عن الربعي والمعري وله كتاب في القوافي وتوفي سنة ٤٥٠ ﻫ .

أبو عمرو السناقي عثمان بن أبي بكر بن حمود الصدفي .

رحل إلى المشرق بعد سنة ٤٢٠ ﻫ وعاد إلى الأندلس سنة ٤٣٦ ﻫ وروى عن أبي العلاء خطبة الفصيح .

أبو الخطاب العلاء بن عبد الوهاب بن أحمد بن عبد الرحمن بن سعيد بن حزم الأندلسي المرسي (١)

ويعرف بابن أبي المغيرة ، وفي ابن العديم (٢) : « أبو الخطاب العلاء بن حزم » .

أبو القاسم علي بن أحمد المقرىء الحلبي .

شيخ الإسلام أبو الحسن علي بن أحمد بن يوسف بن جعفر بن عرفة الهكاري الزاهد (٣)

من ولد عتبة ابن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية المتوفى سنة ٤٨٦ ﻫ . لقي أبا العلاء وسمع منه ، فلما انفصل عنه سأله بعض أصحابه عما رآه منه ، وعن عقيدته ، فقال : هو رجل من المسلمين . والهكارية قبيلة من الأكراد لهم معاقل وحصون وقرى من بلاد الموصل من جهتها الشرقية .

أبو الحسن علي بن عبد الله بن أبي هاشم المعري .

مستملي أبي العلاء ، ومتولي أوقاف جامع المعرة ، وفي نسخة من (العدل والتحري) علي بن عبيد الله . وكان من العدول الأمناء الفضلاء

(١) نفح الطيب ٢/١٢ ، والبغية ٢١٤ (ج) .
(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥١٨ عن الإنصاف ـ لابن العديم .
(٣) الوفيات ، لسان الميزان ٣/١٤٣ ، الإنصاف . (ج) .

لزم أبا العلاء ، وكتب كتبه بأمرها ، وكتب من المصنف الواحد عدة نسخ . وكان حسن الخط والإتقان والضبط ، وقد قال أبو العلاء في بعض كتبه أو في مقدمة فهرست كتبه : « لزمت مسكني منذ سنة أربعمائة ، واجتهدت أن أتوفر على تسبيح الله وتمجيده ، إلا ان أضطر إلى غير ذلك ، فأمليت أشياء ، وتولى نسخها الشيخ أبو الحسن علي بن عبد الله بن أبي هاشم ، أحسن الله معونته ، فألزمني بذلك حقوقاً جمة ، وايادي بيضاء ، لأنه أفنى فيَّ زمنه ، ولم يأخذ عما صنع ثمنه » . وكتب أبو العلاء (رسالة الضبعين) إلى ثمال بن صالح ، وفيها يزكي بني أبي هاشم وسيأتي ذلك .

أبو الحسن علي بن غنائم الرخيمي الكفوطابي المقرىء .

القاضي أبو الحسن علي بن محمد أخي أبي العلاء .

ولد سنة ٤٠٥ ﻫ وكان فاضلا ، سمع على عمه أبي العلاء جميع أماليه ، ونسخها بخطه . وقد ولي قضاء المعرة وحماة ، وتوفي سنة ٤٥١ ﻫ .

أبو الحسين علي بن محمد بن عبد اللطيف المعري .

المعروف بابن زريق ، ووالد أحمد السابق ذكره .

أبو الحسن علي بن همام المعري .

وهو الذي رثى أبا العلاء بقوله المتقدم (١) :

إِنْ كُنْتَ لَمْ تُرِقِ الدِّمَاءَ زَهَادَةً   فَلَقَدْ أَرَقْتَ اليَوْمَ مِنْ عَيْنِي دَمَا

أبو تمام غالب بن عيسى الأنصارى الأندلسي .

ذكره ابن حجر في (لسان الميزان ج ١ ص ٢٠٦) في جملة من

---

(١) انظر ما سبق ص ٤٤٦ .

روى عن المعري وذكر ابن الأبار في (التكملة) أنه روى عن المعري وروي عنه :

أَبَا العَلاءِ بْنَ سُلَيْمَانَا عَمَاكَ قَدْ أَوْلاكَ إِحْسَانَا[1]
لَوْ أَبْصَرَتْ عَيْنَاكَ هذَا الوَرَى لَمْ يَرَ إِنْسَانُكَ إِنْسَانَا

وفي ابن العديم أبو الهمام غالب بن عيسى بن أبي يوسف الأنصاري ، وقد ترجمه ابن الأبار في التكملة .

القاضي أبو القاسم المحسن بن عمرو بن سعيد بن عمرو التنوخي .

وفي (الخريدة) المحسن بن عبد الله بن محمد بن عمرو بن سعيد أبو الطاهر محمد بن أحمد بن أبي الصقر الخطيب الأنباري المتوفى سنة ٤٧٦ هـ . قرأ عليه بالمعرة ، وقد ذكره في (لسان الميزان) وذكره السيوطي في (بغية الوعاة) وروى عنه حديثاً في ص ٤٥١ . رواه عن المعري قراءة عليه بالمعرة ، وذكره ابن العديم [2] فيمن روى عنه .

أبو الفرج محمد بن أحمد بن الحسن الكاتب الوزير .[3]

أبو الفرج محمد بن أحمد بن الحسن التبريزي [4]

القاضي أبو سعد محمد بن أحمد .

روى عن المعري فوائد كثيرة ، ووجد على حاشية نسخة من

(١) التكملة ٢/٦٩٩ وفيها : « إن العمى أولاك إحساناً » وانظر تعريف القدماء بأبي العلاء الصفحات ٤٠٨ ، ٤٦٥ .

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥١٦ عن الانصاف والتحري .

(٣) ابن العديم . (ج)

(٤) ابن العديم . (ج)

(الجمهرة) يقول فيها : « قال لي الشيخ أبو العلاء » وقد ذكره القفطي في (إنباه الرواة) .

أبو الفضل الوزير محمد بن عبد الواحد بن عبد العزيز بن الحرث ابن أسد بن الليث بن سليمان بن الأسود بن سفيـــان التميمي الدارمي البغدادي .[1]

خرج من بغداد سنة ٤٣٥ هـ رسولاً عن الخليفة القائم بأمر الله العباسي إلى صاحب إفريقية المعز بن باديس ، واجتمع بأبي العلاء في المعرة ، وأنشده قصيدة لامية ، يمدح بها صاحب حلب ، فقبل عينيه ، وقال له : لله أنت من ناظم ، ثم خرج من افريقية إلى طليطلة ، وتوفي نحو سنة ٤٥٥ هـ وكانت ولادته سنة ٣٨٨ هـ . وهو من بيت عـــلم وأدب . والظاهر أنه روى شيئاً عن أبي العلاء ، لأن ابا بكر بن الخير الأندلسي قال في (فهرست مروياته) : وحدثني بالسقط ايضاً عبد الملك بن محمد ابن هشـــام عن أبي محمد بن الســيد البطليوسي عن أبي الفضل البغدادي عن المعري .

أبو اليمن محمد بن الخضر بن أبي مهزول الملقب بالسابق المعري .

وكان شاعراً مجيداً عالما باللغة حسن الخط ، وله رسالة سماها (تحفة الزمان) أو الندمان أتى فيها بكل معنى غريب ، وكل شعر مختار لأديب وتوفي بعد المائة الخامسة ، وتجد ترجمته في (الفوات) و (بغية الطلب) و (ابن عساكر) و (الشذرات) و (بدائع البدائه) وقد استوفينا ترجمته في (تاريخ المعرة) وعدّه ابن العديم فيمن قرأ عن أبي العلاء من أهل بلده .

(١) نفح الطيب ١٠٣/٢ ، ابن العديم ، اليمني ٢١٢ . (ج)

أبو النصر محمد بن محمد بن أحمد بن همهاه الرامشي النيسابوري النحوي المتوفى سنة ٤٨٩ هـ .

قال ياقوت (ج ٧ ص ١٠٠) أنه أخذ الأدب عن أبي العلاء ، وفي ابن العديم : ابن هشماه وفي (بغية الوعاة ص ١٠٠) ابن همياه (١) .

أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله الأصبهاني .

وكان عالماً فاضلاً ، قصد المعرة ولازم أبا العلاء مدة حياته ، يقرأ عليه. وروى عنه كتبا متعددة من تصانيفه ، وسأله أن يشرح له (سقط الزند) فشرحه له ، وسماه (ضوء السقط) وفي ابن العديم : روى عن أبي العلاء ، وعن أبي صالح محمد بن المهذب المعري وتوفي سنة ٤٩٦ هـ وسيأتي ذكره في الكلام على (ضوء السقط) وفي أقوال العلماء في المعري ، والظاهر أنه قدم المعرة نحو سنة ٤٤٧ هـ كما سيأتي .

الشيخ أبو صالح محمد بن المهذب بن علي بن المهذب المعري .

ابن عمة أبي العلاء وكان عالماً فاضلاً محدثاً شاعراً ، حدث بالكثير عن أبي العلاء .

أبو الفضل بن صالح المعري .

ذكره ابن العديم فيمن أخذ عن أبي العلاء وقرأ عليه .

نصر بن صدقة القابسي الأندلسي النحوي أبو عبد الله .

كما في (بغية الوعاة ص ٤٠٣) وفي ابن العديم : « أبو القاسم نصر .. » كان أديباً فقدم مصر ، وأخذ عن أدبائها وعلمائها ، ثم توجه الى المعرة ، فلازم أبا العلاء ، وأخذ عنه ديوانه (سقط الزند) وكتب منه نسخة

---

(١) انظر السمعاني ص ٢٤٤ ، والمنتظم في وفيات سنة ٤٨٩ هـ . (ج)

جيدة ، ورجع إلى مصر ، فقدمها للحاكم ، فقرىء عليه فأعجبه نظمه ، وأرسل إلى عزيز الدولة الوالي بحلب أن يحمله إلى مصر ، فاعتذر فكف عنه .

القاضي أبو الفضل هبة الله بن أحمد بن يحيى بن زهير .

قال في (معجم الأدباء ج ٦ ص ٢٠) : « ولعله لقي أبا العلاء المعري وقرأ عليه شيئاً » وهو من أجداد كمال الدين بن العديم الحلبي ، وذكره ابن العديم فيمن قرأ على أبي العلاء وروى عنه .

أبو غالب همام بن الفضل بن جعفر بن علي بن المهذب المعري المؤرخ .

وقد سبق ذكره ، وذكره ابن العديم فيمن قرأ على المعري .

أبو الحسن يحيى بن علي بن محمد بن عبداللطيف المعروف بابن زريق المعري.

اجتمع بأبي العلاء صغيراً ، وسمـــع منه بيتين من شعره ، وله تاريخ على ترتيب السنين ، قيل إنه ولد سنة ٤٤٢ ﻫ وفي (كشف الظنون) سنة ٤٣٢ ﻫ .

أبو زكريا يحيى بن علي بن محمد بن الحسن بن بسطام الشيباني التبريزي .

المعروف بالخطيب وقيل : هذا وهم بل هو ابن الخطيب ولد سنة ٤٢١ هجرية . وقرأ على جماعة كثيرين ، حتى كانت له معرفة تامة بالأدب والنحو واللغة . ومنهم أبو العلاء وكان سبب توجهه إليه أنه حصلت له نسخة من كتاب (التهذيب في اللغة) تأليف أبي منصور الأزهري ، وأراد تحقيق ما فيها وأخذها عن رجل عالم باللغة ، فدل على أبي العلاء ، فحمل الكتاب في مخلاة على كتفه من تبريز الى المعرة ، إذ لم يكن له ما يستأجر به مركوباً . فنفذ العرق من ظهره اليها فأثر فيها البلل ، وذكره في (البغية ص ١٣٦) فيمن قرأ على أبي العلاء في بغداد ، وهو خطأ لأنه ولد بعد رجوع أبي العلاء منها بنحو ٢١ سنة ، وقرأ على أبي العلاء شيئاً من كتب اللغة ، وشيئاً

من تصانيفه ، وكان يحثه على الاشتغال بغير (السقط) من كتبه ، وكان يقول : أفضل من رأيته ممن قرأت عليه أبو العلاء ، ولما قرأ عليه (إصلاح المنطق) طالبه بسنده متصلاً فقال له : إن أردت الدراية فخذه عني ولا تتعد ، وإن قصدت الرواية فعليك بما عند غيري . وله كتب كثيرة منها (شرح الحماسة) وهي طافحة بأقوال أبي العلاء ، وآرائه ، وتخريجه في اللغة ، ومنها (شرح سقط الزند) و (شرح ديوان المتنبي) و (القصائد العشر) و (المفضليات) وله (تهذيب غريب الحديث) و (إصلاح المنطق) و (مقدمات في النحو) و (الملخص في إعراب القرآن) و (الكافي في العروض والقوافي) وغيرها .

وقد أقام بالمعرة يقرأ عليه أكثر من سنتين في قول ابن العديم . وقد تقدم عن القفطي أنه قال : قال الخطيب التبريزي : قرأت كتاب (غريب الحديث) لأبي عبيد سنة ٤١٥ هـ على أبي العلاء ؛ ولم أر من العلماء من ذكر في أية سنة قدم التبريزي على أبي العلاء ، وفي أية سنة فارقه ، ولكن قالوا إنه قرأ عليه (غريب الحديث) سنة ٤٤٥ هـ وأنه أقام عنده أكثر من سنتين . وأنه قرأ على أبي القاسم التنوخي وهذا توفي سنة ٤٤٧ هـ ويفهم من مجموع هذه الأقوال وأشباهها أنه فارق المعرة نحو سنة ٤٤٦ هـ وأقام فيها نحو ثلاث سنوات قبلها .

أبو الحسن يحيى بن محمد الرازي .

قال القفطي (١) قصد : أبا العلاء : من الطلبة رجل أعجمي يعرف بالكرداني وكتب عنه فيما كتب (ذكرى حبيب) فتقدم أبو العلاء الى بعض نسبائه بما كتبه له على الكتاب المذكور وهو :

« قال أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي من أهل معرة النعمان :

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٣٧ عن إنباه الرواة ــ القفطي .

قرأ علي هذا الجزء وهو الجزء الثـاني من الكتاب المعروف (بذكرى حبيب) الشيخ الفاضل أبو الحسن يحيى بن محمد الرازي ، أدام الله عزه من أول الجزء الى آخره ووقع الاجتهـاد مني في تصحيح النسخة ، وكان ابتداؤه بقراءته لسبع بقين من شعبان سنة ست وأربعين وأربعمائة ، وفرغ من قراءته لثلاث بقين من شهر ربيع الأول سنة سبع وأربعين وأربعمائة ، وأجزت له أن يرويه عني على حسب ما قرأه ، ويشهد الله أني معتذر الى هـذا القارىء من تقصيري فيما هو عليّ مفترض من حقوقه ، والاعتراف بالمعجزة تمنع من اللائمـة المنجزة .

وكتب جابر بن زيد بن عبدالواحد بن عبدالله بن سليمان بإذن أحمد بن عبدالله ابن سليمان [المعري] في المحرم سنة ثمان وأربعين وأربعمائة . »

أبو الفتح بن أحمد السروجي أخو القاضي أبي المهذب عبد المنعم .

وسيأتي أنه دخل عليه فوجده يبكي .

أبو عبد الله بن جابر القرطبي .

روى عن أبي العلاء شعره ذكره ابن الأبّار في التكملة .

★ ★ ★

الذين كاتبوه نثراً

الذين كاتبوا أبا العلاء ودارت بينه وبينهم رسائل نثرية كثيرون منهم :

التكتي أبو الحسن أحمد بن عثمان البصري .

وهذا كتب رسالة (١) لأبي العلاء ، فقصر كنيته ، وبدل اسمه ، فأجابه برسالة انتقد فيها ذلك ، كما سيأتي ، ويتبين من فحوى هذه الرسالة أن أبا العلاء كان يعرفه من قبل ، وأنها كتبت بعد أن حبس نفسه في البيت ، وأن له صديقاً يقال له أبو القاسم المبارك بن عبد العزيز حدث أبا العلاء عن ابن خالويه .

أبو القاسم الوزير المغربي الحسين بن علي المتوفى سنة ٤١٨ هـ .

والظاهر من كلام أبي العلاء في (رسالة المنيح) (٢) أن ابا القاسم زار المعرة وهو صغير قبل أن يلي الوزارة ، ثم ذهب مع أبيه الى مصر ، فكتب منها رسالة إلى أبي العلاء ، وأرسل معها قصيدتين ، ميمية وواوية ، ثم أرسل إليه كتاب (مختصر إصلاح المنطق) فأجابه أبو العلاء عن الأولى برسالته المعروفة (برسالة المنيح) وهذا كله قبل أن يصير وزيراً ، لأنه ولد سنة ٣٧٠ هـ وقتل الحاكم أباه سنة ٤٠٠ هـ وذهب أبو القاسم الى الرملة ، فالحجاز ، فالعراق هارباً من الحاكم ، وأقام في بغداد حيناً ، ثم ذهب الى الموصل ، ثم وزر في بغداد سنة ٤١٥ هـ لمشرف الدولة البويهي ، ثم توجه إلى ديار بكر ، فوزر لسلطانها .

وقد مدح أبو العلاء في (رسالة المنيح) كتاب الوزير وأثنى على براعته وبلاغته ، وأشار الى الكتاب والقصيدتين ، وأثنى على والده ، الى غير ذلك مما يدل على أن كتاب أبي القاسم كان إلى أبي العلاء من مصر ، وأن ذلك كان قبل سنة ٤٠٠ هـ . وأما (رسالة الإغريض) فقد أرسل أبو القاسم إلى أبي العلاء كتاب (مختصر إصلاح المنطق) مع رجل يقال

---

(١) أنظر الرسالة في (رسائل أبي العلاء) ص ١٠٥ ـ لشاهين عطية .

(٢) رسائل أبي العلاء ص ٥ ـ لشاهين عطية .

له موسى ، وكتاباً مع آخر يقال له الزهيري ، فمدحه أبو العلاء ، ومدح أباه ، وتكلم في (مختصر إصلاح المنطق) وشواهده ، واعتذر عن عدم مكاتبته اباه . وذكر انه علم أن رسالته الأولى (المنيـــع) وصلت إلى أبي القاسم ، الى غير ذالك مما يدل على أن الرسالة والمختصر والكتابين وردت من مصر قبل سنة ٤٠٠ هـ ، ولما مات أبو القاسم رثاه أبو العلاء بأبيات في لزوم ما لا يلزم أولها : (١)

لَيْسَ يَبْقَى الضَّرْبُ الطَّوِيلُ عَلَى الدَّهْـــرِ وَلا ذُو العَبَالَةِ الدَّرْحَايَهْ (٢)

أبو الحسن علي بن منصور بن طالب الحلبي الملقب بدوخلة والمعروف بابن القارح .

درس بحلب على ابن خالويه ، وسافر الى بغداد والموصل ، وأقام بمصر مؤدب أبا القاسم المغربي ، وولدي الحسين بن جوهر القائد ، وأقام بالمعرة سنة على مـــا يشعر به قول أبي العلاء في (رسالة الغفران ص ١٩٢) : « كان حتى الشيخ إذ أقام في معرة النعمان سنة ألا يسمع لي بذكر (٣) .. » كتب الى أبي العلاء رسالته المشهورة ، فأجابه عنهـــا (برسالة الغفران) ونقل ياقوت أنه ولد سنة ٣٥١ هـ ، وفي (رسالة الغفران ص ١٤٩) : « ولا يجوز أن يخبر مخبر ، منذ مائة سنة ، أن أمير حلب ، حرسها الله ، في سنة أربع وعشرين وأربعمائة ، اسمه فلان ابن فلان ، وصفته كذا ، فإن ادعى ذلك مدع ، فإنمـــا هو متخرص كاذب (٤) » اهـ .

وترجمته في (البغية ص ٣٥٥) و (ياقوت٥/٤٢٤ (٥)) ويمكن أن تكون هذه السنة هي التي كتب فيها (رسالة الغفران) بل هذا الظاهر من كلامه .

---

(١) اللزوميات هـ.ص ٣٤٦

(٢) العبالة : الغلظ ، والدرحاية : القصير .

(٣) انظر الغفران تحقيق بنت الشاطئ، ط ١ ص ٥١٥ ، وفيها : « إذا أقام » .

(٤) المصدر السابق ص ٣٨٧ .

(٥) إرشاد الأريب الى معرفة الأديب .

أبو الحسن محمد بن سعيد بن سنان .

كان بينه وبين أبي العلاء تزاور وتجاور ، كتب اليه كتابا في أمر اختصار (كليلة ودمنة) وأجابه أبو العلاء برسالة ذكر بعضها في (رسائله ص ٢٢١) [١] وفيها يقول : « وأحسبه أدام الله قدرته يحسبني على ما يعهد من القوة والصبر ، ولست كذلك .. » .

مرجى بن كوثر المقرىء النحوي المؤدب أبو القاسم .

قال ياقوت : نحوي مقيم بحلب له (المفيد) في النحو وكتاب في الضاد والظاء ، وبينه وبين أبي العلاء مكاتبة [٢] .

داعي الدعاة أبو نصر هبة الله بن موسى بن أبي عمران .

اشتهر ان أبا العلاء يمتنع عن أكل الحيوان ، ويحض على تركه ، واجتناب ما تولد منه ، فاتخذ ذلك حساده وخصومه وسيلة للطعن في دينه ، وقالوا إنه يدين بدين البراهمة ، فلما قال قصيدته التي مطلعها : [٣]

غَدَوْتَ مَرِيضَ العَقْلِ والدِّينِ فالقَني ... لِتُخْبَرَ أَنْباءَ الامُورِ الصَّحائِحِ

كتب اليه داعي الدعاة أبو نصر المذكور كتابا ، يذكر فيه أنه مريض بهذا المرض ، وقد أتاه مستشفيا ، ثم جرت بينهما مكاتبات في هذا الموضوع ، والظاهر أن داعي الدعاة كتب اليه ذلك ، وهو في بلاد الشام ، لأنه يقول في بعض أجوبته : [٤] « فلما رمت بي المرامي إلى

---

(١) انظر الرسائل شرح شاهين عطية .

(٢) البغية ٣٩٠ (ج)

(٣) اللزوميات هـ س ٨٤ وفيها : « لتسمع » .

(٤) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ١٣٤ عن إرشاد الأريب — ليالوت .

الشام ، وسمعت أن الشيخ يتفضّل في الأدب والعلم .. فقصدته قصد موسى للطور اقتبس منه نارا .. » .

وقد نقل ياقوت (ج ١ ص ١٩٤) عن ابن المبارية « أنه جرت بينهما مكاتبات كثيرة ، أمر في آخرها بإحضاره إلى حلب ، ووعده على الإسلام خيراً من بيت المـــال ، فلما علم أبو العلاء أنه يحمل للقتل أو الإسلام سم نفسه ومات » . ثم قال ياقوت : « لما وقفت على هذه القصة ، اشتهيت أن أقف على صورة ما دار بينهما على وجهه ، حتى ظفرت بمجلد لطيف وفيه عدة رسـائل من أبي نصر هبة الله بن موسى الى المعري في هذا المعنى ، انقطع الخطاب بينهما على المـاكتة ، ولم يذكر فيها ما يدل على ما ذكره ابن المبارية من سم المعري نفسه ، ونقلها على الوجه يطول ، فلخصت منها الغرض دون تفاصح المعري وتشدقه » ثم أورد ثلاث رسائل لداعي الدعاة ، ورسالتين لأبي العلاء يظهر أثر الحذف والمسخ فيها .

وقـــال ابن حجر في (لسان الميزان ج ١ ص ٢٠٧) : « وقد طالعت ما دار بينهما - المعري وداعي الدعاة - واستندت منه فيما يتعلق بترجمة المعري ، أنه ذكر عن نفسه ، قال : قضي علي وانا ابن أربـــع لا أفرق بين البازل والربع . قال ومـــت (١) في آخر عمري بالإقعاد وحكم الله عليّ بالإزهاد ، نصرت من العوا (٢) في جهاد » . وقـال في جوابه عن ترك اللحم : « قالوا : إن كان ربنا لا يريد إلا الخير ، فالشر لايخلو من أمرين : إما ان يكون علمه أو لا ، وعلى الأول فإن كان يريده فيجب أن ينسب الفعل إليه ، وإن كان بغير إرادته جـــاز عليه

---

(١) في ياقوت : « ومنيت » (ج) .

(٢) وفيه : « من الدم » . (ج) .

ما لا يجوز على أصغر الأمراء (١) ، إلا أنه لايرضى أن يفعل في ولايته ما لا يريد . وهذه عقدة قد اجتهد المتكلمون في حلها ، فأعوزهم » .

ومن تأمل ما قاله ياقوت ، وما فعله من مسخ رسائل أبي العلاء ، وما قاله ابن حجر ، يتبين له الفرق بين المؤرخ العالم والمؤرخ الأديب . ومن تأمل أجوبة أبي العلاء ، يلوح له من خلال كلماته ، أنه كان يستشعر الريبة والخوف من ملاينة داعي الدعاة وتعظيمه أمر المعري ، وأنه كان يكبح جماح قلمه ، فلا يسترسل في الجواب .

والذي يمكن فهمه من أجوبة أبي العلاء ، أنه كان يصوم الدهر منذ بلغ ثلاثين عاما ، وأنه ما أكل شيئاً من حيوان منذ خمس وأربعين سنة ، والذي حمله على ذلك أن غلته في السنة نيف وعشرون دينارا ، يعطي خادمه بعضها ، وأنه لايريد في رزقه زيادة ، وأنه لم تبق فيه بقية ، وعجز عن القيام في الصلاة ، والقعود إذا كان مضطجعا ، وقد عريت عظامه من اللحم .

وقد كاتب ابن عمران داعي الدعاة ، تاج الأمراء (٢) أن يجري له ما هو بلغة أمثاله من ألذ الطعام ، ويعيشه على أحسن صورة فأبى .

• • •

---

(١) في ياقوت : « ما لا يجوز على أسير مثله في الأرض » . (ج) .

(٢) ذكر ياقوت ج ١ ص ١٨٨ أن أبا العلاء عمل كتاب (اللامع العزيزي) في تفسير شعر المتنبي للامير عزيز الدولة وغرسها ابن تاج الأمراء أبي الدوام ثابت بن ثمال بن صالح بن مرداس ثم قال : ويقال له (اللامع العزيزي) . وقال ابن العديم : عمله للامير عزيز الدولة أبي الدوام ثابت بن ثمال ... ويقال له (الثابت العزيزي) .

وقال الميمني ص ٢٣٤ وصنع أبو العلاء لحفيده وسماه الأمير عزيز الدولة وغرسها ابن تاج الأمراء أبي الدوام ثابت بن ثمال كتابه اللامع العزيزي في تفسير شعر المتنبي ويسمى (معجز أحمد) أيضاً وعزا ذلك إلى ياقوت ، وأعاد نحو ذلك في ص ٢٧٤ ، —

الذين كاتبوه نظما :

وأما الذين كاتبوه نظما فكثيرون منهم :

الشريف أبو ابراهيم محمد بن أحمد العلوي .

مدح أبا العلاء بقصيدة أولها : (١)

غَيْرُ مُسْتَحْسَنٍ وِصَالُ الغَوَانِي بَعْدَ سِتِّينَ حِجَّةً وثَمَانِ

وفيها يقول :

كُلُّ عِلْمٍ مُفَرَّقٍ فِي البَرَايَا جَمَعَتْهُ مَعَرَّةُ النُّعْمانِ

فأجابه أبو العلاء بقصيدته وهي (في السقط ج ١ ص ٩٠)(١) :

عَلِّلَانِي فَإِنَّ بِيضَ الأَمَانِي فَنِيَتْ والزَّمَانُ لَيْسَ بِفَانِ

— وقال في ص ٢٤٦ : وهذا التاج هو أبو الدوام ثابت بن ثمال بن صالح بن مرداس الذي عمل لابنه عزيز الدولة وغرسها صاحبنا (اللامع العزيزي) ... فقد توهم أن تاج الأمراء لقب لثابت بن ثمال ، وعبارة ياقوت قد توهم ذلك ، وقد ذكر ابن العديم في الكلام على حرمته عند الملوك .. أن داعي الدعاة كتب الى تـاج الأمراء ثمال بن صالح ، وكان إذ ذاك نائبا عن العبيديين بحلب وبمعرة النعمان . وفي كتاب داعي الدعاة : وقد كانبت مولاي تاج الأمراء . وقد ذكره أبو العلاء في جوابه ، فالحق ما ذكره ابن العديم ، لأن أبا الدوام لم يكن نائبا للعبيديين ، وكانت ولاية ثمال من سنة ٤٣٤ هـ الى سنة ٤٤٩ هـ وهذا يدل على أن هذه المكاتبة في آخر حياة المعري ، وذكر ابن قاضي شهبة في (طبقات النحاة واللغويين) أن الخطاب بين المعري وداعي الدعاة انتظم على المـكاتبة . وذكر ياقوت (ج ٦ ص ٣٥٨) أن أبا العلاء وجه الرسالة ١٩ الى أبي منصور محمد بن أحمد بن طاهر بن حمد المولود سنة ٤١٧ هـ — ٤١٨ هـ والمتوفى سنة ٥١٠ هـ والخازن لدار الكتب القديمة (ج) .

(١) انظر شروح السقط ق ١ ص ٤٢٥

ومَدَحه أبو إبراهيم بقصيدة مطلعها : (١)

بِعَادُكَ أَسْهَرَ الجَفْنَ القَرِيحَا ودَارُكَ لاتَنِي إِلا نُزُوحَا

فأجابه بقصيدة مطلعها (ج ١ ص ٥٦) (٢) :

أَلاحَ وَقَدْ رَأَى بَرْقاً مُلِيحاً سَرَى فَأَتَى الحِمَى نِضْواً طَلِيحا

---

(١) شروح سقط الزند : ق ١ ص ٢٣٧ .

(٢) ذكر صاحب التنوير في ج ١ ص ٥٦ و ص ٩٠ أنه قال : « علاني فان يبض .. » و « ألاح وقد رأى .. » يجيب بها الشريف أبا إبراهيم موسى ابن إسحق . فقد جعل المجاب والممدوح فيها واحداً وهو موسى بن إسحق وجعلها اليمني في (ص ١٦٥) أخوين أحدهما ابو ابراهيم محمد بن إسحق والثاني أخوه موسى .

وفي التبريزي والخوارزمي والبطليوسي : « قال يجيب الشريف أبا إبراهيم » وبعضهم زاد « العلوي » في القصيدتين ، فقد جعلوا المجاب والممدوح فيها واحداً .

وأبو العلاء بيّن في القصيدة الأولى أن كنيته أبو ابراهيم بقوله :

يا أبا ابراهيم قصّر عنكَ الشـــــر لمـــا وُصِفْتَ بالقرآن

وأن اسمه محمد وأباه أحمد بقوله :

وافق اسم ابن أحمد اسم رسول الـــــه لمـــا توافق الغرضـــات

وسجايا محمد أعجزت في الوصـــــف لطف الأفكار والأذهان

وبين في القصيدة الثانية أنه علوي بقوله :

وأرباب الجيـــــاد بنو عليّ . . . .

وأنه ابن أحمد بقوله :

ومعرفة ابن أحمد آمنتـــــني . . . .

فقد جعل الرجلين ابن أحمد ، وما أظن إلا أنهما واحد ، على أن أبا العلاء ، قال في هذه القصيدة :

وأحمى السالمين ذمار مجد بنو إسحق إنْ مجدٌ أبيحـــا

وقال :

فلَوْ صحّ التناسخ كنتَ موسى وكان أبوك إسحق الذبيحا —

وقال البطليوسي في (شرح السقط ج ٢ ص ٢٥٠) : إن أبا العلاء مدح الشريف أبا إبراهيم العلوي بقصيدته التي مطلعها :

إِلَيْكَ تَنَاهى كُلُّ فخرٍ وسُؤْدُدِ ... فَأَبْلِ اللَّيالي والأَنامَ وَجَدِّدِ

القاضي أبو الطيب الطبري ، طاهر بن عبد الله بن طاهر المتوفى سنة ٤٥٠ هـ .

كتب إلى أبي العلاء أبياتاً على روي اللام ٱلنَّفِز فيها بعد أن دخل بغداد ، ثم دارت بينهما محاورة ذكرناها في الكلام على بداهته .

أبو القاسم علي بن جلبان المعري .

مدح أبا العلاء بقصيدة فأجابه بقصيدة مطلعها (١) :

يَرُومُكَ والجوزَاءُ دُونَ مَرَامِهِ ... عَدُوٌّ يَعِيبُ البَدْرَ عِنْدَ تَمَامِه

وفي (ضوء السقط) ان قول أبي العلاء (٢) :

أَيدْفَعُ مُعْجِزَاتِ الرُّسْلِ قَوْمٌ ... وَفِيكَ وفي بَدِيهَتِكَ اعْتِبارُ

— وإسحق ربما كان جداً للممدوح مثل علي ومحمد ، وقد قال صاحب (بحر الأنساب ص ٦٧) في نسب بني زهرة . وجمهور عقب اسحق المؤتمن ينتهي الى ابراهيم العالم الشاعر ممدوح أبي العلاء المعري وهو محمد الحراني بن أحمد الحجازي ، ولعل الأصل الى أبي ابراهيم العالم ..

ويجوز أن يكون قول أبي العلاء في القصيدة الأولى :

حلبا حجت للطي ولو أنـ ... ـجت عنها مالت الى حران

إشارة الى أن الممدوح حراني (ج) .

(١) شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٤٧٣ .

(٢) المصدر السابق ص ٨١٠ .

إلى آخر الأبيات . أجاب به أبا القاسم بن جلبات ، وقد ذكرت ترجمة أبي القاسم في (تاريخ المعرة) .

أبو علي النهاوندي محمد بن حمد بن فورّجة

كتب إلى أبي العلاء قصيدة أولها (١) :

أَلا قَامَتْ تُجَاذِبُنِي عِنانِي وَتَسْأَلُنِي بِعَرْصَتِها مَقِيـلا

فأجابه بقصيدة في (السقط ج ٢ ص ٨٠) (١) أولها :

كَفَى بِشُحُوبِ أوجهنا دَلِيلاَ عَلَى إِزْماعِنَا عَنْكَ الرَّحِيلاَ

أبو الخطاب الجبلي محمد بن علي المتوفى سنة ٤٣٩ هـ .

مدحه بقصيدة ، فأجابه بقصيدة في (السقط ج ١ ص ١٥٣) (٢) أولها :

أَشْفَقْتُ مِنْ عِبْءِ البَقَاءِ وَعَابِهِ وَمَلَلْتُ مِنْ أَرْيِ الزَّمَانِ وَصَابِهِ

ومدحه بعض الشعراء بقصيدة قيل (إنه المفضل بن سعيد بن عمرو المعري)

فأجابه بقصيدة في (السقط ج ١ ص ١٤٢) منها قوله (٣) :

يَا لَلْمُفَضَّلِ تَكْسُونِي مَدَائِحُه وَقَدْ خَلَعْتُ لِبَاسَ المَنْظَرِ الأَنِقِ

وفي (ضوء السقط) أنه يجيب بها بعض تلاميذه ، وقد زاد بيتا في أول القصيدة .

(١) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١٣٦٩ .

(٢) الأري : العسل ، والصاب : شجر مر ، مفردها صابة . الشروح ق ٢ ص ٧١٥ .

(٣) انظر الشروح ق ٢ ص ٦٧٣ .

ابن تميم البرقي .

كتب إلى المعري أبياتاً يعاتبه ، لأنه لم يعده في مرضه ، فأجابه بأبيات ، منها قوله في (السقط ج ٢ ص ٩٨) :

أَمُعَاتِبِي فِي الهَجْرِ إِنْ جَارَ يْتَنِي   طَلْقَ الجِدَالِ وُجِدْتَ عَيْنَ الظَّالِمِ (١)

وفي (سقط الزند) كثير من الأبيات التي أجاب بها غيره ، ولكن لم يتبين لنا من هو المجاب بها ، ولعله أسقط أسماءهم كما أسقط بعض الأبيات من شعره كقوله في (السقط ج ٢ ص ٣٦) (٢) :

أوالي نعتِ الرّاحِ مِنْ شَغَفٍ بِها   كَأَنَّكَ خَالٌ لِلْمُدَامَةِ أَوْ عَمّْ

فإنها جواب لشاعر عراقي ، عن قصيدة نعت فيها الخمر وتغزل ، وذكر مضض الغربة كما في (ضوء السقط) .

• • •

الذين زاروه في المعرة

الذين زاروه في المعرة كثيرون ، ولكن من عرفناه منهم قليل ، منهم :

الشيخ أبو سعيد الخوارزمي ، أحمد بن محمد بن محمد بن علي بن نمير المتوفى سنة ٤٤٨ هـ .

كان حافظاً متقناً للفقه ، ولم يكن في عصره بعد أبي الطيب الطبري أفقه منه ، تفقه على الشيخ أبي حامد الإسفرائيني ، وقد زار أبا العلاء

---

(١) الشروح ق ٤ ص ١٥١٦ .

(٢) انظر الشروح ق ٣ ص ١١٥٠ . وفيها : « لعلك » .

في المعرة في رمضان سنة ٣٩٨ هـ ، وكان يحمل كتاباً من أبي الطيب الطبري إلى أبي العلاء ، فنهبه أهل البادية في جملة ما نهبوه ، وكان أبو العلاء يعد العدة للسفر إلى بغداد كما تقدم [١] .

الوزير أبو نصر أحمد بن يوسف السليكي المنازي الكاتب المتوفى سنة ٤٣٧ هـ .

وزر لأبي نصر أحمد بن مروان ، صاحب ميافارقين وديار بكر ، واجتمع بأبي العلاء في معرة النعمان ، فشكا إليه حاله ، وأنه منقطع عن الناس وهم يؤذونه ، فقال : مالهم ذلك وقد تركت لهم الدنيا والآخرة فقال أبو العلاء : والآخرة أيضاً ؟ ! وجعل يكررها ويتألم لذلك ، وأطرق ولم يكلمه إلى أن قام [٢] وقال غرس النعمة : « حدثني أبو نصر بن جهير ، حدثنا أبو نصر المنازي ، قال : اجتمعت بأبي العلاء ، فقلت ماهذا الذي يروى عنك ويحكى؟ قال : حسدوني وكذبوا علي ، فقلت : على ماذا حسدوك ؟ فقد تركت لهم الدنيا والآخرة » .

ونقل الحافظ ابن سيد الناس اليعمري الأندلسي أن أبا نصر المنازي دخل على أبي العلاء في جماعة من أهل الأدب ، فأنشد كل واحد منهم من شعره ماتيسر ، فأنشده أبو نصر في وادي بطنان :

وَقَانَا لَفْحَةَ الرَّمْضَاءِ وَادٍ سَقَاهُ مُضَاعَفُ الغَيْثِ العَمِيمِ [٣]

(١) ترجمه في طبقات الشافعية (٣/٣٣) (ج) .

(٢) الوفيات ١/٥٥ (ج) .

(٣) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٣٥٩ ، ٤١٢ ، وأوج التحري ٣٧ تحقيق الدكتور ابراهيم الكيلاني . ورواية العباس المكي في نزهة الجليس : « وقاه مضاعف النبت العميم »

إلى آخر الأبيات [1] فقال أبو العلاء : « انت أشعر من بالشـام » . ثم رحل إلى بغداد ، فدخل عليه المنازي في جماعة من أهل الأدب ببغداد ، وأبو العلاء لايعرف منهم أحداً ، فأنشد كل واحد ماحضره من شعره ، حتى جاءت نوبة المنازي فأنشد :

لَقَدْ عَرَضَ الحَمَامُ بِسَجْعٍ ... إِذَا أَصْغَى لَهُ رَكْبٌ تَلاحَى [2]

إلى آخر الابيات ، فقال أبو العلاء : « ومن بالعراق » عطفا على قوله : من بالشام . وفي (نسمة السحر) أن العرض الثاني وقع بالمعرة بعد نحو عشرة أعوام ، قال : « وكان الشعراء يعرضون عليه أشعارهم » .

وقال ابن العديم في (تاريخ حلب) : وبلغني أن المنازي حمل هذه الأبيات (الميمية) ليعرضها على أبي العلاء ، فلما وصل إليه أنشده الأبيـات ، فجعل المنازي كلما انشده المصراع الأول من كل بيت سبقه

---

(١) تكملتها :

نزلنا دَوْحَـه فحنا علينا ... حنو الوالدات على الفطيم

وأرشفنا على ظمأ زلالاً ... ألذ من المدامة للنديم

يصد الشمس أنى واجهتنا ... فيحجبها ويأذن للنسيم

تروع حصاه حالية العذارى ... فتلمس جانب العقد النظيم

(٢) وبعده :

شجا قلبَ الخلي فقال غنى ... وبرّح بالشجي فقال ناحا

عزاها (الصريعي ج ١ ص ١٦٥) إلى ابن قاضي ميلة . وقد سبقه أبو العلاء إلى هذا المعنى بقوله :

بأرض للحمامة أن تغنى ... بها ولمن تأسف أن ينوحا

أبو العلاء إلى المصراع الثاني الذي هو تمام البيت كما نظمه ، ولما أنشده قوله :

نَزَلْنا دَوْحه فَحَنَا عَلَيْنَا . . . . . .

قال أبو العلاء :

. . . . . حُنُوَّ الوَالِدَاتِ عَلَى الفَطِيمِ

فقال المنازي إنما قلت « على اليتيم » فقال أبو العلاء : « الفطيم أحسن » .

وقول المنازي : « تركت لهم الدنيا والآخرة » يدل على أن هذه الزيارة كانت بعد رجوع المعري من بغداد . وقولهم : « ثم رحل إلى بغداد فدخل عليه المنازي . . » يدل على أن زيارته التي أنشده فيها الأبيات الميمية كانت قبل ذلك ، وقول نسمة السحر : « إن عرض الأبيات الحائية كان في المعرة بعد عشر سنوات » ، يشعر بأن العرضين وقعا بعد رجوعه من بغداد ، ولم نجد نصاً يبين أن عرض الأبيات الميمية كان في الزيارة التي قال له فيها : « تركت لهم الدنيا والآخرة » أم في غيرها ، ولكن قولهم : « فأطرق ثم لم يكلمه إلى أن قام » بأن العرض كان في غير هذه الزيارة ؟ ولعلها كانت بعد العرضين أو قبلها .

وقال البديعي في (أوج التحري)[١] : « وروى عن أبي نصر أحمد ابن يوسف المنازي الكاتب وزير أبي نصر . . وكان من أعيان الفضلاء ، وأماثل الشعراء ، قال : اجتمعت بأبي العلاء المعري بمعرة النعمان ، وقلت : ما هذا الذي يروى عنك ويحكى ؟ فقال : حسدني قوم وكذبوا علي وأساءوا ، فقلت : على ماذا حسدوك وقد تركت لهم الدنيا والآخرة ؟

(١) أوج التحري ص ٣٦ تحقيق الدكتور ابراهيم الكيلاني .

فقال : والآخرة أيضاً ! والآخرة أيضاً ! قلت : أي والله ثم قلت له : لم تمتنـــع عن أكل اللحم ، وتلوم من يأكله ؟ فقال : رحمة للحيوان . قلت : لا ، بل تقول إنه من شره الناس ، فلعمري إنهم يجـــدون ما يأكلون ويتجزءون به عن اللحم ، ويتعوضون ، فما تقول في السباع والجوارح التي خلقت لاغذاء لها غير لحوم الناس والبهائم والطيور ودمائها وعظامها ، ولا طعام تعتاض به عنهـا حتى لم يخلص من ذلك حشرات الأرض ، فإن كان الخالق لما الذي نقوله نحن ، فما أنت منه بخلقه أعلم ولا أحكم منه في تدبيره ، وإن كانت الطبائع المحدثة لذلك على مذهبك ، فما أنت بأحذق منها ، ولا أتقن صنعة ، ولا أحكم عملا حتى تعطلهـا ، ويكون رايك وعقلك اوفى منها وأرجـــح ، وأنت من إيجادها غير محـــوس عندها فامسك (١) .

على أن المنازي هذا هو الذي مدح أبا العلاء بقوله :

لِلّٰهِ لُؤْلُؤُ أَلْفَاظٍ تُسَاقِطُهَا ... لَوْ كُنَّ لِلْغِيدِ مَا اسْتَأْنَسْنَ بِالعَطَلِ
وَمِنْ عُيُونِ مَعَانٍ لَوْ كَحَلْنَ بِهَا ... نُجْلَ العُيُونِ لأَغْنَاهَا عَنِ الكَحَلِ
سِحْرٌ مِنَ اللَّفْظِ لَوْ دَارَتْ سُلاَفَتُهُ ... عَلَى الزَّمَانِ تَمَشَّى مِشْيَةَ الثَّمِلِ».

والأبيات الميمية قالها المنازي يصف واديا يقال إنه عند بُزَاعة ، ويقال له بُطْنَان ، فيه أنهار جارية ، وقرى متصلة كانت قصبتها بزاعة ،

---

(١) وفي كلام المنازي نظر وقياس مع الفارق ، فان كون السباع خلقت لا غذاء لها غير لحوم الإنسان والحيوان ، لا يوجب على الإنسان أن يأكل الحيوان ، ألا ترى أن السباع تقتل الإنسان وتجرحه ، وكون ذلك من طبيعتها لا يبيح قتل الإنسان للانسان ولا جرحه . وتبيين ما في كلامه كله من المغالطة يحتـــاج إلى تطويل لا يتسع له هذا المقام خشية السآمة . (ج)

وبالقرب منها بلدة يقال لها الباب ، ويعرف بباب بزاعة ، وقرية أخرى ويقال لها تاذف ، وقد ذكرها امرؤ القيس بقوله :

وَيَارُبَّ يَوْمٍ صَالِحٍ قَدْ شَهِدْتُهُ   بِتَاذِفَ ذَاتِ التَّلِّ مِنْ فَوْقِ طَرْطَرا

وطرطر : قرية في وادي بطنان ، يسمونها طَلْطَل . وقد مررت بطرف هذا الوادي سنة ١٣٥٠ هـ بطريقي إلى منبج ، وهو كثير المياه والأشجار بالنسبة إلى تلك الأصقاع . وإذا جاوز الإنسان قرية بزاعة بمقدار ربع ساعة لا يرى شجراً ولا ماء حتى يصل الى منبج . ولعل المنازي قدم من هذه الطريق القاحلة ، فلفحته الشمس واشتد به العطش ، فلما وصل إلى هذا الوادي رأى تلك البقعة الخضراء قطعة من الجنة .

وقد نسب هذه الأبيات الميمية إلى المنازي ياقوت في (معجم البلدان) ، وأبو الفداء في (تاريخه) ، والعثماني في (معاهد التنصيص ص ١٢٤) وابن الوردي في (تاريخه) وابن حجة في (خزانة الأدب) وصاحب (شذرات الذهب) ، و (ثمرات الأوراق) وفي (عنوان المرقصات) ، وابن الشحنة في (الدر المنتخب) وغيرهم . على اختلاف في الرواية ، ففي بعضها : « سقاه مضاعف الظل ... والنبت » وفي بعضها : « حنو المرضعات ... » .

وذكر في (نفح الطيب ج ٢ ص ٤٩١) ان هذه الأبيات لحمدة أو حمدونة بنت زياد المؤدب ، من وادي آش ، وأنها قالتها قبل أن يخرج المنازي من العدم إلى الوجود . ومن العجيب أن يتفق هذا الجمهور من المؤرخين والرواة على نسبتها إلى المنازي وهي ليست له .

أبو الوليد الحسن بن محمد البلخي الدربندي : وقد تقدم ذكره .

أبو يوسف عبد السلام بن محمد القزويني المعتزلي المتوفى سنة ٤٨٨ ﻫ .

قال ياقوت في (معجم الأدباء ج ١ ص ١٧١) : « قال القاضي أبو يوسف عبد السلام القزويني : قال لي المعري : لم أهج أحداً قط ، فقلت له صدقت إلا الأنبياء ، عليهم السلام ، فتغير وجهه » . وروى عنه في (ج ١ ص ١٧٢) أنه قال : قال لي ملحد المعرة : ما سمعت في أمر الحسين بن علي ، رضي الله عنهما ، شيئاً يجب أن يحفظ ، فقلت له : قد قال سوادي من أهل بلادنا أبياتاً لا يقول مثلها تنوخ جدك الأكبر :

رَأْسُ ابْنِ بِنْتِ مُحَمَّدٍ وَوَصِيِّهِ ... لِلْمُسْلِمِينَ عَلَى قَنَاةٍ يُرْفَعُ
وَالْمُسْلِمُونَ لِمَنْظَرٍ وَلِمَشْهَدٍ ... لا جَازِعٌ فِيهِمْ وَلاَ مُتَفَجِّعُ (١)

إلى آخر الأبيات الخمسة ، وهي مذكورة في (ج ٩ ص ٢٦٦ من الكامل) لابن الأثير ، وكان عبد السلام هذا مولعاً بجمع الكتب ، وله تفسير كبير قيل إنه في سبعمائة مجلد كبار ، على قول السبكي في (طبقاته ج ٣ ص ٢٣٠) وثلاثمائة على قول ابن حجر ، منها سبعة في الفاتحة ، وقد قال في (لسان الميزان ج ٤ ص ١١) وله توسع في العلماء الذين يخالفونه ، وكان طويل اللسان تارة بعلم ، وتارة بسفه ، وطول لسانه مع أبي العلاء في هذا المقام من النوع الثاني .

---

(١) في تعريف القدماء ص ٧٩ : « بمنظر وبمشهد » وتكملة الأبيات :

كحلت بمنظرك العيون عماية ... وأصمّ رزؤك كلّ أذن تسمع
أيقظت أجفاناً وكنت لها كرى ... وأنمت عيناً لم تكن بك تهجع
ما روضة إلا تمنت أنها ... لك تربة ولخطّ قبرك مضجع

القاضي أبو محمد عبد الوهاب بن علي بن نصر .

من ذرية مالك بن طوق التغلبي ، كان فقيها أديبا شاعراً له تصانيف كثيرة ، ضاقت يده في بغداد حتى قال لأهلها : لو وجدت بين ظهرانيكم رغيفين كل غداة وعشية ، ما عدلت عن بلدكم لبلوغ أمنية ، ورحل في آخر عمره عن بغداد ، واجتاز بالمعرة ، فأضافه أبو العلاء ، ثم شخص إلى مصر وتوفي فيها سنة ٤٢٢ هـ . وقال في (التنوير ج ٢ ص ١٣٢) : « قال أبو العلاء يخاطب بعض الفقهاء وكان أبو العلاء قد بعث من القطيعة إليه قدراً من الدراهم ، وكتب إليه هذه الأبيات :

أَيَبْسُطُ عُذْرِي مُنْعِمٌ أَمْ يَخُصُّنِي بِما هُوَ حَظِّي مِنْ أَلِيمِ عِتَابِ ».

• • •

وفيها يقول :

فَيالَيْتَنِي أَهْدَيْتُ خَمْسِينَ حِجَّةً مَضَتْ لِيَ فِيها صِحَّتِي وشَبابِي

وَقُلْتُ لَهُ فاتْرُكْ ثَلاثِينَ أَسْوَداً مَتى ما تُكَشَّفْ تُلْفَ غَيْرَ لُبابِ

وذكر بعضهم أن الدراهم ثلاثون . والقطيعة : محلة في بغداد ، كان أبو العلاء نزل بها وهذه الأبيات يجوز أن تكون في أبي المتوج مقلد بن نصر ، ولكن يشكل على ذلك إرسال الدراهم إليه ، ويجوز أن تكون في القاضي عبد الوهاب ، أرسلها إليه وهو في بغداد ، ولكن يشكل على هذا قوله : « فياليتني أهديت خمسين حجة .. » لأنه لم يبلغ هذه السن وهو في بغداد . ويشكل عليه أيضا قوله :

وَبَيْنَ يَدَيْهِ كَـفْرَطابُ وإِنْسُها يَعِيشُ لِفَقْدِ الماءِ عَيْشَ ضِبابِ

إلا أنْ يريد أنّ كفرطـاب ماؤها قليل ، وهي في طريقه . والدراهم التي أرسلها إليه ، لا تكفيه إلا لشراء الماء للشراب والطهور ، كناية عن قلتها ، وكلام التبريزي في (ج ١ ص ٨٣)[1] يصرح بأن قوله : « فياليتني أهديت خمسين حجة ... » في القاضي عبد الوهاب المالكي .

وقد علمنا أن المعري ولد سنة ٣٦٣ هـ فيجب أن تكون هذه الأبيات قيلت في نحو سنة ٤١٣ هـ إلا أن يكون أبو العلاء ذكر الخمسين وسكت عما زاد لضرورة الشعر ، وزعم بعض المستشرقين أن القاضي عبد الوهاب اجتاز بالمعرة سنة ٤٢٠ هـ ، ويجوز أن يحتج لقوله هذا بقول أبي العلاء الآتي : « وألهى خاطري وسن عشرين حولا . . » لأنه عاد من بغداد سنة ٤٠٠ هـ ، وأبو العلاء ذكر هـــذا القاضي في قصيدة أرسلها إلى أبي القاسم التنوخي بعد عودته من بغداد ، وهي في (السقط ج ٢ ص ١٣٩)[2] وفيها يقول :

والمالِكِيّ ابنُ نَصْرٍ زَارَ في سَفَرٍ ... بِلادَنَا فَحَمِدْنَا النَّأْيَ والسَّفَرَا

إِذَا تَفَقَّهَ أَحيا مَالِكاً جَدَلاً ... وَيَنْشُرُ المِلكَ الضِّلّيلَ إِنْ شَعَرَا

* * *

ثم قال فيها :

جَنَيْتُ ذَنباً وأَلْهَى خَاطِرِي وَسَنٌ ... عِشْرِينَ حَوْلاً فَلَمَّا نَبَّهَا اعْتَذَرَا

وذكر ابن عساكر في (تبيين كذب المفتري ص ٢٥٠): « أن عبد الوهاب خرج في آخر عمره إلى مصر فمات بها سنة ٤٢٢ هـ » وقال البطليوسي

---

(١) انظر شروح السقط ق ٤ ص ١٧٣٢ .

(٢) شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٧٤٠ ومطلع القصيدة :

لولا مساعيك لم نعدد مساعينا ... ولم نسام بأحكم الملا مضرا

(ص ١٧٣٢) [1] : « إنه يخاطب بهذه الأبيات القاضي عبد الوهاب بن نصر ، وكان اجتاز بالمعرة ، فبعث إليه بثلاثين درهماً » وقال الخوارزمي : « كان أبو العلاء قد تلمذ عليه » [2] . وهذا يحتاج الى دليل ، لأن أبا العلاء ما تلمذ على أحد بعد ما جاوز العشرين كما تقدم .

أبو الحسن علي بن عبد الواحد الفقيه البغدادي المعروف بصريع الدلاء .

قتيل الغواني . أو الغواشي . ذي الرقاعتين . وقيـــل : اسمه علي بن عبد الرحمن . وقيل : اسمه محمد بن عبد الواحد القصار البصري ، قدم مصر سنة ٤١٢ هـ . وتوفي فيها في تلك السنة ، وطلب من أبي العلاء شرابا ، وما يليق به ، فسير اليه قليلاً من النفقة ، واعتذر اليه بأبيات ، المذكور منها في (السقط ج ٢ ص ٣٤) [3] اثنا عشر بيتا أولها :

تَفَهَّمْ يا صَرِيعَ البَيْنِ بُشْرى أَتَتْ مِنْ مُسْتَقَلٍّ مُسْتَقِيلِ
دُعِيتَ بِصارِعٍ فَتَدَارَكَتْهُ مُبَالَغَةٌ فَرُدَّ إِلىٰ فَعِيـــلِ

• • •

وفيها يقول :

قَدِاسْتَحْيَيْتُ مِنْكَ فَلا تَكِلْني إِلى شَيْءٍ سِوَى عُذْرٍ جَمِيلِ
وَقَدْ أَنْفَذْتُ مَا حَقِّي عَلَيْهِ قَبِيحُ الهَجْوِ أَو شَتْمُ الرَّسُولِ

• • •

---

(١) انظر شروح السقط .
(٢) المصدر السابق .
(٣) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١١٤١

وآخرها :

فَإنْ يَكُ مَا بَعَثْتُ بِهِ قَلِيلاً   فَلِي حَالٌ أَقَلُّ مِنَ القَلِيلِ

وترجمته في (الوفيات) ، وفي (أبي الفداء) وابن الوردي .

أبو الحسن علي بن محمد التهامي .

سيأتي ذكره في الكلام على فراسته .

أبو محمد بن سندي القنسري .

روى ابنه القاضي أبو عبد الله محمد بن سندي القنسري ، قال : « حدثني أبي ، قال أتينا عند أبي العلاء المعري ، في الوقت الذي كان يملي فيه شعره المعروف (بلزوم ما لا يلزم) فأملى في ليلة واحدة ألفي بيت . نقل ذلك ابن العديم[1] عن (جنان الجنان) وسيأتي الكلام في قوله هذا .

أبو الفضل محمد بن عبد الواحد البغدادي .

وقد ذكرنا في ذكاء أبي العلاء أنه زاره في المعرة ، واستنشده ، فعرفه وحذّره الناس .

أبو الخطاب محمد بن علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي المعروف بالجَبُّلي المتوفى سنة ٤٣٩ هـ .

وَجبُّل : قرية بين النعمانية وواسط ، في الجانب الشرقي . كان شاعراً مجيداً ، وكان بينه وبين أبي العلاء المعري مشاعرة ، وفيه قال أبو العلاء قصيدته : [2]

غَيْرُ مُجْدٍ في مِلَّتي واعْتِقَادِي   نَوْحُ بَاكٍ ولا تَرَنُّمُ شَادِ

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٦٠ عن الإنصاف والتحري ـ لابن العديم .
(٢) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ٩٧١ .

كذا زعم ياقوت في (معجم البلدان ج ٣ ص ٥١) . وقال السمعاني : « كتب اليه أبو العلاء هذه القصيدة » . وقال ابن خلكان (ج ٢ ص ٢٢٦) : هذا غلط منه بل كتبها أبو العلاء الى أبي حمزة الحسن بن عبد الله النقيب الحنفي ، قاضي منبج ، ونقله عن ابن العديم .

والذي يظهر أن هذه القصيدة ، رثى بها أبا حمزة الحسن بن عبد الله ابن محمد بن عمرو بن سعيد التنوخي المعري المتوفى قبل سنة ٤٠٠ هـ لأنه يقول فيها :

قَصَدَ الدَّهْرُ مِنْ أَبِي حَمْزَةَ الأَوْ ... ابِ مَوْلَى حِجًى وخِدْنَ اقْتِصَاد

وأنه كتبها الى الحسن أخي أبي حمزة ، لأنه يقول فيها :

فَلْيَكُنْ لِلْمُحَسَّنِ الأَجَلُ المَمْـ ... ـدُودُ رَغْماً لِآنُفِ الحُسَّادِ

ولْيَطِبْ عَنْ أَخِيهِ نَفْساً وأَبْنا ... ءِ أَخِيهِ جَرَائِحِ الأَكْبَادِ

وفي (الأقصى القريب) أنه قالها يرثي بها أحد أقاربه من بني عمه . وعزّى فيها أهله .

وعلى كل حال ليست هذه القصيدة من المشاعرة أو المساجلة في شيء ، وإنما هي تعزية ، وأما القصيدة التي كتبها أبو العلاء الى أبي الخطاب فهي في (السقط ج ١ ص ١٥٣)[1] وعدد أبياتها ٢٢ بيتاً وأولها :

أَشْفَقْتُ مِنْ عِبْءِ البَقَاءِ وَعَابِهِ ... وَمَلِلْتُ مِنْ أَرْيِ الزَّمَانِ وَصَابِهِ

وكان أبو الخطاب قصيراً فمدح قصره وفضله بقوله :

---

(١) وفي الضروح ق ٢ ص ٧١٥ .

عَجِبَ الأَنامُ بِطُولِ هِمَّةِ مَاجِدٍ   أَرْبَى بِهِ قِصَرٌ عَلى أَضْرابِهِ
سَهْمُ الفَتَى أَقصَى مَدًى مِنْ سَيْفِهِ   والرُّمحِ يَوْمَ طِعَانِهِ وضِرَابِهِ

وأشار الى خروجه من العراق بقوله :

هَجَرَ العِرَاقَ تَطرُّباً وتَغرُّباً   لِيَفُوزَ مِنْ سِمطِ العُلا بِغرابِهِ

وأشار الى أن أبا الخطاب مدحه بشعر ، فأجابه بهذه القصيدة بقوله :

أَلْبَسْتَنِي حُلَلَ القَرِيضِ وَوَشْيِهِ   مُتَفَضِّلاً فَرَفَلْتُ فِي أَثْوَابِهِ
وَظَلَمْتَ شِعْرَكَ إِذْ حَبَوْتَ رِيَاضَهُ   رَجُلاً سِوَاهُ مِنَ الوَرَى أَوْلَى بِهِ
فَأَجابَ عَنْهُ مُقَصِّراً عَنْ شَأْوِهِ   إِذْ كَانَ يَقْصُرُ عَنْ بُلُوغِ ثَوَابِهِ

وذكر ابن الأثير (ج ٩ ص ٢٢٦) [١] « إنه مضى الى الشام ، ولقي المعري ، وعاد ضريراً وله شعر » وفي (النجوم الزاهرة) « أنه رحل الى البلاد ، ثم عاد الى بغداد ، وقد كف بصره ، فمات بها ، وكان رافضياً خبيثا » . وذكر له بيتين . وفي (تاريخ بغداد) للخطيب (ج ٣ ص ١٠١) : « سافر في حداثته الى الشام ، فسمع بدمشق ، ثم عاد الى بغداد ، وقد كف بصره ، وأنه كان رافضيا ، ثم روى عن أبي القاسم علي بن المحسن التنوخي ، قال : أنشدنا أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان المعري لنفسه ، يجيب أبا الخطاب الجبلي ، عن أبيات كان مدحه بها عند وروده معرة النعمان » ، ثم ذكر القصيدة . وهذا يدل على أن هذه القصيدة قيلت قبل سفره الى بغداد .

---

(١) الكامل .

محمد بن أبي بكر الحاتمي .

ذكر ابن العديم عنه أنه قال : (١) « ارتحلت أريد المعرة ، لألقى أبا العلاء بن سليمان ، فبينا أنا في بعض طريقي ، وإذ بشـــاب حسن الصورة ، وهو أعور راكب على عير ، ومعه شخص وضيء الوجه يعتبه عتابا لطيفا ، فلما انتهى الى آخر عتابه ، قال له الشاب الأعور منشدا :

إِنْ كُنْتُ خُنْتُكَ فِي الهَوَى فَحُشِرْتُ أَقْبَحَ مِنْ فَضِيحَهْ

قال الحاتمي : فرمت أن أزيد على هذا البيت شيئا ، فلم أستطـــع لكثرة طربي به . الى أن انتهيت الى المعرة ، ودخلت على أبي العلاء ابن سليمان ، وكان أول حديثي معه ، أن تذاكرنا في أبيات من الشعر ، ذكر منها بيت جهل قائله وهو :

إِنَّمَا تَسْرَحُ آسَادُ الشَّرَى حَيْثُ لا تُنْصَبُ أَشْرَاكُ الحَدَقْ

فقال . لقد أضاء بصيرة وإن عمي بصرا . فقلنا له : أتعرف لمن الشعر ؟ قال : لا . فبحثـنـا عنه ، فوجدناه لبشار بن برد ، ثم خلوت معه ، فسألني : من أنت ؟ فقلت : أنا فلان . فقال : أنشدني شيئا من شعرك ! فأنشدته ، ثم انتهى حديثي معه الى أن حكيت له حكاية الشاب الذي لقيته في طريقي ، وأنسيت ان أقول له إنه كان أعور ، فلما أنشدته :

إِنْ كُنْتُ خُنْتُكَ فِي الهَوَى فَحُشِرْتُ أَقْبَحَ مِنْ فَضِيحَهْ

قلت له : لم أستطع أن أزيد على هذا البيت شيئا فأسرع أن قال لي : فألا زدتَ عليه :

وَجَحَدْتُ نِعْمَــةَ خَالِقِي وَفَقَدْتُ مُقْلَتِيَ الصَّحِيحَهْ

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٦١ ـ ٥٦٢ عن الإنصاف والتحري ـ لابن العديم .

قال : فقلت : والله ما كان إلا أعور ، فمن أين لك هذا ؟ قال : شمت إحدى عينيه على بيته . ولعله محرف عن شمت إحدى عينيه ، أي نظرت .

أبو الحسن المختار بن بطلان المتطبب البغدادي المتوفى سنة ٤٥٥ هـ .

ذكر القفطي [١] ان ابن بطلان كان يألف أبا العلاء المعري ، وكان قبل موته بالمعرة ، فحدثه بعض الطلبة أن أبا العلاء قد أملى عليهم شيئا ، فغلط فيه ، فتنبأ ابن بطلان بأن ذبالته قاربت الذبول ، كما تقدم . ونقل في (طبقات الأطباء) عن المختار انه ذكر أبا العلاء المعري في جملة من فقد من العلماء .

أبو الحسن الداني المصيصي .

قال الثعالبي في (تتمة اليتيمة ج ١ ص ٩) : « وكان حدثني أبو الحسن الداني المصيصي الشاعر ، وهو ممن لقيته قديما وحديثا ، في مدة ثلاثين سنة . قال : لقيت بمعرة النعمان عجبا من العجب ، رأيت أعمى شاعراً ظريفا ، يلعب بالشطرنج والنرد ، ويدخل في كل فن من الجد والهزل ، يكنى أبا العلاء . وسمعته يقول : أنا أحمد الله على العمى كما يحمده غيري على البصر . فقد صنع لي واحسن بي ، إذ كفاني رؤية الثقلاء والبغضاء . قال : وحضرته يوما وهو يملي في جواب كتاب ورد عليه من بعض الرؤساء :

وَافَى الكِتَابُ فَأَوْجَبَ الشُّكْرَا   فَضَمَمْتُهُ وَلَثَمْتُهُ عَشْرَا
وَفَضَضْتُهُ وقَرَأْتُهُ فَإِذَا   أَحْلَى كِتَابٍ فِي الوَرَى يُقْرَا
فَمَحَاهُ دَمْعِي مِنْ تَحَدُّرِهِ   شَوْقاً إِلَيْكَ فَلَمْ يَدَعْ سَطْرَا

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٦٥ عن إنباه الرواة — القفطي

فتحفظتها واستعملتها كثيراً في مكاتبات الإخوان » . هـذا هو نص (تتـة اليتيمة) وقـد نقله ياقوت (ج ١ ص ١٧٢) عن (اليتيـمة) والصواب عن (تتـة اليتيمة) وفي روايته . « وهو من لقيته قديماً وحديثا » . . فإذا هو أجلى كتاب في الورى . وزاد ياقوت بعد الأبيات الثلاثـة قوله : قال وانشدني لنفسـه :

لَسْتُ أدْري ولا المنجمُ يَدْري ما يُريدُ القَضَاء بالإنْسانِ
غَيْرَ أني أقولُ قَوْلَ مُحِقٍّ قَدْ يَرى الغَيْبَ فيهِ مِثْلَ العيانِ
إنَّ مَنْ كَانَ مُحْسِناً مَا بَكَتْـــهُ لجميلِ عَواقِبُ الإحْسَانِ

هذه رواية ياقوت وفي (تتمة اليتيمة) :

. . . . . مُحْسِناً قَابَلتهُ بِجَميلٍ عَواقِبُ . . . . .

والأبيات الثلاثة الأول ، الرائية : لم ترد في ديوان أبي العلاء . والأبيات الثانية ، النونية ، لم ينسبها الثعالبي الى أبي العلاء ، وإنما نسبها لأبي القاسم المحسن بن عمرو . . المعري ، في ترجمته في (تتمة اليتيمة) . فتوهم ياقوت أنها لأبي العلاء .

وقد نقل هذه القصة عن الثعالبي جماعة ، منهم : (١) صاحب (معاهد التنصيص) ، والصفدي في (الوافي بالوفيات) وفي (نكت الهميان) نقلوا الى قوله : « كما يحمده غيري على البصر » ونقلهـا ابن العديم الى قوله : « إذ كفاني رؤية الثقلاء والبغضاء » ونقلها البديعي في (أوج التحري ص ٤) مع الأبيات الثلاثة الأول .

---

(١) انظر تعريف القدماء بأبي العلاء الصفحات ٢٦٥ ، ٢٨٦ ، ٣٣٦ ، ٥٥٨ .

وأبو الحسن الدلفي .

قال الميمني (ص ٥٥)[1] : « إنه استفرغ مجهوده في التطلب عنه ، فوجده في (الصبح المنبي) . وهو أبو الحسن محمد بن عبد الله بن حمدان الدلفي العجلي النحوي المتوفى سنة ٤٦٠ هـ » . ونقل ما نقله صاحب (البغية ص ٥٢) عن ياقوت .

وفي ذيل (تعريف القدماء ص ٣) : هو أبو الحسن علي بن مأمون الدلفي المصيصي ، وقد روى عنه الثعالبي (ج ١ ص ٢٢ ج ٢ ص ٢٨٦) . هكذا قالوا . . وكلا الرجلين كان معاصراً للثعالبي ولأبي العلاء . ولكن الذي نقل عنه الثعالبي في (تتمة اليتيمة) هو أبو الحسن الدلفي المصيصي الشاعر كما تقدم . والذي ظفر به الاستاذ الميمني أبو الحسن الدلفي العجلي النحوي واسمه محمد بن عبد الله . والذي ذكره الثعالبي في (اليتيمة) ذكره في صور مختلفة : ففي (الجزء الأول . ص ٢٠٦) قال أبو الحسين المصيصي ، ثم قال : المصيصي . وفي (ص ٢٢٠ ، ٢٢٢) : أبو الحسن علي بن مأمون المصيصي . وفي (ص ٢٢٣ ، ٣٥٢) : المصيصي وفي (ص ٢٤٧) : علي بن مأمون المصيصي وفي (ص ٥٣٥) : أبو الحسن المصيصي الشاعر . وفي (الجزء الثاني ص ١٣٦) أبو الحسن المصيصي . وفي (ص ٢٨٦) : علي بن مأمون المصيصي . ولم يذكر في موضع من هذه المواضع أنه دلفي أو عجلي .

ولم أجد نصاً يدل على أن الثعالبي نال عن الأول ، ولا نصاً يدل على أن الثاني دلفي فتأمل ، وتذكر أن الأول توفي سنة ٤٦٠ هـ . والثعالبي توفي سنة ٤٢٩ هـ وكان لقيه وعرفه منذ ثلاثين عاما ، حين روى عنه هذه القصة فيجب أن يكون عمره فوق الثمانين .

---

(١) أبو العلاء وما إليه .

أبو محمد الخفاجي الحلبي :

وسيأتي ذكره في الكلام على فراسته .

هبة الله بن موسى المؤيد في الدين : وسيأتي في الكلام على حفظه .

أبو الفتيان محمد بن سلطان بن حيوس الشاعر المشهور :

قال ابن عساكر في ترجمة عبد المحسن الصوري : « وذكر أن أبا العلاء ابن سليمان كان يعيب عبد المحسن الصوري بقصر النفس ، فحدثت أن أبا الفتيان ابن حيوس لما حضر عند أبي العلاء المعري أنشده أبو العلاء أبياتاً لعبد المحسن الصوري ، وقال : هذه لقصيرك ، فقال له أبو الفتيان : هو أشعر من طويلك ، يعني المتنبي ، فمد أبو العلاء يده إليه ، وقبض على ثوبه ، وقال : الأمراء لا يناظرون » .

****

منزلته عند الملوك والأمراء وعظماء الناس

حاول أبو العلاء أن ينقبض عن الناس، ويقبع في منزله، ولكنه لم يوفق الى ذلك، فاضطره الناس الى أن يفتح بابه على مصراعيه، وأن يبسط جاهه عند العظماء في الشفاعات. ويطلق لسانه للاقراء والإملاء والتأليف والاجابة.

وقد ذاع صيته في القاصية والدانية وأولع أهل الفضل بأدبه وعلمه، وأحبوا مكاتبته ومخاطبته، وطمعوا في الاستفادة منه. فكان لا يمر بالمعرة رجل مشهور الا قصده واستفاد منه، أو طلب منه نظم أبيات على لسانه أو تصنيف كتاب باسمه.

وقد كان فريق من الفضلاء يراسله أو يمدحه، ويلتمس الوسائل للتعرف إليه، ولم يكن أبو العلاء من الملوك أو العظماء، ولا الأغنياء حتى يظن أن الناس يتوقعون منه صلة، أو يطلبون عنده جاهاً ومنزلة. وإنما كانوا يتوقعون شهرة تتصل بشهرته، وخلوداً في شعره الخالد، وآثاره الباقية. ومن تتبع ما وصل إلينا من أخباره، يتضح له أن الناس كانوا يجشمونه ضروباً من التكاليف، وكان لا يرد سائلاً ولا يخيب آملاً، إلا أن كثيراً من أبياته ورسائله، لم تصل وافرة إلينا، ولا ذكر فيها أسماء أصحابها. ومنها ما ذكر فيه لفظ «الشيخ» أو «أبي فلان» ومنها ما أغفل سببه وما ترتب عليه، ونحو ذلك من الأمور التي تحول بين الباحث والحقيقة التي يتوخاها في دراسة آثاره. من ذلك ما جاء في (السقط ج ١ ص ١٨٧): «وقال، وقد سئل إجازة هذا البيت بالمعنى الذي يأتي ...»، ثم ذكر ستة عشر بيتاً لأبي العلاء في الغزل أجاز بها البيت المذكور، ولم يبين من سأله ذلك.

ومنه في (ج ١ ص ١٤٧): «وقال يهنىء بعض الأمراء بعرس، بعد أن تقضاه ذلك ...»، ثم ذكر أربعة وثلاثين بيتاً على روي السين، ولم يُعلم من سأله ذلك ولا الممدوح بها، ويظن أنه أسد الدولة صالح ابن مرداس، لأنه ذكر فيها حلب، وأن المهنأ بها رال شجاع فارس، يدعوه العدى أسداً.

ومنه في (ج ١ ص ١٧٤) : « وقال وكان أبو عبد الله بن السقا الكاتب سأله أن يعمل قصيدة الى صاحبه يصف له ما شاهده من الوفاء والإخلاص منه ... » . ثم أورد ثلاثة وعشرين بيتاً على روي الدال الموصولة بالهاء ،

ومنه ما جاء في (السقط ج ٢ ص ٢١٣) : « وقال على لسان امرأة توصي ابنها بلبس الدرع وترك الزواج ... » . وفي (ص ٢٠٩) : « وقال على لسان سائق الحاج ... » وفي (ص ١٧٣) : « وقال على لسان رجل يخاطب امرأة خانه أبوها في درع ... » وأمثال هذا كثير في السقط .

وفي رسائله كثير من الرسائل المحفوفة بمثل هذا الغموض . منها رسالة كتبها الى أولياء السلطان يشفع في صديق له كان عاملا .. وهي في (ص ٥٣ من رسائله) [1] .

ويزيد الباحث ضغثا على إبّالة أن أكثر رسائله ناقص ، وأكثر الرجال فيها لا يسمون ، وإنما يقول فيها : « سيدي أبو فلان أو سيدي الشيخ ... » أو ما شاكل ذلك .

وإليك طرفاً من الأخبار الدالة على حرمته عند العظماء في زمانه .

الدولة العلوية بمصر وحلب :

ذكرنا أن المستنصر العلوي صاحب مصر ، بذل لأبي العلاء ما لبيت المال في المعرة من المال فلم يقبل منه شيئا .

وأن الحكم العلوي أعجبه نظمه ، فأرسل الى عزيز الدولة ، والي حلب ، أن يحمله الى مصر فاعتذر .

وأن داعي الدعاة كتب الى تاج الأمراء أن يضاعف حرمته عند الخاص والعام ، وأن يجري عليه ما تدعو إليه حاجته بجميع مهامه ، فلم يقبل شيئا .

وأن الوزير الفلاحي [2] كتب إلى عزيز الدولة أبي شجاع فاتك ، متولي حلب وأعمالها أن يحمل أبا العلاء الى مصر ليبني له دار علم . وسمح له بخراج المعرة في حياته ، فأبى

---

(١) رسائل أبي العلاء المعري — لشاهين عطية .

(٢) هو علي بن جعفر بن فلاح وزير الحاكم (ج) .

ذلك كله ، وكان عزيز الدولة هذا يطلب من أبي العلاء أن يصنف له تصانيف ويحترمه ويقبل شفاعته .

وكان أنوشتكين الدزبري أمير حلب ودمشق يثني على أبي العلاء ، ويسأل عنه ، ويوجه إليه بالسلام .

وأن أبا القاسم الوزير المغربي استدعاه الى مصر . .

وأن صالح بن مرداس وهب له المعرة ، ورفع الحصار عنها واطلق السجن من أهلها . الى كثير من مثل هذا .

وسنذكر ان رجلاً من المتدينين سأله أن يضع له كتاباً ، فوضع له (سيف الخطبة) وأن أبا الفتح عبد الله بن إسماعيل سأله وضع كتاب ، فوضع له (الحلي والجلي) الى غير ذلك مما يأتي ذكره في رسائله وتآليفه .

وقد ذكرنا شيئاً مما وقع له من العلماء والشعراء ، وسنذكر شيئاً آخر مما يدل على علو مكانته بين العلماء والشعراء والكبراء .

أقوال العلماء فيه

اتفقت كلمة العلماء على أن أبا العلاء عالم لغوي ، شاعر حكيم ، ذكي فطن ؛ واختلفوا في عقيدته ، حتى إن الرجل الواحد ليمدح فضله وعلمه وذكاءه ، ثم يقدح في معتقده ونحلته . ومنهم من اقتصر على مدحه ، ومنهم من اقتصر على ذمه . وهذه جملة من أقوالهم :

أما ما قيل في مدحه فكثير منه :

أن شيخ الإسلام علي بن أحمد الهكاري ، سئل عنه فقال : هو رجل من المسلمين (١) .

ونقل السلفي عن القاضي أبي المهذب عبد المنعم بن أحمد السروجي (٢) . وأنه سمع أخاه القاضي أبا الفتح يقول : إنه دخل على أبي العلاء في المعرة ، ذات يوم في خلوة ، على غير علم منه . وكان يتردد إليه ويقرأ عليه فسمعه ينشد :

---

(١) وفيات ج ١ ص ٣٤٦ وغيرها (ج) .

(٢) رواها في معاهد التنصيص ص ٦٧ والذهبي في تاريخ الاسلام وفي نزهة الجليس وأوج التحري (ج) .

كَمْ بُودِرَتْ غَادَةٌ كَعابُ وَعُمِّرَتْ أُمُّهـا العَجُوزُ[1]

أحرَزَهـا الوالِدَانِ خَوْفاً وَالقَبْرُ حِرْزٌ لَهـا حَرِيزُ

يَجُوزُ أنْ تُبْطِىءَ المَنَـايَا والْخُلْدُ في الدَّهرِ لا يَجُوزُ

ثم تأوّه مرات ، وتلا قوله تعالى :

﴿ إنَّ في ذلك لآيةً لِمَنْ خافَ عَذابَ الآخرَةِ ذلكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وذلك يَوْمٌ مَشْهُود وما نُؤخِّرُهُ إلا لأجَلٍ مَعْدُودٍ يَوْمَ يأْتِ لا تَكَلَّمُ نفسٌ إلاّ بإذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيد[2] ﴾ ثم صاح وبكى بكاءً شديداً ، وطرح وجهه على الأرض زماناً ، ثم رفع رأسه ، ومسح وجهه ، وقال : سبحان من تكلم بهذا في القدم ، سبحان من هذا كلامه . قال : فصبرت ساعة ثم سلمت عليه ، فرد علي ، وقال : متى أتيت ؟ فقلت : الساعة . ثم قلت : ياسيدي ! أرى في وجهك اثر غيظ ، فقال : لا يا أبا الفتح ، بل أنشدت شيئا من كلام المخلوق ، وتلوت شيئاً من كلام الخالق ، فلحقني ماترى . فتحققت صحة دينه ، وقوة يقينه » .

وقال ابن خلكان : « كان متضلعا من فنون الأدب ...... وله التصانيف الكثيرة المشهورة ، والرسائل المنثورة ...... وحكى لي من وقف على المجلد الأول بعد المائة من كتاب (الهمزة والرّدف) ، وقال :

---

(١) يروى : « كم غودرت » . ويروى : « غادة كعوب » وهذه الأبيات من شعره في ملقى السبيل ص ٩ وأولها :

يموت قوم وراء قوم ويثبت الأول العزيز

ورواية البيت الثاني فيه :

كم هلكت غادة كعاب .... (ج) .

(٢) هود الآية ١٠٤ وما بعدها .

« لا أعلم ما كان يعوزه بعد هذا المجلد . وكان علامة عصره . وأخذ عنه الناس ، وسار اليه الطلبة من الآفاق ، وكاتبه العلماء والوزراء وأهل الأقدار » .

وقال الصفدي : « كان آية في الذكاء المفرط ، عجباً في الحافظة » ثم ذكر قصة التبريزي وجاره الأعجمي ، وإعادة أبي العلاء مادار بينهما باللغة الاذربيجانية . ثم قال : « وهذا أمر معجز ، فإنه بلغنا عن جماعة من الحفاظ ، وما يحكى عن البديع الهمذاني ، وابن الأنباري وغيرهما ، ماهو أمر قريب من الإمكان ، لأن حفظ مايفهمه الإنسان ويعرف تراكيبه ومفرداته سهل ؛ وأما أنه يحفظ مالم يسمعه ، ولا يعلم مفرداته ولا مركباته ، وهو أقل مايكون أربعمائة سطر من سؤال غائب عن أهل بلده سنين وجوابه . وكان اطلاعه على اللغة وشواهدها أمراً باهراً » .

ونقل عن الشيخ كمال الدين بن الزملكاني ، أنه قال في حقه : « هو جوهرة جاءت إلى الوجود وذهبت ... » .

وقال السيوطي فيه : « كان غزير الفضل ، شائع الذكر ، وافر العلم غاية في الفهم ، عالماً باللغة ، حاذقاً بالنحو ، جيد الشعر ، جزل الكلام شهرته تغني عن صفته . وأما حافظته ....(١) » ثم ذكر قصة التبريزي وجاره.

وقال الباخرزي فيه : « ضرير ما له في أنواع الأدب ضريب .. ».(٢)

وقال ابن الأثير فيه : « علمه أشهر من أن يذكر ... (٣) »

---

(١) بغية الوعاة ص ١٣٦ وما بعدها .

(٢) دمية القصر ص ٥٠ طبعة المطبعة العلمية بحلب سنة ١٣٤٩

(٣) الكامل ٢٣٨/٩ بولاق سنة ١٢٩٠ .

وقال ياقوت (١) : « كان غزير العلم ، شائع الذكر ، وافر العلم ، غاية في الفهم ، عالماً باللغة ، حاذقاً بالنحو ، جيد الشعر جزل الكلام ، شهرته تغني عن صفته . وفضله ينطق بسجيته . . » إلى أن قال : « وسمعه المرتضي فاستدناه ، واختبره فوجده عالماً مشبعاً بالفطنة والذكاء ، فأقبل عليه إقبالاً كثيراً . . » ثم ذكر قصة التبريزي وجاره ، وقال : « وهذا غاية ليس بعدها شيء في حسن الحفظ ، وأنا كثير الاستحسان لقوله :

أَسَالَتْ أَتِيَّ الدَّمْعِ فَوقَ أَسِيلِ ... ومَالَتْ لِظِلٍّ بالعِرَاقِ ظَلِيلِ »

الأبيات . .

وقال في (معاهد التنصيص) : « وكان اطلاعه على اللغة وشواهدها أمراً باهراً . . وتصانيفه كثيرة جداً ، وشعره كثير إلى الغاية ، وأحسنه (سقط الزند) .

وقال الذهبي (٢) : « ويقال عنه : إنه كان يحفظ كل مايمر بسمعه .. وكان عجباً من الذكاء المفرط ، والاطلاع الباهر على اللغة ، وشواهدها » .

وقال الخطيب في (تاريخ بغداد) (٣) : « كان حسن الش ؛ جزل الكلام ، فصيح اللسان ، غزير الأدب ، عالماً باللغة حافظا لها .. »

وقال السمعاني في (الأنساب) والقفطي في (إنباه الرواة) مثل قول البغدادي .

وقال ابن الانباري في (نزهة الألباء) : « كان غزير الفضل ،

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء الصفحات ٦٧ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ عن إرشاد الأريب ـ لياقوت .

(٢) تاريخ الإسلام ، انظر تعريف القدماء بأبي العلاء ص ١٩١ .

(٣) تاريخ مدينة السلام ٤/٢٤٠ .

وافر الأدب ، عالماً باللغة ، حسن الشعر ، جزل الكلام ، وصنف تصانيف كثيرة ، وأشعاراً جمة [١] . . »

وقال ابن الجوزي في (المنتظم) : « وله أشعار كثيرة ، وسمع اللغة ، وأملى فيها كتباً . وله بها معرفة تامة [٢] ... »

وقال سبط ابن الجوزي في (مرآة الزمان) : « سمع اللغة ، وأملى فيها كتباً ، وله بها معرفة تامة ... ولا خلاف في سعة علم الرجل وغزارة فضله وصحة نسبه ، وأنه أوحد زمانه ، وله المصنفات الحسان » .

وقال أبو الفداء في (المختصر) : « وكان عالماً لغوياً شاعراً [٣] » .

وقال ابن الوردي في (تتمة المختصر) : « وله التصانيف المشهورة ، والرسائل المأثورة . . . . وكان متضلعاً من فنون الأدب [٤] .. »

وقال ابن فضل الله العمري في (مسالك الأبصار) : « وكان مطلعاً على العلوم . لا يخلو في علم من الأخذ بطرف . متبحراً في اللغة ، متسع النطاق في العربية ، جامع الشعوب للطرق الأدبية ، ندرة في العالم ، وشذرة في بني آدم ، ما ولدت مثله الليالي ، ولا أوجدت شبيه المعالي [٥] » . وقد أطال في مدحه ووصفه .

وقال اليافعي في (مرآة الجنان) : « ... اللغوي الشاعر المشهور ، صاحب التصانيف الكثيرة المشهورة ، والرسائل البليغة المأثورة ، والزهد

---

(١) نزهة الألباء ص ٢٥٠ طبعة القاهرة سنة ١٢٩٤ .
(٢) المنتظم في أخبار الأمم ١٨٤/٨ طبعة حيدرآباد سنة ١٣٥٨ .
(٣) المختصر في أخبار البشر حوادث سنة ٤٤٩ هـ طبعة الآستانة سنة ١٢٨٦ .
(٤) تتمة المختصر في أخبار البشر ، حوادث سنة ٤٤٩ طبعة المطبعة الوهبية سنة ١٢٨٥ .
(٥) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٢١٨ .

والذكاء المفرط ، كان متضلعاً من فنون الأدب . . . وكان علامة عصره في فنون . . [1] » .

وقال ابن حجر في (لسان الميزان) : « اللغوي الشاعر المشهور ، كان عجبا في الذكاء المفرط ، والاطلاع على اللغة . [2] » .

وقال العيني في (عقد الجمان) : « الشاعر اللغوي صاحب الدواوين ، والمصنفات في الشعر واللغة . . وكان علامة دهره [3] . . » .

وقال المكي في (نزهة الجليس) : « فاضل ، سار ذكر فضله في البراري والبحور ، وأجمع على تقدمه الجمهور ، بأنه فارس المنظوم والمنثور[4] » .

المتعصبون له

وقال الصفدي في (نكت الهميان ص ٢٩٧) : « إن مكي بن ريان ابن شبة الماكسيني المتوفى سنة ٦٠٣ هـ كان يتعصب لأبي العلاء المعري ، ويطرب إذا قرىء عليه شعره ، للجامع بينهما من الأدب والعمى ، لأنه أضر بأخرة » .

وقال السيوطي في (البغية) : « إنه أضر بالجدري وسنه ثمان أو تسع » .

وأما ما قيل في ذمه فكثير جداً منه ما يأتي :

قال الذهبي فيه : « له (رسالة الغفران) في مجلدة قد احتوت على مزدكة واستخفاف . . . والذي يظهر أن الرجل مات متحيراً ، لم يجتم بدين من الاديان » .

---

(١) مرآة الجنان حوادث سنة ٤٤٩ طبعة حيدر آباد سنة ١٣٣٩ .
(٢) لسان الميزان ١/٢٠٣ طبعة حيدرآباد سنة ١٣٢٩ .
(٣) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٣١٩ .
(٤) نزهة الجليس ١ / ٢٧٨ طبعة مصر سنة ١٢٩٣ .

وقال في (العبر) : « ولعله مات على الإسلام ، وتاب من كفرياته ، وزال عنه الشك والارتياب » . وقال غرس النعمة فيه : « كان يرمى بالإلحاد في شعره ، وأشعاره دالة على ما يزن به » . وأول من نشر شعر إلحاده غرس النعمة .

وقد نقل السيوطي في (بغية الوعاة) ما قاله ياقوت ، والصفدي ، والسلفي ، وابن العديم ، ولم يذكر رأيه فيه ؛ وإنما ذكر أنه أسند حديثه في الطبقات الكبرى .

ونقل عبد الرحيم العباسي [1] ما ذكره ياقوت ، والصفدي ، والتبريزي ، والقزويني ، والسلفي .

ونقل ابن الوردي في (تاريخه ج ١ ص ٣٥٧) ما قال ابن خلكان ، وياقوت ، وأبو الفداء ، وذكر قصة الضيوف الحسين . وأن بعض الناس زعم أن المعري قتلهم بدعائه وتهجده ، وبعضهم زعم أنه قتلهم بسحره ورصده . وكان ابن الوردي يتعصب له لكونه من المعرة ، ثم اطلع على كتاب (استغفر واستغفري) و (لزوم ما لا يلزم) فأبغضه وتبرأ منه ، ثم وقف على كتاب (ضوء السقط) فكان عنده مصلحا لفساد أبي العلاء موضحا لصحة اعتقاده . وسيأتي تمام ذلك .

وقال ابن قاضي شهبة في (طبقات النحاة واللغويين ص ١٧٨) : « وزعم بعضهم أنه أقلع عن ذلك وتاب . وقال قصيدته التي أولها :

يَامَنْ يَرى مَدَّ البعُوضِ جنَاحها ... في ظُلْمَةِ اللَّيْلِ البَهيمِ الأَلْيَلِ
وَيَرَى مَناطَ عُروقِها في نَحْرِها ... والمُخِّ في تِلْكَ العِظامِ النُّحَّلِ
أمْنُنْ عَلَيَّ بِتَوبَةٍ تَمحُو بِها ... ما كانَ مِنّي في الزّمانِ الأوّلِ

---

(١) انظر كتابه الموسوم بـ (معاهد التنصيص على شرح شواهد التلخيص) .

وذكر الصفدي في (نكت الهميان ص ١٠٣) رحلته إلى طرابلس ، واجتيازه باللاذقية ، وسماعه كلام راهب فيها . ثم قال : « والناس مختلفون في أمره ، والأكثرون على إكفاره وإلحاده . وأورد له الإمام فخر الدين الرازي في كتاب الأربعين [1] قوله :

قُلْتُمْ لَنَا صَانِعٌ قَدِيمٌ قُلْنَا صَدَقْتُمْ كَذَا نَقُولُ [2]

إلى آخر الأبيات الثلاثة . ثم قال : « وقد هذى هذا في شعره » .

وأورد مثل هذا في (الوافي بالوفيات) ثم أورد قول القزويني ، والمنازي ، والتبريزي . ثم قال : « وأما الشيخ شمس الدين الذهبي ، فحكم بزندقته ، وذكر عنه قبائح وأظن الحافظ السلفي قال إنه تاب وأناب » : ثم ذكر أبياتاً تدل على أن أهل الحسد كانوا يعملون على لسانه أشعاراً يضمنونها قول الملاحدة ثم قال : « أما الموضوع على لسانه ، فلعله لا يخفى على من له لب » . وأما الأشياء التي دونها وقالها في (لزوم ما لا يلزم) وفي (استغفر واستغفري) فما فيه حيلة وهو كثير كما سيأتي .

---

(١) هذه الأبيات ذكرها فخر الدين الرازي في كتاب الأربعين في المسألة الرابعة ، في أن الله قديم أزلي ، باق ، سرمدي . وهي في ص ٩٥ من كتاب الأربعين وروايته : « قلتم لنا صانع حكيم » ، ورواية لزوم ما لا يلزم « لنا خالق حكيم » وليس في كتاب الأربعين : « وقد هذى هذا في شعره » وإنما عد هذه المسألة عقدة محيرة . ومن المضايق الضلة المعبة ، ولم يدفع اعتراض المعري بحجة واحدة فراجعه إن شئت . ورواها البديعي في أوج التحري ص ٤٠ ، ونقل قول الرازي وقد هذى هذا في شعره (ج) .

(٢) بعده : ثم زعمتم بلا زمان ولا مكان ألا فقولوا
هذا كلام له خبيء معناه ليست لنا عقول

ونقل عن ابن دقيق العيد أنه كان يقول في أبي العلاء : « هو في حيرة » ثم أورد قصة وزير محمود بن صالح ، والضيوف الحسين ، وأبياتاً قيلت في الرد عليه ، وذكر قوله (١) :

خُلِقَ النـــاسُ للبَقاء ....
إِنّما يُنقَلون من دارِ أعمـا لِ . . . .

وقوله (٢) :

ضَحِكنا وكانَ الضّحكُ منّا سفاهةً . . . .

وجعل البيتين الأولين اعترافاً بالمعاد ، والبيتين الأخيرين إنكاراً له . وقال : « وهذه الأشياء كثيرة في كلامه وهو تناقض » . وسنبين ما في البيتين الأخيرين .

قصة الضيوف الحسين

قال سبط ابن الجوزي في (مرآة الزمان) قال الغزالي (٣) : « حدثني

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء الصفحـــات ٢٧١ ، ٢٩١ ، ٣٢١ . وشروح سقط الزند : ق ٣ ص ٩٧٨ وتكملة البيتين :

. . . . فضلت   أمه يحسبونهم للنفـــاد
. . . .   إلى دار شقوة أو رشاد

(٢) اللزوميات هـ ص ١٨٢ وتمام البيتين :

. . . .   وحق لسكان البسيطة أن يبكوا
تحطمنا الأيام حتى كأننـا   زجاج ولكن لا يعاد له سبك

(٣) انظر الخبر في تعريف القدماء الصفحات ، ١٥٢ ، ٢٨٠ ، ٢٩٣ ، ٣٢٦ .

يوسف بن علي بأرض المركار (١) ، قال : دخلت معرة النعمان وقد وشى(٢) وزير محمود بن صالح ، صاحب حلب إليه ، بأن المعري زنديق ، لا يرى إفساد الصورة . ويزعم أن الرسالة تحصل بصفاء العقل ، فأمر محمود بحمله إليه من المعرة الى حلب ، وبعث خمسين فارساً ليحملوه ، فأنزلهم أبو العلاء دار الضيافة ، فدخل عليه عمه مسلم بن سليمان ، وقال له : يا بن أخي قد نزلت بنا هذه الحادثة ، الملك محمود يطلبك ، فإن منعناك عجزنا ، وإن اسلمناك كان عاراً علينا عند ذوي الذمام ، ويركب تنوخا (٣) العار والذلة ! فقال له : هون عليك [يا عم] فلا بأس علينا ، فلي سلطان يذب عني ، ثم قام فاغتسل وصلى إلى نصف الليل ثم قال لغلامه (وقد سماه بعضهم قنبرا) انظر أين المريخ ؟ فقال : في منزلة كذا وكذا ، فقال : زنه ، واضرب تحته وتداً ، وشد في رجلي خيطاً ، واربط به إلى الوتد . ففعل غلامه ذلك ، فسمعناه وهو يقول : يا قديم الأزل ، يا علة العلل ، يا صانع المخلوقات وموجد الموجودات . أنا في عزك الذي لا يرام ، وكنفك الذي لا يضام ، الضيوف الضيوف ! الوزير الوزير ! ثم ذكر كلمات لا تفهم وإذا بهدة عظيمة . فسأل عنها ، فقيل : وقعت الدار على الضيوف الذين كانوا بها ،

---

(١) هكذا وردت في مرآة الزمان ، وهكذا نقلها كل من نقلها عنه ، ولم أجد لفظ المركار في معجم البلدان ، ولا في غيره مما لدي من المظان (ج) .

(٢) في تاريخ ابن الوردي . « اغرت به حساده وزير حلب فجهز لاحضاره خمسين فارساً ليقتله فأنزلهم أبو العلاء في مجلس له بالمعرة ، فاجتمع بنو عمه اليه .. » وفي فوات الوفيات ج ١ ص ٢٣٣ ذكر وزيرا لمحمود بن صالح سماه أبا نصر محمد بن الحسين ابن النحاس . وذكر ابن العديم أن أبا العلاء وضع كتاب شرح خطبة أدب الكاتب لأبي الرضي سالم بن الحسن بن علي الحلبي وهو ابن أخت الوزير أبي نصر محمد بن الحسن ابن النحاس الحلبي (ج) .

(٣) كذا في الأصل (ج) .

فقتلت الحسين . وعند طلوع الشمس ، دفعت بطاقة من حلب على جناح طائر ، لا تزعجوا الشيخ ! فقد وقع الحمام على الوزير .

قال يوسف بن علي : فلما شاهدت ذلك دخلت على المعري ، فقال : من أين أنت ؟ قلت : من أرض الهركار ، فقال : زعموا أني زنديق . ثم قال : اكتب ، وأملى عليّ :

بأتوا وحتفي أمانيٌّ مُصَوَّرَةٌ ... وبتُّ لم يخطروا مِنّي على بالِ

ثم أورد بعد هذا البيت ثمانية أبيات أخر . وذكر قبل ذلك تسعة أبيات . أولها :

أستغفرُ اللهَ[1] في أمني وأوجالي ... .

ووصلها بقوله : « باتوا وحتفي » وذكر بعده خمسة أبيات . وقد اثبتناها كما ذكرها الصفدي في (الوافي بالوفيات) .

أستغفرُ اللهَ في أمني وأوجالي ... مِنْ غفلتي وتوالي سُوءِ أعمالي

قالوا هرِمتَ[2] ولم تطرقْ تِهامةَ في ... مُشاةِ وفدٍ ولا رُكبانِ أجمالِ

فقلتُ : إني ضريرٌ والذين لهمْ ... رأيٌ رأوا غير فرض حجّ أمثالي[3]

ما حجّ جدّي ولم يحججْ أبي وأخي ... ولا ابنُ عمّي ولم يعرفْ منى خالي

وحجّ عنهمْ قضاءً بعدما ارتحلوا ... قومٌ سيقضون عني بعدَ ترحالي

---

(١) والأبيات مما لم يرو في الديوانين ، انظر تعريف القدماء ص ٢٨١ عن الوافي .

(٢) في مرآة الزمان : « هدمت » (ج)

(٣) في الأصل : « فرض الحج » (ج)

فإنْ يفوزُوا بغُفْرانٍ أفُزْ معَهُمْ ... أوْلاَ فإني بنارٍ مِثْلِهِمْ صَالِ
ولا أرُومُ نعيماً لا يكُونُ لهُمْ ... فيهِ نَصيبٌ وَهُمْ رَهْطي وأشكالي
فَهَلْ أُسَرُّ إذا حُمّتْ مُحَاسَبَتي ... أمْ يَقْتَضي الحكمُ تعنّابي وتسآلي[1]
مَنْ لي برضْوانَ أدْعُوهُ فيرْحمَني ... ولا أُنادي مع الكفار أمثالي[2]
بأتوا وَحَتْفي أمَا نيهِمْ مُصَوّرَةً ... وَبتُّ لَمْ يَخْطُر وامني على بالِ[3]
وَفَوّقُوا لي سِهاماً مِنْ سِهَامِهِمُ ... فَأصْبحَتْ وُقَّعاً مِنّيَ بأمْيالِ
فَمَا ظُنونُكَ إذ جُنْدي مَلائِكَةٌ ... وَجُنْدُهُمْ بَيْنَ طَوّافٍ وَبَقّالِ
لَقِيتُهُمْ بِعَصَا مُوسَى التي مَنَعَتْ ... فِرْعَوْنَ مُلْكاً وَنَجّتْ آلَ إسْرالِ
أُقيمُ خَمْسي وَصَوْمُ الدّهْرِ آلَفُهُ ... وأدْمِنُ الذّكْرَ أبكاراً بآصالِ
عِيدَيْنِ أفْطِرُ مِنْ عامِي إذَا حَضَرا ... عِيدَ الأضاحِيِّ يقْفُو عِيدَ شَوّالِ

---

(١) في الدنطي : « تعناني » (ج)

(٢) في الدنطي : « أدعوه فأرحمه » ولعله أرخمه من الترخيم أي أقول له : بارضو وقد أشار إلى مثل هذا في رسالة الملائكة والذفران وفيه : « مع الكفار يامال أي يامالك (ج)

(٣) وفي المرآة : « وحتني أماني لناكبهم » وفي سر العالمين : « أماني لنيتهم » وفي المرآة بعد هذا البيت :

فنالوا وهم كفيول في كتائبهم ... ولا نجاح لأفيالٍ كأفيالِ
لما هددت بنصر الله أيدني ... كأن نصرت بجبريل وميكال
وجاء إذ ذاك عزرائيل يغضب لي ... فيقبض الروح مغتاظاً بإعجالِ (ج)

إِذَا تَنافَسَتِ الْجُهَّالُ في حُلَلٍ   رَأَيتَنِي مِنْ خَسِيسِ القُطْنِ سِرْبالي
لا آكُلُ الحيوانَ الدَّهْرَ مأثُرةً   أَخافُ مِنْ سُوءِ أَعْمَالي وآمَالي
وأعْبُدُ اللهَ لا أرجو مَثُوبَتَهُ   لَكِنْ تَعَبُّدَ إِكْرَامٍ وإِجلال[1]
أَصُونُ دِينِيَ عَنْ جُعْلٍ أُؤَمِّلُهُ   إِذا تَعَبَّدَ أَقْوَامٌ بأَجْعَالِ

وهذا النص مذكور في كتاب (سر العالمين وكشف ما في الدارين) وهو يخالف ما هنا كثيراً في عباراته وفيه زيادة هذين البيتين :

وكَيفَ أَقْرَبُ طَعْمَ الشَّهْدِ وَهُو كَذَا   غَصْبٌ لِمَكْسَبِ نَحْلٍ ذاتِ أَطْفَالِ
نَهَيْتُهُمْ عَنْ حَرامِ الشَّرْعِ كُلِّهِمُ   وَيَأْمروني بترك المَنْزِلِ العَالي

بعد قوله : « لا آكل الحيوان الدهر » وقد نقل البديعي في (أوج التحري ص ٣٤) هذه القصة بصورة مجملة ، ثم قال : « فالقائلون إنه كان زنديقا ملحدا ، يقولون : إنه قتل الوزير والحسين بسحره ورصده ، والقائلون : إنه كان على غاية ما يكون من الدين والزهد ، يقولون : قتلهم بدعائه وتهجده » .

ونقل هذه القصة عن سبط ابن الجوزي الصفدي في (الوافي بالوفيات) وفي (نكت الهميان) ورواها العيني في (عقد الجمان) ولم يذكر الأبيات . ونقلها العباسي في (نزهة الجليس) عن كتاب (الأنباء في تاريخ الأطباء) لابن أبي أصيبعة ؛ وذكر ستة أبيات أولها : « بانوا وحتى . . . » ورواها صاحب (نسمة السحر) وصاحب (سكردان السلطان) . وذكرها

---

(١) في المرآة رواية ثانية : « تبارك الله لا ارجو . . . » (ج) .

ابن الوردي بصورة مجملة . ورواها غير هؤلاء ، وفي الروايات تفاوت في الزيادة والنقص . وأكثرهم قالوا : إنّ عمه مسلم بن سليمان ، إلا صاحب (طبقات النحاة واللغويين) فإنه [ذكر] في (ص ١٧٨) [أن] عمه سلم ابن سليمان .

وقد أنكر صاحب (الذكرى) هذه القصة ، فقال : « إنما تكذب (١) نفسها ، فإن عم أبي العلاء مات قبل أبيه ، ولم يكن أبو العلاء ينتحل السحر ، ولا يعرف الطلسمات » . وأنكرها الميمني (٢) أيضاً واستدل على ذلك بأمور منها :

١ : أن أبا العلاء لم يكن يعلم من النجوم إلا ما يلزم المتأدب .

٢ : أن قوله « ياقديم الأزل . . » لا يشبه كلام المعري .

٣ : أن محموداً ابن شبل الدولة بن صالح لا ابن صالح .

٤ : أن ولاية محمود حلب بعد وفاة المعري بثلاثة أعوام .

٥ : أن هذه الحادثة على عظمها لم ينقلها أحد من بلديي أبي العلاء ، كأبي اليسر ، وأبي غالب ، وابن العديم ، والقفطي ، ولا أحد من تلامذته .

والاعتراض الأول والثاني والخامس ليس بمقنع . لأننا لا نعلم حقيقة علم المعري بالنجوم ، ولا نستبعد أن يقول : « يا قديم الأزل » . لأن ذلك جرى على ألسنة بعض الحكماء من قبله ، وأننا لم نطلع على جميع أخبار المعري ، ولا على تاريخ أبي غالب ، وابن العديم ، وإذا لم يذكرها القفطي ونحوه ، فلا يلزم أن لا تكون معروفة عند غيره ، لأن عدم ذكر الشيء لا يستلزم عدمه ، ولجواز أن يكون هؤلاء لم يطلعوا على ذلك أو اطلعوا عليه ولم يذكروه لعلة .

---

(١) ذكرى أبي العلاء ط٢ ص ٢٠٧ ـ لطه حسين .

(٢) أبو العلاء وما إليه ص ٢٤٧ ـ ٢٥٠ .

على أن القفطي ذكر نحو عشرة أبيات من القصيدة، فبقي الاعتراض الثالث والرابع . ويمكن أن يقال أيضا : إن أسلوب الأبيات أدنى من أسلوب المعري في شعره، فإنه ألمّ بكثير من معاني هذه القصيدة في مثل قوله (١) .

وَصَرُورَةٌ بِالمَعْنَيَيْنِ لأنني ... مُذْ كُنْتُ لَمْ أحْجُجْ وَلَمْ أتَزَوَّجِ

. . .

وقوله (٢) .

أنَا صائِمٌ طُولَ الحَيَاةِ وإنما ... فِطْرِي الحِمامُ وَيومَ ذاكَ أُعَيِّدُ

. . .

وقوله (٣) .

يا رِضوَ لا أرْجو لِقَـا ... ءكَ بلْ أخَافُ لقاء مالِكْ

وفي أبياته التي تدل على عدم أكله الحيوان وما تولد منه، وإن بين اسلوبه في هذه القصيدة، وأسلوبه في غيرها، فرقاً ظـاهراً، من حيث قوة التأليف، وطلاوة الديباجة، وإحكام الوصف . وفي هذه القصيدة جمل ركيكة لا يعرف مثلها في شعر المعري، مثل قوله : « غير فرض الحج أمثالي » وقوله : « عيدين أفطر في عامي . . »

وخلاصة القول : ان في هذه الحادثة مجالاً واسعاً للشك في صحتها، لاسيما وقد ذكر فيها عم لأبي العلاء، سمي مسلماً أو سلماً . ولم أر من

---

(١) اللزوميات ١ ص ٧٨ ونيرا : « في شيمتين » والصرورة : في الاسـلام، الذي لم يحج، وفي الجاهلية : الذي لم يتزوج .

(٢) انظر ماسبق الصفحات : ٣٧٣، ٤٦٢ .

(٣) انظر ماسبق ص ٣٦٨ ورضو : ترخيم رضوان وهو خازن الجنة ومالك خازن النار

ذكره في أعمامه . على أننا لا نعلم يقيناً جميع أعمامه ، وهذا لا يوجب أن لا يكون له عم مسمى بهذا الاسم . وإذا أريد تسويغها ، فمن الجائز أن يهدم البيت على الضيوف رجال أعدوا لذلك ، وينسب عملهم في الظاهر إلى ما فعله أبو العلاء ، كما يجوز أن يقع ذلك بطريق الاتفاق . ولكن وقوع الحمّام على الوزير ، مع سقوط البيت على الضيوف في وقت متقارب ، يزيدنا اعتقاداً في بعد ذلك عن الصحة .

وقال ابن الأثير في تاريخه [1] (ج ٩ ص ٢٦٦) في ترجمته : « أكثر الناس يرمونه بالزندقة ، وفي شعره ما يدل على ذلك ، ونقل قوله للقزويني : « ما هجوت أحداً قط » . وقول القزويني له : هجوت الأنبياء ، فتغير وجهه ، وقال : « ما أخاف أحداً سواك » .

وقال ابن خلكان [2] (ج ١ ص ٤١) بعد أن مدحه : « ومكث مدة خمس وأربعين سنة لا يأكل اللحم تديناً ، لأنه كان يرى رأي الحكماء المتقدمين ، وهم لا يأكلونه ، كيلا يذبحوا الحيوان ، ففيه تعذيب له . وهم لا يرون الإيلام مطلقاً في جميع الحيوانات (. . . كذا) ، وأوصى أن يكتب على قبره هذا البيت :

هذا جَنَاهُ أبي عليّ . . . .

وهو أيضاً متعلق باعتقاد الحكماء ، فإنهم يقولون : إيجاد الولد وإخراجه إلى هذا العالم جناية عليه ، لأنه يتعرض للحوادث والآفات ، ثم ذكر الأبيات .

إِنْ كُنْتَ لمْ تُرِقِ الدّماء زهادة . . . .

---

(١) انظر الكامل لابن الأثير .

(٢) وفيات الأعيان .

وقال : وقد أشار في البيت الأول الى ما كان يعتقده ويتدين به من عدم الذبح . . . وقد صرح أبو العلاء في (لزوم ما لا يلزم) بأن الوالد يجني على الولد .

وقال الدميري : « . . أحسن ما قيل فيه إنه في حيرة » .

وقال أبو الحسن علي بن الحسن الباخرزي المتوفى سنة ٤٦٨ ﻫ في (دمية القصر ص ٥٠) : « أبو العلاء ضرير ، ماله في أنواع الأدب ضريب ، ومكفوف في قميص الفضل ملفوف . ومحجوب ، خصمه الألد محجوج . وقد طال في ظلال الاسلام آناؤه . ولكن ربما يترشح بالالحاد إناؤه . وعندنا خبر بصره ، والله أعلم ببصيرته ، والمطلع على سريرته . وإنما تحدثت الألسن بإساءته ، لكتابه الذي زعموا أنه عارض به القرآن ، وعنونه بالفصول والغايات . ومحاذاة السور والآيات ، وأظهر من نفسه تلك الخيانة ، وجذّ تلك الهوسات كما يُجذّ العير الصلّيانة [1] . حتى قال القاضي أبو جعفر قصيدة أولها :

كَلْبٌ عَوَى بِمَعَرَّةِ النُّعْمان لمَّا خَلا عَنْ رِبْقَةِ الإيمان
أَمَعَرَّةَ النُّعْمَانِ ما أَنجَبْتِ إِذْ أَخرَجْتِ مِنْكِ مَعَرَّةَ العُمْيان

وذكر أنه لم يجد في ديوانه الذي سماه (سقط الزند) ما يصلح لكتابه ، فرجع الى تعليقاته ، فعثر بما أنشده الشيخ اسماعيل الصابوني عن أبي العلاء وذكر ثلاثة أبيات من (لزوم ما لا يلزم) وستة وعشرين بيتاً من (سقط الزند) . ولا أعلم كيف استحسنها بعد أن لم يجد في

---

(١) الصليانة : بكسر الصاد وتشديد اللام المكسورة ، ضرب من النبت ينبت صعداً واضخمه أعجازه وأصوله ، فاذا كدمه العير نزعه اجتثه من أصله .

السقط ما يصلح لكتابه. والظاهر أنه لم يعلم قيمتها الأدبية، حتى أرشده اليها الصابوني.

وقال في ترجمة حمد بن فورّجة: «وشعره فرخ شعر الأعمى، أعني شاعر معرة النعمان، وإن كان هذا الفاضل منزهاً عن معرة العميان».

وقال ابن الجوزي (١) في تاريخه: «زنادقة الاسلام ثلاثة: ابن الراوندي (٢)، والتوحيدي (٣)، وأبو العلاء المعري. وشرهم على الاسلام التوحيدي، لأنهما صرحا، وهو مُجَمْجِمٌ ولم يصرح».

وقال في (تلبيس إبليس): (٤) «ومن زنادقة الاسلام، من لم يبرح على تعثره، ففاتته الدنيا والآخرة، مثل ابن الراوندي والمعري.. وأما أبو العلاء، فأشعاره ظاهرة الالحاد، وكان يبالغ في عداوة الأنبياء،

---

(١) ابن الجوزي: أبو الفرج عبد الرحمن بن علي المعروف بابن الجوزي، نسبة إلى محلة بالبصرة، يقال لها: محلة الجوزة. شاعر واعظ له تصانيف كثيرة، منها (المنتظم في أخبار الأمم) درج فيه على طريقة ابن جرير انتهى فيه الى سنة ٥٧٤ هـ. ولد سنة ٥١٠ هـ. وتوفي سنة ٥٩٧ هـ (ج)

(٢) هو أحمد بن يحيى الراوندي المتكلم، منسوب إلى راوند، وقد ضبطت في الأنساب وياقوت، والوفيات، والبداية، بألف بعد الراء. وابن الجوزي رسمه الريوندي بالياء بعد الراء. وفرق ياقوت بينهما، فجعل راوند من نواحي قاسان، وريوند ناحية بنيسابور وابن خلكان جعل البلدين بألف بعد الراء. واختلف في وفاته من سنة ٢٤٥ هـ الى سنة ٣٠١ هـ (ج).

(٣) أبو حيان علي بن محمد التوحيدي، متصوف معتزلي فيلسوف له تآليف كثيرة منها المقابسات، والبصائر والذخائر، والامتاع والمؤانسة، وغيرها، ولما اغلقت به الأيام رأى أن كتبه لاتفيده، وضن بها على من لم يعرف قدرها، فأحرقها ولم يسلم منها إلا مانقل عنه قبل الاحراق. توفي نحو سنة ٤٠٠ هـ (ج).

(٤) تلبيس ابليس لابن الجوزي ص ١١٢ طبعة مطبعة النهضة بمصر.

ولم يزل متخبطاً في تعثره ، خائفاً من القتل الى أن مات بخسرانه » .

وقال في ترجمته في (المنتظم) : « وكانت أحواله تدل على اختلاف عقيدته » . ثم حكى قوله للتبريزي : « وهكذا شيخك » حين قال له : ما أنا إلا شاكّ . ثم قال : « وكان ظاهر أمره يدل على أنه يميل الى مذهب البراهمة ، فإنهم لا يرون ذبح الحيوان ، ويجحدون الرسل . وقد رماه جماعة من العلماء بالزندقة والالحاد ، وذلك أمره ظـــاهر في كلامه وأشعاره . وأنه يردّ على الرسل ويعيب الشرائع ويجحد البعث . ونقلت من خط [أبي] الوفاء ابن عقيل (١) أنه قال : من العجائب أن المعري أظهر ما أظهر من الكفر البارد الذي لا يبلغ منه مبلغ شبهات الملحدين ، بل قصر فيه كل التقصير ، وسقط من عيون الكل ، ثم اعتذر بأن لقوله باطناً ، وأنه مسلم في الباطن ، فلا عقل له ولا دين لأنه تظاهر بالكفر . وزعم أنه مسلم في الباطن ، وهذا عكس قضايا المنافقين والزنادقة ، حيث تظاهروا بالاسلام وأبطنوا الكفر . . . » . ثم قال : « قال المصنف (ابن الجوزي) : وقد رأيت للمعري كتابا سماه (الفصول والغايات) يعارض به السور والآيات ، وهو كلام في نهاية الركة والبرودة ، فسبحان من أعمى بصره وبصيرته » . ثم أورد جملة منه ، وقال : « وكله على هذا النمط البارد » .

وقال ياقوت في (إرشاد الأريب ج ١ ص ١٧٧) : « انه قرأ بخط عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي (٢) في كتاب له : أن جماعة

---

(١) هو علي بن عقيل شيخ الحنابلة ببغداد ولد سنة ٤٣١ هـ وتوفي سنة ٥١٣ هـ وله مشاركة في كثير من العلوم ، وأخباره في الكامل والمنتظم والبداية (ج) .

(٢) كان يرى رأي الشيعة ، وتوفي غيلة سنة ٤٦٦ هـ فوات الوفيات ج ١ ص ٢٩٨ (ج) .

نظموا على أسلوب القرآن . وأظهر ذلك قوم ، وأخفاه آخرون . ومما ظهر منه قول أبي العلاء في بعض كلامه : أقسم بخالق الخيل . والريح الهابة بين الشرط ومطلع سهيل . ان الكافر لطويل الويل . . . » .

وهذه القطعة من كلامه في (الفصول والغايات ج ١ ص ٢٥٢) وقد تقدم الكلام فيه وستأتي تتمته .

وقال ياقوت (ج ٦ ص ٢٣٤) في ترجمة الوجيه بن الدهان : « حضر الوجيه النحوي بدار الكتب ، التي برباط المأمونية ، وخازنها يومئذ أبو المعالي أحمد بن هبة الله ، فجرى حديث المعري ، فذمه الخازن . وقال : كان عندي في الخزانة كتاب من تصانيفه فغسلته . فقال له الوجيه : وأي شيء كان هذا الكتاب ؟ قال : كان نقض القرآن ، فقال له : أخطأت في غسله ، فعجب الجماعة منه ، وتغامزوا عليه واستشاط ابن هبة الله ، وقال له : مثلك ينهى عن مثل هذا ؟ ، قال : نعم ، لايخلو أن يكون هذا الكتاب مثل القرآن ، أو خيراً منه أو دونه ، فإن كان مثله أو خيراً منه ، وحاشى لله أن يكون ذلك ، فلا يجب أن يفرط في مثله ، وإن كان دونه ، وذلك مما لا شك فيه ، فتركه معجزة للقرآن ، فلا يجب التفريط فيه ، فاستحسن الجماعة قوله ، ووافقه ابن هبة الله على الحق وسكت » .

وقال ياقوت (ص ١٧٨)(١) : « والناس في أبي العلاء مختلفون ، فمنهم من يقول : إنه كان زنديقاً ، وينسبون اليه أشياء مما ذكرنا . ومنهم من يقول : انه كان زاهداً عابداً ، متقللاً يأخذ نفسه بالرياضة والخشونة ، والقناعة باليسير ، والإعراض عن أعراض الدنيا » .

وقال (ص ١٧٠)(١) : « وكان متهماً في دينه ، يرى رأي البراهمة ، لايرى إفساد الصورة ، ولا يأكل لحماً ، ولا يؤمن بالرسل والبعث والنشور » .

---

(١) الجزء الأول من إرشاد الأريب الى معرفة الأديب .

ثم قال : « وقد أوردنا من شعره ما يستدل به على سوء معتقده ، ويخبرك بنحلته ومستنده ، وحدّث غرس النعمة أبو الحسن الصابي : أنه بقي خمساً وأربعين سنة لا يأكل اللحم ولا البيض ، ويحرم إيلام الحيوان ، ويقتصر على ما تنبت الأرض ، ويلبس خشن الثياب ، ويظهر دوام الصوم » . ثم نقل ما دار بينه وبين المازني ، وقوله للتبريزي : « وهكذا شيخك » . ثم أورد له أبياتا تدل على سوء عقيدته من (لزوم ما لا يلزم) منها أربعة أبيات أولها : (١)

ألا فانعَمُوا واحذَرُوا في الحَيَاةِ مُلِمّاً يُسَمَّى مزيلَ النِّعَمْ

وأربعة أخرى يقول فيها : (٢)

دَعَا مُوسَى وزَالَ وَقَامَ عِيسَى وَجَاء مُحَمَّدٌ بِصَلاةِ خَمْسِ

---

(١) والأبيات الثلاثة الأخر :

أتوكم بأقوالهم والحسام فشدّ به زاعم مازعم
تلوا باطلاً وجلوا صارماً وقالوا صدقنا فقلنا نعم
زخارف ماثبتت في القلو ب عمّى عليكم بهنّ العمّ

انظر تعريف القدماء بأبي العلاء ص ١١٢ ، واللزوميات ﻫ ص ٢٥٨ وفيها : « أتوكم بأقبالهم . . . » .

(٢) أولها :

لقد طال العناء فكم تعاني سطوراً عاد كاتبها بطمس

• • •

والثالث والرابع :

وقيل يجيء دين غير هذا فأودى الناس بين غد وأمس

• • •

إذا قلت المحال رفعت صوتي وإن قلت اليقين أطلت همسي

انظر تعريف القدماء بأبي العلاء ص ١١٢ ، واللزوميات ﻫ ص ٣٠١ .

وأربعة أخرى أولها : (١)

وَجدْتُ الشَّرْعَ تُخلِقُه اللَّيالي كمـا خَلُقَ الرِّداءُ الشَّرْعَبِيُّ

وقوله : (٢)

إذَا مَا ذَكَرْنَا آدَماً وفِعَالَـه وَتَزْوِيجَه بِنْتَيْهِ لابْنَيْهِ في الدُّنا

عَلِمْنَا بأنَّ الخَلْقَ مِنْ أصْلِ رِيبَةٍ وأنَّ جَمِيعَ النَّاسِ مِنْ عُنْصُرِ الزِّنا

ثم أورد أبياتا خمسة ، قالها رجل من يهود خيبر ، يعرف بسمير بن أدكن ، لما أجلى عمر بن الخطاب أهل الذمة عن جزيرة العرب أولها : (٣)

---

(١) وتمامهـا :

هي العادات يجري الشيخ منها على شيم تعوّدهـا الصبي

* * *

وأشوى الحقّ غاو مشرقي ولم يرزقه آخر مغربي

فهذا عمرٌ يقول وذا سواء كلا الرجلين في الدعوى غبي

تعريف القدماء بأبي العلاء ص ١١٣ ، واللزوميات ٥ ص ٣٤٣ ، وفيهـا : « وذا علي » .

(٢) الأبيات ممـا لم يرو في الديوانين ، أنظر فائت شعر أبي العلاء جمع الميمني ص ١٣ ـ ١٤ وفيها : « في الخنى » .

(٣) تمام الأبيات :

مكانك لاتتبع حولة ماقط لتشبع أن الزاد شيء محبب

فلو كان موسى صادقاً ماظهرتم علينا ولكن دولة ثم تذهب

ونحن سبقناكم إلى اليمن فاعرفوا لنا رتبة البادي الذي هو أكذب

مشيتم على آثارنا في طريقنا وبغيتكم في أن تسودوا وترهبوا

انظر رسالة الغفران تحقيق بنت الشاطئ ط ١ ص ٣٧٧ ، وتعريف القدماء بأبي العلاء ص ١١٣ ـ ١١٤ .

يَصُولُ أبو حَفصٍ عَلَينَا بِدِرَّةٍ رُوَيدَكَ إنَّ المَرءَ يَطفُو وَيرسُبُ

ثم قال ياقوت بعد ذكرها : « وهذا يشبه أن يكون شعره قد نحله هذا اليهودي ، أو أن إيراده لمثل هذا واستلذاذه به من أمارات سوء عقيدته ، وقبح مذهبه » . ثم أورد ابياتا تدل على سوء اعتقاده منها قوله : (١)

يَدٌ بِخَمسِ مِئِينَ عَسجَدٍ فُدِيَتْ مَا بَالُها قُطِعَتْ في رُبعِ دِينارِ

ثم قال ياقوت : « كان المعري حماراً لا يفقه شيئاً ، وإلا فالمراد بهذا بيّن ، لو كانت اليد لا تقطع إلا في سرقة خمسمائة دينار ، لكثر سرقة ما دونها طمعاً في النجاة ، ولو كانت اليد تفدى بربع دينار ، لكثر من يقطعها ويؤدي ربع دينار دية » .

وبعد أن أورد كثيراً من الأبيات الدالة على كفره تصريحا ، قال : « نقلت هذا كله من (تاريخ غرس النعمة) (٢) » . ثم قال : « قرأت في كتاب (فلك المعاني) (٣) أن كثيراً من الجهال يعد الموت ظلما من الباري ويستقبحه بما فيه من النعمة والحكمة والراحة والمصلحة . وقد

---

(١) هما بيتان في اللزوميات ٥ ص ١٥٢ وأولهما :

تناقض مالنا إلا السكوت له وأن نعوذ بمولانا من النار

انظر تعريف القدماء بأبي العلاء ص ١١٥ .

(٢) هو أبو الحسن محمد بن هلال بن المحسن بن ابراهيم الصابي الملقب بغرس النعمة ، له ذيل على تاريخ والده ، الذي هو ذيل على تاريخ ثابت بن سنان الذي هو ذيل على تاريخ ابن جرير ، وتوفي غرس النعمة سنة ٤٨٠ هـ (ج) .

(٣) فلك المعاني لأبي يعلى محمد بن محمد بن صالح المعروف بابن الهبارية المتوفى سنة ٥٠٩ هـ رتبه على اثني عشر بابا على ترتيب البروج (ج) .

قال أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان المعري ، مع تخذلقه ، ودعواه الطويلة العريضة ، وشهرة نفسه بالحكمة ، ومظاهرته :

وَنَهَيْتَ عَنْ قَتْلِ النُّفُوسِ تَعَمُّداً   وَبَعَثْتَ أَنْتَ لِقَتْلِهَا مَلَكَيْنِ
وَزَعَمْتَ أَنَّ لهـــا مَعَاداً ثانِياً   مَا كَانَ أَغْنَاهَا عَنِ الحَالَيْنِ (١)

وهذا كلام مجنون معتوه ، يعتقد أن القتل كالموت ، والموت كالقتل ، فليت هذا الجاهل لما حرم الشرع وبرده ، والحق وحلاوته ، والهدى ونوره ، واليقين وراحته ، لم يدع ما هو بريء منه بعيد عنه ولم يقل :

غَدَوْتَ مَرِيضَ العَقْلِ والرَّأْيِ فالقَنِي   لِتُخْبَرَ أَنْبَاءَ العُقُولِ الصَّحَائِحِ (٢)

حتى سلط الله عليه أبا نصر بن أبي عمران ، داعي الدعاة بمصر ، فقال له : أنا ذلك المريض رأيا وعقلا ، وقد أتيتك مستشفياً فاشفني . وجرت بينهما مكاتبات كثيرة ، أمر في آخرها بإحضاره حلبَ ، ووعده على الإسلام خيراً من بيت المال ، فلما علم أبو العلاء أنه يحمل للقتل أو الإسلام سم نفسه ومات ....» .

---

(١) البيتان مما لم يرو في الديوانين ، وهما من أبيات ثلاثة أولها :

صرف الزمان مفرق الالفين
فاحكم إلهي بين ذاك وبيني

انظر إرشاد الأريب ـ لياقوت ١/١٩٢ ، وتاريخ الإسلام الذهبي ص ١٣١ ونكت الهميان ـ ص ١٠٦

(٢) هكذا رواه ياقوت ١/١٩٤ ، (ج) وفي اللزوميات هـ ص ٨٤ :

غدوتَ مريض العقل والدين فالقني
لتسمع أنباء الأمور الصحائح

وقال ياقوت في (معجم البلدان) في الكلام على اللاذقية : « قال المعري الملحد : اللاذقية فتنة . . . » وقد تقدم .

وقال أبو الفداء في (تاريخه ج ٢ ص ١٧٦) : ونُقلت عنه [أي عن أبي العلاء] أشعار وأقوال علم بها فساد عقيدته ، ونسب إلى التمذهب بمذهب الهنود ، لتركه أكل اللحم خمساً وأربعين سنة ، وكذلك البيض واللبن ، وكان يحرم إيلام الحيوان . وله مصنفات كثيرة أكثرها ركيكة (كذا) فهجرت لذلك ، وكان يظهر الكفر ، ويزعم أن لقوله باطنا ، وأنه مسلم في الباطن . فمن شعره المؤذن بفساد عقيدته قوله :

عَجِبْتُ لِكِسْرَى وَأَشْيَاعِــهِ وغَسْلِ الوُجُوهِ بِبَوْلِ البَقَرْ
وَقَولِ النَّصَارَى إِلَـهٌ يُضَامُ وَيُظْلَمُ حيــاً ولا يُنْتَصَرْ
وَقَوْلِ اليَهُودِ إِلَـهٌ يُحِبُّ رَسِيسَ الدِّمَاءِ وَرِيحَ القُتَرْ
وَقَوْمٍ أَتَوْا مِنْ أَقاصِي البِلادِ لِرَمْيِ الجِمارِ وَلَثْمِ الحَجَرْ
فَوا عَجَباً مِنْ مقـــالاتِهِمْ أَيَعْمَى عَنِ الحَقِّ كُلُّ البَشَرْ

ومن ذلك قوله :

زَعَمُوا أَنَّني سَأُبعَثُ حيــاً بَعْدَ طُولِ المُقامِ في الأَرْماسِ
وأَجوزُ الجِنَانَ أَرْتَعُ فيهــا بَيْنَ حورٍ وَوِلْدَمٍ أَكْيَاسِ
أَيُّ شَيْءٍ أَصَابَ عَقْلَكَ يا مِسْــكِينُ حَتّى رُمِيتَ بِالْوَسْواسِ

ومن ذلك قوله :

أتى عِيسَى فَبَطَّلَ شَرْعَ مُوسَى   وَجَاءَ مُحَمَّدٌ بِصَلاةِ خَمْسِ
وَقَالُوا لا نَبِيٌّ بَعْدَ هَــذَا   فَضَلَّ القَوْمُ بَيْنَ غَدٍ وأمْسِ

إلى آخر الأبيات الأربعة .

ومن ذلك قوله :

تَاهَ النَّصَارَى والَحنيفَةُ ما اهْتَدَتْ   وَيَهودُ هَطْرى[1] والَمجُوسُ مُضَلَّلَه
قَسَمَ الورَى قِسْمينِ هَذا عاقِلٌ   لادينَ فيهِ وَدَيِّنٌ لا عَقْلَ لَه

وقال ياقوت (ج ٥ ص ١٣٢ من إرشـــاد الأريب) إنه « سأل ابا الحسن علي بن الحسن بن عنتر بن ثابت المعروف بشميم الحلي النحوي اللغوي المتوفى سنة ٦٠١ هـ عمن تقدم من العلماء ، فلم يحسن الثناء على أحد منهم ، فلما ذكرت له المعري نهرني وقال لي : ويلك كم تسيء الأدب بين يديّ ، مَن ذلك الكلب الأعمى حتى يذكر بين يديّ في مجلسي ؟ » .

وذكر في (ص ١٣٨) في جملة كتب شميم كتاب (الإشارات المعربة) مجلد ولم يبين مـــا هو ، وترجمته في (ياقوت ج ٥ ص ١٢٩) و (البغية ص ٣٢٣) .

---

(١) كذا في الأصل ، وفي الديوان : « ويهود حارت » .
ويقال : هطر الكلب اذا قتله أو هيجه بالخشبة . وما ُطرى : بسكون الطاء قرية بسر من رأى كان أكثر أهلها اليهود (ج)

ما ألفه العلماء في مدحه والانتصار له ، أو في ذمه والنيل منه :

يتبين مما قدمناه ومما سنذكره ، أن أبا العلاء شغل الناس حياً وميتاً . وقد اختلفت كلمة القوم فيه ، فذهب فريق منهم إلى الغمز في دينه ، وسرد ما توهمه من العقائد الزائفة في كلامه ، واستنتاج مـا يؤدي الى الإلحاد ، وتوجيه بعض كلامه إلى ما يوجب الحكم بزندقتـه ولو بضروب من التأويل والتكلف . وذهب فريق آخر الى تبرئته من كل ما يوهم الزيغ في عقيدته ، وتأويل المشتبه من كلامه . وفريق حـار في أمره فنسبه الى الحيرة . وفريق رابع توقف في الحكم عليه . وقد ألف جماعة فيه كتبا ورسائل في مدحه والانتصار له . وألف آخرون في تكفيره والطعن فيه

الكتب المؤلفة في دفع المعرة والظلم عنه

أظن أن الكتب التي وضعت للدفاع عنه كثيرة ، ولكن ما وصل إلينا منها قليل ، منها :

كتاب دفع المعرة عن شيخ المعرة :

ولم يسامحنا الدهر بالاطلاع على هذا الكتاب ، ولا عرفنا مؤلفه ، ولا السبب الذي حمله على تأليفه ، وإنما ذكره ابن الوردي في (تاريخه ج ١ ص ٣٦٠) حيث قال : وصنف بعض الأعلام في مناقبه [أبي العلاء] كتابا سماه (دفع المعرة عن شيخ المعرة) ، وذكر أن فيه فصولاً من نوادر ذكائه ، وإجابة دعائه والاعتذار عن طعن أعدائه .

ومنها كتاب وضعه أبو طاهر الحافظ السلفي ، أحمد بن محمد بن أحمد ابن سِلَفة الأصبهاني ، صدر الدين المتوفى سنة ٥٧٦ هـ . وهو تلميذ أبي

زكريا التبريزي ، تلميذ أبي العلاء . وهذا الكتاب لم نقف عليه ، وإنما ذكره ابن الوردي في (تاريخه ج ١ ص ٣٦١) قال : « ووضع أبو طاهر الحافظ السلفي كتاباً في أخبار أبي العلاء وقال فيه مسنداً عن القاضي أبي الطيب الطبري [رحمه الله] كتبت إلى أبي العلاء المعري حين وافى بغداد ... :

وما ذَاتُ دَرٍّ لا يحِلُّ لحالِبٍ تَنَاوُلُه واللَّحْمُ مِنها مُحَلَّلُ ».

وقد تقدمت الأبيات وجوابها . وكذلك ابن خلكان (ج ١ ص ٢٩٢) روى هذه الأبيات وعزاها إلى الجزء الذي وضعه أبو طاهر السلفي في أخبار أبي العلاء . وأكثر من كتب في أبي العلاء نقل عن السلفي ، كالصفدي ، و (معاهد التنصيص) و (لسان الميزان) والذهبي وغيرهم .

ومنها كتاب وضعه الصاحب كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة العقيلي الحلبي المتوفى سنة ٦٦٦ ه المعروف بابن العديم وسماه: (العدل والتحري في دفع الظلم والتجري[1] عن أبي العلاء المعري)

كما ذكره ابن الوردي في (تاريخه ج ١ ص ٣٥١) وسماه الصفدي في (نكت الهميان ص ١٠٥) : التحري في دفع التجري عن أبي العلاء المعري وفي (ص ١٠٩) دفع التجري . وسماه في (الوافي بالوفيات) : دفع التجري عن أبي العلاء المعري .

(١) لم أر من سهل لفظ « التجرؤ » إلى « تجري » والمشهور أن قلب الضمة كسرة إنما يكون في المعتل لا في المهموز ، ولا في الصحيح ، ولذلك عد الحريري في (درة الغواص) : « التباطي والتوضي والتبري والتهزي » من أوهام الخواص ، وجعل الصواب : « التباطؤ والتوضؤ والتبرؤ والتهزؤ » فتأمل (ج) .

وقد اطلعت على قطعة من هذا الكتاب عثر عليها في مدينة حلب ، وفي مقدمته يقول مؤلفه : « وسميته كتاب الإنصاف والتحري في دفع الظلم والتجري عن أبي العلاء المعري » . ونقلت كثيراً منها في هذا الكتاب وفي (تاريخ المعرة) وأكثر من كتب في أبي العلاء استمد منه وعول عليه ، وقد قال ابن الوردي : « قال ابن العديم في (العدل) إنه اعتبر من ذم أبا العلاء ومن مدحه فوجد كلّ من ذمه لم يره ولا صحبه ، ووجد كل من لقيه هو المادح » .

ومنها كتاب المجتلى باخبار أبي العلا :

وضعه الشيخ شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الشافعي ، المشهور بابن أبي عذيبة المولود في القدس ، والمتوفى فيها سنة ٨٥٦ هـ . قال في كتابه (دول الأعيان) شرح قصيدة نظم الجمان ، في ذكر من سلف من أهل الزمان في ترجمة أبي العلاء (ج ٤ ص ١٢) :

« أبو العلاء أحمد بن سليمان المعري الأعمى » . ثم ذكر عمره وعماه وما يعرفه من الألوان ثم قال : « وكان عالماً شاعراً لغوياً ، آية من الآيات ، وشعره في غاية الرقة والانسجام ، إليه النهاية . . » . وذكر عنه أقوالاً وأشعاراً يدل ظاهرها على فساد عقيدته ، ثم نقل قول ابن دقيق العيد أنه في حيرة ، وقول الذهبي أنه مات متحيراً ، ثم قال : « ويقال إنه كان يرجع لمذهب الهنود البراهمة » . ثم قال : « وله مصنفات كثيرة ، وأشعار جيدة مشهورة ، لولا ما شانها .. » ثم قال : « وقد ذكرته في مصنف مفرد ، وذكرت أشعاره وما فيها ، وكثيراً من أقواله وسميته المجتلى بأخبار أبي العلا .. » (١) .

---

(١) انظر مجلة المجمع العلمي في دمشق ج ٧ مجلد ٢١ ص ٣١٤ (ج) .

ومنها كتاب اسمه أوج التحري عن حيثية المعري :

للشيخ يوسف البديعي المتوفى نحو سنة ١٠٧٣ هـ ، وقد اطلعت على هذا الكتاب في المكتبة الظاهرية في دمشق . ونسخته خطية مؤرخة في سنة ١٠٥٤ هـ ، ونقلت عنه شيئاً . ثم لما طبع في دمشق سنة ١٣٦٣ هـ ١٩٤٤ م صدّرته بمقدمة بينت فيها قيمة هذا الكتاب وخصائصه .

* * *

الكتب والرسائل التي أُلفت في الطعن فيه أو الرد عليه

منها كتاب نصر الأعيان على شعر العميان :

لابن الوزير اليماني ، صاحب (إيثـــار الحق على الخلق) وضعه في التنفير من شعر أبي العلاء .

ومنها رجة العفريت :

وضعه أبو منصور الكاتب عبد الله بن سعيد بن مهدي الحواني المتوفى سنة ٤٨٠ هـ . رد فيه على المعري[١] .

ومنها كتاب الاشارات المعربة :

لشميم وقد تقدم ذكره .

ومنها كتاب الصولة القارح :

ذكر ياقوت في (ج ٦ ص ٣٤٦) في ترجمة محمد بن أحمد الابيوردي أن من جملة تصانيفه كتاب الصولة القارح ، رد فيه عـــلى المعري سقط الزند .

---

(١) البغية ٢٨٢ (ج) .

ومنها كتاب المطاول :

ذكر السيوطي في (البغية ص ٧٩) في ترجمة محمد بن علي بن المفضل القاسم الحلي أن له كتاب المطاول في الرد على المعري في مواضع سها فيها .

. . .

كتب المتأخرين في أبي العلاء الجامعة بين ما قيل فيه مدحاً وذماً

ذكرى أبي العلاء :

هذا كتاب وضعه الدكتور طه حسين ، أديب مصر في سنة ١٩١٤ م وقدمه إلى الجامعة المصرية ، ونال به إجازة عالية . وقد نهج فيه المنهج الحديث الذي نهجه علماء الغرب في دراسة آدابهم وأدبائهم . وهو أفضل ما رأيته من الكتب التي تشتمل على دراسة أبي العلاء ، وأحسنها تقسيماً وترتيباً للمباحث ، وأجمعها للنواحي التي تجب دراستها من آثار الأديب ، وأكثرها استنباطاً للأحكام من كلام الشاعر والناثر . وقد جعل درس أبي العلاء في هذا الكتاب درساً لعصره . واستنبط حياته مما أحاط به من المؤثرات . واتخذ شخصية أبي العلاء مصدراً من مصادر البحث ، بعد أن وصل إلى تعيينها وتحقيقها .

والكتاب لا يخلو من أمور تنتقد على صاحبه ، منها : استنباطه من كلام أبي العلاء ، أحكاماً لا يدل عليها ذلك الكلام . ومنها بناؤه أحكاماً على شُبَهٍ واهية ، ومنها أنه إذا اعتقد في أبي العلاء شيئاً ، حاول أن يوجه كل كلامه إلى ذلك الشيء ، وقد يظهر أثر التكلف في ذلك ونحو هذا من الأمور ، وقد بينا طرفاً منها في كتابنا هذا كما رأيت وكما سترى . وقد ذكر مؤلفه في مقدمة (تجديده ص ٤) أنه « ما زال ينتظر نقد الناقد المخلص ، لا يدعوه الى نقده ، إلا حب العلم والرغبة في

الاصلاح ». ولعله يجد فيما كتبناه ما ينتظره ، لأننا لا نريد فيما كتبناه إلا الإصلاح ، وإماطة اللثام عن وجه الحقيقة .

والكتاب على ما فيه خير كتاب أخرج للناس في أبي العلاء . وقد طبع في مصر ، ثم أعاد مؤلفه طبعه وسماه (تجديد ذكرى أبي العلاء) ولم يزد على الكتاب السابق شيئاً يذكر .

أبو العلاء وما إليه :

وهو كتاب وضعه الأستاذ عبد العزيز الميمني الراجكوتي الهندي ، وطبع في القاهرة سنة ١٣٤٤ ه . توخى فيه تصحيح ما في كتاب (ذكرى أبي العلاء) المتقدم ذكره وما في مقدمة (رسائل أبي العلاء) للأستاذ مرجليوث .

وهذا الكتاب أجمع كتاب ألف في أبي العلاء . فقد أفاض في الكلام على بلد أبي العلاء وبنائها ، وفي نسبه وترجمة حياته ، ورحلاته ومعارفه في بغداد وغيرها ، ومن عاصره من الملوك . ومنزلته عندهم وعند العلماء والفضلاء . وما قيل فيه حياً وميتاً ، وما تركه من الآثار الأدبية والعلمية ، وفي معتقده . وذكر طائفة من أشعاره التي لم يذكر معظمها في ديوانه .

ويمكن أن يقال : إنه حشر في كتابه هذا كل ما علمه مما له علاقة بأبي العلاء ، واستفرغ مجهوده في الجمع والبحث والتحقيق ، ولم يخل كتابه مما ينتقد عليه ، وقد بينا جملة منه في كتابنا هذا .

ولا أنكر ان هذين الكتابين (ذكرى أبي العلاء) . و (أبو العلاء وما إليه) مما أفضل ما رأيته مما كتب في أبي العلاء . وقد اقتبست منها فوائد جمة في كتابي هذا .

الذين ردوا عليه بعض أقواله وهجوه نظماً

منهم: أبو رشاد أحمد بن محمد بن القاسم الملقب بذي الفضائل الاخسيكثي

(وأخسيكث بالثاء والتاء مدينة من فرغانة) المتوفى سنة ٥٢٨ هـ .

له كتاب (زوائد في شرح سقط الزند) قال ياقوت [١] : « قرأت في ديوان شعره بخطه أنشدت لأبي العلاء .

هَفَتِ الحَنِيفَةُ والنَّصَارَى ما اهْتَدَتْ[٢] . . . .

البيتين فقلت مجيباً له :

الدِّين آخِـــذُهُ وتَارِكُـه ... لَمْ يَخْشَ رُشْدُهُما وَغَيُّهُما[٣]

رَجُلانِ أهْلُ الأرْضِ قُلْتَ فَقُلْ ... يا شَيْخَ سوءٍ أنْتَ أيُّهُما

والبيتان المذكوران . في (نكت الهميان) ، و (معاهد التنصيص) . وفي (بغية الوعاة) : « وتوفي سنة ٥٢٩ هـ » ومنهم .

(١) ارشاد الأريب الى معرفة الأديب ج ٢ ص ١١١ .

(٢) تمام البيتين .

ويهود حارت والمجوس مضللة

اثنان أهل الأرض ذو عقل بلا ... دين وآخـــر دَيِّن لا عقل له

وهما من لزومية مطلعها :

إن ملئت أفواهكم فقلوبكم ... وغروركم دون الحقوق مهلله

انظر اللزوميات هـ ص ٢٠٦ .

(٣) انظر تعريف القدماء بأبي العلاء الصفحات : ٢٨٤ ، ٢٩٣ ، ٣٤٣ .

القاضي أبو محمد الحسن بن أبي عقامة اليمني :

رد عليه بيتيه :

إذَا مَا ذَكَرْنَا آدَماً وفَعَالَهُ وَتَزوِيجَهُ بِنْتَيْهِ لا بْنَيْهِ في الخنَا[1]

البيتين ، وأجابه بقوله[2] :

لعمرُكَ أمَّا فيكَ فالقولُ صادِقٌ وتكْذِبُ في الباقِينَ مَنْ شَطَّ أوْ دَنَا

كَذلِكَ إقرارُ الفتَى لازِمٌ لَهُ وفي غيْرِهِ لَغْوٌ كَذَا جاءَ شَرْعُنَا

ويروى البيتان الأولان :

. . . . وتَزوِيجَه ابْنيه بِنْتَيْه . .

ويروى :

عَلِمْنا بأنَّ الخلْقَ مِن أصْلِ رِيبَةٍ . . . .

ويروى الأخيران : لعمري أمّا . .

ومنهم :

محمد بن عتيق أبي بكر بن أبي نصر التميمي القيرواني المعروف بابن أبي كدية المتوفى سنة ٥١٢ ﻫ .

قدم الشام مجتازاً ، فسمع قائلا ينشد قول أبي العلاء :

(١) ثاني البيتين :

علمنا بأن الخلق من أصل ريبة وأن جميع الناس من عنصر الزنى

أنظر معجم الأدباء ج ١ ص ١٩٠ ونكت الهميان ص ١٠٦ .

(٢) انظر تعريف القدماء بأبي العلاء الصفحات : ١٧٩ ، ٢٨٣ ، ٢٩٢ ، ٣٤٢ ، ٤١٨ .

ضَحِكْنَا وَكَانَ الضَّحْكُ مِنَّا سَفَاهَةً[1] . . . .

البيتين فقال يرد عليه :

كَذَبْتَ وَبَيْتِ اللهِ حَلْفَةَ صادِقٍ   سَيَسْبِكُنا بَعْدَ الثَّوى[2] مَنْ لَهُ الْمُلْكُ

وَنَرْجِعُ أَجساماً صِحاحاً سَلِيمَةً   تَعارَفُ في الفِرْدَوْسِ ما عِنْدنا شَكُّ

ويروى :

سَيَسْبِكُنَا بَعْدَ الثرى . . . .

وسمع بعضهم قوله :

ولاَ تَحْسَبْ مَقَالَ الرُّسْلِ حقّاً   وَلكِنْ قَوْلُ زُورٍ سَطَّرُوهُ[3]

فقال رداً عليه :

فلاَ تَحْسَبْ مَقَالَ الرُّسْلِ زُوراً   وَلكِنْ قَوْلُ حَقٍّ بَلَّغُوهُ[4]

وكَانَ النّاسُ في جَهْلٍ عظيمٍ   فَجَاءوا بالْبَيَانِ فأَوْضَحُوهُ

---

(١) اللزوميات ص١٨٢.

(٢) كذا رواه في النجوم الزاهرة (ج) . وانظر تعريف القدماء الصفحات : ٤٠٤، ٤١٦، ٤١٩ .

(٣) ثاني البيتين :

وكان الناس في عيش رغيد   فجاؤوا بالمحال فكدروه

انظر تاريخ الإسلام للذهبي ص ١٣١ ؛ ومعجم الأدباء ج ١ ص ١٩٣ .

(٤) انظر تعريف القدماء الصفحات : ١٦٤، ٣٠٥ .

ومنهم النواري : (١)

أجاب المعري عن قوله :

دينٌ وكُفرٌ وأنباءٌ تُقال وفرْ (٢)　　قَانٌ يُنَصُّ وتوراةٌ وإنجيلُ
في كلِّ جيلٍ أباطِيلٌ يُدانُ بها　　فهلْ تفرَّدَ يوماً بالهُدى جِيلُ

بقوله :

نعم أبو القَاسِمِ الهادِي وأمتُه　　فزادكَ اللهُ ذلاً يا دُجَيْجيلُ (٣)

ومنهم علم الدين السخاوي علي بن محمد المصري الدمشقي المتوفى سنة ٦٤٣ هـ

رد على أبي العلاء في قوله :

يَدٌ بخَمْسِ مِئينٍ عَسْجَدٍ وُدِيَتْ　　ما بَالُها قُطِعَتْ في رُبْعِ دينارِ
تَحَكُّمٌ ما لَنَا إلاّ السكوتُ لَهُ　　وأنْ نَعوذَ بِمَوْلانا مِنَ النارِ (٤)

---

(١) نسبه في معاهد التنصيص الى الذهبي ونسبه الذهبي الى النواري وفي تعريف القدماء النووي ويقال فيه النواوي نسبة الى نوى من قرى حوران ولد سنة ٦٣١ هـ وتوفي سنة ٦٧٦ هـ وله تصانيف كثيرة . ترجمته في البداية والنهاية وطبقات الشافعية والشذرات (ج) .

(٢) هكذا في المعاهد . وفي الديوان : « وأنباء قص وفرقان ينص » هـ ص ١٩٧ (ج) .

(٣) انظر تعريف القدماء صفحات : ١٩٤ ، ٣٤٢ .

(٤) هكذا رواها الصفدي في نكت الهميان ، ورواها في الوافي : « يد بخمس مئ من عسجد فديت » وكذلك في المنتظم ، وانباه الرواة للقفطي . وفي الذهبي : « بخمس مئ من عسجد وديت » . ومائة اسم عدد يوصف بها ، والجمع مئات ومئون ومئ ، وأنكر سيبويه الأخيرة (ج) .

بقوله :

صِيانَةُ العِرْضِ أغلاهَا وأرْخصَها صِيانَةُ المالِ فافْهمْ حِكْمةَ الباري[1]

هكذا جاء في (نكت الهميان) وروى في (معاهد التنصيص) البيتين الأولين على هذا الشكل ، وبيت السخاوي فيه هكذا :

عِزُّ الأمانَةِ أغْلاهَا وأرْخَصَها ذُلُّ الخِيانَةِ فافهم حِكْمَةَ البَارِي

وفي (حاشية الشرقاوي على التحرير لشيخ الاسلام ج ٢ ص ١٨٣) : « ولما نظم أبو العلاء المعري الملحد البيت الذي شكك به على أهل السنة في الفرق بين الدية والقطع ، وهو قوله :

يد بِخمسِ مئين عسجد وُديت . . . .

أجابه القاضي عبد الوهاب المالكي بقوله :

وِقايةُ النَّفْسِ أغْلاها وأرْخَصَها وِقَايةِ المالِ فافْهَمْ حكْمَةَ الباري

وفي بعض النسخ : « ذل الخيانة » أي لو وديت بالقليل كثرت الجناية على الأطراف المؤدية لازهاق النفوس لسهولة الغرم في مقابلتها . ولو لم تقطع إلا في الكثير لكثرت الجناية على الأموال » .

وقال ابن الجوزي ، لما سئل عن هذا : « لما كانت أمينة كانت ثمينة ، فلما خانت هانت » . وذكر في (النور السافر) البيت المتقــدم : « يد بخمس مئين . . » ثم قال : فقال الشريف الرضي راداً عليه :

---

(١) انظر تعريف القدماء بأبي العلاء الصفحات ٢٨٣ ، ٢٩٢ ، ٣٤٢ ، ٣٩١ ، ٤٠٦ ، ٤١٨ ، ٥٩٦ .

صِيانَةُ النَّفْسِ أَغْلَتْها وأَرْخَصَها … خِيانَةُ المالِ فانْظُرْ حِكْمَةَ الباري

نسبها القزويني زكريا بن محمد الأنصاري القزويني المتوفى سنة ٦٨٣ هـ إلى الرضي الموسوي ، وروايته في الشطر الثاني : « صيانة المال … » ونقل الذهبي عن التبريزي أنه قال : « لما قرأت على أبي العلاء بالمعرة قوله : « تناقضٌ مالنا … » البيتين ، سألته عن معناه ، فقال : هذا مثل قول الفقهاء : « عبادة لا يعقل معناها » قال الذهبي : لو أراد ذلك لقال : « تَعَبُّد مالنا إلا السكوت … » ولما اعترض على الله بالبيت الثاني » . وقال البلوي [1] في (ألف وباء ج ٢ ص ٣٨٢) ويقال : إن المعري كتب إلى ابن حزم بهذا البيت :

كَفٌّ بِخَمْسِ مِيءٍ في الشَّرْعِ قَدْ وُدِيَتْ … ما بالُها قُطِعَتْ في رُبْعِ دينارِ

فقال :

صِيانَةُ النَّفْسِ أَغْلاها وأَرْخَصَها … خِيانَةُ المالِ فافْهَمْ حِكْمَةَ الباري

وبلغ غيره فقال :

بِذاكَ سُنَّةُ خَيْرِ النَّاسِ قَدْ وَرَدَتْ … فَلا سَبيلَ إِلى تَعْليلِ آثارِ [2]

وسيأتي ما في هذا عند الكلام على الإسلام .

---

(١) البلوي أبو الحجاج يوسف بن محمد البلوي الأندلسي ، المعروف بابن شيخ ، من أهل مالقة بنى في بلده خمسة وعشرين مسجداً من ماله ، وغزا عدة غزوات ، وله شعر كثير وكان شديد الولوع بالزوم ، وضع كتاب الف باء لابنه ليقرأه بعد موته وجعله شرحاً لقصيدة وضعها على عدد حروف المعجم ، وشرحها كلمة كلمة مع مقلوب كل كلمة وعكسها وتوفي سنة ٦٠٤ هـ (ج) .

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٣٩١ وفيه : « تعليل لآثار » .

ومنهم الخضر الموصلي

فقد رد على قول أبي العلاء من أبيات سنأتي رفيها بقول :

تَقَدَّمَ صَاحِبُ التَّوْرَاةِ مُوسَى   وأَوْقَعَ بالْخَسَارِ مَنْ افْتَرَاهَا
فَقَالَ رجالُهُ : وَحْيٌ أتاهُ   وَقَالَ الآخرون : بل افْتَرَاهَا
وما حَجِّي إِلى أحجار بَيْتٍ   كُؤُوسُ الْخَمْرِ تُشْرِبُ في ذراهَا
إِذَا رَجَعَ الحَكِيمُ إِلى حِجاهُ   تهاوَنَ بالشرائِعِ وازدَرَاهَا[1]

بقوله :

جَزاكَ اللهُ مِنْ أعمَى لَعِينٍ   بَصِيرَتُهُ تناهَتْ في عَماهَا

---

(١) هكذا رواها في لسان الميزان ، ومعاهد التنصيص ، وفي المنتظم : « وقال الناظرون بل افتراها » « إذا رجع الحليم » « تهاون بالمذاهب » وفي القفطي : « وقال الآخرون .. » وقد رواها ياقوت ، وابن كثير ، والعيني ، وسبط ابن الجوزي ، والعمدي ، وغيرهم بروايات يخالف بعضها بعضا في شيء ويوافقه في آخر ، ورواية الأبيات في لزوم مالا يلزم ٥ ص ٣٣٨ : الأول : « وادفع في الخسار .. » والثاني : « وقال رجاله ... وقال الظالمون بل افتراها » والثالث : « وما سيري إلى أحجار .. » والرابع : « اذا رجع الحصيف . . تهاون بالمذاهب . . » وهذه الأبيات من قصيدة في لزوم مالا يلزم عدد أبياتها ثلاثة وأربعون بيتاً يغم قوله: « تقدم صاحب .. » الخامس عشر وقوله : « وقال رجاله » السادس عشر . وقوله : « وما سيري إلى أحجار » الثالث والعشرين وقوله :« اذا رجع الحصيف . . » السابع . ولكن هؤلاء النقلة أخروه ليكون أقوى في الدلالة على ما يريدونه من التكفير ، وهو في موضعه في اللزوم لا يدل على شيء من ذلك . والقصيدة بجملتها مضمورة بالإيمان بالله والقدر ، ولكنها طافحة بذم الناس وأعمالهم المنكرة لا سيما في الأماكن المقدسة تأمل (ج) .

يقولُ : إذا الحكيمُ رَعى حِجَاهُ ... تهاونَ بالشرائِعِ وازْدَرَاهَا
فمَا هَذا الخَبيثُ إذاً حكيمٌ ... وَلكِنْ ليسَ يَدْري ما طَحاهَا

ومنهم القاضي أبو جعفر محمد بن إسحق البحاثي الزوزني المتوفى سنة ٤٦٣ هـ

قال في أبي العلاء قصيدة أولها (١) :

كَلْبٌ عوَى بِمَعَرَّةِ النُّعْمانِ ... لَمَّا خلا مِنْ رِبقَةِ الإيمانِ
أمعرةَ النُّعْمانِ ما أنجَبْتِ إذْ ... أخْرَجْتِ مِنْكِ مَعَرَّةَ العُمْيَانِ

وإذا تأمل المنصف أقوال هؤلاء ، وما فيها من سخافة في التأليف ، وضعف في الحجة ، تبين له أن مثلهم مثل من يريد أن ينلق صخرة بابرة أو يقتلع جبلا بشعرة ، أو ينزف بحراً بجرعة ، وليس فيها بيت جيد الوصف إلا قول السخاوي :

عِزُّ الأمَانَةِ أغلاَهَا وأرْخَصَها ... ذُلُّ الخِيَانَةِ . . . . .

وأكثرهم لم يفهم مراد المعنى ، ولم يتثبت من نسبة الأبيات إليه .

• • •

(١) انظر تعريف القدماء الصفحات : ٨ ، ٥٥ ، ٢٦٩ ، ٢٨٩ ، ٣٤٤ ، ٤٢٦ .

ذكاء أبي العلاء

قلنا : إن كلمة العلماء قد اختلفت في اعتقاد أبي العلاء ، ولكنهم اتفقوا على فرط ذكائه ، وحدة ذهنه ، وشدة حفظه ، وضبطه لكل ما يسمع من أية لغة كانت . وعلى سعة اطلاعه على الفصيح والنادر والغريب والشاذ من اللغة العربية ، واضطلاعه بفنون مختلفة من العلوم التي كانت معروفة في عصره . وقد ذكروا له من نوادر الفطنة والذكاء وصدق الفراسة وسرعة البديهة ، ما يكاد يدخل في عداد المستحيلات . وهذه جملة مما ذكروه في هذا الباب ، وفيها طائفة سلف القول فيها ، وأخرى قد نضطر إلى ذكرها مرة ثانية .

ما قيل في حفظه وضبطه

ذكر ابن العديم وغيره أن أبا العلاء كان على غاية من الذكاء والحفظ ، فقيل له : بم بلغت هذه الرتبة في العلم ؟ فقال : ما سمعت شيئاً إلا وحفظته ، وما حفظت شيئاً فنسيته (١) .

وذكر القفطي (٢) : « أن مشايخ الأدب باليمن ، يذكرون أن أبا العلاء كان يحفظ ما يمر بسمعه ، وكان عنده من الطلبة من يطالع له التصانيف الأدبية لغة وشعرا وغير ذلك ، وكان لا يكاد ينسى شيئاً مما يمر بسمعه . »

---

(١) انظر تعريف القدماء بأبي العلاء الصفحات ٢٢٤ ، ٥٥١ .

(٢) المصدر السابق ص ٣٣ عن إنباه الرواة — للقفطي .

وقال الذهبي (١) : « كان عجبا في الذكاء المفرط ، والاطلاع الباهر على اللغة وشواهدها ، ويقال عنه إنه كان يحفظ ما يمر بسمعه . »

وقال الصفدي في الوافي (٢) : « كان عجباً في الذكاء المفرط والحافظة » . ثم ذكر حفظه المكابات التي دارت بين تلميذه أبي زكريا وجاره باللسان الأذربي ، وقال : « وهذا معجز » ثم قال : « وللناس حكايات يضمونها في عجائب ذكائه ، وهي مشهورة وأكثرها مستحيلة ، وكان اطلاعه على اللغة وشواهدها أمراً باهراً . » وذكر نحواً من ذلك في (نكت الهميان) .

وذكر ابن العديم وغيره « أن رجلا من طلبة العلم باليمن ، وقع إليه كتاب في اللغة ، سقط أوله ، وأعجبه جمعه وترتيبه ، فاتفق أنه حج . فحمله معه وكان إذا اجتمع بأديب أراه ذلك الكتاب ، وسأله عنه هل يعرفه أو يعرف مصنفه . فلم يجد أحداً يخبره بذلك ، فأراه في بعض الأحيان لبعض الأدباء وكان ممن يعلم حال أبي العلاء ، وتبحره في العلم ، فدله عليه فخرج ذلك الرجل إلى الشام ، ووصل إلى معرة النعمان ، واجتمع بأبي العلاء ، وعرفه ما حمله على الرحلة اليه ، وأحضر اليه ذلك الكتاب ، وهو مقطوع الأول . فقال له أبو العلاء : اقرأ منه شيئاً فقرأ عليه ، فقال له أبو العلاء : هذا الكتاب اسمه كذا ، ومصنفه فلان بن فلان . ثم ابتدأ أبو العلاء فقرأ له من أول الكتاب إلى أن انتهى إلى ما هو عند ذلك الرجل ، فنقل ما نقص من الكتاب عن أبي العلاء ، وكمل النسخة وانفصل إلى اليمن ، وأخبر أهل العلم بذلك ، وقيل : إن هذا الكتاب هو (ديوان الأدب) للفارابي . وهذه القصة رواها القفطي في إنباه الرواة (٣) .

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ١٩١ عن تاريخ الاسلام — للذهبي .
(٢) المصدر السابق ص ٢٦٤ — ٥ عن الوافي بالوفيات — للصفدي .
(٣) انظر الخبر في تعريف القدماء الصفحات ٣٣ ، ٣٤ ، ٢٤٩ ، ٥٦٠ .

وحكوا عن تلميذه أبي زكريا التبريزي ، أنه قال : « كنت قاعداً في مسجد أبي العلاء في معرة النعمان بين يديه أقرأ عليه شيئاً من تصانيفه ، وكنت أقمت عنده سنتين ، ولم أر أحداً من أهل بلدي ، فدخل المسجد مفافصة (١) بعض جيراننا للصلاة ، فرأيته وعرفته ، وتغيرت من الفرح فقال لي أبو العلاء : ما أصابك ؟ فحكيت له أني رأيت جاراً لي بعد أن لم ألق أحداً من بلدي منذ سنتين ، فقال : قم وكلمه ، فقلت : حتى أتمم السَّبَق (٢) فقال : قم أنا أنتظرك ، فقمت وكلمته بالاذربيجية شيئاً كثيراً إلى أن سألت عن كل ما أردت ، فلما عدت وقعدت بين يديه ، قال لي : أي لسان هذا ؟ قلت : هذا لسان أهل أذربيجان ، فقال : ماعرفت اللسان ولا فهمته غير أني حفظت ماقلتما ، ثم أعاد عليَّ اللفظ بعينه من غير أن ينقص منه أو يزيد عليه ، بل أعاد جميع ماقلنا . فجعل جاري يتعجب غاية العجب ويقول : كيف حفظ شيئاً لم يفهمه ؟ » . وهذه القصة رواها ياقوت في (معجم الأدباء) والبديعي في (الصبح المنبي) وفي (أوج التحري) وصاحب (معاهد التنصيص) والسيوطي في (البغية) وصاحب (نزهة الجليس) والسمعاني في (الأنساب) والصفدي في (الوافي بالوفيات) و (نكت الهميان) وغيرهم بروايات متقاربة ، وبعضهم قال : « وكنت أقمت عنده سنين » . وقال بعضهم : « هذا غاية ليس بعدها شيء في حسن الحفظ » . وقال الصفدي : « هذا أمر معجز » وقال البديعي : « هذا من أعجب العجب .. » (٣) .

---

(١) يريد مفاجأة (ج) .

(٢) يريد بالسبق الدرس ولم أرها في شيء من المعاجم بهذا المعنى (ج) .

(٣) انظر تعريف القدماء الصفحات : ١٣ ، ١٤ ، ٨٠ ـ ٨١ ، ٢٢٤ ، ٢٦٣ ، ٢٨٥ ، ٣٣١ ، ٣٣٦ ، ٣٥٦ ، ٤٢٤ ، ٥٥١ .

ورواها الوطواط في (غرر الخصائص الواضحة ص ١٨٧) في مبحث الذكاء المفرط عند الصبيان ، على غير هذا الوجه حيث قال : « ومنهم أبو العلاء بن سليمان المعري ، ومن عجيب حكاياته أن أبا زكريا التبريزي كان يقرأ عليه ، فأتاه رسول من عند أهله من تبريز ، فجاء حلقة أبي العلاء ، فسأل عنه فأخبر أنه غائب في بعض شأنه ؛ فقال له أبو العلاء ؛ ماتريد به ؟ قال : جئت برسالة من عند أهله ، فقال : هاتها حتى نوصلها اليه ، قال : إنها مشافهة ، قال : فأسمعناها حتى نوصلها اليه ، قال : إنها بالفارسية . قال ؛ لا عليك أن تسمعناها ، ولا نسقط منها حرفاً ، فأوردها عليه ، فلما جاء التبريزي ، أخبر أن رجلا جاء من تبريز ومعه رسالة من أهلك ، فقال : ليتكم أخذتموها منه ، فإني مشوق لما يرد من أخبارهم . فقيل له : إنه قال إنها مشافهة ، فتأسف لذلك ، فلما رأى أبو العلاء تأسفه ، قال : لا عليك إني سمعتها منه وحفظتها . ثم أملاها عليه فجعل التبريزي يضحك مرة ويبكي مرة ، فسأله أبو العلاء عن ضحكه وبكائه ، فقال : تارة يخبرني بما يسرني فأضحك وتارة يخبرني بما يحزنني فأبكي » .

وروى القاضي أبو الحسن أحمد بن علي .. بن الزبير المصري في (جنان الجنان ورياضة الأذهان) عن هبة الله بن موسى المؤيد في الدين ، وكانت بينه وبين أبي العلاء صداقة ومراسلة ، قال : كنت أسمع من اخبار أبي العلاء وما أوتيه من البسطة في علم اللسان مايكثر تعجبي منه ، فلما وصلت المعرة قاصداً الديار المصرية لم أقدّم شيئاً على لقائه ، نحضرت إليه واتفق حضور أخي معي ، وكنت بصدد أشغال يحتاج اليها المسافر ، فلم أسمع بمفارقته والاشتغال بها ، فتحدث معي أخي حديثاً باللسان الفارسي ، فأرشدته

إلى مايعمله فيها ، ثم عدت إلى مذاكرة أبي العلاء ، فتجاذبنا الحديث إلى أن ذكرت ماوصف بـه من سرعة الحفظ ، وسألته أن يريني من ذلك ما أحكيه عنه ، فقال : خذ كتابا من هذه الخزانة القريبة منك ، واذكر أوله فاني أورده عليك حفظاً ، فقلت : كتابك ليس بغريب إن حفظته . قال : قد دار بينك وبين أخيك كلام بالفارسية ، إن شئت أعدته . قلت : أعده ، فأعاده ما أخل والله بحرف منه ولم يكن يعرف اللغة الفارسية » . وقد نقل هذه القصة ابن العديم وصاحب (مسالك الأبصار)[1] .

وكان لأبي العلاء جار أعجمي بمعرة النعمان ، فغاب في بعض حوائجه عن المعرة ، فحضر رجل غريب أعجمي قد قدم من بلاد العجم يطلبه ، فوجده غائباً ، وهو مجتاز لم يمكنه المقام ، ولا يعرف اللسان العربي . فأشار اليه أبو العلاء أن يذكر حاجته . فجعل يتكلم بالفارسية ، وأبو العلاء يصغي إليه ، إلى أن فرغ من كلامه ، وهو لايفهم مايقول ، ومضى الرجل ثم قدم جار أبي العلاء الأعجمي الغائب ، وحضر عند أبي العلاء ، فذكر له حال الرجل وطلبه له ، وجعل يعيد عليه بالفارسية ماقاله ذلك الرجل بالفارسية ، والرجل يبكي ويستغيث ويلطم على رأسه ، إلى أن فرغ أبو العلاء ، فسئل عن حاله ، فأخبر أنه أخبر بموت أبيه وإخوته وجماعة من أهله » . ذكر هذه القصة ابن العديم والبديعي في (الصبح المنبي ص ١٠) وفي (أوج التحري ص ١٦) وابن فضل الله العمري في (مسالك الأبصار)[2] .

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء الصفحات ٢٢٤ ، ٥٥٢ .

(٢) انظر تعريف القدماء بأبي العلاء الصفحات ٢٢٥ ، ٥٥٣ .

وقال ابن العديم : « قال لي والدي : وبلغني من ذكاء أبي العلاء وحسن حفظه ، أن جاراً له سماناً كان بينه وبين رجل من أهل المعرة معاملة فجاء ذلك الرجل فدفع اليه السمان رقاعاً كتبها اليه يستدعي فيها حوائج له ، وكان أبو العلاء في غرفة مشرفة عليها ، يسمع محاسبة السمان له ، وأعاد الرجل الرقاع إلى السمان ، ومضى على ذلك أيام ، فسمع أبو العلاء ذلك السمان وهو يتأوه ويتململ ، فسأله عن حاله ، فقال : كنت حاسبت فلاناً برقاع كانت له عندي وقد عدمتها ولا يحضرني حسابه . فقال : لا عليك، تعال إلي فإني أحفظ حسابكما ، وجعل يملي عليه معاملته جميعها ، وهو يكتبها إلى أن فرغ وقام . فلم يمض إلا أيام يسيرة ، فوجد السمان الرقاع ، وقد جذبها الفأر إلى زاوية في الحانوت ، فقابل بها ما أملاه عليه أبو العلاء فلم يخطىء في حرف واحد » . وقد أورد هذه القصة في (الصبح المنبي ج ١ ص ١٢) وفي (أوج التحري) وفي (طبقات النحاة واللغويين ص ١٧٣) وفي (مسالك الأبصار) [١] .

ونقل ابن العديم عن شهاب الدين أبي المعالي أحمد بن مدرك بن سليمان، فيما تأثره عن المعريين ، أن الشيخ أبا العلاء لما دخل بغداد لم يعرض عليه شيء من الكتب إلا وحفظه ، وأخبرهم أنه يحفظ كل شيء سمعه ، وطلبوا كتاباً لا يعرفه ليمتحنوه به ، فأحضروا دستور الخراج في الديوان ، وجعلوا يوردون عليه ذلك مياومة ، وهو يسمع إلى أن فرغوا من ذلك فابتدأ أبو العلاء وسرد عليهم كل ما أوردوه عليه . وهذه القصة في (طبقات النحاة واللغويين ص ١٧٤) و (مسالك الأبصار) [٢] .

---

(١) انظر تعريف القدماء ص ٥٣ـ ٤ ، وأوج التحري — البديعي ص ١٦ تحقيق الدكتور ابراهيم الكيلاني .

(٢) وانظر تعريف القدماء الصفحات ٢٢٦ ، ٥٥٤ .

ونقل عنه انه قال : أخبرني جماعة من سلفنا ، أن بعض أمراء حلب قيل له : إن اللغة التي ينقلها أبو العلاء إنما هي من (الجمهرة) وعنده من الجمهرة نسخة ليس في الدنيا مثلها ، وأشاروا عليه بطلبها منه قصداً لأذاه ، فسير أمير حلب رسولاً إلى أبي العلاء يطلبها منه، فأجابه بالسمع والطاعة ، وقال : تقيم عندنا أياماً حتى نقضي شغلك ، ثم أمر من يقرأ عليه كتاب الجمهرة ، فقرئت عليه حتى فرغوا من قراءتها ، ثم دفعها الى الرسول وقال له : ما قصدت بتعويقك إلا ان أعيدها على خاطري خوفاً من أن يكون قد شذ منها شيء عن خاطري ، فعاد الرسول وأخبر أمير حلب بذلك فقال : من يكون هذا حاله لا يجوز أن يؤخذ منه هذا الكتاب ، وأمر برده اليه » . وهذه القصة ذكرها في (مسالك الأبصار) (١) .

ماقيل في فراسته واصابة حدسه

حكي أن أبا محمد الخفاجي الحلبي دخل على أبي العلاء بالمعرة ، فسلم عليه ، ولم يكن أبو العلاء يعرفه من قبل ، فرد عليه السلام وقال : هذا رجل طوال ، ثم سأله عن صناعته فقال : أقرأ القرآن ، فقال : اقرأ علي شيئاً منه ، فقرأ عليه عشراً ، فقال له : انت أبو محمد الخفاجي الحلبي ؟ فقال : نعم . فسئل عن ذلك فقال : أما طوله فعرفته بالسلام ، وأما كونه أبا محمد فعرفته بصحة قراءته وأدائه بنغمة أهل حلب ، فإنني سمعت بحديثه . وقد روى هذه القصة ابن العديم (٢) .

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٢٢٧ عن مسالك الأبصار — للعمري و ص ٥٠٩ عن الانصاف والتحري — لابن العديم .

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٠٣ عن الإنصاف والتحري — لابن العديم .

ونقل عن ابن بسام في (الذخيرة) : « أن أبا الفضل محمد بن عبد الواحد البغدادي أنفذ من بغداد رسولاً عن الخليفة القائم بأمر الله إلى المعز بن باديس الصنهاجي ملك القيروان ، حين رام الخطبة لبني العباس ، ومخالفة ملوك مصر العبيديين . فلما اجتاز بالمعرة اجتمع بأبي العلاء ، فاستنشده فأنشده قصيدة لامية يمدح بها صاحب حلب ، فقبّل المعري بين يديه ، وقال له : بأبي أنت من ناظم ، وما أراك إلا رسول أمير المؤمنين القائم إلى المعز ملك القيروان فاطو خبرك فالعيون لم ترك ، فلحق بالمعز » . هكذا رواها ابن العديم وفي (نفح الطيب ج ٢ ص ١٠٣) « فقبل بين عينيه » وهذه الرواية أقرب إلى حال المعري من الأولى .

وفي أوج التحري[1] : « أن أبا العلاء لما سمع مرثية أبي الحسن علي ابن محمد المعروف بالتهامي استحسنها ، وكان كلما ورد عليه أديب يستنشدها منه ، حتى ورد عليه التهامي وهو بالمعرة ، ولم يكن عرف بقدومه ، فقال له أبو العلاء : أتروي قصيدة التهامي التي رثى بها ولده أبا الفضل فقال : نعم فاستنشده إياها ، وهي .

حُكْمُ المَنِيَّةِ في البَرِيَّةِ جارِ ... مَا هَذِهِ الدُّنيا بِدَارِ قَرارِ

فلما أتمها قال له أبو العلاء : أحسنت ولأنت صاحبها التهامي ، وأنت أشعر من بالشام . ولما خرج التهامي سئل أبو العلاء كيف عرفه ؟ فقال : سمعت منه القصيدة سماعاً يدل أنه صاحبها بخلاف سماعي إياها من غيره » .

---

(١) أوج التحري — البديعي ص ١٣٧ ، ١٤٠ وتعريف القدماء ص ٥٦٤ .

وهذه القصة رواها ابن العديم . وفي رواية « فأنشدها فقال له : أنت التهامي ، فقال : نعم كيف عرفتني ؟ فقال : لأني سمعتها منك ومن غيرك فادركت من حالك انك تنشدها من قلب قريح فعلمت أنك قائلها » .

ويقال : إن التهامي بعد هذه القصيدة بسبع عشرة سنة ، ورد مدينة السلام ، وابو العلاء إذ ذاك بها ، فاستنشده ماجدده من الشعر فأنشده .

هَلِ الوَجدُ إلاَّ أنْ تَلوحَ خِيامُها ... فَيُقْضَى بِإهْداء السَّلامِ ذِمامُها

فلما أتمها استحسنها أبو العلاء ، وقال له : ومن بالعراق » . فتكون الحادثة الأولى في نحو سنة ٣٨٣ هـ وعمر أبي العلاء نحو عشرين سنة .

وروي ان صبياً اتى أبا العلاء ، فقال له أنت القائل :

وإني وإن كنتُ الأخيرَ زَمانهُ ... لآتٍ بِمَا لمْ تَستَطِعْهُ الأوائلُ؟[1]

فقال : نعم . فقال له : إن الأوائل جعلوا حروف الهجاء ثمانية وعشرين حرفاً ، فزد عليها ، واتنا بما لم يستطيعوه . فأطرق أبو العلاء ملياً ، ثم قال لهم : هذا الغلام حادّ الذهن ، مفرط الذكاء ، وإنه لايلبث أن يموت . ثم لم تمض إلا أيام قليلة . حتى مات الصبي .

• • •

ماقيل في ذكائه

وفي ابن العديم : « كان أبو العلاء على غاية من الذكاء من صغره ، وتحدث الناس بذلك ، وهو إذ ذاك صبي صغير يلعب مع الصبيان ...

---

(١) البيت من قصيدة مطلعها :

ألا في سبيل المجد ما أنا فاعل ... عفاف وإقدام وحزم ونائل

انظر شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٥١٩ ، ٥٢٥ .

فخرج جماعة من أهل حلب إلى معرة النعمان ، وقصدوا أن يشاهدوه وينظروا مايحكى عنه من الفطنة . فسألوا عنه فقيل لهم : هو يلعب مع الصبيان ، فجاؤا إليه وسلموا عليه ، فرد عليهم السلام ، فقيل له : إن هؤلاء جماعة من أكابر حلب جاؤا لينظروك ويمتحنوك ، فقال لهم : هل لكم في المقافاة بالشعر ؟ فقالوا : نعم . فجعل كل واحد منهم ينشد بيتاً وهو ينشده على قافيته حتى فرغ محفوظهم بأجمعهم وقهرهم ، فقال لهم : أعجزتم أن يعمل كل واحد منكم بيتاً عند الحاجة اليه على القافية التي يريد ؟ فقالوا له : فافعل أنت ذلك ! فجعل كلما أنشده واحد منهم بيتاً أجابه من نظمه على قافيته ، حتى قطعهم كلهم ، فعجبوا منه وانصرفوا »[1] .

وروى العيدروس في (النور السافر) . « أن أبا العلاء كان له سرير يجلس عليه ، فجعلوا في غيبته تحت قوائمه أربعة دراهم ، تحت كل قائمة درهم ، فقال : إن الأرض قد ارتفعت عن مكانها شيئاً يسيراً أو السماء نزلت » ، ورواها القزويني في (عجائب البلدان) . وأنكر ابن كثير في (البداية والنهاية) ذلك وتابعه العيني في (عقد الجمان) .

---

(١) روى هذه الحادثة ابن الديم في الإنصاف ، ورواها ابن فضل الله في مسالك الأبصار . وابن قاضي شهبة في طبقات النحاة . وغيرهم . والمقافاة : كلمة مولدة لم ترد في كتب اللغة ، والمراد بها على مايظهر من هذه القصة أن ينشد الرجل بيتا على روي اللام مثلا ثم ينشد الآخر بيتا على ذلك الروي ، وفي دمشق وغيرها من بلاد الشام لعبة يسمونها مذاكرة الأنفاس ، وهي أن ينشد الرجل بيتا على روي الميم مثلا ، فينشد الآخر بيتا يكون أول حرف منه ميما ، فإذا كان آخره باء مثلا أنشد من بعده بيتا يكون أول حرف منه باء ، وهكذا فاذا اتفق أن يكون أوله وآخره حرفاً واحداً أسقطوه ولم يعتدوا به ويسمى هذا البيت محبوكا (ج) .

وانظر تعريف القدماء الصفحات ٢٢٦ ، ٥٥٨ .

وفي (روضات الجنات) « قيل : إن أبا العلاء أخذ حمصة ، وقال : هذا يشبه رأس البازي . وهذا تشبيه عجيب من أولي الأبصار فضلاً عن الأكمه » . وروى ذلك زكريا بن محمد القزويني في (آثار البلاد وأخبار العباد) ، عجائب البلدان .

وفي ابن العديم والقفطي عن أبي طاهر السِّلفي : « عرض على أبي العلاء الكفيف كف من الاوبياء ، فأخذ واحدة واسها بيده ، ثم قال : ما أدري ما هي إلا أني أشبهها بالكلبة ، فتعجبوا من فطنته وإصابة حدسه » .

وفي (عجائب البلدان) للقزويني أن أبا العلاء ذكر عنده أن البعير حيوان يحمل حملاً ثقيلاً فينهض به ، فقال : ينبغي أن تكون رقبته طويلة ، ليمتد نفسه ، فيقدر على النهوض .

وزعموا أنه سافر إلى بغداد وهو راكب على جمل ، فاجتاز بشجرة فقيل له طأطيء رأسك فإن هنا شجرة ، ففعل . ثم أقام ببغداد ما أقام فلما عاد منها إلى المعرة اجتاز بذلك الموضع وقد قطعت تلك الشجرة ، فطأطأ رأسه ، فسئل عن ذلك فقال : قد كان هنا شجرة حين انحدرت إلى بغداد ، فحفروا في ذلك الموضع فوجدوا أصل الشجرة . روى ذلك ابن العديم ، والبديعي وصاحب (مسالك الابصار) و (طبقات النحاة واللغويين) وغيرهم ، وأنكرها ابن كثير وتابعه العيني .

وزعموا أنه لما سافر إلى بغداد ، دفع بعض أهله إلى خادمه الذي سافر معه ماء من بئر بالمعرة ، يقال له بئر القراميد ، وكان يستطيب ماءه ، وقالوا له : إذا أراد العود من بغداد فاسقه من هذا الماء . فلما خرج من بغداد الى المعرة سقاه ذلك الماء . فقال : ما أشبه هذا الماء بماء بئر القراميد . وقيل : بل قال : هذا ماؤها فأين هواؤها ، وقيل : إن

أمه سيرت إليه شيئاً من ذلك الماء . روى ذلك ابن العديم والبديعي وغيرهما بروايات متقاربة .

وقال أبو الحسن علي بن مهند بن علي بن مقلد بن منقذ في كتابه الموسوم (بالبداية والنهاية) قال : « حدثني أبي قال حدثني جد أبي قال : وصل إنسان عراقي إلى المعرة ، فأنفذ يختبر الشيخ أبا العلاء مع بعض تلاميذه ، فقال : قل للشيخ ما في هذه الأبيات الرجز من المعاني واللغة :

صُلْبُ العَصَا بالضَّربِ قَدْ دَمَّاهَا إذا أرادَتْ رَشَداً أغْواهَا

يَوَدّ أنّ اللهَ قَــدْ أفْناهَا ؟

فلما طرحت على الشيخ ، فكر فيها ساعة ، ثم قال : غريبة والله هذا يصف راعياً بصلابة عصاه أنه يضرب الإبل لتتخير لها المرعى ، فقد دمّاها أي جعلها مثل الدمى . إذا أرادت رشدا وهو حب الرشاد وهو[١] أغواها رعاها في حب [٢] يود أن الله قد أفناها أي أطعمها حب الفنا ، وهو عنب الثعلب . فمضى تلميذه فعرف الرجل العراقي فلم يلبث [٣] الرجل في المعرة » . هكذا رواها ابن العديم [٤] . وفي لسان العرب في « دمي » وأنشد أبو العلاء .

صُلُبُ العَصَا بِرَعِيّة دَمّاها يَودُّ أنّ اللهَ قَدْ أفناها

---

(١) هكذا في الأصل (ج) .

(٢) هكذا في الأصل (ج) .

(٣) في نسخة : « فلم يبت » (ج) .

(٤) تعريف القدماء ص ٥٦٤ ـ عن الانصاف والتحري .

أي أرعاها ، فسمنت حتى صارت كالدمى . وفيه في مادة « فني » وروى أبو العباس عن ابن الأعرابي أنه أنشد قول الراجز :

صلبُ العَصَا بالضّربِ قد دَمّاها   يَقُولُ لَيْتَ اللهَ قَدْ أفناهـا

قال يصف راعي غنم ، وقال : فيه معنيان ، أحدهما أنه جعل دمّاها ميثل دمها بالضرب لخلافها عليه ؛ والثاني في قوله : صلب العصا ، أي لا تحوجه إلى ضربها فمعناه باذية ، وقوله : بالضرب قد دماها أي كساها السمن ، كأنه دمّمها بالشحم لأنه يرعيها كل ضرب من النبات . وأفناها أنبت لها الفنا حتى تغزر وتسمن ، ورواه في (التكملة) : « ضخم العصا . . »

وفي (أوج التحري) (١) : « ويحكى أن أبا العلاء ، دخل يوماً على عمه القاضي أبي محمد التنوخي ، فلما رآه من بعيد يقصده ، قال لجاريته : قومي إلى سيدك وخذي بيده ، فقامت وأخذت بيده ، ومكث ساعة ، فلما قام أشار اليها عمه فأخذت بيده لتوصله إلى حجرته ، فلما أمسك يدها التفت إلى عمه وقال : دخلت وهذه الجارية بِكر ، والآن فهي ثيب ، فقال : ومن أين تعلم ؟ أيوحى إليك ؟ كأنه ينكر عليه ذلك ، فقال : حاشا وكلاّ ، وقد انقطع الوحي بعد نبينا محمد المصطفى ﷺ ولكنني لما دخلت مسست يدها وأعصاب الزند كالأوتار المشدودة ، فعلمت أنها بكر . والآن فقد ارتخت أعصابها فعلمت أن البكارة زالت . فبحث القاضي أبو محمد عن ذلك ، وإذا ابن له قد دخل بها في تلك الساعة » .

وقد ذكرنا أن بعض الطلبة قال له : أكلتَ دبساً ، فمسح صدره . وأنه روي له بيت من الشعر فعرف أن قائله أعمى . وروي له بيت فعرف

---

(١) أوج التحري ـ للبديعي ص ١٥ تحقيق الدكتور ابراهيم الكيلاني .

أن قائله أعور . وأنه قال للوزير المنازي : ومن بالعراق ، بعد مضي بضع عشرة سنة عطفا على قوله : أنت أشعر من بالشام . وقال للتهامي نحواً من هذا .

وفي بعض هذه النوادر ما يستبعده العقل ، وتنكره العادة ، وقد ذكرنا أن بعض العلماء أنكر شيئاً منها . ولا يضير أبا العلاء أن ينكر كلها أو بعضها فإن في آثاره الباقية ما هو أدل على ذكائه وفطنته وشدة حفظه من كل ما تقدم . من ذلك معرفة الكلمات التي وضعها له بعض تلاميذه ليختبروه . ومنه تغيير كلمتي القافية في بيتي النمر بن تولب على[1] جميع الحروف الهجائية مع المحافظة على الوزن والمعنى . ومنه إيراد الشواهد والأمثلة والأشباه والنظائر والشواذ والنوادر في الكلمات اللغوية في المسائل التي تشتمل عليها (رسالة الملائكة) . وأشباه هذا كثير ، وأعظم منه استطاعته أن يخضع المسائل العلمية للشعر ، وقدرته على التصرف بالألفاظ اللغوية في أي معنى أراد . وعلى جمع الصور الخيالية في لفظ قليل ، وغير ذلك مما لا يمكن حصره .

ولو شئت أن تقول : إن أبا العلاء آية في كل شيء لكنت غير مبالغ ، وسترى في الكلام على دراسة أدبه وآثاره ما يشهد لذلك ويؤيده .

• • •

بداهته

كان أبو العلاء غزير المادة ، قوي العارضة ، حاضر البديهة ، وقد ذكرنا نظمه الأبيات للحلبيين الذين جاءوا ليختبروه وقافام . وأجوبته الارتجالية للقاضي أبي الطيب الطبري حين زار بغداد . وقد ذكر ابن العديم وابن فضل الله العمري عن كتاب (جنان الجنان) : « عن القاضي محمد بن سندي القِنَّسري عن أبيه ، قال : بتنا عند أبي العلاء المعري في الوقت

---

(١) رسالة الغفران تحقيق بنت الشاطيء ط ١ ص ٣٢ — ٤٤ .

الذي كان يملي فيه شعره المعروف بلزوم ما لا يلزم ، فأملى في ليلة واحدة ألفي بيت ، كان يسكت زماناً ثم يملي قريباً من خمسمائة بيت ، ثم يعود إلى الفكرة والعمل إلى أن كملت العدّة المذكورة »[1] .

وهذه الرواية لا تخلو من مبالغة ، لأن كتابة ألفي بيت تستغرق أكثر من ليلة ، فكيف يتأتى نظمها وتأليفها ثم إملاؤها وكتابتها في ليلة ؟ ويجوز أن يقال : إنه كان نظمها وأعدها من قبل ، ثم كان يفكر في تذكرها ثم يمليها . ولكن قوله : ثم يملي قريباً من خمسمائة بيت ، لا يخلو من المغالاة على أي وجه قلّبته .

وقال القفطي : « ذكر انه قرىء بحضرته يوماً أن الوليد لما تقدم بعمارة جامع دمشق ، أمر المتولين بعمارته ألا يصنعوا حائطاً إلا على جبل ، فامتثلوا وتعسّر عليهم وجود جبل لحائط جهة جيرون ، وأطالوا الحفر امتثالاً لمرسومه ، فوجدوا رأس حائط مكين العمل كثير الاحجار ، يدخل في عملهم ، فأعلموا الوليد أمره ، وقالوا نجعل رأسه أسّاً ، فقال : اتركوه واحفروا قدّامه لتنظروا أسّه وضع على حجر أم لا ؟ ففعلوا ذلك ، فوجدوا في الحائط باباً ، وعليه حجر مكتوب بقلم مجهول ، فأزالوا عنه التراب بالغسل ، ونزّلوا في حفره لوناً من الاصباغ ، فتميزت حروفه ، وطلبوا من يقرؤها فلم يجدوا ذلك ، وتطلّب الوليد المترجمين من الآفاق حتى حضر منهم رجل يعرف بقلم اليونانية الأولى المسمى ليطين[2] ، فقرأ الكتابة الموجودة فكانت : باسم الموجد الأول أستعين ، لما أن كان العالم محدثاً ، لاتصال أمارات الحدوث به ، وجب أن يكون له

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٦٠ — ١ عن الإنصاف والتحري — لابن العديم .

(٢) في فهرست ابن النديم : « ليطون » (خ) .

محدث لا كهؤلاء ، كما قال ذو السنتين وذو اللحيتين وأشباههما ، فوجبت عبادة خالق المخلوقات (١) ، حينئذ أمر بعمارة هذا الهيكل من صلب ماله محب الخير (٢) على مضي ثلاثة آلاف وسبعمائة عام ، لأهل الأسطوان (٣) فإن رأى الداخل إليه ذكر بانيه عند باريه بخير فعل والسلام .

فأطرق أبو العلاء عند سماع ذلك ، وأخذ الجماعة في التعجب من أمر هذا الهيكل وأمر الأسطوان المؤرخ به ، وفي أي زمان كان ، فلما فرغوا من ذلك ، رفع أبو العلاء رأسه وأنشد في صورة متعجب :

سَيَسأَلُ قَوْمٌ ما الحجيجُ ومَكَّةٌ كَما قالَ قَوْمٌ ما جَديسُ وما طَسْمُ

وأمر بسطر الحكاية فسطرت على ظهر جزء من (استغفر واستغفري) بخط ابن أبي هاشم كاتبه وأكثر من نقل الكتاب نقل الحكاية على مثل [ماعلى] الجزء الذي هي مسطورة عليه » (٤)

هذا البيت من أبيات ستة ذكرت في (لزوم ما لا يلزم) وروايتها فيه : (٥)

---

(١) جملة فوجبت الخ غير موجودة في نص القفطي وإنما هي في معجم البلدان الذي نقل الحكاية عن القفطي ، وعبارته : فوجدت عبادة . كذا في الأصل وفيما نقل عنه (ج) .

(٢) وفي معجم البلدان : « محب الخير » (ج) .

(٣) أهل الاسطوان قوم من الحكماء الأول كانوا ببعلبك ، حكى ذلك أحمد بن الطيب السرخسي الفيلسوف . وروى هذه القصة ابن أمير الحاج في شرحه على التحرير لابن الهمام ج ٣ ص ٨٤ بتغيير يسير . واستدل بذلك على أن فريقاً من الفلاسفة يقولون بحدوث العالم (ج) .

(٤) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٣ ـ ٤ عن إنباه الرواة للقفطي .

(٥) اللزوميات ﻫ ص ٢٢٦ .

سَيَسْأَلُ نَاسٌ مَا قُرَيْشٌ وَمَكَّةٌ ... كَمَا قَالَ نَاسٌ مَا جَدِيسُ وَمَا طَسْمُ

أَرَى الوَقْتَ يُفْنِي أَنْفُساً بِفَنَائِهِ ... وَيَمْحُو فَمَا يَبْقَى الحَدِيثُ وَلَا الرَّسْمُ

لَقَدْ جَدَّ أَهْلُ المَلْعَبَيْنِ فَأَثَّلُوا ... بِنَاءً وَلَمْ يَثْبُتْ لِرَافِعِهِ وَسْمُ

وَفِي العَالَمِ الغَاوِي بَخِيلٌ مُمَوَّلٌ ... وَسَمْحٌ فَقِيرٌ شَدَّ مَا اخْتَلَفَ القَسْمُ

وَكَوْنُ الفَتَى فِي رَهْطِهِ نَيْلُ عِزَّةٍ ... عَلَى أَنَّ دَاءَ الدَّهْرِ لَيْسَ لَهُ حَسْمُ

وَيُبْرِزُ أَجِسْمُ المَرْءِ حَتَّى إِذَا أَوَى ... إِلَى العُنْصُرِ التُّرْبِيِّ لَمْ يَبْرُزْ إِالجِسْمُ

• • •

ثقته بعلمه واعتداده بنفسه

كان أبو العلاء — كما قلنا — شديد الذكاء سريع الحفظ ، كثير التمحيص والتثبت ، إذا سمع شيئاً حفظه ، وإذا حفظ شيئاً رسخ في ذهنه فلم ينسه ، وإذا رسخ شيء في ذهنه استطاع أن يتصرف فيه تصرف اللبق الحاذق ؛ ولم يكن منها بالكذب والتدليس والغرور ، وقد عرف تمكن هذه الخلال من نفسه ، فوثق بها وعول عليها فيما يقول ويكتب . وقد اختبر هذه الثقة مراراً فلم يزدد إلا يقيناً بها ، وقد أنشد في العراق قوله :

وَيُوشَعُ رَدَّ يُوحاً بَعْضَ يَوْمٍ ... وَأَنْتَ مَتَى سَفَرْتَ رَدَدْتَ يُوحا

بالياء المثناة ، فقيل له : بوحا ، بالباء المفردة ، واحتجوا عليه بما ذكره ابن السكيت في ألفاظه ، فلم يحد عن اعتقاده ، وقال لهم : هذه النسخ التي بأيديكم حرفها شيوخكم ، فأخرجوا النسخ العتيقة ، فأخرجوها فكانت كما قال .

وفي (المعاهد ص ٥٩٨) « هذه نسخ محدثة غيّرها شيوخكم ، ولكن أخرجوا ماني دار العلم من النسخ القديمة » . وذكر أن ذلك كان في حلقة ابن المحسن التنوخي(١) ، والقصة في (لسان العرب) (وتاج العروس) (والاقتضاب ص ٢٨٠) وفي ابن الاثير : « ويقال يوحى على وزن فعلى ، وقد يقال بالباء الموحدة لظهورها » .

واختلف في بيت للمتنبي مع محمد بن عبد الله بن سعد حين كان يقرأ عليه شعر المتنبي ، فكان القول ماقاله أبو العلاء ، ولفّق له تلاميذه كلمات وأدخلوها في غيرها ليختبروه ، فعرفها وعرف ما أرادوا من عملهم هذا.

وقال القفطي : « شاهدت على نسخة من كتاب إصلاح المنطق ، يقرب أن يكون بخط المغربين ، أن الخطيب أبا زكريا التبريزي قرأه على أبي العلاء ، وطالبه بسنده متصلاً ، فقال له : إن أردت الدراية فخذ عني ولا تتعد ، وإن قصدت الرواية فعليك بما عند غيري ، وهذا القول من أبي العلاء يشعر بأنه قد وجد من نفسه قوة على تصحيح اللغة ، كما وجدها ابن السكيت مصنف (الإصلاح) وربما أحس من نفسه أوفر من ذلك ، لأن ابن السكيت لم يصادف اللغة منقحة مؤلفة ، قد تداولها العلماء قبله وصنفوا فيها وأكثروا ، كما وجدها أبو العلاء في زمانه »(٢) .

ولعل أظهر موطن يتجلى فيه اعتداده بنفسه ، واعتماده على حفظه ، وثقته بعلمه (رسالة الملائكة) فانه صرح فيها في مواضع مختلفة ، بما يدل على ذلك .

---

(١) وفي شرح السقط للبطليوسي — ١ ـ ٢٧٩ ، فأخرجوها فوجدوها مقيدة كما قال ووجدوها كذلك في الجمهرة ، وكانت بخط أبي بكر بن دريد (ج) .

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥١ عن إنباه الرواة ـ للقفطي ـ

كقوله من الأول ، في الكلام في « سندس » : والذي أعتقده أن النون زائدة ، ولا أمنع أن يكون « فُعللًا » . وقوله في طوبى : والذي نذهب إليه ، إذا حملناها على الاشتقاق ، أنها من ذوات الياء . وقوله : ولا أمنع أن يجيء الفعل على « فعلن » وإن لم يذكره المتقدمون . وقوله : ولا أمنع ان يخالف الأول مخالف .

وقوله من الثاني : ليس في كلامهم مثل « اسفرجل يسفرجل » . ... مفقود في كلامهم الياء بعدها واو .. وقوله في « همن » : هذا فعل مات ، وهمن لم يذكره أحد من المتقدمين فيما أعلم . وقوله : ولم يستعمل « التلق ولا التلق ولا القلت ... » وقوله : ولم يستعملوا في الأفعال الماضية ما يجتمع فيه الياءان غير « عيّ وحيّ » وقوله : لم يجيء على « افعيلة وافعيل » إلا « انجيل ... » الى غير ذلك مما ذكرناه في مقدمة (رسالة الملائكة) التي طبعت في دمشق سنة ١٣٦٣ هـ . ومما هو مذكور في الرسالة المذكورة نفسها ، وقد تجد مثل هذا في رسائله أيضاً كقوله في رسالته إلى أبي عثمان النكتي [١] : « والعتال مفقود في شعر العرب . زعم سعيد بن مسعدة أنه لم يسمعه وقد جاء بيت لزهير وبعضهم يرويه لابنه » .

وفي (لزوم مالا يلزم) [٢] :

مَفْعُولُ خَيْرِكَ فِي الأَفْعالِ مُفْتَقَدٌ كَمَا تَعَذَّرَ فِي الأَسْماءِ فَعْلُولُ

* * *

(١) رسائل المعري ـ لشاهين عطية ـ ص ١١٣ .

(٢) اللزوميات هـ ص ١٩٧ .

اعتقاده بنفسه

يعتقد أبو العلاء أنه وإن تأخر زمانه، يفوق بفضله ونبله من تقدمه من أعلام الأمة ونوابغها. ويأتي بما لم يستطيعوه من ضروب العبقرية والبراعة:

وَإِنِّي وَإِنْ كُنْتُ الأَخِيرَ زَمَانُهُ   لآتٍ بِمَا لَمْ تَسْتَطِعْهُ الأَوَائِلُ(١)

وأنه قام بما يجب عليه من النصح والارشاد إلى ما يفيد الإنسان في حياته، وإذا ذَهَبَ فَقَدَ الناسُ من يُرشدهم بنصح وإخلاص، ولا يجدون من يسد مسدّه:

فَاسْمَعْ كَلامِي وَحَاوِلْ أَنْ تَعِيشَ بِهِ   فَسَوْفَ أُعْوِزُ بَعْدَ اليَوْمِ طُلاَّبِي(٢)

وأنه مُخلص في آرائه كما كان مخلصاً في أقواله:

خُذِي رَأْيِي وَحَسْبُكِ ذَاكَ مِنِّي   عَلَى مَا فِيَّ مِنْ عِوَجٍ وَأَمْتِ(٣)

وأنه سار في حياته العملية سيرة حسنة، من اتبعه فيها كان أمره إلى صلاح وفلاح:

خُذُوا سِيَرِي فَهُنَّ لَكُمْ صَلاَحٌ   وَصَلُّوا فِي حَيَاتِكُمْ وَزَكُّوا(٤)

وأن فريقاً من الناس حسدوه على ما آتاه الله من فضله، فهم لا يألون جهداً في الافتراء عليه، وقلب الحقائق التي يرشد إليها:

---

(١) شروح سقط الزند: ق ٢ ص ٥٢٥ .

(٢) اللزوميات ﻫ ص ٤٨ .

(٣) اللزوميات ﻫ ص ٦٧ .

(٤) المصدر السابق ص ١٨٤ .

لَحَى اللهُ قوماً إذا جِئتَهُمْ بِصِدْقِ الأحاديثِ قالُوا: كَفَرْ[1]

وهم يحاولون بذلك تشويه سمعته ، وإخماد جذوته ، ولكنهم لم يستطيعوا ولن يستطيعوا أن يطفئوا بأفواههم نور الله الذي أذكاه فيه ، ولا يخملوا ذكره الذي عم القاصية والدانية :

وَقَدْ سارَ ذِكْري في البِلادِ فَمَنْ لَهُمْ بِإخْفاءِ شَمْسٍ ضَوْؤُها مُتَكامِلُ[2]

• • •

كتبه

كان لأبي العلاء خزانة كتب مكتظة بالكتب الصحيحة ، غير أن التاريخ لم يبين لنا ما كان فيها من الكتب ولا مقدار ما كان فيها . وقد تقدم قوله لهبة الله بن موسى حين سأله أن يريه ما يحكيه عن حفظه : « خذ كتاباً من هذه الخزانة القريبة منك » . وأن أمير حلب أخذ من عنده نسخة من (الجمهرة) ثم ردها إليه ، وأن رجلاً من اليمن قرأ عليه كتاباً مقطوع الأول . وهو (ديوان الأدب) للفارابي ، وأن أبا العلاء قرأ من أوله إلى أن انتهى الى ما عند الرجل .

غير أن ما تقدم وما أمكننا معرفته ، لا يعلم منه ما كان في خزانته من الكتب على التحقيق ، لفقد الوثائق التاريخية ، ولكن سيأتي أسماء عدد كبير من الدواوين والكتب التي ذكرها أو روى منها شيئاً في كتبه التي وصلت إلينا وهي كثيرة جداً .

---

(١) اللزوميات ، ص ١٧٠ .
(٢) شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٥٢٣ .

كتّابه

من البيّن أن أبا العلاء كان مستطيعاً بغيره ، لا يتأتّى منه أن يدوّن ما يريد أن يكتبه ، وقد اتخذ عدداً من الكتّاب ، منهم من كان يكتب له بأجرة ، ومنهم من كان يكتب له بدون شيء . وقد ذكر ابن الوردي في تاريخه (ج١ص ٣٥٨) أن أبا العلاء كان يملي على بضع عشرة محبرة في فنون من العلوم . وقال في (مرآة الزمان) عن التبريزي : إنه كان لأبي العلاء عشرة من الكتاب ، يملي على كل واحد فنوناً غير ما يملي على الآخر وهم يكتبون .

وذكر ياقوت (ج ١ ص ١٧١) أنه نقل فهرست كتبه من خط أحمد مستملي أبي العلاء . وقال : « قرأت في نسخة أخرى فهرست كتبه .. » الى آخر العبارة التي تأتي بعد . وفيها : « وتولى نسخها الشيخ أبو الحسن علي بن عبد الله بن أبي هاشم .. »

وذكر ابن العديم أن أبا العلاء كان له أربعة رجال من الكتاب الموجودين [١] في جرايته وجاريه [٢] يكتبون عنه ما يكتبه الى الناس وما يمليه من النظم والنثر والتصانيف ، وقد كتب له جماعة من أهل معرة النعمان ، وفي البديعي كان له أربعة رجال يكتبون عنه ما يرتجله . وفي (مسالك الأبصار) : « أربعة من الكتاب المجوّدين .. وغير هؤلاء من الكتاب الذين يغيبون ويحضرون » [٣]

---

(١) في مسالك الأبصار : « المجودين » (ج) .

(٢) هكذا في ابن العديم ونقل اليمني عنه ص ١٩٢ في جرايته وجاريه (ج) .
وانظر تعريف القدماء ص ٥٢٤ عن الإنصاف — لابن العديم —

(٣) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٢٢٢ عن مسالك الأبصار — للعمري .

والذي يمكن فهمه من عبارات المتقدمين أن له كتّاباً يجري عليهم رزقاً وآخرين ليسوا كذلك ، ولكن لم أر من ذكر الذين كانوا في جرايته وجاريه . وإنما ذكروا طائفة من كتابه ، ولم يبيّنوا كل واحد من أي فريق .

وأخص كتابه به ابن أخيه .

أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الله بن سليمان ، وهو الذي تولى خدمته وتعهده ، وكتب تصانيفه بخطه ويقع من المصنف الواحد نسختان وأكثر وقد تقدم ذكره فيمن كان يخدمه .

ومن كتابه : أبو الحسن علي بن محمد أخو عبد الله السابق ذكره نسخ بخطه جميع أمالي عمه أبي العلاء وسمع منه ، وكان فاضلاً ولد سنة ٤٠٥ هـ وولي قضاء المعرة وحماة ، وكانت ولايته قضاء حماة سنة ٤٥١ هـ ورثاه ولده القاضي أبو مرشد سليمان .

ومنهم : جابر بن زيد بن عبد الواحد أخي أبي العلاء ، وقد ذكر القفطي أنه كتب إجازة بإذن عم أبيه أبي العلاء على الجزء الثاني من (ذكرى حبيب) لأبي الحسن يحيى بن محمد الرازي سنة ٤٤٨ هـ وقال ابن العديم : إن زيداً له ولد اسمه منافر ، ولعله محرف عن جابر وقف بخطه كتباً من تصانيف عم أبيه أبي العلاء تدل على فضله وحسن نقله .

ومنهم جعفر بن أحمد بن صالح بن جعفر بن سليمان بن داوود بن المطهر ويجتمع نسبه مع أبي العلاء في سليمان بن داود ، كان من أعيان كتابه ، وكتب الكثير عنه ، وقرأ عليه كثيراً من كتب الأدب وروى عنه ، وخطه على غاية من الصحة والضبط .

ومنهم أبو الحسن علي بن عبدالله بن أبي هاشم المعري ، لزم أبا العلاء وكتب كتبه بأسرها وكتب من المصنف الواحد عدة نسخ وقد تقدم ذكره .

ومنهم أبو الفتح محمد بن علي بن عبدالله بن أبي هاشم المقدم ذكره، كتب له من تصنيفه ، ووضع له أبو العلاء كتاباً لقبه (المختصر الفتحي) وكتاباً يعرف بـ (عون الجمل) وقد مر ذكره وسيأتي ، وقد كان هو ووالده خادمين لأبي العلاء على ما قاله ابن العديم ، وكان يعول في نسخ ما يؤلف من العلم عليهما .

وقال ابن العديم (١) : « ومن كتّابه جماعة من بني أبي هاشم لا أتحقق أسماءهم . وإنما أستدل على ذلك بقول أبي العلاء في (رسالة الضبعين) .... وفي حلب نسخ من هذا الكتاب بخطوط قوم يعرفون ببني أبي هاشم .. .. جرت عادتهم أن ينسخوا ما أمليه .... » .

ومن كتّابه : إبراهيم بن علي بن إبراهيم الخطيب المعري ، كتب معظم كتبه بخطه وكتب عنه في السماع والإجازة منه وقرأ عليه كما تقدم .

****

تم الجزء الأول ويليه الجزء الثاني وأوله :

ثقافة أبي العلاء المعري

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٢٦ عن الإنصاف والتحري - لابن العديم .

فهرس الكتاب (★)

(★) سيقع كتاب الجامع في أخبار أبي العلاء المعري وآثاره في ثلاثة أجزاء أو أربعة، وقد رأينا أن نثبت فهارسه العامة التفصيلية في ذيل الجزء الأخير منه واقتصرنا في هذا الجزء على فهرسة أبوابه وفصوله موجزة كما وضعها مؤلفه.

الصفحة

* * *

المقالة الثانية

الصفحة

• • •

المقالة الثالثة

****

استدراك

جاء في الصفحة ١٩٣ نَقْلٌ من كتاب الذكرى لطه حسين حذف منه المؤلف بعض الجمل التي بدت له نافلة، ولدى الرجوع إلى النص في مظنته رأينا أنه يحسن إثبات جملة مكان النقاط في السطر ١٣ من الصفحة كي تستقيم العبارة فتصبح : «فمن الواضح أن بؤس المدين قد كان ظاهراً يستطيع هذا الصبي [الذي بلغ من الرشد] أن يتردد إلى المكاتب ويدرس فيها العلم [ملاحظته والتفكير فيه] .» .

★ ★ ★


الناشر



الجامع

في أخبار أبي العلاء المعرّي وآثاره

ألّفه
محمد سليم الجندي

الجزء الثاني

علّق عليه وأشرف على طبعه
عبد الهادي هاشم

دار صادر
بيروت


الناشر

مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق

الجامع

في أخبار أبي العلاء المعرّي وآثاره

ألفه

محمد سليم الجندي

الجزء الثاني

علق عليه وأشرف على طبعه

عبد الهادي هاشم



دار صادر

بيروت

الجامع

في أخبار أبي العلاء المعري وآثاره

٢

الطبعة الأولى دمشق ١٣٨٣هـ - ١٩٦٣م
الطبعة الثانية بيروت ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

طبع بإذن من المجمع العلمي العربي بدمشق
رقم ٥٠٤/ص بتاريخ ١٩٩١/١٢/٨





ص.ب. ١٠ بيروت ، لبنان / فاكس : ٩٢٠٩٧٨-٠٤
هاتف : ٩٢٨٢٧١-٠٤ ، ٤٤٨٨٢٧-٠١ ، ٤١٣٢٥٦-٠١


بسم الله الرحمن الرحيم

ثقافة أبي العلاء

وَمَصَادِرُهَا

كل ما سمح لنا به التاريخ لم يوضح لنا حقيقة أبي العلاء العلمية ، ولم يبين مبلغه من العلم ، ولا منزلته من كل فن . وكل ما ذكر في هذا الباب موجز مجمل ، ولكن ما وقع في كلامه الذي انتهى إلينا يدل- على أنه كان جامعاً لعلوم شتّى ، متمكناً في كل منها ، ولذلك استطاع أن يتصرف في مسائلها ، ويخضع كثيراً من مصطلحاتها وأحكامها فيما أراده من الأغراض من إشارة وتلميح وتورية واستنباط أمثال وحكم ونحو ذلك من النكت المنثورة في أضعاف سطوره ؛ ولو جاءنا كلُّ ما قاله وكتبه لرأينا أدباً غزيراً ، وعلماً جمّاً ، وخيالاً واسعاً ، وعبقرية فذة ، وثقافة عالية لا تضاهى . على أن القدر الذي أتيح لنا الوقوف عليه من كلامه يدل على علم واسع ، وأدب وافر ، يجعلانه أمة وحده ، لأننا لم نر في رجالات العرب ونوابغهم من اجتمع له من سعة الحفظ والاطلاع على مسائل العلم والأدب والحكمة مثل ما اجتمع لأبي العلاء ، ولا من استطاع أن يخضع العلم للشعر والأدب مثل ما استطاع ، ولو تأخر أبو نواس عنه لقال فيه :

وَلَيْسَ لِلَّهِ بِمُسْتَنْكَرٍ ... أَنْ يَجْمَعَ العَالَمَ فِي وَاحِدِ[1]

وإذا استعصى علينا الاستقصاء والاستيعاب ، فإننا نذكر على سبيل الإجمال ما قاله العلماء والمؤرخون وما استنبطناه من كلامه في العلوم التي كان

---

(١) ديوانه ص ١٨٥ ــ تحقيق إيفالد فاغنر

يعلمها ، ونستمد من كلامه ما نؤيد به كلامنا . وربما ذكرنا بعض شيوخه الذين تلقى عنهم تتميماً للفائدة .

القراءة

قال ابن العديم : « قرأ [أبو العلاء] القرآن العظيم بكثير من الروايات على شيوخ يشار إليهم في القراءة ، ذكر ذلك الحافظ السّلفي بعد أن ذكر جماعة أدركهم من أصحابه [1] » . ولم يذكر أحداً من أولئك الشيوخ . وفي كلام أبي العلاء كثير من الألفاظ التي اصطلح عليها القراء مثل قوله [2]:

فإنْ تَقِفِ الحَوَادِثُ دُونَ نَفْسِي ... فَمَا يَتْرُكْنَ إِشْمامِي ورَوْمِي

• • •

وقوله [3] :

خَفِّفِي الهمْزَ في النَّوائِبِ عَنِّي ... واحمِلِيني عَلَى قِراءةِ وَرْشِ

ونقل في (لسان الميزان ج ١ ص ٢٠٤) عن السِّلفي أنه قرأ القرآن بروايات . وفي (مسالك الأبصار) : « قرأ القرآن [العظيم] بالروايات

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥١٤-٥ عن الانصاف ـ لابن العديم ، وفي الخبر الذي أورده المؤلف اختلاف يسير عما ورد في الانصاف .

(٢) اللزوميات ٥ ص ٢٥١ والاشمام : أشم الحرف : أذاقه الضمة أو الكسرة بحيث لا تسمع ولا يعتد بها . والروم : حركة صوتية مختلسة مخفاة وهي أكثر من الاشمام لأنها تسمع . اهـ عن القاموس .

(٣) اللزوميات ٥ ص ٣٢٨ . وورش : لقب عثمان بن سعيد المقرىء المتوفى سنة ١٩٧ هـ .

على جماعة من الشيوخ [١] » . ولم يحصر واحد منهم تلك القراآت بعدد معين ، وقد حصرها أبو العلاء بقوله [٢] :

بَعَشْرٍ رِوَايَاتٍ قَرَأْتُ وَصَاحِبِي ... بِعِشْرِينَ مَا فِيهَا ادِّغَامٌ وَلَا نَبْرُ

. . .

وقوله [٣] :

خَمْساً أَوَ عَشْراً أَجَادُوا فِي قِرَاءَتِهِمْ ... وَوَفَّرُوا الْمَالَ مِنْ خُمْسٍ وَمِنْ عُشْرِ

وفي (رسالة الملائكة [٤]) ذكر قراءات فوق الأربع عشرة ، وسيأتي أن له كتابا يعرف بـ (تظلّم السور) يتكلم فيه على لسان سور القرآن ، وتتظلم كل سورة ممن قرأها بالشواذ ، ويتعرض لوجه الشاذ .

الحديث

ذكرنا فيما سبق طائفة من شيوخه الذين روى عنهم الحديث ، وقد نقل في (لسان الميزان) عن السِّلفي أنه « سمع الحديث بالشام على ثقات [٥] » ولكنه لم يذكر واحداً منهم . وذكر ابن العديم [٦] أنه خرّج من حديث أخيه أبي الهيثم سبعة أجزاء رويت عنه وكانت عند ابن العديم . وروى

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٢٢٢ عن مسالك الأبصار ـ للعمري .

(٢) اللزوميات هـ ص ١١٨ .

(٣) اللزوميات هـ ص ١٥٠ .

(٤) رسالة الملائكة تحقيق المؤلف الصفحات ١٨٥ — ١٩٥ و ٢٠٠ — ٢٢٢

(٥) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٣١٤ عن لسان الميزان ـ لابن حجر .

(٦) المصدر السابق ص ٥١٦ ـ ٧ عن الانصاف ـ لابن العديم .

له حديثاً عن أبيه ، وحديثاً عن جده ، وحديثين عن أبي زكريا يحيى بن مسعر ، وحديثاً عن أبي الفتح محمد بن الحسين بن روح .

وقال الذهبي : « وقد سمع الحديث بالمعرة عاليا من يحيى بن مسعر التنوخي عن أبي عروبة الحراني »[1] . وقال في (البغية) : « حدث عن أبيه وجده . . . وقد أسندنا حديثه في الطبقات الكبرى . وله ذكر في جمع الجوامع »[2] . وروى له حديثاً فيه ، رواه عن يحيى بن مسعر عن أبي عروبة بن أبي معشر الحراني (البغية ١٢٦ و ٤٥١) . وقال ابن حجر في (لسان الميزان ج ١ ص ٢٠٤) : « سمع من يحيى بن مسعر صاحب أبي عروبة جزءاً من أبي الفتح محمد بن الحسين صاحب خيثمة ، وصار على تصانيفه » . وقال السمعاني : « سمع الحديث اليسير ، وحدث به[3] » وسيأتي أن له كتاباً فيه أمالي من حديث رسول الله ﷺ عن شيوخه ، وهو سبعة أجزاء ، سبع كراريس (كذا في ابن العديم) . وقال في (رسالة الغفران ص ١٧٦): « وفي حديث آخر ، وقد سمعتــه بإسناد : أن تميم بن أوس الداري [— والدار قبيلة من لخم —] كان يهدي الى النبي ﷺ في كل سنة راوية من خمر ، فجاء بها في بعض السنين وقد حرجت الخمر ، فأراقها ، وبعض أهل اللغة يقول : فبعّها . .[4] » .

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ١٩١ عن تاريخ الاسلام — الذهبي .

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٣٣٢ ، ٣٣٤ عن بغية الوعاة — السيوطي .

(٣) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ١٣ عن الأنساب — السمعاني .

(٤) الرسالة تحقيق بنت الشاطىء ط ١ ص ٤٦٤ ، وبها : صبها .

وقال في اللزوم [1] :

أَقَدْ أتوْا بحَدِيثٍ لا يُثَبِّتُهُ عَقْلٌ فَقُلْنا: عَنْ أيِّ النَّاسِ يَحْكُونَه
فَأخبَروا بِأَسَانِيدٍ لَهُمْ كَذِبٍ لَمْ تَخْلُ مِنْ ذِكْرِ شَيْءٍ لا يُزَكُّونَه

. . .

وقال في اللزوم [2] :

جاءَتْ أحادِيثُ إِنْ صَحَّتْ فَإِنَّ لَها شَأْناً وَلَكِنَّ فِيها ضَعْفَ إِسْنادِ

والحديث والإسناد والضعف والصحة من مصطلح أهل الحديث .

علم الكلام أو العقائد

لم نقف على كتاب لأبي العلاء خاص بعلم الكلام أو العقائد ، وإنما يتراءى في كلامه ما يدل على اطلاعه على مذاهب العلماء في الكلام والجدل ، وتقصيه آثارهم ، وانتقاده كثيراً من آرائهم وكتبهم ، ونحو ذلك مما سيأتي ، كقوله [3] :

وَمَا جَدَلُ الأَقْوامِ إِلاَّ تَعِلَّةٌ مُصَوَّرَةٌ مِنْ بَاطِلٍ وَتَوَهُّمِ

وقوله [4] :

لَوْلاَ التَّنَافُسُ في الدُّنيا لَمَا وُضِعَتْ كُتْبُ التَّنَاظُرِ لاَ المُغْني وَلاَ العُمَدُ

---

(1) اللزوميات ٢ ص ٢٦٦ .
(2) اللزوميات ١ ص ١١٠ .
(3) اللزوميات ٢ ص ٢٤٤ .
(4) اللزوميات ١ ص ٩٢ والعمد : كتاب القاضي عبد الجبار من رؤساء المعتزلة .

وقوله (١) :

وَأَعْلَمُ أَنَّ ابنَ المُعَلِّمِ هَازِلٌ   بِأَصْحابِهِ والباقِلانِيُّ أَهْزَلُ

الفقه

ذكر ابن العديم أن « أكثر قضاة المعرة وفضلائها وعلمائها وشعرائها وأدبائها من بني سليمان [وهو سليمان] بن داود بن المطهر (٢) » ، وكانت الفتاوى في بيتهم على مذهب الشافعي — رضي الله عنه — أكثر من مائتي سنة في المعرة . وقد ذكرنا أن قول أبي العلاء :

قَلَّدْتَنِي الفُتْيا فَتَوِّجْنِي غَداً   تَاجاً بِإِعْفَائِي مِنَ التَّقْلِيدِ (٣)

يدل على أنه قلد الفتيا . وأنا لا أعلم إن كان أبو العلاء احتذى على مثال آبائه في اتباع مذهب الشافعي أم لا بعد قوله :

وَيَنْفِرُ عَقْلِي مُغْضَباً إِنْ تَرَكْتُهُ   سُدًى واتَّبَعْتُ الشَّافِعِيَّ وَمَالِكَا (٤)

وأمثاله مما ذكرناه في الكلام على عقيدته . على أن في شعره ما يدل على سعة اطلاعه على الفقه ، ووفرة نصيبه منه ، فمن ذلك قوله :

تَقَنَّعْ مِنَ الدُّنْيا بِلَمْحٍ فَإِنَّها   لَدَى كُلِّ زَوْجٍ حَائِضٌ مَالَهَا طُهْرُ (٥)

---

(١) اللزوميات هـ ص ١٩٥ وابن المعلم : هو أبو اسحاق بن المعلم من شيوخ المعتزلة .
والباقلاني : هو القاضي أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني .

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٤٨٩ عن الانصاف والتحري .

(٣) اللزوميات هـ ص ١١٤ .

(٤) اللزوميات هـ ص ١٨٥ .

(٥) اللزوميات هـ ص ١١٨ .

مَتَى مَا تُطَلِّقْ تُعْطِ مَهْراً وَإِنْ تَزِدْ ... فَنَفْسُكَ بَعْدَ الدَّيْنِ وَالرَّاحَةِ المَهْرُ

. . .

وقوله :

فَمِنْ مُحْرِمٍ لا يَحْرِمُ العَلَقَ الظُّبَا ... وَمِنْ مُحْرِمٍ أَظْفَارُهُ لا تُقَلَّمُ (١)

. . .

وقوله :

وَمَا زَالَ شَرْطٌ يُفْسِدُ البَيْعَ وَاحِدٌ ... فما باله لمّا تظاهر شَرْطَانِ (٢)

. . .

وقوله :

قَرَنَّ بِحَجٍّ عُمْرَةً وَقَرَيْنَنَا ... غَرَاماً فَآهِ مِنْ قَوَارٍ قَوَارِنِ (٣)

. . .

وقوله :

تَخُونُ أَمِينَكَ دِينَارَهُ ... وَفِي رُبْعِهِ يُقْطَعُ السَّارِقُ (٤).

. . .

---

(١) اللزوميات هـ س ٢٢٩ .

(٢) اللزوميات هـ س ٢٧٢ .

(٣) اللزوميات هـ س ٢٧٣ ، وقوار : مفردها قارية وهي التي تقري الضيف أي تكرمه ، وقوارن : مفردها قارنة وهي التي تقرن حجها بعمرة .

(٤) اللزوميات هـ س ٣٠٢ .

وقوله :

وَجِسْمُ المَرْءِ لِلأَعْرَاضِ رَبْعٌ فَهَلْ زَكَّاهُ تَزْكِيَةَ العُرُوضِ [(١)]

• • •

وقوله :

غَلَتِ الشُّرُورُ وَلَوْ عَقَلْنَا صُيِّرَتْ دِيَةُ القَتِيلِ كَرَامَةً لِلْقَاتِلِ [(٢)]

وأبياته التي قالها في أبي حامد الإسفرائيني التي يقول فيها :

وَرُبَّ ظُهْرٍ وَصَلْنَاهَا عَلَى عَجَلٍ بِعَصْرِهَا في بَعِيدِ الوِرْدِ لَمَّاعِ [(٣)]...

والظاهر من أقواله : إن يد السارق تقطع بربع دينار ، ورب ظهر وصلناها . . بعصر . وقوله : وغسل طمري سبعاً . وما أشبه ذلك ، كل هذا يدل على أنه كان متفقهاً على مذهب الشافعي ، لأن في مذهب أبي حنيفة تقطع يد السارق بعشرة دراهم ، ولا يجمع بين الظهر والعصر الا في مِنى ، ولا يغسل من شيء سبعاً وجوبا .

الفرائض

وفي كلامه ما يدل على تمكنه من علم الفرائض ، كقوله :

وَلَمْ أَرِثِ النِّصْفَ الفَتَاةَ وَلَمْ تَرِثْ

بي الرُّبْعَ بَلْ رِبْعٌ تَطَاوَلَ أَوْ خِمْسٌ [(٤)]

• • •

(١) اللزوميات هـ ص ٢٨٩ .

(٢) اللزوميات هـ ص ٢٢١ .

(٣) شروح سقط الزند ، ق ٢ ص ٧٤٦ .

(٤) اللزوميات هـ ص ٣٠٩ والربع والخمس بالكسر : مدد إظماء الابل .

وَالأُمُّ بِالسُّدْسِ عَادَتْ وَهْيَ أَزْافُ مِنْ
بِنْتٍ لَهَا النِّصفُ أَوْ عِرْسٍ لَهَا الرُّبُعُ(١)

• • •

هِيَ الدُّنْيَا إِذَا طُلِبَتْ أَهَانَتْ   وَعَالَتْ والفَرِيضَةُ ذَاتُ عَوْلِ(٢)

• • •

الرُّبْعُ لِلزَّوْجَةِ إِنْ لَمْ يَكُنْ   نَسْلٌ وإِنْ كَانَ غَدَتْ بِالثُّمُنْ(٣)
والزَّوْجُ يَزْوِي النِّصفَ أَبْنَاؤُهُ   عَنْهُ وَفِي الدَّهْرِ خُطُوبٌ كُمُنْ

النحو

ألمعنا فيما سبق الى أن علماء النحو في العصر السابق كانوا فريقين: كوفيين وبصريين. وقد نبغت بعدهم طائفة أرادت أن تجمع بين المذهبين، وتستخلص مذهبا وسطا، وأن القرن الرابع الذي أظل أبا العلاء انتشرت فيه آراء وكتب لعلماء مختلفين. ويظهر من أقوال أبي العلاء أنه اطلع على كثير منها، وربما كانت عنايته ببعضها أشد منها في بعض آخر.

منها: (كتاب سيبويه) ويظهر من رسالة كتبها إلى أبي طاهر المشرف ابن سبيكة، وهو ببغداد، أنه سأله أن يحصل له على نسخة من

---

(١) الزوميات هـ س ٢٨٢ .
(٢) الزوميات هـ س ٢١٩ والعول : عالت الفريضة في حساب الارث ، زادت .
(٣) الزوميات هـ س ٢٨٥ .

(كتاب سيبويه)[١] ويدل على أنه اطلع عليه ما ذكره في (رسالة الغفران ص ٣٥) من أن ابن القارح سأل نابغة بني جعدة : « كيف تنشد قولك :

فَلَيْسَ بِمَعْرُوفٍ لَنَا أَنْ تَرُدَّها صِحَاحاً، ولا مُسْتَنْكَراً أَنْ تُعَقَّرا

أتقول : ولا مستنكراً ، أم ولا مستنكرٍ؟ فيقول الجعدي : بل مستنكر[اً]. فيقول الشيخ : فإنْ أنشدكم منشد : مستنكرٍ ، فما تصنع؟ قال : أزجره وأزبره ، نطق بأمر لا يخبره ، فيقول الشيخ : إنا لله وإنا إليه راجعون ، ما أرى سيبويه إلا وهم في هذا البيت[٢] ... » وسيبويه ذكر هذا البيت في (كتابه ج ١ ص ٣٢) وأجاز فيه ، مستنكرٍ ، وبيّن وجه ذلك. وذكر في (رسالة الغفران ص ٢٦) قول عدي بن زيد :

أَرَوَاحٌ مُوَدِّعٌ أَمْ بُكُورُ أَنْتَ فَانْظُرْ لِأَيِّ أَمْرٍ تَصِيرُ

وأن سيبويه يزعم أن « أنت » يجوز أن ترفع بفعل مضمر يفسره قولك « فانظر ... » وأن عدياً يقول : دعني من هذه الاباطيل[٣]. وهذا البيت ذكره سيبويه في (كتابه ج ١ ص ٧٠) وقد وصف كتاب سيبويه بالحزونة في (رسالة الغفران ص ١٨٥)[٤].

ومنها : (شرح كتاب سيبويه) لأبي سعيد السيرافي ، فإن أبا العلاء كتب رسالة الى أبي طاهر أن يحصل له على نسخة من الكتاب وشرحه ،

---

(١) انظر رسائل أبي العلاء للمري — شاهين عطية — ص ٨٦ .

(٢) انظر الرسالة تحقيق بنت الشاطىء ط ١ ص ١٠٠ وفيها : « وليس ... » و : « بل مستنكراً » و : « ما تصنع به » . و : « فيقول : أزجره ... » .

(٣) انظر الرسالة تحقيق بنت الشاطىء ط ١ ص ٧٦ .

(٤) الرسالة تحقيق بنت الشاطىء ط ١ ص ١٨٩ .

وفيها يقول : « أما الشرح ، فإن سمح به القدر ، وإلا فهو هدر (١) » .

وكتب الى أبي عمرو الإستراباذي كتاباً في أمر هــذا الشرح ، والظاهر أنه أصاب عناء في تحصيل الشرح ، وكتب إلى أبي العلاء يخبره بذلك ، فقال له في جوابه : « كان أيسرَ من عنائه في ذلك قذفُ الشرح في سَيح ، حتى يُعشبَ َخدُّ شُريح .. إنما هو أفانين كلام أصبح وهو مجموع ، المقيس فيه والمسموع ، لا يخلد من رواه ، قد عاش الناس بسواه .. ولا أقرأ لكتاب أبي سعيد : ﴿ أولَئِكَ يُنادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعيد ﴾ .. والكتاب أيسر وأقل من أن يكلف خطوات ، ولو كُنَّ كَدبيب القَطَوات (٢) . . » .

وقد ذكر في (رسالة الغفران ص ١٠٩ (٣)) البيتين المنسوبين لآدم وهما :

تَغَيَّرَتِ البِلادُ وَمَنْ عَلَيْها ... فَوَجْهُ الأَرْضِ مُغْبَرٌّ قَبيحُ

تَغَيَّرَ كُلُّ ذِي لَوْنٍ وَطَعْمٍ (٤) ... وَقَلَّ بَشَاشَةُ الوَجْهِ المَلِيحِ

وأن أبا سعيد ذكر وجها لجعل البيت الثاني خالياً من الإقواء ، وهو أن ينشد :

وقَلَّ (٥) بشاشةَ الوجهُ المليحُ

(١) رسائل أبي العلاء ـ شاهين عطية ـ ص ٨٦ .

(٢) رسائل أبي العلاء طبعة مرغليوث ص ٣٨ ـ ٣٩ ، ولم ترد هـذه الرسالة في رسائل أبي العلاء ـ لشاهين عطية والآية من سورة فصلت ٤٤/٤٧ .

(٣) انظر الرسالة تحقيق بنت الشاطىء ط ١ ص ٢٨٣ .

(٤) في الغفران ـ بنت الشاطىء ـ : « وأودى ربع أهليها فبانوا وزال ... » .

(٥) في المصدر السابق : « وزال . . . . » .

على تقدير «بشاشةً» بفتحتين، واستشهد لحذف التنوين، فقال أبو العلاء: «قلت أنا: هذا الوجه الذي ذكره أبو سعيد شر من إقواء عشر مرات في القصيدة [الواحدة]».

وقد بينا أن القرن الرابع نبغت فيه طائفة من أعلام الأمة في النحو، كأبي سعيد السيرافي، وأبي علي الفارسي، وابن خالويه وغيرهم، ممن انتهت اليهم رآسة علم النحو. ولكن أبا العلاء لم يلق أحداً منهم، ولم يأخذ عن أحد بالذات، وإنما اطلع على آثارهم وآرائهم في كتبهم. وقد قدمنا شيئاً عن أبي سعيد السيرافي. وذكر في (رسالة الغفران ص ٥٧ [١]) أن يزيد بن الحكم أنكر على أبي علي الفارسي رفع الماء في قوله:

. . . . وَخَيْرُكَ عَنّي مَا ارْتَوَى المَاءُ مُرْتَوِي [٢]

وأنكر عليه فتح الميم في «مقتوى» من قوله:

. . . . فإني خليلاً صالحاً بك مَقْتَوَى [٣]

وأن راجزاً أنكر عليه تحريك الياء في «تأبيه» في بيت أورده [٤].

وآخر أنكر عليه أن تكون الهاء راجعة على الدرس في قوله:

هَذَا سُرَاقَةُ لِلقُرْآنِ يَدْرُسُهُ [٥] . . . .

---

(١) انظر الرسالة تحقيق بنت الشاطئ ط ١ ص ١٥٣.

(٢) صدره: «فليت كفافاً كان شرك كله . . .».

(٣) صدره: «تبدل خليلاً بي كشكلك شكله . . .».

(٤) انظر الخبر في رسالة الغفران تحقيق بنت الشاطئ ط ١ ص ١٥٣.

(٥) الصدر الثاني وعجز البيت: «والمرء عند الرُّشا إن يلقها ذيب».

وجماعة من هـذا الجنس يلومونه على تأويله . وأن ابن القارح قال لهم : « يا قوم ! إن هذه أمور هيّنة ، فلا تعنتوا هذا الشيخ ، فإنه يمت بكتابه [في القرآن] المعروف [بكتاب] الحجة . . . . »[١]

وأما ابن خالويه ، فقد أثنى عليه في (رسالة الغفران) حيث يقول في ص ١٩١ : « وأما أبو عبد الله بنُ خالويه ، وإحضاره للبحث النسخ ، فإنه ما عجز ولا أنسخ — أي نسي — ولكن الحازم يريد استظهارا ، ويزيد على الشهادة الثانية ظهارا . . . أين كأبي عبد الله ؟ . لقد عدمه الشام ! فكان كمكة إذ فقد هشام ، عَنَيْتُ هشامَ بنَ المغيرة ، لأن الشاعر رثاه فقال :

أَصْبَحَ بَطْنُ مَكَّةَ مُقْشَعِرّاً كَأَنَّ الأَرْضَ لَيْسَ بِهَا هِشَامُ..[٢] »

ويظهر لي أن أبا العلاء كانت عنـايته بكتاب سيبويه المتوفى سنة ١٦١ هـ وكتاب (الجمل) لأبي القاسم الزجاجي المتوفى سنة ٣٣٩ هـ وكتاب (الكافي) للشيخ أحمد بن محمد المرادي النحاس المتوفى سنة ٣٣٨ هـ وكتاب (مختصر محمد بن سعدان الكوفي) المتوفى سنة ٢٣١ هـ أشد من عنايته بغيرها ، فإنه شرح كتاب سيبويه ، ولم يتم ، وذكر له بعضهم تفسير أمثلة سيبويه . ووضع كتابا سماه (عون الجمل) شرح فيه شيئاً من كتاب الجمل للزجاجي ، أو شرح الشواهد ، وكتابا آخر سماه (تعليق الجليس) أو (تعليق الخلس) يتصل بكتاب الجمل ، وكتابا آخر سماه (إسعاف الصديق) يتصل بتعليق الجليس . وكتابا سماه (قاضي الحق) يتصل بالكتاب المعروف بالكافي . وكتابا سماه (المختصر الفتحي) يتصل بمختصر محمد بن سعدان الكوفي .

---

(١) رسالة الغفران تحقيق بنت الشاطئ ط ١ ص ١٥٤ .

(٢) انظر رسالة الغفران تحقيق بنت الشاطئ ط ١ ص ٥١٠ — ١١ .

وقد قال أكثر المؤرخين : إن أبا العلاء قرأ الفقه والنحو على أبيه ، وعلى جماعة من أهل بلده ، كبني كوثر ، ولكنهم لم يسموا واحداً منهم إلا ابن العديم فإنه قال : « قرأ اللغة والنحو بمعرة النعمان على والده . . وأبي بكر محمد بن مسعود بن محمد بن يحيى بن الفرَج النحوي [١] » ، أما والده فقد روى عن جماعة منهم : أبوه سليمان ، ومنهم : ابن خالويه . . وأما أبو بكر محمد بن مسعود فلم أقف على ترجمته . وقـال كثير من المؤرخين : إنه قرأ على محمد بن عبد الله بن سعد بحلب ، وظاهر قولهم أنه قرأ عليه شيئاً من العلم . والحق ما قاله ابن العديم ، وهو أنه دخل حلب وهو صبي فقرأ على محمـد بن عبد الله بن سعد رواية أبي الطيب المتنبي . ثم نقل عن محمـد بن الخضر بن أبي مهزول المعري المعروف بالسابق ، أن ابن سعد كان يروي في ديوان المتنبي في قصيدته التي مطلعها :

أزائِرٌ ياخَيالُ أمْ عائدْ . . . [٢]

هذا البيت :

أو مَوْضِعاً في فِنـاء ناحِيَةٍ ... تَحمِلُ في التاجِ هَامَةَ العاقِدْ

وهذه القصيدة ليست مما قرأه على أبي الطيب المتنبي ، وإنما هي مما أنفذه اليه ، فرد عليه أبو العلاء وقد اجتمع معه بحلب وهو صبي وقال له البيت :

أو مُوضِعاً في فِتانِ نَاجِيةٍ . . . .

فلم يقبل ابن سعد ، ومضى الى نسخة عراقية صعدت مع أبي علي ابن أريس من العراق ، فوجد القول ما قاله أبو العلاء .

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥١٥ عن الانصاف والتحري لابن العديم .

(٢) صدر بيت هو مطلع قصيدة يمدح بها عضد الدولة ، وعجزه : « أم عند مولاك أنني راقد » العرف الطيب ٢ : ٦٠١ .

وهذا يفيد أن أبا العلاء لم يقرأ على ابن سعد شيئاً من العلم ، ولم يأخذ عنه لغة ولا نحوا ، وإنما أراد أن يأخذ شعر المتنبي بالرواية عنه فقط ، وأن حفظه لكلام المتنبي أوثق من حفظ ابن سعد ، ولذلك كان القول قوله فيما اختلفا فيه .

والبيت المذكور من قصيدة مدح بها المتنبي عضد الدولة ، فقال :

تُهْدي لَهُ كُلَّ ساعَةٍ خَبَراً ... عَنْ جَحْفَلٍ تحتَ سَيْفِهِ بائدْ[1]

أو مُوضِعاً في فِتانِ ناجِيَــةٍ ... يَحْمِلُ في التاجِ هَامَةَ العَاقِدْ

والموضع : المسرع ، والفيتان : غشاء للرحل من أدم ، والناجية : الناقة السريعة ، والمعنى : تهدي له كل ساعة رسولاً يبشره بقتل جماعة من أعدائه ، أو مسرعاً يحمل إليه رأس ملك في تاجه .

وذكر الميمني أنه قرأ على جماعة « من بني كوثر وأصحاب ابن خالويه ، ومنهم أبو القاسم المبارك بن عبد العزيز[2] ، ولكنه لم يعزُ هذا القول إلى مرجع ، ولم يبين أحداً منهم إلا المبارك . ولعله أخــذ ذلك من قول أبي العلاء في رسالته الى أحمد بن عثمان النكتي ص ١٠٨[3] : « وحدثنا صديقه أبو القاسم المبارك بن عبد العزيز ــ رحمه الله ــ عن أبي عبد الله ابن خالويه ، عن ابن دريد .. أنه رأى شيطانه أبا زاجية في النوم ، وقال له : لم لا تقول في الخمر شيئا ؟ . . » .

---

(١) العرف الطيب ٢/٦٠٣

(٢) أبو العلاء وما اليه ــ للميمني ــ ص ٥١ .

(٣) انظر الرسائل ــ لشاهين عطية ــ .

ولكن مثل هذا لا يدل على أنه قرأ عليه لغة ولا نحواً ولا غيرهما .
وقال في (لسان الميزان) : إنه« أخذ [العربية] عن أصحاب ابن خالويه[١]» .
ولم يعين أحداً منهم . وسيأتي في كتبه أن له كتباً في النحو غير ما ذكرناه ، منها (ظهر المصري) و (الحقير النافع) و (الطل الطاهري) . وفي كلامه كثير من الإشارات الى ما اصطلح عليه النحاة ، كقوله في (السقط ج ١ ص ١٩٨) :

تَثِنُ وَنَصْبِي في أنينِكَ وَاجِبٌ ... كَمَا وَجَبَ النصبُ اعْتِرافاً على إنَّ[٢]

وقوله في (ج ٢ ص ١٢٥) :

وَلِي حَاجَةٌ عِنْدَ العِرَاقِ وَأَهْلِهِ ... فَإِنْ تَقْضِيَاهَا فَالجَزَاءُ هُوَ الشَّرْطُ[٣]

وفيه غير ذلك كقوله في (ج ٢ ص ٣٨ س ٤ ، و ص ٥٤ س ٤ ، و ص ٩٩ س ١٧ [٤]) .

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٣١٢ عن لسان الميزان ـ لابن حجر .

(٢) شروح السقط ق ٢ ص ٩٣٢ .

(٣) شروح السقط ق ٤ ص ١٦٦٨ .

(٤) انظر شرح التنوير على سقط الزند طبعة مصر سنة ١٢٨٦ هـ وهي التي اعتمدها المؤلف في تعقب الأمثلة ، ويقابلها في شروح سقط الزند (ق ٣ ص ١١٥٨ و ق ٣ ص ١٢٥٥ و ق ٤ ص ١٠٢٠) الأبيات التالية :

وأهونْ به في راحة أريحية ... كآخر ماض ليس من شأنه الضم

• • •

حروف سُرىً جاءت لمعنى أردْته ... برتْني أسماءً لهنّ وأفعالُ

• • •

وظننت وجدك ماضياً متصرفاً ... فلقيتني منه بفعل دائمِ

وقوله في اللزوم (١) :

وَتُرْفَعُ أجسَادٌ وَتُنْصَبُ مَرَّةً وَتُخْفَضُ في هذا التُّرابِ وتُجزَمُ

وقوله في اللزوم (٢) :

تَزَوَّجْ إنْ أرَدْتَ فَتَاةَ صِدْقٍ كَمُضْمَرِ نِعْمَ دَامَ عَلَى الضَّمِيرِ

وقوله في اللزوم (٣) :

سَتُتْبِعُهُ كَعَطْفِ الفَاءِ لَيْسَتْ بِمَهْلٍ أو كَثُمَّ عَلَى التَّرَاخِي

وقوله في اللزوم (٤) :

إنَّ أذَاهَا مِثْلُ أفْعَالِنَـــا مَاضٍ وفي الحَال ومُسْتَقْبَلُ

وفي اللزوم أبيات كثيرة من هذا النوع ، منها في (الجزء الأول ص٢٤٣ سطر ١١ ، و ص ٣٩٩ س ٢ ، و ص ٤١٨ س ١٣)

وفي (الجزء الثاني ص٩٧ س١٥ ، و ص ١٤٧ س ١٦ ، و ص ٢٣٨ س١٢ ، وص ٢٦٥ س ١٦ ، و ص ٢٧٣ س٦ ، و ص ٣٦٦ س ٣ ، وص ٣٦٨ س٤ (٥)).

---

(١) اللزوميات ﻫ ص ٢٢٨ .

(٢) اللزوميات ﻫ ص ١٥٥ .

(٣) اللزوميات ﻫ ص ٨٧ .

(٤) اللزوميات ﻫ ص ٢٠ .

(٥) أنظر لزوم مالا يلزم طبعة عزيز زند وهي التي اعتمدها المؤلف في بحثه ويقابلها في طبعة ﻫ الصفحات (٩٠ ، ١٥٨ ، ١٦٦ ، ٢٩٠ ، ١٨٤ ، ٢٢٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٦ ، ٢٧٤ ، ٢٧٤) . والأبيات — على التوالي — هي :

عفـــاة القوافي كالذي ولماتهـا لذا هنَّ لم يوصلن فاللفظ فاسد

• • •

الصرف

ما رأيت أحداً ذكر أن أبا العلاء أخذ علم الصرف منفرداً عن أحد من الشيوخ ، ولا من ذكر له كتاباً خاصاً بهذا العلم . والظاهر أنه أخذه مع علم النحو ، وأكثر المتقدمين يجمعون بين العلمين في كتاب واحد . وأما (رسالة الملائكة) فقد أجاب بها عن مسائل صرفية ، ولكنه مزجها بغيرها ، وفي كلامه كثير من الإشارات الى ما اصطلح عليه أهل

— حكمي نعم وبئس يجيء فيها   ويكون ذاك على اشتراط مضمر

• • •

مرّدّتني حتى شهرتُ الليالي   ثم صالت عليّ بالتكسير

• • •

ألا ترى جمع ما لا عقل يشده   جمع المؤنث فيه التاء والألف

• • •

وللمرء مثل الحرك بين سهاده   وكراه يسكن تارة ويحرك

• • •

والمرء كان وظلّ كان وجدته   حاليه في الإثناء والإهمال

• • •

والمرء يرفع أفعالاً تخفضه   حتى إذا مات أضحى وهو منجزم

• • •

والجسم ظرف نوائب وكأنه   ظرف يؤخر تارة ويقدم

• • •

نحا نوىً لاضربات لسالم   بلاً بلْ ولا مستدركات بلكنز

• • •

أرى الخلق لي أمرين : ماضٍ ومقبل   وظرفين : ظرفي مدة ومكان

هذا العلم ، كقوله في اللزوم[1] :

إذا غدوتَ عن الأوطانِ مرتحلاً ... فضاهِ في البَيْنِ حذفَ الواوِ من يَعِدِ

وقوله[2] :

مَعْنَى تَخِيبي على ما بانَ مِنهُ كَمَا ... تُبنَى الزوائدُ مِن ياأوسُ لا تَنَمِ

• • •

وقوله[3] :

إذا مادَعِيُّ القومِ ضاهَى صريحَهُمْ ... فلا تُنكِرَنْ واعدُدْهُ آخِرَ عَبدَلِ

أليسَ كَباقي أحرُفِ الوزنِ لامُه ... وَمَا فُصِّلَتْ مِن لامِ سَهلٍ وأَهدَلِ

• • •

وقوله[4] :

بِتُّ كالواوِ بَينَ ياءٍ وكَسْرٍ ... لا يُلامُ الرجالُ إنْ أسقَطُوني

• • •

وقوله[5] :

وكيفَ أُرَجِّي مِن زماني زيادةً ... وقد حذَفَ الأصليَّ حذفَ الزَّوائدِ

• • •

---

(١) اللزوميات ﻫ ص ١٩٠ .

(٢) اللزوميات ﻫ ص ٢٤٨ .

(٣) اللزوميات ﻫ ص ٢١١ واللام في « عبدل » زائدة .

(٤) اللزوميات ﻫ ص ٢٨٢ : يعني بات محملاً على الناس تحمل الواو التي تجمع في مضارع (وعد) بين الياء والكسر فأسقطت استثقالاً .

(٥) اللزوميات ﻫ ص ١٠٥ وفيها : « من زمان » .

وقوله (١) :

وَجدْتَنِيَ اللُّجَيْنَ أو الثُّرَيَّا   وَتَصْغِيرُ المُصَغَّرِ لا يَجُوزُ

* * *

وقوله (٢) :

أُعْلِلْتُ عِلَّةَ قَالَ وَهِيَ قَدِيمَةٌ   أَعْيَا الأَطِبَّةَ كُلَّهُمْ إِبْرَاؤُهَا

وفيه كثير من أمثال هذا كقوله في (الجزء الأول ص ٢٥٦ س ٩ ، وص ٣١٠ س ١٧ ، وص ٣١١ س ٨)

وقوله في (الجزء الثاني ص ٤٠ س ٨ ، و ص ١٩٨ س ١٧ (٣)) .

---

(١) اللزوميات هـ ص ١٧٢ .

(٢) اللزوميات هـ ص ٢٣ .

(٣) أنظر لزوم مالا يلزم طبعة عزيز زند ، ويقابلها في طبعة هـ الصفحات : (٩٥ ، ١٢٠ ، ١٢٠ ، ٣٠٣ ، ٢٠٥) . والأبيات — على التوالي — هي :

وخلت أني حرف الوقف سكّنه   وقت وأدركه في ذاك تشديد

* * *

إذا صغر اسماً حاسدوك فلا تُرع   لذلك والدنيا بسعدك تصغر

* * *

إذا اعتلت الأفعال جاءت عليلة   كحالاتها أسماؤها والمصادر

* * *

أو لا وأُلهِ العرسَ عن غزلٍ لها   بالغزْل فهي شقيقة العرناسِ
زيدت بها الف ونون إنّ مِنْ   فرْس الرقاب نطقت بالفرناس

* * *

جسم الفتى مثــل قام فعلْ   مــذ كان مافارق اعتلالا

وقوله في السقط (١) :

فَصَرَّفَني فَغَيَّرَني زَمَانٌ سَيُعْقِبُني بِحَذْفٍ وادِّغَامِ

وفي كلامه إشارة الى أسماء طائفة من علماء النحو والصرف ، وشيء من كتبهم المؤلفة في هذين العلمين من ذلك قوله (٢) :

تَوَلَّى سِيبَوَيْهِ وَجَاشَ سَيْبٌ مِنَ الأَيَّامِ فاخْتَلَّ الخَلِيلُ

• • •

وقوله (٣) :

أَصَابَ الأَخْفَشَيْنِ بَصِيرُ خَطْبٍ أَعَادَ الأَعْشَيَيْنِ بِلا حِوَارِ ..
وَمَا نَفَعَ المُبَرَّدَ مِنْ حَمِيمٍ وَصَادَفَ تَغْلَباً نُوَبٌ ضَوَارِ ..

• • •

وقوله (٤) :

أَرَى ابْنَ أَبي إِسْحٰقَ أَسْحَقَهُ الرَّدَى وَأَدْرَكَ عُمْرُ الدَّهْرِ نَفْسَ أَبي عَمْرِو

• • •

وستأتي تتمة القول في هذا عند الكلام على النحاة واللغويين ورأيه فيهم .

---

(١) شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٤٧٣ وفيها : « وصرّفني » .
(٢) اللزوميات ٥ ص ١٩٨ .
(٣) اللزوميات ٥ ص ١٥٧ وفيها : « وصادف » .
(٤) اللزوميات ٥ ص ١٤٦ .

واذا أنعمنا النظر في أقواله في النحاة والصرفيين ، وأضفناها الى ما ذكره في (رسالة الملائكة ص ١٢) على لسان رضوان لمّا جاءه مع جماعة من خُمان(١) الأدباء . وقالوا له : يا رضو . . . وذكروا له شيئاً من مسائل هذين العلمين ، قال : « فيتبسم رضوان ، ويقول لهم : إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون . فانصرفوا . . . فقد أكثرتم الكلام فيما لا منفعة فيه . وانما كانت هذه الأشياء أباطيل زخرفت في الدار الفانية ، فذهبت مع الباطل . . » ثم قوله : « وقد حرم علي الكلام في هذه الأشياء ، لأني طلقتها طلاقاً بائناً ، لا أملك فيه الرجعة ؛ وذلك أني وجدتها فوارك فقابلتها بالصلف . » ثم قوله : « وأحلف بجروة الكذوب .. لأن آزِمَ صابة أو مقرةٌ آثر لدي من أن أتكلم في هذه الصناعة كلمة.. وقد تكلفت الاجابة .. (٢)» إلى قوله في (الأيك والغصون) : « يانحو يانحو حق لما كسب منك محو » الى آخره . ونحو ذلك من أقواله في هذا الموضوع.

إذا نظرنا إلى مجموع ذلك يتبين انا أنه كان ينظر إلى بعض مسائل هذين العلمين ورجالها نظر استخفاف ومقت ، ولعل سبب ذلك أن بعض العلماء كان يلتمس وجوهاً بعيدة أو ضعيفة لتقوية قوله ، ويتأول تأولات واهية متكلفة لا تطمئن اليها النفس ، ولا يتقبلها الذوق السليم بقبول حسن.

---

(١) خُمان الناس : سفلتهم .

(٢) انظر رسالة الملائكة تحقيق المؤلف ص ٢٥—٥٥ ، وآزم : الأزم شدة العض . وصابة ومقرة : شجرتان مرتان .

اللغة

كان أبو العلاء آية باهرة في اللغة ، وطالما حدثتني نفسي أنه أحاط من مفرداتها ونوادرها وشواذها بما لم يحط به العرب الخلص ، وأنه أوثق فيها من بشار وابن هرمة ، وكنت أخشى أن يحمل ذلك على الغلو في حبه إذا جهرت به .

شهادة التبريزي في أبي العلاء :

ثم رأيت ابن العديم نقل عن ابن الشجري عن أبي زكريا التبريزي أنه قال : « ما أعرف أن العرب نطقت بكلمة ولم يعرفها المعري .. (١) » . وقال البديعي بعد أن ذكر أن له كتاباً أربعة : « ويروى عن أحدهم أنه قال : لا أعلم أن العرب نطقت .... (٢) » .

طلاب أبي العلاء الذين اختبروه في اللغة :

« ولقد اتفق قوم ممن يقرأون عليه ، فوضعوا حروفاً وألفوها كلمات ، وأضافوا إليها من غريب اللغة ووحشيها كلمات أخرى ، وسألوه عن الجميع على سبيل الامتحان ، فكان كلما وصلوا إلى كلمة مما ألفوه ، ينزعج لها وينكرها ويستعيدها مراراً ، ثم يقول : دعوا هذه . والألفاظ اللغوية يشرحها ويستشهد عليها حتى انتهت الكلمات ، ثم أطرق ساعة مفكراً ، ورفع رأسه ، وقال : كأني بكم وقد وضعتم هذه الكلمات لتمتحنوا بها معرفتي وثقتي في روايتي ، والله لئن لم تكشفوا لي الحال ، وتدعوا

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء . ص ٥٦٩ عن الإنصاف والتحري — لابن العديم .
(٢) أوج التحري — للبديعي — ص ١٣ تحقيق الدكتور إبراهيم الكيلاني .

الحال (١). وإلا فهذا فراق بيني وبينكم. فقالوا له: والله الأمر كما قلت، وما عدوت ما قصدناه، فقال: سبحان الله، والله ما أقول إلا ما قالته العرب، وما أظن أنها نطقت... (٢)». هذا ما وجد في كلام ابن العديم، ثم ذكر بعد ذلك قوله: «والرائد لا يكذب أهله ..» وهو قطعة من كتاب كتبه إلى الوزير الفلاحي، والظاهر أن النسخة التي وقعت إلينا فيها نقص، فظن الناسخ أن الكلام في صدد واحد.

شهادة الصفدي:

وقد عدد الصفدي من رزقوا السعادة في أشياء لم يأت بعدهم من نالها وقال: «وأبو العلاء المعري في الاطلاع على اللغة وفي البلغة في أئمة اللغة، وقال محمد بن رادة: كان بالمشرق لغوي وبالمغرب لغوي في عصر واحد لم يكن لهما ثالث، وهما أبو العلاء وابن سيده ..»

موازنة بين ابن سيده وأبي العلاء:

وابن سيده هذا تقدمت ترجمته في الكلام على اللغة في العصر العباسي، وقد قال ياقوت (ج ١ ص ٨٥ (٣)): «ولم يكن في زمنه أعلم منه بالنحو واللغة والأشعار وأيام العرب، وما يتعلق بعلومها». ومما لاشك فيه أن ابن سيده كان غزير العلم واسع الاطلاع على اللغة، ولكن بينه وبين أبي العلاء مشابهة من جهة ومفارقة من جهات، أما جهة المشابهة،

---

(١) كذا في الأصل (ج).

(٢) وفي أوج التحري ص ١٣. «.. العرب نطقت بشيء ولم أعرفه» (ج)
وانظر تعريف القدماء ص ٥٧٠ عن الانصاف — لابن العديم —.

(٣) إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب.

فإن أبا العلاء كان يشابهه في سعة الاطلاع على اللغة وغزارة العلم إن لم يزد عليه ، وأما جهات المفارقة فكثيرة .

منها : أن الصفدي نقل في(النكت ص ٢٠٤) قول ياقوت ، ثم قال : « وكان ابن سيده ثقة في اللغة ، حجة ، لكنه عثر في المحكم عثرات .. » وقد قدمنا أقواله في أبي العلاء في نكت الهميان ، والوافي بالوفيات . ولم ينقل عن أحد أن المعري عثر في اللغة ، وما وقع من اعتراض عليه فإنما نشأ من ضعف المعترض ، أو عدم اطلاعه ، أو عدم معرفته ما أراده المعري ، أو إن شئت فقل : من وهم أو سقم في الفهم كما سيتضح ذلك .

ومنها : أن أبا العلاء استطاع أن يسخر اللغة والعلم فيما أراده من الأغراض ، نظماً ونثراً .

أبو العلاء يحب إظهار علمه وقدرته في اللغة :

وقد كان أبو العلاء يحب أن يظهر سعة علمه ، وغزارة لغته ، وقدرته على التصرف فيها ، في كل موطن تمنحت له فيه فرصة . ونحن نذكر بعضاً من تلك المواطن لندل على صحة مانقول .

المواطن الدالة على اظهار علمه ولغته ، بيتا النمر وتحويلها على حروف المعجم :

فمنها تحويله قافية بيتين للنمر بن تولب على جميع حروف المعجم وإتيانه بكلمة ملائمة للقافية والوزن وهي في (رسالة الغفران ص ١٢ [١]) . وقد قال الصفدي في (الغيث المسجم) : « ومن وقف على كلام أبي العلاء .. في ذينك البيتين .. وكيف غير القوافي منها ، ونزلها على سائر حروف

(١) انظر الرسالة تحقيق بنت الشاطىء ط ١ ص ٣٣ — ٤٤ .

المعجم خلا حرف الطـاء (١) علم تمكّن أبي العلاء من الأدب واطلاعه على اللغة » .

الجمل الدعائية في المنيح :

ومنها أنه كان يكثر الجمل الدعائية ، ويتفنن في ايرادها بصور مختلفة حتى في الرسائل الأخوية ، ويضع كل واحدة في الموضع المناسب لها .

ففي (رسالة المنيح) تجد مثل قوله : « أطال الله بقاء سيدنا . جعل الله لشانئه كوكب الرجم وحـادي النجم . أدام الله عزه ذريعة الانتفـاع . أدام الله تأييده . أدام الله سلطـانه . أدام الله قدرته (٢) » .

الجمل الدعائية في الإغريض :

وفي (رسالة الاغريض) تجـد مثل قوله (٣) : « فَتحرسَ الله سيدَنا حتى تدغمَ الطاءُ في الهاءِ ، فتلك حراسة بغير انتهاء جعل الله رُتبتَه التي هي كالفاعِلِ والمبتدإ ، نظيرَ الفعل في أنها لاتنخفض أبداً . أدام الله لها القدرة ، مادام الضربُ الأولُ من الطويل صحيحاً ، والمنسرحُ خفيفاً سريعاً ، وقَبَضَ اللهُ يمينَ عدوّهما عن كل مَمْنٍ (٤) قبضَ

---

(١) هكذا في الأصل بالطاء المهملة ، وهو خطأ لأنه ذكر حرف الظاء ص ١٥ س ٦ وكذلك ذكر فيها الظاء المعجمة ، وقال : لذ الأطعمة تقل فيها الظاء ، كقلتها في غيرها لأن الظـاء قليلة جداً . فتأمل (ج) انظر تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٤٠٥ .

(٢) رسائل أبي العلاء ـ لعاصين عطية ـ ص ٥ ـ ٢٤ .

(٣) المصدر السابق ص ٣٦ ـ ٥٢ .

(٤) المن : العي .

العروض من أول وزن ، وجمع له من المهانة إلى التقييد ، كما جمعا في ثاني المديد ، وقلم قلم القسيط (١) ، وخبل كباعي البسيط ، وعصب الله الشر بهامة شانيهما وهو مخزو (٢) ، عصب الوافر (٣) وهو مجزو ، بل أضمرته الأرض اضمار ثالث الكامل ، وعداه أمل الآمل . وسلم سيدانا (٤) — أعز الله نصرهما — ومن أحباه وقرباه سلامة متوسط المجموعات ، فإنه آمن من المروعات . وسيدنا أطال الله بقاءه . . . سيدنا أطال الله بقاءه معترفا ، أعز الله سلطانه . . . . » .

الجمل الدعائية في رسالته إلى النكتي :

وفي رسالته إلى أحمد بن عثمان النكتي البصري ، أورد طائفة من الجمل الدعائية ، وقد كرر فيها قوله : « أدام الله عزه » ست عشرة مرة (٥) .

وفي كتابه الذي كتبه الى بعض أولياء السلطان ، يشفع فيه بالحسين ابن عنبسة خمس جمل دعائية (٦) .

وفي قطعة من كلامه الذي كتبه الى أبي الحسن بن سنان ، نحو عشر جمل دعائية (٧) .

وهذا سبيله في أكثر رسائله القصيرة والمتوسطة .

---

(١) القسيط : قلامة الظفر .

(٢) مخزو : مقهور .

(٣) في الأصل : « الكامل » وفي الرسائل — لشاهين عطية — : « الوافر » والعصب مما يصيب الوافر .

(٤) في الأصل : « سلم الله سيدانا » واضافة اسم الجلالة من سبق القلم . وفي الرسائل : « سلم سيدانا » وهو الصواب .

(٥) الرسائل — لشاهين عطية ص ١٠٥ — ١٥١ .

(٦) المصدر السابق ص ٥٣ — ٥٩ .

(٧) المصدر السابق ص ٢٢١ — ٢٢٥ .

الجمل الدعائية في رسالة الغفران :

أما (رسالة الغفران) ففيها نحو من مائة وثلاثين جملة دعائية . وقد كرر فيها جملتين إحداهما : « أدام الله تمكينه » والثانية : « ثبت الله وطأته » .

وجمله في هذه الرسالة متفاوتة في القدر ، مختلفة الجهة ، فمنها ما هو جملتان ، كقوله : « كبت الله عدوّه ، وأدام رواحه الى الفضل وغُدُوَّه » وقوله : « جعل الله أمنه متصلا ، والطالب شأوه من تقصير منتصلاً » .

ومنها ما هو جملة واحدة ، كقوله : « ثبت الله أركان العلم بحياته . . ، أكمل الله زينة المحافل بحضوره » .

ومنها ما هو دعاء له بالبقاء ، كقوله : « أبد الله مجده بالتأبيد » .

ومنها ما هو دعاء له بالثواب في الآخرة كقوله : « أزلفه الله مع الأبرار المتقين . . . أجزل الله عطاءه من الغفران » .

ومنها ما هو دعاء على حساده وأعدائه ، كقوله : « أرغم الله حاسده . . . أحل الله الهلكة بمبغضيه . . . ميّز الله من الغيظ قلب عدوه » .

وفي الرسالة جمل كثيرة فيها دعاء لغير ابن القارح أو على غيره كقوله : « ضفت عليك نعمة الله[1] » ص ٤٩ ، « رجع عليه حَجَرُه ، وطال في الآخرة بَحَرُه[2] » ص ١٥٨ ، وربما زاد ما في هذه الرسالة وحدها من الجمل الدعائية على مائة جملة لابن القارح وحده . وفي بعض جمله الدعائية تلميح الى بعض المسائل العلمية ، كما نرى في رسالة الإغريض .

---

(١) رسالة الغفران تحقيق بنت الشاطىء ط ١ ص ١٣٣ .

(٢) في المصدر السابق ص ٤١٣ .

إيجاده المناسبة لإظهار قدرته ، ذكر اللفظ وما يجانسه أو يوافقه :

ومنها ، أنه يذكر اللفظ ، ثم يمهد السبيل لذكر ما يجانسه أو يوافقه في صيغته أو مادته . كقوله في السقط :

وَالْحُسْنُ يَظْهَرُ فِي شَيْئَيْنِ رَوْنَقُهُ ... بَيْتٍ مِنَ الشِّعْرِ أَوْ بَيْتٍ مِنَ الشَّعَرِ (١)

وقوله :

إِذَا هَمَى القَطْرُ شَبَّتْهَا عَبِيدُهُمُ ... تَحْتَ الغَمَائِمِ لِلسَّارِينَ بِالقُطُرِ (٢)

ذكر اللفظ وإيراد معان تتعلق به :

وقد يذكر اللفظ ، ثم يأتي بمعان أو بحوادث تتعلق به . كما ترى ذلك في لفظ الدنانير التي ذكرها في (ص ١٩٥ من رسالة الغفران) وفي لفظ الثمانين المذكورة فيها في (ص ٢٠١) وكذلك لفظ التاج (ص ١٥٧) والقضيب (ص ١٥٩) والفريد (ص ١٦٠) والمرجان (ص ١٦٠) والأباريق (ص ٩) والرباب (ص ٤٣) (٣) .

ذكر اللفظ وما يقابله أو يضاده :

وأحياناً يذكر اللفظ وما يقابله أو يضاده ، كقوله :

نَحْنُ قُطْنِيَّةٌ وَصُوفِيَّةٌ أَنْـ ... ـتُمْ فَقُطْنِي مِنَ التَّجَمُّلِ قُطْنِي (٤)

---

(١) شروح سقط الزند ، ق ١ ص ١٢٩ وفيها : « فالحسن » .

(٢) المصدر السابق ص ١٤٢ وشبتها : أي شبت عبيدهم النار ، والقطر بضمتين : العود الطيب الذي يتبخر به .

(٣) الغفران طبعة أمين هندية ١٣٢١ هـ .

(٤) اللزوميات هـ ص ٢٨١ ، قطني : بفتح القاف أي حسبي .

وقوله :

عَرَفْتُ سَجَايَا الدَّهْرِ أَمَّا شُرُورُهُ فَنَقْدٌ وأَمَّا خَيْرُهُ فَوُعُودُ (١)

ذكر اللفظ وما يرادفه أو يشابهه :

وأحياناً يذكر المعنى الواحد للفظ ، ثم يقفّي على آثار ذلك بمرادفاته أو مشابهاته ، ولو على سبيل التقريب ، كما ترى ذلك في لفظ الخمر التي ذكرها في (رسالة الغفران في ص ٣٢ ، ٤١ ، ٤٣ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٨٢ ، ١٩٤ ، ١٩٥ (٢)) .

الخمر وما يرادفها تقريباً :

فقد ذكر من مرادفاتها ، مثل : « الخرداذي ، والقرقف ، والفيهج ، والإسفنط ، والقهوة ، والصهباء ، والمدام ، وأم زنبق ، والراح ، والجمهوري ، والبختج ، والمنصف ، والطلاء ، وأم ليلى ، والعقار ، والسبيئة ، والكميت ، والصرخدي ، والسلاف ، والخرطوم ، والعاني ، والمعتقة ، والشمول » .

المواطن التي تنسب اليها الخمر :

وعلى ذكر الخمر ذكر في (ص ١١) (٣) مواطن كثيرة ، تنسب اليها الخمر : « كمانة ، وأذرعات ، وغزة ، وبيت رأس ، والفِلِسْطِيَّة ، وبصرى ، ودُوْمج ، وصرخد ، وبابل » وغيرها .

أجناس المسكرات :

وذكر من أجناس المسكرات : « مفوقــات للشارب ، وموكرات كالجعة والنبيعْ والمِزْر والسُّكُركَة . . (٤) » .

---

(١) اللزوميات ١ ص ٩٠ .

(٢) الغفران طبعة أمين هندية ١٣٢١ ﻫ

(٣) المصدر السابق .

(٤) رسالة الغفران ص ٣٠ تحقيق بنت الشاطئ ط ١ .

المعقيات (١) :

وذكر المعقيات (ص ١٦) فأورد الصاب ، والمقر ، والسلع ، والجعدة ، والشيح ، والهبيد .

وأحياناً يذكر مسميات متعددة ، ويذكر لكل مسمى اسماً مختصاً به ، كقوله في (ص ٦٥) : « فارتفع رغاء العكر ، ويعار المعز ، وثؤاج الضأن ، وصياح الديكة . . . » .

تخصيص الاسماء بالمسميات :

وقوله في (ص ٢٧) : « فهل لك أن نركب فرسين من خيل الجنة ، فنبعثهما على صيرانها ، وخيطان نعامها ، وأسراب ظبائها ، وعانات حمُرها (٢) » .

جعله لزوم ما لا يلزم ١١٣ فصلاً :

ومنها أنه جعل ديوانه (لزوم ما لا يلزم) مائة وثلاثة عشر فصلاً . وقد أورد فيه قوافي جميع الحروف الهجائية الثمانية والعشرين في أحوالها الأربع : الضم والكسر والفتح والسكون ، مع التزام حرف أو أكثر قبل الروي كما سيأتي .

جعله الفصول والغايات على جميع حروف المعجم :

ومنها أنه جعل (الفصول والغايات) على حروف المعجم ، والتزم أن يكون ما قبل الحرف المقصود ألفاً في جميع فواصله ، كما سيأتي أيضاً .

---

(١) أعقى الشيء : صار شديد المرارة ، والشيء انفظه من فيه لشدة مرارته . رسالة الغفران تحقيق بنت الشاطىء ط١ ص ٤٤ .

(٢) فالصيران : جمع صوار ، القطيع من البقر ، والخيطان : جمع خيط ، القطيع من النعام . والأسراب : جمع سرب ، القطيع من الظباء . والعانات : جمع عانة ، القطيع من حمر الوحش (ج) . الرسالة تحقيق بنت الشاطىء ص ٨١ .

جعله خماسية الراح مع خمس سجعات لكل حرف يتحرك :

ومنها أنه جعل في كتابه (خماسية الراح) لكل حرف يمكن أن يحرك خمس سجعات مضمومة ، وخمساً مفتوحة ، وخمساً مكسورة ، وخمساً موقوفة ، أي ساكنة .

جعله السجعات العشر على حروف المعجم عشراً لكل حرف :

ومنها أنه بنى كتابه (السجعات العشر) على حروف المعجم ، فجعل على كل حرف عشر سجعات .

بناؤه الأيك والغصون على إحدى عشرة حالة ، لكل حرف من حروف الهجاء :

ومنها أنه بنى كتابه (الأيك والغصون) على إحدى عشرة حالة ، لكل حرف من حروف الهجاء .

• • •

تفسيره وشرحه الألفاظ

ومن أبرز المواطن التي تتجلى فيها قدرته اللغوية ، ويتبين فيها عزمه على إظهار هذه القدرة ، الشروح والتفاسير التي أوضح فيها المراد ، وأزاح الغموض واللبس .

وهي قسمان :

١ ـ قسم شرح فيه ما في كتبه ورسائله التي هي من ثمرات قريحته .

٢ ـ وقسم شرح فيه كلام غيره .

وكل منهما نوعان : نوع يختص بالكتب الشعرية ، ونوع يختص بالكتب النثرية .

شرحه المنظوم من كتبه :

أما القسم الأول : فالنوع الأول منه ، مثل كتاب (ضوء السقط) الذي شرح فيه ديوانه (سقط الزند) وكتاب (راحة اللزوم) وكتاب (الراحلة) وكتاب (زجر النابح) المتعلقة بديوانه (لزوم مالا يلزم) .

شرحه المنثور من كتبه :

وأما النوع الثاني منه : فمثل كتاب (السادن) وكتاب (إقليد الغايات) اللذين شرح فيهما مافي كتابه (الفصول والغايات) من الغريب ، وأماط اللثام عن كثير من المقاصد فيه . وكتاب (خادم الرسائل) الذي شرح فيه الغريب في رسائله . وكتاب (تفسير خطبة الفصيح) الذي شرح فيه ماجاء من الغريب في كتابه (خطبة الفصيح) وكتاب (لسان الصاهل والشاحج) الذي فسر فيه كتابه (الصاهل والشاحج) وكتاب (منار القائف) الذي فسر فيه مافي كتابه (القائف) . وكتاب تفسير (الهمزة والردف) .

شرحه المنظوم من كتب غيره :

وأما النوع الأول من القسم الثاني : فمثل كتاب (ذكرى حبيب) في تفسير شعر أبي تمام . وكتاب (الرياش المصطفى) الذي شرح فيه مواضع من (الحماسة الرياشية) . وكتاب (عبث الوليد) الذي شرح فيه وصحح مافي شعر البحتري وكتاب (اللامع العزيزي) في شرح غريب شعر المتنبي . و (نثر شواهد الجمهرة) .

شرحه المنثور من كتب غيره :

وأما النوع الثاني من القسم الثاني : فمثل كتاب (عون الجمل) في شرح شيء من كتاب (الجمل) . (وشرح كتاب سيبويه) وشرح (خطبة أدب الكاتب) .

بقية كتبه ورسائله :

وسترى في فهرست كتبه كثيراً من الكتب ، لم نتمكن من الاطلاع عليها ، لنعلم ماتشتمل عليه من الأغراض والمواضيع والشروح . وإذا قيست إلى مارأيناه من كتبه ، فإنها تكون طافحة بالشروح والتفاسير .

شرح الألفاظ خلال كلماته المنظومة :

ويضاف إلى ماتقدم ذكره ، أن أبا العلاء كان يتصدى خلال كلامه إلى شرح بعض الألفاظ العويصة ، سواء أكانت من كلامه أو كلام غيره ، ويعيّن المعنى المراد من اللفظ ، إذا كان مشتركا بين معنيين فأكثر ، أو كان محتملا لأكثر من معنى واحد ، إما بواسطة أداة التفسير ، أو ببيان ماتشتق منه الكلمة أو تجمع عليه أو بيان مفردها ، أو غير ذلك من الطرق التي تزيل الإبهام والغموض ، وهذا النوع وقع منه في نظمه ونثره .

أما في النظم ففي مثل قوله في (لزوم مالا يلزم) :

يَاثُلَّةً فِي غَفْلَةٍ وَأُوَيْسُهَا الـــقَرَنِيُّ مِثْلُ أُوَيْسِهَا أَيْ ذِيبِهَا(١)

وقوله :

فَلَا يُمْسِ فَخَّاراً مِنَ الفَخْرِ عَائِدٌ إِلَى عُنْصُرِ الفَخَّارِ لِلنَّفْعِ يُضْرَبُ(٢)

---

(١) اللزوميات هـ ص ٥١ والثلة : الجماعة الكثيرة من الضأن والمعزى .

(٢) اللزوميات هـ ص ٣١ .

وقوله :

وَفَوائِدُ الأَسْفَارِ جَمْعِ السِّفْرِ في الدُّ ... نْيا تَفُوقُ فَوائِدَ الأَسْفارِ[1]

وقوله :

نُوديتُ أَلْوَيْتَ فَانْزِلْ لا يُرادُ أَتى ... سَيْرِي لِوَى الرَّمْلِ بَلْ لِلْنَّبْتِ إِلْواءُ[2]

فإنه فسر في البيت الأول الأَوَيْسَ بالذئب بواسطة أي . وبيّن في البيت الثاني أن فَخّارا مشتقة من الفخر ، وهو المباهاة بالمكارم والمناقب من حسب ونسب وغيره ، وليست من الفخار الذي هو من الطين المشوي . وبيّن في البيت الثالث أن الأسفار جمع سِفْر بكسر فسكون وهو الكتاب ، لاجمع سَفَر بفتحتين وهو قطع المسافة .

شرحه الألفاظ خلال كلماته المنثورة :

وأما في النثر ، فقد وقع في كلامه ، ولكننا لم نر جميع رسائله وكتبه لنحكم عليها بما فيها ، وأكثر مارأينا ذلك في (رسالة الغفران) فإنه شرح فيها أكثر من مائة وأربعين كلمة ، وبين المراد منها واستشهد على بعض ذلك بكلام من يحتج بكلامه . وإيراد الألفاظ المفسّرة والمفسّرة يشغل فراغاً كبيراً لايحتمله هذا الكتاب ، وربما أورث القارىء مللًا وسآمة . ولذلك اكتفينا بذكر أكثر من مائة وأربعين كلمة من الكلمات التي شرحها أو فسرها أو عيّنها . وأشرنا إلى مواقعها في رسالة الغفران المطبوعة في مصر في مطبعه هندية بالموسكي سنة ١٣٢٥ هـ وسنة ١٩٠٧ م وضربنا صفحاً عن بعض الألفاظ ، توخياً للاختصار .

---

(١) اللزوميات ﻫ ص ١٦٢ .

(٢) اللزوميات ﻫ ص ٢٢ .

فمن هذه الألفاظ « الحماطة في صفحة ٥ » « الحضب الأسود ص ٦ » « ذات أنواط ص ٨ » « أباريق ص ٩ » .

الألفاظ التي غير بها قافية بيتي النمر وهي : « الكشء ، والصرب ، الكمت ، والبث ، والدج ، والمح ، والبح ، والرّح ، والجحّ ، والسّح ، والمخّ ، والثعد ، والشقذ ، والدبس ، والورش ، واللص ، والفرض ، والأقط ، والكظ ، والخلع ، والصبغ ، والرخف ، والعرق ، والربك أو اللبك ، والرخل ، والطرم ، والحوّ ، والوْره والأزْي » . من صفحة « ١٢ إلى ١٦ » « والحظلة ، والسحر ، والمصاب ص ١٦ » . « القار والدهل ص ١٧ » . « الحباق ص ١٩ » « أغار ، ص ٢١ » « الدقاري ، المطرّد ص ٢٩ » « مكبور ، يكب ص ٣٠ » « هَيّانك ص ٣١ » « زبش وسُهْمة وخَشْتَش ص ٣٥ » « الفرّاء ص ٤١ » . « المدفة الدهماء . المُجلنْجِل والمجَلجِل الزبرجد ص ٥٢ » « الحرصات ، الومد ، مهياف . النفأ . الأرمل . المضرم . اللواب . زجة ص ٥٤ــ٥٥ » « حَمت ص ٥٦ » « التوبة ، القل ص ٥٨ » « الأثاوي ، زقفونة ص ٦٠ » « القرقوف ص ٦١ » « شزراً وبتّاً ص ٦٤ » « العهاريس ، الأوفاض ، البجد ، كُوي وسري ص ٦٥ » « العفز ص ٦٨ » « برمّون . البواسن ص ٦٩ » « الاكرامن ص ٧٠ » « أميهة ص ٧١ » « هكبر ص ٧٣ » « بله ص ٧٤ » « عَضَل ص ٧٦ » « العفو ص ٧٨ » « هنيدة . هند ص ٨٢ » « صَرْد . محجّل ص ٨٦ » « نضيضة ص ٨٨ » « الحوم ص ٩٤ » « الخبير ص ٩٥ » « غرلا ، ص ٩٧ » « خزعال ص ١٠٠ » « متَمَكّم ص ١٠٠ » « هلهل الشعر ص ١٠٥ » « هلملت ص ١٠٥ » « النُضاضة ص ١٠٧ » « الصدوف ص ١١٢ » « الفُرهود ص ١١٨ » « الفيلق السيلق . المناجيب ص ١١٩ » « بجير ص ١٢١ » « الإلاقيّ ص ١٢٢ »

« كِناس ص ١٢٣ » « سادراً ، ص ١٢٥ » « شق التينة والتمرة ص١٢٧ » « أعظم ص ١٢٨ » « الموءة ص ١٢٩ » « التبوء ص١٣٣ » « الخزْبتَق ص ١٣٦ » « العذب ص ١٤٤ » « الـسُّواف ص١٤٧ » « ورَعْلا ، ص ١٥٧ » « ماغ ، ص١٥٨ » « قضيب ص ١٥٩ » « العَمر ص ١٦١ » « الجعفر ، ص ١٦٣ » « الماقط والمصادع ص ١٦٨ » « عواه . الحوف . الوقير ص ١٦٩ » « الإشاءة . العوانة والكافور ص ١٧٠ » « عرّف ص ١٧٤ » « الدار ص ١٧٦ » « البُهم ص ١٨٤ » « نئيشاً ص ١٨٥ » « لبتوك ص ١٨٧ » « تحلّ ص ١٨٨ » « السبَل . أنسَخ ص ١٩١ » « يسلأ ص ١٩٢ » « صنانير . عيمة . الرميّ ص ١٩٨ » « دينار النُّخة . الكاروكة ص ٢٠٠ » « القامة ٢٠١ » « معطار ص ٢٠٣ » .

وقد ذكر أبو العلاء في (ص ٢١ من الغفران) أبياتاً للأعشى فيها قوله :

. . . . أَغَارَ لَعَمْرِي فِي البِلَادِ وأَنْجَدَا (١)

وذكر ما قيل في هذا البيت واعتذر عن ذلك فقال : « وهو ـ أكمل الله زينة المحافل بحضوره ـ يعرف الأقوال في هذا البيت ، وإنما أذكرها لأنه قد يجوز أن يقرأ هذا الهذيان ناشىء لم يبلغه ذلك » .

واعتذر عن شرحه بعض الكلمات لابن القارح بقوله في (ص ١١٨) : « وهو ـ آنس الله الإقليم بقربه ـ أجلّ من أن يشرح له مثل ذلك ، وإنما أفرق من وقوع هذه الرسالة في يد غلام مترعرع ، ليس إلى الفهم

(١) عجز بيت من قصيدة الأعشى وصدره : « نبيّ يرى ما لا يرون وذكره . . . » انظر رسالة الغفران تحقيق بنت الشاطىء ط ١ ص ٦٢ .

بتسرع ، فتستعجم عليه اللفظة ، فيظل معها في مثل القيد ، لا يقدر على العجل ولا الرويد .(١) » .

وهذا اعتذار على سبيل التواضع ، والحق أن أبا العلاء كان يتعمد الشرح لإظهار مقدرته العلمية واللغوية ، وليفهم ابن القارح ما لا يعلمه منه ، كما كان يتعمد إيراد الألفاظ اللغوية ، لإظهار ذلك . وهذا سبيله في أكثر كتبه ، وهو ـ كما قلنا ـ غزير المادة ، فإذا لم يظهر معرفته بالمأنوس والوحشي منها لابن القارح وأمثاله فلمن يظهرها ؟ .

ومما تقدم ذكره يتضح لنا أن في (لزوم مالا يلزم) و (الفصول والغايات) و (رسالة الغفران) وغيرها من رسائله و (السقط) وما نقله التبريزي عنه في (شرح الحماسة) و (شرح السقط) من التفسير والتأويل والتوجيه والاشتقاق يكفي للدلالة على كثرة حفظه ، وسعة اطلاعه ، ومعرفته بأصول الكلمات وتخريجها وردها إلى أصولها ، ومقايستها بأشباهها ، ومعرفة الشاذ والنادر منها ، وفيها من النقد ومناقشة الشعراء وغيرهم والاستطراد إلى ذكر المسائل العلمية في فنون متعددة ، ما يدل على سعة علمه ، وبعد نظره ، وسلامة ذوقه ، واطلاعه على أسرار اللغة ودقائقها وغريبها . ولو وصلت الينا كتبه كلها لرأينا فيها أضعاف ما رأينا من الدلالة على بسطة في العلم واللغة ، وبراعة في الفهم والنقد . ولا ننكر ولا نستطيع أن ننكر ، ولا يستطيع غيرنا أن ينكر أن الشاعر لا يستطيع أن يصرف كل ما يعلمه من اللغة ومسائل العلم في شعره ، بل لا يمكنه أن يستخدم فيه ربع ما يعلمه ويحفظه .

---

(١) انظر الرسالة تحقيق بنت الشاطىء ط ١ ص ٣٠٧ .

تكلمه بالأعجمية

ولم يكن أبو العلاء يعرف غير العربية ، ولكنه استعمل بعض الكلمات من غيرها ، مما تكلم به الفصحاء قبله أو نقلوه . أو مما لم يتكلم به غيره . وإنما أوردها على سبيل التملح أو التظرف أو لغرض آخر لم نتبينه . فمن الأول كلمة « السور » في قوله في اللزوم [١] :

لاَ يُبْصِرُ القَوْمُ في مَغْنَاكَ غِسْلَ يَدٍ عَلى الطَّعامِ إلى أنْ يُرْفَعَ السُّورُ

ولفظ السور استعملها النبي صلى الله عليه وسلم في قوله لأصحابه : « قوموا فقد صنع جابر سورا » . قال ابن الأثير في (النهاية) :أي صنع طعاماً يدعو اليه الناس . وفي (اللسان) وغيره : صنع طعاماً دعا الناس اليه .

ومنه لفظه « البواسن » قال في (رسالة الغفران ص ٦٩) : « فيقول .. لمن حضره من أهل العلم : ما تسمى هذه السلال بالعربية ؟ فيرمون : أي يسكتون : ويقول بعضهم : هذه البواسن ، واحدتها باسنة . فيقول قائل : من ذكر هذا من أهل اللغة ؟ فيقول . . : قد ذكرها ابن درستويه [٢] وهو في الحضرة ، فيقول له الخليل : من أين جئت بهذا الحرف ؟ فيقول : وجدته في كتاب النضر بن شميل [٣] ، فيقول الخليل : أتحق

---

(١) اللزوميات هـ ص ١٢٤ .

(٢) هو عبد الله بن جعفر بن محمد بن درستويه من علماء اللغة والنحو صحب المبرد وله كتب كثيرة توفي سنة ٣٤٧ هـ (ج) .

(٣) النضر بن شميل بن خرشة البصري الأصل أخذ عن الخليل والعرب وأقام بالبادية أربعين عاماً وله كتب كثيرة توفي سنة ٢٠٤ هـ كما في البغية (ج) .

هذا يا نضر ؟ فيقول : قد التبس عليّ الأمر » اه . قال ابن الأثير في حديث ابن عباس : نزل آدم عليه السلام من الجنة بالباسنة ، قيل : إنها آلات الصناع ، وقيل : هي سكة الحرث ، وليس بعربي محض . وقال ابن بري : البواسن جمع باسنة سلال القفاع . وقال الميمني في ذيل ص ٥٦ [1] : « وذكر في الغفران لفظ « الباسنة » والجمع : بواسن بمعنى الإناء . وهي هندية فيما أحسب » فتأمل . وعلى كل حال فإن ظاهر كلام أبي العلاء إنكار هذه الكلمة .

ومن الثاني كلمة « آرا » في قوله في اللزوم [2] : .

إِذَا قِيلَ لَكَ اخْشَ اللهَ مَوْلاَكَ فَقُلْ آرا

وقد استعملها في (الفصول والغايات) وقال في ص ٤٢١ : « آرى بالفارسية نعم » . وكلمة « منش » و « أبي ضابط » . وقد ذكرنا ما يتعلق بهاتين الكلمتين في رحلته الى طرابلس واللاذقية وأنطاكية .

وقد رأيت في كلام أبي العلاء بعض كلمات لم أجدها فيما لديّ من كتب اللغة ، ولا فيما رأيته من الكلام الفصيح .

من ذلك : كلمة « زقفونة » فقد ذكرها في (رسالة الغفران ص ٧٠) في بيتين ، أحدهما للجحجلول الكفرطابي . والثاني لم يسم قائله . وفسرها بأن يطرح الإنسان يديه على كتفي الآخر ، ويمسك بيديه ويحمله وبطنه الى ظهره . ولم أرها في غير هذا المكان .

ومنه لفظ « التلاف » بمعنى التلف والهلاك . وقد ذكرها في (لزوم مالا يلزم) في قوله ص ١١١ ج ٢ :

---

(١) أبو العلاء وما اليه .

(٢) اللزوميات ﻫ ص ٢٨ .

تَلاَفَيْنَاهُمُ بِالقَوْلِ فِيهِ فَجَاءهُمُ التَّلاَفِي بِالتَّلاَفِ[1]

وقوله في ج ٢ ص ١٥٣ :

وَهَل أُلِمّ وِدَاداً رُمّ مِنْ شَعَثٍ وَقَدْ لَمَحْتُ تَلاَفِي فِي تَلاَفِيكَا[2]

وقوله في ج ٢ ص ٩٨ :

تَلاَفَ أَمْرَكَ مِنْ قَبْلِ التَّلاَفِ بِهِ فَغَايَةُ النَّاسِ فِي دُنْيَاهُمُ التَّلَفُ[3]

وقوله في (رسالة الغفران ص ١٢٣) : « ولا تلافي بعيد التلاف »

فان المراد من التلاف بحسب الظاهر التلف والهلاك ولم أر من ذكر ذلك .

ورأيت له كلمات انتقدها بعض العلماء ، ولها وجه صحيح . من ذلك لفظ الكل فقد قال في (اللزوم ج ١ ص ٢٧٩) :

لِكُلٍّ شِيمَةٌ وإِلَى التَّغَاضِي أُجِيءُ الكُلُّ مِنْ خُوصٍ وَخُزْرِ[4]

فإن الظاهر أنه يريد بالكل الاستغراق وعموم الأجزاء . وقد أنكر جمهور العلماء دخول « أل » على كل وبعض ، وأبو العلاء أنكر ذلك حيث يقول في (رسالة الغفران ص ١٥١) : « وكذلك قوله : الكل بإدخال الألف

---

(١) وانظر اللزوميات ه ص ٢٩٦ .
(٢) المصدر السابق ص ١٨٦ .
(٣) المصدر السابق ص ٢٩٠ .
(٤) المصدر السابق ص ١٥٤ .

واللام مكروه ، وكان أبو علي يجيزه ، ويدعي إجازته على سيبويه . فأما الكلام القديم فينتقد فيه الكل والبعض . وقد أنشدوا بيتاً لسحيم :

رَأيتُ الغَنِيَّ والفَقِيرَ كِلَيْهِمَا
إِلَى المَوْتِ يَأتِي المَوْتُ لِلكُلِّ مُعْمِدا[1] »

وقد أجازه غير أبي علي . قال في (اللسان) : وكل وبعض معرفتان ، ولم يجيء عن العرب بالألف واللام ، وهو جائز لأن فيهما معنى الإضافة ، أضفت أو لم تضف ، وهذا كلام الجوهري في (الصحاح) . وقال الأزهري : أجاز النحويون إدخال الألف واللام على بعض وكل إلا الأصمعي . وقال أبو حاتم : قلت للأصمعي : رأيت في كلام ابن المقفع : العلم كثير ، ولكن أخْذَ البعضِ خيرٌ من ترك الكل . فأنكره أشد الإنكار ، وقال : بعض وكل معرفتان ، لأنهما في نية الإضافة ، ومن هنا قال أبو علي الفارسي : هما معرفتان لأنهما في نية الإضافة . وقد نصبت العرب عنهما الحال ، فقالوا : مررت بكل قائما . ورأيت في (شرح نهج البلاغة ج ٣ ص ١٢٨) من حديث : فَعَلِيٌّ أمير الكل . وبعد هذا فالأرجح والأفصح ما قاله الأصمعي وأبو العلاء .

ومنه إدخال « أن » بعد كلمة « هب » في قوله في (السقط ج ٢ ص ٣٥) :

فَهَبْ أنِّي دَعَوْتُكَ لِلتَّصَافِي عَلَى غَيْرِ المُعَتَّقَةِ الشَّمُول[2]

---

(١) الرسالة تحقيق بنت الشاطيء ط ١ ص ٣٩٥ .
(٢) وانظر شروح السقط ق ٣ ص ١١٤٥ .

وقد أنكر ذلك جماعة ، وقالوا : « هب » فعل غير متصرف ، لا ماضي له ولا مستقبل ، فالصواب اتصال الضمير به ، فيقال : « هبني » وقال ابن بري : إذا كان بمعنى « احسب » جاز أن يدخل على أن ومعموليها ، فيسدان مسد مفعوليه ، على أنه قد سمع ، فلا مانع منه قياساً واستعمالاً . وفي (المغني) « هب » : بمعنى ظنّ ، الغالب تعديه الى صريح المفعولين . ووقوعه على أن وصلتها نادر . وقد روي : « هب أن أبانا كان حجرا ، ويروى كان حمارا » . وعلى كل فإن التعبير بالجواز وبالندرة يدل على أن ترك أن معه أفصح وأشيع .

ما لحنه فيه بعض العلماء :

وانتقد بعضهم قوله في (السقط ج ١ ص ٢٣) :

شَجَا رَكْباً وأفْراساً وَإِبْلاً ... وَزَادَ فَكَادَ أَنْ يَشْجُو الرِّحالاَ[١]

لأنه لم يظهر النصب على واو « يشجو » وجعله مقدراً للضرورة . وقد قدمنا الكلام في هذا ، وفي بيت (لزوم ما لا يلزم) السابق . ونزيد هنا أن الرضي قال في (شرح الكافية ج ٢ ص ٢٣٠) : « ويقدر لأجل الضرورة كثيراً نصب الواو والياء » . اهـ .

وقد وقع في كلام الفصحاء نحو من هذا كقول الأعشى :

فَآلَيْتُ لاَ أَرْثِي لَهَا مِنْ كَلاَلَةٍ ... وَلاَ مِنْ حفًى حَتّى تُلاَقِي مُحَمَّدَا[٢]

---

(١) وانظر العروح ق ١ ص ٧٩

(٢) ديوانه ــ تحقيق الدكتور . م. محمد حسين ــ ص ١٣٥ وفيه : « ..حتى تزور محمدا »

وقول عامر بن الطفيل المتقدم :

. . . . أَبَى اللهُ أَنْ أَسْمُوَ بِأُمٍّ وَلَا أَبِ[1]

وقول كعب بن زهير :

أَرْجُو وآمُلُ أَنْ تَدْنُو مَوَدَّتُها وَمَا إِخَالُ لَدَيْنا مِنْكَ تَنْوِيلُ[2]

وقد قال ابن هشام في شرح هذه القصيدة بانت سعاد . . ص ٤٣ : إنه « يحتمل وجهين : أحدهما إهمال أن المصدرية ، حملاً لها على ما المصدرية . . والثاني إجراء الفتحة على الواو مجرى الضمة للضرورة ، قال المبرد : وهو من أحسن الضرورات » . وقد وقع مثل هذا في كلام المتنبي ، كقوله :

إِذَا شَاءَ أَنْ يَلْهُوَ بِلِحْيَةِ أَحْمَقٍ أَرَاهُ غُبَارِي ثُمَّ قَالَ لَهُ الْحَقِ[3]

ولحّن فريق من النحاة أبا العلاء في قوله في (السقط ج ١ ص ٢٨) :

يُذِيبُ الرُّعْبُ مِنْهُ كُلَّ عَضْبٍ فَلَوْلَا الْغِمْدُ يُمْسِكُهُ لَسَالَا[4]

قالوا : إنه ذكر خبر المبتدأ الواقع بعد لولا ، وإنما يجب حذفه . وقد تعرض لهذه المسألة ابن هشام في (المغني) في الكلام على « لولا » والصفدي في (الغيث المسجم) وابن مالك في (شرح التسهيل) وابن عقيل في (شرح الألفية) والعيني في (الشواهد الكبرى) والسيوطي في (همع الهوامع) والخضري في (حاشيته على ابن عقيل) .

---

(١) صدره : « فما سودتني عامر عن قرابة » انظر ديوانه ص ٩٣ طبع لايدن .

(٢) ديوانه ص ٩ صنعة السكري طبع دار الكتب المصرية .

(٣) العرف الطيب ٢ : ٢٦٢ .

(٤) انظر الضروح ق ١ ص ١٠٤ .

والذي اختاره المحققون في هذه المسألة ، أن خبر المبتدأ الذي بعد لولا إذا كان كوناً عاماً وجب حذفه . وإذا كان كوناً مقيداً ، فإن لم يدل عليه دليل وجب ذكره ، وإن دل عليه دليل من نفس الكلام جاز إثباته وحذفه . ومنه بيت أبي العلاء ، فإن شأن الغمد إمساك السيف ، وعلى هذا لا يكون البيت لحنا . على أنه يجوز أن يكون « يمسكه » بدل اشتمال والخبر محذوف . وخلاصة القول ، ان البيت بريء من اللحن ، وإن أطال القوم القول فيه .

ولعل قائلاً ينكر عليه في اللزوم :

سَعَوْا لِفَسَادِ الدِّينِ فِي كُلِّ مَسْجِدٍ فَمَا بَالُهُمْ لاَ يُسْتَضَامُوا وَيُدْفَعُوا[1]

لأنه حذف النون من « يستضاموا ويدفعوا » إن لم تكن الرواية : لم يستضاموا . وحذفها في مثل هذا الموضع نادر .

ولقائل أن ينتقد قول أبي العلاء في وصف فرس :

كَأَنَّ أُذْنَيْهِ أَعْطَتْ قَلْبَهُ خَبَراً عَنِ السَّمَاءِ بِمَا يَلْقَى مِنَ الغِيَرِ[2]

وكان حقه أن يقول : كأن أذنيه أعطتا . وقد قال التبريزي : « قال أبو العلاء : الاثنان عندهم جمع ، فلذلك جاز أن يخبر عنهما بإخبار الجمع . وفي الكتاب العزيز ﴿ قَالُوا لاَ تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ [3] ﴾ . وقال الفرزدق :

---

(١) اللزوميات هـ س ٢٨١ وفيها : « لم يستضاموا ... » .

(٢) شروح سقط الزند : ق ١ ص ١٤٦ .

(٣) سورة « ص » الآية ٢٢ .

فَلَوْ بَخِلَتْ يَدايَ بِهَا وَضَنَّتْ   لَكَانَ لَهَا عَلَى القَدَرِ الخِيارُ»[1]

وقال سلمى بن ربيعة :

وَكَأَنَّ فِي العَيْنَيْنِ حَبَّ قَرَنْفُلٍ   أَوْ سُنْبُلاً كُحِلَتْ بِهِ فَانْهَلَّتِ[2]

وقال صدر الأفاضل الخوارزمي : « فإن قلت : كيف لم يبرز الضمير في « أعطت » مع إسناده الى ضمير الاثنين ؟ قلت : إما لأنه قد نزل العضوين منزلة عضو واحد لأن المقصود بهما منفعة واحدة . . . وإما لأنه قد عامل المثنى معاملة الجمع »[3] . واستشهد لقوله في كلا القسمين .

ولابن الشجري في أماليه كلام مفيد في هذا الباب . وقد نقله صاحب (خزانة الأدب ج ٣ ص ٣٧٦) ونقل عن أبي عمرو : إذا كان الاثنان لا يكاد أحدهما ينفرد من الآخر ، مثل اليدين والرجلين والخفين فإن تقدم مثناه جاز لك في الشعر والكلام أن توحد صفته ، فتقول : خفان جديد وجديدان ، وعينان ضخمة وضخمتان ، لأن الواحد يدل على صاحبه إذا كان لا يفارقه .

وكلام أبي عمرو يدل على الجواز في السعة . وقالوا في قول المتنبي :

. . . .   وَعَيْنَايَ فِي رَوْضٍ مِنَ الحُسْنِ تَرْتَعُ[4]

---

(١) شروح سقط الزند : ق ١ ص ١٤٦ .

(٢) المصدر السابق ص ١٤٧

(٣) المصدر السابق ص ١٤٦

(٤) صدره : « حشاي على جمر ذكيّ من الهوى » وهو البيت الثالث من قصيدة قالها في صباه يمدح علي بن أحمد الطائي ومطلعها :

حشاشة نفس ودعت يوم ودعوا   فلم أدر أيّ الظاعنين أشيّعُ

انظر العرف الطيب ١/٢٤

دليل على جواز ما تقدم في السعة لا في مقام الضرورة فقط ، لأنه يمكنه أن يقول . « وعيني في روض » بدلاً من « وعيناي » .

وما ذكرناه عن أبي العلاء نفسه ، وعن أبي عمرو ، وما أوردناه من الشواهد أو أحلنا عليه ، دليل على أن قول أبي العلاء صحيح لا غبار عليه .

وانتقد قول أبي العلاء :

تَخُبُّ بِكَ الجِيَادُ كَأَنَّ جَوْناً　　عَلَى لَبَّاتِهِنَّ الأرْجُوَانُ (١)

لأنه جعل « جونا » اسماً لكأن ، وهو نكرة ، و « الأرجوان » خبراً لها ، وهو معرفة ، والقياس على عكس ذلك . وإيضاح هذا أن اسم كأن وأخواتها حكمه حكم المبتدأ ، فيجب أن يكون معرفة ، لأنه محكوم عليه ، والمحكوم عليه لابد من تعيينه أو تخصيصه بمسوغ ، لأن الحكم على المجهول المطلق لايفيد السامع شيئاً ، بل يورثه حيرة ، فينفر عن الإصغاء لحكمه المذكور بعده .

وقد وقع مثل هذا في مواطن من شعر أبي العلاء ، كقوله :

مُضَمَّخاً يَنْظُرُ في عِطْفِهِ　　كَأَنَّ مِسْكاً لَوْنُهُ الأسْحَمُ (٢)

وقوله :

كَأَنَّ حَرَاماً أَنْ تُفَارِقَ صَارِماً　　يَكُونُ لِما أَضْمَرْتَ أَوَّلَ فَاعِلِ (٣)

---

(١) شروح سقط الزند : ق ١ ص ٢٠٠

(٢) شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٨٥٤

(٣) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١٠٨٣

ووقع نظيره أيضاً في كلام الصلتان :

أَرَى الْخَطَفَى بَذَّ الفَرَزْدَقَ شِعْرُهُ ... ولٰكِنَّ خَيْراً مِنْ كُلَيْبٍ مُجاشِعُ[1]

وفي قول الفرزدق :

وَإِنَّ حَرَاماً أَنْ أَسُبَّ مُقاعِساً ... بآبائي الشُّمِّ الكِرَامِ الخَضَارِمِ[2]

وقد اعتذر بعض العلماء عن المعري بأن لفظ « جوناً » نكرة موصوف بقوله على لباتهن ، وهو ليس بقوي . والحق أن القياس أرجح وأفصح ، وإن وقع في شعر الفرزدق والصلتان .

ويجوز أن يعترض على قوله :

أَشَحْنَ وَقَدْ أَقَمْنَ عَلَى وِفَازٍ ... ثَلاثَ حَنَادِسٍ يَرْعَيْنَ شِيحَا[3]

بأنه حذف التاء من « ثلاث » ، وهي مضافة إلى « حنادس » جمع حندس ، والقاعدة المشهورة أن العدد المضاف يؤنث مع المعدود المذكر ، ويذكر مع المعدود المؤنث . فنقول : ثلاثة رجال ، وأربع نسوة ؛ وأن المعتبر في ذلك تذكير الواحد وتأنيثه ، وإن كان الجمع بخلاف ذلك . فنقول : « ثلاثة حمّامات » بالتاء ، على القول المختار . « وثلاث هنود » بغير تاء ، تبعاً لتذكير المفرد في الأول ، وتأنيثه في الثاني . وقد قال بعض الشراح : إنه حذف التاء لأن الحنادس ليال ، وهي ليلة الثاني والعشرين ، والثالث والعشرين ، والرابع والعشرين . وسميت « حنادس » لشدة ظلمتها . وهذا الجواب غير مرضيّ .

---

(١) خزانة الأدب ٣٠٦/١ طبع بولاق .

(٢) ديوانه ٨٤٤/٢ تحقيق الصاوي ، وفي رواية : «وليس بعدل إن سببت » .

(٣) شروح سقط الزند : ق ١ ص ٢٦٢ ، والوِفاز : النبلة واحدها وَفْز .

وكذلك قوله (١) :

فَلَوْلاَ اللهُ قَالَ النَّاسُ أَضْحَتْ ثَمَانِيَــــةً بِهِ السَّبْعُ الشِّدادُ

وقبله :

بَنَى مِنْ جَوْهَرِ العَلْيَاءِ بَيْتًا كَـأَنَّ النَّيِّرَاتِ لَهُ عِمَادُ
إذا شَمْسُ الضُّحَى نَظَرَتْ إِلَيْهِ أَقَرَّتْ أَنَّ حُلَّتَهَا حِـــدَادُ

أدخل التاء على « ثمانية » مع أن المعدود « السبع الشداد » وهي مؤنثة ، فالقياس يقضي بأن يقول : « ثمانيا » . وأجاب بعض العلماء أنه أراد بالسبع الشداد السموات ، وهي مؤنثة ، ولكنه جعل من جملتها البيت — الذي ذكره في البيت السابق — وهو مذكر ، فغلب المذكر على المؤنث ، وزاد التبريزي على ذلك فقال : « ولو كان عندك سبع من النســاء ورجل ثامن لقلت : عندي ثمـانية بالهاء (٢) » . وفي هذا الجواب نظر .

وكذلك يجوز أن يعترض على قوله في (لزوم مالا يلزم) :

. . . . خَيْرٌ لِنَفْسِكَ مِن ثَلاَثَةِ أَكْؤُسِ (٣)

فإنه أدخل التاء على « ثلاثة » ، مع أن المعدود مؤنث مفرداً وجمعاً ، وهو خلاف المشهور . ويمكن الجواب عن هذا وما قبله ، بأن السيوطي

---

(١) شروح سقط الزند : ق ١ ص ٢٩٢ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) عجز بيت هو مطلع لزومية وصدره : « حِبٌّ ثلاث في حِياً عِلقٍ ... » اللزوميات ٥ ص ٣٠٣ .

نقل عن ابن هشام وغيره أن المعدود إذا كان اسما وكان لفظه مذكرا ومعناه مؤنثاً يجوز فيه وجهان . وعبارة التسهيل : وربما أوّل مذكر بمؤنث ، ومؤنث بمذكر ، فجيء بالعدد على حسب التأويل . ومثّل الدماميني الأول بنحو « ثلاث شخوص » تريد نسوة « وعشر أبطن » تريد قبائل . والثاني بنحو « ثلاثة أنفس » أي أشخاص و « تسعة وقائع » أي مشاهد .

وكذلك قوله :

إِنْ كُنْتَ مُدَّعِياً مَوَدَّةَ زَيْنَبٍ فَاسْكُبْ دُمُوعَكَ يَا غَمَامُ وَنَسْكُبِ[1]

قيل : إنه يريد « ولنسكب » فكسر الباء لاجتماع الساكنين ، هي وياء الاطلاق . ويرد هذا أن الكسر حركة حرف الروي ، وياء الإطلاق لا يتصور حدوثها قبل كسر ما قبلها .

وقيل : إنه منجزم بالعطف على محل قوله « فاسكب » لأن محله الجزم ، من حيث إنه في مقام الجزاء لا من حيث إنه أمر . ونظيره قوله تعالى : ﴿ مَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرْهُم[2] ﴾ . بالجزم وهو معطوف على محل قوله : « فَلَا هَادِيَ لَهُ » .

ويحتمل أن يكون انجزامه على إضمار لام الأمر ، ونظيره في هذا الوجه قول متمّم بن نويرة أنشده سيبويه (ج ١ ص ٤٠٩)[3] :

---

(١) شروح سقط الزند ق ٣ ص ١١٢٤ .

(٢) سورة الأعراف الآية : ١٨٦ . وقرئت « يذرهم » بالضم أيضاً .

(٣) انظر الكتاب

عَلَى مِثْلِ أَصحَابِ البَعُوضَةِ فَاخْمُشِي

لكِ الوَيلُ حُرَّ الوَجْهِ أوْ يَبْكِ مَنْ بَكَى

أراد « ليبك »

ومثله قول مدثار بن شيبان النمري على قول الأصمعي ، كما قال ابن السكيت في (القلب والإبدال ص ١٩) :

فَقُلْتُ ادْعِي وأَدْعُ فَإِنَّ أَنْدَى   لِصَوْتٍ أَنْ يُنَادِيَ دَاعِيانِ

ويدل على أنه يجوز إضمار لام الأمر في الشعر ما أنشده سيبويه (ج ١ ص ٤٠٨)[١] :

مُحَمَّدُ تَفْدِ نَفْسَكَ كُلُّ نَفْسٍ   إِذَا مَا خِفْتَ مِنْ شَيْءٍ تَبَالاَ

أراد : « لتفد » .

وكذلك قوله في الدرعيات :

أَعِيدِي إِلَيْهَا نَظْرَةً لاَمُرِيـــدَةً

لَهَا البَيْعَ واعْصِي الخَادِعِي لَكِ بِالمَالِ[٢]

قال بعضهم : حذف النون من « الخادعي » كما حذفت من قوله تعالى : ﴿ والمُقِيمِي الصَّلاةِ[٣] ﴾ بالنصب. على أن حذفَ النون هنا أوجه ، لأن اللام

---

(١) الكتاب

(٢) شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٨٧٢ وفيها : « الخادعي لكِ بالمال » .

(٣) سورة الحج الآية ٣٥ وتمامها : « الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمي الصلاة ومما رزقناهم ينفقون » .

مع فصلها بين المضاف والمضاف إليه من حيث الصورة ، مقررة للاضافة من حيث المعنى . ولذلك أعيد الألف في قولك : « لا أبالك » .

وكذلك قوله :

فَأَقسِمُ مَا طُيُورُ الجَوِّ سُحماً كَهُنَّ وَلاَ نَعَامُ الدَّوِّ رُوحا (١)

فقد أدخل الكاف على « هنّ » ، وذلك لا يجوز في السعة عند الأكثر ، وقد يرتكبه الشعراء في الشعر ضرورة . وذلك أنهم شبهوا دخول الكاف على الهاء بدخول اللام والباء في قولهم : « له وبه » قال العجاج :

وأُمُّ أَوْعَالٍ كَهَا أَوْ أَقْرَبا

وقال :

فَلا تَرَى بَعْلاً وَلاَ حَلاَئِلا كَهُ ولاَ كَهُنَّ إِلا حاظِلاَ (٢)

وقد اختلف العلماء في ذلك ، فمنهم من أجاز « أنا كك » « وأنت كي » وزعَم أنه ورد في كلام العرب ، ومنهم من نفى صحة ذلك ، وجعله من باب الضرورة فقط ، ولا يجيزه في السعة .

وفيه كلام مطول مذكور في (شروح السقط) وفي (خزانة الأدب) للبغدادي (ج ٤ ص ٢٧٤ ، ٢٧٧) .

---

(١) شروح سقط الزند : ق ١ ص ٢٦٥ ، والدوّ : صحراء ملساء لا علم بها ، والروح : جمع أروح وروحاء ، والرَّوَح : تباعد ما بين الرجلين .

(٢) مجموع أشعار العرب لألوارد البروسي ١٢٨/٣ طبع برلين وفيه : « كَهُوَ . . » .

العروض والقوافي

ضنت علينا الأيام بمعرفة الزمان والمكان اللذين درس فيها أبو العلاء هذين العلمين : العروض والقوافي ، وبمعرفة شيوخه الذين تخرج بهم فيهما ، وبمعرفة جميع ما قرأه من الكتب المصنفة فيهما . ومما لاشك فيه ، أنه اطلع على ما كتبه الخليل بن أحمد ، والأخفش، والجرمي،ويونس ، والزجّاجي، والفراء ، وخلف بن حيان ، وأبو عبيد القاسم بن سلام ، وأبو بكر بن السراج ، والزجّاج ، وأبو الحسن العروضي .

والدليل على ذلك أنه نقل في كتبه ورسائله عن هؤلاء ، وانتقد بعض أقوالهم ، وأيد بعضاً آخر ، ورجح قولاً على قول ورأياً على رأي .

وسيأتي أن له كتباً في هذين العلمين ، ولكننا لم نطلع عليها . وكل ما أمكنتنا معرفته من كلامه المتعلق بالعروض والقوافي أو بأحدهما ما يأتي :

١ً — أنه صدر ديوانه (لزوم ما لا يلزم) بمقدمة ممتعة ، استوفى فيها معظم القول على حروف القافية ، وحركاتها وعيوبها ، وجمع فيها من أحكام القوافي ، المسموعة والمقيسة أو المصنوعة ما لم نره لغيره .

٢ً — ذكر في (الفصول والغايات ص ٢١٢ و ٣١٨ و ٤٤٦) من مسائل العروض شيئاً كثيراً .

٣ً — ذكر في (رسالة الإغريض ص ٣٧ ، ٣٨) ، وفي (رسالته الى القاضي أبي الطيب طاهر بن عبدالله ص ١٠٠) وفي (رسالته الى أبي الحسين أحمد بن عثمان النكتي البصري ص ١٠٩) [1] كثيراً من أنواع الزّحاف وغيره من مسائل هذا العلم .

---

(١) انظر الرسائل الثلاث في رسائل أبي العلاء المعري لشاهين عطية .

٤ ـ استعمل كثيراً من مسائل هذين العلمين وأحكامها ومصطلحاتها في نثره وشعره ، في باب التورية والتشبيه ، والكناية ، وغيرها من أبواب البيان ، بصورة تدل على قدرة وبراعة ، من ذلك قوله في (سقط الزند ج ٢ ص ٨٥) :

إِذَا الْمَنْهُوكُ فُهتَ بِهِ انْتِصَاراً لَهُ مِن غَيْرِهِ فَضَلَ الطَّوِيلاَ(١)

وقوله في اللزوم :

كَالْبَيْتِ أُفْرِدَ لاَ إِيطَاءٌ يُدْرِكُهُ وَلاَ سِنَادٌ وَلاَ فِي اللَّفْظِ إِقْوَاءُ(٢)

. . .

خَبَرَ الحَيَاةَ شُرُورَهَا وَسُرُورَهَا مَنْ عَاشَ عِدَّةَ أَوَّلِ الْمُتَقَارِبِ(٣)

. . .

وَأَكْرَمَنِي عَلَى عَيْبِي رِجَالٌ كَمَا بُنِيَ القَرِيضُ عَلَى الزِّحَافِ(٤)

ويمكننا أن نستنتج من كلامه في المواطن المذكورة وغيرها أموراً منها :

١ ـ أنه كان شديد الاستقراء ، واسع الاطلاع على كلام القوم ، عارفاً بما يوافق كلام الأئمة وما يخالفه .

٢ ـ أنه لا يتابع المتقدمين في كل ما قالوه ، وإنما كان يناقش أقوالهم ، ويرجح بعضها على بعض .

---

(١) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١٣٩٥ ، والمنهوك من الشعر : أنصره ، والطويل : أطول القريض .

(٢) اللزوميات ﻫ ص ٢٢ .

(٣) اللزوميات ﻫ ص ٥٢ .

(٤) اللزوميات ﻫ ص ٢٩٦ وفيها : « كما روي القريض ... » .

٣ — أنه كان يعوّل على استقرائه ، فيحكم أحكاماً عامة .

٤ — أنه يعتمد على نفسه وعلمه ، فيجيز كثيراً مما منعه القوم ، ويمنع كثيراً مما جوزوه .

٥ — أنه ابتكر تقسيماً لبعض أحكام هذين العلمين ولقوافي الشعر كله .

وهذه أمثلة توضح ما ذكرناه :

قال في (الفصول والغايات ص ٢١٢) : « والبسيط والطويل . . عليهما جمهور شعر العرب . . . والطبقة الأولى ، امرؤ القيس ، وزهير ، والنابغة ، والأعشى في بعض الروايات ، ليس في ديوان أحد منهم مديد . . وجاءت قصيدة لطرفة ، وأبيات فاردة لمهلهل . . ، وتوجد هذه الأوزان القصار في أشعار المكيين والمدنيين ؛ كعمر بن أبي ربيعة . ووضّاح اليمن ، والعرجي ، ويشاكلهم عدي بن زيد » .

وقال في (ص ٣١٨) : « وإنما يعرف الجزل في شعر العرب لجزء مفرد في البيت . . . والوقص ... [إنما] تجيء العرب به في جزء واحد [من البيت] ، فإن زاد ففي جزءين » . وقد رد في هذا الموضع على الخليل . وغلّط ابن دريد في تسمية مثل هذا خَرْماً .

وذكر في (ص ٤٤٦) : أن « الإغرام دون التضمين » . ثم قال : « وكان بعض المتأخرين يزعم أن الإغرام أن يتم وزن البيت ولا تتم الكلمة ، وهذا لا يعرف في شعر العرب ، وإنما يتعمده المحدَثون » . وذكر له مثالا .

وفي مقدمة (لزوم مالا يلزم) : « أكثر ما أُسس من أشعار العرب إنما يكون بعد ألفه كسرة كحامل ... [1] » .

---

(١) انظر مقدمة اللزوميات الطبعة الهندية ص ١ — ١٩ .

وفي (رســائله ص ١١٣) : « العقل مفقود في شعر العرب ، والنقص قليل » .

وقال في (لزوم مالا يلزم ص ٣١) : « ما روي من شعر امرىء القيس لا نعلم فيه شيئاً على الطاء والظاء ولا الشين ولا الخاء ، وكذلك ديوان النابغة ليس فيه روي بني على الصاد ولا الضاد . .وأبو عبادة . . لا أعلم فيما روي له شيئاً على الخاء ولا العين ولا التاء . . » وقال في (ص١٢) : « فهذا رأي المتقدمين ، ولا يمتنع في حكم الغريزة أن تكون الألف تأسيسا ، وبعدها كلمة ليس فيها إضمار . . فلو جاءت بعد ذلك « الخضارم » ، و « الأكارم » و « دائم » ونحوها لكان عندي غير قبيح . . . [1] » .

وفي (ص ٢٣) : « ولم يفرقوا بين المقيد والمطلق في مجيء الواو المضموم ما قبلها . . . ، وأنا أفرق بين المطلق والمقيد وأعده في المقيد أشد .. »

وفي (ص ٢٥) : « ولم يفرقوا بين المقيد والمجرّد ، والمقيد المؤسس ، وهو عندي في المؤسس أقبح [2] » .

وفي (ص ١٧) ذكر منازل الروي ، والتأسيس ، والردف ، والوصل ، والخروج .

وفي (ص ٢٦) ذكر منازل الحركات بأسلوب جامع مانع .

وفي (ص ٣٩) قسم القوافي إلى : ذُلُل ، ونُفُر ، وحُوش .

وعثرت على رسالة خطية استوفى فيها ذكر البحور والضروب التي نظم فيها المتنبي مع الزحافات وأقسام القوافي وستأتي .

---

(١) انظر مقدمة اللزوميات الطبعة الهندية ١ ـ ١٩ .

(٢) المصدر السابق .

وذكر التبريزي في (شرح حماسة أبي تمام ج ٢ ص ٢٨٦) أن أبا العلاء أحصى ماوضعه أبو تمام من أجناس الشعر الخمسة عشر ، وما فاته منها ، وذكر الضروب والقوافي والأوزان الشاذة فراجعه .

وما في هذه المواطن من مباحث هذا العلم لايعرف قدره إلا بالاطلاع عليه كله ، ولولا خشية الإطالة لأوردناه بحذافيره .

العلوم غير الشرعية واللغوية

يتجلى للباحث ، فيما وصل الينا من كتب أبي العلاء وآثاره القليلة ، أنه كان ملماً بعلوم أخرى غير علوم الدين واللسان ، كالرياضيات ، والطبيعيات ، والمنطق ، والفلسفة . وأن مافي « لزوم مالا يلزم » من الإشارات إلى ما اصطلح عليه أهل هذه العلوم برهان كافٍ في الدلالة على أنه ضرب فيها بسهم وافر . ولا يبعد أن يكون في كتبه التي لم يتح لنا الاطلاع عليها مايدل على سعة اطلاعه ، وشدة اضطلاعه بتلك العلوم ، وإنك لتجد في كلامه إشارات إلى مايتعلق بعلم الحساب مثل قوله (١) :

وَتَدَانِي الأَيَّامِ يُحْدِثُ نَقْصاً ... وَازْدِيَاداً والجِسْمُ لِلنَّفْسِ تِبْعُ
خَمْسَةٌ فِي نَظِيرِهَا خَمْسُ خَمْسَا ... تٍ تَنَمَّتْ وَالنِّصْفُ فِي النِّصْفِ رُبْعُ

وقد أعاد هذا المعنى ، وأجاد فيه بقوله (٢) :

سَمَا نَفَرٌ ضَرْبَ المِئِينَ وَلَمْ أَزَلْ ... بِحَمْدِكَ مِثْلَ الكَسْرِ يُضْرَبُ فِي الكَسْرِ

---

(١) اللزوميات ﻫ ص ٢٨٤ .

(٢) اللزوميات ﻫ ص ١٤٦ .

وإلى مايتعلق بالهندسة مثل قوله (١) :

خطُّ استِواءٍ بَدا عن نُقطةٍ عجبٍ أفنَتْ خُطوطاً وأقلاماً وكُتّابا

. . .

وقوله (٢) :

ظلُّوا كدائرةٍ تحوَّلَ بعضُها من بعضِها فجميعُها منكوسُ

. . .

وقوله (٣) :

بدتْ كُرةٌ كأنَّ الوقتَ لاهٍ بها عزَّ المُهيمنُ إذْ كراها

وإشارات إلى مايتعلق بالمنطق والفلسفة كقوله (٤) :

أرى الحيَّ جِنساً ظلَّ يشملُ عالَمي بأنواعِه لا بورِكَ النَّوعُ والجِنسُ

. . .

وقوله (٥) :

جرتِ القضايا في الأنامِ وأُمضِيَتْ صُدُفاً بأسوارٍ ولا أسوارِ

. . .

---

(١) اللزوميات ه ص ٤٠ .

(٢) اللزوميات ه ص ٢٩٥ وفيها : « فجميعها معكوس » .

(٣) اللزوميات ه ص ٣٣٨ .

(٤) اللزوميات ه ص ٣٠٩ .

(٥) اللزوميات ه ص ١٥٩ .

وقوله (١) :

هُمَا نَقِيضَانِ لا يَستَجْمِعان به والظبي غيرُ مقيمٍ في ذَرَى الأَسَدِ

• • •

وقوله (٢) :

أرَى جَوْهراً حلّ فِيهِ عَرَضْ تَبارَكَ خالِقُه مَا الغَرَضْ

• • •

وقوله (٣) :

والعُمْرُ مَقْسُومٌ عَلَى الأَكْوانِ بِالْـ ـجُزْء الأقلّ وَلَيْسَ بالأعْشَارِ

• • •

وقوله (٤) :

يَزْعُمُ أنّ العَشْرَ مَا نِصْفُها خَمْسٌ وأنّ الجِسْمَ لا في مَكَانْ

وفي بعض هذه الأبيات إشارات إلى أكثر من علم واحد ، وقال في (الفصول والغايات ص ٣٩) : « [فتعالى اللهُ عِدَّةَ الخنادِسِ] ، إذا قُسِمَ نُقَطاً ، والنقطة أقلُّ مَايكون ، وسُبْحانَ اللهِ زِنَةَ الأشياءِ ، والشيءُ جُزْء لا يَتجزّأ ، تُقْسَمُ عَلى ذَلِكَ مِياهُ البَحْرِ ، ورِمالُ الأرْضِ ، وثِقالُ الهِضَابِ » .

---

(١) اللزوميات هـ ص ١٠٨ .

(٢) اللزوميات هـ ص ٢٨٠ .

(٣) اللزوميات هـ ص ١٦٢ .

(٤) اللزوميات هـ ص ٢٨٥ . جا (٥)

وفي شعـره مايشعر باطلاعه على علوم مختلفة ، بحسب ما اصطلح المتقدمون فيها ، كقوله (١) :

حَيَوانٌ وَجامِدٌ غَيْرُ نامٍ   وَنَبَاتٌ لَهُ بِسُقْيَا نَمَاء

• • •

وقوله (٢) :

والشَّرُّ في حَيوانِ الأَرْضِ مُفْتَرِقٌ   والإِنسُ كَالوَحْشِ مِنْ ضَارٍ ومُبْتَقِلِ

• • •

وقوله (٣) :

وَالخَيْرُ مِنْ زِئْبَقٍ تَشَكُّلُه   وَإِنَّمَا يَرْقُبُ امْرُؤٌ غَيْرَهْ

• • •

وقوله (٤) :

الخَلْقُ مِنْ أَرْبَعٍ مُجَمَّعَةٍ   نَارٍ وَمَاءٍ وَتُرْبَةٍ وَهَوَا

• • •

وقوله (٥) :

وَالخَيْرُ فِي الأَرْضِ كَالأُتْرُجِّ مَنْبَتُهُ   شَاكٍ وأُلْزِمَ تَدْخِيناً بِكِبْرِيت

---

(١) اللزوميات هـ س ٣٤ .

(٢) اللزوميات هـ س ٢١٤ .

(٣) اللزوميات هـ س ١٤٤ .

(٤) اللزوميات هـ س ٣٤٢ .

(٥) اللزوميات هـ س ٦٦ .

وقوله (١) :

عَجِبْتُ لِطَيْرٍ بِلُطْفِ المَلِيـــكِ مَخْلُوقَةٍ لِإصْلاحِ الثَّمَرْ
تُثَقِّبُهُ مُولَعـاتٍ بِهِ وَلَـوْ لَـمْ تَزُرْهُ تَهاوَى فَمَرْ
تَحُلُّ مَحلاً لَهَا ثَانِيــاً وَتَتْرُكُ مَنْزِلَها قَدْ دَمَرْ

• • •

وقوله (٢) :

فِي التُّرْبِ والصَّخْرِ والثِّمارِ وفي الـــسَّماءِ نُفُوسٌ يَصُوغُها القَدَرُ
فَصَادِرٌ لا وُرُودَ يُدْرِكُهُ وَوَارِدٌ لا يَنَالُهُ الصَّدَرُ

• • •

وقوله (٣) :

والطُّولُ في وُسْطَى البَنَانِ لِعِلَّةٍ كَالنَّقْصِ في إِبْهَامِهَا والخِنْصِرِ

• • •

وقوله (٤) :

والنَّاسُ بِالنَّاسِ مِنْ حَضَرٍ وبَادِيَةٍ بَعْضٌ لِبَعْضٍ وإِنْ لَمْ يَشْعُرُوا خَدَمُ

---

(١) اللزوميات ﻫ س ١٧٠

(٢) اللزوميات ﻫ س ١٣٥ وفيها : « . . لا يناله صدر » .

(٣) اللزوميات ﻫ س ١٥٨ .

(٤) اللزوميات ﻫ س ٢٣٣ .

وَكُلُّ عُضْوٍ لأَمْرٍ مَا يُمارِسُهُ
لاَ مَشْيَ لِلْكَفِّ بَلْ تَمْشِي بِكَ القَدَمُ

• • •

وقوله (١) :

أَمَا يَرَى الإِنْسَانُ فِي نَفْسِهِ آيَاتِ رَبٍّ كُلُّهَا غُرُّ
فِي فَمِهِ عَذْبٌ وَفِي عَيْنِهِ مِلْحٌ وَفِي مِسْمَعِهِ مُرُّ

• • •

وقوله (٢) :

وفِي كُلِّ شَرٍّ دَعَتْهُ الخُطُوبُ شَوَاسِعُ مَنْفَعَةٍ أوْ دَوَانِي
وَأَجزَاءُ تِرْيَاقِهِمْ لا تَتِمُّ إلا بِجُزْءٍ مِنَ الأَفْعُوَانِ

• • •

وقوله (٣) :

وَأَرَى الأَرْبَعَ الغَرَائِزَ فِينَا وَهْيَ فِي جُثَّةِ الفَتَى خُصَمَاءُ
إِنْ تَوَافَقْنَ صَحَّ أَوْ لا فَمَا يَنْفَكُّ عَنْهَا الإِمْرَاضُ والإِغْمَاءُ

• • •

وأمثال هذا كثير في شعره ، وذلك يدل على إلمامه بكثير من العلوم المشار في هذه الأبيات إلى مااصطلح عليه أهلها في ذلك العصر .

---

(١) اللزوميات ﻫ ص ١٣٤ .
(٢) اللزوميات ﻫ ص ٢٨٣ .
(٣) اللزوميات ﻫ ص ٢٤ .

الفلك

أما إلمامه بعلم الفلك والنجوم ، فإن ماوقفنا عليه في ديوانيه ، يدل على تمكنه فيها بقدر مايستطيعه أمثاله . ولعل الباحث إذا استقرى شعره وجد فيه أكثر أسماء النجوم التي انتهى العلم في عصره إلى معرفتها . وقد بحث عن عناصرها ، وطبائعها ، وقرانها ، وشبه بها ، وشبهها بغيرها ، وذكر كثيراً مما يعتقده الناس في طلوعها ، وغروبها ، واقترانها ، وقدمها ، وخلودها ، وفنائها ، وما شاكل ذلك . وإليك جملة من أقواله في الفلك والنجوم ، وما يتعلق بها :

وَالنَّخْلُ يُجْنَى حِينَ يُرْطِبُ زَهْوُهُ
والبَدْرُ يُكْسَفُ لَيْلَةَ الإِبْدارِ [1]

• • •

ومِرْآةُ الْمُنَجِّمِ وَهِيَ صُغْرى أَرَتْهُ كُلَّ عَامِرَةٍ وَقَفْرِ [2]

• • •

وَلَقَدْ عَلِمَ الْمُنَجِّمُ مَا يُو جِبُ لِلدِّينِ أَنْ يَكُونَ صَرِيحَا [3]

• • •

(١) اللزوميات ﻫ ص ١٦٤ . وأرطب النخل : حان أوان رطبه أي ما نضج من بسره قبل أن يصير تمراً ، والزهو : البسر الملون .
(٢) اللزوميات ﻫ ص ١٥٤ .
(٣) اللزوميات ﻫ ص ٨٤ ، وفي الأصل : « صحيحا » وهو من سبق القلم .

مِنْ نُجُومٍ نَارِيَّةٍ وَنجُومٍ ... نَاسَبَتْ تُرْبَةً وَمَاءً وَرِيحَا[1]

• • •

وَسُهَيْلٌ كَوَجْنَةِ الحِبِّ في اللَّوْ ... نِ وَقَلْبِ المُحِبِّ في الخَفَقَانِ[2]

إلى آخر هذه القصيدة ، فقد ذكر فيها كثيراً من النجوم :

أنتَ كالشَّمسِ في الضِّيَاءِ وَإنْ جَا ... وَزْتَ كِيوَانَ في عُلُوِّ المَكانِ[3]

• • •

سُبْحَانَ مَنْ خَلَقَ النُّجُومَ كأَنَّها ... دُرٌّ طَفَا مِنْ فَوقِ بَحْرٍ مَائِجِ[4]

وذكر طائفة كبيرة منها في (الفصول والغايات ص ٣٩٤) . وستأتي تتمة القول في هذا في الكلام على فلسفته .

التاريخ

من وقف على ماانتهى إلينا من آثار أبي العلاء ، على قلته ، لايشك في أن لأبي العلاء يداً طولى في معرفة أخبار الماضين والحاضرين في عصره ، وما كان لكل أمة من العقائد والمزاعم ، وما لها من العادات والمواضعات والخصائص ، وما وقع لها من الحوادث بين أفرادها المشهورين ، أو بينها وبين غيرها . ففي (سقط الزند) أشار إلى حوادث المنذرين ،

---

(١) اللزوميات ٥ ص ٨٤ .

(٢) شروح سقط الزند ، ق ١ ص ١٣٣ .

(٣) شروح سقط الزند ، ١ ص ٥١ ، وكيوان : زحل ويضرب المثل بهذا الكوكب في العلو والمد .

(٤) اللزوميات ٥ ص ٧٩ وفيها : « . . . من برأ النجوم . . » .

واللخميين ، والفرس ، وقابوس ، ودارم ، وسليمان ، وداود ، وجالوت ، ونوح ، وآدم .

وأشار إلى ماوقع من الفتن والحروب في العراق وفارس والشام في أيامه وقبلها .

وفي (رسالة الغفران) أشار إلى حوادث كثيرة ، وذكر كثيراً من رجال التاريخ . وكتب رسالة إلى خاله أبي القاسم يعزيه بأخيه ، فذكر فيهـا وفاة آدم ، وهـابيل ، ونوح ، وهود ، وطـائفة من الأنبياء إلى محمد ﷺ . ثم ذكر سبأ ، وملوك حمير ، وطسما وجديس ، والزرقاء ، وملوك غسان والحيرة ، وملوك الفرس ، وأجواد العرب وشجعـانهم ، وملأها بالحوادث التي حدثت في عهودهم ، ثم ذكر طائفة من حيوان البر ، كالفيل ، والأسد ، والنمر ، والذئب ، والثعلب ، والضبع ، والأرنب ، والبقر الوحشي ، والظليم ؛ وأخـرى من الطير كالعقاب ، والغراب ، والحمامة ، والجرادة ، والنحلة ؛ وثالثة من الهوام ، والدواب ، كالأرقم ، والعقرب ، والنملة ؛ ثم جملة من حيوان المـاء ، كالحوت والضفدع ، وذكر طرفاً من الخصائص أو الحوادث لكل واحد ، وأن كلا منها على ماله من حول وطول وحيلة ، لايفلت من يد الموت ، ولا يسـلم من حوادث الدهر (١) .

وفي (لزوم مالا يلزم) من الإشـارات إلى الحوادث والوقائع التي حدثت للافراد والجماعات والأمم مايصدق قوله فيه :

مَا كَانَ فِي هذه الدُّنْيَا بَنُو زَمَنٍ ... إِلاَّ وَعِنْدِي مِنْ أَخْبَارِهِمْ طَرَفُ (٢)

---

(١) انظر الرسالة في رسائل أبي العلاء المعري ـ لشاهين عطية الصفحات ١٥٧ ـ ٢١٣ .

(٢) اللزوميات ٥ ص ٢٩٠ .

النغم والايقاع

رأيت في كلام أبي العلاء ألفاظاً تدل على أسماء أنواع من النغم وما يتعلق به ، مثل قوله في السقط :

وَهَواكِ عِنْدي كالغِنَاءِ لِأَنَّـه   حَسَنٌ لَدَيَّ ثَقِيلُهُ وَخَفِيفُهُ[١]

• • •

وقوله فيه :

كَأَنَّ المَثَـانيَ والمَثَالثَ بالضُّحَى   تَجَاوَبُ في غِيدٍ رُفِعْنَ طِوَالِ

كَـأَنَّ ثَقِيلاً أَوَّلاً تَزْدَهِي بِهِ   ضَمَائِرُ قَوْمٍ في الخُطُوبِ ثِقَالِ[٢]

• • •

وقوله فيه :

رَأَتْ زَهَراً غَضًّا فَهَاجَتْ بِمِزْهَرٍ   مَثَانِيهِ أَحْشَاءٌ لَطُفْنَ وَأَوْصَالُ[٣]

• • •

وقوله في (لزوم مالا يلزم) :

وَلَيْسَ الخَمْسُ ضَارِبَةً بِسَيْفٍ   نَظِيرَ الخَمْسِ ضَارِبَةً بِدُفِّ[٤]

• • •

---

(١) شروح سقط الزند ، ق ٣ ص ١١٠٩ .

(٢) شروح سقط الزند ، ق ٣ ص ١١٨٨ ، والمثاني والمثالث : من أوتار العود . والغيد الطوال : الأعناق اللينة من الابل . يقول : كأن في أعناقها الغيد ، عيداناً يتغنى فيها لأصواتها الشجية .

(٣) شروح سقط الزند ، ق ٣ ص ١٢٤٠ .

(٤) اللزوميات هـ ص ٢٩٥ .

وَأَشْرَفُ النَّاسِ فِي أَعْلَى مَرَاتِبِهِ ... مِثْلُ الصَّدِيدِ وَلَكِنْ قِيلَ: صِنْدِيدُ
مَا كِبْرُهُ وَثَقِيلُ اللَّحْنِ يَمْنَعُهُ ... مِنْ سُرْعَةِ الفَهْمِ تَرْسِيلٌ وَتَمْدِيدُ(١)

• • •

وقوله :

أَنُصْفِقُ أَنْ تُغَيِّرَنَا اللَّيَالِي ... وَيُسْمَعُ مِنْ مَزَاهِرِنَا اصْطِفَاقُ(٢)

• • •

وقوله فيه :

بَكِّ عَلَى النَّـاسِ بِالمَزْمُومِ وَالرَّمَلِ
فَإِنَّ أَعْمَالَ دُنْيَاهُمْ كَلاَ عَمَلِ (٣)

وقوله فيه :

خَبَّرَتْنِي كُلُّ نَاطِقَةٍ ... ذَاكَ حَتَّى الزِّيرُ وَالجَرَسُ(٤)

وقوله في (رسالة الغفران ص ١٨١) « ولكن من عبث بالبم والزير » .

والثقيل والخفيف والرمل : أسماء لأنواع من النغم في عرف المتقدمين .

والمزهر : العود . والبم والزير والمثاني والمثالث : من أوتاره .

---

(١) اللزوميات ه ص ٩٥ .
(٢) اللزوميات ه ص ٣٠٠ .
(٣) اللزوميات ه ص ٢١٤ .
(٤) اللزوميات ه ص ٣١١ .

رأيت هذا وأشباهه في كلامه ، فظننت أنه يعرف معناها من الوجهة اللغوية فقط ، كما يعرفها كل من قرأ كتب اللغة والأدب . ثم تأملت قوله في (رسالة الغفران ص ٣٦) : « ويمر رَفٌّ مِنْ إوَزّ الجنة ، فينتفضن ، فيصرن جواري كواعب ، يرفلن في وشي الجنة ، وبأيديهن المزاهر ، وأنواع مايلتمس به الملاهي ... فيقول لإحداهن ، على سبيل الامتحان : اعملي قول أبي أمامة [1] ، وهو هذا القاعد :

أَمِنْ آلِ مَيَّةَ رَائِحٌ أو مُغتَدِ   عَجْلانَ ذَا زَادٍ وَغَيْرَ مُزَوَّدِ

ثقيلا أول ، فتصنعه . . . فيقول : هلمَّ خفيفَ الثقيل الأول ! فتنبعث فيه بنغم . . . فإذا جاوزت [2] ، قال : عليك بالثقيل الثاني ، مابين مثالثك والمثاني . . ثم يقترح عليها الرمل وخفيفَه ، وأخاه الهزج وخفيفَه . وهذه الالحان الثمانية ، للأذن تمنيها المانية ... » [3]

فتبين لي أنه عالم بالانتقال من نغم إلى نغم ، وهذا لايتأتى إلا لمن كان عالماً بالنغم المنتقل منه ، والنغم المنتقل إليه ، وبما بينهما من التوافق والتقارب ، فيسهل الانتقال . أو التنافر فيشق على المغني حينئذ الخروج من الأول إلى الثاني . ثم رأيته في (الفصول والغايات) يقسم أنواعاً من النغم تقسيماً علمياً ، ويذكر الفروق بين كل نوع وآخر ، ويذكر مقاييس الأنغام ، ومقاديرها ، وخلاف العلماء في بعضها ؛ شأن العالم الخبير في هذا الفن ، فاتضح لي أن أبا العلاء كان عالماً ، جد عالم ،

---

(١) نابغة بني ذبيان .

(٢) في الرسالة تحقيق بنت الشاطىء : « فاذا أجادته » .

(٣) انظر الرسالة تحقيق بنت الشاطىء ط ١ ص ١٠٢ — ١٠٤ .

بالنغم والإيقاع المعروف في عصره . وهذا ماقاله في (الفصول والغايات ص ٨٨) :

« أتدري مايقول المزهر ، أيها الطرب الجذلان ؟ إنه يسبح الله — عز وأثار — بطرائق ثمان ، بين ثقائل إلى خفاف . . . » ثم فسر ذلك فقال : « المزهر : العود . ويقال : إنه شيء من الملاهي غيره . والطرائق الثمان : الثقيل الأول ، وإيقاعه ثلاث نقرات متساويات الأقدار ، على مثال « مفعولن » : مف : نقرة ، عو : نقرة ، لن : نقرة . وهي نقرات ثقال ، وأنت تثبته بالوتد المفروق أوضح مما تثبته بالسبب المضطرب ، وذلك أن الوتد المفروق ثلاثة أحرف : أوسطها ساكن ، والسبب حرفان ، فأنت إذا وقفت على الوتد المفروق ، سكنت سكوناً أطول من السكون الذي على السبب ، مثل قولك « صخْر ، بحْر ، دهْر » فعلى هذا يجري الثقيل الأول .

وخفيف الثقيل الأول : وحقيقته ثلاث نقرات متواليات ، وهي أخف من التي ذكرنا ، وأسرع توالياً . كقولك : « مفعولن » بلا فصل .

والثقيل الثاني : وقد اختلفوا في إيقاعه ، فاسحق يوقعه ثلاث نقرات : نقرتان متساويتان ممسكتان ، وواحدة ثقيلة على وزن « مفعولان » . ومنهم من يوقعه أربع نقرات متساويات الأقدار لأخفاف محثوثات ، ولأثقال ممسكات ، على مثال « مفعو مفعو » . ومنهم من يوقعه أربع نقرات : ثلاث متساويات ، والرابعة أثقل منهن ، على مثال « مفعولاتن » .

وخفيف الثقيل الثاني : وحقيقته أسرع حثاً منه ، وهو نقرتان خفيفتان ، والثالثة ثقيلة ، وهو الذي اختاره إسحق . ويسمى « الماخوري » وهو عكس الرمل ، ووزنه « مفعولان » .

والرَّمل : وهو نقرة ثقيلة ، واثنتان محثوثتان : "لان مفعو : ومثاله في الكلام : ملّ وصلي ، صدّ عنّي .

وخفيف الرمل : وخفيف الرمل جاء على غير جنسه ، وذلك أن خفيف كل نوع جاء على غير جنسه [1] وذلك أن خفيف كل نوع مثل ثقيله ، إلا أنه أخف حث الإيقاع . فأما الرمل ، فلم يجيء خفيفه على عدد نقراته ، وهو على نقرتين ، بينهما فصل ، ووزنه على مثال « فَعْلن فعْلن » .

والهزج : وهو على نقرة نقرة ، واحدة ثقيلة ، وأخرى خفيفة ، على وزن « قال لي » .

وخفيف الهزج : وخفيف الهزج مثله ، إلا أنه أسرع حثا منه » اهـ .

مصادر ثقافته

لعل أغمض ناحية في أبي العلاء ، هذه الناحية ، لأن التاريخ أغفل كثيراً من الأمور التي يتوقف عليها جلاؤها منه ، فلم يحدثنا عن جميع الشيوخ الذين تخرج بهم في علومه الكثيرة ، ولا استوعب لنا الكتب التي درسها بنفسه أو قرأها على غيره .

وإنما نرى في كلامه كثيراً من المصطلحات العلمية التي تدل على رسوخه في تلك العلوم ، سواء أكانت علوم الدين ، أم علوم اللغة ، أم غيرهما .. ونراه إلى جانب هذا ، يعرض إلى كثير من فلسفة اليونان ، وحكمة الهند ، ومذاهب الفرس ، ويخوض في كثير من مباحث الأديان ، وآراء

---

(١) كذا في الأصل . (ج)

أهل النحل المختلفة ، والعقائد المتباينة ، والمزاعم المتعددة ، ويتصدى كثيراً إلى ذكر رجال من رجالات العلم والتاريخ ، وأصحاب الآراء الفلسفية ، وينقل عن كتب الحكماء آراء ومزاعم ، كما نقل في (رسالته إلى النكتي ص ٢٣٩)(١) عن صاحب المنطق ، في كتابه الثاني من الكتب الأربعة : أن الكذب ليس بقبيح في صناعة الشعر والخطابة . ومثل هذا لايكون إلا أثراً من آثار الدراسة والعلم . وإن زعم أبو الفداء في تاريخه أن أبا العلاء لم يتلمذ لأحد . ونحن لاننكر أن أبا العلاء أوتي حظاً وافراً من المواهب الفطرية ، وكان فيه من الذكاء النادر والحفظ الباهر ، مايندر وجوده في غيره ، ولكن هذا كله على انفراده لايترك مثل هذه الآثار التي تركها أبو العلاء في الحكمة والفلسفة وغيرهما ، مالم يؤيده العلم الكثير والتعلم .

وإذا استعصت علينا معرفة هذه الناحية معرفة تامة ، وتعذرت علينا معرفة شيوخه ، فإننا نستدل بما ذكره من الكتب والدواوين في آثاره التي وصلت إلينا على قسم مما اطلع عليه من آثار المتقدمين . ونحن نعتقد أن مالم نطلع عليه من آثاره أكثر مما اطلعنا عليه ، وما فاتنا ذكره من تلك الآثار وأصحابها أكثر مما ذكرناه . ولكن المصباح الضئيل قد ينير ناحية من السبيل ؛ وقد يستدل بالقليل على الكثير .

وهذه طائفة من أسماء الكتب التي ذكرها في كلامه ، و [بعض] المواطن التي ورد ذكرها فيها . وقد وضعنا حرف الراء « ر » إشارة إلى رسائله [شرح شاهين عطية ، المطبعة الأدبية في بيروت سنة ١٨٩٤ م] . والسين « س » إشارة إلى [شرح التنوير على سقط الزند ، طبعة دار

---

(١) انظر رسائل أبي العلاء المعري ـ شرح شاهين عطية .

السعادة سنة ١٢٨٦ هـ مصر] . والعين مع الباء « عب » إشارة إلى (عبث الوليد [تحقيق المدني طبعة دمشق سنة ١٣٥٥ هـ ٩٣٦ م]) . والغين « غ » إشارة إلى (رسالة الغفران [طبعة أمين هندية سنة ١٣٢١ هـ القاهرة]) . والفاء « ف » إشارة إلى (الفصول والغايات [تحقيق زناتي طبعة القاهرة سنة ١٣٥٦ هـ ١٩٣٨ م]) . واللام « ل » إشارة إلى (لزوم مالا يلزم [طبعة عزيز زند سنة ١٨٩١ م مصر]) . والميم « م » إشارة إلى (رسالة الملائكة [طبعة المجمع العلمي العربي بدمشق سنة ١٣٦٣ هـ ١٩٤٤ م]) .

وقد ذكرنا بعد ذلك طائفة من أسماء الشعراء ، ثم العلماء الذين ورد ذكرهم في كلامه . وبينا رقم الصفحة التي ذكر فيها الكتاب أو الشاعر أو العالم .



	ر الرسائل	س سقط الزند	عب عبث الوليد	غ رسالة الغفران	ف الفصول والغايات	ل لزوم ما لا يلزم	م رسالة الملائكة
كتاب الإبدال ، لأبي الطيب اللغوي ، عبدالواحد ابن علي .				١٩٢			
كتاب الاتباع ، لأبي الطيب اللغوي ، عبدالواحد ابن علي .				١٩٢			
كتاب الأجناس، للأصمعي				٢١			
أخبار بشار .				١٤٠			
أراجيز رؤبة .				١٦٥			
أشعار تنوخ .		١١٢/٢، ١٢٠، ١٤٠					
أشعار الجن ، للمرزباني، [محمد بن عمران بن موسى المتوفى سنة ٣٨٤ هـ]				٧٥			
أشعار قريش .						٣٤/١	
الأصول ، لابن السراج.				١٣٧		٣٣/١	
الاعتبار .				١٨٠			
الإقناع أو المقنع ، لأبي سعيد السيرافي .				١٣٧			
إصلاح المنطق ، لابن السكيت .	٤٧						

• • •

	ر	س	عب	غ	ف	ل	م
التاج ، لابن الراوندي [أحمد بن يحيى المتوفى سنة ٣٠٠ هـ] .				١٥٧			
تاريخ القطربّلي وابن أبي الأزهر. رسائل البلغاء ١٩٧ .				١٣٦			
تاريخ ابن شجرة ، بخط المرزباني .				٢٠٢			
الترجمان في معاني الشعر ، للمفجع البصري .						٨٩/٢	
تفسير سورة الإخلاص .	١٠٩						
• • •							
جامع النطق ، للزجاج .					٣٤٢		
الجمل ، لابن السراج .				١٣٧			
الجمل ، للزجاجي (١) .							
الجمهرة ، لابن دريد .	١٢٠						
كتاب الحجة ، لأبي علي الفارسي .				٥٧			
حماسة أبي تمام (٢)							
كتاب الحيوان، للجاحظ .					٤١٥		
كتاب الخاء ، لأبي عمرو الشيباني .				٣٥			
• • •							

(١) لم يذكر المؤلف مظنة من مظانه في كتب أبي العلاء .

(٢) لم يذكر المؤلف موطن وجوده في كتب المعري .

	ر	س	عب	غ	ف	ل	م
الدامغ، لابن الراوندي.				١٥٨			
ديوان الأدب [1].							
ديوان أبي الطيب المتنبي.				١٣٧			
ديوان البحتري.						٣١/١	
ديوان أبي تمام.				١٩٤			
ديوان الحارث بن حلزة.				١٧٢			
ديوان الخالديين.				١٣٦			
ديوان ذي الرمة.					٣٩٦		
ديوان تيم اللات = تنوخ.		١٤٠					
ديوان طفيل الغنوي.				١٨٩			
ديوان عبيد بن الأبرص.				١٧٦			
ديوان عدي بن زيد.				١٠			
ديوان النابغة الذبياني.				٣٣		٣١/١.	
ديوان النابغة الجعدي.				٣٤			
ديوان أبي الهندي، عبدالقدوس أو عبد المؤمن.				٩			
ديوان لبيد.				١٨			
• • •							
كتاب شجر الدر، لأبي الطيب اللغوي.				١٩٢			
طبقات المغنين، لابن خرداذبة.				١٧٥			

(١) لم يذكر المؤلف مواطن وجوده في كتب المعري. جا (٦)

	ر	س	عب	غ	ف	ل	م
كتاب العمد .						٢٤٩/١	
كتاب العين ، للخليل بن أحمد .						٨٩/٢	٢٦٧
كتاب غريب الحديث ، لابن قتيبة .	١٠٦			٥٢			
الغريب المصنف ، لأبي عبيد القاسم بن سلام .						٢٠/١	
كتاب الفرخ ، للجرمي .						٣٩٦/١	
كتاب الفَرْق ، لأبي الطيب اللغوي .				١٩٢			
كتاب الفريد ، لابن الراوندي .				١٦٠			
كتاب القوافي ، للفراء .						١٩/١	
كتاب القوافي ، لخلف .						١٩/١	
كتاب كليلة ودمنة .	٢٢٣						
الكتاب ، لسيبويه .				١٤٠			
كتاب شرح الكتاب ، للسيرافي .	٨٦						
كتاب المبعث ، لأبي معشر المدني .				١٧٥			
كتاب مختصر إصلاح المنطق لأبي القاسم المغربي .	٤٦						

	ر	س	عب	غ	ف	ل	م
كتاب المداخل، لأبي عمرو [الزاهد . «غلام ثعلب»]				١٩٢			
كتاب المصنف، لأبي عبيد تقدم .						٢٠/١	
كتاب المجاز، لأبي عبيدة.	١٤١						
كتاب المراغي، محمد بن علي المراغي .							٢٨٠
كتاب المرجان، لابن الراوندي .				١٦٠			
كتاب المعاني، ليعقوب .					٣٩٦		
كتاب المعمرين، لأبي حاتم[1]							
كتاب المغني [للقاضي عبد الجبار]						٢٤٩/١	
كتاب المفضليات، للمفضل الضبي .				١٠٦			
كتاب المنطق، لأرسطو	١٣٩						
كتاب الموجز، لابن السراج.				١٣٧			
كتاب نوادر ابن الأعرابي .	٩٠						
كتاب نوادر أبي زيد .					٢١٠		
كتاب نوادر الصولي				١٤٧			
كتاب الورقة، لابن الجراح[2]	١٥٤			١٤٠			

★ ★ ★ .

(١) لم يذكر للمؤلف مواطن وجوده . (٢) في الأصل الصولي، ولعله من سقط القلم .

وهذه طائفة من أسماء الشعراء الذين ذكرهم في كتبه

	د	س	عب	غ	ف	ل	م
إبراهيم بن ميمون التميمي المتوفى سنة ١٨٨ هـ. «ابراهيم النديم الموصلي»				٦٦			
ابراهيم بن علي بن سلمة المتوفى سنة ١٥٠ هـ. «ابن هرمة القرشي»				١٧٩			٢١٥
أبو مهدية الأعرابي الذي يروي عنه البصريون.					٢٢٨		
أحمد بن محمد بن الحسين الجعفي الكوفي المتوفى سنة ٣٥٤ هـ. «أبو الطيب المتنبي»	١١٢		٣٩	١٣٢			
أحمد بن محمد الحلبي المتوفى سنة ٣٣٤ هـ. «أبو بكر الصنوبري»				١١			
أحيحة بن الجُلاح الأوسي الجاهلي المتوفى سنة ٦٠ ق هـ.		٩٢/٢		١٩٣			
أرقم بن نويرة.					٢٠٠		
أسامة بن الحارث الهذلي					٤١٥		
إسحاق بن ابراهيم الموصلي المتوفى سنة ٢٣٥ هـ.				٦٦			
إسماعيل بن القاسم من عنزة المتوفى سنة ٢١١ هـ. «أبو العتاهية»					١٣٢	١١٨	

	ر	س	عب	غ	ف	ل	م
أبو القطران الأسدي .				١٢٥			
أم عبدالله ابنة أبي سفيان.					٢١٦		
• • •							
باعث بن صريم اليشكري .					٤٥٤		
بجير بن زهير بن أبي سلمى .				٢٢			
البرج بن مسهر الطائي .							٧٢
البريق الهذلي .					٢٦٢		
بشر بن أبي خازم .				١٧	١٧٨	١٥	
بشار بن برد .	٢١٦		٧٧	٨٥		٣٢٩	
بشامة بن الغدير .				٢٠٥			
بصيص .				٦٦			
بقيلة الأكبر الأشجعي .					١٦٥		
• • •							
تماضر بنت عمرو بن الحارث ابن الشريد المتوفاة سنة ٢٢ هـ « الخنساء » .			١٠٦	٨٤	٤٥٤	٤٩	
تميم بن أُبيّ بن مقبل من بني العجلان المتوفى سنة ٢٥ هـ .	٦٦			٥٣			
توبة المعروف بالحَنْتُوت، « ابن مضرس » .				٢٠٤			
• • •							
ثابت بن جابر « تأبط شرا » .	١١٦		١١٦	١٠٤	٣١٩		٩٠
ثعلبة بن صعير المازني .			١١١				
• • •							

	ر	س	عب	غ	ف	ل	م
جابر بن قطن النهشلي .			٢١٤				
جبار بن جزء . « ابن أخي الشماخ » .							١٩٦
الجحجلول الكفرطابي .				٦٠			
جرير بن عطية بن حذيفة الخطفى الكلبي اليربوعي المتوفى سنة ١١٠ هـ « أبو حزرة ».	١٠٥	١١٥	٥٣	٩١	٤٣		١٢
جرول بن أوس بن عبس، مخضرم، المتوفى سنة ٣٠ هـ . « الحطيئة أبو مليكة » .	١٢٧		٢٩		١٣٨	٩	١٠
جرير بن عبد العزى، جاهلي، « المتلمس » .	١٥٦					٢٧/٢	١٥٤
جميل بن عبد الله بن معمر العذري المتوفى سنة ٨٢ هـ .				٨٦	٧٨		٩٣
* * *							
حاتم بن عبد الله بن سعد ابن الحشرج الطائي الكريم المشهور المتوفى سنة ٤٥ ق هـ .	٩١	١١٢	١٢٥	١٣٣	٤٤٥	٣٧٦	١٣٢
الحارث بن حلزة اليشكري.			١٤٠	٩٦	١٣٩		
الحارث بن خالد المخزومي.							٨
الحارث بن ظالم .				١٢٥			
حبيب بن أوس، « أبو تمام »	١١١	١١١/٢	٣٤	١٢٩		٢٩	

	ر	س	عب	غ	ف	ل	م
حبيب بن عبد الله . «الأعلم الهذلي»					١٧٨	١٠٦/٢	٢١
حَجْل مولى بني فزارة .			١٩٨				
أبو حزام العكلي .		٨٩/٢					
حسان بن ثابت	٩١		٦٠		٢٣٦		١٥١
الحسن بن هانىء . «أبونواس»				١١		٣٧٤	
الحسين بن الضحاك . [الخليع]				١٧٧			
الحصين بن الحمام المري الذبياني ، الجاهلي .							١٦٢
حماد عجرد .				١٧٥		٣٦٣	
حمزة بن عبد المطلب .				٦٥			
حميد الأمجي .				١٧٨			
حميد بن ثور ، من عامر بن صعصعة ، صحابي .	١٠٥			٦١	٤٣	٢٠٣/٢	١١
حميد بن مالك . «الأرقط» اسلامي				١١٥			
جندج بن حجر الكندي . «امرؤ القيس»	٤٤	٩٧	٣١	٦	١١٥	٣١	٢٤
حنظلة أو جارية . أو جويرية بن الحجاج . «أبو دؤاد الإيادي»	١٣٤		١٥٢	١٢٩	١٥١		١١٦
حنظلة بن الشرقي المتوفى سنة ١٠هـ . «أبو الطمحان القيني»					٤٠٥		

• • •

	ر	س	عب	غ	ف	ل	م
خداش بن زهير العامري . « جاهلي »					١٩٢		
الخالديان ، أبو بكر ، وأبو عثمان ، محمد وسعيد ابنا هاشم من قرية الخالدية . « الخالديان » .				١٣٥			
ابن حذام ، جاهلي .						٣١٣/٢	
خفاف بن ندبة السلمي ، أسلم وتوفي سنة ٢ هـ . « أبو خراشة »	١٣٠	٥٧/٢	١١٠	٦	١٥١	٢٠٧/٢	
خلف الأحمر .				١٢			
الخليل بن أحمد الفراهيدي .				٦٨			
خويلد بن خالد الهذلي : « أبو ذؤيب » .	١١٥		٦٩	٢٩		٢٥	١٨١
خويلد بن مرة من هذيل . مخضرم توفي سنة ١٥ هـ : « أبو خراش »	١٥٨		١١٩		١٩٢	٥٠/٢	
• • •							
دختنوس ابنة لقيط بن زرارة .					٤١٠		
دراج بن زرعة الكلابي .					٣٠١		
دريد بن الصمة .	٣٥		١٥٦		١٢١	٢٦٩	
دعبل بن علي الخزاعي المتوفى سنة ٢٤٦ هـ .				١٣٤			
دلف بن جحدر المتوفى سنة ٣٣٤هـ : « أبو بكر الشبلي » .				٢٠٦			

	ر	س	عب	غ	ف	ل	م
الزبرقان بن بدر التميمي السعدي المتوفى سنة ٤٥ هـ .				٨٤			
الزّقيان[السعدي الراجز].	١٠٧						
زهير بن أبي سلمى .	٧٦	٧٢	٢٧	٢٢	٢٢٢	١١	٤١
زهير بن جناب الكلبي .				١٠٥			
زهير بن مسعود الضبي .				٩٣			
زياد : « النابغة الذبياني »	١٠٨	٧٢		٣١	٦٧	٢١	
زيد الخيل بن مهلهل الطائي المتوفى سنة ٩ هـ .	١٨٣		٢٣٢			١٧٢/٢	
• • •							
ساعدة بن جؤية .			١٢٦	١٢١	٢٤٠		
سحيم عبد بني الحسحاس المتوفى سنة ٤٠ هـ.		٥٧	١٩٦			٢٠٧/٢	٣٢
سحيم بن وثيل الرياحي اليربوعي ، مخضرم توفي نحو سنة ٥٠ هـ .	١٣٧			٦			٢٠
سديف بن ميمون، حجازي مولى بني هاشم توفي سنة ١٤٦ هـ.	١٢٣						
سراقة ، البارقي .	١١٣						
السروي [زيدبن عدي]				٢٢			
سطيح بن مازن ، الكاهن المشهور .		٧٠/٢					

	ر	س	عب	غ	ف	ل	م
سعد بن الحسن السمعي الناجم ، أبو عثمان . [من شعراء سيف الدولة] .				١٦٢			
سلامة بن جندل التميمي ، حجازي جاهلي .							٢٦٥
سلامة بن الخرشب بن عمرو ابن أنمار بن بغيض .					٤٤٠		
سلمى بنت ربيعة .							١٤٤
سلمان بن ربيعة الضبي ، أو سلمى .							١٤٤
السليك بن السلكة .	١٨٥		١١٠	٦		١٠٦/٢	
سليمان أبو طاهر بن أبي سعيد الجنابي ، الذي قلع الحجر الأسود وأنفذه إلى هجر .				١٤٧			
السموأل .				١٢٥		٦٠	
سمير بن أدكن .				١٤٤			
السنبسي .				٢٠٢			
سهل بن حنظلة الغنوي[1] .				١٥١			
سوادة بن عدي [بن زيد]					١٦٠		
سويد بن الصامت .				٦			

(١) في المؤتلف والمختلف ـ الآمدي ـ ص ١٣٦ هو « سهم بن حنظلة الغنوي » ولعله هو المقصود ، فقد ورد في احدى نسخ الغفران بالميم كما أثبتت ذلك بنت الشاطئ في حاشية الصفحة ٢٩٤ من الرسالة .

	ر	س	عب	غ	ف	ل	م
سويد بن صميع .				٦			
سويد بن أبي كاهل . [اليشكري]				٦			
سويد بن أبي كراع العكلي توفي بعد المائه .							٢٤
سيار بن قصير الطائي .			٩٥				
• • •							
شاتم الدهر ، من عبد القيس .				١٣٨			
شداد بن الأسود الليثي .				١٣٥			
شمعلة التغلبي .				١٣٨			
• • •							
صالح بن عبد القدوس .				١٤٢		٤١	
صخر بن عمرو الشريد .						٤٩	٢
صخر الغي بن عبد الله ، أخو الأعلم الهذلي .	١٢٢			١٠١	٤١٧		
صلاءة بن عمرو [من بني أود المذحجي] « الأفوه الأودي » .				٧٩	٤٧٠		١٣
الصمة بن عبد الله القشيري ، من مضر ، في العصر الأموي .							٢٥٥
صفية بنت عبد المطلب .	١٢٨						
صيفي بن عامر الأوسي ، أبو قيس بن الأسلت المتوفى سنة ١ هـ .			١٦٢		١٣٥		
• • •							

	ر	س	عب	غ	ف	ل	م
ضابيء بن الحرث البرجمي .						٣٣٩	
الضبي : [محرز بن المكعبر الضبي شاعر جاهلي] .			٢٢	١٢٧			
ضمرة بن ضمرة النهشلي : جاهلي .			٣٥			١٦٣	
• • •							
طارق بن دَيْسَق .	١٣٨						
طرفة بن العبد .	١١٨		٧٦	٩٧	١٣٧	١٣	٩٥
الطرماح بن الحكيم المتوفى سنة ٨٠ هـ .			٧٥		٢٨٩		
طريف بن تميم العنبري .					٤٦٥		
طفيل الغنوي ابن عوف من غني من قيس عيلان ، توفي نحو سنة ١٣ ق هـ .			٢٣٢	١٨٩	٢٠٦		٩٦
طفيل بن مالك بن جعفر ، أبو عامر .						٢٠٣/٢	
طهمان بن عمرو الكلابي .					٦٢		
• • •							
ظالم بن عمرو : « أبو الأسود الدؤلي » .			٢١١	٦		٢٩	
• • •							
العائذ بن محصن ، جاهلي « المثقب العبدي » .			١٠٢		١٥٤		

	ر	س	عب	غ	ف	ل	م
عامر بن جوين .[الطائي]	١١٢						
عامر بن الحليس «أبو كبير الهذلي» .				١٠٠			
عامر بن الطفيل .[العامري]	١٨٥			١٩			
العباس بن مرداس : [السلمي]			٤٤				
العباس بن الأحنف المتوفى سنة ١٩٢ هـ .			٦٤				
عبدة بن الطبيب المتوفى نحو سنة ٢٥ هـ، ا بن عمرو بن علي من تميم .			٧٢				
عبد الرحمن بن اسماعيل : «وضاح اليمن»		١٤٨			٢١٢		
عبد السلام بن رغبان : «ديك الجن» .				١٤٦			
عبد القدوس بن شيث اليربوعي المتوفى سنة ١٨٠هـ. «أبو الهندي» وقيل : اسمه غالب بن عبد القدوس وقد سماه أبو العلاء في رسالة الغفران : عبد المؤمن بن عبد القدوس .				٩	٤٧١		
عبدقيس بن خفاف البرجي .	١١٢						

	ر	س	عب	غ	ف	ل	م
عبدالله بن أنيس، الصحابي.			٦٤				
عبد الله بن الأعور من بني الحرماز : أعشى مازن أو أعشى بني الحرماز .					٣٥٢		
عبد الله بن رؤبة ، «العجاج» .		٢/١٠٠		١١	١٦١	١١	٧١
عبد الله بن ربيعة ، «أبو الصلت الثقفي»				١٨٩			
عبد الله بن سلمة الهذلي ، اسلامي «أبو صخر»				١٣٨			١٥٣
عبد الله بن عمرو بن عثمان ابن عفان ، «العرجي»	١٢٣		١٩٦		٢١٢	٣٤٤	
عبد الله بن قيس ، «ابن الزبعرى»					١٤٥		
عبدالله بن قيس ، «النابغة الجعدي»	١٤٠		٤٧	٣٤	٢٧٩		
عبد الله بن قيس ، «ابن قيس الرقيات» .	١١٣	٦٧			٤٠٨		
عبد الله بن محمد الأنصاري المتوفى سنة ١٠٥ هـ. «الأحوص»		١٤٥					
عبد الله بن المعتز .				١٧٥			
عبد الله بن ميمون القداح.				١٥٦			

• • •

	ر	س	عب	غ	ف	ل	م
عبد المطلب بن هاشم .			٢٠٠		٤٢٠		
عبد مناف بن ربع الهذلي.					٥٣		٢٠٧
عبد يغوث [بن وقاص صاحب اليائية المفضلية] الحارثي ابن صلاءة . من قحطان يماني جاهلي .		٥٩					٢١٦
عبد الوهاب بن حَرِيش، « أبو مسحل » .					٢٩٢		
العبسي .			٢٢				
عبيد بن الأبرص .			١٨٥	٢٢	١٣١	٢٤٦	
عبيد بن الحصين . « راعي الإبل » .	١١٦		٢٧	٤٨	٦٩	٣٧	٢١٨
المعتريف .				٢٠٣			
عدي بن ربيعة ، « مهلهل التغلبي » .				١٠٤	٢١٢	١٤٠/٢	
عدي بن زيد .			١٥٢	١٠	٤٧	١٧	
عذافر بن أوس .				١١٥			
عروة بن حزام .				٢٠١			
عروة بن الورد .			١٤٨	١٣			٢٤٤
علقمة بن عبدة .	١٣١		٧٨	٩٤	٢٠٧		٦
علقمة بن علاثة .				١٩			
علي بن بدال السلمي .							١٦٠

	ر	س	عب	غ	ف	ل	م
علي بن العباس ، « ابن الرومي » .				١٦١		١٨٢/٢	
علي بن محمد، وكان اسمه من قبل أحمد صاحب الزنج وخارب البصرة .				١٤٧			
. . .							
عمر بن أبي ربيعة .			٤٢		٢١٢		
عمر بن لجأ [إسلامي ممن هاجوا جريرا] .					١٢٩		
عمرو بن أحمر الباهلي مخضرم توفي نحو سنة ٣٥ هـ . « ابن أحمر » .	١١٦		٨٨	٤٨	٣٢٤		٢١٤
عمرو بن حبيب بن عمرو المتوفى سنة ٣٠ هـ. شاعر بطل وقيل : اسمه مالك وعبدالله «أبو محجن الثقفي » .							١٦
عمرو بن حسان الشيباني .			١٠٠		١٢٨		
عمرو بن ربيعة التميمي السعدي . « المُسْتَوْغِر ».					١٦٤		
عمرو بن شاس بن ثعلبة الأسدي المتوفى سنة ٣٠هـ .							٧

	ر	س	عب	غ	ف	ل	م
عمرو بن شييم .«القطامي» [إسلامي ، كان نصرانياً ثم هداه الله] .	١٢٧		٩٩	٦٢	٣٥٠		
عمرو بن عدي اللخمي .				٦٨			
عمرو بن كلثوم ، التغلبي .	١١٥			٦٨	٢٢٠	٢٢	
عمرو بن مالك الأزدي صاحب لاميــة العرب ، « الشنفرى » .				١٠٤	٤٢٧	٢٨	
عمرو بن معــدي كرب [أبو ثور] .	٩١		٢٢٢		٢٤	٢٨	
عمرو بن يربوع ، من تميم .		٣٩/٢			٢١٠		
عمران بن حطان السدوسي الوائلي رأس القعدة من الصفرية المتوفى سـنة ٨٤ هـ . « الخارجي » .					٢٦	٢٦	
عِنان [1] .				٦٦			
عنترة العبسي .	١١٧		١١٠	٩١	٤٤	١١٤	
العوّام الشيباني .					٢٧٦		
عوف بن المحلم الحراني السلمي ، « أبو المحلّم » .				٢٠٣			
• • •							

(١) لعلها جارية الناطفي صاحبة النواسي .

	ر	س	عب	غ	ف	ل	م
غالب بن الحر ، «الجعفي».				١٦٤			
غامد بن الحارث ـ أو عارب ابن قيس ، «الكسعي» .			١٧٢				
غياث بن مالك ، التغلبي ، «الأخطل» .			٤٢	٨٦	٣٠٩	٢٠	١٦١
غيلان بن عقبه ، من مضر المتوفى سنة ١١٧ هـ . «ذو الرُّمة» .	٨٨	٤٥/٢	٤٨	١٢٧	١٠١		٢٢
غيلان بن حريث .							١٠٨
• • •							
الفرخ أبو العديل ، وفي اللسان والتاج والشعر والشعراء : العديل بن الفرخ .					٣٠٨		٢٤٢
الفزاري(١) .				١٣٠	٤٥٧	١٧	
الفضل بن قدامة ، «أبو النجم العجلي» .	١٣٦		٦٦	١١٥	٤٦٢		
فناخسرو بن الحسن ، «عضد الدولة».				١٤٨			
• • •							
القاسم بن عيسى ـ أبو دلف العجلي المتوفى سنة ٢٢٦ هـ .							١١٦/٢

(١) لعله عويف بن عقبة الفزاري = عويف القوافي .

	ر	س	عب	غ	ف	ل	م
قتادة بن مسلمة الحنفي .	١٣٠						
قتيلة ـ أخت النضر بن الحرث .					٤٢٠		
قثم بن خبيئة بن عبد القيس . « الصلتان العبدي » .						٣٨	
قراد بن حنش الصاردي . [جاهلي تناهب الشعراء شعره وانتحلوه] .					١٠٠		
قس بن ساعدة الإيادي .		١١٢				٣٨	
قطبة بن الحصين القطفاني، « الحادرة أو الحويدرة ».	٨٨			٧٠	٤٥٢		
القطران .					٢٢٧		
قطري بن الفجاءة المازني التميمي ، رئيس الأزارقة المتوفى سنة ٧٨ هـ . « أبو نعامة » .					٤١٠	٢٨٣	
قعنب بن أم صاحب .					١٤٥		
القلاخ بن حزن المنقري من بني حزن بن عمرو .	١٣٧				٤٧٤		
قيس بن الخطيم ، توفي نحو سنة ٢ ق . هـ .			٦٧	١٨٨			

	د	س	عب	غ	ف	ل	م
قيس بن ذريح بن سنة الكناني المتوفى سنة ٧٠ هـ — صاحب لبنى بنت الحباب.						٢٣١	
قيس بن زهير بن جذيمة ، أمير عبس وداهيتها ، « قيس الرأي » .	١١٨						٢٠٤
قيس بن عمر ، « النجاشي الحارثي ».			٤١	٥٣	١٢٦		
قيس بن الملوح بن مزاحم العامري المتوفى سنة ٨٠ هـ ، النجدي « مجنون ليلى بنت سعد » .						٢٣٤	
• • •							
كثير بن عبد الرحمن بن الأسود الخزاعي الحجازي المتوفى سنة ١٠٥ هـ — صاحب عزة بنت جميل الضمرية .			٦٨	١٢١	٥٨	٢٧	
كعب بن جعيل — أحد شعراء تغلب .				٣٠٩			
كعب بن زهير بن أبي سلمى المازني من أهل نجد المتوفى سنة ٢٦ هـ .	١١٣				٢٢٤		

	ر	س	عب	غ	ف	ل	م
كعب بن مالك ، البدري الأنصاري الخزرجي الصحابي المتوفى سنة ٥٥ هـ .				٥٦			١٣٤
الكميت بن زيد الأسدي المتوفى سنة ١٢٦ هـ .			٢١	١٨٣	٣٢٩	٤٠٨	٧٣
• • •							
لبيد بن ربيعة بن مالك العامري توفي نحو سنة ٤١ هـ . صاحب المعلقة « أبو عقيل ».			٧٤	٣٧	٦٧	١٦	٧٣
لقيط بن بكير من محارب من قيس عيلان ، المحاربي المتوفى سنة ١٩٠ هـ .	١٥٨						
لقيط بن زرارة التميمي ، « جاهلي » .						٦٤/٢	
ليلى الأخيلية ، بنت عبدالله المتوفية سنة ٧٥ هـ تقريباً . « صاحبة توبة بن الحمير » .		٨٩/٢	١٧٩		٤٣٢		
• • •							
مالك بن خالد الهذلي .							٥٧
مالك بن حَريم الهمداني .			٢٢٥				
مالك بن الريب [المازني] من تميم .							١٧

	ر	س	عب	غ	ف	ل	م
مالك بن عمرو أو عويمر ، من لحيان ، الهذلي « المتنخل ».				١٩٥			٢١٠
متمم بن نويرة اليربوعي التميمي أبو نهشل المتوفى سنة ٣٠ هـ .						٣٩٥	
محارب بن قيس [أو غامد بن الحارث كما في القاموس وعلى القولين فهو الكسعي].			١٧٢				
محمد بن الحسن ـ أبو بكر « ابن دريد » .				٢٥			
محمد بن ظفر ، أو عمير ، « المقنع الكندي » .			٢٠٣			٣٠	
محمد بن هانىء الأندلسي .				١٤٥			
المرّار بن سعيد الأسدي من أسد بن مدركة ومن مخضرمي الدولتين .				١٢٥	٤٣٦		١٨٢
مرداس بن عمرو .							١٦١
مروان بن الحكم .						٣٥	
مزرد بن ضرار ، [أخو الشماخ] .		١٧٠/٢	٢٢٣				
المستورد، من بني نمير شاعر اسلامي ، « جران العود ».		١٦٣		٢٩٣			

	ر	س	عب	غ	ف	ل	م
مسلم بن معبد الوالبي .							١٩٢
مسلم بن الوليد المتوفى سنة ٢٠٨ هـ «صريع الغواني» .		٢/٩٢					
المسيب بن علس [جاهلي وهو خال الأعشى] .		١٦٣			٢٩٣		
مضرس بن ربعي الأسدي.							٢٥
معاوية بن مالك معوذ الحكماء[1] [جاهلي من سادة بني عامر] .			٢٠٩				
معقل بن خويلد الهذلي .							١١
معقل بن ضرار «الشماخ».	١٠٦	٢/١٧٠	١٢٠	٤٨	٥٧		١٥٨
المغيرة بن الأسود، أو ابن عبدالله بن معرض الأسدي المتوفى سنة ٨٠هـ «الأقيشر» مخضرم .				١٠			٤
المغيرة بن حبناء .	١٤						
منازل بن زمعة من شعراء الدولة الأموية من بني منقر، «اللعين المنقري» .					٣٢٠		

(١) لم نعثر عليه في المصدر الذي أحال عليه المؤلف ولعله وقف عليه في غير عبث الوليد وأحال إليه سهواً .

	ر	س	عب	غ	ف	ل	م
المنخل بن عمرو . أزمسعود اليشكري من يشكر بن وائل، جاهلي .							١٨٣
منذر بن حرملة الطائي توفي نحو سنة ٣٠هـ «أبو زبيد».	١٠٥				٢٥٥		٢٥
منظور بن مرثد الأسدي .							٣٧
منقذ بن الطماح بن قيس الأسدي، جاهلي، «الجميح الأسدي» .						٢٣	
ميمون بن قيس بن جندل من وائل المتوفى سنة ٧ هـ، «أعشى قيس» .	٩٠		٣٧	٢٠	١٠١	٢٦	٧
أبو المهوش الأسدي .			٢٠٠				
. . .							
نبهان بن عمرو .				٦			
نصيب بن رباح، أبو محجن المتوفى سنة ١٠٠ هـ، أعتقه عبد العزيز بن مروان .			١١٨	٦			
النظار الأسدي .							٦٦
النعمان بن بشير الأنصاري المتوفى سنة ٦٥ هـ .	٢١٦				٤١٤		
نعمان بن عدي بن نفلة .						٢٩٦/٢	
نفيل .				١٨٩			

	ر	س	عب	غ	ف	ل	م
النمر بن تولب العكلي المتوفى نحو سنة ١٤ هـ، مخضرم [صحابي].	١٣٦			١٢	٤٩		
نهشل بن حري بن ضمرة – من دارم .				١٨٥			
• • •							
هبيرة بن عبد مناف العَرَني «الكَلْحَبَة اليربوعي» .					٤٠٨		
هدبة بن خشرم من عامر(١) ابن ثعلبة توفي نحو سنة ٥٤ هـ .							
همام بن غالب بن صعصعة التميمي المتوفى سنة ١١٠ هـ أبو فراس «الفرزدق» .	١٠٥	١٦٣	٢٤	٨٩	٥٤	٣٧/٢	١٦
هميان بن قحافة السعدي .	١٠٧		٢١٤				
هند ابنة عتبة . أم معاوية المتوفية سنة ١٤ هـ .			١١٥				
هوبر الحارثي .					٩٣		
الهيثم بن الربيع بن زرارة المتوفى سنة ١٦٠ هـ، من نمير بن عامر «أبو حيَّة النميري» .			٢٠٨				
• • •							

(١) لم يذكر المؤلف مواطن وجوده في كتب أبي العلاء .

	ر	س	عب	غ	ف	ل	م
ورقاء بن زهير .						٢٢	
الوليد بن عبيد بن يحيى الطائي المتوفى سنة ٢٨٤ هـ ، « أبو عبادة البحتري » .	١١١	٧٤/٢		١٢٩		٣١	
الوليد بن يزيد بن عبد الملك ابن مروان المتوفى سنة ١٢٦ هـ .				١٤٥			٢١٨
وهب بن زمعة بن أسد المتوفى سنة ٦٣ هـ ، « أبو دهبل الجمحي » .				١٩٠			
* * *							
يحيى بن طالب الحنفي .	٩٠						
يزيد بن الحكم الثقفي المتوفى سنة ٩٠ هـ .				٥٧			
يزيد بن خذّاق العبدي .							٢٧
يزيد بن سلمة بن سمرة من عامر بن صعصعة المتوفى سنة ١٢٧ هـ . « ابن الطثرية » .							٢٥
يزيد بن عبيد بن هوازن المتوفى سنة ١٣٠ هـ ، أبو وجزة السعدي .							٦

	ر	س	عب	غ	ف	ل	م
يزيد بن معاوية بن أبي سفيان المتوفى سنة ٦٤ هـ .				١٠٢			
يزيد بن مهلهل .				٦٤			
يعمر بن حزن بن زائدة من بني حماد بن كعب بن سعد . « أبو نخيلة » .				١١٥			

* * *

وهذه أسماء طائفة من القراء والحكماء والعلماء والبلغاء والأدباء والرواة الذين ذكرهم في كتبه لنكتة مما يدل على أنه اطلع على كلامهم وآرائهم

	ر	س	عب	غ	ف	ل	م
إبراهيم بن أبي عون ، أحمد ابن المنجم .				١٥٤			
إبراهيم بن السري بن سهل . « أبو اسحق الزجاج » .						٣٣	٣٢
ابراهيم بن سفيان ... بن زياد بن أبيه . « أبو إسحق الزيادي المتوفى سنة ٢٤٩هـ » .					٣٤		
إبراهيم بن المهدي .				١٨١			
أحمد بن حنبل المتوفى سنة ٢٤١ هـ .						١٠٣/٢	
أحمد بن عبدالله بن الحسين . « القطربلي » .				١٣٣			
أحمد بن عبيد بن ناصح . « أبو عصيدة » .				١١٩			
أحمد بن عمر الشيباني المتوفى سنة ٢٦١ هـ . « الخصاف » .						١٠٣/٢	
أحمد بن كامل أبو بكر ، أحمد القراء . « ابن شجرة » .				٢٠٢			

(١) لعله الأخفش الكبير عبد الحميد بن عبد المجيد . (ع) .

	ر	س	عب	غ	ف	ل	م
خلف بن حيان [الأحمر] .				١٢		١٩	
الخليل بن أحمد الفراهيدي .	١٢٠	٢٠٦	٣٠	٦٨	١٣٥	١٩	٣٥
* * *							
دلف بن جحدر الشبلي المتوفى سنة ٣٣٤ هـ ، شاعر سلك في شعره مسلك المتصوفة « أبو بكر الشبلي » .				٢٠٦			
الدومي .				١٧			
* * *							
أبو رجاء العطاردي قارىء ، [تابعي بصري من أصحاب أبي موسى الأشعري] .				٩٣			
رزين العروضي .	١٢٥						
* * *							
زبان بن العلاء المتوفى سنة ١٥٤ هـ « أبو عمرو بن العلاء » .				٢٠		٢٦	٩١
* * *							
سحبان بن زفر بن إياس الوائلي المتوفى سنة ٥٤ هـ .						٢٤٤/٢	
سطيح .						٢٢٧	
سعيد بن أوس « أبو زيد » .	٢٢٣		١١٠	١٠٧	١١٠	٢٨٥	٩١

	ر	س	عب	غ	ف	ل	م
سعيد بن مسعدة ـ أبو الحسن «الأخفش الأوسط».	١١٤		٦٥	٩	١٢٣	١٩	١٨
سفيان الثوري .						١١٨	
سلمان الفارسي المتوفى سنة ٣٦ هـ .				١٦٩			
ابن سمح أبو علي بن السمح المنطقي العراقي توفي سنة ٤١٨ هـ .						٢٣٥	
سهل بن محمد المتوفى سنة ٢٥٥هـ «أبو حاتم السجستاني».	١٢٧		٢٣٣				
* * *							
أبو شريح .				١٠٠			
شق بن نمار .						٢٢٧	
* * *							
صالح بن إسحاق البجلي الجرمي المتوفى سنة ٢٢٥هـ.			١٨٣			١٩	٩٧
الصناديقي .				١٤٣			
* * *							
عاصم بن أبي النجود الكوفي الأسدي أحد القراء [السبعة] المتوفى سنة ١٢٧ هـ .						١٨٦/٢	
عبد الجبار بن أحمد، المعتزلي المتوفى سنة ٤١٥هـ.				١٥٦			

	ر	س	عب	غ	ف	ل	م
عبد الملك بن قريب — « الأصمعي » .	٤٦	١١١/٢	١٤١	١٨	٣٤٠	٤٢	٢٤١
عبد الواحد بن علي — « أبو الطيب اللغوي ».				١٩٢			
عبد الوهاب بن أحمد أو حَريش الأعرابي . « أبو مسحل » .							٢٠٦
عبيد الله بن أحمد المتوفى سنة ٢٨٠ هـ « ابن خرداذبة ».				١٧٥			
عثمان بن جني — أبو الفتح المتوفى سنة ٣٩٢ هـ .			١٨٠				
عثمان بن سعيد ، أحد القراء [راوية نافع] المتوفى سنة ١٩٧ هـ . « ورش » .						٥٢/٢	٢٥٩
عروة بن حزام .				٢١٠			
عطاء بن أبي رباح التابعي المتوفى سنة ١١٥ هـ .							٢٢٠
العلاء بن أبي بكر — أبو عمرو « مكوَزَة الأعرابي».							٧٥
علي بن أبي طالب .				٢٠			
علي بن إسماعيل بن إسحق — « أبو الحسن الأشعري المتوفى سنة ٣٢٤ هـ » .				١٥٦			

	ر	س	عب	غ	ف	ل	م
علي بن الحسن العلوي — الشريف أبو القاسم بن الأعلم المتوفى سنة ٣٧٥ هـ .						٢٣٥	
علي بن حمزة الأسدي الكوفي المتوفى سنة ١٨٩ هـ ، « الكسائي » .			٦٥	١٨			٩٣
علي بن عبد العزيز الجرجاني المتوفى سنة ٣٦٦ هـ ، وقيل سنة ٣٩٢ هـ « قاضي الري » .						١٧٢/٢	
علي بن عيسى بن الفرج الربعي « أبو الحسن الزهري ».			٥٠				
علي بن عيسى ، أبو الحسن المتوفى سنة ٣٨٤ هـ . « الرماني » .	٨٦						٩٢
علي بن قطرب .				٩٨			
علي بن المغيرة ، « أبو الحسن الأثرم المتوفى سنة ٢٣٢ هـ ».				١٢٥			
عمرو بن عثمان بن [قنبر صاحب الكتاب] سيبويه المتوفى سنة ١٨٠ هـ . [على خلاف] .	١٣٢		٢٦	١٨		١٨٠/٢	١٥

	ر	س	عب	غ	ف	ل	م
عيسى بن إسحق بن زرعة ، البغدادي المتوفى سنة ٤٤٨هـ . وقيل سنة ٣٩٨ هـ .						٢٣٥	
عيسى بن عمر الثقفي ، شيخ الخليل وسيبويه المتوفى سنة ١٤٩هـ .			١٧٦				
أبو عيسى بن الرشيد .				١٤٦			
• •							
الفضل بن سهل المتوفى سنة ٢٠٢هـ .				١٤٩			
الفضيل بن عياض [بن مسعود بن بشر] التميمي أبو علي [الزاهد] المتوفى سنة ١٨٧هـ .				١٧٤			
• • •							
القاسم بن سلام ، « أبو عبيد المتوفى سنة ٢٢٤ هـ » .					٣٤٠	٢٠	
القصار .				١٤٢			
ابن القنسري المقرىء .				١٧٣			
• • •							
مالك بن أنس ــ صاحب المذهب .						١٠٣/٢	
مالك بن دينار البصري ، أبو يحيى المتوفى سنة ١٣١هـ .				٢٠٠			
محمد بن أحمد بن كيسان المتوفى سنة ٢٩٩ هـ .			١٤٠				٢٢٥

	د	س	عب	غ	ف	ل	م
أبو بكر محمد بن أحمد بن مزيد النحوي [مستملي المبرد] ابن أبي الأزهر المتوفى سنة ٣٢٥ هـ .				١٣٦			
محمد بن إدريس ، « الإمام الشافعي » .						٤٣٢	
أبو بكر ، محمد بن الحسن « ابن دريد المتوفى سنة ٣٢١ هـ » .	١٠٨		١٤٦				
محمد بن الحسن الرؤاسي ، أستاذ الكسائي والفراء .							١٦٩
محمدبن زياد ، ابن الأعرابي المتوفى سنة ٢٣١ هـ .	١٣١		٢٠٩		٩٦		١٤٠
أبو بكر محمد بن السري ابن سهل المتوفى سنة ٣١٦ هـ « ابن السراج » .			٢٢	١٣٧		٣٣	٢٥٣
محمد بن الطيب بن محمد المتوفى سنة ٤٠٣ هـ . « أبو بكر الباقلاني » .						١٢٢/٢	
محمد بن عبد الرحمن بن محمد المكي المخزومي ـ قُنْبُل [القارىء راوية ابن كثير] المتوفى سنة ٢٩١ هـ .						١٨٦/٢	

	ر	س	عب	غ	ف	ل	م
محمد بن عبد الواحد ، أبو عمر الزاهد المطرز غلام ثعلب المتوفى سنة ٣٤٥ هـ .			١٨٦	٢٠٠		٣٨٥	
محمد بن علي بن أبي طالب « محمد بن الحنفية » .				١٦٨			
محمد بن علي المراغي — أبو بكر ، قرأ على الزجاج .							٢٨٠
محمد بن عمران بن موسى «المرزباني المتوفى سنة ٣٧٨هـ» .				٧٥			
محمد بن محمد بن النعمان ، [الشيخ المفيد — من رؤوس الشيعة] « ابن المعلم » .						١٧٢/٣	
محمد بن المستنير « قطرب المتوفى سنة ٢٠٦ هـ » .				٩٨			
محمد بن يحيى بن عبد الله « أبو بكر الصولي المتوفى سنة ٣٣٥ هـ » .				١٤٠			
محمد بن يزيد الثمالي أبو العباس « المبرد المتوفى سنة ٢٨٥ هـ » .			١٨٧	١٧		٣٩٧	
محمد بن الهذيل [البصري] « أبو الهذيل العلاف » المتوفى [سنة ٢٣٥ هـ] .						١٣١	

	ر	س	عب	غ	ف	ل	م
أبو معشر المدني .				١٧٥			
معمر بن المثنى « أبو عبيدة المتوفى سنة ٢١٠ هـ » .	١٣٣		٢١	١٨			٨
المفضل بن محمد بن يعلى الضبي « المفضل الضبي المتوفى سنة ١٦٨ هـ » .				١٠٦	٣٨٠		٢٦٢
• • •							
نافع أبو عبيد المدني من أئمة التابعين المتوفى سنة ١١٧هـ .			٢٢٢				
النضر بن شميل .				٦٩	٣٠٨		
النعمان بن ثابت « الإمام أبو حنيفة » .		٢١٢				٢٤٠	
• • •							
يحيى بن زياد — أبو الفضل « الفراء المتوفى سنة ٢٠٧هـ » .			٦٥	٢١		١٩	٢٤
يحيى بن وثاب الأسدي الكوفي روى عن ابن عمر وابن عباس توفي سنة ١٠٣ هـ.							١٢٤
يعقوب بن إسحق « ابن السكيت المتوفى سنة ٢٤٤هـ » .	٤٧		٢٢٧				
يونس بن حبيب « الضبي المتوفى سنة ١٨٣ هـ » .				١٣٩		١٧	٤٩

★ ★ ★

ما ألفه من الكتب والدواوين :

ذكر ياقوت في (إرشاد الأريب) أنه قرأ في نسخة فهرس كتب أبي العلاء ، وفي أولها يقول :

« قال الشيخ أبو العلاء [رضي الله عنه] لزمت مسكني منذ سنة أربعمائة ، واجتهدت على أن أتوفر على تسبيح الله وتحميده ، إلى[1] أن أضطر إلى غير ذلك . فأمليت أشياء ، وتولى نسخها الشيخ أبو الحسن علي بن عبد الله بن أبي هاشم — أحسن الله معونته — فألزمني بذلك حقوقاً جمة ، وأيادي بيضاء ، لأنه أفنى فيّ زمنه ، ولم يأخذ عما صنع ثمنه . والله يحسن له الجزاء ، ويكفيه حوادث الزمان والأرزاء[2] » اهـ .

وقد أورد ابن العديم ، والقفطي ، والصفدي ، والذهبي ، وصاحب (كشف الظنون) طائفة من أسماء كتبه ، فأوردناها بعد ترتيبها على حروف الهجاء ، ليسهل الرجوع إليها ، وأضفنا إلى ما ذكروه ما عثرنا عليه في مظان أخر من كتبه ، أو ما يتعلق بها ، كما أضفنا أمثلة من كتبه التي لم تطبع ليطلع الواقف على هذا الكتاب على شيء من أسلوبه وأغراضه فيها . وهذه هي :

١ — كتاب أدب العصفورين :

وعده ابن العديم ، والقفطي ، والذهبي[3] ، في الرسائل .

---

(١) في القفطي وابن العديم : « إلا أن » . (ع)

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ١٠١ عن إرشاد الأريب — لياقوت .

(٣) انظر تعريف القدماء الصفحات : ٤٨ ، ٢٠٤ ، ٥٣٤ عن إنباه الرواة وتاريخ الإسلام ، والإنصاف والتحري .

٢ — كتاب استغفر واستغفري :

لم تسامحنا الأيام بالاطلاع على هذا الكتاب الذي أثار نائرة العلماء على أبي العلاء ، وحملهم على الطعن في دينه . والظاهر من أقوالهم أن ما فيه يشبه ما في (لزوم ما لا يلزم) وأنهما من نبعة واحدة . وقد قال الصفدي في (نكت الهميان ص ١٠٧) في المعري : « أما الموضوع على لسانه ، فلعله لا يخفى على من له لب ، وأما الأشياء التي دونها وقالها في (لزوم ما لا يلزم) وفي (استغفر واستغفري) فما فيه حيلة ، وهو كثير ، فيه ما فيه ، من القول بالتعطيل والاستخفاف بالنبوات ، ويحتمل أنه ارعوى وتاب بعد ذلك » اهـ .

وقال ابن الوردي في (تاريخه ج ١ ص ٣٦٠) في حوادث سنة ٤٤٩ هـ في المعري : « وأنا كنت أتعصب له بكونه من المعرة ، ثم وقفت على كتاب (استغفر واستغفري) فابغضته ، وازددت عنه نفرة . ونظرت له في كتاب (لزوم ما لا يلزم) فرأيت التبري منه أحزم . فإن هذين الكتابين يدلان على أنه كان لما نظمهما عالماً جائراً ، ومذبذباً نافراً ، يقر فيهما أن الحق قد خفي عليه ، ويود لو ظفر باليقين ، فأخذه بكلتا يديه » اهـ .

وقد ذكر الزمخشري في (الكشاف) في تفسير قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ[1] ﴾ قصة مسيلمة وسجاح ، ثم قال : « فيها يقول أبو العلاء المعري في كتاب (استغفر واستغفري) :

أمَّتْ سَجَاحُ وَوَالاَهَا مُسَيْلِمَةٌ كَذَّابَةٌ في بني الدُّنيا وكَذَّابُ[2] »

---

(١) سورة المائدة الآية ٥٤ .

(٢) انظر فائت شعر أبي العلاء — للميمني — ص ٣ .

أمّت : من الإمامة ، وروي : « ورافاها مسيلمة » أي واقعها . ويروى « آمت سجاح » أي صارت أيما وهي التي مات زوجها . وقال في (عيون الأنباء في طبقات الأطباء ج ١ ص ٨٨) في ترجمة جالينوس : « وقد مدح أبو العلاء بن سليمان المعري في كتاب (الاستغفار) كتب جالينوس ، ومدوني الطب ، فقال :

سُقياورعيا لجالينُوس مِنْ رَجُلٍ ... وَرَهْطِ بُقراطَ غَاضُوا بَعْدُأوْزَادُوا
فَكُلُّ مَاأصّلُوهُ غيرُ مُنْتَقِضٍ ... بِهِ استَغَاثَ أُولُو سُقمٍ وَعُوّادُ
كُتبٌ لِطافٌ عَلَيْهِم خَفّ مَحملها ... لَكِنها فِي شِفاءِ الداءِ أطوادُ[1] ».

ولا أعلم إن كان كلام الاستغفار هذا هو كتاب استغفر واستغفري أم غيره.

وذكر ابن العديم في كتب أبي العلاء كتاباً في المنظوم يعرف باستغفر واستغفري ، في العظة ، والزهد ، والاستغفار . أول كل أبيات فيه : « أستغفر الله » ومقداره مائة وعشرون كراسة ، فيه نحو عشرة آلاف بيت[2].

ونحو ذلك في القفطي . وفي الذهبي ، يعرف بكتاب استغفر واستغفري منظوم فيه نحو عشرة آلاف بيت ، وفي (مرآة الزمان) ست مجلدات . وقد نقل عنه التبريزي في (شرح سقط الزند) :

« وذكر أبو العلاء في كتابه (استغفر واستغفري) أنه لو قيل للدنيا : أم دفر ، للدفع — وهي تدفر أهلها ؛ أي تدفعهم — لكان وجهاً حسناً ».

وقال الخوارزمي في (شرح السقط ج ٥ ص ٢٠١٢) : ومن أبيات (استغفر واستغفري) :

---

(١) فائت شعر أبي العلاء — الميمني — ص ٦ .

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٣٨ عن الانصاف والتحري — لابن العديم .

أورَقتَ يا غُصنُ لا تَدري بما صَنَعَتْ
لكَ المَقاديرُ ثم انتُشِيءَ الزّهَرُ

فَلَمْ تزَلْ لِقَضاءِ اللهِ مُنتَقِلاً ... حالاً فَحالاً إلى أنْ أينَعَ الثَّمَرُ
وكانَ واليكَ يَخشَى أن تمسّ أذىً ... يَوماً و يَسقيكَ إنْ لم يَسقِكَ المَطَرُ
مَا نامَ عَنكَ ولاَ ألهَتهُ نائِبَةٌ ... حتى قدُمتَ وجاءَ الضَّعفُ والخَوَرُ
ثمّ اعتَدى لَكَ عِندَ القُرِّ مُحتَطِباً ... يُلقِيكَ في النّارِ عمداً وهي تستَعِرُ
وإنّما قُلتُ مَا قدّمتُهُ مَثَلاً ... لِلمَرءِ لمّا أتاهُ الشَّيبُ والكِبَرُ

٣ — كتاب إسعاف الصديق :

يتعلق بكتابه الذي سماه (تعليق الجليس) وهو يتعلق بكتاب أبي القاسم الزجاجي المعروف بـ (الجمل) . وإسعاف الصديق ثلاثة أجزاء وقد رأى القفطي أجزاء منه .

٤ — كتاب إقليد الغايات :

وهو مشتمل على تفسير اللغز ومقداره عشر كراريس ، وفي (كشف الظنون) والقفطي : مقصور على تفسير اللغز .

٥ — كتاب الألغاز :

قال البديعي في (أوج التحري)[1] : « ولأبي العلاء المعري ديوان شعر جميعه في الألغاز » منه :

---

(١) أوج التحري عن حيثية أبي العلاء المعري — البديعي — ص ١٠٤ تحقيق الدكتور ابراهيم الكيلاني .

أضعفتَ قوةَ فُرسانٍ ذكرتَ لَهُمْ　　أنّ الفوارسَ لاقتْ بالرّدى شرَقا
فأصبحَتْ تطعَنُ الأعداءَ جاهدةً　　عَنِ المِلاحِ وتَرمي دُونَها الحدَقا

أضعفت : من قولك : أضعفت الشيء إذا زدته ضعفه ، ألغز عن أضعفت من الضعف ، كأنه لما خبرهم أن نساءهم هلكت ، اشتدت ظهورهم لذلك ؛ لأنهم أمنوا عليها السباء . عن الملاح : أي عن المياه الملاح ، يقال : قَليب ملح وأقلبة ملاح ، ألغز عن الملاح من الناس .

وقال :

شَمْطاءُ تَعْمِلُ في غابٍ مخالِبَها　　فما تزالُ نَهاراً تعضدُ الشّجَرا
تأوي إلينا فقَدْ أغنَتْ مَعاشِرَنا　　عَنِ الوَقودِ وَما أدْمَتْ لَهَا ظُفُرا

شمطاء : أمة ، والمخالب : المناجل ، تعضد : تقطع . والوقود : ما توقد به النار من الحطب .

وقال :

إذا نَعامَةُ لَيْلٍ بالفَلا بَرَكتْ　　أنحى الظَّليمُ عَلى التّقريبِ والخَبَبِ
وإنّ مَنْ جعَلَ الظلماءَ ناقتَهُ　　كانتْ جديراً بما يَنوي مِنَ الأرَبِ

نعامة الليل : ظلمته . الظليم : المظلوم . ألغز عن ظليم النعام .

وقال :

وَراقدٍ لَوْ أرادَ النّجْمَ أدْرَكهُ　　يُلْقي عَصاهُ عَلى الجوزاءِ والحَمَلِ

يَرْمي عَلى الأَيْن بالمَرِّيخِ مِنْ يَدِهِ وَلا يَخافُ وُقوعَ النَّحْسِ مِنْ زُحَلِ
[يَهْوى الثُّرَيّا فيَبْغيها و تُمكنه من نفسِها فيُقَضّي غايةَ الأملِ]
إذا دَنا كَوْكَبٌ مِنْهُ لِيخْتِلَهُ رَدّاهُ بِالفِهْرِ أوْ صَادَاهُ بالعِلَلِ
مَتى رَأى هادِيَ السِّرْحانِ رِيعَ لَهُ وَإنْ رَأى ذَنَبَ السِّرْحانِ لم يُبَلِ

النجم : النبت ، والجوزاء : شاة في وسطها بياض وهي سوداء ، أو سواد وهي بيضاء ؛ ذكر ذلك غير واحد في شيات الغنم . والمريخ : سهم له أربع قذذ ؛ ولا يخاف وقوع النحس: أي لا ينظر في النجوم ، والثريا : تصغير ثَرْيا ، وهي أرض ذات ثرى ، وأصلها المد ، وقصرها جائز في الشعر . والكوكب : الغلام اليافع ، ردّاه : أي رماه . صاداه : داراه .

وقال :

إنّ العَقِيقَ أتانا مِنْ مَحَلَّتِهِ بالبَصْرةِ العامَ حتّى حلّ في هَجَرا
يَهزّ نفساً إلى العَلْياء تائِقةً لَوْ كانتِ الدُّجْنَ لَمْ تمسِكْ لها مطَرا

العقيق ههنا : الرجل المفوق . ألغز عن عقيق البصرة وهو موضع بها .

وقال :

أتى الأَرْبعاء القَوْمُ في يَوْم جُمعَةٍ وَسبتهم وافاهُمُ بِخَميسِ
وَمَن لا يخُنْه عُمْرُه تلْقَ نفْسُه ضُروبَ نَعيمٍ في الزّمانِ وَبُوسِ

الأربعاء ههنا : جمع ربيع وهو النهر الصغير ، ألغز عن اليوم . وسبتهم : إن شئت كان يوم السبت ، واقام فيه خميس : وهو الجيش . وإن شئت كان الخميس ههنا ضرباً من السير ، ويكون الخميس يوماً أو جيشاً أو ثوبا .

وقال :

خَلِيلانِ نِيطَا في جَوانِبِ مَجْلِسٍ ... جِدَارَاهُ قُدَّامٌ لَهُ وَوَرَاءُ
مَتى يَضَعِ الرِّجْلَيْنِ مَاشٍ عَلَيْهِما ... يزُلْ عَنْهُ في وَشْكٍ حَفاً وَحَفاءُ

هذان الركبان . والمجلس : السرج . جداراه : قربوسه ومؤخرته . والحفا مقصور : أن يتجع الرجل من ألم المشي . والحفاء ممدود : أن يمشي الرجل حافيا .

وقال :

وَلابِسَةٍ في قَيْظِها أَلْفَ حُلَّةٍ ... وأكثَرَ لَمْ تَحفلْ بِحُسْنِ لِباسِ
وَلاخَشِيَتْ قُرّاً ولا مِنْ ظَهِيرَةٍ ... هَجيراً ولا اسْتَحْيَتْ عُيُونَ أُناسِ
وكَمْ عِنْدَها عَارٍ يَوَدُّ لَو أَنَّهُ ... بِطمرَيْنِ مِن شَرِّ المَعاوِزِ كَاسِ

هذه الكعبة . والمعاوز : الثياب الأخلاق .

وقال أيضاً فيها :

لها اللهُ ما هَمَّتْ لحيٍّ بِزَوْرَةٍ ... عَلَى أنها طُولَ الزَّمانِ تُزَارُ
عَلَيها سُتُورٌ وهْي غَيْرُ حَيِيَّةٍ ... وَلاَ عِنْدَ لَمْسٍ بالأكُفِّ نوارُ

نوار : نفور . وكتاب الألغاز كبير الحجم ، رتبه على جميع حروف الهجاء ، مشتمل على كل بحور الشعر وأعاريضه وضروبه ، وما ذكرنا هذه النبذة منه إلا ليستدل بها على أسلوبه . وهذه طريقة المتقدمين في الألغاز».

وفي الشريشي (ج ٢ ص ٧٩) « وقال المعري يلغز في القمح :

وَسَمْراءَ في بيضِ الحِسَانِ شَرِيتُها بِصُفْرٍ من العَيْنِ الشبيهةِ بالشَّمسِ
وَقَدْ غُيِّبَتْ في الخِدْرِ عَصْراً مَصُونةً مُحَجَّبَةً عَنْ أعينِ الجِنِّ والإِنسِ
فَلَمَّا بَدَتْ عَنْهُ بَدَتْ سِيمَةُ النَّوَى عَلَيْها وَلَمْ تَجْزَعْ لِحادثةِ الأمْسِ
فَأَهْلاً بِأُنْثَى لَمْ تَرُدْ يَدَ لَامِسٍ بِسُوءٍ ولا أَبْدَتْ نِفَاراً مِنَ اللَّمْسِ ».

هكذا رواها ، وأظن أن « لم ترد » محرفة عن « لم تذد » .

٦ ـ كتاب الأنواء :

هذا الكتاب ، ذكره البغدادي في (خزانة الأدب) في جملة الكتب التي اعتمد عليها وانتقى منها ، ولم أر من ذكره غيره .

٧ ـ كتاب الأيك والغصون :

وهو كتـــاب كبير يعرف بكتاب (الهمزة[١] والردف) بُني على إحدى عشرة حالة من الحالات : الهمزة في حالة انفرادها واضافتها ، ومثال ذلك : السماءُ بالرفع ، والسماءَ بالنصب ، والسماءِ بالخفض . وسماء يتبع الهمزة التنوين « سماءٌ ، سماءً ، سماءٍ » ثم : سماؤه مرفوع مضاف ، سماءه منصوب مضاف ، سمائه مخفوض مضاف ، ثم يجيء : سماؤها ، وسماءها ، وسمائها ، على التأنيث . ثم همزة بعدها هاء ساكنة ، مثل : ملاءة ، وعباءة . فتلك إحدى عشرة حالة ـ إذا اعتبرت صور المنون واحدة ـ فإذا ضربت في حروف المعجم الثمانية والعشرين ، خرج من ذلك ثلاثمائة فصل وثمانية فصول .

---

(١) في القفطي « الهمز » وكذا في ابن النديم ، وفيها اختلاف يسير وبعض وزيادة عما ذكره ياقوت . (ع)

وهي مستوفاة في كتاب (الهمزة والردف) وذكرت فيه الأرداف الأربعة ، بعد ذكر الألف ، وهي الواو المضموم ما قبلها ، والواو التي قبلها فتحة ، والياء المكسور ما قبلها ، والياء التي قبلها فتحة ، ويذكر لكل جنس من هذه أحد عشر وجهاً ، كما ذكر للألف ، وهذا الكتاب في العظات وذم الدنيا ، ومقداره على قول ياقوت اثنان وتسعون جزءا ، وهو ألف ومائتا كراسة[١] .

وقال ابن خلكان (ج ١ ص ٤١) : « بلغني أن له كتاباً سماه (الأيك والغصون) وهو المعروف بالهمزة والردف ، يقارب المائة جزء في الأدب [أيضاً] وحكى لي من وقف على المجلد الأول بعد المائة من [كتاب الهمزة والردف] ، وقال : لا أعلم ما كان يعوزه بعد هذا المجلد[٢] ! » .

وقد رأى القفطي منه ثلاثة وستين مجلداً في فهرست وقف نظام الملك الحسن بن اسحق الطوسي في بغداد[٣] .وقال ابن العديم : « وهذا الكتاب قليل الوجود لكبره ، ولم أقف إلا على جزء واحد منه ، وبعضه موقوف في خزانة كتب النظامية ببغداد ، وبالديار المصرية منه نسخة كانت في خزائن المصريين ؛ صارت إلى القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني ، وانتقلت إلى ولده القاضي الأشرف بعده ، ثم صارت في جملة كتبه إلى خزانة الملك الصالح أيوب بن محمد بن أبي بكر بن أيوب وأظنها في ستين مجلدا »[٤]. اهـ

وذكر المقريزي في كتاب (السلوك ج ١ ص ٢٣٣) أنها في ستين مجلدا ، وأن أخذها في جملة كتب الأشرف كان في ١٢ رجب سنة ٦٢٦ هـ .

---

(١) انظر تعريف القدماء بأبي العلاء ص ١٠٢ عن إرشاد الأريب لياقوت .

(٢) المصدر السابق ص ١٨٢ عن الوفيات .

(٣) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٤٩ عن إنباه الرواة ـ القفطي .

(٤) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٢٨ عن الانصاف والتحري .

وقال البديعي في (أوج التحري ص ٦٦ [1]) : « قال أبو العلاء : أنشأت كتابي المعروف بكتاب الفصول والغايات ، ونظمته على حروف المعجم ، سوى الألف ، لاني بنيته على الردف ، وقد نجز بحمد الله كتاب غايات وفصول ، يتبعه كتاب أيك وغصون ، وقلت ذلك لعل بركة من ذاكر لله منيب تدركني وأنا حي أو ميت » .

ثم أورد جملة من كتاب الغايات ، وأعقبها بما قدمناه عنه ثم قال : « وكتابه الذي سماه بـ(الأيك والغصون)وهوالمعروف بالهمزة والردف ،يشتمل على ما اشتمل عليه(الفصول والغايات)من تمجيدالله [تعالى] والثناء عليه والمواعظ».

ثم نقل قول ابن العديم وقول ابن خلكان . ثم قال : « ولم ينسبوه فيه إلى معارضة القرآن العزيز ، كما نسبوه في الفصول والغايات ،مع أنهما على نمط واحد .

مثال من الأيك والغصون :

وهذه نبذة من كتاب الأيك والغصون ، متضمنة للسمع والعيون .

قال أبو العلاء :

لوْلا مَا أصْفَقَ المُتَعَبِّدُونَ مِنْ تَمْجِيدِ اللهِ ، لَوَجَبَ أنْ لا يُذْكَرَ اسمُ اللهِ - تَعَالىٰ - إجلالاً وهَيْبَةً . وأنْ لا تُرْفَعَ أُنْمُلَةٌ إلىٰ السَّمَاءِ إعْظاماً وتَأَثُّماً . الخَمْصَةُ لِلْفَحْـلِ وِجَاء [2] . لا يَسْتَثِيرَنّ غَضَبَكَ هِجَاء . لِلأقْدارِ النَّظِرَةُ والفجاء [3] .

• • •

---

(١) أوج التحري تحقيق الدكتور ابراهيم الكيلاني ، منشورات للمعهد الافرنسي بدمشق وهذه النصوص في الصفحات ٤٨ ـ ٧٣ .

(٢) الخمصة :المجاعة : الوجاء : شبيه بالخصاء ، وهو دق عروق الخصيتين بين حجرين من غير أن يخرجهما . اللسان « وجأ » .

(٣) النظرة : الامهال ، الفجاء : المباغتة .

إِذَا نَزَلَ قَدرُكَ فَلاَ رَاق . وإِذَا هَلَكَ عِبَادُكَ فَأَنتَ باقٍ . أينَ المتأَسِّفُ عَلى قَوْمِه ؟ لَقَدْ شُغِلَ بِلِقَاءِ يَوْمِه . افْرَحْ بِالْحَسَنَةِ إِذا صَنَعْتَها . وانْدَمْ عَلَى صَلاتِكَ مَتى أَضعتَها . الأَمَلُ والِحرصُ مُتَوَاخِيان . والزُّهدُ والعِبَادَةُ نَسِيبانْ . خَيْرُ مَا تَنْطِقُ بِهِ ثَنَاؤُكَ عَلَى خَالِقِكْ . وكَيْفَ ثَنَاؤُكَ عَلى مَالاَ تَعْرِفُهْ ؟ . إِنَّما دَلَّكَ عَلَيْهِ الصُّنْع . فَمَعْرِفَتُكَ وَقَعَتْ بِالأَفْعَالِ دُونَ مَنْ فَعَل . واللهُ حَكِيم . والمَعْرِفَةُ بِرَبِّنا عَوْصاء .

* * *

كَلَّتِ الأَلسُنُ عَنْ صِفَتِك . نُؤمِنُ بِكَ وَنَثِقُ بِقُوَّتِك[1] . وَنسأَلُكَ أَنْ تُوسِعَنَا مِنْ رَحْمَتِك . كَذَبَ المَادِحُ سِوَى مَادِحِيك . سُبْحَانَكَ رَبَّ المَمْلَكَةِ مَا لَها انْقِضاء .

* * *

احذَرْ صَدِيقَكَ وَصَاحِبَكْ . مِثْلَمَا تَحْذَرُ عَدُوَّكَ ومُحارِبَكْ . إِذَا انْتَوَتْ بِصَدِيقِكَ نَوًى[2] فَلا تَنْسَهْ . واذْكُرْ مُلاَطَفَتَهُ

(١) في أوج التحري : « بعزتك » .
(٢) أي بعد به البعد .

وأُنسَهُ[1]. كاشِفْ صَاحِبَكَ المَعْصِيَةَ وازْعِجْه. وأكْرِمِ النَّاسِكَ ولا تَهجُه. وأحْسِنْ إلى فَقيرِكَ وأَبهِجْه. مَنْ أَرَادَ مِن الدُّنيا حَظًّا هَضَمَ نَفْسَهُ فِي خِدْمَتِهَا. ومَنْ أَدْرَكَهَا مِنْ غَيْرِ نَصَبٍ فَذٰلِكَ جَرَى مَجْرَى الشَّاذِّ لاَ يَحْتَمِلُ قِياساً عَلَيْه. كَمْ قَومٍ في حُبِّ العَاجِلَةِ قَد اضْطَغَنُوا. وخَلَّفُوها بَعْدَ ذٰلِكَ وظَعَنُوا. قُلْ مَا بَدَا لَكَ أو اصْمُتْ. كُلُّنا سَمْتَ الآخِرَةِ يَسْمُتُ[2]. أَقْبَحُ مِنَ الغَيِّ الإغْواء.

* * *

إذا سَقَيْتَ عَافِيَكَ فَاسْقِهِ مَحْضاً[3]. وإذَا سَأَلتَ رَبَّكَ مَعِيشَتَكَ فَاسْأَلهُ خَفضاً. ولا تَذمُمْ صَاحِبَكَ شَغَفاً وبُغْضاً، واغْفِرْ لَهُ ما اجْتَرَمَ تَفَضُّلاً وغمْضاً. كَيْفَ لا أحْذَرُ وأَتَّقِي. هَلْ خُلِّدَ أَحدٌ أوْ بَقِي؟. يَاربِّ مَنْ سَعِدَ وَشَقِي. لَقِّنَا بِرَحْمَتِكَ خَيْرَ مَا لَقِي. فَإنَّ الهُوَّةَ أَكُولٌ فَوْهاء[4].

* * *

---

(١) في الأوج: «واذكر ملاطفتك إياه وأنسه».

(٢) أي يتجه وجهة الآخرة.

(٣) العافي: طالب المعروف.

(٤) فوهاء: واسعة الفم.

اشْجَعْ فَإِنَّ أَقْدَارَ اللهِ لا تَعْجَلُ إِلى الشجَاع . وَلاَ تَنْكصْ إِلىْ لِقَاء الَجبَانْ . فَلاَ تَكُنْ مِنْ قَوْمٍ نُخَباء[1] .

* * *

إذا رُزِقْتَ الظَّفَرَ فَأَحسِنْ . وَقَيِّدْ فَرَسَكَ وَأَرْسِنْ . خَاصِمْ نَفْسَكَ فَإِنُهَا عَدُوَّة ، واصْبِرْ عَلَى أقارِبِكَ فَإِنَّ الصَّبْرَ عَلَيْهِمْ مُرُوَّة . واعْلَمْ أنَّ عِبَادَةَ رَبِّكَ جَنَّةٌ مَجْفُوَّة . لاَ تَعِيبَنَّ أَحداً بِأَمْر . فَتَطَأَ عَلى مِثْلِ الجَمْر . اصْبِرْ عَلَى مَا حَكَمَ رَبُّك . وإِيَّاكَ وَلَيْتَ الـكَاذِبَة ، ولَوْ الغَرَّارَة ، وَعَسَى الُمخْلِفَة ، ولَعَلَّ الخَالِبَة . وابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ . ولا تَكُونَنَّ كَالرَّجُلِ يَبْكِي العَدَاءْ .

* * *

لاَ تَمُلَّنَّ مِنَ اسْتِغْفَارِكْ . وَوَاصِلِ التَّذْكِرَةَ وَدَارِكْ . وأخفِ الكَلِمَةَ في إِضْمارِكْ . وَلاَ تَزِيدَنَّ جَرَائِمَكَ بِاعْتِذَارِكْ . أَعُدُّ سَنَةً بَعْدَ سَنَة . فَمَرَّ الزَّمَانِ وَأَنَا في سِنَة . إِنَّ اللهَ يَرْفَعُ الُمتَوَاضِعَ وَيُعِينُه . وَيَذُلُّ الُمتَجَبِّرَ وَيُهِينُه . إِذَا كَانَ

---

(١) نخباء : مفردها نخب وهو الجبان الذاهب القلب .

جَلِيسُ الرَّجُلِ يُعِينُهُ عَلَى طَاعَةِ اللهِ . فَالمُجَالَسَةُ أَفْضَلُ مِنَ التَّوَحُّد[1] . وَإِذَا كَانَ الجَلِيسُ يَغْمِسُكَ فِي المَعْصِيَةِ فَبَادِرِ الإِخْلاءَ .

* * *

المُؤْمِنُ بَلِيغٌ وكَأَنَّهُ عَيِيٌّ . وَمُحْسِنٌ فِي البَاطِنِ وَكَأَنَّهُ مُسِيٌّ . فِي كُلِّ نَفْسٍ أُعْجُوبَة . وَالحَقَائِقُ عَنِ البَشَرِ مَحْجُوبَة . مَنْ كَفَرَ فَلاَ تُلاَحِه . حَسْبُهُ سَيِّئُ صَبَاحِه . فِي مَغْدَاهُ وَرَوَاحِه . فَكَانَ مِثْلَ الكَلْبِ الأَخْرَق . جَازَى المُطْعِمَ بِنُبَاحِه . لاَ تَغْبِطِ الثَّمِلَ بِرَاحِه . وَارْثِ لَهُ مِنَ اجْتِرَاحِه[2] . لَوْ رَضِيَ بِبَارِدٍ مِنْ قَرَاحِه[3] . لَرَجَوْتَ أَنْ يَظْفَرَ بِفَلاَحِه . عَلَى أَنَّ المَلِكَ مُحْسِنٌ فِي كُلِّ الأَنْحَاء .

* * *

يَا نَحْوُ يَا نَحْو . حُقَّ لِمَا كُتِبَ مِنْكَ مَحْو[4] . مَا أَنتَ وَمَا الحَاجَةُ إِلَيْك . إِنَّمَا يُفْتَقَرُ إِلَى تَقْوَى الله . مَا أَشْغَلَنِي إِذَا

---

(١) في الأوج : « التوحيد » ولعلها خطأ لأن أبا العلاء يريد بهـا الانفراد حسب ما يقتضيه السياق .

(٢) اجتراحه : اجترح الاثم أي ارتكبه .

(٣) القراح : بالضم ، الماء الذي لا يخالطه ثفل من سويق أو غيره . وبالفتح ، الماء الذي لا يخالطه شيء يطيب به كالعسل والتمر والزبيب . اللسان « قرح » .

(٤) في الأوج : « المحو » .

نُودِيَ بِي عَنْ أَحكَامِ النِّدَاء . مَا تَرْخِيمٌ وُضِعْ . وَكَلاَمٌ ضُمّ وجُمِعْ . جُرّ بالإِضَافَه . وَنُصِبَ عَلَى الإِغْرَاء .

* * *

اسْتَغْفِرْ رَبّكَ وَتُبْ . هَلْ تَنْفَعُكَ هٰذِهِ الكُتُبْ ، انْظُرْ إِلَى مَنْ شِئْتَ مِنْ أَهْلِ الزّمَن . تَجِدْهُ في عَنَـاء ومِحَنْ . قَضَى بِالجَهْلِ المُتَكَمِّنْ . فَإِذَا هُوَ بِالْكَذِبِ مُتَلَمِّنْ[1] . كُلُّنَا يَظْلِمُ وَيَحُوب[2] . والرّجُلُ إِلَى الهَلَكَةِ يَجُوبْ . يَنْدَمُ الثَّمِلُ إِذَا صَحَا ، ويَعْلَمُ أَنّهُ جَهِلَ فِيمَا انْتَحَى . إِذَا لاَقَيْتَ جَارَكَ فَحَيِّهْ . وإِنْ نَزَحَ بِهِ الزّمَنُ عَنْ حَيِّهْ . لَوْ وَجَدْنَا غَيْرَ القَنَاعَةِ لأَخَذْنَاه . أَبَى عَلَيْنَا الغُصْنُ لَمّا جَذَبْنَاه . مَنْ يَذْكُرِ اللهَ بِلِسَانْ . وَيَفْعَلِ أَفعالاً غَيْرَ حِسَانْ . فَبُعْدَ ذَاكَ مِنْ إِنْسَانْ ، الزّمَنُ كَرٌّ وَفَرّ . خَيْرٌ يَطْرُقُ وَشَرّ . لِلّهِ مَا أَبْتَكِرُ وَأَرُوحْ . إِنّ مِلْءَ الخَلَدِ قُرُوح . التَّائِبُ خَيْرٌ مِنْ غَيْرِه . رَجَعَ مِنْ شَرِّ العَمَلِ إِلَى خَيْرِه[3] . إِنّ أَمْرَ الصّمَدِ لَمَقْضِيّ . وَكُلّ

---

(١) في الأوج : « بالجهل » ومتلمِّن : لمنته تلهينا أي سدّفته ، فهو متلدّف . اللسان عن الجوهري « لمن » .

(٢) الحوب : الاثم .

(٣) في الأوج : « رجع عن » .

مَا فَعلَهُ مَرْضِيّ[١] . أعْلَمُ وَعِلْمِي قَلِيل . أنّ ظِلّ الرّحمَةِ هُوَ الظّلِيلْ . إنّ السّائِلَ إذَا حرَمْتَه . فَقَدْ أهنْتَ نَفسَكَ وَأكرَمْتَه . اطْوِ صَاحِبَكَ عَلَى غرّه . واحذَرْ مِنْ عَدُوّكَ وَشرّه[٢] . لاَ تيأسْ مِنْ رَحمَةِ رَبّكَ فإنّهُ كَرِيم . ولاَ تأمَنْ مِنْ غَضَبِ خالِقِكَ فَإنّهُ بَئِيس[٣] . عَلىَ أنكَ أقلُّ في كُلّ مُلْكِ الله[٤] . مِنْ أنْ ينالَكَ غَضَبُهُ أوْ رِضَاه . لَوْلا تَفَاضُلُ نُفُوسِ البَشَرِ وُجِدُوا أكفَاء .

* * *

إذَا كُتِمَ عَنْكَ شَيْء فَدَعْهُ . وَصُدّ عمّا قَبُحَ ولاَ تَصْدَعْهُ . لاَ إلهَ إلاّ اللهُ كَمْ أجهل وكَمْ أمهل . إذَا عَرَضْتَ عَلَى فَانِيَتِكَ صَـــدّاً . ظَنَنْتَ أنّكَ فعَلْتَ زُهْداً . لَوْ أنّكَ وَجَدْتَ المَسْلَكَ إلى نَيْلِهَا . لَكُنْتَ المُتَشَبّثَ بِذَيْلِهَا . استَحْيِ مِنْ

---

(١) في الاوج : « لرضي » .

(٢) في الأوج : « . . . من عدوك شره » .

(٣) بئيس : أي شديد .

(٤) في الأوج : « في ملك الله » .

رَبِّكَ وَمِنَ البَشَرِ. وَأَقْلِلْ في دَعَتِكَ مِنَ الأَشَرِ[1]. سُمْ نَفْسَكَ مَا حَسُنَ مِنَ الصَّنِيعِ[2] فَإِنَّهَا تَأْلَفُ العَادَةَ وَتَدَعُ النِّفَارَ. وَهَبْ نَفْسَكَ مِنَ المَعْدُومَاتِ. فَإِلَى العَدَمِ عَنْ قَلِيلٍ تَصِيرُ. كُلُّنَا يَغْدُو لِمَا قُضِيَ[3]. هٰذَا سَخِطٌ وَهٰذَا رَضِيَ. لاَ تَقُلْ إِلاَّ مَا يَنْفَعُكَ. وَلاَ تَسْمَعَنَّ إِلاَّ مَا يَرْدَعُكَ. مَنْ مَتَّ إِلَى أَهْلِ الخَادِعَةِ[4] بِتَرْكِهَا أَحَبُّوه. وَمَنْ دَافَعَهُمْ في طَلَبِهَا سَبُّوه».

* * *

وقد وضع كتاباً في تفسير الهمزة والردف ، كما سيأتي .

٩ — كتاب أمالي من حديث رسول الله ﷺ :

عن شيوخه وهي سبعة أجزاء .

١٠ — كتاب أمالي :

ذكر في كشف الظنون أمالي أبي العلاء ، قال : وهو مائة كراسة ولم يكمله. وقال ابن العديم والقفطي :

١١ — في كتب المعري : « ومن الأمالي التي لم تتم ، ولم يفرد لها اسماً ، ما مقداره مائة كراسة . منها تفسير شواهد (الجمهرة) » . ولعل هذا هو

---

(١) الأشر : المرح .

(٢) في الأوج : « الصنع » . وسُم نفسك : أي كلِّفها .

(٣) في الأوج : « يعدو » بالعين المهملة .

(٤) في نسخة : « الخادعة » . (ع)

الذي ذكره في كشف الظنون ، وفي الذهبي : « كتاب الأمالي نحو مائة كراسة[١] » ورأى الميمني على طرر نسخة من (الجمهرة) في حيدر آباد عدة فوائد لغوية في غير الشواهد يرويها القاضي أبو سعد عن المعري .

١٢ — كتاب بعض فضائل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه :

وفي ابن العديم : « كتاب جمع فيه فضائل علي ... » وفي الذهبي : « كتاب مناقب علي » وفي القفطي : « كتاب جمع فيه بعض فضائل علي عليه السلام »[٢] .

١٣ — كتاب تاج الحرة :

وهو في عظات النساء خاصة . وتختلف فصوله ، فمنها ما يجيء بعد حرفه الذي يثبت ثبات الروي ياء التأنيث كقوله : « شاني ، وتشاني ، وتُساني ، وهابي ، وترابي » . ومنه ما هو مبني على الكاف ، نحو « غلامكِ ، وكلامكِ » . وفيها ما يجيء على تفعلين مثل « ترغبين ، وتذهبين » وأنواعه كثيرة . ومقداره أربعمائة كراسة . قال ابن العديم : « وهو لبعض الخليلات من النساء ، ويغلب على ظني أنها طَرُود زوج صالح بن مرداس » وقد ذكره ياقوت والقفطي وابن قاضي شهبة[٣] .

١٤ — كتاب التصريف :

ذكره ابن قاضي شهبة في (طبقات النحاة واللغويين) في جملة كتبه وذكر أن أبا حيان نقل عنه في (ارتشاف الضرب) .

---

(١) انظر تعريف القدماء الصفحات : ٤٨ ، ٢٠٤ ، ٥٤١ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) المصدر السابق الصفحات ٤٠ ، ١٠٤ ، ٥٢٩ .

١٥ — كتاب تضمين الآي :

وهو كتاب مختلف الفصول ، فمنه طائفة على حروف المعجم ، وقبل الحرف المعتمد ألف . مثل أن يقال في الهمزة : « بناء ونساء » وفي الباء « ثياب ، وعباب » وهكذا إلى آخر الحروف . ومنه فصول كثيرة على « فاعلين » مثل « باسطين ، وقاسطين » وعلى « فاعلون » مثل « حامدون ، وعابدون » ومنه ما هو على غير هذا الفن . والغرض أن يأتي عند انقضاء كل فصل بآية من القرآن ، مثل قوله ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِين ﴾. وربما اقتصر على بعض الآية ، أوجاء بآيتين وأكثر منها ، إذا كانت الآيات من ذوات القصر ، كآيات « عبس » ونحوها . ومقدار هذا الكتاب أربعمائة كراسة . وسبب تأليفه أن بعض الأمراء سأله أن يؤلف كتاباً برسمه ، فلم يؤثر أن يؤلف شيئاً في غير العظات ، والحث على تقوى الله ، فأملى هذا الكتاب يعظه فيه ، ويحثه على التقوى .

وفي (طبقات النحاة واللغويين) : تضمين اللآلىء ، ولعله محرف عن الآي . وفي القفطي : « والكتاب المعروف بالفصول » وفي الذهبي : « وكتاب مختلف الفصول[1] » .

١٦ — كتاب تظلّم السور :

يتكلم فيه على لسان سور القرآن ، وتتظلّم كل سورة ممن قرأها بالشواذ ، ويتعرض لوجه الشاذ ، ومقداره ست كراريس ، وقد ورد اسمه هكذا عند ياقوت ، وابن العديم[2] .

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٤٠ ، ٢٠١ .

(١) [illegible] ص ١١١ ، ٥٣١ .

وذكر له في (كشف الظنون) .

١٧ — كتاباً اسمه نظم السوَر : ومقداره ست كراريس . ولعل هذا محرف عن الأول . وفي القفطي يعرف بـ (بنظام السور) . والأول هو الموافق لقولهم : « تنظم كل سورة من قرأها » .

١٨ — كتاب تعليق الجليس :

مما يتصل بكتاب أبي القاسم ، عبد الرحمن بن إسحق الزجّاجي ، المعروف بـ (الجمل) ومقداره جزء ، هكذا سماه ياقوتُ ، وسماه الذهبي ، وابن العديم : (تعليق الخُلس) . والقفطي (تعليق الخُلس[1]) .

١٩ — كتاب تفسير أمثلة سيبويه وغريبها :

عُريت من (الكتاب) وهو في مجلد .

٢٠ — كتاب تفسير الهمزة والردف :

وهو جزء واحد .

٢١ — كتاب تفسير خطبة الفصيح : وسيأتي .

٢٢ — تفسير رسالة الغفران : وسيأتي .

٢٣ — كتاب جامع الأوزان :

فيه شعر منظوم على معنى اللغز ، يعمم به الأوزان الخمسة عشر التي ذكرها الخليل بجميع ضروبها . ويذكر قوافي كل ضرب من ذلك . مثاله : أن يقال للضرب الأول من الطويل أربع قواف ، المطلقة المجردة ، كقول القائل ـ الأخطل ـ :

ألا يَا اسْلَمِي يَا هِنْدُ هِنْدَ بَنِي بَدْرِ ... وَإِنْ كَانَ حَيَّانَا عِدىً آخِرَ الدَّهْرِ[2]

---

(١) أنظر ياقوت والذهبي والقفطي وابن العديم في تعريف القدماء الصفحات ٤٦ ، ١٠٨ ، ٢٠٣ ، ٥٤٠ .

(٢) ديوانه ص ١٢٨ ط بيروت سنة ١٨٩١ م . العِدى : التباعد ، وقوم عدّى : متباعدون .

والقافية المردفة ، مثل قول امرىء القيس :

ألا انْعِمْ صَبَاحاً أيُّها الطَّلَلُ البَالي ۞ وَهَلْ يَعِمَنْ مَنْ كَانَ في العُصُرِ الخَالي (١)

والمقيدة المجردة ، وذلك مفقود في الشعر القديم والمحدث ، وربما جاء به المحدثون على النحو الذي يسمى مقصوراً ، كما قال صالح بن عبد القدوس وهو في السجن : (٢)

إلى اللهِ أشكو، إنَّهُ مَوْضِعُ الشَّكْوَى ۞ وَفي يَدِهِ كَشْفُ المصَائِبِ والبَلْوَى

• • •

خَرَجْنَا مِنَ الدُّنيَا وَنَحْنُ مِنْ أهْلِهَا ۞ فَمَا نَحْنُ بالأحيَاءِ فِيها وَلا المَوْتَى

والقافية المقيدة المؤسسة ، مثل أن يكون « العادلْ والقائلْ » وذلك مرفوض متروك ، ثم على هذا النحو إلى آخر الكتاب على حروف المعجم ومقداره ستون كراسة ، وعدد أبياته نحو من تسعة آلاف بيت من الشعر ، وهو ثلاثة أجزاء . وهكذا ورد اسمه في ياقوت ، وابن الصديم . وعند الذهبي : « جامع الأوزان والقوافي » وفي (كشف الظنون) : « جامع الأوزان الخمسة التي ذكرها الخليل » . ولعل لفظ العشرة سقط منه

---

(١) ديوانه ص ١٣٩ ط صادر في بيروت ـ ١٣٧٧ هـ .

(٢) في رسالة الغفران [ط أمين هندية في القاهرة] ص ١٤٢ ومقدمة اللزوم [ط أمين عبد العزيز] ٤٠/١ ، أن هذه الأبيات لولد صالح بن عبد القدوس . (ج) ولم يرد فيها البيت الأول من البيتين اللذين ذكرهما المؤلف بل ورد البيت الثاني منها بعده بيت آخر هو :

إذا ما أتانا زائر متفقد ۞ فرحنا وقلنا جاء هذا من الدنيا

ورواية البيت الثاني في الغفران :

خرجنا من الدنيا ونحن من اهلها ۞ فما نحن بالأموات فيها ولا الأحيا

وذكر الذهبي بعده كتاب (غريب مافي هـذا الكتاب) نحو عشرين كراسة . وهذه أمثلة من (جامع الأوزان) من بحور مختلفة ذكرها الخويي في (التنوير ج ١ ص ١١) [١] .

من المديد قوله :

كَأَنَ سِنَّوْرُ العَتِيكِ إِذَا نَابَ أَمْرٌ يَفْرِسِ الاَسَدَا
وَتَبِيتُ الفَأْرُ دَانِيَةً مِنْهُ إِنْ نَوْماً وإِنْ سُهُدَا
نَابَهُمْ دَهْــرٌ بِقِطِّهِمُ فَرَأَوْا مِنْ عَيْشِهِمْ نَكَدَا

. . .

ومن الهزج قوله [٢] :

أَلاَ يَا عَالِماً مَا الْعِلْـــمُ جَارٌ مِنْهُ فِي نِيَّهْ
فَقِيــهٌ خَامِلٌ إِذْ لَجَّ يَطْوِي تَحْتَكَ الطِّيَّهْ
وَخُفَّــاكَ عَرُوضِيَّا نِ وَالنَّاقَــةُ نَحْوِيَّهْ

. . .

ومن الرَّجَز قوله [٣] :

مَا لِلْغُرَابِ لاَ يَزَالُ سَاقِطاً وَلَيْسَ فِي مَسْقَطِهِ بِنَاعِبِ
أَقَامَ عَشْراً مَا أَرَاهُ مَاقِطاً وَسَتَرَ الأَرْضَ عَنِ الطَّوَالِبِ

. . .

---

(١) التنوير على سقط الزند طبعة دار السعادة بالقاهرة سنة ١٢٨٦ . والسنّور : السيد . والعتيك : حي من الأزد . والفأر : فأر المسك . والقط : النصيب .
(٢) المصدر السابق ١/١٢ ، والفقيه : يقال فحل فقيـه إذا كان حاذقاً بالضراب . وعروضيان : نسبة إلى أديم العروض ، والعروض : مكة .
(٣) المصدر السابق ١/١٢

ومن الرّمل قوله (١) :

وَطَرِيقٍ رَكِبَتْهُ جُزْهُمٌ وَجَدِيسٌ قَبْلَنَا فَهوَ رَكُوبُ
سَلَكَتْهُ الخَيْلُ عَنْ آخِرِهَا وَكذَا الإِبْلُ وَمَا ثَارَ العَكُوبُ

• • •

ومن المنسرح قوله (٢) :

إِنْ تَخْمَدِي يَا نَارُ فَمَا لَدَيْكِ عَارُ عَارٌ فَأَيْنَ الغَارُ

• • •

وقال في جامع الأوزان (٣) :

يَا قُرَّةَ العَيْنِ ، أُمُّ حَفْصٍ وَأُمُّ عُثْمَانَ جَارَتَاكِ
فَتِلْكَ لاَ تحْذَرِينَ مِنْهَا وَهَـذِهِ تَبْتَغِي رَدَاكِ

أم عثمان : الحية ، وعثمان : ولدها .

• • •

وقال فيه أيضاً (٤) :

لَعَمْرُكَ مَا أَبُو بَكْرٍ لَدَيْنَا بِمَوْمُوقٍ وَلَا يَخْشَى أَذَانَا
وَعُثْمانُ الّذِي يَقْلِيهِ مِنّا أَكَابِرُنَا وَيَقْتُلُهُ فَتَانَا

---

(١) التنوير على سقط الزند ١/١٢ .
(٢) المصدر السابق ١/١٣ .
(٣) المصدر السابق ٢/٢٠٧ .
(٤) المصدر السابق .

أبو بكر : الفحل من الإبل ، لأن من نسله البكر . وعثمان : ولد الحية .

٢٤ — كتاب الجلّيّ والجليّ :

هكذا جاء في ياقوت ، وابن العديم ، بالجيم فيهما [١] وفي (طبقات النحاة واللغويين) ، والذهبي : « الحلي والحلي » بالحاء فيهما [٢] . وفي القفطي : الجِلِّيّ والحِلِّيّ » [٣] . وقد سأله فيه صديق له من أكابر الحلبيين ، يقال له أبو الفتح عبد الله بن اسمعيل بن الجِلِّيّ بكسر الجيم وكسر اللام المشددة . وقد ذكره الذهبي في (المشتبه) وقال ابن العديم : « هو رجل فاضل من أكابر الحلبيين وأعيانهم ، وأرباب النعمة [منهم] له مصنفات ، ورواية الأحاديث النبوية [٤] » . وهو مجلد واحد ومقداره عشرون كراسة .

٢٥ — كتاب حرز الخيل : سيأتي .

٢٦ — كتاب الحقير النافع :

وهو مختصر في النحو مقداره خمس كراريس .

٢٧ — وكتاب يتصل به يعرف بالطّل الطّاهري :

وفي ابن العديم والقفطي وغيرهما بـ (الظل الطاهري [٥]) . عمله لرجل

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ١٠٦ و ٥٣١ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٠٢ عن تاريخ الاسلام ـ للذهبي .

(٣) المصدر السابق ص ٤٣ عن إنباه الرواة ـ القفطي .

(٤) تعريف القدماء بابي العلاء ص ٥٣١ عن الانصاف والتحري ـ لابن العديم .

(٥) تعريف القدماء بابي العلاء ص ٤٧ و ٥٣٨ ، عن القفطي وابن العديم . وفي ص ١٠٨ عن ياقوت : « الطلّ الطاهري » بطاءين مهملتين وفي ص ٢٧٥ عن الوافي للصفدي : « الظل الظاهري » بظاءين معجمتين .

من أهل حلب ، يكنى أبا طاهر ، المسلم بن علي بن ثعلب الملقب مؤتمن الدولة . وكان من أكابر الحلبيين وعلمائهم ، وكان وجيها عند معز الدولة ثمال بن صالح . وقد سيره رسولا إلى المستنصر في مصر سنة ٤٦٣ ﻫ فمات بها . وهذا الكتاب قريب من الأول في الحجم ، وقد يخلط بالكتاب الأول ، ويجعلان كتاباً واحداً .

٢٨ ـ كتاب حماسة الراح : سيأتي في خماسية الراح .

٢٩ ـ كتاب الخطب :

نحو أربعين كراسة . ذكره الذهبي [١] .

٣٠ ـ خطبة الفصيح :

يتكلم فيه على أبواب الفصيح ، ويذكر الألفاظ التي تروى عن ثعلب في كتاب (الفصيح) في ضمن كلام فصيح منثور في كل باب من أبواب الفصيح . وقد ذكره ياقوت وابن العديم وكشف الظنون وغيرهم [٢] . وقال ابن الخير [٣] : « ضمَّنَ جميع ماحواه (الفصيح) خطبة في تحميد الله سبحانه ، وما قاربه من العظات » مقداره خمس عشرة كراسة .

وقال أبو القاسم محمد بن عبد الغفور الكلاعي ، أحد وزراء الأندلس على عهد ملوك الطوائف [٤] : « ومنْ أظْرف الخُطب معنى ، وأعذبها

---

(١) تعريف القدماء ص ٢٠١ عن تاريخ الاسلام ـ للذهبي .

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء الصفحات ٤١ ، ١٠٩ ، ٢٠١ ، ٥٣٠ .

(٣) ابن الخير الاشبيلي صاحب فهرسة ما رواه عن شيوخه من الدواوين المصنفة في ضروب العلم وأنواع المعارف . وانظر النص في تعريف القدماء ص ٣٨٥ .

(٤) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٤٤٩ عن إحكام الصنعة ـ للكلاعي .

منحى ومبنى ، خطبة الفصيح ، لأبي العلاء المعري ، وهي خطبة شريفة تشتمل على علم جم وأدب ، تضمّن لغات (الفصيح) لثعلب . أولها :

مثال من خطبة الفصيح :

اَلحمْدُ لِلهِ الّذِي بِفَضْلِهِ نَمى المَالُ ، وَسَمَتِ الآمَال ، مَا كَانَ لِلصَّمَدِ أَرَجٌ يَنْمِي ، وَمَا كَانَ لِغَيْرِهِ قَمَنٌ يَذمِي[1] ، مَا ذَوَى عُودُ شَجَرَةٍ مُؤْمِنَة ، وَإِنَّمَا يَذْوِي عُودُ الْمفْتَتِنَة . وَإِنْ ظَنَنْتَ عُودَ الْمؤْمِنِ ذَوَى ، فَإِنَّمَا ظَنُّكَ رَمَى فَأَشْوَى[2] .

إِنَّ شَجَرَةَ الإِيمَان، لاَ تَنْقَرِضُ بِطُولِ الزَّمَان. وَإِذا غَوَى الرَّجُلُ فَوَحدَهُ يَغْوِي، وَإِن اسْتَغْوَى النَّفَرَ فَذلِكَ غَوِيٌّ مُغْوِي. وَاللهُ عَرَّفَ مَيِّتاً وَحيا . وَعَلَّمَ رُشْداً مِنَ البَشَرِ وَغَيّا :

فَمَنْ يَلْقَ خَيْراً يَحْمَدِ النَّاسُ أَمْرَهُ   وَمَنْ يَغْوِ لاَ يَعْدَمْ عَلَى الغَيِّ لاَئِماً[3]

وهذه الخطبة طويلة ، وفيما ذكر منها دليل على كيفيتها ، وتنبيه على فضيلتها وميزتها إن شاء الله » .

وقال أيضاً [4] : « وما أعدل قول أبي العلاء في خطبة الفصيح :

---

(١) القمن : محركة نتن الرائحة ، يذمي : فتنه الريح أي آذته .

(٢) أشوى : أي رمى ولم يصب مقتلاً بل أصاب الأطراف .

(٣) البيت المرائش الأصغر من قصيدة في المفضليات ٢/٤٤–٤٦ طبعة دار المعارف بالقاهرة .

(٤) تعريف القدماء ص ٤٤٦ .

الشِّعْرُ إِذَا جُعِلَ مَكْسَباً ، لَمْ يَتْرُكْ لِلشَّاعِرِ حَسَبا . وَإِنْ كَانَ لِغَيْرِ مَكْسَب ، حَسُنَ [فِي الصِّفَاتِ وَالنَّسَب] ، مَا لَمْ تُسَبَّ الْمُحْصَنَة ، وتُعَدّ لِلْعَارِ العَصَمَة [١] . فَاتَّقِ رَبَّكَ . وإِذا رَأَيْتَ الشَّاعِرَ فَلاَ تَقُلْ : ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الغَاوُونَ ﴾ فَإِنَّ الآيَةَ وُصِلَتْ بِالاسْتِثْنَا ، وَجَنَى السَّيِّئَةِ شَرُّ الْجَنَى . لاَ تَجْزَلُوا فَضِيلَةَ الشِّعْر . فَإِنَّهُ يُذَكِّرُ النَّاسِي . وَيَحُلُّ عَزْمَةَ الفَاتِك ، وَيَعْطِفُ مَوَدَّةَ الكَاشِح ، وَيُشَجِّعُ الْجَبَان :

وَإِنَّ أَشْعَرَ بَيْتٍ أَنتَ قَائِلُهُ ... بَيْتٌ يُقَالُ إِذَا أَنْشَدْتَهُ صَدَقَا [٢]

٣١ — وله كتاب تفسير خطبة الفصيح :

شرح فيه ما جاء في الكتاب الذي قبله من الغريب .

٣٢ — كتاب خطب الخيل :

يتكلم فيها على ألسنتها ، ويذكر على لسان كل فرس خطبة ، يحمد الله تعالى فيها ويعظمه ، ويقول في أول كل خطبة : إن الله قادر على أن ينطق فرساً صورته كذا وكذا وكذا ، فيقول : الحمد لله الذي خلقني كذا وكذا . ومقداره عشر كراريس . وقد ذكره ياقوت ، وابن العديم ، والقفطي ، وكشف الظنون [٣] .

---

(١) كذا في الأصل . (ع)

(٢) البيت لحسان بن ثابت انظر ديوانه ص ٢٩٢ .

(٣) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ١٠٩ و ٥٣٠ وغيرها .

٣٣ — خطب ختم القرآن :

قال ابن العديم : وظفرت له بجزء فيه خطب لختم القرآن العزيز ، فيه عدة خطب لذلك ، مقداره خمس كراريس [١] .

٣٤ — كتاب خماسية الراح :

وهو كتاب لطيف في ذم الخمر خاصة ، ومعنى هذا الاسم أنه بني على حروف المعجم ، ما خلا الألف ، فذكر لكل حرف تمكن حركته خمس سجعات مضمومات ، وخمساً مفتوحات ، وخمساً مكسورات ، وخمساً موقوفات . ومقداره عشر كراريس . كذا ذكره ياقوت ، وابن العديم ، والقفطي [٢] . وذكر له في كشف الظنون ، والذهبي [٣] ، كتاباً سماه (حماسة الراح) وقالا : إنه عشر كراريس في ذم الخمر خاصة . وأظنه محرفاً عن الأول .

٣٥ — كتاب دعاء الأيام السبعة [٤] .

٣٦ — كتاب دعاء ، وحرز الخيل :

هكذا ذكره ياقوت . وفي ابن العديم : « كتاب حرز الخيل لا أعلم مقداره ، وجزء فيه حرز وتعويذ لا أعلم مقداره [٥] » .

٣٧ — كتاب دعاء ساعة :

وفي ابن العديم : « كلام يعرف بدعاء ساعة ، وهو مختصر [٦] » وفي القفطي : « دعاء يعرف بدعاء ساعة [٧] » .

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٣٠ .

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء الصفحات : ٤٣ ، ١٠٩ ، ٥٣٠ .

(٣) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٢٠٢ من تاريخ الاسلام - للذهبي .

(٤) ذكره ابن العديم في الانصاف ، انظر تعريف القدماء ص ٥٣١ .

(٥) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ١٠٤ ، ٥٣١ .

(٦) المصدر السابق ص ٥٣١ .

(٧) المصدر السابق ص ٤٨ .

٣٨ ـ ديوان الرسائل : سيأتي .

٣٩ ـ ديوان أبي العلاء المعري :

وقد عثرت في دار الكتب الظاهرية في دمشق ، على نسخة خطية تحت رقم ٥٥٤٢/٥٣ ، تشتمل على تسع ورقات ، أي ١٨ صفحة ، كتب على أول صفحة منها : (ديوان أبي العلاء المعري) وذكر في مقدمة الديوان هذه الجملة : « وبعد ، فقد قال الفقير إلى الله الغني ، أبو العلاء المعري : إنه قد كان ببغداد ، وكان يتشوق إلى حلب ونواحيها ، ونظم هذا الديوان » .

وقد نظم فيه تسعاً وعشرين قصيدة على كل حرف من حروف الهجاء قصيدة ، أبياتها عشرة ، وقد التزم في كل قصيدة أن يكون الحرف الأول والحرف الآخر من كل بيت واحداً ، كقوله في الهمزة :

أَمَا لَكَ يَادَاءَ الْحُبِّ دَوَاءُ بَلَى عِنْدَ بَعْضِ النَّاسِ مِنْكَ شِفَاءُ

وفي الباء :

بَكَتْ رَحْمَةً لِلصَّبِّ عَيْنُ عَدُوِّهِ فَمَا لِحَبِيبِ الْقَلْبِ لَا يَرْحَمُ الصَّبَّا

وفي التاء :

تُرَى قَبَّلَتْكَ الرِّيحُ عَنِّي وَبَلَّغَتْ مِنَ السِّرِّ مَا اسْتَوْدَعْتُهَا حِينَ هَبَّتِ

وهكذا إلى آخر الحروف . وهذه النسخة طافحة بالأغلاط ، والتحريف ، والتصحيف ، وتقديم بعض الكلمات على بعض ، ونحو ذلك من عبث الناسخ . وسيأتي تتمة القول فيه .

٤٠ — كتاب ذكرى حبيب :

قال ياقوت : « في غريب شعر أبي تمام »[1] وقال ابن العديم ، والقفطي[2] : في تفسير شعر أبي تمام ، سأله فيه صديق لأبي العلاء من من الكتاب . وهو أربعة أجزاء ، ومقداره ستون كراسة . وقال ياقوت : « وهذه الكتب المسؤول في تأليفها ، إنما تكلفها مؤلفها من فرط الحياء ، وهو لتأليفها كاره »[1] . وقال الذهبي[3] : « كتاب ذكرى حبيب . كتاب تفسير شعر أبي تمام ، نحو ستين كراسة » ، وظاهر كلامه أنها كتابان . وقال ابن خلكان : « واختصر ديوان أبي تمام [وشرحه] وسماه ذكرى حبيب »[4] .

والحق ان أبا العلاء لم يفسر شعره كله ، ولا اختصر ديوانه ؟ وإنما اقتصر على ذكر الأبيات المشكلة . يدل على ذلك مانقله في (كشف الظنون) عن أبي زكريا التبريزي أنه قال : « قال أبو العلاء في ذكرى حبيب : إنما أغلق شعر الطائي أنه لم يؤثر عنه ، فتناقلته الضعفة من الرواة ، والجهلة من الناسخين ، فبدلوا الحركة ، وغيروا بعض الأحرف بسوء التصحيف ، وذكر أبو العلاء في هذا الكتاب الأبيات المشكلة من شعره متفرقة » .

وذكر القفطي أن أبا الحسن يحيى بن محمد الرازي الكرداني ، قرأ على أبي العلاء الجزء الثاني من الكتاب المعروف بـ (ذكرى حبيب)

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ١٠٧ عن إرشاد الأريب ـ لياقوت .

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٤٦ ، ٥٤١ عن القفطي وابن العديم .

(٣) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٢٠٣ عن تاريخ الاسلام ـ للذهبي .

(٤) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ١٨٣ عن الوفيات لابن خلكان .

وابتدأ قراءته لسبع بقين من شعبان سنة ٤٤٦ هـ . وفرغ منها لثلاث بقين من شهر ربيع الأول سنة ٤٤٧ هـ . وكتب له الإجازة جابر بن زيد بن عبد الواحد أخي أبي العلاء في المحرم سنة ٤٤٨ هـ كما تقدم [١] . وهذا يدل على أنه أكثر من جزء كما قال ابن العديم .

٤١ — كتاب راحة اللزوم : سيأتي .

٤٢ — كتاب الراحلة : سيأتي .

٤٣ — كتاب الزائف :

هكذا ذكره في (طبقات النحاة واللغويين) ولا يبعد أن يكون محرفاً عن كتاب (القائف) الآتي ذكره .

٤٤ — كتاب ديوان الرسائل [٢] . وهو ثلاثة أقسام :

القسم الأول : رسائل طوال تجري مجرى الكتب المصنفة ، مثل كتاب (رسالة الملائكة) وهي جزء . وكتاب (رسالة الغفران) وهي جزء . وكتاب (الرسالة السَّنَدِيَّة) . وكتاب (رسالة الفرض) وهي جزء [٣] .

٤٥ — رسالة الملائكة :

تتابعت قرون كثيرة ، والناس لا يعلمون من رسالة الملائكة إلا اسمها ، وأنها رسالة تشتمل على أجوبة صرفية ، سئل عنها أبو العلاء ، وأجاب بهذه الرسالة ، ومن هؤلاء : ياقوت ، وابن العديم [٤] ، وأمثالهما ممن ترجم

---

(١) انظر الخبر في تعريف القدماء ص ٣٧ عن الانباه — القفطي .

(٢) جعل عنوانه في كشف الظنون (رسالة أبي العلاء) وجعل من القسم الأول رسالة الملائكة والرسالة السندية ، ورسالة الزعفران — ولعلها الغفران — ورسالة العروض .(ج)

(٣) كذا في ياقوت ، وفي كشف الظنون « رسالة العروض » وفي الانصاف « رسالة العريض » وفي نسخة منها « العرض » وفي القفطي « رسالة الفَرْض » . (ج)

(٤) تعريف القدماء بأبي العلاء الصفحات ٤٧ ، ١١٠ ، ٥٣٣ وغيرها .

أبا العلاء أو ذكر كتبه ، وذكر في كتب محمد بن طولون من رجال القرن العاشر الكلام على (رسالة الملائكة) وهو في المسوّدة . ونقل السيوطي في (الأشباه والنظائر) مقدمتها . ونقل البديعي في (أوج التحري) قطعة من المقدمة (١) . ثم وجدت نسخ منها في ليدن ، ومصر . ثم طبعت غير مرة في مصر وفي غيرها . وكل ما اُطلِعَ عليه وطُبِعَ هو المقدمة فقط . ولكن الناس كانوا يظنون أنها رسالة الملائكة بتمامها . حتى ظهرت نسخة من رسالة الملائكة في دمشق في سنة ١٣٦٣ هـ . وقد كانت ملكاً لإسحق بن ابراهيم بن شاكر بن عبدُ الله بن محمد أخي أبي العلاء في أوائل القرن السابع .

ويظهر أن رسالة الملائكة ألفت بين سنة ٤٣٠ هـ و سنة ٤٣٥ هـ ، وأن سبب تسميتها برسالة الملائكة أنه افتتح الكلام فيها بالتكلم على ملك وملائكة ، ثم ذكر جملة من أسماء الملائكة ، كعزرائيل وإسرافيل وجبرائيل . وقد صرح جمهور من العلماء بأن هذه الرسالة تشتمل على أجوبة صرفية . ولم يبين أحد ماهي تلك الأسئلة ، وماهي أجوبتها ، ولا من هو السائل . ، إلى أن ظهرت نسخة دمشق سنة ١٣٦٣ هـ ، فتبين منها أن أبا القاسم علي بن محمد بن همام المعري وافى أبا العلاء بست عشرة مسألة ، وهي المذكورة في فهرس هذه الرسالة ، فأجابه عنها أبو العلاء ، وقدم أمام الأجوبة مقدمة ذكر فيها إحدى وعشرين مادة ، بحث عن أصولها ، وأوزانها ، وأحكامها ، وغير ذلك مما يتعلق بها . وهي :

١ ـ مَلَك . ٢ ـ عزرائيل . ٣ ـ منكرونكير . ٤ ـ موسى . ٥ ـ إرْزَبّة . ٦ ـ الجدث . ٧ ـ الرَيم . ٨ ـ الزبانية . ٩ ـ غسلين . ١٠ ـ جهنم .

---

(١) أوج التحري للبديعي من ٧٣ ـ ٨٨ ، تحقيق الدكتور ابراهيم الكيلاني .

١١ ـ سقر . ١٢ ـ مخاطبة الواحـد بصيغة المثنى . ١٣ ـ يا رضو . ١٤ ـ الكمثرى . ١٥ ـ سفرجـل . ١٦ ـ سندس . ١٧ ـ طوبى . ١٨ ـ الحيوان . ١٩ ـ الحور . ٢٠ ـ الإستبرق . ٢١ ـ العبقري [١] .

ثم ذكر بعد ذلك أجوبة المسائل التي سئل عنها ، وهي على حسب ترتيب فهرس الرسالة الدمشقية :

١ ـ القول في « إياك » . ٢ ـ القول في « آية ، وغاية ، وثاية » . ٣ ـ القول في « اسم » وحقيقة الحذف منه . ٤ ـ القول في « اثنين واثنتين » . ٥ ـ القول في « سيد وميت » . ٦ ـ القول في « ترك إمالة (يا) إذا كان حرف نداء » . ٧ ـ القول في قول الراجز : « أين الشظاظان وأين المربعة » . ٨ ـ القول في « قراءة ابن عامر » على ما حكي في بعض الروايات ، من قوله : أفئيدة » . ٩ ـ القول في المسألتين اللتين ذكرهما النحويون . ١٠ ـ القول في المسألة التي ذكرها ابن كيسان في كتاب (المهذب) وهو قوله : « هذا هذا هذا هذا » . ١١ ـ القول في قول الراجز : « يأيها الضب الخذر ّذان » . ١٢ ـ القول في « مهيمن » . ١٣ ـ القول في اللفظ المنقول من كتاب المراغي . ١٤ ـ القول في « يأجوج ومأجوج » ١٥ ـ القول في « السمّهى » . ١٦ ـ القول في الحديث : « أنا فرط القاصفين » .

والموجود في هذه النسخة جواب اثنتي عشرة مسألة تامة ، وقسم من الثالثة عشرة ، والباقي غير موجود ، وفي الأجوبة الموجودة ما ليس من مسائل الصرف . ولعل المتقدمين قالوا : إنها جواب عن مسائل صرفية ، بالنظر إلى أن أكثرها من هذا النوع .

وقد تساءل أبو العلاء في المقدمة ، هل يستطيع أن يدفع ملك الموت إذا جاءه ؟ فبيّن له أصل « ملك » ، ومن أي شيء اشتق ، حتى إذا همّ بقبض

---

(١) انظر رسالة الملائكة تحقيق المؤلف من ص ١ ـ ٤١ .

روحه ، ذكر له وزن « ملك » ، ومن أي لفظ قلب ، ثم يقول له : أمهلني حتى أخبرك بوزن « عزرائيل » ، وأقيم الدليل على زيادة الهمزة فيه ، فيأبى الملك ذلك ، ثم يسأل هل يقدر أن يدرأ « منكراً ونكيرا » فيسألهما كيف جاء اسماهما عربيين ، وأسماء الملائكة كلها أعجمية ؟ ثم يقول لهما : كان عليكما أن تعرفا وزن « جبرائيل وميكائيل » ، ويسألهما ما يريان في وزن « موسى » ، وكيف تجمع « الإرزَبّة » جمع تكسير ، وكيف تصغر ؟ ويبين لهما أن « الجدث » بالثاء والفاء ، ويسألهما ما يختاران في تفسير « العزم » وكيف يبنيان من « الريم » مثل إبراهيم ؟ ويتساءل بعد ذلك هل يتودد لخازن النار فيقول له يا « مال » ؟ ثم يسأله ، ما واحد « الزبانية » ؟ وما يرى في نون « غسلين » ونون « جهنم » ؟ ثم يقول للسائق والشهيد : يا صاح انظراني ، فينكران عليه مخاطبة الاثنين بخطاب الواحد ، فيقيم الدليل على وروده . ويسأل بعد هذا ، هل يجيء في جماعة من الأدباء ، فيقفون على باب الجنة . ويقول بعضهم : يا رضوُ — بضم الواو — ويقول آخرون : يا رضوَ — بفتح الواو — فينكر عليه ترخيم اسمه . ثم يسأل بعضهم أن يكون واسطتهم إلى أهل الجنة ، لأنهم لا يستغنون عن مثلهم . وربما كان في الفردوس من يصيب من ثمارها ، ولا يعرف حقائق أسمائها ، فلا يدري حروف « الكمثرى » هل كلها أصلية أم لا ؟ ولا يعرف وزنها ، وفيهم من لا يعرف تصغير « سفرجل » ولا جمعه . ولا يشعر إن كان يشتق منه فعل أو لا ، وكم فيهم من رجل لا يدري ما وزن « سندس » ومن لا يدري لفظ « طوبى » أهو من ذوات الواو أو الياء ؟ ومن لا يدري « ماء الحيوان » أهو واوي أو يائي ؟ وفيهم من لا يدري معنى « الحور » ولا إلى أي شيء ينسب « العبقري » فيقول لهم رضوان : قد أكثرتم الكلام فيما لا منفعة فيه ، وأهل الجنة في شغل فاكهون ، فانصرفوا . فيسألونه أن يعرف بعض علمائهم

بأنهم واقفون على باب الجنة . فيسألهم من يريدون أن يعلمه ، فيقولون : الخليل بن أحمد . فيدعوه ، فيشرف عليهم ويسألهم ما يريدون ، فيعرضون عليه ما قالوا لرضوان ، فيقول لهم : إن الناس افتقروا إلى علم اللغة والنحو في الدنيا ، لأن العربية أصابها تغيير . وأما أهل الجنة ، فقد رفع عنهم الخطأ ، فبم يتكلمون بها كما نطق بها يعرب ، أو معد بن عدنان ، فاذهبوا راشدين . فينقلبون وهم يخفقون فيما طلبوه . ثم عاد فذكر جملاً عظّم فيها أمر الشيخ السائل . وصغّر شأن نفسه . وجعل منزلته إلى الجهال ، أدنى منها إلى العلماء . ثم بدأ بالإجابة على تلك المسائل فقال : القول في إيّاك . . ثم القول في آية وغاية . . .

وقد احتذى في هذه الرسالة على مثال الطريقة التي سلكها في (رسالة الغفران) لأنها أحسن وقعاً في النفوس من سرد مسائل وأحكام جافة . ولأنه ذكر في المقدمة ألفاظاً لا يجد المتأمل مناسبة بين بعضها وبعض آخر . فلم ير أحسن من إفراغها في قالب حادثة تجتمع فيها تلك الألفاظ التي أراد أن يتكلم فيها . ولولا أنه جعلها على هذا الشكل ، لما وجد القارىء مناسبة بين « ملك ، وكُمّثرى ، وغِسلين ، وجبرائيل ، وسفرجل . . . » ولكنه آثر هذا الوضع ، وجعل منه نظاماً لائقاً لجمع تلك الكلمات ، ومناسبة تربط بعضها ببعض . ويمكن للقارىء أن يستنبط من هذه الرسالة ومقدمتها أموراً عظيمة منها :

١ ــ أن أبا العلاء سئل عن ست عشرة مسألة ، فأجاب عنها ، وأتى في مقدمة القول فيها بثلاث وعشرين كلمة ، بيّن فيها أوزاناً ، وأصولاً ، وأبنية ووجوهاً من الاشتقاق والتأويل ، وأنواعاً شاذة عن الأقيسة . وأورد لكل شيء أتى به أشباهاً ونظائر . وانتقد كثيراً من أقوال العلماء والقراء ، وأيد كثيراً من أقوالهم . وبيّن أحكام كثير منها على تقدير

تصغيرها ، أو تكسيرها ونحو ذلك مما ذكره فيها ، كما فعل ذلك وأمثاله في أجوبة المسائل . وما ذكره في المقدمة أكثر عدداً من المواد التي ذكرها في الأجوبة . وإن كان القول في الثانية أكثر منه في الأولى . وكأنه يشير بذلك إلى أنها جديرة بأن يسأل عنها ، أو أنه يستطيع أن يفيد السائل بأكثر مما سأل .

٢ً — أن أبا العلاء تصاغَرَ في المقدمة ، حتى كاد يجعل نفسه أخفى من السُّهى ، وأنه خالي الوطاب من كل علم ومعرفة ، وأن حق مثله أن لا يُسأل ولا يُجيب وأن لا يقبل جوابه ... ثم أردف ذلك بما ملأ عينَ القارىء ونفسه . وبما دل على علم غزير ، وأدب جم ، واطلاع واسع على فصيح اللغة ، وشواردها ، ونوادرها . وأعرب عن استقصاء للمباحث والأحكام ، واستقراء للقراءات المتواترة وغيرها .

ودل على شدة اعتداده بنفسه ، وثقته بحفظه ، ورسوخه في علوم اللغة ، بما سرده من القواعد الكلية ، والضوابط العامة ، والأدلة والشواهد ، والأمثلة والروايات ، واستطاع أن يقلب اللفظ الواحد على أمثلة مختلفة ، وأبنية متعدده . ويرده على كل تقدير إلى أصل ، ويبين معناه ومناسبة اشتقاقه . وأن يرد أقوال الأئمة ، ويدحض حججهم ، ويدفع شبههم ، ويجوّز كثيراً مما منعوه ، ويمنع كثيراً مما أجازوه . وينفي جملة مما أثبتوه .

٣ً — أتى بنوع جديد من التقسيم والجمع في أبيات الشعر ، لا نعرفه لأحد قبله . وذكر الفروق التي يتميز بها كل نوع من غيره .

٤ً — بيَّن في غضون كلامه أن التعمق في مسائل النحو والصرف ، وكثرة الاشتغال فيها ضرب من العبث وإضاعة للوقت فيما لا يجدي نفعا . وهذا الاعتقاد ذكره في (الأيك والغصون) في قوله المتقدم : « يا نَحْوُ يا نَحْوُ ، حقٌ لِمَا كُتِبَ مِنْكَ مَحْوٌ ، ما أنتَ وما الحاجةُ إليكَ [1] ؟ » إلى آخر ما تقدم .

---

(١) انظر ما سبق ص ٧٠٩ .

وهو من سنخ قوله في (الفصول والغايات ص [1]) .

وقوله المتقدم في (اللزوم) في النحاة :

تَبَاهَوْا بِأَمْرٍ صَيَّرُوهُ مَكاسِباً فَعَادَ عَلَيْهِمْ بِالْخَسِيسِ مِنَ الأَمْرِ [2]

• • •

وَلَمْ يَصْنَعُوا شَيْئاً وَلكِنْ تَنَازَعُوا أَبَاطِيلَ تَضْحِي مِثْلَ هَامِدَةِ الجَمْرِ

وقوله في (رسالة الغفران) في الشعر ، والشعراء ، والرواة ، والنحاة ، واللغويين ، الذين كانوا يختلفون في رواية البيت وإعرابه وتأويله وتفسيره .

٥ً — أنه أتى في هذه الرسالة من المسائل النحوية والصرفية أكثر مما أتى به في (رسالة الغفران) .

٦ً — أن هذه الرسالة سُميت بـ (رسالة الملائكة) لأن أول بحث فيها كان عن لفظ « ملك » وذكر فيها جملة من أسماء الملائكة .

٧ً — أنها ألفت بعد سنة (٤٣٠ هـ) .

٨ً — أن الإنسان لا يستطيع أن يعرف حقيقة ما فيها من التعمق والتحقيق والاستقصاء . ولا يعرف حقيقة أبي العلاء في علوم النحو والصرف واللغة وما يتعلق بها ، حتى يستعرض ما في الرسالة مسألة مسألة ، وجملة جملة . وقد كتبتُ مقالة في التعريف بها ، ونشرت في (مجلة المجمع العلمي العربي) في دمشق في المجلد ١٩ والجزء ١ — ٢ والصفحة ٤٨ . وفي ص ١٢٢ من الجزء ٣ — ٤ من المجلد المذكور . ثم عهد إلي المجمع العلمي المذكور بأن أتولى تصحيح الرسالة مع مقدمتها ، وتحقيقها ، وضبطها ،

---

(١) ترك المؤلف بعض الأسطر بيضا لم يثبت فيها القول الذي أشار إليه ولم يعر إلى الصفحة التي كان ينوي النقل منها .

(٢) اللزوميات هـ ص ١٤٥ ، وفي طبعة أمين عبد العزيز ١/٣٧٣ .

وشرح الغـامض منها ، وبعد أن أتمت ذلك طبعت في دمشق سنة ١٣٦٣ هـ و ١٩٤٤ م .

٤٦ — كتاب الرسالة السَّنَدِيَّة :

لم نقف على هذا الكتاب أو هذه الرسالة ، ولا رأينا من عرّفها تعريفاً يوضح أسلوبها ومقاصدها ، ويشرح حقيقتها . وكل ما علمناه مما كتبه ابن العديم وغيره [1] أنه كتبها إلى سَنَدِ الدولة بن ثعبان الكتامي والي حلب من قبل المصريين في معنى خراج على ملكه بمعرة النعمان . وأن سند الدولة كان في أفامية ، ثم نقل إلى حلب والياً عليها سنة ٤١٤ هـ .

٤٧ -- كتاب رسالة العرض أو النرض أو القرض أو نحو ذلك :

لا نعلم غير اسمها على اختلاف فيه [2] .

• • •

القسم الثاني :

رسائل دون الرسائل المتقدمة في الطول ، مثل : كتاب (رسالة المنيح) ، وكتاب (رسالة الإغريض) .

٤٨ — رسالة المنيح :

كان الوزير أبو القاسم المغربي ، أرسل إلى أبي العلاء كتابـاً ومعه قصيدتان ، ميمية وواوية ، فكتب اليه أبو العلاء هذه الرسالة جواباً عن كتابه . مدحه فيه ومدح كتـابه ووالده وشعره ، وضمن رسالته هذه ضروباً مختلفة من الافتنان في السجـع والجناس . وأشار إلى كثير من الحوادث التاريخية ، والطرف الأدبية . ولعلها سميت رسالة المنيح لقوله

---

(١) انظر تعريف القدماء بأبي العلاء الصفحات : ٥٠ ، ١١١ ، ٥٣٤ .

(٢) ذكره القفطي وياقوت وابن العديم انظر تعرف القدماء بأبي العلاء الصفحات : ٤٧ ، ١١١ ٥٣٤ .

فيها : « ومعاذ الأحلام ، أن يطمئن خلد المنافس الشحيح ، إلى أحكام النّافِس والمنيح (١) » . وسيأتي شيء من الكلام في أسلوبه فيها .

٤٩ ـ رسالة الإغريض :

ألف أبو القاسم المغربي ، السابق ذكره ، كتاباً اختصر فيه (إصلاح المنطق) فأرسل نسخة منه إلى أبي العلاء . فأجـابه بالرسالة المعروفة بـ(رسالة الإغريض) . وقد مدح الكتاب وأثنى عليه وعلى شواهده . وفضله على كتاب (إصلاح المنطق) وضمّن هذه الرسالة كثيراً من مسائل النحو ، والصرف ، والعروض ، والفلك ، والتجويد ، والإملاء . وأشار إلى طائفة كبيرة من الأحداث التـاريخية ، والنكات الأدبية . وادعى لنفسه الضعف والفقر في الأدب ؛ وأن لديه ُبلغَة صبر ووقار . واعتذر عن الاقتصار على مكاتبته دون والده .

والرسالة في جملتها من سنخ رسالته السابقة (المنيح) التزم فيهـا السجع ، وتكلف للجناس ، والمطابقة ، والاقتباس ، وغيرها من المحسنات البديعية . وفي الرسالتين تمثل بأبيات من الشعر وذكر شيئاً من الأمثال .

ويظهر للمتأمل أن مطلـع هذه الرسالة فيه روعة وطلاوة وإبداع أكثر من رسالة المنيح ، لأنه يقول في فاتحتها : « السلام عليكِ أيتها الحكمةُ المغربية ، والألفاظُ العربية ، أيّ هواء رَقاكِ ، وأي غيثٍ سقاكِ ، بَرقُه كالإحْريض ، وودقه مثل الإغريض . (٢) » .

ولعلها سميت برسالة الإغريض لذكره فيها .

---

(١) رسائل أبي العلاء المعري ـ لشاهين عطية ـ ص ٥ ـ ٣٥ .

(٢) المصدر السابق ص ٣٥ ـ ٥٣ ، والاحريض : العصفر ، والاغريض : طلع النخل أي أول حمله .

القسم الثالث :

٥٠ — كتاب الرسائل القصار ، كنحو ما تجري به العادة في المكاتبة ، قيل : إنه أربعون جزءا . وقيل : إنه ثمانمائة كراسة ، ذكر ذلك القفطي ، والذهبي ، وغيرهما [١] .

٥١ — وكتاب خادم الرسائل :

وفي (كشف الظنون) يعرف بـ (خادمة الرسائل) فيه تفسير بعض ما جاء في هذه الرسائل من الغريب ، مما يحتاج اليه المبتدئون في الأدب . قيل : مقداره عشرون كراسة .

٥٢ — وكتاب تفسير رسالة الغفران .

٥٣ — وكتاب يتضمن شرح الرسالة الإغريضية : في عشرين كراسة [٢] .

٥٤ — وقد طبعت رسائل أبي العلاء في بيروت سنة ١٨٩٤ م [٣] . ثم عثرت على نسخة خطية عارضت بها نسختي المطبوعة . وقد جاء في آخر النسخة الخطية : « هذا آخر ما وجد من رسائل الشيخ أبي العلاء أحمد .. » .

والرسائل المطبوعة منها ما هو تام . ومنها ما هو بعض رسالة وهي هذه :

١ — رسالة المنيح : التي كتبها إلى أبي القاسم المغربي .

٢ — رسالة الإغريض : » » » » »

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء الصفحات : ٤٨ ، ١١١ ، ٢٠٣ ، ٥٣٤ .

(٢) هكذا في الكشف . وفي الايضاح : « وكتاب تفسير رسالة الاغريض ، وهي التي كتبها إلى أبي القاسم . . . ومقداره خمس كراريس » . وقد ذكر القلقشندي في صبح الأعشى ج ١٤ ص ١٩٠ الرسالة الاغريضية وشرحها ، وشرحها أيضاً ضيع ابن ضيعة الله الحيدري من علماء القرن الثالث عشر وقدم الشرح إلى مصطفى فاضل باشا بن ابراهيم باشا بن محمد علي باشا والي مصر ومنه نسخة بدار الكتب المصرية .(ج)

(٣) شرحها شاهين عطية وطبعت في المطبعة الأدبية ببيروت ، وهي النسخة التي اعتمدناها في تحقيق النصوص .

٣ً ـ رسالة إلى بعض الأولياء يشفع بالحسين بن عنبسة .

٤ً ـ رسالة إلى صديق يسأله أن ينقصه في المكاتبة .

٥ً ـ فصل من كتاب إلى رجل قيل إن الأسد أكله [بعد أن غدر به المكاري ، واسم المكاري موسى] .

٦ً ـ فصل من كتاب إلى رجل كان له ١٦٦ درهماً عند آخر فسأله أن يشتري بها فرسا .

٧ً ـ رسالة إلى خاله أبي القاسم عند طلوعه من العراق .

٨ً ـ رسالة إلى أهل المعرة ، حين قدم من بغداد .

٩ً ـ رقعة إلى بعض العلوية .

١٠ً ـ رسالة إلى أبي طاهر المشرف بن سبيكة .

١١ً ـ كتاب إلى أبي عمرو .

١٢ً ـ كتاب إلى أبي القاسم المغربي ، جواباً عن فصل [كتبه إليه] .

١٣ً ـ جواب إلى أبي منصور محمد بن سختكين .

١٤ً ـ إلى بعض الشعراء .

١٥ً ـ من كتاب إلى أبي نصر صدقة بن يوسف الفلاحي ، لما استدناه إلى حضرة الأمير عزيز الدولة .

١٦ً ـ كتاب إلى القاضي أبي الطيب طاهر بن عبد الله بن طاهر .

١٧ً ـ كتاب في جملة الجواب الذي ذكر السؤال عنه عُرام .

١٨ً ـ جواب إلى أبي الحسين أحمد بن عثمان النكتي البصري .

١٩ً ـ جواب عن رقعة كتبها إليه رَجل في حال عدْل [من عدول القاضي] استعفى من الشهادة .

٢٠ً ـ كتاب أهدى معه فستقاً يسمى « غيظ الجيران » .

٢١ً ـ كتاب يعزي فيه خاله بأخيه .

٢٢ً ـ تهنئة بمولود .

٢٣ً ـ قطعة من كتاب يشفع في إطلاق سجين سَرق لأمه أربع دجاجات.

٢٤ً ـ قطعة من كتاب يشفع عند قاض .

٢٥ً ـ قطعة من كتاب يتعلق ببيتين على روي الصاد .

٢٦ً ـ من كتاب إلى صديق سار إلى مصر وعاد إلى العراق .

٢٧ً ـ جواب لأبي الحسن محمد بن سنان لما جاءه كتابه في أمر (كليلة ودمنة) وأمر السلطان باختصار أمثاله .

٢٨ً ـ كتاب لرجل أرسل إليه ثلاثة كتب .

٢٩ً ـ جواب لرجل .

٣٠ً ـ كتاب لرجل .

٣١ً ـ كتاب إلى أبي الحسن بن سنان .

٣٢ً ـ لرجل عمل قصيدة على الراء .

٣٣ً ـ لرجل أكثر في مكاتبته بعد أن كان مقلاً .

• • •

٥٥ ـ وذكر القفطي [١] انه اطلع على (رسالة التعزية) لأبي العلاء إلى بعض الحلبيين في ولد له مات .

٥٦ ـ رسالة الجن : ذكرها أبو القاسم الكلاعي [٢] .

٥٧ ـ الرسالة الحصْنِية : وفي الصفـــدي « الحظية » ؛ وفي ياقوت « الحضية » [٣] .

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٠ عن الانباه ـ القفطي .

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٤٠٣ عن إحكام الصنعة ـ الكلاعي .

(٣) سماها ابن العديم في الانصاف : « الحصنية » انظر تعريف القدماء بأبي العلاء الصفحات ١١١ ، ٢٧٥ ، ٥٣٤ .

٥٨ ـ **رسالة الضبعين** : كتبها إلى معز الدولة ثمال بن صالح ، يشكو إليه رجلين كانا يؤلبان عليه وينسبانه إلى الكفر والإلحاد . وكانا قد حرّفا بيتا من (لزوم ما لا يلزم) عن موضعه ليثبتا عليه الكفر بذلك ، أحدهما الشريف ابن المُحَبْرَة [الحلبي] وقد قال أبو العلاء في هذه الرسالة : « وفي حلب ـ حاها الله ـ نُسَخٌ من هذا الكتاب بخطوطِ قومٍ ثقات ؛ يعرفون ببني أبي هاشم ، أحرار نسكة ، أيديهم بحَبْلِ الوَرَعِ متمسكة ، جرت عادتهم أن ينسخوا ما أمْليه ، وإن أُحْضِرَتْ ظهرت الحجّة بما قلتُ فيه[1]» .

٥٩ ـ **رسالة الطير** :

على نهج (رسالة الملائكة) و (الغفران) .

٦٠ ـ **رسالة الفلاحة** :

ذكرها أبو القاسم الكلاعي [2] . وفي (فهرست ابن الخير) : « الرسالة الفلاحية [3] » .

٦١ ـ **رسائل المعونة** :

وهي ما كتبت على ألسن قوم . وفي الذهبي : « رسالة المعونة » .

٦٢ ـ **رسالة السكاح** :

ذكرها الكلاعي[2] .

٦٣ ـ **رسالة عملها على لسان ملك الموت** :

مقدارها عشر كراريس .

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٢٢٣ عن مسالك الابصار ـ للعمري و ٥٢٦ عن الانصاف ـ لابن العديم .

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٤٠٣ عن إحكام صنعة الكلام ـ للكلاعي .

(٣) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٣٨٦ عن فهرست ابن الخير الأشبيلي .

٦٤ — رسالتان إلى داعي الدعاة بمصر :

وقد ذكر بعضها ياقوت [١] .

٦٥ — ورأيت مجموعة مخطوطة فيها رسائل لابن كمال باشا وغيره ، ومعها رسالة مستقلة ، يقول فيها بعد البسملة : « قال الشيخ أبو العلاء المعري . » ثم ذكر أن البحور التي نظم فيها أبو الطيب المتنبي شعره أحد عشر بحرا ، وعدّدها . ثم ذكر ما نظمه من الضروب . وذكر الزحافات والعلل التي فيها ؛ وأنه نظم من أقسام القافية ثلاثة ، ولم ينظم من المتكاوس شيئا . وتقع الرسالة في نحو أربع صفحات ؛ وليس لها اسم ولا تاريخ ؛ ويجوز أن تكون مقتضبة من شرحه (ديوان المتنبي) لأني لم أر من ذكر في رسائله رسالة كهذه وقد ذكرنا أنه عمل مثل هذا الإحصاء في (حماسة أبي تمام) ونقله التبريزي في شرحها .

٦٦ — رسيل الراموز :

مقداره ثلاثون كراسة ؛ كذا قال ابن العديم ، والقفطي ، والذهبي [٢] ، وفي ياقوت : « رسل الراموز [٣] ؛ وفي (طبقات النحاة واللغويين) : « سبل الزابور » . والراموز : البحر . ولم أتيقن ما أراد بالرسيل

---

(١) كانت الرسالتان اللتان لخصهما ياقوت في إرشاد الأريب جوابين على بعض رسائل وجه بها أبو نصر هبة الله بن موسى بن أبي عمران ، داعي الدعاة إلى أبي العلاء ، واقتطع الخطاب بينهما على المساكنة ، انظر رسائل التخاطب بينهما في الصفحات ١١٩ — ١٣٩ من تعريف القدماء عن إرشاد الأريب لياقوت .

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ، الصفحات ٤١ ، ٢٠٢ ، ٥٣٠ .

(٣) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ١٠٩ وحاشيتها

هنا ، لأنه جاء لمعان منها : الرسول ، والرسالة ، والواسع ، والطفيف ، والفحل ، والماء العذب ، والمراسل في النضال ، والسهل . . . .

٦٧ — الرياشي المصطنعي :

في شرح مواضع من (الحماسة الرياشية) عمله لرجل من الأمراء ، يلقب بمصطنع الدولة ، ويخاطب بالإمرة . وهو أبو غالب كليب بن علي ؛ أنفذ نسخة من الحماسة الرياشية ، وسأله أن يخرج في حواشيها شيئاً لم يذكره أبو رياش مما يحتاج إلى تفسيره ؛ فخشي أن تضيق الحواشي عن ذلك ، فصنع هذا الكتاب ، وجمع فيه ما سنح له مما لم يفسره أبو رياش ، ومقداره أربعون كراساً [١] . قال ياقوت في (معجم الأدباء ج ١ ص ٧٤) في ترجمة أحمد بن ابراهيم أبي رياش : « وحكى أبو العلاء المعري في كتابه المعروف (بالرياشي المصطنعي) أن أبا رياش كان طويل الشخص ، جهير الصوت ، يتكلم بكلام البادية . ويظهر أنه على مذهب الزيدية ، ويتزوج كثيراً ويطلق ، وكان يقول : ولدت بالبادية ، ولعبت بالحضرمة — بستان في ناحية اليمامة له خاصّية في عظم البصل — وتأدبت بالبصرة . . . » .

وقد ذكره فريق : « الرياش » . وقال في (كشف الظنون) : « الرياش المصطفى » والصواب : الرياشي المصطنعي كما ذكرنا .

٦٨ — زجر النابح :

يأتي ذكره عند الكلام على (لزوم ما لا يلزم) .

٦٩ — كتاب السادن :

يأتي ذكره عند الكلام في (الفصول والغايات) .

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ١٠٨ عن الارشاد لياقوت .

٧٠ - سجع الحمائم :

يتكلم فيه على ألسن أربع حمائم . وكان بعض الرؤساء سأله أن يصنف له تصنيفاً يذكره فيه ؛ فأنشأ هذا الكتاب ، وجعل ما يقوله على لسان الحمامة في العظة والحث على الزهد ، وهو أربعة أجزاء ، ومقداره ثلاثون كراسة [1] .

٧١ - رسالة الغفران :

كان رجل من أدباء حلب يقال له أبو الحسن علي بن منصور الحلبي ، ويلقب بدوخلة ، ويعرف بابن القارح ، وكان قد فارق حلب مدة ، ثم وردها فانكرها لفقدان المعرفة والجار ؛ وكان أبو الفرج الزهرجي ، كاتب نصر الدولة ، كتب رسالة إليه ، وأخرى إلى أبي العلاء وكلف ابن القارح أن يوصلها إليه فسرقت . فكتب إلى أبي العلاء هذه الرسالة .

خلاصة ماتشتمل عليه رسالة ابن القارح وتاريخ إنشائها :

يذكر [ابن القارح] فيها شوقه إلى [أبي العلاء] وحنينه إلى لقائه ؛ ويثني على فضله ، ويشكر مالقيه ممن يدعي العلم . وقد أشار فيها إلى أنه لقي الزهرجي بآمد ؛ ومعه خزانة كتبه ، فعرضها عليه ؛ فقال له : إن كتبك هذه يهودية ؛ فأنكر ذلك عليه . وأن الزهرجي كتب إليه رسالة يقرظه فيها .

ثم تصدى في رسالته هذه إلى ذكر المتنبي ، وانتقد عليه تصغير بعض الألفاظ ، وادعاء النبوة وغيرها ، ثم استطرد إلى ذكر جماعة من الزنادقة كبشار ، وصالح بن عبد القدوس ، والمقنع ، والصناديقي في اليمن ، والوليد بن يزيد بن عبد الملك ، وأبي عيسى ابن الرشيد ، والجنابي الذي

---

(١) انظر تعريف القدماء الصفحات : ٤٤ ، ١٠٤ ، ٢٠٢ ، ٢٧٤ ، ٥٣١ .

أخذ الحجر والميزاب من الكعبة ، وعلوي البصرة ، والحلاج ، وابن أبي العزافر : وابن أبي جعفر محمد بن علي الشلمغاني ، وابن أبي عون صاحب كتاب (التشبيه) ، وأحمد بن يحيى الراوندي ، وعلي بن العباس الرومي وأبي تمام ، والمازيار ، والأفشين ، وذكر طرفا من أخبارهم وآثارهم .

وبعد أن شكا من عصره وأهله ، ذكر أنه زار المعرة ، فوجد أهلها معترفين بعوارف أبي العلاء ، ووجد أحمد بن خلف الممتع رطب اللسان بشكره .

ثم ذكر أن أتباع النبي ﷺ كانوا في أول دعوته من المستضعفين ؛ وكيف كان بدء الدعوة في قريش ، ثم أفاض في الشكوى من عكوفه على الأماني ، وحذره من الدنيا وتقلبها ، وقلقه من صروفها .

وذكر فيها أنه عرضت عليه كأس خمر ، فأباها وقال : خلوني والمطبوخ على مذهب الأوزاعي . ثم عاتب نفسه .

وذكر طائفة من العلماء الذين أخذ عنهم أو اختلف إليهم في بغداد وغيرها ؛ وأنه لازم أبا الحسين المغربي ، وأشار إلى ما كان بينه وبين أبي القاسم المغربي من حب وبغض ؛ وأنه بلغه أن أبا العلاء قال فيه : إنه هو الذي هجاه أبا القاسم المغربي ، فراعه ذلك وعتب عليه فيه .

ثم مدح أبا العلاء ، وأثنى على ماسمعه من رسائله . وذكر ابن خالويه ، وأبا الطيب اللغوي ، وسرعة إجابته على المسائل التي وردت إليها من سيف الدولة .

وأتى على ماأصابه من تغير حاله ، لكبر سنه وضعفه عن الكتابة والدرس ، وضعف حفظه . وذكر أن بنت أخته سرقت له ٨٣ ديناراً ، ثم ردتها بعد تهديد السلطان إياها . ثم اعتذر عما في رسالته هذه من الخطل والزلل ، وطلب الجواب عليها لأنها استحسنت وكتبت عنه .

وهي مطبوعة مع (رسائل البلغاء في ص ١٩٤) وظاهر كلامه في الرسالة أنه كتبها بعد أن بلغ نيفا وسبعين سنة . ونقل عنه أن مولده سنة ٣٥٤ هـ . ويفهم من (رسالة الغفران) أنها كتبت سنة ٤٢٤ هـ فعلى هذا يجب أن تكون رسالة ابن القارح كتبت في هذه السنة أو التي قبلها .

• • •

سبب تأليف رسالة الغفران وتاريخ وضعها ، وسبب وضعها على هذه الصورة :

لم يبين أبو العلاء السبب الداعي إلى تأليف رسالة الغفران ولا نقل أحد عنه ذلك ، وإنما فهم من وضعها أنه كان يريد منها إجابة ابن القارح على رسالته التي تقدم ذكرها .

• • •

أما تاريخ وضعها ، فيظهر من كلام أبي العلاء فيها أنه وضعها نحو سنة ٤٢٤ هـ لأنه ذكر في (ص ٥٨)[١] أن ابن القارح قال : إن الشاهد على توبته عبد المنعم بن عبد الكريم ، قاضي حلب في أيام شبل الدولة . وهذا ولي حلب من سنة ٤٢٠ هـ إلى سنة ٤٢٩ هـ . وقال في (ص١٤٩) : « ولا يجوز أن يخبر مخبر منذ مائة سنة أن أمير حلب في سنة ٤٢٤ هـ اسمه فلان بن فلان وصفته كذا . . .[٢] » .

• • •

وأما وضعها على هذه الصورة فقد يكون له أسباب منها :

١ — أن ابن القارح لم يقتصر في رسالته على موضوع واحد ، ولا على علم واحد ، ولا رجل واحد له خاصة واحدة ؛ وإنما حشر في رسالته .

---

(١) رسالة الغفران طبعة أمين هندية وانظر ص ١٥٤ من تحقيق بنت الشاطئ ط ١ .

(٢) انظر الرسالة تحقيق بنت الشاطئ ، ط ١ ص ٢٨٧ .

مسائل متعددة ، من فنون مختلفة ، ورجالا مختلفين في الصفات والنحل والمشخصات . وقد يتعذر على الباحث أن يجد بين كل واحد وآخر وواحدة وأخرى منها جامعة تجمعها ، أو رابطة تربط إحداهما بالأخرى ، ولا تتأتى الإجابة عن كل ماسأل إلا أن تكون الأجوبة على وفق الأسئلة . ولكن أبا العلاء اختار هذه الصورة ، فاستطاع بها أن يجمع مااختلف ، ويؤلفماافترق ، ويجد مناسبة بين بعض أجزائها وبعضها الآخر .

٢ً ـ أن أبا العلاء كان يسيء الظن بأكثر الناس ؛ وهو على حق في ذلك ، لأنه كان محسوداً على فضله وعلمه . فربما توهم أن ابن القارح تصدى في رسالته إلى بعض المسائل ، وهو يريد منهـا أن يسبر غور المعري في علمه بها ، ويكشف ناحية من مقدرته في فهمها وتحقيقها ؛ وأن يتسقطه ليقف له على عثرة ، لأنه كان موتوراً من المعري لما بلغه عنه من أنه قال فيه : إنه هجا أبا القاسم المغربي ، فأراد أبو العلاء أن يبين له أنه فوق مايظن به ، وأعظم مما يتوقع منه ؛ فأجابه عما أراد وزاد واختار هذه الصورة لجمع المسائل كما قلنا .

٣ً ـ أن أبا العلاء كان غزير المادة ، قوي الحافظة ؛ فإذا سنحت له فرصة تفجر لسانه كالينبوع الثرثار ، حتى يكاد يغرق سامعه بما يورده عليه من المسائل والفنون .

وإذا سئل عن مسألة أحب أن يجعل الجواب جامعاً مانعاً ، ويضيف إليه أشباه المسألة ونظائرها ، وأضدادها ، ومعظم مايتعلق بها ، ولو لأدنى مناسبة . وقد ذكرنا أن ابن القارح لم يقتصر على موضوع واحد ، ولا فن واحد ، ولا رجل واحد ، فأحب أبو العلاء أن يكون جوابه جامعاً لكل ماسأل ، وأن يضيف إليه كثيراً مما له علاقة بتلك المسائل أو مما تكون بينه وبين تلك المسائل مناسبة ، فأتى برسالة الغفران :

أولاً : ليبين فيها عن سعة اطلاع على مفردات اللغة ، ومعرفة المستعمل ، والمهمل ، والشاذ ، والنادر ، والفصيح منها . مع إحـاطة بمقاييسها ، وقواعدها ، والصحيح وغيره من وجوه الإعراب فيها .

ثانياً : وليظهر فيها قدرته على التصرف في تأليف الكلمات واستعمالها في كل مايشاء .

ثالثاً : وليعرب للقارىء عن وفرة اطلاعـه على القراءات المتواترة وغيرها ؛ وعلى أقوال المفسرين وتأويلهم وتعليلهم بعض الوجوه والأحكام .

رابعاً : وليوضح شـدة اضطلاعه بعلمي العروض والقوافي ، وكثير من مسائل البيان .

خامساً : وأضاف إلى ذلك مباحث جليلة ، تدل على تمكن في الأحكام الشرعية ، وتعمق في علم الكلام ، ووقوف على معتقـدات الفلاسفة ، والزنادقة والفرق الزائغة من مسلمين وغيرهم ؛ وما لهم من العقائد والمزاعم .

سادساً : وملأ الرسالة بما يدل على أنه كان حفياً بعلم التاريخ ، ومعرفة الحوادث والرجال الذين لهم علاقة بالتاريخ الإسلامي وغيره . وقد كانت مسائل الأدب في رسالة ابن القارح أوفر من غيرها ؛ فاقتضى ذلك أن تكون مسائله في (رسالة الغفران) أكثر من غيرها .

وقد أراد أبو العلاء أن يظهر مقدرته العلمية ، وعبقريته الأدبية ، بأسلوب لايمل منه القارىء ، فاختار طريقة النقد لأقوال المتقدمين وآرائهم تارة على لسان ابن القارح ، وتارة على لسـان غيره . وأثار حواراً بين الشعراء أنفسهم ، والعلماء أنفسهم ، وبين الشعراء والرواة والعلماء . وأظهر مالديه من وجوه النقد وأدلته ، فإما أن يبطل قول القائل أو يؤيد أحد الفريقين على الآخر ؛ وأحيـانا يسكت ، والسكوت إقرار . ولو أنه أورد كل مسألة على حدة ، لجاء أسلوبه جافاً مملا مقتضباً يتعذر ايجـاد المناسبة فيه بين كل مسألة وسابقتها أو لاحقتها .

وهذه المباحث التي أوردها في (رسالة الغفران) ليست على نمط واحد في القلة والكثرة ؛ ولكنها مختلفة ، فقد يكون المبحث الواحد مشتملا على مسألة واحدة ، وقد يكون مشتملا على مسألتين أو أكثر ؛ وربما لم يكن بين المسألتين أو مافوقهما مناسبة ظاهرة ؛ وربما كانت كل واحدة من علم مستقل .

وفيها مسائل تتصل بالجن والإنس من عهد آدم فما بعده ، ومسائل تتعلق بالحيوان ، وما يزعمه الناس فيه ، ومعتقدات ومزاعم لأمم مختلفة وأجيال متغايرة .

ولعل أبا العلاء لما رأى ذلك فكر في التماس شكل يحشر فيه هذه الأمور ، ويكون شاملاً لها على تباينها وتوافقها ؛ فلم ير غير الحشر الذي تحشر فيه المخلوقات على علاتها يوم القيامة ، فاتخذ منه صورة رائعة ، أو قصة خيالية بديعة ؛ ورتب فيها المسائل على وجه محبوب متسلسل بقدر الطاقة ، وعرض فيها ما أراد من تحقيق وانتقاد ؛ وبين للأواخر أنه استطاع أن يأتي بما لم تستطعه الأوائل .

وقد كان موفقاً في خياله واختياره ، لأنه عرض صورة لم تقع بعد ، وإنما هي ثابتة في أذهان الناس كأنها أمر واقع ، وهي وليدة فكره الواسع ونتيجة خياله المبدع ، لم يحتذ فيها على مثال غيره ، ولم يستعن في تكوينها بغير قريحته .

فهذه هي أسباب وضعها على هذا النمط أو من أعظم أسبابه فيما أظن .

رأي المتقدمين في أسباب وضعها على هذا الشكل :

لم يصل الينا شيء من أقوال الأدباء المتقدمين في بيان الأسباب التي حملت أبا العلاء على اختيار هذا الشكل لرسالة الغفران .

أما الفقهاء ، والمحدّثون ، والمؤرخون المتفقهون ؛ فأكثرهم نظر إلى هذه الرسالة من الوجهة الدينية ، فحمل على صاحبها حملات منكرة ، ورماه بالكفر والإلحاد والزندقة والمروق من الإسلام والتدين بدين غيره ، ونحو ذلك مما ذكرناه في غير هذا المكان ، وحمل كل ما ذكره فيها مما يتعلق بالأمور الدينية والآخرة على التهكم والاستخفاف والاستنكار والهزء ؛ وجعل الرسالة حجة على إنكار صاحبها الحشر مع أنها موضوعة في الحشر وأكثر ما فيها يتعلق بالحشر وما يتصل به .

ولم يلتفت أحد منهم إلى ما في الرسالة من علم واسع ، وخيال رائع ، وأدب جم ، وأسلوب ساحر ، وتحقيق وتدقيق ، وتفكير عميق ، مع اعتراف كل منهم بفضل المعري وغزارة علمه ودقة نظره وسعة اطلاعه .

وقد كتب كثير منهم في أبي العلاء قبل هذا العصر ، ولكنهم درجوا على طريقة واحدة وهي أن ينقل المتأخر أقوال من تقدمه ؛ وإن تيسرت له زيادة في الطعن في دين المعري لا يحجم عن ذكرها ، ويعدها زيادة في علمه .

رأي المتأخرين أي المعاصرين في أسباب وضعها :

أما أهل هذا العصر الذي نحن فيه ، فهم أقل تمكناً في العلوم العربية ممن تقدمهم ؛ ولكنهم أجرأ على الحكم بالصحة والفساد ، وعلى تعليل الأحكام بعد وقوعها ، وعلى ادعاء أسباب للحوادث قبل التأمل والتثبت والتعمق في التفكير ، وأكثر استنتاجاً من النصوص والآثار . وقد اقتبسوا من علماء الغرب منهاجاً جديداً لدراسة النصوص والآثار العلمية والأدبية ؛ يتناول البحث عن بيئة صاحبها الطبيعية والاجتماعية ، وعن مآخذ ثقافته ، وعلاقته بزمانه وما أثره فيه ، وغير ذلك مما يجعل الباحث كأنه يعيش في الزمن الذي كان فيه صاحب الأثر ؛ ويحلق في

الأجواء التي كان يحلق فيها ، ويصور جميع ما يكتنفه من المقومات ؛ ويحل الأثر إلى العناصر التي يتألف منها ، ثم يستخلص صورة تامة عما في أثره من فلسفة في الدين والأخلاق والاجتماع وغيرها .

وهذه الطريقة لم تكن معروفة عند العرب من قبل ، وإنما اقتبسوها من الغربيين في هذا العصر كما قلنا .

وكان من نتيجة الاطلاع عليها ، أن انقسم الأدباء في عصرنا إلى فريقين :

أحدهما يطبع على غرار المتقدمين ، فينقل ما يرى وما يسمع ، ويبين ما يدل عليه الأثر في لفظه ومنطوقه .

وقسم حاول أن يحتذي على مثال الغربيين ، فاستطاع أن يجاريهم في النصوص الأعجمية ؛ لأنه رأى من تقدمه فيها ، فهو ينسج على منواله ، ولكنه لم يستطع أن يوفي العمل حقه في النصوص العربية ، فأصاب وأجاد في بعض النواحي ، وأخطأ وقصر في بعض آخر فلم يكن موفقا .

ومنهم من حمله الغرور والإسراف في الجرأة على النيل من المتقدمين ، واستصغار شؤونهم في كل ما عملوا ؛ واليك مثالاً يصور ما أشرنا اليه :

قال بعضهم [١] في كلامه في (رسالة الغفران) : « كان أبو العلاء يتكلف الغريب ويتعمده ، ليصد عامة الناس وجهالهم ، سواء في ذلك العلماء وغير العلماء ، عن قراءته والظهور على ما فيه . وكأن أبا العلاء كان لا يكتب لعصره ، وكأنه كان يحس أن عصره خليق ألا يكتب له ؛ وكأنه كان يكتب لهذا العصر الحديث الذي نحن فيه ، وللعصور التي ستليه ، وكأنه كان يخشى على آثاره الأدبية أن يفهمها أهل زمانه فيفسدوها ويشوهوها ويحولوا بيننا وبين فهمها ؛ وكأنه أقام من الغريب

(١) الدكتور طه حسين (ج) .

وقواعد النحو والصرف والعروض والقافية طلاسم وأرصاداً شغل بها أهل عصره عن هذا الكنز حتى لا يصلوا اليه ، وحتى تسلم لنا نحن خلاصته ، فنترك للقدماء نحوهم وصرفهم وغريبهم وعروضهم ، ونفرغ لخلاصة هذا الكنز من فلسفة في الخلق والجماعة والدين » .

وفي هذا الكلام نظر من وجوه كثيرة تبعده عن الصواب منها :

١ً — أن معظم الأدباء في عصرنا يتوسعون في تفسير الغريب ، فيجعلون كل لفظ لا يفهمونه ، بدون رجوع إلى دواوين اللغة ، من الغريب ، وهذا بالنسبة إلى ما يفهمون يقارب تسعين في المائة أو أكثر ، وهذا غير صحيح ، ويخالف لما ذكره علماء البيان في تعريف الغريب والغرابة .

٢ً — أن الغريب في عصر أبي العلاء كان أقل منه في عصرنا . وقد قلنا غير مرة : إن أبا العلاء لكثرة ما كان يدور على لسانه وقلمه وسمعه من الألفاظ العربية ، كان يأنس بكثير منها ، ولا يعده غريباً كما نعده ، لأننا نتعلم العربية الصحيحة كما يتعلمها الأعجمي ، وكما نتعلم اللغة الأعجمية ، ولذلك نجد معظمها غريباً بالنسبة إلينا .

٣ً — أننا قلنا أيضاً : إن أبا العلاء إذا أصاب فرصة للكلام في موضوع علمي أحب أن يظهر علمه وثقافته ، حتى يكاد يستقصي كل ما يتعلق به ، ويورد ما يمر في خلده من الألفاظ ، ولا يتعمد إيراد الغريب إلا إذا اضطره إلى ذلك السجع أو القافية أو شيء آخر من البواعث ، وربما أورد كلمة غريبة ليفسرها ، ويضيف بذلك فائدة لغوية على ما تضمنه كلامه من المعاني والمقاصد .

٤ً — أن أبا العلاء لو أراد أن يصد الناس عن الاطلاع عما في كلامه ، لأتى من الغريب بما لم يستطع فهمه أكثر المتقدمين والمتأخرين . ولَمَا فسّر لهم مواطن الغموض والإبهام . ولكنه كان على عكس هذا ، يفسر الكلمة ، والجملة ، والرسالة ، والكتاب .

٥ً ـ ليس من الحق أن نقول : إنه كان لا يكتب لعصره ، بل لهذا العصر الذي نحن فيه ، وكأنه يحس أن عصره خليق بأن لا يكتب له ، أو أنه كان يخشى على آثاره أن يفهمها أهل زمانه فيفسدوها . . . إلى آخر ما تقدم .

لأن معنى هذا الكلام أن أهل عصره كانوا لا يفقهون لأسرار البلاغة معنى ، ولا يدركون من دقائق الثقافة والنصوص التي تدل عليها شيئا . وأن أهل هذا العصر خير منهم في كل شيء . وهذا غير صحيح ، لأن أبا العلاء إنما كتب لأهل زمانه ، وأوضحَ مواطن الإبهام والغموض من كلامه لهم لا لغيرهم ، وقد استخرجوا الأدلة على عبقريته ، وعظم ثقافته ، وإلحاده ، وزندقته ، وفلسفته ، وأدبه ، وغير ذلك من كلامه لا من كلام غيره . ولولا أنهم فهموه حق الفهم لما استطاعوا أن ينتقدوه ويرموه بما رموه به ، ويعجبوا بما أعجبوا به من أدبه . أما تدقيق النصوص وحلها على الطريقة الحديثة فلم يكن معروفاً في ذلك العهد ـ كما قلنا ـ ولذلك لا يجوز أن نعيب السابقين لأنهم لم يسلكوا طريقاً لم يهتد اليه الناس إلا بعد مضي نحو الف سنة ، وبعد أن أصبح امتزاج البشر أكثر مما كان في ذلك العهد الماضي ، وبعد أن اطلعت كل أمة على أكثر ما عند غيرها من الأمم من الثقافات ومناهجها .

سبب إكثاره من المعاني العلمية في آثاره :

ولقد أكثر أدباء هذا العصر لوم أبي العلاء على استخدامه المعاني العلمية في نظمه ونثره . ولم ينصفوه في ذلك ، لأنه كان مدفوعاً إلى ذلك بحكم الضرورة ، لأن كلاًّ من الشاعر والكاتب يقتبس معانيه من بيئته الطبيعية وغيرها ، كما يستمد أخيلته منها . وقد حجبته الأيام عن استمداد كل ما يريد من مشاهد الطبيعة بسبب العمى ، إلا قليلاً مما أدركه من الصور الطبيعية قبل عماه ، ومما تلقفه من أفواه الناس .

وقد كانت للعلوم العربية في عهده منزلة لا تضاهى ، وكان غزير العلم فيها ؛ فكان يقتبس منها بعض المعاني ويفرغه في نظمه ونثره ؛ وربما تسنى له من المعاني المأخوذة منها ما لا يتيسر له ولا لغيره مثله من غيرها كقوله :

بُعْدِي عَنِ النَّاسِ بُرْءٌ مِنْ سَقَامِهِمُ ... وَقُرْبُهُمْ لِلْحِجَا وَالدِّينِ أَدْوَاءُ[1]
كَالْبَيْتِ أُفْرِدَ لاَ إِيطَاءَ يُدْرِكُهُ ... وَلاَ سِنَادَ وَلاَ فِي اللَّفْظِ إِقْوَاءُ

• • •

وقوله :

مَا لِي غَدَوْتُ كَقَافِ رُؤْبَةَ قُيِّدَتْ ... فِي الدَّهْرِ لَمْ يُقْدَرْ لَهَا إِجْرَاؤُهَا[2]
أُعْلِلْتُ عِلَّةَ قَالَ وَهْيَ قَدِيمَةٌ ... أَعْيَا الأَطِبَّةَ كُلَّهُمْ إِبْرَاؤُهَا

• • •

وقوله :

بِتُّ كَالْوَاوِ بَيْنَ يَاءٍ وَكَسْرٍ ... لاَ يُلاَمُ الرِّجَالُ إِنْ أَسْقَطُونِي[3]

وإذا كان أبناء هذا العصر لم يكترثوا بهذه العلوم كثيرا ، ولم يتعمقوا فيها تعمق المتقدمين ، حتى يستطيعوا أن يدركوا ما لها من المزايا في الثقافة العلمية عند المتقدمين ، فإنهم يرونها طلاسم وأرصادا ، ويظنون أن المعري جعلها سياجاً حول معانيه التي وضعها لغيرهم ، وقشوراً طرحها

(١) اللزوميات ھ ص ٢٢ وفيها : « بعدي من الناس . . » وانظر ما سبق ص ٦٣٤.
(٢) اللزوميات ھ ص ٢٣ وقاف رؤبة : هي الروي في قافية أرجوزته المقيدة ومطلعها : وقاتم الأعماق خاوي المخترق .
(٣) انظر ما سبق ص ٥٩٩ .

حول اللباب الذي ادخره لنا ليتلهوا بها عنه . ولو فهموها كما فهمها المعري وأهل زمانه لما عدوها من التوافه والقشور .

وفيما ذكره هؤلاء غمط لفضل المتقدمين ، وإنكار لجميلهم ، بل جهل بقادرهم العلمية ، ومقاديرهم ، لأنهم هم الذين حفظوا آثار المعري وبينوا ما فيها من عبقرية وعلم .

وفيه أيضاً وصف لأبي العلاء بالجهل والحماقة ، لأنه خاطب قوماً بما لا يفقهون ، ووضع لهم ما لا يفهمون ، ولا ندري من أين علم أننا سنجيء بعد أولئك ، وندرك ما لم يدركوا ، ونفهم ما لم يفهموا .

ولقد تعرضنا لرسالة الغفران وغيرها في الكلام في « النقد » وذكرنا أمثلة من نقد أبي العلاء للمفردات ولوجوه الإعراب ، وأوزان الشعر وقوافيه ، وغيرها مما تشتمل عليه رسائله وكتبه ، وذكرنا شيئاً من نقده للعادات والأخلاق والمزاعم ونحوها في الكلام على (لزوم ما لا يلزم) .

• • •

أبو العلاء في رسالة الغفران

لكل امرىء من عباقرة العلم والأدب خصائص نفسية ، ومنازع أدبية ، وقد يبدو معظمها في كثير من آثاره ، وأحياناً يخفى بعضها لعارض متعمد أو غير متعمد ، ولكن دراسة الآثار الكثيرة ، وتأمل النصوص المختلفة ، وضم المنتشر منها ، ومقايسة الأمور بأشباهها ، وجمع الشيء إلى ما يشابهه أو يقاربه ، وتمييزه مما يضاده ويخالفه ، ونحو ذلك من الأمور ، يدل بطريق الإشارة على كثير مما يخفى من تلك الخصائص والمنازع .

وقد أشرنا في مواطن كثيرة إلى أن أبا العلاء كان غزير المادة ، محباً للإفادة ، حريصاً على إظهار علمه وقدرته في كل فن . وأنه يتخذ مناسبات لإيجاد وسائل يبرز فيها من مكنون علمه ، ومخزون صدره ما يملأ عين السامع وأذنه .

وكان فوق ذلك شديد التواضع ، مولعاً بنقد الأئمة والأعلام ، جريئاً في نقده ، حرّاً في تفكيره ، صادقاً بإدحاض الحجج التي لا يرتضيها ، ودفع الشبه التي ينكرها .

وهذه جملة من تلك الخصائص تتمثل في (رسالة الغفران) :

التواضع :

تواضعُ أبي العلاء شنشنة معروفة منه في آثاره المنظومة والمنثورة ؛ ولكنه في (رسالة الغفران) بالغ وأسرف حتى حلف كيمين امرىء القيس[١] ، ويمين زهير[٢] ، وحذّاء ساعدة[٣] ، وأليّة الفرزدق[٤] ، ولو كان له امرأة لحلف بالطلاق ، أنه لمكذوب عليه ، يظن أنه

---

(١) في بيت من لاميته وهو :

فقلت يمين الله أبرح قاعداً ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي

انظر رسالة الغفران تحقيق بنت الشاطىء ط ١ ص ٣١٤ .

(٢) قسم زهير بن أبي سلمى في ميميته :

فاقسمت بالبيت الذي طاف حوله رجال بنوه من قريش وجرهم

يميناً لنعم السيدان وجدتما على كل حال من سحيل ومبرم

(٣) ساعدة ابن جؤية من بني كعب ، شاعر جاهلي ، والحذّاء : اليمين القاطعة ، انظر الغفران تحقيق بنت الشاطىء ط١ ص ٣١٥ .

(٤) في بيتين من ميميته التي مطلعها :

إذا شئت هاجتني ديار محيلة ومربط أفلاء أمام خيامي

والبيتان :

ألم ترني عاهدت ربي وانني لبين رتاج قائماً ومقام

على حلفة لا أشتم الدهر مسلماً ولا خارجاً من فيّ زور كلام

انظر الغفران تحقيق بنت الشاطىء ط١ ص ٣١٥ وخزانة الأدب ٣٥٣/٤ ، وديوانه ص ١٨٦ طبعة مصر سنة ١٢٩٣ .

من أهل العلم ، وما هو له بالصاحب ولا الحلم[١] . وأنه يجذل بمن عابه لأنه صدق فيما رابه ، وأنه ليس في العير ولا النفير . وقد أبدع في ذلك في (ص ١٢١ و ص ١٩٣ من رسالة الغفران)[٢] .

ولكنه عند شروعه في مبحث مّا ، كان ينسى أو يتناسى هـذا التواضع ، فيقدم إقدام الأتيّ[٣] ، ويجول جولة القويّ . وينفق إنفاق الموسع الغني ، فيتكشف عن مظـاهر ، من تأملها ظن أنه غيره ، من ذلك :

١ً — كثرة حفظه مفردات اللغـة ، ومعرفة النادر ، والغريب ، والفصيح ، والشاذ ، والرديء ، وغيره . وترى من الأمثلة الدالة على هذا تغييره كلمة الروي في بيتي النمر بن تولب على عدد حروف الهجـاء في (ص ١٢ من الغفران)[٤] وافتنانه في الجمل الدعائية لابن القارح ، وهي كثيرة تتجـاوز المائة والثلاثين . وشرحه الكلمات اللغوية التي وردت في كلامه أو في كلام غيره . وإيراده المترادفات من الأسماء كأسماء الخمر في (ص ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٩٤)[٥] والمتشابهات من الأسماء كالإبريق (ص ٩) والرباب (ص ٤٣) والدنانير (ص ١٩٥) والثمانين (ص ٢٠١)[٦] ومايمكن اشتقاقه من بعض الأسماء ، كالدامغ ، والمرجان (ص ١٥٨) والفريد (ص ١٦٠) والقضيب (ص ١٩٥)[٧] .

---

(١) الحلم : الصاحب والصديق .
(٢) الغفران طبعة أمين هندية .
(٣) الأتيّ : السيل الجارف .
(٤) انظر ما سبق ص ٦٠٥ .
(٥) الغفران طبعة أمين هندية .
(٦) المصدر السابق .
(٧) المصدر السابق .

وهذا القدر وحده كاف لأن يكون من يستوعبه أمة وحده في اللغة .

٢ً ـ شدة تمكنه من قواعد الصرف والنحو ، ومعرفة أوزان الأبنية المسموعة والمقيسة والشاذة ، وكثرة مايعرفه من نظائر الأوزان والشواذ عنها . ويتبين ذلك فيما انتقد به الرواة والشعراء والعلماء ، من الخروج عما يقتضيه السماع والقياس في الأبنية ؛ وعما تقتضيه قواعد الإعراب الصحيحة ، كالأبيات التي ذكر فيها وجوهاً للإعراب ، أو رجح وجهاً على آخر كقول عدي (ص ٢٦ و ٢٨) :

[يَا لَيْتَ شِعْرِي] وَإِنْ ذُوعَجَّةٍ(١) . . . .

. . .

[أَرَوَاحٌ مُوَدِّعٌ أَمْ بُكُورُ] أَنْتَ فَانْظُرْ [لِأَيِّ حَالٍ تَصِيرُ](٢)

وقول امرىء القيس (ص ٩٠) :

. . . . إِنِّي امْرُؤٌ صَرْعِي عَلَيْكِ حَرَامُ(٣)

وقوله (ص ٨٩) :

. . . . وَلَا سِيَّمَا يَوْمٌ . . .(٤)

---

(١) صدر البيت الرابع عشر من صادية عدي بن زيد ، انظر الخبر في النقران تحقيق بنت الشاطىء ط ١ ص ٧٤ .

(٢) مطلع رائية عدي ، انظر النقران تحقيق بنت الشاطىء ط ١ ص ٧٦ .

(٣) عجز بيت لامرىء القيس وصدره : « جالت لتصرعني فقلت لها اقصري » النقران ـ تحقيق بنت الشاطىء ص ٢٣٢ وفيها : « فقلت لما ترى . . . » .

(٤) من عجز بيت من لامية امرىء القيس المشهورة وتمامه :

« ألا رب يوم لك منهن صالح . . . . بدارة جلجل »

النقران تحقيق بنت الشاطىء ص ٢٢٩ .

وقوله (ص ٨٧) :

. . . . والغُثَّاء (١) . . .

وقوله (ص ٩١) :

. . . . كمِشْيَةِ قَسْوَرَا (٢)

وقول الجعدي (ص ٣٥) :

. . . . ولا مُسْتَنْكِرِ (٣) . .

وقول بشار (ص ٨٦) :

. . . . سُبْدِ (٤)

٣ — تمكنه من علمي العـروض والقوافي ؛ ويتراءى أثر ذلك في الأبيات التي أوردها ، وفيها عيوب القافية أو زحافات أو علل أنكرها بعض العلماء أو خالف فيها .

---

(١) من عجز بيت من لاميته وتمامه :

« كأن ذرى رأس المجيمر غدوة من السيل . . . . فلكة مغزل »

انظر الغفران تحقيق بنت الشاطئ ص ٢٢٦ .

(٢) من عجز بيت من رائيته التي يصف فيها توجهه الى قيصر الروم مستنجداً وتمامه :

« وعمرو بن درماء الهمام إذا غدا بذي شطب صارمه يمشي . . . »

الغفران — بنت الشاطئ ص ٢٣٤ .

(٣) من عجز بيت النابغة الجعدي وتمامه : « وليس بمعروف لنا أن نردها صحاحاً . . . أن تعقرا »

انظر ماسبق ص ٥٩٠ .

(٤) وقعت هذه الكلمة قافية في بيت من أرجوزة لبشار بن برد ومطلعها :

« يا طلل الحي بذات الصمـد بالله خبر كيف كنت بعدي ؟ »

انظر الغفران تحقيق بنت الشاطئ ص٢٢٣ .

٤ً ـ شدة اطلاعه على القراءات ، ومعرفته المتواترَ وغيرَه ، ومعرفته وجهَ كل قراءة من الإعراب وتأويله . ويتجلى مثل هذا فيما ذكره من قراءة الحية التي كانت في دار الحسن البصري وحمزة بن حبيب (ص ١١١) وقراءة أبي رجاء ﴿ يَحْبِبكُمُ اللهُ ﴾[1] (ص ٩٣) وقراءة بعضهم ﴿ مِنْ حَيثُ أفَاضَ النَّاسِ ﴾[2] (ص ١٠٩) وقراءة ﴿ سَوَاءً العَاكِفُ فِيهِ وَالبَادِ ﴾[3] (ص ١٠٩) .

٥ً ـ كثرة مايحفظه من الشواهد والأدلة والأمثلة ، فإنه أورد في هذه الرسالة أسماء لكثير من الشعراء وقد ذكرنا طائفة منهم في مصادر ثقافته في الصفحات :٦٥ ـ ٦٩٦ السابقة .

٦ً ـ شدة اعتماده على حفظه وثقته بنفسه ، وترى من ذلك قوله في (ص ١٠٦) للمهلهل : « زعم الأصمعي أنه لايقال : أرْعَدَ ، وأبْرَقَ ، في الوَعيدِ ولا [في] السحاب . فيقول : إن ذلك لخطأ من القول ، وإن هذا البيت لم يقله إلا رجل واحد من خَدَمِ الفصاحة ، إما أنا وإما سواي ، فخذ به وأعرض عن [قول] السفهاء »[4] . ونحكر في (ص ٢٠٦) بيتين لأبي بكر الشبلي فيهما قوله :

وَإِذَا كَانَ فِي القِيَامَةِ نُودِي . . . .

---

(١) آل عمران الآية ٣١ وانظر الغفران ـ بنت الشاطئ ص ٢٤٠ .

(٢) البقرة الآية ١٩٩ .
وانظر الغفران ـ بنت الشاطئ ص ٢٨٢ .

(٣) الحج الآية ٢٥ .
وفي الغفران ـ بنت الشاطئ ص ٢٨٢ .

(٤) الغفران تحقيق بنت الشاطئ ط ١ ص ٢٧٤ وفيها : « . . . إلا رجل من جذم الفصاحة » .

ثم قال : « هكذا أنشدته « نوديْ » بسكون الياء ، ولا أحب ذلك ، وإن كان جائزاً ، وإنما يوجد في أشعار الضعفة من المحدثين .. »[1]

٧ً ـ الاستقصاء في المباحث التي يوردها ، ويتبين هذا في ذكر الشيء وما يشابهه في اللفظ أو يقاربه في المعنى .

٨ً ـ الابتكار ؛ فقلما رأينا أثراً كاملاً لأبي العلاء ، خالياً من ابتكاره . فقد ذكر في (رسالة الملائكة) مثل تقسيم بيت الشعر إلى فارِد وغيره ؛ وتقسيمه إلى ما يكمل فيه معناه وغيره .

وذكر في (رسالة الغفران) حداً جديداً للزمان في (ص ١٣٨) وأقسام البَديه (ص ١٩١) وتلبيات العرَب (ص ١٨٦) وعرف الشعر تعريفاً جديداً في (ص ٥٥)[2] .

٩ً ـ سعة الخيال :

أبرز أبو العلاء هذه الرسالة على شكل قصة خيالية ، بأسلوب مبتكر رائع ؛ وقد اتخذ منه وسائل لجمع المناسبات بين المسائل المختلفة في الحادثة الواحدة ، أو المسائل المتقاربة في الحادثة الواحدة المتعددة رجالها ؛ كما اتخذ وسائل لإيجاد مناسبات بين الألفاظ التي يوردها ، ويحدث صلة لربط بعضها ببعض ؛ وقد افتن بإيراد الصور اللطيفة . وأروع ما فيها إيصال المباحث إلى النفوس بأسلوب لا ترافقه سآمة ، ولا يتطرق اليه ملل .

---

(١) الغفران تحقيق بنت الشاطئ ط ١ ، ص ٥٥٠ وبيتا أبي بكر هما :

باح مجنون عامر بهـواه ‏ وكتمت الهوى ففزت بوجدي

وإذا كان في القيامة نودي ‏ أين أهل الهوى تقدمت وحدي

(٢) انظر هذه الصفحات في الغفران طبعة أمين هندية . وتقابلها الصفحات ٣٥٩ ، ٥٠٩ ، ٤٩٣ ، ١٥٨ من تحقيق بنت الشاطئ ، والبديه : المباغتة .

إذ جـاء بعضه على شكل سؤال من شاعر ، أو من راو أو عالم ؛ وبعضه على صورة جماعة يترسون بأحد العلماء ، ينكرون عليه تصرفه في أقوالهم ، وجاء بعض منه على شكل حوار بين شاعرين ، أو بين شاعر وراو ، أو أكثر من ذلك . وجاء قسم منه على شكل طير تحول إنسانا ، أو على لسان حورية تنفلق عنها ثمرة . ومنها ما جاء على لسان حية ؛ ومنها ما جـاء على لسان الجن . ونحو ذلك مما جاء في الرسالة . فهو ينتقل بقارىء كتابه من حديث شهي بأسلوب طريف ، إلى آخر لا يقل عنه في طرافته ولطافته . ولا يكاد يشعر القارىء بنبوة في اللفظ ، ولا تفكك في الجمل ولا اقتضاب في المعنى .

١٠ — يتضح لمن أنعم النظر في هذه الرسالة ، أن أبا العلاء صحيح السليقة ، وافر العلم ، حاضر الذهن ، سريع الإدراك والفهم . فلا تكاد تمر به حكمة لشاعر أو غيره ، إلا أدركها ، وأدرك ما فيها من جمال وروعة ؛ أو عاهة وخلل . وكان فوق ذلك محباً للنقد والتنقيب ، لأن النقد يظهر ما يكمن في النفوس من علم وفهم وذوق .

وأكثر من كان ينتقده من الشعراء ، المفلقون ، كامرىء القيس ، والنابغة الذبياني ، وطرفة ، وعدي بن زيد ، وعلقمة بن عبدة ، وعمرو ابن كلثوم ، والحرث اليشكري ، والمرقش ، وحسان بن ثابت ، وبشار ابن برد .

ومن العلماء ، الأئمة والطبقات العالية من النحويين واللغويين كسيبويه (ص ٦١ و ١٣١ و ١٣٧) [١] وأبي علي الفارسي (ص ٣٨ و ٥٧) [٢]

---

(١) الغفران طبعة أمين هندية وانظر تحقيق بنت الشاطىء ط ١ الصفحات ١٦٣ ، ٣٤٢ ، ٣٥٩ .

(٢) وانظر الغفران تحقيق بنت الشاطىء ط ١ الصفحات ١٠٨ ، ١٥٢ ،

والأصمعي (١٠٦) [١] والسيرافي (ص ١١٠) [٢] .

ومن الغريب أن أبا العلاء انتقد كثيراً من الناس في هذه الرسالة وفي غيرها ؛ وكان يتخير لنقده أسلوباً هيناً وقولاً ليناً ؛ ولكنه خالف طريقته هذه في هذه الرسالة ، فقست كلمته للأصمعي في « أرعد وأبرق » (ص ١٠٦) [٣] ولأبي بكر الشبلي (ص ٢٠٦) [٤] وللرُّجّاز ولا سيما رؤبة (ص ١١٦) [٥] .

٦٥ ـ رسالة الهناء :

رسالة بعث بها أبو العلاء إلى رجل من أهل عصره ، يهنئه فيها بقدوم وزير شبل الدولة نصر بن صالح بن مرداس . وقد كان هذا ملك حلب سنة ٤٢٠ هـ ، وامتد ملكه إلى سنة ٤٢٩ هـ .

ولم يصرح في الرسالة باسم الضيف ، ولا المضيف ؛ ولكنه كَنَّى الأول بأبي علي ، والثاني بأبي فلان . وقال للمخاطب بالرسالة : إن التهنئة يجب أن تكون بين الأكفاء . وإن أشباهه في العصر قليل ، وممن يصلح أن يخاطبه صاعد بن مخلد ، وسهل بن هرون . وبيّن سبب اختصاصه إياهما بذلك . ثم ذكر أن التهنئة إذا جاءت من غير نظير تجر إلى محاظير . وضرب لذلك مثلين ، أولهما : أن الأسد ظفر بفرس للملك ، فاجتمعت اليه الوحوش والحيوان للتهنئة ، ولم يجترىء أحد على التكلم أمامه بالتهنئة ، إلا فِرْنِب (أي فأرة) ، فغضب الأسد ، وأشار إلى

---

(١) وانظر الغفران تحقيق بنت الشاطىء ط ١ ص ٢٧٣ .

(٢) الغفران تحقيق بنت الشاطىء ص ٢٨٤ .

(٣) الغفران تحقيق بنت الشاطىء ص ٢٧٣ .

(٤) الغفران تحقيق بنت الشاطىء ص ٥٤٩ .

(٥) الغفران تحقيق بنت الشاطىء ص ٢٩٧ ـ ٣٠١ .

ذئب ، فأشار إلى هر فأكل الفأرة ، لأنها أملت نفسها لمخاطبة من ليست له بكفؤ . ثانيها : أن عظيماً من جوارح الطير ، اصطاد ظبيا ، فصمتت ذوات الأجنحة هيبة له ، إلا العصفور فإنه امتدحه ؛ فأمر ذلك الجارح بازاً أن يؤدبه على اجترائه ، فأشار إلى باشق ، فأكل ذلك العصفور لاجترائه .

ثم ذكر أن أقرانه حملة عصي ، يجلسون بالمكان القصي ، فإن تجاوز ذلك ، كما فعلت الفأرة والعصفور ، فقرينه ضل بن ضل ، أو هيّ بن بَيّ .
ثم أثنى على الأستاذين ، بأنهما لا يعدل بهما الأصفران الذهب والزعفران ، وأنهما كالقمرين في الهداية وأوانها كأوان العمرين ؛ وإذا كان شبل الدولة أسد النجوم ، كانا ذراعيه ؛ وإن أغلق باب الرأفة ، فتحا مصراعيه ؛ وأنه يشبههما بالحرين ، أي الكوكبين . ثم ذكر أنه كان عزم على الإمساك عن القول ، حتى أشار به وليّهما أبو فلان ؛ فإن كان أساء في المكاتبة ، فهو في الغلط شريك معه .

ثم فضل مهاجرة الأستاذ الضيف على مهاجرة امرىء القيس ، وبيّن فرق ما بينهما . وذكر أنه لا يمتنع في قدرة الله أن يعذُب الماء الأجاج ، وأن تسير السفينة على اليبس ، أو تحملها الريح كما حملت عرش بلقيس ، وأن ينطق الله جبال الروم ، فتدعو أن يصير كل ما تنبته بلادهم ديباجا ، يقدم به هذا السيد هدية للسلطان شبل الدولة ؛ وأن يبتهل الدرب إلى الله أن يزيده اتساعا ، حتى لا يضيق بالمواكب ؛ وأن تكون الحجارة كرق [1] النعام ، والأكمة خواناً للطعام . . .

وأشار خلال تشبيهاته إلى روْقي فزارة ، وهما عمر بن جابر ، وبدر بن عمرو ، وحرّيْ معد ، [وهما] عتيبة بن الحارث بن شهاب اليربوعي ، وعامر بن مالك الكلابي . وعَبْدَيْ معد ، وهما

(١) هكذا في الأصل كرق بالراء والقاف وأظن أنها محرفة عن زف بالزاي والفاء وزف النعام صغار ريشه وهو أنسب بهذا المقام (ج) .

السليك بن السلكة ، وعنترة العبسي . والخنتفين ، وهما الخنتف ، وأوس ابنا سيف بن حميري بن تميم . والزهدمين ، وهما زهدم ، وقيس من بني عبس ؛ وغيرهما . وأشار إلى بعض الحوادث التاريخية ، ثم دعا للاستاذين .

هذا مجمل ما في هذه الرسالة ، وقد طبعت في مصر سنة ١٣٦٤ ﻫ و ١٩٤٤ م ، وشرحها السيد كامل الكيلاني . ولم أجد ذكراً لها فيما نقل من رسائل أبي العلاء ، ولا علمت كيف سميت رسالة الهناء ! ولا من سماها بذلك ؛ ولعل الشارح سماها بذلك لاشتمالها على تهنئة ، وكان الأولى أن تسمى رسالة التهنئة ، ليوافق الاسم غرض الرسالة .

٦٦ — كتاب السجعات العشر :

موضوع على كل حرف من حروف المعجم عشر سجعات في المواعظ [١] .

٦٧ — السجع السلطاني :

يشتمل على مخاطبات للجنود والوزراء ، وغيرهم من الولاة . وكان بعض من خدم السلطان وارتفعت طبقته ، ولا قَدَمَ له في الكتابة ، سأله أن ينشىء له كتاباً مسجوعاً من أوله إلى آخره ؛ وهو لا يشعر بما يريد لقلة خبرته بالأدب ، فألف له هذا الكتاب ؛ وهو أربعة أجزاء ، ومقداره ثمانون كراسة . وفي الإنصاف : « عمله لبعض الكتاب القليلي الصناعة ، ليستعين به على الكتابة » [٢] . وفي الذهبي : « فيه مخاطبات الملوك والأمراء » [٣] .

---

(١) ذكره القفطي ، وياقوت ، والذهبي ، والصفدي ، وابن العديم . انظر تعريف القدماء بأبي العلاء الصفحات : ٤٨ ، ١١٠ ، ٢٠٤ ، ٢٧٥ ، ٥٣٤ .

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٢٣ عن الانصاف — لابن العديم .

(٣) المصدر السابق ص ٢٠٣ عن تاريخ الاسلام — للذهبي ، وفيه : « في مخاطبات للملوك والوزراء » .

٦٨ – سجع الفقيه :

جزء واحد ، ومقداره ثلاثون كراسة [١] .

٦٩ – سجع المضطرين :

وهو كتاب لطيف ، عمله لرجل مسافر يستعين به على أمر دنياه ، وفي القفطي : « عمله لرجل تاجر . . . » .

٧٠ – سقط الزند :

وهو كتاب لطيف ، فيه شعر قيل في الدهر الأول ، وفي القفطي [٢] : « يشتمل على شيء نظم في أول العمر » . وفي الذهبي : « نظم في أول العمر » . وقال ابن العديم : « وهو ما قاله في أيام الصبى في أول عمره ، وهو من أحسن أشعاره . . . مقداره خمس عشرة كراسة ، وتزيد أبياته المنظومة على ثلاثة آلاف بيت » . هذا مجمل ما قاله العلماء ، وتلقاء الآخر منهم عن الأول ؛ وبيّن بعضهم سبب تسميته بذلك ، فقال : السقط ما يسقط من النار عند القدح ؛ وإنما سمي هذا الديوان بذلك ، لأنه مما أنشأه في شبابه ؛ فشبه شعره بالنار ، وطبعه بالزند ، وجعله سقطاً لأنه أول ما يخرج من الزند الذي يقدح به النار ، وهذا الشعر أول ما سمح به طبعه في ريق شبابه ، فسماه (سقط الزند) تجوزاً أو استعارة . ويظهر المتأمل أن هذا الكلام غير صحيح من وجوه :

أولها : أن هذا الديوان يشتمل على ما قاله أبو العلاء في أيام الصبى ؛ وما قاله في عهد الكهولة حين كان في بغداد ؛ وما قاله في سن الشيخوخة ، بعد رجوعه من بغداد ؛ كما بينا ذلك عند القول في أطوار شعره .

(١) ذكره القفطي ، وياقوت ، والذهبي ، وابن العديم وغيرهم . انظر تعريف القدماء الصفحات : ٤٥ ، ١٠٧ ، ٢٠٣ .

(٢) انظر ما عرفه به القفطي والذهبي وابن العديم في تعريف القدماء الصفحات : ٤٥ ، ٢٠٢ ، ٥٢٣ ، ٥٣٥ .

ثانيا : أن عدد أبيات الديوان لا يبلغ المقدار الذي ذكروه ؛ وقد كان أبو العلاء يسقط بعض الأبيات منه ، ويبلغ مجموع أبياته التي شرحها الخوبي يوسف بن طاهر [٢٨٦٥ بيتاً] .

فالأحسن أن يقال : إن هذا الديوان سمي (سقط الزند) لأن فيه ما قاله في أول عمره من باب تسمية الكل باسم الجزء ، وشبهه بالسقط كما ذكروا على سبيل الاستعارة ؛ وهذا تواضع منه ، لأن نار السقط ضعيفة ضئيلة .

٧١ — ضوء السقط :

يشتمل على تفسير ما جاء في سقط الزند من الغريب ، مقداره عشرون كراسة .

قال ابن العديم [١] : « وضع أبو العلاء هذا الكتاب لتلميذه أبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله الأصبهاني ، وكان رجلا فاضلا ، قصده إلى معرة النعمان ، ولازمه مدة حياته يقرأ عليه ، بعد أن استعفى من ذلك ، ثم أجابه ، فقرأ عليه الكتب إلى أن مات . وقد أشار إلى ذلك في مقدمة ضوء السقط ، وأقام عبد الله [الأصبهاني] بحلب ، وروى عن أبي العلاء كتباً متعددة [من تصانيفه] . وهو الذي سأل أبا العلاء أن يشرح له (سقط الزند) فشرحه ووسمه بـ (ضوء السقط) ... وهو الذي قال له أبو العلاء يخاطبه :

يَا أَصْبَهانِيُّ وَمَا غَيْرُه ... مَاذَا تُرَجِّي مِنْ دُخُولِ إِلَيْ
لا مَالَ عِنْدِي تَرْتَجِي نَفْعَهُ ... اذْهَبْ حَمِيداً وَتَفَضَّلْ عَلَيْ» .

ضوء السقط مصلح لفساد أبي العلاء :

قال ابن الوردي في (تاريخه ج ٢ ص ٣٦٠) : « ثم وقفت له على

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٣٥ عن الانصاف ـ لابن العديم .

كتاب (ضوء السقط) الذي أملاه على الشيخ أبي عبد الله محمد الأصبهاني .. ؛ فكان هذا الكتاب عندي مصلحاً لفساده ، موضحاً لرجوعه إلى الحق وصحة اعتقاده ؛ فإنه كتاب يحكم بصحة إسلامه مؤولا ؛ ويتلو لمن وقف عليه بعد كتبه المتقدمة : ﴿ وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى ﴾ فلقد ضمّن هذا الكتاب ما يثلج الصدر ، ويلذ السمع ، ويقر العين ، ويسر القلب ، ويطلق اليد ، ويثبت القَدَم ، من تعظيم رسول الله ﷺ خير بريته ، والتقرب إلى الله بمدائح الأشراف من ذريته ، وتبجيل الصحابة ، والرضى عنهم ، والأدب عند ذكر ما يتلقّى منهم ، وايراد محاسن من التفسير ، والإقرار بالبعث والإشفاق من اليوم العسير ، وتضليل من أنكر المعاد ، والترغيب في أذكار الله والأوراد ، والخضوع للشريعة المحمدية ، وتعظيمها ، وهو خاتمة كتبه ، والأعمال بخواتيمها . وقد يُعذَر من ذمّه ، واستحل شتمه ، فإنه عوّل على مبادىء أمره ، وأوسط شعره . ويعذر من أحبه ، وحرّم سبه ، فإنه اطلع على صلاح سره ، وما صار اليه في آخر عمره ، من الإنابة التي كان أهلها ، والتوبة التي تَجُبُّ ما قبلها ، وكان يقول — رحمه الله — : « أنا شيخ مكذوب عليه . . »[1] .

متى ألف ضوء السقط : ولم أر من ذكر في أية سنة وضع أبو العلاء (ضوء السقط) ، ولكن يفهم من مجموع الأقوال ، والحوادث التي تتعلق بهذا الكتاب ، أنه وضع في نحو سنة ٤٤٧ هـ فما بعدها . لأنهم قالوا : إن أبا زكريا التبريزي ، أقام عند أبي العلاء سنتين أو أكثر — روايات مختلفة — وقال القفطي :« إن التبريزي قرأ غريب الحديث على أبي العلاء سنة ٤٤٥ هـ »[2] . وقالوا : إن التبريزي قرأ على القاضي أبي القاسم التنوخي ، وهذا توفي

---

(١) وانظر تعريف القدماء ص ٢١١ — ١٢ .

(٢) تعريف القدماء ص ٥٢ عن إنباه الرواة .

سنة ٤٤٧ هـ وقال التبريزي : إن أبا العلاء وضع (ضوء السقط) بعد مفارقته إياه . وقال في شرحه : إن الضوء آخر تآليف أبي العلاء[1] .

ويؤخذ من مجموع هذه الأقوال ، أن التبريزي فارق المعرة بعد سنة ٤٤٥ هـ ، وقبل سنة ٤٤٧ هـ ؛ فيكون (ضوء السقط) وضع في سنة ٤٤٧ هـ أو ما بعدها . وقد صرح التبريزي أن أبا العلاء أملى على الأصبهاني إلى الدرعيات .

الدرعيات . وسبب نظمها :

من جملة ما في (سقط الزند) قصائد في وصف الدرع . وقد ظن بعض المتأخرين ، أن أبا العلاء لحظ في نفسه أن روح الجهاد قد فتر عند المسلمين في عصره ، وعند قومه خاصة ؛ وأنهم التزموا الدفاع دون الهجوم ؛ فأراد أن يعبر عن هذا الاعتقاد بطريق الكناية والرمز ، فنظم المجموعة الغريبة من القصائد المعروفة بـ (الدرعيات) . . فالدرع أداة وقاية ، لا سلاح هجوم . . . .

وما أظن أن هذا هو السبب الحقيقي الباعث على إنشاء الدرعيات . ولعل السبب أنه وجد في الدرع مجالاً لإظهار عبقريته وتفننه ، وقدرته على التصرف بالمعاني والأخيلة .

على أنه وصف السيف في مواطن كثيرة من شعره ؛ وأبدع في وصف دقته ، وشطبه ، وغمده ؛ وأتى بالعجب العجاب ، من ذلك في قصائده :

يا سَاهِرَ البَرْقِ أَيْقِظْ رَاقِدَ السَّمُرِ[2]

• • •

(١) سيأتي عن ياقوت والقفطي أن عون الجمل آخر كتاب أملاه أبو العلاء ، فتأمل . (ج) .

(٢) صدر بيت هو مطلع قصيدة في السقط وعجزه : « لعل بالجزع أعواناً على السهر » . انظر شروح سقط الزند ، ق ١ ص ١١٤ .

أَعَنْ وَخْدِ القِلاَصِ كَشفتِ حالا[١] . . . . .

. . .

و :

كَفَى بِشُحُوبِ أَوْجهِنَا دَلِيلاً[٢] . . . . .

. . .

وغيرها

* * *

شروح السقط وشراحه

ضوء السقط :

تقدم أن أبا العلاء أملى على الأصبهاني شرح ما أشكل عليه من سقط الزند إلى الدرعيات ؛ وسمى شرحه (ضوء السقط) .

والظاهر أن هذا الشرح لم يستقص إيضاح كل غامض ، وتفسير كل مشكل ؛ وأن الناس كانوا ينزعون إلى تفسير السقط لشدة رغبتهم في الوقوف على ثقافة أبي العلاء ، وعبقريته فيه ؛ فشرحه جماعة في عصور مختلفة ، ليتسنى لكل جيل الاطلاع على ما في شعره من المعاني النبيلة ، والأخيلة البديعة ، والأساليب الرائعة . وهذه أسماء جلة منهم :

---

(١) عجزه : « ومن عند الظلام طلبت مالا » . وهو مطلع لامية في السقط ، انظر الشروح ق ١ ص ٢٥ .

(٢) صدر مطلع قصيدته التي اجاب بها ابن فورجة البروجردي عن قصيدة اولها :

ألا قامت تجاذبني عناني ... وتسألني بعرمتها مقيلا

وعجز البيت : « على ازماعنا عنك الرحيلا » . انظر شروح السقط ق ٣ ص ١٢٦٩ .

١ - شرح أبي زكريا يحيى بن علي المعروف بالخطيب التبريزي المتوفى سنة ٥٠٢ هـ :

وهو شرح مختصر ، أورد فيه المعاني ، وأقلّ من الاستشهاد ؛ وقد قال في مقدمته [١] : « لما حضرت أبا العلاء . . قرأت عليه كتباً كثيرة من كتب اللغة ، وشيئاً من تصانيفه ، فرأيته يكره أن يقرأ عليه شعره في صباه الملقب بـ (سقط الزند) . وكان يغيّر الكلمة إذا قرأتُ عليه شعره ، ويقول معتذراً من تأبّيه وامتناعه من سماع هذا الديوان : مدحت فيه نفسي ، فأنا أكره سماعه . وكان يحثني على الاشتغال بغيره من كتبه كلزوم ما لا يلزم ، وجامع الأوزان ، والسجع السلطاني ، وغير ذلك .

ثم اتفق بعد مفارقتي إياه أن بعض أهل الأدب سأله أن يشرح له ما يشكل عليه من سقط الزند ، فأملى عليه إلى الدرعيات . وكان قد لقّب هذا الديوان بـ (سقط الزند) لأن السقط أول ما يخرج من النار من الزند ؛ وهذا أول شعره ، وما سمح به خاطره ، فشبهه به .

وما أملاه فيه سماه (ضوء السقط) . غير أنه وقع فيه تقصير من جهة المستملي ؛ وذلك أنه استملى معنى بعض أبيات منه ، وأهمل أكثر المشكلات ، وإذا استملى معنى بيت لم يستقص به البحث عن إيضاحه ، فجاء التفسير كأنه لمعٌ شتى ، لم يشف الغليل ولا يغرف من البرْض [٢] إلا القليل .

وشعره كثير في كل فن . وميل الناس على طبقاتهم : من شاعر مفلق ، وكاتب بليغ ، إلى هذا الفن أكثر ، ورغبتهم فيه أصدق . وهو أشبه بشعر أهل زمانه مما سواه ؛ لأنه سلك فيه طريقة حبيب بن أوس الطائي ، وأبي الطيب المتنبي ، وهما هما في جزالة اللفظ ، وحسن المعنى .

---

(١) انظر هذه المقدمة في شروح سقط الزند : ق ١ ص ٣ .

(٢) البرض : بالتسكين ، القليل من الماء .

وأظهر المعجز في درعياته ؛ غير أنه لم يتفق أن تعرض بنفسه لشيء منها .

ورأيت جماعة من وجوه الكتاب والرؤساء من أهل الأدب وعيون الناس ، يرغبون في شرح ما أهمل من أبياته ، وإيضاح مشكلاته ؛ فاستعنت الله — عز وجل — على شرحه ، من أوله إلى آخره . وأوردت فيه (١) ما ذكر شيخنا أبو العلاء — رحمه الله — من ضوء السقط في مواضعه ، ثم أوضحت مشكلاته ، وذكرت معانيه ، غير سالك طريقة أبي الفتح عثمان بن جني ، في تفسيره شعر أبي الطيب ، في الإكثار من الاستشهادات ، وذكر اللغة الغريبة ، دون إيراد المعاني ، مما لا بد منه ، وما يفيد قاريه ، إذا نظر فيه . فخير الشروح ما قلّ ودلّ ، ولم يطل فيمل . وعليه التكلان » اهـ .

ويمكننا أن نستنتج من هذه المقدمة أمورا ، منها :

١ — أن التبريزي قرأ سقط الزند على أبي العلاء ، كله أو أكثره ؛ وسأله عن مواطن الإشكال والغموض .

٢ — أنه وقف على (ضوء السقط) وأورد ما ذكره فيه أبو العلاء ، في شرحه هذا في مواضعه .

٣ — أن أبا العلاء لم يشرح جميع (سقط الزند) ولم يستقص إيضاح كل مشكل فيه ؛ وإنما شرح ما سأله عنه الأصفهاني .

٤ — أنه وضع شرحه هذا بعد وفاة أبي العلاء .

٥ — أن الدرعيات جزء من (سقط الزند) . وإن توهّم بعضهم أنها ديوان مستقل .

٦ — أنه شرح الديوان كله ، وبيّن معانيه ، وأوضح مشكلاته .

---

(١) زيادة على الأصل .

٧ ـ أن أبا العلاء كان يغيّر بعض الكلمات من (سقط الزند) فتكون رواية الديوان ، على الوجه الذي ذكره التبريزي ، آخر ما عول عليه أبو العلاء .

٨ ـ أن التبريزي لم يبين ما هو اسم شرحه هذا ؛ وقد قال بعضهم : إن اسمه (الإيضاح في سقط الزند وضوئه) [١] .

• • •

٢ ـ شرح عبد الله بن محمد البَطَلْيَوسي النحوي المتوفى سنة ٥٢١ هـ :

وهذا الشرح ، لم يقتصر فيه صاحبه على (سقط الزند) ، ولا تقيد بترتيب القصائد وجمعها على نحو ما هي عليه في الديوان ؛ وإنما ضم اليه جملة من شعر أبي العلاء من غير سقط الزند ؛ كما صرح بذلك في مواطن من شرحه . ورتب قصائده على ترتيب حروف المعجم كلها ؛ فاضطر بسبب ذلك إلى أن يزيد على ما في (سقط الزند) من شعر (لزوم ما لا يلزم) وغيره ، ليستوفي جميع القوافي ؛ ومما زاده : قافية « الثاء ، والخاء ، والذال ، والشين ، والضاد ، والظاء ، والغين ، والهاء » . ومع زيادته هذه ، نقص بعض الأبيات من شعر سقط الزند .

ويعد العلماء هذا الشرح أقوى الشروح وأوفاها ، وأكثرها تعرضاً للتحقيق في المسائل اللغوية والنحوية .

وقد أكثر فيه من الموازنة بين المتنبي وأبي العلاء ؛ والمقابلة بين معاني كل منهما ، لأنه شرح ديوان المتنبي . وقد قال في مقدمة شرحه سقط الزند [٢] :

« سألتني ـ واصل الله لديك نوامي النعم ، وبلغك أقاصي الهمم ـ أن أشرح لك (سقط الزند) من شعر أبي العلاء المعروف بالمعري ، وذكرتَ

(١) قد شرعت لجنة إحياء آثار أبي العلاء في طبع هذا الشرح في مصر في نحو سنة ١٣٦٤ هـ وسنة ١٩٤٥ م مع شرح البطليوسي والخوارزمي . (ج) وتم طبعه بأقسامه الخمسة في سنة ١٩٤٨ م .

(٢) انظر هذه المقدمة في شروح سقط الزند ، ق ١ ص ١٥ .

أنك قرأت ضوء سقط الزند الموضوع فيه ، فلم تجده مستوفياً لجميع معانيه ، ورجوت أن تجد عندي ما يوافق مرادك ، ويطابق اعتقادك . ولعمري إنه لشعر قوي المباني ، خفي المعاني ؛ لأن قائله سلك به غير مسلك الشعراء ، وضمنه نكتاً من النحل والآراء ، وأراد أن يُري معرفته بالأخبار والأنساب ، وتصرُّفه في جميع أنواع الآداب . فأكثر فيه من الغريب والبديع ، ومزج المطبوع بالمصنوع ، فتعقدت ألفاظه ، وبعدت أغراضه . وقد أجبتك إلى ما سألت ، وكتبت لك من شرحه ما رغبت .

ورأيت أن ترتيبه على نظم الحروف المعجمة أتم في الوضع ، وأجمل للتصنيف ، فاحتجت لذلك أن أزيد فيه ما يفي بالغرض ، وأن أستغفر الله من زور يعين على تحسين أمره ، وساعات نقطعها بغير ذكره ؛ إنه غافر السيئات ، وساتر الهفوات ، لا رب غيره » .

ويستنتج من هذه المقدمة :

١ ـ ما ذكرناه من زيادته على أصل (سقط الزند) ونقصه عنه ، وهذا إخلال بحق الكتاب ، وبترتيبه . وكان الحق أن يقتصر على أصل الكتاب وترتيبه ؛ وكأنه فطن إلى أن عمله غير حسن ، فعده زورا ، واستغفر الله منه .

٢ ـ أنه اطلع على (ضوء السقط) ولم يطلع على شرح التبريزي .

٣ ـ أنه أدرك من مقاصد أبي العلاء في شعره ومن قدرته على التصرف في أنواع الآداب والفنون ، ما لا يستكثر معه أن يكون شرحه أوفى الشروح .

• • •

٣ ـ شرح علي بن احمد بن محمد ، الإمام الواحدي الاديب المفسر المتوفى سنة ٤٦٨ هـ :

قال في (أوج التحري) : إنه شرح سقط الزند [١] .

---

(١) أوج التحري عن حيثية أبي العلاء المعري ص ٨ تحقيق الدكتور ابراهيم الكيلاني ، طبعة المعهد الافرنسي بدمشق .

٤ – وشرح أبي رشاد أحمد بن محمد الأخسيكثي ، نسبة إلى أخسيكث ، مدينة من فرغانة ، المتوفى سنة ٥٤٩ هـ :

وقد سمى شرحه : (زوائد في شرح سقط الزند) ذكر ذلك ياقوت ، وكشف الظنون .

٥ – وشرح أبي يعقوب يوسف بن طاهر الخوييّ ، نسبة إلى خوي ، من مدن أذربيجان ، المتوفى سنة ٥٤٩ هـ .

وقد أتم شرحه هذا سنة ٥٤١ هـ ، وقال في مقدمته : « ولم يتفق له شرح يشفي غلة الصادي ويحقق أمنية الشادي ، سوى ضوء السقط الذي نقله أبو زكريا يحيى بن علي التبريزي [عن أبي العلاء] – رحمهما الله – وهو غير واف بالمقصود ، ولا دال على الغرض المطلوب ، لتقاصره عن بلوغ ما يجب من الإبانة والإيضاح . . »[1] ويسمى هذا الشرح (التنوير . أو . تنوير سقط الزند) وهو ينقل كثيراً من كلام التبريزي ، ويشايعه في كثير من المواطن . وهذا الشرح طبع في تبريز وفي مصر أكثر من طبعة .

٦ – و شرح الامام فخر الدين الرازي ، محمد بن عمر المتوفى سنة ٦٠٦ هـ : كما ذكره في (كشف الظنون) .

٧ – وشرح صدر الأفاضل ، قاسم بن الحسين بن محمد الخوارزمي : الملقب بصدر الأفاضل ، المقتول بيد التتار سنة ٦١٧ هـ . وقد سمى شرحه هذا : (ضرام السقط في شرح السقط) وفرغ من تسويده في أوائل المحرم سنة ٥٨٧ هـ . وقال في مقدمته[2] : « وبعد ، فإن طائفة من أهل العلم ، قد قرعوا مسمعي غير مرة ، بالتماسهم إلي أن أشرح لهم (سقط الزند) المنسوب إلى . . أبي العلاء . . المعري . . فشرحت فيه من مفردات اللغة ،

---

(١) مقدمة التنوير على سقط الزند ص ٤ – ٥ طبعة دار السعادة .

(٢) شروح سقط الزند : ق ١ ص ١٧ – ١٨ .

والأبنية والاشتقاق ومسائل الإعراب والتصريف ، وأوردت من التراكيب المستعملة في كلامهم ، ومحاسن علمَي المعاني والبيان ، وألقاب العروض والقوافي ، ونتف التواريخ والحكايات ، وانساب العرب ، والأنواء ، والرموز الحكمية ، وشيء قليل من فقه الشافعي ، وأحاديث النبي ، وفوائد التفسير ، ما عسى أن يشكل عليهم ، ولم يلق حل معقوده إليهم . . ، ثم توخيت أن أتكلم في كل مسألة بأخصر كلام . . إلا في عدة مواضع لغرض . . » .

ثم قال : « أخبرنا بمتن هذا الديوان . . . أبو المظفر ناصر . . . المعروف بابن المطرّزي [المتوفى سنة ٦١٠ ه] . . . قراءة عليه ، قال : أخبرنا . . . الوالد . . . عبد السيد بن علي المطرزي قراءة عليه ، قال : أخبرنا أبو المكارم الأبهري قراءة عليه ، قال : أخبرنا [الفاضل] أبو العلاء وهو المنشيء » اه .

ويتصدى في شرحه هذا إلى الإكثار من سرد الحوادث التاريخية ، وبعض الأحاديث النبوية ، وأقوال المفسرين . ويكثر من الاستشهاد بكلام الابيوردي (وهو أبو المظفر محمد بن أحمد القرشي الأموي المتوفى سنة ٥٥٧ ه) . ويعنى كثيراً بذكر التجنيس والمقابلة والإيهام ، وبيان كل في موضعه ، ويعول في بيان المعاني والمجازات اللغوية ، على (أساس البلاغة) للزمخشري .

٨ — وشرح القاضي شرف الدين هبة الله بن عبد الرحيم البارزي المتوفى سنة ٧٣٨ ه :

فإنه شرح سقط الزند ، وسمى شرحه (العمدة في شرح سقط الزند) .

٩ — وشرح الشيخ محمد الدّرا الدمشقي المتوفى سنة ١٠٦٥ ه

وقد سمى شرحه هذا : (سقط العقيان والحلى ، لعروس أبي العلا) . أو (ضوء الفند من سقط الزند) ورتبه على حروف المعجم ، وأدخل فيه الدرعيات ، وقد رأيت نسخة من هذا الشرح في سنة ١٣٦٠ ه ، وقد قصر صاحبه في مواطن كثيرة عن إدراك ما يرمي إليه أبو العلاء في قوله .

وقد ترجمه المحبي في (خلاصة الأثر) في الجزء الرابع ص ٢٤٩ وقال في

ص ٢٥٢ : « وعمل بمكة شرحاً على (سقط الزند) لأبي العلاء المعري ، وجعله برسم الشريف زيد بن محسن ، وصدره بقصيدة من نظمه ؛ ثم أدركه المرض بمكة ولم يكمل الشرح .

• • •

٧٢ — كتاب سيف الخطبة :

وهو يشتمل على خطب السنة ، فيه خطب للجمع ، والعيدين ، والخسوف ، والكسوف ، والاستسقاء ، وعقد النكاح . وهي مؤلفة على حروف المعجم . وفيها خطب عمادها الهمزة ، وخطب بنيت على الباء ، والتاء ، والدال ، والراء ، واللام ، والميم ، والنون ، وتركت الجيم والحاء ، وما جرى مجراهما ؛ لأن الكلام المقول في الجماعات ينبغي أن يكون سجعاً سهلاً . وهو جزءان ، ومقداره أربعون كراسة ؛ وذكر أنه كان سأله في هذا الكتاب رجل من المتظاهرين بالديانة .

وقد جاء اسم هذا الكتاب في (كشف الظنون) « سيف الخطيب » وفي الذهبي « كتاب الخطب » وفي ياقوت ، وابن العديم « سيف الخطبة » وفي القفطي يعرف بـ « سيف الخطب »[١] . وجاء في عبارات بعضهم في هذا المقام ، ما يخالف عبارات غيره .

٧٣ — كتاب شرف السيف :

عمله لأمير الجيوش ، أنوشتكين الدزبري ، الذي ولي دمشق سنة ٤١٩ هـ ، للظاهر خليفة مصر ، وكان السبب في عمله أن أبا العلاء بلغه عنه كلام جميل ، وأنه كان يوجه إليه بالسلام ، ويحفي المسألة ، فأراد جزاءه على ما فعل ؛ فعمل له هذا الكتاب ، وهو جزءان ، وسماه في (كشف الظنون) « شرف السلف » وقال : مقداره عشرون كراسة .

---

(١) انظر ما ذكره القفطي وياقوت والذهبي وابن العديم في تعريف القدماء الصفحات : ٤٠ ، ١٠٣ ، ٢٠١ ، ٥٢٩ .

٧٤ — شرح كتاب سيبويه :

لم يتمه ، وفي الذهبي [١] « شرح بعض سيبويه » ومقداره خمسون كراسة ؛ وقد تقدم أن له كتاب تفسير أمثلة سيبويه .

٧٥ — شرح خطبة أدب الكاتب :

عمله لأبي الرضي ، سالم بن الحسن بن علي الحلبي ؛ وهو ابن أخت الوزير أبي نصر محمد بن الحسن بن النحاس الحلبي ، وكان من الفضلاء الأدباء الشعراء [٢] .

٧٦ — كتاب الصاهل والشاحج :

يتكلم فيه على لسان فرس وبغل ، مقداره أربعون كراسة ؛ وهو كتاب حسن ، صنفه للأمير عزيز الدولة أبي شجاع فاتك بن عبد الله الرومي ، مولى منجوتكين . وكان أبو شجاع هذا والي حلب من قبل المصريين في أيام الحاكم ، وبعض أيام الظاهر . وكان رومياً وقد قتل سنة ٤١٣ هـ وكان سبب تصنيفه أنه رفع إلى فاتك أن حقاً يجب له على بعض أقرباء أبي العلاء ، وجب على أبي العلاء سؤاله فيه . وفي القفطي والذهبي « رسالة الصاهل والشاحج » [٣] .

٧٧ — لسان الصاهل والشاحج :

وهو كتاب لطيف في تفسير (الصاهل والشاحج) ، عمله أيضاً لعزيز الدولة المذكور ومقداره ثماني عشرة كراسة .

---

(١) تعريف القدماء ص ٢٠٤ عن تاريخ الإسلام — للذهبي .

(٢) ذكره ابن العديم في الانصاف ، انظر تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٤٠ .

(٣) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٤٥ ، ٢٠٢ .

قال ابن العديم : « وبعض الجهـــال يقول : إنه عمله لأبي الدوام ثابت بن محمود بن نصر بن صالح ، وكان يلقب عزيز الدولة ، وهو غير صحيح بل الذي عمله لأبي الدوام هو اللامع العزيزي وسيأتي ذكره »[١].
وابن العديم سمى الأول « رسالة الصاهل والشاحج » وصاحب كشف الظنون قال : « رسالة الصاهل . . تتضمن تفسير كتاب من تأليفاته » فلعله اشتبه عليه الكتاب الأول بالثاني .

مثال من كلامه في (الصاهل والشاحج) : قال أبو القاسم محمد بن عبد الغفور الكلاعي ، من فصل المورّى : « وسمينا هذا النوع من الكلام المورّى ، لأن باطنه على غير ظاهره . . . وقد سلك أبو العلاء أيضاً هذا المسلك ، وجرى فيه ملء عنانه فأدرك ، فقال في رسالة الصاهل والشاحج : العلم يدل على أن الحَسَنَ لم يرَ الحُسَيْنَ[٢] قط ، وأن فاطمة ـ رضي الله عنها ـ لم تر في بيتها عليًّا[٣] ، وقد يجوز أن تكون أبصرته على بابِ البيت . وكان عليّ ـ رحمه الله ـ يرْحَمُ الأرْمَلة ، ويَبَرّ اليتيمَ ، ويضرب بحدّ سيفه أمّ الصبيّيْن[٤] ، وقطع يد الفيل[٥] على السَّرَق ؛ وجلَدَهُ على شُرب الخمر . وكان يأمر بقتل الأعْرَج والأُعَيْرِج[٦]

---

(١) سيأتي أن اللامع العزيزي لأبي الدوام ثابت بن ثمال بن صالح . على نحو ماذكره القفطي وابن العديم فلعل في الكلام تحريفاً (ج) .
(٢) الحسن والحسين : كثيبان معروفان في بلاد ضبة (ج) .
(٣) العلي : الفرس الشديد (ج) .
(٤) أم الصبيين : هامة الرأس ، والصبيان : اللحيان ، وهما العظمان اللذان تنبت عليهما اللحية (ج) .
(٥) الفيل : الضعيف الرأي والحيس (ج) .
(٦) الأعرج : الغراب ، والأعيرج : حية صماء لا تقبل الرقية ، وتطفر كالأفعى ، وهما من الفواسق الخمسة التي أمر بقتلها ، وهي الغراب ، والحدأة ، والفارة ، والحية ، والكلب العقور (ج) .

وهما في الحرم . ويكره دخول الأعمى [١] المسجد ، وكان ينصف [٢] الخسيس من أهل الأقدار ، ويوطأ الجليل [٣] في زمانه بالقدم » [٤] .

٧٨ — الطل الطاهري :

تقدم ذكره مع الحقير النافع .

٧٩ — كتاب في النحو :

يتصل بالكتاب المعروف بـ (العضدي) ولقبه « ظهير العَضُدي » [٥] ، كما في ياقوت . وفي ابن العديم : « وإملاء في النحو ، يتصل [بالعضدي] » . وفي كشف الظنون : « ظهر العصري » في النحو لأبي العلاء .

٨٠ — كتاب عبث الوليد :

وهو يتعلق بشعر البحتري ، وكان سبب وضعه أنَّ بعض الرؤساء ، وهو أبو اليمن المسلم بن الحسن [الحسين] بن غياث الكاتب الحلبي ؛ وكان صاحب الديوان في حلب ، أنفذ إلى أبي العلاء نسخة من شعر البحتري ، ليقابل له بها ؛ فأثبت ما جرى من الغلط ليعرض عليه ذلك ، وبعض الغلط من الناسخ ، وبعضه من البحتري ؛ وهو جزء واحد ، ومقداره عشرون كراسة [٦] .

وقال ابن خلكان في ترجمة المعري [٧] : « واختصر ديوان البحتري ،

---

(١) الأعمى : الكافر (ج) .

(٢) المراد : يأخذ للخسيس حقه من أهل الأقدار ، فمن متعلقة بينصف (ج) .

(٣) الجليل : نبت وهو الثام ، وجبل في بلاد الشام (ج) .

(٤) تعريف القدماء ص ٤٥٠ .

(٥) تعريف القدماء ص ١١٠ و ص ٥٤٠ .

(٦) ذكر ذلك ابن العديم في الإنصاف والتحري انظر تعريف القدماء ص ٥٤١ .

(٧) وفيات الأعيان ، وانظر تعريف القدماء ص ١٨٣ .

وسماه (عبث الوليد) » . ونقل ذلك عنه صاحب (كشف الظنون) . وقال بعضهم : إنه يتضمن أغاليط البحتري في ديوانه . وقد طبع هذا الكتاب في دمشق سنة ١٣٥٥ هجرية . ويظهر للمتأمل فيه ، أن أبا العلاء تعرض للغلط الذي وقع من الناسخ ، وتعرض للغلط الواقع من البحتري ، كما قال ابن العديم ؛ وأنه اطلع على شعرٍ للبحتري لم يذكر في ديوانه المطبوع في الآستانة وبيروت .

٨١ — كتاب عظات السور :

يشتمل على مواعظ .

٨٢ — كتاب عون الجمل :

يتصل بكتاب الزجاجي ، شرح فيه شيئاً من كتاب (الجمل) [1] كما في القفطي ، وابن العديم [2] ، وفي كشف الظنون أنه شرح الشواهد ، ولم يتم . وهذا الكتاب عمله لأبي الفتح محمد بن علي بن أبي هاشم ؛ وكان أبوه يتولى إثبات ما ألفه أبو العلاء من جميع هذه الكتب .

قال ياقوت ، وابن العديم : « وهو آخر كتاب أملاه » وفي القفطي : « آخر شيء أملاه » [3] . وهذا يناقض قول ابن الوردي في (تاريخه ج ١ ص ٣٦٠) وقول التبريزي السابق : إن ضوء السقط خاتمة كتبه . فتأمل .

٨٣ — كتاب غريب ما في جامع الأوزان :

مقداره عشرون كراسة كما تقدم [4] .

---

(١) الجمل الكبيرة في النحو ، لأبي القاسم عبد الرحمن الزجاجي النحوي المتوفى سنة ٣٣٩ هـ ، هو كتاب مفيد شرحه كثير من العلماء : كما في كشف الظنون (ج) .

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٤٨ ، ٥٣٩ .

(٣) المصدر السابق وانظر أيضاً ص ١١٠ منه .

(٤) ذكره الذهبي والصفدي ، انظر تعريف القدماء الصفحات ٢٠٢ ، ٢٧٥ .

٨٤ — الفصول والغايات :

نقل ياقوت في (إرشاد الأريب) صورة فهرس كتب أبي العلاء ، وقال : « وهي على ضروب مختلفة ، فمنها ما هو في الزهد والعظات وتمجيد الله . . من المنظوم والمنثور . فمن ذلك الكتاب المعروف بـ (الفصول والغايات) والمراد بالغايات : القوافي ؛ لأن القافية غاية البيت أي منتهاه . وهو كتاب موضوع على حروف المعجم ؛ ما خلا الألف ، لأن فواصله مبنية على أن يكون ما قبل الحرف المعتمد فيها ألفا ؛ ومن المحال أن يجمع بين ألفين . ولكن تجيء الهمزة وقبلها ألف ، مثل : العطاء والكساء . وكذلك : الشراب والسراب في الباء . ثم على هذا الترتيب . ولم يعتمد فيه أن تكون الحروف التي يبنى عليها مستوية الإعراب ، بل تجيء مختلفة . وفي الكتاب قواف تجيء على نسق واحد . وليست المطلقة [١] بالغايات ومجيئها على قريٍّ [٢] واحد مثل أن يقال : عِمامها ، وغلامها ، وغَمامها ، وأمرا ، وتَمرا ، وما أشبهه ، وفيه فنون كثيرة من هذا النوع . وقيل : إنه بدأ به بعد عودته من بغداد [٣] . وقيل : إنه بدأ به قبل رحلته إلى بغداد ، وأتمه بعد عوده إلى المعرة ؛ وهو سبعة أجزاء ، وفي نسخته مائة كراسة [٤] » اهـ . ونحو هذا في القفطي .

---

(١) في الإنصاف والقفطي : « الملقبة بالغايات » . وفي القفطي بعد هذا : « وإنما سميت غاية البيت ، وهي قافيته ومجيئها . . » . (ج) وانظر تعريف القدماء ص ٣٨ ، ٥٢٧ .

(٢) أي نسق أو طريقة (ج) .

(٣) لم ترد هذه العبارة في تعريف القدماء .

(٤) انظر تعريف القدماء ص ١٠١ — ١٠٢ عن إرشاد الأريب لياقوت . و ص ٣٨ — ٣٩ عن الإنباه للقفطي .

وقال ابن العديم : إنه « في تمجيد الله والعظات . . . . وهو الكتاب الذي افتري عليه بسببه . وقيل : إنه عارض به السور والآيات ، تعديا [عليه] وظلما ، وإفكاً به أقدموا عليه وإثما . فإن الكتاب ليس من باب المعارضة في شيء ومقداره مائة كراسة » [١] .

وفي (كشف الظنون) : « الفصول والغايات ، في معارضة السور والآيات ، على ما ذكره ابن الجوزي لأبي العلاء . . [٢] وهو مائة كراسة » وفي تفسير غريبه كتاب (السادر) وهو عشرون كراسة . وله كتاب الفصول غير هذا ؛ وهو أربعمائة كراسة . وذكر ابن قاضي شهبة له كتاب (مختلف الفصول) وهو أربعمائة جزء .

وقال الباخرزي في (دمية القصر) في ترجمة أبي العلاء : « وإنما تحدثت الألسن بإساءته ، لكتابه الذي زعموا أنه عارض به القرآن ، وعنونه بالفصول والغايات ، ومحاذاة السور والآيات ؛ وأظهر من نفسه تلك الخيانة»[٣] اه إلى آخر ما تقدم .

وقال ابن الجوزي في (المنتظم) : « وقد رأيت للمعري كتاباً سماه (الفصول والغايات) يعارض به السور والآيات ، وهو كلام في نهاية الركة والبرودة . فسبحان من أعمى بصره وبصيرته ؛ وقد ذكره على حروف المعجم في آخر كلماته [٤] » . اه الى آخر ما تقدم .

وقال الذهبي : « وكأنه معارضةٌ منه للسور والآيات ، فقيل له : أين هذا من القرآن ؟ فقال : لم تصقله المحاريب أربعمائة سنة [٥] » . اه

---

(١) تعريف القدماء ص ٥٢٧ .

(٢) وكذا في طبقات النحاة واللغويين (ج)

(٣) تعريف القدماء ص ٨ عن دمية القصر ـ للباخرزي .

(٤) تعريف القدماء ص ٢١ عن المنتظم - لابن الجوزي .

(٥) تعريف القدماء ص ١٩٥ عن تاريخ الإسلام ـ للذهبي .

وقال ابن سنان عبد الله بن محمد بن سعيد الشاعر صاحب أبي العلاء : « وهذا الكتاب اذا تأمله العاقل علم أنه بعيد عن المعارضة ، وهو بمعزل عن التشبيه بنظم القرآن العزيز والمناقضة[1] » . اهـ

وأورد البديعي في (أوج التحري) جملة من كتاب الفصول والغايات . ثم قال بعده (ص ٦٥)[2] : « وهذا كلام إذا تأمله المتأمل علم أنه بعيد عن المعارضة ، وهو بمعزل عن التشبه بنظم القرآن العزيز والمناقضة » .

وزعم بعضهم أنه قيل لأبي العلاء : ما هذا إلا جيد ، إلا أنه ليس عليه طلاوة القرآن . فقال : حتى تصقله الألسن في المحاريب أربعمائة سنة ، وعند ذلك فانظروا كيف يكون ...

ويقال : إن الذين نسبوه إلى معارضة القرآن العزيز بهـذا الكتاب : (الفصول والغايات) كانوا من أهل زمانه ، يحسدونه على فضله ومكانته ، فقصدوا أذاه ؛ وتتبعوا كلامه ، وحملوه على غير القصد الذي قصده ، كما هو عادة أبناء كل زمان في افتراء الكذب ، واختلاق البهتان .

وقد ألف هو كتاباً في الرد على من نسبه إلى معارضة القرآن ، والجواب عن أبيات استخرجوها من نظمه ، ورموه بسببها بالكفر والطغيان ؛ وسمى الكتاب بـ (زجر النابح) رد فيه على الطاعن في دينه والقادح . وقد اجتزأنا بهذا القدر من أقوال العلماء في هذا الكتاب .

الخلاصة :

ذهب أكثر المتقدمين إلى أن أبا العلاء وضع هـذا الكتاب ليعارض به السور والآيات ؛ ومنهم من جعل عنوانه (الفصول والغايات في معارضة السور والآيات) . واحتذى أكثر المتأخرين على مثال المتقدمين في ذلك .

---

(١) تعريف القدماء ص ١٢٦ عن الصبح النبي ـ البديعي .

(٢) تحقيق الدكتور ابراهيم كيلاني ـ منشورات المعهد الفرنسي بدمشق .

وزعم بعض المعاصرين أن ليس في الكتاب معارضة للقرآن ، وإنما فيه مشابهة له ، وزاد على ذلك بأنه لم يذكر النبي ﷺ فيه ، إلا في خمسة مواضع . ومن البديهي أن المعارضة إما أن تكون في الألفاظ والأسلوب ، وإما أن تكون في المعاني والأغراض ، وإما أن تكون فيهما معاً . وكذلك المشابهة ، إما أن تكون في أحدهما أو في كليهما .

ولم يصل إلينا من هذا الكتاب إلا الجزء الأول الذي طبع في مصر . وإذا تأملناه ، وأنعمنا النظر فيه ؛ تبين لنا :

١ً ـ أن أبا العلاء التزم فيه أن يكون آخر كل غاية على حرف من حروف المعجم ؛ سوى الألف . وقد بناه على الردف (١) ، وربما أتى للحرف الواحد بغايات متعددة ؛ وقد تزيد أو تنقص عن غيرها في حرف آخر ، وأنه يقول في نهاية كل واحدة منها : « غاية » ، ويقول أحياناً بعد انتهاء الغاية : « تفسير » ثم يفسر الغامض من ألفاظها ، ثم يقول : « رجع » . ثم يأتي بغاية أخرى ، حتى يفرغ من الغايات التي على حرف واحد .

٢ً ـ أنه يذكر في أول كل غاية من حرف جديد هذه الجملة : « فصل غاياته باء » . ثم « فصل غاياته تاء » ثم . وثم . إلى آخر حروف الهجاء . وأحياناً يقول بعد انقضاء الغايات من حرف واحد : « انقضت الهمزة » مثلاً . وأحياناً يقول : « مضى فصل الثاء ولله الحمـــد » . ثم يقول : « قال أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان » ثم يبدأ بغاية من حرف جديد .

٣ً ـ أنه أكثر من الألفاظ القليلة التداول على ألسنة البلغاء ، وأكثر من السجع ، حتى كاد يلتزمه في كثير من الغايات .

٤ً ـ أنه ذكر في الكتاب كثيراً من أبيات الشعر ، وأراجيز العرب ، وأمثالها ، وأقوال الصحابة الكرام ، والعلماء ، والحكماء .

---

(١) الردف في القافية: حرف ساكن من حروف المد واللين قبل حرف الروي ليس بينهما شيء.

٥ً — أنه ذكر كثيراً من أسماء العلماء ؛ كالنضر بن شميل ، وأبي الأسود الدؤلي ، وأبي علي الفارسي وغيرهم ؛ وكثيراً من أسماء الشعراء ، والقبائل ، والرجال ، وكثيراً من أسماء الحيوان والنبات والأماكن . وليس شيء من هذا يعارض أو يشابه ألفاظ القرآن أو أسلوبه .

٦ً — أنه ذكر فيه شيئاً من مباحث علم الصرف ، والنحو ، والعروض ، والموسيقى ، والطبيعيات ، والعقائد ، وغيرها . وذكر كثيراً مما اصطلح عليه أهل هذه العلوم .

٧ً — أنه ذكر أشياء يعتقدها في الله تعالى ، وفي قدرته على المستحيلات .

٨ً — أنه أشار إلى كثير من الحوادث والوقائع التاريخية ، ومزاعم العرب ومعتقداتهم .

٩ً — ذكر بلده معرة النعمان ، ووالده ووالدته .

١٠ — أنه أخبر عن نفسه ، بأنه حي كميت ، وأنه يقصر الصلاة ، ويحتاج إلى مسكن يأوي إليه . وذكر وصيته التي تقدمت في وصاياه . وذكر كنيته واعتزاله وسببه وكبره ؛ وما أشبه ذلك مما يتصل به . وليس في القرآن الكريم شيء من هذا كله .

واغراض الكتاب تكاد تنحصر في تقديس الله وتمجيده ، والحث على عبادته ، والزهادة في الدنيا ، وعمل الخير ونحو ذلك مما لا يخرج عن الوعظ والإرشاد .

وأن أغراض القرآن الكريم ومقاصده كثيرة متعددة ؛ من شرع للأحكام ، ونسخ بعض الشرائع السابقة ؛ ودعوة إلى الدين الحنيف ، والجهاد في سبيل الله ؛ ورد على المشركين والكفار ؛ وقصص لأخبار الأنبياء والأمم التي بادت ؛ وتبيان لعاقبة الكفر والبغي ؛ وماشاكل هذامن أغراض القرآن الكريم .

وليس في كتاب (الفصول والغايات) شيء من هذا إلا نادرا . وبينهما فروق كثيرة غير ما ذكرنا . وإنما اجتزأنا بهذا القدر خشية الإطالة .

ومما ذكرنا يتبين أن كتاب (الفصول والغايات) ليست فيه معارضة ولا مشابهة للقرآن الكريم ، لا في ألفاظه وأسلوبه ، ولا في أغراضه ومقاصده . وأنه لا يراد به معارضة القرآن . وإنما هو كما قال أبو العلاء ، في الزهد والعظات وتمجيد الله سبحانه وتعالى .

ولعل كثيراً ممن قال : إنه عارض به السور والآيات ، لم يطلع عليه ؛ وإنما تابع غيره في ذلك ليشايعه على تكفير المعري . وأما زعمهم أنه قال : « لم تصقله المحاريب . . . . » و « حتى تصقله المحاريب أربعمائة سنة » فسيأتي من كلامه في القرآن الكريم ما يدحضه . ومن البعيد جداً أن يقول المعري مثل هذا .

وقد رأيت في هذا الجزء أنه ذكر النبي ﷺ في اثنين وعشرين موضعاً ؛ وكلما ذكره عقب ذكره بالصلاة عليه . وهذا يؤيد ما قلنا : إن الناس يطوون محاسنه ، وينشرون مساوئه ؛ ويتقولون عليه . وإن فيهم من لم يطلع على كتبه ، وإنما كفّره تقليداً .

والذي أعتقده ، أن أبا العلاء أراد أن يعرض مثالاً واسعاً من علمه واطلاعه ، وأن يبيّن صورة من عبقريته وقدرته على التصرف بالألفاظ والمعاني ؛ فوضع هذا الكتاب ، كما وضع البديع والحريري (المقامات) . واختار العظة والتزهيد في الدنيا ، لأنها ألصق بحياته من غيرهما . وستأتي أمثلة من هذا الكتاب ، تدحض أقوال المفترين على صاحبه .

متى ألف هذا الكتاب :

وهذا الكتاب بدأ به بعد عودته إلى المعرة ؛ على الأرجح ، يدل على ذلك قوله في فهرست كتبه التي نقلها القفطي وياقوت وغيرهما : « لزمت مسكني منذ سنة أربعمائة . . فأمليت أشياء ، وتولى نسخها الشيخ أبو الحسن علي بن عبد الله . . . » . وهي على ضروب مختلفة ، فمنها ما هو في الزهد

والعظات ، وتمجيد الله تعالى من المنظوم والمنثور ؛ فمن ذلك الكتاب المعروف بالفصول والغايات . وقال ابن العديم : « فأول ما ألف بعد انقطاعه في منزله بعد رجوعه من بغداد الكتاب المعروف بـ (الفصول والغايات) » . ويدل على ذلك أيضاً قول أبي العلاء في (الفصول والغايات ص ٢): « ما آمل وقد فقدت أبوي » وقوله في (ص ١٤) : « وأصبت الوالدة قد سبق بها الحمام » وقوله في (ص ٣١) : « اعنني[1] رب وأعنّي ، واعنِ بي حتى تغنيني عن أمي وأبي فقد ذهبا ... » . وأمه توفيت قبل عودته الى المعرة .

• • •

٨٥ — كتاب السادن:

أنشأه في ذكر غريب (الفصول والغايات) وما فيه من اللغة ، ومقداره عشرون كراسة . وفي ياقوت : « وما فيــه من اللغز » . وفي الذهبي : « كتاب الشادن » وفي كشف الظنون بعد ذكر الفصول والغايات : وفي تفسير غريبه كتاب السادر ، وكذا في القفطي[2] . والسادن : الخادم . وقد تقدم أن لأبي العلاء كتاب (خادم الرسائل) .

٨٦ — كتاب قاضي الحق:

يتصل بالكتاب المعروف بـ (الكافي) الذي ألفه أبو جعفر أحمد بن محمد النحاس المتوفى سنة ٣٣٨ هـ وقد رأى القفطي من هذا الكتاب جزءاً من تجزئة سبع مجلدات[3] .

٨٧ — كتاب القائف[4] :

يذكر فيه أمثالاً على معنى (كليلة ودمنة) عمله لعزيز الدولة أبي شجاع

---

(١) أعنني : أي أخضعني . الفصول والغايات طبع القاهرة سنة ١٣٥٦ .
(٢) انظر ياقوت والذهبي والقفطي في تعريف القدماء الصفحات : ١٠٢ ، ٢٠١ ، ٣٩ .
(٣) تعريف القدماء ص ٤٦ عن الانباه للقفطي .
(٤) ذكره القفطي وياقوت والذهبي وابن العديم وغيرهم ، انظر تعريف القدماء الصفحات ٤٥ ، ١١٠ ، ٢٠٣ ، ٥٣٢ .

فاتك الذي تقدم ذكره ، ألف منه أربعة أجزاء ، ثم قطع تأليفه لموت الذي أمر بإنشائه ، وهو أبو شجاع ، فإنه قتل بقلعة حلب ، قتله مملوك له هندي يقال له توذون سنة ٤١٣ هـ كما تقدم ..

٨٨ – منار القائف :

في تفسير ما جاء في (القائف) من اللغز والغريب . وفي الذهبي [١] : « من اللغة والغريب مقداره عشر كراريس » .

أمثلة من كتاب القائف :

قال الوزير أبو القاسم محمد بن عبد الغفور الكلاعي ، من رجال القرن السادس ، في كتابه (إحكام صنعة الكلام) [٢] ومن الحكايات المختلقة ، والأخبار المزورة المنمقة ، كتاب (كليلة ودمنة) وكتاب (القائف) لأبي العلاء المعري ؛ وقد تكلم فيه على ألسنة الحيوان وغير الحيوان .

فمن كلام أبي العلاء على لسان الحيوان الناطق قوله :

« ومن أجرَى إلى غيرِ مَدًى ، كان مثله مثل الشيخ الجاهل ، لما سمع قول القائل :

أَصْبَحَ عَنِّي الشَّبابُ قَدْ حُسِرا [٣]

قال : ما أرى الشباب إلا قد ظَعَن مع الظاعنين ، لأخرجنّ في طلبه . فسار حتّى لقيَه رجلٌ ، فقال له : أعندكَ خبَر للشباب ؟

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٢٠٣ عن الذهبي .

(٢) وانظر تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٤٥١ – ٣ – عن الكلاعي .

(٣) هذا صدر بيت للربيع بن ضبع الفزاري ، وتمامه :

« ان ينأ عني فقد ثوى عصرا » .

وهو من أبيات مذكورة في كتاب المعمرين ص ٦ (ج)

فقال: شبابك أو شباب غيرك ؟ قال: بل شبابي . قال : إنه ذَهَبَ مع أمس ، وأمس خَلْفَك ، فارْجِع وَرَاءك وأسرع ؛ فَلَعلَّك تُدركه . فرجع الشيخ يعدو وراءه ؛ فكلما عدا[1] ازداد من أمس الشبيبة بعدا » .

(فصل) « حَضَرَتِ النملةَ الوفاةُ ؛ فاجتمع حواليها النمل . فقالت نادِبَتُها : يرحمُكِ اللهُ ! أمِنْ شعيرةٍ مجرورة ، وبُرَّةٍ مَنْطورة ، وآثار سُفْرَةٍ مَنْشُورة ؟ قالت لهنّ : لا تَجْزَعْنَ ؛ فقد دَخرتُ عند الله دَخيرةً من دَخرٍ مِثلَها جديرٌ بالرحمة ، وذلك أنّي لم أسفكْ دماً قط » .

(فصل) « زعموا أن وَصْعا[2] كان يُجاورُ حيّةً رَقْشاء ، فكان ذلكَ الوَصْعُ إذا فَرّخَ سرَتِ الحيةُ لأكْلِ فِراخه في الظلام ، في عامٍ بعد عام . والله يُجازي على الحَيْفِ والإنعام ؛ فقضى بتلكَ الحيّةِ أن كُفّتْ في آخر عمرها ؛ فَلَزِمَتِ الوِجار[3] ، لا تذعر النّائي ولا الجار . فقال أحبّاؤه: ألا تأتي الظّالمةَ مُظهِراً

---

(١) في الأصل عاد (ج) .

(٢) الوصع : ويحرك طائر أصغر من العصفور .

(٣) الوجار : بالكسر والفتح جحر الضبع وغيرها .

للشّمات ؟ ! قال : لو كنت ، وهي المُبصِرة ، أقدر على ضير ، لكنت اليها وَشِيكَ السّير ؛ فأمّا إذْ كَفَتْنِيها الأقضِيَة ، فإنّ عيني عنها مغضية » .

(فصل) « عَميَ أسد مِنْ عوامّ الأُسدِ ، فأضَرّ ذلك بهِ . فقيل له : لو جئتَ مَلِكَ الأسدِ فسألته أن يصلَك ، لكانَ ذلكَ رَأياً لك . فذهب اليه ، وسَرَد قصته عليه . فقال لخازنه يُجرِي لَه في كُل يوم عضواً مُوَرّبا (١) . فقال الأسد الذي التمس الجراية: أصلح الله الملك ! إنّي كنت اصطاد الوَعِلَ والبقرة الأهليّة فلا أكادُ أُدرِكُ بها الشّبع ؛ فأين مني هذا العضو يقع ؟ ! فقال الملك: من أتكل عَلَى كَسْب غيره [وجب أن] يقتنع بقليل خيره . قال الأسد : صدق الملك ، ولا حاجة لي بهذا العضو . قال الملك : فما تصنع ؟ قال : اجتزىء بنبت السحاب ، ولا أفتقِر إلى الملك والأصحاب » .

ثم قال : ولأبي العلاء [المعري] في كتاب (القائف) إحسان مشهور ، وإبداع كثير موفور . وهو أكثر من كتاب كاملة ودمنة ورَقا ، وافسحُ طَلَقا ، وأطيب شمياً وعبقا » .

---

(١) تاماً كاملاً (ج) .

٨٩ — كتاب في القوافي :

مجلد ذكره ابن العديم[1] ، ولم يسمه .

٩٠ — اللامع العزيزي :

في تفسير شعر المتنبي ، ويقـال له « الثابتي العزيزي » عمله للأمير عزيز الدولة أبي الدوام ثابت بن ثمال بن صالح بن مرداس . وبعض الناس يقول : إنه وضعه لعزيز الدولة أبي شجاع فاتك العزيزي . وليس الأمر كذلك ؛ ومقداره مائة وعشرون كراسة . وذكره في (كشف الظنون) مرة « لامع العزيز » في شرح ديوان المتنبي . ومرة « لامع الغزنوي » وكلاهما محرف . وفي (مرآة الزمـان) : في شرح المتنبي . وذكر ابن خلكان أنه اختصر ديوان المتنبي وسماه (معجز أحمد) وتكلم على غريبه ومعانيه ومآخذه من غيره ، وما أخذ عليه ؛ وتولى الانتصار له والنقد والتوجيه . وقال ابن خلكان : « لما فرغ من تصنيف كتاب اللامع العزيزي ، في شرح شعر المتنبي ؛ وقرىء عليه ؛ أخذ الجماعة في وصفه ، فقال أبو العلاء كأنما نظر إلي بلحظ الغيب حيث يقول :

أنا الذي نَظَرَ الأعمى إلى أدبي ... وأسمعت كلماتي من به صَمَمُ[2]

واختصر ديوان أبي تمام وشرحه . . . وديوان البحتري . . . وديوان المتنبي ، وسماه : (معجز أحمد) . وتكلم على غريب أشعارهم ومعانيها ، ومآخذهم من غيرهم وما أخِذَ عليهم ، وتولى الانتصار لهم ، والنقد في بعض المواضع عليهم ، والتوجيه في أماكنَ لخطئهم[3] .

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٤٠ عن الإنصاف والتحري . لابن العديم .

(٢) العرف الطيب ص ٣٤٣

(٣) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ١٨٣ عن الوفيات ـ لابن خلكان .

ونحو ذلك في (أوج التحري) [١] . وأكثر من كتب في المعري بعد ابن خلكان احتذى على مثاله .

وكلامه يدل على أن للمعري كتابين في شعر المتنبي ، أحدهما : (اللامع العزيزي) والثاني : أخصر منه وهو الذي سماه (معجز أحمد) ويؤيد هذا أن ابن العديم ، ذكر في كتب المعري كتاباً في معاني شعر المتنبي ، مقداره ست كراريس . كما ذكر (اللامع العزيزي) ومقداره مائة وعشرون كراسة ، كما تقدم ، وفي القفطي : « اللامع العزيزي في شرح غريب شعر أبي الطيب » . . وفي الذهبي : « في شرح شعر المتنبي » . فتأمل [٢] .

٩١ — لزوم ما لا يلزم :

وهو في المنظوم ، بني على حروف المعجم ؛ يذكر فيه كل حرف ، سوى الألف ، بوجوهه الأربعة وهي : الضم ، والفتح والكسر ، والوقف ، منظوما .

قال ياقوت : « وهو ثلاثة أجزاء ، أو أربعمائة وعشرون كراسة . ويحتوي على أحد عشر الف بيت من الشعر » [٣] وفي القفطي وابن العديم : مقداره أربعة أجزاء ، وهو مائة وعشرون كراسة [٤] . وفي (كشف الظنون) : مائة وعشرون كراسة . وسيأتي الكلام فيه .

٩٢ — زجر النابح :

يتعلق بلزوم ما لا يلزم . وسبب تأليفه أن بعض الجهال تكلم على أبيات من لزوم ما لا يلزم ، يريد بها الشر والأذية ، وطعن عليه فيها

---

(١) الأوج ليوسف البديعي ص ٢٩ تحقيق الدكتور ابراهيم الكيلاني .
(٢) انظر تعريف القدماء الصفحات : ٤٧ ، ٢٠٣ ، ٥٤٠ .
(٣) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ١٠٥ عن إرشاد الأريب — لياقوت .
(٤) انظر تعريف القدماء الصفحات : ٤١ ، ٥٣٦ .

فنسبه إلى الكفر ، فألزم أبا العلاء أصدقاؤه كتاباً يرد فيه على من طعن عليه ؛ ويبين وجوه الأبيات ومعانيها ؛ فأنشأ هذا الكتاب ، وهو كاره . وهو جزء ومقداره أربعون كراسة .

قال ياقوت : « ومن غير خطة ... شرح اللزوم » وهو جزء واحد مقداره أربعون كراسة »[1] وفي كشف الظنون : زجر النـــائح ؛ ولعله محرف عن النابح .

٩٣ — نجر الزجر :

يتعلق بزجر النابح ، وهو أربعون كراسة في قول ياقوت ، والقفطي ، والذهبي[2] . وثلاثون في قول ابن العديم[3] . واسمه عند ياقوت : « بحر الزجر » والصواب : نجر الزجر والنجر الأصل ؛ يعني أصل الزجر ، وضعه بعد الكتاب الأول ، يرد فيه على من طعن عليه في أبيات غير الأبيات المذكورة في (زجر النابح) وبعضها محرفة عن مواضعها، فبيّن التحريف ، وبيّن وجوه تلك الأبيات ومعانيها وفي الميمني : « مقداره عشر كراسات[4] » . فتأمل .

٩٤ — راحة اللزوم :

كتاب شرح فيه ما في كتاب (لزوم ما لا يلزم) من الغريب ومقداره مائة كراسة[5] .

٩٥ — كتاب الراحلة :

ثلاثة أجزاء في تفسير (لزوم ما لا يلزم) كما ذكره ياقوت[6] .

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ١٠٥ عن إرشاد الأريب .

(٢) انظر تعريف القدماء الصفحات : ١٠٥ ، ٤٢ ، ٢٢١ .

(٣) المصدر السابق ص ٥٣٧ عن الإنصاف والتحري .

(٤) أبو العلاء وما إليه ص ٢٧٥ وفيه : « بحر الزجر » .

(٥) ذكره القفطي وياقوت والذهبي وابن العديم وغيرهم ، انظر تعريف القـــدماء الصفحات ٤٢ ، ١٠٩ ، ٢٠٢ ، ٥٣٧ .

(٦) تعريف القدماء ص ١١١ عن إرشاد الأريب . .

٩٦ – مبهج الأسرار : لأبي العلاء ؛ هكذا قال في كشف الظنون ؛ ولم يبين ما هو .

٩٧ – مثقال النظم : في العروض ، جزء واحد [١] .

٩٨ – مجد الأنصار : في القوافي . كذا في ياقوت والصفدي . وقال ابن العديم : « وكتاب في القوافي مجلد » [٢] .

٩٩ – كتاب المختصر الفتحي :

يتصل بكتاب محمد بن سعدان الكوفي النحوي المتوفى سنة ٢٣١ هـ ؛ عمله لأبي الفتح محمد بن الشيخ أبي الحسن علي بن ابي هاشم ، الذي كان أبوه تولى إثبات ما ألفه أبو العلاء من جميع هذه الكتب . وجاء في بعض الكتب : « المختص الفتحي » وفي بعضها المختصر الفسيحي [٣] .

١٠٠ – كتاب مختلف الفصول : نحو أربعمائة كراسة ، ذكره الذهبي [٤] .

١٠١ – كتاب ملقى السبيل :

وهو كتاب وعظ ، يشتمل على نظم ونثر على حروف المعجم ، على كل قافية فصل نثر ، وأبيات شعر ، مقداره كراستان ، وفي كشف الظنون والقفطي : أربع كراسات ، وقال الذهبي : مقداره ثمان ورقات [٥] ، وقد طبع هذا الكتاب في مصر .

---

(١) ذكره ياقوت وابن العديم وغيرهما ، انظر تعريف القدماء ص ١١١ ، ٥٤٠ .

(٢) انظر ياقوت والصفدي وابن العديم في تعريف القدماء بأبي العلاء الصفحات ١٠٤ ، ٢٧٥ ، ٥٤٠ عن معجم الادباء ، والوافي بالوفيات ، والإنصاف والتحري .

(٣) ذكره القفطي وياقوت والذهبي وابن العديم وغيرهم . انظر تعريف القدماء الصفحات ٤٧ ، ١٠٩ ، ٢٠٣ ، ٥٣٩ .

(٤) تعريف القدماء ص ٢٠١ عن تاريخ الاسلام – للذهبي .

(٥) انظر القفطي والذهبي في تعريف القدماء الصفحات ٤٣ ، ٢٠٢ .

١٠٢ — كتاب المواعظ الست :

وهو كتاب لطيف ؛ سأله فيه بعض الوعاظ ، ومعنى هذا اللقب أن الفصل الأول منه : في خطاب رجل ؛ والثاني : في خطاب اثنين ؛ والثالث : في خطاب جماعة ؛ والرابع : في خطاب امرأة ؛ والخامس في خطاب امرأتين ؛ والسادس : في خطاب نسوة . ومقداره خمس عشرة كراسة ، وفي كشف الظنون : « المواعظ السنية ؟ أوله : الحمد لله الذي عرف وفهم .. » وفي القفطي : « يعرف بمواعظ الست » . وفي الذهبي : « مواعظ ، خمس عشرة كراسة[1] » . .

١٠٣ — كتاب تفسير شواهد الجمهرة : ثلاثة أجزاء لم يتم[2] .

وقد تقدم أن لأبي العلاء أمالي مقدارها مائة كراسة لم تتم ؛ ولم يفرد لها اسماً ، منها : « تفسير شواهد الجمهرة » .

١٠٤ — نظم أو نظام السور :

وقد تقدم في نظم السور[3] .

١٠٥ — كتاب وقفة الواعظ :

مختصر ، ونقل عن الذهبي : « فقه الواعظ » ، وفي بعض نسخ ياقوت : « وقعة » والظاهر أنه (وقفة الواعظ) كما رواه ابن العديم ، وياقوت ، وابن قاضي شهبة ، والقفطي[4] .

---

(١) انظر القفطي والذهبي في تعريف القدماء ص ٤٣ ، ٢٠٢ .

(٢) ذكره ياقوت والصفدي انظر تعريف القدماء الصفحات ١٠٣ ، ٢٧٥ عن إرشاد الأريب ، والوافي .

(٣) انظر ما سبق ص ٧١٤ .

(٤) انظر الذهبي وابن العديم وياقوت والقفطي في تعريف القدماء الصفحات ٢٠٢ ، ٥٣١ ، ١٠٤ ، ٤٣ .

وذكر له ياقوت كتاباً في الرسائل الطوال ، فيها (رسالة الغفران) بعد أن ذكر ما تقدم في ديوان الرسائل . ونقل عن جماعة من أصحاب أبي العلاء ، أن له بعض كتب في العروض والشعر ، بدأ بها ولم تتم .

وذكر ابن العديم أن أبا العلاء جمع شعر أخيه أبي الهيثم عبد الواحد لولده زيد ؛ وقد توفي أبو الهيثم سنة ٤٤٢ هـ . وأنه جمع شعر الأمير أبي الفتح بن أبي حَصينة السلمي ، وشرح مواضع منه في ثلاث مجلدات [١] .

وأنا أقول : لعله جمع شيئاً من شعر أبي الفتح ؛ لأن أبا الفتح توفي سنة ٤٥٧ هـ بعد وفاة أبي العلاء بنحو ثماني سنوات . ورثى أبا العلاء بقصيدته المشهورة التي مطلعها :

العِلْمُ بَعْدَ أبي العَلاَءِ مُضَيَّعُ . . . . [٢]

وقد وجدت مجموعة من شعر الأمير أبي الفتح في مكتبة الأسكوريال في أسبانيا ، ونُقِلَتْ بالتصوير إلى مكتبة المجمع العلمي العربي بدمشق ؛ وهي تحتوي على (١٧٣) صفحة وفيها (١١٥) قصيدة ومقطعة من شعره ؛ كلها في مدح الأمير ثمال بن صالح بن مرداس .

ووُجدت مجموعة أخرى في مكتبة دار الآثار في بغداد ، وهي أقل شعراً من نسخة دمشق ؛ إلا أنها أجزل فائدة ، وهي مجلدة واحدة . وقد كتب في الصفحة الأولى منها : « النصف الأول من ديوان الأمير الجليل أبو الفتح [كذا] الحسن بن عبدالله بن أحمد بن أبي حصينة السلمي ... » [٣] .

وفي الصفحة الثانية : « بسم الله الرحمن الرحيم . قال الشيخ الأجل الأوحد أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي ـ رحمه الله ـ :

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٤١ عن الإنصاف ـ لابن العديم .

(٢) ديوان أبي الفتح ج ١ ص ٣٧٣ وهي قصيدة تشتمل على ستة عشر بيتاً .

(٣) قام بتحقيق ديوان أبي الفتح بن أبي حصينة الدكتور أسعد طلس وتم نشره بجزأيه في المجمع العلمي العربي بدمشق سنة ١٩٥٧ م .

الدهر مديد طويل ، يجوز أن يحدث فيآخره كما حدث في أوله ، لأن الله سبحانه قدير على الممتنعات ، كلما حكم به فهو آت . تقدست أسماؤه ، وجلت نعماؤه ، ولا يمتنع أن ينشىء في هذا العصر من الشعراء من هو لاحق بالمتقدمين ، وشبيه مَنْ سلف من الفحول الأولين . وكان مولاي الأمير الجليل أبو الفتح الحسن بن عبد الله بن أبي حصينة ، سألني أن أسمع شعره ، فقرىء علي ما أنشأه من أنواع القريض ؛ فوجدتُ لفظَه غيرَ مريض . ومعانيه صحاح مخترعة ، وأغراضه بعيدة مبتدعة ؛ وهو وإن كان متأخراً في الزمان ، فكأنه من فرطٍ في عهد النعمان . ومَنْ سمِعَ كلامَه علم أنه لم يغير شهادة ، ولا خرم في إبداع الكلم سيادة .

والحمد لله الذي خص بمدائحه السيد الأجل ، تاج الأمراء ، فخر الملك — أعز الله نصره ، وأعلى ذكره — وقد جمع الله الألسن على مدائحه كل لسان ، يبلغ مجهود الإنسان ؛ فعييّ يقدر على كلام قليل ، وبليغ يصل إلى المقام الجليل . وثالث يقتصر على النيّة ، ويأمل بهـا بلوغ الأمنيّة . وما زالت العرب في قديم الزمان تفتخر بالشعر وتجله ، ويعظمه مكثر الحي ومقله . وإنما عرضت الملوك أموالها للأعطية ، راغبة في ثناء باق ، واستعباد من لا يجنح إلى الإباق . ويتفق في الزمان الواحد شعراء كثيرة ، لا يحمد منهم إلا قول الرجل أو الرجلين .

وقد كان علي بن عبد الله بن حمدان ، أقام سوقاً للشعراء ، وتفرد بتقريبهم دون الأمراء ؛ فرحل اليه قريبهم والبعيد ، والتمس عنده النوال الرغيب لا الزهيد . فمـا اشتهر منهم إلا نفر قليل ؛ منهم أحمد بن الحسين المتنبي ، وأحمد بن محمد النامي ، والحارث بن سعيد المعروف بأبي فراس ، ورجل يعرف بابن كاتب البكتمري ، وهو أقلهم حظاً في مسير القصيد . ولمـا كان السيد الأجل ، تاج الأمراء ، فخر الملك ،

مبرزاً في الفهم ، خالص الغريزة من التهم ، يعرف عقود الكلم معرفة الصيرفي — فيض الله له سبحانه من يشفي الغلة ، ويخلص مدى الدهر من الخلة — فحديثه يعبر على الدهور ، وإلى أن يؤذن بنفخ الصور . وقد قال القائل [1] :

يَمُوتُ رَدِيءُ الشِّعْرِ مِنْ قَبْلِ أَهْلِهِ ... وَجَيِّدُهُ حَيٌّ وَإِنْ مَاتَ قَائِلُهْ

قال الأمير الجليل أبو الفتح الحسن بن عبد الله بن أحمد بن أبي حصينة السلمي — أيد الله عزه — يمدح الأمير الأجل تاج الأمراء فخر الملك ، سيف الخلافة وعضدها ، شرف المعالي ؛ بهاء الدولة العلوية ، وزعيم جيوشها المستنصرية ، علم الدين ذا الفخرين ، مصطفى أمير المؤمنين ، أبا العلوان ثمال بن الأمير الأجل أسد الدولة ، ومقدمها وناصحها ، أبي علي صالح بن مرداس السلمي ، رضي الله عنه وأرضاه ، وجعل الجنة منقلبه ومثواه . وأنشدت بالرافقة سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة :

هَلْ بَعْدَ شَيْبِكَ مِنْ عُذْرٍ لِمُعْتَذِرِ ... فَازْجُرْ عَنِ الغَيِّ قَلْباً غَيْرَ مُنْزَجِرِ

ثم ذكر بعدها قصائد يبلغ عددها ٦٢ ، وتزيد بيوتها على (١٧٠٠) بيت .

وذكر له قصيدة قالها في شعبان سنة ٤٣٧ هـ وقصائد قالها سنة ٤٥٠ هـ .

وفي ص ١٠٣ من هذه النسخة : « شرح ديوان ابن [2] حصينة ، للعلامة أحمد بن سليمان الشهير بأبي العلاء المعري — سامحه الله — . . . » .

وفي ص ١٠٤ : بسم الله الرحمن الرحيم ، قال الشيخ الأجل الأوحد أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي المعري — رحمه الله — في شرح القصيدة التي أولها :

---

(١) البيت لدعبل الخزاعي ، انظر العمدة ج ١ ص ٧٣ .

(٢) كذا . (ج)

هَلْ بَعْدَ شَيْبِكَ مِنْ عُذْرٍ لِمُعْتَذِرِ . . . .

قوله : ما البيض ، يجوز فيه الرفع والنصب ؛ أما النصب فعلى أن يجعل مفعولا معه ؛ والرفع أجود . وهــذا البيت ينشد على وجهين ، قال الشاعر [1] :

فَمَــا أنا والسَّيْرُ في مَتْلَفٍ يُطيحُ بِالذُّكَرِ الضَّــابِطِ

وقوله : عن وجد يخامره ، أي يخالطه ، وأصل ذلك من خمرة اللبن . وأصل المخامرة أن تكون بين شيئين يصيب كل واحد منهما الآخر ما يصيبه منه . فأما قولهم : مخامر بمعنى مداج ؛ فانما يريدون به كالذي يستتر بالخُمُر وهو ما واراك من شيء . قوله : بشعب تمار ، الشعب : الطريق في الجبال ، وتمار : اسم جبل ، وهي تؤنث . قال الشاعر :

أَقْفَرَتْ مِنْ سُروبِ قَومي تَعَارُ فَأرُوم فَشَابَــةٌ فَالدِّيَارُ

والضال : وهو غير مهموز ما ينبت من السدر على غير شط نهر ، فإن كان على الماء فهو عبري . وأصل الأعشار من قولهم : قدر أعشار ، إذا كانت مكسرة قد تشعبت . وهو من جنس قولهم : حبل أرماث وأرمام . وأما قول الأعشى أو امرىء القيس : « في أعشار قلب مقتل » فقد قيل قولان : أحدهما ، أن يكون من أعشــار القدر أي قلبه قد تقطع فكأنه أعشار قدر . والآخر أن يكون من أعشار الجزور ، وهي الأنصباء التي يضرب عليها بالقداح . والمرخ : شجر كثير النار ، من قولهم : اقدح بمرخ أو عفار . ثم اشدد يديك أو ارخ . وأصل الحج :

---

(١) هو أسامة الهذلي وروى : « يبرح بالذكر . . » . (ج)

القصد ، يقال : حج القوم الرجل ، إذا كثر التردد اليه . قال الراجز يصف فرساً بقوله :

ظَلّ يَحُجّ وَظَلَلْنـا نَحْجُبُه وَظَلّ يَرْمي بالْحصَى يُتَرّبُه

* * *

وقد نشرت مجلة المجمع العلمي العربي في دمشق في الصفحة ٥٢٦ من الجزء الرابع من المجلد الرابع والعشرين جملة من كلام أبي العلاء في مقدمة هذا الشرح ؛ وجملة من الشرح نفسه . وقد نقلنا طائفة من ذلك لنستدل بها على أمور :

١ — أن الأمير أبا الفتح هو سأل أبا العلاء أن يسمع شعره ، فقرىء عليه ما أنشأه من القريض . وظاهر هذا أنه سمع كل ما كان نظمه إلى ذلك الحين .

٢ — من القصائد التي سمعها ما كان نظمها في سنة خمس وأربعين وأربعمائة . ولم يتيسر لنا الوقوف على الشرح المذكور كله ، لنعلم هل كان فيه ما نظم بعد هذا التاريخ أم لا .

٣ — إن ابن العديم قال : « إنه جمع شعر أبي الفتح وشرح مواضع منه . . . » . ولعل لفظ « جمع » محرف عن لفظ « سمع » لقول أبي العلاء في مقدمة الشرح المذكور : « سألني أن أسمع شعره ، فقرىء عليّ ما أنشأه . . » . وهذا يدل على أن شعره كان مجموعاً وقرىء على أبي العلاء بعد جمعه .

٤ — ان ما تقدم يؤيد ما قلناه من أنه جمع (سمع) شيئاً من شعره ، لا شعره كله ؛ لأن الأمير عاش بعد أبي العلاء ونظم شعراً ولم يسمعه أو يجمعه أبو العلاء ، ومنه مرثيته .

٥ — يتضح من الأمثلة المتقدمة ، أن أبا العلاء شرح الكلمات الغريبة ، وعني ببيان وجوه الإعراب ، ورد الكلمات إلى أصولها ، والإشارة إلى

المناسبة التي بين المعنى الأصلي ، والمعنى الذي يريده الشاعر ؛ ولا نعلم ما في بقية الشرح لنستطيع الحكم عليه .

* * *

مجموع كتبه وتآليفه

لم تتفق كلمة العلماء على مقدار ماله من الكتب والتصانيف ؛ وإنما كان بينها تفاوت عظيم . فقد قال القفطي ، بعد أن ذكر كتبه : « فذلك الجميع خمسة وخمسون مصنفا . العدد بتقريب ، سوى ما لم يذكره ، أربعة آلاف ومائة وعشرون كراسة » ثم قال : « وأكثر كتب أبي العلاء هذه عدمت ، وإنما يوجد منها ما خرج من المعرة قبل هجوم الكفار عليها ، وقتل من قتل من أهلها ، ونهب ما وجد لهم ؛ فأما الكتب الكبار التي لم تخرج من المعرة فعدمت وإن وجد شيء منها فإنما يوجد البعض من كل كتاب »[١] . ثم ذكر طائفة من الكتب التي رآها أو سمع بها .

وقال ابن العديم بعد أن ذكر كتب المعري : « فذلك جميعه سبع وستون مصنفا » .

وقال ابن حجر في (لسان الميزان) : « إن تصانيفه نحو مائتي مجلد »[٢] .

آخر كتب أبي العلاء :

توهم بعض الأدباء أن آخر ما ألفه أبو العلاء هو شرحه لشعر الأمير أبي الفتح ؛ واحتج لذلك بأن ابن العديم ذكره في آخر ما ذكره من كتب أبي العلاء . وهذا وهم أو باطل ؛ لأن ابن العديم لم يلتزم فيما ذكره من الكتب ترتيب السنين ؛ فقد ذكر (ضوء السقط) قبل (لزوم ما لا يلزم) و (زجر النابح) و (نجر الزجر) وغيرها وقد قدمنا أنه آخر ما ألفه وخاتمة كتبه .

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٤٨ — ٤٩ ؛ عن إنباه الرواة — للقفطي .
(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٣١٨ عن لسان الميزان وفيه : « وتصانيفه في اللغة والأدب أكثر من مائتي مجلد » .

تفننه في تسمية كتبه

لأبي العلاء ذوق خاص بتسمية كتبه ، يرمي بها إلى ما يريده من الأغراض . وإذا تأملت أسماء كثير منها تبين لك ما يتوخاه من التسمية .

فقد سمى كتابا (تاج الحرة) لأنه في عظات النساء . وسمى كتاباً في العروض (جامع الأوزان) وسمى ما أصلحه وشرحه من شعر البحتري (عبث الوليد) وشَرْحَ ديوان أبي تمام (ذكرى حبيب) وشَرْح ديوان المتنبي (معجز أحمد) ، وسمّى الديوان الذي فيه شعر الصبا ، وباكورة شعره (سقط الزند) وشرحه (ضوء السقط) ، وسمّى كتابا (لزوم مالا يلزم) ، وسمّى الكتاب الذي رد فيه على من انتقده في لزوم ما لا يلزم (زجر النابح) ، وسمّى الآخر (نجر الزجر)، وسمّى كتابا (تظلم السور) ؛ وهكذا جرى في تسمية كتبه . وإذا تأمل الإنسان ما يورّي عنه بهذه الأسماء ، وما يعرض بها ، عرف ما يريده واضعها منها ، ووجد فيها وخزاً أليما ، وامتهاناً عظيماً لخصومه .

على أن أكثر كتبه لم نطلع عليها ، لنفهم ما بين الاسم والمسمّى من المناسبة فهماً تاما ، وندرك الغاية من التسمية التي حملته على أن يسمي (رسالة الضبعين) و (الصاهل والشاحج) و (القائف) وما أشبهها . ومع ذلك فإن القدر الذي عرفناه من بعضها كاف في الدلالة على أن للمعري ذوقاً لطيفاً ومغزى دقيقاً في تسمية الكتب .

تفننه في أشكال كتبه وأوضاعها وأساليبها

لأبي العلاء خيال واسع ، وفكر جوال ، وقريحة فياضة ؛ وهو حي نام في خياله وفكره وقريحته ؛ نزّاع إلى الابتكار والتجديد في كل شيء ؛ مولع بالافتنان في كل أثر يحدثه . وقلما نجد له كتابـاً أو رسالة أو

قصيدة ليس عليها مسحة من ابتكار وتفنن ، سواء أكان ذلك في صوغ الأثر وترتيبه ، أم في معانيه وأخيلته .

وإذا تأملت ما سبق ذكره من كتبه ، على قلة ما عرفنا حقيقته منها ، لم تجدها كلها مطبوعة على غرار واحد ، من حيث التأليف والترتيب والأسلوب والشكل ؛ بل لا تكاد تجد اثنين منها على نمط واحد .

فمنها ما ألفه على غايات وفصول على حروف المعجم .

ومنها ما بناه على الهمزة والردف ، وعلى الهمزة في حالة انفرادها وإضافتها .

ومنها ما التزم فيه ذكر آية أو أكثر من آيات القرآن الكريم عند انقضاء كل فصل .

ومنها ما التزم في آخر كل فصل منه ياء التأنيث ، أو الكاف ، أو النون بعد ياء التأنيث .

ومنها ما التزم فيه على كل حرف من حروف المعجم خمس سجعات مضمومة ، وخمساً مفتوحة ، وخمساً مكسورة ، وخمساً موقوفة .

ومنها ما جعل الفصل الأول منه في خطاب رجل ، والثاني في خطاب اثنين ، والثالث في خطاب ثلاثة ، والرابع في خطاب امرأة ، والخامس في خطاب امرأتين ، والسادس في خطاب نسوة .

ومنها ما جعله عشر سجعات على كل حرف من حروف المعجم .

ومنها ما التزم فيه قبل الروي ما لا يلزم من الحروف .

ومنها ما جعله على ألسن سور القرآن الكريم .

ومنها ما هو على لسان مَلَك أو ملائكة .

ومنها ما هو على لسان ألسنة الخيل .

ومنها ما هو على لسان بغل وفرس .

ومنها ما هو على ألسن الحمائم ، والعصفور ، وغيرهما من الطير .

إلى غير ذلك مما تقدم ذكره . ومنها رسائل أو كتب لم نطلع عليها لنعلم ما هي (كأدب العصفورين) . و (الضبعين) وغيرهما . ولكن هذا القدر القليل الذي رأيناه في رسائله وكتبه التي وصلت الينا ، أو عرفناه من التعريف بها ، يدلنا على أن لأبي العلاء خيالاً خصبا ، وفكراً فياضا ، وذوقاً سليما ، وقدرة على أن ينفث في روح الجماد أو الحيوان الأعجم حياة وشعورا ، ويبعث في كل منهما عقلاً حتى ينطق بالحكمة الرائعة والكلم الطيب . وأنه يستطيع أن يفرغ كل رسالة أو قصيدة في قالب بديـــع تصبو اليه النفوس . ويلبس كل موضوع حلة قشيبة تأخذ بمجامع القلوب . وأنه مطلع على كل علم ، مضطلع بكل فن .

عنايته بآثاره

عرف أبو العلاء ما لآثاره من القيمة العلمية والأدبية ؛ وعرف أن الناس يحسدونه على فضله ؛ وانه لا يسلم من كيد الحساد . وعرف أن غيره لا يحسن التصرف بآثاره كما يحسنه هو ؛ وأن كثيراً من النـــاس لا يستطيع أن يدرك مراميه البعيدة ، ومقاصده الدقيقة ، وخشي أن يقع منها شيء إلى قليل المعرفة أو كثير الكيد والحسد ، فتولى بنفسه ترتيبها ، وتبويبها ، وتفسير المبهم وإيضاح المشكل منها ؛ حتى لا تعبث بها أيدي الجهال أو الحساد . ولذلك نراه شرح سقط الزند ، ومواطن من اللزوم ، وفسر كثيراً من الفصول والغايات وغيرها ممـــا يخشى عليه التلاعب والعبث والجهل . وتولى الرد على الطاعنين فيها ، أو العابثين بها ، أو المحرفين الكلم عن مواضعه فيها .

ولقد أحسن صنعاً بذلك إلى نفسه وإلى أدبه ، وإلى الأدب العربي عامة . غير أن الأيام لم تحسن الينا ، فذهبت بمعظم تلك الأعلاق النفيسة ، والعقائل الكريمة ، وفسحت بذلك مجالاً واسعـــاً للشك والطعن فيه ، وأوقعته فيما كان يخاف منه ويحذره .

★ ★ ★

المَقالة الرابعة

الكلام في نثره

الشاعر أو الكاتب يستمد معانيه وأخيلته من فيض خاطره ، ومن وحي الطبيعة والبيئة التي تكتنفه ؛ ويحتذي أسلوبه على مثال الزمن الذي يظله . وإذا رزق حظاً من العبقرية والنبغ ، شق لنفسه طريقاً جديدا ؛ ولكنه لا يستطيع أن يتجرد من هذه المؤثرات ، ولا أن يبتعد عنها كل البعد ، مهما حاول ذلك .

وقد ترك أبو العلاء لنا آثاراً نثرية ، وآثاراً شعرية ؛ طبع في كل منها على غرار عصره ، واتخذ لنفسه في كل منها طريقاً طريفا ، ومنهاجاً مبتكرا . ولكنه لم يستطع أن يتجرد عن تأثير البيئة والزمن ؛ فجاء أسلوبه جامعاً بين القديم المتّبع ، والحديث المبتدع . وقد أردنا أن نبين طريقته ، ونذكر خصائصها ، ونواحي التجديد فيها ؛ وما يتوقف على ذلك ، وما يتوقف ذلك عليه ؛ ليسهل على الدارس معرفتها بوضوح واختصار . ولما كان النثر مقدماً في الوجود على النظم ، قدمنا الكلام فيه كما ترى .

نثر أبي العلاء

ظهر أبو العلاء بعد منتصف القرن الرابع للهجرة ؛ وهو الزمن الذي انتهت فيه ترجمة علوم اليونان ، وحِكم الهند ، وآداب الفرس .

ونضج فيه العقل العربي ؛ واستيقظت فيه أفكار الأمة ، وزخرت بحور العلم والأدب ، ونزع الكتاب والشعراء إلى الترف الأدبي ، والتنافس في التأنق والزخرفة ؛ حتى يكاد الإنسان يظن أن كل كتاب أو قصيدة معرض يبين فيه صاحبه ما لديه من براعة وقدرة ، ويظهر ما عنده من حذق ولباقة .

وكانت جمهرة الكتّاب فيه تسير في صناعة الإنشاء على الطريقة التي ارتضاها أعلام الكتاب في ذلك العهد ، كابن العميد المتوفى سنة ٣٦٠ هـ ؛ وأبي بكر محمد بن العباس الخوارزمي المتوفى سنة ٣٨٣ هـ ؛ والصاحب ابن عباد المتوفى سنة ٣٨٥ هـ ؛ وبديع الزمان أحمد بن الحسين الهمذاني المتوفى سنة ٣٩٨ هـ وأشباههم . وإنما استعذبوا هذه الطريقة لما فيها من الطرافة والوشي والتنميق والأخيلة ، ولأنها كما قيل : شعر لا ينقصه إلا الوزن .

وقد حاول أبو العلاء أن يقتفي أثر هؤلاء ؛ ولكن غزارة علمه ، وحدّةَ ذهنه ، وسعة خياله ، اضطرته إلى أن لا يتقيد بهذه الطريقة من كل وجه ، وأن يتخذ لنفسه طريقة جديدة يكون أبا عذرتها ، شأنه في كل شيء . وقد جشّم نفسه عناء كبيرا ، وألزمها ما لا يلزمها من جراء ذلك . واليك بيان أسلوبه في نثره ، وخصائصه ؛ وما اشتمل عليه من الأغراض والمقاصد ، وما تضمنه من الصناعات البديعية والمسائل العلمية وغيرها .

لغته ، ألفاظه المفردة

ذكرنا فيما سبق أن أبا العلاء كان يحفظ كثيراً من مفردات اللغة ؛ واستدللنا على ذلك بالبيتين اللذين رواهما خلف الأحمر لأصحابه ، ثم غيّر أبو العلاء حرف الروي فيهما على جميع حروف الهجاء [1] .

---

(١) هما بيتا النمر بن تولب ، انظر ما سبق ص ٦٠٥ الحاشية (١) .

وبما صنعه تلاميذه حين وضعوا بعض الألفاظ ليختبروا علمه فبيّنها لهم[1] .

وبما ذكره في (رسالتي الملائكة والغفران) وبقية كتبه ، ورسائله التي وصلت الينا ، وهي قلّ من كثر . وبقوله في مجلس المرتضى : « الكلب من لا يعرف للكلب سبعين اسما » . وبقول أبي زكريا التبريزي فيه : إنه « يعرف كل ما تكلمت به العرب » . ونحو ذلك مما يدل على سعة اطلاعه وحفظه .

وذكرنا أنه كان يحفظ كثيراً من أقوال البلغاء . وبيّنا جملة من الدواوين والكتب التي اطلع عليها . وأنه كان كثير الممارسة للغة بسبب الدراسة والتأليف . فكان لا يجد من الوحشة والغرابة في كثير من الألفاظ ما يجده غيره ممن هو أقل منه حفظاً واطلاعا ، وأنزر دراسة ومراسا .

وإن ارتياحه للسجع ، والمزاوجة بين الكلمات في النغم والجرس ، والمطابقة والمقابلة ، وحبه التورية والجناس ، وما ماثل ذلك من الصناعة ، حبب اليه الإكثار من الألفاظ التي يقل تداولها . وربما كان يتعمد ذلك أحياناً ليدل على معرفته ؛ لأنه كان يشرح بعض الألفاظ حتى في رسائله الأخوية . ولم تكن كل كلماته غريبة بالنسبة إلى معاصريه ، لأن التاريخ لم يحدثنا أن أحداً طلب منه إيضاح رسالة كلها أو بعضها ؛ ولا قصيدة أو قطعة بأسرها من كلامه ، لغرابة ألفاظها ؛ وإنما يستوضح منه اللفظ والمعنى .

وربما تعسر عليه وجود مرادف أسهل وآنس مما ذكره ، وهذا سبيله في نثره ونظمه . وقد زعم فريق أنه كان يتعمد إيراد الوحشي والغريب ليخفي تحته مقاصده ؛ وقد بينا بطلان ذلك في الكلام على التقيّة ، وذكرنا أنه استعمل السهل المأنوس ، والواضح المشهور في أمور هي أجدر من غيرها بالإخفاء والتقية .

---

(١) انظر ما سبق ص ٦٠٣ .

خصائص نثره

لا نريد بخصائص نثره أن كل واحدة ، مما سنذكره منها ، لا توجد في كلام غيره على الانفراد ؛ وإنما نريد أن مجموع هذه الخصائص تمثل لنا طريقته في نثره . ولا نرى من توفرت جميعها في طريقته غيره . وهذه الخصائص كثيرة منها :

السجع

كلِف كتاب هذا العصر بالسجع ، واستطابوا نغمته ، فنفشى في جميع الطبقات ؛ حتى كان سبباً في انحطاط الكتابة وتأخرها ، لأن بعض الكتاب استجاز لنفسه ما لا يجوز من أجله . وقد غري به أبو العلاء ، وقلّما تخلى عنه حتى في كتبه المطولة ؛ ولعله كان يطرب لتقارب الحروف ، وتوافق النبرات ؛ ويأنس سمعه لوقعها فيه ، ويعجبه مثل قوله : « إذا حاق القضاء ضاق الفضاء . سعف النخيل ، خير من إسعاف البخيل » . وكثيراً ما اضطره السجع إلى تقديم ما حقه التأخير ، والإطناب في مواضع الإيجاز ، وإيثار الغريب على المأنوس المتداول . على أن قوله في (رسالة المنيح ص ١٢ [١]) : « قد كان فيمن مضى ، قوم جعلوا الرسائل كالوسائل ، وتزينوا بالسجع تزيُّنَ المُحْوِل بالرَّجْم [٢] . . . » يشعر بأنه لا يستحسن السجع .

---

(١) رسائل أبي العلاء لشاهين عطية .

(٢) المحول : الصبي أتى عليه حول ، والرجم : خطوط الوشم .

صناعة البديع

البديع في نثره ، الجناس :

لأبي العلاء ولع شديد بأنواع من البديع ، فهي تصاحب السجع في كلامه ، لا سيما الجناس ؛ فإنه يكثر في كلامه .

وربما جره حرصه عليه إلى استعمال كلمات ، في المأنوس المتداول مايغني عنها، كقوله : « أينَ النَّثْرَةُ منَ النَّثْرةِ والفَرْقَدُ مِنَ الفَرْقَد » . وقوله : « الساعي في أثره فارس عصا بصير ، لا فارس عصا قصير [1] » .

لزوم ما لا يلزم :

ولزوم ما لا يلزم ، كقوله في رسالة المنيح : « المنى الحصير ، في الوزن القصير » ، « إن تَغَزّلَ فحنين العود أو تَجَزّلَ فهدير الرعود [2] .. » .

الترصيع :

والترصيع ، كقوله : « ضب الآفن ، لعب الصافن » .

الطباق :

والطباق ، كقوله : « راض صعاب الأغراض حتى ذللها ، فصار حَزْن كلام العرب إذا نطق به سهلا » ، وقوله : « قبض ما شاء وبسط ، وقسط وما أقسط » .

---

(١) النثرة : الدرع الواسعة ، وكوكبان في السماء ، والفرقد : ولد البقرة الوحشية ، ونجم في السماء . وعصا البصير : عكاز الأعمى ، وعصا الثانية : اسم فرس قصير بن سعد اللخمي . والنص من رسالة الإغريض (ج) انظر الرسائل لشاهين عطية . ص ٤١ .

(٢) رسائل أبي العلاء ـ لشاهين عطية ـ ص ١٤ .

ومراعاة النظير : كقوله : « خلص من سبك النقد ، خلوص الذهب من اللهب » .

والاقتباس من القرآن الكريم : كقوله في كتابه لخاله أبي القاسم : « كتابي . . . من معرة النعمان ، ولكل نبأ مستقر [١] » .

وقوله من كتاب لأبي طاهر :

« . . بُشرى تَخِفُّ لها الأحلام ، خفّة القَائلِ وَلا مَلام : يا بُشْرَايَ هَذَا غُلام [٢] . . . » .

وقوله في رسالة الهناء : « ولو جاز أن تنشق الطامية لغير الكليم ، لا نفرق لجّها له غير مليم . وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجوديّ وقيل بعداً للقوم الظالمين [٣] . . . » .

الاستطراد : عرفه جلال الدين القزويني في (الإيضاح لمختصر تلخيص المفتاح ص ٢٥٢) بأنه هو : « الانتقال من معنى إلى معنى آخر متصل به ، ثم يقصد بذكر الأول التوصل إلى ذكر الثاني ... وقد يكون الثاني هو المقصود ، فيذكر الأول قبله ليتوصل إليه » .

ونقل ابن حجة في (الخزانة ص ٥٥) عن ابن المعتز تعريفه وتفسيره .

وهذا النوع كثير في كلام أبي العلاء ، منه قوله في (رسالته إلى أبي عثمان النكتي ص ١١٣ [٤]) من رسائله : « وأما النَّقْصُ فَقَليلٌ ، كَقَلِيلَة العَقْل » . ثم أورد بيتين لابن قيس الرقيات [٥] ؛ ثم ذكر أنه كان

---

(١) رسائل أبي العلاء ـ شاهين عطية ص ٦٧ وآية « ولكل نبأ مستقر » في الأنعام ٦٧/٦

(٢) المصدر السابق ص ٨٦ وفيها : « بشرى لها تخف . . » وآية « يا بشراي هذا غلام » في يوسف ١٩/١٢

(٣) انظر ما سبق ص ٧٣٧ والآية « وغيض الماء ... الظالمين » في هود ٤٤/١١

(٤) الرسائل ـ لشاهين عطية ص ١١٣ ـ ١٢٥ .

(٥) هما : ألا أبلغ أبا إسحاق أني ... رأيت البارق دهماً مصمتاتِ
أريي عني ما لم ترأياه ... كلانا عارف بالترهاتِ

يعرف تمويه المختار فتحدث في العسكر أنه رأى قوماً على خيل بُلْق ، يقاتلون مع أصحاب المختار ... يوهم أنهم الملائكة ... ثم عاد إلى رواية ما في البيت الثاني منها من النقص . وقال فيها : وعرفني أنه من أهل البصرة .. ثم ذكر ما قيل في البصرة ، وأن أهلها ينسبون إلى قلة الحنين ، ثم عاد إلى موضوعه الأول .

وفي (الفصول والغايات) ورسائله الأخرى كثير من هذا النوع .

وفي (رسالة الغفران) ذكر الحماطة ومرادفاتها ، ودنانير ، والثمانين ؛ وكان يذكر لكل لفظ ما يتعلق به ثم يعود إلى موضوعه الأصلي .

الأمثال وما يجري مجراها

في كتب أبي العلاء ورسائله عدد عظيم من الأمثال ، وما جرى مجراها من الحكم الرائعة ، والكلم الطيب . وليس استعمالها في كلامه على نمط واحد ؛ وإنما يأتي تارة بالمثل على الوجه الذي ورد فيه ، بلا زيادة ولا نقص ولا تغيير . كقوله : « السعيد من وعظ بغيره . الصيفَ ضيعتِ اللبن » .

وتارة يتصرف فيه بزيادة أو نقص بحسب الاقتضاء . كقوله : « يحول الجريض دون القريض [1] . غير أن الرائد لا يكذب أهله . شنشنة من أخزم [2] » .

---

(١) الجرض محركة : الريق والغصص ومنه الجريض ، وأجرضه بريقه : أغصه . والقريض : الشعر ، وحال الجريض دون القريض : مثل يضرب لأمر يعوق دونه عائق .

(٢) من رسالته إلى خاله . والشنشنة بالكسر : الطبيعة والعادة . أخزم : هو ابن أبي أخزم الطائي جد حاتم أو جد جده وقد مات أخزم هذا وترك بنيه فوثبوا يوماً على جدهم فأدموه فقال :

إن بنيّ رملوني بالدم ... من يلق آساد الرجال يكلم
ومن يكن درء به يقوّم ... شنشنة أعرفها من أخزم

المحيط (خزم) . وانظر الرسائل ـ لشاهين عطية ص ٧٥

وأحياناً يضيف من كلامه إلى المثل ما يقاربه في الغرض المقصود منه ؛ ويكسبه جمالاً في اللفظ ، وسعة في المعنى . كقوله : « فإذا أعطيت القوس باريها ، والخيل فوارسها ، والقناة مصرفها ، دحضت قدم الباطل بثبات الحق » .

وقوله في كتابه إلى خاله : « عادت لعترها لميس ، وذكّر وجاره ثُعالة [1] .. » وقوله : « ولكل مقام مقال ، ولكل أوان ثمرة ، وفي كل واد سمُرة [2] » .

وقد يسرد جملة من الأمثال كقوله : « لنفسي أقول : أعييتني بأشر فكيف بدُرْدُر ؛ وعصيتني من شبّ إلى دب . ليس بعشك فادرجي ... » .

ومن استقرى ما في آثاره التي وصلت إلينا من الأمثال ، يعتقد أنها استوفت معظم الأمثال . وهذا يدل على كثرة حفظه واطلاعه ؛ وعلى قدرته على التصرف ، والاستشهاد بها ، متى أراد ، وفي أي موطن أراد .

وكثيراً ما يأتي بجملة أو جمل تصلح أن تكون مثلا أو قريبة من المثل ؛ كقوله : « إذا حاق القضاء ، ضاق الفضاء . يَنْفَد الثَّغَب بالذُّغَب [3] . أبى الجلمود قبول الطبع المحمود . ليس للمستعير أن يحسب العارية هبة . إنما نضل الطور بالكليم ، والمقام بابراهيم . أوفاك مُغْنٍ ما أسديت ؛ وجزاك معترف الذي أوليت . حال الغصص دون القصص » .

---

(١) الرسائل ـ لشاهين عطية ص ٧٥ .

(٢) المصدر السابق ص ٧١ .

(٣) الثَّغَب : غدير في ظل جبل . وأكثر ما بقي من الماء في بطن الوادي . والذُّغَب : جمع ذُغْبة الجرعة . (ع)

ومما لا ريب فيه أن أبا العلاء أكثر الكتّاب ضرباً للأمثال ، وإرسالاً للمثل والحكمة ، ولو كانت كلها مأنوسة الألفاظ ، بريئة من كلفة السجع لكان منها خير ذخيرة ، وأعظم عدة للمتأدب . وقد تقدم أن له كتاب (القائف) يذكر فيه أمثالاً على معنى (كليلة ودمنة) ولم يتح لنا الاطلاع عليه كله ، لنعلم ما هو ونعرفه .

التاريخ

يلمح بعض الكتاب في رسائلهم إلى شيء من الحوادث العظيمة في التاريخ ؛ ويذكر بعضهم رجالاً اشتهروا فيه بوقائع مشهورة . ولكن أبا العلاء أكثرَ من ذلك حتى يخيل إلى الواقف على بعض كتبه أنه تاريخ ناطق بما وقع في الأيام الغابرة والحاضرة ، وأنه غير مبالغ في قوله :

مَا كَانَ فِي هَذِهِ الدُّنيَا بَنُو زَمَنٍ ... إِلَّا وَعِنْدِيَ مِنْ أَخْبَارِهِمْ طَرَفُ[1]

ولذلك نرى في نثره الذي انتهى الينا ، على قلته ، حظاً وافراً للتاريخ ؛ ويتمثل ذلك لك في (رسالة المنيح)[2] فقد أشار فيها إلى موسى ﷺ وآياته التسع ، وإلى إبراهيم ومقامه ، وآدم ، وما يزعمه الناس في أصل الطيب ، وإلى سليمان والهدهد ، وشداد بن عاد وغيره .

وفي (رسالة الإغريض)[3] حيث ذكر أخا نمير ، وقصيرا ، والعصا ، وعنترة ، وامرأ القيس ، وإخوة يوسف ، وبني سدوس ،

---

(١) اللزوميات ﻫ ص ٢٩٠ .

(٢) انظر الرسائل ـ لشاهين عطية ص ٥ ـ ٣٥ .

(٣) المصدر السابق ص ٣٥ ـ ٥٣ .

و [بني] عبد المدان وسبأ ، وبني المنذر ، وعمر ، والثريا . ونحو ذلك مما اشتملت الرسالة المذكورة عليه .

وفي كتابه الذي أرسله إلى خاله يعزيه بأخيه ، حيث ذكر الأنبياء من آدم إلى محمد ﷺ ؛ ثم ذكر مصارع ملوك حمير ، وطسما وجديس ، وتغلب الحبشة على اليمن ، وجلاءهم عنها ، وملوك العرب في الشام والحيرة ، ثم ملوك فارس . وذكر جماعة ممن اشتهروا بالجود ؛ وطائفة من الأبطال. وهذه الرسالة تشبه أن تكون تاريخاً للعظماء . ولا أعرف رسالة توسع صاحبها فيها بذكر الحوادث المتعلقة بالإنسان والحيوان والطير كهذه الرسالة[1] .

المسائل العلمية وما اصطلح عليه العلماء

أكثر أبو العلاء في رسائله من ذكر الأسماء التي اصطلح عليها أهل العلوم المختلفة ، والإشارة إلى المسائل العلمية . ففي (رسالة المنيح)[2] ذكر الفاعل ، والمبتدأ ، والخفض ، وهاء العدد ، وما أشبه ذلك من مصطلح النحاة .

وذكر الضرب ، والطويل ، والمنسرح ، والوافر ، والقبض ، والخبل ، والعصب ، وما شاكل ذلك من مصطلح العروضيين .

وذكر الحروف المذلقة ، والمطبقة ، والشديدة ، والرخوة ، والجهر ، والهمس ، ونحوها من مصطلح الصرفيين والقراء .

وفي (رسالته الى أبي الحسين المكتي البصري) [3] ذكر من مسائل العروض ، والقوافي ، والنحو المتعلقة بالأسماء والأفعال والأعلام ، وحروف المعاني ، ما يحمل القارىء يظن أنها رسالة في العروض والقوافي والنحو .

---

(١) انظر هذه الرسالة في رسائله شرح شاهين عطية ص ١٥٧ ـ ٢١٣ .

(٢) انظر الرسائل ـ لشاهين عطية ص ٥ ـ ٣٥ .

(٣) انظر رسالته هذه في الرسائل ـ لشاهين عطية ص ١٠٥ ـ ١٥٢ .

وقد يجد المتأمل في (رسالة الغفران) كثيراً من مباحث اللغة والاشتقاق ، والصرف والنحو . وفي (الفصول والغايات) مباحث جلية في هذه العلوم ، وفي الموسيقا وغيرها . مما يدل على أن أبا العلاء استطاع أن يخضع العلم للنثر كما أخضعه للنظم . وأن يكثر من الإشارة والتلميح إلى مسائله وأحكامه .

النجوم

في القدر الذي وصل الينا من آثار أبي العلاء ، على قلته ، ما يكفي للدلالة على أنه كان واسع الاطلاع في معرفة النجوم ، وما يتصل بها مما هو معروف في عصره مستطاع لمثله . وأنه يجيد استعمال أسمائها وما اليها في كلامه . ففي (رسالة المنيح) (١) ذكر الشمس ، والقمر ، والسهى ، والغفر ، والجوزاء ، والجبهة ، والقطب ، والنسر ، والمشتري ، والزهرة ، والسرطان ، وزحل ، والسماك ، والعيوق ، وسهيلا ، والنعائم وغيرها .

وفي (رسالة الإغريض) (٢) ذكر كثيراً من غير ما تقدم ، كالثريا ، والبطين ، والشرطين ، والرشاء ، والنثرة ، والفرقد ، وسعد الأخبية ، وغيرها .

وفي (ج ١ ص ٣٩٤ من الفصول والغايات) ذكر طائفة كبيرة منها ، وهو لا يذكر كوكباً حتى يوطىء لذكره ، ويحكم المناسبة لوضعه ، ويحسن استعماله فيما يريده من الأغراض ، وما يتوخاه من النكت البديعية كالجناس والتلميح والتورية وغيرها .

---

(١) انظر الرسائل — لشاهين عطية ص ٥ — ٣٥ .

(٢) المصدر السابق ص ٣٥ — ٥٣ .

الترادف

يظهر للمتأمل أن أبا العلاء كان يحب أن يظهر ثروته الأدبية والعلمية واللغوية في كل موطن ؛ وأنه يروقه تعاقب الكلمات المزدوجة في الوزن ؛ ويسره تتابع الألفاظ المتقاربة في الجرس ؛ ويطربه تقوية المعنى الواحد بإيراده في صور مختلفة من الألفاظ ، وأن في ذلك كله مظهراً من مظاهر الترف العلمي ، والقدرة على الافتنان في الألفاظ والمعاني .

فترى مثل قوله [1] في رسالة كتبها إلى صديق له سأله أن ينقصه في ترتيب المكاتبة : « فإذا أعطيت القوس باريها ، والخيل فوارسها ، والقناة مُصَرِّفَها ... » وقوله فيها : « ولما كان هو وسيدي قمرين في طُفاوة ، وشمسين في هالة ، وبشْرَيَيْن في كامة ... » وهو يريد من قوله الأول : إذا أخذ الشيء من يستحقه . وهذا القدر يحصل من قوله أعطيت القوس باريها ، أو من إحدى الجملتين اللتين بعدها . ويريد من الثاني : أنهما في منزلة واحدة ؛ وهذا المعنى يحصل من قوله : قمرين في طفاوة ، أو ما بعده .

ومن هذا النوع قوله في كتاب يشفع فيه في عامل يعرف بالحسين بن عنبسة : « فأنا ... وهذا الرجل فَرْعا سَمُرة ، وقضيبا أراكَة ، وطائرا وكر ، وأليفا واد ؛ تنصرنا الغمامة الواحدة ، وتضيء لنا اللمعة الفاردة ؛ بل نزيد على هذا التمثيل فنكون بناني يد ، وريشتي جناح ، وشعبتي غصن ، إذا أماله النسيم ملتْ ، وإن اعتدل له اعتدلتُ [2] .. » .

وهذا كثير في كلامه ، والحصول عليه ليس بالأمر السهل ؛ لأنه يحتاج إلى فكرة وقادة ، وقريحة فياضة ، وحافظة لا يغيب عنها شيء ،

---

(١) الرسائل — لشاهين عطية ص ٦٢ ، ٦٤ .

(٢) المصدر السابق ص ٥٨ .

واطلاع واسع ، وقدرة على الانتقاء والتأليف ، ومراعاة السجع والجناس ونحوه ؛ وإلى ذوق سليم يحسن جمع الشيء إلى ما يشابهه أو يقاربه ؛ ويحكم المناسبة بين الشيء ونظيره ، وقلما تيسر هذا كله لغير أبي العلاء . وإكثاره من ذلك دليل على أنه أوتي من المواهب الفطرية والكسبية ما لم يتسن لغيره ؛ ولذلك حسده الناس على فضله .

الاستقصاء

من آثار ثروته اللغوية والعلميـــة ما تراه من الاستقصاء في البحث ، وذكر المتشابه ، والمتقارب ، والمضاد ، والمخالف ، وما أشبه ذلك . فقد تمر به الكلمة فيلح عليها بالبحث ، حتى لا يكاد يدع شيئاً يتعلق بها أو بحكمها إلا أتى عليه .

وأظهر موطن رأيته يتجلى فيه ولعه بالبحث والتحقيق ، وقدرته على التقصي وإيراد الأشباه والنظائر ، والشواذ والنوادر ، والاستشهاد على كل ما يورده من الأحكام الموافقة والمخالفة ، (رسالة الملائكة) فإنها تدل على أن صدره وعى كل شيء ، وحافظته لم يفتها شيء ، وذاكرته لم يغب عنها شيء ؛ وإذا رجعت إلى ما كتبه فيها في « اياك » و « مهيمن » و « آية » و « اسم » و « اثنين » و « سيد » وجدت أعظم ما تتوقع .

وذكر في أول (رسالة الغفران) لفظ « الحاطة » ثم أتبعه بلفظ « الحضب » و « الأسود » و « الأبيضين » وفسر كل واحد منها ، وبيّن ما يتعلق به ، واستشهد لقوله وقال : « إن في منزله لأسود » وعلى ذكر الأسود سرد طائفة من أسماء من اشتهر أو اتصف بالأسود ، أو سويد ، أو سودة . وذكر جملة من معاني الأبيضين في (ص ٨)[1]

---

(١) هذه الصفحات وما يتلوها مما يحيل إليها المؤلف هي في الرسالة طبعة أمين هندية سنة ١٣٢١.

وذكر في (ص ١٩٥) منها كلمة « الدنانير » وعلى ذكرها ذكر دنانير مصر التي قالها معاوية لعمرو بن العاص . والدنانير التي ألغز عنها الشاعر ، والدنانير التي ذكرها في شعره كل من المرقش ، والنابغة الجعدي ، ورداد الكلابي ، وابن قيس [الرقيات] ، وقيس بن الخطيم ، وربيعة بن المكدم ، وسحيم ، والأخطل ، والضبي ، والمتنبي .

وذكر آية من القرآن الكريم فيها لفظة الدينار وأبياتاً من الشعر ذكر فيها الدينار أو الدنانير ؛ وأشار إلى الحوادث المرتبطة بها . كما ذكر دينار النخّة وهو ما يأخذه المصدق إذا فرغ من الجباية . ولو شاء الإنسان أن يجعل مما أورده في الدينار أو الدنانير رسالة مستقلة لاستطاع . وبعد أن ذكر ذلك عاد إلى غرضه الأول في رسالة الغفران .

وفي (ص ٢٠١) ورد في عرض كلامه لفظ « الثمانين » فذكر أبياتا فيها لفظ الثمانين لكل من الأعشى ، وعروة بن حزام ، وللعلوي البصري ، والسنبسي ، وهمام بن غالب ، وعوف بن المحلم ، والعتريف ، وذكر مثلا فيه لفظ الثمانين ، وقرية تعرف بثمانين . وفي (ص ٢٠٤) ذكر « الأخت » وأورد طرفا مما يتعلق بهذا اللفظ . وفي رسالة الغفران كثير من مثل ذلك .

وقد يمر بالكلمة فيذكر جملة من المعاني التي وضعت لها ، أو المواطن التي استعملت فيها ، أو المعاني التي يجب أن تصرف إليها وتحمل عليها . كما ترى ذلك في لفظ (التاج) ، (والفريد) ، (والقضيب) ، (والمرجان)[وهي أسماء] كتب ابن الراوندي التي ذكرها في (رسالة الغفران ص ١٥٧) فما بعدها . وقد يناقش العلماء أو الشعراء ؛ ويبين مواطن الضعف فيما ذكروه ؛ كما ترى ذلك (ص ٣٨) في لفظ « بعض » ولفظ « تألاله » الآتي ذكرهما في مبحث النقد في كلام لبيد .

وكلامه في (رسالة الغفران في ص ٦٩) في لفظ « البواسن » ، وفي (ص ٧١) في كلمـــة « إوزّة » وفي (ص ١٩٠) في لفظتي « أنطاكية وملطية » يشعر بأنه كان مولعا بالبحث عن أصل الكلمات الذي اشتقت منه ، وعن أوزانها . وكذلك قوله في كلمة « ميهة وإياة ، وأناسي وإنسان » .

وفي (الفصول والغايات ص ٨٩) تصدى إلى ذكر الثقيل والخفيف من طرائق الغناء ، فاستوفى أقسامها وأوزانها . وفي (ص ٩٠) تعرّض إلى ذكر « الألف » فاستوفى أحكامها متوسطة ومنتهية . وذكر « الفاصلة الكبرى » فأفاض في العروض من (ص ١٣١ إلى ص ١٣٩) ثم عاد إلى الكلام فيه من (ص ١٤٤ إلى ص ١٤٦) ومن (ص ٣١٨ إلى ص ٣٢١) .

وفي جوابه إلى أبي الحسين النكتي استوفى كل ما يتعلق بتغيير الأسماء وقصْرها ومدها ، وما يعتريها من الضرورات . كما بينا ذلك في مواضعه ؛ وفي كتبه كثير من مثل هذا .

الخيال في نثره

١ لا نغالي إذا قلنا : إن أبا العلاء أخصب الكتّاب خيالاً ، وأبرعهم في إحكام الصور المتخيلة والتفنن فيها ؛ وسيأتي في شعره ما يدل على مدى خياله في النظم .

أما نثره فإن ما جاءنا منه قليل ، وهو ، على قلته ، يدل على أن مداه واسع ، وأن فيه قدرة على ابتكار الصور الرائعة . وأظهر موطن يمثل ذلك — فيما رأيناه من كتبه — (رسالة الغفران) فقد مثّل فيها القيامة ، وعرض فيها أموراً مما يعتقده الناس فيها ، من جنة ، ونار ، وحوز ،

وولدان ، وأنهار ، وأطيار ؛ وزاد على أحوال أهلها ما جرى من الخصومة بين ابن القارح وسادن الجنة ؛ وبين العلماء والشعراء والرواة من التناكر في رواية بيت ، أو تحريف كلمة عن موضعها ، أو نسبتها إلى غير قائلها ، أو تفسيرها بغير ما يريد صاحبها .

وأنشأ في الجنة التي أعدت للمتقين من الإنس جنة للعفاريت الذين آمنوا بمحمد ﷺ ، وهم من الجن الذين كانوا يسكنون الأرض قبل ولد آدم ﷺ وليسوا من ولد إبليس . فيجتمع ابن القارح بشيخ منهم يقال له : الخيتعور ، أحد بني الشيصبان أبو هدرش ، ولد قبائل بعضهم في الجنة ، وبعضهم في النار ؛ فيسأله عن شعر الجن ، فيقول له : إن لنا آلافاً من الأوزان ، ما سمع بها الإنس ؛ وإني نظمت الرجز والقصيد قبل أن يخلق آدم ، وإنه يستطيع أن يملي عليه ألف كلمة على وزن « قفا نبك » رويّها مجرور ، وألفاً رويها منصوب ، وألفاً رويها مرفوع ، وألفاً من كل واحدة منها مع الهاء وبدونها ، وكل ذلك لشاعر واحد منهم . ثم يسمعه قصيدة على رويّ السين أبياتها ٦٧ بيتاً ، وهي بكلام الجن أشبه منها بكلام الإنس مطلعها :

مكة أقوت من بني الدَّرْدبيسْ   فما لجنّيّ بها من حَسيسْ(١)

ولا شك أن أبا العلاء هو الذي ابتكر هذه القصة ، ولم يحتذ فيها على مثال غيره .

وقد زعم صاحب (ذكرى أبي العلاء) أنه اقتبسها من أقاصيص

(١) انظر الخبر والقصيدة في الرسالة طبعة أمين هندية ص ٧٥ ــ ٨٢ وفي الرسالة تحقيق بنت الشاطئ، ط ١ ص ١٩٧ ــ ٢١٤ .

الوعاظ ، وليس له فيها غير التنسيق والسخرية[1] . وهذا كلام باطل ؛ لأننا لا نعلم نحن ولا غيرنا في أقاصيص الوعاظ ذكراً لابن القارح ، وصك توبته الذي كان يحمله ، ولا لمحاورته مع خازن الجنة ؛ ولا ذكراً للجعجلول الكفرطابي ؛ ولا أثراً لأبي هدرش وشعره في الجنة ؛ ولا لجنة العفاريت ، وجنة الرجز ، ولم ينقل لنا التاريخ ولا القَصص شيئاً من الأحاديث التي دارت بين عديّ بن زيد ، والأعشى ، والنابغة ، والمرقش ، وغيرهم . ولا ما وقع بين أبي عمرو والمازني والشيباني ، وأبي عبيدة والأصمعي وغيرهم ممن ذكره في (رسالة الغفران) على الوجه الذي ذكره فيهـا . وجمع بينهم في وقت واحد ، وفيهم من كان بينه وبين من حاوره أعوام كثيرة .

وليس في قصص الوعاظ أن إوزّاً ينقلب جواري ، بأيديهن المزاهر ؛ ولا حية تقرأ القرآن ، وتنتقد قراءة الحسن . ونحو ذلك من القصص والحوادث والرجال الذين ذكرهم فيها .

وإنما تخيل أبو العلاء هذه القصة ، وذكر طرفاً مما يعتقده الناس فيها ليجعلها كأنها حقيقة واقعة ؛ شأن أصحاب القصص الذين يذكرون فيها شيئاً من أسماء الأماكن والأشخاص ليجعلوها شبيهة بالحقيقة . وكلما كانت القصة المتخيلة قريبة من الواقع والحقيقة كانت أدلّ على براعة واضعها .

وقد تخير هذا النمط ليبين فيه ما يريده من النقد والتهكم وغيرهما ؛ لأنه أوقع في النفس من سرد الاعتراض والنقد . ولذلك جعل ابن القارح ينثر على حافتي طريقه جملا من التحقيق ، وطُرفا من النقد والتهكم .

على أن صاحب (الذكرى) لم يلبث أن رجع إلى الصواب ، ونقض حكمه هذا حيث قال (ص ٢٩٥) : « وحسبنا الآن أن نقرر أن

---

(١) جاء في ذكرى أبي العلاء — لطه حسين — ص ٢٩٤ — ٥ ما نصه : « لم يخترع أبو العلاء في هذه الرسالة شيئاً كثيراً ، إنما وردت أقاصيص الوعاظ بأكثر ما نيا ، فإذا كان في الرسالة شيء . فهو التنسيق والسخرية . . . » .

هذه الرسالة هي أول قصة خيالية عند العرب . والفرنج يشبهونها بكتاب دانتي الطلياني ، وكتاب ملتن الإنكليزي الذي سماه (الجنة الضائعة) . وعندنا أن لقصة المعراج صلة بهذه الأقاصيص .. » . اهـ

وسواء أكانت لقصة المعراج صلة بها أم لا ، فان القصة خيالية ؛ ولدها خيال أبي العلاء . على أن قصص المعراج متأخرة ، حدثت بعد عصر أبي العلاء . أما المتقدمون من المسلمين فلا يعرفونها منها ، إلا ما ورد في (صحيح البخاري) وغيره من كتب الحديث الصحيحة . وليس في هذه قصة أو شبه قصة تتصل بأبي العلاء أو بدانتي أو ملتن . وقد أثبت جماعة من المحققين المتأخرين أن دانتي وملتن اطلعا على (رسالة الغفران) وطبعا على غرار أبي العلاء فيها .

وقد ذكرنا في كتبه كتاب (الصاهل والشاحج) وهو يتكلم فيه على لسان فرس وبغل . و (رسالة الطير) على نهج (رسالة الغفران) ورسالة على لسان ملك الموت ، وكتاب (خُطب) يتكلم فيها على ألسنة الخيل . وكتاب (تظلّم السوَر) يتكلم فيها على لسان سور القرآن . و (سجع الحمائم) يتكلم فيه على ألسن أربع حمائم . ومقدمة (رسالة الملائكة) . و (رسالة الضبعين) . و (رسالة الهناء) . و (القائف) وغيرها . ولا شك أن كل هذه الكتب أو الرسائل من ثمرات قريحته وخياله ، ولم يتسن لنا الاطلاع على شيء منها إلا رسالة الغفران ، ورسالة الملائكة . وأمثلة قليلة ذكرناها من الصاهل والشاحج ، والقائف ، والهناء ، وغيرها .

وهذا القدر الذي رأيناه يدل وحده على خيال خصب ، وفكر واسع ، وقريحة وقادة ، وقدرة على الاختراع والتوليد . وعسى أن تسامح الأيام بإبراز البقية الباقية من كتبه ، ليتضح للباحث مدى خياله

الأغراض التي تناولها أبو العلاء في نثره

ينقسم نثر أبي العلاء إلى قسمين : علمي ، وأدبي .

أما النثر العلمي ، فهو الكتب أو الرسائل المختصة بعلم واحد أو أكثر ككتبه الموضوعة في النحو ، والعروض ، والقوافي ونحوها . وهذا النوع لم نطلع على شيء منه لنعلم سبيله فيه .

وأما النثر الأدبي فهو كثير ، والذي أمكننا الاطلاع عليه قليل . وقد يتضح للناظر فيه أن أبا العلاء تناول في نثره أغراضاً كثيرة ؛ ولم يقصر همه على غرض معين . فمنها :

المدح

فقد كان يكثر منه في رسائله ، لا سيما الأجوبة منها ؛ لأنه كان يحب أن يعظّم شأن مخاطبه ، حتى يجعله كل شيء وفوق كل شيء .

التواضع

ويلازم هذا المدحَ تواضعُه وتحقيرُ نفسه أمام مخاطبه ؛ فإنه يصغر شأنه ويتضاءل ، حتى يكاد يكون أخفى من السهى ؛ كما يتبين ذلك في (رسالة المنيح) فإنه جعل الوزير أبا القاسم المغربي سيداً حبْراً ، مالكاً أعنّة النظم والنثر . وجعل قراءة كتابه نسكاً . وأظهر أن أدبه بالنسبة إلى أدب الوزير كالقطرة في المطرة .

وكذلك جعله في (رسالة الإغريض) « نصب للآداب قُبّة صار الشام فيهـا كشام المعيب ، والعِراقُ كميراقِ المشيب »[١] . وجعل نظمه في الذكاء مثل الزهر ، وفي البقاء مثل الجوهر . ووصف كتابه (مختصر اصلاح المنطق) وبالغ في الثناء عليه . وجعل نفسه كهـاء الوقف ، وألف الوصل . إلى أن أظهر أدبه وفضله .

ومدح البغداديين في كتابيه إلى خاله وإلى أهل المعرة[٢] . وهـذا سبيله في كتـابه إلى أبي طاهر[٣] ، وأبي الحسين النكتي[٤] . وفي مقدمة (رسالة الملائكة) وفي (رسالة الغفران) وفي رسائله إلى داعي الدعاة ، والوزير الفلاحي وغيرها . فهو يغمر رسائله بالثناء على مخاطبه ، كما يغمرها بعواطف الحب والولاء والتواضع .

التهنئة

وفي رسائله رسالة يهنىء فيها بمولود في (ص ٢١٣)[٥] تفاءل له باسمه وكنيته ، وبولادته يوم الجمعة في أيام العجوز عند انقضاء الشتاء ، واستقبال الربيع . ولم تخل هذه الرسالة من طابعه العلمي الأدبي ؛ فانه ذكر فيها ما للفظ الجمعة والعجوز من معان يتفاءل بها وما للزمن من مزيّة . ونثر خلال كلامه شيئاً من الأمثال ، وأشار إلى حديث قَيْلَةَ[٦] [التي وفدت على الرسول ﷺ]

---

(١) انظر الرسائل لشاهين عطية ص ٣٨ وفيها : « .. صار الشأم فيها كشامة المعيب ، والعراق كعراف الشيب » .

(٢) انظر هذين الكتابين في رسائله ــ شرح شاهين عطية الصفحات ٦٧ــ٨١ ، ٨١ــ٨٣ .

(٣) المصدر السابق ص ٨٤ ــ ٨٧ .

(٤) المصدر السابق ص ١٠٥ ــ ١٥٢ .

(٥) الرسائل ــ شاهين عطية .

(٦) انظر الخبر في ص ٢١٣ ــ ٤ من الرسائل .

وقد قدمنا الكلام على (رسالة الهناء) التي هنأ بها شخصاً ضافه شخص آخر . وهي لم تتجرد من طابعه العلمي الأدبي ، ومن تواضعه وتصاغره . وقد ابتكر فيها قصة الأسد والطائر الجارح ، وأشار إلى رجال معروفين في التاريخ .

الشفاعة

وله رسائل تدل على براعة في الشفاعة ، عند ذوي الكلمة المطاعة ، وقدرة على استمالة القلوب لقبولها . وسبيله فيها أن يجعل المشفوع له بمنزلة نفسه ، ويستميل المشفوع عنده إلى قضاء حاجته ، وقد كتب رسالة إلى بعض أولياء السلطان ، يشفع عنده في صديق له كان عاملاً . استهلها بالدعاء له ، وثنّى باعترافه بالتقصير عما يجب عليه ، ثم أقسم أنه أشوق إليه من الحمامة إلى هديلها ، واعتذر عن تقصيره بترك مكاتبته . ثم بين أنه هو والمشفوع له « فرعا سمرة ، وقضيبا أراكة ، يميل بميله ، ويعتدل باعتداله » كما تقدم[1] ويرغب إليه في إعادته إلى أعماله ، بأسلوب يلين الصخر ، ويفعل فعل السحر ، وهو موسوم بسمته العلمية أيضاً . وكتب رسالة أخرى في محبوس ذبح لص أربع دجاجات لأمه الفقيرة ، وبيّن منزلتهن عندها ، وأن تأخر إطلاقه يفضي إلى أن يسرق الدقيق وغيره .. واستطرد إلى ذكر الدجاج الذي زعم الاسكندر لملك فارس أنه كان يبيض ... ولم تخل هذه الرسالة من أمثال سائرة ، وطرف نادرة ، وتهكم شديد ، شأن أمثالها من رسائله .

---

(١) انظر ما سبق ص ٨١٦ .

التعزية

رأيت في رسائله رسالتين في التعزية :

إحداهما : كتبها بعد وفاة أمه إلى خاله أبي القاسم يعزيه فيها [١] . وهذه الرسالة تفيض بالأسى ، وتنم على حزن عميق ، ولوعة متقدة . وقد مزج فيها حمد الله بالدمع ، واستك سمعه ، وثقل لسانه وانقطع أمله من كل خير بعد أمه . ولقد أجاد غاية الإجادة في التعبير عن استمرار حزنه حين شبهه بنعيم أهل الجنة كلما نفد تجدد .

وثانيتهما : كتبها إلى خاله هذا يعزيه بأخيه أبي بكر [٢] . وهذه الرسالة لا تقل عن سابقتها في إظهار اللوعة والحزن ؛ إلا أنه أوجز في المقال ، ووفى المقام حقه حين قال فيها : « ولو كان الحزن مما يوزن ، ثم وزن أسفي بثبير لرجح به ؛ وأنه لم يبق لي بعد ذلك الشاب لُبٌّ مُمْلٍ ولا لبيب مُسْتَمْلٍ » .

وقد نقم فيها على الدنيا ، واعترض كثيراً من مصارع العظماء من الإنس ومن سباع الوحش ، وجوارح الطير ، وحيوان البر والبحر . على نحو ما ذكرناه في الكلام على هذه الرسالة ، وأثنى على الفقيد فجعله هادياً أميناً ، وأثنى على عقبه ، وقد جمع في هذه الرسالة المدح إلى التفجع ؛ وأفرغها في قالب صحيح ، ولهجة معربة ، وملأها بالقصص والعبر ، ليسلي خاله في مصابه ، ويخفف آلامه ؛ فهو في تعازيه النثرية بارع مثله في مراثيه الشعرية ، ولا تعرف العرب رسالة في التعزية على هذا الطراز قبل أبي العلاء . وقد قدمنا [٣] أن له رسالة في التعزية ، ولكننا لم نطلع عليها .

(١) الرسائل - لشاهين عطية ص ٦٧ ــ ٨١ .

(٢) المصدر السابق ص ١٥٧ ــ ٢١٣ .

(٣) انظر ما سبق ص ٧٣٧ .

الوصف

لأبي العلاء في باب الوصف آيات رائعة ، ومعان طريفة ؛ منها ما هو محسوس ، ومنها ما هو معنوي . أما معانيه المحسوسة فإنه يستمدها مما حفظ ووعى ؛ ولكنه يتصرف فيها تصرفاً بديعاً ، يضفي عليها وشياً محبباً من الرونق والطلاوة . وأما معانيه المعنوية فإنه يستمدها من طبعه الفياض ، وخياله الخصب ، وقريحته المطاوعة ، ومادته الغزيرة . وانك لتراه يجوّد في الأوصاف المحسوسة الدقيقة كأنه يراها ؛ وهذا سبيله في وصفه الشعري .

وصف كتاباً أنفذه إليه الوزير أبو القاسم المغربي ، فجعله « موشّحاً بكل شَذْرَة . أعْذَب من سُلافَة المنقود . وأحسن من الدينار المَنْقود . جاء كلوائح البروق ، أو يُوحِ[1] عند الشروق » . وجعل لكاتبه « طبعاً راض صعاب الأغراض حتى ذللها ، وأبسّ بوحوش اللفات فأهّلها ؛ فمثله مثل جارسة الكحلاء ، تسمح بالمسائب والملاء ، تطعم الغَرَب ، وتجود بالضَّرَب . وتجني مُرّ الأنوار ، فيعود شهداً عند الاشتيار[2] » ثم قال فيه : « شاهدنا فيما سمعناه المعنى الحصير ، في الوزن القصير ؛ كصورة كسرى في كأس المشروب ، وتمثال قيصر في الإبريز المضروب . لم يُزْرِ به ضيقُ الدار ، وقصر الجدار .. » إلى غير ذلك مما أتى به في (رسالة المنيح) .

---

(١) يوح : علم للشمس .

(٢) المراد بالجارسة : النحلة ، والكحلاء : نبت ترعاه ، والمسائب : جمع مسأب ، سقاء العسل ؛ والغرب : شجر ، والضرب : العسل . وقد أشار إلى هذا المعنى بقوله من قصيدة يجيب بها أبا الخطاب الجبلي :

ردت لطافته وحدة ذهنه   وحش اللغات أوانساً بخطابه
والنحل يجني المرّ من نور الربى   فيعود شهداً في طريق رضابه . (ج)

وفي الرسائل — لشاهين عطية : « بالمسائب الملاء » انظر ص ٩ — ١١ .

وقال في (رسالة الإغريض) : « ووقفت على مختصر إصلاح المنطق ، الذي كاد بِسِماتِ الأبواب ، يغني عن سائر الكتاب ؛ فعجبت كل العجب من تَقْييد الأجْمَال ، بطلاء الأحمال ؛ وقلب البحر ، إلى قَلْتِ النّحْر ، وإجراء الفرات ، في مثل الأخْرَات ؛ شرفاً لـهُ تَصْنيفاً شَفَى الريْبَ ، وكفى من ابن قُرَيْب ، ودل على جوامع اللغة بالإيماء كما دل المضمر على ما طال من الأسماء » .

وقال فيها أيضاً : « وسيدنا . . القائِلُ النظمَ في الذكاءِ مثل الزهر وفي البقاء مثل الجوهر . تحسب بادِرَتَه التاجَ ، ارتفع عن الحجاج . وغابرته الحِجْل في الرجل ؛ يجمع بين اللفظ القليل ، والمعنى الجليل ، جمع الأُقْحوانِ في لعابه بين القلّةِ ، وفَقْدِ البلّة ؛ خشن فحَسُن ، ولان فما هان ، لين الشّكير ، يدل على عِتْقِ المِحْضير ، وحَرْش الدينار آيَة كَرَمِ النّجار . . » .

وقال فيها في وصف الكتاب : « فقد ناب في كلام العَرَب العَصَم ، مناب مرآةِ المنجّم في علم التنجيم ، شخصها ضئيل ملموم ، وفيها القمران والنجوم » .

ووصف نفسه بأنه لا يقصّر بإجابة من بدأه بالمكاتبة فقال[1] : « لا مَعْتَبَةَ إن جارَيْتُ بَكِيّ الفَطْر ، عَنْ زَكِيّ القَطْر . هو بدأني بما لا أستحق ، فأجبت بما أَرْذَمَه علي الرقّ . ولم أكن كماقر الرّملِ ، أمطَر فلا أروض ، وكَحَضيرِ الميْتِ ، أُعَوّض ولا أعوّض . لا أقل مِنْ كوني مثل وَذيلَةِ الغريبة ، وَزَلَفَةِ المُضِرّ الأرِبَة ، يطّلِعُ فيها ذو الوجه الجميل ، فتَجْتَهِدُ له في التمثيل . . » .

---

(١) من رسالة الى صديق له يسأله ان ينلعه في ترتيب المكاتبة ، الرسائل ـ لشاهين عطية ص ٦٣ .

النقد

درس أبو العلاء ما درس من العلوم ؛ واطلع على ما اطلع عليه من آراء العلماء ومذاهبهم . وقد كان دقيق الفطنة ، عميق التفكير ، مولعاً بالتمحيص والتنقيب عن الأصول والأسباب والعلل . وكان فوق هذا يفقه كل ما يقرؤه ، ويحفظ كل ما يسمعه ، وقد درس الحياة ، وخبر ما فيها من خير وشر . ودرس الناس وما عندهم من أخلاق وعادات ، في الأجيال المختلفة ، والأطوار المتباينة . ودرس الشرائع ، ورأى ما أدخله أصحاب كل شريعة عليها من العقائد والمزاعم . ورأى كيف اتخذ المتدينون الدين وسيلة لنيل الدنيا . وكيف سخّر العلماء العلم لإشباع نهماتهم من الملاذّ ؛ ولنيل الحظوة عند الملوك والكبراء ، ولاكتساب الشهرة والثروة .

وكان يحكّم العقل في كل شيء ، ولا يعول في آرائه على غيره . وكان جريئاً في إبداء آرائه الحرة ، لا يطيق السكوت على ما لا يرضيه ، ولا يستطيع أن يتجاهل فيما يعلمه ، أو يتغابى فيما يفهمه .

فكونت هذه العوامل في نفسه ملكة قوية في النقد ، قائمة على ميزان العلم ومحك العقل . وقد استطاع أن يكون مجلّياً في هذا المضمار ، نسيج وحده فيه . ولم يعبأ بالناس أمام الحق ، ولا بما يقوله الناس فيه ، بعد أن يكون قوله مطابقاً للعلم أو الواقع ، موافقاً للعقل .

وربما كان أبو العلاء أكثر الشعراء والعلماء نقداً وتمحيصاً لكل ما يعرض له من مسائل العلوم وغيرها ، ولا سيما العلوم العربية وما يتصل بها ، ولم أجد له كتاباً خاصاً بالنقد ، وإنما رأيت نقده موزعاً في كتبه المنظومة والمنثورة .

أما المنظوم ، فقد اطلعت منه على (سقط الزند) وهذا خال أو في حكم الخالي من النقد ، واطلعت على (لزوم ما لا يلزم) وهذا تناول فيه نقد الأخلاق ، والعادات ، والمعتقدات ، والمزاعم ، والأنظمة ،

وكثيراً من مسائل العلوم . وإذا قلت : إنه أعظم كتاب في هذا النوع ، فلا أكون مبالغاً ، وقد ذكرنا جملة منه في مواطن مختلفة من هذه الرسالة .

وأما المنثور فقد اطلعت على (رسالة الغفران) و (رسالة الملائكة) وجزء من (الفصول والغايات) و (عبث الوليد) وبعض رسائل صغيرة ورأيت في رسالتي الغفران والملائكة مسائل كثيرة انتقد فيها اللغويين ، والنحاة ، والصرفيين ، والقراء ، والمفسرين ، والمحدثين ، والشعراء ، والعروضيين ، والعلماء ، والرواة .

ومن يتأمل كتبه يتبين له أن النقد في نثره جاء على أشكال يمكن إرجاعها إلى نوعين :

أحدهما : يتعلق بمسائل العلم وآراء العلماء .

والثاني : يتعلق بالأخلاق ، والعادات ، والمزاعم ، وما شاكل ذلك . وألفاظه في كلا النوعين عفيفة ، بريئة من البذاءة . ولكنها لا تخلو من تهكم واستهزاء . والظاهر أنه كان يرى هذا النمط أشد إيلاماً لخصمه وأبلغ أثراً في نفسه ، وأرجى لحمله على قبول الحق . ولو جاءنا كل نثره لرأينا أضعاف ما رأينا ، ولكن قد يستدل بالقليل المتيسر على الكثير المتعسر .

وسنتكلم الآن على نقده في نثره ، ونبين مناهجه في نقده فنقول :

سلك أبو العلاء في نقده طرقاً مغمورة بالفوائد ، حتى يكاد القارىء لا يعلم من أين تأتيه الفوائد إذا سلك واحداً منها ؛ لأنه أحياناً يأتي بالكلمة أو الجملة ، فيبيّن الوجه الذي يريد نقده فيها ؛ وقد يبين علة حكمه فيها ، سواء أكان بالصحة أم بالفساد ؛ وأحياناً يضيف إلى ذلك قاعدة عامة تتعلق بذلك الحكم أو بضده ، وقد يذكر ما يناقض حكمها أو ما يشابهه . وأحياناً يفرغ النقد في قالب الاستفهام للتهكم ، إلى غير ذلك من الصور المختلفة الجامعة لفوائد متعددة .

ويتضح لمن تأمل نقده أنه كان واسع العلم ، حريصاً على الإفادة .
ولذلك يورد كل ما يتعلق بالشيء لأدنى مناسبة ، أو يوجد مناسبة يتوصل بسببها إلى ذكر فائدة أو فوائد ، كما أشرنا الى هذا في موضع آخر .

وكان من الحق أن نقسم نَقده الى أصناف ، ونبيّن ما في كل صورة من الفوائد ، ليتضح لنا كيف يدمجُ فائدة في أخرى ، ولكن هذا عمل طويل ، لا تتسع له هذه الرسالة . على أننا سنشير الى بعض ما ذكرنا في أضعاف كلامنا وكلامه .

نقد الألفاظ المفردة

لم يسلك أبو العلاء في نقده الألفاظ المفردة سبيلاً واحدة ، وإنما يبحث أحياناً عن كونها عربية أم غير عربية ؟ ويبحث عن رواها . وأحياناً يذكر حكم اللفظ على تقدير أنه عربي ؟ وربما أورد البحث على شكل حادثة وقعت .

مثال ذلك قوله في (رسالة الغفران ص ٦٩)[١] : فيقول - أي ابن القارح - لمن حضره من أهل العلم : ما تسمى هذه السلال بالعربية ؟ فيقول بعضهم : هذه تسمى البواسن ، واحدتها باسنة . فيقول قائل : من ذكر هذا من أهل اللغة ؟ فيقول : قد ذكرها ابن درستويه ، وهو يومئذ في الحضرة . فيقول له الخليل : من أين جئت بهذا الحرف ؟ فيقول ابن درستويه : وجدته في كتب النضر بن شميل . فيقول الخليل : أتحق هذا يا نضر ؟ فأنت عندنا الثقة ! فيقول النضر : قد التبس عليّ الأمر . ولم يمحك الرجل - إن شاء الله - إلا حقاً .

(١) طبعة أمين هندية وانظر الغفران تحقيق بنت الشاطىء ط ١ ص ١٨٤ - ٥ .

وقوله في (رسالة الغفران ص ١٩٠)[١] : « وقد مر بأنطاكية ، فتذكر قول امرىء القيس :

عَلَونَ بأنطاكيَّة فوقَ عقمةٍ كجِرمَةِ نخلٍ أو كَجَنَّةِ يثربِ

وخطر له أن « النطك » وهو اللفظ الذي يجب أن يشتق منه « أنطاكية » لو كانت عربية مهمل ، لم يحكه مشهور من الثقات . . . » .

وذكر في (رسالة الملائكة في ص ٢٠) « جهنم » وفي (ص ٢٢) « سقر » وفي (ص ٢٦) « كمثرى » وفي (ص ٢٧) « سندس » وفي (ص٣٨) « استبرق » . وتكلم في كل لفظ بما لا مزيد عليه .

وزن اللفظ واشتقاقه

وقد يذكر اللفظ ، ويبين وزنه واشتقاقه ، ويضيف إلى ذلك بيان حكمه وغيره من الفوائد . مثال ذلك قوله في (الغفران ص ١٩٠)[٢] : « ولما مر بلطية ، أنكر وزنها ، وقال : فعَلْيَة ، مثال لم يذكر ، وإذا حملناها على التصريف وجب أن تكون ياؤها زائدة ، لأن قبلها ثلاثة من الأصول .. » .

وفي (ص ٧١ من الغفران)[٣] ذكر حواراً لطيفاً بين المازني والأصمعي في وزن « إوزّة » . وله بحث مفيد في « إوزّة » في (رسالة الملائكة ص ٧٩) وذكر في (الغفران ص ١٠٨)[٤] أصل « إنسان » واشتقاقه وأسبابه .

وذكر في (رسالة الملائكة ص ٦) أصل « ملك » وفي (ص ٩) « موسى » وفي (ص ٢٠) « غسلين » وفي (ص ٢٨) « طوبى » وفي (ص٣٤) « حيوان » وفي (ص ٤٠) « عبقر » وفيها كثير من المباحث الدقيقة في غير هذه الألفاظ .

---

(١) طبعة أمين هندية وانظر الغفران تحقيق بنت الشاطىء ط ١ ص ٥٠٥ ــ ٦ .

(٢) المصدر السابق

(٣) وانظر الغفران تحقيق بنت الشاطىء ط ١ ص ١٨٨ ــ ١٨٩ .

(٤) وانظر الغفران تحقيق بنت الشاطىء ط ١ ص ٢٨١ ــ ٢ .

وهذه أمثلة من نقده الألفاظ المفردة

قال في (رسالة الغفران ص ١٠٠) : « وإني لكاره قولك :

. . . . والخَيْلُ خارِجَةٌ مِنَ القَسْطَالِ

أخرجتَ الاسم إلى مثال قليل ، لأن « فعلالا » لم يجيء في غير المضاعف ، وقد حكي : ناقة بها خَزْعَال . أي [بها] ظلع »[1] .

وقال في (رسالة الملائكة ص ٢١٢) : « وأما زيادتهم الألف ، فكقولهم « العقراب » في العقرب ، وهذا رديء لأنه يخرج إلى بناء مرفوض . وإنما يجيء « فعلال » في المضاعف مثل « الزلزال والبلبال والسلسال » وقد جاء منه حرف واحد في غير المضاعف قالوا : بالناقة خزعال أي ظلع ، وحكم الضرورة ليس كحكم غيرها في الأبنية » .

وقال فيها (ص ٢٤٥) في بحث زيادة النون : « فيحكم على نون سكران وبابه بأنها زائدة ، لأنه ليس في كلامهم مثل « فعلال » في غير المضاعف نحو الزلزال ... » .

فقد انتقد لفظ « قسطال » وبيّن سبب ذلك ، وهو خروجه إلى وزن نادر أو مرفوض . ثم بين الحكم العام وهو عدم مجيء « فعلال » في غير المضاعف . ثم بيّن ما شذ عن ذلك وهو « خزعال » وزاد على ذلك في « عقراب » أن حكم الضرورة ليس كحكم غيرها في الأبنية . وفي لفظ « سكران » زاد حكماً آخر وهو أن الألف والنون في مثل « سكران »

---

(١) يشير إلى قول أوس بن حجر في مرثيته :

ولنعم رفد القوم ينتظرونه ... ولنعم حشو الدرع والسربال
ولنعم مأوى المستضيف إذا دعا ... والخيل خارجة من القسطال

الغفران تحقيق بنت الشاطئ ط ١ ص ٢٥٩ .

يحكم بزيادتها لفقد « فعلال » في غير المضاعف ؛ فقد جمع في نقد كلمة واحدة فوائد متعددة .

وقال في (رسالة الملائكة ص ٢١٣) : « وقد ادعى قوم بأن قولهم « استكان » إنما هو من « استكن » أي افتعل من السكون ، ثم زيدت عليه الألف . وهذا نقض للقياس ، لا يجوز أن يذهب إليه ذاهب عرف أصول العربية ، لأنهم لم تجر عادتهم بمثل ذلك ؛ ولو فعلوه في موضع لم يجعلوه أصلاً يقاس عليه . وقد قالوا : « يستكين ومستكين ... » وإنما « استكان » استفعل و « مستكين » مستفعل ؛ وهو مأخوذ من قولهم : كان كذا وكذا أي المستكين ، كأنه شيء قد كان أي ذهب ومضى » . ثم قال : « ... واستكان على القول الذي حكي وزنه « افتعال » و « يستكين » وزنه « يفتعيل » و « مستكين » وزنه « مفتعيل » وهذه أبنية مستنكرة ، وإنما يستعمل مثلها في الضرورة ، فأما في عمود اللفظ فلا يجوز أن تقع . وقد روي أن الحسن قرأ ﴿ وأعتَدت لهُنّ مُتّكاءً ﴾(١) بالمد فهذا « مفتعال » وهو يضاهي في الألف باب « أفنيدة » في الياء » .

وهذه سبيله في كثير مما انتقده من الألفاظ المفردة . وقد تزيد الفوائد وتنقص بحسب المواضيع والحاجات . ورسالة الملائكة طافحة بمثل هذه المباحث والفوائد . ونجد منها شيئاً في (ص ٢٣٥) في الكلام على « مفرود » و « صعفوق » و (ص ٢٤٥) عند الكلام في « ارحَجنّ » و « افعلنّ » و (ص ٢٤٨) في الكلام على « تفعلن » و (ص ٢٤٩) في « غرثان » و « غراثين » و (ص ٢٥٤) في « فعلون » .

---

(١) سورة يوسف الآية ٣١

نقد القراءات

وقد انتقد كثيراً من القراءات التي قرأها القراء ، وسلك في نقدها الطريق التي سلكها في نقد المفردات ، فذكر خلال كلامه كثيراً من العلل ، والأحكام ، والقواعد ، وغير ذلك مما ذكرناه قبلا .

وكنا نود أن نذكر أمثلة كثيرة من ذلك ، ولكنها تستغرق وقتاً طويلاً كما تقدم ، فاكتفينا بالإشارة الى مواطن بعضها في كتبه . من ذلك ما قاله في (رسالة الغفران ص ١١٢)[١] : إن حية كانت تسكن في دار الحسن البصري ، فيتلو القرآن ليلا ، فتلقفت منه الكتاب من أوله إلى آخره . فيقول لها ابن القارح : كيف سمعته يقرأ ﴿ فَالِقُ الاصْبَاحِ[٢] ﴾ ، فإنه روي عنه بفتح الهمزة كأنه جمع صبح ، وكذلك ﴿ بالعَشِيِّ والابْكار[٣] ﴾ كأنه جمع بكر ... ؟ فتقول : لقد سمعته يقرأ هذه القراءة .. فلما توفي انتقلتُ إلى جدار في دار أبي عمرو بن العلاء ، فسمعته يقرأ ، فرغبتُ عن حروف من قراءة الحسن كهذين الحرفين ، وكقوله الأنجيل بفتح الهمزة فلما توفي أبو عمرو كرهت المقام ، فانتقلت إلى الكوفة ، فأقمت في جوار حمزة بن حبيب ، فسمعته يقرأ بأشياء ينكرها عليه أصحاب العربية ، كخفض « الأرحام » في قوله تعالى : ﴿ واتَّقُوا الله الذي تَسَاءَلونَ بِهِ والأرحَامِ ﴾[٤] وكسر الياء في قوله تعالى : ﴿ ومَا أنْتُمْ بِمُصْرِخِيِّ ﴾[٥] وكذلك سكون الهمزة في قوله تعالى : ﴿ اسْتِكبَاراً في الأرْضِ ومكر السيْء ﴾[٦] وهذا إغلاق لباب العربية ، لأن القرآن ليس بموضع ضرورة ، وإنما حكي مثل هذا في المنظوم ...

---

(١) طبعة أمين هندية والنظر الغفران تحقيق بنت الشاطئ ط ١ ص ٢٨٨ – ٩ .
(٢) سورة الأنعام الآية ٩٦
(٣) سورة آل عمران الآية ٤١
(٤) سورة النساء الآية ١
(٥) سورة إبراهيم الآية ٢٢ .
(٦) سورة فاطر الآية ٤٣ .

وفي إيراد هذا النقد وسرد هذه الرواية على لسان الحية روعة وبراعة فائقة ؛ وكذلك رغبتها عن حروف من قراءة الحسن . ثم إنكارها أشياء من قراءة حمزة بن حبيب .

وذكر في (رسالة الملائكة ص ١٢٤) انهم يقولون : « إعْلم ، وإستعين ، وإخَال » ، فيكسرون مع الهمزة كما يكسرون مع التاء والنون . وقد قرأ بذلك القراء يحيى بن وثاب وغيره ، ويروى أنه قرأ ﴿ فإمتّعه قليلاً ثم إضطرُّه [1] ﴾ بكسر الهمزة من « اضطره » وكذلك يفعل في غيرها من حروف المضارعة ، فقرأ ﴿ يوم تِبيَضُّ وُجوه وتِسْوَدّ وُجوه [2] ﴾ . ﴿ ولا تِركَنوا إلى الذين ظَلَمُوا فتِمَسّكم النّار [3] ﴾ وهذه لغة للعرب فيما كان على « فعلَ يفعَلُ » وما جاوز الأربعة نحو « اسودّ واقشعرّ » وإذا صاروا إلى الياء فروا إلى الفتح ، فلم يقولوا « يِعلَمُ » كذلك يقول سيبويه ؛ وقد حكاها الفراء عن قوم من العرب وإن صَحت فهي شاذة » .. اه

وذكر في (رسالة الملائكة ص ٢٠٠) قراءة ابن عامر : ﴿ فاجْعَلْ أفْئِيدَةً مِنَ النّاسِ تَهْوِي إليْهِم [4] ﴾ وقال : وأفئيدة بناء مستنكر ، لم يجيء مثله في الآحاد ولا في الجموع ، ولم يحك سيبويه ولا غيره ، فيما أعلم ، شيئاً على مثال « أفْعِيلة » بفتح الهمزة ولا على مثال : « أفعيل » إلا ما روي في قراءة الحسن من أنه كان يفتح همزة الأنجيل ، وهذا في الشذوذ يشبه قراءة ابن عامر هذه .

ثم أفاض في بيان أصل « إنجيل » هل هو عربي أو أعجمي ؟ وبيان أصله الذي اشتق منه على فرض أنه عربي .

---

(١) سورة البقرة الآية ١٢٦ .
(٢) سورة آل عمران الآية ١٠٦ .
(٣) سورة هود الآية ١١٣ .
(٤) سورة إبراهيم الآية ٣٧ .

ثم قال : وأما « أفئيدة » فإن صح أنها قرأ بها موثوق به في الفصاحة فإنها – والله أعلم – « أفئدة » في الأصل ، كما قرأت الجماعة ، ثم زيدت الياء بعد الهمزة ، لأن الكسرة فيها لازمة ؛ فتكون هذه القراءة مشاكلة لقراءة من قرأ ﴿ فَذَانِيكَ بُرْهَانَانِ[1] ﴾ .

ثم ذكر المواطن التي زادت العرب فيها الألفات ، والياءات ، والواوات ، وآراء المتقدمين فيها . وبيّن ما يقوّي قراءة ابن عامر . وذكر من الأشباه والأحكام التي تتعلق بهذه المباحث ما لا يجده الباحث في غير هذا الكتاب . وقد أوضحت ذلك في شرح رسالة الملائكة في (ص ٢٠) فما بعدها .

وقد انتقد في هذه الرسالة وفي (رسالة الغفران) كثيراً من القراءات مما يدل على أنه كان عالماً بها . كما أنه انتقد كثيراً من أبيات الشعر فيها .

النقد النحوي والصرفي

درس أبو العلاء النحو والصرف درساً عميقاً ، وأمعن في البحث عن القواعد الكلية وما شذ عنها ، واطلع على كثير من الأحكام الراجحة وما يؤيدها ، والأحكام الضعيفة التي حاول أصحابها تقويتها بالأدلة الواهية ، والحجج الملفقة ، والشبه الزائفة . ورأى فيها ما لا تقبله العقول الصحيحة ، والنقول الثابتة ، كما رأى في كثير من الشواهد والنصوص والآراء ما يشهد بنفسه على نفسه أنه مكذوب موضوع أو محرف أو مصنوع ، وتشهد لبطلانه القواعد المشهورة والأقيسة المؤيدة بالأدلة الواضحة والحجج الراجحة .

فلم يرق له كثير من أقوال العلماء في هذين العلمين اللذين يعبر أحياناً عنهما بعلم النحو ، وعن رجالهما بالنحويين أو النحاة أو البصريين أو الكوفيين

---

(١) سورة القصص الآية ٣٢ .

أو البغداديين . ورأى في أعمالهم ما يشبه الهذيان أو الضلال أو الأباطيل كما صرح بذلك في (رسالة الغفران ص ١٠٥)[١] .

وفي (رسالة الملائكة ص ٨ ، ١٥ ، ٤٢ ، ٤٢)[٢] .

وفي (لزوم ما لا يلزم ١ / ص ٣٧٣)[٣] .

وقد أكثر في رسالتي الملائكة والغفران من نقد النحويين ، وتزييف آرائهم وأقوالهم . وقد رأينا من المفيد اللازم أن نبين موقفه من النحو والنحويين قبل أن نورد أمثلة من نقده فنقول :

أ – إننا لم نر في كلام أبي العلاء ما يدل دلالة صريحة على أنه كان

---

(١) يقول أبو العلاء في الغفران على لسان خزنة النار : « ما النحويون وما الاستشهاد ، وما هذا الهذيان ... » . الغفران طبعة أمين هندية .

(٢) يقول أبو العلاء في ص ٨ : « فيقول الملك : من ابن أبي ربيعة ، وما أبو عبيدة ، وما هذه الأباطيل ... ؟ » .

وفي ص ١٥ : « قلت : ليس الياء كغيرها من الحروف لأنها وإن لحقها التشديد ففيها عنصر من اللين ، فإن قالا : أليس قد زعم صاحبكم عمرو بن عثمان المعروف بسيبويه أن الياء إذا شددت ذهب منها اللين ... قلت : قد زعم ذلك إلا أن السماع من العرب لم يأت فيه بنحو ما قال إلا أن يكون شاذاً . . . » .

ويقول في ص ٤٢ : « فيبتسم إليهم رضوان ويقول . . . فانصرفوا رحمكم الله ، أكثرتم الكلام فيما لا منفعة فيه ، وإنما كانت هذه الأشياء أباطيل زخرفت في الدار الفانية فذهبت مع الباطل . . . » .

(٣) حيث يقول :

أرى ابن أبي إسحاق أسخطه الردى	وأدرك عمر الدهر نفس أبي عمرو
تباهوا بأمر صيروه مكاسباً	فعاد عليهم بالخسيس من الأمر
بكسوة برد أو بإعطاء بلغة	من العيش لا جم العطاء ولا غمر
ولم يصنعوا شيئاً ولكن تنازعوا	أباطيل تضحي مثل هامدة الجمر

اللزوميات طبعة عزيز زند .

على مذهب النحويين البصريين أو الكوفيين أو غيرهما ، وإذا كان عقله ينفر من متابعة إمام من أئمة المذاهب الدينية فيقول :

وَيَنْفِرُ عَقْلِي مُغْضَباً إِنْ تَرَكْتُهُ سُدًى واتَّبَعْتُ الشَّافِعِيَّ وَمَالِكَا[1]

فمن الأولى أن ينفر عقله من متابعة أحد غيره من أئمة اللغة ، لأنه في علم النحو أطول باعاً وأرسخ قدماً منه في العلوم الشرعيــة ، ويجوز أن نستدل على هذا بما نراه من انتقـــاده كل المذاهب على السواء ، من غير تحيز إلى فريق دون آخر .

٢ — إن أبا العلاء لم ينتقد من النحويين إلا العلماء الأعلام ، كالخليل ، وسيبويه ، والزجّاج ، والمبرد ، والفراء ، وسعيد بن مسعدة ، وأبي علي الفــارسي ، وابن خالويه ، وابن السراج ، وأبي سعيـــد السيرافي ، والمازني ، والأصمعي .

وقد أثنى على جماعة من اللغويين والنحويين ، منهم النضر بن شميل في (الغفران ص ٦٩)[2] والزجّاج في (الملائكة ص ١٣١)[3] .

٣ — إن أبا العلاء جعل أكثر نقده في (رسالة الغفران) على لسان ابن القارح وأورد كثيراً من المسائل ، ولم يلتزم في إيرادها طريقة واحدة ؛ وإنما يذكر أحيانا موضع النقد ولا يزيد على ذلك شيئاً . وقد يذكر ما يدل على أنه حق ، وقد يبين رأيه في الحكم ، فيقره أو يدفعه . وأحيانا

---

(١) اللزوميات ٢ ص ١٨٥ .

(٢) حيث يقول ابو العلاء : « فيقول الخليل : أتحق هذا يا نضر ؟ فأنت عندنا ثقة ... » .

(٣) يقول أبو العلاء في رسالة الملائكة : « وزعم أبو إسحاق الزجاج انه لم يتكلم قبله في اشتقاق ، ولا مرية في انه كما قال ، لأنه الثقة في هذا وغيره ... » .

يعد هذا الأمر كله من الأباطيل ونحوها ، وقد يذكر مشابهاً للشيء أو مناقضاً له ؛ وربما أتى بالنقد على طريق الاستفهـام ، أو على طريق المحاورة ، أو تصوير حادثة ، أو نحو ذلك .

وكان من الحق والواجب أن نورد نصوصه بعجرها وبجرها ، لأن الاختصار يفقدهـا كثيراً من الإشارات اللطيفة ، والوخزات الدقيقة ، والتهكم ، والإيماء إلى حادثة ، وغير هذا مما تحمله في طياتها من النكت والفوائد ، فضلاً عما يفقدها من الإيضاح والأسلوب الرائع .

ولكن ذلك يضطرنا إلى إطالة لا تسمح بمثلها هذه الرسالة الصغيرة ، كما لا تسمح بإهمال الصور المتعددة التي أوردها وملأها بالمباحث التي تمثل جملة من عبقريته ورسوخه في هذا العلم .

ولقد حاولنا أن نجمع بين الأمرين بقدر الطاقة ، فذكرنا طائفة قليلة من المباحث على الشكل الذي أوردها عليه ؛ وأشرنا إلى مواطن طائفة أخرى في كتبه ليسهل الاطلاع عليها .

وهذه جملة من النوع الأول :

ذكر في (رسالة الغفران ص ٢٦) [1] : أن الشيخ [ابن القارح] قال لعدي بن زيد العبادي : « ولقد هممت أن أسألك عن بيتك الذي استشهد به سيبويه وهو قولك :

أرَوَاحٌ مُوَدِّعٌ أمْ بُكُورُ ... أنتَ فانْظُرْ لأيِّ حالٍ تَصِيرُ [2]

فإنه يزعم أن « أنت » يجوز أن ترفـع بفعل مضمر يفسره قولك « فانظر » وأنا أستبعد هذا المذهب ولا أظنك أردته . فيقول عدي بن زيد : « دعني من هذه الأباطيل . . . » .

(١) طبعة أمين هندية ، وانظر بنت الشاطىء ط ١ ص ٧٦ .
(٢) البيت من شواهد سيبويه انظر الكتاب ج ١ ص ٧٠ وفيه : « .. لأي ذاك تصير » .

وذكر (في ص٣٥)[١] أن الشيخ يقول للنابغة الجعدي: «فكيف تنشد قولك:

وَليسَ بِمَعْرُوفٍ لَنَا أَنْ نَرُدَّهَا صِحَاحاً وَلاَ مُسْتَنْكَراً أَنْ تُعَقَّرا[٢]

أتقول : « ولا مستنكرا » أم « ولا مستنكرٍ » ؟ فيقول الجعدي : بل « مستنكراً » فيقول الشيخ : فإن أنشد مُنشد « مستنكرٍ » ما تصنع به ؟ قال أزجره وأزبره ، نطق بأمر لا يخبره ، فيقول الشيخ : « ما أرى سيبويه إلا وهم في هذا البيت ، لأن أبا ليلى أدرك جاهلية وإسلاما ، وغذي بالفصاحة غلاما . . . » .

وذكر في (ص ٥٧)[٣] ان الشيخ قال : « وكنت قد رأيت في المحشر شيخاً لنا ، كان يدرّس النحو في الدار العاجلة ، يعرف بأبي علي الفارسي ، وقد امترس به قوم يطالبونه ، ويقولون : تأولت علينا وظلمتنا . فلما رآني أشار إليّ بيده ؛ فجئته فإذا عنده طبقة ؛ منهم يزيد بن الحكم الكلابي ، وهو يقول : ويحك ! أنشدتَ عنّي هذا البيت برفع الماء ، يعني قوله :

فَلَيْتَ كَفَافاً كَانَ شَرُّكَ كُلُّهُ وَخَيْرُكَ عَنِّي مَا ارْتَوَى المَاءَ مُرْتَوِي[٤]

---

(١) رسالة الغفران طبعة أمين هندية وانظر الغفران تحقيق بنت الشاطىء ط ١ ص ١٠٠ .

(٢) البيت من شواهد سيبويه ، انظر الكتاب ج ١ ص ٣٢ .

(٣) وانظر الغفران تحقيق بنت الشاطىء ط ١ ص ١٥٣ .

(٤) البيت وتاليه من قصيدة ليزيد في سبعة وعشرين بيتاً أوردها بتمامها البغدادي في الخزانة ١/٤٩٦ ـ ٤٩٧ (بولاق) نقلاً عن « المسائل البصرية » لأبي علي الفارسي . ومنها أبيات في أمالي القالي ١/٦٧ ـ ٦٨ ، (الطبعة الثالثة) والأغاني ١١/١٠٠ ـ ١٠١ ، ولباب الآداب لأسامة بن منقذ ص : ٣٩٦ ـ ٣٩٧ ، وأمالي ابن الشجري ١/١٧٦ ـ ١٧٧ ، (طبعة الهند) وقد حكى الأخير ص: ١٨١ ، أثناء شرحه القصيدة أن أبا العباس المبرد قال فيها : « إن في هذه القصيدة شذوذاً في مواضع وخروجاً عن القياس .. » وانظر كلامه على هذا البيت وتأويل أبي علي له ص : ١٨٤ فما بعدها .

ولم أقل إلا الماء ، وكذلك زعمتَ أني فتحتُ الميم في قولي :

تَبدّلْ خليلاً بي كَشكْلك شَكْلُهُ فإنّي خَليلاً صالحاً بكَ مَقْتَوي[1]

وإنما قلت : « مُقتوي » بضم الميم .

وإذا هناك راجز يقول : تأوّلت عليّ أني قلت :

يَا إبلي مَاذَنْبُهُ فَتَأْبَيَــهْ مَاءٌ رَوَاءٌ ونَصِيٌّ حَوْلَيَهْ .

فحركتُ الياء في « فتأبيَه » وواللهِ مافعلتُ ولا غيري من العرب[2] . وإذا رجل آخر يقول : ادعيتَ عليّ أن الهاء راجعة على الدرس في قولي :

---

(١) كذا قال أبو العلاء : نسب إلى أبي علي أنه أنشد هذا البيت بفتح الميم من « مقتوي » ولكن نقل البغدادي في الخزانة ٣٢٨/٣ (بولاق) ما قاله أبو علي في هذا البيت في كتابه (المسائل البغداديات) وفيه يصرح بأن الميم مضمومة ، وأورد على صحة ذلك حججاً يمكن القارىء أن يرجع اليها فيه ، كما ان ابن جني ذكر في الخصائص ٦٠٤/٢ أن أبا علي انشده هذا البيت وقرأه عليه في القصيدة . ثم قال : « فهذا عندنا « مُفْعَلّ » من « القتو » وهو المراعاة والخدمة » . اه وقد نقل البغدادي في الخزانة عقب كلمة أبي علي كلاما لابن جني في « المحتسب » ايضاً يشبه ان يكون تلخيصاً لكلام شيخه .

(٢) يريد ابو العلاء ان صحة الانشاد بسكون الياء في قوافي الأبيات : والفتح والإسكان روايتان في الأبيات ، نص على ذلك ابن جني في الخصائص ٣٣٢/١ ، وذلك قوله بعد ان ساق الأبيات مضبوطة بفتح الياء « هكذا رويناه عن ابي زيد ، واما الكوفيون فروونه على خلاف هذا ، يقولون : « فتأيَهْ » و « نصي حولَيْهْ » و « حتى تأيَهْ » و « فوق الزازَيْهْ » فينشدونه من السريع لا من الرجز كما انشده ابو زيد » . اه . يريد بقوله : « فينشدونه من السريع » ان اضرب الأبيات على رواية الكوفيين تصير « مفولانْ » او « مفعولانْ » وهما من اضرب السريع دون الرجز ، فتكون الأبيات على هذه الرواية من السريع ، واما رواية ابي زيد فالأضرب فيها ما بين « مفاعلن » و « مستفعلن » وكلاهما من اضرب الرجز دون السريع .

هَذَا سُرَاقَةُ لِلْقُرْآنِ يَدْرُسُهُ ... وَالْمَرْءُ عِنْدَ الرُّشَا إِنْ يَلْقَهَا ذِيبُ(١)

أفجنون أنا حتى أعتقد ذلك ؟

وإذا جماعة من هـذا الجنس ، كلهم يلومونه على تأويله . فقلت : يا قوم ، إن هذه أمور هيّنة ، فلا تعنتوا هذا الشيخ ، فإنه يَمُتُّ بكتابه في القرآن المعروف بـ (كتاب الحجة) وإنـه ما سفك لكم دماً ، ولا احتجن عنكم مالاً ، فتفرقوا عنه .. » .

وذكر في (رسالة الغفران ص ٦١)(٢) أن الشيخ يقول لراعي الإبل : « أحقٌ ما روى عنك سيبويه في قصيدتك اللامية التي تمدح بها عبد الملك ابن مروان ، من أنك تنصب الجماعة في قولك :

أَيَّامَ قَوْمِي والجَمَاعَةَ كَالَّذِي ... لَزِمَ الرِّحَالَةَ أَنْ تَمِيلَ مُمِيلاً(٣)؟

فيقول : حق ذلك » .

وذكر في (الغفران ص ٨٧)(٤) أنـه يقول لامرىء القيس : « أخبرني عن قولك :

كَبِكْرِ الْمُقَانَاةِ الْبَيَاضَ بِصُفْرَةٍ ... .(٥)

---

(١) البيت من شواهد سيبويه التي لم يذكر قائلها ، انظر الكتاب ج ١ ص ٤٣٧ . والغفران تحقيق بنت الشاطىء ط ١ ص ١٥٢ .

(٢) وانظر الغفران تحقيق بنت الشاطىء ط ١ ص ١٦٣ .

(٣) سيبويه ، الكتاب ج١ ص١٥٤ .

(٤) الغفران تحقيق بنت الشاطىء ط ١ ص ٢٢٦ .

(٥) صدر بيت من معلقته ، وعجزه : « غذاها نمير الماء غير محلل » . ديوانه ص ٣٧ .

ماذا أردْتَ بالبكر ؛ فقد اختلف المتأولون في ذلك ؟ فقالوا : البيضة ، وقالوا : الدرة ، وقالوا : الروضة ، وقالوا : الزهرة ، وقالوا : البرديّة؟ وكيف تنشد : « البياضِ أم البياضَ أم البياضُ » ؟ فيقول : كل ذلك حسن ، وأختار « البياضِ » بالكسر ، فيقول : .. لو شرحتُ لكَ ما قال النحويون في ذلك لعجبت .. » .

وذكر في (ص ١٠٠)[1] أنه يقول لأوس بن حجر : « كان في عزمي أن أسألك عما حكاه سيبويه في قولك :

تُواهِقُ رِجلاَهَا يَدَاهُ وَرَأْسُهُ ... لَها قَتَبٌ خَلْفَ الحَقِيبَةِ رَادِفُ[2]

فإني لا أختار أن ترفع « الرجلان واليدان » ولم تَدْعُ إلى ذلك ضرورة ، لأنك لو قلت : « تواهق رجليها يداه » لم يَزِغِ الوزن ؛ ولعلك إن صح قولك لذلك ، أن تكون طلبتَ المشاكَهَة ، وهذا المذهب يقوى إذا روي « يداها » بالإضافة إلى المؤنث ، فأما في حالة الإضافة إلى المذكر فلا قوة له . . . » .

وهذه طائفة من النوع الثاني :

ذكر في (رسالة الغفران ص ٨٥)[3] خمسة أبيات من أرجوزة بشار ، آخرها :

الحُرُّ يُلْحَى وَالعَصَا لِلْعَبْدِ ... وَلَيسَ لِلْمُلْحِفِ مِثْلُ الرَّدِّ[4]

ثم قال له : « قلت في هذه القصيدة « السِبْد » في بعض قوافيها ؟

---

(١) وانظر الغفران تحقيق بنت الشاطىء ط ١ ص ٢٥٨ .
(٢) سيبويه ، الكتاب ج ١ ص ١٤٥ .
(٣) وانظر الغفران تحقيق بنت الشاطىء ط ١ ص ٢٢٣ .
(٤) ديوانه ج ٢ ص ٢٢٤ .

فإن كنت أردت جمع « سُبَد » وهو طائر فإن « فُعَلا » لا يُجمَعُ على ذلك ؛ وإن كنت سكنت الباء فقد أسأت ، لأن تسكين الفتحة غير معروف » ثم أورد بيتاً للأخطل ، وثانياً لجميل ، وثالثاً لشاعر آخر . وبيّن أن لا حجة له فيها ؛ وبيّن سبب ذلك .

وفي (ص ٩٧)[1] يقول لطرفة : « شد ما اختلف النحاة في قولك :

أَلاَ أَيُّهَـــذا الزَّاجِرِي أَحضُرَ الوَغَى

وَأَنْ أَشْهَدَ اللَّذَّاتِ هَلْ أَنتَ مُخْـلِدِي »[2] .

وبيّن أن سيبويه يكره نصب « أحضر » بأنْ مقدرة ، وأن الكوفيين ينصبون بها ؛ وقد قوّى قولهم . . .

وفي (ص ٣٨)[3] من الغفران يقول للبيد : « أخبرني عن قولك :

تَرَّاكُ أَمْكِنَةٍ إِذا لَمْ أَرْضَهَا أَوْ يَرْتَبِطْ بَعْضَ النُّفُوسِ حِمامُها[4]

هل أردت « ببعض » معنى « كل » ؟ فيقول لبيد : كلا إنما أردت نفسي .. فيقول له : أخبرني عن قولك : « أو يرتبط » هل مقصدك « إذا لم أرضها أو لم يرتبط . . . » ؟ . فيقول لبيد : الوجهَ الأول أردت .

ثم يقول له : « فما مغزاك في قولك :

وَصَبُوحِ صَافِيَةٍ وَجَذْبِ كَرِينَةٍ بِمُوَتَّرٍ تَأْتَالُهُ إِبْهامُهـــا[5]

(١) وانظر الغفران تحقيق بنت الشاطئ، ط ١ ص ٢٥١ .

(٢) انظر كتاب سيبويه ج ١ ص ٤٥٢ .

(٣) وانظر الغفران تحقيق بنت الشاطئ، ط ١ ص ١٠٧ .

(٤) ديوانه تحقيق الدكتور إحسان عباس ص ٣١٣ وفيه : « أو يعتلق .. »

(٥) المصدر السابق ص ٣١٤ ،

فإن من الناس من ينشده « تأتاله » يجعله « تفتعله » من « آل الشيء » إذا ساسه ، ومنهم من ينشده : « تأتا له » من الإتيان . فيقول لبيد : كلا الوجهين يحتمله البيت » .

ثم ذكر قول أبي علي الفارسي في هذا البيت ، وتهكم به ، حتى قال لبيد : « معترض لِعَنَنٍ لم يعنِهِ [1] . الأمر أيسر مما ظن هذا المتكلف » .

وذكر في (الغفران ص ١٠٤) [2] أن الشيخ ينادي في الموقف : « أين عدي بن ربيعة (مهلهل التغلبي) . . . الذي يستشهد النحويون بقوله :

ضَرَبَتْ صَدْرَهَا إِلَيَّ وقالَتْ   يَا عَدِيًّا لَقَدْ وَقَتْكَ الأَوَاقِي [3]

وقد استشهدوا له بأشياء . . . » . ثم ذكر بيتين له . ثم أثنى على قصيدته الرائية ؛ ثم سأله عن سبب تسميته « مهلهلا » فشفى صدره .

وذكر في (الغفران ص ١٨٧) [4] أبياتاً منها قوله :

أَتُوبُ إِلَيْكَ يَارَبَّاهُ مِمَّا   جَنَيْتُ فَقَدْ تَظَاهَرَتِ الذُّنُوبُ [5]

ثم قال : « فيقول : أليس قال البصريون : إن هاء الندبة لا تثبت في الوصل ، والهاء في قوله : « يا ربّاه » مثل تلك الهاء ليس بينهما فرق . . ؟ » .

---

(١) مثل يضرب للمعترض فيما ليس من شأنه ، قال الشاعر :

لنا فتى يحسبنا عنه   معترض لعنن لم يعنه

المحيط (عنن)

(٢) وانظر الغفران تحقيق بنت الشاطئ ط ١ ص ٢٧٠ .

(٣) من قصيدة للمهلهل التغلبي مطلعها :

طفلة ما ابنة المحلل بيضا   ء لعوب لذيذة في العناق

انظر شعراء النصرانية ص ١٧٧ وانظر العيني على هامش الخزانة ج ٤ ص ٢١١ .

(٤) وانظر الغفران تحقيق بنت الشاطئ ط ١ ص ٤٩٨ .

(٥) البيت لمجنون ليلى ، انظر ديوانه ص ٤ .

ثم ذكر أبياتا منها قوله :

عَسَى فَارِجُ الكَرْبِ عن يُوسُفٍ يُسَخِّرُ لي رَبَّةَ المَحْمَلِ [1]

فقال : ما أيسر لفظ هذه الأبيات ، لولا أنه حذف « أنْ » مِنْ خبر « عسى » .

النظر في العروض والقوافي

ربما كانت هذه المسألة من أدق المسائل ، وأكثرها غموضاً وتعقيدا ؛ وأشدها خطرا ، لما يترتب عليها من تخطئة الشعراء ، وتلحين البلغاء الذين يحتج بأقوالهم لإثبات أصل اللغة وقواعدها ؛ ولما يتفرع عليها من مخالفة المشهور من قواعد النحاة ، وتعارض القواعد الكلية ، وتضارب آراء العلماء ، والحاجة إلى تكلف وجوه بعيدة ، والتماس تأويلات ملفقة ، لتصحيح الرواية أو إصلاح الفاسد منها ، ونحو ذلك .

وإيضاح هذا يتوقف على ذكر مقدمات لا بد من معرفتها ، لتتبين مواطن المخالفة والمعارضة وأسبابها . وهذا يحتاج إلى بسط وتوضيح ، لا يتسع له صدر هذا الكتاب . فاضطررنا تحت تأثير هذين العاملين إلى أن نوجز في القول ، ونقتصر على أشد ما تدعو الحاجة إلى ذكره منه فنقول :

١ – لا شك أنه وردت في أشعار الجاهليين والمخضرمين أبيات أوزانها مخالفة للمشهور المتداول عند شعراء العصرين المذكورين ؛ كما وردت أبيات في قوافيها ما لا يستحسنه شعراء العصرين ، ولا العلماء بالشعر ، وفيها ما تأباه قواعد النحو ونقول اللغة .

٢ – ذهب بعض العلماء إلى أن شعراء هذين العصرين كانوا ينظمون أشعارهم على أوزان يدركونها بغرائزهم ، ويحسون بما يقع فيها من الخلل

---

(١) البيت لعمر بن أبي ربيعة

بطباعهم ؛ وأن غريزة الشاعر أو السامع تدله على مواطن الخلل في الوزن ، كما تدله على مواطن الخروج عن الأسلوب المرتضى في القوافي . وتوسع أناس في تأييد هذا الزعم حتى قال قائلهم :

مُسْتَفْعِلُنْ فاعِلُنْ فعُولُ   مَسَائِلٌ كُلُّهَا فضُولُ
قَدْ كانَ شِعْرُ الوَرَى صَحِيحاً   مِنْ قَبْلِ أنْ يُخْلَقَ الخَلِيلُ

وهناك فريق لم يرتض هذا الرأي ، ولكنه لم يبيّن ما هو الميزان الذي كان الشعراء يزنون به أشعارهم ؛ وما هو الشيء الذي كانوا يعولون عليه في تمييز الصحيح من الفاسد في القوافي .

٣ - إن العلماء بالشعر من صدر الدولة العباسية إلى هذا اليوم ، لم يطلعوا على جميع الأشعار التي نظمها أهل هذين العصرين الأولين ؛ بل كل ما اطلعوا عليه قلّ من كثر ؛ فقد ذكر ابن قتيبة في (الشعر والشعراء ص ٦) : « أن أبا ضَمْضَم أنشد جماعة لمائة شاعر كلهم اسمه عمرو . قال الأصمعي : فعددت أنا وخلف الأحمر فلم نقدر على أكثر من ثلاثين ... ثم قال : هذا ما حفظه أبو ضمضم ، ولم يكن بأروى الناس . وما أبعد أن يكون من لا يعرفه من المسمين بهذا الاسم أكثر ممن عرفه . هذا إلى من سقط شعره من شعراء القبائل ؛ ولم تحمله الينا الرواة والعلماء » اهـ .

وعلى هذا تكون جميع أحكام العلماء على الشعر والشعراء مبنية على استقراء ناقص ، وهو لا يفيد اليقين .

٤ - ذكر بعض العلماء أن بعض القبائل تقف بالسكون على كل متحرك . ولم تبيّن الرواة لغة كل شاعر ، ليعلم هل لغته كذلك أم لا ، وأن الشاعر الذي يقف على الروي المطلق بالسكون لا يظهر في كلامه إقواء ولا إصراف .

٥ً ـ يتضح من كلام العروضيين أن البيت الذي يكون فيه إقواء مثلا يجب أن تقرأ كلمة الروي فيه على حسب ما يقتضيه العامل فيها من وجوه الإعراب ، مع قطع النظر عن حركة روي القصيدة ، وبذلك يتبين الإقواء وغيره . وقصة النابغة في أبياته الدالية[1] تشهد لذلك ، لأنها لو قرئت على ما تقتضيه القافية لم تتبين فيها عاهة . ويتضح من كلام النحاة أن البيت المذكور ، يجب أن تقرأ كلمة الروي فيه على الوجه الذي تقتضيه قافية القصيدة ، وإن كان مخالفاً لقواعد النحو ؛ لأنهم قالوا : إن من جملة المواضع التي يقدر فيها الإعراب ، لما اشتغل آخره بحركة القافية ؛ ومقتضى هذا أن كلمة الروي تحرك بحركة القافية ، وتقدر فيها الحركة التي يقتضيها العامل للتعذر لاشتغال المحل بحركة القافية .

وقد استوفينا الكلام في هذا البحث في كتابنا (المنهل الصافي في العروض والقوافي) .

٦ً ـ ذكر النحاة ، في مباحث التنوين ، أن قسماً من التنوين يقال له : « تنوين الترنم » وهو الذي يلحق القوافي المطلقة بحرف علة في لغة قيس وتميم بدلاً من حرف المد . ومثّلوا لذلك بقولَ الشاعر :

أقلّي اللومَ عاذِلَ والعتابَنْ   وقولي إنْ أصبتُ لقدْ أصابَنْ[2]

وقول الشاعر :

أزِفَ الترحّلُ غيرَ أن ركابَنا   لما تزلْ برحالنا وكأنْ قدِنْ

---

(١) انظر البيت الذي وقع فيه الإقواء في دالية النابغة في مختار الشعر الجاهلي ـ مصطفى السقا ج ١ ص ١٨٣ .

(٢) البيت مطلع قصيدة لجرير يهجو بها الفرزدق ، وفي ديوان جرير ص ٦٤ طبعة الصاوي ١٣٥٣ هـ أنه يهجو بها الراعي النميري وهي في نقائض جرير والفرزدق ص ٤٣٢ انظر سيبويه ج ٢ ص ٢٩٨ فما بعدها (باب وجوه القوافي في الإنشاد) .

وقسماً آخر منه يقال له : « التنوين الغالي » وهو الذي يلحق القوافي المقيدة التي يكون رويها حرفاً صحيحاً ساكناً كقول رؤبة :

وقاتِمِ الأعماقِ خاوي المخْتَرَقْن(١)

ولم تبين الرواة هل كان هذا التنوين يلحق كل قافية ؟ أم يلحق بعضا دون بعض ؟ والقافية التي يلحقها التنوين لا تظهر عليها حركة الإعراب أحياناً فلا يتبين فيها إقواء ولا غيره .

٧ً ـ إن فريقاً من العلماء ، ذهب إلى أن الإقواء لا يجوز على امرىء القيس وأمثاله .

٨ً ـ وقع في كلام بعض شعراء العصر العباسي شيء من الإخلال بالوزن ، وبعض عيوب القافية .

ونحن إذا استقرينا معظم ما انتهى إلينا من أنواع الشعر المنقول عن أهل هذين العصرين ، وأنعمنا النظر في أوزانه وقوافيه ، تبيّن لنا أمران : أحدهما يتعلق بالأوزان ، والثاني يتعلق بالقافية .

أما ما يتعلق بالأوزان : فإننا نجد قسماً من أوزان الشعر تستطيع الغريزة السليمة وحدها أن تدرك ما فيه من خلل زيادة أو نقصاً . كبعض الأبيات التي جاءت من الطويل ، والبسيط ، والكامل ، والوافر ، ونحوها .

ونجد قسماً آخر لا تستطيع الغريزة وحدها أن تدرك ما فيه ، بل لا تمكن معرفته ولا مراعاته إلا بواسطة ضوابط ومقاييس ، تعين الغريزة على معرفته وإدراكه ، وذلك كبعض الأبيات التي جاءت من ضروب المديد ، والسريع ، والمنسرح ، والخفيف ، والمجتث . وبعض الضروب

---

(١) البيت من ارجوزة لرؤبة بن العجاج وهي بتمامها في أراجيز العرب ص ٢٢ فما بعدها .

والأعاريض التي دخلت عليها الزحافات والعلل من بحور مختلفة فإن كثيراً منها يستحيل على الغريزة وحدها أن تدركه .

ولكن الرواة لم ينقلوا إلينا شيئاً يدل على تلك الضوابط والمقاييس ؛ ولا نستطيع أن ندعي وجودها لأسباب ، منها :

١ – عدم وجود نصوص تثبت وجودها عند المتقدمين .

ومنها :

٢ – أن جماعة من فحول الشعراء أخلّوا بالوزن في مقلدات أشعارهم ، كعبيد بن الأبرص ، وعديّ بن زيد ، والمرقش الأكبر ، وطرفة ، وغيرهم .

ولو كانت لديهم قواعد معروفة لأدركوا بسببها ما في أشعارهم من خلل ، قبل أن تدركه الرواة وغيرهم . ولكانت الرواة اتفقت على تصحيح المروي على وجه واحد في غالب الأحيان . ولم يقع تضارب في الروايات يؤدي إلى ارتكاب ما لا تجيزه قواعد اللغة ، أو إلى خروج الكلمة من معنى إلى معنى آخر بعيد عما يريده الشاعر ؛ فيلتمسون لذلك وجوهاً متكلفة ، وآراء ملفقة ؛ يرى الباحث كثيراً منها في كتب العروض والنحو والأدب .

وأما ما يتعلق بالقافية ، فإنا نجد في كلام أهل العصرين المذكورين شيئاً يدل على ضعف في ملكة الشاعر اللغوية والأدبية . وضعفاً في غريزته التي يدرك بها ؛ وهو ما يسميه المتأخرون : (عيوب القافية) وذلك كالتضمين [1] في قول النابغة :

وهُمْ وَرَدُوا الجِفَارَ على تَميمٍ وهمْ أصحابُ يومِ عُكاظَ إنِّي [2]
شَهِدْتُ لَـهُمْ مَوَاطِنَ صَادِقاتٍ . . . .

(١) التضمين : هو ألا يتم معنى البيت إلا بالذي يليه . المحيط (ضمن)

(٢) تمام البيت الثاني : « أتيتهم بود الصدر مني » والبيتان من نونيته التي مطلعها :

غشيت منازلاً بعريتنات فأعلى الجزع للحيّ المبنّ

مختار الشعر الجاهلي – مصطفى السقا – ج ١ ص ٢٠٠ .

والإيطاء [وهو أن تكرر القافية لفظاً ومعنى كما] في قول النابغة أيضاً :

أو أضعَ البيتَ في خرساءَ مُظلِمَةٍ   تُقيِّدُ العَيْرَ لا يَسْرِي بها السَّاري[1]

ثم قوله بعد :

لا يَخفِضُ الرِّزَّ عن أرضٍ ألمَّ بها   ولا يَضِلُّ على مِصْبَاحِهِ السَّاري

والإقواء [وهو مخالفة القوافي في القصيدة برفع قافية وجر أخرى كما] في قول النابغة :

بِمُخَضَّبٍ رَخْصٍ كأنَّ بنَانَهُ   عَنَمٌ يَكادُ مِنَ اللَّطافَةِ يعقَدُ[2]

والإصراف [وهو مخالفة القوافي بفتح مع ضم أو فتح مع كسر كما] في قول امرىء القيس :

فَظَلَّ طُهَاةُ اللَّحْمِ ما بَيْنَ مُنْضِجٍ   صَفِيفَ شِواءٍ أوْ قَدِيرٍ معجَّلِ[3]

وفي قول جرير :

عَرَفْنَا جَعْفَراً وَبَني أبيهِ   وأنكَرْنا زَعَانِفَ آخَرِينَ[4]

وسناد التأسيس [وهو أن يأتي بيت مؤسس وآخر غير مؤسس كما] في قول امرىء القيس :

إذا قلتُ هَذا صاحبٌ قَدْ رَضيتُهُ   وَقَرَّتْ بِهِ العيْنَانِ بُدِّلْتُ آخَرَا[5]

كَذلِكَ جَدِّي لا أُصَاحِبُ صَاحِباً   مِنَ النَّاسِ إلاَّ خَانَني وَتَغَيَّرا

---

(١) مختار الشعر الجاهلي – مصطفى السقا – ج ١ ص ١٧٧ – ٨ وفيه : «في سوداء مظلمة».

(٢) انظر ما سبق ص ٨٤٩ .

(٣) البيت من معلقة امرىء القيس مكسورة لام القافية ، ديوانه ص ٥٨ (بيروت).

(٤) البيت من قصيدة مكسورة نون القافية يخاطب جرير فيها فضالة حين أوعده بهذه وهي في ص ٥٧٧ من ديوانه طبع الصاوي ١٣٥٣ هـ وأول القصيدة :

عرين من عرينة ليس منا   برئتُ إلى عُرَيْنَةَ من عرين

(٥) ديوانه ص ٩٧ (بيروت) .

ونحو ذلك مما هو مبين في كتب العروض والأدب . وأكثر ما وقع في كلامهم الإقواء ، حتى قال الأخفش : الإقواء رفع بيت وجر آخر ، وقد سمعت هذا من العرب كثيراً لا أحصي ، وقلّتْ قصيدة ينشدونها إلا وفيها إقواء ، ثم لا يستنكرونه ، لأنه لا يكسر الشعر : وأيضاً فإن كل بيت على حياله ؛ وقد أشرنا قبلاً إلى أن بعض العلماء أنكر جواز الإقواء على امرىء القيس وأمثاله . والحق أنه وقع في كلام امرىء القيس في معلقته كقوله :

كأنّ ثَبِيراً في عَرانِينِ وَبْلِه   كبيرُ أناسٍ في بجادٍ مُزَمَّلِ(١)

وكقوله في غير المعلقة :

جَالَتْ لِتَصْرَعَني فقلتُ لها اقصري   إنّي امرُؤٌ صَرعي عليكِ حرامُ(٢)

فجُزيتِ خيرَ جزاء ناقةِ واحدٍ   ورَجَعْتِ سَالمةَ القَرا بِسَلامِ

وفي معلقة زهير كقوله :

وَإنّ سَفَاهَ الشّيخِ لا حِلْمَ بَعْدَهُ   وإنّ الفَتى بَعْدَ السَّفَاهَةِ يَحْلُمُ(٣)

---

(١) البيت من معلقة امرىء القيس مكسورة القافية ، وفي رواية البيت بضم لام (مزمل) الرواء عند الكثيرين ، وقد خفض آخرون هذه اللام على المجاورة لبجاد ومثله ما روي من قول العرب : هذا جحر ضب خرب ومنه أيضاً قول الأخطل :

جزى الله عني الأعورين ملامة   وفروة ثغر الثورة المتضاجم

بجر المتضاجم على جوار الثورة . انظر مجلة المجمع العلمي العربي ص ١٦٧ من المجلد ٣٨ ج ١ . سنة ١٩٦٣ .

(٢) ديوانه ص ١٦٣ (بيروت)

(٣) المعلقات ـ شرح الزوزني (بيروت) ص ٨٩ .

وفي معلقة الحارث بن حلزة كقوله :

فَمَلَكْنا بِذَلِكَ النَّاسَ حَتَّى ... مَلَكَ المُنذِرُ بنُ مَاءِ السَّمَاءِ (١)

وفي شعر النابغة الذبياني كثيراً كقوله :

زَعَمَ الغُرابُ بِأَنْ رِحلَتَنَا غداً ... وَبِذَاكَ خَبَّرَنَا الغُدافُ الاسْوَدُ

. . . .

. . .

. . . . عَنَمٌ يَكَادُ من اللَّطَافةِ يعقدُ (٢)

وفي شعر حسان بن ثابت كقوله :

لا بأسَ بِالقَوْمِ مِنْ طُولٍ وَمِنْ عِظَمٍ ... جِسْمُ البِغالِ وأحلامُ العَصَافِيرِ (٣)

كَأَنَّهُمْ قَصَبٌ جُوفٌ أَسَافِلُهُ ... مُثَقَّبٌ نَفَخَتْ فِيهِ الاعَاصِيرُ

وفي شعر دريد بن الصمة كقوله :

فَدَافَعتُ عَنْهُ الخَيلَ حَتَّى تَنَفَّسَتْ

وَحَتَّى عَلانِي حَالِكُ اللَّوْنِ أَسودُ (٤)

---

(١) مختار الشعر الجاهلي — كيلاني — ج ٢ ص ٣٤٦ والمطلقة مضمومة القافية .

(٢) صدر البيت : « بمخضب رخص كأن بنانه .. » والبيتان من دالية النابغة المكسورة القافية . انظر ما سبق ص ٨٤٩ .

(٣) البيتان من قصيدة لحسان في هجاء النجاشي وقومه بني عبد المدان وهي في ديوانه ص ٢١٣ طبعة البرقوقي ، ورواية البيت الثاني فيه :

كأنكم خشب جوف اسافله ... مثقب فيه أرواح الأعاصير

ولا إقواء في هذه الرواية .

(٤) البيت من قصيدة طويلة يرثي دريد بها أخاه عبد الله وهي مكسورة القافية وراجعها في الأغاني طبعة دار الكتب ٩/١٠ . ورواية الحماسة ٣٤٤/١ : « أسودي » بياء النسب المخففة فلا إقواء عندئذ .

وفي كتب الأدب ودواوين الشعر كثير من الأمثلة التي خالف فيها أصحابها المشهورَ من قواعد النحو لأجل القافية . . ولم نجد في كلام العلماء ما يدل على أن المتقدمين كانوا قد وضعوا لمثل هذه المسائل قواعد عامة ، أو ضوابط كلية ، يرجعون اليها في معرفة القوافي السالمة من العيوب ، وغير السالمة منها . وإن وجد في كلام بعضهم الإقواء ، والإضجاع ، والسناد .

وإذا قلنا : إنهم كانوا يدركون ذلك بطباعهم وغرائزهم ، فإن بعض الحوادث لا يدل على ذلك ؛ لأن العقل يستبعد أن يخطىء النابغة مثلاً في لغته الفطرية ، وأن لا يدرك ما في شعره من العاهات ؛ ثم يدركه من هو أدنى منه في غريزته ، وأضعف منه في لغته وأدبه .

وكذلك يستبعد مِنْ مثل زهير بن أبي سلمى أن ينظم شعره وينقحه ويعرضه حولا كاملا ، ثم يبرزه وهو مخالف لأصول لغته الواضحة ، وقواعدها المشهورة ، ولأسلوب الشعر المعروف في عهده . ويخفى ذلك عليه وعلى من عرض عليه شعره ، وهكذا يقال في شعر امرىء القيس ، والحارث بن حلزة ، ودريد بن الصمة ، وأمثالهم ممن جاءت أشعارهم مؤوفة . وأغرب ما في الأمر أن علماء اللغة يحتجون لإثبات معانيها ، وقواعد إعرابها ، بكلام هؤلاء الشعراء الذي يتكلمون به ، على الوجه الذي يتكلمون به ، لأنهم يستمدون قواعد اللغة ومعانيها من أقوالهم ، فكيف يعدون إقواءه مثلاً غلطا في لغته ؟ وهو قد تكلم به كما تكلم بغيره من الكلام الذي اتخذ حجة في إثبات معنى اللغة وإعرابها . وهذا يقتضي أن تكون لهم أصول يرجعون إليها في تمييز الخطأ من الصواب ، ويعولون عليها في تمييز الصحيح من الفاسد ؛ وبسببها استطاعوا أن يدركوا ما لم يدركه الشاعر بغريزته من العاهات .

ومما ذكرناه يتضح أن موقف الناقد في العروض والقوافي دقيق جداً ، ومحفوف بالمتناقضات ، لأنه إذا رأى بيتاً أو أبياتاً لشاعر ، فيه أو فيها عاهة من العاهات ، لا يستطيع أن يحكم عليه أو عليها بشيء حتى يلم

لغة الشاعر ، هل يقف بالسكون على كل متحرك أم لا ؟ ثم يعلم كيف روي الشعر ، هل كان على وفق ما يقتضيه قول العروضيين أو قول النحاة ؟ وهل روي مع أحد التنوينين الترنم أو الغالي أم لا ؟ ثم يحكم عليه بعد ذلك بالإقواء ونحوه ، مع علمنا أن بعضهم لا يجيز الإقواء على امرىء القيس وأمثاله ، وأن بعضاً آخر قال بوجود الإقواء والإصراف والسناد وغيرها في شعر المتقدمين .

موقف أبي العلاء في هذه القضية

لا شك أن أبا العلاء كان يعلم كل ما ذكرناه ، ويعلم غيره مما لم نذكره من وجوه الاختلاف والتضارب المثيرة للشكوك ، والباعثة على التردد والحيرة . ولذلك لم نعثر في كلامه على نص صريح ، يبين ما استقر عليه رأيه في هذه القضية ، وإنما وجد في كلامه ما يدل على أنه لم يعوّل على رأي واحد .

فقد قال في (رسالة الغفران ص ٥٥)[١] : « الشعر كلام موزون تقبله الغريزة » .. وقال (ص ٨٧)[٢] لامرىء القيس : « إن رواة البغداديين ينشدون ...... قولك :

وَكَأَنَّ ذُرَى رَأْسِ الْمُجَيْمِرِ[٣]

. . .

[وكذلك] : وكأن مَكاكيَّ الجـواء[٤]

---

(١) الغفران ط أمين هندية وانظر بنت الشاطىء ص ١٤٨ .
(٢) الغفران ط أمين هندية وانظر بنت الشاطىء ص ٢٢٥ .
(٣) تمام البيت :
« . . . . غدوةً من السيل والغثاء فلكة مغزل »
ديوانه ص ٦٢ (بيروت) .
(٤) المصدر السابق وتمام البيت :
« . . . . . غديّةً صبحن سلافاً من رحيق مفلفل »

بزيادة الواو في أولها ، فيقول امرؤ القيس : أبعد الله أولئك ، لقد أساءوا الرواية ، وإذا فعلوا فأي فرق يقع بين النظم والنثر ؟ وإنما ذلك شيء فعله مَن لا غريزة له في معرفة وزن القريض ، فظنه المتأخرون أصلاً في المنظوم . وهيهات هيهات !! » . ويقول له(في ص ٨٧) : « وبعض المعلمين ينشد قولك :

مِنَ السَّيْلِ والغُثَّاء فَلْكَةُ مِغْزَلِ

فيشدد الثاء . فيقول : إن هذا لجهول ، وهو نقيض الذين زادوا الواو في أوائل الأبيات ، اولئك أرادوا النسق ، فأفسدوا الوزن . وهذا البائس أراد أن يصحح الزِّنة فأفسد اللفظ . وكذلك قولي :

فجِئْتُ وَقَدْ نَضَّتْ لِنَوْمٍ ثِيَابَهَا[1] . . . .

منهم من يشدِّد الضاد .... وإنما حملهم على التشديد كراهة الزحاف ، وليس عندنا بمكروه .... » .

ثم يقول له (في ص ٨٨) : « أخبرني عن كلمتك الصاديّة ، والضاديّة ، والنونيّة[2] .... لقد جئت فيها بأشياء ينكرها السمع » . ويورد من كل كلمة

---

(١) تمام البيت : « لدى الستر إلا لبسة المتفضل » انظر الغفران تحقيق بنت الشاطئ، ص ٢٢٧

(٢) ثلاث قصائد لامرىء القيس مطالعها :

لمن ذكر سلمى إذ نأتك تنوص فتقصر عنها خطوة أو تبوص

. . .

أعنّي على برق أراه وميض يضيء حبيا في شماريخ بيض

. . .

لمن طلل أبصرته فشجاني كخط زبور في عسيب يمان

ديوانه الصفحات ١٢٢ ، ١٢٦ ، ١٧٠ (بيروت) .

بيتاً ثم يقول : « ... في أشباه لذلك ، هل كانت غرائزكم لا تحس بهذه الزيادة ؟ أم كنتم مطبوعين على إتيان مغامض الكلام ، وأنتم عالمون بما يقع فيه ؟ .

كما أنه لا ريب أن زهيراً كان يعرف مكان الزحاف في قوله :

يَطْلُبُ شأوَ امرأينِ قَدّما حَسَبًا   نَالا الملوكَ وبَذّا هذهِ السُّوَقا [١]

فإن الغرائز تحس بهذه المواضع .... فيقول امرؤ القيس : أدركنا الأولين من العرب لا يحفلون بمجيء ذلك ، ولا أدري ما شجن [٢] عنه . فأما أنا وطبقتي فكنا نمر بالبيت حتى نأتي إلى آخره ، فإذا فني وقارب تبين أمره للسامع » .

ثم يقول له : « أخبرني عن قولك :

ألا رُبَّ يومٍ لكَ مِنهُنَّ صالحٍ [٣]   . . . .

أتنشده (لكَ مِنهُنَّ صالحٍ) فتزاحف بالكف ، أم تنشده على الرواية الأخرى [٤] فيقول : أما أنا فما قلت في الجاهلية إلا بزحاف : « لك منهن صالح » ؟ وأما المعلمون في الإسلام فغيروه على حسب ما يريدون ، ولا بأس بالوجه الذي اختاروه » .

---

(١) من قصيدة لزهير بن ابي سلمى يمدح بها هرم بن سنان مطلعها :

ان الخليط اجد البين فانفرقا   وعلق القلب من أسماء ما علقا

وهي في ديوانه (بشرح الشنتمري طبعة القاهرة) ص ٣٤ و (حسباً) فيه (حسناً) .

(٢) شجن : منع وحبس .

(٣) تمامه : « . . ولا سيما يوم بدارة جلجل » .

والبيت من معلقة امرىء القيس انظر ديوانه ص ٣٢ (بيروت) .

(٤) روي هذا البيت على الوجه المذكور ، وروي هكذا : « الا رب يوم من البيض صالح » وروي هكذا ايضاً : « الا رب يوم صالح لك منهما » وعلى الرواية الأولى فيه كف التفعيلة الثانية ؛ وهو على الروايتين الأخريين سالم من زحاف الكف . (ج)

ويقول له في (ص ٩٠)[١] كيف تنشد :

جَالَتْ لِتَصْرَعَني فَقُلْتُ لَهَا اقْصِرِي[٢] . . . .

أتقول : « حرامُ » فتقوي أم تقول : « حرامِ » فتخرجه مخرج « حذام وقطام » وقد كان بعض علماء الدولة الثانية يحملك لا يجوز الإقواء عليك ؟ .

فيقول امرؤ القيس : لا نكرة عنـــدنا في الإقواء ، أما سمعت البيت في هذه القصيدة :

فَكَأَنَّ بَدْراً واصِلٌ بِكُتَيْفَةٍ وَكأنَّمَا من عاقِلٍ إِرْمَامُ

فيقول : لقد صدقت يا أبا هند ، لأن « إرماما » ها هنا ليس واقعاً موقع الصفة فيحمل على المجاورة ، لأنه محمول على كأنما ... » .

وقال في (ص ٢٨) لعدي بن زيد ، وقد أنشده قوله في ولده علقمة :

أنعِمْ صَبَاحاً عَلْقَمَ بنَ عَدِيّ أَثْوَيتَ اليَوْمَ لَمْ تَرْحَلْ[٣]

---

(١) الغفران ط أمين هندية وانظر بنت الشاطىء ص ٢٣٢ .

(٢) في بنت الشاطىء : « ... فقلت لها قري .. » وتمام البيت : « إني امرؤ صرعي عليك حرام » وهو من ميميته التي مطلعها :

لمن الديار غشيتها بسحام فعمايتين ، فهضب ذي اقدام ؟

ديوانه ص ١٦٣ (بيروت) .

(٣) هذا البيت من قصيدة لعدي مطلعها :

تعرف امس من لميس طلل مثل الكتاب الدارس الأحول

وهو من السريع ، جاءت عروضه مخبولة مكشوفة « فَعِلن بدلاً من مفعولات » وجاء الضرب اصلم « فَعْلن بدلاً من مفعولات » والبيت مصرّع وحق المصرّع ان تجيء العروض فيه مشابهة الضرب ، ولم تجيء ها هنا كذلك .

وكذلك قوله : انعم صباحاً علقم .. جاءت عروضه مخبولة مكشوفة ، وجاء ضربه اصلم والمشهور ان عروض السريع هذه لها ضرب واحد مثلها . (ج)

وانظر الغفران تحقيق بنت الشاطىء ط ١ ص ٨٣ .

وإني لأحار يا معاشر العرب في هذه الأوزان التي نقلها عنكم الثقات وتداولتها الطبقات . ومن كلمتك التي على الراء وأولها :

قَدْ آنَ أنْ تَصْحُوَ أوْ تُقْصِرْ وَقَدْ أتَى لِمَا عَهِدْتَ عُصُرْ
عَنْ مُبْرِقَاتٍ بالبُرِينَ وتبـــــدو بالأكُفِّ اللامِعاتِ سُوُرْ
بِيضٌ عَلَيْهِنَّ الدِّمَقْسُ وبِالـ أعْنَاقِ مِنْ تَحْتِ الأكِفَّةِ دُرْ (١)

(١) وهذه الأبيات من السريع ، جاء في عروض البيت الأول الصلم (فَعْلُن بدل مفعولات) وجاء الضرب مخبولاً مكشوفاً (فَعِلُن بدل مفعولات) والبيت مصرع ، ولم تشابه عروضه ضربه . وجاءت العروض في البيت الثاني وما بعده مخبولة مكشوفة ، وجاء الضرب مماثلاً لها .

وقد ذكر العروضيون أن السريع أربع أعاريض : الأولى مطوية مكشوفة ، ولها ثلاثة أضرب ، الأول : مطوي موقوف . والثاني : مطوي مكسوف ، والثالث : اصلم . والعروض الثانية مخبولة مكشوفة ، ولها ضرب واحد مثلها كقول المرقش :

النشر مِسْكٌ والوجوه دنا نير واطراف الأكف عَنَمْ

هذا هو المختار المشهور ، وقد أثبت بعض العلماء للعروض الثانية ضربا اصلم ؛ ونقل عن الخليل والجمهور ؛ وقيل إنه هو ضربها المكسوف المخبول المنقول إلى (فعِلن) لكنه زوحف بالإضمار فصار (فَعْلن) .

وقالوا : يجوز اجتماع هذا الضرب الأصلم مع الضرب الآخر المخبول المكسوف في قصيدة واحدة ، كما وقع ذلك في قصيدة المرقش حيث يقول فيها :

الدار قفر والرسوم كما رقش في ظهر الأديم قلمْ
ديار أسماء التي تبّلت قلبي فعيني ماؤها يسجمْ

وعلى هذا يكون اعتراض أبي العلاء على عدي والمرقش وطرفة في غير محله والإيضاح هذا في كتابنا المنهل الصافي . (ع)

وقال في (ص ٩٨)[1] لطرفة : « ولقد جئت بأعجوبة في قولك :

لَوْ كانَ في أَمْلاكِنا مَلِكٌ   يَعْصِرُ فينا كالذي تَعْصِرْ

لاجْتَبْتُ صَحْنَيِ العِراقِ عَلى   حَرْفٍ أَمُونٍ دَفُّهـــا أَزْوَرْ

مُتْعِني يَوْمَ الرَّحيلِ بِهـــا   فَرْعٌ تَنَقّاهُ القِدَاحِ يَسَرْ[2]

ولكنك سلكت مسالك العرب فجئت بقري كلمة المرقش :

هَلْ بِالدِّيارِ أَنْ تُجيبَ صَمَمْ   لو كانَ حَيّاً ناطِقاً كَلَّمْ[3]

وقول الأعشى :

أَقْصِرْ فَكُلُّ طالِبٍ سَيَمَلّ[4]   . . . .

على أن مرقشاً خلط في كلامه ، فقال :

مَاذا عَلَيْنا أَنْ غَزا مَلِكٌ   مِنْ آلِ جَفْنَةَ ظالِمٌ مُرْغِمْ[5]

---

(١) من رسالة الغفران ط امين هندية وانظر بنت الشاطىء ص ٢٥٣ .

(٢) هذه الأبيات من الرجز ، جاءت العروض فيها مخبولة مكسوفة ، وجاء الضرب في البيت الأول والثاني أصلم ، وفي الثالث مخبولا مكسوفاً كالعروض . وقد ذكرنا قول العروضيين فيه . (ج)

(٣) هذا البيت مصرع ، ولكن جاءت عروضه مخبولة مشكولة ، وجاء ضربه أصلم . (ج) والبيت للمرقش الأكبر ، انظر المفضليات تحقيق ـ شاكر ، وهارون ص ٢٣٧ وفيها : « .. لو كان رسم ناطقا كلم » .

(٤) تمام البيت : « إذ لم يكن على الحبيب عول » . ديوانه ط اوربا ص ١٨٩ .

(٥) هذا البيت شطره الأول من الرجز ، عروضه مخبولة مكسوفة ، والشطر الثاني منه من الكامل في أول تفعيلة منه إضمار ، والثانية تامة ، والثالثة فيها إضمار وحذذ . وإذا جعلت الشطر الأول من الكامل فيكون في التفعيلة الأولى اضمار ، وتكون عروضه حذاء ، وحينئذ لا شاهد فيه . (ج)

ورواية البيت في المفضليات ص ٢٣٩ :

« ماذنبنا في ان غزا ملك   من آل جفنة حازم مرغم »

وهذا خروج مما ذهب إليه الخليل ».

وقال في (ص ٩٦)[1] للحرث اليشكري : « لقد [أتبعتَ الرواة في تفسير قولك :

زَعموا أنّ كلّ مَنْ ضَرَبَ العَيْـــرَ مُوالٍ لنـــا وأنّا الوَلاءُ

وما أحسبك أردت إلا العير الحمـار . ولقد] شنعت هـــذه الكلمة بالإقواء في ذلك البيت[2] ويجوز أن تكون لغتك أن تقف على آخر البيت ساكناً ، وإذا فعلت ذلك اشتبه المطلق بالمقيد ».

وقال في (ص ٩٥)[3] لعمرو بن كلثـــوم : « لوددت أنك لم تُسانِدْ في قولك :

كأنّ مُتونَهُنّ مُتونُ غُدْرٍ تُصَفِّقُها الرِّياحُ إذا جَرَيْنا[4]

وقال في (لزوم ما لا يلزم ص د ٢)[5] : « ومن الحركات المَجرَى ، وهي حركة الروي ، فإذا اختلفت فهو الإقواء ، وأكثر ما يجيء في المرفوع والمخفوض ، ويقال : إنهم اجترأوا على ذلك لأنهم يقفون على الروي بالسكون. وإنما أجازوا ذلك في المرفوع والمخفوض ، وكرهوا الفتحة أن تجيء مع الكسرة أو الضمة .

فأما الخليل وابن مسعدة فلم يذكراه . وقد جاءت أشياء في الشعر

---

(١) من الغفران ط أمين هندية وانظر بنت الشاطىء ص ٢٤٨ .

(٢) يريد قوله المتقدم :

ملكنا بذلك الناس حتى ملك المنـــذر بن ماءِ السماءِ (ع)

(٣) من الغفران ط امين هندية وانظر بنت الشاطىء ص ٢٤٤ .

(٤) قبل هذا البيت :

إذا وضعت عن الأبطال يوماً رأيت لها جلود القوم جونا

وفيه سناد الحذو ، وهو اختلاف حركة الحرف التي قبل الردف بالفتح مع الضم.(ع) انظر شرح المعلقات السبع الزوزني ص ١٣٢ (بيروت) وفيها : « كأن غضونهن متون ... » .

(٥) شرح عزيز زند ط المحروسة بمصر ، وانظر اللزوميات هـ ص ١٠ .

القديم بعضُها منصوب ، وبعضها مرفوع أو مخفوض وإنما يُحْمَل ذلك على الوقف لأنه يبعد أن يقول عربيٌّ فصيح له علم بالشعر :

أَلَـمْ تَغْتَمِضْ عَيْنَاكَ لَيْلَةَ أَرْمَدَا وَبِتَّ كَمَا بَاتَ السَّلِيمُ مُسَهَّدَا

فيجيء بالألف ، ثم يجيء ببيت مرفوع أو مخفوض ، إذ كانت الألف منافية للواو والياء .

وإذا حُكِمَ بالوقف على القافية ، فلا فرق بين الحركات الثلاث ؛ على أن تعاقب الحركتين الكسرة والضمة أكثر من معاقبة الفتحة لإحدى هاتين »اه .

وذكر في (رسالة الغفران)[١] قول أبي الهندي :

سَيُغْنِي أَبَا الهِنْدِيِّ عَنْ وَطْبِ سَالِمٍ أَبَارِيقُ لَمْ يَعْلَقْ بِهَا وَضَرُ الزُّبْدِ

مُفَدَّمَةٌ قَزًّا كَأَنَّ رِقَابَهَا رِقَابُ بَنَاتِ المَاءِ أَفْزَعَهَا الرَّعْدُ

ثم قال : « هكذا ينشد على الإقواء ، وبعضهم ينشد : « رقاب بنات الماء خافت من الرعدِ » والرواية الأولى إنشاد النحويين . وأبو الهندي إسلامي واسمه عبد المؤمن بن عبد القدوس[٢] ، وهذان اسمان شرعيان ، وما استشهد بهذا البيت إلا وقائله عند المستشهد فصيح . فإن كان أبو الهندي عمن كتب وعرف حروف المعجم ، فقد أساء في الإقواء . وإن كان بنى الأبيات على السكون فقد صح قول سعيد بن مسعدة في أن الطويل من الشعر له أربعة أضرب » .

وظاهر كلامه أنه لا يسامح شعراء الدولة الثانية بالإقواء ، ولا يعذرهم في غيره كما مر قوله في البحتري .

---

(١) الغفران ط امين هندية وانظر بنت الشاطىء ص ١٨ .

(٢) في الشعر والشعراء ص ٢٦٢ اسمه : عبد القدوس بن شبث . وفي الأغاني اسمه غالب بن عبد القدوس بن شبث ، وكذلك في فوات الوفيات وروى ابن قتيبة في الشعر والشعراء : « رقاب بنات الماء تفزع للرعد » وتوفي نحو سنة ١٨٠هـ.(ج)

وقال في (رسالته إلى النكتي البصري ص ١٠٩)[١] : « أيعْرِضُ أفانين القريض ، على ضروب الأعاريض ؛ أم يقولها بغريزة ، غير مُؤْتَشبَةِ[٢] النحيزة . فإن كان يبني البيت كما بناه أهل الجاهلية بطباع ، لا يعرف مكان توجيه ولا إشباع ؛ فكيف نافى العِيّ ، ولم يكفّ السِّباعي . وقد كفته فحول الشعراء .. » .

وقال في (ص ١١٩) : « ولست أحده على مجانبة إقواء أو إكفاء ، ولا أعد ذلك في الغريزة من الوفاء . لأن من عرف حروف المعجم ، من شعراء العرب والعجم ، وجب عليه أن يهجر ذلك » .

وفي (ص ١٢٢) انتقد أبا عبادة البحتري لقوله :

لم تُدْعَ ذَا السَّيْفَيْنِ إلا نَجْدَةً بِكَ أوْجَبَتْ لكَ أنْ تُقَلَّدَ آخَرا[٣]

في قصيدته التي يقول في مطلعها :

لله عَصْرُ سُوَيْقَةٍ ما أنْضَرا[٤]

ثم قال فيه : وقد دخل فيما هو أشنع من هذا ، أليس هو الذي يقول :

لا تُلْحِقَنَّ إلى الإساءةِ أخْتَها شرُّ الإساءةِ أنْ تُسِيءَ مُعاوِدَا[٥]

---

(١) هو أبو الحسين أحمد بن عثمان النكتي البصري ، انظر الرسائل شرح شاهين عطية ص ١٠٥ ـ ١٥٢ .

(٢) مؤتشبة : أي مختلطة ، والنحيزة : الطبيعة .

(٣) ديوانه ٢٤٣/١ ط الجوائب وفيه :

« ما قلد السيفين الا نجدة في الحرب توجب أن يقلد آخرا »

(٤) وتمام البيت : « إذ جاور البادون فيه الحضرا »

(٥) ديوانه ١٦٣/٢ .

وارْفَعْ يَدَيْكَ إلى السَّمَاحَةِ مُفْضِلاً

إنَّ العُلَى في القَوْمِ للأَعْلَى يَدَا »

ثم أورد بيتاً آخره « أبعدها مدى » وبعده بيت آخره « يكرم والدا»[1] .

ثم قال : « فظن أبو عبادة أن الألف التي في الكلمة المنفردة عن أختها ، وليست الثانية من المتصلات بالضمير ، أو المضمرات نفوسها ، يصلح أن يكون تأسيساً فتجيء مع والد وصاعد . وذلك مجمع على رفضه عند من تقدم . وغيره لا يجعلون الألف المنفصلة تأسيساً ، أليس قد قال العجاج :

قَدْ هَاجَ أحزَاناً وَشَجْواً قَدْ شَجَا

ثم قال :

فَهُنَّ يَعكِفْنَ بِهِ إذا حَجَـــا

وقال عنترة :

الشَّاتِمَيْ عِرْضي وَلَمْ أشْتِمْهُمَا والنَّاذِرَيْنِ إذا لم اَلْقَهُما دَمي[2]

والقصيدة ليست بمؤسسة . وإنما تضعف بعض الغرائز في غير المؤسس ، فتجيء بالتأسيس أو فيما بني عليه ، فتجيء بما هو خال منه » .

ثم قال في (ص ١٢٥) : « وإن كان ـ أدام الله عزه ـ يقول الشعر بقياس العروض ، فكيف تفرع هذه الأوزان التي هي سليمة قوية .. ؟ وقد شاهدنا بعض من يقول الشعر بالعروض ، ربما ركب وزن قصيدة المرقش ، وعنده

---

(١) البيتان هما :

شروى أبي الصقر الذي مدت له شيان في الحسنات أبعدها مدى

ويسرني أن ليس بكرم شيمة من معشر من ليس يكرُمُ والدا

(٢) شرح المعلقات السبع للزوزني ص ١٠٣ (بيروت) .

أن غرائز الناس اليوم لا تنفر من مثل ذلك . وأحسبه ـ جل الله به ـ قد جمع بين طبع كالبحر الخضم ، وعلم اكتسبه جم .. » .

وذكر في (رسالة الغفران ص ١٤١)[١] قول الحكمي[٢] :

تِيهُ مُغَنٍّ وَظَرْفُ زنديقِ

ثم قال : « فقد عيب عليه هـذا المعنى » ثم قال : « وقوله في صدر هذا البيت :

نَديمُ قَيْلٍ مُحدَّثُهُ مَلِكٍ[٣]

فهو نحو من قول امرىء القيس :

فاليَومَ أشْرَبْ غيرَ مُستَحْقِبٍ　　　إثْماً مِنَ اللهِ وَلا واغِلِ[٤]

وليس ينبغي أن يُحمل على قول من وقف على الماء ، كما قال :

يا بَيْذَرَهْ يا بَيْذَرَهْ يا بَيْذَرَهْ

وكما قال الآخر :

يارُبَّ أباز مِنَ العُصْمِ صَدَعْ　　　تَقَبَّضَ الظِّلُّ عَلَيْهِ فاجْتَمَعْ

لَمّا رأى ألاّ دَعَهْ وَلاَ شِبَعْ　　　مالَ إلى أرْطاةِ حِقْفٍ فاضْطَجَعْ

---

(١) طبعة أمين هندية وانظر بنت الشاطىء ص ٣٦٩ .

(٢) هو أبو نواس الحسن بن هانىء .

(٣) صدر البيت هذا وعجزه الذي سبقه هما بيت من قصيدة في مدح العباس بن الفضل مطلعها :

كنت من الحب في ذرا نيق　　　أرود منها مراد موموق

انظر ديوان أبي نواس ص ٨٩ .

(٤) البيت من لاميته التي مطلعها :

يا دار ماوية بالحائل　　　فالسهب فالخبتين من عاقل

ديوانه ص ١٤٨ (بيروت) .

لأن هذا أحسنُ فيه إظهار الهاء ، إذ كان الكلام تاماً يحسن عليه السكوت ، وقوله : « محدثهُ مَلكٍ » مضاف ومضاف إليه فلا يحسن فيه مثل ذلك إذ كان الاسمان كاسم واحد » .

وقال فيها (ص ١٥٠)[1] في الكلام على الحلاج : « وأما الأبيات التي على الياء :

يَاسِرَّ سِرِّ يَـدِقُّ حَتّى ... يَجِلَّ عَنْ وَصْفِ كُلِّ حَيّ

وَظَاهِراً بَاطِناً تَبَـدّى ... مِنْ كُلِّ شَيْءٍ لِكُلِّ شَيّ

يَا جُمْلَةَ الكُلِّ لَسْتَ غَيْرِي ... فَمَا اعْتِـذَارِي إِذاً إِلَيّ

فلا بأس بنظمها في القوة ، ولكن قوله : « إليّ » عاهة في الأبيات ؛ إن قُيِّد فالتقييد لمثل هذا الوزن لا يجوز عند بعض الناس ، وإن كسر الياء من « إليّ » فذلك رديء قبيح . وأصحاب العربية يجمعون على كراهة قراءة حمزة (وما أنتُمْ بِمُصْرِخيِّ)[2] بكسر الياء . . .

وقال في (الغفران ص ١٦٤)[3] : « والبيتان اللذان رواهما الناجم عن ابن الرومي مُقَيَّدان ، وما علمت أنه جاء عن الفصحاء هذا الوزن مقيّداً ، إلا في بيت واحد يتداوله رواة اللغة والبيت :

كَأَنَّ القَوْمَ عُشّوا لَحْمَ ضَأْنٍ ... فَهُمْ نَعِجُونَ قَدْ مَالَتْ طُلاَهُمْ »[4]

---

(١) الغفران ، تحقيق بنت الشاطيء ص ٣٩٣ .

(٢) سورة ابراهيم الآية (٢٢) .

(٣) وانظر الغفران تحقيق بنت الشاطيء ص ٤٢٧ .

(٤) البيت لذي الرمة انظر ديوانه ص ٦٧٢ ط كامبريج

ونعج الرجل : كفرح ثقل من أكل لحم الضأن ؛ والطُلى : كالهدى الأعناق مفردها طُلية وطُلاة .

وهذا البيت مؤسس ، والذي قال ابن الرومي بغير تأسيس » اهـ .

فهذه نصوص متعددة نقلناها من كلام أبي العلاء . وليس فيها ما يدل دلالة صريحة على أن للشعراء قبل العروض مقاييس معروفة ، يعولون عليها في ضبط الأوزان ، وتمييز القوافي الصحيحة من غيرها .

وأكثر كلامه يشعر بأن ذلك مما يدرك بالغريزة . ولقد وقف موقف الحيرة في بعض الأوزان التي نقلتها الثقات ؛ وهي مخالفة للمشهور بين الشعراء ، واستبعد أن يرتكب بعض أولئك الشعراء ما يُخل بفصاحة الكلام ، ويدركه بالبداهة من هو أدنى منهم منزلة في البلاغة ، وأضعف غريزة في نظم الشعر وفهمه .

طريقته في إثبات الشعر ونفيه ، وفي التثبت من الرواية الصحيحة وترجيح رواية على غيرها

قد يتعرض أبو العلاء في نقده الشعر إلى البحث والتحقيق في شعر نسب إلى غير قائله ، فيثبته أو ينفيه ، كما يتعرض أحياناً إلى ترجيح رواية على غيرها ، وقد يأتي بدليل يؤيد به ما يريده ؛ وقد يناقش الدليل ، وأحياناً يقتصر على النفي أو الإثبات من قبل الشاعر أو غيره ، وقد سلك في ذلك طرقاً مختلفة منها :

١ ــ أن يجعل الشاعر هو السائل عن الرواية ، وهو المرجح لرواية على غيرها وأحياناً يكون غير السائل والمسؤول مثبتاً للشعر أو نافيا . مثال ذلك قول النابغة الذبياني في (ص ٣٥ من رسالة الغفران)[١] : «وكيف ينشدون :

(١) وانظر الغفران تحقيق بنت الشاطئ ط١ ص ٩٤ .

وإذا نَظَرْتَ رَأَيْتَ أَقْمَرَ مُشْرِقا[1]

وما بعده ؟ فيقال بفتح التاء على الخطاب ، فيقول : قد يسوغ هذا ، ولكن الأجود أن تجعلوه إخباراً عن المتكلم ، ثم يوضح ذلك ؛ ثم تستدعى الرواة ، ويقال لهم : كيف تروون قول النابغة هذا ؟ فيقولون : بفتح التاء . فيقول : هذا شيخنا أبو أمامة يختار الضم . فيقولون : هو كما جاء في الكتاب الكريم ﴿ والأَمْرُ إليكِ فانْظُري ماذا تأمُرِين[2] ﴾ .

[فيقول ابن القارح] : مضى الكلام في هذا يا أبا أمامة ، فأنشدنا كلمتك التي أولها :

أَلِمّا على المَمْطُورَةِ المُتَأَبِّدَه أَقامَتْ بِها في المَرْبَعِ المُتَجَرِّدَه

ويذكر أربعة أبيات منها[3] . فيقول أبو أمامة : ما أذكر أني سلكت هذا القريّ قط . فيقول الشيخ : من الذي تطوع فنسبها إليك ؟ فيقول : إنها لم تنسب على سبيل التطوع ، ولكن على معنى الغلط [والتوهم] .

ثم ذكر النابغة الجعدي أنها لرجل من بني ثعلبة ، أنشده إياها لنفسه .

---

(١) صدر بيت من داليته في المتجردة التي مطلعها :

أمن آل مية رائح أو مغتدي عجلان ذا زاد وغير مزود

انظر ما سبق ص ٨٤٩ .

(٢) سورة النمل الآية (٣٣) .

(٣) الأبيات الثلاثة الأخرى هي :

مضمخة بالمسك مخضوبة الشوى بدرّ وياقوت لها متقلده

كأن ثناياها وما ذقت طعمها مجاجة نحل في كميت مبرده

ليفرر بها النعمان عيناً فإنها له نعمة في كل يوم مجدده

٢ً — وقد يكون السائل غير الشاعر ؛ ويكتفي بإنكار الشعر المنسوب إليه . وذلك مثل قول الشيخ للنابغة الجعدي : ياأبا ليلى أنشدنا كلمتك التي على الشين . وينشد تسعة أبيات منها [١] . فيقول النابغة : ماجعلت الشين قط رويّا . وفي هذا الشعر ألفاظ لم أسمع بها قط . وذكر ثلاثة منها [٢] . فقال له : شغلك ... وتَنَمْنُمُك لحوم الطير ... فنسيت ماكنت عرفت . ثم فسر له تلك الألفاظ [٣] .

وقريب من هذا قوله لأعشى قيس : يا أبا بصير أنشدنا قولك :

أمِنْ قَتْلَةَ بالأَنْقَا ء دَارٌ غَيْرُ مَحْلُولَهْ

---

(١) الأبيات : ولقد أغدو بمَرب أنف قبل أن يظهر في الأرض ربشْ
معنا زقّ إلى سمّهة تسق الآكال من رطب وهشْ
فنزلنا بمليع مقفر مسّه طلٌ من الدجن ورشْ
ولدينا قينة مسمعة ضخمة الأرداف من غير نفشْ
وإذا نحن بإجل نافر ونعام خيطه مثل الحبشْ
فحملنا ما هنا ينصفنا فوق يعبوب من الخيل أجشْ
ثم قلنا : دونك الصيد به تدرك المحبوب منا وتعشْ
فأتانا بشبوب ناشط وظليم معه ام خششْ
فاشتوينا من غريض طيب غير ممنون وأبنا بغبشْ

(٢) وهي : « ربش ، وسمّهة ، وخشش » .

(٣) الغفران ط أمين هندية ص ٣٤ . (ج) . وانظر بنت الشاطىء ص ٩٧ — ٩٨ .

وقد أورد منها ثمانية أبيات[1] ؛ فقال له الأعشى : ماهذه مما صدر عني ، وإنك منذ اليوم لمولع بالمنحولات . ويقرب من هذا ماذكره في (الغفران ص ٦٨) أن الشيخ سمع الجواري يرقصن على أبيات أربعة أولها :

إِنَّ الخَلِيطَ تَصَدَّعْ   فَطِرْ بِدائِكَ أَوْ قَعْ[2]

فيقول للخليل : لمن هذه الأبيات ؟ فيقول الخليل : لا أعلم . فيقول : إنا كنا في الدار العاجلة نروي هـذه الأبيات لك . فيقول الخليل : لاأذكر شيئاً من ذلك .

٣ - وقد يحمل السائل غير الشاعر ؛ والمثبت للشعر غيرهما . ومن هذا ماذكره في (الغفران ص ٦٨) أن قينة غنت جماعة بأبيات

---

(١) وهي : أمن قلـة بالأنعا   ء دار غـير محلوله
كأن لم تصحب الحي   بهـا بيضاء عطبوله
أناة ينزل القـوسـيّ منهـا منظر هوله
وما صهباء من عانـة في الشارق محموله
تولى كرمها أصـب يسقيه ويغدو له
ثوت في الخرس أعواماً   وجاءت وهي مقتوله
بماء المزنة الغرا   ء راحت وهي مشموله
بأشهى منك للظمآ   ن لو أنك مبذوله
الغفران تحقيق بنت الشاطئ ط ١ ص ١٠١ .

(٢) تمامها : لولا جوارٍ حسانٌ   مثل الجآذر أربعْ
أم الرباب وأسما   ءُ والبغوم وبوزعْ
لقلت للظاعن الظعن   إذا بدا لك أو دعْ
الغفران تحقيق بنت الشاطئ ص ١٨٣ .

لجران العود ؟ فلما عجبوا من إحسانها قالت : أتدرون من أنا ؟ فيقولون : لا والله المحمود ! فتقول : أنا أم عمرو التي يقول فيها القائل :

تَصُدُّ الكَأْسَ عَنَّا أُمَّ عَمْرٍو ... وَكَانَ الكَأْسُ مَجْرَاها اليَمِينَا
وَمَا شَرُّ الثَّلاثَةِ أُمَّ عَمْرٍو ... بِصَاحِبِكِ الذي لا تَصْبَحِينَا

فيقولون : لمن هذا الشعر ، ألعمرو بن عدي اللخمي ، أم لعمرو بن كلثوم ؟ فتقول: أنا شهدت ندمانَي جذيمة ، مالِكاً وعَقيلاً ، وصَبَحْتُهما الخمر المشعشعة لما وَجَدا عَمْرو بنَ عدي ، فكنت أصرف الكأس عنه ، فقال هذين البيتين ؛ فلعل عمرو بن كلثوم حسّن بها كلامَه ، واستزادهما في أبياته [1] .

٤ ـ وقد يستدل على أن الشعر لشاعر بكلمة استعملها هذا الشاعر في موضع آخر من شعره . مثال ذلك ماذكره في (الغفران ص ١٠٧) [2] أنه قال لتأبط شراً : أحق ما روي عنك من نكاح الغيلان ؟ فقال : كنا في الجاهلية نتقوّل ونتخرّص . فما جاءك عنا مما ينكرُه المعقول ، فإنه من الأكاذيب ؛ والزمن كله على سجية واحدة ..... فيقول له : نقلت إلينا أبيات تنسب إليك :

أنا الذي نَكَحَ الغِيلانَ في بَلَدٍ ... ما طَلَّ فيها [3] سِماكِيٌّ ولا جَادَا
في حَيثُ لا يَعْمِتُ الغَادِي عَمَايَتَهُ ... ولا الظَّليمُ بِهِ يَبْغي تِهِبَّادَا

(١) الغفران ط ه ص ٦٨ والغفران ــ بنت الشاطىء ط ١ ص ١٨٢ .
(٢) انظر الغفران تحقيق بنت الشاطىء ط ١ ص ٢٧٩ .
(٣) في الغفران تحقيق بنت الشاطىء : « فيه » وتذكير البلد أفصح وكذا جاء في التنزيل وقد يؤنث على معنى الدار .

إلى آخر الأبيات الأربعة [١] . ثم قال : فاستدللت على أنها لك لما قلت : « تهبّادا » مصدر تهبّد الظليم : إذا أكل الهبيد . فقلت : هذا مثل قوله [في القافية] :

طَيفُ ابنَةِ الحُرِّ إذ كُنّا نُواصِلُها ... ثم اجتُنِبتُ بها بَعدَ التِّفِرّاقِ [٢]

مصدَر تَفَرَّقوا تِفِرّاقاً ؛ وهذا مطرد في تَفَعَّلَ ، وإن كان قليلا في الشعر . . فلا يجيبه تأبط شراً بطائل .

٥ — وقد يجعل الشاعر هو المسؤول ؛ فيتولى نفي الشعر عن نفسه ويقيم الأدلة على ذلك من شعره المسؤول عنه ومن غيره . ومثال هذا ماذكره في (الغفران ص ١٠٨) [٣] حيث قال : فيلقى « الشيخ » آدم (عليه السلام) في الطريق ، فيقول يا أبانا — صلى الله عليك — قد روي لنا عنك شعر منه قولك :

نَحنُ بَنُو الأرضِ وسُكّانُها ... مِنها خُلِقنا وإليها نَعودْ

والسَّعدُ لا يَبقى لأَصحابِهِ ... والنَّحسُ تَمحُوهُ لَيالي السُّعودْ

فيقول : إن هذا القول حقّ ، وما نطقه إلا بعض الحكماء ، ولكني لم أسمع به حتى الساعة . فيقول له : فلعلك يا أبانا قلته ثم نسيت . . فيقيم آدم الأدلة على أنه كان يتكلم بالسريانية بعد أن هبط إلى الأرض .

---

(١) تمامها : ولقد لهوت بطفلة عوارضها ... بكر تنازعني كأساً ومعادا

ثم انقضى عصرها عني وأعقبه ... عصر للشيب قتل في ساح بادا

(٢) رسالة الملائكة ص ٩٠ (ج) وفيها : « ... ثم اجتنبت » . وبين الفعل اجتنب المعلوم في الغفران ط أمين هندية ، والمجهول في بنت الشاطئ .

(٣) وانظر بنت الشاطىء ص ٢٨٠ — ٢٨٢ .

ثم يقول له : زعم بعض أهل السير أن هـــذا الشعر وجده يعرُب في متقدم الصحف بالسريانية ، فنقله إلى لسانه ، وهذا لايمتنع أن يكون .

٦ - وقد يحمل الشاعر هو المـؤول ، ويكتفي بنفيه الشعر عن نفسه ، ومثال ذلك ماذكره في (الغفران ص ١٠٩) [١] أن الشيخ ابن القارح يقول لآدم : وكذلك يروون لك - صلى الله عليك - لما قتل قابيلُ هابيلَ :

تَغَيَّرَتِ البِلادُ وَمَن عَلَيْهَا . . . .

البيتين [٢]

فيقول آدم ﷺ : أعززِ عليّ بكم معشر أبَيْنِيّ ! إنكم في الضلالة مُتَهَوِّكون [٣] . آليت ما نطقت هذا النظم ؛ ولا نطق في عصري . وإنما نظمه بعض الفارغين ... كذبتم على خالقكم ثم على آدم أبيكم ، ثم على حواء أمكم ؛ وكذب بعضكم على بعض ، ومآلكم في ذلك إلى الأرض .

وقد قال في (ص ٧٥) [٤] للخيتعور أحد بني الشيصبان : « أخبرني عن أشعار الجن ، فقد جمع منها المعروف بالمرزباني قطعة صالحة . فيقول ذلك الشيخ : إنما ذلك هذيان لا معتمد عليه . . . » وقد ذكر في غير هذا الموضع .

---

(١) وانظر الغفران تحقيق بنت الشاطىء ص ٢٨٣ .

(٢) هما : تغيرت البــلاد ومن عليها ـ فوجه الأرض مغبر قبيح
وأودى ربع أهليها فبانوا ـ وغودر في الثرى الوجه المليح

(٣) تهوك : تحير واضطرب .

(٤) من الغفران ط أمين هندية ، وانظر بنت الشاطىء ط ١ ص ١٩٧ - ٨ .

وعلى هذا المثال احتذى في إثبات الشعر ونفيه ، وفي قبول الرواية وردّها ، وفي ترجيح رواية على أخرى . ويمكن أن يقاس عليه ما جاء في (الغفران ص ٨٩) [١] أنه يقول لامرىء القيس : أخبرني عن التسميط المنسوب إليك ، أصحيح هو عنك ؟ وينشده الذي يرويه بعض الناس :

يا صَحْبَنَا عَرِّجوا   تَقِفْ بِكُمْ أُسُجُ

إلى آخر الأبيات [٢] فيقول : لا والله ما سمعت هذا قط ، وإنه لقريٌ لم أسلكه ، وإن الكذب لكثير ، وأحسب هذا لبعض شعراء الإسلام ، ولقد ظلمني وأساء إلي ؛ أبعد كلمتي التي أوّلها :

أَلا عِمْ صَبَاحاً أَيُّها الطَّلَلُ البَالي [٣] . . . .

---

(١) وانظر الغفران تحقيق بنت الشاطىء ص ٢٣٠ .

(٢) تمامها : مهريّة دلج   في سيرها سمجُ
طالت بها الرحل
فعرّجوا كلهم   والهم يشغلهم
والعيس تحملهم   ليست تملهم
وعاجت الرُّسُلُ
ياقوم إن الهوى   إذا أصاب الفتى
في القلب ثم ارتقى   فهدّ بعض القوى
فقد هوى الرجل

(٣) عجزه : « وهل يعمن من كان في العصر الخالي » . ديوانه ص ١٣٩ (بيروت) .

وقولي

خَلِيلَيَّ مُرَّا بِي عَلى أُمِّ جُنْدُبِ[1] . . . .

يقال لي مثل ذلك ؟ والرجز من أضعف الشعر ، وهـذا الوزن من أضعف الرجز ..

ويقول له (ص ٩٠) كيف يُنشد :

جَالَتْ لِتَصْرَعَنِي فَقُلْتُ لَهَا اقْصِرِي ... إِنِّي امْرُؤٌ صَرْعِي عَلَيْكِ حَرَامُ[2]

أتقول : حرامُ فتقوي ؟ أم حرامِ فتخرجه مخرج حذام وقطام .

ويقول له (ص ٩١) : إنا لنروي لك بيتا ما هو في كل الروايات ، وأظنه مصنوعا ، لأن فيه ما لم تجر عادتك بمثله ، وهو قولك :

وَعَمْرُو بنُ دَرْمَاءَ الهُمَامُ إِذَا غَدَا ... بِصَارِمِهِ يَمْشِي كَمِشْيَةِ قَسْوَرَا[3]

فيقول : أبعد الله الآخر ، لقد اخترص . وإن نسبة مثل هذا الي لأعدّه إحدى الوصمات ....

وكذلك ما رواه في (الغفران ص ٢١) من أبيات للأعشى ميمون ابن قيس في مدح للنبي (ﷺ) آخرها قوله :

نَبِيٌّ يَرَى مَا لاَ يَرَوْنَ وَذِكْرُهُ ... أَغَارَ لَعَمْرِي فِي البِلاَدِ وَأَنْجَدَا[4]

---

(١) عجزه : « قنقضّ لبانات الفؤاد المعذب » . ديوانه ص ٦٤ (بيروت) .

(٢) انظر ما سبق ص ٨٥٣ .

(٣) انظر ما سبق ص ٧٥٦ .

(٤) روى أبو العلاء تسعة أبيات من دالية الأعشى ابتدأها بالبيت الآتي :

الا أيهذا السائلي أين يممت ... فان لها في أهل يثرب موعدا

انظر الغفران تحقيق بنت الشاطئ ط ١ ص ٦١ ــ ٦٢ .

ثم قال : حكى الفراء وحده « أغار » في معنى غار إذا أتى الغور . وإذا صح هذا البيت للأعشى فلم يُرد بالإغارة إلا ضد الإنجاد ، وروى عنه الأصمعي روايتين[1] : إحداهما أن « أغار » في معنى عَدَا عَدْواً شديداً ... والأخرى أنه كان يقدّم ويؤخر فيقول :

. . . . لَعَمْرِي غَارَ فِي البِلَادِ وَأَنْجَدَا

فيجيء به على الزحاف . وكان سعيد بن مسعدة يقول :

. . . . غَارَ لَعَمْرِي فِي البِلَادِ وَأَنْجَدَا

فيخرمه[2] في النصف الثاني .

كذلك ما رواه في (ص ١٠٥) أنه قال للمهلهل التغلبي : أخبرني عن هذا البيت الذي يروى لك :

أَرْعَدُوا سَاعَةَ الهِيَاجِ وَأَبْرَقْـــنَا كَمَا تُوعِدُ الفُحُولُ الفُحُولَا[3]

فإن الأصمعي كان ينكره ويقول : إنه مولَّد ؛ وكان أبو زيد يستشهد به ويثبته . فيقول : طال الأبد على لبد ، لقد نسيتُ ما قلتُ في الدار الفانية ، فما الذي أنكر منه . فيقول : زعم الأصمعي أنه لا يقال : « أرعد وأبرق » في الوعيد ولا في السحاب . فيقول : إن ذلك لخطأ من القول ؛ وإن هذا البيت لم يقله إلا رجل من جذم[4] الفصاحة . إما أنا وإما سواي فخذ به وأعرض عن قول السفهاء .

---

(١) في الغفران تحقيق بنت الشاطىء : « وروي عن الأصمعي روايتان » .
(٢) الخرم في وزن الشعر : ذهاب الفاء من فعولن أو الميم من مفاعلتن .
(٣) الغفران تحقيق بنت الشاطىء ص ٢٧٣ — ٤ .
(٤) في الأصل وفي الغفران ط أمين هندية : خذم . ولكنها في بنت الشاطىء وأصول أخرى جذم . والجذم كجعفر : الأصل .

النقد الأدبي

يتبين للمتأمل أن معظم الأمثلة التي أوردناها مما انتقده أبو العلاء في رسائله وكتبه ، يرجع نقدها إلى مخالفة بعضها لأبنية الألفاظ وأوزانها المشهورة ، وأقيستها المعروفة ؛ أو مخالفة بعضها المشهور أو الراجح من قواعد الإعراب ؛ أو شذوذ بعضها عما اصطلح عليه العروضيون في أوزان الشعر وقوافيه . وهذا كله يرجع إلى أن النقد بسبب المخالفة لقواعد العلوم المعروفة .

وهناك أبيات انتقدها أو غيّرها مع أنها سالمة من المخالفة والشذوذ السابق ذكرهما . ولكن بعضها مخالف لما يقتضيه المقام ، أو غير ملائم لما يقتضيه الذوق السليم والغريزة الصحيحة المجردة عن التأثر بما يكتنفها من العوامل الخارجية .

وقد رأينا أن نسمي القسم الأول : النقد العلمي ، لابتنائه على قواعد علمية . والقسم الثاني : النقد الأدبي ، لابتنائه على سلامة الذوق والغريزة ، ومراعاة ما يقتضيه المقام .

وقد ذكرنا القسم الأول أمثلة كثيرة ، وبينا سبب النقد في معظمها ، وذكرنا طرفاً من أمثلة القسم الثاني ، ولكنا لم نُفرده ببيان خاص ؛ ولم نشر اليه بعنوان مستقل ، وسنشير الآن إلى أمثلة منه مما تقدم ذكره أو مما لم يذكر .

فمنه ما ذكره في (رسالة الغفران ص ٣٢) [١] على لسان ابن القارح

---

(١) وانظر الغفران تحقيق بنت الشاطئ، ط ١ ، ص ٩٢ – ٩٦ .

حيث قال للنابغة : يا أبا أمامة ! إنك لحصيف الرأي لبيب ، فكيف حسّن لك لبُّك أن تقول للنعمان بن المنذر :

زَعَمَ الهُمَامِ بِأَنَّ فَاهَا بَارِدٌ   عَذْبٌ إِذَا مَاذُقْتَهُ قُلْتَ ازْدَدِ
زَعَمَ الهُمَامُ وَلَمْ أَذُقْهُ بِأَنَّهُ   يُشْفَى بِبَرْدِ لِثَاتِهَا العَطِشُ الصَّدِي

ثم استمر بك القول حتى أنكره عليك خاصة وعامة ؟ . فيقول النابغة بذكاء وفهم : لقد ظلمني من عاب عليّ ؛ ولو أنصف لعلم أنني احترزت أشد احتراز ، وذلك أن النعمان كان مستهتراً بتلك المرأة ، فأمرني أن أذكرها في شعري ، فأدرت ذلك في خلدي ؛ فقلت : إن وصفتُها وصفاً مطلقاً ، جاز أن يكون بغيرها معلّقا ، وخشيت أن أذكر اسمها في النظم ، فلا يكون ذلك موافقاً للملك ، لأن الملوك يأنفون من تسمية نسائهم ؛ فرأيت أن أسند الصفة اليه ، فأقول : « زعم الهمام » إذ كنت لو تركت ذكره لظن السامع أن صفتي على المشاهدة . والأبيات التي جاءت بعدُ داخلة في وصف الهمام ، فمن تأمل المعنى وجده غير مختل . وكيف ينشدون :

وَإِذَا نَظَرْتَ رَأَيْتَ أَقْمَرَ مُشْرِقاً   . . . .

وما بعده ؟ . فيقول : ينشد « وإذا نظرتَ » « وإذا لمستَ » « وإذا طعنتَ » « وإذا نزعتَ » على الخطاب . فيقول النابغة : قد يسوغ هذا ، ولكن الأجود أن تجعلوه إخباراً عن المتكلم ، لأن قولي : « زعم الهمام » يؤدي معنى قولنا : « قال الهمام » فهذا أسلم ، إذ كان الملك إنما يحكي عن نفسه . وإذا جعلتموه على الخطاب قبُح ان تنسبوه إليّ ، فهو مُنْدِيَة ، وإن نسبتموه الى النعمان ، فهو إزراء وتنقّص .

ثم يتمنى حضور الرواة الذين صحّفوا على النابغة شعرَه ، فيحضرون . فيقول لهم : كيف ترُوُون أيها المرحومون قول النـــابغة في الدالية : « وإذا نظرت . وإذا لمست . وإذا طعنت . وإذا نزعت » أبفتح التاء أم بضمها ؟ فيقولون : بفتحها . فيقول : هذا شيخنا أبو أمامة . يختار الضم ، ويخبر أنه حكاه عن النعمان . فيقولون : هو كما جاء في الكتاب الكريم : ﴿ والأَمْرُ إليْكِ فانْظُرِي مَاذا تأمُرِينَ ﴾ [1] إلى آخر ما تقدم .

فقد انتقد البيتين الأولين ، من جهة إسناد الزعم إلى الهمام ، وليس فيها شيء من إخلال بوزن ، أو مخالفة لقياس أو قاعدة . وقد أجاب على لسان النابغة ، وبيّن الأسباب التي حملته على اسناد الزعم إلى الهمام .

ثم نقد الأبيات الأربعة : « وإذا نظرت وإذا لمست . . . » وبيّن على لسان النابغة جواز الفتح والضم في « نظرت ولمست » وأخواتها . وبَيّن أن الرواة صحّفوا عليه . وليس في الأبيات الأربعة شيء يخالف لقواعد الصرف والنحو ، ولا شذوذ عن مذاهب العروضيين .

واتضح من كلامه أن الأبيات الأربعة داخلة في وصف الهمام ؛ فكأنه قال : قال الهمام : « وإذا نظرت . . . » وأن أبا العــلاء يرجح الضم للأسباب التي ذكرها . وفي ذلك نظر من وجوه منها :

١ً – أن بين قول النابغة : « زعم الهمام . . » وبين قوله : « وإذا نظرت » خمسة أبيات أولها :

أَخذَ العَذَارَى عِقْدَهَا [2] . . . .

والثاني :

لَوْ أنها عَرَضَتْ لِأشْمَطَ رَاهِبٍ [3] . . . .

---

(١) سورة النمل الآية ٣٣ .
(٢) تمامه : « ... فنظمنه من لؤلؤ متتابع متسرد » .
(٣) تمامه : « . . عبد الإله صرورة متعبد » .

والثالث :

كَرَنَا لِرُؤْيَتِهَا وَحُسْنِ حَدِيثِهَا[1] . . . .

والرابع :

بِتَكَلُّمٍ لَوْ تَسْتَطِيعُ حِوَارَهُ[2] . . . .

والخامس :

وَبِفَاحِمٍ رَجِلٍ أَثِيثٍ نَبْتُهُ[3] . . . .

ثم يأتي قوله : « وإذا لمست » و « وإذا نظرت » وإذا جعلنا قوله : « وإذا نظرت » . داخلاً في قوله : « زعم الهمام » صعب تعيين المحل الذي يعطف عليه قوله : « وإذا لمست » ووجب أن تكون الأبيات الخمسة داخلة في قوله : « زعم الهمام » حتى لا يلزم الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه بجمل أجنبية مختلفة المبنى والمعنى . وليس من السهل تأويل الأبيات الخمسة وإدخالها في قوله : « زعم الهمام » .

٢ — أن البلغاء أحياناً يستعملون الجملة الفعلية الماضوية التي تتصل بها تاء الخطاب ويريدون بها المخاطب وحده ، وأحياناً يريدون بها كل من يتأتى منه الفعل المتصل بالتاء . وكذلك الفعل المضارع المبدوء بالتاء ؛ ففي مثل هذه الأبيات يجوز أن لا يكون المقصود بالخطاب الهمام ، بل كل من تأتّى منه النظر ، واللمس ، والطعن ، والنزع . وقد قال جماعة من المفسرين : إن الخطاب في قوله تعالى ﴿ وإذَا رَأيْتَ ثَمَّ رَأيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً[4] ﴾ لكل مخاطب ، وكذلك في قوله ﴿ أرأيتَ إنْ كَانَ عَلَى الهُدَى ..[5] ﴾

---

(١) تمامه : « ولخاله رشداً وإن لم يرشد » .

(٢) » : « لدنت له أروى الهضاب الصخد » .

(٣) » : « كالكرم مال على الدعام المسند »

(٤) سورة الدهر الآية ٢٠ .

(٥) سورة العلق الآية ١١ .

وكذلك قالوا في قوله تعالى : ﴿ ولو تَرى إذِ المُجْرِمُونَ ناكِسُو رُؤُوسِهِمْ عِنْدَ ربهم [١] ﴾ فإن الخطاب لكل أحد ممن يصلح له كائناً من كان . لأن المراد بيان حالهم وبلوغها من الفظاعة إلى درجة لا يختص باستفظاعها راء دون راء آخر .

وهنا يريد أن المرئي بلغ في حسنه درجة لا يختص باستحسانها ناظر دون ناظر آخر ؛ بل كل من يكون له نظر يدرك ذلك كما يدركه غيره . وقد حذف مفعول « نظر » لأن القصد كل من تكون فيه حاسة النظر يدرك جمال المنظور وإشراقه ؛ وعلى هذا يحمل مثل قول بشار :

إذَا كُنْتَ في كُلِّ الأمُورِ مُعَاتِباً [٢]. . . . .

وقول المتنبي :

إذَا أنتَ أكْرَمْتَ الكَرِيمَ مَلَكْتَهُ [٣] . . . .

وقول المعري :

إذَا كُنْتَ تَبْغِي العِزَّ فَابْغِ تَوَسُّطَا . . . .

وقول النابغة :

وَلَسْتَ بِمُسْتَبْقٍ أخاً لاَ تَلُمُّهُ [٤]. . . . .

---

(١) سورة السجدة الآية ١٢ .

(٢) تمامه : « صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه » ديوانه ج ١ ص ٣٠٩ .

(٣) تمامه : « وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا » . العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب ج ١ ص ٣٨٧ .

(٤) تمامه : « على شعث أي الرجال المهذب » . مختار الشعر الجاهلي ١٧٦/١ .

إذ ليس المراد حصر الحكم في المخاطب فقط ، بل ذلك كناية عن بلوغ الأمر درجة عظيمة من الاستحسان أو الاستفظاع ، يتعجب منها كل من يتأتّى منه ذلك الفعل ، سواء أكان نظراً أم لمساً أم غيرهما .

وإذا قرأنا « نظرت » وأخواتها بالرفع ، لا تتأتى هذه الكناية ، وربما يتبين عند التأمل أن إسناد « المهام » النظر واللمس والطعن والنزع إلى نفسه لا يخلو من قبح ، لأن الملوك إذا كانوا يأنفون من تسمية نسائهم ، كما قال ، أفلا يأنفون من ذكر ما هو أفظع شيء في نسائهم ؟ فتأمل بإمعان .

ومن القسم الثاني ما ذكره في (ص ٤٧ من الغفران) [1] أن حسان ابن ثابت[2] يمر بجماعة ، فيقولون : أهلاً يا أبا عبد الرحمن ، ألا تحدّثُ معنا ساعة ! فإذا جلس إليهم قالوا : أين هــذه الشروبة عن سبيئتك التي ذكرتها في قولك :

كَأَنَّ سَبِيئَةً مِنْ بَيْتِ رَأْسٍ   يَكُونُ مِزَاجَهَا عَسَلٌ وَمَاءُ

ويذكرون بعده ثلاثة أبيات[3] . ثم يقولون له : ويحك ! ما استحييت أن تذكر مثل هذا في مدحتك رسولَ الله ﷺ ؟ فيقول : إنه كان أسجح خلقاً مما تظنون ، ولم أقل إلا خيراً ، ولم أذكر أني شربت

(١) طبعة أمين هندية وانظر بنت الشاطئ ط ١ ص ١٢٨ ـ ٩ .

(٢) حسان بن ثابت بن المنذر الخزرجي ، شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم توفي في خلافة معاوية . المؤتلف والمختلف للآمدي ص ٨٩ .

(٣) وهي قوله :

على أنيابها أو طعم غضٍّ   من التفاح هصّره اجتناء
على فيها إذا ما الليل قلّت   كواكبه ومال بها الغطاء
إذا ما الأشربات ذكرن يوماً   فهنّ لطيّب الراح الفداء

خمراً ، ولا ركبت بما حُظِر أمراً ؛ وإنما وصفت ريق امرأة ؛ يجوز أن يكون حلالاً لي ، ويمكن أن أقوله على الظن . . . .

ومنه أيضاً قوله لعمرو بن أحمر[١] في (ص ٥٠ من الغفران)[٢] :

ولقد يعجبني قولك :

وَلَقَدْ غَدَوْتُ وَمَا يُفَزِّعُنِي   خَوْفٌ أُحَاذِرُهُ وَلاَ ذُعُرُ[٣]

ثم ذكر من هذه القصيدة عشرة أبيات أخر منها قوله :

كَشَرابِ قَيْلٍ عَنْ مَطِيَّتِهِ   وَلِكُلِّ أمْرٍ وَاقِعٍ قَدَرُ[٤]

وقوله :

وَمُسِفَّةٍ دَهْمَاءَ دَاجِنَةٍ   رَكَدَتْ وَأُسْبِلَ دُونَهَا السِّتْرُ
وَجَرَادَتَانِ تُغَنِّيَانِهِمُ   وَتَلأْلأَ المَرْجَانُ والشَّذْرُ
وَمُجَلْجَلٍ دَانٍ زَبَرْجَدُهُ   حَدِبٍ كَمَا يَتَحَدَّبُ الدَّبْرُ[٥]

---

(١) هو عمرو بن أحمر الباهلي شاعر فصيح ، وكان أعور عمر نحو ٩٠ سنة ، انظر المؤتلف والمختلف ص ٣٧ .

(٢) طبعة أمين هندية وانظر بنت الشاطىء ط ١ ، ص ١٣٦ — ١٤٢ .

(٣) بعده : رؤد الشباب كأنني غصن   بحرام مكة ناعم نضر

(٤) بعده : مدّ النهار له وطال عليـه الليل واستنت به الخمر

(٥) بعد هذه الأبيات :

وثنان خشاشان بينهما   وتر أجشّ غناؤه زمر
وبجرم ساج يجرّه   لم يؤذه غرث ولا نمر
فاذا تجرر شق بازله   وإذا أساخ فانه بكر
خلوا طريق الديدبون فقد   ولى الصبا وتفاوت التجر

وقال له : فما أردت بقولك : « كشراب قيل » آلواحدَ من الأقيال ، أم قيلَ بن عتر من عــاد ؟ فيقول عمرو : إن الوجهين ليُتصوران .

فيقول الشيخ . . . : مما يدل على أن المراد « قيل بن عتر » قولك : « وجرادتان تغنيانهم » لأن الجرادتين – فيما قيل – مغنيتان غنتـا لوفد عاد عند الجرهمي بمكة ، فشغلوا عن الطواف بالبيت وسؤال الله سبحانه وتعالى فيما قصدوا له ، فهلكت عاد وهم سامدون .

ثم ذكر أنه وجد في بعض كتب الأغاني صوتاً يقال: غنته الجرادتان، وهو :

أَقْفَرَ مِنْ أَهْلِهِ المَصِيفُ   فَبَطْنُ عَرْدَةَ فَالغَرِيفُ

وذكر بيتين آخرين [1] ثم قال : وهذا شعر على قريّ :

أَقْفَرَ مِنْ أَهْلِهِ مَلْحُوبُ[2]   . . . .

ومن الذي نقل الى المغنين في عصر هارون وبعده أن هذا الشعر غنته الجرادتان ؟ ان ذلك لبعيد عن المعقول ، وما أجدره أن يكون مكذوبا . . .

ثم يسأله عن قوله : « ومسفّة دهماء » ما أراد به ؟ وكذلك عن قوله : « ومجلجل دان زبرجده » . فيقول ابن أحمر : امــا ذكر الجرادتين ، فلا يدل على أني خصصت قيل بن عتر ، وإن كان في الوفد الذي غنته الجرادتان ؛ لأن العرب صارت تسمي كل قينة جرادة ، حملا على أن قينة في الدهر الأول كانت تدعى الجرادة . قال الشاعر :

تُغَنِّينَا الجَرَادُ وَنَحْنُ شَرْبٌ   نَعُلُّ الرَّاحَ خَالَطَهَا المَشُورُ

---

(١) هما : هل تبلغني دار قومي مهرية سيرها تقليف
أم محكن نوليس هل يسلم الخائف الضعيف

(٢) صدر بيت هو مطلع معلقة عبيد بن الأبرص وعجزه :
« فالقطبيات فالذنوب » انظر ديوانه ص ٢٣ (بيروت) .

وأما « المسفة الدهماء » فانها القدر . وأما « الجلجل الداني زبرجده » فهو العود ، وزبرجده : ما حسن منه . أما تسمع القائل يسمي ما تلوّن من السحاب « زبرجاً » ومن روى « بجلجل » بكسر الجيم أراد السحاب . .

ثم يقول له الشيخ : . . تزعم أن الزبرجد من الزبرج . ثم يدور حوار بين الشيخ وبين ابن أحمر في اشتقاق الزبرج وما يترتب عليه ؛ وهو حوار بديع مفيد قلما يجد الإنسان مثله في كتاب وهو في (ص ٥٢ من الغفران) [١] فراجعه .

ومن هذا القسم إنكار الأشعار المنحولة لغير أصحابها ، والمقولة على لسان آدم والجن ونحو ذلك ، مما لم يكن نقده بسبب مخالفته لقواعد علم من العلوم .

ومنه تعريفه الشعر الذي تقدم ، وحكمه على الرجز والرجاز .

ويتبين لنا مما ذكرناه في النقد ، أن أبا العلاء أحياناً يسأل عن الشيء ثم يبين أنه حق . ومثال ذلك قوله في (الغفران ص ٦١) [٢] لراعي الإبل : أحق ما روى عنك سيبويه في قصيدتك اللامية التي تمدح بها عبد الملك بن مروان لمن أنك تنصب الجماعة في قولك :

أيامَ قَوْمِي والجمَاعَةَ كالذي   لزمِ الرحالة أنْ تَمِيلَ مَمِيلاَ؟ [٣]

فيقول : حق ذلك .

وأحياناً يأتي بالشيء فيثير فيه الشك ، ولا يبدي فيه رأيا ، ومثال

---

(١) طبعة أمين هندية .

(٢) طبعة أمين هندية وانظر بنت الشاطىء ط ١ ص ١٦٤ .

(٣) سيبويه ـ الكتاب ج ١ ص ١٥٤ ، وفيه : « أزمان قومي . . . » .

هذا قوله في (الغفران ص ٥٣)[١] : أيكم تميم بن أبيّ ؟ فيقول رجل منهم : ها أنا ذا . فيقول : أخبرني عن قولك :

يَا دَارَ سَلْمَى خَلاءً لاَ أُكَلِّفُهَا   إِلاَّ الْمَرَانَةَ حَتَّى تَسْأَمَ الدِّينَا[٢]

ما أردت بالمرانة ؟ فقد قيل : إنك أردت اسم امرأة ؛ وقيل : هي اسم أمة ؛ وقيل : العادة . فيقول تميم : والله ما دخلت من باب الفردوس ومعي كلمة من الشعر ولا الرجز .

ومثله سكوت تأبط شراً عن نسبة الأبيات التي أولها :

أنا الذي نَكَحَ الغِيلانَ[٣] . . .   .

وأحياناً يصرح بالشيء الذي يختاره ويرجحه ؛ وقد تقدم ذلك في ترجيحه ضم التاء في كلام النابغة « وإذا نظرت » ، « وإذا لمست »[٤] .

وأحياناً يزيد على التصريح والترجيح بما يدل على قوة ما اختاره وضعف ما سواه . وذلك كقوله للنابغة الجعدي : فإن أنشد منشد : « ولا مستنكرٍ » ما تصنع به ؟ فيقول : أزجره وأزبره ، نطق بأمر

(١) طبعة أمين هندية . وانظر بنت الشاطئ ط ١ ص ١٤٣ .

(٢) هو تميم بن أبي بن مقبل ، والبيت في ديوانه الذي حققه عزة حسن من قصيدة مطلعها :

طاف الخيال بنا ركبا يمانينا   ودون ليلى عواد لو تعدينا

وروايته فيه :

يا دار ليلى خلاء لا أكلفها   إلا المرانة حتى تعرف الدينا

(٣) الغفران طبعة أمين هندية ص ١٠٧ ـ ٨ والأبيات :

أنا الذي نكح الغيلان في بلد   ما طلّ فيه سماكي ولا جادا

في حيث لا يعمت الغادي عمايته   ولا الظليم به يبغي تهبّادا

وقد لهوت بمصقول عوارضها   بكر تنازعني كأساً وعنقادا

ثم انقضى عصرها عني وأعقبه   عصر المشيب فقل في صالح بادا

وانظر بنت الشاطئ ط ١ ص ٢٧٩ ـ ٨٠ .

(٤) انظر ما سبق ص ٨٧٩ .

لا يخبره [١] . وقول الراجز لأبي علي الفارمي : حركت الياء في قولي « فتأبيه » ووالله ما فعلت ولا غيري من العرب [٢] .

وأحياناً يذكر ما يفيد جواز الوجهين أو الوجوه بصورة صريحة ، كقوله لعنترة بعد أن ذكر قوله :

وَلَقَدْ شَرِبْتُ مِنَ المُدَامَةِ بَعْدَمَا ... رَكَدَ الهَوَاجِرُ بِالمَشُوفِ المُعْلَمِ

فما أردت « بالمشوف المعلم » ، آلدينارَ أم الرداء ؟ فيقول : أيَّ الوجهين أردت فهو حسن ولا ينتقض [٣] .

وأحياناً يذكره بطريق الكناية . ومثال ذلك في (الغفران ص ٥٠) حيث قال لعمرو بن أحمر : أنشدني قولك :

بَانَ الشَّبابُ وَأَخْلَفَ العَمْرُ ... وَتَغَيَّرَ الإِخوانُ وَالدَّهْـــرُ

وقد اختلف الناس في تفسير « العَمر » بالفتح ؟ فقيل : إنك أردت البقاء ، وقيل : انك أردت الواحد من عُمور الأسنان ؛ وهو اللحم الذي بينها . فيقول عمرو متمثلاً :

خُذَا وَجْهَ هَرْشَى أَوْ قَفَاهَا فَإِنَّهُ ... كِلاَ جَانِبَيْ هَرْشَى لَهُنَّ طَرِيقُ

ولم تترك في أهوالُ القيامة غُبّرا للإنشاد [٤] .

---

(١) الغفران طبعة أمين هندية ص ٣٥ و « لا مستنكر » هي في بيت النابغة :
وليس بمعروف لنا أن نردها ... صحاحاً ولا مستنكر أن نعقرا
وانظر الغفران ـ بنت الشاطئ ط ١ ص ١٠٠ .

(٢) الغفران طبعة أمين هندية ص ٥٧ و « فتأبيه » في الأرجوزة :
يا إبلي ما ذنبه فتأبيــه ... ماء رواء ونصيٌّ حوليه
وانظر ما سبق ص ٨٤٢ .

(٣) البيت أول بيتين في الغفران طبعة أمين هندية ص ٩٢ .
وثانيهما : بزجاجة صفراء ذات أسرّة ... قرنت بأزهر في الشمال مفدم
وانظر بنت الشاطئ ط ١ ص ٢٣٦ .

(٤) وانظر الغفران تحقيق بنت الشاطئ ط ١ ص ١٣٥ والغبرّ : بقية الشيء .

وأحياناً يقيم في بعض المسائل دليلاً على شيء ، ثم يذكر ما يعارضه أو يناقضه ؛ وقد يردّ المعارضة ويكثر الحوار والجدل لتمحيص الحقيقة . ونرى شيئاً من ذلك في لفظ « إنسان » واشتقاقه [1] وفي لفظي « تأتاله » « واستَنْحى » [2] وفي لفظ « زبرجد » [3] وفي لفظ « إوزّة » [4] .

وكتب إليه أبو الحسين أحمد بن عثمان النكتي البصري كتاباً بدّل فيه اسمه وقصر كنيته ، فجعله محمداً بدلا من أحمد في النظم والنثر ، وجعل كنيته أبا علي أو أبا علاء بدلاً من أبي العلاء ، أي بحذف الألف واللام من أول العلاء والهمزة من آخرها . فأساء أبو العلاء الظن بأبي الحسين وظن أنه تعمد ذلك لحاجة في نفسه إما لاستهزاء به أو تهاون بشأنه ونسيان لهيبته . فكتب اليه جواباً يقول فيه [5] :

« ودلني كتابه على أنه يحسبني قد أضعت وُدّه ... إنّي إذاً لَمِنَ الظّالمِين . عرّفني بنفسه أنه من أهل البصرة ؛ وقد صَحّ معي أنه من أهل البصيرة ... وتلك أجلّ من البصرة بلده ، وهل البصرة إلا حجارة

---

(١) انظر الغفران طبعة أمين هندية ص ١٠٨ وبنت الشاطئ ط ١ ص ٢٨١ ـ ٢ .

(٢) جاء لفظ « تأتاله » في البيت :

وصبوح صافية وجذب كرينة بموتّر تأتاله إبهامها

انظر الغفران طبعة أمين هندية ص ٣٨ ـ ٩ وبنت الشاطئ ط ١ ص ١٠٨ ـ ٩ .

(٣) هو في بيت عمرو بن أحمر :

وعلجل ذات زبرجد حدب كما يتحدب الدّبر

الغفران طبعة أمين هندية ص ٥٢ وبنت الشاطئ ص ١٤٠ ـ ٢ .

(٤) رسالة الغفران طبعة أمين هندية ص ٧١ .وبنت الشاطئ ط ١ ص ١٨٨ ،وانظر رسالة الملائكة تحقيق المؤلف ص ٨٩ .

(٥) الرسائل ـ لشاهين عطية – الصفحات ١٢٥ ـ ١٣٨ .

بيض ، يطؤها إنسان وربيض[1] ؟ وَأهْلُ البصرة ... ينسبون إلى قلة الحنين . أليس قد مرت به [هـذه] الحكاية ؟ وهي أنهُ وجد على حجر مكتوب :

مَامِنْ غَرِيبٍ وَأنْ أبْدَى تَجَلُّدَهُ إِلا سَيذْكُرُ عِنْدَ الغُرْبَةِ[2] الْوَطَنَا

وقد كُتب تحته : إلا أهل البصرة ؛ فإذا كانت تلك سجيتهم مع أهلهم وأوطـانهم ، فكيف بالذين عرفوهم من إخوانهم ؟ والدّليل على ماقلت أنه ـ أدام الله عزه ـ لم يُثبت اسمي بل[3] جعلني محمداً ، واسمي أحمد » .

ثم افاض في بيان مذاهب العلماء والشعراء في تعدد الأسماء لِلرّجُل وتغييرها ؛ واستشهد لذلك بأبيات من الشعر ثم قال :

« وأنا أتسامح له .. بهنه ، وأعدها زيناً لاشينا ، إذ كانت قذاةً في بحر مُزبد ، بل أثر سجود في وجه[4] متعبد ، وله أن يقول : [إنه] تثبت بالكنية فاستغنى بها عن الاسْم . فأما أنا فحفظت اسمه وكنيته ونسبه ، ولمْ أنسَ أيامه ولا مذاكرته ... وما عِبت على أهل البصرة قلة التفاتهم إلى الأوطان ، وإنما وصفتهم بقوة القلوب والأكباد ؛ لأن العرب تصف نفوسها بذلك ... » .

ثم مدح شعره ببراءته من الضرورات ، وعدم مخالفته الشائع من أبنية الأسماء إلا اسمه . ثم قال : « فكيف استجاز أن يقصر كنية صديقه ؛ أما السمة فغيّرها ، وأمّا الكنية فقصرها ... هذا أمر من الله ، وليس

(١) في الرسائل : « إلس وريض » . والريض لغةً : الغنم برعاتها .
(٢) في الرسائل : « الغلة ... » .
(٣) ليست (بل) في الرسائل .
(٤) في الرسائل : « جبهة » .

[هو] من ضعف الشاعر [ولا وهن القائل] لكنه من سوء حظ المخاطَب[1] ... ولو كان استعملَ ضرورة غيرَ تلك لقُبلت حجته ... ولعل سيّدي الشيخ .. ظن أني مُكتنًى بعلَىَّ التي هي من حروف[2] الخفض ... ولو كان[3] كَذلِكَ لوجب أن يقال : « أبو عَلَىَّ » ... ولعلّه ... يتأول أن الألف واللام دخلت عليها كا دخلت على العمرو ... والزيد ... وإن كان ... تأول أني مكتنّى بـ « علا » الذي هو فعل ماض ، فهو في التعرية من التعـريف بالألف واللام مِثلُ الأول ... »

ثمّ ذكر حروف المعاني إذا خرجت من أبوابها ، وحكم دخول « الـ » على الأفعال ..

فقد حمل كلام صاحبه النكتي على محامل لاوجه لها ، وبيّن له مذاهب العلماء فيما يجوز من ذلك وفيما لايجوز .

وقد ذكر في هذه الرسالة مزاعمَ العرب في شعر الجن ، وشياطين الشعراء ، وذكر ماوقع في كلام الشعراء المولدين وغيرهم من الخرم والحذف في عروض الطويل ، والعقل والنقص وغيرهـا مما أوخذ به الشعراء أو العلماء الذين أجازوا ذلك ، وهو يدس التهكم والسخرية في أضعاف كلامه.

ولم يقدّر لي الاطلاع على رسالة النكتي البصري إلى أبي العلاء ، ولكني أعتقد أن فيها شيئاً من الوخز والغمز ، لأن الذي عرفته من أسلوب المعري في أجوبته أنه يكثر التواضـع ويعظم شان مخاطبه ، وهو في جوابه هذا خالف طريقته وملأ رسالته تهكما وغمزا ، وإذا تأملت جوابه هذا ، وجدت في كل جملة لونا من التهكم ، وقد يصـاحبه شيء من الاستخفاف والتعريض بغباوة النكتي أو جهله .

---

(١) في الرسائل : « من سوء الحظ لمن خوطب » .
(٢) في الرسائل : « التي هي حرف خفض » .
(٣) في الرسائل : « ولو كنت » .

التقليد والتجديد في نثره

إذا نظرنا إلى ما في نثر أبي العلاء من الاعتراض بالجمل الدعائية في أضعاف كلامه ، والاستطراد من غرض إلى آخر ثم الرجوع إلى الأول ، وترادف الجمل المختلفة الألفاظ على معنى واحد ، وحل المسائل العلمية ، والاستقصاء في البحث ؛ ظننا أن أبا العلاء يجري على طريقة الجاحظ ، بل ربما كان أكثر منه إتياناً بالجمل الدعائية .

وإذا نظرنا إلى ما فيه من إكثار السجع في معظم رسائله ، ومن تعمُّد الصناعات البديعية ، كالجناس ، والمطابقة ، ولزوم ما لا يلزم ، والاقتباس من القرآن الكريم والأحاديث النبوية ، وتضمين الأمثال وأبيات الشعر كلها أو بعضها ، مع التصرف في شيء من لفظها أو بدونه ، والتلميح الى الحوادث التاريخية ، والإشارة الى بعض المصطلحات والمسائل العلمية ، والافتنان في أنواع المجاز والكنايات ، وبعض الصور الخيالية الرائعة ونحو ذلك ؛ خيّل الينا أنه يطبع على غرار ابن العميد في طريقته .

وإذا نظرنا إلى شدة ميله الى مزاوجة الألفاظ في الوزن ، وحرصه على أن تكون متقاربة في الجرس والنغمة ، قوية الاسلوب ؛ ومحاولته أن يكون أكثر كلامه من الحِكم ، أو ما يقرب منها من جوامع الكلم ؛ توهمنا أنه يحتذي على مثال ابن المقفع .

ولكن عند التحقيق يتبين للمتأمل أن أبا العلاء لم يتعمد ايراد شيء مما ذكرناه بقصد المتابعة لأحد ؛ وإنما كان هذا النوع من الإنشاء سبيل أهل ذلك العصر ، وأن أبا العلاء جمع ما تفرق من أساليب غيره ، وساعده

على أن يجمع بين تلك الطرق ويزيد عليها غزارة علمه وسعة لغته ومواهبه وكثرة ما كان يحفظه ؛ فهو في أسلوبه هذا تابع لحكم زمانه ومواهبه، لا يقصد به متابعة ولا تقليدا .

التجديد في نثره

في نثر أبي العلاء أشياء يجوز أن يقال : إنه أبو عذرتها وابن بجدتها .

منها النثر العلمي : فقد كان الكتاب قبله يتصدون في رسائلهم الأخوية لذكر مسألة أو مسائل قليلة من علم اللغة أو غيره ؛ وأبو العلاء قد يفعم الرسالة بمباحث متعددة من علم واحد ، أو علوم مختلفة ؛ ويلح أحياناً عليها بالتحقيق والنقد تصريحاً أو تلميحاً ؛ ويكثر من التمثيل بالقضايا العلمية ، والتلميح الى أحكامها كقوله في (رسالة الإغريض)[١] : « كهاء العدد لزمت المذكر[٢] . . . » ، « يراني . . كألف الوصل[٣] . . . » « وحال كالهمزة ، تبدل العينَ وتجعل بينَ بينَ[٤] » ، « ونوائبَ ألحقت الكبير بالصغير ، كأنها ترخيم تصغير . .[٥] » .

« . . ما دام الضرب الأول من الطويل صحيحاً . . وقبض الله يمين عدوهما . . قبض العروض من أول وزن . . »[٦] ، « وخبل كسباعي

---

(١) الرسائل ـ لشاهين عطية ص ٣٥ .

(٢) الرسائل ص ٣٦ .

(٣) الرسائل ص ٣٦ وألف الوصل تثبت في الابتداء وتسقط في درج الكلام .

(٤) الرسائل ص ٣٧ والبين هاهنا : الذات .

(٥) المصدر السابق وفيه : « .. ترخيم التصغير » .

(٦) المصدر السابق .

البسيط ، وعصّب الله الشّر بهامة شانئها وهو مجزوّ ، عصْب الوافر وهو مجزو . . » [١] « ولا عيب بسناد ولا تضمين » [٢] .

« إن حكم التأليف في ذكر الكلمة مرتين ، كالجمع في النكاح بين أختين . . . » [٣] .

وأشار في هذه الرسالة الى كثير مما اصطلح عليه القراء والصرفيون ، من مد الصوت ، وتخفيف الهمز ، وحذف ألف السلام خطاً ، وذكر الحروف المذلقة ، والمطبقة ، والشديدة ...

وكذلك في (رسالة المنيح) ذكر حكم الشريعة الإسلامية في القمار ، والاستقسام بالأزلام ، وأداء الفرض قبل دخول الوقت ، والإحرام بعد مجاوزة الميقات ، وصلاة الأميّ ، وأن الهواء يجتذب أجزاء البخار ، فيسقي مَن تحته الأمطار العذبة . وذكر منازل القمر ، ومزاعم المنجمين وبعض الفلاسفة في المشتري والزهرة . والبيت والقافية والروي والتوجيه . والمد والجزر . ونقل الكيمياء ما خالط من المزأبق .

وقد بينا ما في رسالته التي كتبها إلى أبي الحسين البصري من المسائل العلمية [٤] .

وفي رسالته الى القاضي أبي الطيب [٥] « . . . لقب الجزء السالم من الزحاف . ولساني بشكره كثير الحركة . . كأنه الكامل من الأوزان . والحمد لله ما أفتقر إلى عقد بيع . . . وصلى الله على محمد [وعترته] حتى يستغني فرض الحج عن طواف ؛ وقريض عن القواف . . . » .

---

(١) الرسائل ص ٣٨ .
(٢) الرسائل ص ٤١ .
(٣) الرسائل ص ٤٩ .
(٤) انظر ماسبق ص ٨٨٩ .
(٥) الرسائل — لشاهين عطية ص ٩٩ — ١٠٠ .

وفي رسالة أبي الحسن بن سنان [١] ذكر الفرض ، والأداء ، والأوقات ، والحج ، والميقات ، وقضاء الصوم في العيدين وكراهة الصلاة في البَرْدَيْن [٢] ، وحرمة صوم عيد الفطر ، وتضمخ المحرم بعطر . . .

إلى غير ذلك مما هو مذكور في رسائله التي لم يصل الينا منهـا إلا القليل ، وأكثر ما وصل منها ناقص .

الأسلوب الخيالي : ومنها الاسلوب القصصي الخيالي في الرسائل الأخوية ، والرسائل العلمية ؛ فإنه لا يعرَف للمتقدمين رسالة تشبه (رسالة الغفران) في أسلوبها وسعة خيالها مع ما فيها من تحقيق ومناقشة في المسائل العلمية . كما لا تُعرف لهم رسالة أو مقدمة رسالة تشبه مقدمة (رسالة الملائكة) في ذلك . وفي كتاب (القائف) كثير من الصور الخيالية .

ولعلنا لو اطلعنا على بقية رسائله لرأينا فيها أعظم وأجل من هاتين الرسالتين وهذا الكتاب .

النقد : ومنها النقد ، فإنه كان عند المتقدمين محصوراً في الغالب في كتب العلم ، أو في الرسائل المختصة بمسألة أو مسائل قليلة محدودة . ولا أعرف رسالة لأحد من المتقدمين تشتمل على مثل ما اشتملت عليه (رسالة الغفران) و (رسالة الملائكة) وجوابه إلى أبي الحسين البصري [٣] من المباحث العلمية ، والنقد في الألفاظ ، والمعاني ، والأوزان ، والقوافي ، ونسبة الأبيات والقصائد ، وما شاكل ذلك .

الخلاصة

يسوغ لنا بعد ما تقدم أن نقول : إن أبا العلاء لم يقلد ابن المقفع ،

---

(١) الرسائل شرح شاهين عطية ص ٢٣٠ .
(٢) البردان بفتح أوله كالأبردين : الغداة والعشي .
(٣) أبو الحسين أحمد بن عثمان النكتي البصري ، انظر ماسبق ص ٨٨٩ .

ولا الجاحظ ، ولا ابن العميد في نثره ، ولم يتقيد بطريقة واحدة ، وإنما اختار طريقة تخيّر لها من كل طريقة ما أحب ؛ فطريقته جامعة لمعظم ما في تلك الطرائق وقد تزيد عليها . ويسوغ لنا أن نقول : إنه مجدد في نثره في نواح متعددة ، كما ذكرنا ذلك في مواضعه .

عيوب نثره

لا يكاد يجد الباحث في نثره ما يعاب به ، إلا تكلف السجع ، واستعمال كثير من الكلمات التي يقل تداولها . على أن السجع كان مرغوبا فيه في ذلك العصر ؛ وأن كثيراً من الألفاظ التي نعدها اليوم غريبة بالنسبة إلينا لم يكن غريباً في عصره ، كما بينا ذلك . ولو قدر لنا الاطلاع على جميع نثره لرأينا فيه صنوفاً من الأدب الساحر ، والعلم الزاخر ، والبراعة الرائعة ، والخيال الخصيب .

وقد ذكر ياقوت وغيره أن رسائله القصار أربعون [1] جزءاً ، أو ثمانمائة كراسة ، وما طبع منها في بيروت يبلغ ٢٣٦ صفحة وفيها الشرح الذي يبلغ نحوا من ربعها[2] .

وكنت كتبت مقالة عنوانها (نواحي التجديد والتقليد في نثر أبي العلاء) ونشرت في الصفحة ٩٤٣ من الجزء الثامن من المجلد ٤٦ في العدد الخاص بأبي العلاء الذي نشرته مجلة الهلال المصرية في سنة ١٩٣٨ م وفيها جملة مما ذكرناه هنا .

---

(١) ذكر ذلك ياقوت في إرشاد الأريب وابن النديم في الانصاف والتحري وغيرها انظر تعريف القدماء بأبي العلاء الصفحات ١١١ ، ٥٣٤ وغيرها .

(٢) شرحها شاهين عطية وطبعت ببيروت في المطبعة الأدبية سنة ١٨٩٤ .

تقسيم نثره بحسب الزمن

من الحق أن يقسم نثر أبي العلاء إلى ثلاثة أقسام :

الأول : نثره في الطور الذي كان يدرس فيه إلى أن انتهى من التعلم وبلغ عشرين سنة وذلك إلى سنة ٣٨٣ هـ .

الثاني : نثره من سنة ٣٨٣ هـ إلى يوم رجوعه إلى المعرة من بغداد سنة ٤٠٠ هـ .

الثالث : نثره من سنة ٤٠٠ هـ إلى آخر حياته .

ولكن كثيراً من رسائله لم يعين زمن كتابته ؛ ومنها ما لم يصل إلينا تاما حتى نتمكن من معرفة زمنه . وكذلك شأن كتبه ، فإن معظمها لا نعرف إلا اسمه في كتب التاريخ والأدب ؛ وهذا يحول بيننا وبين معرفة أسلوبه النثري في كل فن وفي كل طور . وإذا تعذر إدراك ذلك كله علينا ، فإن من الممكن معرفة بعضه ، ولو على سبيل التقريب .

فنقسم نثره بحسب الزمن إلى قسمين : القسم الأول : نثره إلى حدود سنة ٤٠٠ هـ . والقسم الثاني : نثره من سنة ٤٠٠ هـ إلى نهاية عمره . ثم نبين خصائص نثره في كل طور منها .

الطور الأول

ما عرفناه من رسائله في الطور الأول قليل للأسباب التي ذكرنا .

منها رسالتاه (المنيح والإغريض) اللتان كتبهما إلى الوزير أبي القاسم المغربي ، لأنه ذكر اسم أبيه في الآخرة منها ، وقد قتل أبوه سنة ٤٠٠ هـ .

ومنها كتابه إلى خاله أبي طاهر المشرّف ابن سبيكة وهو ببغداد .

ومنها كتابه إلى القاضي أبي الطيب طاهر بن عبد الله . وقيل : إنه بدأ في كتاب (الفصول والغايات) قبل رحلته إلى بغداد ، وأتمه بعد عودته إلى المعرة .

وما عدا ذلك فيغلب على الظن أنه كله في الطور الثاني ..

الطور الثاني

ومنه ما أمكنت معرفته على التقريب كرسالته إلى أهل المعرة وإلى خاله : فإنها في سنة ٤٠٠ هـ .

ورسالة الصاهل والشاحج ، ولسان الصاهل والشاحج ، والقائف ومنار القائف : فان هذه الرسائل عملها لعزيز الدولة فاتك الرومي . وهذا ولي حلب من سنة ٤٠٧ هـ إلى أن قتل سنة ٤١٣ هـ فتكون هذه الرسائل خلال هذه المدة .

والرسالة السندية : عملها لسند الدولة ، وكان والياً على حلب سنة ٤١٤ هـ .

وتاج الحرة : إذا صح أنه عمله لزوجة صالح بن مرداس ؛ وهذا تولى حلب من سنة ٤١٤ هـ إلى سنة ٤٢٠ هـ .

وفي رسالة الغفران في (ص ٥٨) و (ص ١٤٩) [1] ما يشعر بأنه وضعها سنة ٤٢٤ هـ لأنه ذكر في الأولى « قاضي حلب في أيام شبل الدولة » [2] . وذكر في الثانية أنه « لا يجوز أن يخبر مخبر منذ مائة

---

(١) من الرسالة طبعة أمين هندية وانظر بنت الشاطئ، ط ١ ص ١٥٥ و ٣٨٧ .

(٢) قاضي حلب في أيام شبل الدولة من سنة ٤٢٠ – ٤٢٩ هو عبد المنعم بن عبد الكريم . انظر الرسالة تحقيق بنت الشاطئ، ط ١ ص ١٥٥ .

سنة أن أمير حلب .. في أربع وعشرين وأربعمائة اسمه فلان ....» .
وقـــد كانت ولاية شبل الدولة حلب من سنة ٤٢٠ هـ إلى سنة ٤٢٩ هـ .

وكتاب شرف السيف : لأنوشتكين الدزبري ، وهـــذا ولي دمشق للظاهر سنة ٤١٩ هـ ثم ملك حلب سنة ٤٢٩ هـ إلى سنة ٤٣٤ هـ وقد وضع له هذا الكتاب وهو وال على دمشق ، أي مـــا بين سنة ٤١٩ هـ وسنة ٤٢٩ هـ .

ورسالة الضبعين : كتبهـــا الى معز الدولة ثمال بن صالح الذي ولي حلب سنة ٤٣٤ هـ .

ورسالة الملائكة : وضعت نحو سنة ٤٣٥ هـ تقريبا .

وذكرى حبيب : ابتدأ قراءة الجزء الثاني منه على أبي العلاء أبو الحسن يحيى الكرداني سنة ٤٤٦ هـ .

وضوء السقط : عمله لتلميذه أبي عبد الله محمد بن محمد الأصبهاني الذي لازمه من نحو سنة ٤٤٦ هـ إلى أن مات سنة ٤٤٩ هـ .

وعون الجمل : يقال : إنه آخر كتاب أملاه ؛ ويقـــال : إن آخر كتاب أملاه هو (ضوء السقط) .

ورسائله الى داعي الدعاة بمصر : وقد كانت بعـــد سنة ٤٤٥ هـ كما سيأتي .

وقد قدمنا أن أول كتاب وضعه أو أنه بعد عودته من بغداد هو (الفصول والغايات) ثم (الأيك والغصون) ولكن لم يبيّن لنا زمن كل منها على التحقيق .

الفروق بين نثره في الطور الأول والطور الثاني

يشترك نثر أبي العلاء في الطورين في أمور كثيرة اتضحت مما قدمناه كاستعمال الكلمات اللغوية القليلة التداول، والسجع والبديع، واستخدام المسائل والاصطلاحات العلمية، والأمثال والحكم، والاستشهاد ببيت من الشعر أو بعض بيت أو أبيات، والإشارة إلى الحوادث التاريخية والرجال المعروفين في التاريخ وما شاكل ذلك. وفي كلا الطورين يتمثل للقارىء حرص أبي العلاء على تحكيم العقل وقبول ما يقبله، ورفض ما يرفضه من غير استسلام لقول العلماء أو غيرهم. فقد تبرّأ في (رسالة المنيح) من مزاعم المنجمين وبعض الفلاسفة الزاعمين أن « المشتري والزهرة ... يبلغان الحابَّ من تولياه ». وصرح فيها بأنه لا يعتقد أن « الهواء يجتذب أجزاء البخار، فيسقي مَن تحته الأمطار العذبة » كما صرح بهذا في قصيدة في السقط حيث يقول:

وَقَدْ يُجْتَدَى فَضْلُ الغَمَامِ وَإِنَّمَا
مِنَ البَحْرِ فِيمَا يَزْعُمُ النَّاسُ يَجْتَدِي [1]

وليس من غرضنا الآن أن نبين أن هذا الرأي صحيح أم باطل؛ وإنما نريد أن نثبت أن أبا العلاء نضجت حريته العقلية في الطور الأول، خلافاً لما ذكره صاحب (الذكرى)، [2] وأنه يقبل ما يقبله عقله، ويرفض ما سواه، مهما كانت منزلة القائلين به. وفي كلا الطورين يمثل نثر أبي العلاء شخصه وعواطفه. وكتابه الذي أرسله إلى أهل المعرة برهان ساطع على

---

(١) شروح سقط الزند، ق ١ ص ٣٥٥.

(٢) انظر ذكرى أبي العلاء — لطه حسين — ط ٢ ص ٢٣٦ — ٩ و ٢٨٢ — ٦.

ذلك ؛ ويحرص في كليهما على إخفاء شخصه في رسائله ، ويتضاءل أمـــام مكاتبه ، ولكن غزارة علمه وسعة أدبه تظهران ما يريد أن يخفيه .

عفة ألفاظه وسببها : وألفـاظه في كلا الطورين عفيفة بريئة من الكلمات التي يأباها الأدب وإن لم يأبها الأدباء والكتّاب في عصره . وسبب ذلــك أنه التزم في حياته كلها الجدّ والصدق ، والاعتصام بحبل المروءة والدين ؛ وبالغ في التشدد على نفسه في ترك كثير من الأمور المباحة . ومن كانت سجيته كذلك فمن الحق أن يعف لســـانه كما عفت نفسه عن الملاذ واللهو والمجانة .

مميزات الطور الثاني

ويمتاز الطور الثاني من الأول بأمور :

١ً ــ منها سعة الخيال : فليس فيما رأيناه من رســـائل المعري أوسع خيالا وأكثر افتنانا في الصور الخيالية من (رسالة الغفران) و (رسالة الملائكة) ولعل في رسائله التي تكلم فيها على ألسنة السوّر ، والخيل ، والحمائم ، والطير ، ونحوها من أنواع الحيوان ما لا يقل عن هاتين الرسالتين ؛ وهي كلها مما كتب في هذا العهد .

٢ً ــ ومنها الاستقصاء : فإن أبا العلاء في هذا الطور إذا ألمّ بمسألة لغوية أو غيرها استفرغ فيها أكثر ما يعلمه ، ولا يفارقها حتى يحيط بها من كل وجه .

٣ً ــ ومنها الاسلوب القصصي : الذي تمثله (رسالة الغفران) و (الملائكة) ورسالته الى خاله في تعزيته بأخيه ورسالة التهنئة أو (الهناء) والأمثلة التي رأيناها من كتاب (القائف) وغيرها .

٤ً ــ ومنها النقد والتهكم : فإن حظ نثره منها في الطور الثاني أكثر

منه في الطور الأول كما يظهر ذلك في (رسالة الغفران) و (الملائكة) ورسالته الى أبي الحسين النكتي البصري .

وهذا الحكم قائم على استقراء ناقص ، بناءً على ما رأيناه من آثاره التي وصلت الينا ، وهي قلٌ من كثر . ولعلنا لو اطلعنا على جميع آثاره لرأينا غير ذلك .

ما ألفه العلماء من الكتب في الاحتذاء على مثاله أو في معارضته

مشابهة الصاهل والشاحج :

ذكر في (نفح الطيب ج ٢ ص ٣٢٦) عن (مطمح الأنفس) أن للوزير أبي القاسم محمد بن عبد الغفور رسالة سماها بـ (الساجعة والغريب) حذا بها حذو أبي العلاء في (الصاهل والشاحج) صنفها للوزير الفقيه أبي أيوب بن أمية .

معارضة خطبة الفصيح :

وذكر في (ج ٢ ص ٥٨٧ [١]) أن للحافظ أبي الربيع الكلاعي صاحب (الاكتفا في مغازي الرسول والخلفا) كتاباً سماه (جهد النصيح ، وحظ المنيح ، من مساجلة أبي العلاء في خطبة الفصيح) وقد تصرف في تسميته فسماه (جهد النصيح في معارضة المعري في خطبة الفصيح) .

معارضة ملقى السبيل :

وأن له كتاباً آخر سماه (مفاوضة القلب العليل ، ومنابذة الأمل الطويل ، بطريقه المعري في ملقى السبيل) .

وللحافظ محمد بن الأبّار القضاعي معارضة أخرى سماها (مظاهرة المسعى الجميل ، ومجاوزة المرعى الوبيل ، في معارضة ملقى السبيل) وقد ضبطت فيها كلمة « ملقى » بضم الميم وفتح اللام وتشديد القاف المفتوحة .

---

(١) نفح الطيب .

ولأبي عبد الله ابن أبي الخصال وزير يوسف بن تاشفين جزء في معارضة (ملقى السبيل) بنظم بديع ، ونثر منيع ، في معنى الزهد الرفيع.

ولأبي الطاهر محمد بن يوسف التميمي السرقسطي خمسون مقامة ، بناها على (لزوم مالا يلزم) وهذا توفي سنة ٥٣٨ هـ .

ولابن غَلِنْدُه الأموي السرقسطي المتوفى سنة ٥٨١ هـ لزوميات [حاكى فيها أبا العلاء في لزومياته][1] .

اختيار شعره

ذكر ياقوت (ج ٥ ص ٤٢٣)[2] في ترجمة علي بن منجب بن سليمان الصيرفي المتوفى بعد سنة ٥٥٠ هـ أن له اختيارات كثيرة لدواوين الشعر ، كديوان ابن السراج ، وأبي العلاء المعري .

* * *

(١) ترك المؤلف في الأصل بعض الأسطر بيضاً ولعله كان يود أن يستوفي ذكر كل من احتذى على مثال أبي العلاء أو عارضه .

(٢) إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب .

أبو العلاء والشعر

أبو العلاء وابن خلدون

اتفقت كلمة العلماء بالشعر على أن أبا العلاء شاعر مجوّد ، ولم يشذ عنهم إلا ابن خلدون وشيوخه ؛ فإنه ذكر في (مقدمته)[1] شيئاً من أحكام الشعر ، وطريقة نظمه ، ومنزلته عند العرب ؛ ثم قال : « لايكفي فيه ملكة الكلام العربي على الإطلاق ، بل يحتاج بخصوصه إلى تلطف ، ومحاولة في رعاية الأساليب التي اختصته العرب بها واستعمالها » .

ثم ذكر سلوك الأسلوب عند أهل هذه الصناعة . ثم قال : « وإذا تقرر معنى الأسلوب ماهو ، فلنذكر بعده حدّاً أو رسماً للشعر ، به تفهم حقيقته على صعوبة هذا الغرض . فإنا لم نقف عليه لأحد من المتقدمين فيما رأيناه . وقول العروضيين : إنه الكلام الموزون المقفّى ليس بحدّ ولا رسم لهذا الشعر الذي نحن بصدده . . فلا بد من تعريف يعطينا حقيقته من هذه الحيثية فنقول : الشعر هو الكلام البليغ المبني على الاستعارة والأوصاف ، المفصل بأجزاء متفقة في الوزن والروي ، مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله وبعده ، الجاري على أساليب العرب المخصوصة به » اهـ .

هذا [هو] التعريف الذي ارتضاه وزعم أنه يعطيه حقيقة الشعر ، ثم بيّن أن قوله : الكلام البليغ جنس ... وقوله : المبني على الاستعارة ...

---

(١) انظر مقدمة ابن خلدون ص ٥٠٢ ط المطبعة الأزهرية .

فصل . وقوله : المفصل بأجزاء متفقة فصل . وقوله : مستقل كل جزء منها .. بيان للحقيقة . وقوله : الجاري على أساليب العرب المخصوصة .. فصل له عما لم يجر منه على أساليبهم المعروفة ، فإنه حينئذ لايكون شعراً إنما هو كلام منظوم . لأن الشعر له أساليب تخصه لاتكون للمنثور؛ وكذا أساليب المنثور لاتكون للشعر . فما كان من الكلام منظوماً وليس على تلك الأساليب فلا يكون شعرا . ثم قال : « وبهذا الاعتبار كان الكثير ممن لقيناه من شيوخنا في هذه الصناعة الأدبية يرون أن نظم المتنبي والمعري ليس هو من الشعر في شيء ، لأنهما لم يجريا على أساليب العرب..». ثم قال : « إنهم كانوا يعيبون شعر المتنبي والمعري لعدم النسج على الأساليب العربية ، فكان شعرهما كلاماً منظوماً نازلاً عن طبقة الشعر والحاكم بذلك هو الذوق . » إلى آخر كلامه .

وخلاصة مايرمي إليه في كلامه هذا ثلاثة أمور :

الأول : إن تعريف الشعر الذي عرفه به العروضيون ليس بحدٍّ ولا رسم .

الثاني : إنه ذكر تعريفاً للشعر يعطيه حقيقة الشعر .

الثالث : بناؤه على هذا أن نظم المتنبي والمعري ليس من الشعر في شيء .

وكلامه في الثلاثة غير سديد ولا صحيح .

أما الأول : فإن قول العروضيين المتقدم هو حد للشعر المطلق . لأن قولهم : « الكلام جنس قريب » وقولهم : « الموزون فصل وكذلك المقفى » ولكنه لم يكن حداً تاماً لعدم استيفائه جميع الذاتيات ، لأن بعضهم اشترط أن يكون الوزن قصداً لا اتفاقاً وأن يكون بوزن عربي . وبعضهم ألغى قيد التقفية ، لأن البيت الواحد ، والشعر المشتمل على عيب

الإكفاء أو الإجازة ، شعر باتفاق العلماء ، وبهذا الاعتبار لم يكن الحد جامعاً ولا مانعاً على قول الجمهور .

وأما الثاني : فإن قوله في تعريف الشعر : « هو الكلام البليغ » غير صحيح ، لأن معظم القصائد المعدودة من عيون الشعر كالمعلقات وأشباهها مملوء بالإقواء ، والإصراف ، والغرابة ، ومخالفة القياس ، وأمثال ذلك مما ينافي شروط البلاغة ، والعلماء في القديم والحديث مجمعون على أنها من الشعر بل من مقلدات الشعر .

وكذلك قوله : « المبني على الاستعارات والأوصاف » فإن كثيراً من الأبيات خال من إحداهما أو كلتيهما ؛ والناس مجمعون على أنها من الشعر الجيد .

ومثله قوله : « المفصل بأجزاء متفقة في الوزن . . » لأن البيت الواحد قد تأتي أجزاؤه مختلفة في الوزن بسبب مايدخل على بعضها من زحاف أو علة دون بعض آخر ؛ وكذلك أجزاء البيت الواحد مع أجزاء بيت آخر من قطعة واحدة أو قصيدة واحدة قد تكون مختلفة في الوزن . وهذا كله يسمى شعرا بإجماع العلماء .

وقوله : « . . .والروي . . . » فيه نظر ، لأن جمهوراً من العلماء يعدون البيت المفرد شعرا ولذلك لايشترطون التقفية في تعريف الشعر والبيت المفرد ليس فيه اتفاق في الروي . والجمهور أيضاً يعدّون الأبيات التي فيها اختلاف الروي شعرا ، ويعدون ذلك الاختلاف عيباً من عيوب الشعر ، ولو لم تكن شعرا لما عُد ذلك عيباً فيها كالأبيات التي يكون فيها الإكفاء والإجازة .

وقوله : « مستقل كل جزء منها . . . » غير صحيح ، لأن العلماء الذين يعتدّ بهم يجمعون على أن قول الأعشى :

مَا رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الحَزْنِ مُعْشِبَةٌ   خَضْرَاءُ جَادَ عَلَيْهَا مُسْبِلٌ هَطِلُ[1]

يُضَاحِكُ الشَّمْسَ مِنْهَا كَوْكَبٌ شَرِقٌ   مُؤَزَّرٌ بِعَمِيمِ النَّبْتِ مُكْتَهِلُ

يَوْماً بِأَطْيَبَ مِنْهَا نَشْرَ رَائِحَةٍ   وَلاَ بِأَحْسَنَ مِنْهَا إِذْ دَنَا الأُصُلُ

من الشعر الجيد ، والبيت الأول منها مرتبط بالثالث ؛ لأن فيه خبر « ما » المذكورة في أول البيت الأول . وليس في هذه الأبيات الثلاثة بيت مستقل عما بعده في غرضه ومقصده ، ولا ما بعده مستقلا عما قبله هنا ؛ بل لا يتم الغرض المقصود إلا بمجموع الأبيات الثلاثة . وكذلك قول الأعشى في هذه القصيدة :

وَبَلْدَةٍ مِثْلِ ظَهْرِ التُّرْسِ مُوحِشَةٍ   لِلْجِنِّ بِاللَّيْلِ فِي حَافَاتِهَا زَجَلُ

فإنه مرتبط بالبيتين اللذين بعده[2] ، وهما مرتبطان به ؛ لأن قوله : « وبلدة » لا يتم معناه وإعرابه إلا بالبيت الثالث . ومن هذا القبيل قول النابغة في مدح النعمان :

---

(١) الأبيات من لامية الأعشى الكبير ميمون بن قيس ومطلعها :

ودع هريرة إن الركب مرتحل   وهل تطيق وداعاً أيها الرجل

(٢) هما :

لا يتنمّى لها بالقيظ يركبها   إلا الذين لهم فيها أتوا مَهَل

جاوزتها بطليح جسرة سرح   في مرفقيها إذا استعرضتها فتل

فَمَا الفُرَاتُ إِذَا جَاشَتْ غَوَارِبُهُ تَرْمِي أَوَاذِيُّهُ العِبْرَيْنِ بِالزَّبَدِ [١]

فانه مرتبط بالبيت الثالث الذي بعده ، والثالث مرتبط به . وليس واحد من الأبيات الأربعة مستقلا عما قبله مستغنياً عما بعده . وكذلك قوله في هذه القصيدة :

وَاحْكُمْ كَحُكْمِ فَتَاةِ الحَيِّ إِذْ نَظَرَتْ

إِلَى حَمَامٍ سِرَاعٍ وَارِدِ الثَّمَدِ [٢]

فإن أبياته الخمسة [٣] مرتبط بعضها ببعض . وأمثال هذا كثير في أشعار المتقدمين والمتأخرين .

وقوله : « الجاري على أساليب العرب المخصوصة به » غير صحيح ، لأنه يقتضي أن يكون الشعر كله مطبوعاً على غرار واحد . وأن يكون

---

(١) من مطولته التي مطلعها :

يا دار مية بالعلياء فالسند أقوت وطال عليها سالف الأبد

انظر مختار الشعر الجاهلي — مصطفى السقا — ج ١ ص ١٤٩ فما بعدها ورواية الأبيات فيه:

فما الفرات إذا هب الرياح له ترمي غواربه العبرين بالزبد
يمده كل واد مترع لجب فيه ركام من الينبوت والخضد
يظل من خوفه الملاح معتصماً بالخيزرانة بعد الأين والنجد
يوماً بأجود منه سيب نافلة ولا يحول عطاء اليوم دون غد

(٢) في مختار الشعر الجاهلي :

احكم كحكم فتاة الحي اذ نظرت الى حمام شراع وارد الثمد

(٣) الأبيات الأربعة بعد البيت السابق :

يحفه جانبا نيق وتتبعه مثل الزجاجة لم تكحل من الرمد
قالت : ألا ليتما هذا الحمام لنا إلى حمامتنا ونصفه فقد
فحسبوه فألفوه كما حسبت تسعاً وتسعين لم تنقص ولم تزد
فكملت مئة فيها حمامتها وأسرعت حسبة في ذلك العدد

تقليديا في ألفاظه ، وأوزانه ، وبعض أغراضه ، وأخيلته . وهذا يسد باب الاختراع والابتكار . والواقع يشهد بأن شعراء العصر الأموي وصدر العصر العباسي لم يلتزموا أساليب الشعراء الجاهليين ؛ ولذلك كان شعرهم أحسن ديباجة ، وأحكم تأليفا ، وأكثر تثقيفا ، وأروع خيالاً من شعر من تقدمهم . ولو أنهم لم يحيدوا عن أساليب الجاهليين لجاء شعرهم نسخة عما قبله ، ولما رأينا فيه تلك الصور والأخيلة والمعاني التي لم يطل إلى مثلها عقل الجاهلي وتفكيره .

وفي تعريف ابن خلدون المتقدم وجوه أخرى يؤاخذ بها ؛ ولكننا اجتزأنا بهذا القدر خشية الإطالة . على أننا أوضحنا القول في هذا في كلمة نشرناها في الصفحة (٥) من العدد (٨) من المجلد الأول من مجلة الأوقاف الإسلامية التي صدرت في دمشق سنة ١٣٦٥ هـ وسنة ١٩٤٦ م .

ويتضح من خلاصة ما ذكرناه هنا وهناك أن تعريف الشعر الذي ارتضاه ابن خلدون غير صحيح . وإذا تبين بطلان هذا بطل ما بني عليه ، وهو الامر الثالث لأن المبني على الفاسد فاسد . على أن للمتنبي والمعري من الكلام البليغ المبني على الاستعارة والأوصاف كثيرا مما يعجز عنه المتقدمون والمتأخرون .

الشعر عند أبي العلاء

قدمنا ما قاله المتقدمون في تعريف الشعر . وقد عرفه أبو العلاء تعريفاً غاير به طريقة من قبله ؛ وذلك حيث قال في (رسالة الغفران ص ٥٥) [١] : « والشعر كلام موزون تقبله الغريزة على شرائط إن زاد أو نقص أبانه الحس » .

(١) الغفران ط أمين هندية وانظر تحقيق بنت الشاطىء ط ١ ص ١٤٨ .

وهذا التعريف على مافيه من طرافة وطلاوة لايخلو من نظر . وذلك أن أبا العلاء يشير إلى أن الغريزة وحدها تستطيع أن تدرك معرفة الأوزان ، وتميز الصحيح من الفاسد منها ، كما تستطيع أن تميز الجيد من الرديء من الشعر ، فتقبل الاول ، وتأبى الثاني .

ونحن لاننكر أن شيئاً من هذا قد تدركه الفطرة الصحيحة والذوق السليم ، إذا استطاعت أن تحافظ على الموازنة بين نبرات الالفاظ وجرسها الموسيقي ، وسلمت من مؤثرات أخر .

ولكن لايتأتى لها ان تدرك كل شيء يسمى شعراً .

وإن قوله : « تقبله الغريزة » يحتمل أن يرجع إلى الوزن فقط ، فيكون المراد أن وزنه تقبله الغريزة وتدركه . ويحتمل أن يراد به الشعر عامة ، فيشمل الوزن واللفظ والمعنى . وهو على كلا التقديرين غير سديد ؛ لأن بعض الأوزان لايمكن أن تدرك بالغريزة وحدها ، ولا تقبلها الغريزة كما يتضح ذلك في بعض البحور ، كالمضارع ، والمقتضب ، وبعض أعاريض المنسرح . حتى أن بعض العلماء بالعروض نفى أن تكون هذه من الشعر .

ولأن كثيراً من الابيات تقبلها الغريزة من حيث الوزن ، ولكن لاتقبلها من حيث اللفظ أو المعنى ، إما لغرابة أو تعقيد في اللفظ ، وإما لغموض في المعنى ؛ مع أن ذلك كله يسمى شعراً .

وقوله : « على شرائط . . . » إحالة على مجهول لاتمكن الإحاطة به إلا بعد بيانه . ومثل هذا لا يجوز أن يقع في التعريف .

والأولى أن يرجع قوله : « تقبله الغريزة » إلى الوزن فقط ، ليلتئم مع قوله : « إن زاد أو نقص أبانه الحس » . وفي كلام أبي العلاء كثير مما يؤيد هذا :

١ ـ منه أنه ذكر في (ص ٢٠٥ من رسالة الغفران)[١] أن رجلاً كان يحفظ القرآن ، ويأنس بأشيـــاء من العلم . وكان ينجم على الطريق ، وله قرعة فيها أشعار . . . يعتمد حفظها ويدرسها في بيته ، ولا غريزة له في معرفة الأوزان . فيكسر البيت ، فتقول له امرأته : ما هذا جيد ! فإذا أصبح سأل من يعرف ذلك ، فأخبره أن الصواب معها ، وعرّفه كيف يجب أن يكون . فإذا عاد في الليلة الثـــانية ، ذكره على الوجه الذي أصلح عليه ، فتقول له امرأته : هذه الساعة جيد .

٢ ـ ومنه أنه ذكر أنه كان له كريٌّ لا يعرف موزون الأبيات من غيره ، وله امرأة تُحسّ بذلك . وقد مات لها طفل يدعى رجبا فكانت تتأسف عليه ، وتنشد هذا البيت :

إذَا كُنْتَ مِنْ جرَّا حَبِيبِكَ مُوجَعاً ... فَلاَ بُدَّ يَوْماً مِنْ فِرَاقِ حَبِيبِ

فقالت يوماً :

إذَا كُنْتَ مِنْ جرَّا رُجَيْبٍ مُوجَعاً ... .

فعلت أن الوزن مختل فقالت « من جرَّا رُجَيْبَنَ » ، فحركت النون وأنكرتْ تحريكه بالطبع . فقالت :

إذَا كُنْتَ مِنْ جرَّا رُجَيْبِكَ مُوجَعاً ... .

فأضافته إلى الكاف ، فاستقام الوزن واللفظ .

٣ ـ ومنه ما ذكره في (رسالة الغفران ص ٨٧)[٢] أن ابن القارح

---

(١) وانظر الغفران تحقيق بنت الشاطئ ط ١ ص ٥٤٨

(٢) المصدر السابق ص ٢٢٥ .

قال لامرىء القيس : إن رواة البغداديين ينشدون في « قفا نبك » هذه الأبيات بزيادة الواو في أولها أعني قولك :

وَكَأَنَّ ذُرَى رَأْسِ الْمُجَيْمِرِ غُدْوَةً . . . .[1]

وَكَأَنَّ مُكَاكِيَّ الْجِوَاءِ غُدَيَّةً . . . .

وَكَأَنَّ السِّبَاعَ فِيهِ غَرْقَى عَشِيَّةً . . . .

فقال له : أبعد الله أولئك ! لقد أساءوا الرواية ؛ وإذا فعلوا ذلك فأي فرق يقع بين النظم والنثر ؟ وإنما ذلك شيء فعله من لا غريزة له في معرفة وزن القريض ، فظنه المتأخرون أصلا في المنظوم ، وهيهات هيهات ! .

وقال له في (ص ٨٨)[2] : « فأخبرني عن كلمتك النونية ، والصادية ، والضادية . . . لقد جئت فيها بأشياء ينكرها السمع كقولك :

فَإِنْ أُمْسِ مَكْرُوباً فَيَارُبَّ غَارَةٍ شَهِدْتُ عَلَى أَقَبَّ رِخْوِ اللَّبَانِ[3]

---

(١) أعجاز الأبيات على التوالي :

« من السيل والغثاء فلكة مغزل »

« صبحن سلافاً من رحيق مفلفل »

« بأرجائه القصوى أنابيش عنصل »

انظر ديوانه ط التقدم ص ٣٧ ـ ٨ و ط (بيروت) ص ٦٢ ـ ٣ .

(٢) من الغفران ط أمين هندية وانظر بنت الشاطىء ط ١ ص ٢٢٧ .

(٣) البيت من نونيته التي مطلعها :

لمن طلل أبصرته فشجاني كخط زبور في عسيب يمان

ديوانه ص ١٧٠ (بيروت) وفيه : « ولن .. » .

وقولك :

عَلَى نِقْنِقٍ هَيْقٍ لَهُ ولِعِرْسِهِ   بِمُنْقَطِعِ الوَعْسَاءِ بَيْضٌ رَصِيصُ[1]

وقولك :

فأُسقِي بِهِ أُخْتِي ضَعِيفَةَ إِذْ نَأَتْ   وَإِذْ بَعُدَ المزدارُ غَيْرَ القَرِيضِ[2]

في أشباه لذلك هل كانت غرائزكم لا تحس بهذه الزيادة[3] ؟ أم كنتم مطبوعين على إتيان مغامض الكلام ، وأنتم عالمون بما يقع فيه . كما أنه لا ريب أن زهيراً كان يعرف مكان الزحاف في قوله :

يَطْلُبُ شَأْوَ امْرَأَيْنِ قَدَّمَا حَسَباً   نَالَا الملوكَ وَبَذَّا هَذِهِ السُّوقَا[4]

فإن الغرائز تحس بهذه المواضع . . . » . اهـ

٤ً — ومنه أنه ذكر في (لزوم ما لا يلزم ج ١ ص ١١)[5] حكم

---

(١) البيت من صاديته ومطلعها :

أمن ذكر سلمى أن نأتك تنوص   فتقصر عنها خطوة وتبوص

ديوانه ص ١٢٣ (بيروت) . وفيه : « بمنعرج الوعساء » .

(٢) من ضاديته التي مطلعها :

أعني على برق أراه وميض   يضيء حبياً في شماريخ بيض

ديوانه ص ١٢٧ (بيروت) وفيه « وإذ بعد المزار غير .. » .

(٣) كذا في الأصل ، والذي في هذه الأبيات من نوع النقص لا من نوع الزيادة ؛ ولعله يريد الزيادة على الأوزان المعروفة في عهده (ج) .

(٤) البيت من قافيته التي يمدح بها هرم بن سنان وأباه وإخوته ومطلعها :

إن الخليط أجد البين فانفرقا   وعلق القلب من أسماء ما علقا

انظر ما سبق ص ٨٥٨ .

(٥) طبعة عزيز زند وانظر اللزوميات هـ ص ٣ .

ألف التأسيس إذا كانت منفصلة ، وجاء بعدها كلمة مضمرة أو فيها حرف إضمار . ثم قال : « فإذا كانت الألف في كلمة ، وبعدها كلمة ، ليست كما تقدم ذكره ، فإنها لا تحمل تأسيساً ، كما قال العجاج :

فَهُنَّ يَعْكِفْنَ بِهِ إِذَا حَجَا عَكْفَ النَّبِيطِ يَلْعَبُونَ الفَنْزَجَا

فألف « إذا » ليست ألف تأسيس ، لأن حجا ليست كلمة مضمرة ، ولا فيها حرف إضمار . فهذا رأي المتقدمين ، ولا يمتنع في حكم الغريزة أن تكون الألف تأسيساً وبعدها كلمة ليس فيها إضمار مثل شِم وطر .. » .

٥ — ومنه أنه قال في (ج ١ ص٢٩ من لزوم ما لا يلزم) [١] : « ومن تدبر ما ذكر ممن له أيسر غريزة علم أن وَزَنْتُ مع ضربتُ في القوافي أضعف من خَبتِ وصَمْتِ ، لأن هذه التاء من السِّنخ » .

٦ — ومنه أنه قال في (ج ١ ص ٣٠) [٢] : « وأصحاب هذا القول أي جَعْل تاء التأنيث وكاف الإضمار وصلاً يعتقدون في قول الراجز :

شُلَّتْ يَدَا فَارِيَةٍ فَرَتْهَا وَسَخِنَتْ عَيْنُ الَّتِي أَرَتْهَا

أن الروي التاء وهي ساكنة ، والهاء وصل ، وهي متحركة . ولو جاء على مذهبهم في هذه القوافي « خذها ومنها » لكان عيباً ، والغريزة تشهد بما زعموه . وقياس أقوال المتقدمين يوجب أن الروي الهاء . . وأن الراجز لو جاء في مثل هذه القوافي بـ « عنها ، منها » لكان ما فعله غير معيب .

---

(١) طبعة عزيز زند وانظر اللزوميات هـ ص ١٢ .

(٢) المصدر السابق وانظر اللزوميات هـ ص ١٣ .

رأي أبي العلاء في معاني الشعر ومقاصده وفنونه

زعم بعض العلماء أن الشعراء المتقدمين ماتركوا باباً من أبواب الشعر إلا ولجوه ، ولا غرضاً من أغراضه إلا وقد تناولوه وافتنوا فيه . ويلخص آراءهم في هذا الموضوع قول بعضهم : ماترك الأول للآخر شيئاً . واحتج هؤلاء ومن لفّ لفهم بمثل قول امرىء القيس :

عُوجَا عَلَى الطَّلَلِ المُحِيلِ لَعَلَّنَا نَبْكِي الدِّيَارَ كَمَا بَكَى ابنُ خِذَامِ[1]

وقول عنترة العبسي :

هَلْ غَادَرَ الشُّعَرَاءُ مِنْ مُتَرَدَّمِ أَمْ هَلْ عَرَفْتَ الدَّارَ بَعْدَ تَوَهُّمِ[2]

وقول زهير :

مَا أَرَانَا نَقُولُ إِلَّا مُعَاراً أَوْ مُعَاداً مِنْ لَفْظِنَا مَكْرُوراً

وذهب المحققون من المتقدمين والمتأخرين إلى أن الشعر بحر لاينكش، ومعين لاينضب ؛ وأن المعاني الشعْرية لاتحدّ ولا تنفد ، والصور الخيالية لاتنقطع مادتها ، ولا تنحصر أشكالها .

وأبو العلاء من أصحاب هذا الرأي . ولقد أعرب عن رأيه وأيده بأسلوب رائع حيث قال في (رسالة الغفران ص ٩٢)[3] على لسان ابن القارح لعنترة العبسي :

---

(١) من قصيدة يجيب بها سبيع بن عوف بن مالك مطلعها :
لمن الديار عفيتها بسحام فعمايتين فهضب ذي أقدام
ديوانه ص ١٦٢ (بيروت) وفيه « .. المحيل لأننا .. » .

(٢) مطلع معلقته التي كانت تسميها العرب المذهبة .
مختار الشعر الجاهلي ٣٦٩/١ .

(٣) طبعة أمين هندية وانظر بنت الشاطىء ط ١ ص ٢٣٦ ـ ٨ .

« وإني إذا ذكرت قولك :

هَلْ غَادَرَ الشُّعَرَاءُ مِنْ مُتَرَدَّمِ . . . .

لأقول إنما قيل ذلك وديوان الشعر [قليل] محفوظ . فأما الآن فقد كثرت على الصائد الضِّباب . وعرفت مكان الجهل الرُّباب . ولو سمعت ما قيل بعد مبعث النبي [ﷺ] امتبت نفسك على ماقلت ، وعلمت أن الأمر كما قال حبيب بن أوس :

فَلَوْ كَانَ يَفْنَى الشِّعْرُ أَفْنَاهُ مَا قَرَتْ

حِيَاضُكَ مِنْهُ فِي العُصُورِ الذَّوَاهِبِ(١)

وَلَكِنَّهُ صَوْبُ العُقُولِ إِذَا انْجَلَتْ سَحَائِبُ مِنْهُ أُعْقِبَتْ بِسَحَائِبِ

فيقول : وما حبيبكم هذا ؟ فيقول : شاعر ظهر في الإسلام . وينشده شيئاً من نظمه ، فيقول : أما الأصل فعربي ، وأما الفرع فنطق به غبي . وليس هذا المذهب على ماتعرف قبائل العرب . فيقول وهو ضاحك مستنشر : إنما ينكر عليه المستعار ، وقد جاءت العارية في أشعار كثيرة من المتقدمين ؛ إلا أنها لاتجتمع كاجتماعها فيما نظمه حبيب بن أوس » اه.

فكلامه هذا صريح في أن الشعراء الذين كانوا في عهد زهير ، وعنترة وامرىء القيس ، ومن تقدمهم لم يأتوا من أبواب الشعر وأغراضه وأخيلته وصوره إلا بالنزر اليسير بالنسبة لمن جاء بعدهم في عصر الإسلام والعصور التي تلته ، ونحن لاننكر أن ماجاءنا من شعر العصور التي كانت قبل الإسلام كان قلاًّ من كثر . ولكننا مهما تصورنا كثرته فإن ماجاء من الشعر في عصر الإسلام والذي بعده أضعاف ما تقدمه .

---

(١) البيتان من بائية أبي تمام التي يمدح بها أبا دلف العجلي ، ديوانه ص ٤٤ .

وقد أشار أبو العلاء إلى رأيه في مواطن من شعره كقوله :

تَذُودُ عُلاَكَ شُرَّادَ المَعَاني ... إِلَيَّ فَمَنْ زُهَيْرٌ أَوْ زِيَادُ[١]

إِذَا مَا صِدْتَها قَالَتْ رِجَالٌ ... أَلَمْ تَكُنِ الكَوَاكِبُ لا تُصَادُ

مِنَ اللاَّتِي أَمَدَّ بِهِنَّ طَبْعٌ ... وَهَذَّبَهُنَّ فِكْرٌ وانتِقَادُ

وقوله في جواب قصيدة :

أَيُّهَا الدُّرُّ إِنَّما فِضْتَ مِن بَحْـــرٍ مُخَلَّى الطَّرِيقِ لِلْجَرَيَانِ[٢]

وقد صرح به في قوله :

وَإِنِّي وَإِنْ كُنْتُ الأَخِيرَ زَمَانُهُ ... لَآتٍ بِمَا لَمْ تَسْتَطِعْهُ الأَوَائِلُ[٣]

---

(١) من قصيدة في السقط يمدح بها بعض الأمراء وكان قد شكى من علة ، مطلعها :

أفوق البدر يوضع لي مهاد ... أم الجوزاء تحت يدي وساد

شروح سقط الزند : ق ١ ص ٣٢١ ـ ٣ .

(٢) من نونيته التي أجاب بها الشريف أبا ابراهيم العلوي عن قصيدة أولها :

غير مستحسن وصال الغواني ... بعد ستين حجة وثمان

ومطلع قصيدة أبي العلاء :

عللاني فان بيض الأماني ... فنيت والظلام ليس بفان

شروح سقط الزند : ق ١ ص ٤٥٩ .

(٣) من لاميته التي يخاطب بها بعض أهل الشام ، وكان نزل عليه فأساء مسامرته ونسبه إلى التعطيل ، ومطلعها :

الا في سبيل المجد ما أنا فاعل ... عفاف وإقدام وحزم ونائل

شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٥٢٥ .

رأي أبي العلاء في الرجز والرجاز

أصل الرجز في اللغة : تتابع الحركات ، ومن ذلك قولهم : ناقة رجزاء . ومن هذا رجز الشعر ، لأنه أقصر أبيات الشعر والانتقال من بيت إلى بيت سريع ، ورجز كقتل : قال شعر الرجز ، وارتجز ارتجازاً مثله . وهي أرجوزة ، والجمع أراجيز ، وارتجزوا وتراجزوا : تعاطوا بينهم الرجز ، وهو راجز ، ورجّاز ، ورجازة .

وقد اختلف في الرجز فقيل : هو شعر ابتداء أجزائه سببان ثم وتد . وقيل : كل ما كان على ثلاثة أجزاء . وقيل : كل شعر تركب تركيب الرجز ، والرجز بحر من بحور الشعر ، قيل : سمي بذلك لتقارب أجزائه ، وقلة حروفه ؛ ومن ثم يطلق الرجز على كل شعر قلت حروفه وقصرت بيوته . وقيل : لأن أكثر ماتستعمل العرب منه المشطور الذي هو على ثلاثة أجزاء ، فشبه بالراجز من الإبل ، وهو الذي تشد إحدى يديه ، فيبقى على ثلاث قوائم . وقيل غير ذلك .

واختلف فيه أيضاً ، فقيل : إنه شعر صحيح ؛ وقيل : ليس بشعر وإنما هو أنصاف أبيات وأثلاث ...

أولية الرجز ومصدره

لم نجد دليلا قاطعاً يدل على أول من قال الشعر من العرب ، ولا على أول زمان ومكان قيل فيها ، ولا على أية صورة ابتدأ ؛ وإنما قال كل فريق مادار في خلده من غير أن يستند إلى دليل مقنع[1] .

---

(١) راجع كتابنا المنهل الصافي في العروض والقوافي (ج) .

فقد زعم صاحب (الروض الأنف) أن يمن وهو يعرب بن قحطان أول من قال القريض والرجز[١] . وزعم غيره أن الشعر كان كله رجزاً وقطعاً . وإنما قُصِّد على عهد هاشم بن عبد مناف ؛ وأول من قصّده مهلهل وامرؤ القيس الكندي ؛ وهما قبل الإسلام بنحو قرن ونصف[٢] .

وزعم آخرون أن مصدر الرجز حداء الإبل ، وأن مضر بن نزار أول من قـــاله حين سقط عن جمل وانكسرت يده ، فجعل يقول : وايداه وايداه ، وكان حسن الصوت ؛ فأصغت اليه الإبل ، وجدّت في السير ، فجعلت العرب مثالاً لقوله : « هايدا هايدا » يحدون به الإبل . وقيل غير ذلك .

وذهب فريق إلى أن العرب كانت تتكلم أولا بالكلام المرسل ، ثم تدرجت منه إلى الكلام المسجع ، ثم منه إلى الرجز ، ثم إلى القصيد ، ثم نوعت القصيد بحسب أغراضه ، حتى بلغت الأوزان التي جمعها الخليل وهي خمسة عشر وزنا ، ثم استدرك الأخفش وزنا آخر فكانت ستة عشر .

---

(١) وزعم قوم أن آدم عليه السلام روي عنه شعر ، منه قوله :

نحن بنو الأرض وسكانها　　　منها خلقنا واليها نعود ...

وانه لما قتل قابيل هابيل قال :

تغيرت البلاد ومن عليها　　　فوجه الأرض مغبر قبيح ..

ونعى ذلك على لسانه أبو العلاء في رسالة الغفران ص ١٠٨ الى ١١٠ وقال فيها : إن بعض أهل السير يزعم أن هذا الشعر ـ أي الأول ـ وجده يعرب في متقدم الصحف السريانية فنقله إلى لسانه . وهذا لايمتنع أن يكون (ج) .

(٢) زعم بعضهم أن مهلهلا سمي بذلك لأنـه أول من هلهل الشعر أي رققه . وقد نعى ذلك في رسالة الغفران ص ١٠٥ (ج) .

وهذا القول قريب من القبول ، جارٍ على سنن التكامل الطبيعي ؛ وإن لم يقم عليه دليل قاطع . وقد كان الرجز عند المتقدمين قصيراً حتى منتصف القرن الأول للهجرة ، ثم أخذ الرجاز يبارون الشعراء فأطالوا الأواجيز وافتنوا في أغراضها حتى عظم شأن الرجز والرجّاز عند الأدباء والعلماء ، وزاحموا الشعراء في انتجاع الخلفاء والكبراء ، وتم ذلك على أيدي العجاج ، وابنه رؤبة ، والأغلب العجلي ، وأبي النجم وأضرابهم .

أول من رجز الأراجيز الطوال :

ويقال : إن العجاج أول من رفع الرجز وشبهه بالقصيد ويقال : إن الأغلب العجلي أول من رجز الأراجيز الطوال .

رأي أبي العلاء في الرجز

لم أجد في كلام أبي العلاء نصاً صريحاً في تعريف الرجز ، وإنما يدل ظاهر كلامه على أنه يعد من الرجز كل ما قلّت حروفه وقصرت بيوته ، والدليل على هذا أنه قال في (رسالة الغفران ص ٨٩) [١] : إن ابن القارح يقول لامرىء القيس : أخبرني عن التسميط المنسوب إليك ، أصحيح هو عنك ؟ وينشده الذي يرويه بعض الناس :

يا صَحْبَنَا عَرِّجُوا   تَقِفْ بِكُمْ أُسُجُ[٢]

مَهْرِيَّةٌ   دُلُجُ   في سَيْرِها مَعَجُ

طَالَتْ بِها الرِّحَلُ

---

(١) ط أمين هندية وانظر تحقيق بنت الشاطىء ط ١ ص ٢٣٠ .

(٢) انظر ما سبق ص ٨٧٥ .

إلى آخر الأبيــات . فيقول : ماسمعت هــذا قط . . . أبعد كلمتي التي أولها :

ألا عِمْ صَبَاحاً أيُّها الطَّلَلُ البَالي[1] . . . .

وقولي :

خَلِيلَيَّ مُرَّا بي عَلَى أُمِّ جُنْدُبِ[2] . . . .

يقــال لي مثل ذلك ؟ والرجز من أضعف الشعر ، وهذا الوزن من أضعف الرجز ...

وقال في (ص ١٢٧)[3] : قال الراجز :

اليومَ يُبْنَى لِدُوَيْدٍ بَيْتُهُ[4] . . . .

أنواع التلبية : وكلامه في (ص ١٨٦)[5] يدل على أن تلبيات

---

(١) تمامه : « وهل يعمن من كان في العصر الخالي » . انظر ما سبق ص ٨٧٥.

(٢) تمامه : « نقض لبانات الفؤاد المعذب » . انظر ما سبق ص ٨٧٦ .

(٣) القرآن ط أمين هندية وانظر القرآن تحقيق بنت الشاطئ ص ٣٣١ ـ ٢ .

(٤) تمــامه :. . . . . . . يارب نهب صالح حويته

ومعصم مخضب ثنيته لو كان للدهر بلى أبليته

أو كان قرني واحداً كفيته

والرجز لدويد بن زيد ، جاهلي أدرك الإسلام مسناً لايعقل وارتجز وهو يحتضر . وصدر الأبيات : اليوم يبنى ... على اختلاف وزيادة في رواياتها واردة في القاموس المحيط (دود) .

(٥) القرآن ط أمين هندية وانظر تحقيق بنت الشاطئ ص ١٩٣ ـ ٥٠٥ .

العرب جاءت على ثلاثة أنواع ، الأول : مسجـوع لا وزن له ، كقولهم : « لبيك ربنا لبيك . والخير كله بيديك » . والثاني : منهوك ، وهو على نوعين ، أحدهما من الرجز ، كقولهم :

لبّيْك إنَّ الحَمْـدَ لكْ   وَالملكَ لاَ شَرِيكَ لَـكْ

والثاني من المنسرح ، وهو جنسان : أحدهما في آخره ساكنان ، كقولهم :

لبّيْكَ ربّ هَمْـدَانْ   من شَاحِطٍ وَمِنْ دَانْ

والآخر لايجتمع فيه ساكنان ، كقولهم :

لبّيْكَ عَنْ بجيلـهْ   الفَخْمـة الرجيلهْ

وربما جاءوا به على قواف مختلفة .

والثالث مشطور ، وهو جنسان : أحدهما عند الخليل من الرجز ، كما روى في تلبية تميم :

لَبّيْكَ لَوْلا أنّ بَكْراً دُونَكا   يَشْكُرُكَ الناسُ وَيَكْفُرُونَكا

والآخر : من السريع ، وهو نوعان : أحدهما يلتقي فيه ساكنان ، كما يروون في تلبية همدان :

لَبّيْكَ مَعْ كُلّ قَبِيلٍ لَبوكْ   هَمْدان أبناء الملوكِ تَدْعوكْ

والثاني : لايجتمع فيه ساكنان كقولهم :

لَبّيْكَ عَنْ سَعْدٍ وَعَنْ بَنِيهَا   وَعَنْ نِساء خَلْفَهَا تَعْنِيهَا

ثم قال : والموزون من التلبية يجب أن يكون كله من الرجز عند العرب ، ولم تأت التلبية بالقصيد ؛ ولعلهم قد لبوا به ولم تنقله الرواة » .

فظاهر كلامه أنه عدّ الأنواع المتقدمة من الرجز ، مع أن فيها ماهو من الرجز ، وماهو من المنسرح ، ومن السريع .

منزلة الرجز والرجّاز عند أبي العلاء

ينظر أبو العلاء إلى الرجز والرجاز نظر استخفاف وازدراء، ويحتقر منزلتها بالنسبة إلى الشعر والشعراء، ويتهكم بمن يرفع شأنها.

وقد أشار إلى ذلك في (رسالة الغفران) فقال في (ص ٩٠)[1]: «والرجز من أضعف الشعر» كما تقدم. وذكر (في ص ١١٥)[2] أن ابن القارح يمر بأبيات ليس لها سموق أبيات الجنة، فيسأل عنها، فيقال: هذه جنة الرجز... وفيها كل من غفر له من الرجّاز. فيقول: تبارك العزيز الوهاب! لقد صدق الحديث المروي: «إن الله يحب معالي الأمور ويكره سَفسافها[3]» وإن الرجز لمن سفساف القريض قَصّرتم أيها النفر فقُصّر بكم.

ثم يعرض له رؤبة فيقــول له: «ما كان أكلفك بقواف ليست بالمعجبة! تصنع رجزاً... من الحروف النافرة. ولم تكن صاحب مثل مذكور، ولا لفظ يستحسن. فيقول له رؤبة: أتقول لي هذا، وعني أخذ الخليل، وأبو عمرو بنُ العلاء، وقد كنتَ في الدار السالفة تفتخر باللفظة تقع إليك مما نقله أولئك عني وعن أشباهي.؟ فيقول له: لو شُبِكَ رجزك ورجز أبيك لم تخرج منه قصيدة مستحسنة، وقد كنتَ تأخذ جوائز الملوك بغير استحقاق...» ثم يأتي العجاج فيسأل المحاجزة.

---

(١) ط أمين هندية وانظر بنت الشاطىء ص ٢٣٢.

(٢) المصدر السابق ص ٢٩٧ — ٨.

(٣) هذا الحديث رواه الطبراني عن الحسين بن علي وروايته: إن الله يحب معالي الأمور وأشرافها ويكره سفسافها. قال الهيثمي: فيه خالد بن الياس ضعفه أحمد وابن معين والبخــاري والنسائي، وبقيته رجال ثقات؛ وقال العراقي: رواه البيهقي متصلاً ومنفصلاً ورجالها ثقات. (ج)

فأبو العلاء جعل الرجز أضعف الشعر ، ومن سفساف الأمور ؛ وغمر رؤبة وغيره من الرجاز بالازدراء والتهكم والسخرية ، وأشرك معهم من كان يحتج بأقوالهم ويعطيهم الصلات ويجعل لهم شأناً في الأدب واللغة ؛ وجاوز ذلك إلى أراجيزهم فجعلها من الحروف النافرة ، والألفاظ المستكرهة ، والقوافي المكلفة ؛ وهي مع خلوها من الأمثال لا تصلح للمدح ، ولا تفضل عن القطران ، بل هي كالجندل تصكّ المسامع ، ولا يحسن أصحابها الانتقال من غرض إلى آخر .

ولم يقتصر في هذا الباب على هذا القدر ، بل جعل في (لزوم ما لا يلزم) للرجز والرُّجّاز حظاً وافراً من الغمز والانتقاص ، فأشار إلى انتقاص رتبة الراجز عن الشاعر بقوله : [1]

وَمَنْ لَمْ يَنَلْ في القَوْلِ رُتْبَةَ شاعِرٍ تَقَنَّعَ في نَظْمٍ بِرُتْبَةِ رَاجِزِ

وقوله [2] :

ولَـمْ أرْقَ في دَرَجَاتِ الكَرِيمِ وَهَلْ يَبْلُغُ الشَّاعِرَ الرَّاجِزُ

وأشار إلى انحطاط رتبة الرجز عن الشعر بقوله [3] :

قَصَّرْتَ أنْ تُدْرِكَ العَلْياءَ في شَرَفٍ إنَّ القَصائِدَ لَمْ يَلْحَقْ بها الرَّجَزُ

وقال في (الفصول والغايات ج ١ ص ٣١٩) : « والرجز أخفض طبقة من الشعر ، حتى يروى عن الفرزدق أنه قال : إني لأرى طَـرَقَـةً [4] الرجز

---

(١) اللزوميات هـ ص ١٧٤ .

(٢) المصدر السابق ص ١٧٣ .

(٣) المصدر السابق ص ١٧١ .

(٤) كذا في الأصل والفصول ، ولعلها « طُرفة » بالفاء الوحدة وهي الاسم من الطريف .

ولكني أرفع نفسي عنه . وقال اللعين المنقري للعجاج :

أَبِالأَراجِيزِ يابنَ اللُّؤْمِ تُوعِدُني   وفي الأَراجِيزِ خِلْتُ[1] اللُّؤْمُ والخَوَرَ

وقال في (ص ١٣٨) في المنهوك خامس الرجز : « وإنما يجيء في شذوذ من الشعر ، ولم تسمع فيه أرجوزة طويلة من المتقدمين ... وزعم بعض الناس أنه لا يحسبُ شعرا .. وقال قوم : الرجز كله ليس بشعر » اهـ

اختصاص العرب بالشعر

وقع في كلام طائفة من العلماء المتقدمين ما يشعر بأن الشعر فضيلة العرب ، وأن هذه الفضيلة مقصورة عليهم ، ونحو هذا من العبارات الدالة على اختصاصه بالعرب .

من ذلك قول الجاحظ في كتاب (الحيوان) : « وفضيلة الشعر مقصورة على العرب ، وعلى من يتكلم بلسان العرب[2] » .

ومنه قول الثعالبي في (يتيمة الدهر)[3] : « الشعر عمدة الأدب وعلم العرب الذي اختصت به عن سائر الأمم » .

ووقع في كلام طائفة أخرى ما يدل على ان الشعر لا يختص بقوم دون آخرين .

ومن هؤلاء عبد الله بن مسلم بن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ فإنه قال في كتابه (الشعر والشعراء ص ٧) : « ولم يقصر الله الشعرَ والعلمَ والبلاغة

---

(١) عقب أبو العلاء على ذلك فقال : « خلت ها هنا ملغاة ، ويجوز إلغاؤها في الكلام والشعر إذا توسطت : فأما إذا تقدمت فلا » . وعلى هذا يكون « اللؤم » بالرفع على أنها مبتدأ مؤخر .

(٢) الحيوان ج ١ ص ٧٤ ـ ٥ تحقيق (هارون) .

(٣) طبعة بيروت ج ١ ص ٣ .

على زمن دون زمن ، ولا خص بها قوماً دون قوم ؛ بل جعل ذلك مشتركا مقسوماً بين عباده ، وجعل كل قديم منه حديثاً في عصره ، وكل شريف خارجياً في أوله ... » .

وقد وقع في كلام أبي العلاء شيء في هذا الموضوع ، منه قوله في (رسالة الغفران ص ٦٣)[١] على لسان حميد بن ثور : « ولقد كان الرجل منا يُعمل فكره السنة والأشهر ، في الرجل قد آتاه الله الشرف والمال فربما رجع بالخيبة . وإن أعطي فعطاء زهيد ، ولكن النظم فضيلة العرب . » .

ومنه قوله في (الغفران ص ٥٥) أيضاً على لسان ابن القارح بعد يأسه من رضوان وإخفاقه في مدحه[٢] . . : « فتركته وانصرفت إلى خازن آخر يقال له زفر ، فعملت كلمة ووسمتها باسمه ... ولم أترك وزناً مقيداً ولا مطلقاً يجوز أن يوسم بزفر إلا وسمته به ، فما نجع ولا غيَّر ؛ فقلت : رحمك الله ! كنا في الدار الذاهبة نتقرب إلى الرئيس والملك بالبيتين أو الثلاثة ، فنجد عنده ما نحب . وقد نظمت فيك ما لو جُمع لكان ديوانا ، وكأنك ما سمعت لي زَجْمَة — أي كلمة — . فقال : لا أشعر بالذي حَمْحَمْتَ — أي قصدت — وأحسب هذا الذي تجيئني به قرآن إبليس المارد، ولا ينفُق على الملائكة، إنما هو للجانّ وعلَّموه ولد آدم ، فما بُغْيَتُكَ ؟ فذكرت له ما أريد ،فقال : والله ما أقدر لك على نفع ... فمن أي الأمم أنت ؟ فقلت : من أمة محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، فقال : صدقت ، ذلك نبي العرب ومن تلك الجهة أتيتني بالقريض ، لأن إبليس اللعين نفثَهُ في إقليم العرب فتعلمه نساء ورجال ... » .

فقول أبي العلاء على لسان حميد : « لكن النظم فضيلة العرب .. »

---

(١) ط أمين هنديه وانظر بنت الشاطئ ص ١٦٨ .

(٢) وانظر الغفران تحقيق بنت الشاطئ ص ١٤٩ .

يحتمل أن يراد به أن النظم فضيلة عند العرب من جملة الفضائل ، كما يحتمل أن يراد به أنه فضيلة العرب لا غيرهم . والأول هو الظاهر ، لأن المقصود من كلام حميد أن يبيّن أن للشعر مكانة سامية عند العرب ، لا أن يبين منزلة الشعر عند العرب وغيرهم ، وعلى هذا لا يدل دلالة قطعية على أن هذه الفضيلة مقصورة على العرب أو مختصة بهم .

وقوله الآخر على لسان زفر : « ومن تلك الجهة أتيتني بالقريض ، لأن إبليس اللعين ... » لا يدل على أنه فضيلة عند العرب ولا أنه مختص بهم ، بل يدل على احتقاره ، لأنه من نفث إبليس .

شعر الملائكة والجن

نفى أبو العلاء الشعر عن الملائكة ، لأن أعمالهم مبرورة صالحة ، وأثبته للشياطين على لسان غيره ، لأن عملهم غير صالح ، وإن كان هو لا يعتقد صحة نسبته إليهم ولا إلى الملائكة ، فقد قال في رسالته الى أحمد بن عثمان النكتي البصري : « وله .. أن يحتج بقول النبي ﷺ لحسان ... لما أمره بإجابة شعراء قريش : روح القدس معك . فليدعْ أن يقول : إن حسان ومن جرى مجراه من قالة الحق تعينهم الملائكة على ذلك[١] » .

وقال فيها : « والملائكة لا تنطق بمثل شعره ، ولا نعلم أحداً روى شعراً عن الملائكة ؛ فأما الجن فقد ورد عنها ما يعلمه » . ثم ذكر بيتاً ناحت به الجن على عمر بن الخطاب ،[٢] وبيتين قالتهما الجن لما مات سعد ابن عبادة[٣] . ثم قال : « ولا ينكر.... ما ذكرته من أمر الجن ، فقد علم أنه

---

(١) الرسائل — شرح شاهين عطية — ص ١٠٦ .

(٢) وهو :

قضيْتَ أموراً ثم غادرتَ بعدها بوائجَ في أكمامها لم تفتَّقِ (ج)

(٣) هما في الحماسة منسوبان الى الشماخ وهما :

قد قتلنا سيد الخزرج سعد بن عباده

فرميناه بسهمين فلم نخطئ فؤاده (ع)

مشهور عند العرب أن لكل شاعر شيطاناً يقول الشعر على لسانه ... وقد زاد ادعاؤهم لذلك حتى سمّوا الشياطين بأسماء يعرفونها بينهم » .

وذكر في (الغفران ص ٧٤) [1] أن ابن القارح رأى في الجنة مدائن ليست كمدائن الجنة . فسأل ما هذه ؟ فقيل له : جنة العفاريت الذين آمنوا بمحمد ﷺ وهم عدد كثير . وأنه رأى منهم شيخاً اسمه الخيتعور أحد بني الشيصبان ، وكنيته أبو هَدْرَش وهو من الجن الذين كانوا يسكنون الأرض قبل ولد آدم ، وليس من ولد إبليس . وذكر حديثاً دار بينهما في الشعر وقلّته عند البشر وكثرته عند الجن .

وأبو العلاء يتوخى من ذكر جنة العفاريت والجن وأشعارهم والحوار الذي كان بين ابن القارح وأبي هدرش أموراً ، منها :

١ – أن يذكر طرفاً من مزاعم الناس في الجن في الجاهلية والإسلام .

٢ – أن يبين أن ما جمعه المرزباني من أشعار الجن هذيان لا معتمد عليه .

٣ – أن يبين أن الشعر قديم العهد .

٤ – أن يبين أن الإنس يلهجون بقصيدة امرىء القيس « قفانبك » ويحفظونها أولادهم ، وفي وسع أبي هدرش أن يملي ألف قصيدة على وزنها لشاعر واحد من رجاله .

٥ – أن يبين أن جميع الأدب في الدنيا نوع من الشقاء لا يحظى صاحبه بطائل في الدنيا والآخرة ؛ وأن الشعراء يجهدون أنفسهم في انتزاع ما يأخذونه من الممدوحين مع قلته .

٦ – أن يبيّن أن رجم النجوم كان قبل الإسلام ، وزاد في أوان المبعث .

وأبو العلاء يقر بوجود الجن ، كما يقر بوجود الملائكة ، ولكنه لا يقر

---

(١) ط أمين هندية ، وانظر تحقيق بنت الشاطىء ط ١ ص ١٩٦ – ٢١٤ .

بما يزعمه الناس عن الجن وأحوالهم وأقوالهم ولحومهم ، يدل على ذلك قوله :

قَدْ عِشْتُ دَهْراً طويلاً مَا عَلِمْتُ بِهِ حِسّاً يُحَسُّ لِجِنّيٍّ وَلاَ مَلَكِ [1]

وينكر أن يكون الرجم حدث أوان البعث ، إذ يقول :

وَلَسْتُ أَقُولُ إِنَّ الشُّهْبَ يَوْماً لِبَعْثِ مُحَمَّدٍ جُعِلَتْ رُجُوماً [2]

كما ينكر أن يكون للمرأة تابع من الجن ، حين يقول :

مَا صَحَّ عِنْدِي أَنَّ ذَاتَ خَلاَخِلٍ تُقْفَى مِنَ الجِنِّ الغُوَاةِ بِتَابِعِ [3]

أما احتقاره الشعر والشعراء ، والاستخفاف بهم فكثير . منه قصيدته [4] التي ذكرها في (لزوم ما لا يلزم) وفيها يقول :

وَمَا شُعَرَاؤُكُمْ إِلاَّ ذِئَابٌ تَلَصَّصُ فِي المَدَائِحِ وَالسِّبَابِ

ومنه قوله :

وَبِيعَتْ بِالفُلُوسِ لِكُلِّ خِزْيٍ وُجُوهٌ كَالدَّنَانِيرِ الحِسَانِ [5]

وقد ذكرنا شيئاً من هذا في الكلام على الشعراء .

وفي (رسالة الغفران ص ٥٥) [6] دل على احتقاره الشعر واستصغاره

---

(١) اللزوميات ﻫ س ١٨٩ وفيها : « قد عشت عمراً . . . » .

(٢) المصدر السابق ص ٢٤٢ .

(٣) المصدر السابق ص ٢٨٨ .

(٤) مطلعها :

« بني الآداب غرتكم قديماً زخارف مثل زمزمة الذباب »

اللزوميات ﻫ ص ٥١ .

(٥) اللزوميات ﻫ ص ٢٧٩ .

(٦) انظر ماسبق ص ٩٢٦ .

شأن الشعراء بصور مختلفة ، منها عدم اكتراث رضوان بابن القارح وبما مدحه به من الشعر .

ومنها أن زفر لم يعبأ بما مدح به من الشعر ، وسماه قرآن إبليس، وقال : إنه لا يَنْفُق على الملائكة ، إنما هو للجان . إلى آخر ماتقدم عن (الغفران ص ٥٦) [١] .

ومنها قول حمزة لما أنشده الأبيات : « أفي مثل هذا الموطن تجيئني بالمديح . . » .

ومنها قوله (ص ٨٤) [٢] على لسان الحطيئة في الزبرقان بن بدر : هو رئيس في الدنيا والآخرة ، انتفع بهجائي ولم ينتفع غيره بمديحي .

وقوله على لسان رجل [٣] : أنا فلان .. من أهل حلب ، كانت صناعتي الأدب ، أتقرب به إلى الملوك . فيقول : بئس الصناعة ! إنها تهب غفة من العيش لا يتسع بها العيال ، وإنها لمزلة القدم ، وكم أهلكت مثلك .

وقوله (ص ٩٤) [٤] لعلقمة بن عبدة : ما أغنى عنك سِمْطــا لؤلؤك ، يعني قصيدته التي على الباء ، والتي على الميم .

هل أبو العلاء شاعر ؟

بيّنا فيما تقدم أن ابن خلدون لم يوفق إلى السداد في تعريف الشعر . ولم يوفق هو وشيوخه إلى الصواب في نفي الشعر أو الشاعرية عن المتنبي والمعري . وإذا بطل قول هؤلاء، فهل يكون أبو العلاء شاعراً في قول غيرهم أم لا ؟.

---

(١) انظر ماسبق ص ٩٢٦ .
(٢) من الغفران ط أمين هندية وانظر بنت الشاطىء ط ١ ص ٢١٨ .
(٣) انظر الغفران تحقيق بنت الشاطىء ط ١ ص ٢٢٠ .
(٤) من الغفران ط أمين هندية وانظر بنت الشاطىء ط ١ ص ٢٤١ .

الجواب عن هذا يحتاج إلى بسط في القول ؟ لأن بعض العلماء جعل الوزن والقافية من مقومات الشعر وفصوله ، وبعضاً آخر جعل اللفظ والمعنى منها ، وثالثاً جعل التشبيه والاستعارة منها ، ومنهم من جعل أركانه المدح وغيره على نحو ماتقدم ، ومنهم .. ومنهم . ونحن نبين منزلة أبي العلاء من كل واحد مما ذكروه ، لتتضح منزلته منها منفردة ومجتمعة ، فنقول :

الوزن والقافية

ليس في شعراء العرب عامة من المتقدمين والمتأخرين من يساوي أبا العلاء أو يدانيه في معرفة الأوزان والقوافي ، ومعرفة الجائز والممتنع منها ، ولا من ألف في هذا العلم مثل ما ألف فيه ، وإن لم يصل الينا كله . وفيما انتهى إلينا من أقواله، ومما ذكره في مقدمة(لزوم ما لا يلزم)و(الفصول والغايات) وفي « رسالته إلى أبي عثمان النكتي البصري » و« رسالته إلى أبي القاسم المغربي » دليل قاطع على صحة ما قلناه . وليس في شعره كله على كثرته ما يخل بشيء من أحكام الأوزان والقوافي ؛ بل أنكر على كثير من العلماء والشعراء إخلالهم بالوزن ، واستعمالهم أنواعاً من الشعر مفقودة في كلام العرب .

الألفاظ المفردة

أما الألفاظ المفردة ، ففي شعره طائفة كبيرة من الألفاظ ، كل منها مقدر على قدر المعنى ، ولا يستطيع أحد أن يجد في اللغة على سعتها خيراً منها أو ما يقوم مقامها كقوله :

تَقُولُ الهِنْدُ آدَمُ كَانَ قِنًّا لَنَا فَسَرَى إِلَيهِ مُخَبِّبُوهُ [1]

---

(١) اللزوميات ﻫ س ٣٣٢ .

وقوله :

تَكَادُ سَوَابِقٌ حَمَلَتْهُ تُغْنِي عَنِ الأَقْدَارِ صَوْنًا وابتِذَالا (١)

وقوله :

نَهاراً كأنَّ البَدْرَ قَاسَى هَجِيرَهُ فَعادَ بِلَوْنٍ شاحِبٍ مِنْ سَهامِهِ (٢)

وقوله :

وَنَحْنُ السَّفْرُ فِي عُمْرٍ كَمَرْتٍ تَصَافَنَ أَهْلُهُ جُرَعَ الحِمَامِ (٣)

يقال : خبب الرجل عبد غيره : إذا أفسده وخدعه . ويقال : صان الفرس عدوَه وجريه : إذا ذخر منه ذخيرة لأوان الحاجة إليه ، ويقال : فرس ذو صون وابتذال : له حضر قد صانه لوقت الحاجة إليه ، وعدْوٌ قد ابتذله . قال لبيد :

يراوح بين صون وابتذال (٤)

---

(١) شروح سقط الزند ق ١ ص ٤٤ .

(٢) شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٤٩٩ وفيه : « نهارٌ كأن . . » والسهام : بفتح السين ، الريح الحارة .

(٣) شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٤٧٢ . والمرت : الأرض التي لا نبات فيها . والتصافن : تقاسم الماء القليل .

(٤) من العجيب أن الشراح لم ينتبهوا الى ماذكرناه في معنى « الصون والابتذال » ولذلك قال التبريزي في شرح هذا البيت : المعنى أن سوابق الممدوح بلغته مقاصده وأنالته مراده حتى كأن أفعالها الأقدار ، أو قربت أفعالها من المقادير . ثم بين ماهية أفعالها بقوله : صونا وابتذالا . أي في صيانة مايريد صيانته وحفظه وابتذال عدوه أي إباحة دمه وانتهاك حرمته ، أي تكاد سوابقه تغني عن الأقدار في صيانة مايصون وابتذال مايبتذل ، كأنه يريد في حفظ الذمام وإباحة العدو . وطبع صاحب التنوير على هذا القرار ، وقال البطليوسي : يقول تكاد خيله . . تغني —

والسَّهام : الريح الحارة . والمَرْت : مفازة لا نبات فيها . وتصافن القوم الماء : إذا كانوا في سفر فقل عندهم ، فاقتسموه على حصاة يلقونها في الإناء ، ثم يصب فيه من الماء بقدر ما يغمر الحصاة فيُعطاه كل رجل منهم ، ويقال لهذه الحصاة : « المَقْلة والمَلْقة » و « حصاة القَسْم » .

فكل من كلمة « غبيوه » في البيت الأول ، و « الصون والابتذال » في البيت الثاني ، و « السَّهام » في البيت الثالث ، و « تصافن » في البيت الرابع ، لا يجد الإنسان خيراً منها في موقعها ، ولا ما يقوم مقامها . وهذا النوع كثير في شعره .

الألفاظ المركبة

وفي شعره أبيات جمعت إلى جمال اللفظ متانة التركيب ، وصفاء الديباجة ، وحسن الوقع في السمع ، وشرف المقصد مما يندر مثله في شعر غيره . كقوله :

فِي بَلْدَةٍ مِثْلِ ظَهْرِ الظَّبْيِ بِتُّ بِهَا
كَأَنَّنِي فَوْقَ رَوْقِ الظَّبْيِ مِنْ حَذَرِ [1]

— ما نفعله الدار الله من صونها لأوليائها وابتذالها لأعدائها لأن من ركبها سعد بها أو لأنها تسعد بركوبه اياها . وما ذكرناه أولى ، لأنه يريد أن هذه الخيل تعب القدر في سرعتها ونفاذها في كلتا حالتيها الصون والابتذال ، فاذا قدر على قوم شيء على يد الممدوح فان هذه الخيل تصل القوم في سرعة القدر ونفاذه ، فهي تشبهه من هذه الجهة ، واذا كانت تشبهه في ذلك في حالتي الصون والابتذال ، فهي غاية في السرعة . وفي ذكر الصون والابتذال في هذا الموضع مع ذكر السوابق والخيل مراعاة النظير على وجه ليس له نظير ، مع المبالغة في وصفها (ج) .

(١) شروح سقط الزند : ق ١ ص ١٣١ .

وقوله :

أرَى جُرَعَ الحَيَاةِ أمَرَّ شَيْءٍ فَشَاهِدْ صِدْقَ ذَلِكَ إذْ تُقَاءُ[1]

وقوله :

وَالنَّجْمُ تَسْتَصْغِرُ الأبْصَارُ رُؤْيَتَهُ

وَالذَّنْبُ لِلطَّرْفِ لا لِلنَّجْمِ فِي الصِّغَرِ[2]

وهذا كثير في شعره .

الغريب في شعره

ولعل قائلاً يقول : إن المعري كان يكثر من استعمال الغريب في شعره ونثره . ونحن لا ننكر وجود الغريب في كلامه ، ولكن أكثر ما نراه غريباً في عهدنا هذا لم يكن غريباً في عصر أبي العلاء ؛ لأننا في حكم الأعاجم ، لا نعلم من الفصيح والمأنوس إلا النزر اليسير ، ونتعلم كل شيء من اللغة كما يتعلمها الأعجمي ، وأبو العلاء كان واسع الاطلاع على اللغة ، كثير الحفظ لمفرداتها ؛ فلم ير غريباً كل ما نعده غريباً . وهناك شيء آخر ، وهو أن أبا العلاء قد يذكر اللفظ ، ثم يأتي بشيء من مشتقاته أو مرادفه أو ضده أو ما يناسبه أو يجانسه ، فيحدث بذلك معنى طريفا ، أو نكتة بديعية ، أو نحو ذلك . على أنه في أكثر المواطن لا يلجأ إلى ما نعده نحن غريباً إلا إذا اضطرته القافية ، أو لزوم ما لا يلزم ، أو غيره من المحسنات البديعية ، أو إذا استعصى عليه من الكلمات المأنوسة ما يقوم مقامه في الدلالة على مراده . وسيأتي القول في هذا في موضع آخر .

---

(١) اللزوميات هـ ص ٢٣ .

(٢) شروح السقط ق ١ ص ١٦٢ .

التشبيه

قال بعض العلماء : التشبيه أشد ما تكلف الشاعر صعوبة ، لما يحتاج إليه من شاهد العقل واقتضاء العيان . وليس بغريب أن نرى أبا العلاء مجوداً بارعاً في التشبيه الذي لا يتوقف على مشاهدة بحاسة البصر كقوله :

إذا أُلفَ الشيءُ استهانَ بهِ الفتى فلَمْ يَرَهُ بُؤسَى تُعَدُّ ولا نُعمَى (١)
كإنفاقهِ مِنْ عُمرِهِ ومَسَاغِهِ مِنَ الرِّيقِ عَذْباً لا يُحِسُّ لهُ طَعْمَا

وقوله :

فِدَاهُ مَنْ كَالنَّبْتِ أَضْيَافُهُ إِذْ تَشْرَبُ الماءَ وَلا تَطْعَمُ (٢)

وإنما الغريب أن نجد في تشبيهاته المحسوسة من الدقة والإحكام ، وتصوير الحركة والألوان ، ما يعجز عن مثله البُصَراء كقوله :

سُبْحَانَ مَنْ خَلَقَ النُّجومَ كأنها دُرَرٌ طَفَا مِنْ فَوْقِ بَحْرٍ مائجِ (٣)

. . .

وكُلُّ أبيضَ هِنْدِيٍّ بهِ شُطَبٌ مثلُ التَّكَسُّرِ في جارٍ بِمُنْحَدَرِ (٤)

. . .

في حُلَلٍ غُبْرٍ وكَمْ أشْبَهَتْ ثِيَابُهَا حُلَّةَ طاوُوسِ (٥)

---

(١) اللزوميات ﻫ س ٢٣٩ .
(٢) شروح سقط الزند : ق ٢ س ٨٦٥ .
(٣) اللزوميات ﻫ س ٧٩ . وفيها : « سبحان من برأ النجوم .. » .
(٤) شروح سقط الزند : ق ١ س ١٥٦ .
(٥) اللزوميات ﻫ س ٣٢٤ .

الاستعارات

في شعر أبي العلاء كثير من أنواع الاستعارات ، وهو في كل موضع يستعير للشيء ما يقرب منه ويليق به ويناسبه ، فتتقبله النفوس والأذواق ، وتأنس به الأسماع . ولا يجد المتأمل بين المستعار والمستعار له منافرة ولا تناكرا ؛ ويقيم قرينة تدل على المعنى المراد ، حتى لا يحتاج في فهمه إلى تكلف أو تأويل ، كقوله في السيوف والدروع :

أقبلُوا حامِلي الجداولِ في الأعْـــناقِ مُستَلْئمينَ بالغُدْرانِ [(١)]

وقوله :

شَرُّ أشجارِ عَلِمتُ بِهـا شَجَراتٌ أَثمَرَتْ نَاسَا [(٢)]

وقوله :

أحاضِنَةَ الغُلامِ ذَمَمتِ مِنْهُ أذاهُ فأرْضِعي حَنَشاً وَضُمِّي [(٣)]

الكنايات

وفي شعره صور رائعة من أنواع الكنايات ، كل منها سهل العبارة ، لطيف الإشارة ، واضح المقصد ؛ وليس فيها ما تنبو عنه الأسماع ، أو تقزز منه الطباع ، كقوله يكني عن شدة الظلمة في مواطن :

(١) شروح سقط الزند : ق ١ ص ٤٥٤ . وفيها : « ... الجداول بالأغماد » .

(٢) اللزوميات ﻫ ص ٢٩٦ .

(٣) اللزوميات ﻫ ص ٢٥١ . وفيها : « ذممت منه أذاكِ ... » .

بِلادٌ يَضِلُّ النَّجْمُ فيها سَبيلَهُ   وَتَثْني دُجاهَا طَيفَهَا عَنْ لِمامِهِ[1]
حَنادِسُ تُعْشِي المَوْتَ لولا انْجِيابُها   عَنِ المرْءِ ما هَمَّ الرَّدَى باخْتِرامِهِ
رَجا الليْلُ فيها أن يَدُومَ شَبابُه   فَلَمَّا رآها شابَ قبلَ احْتِلامِهِ

الأمثال والحكم

ذكر أن بعض العلماء استخرج أمثال أبي تمام من شعره ، فوجدها ثلاثمائة بيت ، وأربعة وخمسين بيتاً ، وتسعين نصفاً ، واستوعب أمثال أبي الطيب ، فوجدها أربعمائة بيت ، وثلاثة وسبعين نصفاً . منها ماولّده من أمثال أبي تمام ، ومنها ماهو وليد قريحته .

ونحن لا نستطيع أن نحدد ما لأبي العلاء من هذا النوع ؛ لأننا لم نطلع على جميع شعره ، ولكننا اذا استقصينا ما في (سقط الزند) و (لزوم ما لا يلزم) و (ملقى السبيل) وجدنا فيها أكثر مما في كلام أبي تمام وأبي الطيب ؛ لأن أبا العلاء يرسل الأمثال وينثر الحكم على حافتي كلامه في كل غرض من أغراض الشعر ، فترى مثل قوله في الغزل :

لَوِ اخْتَصَرْتُمْ مِنَ الإحْسَانِ زُرْتُكُمُ
والعَذْبُ يُهْجَرُ للإفْراطِ في الخَصَرِ[2]

---

(١) شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٤٩٩ — ٥٠١ وفيها :
« بلاد يضل النجم فيها سبيله   وبثني . . . . . . »
(٢) شروح سقط الزند : ق ١ ص ١٢٠ . والخصر : بتحريك ، البرد .

وفي المدح :

وَافَقْتَهُمْ في اختِلافٍ مِنْ زَمَانِكُمُ
والبَدْرُ في الوَهْنِ مِثْلُ البَدْرِ في السَّحَرِ[1]

• • •

وَقَدْ يَنْمي كَبِيرٌ مِنْ صَغِيرٍ وَيَخْرُجُ مِنْ نَوَى القَسْبِ اللِّيَانُ[2]

وفي الرثاء :

كَمْ صَائِنٍ عَنْ قُبْلَةٍ خَدَّهُ سُلِّطَتِ الأَرْضُ على خَدِّهِ[3]

• • •

وَرُبَّ ظَمْآنَ إِلى مَوْرِدٍ والمَوْتُ لَوْ يَعْلَمُ في وِرْدِهِ

وفي الوصف :

وَمَن تَعْلَقْ بِهِ حُمَةُ الأفاعِي يَعِشْ إِنْ فَاتَهُ أَجَلٌ عَلِيلا[4]

المعاني المبتكرة

وفي شعر أبي العلاء كثير من المعاني التي لم أرها لمن تقدمه من الشعراء وهي نوعان :

(١) شروح سقط الزند : ق ١ ص ١٤٢ .
(٢) شروح سقط الزند : ق ١ ص ١٩٥ وفيها : « ... وينبت من نوى ... » نمى الشيء ينمي وينمو : إذا عظم وزاد . والقسب : ضرب من التمر نواه أصلب النوى . والليان : مفردها لينة وهي النخلة . وقيل : ضرب من النخل ، وقيل : هي الطويلة .
(٣) شروح السقط ق ٣ ص ١٠٢١ .
(٤) المصدر السابق ص ١٣٨٩ .

أحدهما : انتزعه من مسائل العلوم المختلفة ، كقوله فيما انتزعه من العلوم الرياضية :

سَمَا نَفَرٌ ضَرْبَ المِئِينَ وَلَمْ أَزَلْ
بِحَمْدِكَ مِثْلَ الكَسْرِ يُضْرَبُ في الكَسْرِ (١)

ومن العلوم الطبيعية :

وَقَدْ يُجْتَدَى فَضْلُ الغَمَامِ وإنَّما
مِنَ البَحْرِ فيما يَزْعُمُ النَّاسُ يَجْتَدي (٢)

ومن الصرف :

بِتُّ كالوَاوِ بَيْنَ يَاءٍ وَكَسْرٍ   لا يُلامُ الرِّجالُ إنْ أسقَطُوني (٣)

ومن النحو :

تَزَوَّجْ إنْ أَرَدْتَ فَتَاةَ صِدْقٍ   كَمُضْمَرِ نِعْمَ دَامَ عَلى الضَّمِيرِ (٤)

ومن التجويد :

فَإنْ تَقِفِ الحَوَادِثُ دُونَ نَفْسِي   فَمَا يَتْرُكْنَ إِشْمامِي وَرَوْمِي (٥) .

---

(١) اللزوميات ٥ ص ١٤٦ .

(٢) شروح سقط الزند : ق ١ ص ٣٥٥ .

(٣) اللزوميات ٥ ص ٢٨٢ . وفيها : « ... الرجال إن يسقطوني »

(٤) اللزوميات ٥ ص ١٥٥ .

(٥) اللزوميات ٥ ص ٢٥١ وانظر ماسبق ص ٥٨٢ .

ومن العروض :

كالبَيْتِ أُفرِدَ لا إيطاءُ يُدرِكُهُ ولا سِنادَ ولا في اللفظِ إقواءُ[١]

ومن المنطق :

جَرَتِ القَضَايا في الأُمُورِ وأُمضِيَتْ

صُدُفاً بأسوارٍ ولا أسوارِ[٢]

ومن الفلسفة بأقسامها المختلفة :

وَلَيْسَ اعْتِقَادِي خُلُودَ النُّجُومِ ولا مَذْهبِي قِدَمَ العَالَمِ[٣]

• • •

مِن نُجُومٍ نارِيَّةٍ ونُجُومٍ ناسَبَتْ تُرْبَةً وَمَاءً وَرِيحا[٤]

• • •

جائزٌ أنْ يكُونَ آدَمُ هذا قَبْلَهُ آدمٌ على إثرِ آدَمْ[٥]

• • •

أمَّا المَكانُ فثابتٌ لا يَنطَوِي لكِنْ زَمانُكَ ذاهِبٌ لا يَثبُتُ[٦]

• • •

---

(١) اللزوميات ١ ص ٢٢ وانظر ما سبق ص ٦٢٤ .

(٢) اللزوميات ١ ص ١٥٩ وفيها : « ... القضايا في الأنام ... » .

(٣) اللزوميات ٢ ص ٢٥٥ .

(٤) اللزوميات ١ ص ٨٤ .

(٥) اللزوميات ٢ ص ٢٥٨ .

(٦) اللزوميات ١ ص ٦١ .

والنُّورُ في حُكمِ الخواطرِ مُحدَثٌ
والأَوَّليُّ هُوَ الزَّمانُ المُظلِمُ[١]

. . .

أُثبِتُ لي خالقاً حكيماً ولستُ مِن معشرٍ نُفاةِ[٢]

. . .

وإنْ سألُوا عَنْ مَذهبي فهوَ خشيةٌ مِنَ اللهِ لا طوعاً أبثُّ ولا جبرا[٣]

. . .

وَجِسمي شَمعةٌ وَالنَّفسُ نارٌ إِذَا حانَ الرَّدى خَمَدَتْ بأُفِّ[٤]

. . .

وَقُدرةُ اللهِ حقٌّ لَيسَ يُعجِزُها حَشرٌ لجسمٍ وَلا بَعثٌ لأَمواتِ[٥]

والنوع الثاني : انتزعه من بيئته الطبيعية والاجتماعية وما كان يكتنفه من الحوادث والتجارب أو ينتهي اليه من الأخبار أو يحفظه من التاريخ أو أقوال المتقدمين أو نحو ذلك كقوله :

كَتَجاوُرِ العَينَيْنِ لَنْ تَتَلاقَيا وَحِجازُ بينَهُما قَصيرُ جِدارِ[٦]

. . .

---

(١) اللزوميات ﻫ ص ٢٣٥ . وفيها : « والنور في حكم الخواطر ... » .
(٢) اللزوميات ﻫ ص ٦٧ .
(٣) اللزوميات ﻫ ص ١٣٦ .
(٤) اللزوميات ﻫ ص ٢٩٥ .
(٥) » ﻫ ص ٦٧ وفيها : « حشر لخلق .. » .
(٦) » ﻫ ص ١٦٤ .

ولوْ يُرْجَى مَعَ الشُّرَكاءِ خَيْرٌ   لَما كانَ الإلٰهُ بِلا شَرِيكِ(١)

. . .

والشرُّ يَجْلِبُهُ العَلاءُ وكمْ شَكا   نَبَأً عَلِيٌّ ما شَكاهُ قَنْبَرُ(٢)

. . .

والنَّحْلُ يَجْني المُرَّ مِنْ نَوْرِ الرُّبى   فَيَعُودُ شُهْداً في طَرِيقِ رُضابِهِ(٣)

عُرِفَتْ جُدُودُكَ إذْ نَطَقْتَ وطالما   لَفَظَ القَطا فأَبانَ عَنْ أنْسابِهِ

وله أبيات تدل على قدرة واسعة على التصرف في الألفاظ والمعاني ، وفراغ المعاني العظيمة والأخيلة الواسعة في قوالب موجزة من الألفاظ ، مع انسجام في الاسلوب ، وطلاوة في الديباجة ، واستيعاب للمعنى المقصود ، وذلك كقوله في وصف منهل (٤) :

يَمُرُّ بِهِ رَأْدُ الضُّحى مُتَنَكِّراً   مَخافَةَ أنْ يَغْتالَهُ بِقَتامِهِ

(١) اللزوميات ـ ص ١٨٩ . وفيها : « فلو يرجى ... » .

(٢) « ـ ص ١٢٦

(٣) البيتان من بائية في السقط مطلعها :

أشفقت من عبء البقاء وعابه
وملّت من أري الزمان وصابه

انظر شروح السقط ق ٢ الصفحات ٧٢٠ ، ٧٢٥ ورواية البيت الأول فيها : « ... فيصير شهداً ... » .

(٤) حيث يقول في بيت سابق من بيته هذه :

وكم جبن ريف الشام والكرخ منهلاً   موارده ممزوجة بسمامه

انظر شروح السقط ق ٢ ص ١٩٨ .

وفي وصف خرق (١) :

وَتَكْتُمُ فيهِ العَاصِفاتُ نُفُوسَها ... فَلَوْ عَصَفَتْ بالنَّبْتِ لم يَتَأَوَّدِ

وفي وصف إبل قطعت مفازةً صعبة مظلمة :

وَكُنَّ يَرَيْنَ نارَ الزَّنْدِ فيهِ ... فَلَمْ يُبْصِرْنَ إذْ وَرَتِ الزِّنَادُ (٢)

لَوَ انَّ بَيَاضَ عَيْنِ المَرْءِ صُبْحٌ ... هُنَالِكَ ما أضاءَ به السَّوادُ

فهذه الأبيات مع تتمتها ، وكثير من أمثالها في شعره ، ترينا من هذا الشاعر قدرة فائقة على ابتداع معان لم يسبق اليها ؛ وتصغير العظيم من الأشياء ، وتعظيم الصغير منها ، إلى حد لايصدقه العقل ، ولكن يستعذبه الذوق لطرافته وروعته ؛ ولأن هذا النوع من المبالغة كان مألوفاً في ذلك العصر ، محبوباً عند العلماء والأدباء فيه . ولقد أجاد فوق الإجادة ، وأحسن فوق الإحسان ، حين جعل لرأد الضحى حياةً وشعوراً بالخوف من هول ذلك المكان ، وأثبت له التنكر مخافة ذلك ، فكأنه حيٌّ عاقل فعّال ما يقتضيهْ العقل .

وكذلك جعل للعاصفات حياةً وشعوراً بالخوف وتوقّيا بكتم نفوسها من الهلاك .

وفي البيتين الأخيرين أثبت للابل قوة في النظر ، ترى فيها النار وهي كامنة في زندها قبل أن تدخل في هذه الظلمة ؛ ثم صارت بعد

---

(١) حيث يقول في بيت سابق في داليته :

بخرق يطيل الجنح فيه سجوده ... وللارض زيٌّ الراهب المتعبد

انظر شروح السقط ق ١ ص ٢٧٧ .

والخرق من الأرض : بفتح فسكون الفلاة الواسعة .

(٢) شروح سقط الزند : ق ١ ص ٢١٣ ـ ٢١٥ .

الظلمة لاتبصر النار بعد خروجها من الزناد ؛ وذلك كناية عن حدة بصرها في الأول وشدة الظلمة في الثاني . ومثل هذه المعاني الجسيمة والأخيلة الواسعة لا يتسنى لغير أبي العلاء أن يوردها في هذه الألفاظ القليلة ، السهلة الممتنعة ، الوافية بالغرض ، والدالة على كل ما يريده الشاعر ، مع سلامة وانسجام وصفاء ديباجة .

وفي كلام أبي العلاء كثير من أمثال هذا ، ولكننا الآن اجتزأنا بهذا القدر . ومنه يتضح أن أبا العلاء شاعر بل شاعر مفلق على كل تعريف للشعر ، وعلى كل قول قاله العلماء في حدّه أو رسمه أو ايضاح حقيقته ، وأن إمعان أبي العلاء في تثقيف شعره وتهذيبه ، وإحكام رصفه ، والتماس الأساليب البليغة ، والإشارات اللطيفة ، والأخيلة الرائعة ، والمعاني الدقيقة ، جعلت شعره بعيد المنال لايدرك مافيه منها الا الراسخون في علم الشعر ، العالمون بدقائق الصناعة فيه ، المدركون لأسرار البلاغة في أساليبه البليغة . فأبو العلاء شاعر في رأينا ، وفي رأي العلماء والأدباء عامة ، وفي رأي العلم والأدب ؛ وإن لم يرض ذلك ابن خلدون وشيوخه . ومثل هذا يقال في المتنبي فنحكم على نظمها بأنه شعر ، وندع لابن خلدون وشيوخه أن يسموا الشعر ما كان فيه تشبيه العيون بالنرجس ، والضفائر بالأفاعي ، والأصداغ بالعقارب ، والقوام بغصن البان ، والعجيزة بالكثيب .

أبو العلاء شاعر خنذيذ

قال بعض العلماء : الشعراء أربعة :

شاعر خِنْذِيذ : وهو الذي يجمع إلى جودة شعره رواية الجيد من شعر غيره ؛

وشاعر مُفْلِق : وهو الذي لارواية له ، إلا أنه مجوّد في شعره كالخنذيذ؛

وشاعر فقط : وهو فوق الرديء بدرجة ؛

وشُعْرور : وهو لا شيء .

وقال آخرون : الشعراء أربعة :

شاعر مفلق : وهو الذي يأتي في شعره بالفِلْق ، وهو العجب . وقيل : الفلق : الداهية ؛

وشاعر مطلق ، وشويعر ، وشعرور .[1]

وإذا أنعمنا النظر في شعر أبي العلاء ، واستقرينا ما وصل إلينا في كلامه من أسماء الشعراء الذين اطلع على أشعارهم ، وانتقدها واستشهد بها أو لها ، أو أشار إليها في شعره ونثره ، تبين لنا أنه جمع بين جودة الشعر ، ورواية الجيد الكثير من شعر غيره . فهو إذن شاعر خِنْذِيذ على القول الأول ، وشاعر مفلق على القول الثاني .

أبو العلاء معرق في الشعر ومن بيت شعر

إذا قال الرجل الشعر ولم يكن في آبائه شاعر قبله يقال له : شاعر . فإذا كان أبوه قبله شاعراً فقط يقال له : الثنيان . وإذا كان أبوه وجدُّه شاعرين فقط ، أو كانا هما ومَن فوقهما من آبائه شعراء فهو معرق في الشعر . وإذا عم الشعر أكثر أهل بيته أو جميعهم ، فهو من بيت شعر .

والفرق بين المعرق وذي البيت أن المعرق من تكرر الشعر فيه وفي أبيه وجده فصاعداً ، ولا يكون معرقاً حتى يكون الثالث فما فوقه شعراء . وذو البيت من عمَّ الشعر أكثر أهل بيته أو جميعهم .

وأبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان بن محمد بن سليمان . وقد حدثنا

---

(١) العمدة ١ ـ ٧٣ وغيرها . والخنذيذ : الفحل والخصي أيضاً ، فهو من الأضداد . والخنذيذ : الشاعر المنقح المفلق . وجاء بمعنى الخطيب المصقع . ويقال : شاعر مفلق ، أي مجيد يجيء بالعجائب في شعره (ج) .

التاريخ أن هؤلاء الخمسة كانوا كلهم شعراء ، وهم على عمود واحد ، ولم نقف على تاريخ من فوقهم ؛ وربما كان فيهم شعراء .

وكان أخوَا أبي العلاء محمد وعبد الواحد شاعرين ، وفي أولادهما وحفدتهما عدد عظيم من الشعراء . نعرف منهم طائفة غير قليلة . منهم : اسماعيل بن إبراهيم بن شاكر بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن محمد أخي أبي العلاء بن عبد الله بن سليمان بن محمد بن سليمان .

فهؤلاء احد عشر أباً على عمود واحد ، وكلهم شعراء ، ولم نقف على بقية أعقابهم ، وربما كان فيهم عدد كبير من الشعراء . وقد ذكرنا في (تاريخ المعرة) طائفة من أمثالهم من بني المهذّب ، وبني حصين ، وبني زريق ، وبني حوارَى ، وغيرهم ، وهؤلاء كلهم من تنوخ . وما فاتنا ذكره منهم أضعاف ما ذكرناه . ولولا أن أبا العلاء قطع حبل النسل لرأينا في أعقابه عدداً عظيماً من الشعراء .

ومن هذا يتبين لنا ان أبا العلاء شاعر معرق في الشعر ، ومن بيت شعر ؛ وأنه أجدر الناس بهاتين الصفتين .

ابتداء قوله الشعر

اتفقت كلمة العلماء على أن أبا العلاء قال الشعر وهو صبي صغير ؛ ولكنهم اختلفوا في تحديد السنة التي قاله فيها ، فجزم فريق منهم بأنه قال الشعر في السنة الحادية عشرة من عمره .

ومن هؤلاء : ابن الجوزي في (المنتظم) ، وياقوت في (إرشاد الأريب) ، وابن خلكان في (الوفيات) ، والذهبي في (تاريخ الإسلام) وابن الوردي في (تتمة المختصر) ، والصفدي في (الوافي بالوفيات) ، واليافعي في (مرآة

الجنان) ، وابن تغري بردي في (النجوم الزاهرة) ، وابن العماد في (شذرات الذهب)[1] .

وشك فريق آخر ، فقال : إنه قال الشعر في الحادية عشرة أو الثانية عشرة من عمره . ومن هؤلاء ابن الأنباري في (نزهة الألباء) ، وسبط ابن الجوزي في (مرآة الزمان) ، وابن فضل الله العمري في (مسالك الأبصار) والصفدي في (نكت الهميان) ، وابن كثير في (البداية والنهاية) ، والعيني في (عقد الجمان) والسيوطي في (بغيـــة الوعاة) ، والعباسي في (معاهد التنصيص) ، والمـكي في (نزهة الجليس) ، وابن العديم في (الإنصاف)[2] .

والخطب يسير بين هذا الجزم والشك ، ولم ار أحداً زاد على الثانية عشرة . وقد ذكرت في الكلام على بديهته ونباهته أن جماعة من الحلبيين جاءوا ليختبروه ، فقال لهم : هل لـكم في المقافاة بالشعر ؟ وكان كلما أنشده واحد منهم بيتاً أجابه من نظمه على قافيته ، حتى قطعهم كلهم . وكان إذ ذاك صبياً صغيراً يلعب مع الصبيان .

ونقلت عن ابن خلـكان أن شخصاً قال له : رأيت في تأليف أبي العلاء ما صورته : أصلحك الله وأبقاك ، لقد كان من الواجب أن تأتينا اليوم ... ثم تبين له أن هذه الـكلمات تخرج من بحر الرجز .

وهذا وأشباهه مما ذكرناه في بديهته وارتجاله يدلنا على أن أبا العلاء شاعر بفطرته منذ نشأته ، وأنه هو والشعر رضيعا لِبان .

---

(١) انظر في ذلك تعريف القدماء بأبي العلاء الصفحات : ١٨ ، ٦٨ ، ١٨٤ ، ١٩١ ، ٢٠٨ ، ٢٦٦ ، ٢٩٩ ، ٣٣٠ ، ٣٤٨ .

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء ، الصفحات : ١٧ ، ١٤٤ ، ٢٢٤ ، ٢٨٧ ، ٣٠١ ، ٣٢٠ ، ٣٣٢ ، ٣٣٦ ، ٣٥٤ ، ٥٥١ .

شعر أبي العلاء

لم يتح لنا الوقوف على شعر أبي العلاء كله ، كما أننا لم نوفق إلى الاطلاع على جميع آثاره العلمية ورسائله النثرية . ومما لا شك فيه أن له شعراً كثيراً لا يعرف مثله لشاعر غيره قبله ولا بعده . فقد قيل : إن أبيات (سقط الزند) تزيد على ثلاثة آلاف بيت . وإن في كتاب (استغفر . واستغفري) نحواً من عشرة آلاف بيت . وكتاب (لزوم ما لا يلزم) يحتوي على أحد عشر ألف بيت . وفي كتاب (جامع الأوزان) نحو من تسعة آلاف بيت . ولكن لم يتبين لنا هل هي كلها من شعره ، أم بعضها ، أم هي من أشعار غيره . وذكر البديعي أن (ديوان الألغاز) ضخم . وفي كتاب (ملقى السبيل) كثير من الأبيات .

وزعم الرحالة الفارسي ناصر خسرو أن أبا العلاء نظم من الشعر مائة ألف بيت [1] . وقد كانت رحلته نحو سنة ٤٣٨ هـ . وعاش أبو العلاء بعدها نحواً من إحدى عشرة سنة . ولا شك أنه نظم في خلالها شيئاً كثيراً . وإذا صح ما قاله الرحالة الفارسي ، وأن أبا العلاء قال الشعر وهو ابن إحدى عشرة سنة ؛ وأسقطنا من عمره أيام التعلم والتعليم ، والسفر والمرض ، ومقابلة الزوار وما شاكل ذلك ؛ وقسمنا شعره على أيام حياته الباقية ، أصاب كلُّ يوم منها نحواً من عشرة أبيات ، وهذا ليس بقليل ولا يقدره حق قدره إلا من عانى صناعة الشعر ، لا سيما مثل شعر أبي العلاء الطافح بالمسائل العلمية ، والنكت الأدبية ، والإشارات التاريخية ، والحكم ، والنقد ، والتهكم ، وما أشبه هذا .

ومن المؤسف جداً أننا لم نتمكن من معرفة شيء من كتبه الشعرية

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٤٦٣ عن سفر نامة ـ لناصر خسرو .

غير (سقط الزند) و (لزوم ما لا يلزم) و (ملقى السبيل) وشيء نزر من (ديوان الألغاز) ؛ وديوانه الذي قيل : إنه قاله في بغداد ؛ إن صح أنه له .

تقسيم شعره بحسب الزمن

حاول بعض الأدباء المتأخرين أن يقسم شعر المعري بحسب أطوار حياته إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : طور الحداثة ، ومدته عشرون سنة تنتهي في سنة ٣٨٣ ﻫ وهي المدة التي ما حدثته نفسه منذ فارقها باجتداء علم من عراقي ولا شآم .

القسم الثاني : الشعر الذي قاله بعد انقضاء الطور الأول إلى أن رجع من بغداد سنة ٤٠٠ ﻫ ، ومدته سبع عشرة سنة . وهي التي نضج فيها علمه ، واستحصف عقله ، ورحل إلى بعض البلدان ، واطلع على كثير مما لم يطلع عليه من العلم أو من العلماء وخزائن الكتب .

القسم الثالث : الشعر الذي قاله بعد رجوعه من بغداد إلى أن فارق الحياة سنة ٤٤٩ ﻫ ومدته تسع وأربعون سنة وهي التي أخصب فيها فكره ، وأثمر أدبه وعلمه ، وألزم نفسه فيها ما لا يلزمها .

وهذا التقسيم حسن جداً ، لكنه يتوقف على معرفة زمن كل قصيدة أو قطعة من شعره ؛ ولم يساعد التاريخ على معرفة ذلك كله ، والحكم المبني على استقراء ناقص أو شبهٍ واهية لا قيمة له في نظر العلم .

خصائص شعره

حاول صاحب (ذكرى أبي العلاء) أن يحمل لشعر المعري في كل

طور طابعاً خاصاً به ، وسمة تميزه من شعره في طور آخر . ولكنه لم يوفق حيث قال :

شعره في الطور الأول :

« فأما شعره في طور الحداثة ، فتكثر فيه المبالغة ، ويظهر فيه التكلف ، وتنقصه متانة اللفظ ، ورصانة الأسلوب وإتقان المعنى . ولا يكاد الباحث يتوسمه حتى يرى فيه سذاجة الطفل ، وعبث الوليد ... والتقليدَ في شعر الحداثة ظاهر ... والتكلف بإظهار التفوق والنبوغ يعلن نفسه إلى الناس ، لذلك لا يكاد يخطر له الخـاطر القيم [١] حتى يذهب التكلف بقيمته [٢] » .

واستشهد لذلك ببيت من مرثية أبيه [٣] وهو :

وَنادِبَةٍ في مِسْمَعِي كلُّ قَيْنَةٍ　　تُغَرِّدُ بِاللَّحْنِ البَرِيءِ مِنَ اللَّحْنِ

وببيت من مرثية أبي حمزة التنوخي [٤] وهو :

أَبَكَتْ تِلْكُمُ الحَمَامَةُ أَمْ غَنَّـــتْ عَلَى فَرْعِ غُصْنِهَا المَيَّادِ

ثم أفاض في تفضيل البيت الثاني على الأول .

---

(١) كذا . (ج)

(٢) ذكرى أبي العلاء — طه حسين — ط ٢ ص ٢٣٧ — ٨ .

(٣) مطلعها :

نقمت الرضا حتى على ضاحك المزن　　فلا جادني إلا عبوس من الدجن

شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٩٤٠ .

(٤) مطلعها :

غير مجد في ملتي واعتقادي　　نوح باك ولا ترنم شادي

شروح سقط الزند : ق ٣ ص ٩٧٢ .

شعره في الطور الثاني :

ثم قال في (الذكرى) : « فأما شعره في الطور الثاني ، فتكاد تغلب عليه المبالغة ؛ ولكن حظه من التكلف ينقص ، وقسطه من المتانة يزيد ، وتمثيله لعواطف الشاعر يصح ، فإذا جاوز الخامسة والثلاثين ، ورأيناه ببغداد ، بدأنا نودع المبالغة في شعره ، ونستقبل الاقتصاد في اللفظ والمعنى جميعاً ؛ ورأينا ظاهرة ينبسط ظلها على الرجل ، وهي التجمل بالاصطلاحات العلمية ... » .

ثم قال : « في هذا الطور نظم أبو العلاء أكثر ما يشتمل عليه (سقط الزند) [من الشعر] ولا سيما المدح ... وإنما نحكم هذا الحكم لأنا نجد في هذا الشعر متانة قصّر عنها شعره الأول ، ومبالغة جلّ عنها شعره الثالث ، ومعاني لا تلائم شاعراً يتحرزم ، ولا توافق فيلسوفاً يتجنب الكذب ... وفي هذا الطور عبثت الضرورات بشعر أبي العلاء ، فوقع فيه بعض الخطأ النحوي : فانظر إليه كيف سكّن لام الفعل مع « أن » في قوله :

. . . . فَكَادَ أنْ يَشْجُو الرَّحالا

وكيف وضع أن بعد كاد . . . وفي هذا الطور نسب [أبو العلاء] وتغزل ، وافتخر لأنه في الطور الثالث لم يمل إلى هذين الفنين . وفي هذا الطور وصف الأشياء المختلفة »[1] .

شعره في الطور الثالث :

وذهب في (الذكرى) إلى أن أبا العلاء في هذا الطور كان متشدداً في كل شيء ، ملتزماً ما لا يلزم في أعماله العقلية ، وحياته المادية ، فامتنعت منه المبالغة والضرورات ، والتزم القوافي الصعبة ، وكان يتشدد في محاكاة المتقدمين من العرب ، فيؤثر الألفاظ البدوية الجزلة ، والمعاني البدوية

---

(١) ذكرى أبي العلاء — لطه حسين — ط ٢ ص ٢٣٩ — ٢٤٢ .

الفخمة ، ولا يتحضر في شعره إلا إذا اضطر . وكان يتخير غريب اللغة ونادرها ... ويكاد التكلف لا يوجد في شعره في هذا الطور إلا أن يضطر ... ثم لخص رأيه بقوله : « أبو العلاء في هذا الطور بدوي اللفظ والأسلوب ، قليل التكلف والمبالغة ، ولكن شعره يمثل شخصه ... ويمثل عواطفه » .[١] إلى آخر كلامه في هذا الباب .

ابطال ما قاله صاحب الذكرى

وفي كل ما ذكره صاحب (الذكرى) هنا نظر يضعفه ، وشك يبطله . وبيان هذا :

١ ـ ان المبالغة لا تفارق شعر المعري في جميع أطواره ، وإذا لم تكن في الطور الثاني مثلها في الطور الأول فهي أكثر منها فيه . والأدلة على ذلك كثيرة ، منها قوله في مدح سعيد الدولة [٢] :

وَلَوْ أَنَّ الرِّيَاحَ تَهُبُّ غَرْباً وَقُلْتَ لَهَا هَلا هَبَّتْ شَمَالا

وَأُقْسِمُ لَوْ غَضِبْتَ عَلى ثَبِيرٍ لأَزْمَعَ عَنْ مَحَلَّتِهِ ارْتِحالا

وقوله فيها يصف سيفاً :

يُذِيبُ الرُّعْبُ مِنْهُ كُلَّ عَضْبٍ فَلَوْلا الغِمْدُ يُمْسِكُهُ لَسَالا

وهذه القصيدة مما قاله في الطور الثاني ؛ وهي طافحة بالمبالغة في وصف الفرس ، والقسيّ ، والسيف وفي المدح . . وقلما خلت قصيدة له في مدح ، أو تشوّق ، أو رثاء ، أو فخر من المبالغة .

---

(١) ذكرى أبي العلاء ط ٢ ص ٢٤٣ ـ ٢٤٦ .

(٢) من لاميته في سقط الزند ومطلعها :

أعن وخد القلاص كشفت حالا ومن عند الظلام طلبت مالا

انظر شروح السقط ق ١ ص ٩٣ ـ ٩٤ ، ١٠٤ .

وقوله من قصيدة قالها في الطور الثالث :

وَنَبّالَةٍ مِنْ بُحْتُرٍ لَوْ تَعَمَّدوا ۞ بِلَيلٍ أَناسِيَّ النَّواظِرِ لم يُخطوا[١]

وقوله منها يصف امرأة بطيب الرائحة ، حتى سكر الحادي بها من طيب ريحها ، كأنه شرب من خمر بابل :

وَقَدْ ثَمِلَ الحادي بِها مِنْ نَسيمِها ۞ كَأَنْ غالَهُ مِنْ كَرْمِ بابِلَ إِسْفَنْطُ

٢ ـ ان التكلف يظهر في شعر أبي العلاء في كل طور ، انظر إلى قوله :

أَلِفْتِ خَوْضَ المَنايا إِنْ مُنْكَرَةً ۞ إِلْفُ الغَزالِ مَقاليتاً مَقاليتا[٢]

وقوله :

وَحَرفٍ كَنونٍ تَحتَ راءٍ وَلَمْ يَكُنْ ۞ بِدالٍ يَؤُمُّ الرَّسْمَ غَيَّرَهُ النَّقْطُ[٣]

---

(١) من طائيته التي يخاطب بها خازن دار العلم ببغداد ويصف حاله الفتنة بالشام وأسر الزورق الذي كان نزل معه إلى بغداد ومعاونة أبي أحمد المكاري له على تخليصه من أصحاب الأعشار ومطلعها :

لمن جيرة سيموا النوال فلم ينطوا ۞ يظللهم ما ظل ينبته الخط

انظر شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٦٧٩ ، ١٦٥٨ .

واسفنط : من أسماء الخمر .

(٢) من قصيدة يخاطب بها القاضي أبا القاسم علي بن المحسن بن أبي الفهم التنوخي ، وكان حمل اليه وهو ببغداد جزءاً من شعر تنوخ ، نقله عند عبد السلام البصري ، ومطلعها :

هات الحديث عن الزوراء أو هيتا ۞ وموقد النار لا تكرى بتكريتا

انظر شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٦١٨ . وفيه :

« ألفت خوص المطايا إن . . . . » .

(٣) شروح السقط : ق ٤ ص ١٦٥١ .

وهذان البيتان من قصيدتين قالهما في الطور الثالث . وفي (لزوم ما لا يلزم) قصائد وأبيات مغمورة بالتكلف كقوله :

خَوَى دَنُّ شَرْبٍ فَاسْتَجَابُوا إلى التُّقى

فَعِيسُهُمُ نَحْوَ الطَّوافِ خَوَادِي[1]

وهذا البيت من قصيدة أبياتها عشرون ، وليس فيها بيت خال من مثل هذا التكلف .

وقوله :

عَوَى في سَوادِ اللَّيْلِ عافٍ لعَلَّهُ   يُجَابُ وأنىَّ والدِّيارُ عَوافِ[2]

وهو من قصيدة أبياتها اثنا عشر بيتاً مغمورة بالتكلف . وفي (لزوم ما لا يلزم) وغيره كثير من الأبيات بل القصائد التي لا تخلو من مثل هذا ، وكلها مما قاله في الطورين الأخيرين .

٣ ــ إن أراد بقوله : تنقصه متانة اللفظ ، ورصانة الأسلوب ، وإتقان المعنى ، أن هذه الأشياء كلها لا توجد في كل بيت من أبيات شعره ، فهذا صحيح ؛ ولكنه غير محصور في شعره في هذا الطور ؛ بل غير محصور في هذا الشاعر . فإن شعر كل شاعر لا يخلو من تفاوت في قوة الأسلوب وجلاء المعنى ، ومع هذا لا نسلّم أن معانيه غير متقنة ، وأسلوبه غير رصين . فهذه مرثيته في أبيه فيها أبيات من عيون الشعر كقوله[3] :

حِجىً زَادَهُ مِنْ جُرْأةٍ وَسَمَاحَةٍ

وبَعْضُ الحِجَى دَاعٍ إلَى البُخْلِ والجُبْنِ

. . . .

---

(١) اللزوميات ﻫ ص ١٠٧ . وعيس خواد : سراع في السير .
(٢) المصدر السابق ص ٢٩٤ .
(٣) شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٩١٢ ـ ٩٢٢ .

إِذَا غُيِّبَ الْمَرْءُ اسْتَسَرَّ حَدِيثُهُ ... وَلَمْ تُخْبِرِ الأَفْكَارُ عَنْهُ بِمَا يُغْنِي

. . . .

وَجَدْنَا أَذَى الدُّنْيَا لَذِيذاً كَأَنَّمَا ... جَنَى النَّحْلِ أَصْنَافُ الشَّقَاءِ الَّذِي نَجْنِي

. . . .

وَخَوْفُ الرَّدَى آوَى إِلَى الْكَهْفِ أَهْلَهُ

وَكَلَّفَ نُوحاً وَابْنَهُ عَمَلَ السُّفْنِ

ولو عرفنا كل ما قاله في هذا المهد ، لرأينا كثيراً من الأبيات الرائعة ، والآيات البارعة .

٤ً ـ ان التقليد في شعره في الطور الثاني أكثر منه في الطور الأول ، إن كان هناك تقليد .

٥ً ـ ان إظهار التفوق لا يفارق شعره في الطور الثاني ؛ بل هو أكثر منه في الطور الأول ، كما سيتضح ذلك من الأمثلة الآتية .

٦ً ـ انَّ التجمل بالاصطلاحات العلمية لا يخلو شعره منه في كل طور . يدل على ذلك قوله في مرثية أبيه :

تَئِنُّ وَنِضْوِي في أَنِينِكَ وَاجِبٌ

كَمَا وَجَبَ النَّصْبُ اعْتِرَافاً عَلَى إِنَّ (١)

٧ً ـ انه تغزل في (تائيته) التي أرسلها إلى التنوخي (٢) ، وفي

---

(١) شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٩٣٢ .

(٢) السقط ج ٢ ص ١١٢ (ج) ومطلعها :

هات الحديث عن الزوراء أو هيتا ... وموقد النار لا تكرى بتكريتا

وانظر ما سبق ص ٩٥٣ .

(الطائية) التي أرسلها إلى خازن دار العلم [١] وكلتاهما في الطور الثالث .

٨ً – أن الوصف أكثَرَ منه في الأطوار الثلاثة ، كما نرى في وصف السيف في (التائية) المذكورة ، وفي وصف الطير في (الطائية) ووصف الأسد ، والحية ، والسيف ، في (الميمية) التي رثى بها أمه [٢] وفي أبيات الوصف التي جاءت في (لزوم ما لا يلزم) .

٩ً – ان ما ذكره من الضرورات وقع مثله في (لزوم ما لا يلزم) وهو قوله :

وَاللهُ يَقْدِرُ أنْ يُفنِي بَرِيَّتَهُ   مِنْ غَيْرِ سُقْمٍ وَلَكِنْ جُنْدُهُ العِلَلُ [٣]

وقد وقع مثل هذه الضرورة في كلام المتقدمين كقول عامر بن الطفيل :

فَمَا سَوَّدَتْنِي عَامِرٌ عَنْ وَرَاثَةٍ   أبَى اللهُ أنْ أسْمُو بأمٍّ وَلا أبِ [٤]

وقول كعب بن زهير :

أرْجُو وآمُلُ أنْ تَدْنُو مَوَدَّتُهَا   وَمَا إِخَالُ لَدَيْنَا مِنْكَ تَنْوِيلُ [١]

---

(١) السقط ج ٢ ص ١٢١ (ج) : وانظر ماسبق ص ٩٥٣ .

(٢) السقط ج ٢ ص ٨٧ (ج) مطلعها :

سمعت نعيَّها صمَّي صمَامِ   وإن قال العواذل لا همَامِ

وانظر شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٤٥٣ .

(٣) اللزوميات ٥ ص ١٩٦ .

(٤) انظر ماسبق ص ٦٢٤ .

وقول الآخر :

إِذَا شِئتَ أَنْ تَلْهو ببعضِ حَديثها   رَفَعْنَ وأَنْزَلْنَ الحديثَ المقطّعَا[١]

ووقع كثير مثلها في أقوال المتأخرين أيضاً كقول المتنبي :

إِذَا شَاء أن يَلْهُو بِلِحْيةِ أَحمَقٍ   أراهُ غُبَاري ثم قالَ له الحقِ[٢]

وللنحاة في مثل هذا قولان ، الأول : إهمال « أن » المصدرية حملا على ما المصدرية ، والثاني : إجراء الفتحة على الواو مجرى الضمة للضرورة ، قال المبرد : وهو من أحسن الضرورات . وقد جاء اسكان الواو في النثر ، وقرأ الحسن قوله تعالى: ﴿إلا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الّذي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾[٣] بسكون الواو في يعفو. قال الزمخشري : وإسكان الواو والياء في موضع النصب تشبيه لهما بالألف لأنها أختاها .

١٠ – ان محاكاة العرب وإيثار الألفاظ البدوية غير محصورة في طور واحد من أطوار شعره . وأكثر (سقط الزند) مطبوع على هذا الغرار ، مع اختلاف الزمن الذي قيلت فيه قصائده .

١١ – ان المعاني البدوية مستفيضة في أكثر قصائده ، وقلما خلت قصيدة له منها ، لا سيما ما كان منها في مدح ، أو تهنئة ، أو تشوق ، أو فخر ، أو رثاء .

١٢ – ان غريب اللغة الذي ذكره مبثوث في أكثر أقواله ؛ ولعل السبب في ذلك وفيما قبله أنه كان لا يراه غريباً كما قدمنا ؛ وأنه الكثرة ما كان يحفظه من كلام العرب في أغراض مختلفة تأثر بألفاظهم ومعانيهم . انظر إلى قصيدته :

(١) انظر ما سبق ص ٦٢٤ .
(٢) العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب ٢/٣٦٢ .
(٣) سورة البقرة الآية ٢٣٧ .

أرَى العَنْقَاءَ تَكْبُرُ أنْ تُصَادَا[1] . . . .

فإنها طافحة بالألفاظ والمعاني البدوية .

وفي الجملة لم يوفق صاحب (الذكرى) إلى ما أراده من التقسيم ، ولا فيما أورده من الخصائص لكل طور .

التقسيم القريب من القبول والصحة

ويظهر للمتأمل أن تقسيم شعره بحسب الزمن تقسيماً صحيحاً غير متيسر ، لأن ذلك يتوقف على معرفة شعره كله ، وعلى معرفة زمن كل قصيدة أو قطعة أو بيت منه ؛ وكلا الأمرين بعيد المنال . وإذا لم يكن بد من تقسيمه لتقريب البحث على الدارس بقدر الإمكان ، فالأقرب أن يقسم شعره إلى عهدين :

الأول : شعره من أول حياته الشعرية إلى حين رجوعه من بغداد ، ومدة هذا العهد نحو سبع وثلاثين سنة .

الثاني : شعره بعد رجوعه من بغداد إلى نهاية عمره ، ومدة هذا العهد نحو تسع وأربعين سنة ؟.

العهد الأول

أما شعره في العهد الأول ، فهو كثير المبالغة ، له حظ وافر من التكلف ، وفيه شيء من المصطلحات العلمية تقل في أوله وتكثر في آخره ، وأسلوبه فيه متين قوي الأسر ، وعلى مدحه وفخره مسحة البداوة ،

(١) عجزه : « فعاند من تطيق له عنادا » . وهو مطلع دالية في السقط ، انظر شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٥٠٣ .

وللحِكَم فيه نصيب وافر ، وفيه قصائد من عيون الشعر وآياته في الرثاء والمدح والفخر وغيرها .

وهذا الحكم إجمالي لأننا لم نقف على كل شعره ، ولم نعرف زمن كل قصيدة منه .

الأغراض في هذا العهد

أما الأغراض التي نظم فيها الشعر في هذا العهد فهي : النسيب ، والمدح : والفخر ، والهجاء ، والرثاء ، والوصف ، والحنين إلى بلاده ، والحكمة ، وتقل فيه الأغراض والمعاني الفلسفية بالنسبة للعهد الذي بعده .

العهد الثاني

وأما شعره في العهد الثاني فيقسم إلى قسمين :

الأول : قصائده في المدح ، والرثاء ، والحنين إلى بغداد وأهلها ، وأجوبته للشعراء ، وتهنئته وما شاكل ذلك . وشعره هذا كله من فصيلة شعره في العهد الأول ؛ إلا أن خياله فيه أوسع مدى ، ونصيبه من المصطلحات العلمية أوفر .

الثاني : شعره في (لزوم ما لا يلزم) وهذا على ما في بعض أبياته من التكلف ، قوي الأسر ، محكم الوضع ، شريف المعنى ؛ وفيه من أنواع الحكمة ومسائل العلم أكثر مما في العهد الأول .

ولا يخلو شعره في هذا العهد من الصناعات البديعية ، لا سيما الجناس ، والتورية ، والطباق ، والمقابلة ، والتلميح .

الأغراض في العهد الثاني

وقد تناول في هذا العهد جميع الأغراض التي نظم فيها في العهد الماضي، وزاد عليه كثرة الآراء الفلسفية والمسائل العلمية . وعلى شعره مسحة البداوة في كل عهد .

وهذا الحكم إجمالي كما ذكرنا .

تاريخ بعض قصائده وأبياته

قلنا : إن التاريخ لم يساعدنا على معرفة الزمن لكل قصيدة أو قطعة من شعر المعري ، ولكننا استطعنا معرفة بعض ذلك مما ذكر في عناوينها ، أو استنتجناه من مضامينها ، أو من الحوادث المرتبطة بها ، أو من دليل آخر . فنذكر طرفاً منه هنا ليتضح للباحث معرفة شيء من اسلوبه الحقيقي في كل عهد :

ما قاله في العهد الأول

١ ـ ذكر في (سقط الزند ج ٢ ص ٢٠)[١] قصيدة مطلعها :

أَلَيسَ الذي قَادَ الجِيَادَ مُغِذَّةً   رَوَافِلَ في ثَوبٍ مِنَ النَّقْعِ ذَائِلِ

وذكر في عنوانها أنه قالها في الصّبى ، وليس في أبياتها ما يدل على ذلك . فلعل كلمة « في الصبى » من زياده الشراح أو النساخ . أو ربما حذف من القصيدة بعض الأبيات ، أو توسعوا في معنى الصبى حتى تتناول ما بعده .

---

(١) التنوير على سقط الزند ـ للخوئي . وانظر شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١٠٦٧ .

٢ — وفي (ج ٢ ص ٢٤)[١] منه أبيات أولها :

لِتَذْكُرْ قُضَاعَةُ أيَّامَهَــــا وتُزْهَ بأمْلاكِهَــــا حِمْيَرُ

وقد جاء في عنوانها : أنها من قصيدة قالها في صباه يمدح فارس ويفضلها على العراق . وليس في الأبيات المذكورة ما يدل على أنها قيلت في الصبى ؛ بل ليس فيها تفضيل لفارس على العراق . ولعل ذلك كان في أبيــات أخر لم تذكر ، لأن أبا العلاء كان يحذف بعض الأبيات من (السـقط) كما ذكر ذلك صاحب التنوير والتبريزي والبطليوسي في مواطن متعددة .

٣ ـ مرثيته لأبيه[٢] :

نَقِمْتَ الرِّضَى حَتَّى عَلَى ضَاحِكِ الْمُزْنِ

فَلاَ جَادَنِي إلاَّ عَبُوسٌ مِنَ الدَّجْنِ

وقد كانت وفاة أبيه سنة ٣٧٧ هـ أو ٣٩٥ هـ[٣] .

٤ ـ قصيدته في مدح سعيد الدولة التي مطلعها[٤] :

أعَنْ وَخْدِ القِلاَصِ كَشَفْتِ حَالاَ وَمِنْ عِنْدِ الظَّلاَمِ طَلَبْتِ مَالاَ

وقد ذكر في (ضوء السقط) أنه كتب بها لسعيد الدولة بن سعد الدولة . وذكر الميمني أنه وجد في عنوان نسخة (السقط) التي في دار الكتب الأهلية في باريس أنه قالها في سعيد الدولة حفيد سيف الدولة سنة ٣٩٠ هـ وقد كانت إمارة سعيد من سنة ٣٨١ هـ إلى سنة ٣٩٠ هـ وفيها يقول :

---

(١) التنوير ، وانظر شروح السقط ق ٣ س ١٠٨٧ .

(٢) ذكرها الخوي في التنوير ١/١٩٣ وهي في شروح السقط ق ٢ س ٩٠٧ .

(٣) انظر ما سبق ص ١٧٣ حول سنة وفاته .

(٤) ذكرها الخوي في التنوير ١/١٤ وهي في شروح السقط ق ١ س ٢٥ .

سَأَلْنَ فَقُلْتُ مَقْصِدُنَا سَعِيدٌ   فَكَانَ اسمُ الأَمِيرِ لَهُنَّ فَالاَ

وقد أشار فيها إلى الحروب التي كانت بين سعيد وبين عسكر مصر وهي ما بين سنة ٣٨٣ هـ وسنة ٣٨٦ هـ .

٥ً ـ وقصيدته التي مدح بها أبا ابراهيم العلوي ومطلعها [١] :

أَلاَحَ وَقَدْ رَأَى بَرْقاً مُلِيحَا   . . . .

يقول فيها :

أعبّادَ المسيحِ يخافُ صحْبي   ونحنُ عبيدُ منْ خلقَ المَسيحَا

وقد قال الشراح : إن هذه القصيدة قيلت وملك الروم خرج إلى أرض المسلمين ، وخاف الذين قربوا منه فرحلوا عن أوطانهم .

وقد ذكر المؤرخون أن فردوس الدمستق نزل على باب حلب سنة ٣٧٣ هـ في خمسمائة الف فارس ، فالتقى في الميدان مع عسكر سعد الدولة ، ثم رجع عسكر فردوس وأتبعه سعد الدولة جيشاً من قبله غازياً حتى بلغ عسكره أنطاكية .

وفي سنة ٤٢١ هـ خرج ملك الروم من القسطنطينية إلى الشام ، فبلغوا قريباً من حلب وكان صاحبها شبل الدولة نصر بن صالح بن مرداس .

٦ً ـ وذكر البطليوسي (ج ١ ص ٣٥٠) [٢] أن أبا العلاء مدح الشريف أبا ابراهيم العلوي بقصيدته التي يقول في مطلعها :

---

(١) ذكرها الخويي في التنوير ج ١ ص ٥٦ ، وهي في شروح سقط الزند : ق ١ ص ٢٣٧ . وعجز المطلع : سرى فأتى الحمى نضواً طليحا .

(٢) من شروح سقط الزند ، والقصيدة في التنوير ج ١ ص ٧٧ .

إلَيْكَ تَنَاهَى كُلّ فخرٍ وَسُؤْدَدِ   فَأَبْلِ اللّيَالي والأَنَامَ وَجدِّدِ

وأما القصيدة التي مطلعها :

لَقَدْ آن أنْ يَثْني الجَمُوحَ لِجَامُ   وأنْ يَملِكَ الصَّعْبَ الأبيَّ زِمَامُ (١)

فالذي يفهم من كلام البطليوسي ، والتبريزي ، والخوارزمي (٢) . والخوني شراح (سقط الزند) ومن القصيدة المذكورة ، من كلام ابن الأثير في (الكامل ج ٩ ص ٣٧) أن العزيز صاحب مصر

---

(١) في شروح السقط : « ... ذمام » بالذال .

(٢) يقول البطليوسي : « وقال يصف وقعة كانت للسلمين على الروم بموضع يعرف بالروج قريب من المعرة . وكان رئيس السلمين بنجوتكين التركي في أيام العزيز بالله » .

وقال البطليوسي أيضاً عند شرحه البيت :

كأن لم يكن بين المخاض وحارم   كتائب يشجين الفلا وخيام

« المخاض : نهر يخاض ، قريب من المعرة بأرض تعرف بالروج .

وحارم : بلد قريب من أنطاكية . وكان التقى بهذا الموضع عسكر السلمين وعسكر الروم . فتقاتل الفريقان والمخاض بينهما ، ثم عبر السلمون إليهم النهر فانهزموا .. » .

وقال التبريزي : « المخاض : نهر يخاض في الأرض التي تعرف بالروج وهي قريبة من معرة النعمان ، والتقى في هذا الموضع عسكران ، أحدهما للسلمين ، وأمير العسكر الذي للسلمين بنجوتكين التركي الذي اصطنعه أبو منصور نزار ، الملقب بالعزيز بن معد الملقب بالمعز . فتقاتل العسكران والمخاض بينهما ، ثم عبر السلمون إليهم ، فانهزموا ... » .

وقال الخوارزمي : « المخاض : نهر بالقرب من معرة النعمان . حارم : مدينة قريبة من أنطاكية ، كانت بها وقعة بين الروم والسلمين ، فانهزم الروم ... » .

وقال الخوني : « المخاض : نهر بالقرب من معرة النعمان . وحارم : بلد قريب من أنطاكية . وكانت بينها وقعة بين السلمين وبين الروم ، وانهزم الروم بين يدي السلمين ... » .

انظر شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٦٠٢ ـ ٦٠٤ . والتنوير على سقط الزند ١/١٢٥ .

جهز جيشاً إلى حلب ، وجعل منجوتكين أميراً عليــه ، وذلك في سنة ٣٨١ هـ بعد وفاة سعد الدولة وتولي ولده أبي الفضــائل مكانه ، لأن الوزير أبا الحسن المغربي أطمعه فيهــا . فسار منجوتكين وحصرها ، وفيهـا أبو الفضائل والوصيُّ عليه لؤلؤ ؛ فكتبــا إلى بسيل ملك الروم يستنجدانه ، وكان يقاتل البلغــار ، فأرسل إلى نائبه بأنطاكية يأمره بإنجاد أبي الفضائل . فسار في خمسين ألفاً حتى نزل على الجسر الجديد بالعاصي ؛ فلما سمع منجوتكين الخبر سار إلى الروم ليلقاهم قبل اجتماعهم بأبي الفضائل ، وعبر اليهم العاصي ؛ وأوقعوا بالروم فهزموهم ، وولوا الأدبار نحو أنطــاكية ، وكثر القتل فيهم ، وتبعهم منجوتكين إلى أنطاكية ، فنهب بلدها وقراها وأحرقها . ثم عاد إلى حلب فحصرها ، فأرسل لؤلؤ الى أبي الحسن المغربي وغيره مالاً ليردوا منجوتكين عنهم هذه السنة بعلّةِ تعذّر الأقوات ، ففعلوا وسار إلى دمشق ، فغضب العزيز وكتب بعودِ العسكر إلى حلب ، وإبعاد المغربي . فعاد العسكر وحاصرها ثلاثة عشر شهرا . وعاد لؤلؤ فراسل ملك الروم ، فنزل على باب حلب ، ورحل جيش مصر .

وأغضب ذلك العزيز ، واستنفر الناس لغزو الروم ، وخرج من القاهرة وحدث به مرض فمات سنة ٣٨٦ هـ .

وذكر الشراح وغيرهم أن منجوتكين عبر بعسكره المخاض ، وهو نهر يخــاض في الأرض التي تعرف بالروج . واقتتل العسكران ، ثم انهزم الروم .

وان حارم مدينة قريبة من أنطاكية ، كانت بهــا وقعة بين الروم والمسلمين فــانهزم الروم . وأن الروم كانوا يسكنون في بقعة كانت في أيديهم . وقد عبّر عنه أبو العلاء بالمحل وذكر البطليوسي في (شرح السقط

ج ٢ ص ٦١١) أن أبا العلاء يخاطب بقوله في هذه القصيدة :

وَرَدُّوا إليكَ الرُّسْلَ وَالصُّلْحُ مُمْكِنٌ[1] . . . .

العزيز بالله ، فتكون هذه القصيدة في مدحه . وقد قالها بعد انكسار الروم في سنة ٣٨١ هـ ولا أستبعد أن تكون لقائد جيشه منجوتكين بل ذلك أقرب .

وقال التبريزي في (شرح السقط) عند قوله :

إلى حَارِمٍ قَادَ العِتَاقَ سَوَاهِماً[2] . . . .

وكان هذا المخاطب قد غزا حارماً في بعض السنين .

٨ً ـ وقال البطليوسي في (شرح السقط) : « وله من قصيدة أولها[3] :

هُوَ الهَجْرُ حَتّى ما يُلِمُّ خَيَالُ وَبَعْضُ صُدُودِ الزائرينَ وِصَالُ

وهذه القصيدة مدح بها رجلاً يقال له علي بن الحسين ، ويعرف بابن المغربي . وكان مدبر عسكر بنجوتكين التركي الذي اصطنعه العزيز من أمراء الشيعة . وكان لقي الروم بموضع يعرف بالروج ، وبين العسكرين نهر ، فخاضه المسلمون إلى الروم وأوقعوا بهم » . وقال في شرح قوله :

إلى حَارِمٍ قَادَ العِتَـــاقَ . . . .

« حارم : بجاه وراء غير معجمتين ، وهو واد قريب من أنطاكية ،

---

(١) عجزه : « وقالوا على غير القتال سلام » .

(٢) عجزه : « لها من نشاط بالكماة زمال » .
انظر شروح السقط ق ٣ ص ١٠٤٧ .

(٣) المصدر السابق ص ١٠٤٧ ـ ١٠٥٩ .

كان لقي فيه بنجوتكين التركي قائد العزيز بالله الرومَ فهزمهم . وكان الممدوح بهذا الشعر قد ولاّه بنجوتكين أمر عسكره وقدمه عليه . وقد ذكر المعري هذه الوقعة في قوله :

كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ المخَاضِ وحَارِمٍ   كَتَائِبُ يُشْجِينَ الفَلاَ وَخِيَامُ

وقال في شرح قوله في هذه القصيدة :

وَكَيفَ لِقَاءُ ابنِ الحُسَيْنِ مُخَالِفٌ   يُحَدَّثُ عَنْ أَفعَالِهِ فَيُهَالُ

« هو علي بن الحسين ، المعروف بابن المغربي . . . » .

وقال التبريزي في شرح قوله :

وَفي الخَيْلِ مِنْ مَاءِ المَخَاضَةِ عِفَّةٌ   وَهُنَّ إِلى مَاءِ النُّفُوسِ نِهَالُ

« المخاضة : يراد بها مخاضة ماء ، وكان علي بن الحسين المعروف بابن المغربي مدبر ذلك العسكر ، وأميره بنجوتكين التركي الذي اصطنعه العزيز من أمراء الشيعة ؛ فالتقوا بالمكان الذي يعرف بالروج ؛ وبين الفئتين مـاء يخاض ، فخـاضه اليهم المسلمون ، وظفروا ظفراً عظيما . . . » .

وقال البطليوسي في (شرح سقط الزند) [1] عند شرحه الأبيات التي أولها :

لِتَذْكُرْ قُضَاعَةُ أَيَّامَهـا   وَتُزْهَ بِأَمْلاَكِهَـا حِمْيَرُ

« هذه الأبيات له من قصيدة قالها في صباه يمدح بهـا علي بن الحسين المغربي الفارسي . . . » .

---

(١) شروح السقط ق ٣ ص ١٠٨٧ .

١٠ — قصيدته التي مطلعها (١) :

مَعَانٌ مِنْ أَحِبَّتِنَا مَعَـــانُ ... تُجِيبُ الصَّاهِلاتِ بِهِ القِيانُ

فقد ذكر الخوارزمي عن الزمخشري أنه قالها في أبي الفضائل سعيد بن شريف بن علي بن أبي الهيجاء . وجاء في شرح التبريزي والبطليوسي : سعد بن شريف بن علي بن أبي الهيجاء .

١١ — وكذلك قصيدته التي مطلعها (٢) :

اِبْقَ في نِعْمَةٍ بَقَـاءَ الدهُورِ ... نَافِذَ الأَمْرِ في جَمِيعِ الأُمُورِ

فقد قال في (ضوء السقط) : إنه يعني بها بعض بني حمدان ملوك حلب . وفي الميمني : إنه قالها في سعيد الدولة الحمداني .

١٢ — وقصيدته التي أولها :

يَا لَلْمُفَضَّلِ تَكْسُونِي مَدَائِحُهُ . . . . (٣)

---

(١) ذكرها الخويي في التنوير ج ١ ص ٤١ ، وهي في شروح السقط ق ١ ص ١٧٢ . ومعان الأولى : اسم موضع بعينه . ومعان الثانية : المنزل أو المكان الكثير الحلق .

(٢) هي في التنوير ج ١ ص ٥٣ وفي شروح السقط ق ١ ص ٣٢٤ .

(٣) تمام البيت : « ... وقد خلعت لباس المنظر الأنق » .

قال الخويي في التنوير : « وقال أيضاً في البسيط الأول والقافية من المتراكب يجيب بعض الشعراء عن قصيدة أولها :

ارقد هنيئاً فذي دائم الأرق ... ولا تشقني وغيري سالياً فشق

وعلى هذه الرواية يكون البيت :

يا للمفضل تكسوني مدائحه ... وقد خلعت لباس المنظر الأنق

مطلع قصيدة أبي العلاء كما ذكر ذلك الخويي وكما أورده المؤلف ، بيد أنه ذكر في شروح السقط نقلاً عن الخوارزمي والتبريزي أن البيت :

فإن قوله فيها :

وَمَا ازْدُهِيتُ وَأَثْوابُ الصِّبَى جُدُدٌ
فَكَيفَ أَزْهُو[1] بِثَوْبٍ مِنْ صِبىً خَلَقِ

يدل على أنه قالها في عهد الكهولة . وزعم بعض المعاصرين أن المفضّلَ ابنُ سعيد بن عَمرو المعري . ولا يتعين ذلك ، أو ليس في القصيدة ما يدل عليه . وقد كان في المعرة في عهد أبي العلاء جماعة يسمَّون بالمفضل ، منهم المذكور ، ومنهم المفضل بن محمد بن المهذب ، ومنهم المفضل بن جعفر بن علي بن المهذب ، ومنهم المفضل بن أبي غانم ، ومنهم المفضل بن محمد بن مسعر . ولم أستطع تعيين واحد منهم . على أن لفظ « المفضل » في البيت لا يجب أن يكون علما ، بل يجوز أن يكون صفة مدح فتأمل . والقصيدة تدل على أن المفضل هذا تلميذ لأبي العلاء امتدحه بأبيات فأجابه بهذه القصيدة .

١٣ — وقصيدته :

غَيْرُ مُجْدٍ فِي مِلَّتِي وَاعْتِقَادِي[2] . . . .

— ارقد هنيئاً نائي دائم الأرق ولا تشقني وغيري سالياً فشق
أول قصيدة أبي العلاء ، وأن البيت ، وروايته في الفروح :
يا المفضل يكسوني مدائحه . . . . .
هو ثاني أبياتها . ولم ترو هذه القصيدة جملة في البطليوسي . انظر التنوير على سقط الزند ج ١ ص ١٤٢ ، وشروح السقط ق ٢ ص ٦٧٣ — ٤ .

(١) في شروح السقط : « ... أزهى . . . » .

(٢) تمامه : « نوح باك ولا ترنم شادي » .
انظر التنوير على سقط الزند ج ١ ص ٢٠٨ وشروح السقط ق ٣ ص ٩٧١ .

فإنه رثى بها أبا حمزة الحسن بن عبد الله بن محمد بن عمرو بن سعيد بن محمد بن داود بن المطهر التنوخي ، وقد كانت وفاته قبل الأربعمائة . ويفهم من القصيدة أن المرثي بها كان خليل صباه ، وأنه مات شابا .

١٤ — وقصيدته التي مطلعها :

لَا وَضْعَ لِلرَّحْلِ إِلَّا بَعْدَ إِيضَاعِ ... فَكَيْفَ شَاهَدْتَ إِمْضَائِي وإِزْمَاعِي[١]

فإنه كتبها إلى أبي حامد الإسفرائيني بعد دخوله بغداد سنة ٣٩٨ ﻫ .

١٥ — ومنها أبياته اللامية التي أجاب بها القاضي أبا الطيب طاهر بن عبد الله البصري[٢] ، وهو في بغداد ومطلع الأبيات الأولى :

---

(١) هي في التنوير على السقط ج ١ ص ١٥٨ وشروح السقط ق ٢ ص ٧٤١ .

(٢) كذا في الأصل ، ولعل المؤلف يريد : « الطبري » فقد جاء في (فائت شعر أبي العلاء) ضميم (أبو العلاء وما إليه) للميمني ص ٩ نقلاً عن بدائع البدائه بهامش المعاهد ١١٤/٢ ، والوفيات ٢٣٣/١ ومرآة الجنان لليافعي ٧٠/٣ مانصه : « قال القاضي أبو الطيب الطبري : كتبت إلى أبي العلاء المعري حين وافى بغداد .... » .

وذكر خمسة أبيات مطلعها :

وما ذات در لا يحل لحالب ... تناوله واللحم منها محلل

وقال : « فأجابني وأملى على الرسول في الحال ارتجالا :

جوابان عن هذا السؤال كلاهما ... صواب وبعض القائلين مضلل

وذكر بعد هذا البيت خمسة أبيات أخر ثم قال : « فأجبته عنه وقلت :

أثار ضميري من يعز نظيره ... من الناس طراً سابغ الفضل مكمل

وأورد مقطعته التي تبلغ ثمانية أبيات وقال : « فأجاب مرتجلا وأملى على الرسول :

ألا أيها القاضي الذي بدهاته ... سيوف على أهل الخلاف تسلل

وذكر بعده ثلاثة عشر بيتاً لأبي العلاء .

وجاء في تتمة المختصر في أخبار البشر لابن الوردي : « ووضع أبو طاهر الحافظ السلفي كتاباً في أخبار أبي العلاء ، وقال فيه مسنداً عن القاضي أبي الطيب —

جَوابانِ عَن هَذَا السُّؤالِ كِلاهُما　　صَوابٌ وبَعضُ القَائِلينَ مُضَلَّلُ

ومطلع الثانية :

ألا أيُّها القَاضِي الذي بِدَهَائِهِ　　سُيُوفٌ على أهلِ الضَّلالِ تُسَلَّلُ

١٦ — وقصيدته التي قالها في بغداد يتشوق إلى المعرة ، ومطلعها [١] :

طَرِبْنَ لِضَوْءِ البَارِقِ المُتَعالي　　بِبَغْدادَ وَهْناً مَالَهُنّ ومَالِي

١٧ — وقصيدته الثانية فيها التي مطلعها [٢] :

مَغَانِي اللِّوَى مِن شَخصِكِ اليَوْمَ أطْلالُ
وَفي النَّوْمِ مَغْنىً مِنْ خَيالِكِ مِحْلالُ

١٨ — وقصيدته التي رثى بها الشريف أبا أحمد الموسوي والد الشريف المرتضى والرضي ، ومطلعها [٣] :

أوْدَى فَلَيْتَ الحَادِثاتِ كَفَافِ　　مَالُ المُسِيفِ وَعَنْبَرُ المُسْتَافِ

— الطبري رحمه الله : كتبت إلى أبي العلاء المعري حين وافى بغداد ، وقد كان نزل في سويقة غالب ... » . وذكر ماذكره اليمني في كتابه .

وأبو الطيب هذا هو طاهر بن عبد الله بن طاهر بن عمر الطبري القاضي الفقيه الشافعي ، ونسبته إلى طبرستان ، ولد بآمل سنة ٣٤٨ هـ وتوفي ببغداد سنة ٤٥٠ هـ ولامية أبي العلاء هاتان الأبيتان مما لم يرو في الديوانين .

انظر تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٢١٢ عن تتمة المختصر لابن الوردي . وطبقات الشافعية ٣ / ١٧٦ — ١٩٧ .

(١) التنوير على السقط ج ٢ ص ٣٨ وشروح سقط الزند : ق ٣ ص ١١٦٢ .

(٢) التنوير على السقط ج ٢ ص ٤٦ وشروح السقط ق ٣ ص ١٢١١ .

(٣) التنوير على السقط ج ٢ ص ٥٥ وشروح السقط ق ٣ ص ١٢٦٤ .

١٩ – وقصيدته التي يهنىء بها أبا القاسم التنوخي بمولود ، ومطلعها [١] :

مَتَى نَزَلَ السِّماكُ فَحَلَّ مَهْداً تُغَذِّيهِ بِدَرَّتِها الثُّدِيُّ

وفيها يقول :

إذَا نأَتِ العِراقَ بِنَا المَطَايا فلا كُنَّا ولا كانَ المَطِيُّ
على الدُّنيا السَّلامُ فما حَياةٌ إذا فارَقْتُكُم إلا نعِيُّ [٢]

وقد قال البطليوسي : إنه قالها في بغداد .

٢٠ – وقصيدته التي ودع بها بغداد ، ومطلعها [٣] :

نَبِيٌّ مِنَ الغِرْبانِ لَيسَ على شَرْعِ يُخَبِّرُنا أنَّ الشُّعُوبَ إلى الصَّدْعِ

قال الخوارزمي : إنه قالها بمدينة السلام .

٢١ – والقصيدة التي أجاب بها محمد بن حمد بن فورّجة ، ومطلعها [٤] :

كَفَى بِشُحُوبِ أوْجُهِنا دَليلاً على إزْمَاعِنَا عَنْكَ الرَّحِيلا

قال البطليوسي : إنه قالها بمدينة السلام وكذلك صاحب التنوير .

٢٢ – والقصيدة التي أجاب بها ابن تميم البرقي ، ومطلعها [٥] .

أمُعَاتِبي في الهَجْرِ إنْ جارَيْتَني طَلَقَ الجِدَالِ وُجِدْتَ عَيْنَ الظَّالِمِ

---

(١) التنوير على السقط ج ٢ ص ٦٦ ، ٦٨ وشروح السقط ق ٣ ص ١٣٢١ ، ١٣٣٠ ، ١٣٣١ .

(٢) في الشروح : « . . . . إلا النعي » .

(٣) التنوير على سقط الزند ج٢ ص ٦٨ وشروح السقط ق٣ص١٣٣٢ وفيها «الصدع» .

(٤) التنوير على السقط ج ٢ ص ٨٠ وشروح السقط ق ٣ ص ١٣٦٩ .

(٥) التنوير على السقط ج ٢ ص ٩٨ ، ١٠٠ وشروح السقط ق ٤ ص ١٥١٦ ، ١٥٢٣ .

فإن قوله فيها :

بِمَحَلَّة الفُقَهاء لا يَعْشُو الفَتَى نَاري ولا تُنْضِي المَطِيَّ عَزَائِمي

يدل على أنه قالها وهو في بغداد .

٢٣ – وقصيدته التي أجاب بها أبا الخطاب محمد بن علي الجَبُّليّ ، ومطلعها (١) :

أَشْفَقْتُ مِنْ عِبْءِ البَقَاءِ وَعَابِهِ وَمَلِلْتُ مِنْ أَرْيِ الزَّمانِ وَصَابِهِ

فإن الخطيب روى في (تاريخ بغداد) هذه القصيدة عن أبي القاسم التنوخي عن أبي العلاء . وذكر غير الخطيب أن أبا الخطاب زار أبا العلاء قبل رحلته إلى بغداد ومدحه ، فأجابه أبو العلاء بالبائية المذكورة .

٢٤ – وذكر البديعي في (أوج التحري) أن القصيدة التي مطلعها (٢) :

مِنْكِ الصُّدُودُ وَمِنِّي بالصُّدُودِ رِضَى مَنْ ذا عَلَيَّ بِهذا في هَواكِ قَضَى

قالها أبو العلاء وهو في بغداد .

ما قاله في العهد الثاني

١ – في سقط الزند كثير مما نظمه بعد رجوعه من بغداد ، مثل

(١) التنوير على سقط الزند ج ١ ص ١٥٣ وشروح السقط ق ٢ ص ٧١٥ ، وانظر ترجمة أبي الخطاب هذا وخبره مع أبي العلاء في تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٣٩٣ .

(٢) أوج التحري عن حيثية أبي العلاء المعري – ليوسف البديعي والتنوير على سقط الزند ج ١ ص ١٣٢ ، وشروح السقط ق ٢ ص ٦٥٤ .

القصيدة التي أرسلها إلى أبي عبد السلام والبصري والتي مطلعها[١] :

تَحِيَّةُ كِسْرَى في السَّنَاءِ وَتُبَّعِ لِرَبْعِكَ لا أرضى تَحِيَّةَ أَرْبُعِ

٢ — والقصيدة التي أرسلها إلى أبي القاسم التنوخي ، وأولها[٢] :

هَاتِ الحَديثَ عَنِ الزَّوْرَاءِ أَوْ هِيتَا وَمُوقِدِ النَّارِ لا تَكْرَى بِتَكْرِيتَا

٣ — والقصيدة التي أرسلها إلى خازن دار الكتب ببغداد ، ومطلعها[٣]:

لِمَنْ جِيرَةٌ سِيمُوا النَّوالَ فَلَمْ يُنْطُوا

يُظَلِّلُهُمْ مَا ظَلَّ يُنْبِتُهُ الخَطُّ

فإنه ذكر فيها أمر السفينة التي أعادها إليه آل حكار بقوله :

فإنْ يُنْسِهِمْ أمرَ السَّفِينَةِ فَضْلُهُمْ

فَلَيْسَ بِمُنْسِيَّ الفِراقُ وَلا الشَّحْطُ

وذكر فيها الفتنة العامرية الطائية ، والظاهر أنه أراد بها ما اتفق عليه صالح بن مرداس من بني كلاب بن عامر بن صعصعة ، وحسان أمير طيء وسنان بن عليان ؛ فقد تحالفوا على أن يكون لصالح من حلب إلى عانة، ولحسان من الرملة إلى مصر ، ولسنان دمشق ، فاستولى صالح على حلب وملك مابين بعلبك إلى عانة ، وسار حسان إلى الرملة ، ووقعت فتن وحروب وكانت هذه الحادثة سنة ٤١٤ هـ وقبيل بعد ذلك .

---

(١) التنوير على سقط الزند ج ٢ ص ١٠١ وشروح السقط ق ٤ ص ١٥٢٢ .

(٢) التنوير على سقط الزند ج ٢ ص ١١٢ وشروح السقط ق ٤ ص ١٥٩٣ .

(٣) التنوير على سقط الزند ج ٢ ص ١٢١ وشروح السقط ق ٤ ص ١٦٤٦ .

٤ – والقصيدة التي يقول فيها[1] :

فَيَالَيْتَنِي أَهْدَيْتُ خَمْسِينَ حِجَّةً مَضَتْ لي فيها صِحَّتي وَشَبَابي

فإنها قيلت سنة ٤١٣ هـ أو سنة ٤٢٠ هـ على مـا تقدم في الكلام على القاضي عبد الوهاب المالكي .

٥ – والقصيدة التي يقول فيها لأبي القاسم التنوخي[2] :

أذاكِرٌ أنتَ عصراً مرَّ عندكَ لي فليسَ مِثْلي بنَاسٍ ذلكَ العُصُرَا

ويقول فيها :

والمالكيُّ ابنُ نصرٍ زارَ في سَفَرٍ بلادَنا فَحَمِدْنا النَّأْيَ والسَّفَرا

فإنها قيلت نحو سنة ٤٢٠ هـ لأنها قيلت بعد زيارة ابن نصر .

٦ – والأبيات التي قالها لصريع الدلاء علي بن عبد الواحد البغدادي ، ومطلعها[3] :

تَفَهَّمْ ياصَرِيعَ البَيْنِ بُشْرَى أَنتْ مِنْ مُسْتَقِلٍّ مُسْتَقِيلِ

---

(١) مطلعها :

أبسط عذري منعم أم يخصني بما هو حظي من أليم عتاب

قال البطليوسي : « وقال يخاطب القاضي أبا محمد عبد الوهاب بن نصر المالكي ، وكان اجتاز بالمعرة فبعث اليه بثلاثين درهما » .

انظر شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٧٣٢ ، والتنوير على السقط ج ٢ ص ١٣٨ .

(٢) مطلعها :

لولا مساعيك لم نعدد مساعينا ولم نسام بأحكام العلا مضرا

انظر شروح السقط : ق ٤ ص ١٧٣٦ ، والتنوير على السقط ج ٢ ص ١٣٩ .

(٣) التنوير على السقط ج ٢ ص ٣٤ . وشروح السقط ق ٣ ص ١١٤١ .

فقد ذكر ابن خلكان أن صريع الدلاء هذا طلب من أبي العلاء شرابًا وما يليق به، فسير إليه قليل نفقة واعتذر إليه بهذه الأبيات؛ وأنه قدم مصر سنة ٤١٢ هـ وتوفي فيها. فهذه الأبيات إما في هذه السنة أو في التي قبلها.

٧ — والقصيدة اللامية التي رثى بها أمه، ومطلعها [١]:

خُلُوُّ فُؤادي بالمَوَدَّةِ إِخلالُ وَإِبلاءُ جِسْمي في طِلابِكَ إِبلالُ

٨ — والقصيدة الميمية التي رثى بها أمه أيضًا، ومطلعها [٢]:

سَمِعْتُ نَعِيَّها صَمِّي صَمَامِ وإنْ قالَ العَواذِلُ لا هَمَامِ

فإن كلتيهما قيلتا بعد عودته من العراق سنة ٤٠٠ هـ وفي الميمية ذكر قبائل عامر، ودعا عليها. وهذا يدل على أنها قيلت أيام الفتنة العامرية الطائية.

٩ — والقصيدة التي رثى بها جعفر بن علي بن المهذب، ومطلعها [٣]:

أَحْسَنُ بِالوَاجِدِ مِنْ وَجْدِهِ صَبْرٌ يُعيدُ النَّارَ في زَنْدِهِ

وقد قيل إن جعفرًا هذا توفي نحو سنة ٤٣٥ هـ.

١٠ — والقصيدة التي مطلعها [٤]:

لَيْتَ الجِيادَ خَرِسْنَ يَوْمَ جُلاجِلِ ورُزِقْنَ عَقْلاً في تَنائِفِ عاقِلِ

---

(١) التنوير على سقط الزند ج ٢ ص ١٣٧ وشروح السقط ق ٤ ص ١٧٢٥.
(٢) التنوير على سقط الزند ج ٢ ص ٨٧ وشروح السقط ق ٤ ص ١٤٥٣.
(٣) التنوير على سقط الزند ج ٢ ص ٢ وشروح السقط ق ٣ ص ١٠٠٦.
(٤) التنوير على سقط الزند ج ١ ص ١٥٦، ٧ وشروح السقط ق ٢ ص ٧٢٩، ٧٣٦.

وفيها يقول :

لا تأمَنِنَّ فَوارِساً مِنْ عَامِرٍ   إلاّ بِذِمّةِ فارِسٍ مِنْ وائِلِ

قال التبريزي : « يريد عامرَ بن صعصعة ، وهم المستولون على الجزيرة والعراق والشام ، وكان في الدهر الأول بقية من آل حمدان بحلب ، وهم من وائل بن قاسط . وكانت هذه القصيدة مدحاً لرجل وائلي من أولاد سيف الدولة . . » .

وقال البطليوسي : « وإنما قال هذا للفتنة التي كانت هاجتْ في ذلك الوقت في بلاد الشام وما والاها ؛ وقد ذكرها بقوله :

وَلاَ فِتْنَةَ طائيّـــةَ عَامِرِيّةَ   يُحَرّقُ في نِيرانِها الجَعْدُ والسَّبْطُ

وكان بنو عامر بن صعصعة مستولين على العراق والجزيرة والشام ، وذكر وائلاً لأنه كان بحلب إذ ذاك بقية من آل حمـــدان ، وهم من تغلب بن وائل بن قاسط . . . . » .

وكانت هذه الفتنة ابتدأت سنة ٤١٤ هـ ، حين اتفق صالح بن مرداس من عامر بن صعصعة ، وحسان أمير طيء ، وسنان بن عليان أمير بني كلب كما تقدم ، فتكون هذه القصيدة قيلت مـــا بين سنة ٤١٤ هـ وسنة ٤٢٠ هـ ولكن يشكل على هذا أنّ بني حمدان لم يكن لهم في حلب في ذلك العهد ملك ولا إمارة فتأمل .

ما قاله في العهد الثاني ، وهو في لزوم ما لا يلزم

وهذا النوع ينقسم إلى قسمين : قسم عُلم زمنه من الحوادث التي قيل فيها ، أو ذكرت فيه ، أو كان له اتصال بهـــا . وقسم عُلم زمنه من الزمن الذي ذكر فيه .

فمن الأول :

١ — قوله :

يا لَهفَ نَفْسي على أني رَجَعْتُ إلى ... هَذي البِلادِ ولم أَهلِكْ بِبَغْداذَا[١]

٢ — وقوله :

شُئِمْتِ يا هِمَّةً قَدْ عُدْتِ شامِتَةً ... مِنْ بَعْدِ ما أَوْطَنْتِ عَصْراً بِبَغْدادِ[٢]

فالبيتان صريحان في أنهما قيلا بعد عودته من بغداد .

٣ — والقصيدة التي أولها :

أَنَتْ جَامِعٌ يَوْمَ العَرُوبَةِ جَامِعاً ... تَقُصُّ على الشُّهّادِ بالمِصْرِ أَمْرَها[٣]

فإنها قيلت في حادثة الماخور في المعرة سنة ٤١٨ ﻫ .

٤ — ومنها الأبيات التي يقول فيها :

بُعِثْتُ شَفِيعاً إلى صَالِحٍ ... وذاكَ مِنَ القَوْمِ رَأْيٌ فَسَدْ[٤]

٥ — والأبيات التي يقول فيها :

نَجَّى المَعَرَّةَ مِنْ بَرَاثِنِ صَالِحٍ ... رَبٌّ يُفَرِّجُ كُلَّ أَمْرٍ مُعْضِلِ[٥]

فإنها قيلت بعد حادثة الماخور المذكورة .

---

(١) اللزوميات ﻫ ص ١٦٦ .

(٢) المصدر السابق ص ١١٧ وفيه : « ... يا همة عادت شامتة ... » (؟) .

(٣) المصدر السابق ص ١٣٨ وجامع الأولى : المرأة الحامل . ويوم العروبة : بفتح العين، الجمعة.

(٤) البيت الثالث من لزومية مطلعها :

تنبيت في منزلي برهة ... ستير العيوب فقيد الحسد

اللزوميات ﻫ ص ١١٦ .

(٥) البيت الثاني من لزومية مطلعها :

آليت أرغب في قميص مموه ... فأكون شارب حنظل من حنظل

اللزوميات ﻫ ص ٢٢٠ وفيها : « نجى المعاصر ... » .

٦ – ومنها الأبيات التي يقول فيها :

أرَى حَلَبـــاً حازَها صَالحٌ　　وَجالَ سِنانٌ على جِلـِّقَا[1]

فقد تقدم أن صالحاً استولى على حلب سنة ٤١٤ هـ .

٧ – والأبيات التي يقول فيها :

والرَّمْلةُ البَيْضَاءُ غُودِرَ أَهْلُها　　بَعْدَ الرَّفاغَةِ يأكُلونَ قفارَها[2]

٨ – والأبيات التي يقول فيها :

ألم تَرَ طَيِّئاً وَبني كِلاَبٍ　　سَمَوْا لِبِلادِ غَزَّةَ والعَرِيشِ[3]

٩ – والأبيات التي يقول فيها :

إذَا عامِرٌ تَبِعَتْ صَالِحـــاً　　وَزَجَّتْ بَنُو قُرَّةَ الحُرْدُبا[4]

١٠ – والأبيات التي يقول فيها :

قَدأشْرَعَتْ سِنْبِسٌ ذَوَابِلَها　　وأرْهفَتْ بُحْتُرٌ مَعَابِلَها[5]

---

(١) البيت الرابع من لزومية مطلعها :

لدنياك حسنٌ على أنني　　أرى حسنها حسناً مخلقا

اللزوميات ٥ ص ٣٠٥ .

(٢) البيت السابع من لزومية مطلعها :

ما للنعــائم لا تمل نفارهــا　　والشهب تألف سيرها وسفارها

اللزوميات ٥ ص ١٤٣ .

(٣) اللزوميات ٥ ص ٣٢٧ .

(٤) البيت الخامس من لزومية مطلعها :

يؤدبك الدهر بالحادثات　　إذا كان شيخاك ما أدبا

اللزوميات ٥ ص ٤٤ .

(٥) اللزوميات ٥ ص ٢٠٨ .

١١ ـ والأبيات التي يقول فيها :

وبالرَّمْلَةِ الشَّعْثاءِ شِيبٌ وَوِلْدَةٌ　　أصابَهُمُ مِمّا جَنَيْتَ الدَّهارِسُ(١)

١٢ ـ والأبيات التي يقول فيها :

أزَايَلَ المُلْكُ آلَ كِسْرى　　وَصارَ بالشّامِ عَامِرِيّا(٢)

فهذه الأبيات التي يذكر فيها صالحاً ، وعامرا ، والرملة ، وسنبس ، وبُحتر ، ونحوها كلها قيلت في عهد فتنة صالح وحسان وسنان وبعدها .

١٣ ـ والأبيات التي رثى بها الوزير أبا القاسم المغربي المتوفى سنة ٤١٨ هـ وفيها يقول :

يا أبا القاسِمِ الوَزيرَ تَرَحَّلْـ　　ـتَ وَخَلَّفْتَني ثِقالَ رَحايَه(٣)

١٤ ـ والأبيات التي قالها في موت ملك مصر الحاكم بأمر الله المتوفى سنة ٤١٠ هـ وفيها يقول :

---

(١) البيت السابع من لزومية مطلعها :

تشاد المغاني والقبور دوارس　　ولا يمنع المطروق باب وحارس

ودهارس : واحدها دهرس وهي الداهية .

انظر اللزوميات هـ ص ٣١٠ .

(٢) آخر لزومية مطلعها .

ـاه بريا من البرايا　　من لبس الدين سابريا

اللزوميات هـ ص ٣٤٤ .

(٣) البيت الثاني من لزومية أولها :

ليس يبلى الضرب الطويل على الدهـ　　ـر ولا نو البالة الدرحابه

اللزوميات هـ ص ٣٤٦ .

مَضَى قَيْلُ مِصْرَ إلى رَبِّهِ وَخَلَّى السِّيَاسَةَ لِلْخَائِلِ (١)

١٥ – والأبيات التي يقول فيها :

مَالِي وللنَّفَرِ الذينَ عَهِدْتُهُمْ بالكَرْخِ مِنْ شَاشٍ ومِنْ إيلاقِ (٢)

• • •

سَيَموتُ مُحْمُودٌ وَيَهْلِكُ آلِكٌ وَيَدُومُ وَجْهُ الواحِدِ الخَلاَّقِ

فانها قيلت بعد رجوعه من بغداد ، وقبل وفاة محمود ، وقد كانت وفاته سنة ٤٢٢ هـ .

١٦ – وقصيدته الحائية التي مطلعها :

غَدَوْتَ مَرِيضَ العَقْلِ والدِّينِ فالْقَنِي لِتَسْمَعَ أنْباءَ الأُمُورِ الصَّحائِحِ (٣)

فان داعي الدعاة كاتبه من أجلها ، وذكر في كتابه الثاني أنه كاتب تاج الأمراء أن يجري على أبي العلاء رزقاً يكشف به غاشية الضرورة عنه . وقد كانت ولاية تاج الأمراء حلب سنة ٤٣٤ هـ ثم نزل عنها سنة ٤٤٩ هـ . وذكر أبو العلاء في جوابه لداعي الدعاة أنه عجز عن القيام

---

(١) البيت السابع من لزومية أولها :

عجبت وكم عجب في الزمان لرأي بني دهرك القائل

اللزوميات هـ ص ٢٢٤ .

(٢) من لزومية أولها :

أما الحقيقة فهي أني ذاهب والله يعلم بالذي أنا لاق

اللزوميات هـ ص ٣٠٨ .

(٣) اللزوميات هـ ص ٨٤ ، وفيها : « غدوتُ » بضم التاء .

إلى الصلاة ، وأنه ما أكل شيئاً من حيوان خمساً وأربعين سنة ؛ فهذا يدل على أن هذه القصيدة قيلت نحو سنة ٤٤٥ هـ .

١٧ - وقوله :

مَحْمُودُنا اللهُ والمسْعُودُ خَائِفُهُ ... فَعَدِّ عَنْ ذِكْرِ مَحْمُودٍ وَمَسْعُودِ[1]

مَلْكَانِ لَوْ أَنَّنِي خُيِّرْتُ مُلْكَهُما ... وَعُودَ مَلْبٍ أَشَارَ العَقْلُ بِالعُودِ

فان مسعود بن محمود المتوفى سنة ٤٢٢ هـ ولي بعد أبيه وقتل سنة ٤٣٠ هـ فتكون هذه الأبيات خلال الفترة التي بين ملك مسعود وقتله .

ومن الثاني نوع قاله بعد أن بلغ الأربعين ومنه :

١ — الأبيات التي يقول فيها :

وَمَا بَعْدَ مَرِّ الخَمْسَ عَشْرَةَ مِنْ صِبًا

وَلَا بَعْدَ مَرِّ الأَرْبَعِينَ صَبَاءُ[2]

وكَيْفَ تَلَا فِيَّ الذي فاتَ بَعْدَما ... تَلَفَّعَ نِيرانَ الحَرِيقِ هَبَاءُ

فإنها قيلت سنة ٤٠٣ هـ أو بعدها .

٢ — ومثلها قوله :

شَرِبْتُ سِنِيَّ الأَرْبَعِينَ تَجَرُّعاً

فَيَا مَقِراً مَا شُرْبُهُ فِيَّ نَاجِعُ[3]

---

(١) اللزوميات هـ ص ١١٠ .

(٢) مطلع اللزومية :

أولو الفضل في أوطانهم غرباء ... تشذ وتنأى عنهم القرباء

اللزوميات هـ ص ٢٠ وفيها : « .. نيران الحريق أباء » والأباء : القصب ، الواحدة أباءة .

(٣) البيت الخامس من لزومية أولها :

هي النفس عناها من الدهر فاجع ... برزء وغناها لتطرب ساجع

اللزوميات هـ ص ٢٨١ ، والمقر : الصبر .

٣ ـ وقوله :

وَرَمَيْتُ أعْوامي وَرَائِي مِثْلَما رَمَتِ الْمطيُّ مَهامِهَ السُّفَّارِ[1]
وَرَكِبْتُ مِنْها أرْبَعينَ مَطِيَّةً لَمْ تَخْلُ من عَنَتٍ وَسُوءِ نفارِ

ونوع قاله بعد أن بلغ الخمسين ومنه :

٤ ـ الأبيات التي يقول فيها :

فَمالي وقَدْ أدْرَكْتُ خَمْسَةَ أعْقُدٍ أبَيْني وَبَيْنَ الحادِثاتِ عُقُودُ[2]

٥ ـ والأبيات التي يقول فيها :

أخَمْسِينَ قَدْ أفْنَيْتَها لَيْسَ نافِعِي بِتَأخِيرِ يَوْمٍ أنْ أعضَّ على خَمْسِ[3]

٦ ـ والأبيات التي يقول فيها :

لا خَيْرَ مِنْ بَعْدِ خَمْسِينَ انْقَضَتْ كَمَلاً
في أنْ نُمارِسَ أمْرَاضاً وأرْعاشاً[4]

---

(١) السادس والسابع من لزومية أولها :
يا أم دفر إذا أكرمت عن أمة وحنك أن يغال دفار
اللزوميات ﻫ ص ١٦٢ .

(٢) البيت الثاني من لزومية مطلعها :
حياتي بعد الأربعين منية ووجدان حاف الأربعين نقود
اللزوميات ﻫ ص ٩١ .

(٣) الثالث من لزومية أولها :
لقد ما خضوب خاضبت كل ريبة وكانت بليس لا تقر على اللبس
اللزوميات ﻫ ص ٢٩٧ .

(٤) اللزوميات ﻫ ص ٣٢٦ .

٨ — والتي يقول فيها :

عَلِقْتُ بِحَبْلِ العُمْرِ خَمْسِينَ حِجَّةً

فقد رَثّ حتى كاد يَنْصَرِمُ الحَبْلُ(١)

وقال التبريزي (ج ١ (٢) ص ٨٣) : قال أبو العلاء للفقيه عبد الوهاب المالكي :

فَيالَيْتَني أُهْدَيتُ خَمْسِينَ حِجَّةً

مَضَتْ لِيَ فيها صِحَّتي وَشَبابي

٩ — ونوع قاله بعد أن جاوز الخمسين وهو في طريقه إلى الستين ومنه قوله :

لَعَمْري لقد جاوَزْتُ خَمْسِينَ حِجَّةً

وَحَسْبِيَ عَشْرٌ في الشّدائدِ أو خَمْسُ(٣)

١٠ — وقوله :

إِذا كُنْتُ قد جاوَزْتُ خَمْسِينَ حِجَّةً

ولَمْ أَلْقَ خَيْراً فالمَنِيَّةُ لي سِتْرُ(٤)

---

(١) الثامن من لزومية مطلعها :

إذا شئت أن ترقى جدارك مرة لأمر فآذن جار بيتك من قبل

اللزوميات ﻫ ص ١٩٤ .

(٢) شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٧٣٢ .

(٣) السادس من لزومية أولها :

تداولني صبح ومسي وحندس ومر عليّ اليوم والغد والأمس

اللزوميات ﻫ ص ٣٠٩ .

(٤) اللزوميات ﻫ ص ١٢٠ .

ونوع قاله بعد أن بلغ الستين فما فوقها ، ولكن هذا لم يرد في ديوانيه (سقط الزند) و (لزوم ما لا يلزم) وإنما رواه المؤرخون والعلماء ؛ فمن ذلك قوله من أبيات رواها الذهبي [١] :

أَتَتْنِي مِنَ الأَيَّامِ سِتُّونَ حِجَّةً وما أمسكتْ كفِّي بِثَنْيِ عِنان

وقوله من أبيات رواها سبط ابن الجوزي في (مرآة الزمان ص ١٦١) :

سرتُ ثمانِينَ طَالِباً أجَلي وَالحَيْنُ إِثْرِي كَأَنَّهُ حَادِ

وقوله مما رواه دولت شاه [٢] :

مَنْ رَاعَهُ سَبَبٌ أوْ هَالَهُ عَجَبٌ فَلِي ثَمَانُونَ حَوْلاً لا أَرَى عَجَبَا

* * *

(١) تاريخ الإسلام ص ١٣٤ ، وذكرها الميمني في فائت شعر أبي العلاء ص ١٤ ، ورواية البيت فيه : « .... وما أمسكت كفاي ثني عنان » .

(٢) من تذكرة دولت شـاه ص ٢٥ ط ليدن ، وذكره الميمني في فائت شعر أبي العلاء ص ٣ .

آثار أبي العلاء

وصفها — دراستها — موضوعاتها — شخصية المعري فيها[1]

(١) انظر سرد آثار أبي العلاء ص ٦٩٦ وما يليها .

ديوان الغزل

قلنا : إننا عثرنا في دار الكتب الظاهرية في دمشق على ديوان لأبي العلاء ؛ وقد جاء فيه بعض الأبيات مختل الوزن ، وبعضها فاسد الإعراب قلق المعنى ، وبعضها ضعيف التأليف ، وليس فيه ما يدل دلالة قطعية على أنه لأبي العلاء المعري التنوخي ، وإنما يجد الباحث فيه أمارات تسوّغ نسبته إليه .

منها ما كتب على ظهره ، وما ذكر في مقدمته من نسبته إليه ، ومنها التزامه حرفاً واحداً في أول كل بيت وآخره من جميع أبيات القصيدة ، وأبو العلاء مولع بمثل هذا التكلف لإظهار قدرته اللغوية والأدبية ، ومنها اشتمال الديوان على كثير من المحسنات البديعية كالجناس في قوله :

أَمُوتُ اشْتِيَاقاً ثمَّ أحيا لِشقوتي ... كَذاكَ حياةُ العَاشِقِينَ شَقَاء

والطباق في مثل قوله :

بَعيدٌ على أنّ الدِّيارَ قَرِيبةٌ ... فحتَّى مَتَى بالبُعْدِ تَمزُجُ لي القُرْبا

والتلميح في مثل قوله :

يَئِسْتُ مِنَ السُّلْوانِ حتّى نكبْتُهُ ... فلو أنّني غَيْلانُ مَا سُليت مَيُّ

وإرسال المثل في مثل قوله :

ثِمَارُ المنَى مَنْ يَجْنِها دُونَ إِلْفِهِ ... يَجِدْ طَيِّبَاتِ العَيْشِ مِثْلَ الخبَائِثِ

والغلو في مثل قوله :

حِسَانُ الدُّمَى تصبُو إلى حُسْنِ وَجْهِهِ
وَصَلْدُ الصَّفَا مِنْ لمسِ كَفَّيْهِ يرْشَحُ

وفيه أنماط من الغزل العفيف كقوله :

زَرَرْنا عَلى غَيْرِ الفَوَاحِشِ قُمْصَنَا   وَلَمْ نَسْتَجِزْ إلاّ الذي هُوَ أَجْوَزُ

وفيه أبيات جمعت قوة التأليف وإحكام الرصف إلى طلاوة الديباجة وحسن الانسجام ، مع شرف المعنى كقوله :

لَبِسْتُ الضَّنَى حتَّى تبدلت صُورَةً   سِوَى صُورَتي والحبُّ لا يَتَبَدَّلُ

. . .

مَوَارِدُكُمْ أشهى إلى الحائِمِ الصدي   وَلَوْ أنها شِيبَتْ بِسُمِّ الأرَاقِمِ

. . .

فَيَا أَسَفَا مَا لِلْمَغَانِي كَأَنَّها   سُطُورٌ مَحَاهَا الدَّهرُ غَيْرَ حُرُوفِ

. . .

فَقَدْتُ شُموساً كنتُ أجلو بها الدُّجى   إلى أنْ أصابَتْني النَّوَى بكُسُوفِ

. . .

بَرَاني هَوَى الظَّبْيِ الغَريرِ وَقَادَني   ذَليلاً وَكَمْ رَاضَ الهَوَى جامحاً صَعْبَا

. . .

فهذا وأمثاله يجوز أن يكون هذا الديوان من شعر أبي العلاء ، وأنه سلّى نفسه في بغداد ، كما سلى نفسه فيها بقصيدته :

مِنْكِ الصُّدُودُ ومِنيّ بالصُّدُودِ رِضىً
مَنْ ذَا عَلَيّ بِهَذا في هَواكِ قَضَى[1]

ولا يردُ على هذا ما في بعض الأبيات من الوهن ، فإن الشاعر يتفاوت شعره في القصيدة الواحدة في قوة التأليف ، وجمال الديباجة ، وإحكام التشبيه ، ولطف الكناية ، والسلامة مما يؤخذ به . وإذا عرفنا أن الأبيـــات المذكورة هي في الغزل ، وأن أبا العلاء لم يكن غَزِلاً ولا عاشقاً هان علينا أن نجد التفاوت في أبياته في هذا الديوان .

ويقابل هذه الأمارات أمارات تُبعد أن يكون هذا الديوان لأبي العلاء منها قوله في المقدمة : « قال أبو العلاء . إنه كان ببغداد وكان يتشوق إلى حلب ونواحيها ونظم هذا الديوان . . . » .

وهذه المقدمة ليست من كلامه ، وليس في الديوان كله ذكر حلب ولا شيء من التشوق اليها أو إلى نواحيها .

ومنها أننا لم نر أحداً ذكر هذا الديوان في فهرس كتب أبي العلاء .

ومنها ما في الديوان من اللحن والخروج عن أقيسة النحو والصرف كما في قوله :

إِذَا كُنتَ خِلْواً فاعْذرِ الصّبّ في الـهَوَى
فمـــا المبْتَلى والمُسْتَريحُ سَوَاه

---

(١) شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٦٥٤ .

بضم « سواء » للروي ، وقوله :

ذَهَبْتُ وَقَدْ سَدَّ الفِرَاقُ مَذَاهِبِي   وَقَلْبِي إلى نَحْوِ الأَحِبَّةِ مُجْبَذُ

وقوله :

ظَعَنْتُ وَقَلْبِي في يَدَيْكَ وَدِيعَةٌ   فَهَلْ أَنتَ لِلمُسْتَوْدَعَاتِ حَفُوظُ

ظَنَنْتُ بِأَنَّ الدَّهْرَ يَبْقَى مُسَالِماً   وَهَيْهَاتَ حَرْبُ النَّائِبَاتِ كَظُوظُ[1]

ولم أر أحداً ذكر لفظ « مجبذ » ولا « حفوظ » ولا « كظوظ » . ويحتمل أن تكون هذه الكلمات عبثت بها أيدي النساخ فحرفت الأولى عن « يجبذ » والثانية عن « حفيظ » والثالثة عن « كظيظ » أو « لظيظ » ، ويجوز أن تكون أوزان مبالغة على رأي من قال : إن أوزان المبالغة مَقيسة في كل فعل متعد ثلاثي .

وفيه استعارات غثة لا يقبلها الذوق السليم كقوله :

رَشاً صَامَ عُلْواً فادَّعَتْ يَثْرِبُ الحشَا

وأَفْطَرَ سُفْلاً فادَّعَتْ رِدْفَهُ مِصْرُ

وفيه أبيات سخيفة التأليف كقوله :

ذَوَائِبُهُ مِسْكٌ ثَنَايَاهُ لُؤْلُؤٌ   وَخَدَّاهُ تِبْرٌ والعِذَارُ زُمُرُّدُ

وقوله :

شُوَيْدِنُ أُنْسٍ صَادَ قَلْبِي بِلَحْظِهِ   وَطَاوُوسُ حُسْنٍ في فُؤَادِي عَشَّشَا

---

(١) كظه الأمر : بهظه وكربه وجهده ، والكظاظ : الشدة والتعب والممارسة الشديدة في الحرب .

ولم أعلم أحداً شبه العذار بالزمرد ، ولا من شبه المحبوب بالطاووس ، وإنما يشبه العذار بالنمل والنبت . ويشبه بالطاووس الثياب ، كما قال أبو العلاء في (لزوم ما لا يلزم) :

فِي حُلَلٍ غُبْرٍ وَكَمْ أَشْبَهَتْ ثِيَابُهـا حُلَّـةَ طَاوُسِ [1]

وفيه كثير من الكلمات التي أصلحناها أو بدّلناها بما يوافق المعنى والمقام . ويظهر للمتأمل أن أكثر الغزل في هذا الديوان بالمذكر .

فهذا وأمثاله لا يستطيع الإنسان أن يجزم معه بأن هذا الديوان لأبي العلاء . على أن معظم أبياته من الشعر المتوسط ، وفيه ما يدل على سعة اطلاع في اللغة ، وعلى براعة في تأليف الكلمات ، وقدرة على التصرف في فنون القول ؛ ولو سلم من التحريف والعبث لرأينا فيه من الروعة والبراعة أكثر مما رأينا .

وقد كتبت مقالة نشرت في الصفحة (١١٦ من العدد ٣ من المجلد ١٨ من مجلة المجمع العلمي العربي في دمشق) بينت فيها شيئاً مما في هذا الديوان من الأغلاط وغيرها ؛ وذكرت شيئاً من الأمور التي تسوّغ نسبته إلى أبي العلاء ، وشيئاً مما يبعد نسبته اليه ، فراجعها إن شئت .

* * *

---

(١) اللزوميات ١ ص ٣٢٥ .

ديوان سقط الزند ومقدمته

مقدمة[1] سقط الزند، شخصية فيها

لأبي العلاء المعري خصائص نفسية يحب أن لايتخلى عنها في كل فرصة تسنح له، ويحب أن ينوه بها تصريحاً أو تلويحاً في كل أثر من آثاره الأدبية. وقد افتتح ديوانه (سقط الزند) بمقدمة ذكر فيها طائفة من تلك الخصائص كالدلالة على تواضعه، وترفعه عن قبول الجوائز أو طلبها وتهاونه بالشعر، واعترافه بما في شعره من غلو، وإحداثه تقسيماً حديثاً في الشعر، وابتكاره معاني وأخيلة جديدة، والإشارة إلى نبغه وعبقريته ودهائه، واعتداده بنفسه وبشعره، وتتجلى هذه الأشياء في أمور ذكرها في المقدمة منها :

١ً – تواضعه : ويظهر هذا من تسميته هذا الديوان بـ (سقط الزند) لأن سقط الزند ماوقع من النار حين يقدح.

وقال ابن سيده : سَقط النار ماسقط بين الزندين قبل استحكام الوري وهذا يكون في الغالب ضعيفاً ولا يخرج من الزند إلا بجهد وتكلف، فشبه أبو العلاء طبعه بالزند، وشعره في هذا الديوان بالسقط ؛ لأن فيه أول شعر أنشأه في شبابه، وجادت به قريحته ؛ وأيد هذا بقوله : « كنت في رُبّانِ الحَدَاثَةِ وَجنّ النّشَاطِ مائلا . . . [في صغو القريض] ... ثم رَفَضْتُه رَفْضَ السَّقْبِ غِرْسَه . . [2] » .

٢ً – تعففه وترفعه عن الاستجداء بشعره أو قبول الجوائز عليه، ويتجلى هذا في مثل قوله : « ولم أطرف مَسَامِعَ الرؤساء بالنشيد،

---

(١) هي وشرحها للتبريزي في شروح سقط الزند : ق ١ ص ١٠ – ١٤ .

(٢) السقب بفتح أوله : ولد الناقة ساعة يولد . والغرس بكسر أوله : جليدة تكون على وجه الفصيل ساعة يولد، فان تركت عليه قتلته .

ولا مدحتُ طالبا للثواب . فالحمد لله الذي ستر .. ورزق شعبة من القناعة أوفت على جزيل الوفر ... » .

٣ – رفضه الشعر بعد أن كان يعتده من مآثر الأديب ، وأشرف مراتب البليغ ، لأسباب بيّنها .

٤ – اعترافه بأن في شعره مبالغة وغلوا .

٥ – توزيعه مافي الديوان من غلوّ بين ما يحتمل صفات الله ، وما صلح لمخلوق ، وما كان محضا من المَيْنِ . لأنه في هذا التوزيع تبرأ من تبعة كل قول ، وفسح مجالاً واسعاً للتأويل . وهذا عمل داهية منكر .

٦ – اعتذاره بأن الشعر للخلَد كالصورة لليد ، فلا يطالب الشاعر بتحقيق ماوصف به في شعره ، كما لايطالب المصور بتحقيق ماصوره .

٧ – اعتداده بنفسه وبشعره ؛ ويظهر هذا جلياً في قوله : « وليس الريُّ عن التشافّ » فإنه يريد أن هذا القليل المدون من شعره يحصل به شرف البلاغة ، لأنه قد يدرك بالقليل ، كما أن الإنسان قد يَروى من غير أن يشرب كل ما في الإناء . ويظهر أيضاً في قوله : « الثمرة الواحدة من الشجرة تدل على طعم ثمرة الشجرة كلها ، والنفحة الواحدة من خزامى الأرض تدل على رائحتها كلها » . وفي قوله : « والجيد من قيل الشعر وإن قل يغلب على رديئه وإن كثر » .

فإن مجموع هذه الأقوال يدل على أن أبا العلاء يعد شعرَه جيداً وإن كان قليلاً . وهذا يدل على قوة الطبع ، ويجعل صاحبه في عداد البلغاء .

٨ – ابتكاره معاني لم يسبق إليها ، وهذا يظهر في مثل قوله : « الشعر للخلد كالصورة » وفي مثل قوله : « رفضته رفضَ السَّقْبِ غرسَه ، والرأل تريكته .. » وقوله : « وليس الري عن التشافّ » وقوله : « يعلمك يجنى الشجرة الواحدةُ من ثمرتها ، ويدلكّ على خزامى الأرض النفحةُ من رائحتها » .

فإن هذه المعاني كلها شريفة ، ولا نعلم أحداً سبق إليها أبا العلاء ؛ وفي كل منهـا من الدقة في التشبيه والإحكام والمطابقة ما لا يخفى على عارف بصناعة الشعر .

سقط الزند

قدمنا أن أبياته تزيد على ثلاثـة آلاف بيت ، وقد قال أبو العلاء في مقدمته :

« وقد كُنْتُ في ربّانِ الحداثةِ ، وجنّ النشاطِ مائلاً في صِغْوِ القريض ، اعتدّه بعضَ مآثِر الأديب ، ومن أشرف مراقب البليغ ، ثم رفضته رفض السَّقْبِ غرسَه ، والرألِ تريكتَه ، رغبة عن أدبٍ مُعظم جيّده كـذب ، ورديئه ينقص ويجدب . . . » إلى آخر المقدمة ، وقد يستنتج منها أمور :

أولها : أنه هو الذي تولى ترتيب هذا الديوان . وقد يعترض عليه بأنه لم يجر في ترتيبه على ما يقتضيه التاريخ أو الفن ، فإنه لم يرتب قصائده على مقتضى الزمن الذي قيلت فيه ، ولا رتبها على حسب الأغراض لأنه لم يجمع كلاً من قصائد المدح والفخر والرثاء وغيرها تحت عنوان واحد ، وإنما خلط بعضها ببعض من غير سبب يبينه ؛ ولا رتبها على حروف الهجاء ليسهل الرجوع إلى كل قطعة من كلامه .

ثانيها : أن كلامه في المقدمة يوهم أن كل ما في السقط كان في ربّان الحداثة . ومن استقرى ما فيه وجد قصائد قالها في الكهولة والشيخوخة . وقد بينا شيئاً من ذلك في تاريخ قصائده .

ثالثها : أنه لم يطرف مسامع الرؤساء بالنشيد ، ولا مدح طالباً للثواب ؛ وإنما كان ذلك على معنى رياضة النفس وامتحان الطبيعة . وهذا

حق لا ريب فيه ؛ إذ لا يعرف شاعر ترفع عن التكسب بشعره مثل أبي العلاء ؛ ولو أراد ذلك لنال من المال ما لم يتح لغيره . وقد عرض عليه ذلك كما قدمنا فأبى ، واعتصم بحبل العفة ، وقنع بالقُنْعَة .

النسخ التي اطلعت عليها من هذا الديوان :

١ — سقط الزند مع الدرعيات طبعَ في بيروت .

٢ — شرح التنوير طبع في مصر مرتين منفرداً .

٣ — ضرام السقط طبع في العجم منفردا .

٤ — ضوء السقط نسخة مخطوطة .

٥ — نسخة سقط الزند خطية ، كانت لعم والدي أمين الجندي مفتي دمشق ، كتبت منذ ستمائة سنة وفيها بعض الصحائف بخط أحدث من خط النسخة الأصلي .

٦ — نسخة طبعت في مصر تشتمل على (شرح السقط) للتبريزي و (شرحه للبطليوسي) و (شرحه للخوارزمي) .

اسلوبه في سقط الزند

اللغة : ألمعنا فيما سبق إلى أن أبا العلاء أحاط من مفردات اللغة وشواردها ونوادرها بما لم يحط به العرب الأقحاح ، واطلع من أساليب البلغاء وأسرار البلاغة على مالم يطلع عليه غيره . فإذا حاول أن يأتي بمعنى وجد لديه من الكلم الصالح للدلالة عليه ، والأساليب اللائقة لإفراغه فيها مالا يتسنّى لغيره بسهولة .

ولا تكاد تجد في كلامه على كثرته كلمة نابية ، أو لفظة خارجة عن سنن البلاغة ، أو شاذة عن الآداب إلا نادر ، ويجوز أن يكون ذلك من عبث الرواة أو النساخ أو الشراح .

وجود الغريب في شعره

وقد قضى عليه حرصه على البديع وعلى إظهار ثروته اللغوية أن يأتي بكثير من الكلمات التي يجد في اللغة ماهو ألطف منها وأرق . وقد زعم بعض الأدباء أنه كان يتعمد الغريب في (لزوم مالا يلزم) ليخفي أغراضه ، وجعل من خصائص شعره غموض الأغراض . . وقد بينا أن أبا العلاء لم يتعمد الغموض في شيء من شعره ، وإنما كثرة درسه الشعر الجاهلي والإسلامي ، وسعة اطلاعه على اللغة ، جعلتاه يأنس بما يراه غيره وحشياً . يدل على ذلك وجود الغريب في الدرعيات وغيرها ؛ على أنه وضع كتاب (ضوء السقط)وفسر فيه ما في (سقط الزند) من الغريب .

اللحن في شعره

كان أبو العلاء واسع الاطلاع على قواعد النحو والصرف ، ومعرفة ما يجوز وما يمتنع . وقد تسرع بعض العلماء فخطأه في بعض التراكيب . وكان هو المخطىء في تخطئته ؛ كما قيل ذلك في قوله :

يُذِيبُ الرُّعْبُ مِنْهُ كُلَّ عَضْبٍ   فَلَوْلاَ الغِمْدُ يُمْسِكُهُ لَسَالاَ (١)

وقد بيّنا ذلك في الكلام على لحنه وتخطئته . ونزيد هنا على ما تقدم أنه كان بصيراً بأساليب البلاغة دقيق الملاحظة ، فلكل كلمة عنده مقام ، فلا يضع كلمة في موضع إلا لنكتة ، ولا يتخير نوعاً من أنواع التعبير إلا لغرض ؛ فانظر إلى قوله :

إِذَا سَئِمَتْ مُهَنَّدَهُ يَمِينٌ   لِطولِ الحَمْلِ بَدَّلَهُ شِمالاَ (٢)

فإن حق الكلام بحسب الظاهر أن يقول : إذا سئمت مهنده يمينه بدله شماله . لكن ذلك فيه نسبة السآمة إلى يمين الممدوح وشماله ، فكره ذلك

---

(١) شروح سقط الزند : ق ١ ص ١٠٤ .
(٢) المصدر السابق ص ٧٠ .

وأتى باللفظين منكّرين ، والنكرة هنا تفيد فائدة المعرفة ، لأن هذا البيت من قصيدة مدح بها سعيد الدولة ، وقبله يقول :

وَيُضْحي والحديد . . . .

فيُغْني الدِّرْع . . . .

يَبيتُ مُسَهَّداً . . . .

إذا سَئِمتْ مُهَنَّدَهُ . . . . (١)

وتعريف مهنده بالإضافة ينوب عن تعريف يمين وشمال ، وإذا لم ينتبه الناظر إلى مثل هذا ، فربما خطأ المعري في هذا البيت فتأمل . (وراجع مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح ج ١ ص ٣٥٤) .

الاقتضاب في شعره

كان أبو العلاء بعيد النظر ، دقيق الملاحظة ، يدرك من المناسبات اللطيفة ، والروابط الدقيقة التي بين أبياته ما لم يدركه إلا الراسخون في العلم .

وكان يحذف بعض الأبيات من شعره الذي في (سقط الزند) فلا تظهر مناسبة بين السابق واللاحق من كلامه ؛ فتوهم بعض العلماء أن في كلامه اقتضابا لخفاء العلاقة والمناسبة ، ولا يظهر للمتأمل شيء من الاقتضاب في كلامه الذي لم يحذف منه شيء .

---

(١) تمام الأبيات :

. . . . عليه شاكٍ وتكفيه مهابته النزالا

. . . . لبأ واليماني صحابا والرديني اعتقالا

. . . . والليل يدعو بضوء الصبح خالقه ابتهالا

الطلاوة ، وإحكام الرصف ، وجمال الديباجة في شعره

والناظر في (سقط الزند) يجد كثيراً من الأبيات التي جمعت أناقة التأليف ، وحسن الانسجام ، إلى رشاقة الألفاظ ، ونبل المعنى ؛ حتى كانت آية في الروعة ، وحسن الوقع في السمع ، وصقل الديباجة .

كقوله :

وَالُحسْنُ يَظْهَرُ في شَيْئَيْنِ رَوْنَقُهُ
بَيتٍ منَ الشِّعْرِ أو بَيْتٍ مِنَ الشَّعَرِ [١]

. . .

والنَّجْمُ تَسْتَصْغِرُ الأَبْصَارُ رُؤْيَتَهُ
والذَّنبُ لِلطَّرْفِ لا للنَّجْمِ في الصِّغَرِ [٢]

. . .

إِذَا كُنْتَ تَبغي العِزَّ فابْغِ تَوَسُّطاً
فَعِنْدَ التَّنَاهِي يَقْصُرُ المتَطَاوِلُ [٣]

وسترى في الأبيات الآتية من شعره ما يدل على أنه أتى بما لم تستطعه الأوائل .

التشبيه في شعره

لأبي العلاء في باب التشبيه صور رائعة ، ولا يستكثر على مثله أن يجود في التشابيه المعنوية ؛ وإنما الغريب أن نرى في تشبيهاته في الأمور المحسوسة ما يعجز عن مثله كثير من البصراء من الدقة والإحكام والإحاطة بكل ناحية ظاهرة أو خفية ؛ بحيث لا تفوته حركة ولا سكون ، ولا

(١) شروح سقط الزند : ق ١ ص ١٢٩ وفيها : « فالحسن » .
(٢) المصدر السابق ص ١٦٢ وفيه : « . . الأبصار صورته » .
(٣) شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٥٥٢ وفيها « وإن كنت تهوى العيش فابغ توسطا.. » .

يستعصي عليه لون . وربما وهب للمشبه أو المشبه به حياة لم تكن له ، وخلع عليه من صفات الأحياء ما يخيل إلى القارىء أنه حي حقيقة ؛ كل ذلك مع إحكام في الرصف ، ورشاقة في الألفاظ .

ومن ذلك قوله في وصف عرق الفرس :

تَرَى أعْطَافَهَا تَرْمِي حَمِيماً كَأَجْنِحَةِ البُزَاةِ رَمَتْ نُسَالاَ (١)

وقوله في وصف الظلام :

وَجُنْحٍ يَمْلَأُ الفَوْدَيْنِ شَيْباً وَلَكِنْ يَجْعَلُ الصَّحْرَاء خَالاَ (٢)

وقوله في وصف السيف :

مُحَلَّى البُرْدِ تَحْسَبُهُ تَرَدَّى نُجُومَ اللَّيْلِ وانْتَعَلَ الهِلاَلاَ (٣)

وقوله في وصف سيف :

وَكُلُّ أبيَضَ هِنْدِيٍّ بِهِ شُطَبٌ مِثْلُ التَّكَسُّرِ في جَارٍ بِمُنْحَدِرِ (٤)

. . . .

رَوْضُ المَنَايَا عَلَى أنَّ الدِّمَاء بِهِ وإنْ تَخَالَفْنَ أبْدالٌ مِنَ الزَّهَرِ

وقوله في وصف نار :

حَمْرَاءُ سَاطِعَةُ الذَّوَائِبِ في الدُّجَى تَرْمِي بِكُلِّ شَرَارَةٍ كَطِرَافِ (٥)

وقوله في أعناق إبل :

وَقَدْ دَقَّتْ هَوَادِيهِنَّ حَتَّى كَأَنَّ رِقَابَهُنَّ الخَيْزُرَانُ (٦)

---

(١) شروح سقط الزند ق : ١ ص ٤٧ .
(٢) المصدر السابق ص ٧٢ .
(٣) المصدر السابق ص ٩٩ .
(٤) المصدر السابق ص ١٥٧ ، ١٥٨ .
(٥) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١٣٠٧ .
(٦) شروح سقط الزند ؛ ق ١ ص ١٨٢ .

وقوله في وصف أعجاز الخيل إذا أسرعت :

كَأَنَّ قَطَاةَ أعجَزِها قَطَاةٌ أُدِيفَ بِمَحْجِرَيْها الزَّعْفَرَانُ (١)

وقوله في وصف الهلال :

فَصِيمٌ نِصْفُهُ في الماء بادٍ [ونِصْفٌ في السَّماء به تُزانُ] (٢)
كَأَنَّ اللَّيْلَ حَارَبَها فَفِيهِ هِلالٌ مِثْلُ مَا انْعَطَفَ السِّنَانُ
وَمِنْ أُمِّ النُّجُومِ عَلَيْهِ دِرْعٌ يُحَاذِرُ أن يُمَزِّقَها الطِّعَانُ

وقوله في وصف الربيع :

وَكَسَا الأرضَ خِدْمَةً لك يامَوْ لاهُ دُونَ المُلُوكِ خُضْرَ الحَرِيرِ (٣)
فَهِيَ تَخْتَالُ في زَبَرْجَدَةٍ خَضْـ ـراءَ تُغْذَى بِلُؤْلُؤٍ مَنْثُورِ

وقوله في وصف البرق في سواد الليل وتتابع لمعانه :

كَمَا أغْضَى الفَتَى لِيَذُوقَ غُمْضاً فَصَادَفَ جَفْنُهُ جَفْناً قَرِيحاً (٤)
إِذَا مَا اهْتَاجَ أحْمَرَ مُسْتَطِيراً حَسِبْتَ اللَّيْلَ زِنْجِيّاً جَرِيحاً

وقوله في وصف الدرع :

---

(١) شروح سقط الزند : ق ١ ص ٣٠٣ .
(٢) المصدر السابق ص ٢١٢ .
(٣) المصدر السابق ص ٢٣١ .
(٤) شروح سقط الزند : ق ١ ص ٢٣٩ — ٤٠ .

كَأثوابِ الأراقِمِ مَزّقتها فخاطَتْها بأعْيُنِها الجرادُ[١]

وقوله فيها :

إذا طُوِيَتْ فالقَعْبُ يَجْمَعُ شَمْلَها وإنْ نُثِلَتْ سالتْ مَسِيلَ ثِمادِ[٢]

وقوله فيها :

غَدِيرٌ نَقَّتِ الخِرْصانُ فِيهِ نَقِيقَ عَلاجِمٍ واللَّيْلُ داجِ[٣]

وقوله فيها :

مَنْ يَشتريها وهي قضّاء الذيلْ كأنها بقيةٌ من السيلْ[٤]

وقوله فيها :

كَهِلالِ الحَياةِ أوْ كَقَمِيصٍ لِهِلالِ الحَيّاتِ غيرِ مَجُوبِ[٥]

وقوله في وصف الليل وبعض النجوم :

لَيْلَتِي هَذِهِ عَرُوسٌ مِنَ الزَّنْـ ـجِ عَلَيْها قَلائِدٌ مِنْ جُمانِ[٦]

. . . .

وَسُهَيْلٌ كَوَجْنَةِ الحِبِّ في اللَّوْ نِ وَقَلْبِ المُحِبِّ في الخَفَقانِ

---

(١) شروح سقط الزند : ق ١ ص ٣٠٥

(٢) شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٧٥٥ .

(٣) المصدر السابق ص ١٧٦٤ .

(٤) المصدر السابق ص ١٨١٢ . والبيت مطلع قصيدة من السريع على لسان رجل ينادي على درعه من يشتريها .

(٥) شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٩٢٢ . وهلال الأولى : قليل من الماء . وهلال الثانية : ذكر الحيات . وجبت القميص : قوّرت جيبه .

(٦) شروح سقط الزند : ق ١ ص ٤٢٩ ، ٤٣٣ — ٥ .

مُسْتَبِداً كَأَنَّهُ الفَارِسُ المُعْـــلِمُ يَبْدُو مُعَارِضَ الفُرْسَانِ

يُسْرِعُ اللَّمحَ في احمِرارٍ كَمَا تُسْـــرِعُ في اللَّمحِ مُقْلَةُ الغَضْبَانِ

وذكر الصفدي في (نكت الهميان ص ٨٣) أن الجاحظ أورد بيتاً للأعشى وهو :

بَيْضَـــاءُ ضَحْوَتَهـــا وَصَفْـــرَاءُ العَشِيَّةَ كالعراره

وبيتاً لبشار وهو :

فَـــإِذَا دَخَلْتِ تَقَنَّعِي بالحُسْنِ إِنَّ الحُسْنَ أحمَر

ثم قال : وهذان أعميان قد اهتديا من حقائق الأمور إلى ما لا يبلغه تمييز البصراء ، ولبشار خاصة في هذا الباب ما ليس لأحد . ثم قال الصفدي : قلت : تعجب الجاحظ من قول الأعشى وبشار ، وكيف به لو سمع قول أبي العلاء المعري ؟ ثم أورد هذه الأبيات وبعدها قوله :

وَلاَحَ هِلاَلٌ مِثْلُ نُونٍ أَجادَهَـــا

بِجَارِي النُّضَارِ الكَاتِبُ ابنُ هِلاَلِ(١)

ولأبي العلاء في وصف الليلة :

كَـأَنَّما هِيَ إِذْ لاَحتْ كَـواكِبُهـــا

خَوْدٌ مِنَ الزَّنجِ تُجْلَى وُشِّحَتْ خَضَضا(٢)

(١) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١١٩٢ .

(٢) شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٦٥٧ ، والخضض : خرز أبيض تلبسه الإماء.

وفي وصف الهلال :

وَانْجُمْ عَلَى جُنْحِ الدُّجى وَلَوَ انَّهُ
أَسَدٌ يَصُولُ مِنَ الهِلَاَلِ بِمِخْلَبِ [١]

ومن بديع التشبيه قوله:

فَيَا قَلبُ لا تُلْحِقْ بِشُكْلِ مُحَمَّدٍ
سِوَاهُ لِيَبْقَى شُكْلُهُ بَيِّنَ الوَسْمِ [٢]
فَإني رَأَيتُ الحُزْنَ لِلْحُزنِ مَاحِياً
كَمَا خُطَّ فِي القِرْطاسِ رَسْمٌ عَلَى رَسْمِ

وقوله في وصف الزَّبَد الذي يخرج من فم البعير :

والعِيسُ تُعلِنُ بالحَنِينِ إِليكُمُ   وَلُغَامُها كَالبُرْسِ طَارَ نَدِيفُهُ [٣]

وقوله في وصف الشمعة :

وَصَفْرَاءَ لوْنَ التِّبْرِ مِثْلِي جَلِيدَةٌ
عَلَى نُوَبِ الأَيَّامِ والعِيشَةِ الضَّنْكِ [٤]

إلى غير ذلك مما تعسر الإحاطة به ، ويتعذر وجود نظيره في كلام غيره .

---

(١) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١١٣٢ .

(٢) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ٩٥٤ ـ ٥ ومنها : « . . شكله بين الوسم » .

(٣) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١١٠٨ ، ولغامها : ماترميه الإبل من الزبد من فيها ، والبرس : القطن .

(٤) شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٧٢٣ .

وأما التشبيه في الأمور المعنوية ففي كلامه كثير من الصور النادرة ، والطرف الرائعة ، من ذلك قوله :

وَالخِلُّ كَالمَاءِ يُبْدِي لِي ضَمَائِرَهُ ... مَعَ الصَّفَاءِ وَيُخْفِيهَا مَعَ الكَدَرِ [١]

• • •

وَالمَرْءُ مَا لَمْ تُفِدْ نَفْعاً إِقَامَتُهُ
غَيْمٌ حَمَى الشَّمسَ لَمْ يُمْطِرْ وَلَمْ يَسِرِ

• • •

وَافَقْتُمُ فِي اخْتِلَافٍ مِنْ زَمَانِكُمُ
وَالبَدْرُ فِي الوَهْنِ مِثْلُ البَدْرِ فِي السَّحَرِ

وقوله في الإنسان تربّيه الدنيا على ظهرها ، حتى يكمل ثم تدفنه في بطنها :

يُرَبَّبُ مِثْلَ الغُصْنِ حَتَّى إِذَا انْتَهَى
أَتَى عَاضِدٌ وَاسْتَقْبَلَ التُّرْبَ غَارِسُ [٢]

وقوله :

وَكَالنَّارِ الحَيَاةُ فَمِنْ رَمَادٍ ... أَوَاخِرُهَا وَأَوَّلُهَا دُخَانُ [٣]

وقوله :

وَبَعْضُ الظَّاعِنِينَ كَقَرْنِ شَمْسٍ ... يَغِيبُ فَانْ أَضَاءَ الفَجْرُ عَادَا [٤]

---

(١) شروح سقط الزند : ق ١ ص ١٣٢ ، ١٦٤ ، ١٤٢ .
(٢) شروح سقط الزند : ق ٥ ص ٢٠١٢ .
(٣) شروح سقط الزند : ق ١ ص ١٧٨ .
(٤) شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٥٢٦ ـ ٧ .

وَلَكِنِّي الشَّبَابُ إِذَا تَوَلَّى فَجَهْلٌ أَنْ تَرُومَ لَهُ ارْتِدَادَا

وقوله في أصحابه ورفاقه الذين كان يجمعهم في الليل ليسيروا فيه ، ويفرقهم في النهار ليختفوا عن عيون الأعداء :

فِي مَعْشَرٍ كَجِمَارِ الرَّمْيِ أَجْمَعُهَا لَيْلاً وَفِي الصُّبْحِ أُلْقِيهَا إِلَى القَاعِ (١)

الاستعارات

وفي أشعاره من أنواع الاستعارات صور بديعة جمعت إحكام التشبيه إلى رقة الأسلوب ، وإتقان التأليف ، وطيب النبرات ؛ من ذلك قوله في السيف وفرنده :

وَدَبَّتْ فَوْقَهُ حُمْرُ المَنَايَا وَلَكِنْ بَعْدَ مَا مُسِخَتْ نِمَالاَ (٢)

• • •

مَا كُنْتُ أَحْسَبُ جَفْناً قَبْلَ مَسْكَنِهِ
فِي الجَفْنِ يُطْوَى عَلَى نَارٍ وَلاَ نَهَرِ (٣)
وَلاَ حَسِبْتُ صِغَارَ النَّمْلِ يُمْكِنُهَا
مَشْيٌ عَلَى اللُّجِّ أَوْ سَعْيٌ عَلَى السُّعُرِ

• • •

(١) شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٧٥٠ وفيها : « من معشر . . . » .
(٢) شروح سقط الزند : ق ١ ص ١٠٤ .
(٣) شروح سقط الزند : ق ١ ص ١٥٩ — ١٦٠ وفيها : « ولا ظننت . . . » .

يُعَبِّرُ سَيفُهُ لَفظَ المَنَايَا كَمَا شَرَحَ الكَلامَ التَّرجُمَانُ[١]

وقوله في السيوف والدروع :

أقبَلُوا حَامِلِي الجَدَاوِلِ في الأعناقِ مُستَلئِمِينَ بِالغُدرَانِ[٢]

وقوله في الفرس وحافره :

بِرِيحٍ أُعِيرَتْ حَافِراً مِنْ زَبَرْجَدٍ
لَهَا التِّبْرُ جِسْمٌ واللُّجَيْنُ خلاخِلُ[٣]

• • •

أذَالَ الجَرْيُ مِنْهُ زَبَرْجَدِيّاً وَمَا حَقُّ الزَّبَرْجَدِ أنْ يُذَالاَ[٤]
وَقَدْ يُلْفَى زَبَرْجَدُهُ عَقِيقاً إِذَا شَهِدَ الأَمِيرُ بِهِ القِتَالا

وقوله في المدح :

القَاتِلُ المَحْلَ إِذْ تَبْدُو السَّمَاءُ لَنَا كَأَنَّهَا مِنْ نَجِيعِ الجَدْبِ فِي أُزُرِ[٥]

وقوله في الأيام والليالي :

---

(١) شروح سقط الزند : ق ١ ص ٢١٨ .
(٢) انظر ما سبق ص ٩٣٦ .
(٣) شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٥٣٩ .
(٤) شروح سقط الزند : ق ١ ص ٩٠ ورواية البيت الأول فيها :
« وما حق الكرم . . . . » .
(٥) شروح سقط الزند : ق ١ ص ١٣٦ .

بِسَبْعِ إِمَاءٍ مِنْ زَغَاوَةَ زُوِّجَتْ
مِنَ الرُّومِ في نُعْمَاكَ سَبْعَةَ أَعْبُدِ (١)

الكنايات

وفي كلام أبي العلاء أمثلة رائعة ، وصور بديعة من الكنايات اللطيفة الواضحة والمستعذبة ، كقوله يكني عن عظم الممدوح :

وَلَوْ تَقَدَّمَ في عَصْرٍ مَضَى نَزَلت
في وَصْفِهِ مُعْجِزَاتُ الآيِ والسُّوَرِ (٢)

وعن حسن الممدوح :

وَيُوشَعُ رَدَّ يُوحَى بَعْضَ يَومٍ وأَنتَ مَتَى سَفَرْتَ رَدَدْتَ يُوحَا (٣)

وقوله يكني به عن أن قوم الممدوح ملوك لا رعاة ، وأنهم كرماء أعزّاء :

يَا بْنَ الاولى غَيْرَ زَجْرِ الخَيْلِ مَا عَرَفُوا
إِذْ تَعرِفُ العُرْبُ زَجْرَ الشَّاءِ والعَكَرِ (٤)

---

(١) شروح سقط الزند : ق ١ ص ٣٥٩ ، وزغاوة : قبيلة من السودان .
(٢) شروح سقط الزند : ق ١ ص ١٣٨ .
(٣) شروح سقط الزند : ق ١ ص ٢٧٨ ، ويوح ويوحى : من أسماء الشمس .
(٤) شروح سقط الزند : ق ١ ص ١٤٠ ، ١٤٢ ، والعكر : مفردها عكرة وهي القطعة من الابل الطيبة . واللأم : جمع لأمة ، وهي الدرع . والقطر : العود الذي يتبخر به .

والقَائديهَامَعَ الأَضيَافِ يَتْبَعُهَا ... أُلاّفُها والوفُ اللّاَّمِ والبِدَرِ

. . . .

الموقدونَ بنَجْدٍ نَارَ بَادِيةٍ ... لاَ يَحضُرُونَ وَفَقْدُ العِزِّ في الحَضَرِ
إذَا هَمَى القَطْرُ شَبَّتْها عَبِيدُهُمُ ... تَحتَ الغَمَائِمِ للسَّارِينَ بالقُطُرِ

وقوله يكني عن بعد الغور وعمقه :

وَمُزِيرُهَا الغَوْرَ الذي لَوْ سَلَّمَتْ ... رِيحٌ عَلَى أَرْجَائِهِ لم تَسْلَمِ (١)

إلى آخر الأبيات . وقوله يكني به عن ضمور البعير وهزاله :

وأَعْيَسَ لَوْ وَافَى بِهِ خُرتَ مِخْيَطٍ ... لأَنْفَذَهُ مِنْ ضُمْرِهِ وانضِمَامِهِ (٢)

وقوله يكني به عن خفة الإبل وسرعتها في سيرها :

وَلَوْ وَطِئَتْ في سَيْرِهَا جَفْنَ نَائِمٍ ... بأَخْفَافِهَا لَمْ يَنْتَبِهْ مِنْ مَنَامِهِ (٣)

المعاني

شعر أبي العلاء معرض عام ، اجتمع فيه من كل نوع من المعاني طائفة صالحة ؛ والغالب على معانيه في (السقط) الوضوح والجلاء . وفيها ما يحتاج في فهمه إلى دراسة علم ، ومعرفة بالتاريخ ؛ لأنه كثير الإشارات والتلميح إلى الحوادث والرجال الذين لهم ذكر في التاريخ ، وهو يحسن استعمال تلك المعاني ، ويحكم الإشارة إلى الحوادث .

---

(١) شروح سقط الزند : ق ١ ص ٢٣١ .
(٢) شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٤٩٤ وفيها : « . . خرت مخيط » والمخيط : الإبرة .
(٣) المصدر السابق ص ٤٩٣ .

فمن الأول قوله :

وَفي الحيّ أعرَابيّةُ الأصلِ مَحْضَةٌ
مِنَ القَومِ إعْرَابيّةُ القَولِ بالطّبْعِ [1]
وَقَدْ دَرَسَتْ نَحْوَ السُّرَى فَنيَ لَبّةٌ
بِمَا كَان مِنْ جرِّ البَعِيرِ أوِ الرَّفعِ

يريد أن في الحي امرأة أصلها من الأعراب الخلّص ، وهي لا تلحن في قولها ، لأنها منسوبة إلى الأعراب بالطبع والسليقة ، وهي لم تدرس علم النحو الذي تكون حركات الإعراب فيه بالجر والرفع ، وإنما درست نحو السير في الليل ، فهي لبيبة عالمة بجر البعير ورفعه . يقال : جر البعير بزمامه:جذبه وجر الإبل: ساقها سوقاً رويدا ، والسير المرفوع : دون الحضر وفوق الموضوع ، ورفع البعيرُ في السير : بالغ وسار ذلك السير ، ورفعه الرجل : ساره كذلك يتعدى ولا يتعدى ، فقد ذكر النحو وذكر من متعلقاته الجرّ والرفع ، وجعل السرى نحوا ، وذكر من متعلقاته جر البعير ورفعه ، ومراده أنها دائمة السُّرى فهي عالمة برفع البعير وجره .

ومنه قوله :

فصَرّفَني فغَيّرني زَمَــانٌ سَيُعْقِبُني بحذفٍ وادّغامِ [2]

وقوله :

---

(١) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١٣٤٤ .

(٢) شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٤٧٣ وفيها : « وصرفني . . . » .

وَقَدْ يُجْتَدَى فَضْلُ الغَمَامِ وإِنما
مِنَ البَحْرِ فِيمَا يَزْعُمُ النَاسُ يَجْتَدِي (١)

وقوله :

وَالنَّفْسُ تَحيَا بإِعْطَاءِ الهَوَاءِ لَهَا
مِنْهُ بِمِقْدَارِ مَا أَعْطَتْهُ مِنْ نَفَسِ (٢)

وقوله :

وَهَوَاكِ عِنْدي كَالغِنَاءِ لِأَنَّهُ   حَسَنٌ لَدَيَّ ثَقِيلُهُ وَخَفِيفُهُ (٣)

ومن الثاني قوله :

إذَا وَصَفَ الطَّائِيَّ بِالبُخْلِ مَادِرٌ   وَعَيَّرَ قُسّاً بالفَهَاهَةِ بَاقِلُ (٤)

وقوله :

يَابنَ مُسْتَعْرِضِ الصُّفُوفِ بِبَدْرٍ   وَمُبيدِ الجُمُوعِ مِنْ غَطَفَانِ (٥)

---

(١) انظر ما سبق ص ٩٣٩ .
(٢) شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٦٩٥ .
(٣) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١١٠٩ .
(٤) يريد بالطائي : حاتماً الذي ضرب المثل بجوده . ومادر : رجل من بني هلال بن عامر يضرب به المثل في البخل ، وقس ابن ساعدة الإيادي : يضرب المثل ببلاغته ، وباقل : رجل من إياد أو من ربيعة يضرب المثل بعيّه ، والفهاهة : العي وهو خلاف البيان . (ج) انظر شروح السقط ق ٢ ص ٥٣٣ .
(٥) أراد بمستعرض الصفوف : علي بن أبي طالب رضي الله عنه لأنه قتل نيفاً وثلاثين ـ

وقوله :

فَكَمْ حَلَّهُ مِنْ أصْمَعِ القَلبِ آيسٍ
يَطُولُ ابنَ أوْسٍ فَضْلُهُ وَابنَ أصْمَعِ (١)

وقوله :

وَقَالَ الوَلِيدُ : النَّبعُ لَيسَ بمُثْمِرٍ
وَأخطَأَ ، سِرْبُ الوَحْشِ مِنْ ثَمَرِ النَّبعِ (٢)

— رجلا يوم بدر وهو المراد بعبيد الجوع ، لأنه قتل عمرو بن عبد وُدّ يوم الخندق ، وقد اجتمع فيه نحو عشرة آلاف من قريش وسُلَيم وأسد وغطفان، فلما قتل عمرو انكشف أصحابه وتبعهم المسلمون ، ولما كان علي (ض) هو السبب في انهزام غطفان أضافه أبو العلاء إلى عليّ . (ج) انظر شروح السقط ق ١ ص ٤٤٣ .

(١) أصمع القلب : متيقظ ذكي حاد الفطنة ، والأوس : الإعطاء والتعويض ، آسه أوسا ، وابن أوس هو أبو تمام حبيب بن أوس الطائي الشاعر المشهور وقيل : هو أبو زيد الأنصاري سعيد بن أوس بن زيد . وابن أصمع : هو الأصمعي عبد الملك بن قريب الإمام اللغوي المشهور ، وقد أجاد أبو العلاء في الجناسة بين هذه الألفاظ . (ع) وانظر شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٥٨٩ .

(٢) الوليد : هو البحتري الشاعر المشهور ، قال من قصيدة :

وَعَيَّرتني بِخِلالِ العُدْمِ آونةً والنَّبعُ عُريانُ ما في عودِه ثَمَرُ

والنبع : شجر تتخذ منه القسي ، يريد البحتري أن النبع ليس له ثمر ، ويريد أبو العلاء أن البحتري أخطأ في قوله هذا لأن القسي التي تؤخذ من النبع يصاد بها بقر الوحش وحمر الوحش وغيرها من أنواع الوحش ، فيكون سرب الوحش من ثمر النبع . وهو استدراك خيالي بديع . (ج) وانظر شروح السقط ق٣ص١٣٤٨ .

وقوله :

وَلاَ هَدِيّةَ عِنْدي غَيْرُ مَاحَمَلَتْ ... عَنِ الْمسَيّبِ أرْوَاحٌ لِقَعْقَاعِ (١)

وَلَمْ أكنْ وَرَسُولي حِينَ أرْسِلُهُ ... مِثْلَ الفَرَزْدَقِ في إرْسَالِ وَقّاعِ (٢)

المبالغة في شعره

المبالغة في الشعر والإفراط في الوصف نوع من الأساليب المستحسنة عند جمهور من المتقدمين والمتأخرين من الشعراء والعلماء ؛ وقد كان بعضهم يفضلها ويراها الغاية القصوى في الجودة . وقد نقل عن النابغة أنه قال : « أشعر الناس من استجيدَ كذبه ، وضحك من رديئه » ونقل عن غيره « أحسن الشعر أكذبه » . وشاع على ألسنة المتأخرين : أعذبه أكذبه . وقد وقع منها في كلام المتقدمين شيء كثير ، منه قول مهلهل :

فَلَولاَ الرِّيحُ أُسْمِعَ مَنْ بِحُجْرٍ ... صَلِيلَ البيضِ تقْرَعُ بالذكُورِ

وقد قيل : إنه أكذب بيت قالته العرب ، لأن المسافة بين « حجر »

---

(١) المسيب بن علس : شاعر مدح القعقاع بن معبد التميمي بقصيدة قال فيها :

فَلأهدِيَنّ مَعَ الرياحِ قصيدةً ... مني مُغلغلةً إلى القَعْقَاعِ

يريد أبو العلاء أنه ليس عنده هدية غير الشعر . (ج) وانظر شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٧٥٩ .

(٢) وقاع : غلام الفرزدق كان يراسل به في الجنايات والقبائح والأمور التي ليست بجميلة ؛ يريد أبو العلاء أن رسائله لاتكون إلا فيما هو جميل . وقد تقدم هنا . (ج) .

وهي قصبة اليمامة ، وبين مكان الوقعة عشرة أيام . ومنه قول امرىء القيس :

تَنَوَّرْتُها مِنْ اذْرِعَاتٍ وَأَهْلُهَا ... بِيَثْرِبَ أَدْنَى دَارِهَا نَظَرٌ عَالِ (١)

أذرعات : من بلاد الشام ، ويثرب : هي المدينة المنورة .

وقول النابغة في وصف السيوف :

تَقُدُّ السَّلُوقِيَّ المضَاعَفَ نَسْجُهُ ... وَتُوقِدُ بِالصُّفَّاحِ نَارَ الحُبَاحِبِ

وقول جرير :

فَلَوْ وُضِعَتْ فِقَاحُ بني نُمَيْرٍ ... عَلَى خبثِ الحَدِيدِ إذاً لَذَابَا (٢)

ثم لما جاء العصر العباسي أكثر منه الشعراء ، فوقع في شعر بشار مثل قوله :

سَلَبْتِ عِظَامي لَحْمَهَا فَتَرَكْتِهَا ... عَوَارِي في أجْلادِهَا تَتَكَسَّرُ

وَأخْلَيْتِ مِنْهَا مُخَّهَا فَتَرَكْتِهَا ... أنَابِيبَ في أجْوَافِهَا الرِّيحُ تَصْفِرُ

خُذِي بِيَدِي ثُمَّ ارْفَعِي الثَّوْبَ فَانْظُرِي ... ضَنَى جَسَدِي لكنَّني أتَسَتَّرُ

---

(١) ديوان امرىء القيس ، ط بيروت ، ص ١٤١ ، ومطلع القصيدة :

ألا عم صباحاً أيها الطلل البالي ... وهل يعمن من كان في العصر الخالي

(٢) ديوان جرير ، ط الصاوي ، ص ٧٢ . ومطلع القصيدة :

أقلي اللوم عــاذل والعتــابا ... وقولي إن أصبت لقد أصــابا

وَلَيْسَ الذي يَجْرِي مِنَ العَيْنِ مَاؤُهَا
وَلَكِنَّهـــا نَفْسٌ تَذُوبُ فَتَقْطُرُ

وجاء في شعر أبي نواس مثل قوله :

وَأَخَفْتَ أَهْلَ الشِّرْكِ حَتَّى إِنَّهُ ... لَتَخَافُكَ النُّطَفُ التي لم تُخْلَقِ

وفي شعر أبي تمام مثل قوله :

وَيَهْتَزُّ مِثْلَ السَّيْفِ لَوْ لَمْ تَسُلَّهُ ... يَدَانِ لَسَلَّتْهُ ظُبَاهُ مِنَ الغِمْدِ (١)

وفي كلام البحتري مثل قوله في السيف :

مَاضٍ وإِنْ لم تُمْضِهِ يَدُ فَارِسٍ ... بَطَلٍ وَمَصْقُولٌ وَإِنْ لم يُصْقَلِ (٢)

مُتَأَلِّقٌ يَفْرِي بِأَوَّلِ ضَرْبَةٍ ... مَا أَدْرَكَتْ وَلَوَ انَّهُ في يَذْبُلِ

ثم جاء المتنبي فأكثر من مثل قوله :

كَفَى بِجِسْمِي نُحُولاً أَنَّنِي رَجُلٌ ... لَوْلَا مُخَاطَبَتِي إِيَّاكَ لَمْ تَرَنِي (٣)

وقوله :

عَقَدَتْ سَنَابِكُهَا عَلَيْهَا عِثْيَراً ... لَوْ تَبْتَغِي عَنَقاً عَلَيْهِ لأَمْكَنَا (٤)

---

(١) ديوان أبي تمام ، ط . بيروت ص ١١٦ وفي رواية الديوان تصحيف .

(٢) ديوان البحتري ، ط . بيروت ص ٣٣٣ .

(٣) ديوان المتنبي ، ط . بيروت ص ٧ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٥٢ .

ثم جاء أبو العلاء ، فاحتذى على مثال هؤلاء العباقرة ، ونهز معهم بدلوهم . وزعم بعضهم أن أبا تمام هو الذي كثّر هذا الباب ، ثم تبعه الناس من بعده . ولكن يظهر للمستقصي أن أبا الطيب أكثرُ الناس غلوّاً ، وأن أبا العلاء لايقل عنه في ذلك .

وقد قسم العلماء هذا الإفراط إلى ثلاثة أقسام :

الاول المبالغة : ويسمى التبليغ ، وهو وصف الشيء بالممكن القريب وقوعه عادة .

الثاني الإغراق : وهو وصف الشيء بالممكن البعيد وقوعه عادة .

الثالث الغلو : وهو وصف الشيء بما يستحيل وقوعه .

وقال بعضهم : المبالغة : ادعاء ممكن عقلا وعادة ، والإغراق : ادعاء ممكن عقلا لاعادة ، والغلو : ادعاء مالا يمكن عقلا ولا عادة .

وأكثرهم لايعد الإغراق والغلو من المحاسن إلا إذا اقترن بما يقرّبه إلى القبول ، مثل « قد ، ولو ، ولولا ، وكاد ، وكأن » وما شاكل ذلك .

وفي شعر أبي العلاء في (سقط الزند) صور مختلفه من الأنواع الثلاثة . منه ماهو مقرون بأداة تقرّبه إلى القبول ، ومنه ماتضمن معنىً حسناً من التخييل يجعله مقبولا كقوله :

تَكَادُ قِسِيُّهُ مِنْ غَيْرِ رَامٍ   تُمَكِّنُ فِي قُلُوبِهِمُ النِّبَالاَ[1]
تَكَادُ سُيُوفُهُ مِنْ غَيْرِ سَلٍّ   تَجِدُّ إِلَى رِقَابِهِمُ انْسِلَالَا

---

(١) شروح سقط الزند : ق ١ ص ٤٣ ، ٤٤ ، ١٠٤ .

يُذيبُ الرُّعْبُ مِنْهُ كُلَّ عَضْبٍ ... فَلَوْلاَ الغِمْدُ يُمْسِكُهُ لَسَالاَ

وقوله في وصف فرس :

يُحِسُّ وَطْءَ الرَّزَايَا وَهْيَ نَازِلَةٌ
فَيُنْهِبُ الجَرْيَ نَفْسَ الحَادِثِ المكِرِ (١)

وقوله في أعناق الإبل :

وَقَدْ دَقَّتْ هَوَادِيهِنَّ حَتَّى ... كَأَنَّ رِقَابَهُنَّ الخَيْزُرَانُ (٢)
إِذَا شَرِبَتْ رَأَيْتَ المَاءَ فِيهَا ... أُزَيرِقَ لَيْسَ يَسْتُرُهُ الجِرانُ

وقوله في المدح :

إِذَا سَمَّيْتَهُ في أرْضِ جَدْبٍ ... نَزَلتَ وَكُلُّ رَابِيَةٍ خِوَانُ (٣)

وقوله فيه :

وَقَدْ بلَغَ الضُّرَاحَ وَسَاكِنِيهِ ... نَثَاكَ وَزَارَ مَنْ سَكَنَ الضَّرِيحَا (٤)

وقوله يصف الإبل بحدة البصر ، والليل بشدة الظلمة :

وَكُنَّ يَرَيْنَ نَارَ الزَّنْدِ فِيهِ ... فَلَمْ يُبْصِرْنَ إذْ وَرَتِ الزِّنَادُ (٥)

---

(١) شروح سقط الزند : ق ١ ص ١٤٧ .
(٢) شروح سقط الزند : ق ١ ص ١٨٢ — ٣ .
(٣) المصدر السابق ص ٢٢٢
(٤) شروح سقط الزند : ق ١ ص ٢٦٩ وفيها : « فقد بلغ . . » والضراح : بيت في السماء إزاء الكعبة تطوف به الملائكة ، وهو البيت المعمور المذكور في القرآن . والثنا : الخبر المنتشر حسناً كان أو قبيحاً .
(٥) شروح سقط الزند : ق ١ ص ٣١٣ — ٣١٥ .

لوأنَّ بياضَ عَيْنِ المرء صُبْحٌ   هُنالِكَ مَا أضاء بِهِ السَّوادُ

وقوله في وصف الخيل في عظمها وضمورها :

ضَمُرَتْ وَشَزَّبَها القِيادُ فأصبحَتْ

والطِّرْفُ يرْكُضُ في مسَابِ الأرْقَمِ[1]

مِنْ كُلِّ مُعْطِيَةِ الأعِنَّةِ،سَرْجُها   تَرْقَى فَوارِسُها إلَيْهِ بِسُلَّمِ

وقوله المتقدم في وصف إبل :

وَلَوْ وَطِئَتْ في سَيْرِها جَفْنَ نائِمٍ[2]   . . . .

وقوله المتقدم أيضاً :

وَأعْيسَ لَوْ وَافَى بِهِ خُرْقَ مِخْيَطٍ[3]   . . . .

وقوله في الدرع :

لَهَا حِلَقٌ ضَيْقٌ لَوَ انَّ وَضِينَهُ   فُؤادُكَ لَمْ يَخْطُرْ بِقَلْبِكَ هَاجِسُ[4]

البديع في شعره في السقط :

لأبي العلاء ولع شديد بالبديع، ولا سيما الجناس، والطباق،والتورية؛ ولعله

---

(١) شروح سقط الزند : ق ١ ص ٢٤٠ ـ ٢٤١ .

(٢) تمامه : « بأخفافها لم ينتبه من منامه » انظر ما سبق ص ١٠٠٨ .

(٣) تمامه : « لأعنقه من خصره واضلعه » . انظر ما سبق ص ١٠٠٨ .

(٤) شروح سقط الزند : ق ٥ ص ١٩٩٦ .

كان يتعمد ذلك وتساعده على إتقانه وإحكامه غزارة لغته ، وسعة علمه ، وحفظه . وإليك أمثلة من قوله ، فيها أنواع من البديع ..

حسن المطلع :

يَاسَاهِرَ البَرْقِ أيقِظْ رَاقِدَ السَّمُرِ   لَعَلَّ بالجزْعِ أعْواناً عَلى السَّهَرِ (١)

الالتفات :

يَوَدُّ أنْ ظَلامَ اللَّيلِ دَامَ لَهُ   وَزِيدَ فِيهِ سَوادُ القَلْبِ والبَصَرِ (٢)

أوِ اخْتَصَرْتُمْ مِنَ الإحْسَانِ زُرْتُكُمْ
والعَذْبُ يُهْجَرُ للإفراطِ في الخَصَرِ

الجناس التام :

كَأنَّ قَطَاةَ أعْجَزِهَا قَطَاةٌ   أُدِيفَ بِمَحْجِرَيْهَا الزَّعْفَرانُ (٣)

الجناس المحرف :

لِغَيْرِي زَكَاةٌ مِنْ جمالٍ فَإِنْ تَكُنْ   زَكَاةُ جَمَالٍ فَاذْكُرِي ابْنَ سَبِيلِ (٤)

الجناس المركب :

أَلِفْتِ خُوصَ المطَايَا إِنْ مُنْكَرَةً   إلْفَ الغَزَالِ مَقَالِيتاً مَقَالِيتَا (٥)

---

(١) شروح سقط الزند : ق ١ ص ١١٤ .
(٢) أنظر ماسبق ص ٩٣٧ والمصدر السابق : ١١٩ ـ ١٢٠ .
(٣) أنظر ماسبق ص ١٠٠٠ .
(٤) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١٠٤١ .
(٥) شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٦١٨ . ومقا : صقل وجـلا ، والليت : صفحة العنق . والمقاليت : مفردها مقلات وهي التي لايعيش لها ولد .

مواعاة النظير :

دَعِ اليَرَاعَ لِقَوْمٍ يَفْخَرُونَ بِهِ ... وبالطِّوالِ الرُّدَيْنِيَّاتِ فافْتَخِرِ (١)
فَهُنَّ أقلامُكَ اللاتي إذا كَتَبَتْ ... مَجْداً أتَتْ بِمِدَادٍ مِنْ دَمٍ هَدَرِ

التسميط :

أَلِفْتِ المَلاَ حتّى تَعَلَّمْتِ بالفَــلاَ
رُنُوَّ الطَّلاَ أو صَنْعَةَ الآلِ في الخَدْعِ (٢)

حسن التخلص :

وَلَوْ أنَّ المَطِيَّ لَهــا عُقُولٌ ... وَجَدِّكَ لَمْ نَشُدَّ بِهَا عِقَالاَ (٣)
مُوَاصَلَةً بِهــا رَحْلِي كَأَنّي ... عَنِ الدُّنيا أُرِيدُ بها انفِصَالاَ
سَأَلْنَ فقلتُ مَقصِدُنا سَعِيدٌ ... فكَانَ اسمُ الأَميرِ لَهُنَّ فَالاَ

قال ابن حجة : هذا التخلص من العجائب ، فإن الشيخ أبا العلاء سبكه في قالب التورية والاتفاق البديع ، وكان اسم الأمير في فألهم سعيدا ، والعرب ما برحوا يتفاءلون بالاسم الحسن ويتطيرون بضده .

التصدير أورد العجز على الصدر :

فَلَوْ سَمَحَ الزمَانُ بِهَا لَضَنَّتْ ... وَلَوْ سَمَحَتْ لَضَنَّ بِهَا الزَّمَانُ (٤)

---

(١) شروح سقط الزند : ق ١ ص ١٥٦ .
(٢) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١٣٤٥ ، والملا : المتسع من الأرض ، الطلا : بفتح أوله ولد الظبية ، الآل : السراب . الخدع : بسكون الدال الخديعة .
(٣) شروح سقط الزند : ق ١ ص ٣٩ - ٤١ .
(٤) شروح سقط الزند : ق ١ ص ١٧٦ .

حسن التعليل :

وَمَا كُلْفَةُ البدْرِ المنيرِ قَدِيمةٌ … وَلكِنَّها في وَجهِهِ أَثَرُ اللَّدْمِ (١)

حسن الاتباع :

لوِ اخْتَصَرْتُمْ مِنَ الإِحسَانِ زُرْتُكُمُ
والعَذْبُ يُهجَرُ للإِفْراطِ في الخَصَرِ (٢)

فإنه استوعب معنى بيتَي البحتري :

أَخجلتَني بنَدَى يَدَيكَ فَسوَّدَتْ … ما بينَنَا تلكَ اليدُ البيضَاءُ (٣)
[وَقَطَعْتَنِي بالجودِ حتَّى إِنني … مُتَخَوِّفٌ أَلاَّ يَكُونَ لِقَاءُ]
صِلَةٌ غَدَتْ في الناسِ وهيَ قَطِيعةٌ … عَجَبٌ وَبِرٌّ رَاحَ وهو جَفَاءُ

في صدر بيته ، وأخرج العجز مخرج المثل السائر مع الإيجاز والإيضاح والبيان.

التلميح :

ويوشَعُ رَدَّ يُوحى بَعضَ يَوْمٍ … وَأَنتَ مَتَى سَفَرْتَ رَدَدْتَ يُوحا (٤)

(١) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ٩٦٧ . اللدم : ضرب المرأة وجهها باليد .
(٢) أنظر ماسبق ص ٩٣٢ .
(٣) ديوانه ط بيروت ص ٧٢٥ .
(٤) أنظر ماسبق ص ١٠٠٧ .

التورية :

وَحَرْفٍ كَنُونٍ تَحتَ رَاءٍ وَلَمْ يَكُنْ
بِدَالٍ يَؤُمُّ الرَّسْمَ غَيَّرَهُ النَّقْطُ (١)

• • •

إِذَا صَدَقَ الجَدُّ افْتَرَى العَمُّ لِلْفَتَى
مَكَارِمَ لاَ تُكْرِي وإِنْ كَذَبَ الخَالُ(٢)

الاستخدام :

وَفَقِيهاً أَفكَارُهُ شِدْنَ لِلنُّعْـــمانِ مَا لَمْ يَشِدْهُ شِعْرُ زِيَادِ (٣)

ومن ذلك قوله في الدرع :

مِثْلُ وَشْيِ الوَلِيدِ لاَنَتْ وَإِنْ كَا   نَتْ مِنَ الصُّنْعِ مِثْلَ وَشْيِ حَبِيبِ (٤)
تِلْكَ مَاذِيَّةٌ وَمَا لِذُبَابِ السَّـــيْفِ وِالصَّيْفِ عِنْدَهَا مِنْ نَصِيبِ

قال في معاهد التنصيص : استخدم لفظ الذباب في معنييه ، الأول : طرف السيف ، والثاني : الطائر المعروف ، وفيه نظر .

---

(١) شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٦٥١ . وقوله : تحت راء : أي تحت رجل يضرب رئتها ، ولم يكن بدال : اي لم يكن برافق . والنقط المطر .

(٢) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١٢٦٢ . والجد : الحظ ، والعم : الجماعة ، وتكري : تنقص ، والخال : المخيلة .

(٣) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ٩٨٦ .

(٤) شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٩٢٣ وفيها تقدم الصيف على السيف ، في البيت الثاني .

المدح في معرض الذم :

ثُمَّ مَضَى يُثْني عَلَى سَيِّد كَاللَّيْثِ إلاَّ أنَّهُ أحزَمُ (١)

التجريد :

مَاجتْ نُمَيرٌ فَهَاجتْ مِنْكَ ذَا لِبَدِ وَاللَّيْثُ أفتَكُ أفعالاً مِنَ النَّمِرِ (٢)

الارصاد أو التسهيم :

إذَا الفَتَى ذَمَّ عَيْشـــاً في شَبِيبَتِهِ
فَمَا يَقُولُ إذَا عَصْرُ الشَّبابِ مَضَى (٣)

فإن الحاذق في صناعة الكلام ، إذا سمع المصراع الأول علم أن مقتضى الكلام أن يتلوه « اذا عصر الشباب مضى » لا سيما بعد معرفة القافية ؛ ومثله قوله :

جَهُولٌ بالمَنَاسِكِ لَيسَ يَدْرِي أغَيّاً بَاتَ يَفْعَلُ أمْ رَشَادَا (٤)

فان الكلام يقتضي أن يكون آخره « ام رشادا » .

الاشارة :

بِي مِنْكِ مَا لَوْ غَدَا بالشَّمسِ مَا طَلَعَتْ مِنَ الكَآبَةِ أو بِالبَرْقِ مَا وَمَضَا (٥)

(١) شروح سقط الزند : ق ٢ س ٨٥٤ .
(٢) شروح سقط الزند : ق ١ س ١٥٢ .
(٣) شروح سقط الزند : ق ٢ س ٦٥٥ .
(٤) شروح سقط الزند : ق ٢ س ٥٩٠ .
(٥) شروح سقط الزند : ق ٢ س ٦٥٤ .

فقد أشار بلفظ (ما) الأولى الى ما لا يحصى من الكآبة والحزن .

الافتنان :

فَكُنْ فِي كُلِّ نَائِبَةٍ جَرِيئاً ... تُصِبْ فِي الرَّأْيِ إِنْ خَطِئَ الهِدَانُ[١]

وَسَائِلْ مَنْ تَنَطَّسَ فِي التَّوَقِّي ... لِأَيَّةِ عِلَّةٍ مَاتَ الجَبَانُ

فَإِنَّ تَعَاوُنَ الأَمْلَاكِ جَوْلٌ ... عَلَى مَلِكٍ بِخَالِقِهِ يُعَانُ

فقد جمع في هذه الأبيات الهجاء والمدح ؛ ومن هذا النوع قصيدته :

وَرَائِي أَمَامٌ وَالأَمَامُ وَرَاءُ ... إِذَا أَنَا لَمْ تُكْبِرْنِيَ الكُبَرَاءُ[٢]

فانه جمع فيها بين الفخر والمدح والهجاء .

الاقتباس :

أُعِدُّ مِنْ صَلَوَاتِي حِفْظَ عَهْدِكُمُ ... إِنَّ الصَّلَاةَ كِتَابٌ كَانَ مَوْقُوتَا[٣]

التصريع :

تَحِيَّةُ كِسْرَى فِي الثَّنَاءِ وَتُبَّعِ ... لِرَبْعِكَ لَا أَرْضَى تَحِيَّةَ أَرْبُعِ[٤]

الايجاز : حذف أكثر من جملة :

طَرِبْنَ لِضَوْءِ البَارِقِ المُتَعَالِي ... بِبَغْدَادَ وَهْناً مَا لَهُنَّ وَمَالِي[٥]

---

(١) شروح سقط الزند : ق ١ ص ٢١٧ ـ ٨ والهدان : الجبان الضعيف .

(٢) شروح سقط الزند : ق ١ ص ٣٩٢ .

(٣) شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٦٤٣ .

(٤) شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٥٢٧ .

(٥) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١١٦٢ .

شخصية المعري في سقط الزند :

قلنا غير مرة : إن لأبي العلاء خصائص نفسية وأدبية تتجلى في أضعاف كلامه ، وقلما خلا أثر من آثاره من ذكر شيء منها ، إما تصريحاً وإما تلميحاً ، منها :

١ — تواضعه مع مخاطبيه أو ممدوحيه ، وذلك يتمثل في مثل قوله في (سقط الزند ج ١ ص ٦٣) من قصيدة [١] أجاب بها الشريف أبا إبراهيم :

وَكَوْنُ جَوَابِهِ فِي الوَزْنِ ذَنْبٌ ... وَلَكِنْ لَمْ تَزَلْ مَوْلًى صَفُوحَا

وَذَلِكَ أَنَّ شِعْرَكَ طَالَ شِعْرِي ... فَمَا نِلْتُ النَّسِيبَ وَلاَ المَدِيحَا

الأبيات . . وقوله من قصيدة [٢] أخرى أجابه بها (ج ١ ص ٩٧) :

قَدْ أَجَبْنَا قَوْلَ الشَّرِيفِ بِقَوْلٍ ... وَأَثَبْنَا الحَصَى عَنِ المَرْجَانِ

وقوله (ج ١ ص ٩٩) من قصيدة [٣] أجاب بها أبا القاسم علي بن الحسن بن جلبات التنوخي المعري :

فَإِنْ يَكُ أَضْحَى القَوْلُ جَمّاً طُيُورُهُ ... فَمَا تَسْتَوِي عِقْبَانُهُ بِحَمَامِهِ

---

(١) مطلعها :

ألاح وقد رأى برقاً مليحا ... سرى فأتى الحمى نضواً طليحا

وانظر شروح سقط الزند : ق ١ ص ٢٣٧ ، ٢٧٤ .

(٢) مطلعها :

عللاني فان بيض الأماني ... فنيت والزمان ليس بفان

وانظر شروح سقط الزند : ق ١ ص ٤٢٥ ، ٤٥٦ .

(٣) مطلعها :

يرومك والجوزاء دون مرامه ... عدو يعيب البدر عند تمامه

وانظر شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٤٧٣ .

وَإِنْ يَكُ وَادِينَا مِنَ الشِّعْرِ نَبْتُهُ ... فَغَيْرُ خَفِيٍّ أَثْلُهُ مِنْ ثُمَامِهِ

وقوله (ج ١ ص ١٥٥) من قصيدة[١] أجاب بها أبا الخطاب محمد بن علي الجَبُلي :

وَظَلَمْتَ شِعْرَكَ إِذْ حَبَوْتَ رِيَاضَهُ ... رَجُلاً سِوَاهُ مِنَ الْوَرَى أَوْلَى بِهِ

فَأَجَابَ عَنْهُ مُقَصِّراً عَنْ شَأْوِهِ ... إِذْ كَانَ يَقْصُرُ عَنْ بُلُوغِ ثَوَابِهِ

وقوله (ج ٢ ص ٦٦) من قصيدة[٢] رثى بها الشريف أبا أحمد والد المرتضى والرضي :

يَا مَالِكَيْ سَرْحِ الْقَرِيضِ أَتَتْكُمَا ... مِنِّي حَمُولَةُ مُسْنِتِينَ عِجَافِ

. . . .

وَأَنَا الذي أُهْدِي أَقَلَّ بَهَارَةٍ ... حُسْناً لِأَحْسَنِ رَوْضَةٍ مِئْنَافِ

ويلحق بهذا الباب ادعاؤه هجر الشعر ، أو أنه جدير بهجره ، وذلك في مثل قوله[٣] (ج ١ ص ١٥٢) :

لاَ يُوهِمَنَّكَ أَنَّ الشِّعْرَ لِي خُلُقٌ ... وَأَنَّنِي بِالْقَوَافِي دَائِمُ الْأُنُسِ

---

(١) مطلعها :

أشفقت من عبء البقاء وعابه ... ومللت من أري الزمان وصابه

وانظر شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٧١٥ ، ٧٢٧ — ٨ ، ورواية البيت الثاني فيها : « . . . إذ كان يعجز عن بلوغ ثوابه » .

(٢) مطلعها :

أودى فليت الحادثات كفاف ... مال المسيف وعنبر المستاف

وانظر شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١٢٦٤ ، ١٣١٨ — ٩ .

(٣) من قصيدة أولها :

لولا تحية بعض الأربع الدرس ... ماهاب حد لساني حادث الحُبَس

وانظر شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٦٨٩ ، ٧١١ — ١٣ .

فإنَّمَا كَانَ إلمامي بِسَاحَتِهـا   في الدَّهرِ إلمامَ طيْرِ الماءِ بالعَلَسِ
عَسَاكَ تَعذِرُ أن قَصَّرْتُ في مِدَحِي   فإنَّ مِثْلي بِهِجْرَانِ القَرِيضِ عَسِ

٢ ـ تعففه عن الاستجـداء بشعره ، وعن قبول أي شيء كان من ممدوحيه أو غيرهم ؛ وهذا كثير في شعره ، منه قوله في مرثية الشريف أبي أحمد :

أوْضَعْتُ في طُرُقِ التَّشَرُّفِ سَامِياً   بِكُمَا وَلَمْ أسْلُكْ طَرِيقَ العَافي[1]

وقوله في (ج ١ ص ١٦٢ — ١٦٣) :

وَلاَ أُثَقَّلَ في جَاهٍ وَلاَ نَشَبٍ   وَلَوْ غَدَوْتُ أَخَا عُدْمٍ وإِدْقَاعِ[2]
وَلَمْ أكُنْ وَرَسُولي حِينَ أُرْسِلُهُ   مِثْلَ الفَرَزْدَقِ في إرْسَالِ وَقَّاعِ

وقوله (ج ١ ص ٧٢) :

وَلَوْلاَ فَرطُ حُبِّكَ مَا ازْدَهَاني   إلى المَدْحِ الطَّرِيفُ وَلاَ التِّلادُ[3]

وقوله من قصيدة[4] قالها في بغداد (ج ٢ ص ٤٥) :

أُنَبِّئُكُمْ أني عَلَى العَهْدِ سَالِمٌ   وَوَجْهِيَ لمَّا يُبْتَذَلْ بِسُؤَالِ

إلى آخر الأبيات التي تقدمت .

---

(١) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١٣٢٠ ، وانظر الصفحة السابقة .
(٢) شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٧٥٦ ، ٧٦٠ وانظر ماسبق ص ١٠١٢ .
(٣) وانظر شروح سقط الزند : ق ١ ص ٣٢٤ .
(٤) مطلعها :
طربن لضوء البارق المتعالي   ببغداد وهنا مالهن ومالي
وانظر شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١١٦٢ ، ١٢٠٥ .

وقوله من قصيدة[1] اخرى قالها في بغداد (ج ٢ ص ٥٤) .

وَكَمْ مَاجِدٍ فِي سِيفِ دِجْلَةَ لَمْ أَشِمْ ... لَهُ بَارِقاً والمرء كَالْمُزْنِ هَطَّالُ

وقوله من قصيدة[2] كتبها إلى أبي القاسم علي القاضي التنوخي (ج ٢ ص ١١٩) .

رَحَلْتُ لَمْ آتِ قِرْوَاشاً أُزَاوِلُهُ ... وَلاَ الْمُهَذَّبَ أَبْغِي النَّيْلَ تَقْوِيتَا

والمَوْتُ أَحْسَنُ بالنَّفْسِ التي أَلِفَتْ ... عِزَّ القَنَاعَةِ مِنْ أَنْ تَسْأَلَ القُوتَا

٣ عفاف لسانه : فإن الباحث في ديوانه هذا كله لا يجد كلمة بذيئة تتقزز منه النفس وينفر منها الطبع ، على كثرة ما فيه من الألفاظ اللغوية .

٤ ــ اعتداده بنفسه : وهذا كثير في فخره ومديحه ؛ وحسبك منه لاميته[3] التي يقول فيها :

وَإِنِّي وإِنْ كُنْتُ الأَخِيرَ زَمَانُهُ ... لآتٍ بِمَا لَمْ تَسْتَطِعْهُ الأَوَائِلُ

. . . .

---

(١) مطلعها .

مغاني اللوى من شخصك اليوم أطلال ... وفي النوم مغنى من خيالك محلال

وانظر شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١٢١١ ، ١٢٥٩ .

(٢) مطلعها :

هات الحديث عن الزوراء أو هيتا ... وموقد النار لاتكرى بتكريتا

وانظر شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٥٩٣ ، ١٦٣٩ .

(٣) مطلعها :

ألا في سبيل المجد ما أنا فاعل ... عفاف وإقدام وحزم ونائل

وانظر شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٥١٩ ، ٥٢٥ ، ٥٣٠ .

يُنَافِسُ يَوْمِي فِيَّ أَمْسِي تَشَرُّفاً ... وَتَحْسُدُ أَسْحَارِي عَلَيَّ الأَصَائِلُ

وأبياته (١) التي يقول فيها : (ج ١ ص ٦٦) :

أَأَخْمُلُ وَالنَّبَاهَةُ فِيَّ لَفْظٌ ... وَأُقْتِرُ وَالقَنَاعَـــةُ لِي عَتَادُ

وأبياته (٢) التي يقول فيها (ج ١ ص ١١٧) :

كَأَنِّي فِي لِسَانِ الدَّهْرِ لَفْظٌ ... تَضَمَّنَ مِنْهُ أَغْرَاضًا بِعَادَا

يُكَرِّرُنِي لِيَفْهَمَنِي رِجَـــالٌ ... كَمَا كَرَّرْتَ مَعْنًى مُسْتَعَادَا

وأبياته (٣) التي يقول فيها (ج ١ ص ١٣٠) :

إِلَى كَمْ تَشَكَّانِي إِلَيَّ رِكَائِبِي ... وَتُكْثِرُ عَتْبِي خِفْيَةً وَجِهَـــارَا

أَسِيرُ بِهَا تَحْتَ المَنَايَا وَفَوْقَهَا ... فَيَسْقُطُ بِي شَخْصُ الحِمَامِ عِثَارَا

---

(١) أولها :

أفوق البدر يوضع لي مهاد ... أم الجوزاء تحت يدي وساد

وانظر شروح سقط الزند : ق ١ ص ٢٨١ ، ٢٨٧ .

(٢) أولها :

أرى العنقاء تكبر أن تصادا ... فعاند من تطيـــق له عنادا

وانظر شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٥٥٣ ، ٥٦٣ .

(٣) أولها :

تجرّت جهدي لو وجدت خياراً ... وطرت بعزمي لو أصبت مطارا

وانظر شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٦١٨ ـ ١٩ .

وقوله [١] (ج ١ ص ١٣٦) :

تَعَاطَوْا مَكَاني وَقَدْ فُتُّهُمْ   فَمَا أدرَكُوا غيرَ لَمْحِ البَصَرْ
وَقَدْ نَبَحُوني فَمَا هِجْتُهُمْ   كَمَا نَبَحَ الكَلْبُ ضَوْءَ القَمَرْ

وقد يقال : إن الشاعر قد يطرق مثل هذه المعاني في باب الفخر ، ويتكثر بما ليس عنده ، وليس في مثل هذا دلالة على أنه يعتد بنفسه . فيقال : إن أبا العلاء ذكر شيئاً من هذه المعاني في غير باب الفخر ، كقوله من قصيدة [٢] (ج ٢ ص ٢٠) :

وَفِيَّ لِمَنْ رَامَ المَعَالي بَقِيَّةٌ   وَعِنْدِي إِذَا عَيَّ البَلِيغُ مَقَالُ

٥ ـ اعتداده بشعره : وذلك يتجلى في مثل قوله [٣] (ج ١ ص ٧٢) :

تَذُودُ عُلاَكَ شُرَّادَ المَعَاني   إِلَيَّ فَمَنْ زُهَيْرٌ أَوْ زِيَادُ
إِذَا مَا صِدْتُها قَالَتْ رِجَالٌ   أَلَمْ تَكُنِ الكَوَاكِبُ لاَ تُصَادُ

وقوله (في ج ٢ ص ٨٦) من قصيدة [٤]

تُسَاوِرُ فَحْلَ الشِّعْرِ أَوْ لَيْثَ غَابِهِ   سَفَاهاً وأَنْتَ النَاقَةُ العُشَرَاءُ

(١) شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٦٤٩ . وفيها « .. وما هجتهم » .
(٢) مطلعها :

هو الهجر حتى مايلم خيال   وبعض صدود الزائرين وصال

وانظر شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١٠٤٦ ، ١٠٦٦ .
(٣) شروح سقط الزند : ق ١ ص ٣٢١ ـ ٢ .
(٤) شروح سقط الزند : ق ١ ص ٣٩٧ .

وقوله (في ج ١ ص ٨٨) من قصيدة [١] :

وَلَقَدْ غَصَبْتُ اللّيْلَ أحْسَنَ شُهْبِهِ   وَنَظَمْتُها عِقْداً لِأحْسَنِ لاَبِسِ
وَأفَدْتُها القِدْحَ المُعَلَّى فَائِضاً   يَجْرِي وَلَمْ أقْنَعْ لَهَا بالنافِسِ

وقوله من أبيات [٢] (في ج ١ ص ١٠٩) :

سَنَنْتُ لأرْبَابِ القَرِيضِ امْتِدَاحَهُ
كَمَا سَنَّ إبراهِيمُ حَجَّ مَقَامِــهِ

. . . .

وَهَذَا لأهْلِ النُّطْقِ شَرْعِي وَمَذْهَبِي
فَمَنْ لَمْ يُطِعْني عَقَّ أمْرَ إمَامِــهِ

وقوله من أبيات [٣] في (ج ١ ص ١١١) :

وَلِيَ مَنْطِقٌ لَمْ يَرْضَ لي كُنْهَ مَنْزِلي
عَلَى أنَّني بَيْنَ السِّمَاكَيْنِ نازِلُ

---

(١) مطلعها :

بتنا فريق في سروج ضوامر   منا وآخر في رحال عرامس

وانظر شروح سقط الزند ق ١ ص ١٠٣ ، ١١٢ .

(٢) شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٥١٧ ـ ٨ .

(٣) شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٥٢٧ وانظر ماسبق ص ١٠٢٧ .

٦ – تذمره من الحياة وطولها وعافيها : وهذا كثير في شعره منه قوله في (ج ١ ص ٦٦) :

كَأَنِّي حَيْثُ يَنْشَا الدَّجْنُ تَحْتِي فَمَا أَنا لاَ أُطَلُّ وَلاَ أُجَادُ (١)

وقوله في (ج ١ ص ٤٣) :

وَعِيشَتِيَ الشَّبَابُ وَلَيْسَ مِنْهَا صِبَايَ وَلاَ ذَوَائِبِيَ الهِجَانُ (٢)
وَكَالنَّارِ الحَيَاةُ فَمِنْ رَمَادٍ أَوَاخِرُهَا وَأَوَّلُهَا دُخَانُ

وقوله (٣) في (ج ٢ ص ١٧٢) :

وَقَدْ طَالَ فَوْقَ الأَرْضِ كَوْنِي وَشَبَّهَت
ثَغَاماً بِجَوْنِي عَاذِلاَتِي وَعُذَّالِي

. . . .

أَبِلُّ مِنَ الأَمْرَاضِ وَالعِلْمُ وَاقِعٌ بِعِلَّةِ يَوْمٍ جَانَبَتْ كُلَّ إِبْلاَلِ

. . . .

وَلَمْ تُغْدِرِ الأَيَّامُ بَيْنَ مَفَارِقِي وَأَرْجَائِها كِنّاً لأَدْهَمَ جَوَّالِ

إلى آخر الأبيات .

---

(١) انظر شروح سقط الزند ق ١ ص ٢٨٥ .
(٢) وانظر شروح سقط الزند ق ١ ص ١٧٧ – ٨ .
(٣) من قصيدة مطلعها :
أراني وضعت السرد عني وعزني جوادي ولم ينهض لي الغزو أمثالي
وانظر شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٨٥٢ ، ١٨٧٨ ، ١٨٨٠ .

٧ – تذمره من العمى : وهـذا يتجلى في مثل قوله (١) (في ج ٢ ص ٢٤) .

فَلَيْتَ اللَّيَالِي سَامَحَتْنِي بِنَاظِرٍ ... يَرَاكَ وَمَنْ لِي بِالضُّحَى فِي الأَصَائِلِ
فَلَوْ أَنَّ عَيْنِي مَتَّعَتْهَا بِنَظْرَةٍ ... إِلَيْكَ الأَمَانِي مَا حَلَمْتَ بِفَائِلِ

٨ – تذمره من الناس : وهـذا تحته أنواع تتجلى في قوله (٢) في (ج ١ ص ١٢٦) .

فَظُنَّ بِسَائِرِ الإِخْوَانِ شَرًّا ... وَلاَ تَأْمَنْ عَلَى سِرٍّ فُؤَادَا
فَلَوْ خَبَّرْتُهُم الجَوْزَاءُ خُبْرِي ... لَمَا طَلَعَتْ مَخَافَةَ أَنْ تُكَادَا

. . . .

فَأَيَّ النَّاسِ أَجْعَلُهُ صَدِيقًا ... وَأَيَّ الأَرْضِ أَسْلُكُهُ ارْتِيَادَا
وَلَوْ أَنَّ النُّجُومَ لَدَيَّ مَالٌ ... نَفَتْ كَفَّايَ أَكْثَرَهَا انْتِقَادَا

وقوله في (ج ٢ ص ١٧٣)(٣) :

بَنُو الوَقْتِ إِنْ غَرُّوكَ مِنْهُمْ بِحِكْمَةٍ ... فَمَا خَلْفَهَا إِلاَّ غَرَائِزُ جُهَّالِ

---

(١) من قصيدة أولها :

أليس الذي قاد الجياد مغذة ... روافلَ في ثوب من النقع ذائل

وانظر شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١٠٦٧ ، ١٠٨٤ .

(٢) انظر الشروح : ق ٢ ص ٥٥٩ ، ٥٦٢ .

(٣) انظر الشروح : ق ٤ ص ٩٨٨٠ — ١ .

لِذَاكَ سَجَنْتُ النَّفسَ حَتى أرَحْتُها

مِنَ الإنسِ ما أخلاهُ رَبعٌ بإخلالِ

إذَا مَا حلَلْتُ الجدبَ فَرْداً بلاَ أذىً

فَسَقْياً لَهُ مِنْ رَوضَــةٍ غيرِ مخلالِ

٩ ـ تذمره من حساده : وهــذا يتجلى في مثل قوله [١] في (ج ١ ص ٨٥) :

تكلّمَ بِالقَوْلِ المضَلّلِ حاسِدٌ وكلُّ كلامِ الحاسِدِينَ هُرَاء

الأبيات ؛ وفي قوله في (ج ١ ص ١١٨) [٢] :

وَكَـمْ مِنْ طالِبٍ أمَدي سَيَلْقَى دُوَيْنَ مَكَانِيَ السَّبْعَ الشّدَادَا

إلى آخر الأبيات ؛ وفي قوله في (ج ١ ص ١١٠) [٣].

تُعَدُّ ذُنوبي عندَ قومٍ كثيرةً وَلاَ ذَنبَ لي إلا العُلاَ والفَوَاضِلُ

الى آخر الأبيات ؛ وفى مثل قوله :

فأصبحتُ مَحْسُوداً بِفَضْلِي وَحْدَهُ عَلَى بُعْدِ أنصَاري وَقِلّةِ مالي [٤]

(١) انظر الفروح : ق ١ ص ٣٩٤ .
(٢) انظر الفروح : ق ٢ ص ٥٦٥ .
(٣) المصدر السابق : ص ٥٢٢ .
(٤) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١٢٠٧ .

١٠ – تذمره من النساء وتنفيره منهن : وذلك يتبين في مثل قوله في (ج ١ ص ٧٣ – ٧٤) [١] :

وَتَوَقَّ أَمْرَ الغَانِيَـاتِ فإِنَّهُ أمرٌ إِذَا خَالَفْتَهُ لَمْ تَنْدَمِ

. . . .

وَاسْتَزِرِ بالبِيضِ الحِسَانِ وَلاَ يَكُنْ

لَكَ غَيْرُ هِمَّـةِ صَارِمٍ أوْ لَهْذَمِ

١١ – تذمره من الدنيا ونقمته عليها : وهذا أيضاً كثير في شعره كقوله [٢] في (ج ١ ص ١٩٤) :

عَلَى أمِّ دَفْرٍ غَضْبَةُ اللهِ إِنَّهَا لأَجْدَرُ أُنثَى أنْ تَخُونَ وَأَنْ تُخْنِي

الأبيات ؛ وكقوله [٣] في (ج ٢ ص ٢٠٤) :

أرَى أمَّ دَفْرٍ أُخْتَ هَجْرٍ وَلا أرَى لها سالياً مَا غَيَّبَتْهُ الرَّوَامِسُ

الأبيات ؛ وقوله [٤] في (ج ٢ ص ٢١٩) .

دُنْيَاكَ تَخْدُو بِالْمُسَا فِرِ وَالْمُقِيمِ جِمَالَهَا

---

(١) من قصيدة مطلعها :

أدني الفوارس من يغير لمغنم فاجعل مغارك للمكارم تكرم

وانظر شروح سقط الزند : ق ١ ص ٣٢٧ ، ٣٣٠ .

(٢) من قصيدة مطلعها :

تمنت الرضا حتى على ضاحك المزن فلا جادني إلا عبوس من الدجن

وانظر شروح السقط ق ٢ ص ٩٠٧ ، ٩١٢ .

(٣) من قصيدة مطلعها :

مهرت الفتـاة الأحمسية نـزة على أن أقراني غضاب أحامس

وأنظر شروح سقط الزند : ق ٥ ص ١٩٨٧ ، ٢٠١١ .

(٤) وانظر شروح سقط الزند : ق ٥ ص ٢٠٥٩ . وفيها : « فلم هويت » .

فَعّـالَةٌ غَيرَ الجميـــلِ فَكَمْ هَوِيتَ جَمَالَها

إلى آخر الأبيات .

١٢ – الاكثار من الامثال والحكم : وقلّما خلت قصيدة من ذلك ، بل ربما وجد في القصيدة الواحدة عـدد عظيم منهـا ، كما ترى ذلك في قصيدته [1] التي يقول فيها في (ج ١ ص ٣٩) :

وَالنَّجْمُ تَستَصْغِرُ الأَبصَارُ رُؤْيَتَهُ

وَالذَّنبُ للطَّرْفِ لا لِلنَّجْمِ في الصِّغَرِ

وقصيدته [2] التي يقول فيها في (ج ١ ص ٤٦) :

وَلَوْ طَرِبَ الجَمَادُ لَكَانَ أَوْلَى شُرُوبِ الراحِ بالطَّرَبِ الدِّنَانُ

وَقَد يَنْمِي كَبيرٌ مِنْ صَغيرٍ وَيَنْبُتُ مِنْ نَوَى القَسْبِ اللِّيانُ

وقصيدته [3] التي يقول فيها في (ج ٢ ص ٥) .

لَوْ عَرَفَ الإنسَانُ مِقْدارَهُ لَمْ يَفخَرِ المَوْلَى عَلَى عَبْدِهِ

وهذه القصيدة يكاد يكون معظمها من هذا النوع .

---

(١) وانظر ما سبق ص ٩٩٨ .

(٢) وانظر ما سبق ص ٩٣٨ .

(٣) مطلعها :

أحسن بالواجـد من وجـده صبر يعيد النـار في زنـده

وانظر شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١٠٠٦ ، ١٠١٦ .

١٣ استخدام المعاني العلمية في الصور الأدبية، وذكر المصطلحات العلوم المختلفة : كقوله في الفقه في (ج ١ ص ١٦٠) :

فِي مَعْشَرٍ كَجِمَارِ الرَّمْيِ أَجْمَعُهَا
لَيْلاً وَفِي الصُّبْحِ أُلْقِيهَا إِلَى القَاعِ (١)

مع الأبيات التي قبله؛ وقوله في النحو في (ج ٢ ص ٣٨) :

وَأَهْوِنْ بِهِ فِي رَاحَةٍ أَرْيَحِيَّةٍ
كَآخِرِ مَاضٍ لَيْسَ مِنْ شَأْنِهِ الضَّمُّ (٢)

وقوله في الصرف في (ج ٢ ص ١٤٦) .

فَلَوْ كَانَ المُثَقَّفُ جُمْلَةَ اسْمٍ أَبَى التَّرْخِيمَ صَارَ حُرُوفَ هَاجِ (٣)

وقوله في العروض في (ج ٢ ص ٣٨) وفي (ج ١ ص ١٢١) .

فَلَوْ كُنْتَ شِعْراً كُنْتَ أَحْسَنَ مُنْشَدٍ
سَلِيمَ القَوَافِي لا زِحَافٌ وَلاَ خَرْمُ (٤)

• • •

(١) وانظر شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٧٥٠ وفيها : « من معشر . . . » .

(٢) من قصيدة مطلعها :

أوالي بنات الراح من شنف بها   لدلك خال للمدامة أو عم

وانظر شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١١٥٠ ، ١١٥٨ .

(٣) من قصيدة أولها :

ألم يبلغك فتكي بالمواضي   وسخري بالأسنة والزجاج

وانظر شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٧٦٠ ، ١٧٧٦ .

(٤) وفي شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١١٥٩ .

بُناةُ الشعْرِ مَا أكْـفَوْا رَوِيّاً وَلاَعَرَفُوا الإجازَةَوالسِّنَادَا[١]

وقوله [٢] في الهندسة والعروض في (ج ٢ ص ٨٦) :

وَأَنتَ فِكَاكُ دَائِرَتَيْ قَرِيضٍ وَهَنْدَسَةٍ حَلَلتَ بِهَا الشُّكُولا

وقوله في الطبيعيات في (ج ١ ص ٧٨) :

وَقَدْ يُجْتَدَى فَضْلُ الغَمَامِ وَإِنَّما

مِنَ البَحْرِ فيمَا يَزْعُمُ الناسُ يَجْتَدي[٣]

وقوله في الموسيقى في (ج ٢ ص ٤٢) :

كَأَنَّ المَثَانِي والمَثالِثَ بالضُّحَى تَجَاوُبُ في غِيدٍ رُفِعْنَ طِوالِ[٤]

كَأَنَّ ثَقِيلاً أَوَّلاً تَزْدَهِى بِهِ ضَمَائِرُ قَوْمٍ في الخُطُوبِ ثِقَالِ

وقوله [٥] في العقائد في (ج ٢ ص ١٢) :

ضَلَّ الذي قَالَ : البِلادُ قَدِيمَةٌ بالطَّبْعِ كَانَتْ والأَنَامُ كَنَبْتِهَا

---

(١) وفي شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٥٨١ .

(٢) من قصيدة مطلعها :

كفى بشحوب أوجهنا دليلاً على إزماعنا عنك الرحيلا

وانظر شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١٣٦٩ ، ١٣٩٦ .

(٣) وانظر ما سبق ص ٩٣٩ .

(٤) وفي شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١١٨٨ .

(٥) من قصيدة مطلعها :

يا راعي الود الذي أنفاله تنفي بظاهر أمرها عن نفتها

وانظر شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١٠٢٨ ، ١٠٣٤ .

وفي (ج ١ ص ١٨٤) :

مَنْ قَالَ إِنَّ ٱلنَّيِّرَاتِ عَوَامِلٌ ... فَبِضِدِّ ذَلِكَ فِي عُلاكَ يَقُولُ[1]
يَعْمَلْنَ فِيمَا دُونَهُنَّ بِزَعْمِهِ ... وَلَهُنَّ دُونَكَ مَطْلَعٌ وَأُفُولُ

١٤ ـ التلميح إلى الحوادث التاريخية ، وإلى الرجال الذين لهم تعلق بها :

وهذا كثير في شعره كقوله [2] في (ج ٢ ص ١٢٧) :

إِذَا أَنَا عَالَيْتُ الْقُتُودَ لِرِحْلَةٍ ... فَدُونَ عُلَيَّانَ ٱلْقَتَادَةُ وَالْخَرْطُ

وقوله في (ج ٢ ص ١٧١ في الدرع) [3] :

وَخُطِّي لَهَا قَبْراً يَضِلُّونَ دُونَهُ ... كَقَبْرٍ لِمُوسَى ضَلَّهُ آلُ إِسْرَالِ
وَلاَ تَدْفِنِيهَا الْجَهْرَ بَلْ دَفْنَ فَاطِمٍ ... وَدَفْنَ ابنِ أَرْوَى لَمْ يُشَيَّعْ بِإِعْوَالِ

١٥ ـ تضمين الامثال كقوله [4] في (ج ٢ ص ١١) :

لاَ بُدَّ لِلْحَسْنَاءِ مِنْ ذَامٍ وَلاَ ... ذَامٌ لِنَفْسِيَ غَيْرَ سَيِّءِ بَخْتِهَا

---

(١) من قصيدة مطلعها :

ليت التحمل عن ذراك حلول ... والسير عن حلب إليك رحيل

وانظر شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٨٦٧ ، ٨٧١ ـ ٢ .

(٢) من قصيدة مطلعها :

لمن جيرة سيموا النوال فلم ينطوا ... بظللهم ما ظل ينبته الخط

وانظر شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٦٤٦ ، ١٦٨١ .

(٣) انظر شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٨٧٥ .

(٤) انظر الشروح : ق ٣ ص ١٠٣١ .

١٦ ــ الاشارة إلى نكتة أو نادرة أو حادثة وقعت في شعر غيره :

كقوله [١] في (ج ٢ ص ١٢١) .

بِنَازِلةٍ بِسِقْطَ العَقِيقِ بِمِثْلِهَا
دَعَا أَدْمُعَ الكِنْدِيِّ في الدِّمَنِ السِّقْطُ

يشير إلى قول امرىء القيس :

قِفَا نَبْكِ . . . . بِسِقْطِ اللِّوى . . . . . .

وكقوله في القصيدة نفسها :

شَكَرْتُهم شُكْرَ الوَلِيدِ بِفَارِسٍ
رِجالاً بِحِمْصٍ كَانَ جَدُّهُمُ السِّمْطُ

يشير إلى قول البحتري بيتين يشكر فيها بني السمط وكانوا بحمص .

وكقوله في (ج ٢ ص ١١٥) :

لَيْسَتْ كَزَعْمِ جَرِيرٍ بَلْ لَهَا مَسَكٌ
يَرْفَضُّ عَنْهُ ذَكِيُّ المِسْكِ مَفْتُوتَا [٢]

هجا جرير أم البعيث بأبيات منها قوله :

تَرَى العَبَسَ الحَوْلِيَّ جَوْناً بِكُوعِها   لَهَا مَسَكاً مِنْ غَيْرِ عَاجٍ وَلاَ ذَبْلِ [٣]

---

(١) وفي شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٦٤٨ ، ١٦٩٤ .

(٢) وفي شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٦١٣ وفيها : « يرفض عنها » .

(٣) ديوانه ط . الصاوي ص ٤٦٢ .

وأبو العلاء قال إن النساء اللاتي ذكرهن في قوله السابق لها مَسكٌ ينتشر منه المسك ، وليس لها عَبَس حوليّ كما زعمه جرير في أم البعيث .

وقوله في القصيدة نفسها :

ذمّ الوليدُ ولم أذمُمْ جوارَكُمُ فقال : ما أنصفتْ بغدادُ حوشيتا[1]

يشير إلى قول البحتري :

ما أنصفتْ بغدادُ حين توحّشتْ لنزيلها وهي المحلُّ الآنسُ[2]

ما يستنتج من السقط ومقدمته

فاذا تدبرنا ما أشرنا اليه في الكلام على مقدمة (السقط) أولا ، ثم ما ذكرناه في الكلام على السقط ثانياً ، وأضفنا إلى ذلك ما ألمعنا إليه في الكلام على أسلوبه فيه ، وفي ترجمته ، تبين لنا من مجموع ذلك أن أبا العلاء عميَ صغيرا ، وحالفه السقمُ شابًا وكهلا وشيخاً ، كما حالفه الفقر والإقلال ؛ وأنه فقد أباه ثم أمه ، وفقد بذلك من يقوم بأمره ويحدب عليه ؛ وأنه كان محسوداً كثير الأعداء . وكان على الرغم من تألب الدنيا وأعدائه وحساده عليه ، عفيفاً طاهر اليد والذيل واللسان ، صبوراً على نكباتِ الدهر ؛

وأنه كان عالماً نحريراً جامعاً لعلوم مختلفة قادراً على تذليل كل أبيٍ منها ، وتسخيره لاستخدام مسائلها في الأغراض الشعرية . وكان شاعراً مفلقاً ، واسع الخيال ، طويل الباع في الاختراع ، كثير الحكم ، كثير التواضع . وكان شديد الاعتداد بنفسه وبشعره ، كثير الوثوق بعلمه وحفظه

---

(١) الضروح : ق ٤ ص ١٦٤١ .

(٢) البيت من قصيدة يخاطب البحتري فيها علي بن يحيى المنجم ، وهي في ديوانه ط . بيروت ص ٣٨١ .

وعقله ، جريئاً لا يخشى في الحق لومة لائم . وهو يصور لنا إكبار الناس في عهده للعلم والعلماء ، وتقديرهم للشعر والشعراء ؛ كما يصور لنا شعره أوضاع الناس ومواضعاتهم في البدو والحضر ، وفي السلم والحروب ، وما كان لديهم من عتاد وأثاث ورياش ولباس وحلي . وفي وسع الباحث أن يستخرج من كلامه صورة كاملة عن حياة الأمة الاجتماعية والخلقية والاقتصادية ، وحياتها العقلية .

ويستطيع بعد ذلك أن يقول : إن أبا العلاء أمة مستقلة ، وإن شعره يمثل حياته العملية .

وإن ما ذكرناه من خصائصه النفسية والأدبية يتجلى في ديوانه (سقط الزند) .

التقلب في شعره وما أخذه من غيره

كانت دائرة الشعر في العصر الجاهلي ضيقة الأطراف ، قليلة التنوع ، لأن الشاعر يقتبس معانيه من حياته العملية والعقلية ، ويقتنص بعض أخيلته من مشاهد الطبيعة ، وما يكتنفه في بيئته ؛ ويستمد من وحي إلهامه بقدر ما لديه من العوامل التي تثير قريحته . وقد كان هذا كله في ذلك العصر قريباً بعضه من بعض ؛ وكانت للشعراء في ذلك العصر سنن متبعة يقتفي المتأخر منهم أثر المتقدم فيها ؛ وكانت لهم آداب لا بد من رعايتها ، وأغراض محدودة لا يتعدونها ، ولذلك يرى المتأمل كثيراً من الشعر يشبه بعضه بعضاً في باب الغزل ، والوصف ، والمدح ، والرثاء ، ونحوها . وربما اضطر شاعر إلى أن يأخذ معنى من شاعر آخر ؛ وربما أخذ اللفظ كله أو بعضه . وإنما يقع التفاوت بين شاعر وآخر بجمال التأليف ، وطلاوة التركيب ، وما يحدث في المعنى من زيادة أو اختصار ، أو إيضاح أو صور خيالية .

ثم لما جاء الإسلام اتسعت آفاق الشعر بما أدخله الدين عليه ، وبما اقتضته السياسة والفتح من احداث النظم الشرعية ، والمدنية ، وبما تجدد وتعدد من مشاهد الطبيعة والحضارة التي رآها العرب بسبب الفتح .

ولما جاء العصر العباسي ازدادت آفاق الشعر اتساعاً ، وأضاف إليها العباسيون ما عند الأمم ذوات الحضارة من علم ، وأدب ، وحكمة . فبلغ الشعر مبلغاً لم يبلغه من قبل ؛ وتعددت أغراضه ونواحيه ، وكثر الشعراء وألموا بكل شيء كان في ذلك العصر ، حتى يخيل إلى الإنسان أن ما من كائن في ذلك العهد إلا وللشعراء فيه قول .

وربما اتفق شاعران فأكثر في المعنى ، أو في اللفظ ، أو فيهما معاً ، أو في بعض من أحدهما أو كليهما . وهذا الاتفاق قد يقع بين شاعرين في عصر واحد ، أو عصرين مختلفين ؛ وتحت هذا أنواع مختلفة وصور متعددة ؛ لأن الشاعرين إما أن يلتقيا أو لا ، وإما أن يسمع كل منهما شعر الآخر أو لا ...

ولذلك قسم العلماء هذه الأحوال ، وجعلوا لكل قسم اسماً خاصاً ، واستيفاء هذه الأقسام يحوز إلى إطالة ليس محلها هنا . وقد ذكر صاحب (العمدة ج ٢ ص ٢١٥) جملة منها ؛ وليس غرضنا أن نبين هنا الصحيح المقبول منها وغيره ، ولا أن نستدرك عليه ما فاته منها ؛ وإنما غرضنا أن نبين أن بعض الشعراء يستمد من بعض منذ القديم ، فقد قال امرؤ القيس في وصف الجسم بالنعومة والنضاضة :

مِنَ القاصِراتِ الطَّرْفِ لَوْ دَبَّ مُحْوِلٌ
مِنَ الذَرِّ فَوْقَ الأُتْبِ منها لأَثَّرا(١)

---

(١) ديوانه ص ٩٦ ط (بيروت) .

فجاء حسّان بعده وقال :

لَوْ يَدِبُّ الحَوْليُّ مِنْ وَلَدِ الذَرْ ... رِ عَلَيها لأَنْدَبَتْها الكُلُومُ[١]

ثم جاء بعده عمر بن أبي ربيعة فقال :

لَوْ دَبَّ ذَرٌّ فَوْقَ ضَاحِي جِلْدِهَا ... لأَبَانَ مِنْ آثَارِهِنَّ حُدُورَا

فهؤلاء من عصور مختلفة . وقال امرؤ القيس :

وُقوفاً بِهَا صَحْبِي عَلَيَّ مَطِيَّهُمْ ... يَقُولُونَ لاَ تَهْلِكْ أَسىً وَتَجَمَّلِ[٢]

وقال طرفة :

وُقوفاً بِهَا صَحْبي عليَّ مَطِيَّهُمْ ... يَقُولُونَ لاَ تَهْلِكْ أَسىً وَتَجَلَّدِ[٣]

فهذان شاعران في عصر واحد وقد أخذ الثاني المعنى واللفظ إلا كلمة واحدة .

وقال النابغة الذبياني :

فَمَا الفُرَاتُ إِذَا جَاشَتْ غَوارِبُهُ ... تَرْمِي أَوَاذِيُّهُ العِبْرَيْنِ بالزَّبَدِ[٤] .

. . . .

يَوماً بِأَجْوَدَ مِنْهُ سَيْبَ نَافِلَةٍ ... وَلاَ يَحُولُ عَطَاءُ اليَوْمِ دُونَ غَدِ

---

(١) ديوانه ص ٣٧٧ ط . البرقوقي ، القاهرة .

(٢) ديوانه ص ٣١. ط (بيروت) .

(٣) المعلقات العشر ، ص ٦٩ .

(٤) المعلقات العشر ، ص ١٥١ .

أخذه الأخطل فقال :

وَمَا الفُرَاتَ إِذَا جَاشَتْ حَوَالِبُهُ ... فِي حَافَتَيْهِ وفي أَوْسَاطِهِ العُشَرُ

يَوماً بأجودَ مِنهُ حِينَ تَسْأَلُهُ ... وَلاَ بِأَجْهَرَ مِنْهُ حِينَ يُجْتَهَرُ

وهذان شاعران في عصرين وقد أخذ أحدهما من المعنى واللفظ .

وقال أبو تمام :

لَوْ سَعَتْ بُقْعَةٌ لإعْظَامِ نُعْمَى ... لَسَعَى نَحْوَهَا المكانُ الجَدِيبُ(١)

وقال البحتري :

فَلَوَ انَّ مُشْتَاقاً تَكَلَّفَ فَوقَ مَا ... فِي وُسْعِهِ لَسَعَى إِليْكَ المِنْبَرُ(٢)

وهذان شاعران من عصر واحد وقد أدرك أحدهما الآخر ؛ إلى غير ذلك من الأمثال .

ومما ذكرناه يتبين أن الشاعر قد يأخذ بعض اللفظ أو أكثره مع المعنى كله أو بعضه ، سواء كان الشاعران في عصر أم عصرين ، وسواء التقى الشاعران أم لمْ يلتقيا . وقد قيل لأبي عمرو بن العلاء : أرأيت الشاعرين يتفقان في المعنى ، ويتواردان في اللفظ ، لم يلق واحد منهما صاحبه ولم يسمع شعره ؟ فقال : تلك عقول رجال توافت على ألسنتها . وسئل أبو الطيب عن مثل ذلك فقال : الشعر جادّة ، وربما وقع الحافر على الحافر .

---

(١) ديوانه ص ٥٧ طبعة الخياط ، بيروت .

(٢) ديوانه ص ١٨ طبعة بيروت .

انواع الاخذ :

قال بعض المتأخرين : من أخذ معنى بلفظه كما هو كان سارقاً ؛ فإن غير بعض اللفظ كان سالخاً ، فإن غيّر بعض المعنى ليخفيه أو قلبه عن وجهه كان ذلك دليل حذقه . ولابن رشيق كلام حسن في هذا الباب ، حيث يقول في (العمدة ج ٢ ص ٢٢٣) : « والمخترع معروف له فضله ، متروك له من درجته ؛ غير أن المتبع إذا تناول معنى فأجاده ، بأن يختصره إن كان طويلا ، أو يبسطه إن كان كزّاً ، أو يبينه إن كان غامضاً ، أو يختار له حسن الكلام إن كان سفسافا ، أو رشيق الوزن إن كان جافياً ؛ فهو اولى به من مبتدعه ، وكذلك إن قلبه أو صرفه عن وجه الى وجه آخر . فأما إن ساوى المبتدع فله فضيلة حسن الاقتداء لا غيرها ؛ فإن قصّر كان ذلك دليلاً على سوء طبعه ، وسقوط همته ، وضعف قدرته » .

هذه لمحة موجزة من أقوال العلماء في السرقة أو الاغارة على اللفظ أو المعنى كلاً أو بعضاً . وأما أهل البديع فقد ذكروا نوعاً سموه الإيداع أو التضمين ؛ وهو أن يودع الشاعر شعره بيتاً من شعر غيره ، أو نصف بيت ، أو ربع بيت ، بعد أن يوطىء له توطئة تناسبه بروابط متلائمة ، بحيث يظن السامع أن البيت بأجمعه له .

اخذ ابي العلاء من غيره :

وقد وقع في كلام قوم أن أبا العلاء كان يأخذ من معاني المتنبي . وكان يقلّده في شعره . ولم أرَ مَن بسط ذلك وأوضحه أو أورد له مثالا يبينه . وأنا أذكر طرفا من ذلك إيضاحاً للحقيقة فأقول : إن

أبا العلاء أخذ من أقوال غيره من الشعراء ، لأغراض أرادها ؛ وهو تارة يصرح باسم الشاعر كقوله :

مَنْ قَالَ : صَادِقْ لِئَامَ النَّاسِ قُلْتُ لَهُ
قَوْلَ ابنِ أَسْلَتَ قَدْ أَبْلَغْتَ أَسْمَاعِي (١)

فقوله : « قد أبلغت . . . » من قول أبي قيس بن الأسلت :

قَالَتْ وَلَمْ تَقْصِدْ لِقِيلِ الْخَنَا   مَهْلاً فَقَدْ أَبْلَغْتَ أَسْمَاعِي

وقوله السابق :

وَقَالَ الوَلِيدُ النَّبْعُ لَيْسَ بِمُثْمِرٍ (٢)

فإنه من قول البحتري :

والنَّبْعُ عُرْيَانُ مَا فِي عُودِهِ ثَمَرُ (٣)

وليس هذا من التضمين ولا السرقة ، لأنه ذكر قائله . وأحيانا لا يصرح باسم الشاعر بل يكني عنه كقوله :

وَهَلْ فَاتَ الْحُتُوفَ أَخُو هُذَيْلٍ   كَأَنَّ مُلَاءَ تَيْهِ عَلَى هِجَفٍّ (٤)

---

(١) شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٧٥٨ . وفيها : ابن الاسلت ، بتخفيف همزة الأسلت .

(٢) تمامه : . . . .   وأخطأ ، سرب الوحش من ثمر النبع
انظر ما سبق ص ١٠١١ .

(٣) صدر البيت : وعيرتني خلال العدم آونة . . . .
انظر ما سبق ص ١٠١١ الحاشية ٢ .

(٤) اللزوميات هـ ص ٢٩٤ .

الهِجَفّ : الظليم . وأخو هذيل : هو الأعلم حبيب بن عبد الله الهذلي ؛ قال من قصيدة :

كَأَنَّ مُلاءَتَيَّ عَلَى هِجَفٍّ يَعُنُّ مَعَ العَشِيَّةِ لِلرِّئَالِ

وأحياناً لا يصرح ولا يكني كقوله :

كَأَنَّ الصَّبَا أَلْقَتْ إِلَيَّ عِنَانَها تَخُبُّ بِسَرْجِي مَرَّةً وَتُنَاقِلُ (١)

والشطر الأخير من قول النابغة الذبياني :

فَسَلَّيْتُ مَا عِنْدِي بِرَوْحَةِ عِرْمِسٍ تَخُبُّ بِرَحْلِي تَارَةً وَتُنَاقِلُ (٢)

وفيه تغيير الرحل بالسرج ، وتارة بمرة . وهذا نادر جداً في شعره .

ومن أنعم النظر في أشعار أبي العلاء اتضح له أن الرجل غلب عليه أسلوب الجاهليين والإسلام في بعض أغراض الشعر ، كالمدح والفخر ونحوهما ؛ فهو يطبع على غرار شعرائها في هذه الأغراض ؛ ولذلك نراه في قصائد المدح يصف الوادي ، والخرق ، والفرس ، والسيف ، والدرع ، والوحش ، والناقة ، وما شاكل ذلك ؛ حتى يخيل إليك أن صاحب هذا الشعر أعرابي عريق في أعرابيته : في ألفاظه وفي مناحي كلامه وأسلوبه . ولا شك أن سبب ذلك كثرة ما يحفظه من كلام أهل العصرين . فانظر إلى قصيدته التي أجاب بها أبا القاسم [علي بن] الحسن (٣) بن جَلَبَات التنوخي المعري ، فإنك

---

(١) الشروح : ق ٢ ص ٥٤١ ، من القصيدة اللامية المشهورة التي مطلعها :

ألا في سبيل المجد ما أنا فاعل عفاف وإقدام وحزم ونائل

(٢) مختار الشعر الجاهلي — مصطفى السقا — ج ١ ص ١٩٥ .

(٣) انظر شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٤٧٣ ؛ ومطلع هذه القصيدة :

يرومك والجوزاء دون مرامه عدو يعيب البدر عند تمامه

تجد فيها الأثل ، والثمام ، والحمام ، والعقبان ، والخيل ، والضواري ، والبهام ، والوعول ، والضرغام ، والقرن ، والسيف ، والسهام ، والرماح ، والهجين ، والعيس ، والنعام ، والمهارى ، والحوار ، والصدى ، والهام ، والغدير ، والفلفق ، والحباحب ، والأطناب ، والتنوفة ، والضب ، والشادن ، و . . . وكذلك قصيدته الدالية [١] التي قالها في الفخر ، فقد ذكر فيها العنقاء ، والصيد ، والخيل ، والمطايا والركاب ، والبداد ، والفوارس ، والأسد ، والنقاد ، والذئب ، والمغار ، والطراد ، والغزو ، والعوالي ، والعهاد ، والترس ، والقتاد ، والمزاد ، والعصام ، والوَضين ، والروابي ، والوهاد ، ونحو ذلك . ولم يكن بصيراً يدرك هذه الأشياء ثم يأخذ معانيه مما يراه فيها من أشكال وخصائص ، ولا كان أعرابياً كثير الممارسة لها والاتصال بها ؛ وإنما أكثر من حفظ كلام القوم ، وفهمه حق الفهم ، فانطبعت في مخيلته هذه الأشياء ، واستطاع أن يتصرف بها في كلامه من تصوير ، ووصف ، وإرسال مثل ، وغير ذلك تصرُّفَ المبصر لها ، العالم بكل مالها وعليها ؛ وربما زاد على المبصرين بما أورده من الأخيلة الدقيقة والصور البديعة والتشابيه الرائعة ، كقوله في مرثية [٢] أمه يصف أسداً :

بَدَا فَدَعَا الفَرَاشَ بِنَاظِرَيْهِ ... كَمَا تَدْعُوهُ مُوقِدَتَا ظَلاَمِ
بِنَارَيْ قَادِحَيْنِ قَدِ اسْتَظَلاَّ ... إِلَى صَرْحَيْنِ أَوْ قَدَحَيْ مُدَامِ [٣]

---

(١) ومطلعها :
أرى العنقاء تكبر أن تصادا ... فعاند من تطيق له عنادا
انظر شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٥٥٣ ـ ٦٠١ .
(٢) مطلعها :
سمعت نعيها صمي صمام ... وإن قال العواذل لا همام
انظر شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٤٥٣ ، ١٤٧٦ .
(٣) في الشروح : « ندام. »

كَأَنَّ اللَّحْظَ يَصْدُرُ عَنْ سُهَيْلٍ   وَآخَرَ مِثْلِهِ ذَاكِي الضِّرَامِ

. . . .

وَقَدْ وَطِىءَ الْحَصَى بِبَنِي بُدُورٍ   صِغَارٍ مَا قَرُبْنَ مِنَ التَّمَامِ

اُحْتَذِيَ الأَهِلَّةِ غَيْرَ زَهْوٍ   سَلَبْتَ مِنَ الشُّهُورِ [1] حَلْيَ عَامِ

وكان أبو الطيب كثير الإلمام بوصف الحروب ، وما تحتاج اليه من خيل وعتاد ، وما شاكل ذلك . وقد كان يصف الأمكنة التي تقع الحرب فيها أو في طريقها ، وما فيها من حيوان ونبات وماء ونحو هذا ، وربما تصدى أبو العلاء في شعره إلى شيء من هذا ؛ فجاءت بعض الصور في كلامه مشابهةً لما في كلام المتنبي . وليس هذا من التقليد ، وإنما كانت صور الحروب وما يتعلق بها في ذلك العهد محدودة متقاربة ؛ فظن بعض الكتاب أن أبا العلاء يحتذي على مثال المتنبي ، أو يأخذ منه في ذلك أو في غيره ، وهذا وهم ؛ لأن المتنبي والمعري يجريان في مناهج الشعر مجرى المتقدمين ، وإن كانا يخالفانهم في دقة التصوير ، وروعة الخيال ، ولطف الأسلوب ، وتزيينه بالحكمة ، وهذه أمثلة مما تلاقى فيه المعري والمتنبي من الأغراض واختلفا فيه ، بما يجعلها كأنها لم يتلاقيا . وصف المتنبي الغبار الذي تثيره حوافر الخيل ببيت بديع على ما فيه من الغلو فقال :

عَقَدَتْ سَنَابِكُهَا عَلَيْهَا عِثْيَراً   لَوْ تَبْتَغِي عَنَقاً عَلَيْهِ لَأَمْكَنَا [2]

ووصفه أبو العلاء فقال :

وَبَنَتْ حَوَافِرُهَا قَتَاماً سَاطِعاً   لَوْلاَ انْقِيَادُ عِدَاكَ لَمْ يَتَهَدَّمِ

---

(١) في الضروح : « .. من الحلي شهور عام » .

(٢) العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب ج ١ ص ١٥٥

إلى آخر الأبيات الثلاثة[١] ، فكلاهما وصف الغبار ، ولكن المتنبي بالغ في كثافته وبقائه ، حتى لو أرادت الخيل السير السريع فوقه لاستطاعت ذلك . وأبو العلاء بالغ في كثافته وبقائه حتى باضت فيه النسور وفرخت ، وبالغ في ارتفاعه حتى بلغ السحاب ، وخالط ماءه فكدره ، وقد وافق المتنبي في شيء وزاد عليه في غيره ، مع اختلاف الصورة والجهة .

ووصف المتنبي الخيل بحدة السمع فقال :

وَتَنْصِبُ لِلْجَرْسِ الْخَفِيِّ سَوَامِعاً ... يَخَلْنَ مُنَاجَاةَ الضَّمِيرِ تَنَادِيَا[٢]

ووصفها أبو العلاء بذلك فقال في فرس :

يُحِسُّ إِذَا الخَيَالُ سَرَى إِلَيْنَا ... فَيَمْنَعُ مِنْ تَعَهُّدِنَا الخَيَالَا[٣]

وقال في ذلك أيضاً :

كَأَنَّ أُذْنَيْهِ أَعْطَتْ قَلْبَهُ خَبَراً ... عَنِ السَّمَاءِ بِمَا يَلْقَى مِنَ الغِيَرِ[٤]

يُحِسُّ وَطْءَ الرَّزَايَا وَهْيَ نَازِلَةٌ ... فَيُنْبِهُ الجَرْيَ نَفْسَ الحَادِثِ المُكِرِ

ووصف المعري أعلى وأروع وأحلى .

---

(١) تمامها :

باض النسور به وخيم مصعداً ... حتى ترعرع فيه فرخ القشعم
وسما الى حوض الغمام فاؤه ... كدر ينهال الغبار الأقتم

شروح سقط الزند : ق ١ ص ٣٤٧ .

(٢) العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب ج ٢ ص ٤٧٣ .

(٣) شروح سقط الزند : ق ١ ص ٧٦ .

(٤) المصدر السابق ص ١٤٦ ـ ٧ .

ووصف أبو الطيب الخيل في أعالي الجبال فقال :

تَدُوسُ بِكَ الخَيلُ الوُكُورَ عَلَى الذُّرَا
وَقَدْ كَثُرَتْ حَوْلَ الوُكُورِ المَطَاعِمُ[1]

إلى آخر الأبيات . وتصدى أبو العلاء إلى ذلك فقال :

فَوَطِئْنَ أَوْكَارَ الأَنُوقِ وَرُوِّعَتْ ... مِنْهَا وَبَاتَ المُهْرُ ضَيفَ الهَيثَمِ[2]

الأبيات . . فكلاهما رقى الخيل إلى أعالي الجبال ، حتى وطئت الوكور ، وأبو الطيب أجاد حيث جعل الفراخ تظن الخيل أمهاتها ، وزاد على الإجادة في تمشيتها على بطونها كالأراقم . وأبو العلاء أجاد حين جعلها تهوي على الجبال مع الطيور كأنما تسقط بمظلة ، وجعل المهر ضيفاً للهيثم ، وجعل العقاب تضعف عن الطيران من روعتها .

وقال أبو الطيب :

أَتَى الزَّمَانَ بَنُوهُ فِي شَبِيبَتِهِ ... فَسَرَّهُمْ وَأَتَيْنَاهُ عَلَى هَرَمِ[3]

وقال المعري :

تَمَتَّعَ أَبْكَارُ الزَّمَانِ بِأَيْدِهِ
وَجِئْنَا بِوَهْنٍ بَعْدَمَا خَرِفَ الدَّهْرُ[4]

---

(١) العرف الطيب ج ٢ ص ٤٠٠ ومطلع القصيدة :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم ... وتأتي على قدر الكرام المكارم

(٢) شروح سقط الزند : ق ١ ص ٢٣٥ .

(٣) العرف الطيب : ج ٢ ص ٥٤١ ومطلع القصيدة :

حتام نحن نساري النجم في الظلم ... وما سراه على خف ولا قدم

(٤) اللزوميات ه ص ١١٨ .

وهو أوفى من معنى بيت المتنبي ، وأقوم أسلوباً ، وأغنى عن التقدير .

وقال المتنبي :

رَقَّتْ مَضَارِبُهُ فَهُنَّ كَأَنَّمَا ... يُبْدِينَ مِنْ عِشْقِ الرِّجَالِ نُحولا(١)

وقال المعري :

فَإِنْ عَشِقَتْ صَوارِمُكَ الهَوَادي ... فَمَاعَدِمَتْ بِمَنْ تَهْوَى اتِّصَالا(٢)

وبيت المعري أحسن لأن المتنبي لم يذكر أنها بلغت من معشوقها بغية ، بل جعلها كأنها تبدي النحول من العشق .

وقال المتنبي :

وَمَنْ يُنْفِقِ السَّاعَاتِ فِي جَمْعِ مَالِهِ ... مَخَافَةَ فَقْرٍ فَالَّذِي فَعَلَ الفَقْرُ(٣)

وقال أبو العلاء :

إِذَا زَادَكَ المَالُ افتِقَاراً وَحَاجَةً ... إِلى جَامِعِيهِ فَالثَّرَاءُ هُوَ الفَقْرُ(٤)

وليس هذا البيت مطابقاً لبيت المتنبي من كل وجه .

وتعرض أبو الطيب الى مذاهب القوم في الروح والجسم في مثل قوله :

فَقِيلَ تَخلُصُ نَفْسُ المَرْءِ سَالِمَةً

وَقِيلَ تَشْرَكُ جِسمَ المَرْءِ فِي العَطَبِ(٥)

---

(١) العرف الطيب : ج ١ ص ١٤٧ .

(٢) شروح سقط الزند : ق ١ ص ٩٥ .

(٣) العرف الطيب : ج ١ ص ١٩٦ .

(٤) اللزوميات ٥ ص ١١٩ .

(٥) العرف الطيب : ج ٢ ص ٤٦٥ .

وقوله :

فَهَــذِهِ الأَرْوَاحُ مِنْ جَوِّهِ   وَهَذِهِ الأَجْسَامُ مِنْ تُرْبِهِ (١)

ولكن كل ماوقع في كلامه من هذا النوع لايدل على أنه درس هذا الموضوع درساً كافياً ، ولا على أنه اتخذ لنفسه فيه طريقة خاصة . وأبو العلاء طويل الباع في الاطلاع على المذاهب المتعددة في هذا الغرض ، وله فيه آراء سنذكرها فيما بعد .

ولو أردنا أن نستوفي ماتلاقى فيه الشاعران من الصور اللفظيـــة ، والأغراض ، والشك في بعض الأمور ، والاستخفاف ببعض آخر ، ونحو ذلك لطال القول . ولكننـا نكتفي بهذا القدر لنبين به أن المعري لم يأخذ من المتنبي ولم يقلده ؛ وإنما توافق هو وإياه في بعض الأشيـاء ، كما توافق المتنبي وغيره في بعضها ، وكما توافق غيرهما من الشعراء . فإن المعنى الواحد قد يلم به جماعة من الشعراء في عصور مختلفة ؛ مثال ذلك وصف الطير التي تتبع الغزاة ، فقد قال فيها الأفوه الأودي ولعله أول من سبق إلى هذا المعنى :

وَتَرَى الطَيْرَ عَلَى آثَارِنَا   رَأْيَ عَيْنٍ ثِقَةً أَنْ سَتُمَارُ (٢)

ثم قال النابغة أبياته التي يقول فيها :

إِذَا مَاغَزَوْابِالجَيْشِ حَلَّقَ فَوْقَهُمْ   عَصَائِبُ طَيْرٍ تَهْتَدِي بِعَصَائِبِ (٣)

---

(١) المصدر السابق : ج ٢ ص ٦٠٩ .

(٢) انظر ديوان الأفوه الأودي في ناقمة (الطرائف الأدبية) — ص ١٣ — التي نشرها الأستاذ عبد العزيز الميمني الراجكوتي في القاهرة سنة ١٩٣٧ .

(٣) مختار الشعر الجاهلي — مصطفى السقا : ج ١ ص ١٦٠ وفيه : « إذا ما غزوا في الجيش ... »

ثم قال حميد بن ثور :

إِذَا مَا غَدَا يَوْماً رَأَيْتَ غَمَامَةً مِنَ الطَّيْرِ يَنْظُرْنَ الذي هُوَ صَانِعُ

ثم قال الكميت :

وَقَدْ سَتَرَتْ أَسِنَّتَه المواضي حُدَيٌّ الجوِّ والرَّخَمُ السِّغَابُ

حدّي : تصغير الحَدْر ، لغة في الحِدَا جمع حِدَأة : طائر من الجوارح .

ثم قال أبو نواس :

تَتَأَيَا الطَّيرُ غَزْوَتَـهُ ثِقَةً بالشِّبْعِ مِنْ جَزَرِهْ
تحتَ ظِلِّ الرُّمْحِ تَتْبَعُهُ فَهيَ تَتْلُوهُ عَلَى أَثَرِهْ

ثم قال أبو تمام :

وَقَدْ ظُلِّلَتْ عِقْبَانُ رَايَاتِهِ ضُحىً بِعِقْبَانِ طَيْرٍ في الدِّمَاءِ نَوَاهِلِ (١)
أَقَامَتْ مَعَ الرَّايَاتِ حَتَّى كَأَنَّهَا مِنَ الجَيْشِ إِلاَّ أنها لَمْ تُقَاتِلِ

ثم قال المتنبي في جيش :

تَمُرُّ عَلَيْهِ الشَّمْسُ وَهْيَ ضَعِيفَةٌ تُطَالِعُهُ مِنْ بَيْنِ رِيشِ القَشَاعِمِ (٢)
إِذَا ضَوْءُهَا لاَقَى مِنَ الطَّيْرِ فُرْجَةً تَدَوَّرَ فَوْقَ البَيْضِ مِثْلَ الدَّرَاهِمِ

---

(١) ديوانه ط بيروت ، ص ٢٤٨ ، وفيه : أعلامه بدل راياته .

(٢) العرف الطيب : ج ١ ص ٢٢٠ والبيت من قصيدة مطلعها :

أنا لائمي إن كنت وقت اللوائم علمت بما بي بين تلك المعالم

وقال :

سَحَابٌ مِنَ العِقْبَانِ يَزْحَفُ تَحْتَهُ
سَحَابٌ إِذَا اسْتَسْقَى سَقَتْهَا صَوَارِمُهْ[(١)]

ثم قال أبو العلاء :

كَأَنَّ الأُنُوقَ الخُرْسَ فَوْقَ غُبَارِهِ طَوَالِعُ شَيْبٍ فِي مَفَارِقِ أَسْوَدِ[(٢)]

وكثير من الشعراء غير من ذكرناه ذكر هذه الطير في شعره كمروان ابن أبي الجنوب ، ومسلم بن الوليد ، وبكر بن النطاح ، وابن شهيد ، وغيرهم ، وقد اقتصرنا على هذا القدر خشية الإطالة . وأنت ترى كل متأخر منهم قد يوافق من قبله في شيء ، وقد يخالفه ؛ وليس هذا من التقليد في شيء ، لأن المعاني — كما قال الجاحظ — مطروحة في الطريق ، فيحق لكل أحد أن يلم بها ، وإنما يتفاوت هؤلاء الشعراء بالزيادة ، والايجاز ، والسهولة ، والبسط ، وحسن التأليف ، وما يقع في كلامهم من النكت الرائعة ، والأخيلة الجميلة ، والصور البديعة .

وعلى هذا يمكن أن يحمل ما وقع في كلام أبي العلاء مما توهمه بعض الأدباء أنه قلد المتنبي فيه .

ومن مجموع ما ذكرنا يتبين أن المعري لم يقلد المتنبي ولا غيره ؛ وإنما تأثر بأسلوب الجاهليين والإسلاميين ، وشاركهم في صور الشعر ومعانيه وأخيلته الضيقة ، وزاد عليهم بما ذكرناه ، وبما نذكره في أسلوبه وأخيلته .

---

(١) العرف الطيب : ج ٢ ص ٢٦٥ وفيه : تحتها ، بدل : تحته ، و : استسقت ، بدل : استسقى .

(٢) شروح سقط الزند : ق ١ ص ٣٦٤ .

الأغراض التي يشتمل عليها سقط الزند

درج أبو العلاء في (سقط الزند) على الطريقة التي درج عليها شعراء عصره ، وشعراء العصور المتقدمة عليه . فنظم في الغزل ، والمدح ، والتهنئة ، والاستعطاف ، والرثاء ، والفخر ، والهجاء ، والوصف ، وما شاكل ذلك من الأغراض المستفيضة في العصور المذكورة :

الغزل :

افتتح كثيراً من قصائده بالغزل ، ولم يلتزم فيه طريقة واحدة ، فتارة ابتدأها[1] بمخاطبة البرق الساهر ، وطلب إليه أن يوقظ السمُر الراقد ليعينه على السهر ، وأن يسقي « بني مطر » ثم خاطب المحبوبة بقوله :

وَيا أسِيرَةَ حِجْلَيْها أرى سَفَهاً حَمْلَ الْحُلِيِّ لِمَنْ أعْيا عَنِ النَّظَرِ

وذكر أن طيفها لا يفارقه ، وأنه يتمنى أن يدوم معه ، وأنّ بقر الوحش والظباء يطلبان منها حسن الدلّ والحور ، فلم تسمح لهما بشيء منها ، وإنما سمحت لهما بالدّرّ حتى لم تدع من الظباء والبقر خالياً مِنَ الحَلْي ، وأن المحبوبة حسّنت بيت الشَّعر الذي تقيم فيه ، وبيت الشعر الذي توصف به لفرط حسنها وخفرها .

وتارة ذكر أن منزل أحبابه منزل ملوك ، لأن عندهم خيلاً تصهل ،

---

(١) يشير إلى قصيدته الرائية ومطلعها :

يا ساهر البرق أيقظ راقد السمر لعل بالجزع أعواناً على السهر

انظر شروح سقط الزند : ق ١ ص ١١٤ وفيها : بمن أعيا ، بدل : لمن أعيا .

وقيانا تغني كأنما تجيب الخيل . ثم ذكر أن تلك المنازل كبروج القمر في مناعتها ، وأن النساء اللاتي تقيم فيهن ، تمكن حبهن من كل قلب . ثم انتقل إلى ذم الحياة ووصف الركاب . وتارة أخرى ذكر سنوح الغراب وهكذا .

وقد علمنا أن أبا العلاء كان يحذف بعض الأبيات من قصائده ، ولا نعلم له قصيدة مستقلة بالغزل ، وإنما له أبيات أولها :

أَسَالَتْ أَتِيَّ الدَّمْعِ فَوْقَ أَسِيلِ ... وَمَالَتْ لِظِلٍّ بِالعِرَاقِ ظَلِيلِ (١)

وأبيات أجاز بها بيتاً وأولها :

مَا يَوْمُ وَصْلِكِ وَهْوَ أَقْصَرُ مِنْ ... نَفَسٍ بِأَطْوَلِ عِيشَةٍ غَالِ (٢)

وأبيات أولها :

إِنْ كُنْتَ مُدَّعِياً مَوَدَّةَ زَيْنَبٍ ... فَاسْكُبْ دُمُوعَكَ يَا غَمَامُ وَنَسْكُبِ (٣)

وأبيات أولها :

تَوَقَّتْكَ سِرّاً وَزَارَتْ جِهَاراً ... وَهَلْ تَطْلُعُ الشَّمْسُ إِلاَّ نَهَاراً (٤)

وأبيات قالها على لسان امرأة توصي بها ابنها بلبس الدرع وترك الزواج ، تقول فيها :

كَأَنَّ رُضَابَهَا مِسْكٌ شَنِينٌ ... عَلَى رَاحٍ تُخَالِطُ مَاءَ شَنَّهْ (٥)

. . . .

---

(١) الشروح : ق ٣ ص ١٠٤٠ .

(٢) شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٨٨٤ .

(٣) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١١٢٤ .

(٤) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١١٣٧ .

(٥) من قصيدة مطلعها :

عليك السابغات فإنهنه ... يدافعن الصوارم والأسنه

شروح سقط الزند : ق ٥ ص ٢٠٤١ ، ٢٠٤٥ .

إِذَا قَبَّلْتَهَا قَابَلتَ مِنْهَــا   أَرِيجَ النَّوْرِ في زُهْرٍ مُغِنَّهْ

وفي أبياته وقصائده التي في (السقط) يجد المتأمل أسلوباً لطيفا ، ومحاورة خلابة ، ومعاني شريفة ، وديباجة عليها طلاوة وحلاوة ؛ ولكنه لا يجد عليها مسحة من الحب الصادق ، واللوعة المتــأججة . وهذا أمر طبيعي لأن أبا العلاء لا يحب المرأة ، لأنها سبب النسل ومستودعه ومزدرعه . ويزهد فيها لأنه زهد في كل متعة من متع الحياة ، وهي أحبها للنفوس . ومن كان شأنه كذلك لا يحبها حباً خالصاً ، ولا يشتاف اليهــا ، ولا يحزن لفراقها . وأبو العلاء قصير النفس في الغزل فإن في قصيدته :

مِنكِ الصُّدودُ وَمِنّي بالصُّدُودِ رِضَى (١)

بيتين من الغزل . وفي قصيدته :

يـا سَاهِرَ ٱلْبَرْقِ أَيقِظْ رَاقِدَ السَّمُرِ (٢)

نحو خمسة عشر بيتــاً في الغزل ، منهــا خمسة في وصف ما منحته المحبوبة من الحُلِيّ والزينة لبقر الوحش ، وبيت يتعلق بالناقة ، وبيتان يخــاطب بها البرق . وفي هذه الأبيات معان بديعة ، وحكم رائعة ، وإيجــاز معجز ؛ ولكن عاطفة الحب فيها متكلفة ، على قلتها .

المدح

مدح أبو العلاء الملوك ، والأمراء ، والعلماء ، والشعراء ، والكبراء ، وغيرهم ؛ ولم يكن طالباً لثواب في مدحه ، وإنما كان ذلك على معنى

---

(١) تمامه : من ذا عليَّ بهذا في هواك قضى .
شروح السقط ق ٢ ص ٦٥٤ .
(٢) عجزه : لعل بالجزع أعوانا على السهر . انظر ما سبق ص ١٠٥٦ .

الرياضة وامتحان الطبيعة ، كما صرح بذلك في مقدمة (سقط الزند) .

ويمكن أن ينقسم مدحه الى قسمين ، **أحدهما** : المدح الذي لم يكن جوابا .

والثاني : ما كان جواباً لأحد من العلماء . أو الشعراء الذين ابتدأوه بالمدح .

أما الاول : فمنه القصائد التي مدح بها الملوك والأمراء والعلماء كالقصيدة التي مدح بها سعيد الدولة ومطلعها :

مَعَانٌ مِنْ أحِبَّتِنَا مَعَانُ ... تُجيبُ الصَّاهِلاَتِ بِهِ القِيانُ (١)

والتي مدح بها أبا الرضى عبد الله الفصيصي ومطلعها :

يا سَاهِرَ البَرْقِ أيقِظْ رَاقِدَ السَّمُرِ ... لَعَلَّ بِالجِزْعِ أعْوَاناً عَلَى السَّهَرِ (٢)

والقصيدة التي مدح بها أبا حامد الإسفرائيني ومطلعها :

لاَ وَضْعَ لِلرَّحْلِ إلا بَعْدَ إيضَاعِ

فَكَيْفَ شَاهَدْتِ إِمْضَائي وإِزْمَاعي (٣)

وأما الثاني : فمنه القصيدة التي أجاب بها الشريف أبا ابراهيم ومطلعها :

ألاَحَ وَقَدْ رَأى بَرْقاً مُلِيحَا ... سَرَى فَأتى الحِمَى نِضْواً طَلِيحَا (٤)

والقصيدة التي أجاب بها أبا الخطاب الجبُلي ومطلعها :

أشْفَقْتُ مِنْ عِبْءِ البَقَاءِ وَعَابِهِ ... وَمَلِلْتُ مِنْ أرْيِ الزَّمَانِ وَصَابِهِ (٥)

---

(١) شروح سقط الزند : ق ١ ص ١٧٢ .
(٢) شروح سقط الزند : ق ١ ص ١١٤ .
(٣) شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٧٤١ .
(٤) شروح سقط الزند : ق ١ ص ٢٣٧ .
(٥) شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٧١٥ .

الخلائق التي مدح بها ممدوحيه :

سلك أبو العلاء في مديحه سبيل المتقدمين ، فمدح بالشجاعة ، والفروسية ، والجلَد ، والكرم ، والمهابة ، والذكاء ، وكرم المحتد ، والكمال ، والقرى ، ونحو ذلك من الصفات التي كانوا يمدحون بها . واستطرد في خلال مدائحه إلى وصف الخيل ، والناقة ، والسيف ، والدرع ، والفلاة . وسلك سبيل المغالاة في كثير من أوصافه ، وأتى بصور بديعة من التشبيه ، والمجاز ، والاستعارة ، والكناية ، وبطرف نادرة من الأمثال والحكم .

وهذه صور من وصفه في الكرم ، قال في القصيدة الأولى[١] :

تَرَى مَا نَالَتِ الأَضيافُ نَزْرا ... وَلَوْ مُلِئَتْ مِنَ الذَّهَبِ الجِفَانُ

. . . .

إِذَا ضُرِبَتْ خِيامُكَ فِي مَكَانٍ ... فَذَلِكَ حَيْثُ يُلْتَقَطُ الجُمانُ

. . . .

كِلاَ كَفَّيْكَ فِي سِلْمٍ وَحَرْبٍ ... يَكُونُ الخَوْفُ مِنْها والأَمَانُ

فَلَيْسَ بِشَاغِلِ اليُمْنَى حُسَامٌ ... وَلَيْسَ بِشاغِلِ اليُسْرَى عِنَانُ

وقال في الثانية[٢]:

القَائِلُ المَحْلَ إِذْ تَبْدُو السَّمَاءُ لَنَا ... كَأَنَّهَا مِنْ نَجِيعِ الجدْبِ فِي أُزُرِ

. . . .

وَقَاسِمُ الجودِ فِي عَالٍ وَمُنْخَفِضٍ ... كَقِسْمَةِ الغَيْثِ بَيْنَ النَّجْمِ والشَّجَرِ

. . . .

(١) انظر الفروح : ق ١ ص ١٨٥ ، ٢١٥ ، ٢١٦ .

(٢) انظر الفروح : ق ١ ص ١٣٦ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤٢ .

يُبِينُ بالبِشْرِ عَنْ إِحسانِ مُصْطَنِعٍ   كَالسَّيفِ دَلَّ عَلَى التَأْثِيرِ بالأُثُرِ

. . . .

يا بْنَ الأولَى غَيْرَ زَجْرِ الخَيْلِ ما عَرَفُوا

إِذْ تَعرِفُ العُرْبُ زَجرَ الشَّاء والعَكَرِ

والقائِدِيها مع الأَضيافِ يَتْبَعُها   أُلَافُها وأُلوفُ الَّلامِ والبِذَرِ

. . . .

الْمُوقِدونَ بِنَجْدٍ نارَ بادِيَةٍ   لا يَحْضُرونَ وَفَقْدُ العِزِّ في الحَضَرِ

إِذَا هَمَى القَطْرُ شَبَّتْها عَبِيدُهُمُ   تَحتَ الغَمائِمِ للسَّارِينَ بالقُطُرِ

وقال من قصيدة أخرى (١) :

أَبْلَجُ مِنْ بَعْضِ قِرَى ضَيفِهِ الْ .... أَمْنُ إِذَا لَمْ يَأْمَنِ الْمُحْرِمُ

فِداهُ مَنْ كَالنَّبْتِ أَضيافُهُ   إِذْ يَشربُ الماءَ وَلَا يَطْعَمُ

لَا يَكْذِبُ الْمُقْسِمُ في قَوْلِهِ   إِنَّ الغِنَى مِنْ يَدِهِ يُقْسَمُ

وهذه صور من مدحه بالشجاعة والمهابة والسلطة (٢) :

إِذَا سَقَتِ السَّماءُ الأَرْضَ سَجْلاً   سَقَاهَا مِنْ صَوارِمِهِ سِجَالَا

---

(١) مطلعها :

سالم أعداءك مستسلم   والبيض موت لهم سرهم

انظر شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٨٤٤ ، ٨٦٣ ، ٨٦٥ . وفي البيت الثاني فيها :

اذ تَعربُ الماء ولا تطعم

(٢) شروح السقط : ق ١ ص ٦٤ ، ٦٥ ، ٨٦ ، ٩٣ ، ٩٤ .

وَيُضحي والحديدُ عليه شاكٍ ... وتكفيه مهابتُه النِّزالا

. . . .

إذا خفقت لمغربها الثريّا ... توقّت من أسنّتِه اغتيالا

. . . .

ولو أنّ الرياحَ تهبُّ غربًا ... وقلتَ لها هلا هبّت شمالا

وأقسمُ لو غضبتَ على ثبيرٍ ... لأزمعَ عن محلّتِه ارتحالا

. . .

تهابُ الأعادي بأسَهُ وهو ساكنٌ

كما هِيبَ مسُّ الجمرِ قبلَ اضطرامِه (١)

وربَّ جرازٍ يُتَّقى وهو مُغمدٌ ... ولُجٍّ تهالُ النفسُ دونَ اقتحامِه

. . .

إذا ما أخفتَ المرءَ جُنَّ مخافةً ... فأيقنَ أنّ الأرضَ كِفّةُ حابلِ (٢)

يرى نفسَه في ظلِّ سيفِك واقفًا ... وبينكُما بُعدُ المدى المتطاولِ

يظنُّ سنيرًا من تفاوتِ لحظِه ... ولُبنانَ سارا في القنا والقنابلِ

الشجاعة والجود والذكاء :

من كُلِّ مَن لولا تَسعُّرُ بأسِه ... لأخضرَّ في يُمنى يديه الأسمرُ (٣)

---

(١) شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٥١١ .

(٢) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١٠٧٥ ، ١٠٧٦ .

(٣) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١١١٤ وما بعدها ، وفيها : « بذكي تلهب . . »

يُذكي تَوَقُّدُ ذِهْنِهِ أَوْقَاتَهُ ... فَكَأَنَّما هُوَ بالغُدُوِّ مُهَجِّرُ

. . .

ذَكِيُّ القَلْبِ يَخْضِبُهَا نَجِيعاً ... بِمَا جَعَلَ الحَرِيرَ لَهَا جِلالاَ [١]

. . .

رَدَّتْ لَطَافَتُهُ وَحِدَّةُ ذِهْنِهِ ... وَحْشَ اللُّغَاتِ أَوَانِساً بِخِطَابِهِ [٢]

والنَّحْلُ يَجْنِي المُرَّ مِنْ نَوْرِ الرُّبَى ... فَيَصِيرُ شُهْداً في طَرِيقِ رُضَابِهِ

العفاف وعلو الهمة :

مِنْ كُلِّ أَزْهَرَ لَمْ تَأْشَرْ ضَمَائِرُهُ ... لِلَثْمِ خَدٍّ ولاَ تَقْبِيلِ ذِي أُشُرِ [٣]

لَكِنْ يُقَبِّلُ فُوهُ سَامِعَيْ فَرَسٍ ... مُقَابَلِ الخَلْقِ بَيْنَ الشَّمْسِ وَالقَمَرِ

التواضع :

عَلَوْتُمُ فَتَوَاضَعْتُمْ عَلَى ثِقَةٍ ... لَمَّا تَوَاضَعَ أَقْوامٌ عَلَى غَرَرِ

وَالكِبْرُ وَالحَمْدُ ضِدَّانِ اتِّفَاقُهُمَا ... مِثْلُ اتِّفَاقِ فَتَاءِ السِّنِّ والكِبَرِ

الحلم والاناة والوقار :

خَفَّ الوَرَى وَأَقَرَّتْكُمْ حُلُومُكُمُ ... والجَمْرُ يُعْدَمُ فيهِ خِفَّةُ الشَّرَرِ

---

(١) شروح سقط الزند : ق ١ ص ٦٠

(٢) شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٧٢٠ .

(٣) شروح سقط الزند : ق ١ ص ١٤٤ ، ١٦٧ ، ١٦٨ .

العلم والشعر :

كَأَنَّ كلّ جَوَابٍ أنْتَ ذَاكِرُهُ ... شَنْفٌ يُناطُ بأُذْنِ السَّامِعِ الوَاعِي[1]

. . .

وَفَقِيهاً أفكارُهُ شِدْنَ لِلنُّعْـ ... ـمانِ مَا لَمْ يَشِدْهُ شِعْرُ زِيادِ[2]

فَالعِرَاقِيُّ بَعْـدَهُ لِلْحِجَازِيِّ ... قَلِيلُ الخِلافِ سَهْلُ القِيَادِ

. . .

إِذَا تَفَقَّهَ أحيَا مَالِكاً جَدَلاً ... وَيَنْشُرُ المَلِكَ الضِّلِّيلَ إِنْ شَعَرَا[3]

. . .

لَشَرَّفْتَ القَوَافِيَ والمَعَـانِي ... بِلَفْظِكَ والأخِلَّةَ والخَلِيلاَ[4]

إِذَا المَنْهُوكُ فُهْتَ بِهِ انتِصَاراً ... لَهُ مِنْ غَيْرِهِ فَضَلَ الطَّوِيلاَ

عظم القرى والإطعام وأدواته :

وَقُدُورُهُمْ مِثْلُ الهِضَابِ رَوَاكِداً ... وَجِفَانُهُمْ كَرَحِيبَةِ الأَفْيَافِ[5]

مِنْ كُلِّ جَائِشَةِ العَشِيِّ مُفِيئَةٍ ... بِالمَيْرِ خَيْرَ مَرَافِدٍ وَصِحَافِ

دَهْمَاءَ رَاكِبَةٍ ثَلاثَةَ أجبُلٍ ... عِظَماً وَإِنْ حُسِبَتْ ثَلاثَ أثَافِ

---

(١) شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٧٥٨ .
(٢) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ٩٨٦ ، ٩٨٧ .
(٣) شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٧٤٠ وفيها : « . . . أحيا مالكا . » .
(٤) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ٣٩٤ .
(٥) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١٣١٥ــ ١٣١٧ .

التهنئة

في (سقط الزند) عدة قصائد في التهنئة ، منها ما هو تهنئة بالعيد ، كالقصيدة التي قالها في سعيد الدولة حفيد سيف الدولة ومطلعها :

أَعَنْ وَخْدِ القِلَاصِ كَشَفْتِ حَالَا ... وَمِنْ عِنْدِ الظَّلَامِ طَلَبْتِ مَالَا[1]

وفيها يقول :

وَأَنْتَ أَجَلُّ مِنْ عِيدٍ تُهَنَّا ... بِعَوْدَتِهِ فَهُنِّيتَ الجَلَالَا

والقصيدة التي قالها في أبي الرضى الفصيصي ومطلعها :

يَا سَاهِرَ البَرْقِ أَيْقِظْ رَاقِدَ السَّمُرِ ... .[2]

وفيها يقول :

لَوْلَا قُدُومُكَ قَبْلَ النَّحْرِ أَخَّرَهُ ... إِلَى قُدُومِكَ أَهْلُ النَّفْعِ وَالضَّرَرِ

سَافَرْتَ عَنَّا فَظَلَّ النَّاسُ كُلُّهُمُ ... يُرَاقِبُونَ إِيَابَ العِيدِ مِنْ سَفَرِ

لَوْ غِبْتَ شَهْرَكَ مَوْصُولًا بِتَابِعِهِ ... وَأُبْتَ لَا نْتَقَلَ الأَضْحَى إِلَى صَفَرِ ..

ومنها ما هو تهنئة بعرس كالقصيدة التي هنأ بهـا بعض الأمراء بعرس ومطلعها :

لَوْلَا تَحِيَّةُ بَعْضِ الأَرْبُعِ الدُّرُسِ ... .[3]

---

(١) شروح السقط : ق ١ ص ٢٥.

(٢) عجزه : لعل بالجزع أعواناً على السهر . وانظر شروح السقط : ق ١ ص ١١٤ .

(٣) عجزه : ما هاب حد لساني حادث الحبس وانظر شروح سقط الزند: ق ٢ ص ٦٨٩ .

وفيها يقول :

مَارَبَّةُ الغَيلِ أختُ الظَّبْيِ فُزتَ بِها
بَلْ رَبَّةُ الغِيلِ أُختُ الضَّيْغَمِ الشَّرِسِ

مِنْ مَعشَرٍ لاَ يَخَافُ الجارُ بَأْسَهُمُ غَشَّوْا صُرُوفَ اللّيالي بُرْدَ مُبتَئِسِ...

والقصيدة التي يقول فيها [1] :

زُفَّتْ إِلى دَارِكَ شَمْسُ الضُّحَى وَحَوْلَهَا مِنْ شَمَعٍ أَنْجُمُ
مِثْلُ شِيَاتٍ فِي قَمِيصِ الدُّجَى زِينَ بِهِنَّ الفَرَسُ الأَدْهَمُ
تَخْفَى وَلاَ تَظْهَرُ إِلا إِذَا أَحْرَزَهَا مَنْزِلُكَ الأَعْظَمُ
كَأَنَّهَا سر الإِلهِ الذي عِنْدَكَ دُونَ النَّاسِ يُسْتَكْتَمُ

ثم وصف هذا العرس بأنه كثر فيه نثر الدنانير الشبيهة بالنجوم ، حتى عم الآفاق ، وسما إلى الجو سلم منه ، حتى كأن الشهب درر مبثوثة في السماء ، أو أن السماء نزلت فنهبت خفية من الدرر المنثورة ؛ وعذرها في ذلك أن الثريا بعض ما غنمته . وقال : إن عملها هذا لا يخفى لأن بعض ما نهبته المريخ والجوزاء والمِرزم . ثم زعم أن حمرة الشفق في الجو من كثرة ما استعمل من الطيب والعندم في ليلة العُرْس التي رأى فيها الليل ما لم تره عاد ولا جرهم ؛ حتى إن رائحة الطيب ملأت مناخر البدر ، وانتشر في الأرض فشمه المُنْجِد والمُتْهِم ، وانتشقه الطير فزار الممدوحَ الناشيء والقشعمُ منها ، وماجت الوحوش واضطربت ، وجعلت

---

(١) شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٨٤٦ ، ٨٤٧ .

تسأل الطير عن سبب زيارتها هذا الممدوح المتزوج ؛ ثم مضى بعد ذلك في مدحه بصور رائعة .

ومنها ما هو تهنئة بمولود : ومنه القصيدة التي أولها :

مَتَى يُضعِفكَ أينٌ أوْ مَلاَلٌ   فَلَيسَ عَلَيكَ للزَّمَنِ ابتِهالُ(١)

وفيها يقول :

هَنيئاً والهَناء لَنَا جَمِيعاً   يَقِيناً لا يُظَنُّ ولا يُخالُ

. . . .

بأن اللهَ قَدْ أعطَاكَ سَيفاً   عَدُوُّكَ مِنْ مَخايِلِهِ يُهالُ

حُسَامٌ لا الذُّبابُ لَهُ قَرِينٌ   وَلاَ دَرَجَتْ بِصَفْحَتِهِ النِّمَالُ

وَقَدْ سَمَّاهُ سَيِّدُهُ عَلِيّاً   وَذَلِكَ مِنْ عُلُوِّ القَدْرِ فَالُ

ثم مضى فقال : إن هذا المولود لما رفع صوته عند ولادته ، بشر أهله بأخوة له كالأسود تأتي بعده ، وإن تتابع الأولاد عز للرجل إذا اكتهل ، وإن هذا المولود سيبلغ مراتب آبائه ؛ كما أن الشبل يصير ليثا ، والهلال يصير بدراً كاملا ، وأنه يتمنى للممدوح أن يكثر عدده حتى يزيد على عدد الرمال ، وأن يعطى خلوداً في سعود .

ومنه القصيدة التي أولها :

مَتَى نَزَلَ السِّمَاكُ فَحَلَّ مَهْداً   تُغَذِّيهِ بِدِرَّتِهَا الثُّدِيُّ(٢)

---

(١) شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٦٩٧ ، ١٧٠٩ ، ١٧١٥ — ١٧ .

(٢) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١٣٢١ ، ١٣٢٢ .

وفيها يقول :

أَهَلَّ بِصَوْتِهِ فَأَهَلَّ شُكْراً بِهِ الأَقْوَامُ وَافْتَخَرَ النَّدِيُّ
بِيَوْمِ قُدُومِهِ وَجَبَتْ عَلَيْنَا الـ ـنُّذُورُ وَسِيقَ لِلْبَيْتِ الهَدِيُّ

ثم ذكر أن المهنأ بالمولود من تنوخ من بني الفهم ، ومدحهم في الجاهلية والإسلام ؛ وبيّن أن اسم المولود محمد وكنيته أبو علي ، ودعا له أن يعيش عمر الثريا ، ودعا على نفسه وركائبه بالهلاك إذا فارق العراق .

ومنها ما هو تهنئة بشفاء : ومنه القصيدة التي مطلعها :

عَظِيمٌ لَعَمْرِي أَنْ يُلِمَّ عَظِيمُ بِآلِ عَلِيٍّ والأَنَامُ سَلِيمُ[1]

وفيها يقول :

هَنِيئاً لِأَهْلِ العَصْرِ بُرْءُ مُحَمَّدٍ وَإِنْ كَانَ مِنْهُمْ جَاهِلٌ وَعَلِيمُ

. . . .

وَمَا كُنْتُ أَدْرِي أَنَّ مِثْلَكَ يَشْتَكِي وَلَمْ يَتَغَيَّرْ لِلرِّيَاحِ نَسِيمُ
وَلَمْ تُطْبِقِ الدُّنْيَا الفِجَاجَ عَلَى الوَرَى فَيَهْلِكَ مَحْمُودٌ بِهَا وَذَمِيمُ
فَإِنْ نَالَ مِنْكَ السُّقْمُ حَظّاً فَطَالَمَا رَأَيْتَ هِلَالَ الأُفْقِ وَهْوَ سَقِيمُ

ومنه القصيدة التي أولها :

أَفَوْقَ البَدْرِ يُوضَعُ لِي مِهَادُ أَمِ الجَوْزَاءُ تَحْتَ يَدِي وِسَادُ[2]

---

(١) شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٦٦٣ ، ٦٦٤ ، ٦٦٨ .

(٢) شروح سقط الزند : ق ١ ص ٢٨١ .

وفيها يقول :

شَكَا فَتَشَكَّتِ الدُّنيَا وَمَادَتْ ... بِأَهْلِيهَا الغَوَائِرُ وَالنِّجَادُ (١)

وَأُرْعِدَتِ القَنَا زَمَعاً وَخَوْفاً ... لِذلِكَ والمُهَنَّدَةُ الحِــدادُ

وَكَيفَ يَقِرُّ قَلْبٌ فِي ضُلُوعٍ ... وَقَدْ رَجَفَتْ لِعِلَّتِهِ البِلادُ

ثم مضى بعد ذلك في مدحه ومدح قبيلته ، ولم يذكر أبياتاً تتعلق بمرضه وشفائه غير هذه الأبيات الثلاثة ؛ ولعله أسقط منها شيئاً كما فعله في كثير من قصائده التي قالها في المدح وما يتصل به .

الاستعطاف والاعتذار

عتب عليه بعض العلويين لأنه لم يَعُدْه في مرضه ، فكتب اليه قصيدته التي مطلعها :

عَظِيمٌ لَعَمْري أنْ يُلِمَّ عَظِيمُ ... . (٢)

وفيها يقول معتذراً ومستعطفاً :

لَكَ اللهُ لا تَذعَرْ وليّاً بِغَضْبَةٍ ... اعَلّ لَهُ عُذراً وَأنْتَ تَلُومُ

فَلِمَوزارَ أهْلَ الخُلدِ عَتْبُكَ زَوْرَةً ... لأَوْهَمَهُمْ أنَّ الجِنَانَ جَحِيمُ

إذَا عَصَفَتْ بالرَّوضِ أنفَاسُ نَاجِرٍ ... فَأيّ وَمِيضٍ للغَمَامِ أشِيمُ

(١) العروح ، ق ١ س ٢٨٩ ، ٢٩٠ .

(٢) عجزه : بآل علي والأنام سليم . وانظر العروح : ق ٢ س ٦٦٣ ، ٦٦٥ ـ ٢ .

وَهَلْ لِيَ في ظِلِّ النَّعَامِ تَقَيُّلٌ إِذَا مَنَعَتْ ظِلَّ الأَرَاكِ سَمُومُ
وَمَا كُنْتُ أَدْرِي أَنَّ مِثْلَكَ يَشْتَكِي وَلَمْ يَتَغَيَّرْ لِلرِّيَاحِ نَسِيمُ

وكان ابن تميم البرقي مريضاً فلم يعده أبو العلاء ؛ فكتب اليه أبياتاً يعتب فيها عليه لعدم عيادته ، فأجابه بأبيات [1] بيّن فيها معذرته في ترك العيادة ، منها قوله :

أَمُعَاتِبِي في الهَجْرِ إِنْ جَارَيْتَنِي طَلَقَ الجِدَالِ وُجِدْتَ عَيْنَ الظَّالِمِ
حُوشِيتَ مِنْ شَكْوَى تُعَادُ وَإِنَّمَا شَكْوَاكَ مِنْ نَظَرٍ بِدِجْلَةَ عَارِمِ
فَاكْفُفْ جُفُونَكَ عَنْ غَرَائِرِ فَارِسٍ
فَالضَّرْبُ يَثْلِمُ في غِرَارِ الصَّارِمِ
وَعِيَادَةُ المَرْضَى يَرَاهَا ذُو النُّهَى فَرْضاً وَلَمْ تُفْرَضْ عِيَادَةُ هَائِمِ
تَصِفُ المُدَامَةَ في القَرِيضِ وَإِنَّمَا صِفَةُ المُدَامَةِ لِلْمُعَافَى السَّالِمِ

ثم بيّن له أنه يشرب الماء جامدا ، وأن ناره ضعيفة ، وقد أحرقت ثوبه وبساطه ، وتركت في نمرقه أثراً كأثر الكي ، وأن النسيب الذي اشتمل على عتابه كان شديد الوقع عليه ؛ ووصف ما هو عليه في منزله الذي يقيم فيه في بغداد .

المرثية

أفضل الرثاء ما جمع بين التفجّع على المرثي ، وتعداد مناقبه المحمودة ،

---

(١) شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٥١٦ — ١٨ .

بأسلوب رائع ؛ ويزداد جودة بما يضاف إلى ذلك من طلاوة الألفاظ ، والديباجة ، وطرافة المعاني ، ونحو هذا من محسنات الشعر .

وأبو العلاء جمع في رثائه بين هذه الوجوه ، وأضاف اليهـا صوراً رائعة من التشبيه والخيال ، وطرفاً نادرة من الحكم والأمثال ، حتى كان أمةً وحدَه في الرثاء .

رثى أبا ابراهيم العلوي بقصيدة شـكا فيها صروف الدهر وأحداثه ومصائبه ؛ ولم يجد فيها مصيبة تشبه فقد الشريف ، ولا فاجعة أشد منها ، وجعله فوق نعشه سرّاً سماويا ، ولحده مقر الثريا ؛ وأقسم أنه لم يتقلد صارماً مثلُه ، ولا صاح في الخيل : أقدمي مَن يشبهه ، ولا صرّف الخطيّ مثلُ يمينه ؛ ولا أمسكت يد عنانـاً مثل يساره ، وأن جبريل تقرب بروحه إلى جده وأمه فاطمة . ومدحه بالكرم والحلم والعفاف ؛ وهوّل مصابه ، وعزّى آله وأصحابه ، ومدحهم بالشجاعة والنجدة ونحو ذلك . وجعل بنيه كالشهب التي هي الأسباب في تنفيذ الأقدار ، وافتنّ ما شاء وشاءت له بلاغته ، ومن رائع ابياته فيها قوله :

فَيَا قَلْبُ لاَ تُلْحِقْ بِثُكْلِ مُحَمَّدٍ ... سِوَاهُ لِيَبْقَى ثُكْلُهُ بَيِّنَ الرَّسْمِ (١)

فَإِنِّي رَأَيْتُ الحزنَ لِلحُزْنِ مَاحِياً

كَمَا خُطَّ في القِرْطَاسِ رَسْمٌ عَلَى رَسْمِ

وقوله :

---

(١) مطلع هذه المرثية :

بني الحسب الوضاح والشرف الجمّ ... لساني إن لم أرث والدكم خصمي

انظر شروح سقط الزند : ق ٣ ص ٩٤٩ ــ ٩٦٨ .

نَعَيْنَاهُ حَتَّى لِلْغَزَالَةِ والسُّهَى فَكُلٌّ تَمَنَّى لَوْ فَدَاهُ مِنَ الْحَتْمِ

وَمَا كُلْفَةُ البَدْرِ الْمُنِيرِ قَدِيمَةٌ وَلَكِنَّها في وَجْهِهِ أَثَرُ اللَّدْمِ

فَيَامُزْمِعَ التَّوْدِيعِ إِنْ تُمْسِ نَائِياً فَإِنَّكَ دَانٍ في التَّخَيُّلِ وَالوَهْمِ

والقصيدة كلها متينة الأسلوب ، محكمة الرصف تفيض على أبياتها عاطفة الحزن واللوعة .

ورثى أبا حمزة الحسن بن عبد الله التنوخي بقصيدة أبياتها نحو أربعة وستين بيتاً [١] بأبيات ساوى فيها بين نوح الباكي وترنم الشادي في عدم الإجداء ، وجعل النعيّ شبيهاً بصوت البشير بالمولود ، لأن المصير واحد . وتساءل عن صوت الحمامة هل هو غناء يؤذن بالسرور بحياة غرارة ؟ أم هو بكاء من حياة مصيرها إلى الفناء ؟ ثم نبه إلى أن مصير كل إنسان إلى الفناء بعد الحياة ، والذلّة بعد العزة ، والضيق بعد السعة ، والرضى بالإقامة مع ضده على ما في ذلك من مهانة . وأن ذلك سبيل كل حي حاضر ، كما كان مصير كل حي سابق ؛ وسيكون مصير كل حي لاحق ، ليهون على الأحياء مصابهم بالأموات ، بأسلوب يأخذ بمجامع القلوب ، ويقصر عن إدراكه كل متطاول ، ولم يسبقه اليه أحد من الأوائل ، وذلك حيث يقول :

صَاحِ هَذِي قُبورُنا تَملأُ الرُّحْـــبَ فأَيْنَ القُبورُ مِنْ عَهْدِ عَادِ

خَفِّفِ الوَطْءَ مَا أَظُنُّ اديمَ الْـــأَرْضِ إِلاّ مِنْ هَذِهِ الأَجْسَادِ

---

(١) مطلعها :

غير مجد في ملتي واعتقادي نوح باك ولا ترنم شادي

انظر شروح سقط الزند : ق ٣ ص ٩٧١ ـ ١٠٠٥ .

وَقَبِيحٌ بِنَا وَإِنْ قَدُمَ العَهْـــدُ هَوانُ الآبـاءِ والأَجدادِ

سِرْ إِنِ آسْتَطَعْتَ فِي الهواءِ رُوَيْداً لا اخْتِيالاً عَلَى رُفاتِ العِبَادِ

رُبَّ لَحْدٍ قَدْ صَارَ لَحْداً مِرَاراً ضَاحِكٍ مِنْ تَزَاحُمِ الأَضْدَادِ

وَدَفِينٍ عَلَى بَقَايَا دَفِينٍ فِي طَوِيلِ الأَزْمَانِ والآبـادِ

وإذا كنت تشك في طول الأمد ، وقدم العهد ، وكثرة من مـات وصار ترابا ، كما صارت ديارهم خرابا يبابا ،

فَاسْأَلِ الفَرْقَدَيْنِ عَمَّنْ أَحَسَّا مِنْ قَبِيلٍ وآنَسَا مِنْ بِلادِ

كَمْ أَقَامَا عَلَى زَوَالِ نَهـارٍ وَأَنـارَا لِمُدْلِجٍ فِي سَوادِ

وقد عرّف بعض الحكماء المتقدمين الحياة بأنها حركة ، وعرّف الحركة بأنها تعب ؛ فألف أبو العلاء من هاتين المقدمتين قياساً منطقياً من الشكل الأول ، وكانت نتيجته : الحياة تعب ، وإن فرح الناس في الساعة التي يولد فيها المولود مهما كان كثيراً لا يعدل لحظة من حزنهم عليه عند موته . وإن للإنسان حياتين ، الأولى : قبل الموت وهي حيـاة عمل وليست بخالدة . والثانية : بعد الموت ، وهي اليقظة الحقيقية ، والحياة الخالدة ، وحياة الجزاء ، والموت بينهما يشبه رقدة يستريـح فيها الجسم من تعب الحياة الأولى ، ولقد أبدع وأوجز فأعجز في إفراغ هذه المعاني بقوله :

تَعَبٌ كُلُّها الحَياةُ فَمَا أَعْـــجَبُ إِلاَّ مِنْ رَاغِبٍ فِي ازْدِيادِ

إِنَّ حُزْناً فِي سَاعَةِ المَوْتِ أَضْعَا فُ سُرُورٍ فِي سَاعَةِ المِيلادِ (١)

---

(١) في شروح السقط : « إن حزنا في ساعة الموت ... » .

خُلِقَ النَّاسُ لِلبَقَاءِ فَضَلَّتْ أُمَّةٌ يَحْسَبُونَهُم لِلنَّفَادِ
إِنَّما يُنْقَلُونَ مِنْ دَارِ أَعْمَا لٍ إِلَى دَارِ شِقْوَةٍ أَوْ رَشَادِ
ضَجْعَةُ المَوتِ رَقْدَةٌ يَسْتَرِيحُ الْـ ـجِسْمُ فِيها والعَيْشُ مِثْلُ السُّهادِ

ثم رأى أنه لا يستطيع أن يقوم بما يجب عليه من الحزن والنواح والبكاء على المرثي ، لعظم المصاب به ؛ فسأل الحَمَام أن تساعده على نواحه أو تعده بالمساعدة ؛ لأنها مشهورة بحفظ الوداد ، ولأن الناس يزعمون أن الهديل وهو واحد من الحَمَام كان على عهد نوحٍ ، فصاده جارح من جوارح الطير ؛ فما من حمامة تهتف إلا وهي تنوح عليه . ولكن أبا العلاء لم يرتضِ نواحها لأن أطواقها التي في أعناقها نوع من الزينة ، وهي تنافي حالة الحزينة ؛ وإنما يريد منها أن تنزع الأطواق من أجيادها ، وأن تستعير من الظلام ثوباً أسود ، ثم بعد ذلك تنوح معه على المرثي .

ثم انتقل إلى مدح المرثي ، فوصفه بأنه فقيه ، حنفي ، خطيب ، مصقع ، راوٍ للحديث ، ناسك ، مجتهد في الكشف عن الحقائق العلمية ، غير معوّل على الظواهر ، زاهد في متع الحياة .

وبالنظر لجلالة الميت ، وجلالة المصاب به ، وكثرة الباكين عليه ، طلب أن يغسل بالدموع لكثرتها ، وأن يدفن بين الحشَى والفؤاد ، إجلالاً له عن التراب ؛ وأن يكفن بورق المصحف لشرفه ؛ ولأنه أكبر من أن يكفن بالأبراد النفيسة ، وأن يشيع نعشه بالقرآن والتسبيح ، لا بالبكاء وتعداد مناقبه .

ثم هدأت ثائرةُ نفسه من الحزن ، وثاب إلى رشده ؛ فرأى أن الحزن غير نافع ، وأن الاجتهاد في التماس الحيلة لدفع الموت لا يجدي فتيلا ، وأن الحزن ربما أخرج صاحبه إلى ما لا يليق بالسداد ؛ وضرب لذلك مثلا بأن سليمان ﷺ عُرضت عليه الخيل فاشتغل بها حتى فاتته صلاة العصر ،

فحزن لذلك ؛ فجعل يضرب أعناق الخيل وسوقها لأنها كانت السبب في فوت الصلاة . وأنه خاف على ولده من الناس ، فلم يأمن عليه غير الريح ؛ فاستودعها إيّاه ، فلم تستطع الريح دفع الموت عنه ، فلما مات ألقت الريح جسده على كرسي أبيه .

ثم سأل المرثي كيف أصبح في قبره بعده ؛ وذكر أن الطبيب اعترف بعجزه عن معالجته ، وأن اليأس بلغ منه نهايته ، وأن العوّاد انقطع تردّدهم عنه . ثم انتقل إلى مدح أسرة المرثي ، واستطرد بعد ذلك فالتمس علة لطيفةً لموت المرثي ، فادعى أنه كان خليلاً لصباه ، فلما أراد الصبا أنْ يفارقه ويزول عنه ، وافقه في رأيه فزال معه ، وعدّ ذلك من الوفاء للصاحب الأول . ثم أراد أن يهوّن على نفسه الأمر فقال : إن زُحَل وهو أعلى الكواكب السيارة ، لأنه في الفلك السابع ، لا يسلم من الهلاك ، وكذلك المريخ وهو في الفلك الخامس لا بد أن يطفىء الردَى نارَه ؛ والثريا لا بد من أن يفترق شملها ، فليس بعد هذا يعظُم على الموت أن يصيب المرثي ، وإن كان عظيم القدر ، رفيع الشأن ، عالي المكان .

ثم دعا لأخيه وحضه على أن تطيب نفسه عن أبناء أخيه المرثي ، وبيّن له أن كل ما في الدنيا صائر إلى الزوال والدمار بقوله :

كُلُّ بيْتٍ للهَدْمِ مَا تَبْتَنِي الوَرْ قَاءُ والسَّيِّدُ الرفيعُ العِمَادِ

وأن العاقل من يعلم أن مصيره للفناء ، فيكتفي من الدنيا بالقليل التافه الذي يدفع به الأذى :

والفَتَى ظَاعِنٌ وَيَكْفيهِ ظِلُّ السَّـ ـدْرِ ضربَ الأطْنَابِ والأوْتَادِ

لأن أمر الله ظاهر في أنْ لا بقاء لغيره . وقد اختلف الناس ، ففريق عرف هذه الحقيقة ، فزهد في الدنيا ومتعها ، ودعا إلى الزهد فيها فهو مهتدٍ هاد ؛ وفريق غفل عن ذلك فحرَصَ على جمع حُطامها ، ودعا إلى ذلك فهو ضالٌّ مضل :

بَانَ أمرُ الإلَهِ واخْتَلَفَ النَّا سُ فَدَاعٍ إلى ضَلاَلٍ وَهَادِ

ثم ذكر أن الناس تحيّروا في آدم ﷺ لأنه حيٌّ استُحدث من جماد . ومن عرف أن قدرة الله صالحة لذلك وأمثاله هان عليه الأمر وابتعد عن الحيرة ، وهان عليه أن يعتقد أن الله يبعث الناس بعد الموت ، فيكونون أحياء بعد أن صاروا ترابا ، بل إعادتهم أحياء أهون من خلقهم أول مرة . وأظن أن أبا العلاء أراد هذا بقوله :

وَالذي حَارَتِ البَرِيَّةُ فِيهِ حَيَوَانٌ مُسْتَحْدَثٌ مِنْ جَمادِ

ثم ختم القصيدة بقوله :

واللَّبِيبُ اللَّبيبُ مَنْ لَيسَ يَغْتَـــرُّ بِكَوْنٍ مَصِيرُهُ لِلْفَسَادِ

إذا قرأ الإنسان هذه القصيدة ، بل هذه الطرفة الفريدة ، وأدرك ما فيها من مقاصد وأغراض تتعلق بفلسفة الحياة وما بعدها ، وفطن إلى ما فيها من المغازي الدقيقة ، والإشارات اللطيفة إلى الحوادث التـــاريخية وغيرها ، وإلى قدرة الشاعر على التصرف بالألفاظ والمعاني ، ووضْعِ كل شيء في محله ، وإحكام المناسبة بين الأبيات ، وتسلسل المعاني ، ونحو ذلك مما تقتضيه الصناعة الشعرية ، تجاذبته أنواع من الأعجاب والإكبار والطرب ؛ ثم أخذته حيرة فلا يدري أيكون إعجابه وإكباره وطربه بما اشتملت عليه

من المعـــاني المبتكرة ، والصور الطريفة الرائعة في الغرض الواحد ، أم بإفراغ تلك المعاني الشريفة العظيمة في قوالب موجزة لطيفة سهلة ، يظن كل أحد أنه يستطيع أن يأتي بمثلها ، فإذا حاول ذلك امتنـــع عليه واستعصى ؟ أم برشاقة ألفاظها ، وطيب نبراتها ، وحسن تنسيقهـــا ، وطلاوة ديباجتها ، ثم لا يستطيع بعد ذلك أن ينكر أن هذه القصيدة بمجموعها ومن جميع وجوهها هي فلتة من فلتات الدهر ، ونادرة من مقلدات الشعر ، وأن صاحبها أتى فيها بما لم تستطعه الأوائل ، ولم تشق غبارَه فيه الأواخر .

ورثى جعفر بن علي بن المهذب التنوخي المعري[١] بقصيدة تبلغ أبياتها نحو خمسين بيتـــاً أقل ما يقال فيها : إنها عقد نفيس ، جمع من عقائل الحِكَم والأمثال ، وطرائف المقاصد ، ونوادر الصناعة الشعرية ما تقصر عنه يد كل متطاول اليه . ففيها ألفاظ تشبه النسيم لطافة ورقة ؛ وجمل تكاد تكون رموزاً لإيجازها ، مـــع إيضاح المعنى ، والوفاء بالغرض . وقد تضمنت مقاصد نبيلة متعددة ، ولمحات لطيفة تضيق عنها الصفحات الكثيرة ؛ وجمعت إلى إحكام الرصف جمال الديباجة ، وحسن النغمة ؛ فهي تنحدر إلى قرارات النفوس انحدار الماء ، وتدخل الآذان بلا استئذان ، بل تَطَّبيها الأسماع وتجتذبها النفوس .

أشار في مطلع هذه القصيدة إلى أن أفضل ما يلجأ اليه المصاب بمصيبة هو الصبر عليها ، لأن الجزع لا يجدي نفعا ؛ ومن أبى إلا أن يجزع فإن البكاء غاية ما يستطيعه :

---

(١) هكذا قال الخوارزمي ، وقال البطليوسي يرثي بها بعض الأشراف . وقال غيره يرثي بها ابن عمه علي بن المهذب . والأول أولى لأن أبا العلاء يقول فيهـا :

فليذرف الجفن على جَعْفَر ... (ج)

انظر شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١٠٠٦ — ١٠٢٧ .

أحْسَنُ بِالوَاجِدِ مِنْ وَجْدِهِ   صَبْرٌ يُعِيدُ النَّارَ فِي زَنْدِهِ
وَمَنْ أَبَى فِي الرُّزْءِ غَيْرَ[1] الأسَى   كَانَ بُكَاهُ مُنْتَهَى جَهْدِهِ

ثم عاود نفسه ، فتبين له أن الصبر إنما يكون على مفقودٍ له نظير ؛ أما إذا كان منقطع النظير فلا يكفي فيه الصبر ، بل لا بد من البكاء عليه وإذا كان الأمر كذلك :

فَلْيَذْرِفِ الجَفْنُ عَلَى جَعْفَرٍ   إِذْ كَانَ لَمْ يُفْتَحْ عَلَى نِدِّهِ

وقد تبين فضل المرثي على غيره لمّا قيس إلى أضداده ؛ وظهرت مناقبه التي يفوق بها غيره :

وَالشَّيْءُ لاَ يَكْثُرُ مُدَّاحُهُ   إِلاَّ إِذَا قِيسَ إِلَى ضِدِّهِ

والإنسان يشبه الإنسان في تكوينه من لحم ودم ؛ وإنما يقع التفاضل بالسجايا الكريمة والمناقب ، ويثنى على المرء لخلائقه وخلاله . كما ان النبات يفضُل بعضه بعضاً بطيب الرائحة إذا قيس أحدهما بالآخر :

لَوْلاَ غَضَى نَجْدٍ وَقُلاَّمُهُ   لَمْ يُثْنَ بِالطِّيبِ عَلَى رَنْدِهِ

والناس يحبون مخالطة الحرّ الكريم الحسن الشيم ؛ ويكرهون مفارقته ؛ كما يحبون مفارقة غيره ، ويكرهون قربه ومواصلته . وبديهي أن :

لَيْسَ الذي يُبْكَى عَلَى وَصْلِهِ   مِثْلَ الذي يُبْكَى عَلَى فَقْدِهِ[2]

والناس مفطورون على حب النافع لنفعه ، ويرتاحون إلى لقائه ؛ كما انهم يكرهون قرب الضار لضرره ، ولا يرتاحون إلى لقائه :

---

(١) في شروح السقط : « إلا الأسى » .

(٢) في الشروح : « على صده » .

وَالطَّرْفُ يَرْتَاحُ إِلَى غُمْضِهِ ... وَلَيْسَ يَرْتَاحُ إِلَى سُهْدِهِ

ثم ذكر أن الحزن على الفقيد كان فرضاً علينا لو استطعنا فداءه ولم نَفْدِهِ ؛ ولكنه لم يكن مشابها للموتى ، بل كان كوكباً يهتدى به ؛ فانتقل من التراب إلى محل سعده ، وأصبح قريباً منا في المسافة ، بعيداً في المنال والزيارة . يريد بذلك أن يهوّن على نفسه ، ويعتذر عن عدم حزنه وبكائه ؛ ثم أخذ يعاتب الدهر ويلومه على بعض أعماله التي بيّنها بقوله :

يَا دَهْرُ يَا مُنْجِزَ إِيعَادِهِ ... وَمُخْلِفَ المَأْمُولِ مِنْ وَعْدِهِ

أَيُّ جَدِيدٍ لَكَ لَمْ تُبْلِهِ ... وَأَيُّ أَقْرَانِكَ لَمْ تُرْدِهِ

تَسْتَأْسِرِ العِقْبَانَ مِنْ[1] جَوِّهَا ... وَتُنْزِلُ الأَعْصَمَ مِنْ فِنْدِهِ

وأنكر على الدهر أن يسوي بين الناس في الموت ، فلا يفرق بين فاضل وناقص ، ولا بين غويّ ورشيد ؛ حتى يكاد يخيل إلى المرء أن الغيّ والجهل خير من الرشاد والفضل ؛ لأن الأخيرين يحتاج صاحبها إلى كد وعناء في اكتسابها بخلاف الأولين ؛ وإذا لم يكن لذلك العناء ثمرة في دفع الردى عن صاحبيها فالجهل والغي أقل عناء وأكثر راحة ، وربما كانا أكثر نفعاً لأن الحياة تصفو للجاهل :

أَرَى ذَوِي الفَضْلِ وَأَضْدَادَهُمْ ... يَجْمَعُهُمْ سَيْلُكَ فِي مَدِّهِ

إِنْ لَمْ يَكُنْ رُشْدُ الفَتَى نَافِعاً ... فَغَيُّهُ أَنْفَعُ مِنْ رُشْدِهِ

وإذا جرب الإنسان الدنيا ، واستقرى أحوالها وتقلبها وجورها ،

---

(١) في شروح السقط : « العقبان في جوها » .

حكم عليه العقل بأن يزهد فيها . ولكن القلوب تطغى عليهـا الأهواء فتستعبدها وتدفعها إلى غير ما يقتضيه العقل :

تَجْرِبَةُ الدُّنْيَا وأفعالُهـــا حَثَّتْ أخا الزُّهْدِ عَلَى زُهْدِهِ

والقَلْبُ مِنْ أهوائِهِ عَابِدٌ مَـا يَعْبُدُ الكَافِرُ مِنْ بُدِّهِ

وإن أبا العلاء جرب الدنيا وزهد فيها ، ولكنها لم تزهد فيه ؛ فما زالت توالي عليه المصائب والأرزاء حتى ألِفها ، وصار لا يحس لأحداثها ألما ، بل صار يأنس بها ؛ كما أن من اعتاد أكل السم لا يألم من أكله وربما تلذّذ به :

إنّ زَمَـــاني بِرَزَايَاهُ لي صَيَّرَني أَمْرَحُ في قِدِّهِ

ثم ذكر أن تعجيل الموت وتأجيله لا يتوقف على شرف الإنسان أوخسته ، لأن الناس في قبضة الزمان كالمال في قبضة الإنسان ، فهو ينفق ما يختار منه ، ولكن يرون في الغالب أنه يعجل بالأخيار ويؤثر الكرام :

كأنّنـــا في كَفِّهِ مَالُهُ يُنْفِقُ مَا يَخْتَارُ مِنْ نَقْدِهِ

والإنسان لو تذكر أن مبدأه نطفة مذرة ، ومنتهاه جيفة قذرة ؛ وهو ما بين المبدأ والمنتهى مثل أعلى للضعف والعجز ، وعرضة للكوارث والمحن لا يجد فيه ما يحق له أن يفتخر به على غيره ولو كان عبداً مملوكا له :

لَوْ عَرَفَ الإنْسَانُ مِقْدَارَهُ لَمْ يَفْخَرِ المَوْلَى عَلَى عَبْدِهِ

وليس الضعف والعجز خاصين بإنسان دون آخر ، بل ذلك عـــام شامل لكل إنسان منفرداً ومجتمعاً ؛ فهم عاجزون لا يستطيعون دفع

عاديته عنهم . وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ، ولو اجتمعوا من أولهم إلى آخرهم على أن يردّوا أقرب يوم مضى لما قدروا :

أمسِ الذي مَرّ عَلَى قُرْبِهِ   يَعجِزُ أهلُ الأرضِ عَنْ رَدِّهِ

وإذا لم يكن من الموت بد فلا فرق بالنسبة الى الموت بين من يموت في مهده وبين من يعيش عمر لبد :

أضحَى الذي أُجّلَ في سِنِّه   مِثْلَ الذي عُوجِلَ في مَهْدِهِ

وكذلك لا فرق بين من يُشَيّع بالحمد أو الذم أو بين السوقة المفرد ، والملك الذي يحشد الجيوش الجرارة :

ولاَ يُبَالِي الميْتُ في قبرِهِ   بِذَمِّهِ شُيِّعَ أوْ حَمْدِهِ[1]

والوَاحِدُ الْمُفْرَدُ في حَتْفِهِ   كالحَاشِدِ الْمُكْثِرِ في حَشْدِهِ

وصفوة القول : ان الناس سواسية عند الموت ، فلا فرق عنده بين انسان وآخر مهما كان بينهما من التفاوت في الأحوال والخلال والأعمار فهو عام شامل لجميع الناس .

وأما نسبة بعض الناس الى بعض فقد سبقت الإشارة الى أن التفاضل بالسجايا والأخلاق ، والشرف الحقيقي للمرء هو ما يكسبه بأفعاله لا بما يرثه من آبائه . ولولا السجايا الطيبة في الإنسان لكان كالمعدوم :

لَوْلاَ سَجَايَاهُ وأَخلاَقُـهُ   لَكَانَ كَالمَعْدُومِ فِي وَجْدِهِ

---

(١) في شروح السقط : « أم حمده »

والنفوس البشرية تحب الإنسان وتشتاق اليه ، لا لصورته وجسمه بل لصفاته وأخلاقه كما :

تَشْتَاقُ أَيارَ نُفوسُ الوَرَى   وَإِنَّما الشَّوْقُ إِلَى وَرْدِهِ

والناس من فرط جهلهم بالحقائق ، وقصر نظرهم إلى العواقب ، إذا أحبوا إنساناً دعوا له بطول البقاء ، وهو يسر بذلك . ولكن لو تأمل لعلم أن كل ما يكرهه يلقاه في طول البقاء :

تَدْعُو بِطُولِ العُمْرِ أَفواهُنَا   لِمَنْ تَنَاهَى القَلْبُ فِي وُدِّهِ
يُسَرُّ إِنْ مُدَّ بَقَاء لَــهُ   وَكُلُّ مَا يَكْرَهُ فِي مَدِّهِ

وذلك لأن الإنسان عَلَى ضعفه عرضةٌ للمصائب ، وكل ما في هذا الكون عدو له ، وأقرباؤه وخلصانه أشد الناس عداوة له ، حتى إن جسده ضد له يحاربه . وأفضل ما في الإنسان من الأعضاء عدو له ، يكيد له كل كيد ويغتاله . فقد يعمل بيده عملا يسبب هلاكه أو يتكلم بكلمة فتودي بحياته ؛ أو يرى شيئاً فيحبه فيسعى لالتماسه فيكون ذلك سبباً لحتفه . وضرب لذلك أمثلة في قوله :

أَفضَلُ مَا فِي النَّفْسِ يَغْتَالُها   فَنَسْتَعِيذُ اللهَ مِنْ جُنْدِهِ
وَآفَةُ العَاشِقِ مِنْ طَرْفِهِ   وَآفَةُ الصَّارِمِ مِنْ حَدِّهِ

ثم عاد إلى الموت ، فبين أنه لا يقتصر على خراب البدن وإبادة ما كان فيه من قوى ؛ وإنما يبدل ما كان له في الحياة من عِزّة وترف بذلة وشظف ، فانظر :

كَمْ صَائِنٍ عَنْ قُبلَةٍ خَدَّهُ   سُلِّطَتِ الأَرْضُ عَلَى خَدِّهِ

وَحَامِلٍ ثِقْلَ الثَّرَى جِيدُهُ ... وَكَانَ يَشْكُو الضَّعْفَ مِنْ عِقْدِهِ[1]

وانظر إلى الدهر كيف يخدع ويغري ، ثم يفجع ويَفْري ، فكم من فارس بطل هو :

أَشْجَعُ مَنْ قَلَّبَ خَطِّيَّةً ... عَلَى طَوِيلِ البَاعِ مُمْتَدِّهِ

لاَ يَصِلُ الرمحُ إلى طِرْفِهِ ... وَلاَ إِلَى الْمُحْكَمِ مِنْ سَرْدِهِ

. . . .

أَمْهَلَهُ الدَّهْرُ . فَأَوْدَى بِهِ ... مُبْيَضُّهُ يُخْدَى بِمُسْوَدِّهِ

وبعد أن انتهى من ذكر الدهر وخدعاته ، والموت وفجعاته ، والمرثي وصفاته ؛ التفت إلى المعزَّى ليسليه ، ويخفف مصابه ؛ فذكر له أن أخاه المفقود ترك خمسة بنين كالشهب ، وفيهم سلاة عن أبيهم . وأن كل ما يسوءه أو يسره من عند الله فيجب التسليم اليه إذ لا يستطاع رد ما قضى به . وأن عاقبة كل شيء الفناء ، وإن لم يباشر أسبابه بنفسه أو بواسطة غيره . وأن المفقود الذي ترك في داره وحشة بسبب فقده ، تؤنسه رحمة الله في لحده :

فَيَا أَخَا الْمَفْقُودِ فِي خَمْسَةٍ ... كَالشُّهْبِ مَا سَلاَّكَ عَنْ فَقْدِهِ

جَاءكَ هَذَا الحَزَنُ مُسْتَجْدِياً ... أَجْرَكَ فِي الصَّبْرِ فَلاَ تُجْدِهِ

سَلِّمْ إِلَى اللهِ فَكُلَّ الَّذِي ... سَاءكَ أَوْ سَرَّكَ مِنْ عِنْدِهِ

لاَ يَعْدَمُ الأَسْمَرُ فِي غَابِهِ ... حَتْفاً وَلاَ الأَبْيَضُ فِي غِمْدِهِ

إِنَّ الذي الوَحْشَةُ فِي دَارِهِ ... تُؤْنِسُهُ الرَّحْمَةُ فِي لَحْدِهِ

---

(١) في شروح السقط : « يشكو الثقل من عقده » .

وفي كل واحد مما ذكر تهوين للمصاب ، وتخفيف للوعة والأسى على أمر لا بد منه ولا سبيل الى دفعه . ثم دعا بطول البقاء للمعزّى ولذويه مراعاة للعادة المتبعة بقوله :

لاَ أَوْحَشَتْ دَارُكَ مِنْ شَمْسِهَا وَلاَ خَلاَ غَابُكَ مِنْ أُسْدِهِ

وهذه القصيدة معرض أبرز فيه أبو العلاء صوراً متعددة من أدبه ، وعلمه ، وبراعته ، وتعمق تفكيره .

ففيها البارع الفائق من المعاني الدقيقة مثل قوله :

صَبْرٌ يعيدُ النارَ في زَنْدِهِ . . . .

ومن الإيجاز المعجز مثل قوله :

إِذْ كانَ لَمْ يُفتَح عَلى نِدِّهِ . . . .

ومن الاستعارات البديعة مثل قوله :

يَجْمَعُهُمْ سَيلُكَ في مَـدِّهِ . . . .

ومن المعاني المبتكرة مثل :

جاءكَ هَذَا الحزنُ مُستَجدياً . . . .

وفيها من الحث على الصبر والتزهيد في الدنيا ، والتحذير من الدهر وخِدَعه ، والثناء على المعزّى والمعزى به وأبنائه ، وتعريف الإنسان بحقيقة نفسه حياً وميتاً ، وبحقيقة الحياة ومبدئها ومنتهاها ، وبغلبة الهوى على القلوب ونحو ذلك من الأمور والمقاصد النبيلة . وفيها كثير من الحِكم الرائعة مثل قوله :

وَالشيءُ لاَ يَكثُرُ مداحــــه . . . .

لَوْ عَرَفَ الإِنسانُ مِقْدَارَهُ . . . .

ولو شئتَ أن تقول : إن أكثر أبياتها صالح لأن يعد من الحكم لكنت غير مبالغ .

وأما أسلوب الشاعر فيها فهو من الموجز المعجز ، والسهل الممتنع . وقد قدمنا أمام بعض أبياتها ما مهدنا به السبيل الى فهمها . وهي في جملتها من مقلدات الشعر ، ومن نوادر الدهر ؛ وإن الإكثار فيهـا من الحكم شغل الشاعر عن الإكثار من الحزن واللوعة إيثاراً للأفضل على الفاضل .

ورثى صديقاً له لم يسمّه بأبيات يعتذر فيهـا عن تأخره في التعزية ، منها قوله [١] :

فَالأَرْضُ تَعلَمُ انني مُتَصَرِّفٌ   مِنْ فَوقِهَا وَكَأَنني مِنْ تَحتِهَا

غَدَرَتْ بِيَ الدُّنيَاوَكُلُّ مُصَاحِبٍ   صَاحبْتُه غَدْرَ الشِّمالِ بأُخْتِهَا

شُغِفَتْ بِوَامِقِهَاالحريصِ وَأَظهَرَتْ   مَقْتِي لِمَا أَظْهَرْتُهُ مِنْ مَقْتِهَا

لاَ بُدَّ للحَسْنَاءِ مِنْ ذَامٍ وَلاَ   ذَامٌ لِنَفْسِي غَيْرَ سَيِّءِ بَخْتِهَا

ورثى الشريف أبا أحمد الحسين والد الرضي والمرتضى والمرضي بقصيدة غرّاء قالها [٢] وهو في بغداد سنة ٤٠٠ ﻫ وفيها أبيات من عيون الشعر منها

---

(١) مطلع المرثية :

يا راعي الودّ الذي أضاله   تنى بظاهر أمرها عن نمتها

انظر شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١٠٢٨ ـ ١٠٣٥ . وفيها : .. من فوقها   متصرف

(٢) مطلعها :

أودى فليت الحادثات كفاف   مال المسيف وعنبر المستاف

انظر شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١٢٦٤ ـ ١٣٢٠ .

قوله ، وقد كانت الأمطار قليلة في تلك السنة ، وفي الليلة التي توفى منها كثر الرعد والمطر :

رَغَتِ الرُّعُودُ وَتِلْكَ هَدَّةُ واجبٍ … جَبَلٌ هَوَى مِنْ آلِ عَبدِ مَنَافِ

بَخِلَتْ فلمّا كانَ لَيْلَةُ فقدِهِ … سَمَحَ الغَمَامُ بِدَمْعِهِ المِذْرَافِ[1]

وَيُقَالُ إنّ البَحْرَ غَاضَ وَإنّمَا … سَتَغُودُ سِيفاً لُجّةَ الرَّجّافِ

ويحِقُّ في رُزْءِ الحُسَيْنِ تَغَيُّرُ الـ … ـحَرَسَيْنِ بَلْهَ الدرِّ في الأصدافِ

ووصفه بأبيات تدل على شجاعته وعظم مصيبته ، فالرماح بعده رُعْشُ المتون ، كليلة الأطراف ، متعطفة ، فالزج منها عند السنان ، ولا مطمع في تثقيفها ، والسيوف ترجف تحت قوائمها لهول المصاب ؛ والغربان تندبه لكل الناس وقد لبست سواداً حداداً عليه ؛ وجميع الطيور كالأغربة في الحزن عليه . ووصفه بالجود حتى بعد الموت فلو زاره الموتى كساهم أكفانا . وقد أكبر الناس والحيوان فقده ، فالركب ترك الطعام ، والفصال أعرضت عن الرضاع جزعاً على هذا الرزء العظيم . ووصفه بالجلالة وعلو المنزلة في الدين بقوله :

تَكبِيرَتَانِ حِيالَ قَبْرِكَ للفَتَى … مَحْسُوبَتَانِ بِعُمْرَةٍ وَطَوَافِ

ووصفه بالزهد والسخط على الدهر ، وأنه فارقه ساخطاً أفعاله ؛ ثم مدح أبناء المرثي الثلاثة ، ومن لطيف مدحه قوله :

أنتُم ذَوو النَّسَبِ القَصِيرِ فطَوْلُكُمْ … بَادٍ عَلَى الكُبَراءِ وَالأشْرَافِ

---

(١) في شروح السقط : « . . . الذرّاف » .

والرَّاحُ إنْ قيلَ ابنَةُ العِنَبِ اكْتَفَتْ بِأبٍ عَنِ الأَسْماءِ والأَوْصافِ
ما زَاغَ بَيْتُكُمُ الرفيعُ وَإنَّما بالوَجْدِ أدْرَكَهُ خَفِيُّ زِحافِ

ثم مدحهم بالكرم ، ووصف نار قراهم بأبيات منها قوله :

حَمْرَاءُ سَاطِعَةُ الذَّوَائِبِ في الدُّجى تَرْمي بِكُلِّ شَرَارَةٍ كَطِرَافِ

. . . .

يُمسي الطَّرِيدُ أمَامَها وَكَأنَّهُ أَسَدُ الشَّرَى أوْ طَائِرٌ بِشَرَافِ
زَهْرَاءُ يَحْلُمُ في العَوَاصِفِ جَمْرُهَا وَتَقَرُّ إلاَّ هِزَّةَ الأَعْطَافِ
سَطَعَتْ فَمَا يَسْطِيعُ إطْفَاءً لَهَا زُحَلٌ وَنُورُ الحَقِّ لَيسَ بِطَافِ
تَصِلُ الوُقُودَ وَلاَ خُمودَ وَلَوْ جَرَى بِاليَمِّ صَوْبُ الوَابِلِ الغَرَّافِ
شَبَّتْ بِعَالِيَةِ العِرَاقِ وَنُورُهَا يَغْشَى مَنَازِلَ نَائِلٍ وَإسَافِ

ووصف القدور بقوله :

وَقُدُورُهُمْ مِثْلُ الهِضَابِ رَوَاكِداً وَجِفَانُهُمْ كَرَحِيبَةِ الأَفْيافِ
مِنْ كُلِّ جَائِشَةِ العَشِيِّ مُفِيئَةٍ بِالمِيرِ خَيْرَ مَرَافِدٍ وَصِحَافِ
دَهْمَاءُ رَاكِبَةٍ ثَلاَثَةَ أجْبُلٍ عِظَماً وَإنْ حُسِبَتْ ثَلاثَ أثَافِ

ثم ختم القصيدة بالمدح لابنَي المرني ، واعتذر بأن قصيدته هذه أقل بهارة تهدى لأحسن روضة مئناف ، وأنه سلك بها طريق التشرف بها ، ولم يسلك طريق طالب المعروف .

ورثى أباه بقصيدة أبياتها ثلاثة وخمسون بيتاً [١] أبان فيها أنه نقم الرضا على كل شيء حتى السحاب الضاحك الذي تلمع بروقه ، ودعا أن لا يجوده إلا السحاب العابس ؛ وتمنى أن يدمى فمه إذا ابتسم . ثم تحسر لأن أباه حكمت فيه المنايا حكما لا يرد . ثم وصفه بأنه طاهر الظاهر والباطن ، حليم متأن ؛ عاقل زاده عقله جرأة وسماحة . ثم ذم الدنيا واستنزل غضب الله عليها لأنها لا تبقي ابناً لها كأنهم أولاد زنى فتخشى العار من إبقاء أحد منهم .

ثم التفت الى ما بعد الموت ، واعترف بأن الناس يجهلون ما يراد بهم ، والعلم بذلك لله فقط ؛ لأن الإنسان إذا غُيِّبَ في قبره خفي أمره ولم تهتد الأفكار الى معرفة حقيقة ما هو فيه .

ثم نظر الى الحياة فرأى أن الساعة التي تمضي من عمر الانسان أقتَلُ له من قِرْنٍ في الحروب ؛ ولكن الناس وجدوا أذى الدنيا لذيذا ، والحياة محببة على شرها وضرها ، والموت مكروه وإن كان فيه خلاص من الأذى ، فما رغبت فيه القطا من الطير ، ولا حمر الوحش من الحيوان الأعجم ، مع أن كلا منها يكابد عناء في طلب الماء حرصاً على حياته ؛ ولا استعذبته روح آدم وموسى ؛ وقد وُعِدا مِنْ بعده جنة عدن . والخوف من الموت ألجأ أهل الكهف الى الاعتصام به ، وكلف نوحاً وابنه عمل السفينة .

ثم عاد فمدح أباه بالفصاحة ، وتحسر على قربه من سكنه ، وبعده من التمكن من لقائه ؛ ودعا لأهل القبور بالسقيا .

---

(١) مطلعها :

نقمت الرضا حتى على ضاحك المزن فلا جادني إلا عبوس من الدَّجْنِ

انظر شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٩٠٧ — ٩٤١ .

ثم عاد الى الحيرة في أمرهم، وبيّن أن نفسه لم يُشف غليلها لانه لم يقف على حقيقة أمرهم :

طلبتُ يقيناً من جُهينة عنهمُ ... ولن تُخبريني يا جُهينَ سوى الظنّ

فإنْ تعهديني لا أزالُ مُسائلاً ... فإني لم أُعطَ الصحيحَ فأستغني

وقد بيّن اجلاله لأبيه في مثل قوله :

أمرٌ بربعٍ كنتَ فيهِ كأنّما

أمرٌّ من الإكرامِ بالحِجرِ والرُّكنِ

وأعرب عن أله وقلقه وجزعه لموته في قوله :

لقد مسخَتْ قلبي وفاتُكَ طائراً ... فأقسمَ ألاّ يستقرَّ على وكْنِ

يُقضّي بقايا عيشهِ وجناحهُ ... حثيثٌ الدواعي في الإقامةِ والظعنِ

كأنّ دُعاءَ الموتِ باسمكَ نكزةٌ ... فرتْ جسدي والسمُّ ينفثُ في أذني

وقوله :

سأبكي إذا غنّى ابنُ ورقاءَ بهجةً ... وإنْ كانَ ما يعنيهِ ضدّ الذي أعني

ونادبةٌ في مسمعي كلُّ قينةٍ ... تُغرِّدُ باللحنِ البريءِ من اللحنِ

وأحملُ فيكَ الحزنَ حياً فإنْ أمتْ

وألقَكَ لمْ أسلكْ طريقاً إلى الحزنِ

وبعدكَ لا يهوى الفؤادُ مسرّةً

وإنْ خانَ في وصلِ السُّرورِ فلا يهني

وتمنى أن يكون أبوه مدفونا في جفنه ، ولم يرض أن يكون قبره في درة ، ولا في الجو ؛ وتحسر عليه من تراب القبر وجنادله . والقصيدة في جملتها مغمورة بالحزن والأسف .

ورثى أمه بقصيدتين ، الأولى : ميمية [١] مطلعها :

سَمِعْتُ نَعِيَّها صَمِّي صَمَامِ وَإِنْ قَالَ العَوَاذِلُ لاَ هَمَامِ

وأكبَرَ أن يرثيها لسانه بلفظ يخرج من الفم ، ورثاؤها لعظمه تهتيم الأنياب ؛ وتمنى أن يصوغ الشهب شعراً فيجعله رثاء لها . ثم بين أن موتها كان في كهولته ، ولكنه لفقدها ظنَّ أنه رضيع فارقته أمه . ثم تمنى أن يبلغ روحها سلام طيب الرائحة ، واستدعى الحمام أن تنوح ؛ ولكنه وجد أن النوح لا يشفي عليلا ، ولا يروي غليلا ؛ وإنما الذي يروي الغلة هو اللقاء ، فسأل عنه متى يكون :

سَأَلْتُ مَتَى اللِّقَاءُ فقِيلَ حتَّى يَقومَ الهَامِدُونَ مِنَ الرِّجَامِ
وَلَوْ حَدُّوا الفِرَاقَ بِعُمْرِ نَسْرٍ طَفِقْتُ أَعُدُّ أعْمَارَ السِّمَامِ

ولكن لم يُحَدَّ له ذلك ، فتمنى أن تقوم القيامة ليكون فيها اللقاء :

فَلَيْتَ أذِينَ يومِ الحَشْرِ نَادَى فَأَجْهَشَتِ الرِّمَامُ إِلى الرِّمَامِ

ثم التفت الى الحياة ، فرأى أن الناس كلهم صائرون الى الفناء ، ولكن لكل واحد وقت محدود ؛ فعبَّر عن ذلك بقوله :

وَنحْنُ السَّفْرُ في عُمُرٍ كَمَرْتٍ تَصَافَنَ أَهْلُهُ جُرَعَ الحِمَامِ

---

(١) عدد أبياتها أربعة وستون بيتاً ، انظر شروح سقط الزند : ق ٤ ص. ١٤٥٣ — ١٥١٥ .

والتفت إلى نفسه فرأى أن الزمان يصرفه ويغيره من حالة الى أخرى ، كما تصرّف الكلمة من صيغة الى صيغة ، وأن عاقبة أمره أن يُحذف من الوجود ويدغم في القبر :

فَصَرَّفَني فَغَيَّرني زَمَـــانٌ   سَيُعقِبُني بِحَذفٍ وادِّغامِ

لأن الدهر سيهلك كل مخلوق ضعيفاً كان أم قويا ؛ فلا يفوته الأسد الذي يفترس ؛ ثم وصف الأسد . ولا يبقي على الأفاعى التي يتقى بأسها ، ثم وصفها . ووصف قبائل بني عامر بن صعصعة ؛ ووصف أهوال الليل ؛ ووصف السيف وصفاً رائعاً . ثم عاد الى تعداد نعم أمه عليه وعجزه عن شكرها فقال :

وَلَوْ أنَّ النَّخِيلَ شَكِيرُ جِسْمي   ثَنَاهُ حَمْلُ أنْعُمِكِ الجِسَامِ

كَفَانِي رِيُّها عَنْ (١) كُلِّ رِيٍّ   إلى أنْ كِدْتُ أُحسَبُ في النَّعَامِ

ثم مدح إباءها ، ودعا لها أن تسقيها الغاديات مطراً غزيراً كالبحار .

الثانية : قصيدة لامية (٢) مطلعها :

حُلُوُّ فُؤادِي بِالمَوَدَّةِ إخْــلالُ   وَإبْلاءُ جِسْمِي في طِلاَبِكِ إبْلالُ

وذكر فيها أنه يتمنى الموت ليلحق بأمه ، ولا يبالي إن كان قبرُ بالشام أم بريمان ، لأن قلبه يأنس بأن يدفن بجنب قبر أمه . وتمنى أن يكون مات قبلها ، لأنه بعد موتها صار كالرضيع الذي فقد حاضنته . ثم ذكر أنه رأى في نومه أنه أصيب بناجذ ، فكان تأويل رؤياه أنْ ماتت أمه ؛ فأنكر على الأحلام أن تشبه أمه التي لا نظير لها ولا خلف

---

(١) في شروح السقط : « من » .

(٢) عدد أبياتها عشرة ، انظر شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٧٢٥ ـ ١٧٣١ .

بفرسه الذي في فمه أمثال له . وأن بين الموت والنوم نسبة وقربى ، ولكن النوم علة والموت شفاء ، فهما مختلفان من هذه الجهة . ثم قال : إنه اذا نام رأى أحبابه الذين ماتوا منذ شهور وأعوام .

الفخر

الفخر غرض من أغراض الشعر العظيمة في عصر أبي العلاء والذي قبله ؛ وهو عبارة عن مدح المرء نفسه وقومه ، سواء أكان بالحسب التليد أو الطريف . وللشعراء مذاهب فيما يمدحون به أنفسهم من الشجاعة ، والجود ، والمروءة ، والحمية ، وما شاكلها من الصفات المحمودة عند عامة الناس . ومنهم من كان يتمدح بالتعْهير والفجور وشيء من الأخلاق المذمومة عند العقلاء .

وأبو العلاء طبع في فخره على غرار الأعفاء العقلاء . وله في ديوانه (سقط الزند) قصيدة لامية في الفخر من جيّد شعره عدد أبياتها واحد وأربعون بيتاً [١] افتخر فيها بأن أفعاله كلها في سبيل المجد ؛ وبيّن أن تلك الأفعال : عفاف ، وإقدام ، وحزم ، ونائل . وأنه جرب الأمور الخفية فضلاً عن الظاهرة فلا يصدق واشيا ، ولا يخيب سائلاً وأن لا ذنب له إلا العلى والفواضل . ثم أخبر عن اشتهار ذكره ، وعما يحتمله من الزمان وأهله ، وعن عبقريته وتفوقه بقوله :

وَقَدْ سَارَ ذِكْرِي فِي البِلَادِ فَمَنْ لَهُمْ ... بِإِخْفَاءِ شَمْسٍ ضَوْؤُهَا مُتَكَامِلُ
يَهُمُّ اللَّيَالِي بَعْضُ مَا أَنَا مُضْمِرٌ ... وَيُثْقِلُ رَضْوَى دُونَ مَا أَنَا حَامِلُ

---

(١) مطلعها :

ألا في سبيل المجد ما أنا فاعل ... عفاف وإقدام وحزم ونائل

انظر شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٥١٩ — ٥٥٢ .

وَإِنِّي وَإِنْ كُنْتُ الأَخِيرَ زَمَانُهُ لآتٍ بِمَا لَمْ تَسْتَطِعْهُ الأَوَائِلُ

وعن مضائه فيا يقصده بقوله :

وَأَغْدُو وَلَوْ أَنَّ الصَّبَاحَ صَوَارِمٌ وأسْرِي وَلوْ أنَّ الظَّلاَمَ جَحَافِلُ

وبين أن اختياره العزلة لم يفقده الخلال المحمودة ، بل هو مستعد لجلب كل كريمة ، ودفع كل كريهة بقوله :

وَإِنِّي جَوَادٌ لَمْ يُحَلَّ لِجَامُهُ وَنِضْوٌ يَمَانٍ أغْفَلَتْهُ الصَّيَاقِلُ(١)

وأنه لايضيره أن يكون لباسه غير فاخر إذا كانت صفاته طاهرة وأخلاقه فاخرة ، لأن قيمة السيف بجوهره لا بغمده وحمائله :

وَإِن كانَ فِي لِبْسِ الفَتَى شَرَفٌ لَهُ فَمَا السَّيْفُ إِلاَّ غِمْدُهُ والحَمَائِلُ

ثم افتخر بمنطقه وأنه لجودته لا يرضى لصاحبه أن يكون منزله بين السماكين ، بل يطلب ما هو أعلى من ذلك ، ولم يحدد له غاية :

ولِي مَنْطِقٌ لَمْ يَرضَ لِي كُنْهَ مَنْزِلِي عَلَى أنني بَيْنَ السِّمَاكَيْنِ نَازِلُ

ولما كان قوله هذا يوهم أن منزله الحاضر ليس بعالٍ ولا كريمٍ ، دفع هذا الوهم وبيّن أن موطنه الآن يصبو اليه كل عظيم فلا يستطيع أن يبلغه :

لَدَى مَوْطِنٍ يَشْتَاقُهُ كُلُّ سَيِّدٍ وَيَقْصُرُ عَنْ إِدْرَاكِهِ الْمُتَنَاوِلُ

---

(١) رواية البيت في الفروح :

واني جوادٌ لم يحل لجامه ونضوٌ يمانٍ أغفله الصياقل

ووصف نفسه بالعلم ، ولكن لما رأى الجهل فاشياً في الناس تجاهل حتى يكون كأهل زمانه ؛ وتعجب من ادعاء الناقص الفضلَ بقدر ما أسف من إظهار الفاضل النقصَ ، وأمضّه كيد حساده على علو منزلته ، حتى إن يومه الذي يكون فيه ينافس اليوم الذي قبله لمفارقته إياه ، وآصاله تحسد عليه أسحاره .

وقد جرب الزمان وصروفه ، فأورثته التجارب أن لا يبالي بمن هلك ، ولا يجزع لفقد أحد ؛ فلو بان عضده ما أسف عليه منكبه ، ولو مات زنده ما بكته أنامله وإن كانت لا تستطيع أن تعمل شيئاً بدونه . ويجوز أن يكون مراده أن هذه حالة أهل عصره ، وأضاف ذلك الى نفسه وهو يريد الناس عامة لأنه واحد منهم .

ثم عرض صورة من تلون الدهر ، وانعكاس الحقائق فيه ، وبيّن أن كل ناقص يعيّر غيره ما فيه من عيب ، ويسلبه محاسنه ويدعيها لنفسه فقال :

إِذَا وَصَفَ الطَّائيَّ بِالبُخْلِ مَادِرٌ وَعَيَّرَ قُسّاً بِالفَهَاهَةِ بَاقِلُ
وَقَالَ السُّهَا لِلشَّمْسِ أَنْتِ خَفِيَّةٌ وَقَالَ الدُّجَى يَاصُبْحُ لَوْنُكَ حَائِلُ
وَطَاوَلَتِ الأَرْضُ السَّمَاءَ سَفَاهَةً وَفَاخَرَتِ الشُّهْبَ الحَصَى وَالجَنَادِلُ

وإذا كانت الأمور على ما ذكر ، فالعاقل لا يحمد الحياة على هذا الشكل ، ويعد عمل الدهر هزلا ، ويكلف نفسه أن تجدّ فيما يعنيها أو في الرحيل عن زمن هو وأهله على ما وصفه :

فَيَا مَوْتُ زُرْ إِنَّ الحَيَاةَ ذَمِيمَةٌ وَيَا نَفْسُ جِدِّي إِنَّ دَهْرَكِ هَازِلُ

ثم افتخر بشجاعته، فزعم أنه يغتدي في آخر الليل على فرس كالربع في سرعته، فيقطع ليلاً كأنه البحر في أهواله، ويجتاب فلوات مخيفة يؤنسه فيها الليل وحده. ثم اختتم القصيدة بأبيات من الحِكَم الرائعة منها قوله:

إذَا أنتَ أُعطِيتَ السَّعَادَةَ لَمْ تُبَلْ   وَإنْ نَظَرَتْ شَزْراً إليكَ القَبَائِلُ

وقوله:

فَإنْ كُنْتَ تَبْغي العِزَّ فَابغِ تَوَسُّطاً
فَعِنْدَ التَّنَاهِي يَقْصُرُ المُتَطَاوِلُ[1]

تَوَقَّى البُدُورُ النقصَ وَهْيَ أهِلَّةٌ   وَيُدْرِكُهَا النُّقْصَانُ وَهْيَ كَوَامِلُ

وقد ذكر البطليوسي في (شرح سقط الزند ج ١ ص ٨٥) أن البُدَيَّة موضع بالشام كان أبو العلاء جاور فيه قوماً فلم يحمدهم، وفي بعضهم يقول شعره الذي في أوله:

ألاَ في سَبيلِ المَجْدِ مَا أنَا فاعِلُ   . . . .

وقال في (ج ٢ ص ٥١٩) عند شرح قصيدته « ألا في سبيل المجد »:

« وقال من قصيدة خاطب بها بعض أهل الشام وكان نزل عليه فأساء معاملته[2]، ونسبه إلى التعطيل وهو الذي أشار إليه بقوله:

---

(١) رواية البيت في شروح السقط:
وان كنت تهوى العيش فابغ توسطاً   . . . .

(٢) عدد أبياتها واحد وثمانون بيتاً، ومطلعها:
أعَنْ وخد القلاص كشفت حالا   ومن عند الظلام طلبت مالا
انظر الشروح ق ١ ص ٢٥ — ١١٣.

صَحِبْنَا بالبَدِّيَةِ مِنْ حُصَيْنٍ وَحِصْنٍ شَرٍّ مَنْ صَحِبَ الرِّجَالاَ[١]

وله قصيدة في (سقط الزند) عدد أبياتها ستون بيتاً ومطلعها[٢] :

أرَى العَنْقَاء تَكْبُرُ أن تُصَادَا فَعَانِدْ مَنْ تُطِيقُ لَهُ عِنَادَا

ذكر فيها أنه لم يكف عن طلب ما يريده من معالي الأمور ، ولكن الأيام لم تساعده . ثم تصدى الى خبرته أحوال الناس وما توجبه من الارتياب بهم واجتنابهم بقوله :

فَظُنَّ بِسَائِرِ الإخوانِ شَرّاً وَلاَ تَأمَنْ عَلَى سِرٍّ فُؤَادَا

فَلَوْ خَبَّرْتُهُمُ الجَوْزَاء خُبْرِي لَمَا طَلَعَتْ مَخَافَةَ أنْ تُكَادَا

أما هو فقد تجنبهم ، ونزل على حكم الزمان لعجزه عن مقاومته ، وهوّن على نفسه الخطوب لأنه ألفها :

تَجَنَّبْتُ الأنَامَ فَلاَ أُوَاخِي وَذُدْتُ عَنِ العَدُوِّ[٣] فَلاَ أُعَادَى

وَلَمَّا أنْ تَجَهَّمَني مُرَادِي جَرَيْتُ مَعَ الزَّمَانِ كَمَا أرَادَا

وَهَوَّنْتُ الخُطُوبَ عَلَيَّ حَتَّى كَأنِّي صِرْتُ أمْنَحُهَا الوِدَادَا[٤]

ثم بين السبب في عدم اختياره صديقاً من الناس يصطفيه ، ومكاناً من الأرض يحمد الإقامة فيه . وذلك كناية عن فساد الناس والزمان ؛ وكنّى عن ذلك بقوله :

---

(١) رواية البيت في الشروح :

صحبنا بالبدية في شتاء وعلى شرّ . . . . .

(٢) انظر شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٥٥٣ ـ ٦٠١ .

(٣) في الشروح : « وزدت » .

(٤) في الشروح : « . . . ودادا » .

فَأيُّ الناسِ أجعَلُهُ صَدِيقاً وأيُّ الارضِ أسلُكُهُ[1] ارْتِيَادَا
وَلَوْ أنَّ النُّجومَ لَدَيَّ مَالٌ نَفَتْ كَفَّايَ أكثَرَها انْتِقَادَا

ثم بدأ يفتخر بخلاله خلة بعد خلة ، فذكر ارتفاع شأنه وسيرورة ذكره ، وعظم منزلته في الدهر ، وأن الناس لم يستطيعوا فهم حقيقته ؛ فالدهر يكرر ذكره حتى يفهمه من لا يفهمه :

كَأنِّي في لِسَانِ الدَّهرِ لَفظٌ تَضَمَّنَ مِنْهُ أغرَاضاً بِعَاداً
يُكَرِّرُنِي لِيَفْهَمَنِي رِجَالٌ كَمَا كَرَّرْتَ مَعنىً مُسْتَعاداً

وذكر أن الدهر اختصه بمنزلة عالية ، وسجايا فاضلة ، قصر عنها أبناء الزمان ؛ فاصبح لانفراده بها كأنه منفرد عن الناس ؛ وأشار الى أنه لا يحب الاختصاص بنعمة ، ولا الانفراد بكرمة ، وإنما يحب أن يشاركه الناس عامة في كل خير :

وَلَوْ أنِّي حُبِيتُ الْخُلْدَ فَرْداً لَمَا أحْبَبْتُ بالْخُلْدِ انفِرَادَا
فَلاَ هَطَلَتْ عليَّ وَلاَ بأرضي سَحَائِبُ لَيسَ تَنْتَظِمُ البِلاَدَا

وهذا غاية ما بعدها غاية في حب المساواة ، وكراهية الاستئثار بالنعمة ؛ وهو على كرهه الانفراد والاستئثار بالمراتب العالية بلـغ مكانة لا يدرك غايتها طالب :

وَكَمْ مِنْ طَالِبٍ أمَدِي سَيلْقَى دُوَيْنَ مَكَانِيَ السَّبْعَ الشِّدَادَا

(١) في الشروح : « . . . أسلكها . . . » .

وذلك لأن مواهبه دون مواهبي فهو :

يُؤَجّجُ في شُعَاعِ الشمسِ نَاراً ... وَيَقْدَحُ في تَلَهُّبِهَا زِنَادَا

وإذا حاول ذلك وقصر عنه انبرى ينتقصني ويكاثرني بقليله ، وينافسني بخسيسه :

وَيَطْعَنُ في عُلاَيَ وإنَّ شِسْعِي ... لَيَأْنَفُ أنْ يَكُونَ لَهُ نِجَادَا

وهو لجبنه وضعفه يرائيني :

وَيُظْهِرُ لي مَوَدَّتَهُ مَقَالاً ... وَيُبْغِضُنِي ضَمِيراً واعْتِقَادَا

وأنا قد بلغت غاية الكمال :

فَلاَ وَأبيكَ مَا أخشَى انتِقَاصاً ... وَلاَ وأبيكَ مَا أرْجُو ازْدِيَادَا

وليس لي الشرف الذي أفضل به الناس فقط وإنما :

لِيَ الشّرفُ الذي يَطَأُ الثُّرَيَّا ... مَعَ الفضْلِ الذِي بَهَرَ العِبَادَا

وَكَمْ عَيْنٍ تُؤَمّلُ أنْ تراني ... وَتفْقِدُ عِنْدَ رُؤْيَتِيَ السَّوَادَا

وَلَوْ مَــــلأَ السُّهَا عَيْنَيْهِ مني ... أبَرَّ عَلَى مَدَى زُحَلٍ وَزَادَا

ثم افتخر بشجاعته بقوله :

أفُلُّ نَوَائِبَ الأيامِ وَحدِي ... إِذَا جَمَعَتْ كَتَائِبَهَا احْتِشَادَا

وَقَدْ أثبتُّ رِجْلِي في رِكَابٍ ... جَعَلْتُ مِنَ الزَّمَاعِ لَهُ بِدَادَا

ثم وصف الركاب والليالي التي سار فيها ، والطرق التي سلكها ؛ وعاد إلى الفخر فبين منزلته ، وأنه إذا فارق مكانا لا يعود اليه ، وذلك قوله :

وَبَعْضُ الظَّاعِنِينَ كَقَرْنِ شَمْسٍ يَغِيبُ فَإِنْ أَضَاءَ الفَجْرُ عَادَا
وَلَكِنِّي الشَّبَابُ إِذَا تَوَلَّى فَجَهْلٌ أَنْ تَرُومَ لَهُ ارْتِدَادَا

ولا يشق عليه أن يفارق أوطانه وأخدانه ، لأنه ألف ذلك وهوّنه عليه اختباره الناس والزمان والمكان :

وأَحْسَبُ أَنَّ قَلْبِي لَوْ عَصَانِي فَعَاوَدَ مَا وَجَدْتُ لَهُ افْتِقَادَا

وهو وإن كان لا يأسف على مفارقة أحد ولا يتذكر من فارقه ، تذكر إقامته في البادية في أناس وصفهم بالشجاعة والجود وفصاحة اللسان في الشعر ؛ وأنه قصد أحسنهم وجها ، وأوهبهم طريفا أو تلاداً ، وأطولهم قناة ، وأرفعهم عمادا . ثم وصفه بأنه يهب الفضة الخالصة ، ويفتك بالأعداء ؛ وقد لزم الغزو شابا وكهلا ، وعود أن يسود ولا يساد ؛ وأنه جهول بالمناسك ، طموح لا يخشى الله ولا القيامة ، وأنه يرد عنه النكباء بترسه ، ويجعل درعه مهاداً له . ثم ذكر أنه رأى ذئبا جائعا فنبذ اليه عصاماً وهو جلد يشد به فم القربة فأكبره ومر به لجوعه ؛ وأنه صاحب رجلا نحيفا برته كثرة الأسفار . وختم القصيدة بقوله :

وَلِي نَفْسٌ تَحُلُّ بِيَ الرَّوَابِي وَتَأْبَى أَنْ تَحُلَّ بِيَ الوِهَادَا
تَمُدُّ لِتَقْبِضَ القَمَرَيْنِ كَفًّا وَتَحْمِلُ كَي تَبُذَّ النَّجْمَ زَادَا

ولم يتبين لنا من هم البداة الذين أقام عندهم ، ولا من هما الحيّان اللذان عهد لأحسنهم وجها .

وله قصيدة استهلها بالفخر في حلمه وشجاعته وجلده منها قوله [١] :

جَهِلْتُ فَلَمَّا لَمْ أَرَ الجَهْلَ مُغْنِياً حَلُمْتُ فأَوْسَعْتُ الزَّمَانَ وَقَارَا
إِلَى كَمْ تَشَكَّانِي إِلَيَّ رَكَائِبِي وَتُكْثِرُ عَتْبِي خُفْيَةً وَجِهَارَا
أَسِيرُ بِهَا تَحْتَ الْمَنَايَا وَفَوْقَهَا فَيَسْقُطُ بِي شَخْصُ الحِمَامِ عِثَارَا
وَكُنَّ إِذَا لَاقَيْنَنِي لِيَرِدْنَنِي رَجَعْنَ كَمَا شَاءَ الصَّدِيقُ حِرَارَا
فَلِلَّهِ طَعْمِي مَا أَمَرَّ مَذَاقَهُ وِلله عِيسِي ما أَقَلَّ نِفَارَا [٢]

ثم أخذ يصف الليل الذي سار فيه ، والإبل التي أقلته ، والأمكنة التي قطعها .

وافتخر بشعره بقوله من قصيدة : — وقد تقدّم —

تَذُودُ عُلَاكَ شُرَّادَ الْمَعَانِي . . . . [٣]

وبقوله من قصيدة أخرى : — وقد تقدّم أيضاً

وَلَقَدْ غَصَبْتُ اللَّيْلَ أَحْسَنَ شُهْبِهِ . . . . [٤]

وافتخر بعلو منزلته ، وترفعه عن إجابة أعدائه بقوله :

---

(١) مطلع رائيته هذه :

تحيرت جهدي لو وجدت خياراً وطرت بعزمي لو أصبت مطارا

انظر شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٦١٨ .

(٢) رواية البيت في الشروح :

فلله طعمي ما أمر مذاقه وقد عذني . . . .

(٣) انظر الشروح : ق ١ ص ٣٢١ والقصيدة دالية .

(٤) انظر الشروح : ق ١ ص ٤١٢ والقصيدة سينية .

تَعَاطَوْا مَكَانِي وَقَدْ فُتُّهُمْ ... فَمَا أَدْرَكُوا غَيْرَ لَمْحِ البَصَرْ(١)
وَقَدْ نَبَحُونِي وَمَا هِجْتُهُمْ ... كَمَا نَبَحَ الكَلْبُ ضَوْءَ القَمَرْ

الهجاء

لم نعثر في (سقط الزند) على قصيدة مستقلة بالهجاء ، ولا أبيات هجا بها شخصاً معيناً ؛ وإنما وجدنا له أبياتاً يبلغ عددها اثني عشر بيتاً(٢) مطلعها :

وَرَائِي أَمَامٌ وَالأَمَامُ وَرَاءُ ... إِذَا أَنَا لَمْ تُكْبِرْنِيَ الكُبَرَاءُ

وفيها يقول :

بِأَيِّ لِسَانٍ ذَامَنِي مُتَجَاهِلٌ ... عَلَيَّ وَخَفْقُ الرِّيحِ فِيَّ ثَنَاءُ
تَكَلَّمَ بِالقَوْلِ المُضَلَّلِ حَاسِدٌ ... وَكُلُّ كَلَامِ الحَاسِدِينَ هُرَاءُ
وَمَنْ هُوَ حَتَّى يُحْمَلَ النُّطْقُ عَنْ فَمِي ... إِلَيْهِ وَتَمْشِي(٣) بَيْنَنَا السُّفَرَاءُ
وَإِنِّي لَمُثْرٍ يَا ابْنَ آخِرِ لَيْلَةٍ ... وَإِنْ عَزَّ مَالٌ فَالقُنُوعُ ثَرَاءُ
وَمُذْ قَالَ إِنَّ ابْنَ اللَّئِيمَةِ شَاعِرٌ ... ذَوُو الجَزْلِ مَاتَ الشِّعْرُ وَالشُّعَرَاءُ
تُسَاوِرُ فَحْلَ الشِّعْرِ أَوْ لَيْثَ غَابِهِ ... سَفَاهاً وَأَنْتَ النَّاقَةُ العُشَرَاءُ

ثم أورد أبياتاً يفتخر بها بأنهم أمراء على كل من يقول الشعر ، ولا تمشي القوافي تحت غير لوائهم ؛ وأنهم قادرون على تغيير كل خطب عظيم

---

(١) انظر الشروح : ق ٢ ص ٦٤٩ .
(٢) شروح سقط الزند : ق ١ ص ٣٩٢ ـ ٤٠١ .
(٣) في الشروح : « ويمشي . . . » .

ينوب أهل بلادهم ؛ ولم تستطع قبيلة أن تسلبهم العز ، ولا أن تأسر أحداً منهم ؛ وأن السحاب ذا البرق لا يستطيع أن يسير في عرض المفازة، إن لم يكن له خفراء من قومه ؛ وأنهم غير فقراء إلى من يهجوهم ، بل هؤلاء فقراء الى معروف قومه . ولم يشر في الأبيات المذكورة إلى مهجو معين ؛ فلعله تخيل رجلا وقومه وأفرغ المعاني التي يريدها في الأبيات الأول ، ثم أردفها بأبيات من الفخر .

وله أبيات من قصيدة مطلعها :

أفوقَ البَدْرِ يُوضَعُ لي مِهَادَ . . . . (١)

وفيها يقول :

رُوَيْدَكَ أيّها العَاوِي وَرَائي لِتُخْبِرَني مَتَى نَطَقَ الجَمَادُ
سَفَاهٌ ذَادَ عَنْكَ النّاسَ حِلْمٌ وَغَيٌّ فِيهِ مَنْفَعَةٌ رَشَادُ

ويمكن أن يقال : إن حظ الهجاء من شعره قليل ، وإن وقع في كلامه أبيات يهجو بها خصوم ممدوحيه ويصفهم بالبخل والجبن ونحوهما ؛ إلا أننا لم نجد هجاء معيناً لرجل معين .

الوصف

أبو العلاء وصّاف ماهر ، بل رسام بارع ، يصف لك الشيء المحسوس فيصوره لك حتى كأنك تراه ، ولا يفوته شيء من الدقائق التي تجعل الموصوف صورة مطابقة لأصله ، وقد يزيد الموصوف جمالاً على أصله بما يضيفه اليه من المبالغة ، أو الحس ، أو الحركة ، أو الحياة أو الصور الخيالية

(١) انظر ما سبق ص ١١٠٠ الحاشية ٣ .

التي لم تكن له في الحقيقة أو بما يصحبه من الحكم الرائعة أو بما يفرغه فيه من الأساليب الساحرة . ولا يفوته في وصفه شيء من الألوان الدقيقة أو الحركات الخفية ونحوها .

وإذا أراد الإنسان أن يعلم قدرته في هذا الغرض ، فانه لا يستطيع أن يدرك كنهه حتى يعترض جميع ما في كلامه من نوع الوصف ؛ وهذا أمر ليس باليسير . وقد قدمنا بعضاً من أبياته ؛ ونحن هنا نورد قسما منها وقسما مما لم نذكره ، ونكتفي بذكر البيت أو البيتين لندل القارىء على الموطن الذي يجد فيه كل ما يبتغيه من هذا الغرض .

وصف الخيل :

وصف الخيل وصفاً رائعاً حسياً ومعنوياً في مواطن من شعره منها قوله [١] :

وَلَمّا لَمْ يُسَابِقْهُنَّ شَيءٌ ... مِنَ الحَيوَانِ سَابَقْنَ الظِّلالاَ
تَرَى أعْطَافَهَا تَرْمِي حَمِيماً ... كَأَجْنِحَةِ البُزاةِ رَمَتْ نُسَالاَ

. . . . الأبيات ، ووصفها بقوله [٢] :

تَخُبُّ بِكَ الجِيَادُ كَأَنَّ جَوْناً ... عَلَى لَبَّــاتِهِنَّ الأُرْجُوَانُ

. . . . الأبيات ، وقوله [٣] :

تُرِيكَ لَهُ سَمَاءٌ فَوْقَ أرْضٍ ... فُرُوجَ قَوَائِمٍ يُعْدَدْنَ لُوحَا

. . . . الأبيات ، وقوله [٤] :

---

(١) شروح سقط الزند : ق ١ ص ٤٦ – ٧ .
(٢) شروح سقط الزند : ق ١ ص ٢٠٠ .
(٣) شروح سقط الزند : ق ١ ص ٢٥١ .
(٤) شروح سقط الزند : ق ١ ص ٣٠٣ .

أَقَائِدَهَا تُنْصِصُ الْجَوِّ نَقْعاً وَفَوْقَ الأَرْضِ مِنْ عَلَقٍ جِسَادُ

. . . . الأبيات ، وقوله من قصيدة فيها أوصاف متعددة للخيل والغبار (١) :

صَاغَ النَّهَارُ حُجُولَهُ فَكَأَنَّمَا قَطَعَتْ لَهُ الظَّلْمَاءُ ثَوْبَ الأَدْهَمِ

قَلِقَ السِّمَاكُ لِرَكْضِهِ وَلَرُبَّمَا نَفَضَ الغُبَارَ عَلَى جَبِينِ المِرْزَمِ

. . . . الأبيات ، وقوله (٢) :

إِذَا أُفْرِغَتْ مِنْ ذَاتِ نِيقٍ حَسِبْتَهَا تُفِيضُ عَلَى أَهْلِ الْوُهُودِ بِحَارَا

وَإِنْ نَهَضَتْ مِنْ مُطْمَئِنٍّ ظَنَنْتَهُ يَجِيشُ جِبَالاً أَوْ يَمُجُّ حِرَارَا

. . . . الأبيات ، وقوله (٣) :

وَخَيْلاً لَوْ جَرَتْ وَالرِّيحَ شَأْواً ظَنَنَّا الرِّيحَ أَوْثَقَهَا إِسَارُ

غَدَتْ وَلَهَا حُجُولٌ مِنْ لُجَيْنٍ وَرَاحَتْ وَهْيَ مِنْ عَلَقٍ نُضَارُ

. . . . الأبيات ، وقوله (٤) :

يَكَادُ يُذِيبُ اللُّجْمَ تَأْثِيرُ حِقْدِهَا فَيَمْنَعُهَا مِنْ ذَاكَ بَرْدُ الْمَنَاهِلِ

ووصف الغبار الذي تثيره حوافر الخيل بصورة بديعة ، منها قوله من قصيدة :

وَبَنَتْ حَوَافِرُهَا قَتَاماً سَاطِعاً لَوْلَا انْقِيَادُ عِدَاكَ لَمْ يَتَهَدَّمِ (٥)

---

(١) شروح سقط الزند : ق ١ ص ٣٤٣ .

(٢) شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٦٤٢ ـ ٣ .

(٣) شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٧١٧ ـ ٨ .

(٤) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١٠٦٧ وفيها : « . . . نلثر حقدها » .

(٥) شروح سقط الزند : ق ١ ص ٢٤٦

إلى آخر الأبيات . . . وقوله من قصيدة :

كَأَنَّ تُرَابَ الأرضِ لَمْ يَرضَ عِزَّهَا
فَأَصعَدَ يَبغي في السَّماء جِوَاراً (١)

. . . . . .

يَغولُ سِبَاعَ الطيرِ ضَنْكُ غُبَارِهَا (٢)
فَيُسقطُ مَوْتى أَعقُباً وَنِسَارَا

وَيَجثِمُ فِيهِ السَّيدُ رُعباً فَكُلَّمَا أضَاءتْ لِعَيْنَيهِ القَوَاضِبُ سَارَا

وقوله من قصيدة :

بِيَوْمٍ كَأَنَّ الشَّمسَ فِيهِ خَرِيدَةٌ عَلَيْهَا مِنَ النَّقْعِ الأَحَمِّ لِثَامُ (٣)

وصف الإبل :

ووصف الإبل أوصافاً بديعة في مواطن من شعره ، منها قوله من قصيدة :

وَكَانَتْ كَالنَّخِيلِ فَظَلَّ كُلٌّ وَمُشْبِهُهُ مِنَ الضُّمْرِ الإِهَانُ (٤)

وَقَدْ دَقَّتْ هَوَادِيهِنَّ حَتَّى كَأَنَّ رِقَابَهُنَّ الخَيْزُرَانُ

وقوله من قصيدة أخرى :

عَلَى شَدْقَمِيَّاتٍ كَأَنَّ حُدَاتَهَا إِذَا عَرَّسَ الرُّكبَانُ شُرَّابُ مُرْقِدِ (٥)

(١) شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٦٣٦

(٢) في الشروح : « نكاها . . . » .

(٣) شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٦٠٦ .

(٤) شروح سقط الزند : ق ١ ص ١٨٠ .

(٥) شروح سقط الزند : ق ١ ص ٣٦٧ . والعد ليات : منسوبة إلى شدقم وهو فحل من الابل .

الأبيات . . . . وقوله من قصيدة :

سَرَتْ بِيَ فِيهِ نَاجِيَاتٌ مِيَاهُهَا ... تَجُمُّ إِذَا مَاءُ الرَّكَائِبِ غَارَا[١]

. . . .

وَلَيْسَتْ تُحِسُّ الأَرْضُ مِنْهَا بِوَطْأَةٍ

فَتُفْزِعَ[٢] سِرْبَاً أَوْ تَرُوعَ صُوَارَا

الأبيات . . . . وقوله من قصيدة :

بِعِيسٍ تَجُوبُ الدَّهْرَ جَوْنَاً كَأَنَّهَا ... مُفَتَّشَةٌ أَحْشَاءُهُ عَنْ كِرَامِهِ[٣]

. . . .

وَلَوْ وَطِئَتْ فِي سَيْرِهَا جَفْنَ نَائِمٍ ... بِأَخْفَافِهَا لَمْ يَنْتَبِهْ مِنْ مَنَامِهِ

الأبيات . . . . وقوله من قصيدة :

إِذَا مَا أَنَخْنَا حُرَّةً فَوْقَ حَرَّةٍ ... بَكَى رَحْمَةً الوَجْنَاءِ مِنْهَا وَجِينُهَا[٤]

الأبيات . . . . وقوله :

طَرِبْنَ لِضَوْءِ البَارِقِ المُتَعَالِي ... بِبَغْدَادَ وَهْنَاً مَالَهُنَّ وَمَالِي[٥]

الأبيات . . . . وقوله :

---

(١) شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٦٢٢ .

(٢) في الشروح : « فتذعر » .

(٣) الشروح : ق ٢ ص ٤٩٠ . وفيها : « بعيس تخدي الدهر جوباً » . .

(٤) شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٨٩٠ .

(٥) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١١٦٢ .

عَلَى عُشَرٍ كَالنَّخْلِ أَبْدَى لُغَامُهَـــا
جَنَى عُشَرٍ مِثْلَ السَّبِيخِ الْمُوَضَّعِ (١)

الأبيات . . . .

الغور :

وصف أبو العلاء الغور وصفاً أجاد فيه غـاية الإجادة ، من ذلك الأبيات التي يقول فيها :

وَمُزَيرِهَا الغَوْرَ الذي لَوْ سَلَّمَتْ ريحٌ عَلَى أَرْجَائِهَا لَمْ تَسْلَمِ (٢)

الخَرْق والفلاة :

ووصف الخَرْق وهو الفلاة الواسعة وصفاً أتى فيه بصور خيـالية رائعة . من ذلك الأبيات التي يقول فيها :

وَتَكْتُمُ فِيهِ العَاصِفَاتُ نُفُوسَهَا فَلَوْ عَصَفَتْ بِالنَّبْتِ لَمْ يَتَأَوَّدِ (٣)

الغَلَل :

وهو الماء الذي يجري في أصول الأشجار ، ولقد أجاد في وصفه بقوله :

وَمِنْ غَلَلٍ تَحِيدُ الريحُ عَنْهُ مَخَافَةَ أَنْ يُمَزِّقَهَا القَتَادُ (٤)

المنهل :

ووصف منهلاً بين ريف الشام والكرخ ، فأبدع وأجاد بقوله :

---

(١) شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٥٤٧ .
(٢) شروح سقط الزند : ق ١ ص ٣٣١ ، وفيها : « . . على أرجائه »
(٣) انظر الشروح : ق : ١ ص ٣٧٧ .
(٤) شروح سقط الزند : ق ١ ص ٣١٣ .

كأنّ الصّبا فيه تُراقِبُ كامِناً . . . . (١)

وسيأتي في (خياله) .

السيف :

وقد وصف أبو العلاء السّيف أوصافاً رائعة يقصّر عن مثلها البصراء ؛ منها الأبيات التي يقول فيها :

وَدَبّتْ فَوْقَهُ حُمْرُ المَنَايا وَلَكِنْ بَعْدَمَا مُسِخَتْ نِمالاَ (٢)

ومنها الأبيات التي يقول فيها :

وكُلّ أبيضَ هِنْدِيّ بِهِ شُطَبٌ مِثْلُ التّكَسّرِ في جارٍ بِمنْحَدَرِ (٣)

والأبيات التي يقول فيها :

كأنّ المَنَايا جَيشُ ذَرٍّ عَرَمْرَمٌ تخِذْنَ إلى الأرْوَاحِ فِيهِ مَسَارَا (٤)

والأبيات التي يقول فيها :

عَلَيْهِ لِبَاسُ الخُلْدِ حُسْناً وَنَضْرَةً

وَلَمْ يَرْبُ إلا في الجَحِيمِ مِنَ الصّنْعِ (٥)

---

(١) عجزه : « . . يسور إليها من خلال إكامه » .

شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٤٩٨ .

(٢) شروح سقط الزند : ق ١ ص ١٠٤ .

(٣) انظر الشروح : ق ١ ص ١٠٦ .

(٤) شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٦٤٧ .

(٥) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١٣٥٨

والأبيات التي يقول فيها :

تَرَدَّدَ مَاؤُهُ عُلْواً وَسُفلاً وَهَمَّ فَمَا تَمَكَّنَ أنْ يَسِيلاَ[١]

والأبيات التي يقول فيها :

لَهُ ثِقَلُ الحَدَائِدِ فَهوَ رَاسٍ وَإصْعَادُ التَلَهُّبِ فَهوَ نامِ[٢]

والأبيات التي يقول فيها :

مِنْ كُلِّ أبيَضَ مُهْتَزٍّ ذَوَائِبُهُ
يُمْسِي وَيُصْبِحُ فِيهِ المَوْتُ مَسْؤُوتَا[٣]

الرمح :

ووصف الرمح في مواطن من شعره ، ولكنه أقل من وصف السيف عدداً وإجادة . من ذلك قوله من أبيات :

وَذي ظَمَأٍ وَلَيْسَ بِهِ حَيَاةٌ تَيَقَّنَ طُولَ حَامِلِهِ فَطَالاَ[٤]

وقوله :

دَعِ اليَرَاعَ لِقَوْمٍ يَفْخَرُونَ بِهِ وبالطِّوَالِ الرُّدَيْنِيَّاتِ فَافْتَخِرِ[٥]

وقوله :

---

(١) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١٣٩٠ .
(٢) شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٥٠٤ .
(٣) شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٥٩٩ والمسؤوت : المخنوق .
(٤) شروح سقط الزند : ق ١ ص ١٠٥ .
(٥) شروح سقط الزند : ق ١ ص ١٥٦ .

كَأنَّ كُعُوبَها مُتَنَاثِرَاتٍ   نَوَى قَسْبٍ تُرَضِّخُ للمَوَاجي [1]
مُمَوَّهَةٌ كَأنَّ بِهَا ارْتِعَاشاً   لِفَرْطِ السِّنِّ أو دَاءِ اخْتِلاَجِ

إلى آخر الأبيات .

الدرع :

وقد أولع أبو العلاء بوصف الدرع ، وافتنّ فيه ، وجعل منه ديواناً مستقلاً أو شبه مستقل ؛ وقد أتى في وصفها بصور بارعة لم يسبقه اليها أحد ، ولم يلحقه أحد ، من ذلك قوله في (السقط) :

علَيْنَا اللاَّبِسُونَ لِكُلِّ هَيْجٍ   بُرُوداً غُمْضُ لاَ بِسِهَا سُهَادُ [2]
كَأثْوابِ الأَرَاقِمِ مَزَّقَتْهَا   فَخَاطَتْهَا بأَعْيُنِهَا الجَرَادُ

وقوله فيه من أبيات :

إذَا أُلْقِيَتْ في الأَرْضِ وَهْيَ مَفَازَةٌ
إِلى الماءِ خِلْتَ الأَرْضَ يَجْرِي مَعِينُهَا [3]

إلى آخر الأبيات . وفي قصائده الدرعيات أمثلة رائعة تدل على براعته وتفننه في وصف الدرع ، من ذلك الأبيات التي يقول فيها :

إِذَا طُوِيَتْ فَالقَعْبُ يَجْمَعُ شَمْلَهَا   وَإِنْ نُثِلَتْ سَالَتْ مَسِيلَ ثِمَادِ [4]

---

(١) شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٧٧٢ .

(٢) شروح سقط الزند : ق ١ ص ٣٠٥ .

(٣) شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٨٩٩

(٤) انظر الشروح : ق ٤ ص ١٧٥٥ .

والأبيات التي يقول فيها :

غَدِيرٌ نَقَّتِ الخِرْصانُ فيهِ نَقِيقَ عَلاجِمٍ واللَّيلُ داجِ (١)

والأبيات التي منها قوله :

هَينَمَةُ الخِرْصانِ في عِطْفِهَا هَينَمَةُ الأعْجَمِ للأعْجَمِ (٢)

. . . .

لَوْ أمْسَكَتْ مَا زَلَّ عَنْ سَرْدِهَا لأبْصرَ الدّارِعُ كَالشَّيْهمِ

والأبيات التي يقول فيها :

يَدُ المَنَايَا إذَا تُصَافِحُهَا أعْيَا بِهَا مِنْ يَدَيْنِ في رَحِمِ (٣)

مَعَابِلُ الرَّمْيِ عِنْدَهَا عَبَلٌ مُلْقًى وَسُخْمُ النِّصالِ كَالسَّحَمِ

والأبيات التي يقول فيها :

كَهِلاَلِ الحَيَاةِ أوْ كَقَمِيصٍ لِهِلاَلِ الحَيّاتِ غيرِ مَجُوبِ (٤)

. . . .

مِثْلُ وَشْيِ الوَلِيدِ لاَنَتْ وَإِنْ كَا نَتْ مِنَ الصُّنْعِ مِثْلَ وَشْيِ حَبِيبِ

والأبيات التي يقول فيها :

تَرَى المرءَ فيها يَحْمِلُ الماءَ جَامِداً وَإمَّا عَلاَهَا مِغْفَرٌ فَهُوَ قَابِسُ (٥)

---

(١) شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٧٦٤ ، والخرصان : واحدها خرص وهو الرمح . والعلاجم : الضفادع .

(٢) شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٨٠١ ، ١٨٠٥ . والشيهم : ذكر القنافذ

(٣) شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٩٠٠ .

(٤) الشروح : ق ٤ ص ١٩٢٣ — ٢٤ .

(٥) شروح سقط الزند : ق ٥ ص ١٩٩٢ ، ١٩٩٦ .

إِذَا قَارَبَتْهَا لِلرِّمَاحِ ثَعَالِبُ
ضَغَتْ فَتَنَادَى القَوْمُ تِلْكَ الهَجَارِسُ

. . . .

لَهَا حَلَقٌ ضَيِّقٌ لَوَ انَّ وَضِينَهُ ... فُؤَادُكَ لَمْ يَخْطُرْ بِقَلْبِكَ هَاجِسُ

الليل والظلام :

ووصف الليل بأبيات ، منها قوله :

وَجُنْحٍ يَمْلأُ الفَوْدَيْنِ شَيْباً ... وَلَكِنْ يَجْعَلُ الصَّحْرَاءَ خَالاَ[(١)]

وقوله :

لَيْلَتِي هَذِهِ عَرُوسٌ مِنَ الزَّنْــــجِ عَلَيْهَا قَلاَئِدٌ مِنْ جُمَانِ[(٢)]

ومنه الأبيات التي يقول فيها :

وَيُؤْنِسُنِي فِي قَلْبِ كُلِّ مَخُوفَـةٍ
حَلِيفُ سُرًى لَمْ تَصْحُ مِنْهُ الشَّمَائِلُ[(٣)]

مِنَ الزِّنْجِ كَهْلٌ شَابَ مَفْرِقُ رَأْسِهِ ... وَأُوثِقَ حَتَّى نَهْضُهُ مُتَثَاقِلُ

والأبيات التي يقول فيها :

تَعْجَبُ مِنْ تَغَشْمُرِهَا لَيَالٍ ... تُبَارِينَا كَوَاكِبُهَا سُهَادَا[(٤)]

---

(١) شروح سقط الزند : ق ١ ص ٧٢ .
(٢) شروح سقط الزند : ق ١ ص ٤٢٩ .
(٣) شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٥٤٥ .
(٤) شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٥٧٤ تغشمر : أي ركب رأسه لا يبالي ما صنع .

كَأَنَّ فِجَاجَهَا فَقَدَتْ حَبِيباً   فَصَيَّرتِ الظلامَ لَهَا حِدَادَا

والأبيات التي يقول فيها :

وَأَسْوَدَ لَمْ تَعْرِفْ لَهُ الإِنْسُ وَالِداً   كَسَانِيَ مِنْهُ جُلَّةً وَخِمَارَا[١]

والأبيات التي يقول فيها :

كَأَنَّما هِيَ إِذْ لاَحَتْ كَوَاكِبُهَا
خَوْدٌ مِنَ الزَّنْجِ تُجْلَى وُشِّحَتْ خَضَضَا[٢]

والأبيات التي يقول فيها :

كَأَنَّ الدُّجَى نُوقٌ عَرِقْنَ مِنَ الوَنَى   وَأَنْجُمُهَا فِيهَا قَلاَئِدُ مِنْ وَدْعِ[٣]

والأبيات التي يقول فيها :

وَلَيْلٍ كَذِئْبِ القَفْرِ مَكْراً وَحِيلَةً   أَطَلَّ عَلَى سَفْرٍ بِحُلَّةِ أَدْرَعِ[٤]

والأبيات التي يقول فيها :

وَكُنَّ يَرَيْنَ نَارَ الزَّنْدِ فِيهِ   فَلَمْ يُبْصِرْنَ إِذْ وَرَتِ الزِّنَادُ[٥]

---

(١) شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٦٢٢ وفيه : « لم يعرف » .
(٢) شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٦٥٧ .
(٣) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١٣٦٣ .
(٤) شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٥٦٠ . وفيها : « كذئب الغبر » .
وحلة أدرع : من قولهم : ليلة درعاء إذا اسود أولها وابيض آخرها بالقمر .
(٥) الشروح : ق ١ ص ٣١٣ .

والأبيات التي يقول فيها :

حَنَادِسُ تُغشِي المَوْتَ لَوْلا انْجِيابُهَا
عَنِ المَرْءِ مَا هَمّ الرّدَى بِاخْتِرَامِهِ (١)

النجوم :

ووصف النجوم في مواطن ، منها قوله :

كَأَنّها سِرْبُ حَمَامٍ وَاقِعٍ   في شَبَكٍ مِنَ الظَّلاَمِ تَنْتَزِي (٢)

ومنها قوله :

وَكَأَنّ الهِلاَلَ يَهْوَى الثُّرَيّا   فَهُمَا لِلْوَدَاعِ مُعْتَنِقَانِ (٣)
وَسُهَيْلٌ كَوَجْنَةِ الحِبّ فِي اللّوْ   نِ وَقَلْبِ المُحِبّ فِي الخَفَقَانِ

ومنها قوله :

وَلَيْلَةٍ بِتُّ فِيها وَابنُ مُزْنَتِهَا   كَمَيِّتٍ عادَ حَيّاً بَعْدَ مَا قُبِضَا (٤)

ومنها قوله :

كَأَنّ الثُّرَيّا وَالصَّباحُ يَرُوعُهَا   أَخُو سَقْطَةٍ أَوْ ظَالِعٌ مُتَحَامِلُ (٥)

ومنها قوله :

يُلاَمُ سُهَيْلٌ تَحْتَهُ مِنْ سَآمَةٍ   وَيُنْعَتُ فِيهِ الزِّبْرِقَانُ بِأَسْلَعِ (٦)

---

(١) شروح سقط الزند : ق ٢ ٥٠٠ .
(٢) شروح سقط الزند : ق ١ ص ٤١٧ . وفيها : « ... ينتزي » .
(٣) الشروح : ق ١ ص ٤٣٠ ، ٤٣٣ .
(٤) شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٦٥٧ وفيها : « وليلة سرت » .
(٥) شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٥١٧ .
(٦) شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٥٦٢

وصف الهلال :

ووصف الهلال في مواضع متعددة من شعره ، منها الأبيات التي يقول فيها :

فَصِيمٌ نِصْفُهُ في المَاء بَادٍ وَنِصْفٌ في السَّمَاءِ بِهِ تُزَانُ (١)

وقوله :

وَلاَحَ هِلاَلٌ مِثْلُ نُونٍ أَجادَهَا
بِجاري النُّضَارِ الكَاتِبُ ابنُ هِلاَلِ (٢)

ووصف **البرق** في مواطن منها قوله :

إِذَا مَا اهْتَاجَ أَحْمَرَ مُسْتَطِيراً حَسِبْتَ اللَّيْلَ زِنْجِيّاً جَرِيحَا (٣)

وقوله :

مِثْلُ السُّيوفِ هَزَّهُنَّ عَارِضٌ وَالسَّيفُ لاَ يَرُوعُ إِنْ لَمْ يُهْزَزِ (٤)

وقوله :

أَبِيْلِي كَمَا قَصَّ الغُرَابُ خِلاَلَهُ بَرْقٌ يُرَنِّقُ دَأْبَ نَسْرٍ حَائِمِ (٥)

وصف الطبيعة :

ووصف الطبيعة وصفاً متعدداً في كثير من القصائد ، منها قوله في الأرض :

---

(١) شروح سقط الزند : ق ١ ص ٢١١ .

(٢) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١١٩٧ .

(٣) شروح سقط الزند : ق ١ ص ٢٤٠ .

(٤) شروح سقط الزند : ق ١ ص ٤١٥ .

(٥) شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٥٢٢ .

وَالخِلُّ كَالمَاءِ يُبْدِي لِي ضَمَائِرَهُ مَعَ الصَّفَاءِ وَيُخْفِيهَا مَعَ الكَدَرِ

. . . .

وَاُفْتُمْ فِي اخْتِلافٍ مِنْ زَمَانِكُمُ
وَالبَدْرُ فِي الوَهْنِ مِثْلُ البَدْرِ فِي السَّحَرِ

. . . .

فَالعَيْنُ يَسْلَمُ مِنْهَا مَارَأَتْ فَنَبَتْ عَنْهُ وَتَلْحَقُ مَا تَهْوَى مِنَ الصُّوَرِ

. . . .

مَاجَتْ نُمَيرٌ فَهَاجَتْ مِنْكَ ذَا لِبَدٍ وَاللَّيْثُ أَفْتَكُ أَفْعَالاً مِنَ النَّمِرِ

. . . .

والنجمُ تَسْتَصْغِرُ الأَبْصَارُ رُؤْيَتَهُ[1]
وَالذَّنْبُ لِلطَّرْفِ لا لِلنَّجْمِ فِي الصِّغَرِ

. . . .

وَالمَرْءُ مَا لَمْ تُفِدْ نَفْعاً إِقَامَتُهُ
غَيْمٌ حَمَى الشَّمْسَ لَمْ يُمْطِرْ وَلَمْ يَسِرِ

. . . .

أَفْنَى قُوَاهَا قَلِيلُ السَّيْرِ تُدْمِنُهُ وَالغَمْرُ يُفْنِيهِ طُولُ الغَرْفِ بِالغُمَرِ

. . . .

والكِبْرُ وَالحَمْدُ[2] ضِدَّانِ اتِّفَاقُهُمَا مِثْلُ اتِّفَاقِ فَتَاءِ السِّنِّ وَالكِبَرِ

. . . .

---

(١) في العروح : ق ١ ص ١٦٢ : الأبصار صورته .
(٢) في العروح : والحمد والكبر .

خَفَّ الوَرَى وَأَقَرَّ تكُمْ حُلومُكمُ وَالجمرُ تُعدَمُ[١] فيه خِفَّةُ الشَّرَرِ

. . .

وَعيشَتِي الشَّبَابُ وَليسَ مِنْها صِبَايَ وَلاَ ذَوا ثِيَمِ الهِجَانُ[٢]

وكالنَّارِ الحيَاةُ فَمِنْ رَمَادٍ أَوَاخِرُهَا وأَوَّلُهَــا دُخَانُ

. . . .

وَلَوْ طَرِبَ الجَمَادُ لَكانَ أَوْلَى شُروبِ الرَّاحِ بالطَّرَبِ الدِّنَانُ

. . . .

وَسَائِلْ مَنْ تَنَطَّسَ في التَّوَقِّي لِأَيَّةِ عِلَّةٍ مَاتَ الجَبَانُ

. . . .

وَيُعْدَمُ عِنْدَهُ في الجودِ مَطْلٌ وَمَفْقُودٌ مَعَ العُتْقِ الحِرَانُ[٣]

. .

وَمَا لِلمِسْكِ في أَنْ فَاحَ حَظٌّ وَلَكِنْ حَظُّنَا في أَنْ يَفُوحَا[٤]

. . .

سَفَاهٌ ذَادَ عنكَ النَّاسَ حِلْمٌ وَغَيٌّ فِيهِ مَنْفَعَةٌ رَشَادُ[٥]

. . . .

فَأَطْعِمُهَا لأَجْعَلَهَا طَعَامِي[٦] وَرُبَّ قَطِيعَةٍ جَلَبَ الوِدَادُ

. . .

---

(١) في الشروح : « والجمر يعدم . . » .

(٢) القصيدة في الشروح : ق ١ ص ١٧٢ ـ ٢٢٣ .

(٣) في الشروح : « ومعدوم مع العتق . » .

(٤) شروح سقط الزند : ق ١ ص ٢٦٩

(٥) القصيدة في الشروح : ق ١ ص ٢٨١ ـ ٣٢٦ .

(٦) في الشروح : « طعاماً » .

وَالخِلُّ كَالمَاءِ يُبْدِي لِي ضَمَائِرَهُ مَعَ الصَّفَاءِ وَيُخْفِيهَا مَعَ الكَدَرِ

. . . .

وَاُفْتُتِنْتُمْ في اخْتِلافِ مِنْ زَمَانِكُمُ
وَالبَدْرُ في الوَهْنِ مِثْلُ البَدْرِ في السَّحَرِ

. . . .

فَالعَيْنُ يَسْلَمُ مِنْهَا مَارَأَتْ فَنَبَتْ عَنْهُ وَتَلْحَقُ مَا تَهْوَى مِنَ الصُّوَرِ

. . . .

مَاجَتْ نُمَيْرُ فَهَاجَتْ مِنْكَ ذَا لِبَدٍ وَاللَّيْثُ أَفْتَكُ أَفْعَالاً مِنَ النَّمِرِ

. . . .

والنجمُ تستصغرُ الأبصَــارُ رُؤْيَتَه[1]
وَالذَّنْبُ للطَّرْفِ لا لِلنَّجْمِ في الصِّغَرِ

. . . .

وَالمَرْءُ مَا لَمْ تُفِدْ نَفْعــاً إِقَامَتُهُ
غَيْمٌ حَمَى الشَّمْسَ لَمْ يُمْطِرْ وَلَمْ يَسِرِ

. . . .

أَفْنَى قُوَاهَا قَلِيلُ السَّيْرِ تُدْمِنُهُ وَالغَمْرُ يُفْنِيهِ طُولُ الغَرْفِ بِالغُمَرِ

. . . .

والكِبْرُ وَالحَمْدُ[2] ضِدَّانِ اتِّفَاقُهُمَا مِثْلُ اتِّفَاقِ فَتَاءِ السِّنِّ وَالكِبَرِ

. . . .

---

(١) في العروج : ق ١ ص ١٦٢ : الأبصار صورته .
(٢) في العروج : والحمد والكبر .

خَفَّ الوَرَى وأَقَرَّتكُمْ حُلومُكمُ ... والجمرُ تُعدَمُ[١] فيهِ خِفَّةُ الشَّرَرِ

. . .

وَعيشَتِي الشَّبَابُ وَليسَ مِنْها ... صِبايَ وَلاَ ذَوا ثِبيَ الهِجَانُ[٢]
وكالنّارِ الحيَاةُ فَمِنْ رَمَادٍ ... أَوَاخِرُها وأَوَّلُها دُخَانُ

. . . .

وَلَوْ طَرِبَ الجَمادُ لكانَ أَوْلَى ... شُرُوبِ الرَّاحِ بالطَّرَبِ الدِّنانُ

. . . .

وَسَائِلْ مَنْ تَنَطَّسَ في التَّوَقِّي ... لأَيَّةِ عِلَّةٍ مَاتَ الجَبَانُ

. . . .

وَيُعْدَمُ عِنْدَهُ في الجودِ مَضَلٌّ ... وَمَفقُودٌ مَعَ العُتْقِ الحِرَانُ[٣]

. .

وَمَا لِلمِسْكِ في أنْ فَاحَ حَظٌّ ... وَلكِنْ حَظُّنَا في أنْ يَفُوحا[٤]

. . .

سَفَاهٌ ذَادَ عنكَ النّاسَ حِلمٌ ... وَغَيٌّ فِيهِ مَنْفَعَةٌ رَشَادُ[٥]

. . . .

فَأُطعِمُها لأَجْعَلَها طَعَامي[٦] ... وَرُبَّ قَطِيعَةٍ جَلَبَ الوِدَادُ

. . .

---

(١) في الشروح : « والجمر يعدم . . » .
(٢) القصيدة في الشروح : ق ١ ص ١٧٢ ـ ٢٢٣ .
(٣) في الشروح : « ومعدوم مع العتق . » .
(٤) شروح سقط الزند : ق ١ ص ٢٦٩
(٥) القصيدة في الشروح : ق ١ ص ٢٨١ ـ ٣٢٦ .
(٦) في الشروح : « طعاماً » .

ثَلاَثَةُ أَيامٍ هي الدَّهرُ كُلُّهُ

وَمَا هُنَّ غيرُ الأمسِ واليَوْمِ والغَدِ[١]

. . . .

فَلاَ تَحسَبِ الأَقمارَ خلقاً كَثِيرةً فَجُملَتُها مِنْ نَيِّرٍ مُتَرَدِّدِ

. . . .

وَقَدْ يُجتَدَى فضْلُ الغَمَامِ وَإِنَّما

مِنَ البَحْرِ فيمَا يَزعُمُ الناسُ يَجتَدِي

وَيَهدِي الدَّليلُ القومَ واللَّيْلُ مُظْلِمٌ

وَلَكِنَّهُ بالنجمِ يَهدِي وَيَهتَدِي

. . .

كَذاكَ اللَّيالي لاَ يَجُدْنَ بِمَطْلَبٍ لِخَلْقٍ وَلاَ يُبقِينَ شَيئاً عَلَى عَهْدِ[٢]

. . .

رُبَّ لَيْلٍ كَأَنَّهُ الصُّبحُ في الحُسْـنِ وَإنْ كَانَ أَسْوَدَ الطَّيلَسَانِ[٣]

. . . .

كَمْ أَرَدْنا ذَاكَ الزَّمانَ بِمَدْحٍ فَشُغِلْنَا بِذَمِّ هَذَا الزَّمَانِ

. . .

---

(١) شروح سقط الزند: ق١ ص ٣٥٠ــ٣٨٩ . وفي الشروح: خلق، بالرفع على أنها فاعل تحسب .

(٢) شروح سقط الزند : ق ١ ص ٣٩١ .

(٣) البيتان من قصيدة في الشروح : ق ١ ص ٤٢٦ ، ٤٢٨ .

إذا أنتَ أُعطِيتَ السَّعادةَ لم تُبَلْ ... وإنْ نَظَرَتْ شَزْراً إليكَ القَبائلُ (١)

الى آخر الأبيات في هذه القصيدة .

. . .

أرَى العَنْقَاءَ تَكْبُرُ أنْ تُصَادَا ... فَعَانِدْ مَنْ تُطِيقُ لَهُ عِنَادَا (٢)

. . . .

إذَا مَا النَّارُ لَمْ تَطْعَمْ ضِرَاماً ... فَأوْشِكْ أنْ تَمُرَّ بِهَا رَمَادَا

فَظُنَّ بِسَائِرِ الإخْوَانِ شَرّاً ... وَلاَ تَأمَنْ عَلَى سِرٍّ فُؤَادَا

. . . .

فأيُّ الناسِ أجْعَلُهُ صَدِيقاً ... وَأيُّ الأرْضِ أسْلُكُهُ ارْتِيَادَا

وَلَوْ أنَّ النُّجُومَ لَدَيَّ مَالٌ ... نَفَتْ كَفَّايَ أكْثَرَهَا انْتِقَادَا

. . .

وَقَدْ تَنْطِقُ الأشْيَاءُ وَهْيَ صَوَامِتٌ ... وَمَا كُلُّ نُطْقِ المُخْبِرِينَ كَلاَمُ (٣)

. . . .

وَحُبُّ الفَتَى طُولَ الحَيَاةِ يُذِلُّهُ ... وَإنْ كَانَ فِيهِ نَخْوَةٌ وَعُرَامُ

وكُلٌّ يُرِيدُ العَيْشَ والعَيْشُ حَتْفُهُ ... وَيَسْتَعْذِبُ اللَّذَّاتِ وَهْيَ سِمَامُ

. . .

---

(١) شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٥٤٨ وما بعدها .

(٢) القصيدة في الشروح : ق ٢ ص ٥٠٣ وما بعدها .

(٣) شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٦٠٧ وما بعدها .

إِذَا الفَتَى ذَمَّ عَيشاً في شَبِيبَتِهِ   فَمَا يَقُولُ إِذَا عَصْرُ الشَّبَابِ مَضَى [(١)]
وَقَدْ تَعَوَّضْتُ عَنْ كُلٍّ بِمُشْبِهِهِ   فَمَا وَجَدْتُ لِأَيَّامِ الصِّبَاءِ عِوَضَا

. . . .

جَرَّبْتُ دَهْرِي وَأَهْلِيهِ فَمَا تَرَكَتْ
لِيَ التَّجَارِبُ فِي وُدِّ امْرِىءٍ غَرَضَا

. . .

فَرُبَّمَا ضَرَّ خِلٌّ نَافِعٌ أَبَداً
كَالرِّيقِ يَحْدُثُ مِنْهُ عَارِضُ الشَّرَقِ [(٢)]

. . . .

فَإِنْ تَوَافَقَ فِي مَعْنًى بَنُو زَمَنٍ   فَإِنَّ جُلَّ الْمَعَانِي غَيْرُ مُتَّفِقِ
قَدْ يَبْعُدُ الشَّيْءُ مِنْ شَيْءٍ يُشَابِهُهُ   إِنَّ السَّمَاءَ نَظِيرُ المَاءِ فِي الزَّرَقِ

. . .

وَالنَّفْسُ تَحْيَا بِإِعْطَاءِ الهَوَاءِ لَهَا   مِنْهُ بِمِقْدَارِ مَا أَعْطَتْهُ مِنْ نَفَسِ [(٣)]

. . . .

وَلَا يُفِيدُونَ نَفْعاً فِي كَلَامِهِمُ   وَهَلْ تُفِيدُكَ مَعْنًى نَغْمَةُ الجَرَسِ

. . .

---

(١) القصيدة في الشروح : ق ٢ ص ٦٥٤ وما بعدها .
(٢) شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٦٨٧ وما بعدها ، وفيها : يحدث عنه .
(٣) شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٦٨٩ وما بعدها .

وَالنَّحْلُ مَا عَكَفَتْ عَلَيْهِ طَيْرُهُ ... إِلاَّ لِمَا عَلِمَتْهُ مِنْ أَرْطَابِهِ [١]

. . . .

وَالنَّحْلُ يَجْنِي الْمُرَّ مِنْ نَوْرِ الرُّبَى ... فَيَعُودُ شُهْداً فِي طَرِيقِ رُضَابِهِ

. . . .

وَالسَّمْهَرِيَّةُ لَيْسَ يَشْرُفُ قَدْرُهَا ... حَتَّى يُسَافِرَ لَدْنُهَا عَنْ غَابِهِ

وَالعَضْبُ لاَ يَشْفِي امْرَءاً مِنْ ثَأْرِهِ ... إِلاَّ بِفَقْدِ نِجَادِهِ وَقِرَابِهِ

. . . .

عُرِفَتْ جُدُودُكَ إِذْ نَطَقْتَ وَطَالَمَا ... لَغَطَ القَطَا فَأَبَانَ عَنْ أَنْسَابِهِ

. . .

إِنَّ البَخِيلَ إِذَا يُمَدُّ لَهُ المَدَى ... فِي الجُودِ هَانَ عَلَيْهِ وَعْدُ السَّائِلِ [٢]

. . .

لاَ وَضْعَ لِلرَّحْلِ إِلاَّ بَعْدَ إِيضَاعِ

فَكَيْفَ شَاهَدْتِ إِمْضَائِي وَإِزْمَاعِي [٣]

. . .

هَلْ أَنْتِ إِلاَّ بَعْضُهُنَّ وَإِنَّمَا ... خَيْرُ الحَيَاةِ وَشَرُّهَا أَرْزَاقُ [٤]

. . .

---

(١) شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٧١٩ .

(٢) شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٧٣٣ .

(٣) شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٧٤١ .

(٤) المصدر السابق ص ٧٦٥ .

وَلَيسَ يُزَادُ فِي رِزْقٍ حَرِيصٌ وَلَوْ رَكِبَ العَوَاصِفَ كَيْ يُزَادَا[1]

. . . .

وَلَوْ أنَّ السَّحَابَ هَمَى بِعَقْلٍ لَمَا أرْوَى مَعَ النَّخْلِ القَتَادَا
وَلَوْ أعْطَى عَلَى قَدْرِ المَعَالِي سَقَى الهَضَبَاتِ وَاجْتَنَبَ الوِهَادَا

. . . .

وَمِثْلُكَ للأصَادِقِ مُسْتَقِيدٌ وَشَرُّ الخَيْلِ أصْعَبُهَا قِيَادَا

. . .

وَلَنْ يُحْوَى الثَّنَاءُ بِغَيْرِ جُودٍ وَهَلْ تُجْنَى مِنَ اليَبَسِ الثِّمَارُ[2]
وَلَمْ تَلْفِظْكَ حَضْرَتُهُ لِزُهْدٍ وَلَكِنْ ضَاقَ عَنْ أسدٍ وِجَارُ

. . . .

وَلِلْمَاءِ الفَضِيلَةُ كُلَّ وَقْتٍ[3] وَلاَ سِيَمَا إذَا اشْتَدَّ الاوَارُ

. . . .

وَلَيسَ يَزِيدُ فِي جَرْيِ المَذَاكِي رِكَابٌ فَوْقَهُ ذَهَبٌ نُمَارُ
وَرُبَّ مُطَوَّقٍ بِالتِّبْرِ يَكْبُو بِفَارِسِهِ وَلِلرَّهَجِ اعْتِكَارُ
وَزَنْدٍ عَاطِلٍ يَحْظَى بِمَدْحٍ وَيُحْرَمُهُ الذي فِيهِ السِّوَارُ

. . .

(١) شروح سقط الزند ص ٨٠٢ وما بعدها .
(٢) المصدر السابق : ق ٢ ص ٨١٣ وما بعدها .
(٣) في الشروح : « كل حين » .

فَالنَّفْسُ تَبْغِي الْحَيَاةَ جَاهِدَةً　　وَفِي يَمِينِ الْمَلِيكِ مِقْوَدُهَا[1]

فَلاَ اقْتِحَامُ الشُّجَاعِ مُهْلِكُهَا　　وَلاَ تَوَقِّي الْجَبَانِ مُخْلِدُهَا

لِكُلِّ نَفْسٍ مِنَ الرَّدَى سَبَبٌ　　لاَ يَوْمُهَا بَعْدَهُ وَلاَ غَدُهَا

. . .

مَا أَنْتَ فِي عِدَّةِ مَنْ يُتَّقَى　　بَلْ أَنْتَ فِي عِدَّةِ مَنْ يُرْحَمُ[2]

وَالقَوْمُ كَالأَنْعَامِ إِنْ عُوتِبُوا　　تَسْمَعُ مَا قِيلَ وَلاَ تَفْهَمُ

. . .

وَالعِيسُ أَقْتَلُ مَا يَكُونُ لَهَا الصَّدَى　　وَالمَاءُ فَوْقَ ظُهُورِهَا مَحْمُولُ[3]

. . .

إِذَا غُيِّبَ الْمَرْءُ اسْتَسَرَّ حَدِيثُهُ　　وَلَمْ تُخْبِرِ الأَفْكَارُ عَنْهُ بِمَا يُغْنِي[4]

. . . .

وَخَوْفُ الرَّدَى آوَى إِلَى الكَهْفِ أَهْلَهُ
وَكَلَّفَ نُوحاً وَابْنَهُ عَمَلَ السُّفْنِ

. . .

رُبَّ لَحْدٍ قَدْ صَارَ لَحْداً مِرَاراً　　ضَاحِكٍ مِنْ تَزَاحُمِ الأَضْدَادِ[5]

. . . .

---

(١) شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٨٢٧ وما بعدها .
(٢) شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٨٦١ .
(٣) المصدر السابق ص ٨٨٠ .
(٤) المصدر السابق ص ٩١٦ وما بعدها .
(٥) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ٩٧٦ وما بعدها .

تَعَبُ كُلُّهَا الحَيَاةُ فَمَا أعْـــجَبُ إلاّ مِنْ رَاغِبٍ في ازْدِيَادِ
إنّ حُزْناً في سَاعَةِ المَوْتِ أضْعَا فُ سُرُورٍ في سَاعَةِ المِيلادِ

. . . .

زُحَلٌ أشْرَفُ الكَوَاكِبِ دَاراً مِنْ لِقَاءِ الرّدَى عَلَى مِيعَادِ

. . . .

كُلُّ بَيْتٍ لِلْهَدْمِ مَا تَبْتَنِي الوَرْ قَاءُ وَالسّيّدُ الرّفِيعُ العِمَادِ

. . .

وَالشّيْءُ لاَ يَكْثُرُ مُدّاحُهُ إلا إذَا قِيسَ إلى ضِدّهِ [1]

. . . .

لَيْسَ الذِي يُبْكَى عَلَى وَصْلِهِ مِثْلَ الذي يُبْكَى عَلَى فقْدِهِ [2]

. . . .

إنْ لَمْ يَكُنْ رُشْدُ الفَتَى نَافِعاً فَغَيُّهُ أنْفَــعُ مِنْ رُشْدِهِ

. . . .

لو عَرَفَ الإنْسَانُ مِقْدَارَهُ لَم يَفْخَرِ المَوْلَى على عَبْدِهِ

. . . .

أفضَلُ مَا في النفسِ يَغْتَالُهَا فَنَسْتَعِيذُ اللهَ مِنْ جُنْدِهِ
وَآفَــةُ العَاشِقِ مِنْ طَرْفِهِ وَآفَةُ الصّارمِ مِنْ حَــدّهِ
كَمْ صَائِنٍ عَنْ قُبْلَةٍ خَدّهُ سُلّطَتِ الأرْضُ عَلَى خَدّهِ

. . .

(١) المصدر السابق ص ١٠٠٨ وما بعدها .
(٢) في العروج : « . . على صده » .

لاَ بُدَّ للحَسْناء مِنْ ذَامٍ وَلا ذَامٌ لِنَفْسِي غَيرَ سَيِّيءِ بَخْتِهَا (١)

. . .

وَلاَ بُدَّ للإِنْسَانِ مِنْ سُكْرِ سَاعَةٍ تَهُونُ عَلَيْهِ غَيرَهَا السَّكَرَاتُ (٢)
ألا إنَّما الأَيامُ أبنَاءُ وَاحِدٍ وَهَذي اللَّيالي كُلُّهَا أخَواتُ
فَلاَ تَطلُبَنْ مِنْ عِنْدِ يَومٍ وَلَيلَةٍ خِلاَفَ الذي مَرَّتْ بِهِ السَّنَوَاتُ

. . .

وَكَيفَ يَجُرُّ الجيشَ يَطلُبُ غارَةً أسيرٌ لِمَجْرورِ الذُّيولِ كَحِيلِ (٣)

. . .

فَإنَّ أبا الأَشْبَالِ يَخْشَاهُ مِثْلُهُ وَيأمَنُ مِنْهُ آرِضٌ وَنِمَالُ (٤)

. . .

لأَمرٍ أُحِلَّ الزُّجُّ في عَقِبِ القَنَا وَرُفِّعَتِ الخِرْصَانُ فَوقَ العَوَامِلِ (٥)

. . . .

وَمَنْ كَانَ يَستَدْعِي الجَمَالَ بِحِلْيَةٍ أضَرَّ بِهِ فَقْدُ البُرَى وَالمَرَاسِلِ

. . . .

فَلَيتَ اللَّيالي سَامَحَتْني بِنَاظِرٍ يَرَاكَ وَمَنْ لي بالضُّحَى في الأَصَائِلِ

. . .

---

(١) انظر ما سبق ص ١٠٨٥ .
(٢) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١٠٣٨ .
(٣) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١٠٤٥ .
(٤) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١٠٦٤ .
(٥) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١٠٧٣ ، ١٠٨٢ ، ١٠٨٤ .

رُدِّي كَلاَمَكِ مَا أَمْلَلْتِ مُسْتَمِعاً ... وَهَلْ يُمَلُّ مِنَ الأَنْفَاسِ تَرْدِيدُ [١]

. . .

فَيَا دَارَهَا بِالْحَزْنِ إِنَّ مَزَارَهَا ... قَرِيبٌ وَلَكِنْ دُونَ ذَلِكَ أَهْوَالُ [٢]

. . . .

سَيَطْلُبُنِي رِزْقِي الذي لَوْ طَلَبْتُهُ ... لَمَا زَادَ وَالدُّنْيَا حُظُوظٌ وَإِقْبَالُ

إِذَا صَدَقَ الْجَدُّ افْتَرَى الْعَمُّ لِلْفَتَى ... مَكَارِمَ لاَ تُكْرِي وَإِنْ كَذَبَ الْخَالُ

. . .

وَالرَّاحُ إِنْ قِيلَ ابْنَةُ الْعِنَبِ اكْتَفَتْ

بِأَبٍ عَنِ الأَسْمَاءِ وَالأَوْصَافِ [٣]

. . .

وَمَنْ يَتَرَقَّبْ صَوْلَةَ الدَّهْرِ يَلْقَهَا

وَشِيكاً وَهَلْ تَرْضَى الأَسَاوِدُ بِالْوَكْعِ [٤]

. . .

تَأَمَّلْنَا الزَّمَانَ فَمَا وَجَدْنَا ... إِلَى طِيبِ الْحَيَاةِ بِهِ سَبِيلاَ [٥]

ذَرِ الدُّنْيَا إِذَا لَمْ تَحْظَ مِنْهَا ... وَكُنْ فِيهَا كَثِيراً أَوْ قَلِيلاَ

---

(١) اللزوميات هـ ص ٩٤ .

(٢) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١٢٢٨ ، ١٢٦١ ، ١٢٦٢ .

(٣) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١٣٠٢ .

(٤) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١٣٤٦ .

(٥) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١٣٧٠ ، ١٣٧١ ، ١٣٨٠ ، ١٣٨٩ .

وَأَصْبِحْ وَاحِدَ الرَّجُلَيْنِ إِمّا مَلِيكاً في المَعَاشِرِ أَوْ أَبِيلاَ

. . . .

أرَى الحيوَانَ مُشْتَبِهَ السجَايا كأَنَّ جميعه عـدِمَ العُقُولاَ

. . . .

وَمَنْ تَعَلَّقْ بِهِ حُمَةُ الأَفَاعِي يَعِشْ إِنْ فَاتَهُ أَجَلٌ عَلِيلاَ

. . .

وَنَحْنُ السَّفْرُ في عُمُرٍ كَمَرْتٍ تَصَافَنَ أَهْلُهُ جُرَعَ الحِمَامِ(١)

. . .

دَعِ الطَّيْرَ فَوْضَى إِنَما هِيَ كُلُّهَا طَوَالِبُ رِزْقٍ لاتَجِيءُ بِمُقْطَعِ(٢)

. . . .

أَلَمْ يأتِكُمْ أني تَفَرَّدتُ بَعْـدَكُمْ
عَنِ الإِنْسِ مَنْ يَشْرَبْ مِنَ العِدِّ يَنْقَعِ

. . .

وَالموْتُ أَحسَنُ بالنَّفْسِ التي أَلِفَتْ عِزَّ القَنَاعَةِ مِنْ أَنْ تَسْأَلَ القوتَا(٣)

. . .

وَلاَ خَيْرَ فِيمَنْ لَيسَ يَبْسُطُ شُكْرَهُ
عَلَى القَوْلِ إِنَّ الخَيْرَ نَاقَتُهُ بِسْطُ(٤)

. . .

(١) انظر ما سبق ص ١٠٩٠.
(٢) شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٥٣٠ ، ١٥٨٨ .
(٣) شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٦١٠ .
(٤) شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٦٩٥ .

وَحبلُ الشمسِ مُذْ خُلِقَتْ ضَعِيفٌ ... وَكَمْ فَنِيَتْ بِقُوَّتِهِ حِبَالُ (١)

. . . .

وَيُلفَى المرءُ في الدُّنيا صَحِيحاً ... كَحَرْفٍ لا يُفَارِقُهُ اعْتِلاَلُ

. . . .

وَهَلْ يَثِقُ الفَتَى بِنَمَاءِ وَفْرٍ ... إذَا لَمْ تَتْلُ أيْنُقَهُ فِصَالُ

وَأوَّلُ مَا يَكُونُ الليثُ شِبلٌ ... وَمَبْدَأُ طَلْعَةِ البَدْرِ الهِلاَلُ

• • •

فَلاَ تَحْسَبُوا دَمْعي لِوَجْدٍ وَجَدْتُهُ ... فَقَدْ تَدْمَعُ الأحداقُ مِنْ كَثْرَةِ الضَّحْكِ (٢)

• • •

قَبُولُ الهَدَايَا سُنَّةٌ مُسْتَحَبَّةٌ ... إذَا هِيَ لَمْ تَسْلُكْ طَرِيقَ تَحابِ (٣)

• • •

وَكَانَ العَارُ مِثْلَ الحَتْفِ يَأتي ... عَلَى نأيِ المَنَازِلِ وَالخِلاَجِ (٤)

فإنَّ (٥) بَني نُوَيْرَةَ أدْرَكَتْهُمْ ... مَسَبَّتُهُمْ بِعَبْدِ أبي سُوَاجِ

• • •

(١) شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٦٩٨ ، ١٧٠٠ ، ١٧١٨ .

(٢) شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٧٢٤ .

(٣) شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٧٣٢ .

(٤) شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٧٨٣ .

(٥) في الشروح : « كأن . . » .

أُبلُّ مِنَ الأمراضِ والعِلْمُ واقعٌ ... بِعِلَّةِ يومٍ جانَبَتْ كلَّ إبلالِ (١)

. . . .

ومَنْ سَرَّهُ ثوبٌ يَعِزُّ بِلُبْسِهِ ... فلا تَجْرِ مِنْهُ أُمُّ دَفْرٍ على بالِ

. . . .

بَنُو الوقتِ إنْ غَرُّوكَ مِنْهُمْ بِحِكْمَةٍ ... فَمَا خَلْفَهَا إلاَّ غَرَائِزُ جُهَّالِ

. . .

ولا يُعْجِزُ الأيَّامَ أخضعُ واحدٌ ... ولا أهلُ عِزٍّ كُلُّهُمْ مُتَشَاوِسُ (٢)

. . .

والشَّمْسُ عِنْدَ شُرُوقِهَا ... عَلِمَ اللَّبيبُ زَوَالَهَا (٣)

. . .

وفَضِيلَةُ النَّوْمِ الخُرُوجُ بِأَهْلِهِ ... عَنْ عَالَمٍ هُوَ بالأذَى مَجْبُولُ (٤)

. . .

إلى اللهِ أشكو أنَّني كُلَّ لَيْلَةٍ ... إذا نِمْتُ لَمْ أعْدَمْ طَوَارِقَ أوْهَامِ (٥)

فإنْ (٦) كانَ شَرًّا فهوَ لا بُدَّ واقعٌ ... وإنْ كانَ خَيْرًا فهوَ أضغاثُ أحلامِ

فهذه الأبيات مائة وثلاثة وعشرون بيتاً من أبيات (سقط الزند)(٧) المشتملة على حكمة ، ومنها ما هو صالح للمثل ، وفي السقط كثير غيرها .

---

(١) شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٨٧٩ ، ١٨٨٠ .
(٢) شروح سقط الزند : ق ٥ ص ٢٠١٢ .
(٣) شروح سقط الزند : ق ٥ ص ٢٠٦١ .
(٤) شروح سقط الزند : ق ٥ ص ٢٠٦٦ .
(٥) شروح سقط الزند : ق ٥ ص ٢٠٧٠ وفيها : « خواطر أوهامي » .
(٦) في الشروح : « وإن . . . » .
(٧) الحق أن واحداً منها هو من اللزوميات . انظر ما سبق ص ١١٢٨ الحاشية ١ .

الأغراض التي في السقط غير ما ذكر

وفي (السقط) أبيات تتعلق بأغراض غير ما ذكرناها ، كذم الدنيا ، والتحذير منها ، والتزهيد فيها ، وتقلبها من حال إلى حال ، كقوله :

أَرَى أُمَّ دَفْرٍ أُخْتَ هَجْرٍ وَلاَ أَرَى ... لَهَا سَالِياً مَا غَيَّبَتْهُ الرَّوَامِسُ [١]

وكقوله :

دُنْيَاكَ تَحْدُو بِالْمُسَافِرِ وَالْمُقِيمِ جِمَالَهَا [٢]

وكذم المرأة ، والتحذير منها ؛ كقوله من أبيات :

وَتَوَقَّ أَمْرَ الْغَانِيَاتِ فَإِنَّهُ ... أَمْرٌ إِذَا خَالَفْتَهُ لَمْ تَنْدَمِ [٣]

وقوله من أبيات يصف فيها النساء اللاتي يؤلفن بين الخاطب والمخطوبة ، وعددها واحد وعشرون بيتاً [٤] :

فَحِنَّ إِلَى الْمَكَارِمِ وَالْمَعَالِي ... وَلاَ تُثْقِلْ مَطَاكَ بِعِبْءِ حَنَّهْ

وكذم الناس ، والابتعاد عنهم ، وفشو الجهل فيهم ، وقلبهم للحقائق ، وإساءة الظن بهم جميعا وكذم الخمر ، والتحذير منها في مثل قوله :

فَإِيَّاكَ وَالْكَأْسَ الَّتِي بِتَّ نَاعِتاً ... فَمَا شُرْبُهَا إِلاَّ السَّفَاهَةُ وَالإِثْمُ [٥]

---

(١) شروح سقط الزند : ق ٥ ص ٢٠١١ .

(٢) شروح سقط الزند : ق ٥ ص ٢٠٥٩ .

(٣) شروح سقط الزند : ق ١ ص ٣٢٧ .

(٤) مطلعها :

عليك السابغات فانهن ... يدافعن الصوارم والأسنه

انظر شروح سقط الزند : ق ٥ ص ٢٠٤١ ـ ٢٠٤٧ .

(٥) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١١٥٤ .

وكعدم اعتقاده بالطيرة في مثل قوله :

دَعِ الطَّيْرَ فَوضَى إنما هِيَ كُلُّها   طَوالِبُ رِزْقٍ لا تجيءُ بِمُفْظِعِ[1]

وقوله :

وَلَيْسَ غِرْبَاني بِمَزْجُورَةٍ   مَا أنا مِنْ ذِي الخِفَّةِ الأَسْحَمِ[2]

وكوصفه الحروب والفتن التي قامت في الشام بين الفرات والنيل ، وقد أشار اليها في مواطن منها قوله :

وَلاَ فِتْنَةٌ طَائِيَّةٌ عَامِرِيَّةٌ   يُحَرَّقُ في نِيرَانِهَا الجَعْدُ والسَّبْطُ[3]

وَقَدْ طَرَحَتْ حَوْلَ الفُرَاتِ جِرَانَهَا

إلى نِيلِ مِصْرٍ فالوَسَاعُ بِهَا تَقْطُو

وكتشوقه الى بلاده وهو في بغداد ، وحنينه الى بغداد بعد عودته منها .

وكاعتقاده الحشر وما فيه من حساب وجنة ونار وغيرها .

واعتقاده بالله تعالى ، وإقراره بالرسل والملائكة والجن ؛ وبالكتاب العزيز ، وعدم اعتقاده نسبة المطر الى الأنواء في مثل قوله :

وَلَسْتُ بالنَّاسِبِ غَيْثاً هَمَى   إلى السِّمَاكَيْنِ وَلاَ المِرْزَمِ[4]

وكحبه العزلة ، وتذمره من آفات الحياة وطولها .

ونحو ذلك من الأغراض التي تقدمت الإشارة الى كثير منها في أقواله .

---

(١) انظر ما سبق ص ١١٢٩ .

(٢) شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٨٠٩ .

(٣) شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٦٧٥ .

(٤) شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٨٠٨ .

وقد ألمع في كلامه الى كثير من الحوادث التاريخية ، والنكت الأدبية ، في مثل قوله في الدرع :

وَلَوْ أنَّهَا أضْحَتْ لِكَعْبٍ حَقِيبَةً

لأرْوَى الفَتَى النَّمْرِيَّ مِنْ غَيْرِ تَسْآلِ (١)

يشير الى كعب بن مامة الإيادي حين آثر صاحبه النمري بالماء حتى مات عطشاً . وكقوله يصف نساء الأعراب :

لَيْسَتْ كَزَعْمِ جَرِيرٍ بَلْ لَهَا مَسَكٌ

يَرْفَضُّ عَنْهُ ذَكِيُّ المِسْكِ مَفْتُوتَا (٢)

يشير الى قول جرير في هجاء أم البعيث :

تَرَى العَبَسَ الحَوْلِيَّ جَوْناً بِكُوعِهَا

لَهَا مَسَكٌ مِنْ غَيْرِ عَاجٍ وَلاَ ذَبْلِ (٣)

وقد أكثر من هذا النوع في شعره .

وجملة القول : ان أبا العلاء نظم (سقط الزند) في جميع الأغراض التي كان ينظم فيها شعراء عصره ، وزاد عليهم بما ذكرناه مجملا ، لأن تفصيله يفضي الى الإطالة المملة .

---

(١) شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٨٦١ .

(٢) انظر ما سبق ص ١٠٣٩ .

(٣) ديوانه ط الصاوي ، ص ٤٦٣ وفيه : مسكا ، وهي رواية .

خيال أبي العلاء في شعره في سقط الزند :

إذا استمسكنا بعرى الإنصاف ، وسلكنا سبيل الاستقراء العادل ، ظهر لنا أن أبا العلاء أوسع الكتاب والشعراء مدى في الخيال ، وأكثرهم افتناناً فيه . وقد سبق الكلام في خياله في نثره .

أما شعره ففيه كثير من الصور القصيرة الدالة على طول باعه وإبداعه في اختيارها وتنسيقها ، وإن كان فيها مبالغة يحيلها العقل ، وعلى حذقه بتضمين النكت والاشارات الدالة على مدح أو ذم أو غيرهما . وإنك إذا تأملت وصفه الغبار ، رأيته كالجبل الشامخ الرامي باضت فيه النسور ، وترعرعت أفراخها . ثم ارتقى حتى خالط السحاب فكدّر ماءه ؛ وهذا الغبار أثارته خيل أجاد في وصفها وأشار إلى ظفرها بأعدائها ثم قال :

وَبَنَتْ حَوَافِرُهَا قَتَاماً سَاطِعاً ... لَوْلاَ انقِيادُ عِدَاكَ لَمْ يَتَهَدَّمِ (١)
بَاضَ النسُورُ به وَخَيَّمَ مُصْعِداً ... حَتَّى تَرَعْرَعَ فيه فَرخُ القَشْعَمِ
وَسَمَا إِلى حَوْضِ الغَمَامِ فَمَاؤُهُ ... كَدِرٌ بِمُنْهَالِ الغُبَارِ الأَقْتَمِ

وإذا عجت ببصرك على الغور الذي زارته تلك الخيل ، وجدته محفوفاً بالمخاطر لو مرّت به الريح ما نجت من هوله ، بعيد القعر لو نزل عليه مطر في أول الربيع انقضى الربيع ولم يبلغ أرضه . ولبعده لا تظهر فيه الشهب ، وإنما يظهر البدر كالدرهم :

وَمُزِيرِهَا الغَوْرَ الذي لَوْ سَلَّمَتْ ... رِيحٌ عَلَى أَرْجَائِهِ لَمْ تَسْلَمِ (٢)

---

(١) انظر ما سبق ص ١٠٥٠ .

(٢) شروح سقط الزند : ق ١ ص ٣٣١ – ٢ ، وانظر ما سبق ص ١٠٠٨ .
ورواية البيت الثالث في الشروح : « لا تنين به النجوم تانياً . . . » .

أَوْ بَكرَ الوَسْمِيُّ يَطْلُبُ ارْضَهُ نَفِدَ الرَّبِيعُ وَتُرْبُهَا لَمْ يُوسَمِ
لاَ تَستَبِينُ الشهبُ فِيهِ تَنَائِياً وَيَلُوحُ فيهِ البَدْرُ مثلَ الدِّرْهَمِ

وإذا التفت الى الخرق ـ الفلاة الواسعة ـ الذي وصفه وقد أرخى الليل عليه سدوله ، رأيته قاتم الأطراف ، واسع الأكناف ، يخيف ما لا يخاف :

وَلَوْ نَشَدَتْ نَعْشاً هُنَاكَ بَنَاتُــهُ
لَمَاتَتْ وَلَمْ تَسْمَعْ لهُ صَوْتَ مُنْشِدِ [١]
وَتَكْتُمُ فِيهِ العَاصِفاتُ نُفُوسَهَا فَلَوْ عَصَفَتْ بالنبْتِ لَمْ يَتَأَوَّدِ
وَلَمْ يَتَثَبَّتِ القُطْبَانِ فِيهِ تَخَيُّراً وَمَا تِلْكَ إلاَّ وَقْفَةٌ عَنْ تَبَلدِ

وإذا انعمت النظر في منهلٍ وصفه بين ريف الشام والكرخ رأيته قد صور لك أهواله حتى :

كأَنَّ الصَّبَا فيهِ تُرَاقِبُ كَامِناً يَسُورُ إِلَيْهَا مِنْ خِلاَلِ إِكَامِهِ [٢]
يَمُرُّ بِهِ رَادُ الضُحَى مُتَنَكِّراً مَخَافَةَ أن يَغْتَالَهُ بِقَتَامِهِ

ومثل لك من حلكته وظلمته ما لا يمكن أن يمثل بأعظم من قوله :

بِلادٌ يَضِلُّ النَّجمُ فيهَا سَبِيلَهُ وَتَثْنِي دُجَاهَا طَيْفَهَا عَنْ لِمَامِهِ [٣]

---

(١) شروح سقط الزند : ق ١ ص ٣٧٥ ـ ٨ .

(٢) انظر ما سبق ص ١١٠٨ .

(٣) شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٤٩٩ ـ ٥٠١ ، وفيها : ويثني .

حَنَادِسُ تُغشِي المَوتَ لَولاَ انجِيَابُهَا
عَنِ المَرءِ مَا هَمَّ الرَّدَى باختِرَامِهِ
رَجا اللَيلُ فيها أنْ يَدُومَ شبَابُهُ فَلما رَآها شابَ قَبلَ احتِلاَمِهِ

وإذا شخصت ببصرك نحو السماء رأيتَ سهيلا يسرع اللمح في احمرار، مستبداً كأنه الفارس المعلم .. ؛ قدماه وراءه ؛ الى غير ذلك من الصور البديعة الرائعة .

وإذا تأمل المنصف مثل قوله :

وَتَكتُمُ فيهِ العَاصِفَاتُ نُفُوسَهَا . . . .

وقوله :

يمرّ بِهِ رَأدُ الضُّحَى مُتَنَكِّرَاً . . . .

وقوله :

حَنَادِسُ تُغشِي المَوتَ . . . .

وقوله :

وَمِن غَلَلٍ تَحِيدُ الرِّيحُ عَنهُ . . . .

إلى آخر الأبيات وما شاكل ذلك تبين له أن هذا النمط من الكلم هو الموجز المعجز ، ولا يستطيع شاعر غير أبي العلاء أن يجمع ذلك المعنى الكثير والخيال المظم الرائع في مثل هذا اللفظ القليل المنسجم . وقد ذكرنا أمثلة من ذلك في الوصف والمبالغة ، وفي مواطن أخرى .

لزوم ما لا يلزم

نشأته وتدرجه الى عصر ابي العلاء :

أصل هـذا اللفظ اسم لنوع من البديع ، وهو أن يلتزم الشاعر (أو الناثر) حرفاً أو أكثر قبل حرف الروي وهذا ما لا يلزمه ، لأن الشعر يكون صحيحاً جيداً بدونه ، ويقال له : الالتزام ، والإعنات ، والتضييق ، والتشديد ، والتضمين .

نشأته : العصر الجاهلي :

وهذا النوع وجد قبل أبي العلاء ؛ فقد رويت للشنفرى قصيدة قالها حين قَتَل حراماً قاتل أبيه أولها :

أرَى أمَّ عَمْرٍو أزْمَعَتْ فَاسْتَقَلَّتِ　　　وَمَا وَدَّعَتْ جِيرَانَهَا إذْ تَوَلَّتِ

وقد التزم فيها اللام قبل التاء في خمسة عشر بيتاً ، ولكنه لم يلتزمها في القصيدة كلها . وكذلك رويت للنابغة قصيدة التزم فيها النون قبل النون ، ومطلعها :

عَرَفْتُ مُنَازِلاً بِعُرَيْتِنَاتٍ　　　فَأعْلَى الجِزْعِ لِلْحَيِّ الْمُبِنِّ[1]

وهي نحو ثلاثة وعشرين بيتاً . ورويت أبيات للأعشى أولها :

فِدىً لِبَني ذُهْلِ بنِ شَيْبَانَ نَاقَتي　　　وَرَاكِبُهَا يومَ اللِّقَاءِ وَقَلَّتِ

والمذكور منها في ديوانه المطبوع ، سبعه أبيات في (ص ٣٤) .

(١) مختار الشعر الجاهلي ١ / ١٩٩ وفيه : « غشيت منازلاً ... » .

وأبيات لعمرو بن معدي كرب على رويّ أبيات الشنفرى ووزنها ، وفيها يقول :

وَلما رَأَيتُ الخيلَ زُوْراً كأنها ... جداوِلُ زَرْعٍ أُرسلتْ فَاْسبَطَرّتِ

وروى القالي في (أماليه ج ١ ص ٨١) أحد عشر بيتاً أولها :

حلّتْ تُمَاضِرُ غُربةً فَاْحتَلّتِ ... فَلْجاً وَأَهْلُكَ باللِّوَى فالحِلّةِ

التزم فيها اللام قبل التاء ونسبها الى سُلْمِيّ بن ربيعة ونسبها في الأصمعيات إلى علباء .

وربما لزموا اللام أو غيرها من الحروف في مثل : « فعالك وجالك » مع تذكير الكاف أو التأنيث ، كقول أبي الأسود :

زُهيرُ بنُ مسعودٍ أحقُّ بمَا أتى ... وأنتَ بمَا تأتي حَقِيقٌ بذلِكا

وَخبّرني مَنْ كنتُ أرْسلْتُ إِنّمَا ... أخَذتَ كتابي مُعْرِضاً بِشِمَالكَا

وقد لزم اللام قبل الكاف . وقد يجيئون بها على غير لزوم كقول طرفة :

قِفِي قَبْلَ وَشْكِ البَيْنِ يا ابنَةَ مالِكِ

وَعُوجِي عَلَينَا مِنْ صُدُورِ جِمَالِكِ

فإنه لم يلتزم اللام في قصيدته بل جاء فيها بمثل « مالك وبارك » .

العصر الأموي

ووقع منه كثير في شعر الأمويين ؛ منه قول جميل بن معمر المتوفى سنة ٨٢ هـ :

أَنَخْتُ جَدِيلاً عِنْدَ بَثْنَةَ لَيلةً ... وَيَوماً أَطَالَ اللهُ رغْمَ جَدِيلِ

فإنه التزم الياء قبل اللام في ستة أبيات . ومنه قول عبد الله بن الدمينة :

وَإِذَا عَتَبْتِ عَلَيَّ بِتُّ كأَنَّنِي ... بِالليلِ مُسْتَحَرُ الفُؤَادِ سليمُ(١)

وقد التزم الياء قبل الميم في سبعة أبيات ، وكذلك قوله :

سَقى اللهُ الدوَافِعَ مِنْ حَفيرٍ ... وما يُغْنِينَ مِنْكَ وان سُقِينَا(٢)

التزم فيه الياء قبل النون في اثني عشر بيتاً . وقد التزم اللام مع كاف التأنيث في تسعة عشر بيتاً أولها :

قِفِي يَا أُمَيمَ القَلْبِ نَقضِ لُبَانَةً

وَنَشْكُ الهَوَى ثمّ افْعَلِي مَا بَدَا لَكِ(٣)

ولم يلتزمها في البيت الثاني من هذه القصيدة وهو قوله :

سَلِي البَانَةَ الغَنّاء بالأبطحِ الذِي ... بِهِ الماءُ هَلْ حَيَّيْتُ أَطلاَلَ دَارِكِ

وكذلك فعل ذو الرمة المتوفى سنة ١٠٧ هـ في قصيدته :

اما استحلبت عَينَيكَ الاَحمالةُ ... بجُمهورِ حُزْوَى أَوْ بجرعاء مالكِ

---

(١) ديوانه طبعة دار العروبة ، تحقيق أحمد راتب النفاخ ، ص ٤٨ .

(٢) المصدر السابق ص ١٥٩ .

(٣) المصدر السابق ص ١٣ ، والقصيدة كاملة فيه ص ١٦٥

وفي قصيدته :

أقولُ لأَطلاحٍ برى هَطلانُها ... بناعن حواني دأْبِها المَتلاحِك

فإنه ذكر في قوافي الأولى « البوائك » و « المبارك » وغيرها . وذكر في الثانية « رحالك » و « حارك » و « الضرائك » و « السنابك » وغيرها . ولم يلتزم اللام في كلتيها .

ووقع منها أيضاً في العصر الأموي مثل قول محمد بن سعيد الكاتب :

سَأشكُرُ عَمْراً إِنْ تَرَاخَتْ مَنِيَّتِي ... أيادِيَ لَمْ تُمنَنْ وإِنْ هِي جلَّتِ[1]

فَتىً غَيْرَ محجوبِ الغِنَى عَنْ صَدِيقِهِ
وَلاَ مظهر الشَّكْوَى إِذَا النَّعْلُ زَلَّت

رَأى خَلَّتِي مِنْ حَيْثُ يَخْفَى مَكَانُهَا
فَكَانَتْ قَذَى عَيْنَيْهِ حتَّى تَجلَّت

---

(١) هذه الأبيات رواها القالي ج ١ ص ٤٠ عن ابن دريد لبعض الأعراب : ورواها المبرد في الكامل ج ٣ ص ١٦ ولم يسم قائلها ، ورواها في الحماسة لمحمد ابن سعيد الكاتب : وقيل لعمرو بن كيل في عمرو بن ذكوان ؛ ونسبها ابن خلكان الى ابراهيم بن العباس الصولي ؛ ورواها في معاهد التنصيص ص ٤٨٩ لعبد الله بن الزبير الأسدي في عمرو بن عثمان بن عفان ، وذكر سببها أن عبد الله بن الزبير أتى عمرو بن عثمان ، فرأى عمرو تحت ثيابه ثوباً رثاً ، فدعا وكيله وقال له : اقترض مالاً ! فقال : هيهات ! ما يعطينا التجار شيئاً ، قال : فأربحهم ما شاءوا ، فاقترض له ثمانية آلاف درهم بأثني عشر ألفاً ، فوجه بها إليه مع تخت ثياب ، فقال عبد الله هذه الأبيات وكان عبد الله هذا في عهد عبد الملك بن مروان (ع) .

ولكثيّر عَزَّةَ قصيدة طويلة من هذا النوع ، مطلعها :

خَلِيلَيَّ هَذَا رَبعُ عَزَّةَ فَاعْقِلاَ قَلُوصَيكُمَا ثُمَّ ابْكِيَا حَيثُ حَلَّتِ

وهي في (أمالي القالي ج ٢ ص ١٠٨) .

وقد أشار اليها أبو العلاء في اللزوم حيث يقول :

كُثَيِّرُ أَنَا فِي حَرْفِي أَهَبْتُ لَهُ فِي التَّاءِ يَلْزَمُ حَرْفاً لَيسَ يَلْتَزِمُ[١]

يُريد حرف اللام الذي التزمه كثيّر قبل التاء في هذه القصيدة ، ووقع لغيره من شعراء العصر الأموي كثير من الأبيات التي التزم فيها مالا يلزم .

العصر العباسي

وأما الشعراء العباسيون ، فقد أكثروا من هذا النوع ، وجعلوه نوعاً من البديع . وأكثر ما جاء منه في المثنيّات والمقطّعات . وقد جاء منه في شعر البحتري تسعة أبيات التزم فيها الياء قبل الميم وأولها :

إِذَا شِئْتَ فَانْدُبْنِي إِلَى الرَّاحِ وَانْعَنِي إِلَى الشُّرْبِ مِنْ ذِي خِلَّةٍ وَنَدِيمِ[٢]

وجاءت عشرة أبيات التزم فيها العين قبل الكاف المقيدة أولها :

مِنْ نِعْمَةِ الصَّانِعِ الذي صَنَعَكْ صَاغَكَ لِلْمَكْرُمَاتِ وَابْتَدَعَكْ[٣]

وجاء اثنان وأربعون بيتاً التزم فيها الواو قبل الألف أولها :

لَنَا أَبداً بَثٌّ نُعَانِيهِ فِي أَرْوَى
وَحُزْوَى وَكَمْ أَدْنَتْكَ مِنْ لَوْعَةٍ حُزْوَى[٤]

---

(١) اللزوميات ٥ ص ٢٣٣ .

(٢) ديوانه ط . بيروت ، ص ٢٧٩ .

(٣) المصدر السابق ص ٣١١ .

(٤) المصدر السابق ص ٣٠٧ . وحزوى مضمومة الأول في القاموس وغيره ، مفتوحة في الديوان .

فان جعل الروي الألف فقد لزم الواو فيها ، كما قـال أبو العلاء في (المقدمة ص ٤١) (١) .

وابن الرومي أكثر من هذا النوع ، فقد التزم الياء قبل البـاء في قصيدة مطلعها :

شَابَ رَأْسِي وَلاَتَ حِينَ مَشِيبِ وَعَجِيبُ الزَّمَانِ غَيْرُ عَجِيبِ (٢)

وهي نحو من مائة وستة عشر بيتاً . والتزم الواو قبل الباء أيضـاً في قصيدة مطلعها :

سَيِّدِي أَنْتَ شَاخِصٌ مَصْحُوبُ وَضَيَاعِي إِلَيْكُمُ مَنْسُوبُ (٣)

وهي نحو من مائة وواحد وخمسين بيتاً ، والتزم الراء قبل الجيم في ثمانية أبيات أولها :

يَـا بَانِيَ الدرجِ الَّذي أَوْلَى بِـهِ هدمُ الدرَجْ (٤)

والتزم الفاء قبل الألف في ثمانية أبيات أولها :

سَبَغَتْ نِعْمَةٌ وَدَامَ صَفَـاءُ وَوَقَاكَ الحَوَادِثَ الأَكْفَاءُ (٤)

وأحياناً يلتزم حرفاً واحداً في معظم القصيدة ، كما فعل في القصيدة التي أولها :

لاَ أَسْتَزِيـدُ لِقَـاسِمٍ مِنْ رَبِّهِ غَيْرَ البَقَـاءِ (٤)

---

(١) مقدمة اللزوميات ط عزيز زند وانظر اللزوميات ٥ ص ١٨ .

(٢) ديوانه طبعة الكيلاني ، ص ١٧٧ .

(٣) المصدر السابق ص ٢٥٨ .

(٤) ليست الأبيات في ديوانه ، طبعة الكيلاني .

فانه التزم القاف قبل الألف في أحد عشر بيتاً ، وأتى بعدها ببيت جعل فيه الفاء بدلاً من القاف . ثم جاء أبو العلاء ، فالتزم هذا الاعنات ، كما التزم كثيراً من التشديد والتضييق في كل ضرب من ضروب حياته . وهو أكثر الشعراء التزاماً في هذا النوع ، وليس في شعراء العربية عامة من نظم ديواناً يحتوي على أحد عشر ألف بيت والتزم في جميعها ما لا يلزم غيره . وفيه قصائد يبلغ عدد أبياتها أكثر من تسعين بيتاً . وابن الرومي أتى بأبيات أكثر من هذا ، إلا أنه التزم فيها حرف الردف كما رأيت .

وأبو العلاء التزم حرفاً واحداً كقوله :

أَرْوَاحُنَا مَعَنَا وَلَيْسَ لَنَا بِهَا عِلْمٌ فَكَيْفَ إِذَا حَوَتْهَا الأَقْبُرُ (١)

وحرفين كقوله :

مَنْ يُوقَ لاَ يُكْلَمْ وَإِنْ عَمَدَتْ لَهُ نَبْلٌ تُغَادِرُ جِسْمَهُ كَالقُنْفُذِ (٢)

وثلاثة أحرف كقوله :

كُلْ وَاشْرَبِ النَّاسَ عَلَى خِبْرَةٍ فَهُمْ يَمُرُّونَ وَلاَ يَعْذُبُونْ (٣)

وأربعة أحرف كقوله :

إِذَا دَارَتِ الكَأْسُ فِي دَارِهِمْ فَقَدْ رَحَلَ الدِّينُ عَنْ دَارِهِمْ (٤)

وخمسة أحرف كقوله :

يَا أُمَّةً فِي التُّرْبِ هَامِدَةً تَجَاوَزَ اللهُ عَنْ سَرَائِرِكُمْ (٥)

---

(١) اللزوميات ٥ ص ١٢٦ .

(٢) اللزوميات ٥ ص ١١٧ وفيها وفي طبعة زند ١ / ٣٠٥ : « تغادر شخصه » .

(٣) اللزوميات ٥ ص ٢٨٥ .

(٤) اللزوميات ٥ ص ٢٥٩ .

(٥) اللزوميات ٥ ص ٢٠٨ وفيها وفي طبعة زند ٢ / ٣٢٦ : « في التراب » .

مقدمة لزوم ما لا يلزم

افتتح أبو العلاء ديوانه (لزوم ما لا يلزم) بمقدمة ذكر فيها أموراً :

١ — أنه أنشأ أبنية أوراق ، توخى فيها الصدق ، ونزهها عن الكذب ، فمنها ما هو تمجيد لله ؛ وبعضها تذكير للناسين ، وتنبيه للغافلين ، وتحذير من الدنيا .

٢ — أنه وضع أشياء من العظة ، وأفانين على حسب ما تسمح به الغريزة ؛ فان جاوز المشترط الى سواه فان الذي جاوز اليه قول عري من المين .

٣ — لقب هذا الكتاب الذي جمع فيه ما ذكره (لزوم ما لا يلزم) . وخشي أن يقع إلى قليل المعرفة بلوازم القافية ؛ فذكر حروف القافية ، وحركاتها ، وعيوبها ، بأسلوب جامع يدل على تمكن في علم القافية .

٤ — ذكر أن التزام ما لا يلزم إنما يفعله الشاعر لقوّته ، ولو تركه لم يدخل عليه ضعف .

٥ — أنه تكلف في هذا التأليف ثلاث كُلف :

الأولى : أن ينتظم حروف المعجم عن آخرها .

الثانية : أن يجيء رويه بالحركات الثلاث وبالسكون بعد ذلك .

الثالثة : أنه التزم مع كل روي فيه شيئاً لا يلزم من باء أو تاء أو غير ذلك من الحروف . وقد قدمنا أنه التزم حرفا ، وحرفين ، وثلاثة وأكثر .

٦ — أنه قسم القوافي إلى ثلاثة أقسام :

آ — الذُّلُل : وهي ماكثر على الألسن ، وهي عليه في القديم والحديث .

ب — النُّفُر : ما هو أقل استعمالاً من غيره ، كالجيم ، والزاي ونحو ذلك .

جـ — الحُوش : وهي اللواتي تهجر فلا تستعمل ، ومثّل لذلك بقول الشاعر :

كأنّيَ لَمْ أركَبْ جواداً لِلَذّةٍ   ولَمْ أتبطّنْ كَاعِباً ذاتَ خَلْخَلْ

فانه لا يعلم شيء من الشعر القديم جاء فيه الطويل الأول مقيدا ، ولا يوجد في دواوين الفحول من أهل الإسلام .

٧ً — أنه كان قال في كلام له قديم : إنه رفض الشعر ، فبين أن المراد بذلك الشعر ما استجيز فيه الكذب ، واستعين على نظامه بالشبهات ، فأما ما كان عظة للسامع ، وإيقاظاً للمتوسّن ، وأمراً بالتحرز من الدنيا الخادعة وأهلها الذين جبلوا على الغش والمكر ، فهو مما يلتمس به الثواب .

٨ً — أن من سلك في هذا الأسلوب ضعُفَ ما ينطق به لأنه يتوخى الصدق ، ويطلب البر . والشعر — كما قال الأصمعي — باب من أبواب الباطل ، فاذا أريد به غير وجهه ضعف .

٩ً — أنه وجد الشعراء توصلوا إلى تحسين المنطق بالكذب ، وزينوا ما نظموا بالغزل ، ووصف النساء ، والخيل ، والإبل ، والخمر ، وتسببوا إلى الجزالة بذكر الحرب .

١٠ً — أنه رتب النظم على مـائة وثلاثة عشر فصلاً لأن حروف الهجاء ما عدا الألف ثمانية وعشرون حرفاً وقد جعل لكل حرف منها أربعة فصول على حسب حالات الروي من ضم وفتح وكسر وسكون . وأما الألف وحدها فلها فصل واحد ، لأنها لا تكون إلا ساكنة فالمجموع ١١٣ فصلا .

هذه خلاصة ما جاء في هذه المقدمة الممتعة . ومنها يتضح لنا :

١ً — أن أبا العلاء لم يجر في هذا الكتاب على طريقة الشعراء في استباحة الكذب ، والاسترسال مع الهوى والخيال ؛ وإنما احتذى فيه على مثال الواعظ المذكّر ؛ فهو يتقيّد بالصدق حتى فيما جاوز المشترط ،

وهذا حق واضح ، لأن هذا الكتاب أشبه بكتب الفلسفة والوعظ منه بدواوين الشعراء ، وإن توفر فيه كل ما يحسن في الشعر ويزين الشعر .

٢ — أنه التزم ما لا يلزم ليدل على قوته ، لأن الشاعر إنما يفعل ذلك لأجل هذه الدلالة .

٣ — أنه عارف بأن في الكتاب ما جاوز المشترط ، ولكنه بريء من الكذب في اعتقاده .

٤ — أنه شاعر بأن كتابه هذا في باب الخير الذي من طبيعته أن يكون الشعر فيه جافاً لخلوه من الخيال الذي يورث الشعر طلاوة وجمالاً إلا قليلا .

ترتيب لزوم ما لا يلزم

لم يرتب أبو العلاء (لزوم ما لا يلزم) على حسب المواضيع والأغراض . لتعذر ذلك عليه ؛ لأنه لم يفرد لكل غرض على حدة أبياتاً مختصة به في غالب شعره ، بل ربما تناول في القصيدة الواحدة أو القطعة الواحدة أغراضاً متعددة .

وإنما رتبه على حروف الهجـاء ، فابتدأ بحرف الهمزة ، ثم الألف بعدها ، ثم بالباء ، فالتاء ، فالثاء ، فالجيم ، إلى آخر حروف الهجاء على حسب ترتيبها المشهور . وقد قال عند ذكره فصل الألف : « هذا الفصل يحتمل وجهين ، أحدهما : أن يكون على ما رتبْتُ ، والآخر : أن يكون الروي ما قبل الألف ، ويكون الألف وصلا »[1] اهـ .

وهذا صحيح ، إلا أننا إذا جعلنا الروي ما قبل الألف ، لم يبق في

---

(١) اللزوميات ج ١ ص ٢٧ .

الأبيات لزوم ما لا يلزم ، لأنه لم يلتزم قبل الحرف الذي قبل الألف حرفاً آخر في جميع أبياته بل جاء فيها مثل قوله :

قَضَى اللهُ أنَّ الآدَمِيَّ مُعَذَّبٌ ... إلى أنْ يَقُولَ العَالِمونَ بِهِ قَضَى (١)

فَهَنِّ وُلاةَ المَيْتِ يَوْمَ رَحِيلِهِ ... أصَابُوا تُراثاً واسْتَرَاحَ الذي مَضَى

فإننا إذا جعلنا الألف وصلا ، والضاد التي قبلها رويّا ، لم يبق في البيتين لزوم ما لا يلزم ؛ لأن الحرف الذي قبل الضاد في البيت الأول قاف ، وفي الثاني ميم . فتأمل .

وقد رتب كل حرف من حروف الهجاء على ترتيب الحركات ، فيبدأ أولاً بالحرف المحرك بالضم ، ثم بالفتح ، ثم بالكسر ، ثم بالسكون . وقد التزم هذا في جميع الحروف التي تقبل الحركة . وترتيب الكتاب على الحروف والحركات على الوجه المذكور يقرّب على الباحث عن أبيات الكتاب العثور على ما يريده منها بسهولة . وزعم بعض المعاصرين (٢) أن أبا العلاء رتب الكتاب ترتيباً آخر ولم ينبه له ؛ وذلك أنه جعل الأوزان في كل فصل مرتبة على ترتيب الدوائر والأبحر عند العروضيين . ومراده بذلك أن أبا العلاء إذا نظم في الحرف المتحرك بالضم مثلاً أبياتاً من أبحر متعددة ، فانه يرتب الأبحر في كتابه على حسب ترتيبها في دوائر العروض ؛ فيذكر الطويل أولا ، ثم المديد ، ثم البسيط ، ثم الوافر ، فالكامل ، فالهزج ، فالرمل إلى آخر البحور . ويظهر للمتأمل

---

(١) اللزوميات ١ ص ٢٨ .

(٢) هو الدكتور عبد الوهاب عزّام ، قال ذلك في كلمة ألقاها في المهرجان الألفي لأبي العلاء وهي في الصفحة ٢٥٢ من الكتاب الذي طبعه المجمع العلمي في دمشق ، وسماه المهرجان الألفي لأبي العلاء المعري سنة ١٣٦٤ هـ و ١٩٤٥ م (ج) .

في (لزوم ما لا يلزم) أن هذا الترتيب لم يلتزمه أبو العلاء في جميع كتابه ، ولو التزمه لنبه له ؛ وإنما وقع كثيراً في بعض الفصول ، والدليل على هذا أنه ذكر في الهمزة المفتوحة أبياتاً أولها :

رُوَيْدَكَ قَدْ غُرِرْتَ وَأَنْتَ حُرٌّ ... بِصَاحِبِ حِيلَةٍ يَعِظُ النِّسَاءَ (١)

ثم ذكر بعدها بيتين أولهما :

نَرْجُو الحَيَاةَ فَإِنْ هَمَّتْ هَوَاجِسُنَا ... بِالخَيْرِ قَالَ رَجَاءُ النَّفْسِ إِرْجَاءُ (٢)

والأبيات الأولى من البحر الوافر ، وهو من الدائرة الثانية دائرة المؤتلف ، وهو البحر الرابع بحسب ترتيب العروضيين . والبيتان الأخيران من البسيط ، وهو من الدائرة الأولى دائرة المختلف ، وهو البحر الثالث بحسب ترتيب العروضيين . وكذلك ذكر في الهمزة المكسورة قوله :

إِذَا صَاحَبْتَ فِي أَيَّامِ بُؤْسٍ ... فَلَا تَنْسَ المَوَدَّةَ فِي الرَّخَاءِ (٣)

ثم ذكر بعده قوله :

أَوْصَيْتُ نَفْسِي وَعَنْ وُدٍّ نَصَحْتُ لَهَا

فَمَا أَجَابَتْ إِلَى نُصْحِي وَإِيصَائِي (٣)

والأول من الوافر ، والثاني من البسيط . وكذلك ذكر في فصل الألف قوله :

---

(١) اللزوميات ﻫ س ٢٥ .

(٢) اللزوميات ﻫ س ٢٥ .

(٣) اللزوميات ﻫ س ٢٦ .

حَيَاةٌ عَنَاءٌ وَمَوْتٌ عَنَــا   فَلَيْتَ بَعِيدَ حِمَامٍ دَنَا [١]

ثم ذكر بعده :

بِعِلْمِ إِلٰهِي يُوجَدُ الضَّعْفُ شِيمَتِي   فَلَسْتُ مُطِيقاً لِلْغُدُوِّ وَلَا ٱلْمَسْرَا [١]

والأول من المتقارب ، وهو الخامس عشر ومن الدائرة الخامسة ؟ والثاني من الطويل وهو البحر الأول من الدائرة الأولى وكذلك ذكر في البـاء المكسورة قوله :

مَعَــاصٍ تَلُوحُ فَأُوصِيكُمُ   بِهِجْرَانِهَــا لَا بِإِغْبَابِهَا [٢]

ثم ذكر بعده قوله :

تُحِلُّ إِذَا ٱسْتَرَبْتُ بِكَ ٱهْتِضَامِي   وَأَنْتَ فَعَلْتَ أَفْعَالَ ٱلْمُرِيبِ [٣]

والأول من المتقارب ، وهو من الدائرة الخامسة ، دائرة المتفق ، وهو البحر الخامس عشر . والثاني من الوافر ، وهو من الدائرة الثانية ، والبحر الرابع كما تقدم . وأمثال هذا كثير فيه .

متى نظم لزوم ما لا يلزم ؟

لم يبين لنا التاريخ الزمن الذي ابتدأ فيه أبو العلاء نظم اللزوم ، ولا أشار أبو العلاء في شيء مما وقفنا عليه من كلامه إلى شيء من هذا ؛ ولا نستطيع أن نجزم بأنه كله مما نظم بعد رجوعه من بغداد لأسباب جمة منها :

---

(١) اللزوميات ﻫ ، س ٣٠ .

(٢) اللزوميات ﻫ س ٥٤ .

(٣) المصدر السابق س ٥٥ .

١ — أن ذلك يفتقر الى نص تاريخي ، وليس لدينا ذلك .

٢ — أن أبا العلاء ذكر في شعره في غير (لزوم ما لا يلزم) كثيراً من المصطلحات العلمية ، والدينية ، واللغوية ، والفلسفية ، وغيرها . وهذا يدل على أن ذكر المصطلحات والمسائل العلمية في شعره لا يختص بما كان منه بعد رجوعه من بغداد ، ولا بما في (لزوم ما لا يلزم) .

٣ — أن لأبي العلاء أبياتا في غير (لزوم ما لا يلزم) التزم فيها ما لا يلزم ، منها قوله في ملقى السبيل :

يَدُومُ القَدِيمُ إِلَهُ السَّمَاء ... وَيَفْنَى بِأَقْدَارِهِ مَا حَدَثْ[1]

وَمَا أَرْغَبَ المرءَ في عَيشِهِ ... وَلَكِنْ قُصَارَاهُ سُكْنَى الجَدَثْ

وقوله فيه أيضا :

أَيَحْتَرِسُ المرءُ مِنْ حَتْفِهِ ... وَمَا حَادَ عَنْ يَوْمِهِ المُحْتَرِسْ[2]

هَلِ النَّاسُ إِلا نَظِيرُ السَّوَامِ ... وَآجَالُهُمْ أُسُدٌ تَفْتَرِسْ

يَحُلُ الرُّبَى وَيَحُلُّ الوُهُودَ ... وَلاَ بُدَّ لِلرَّبعِ أن يَنْدَرِسْ

ومنها قوله في (سقط الزند) من أبيات ثمانية التزم فيها كلها الباء قبل الياء المشددة :

ذَلَّتْ لِمَا تَصْنَعُ أَيامُنَا ... نُفُوسُنَا تِلْكَ الأَبِيَّاتُ[3]

---

(١) ملقى السبيل تحقيق كامل كيلاني ص ٢٣١ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٣٨ .

(٣) شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٨٣٦ .

وقوله في الدرعيات :

عَلَيْكَ السَّابِغَـــاتِ فَإِنَّهُنَّهْ   يُدَافِعْنَ الصَّوَارِمَ وَالأَسِنَّهْ (١)

فقد التزم النون المشددة في القصيدة كلها ، وهي سبعة وعشرون بيتاً ، وكذلك قوله فيها :

عَبَّ سِنَانُ الرُّمْحِ فِي مِثْلِ النَّهَرْ   مِمَّا يُعَدُّ لِلْمِرَاسِ وَالقَهَرْ (٢)

التزم الهاء قبل الروي في الأبيات الخمسة .

فهذه الأمور لا نستطيع معها أن نجزم بأن كل شعر له فيه مسائل علمية ، أو فيه التزام ما لا يلزم يجب أن يكون في الطور الأخير أي بعد رجوعه من بغداد ، أو في (لزوم ما لا يلزم) . على أننا عرفنا زمن بعض القصائد التي في اللزوم كما ذكرنا ذلك في موضعه .

* * *

(١) شروح سقط الزند : ق ٥ ص ٢٠٤١ .

(٢) شروح سقط الزند : ق ٥ ص ٢٠١٤ وفيها : « يعد في المراس » .

شخصية أبي العلاء في المقدمة
وفي لزوم ما لا يلزم

في المقدمة

من استقرى ما وصل إلينا من آثار أبي العلاء نظماً كان أم نثراً ، يتضح له بأجلى صورة أن أبا العلاء ذكي فطن ، وباقعة لبق ، وجريء حذر ؛ وأنه عالم واسع الاطلاع والخيال ، طويل الباع في الابتكار والاختراع وأنه عميق التفكير ، كثير التحقيق والتمحيص ، شديد الاعتداد بنفسه ، قوي الوثوق بعلمه ، كثير التعويل والاعتماد على عقله ، كثير الانتقاد لمن كان في عصره أو لمن تقدمه . وأنه حر في آرائه ، جريء على قول الحق ؛ وانه في كل أثر من آثاره لابد من أن يعرض نفسه في كل مظهر من هذه المظاهر المذكورة ، ويبرز شخصيته في كل موطن يدل على تبحّره وذكائه وحصافة رأيه . وفي هذه المقدمة تجلى في كل ناحية بصورة تمثل لنا أنه في أعظم منزلة في تلك الناحية وهذا يدل على لباقة ودهاء وجرأة .

الدليل على سعة علمه

أما الدليل على سعة علمه واطلاعه ، فمثل قوله في (ص ١١)[١] : « لكان ذلك عند أهل العلم جائزاً ، وذلك قليل في الاستعمال » ، وقوله في

(١) انظر هذه الاقوال في مقدمة لزوم ما لا يلزم ط عزيز زند ويقابلها في ط ه الصفحات : ٣ ، ٥ ، ٦ ، ١٢ ، ١٣ .

(ص ١٥) : « ويجوز أن يكون الردف والرويّ من كلمة واحدة ومن كلمتين ، ولا اختلاف في ذلك » وفي (ص ١٧) : « ولا يكون الخروج آخر حرف في البيت » . وفي (ص ١٩) : « أكثر ما أسس من أشعار العرب إنما يكون بعد ألفه كسرة »؟ وفي (ص ٣١) قوله إنه « لا يعلم في شعر امرىء القيس شيئاً على الطاء ، ولا الظاء ، ولا الشين ، ولا الخاء » وإن « ديوان النابغة ليس فيه روي بني على الصاد ، ولا الضاد ، ولا الظاء » . وإنه « لا يعلم فى شعر البحتري شيئاً على الخاء ، أو الغين ، أو الثاء . . . » ويدل على ذلك أيضاً ما ذكره في (ص ١٧ و ١٩) وغيرهما من أقوال علماء هذا الفن كالخليل ، وابن مسعدة ، والجرمي ، والفراء ، وخلف بن حيان ، وأبي عبيد القاسم بن سلاّم ، وأبي بكر بن السراج وما ذكره من أسماء الشعراء والرجاز المتعددين وما أورده من أشعارهم .

الدليل على ابتكاره

وأما الدليل على ابتكاره وابتداعه فما جاء في المقدمة من تقسيم القوافي إلى : ذُلُل ، ونُفُر ، وحُوش ؛ ثم ترتيب النظم على ١١٣ فصلاً وتقسيم منازل الحركات على الوجه الذي ذكرناه ، فإني لا أعلم أحداً قبل أبي العلاء سبقه إلى شيء من ذلك كله .

اعتداده بنفسه

وأما الاعتداد بنفسه والوثوق بعلمه ، فإنه يتجلى في مثل قوله (ص ١٢)[1] : « فهذا رأي المتقدمين ، ولا يمتنع في حكم الغريزة . . . فلو جاءت بعد ذلك الخضارم ونحوها ، لكان عندي غير قبيح » . وما

---

(١) من مقدمة اللزوميات ط عزيز زند وانظر اللزوميات هـ الصفحات : ٣ ، ٤ ، ٧ ، ١٥ ، ١٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١٢ .

ذكره في (ص ٢٠) في حركة الإشباع ، واستدلاله على وضع هذا الاسم وتحقيقه . وقوله (ص ٢٤) : « وقد وجدت في أشعار قريش شعراً ... قد جعل الواو فيه رويّاً .. فإنْ صح ذلك فليس بأبعد مما بني على الألف وذلك نادر ... » . ثم قوله : « وذلك مفقود في أشعار الفصحاء .. » ثم قوله : « ولا أعرف لأحد من الفصحاء مثل أبيات مروان ... » وقوله (ص ٤٠) : « ولا يعلم شيء من الشعر القديم جاء فيه الطويل الأول مقيّدا ... فمثل هذا لم يأت في الشعر القديم ، ولا في دواوين الفحول ». وقوله في (ص ٢٣) : « ولم يفرقوا بين المقيد المطلق . . . وأنا أفرق بين المطلق والمقيد . . » وفي (ص ٢٥) : « ولم يفرقوا بين المقيّد المجرد ، والمقيد المؤسس ؛ وهو عندي في المؤسس أقبح » وقوله في (ص ٣٠) : « وقد كان بعض المتأخرين . . يجعل تاء التأنيث وكاف الإضمار وصلا . . وذلك ينتقض عند العلماء بأحكام القوافي . . » .

التعويل على عقله

وأما التعويل على عقله فيظهر في مثل قوله في (ص ٣١)[1] : « والغريزة تشهد بما زعموه ، وقياس أقوال المتقدمين يوجب أن الروي الهاء . . . » . وقوله (ص ٢٥) : « وقد جاءت أشياء في الشعر القديم ، بعضها منصوب ، وبعضها مرفوع أو مخفوض ؟ وإنما يحمل ذلك على الوقف لأنه يبعد أن يقول عربي فصيح . . » . وقوله في (ص ٣٧) : « والقياس لا يمنع أن تجعل هذه الواو رويّا ، لأنها سِنخ وهي قوية . . » .

---

(١) الصفحات من الزوميات ط عزيز زند والظر الزوميات ه الصفحات : ١٢ ، ١٠ ، ١٦ .

الانتقاد

وأما الانتقاد فيظهر في مثل قوله في (ص ٣٢)[١] : « وقد وجدت الذين ألفوا دواوين المحدثين على حروف المعجم ، خالفوا فيما وضعوه مذهب الخليل وأصحابه ؟ وما أحمل ذلك منهم إلا على قلة حفل بتلك الأشياء ؛ فمن ذلك أنهم يجعلون ما قافيته « هديّة وبليّة » في باب الهاء ، وهذا وهم . . . وكذلك يجعلون ما قافيته « ثناياها ، وعطاياها » في جملة الألف ، وإنما ينبغي أن تكون في باب الهاء ، لأنها الروي . ويجعلون مثل « يديه وعليه » في باب الياء ، وكذلك ما يبنى على « عصيها وفيها » وإنما ينبغي أن يكون النسب في هذا كله الى الهاء » .

وفي (ص ٣٣) ذكر أن كلام ابن السراج يدل على أن الروي الياء في قول الشاعر :

. . . . مِنَ الثعالي وَوَخْزٌ مِنْ ارانِبِهَا

ثم قال : « وهذا يشبه مذاهب المؤلفين ، ويجوز أن يكون مذهباً لابن السراج أو وهما منه لقلة عنايته بهذا النوع » . ثم نقل ما قاله أبو الحسن العروضي في أبي إسحق الزجاج حين زعم أن الروي في قول الشاعر — البحتري — :

مِيلوا إلى الدَّارِ مِنْ ليلى نُحَيِّيهَا . . . . (٢)

هو الياء » . ثم قال : شاهدت بعض المتحققين بالأدب ببغداد يجعل الروي الياء في قول الشاعر :

. . . . فَلْتَقْطِفْ قَوَافيها

وما احسب هذا ممن قاله إلا وهما . . » .

---

(١) الصفحات من المصدر السابق وانظر الزوميات هـ الصفحات : ١٣ ، ١٤ .

(٢) عجزه : نعم ونسألها عن بعض أهليها . ديوانه ط بيروت ، ص ٢٦ .

لزوم مالا يلزم

أسلوبه في لزوم مالا يلزم ، طول القصائد وقصرها

كان أبو العلاء يحب الاختصار والإيجاز في جمله ؛ أما في شعره فإنه لم يلتزم طريقة معينة ، وإنما يختلف شعره في كثرة الأبيات وقلتها بحسب الأغراض والمواضيع .

سقط الزند

أما سقط الزند فقد كان يحذف من قصائده بعض الأبيـات ، ولم نعرف المقدار الذي حذفه مما حذف منه ؛ ولذلك يصعب الحكم عليه حكما صحيحا ، إلا أن الباقي من شعره بعد الحذف يدل على أنه كان طويل النفس في المدح والرثاء والفخر والتهنئة ونحوها فله في ذلك قصائد تقارب الثمانين بيتا .

لزوم ما لا يلزم

وأما لزوم ما لا يلزم ، فالغالب عليه الايجاز ويكثر فيه التوسط ؛ وفيه قصائد جاوزت التسعين بيتا ، ولعل سبب ذلك أمران :

الاول : أن التزام ما لا يلزم يضيّق على الشـاعر القوافي في كثير من الحروف .

الثاني : أن أكثر مواضيع الكتاب وأغراضه حقائق ؛ والغالب في مثل ذلك أن يؤدّى بعبارات مجردة عن المجاز ، والمبالغة ، والخيـال ، ونحو ذلك من الأمور التي تفسح المجال للشاعر فيطيل المقال . وقد قدمنا الكلام في أسلوبه في جمله في (سقط الزند) .

وأما اسلوبه في (لزوم مالا يلزم) في جمله فالغالب عليه المتانة ، وقوة الأسر ، والجزالة .

كقوله :

أرى الأرْيَ تغشَاهُ الخطوبُ فَيَنْثَني ... مُرّاً فهل أبصرتَ من مَقِرٍ يَخلُو[(١)]

وقوله :

عَرَفتُ سجَايا الدّهرِ أمّا شُرُورُهُ ... فَنَقْدٌ وأمّا خيرُهُ فَوُعُودُ[(٢)]

وفيه كثير من السهل الممتنع كقوله :

وَمَاذَنبُ الضّرَاغِمِ حِينَ صِيغَتْ ... وَصُيِّرَ قُوتُهَا مِمّا تُدَمّي[(٣)]

وقوله :

لَوْ نُخِلَ العَيشُ لمَا حَصَّلَتْ ... شيئاً سوى الموتِ يدُ النّاخِلِ[(٤)]

وقوله :

أرْوَاحُنَا مَعَنَا وَلَيسَ لَنَا بِهَا ... عِلْمٌ فَكَيفَ إذَا حَوَتْهَا الأقبُرُ[(٥)]

اللغة

قلنا : إن أبا العلاء كان واسع الاطلاع على اللغة ونوادرها ، وشواذها وفصيحها ؛ وإنه كان يحفظ كثيراً من شعر الجاهليين وغيرهم ؛ وإنه كان

---

(١) اللزوميات ﻫ س ١٩٤ وفيها : « فهل شاهدت » .
(٢) اللزوميات ﻫ س ٩٠ .
(٣) اللزوميات ﻫ س ٢٥١ .
(٤) اللزوميات ﻫ س ٢٢٢ .
(٥) اللزوميات ﻫ س ١٢٦ .

يحب الجناس بأقسامه ، والتورية ، ومراعاة النظير ، وغيرها من الصناعة البديعية . وقد التزم في (لزوم ما لا يلزم) أن يكون ما قبل حرف الروي واحداً في البيتين والقطعة والقصيدة . وإنه أحياناً يلتزم حرفاً واحداً كقوله :

أَمْسَى النِّفَاقُ دُرُوعاً يُسْتَجَنُّ بِهَا ... مِنَ الأَذَى وَيُقَوِّي سَرْدَهَا الحَلِفُ[1]

أُفْنِي زَمَانِي بِأَنْفَاسٍ كَمَا قَطَعَتْ ... مَدًى بَعِيداً مَوَاشٍ فِي السُّرَى دُلُفُ

وأحياناً يلتزم أكثر من حرف كقوله

كَأَنَّا فِي سَجَايَانَا نُقُودٌ ... كَثِيرَاتُ البَهَارِجِ وَالزُّيُوفِ[2]

وَهَذِي الأَرْضُ لِلمَلِكِ المرجى ... نُلِمُّ بِهَا كَإِلمَامِ الضُّيُوفِ

وقوله :

كُلْ وَاشْرَبِ النَّاسَ عَلَى خِبْرَةٍ ... فَهُمْ يَمُرُّونَ وَلاَ يَعْذُبُونْ[3]

وَلاَ تُصَدِّقْهُمْ إِذَا حَدَّثُوا ... فَإِنَّهُمْ مِنْ غَهْدِهِمْ يَكْذِبُونْ

وَإِنْ أَرَوْكَ الوُدَّ عَنْ حَاجَةٍ ... فَفِي حِبَالٍ لَهُمُ يَجْذِبُونْ

وكان فوق ذلك يحب أن يظهر ثروته اللغوية ، وقدرته على التصرف بالألفاظ القليلة التداول ، وجعل الوحشي منها مأنوساً متداولا . وقد قضى عليه مجموع هذه المؤثرات أن يستعمل في كلامه بعض الكلمات التي يعدها غيره غريبة ، ولم يكن يتعمد ذلك ليخفي أغراضه ومقاصده .

---

(١) اللزوميات هـ ص ٢٩٢ .

(٢) اللزوميات هـ ص ٢٩٦ .

(٣) انظر ما سبق ص ١١٢٤ .

وإذا تأمل الباحث تبيّن له أنّ بعض الكلمات التي عدّوهـا غريبة تحمل في مطاويها معانيَ أو خصائص لا يجد الإنسان بسهولة في الألفاظ المتداولة ما يقوم مقامها ، وأحياناً يجد ما يسد مسدها ، ولكنها لا تطاوعه فيما يريده من جناس ، أو تورية ، أو لزوم ما لا يلزم ، أو نحو ذلك من الصناعات والمقاصد . وقد يكون لبعضها من الجرس المستعذب ، والنغمة المطربة ما لم يكن للمأنوس . مثال ذلك قوله :

وَقَدْ شَهِدَ النَّصَارَى أَنْ عِيسَى   تَوَخَّتْـهُ اليَهُودُ لِيَصلِبُوهُ[1]
وَمَا أَبِهُوا وَقَدْ جَعَلُوهُ رَبّاً   لِئَـلاّ يَنْقُصُوهُ وَيَجْدِبُوهُ

ففي وسع الشاعر أن يقول : « ويثلبوه » بدلاً من « يجدبوه » ولكن معنى « يجدب » يعيب ويذم ، ومعنى « يثلب » يعيب ويلوم ، والمعنى الأول أليق هنا وإن جاز استعمال كل منهما في معنى يعيب على سبيل المجاز .

وكذلك قوله :

تَقُولُ الهِنْـدُ آدَمُ كَانَ قِنّاً   لَنَـا فَسَرَى إِلَيْهِ مُخَبِّبُوهُ

يقال : خبب العبدَ : إذا أفسده وخدعه . وربما تعسّر وجود كلمة في الألفاظ المتداولة كثيراً تدل على ما تدل عليه كلمة « خبب » مع مراعاة لزوم ما لا يلزم فيها ؛ وإن أمكن مع شيء من التأويل والتلفيق أن تفيد سيّب وهرّب ونحوهما شيئاً مما تفيده خبب .

وقوله في ذم الدنيا :

كَالغُولِ غَالَتْكَ بِتَلْوِينِهَـا   بَيْنَ تَقَدِّيهَـا وَتَبْنِيسِهَـا[2]

---

(١) اللزوميات هـ س ٣٣٣ .
(٢) اللزوميات هـ ص ٣٢٤ .

التقدي : السرعة . والتبنيس : التأخر . وقد اضطره اليها المطابقة ولزوم ما لا يلزم .

وكثيراً ما يأتي باللفظ المشترك ، ثم يبين المراد منه في النظم كقوله :

فَلاَ يُمْسِ فَخَّاراً مِنَ الفَخْرِ عَائِدٌ إِلَى عُنْصُرِ الفَخَّارِ لِلنَّفْعِ يُضْرَبُ[1]

. . .

وَفَوَائِدُ الأَسْفَارِ جَمْعِ السَّفْرِ فِي الـــدُّنْيَا تَفُوقُ فَوَائِدَ الأَسْفَارِ[2]

اللحن

لا أتذكر أني رأيت في (لزوم ما لا يلزم) لحناً في الإعراب ، إلا أن يكون خطأ من طابع الديوان . أما من جهة الاشتقاق والصيغ فقد ذكر لفظ « تلاف » بمعنى تلف في مواطن من شعره منها قوله :

تَلاَفَيْنَاهُمُ بِالقَوْلِ فِيـــهِ فَجَاءَهُمُ التَّلاَفِي بِالتَّلاَفِ[3]

وقوله :

وَهَلْ أُلِمَّ وِدَاداً رُمَّ مِنْ شَعَثٍ وَقَدْ لَمَحْتُ تَلاَفِي فِي تَلاَفِيكَا[4]

وقوله :

لَوْ كَانَ جِسْمُكَ مَتْرُوكاً بِهَيْئَتِهِ بَعْدَ التَّلاَفِ طَمِعْنَا فِي تَلاَفِيهِ[5]

---

(١) اللزوميات ﻫ ص ٣١ .

(٢) اللزوميات ص ﻫ ١٦٢ .

(٣) اللزوميات ﻫ ص ٢٩٦ .

(٤) اللزوميات ﻫ ص ١٨٦ .

(٥) اللزوميات ﻫ ص ٣٤٠ .

وقوله :

تَلاَفَ أمْرَكَ مِنْ قَبْلِ التَّلاَفِ بِهِ فَغَايَةُ النَّاسِ فِي دُنْيَاهُمُ التَّلَفُ (١)

وقد رجعت الى (المصباح) و (والأساس) و (النهاية) و (الفائق) و (مفردات الراغب) و (المجمل) و (الصحاح) و (اللسان) و (تاج العروس) وغيرها مما لديّ من كتب اللغة فلم أجد في شيء منها « التلاف » بمعنى التلف ، وأنا أستبعد أن يكررها أبو العلاء في مواطن من شعره من غير أن يثق بصحتها .

قوة التأليف والطلاوة والانسجام

في (لزوم ما لا يلزم) أبيات جمعت حسن الرّصف ، إلى قوة الأسلوب وطيب الجرس ؛ وأبيات هي غاية في الطلاوة . وهي في اللزوم أكثر من أن تحصى ؛ ويزيد بعضها جمالاً ما فيه من التلميح لحادثة أو مزعم أو نحو ذلك ، أو ما فيه من الاكتفاء بالإشارة الى المعنى ، وإرسال المثل أو ما أشبه هذا من التفنن . وانظر الى مثل قوله وهو أول بيت افتتح به اللزوم :

أُولُو الفَضْلِ في أوْطانِهِمْ غُرَبَاءُ تَشُذُّ وَتَنْأَى عَنْهُمُ القُرَبَاءُ (٢)

وقوله :

أرَى جُرَعَ الحَيَاةِ أمرَّ شَيْءٍ فَشَاهِدُ صِدْقَ ذَلِكَ إذْ تُقَاءُ (٣)

(١) اللزوميات ﻫ ص ٢٩٠ .
(٢) اللزوميات ﻫ ص ٢٠ .
(٣) اللزوميات ﻫ ص ٢٣ .

وقوله :

عُمْرِي غَدِيرٌ كُلُّ أَنْفَاسِي بِهِ   جُرَعٌ تُغَادِرُهُ كَأَمْسِ النَّاضِبِ [١]

وقوله :

وَإِنَّا مِنَ الغَبْرَاء فَوْقَ مَطِيَّةٍ   مُذَلَّلَةٍ مَا أَمْكَنَتْ يَدَ حَارِبِ [٢]

وقوله :

وَمَا ٱلنَّعْشُ إِلا كَالسَّفِينَةِ رَامِياً
بِغَرْقَاهُ فِي مَوْجِ الرَّدَى المُتَرَاكِبِ [٣]

وقوله :

وَقَدْ يُخْطِيءُ الرَّأْيَ امْرُؤٌ وَهْوَ حَازِمٌ
كَمَا اخْتَلَّ فِي وَزْنِ القَرِيضِ عَبِيدُ [٤]

وقوله :

كُنْ مَنْ تَشَاءُ مُهَجَّناً أَوْ خَالِصاً   وَإِذَا رُزِقْتَ غِنىً فَأَنْتَ السَّيِّدُ [٥]
وَاصْمُتْ فَمَا كَثُرَ الكَلَامُ مِنَ امْرِيءٍ   إِلاَّ وَظُنَّ بِأَنَّــهُ مُتَزَيِّدُ

وقوله :

وَلَوْ يُرْتَجَى مَعَ الشُّرَكَاء خَيْرٌ   لَمَا كَانَ الإِلَهُ بِلاَ شَرِيكِ [٦]

---

(١) اللزوميات ﻫ س ١٠ .
(٢) اللزوميات ﻫ س ٤٥ .
(٣) اللزوميات ﻫ س ٤٦ .
(٤) اللزوميات ﻫ س ٩١ .
(٥) اللزوميات ﻫ س ٩٧ .
(٦) اللزوميات ﻫ س ١٨٩ . وفيها : « فلو يرجى .. » .

التشبيه

وفي (اللزوم) أنواع من التشبيه المحسوس وغيره ، تدل على براعة فائقة في كلا النوعين كقوله :

سُبْحَانَ مَنْ خَلَقَ النجُومَ كَأَنَّهَا　　دُرٌّ طَفَا مِنْ فَوْقِ بَحْرٍ مَائِجِ (١)

وقوله :

وَلَاحَتِ النَّارُ كَالشَّقْرَاءِ يَحْبِسُهَا　　عَنْ مُهْرِهَا القَيْدُ وَهْناً فَهْيَ لَا تَقِرُ (٢)

بَدَتْ بِلَيْلٍ كَعَيْنِ الدِّيكِ عَنْ شَحَطٍ

أَوْ عُرْفِهِ بِمَحَلٍّ دُونَهُ أُقُرُ

وقوله في الخمر :

وَكَأَنَّمَا هِيَ مِنْ ذَكَاءٍ نُطْفَة　　صُفِّفَتِهَا وَبِلُؤْلُؤٍ أُطْمِيَتِهَا (٣)

وقوله في مغنّية :

بَيْنَهُمُ كَالغَمَامِ شَادِيَةٌ　　تُومِضُ فِي مَلْبَسٍ كَقَوْسِ قُزَحْ (٤)

وقوله :

تَوَقَّوْا سَبِيلَ الغَانِيَاتِ فَكُلُّهَا

كَلَيْثِ الشَّرَى وَالطِّيبُ فِيهَا فُرَانِقُ (٥)

---

(١) اللزوميات ٥ ص ٧٩ .

(٢) اللزوميات ٥ ص ١٢٢ . وتقر : تسكن .

(٣) اللزوميات ٥ ص ٧٠ .

(٤) اللزوميات ٥ ص ٨٦ .

(٥) اللزوميات ٥ ص ٢٩٩ .

وقوله :

فَالْمَيْنُ مَيْتَةُ مُضْطَرٍّ أَلَمَّ بِهَا
وَالْحَقُّ كَالْمَاءِ يُخْشَى خِيفَةَ السَّقَمِ (١)

الاستعارات

وفي اللزوم صور رائعة من الاستعارات بأقسامها ؛ مع أن المسائل العلمية ، وأبيات الحكمة ، والحقائق الواقعة ، تتطلب ألفاظاً مجردة عن المجاز . ولكن أبا العلاء استطاع أن يفرغ تلك القضايا في أسلوب أدبي موشى بشية المجاز والصناعة البديعية ، مثال ذلك قوله :

وَمَغْفِرَةُ اللهِ مَرْجُوَّةٌ إِذَا حُبِسَتْ أَعْظُمِي فِي الرَّتَمْ (٢)
مُجَاوِرَ قَوْمٍ تَمَشَّى الفَنَاءُ مَا بَيْنَ أَقْدَامِهِمْ وَالقِمَمْ

وقوله :

رَكِبْنَا عَلَى الأَعْمَارِ وَالدَّهْرُ لُجَّةٌ
فَمَا صَبَرَتْ لِلْمَوْجِ تِلْكَ السَّفَائِنُ (٣)

وقوله :

أَحَاضِنَةَ الغُلَامِ ذَمَمْتِ مِنْهُ أَذَاكِ فَأَرْضِعِي حَنَشاً وَضُمِّي (٤)

. . . .

رَأَيْتُ الحَقَّ لُؤْلُؤَةً تَوَارَتْ بِلُجٍّ مِنْ ضَلَالِ النَّاسِ جَمِّ

---

(١) اللزوميات هـ ص ٢٤٨ .
(٢) اللزوميات هـ ص ٢٥٩ .
(٣) اللزوميات هـ ص ٢٥٩ .
(٤) اللزوميات هـ ص ٢٥١ .

الكنايات

وفي اللزوم صور من الكنايات هي غاية في الإحكام والروعة ؛ وآية في الطلاوة والبراعة . من ذلك قوله يكني عن صغر نفسه :

مَا لِنَفْسِي بَيْنَ النفوسِ مُعَنَّا ةً إِذَا لَمْ تَفُزْ بِطَوْقٍ وَسَلْسِ[1]
لَوْ يُنَادَى فِي كُلِّ سُوقٍ عَلَيْهَا مَا اشْتَرَاهَا أُخو رَشَادٍ بِفَلْسِ

وقوله :

لَوْ قَالَ سِيدٌ غَضاً بُعِثْتُ بِمِلَّةٍ مِنْ عِنْدِ رَبِّي قَالَ بَعْضُهُمْ نَعَمْ[2]

وقوله :

وَلَوْ طَارَ جِبْرِيلٌ بَقِيَّةَ عُمْرِهِ
مِنَ الدَّهْرِ مَا اسْطَاعَ الْخُرُوجَ مِنَ الدَّهْرِ[3]

المعاني

في هذا الديوان افتن أبو العلاء في المعاني ، وأتى منها بضروب يقصر عن إدراكها المتطاول ؛ والغالب على معانيه فيه أنها تحتاج الى تأمل وإمعان ، لدقتها وارتفاعها عن مستوى العامة . وفيها ما يتوقف فهمه على دراسة علم ، واطلاع واسع على التاريخ ؛ لأنه يكثر التلميح الى العقائد ، والحوادث التاريخية ، والإشارة الى رجال لهم وقائع مذكورة ، وحوادث مشهورة .

---

(١) اللزوميات ھ ص ٣٢٥ .

(٢) اللزوميات ھ ص ٦٠٦ . والسيد : الذئب . والغضا : شجر .

(٣) اللزوميات ھ ص ١٤٦ . وفيها : « عن الدهر ... » .

وهذه أمثلة من كلامه الذي يحتاج إلى تأمل :

غَلَتِ الشرورُ وَلو عقلْنَا صيَّرَتْ ... دِيَةُ القَتيلِ كَرَامَةً لِلقَاتِلِ (١)

وقوله :

أَتعْلَمُ الأَرْضُ وَهْيَ أمٌّ ... خَفَّ زَمَانٌ وَمَا ازْدَهَاهَا (٢)

بِأَيِّ جُرْمٍ وَأَيِّ حُكْمٍ ... سُلِّطَ لَيْثٌ عَلَى مَهَاهَا

وَعُذِّرَتْ حَاجَةٌ بِعُسْرٍ ... عَلَى عَلِيلٍ قَدِ اشْتَهَاهَا

وظَالِمٌ عِنْدَهُ كُنُوزٌ ... مِنْ أمِّ دَفْرٍ وَمِنْ لُهَاهَا

ومن كلامه الذي يتوقف على معرفة علم قوله :

سَمَا نَفَرٌ ضَرْبَ المِئِينَ وَلَمْ أَزَلْ
بِحَمْدِكَ مِثْلَ الكَسْرِ يُضْرَبُ فِي الكَسْرِ (٣)

وقوله :

مَا لِي غَدَوْتُ كَقَافِ رُؤْبَةَ قُيِّدَتْ ... فِي الدَّهْرِ لَمْ يُقْدَرْ لَهَا إِجْرَاؤُهَا (٤)

أَعَلِلْتُ عِلَّةَ قَالَ وَهْيَ قَدِيمَةٌ ... أَعْيَا الأَطِبَّةَ كُلَّهُمْ إِبْرَاؤُهَا

وقوله :

نَطَقَتْ أَلْسُنُ الحَمَامِ وَبِالإِيـجَازِ جَاءَتْ وَكَثْرَةِ الإِطْنَابِ (٥)

---

(١) اللزوميات ﻫ س ٢٢١ .

(٢) اللزوميات ﻫ س ٣٣٧ . وفيها : « خف زمان فما ... » .

(٣) اللزوميات ﻫ س ١٤٦ .

(٤) اللزوميات ﻫ س ٢٣ .

(٥) اللزوميات ﻫ س ٥٤ .

ومن كلامه الذي يتوقف فهمه على معرفة التاريخ قوله :

وَإِنَّ القَتْلَ في أُحدٍ وَبَــدْرٍ جَنَى القَتْلَيْنِ في نَهرٍ وَطَفٍّ (١)

وقوله :

لَعَمْرُكَ مَا أُسَرُّ بِيَوْمِ فِطْرٍ وَلاَ أَضحَى وَلاَ بِغَدِيرِ خُمِّ (٢)

وَكَمْ أَبْــدَى تَشَيُّعَهُ غَوِيٌّ لِأَجلِ تَنَسُّبٍ بِبِلاَدِ قُمِّ

وقوله :

وَالمُلْكُ يَفْنَى وَلاَ يَبْقَى لِمَالِكِهِ أَوْدَى ابنُ عَادٍ وَأَوْدَى نَسْرُهُ لُبَدُ (٣)

وقوله :

مَضَى الوَاقِفُ الكِنْدِيُّ وَالسِّقْطُ غَابِرٌ

وَصَاحَتْ دِيَارُ الحَيِّ أَيْنَ لَبِيدُ (٤)

تكرير المعاني في شعر أبي العلاء

عاب جماعة من الأدباء أبا العلاء المعري ، لأنه يأتي بالمعنى الواحد غير مرة في شعره ؛ وعدّ ذلك من أمارات العي والضعف . ولا ننكر أن أبا العلاء كرر كثيراً من المعاني في شعره ، ولكنه لم يسلك طريقاً واحداً في تكريره ؛ بل كان أحيانا يأتي بالمعنى في البيت وفيه زيادة

(١) اللزوميات هـ س ٢٩٥ .

(٢) اللزوميات هـ س ٢٥١ .

(٣) اللزوميات هـ س ٩٣ .

(٤) اللزوميات هـ س ٩١ .

بسيطة عما جاء في البيت الآخر ، وأحياناً يأتي بزيادة تزيد اللفظ والمعنى رونقاً وجمالاً ، فمن الأول قوله :

نُقَلِّمُ لِلنُّسْكِ أَظْفَارَنَـــا وَطَوَّلَتِ الهِنْدُ أَظْفَارَهـا (١)

وقوله :

وَأَعُدُّ قَصَّ الظُّفْرِ شِيمَةَ نَاسِكٍ وَالهِنْدُ بَعْدُ مُطِيلَةٌ أَظْفَارَهَا (٢)

فإن الزيادة والنقص في كلا البيتين ليس فيهما كبير فائدة .

ومن الثاني قوله :

يَدُلُّ عَلَى فَضْلِ المَمَاتِ وَكَوْنِهِ إِرَاحَةَ جِسْمٍ أَنَّ مَسْلَكَهُ صَعْبُ (٣)

وقوله :

وَيَدُلُّنِي أَنَّ المَمَاتَ فَضِيلَةٌ كَوْنُ الطَّرِيقِ إِلَيْهِ غَيْرَ مُيَسَّرِ (٤)
لَوْلاَ نَفَاسَتُهُ لَسَهَّلَ نَهْجَهُ كَأَذَى الضَّعِيفِ عَلَى لَئِيمٍ المَكْسِرِ

وقوله :

تَكَادُ سُيُوفُهُ مِنْ غَيْرِ سَلٍّ تَجِدُّ إِلَى رِقَابِهِمُ انْسِلاَلاَ (٥)

وقوله :

---

(١) اللزوميات هـ ص ١٤٥ .

(٢) اللزوميات هـ ص ١٤٣ .

(٣) اللزوميات هـ ص ٣٠ .

(٤) اللزوميات ﺿ ص ١٥٨ .

(٥) البيت في السقط وليس من لزومياته ؛ انظر شروح سقط الزند ق ١ ص ٤٤ .

سُيُوفُهُ تَعشَقُ الرِّقَابَ فَمَا يُنجِزُ حَتَّى اللِّقَاءِ مَوْعِدُهَا (١)

يَكَادُ مِنْ قَبْلِ أنْ يُجَرِّدَهَا يَعتَنِقُ الدَّارِعِينَ مُغْمَدُهَا

فإنه استدل في البيت الأول على فضل الموت وعلى أن فيه إراحة للجسم بصعوبة طريقه ؛ واستدل في البيتين اللذين ذكرا بعده على فضل الموت ونفاسته بصعوبة الطريق ؛ وليس في البيت الأول تشبيه سهولته بأذى الضعيف على لئيم الأصل ، ولا في البيت الثاني والثالث ذكر لإراحة الجسم .

والبيت الأول يدل دلالة عامة شاملة لكل أحد ؛ والثاني يدل المتكلم فقط ، كما تقتضيه صيغة « يدلني » .

وكذلك البيت الرابع يدل على أن سيوفه تكاد تصل الى رقاب أعدائه من غير أن تسل من أغمادها . والبيت الخامس والسادس يدلان على أن السيوف تعشق الرقاب . . وتكاد تعتنق الدارعين من غير سل . وفيهما زيادة جميلة حسنها ذكر العشق ، وتجوز الموعد واللقاء ، والاعتناق والدارعين .

وكذلك قوله :

كَأَنَّمَا الخيرُ مَاءٌ كَانَ وَارِدَهُ

أَهلُ العُصُورِ فَمَا أبقَوا سِوَى العَكَرِ (٢)

وقوله :

كَأَنَّ دُنيَاكَ مَاءُ حَوضٍ آخِرُهُ آجِنٌ خَبِيطُ (٣)

---

(١) البيتان كسابقيهما ، هما في السقط ؛ انظر شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٨٣٠ .

(٢) اللزوميات هـ ص ١٥١ .

(٣) اللزوميات هـ ص ١٧٦ .

فإن البيت الأول في الخير فقط ، والثاني في الدنيا كلها ؛ وبيْن البيتين فرق كبير في إيجاز اللفظ ، وحسن الأداء ، وعموم المعنى . ومن هذا القبيل قوله :

كَمْ بُودِرَتْ غَادَةٌ كَعَـابُ وَغُودِرَتْ أُمُّهَا العَجُوزُ[1]

وقوله :

لَيْسَ بالسِّنِّ تُستَحَقُّ المَنَايا كَمْ نَجَا بَازِلٌ وَعُوجِلَ بَكْرُ[2]

فإن في البيت الثاني زيادة ، وهي قوله : « ليس بالسن . . » وهي كزيادة العقد النفيس في الجيد الجيّد . وإذا تأملت أكثر الأبيات التي قيل : إنها مكررة في شعره تجد بين البيت والثاني فروقاً دقيقة في اللفظ والمعنى ؛ ولا أذكر له بيتاً كرر معناه من غير زيادة أو إيجاز مستحسن ؛ وهذا لا يضير أبا العلاء ولا يخالف سنة البلغاء ، فقد أجازوا للشاعر أن يأخذ من معاني شعر غيره ، وإذا أجاد جعلوا ذلك من المستجاد ، وفضلوه على سابقه . يدلنا على ذلك أن بشار بن برد قال :

مَن رَاقَبَ النَّاسَ لَمْ يَظْفَرْ بِحَاجَتِهِ وَفَازَ بالطَّيِّبَاتِ الفَاتِكُ اللَّهِجُ

وهو بيت شريف المبنى صحيح المعنى . ثم جاء سلم الخاسر فتصرف فيه وقال :

مَنْ رَاقَبَ النَاسَ مَاتَ غَمّاً وَفَـازَ بِاللَّذَّةِ الجَسُورُ

فاستحسن الناس قوله لأنه أوجز لفظا ، وأرشق تأليفا ، وأكثر طلاوة ،

---

(١) ملقى السبيل تحقيق كامل كيلاني .

(٢) اللزوميات ﮪ ص ١٣٤ .

وأوفر مبالغة . وفضلوه على قول بشار ؛ وكتب لبيت سلم الرواج والشهرة والسيرورة في الآفاق ، وكتب لبيت بشار الإهمال والإخمال . وأمثال هذا كثير في الشعر العربي . وإذا كان هذا شأن المعنى من شعر شاعرين مختلفين فهل يضير أبا العلاء أن يأخذ من شعره معنى ويفرغه في قالب آخر من اللفظ ، ويكون بين الأول والثاني شيء من الفروق التي ذكرنا بعضها ؟ .

وعلى هذا لا نستطيع أن نثبت المكرر في شعر أبي العلاء ، ولا أن نعيبه بما توهمنا أن فيه تكرارا .

المبالغة في شعره في اللزوم

من طبيعة الأغراض والمقاصد التي ألم بها في (لزوم ما لا يلزم) أن تكون بعيدة عن المبالغة والإغراق والغلو ؛ ولكن أبا العلاء تأثر بهذه الطريقة التي كان أهل عصره عامة ينهجونها ويستعذبونها ، فلم يخل شعره منها في المواطن التي يجد فرصة لها . من ذلك قوله :

إِذَا حَانَ وَقْتِي فَالْمُثَقَّفُ طَاعِنِي ... بِغَيْرِ مُعِينٍ وَالْمُهَنَّدُ ضَارِبِي (١)

وقوله :

لَوْ قَامَ أَمْوَاتُ الْعَوَاصِمِ وَحْدَهَا ... مَلأُوا البِلاَدَ حُزُونَهَا وَسُهُولَهَا (٢)

وقوله :

مَـا فِي بَنِي آدَمٍ غَنِيٌّ ... بَلْ كُلُّهُمْ مُقْتِرٌ عَدِيمُ (٣)

---

(١) اللزوميات هـ س ٤٥ .

(٢) اللزوميات هـ س ٢٠٧ .

(٣) اللزوميات هـ س ١٣٤ .

وقوله :

فَصَمْتاً إنْ أرَدْتُمْ أوْ مَقَالاً   فَمَا في هَذِهِ الدنْيَا تَقِيٌّ [١]

ومن هذا القبيل قوله : « مـا في البرية جيد » . « ويفقد في الأنام الطاهر » . « ما كان في الأرض من خير ولا كرم » . وامثال ذلك مما سيأتي .

البديع في شعره في لزوم مالا يلزم

ذكرنا فيما تقدم أن لأبي العلاء ولعاً شديداً بالصناعات البديعية ، ولا سيما الجناس ، والطباق والمقابلة ، والتورية ، ومراعاة النظير وغيرهـا . وهذه أمثلة من كلامه :

حسن المطلع : وهو أول بيت من أول قصيدة في لزوم ما لا يلزم :

أولُو الفَضْلِ في أوْطَانِهِمْ غُرَبَاءُ   تَشِذُ وَتَنْأى عَنْهُمُ القُرَبَاءُ [٢]

الالتفات :

صَدَقَ الطَّبِيبُ عَنِ الطَّعَا   مِ وَقَالَ مَأكَلُهُ يَضُرُّ [٣]
كُلْ يَا طَبِيبُ وَلاَ خَلاَ   صَ مِنَ الرَّدَى فَلِمَنْ تَغُرُّ

الجناس التام :

لاَ يَصْبِرَنَّ فَقِيرٌ تَحْتَ فَاقَتِهِ
إنَّ السَّبَارِيتَ جَابَتْهَا السَّبَارِيتُ [٤]

(١) اللزوميات هـ ص ٣٤٣ .
(٢) اللزوميات هـ ص ٣٠ .
(٣) اللزوميات هـ ص ١٣٣ .
(٤) اللزوميات هـ ص ٥٩ .

السباريت الأولى : جمع سُبْروت أو سِبْريت : الأرض التي لا ينبت فيها شيء ؛ والفلاة التي لا شيء بها . والسباريت الثانية : جمع سُبْروت أو سِبْريت : الرجل الفقير المحتاج .

الجناس المطلق

وَمَا تَمْنَعُ الْخَوْدَ الحَصَانَ حُصُونُها ... وَلَوْ أنَّ أَبْراجَ السَّماء بُرُوجُها[1]

الجناس المركب :

زَوَانِيَ خَوْفُ الْمُقَامِ الذَّمِيـــمِ عَنْ أنْ أكُونَ خَليلَ الزَّواني[2]

وهذا النوع كثير في شعره .

الجناس القطعي :

وقوله :

جَيْبُ الزَّمانِ عَلَى الآفاتِ مَزْرُورُ

مَـــا فِيهِ إلا شَقِيُّ الجَدِّ مَضْرُورُ[3]

الجناس المصحف :

أسِيتُ إذْ غابَتِ الأحْجالُ والغُرَرُ ... وإنَّمَا النّاسُ في أيامِهِمْ غُرَرُ[4]

الجناس المذيل :

وَكَمْ جَنَتِ المَعَاصِمُ مِنْ مَعَاصٍ ... تَعُودُ بِها المَعَاضِدُ مُعْصَمَاتِ[5]

---

(١) اللزوميات ٥ ص ٧٤ .

(٢) اللزوميات ٥ ص ٢٨٢ .

(٣) اللزوميات ٥ ص ١٢٣ .

(٤) اللزوميات ٥ ص ١٢١ .

(٥) اللزوميات ٥ ص ٦٨ وطبعة زند ص ١٩١ وفي الأصل : المعاضد مُعْضَدَاتِ .

الجناس المطرف :

بَوارِقُ لِلْحابِ لا لِلسّحابِ   طَرِبْتُ إلى ضَوْءِ لَمّاحِها[(١)]

. . .

كأنّكَ عن كَيْدِ الحَوادِثِ راقدٌ   وَما أمِنَتْهُ في السّماءِ الفراقِدُ[(٢)]

الجناس المضارع :

لَمْ يَكُنْ لي عَرشٌ فَيُثْلَمَ عَرْشي   كَمْ جُرُوحٍ جَرِحتُها ذَاتِ أرْشِ[(٣)]

الجناس اللاحق :

هي المُنتَهى والمُشتَهى وَمَعَ السُّهَا   أمانيُّ مِنْها دُونَهُنّ العَظائِمُ[(٤)]

التسميط :

مُحصي الجرائمِ فَعّالِ العَظائِمِ نَضّـــارِ الهَضائِمِ جازٍ غيرِ ظَلاّمِ[(٥)]

التصدير :

قَدْ بَدّلَ العَالَمُ عاداتِهِمْ   بَلْ قَدّرَ مِنْ فَوقِهِمْ بَدّلا[(٦)]

التورية :

يُهَوّدُ باغِي الحاجِ واللّيلُ مُسْلِمٌ   عَلى كُفْرِهِ والأرْضُ في زِيِّ راهِبِ[(٧)]

. . .

إذا قُتِلَتْ خافَ الرّشادُ جِنايَةً   فكانَ مِنَ الفِتْيانِ أوّلَ هارِبِ[(٨)]

---

(١) اللزوميات هـ ص ٨٦ .
(٢) اللزوميات هـ ص ٩٠ .
(٣) اللزوميات هـ ص ٢٢٨ .
(٤) اللزوميات هـ ص ٢٣٠ .
(٥) اللزوميات هـ ص ٢٥٠ .
(٦) اللزوميات هـ ص ٢٠٨ .
(٧) اللزوميات هـ ص ٤٧ .
(٨) اللزوميات هـ ص ٤٦ .

الطباق :

أُصْدُقْ إلى أنْ تَظُنَّ الصِّدقَ مَهلَكةً
وبَعْدَ ذَلِكَ فاقْعُدْ كاذباً وَقُمِ [١]

المقابلة :

يَظَلُّ نَبيهٌ غائِباً مِثْلَ شاهِدٍ وَخامِلُ قَومٍ شاهِداً مِثلَ غائِبِ [٢]

• • •

وَلِجسْمي إلى التُّرابِ هُبُوطٌ وَلِرُوحي إلى الهَواءِ صُعُودُ [٣]

التلميح :

شِيَعٌ أَجلَّتْ يَومَ خُمٍّ وانثَنَتْ أُخرى تُعارِضُها بيَومِ الغارِ [٤]

التسهيم :

إنَّ أذاها مِثلُ أفعالِنا ماضٍ وَفي الحالِ وَمُستَقبَلُ [٥]
أَجبَلَتِ الأبحُرُ في عَصرِنا هَذا كَما أَبحَرَتِ الأجبُلُ

تجاهل العارف :

أَيُوجَدُ في الوَرَى نَفَرٌ طَهارَى أَمِ الأقوامُ كُلُّهُمُ رُجُوسُ [٦]

---

(١) اللزوميات هـ س ٢٤٨ وفيها : « وعند ذلك ... » .
(٢) اللزوميات هـ س ٤٦ .
(٣) اللزوميات هـ س ١٠١ .
(٤) اللزوميات هـ س ١٦٤ .
(٥) اللزوميات هـ س ٢٠٠ .
(٦) اللزوميات هـ س ٢١٤ .

التصريع :

لا تُحْدِثِ القَطعَ في كَفٍ ولا قَدَمٍ
وَلا تعَرّضْ مَدى الدُّنيـا لِسَفْكِ دَمٍ (١)

مراعاة النظير :

أوَمَا قرَأتَ سِجِلَّ دَهْرِكَ نَاطِقًا بالهُلْكِ يُشْكَلُ بالخُطُوبِ ويُنْقَطُ (٢)

• • •

وكَمْ أنذَرَتْنَا بالسُّيولِ صَوَاعِقٌ وكَمْ خَبَّرَتْنَا بالغَمامِ رُعُودُ (٣)

معاتبة المرء نفسه :

لا تُطِيعِي هَوَاكِ أيَّتُها النَّفْـــسُ فَنُعْمَى المَلِيكِ فِينَا رَبِيبَهْ (١)

التذييل :

وَلاَ تجْلِسْ إلى أهْلِ الدَّنَايَا فَإنَّ خَلاَئِقَ السُّفَهاءِ تُعْدِي (٤)

• • •

لا حَظَّ في الدُّنيا لِعَالي هِمَّةٍ والوَحْشُ أفْضَلُ صَيْدِها الأعْيَارُ (٦)

---

(١) اللزوميات هـ س ٢٤٧ .
(٢) اللزوميات هـ س ١٧٧ .
(٣) اللزوميات هـ س ٩٠ .
(٤) اللزوميات هـ س ٤٢ .
(٥) اللزوميات هـ س ١١١ .
(٦) اللزوميات هـ س ١٣١ .

المشاكلة :

جَسَدِي خِرْقَةٌ تُخَاطُ إلى الأرْ ... ضِ فَيَا خَائِطَ العَوالِمِ خِطْني (١)

التغاير :

وَيَدُلُّني أنَّ المَمَاتَ فَضِيلَةٌ ... كَوْنَ الطَّرِيقِ إليهِ غَيرَ مُيَسَّرِ (٢)

لَوْلا نَفَاسَتُه لَسَهُلَ نَهجُهُ ... كَأذى الضَّعِيفِ عَلى لَئِيمِ المَكْسِرِ

الاستدراك :

تُحَطِّمُنَا الأيامُ حَتّى كَأنَّنَا ... زُجَاجٌ وَلكِنْ لا يُعادُ لَنَا سَبْكُ (٣)

• • •

مَا لِباسُ التَّقْوَى على النَّاسِ لَكِـ ... ـنْ ثِياباً عَلى الخَنَا مَزْرُورَهْ (٤)

الكلام الجامع :

إذَا نَزَلَ المِقْدَارُ لَمْ يَكُ لِلْقَطَا ... نُهُوضٌ وَلا لِلْمُخْدَرَاتِ إبَاءُ (٥)

ارسال المثل :

هذا النوع كثير في (لزوم ما لا يلزم) ، منه قوله :

قَدْ شُيِّدَ القَصْرُ لِسُكَّانِهِ ... وَغَيْرُ مَنْ يَسْكُنُهُ الشَّائِدُ (٦)

• • •

(١) اللزوميات ـ ص ٢٨١ .

(٢) اللزوميات ـ ص ١٥٨ .

(٣) اللزوميات ـ ص ١٨٢ . وفيها : « يحطمنا ريب الزمان كأننا » . « ... له سبك »

(٤) اللزوميات ـ ص ١٤٥ .

(٥) اللزوميات ـ ص ٢٠ .

(٦) اللزوميات ـ ص ١٠٠ .

مَنْ يُدْنِ للشَّاكَةِ أثوَابَهُ ... يُصِبْهُ مِنْها غُصُنٌ هَارِدُ[١]

• • •

والشَّرُّ يَجْلِبُهُ العَلاَءُ وكَمْ شَكا ... نبأٌ عَلِيٌّ مَا شَكاهُ قَنْبَرُ[٢]

سلامة الاختراع :

في (لزوم ما لا يلزم) كثير من المعاني التي ابتكرها أبو العلاء ، ولم يسبقه اليها سابق ؛ منها قوله :

وَلَوْ يُرْجَى مَعَ الشُّرَكاءِ خَيْرٌ ... لَمَا كانَ الإلَهُ بِلاَ شَرِيكِ[٣]

وقوله :

أرَى جُرَعَ الحَيَاةِ أمَرَّ شَيْءٍ ... فَشاهِدْ صِدْقَ ذَلِكَ إذْ تُقَاءُ[٤]

وقوله :

عُمْرِي غَدِيرٌ كُلُّ أنفَاسِي بِهِ ... جُرَعٌ تُغَادِرُهُ كأمْسِ النَّاضِبِ[٥]

وقوله :

أرْوَاحُنَا مَعَنَا وَلَيْسَ لَنَا بِهَا ... عِلْمٌ فكَيْفَ إِذَا حَوَتْهَا الأقْبُرُ[٦]

وقوله :

---

(١) اللزوميات هـ ص ١٠٠ .

(٢) انظر ما سبق ص ٩٤٢ .

(٣) انظر ما سبق ص ٩٤٢ .

(٤) اللزوميات هـ ص ٢٣ .

(٥) اللزوميات هـ ص ٥١ .

(٦) انظر ما سبق ص ١١٤٤ و ١١٥٨ .

أحسِنْ جِوارًا للفتَاة وَعُدَّهَا أختَ السِّماكِ علىٰ دُنُوِّ الدارِ[١]

كتَجاوُرِ العَيْنَيْنِ لَنْ تتَلاقَيا وَحِجازُ بَيْنَهما قصيرُ جِدارِ

وقوله :

احْذَرْ سليلك فالنّـــارُ التي خَرَجَتْ

مِنْ زَنْدِهَا إنْ أَصَابَتْ عُودَهُ احترَقا[٢]

وقوله :

بَدْءُ السَّعَادَةِ أنْ لَمْ تُخلَقِ امْرأةً

فَهَلْ تَوَدُّ جُمَادَى أنها رَجَبُ[٣]

نسخ لزوم ما لا يلزم التي وصلت الينا

مرت أيام طويلة ، كانت نسخ هذا الديوان فيها أعز من الأبلق العقوق ، وأعز من بيض الأنوق ، وأندر من الكبريت الأحمر ؛ بل كانت كالعنقاء لا يعرف غير اسمها . ثم قيض الله رجلاً من أدباء الهند فطبع منه نسخة[٤] ، فانتشرت في بعض الأصقاع العربية . رأحب جماعة من أدباء مصر أن يطبع هذا الديوان طبعاً جيدا ، فكلفوا رجلا يقال له : عزيز زند ؛ فوقف على طبعه ، وشرح كثيراً من أبياته ورأى النسخة الهندية طافحة بالخلل والزلل ، فلم يقتصر عليها ، وحصل على نسخة خطية قديمــة من سنة ٦٣٣ هـ أضبط وأحكم من النسخة الهندية ؛ فجاء هذا الكتاب على ما يرام . هذه خلاصة ما قاله الطابع والشارح في مقدمة الطبع .

(١) اللزوميات هـ ص ١٦٤ .

(٢) اللزوميات هـ ص ٣٠٣ .

(٣) اللزوميات هـ ص ٣٢ .

(٤) هي النسخة التي نحيل عليها ، ونرمز لها بحرف هـ ، وقد صححها — عن مخطوطة كتبت سنة ٦٣٩ هـ — أمين بن حسن الحلواني المدني ، وكتبها الميرزا حسين البهائي ، وطبعت على الحجر في بمباي بالهند في المطبعة الحسينية سنة ١٣٠٣ هـ .

وقد اطلعت على النسخة الهندية فرأيتها كما وصف . واطلعت على النسخة المطبوعة في مصر ، فوجدتها طافحة بالأغلاط ، جامعة لصور مختلفة من التحريف والزيادة والنقص ، مكتظة بألوان غريبة من الخطأ والعبث في ضبط الألفاظ . وقد زادها ضغثاً على إبالة تفسير الشارح بعض الألفاظ تفسيراً لا يتفق مع معانيها اللغوية ، ولا مع ما يريده أبو العلاء منها .

الزيادة :

وقد جاءت أبيات فيها زيادة في الوزن : إما زيادة حرف ، كقوله في (ج ١ ص ٣٧٣)[1] :

وَلَـمْ يَصْنَعُوا (أشياء) وَلكِنْ تَنَازَعُوا
أباطِيلَ تَضْحي مثْلَ هَامِدَةِ الجَمْرِ

وقوله في (ج ١ ص ٣١٠) :

وَكَنْزُكَ في الغَبْراء (و) لا بُدَّ ضَائِعٌ . . . .

وقوله في (ج ٢ ص ١٣٧) :

إنْ (تشكو) قَطْعَ طَرِيقٍ . . . .

وإما زيادة كلمة ، كقوله في (ج ١ ص ٣٠١) :

تَعَمَّدَهُ يُغْنِكَ بالهَـــدْيِ أن تُدرَسَ مُغْنِيَهُمْ (ولا) العُمَدَ

وقوله في (ج ٢ ص ٢٢٢) :

وَقدْ ضَنَنْتَ بشاة وَهْيَ فارِدَةٌ عَلى أزَلَ فقيدِ المالِ(قوت)عَتالِ

---

(١) من اللزوميات ط عزيز زند التي وصفها المؤلف آنفاً وقد طبعت بمطبعة « المحروسة » بمصر سنة ١٨٩١ ـ ١٨٩٥ م ، وكان قد آزر في اخراج هذه الطبعة بابي نونس وسلطان زنجبار وغيرهما .

والصواب في البيت الأول : « يصنعوا شيئاً ولكن [١] » أو « يصنعوا أشياء لكن . . » وفي الثاني : « في الغبراء لا بد . . » وفي الثالث : « مغنيهم والعمد » وفي الرابع : « فقيد المال عـال » .

النقص :

وجاءت أبيات فيها نقص في الوزن : إما نقص حرف ، كقوله في (ج ١ ص ٣١١) :

سَمَاحُكَ (مجهلٌ) وَبُخْلُكَ واضحٌ . . . .

وإما نقص كلمة ، كقوله في (ج ٢ ص ١٢٠) :

يُخادِعُ مَلْكُ (الأرضِ إذا) أتتْ مَنِيَّتُه لم تُغْنِ عَنْه مَخَارِقُهْ

وقوله في (ج ١ ص ٣٥١) :

وإنْ سألوا عَنْ مذهبي (..) خَشْيَةٌ مِنَ اللهِ لا طَوْقاً أُبِتُّ ولا جَبْرَا

والظاهر أن الأول « مجهول » [٢] . وأن الوزن والمعنى إنما يستقيمان في البيت الثاني بمثل « حتى إذا أتت » [٣] وفي البيت الثالث : بمثل « فهو خشية » [٤] .

وأما التحريف :

فكقوله في (ج ٢ ص ٢٠٠) : « جِرْمُكَ يا ثُعالَهْ » والصواب « جَرْوُكَ » .

وقوله في (ج ١ ص ٣٧٦) :

(رَفِيقُكَ) أسرَى في يَدَيكَ فَلاَ تَكُنْ . . . .

وكقوله في (ج ٢ ص ٢٧٠) :

و(النون) في حُكْمِ الخَواطِرِ مُحْدَثٌ . . . .

---

(١) هي كذلك في اللزوميات هـ ص ١٤٦ .

(٢) هي كذلك في اللزوميات هـ ص ١٢٠ .

(٣) هي كذلك في اللزوميات هـ ص ٢٩٩ .

(٤) هي كذلك في اللزوميات هـ ص ١٣٦ .

والصواب في البيت الأول : « رقيقك » وفي الثاني : « والنور في » .

وأما التصحيف : فكقوله في (ج ١ ص ٢٥٨) :

يَشْدُو مزاميرَ داوُدٍ وَيَفصلُه . . . .

وقوله في (ج ٢ ص ١٤٣) :

دَعِ النَّاسَ واصْحَبْ واخْشَ بَيْداءَ قَفْرَةٍ . . . .

والصواب في الأول : « ويفضله » وفي الثاني : « واصحب وحش بيداء . . » .

وأمثال هذا كثير ؛ منه قوله في (الجزء الأول ص ٢٥٠) : ما أوْتادها وَتِدٌ . والصواب : « من أوتادها . . » .

وقوله في (ج ١ ص ٣١٦) : والشــرُّ في الإنسِ مَثْبُوتٌ . والصواب : مبثوث .

وقوله في (ج ١ ص ١١٤) : أهيثما جرت . . . والصواب : « أهشيا » .

وقوله في (ج ص ١٢٧) : برق جليبب . . . والصواب : « جليب » .

وتجد أمثال ذلك في (الجزء الأول ص ١٤٤ و ١٧٧ و ١٨٤ و ١٩٥ و ٢٠٥ و ٢١٦ و ٢١٨ و ٢٤٠ و ٢٤٤ و ٢٥٨ و ٢٧٢ و ٣٣٢ و ٣٥٧ و ٣٩٧ و ٤٠١ و ٤٣١) .

ومنه قوله في (الجزء الثاني ص ٢٤١) : الزنجيل ، والصواب : « الزنجبيل » .

وقوله في (الجزء الثاني ص ٣٥٠) : أخَذْتَ اللب ، والصواب : « أخذْن » .

وقوله في (الجزء الثاني ص ٣٢٨) : القواعد والمدغم ، والصواب : « المدعم » .

وقوله في (الجزء الثاني ص ٣٧٦) : في فَمِ الحَيَاةِ ، والصواب : « الحيات » .

وتجد كثيراً من أمثال هذا في الجزء المذكور في (ص ٨ و ٢٤ و ٤٠

و ٦٤ و ٩٣ و ١٠٩ و ٢٣٠ و ٢٣٣ و ٢٤٧ و ٢٥٨ و ٢٧٢ و ٢٧٨ و ٢٩٥ و ٣٣٤ و ٣٨٣ و ٤١٤ و ٤٣٠) .

وقد يجوز أن يكون التحريف أو الزيادة أو النقص من خطأ المطبعة أو الناسخ ، ولكن هناك كلمات قبلها الشارح وشرحها شرحاً أبعدها عن مطابقة الحقيقة ، وعن موافقة مراد الشاعر كقوله في (ج ٢ ص ٣٨٣) :

أَقْتَاتُ مِنْ طَيِّبِ النُّهَاتِ وَهَلْ   يَسْلَمُ عُودُ الْفَتَى مِنَ الأُبَنِ

ولعل الصواب : « من طيب النبات . . » . ولكن الشارح رواها النهات [١] ، وقال : النهات : النهاق ، والأسد ، والزّحار هكذا رواه وهكذا شرحه . والنهاق : الحمار ، والزحار : جاء لمعان منها : إخراج الصوت بأنين ، واستطلاق البطن ، وداء يأخذ البعير فيزحر منه حتى ينقلب سرمه . فانظر الى هذا الشارح كيف جعل قوت أبي العلاء حماراً ، أو أسداً أو زحاراً ؛ وهو يعلم أن أبا العلاء لا يأكل حيواناً مهما كان ولا ما تولد من حيوان .

الشرح والتفسير

لشارح (لزوم ما لا يلزم) [٢] في شرح الكلمات وتفسير الأبيات وما يتعلق بها آيات هن غايات في الغرابة والبعد عما يريده الشاعر . منها قوله في (الجزء الأول في ص ٥٠) : « الإقواء اختلاف إعراب القوافي » ثم قوله في (ص ٥١) : « الإكفاء هو الإقواء بعينه وقد مر تفسيره » . وكلاهما غير صحيح ، لأن الإقواء : اختلاف حركة الروي المطلق بالكسر والضم فقط ، وكلامه يشمل غيرهما . والإكفاء : اختلاف الروي بحروف متقاربة في المخارج . وقد ذكر ذلك أبو العلاء في المقدمة (ص ١٩ و ص ٢٥) [٣] .

وقوله في (ج ١ ص ٦٤) :

خُذُوا حَذَراً مِنْ أَقْرَبِينَ وَجَانِبٍ   . . . .

(١) وكذلك اللزوميات ه ص ٢٨١ .

(٢) عزيز زند في طبعة القاهرة ١٨٩١ ـ ١٨٩٥ م .

(٣) من طبعة عزيز زند ، أما في طبعة ه ففي ص ٧ و ١٠ .

قال الشارح : « الجانب الذي لا ينقاد ، جمعه جُنّاب والمعنى : احترسوا من لدغات الأقارب والصعب الجانب . . » . والمراد بالجانب هنا الغريب ، قال في اللسان : ورجل جانب وجنب غريب ، وهو المقابل للأقربين .

وقوله في (ج ١ ص ١٦٥) : « الظبيات : بفتح الباء جمع ظبي » . وهو خطأ لأنه جمع ظبية . وقوله في (ج١ ص ٧٠) :

أَقِيمي لا أعُدُّ الحجَّ فَرضاً   عَلَى عَجُزِ النّساء ولا العَذَارَى

ضبط عجز بفتح فضم . . ثم قال : « والعجز : العجيزة وهو المراد هنا » وما أبعد هذا المعنى عن مراد الشاعر هنا . والعُجُز هنا بضمتين : جمع عجوز وهي المرأة الشيخة الهرمة ، وهذا المعنى هو الموافق لمقابلة العذارى .

وقوله في (ج ١ ص ١٤٣) : تَقْضي لِنَاعيها عَلَى زريابها . قال : «الزرياب .. الذهب . . » . وزرياب علي بن نافع المغني المشهور مولى المهدي ومعلم ابراهيم الموصلي ، وكان شاعراً مطبوعاً وأستاذاً في الموسيقا ، وعنه أخذ الناس . وهو مراد أبي العلاء هنا ليقابل الناعي .

وقوله في (ج ١ ص ١٩٦) :

قَد يَحوزُ الخبُّ الشحيحُ جَبَا الما   ء ولا يستَحِقُّ نَضْحَ لَبَاتِه

قال الشارح : « الخب : بفتح الخاء الجبل من الرمل اللاطىء بالأرض ، وسهل بين حَرَّتَيْن تكون فيه الكمأة » . وقوله : الجبل ، خطأ والصواب : الحبل من الرمل ، بالحاء والباء . وهذا لا يوافق مراد الشاعر ، لأن مراده أن الخِب أي الخبيث الخداع يحوز حوض الماء وهو لا يستحق أن يبل لهاته منه .

وقوله في (ج ١ ص ٢٠٥) :

جَماجِمُ أمثَالُ الكُراتِ هَفَتْ بِها   سُيوفٌ ثناهَا الضربُ وَهْيَ صَوَالِجُ

قال الشارح : « جمع صولج وهو الفضة » . وهذا المعنى لا يناسب هنا ، وإنما يلائم المقام أن تكون صوالج جمع صولجان أو صولج ، وهي عصا يعطف طرفها وتضرب بها الكرات على الدواب .

وقوله في (ج ١ ص ٢١٢) :

لا فرقَ بَيْنَ الأَسَكِّ الجونِ أُطْلِقَهُ وَجَوْنِ كِنْدَةَ أَمْسَى يَعْقِدُ التَّاجا

[كِلاهُما يَتَوَقَّى والحياةُ لهُ حبيبةٌ ويَرومُ العَيْشَ مُهْتاجا]

قال الشارح : « الجون هنا : الأبيض وكندة اسم بلد ، والمراد بجون كندة الدرهم » . وهذا كله خطأ ، لأن المراد بالجون الأسكّ البرغوث ، وبالجون الثاني لقب معاوية بن حجر بن عمرو بن الحرث . . . بن ثور بن كندة وهو أبو بطن منهم ، وهذا يتأتى منه التوقي وحب الحياة وطلب العيش .

وقوله في (ج ١ ص ٢٧٩) :

وما النّاسُ إلا خائفُو اللهِ وَحْدَهُ إذا وَقَعَ النَمِّيّ في كَفِّ ناقِدِ

قال الشارح : « هكذا في الأصل ، ولم نر في القاموس النمي ، لكن رأينا أنمياً وهو حشية فيها تبن » اهـ والنمي : الفلس بالرومية ، وقال بعضهم : ما كان من الدراهم فيه رصاص أو نحاس فهو نُمّيّ . وكانت بالحيرة على عهد النعمان بن المنذر . وهذا المعنى يلائم كف الناقد أكثر من حشية التبن . وقد ذكره في القاموس في نَمَّ وفي نَمَى وذكرها الشارح نفسه في (ج ١ ص ٣٤١) فتأمل .

وقوله في (ج ١ ص ٣٠٦) :

لِقاؤُكَ ما فيهِ لِمِثْلِيَ خِيرةٌ وَلا لَكَ فانظُرْ أينَ يُلْتَمَسُ الشَّبْرُ

قال الشارح : « الشبر النكاح »[1] ولا ننكر أن النكاح من جملة معاني الشبر ، ولكنه لا يلائم ما قبله من الأبيات ولا يوائم حالة أبي العلاء ، لأنه لا ينكح

(١) وكذلك جاء في هامش اللزوميات « ص ١١٨ .

ولا يطلب منه أن ينكح . وللشبر معان أخر منها الخير والعطية ؛ ومن الخير حمله على الخير ليستقيم المعنى .

وقوله في (ج ١ ص ٣٠٩) : وفي سمعِهِ وقْرُ ؛ قال الشارح : « الوقر الحمل الثقيل » . والصواب : الوقر الثقل في السمع أو ذهابه كله[1] .

وقوله في (ج ١ ص ٣٦٥) :

نَأَى عَنْهُ النَّسِيسُ فَقَدْ تَسَاوَى لَهُ لَمْسُ الْحَدِيدَةِ وَالْحَرِيرَهْ

قال الشارح: « نسيس الإنسان مجهوده » والأحسن هنا أن يراد بالنسيس بقية الروح.

وقوله في (ج ١ ص ٣٧١) :

أَدْفِئُوا بِالطِّعَانِ بَيْنَ التَّرَاقِي وَالْحَوَايَا أَسِنَّةً مَقْرُورَهْ

قال الشارح : « قوله : مقرورة ، الظاهر أنه من قر القدر إذا صب فيها الماء » . وليس هذا الظاهر بظاهر ، بل الظاهر أن معنى مقرورة أصابها القر أي البرد ، أي باردة ، وهو الملائم لقوله : « أدفئوا » ، إلى غير ذلك مما يجده الباحث في الجزء الأول .

وأما الجزء الثاني فليس بأقل من الأول نصيباً من تلك الغرائب ، فمن ذلك قوله في (ج ٢ ص ٤٠) :

. . . . وَنَوَى الْأَوَانِسِ غَايَةُ الْإِينَاسِ

جعل الشارح الأوانس جمع أنيسة ، والصواب : أنه جمع آنسة .

وقوله في (ج ٢ ص ١١٦) :

وُجُوهُكُمْ كُلُفٌ وَأَفْوَاهُكُمْ عِدًى وَأَكْبَادُكُمْ سُودٌ وَأَعْيُنُكُمْ زُرْقُ

قال : « العِدى : كل خشبة بين خشبتين ، وحجر رقيق يستر به الشيء » . ولا يلائم هذا المعنى بقية البيت .

---

(١) في الصفحة ٣٠٩ من ج ١ المشار إليها هنا جاء بيت عجزه « على ملكه إلا وعسكره وقر » فقال الشارح : الوقر الحمل الثقيل أو دائم ؛ ثم جاء بيت آخر عجزه « وفي لبه ضعف وفي سمعه وقر » فقال الشارح : مصدر وقرت اذنه إذا ثقلت أو ذهب سمعه كله وصمّت . فلعل المؤلف رحمه الله قد وهم في نقده الشارح هنا .

وقوله في (ج ٢ ص ٢٤٤) :

وَيُغْنِيكَ عَنْ طَرْحٍ فَالٍ يَعُو ... دُ باليَمْنِ طَعْنُكَ في الفَائِلِ

قال الشارح : « أي في الطير الذي تفاءلت به » . ولا يناسب المقام هذا المعنى إن صح . والظاهر أن المراد بالفائل عرق في الفخذ ، أو اللحم الذي على خُرْب الورك .

وقوله في (ج ٢ ص ٢٥٨) في الديك :

وَرِثتَ هُدى التّذْكارِ مِنْ قَبْلِ جُرْهُمٍ ... أوانَ تَرفّتْ في السّماءِ النّعَائِمُ

قال الشارح : « النعائم : النعام ، ورفّ الطائر بسط جناحيه ، وهو غير مستعمل ، وإنما المستعمل « رفرف » وأرفت الدجاجة على بيضها بسطت جناحيها عليه . » . ولا أعلم ما يتحصل من المعنى على هذا الشرح . وأظن أن ترفّت بالفاء خطأ والصواب : « ترقت »[1] .والنعائم : من منازل القمر ، ثمانية كواكب كأنها سرير معوج ، ويقال لها النعام ، وهي المرادة هنا . وفي هذه الصفحة فسر « التوائم » و « تريك نعام » بما لا يوافق المقام .

وقوله في (ج ٢ ص ٣٩٢) :

ظَنّ ارْتِقَـاءَ بِكُمْ جَاهِلٌ ... وكُلُّـكُمْ في ضَبِبٍ تَهْبِطُونْ

قال الشارح : « يقال : مكان ضبب : أي فيه ضباب كثيرة » . ولا معنى له هنا ، وأظن أن الصواب : في صبب بالصاد المهملة ، أي موضع منحدر . قال في (اللسان) والصبب : تصوّب نهر أو طريق يكون في حدور .

(١) هي كذلك (ترقت) بالقاف في طبعة هـ ص ٢٣٠ .

وقوله في (ج ٢ ص ٤١٦) :

فَخُذْ مِنْهَـــا بِمَا أَدَّاهُ لُبٌّ وَلاَ يَغْمِسْكَ جَهْلٌ فِي صَرَاهَا

قال الشارح : « الصرى : ما اجتمع من الماء واللبن . . . » .والصرى : الماء إذا طال مكثه وتغيّر ، والصرى أيضاً : اللبن يترك في ضرع الناقة فلا تحلب ، فيصير ملحاً ذا رياح . وكلا المعنيين خير من قوله ، وإن كان أولها أولى . وأمثال هذا كثير ، ولكننا نكتفي بهذا القدر ، فإن فيه مقنعاً للمرتاب ، وغنية لذوي الألباب .[١]

* * *

(١) بعد هاتين الطبعتين ـ من اللزوميات ـ اللتين أشار إليهما المؤلف ، رحمه الله ، ظهرتْ طبعتان أخريان ، إحداهما في بيروت ، والثانية في القاهرة مشروحة .

شخصية المعري في لزوم ما لا يلزم

ذكرنا غير مرة أن لأبي العلاء خصائص لا يخلو منها أثر من آثاره ، إما بطريق التصريح ، وإما بطريق الإشارة . ومعظم هذه الخصائص اجتمع في (لزوم ما لا يلزم) بالنسبة لما رأينا من آثاره . ومنها :

تواضعه

وقد أورده في اللزوم بصور مختلفة ، وأساليب متعددة ، حيث أنكر تسميته أحمد بقوله :

وَأَحْمَدُ سَمَّاني كَبِيري وَقَلَّمَا فَعَلْتُ سِوَى مَا أَسْتَحِقُّ بِهِ الذَّمَّا [1]

وتكنيته بقوله :

دُعِيتُ أَبا العَلاءِ وَذاكَ مَيْنٌ وَلَكِنَّ الصَّحيحَ أَبو النُّزُولِ [2]

وانتهى به ذلك إلى أن جعل نفسه صفقة خاسرة وسلعة كاسدة :

لَوْ يُنَادَى فِي كُلِّ سُوقٍ عَلَيْها ما اشْتَرَاهَا أَخو رَشَادٍ بِفَلْسِ [3]

وأنه ليس عنده شيمة حسنة :

يُؤَمِّلُ القَوْمُ عِنْدِي شِيمَةً حَسُنَتْ

وَشِيمَةُ الدَّهْرِ أَنْ لاَ تَحْسُنَ الشِّيَمُ [4]

---

(١) اللزوميات ﻫ ص ٢٣٨ .

(٢) اللزوميات ﻫ ص ٢١٩ .

(٣) اللزوميات ﻫ ص ٣٢٥ .

(٤) اللزوميات ﻫ ص ٢٣٤ .

وشهد على نفسه أنه ناقص ، ولا يوصف بجميل :

أَشْهَدُ أَنِّي رَجُلٌ نَاقِصٌ   لا أَدَّعِي الفَضْلَ وَلاَ أَنْتَحِلْ(١)
جِئْتُ كَمَا شَاءَ الذي صَاغَنِي   وَمَنْ يَصِفْنِي بِجَمِيلٍ يُحِلْ

ونفى عن نفسه العلمَ في مثل قوله :

يُظَنُّ بِيَ اليُسْرُ والدِّيَانَةُ وَالْـ   ـعِلْمُ وَبَيْنِي وَبَيْنَهَا حُجُبُ(٢)

وقوله :

مَاذَا تُرِيدُونَ لاَ مَالٌ تَيَسَّرَ لِي   فَيُسْتَمَاحُ وَلاَ عِلْمٌ فَيُقْتَبَسُ(٣)

وعلى هذا فإن من يطلب منه نحواً أو لغة يرجع بالخيبة :

مَنْ يَبْغِ عِنْدِيَ نَحْوًا أَوْ يُرِدْ لُغَةً
فَمَا يُسَاعَفُ مِنْ هَذَا وَلاَ هَذِي(٤)

وكذلك من يطلب الأدب ، لأنه أفلس فيه :

أَطَلَبْتُمُ أَدَبًا لَدَيَّ وَلَمْ أَزَلْ   مِنْهُ أُعَانِي الحَجْرَ والتَّفْلِيسَا(٥)

وكتاب (لزوم ما لا يلزم) طافح بمثل هذه المعاني .

تعفف

يعتقد أبو العلاء أن الله تعالى تكفل بأرزاق عباده ، وأن الرزق

---

(١) اللزوميات ٥ ص ٢٢٥ .
(٢) اللزوميات ٥ ص ٣٧ .
(٣) اللزوميات ٥ ص ٢٩٣ .
(٤) اللزوميات ٥ ص ١١٧ . وفي الأصل : « فلا يساعف . . . » .
(٥) اللزوميات ٥ ص ٢٩٧ .

يأتي إلى صاحبه من غير سعي وطلب ؛ وعلى هذا الاعتقاد صان ماء وجهه فلم يتبذله بسؤال ، وعفّ فلم يمد كفه لمعروف . وأشار إلى هذا في مثل قوله :

وَالرِّزْقُ يَأْتي وَلَـمْ تُبْسَطْ إليه يَدي
سِيَّانِ في ذَاكَ إدْنائِي وَإِقْصَائي [١]

وقوله :

وَيا بَنَانِيَ لاَ تُبْسَطْ لِعَارِفَةٍ وَيالِسَانِي بِغَيْرِ الصِّدْقِ لا تَجُلِ [٢]

وقوله :

وَيرْزُقُني اللهُ الّـذي قَامَ حُكْمُهُ بِأَرْزَاقِنَا في أرْضِهِ مُتَكَفِّلاَ [٣]

كرمه

وكان على قلة ماله يجود بالموجود ، ولا يدخر قوتا ، ولا يكنز ذهبا ولا فضة ؛ وأشار إلى ذلك في مواطن من شعره ، منها قوله :

فَمَا دِرْهَمِي إنْ مَرَّ بي مُتَلَبِّثاً
وَلا طِفْلَ لي حَتَّى تَرَى الشَّمْسُ مُطْفِلاَ [٤]

وقوله :

لَعَمْرُ أبيكَ مَا خَالي بِخَالٍ لِشائِمِهِ وَلا شُهْدي بِهِفِّ [٥]

---

(١) اللزوميات ﻫ ص ٢٦ .
(٢) اللزوميات ﻫ ص ٢١٤ .
(٣) اللزوميات ﻫ ص ٢٠٣ .
(٤) اللزوميات ﻫ ص ٢٠٣ .
(٥) اللزوميات ﻫ ص ٢٩٥ .

فإنْ أُعطَ القَليلَ يَكُنْ هَنيئاً ... يجيءُ المُستَميحَ بغيرِ شَفْ
إذَا وَرَدَ الفَقيرُ عَلَى احتِيَاجِي ... أغثتُ لهيفَهُ بالمُسْتـَـدفْ
ولوْ كَانَ الكَثيرُ لَقَلَّ عِنْدي ... وأهونْ بالطَّفيفِ المُستَطفْ

تذمره من قلة المال

وكان يحب أن يكون ذا سعة ، فينفق من مـــاله في وجوه الخير ما يريد ؛ ولكن الأيام جاءته على غير ما يريد ، فكان يتذمر من قلة المال . ونرى من هذا النوع صوراً في كلامه كقوله :

قَدْ غَدَا القَوْمُ للنُّضَارِ فَنَالُو ... هُ وَبِتْنَا وَمَنْ لَنَا بالزُّيُوفِ (١)

تذمره من اتهامه بالغنى

كان بعض الناس يرون أو يسمعون ما كان عليه أبو العلاء من سعة العلم والجاه ؛ فكانوا يظنون أنه مليء موسر ؛ ويطلبون منه ما يطلب من الموسرين ، فكان يتذمر من هذه التهمة ، لأنه لا يستطيع أن يسعف كل طالب بما طلب ؛ وقد ألم إلى ذلك في مثل قوله :

واتِّهامي بالمَالِ كَلَّفَ انْ يُطْـــلَبَ مِنِّي مَا يَقْتَضي التَّمْويلُ (٢)
وَيقُولُ الغُواةُ خَوَّلكَ اللـّـــهُ كَذَبْتُمْ لِغَيْـــرِيَ التَّخْويلُ

---

(١) اللزوميات هـ ص ٢٩٧ .
(٢) اللزوميات هـ ص ٢٠٢ .

تذمره من قلة حظه

وكذلك كان يتذمر من قلة حظه فيقول :

مَا بَالُ حَظِّيَ عَنِّي قَاعِداً أَبَداً
إِنْ كَانَ مِنْ نبْتِ أَرْضٍ فَاسْمُهُ البُرَكُ (١)

قناعته في مطعمه وملبسه

الطعام :

قنع أبو العلاء من متع الدنيا ولذاتها بما يقيم صلبه مما تنبته الأرض ، وترفع عن أكل الحيوان وما تولد منه ، إذ لا يوصل الى ذلك إلاّ بايلام الحيوان أو حرمانه قوته ؛ وقد ألمع إلى ذلك في مثل قوله :

يُقْنِعُنِي بُلْسُنٌ يُمارَسُ لِي   وَإِنْ أَتَتْنِي حَلاَوَةٌ فَبَلَسْ (٢)

وقوله :

أَبى اللهُ أَخْذِي دَرَّ ضَأْنٍ وَمَاعِزٍ
وإِدْخالِيَ الأَمْرَ الْمضِرَّ عَلَى السَّخْلِ (٣)

اللباس :

واكتفى من مظاهر الزينة بما يستر جسمه ، كما قال :

لِبَاسِيَ البِرْسُ فَلاَ أَخْضَرٌ   وَلاَ خَلُوقِيٌّ وَلاَ أَدْكَنُ (٤)

---

(١) اللزوميات هـ س ١٨٣ .

(٢) اللزوميات هـ س ٣٢٦ .

(٣) اللزوميات هـ س ٢١٠ . و ط . زند ٢١٠/٢ وفي الأصل: « أبى الله أكلي ... »

(٤) اللزوميات هـ س ٢٦٣ .

وكان يلبس ثوباً له ظهارة وليس له بطانة ، فيتحمل أذى البرد على حد قوله :

أُجَاهِدُ بالظِّهارَةِ حِينَ أَشْتُو   وَذَاكَ جِهادُ مِثْلي والرِّبَاطُ (١)

ولم تكن نفسه لتطمح إلى أن يحيا حياة المترفين ؛ كما يدل على ذلك قوله :

فَمَا أَتَمَنَّى أَنَّني كَأَجَلِّكُمْ   وَلَكِنْ أُضَاهِي الْمُقْتِرِينَ الصَّعَالِكَا (٢)

ولم تحدثه قط أن يدخل على قوم فينال من طعامهم أو شرابهم ؛ وقد أشار إلى هذا في مثل قوله :

مَا أَنَا بِالوَاغِلِ يَوْمًا عَلَى الـ   ـشَّرْبِ وَلاَ مِثْلِيَ بِالوَارِشِ (٣)

عدم قبوله نعمة من أحد

توهم بعض المعاصرين فظن أن أبا العلاء كان ينال من أخواله شيئاً من الأموال ، وأنه كان يقبل شيئاً من الهدايا . وقد بينا بطلان ذلك فيما سبق . وقوله في (لزوم ما لا يلزم) :

ولم يَحْبُنِي أَحَدٌ نِعْمَةً   وَلَكِنْ مَوْلَى الْمَوالي حَبَا (٤)

صريح في أنه لم يطلب نعمة من أحد إلا الله تعالى .

تذمره من اعتلال جسمه

ألح السقم على أبي العلاء ، فلا يكاد يودع علة حتى يستقبل أخرى ؛

---

(١) اللزوميات هـ ص ١٧٧ .

(٢) اللزوميات هـ ص ١٨٥ .

(٣) اللزوميات هـ ص ٣٢٨ . والوارش : الذي يدخل على القوم وهم يأكلون .

(٤) اللزوميات هـ ص ٤٤ .

ولذلك ترى صوراً من تألمه وتندمه في مثل قوله :

وَدِدْتُ أَنِّيَ مِثْلُ السَّيفِ لَيسَ لَهُ حِسٌّ إذا فُلَّ أو رَثَّتْ لهُ خِلَلُ[1]

وقوله :

مُهْجَتي ضِدٌّ يُحَارِبُني أنا مِنِّي كَيفَ أحترِسُ[2]

وقوله :

شَخْصِيَ هذا غَرَضٌ للرَّدَى وَلَمْ يَزَلْ مَعْدِنَ عِصْيَانِ[3]
مِنْ كُلِّ فَنٍّ فِيهِ أُعْجُوبَةٌ كَأنَّهُ جَامِعُ سُفْيَانِ

وقوله :

وَأَخْلَقَني مَرُّ الزَّمَانِ وَكَدُّهُ فَصَارَ أَدِيمِي كالسِّقَاءِ المُرَمَّمِ[4]

تبرمه من العمى

عمي أبو العلاء صغيرا ، فحال عماه بينه وبين متع الحياة ومشاهد الطبيعة التي لا تدرك إلا بالبصر ؛ ولذلك عدَّ العمى سجناً ، ويتمثل تبرمه به في مثل قوله :

عَمَى العَيْنِ يَتْلُوهُ عَمَى الدينِ والهُدَى
فَلَيْلَتِيَ القُصْوَى ثَلاثُ لَيَالِ[5]

---

(١) اللزوميات ﻫ ص ١٩٦ .
(٢) اللزوميات ﻫ ص ٣١١ .
(٣) اللزوميات ﻫ ص ٢٨١ .
(٤) اللزوميات ﻫ ص ٢٤٥ .
(٥) اللزوميات ﻫ ص ٢١٢ .

وقوله :

عَجِبْتُ مِنَ الصُّبْحِ المُنيرِ وَضِدِّهِ ... عَلى أَهْلِ هَذي الأَرْضِ يَطَّلِعَانِ (١)
وَقَدْ أَخْرَجَاني بالكَرَاهَةِ مِنْهُما ... كَأَنَّهُمَا لِلضِّيقِ مَا وَسِعَاني

تبرمه بالجدري

في كلامه كثير من الأبيات التي تفيض بالحسرات واللوعة من الجدري الذي شان وجهه وذهب ببصره ، يتمثل ذلك في مثل قوله :

وَشِقْوَةٌ غَشِيَتْ وَجْهِي بِنَضْرَتِهِ ... أَبْرَّبِي مِنْ نَعِيمٍ جَرَّ إِشْحَابِي (٢)

ونحو ذلك من الأبيات التي تقدم بعضها .

تضجره من ذهاب أسنانه

فَمِي أَخَذَتْ مِنْهُ اللَّيَالِي وَإِنَّنِي ... لأَشْرَبُ مِنْهُ في إِنَاءٍ مُثَلَّمِ (٣)
وَأَوْدَى بِظَلْمِ الثَّغْرِ صُبْحٌ وَحِنْدِسٌ ... مَتَى يَنْظُرَا في نَيِّرِ العَيْنِ يُظْلِمِ

ولكثرة ما كان ينتابه من الأرزاء والعلل الموجعة تمنى أن يكون صخرة لا تحس ولا تتألم . وقد أشار إلى هذا في مثل قوله :

تَمَنَّيْتُ أَنِّي مِنْ هِضَابِ يَلَمْلَمٍ ... إِذَا مَا أَتَانِي الرُّزْءُ لَمْ أَتَأَلَّمِ (٣)

---

(١) اللزوميات هـ س ٢٧١ .
(٢) اللزوميات هـ س ٤٩ .
(٣) اللزوميات هـ س ٢٤٤ .

تضجره من الدنيا

نظر أبو العلاء إلى كل شيء في الدنيا ، وإلى عاقبته ، وإلى تصرف الدنيا برفع الوضيع ووضع الرفيع وإسعاد الجاهل وإشقاء العاقل ، وإلى غلبة خيرها على شرها ؛ ونحو ذلك من الأمور التي إذا تأملها العاقل استخف بالدنيا ونقم عليها فأبغضها وأعرض عن لذاتها اللاتي لا تلبث أن تزول وتبقى تبعاتها في الدنيا والآخرة ؛ وقد أكثر في (لزوم ما لا يلزم) من تحقير شأنها والحض على الزهد فيها ، وعدم الاغترار بها ؛ وإنك لترى ألواناً مختلفة من ذلك تتمثل في مثل قوله :

وَوَجَدْتُ دُنْيانا تُشَابِهُ طَامِثاً ... لا تَسْتَقِيمُ لِنَاكِحٍ أقْرَاؤُها[1]

وقوله :

وَكَيْفَ أُقَضِّي سَاعَةً بِمَسَرَّةٍ ... وأعْلَمُ أنَّ المَوْتَ مِنْ غُرَمَائي[2]

قوله :

مَنْ يَغْتَبِطْ بِمَعِيشَةٍ فَأمَامَهُ ... نُوَبٌ تُضِيلُ عَنَاءَهُ فَجَعَاتِهَا[3]

تبرمه بالحياة

عرف أبو العلاء أن الحياة كلها تعب ، وأن الحي بين عاملين يتجاذبانه ، إما عفاف عن الدنيا ومتعها ، وإما افتتان فيها ؛ وكلا الحالين يعقبه الموت ، وبعد الموت يؤول العفيف إلى الجنة ، والمفتون إلى النار ؛ ولكن

---

(١) اللزوميات ﻫ ص ٢٣ . وفي ط زند ١/٦٠ . وفي الأصل « لا تستقر لناكح ... »
(٢) اللزوميات ﻫ ص ٢٦ .
(٣) اللزوميات ﻫ ص ٦١ .

النفس أمّارة بالسوء ، والدنيا غرارة مغرية بمتعها ونعيمها ، ولا يستطيع أن يكبح جماح نفسه إلا النزر اليسير . وانظر الى قوله :

وَهِيَ الحَيَاةُ فعِفَّةٌ أوْ فِتْنَةٌ ثُمَّ المَماتُ فجَنَّةٌ أوْ نَارُ [١]

وإلى قوله :

أرَى جُرَعَ الحَيَاةِ أمرَّ شيءٍ فَشَاهِدْ صِدْقَ ذلكَ إذْ تُقَاءُ [٢]

وقوله :

ألـعَيْشُ أدّى إلى ضُرٍّ وَمَهْلَكَةٍ لَوْلا الحَيَاةُ لَكَانَ الجِسْمُ كالصَّنَمِ [٣]

ونحو ذلك من الأبيات يتبين لك أن أبا العلاء ناقم من الحياة ، متبرم بها ، وأنه يفضل الموت عليها ، لأن فيه راحة للجسم من عناء لا ينقطع ، وبلاء كلما نفد تجدد ، ويشير الى ذلك في مثل قوله :

والعَيْشُ دَاءٌ وَمَوْتُ المَرْءِ عَافِيَةٌ إنْ دَاوَهُ بِتَوارِي شَخْصِهِ حَسَمَا [٤]

وزاد على ذلك فجعل الموت فضيلة في قوله المتقدم :

وَيَدُلُّنِي أنَّ المَمَاتَ فَضِيلَةٌ . . . .

واستدل على هذا بقوله :

لَوْلا نَفَاسَتُهُ لَمَا عَزَّ نَجْمُهُ . . . .

---

(١) اللزوميات ص ١٣٢ .

(٢) اللزوميات ص ٢٣ .

(٣) اللزوميات ص ٢١٨ .

(٤) اللزوميات ص ٢٤١ .

ضجره من طول الحياة

من الطبيعي أن يسأم من طول الحياة إذا كان سئم منها ؛ وفي أقواله كثير مما يدل على حبه الخلاص منها ؛ لأنه يجد فيه راحة من عناء يمكن الاستغناء عنه أو الإقلال منه ، ووصولاً الى غاية لا بد منها . وقد لمح الى ذلك في مواطن مثل قوله :

قَدْ طَالَ عُمْرِيَ طُولَ الظُّفْرِ فاتَّصَلَتْ
بِهِ الأَذَاةُ وَكَانَ الحظُّ اوْ قَلِمَا [1]

صبره وما هوّنه عليه قلة المال وكثرة الأرزاء

من عاش عيشة أبي العلاء ، وقضى عمره في مثل ما قضاه من الفاقة والعسر ، والعمى والضر ، وتتابع الكوارث ، وقلة المساعد ؛ مِنْ حقه أن يضجَر ويتبرم ، وأن يستكبر ما هو فيه ، ويملأ الدنيا شكوى وسخطا ؛ ولكنه نظر الى حاله نظر عقل فرأى أن القسم بيد الله ، وأن المآل الى الإعدام والفقر ؛ وأن قلة العيال أحد اليسارين ؛ وأن عدم الوارث يخفف من الكوارث ، فصبر على ما جرى به القدر ، ورضي بما جرى به القضاء . وقد ألمع الى هذا في مثل قوله :

صَبَرْنَا لِحُكْمِ اللهِ والنَّفْسُ حُرَّةٌ
وَقَدْ عَلِمَتْ فَضْلَ التَّفَاوُتِ في القَسْمِ [2]

وقوله :

---

(١) اللزوميات هـ ص ٢٤٢ .

(٢) اللزوميات هـ ص ٢٤٤ .

وَهوّنَ إعدامِي عَليّ تحقّقِي ... بأنّي وإنْ طالَ التّمكّثُ أعْدَمُ (١)

وقوله :

وَهوّنَ أرْزَاءَ الحوَادِثِ أنني ... وَحِيدٌ أعَانِيهَا بِغَيْرِ عِيالِ (٢)

وقوله :

إذَا تخَلّفْتُ أوْ خُلّفْتُ عَنْ أمَلٍ ... سَلّى هُمُومِيَ أني لَيْسَ لِي خَلَفُ (٣)

تجلده حتى لا يشمت به خصومه

كان أبو العلاء محسوداً على فضله ومنزلته ، وكان حساده وخصومه يتربصون به السوء ، ويلتقطون زلاته وعيوبه ، ليشوهوا سمعته ويطفئوا شمعته ؛ فكان يحترس منهم ويتجمل لهم ، ويريهم البأساء نعماء . وقد أشار الى ذلك في كثير من أقواله ؛ منها قوله :

إنّي أوَارِي خَلّتي فأرِيهِمُ ... رِيشاً وفي سِرّ الفُؤادِ أُوَارُ (٤)

عدم أسفه على النسل

ولم يكن أبو العلاء ليأسف على عدم النسل . لأنه يعتقد أن إبقاءهم في الظهور كرامة لهم ، وأن العدم يقيهم من المصائب التي يسببها الوجود ؛ فأراد في إبقائهم في العدم إراحتهم مما يعانيه غيرهم ، وأنه لو أنسل لجاء

---

(١) اللزوميات ج ٢ ص ٢٢٩ .

(٢) اللزوميات ج ٢ ص ٢١٢ .

(٣) اللزوميات ج ٢ ص ٢٩٢ .

(٤) اللزوميات ج ١ ص ١٢٠ .

بنسل خسيس ، وجنى على بنيه . وقد ذكرنا شيئاً من أبياته الدالة على ذلك مثل قوله :

وإذا أرَدْتُم للبَنين كَرَامَةً فَالحزمُ أجمَعُ تَرْكُهُمْ في الأظْهرِ (١)

وقوله :

وَأرَحتُ أولادي فَهُمْ في نِعْمَةِ الـعَدَم . . . .

وقوله :

لَوَانَّ بَنِيَّ أفضَلُ أهلِ عصْري لَمَا آثرتُ أنْ أحظَى بِنَسْلِ (٢)
فَكَيْفَ وقَدْ عَلِمْتُ بأنَّ مِثلي خَسِيسٌ لا يَجِيءُ بِغَيْرِ فَسْلِ

وقوله :

أبُوكَ جَنَى شَرّاً عَلَيْكَ وَإنّما
هُوَ الضَّبُّ إذْ يُسْدِي العُقُوقَ إلى الحِسْلِ (٣)

تذمره من ولاة الأمر

أكثر أبو العلاء من التضجر والشكوى من الحكام وجورهم وتجاوزتهم حدود ما وضع لهم البشر وما شرعه الله ؛ وقد ذكرنا كثيراً من الأمثلة الدالة على ذلك كقوله :

مُلَّ المُقَامُ فَكَمْ أعاشِرُ أمّةً أمَرَتْ بِغَيْرِ صَلاحِهَا أمَرَاؤُهَا (٤)

---

(١) اللزوميات هـ ص ١٦٧ .
(٢) اللزوميات هـ ص ٢١٨ .
(٣) اللزوميات هـ ص ٢١١ .
(٤) اللزوميات هـ ص ٢٣ .

وقوله :

وُلَاةُ العَالَمِينَ ذِئَابُ خَتْلٍ   تَكُونَ مِنَ الشَقَاء رُعَاةَ فِزْرِ(١)

تضجره من العلماء الفقهاء

وهذا كثير في شعره كقوله :

وَلَمْ آمَنْ عَلَى الفُقَهَاءِ حَبْساً   إِذَا مَا قِيلَ للأُمَنَاءِ جُوزُوا(٢)

• • •

وَكَمْ مِنْ فَقِيهٍ خَابِطٍ فِي ضَلَالَةٍ
وَحُجَّتُهُ فِيهَا الكِتَابُ المُنَزَّلُ(٣)

تبرمه بالنساء

سيأتي رأيه في المرأة ، وإسرافه في سوء الظن بها ، ويكفيك من أقواله المتعددة في ذلك قوله :

بَدْءُ السَّعَادَةِ أَنْ لَمْ تُخْلَقِ امْرَأَةٌ   فَهَلْ تَوَدُّ جُمَادَى أَنَّهَا رَجَبُ(٤)

تبرمه بالأصحاب

لقد جرب أبو العلاء دهره وأهليه ، فما تركت له التجارب غرضاً في مودة أحد منهم ، ولم يرض عن صاحب اختبره . وأشار إلى هذا في مثل قوله :

---

(١) اللزوميات هـ ص ١٥٤ . والفزر : القطيع من الغنم .
(٢) اللزوميات هـ ص ١٧٣ .
(٣) اللزوميات هـ ص ١٩٥ .
(٤) انظر ما سبق ص ١١٨٠ .

أمّا الأَنامُ فقدْ جرَّبتُهُمْ زَمَنًا فمَا رَضِيتُ مِنَ الخُلانِ مَصْحُوبا(١)

تبرمه بالناس

وشاهد أصنافاً من الناس فلم ير في أحد منهم ما يحمده :

لَعَمْرِي لَقَدْ شاهَدْتُ عُجْماً كَثِيرةً
وَعُرْباً فَلا عُجْماً حَمِدْتُ وَلا عُرْبا(٢)

ولم تعجبه شيمة لأحد من الناس على اختلاف طبقاتهم وتفاوت درجاتهم كما قال :

وَمَا أَعْجَبَتْنِي لابنِ آدمَ شِيمَةٌ عَلَى كُلِّ حالٍ مِنْ مَسُودٍ وَسائِدِ(٣)

وقد خبر البرايا وعرض سجاياهم وما هم فيه على محكّ العقل ، فلم ير فيهم غنياً حقيقة :

وَجدْتُ النَّاسَ كُلَّهُمُ فَقِيراً وَيُعدَمُ في الأَنامِ الأَغْنِياءُ(٤)

ولا وجد فيهم كريماً إلا في الاسم :

وَيُقَالُ الكِرامُ قَوْلاً وَمَا في آلـــدَّهْرِ إلا الشُّخُوصُ والأَسْمَاءُ(٥)

بل تجاوز إلى أبعد من هذا المدى فقال :

---

(١) اللزوميات « ص ٤٠ .

(٢) اللزوميات « ص ٣٨ .

(٣) اللزوميات « ص ١٠٥ .

(٤) اللزوميات « ص ٢٢ .

(٥) اللزوميات « ص ٢٤ ، وفيها : « وما في العصر ... » .

مَا كَانَ فِي الأَرْضِ مِنْ خَيْرٍ وَلا كَرَمٍ
فَضْلٌ مَنْ قَالَ إِنَّ الأَكْرَمِينَ فَنُوا[١]

ولا رأى فيهم طاهراً من أدناس النقائص ، وأرجاس الرذائل ، وإن من يسمى طاهراً تكون تسميته من باب تسمية الشيء بضده :

وَكَذَاكَ يُدْعَى طَاهِراً مَنْ كُلُّهُ نَجَسٌ وَيُفْقَدُ فِي الأَنَامِ الطَّاهِرُ[٢]

ولقد توسع في هذا الغرض ، وفصله تفصيلا دل على استقراء واستقصاء ، وأجمل القول في مواطن منها قوله :

وَسَكْنُ الأَرْضِ كُلُّهُمُ ذَمِيمٌ صَرِيحُهُمُ الْمُهَذَّبُ والسَّبِيُّ[٣]

وقوله :

بَنِي الأَرْضِ مَا فَوْقَ التُّرَابِ مُوَفَّقٌ
لِرُشْدٍ وَلاَ تَحْتَ التُّرَابِ سِوَى فَسْلِ[٤]

نظرة من البلاد

خبر أبو العلاء البلاد كما خبر أهلها ، وتقرّى طبائعها ، وسَبَرَ أهلها ، فلم ير بلداً يحمده بل :

كُلُّ البِلادِ ذَمِيمٌ لا مُقَامَ بِهِ وَإِنْ حَلَلْتَ بِلادَ الوَبْلِ والرِّهَمِ[٥]

---

(١) اللزوميات ٥ ص ٢٦١ .

(٢) اللزوميات ٥ ص ١٢٧ .

(٣) اللزوميات ٥ ص ٣٤٣ .

(٤) اللزوميات ٥ ص ٢١٠ .

(٥) اللزوميات ٥ ص ٢٤٧ . و ط زند ٢/٢٠١ . وفي الأصل: « ولو حلت . . . » .

وقد دلته التجارب على أن الشام شؤم ، واليمن ليس فيها يمن ، والحجاز محتجز عن الخيرات ، وأن العراق تتقد فيه نار الفتن والحروب ؛ وأرشده البحث مع التجارب إلى أن مصر والحجاز والعراق والشام لا تستطيع أن تحمي ملكا من عادية الأعداء الجارجين ، لاشتغالها بالفتن والحروب الداخلية ، كما أشار إلى ذلك في مواطن من شعره : وتبين له أن الإنس هم سبب الفتن في كل مكان :

وَخَيْرُ بِلادِ اللهِ مَا كانَ خَالِيـــاً
مِنَ الإِنْسِ فَاسْكُنْ فِي القِفَارِ البَسَابِسِ[1]

تبرمه بالناس ومصاحبتهم

ورأى أبو العلاء فوق هذه الأسباب أن الناس يصاحبون على دَخَل ؛ وأن المرء منهم يلقى أخاه بالبشر والطلاقة ، ويضمر له الخديعة والمكر ، ولا يدخر وسعاً في إيصال الأذى إليه حاضراً كان أم غائباً ، يتمثل لك هذا في مثل قوله :

أَرَاهُمْ يَضْحَكُونَ اليَّ غِشّاً وَتَغْشَانِي الْمَشَاقِص والخِطَاء[2]

ورأى أن قربهم داء والبعد عنهم دواء :

بُعْدي مِنَ الناسِ بُرْءٌ مِنْ سَقَامِهِمُ
وَقُرْبُهُمْ للحِجَى والدِّينِ أَدْوَاءُ[3]

---

(١) اللزوميات ﻫ ص ٢٩٨ .

(٢) اللزوميات ﻫ ص ٢٢ . المشاقص : نصال طول . والخطاء : نبال صغار .

(٣) المصدر السابق ؛ وفي الأصل : « بعدي عن الناس ... » .

لأنهم

لا بُدَّ مِنْ أنْ يَذُمُّوا كُـلَّ مَنْ صَحِبُوا
وَلَـوْ أراهُمْ حَصَى ٱلْمَعْزَاءِ يَاقُوتا(١)

وتبين له أنه لا يستطيع أن يألفهم ولا يأتلف :

فَلَسْتُ لَهُمْ وإِنْ قَرُبُوا أَلِيفاً كَمَا لَمْ تَأْتَلِفْ ذَالٌ وَظَاء(٢)

وستأتي في أغراض شعره أمثلة تدل على تبرمه بالخطباء ، والوعاظ ، ورؤساء المذاهب ، والنحل المختلفة ؛ كما تدل على إنكاره كثيراً من المعتقدات والمزاعم التي يزعمها الناس كلا أو بعضا ، ونحو ذلك مما يدل على أنه لا يتبع إلا العقل ، ولا يعوّل إلا على دليل ؛ ويكره أن يحمل الباطل في صورة الحق .

ومنها رفقه بالإنسان وعطفه عليه

يختلف نظر أبي العلاء الى الإنسان ، ويختلف حكمه عليه بحسب الجهة التي ينظر منها اليه ؛ فإذا نظر اليه من جهة أخلاقه ، أعماله صبّ عليه نقمته وتمنى له ناراً تحرقه أو ماء يغرقه ، وحذر منه وأنذر ، وعدد مساوئه ، وحض على اجتنابه ؛ كما رأيت وسترى في أقواله التي فضل فيها الحيوان الأعجم على الإنسان ، بل فضل الصخر الجامد على الإنسان .

وإذا نظر اليه من جهة أخرى رأى أنه حي يحرص على حياته ، ويشعر بما يؤلمه ؛ وهو مع ذلك ضعيف في بنيته ، تقتله البعوضة وتميته الذبابة ؛ وقد جاء الى هذه الدنيا على غير رضى واختيار ، وتأتيه الحوادث

---

(١) اللزوميات ‍ه س ٦٣ .
(٢) اللزوميات ‍ه س ٢٢ .

بغير رضى ولا طلب ، ويعجز عن دفعها ويجهد نفسه في التماس شيء فيخفق ؛ كل ذلك لضعفه وعجزه .

فإذا نظر اليه من هذه الجهة وأشباهها عطف عليه ، وحض على مؤازرته وتخفيف مصائبه ؛ كما تشعر بذلك أقواله الدالة على الرفق بالرقيق :

رَقِيقُكَ أسرَى في يَدَيْكَ فَلا تَكُنْ
غَلِيظاً عَلَيْهِمْ واتَّقِ اللهَ في الأَسْرِ (١)

وأبياته الدالة على الإحسان الى البائس ومشاركته في النعمة :

كَيْفَ لا يَشْرَكُ المُضِيقِينَ فِي النِّعْــمَةِ قَوْمٌ عَلَيْهِمُ نَعْمَاءُ (٢)

وما شاكل ذلك من أقواله الدالة على بر الوالدين ، والعطف على المرأة ، وترك الحروب ، والنهي عن الظلم ، ومضارّة النساء .

الرفق بالحيوان

بالغ أبو العلاء في الرفق بالحيوان ، وحض الناس على العطف عليه ، وأسرف في ذلك حتى جعل إطلاق البرغوث أبرّ من إعطاء الإنسان المحتاج درهما ؛ وستأتي أمثلة من قوله في ذلك عند الكلام على أغراض شعره .

إيمانه وتقاه

وقد تقدم ؛ وسيأتي شيء من أبياته الدالة على إيمانه وتقاه ، وإخلاصه وصدقه وحبه الخير ، وما شاكل ذلك من الخصال المحمودة .

---

(١) اللزوميات ﻫ ص ١٤٨ .

(٢) اللزوميات ﻫ ص ٢٤ ، وفي الأصل : « عليهم النعماء » .

وقاره

كان أبو العلاء رزيناً وقوراً ، ولم يؤثر عنه ما يدل على خفة أو طيش أو غيرهما في أعماله ؛ وأما في أقواله فقد كان كثير الوقار ، كما يشعر به قوله :

وَتُؤْثِرُ حَالَةَ الزِّمِّيتِ نَفْسِي ... وَأَكْرَهُ شِيمَةَ الرَّجُلِ المِفَنِّ (١)

وبعد هذا البيت أبيات تدل على إكباره نفسه كقوله :

حَسِبْتُكَ لَوْ تُوَازِنُ بِي ثَبِيراً ... وَرَضْوَى فِي المَكَارِمِ لَمْ تَزِنِّي

اعتزازه بنفسه

كان أبو العلاء على كثرة تواضعه ، ومحاولته إخفاء نفسه شديد الاعتداد بها ، حتى طغى ذلك على فلتات لسانه ، وفي (لزوم ما لا يلزم) كثير من الصور الدالة على هذا ، كقوله :

خُذُوا سِيَرِي فَهُنَّ لَكُمْ صَلَاحٌ ... وَصَلُّوا فِي حَيَاتِكُمُ وَزَكُّوا (٢)

وقوله :

فَاسْمَعْ كَلَامِي وَحَاوِلْ أَنْ تَعِيشَ بِهِ
فَسَوْفَ أُعْوِزُ بَعْدَ اليَوْمِ طُلَّابِي (٣)

* * *

---

(١) اللزوميات ﻫ س ٢٧٨ .
(٢) اللزوميات ﻫ س ١٨٤ .
(٣) اللزوميات ﻫ س ٤٨ .

سرقة الشعراء أقواله

يعتقد أبو العلاء أن أقواله ، نظما كانت أو نثرا ، بلغت من الجودة والندرة إلى درجة بعيدة ، حتى إن بعض الناس كانوا يغيرون على ألفاظه فيسرقونها . وقد بيّن ذلك في مثل قوله :

إذَا مَا قُلْتُ نَثْراً أوْ نَظِيماً تَتَبَّعَ سَارِقُو الأَلْفَاظِ لَفْظي[1]

ولقد نظر إلى الناس بلحظ الغيب فلم يخطىء ؛ لأن كثيراً من الشعراء وغيرهم أغاروا على ألفاظه أو معانيه أو كليهما ، منهم الطغرائي في لاميته ، فإنه أخذ قوله :

والشَّمْسُ رَأْدَ الضُّحَى كالشَّمْسِ في الطَّفَلِ

من قول أبي العلاء :

والبَدْرُ في الوَهْنِ مِثْلُ البَدْرِ في السَّحَرِ[2]

ومنهم عمر بن الوردي ، فقد أكثر من الإغارة على ألفاظ أبي العلاء ومعانيه ، من ذلك قوله في (ص ٢٧٥)[3] :

تَعَبٌ كُلُّهَا الحياةُ فَمَا أعْـــجَبُ إلاَّ مِنْ رَاغِبٍ في المزِيدِ
إنَّ حُزْناً في سَاعَةِ العَزْلِ أضْعَا فُ سُرُورٍ في حَالَةِ التَّقْلِيدِ

---

(١) اللزوميات هـ ص ١٨١ وفيها وفي الأصل : ساراوا .

(٢) شروح سقط الزند ق ١ ص ١٤٢ .

(٣) من ديوان ابن الوردي طبعة الجوائب سنة ١٣٠٠ هـ .

وقوله في (ص ٢٨٠) :

لَو حَطَّ رَحلِيَ فَوقَ النَّجمِ رَافِعُهُ
أَلفَيتُ ثَمَّ خَيالاً مِنكِ يَنتَظِرُ

وقوله في (ص ٢٩٦) :

فَهَلْ أنا إلا قَطرَةٌ مِنْ سَحابِكُمْ ... وَلَوْ كُنْتُ فِي الإعْرابِ كالعَلَمِ الفَرْدِ

وقوله في (ص ٣٠٥) :

رَفَضتُ كَلِّي عَنِ الأَصحابِ كُلِّهِمِ ... فَلا أُثَقِّلُ في مَالٍ وَلا جَاهِ

وقوله في (ص ٣١٠) :

قَالُوا فُلانٌ جَيِّدٌ ... فَأَجَبتُ أَينَ الجَيِّدُ
إِمَّا غَنِيٌّ بَاخِلٌ ... أَوْ مُعسِرٌ يَتَصَيَّدُ

وقوله في (ص ٣١٥) :

أَنَا بَدرٌ وَقَد بَدَا الصُّبحُ في رأْ ... سِكَ وَالصُّبحُ طَارِدٌ لِلبُدُورِ

وقوله في (ص ٣٤١) :

غَيرَ أَنِّي فِي زَمَانٍ مَنْ يَكُنْ ... فِيهِ ذَا مَالٍ هُوَ المَولَى الأَجَلُّ

فالبيتان الأولان مأخوذان من بيتي أبي العلاء المشهورين[1] بتغيير كلمتي القافية ، وإبدال الموت بالعزل .

---

(١) البيتان :

تعب كلها الحياة فما أعـــجب إلا من راغب في ازدياد
إن حزناً في ساعة الموت أضعا ... ف سرور في ســاعة الميلاد

انظر ما سبق ص ١٠٧٣ .

والبيت الثالث مأخوذ بذاته إلا أنه بدّل «منتظري» بقوله : «ينتظر»[1].

والرابع مأخوذ من قصيدة أجاب بها ابن نصر :

وَمَا أنا إلاّ قَطْرَةٌ مِنْ سَحَابِهِ ... وَلَوْ أنني صَنَّفْتُ ألْفَ كِتَابِ[2]

والخامس من قوله في قصيدة كتبها إلى أبي حامد الأسفرائيني :

وَلاَ أُثقّلُ في جَاهٍ وَلاَ نشَبِ ... وَلَوْ غَدَوْتُ أخَا عُدْمٍ وَإِدْقَاعِ[3]

والسادس مأخوذ من قوله :

قَالُوا فُلانٌ جَيِّدٌ فَأَجبْتُهُمْ ... لاَ يَكْذِبُوا مَا في البَرِيَّةِ جَيِّدُ[4]

والثامن من قوله :

أنَا بَدْرٌ وَقَدْ بَدَا الصُّبْحُ في رَأْ ... سِكَ والصُّبْحُ يَطْرُدُ الأقْمَارَا[5]

والتاسع من قوله :

كُنْ مَنْ تَشَاءُ مُهَجَّناً أوْ خَالِصاً ... وَإِذَا رُزِقْتَ غِنًى فأنتَ السَّيِّدُ[6]

وفي كلام ابن الوردي كثير من هذا مثل قوله :

أبَا الإسْكَنْدَرِ المَلِكِ اقْتَدَيْنَا ... فَلَيْسَ نُطِيلُ في أرْضٍ مُقَامَا[7]

---

(١) انظر شروح سقط الزند : ق ١ ص ١١٩ .

(٢) شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٧٣٣ .

(٣) شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٧٥٦ ، وفيها : ولو عددت أخا ...

(٤) اللزوميات ط ص ٩٧ وفيها : « ... جيد لصديقه ... » .

(٥) شروح سقط الزند : ق ٢ ص٦٥٢ .

(٦) اللزوميات ط ص ٩٧ .

(٧) ديوانه ط الجوائب ص ٢٣٠ .

وهو من قول أبي العلاء في قصيدة كتبها إلى خاله يقول فيها :

آبا لَا الإِسكَندَرِ الملكِ اقتَدَيتُمْ   فَمَا تَضعُونَ في بَلَدٍ وِسَادَا (١)

وكذلك قوله :

فَلَيسَ يُزادُ في رِزْقٍ حَرِيصٌ   وَلَوْ جابَ المَهَامِهَ والإِكامَا (٢)

من قول أبي العلاء :

وَلَيسَ يُزادُ في رِزْقٍ حَرِيصٌ   وَلَوْ رَكِبَ العَوَاصِفَ كَي يُزَادَا (٣)

وأمثال هذا كثير في شعره ، ولكننا اجتزأنا بهذا القدر .

وقد شاركت هؤلاء فأخذت قولي :

بَكَتْ بِنْتَهَا حِينَ جاءتْ بِأُنثَى   وَنَاحَتْ عَلَيهَا بُعَيدَ المَمَاتِ

فَفِيمَ البُكَاءُ عَلَيهَا وَمِنْهَا   وَدَفْنُ البَنَاتِ مِنَ المَكْرُمَاتِ

من قول أبي العلاء :

وَدَفْنٌ وَالحَوَادِثُ فَاجِعَاتٌ   لإِحدَاهُنَّ إِحدَى المَكْرُمَاتِ (٤)

وهو أخذه من حديث رواه الخطيب عن النبي ﷺ : « دفن البنات من المكرمات » وقد تكلم فيه وفي رجاله ، ولفظي أقرب الى لفظ الحديث من لفظ أبي العلاء .

وكذلك أخذت آخر شطر من قولي هذا :

---

(١) شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٧٨٣ .

(٢) ديوانه ط الجوائب ص ٢٣٠ .

(٣) شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٨٠٢ .

(٤) اللزوميات هـ ص ٦٨ .

إِذَا حَاوَلتَ أن يَبقَى صَحِيحًا　　وِدَادُكَ لا يُخَامِرُهُ فَسَادُ
فَلاَ تُكثِرْ بِمَنْ تَهوَى اتصَالاً　　وَلاَ يَكثُرْ جَفَاؤكَ والبِعَادُ
فَرُبَّ قَطِيعَةٍ جلبَتْ وِدَاداً　　وَرُبَّ قَطِيعَةٍ جَلَبَ الوِدَادُ

من قول أبي العلاء :

وأرضٍ بِتُّ أقرِي الوَحشَ زَادِي　　بِهَا لِيَثُوبَ لي مِنْهُن زَادُ[1]
فَأُطعِمُهَا لِأَجعَلَهَا طَعَامِي　　وَرُبَّ قَطِيعَةٍ جَلَبَ الوِدَادُ

وقد أكثر جماعة من المعاصرين الإغارة على ألفاظه ومعانيه ، أو أحدهما . منهم أحمد شوقي المصري فإنه أخذ قوله :

لِعُلاكَ المُذكَّرَاتُ عَبِيدٌ　　خُضَّعٌ وَالمُؤَنَّثَاتُ إِمَاءُ

من قول أبي العلاء :

لِلمَلِيكِ المُذكَّرَاتُ عَبِيدٌ　　وَكَذَاكَ المُؤَنَّثَاتُ إِمَاءُ[2]

وأخذ قوله :

وَمَهْدُ المَرءِ في أَيدِي الرَّوَاقِي　　كَنَعْشِ المَرءِ بَيْنَ النَّائِحَاتِ

من قول أبي العلاء :

---

(١) شروح سقط الزند : ق ١ ص ٣١٦ وفيها : لأجعلها طعاماً .
(٢) اللزوميات ١ ص ٢٤ .

وَشَبِيهٌ صَوْتُ النَّعِيِّ إِذَا قِيـــسَ بِصَوْتِ الْبَشِيرِ فِي كُلِّ نَادِ[1]

وأخذ قوله :

والجاعِلُونَ سُيُوفَ الهِنْدِ أَلْسُنَهُمْ

والكَاتِبُونَ بِأَطْرَافِ القَنَا السُّلُبِ

من قول أبي العلاء :

دَعِ اليَرَاعَ لِقَوْمٍ يفْخَرُونَ بِهِ   وبالطِّوالِ الرُّدَيْنِيَّاتِ فَافْتَخِرِ[2]

فَهُنَّ أَقلامُكَ اللاتي إِذَا كَتَبَتْ   مَجْداً أَتَتْ بِمِدَادٍ مِنْ دَمٍ هَدَرِ

وغير ذلك من الأبيات المذكورة في ديوانه .

ومنهم جميل الزهاوي العراقي فإنه أخذ قوله :

ظَنَّهُ النَّاسُ لِلْفَنَاء وَإِنِّي   مَعَ نَقْصِي حَسِبْتُهُ لِلْبَقَاء

وقوله :

فَيَا مَوْتُ زُرْ إِنَّ الحَيَاةَ تَعَاسَةٌ[3]

وَيَا نَفْسُ جُودِي إِنَّ دَهْرَكِ يَبْخَلُ

---

(١) شروح سقط الزند ق ٣ ص ٩٧١ .

(٢) شروح سقط الزند ق ١ ص ١٥٦ .

(٣) كذا (ج) .

وقوله :

إنّ لِلْعَالَمِ الذي نَحْنُ جُزءٌ ... مِنْهُ كَوناً مَصِيرُهُ لِلْفَسَادِ

وقوله :

عَلّ مَا يُحْثَى مِنْ تُرَابٍ عَلَيْنَا ... بَعضُ أجدَادِنَا بِكَفّ الحَاثِي

وقوله :

يُطفِىءُ الموتُ مَا تُضيءُ الحَيَاةُ ... .

من قول أبي العلاء :

خُلِقَ النّاسُ لِلْبَقَاءِ فَضَلّتْ ... أُمّةٌ يَحْسِبُونَها لِلْنَفَادِ (١)

وقوله :

فَيَا مَوْتُ زُرْ إنّ الحَيَــاةَ ذَمِيمَةٌ

وَيَا نَفْسُ جِدّي إنّ دَهْرَكِ هَازِلُ (٢)

وقوله :

وَاللّبِيبُ اللّبِيبُ مَنْ لَيسَ يَغْتَــرُّ بِكَوْنٍ مَصِيرُهُ لِلْفَسَادِ (١)

وقوله :

---

(١) انظر ما سبق الصفحات : ١٠٧٤ ـ ١٠٧٦ ، حيث دراسة المؤلف لدالية أبي العلاء .

(٢) شروح سقط الزند ق ٢ ص ٥٣٨ .

خَفِّفِ الوَطْءَ مَا أَظُنُّ أَدِيمَ ٱلْـــأَرْضِ إِلاَّ مِنْ هَذِهِ الأَجْسَادِ
وَقَبِيحٌ بِنَا وإِنْ قَدُمَ العَهْـــدُ هَوَانُ الآبَاءِ والأَجْدَادِ

وقوله :

أَرَى قَبَساً فِي الجِسْمِ يُطْفِئُهُ الرَّدَى
وَمَا دُمْتَ حَيــّاً فَهُوَ ذَا يَتَلَهَّبُ (١)

سعة علمه

استعمل أبو العلاء في (لزوم ما لا يلزم) كثيراً من المسائل العلمية من علوم مختلفة ، وأشار إلى كثير مما اصطلح عليه العلماء في فنون كثيرة في باب التشبيه والتلميح والتورية وغيرها ، فما أشار اليه من علم اللغة قوله :

مَفْعُولُ خَيْرِكَ فِي الأَفْعَالِ مُفْتَقَدٌ كَمَا تَعَذَّرَ فِي الأَسْمَاءِ فَعْلُولُ (٢)

وقوله :

وَأَتَتْ عَلَى الأَكْوَارِ جَمْعِ الكَوْرِ وَٱلْـــكُورِ المُسَرَّحِ هَذِهِ الأَكْوَارُ (٣)

---

(١) الزوميات هـ س ٣٢ .
(٢) الزوميات هـ س ١٩٧ .
(٣) اللزوميات هـ س ١٣٠ .
الكور : بفتح فسكون هو عند المنجمين سنة وثلاثون الف سنة . والكور : بضم أوله وفتحه القطيع العظيم من الابل والبقر .

ومن علم الصرف قوله :

إِذَا مَا دَعِيُّ القَوْمِ ضَاهَى صَرِيحَهُمْ
فَلاَ تُنْكِرَنْ واعْبُدْهُ آخِرَ عَبْدَلِ (١)

ومن النحو قوله :

وَتُرْفَـــعُ أَجْسَادٌ وَتُنْصَبُ مَرَّةً
وَتُخْفَضُ فِي هَذَا التُّرَابِ وَتُجْزَمُ (٢)

ومن علوم البلاغة قوله :

نَطَقَتْ أَلْسُنُ الحَمَامِ وَبِالإِيـــجَازِ جَاءَتْ وَكَثْرَةِ الإِطْنَابِ (٣)

وقوله :

وَلَيْسَ عَلَى الحَقَائِقِ كُلُّ قَوْلِي   وَلَكِنْ فِيهِ أَصْنَافُ المَجَازِ (٤)

ومن العروض قوله :

خَبَرَ الحَيَاةَ شُرُورَهَا وَسُرُورَهَا   مَنْ عَاشَ عِدَّةَ أَوَّلِ المُتَقَارِبِ (٥)

ومن القوافي قوله :

كَالبَيْتِ أُفْرِدَ لاَ إِيطَاءَ يُدْرِكُهُ   وَلاَ سِنَادَ وَلاَ فِي اللَّفْظِ إِقْوَاءُ (٦)

---

(١) اللزوميات ﻫ س ٢١١ .
(٢) اللزوميات ﻫ س ٢٢٨ .
(٣) اللزوميات ﻫ س ٥٤ .
(٤) اللزوميات ﻫ س ١٧٤ .
(٥) اللزوميات ﻫ س ٥٣ .
(٦) اللزوميات ﻫ س ٢٢ .

ومن الفقه قوله :

يَا ابْنَتِ آدَمَ كَانَ طَلَّقَ أُمَّهُمْ   أَوْ كَانَ حَرَّمَهَا عَلَيْهِ ظِهَارُ (١)

ومن الفرائض قوله :

والأُمُّ بالسُّدْسِ بَاءَتْ وَهِيَ أَرْأَفُ مِنْ
بِنْتٍ لَهَا النِّصْفُ أَوْ عِرْسٍ لَهَا الرُّبُعُ (٢)

وستأتي أمثلة من أقواله التي تشتمل على مسائل ومصطلحات من علوم أخرى ، كالحساب ، والهندسة ، والطبيعيات ، والمنطق ، والفلسفة ، والنغم ، وغيرها ؛ وأمثلة تشير إلى مسائل ومصطلحات تتعلق بالتاريخ والعقائد .

النقد

لا نعلم في شعراء العربية من هو أوسع علماً وأرهف حساً وأجرأ قلباً من أبي العلاء ؛ فقد تناول في شعره نقد كثير من المعتقدات والمزاعم المختصة بالمسلمين والعامة لهم ولغيرهم من الأمم في عصره وفي العصور التي قبله . وسبيله في النقد لا يكاد يعدو أموراً ثلاثة ، أحدها : أن يقيم الدليل على بطلان القضية . والثاني : أن يردها على سبيل التهكم والاستخفاف . الثالث : أن يكذبها أو يأتي بما يدل على تكذيبها .

فالأول كقوله :

لَمْ يَسْقِكُمْ رَبُّكُمْ عَنْ حُسْنِ فِعْلِكُمُ
وَلاَ حَمَاكُمْ غَمَاماً سُوءُ أَعْمَالِ (٣)

---

(١) اللزوميات ﻫ. ص ١٣١ ، والظهار : قول الرجل لامرأته أنت عليّ كظهر أمي .

(٢) اللزوميات ﻫ ص ٢٨٢ وفيها : « والأم بالسدس عادت » .

(٣) اللزوميات ﻫ ص ٢١٥ .

وَإِنَّمَا هِيَ أَقْدَارٌ مُرَتَّبَةٌ ... مَا عُلِّقَتْ بِإِسَاءَاتٍ وَإِجْمَالِ
دَلِيلُ ذَلِكَ أَنَّ الْحُرَّ أَعْوَزَهُ ... قُوتٌ وَأَنَّ سِوَاهُ فَازَ بِالْمَالِ

. . .

وَقَدْ يُشْبِهُ الإِنْسَانُ جَاءَ لِرُشْدَةٍ ... بَعِيداً وَيَغْدُو شِبْهُهُ الْخَالَ وَالعَمَّا(١)
وَلَسْتُ أَرَى فِي مَوْلِدٍ حُكْمَ قَائِفٍ
وَكَمْ مِنْ نَوَاةٍ أَنْبَتَتْ سُحُقاً عُمَّا

والثاني كقوله :

قَالَتْ رِجَالٌ عُقُولُ الشُّهْبِ وَافِرَةٌ ... لَوْ صَحَّ ذَلِكَ قُلْنَا مَسَّهَا خَرَفُ(٢)

وقوله :

مَضَى قَيْلُ مِصْرَ إِلَى رَبِّهِ ... وَخَلَّى السِّيَاسَةَ لِلْخَائِلِ(٣)
وَقَالُوا : يَعُودُ فَقُلْنَا : يَجُوزُ ... بِقُدْرَةِ خَالِقِنَا الآئِلِ
إِذَا هَبَّ زَيْدٌ إِلَى طَيِّئٍ ... وَقَامَ كُلَيْبٌ إِلَى وَائِلِ

والثالث كقوله :

قَدْ عِشْتُ عُمْراً طَوِيلاً مَا عَلِمْتُ بِهِ ... حِسّاً يُحَسُّ لِجِنِّيٍّ وَلَا مَلَكِ(٤)

. . .

---

(١) اللزوميات ﻫ ص ٢٣٩ . والسحق : مفردهـا سحوق وهي النخلة الطويلة ، وكذلك النخلة العميمة : الطويلة ، وجمعها عمّ .

(٢) اللزوميات ﻫ ص ٢٩٠ .

(٣) اللزوميات ﻫ ص ٢٢٤ . والآئل فاعل من آل ، وآل الرعيةَ : دبر أمورها .

(٤) اللزوميات ﻫ ص ١٨٩ .

وقوله :

مَا أقبحَ المَيْنَ قُلتُمْ لَمْ يشِبْ أحدٌ
حَتى أتى الشيبُ إبراهيمَ عنْ أمَمِ (١)

كَذَبْتُمُ ونجومُ الليلِ شاهِدةٌ إنّ المَشيبَ قديماً حلّ في اللِّمَمِ

هَذا البَياضُ رَسُولَ الموتِ يَبعَثُهُ في كلّ عصرٍ إلى الأجيالِ والأُمَمِ (٢)

الحكم والأمثال

أكثر أبو العلاء من الحكم والجمل الجارية مجرى الأمثال في (لزوم ما لا يلزم) كقوله :

إذا أُلِفَ الشّيْءُ اسْتَهانَ بِهِ الفَتَى فَلَمْ يَرَهُ بُوسَى تُعَدُّ ولا نُعْمَى (٣)

وقوله :

وَقَدْ يُلْفَى البَعِيدُ عَلَى نَوَاهُ أعزّ عَلَيْكَ مِنْ خَالٍ وَعَمِّ (٤)

وقوله :

مَنْ يَفْقِدِ الحِسّ لاَ يُعرَفْ بِمُخْزِيَةٍ
إنّ الذُّبابَ مَتى يَغلُو الجَنَى يَنِمِ (٥)

(١) اللزوميات ﻫ ص ٢٤٨ .

(٢) في الأصل : « هذا المشيب رسول . . . » .

(٣) انظر ما سبق ص ٩٢٥ .

(٤) اللزوميات ﻫ ص ٢٥١ .

(٥) اللزوميات ﻫ ص ٢٤٨ .

ابتكار المعاني

وفي (لزوم ما لا يلزم) كثير من المعاني التي اخترعها أبو العلاء ولم نعرفها لأحد ممن تقدمه ، كقوله :

وَلَوْ يُرْجَى مَعَ الشُّرَكَاءِ خَيْرٌ ... لَمَا كَانَ الإلَـهُ بِلاَ شَرِيكِ (١)

وقوله :

كَتَجَاوُرِ العَيْنَيْنِ لَنْ تَتَلاَقَيَا ... وَحِجَازُ بَيْنِهِمَا قَصِيرُ جِدَارِ (٢)

وقوله :

كَمْ أَحْرَزَ المَالَ المُقِيمُ بِجَدِّهِ ... وَسَعَى الحَرِيصُ فَعَادَ غَيْرَ مُمَوَّلِ (٣)

وَرَأَيْتُ شَرَّ الجَارِ يَشْمَلُ جَـارَهُ ... كَرَحَى الفَمِ انْتُزِعَتْ بِذَنْبِ المِقْوَلِ

الخيال

من طبيعة الأغراض التي نظم فيها (لزوم ما لا يلزم) أن يقل فيها الخيال ، لأن أكثرها في تمجيد الله ، والموعظة ، والتحذير من الدنيا وأهلها ، والبحث في العقائد ، والعادات ، ونقدها ، وما أشبه ذلك . وهذه لا سبيل فيها إلى الخيال ؛ ومع هذا فإن في (لزوم ما لا يلزم)

---

(١) انظر ما سبق ص٩٤٢ .

(٢) انظر ما سبق ص٩٤١ .

(٣) اللزوميات ﻫ ص ٢٢٠ .

أبياتاً كثيرة تشتمل على صور خيالية بديعة . منها الأبيات القافية :

قُلْ لِلْحَمَامَةِ قَدْ أَصْبَحْتِ شَادِيَةً فَهِجْتِ لِلذَّاكِرِ الْمَحْزُونِ تَشْوِيقَا (١)

والأبيات الميمية :

أَيَا دِيكُ عُدَّتْ مِنْ أَيَادِيكَ صَيْحَةٌ
بَعَثْتَ بِهَا مَيْتَ الْكَرَى وَهْوَ نَائِمُ (٢)

والأبيات الميمية :

أَعِكْرِمَ إِنْ غَنَّيْتِ أَلْفَيْتِ نَادِباً فَلَا تَتَغَنَّيْ فِي الْأَصَائِلِ عِكْرِمَا (٣)

والأبيات الميمية :

لَوْ كَانَ يَدْرِي أُوَيْسٌ مَا جَنَتْ يَدُهُ
لَاخْتَارَ دُونَ مُغَارِ الثَّلَّةِ الْعَدَمَا (٤)

******

تم الجزء الثاني ويليه الجزء الثالث وهو الأخير

وأوله : فلسفة أبي العلاء المعري

---

(١) اللزوميات ﻫ ص ٣٠٤ .

(٢) اللزوميات ﻫ ص ٢٣٠ .

(٣) اللزوميات ﻫ ص ٢٤٠ . والعكرمة : الحمامة .

(٤) اللزوميات ﻫ ص ٢٤١ . أويس : اسم الذئب . والمغار : الإغارة . والثلة : بالفتح جماعة الغنم ، وبالضم جماعة الناس .

فهرس الكتاب (*)

(*) سيقع كتاب (الجامع في أخبار أبي العلاء المعري وآثاره) في ثلاثة أجزاء، وقد رأينا أن نثبت فهارسه العامة التفصيلية في ذيل الجزء الأخير منه، واقتصرنا في هذا الجزء على فهرسة أبوابه وفصوله موجزة، كما فعلنا في الجزء السابق.

استدراك

١ — عند الكلام على كتاب : زجر النابح ، في الصفحة ٧٩٠ فاتنا أن نعلق على ما كتبه المؤلف بما يلي :

عثر الدكتور أمجد الطرابلسي على جزء صالح من هذا الكتاب على هامش إحدى نسخ اللزوميات الموجودة في المتحف البريطاني ، وتحدث عن هذا الجزء ونشر صفحات منه في مؤتمر المستشرقين المنعقد في بريطانيا . ونرجو أن يُتم تحقيق ما عثر عليه وينشره كاملاً في وقت قريب .

٢ — في الصفحة ١٠٣٢ س ٤ :

. . . .   اليك الأماني ما حَلَمْتَ بِهَائِلِ

كذا جاء في الشروح . ولكن رواية التنوير على السقط : (ما حَلُمْتَ بِغَائِلِ) ولعلها الصواب .


الناشر



الجامع

في أخبار أبي العلاء المعرّي وآثاره

ألفه
محمد سليم الجندي

الجزء الثالث

علق عليه وأشرف على طبعه
عبد الهادي هاشم

دار صادر
بيروت

الجامع

في أخبار أبي العلاء المعري وآثاره

٣

مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق

الجامع

في أخبار أبي العلاء المعري وآثاره

ألفه

محمد سليم الجندي

الجزء الثالث

علق عليه وأشرف على طبعه

عبد الهادي هاشم



دار صادر

بيروت

الطبعة الأولى دمشق ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م
الطبعة الثانية بيروت ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

طبع بإذن من المجمع العلمي العربي بدمشق
رقم ٥٠٤/ص بتاريخ ١٩٩١/١٢/٨





ص.ب. ١٠ بيروت ، لبنان / فاكس : ٩٢٠٩٧٨-٠٤
هاتف : ٩٢٨٢٧١-٠٤ ، ٤٤٨٨٢٧-٠١ ، ٤١٣٢٥٦-٠١

بسم الله الرحمن الرحيم

فلسفة أبي العلاء

ذهب فريق من العلماء إلى أن للفلسفة ناحيتين : إحداهما من جهة المبدأ ؛ والثانية من جهة الغاية .

وهي في نظر العلماء باعتبار الجهة الأولى : العلم الباحث عن حقائق الأشياء على ما هي عليه بحسب الطاقة البشرية .

وباعتبار الجهة الثانية : هي التشبه بالإلـه بحسب الطاقة البشرية لتحصيل السعادة الأبدية ، على وفق ما أمر النبي ﷺ بقوله : « تخلقوا بأخلاق الله » وفسروه بأن المراد : تشبهوا به في الإحاطة بالمعلومات ، والتجرد عن الجسمانيات . وهذا الحديث لا أعلم درجته من الصحة وغيرها ، وإنما نقله العلماء الحكماء .

الفيلسوف

وقد أطلق بعضهم لفظ الفيلسوف على من درس كتب الفلسفة درساً علمياً ؛ كما قيل ذلك في الفارابي[1] ، ويعقوب الكندي[2] . ومنهم من

---

(١) الفارابي : هو أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان بن أوزلغ ، أكبر فلاسفة المسلمين ، تركي الأصل ، ولد في فاراب سنة ٢٦٠ هـ وانتقل إلى بغداد فنشأ فيها ، ورحل إلى مصر والشام ، وتوفي بدمشق سنة ٣٣٩ هـ . (الأعلام ٢٤٢/٧) .

(٢) الكندي : أبو يوسف يعقوب بن اسحاق بن الصباح الكندي ، أحد أبناء الملوك من كندة ، نشأ في البصرة وانتقل الى بغداد فتعلم وأصبح فيلسوف العرب والإسلام في عصره ، توفي نحو سنة ٢٦٠ هـ (الأعلام ٢٥٥/٩) .

يطلقه على العالم المعوّل على العقل الخـــارج في بعض آرائه على الدين ، كالعلماء القائلين بقدم العالم . ومنهم من أطلقه على غير من ذكر .

والمشهور أن هذا اللفظ يطلق على من درس العلوم الطبيعية والرياضية والإلهية والخلقية وأتقن دراستها ، ومن جعل حياته العملية منهم مطابقة لحياته العلمية فهو الفيلسوف حقاً .



هل أبو العلاء فيلسوف

ما أسلفنا ذكره في تحصيل أبي العلاء وتعلمه ومصادر ثقافته وآثار العلوم ـ فيما وصل إلينا من نظمه ونثره على قلته ـ يدل على أن أبا العلاء درس أكثر هذه العلوم درساً متقناً ، وبحث عن حقائق العالم بحث مدقق مستقص ؛ وأنه اطلع على الديانات من إسلامية ونصرانية ويهودية ومجوسية وغيرها اطلاعاً واسعاً ، كما اطلع على الثقافات الأعجمية من يونانية وفارسية وهندية ، واطلع على المذاهب والفرق وآراء أهل الأهواء ، وأنه كان يمر بالحوادث فيمعن فيها تفكيره ويعرض كل ما يعرض له على محك العقل .

وما سبق ذكره في سيرته وحياته يدل على أنه كان عاملاً بما يقتضيه علمه ؛ وليس بين علمه وعمله تناقض ما . ومن جمع بين هاتين الخلتين فهو الجدير بأن يسمى فيلسوفاً ، ويكاد قوله :

رَدَدْتُ إلى مَلِيكِ الخَلْقِ أمْري فَلَمْ أسْألْ مَتَى يَقَعُ الكُسُوفُ[1]
فَكَمْ سَلِمَ الجَهُولُ مِنَ المَنَايَا وَعُوجِلَ بِالحِمَامِ الفَيْلَسُوفُ

يشعر بأنه يعد نفسه فيلسوفاً . وقد اختلفت كلمة المتأخرين فيه ، فذهب كثير من المستشرقين إلى أنه شاعر فيلسوف . وذهب فريق إلى أنه جمع بين الوصفين ، وأنه صور في آثاره التي دونها ميلَ التشاؤم والحيرة للعصر الذي انحلت فيه النظم الاجتماعية والسياسية . وفريق منهم يعده من أعظم

---

(١) اللزوميات هـ س ٢٩٣ .

فلاسفة الأخلاق . وفريق منهم جعله شاكاً حيران . ومنهم من زعم أن آثاره خالية من المنهج الفلسفي ، وأن أفكاره غير منسقة .

وكذلك اختلفت كلمة المتأخرين من العرب فيه ، وتفاوتت آراؤهم فيه على قدر تفاوتهم في فهم كلامه وإدراك مراميه .

فمنهم من جعله شاعراً فيلسوفاً ، وأعجب بآرائه الفلسفية التي اشتمل عليها (لزوم مالا يلزم) و (الفصول والغايات) و (ملقى السبيل) كما أعجب بشعره الذي اشتمل عليه (لزوم مالا يلزم) و (سقط الزند) و (ملقى السبيل) . ورأى في هذه الكتب من المعاني الفلسفية ، والصور الخيالية ، والصياغة الفنية ، ماجعله يعد أبا العلاء فيلسوف الشعراء وشاعر الفلاسفة والحكماء .

ومنهم من قصر فهمه عن فهم كلام أبي العلاء، وإدراك ما يرمي إليه في غضـــون كلامه لضعف لغته وكثرة مايحتاج إليه من الجهد في سبيل إدراكه . فلم يشأ أن يصرح بذلك حتى لايوصم بالجهل أو لايظن أنه عربي النسب أعجمي اللغة ، فأخذ ينتقد شعر المعري ويصمه بأن فيه تعقيداً ، وأن فيه تكلفاً ، وأن أفكاره مشتتة لم يجتمع كل نوع منها تحت باب واحد .

ومنهم من قال : إن المعري لم يبتكر شيئاً في الفلسفة ، لأن فلسفته نوعان ، أحدهما : مأخوذ عن أصول قديمة ارتضاها . وثانيها : عبارة عن تأمل وتفكير في الحياة . وهذا يرجع إلى ما لقيه في حياته من تجارب وأحداث ، فكون في نفسه أفكاراً عامة . ومنهم ، ومنهم ، ومنهم . وأكثرهم جعل عمدته في النقض والإبرام والنفي والإثبات (لزوم مالا يلزم). وفي بعض ماذكره هؤلاء شيء من الحق ، لو أن (لزوم ما لا يلزم) أو (الفصول والغايات) أو (ملقى

السبيل) كتاب مستقل في الفلسفة ؛ وليس في واحد من هذه الكتب الثلاثة مايدل على شيء من هذا ، بل الأمر على عكس ذلك ؛ فإنه ذكر في مقدمة (لزوم مالا يلزم) أنه أنشأ أبنية أوراق توخّى فيها الصدق ، منها ماهو تمجيد لله ، ومنها تذكير للناسي ، وتنبيه للراقد ، وتحذير من الدنيا ، وجمع ذلك كله في كتاب لقبه (لزوم مالا يلزم)(١) . ثم بين معنى هذا اللقب ، وذكر الأحكام المتعلقة بحروف القافية وحركاتها وعيوبها وأقسامها . ثم قال : « وقد بنيتُ هذا الكتاب على بنية حروف المعجم المعروفة ... وتكلفت في هذا التأليف ثلاث كلف : أن ينتظم حروف المعجم عن آخرها ، وأن يجيء رويّه بالحركات الثلاث وبالسكون ، وأن يُلتزم مع كل روي فيه شيء لايلزم من باء أو تاء أو غير ذلك » . ثم قال : « وقد كنت قلت : إني رفضت الشعر .. » ومقدمة هذا الكتاب تبلغ نحو خمس وثلاثين صفحة(٢) ، وهي تدل دلالة قاطعة على أن هذا الكتاب كتاب شعر لاكتابُ فلسفة مستقل . وإذا كان الأمر على ماذكرنا فلا يسوغ لنا أن نطالب المعري بتنسيق آرائه ، وترتيب أفكاره الفلسفية ، وجمع كل نوع منها تحت عنوان واحد ، وإحكام الروابط والمناسبات بين كل واحد وآخر .

---

(١) جاء في مقدمة اللزوم : « كان من سوالف الأقضية أني أنشأت أبنية أوراق ، توخيت فيها صدق الكلمة ، ونزهتها عن الكذب والميط . . . فمنها ما هو تمجيد لله الذي شرف عن التمجيد . . . وبعضها تذكير للناسين وتنبيه للرقدة الغافلين ، وتحذير من الدنيا الكبرى التي عبثت بالأول . . . وإنما وصفت أشياء من السطة وأفانين على حسب ما تسمح به الغريزة . . . وجمت ذلك كله في كتاب لقبته لزوم ما لا يلزم » ، اللزوميات ٥ ص ٢ .

(٢) وهي تبلغ في ط بومبي بالهند ١٨ صفحة ، انظر اللزوميات ٥ من ص ٢ — ١٩ .

وأبو العلاء عرض جملة من آرائه في غضون أبياته المختلفة ، فاستدل منها الناس على أنه فيلسوف ، كما استدلوا من الأبيات التي تعرض فيها إلى نكت نحوية ، أو صرفية ، أو عروضية ، أو فقهية ، على أنه نحوي أو صرفي أو عروضي أو فقهي أو نحو ذلك . والشعر لمح لايتسع صـــدره للبسط والتفصيل بقدر مايتسع له صدر النثر .

ونحن لاننكر أن المعري استعمل بعض الكلمات القليلة التداول ، وغير المأنوسة بالنسبة إلى غيره ؛ ولكن استعملها على وجه صحيح ، وأسلوب فصيح ، فلا يصح أن نجعلها عيباً نحط به من قيمة شعره الذي لايستطيع كثير من الناس أن يجاريه فيه . و (لزوم مالا يلزم) يشتمل على ألوف من الأبيات ، فإذا وجد في بعضها شيء من الغريب فهل يجوز أن نحكم على جميع الأبيات بحكم واحـــد ؟ نعم لو أنه لحن في شيء منها لحناً لا وجه له ، لعددنا ذلك ذنباً لا يغتفر ؛ ولكن ذكر كلمات عريقة في العربية لا يجوز أن يكون قادحاً في أدب رجل أو فلسفته أو موجباً للحكم ببراءته منها . ونحن في زمن غريب ، وكل ما فيه غريب ؛ فإن الرجل إذا سمع كلمة ولم يفهمها بادر إلى انتقاد صاحبها ، ووصمه بأنه يتعمد الوحشي في كلامه ، وحاول إسقاطه والحط من كرامته؛ وقام من حوله جماعة كثيرون يشايعونه ويمالئونه . ذلك لأنهم لم يفهموا معنى الكلمة ، ولم يحبوا أن يجهدوا أنفسهم في الرجوع إلى كتاب لغة لفهمها ، وكل واحد منهم يشق عليه أن يظهر للناس أنه غير عالم بمعناها ، وقد وصلت بنا الحالة إلى ما هو أفظع من هذا وأعجب ، فإن الرجل إذا أخطأ أو لحن في كلمة ، وبينت له وجه الصواب ، ولم يستطع إدحاض حجتك ، اعترض على أصل اللغة وقواعدها وقال لك : إني لا أقنع بما ذكرت ، وإني أرى الصواب ما قلته أنا ، وإن خالف اللغة وقواعدها .

ومن غريب ما رأيت من هذا القبيل أن أحد الأدباء قال كلمة في المهرجان الألفي الذي أقامته الجمهورية السورية لأبي العلاء المعري في دمشق سنة ١٣٦٣ هـ — ١٩٤٤ م عنوانها : « أبو العلاء المعري شاعر أم فيلسوف » انتقد فيها ما في (لزوم ما لا يلزم) من الغريب كما انتقد ما في آثاره من الترصيف اللغوي والبديعي ...

وقد رأيت في كلمته هذه ألفاظاً لم تذكر في كتب اللغة على الوجه الذي ذكره ، أو لم ترد للمعنى الذي أراده . منها قوله : « التحليل الكيمياوي » ، « ميزة الشاعر » . « معانيها الوضعية أو القاموسية » . « بثقافة ممتازة » . « ثم تمتاز .. بهذه المعاني » . « الشرح والتدليل » . « متى كان الحزن واليأس والفشل » . « أو نبرره بأن .. » وأمثال ذلك .

ولو أن صاحب هذه الكلمة جاء بكلمات غريبة ، أو جاء بترصيف لغوي أو بديعي مؤلف من كلمات عرفتهـا العرب أو استعملتها في المعنى الذي يريده ، لكان ذلك خيراً من الرشاقة التي توخاها بألفاظ لم تعرفها العرب ، ومعان لم يستعملوها فيها منذ برأ الله العربية إلى يومنا هذا ، وقد فتشت فيمن سمع هذه الكلمة على كثرة عددهم فلم أجد من انتبه إلى شيء مما ذكرته . وهذه الحادثة تصور لنا حقيقة الأمة العربية وحقيقة معرفتها لغتها في هذا العصر .

ومهما حاول المتحذلقون إقصاء أبي العلاء عن الفلسفة ، أو إقصـاء الفلسفة عنه ، فإن المسائل التي ألم بها في (لزوم ما لا يلزم) من الفلسفة الطبيعية ، والرياضيه ، والإلهية ، والعملية ، وحدها تكفي لإدحاض حجتهم . نعم لا ننكر أن تلك المسائل غير منسقة وليس كل فرد منها مجموعاً تحت نوع ، لأن الكتاب كتاب أدب وشعر فيه فلسفة ، لا كتاب فلسفة كما قلنا ، وقد ذكرنا أمثلة توضح الحقيقة في هذا الموضوع .

منشأ فلسفته

إذا استقرينا حياة أبي العلاء في أطواره كلها ، تبين لنا أنه سلك طريقاً خاصاً في حياته ودراسته ، خالف بها طريقة أهل عصره وبيئته التي درج فيها . ومن البديهي أنه لا بد لكل أثر من مؤثر ، ولكل حادث من علة ؛ وقد كانت حياته الخاصة نهباً مقسماً بين الكوارث المضنّة ، والأمراض المؤلمة ؛ على قلة من يعنى بخدمته حق العناية ، لفقده والديه ، وقلة ماله وعماه ، وكثرة حساده وعفافه وأنفته .

وكانت الحياة العامة في عصره على غاية من القلق ، والاضطراب والرداءة ؛ سواء في ذلك الحالة الدينية ، والسياسية ، والاجتماعية . وكان أبو العلاء مفرطاً في الذكاء قوي الحس ، نزاعاً إلى الاطلاع على الحقائق ، وعلى آراء الحكماء ، وأقوال العلماء ، وأحوال البشر وسيرهم في الماضي والحاضر . وكان رقيق القلب ، شديد الرأفة بكل حي من إنسان وحيوان وطير ، كارهاً للظلم والاستئثار . ومن تأمل أقواله وجدها طافحة بالتبرم من حياته ، وعماه ، وعزلته ، وعصره ، وتألمه من مخالطة الناس ؛ مضمورة بذم الملوك وأعوانهم ، والأدباء ، والشعراء ، والعلماء ، وأهل عصره . وربما تعدى ذلك إلى الناس عامة ، من ماض وحاضر ومستقبل . وقد صرح أحياناً ، ولمّح أحياناً أخرى إلى ما يحيط به من أهوال عصره ، وأحوال أهله التي كان يمقتها منه ؛ فكونت هذه المؤثرات في نفسه ثلاثة أشياء :

١ً ــ الزهد بالحياة وكل ما فيها من متع .

٢ً ــ الانفراد عن الناس . وهذا من أعظم العوامل التي ساعدته على الإمعان في الدرس والتعمق في التفكير .

٣ً ــ حب الاستقراء والبحث عن حقائق الأشياء وعللها ونتائجها . وقد كان لذلك أثر كبير في كثير من آرائه الفلسفية كما سترى .

مصادر فلسفته

لا ريب في أن أبا العلاء استقى فلسفته من مصادر متعددة ، يلوح في شعره منها آثار ظاهرة .

الفلسفة اليونانية

من هذه المصادر الفلسفة اليونانية ، فإن لها أثراً بيناً في (لزوم ما لا يلزم) وفي بعض كتبه ورسائله ، يدل على أنه اطلع عليها اطلاع راسخ فيها . ولكن التاريخ لم يبيّن ما درسه من كتبها ، ولا عمن أخذها ، كما لم يبين زمان ذلك ومكانه ؛ ولكنه نقل في رسالته إلى أبي الحسين النكتي البصري[1] عن « صاحب المنطق في كتابه الثاني من الكتب الأربعة » ، وأشار إلى أرسطاليس بقوله :

لَوْ صَحَّ مَا قَالَ رَسْطَالِيسُ مِنْ قِدَمٍ[2] . . . .

وإلى سقراط ، وبقراط ، بقوله :

فَمَا دَفَعَتْ حُكَمَاءُ الرِّجَا لِ حَتْفاً بِحِكْمَةِ بُقْرَاطِهَا[3]
وَلَكِنْ يَجِيءُ قَضَاءٌ يُرِيكَ أَخَا غَيِّهَا مِثْلَ سُقْرَاطِهَا

---

(١) رسائل أبي العلاء المعري شرح شاهين عطية ص ١٣٩ ط بيروت .

(٢) عجزه : وهب من مات لم يجمعهم الفلك انظر اللزوميات ﻫ ص ١٨٢

(٣) اللزوميات ﻫ ص ١٨٠ وفيها : « وما دفعت . . . » .

وإلى جالينوس بقوله :

أينَ بُقْراطُ والمُقَلَّدُ جالِينوسُ هيهاتَ أنْ يَعيشَ طَبيبُ[(١)]

وأشار إلى شيء من مذاهب الحكماء ومزاعمهم في مثل قوله :

زَعَمَ الفلاسِفَةُ الذينَ تَنَطَّسُوا أنَّ المنيَّةَ كَسْرُها لا يُجْبَرُ[(٢)]

الفلسفة الهندية

ومنها الفلسفة الهندية ، فقد زعم بعضهم أن لها أثراً كبيراً في شعره ، وأثراً أكبر في حياته العملية ؛ لأن أخص ما عرف به أهل الهند الزهد في الحياة المادية ، ليتصلوا بالموجد الأول ، وأنهم يقدسون الحيوان ، ويرأفون به ، ويحرقون الميت ، ويقولون بالتناسخ ؛ ولكل واحد من هذه أثر في (لزوم ما لا يلزم) منه ما ارتضاه ، ومنه ما أنكره عليهم .

وعندي أن هذا بعيد عن الصواب ؛ لأن العرب إنما اتصلوا حقيقة بالهند في عهد أبي العلاء فما بعده واطلع العرب على شيء من أخبار الهند وعقائدهم ومذاهبهم ، ولكنهم لم يطلعوا على حقائق مذاهبهم الفلسفية اطلاعاً يحملهم على الأخذ بمبادئهم وعقائدهم ؛ وإنما حدث ذلك في أخريات القرن السادس للهجرة ، فإذا وقع في كلام أبي العلاء شيء من آرائهم ، فما هو إلا من قبيل الأخبار الشائعة عنهم ، لا من قبيل مذهب فلسفي له حدود مقررة ومسائل معينة ، كما يتضح ذلك قريباً . على أن الزهد في الحياة المادية والرأفة بالحيوان من سنن الإسلام .

---

(١) اللزوميات ﻫ س ٣٧ .

(٢) « « س ١٢٧ .

الفلسفة الفارسية

ومنها الفلسفة الفارسية ، فقد أخذ العرب عن الفرس الأخلاق ، والسياسة ، والنجوم ، والقصص . وفي (لزوم ما لا يلزم) وغيره أثر بيّن من ذلك .

كتب الدين

ومنها كتب الدين ، فإن في (لزوم ما لا يلزَم) وغيره ما يدل على أن أبا العلاء ، درس الشريعة الإسلامية ، واطلع على مذاهب الفرق ، وآرائها ، وأدلتها ، وشبهها ؛ كما اطلع على النصرانية ، واليهودية ، والمجوسية ؛ وناقش أصحابها في كثير من المسائل ، وربما كانت كتب الكلام والفقه والتصوف من أشدها أثراً فيه .

حياته

ومنها حياته العملية ، وقد تقدم الكلام في شيء منها ، وستأتي تتمة القول في ذلك .

كيف اتصل بهذه المصادر

ربما كان من أدق النواحي الغامضة في أبي العلاء معرفة اتصاله بمصادر فلسفته ؛ لأن آثاره تدل على أنه اتصل بها من طريق الدراسة والعلم ، ويرجح أن يكون ذلك في المعرة ، لأن التاريخ لم ينقل الينا أن المعري خالط اليونان أو الهنود أو الفرس أو عاشرهم ، أو أخذ عن أحد منهم علماً ، أو درس بعد العشرين عاماً . وقد ادعى بعض الأدباء أنه درس الفلسفة اليونانية في أنطاكية ، واللاذقية ، واطرابلس ، ثم أتقنها في بغداد ؛ وأنه عاشر

الفرس وخالطهم أشد المخالطة حين رحل إلى بغداد ؛ وأنه درس اليهودية والنصرانية في اللاذقية ، والمجوسية في بغداد .

وقد قدمنا ما في رحلاته إلى البلدان الثلاثة المذكورة أولاً من الشكوك ، ورجحنا عدم صحتها ، وبيّنا أن مدة إقامته فيها – على تقدير صحتها – لا تكفي لدرس هـذه العلوم المتشعبة ومصطلحاتها المتعددة ؛ كما بينا قول أبي العلاء بعد انصرافه عن بغداد : « وقد فارقتُ العشرينَ من العمر ما حدثتُ نفسي باجتداء علم من عراقي ولا شآم »[١] . وأبو العلاء أصدق الناس فيما يخبر به عن نفسه .

والذي أظنه بل أعتقده هو أن أبا العلاء اطلع على مذاهب النصارى واليهود والمجوس وغيرهم من كتب الشريعة الإسلاميـة لاسيما كتب الكلام والعقائد ككتب الأشعرية ؛ لأن فيها كثيراً من المسائل التي تُبسط فيها عقائد غير المسلمين ؛ ومن كتب أرباب النحل والآراء والفرق ككتب الشيعة ، وابن زرعة[٢] ، وابن سمح[٣] وابن الراوندي[٤] . ومنها ماوقع إليه على ألسنة الناس ؛ ويدل على هذا قوله في (رسالة الغفران) – حين تعرض لذكر الحلاج ومذهب الحلول – : « وهذه المذاهب قديمة تنتقل في عصر

---

(١) من رسالته الى خاله أبي القاسم علي بن سبيكة عند طلوعه من العراق ؛ انظر رسائل أبي العلاء المعري شرح شاهين عطية ص ٧٩ .

(٢) هو أبو علي عيسى بن اسحاق بن زرعة بن مرقس البغدادي ، عالم بالفلسفة والمنطق ، امتاز بالترجمة ، ولد ببغداد وتوفي بها سنة ٤٤٨ هـ . انظر (طبقات الأطباء : ١/ ٢٣٥ والامتاع والمؤانسة ١/ ٣٣) .

(٣) لعله أصبغ بن محمد بن السمح الغرناطي ، مهندس فلكي له عناية بالطب توفي بغرناطة سنة ٤٢٦ هـ ، (كحالة ، معجم المؤلفين ٢/ ٣٠٢) .

(٤) هو أبو الحسين أحمد بن يحيى بن اسحاق الراوندي أو ابن الراوندي ، فيلسوف مجاهر بالالحاد ، وقد انفرد عن علماء الكلام بمذاهب نقلت عنه في كتب علماء الكلام ، مات سنة ٢٩٨ هـ برحبة مالك بين الرقة وبغداد وقيل : صلب ببغداد ، انظر وفيات الأعيان ١/ ٢٧ وفيه : « وفاته سنة ٢٤٥ هـ » . والبداية والنهاية ١١/ ١١٢ وفيه أنه توفي سنة ٢٩٨ هـ .

بعد عصر ، ويقال : إن فرعونَ كان على مذهب الحلولية ، فلذلك ادعى أنه رب العزة .. » ثم قال : « وتؤدي هذه النحلة إلى التناسخ ، وهو مذهب عتيق يقول به أهل الهند ، وقد كثر في جماعة من الشيعة .. » ثم قال : « وحكي لي عن بعض ملوك الهند ـ وكان شاباً حسناً ـ أنه جدر ، فنظر إلى وجهه في المرآة ، وقد تغير ، فأحرق نفسه وقال : أريد أن ينقلني الله إلى صورة أحسن من هذه .. » ثم قال : « وحدثني قومٌ من الفقهاء أنهم كانوا في بلاد محمود .. » وذكر قصة خلاصتها أن رجلا مسافراً أخبرت امرأته أنه مات ، فأحرقت نفسها ؛ وكان هذا الخبر باطلا فلما قدم الزوج ، وأخبر بذلك أحرق نفسه ليلحق بصاحبته ، وأن أصحابه كانوا يوصونه بأشياء إلى أمواتهم .. ثم قال : « وحدّث من شاهد إحراقهم نفوسَهم أنهم إذا لذعتهم النار أرادوا الخروج ، فيدفعهم من حضر إليها بالعصي والخشب [1] .. » .

وقد تعرض في (لزوم مالا يلزم) إلى ذكر جماعة من رؤساء النِّحلِ والفِرق وكتبهم (كالمنى) و (العمد) .

وذكر في (رسالة الغفران) كتب ابن الراوندي وغيره .

وبعد هذا فلا سبيل إلى الشك في أن أبا العلاء لم يتلق علماً في بغداد ولا غيرها ، وأنه كان يجتمع بأناس يروي عنهم طرفاً من أخبار الهند والصابئة وغيرهما ، وأنه كان يتتبع من الكتب التي كان يقرؤها أخبار الأمم وما يتعلق بعقائدها ونحلها .

ويلخص ماتقدم بأن مصادر فلسفته ، الفلسفة اليونانية ، والهندية ، والفارسية ، وكتب الأديان ، والعقائد والأخبار وأن من أعظم مصادر فلسفته ، حياته ، وما كان يكتنفها من أحواله وأحوال بيئته وعصره ،

---

(١) انظر رسالة الغفران ص ٣٩٥ ـ ٩٩ تحقيق بنت الشاطئ ط ١ .

وأنه درس الناسَ في عصره ومصره ، وفي غيرهما درساً دقيقاً وافياً فكوَّن ذلك فيه ملكة النقد ؛ ولذلك نجد في شعره ونثره كثيراً من نقد الأخلاق والعادات ، والآداب ، والمعتقدات ، وكل ماعلمه منها ولم يتفق مع ذوقه وعقله . وأمثلة ذلك مستفيضة في (لزوم مالا يلزم) وقد أسلفنا ذكر طائفة منها ؛ وسيأتي ذكر طائفة أخرى .

عماد فلسفته والأصل الذي اتخذه طريقاً الى البحث وعمدة يعول عليه في أقواله وآرائه :

اختلف الناس في الأصل الذي يتخذونه أساساً يبنون عليه البحث عن حقائق الأشياء ، ونبراساً يستضيئون به في تمييز الحق من الباطل ، والصحيح من الفاسد .

اليونانيون

فاليونانيون يذهبون إلى أن العقل هو المقياس الصحيح للعلم ، وفي معرفة الحق من الباطل ؛ وهم ينقسمون إلى فرقتين :

الأولى : تقول : إن العقل يستمد علمه بالأشياء من المحسوسات التي تقع على الأشياء الجزئية ، فتنتقل صورها إلى النفس ، حيث يعمل العقل في تجريد تلك الصور ، وردها إلى أصولها العامة التي تتألف منها قضاياه .

والثانية : تقول : إن العقل يستمد علمه بالأشياء من مصدر آخر غير الحس ، وهو الإشراق . وهذا المذهب قائم على ما ذهب إليه أفلاطون من وجود عالم عقلي مجرد يماثل عالم المادة المركب ، أهبطت منه النفس الإنسانية إلى عالم المادة لتبتلى . فذهب بعده قوم إلى أن النفس إذا صفّي جوهرها بهجر الملاذ وحصر الفكر في موضوع واحد تيسر لها أن تتصل بعالمها العقلي أثناء حياتها المادية .

وهناك فرقة أنكرت الحقائق وهم السوفسطائية ، لأنهم لم يستطيعوا الجزم بصحة ما ينتهي اليه العقل من نتائج البحث . وهؤلاء لا يعترفون بالإشراق ؛ ويرون أن الحس كثير الخطأ والاختلاف والتغير ، ولذلك لا يستطيعون الجزم بما ينقل إليهم من صور الأشياء ويتهمون العقل .

ومنهم طائفة رأت أن الحقيقة تتغير بتغير الأشخاص والأطوار ، فما تراه أنت حقاً فهو حق ، وما يراه غيرك حقاً فهو حق ، وإن كان بين الرأيين تناقض .

المتكلمون : وهناك فرقة وقفت موقف الشك ، فلم يثبتوا الحقائق ولم ينكروها ، ويقال لهم « اللا أدرية » .

أما المتكلمون من المسلمين وجمهور الفلاسفة ، فإنهم يقولون : إن حقائق الأشياء ثابتة ، ويجعلون العقل هو المقياس الصحيح والمحك الصادق .

والمتكلمون يضيفون إلى المصادر التي يستمد منها العقل علمه مصدراً آخر وهو الشرع الذي يأتي به نبي مرسل من عند الله . ولكنهم اختلفوا في تقديم بعض هذه المصادر على بعض .

فالأشاعرة يقدمون الشرع على العقل ، لأنه صادر عن معصوم ، ولأن العقل قد يخطىء لأن مصدره الحس الذي قد يخطىء ويعتريه الضعف والقوة ؛ ألا ترى أنك لو أدرت جمرة بسرعة شديدة رأيتها دائرة تامة ؛ ولو وضعت عوداً مستقيماً في ماء ظهر لك أنه منحن ، فهذا من خطأ الحس لعارض .

والمعتزلة يقدمون العقل ، قالوا : لأنا لا نعرف الشرع إلا بالعقل ، ولا نصدقه إلا إذا قام عليه دليل واضح من العقل ، فالعقل أحق بالتقدم ؛ ولو قدمنا الشرع على العقل للزم أحد أمرين : إما بطلان الشرع ، إذ لا مثبت له على هذا التقدير ، وإما إثبات الشرع بالشرع ، وهذا باطل لما

فيه من الدور ، وهو توقف الشيء على نفسه بمرتبة كما هنا أو بمرتبتين ..

أما أبو العلاء فإنه جعل العقل وحده أساساً لآرائه الفلسفية . ولم يضف اليه مصدراً آخر من إشراق أو شرع ، وبذلك خالف الإشراقيين ، والمتكلمين ، والمعتزلة ، كما خالف السوفسطائيين المنكرين حقائق الأشياء ، وصرح بذلك في مثل قوله :

وَقَالَ أُنَاسٌ : مَا لِأَمْرٍ حَقِيقَةٌ فَهَلْ أَثْبَتُوا أَنْ لَا شَقَاءَ وَلَا نُعْمَى (١)
فَنَحْنُ وَهُمْ فِي مَزْعَمٍ وَتَشَاجُرٍ وَيَعْلَمُ رَبُّ النَّاسِ أَكْذَبَنَا زَعْمَا

وقد احتذى في ذلك على مثال الفلاسفة النظريين ، من اليونانيين والمسلمين في الاعتماد على العقل وحده ؛ وزاد عليهم فجعل كل عقل نبياً ، ومن استقرى أقوال أبي العلاء في (لزوم ما لا يلزم) تبين له أن العقل عنده أعز كل شيء وفوق كل شيء ، وأنه يعوّل عليه في كل شيء من أحكامه .

وهذه أمثلة من كلامه ، تدل على مكانة العقل عنده ، فالعقل أفضل ما مُنحه الإنسان ، فمن عصاه وأضاعه وضعه ، ومن أطاعه واتبعه رفعه :

وَالعَقْلُ أَنْفَسُ مَا حُبِيتُ وَإِنْ يُضَعْ يَوْماً يَضَعْ فَغَوَى الشَّرابُ وَمَا جَلَبْ (٢)

وهو قطب تدور عليه الأمور :

اللبُّ قُطْبٌ وَالأُمُورُ لَهُ رَحىً فِيهِ تُدَبَّرُ كُلُّهَا وَتُدَارُ (٣)

والعقل للفرد كالنبي للأمة ، يهديه إلى سواء السبيل ، ويميز له الحق من الباطل ، ويرشده إلى الفضيلة ، وينهاه عن الرذائل :

---

(١) اللزوميات ٥ ص ٢٣٩ .
(٢) « » ص ٥٥ .
(٣) « » ص ١٢٨ ونيها : « فيه تدبر ..... » .

أيُّها الغِرُّ إنْ خُصِصْتَ بِعَقْلٍ فَاسْأَلَنْهُ فَكُلُّ عقلٍ نَبِيُّ[١]

وهو سراج أوقده الله في نفس صاحبه لينير له السبيل ، ويوضح المنهاج :

خُذُوا في سَبِيلِ العَقْلِ تُهْدَوْا بِهَدْيِهِ وَلاَ يَرْجُونَ غَيْرَ الْمُهَيْمِنِ رَاجِ[٢]
وَلاَ تُطْفِئُوا نُورَ الْمَلِيكِ فَإِنَّهُ مُمَتِّعُ كُلِّ مِنْ حِجًى بِسِرَاجِ

والعقل خير مشير :

فَشَاوِرِ العَقْلَ وَاتْرُكْ غَيْرَهُ هَدَراً فالعَقْلُ خَيْرُ مُشِيرٍ ضَمَّهُ النَّادِي[٣]

والعقل عمدة يرجع اليه أهل الرأي والمشورة :

عَلَيْكَ العَقْلَ فَافْعَلْ مَا رَآهُ جَمِيلاً فَهْوَ مُشْتَارُ الشَّوَارِ[٤]

وهادٍ يرشد من ضل أو خشي الضلال :

فَاسْأَلْ حِجَاكَ إذَا أرَدْتَ هِدَايَةً وَاحْبِسْ لِسَانَكَ أنْ يَقُولَ مَجَازا[٥]

وهو خير إمامٍ يقتدى به ، بل لا إمام سواه عند التحقيق :

كَذَبَ الظَّنُّ لا إمَامَ سِوَى العَقْـــلِ مُشِيراً في صُبْحِهِ وَالمَسَاءِ[٦]

---

(١) اللزوميات ﻫ ص ٣٤٣ .
(٢) « « ص ٧٧ .
(٣) « « ص ١١٠ .
(٤) « « ص ٢٥٦ .
(٥) « « ص ١٧٣ .
(٦) « « ص ٢٦ .

وهو الذي يميط اللثام عن حقائق الأشياء ، حتى يهون به الصعب :

إِذَا تَفَكَّرْتَ فِكْراً لا يُمَازِجُهُ فَسَادُ عَقْلٍ صَحِيحٍ هَانَ مَاصَعُبَا (١)

ويتساوى المتضادان : الحب والمبغض :

وَمَنْ كَانَ فِي الأَشْيَاءِ يَحْكُمُ بِالحِجَى تَسَاوَى لَدَيْهِ مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ يَقْلِي (٢)

ويجعل النفس لا تغتم بما يصيبها من المصائب :

وَلَوْ كَانَ عَقْلُ النَّفْسِ فِي الجِسْمِ كَامِلاً لَمَا أَضْمَرَتْ فِيما يُلِمُّ بِهَا غَمَّا (٣)

وهو يأمر بالفضائل ، وينهى عن القبائح والرذائل :

وَعَقَائِلُ الأَلْبَابِ غَيْرُ أَوَامِرٍ بِأَذَاةِ أَيْتَامٍ وَهَتْكِ عَقَائِلِ (٤)

ومن اتخذ غير العقل هادياً أورده موارد الهلكة :

مَنِ اهْتَدَى بِسِوَى المَعْقُولِ أَوْرَدَهُ مَنْ بَاتَ يَهْدِيهِ مَاءً طَالَمَا تَبَلا (٥)

ولو أن الإنسان أعمل فكره وكلّف عقله أن يبحث في حقيقة المذاهب التي اتخذها المحتالون وسيلة إلى جذب الدنيا إلى الرؤساء لتكشفت له حقائقها ولتهاون بتلك المذاهب واحتقرها :

إِذَا رَجَعَ الحَصِيفُ إِلَى حِجَاهُ تَهَاوَنَ بِالمَذَاهِبِ وَازْدَرَاهَا (٦)

---

(١) اللزوميات ﻫ ص ٣٩ .

(٢) « « ص ٢١٠ .

(٣) « « ص ٢٣٨ .

(٤) « « ص ٢٢١ والعقائل : مفردها عقيلة ، وهي كريمة الحي وعقيلة كل شيء أكرمه .

(٥) اللزوميات ﻫ ص ٢٠٣ وتبل : تبل الدهر القوم رماهم بصروفه وأفناهم .

(٦) « « ص ٢٣٨ .

والحازم يعرض على العقل كلّ ما يعرض على سمعه من الأخبار ، فيقبل منها ما يؤيده العقل ، ويرفض ما عداه :

يَقُولُونَ إنَّ الجِسْمَ تُنْقَلُ رُوحُهُ إلى غَيْرِهِ حَتّى يُهَذِّبَهَا النَّقْلُ (١)
فَلا تَقْبَلَنْ مَا يُخْبِرُونَكَ ضِلَّةً إذَا لَمْ يُؤَيِّدْ مَا أَتَوْكَ بِهِ العَقْلُ

ذلك لأن العقل غرس يثمر الصدق :

هَلْ صَحّ قولٌ مِن الحاكي فنقبلَهُ أَمْ كُلُّ ذَاكَ أَبَاطِيلٌ وأَسْمَارُ (٢)
أَمّا العُقولُ فآلَتْ أنه كَذِبٌ والعَقْلُ غرْسٌ لَهُ بِالصِّدقِ إثمارُ

والحازم يعظّم ما يعظمه العقل ويبيحه ، ويحتقر غيره :

وَلاَ تُجِلَّنَّ مَا الأَحْلامُ تَحظُرُهُ فَقَدْ عَلِمْتَ بأَنَّ الرِّمْسَ مَحْلُولُ (٣)

والعقل يدرك حقائق الأشياء ، ولا يغتر بظاهرها ؛ فرب أمر سر إنساناً ، وكانت فيه إساءته ؛ ورب حادث أضحكه ، وكان في طيه ما يغمه ويبكيه :

إذَا افْتَكَرَ اللَّبِيبُ رَأَى أُموراً تَرُدُّ الضَّاحِكَاتِ إلى الوُجُومِ (٤)

وينظر الى الأمور باعتبار غاياتها وما تنتهي إليه فالناس :

لَوْ يَعْقِلُونَ لَهَنَّوا أَهْلَ مَيِّتِهِمْ وَلَمْ تَقُمْ لِوَلِيدٍ فِيهِمُ البُشَرُ (٥)

---

(١) اللزوميات » ص ١٩٥ وفيها : « ينقل روحه » .
(٢) « « ص ١٢٣ .
(٣) « « ص ١٩٧ .
(٤) « « ص ٢٥٢ .
(٥) « « ص ١٢١ .

ولو كان للأمراء عقل ما تركوا المنجمين وأمثالهم يسلبون الضعيف ماله ، والمرأة عفافها :

أَمَا لِأَمِيرِ هَذَا المِصْرِ عَقْلٌ   يُقِيمُ عَنِ الطَّرِيقِ ذَوِي النُّجُومِ[1]
فَكَمْ قَطَعُوا السَّبِيلَ عَلَى ضَعِيفٍ   وَلَمْ يُعْفُوا النِّسَاءَ مِنَ الهُجُومِ

ولكن ولاة الأمر :

يَسُوسُونَ الأُمُورَ بِغَيْرِ عَقْلٍ   فَيَنْفُذُ أَمْرُهُمْ وَيُقَالُ سَاسَه[2]

وإذا تأمل المرء وجد أن كل شيء يتركب منه الإنسان محفوف بالأعداء والأحداث ، والكوارث . وكلما كان ذلك الشيء شريفاً أو نفيساً كان عرضةً للحوادث أكثر مما هو أدنى منه ، وأشد احتمالاً للأذى والآلام . فالعين مثلاً ينتابها من المصائب ، وتتحمل من الأذية والمضض أكثر مما ينتاب الخِنْصَر وتتحمله . ولما كان العقل أشرف ما في الإنسان كان تحمله لما ينتابه أكثر وأشد من غيره :

وَاللُّبُّ يَحْمِلُ مِنْ هَوَاجِسِهِ   مَا لَيْسَ نَاهِضَةً بِهِ البُزْلُ[3]

وكان صاحبه غرضاً لمصائب الدهر :

والدَّهْرُ يَخْطُبُ أَهْلَ اللُّبِّ مُذْ عَقَلُوا   مَا خَافَ عِيّاً وَلَا أَزْرَى بِهِ الحَصَرُ[4]

---

(١) الزوميات ﻫ س ٢٥٢ .

(٢) » » س ٢٩٦ .

(٣) » » س ٢٠٠ . والبزل : جم البازل وهو الجمل في تاسع سنيه .

(٤) » » س ١٢٢ .

وقد طبع الإنسان على الشر :

وَالشَرُّ في طَبْعِ الأَنَامِ فَإنْ يُبِنْ شَيْئاً سِواهُ فَلَيْسَ خيمَ نِجارِ(١)

ولهذا الطبع دولة تؤيدها أعضاء الجسم وسلطان تنصره أهواء النفس ، حتى يغلب العقل :

فَطَبْعُكَ سُلْطَانٌ لِعَقْلِكَ غَالِبٌ تَداوَلُهُ أهْوَاؤُهُ بِالتَّشَصُّصِ(٢)

وإنما سمي العقل عقلاً لأنه يعقل صاحبه أي يحبسه عن الشر والسفاه والتورط في المهالك ؛ مأخوذ من عقل الناقة إذا جمع قوائمها بعقال ومنعها من المشي :

وَالعَقْلُ في مَعْنَى العِقَالِ وَلَفْظِهِ فَالخيرُ يَعْقِلُ وَالسَّفَاهُ يَحُلُّهُ(٣)

ولو ترك الأمر للعقل وحده لكان الإنسان إنساناً كاملاً بكل ما في هذه الكلمة من معنى ؛ ولسار كل واحد من الناس في منهج من الهدى واضح يستنير فيه بنور العقل في كل أموره . ولكن الطبع يعارضه ويغلبه فيقف العقل وقفة الضعيف وينظر نظرة العاجز ، وتحجب نوره ظلمات الأهواء والشهوات ، فيكون كالشمس التي يسترها الغمام :

يَتَحَارَبُ الطَّبْعُ الذي مُزِجَتْ بِهِ مُهَجُ الأَنَامِ وَعَقْلُهُمْ فَيَفُلُّهُ(٣)

وَيَظَلُّ يَنْظُرُ مَا سَنَاهُ بِنَافِعٍ كَالشَّمْسِ يَسْتُرُهَا الغَمَامُ وَظِلُّهُ

---

(١) اللزوميات ﻫ ص ١٦٠ .

(٢) « « ص ٢٨٧ .

(٣) « « ص ١٩٩ .

فإذا أرشدهم العقل إلى الرشاد ، قادهم الطبع إلى الضلال وكانت له الغلبة :

إِذَا مَا أَشَارَ العَقْلُ بِالرُّشْدِ جَرَّهُمْ   إِلى الغَيِّ طَبْعٌ أَخْذُهُ أَخْذُ سَاحِبِ [١]

وكثيراً ما حاول العقل تهذيب أهله فأعياه ذلك :

وَاللبُّ حَاوَلَ أَنْ يُهَذِّبَ أَهْلَهُ   فَإِذَا البَرِيَّةُ مَا لَهَا تَهْذِيبُ [٢]

وكم أمةٍ لعبت بها جهالها وأذاقتها ألواناً من العذاب والجور ، وأخبرتها بغير الحق فكان :

الخَوْفُ يُلْجِئُهَا إِلى تَصْدِيقِهَا   وَالعَقْلُ يَحْمِلُهَا عَلَى تَكْذِيبِهَا [٣]

ولم يستطع عقلاؤها تهذيبها لأنها مجبولة على الفساد ، وتغيير الجبلة ليس بالأمر اليسير :

وَجِبِلَّةُ النَّاسِ الفَسَادُ فَضَلَّ مَنْ   يَسْمُو بِحِكْمَتِهِ إِلى تَهْذِيبِهَا [٤]

ومن استقرى حوادث الدهر ، وما يعرض منها للعقول والطباع والنفوس ، يتضح له أن العقل لا يستمر على حالة واحدة ؛ بل هو ينقاد مرة ، وينفر أخرى ؛ ويضعف تارة ويقوى تارة أخرى بحسب ما يعرض له من التفكر والتأمل ، وما يعترضه من الأحداث :

وَأَشْعُرُ أَنَّ العَقْلَ يُصْحِبُ تَارَةً   وَيَنْفِرُ أُخْرَى وَهُوَ غَيْرُ عَلِيمِ [٥]

---

(١) اللزوميات هـ ص ٤٥ .
(٢) « « ص ٣٦ .
(٣) « « ص ٥١ .
(٤) المصدر السابق وفي اللزوميات هـ « ... فظل من يسمو ... » ولعلها خطأ والصواب ما أثبته المؤلف .
(٥) اللزوميات هـ ص ٢٤٦ .

فيكون له في كل حالة حكم مع الدنيا :

العَقْلُ إنْ يَضْعُفْ يَكُنْ مَعَ هذِهِ الدُّ ... نْيَا كَعَاشِقِ مُومِسٍ تُغْوِيهِ (١)
أوْ يَقْوَ فَهيَ لَهُ كَحُرَّةِ عَاقِلٍ ... حَسْنَاء يَهْوَاهَا وَلا تَهْوِيهِ

وأبو العلاء يتبع من يدعو إلى الخير في الدنيا ، حتى يفارقها وليس له إمام غير عقله :

سَأتْبَعُ مَنْ يَدْعُو إلى الخَيْرِ جَاهِداً ... وَأرْحَلُ عَنْهَا مَا إمَامِي سِوَى عَقْلِي (٢)

وهو يخشى أن يغضب عقله إن أهمله واتبع غيره :

وَيَنْفِرُ عَقْلِي مُغْضَباً إنْ تَرَكْتُهُ ... سُدًى وَاتَّبَعْتُ الشَّافِعِيَّ وَمَالِكَا (٣)

ويرى أن العقل أجـــدرُ بالإكرام والتصديق ممن هو مؤمن الظاهر زنديق الباطن :

تَسَتَّرُوا بِأُمُورٍ فِي دِيَانَتِهِمْ ... وَإنَّمَا دِينُهُمْ دِينُ الزَّنَادِيقِ (٤)
نُكَذِّبُ العَقْلَ فِي تَصْدِيقِ كَاذِبِهِمْ ... وَالعَقْلُ أوْلَى بِإكْرَامٍ وَتَصْدِيقِ

وأن العقل لا يؤثر في طلب الرزق :

وَالعَقْلُ زَيْنٌ وَلَكِنْ فَوْقَهُ قَدَرٌ ... فَمَا لَهُ فِي ابْتِغَاءِ الرِّزْقِ تَأْثِيرُ (٥)

---

(١) اللزوميات ‍ هـ ص ٣٤١ .
(٢) « « ص ٢١٠ .
(٣) « « ص ١٨٥ .
(٤) « « ص ٣٠٧
(٥) « « ص ١٢٤ .

ويأمر صاحبه بسلوك سبيل الحكمة ، واختيار أخف الضررين :

يَقُولُ لَكَ العَقْلُ الذي بَيَّنَ الهُدَى   إذا أنتَ لَمْ تَدْرَأْ عَدُوّاً فَدَارِهِ[1]

وَقَبِّلْ يَدَ الجَانِي الذي لستَ وَاصِلاً   إلى قَطْعِهَا وانْظُرْ سُقُوطَ جِدَارِهِ

وقد يضطر إلى مخالفة ما تقتضيه طبيعته فيلجأ إلى الكذب بحكم الضرورة :

تَعَالَى اللهُ فَهْوَ بِنَا خَبِيرٌ   قَدِ اضْطُرَّتْ إِلَى الكَذِبِ العُقُولُ[2]

نَقُولُ عَلَى المَجَازِ وَقَدْ عَلِمْنَا   بِأَنَّ الأَمْرَ لَيْسَ كَمَا نَقُولُ

وأن العقل يدرك من الأمور إلى غاية محدودة ، ثم يقف وقفة العاجز ، فإنك :

إنْ تَسْأَلِ العَقْلَ لا يُوجِدْكَ مِنْ خَبَرٍ   عَنِ الأَوَائِلِ إلاّ أَنَّهُمْ هَلَكُوا[3]

وأن الخمر :

تُغَيِّرُ العَقْلَ حَتَّى يَسْتَجِيزَ بِهِ   مَدَّ اليَمِينِ لِكَيْمَا تَقْبِضَ الفَلَكَا[4]

فهذه الأبيات وأشباهها ، مما مر ومما سيأتي ، تدل على أن أبا العلاء كان لا يعوّل إلا على العقل في آرائه ، وفلسفته ، ونقده ، وتبين منزلة العقل عنده .

---

(١) اللزوميات هـ س ١٤٨ .

(٢) » » س ١٩٨ .

(٣) » » س ١٨٣ .

(٤) » » س ١٨٦ .

الفرق بين أبي العلاء وبين غيره من شعراء العرب الحكماء

الشعر الفلسفي قديم عند العرب ، نظم فيه شعراء الجاهلية المتقدمون ومن بعدهم إلى عصر أبي العلاء .

والباحث في شعر الجاهليين ، كالأفوه الأودي(١) ، وعلقمة بن عَبَدة(٢) ، والأضبَط بن قريع السعدي(٣) ؛ وطرفة بن العبد(٤) ، وزهير بن أبي سُلْمى(٥) ، وجماعة كثيرين من حكماء الجاهلية ، وشعراء الصعاليك وغيرهم ، يجد كثيراً من النظرات الفلسفية الأخلاقية والدينية وغيرهما ؛ ومن أكثر من عرف بذلك طرفة وزهير من المتقدمين .

---

(١) هو أبو ربيعة صلاءة بن عمرو بن مالك ، من بني أود من مذحج ، شاعر يماني جاهلي ، كان سيد قومه ، وهو أحد الحكماء والشعراء في عصره توفي حوالي سنة ٥٠ قبل الهجرة . (الشعر والشعراء ١٧٥/١ تحقيق شاكر) .

(٢) هو علقمة بن عبدة – بفتح العين والباء – بن ناشرة بن قيس من تميم شاعر جاهلي كان معاصراً لامرىء القيس ، توفي نحو ٢٠ قبل الهجرة ، (الشعر والشعراء ١٧٠/١) .

(٣) هو الأضبط بن قريع بن عوف بن كعب السعدي التميمي شاعر جاهلي قديم لم يعرف تاريخ وفاته ، (الشعر والشعراء ٣٤٢/١) .

(٤) هو أبو عمرو طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد البكري الوائلي ، شاعر جاهلي من أصحاب المعلقات ولد في بادية البحرين وقتل في هجر ولما يزل شاباً في سنة ٦٠ قبل الهجرة (الشعر والشعراء ١ /١٣٧) .

(٥) هو زهير بن أبي سلمى ربيعة بن رياح المزني من مضر ، من شعراء المعلقات ولد في بلاد مزينة بنواحي المدينة وكان يقيم في الحاجر وتوفي سنة ١٣ قبل الهجرة ، (الشعر والشعراء ٨٦/١) .

واشتهر من الإسلاميين بذلك أبو العتاهية [١] ، وأبو تمـــام [٢] ، وأبو الطيب [٣] ، وأبو العلاء .

وبين فلسفة هؤلاء الجاهليين والإسلاميين المذكورين وأمثالهم ، وبين فلسفة أبي العلاء فروق كبيرة كثيرة منها :

١ — مصدر الفلسفة : فإن زهيراً وأشباهه من الجاهليين استمدوا حكمتهم من الفطرة والتجارب ؛ ولذلك جاءت فطرية بسيطة ، وأكثر اتصالها بالحياة العملية .

وأبو العتاهية وأمثاله اقتبسوا حكمتهم من الدين الإسلامي ؛ ولذلك جاء أكثرها متصلاً بالوعظ والزهد .

وأبو تمام أراد أن يخضع الفلسفة والعلم للشعر ، فاستعصى عليه ذلك ، ولم يطاوعه من أنواعها إلا ما كان متصلاً بالأخلاق .

وكذلك أبو الطيب فقد كان أكثر آرائه ونظرياته متصلاً بالفلسفة الخلقية . وليس لواحد من هؤلاء نظريات خاصة يقيم الأدلة عليها . فأقوالهم كلهم من نوع أقوال الحكماء إذا تحدثوا عن الأخلاق .

---

(١) هو أبو اسحاق اسماعيل بن القاسم بن سويد العيني العنزي بالولاء ، شاعر مكثر في الزهد والمديح وأكثر أنواع الشعر في عصره ، ولد في عين التمر بقرب الكوفة وسكن بغداد وتوفي فيها سنة ٢١١ هـ ، انظر (الأغاني دار الكتب ، ٤/١) .

(٢) هو حبيب بن أوس بن الحارث الطائي الشاعر الأديب أحد أمراء البيان صاحب الحماسة ولد بجاسم من أعمال حوران وتنقل بين مصر وبغداد وغيرهما وتوفي بالموصل سنة ٢٣١ هـ ، (وفيات الأعيان ١٢١/١) .

(٣) هو أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي الكوفي الكندي ، الشاعر الحكيم المبدع ولد بالكوفة ونشأ بالشام واتصل بسيف الدولة ومدحه وسافر إلى مصر ومـــدح كافور الاخشيدي ثم انصرف إلى العراق وزار بلاد فارس ثم عاد يريد بغداد فالكوفة فقتل في الطريق بالنعمانية مع ابنه محسد وغلامه وذلك في سنة ٣٥٤ هـ ، (وفيات الأعيان ٣٦/١) .

أما أبو العلاء فقد كانت فلسفته مستمدة من المصادر المتعددة التي سبق ذكرها ، ومنها التجارب والدين . وقد استطاع أن يخضع الفلسفة والعلم للشعر ؛ وقد يأتي بالنظرية ويقيم الدليل عليها تصريحاً أو تلميحاً ، كما يتمثل ذلك في قوله :

قُلْتُمْ : لَنَــا صَانِعٌ قَدِيمٌ   قُلْنَــا : صَدَقْتُمْ كَذَا نَقُول

إلى آخر الأبيات [١] ، وفي قوله :

لَمْ يَسْقِكُمْ رَبُّكُمْ عَنْ حُسْنِ فِعْلِكُمُ   وَلاَ حَمَاكُمْ غَمَاماً سُوءُ أَعْمَالِ [٢]

دَلِيلُ ذَلِكَ أَنَّ الحُرَّ أَعْوَزَهُ   قُوتٌ وأَنَّ سِواهُ فَازَ بِالمَالِ

وقوله :

إِنْ كَانَ مَنْ فَعَلَ الكَبَائِرَ مُجْبَراً   فَعِقَابُهُ ظُلْمٌ عَلَى مَا يَفْعَلُ [٣]

وقوله :

وَيَدُلُّنِي أَنَّ المَمَاتَ فَضِيلَةٌ   كَوْنُ الطَّرِيقِ إِلَيهِ غَيرَ مُيَسَّرِ [٤]

لَوْلاَ نَفَاسَتُهُ لَسَهَّلَ نَهْجَهُ   كَأَذَى الضَّعِيفِ عَلَى لَئِيمِ المَكْسِرِ

---

(١) تمامها :

زعمتموه بلا مكان   ولا زمان ألا فقولوا

هذا كلام له خبيء   معناه ليست لنا عقول

انظر اللزوميات هـ ص ١٩٨ وفيها : « قلتم لنا خالق حكيم ... » .

(٢) اللزوميات هـ ص ٢١٥ .

(٣) « « ص ١٩٨ .

(٤) « « ص ١٥٨ . ولئيم المكسر : يقال : فلان طيب المكسر إذا كان محموداً عند الخبرة ولئيم المكسر إذا كان بضد ذلك .

ويُعزى شعر أبي العلاء على أشعار من تقدم ذكرهم بما أسبغته كثرة الدراسة على شعره من المسحة البدوية ، والصياغة الفنية ، حتى جاء أكثره بدوي اللفظ ، حضري المعنى والتفكير .

ويجوز أن يقال : إن أبا العلاء أحدث فناً جديداً في الشعر لا عهد للعرب به من قبل ، وهو الشعر الفلسفي ؟ إذ لا يعرف شاعر قبله أخضع الفلسفة بجميع أنواعها وراضها حتى أفرغها في قوالب الشعر الضيقة ، بعد أن كانت تضيق بها الكتب الواسعة ؛ وأسبغ عليها ثوباً ضافياً من الطلاوة حبَّبها إلى النفوس بعد أن كانت جافة لا تأنس بها الأسماع ، ولا تصبو إليها القلوب .

موضوع فلسفته

قسم بعض المسلمين الفلسفة تقسيماً إجمالياً إلى أربعة أقسام :

الأول : الفلسفة الطبيعية ، ويقال لها العلم الأدنى .

الثاني : الفلسفة الرياضية ، ويقال لها العلم الأوسط .

الثالث : الفلسفة الإلهية ، ويقال لها العلم الأعلى .

الرابع : الفلسفة العملية .

ولقد تناول أبو العلاء في (لزوم مالا يلزم) وغيره هذه الأقسام الأربعة .

الفلسفة الطبيعية

أما الفلسفة الطبيعية ، فقد بحث فيها عن المادة ، والزمان ، والمكان ، وتناهي الأبعاد .

المادة

قال بعض العلماء : « مادة الشيء هي التي يحصل معها الشيء بالقوة » . وقال آخرون : « هي على رأي المتأخرين من المناطقة عبارة عن كيفية كانت لنسبة المحمول إلى الموضوع إيجاباً أو سلباً ، وعلى رأي المتقدمين منهم هي عبارة عن كيفية النسبة الإيجابية في نفس الأمر بالوجوب ، والإمكان ، والامتناع ؛ ولها أسماء باعتبارات متعددة ، فمن جهة توارد الصور عليها يقال لها : مادة وطينة ؛ ومن جهة استعدادها للصور يقال لها : قابل وهيولى ؛ ومن جهة أن التركيب يبتدىء منها يقال لها : عنصر ؛ ومن جهة أن الحل — التحليل — ينتهي إليها يقال لها : أسطقس » .

وقد ذهب صاحب (الذكرى) إلى أن أبا العلاء يعتقد « أن الأجسام تتألف من مادة قديمة ... وصور تختلف عليها » وأنه أثبت قدم المادة بقوله :

تُرَدُّ إلى الأُصولِ وَكُلُّ حَيٍّ لَهُ في الأَرْبَعِ القُدُمِ انتِسابُ[1]

يريد بالأربع القدم : العناصر الأربعة ؛ وبقوله :

آلَيْتُ لا يَنفَكُّ جِسمِيَ في أَذىً حَتّى يَعُودَ إلى قَدِيمِ العُنْصُرِ[2]

وأنه أثبت بقاء المادة واختلاف الصور عليها :

فَلا يُمْسِ فَخّاراً مِنَ الفَخْرِ عائِدٌ إلى عُنْصُرِ الفَخّارِ لِلنَّفْعِ يُضْرَبُ[3]

لَعَلَّ إناءً مِنهُ يُصْنَعُ مَرَّةً فَيأكُلُ فيهِ مَنْ أَرادَ وَيَشْرَبُ

---

(١) اللزوميات ج ١ ص ٣٤ .

(٢) « « ص ١٥٨ .

(٣) « « ص ٣١ .

وقوله :

تَعُودُ إلى الأرْضِ أجسَامُنَا وتَلْحَقُ بالعُنْصُرِ الطَاهِرِ (١)
ويَقْضِي بِنَا فَرْضَهُ نَاسِكٌ يَمُرُّ البَدَيْنِ عَلى الظَاهِرِ

وقوله :

تَيمَّمُوا بِتُرابي عَلَّ فِعلَكُمُ بَعْدَ الهُمُودِ يُوافِينِي بِأَغْراضِ (٢)
وَإنْ جُعِلتُ بِحكمِ اللهِ في خَزَفٍ يَقضِي الطَّهُورَ فإنِي شَاكِرٌ رَاضِ
جَوَاهِرٌ ألَّفتْهَا قُدْرَةٌ عَجَبٌ وَزَايَلَتْهَا فَصَارَتْ مثلَ أعْرَاضِ

وأنه وصف المادة بالخلود كما وصف العناصر بالقدم فقال :

وإذَا رَجَعتُ إليهِ صَارَتْ أعْظُمِي تُرْباً تَهَافَتُ في طِوَالِ الأعْصُرِ (٣)

ثم قال : « بهذا يظهرك على أنه يرى قدم المادة وخلودها ، ولا يرى رأي المتكلمين من المسلمين في حدوثها ، وتركيب الأجسام من الأجزاء التي لاتتجزأ (٤) » .

وفي كلام أبي العلاء كثير مما يشبه أبياته المتقدمة ؛ منها قوله :

لَعَلَّ مَفَاصِلَ البَنَّاءِ تُضْحِي طِلاءً للسَّقِيفَةِ والجِدَارِ (٥)

---

(١) اللزوميات هـ ص ١٦٧ . وفيها : « . . . أجسادنا ونلحق . . . » .
(٢) « « ص ٢٨٩
(٣) « « ص ١٥٨ .
(٤) انظر طه حسين ذكرى أبي العلاء ط ٢ ص ٣٢٨ ـ ٢٩ .
(٥) اللزوميات هـ ص ١٥٧ .

وفيه كثير مما يدل على حدوث المادة وفنائها ، كقوله :

وَلَيْسَ اعْتِقَادِي خُلُودَ النُّجُومِ ... وَلاَ مَذْهَبِي قِدَمَ العَالَمِ (١)

وقوله :

فَسَادٌ وكَوْنٌ حَادِثَانِ كِلاهُمَا ... شَهِيدٌ بأنَّ الخَلْقَ صُنْعُ حَكِيمِ (٢)

وقوله :

ضَمَانِي أنْ سَيَنْفَدُ كُلُّ شَيءٍ ... سِوَى مَنْ لَيْسَ يَدْخُلُ فِي الضَّمانِ (٣)

وقوله يرد على أرسطاليس :

لَوْ صَحَّ مَا قَالَ رَسْطَالِيسُ مِنْ قِدَمٍ ... وَهَبْ مَنْ مَاتَ لَمْ يَجْمَعْهُمُ الفَلَكُ (٤)

وهذا تناقض بحسب الظاهر ؛ ومنشأ التناقض من لفظ القدم في قوله :

. . . . في الأَرْبَعِ القُدُمِ انتِسابُ

وقديم في قوله :

. . . . إلى قَدِيمِ العُنْصُرِ

ومما يفيده كلامه من أن الجسم بعد مفارقته الروح يعود إلى التراب فيصير تراباً ، ثم خزفاً ، أو طلاء ، أو إناء . وظاهر هذا يدل على أن المادة قديمة باقية لاتفنى ؛ وإنما تختلف عليها الصور . وأبياته الثانية تدل على نفي القدم والبقاء ، وهما متناقضان . وإيضاح هذا يتوقف على مقدمتين :

---

(١) اللزوميات هـ ص ٢٥٥ .

(٢) « « ص ٢٤٦ .

(٣) « « ص ٢٧٩ .

(٤) انظر ماسبق ص ١٢٥١ .

الأولى : أن لفظ « القديم » وقع في كلام العلماء على معانٍ مختلفة كما يشعر به كلام السيد الجرجاني في كتاب (التعريفات) وغيره . فقد يطلق على الموجود الذي لا يكون وجوده من غيره ، وهو القديم بالذات . ويطلق على الموجود الذي لا يكون وجوده مسبوقاً بالعدم ؛ وهو القديم بالزمان . والقديم بالذات يقابله المحدث بالذات ، وهو الذي يكون وجوده من غيره . والقديم بالزمان يقابله المحدث بالزمان ، وهو الذي سبق عدمُه وجودَه سبقاً زمانياً . وكل قديم بالذات قديم بالزمان ، وليس كل قديم بالزمان قديماً بالذات . وقال فريق : القديم ما لا ابتداء لوجوده الحادث ؛ والمحدث ما لم يكن كذلك . وقال آخرون : القديم هو الذي لا أول له ولا آخر .

ومنهم من جعل القدم ثلاثة أقسام : القدم الذاتي ، والقدم الزماني ، وقد تقدم معناهما ، والقدم الإضافي وهو أن يكون ما مضى من وجوده أكثر مما مضى من وجود غيره ، كما في وجود الأب بالقياس إلى وجود الابن . وجعل الحدوث ثلاثة أقسام ، يقابل كل قسم منها قسماً من القدم .

وأهل اللغة يطلقون القديم على خلاف الحادث ، وعلى ما سبق زمانه وتقدم وقوعه . قال في المصباح : وأصل القديم في اللسان السابق . وقال الراغب : وأكثر ما يستعمل القديم باعتبار الزمان ، نحو العرجون القديم . ومن هذا القبيل قول أبي العلاء :

وَلَمْ يَأْتِ في الدُّنْيا القَدِيمَةِ مُنْصِفٌ ... وَلا هو آتٍ بَلْ تَظَالُمُنا جَزْمُ[1]

وقوله في الخمر :

مَقْتُولَةٌ في الحَدِيثِ ضَاحِكَةٌ ... مَوْطُوءَةٌ في القَدِيمِ بالقَدَمِ[2]

---

(١) اللزوميات ج ص ٢٢٨ .
(٢) « « ص ٢٥٤ .

فإنه أراد بالدنيا القديمة في الزمن ، وأراد بالخمر الموطوءة بالأقدام عند عصرها ، وهو قديم بالنسبة إلى وقت شربها . وكذلك قوله في النفس :

فِي طَبْعِهَا حُبُّهَا الدُّنْيَا وَقَدْ عَلِمَتْ أَنَّ الْمَنِيَّةَ فِينَا حَادِثٌ قَدُمَا[1]

وقوله :

وأَعْجَبُ من جهْلِ الذين تَكاثَرُوا بِمَجْدٍ لهُمْ مِنْ حَادِثٍ وَقَدِيمِ[2]

وقوله :

ومَوْلِدُ هذي الشمْسِ أعيَاكَ حَدُّهُ وَخَبَّرَ لبٌّ أنهُ متَقَادِمُ[3]

واستعمل القديم بمعنى القديم بالذات ، في مثل قوله :

نَصَحْتُكَ لا تُقْدِمْ عَلى فِعْلِ سَوْءَةٍ وَخَفْ مِنْ إلـهٍ للزَّمانِ قَدِيمِ[4]

وقوله :

يَغْنَى الذي مَالَـهُ فَنَـاءٌ وَذَلِكَ الواحِـدُ القَدِيمُ[5]

الثانية : أن أبا العلاء يريد بأبياته التي توهم أنها تدل على بقـاء المادة وخلودها ، أن يحذر الإنسان من الاغترار بحالته الحاضرة ؛ وينبهه إلى ما يصير اليه أمره بعد الموت من الصور المستقذرة ، وما ينتهي إليه من الإهانة والذل والعجز حتى يصير تراباً تطؤه الحوافر والنعال ، وأداة تمتهن في الأعمـال

---

(١) اللزوميات ح س ٢٤٢ .
(٢) « « س ٢٤٦ .
(٣) « « س ٢٣١ .
(٤) « « س ٢٤٦ .
(٥) « « س ٢٣٤ .

الدنيئة ، بعد أن كان يجر إزاره خيلاء ، ويظن أنه أعظم من أظلته الخضراء وأقلته الغبراء . فمثله في أقواله هذه مثل علي بن أبي طالب — ض — في قوله : « ما لابن آدم والفخر ، أوله نطفة وآخره جيفة » . وقوله في وصف الأموات : « تطؤون في هامهم وتستثبتون [أو تستنبتون] في أجسادهم ، أولئك سلف غايتكم .. الذين كانت لهم مقادم العز وحلبات الفخر ملوكاً وسوقاً .. » .

فإن علياً — ض — لم يعرّف أول ابن آدم وآخره تعريفاً حقيقياً ، ولم يحدّه حدّاً منطقياً ؛ وإنما أراد أن يوجه الإنسان إلى التفكر فيما نشأ منه ، وفيما يؤول إليه أمره .

وكذلك أبو العلاء في أقواله السابقة وما يشبهها ، مثل قوله :

أَعْلَمُ أني إذا حَيِيتُ قَذىً وأنني بَعْدَ مِيتَتي مَدَرُ (١)
كَمْ مِنْ رِجالٍ جُسُومُهُمْ عَفَرٌ تُبْنَى بِهِمْ أو عَلَيْهِمُ الجُدُرُ

لا يريد بيان عقيدته في المادة ، ولا تعريفها تعريفاً علمياً ؛ وإنما يريد تنبيه الإنسان إلى عاقبة أمره وتصويرها له بصورة تستفز شعوره وتوقظه .

وكذلك لا يريد بالقديم في كل موضع من كلامه ما ذهب إليه الحكماء في معنى القديم الذاتي والزماني ، بل ظاهر كلامه في هذه الأبيات يومىء إلى أنه يريد القِدَم الإضافي . ويدل على ذلك أنه لما أراد أن يبين اعتقاده في العالم نفى عنه القدم والخلود ، في مثل قوله :

وَلَيْسَ اعتِقَادي خُلُودَ النُّجومِ وَلاَ مَذْهبي قِدَمَ العَالَمِ (٢)

---

(١) اللزوميات ﻫ ص ١٣٥ . والمدر : الطين العلك لا يخالطه رمل ؛ والعفر : ظاهر التراب.

(٢) انظر ما سبق ص ١٢٧٣ .

وأنكر على أرسطاليس ما نسب اليه من قدم العالم ، فقال :

لو صحَّ مَا قَالَ رَسْطَالِيسُ مِنْ قِدَمٍ (١) . . . .

وسيأتي الكلام في ذلك في اعتقاده بالنجوم .

ومما تقدم يظهر أن أبا العلاء لا يرى قدم المدة ، ولا خلودها ، ولا يخالف رأي المتكلمين المسلمين في حدوثها ، خلافاً لما نسبه إليه صاحب (الذكرى) في (تجديده ص ٢٦٥) .

الزمان

اختلفت كلمة العلماء والحكماء في تعريف الزمان ، فقال فريق من الحكماء : هو مقدار حركة الفلك الأطلس . وقال آخرون : هو عبارة عن امتداد موهوم غير قار الذات متصل الأجزاء . ومعنى كونه غير قار الذات تقدم جزء منه على جزء آخر إلى غير النهاية . وقال المتكلمون : هو عبارة عن متجدد معلوم يقدر به متجدد آخر موهوم ، كما يقال : آتيك عند طلوع الشمس ، فطلوعها معلوم ومجيئه موهوم . فإذا قرن ذلك الموهوم بذلك المعلوم زال الإبهام . وقال بعض اللغويين : الزمان مدة قابلة للقسمة ، ولهذا يطلق على القليل والكثير . وقال أبو البقاء (٢) : « والزمان ليس شيئاً معيناً تحصل فيه الموجودات ، بل كل شيء وجد وبقي ، أو عدم وامتد عدمه ، أو تحرك وبقي جزئيات حركاته ، أو سكن وامتد سكونه ، وحصل كل واحد من الامتداد هو الزمان . قال أفلاطون : إن في عالم

---

(١) انظر ما سبق ص ١٢٥١ .

(٢) هو أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي ، أبو البقاء ، من قضاة الأحناف ، صاحب كتاب الكليات توفي في القدس سنة ١٠٩٥ هـ (الأعلام ٣٨٣/١) .

الأمر جوهراً أزلياً يتبدل ويتغير ، ويتجدد ويتصرم بحسب الاضافات إلى المتغيرات ، لا بحسب الحقيقة والذات ؟ ومنه الماضي والمستقبل والحال ، وبه التقدم والتأخر . وذلك الجوهر باعتبار نسبة ذاته إلى الأمور الثابتة يسمى سرمدياً ، وإلى ما قبل المتغيرات يسمى دهراً ، وإلى مقارنتها يسمى زماناً » ثم قال : « والزمان المدعى قدمه عند الفلاسفة هو الآن السيال ، وهو أمر بسيط لا تركب فيه ، خلق الله الزمان ليلا مظلماً ، ثم جعل بعضه نهاراً بإحداث الإشراق فيه لإبقاء بعض الزمان على ظلامه ، وبعضه مضيئاً . . . » .

وأبو العلاء لم يرتض ما ذهب إليه العلماء والحكماء ، فذكر له حدًّا ارتضاه . فقد قال في (رسالة الغفران ص ١٣٧)[١] : « وقول بعض الناس : الزمان حركة الفلك ، لفظ لا حقيقـــة له ، وفي كتاب سيبويه ما يدل على ان الزمان [عنده] : مضيُّ الليل والنهار . وقد تُعُلِّقَ عليه في هذه العبارة . وقد حدَدْتُه حدًّا[٢] ما أجدره أن يكون قد سُبق إليه ، إلا أني لم أسمعه ، وهو أن يقال : الزمان شيء أقلُّ جزء منه يشتمل على جميع المدركات وهو في ذلك ضد المكان ، لأن أقل جزء منه لا يمكن أن يشتمل على شيء كما تشتمل عليه الظروف ، فأما الكون فلا بد من تَشَبُّثِهِ بما قل وكثر » اهـ .

وعرفه في (لزوم ما لا يلزم) بأنه ذاهب لا يثبت ، وأنه أحرز كل مدرك ، وما له لون ولا حجم كما سيأتي في المكان . وقال في اللزوم :

---

(١) الغفران ط أمين هندية سنة ١٣٢١ وانظر الغفران تحقيق بنت الشاطيء ط ١ ص ٣٠٩ .

(٢) الحد في اصطلاح الناطقة لايكون إلا بالذاتيات . وهنا ذكر في تعريف الزمان كونه يشتمل على المدركات وانه ذاهب ولا لون ولا حجم له : والاشتمال والذهاب وعدم اللون والحجم أعراض فلا يصح أن يسمى حداً إلا أن يقال أراد بالحد التعريف (ج) .

إذَا قِيلَ: غَالَ الدَّهرُ شيئاً فإنما يرادُ الـهُ الدّهرِ والدّهرُ خادِمُ[1]

وَمَوْلِدُهذي الشمسِ أعياكَ حدُّهُ وَخَبَّرَ لُبٌ أنهُ متقادِمُ

وأيسرُ كَوْنٍ تحتَهُ كُلُّ عالَمٍ وَلاتُدْرِكُ الأكوانَ جُرْدٌ صلادِمُ

إذَا هِيَ مَرَّتْ لَمْ تَعُدْ وَوَرَاءَهَا نَظَائِرُ والأوقَاتُ ماضٍ وَقَادِمُ

فَما آلَ منها بَعْدَ مَا غَابَ غَائِبٌ ولا يَعْدَمُ الحينَ المجدَّدَ عادِمُ

ولعل أبا العلاء لا يريد بالاشتمال معنى الإحاطة هنا ، وإنما يريد به المقارنة في الوجود . وهذا حق لا غبار عليه ، إذ لا يمكن للإنسان أن يتصور شيئاً من المدركات لم يتصل بزمان في وقت وجوده . وأبو العلاء لما اعتقد صحة هذا الحد الذي حد به الزمان لم يقتصر على جعله خاصاً بالمدركات ، بل جعله شاملاً للإله الذي لا يدرك . ولذلك ما استطاع أن يتصور إلهاً موجوداً بلا زمان . فقال هذه الأبيات :

قُلْتُمْ: لَنَا خَالِقٌ حَكِيمٌ قُلْنَا: صَدَقْتُمْ كَذَا نَقُولُ[2]

زَعَمْتُمُوهُ بلاَ مَكَانٍ ولا زمانٍ ، ألاَ فقولُوا

هـذَا كَلامٌ له خَبِيءٌ مَعْنَاهُ لَيْسَتْ لَنَا عُقُولُ

فإن كان أراد بالاشتمال المقارنة في الوجود ، فذلك صحيح بالنسبة للإله ؛ وإن أراد الإحاطة فباطل . وقد كفره جماعة بهذه الأبيات . وزعم

(١) اللزوميات ﻫ ص ٢٣١ .

(٢) انظر ما سبق ص ١٢٦٩ .

صاحب (الذكرى) أن أبا العلاء « يرى قدم الزمان كما يرى قدم المادة »[١] واستدل على ذلك بقوله :

نَزُولُ كَمَا زَالَ آباؤُنَا وَيَبْقَى الزَّمَانُ عَلَى مَا تَرَى[٢]

نَهَارٌ يَمُرُّ ولَيلٌ يَكُرُّ وَنَجْمٌ يَغُورُ ونَجْمٌ يُرَى

هكذا روى البيتين في (تجديده ص ٢٦٦) وهما في (لزوم ما لا يلزم) هكذا :

نَزُولُ كَمَا زَالَ أَجدادُنا . . . .

نَهَارٌ يُضِيءُ وَلَيْلٌ يجيءُ . . . .

وقوله :

وعَلَى حَالِهَا تَدُومُ اللَّيالي فَنُحُوسٌ لِمَعْشَرٍ وَسُعُودُ[٣]

وقوله :

أرَى زَمَناً تَقَادَمَ غَيْرَ فَانٍ فَسُبْحانَ الْمُهَيْمِنِ ذِي الكَمَالِ[٤]

ولأبي العلاء كثير من مثل هذه الأبيات ؛ ولكن يظهر عند التدبر والإمعان أنه لايريد بها مايدل عليه ظاهر لفظه من القدم ؛ فإن قوله السابق في الشمس[٥] :

---

(١) انظر ماسبق ص ١٢٧٢ .
(٢) اللزوميات هـ ص ٢٩ ، ورواية الأبيات فيها كما أثبتها المؤلف بعد قليل .
(٣) اللزوميات هـ ص ١٠١ وفيها : « ... لمعشر أو سعود » .
(٤) اللزوميات هـ ص ٢١٧ .
(٥) انظر ماسبق ص ١٢٧٩ .

إذا هِيَ مَرَّتْ لَمْ تَعُدْ . . . .

فما آلَ مِنْها بَعْدَ مَا غَابَ . . . .

دليلٌ صريحٌ على فناء ماغاب منها وما سيغيب . وقوله : « يضيء ، ويجيء ، ويغور .. » دليل على الحدوث لا على القدم ، لأن انقسام الزمان إلى نهار يضيء ، وليل يجيء ، دليل على حدوثه .

وقوله : « متقادم . وتقادم » ، يريد به القدم الإضافي ، وقوله : « غير فان .. » يريد به غير فان الآن ، لأن اسم الفاعل حقيقة في الحال ، ويدل على ماذكرنا أمور كثيرة منها :

١ — تعريفه الزمـــان بأنه « شيء أقل جزء منه يشتمل ... » وتعريفه إياه بقوله :

السَّاعُ آنِيَةُ الحَوَادِثِ مَا حَوَتْ   لَمْ يَبْدُ إلا بَعْدَ كَشْفِ غِطَائِهَا(١)

فإنه جعل الزمان شيئاً له أجزاء ، والساعات آنية للحوادث ، فلكل حادثة إناء ، وهذا من شأن الحادث .

٢ — ومنها وصفه الزمان بأنه « غير قار الذات » في مثل قوله :

تَتَابَعُ أجزاءُ الزَّمانِ لَطَائِفاً   وَتَلْحَقُ تَفْرِيقاً بِمُؤْتَلِفِيهَا(٢)

فإنه جعل الزمان ذا أجزاء تتتابع وتلحق ، وهذا من صفات الحدوث .

٣ — تصريحه بفناء الزمان في مواضع كثيرة ، وتلميحه في مواطن أكثر كقوله :

---

(١) اللزوميات هـ ص ٢٧ .

(٢) اللزوميات هـ ص ٣٣٥ .

وأشهدُ أنَّ الدَّهرَ كالحُلْمِ زائلٌ ... وأنَّ أديمَ البَدْرِ يَبلى ويَحْلَمُ (١)

وقوله :

الدَّهرُ كالرَّبعِ لمْ يَعلَمْ بحالتِهِ ... هلْ عندَ ذي الدارِ مِن سُكَّانِها خَبَرُ (٢)

وسَوفَ يَقْدُمُ حتى يَستَسِرَّ بهِ ... سَنَا النهارِ ويُفْني شَرْخَهُ الكِبَرُ

وقوله :

أرى الوَقتَ يُفْنِي أنفُساً بِفَنائِهِ ... ويَمحُو فَمَا يَبقى الحَديثُ ولا الرَّسمُ (٣)

وقوله :

واللهُ صَيَّرَ للبِـلادِ وأهلِها ... ظَرْفَينِ وَقتاً ذاهِباً ومَكانا (٤)

وقوله :

. . . . لكنْ زَمانُكَ ذاهِبٌ لا يَثبُتُ (٥)

وقوله :

ويَثبُتُ اللهُ وسُلطَـانُهُ ... وكُلُّ أمرٍ غيرِهِ يَضمَحِلْ (٦)

وقوله :

بَلى قدْ أتانا أنَّ ما كانَ زائِلٌ ... ولكِنَّنا في عالَمٍ ليسَ يَعلَمُ (٧)

---

(١) اللزوميات هـ ص ٢٢٩ ، وحلم الأديم يحلم : إذا تثقب وفسد .

(٢) اللزوميات هـ ص ١٢٢ .

(٣) اللزوميات هـ ص ٢٢٧ .

(٤) اللزوميات هـ ص ٢٦٩ .

(٥) صدر البيت : « أما المكان فثابت لا ينطوي ... » اللزوميات هـ ص ٦١ .

(٦) اللزوميات هـ ص ٢٢٥ .

(٧) اللزوميات هـ ص ٢٢٩ .

ويتضح مما ذكرناه من أقوال أبي العلاء ومن أمثالها مما لم نذكره ، أنه لايرى قدم الزمان ، ولا بقاءه ؛ وما ورد في كلامه مما يوهم القدم فالمراد به القدم بالنسبة إليه وإلى ماقي عصره . والمراد بقوله :

. . . . ، . وَيَبْقَى الزَّمَانُ عَلَى مَا تَرَى[١]

طول المدة بالنسبة إليه وإلى أجداده ، لا البقاء بمعنى الخلود وعدم الفناء. وقد تقدم قوله :

ضَمَانِي أَنْ سَيَنْفَدُ كُلُّ شَيْءٍ[٢] . . . .

على أن أبا العلاء كثيراً ماوصف الأشياء بالقدم ، ولا يريد به إلا القدم الإضافي كقوله :

نُبَكِّي عَلَى الْمَيْتِ الْجَدِيدِ لأَنَّهُ ... حَدِيثٌ وَيُنْسَى مَيْتُكَ الْمُتَقَادِمُ[٣]

وقوله :

أَتُضْمِرُ التَّوبَ مِنْ ضَأْنٍ تَرَوَّعُهَا ... أَمْ كَانَ ذَلِكَ دَاءٌ فِيكُمُ قَدُمَا[٤]

وقوله :

وَجَدْتُ الْمَوْتَ لِلْحَيَوَانِ دَاءً ... وَكَيْفَ أُعَالِجُ الدَّاءَ الْقَدِيمَا[٥]

---

(١) انظر ماسبق ص ١٢٨٠ .
(٢) انظر ماسبق ص ١٢٧٣ .
(٣) اللزوميات ح ٢ ص ٢٣١ .
(٤) اللزوميات ح ٢ ص ٢٤١ .
(٥) اللزوميات ح ٢ ص ٢٤٢ .

وقد قدمنا في المقدمة الأولى أبياتاً من هذا النوع ، وسيأتي طرف آخر منها . وعلى هذا الوجه الذي ذكرناه يمكن الجمع بين أقوال أبي العلاء التي ذكر فيهـا القِـدَم ، ولا يكون في شيء من كلامه تناقض أو تعارض .

اعتقاده في الظلام والنور

قدمنا أن بعض الفلاسفة قال : إن الله خلق الزمان ليلا مظلماً ، ثم جعل بعضه نهاراً بإحداث الإشراق فيه . وكلام أبي العـلاء يدل على أنه يعتقد ذلك ، كما يشعر به قوله :

وَالنُّورُ في حُكْمِ الخَوَاطِرِ مُحْدَثٌ   وَالأَوَّلِيُّ هوَ الزَّمَانُ المُظْلِمُ[1]

وقوله :

يَرَى الفِكْرُ أَنَّ النورَ في الدَّهْرِ مُحْدَثٌ   وَمَا عُنْصُرُ الأَوْقَاتِ إلا حُلُوكُهَا[2]

وقوله :

وَكَأَنَّ الشَّرَّ أَصْـلٌ فِيهِمْ   وَكَذا النورُ حَدِيثٌ في الظُّلَمْ[3]

المكان

اختُلف في لفظ المكان ومعناه ؛ أما لفظه فقيل : إنه « مَفْعَل » من الكون ، أي هو موضع كون الشيء أي حصوله والميم زائدة ؛

---

(١) اللزوميات هـ ص ٢٣٥ .

(٢) اللزوميات هـ ص ١٨٣ .

(٣) اللزوميات هـ ص ٢٥٦ .

ولكثرته في الكلام أجري مجرى « فَعَال » فقيل « تمكَّن » أي توهموا الميم أصلا فقالوا « تمكن » في المكان .

وقيل : إن الميم أصلية فهو « فَعَال » من « التمكن » لا « مَفعل » من « الكون » لأنهم قالوا في جمعه « أمكنة وأماكن وأمكُن » وقالوا : « تمكّن » ولو كان من الكون لقالوا : « تكوّن » .

وأما معناه عند أهل اللغة فقيل : موضع كون الشيء كما تقدم ؛ وقيل : الموضع الحاوي للشيء ؛ وقيل الحاوي للشيء المستقر . وهو عند الحكماء : السطح الباطن من الجسم الحاوي المماسّ للسطح الظاهر من الجسم المحوي . وعند بعض المتكلمين هو الفراغ المتوهم الذي يشغله الجسم وتنفذ فيه أبعــاده ، وعند بعضهم أنه عرض ، وهو اجتماع جسمين : حاوٍ ومحويّ ، وذلك أن يكون سطح الجسم الحاوي محيطاً بالمحوي ، فالمكان عندهم هو المناسبة بين هذين الجسمين . والمكان أمر محقق موجود في الخارج عند الحكماء ، والحصول فيه أمر محقق أيضاً . وأما الزمان فلا وجود له عندهم ، بل هو أمر وهمي ، وكذا الحصول فيه . هكذانقله أبو البقاء .

والمكان قار الذات ، فجميع أجزائه موجودة . والزمان غير قار الذات كما تقدم ، فأجزاؤه منصرمة منقطعة ، بعضها حال يصير ماضياً ، وبعضها مستقبل يصير حالا .

وقد عرفه أبو العلاء بأنه ضد الزمان ، أي بأنه شيء أقل جزء منه لا يمكن أن يشتمل على جميع المدركات كما تقدم . ولم يذكر له حــداً جامعاً مانعاً ، وإنما عرفه ببعض أعراضه الخاصة والعامة ، فقال .

أمَّا المَكَانُ فَثَابِتٌ لاَ يَنْطَوِي ... لَـكِنْ زَمَانُكَ ذَاهِبٌ لاَ يَثْبُتُ[1]

---

(١) انظر ماسبق ص ١٢٨٢ .

فهو عنده قار الذات ، وذلك من خواصه ، وقال :

مَكَانٌ وَدَهْرٌ أحْرَزا كُلَّ مُدْرَكٍ ... وَمَا لَهُمَا لَوْنٌ يُحَسُّ وَلا حَجْمُ[(١)]

فقد وصفه بإحراز كل مدرك ، وهو من أعراضه العامة ، وكذلك عدم اللون والحجم . وقال :

حَوانَا مَكَانٌ لا يَجوزُ انْتِقَالُه ... وَدَهْرٌ لَهُ بالسَّاكِنِينَ مُرُورُ[(٢)]

والحواية وعدم الانتقال من الأعراض العامة . وزعم صاحب (الذكرى) أن أبا العلاء يرى قدم المكان والزمان والمادة وخلودها[(٣)] . ولم أر في كلامه مايدل على أنه كان يرى قدم المكان . أما قوله المتقدم في (رسالة الغفران) وفي (لزوم ما لا يلزم)[(٤)] فلا يدل على القدم ، بل يدل على الحدوث ، لأنه أثبت للمكان جزءاً ، وجعله محرزاً كل مدرك ، وحاوياً للمحدث . وهذا كله من أدلة الحدوث . أما قوله : « لا يجوز انتقاله » فالمراد به انتقال أجزائه وانقطاعها ، بدليل مقابلته للزمان الذي تتصرم أجزاؤه . وبهذا يكون كلام المعري كله جارياً على نمط واحد ، خالياً من التناقض المتكلف .

تناهي الأبعاد

البعد عبارة عن امتداد قائم بالجسم ، أو قائم بنفسه عند القائلين بوجود الخلاء كأفلاطون . وقد اتفقت كلمة المتكلمين على حدوث العالم ، وأنه

---

(١) اللزوميات هـ ص ٢٢٨ .

(٢) اللزوميات هـ ص ١٢١ .

(٣) انظر ذكرى أبي العلاء لطه حسين ط ٢ ، ص ٢٢٨ ـ ٢٣٣ .

(٤) انظر ماسبق ص ١٢٧٨ ـ ٧٩ .

مسبوق بالعدم ، وأن الزمان والمكان وما اشتملا عليه محدودات متناهية حادثة ، وأبو العلاء اقتفى آثارهم في ذلك كله . وزعم صاحب (الذكرى) أن أبا العلاء سلك مسلك الفلاسفة وقال بقدم المادة والزمان والمكان ، فلم يلزمه القول بتناهي الأبعاد فقال :

وَلَوْ طَارَ جِبْرِيلٌ بَقِيَّةَ عُمْرِهِ
مِنَ الدَّهْرِ مَا اسْطَاعَ الخُرُوجَ مِنَ الدَّهْرِ (١)

وقال :

وَأَيْسَرُ كَوْنٍ تَحْتَهُ كُلُّ عَالَمٍ   وَلَا تُدْرِكُ الأَكْوَانَ جُرْدٌ صَلَادِمُ (٢)

الأبيات الثلاثة السابقة . وقال :

وَهَلْ يَأْبَقُ الإِنْسَانُ مِنْ مُلْكِ رَبِّهِ   فَيَخْرُجَ مِنْ أَرْضٍ لَهُ وَسَمَاءِ (٣)

ثم قال : « فأنتَ ترى من هذا أن أبا العلاء قد استمد فلسفته الطبيعية من فلسفة اليونان ، فوافقهم في العناصر وقِدَمِها ، والزمان والمكان ، وخلودهما ، وأنها غير متناهيين .. » (٤) .

والبيت الأول الذي ذكره ، قبله قوله :

غَدَا رَمَضَانِي لَيْسَ عَنِّي بِمُنْقَضٍ   وَكُلُّ زَمَانِي لَيْلَتَي آخِرِ الشَّهْرِ (١)

---

(١) اللزوميات ﻫ ص ١٤٦ . وفيها : « .. وكل زماني ليلتا آخر الشهر » .

(٢) انظر ماسبق ص ١٢٧٩ .

(٣) اللزوميات ﻫ ص ٢٥ .

(٤) انظر ماسبق ص ١٢٨٦ .

أَرُومُ خَلاصاً مِنْ قَضَاءٍ مُسَلَّطٍ ... عَلَيَّ تَوَخَّى قَاهِرَ النّاسِ بالقَهْرِ
رَمَى آلَ صَخْرٍ بالصُّخُورِ وَجَرْوَلاً ... بِهَضْبٍ وأَلْقَى الرَّاسِيَاتِ عَلى فِهْرِ
وَلَوْ طَارَ جِبْرِيلٌ بَقِيَّةَ عُمْرِهِ ... .

ويظهر للمتأمل أن أبا العلاء في هذه الأبيات لايريد أن يقرر مسألة فلسفية ، ولا حقيقة علمية ، ولا أن يبين رأيه في تناهي الأبعاد وعدمه ، وإنما أراد أن يبين تذمره من الحياة ، وما انتابه فيها من الكوارث ؛ فذكر أنه يتابع الصوم حتى كان عمره كله رمضان لاينقضي عنه ؛ وان زمانه كله مظلم كأنه ليلتا آخر الشهر اللتان لايظهر فيها البدر ، بل يستسر ؛ ويقال لليالي التي يستسر فيهما القمر آخر الشهر : السرار والمحاق على اختلاف عند اللغويين ، وذلك لفقده بصره ، وأنه يفكر فلا يجد سبيلا للخلاص مما هو فيه ، لأن القضاء الذي سلط عليه قوي قاهر ، رمى من هو أشد منه قوة ، وأكثر ناصراً بما هو أعظم مما رماه به . ولا يتأتى الخلاص من ذلك إلا بالخروج من الدهر ، لأن سلطة هذا القضاء تشمل كل ناحية من الدهر . وهذا يحتاج إلى أمد بعيد ، لأن مدى الدهر واسع ، حتى لو أن جبريل أراد أن يطير بقية عمره ليخرج من الدهر لما استطاع الخروج لسعة مداه . وهذا كله كناية عن بعد المدى ، وتعذر الخلاص . فسبيله فيه سبيل النابغة في قوله :

فإنَّكَ كَاللّيلِ الذي هُوَ مُدْرِكِي ... وَإنْ خِلْتُ أنَّ المُنْتَأَى عَنْكَ وَاسِعُ(١)

(١) الأغاني ط الدار ١١ / ٥ .

ويؤيد هذا قوله :

أأخْرُجُ مِنْ تَحْتِ هَذِي السَّماءِ ... فَكَيْفَ الإِبَاقُ وأَيْنَ المَفَرّ[1]

وإذا فرضنا أنه يريد بيان رأيه في الأبعاد وعدم تناهيها ، فإن لفظ « بقية » يفهم منه أمران :

الأول : أن عمر جبريل منته ، لأنه ذهب منه قسم وبقيت منه بقية ، وهذا من صفة الحادث المنتهي .

الثاني : يفهم منه أنه لو طار جميع عمره لاستطاع الخروج ؛ وإذا لم يحمل على هذا الوجه ، فإن لفظ « بقية » زائد لافائدة من ذكره . وقد قال العلماء : كلام العاقل يصان عن الإلغاء ما أمكن ؛ وإعمال الكلام أولى من إهماله .

وأما الأبيات الميمية التي منها :

وأيسرُ كَوْنٍ تَحْتَهُ كُلُّ عالَمٍ ... .[2]

فقد بينا فيما سبق أنها دليل للحدوث لا للقدم . وأما بيته الذي على روي الهمزة :

وهَلْ يأبَقُ الإنسانُ مِنْ مُلْكِ رَبِّهِ ... .[3]

فقبله قوله :

قَضَى اللهُ فِينَا بالذي هُوَ كَائِنٌ ... فَتَمَّ وَضَاعَتْ حِكْمَةُ الحُكَمَاءِ

---

(١) اللزوميات هـ ص ١٧٠ .

(٢) تمامه : « ولا تدرك الأكوان جرد صلادم » انظر ما سبق ص ١٢٨٧ .

(٣) تمامه : « فيخرج من أرضه وسماء » انظر ما سبق ص ١٢٨٧ .

وبعده قوله :

سَنَتْبَع آثارَ الذين تَحَمَّلُوا   عَلى ساقةٍ مِنْ أَعْبُدٍ وإماء

وهذه الأبيات مسوقة لأمرين ، أحدهما : بيان أن الإنسان ضعيف ، وثانيهما : أن ربه قوي واسع السلطان ؛ وقد قضى عليه ما قضى ؛ فلا يستطيع الخروج عن ملكه الذي هو أرض وسماء . وذلك كناية عن سعة قدرته وسلطانه وضعف الإنسان ، فهي على حد بيت النابغة المتقدم ؛ وتشبه قول أشجع السُّلَمي :

وَعلى عَدُوِّكَ يا ابْنَ عَمِّ مُحَمَّدٍ   رَصَدانِ ضَوْءُ الصُّبْحِ والإِظْلامُ[(١)]

وإذا كان عليه هذان الرصدان ، فلا يمكنه الإفلات من يده ، ولا التخلص من سلطانه . وإذا تأملنا أبيات المعري الهمزية لا نجد فيها ما يدل على عدم تناهي الأبعاد ، بل نجد فيها ما يدل على تناهيها ؛ لأن أبعاد الأرض متناهية وكذلك السماء .

ومما ذكرنا يتضح أن أبا العلاء خالف الفلاسفة في ذلك ، ووافق المتكلمين في حدوث المادة والزمان والمكان وتناهي الأبعاد . ثم ذكر صاحب (الذكرى) بيتاً لأبي العلاء وهو :

والنُّورُ في حُكْمِ الخَواطِرِ مُحْدَثٌ   . . . .[(٢)]

وذكر قبله وبعده كلاماً خلاصته : أن الكواكب هي مصدر النور ، وان العقل لا بد من أن يتصور وجوداً قد سبق الكواكب ، وهذا الوجود لم يخلُ من زمان ؛ وقد سمى هذا الزمان مظلماً لا نور فيه ...

---

(١) الأغاني ط بولاق ١٧ / ٣١ ، وفيه : « وعلا عدوّك ... » .

(٢) تمامه : « والأولي هو الزمان المظلم » انظر ما سبق ص ١٢٨٤ .

وهذا يدل على حدوث النور والكواكب التي هي مصدره ؛ والزمان الذي يقدر بحركة الفلك ، ولا يتفق مع قول الفلاسفة بقدمها وخلودها ، فكيف يقال : إن أبا العلاء يرى ذلك ويوافق الفلاسفة ؟! فتأمل . وقد قدمنا القول في ذلك .

الفلسفة الرياضية

لم نر فيما وقفنا عليه من كلام أبي العلاء ما يدل على أنه بحث في الأعداد والمقادير بحثاً مستفيضاً ؛ وإنما تصدى إلى بعض المسائل من علم الحساب والهندسة ، وأشار إلى شيء مما اصطلح عليه أهل هذين العلمين ، كقوله مما يتعلق بعلم الحساب :

سَمَا نَفَرٌ ضَرْبَ المِثِينَ وَلَمْ أَزَلْ
بِجَدِّكَ مِثْلَ الكَسْرِ يُضْرَبُ في الكَسْرِ (1)

وقوله :

خَمْسَةٌ في نَظِيرِهَا خَمْسٌ خَمْسَا — تِ تَنَمَّتْ والنِّصْفُ في النِّصْفِ رُبْعُ (2)

وقوله :

طُرُقُ العُلَا مَجْهُولَةٌ فَكَأَنَّهَا — صُمُّ العَدَائِدِ مَالَهَا أَجْذَارُ (3)

---

(١) اللزوميات ﻫ ص ١٤٦ .
(٢) « « ص ٢٨٤ .
(٣) « « ص ١٢٨ .

وقوله مما يتعلق بعلم الهندسة :

ظَلُّوا كَدَائِرَةٍ تَحَوَّلَ بَعْضُهَا   مِنْ بَعْضِها فَجَمِيعُها مَعْكُوسُ[١]

• • •

خَطٌّ اسْتِوَاءٌ بَدَا عَنْ نُقْطَةٍ عَجَبٍ   أَفْنَتْ خُطُوطاً وأَقْلاماً وَكُتَّاباً[٢]

ولعله لم يتعمق في هذين العلمين ، لأن عماه لا يؤهله للأعمال التي يتطلبانها . ويجوز أن يكون أقلّ مِنْ ذكرِهما في كلامه لعدم الحاجة إلى ذلك .

الهيئة

وأما الهيئة ، فقد كان عالماً بأسماء النجوم وخواصها وما يتصل بها من الحوادث الكونية ؛ كما كان عالماً بشخصاتها . وقد أكثر في نظمه ونثره من استعمالها في التشبيه ، وضرب المثل ، ونحو ذلك مما قدمنا بعض أمثلة له .

ولم يتصدّ في كلامه فيها إلى ما يتعلق بالرصد ، لأن فقد بصره حال بينه وبين ذلك ؛ ولكنه بحث عن قدمها وخلودها وما زعم الناس لها من عقل وحسّ وتأثير ونحو ذلك .

اعتقاده في النجوم

يعتقد أبو العلاء أن النجوم حادثة فانية ، ولا يرى قدمها ولا خلودها ؛ وفي (لزوم ما لا يلزم) أدلة على ذلك كثيرة كقوله :

وَلَيْسَتْ بالقَدَائِمِ في ضَمِيري   لَعَمْرُكَ بَلْ حَوَادِثُ مُوجَدَاتُ[٣]

---

(١) اللزوميات هـ ص ٢٩٥ .
(٢) « « ص ٤٠ .
(٣) « « ص ٦٠ .

فَلَوْ أَمْرَ الذي خَلَقَ البَرَايَا   تَهَاوَتْ للدُّجى مُتَسَرِّدَاتُ

وقوله المتقدم :

وَلَيْسَ اعْتِقَادِي خُلودَ النُّجُوم   وَلا مَذْهَبِي قِدَمَ العَالَمِ[١]

وقوله :

وَيَكُونُ أَزْهَرِ الطَّوالِعِ مُنْتَهى   يَذْوِينَ فِيهِ كَمَا ذَوَى النُّوَّارُ[٢]

وقوله :

وَمَا أَظُنُّ المَنَايَا تَخْطُو كَوَاكِبَ جِرْبَهْ[٣]
سَتَأْخُذُ النَّسْرَ والغَفْرَ والسِّمَاكَ وتِرْبَه

وقوله :

وَلاَ أَدَّعِي لِلْفَرْقَدَيْنِ بِعِزَّةٍ   وَلاَ آلِ نَعْشٍ ما ادَّعَاهُ لَبِيدُ[٤]

وقوله :

وَثُرَيَّا النُّجُومِ تَلْقَى حِمَامًا   كَالثُّرَيَّا في رَهْطِها القُرَشِيَّة[٥]

---

(١) انظر ما سبق ص ١٢٧٦.

(٢) اللزوميات ﻫ ص ١٣٠ .

(٣) » » ص ٤٣ الجربة بالكسر : القراح من الأرض . والجرباء بالفتح : السماء أو الناحية التي يدور فيها فلك الشمس والقمر . والنسر : كوكبان الواقع والطائر ؛ والغفر : منزل القمر ثلاثة أنجم صغار . والسماك : الأعزل والرامح ؛ نجمان نيران والترب : الصديق أو من ولد معه .

(٤) اللزوميات ﻫ ص ٩١ .

(٥) أراد بالثريا الثانية التي نسب بها عمر بن أبي ربيعة في قوله :

من رسولي إلى الثريا فإني   ضقت ذرعاً بحبها والكتاب

وكانت من قريش وهي الثريا الأموية التي تزوجها سهيل بن عمرو بن عبد الرحمن ابن عوف . اللزوميات ﻫ ص ٣٤٦ .

وقوله :

إنْ كَانَ لِلْمِرِّيخِ عَمَلٌ فَمَا　　يُسْتَرُ عَنْهُ أَنَّهُ بَائِدُ(١)

وقوله :

وإنَّ السِّماكَيْنِ لاَ يَخْلُدانِ　　ويَهْلِكُ ذُو الرُّمحِ والأعزَلُ(٢)

وقوله :

كَأَنِّي بِهذا البَدْرِ قَدْ زَالَ نُورُهُ　　وَقَدْ دَرَسَتْ آثارُهُ وَمَنازِلُهُ(٣)

وقوله :

وَنَيِّرُ اللَّيْلِ وَشَمْسُ الضُّحَى　　دَامَا وَلَكِنَّهُمَا يَهْلَكَانْ(٤)

وقوله :

إذَا شَبَّتِ الشِّعْرَيَانِ الوَقُودَ　　فَفِي الحُكْمِ أَنَّهُما يَخْبُوَانِ(٥)

وقوله :

هَذِي نُجُومٌ شَاهَدَتْ تُبَّعاً　　وَمَنْ مَضَى مِنْ حِمْيَرٍ أَوْ قَدُمْ(٦)

بُرُوجُهَا كَالبُرْجِ فِي الأرْضِ إنْ　　طَالَ مَدَاهُ فِي العُصُورِ انْهَدَمْ

---

(١) الزوميات « ص ١٠٠ .

(٢) « « ص ٢٠٢ .

(٣) « « ص ١٩٦ .

(٤) « « ص ٢٨٥ .

(٥) « « ص ٢٨٣ الشعريان: العبور والغميصاء : كوكبان يطلعان في شدة الحر .

(٦) « « ص ٢٥٧ .

وقوله :

إنْ تَخرفَ الدَّهرُ فَهو شَيْخٌ يَحُقُّ بالهُتْرِ والزَّمانَه[١]
إنْ قَالتِ الشُّهْبُ نَحنُ رَهطٌ أقْـــدَمُ مِنْهُ فَهنّ مَانَه

إلى غير ذلك من الأبيات الدالة على حدوثها وفنائها تصريحاً أو تلميحاً .

وقد وقع في كلامه ما يوهم غير هذا كقوله :

كَأنّكَ عَنْ كَيْدِ الحوادثِ رَاقِدٌ وَمَا أمِنَتْهُ في السَّماءِ الفَرَاقِدُ[٢]
سَيَجْري عَلى نيرانِ فارسَ طَارِقٌ فَتَخْمَدُ والمرِّيخُ في العَيْنِ وَاقِدُ

وقوله :

يَا شُهْبُ إنّكِ في السَّماءِ قَدِيمَةٌ وأشرْتِ للحُكَماءِ كُلَّ مُشَارِ[٣]

وقوله :

وَقَدْ زَعَموا الأفلاكَ يُدْرِكُها البِلى فإنْ كانَ حقّاً فالنّجاسَةُ كالطُّهرِ[٤]
وَأمّا الذي لا رَيْبَ فيهِ لِعَاقِلٍ فَغَدْرُ اللّيالي بالظّلاميّةِ الزُّهرِ

ونحو ذلك من مثل هذه الأبيات . والمراد بقوله : « والمريخ واقد » أنه أطول بقاء من نيران فارس ، ولكنه يخمد بعد ذلك ، كما يشعر بـــه

---

(١) اللزوميات هـ ص ٢٦٧ . يحق : كان حقيقاً الهُتر : ذهاب العقل من كبر أو من مرض أو حزن . الزمانة : العاهة وتعطيل القوى . مان يمين : كذب .
(٢) اللزوميات هـ ص ٩٠ .
(٣) « « ص ١٦٢ وفيها : « وأشرت للعلماء . . . » .
(٤) « « ص ١٤٦ .

البيت الذي قبله . والمراد بقوله : « في السماء قديمة » التقدم الإضافي . وقوله : « وقد زعموا الأفلاك .. » لا يريد به أنه لا يعتقد ما زعموه . ولا يريد بقوله : « فإن كان حقاً .. » الشك في كون بلاها حقاً ، وإنما يريد أن بلاها حق ؛ وأن الطهارة لا تقي صاحبها من الهـلاك ، فهي كالنجاسة في ذلك . وقد استعمل مثل هذا الأسلوب في كثير من المواطن كقوله :

إِذَا كَانَ هَذَا التُّرْبُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا فَأَهْلُ الرَّزَايَا مِثْلُ أَهْلِ الْمَمَالِكِ (١)

وقوله بعد البيت السابق : « وأما الذي لا ريب فيه .. » صريح في أنها تفنى حين تغدر بها الليالي .

وعلى مثل هذا يحمل ما في كلامه مما يوهم القدم والخلود . وبهذا يتضح أن أبا العلاء ليس في كلامه تناقض في هذا الغرض ، وأنه لا يرى قدم النجوم ولا خلودها ، خلافاً لما زعمه صاحب (الذكرى) في (تجديده ص ٢٦٨) .

تأثير الكواكب

يدل قول أبي العلاء في السقط :

مَنْ قَالَ إِنَّ النَّيِّرَاتِ عَوَامِلٌ فَبِضِدِّ ذَلِكَ فِي عُلَاكَ يَقُولُ (٢)
يَعْمَلْنَ فِيمَا دُونَهُنَّ بِزَعْمِهِ وَلَهُنَّ دُونَكَ مَطْلِعٌ وَأُفُولُ

---

(١) اللزوميات ٥ ص ١٨٨ .

(٢) شروح سقط الزند ، ق ٢ ص ٨٧٢ .

وقوله في (لزوم ما لا يلزم) :

يَقُولونَ صُنْعٌ مِنْ كَوَاكِبَ سَبْعَةٍ ... وَمَا هُوَ إلاَّ مِنْ زَعِيمِ الكَوَاكِبِ[١]

على أنه لا يعتقد تأثير الكواكب في عالم الأرض ، كما يشعر بذلك قوله : « من قال إن .. » وقوله : « بزعمه .. » .

وقوله في (لزوم ما لا يلزم) :

لِعَالَمِ العُلْوِ فِعْـــلٌ لا خَفَاءَ بِهِ
في عَالَمِ الأَرْضِ مِنْ وَحْشٍ وِمِنْ أَنَسِ[٢]

وقوله :

مَا دَامَ في الفَلَكِ المِرِّيخُ أَوْ زُحَلٌ ... فَلاَ يَزَالُ عُبَابُ الشَّرِّ يَلْتَطِمُ[٣]

يدل على أنه يعتقد ذلك ، ومثل هذا قوله :

هَـذِهِ الأَجْسَامُ تُرْبٌ هَامِدٌ ... فَمِنَ الجَهْلِ افْتِخَارٌ وَأَشَرْ[٤]
جَسَدٌ مِنْ أَرْبَعٍ تَلْحَظُهَا ... سَبْعَةٌ رَاتِبَةٌ في اثْنَيْ عَشَرْ

يريد « بالأربع » العناصر التي يتركب منها الجسد في اصطلاح المتقدمين ، وهي الماء ، والهواء ، والتراب ، والنار ؛ ويريد « بالسبعة » الكواكب السيارة ؛ و « بالاثني عشر » بروجها .

---

(١) اللزوميات ﻫ س ٤٥ .
(٢) » » س ٣٠ . والأنس : بفتح الهمزة والنون لغة في الإنس بكسر وسكون .
(٣) » » س ٢٣٤ .
(٤) » » س ١٦٨ .

وقوله :

أرَى أرْبَعاً آزرَتْ سَبْعَةً   وَتِلْكَ نَوَازِلُ في اثْنَيْ عَشَرْ [١]

ويمكن الجمع بين أقواله بأن يقال : إن الذي يعتقده أن الكواكب لا تؤثر بذاتها فيما دونها ؛ وإنما تؤثر باعتبار أنها سبب ، كما يؤثر الماء في النبات ، والسكين في الذبح .

عقل الأفلاك وحسها

قال ثاوفرسطيس أحد تلاميذ أرسطو : « السماء مسكن الكواكب ، والأرض مسكن الناس ؛ على أنهم مثل وشبه لما في السماء . فهم الآباء والمدبرون ، ولهم نفوس وعقول مميزة ، وليس لهـا أنفس نباتية ؛ فلذلك لا تقبل الزيادة والنقصان » [٢] .

وأبو العلاء يعتقد أن الكواكب مجردة من العقل والحس والعمل ؛ ويتلقى اعتقاد غير هذا تارة بالنقد والاستفهام ، وأخرى بالتهكم والسخرية ؛ فمن الأول قوله :

فَهَلْ عَلِمَتْ بِغَيْبٍ مِنْ أمورٍ   نُجومٌ لِلْمَغِيبِ مُعَرِّدَاتُ [٣]
وَقَدْ زَعَمُوا بأنَّ لَها عُقولاً   وَأقْضِيَةُ المَلِيكِ مُؤكَّدَاتُ
وَأنَّ لِبَعْضِها لَفْظاً وَفِيهَا   حَوَاسِدُ مِثْلُنا وَمُحَسَّدَاتُ

---

(١) اللزوميات ﻫ ص ١٧٠ .

(٢) الملل والنحل ٢/٤٢ . (ع)

(٣) اللزوميات ﻫ ص ٦٠ . عرّد النجم : مال للغروب بعد ما تكبد السماء .

وقوله :

فَاعْجَبْ لِعُلْوِيَّةِ الأَجْرَامِ صَامِتَةً فِيمَا يُقَالُ وَفِيهَا ذَاتُ أَصْوَاتِ[١]

وقوله :

تَعَالَيْتَ رَبَّ النَّجْمِ هَلْ هُوَ عَالِمٌ بِحَالاتِهِ فِي مَطْلَعٍ وَمَغَارِ[٢]

أَمِ الشُّهْبُ لَمْ تَشْعُرْ كَمَا جَهِلَ الهُدَى وَقُودٌ لَدَى غَارٍ يُحَشُّ بِغَارِ

وقوله :

فَهَلْ لِطَوَالِعِ الأَقْمَارِ عَقْلٌ فَتَعْلَمَ حِينَ يُدْرِكُهَا الخُسُوفُ[٣]

أَتَسْمَعُ أَو تُعَايِنُ أَوْ تُعَانِي بَلاءً أَوْ تَذَوَّقُ أَوْ تَسُوفُ

وقوله :

سُبْحَانَ خَالِقِ هذي الشُّهْبِ دَائِبَةً سَارَتْ وَأَسْرَتْ فَلاَ أَيْنًا وَلاَ وَسَنَا[٤]

ومن الثاني قوله :

قَالَتْ رِجَالٌ : عُقُولُ الشُّهْبِ وَافِرَةٌ

لَوْ صَحَّ ذَلِكَ قُلْنَا : مَسَّهَا خَرَفُ[٥]

---

(١) اللزوميات ﻫ ص ٦٧ .

(٢) » » ص ١٤٩ . حشّ النار : أوقدها .

(٣) » » ص ٢٩٢ . والسوف : الشم .

(٤) » » ص ٢٦٥ . والأين : الإعياء والتعب .

(٥) » » ص ٢٥٠ .

وقوله :

لِلْعَالَمِ العُلْوِيِّ فِيما خَبَّرُوا ... شِيَمٌ بِها قَدْرُ الكَواكِبِ نازِلُ[1]

أَتَرى الهِلالَ وَلَيسَ فِيهِ مَظِنَّةٌ ... يَصْبُو إلى جَوْزائِهِ وَيُغازِلُ

وَيَنالُهُ نَصَبٌ يُطِيلُ عَناءَهُ ... فَلَهُ كَسارِي المُدْلِجِينَ مَنازِلُ

وَيُقيمُ في الدَّارِ المُنِيفَةِ لَيْلَةً ... وَإذا تَرَحَّلَ لَمْ يَعُقْهُ الآزِلُ

وقوله :

وإِنْ صَحَّ أَنَّ النَّيِّراتِ مُحِسَّةٌ ... فَماذا نَكِرْتُمْ مِنْ وِدادٍ ومِنْ صِهْرِ[2]

لَعَلَّ سُهَيْلاً وَهْوَ فَحْلُ كَواكِبٍ ... تَزَوَّجَ بِنْتاً لِلسِّماكِ عَلى مَهْرِ

يَقُولُونَ تأْتي فَوْقَنا مِثْلَ ما أَتى ... بَنُو الأَرْضِ في حالِ الإسْرارِ أَوِ الجَهْرِ

فَيا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ تُراعُ مِنَ الرَّدَى ... وَتَرْكَعُ نُسْكاً بالعِشاءِ وبالظُّهْرِ

وَتَكْذِبُ إِنَّ المَيْنَ في آلِ آدَمٍ ... غَرائِزُ جاءَتْ بالنِّفاقِ وبالعُهْرِ

وقوله :

العالَمُ العُلْوِيُّ بِرَأْيِ مَعاشِرٍ ... كالعالَمِ الهاوِي يُحِسُّ وَيَعْلَمُ[3]

زَعَمَتْ رِجالٌ أَنَّ سَيّارَاتِهِ ... تَسِقُ العُقُولَ وأَنَّها تَتَكَلَّمُ

فَهَلِ الكَواكِبُ مِثْلُنا في دِينِها ... لا يَتَّفِقْنَ فَهائِدٌ أَوْ مُسْلِمُ

ولَعَلَّ مكَّةَ في السَّماءِ كَمَكَّةٍ ... وَبِها نَضادِ وَيَذْبُلٌ وَيَلَمْلَمُ

---

(١) اللزوميات « ص ١٩٩ ».

(٢) « « ص ١٤٦ .

(٣) « « ص ٢٣٥ وفيها : « العالم العالي . . . « . نضاد ويذبل ويلملم : جبال

إلى غير ذلك من الأبيات ، وخلاصة ما فيها أنه لا يعتقد ما زعمه الناس من أن الكواكب لها عقول وحس وألفاظ تتكلم بها ، ولهـا علم بالأشياء ... بل يعتقد أن إثبات ذلك يفضي الى إثبات شيم وأفعال لها تؤدي إلى نزول قدرها ، والحط من كرامتهـا ؛ لأنها إذا كانت مشابهة للناس في عقولها وحسها وعلمها وعملها وشيمها وجب أن يكون فيها حساد ، وأهل صبوة ، ومغازلة ، وانتقال ، وإقامة ، وحب ، ومصاهرة ، واختلاف في الدين ، واتصاف بالخلائق الذميمة ، كالنفاق والفجور ، كما كان ذلك في الناس ؛ ويجب أن يصيبهـا الخرف كما يصيب الإنسان إذا عمر طويلا . وإذا كان العالم العلوي مشابهاً للعالم السفلي وجب أن يكون في السماء مدينة تسمى مكة ، كما كان ذلك في الأرض ؛ وأن يكون فيها جبـال تسمى بأسماء الجبال التي في مكة ، كنضاد ، ويذبل ، ويلملم ، حتى يتم التشابه بين العالمين في كل شيء .

اعتقاده في تأثير القِران

لا يعتقد أبو العلاء أن لِقِران الكواكب أثراً في حياة العالم السفلي ، وإنما يتلقى هذه المزاعم بالاستخفاف والجحد فيقول :

وَقَدْ زَعَمُوا أنَّ القِرانَ مُغَيِّرٌ ... مُلُوكَ بَني النَّضْرِ الأُولى مَلَكُوا النَّضْرا[1]

ويقول :

يَقُولونَ : تَأثِيرُ القِرَانِ مُغَيِّرٌ ... مِنَ الدِّينِ آثارَ السُّرَاةِ الأَماجِدِ[2]

(١) اللزوميات ‍ﻫ ص ١٣٦ .

(٢) « « ص ١٠٥ ورواية البيت الأخير فيها : « إذا عظموا ... » .

مَتَى يَنْزِلِ الأَمْرُ السَّمَاوِيُّ لا يُفِدْ سِوَى شَبَحٍ رُمْحُ الكَمِيِّ المُنَاجِدِ
وإنْ لَحِقَ الإسْلامَ خَطْبٌ يَغُضُّهُ فَمَا وَجَدَتْ مِثْلاً لَهُ نَفْسُ وَاجِدِ
وَإنْ عَظَّمُوا كِيوانَ عَظَّمْتُ وَاحِداً يَكُونُ لَهُ كِيوَانُ أَوَّلَ سَاجِدِ

ويقول :

قِرَانُ المُشْتَرِي زُحَلاً يُرَجَّى لإيقَاظِ النَوَاظِرِ مِنْ كَرَاهَا[1]

ويقول :

مَالِي رَأَيْتُ صُنُوفَ البَاطِلِ اشْتَبَهَتْ
فَلَمْ تُزَلْ بِقِرَانِ المُشْتَرِي زُحَلا[2]

تعظيم الكواكب

خلق الله تعالى هذه الكواكب ، وجعلها عظيمة في مقاديرها وفي منافعها ؛ واختص كل واحد منها بعظم خاص ، حتى إن منها مـا هو أعظم من الأرض بألوف المرات . واختص كلا منها بنوع معين من الحركة في البطء والسرعة ، وبجهة معينة للحركة . فبعضها يسير من المشرق إلى المغرب ، وبعضها يخالف هذه الجهة . وجعل ألوانها مختلفة بحسب الظاهر ، فمنها ما هو ضارب إلى الصفرة كعطارد ، ومنها ما هو ضارب إلى البياض كالزهرة ، ومنها ما هو مائل إلى الحمرة كالمريخ ، ومنها ما هو غير ذلك . وجعل بعضها نهاريا ، وبعضها ليليـًّا . . وجعل لكل منها فلكاً يجري فيه . وأودعها

---

(١) الزوميات هـ ص ٣٣٨ .
(٢) » » ص ٢٠٤ .

من الأسرار والفوائد والتأثير في هذا العالم بنورها وحرارتها وغير ذلك مما اهتدى إليه العقل البشري ، ومما لم يهتد اليه بعد .

وقد نبه القرآن الكريم إلى عظم أمرها ، وجعلها آية لأولي الألباب ، دالة على قدرة خالقها وحكمته . وحض على التفكر في خالها . وإذا كان خالقها عظمها ، وجب على خلقه تعظيمها . وأبو العلاء تفكر في خلقها ، وعظمها ، وعظم آثارها في الهداية ، في حياة العالم السفلي فقال :

الشُّهْبُ عَظَّمَها المليكُ وَنَصَّها ... للعَالَمِينَ فَوَاجِبٌ إعْظَامُها [1]

فهو يعظمها لأن الله عظمها ، وهي عنده أحق بالتعظيم من أشرف بني آدم :

وَلَهُنَّ بالتَّعْظِيمِ في خَلَدِي ... أولَى وأجْدَرُ مِنْ بَني فِهْرِ [2]

العناصر التي تتركب منها الكواكب

قلنا : إن الحكماء المتقدمين ذهبوا إلى أن العالم مركب من أربعة عناصر : الماء ، والهواء ، والنار ، والتراب ، وإليها يردون كل موجود من المخلوقات . وأبو العلاء اقتفى آثارهم في ذلك في مواطن من شعره كقوله :

الخَلْقُ مِنْ أرْبَعٍ مُجَمَّعَةٍ ... نَارٍ وَمَاءٍ وَتُرْبَةٍ وَهَوَا [3]

وهو يعتقد أن الكواكب كغيرها تتركب من هذه العناصر فيقول :

وَلَقَدْ عَلِمَ المُنَجِّمُ مَا يُو ... جِبُ للدِّينِ أنْ يَكُونَ صَرِيحَا [4]

مِنْ نُجُومٍ نارِيَّةٍ وَنُجُومٍ ... نَاسَبَتْ تُرْبَةً وَمَاءً وَرِيحَا

(١) اللزوميات ٥ ص ٢٣٧ .
(٢) « « ص ١٦٥ .
(٣) « « ص ٣٤٢ .
(٤) « « ص ٨٤ .

وجود البشر في الأفلاك

ويعتقد أن الفلك العلوي آهل بالبشر ، كما أن فلك الأرض آهل بالملائكة . وقد أورد هذه القضية على طريقة المناطقة في القياس الاستثنائي ، وإن لم يساعده النظم على إتمامه ، وذلك إشارة إلى أنه جازم بهذه القضية ، قال :

إنْ لَمْ يَكُنْ في سَماء فَوْقَنا بَشَرٌ فَلَيْسَ في الأرْضِ أوْ ما تَحْتَها مَلَكُ[(١)]

وتركيب القياس أن نقول : إن لم يكن في السماء بشر فليس في الأرض . . . ملك . لكن في الأرض ملك فينتج في السماء بشر ، لأن استثناء نقيض التالي ينتج نقيض المقدم ، كما هو مبين في كتب المنطق .

رأيه فيما يعتقده الناس في النجوم

لأبي العلاء اعتقاد سيء في المنجمين ومزاعمهم . وقد نعى عليهم أعمالهم ، وبيّن كثيراً من حيلهم ومكايدهم . وقد أفردنا لذلك بحثاً خاصاً بهم . أما هنا فإننا نذكر ما لغير المنجمين من المزاعم ، وإن كان بعضها يتصل بهم ؛ فاسمعه يروي لنا ما شاع في عهده والذي قبله ، من العقائد والمزاعم :

وَفي كُلِّ شَهْرٍ تَصْنَعُ الدَّهْرَ جِنَّةٌ فَتَعْقِدُ فيهِ بالهِلالِ التَّمائِمُ[(٢)]

لَهُ عُوَذٌ في كُلِّ شَرْقٍ وَمَغْرِبٍ دَعاها اليَماني الدّارِ والمُتَشائِمُ

. . .

(١) اللزوميات ﻫ ص ١٨٣ .

(٢) » » ص ٢٣٠ .

قَدْ صَدَّقَ النَّاسُ مَا الأَلْبَابُ تُبْطِلُهُ   حَتَّى لَظَنُّوا عَجُوزاً تَحْلُبُ القَمَرا[1]

أَنَاقَةٌ هُوَ أَمْ شَاةٌ فَيَمْنَحَهَا   عُسًّا تُغِيثُ بِهِ الأَضْيَافَ وَالغَمَرا

• • •

وَقَدْ كَذَبُوا حَتَّى عَلَى الشَّمْسِ أَنَّهَا   تُهَانُ إِذَا حَانَ الشُّرُوقُ وَتُضْرَبُ[2]

• • •

وَلَسْتُ أَقُولُ إِنَّ الشُّهْبَ يَوْماً   لِبَعْثِ مُحَمَّدٍ جُعِلَتْ رُجُومَا[3]

قال بعض العلماء : « لم يقذف بالنجوم حتى ولد النبي ﷺ » وقال آخرون : « حتى بعث » . وقال جماعة : « دلت التواريخ على أن ذلك كان موجوداً قبل هذا الوقت » . وقد بحث فيه الحكماء المتقدمون قبل الإسلام ، ووفق جماعة من المحققين بين الأمرين ، فقالوا : إنه كان قبل مجيء النبي ﷺ ولكنه كثر في بدء بعثته ، كما يتضح ذلك مما ذكره الفخر الرازي في تفسيره (مفاتيح الغيب ج ٧ ص ٨٧) والشهاب الخفاجي في (حاشيته على البيضاوي ج ٧ ص ٢٦٣) وابن جرير الطبري (في تفسيره ج ٣، ص ٢٢) ؛ وسأل أبو العلاء في (رسالة الغفران ص ٧٨) [4] أبا هدرش عن الرجم فقال : « زاد في

---

(١) اللزوميات هـ ص ١٣٩ . وفيها : « . . . تغيث به الأضياف أو غمرا »
والعس واحد العساس : الأقداح الكبار ، وغمر الناس : جماعتهم .

(٢) اللزوميات هـ ص ٣٠ .

(٣) » » ص ٢٤٢ .

(٤) الغفران ط أمين هندية وانظر تحقيق بنت الشاطىء ط ١ ص ٢٠٦ .

أوان البعث » . وأورد فيها بيتاً للأودي وآخر لابن حجر [١] فراجعها .

وبهذا يتبين لنا أن أبا العلاء لا يكفر بالبيت الأخير ، وأنه في فلسفته الرياضية لم يوافق الفلسفة اليونانية في طريقة البحث ولا في نتائجها ، وإنما وافق المتكلمين ، وأن الواضح من أكثر أقواله حدوث الكواكب ، وتأثيرها في العالم السفلي ، وتجردها عن الحس والعقل ، وبطلان كل ما نسب إليها من المزاعم ، وأنها لا تخلو من بشر .

الفلسفة الالٓهية

الإله

يعتقد أبو العلاء في الله تعالى ما يعتقده المؤمنون المخلصون من المسلمين ، ويثبت له من صفات الكمال ما يثبتون له ، وينفي عنه من صفات الحدوث والنقص ما ينفون . وإذا استقريت أقواله في هذا الغرض لا ترى فرقاً بينه وبين أعظم المسلمين في الاعتقاد .

اعتقاد أنه موجود :

فهو يعتقد أن الله موجود لا شك فيه ولا ريب فيه ؛ محتجب عن الإدراك بحقيقته ، ظاهر بآثار قدرته وصفاته ، وهذا مراده بقوله :

اللهُ لاَ رَيْبَ فِيهِ فَهُوَ مُحْتَجِبٌ   بَادٍ وَكُلٌّ إلى طَبْعٍ لَهُ جَذَبَا [٢]

خالق وحكيم :

وأنه تعالى خالق حكيم :

---

(١) الأفوه الأودي من كبار شعراء الجاهلية ، وبيته المشار إليه هو من رائيته المشهورة :

كشهاب القذف يرميكم به   فارس في كفه للحرب نار

وأوس بن حجر من أوصف الجاهليين للقوس والسحاب وبيته المشار اليه هو :

فانصاع كالدري يتبعه   نقع يثور تخاله طنبا

(٢) اللزوميات ٥ ص ٣٩ .

أَثْبِتُ لِي خَالِقًا حَكِيمًا ... وَلَسْتُ مِنْ مَعْشَرٍ نُفَاةِ[1]

• • •

إِذَا كُنْتَ مِنْ فَرْطِ السَّفَاهِ مُعَطِّلاً ... فَيَا جَاحِدًا اشْهَدْ أَنَّنِي غَيْرُ جَاحِدِ[2]

وأنه أولٌ أحد ملك :

إِلَـٰهُنَا اللهُ مَلِكٌ أَوَّلٌ أَحَدٌ ... تُطِيعُهُ مِنْ صُنُوفِ النَّاسِ آحَادُ[3]

وأنه واحد :

ويتبرأ من قومه إذا أشركوا :

أَدِينُ بِرَبٍّ وَاحِدٍ وَتَجَنُّبٍ ... قَبِيحَ الْمَسَاعِي حِينَ يَظْلِمُ دَائِنُ[4]

• • •

إِذَا قَوْمُنَا لَمْ يَعْبُدُوا اللهَ وَحْدَهُ ... بِنُصْحٍ فَإِنَّا مِنْهُمُ بُرَآءُ[5]

وأنه عالم كل شيء ومحص كل شيء :

لَمْ يُحْصِ أَعْدَادَ رَمْلِ الأَرْضِ سَاكِنُهَا

وَكُلُّ ذَلِكَ عِنْدَ اللهِ مَحْصُورُ[6]

• • •

---

(١) اللزوميات ﻫ ص ٦٧ .
(٢) « « ص ١٠٦ .
(٣) « « ص ٩٥ .
(٤) « « ص ٢٥٩ .
(٥) « « ص ٢١ .
(٦) « « ص ١٢٣ .

اللهُ عَالِمُ غيبٍ لا أحاوِلُهُ ... مِنْ ذِي نُجومٍ ولا أبغيهِ في الكُهُنِ [١]

• • •

وَيْحٌ لِجِيلِيَ والأجيالِ إنْ بُعِثُوا ... إلى حِسَابِ قديمِ اللُّطفِ عَلاّمِ [٢]

وأنه موجد كل شيء :

إلهُكَ أوْجَدَ الأشياءَ جَمْعاً ... فَلاَ يَفْخَرْ بِشَيءٍ مُوجِدُوهُ [٣]

وأنه حق :

واللهُ حَقٌّ وإنْ مَاجَتْ ظُنُونُكُمُ ... وإنَّ أوْجَبَ شَيءٍ أنْ تُرَاعُوهُ [٤]

وأنه قادر :

أُقِرُّ بأنَّ لي رَبّاً قَـدِيراً ... ولا أَلْقَى بَدَائِعَهُ بِجَحْدِ [٥]

وقد اختلفت كلمة أهل السنة والمعتزلة في قدرة الله على المستحيلات ؛ فقال أهل السنة : المحال لايدخل تحت القدرة ، أي لايصلح متعلقاً لها ، فلا يوصف الله بالقدرة على الظلم والسفه . وقالت المعتزلة : يقدر ولا يفعل . وقد درج أبو العلاء على طريقتهم ، حيث قال في (الفصول والغايات ص ٣١) : « يقدرُ ربُّنا أن يجعلَ الإنسانَ ينظرُ بِقَدَمِه ،

---

(١) اللزوميات هـ ص ٢٧٥ .

(٢) اللزوميات هـ ص ٢٥٠ .

(٣) اللزوميات هـ ص ٣٣٣ .

(٤) اللزوميات هـ ص ٣٣٠ .

(٥) اللزوميات هـ ص ١١١ .

ويسمعُ الأصواتَ بيده ، وتكونُ بنانُه مجاريَ دمعه ... » . وقال في (ص ١٧٤) : « يقدرُ اللهُ على المستحيـــلات : ردّ الفائت ، وجمع الجسمين في مكان ، وما لا تحتمله الألبابُ ، إذْ كانَ لايُنسبُ إلى عَجْزٍ وانتقاص . . . وإذا شاء اللهُ جعلَ شَجَرَ الطَّلْحِ رَكائِبَ لِرُكْبانِ الأطلاح . . . » فقد سوغ أن تتعلق القدرة بالمستحيل عادة وعقلا . . . وبعد هذا لايعترض على مافي كلامه في (لزومَ مالا يلزم) من مثل قوله :

يَقْدِرُ اللهُ أنْ تَرَى كَفَرَطَابٍ حَوْلَهَا العَاصِي أو المَيَاسِ[1]

وقوله :

إنْ زَجَرَ اللهُ حَدِيداً نَبَا أوْ أمَرَ اللهُ حَرِيراً كَلَمْ[2]

وأنه رازق :

وَيَرْزُقُني اللهُ الذي قَامَ حُكْمُهُ بِأرْزَاقِنَا في أرْضِهِ مُتَكَفِّلاَ[3]

وأنه عدل مهيمن :

وَمَا كَانَ الْمُهَيْمِنُ وَهْوَ عَدْلٌ لِيَقْصُرَ حِيلَتِي وَيُطِيلَ لَوْمِي[4]

وأنه ديّان :

وَنُفُوساً تَرُومُ إرْثاً وَمَا الوَا رِثُ إلاَّ الْمُهَيْمِنُ الدَّيَّانُ[5]

---

(١) كذا في الديوان (ج) الزوميات ه س ٣٠٥ .
(٢) الزوميات ه س ٢٥٧ .
(٣) « « س ٢٠٣ .
(٤) « « س ٢٥٢ .
(٥) « « س ٢٦٣ .

واله قديم :

لَنَا خَالِقٌ لاَ يَمْتَرِي العَقْلُ أَنَّهُ   قَدِيمٌ فَمَاهَذَا الحَدِيثُ المُوَلَّدُ⁽¹⁾

• • •

وَعَالَمٌ ظَلَّ فِيهِ القَوْلُ مُخْتَلِفاً   وَمُحْدَثٌ هُوَ مِنْ رَبٍّ لَـهُ القِدَمُ⁽²⁾

وانه حي :

مَنْ لِي بِأَنِّي وَحِيدٌ لاَ يُصَاحِبُنِي   حَيٌّ سِوَى اللهِ لاَ جِنٌّ وَلاَ أَنَسُ⁽³⁾

وأنه باق دائم لايزول :

وَيَثْبُتُ اللهُ وَسُلْطَانُه   وَكُلُّ أَمْرٍ غَيْرِهِ يَضْمَحِلْ⁽⁴⁾

• • •

وَمَهْمَا يَكُنْ فَاللهُ لَيْسَ بِزَائِلٍ   وَيَجْنِي الفَتَى مِنْ بَعْدِ مَاهُوَ غَارِسُ⁽⁵⁾

• • •

مَا دَامَ غَيْرُ اللهِ مِنْ دَائِمٍ   فَاغْضَبْ عَلَى الأَقْدَارِ أَوْ سَلِّمِ⁽⁶⁾

---

(١) اللزوميات ھ ص ٨٩ .

(٢) « ھ ص ٢٣٣ .

(٣) اللزوميات ھ ص ٣١١ . والأَنس : لغة في إنس .

(٤) انظر ما سبق ص ١٢٨٢ .

(٥) اللزوميات ھ ص ٣١٠ .

(٦) اللزوميات ھ ص ٢٥٤ .

ولا يموت :

نَموتُ لأنّنا خُلَفَاءُ نَقصٍ وَيَبقَى مَنْ تَفَرَّدَ بالكَمالِ [١]

ولا يتغير :

كَمْ غَيَّرَتنَا بأمرٍ خطٌّ حادِثَةٌ ورَبُّنا اللهُ لَمْ تُلْمِمْ بهِ الغِيَرُ [٢]

وليس له نظير :

لنَا ربٌّ وليسَ لهُ نَظِيرٌ يُسَيِّرُ أمرُهُ جَبلاً ويُرْسِي [٣]

ولا شبيه :

تَشَابَهَتِ الأشيَاءُ طَبعاً وَصُورَةً ورَبُّكَ لَمْ يُسْمَعْ لَهُ بِشَبِيهِ [٤]

ولا مثل :

عَزِيزَانِ باللهِ الذي لَيسَ مِثْلَهُ يُذِلاّنِ في مِقْدَارِهِ ويُعِزّانِ [٥]

ولا كفاه :

انْفَرَدَ اللهُ بسُلْطَانهِ فَمَالَهُ في كُلِّ حَالٍ كِفَاءُ [٦]

---

(١) اللزوميات ﻫ ص ص ٢١٨ .

(٢) « « ص ١٢٢ .

(٣) « « ص ٣٠١ .

(٤) « « ص ٣٣٩ .

(٥) « « ص ٢٧٢ .

(٦) « « ص ٢٧ .

ولا شريك :

وَالْمُلْكُ للهِ مَنْ يَظْفَرْ بِنَيْلِ غِنًى ... يَرْدُدْهُ قَسْراً وَتَضْمَنْ نَفْسُهُ الدَّرَكَا[١]

لَوْ كَانَ لِي أَوْ لِغَيْرِي قَدْرُ أُنْمُلَةٍ ... مِنَ الوُجُودِ لَكَانَ الأَمْرُ مُشْتَرَكَا

. . .

وَلَوْ يُرْجَى مع الشُّرَكَاءِ خَيْرٌ ... لَمَا كَانَ الإِلهُ بِلاَ شَرِيكِ[٢]

ولا يقاس به غيره :

واللهُ أَكْبَرُ لاَ يَدْنُو القِيَاسُ لَهُ ... وَلاَ يَجُوزُ عَلَيْهِ كَانَ أَوْ صَارَا[٣]

وأنه مدبر :

إِذَا كُنْتَ بِاللهِ المُهَيْمِنِ وَاثِقاً ... فَسَلِّمْ إِلَيْهِ الأَمْرَ فِي اللفْظِ وَاللحْظِ[٤]

يُدَبِّرُكَ خَلاَّقٌ يُدِيرُ مَقَادِراً ... تُخَطِّيكَ إِحْسَانَ الغَمَائِمِ أَوْ تُحْظِي

منزه عن القبيح :

كَذَبَ الذي نَسَبَ القَبِيحَ إِلَى الذي ... خَلَقَ الأَنَامَ وَخَطَّ فِي بِرْسَامِهِ[٥]

---

(١) اللزوميات « ص ١٨٦ ، وفيها : « . . . أغلة فوق التراب . . . » .

(٢) « « ص ١٨٩ ، وفيها : « فلو يرجى . . . » .

(٣) « « ص ١٤١ .

(٤) « « ص ١٨١ ، تخطيك : تجاوزك ، تحظي : تنيل .

(٥) البرسام : علة يهذي بها (ع) انظر اللزوميات « ص ٢٥٣ وفيها : « كذب امرؤ.. » .

كامل لايوصف بزيادة ولا نقص :

وَالرَّبُّ لَمْ يَزْدَدْ وَلَاهُوَ نَاقِصٌ ... مَا قَلَّ مُلْكُ إِلٰهِنَا فَيُكَثَّرَا[1]

ولا يتصف بحركة ولا انتقال :

أَمَا تَرَى الشُّهْبَ فِي أَفْلَاكِهَا انْتَقَلَتْ ... بِقُدْرَةٍ مِنْ مَلِيكٍ غَيْرِ مُنْتَقِلِ[2]

والانتقال الخروج من حَيِّز إلى آخر ، وهو حركة ؛ والله تعالى لايوصف بها . والحركة تكون في الكم والكيف ، والوضع والأين ؛ وهي حركة الجسم من مكان إلى آخر ، وتسمى « نقلة » وهي المرادة هنا . والمتكلمون إذا أطلقوا الحركة أرادوا بها هذه الحركة الأينيّة ، وهي المتبادرة في استعمال اللغة . وقد قال ثاوفرسطيس أحد تلاميذ ارسطاطاليس: « الإلهية لاتتحرك » . ومعناه : لاتتغير ولا تتبدل لافي الذات ولا في شبه الأفعال . وقد زعم بعضهم أن أبا العلاء لما نفى الانتقال الذي هو حركة عن الله تعالى أثبت له السكون . وهذا غير صحيح ، لأن السكون هو عدم الحركة عما من شأنه أن يتحرك . فعدم الحركة عما ليس من شأنه أن يتحرك لايكون سكوناً ، والموصوف بهذا لايكون متحركا ولا ساكناً . وأبو العلاء نفى في هذا البيت الحركة عما ليس من شأنه الحركة ، فلا يلزمه بذلك إثبات السكون . وبهذا القدر يمكن الاستغناء عما أطال به صاحب (الذكرى) في (تجديده ص ٢٧٥) وأثبت فيه لأبي العلاء ماقدمنا نفيه عنه .

---

(١) اللزوميات هـ ص ١٤٣ .

(٢) اللزوميات هـ ص ٢١٤ .

ويعتقد أنه عاجز من معرفة حقيقة الإله وإدراك كنهه :

قال في (الفصول والغايات ص ٣٠) : « والعقول عاجزة عن معرفة حقيقتك » ، وقال في (اللزوم) :

أَمّا الإلهُ فإنِي لَسْتُ أُدْرِكُهُ فَاحذَرْ لِجِيلِكَ فوقَ الأرضِ إسْخَاطَا[1]

وأن الاوصاف تقصر منه :

فَتَبَارَكَ اللهُ الذي هُوَ قَادِرٌ تَعْيَا وَتَقْصُرُ دُونَهُ الأَوْصَافُ[2]

وأن المرء مأمور بان يفكر في بدائعه لافي ذاته خشية الزيغ :

وَقَدْ أُمِرْنَا بِفِكْرٍ في بَدَائِعِهِ وَإِنْ تَفَكّرَ فِيهِ مَعْشَرٌ لَحَدُوا[3]

وعلى ذكر اعتقاده بوجود الله وصفاته نذكر جملة من كلامه الدالّ على حسن ظنه بالله وأمله عفوه ورحمته ، وتمسكه بالتقوى ، وخوفه من الله ، ورضاه بالقضاء ، وما شاكل ذلك .

ظنه بالله وأمله :

لِيَفْعَلِ الدّهرُ مَا يَهُمُّ بِهِ إنّ ظُنُونِي بِخالِقِي حَسَنَهْ[4]
لاَ تَيْأسُ النّفسُ مِنْ تَفَضّلِهِ وَلَوْ أقَامَتْ فِي النّارِ ألْفَ سَنَهْ

• • •

(١) اللزوميات « ص ١٧٨ » ، وفيها : « أما الإله فأمر لستُ مدركَه » .
(٢) « « ص ٢٩٣ .
(٣) « « ص ٩٣ .
(٤) اللزوميات « ص ٢٧١ .

وَمَا أَنَا يَائِسٌ مِنْ عَفْوِ رَبِّي ... عَلَى مَا كَانَ مِنْ عَمْدٍ وَسَهْوِ (١)

• • •

لِمَ لاَ أُؤَمِّلُ رَحْمَةً مِنْ قَادِرٍ ... وَالسُّولُ يُطْلَبُ مِنْ سَحَابٍ أَسْوَلِ (٢)

• • •

وَلاَ يُعْقَدْ لَكُمْ أَمَلٌ بِخَلْقٍ ... وَبِيتُوا لِلْمُهَيْمِنِ آمِلِينَا (٣)

الرضى بالقضاء والتسليم لله :

رَضِيتُ بِمَا جَاءَ القَضَاءُ مُسَلِّماً ... وَضَاعَ سُؤَالِي فِي حَوَازٍ حَوَازِنِ (٤)

• • •

رَدَدْتُ إِلَى مَلِيكِ الخَلْقِ أَمْرِي ... فَلَمْ أَسْأَلْ مَتَى يَقَعُ الكُسُوفُ (٥)

• • •

وَمَا أَحَدٌ مُعْطِيَّ واللهُ حَارِمِي ... وَلاَ حَارِمِي شَيْئاً إِذَا هُوَ أَعْطَانِي (٦)

---

(١) اللزوميات هـ ص ٣٤٢ .

(٢) اللزوميات هـ ص ٢١٩ . وفيها : « . . والسول يطلب في السحاب الأسول » والأسول : من في أسفله استرخاء ، يريد : من سحاب مسترخ .

(٣) اللزوميات هـ ص ٢٦٩ .

(٤) اللزوميات هـ ص ٢٧٣ . والحوازي : الكواهن ، يقال : حزبت الطير وحزوتها إذا زجرتها . والحوازن لعلها من أولهم : قرأ بالتحزين : رقق صوته .

(٥) اللزوميات هـ ص ٢٩٣ .

(٦) اللزوميات هـ ص ٢٧١ .

إيثاره الخوف على الرجاء ؛ من تأمل مثل قوله :

وَإِنْ كَفَتْنِي عَذَابَ اللهِ آخِرَةٌ   فَمَا أُحَاوِلُ مِنْهَا فَوْزَ رِضْوَانِ[١]

. . .

يَا رِضْوَ لاَ أَرْجُو لِقَا   ءَكَ بَلْ أَخَافُ لِقَاءَ مَالِكْ[٢]

. . .

أَوْجَالُ نَفْسِيَ فِي الدُّنْيَا مُضَاعَفَةٌ   وَلاَ أَزَالُ مِنَ الأُخْرَى عَلَى وَجَلِ[٣]

يتضح له أنه كان يؤثر الخوف على الرجاء . وهذا مذهب جماعة من كبار الصحابة والتابعين وأهل النسك . وقد أوردنا عند الكلام على تقواه من أقواله ما يدل على صحة إيمانه وعقيدته ونسكه .

الجبر

هو نفي الفعل حقيقة عن العبد ، وإضافته إلى الله تعالى . وهو مذهب قديم . والجبرية صنفان :

الأول : جبرية خالصة ، وهي التي لا تثبت للعبد فعلاً ولا قدرة على الفعل أصلا ، كالجهمية أصحاب جهم[٤] بن صفوان فإنه يقول : إن الإنسان لا يقدر على شيء ، ولا يوصف بالاستطاعة ، وإنما هو مجبر في أفعاله ، لا قدرة له ولا إرادة ولا اختيار . وإنما يخلق الله الأفعال فيه على حسب ما يخلق في

---

(١) اللزوميات ٥ ص ٢٧٦ .

(٢) اللزوميات ٥ ص ١٩١ .

(٣) اللزوميات ٥ ص ٢١٤ . وفيها : « . . نفسي في الأولى مضاعفة » .

(٤) هو أبو محرز جهم بن صفوان السمرقندي ، رأس الجهمية ، قتل سنة ١٢٨ ﻫ .

سائر الجمادات . وينسب إليه الأفعال مجازاً كما تنسب إلى الجماد ، فيقال : أثمرت الشجرة ، وتحرك الحجر ، وجرى الماء . والثواب والعقاب والتكليف جبر ، كما أن الأفعال جبر . ويقابل هذه الفرقة فرقة يقال لها القدرية ، وهم يقولون : إن كل عبد خالقٌ لأفعاله . وهؤلاء لا يرون الكفر والمعاصي بتقدير الله تعالى .

الثاني : جبرية متوسطة ، تثبت للعبد قدرة غير مؤثرة أصلا ، كالأشعرية أصحاب أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري . وهذه القدرة الحادثة لا تأثير لها في الأحداث . وبلخص قولهم بأن الله تعالى أجرى سنته أن يخلق مع القدرة الحادثة أو تحتها الفعل الحادث إذا أراده العبد وتجرد له ، ويسمى هذا الفعل كسبا . فيكون خلقاً من الله إبداعاً وإحداثا ، وكسباً من العبد حصولاً تحت قدرته ، وهذه القدرة بمنزلة الشرط من المشروط . فالقدرة كالمشروط ، والفعل كالشرط ؛ فكما لا يوجد المشروط بدون شرط لا توجد القدرة بلا فعل ، ويجوز أن يوجد الشرط بلا مشروط . وهذه القدرة شرط التكليف مقدمة عليه ، وهي سلامة آلات الفعل وصحة الأسباب ، ولا تتقدم على الفعل ، وتسمى الاستطاعة ، والطاقة ، والقدرة ، والقوة . وبعض علماء الحنفية جعل للعبد قدرة حادثة ، وهي العزم على الفعل ؛ وهي مسمى الكسب عندهم . هذا الملخص من أقوال متعارضة ، وآراء متناقضة . وهو توسط بين الجبر والقدر فيما قالوا . ولكن إذا تأمل الإنسان تبيّن أن قول أهل السنة يرجع إلى الجبر عند التحقيق ؛ وإن الإنسان في رأيهم مجبر في صورة مختار ؛ وأنّ كلامهم في الأفعال الاختيارية فقط .

واتفقت الفلاسفة والمعتزلة على أن أفعال العباد الاختيارية بقدرة خلقها الله فيهم ؛ لأن دخول مقدور واحد تحت قدرة قادريْن محال اعتباراً بالشاهد . ولكنهم اختلفوا ، فقالت المعتزلة : إن الله خلق قدرة العبد باختياره ، لأنه فاعل بالاختيار . وقالت الفلاسفة : خلقها بطريق الإيجاب عند تمام الاستعداد ،

لأنه موجب بالذات لا فاعل بالاختيار في اعتقادهم . وفي هذه المسألة كثير من الأقوال والرد عليها والانتصار لها . وهي من مزالق الافهام ، بل من العقد التي استعصى على العقول حلها حلاً مقنعاً ترتاح إليه النفوس . ولا يتسع هذا الكتاب لسردها وتفصيلها .

موقف أبي العلاء في هذا المعترك

كلام أبي العلاء في هذا الباب على أقسام : قسم يدل على الجبر المحض كقوله:

وَرَدْتُ إلى دَارِ المَصَائبِ مُجْبَراً وأصبحتُ فيها لَيْسَ يُعْجِبُني النَّقْلُ[١]

وقوله :

وَمَا فَسَدَتْ أخلاقُنَا باختيارِنا وَلَكِنْ بأمرٍ سَبَّبَتْهُ المَقَادِرُ[٢]

وقسم يقف فيه موقف الشاك ، فيسأل سؤال من لم يتيقن الأمر ، كقوله :

مَا باختيَاريَ مِيلادِي ولاهَرَمِي وَلاحَيَاتي فَهَلْ لي بَعْدُ تَخْيِيرُ[٣]

وَلا إقَامَةَ إلاّ عَنْ يَدَيْ قَدَرٍ وَلا مَسِيرَ إذَا لَمْ يُقْضَ تَسْيِيرُ

• • •

خَرَجْتُ إلى ذِي الدَّارِ كُرْهاً وَرِحْلَتي إلى غَيْرِها بالرَّغْمِ واللهُ شَاهِدُ[٤]

فَهَلْ أنا فِيما بَيْنَ ذَلِكَ مُجْبَرٌ على عَمَلٍ أمْ مُسْتَطِيعٌ فَجَاهِدُ

(١) اللزوميات ح ٢ ص ١٩٤ .

(٢) « « ص ١٢٠ .

(٣) « « ص ١٢٤ .

(٤) « « ص ٨٩ . وفيها : « ... فيما بين ذلك مجبر .. »

وقسم ينقل فيه آراء غيره ، ولا يبدي رأيه فيه ، كقوله :

وتَخَالفَ الأَهْوَاءُ هَذَا مُدَّعٍ فِعْلاً وآخَرُ دِينُهُ الإِجْبَارُ[١]

وقوله :

جَرَى خُلُفٌ وادَّعَى المُدَّعُو نَ أَنَّا عَلَى مَا أَرَدْنَا قُدُرْ[٢]
وَقَالَتْ مَعَاشِرُ لا نَسْتَطِيـــعُ بَلْ نَحْنُ مِثْلُ الرُّبَى والغُدُرْ

وقسم يذكر فيه أنه رأى أدلة وشواهد تدل على الجبر ، ولكنه لايحققه ولا يجزم به ، كقوله :

قَالَتْ مَعَاشِرُ كُلُّ عَاجِزٌ ضَرِعٌ مَا لِلْخَلَائِقِ لا بُطْءٌ وَلا سَرَعُ[٣]
مُدَبَّرُونَ فَلاَ عَتْبٌ إِذَا خَطِئُوا عَلَى المُسِيءِ وَلاَ حَمْدٌ إِذَا بَرَعُوا
وَقَدْ وَجَدْتُ لِهَذَا القَوْلِ فِي زَمَنِي شَوَاهِداً وَنَهَانِي دُونَهُ الوَرَعُ

وقوله :

أَرَى شَوَاهِدَ جَبْرٍ لا أُحَقِّقُهُ كَأَنَّ كُلاًّ إِلَى مَا سَاءَ مَجْرُورُ[٤]

وقسم يصرح فيه باعتقاده أنه لايرى رأي المعتزلة ، ولا المرجئة ، ولا الجبرية ، ولا القدرية كقوله :

أَرْجُوا أَوِ اعْتَزِلُوا فَإِنِّـــي عَنْ مَقَامِكُمُ بِمَعْزِلْ[٥]

• • •

(١) اللزوميات هـ ص ١٢٩ .
(٢) اللزوميات هـ ص ١٧١ ، وفيها : « مثل الربى والجدر »
(٣) اللزوميات هـ ص ٢٨٢ .
(٤) اللزوميات هـ ص ١٢٣ .
(٥) اللزوميات هـ ص ٢٢٥ . وقوله : أرجوا أو اعتزلوا ، أي كونوا من المرجئة أو المعتزلة .

لا تَعِشْ مُجبِراً ولا قَــدَرِيا   واجْتَهِدْ في تَوَسُّط بَيْنَ بَيْنَا[١]

وأصرح أقواله في الدلالة على مذهبه قوله :

وإنْ سَألوا عَنْ مَذْهَبي فَهْو خَشْيَةٌ   مِنَ اللهِ لاَ طَوْقاً أُبِتُّ ولا جَبْرا[٢]

ولم يعين لنا التاريخ زمن كل من هذه الأبيات وأشباهها ، لنجعل المتأخر منها هو الذي استقر عليه رأيه ، ونجعله مذهباً له ؟ لكن البيت الأخير منها يدل على أنه متوسط بين الطوق والجبر ، وهو مذهب أهل السنة كما تقدم . وفي كثير من كلامه ما يدل على أنه لايرى الجبر ، وأنه يرى في الجبر نسبة الظلم إلى الله تعالى كقوله :

إنْ كَانَ مَنْ فَعَلَ الكَبَائِرَ مُجْبَراً   فَعِقَابُهُ ظُلْمٌ عَلى مَا يَفْعَلُ[٣]

واللهُ إذْ خَلَقَ المَعَادِنَ عَالِمٌ   أنَّ الحِدَادَ البِيضَ مِنْها تُجْعَلُ

وفي أقواله مايدل على أنه غير راض بما تكلفه أهل المذاهب والفرق من التأويل والتمحل للوجوه البعيدة ، لكثرة مايعارض أقوالهم من الشواهد والأدلة . ولذلك أنكر على القاضي الباقلاني ، وابن المعلم الذي انتهت إليه رئاسة المتكلمين من الشيعة في عصره ، وعدّ عملها هزلاً فقال :

شَهِدْتُ بِأنَّ ابنَ المُعَلِّمِ هَازِلٌ   بِأصْحَابِهِ والبَاقِلانِيَّ أهْزَلُ[٤]

ويتضح لنا مما سبق أن أبا العلاء لايقول بالجبر على وفق ما تقوله الجبرية الخالصة ، بل يوافق الجبرية المتوسطة . لأنه لم يتيقن الجبر فيما

---

(١) اللزوميات هـ ص ٢٢١ .

(٢) اللزوميات هـ ص ١٣٦ .

(٣) اللزوميات هـ ص ١٩٨ .

(٤) اللزوميات هـ ص ١٩٥ .

رآه من الشواهد ، ولأن القول به يفضي إلى نسبة الظلم إلى الله إذا عاقب مرتكب الكبيرة وهو مجبر على ارتكابها .

الروح

اختلفت كلمة العلماء والحكماء في تعريف الروح ، وذهبوا في ذلك مذاهب متعددة متباينة ؛ فنقل عن الماديين من قدماء الفلاسفة ، أن الروح نار يخمدها الموت ، وهذا الرأي كثير في كلام أبي العلاء مثل قوله :

أرَى قَبَساً في الجِسْمِ يُطْفِئُهُ الرَّدَى ... وَما دُمْتَ حَيّاً فَهْوَ ذَا يَتَلَهَّبُ[١]

وقوله :

وَجِسْمِي شَمْعَةٌ والنَّفْسُ[٢] نَارٌ ... إِذَا حَانَ الرَّدَى خَمَدَتْ بِأُفِّ

ونقل عن أفلاطون أن الروح جوهر مجرد ، أهبط إلى هذا البدن ليبتلى فيه ؛ ثم يعود بعد الموت إلى العالم العقلي ، فيعذب أو ينعم بما

---

(١) اللزوميات ﻫ س ٣٢ .

(٢) قال ابن الأنباري ، وابن الأعرابي : الروح والنفس واحد ، غير أن العرب تذكر الروح وتؤنث النفس ، وقال صاحب المحكم ، والجوهري : الروح يذكر ويؤنث قال في المصباح : وكأن التأنيث على معنى النفس . وقال أيضا : النفس أنثى إن أريد بها الروح .. وإن أريد الشخص فذكر . وللعلماء أقوال في تعريف الروح وتقسيمه إلى الروح الحيواني والروح الإنساني ؛ وفي كونه جوهراً أو عرضاً أو غيرهما ، وفي قدمه وحدوثه ، وانتقاله إلى جسم آخر . وكذلك لهم أقوال في النفس ، وتقسيمها إلى حيوانية وروحانية وغيرهما ، واختلاف في قدمها وحدوثها . وتجد توضيحاً لذلك في (التعريفات للسيد الشريف س ٧٧ وس ١٦٧) وفي (الكليات لأبي البقاء س ١٩٣ و س ٣٠٨) وغيرهما من كتب الكلام والحكمة . ومن نظر في أقوال الحكماء والعلماء المتعلقة بالروح ودخل بحرها من الشك والحيرة ، خرج بقناطير مقنطرة منها . (ج) وانظر اللزوميات ﻫ س ٢٩٥ .

بقي فيه من تذكر ما كان له في الحياة من إساءة وإحسان . ومن هذا الرأي كثير في شعر المعري كقوله :

وَقَدْ زَعَمُوا هَذِي النفُوسَ بَوَاقِياً ⁂ تُشَكَّلُ في أجسَامِهَا وتُهَذَّبُ[١]

وَتُنقَلُ مِنْهَا فالسَّعِيدُ مُكَرَّمٌ ⁂ بِمَا هُوَ لَاقٍ والشَّقِيُّ مُشَذَّبُ

وقوله :

تَصَعَّدَ الجَوْهَرُ العَالي وَخَلَّفَنَا ⁂ في الأرْضِ كَثْرَةَ أوسَاخٍ وأدْنَاسِ[٢]

وقوله :

إنْ مَاتَ جِسْمٌ فَهذِي الأرْضُ تَحْرُزُهُ

وإنْ نَأَتْ عَنْهُ رُوحٌ فَهْيَ بالفَلَكِ[٣]

وذهب أكثر المتكلمين إلى أن الروح جسم لطيف ، سارٍ في البدن سريان ماء الورد في الورد ، والنار في الفحم .

ومنهم من جعل الروح قسمين : الروح الحيواني ، وهو جسم لطيف منبعه تجويف القلب الجسماني ، وينتشر بواسطة العروق الضوارب إلى سائر أجزاء البدن . والروح الإنساني ، وهو اللطيفة العالمة المدركة من الإنسان ، الراكبة على الروح الحيواني . وهو نازل من عالم الأمر ، تعجز العقول عن إدراك كنهه . ومنهم من قال غير ذلك .

---

(١) اللزوميات ج ص ٣١ .

(٢) » » ص ٣٠٠ وفيها : « ... الجوهر الصافي ... » .

(٣) » » ص ١٨٩ .

وفي كلام أبي العلاء ما يشعر بأنه يرى رأي المتكلمين كقوله :

الرُّوحُ شيءٌ لَطِيفٌ لَيْسَ يُدْرِكُهُ ... عَقْلٌ وَيَسْكُنُ مِنْ جِسْمِ الفَتَى حَرَجا (١)

وأنهم اختلفوا في أنها حادثة أو قديمـــة ، واتفقوا على أنها لا تفنى . واختلفوا في انتقالها بعد مفارقة البدن .

وأبو العلاء اطلع على هذه الآراء ، ولم يقتصر على واحـــد منها ، ولا اتخذ لنفسه رأياً خاصاً ؛ وإنما نهز مع كل قوم بدلوهم ، وأخذ من كل شجرة زهرة ، وزاد عليهم بما أورده في كلامه الآتي من صور الشكوك والتناقض ، فإنه تارة يجعل الفضل للروح ، ولا يجعل للجسد شأناً ، لأنه ظرف فيقول :

كأنما أنْتِ الجِسْمُ الذي هُوَ صُورَةٌ ... لَكِ في الحَيَاةِ فَحَاذِري أنْ تُخْدَعي (٢)

لاَ فَضْلَ لِلْقَدَحِ الذي اسْتَوْدَعْتَهُ ... ضَرَباً ولكِنْ فَضْلُهُ لِلْمُودَعِ (٣)

وقد يعطف على الجسم فيجعل الروح مصدراً امتنانه ، وشقائه ، وسقامه ، وفراقها عافية له فيقول :

أعَائِبَةٌ جَسَدي رُوحُـــهُ ... وَمَا زَالَ يَخْدُمُ حَتى وَنَى (٤)

وَقَدْ كَلَّفَتْهُ أعَاجِيبَهـــا ... فَطَوْراً فُرَادَى وَطَوْراً ثُنَا

يُنَافي ابْنُ آدَمَ طَبْعَ الغُصُونِ ... فَهَاتِيكَ أجْنَتْ وَهَذا جَنَى

---

(١) اللزوميات ﻫ ص ٧٥ ، وفيها : « والروح شيء . . . » .

(٢) اللزوميات ﻫ ص ٢٨٨ .

(٣) الضرَب : العسل .

(٤) اللزوميات ﻫ ص ٣٠ .

ويقول :

يَا رُوحُ كَمْ تَحمِلِينَ الجِسْمَ لاهِيَةً ... أبلَيْتِهِ فاطْرَحِيهِ طَالَمَا لَبِسَا[١]

ويقول :

وَمَسْكِنُ الرُّوحِ فِي الجُثمانِ أسْقَمَهُ ... وَبَيْنُهَا عَنْهُ مِنْ سُقْمٍ يُعَافِيهِ[٢]

وتارة يجعلها سبباً لفنائه فيقول :

وَلَوْ سَكَنَتْ جِبَالَ الأرْضِ رُوحٌ ... لَمَا خَلَدَتْ نَضَادِ ولاَ أرَابُ[٣]

• • •

لَوْ تَسلُكُ الرُّوحُ فِي الأجْبَالِ عَالِمَةً ... كَعِلْمِنَا هَدَمَتْها كَثْرَةُ الرَّعْدِ[٤]

وقد يعطف على الروح فيجعل الجسم سبباً في أذاتها فيقول :

تَجاوَرَ هَذَا الجِسْمُ والرُّوحُ بُرْهَةً ... فَمَا بَرِحَتْ تأذَى بِذَاكَ وَتَصْدَأُ[٥]

• • •

مَازَالَتِ الرُّوحُ قَبْلَ اليَوْمِ فِي دَعَةٍ ... حَتَّى اسْتَقَرَّتْ بِحُكْمِ اللهِ فِي الجَسَدِ[٦]

فالآنَ تِلكَ وَهَذَا مِنْ قَذًى وأذىً ... لاَ يُخْلِيَانِكَ بَلْهَ الغِلِّ والحَسَدِ

---

(١) اللزوميات « ص ٢٩٦ .

(٢) « « ص ٣٤٠ ، وفيها : « ... الروح في الجثمان ...

(٣) « « ص ٣٤ ، ونضاد : جبل بالعالية ، وأراب مثلثة الهمزة : موضع أو ماء .

(٤) « « ص ١٠٩ .

(٥) « « ص ٢١ .

(٦) « « ص ١٠٨ .

وربما جعله سجناً ضيقاً لها :

رُبَّ رُوحٍ كَطَائِرِ القَفَصِ المَسْـــجُونِ تَرْجُو بِمَوْتِها التَّسْرِيحَا (١)

• • •

يَا نَفْسُ يَا طَائِراً في سِجْنِ مَمْلَكَةٍ لَتُصْبِحَنَّ بِحَمْدِ اللهِ مَسْرُوحَا (٢)

وقد تقدم قوله :

. . . . وكَوْنِ الرُّوحِ في الجَسَدِ الخَبِيثِ (٣)

وربما جعل الموت فرجاً لها لخلاصها من الجسم الضيق ، فهي بسبب الموت :

تَرْجُو انْفِساحاً وكَمْ لِلْمَاءِ مِنْ جِهَةٍ إذَا تَخَلَّصَ مِنْ ضِيقِ الأَنَابِيبِ (٤)

وأحياناً يجعل اتصال الروح بالجسد سبباً لعنائها ونقمتها ، من غير أن يسند ذلك إلى واحد منهما فيقول :

الجِسْمُ والرُّوحُ مِنْ قَبْلِ اجْتِماعِهِما كَانَا وَدِيعَيْنِ لاَ هَمّاً وَلا سَقَمَا (٥)

تَفَرُّدُ الشَّيءِ خَيْرٌ مِنْ تَأَلُّفِهِ بِغَيْرِهِ وتَجُرُّ الأُلْفَةُ النِّقَمَا

ويقول :

إذا وُصِلَتْ بِالجِسْمِ رُوحٌ فَإِنَّها وَجُثْمانَها تَصْلَى الشَّدَائِدَ والضُّرَّا (٦)

---

(١) اللزوميات هـ ص ٨٤ .

(٢) اللزوميات هـ ص ٨٤ . وفيها : « ... في سجن مالكه ... » .

(٣) عجز بيت صدره : « لفقدي ناظري ولزوم بيتي » اللزوميات هـ ص ٧٢ .

(٤) اللزوميات هـ ص ٥٠ .

(٥) اللزوميات هـ ص ٢٤١ .

(٦) اللزوميات هـ ص ١٣٧ .

وقد يجعل فراق الروح للجسد نعمة عليها وعلى الجسد :

وفي الحَيَوانِ شِرْكٌ بَيْنَ أرضٍ ‏ ‏ وَجَوٍّ سوفَ يُدْرِكُهُ انقِسَامُ[١]

فِراقُ الرُّوحِ هَذا الجِسْمَ فِيهِ ‏ ‏ عَلى نَوْعَيْهِما نِعَمٌ جِسَامُ

ولا يعتقد أن الروح يصحبها العقل إذا انفردت عن الجسم ، ولا يجزم ببقاء الحس فيها بعد انفصالها عنه ، ولذلك يقول :

قَدْ قِيلَ : إنَّ الرُّوحَ تأْسَفُ بَعْدَمَا

تَنْأى عَنِ الجَسَدِ الذي غَنِيَتْ بِهِ[٢]

إنْ كَانَ يَصْحَبُها الحِجَى فَلَعَلَّها ‏ ‏ تَدْرِي وَتَأْبَهُ للزَّمانِ وَعَتْبِهِ

أوْلاَ فَكَمْ هَذَيانِ قَوْمٍ غَابِرٍ ‏ ‏ في الكُتْبِ ضَاعَ مِدَادُهُ في كَتْبِهِ

ويقول :

لاَ حِسَّ لِلجِسْمِ بَعْدَ الرُّوحِ نَعْلَمُهُ ‏ ‏ فَهَلْ تُحِسُّ إذا بَانَتْ عَنِ الجَسَدِ[٣]

ويقول :

سُبْحانَ رَبِّكَ هَلْ يَبْقَى الرَّشَادُ لَهُ ‏ ‏ وَهَلْ يُحِسُّ بِمَا يَلْقَى إذا خَرَجَا[٤]

---

(١) اللزوميات ١ ص ٢٣٤ .

(٢) « « ص ٥١ .

(٣) « « ص ١٠٨ .

(٤) « « ص ٧٦ .

وقد يناقض قوله في الأمر الواحد؛ فتارة يجزم بأن الروح تصعد إلى الفلك بعد فراق الجسم فيقول :

أَلاَ إِنَّ أَيامَ الفِرَاقِ حُسُومُ ... يُفَرِّقُ بَيْنَ الشَّخصِ والرُّوحِ حَادِثُ (١)

نُفُوسٌ وتَبْقَى في التُّرَابِ جُسُومُ ... إلى العَالَمِ العُلْوِيِّ تُزْمِعُ رِحْلَةً

وتارة يشك في مقرها الذي تصير اليه فيقول :

وَالرُّوحُ تَنْأَى فَلاَ يُدْرَى بِمَوْضِعِهَا ... وفي التُّرَابِ لَعَمْرِي يُرْفَتُ الجَسَدُ (٢)

• • •

وأَوْصَالُ جِسْمٍ للتُّرَابِ مَآلُهَا ... وَلَمْ يَدْرِ دَارٍ أَيْنَ تَذْهَبُ رُوحُهَا (٣)

وفي كلامه ما يدل على أنه يشك في بقائها ، كقوله :

إِنْ يَصْحَبِ الرُّوحَ عَقْلِي بَعْدَ مَظْعَنِهَا ... لِلْمَوْتِ عَنِّي فَأَجْدِرْ أَنْ تَرَى عَجَبَا (٤)

وإِنْ مَضَتْ فِي الهَوَاءِ الرَّحْبِ هَالِكَةً ... هَلاَكَ جِسْمِي فِي تُرْبِي فَوَا شَجَبَا

وأحياناً ينقل قول غيره ولا يبدي فيه رأياً كقوله :

وَالرُّوحُ أَرْضِيَّةٌ في رَأْيِ طَائِفَةٍ ... وَعِنْدَ قَوْمٍ تَرَقَّى فِي السَّمواتِ (٥)

تَمْضِي عَلَى هَيْئَةِ الشَّخْصِ الذي سَكَنَتْ ... فِيهِ إِلَى دَارِ نُعْمَى أَوْ شَقَاوَاتِ

---

(١) اللزوميات ﻫ ص ٢٣١ .

(٢) » » ص ٩٢ ، ورفته : دقه وكسره .

(٣) » » ص ٨١ .

(٤) » » ص ٣٩ .

(٥) » » ص ٦٧ .

وقوله :

قَالَتْ مَعَاشِرُ يَبْقَى عِنْدَ جُثَّتِهِ ... وَقَالَ نَاسٌ إِذَا لاقَى الرَّدَى عَرَجَا [١]

والباحث في كلامه في الروح يجد مذاهب متعددة وآراء مختلفة ؛ وإذا محصها تبين له منها أن أبا العلاء لا يجزم بشيء منها ، يدل على ذلك قوله :

بَنُونَ كَآبَاءٍ وَقَدْ بَرِحَ الرَّدَى ... بِضَبٍّ عَلَى عِلاَّتِهِ وَبِنُونِ [٢]

دَفَنَّاهُمُ فِي الأَرْضِ دَفْنَ تَيَقُّنٍ ... وَلاَ عِلْمَ بِالأَرْوَاحِ غَيْرَ ظُنُونِ

وَرَوْمُ الفَتَى مَا قَدْ طَوَى اللهُ عِلْمَهُ ... يُعَدُّ جُنُوناً أَوْ شَبِيهَ جُنُونِ

وإنما كان يعرض له المعنى فينظمه في شعره . وهو لا يريد إثبات قضية علمية ، ولا تقرير عقيدة دينية ، أو مذهب في الروح . والذي يظهر أن مذهبه فيها الجهل بحقيقتها ، والعجز عن ادراك كنهها . وهذا مذهب الجمهور من المسلمين . قال السيد الشريف في (التعريفات ص ٧٧) : « الروح الأعظم الذي هو الروح الإنساني ، مظهر الذات الإلهية من حيث ربوبيتها ولذلك لا يمكن أن يحوم حولها حائم ، ولا يروم وصلها رائم ، لا يعلم كنهها إلا الله ... » ثم ذكر ماله من المظاهر والأسماء في العالم الكبير ، والعالم الصغير الإنساني فراجعه فإنه مفيد .

ولهذا السبب نرى صوراً مختلفة في كلام أبي العلاء ، كقوله السابق :

. . . . وَلاَ عِلْمَ بِالأَرْوَاحِ غَيْرَ ظُنُونِ

---

(١) اللزوميات « ص ٧٦ . وعرج : ارتقى .
(٢) « « ٢٧٤ . والنون : الحوت .

وقوله :

أَرْوَاحُنَا مَعَنَا وَلَيْسَ لَنَا بِهَا عِلْمٌ فَكَيْفَ إِذَا حَوَتْهَا الأَقْبُرُ (١)

وله كثير من الأبيات ، يذكر فيها مفارقة الروح البدن ، وأن ذلك أمر لا بد منه ، وأنها لا تعود إليه في الدنيا كقوله :

وَهَلْ أَرْوَاحُ هَذِي الخَلْقِ إِلاَّ عَوَارِيُّ المَقَادِرِ لاَ الهِبَاتُ (٢)

وقوله :

وأَرْوَاحُنَا كَالرَّاحِ إِنْ طَالَ حَبْسُهَا فَلاَ بُدَّ يَوْماً أَنْ يَكُونَ سِبَاؤُهُ (٣)

وقوله :

إِذَا نَفَرَتْ نَفْسٌ عَنِ الجِسْمِ لَمْ تَعُدْ إِلَيْهِ فَأَبْعِدْ بِالَّذِي فَعَلَتْ نَفْرَا (٤)

وقوله :

وَرُوحُ الفَتَى أَشْبَهَتْ طَائِراً أُطِيرَ فَمَا عَادَ لَمَّا نَفَرْ (٥)

وهذا يدل على أنه في الكلام على الروح ذهب مذهب الأدباء في تخير المعاني ، من غير نظر الى مطابقتها لعقيدته أو عدمها . ولم يذهب مذهب العلماء في تقرير عقائدهم وتأييدها . وبهذا القدر يظهر أن ليس له عقيدة ثابتة في الروح ؛ وإنما جمع في كلامه أقوال من تقدمه ، فأفرغها في قوالب

---

(١) اللزوميات ﻫ س ١٢٦ .

(٢) « « س ٥٩ وفيها : « وهل أرواح هذا الخلق . . » .

(٣) « « س ٢٠ وفيها : « . . . يوماً أن تكون . . . » .

(٤) « « س ١٣٦ .

(٥) « « س ١٧٠ .

جميلة ، واستعملها في أغراض مختلفة ، فأحكم استعمالها . فمثله في ذلك مثل من دخل حديقة ، فاختار من أفضل شجرها أحسن زهرها ، ثم ألف من ذلك طاقة أحكم صنعها ، فهي طيبة الرائحة ، جميلة الرواء ، جامعة لما تفرق .

ولا تكاد ترى له قولاً في هذا الباب ابتعد فيه عن الشك ، ووقف موقف الجزم الا في أمرين :

الأول : مفارقة الروح الجسد ، وعدم عودتها اليه في الدنيا .

والثاني : خلو الجسد من الحس بعد مفارقة الروح .

فهذان الأمران تجد كلامه فيهما كلام جازم غير شاك ولا متردد ، فمن الأول قوله :

لاَ بُدَّ للرُّوحِ أنْ تَنأى عَنِ الجَسَدِ ... فَلاَ تُخَيِّمَ على الأضْغَانِ والحَسَدِ [1]

ومن الثاني قوله :

لَوْ شُكَّ بالطَّعْنِ مَيْتٌ لَمْ يَجِدْ أَلَماً ... فَالرُّمْحُ فيهِ كَإشْفَى الخَرْزِ في الأَدَمِ [2]

سِيَّانِ إلباسُهُ مَا لاَنَ مِنْ كَفَنٍ ... وَطَرْحُهُ في لَظَى لِلنَّارِ مُحْتَدِمِ

وقد أيد هذا في (الفصول والغايات) حيث قال في (ص ١٨) : « الجَسَدُ بعدَ فراقِ الرُّوحِ كما قُصَّ مِنْ يَدِكَ ، وقُصِّرَ مِنْ فَوْدِكَ ، اذا أُلقِيَ قَسِيطٌ [3] في النارِ لم تُبَالِهِ ، وإذا غُرِّقَ قَلِيلٌ [4] في

---

(١) اللزوميات ٥ ص ١٠٨ .

(٢) « ص ٢٤٧ . والإشفى : المثقب والمخرز .

(٣) القسيط : قلامة الظفر . (ج) .

(٤) القليل : الشعر المجتمع . (ج) .

الثلج فكذلك ؛ هكذا يقول المعقول » . ولكنه قالَ بعــد ذلك : « ولله نظر في العالم دقيق ، لا يمتنع أن يكونَ جَسَدُ الصالحِ إذا قُبِرَ في نعيمٍ ، وجَسَدُ الكافرِ في عذابٍ أليمٍ ، لا يعلمُ بهِ الزائرون » .

ومن مجموع ما تقدم يظهر لنا أن أبا العلاء لم يكن يرى رأي الماديين في الروح ولا رأي أفلاطون ؛ وأنه لا يشك في البعث خلافاً لما زعمه صاحب (الذكرى) في (تجديده ص ٢٨٥ و ٤٨٧) .

تكريم الجسم بعد الموت

وعلى ذكر الجسم وحسه رأينا أن نذكر هنا رأي أبي العلاء في تكريم الجسم بعد موته ، وفي الأكفان والتوابيت . وقد تقدم أنه يعتقد عدم حس الجسم بعد مفارقة الروح ، ولذلك لم يحفل أين يوضع جسمه بعد موته :

إذَا مِتُّ لَمْ أحفِلْ أبِالشَّامِ حُفْرَةٌ حَوَتْنِي أمْ رَيْمٌ بِرَيْمَانَ مُنْهَالُ[١]

ولا يبالي أي عمل عمل به ، لأن مآل هــذا الجسم أن يصير هباء وهو لا يشعر بتكريم مكرِم ولا إهانة مهين :

تُكَرَّمُ أوْصَالُ الفَتى بَعْدَ مَوْتِهِ وَهُنَّ إذَا طَالَ الزَّمَانُ هَبَاءُ[٢]

• • •

وَمَنْ ضَمَّهُ جَدَثٌ لَمْ يُبَلْ عَلى مَا أفادَ وَلاَ مَا اقْتَنَى[٣]
يَصِيرُ تُرَاباً سَوَاءٌ عَلَيْـــهِ مَسُّ الحَرِيرِ وَطَعْنُ القَنَا

(١) شروح سقط الزند : ق ٤ ص ١٧٢٦ ، والريم : القبر وريمان : اسم جبل ، والمنهال : الذي يتساقط ترابه ولا يتماسك .

(٢) اللزوميات ١ ص ٢٠ .

(٣) « « ص ٣٠ .

وَشُرْبُ الفَنَاه بِحُضْرِ الفِرِنْدِ كَأَنَّ عَلَى آسِهِنَّ الفَنَا[١]
وَلا يَزْدَهِي غَضَبٌ حِلْمَهُ أَلَقَّبُهُ ذَاكِرٌ أَمْ كَنَى[٢]

• • •

طَأْ بِالحَوَافِرِ قَتْلَى فِي مَصَارِعِها فَالجِسْمُ بَعْدَ فِرَاقِ الرُّوحِ كَالمَدَرِ[٣]

ويعتقد أن الأرض لا تشعر بما دفن فيها ، ولا تفرق بين كبير وصغير ، ولا عظيم وحقير ، بل كل حي عندها سواء :

إِذَامِتُّ لَمْ أَحْفِلْ بِمَا اللهُ صَانِعٌ إِلى الأَرضِ مِنْ جَدْبٍ وَسَقْيِ غُيُوثِ[٤]
وما تَشْعُرُ الغَبْرَاءُ مَاذا تُجِنُّهُ أَأَعْظُمُ ضَأْنٍ أَمْ عِظَامُ لُيُوثِ

الأكفان

وإذا كان يعتقد أن الجسم لا يحس بشيء بعد موته ، ولا يفرق بين الحرير وطعن القنا ، ولا يشعر بغيره من الموتى ، كما لا يشعر به غيره منهم ، ولا تشعر الأرض بما دفن فيها ؛ فإن الميت يكفيه ما يستره من الأكفان . وما درج عليه الناس من التنافس في الأكفان والطيب ، لا يستفيد منه الميت ، وإنما هو تجمل للأحياء ، ومنافسة للفقراء ، واسمع الى قوله :

كَأَنَّمَا الأَجْسَادُ إِنْ فَارَقَتْ أَرْوَاحَهَا صَخْرٌ ثَوَى أَوْ خَشَبْ[٥]
وَمَا دَرَى المَيْتُ أَأَكْفَانُهُ مُخلِقَةٌ فِي رَمْسِهِ أَمْ قُشُبْ

---

(١) الفرند : السيف أو وشيه . والآس : شجر ، أو القبر ، أو آثار الدار . والقنا : عنب الثعلب .
(٢) يزدهي : يستخف ويستميل .
(٣) اللزوميات ﻫ ص ١٤٩ .
(٤) « « ص ٧٢ .
(٥) « « ص ٥٦ . وفيها : « ... الميت أكفانه .. »

وقوله :

لَوْلاَ التَّجَمُّلُ سِرْنَا في تَرَحُّلِنا كَمَا وَرَدْنَا بِلا طِيبٍ وَلا كَفَنِ[1]
إنَّ اللِّبَاسَ وعِطْراً أنْتَ بَائِعُهُ لَيْسَا لِمَدْفُونِ مَوْتَانا بَلِ الدُّفُنِ
جَاءَ الوَلِيدُ مُعَرَّى لا خُيُوطَ لَهُ فَمَا الفَضِيلَةُ بَيْنَ الطِّفْلِ واليَفَنِ

التوابيت

وإذا كان يعتقد في الأكفان أنها نوع من السرف الذي لا يستفيد منه الميت ولا الحي ، فبالأولى أن يعتقد أن التوابيت التي هي قبور في قبور ضرب من الإسراف الذي لا يستفيد منه الميت شيئاً ، ولا يستفيد الحي إلا مباهاة الفقير فيما لا يساوي نقيراً ولا قطميرا عند الله وعنـــد العقل . ولذلك نهى عن اتخاذها بقوله :

ادْفِنْ أخَا المُلْكِ دَفْنَ المَرْءِ مُفْتَقِراً مَا كَانَ يَمْلِكُ مِنْ بَيْتٍ ولا بِيتِ[2]
إنَّ التَّوابِيتَ أجْدَاثٌ مُكَرَّرَةٌ فَجَنِّبِ القَوْمَ سَجْناً في التَّوابِيتِ
وَارْدُدْ إلى الأُمِّ شِبْحاً طَالَ مَعْهَدُها بِضَمِّهِ وَهْيَ لاَ تُرْجَى لِتَرْبِيتِ

وأصل الجسم من تراب ، فإذا رد إلى أصله أنس به :

قَدْ يَسَّرُوا لِدَفِينٍ حَانَ مَصْرَعُهُ بَيْتاً مِنَ الخُشْبِ لَمْ يُرْفَعْ ولاَ رُحِبَا[3]

---

(١) اللزوميات ه‍ ص ٢٧٥ . والدفن : مفردها دفان كسحاب وهي البئر التي اندفن بعضها ، ويريد منها أبو العلاء القبر . واليفن : الشيخ الكبير .

(٢) يقال : ماله بيت ليلة ، أي قوت ليلة . (ج) اللزوميات ه‍ ص ٦٦ . والأم في البيت الثالث : يريد بها الأرض . والشبح : محركا ويسكن الشخص . والتربيت : التربية .

(٣) اللزوميات ه‍ ص ٤٠ .

يَا هَؤلاء اتركُوهُ والثّرى فَلَهُ أُنسٌ بِهِ وَهوَ أولى صَاحِبٍ صُحِبا
وَإنّما الجِسْمُ تُرْبٌ خيرُ حالَتِهِ سُقيًا الغَمائم فاستَسقُوا لَه السُّحبا

وقد ذكرنا أن أبا العلاء استحسن مذهب الهند في تحريق الموتى ، لأن النار أطيب غباً من الكافور الذي يحمل لموتانا ، وأذهب للنكراء والريح . والمسلمون متفقون على أن الميت يكفن بثلاثة أثواب ، إلا عند الضرورة ، ويطيب بالحنوط والكافور . وقد نهوا عن المغالاة في الأكفان . والجمهور منهم لا يستحسنون التوابيت الا لضرورة . وظاهر قول أبي العلاء يشير الى أن اللباس والطيب لا حاجة اليها ، إذ لا يستفيد الميت منها فتأمل .

حسُّ النبات والجماد

قدمنا من أقوال أبي العلاء ما يدل على آرائه في حسّ الكواكب ، وحس الجسم بعد فراق الروح ؛ ورأينا من المفيد أن نلحق بذلك ما يراه في حسّ النبات والجماد تتميا للبحث . أما النبات والجماد فكلامه فيهما غير مطّرد ، لأنه أثبت لها نفوساً في مثل قوله :

في التربِ والصخرِ والثمارِ وفي الـ ـماء نُفوسٌ صَاغَها القَدَرُ [1]
فَصَادِرٌ لا وُرُودَ يُدرِكُهُ وَوَارِدٌ لا يَنَالُهُ صَدَرُ

وهذا إنما يصح إذا أريد بالنفوس الأرواح ، أما إذا أريد بها الحيوان فلا شاهد فيه ، وشك في إثبات الحس لها مرة أخرى في مثل قوله :

أرَى النّبتَ أولَى أنْ يُحِسّ بحَطمِهِ إذا زَعَموا أنّ الصّخورَ تألّمُ [2]

---

(١) اللزوميات ﻫ ص ١٣٥ ، وفيها : « ... نفوس يصوغها القدر »
(٢) « « ص ٢٢٩ .

ونفاه عن الجماد في مواطن أخرى، وعد ذلك فضيلة له كما في قوله :

وَمِنَ الفَضِيلَةِ لِلجَوَامِدِ أَنها ... لاَ حِسَّ يُدْرِكُهَا ولا أَوْطَارُ[1]

وقوله :

عَزَّ الذي أَغْنَى الجَمَادَ فَمَا تَرَى ... حَجَراً يَغَصُّ بِمأكَلٍ أَوْ يَشْرَقُ[2]

مُتَعَرِّياً في صَيفِهِ وشِتَائِهِ ... مَا رِيعَ قَطُّ لِمَلْبَسٍ يَتَخَرَّقُ

. . . . . .

لاحِسَّ يُؤْلِمُهُ فَيُظْهِرَ مَجْزَعاً ... إنْ رَاحَ يَضْرِبُ مِلْطَسٌ أَوْ مِطْرَقُ

. . . . . .

تَمَنَّيْتُ أنِّي مِنْ هِضَابِ يَلَمْلَمٍ ... إذا مَا أَتَانِي الرُّزْءُ لَمْ أَتَلَمْلَمِ[3]

ونفاه عنها في مواطن أخرى كقوله :

أَمَّا الجَمَادُ فَإِنِّي بِتُّ أَغْبِطُهُ ... إذْ لَيسَ يَعْلَمُ إِمَّا زَادَ أَوْ مُحِقَا[4]

لاَ يَشْعُرُ العُودُ بالنَّارِ التي أَخَذَتْ ... فيهِ ولاَ الأَصْهَبُ الدَّارِيُّ إذْ سُحِقَا

ومن الجيد في هذا الباب قوله في (سقط الزند) :

وَلَوْ طَرِبَ الجَمَادُ لَكَانَ أَوْلَى ... شُرُوبِ الرَّاحِ بِالطَّرَبِ الدِّنَانُ[5]

وأكثر أقواله وأصرحها يدل على أنه ينفي الحس عنها .

---

(١) اللزوميات ﻫ ص ١٢٨ . وفيها : « ... لاحس يلبسها ... » .

(٢) « « ص ٣٠١ والملطس : حجر عريض وقد يسمى به خف البعير . والمطرق : آلة من حديد يطرق بها .

(٣) اللزوميات ﻫ ص ٢٤٤ ويلملم : جبل من جبال تهامة .

(٤) اللزوميات ﻫ ص ٣٠٤ وفيها : « الداري إذا سحقا » . وأراد بالأصهب الداري : المسك ، وأصل الأصهب ما فيه حمرة أو شقرة ، والداري نسبة الى دارين فرضة في البحرين يحمل اليها المسك من الهند .

(٥) شروح سقط الزند : ق ١ ص ١٩١ . والشروب: القوم يشربون .

التناسخ

قال أبو البقاء الكفوي في (الكليات ص ١٩٣) : « اتفق العقلاء على أن الأرواح بعد مفارقة الأبدان تنتقل إلى جسم آخر ، لحديث : إن أرواح المؤمنين في أجواف طير خضر[1] ... لكن اختلفوا في أنها هل تكون مدبرة لذلك الجسم أو لا ؟ فذهب علماؤنا إلى صحة ذلك بدليل آخر الحديث ، وقالت الحكماء : لا يصح أن تكون مدبرة لتلك الأبدان ، وإلا لكان تناسخاً ، وهو باطل . ووافق محققو الصوفية العلماء ، ومنعوا لزوم التناسخ ؛ لأن لزومه على تقدير عدم عودها إلى جسم نفسها الذي كانت فيه . والعَوْدُ حاصل في النشأة الجنانية . وإنما هذا التعلق في النشأة البرزخية » : وقال في (ص ١٢٥) : « والتناسخ المحال تعلق بدن ببدن آخر ، لا يكون مخلوقاً من أجزاء بدنه ، ولا يكون عين البدن الأول شرعاً وعرفاً » ثم قال : « وتعلّق النفوس بأبدان أخرى في الدنيا محكيّ عن كثير من الفلاسفة . والنصوص القاطعة من الكتاب والسنة ناطقة بخلافها ؛ والعقل لا يدل على امتناع التناسخ ، ولكن يحكم بأنه لو كان واقعاً لتذكرت نفس ما أحوالاً مضت عليها في البدن السابق ، والقول بالمعاد ينفيه » . وفي (فيض القدير ج ٢ ص ٤٢٢) شيء مما تقدم .

---

(١) هذا الحديث ، رواه الترمذي هكذا : « ان أرواح الشهداء في طير خضر تعلُق من ثمر الجنة » كما في (الجامع الصغير للسيوطي) ورواه المنذري في (الترغيب والترهيب) عن الترمذي هكذا : « ان أرواح الشهداء في أجواف طير خضر تعلق من ثمر الجنة أو من شجر الجنة » . وفي (النهاية) تعلق من ثمار أي تأكل .. وقال الترمذي : حديث حسن صحيح ، وقال الهيثمي : وفيه محمد بن اسحق وهو مدلس ، وبقية رجاله رجال الصحيح . وذهب بعض العلماء إلى أن هذا خاص بالشهداء (ع) .

وقال السيد الشريف : « التناسخ : هو عبارة عن تعلق الروح بالبدن بعد المفارقة من بدن آخر من غير تخلل زمان بين التعلقين للتعشق الذاتي بين الروح والجسد » .

وأهل هذا المذهب – التناسخ – يسمون تعلق روح الإنسان ببدن إنسان آخر : نسخاً ؛ وببدن حيوان آخر : مسخاً ؛ وبجسم نباتي : فسخاً ؛ وبجسم جمادي : رَسْخاً ، بناء على أن الأرواح المفارقة للأبدان باقية ومتناهية ، والدورات الماضية غير متناهية بناء على قدم العالم ؟ والأبدان الماضية أيضا غير متناهية لأنها نتائجها . فإذا قسمت على الأبدان يتصل بكل منها نفس واحدة .

ويظهر من أقوال أبي العلاء أنه درس هذا المذهب درساً وافياً ، واطلع على آراء أهله ؛ ووقف على كثير من أخبارهم ومزاعمهم . وأنه لم يره مذهباً صحيحاً ولا عقيدة مرضية ؟ ولذلك ذم أصحابه ، وشنع عليهم آراءهم ، واستخف بهم غاية الاستخفاف . ولا شك في أنه كان يعلم ذلك قبل ذهابه إلى بغداد ، فقد ذكره في قصيدة أجاب بها أبا ابراهيم موسى بن إسحق فقال :

وَلَوْ صَحَّ التَّنَاسُخُ كُنْتَ مُوسَى وكَانَ أُبوكَ إِسْحَقَ الذَّبِيحَا[1]

وهي في (سقط الزند) وذكر في (رسالة الغفران) مذهب الحلولية ثم قال في (ص ١٥٢)[2] : « وتؤدي هذه النحلة إلى التناسخ ، وهو

---

(١) البيت من قصيدة أجاب بها الشريف أبا ابراهيم العلوي من قصيدة أولها :
ألاح وقد رأى برقاً مليحاً سرى فأتى الحمى نضواً طليحاً
انظر شروح سقط الزند : ق ١ ص ٢٣٧ ، ٢٧٦ وفيها : « فلو صح . » .
(٢) الغفران ط أمين هندية ، وانظر الغفران تحقيق بنت الشاطيء ط ١ ص ٣٩٧ ـ ٨ .

مذهب عتيق ، يقول به أهل الهند ، وقد كثر في جماعة من الشيعة[١] نسأل الله التوفيق والكفاية ؛ ويُنشد لرجل من النُّصَيْرِية :

اِعْجَبِي أُمَّنَا لِصَرْفِ اللَّيَالي جُعِلَتْ أُخْتُنَا سُكَيْنَةُ فَارَهْ
فَازْجُرِي هَذِهِ السَّنَانِيرَ عَنْهَا وَاتْرُكِيها وَمَا تَضُمُّ الغِرَارَهْ

وقال آخر منهم :

تَبَارَكَ اللهُ كَاشِفُ المِحَنِ فَقَدْ أرَانَا عَجَائِبَ الزَّمَنِ
حِمَارُ شَيْبَانَ شَيْخِ بَلْدَتِنَا صَيَّرَهُ جَارُنَا أبو السَّكَنِ
بُدِّلَ مِنْ مَشْيِهِ بِحِلْيَتِهِ مِشْيَتَهُ في الحِزَامِ والرَّسَنِ

ويصور لهم الرأيُ الفاسد أبَاجِيرَ[٢] ومُشَبَّهات ؛ فيسلكون في تُغْلُس[٣] وفي التُّرهات » . ثم قال في (ص ١٥٧)[٤] : « والحلولية قريبةٌ من مذهب التناسخ . وحدِّثتُ عن رجل من رؤساء المنجمين من أهل حرّان أقام في بلدنا زمانا ؛ فخرج مرة مع قوم يتنزهون ؛ فمرُّوا بثور يكرُبُ فقال لأصحابه : لا أشك في أن هذا الثور رجل كان يعرف بخَلَفٍ بحرّان ، وجعل يصيح به : يا خلف ، فيتفق أن يخور ذلك

(١) كالجناحية وهم أصحاب عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر ذي الجناحين ، فإنهم قالوا : الأرواح تتناسخ فكان روح الله في آدم ، ثم في شيث ، ثم في الأنبياء والأئمة حتى انتهت إلى علي وأولاده الثلاثة ، ثم إلى عبد الله هذا (ج)

(٢) الأباجير : الدواهي والأمور العظام ، وأمر بجر عظيم جمعه أباجير . (ج)

(٣) يقال : وقع في وادي تُغْلُس ، وتُغُلِّس : أي الداهية والباطل . (ج)

(٤) وانظر الغفران لتحقيق بنت الشاطئ ص ٤٠٩ — ٤١٠ .

الثور ، فيقول لأصحابه : ألا ترون إلى صحة ما أخبرتكم [١] به ؟ » ثم قال : « وحكي [لي] عن رجل آخر ممن يقول بالتناسخ ، أنه قال : رأيت في النوم أبي وهو يقول : أبني : إن روحي قد نقلت إلى جمل أعور في قطار فلان ، وإني قد اشتهيت بطيخة ؛ قال : فأخذت بطيخة ؛ وسألت عن ذلك القطار ، فوجدت فيه جملاً أعور ؛ فدنوت منه بالبطيخة ، فأخذها أخذَ مريد مشته . أفلا يرى مولاي الشيخ إلى ما رمي به هذا البشر من سوء التمييز ، وتحيزهم إلى ما يمتنع من التحييز ؟ » .

وأشار في (لزوم ما لا يلزم) إلى أنواع من التناسخ بقوله :

وَقَالَ بِأَحْكَامِ التَّنَاسُخِ مَعْشَرٌ غَلَوا فَأَجَازُوا الفَسْخَ فِي ذَاكَ والرَّسْخَا[٢]

وقد صرح برفض هذا المذهب وما يزعمه أهله ، فقال على سبيل الجد :

يَقُولُونَ: إنَّ الجِسْمَ يُنقَلُ رُوحُهُ إلى غَيْرِهِ حَتّى يُهَذِّبَهَا النَّقْلُ[٣]
فَلاَ تَقْبَلَنْ مَا يُخْبِرونَكَ ضَلَّةً إذَا لَمْ يُؤَيِّدْ مَا أَتَوْكَ بِهِ العَقْلُ

وقال على سبيل التهكم والاستخفاف بهذا المذهب وقد صرح بالتبرؤ منه :

يَا آكِلَ التُّفَّاحِ لاَ تَبْعُدَنْ وَلاَ يُقِمْ يَوْمُ رَدًى ثَاكِلَكْ[٤]
قَالَ النُّصَيْرِيُّ وَمَا قُلْتُهُ فَاسْمَعْ وَشَجِّعْ فِي الوَغَى نَاكِلَكْ
قَدْ كُنْتَ فِي دَهْرِكَ تُفَّاحَةً وَكَانَ تُفَّاحُكَ ذَا آكِلَكْ
وَحَرْفَ هَاجٍ لُحْتَ فِيمَا مَضَى وَطَالَمَا تَشْكُلُهُ شَاكَلَكْ

---

(١) في الغفران تحقيق بنت الشاطئ : « ما خبرتكم به » .
(٢) اللزوميات هـ ص ٨٧ . وانظر ما سبق ص ١٣٣٧ .
(٣) انظر ما سبق ص ١٢٦١ .
(٤) اللزوميات هـ ص ١٩٢ ، وقوله : لبعدن : من بعد كفرح وكرم أي مات .

الحلول

أصل معنى الحلول أن يكون شيء حاصلاً في شيء . وهو أقسام : منه الحلول السَّرَياني ، وهو عبارة عن اتحاد الجسمين ، بحيث تكون الإشارة إلى أحدهما إشارة إلى الآخر ، كحلول ماء الورد في الورد ؛ فيسمى الساري حالاً والمسري فيه محلاً . ومنه الحلول الجواري ، وهو عبارة عن كون أحد الجسمين ظرفاً للآخر ، كحلول الماء في الكوز . ومنه الحلول الوضعي ، كحلول السواد في الجسم .

ومعنى الحلول عند القائلين به من أصحاب النحل ، أن الله تعالى قائم بكل مكان ، ناطق بكل لسان ، ظاهر بشخص من أشخاص البشر . وقد يكون الحلول بجزء ، كإشراق الشمس في كرة ، أو إشراقها على البلور . وقد يكون بكل ، كظهور ملك بشخص ، أو كشيطان بحيوان . وقال بعضهم : غلاة الشيعة كلهم متفقون على التناسخ والحلول .

وقد تصدى أبو العلاء إلى هذا المذهب في (رسالة الغفران في ص ١٥٠) [١] فما بعدها . وتلقى أقوال أصحابه بالإنكار ، والاستخفاف ، والتبرؤ منه . فقال في الحلاّج [٢] : « وكم افْتُرِيَ للحلاج ، والكذب كثير الخلاج ، وجميع من [٣] ينسب إليه بما لم تجر العادة بمثله ، فإنه المين الحنبريت [٤] لا أصدق به ولو كريت » [٥]. ثم قال : « وهذه المذاهب قديمة ، تنتقل في عصر بعد

---

(١) الغفران ط امين هندية وانظر الغفران تحقيق بنت الشاطىء ط ١ ص ٣٩٠ ـ ٤٠١ .

(٢) هو الحسين بن منصور ، نشأ في واسط العراق وظهر أمره سنة ٢٩٩ هـ وتوفي سنة ٣٠٩ هـ يعد في الزهاد ، وفي الملحدين . وكان يدعي حلول الالهية فيه وله نحو ٤٦ كتاباً غريبة الأسماء والأوضاع . (ج)

(٣) في الغفران تحقيق بنت الشاطىء : « .. وجميع ما .. » .

(٤) كذب حنبريت : خالص لايخالطه صدق .

(٥) كري الرجل : نعس .

عصر . ويقال : إن فرعون كان على مذهب الحلولية ، فلذلك ادّعى أنه رب العزة . وحكي عن رجل منهم أنه كان يقول في تسبيحه : سبحانك سبحاني ، غفرانك غفراني . وهذا هو الجنون الغالب . إنما [١] من يقول هذا القول معدود في الأنعام ، ما عرف كنه الإنعام » . .

ثم أورد أبياتاً لبعض أهل هذا الرأي[٢] . ثم قال : « وتؤدي هذه النحلة إلى التناسخ . . . » . وعدّ ابن هانىء المغربي ممن يتظاهر بهذا المذهب ، ليتوصل به إلى الدنيا الفانية . وذكر له بيتين قالهما في مدح المعز أبي تميم معدّ ، وقد نزل بموضع يقال له رقادة وهما :

حَلَّ بِرَقّادَةَ المَسِيحُ ... حَلَّ بِها آدَمٌ وَنُوحُ
حَلَّ بِها اللهُ ذُو المَعَالِي ... وكلُّ شَيْءٍ سِواهُ رِيحُ

ويلخص قوله في (رسالة الغفران) بأنه ينكر هذا المذهب ، ويتبرأ منه ، ويسخر من أهله ومن مزاعمهم .

الجن والملائكة

الجن : عرّفه ابن سينا بأنه « حيوان هوائي يتشكل بأشكال مختلفة » . ثم قال : « وهذا شرح الاسم » أي بيان لمدلول هذا اللفظ ، مع قطع النظر عن انطباقه على حقيقة خارجية ، سواء كان معدوما في الخارج ، أو موجوداً ولم يعلم وجوده فيه ، فإن التعريف الاسمي لا يكون إلا كذلك » .

---

(١) في الغفران تحقيق بنت الشاطىء : « أن من » .

(٢) هي :

أنا أنت بلا شك ... فسبحانك سبحاني
وإسخاطك إسخاطي ... وغفرانك غفراني
ولمَ أجلد يا ربي ... إذا قيل هو الزاني

ويدل القرآن الكريم على أن الجن خلقوا من نار ، كما أن الإنس خلقوا من تراب . قال تعالى في سورة الرحمن (١) : ﴿ خلق الإنسانَ من صَلصال كالفخّار وخلق الجانّ من مارج من نار ﴾ . . . وقد اختلف في الجان ، فقيل : هو أبو الجن ، كما أن الإنسان المذكور في الآية الكريمة أبو الإنس . وقيل : هو الجن بنفسه ؛ ذكر ذلك الفخر الرازي في (مفاتيح الغيب ج ٨ ص ١٢) . وفي (الكشاف) : « والجان أبو الجن ، وقيل هو إبليس » . وجمهور أرباب الملل المصدقين بالأنبياء قد اعترفوا بوجوده ، واعترف به جمع عظيم من قدماء الفلاسفة . والجن يقال على وجهين :

أحدهما : للروحانيين المستترين عن الحواس كلها بإزاء الإنس . وعلى هذا تدخل فيه الملائكة والشياطين .

والثاني : أن الجن بعض الروحانيين ، وذلك أن الروحانيين ثلاثة : أخيار ، وهم الملائكة . وأشرار ، وهم الشياطين . وأخيار وأشرار ، وهم الجن . وظاهر كلام الفلاسفة أن الجن والشياطين هم النفوس البشرية المفارقة للأبدان بحسب الخير والشر . وظاهر كلام أهل السنة أن الجن تقدر على أن تلج في باطن الحيوان ، وتنفذ في منافذه الضيقة نفوذ الهواء المستنشق ، وأنها تتمثل بصور . وأن منهم من يولد له ويأكل ويشرب كالآدمي . ومنهم بمنزلة الريح . وأن المؤمنين منهم يدخلون الجنة وينعمون فيها كالآدميين .

رؤية الإنس الجن :

قال الله تعالى في سورة الأعراف (٢) : ﴿ يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزعُ عنهما لباسهما ليريَهما سوآتهما انه يَرَيكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم . . ﴾ .

---

(١) سورة الرحمن ٥٥/١٤ .
(٢) سورة الأعراف ٢٦/١ .

وقد اختلف العلماء في رؤية الجن ، فقالت المعتزلة : إن الإنس لا يرون الجن . واستدلوا بظاهر هذه الآية . قال الزمخشري في (الكشاف ج ١ ص ٣٢٦) في تفسير هذه الآية : « وفيه دليل بيّن على أن الجن لا يُرون ولا يظهرون للإنس ، وأن زعم من يدعي رؤيتهم زور ومخرقة » . اه

وقالت المعتزلة : الوجه في أن الإنس لا يرون الجن لرقة أجسام الجن ولطافتها . والوجه في رؤية الجن للإنس كثافة أجسام الإنس . والوجه في أن يرى بعض الجن بعضاً أن الله تعالى يقوّي شعاع أبصار الجن ويزيد فيه ؛ ولو زاد الله في قوة أبصارنا لرأيناهم كما يرى بعضهم بعضاً .

وردّ عليهم أهل السنة بأنه قد ثبتت رؤية الإنس الجنّ بالأحاديث الصحيحة . وقالوا : إنها لا تعارض نص القرآن هذا ، لأن المنفي فيه رؤيتهم إذا لم يتمثلوا لنا ، كما ذكر ذلك الخفاجي في (حاشيته على البيضاوي ج ٤ ص : ١٦١ ، ١٦٢) .

وقال الفخر الرازي في (مفاتيح الغيب ج ٤ ص ١٩٥) : « قوله تعالى : ﴿ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾[1] يدل على أن الإنس لا يرون الجن ، لأن قوله : ﴿ من حيث لا ترونهم ﴾ يتناول أوقات الاستقبال من غير تخصيص ، قال بعض العلماء : ولو قدر الجن على تغيير صور أنفسهم بأي صورة شاؤوا وأرادوا لوجب أن ترتفع الثقة عن معرفة الناس ؛ فلعل هذا الذي أشاهده وأحكم عليه بأنه ولدي أو زوجتي جني صور نفسه بصورة ولدي أو زوجتي ؟ وعلى هذا التقدير فيرتفع الوثوق عن معرفة الأشخاص . وأيضاً فلو كانوا قادرين على تخبيط الناس ، وإزالة العقل عنهم ، مع أنه تعالى بيّن العداوة الشديدة بينهم وبين الإنس ، فلمَ لا يفعلون ذلك في حق أكثر البشر ، وفي حق العلماء ، والأفاضل ، والزهاد ؛ لأن هذه العداوة بينهم

---

(١) سورة الأعراف ٧/٢٦ .

وبين العلماء والزهاد أكثر وأقوى . ولما لم يوجد شيء من ذلك ثبت أنه لاقدرة لهم على البشر بوجـــه من الوجوه . ويتأكد هذا بقوله تعالى : ﴿ ما كان لي عليكم من سلطان إلا أنْ دعوتكم فاستجبتم لي [1] ﴾ اه .

وأنا أقول : لو صح أن الجن قادرون على تصوير أنفسهم بأي صورة شاؤا لارتفعت الثقة عن كل أحد ، وتعطلت الشرائع السماوية ، والنظم المدنية ؛ وضاعت الحقوق ، وشك الإنسان في أهله وولده وفي نفسه أيضاً . لأننا إذا أردنا أن نتلقى القرآن أو الحديث أو الفقه عن شيخ لانستطيع أن نجزم بأنه هو الشيخ الذي نريد التلقي عنه ، بل يجوز أن يكون جنياً صوّر نفسه بصورة الشيخ . وإذا أردنا أن نرفع قضية إلى حاكم ، لانستطيع أن نقبل قول أحد المتداعيَيْن ، ولا قول شاهد ، ولا حكم قاض ، ولا استئناف حكم ، ولا تمييزه ، لجواز أن يكون كل واحد من هؤلاء أو كل هؤلاء من الجن صوروا أنفسهم بصور أشخاص معينين ليجروا مغنماً أو يدفعوا مغرماً . وكذلك لاتستطيع الزوجة أن تمكن زوجها من نفسها ولا الزوج أن يغشى زوجته ، لجواز أن يكون أحدهما جنياً . ولا يجوز إثبات ولد وإلحاقه بنسب أبيه ، ولا توريثه ، ولا حجبه بغيره ، لاحتمال ذلك فيه . ويتأتى فرض ذلك في كل حادثة من حوادث الكون ، من بيع ، وشراء ، ومصانعة ، وإجارة ، وقرض ، وصلح ، وهبة وما شاكل ذلك من الأعمال . وهذا يفضي إلى عدم اعتقادنا عملاً صحيحاً ؛ كما يفضي إلى أن تعطل الأحكام والعقود ، وأن يكون الكون ألعوبة سداها الشك ولحمتها الحيرة . ولا يقول بذلك عاقل ولا ديّن .

وعلى ذكر ماتقدم ، تذكرت حادثة وقعت في دمشق ، لا أذكر تاريخها على التحقيق ، ولكنها قبل سنة ١٣٣٠ هجرية ، خلاصتها : أن

---

(١) سورة ابراهيم ٢٢/١٤ .

رجلا مغربياً من أهل مراكش ، قدم دمشق في التاريخ المذكور ، وادعى أنه من المحدّثين ؛ ونزل ضيفاً عند أحد علماء دمشق الذين ليس لهم من العلم إلا التزيي بزي العلماء الكبار ، وكان له حظ وافر من سلاطة اللسان وجرأة الجنان . ثم شاع في المدينة أن هــذا المحدّث سيقرأ درساً في الحديث تحت قبة النسر في الجامع الأموي يوم الجمعة بعد الصلاة . فحضرت المسجد بعد شروعه في الدرس ، فرأيته كهلا جميل الشارة ، وقد كحل عينيه بكحل أسود ، وشد في وسطه مسواكا طويلا ، وبإحدى يديه سبحة طويلة ؛ وقد لبس برنساً أبيض ستر به رأسه وجسمه كله ، ولم يظهر منه غير ملامح وجهه ويده التي تحمل السبحة ، وقد سمعته يذكر طرفاً من فضل علم الحديث ، ومن مناقب المحدّثين ، وما اختصّهم الله به من نور في الوجه ، وقبول عند الناس . ثم شرع في ذكر سنده ، فسرد أسماء لايعلم عدتها إلا الله . ثم ذكر حديث الرحمة المسلسل بالأولية ، وهو : « الراحمون يرحمهم الرحمن . . . » ولم يتكلم على شيء يتعلق بلفظ الحديث ولا بمعناه ولا بحكمه ، وانتهى بذلك الدرس .

فخرجت بعد ذلك إلى السوق ، فاجتمعت برجل يعد في تجار المدينة وأدبائها وعلمائها أيضاً ؛ فسألني عما رأيته وسمعته من المحدّث المغربي . فحدثته بما رأيت وما سمعت ؛ فقال لي : إن سند هذا الرجل أعلى سند في الحديث النبوي ، إذ ليس بينه وبين النبي ﷺ سوى رجلين . قلت : وكيف ذلك ؟ قال : لأنه يروي عن شيخه الذي يروي عن شمهورش قاضي الجن ، وهــذا يروي عن النبي ﷺ . قلت له : أو تصدق ذلك وتعتقده ؟ قال : نعم ، وما الذي يمنع من تصديقه وقد أجازني هذا المحدث بكل ما يرويه عن شمهورش ؟ قلت له : يا هذا إنك وضعت نفسك في مكان حرج ، ولا تستطيع الخروج منه ، وأحرجت موقف شيخك أيضاً . لأن

الله تعالى يقول في الجن : ﴿ إنه يَرَيكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم[١] ﴾ وأنت تزعم أن شيخك رأى شمهورش وأخذ عنه ، فهل تكذّب القرآن وتصدق شيخك ، أم تصدق القرآن وتكذب شيخك ؟ فأطرق ملياً ، ثم قال : لا هذا ولا ذاك ، لأن شيخي روى عن شمهورش من غير أن يرى شخصه . قلت : هذه أقبح ، ألا يجوز أن يأتي الشيطان فيزعم أنه شمهورش فيحدثنا بأحاديث يفتريها على رسول الله (ﷺ) ؟ وكيف نستطيع أن نفرق بين الشيطان وشمهورش ، ونحن لا نرى واحداً منهما لندرك ملامحه وخصائصه ، ولم يعطنا الله قدرة على تمييز واحد من آخر ؟ فبهت وانقطع فقلت : رحم الله أبا العلاء القائل :

لَوْ قَالَ سِيدُ غَضًا بُعِثْتُ بِمِلَّةٍ مِنْ عِنْدِ رَبِّي قَالَ بَعْضُهُمْ نَعَمْ[٢]

الملائكة

الملائكة : جمع ملَك ، وقد اختلف في أصل هذه الكلمة ، فقيل : « مالك » وقيل : « ملأك » وقد تعرض لهذا البحث أبو العلاء في مقدمة (رسالة الملائكة في ص ٥) واستوفينا الكلام عليه في شرح الرسالة المذكورة في (ص ٦) .

وقد اتفقت الكلمة على أنهم ذوات موجودة قائمة بأنفسهم ، ولكنهم اختلفوا في حقيقتهم . فذهب الحكماء إلى أنهم جواهر مجردة مخالفة للنفوس الناطقة في الحقيقة . وأكثر المتكلمين قالوا : إنهم أجسام نورانية لطيفة قادرة على التشكل بصور مختلفة ، كما أن الرسل كانوا يرونهم كذلك . وقال الفخر الرازي (ج ١ ص ٢٥٣ [٣]) : « إنها أجسام لطيفة هوائية

---

(١) سورة الأعراف ٧/٢٦ .

(٢) اللزوميات ٥ ص ٢٥٦ ، والسيد : الذئب جمعه سيدان ، والغضا : شجر . والعرب تقول : ذئب غضاً كأنهم يصفونه بالخبث .

(٣) مفاتيح الغيب .

تقدر على التشكل بأشكال مختلفة ، مسكنها السموات » . وهذا قول أكثر المسلمين . وزعم قوم أنها هي الحقيقة في هذه الكواكب الموصوفة بالإسعاد والإنحاس . وأكثر المجوس والثنوية يقولون : إن هذا العالم مركب من أصلين أزليّين : النور والظلمة . وجوهر النور لم يزل يولد الأولياء ، وهم الملائكة ، لا على سبيل التناسخ ، بل على سبيل تولد الحكمة من الحكيم ، والضوء من المضيء . وجوهر الظلمة لم يزل يولد الأعداء ، وهم الشياطين ، على سبيل تولد السفه من السفيه . وهناك أقوال أخر . وقد أطلنا في ذكر هذه الأقوال والآراء لنبين أين وضع أبو العلاء نفسه منها ، وأين وضعه الناس .

الجن والملائكة وأبو العلاء في نظر صاحب ذكرى أبي العلاء

قال صاحب (الذكرى) : « أبو العلاء أنكر الجن والملائكة في (اللزوميات) نصاً [١] فقال :

قَدْ عِشْتُ دَهْراً طَوِيلاً مَا عَلِمْتُ بِهِ ... حِسّاً يُحَسُّ لِجِنّيٍّ وَلاَ مَلَكِ [٢]

وقال :

فَاخْشَ المَلِيكَ وَلاَ تُوجَدْ عَلى رَهَبٍ

إنْ أنْتَ بالجِنِّ في الظَّلْمَاءِ خُشِّيتَا [٣]

فَإنَّمَا تِلْكَ أخْبَارٌ مُلَفَّقَةٌ ... لِخُدْعَةِ الغَافِلِ الحُوشِيِّ حُوشِيتَا

(١) انظر ماذكره طه حسين في هذا الباب في ذكرى أبي العلاء ط ٢ من ص ٣٥٩ — ٣٦٠ .

(٢) اللزوميات ﻫ ص ١٨٩ وفيها : « قد عشت عمراً ... » .

(٣) « « ص ٦٣ .

(ورسالة الغفران) مملوءة بالسخرية المؤلمة من الجن والملائكة جميعاً .
وقد قدمنا أنه نظم الشعر في (رسالة الغفران) على ألسنة الجن الذين دخلوا الجنة فقال : ـ إنما يريد الهزء والسخرية [1] ـ :

مَكَّةُ أَقْوَتْ مِنْ بَنِي الدَّرْدَبِيسْ   فَمَا لِجِنِّيٍّ بِهَا مِنْ حَسِيسْ

وهي قصيدة طويلة ملئت بالغريب ، واشتملت على ما شاع في الناس من أخبار الجن . على أن أبا العلاء لم ينكر قدرة الله على خلق أجسام نورانية ليست بلحم ولا دم ، فقال :

لَسْتُ أَنْفِي عَنْ قُدْرَةِ اللهِ أَشْبَا   حَ ضِيَاءٍ بِغَيْرِ لَحْمٍ وَلَا دَمْ [2]

وَبَصِيرُ الأَقْوَامِ مِثْلِيَ أَعْمَى   فَهَلُمُّوا فِي حِنْدِسٍ نَتَصَادَمْ

وفي هذا البيت الأخير من السخرية شيء كثير » ا هـ .

هذا ما قاله الأستاذ ، أوردناه بنصه وفصه ، لنُبيّن أنه حكم على أبي العلاء حكماً جائراً ، وفهم من كلامه مالم يرده ، وألصق به اعتقاداً باطلا وهو يعتقد غيره . وأول كلامه يدل على أن المعري ينكر الجن والملائكة . وآخر كلامه والأبيات التي استشهد بها تدل على أنه ينكر الجن ؛ وكل ذلك باطل . وإيضاح هذا أن البيت الأول يقول : إنه ما علم حسَّا لجني ولا ملك ، وهذا لا يوجب الإنكار ، بل بالعكس يدل على الإقرار ؛ لأنه يقتضي أن يكون هناك حسٌّ ، ولكن لم يعلم به ؟ ونفي العلم عن شيء لا يستلزم إنكاره ولا نفيه . كما أننا لا نعلم حسّ كثير من الحيوان والطير والسمك والإنسان وهي موجودة بالفعل . فإذا قال قائل : ما علمت حسّاً لوَعْلٍ ولا عُقاب ولا سمكة ، ولا هندي ، لا يوجب قوله هـذا نفي شيء من هذه الأشياء ولا إنكاره ، بل يوجب أنه موجود ولكن لم يعلمه .

---

(١) انظر الغفران تحقيق بنت الشاطيء ط ١ ص ٢٠٦ ـ ٢١٤ .

(٢) اللزوميات هـ ص ٢٥٨ .

والبيت الثاني ينهى عن الخوف من الجن إذا خوّف بهم في الظلماء ، وهذا يقتضي أن يكونوا موجودين ليتأتّى الخوف منهم ، ولا يوجب انكارهم . والظاهر أن أهل المعرة في عصر أبي العلاء يشبهون أهلها في هذا العصر ، لأنهم يخوفون الأطفال بالجن ، فيستمر الخوف مع فريق منهم وإن بلغ سن الحلم ، ويخشون بعض الأماكن الخربة أو الموحشة ، لاعتقادهم أنها آهلة بالجن ويقولون : انها مسكونة أي يسكنها الجن . وما في (رسالة الغفران) ، ولو فرض أنها مملوءة بالسخرية ، لا يدل على إنكار بل على إثبات . ويمكننا أن نقول : إن أبا العلاء لم ينكر الجن والملائكة لا نصاً ولا تلميحاً ، كما يتضح لك ذلك قريباً .

الجن

أبو العلاء لا ينكر الجنّ ، وإنما يثبتهم ؛ والدليل على ذلك قوله في (اللزوم) :

مَنْ لِي بِأَنِّي وَحِيدٌ لاَ يُصَاحِبُنِي ... حَيٌّ سِوَى اللهِ لاَ جِنٌّ وَلاَ أَنَسُ[1]

فهذا صريح في إثبات الجن .. وإذا قيل : إنه يفيد نفي الجن وإنكارهم لزم أن يقال : إنه يستوجب ذلك في الإنس لأنه جمعهما في حكم واحد ، وهذا باطل ، وقوله :

أَبِالقَدَرِ المُتَاحِ تَدِينُ جِنٌّ ... تَسَمَّعُ غَيْرَ هَائِبَةِ الرُّجُومِ[2]

وَتَعْلَمُ أَنَّ مَا لَمْ يُقْضَ صَعْبٌ ... فَمَا تَخْشَى المَنِيَّـــةَ فِي الهُجُومِ

(١) انظر ما سبق ص ١٣١٠ .

(٢) اللزوميات ﻫ ص ٢٥٢ .

فهذا نظير سؤاله عن عقل الكواكب وحسها ، وهو يستلزم إثباتها لا إنكارها.

وقوله :

أحِنُّ وَمَا أُبِينُ سِوَى غَرامٍ ... بِغَيْرِ الحَقِّ مِنْ حِنٍّ وجِنِّ[1]

ثم قوله في وصف مفازة :

وَتَعْزِفُ جِنُّهَا والليْلُ دَاجٍ ... إذَا خَلَتِ الجَنَادِبُ مِنْ تَغَنِّ[1]

وقوله في (السقط) :

وَهْوَ مَنْ سُخِّرَتْ لَهُ الإِنْسُ والجِنْـ ... ـنُ بِمَا صَحَّ مِنْ شَهَادَةِ صَادِ[2]

فهذا كله صريح في الإثبات ، لا يشوبه شيء من الشك والإنكار .

وأما ما أورده في (رسالة الغفران) فإنه لم يخلُ من تهكم في بعض المواطن ، ولكن فيه كثيراً مما أصاب فيه شاكلة الصواب ، وكثيراً مما يعتقده المسلمون في مؤمني الجن ، وهو بعد ذلك كله يقتضي إثبات الجن لا نفيها ، وكيف نعده كله سخرية وهزءاً ، وفيه ما يوافق اعتقاد العلماء ، وما يوافق القرآن الكريم ؟ وأبو العلاء مع إثباته الجن ينكر أشياء ينسبونها إليهم لأنها لم تصح عنده ، من ذلك قوله :

مَا صَحَّ عِنْدِيَ أَنَّ ذَاتَ خَلاَخِلٍ ... تُقْفَى مِنَ الجِنِّ الغُوَاةِ بِتَابِعِ[3]

---

(١) اللزوميات هـ ص ٢٧٨ ، والحِنُّ : ضرب من الجن أو سفلة الجن وضعفاؤهم .

(٢) شروح سقط الزند ، ق ٣ ص ٩٩٢ ، وشهادة صاد : يعني ماذكره الله تعالى من قصته في سورة « ص » .

(٣) التابع : جني يتبع المرأة يحبها . والتابعة : جنية تتبع الرجل تحبه . ولقد جاء في الخبر : « من ولد له مولود أو ولد فأذن في أذنه اليمنى وأقام في اليسرى لم تضره أم الصبيان » وأم الصبيان : قيل هي الريح التي تعرض للأولاد فربما غشي عليهم منها ، ورجح بعض آخر أنها التابعة من الجن ، وهذا الحديث غير صحيح لأن في رواته متروكاً وكذاباً ووضاعاً كما في « فيض القدير ج ٦ ص ٢٣٨ » (ج)

وانظر اللزوميات هـ ص ٢٨٨ .

وأما الملائكة ، فلا نعلم شيئاً في كلام أبي العلاء يوهم الشك في وجودها ، أو يفيد إنكارها لا تصريحاً ولا تلميحاً . بل كتبه طافحة بما يدل على إثباتها ، من ذلك قوله في (لزوم ما لا يلزم) :

مَلائِكٌ تحتَها إنسٌ وسائِمَةٌ فالأغبياءُ سَوامٌ والتَّقِيُّ مَلَكْ[1]

وقوله :

إن لَمْ يَكُنْ في سَماءٍ فوقَنا بشرٌ فليسَ في الأرضِ أو ما تحتَها مَلَكُ[2]

وقوله :

وَمَنْ يُطَهِّرْ بِخَوفِ اللهِ مُهْجَتَهُ فذاكَ إنسانُ قومٍ يُشْبِهُ المَلَكا[3]

وقوله :

ولستُ كَمُوسَى أهابُ الحِمَامَ وَلكِنْ أوَدُّ لِقَــاءَ المَلَكْ[4]

وقوله :

ثَلاثُ مَراتِبٍ مَلَكٌ رَفيعٌ وإنسانٌ وَجيلٌ غَيْرُ إنسِ[5]

وقد ذكر كثيراً منها كجبريل ، ورضوان ، ومالك في أبيات تقدمت وهناك أبيات ذكر فيها غيرهم كقوله :

---

(١) اللزوميات ﻫ ص ١٩٠ .
(٢) اللزوميات ﻫ ص ١٨٣ .
(٣) « « ص ١٨٦ .
(٤) « « ص ١٩٢ .
(٥) « « ص ٣٠١ .

فَهَلْ هُوَ خَاشٍ مِنْ نَكِيرٍ وَمُنْكَرٍ وَضَغْطَةِ قَبْرٍ لا يَقُومُ لَها نَظْمُ[(١)]

وقوله :

وعَنْ يَمِيني وَعَنْ شِمَالي يَصْحَبُني حَافِظٌ قَعِيدُ[(٢)]

وذكر في (السقط) جبريل بقوله :

. . . . لَمْ يأتِهِ بِرِسالَةٍ جِبْرِيلُ[(٣)]

وقوله :

تَقَرَّبَ جِبْرِيلٌ بِرُوحِكَ صَاعِداً . . . .

وذكر في رسالة (الملائكة) طائفة منهم وهو لا يشك في وجودهم .

★ ★ ★

(١) اللزوميات ٢ ص ٢٢٨ .

(٢) « « ص ٩٦ .

(٣) عجز بيت من قصيدة يخاطب بها بعض العلويين مطلعها :

ليت الحمول عن فراقك حول والسير عن حب إليك رحيل

وصدره : « هو مثله في الفضل إلا أنه . . . »

انظر شروح سقط الزند ، ق ٢ ص ٨٧٣ .

النبوات، والأنبياء، والكتب والشرائع

ربما كان هذا الموطن أدقّ شيء على الباحث في ترجمة أبي العلاء وكلامه، والسبب في ذلك أنك بينا تراه يقر بالإله كما يقر الموحدون، ويعتصم بكل عرى الإسلام، ويأخذ نفسه بالشدة في إقامة شعائره، وعدم مجاوزة حدوده؛ إذا بك تجده في موطن آخر يستخف بشيء مما يقدسه الدين، ويتعدى حدود الأدب مع الرسل، وينسب الى الشرائع ما لا يتفق مع حكمة وضعها ولم أر في كلامه ما يدل على سبب هذا التناقض، ولا على الباعث الذي حمله عليه. وقد زعم بعض الأدباء أن اضطراب الحياة الدينية، والسياسية، والاجتماعية، وحياة أبي العلاء نفسه، وما كان يعتوره فيها من أوصاب وفاقة، وضيق ذرع، وتبرم بأصحابه وأهل عصره وبيئته، هو العامل الأول في اضطراب آرائه، وفي شكه وحيرته، وكل ما شذ فيه عن سنن الدين والأدب. وأنا لا أعتقد أن هذا وحده هو الذي يكوّن مزاجاً مضطرباً في الانسان. ولو كان وحده يقتضي ذلك لكان جميع العلماء والشعراء والكتاب في عصر أبي العلاء مساوين له فيما ذكرنا. ويجوز أن يكون ذلك كله من جملة الأسباب والعوامل، لا سبباً مستقلاً. وقد كنا ذكرنا أن أبا العلاء كان محسوداً، وأن حساده في حياته وبعد مماته كانوا يكيدون له، ويضعون على لسانه ما ليس له به علم، ويحرّفون كلامه عن مواضعه عمداً ليغروا به الأمراء، ويثيروا عليه الدهماء؛ وفيهم من كان يحرّفه على غير عمد، إما لسهو أو جهل؛ وأن أبا العلاء كان واسع الاطلاع على أقوال العلماء، واختلاف آرائهم. وأنه كان يعول على العقل في كل حكم. فلعل بعض كلامه الذي أوخذ به في هذا الباب من صنع أعدائه، أو تحريف حساده، وبعضه من تحريف الساهين أو الجاهلين؛ وبعضه طبع فيه على غرار

بعض العلماء المختلفين ؛ وبعضه ناشيء من اضطراب حياته الخاصة والعامة . أما إذا كان كله وليد قريحته ، ونتيجة فكره ، فلا شك في أنه خرج به عن دائرة الشرع ، وتعدى حدود الأدب والدين . وإن كان في أضعاف كلامه شبح من الحقيقة ، يرضى به العقل ، ويؤيده الواقع . على أن في كلامه هذا كثيراً مما يقبل التأويل ، والحمل على محمل حسن . ولكن الناس أكثروا من اتهامه بالإلحاد والزندقة . وفيهم من لو استطاع لجعل كل كلامه كفراً وزندقة ، ولنسب إليه كل كفر وإلحاد . والحكم بالكفر أو الزندقة لايصح إلا بعد أن يقوم الدليل القاطع على أنه تكلم بالبيت أو الأبيات على الوجه الذي يوجب الكفر . أما إذا لم يكن هناك دليل قطعي ، فلا يجوز الحكم عليه بشيء ، كما بينا ذلك فيما سبق . وإليك جملة من كلامه في النبوات والأنبياء ، تدل على أنه مؤمن بها إيماناً صحيحاً .

وَمَوَّهَ النَّاسُ حَتَّى ظَنَّ جَاهِلُهُمْ ... أَنَّ النُّبُوَّةَ تَمْوِيهٌ وَتَدْلِيسُ[1]
جَاءَتْ مِنَ الفَلَكِ العُلْوِيِّ حَادِثَةٌ ... فِيهَا اسْتَوَى جُبَنَاءُ القَوْمِ والأَلْيَسْ

. . .

قَالَتْ مَعَاشِرُ لَمْ يَبْعَثْ إِلٰهُكُمُ ... إِلَى البَرِيَّةِ عِيسَاهَا وَلَا مُوسَى[2]
وَإِنَّمَا جَعَلُوا لِلْقَوْمِ مَأْكَلَةً ... وَصَيَّرُوا لِجَمِيعِ النَّاسِ نَامُوسَا
وَلَوْ قَدَرْتُ لَعَاقَبْتُ الذِينَ طَغَوْا ... حَتَّى يَعُودَ حَلِيفُ الغَيِّ مَرْمُوسَا

. . .

---

(١) اللزوميات ٥ ص ٢٩٣ ، والليس : مفردها أليس وهو الشجاع لا يبالي هولاً .
(٢) اللزوميات ٥ ص ٢٩٦ . والمأكلة : وبضم الكاف الميرة وما أكل .
والناموس : من معانيها الشريعة والشَّرَك . والمرموس : المدفون من الرمس أي الدفن .

دَعَا مُوسَى فَزَالَ وَقَامَ عِيسَى وَجَاءَ مُحَمَّدٌ بِصَلَاةِ خَمْسِ (١)
وَقِيلَ : يَجِيءُ دِينٌ غَيْرُ هَذَا وَأَوْدَى النَّاسُ بَيْنَ غَدٍ وَأَمْسِ

فهذه الأبيات وما شاكلها لاريب ولا عيب فيها ، لأنه أنكر في البيتين الأولين أن تكون النبوة تمويهاً وتدليساً ؛ وإنما هي منزلة من الفلك العلوي ، لايستطيع ردها الجبناء ولا الشجعان . وفي الأبيات الثلاثة التي بعدهما ، أنكر على من ينكر بعث موسى وعيسى ، وقال : إنه لو استطاع لعاقب هؤلاء الطاغين المنكرين حتى يميتهم ويدفنهم . وفي البيتين الأخيرين ، أنكر قول من قال : إن ديناً غير الإسلام سيجيء بعده . وهذا كله حق لاغبار عليه . وقد قدمنا أن هذين البيتين حرّف ثانيهما بعض الرواة .

وهذه جملة أخرى من كلامه في الأنبياء . من ذلك قوله في آدم وحواء :

دَعْ آدَماً لاَ شَفَاهُ اللهُ مِنْ هَبَلٍ يَبْكِي عَلَى نَجْلِهِ المَقْتُولِ هَابِيلاَ (٢)
فَفِي عِقَابِ الذِي أَبْدَاهُ مِنْ خَطَأٍ ظَلِلْنَا نُمَارِسُ مِنْ سُقْمٍ عَقَابِيلاَ
وَنَحْنُ مِنْ حَدَثَانٍ نَمْتَرِي عَجَباً وَمَعْشَرٌ يَقْفُونَ الغَيَّ تَسْبِيلاَ

وقوله :

بَنِي الأَرْضِ مَا تَحْتَ التُّرَابِ مُوَفَّقٌ
لِرُشْدٍ وَلاَ تَحْتَ التُّرَابِ سِوَى فَسْلِ (٣)

(١) اللزوميات ﻫ ص ١٠٣ .
(٢) اللزوميات ﻫ ص ٢٠٥ ، والهبل : الثكل . والعقابيل : بقايا المرض .
(٣) اللزوميات ﻫ ص ٢١٠ . والفسل : الرذل الذي لا مروءة له .

أَكَانَ أَبُوكُمْ آدَمٌ فِي الذي أَتَى ‏ نَجِيباً فَتَرْجُونَ النَّجَابَةَ لِلنَّسْلِ

وقوله :

إِحْتَجَّ بِالغَيِّ فِي النِّسْيَانِ وَالِدُهُمْ ‏ وَقَدْ غَوَوْا بَادِّكَارٍ لا أَقُولُ نَسُوا[1]

وقوله :

وَمَا حَمْدِي لِآدَمَ أَوْ بَنِيهِ ‏ وَأَشْهَدُ أَنَّ كُلَّهُمُ خَبِيسُ[2]

وقوله :

خَيْرٌ لِآدَمَ وَالخَلْقِ الذي[3] خَرَجُوا ‏ مِنْ ظَهْرِهِ أَنْ يَكُونُوا قَبْلُ مَا خُلِقُوا

فَهَلْ أَحَسَّ وَبَالِي جِسْمِهِ رِمَمٌ ‏ بِمَا رَآهُ بَنُوهُ مِنْ أَذًى وَلَقُوا

وقوله :

فَلَيْتَ حَوَّاءَ عَقِيمٌ غَدَتْ ‏ لَا تَلِدُ النَّاسَ وَلَا تَحْبَلُ[4]

وَلَيْتَ شِيثاً وَأَبَانَا الذي ‏ جَاءَ بِنَا أَهْبَلَهُ المُهْبِلُ

وقوله :

فَسْلٌ أَبُو عَالَمِنَا آدَمٌ ‏ وَنَحْنُ مِنْ وَالِدِنَا أَفْسَلُ[5]

إلى غير ذلك من الأبيات التي تتعلق بآدم وحواء . ولا شك أن فيها مالا يليق نسبته إلى آدم ـ عليه السلام ـ .أما الدعاء عليه بالعقم ، فإنه

---

(١) اللزوميات هـ ص ٢٩٢ .

(٢) اللزوميات هـ ص ٢٩٤ .

(٣) كذا في الديوان ولعله : « الأولى خرجوا » (ج) انظر اللزوميات ، ص ٣٠٠

(٤) اللزوميات هـ ص ٢٠١ .

(٥) المصدر السابق .

لايضر ولا ينفع ، ولابن الشبل البغـدادي المتوفى سنة ٤٧٤ هـ قصيدة بديعة تصدي فيها إلى قصة آدم عليه السلام بأبيات منها قوله :

فَإِنْ يَكُ آدَمٌ أَشْقَى بَنِيهِ ... بِذَنْبٍ مَالَهُ مِنْهُ اعْتِـذَارُ
وَلَمْ يَنْفَعْهُ بِالأَسْمَـاءِ عِلْمٌ ... وَمَا نَفَعَ السُّجُودُ وَلاَ الجِوارُ
فأُخْرِجَ ثُمَّ أُهْبِطَ ثم أوْدَى ... فَتُوبُ السَّافِيَاتِ لَهُ شِعَارُ
فَأَدْرَكَهُ بِعِلْمِ اللهِ فِيـهِ ... مِنَ الكَلِمَاتِ لِلذَّنْبِ اغْتِفَـارُ
وَلَكِنْ بَعْدَ غُفْرانٍ وَعَفْوٍ ... يُعَيَّرُ مَا تَلاَ لَيْـلاً نَهارُ
لَقَدْ بَلَغَ العَدُوُّ بِنَـا مُنَاهُ ... وَحَلَّ بِآدَمٍ وَبِنَـا الصَّغَارُ
وَتِهْنَا ضَائعِينَ كَقَوْمِ مُوسَى ... وَلاَ عِجْلٌ أَضَلَّ وَلاَ خُوارُ
فَيَالَكِ أَكْلَةً مَا زَالَ مِنْهَا ... عَلَيْنَا نِقْمَةٌ وَعَلَيْـهِ عارُ
نُعَاقَبُ في الظُّهُورِ وَمَا وُلِدْنَا ... وَيُذْبَحُ في حَشَى الأُمِّ الحُوَارُ (١)

والقصيدة كلها جيدة . ولا أعلم إنْ كان ابن الشبل اطلع على أبيات أبي العلاء ، أم كانت موافقته إياه في بعض معانيه من باب توارد الخاطر ، ووقع الحافر على الحافر ، ومن العجب أن كلا من الشاعرين اقتصر في لومه على آدم (عليه السلام) فقط ولم يتعرض لحواء . وقد اتفق لي مرة أن رأيت في سوق المعرة رجلا شرب الحشيش حتى فقد عقله ، ووقف في السوق يتكلم بصوت جهوري ، فاجتمع الناس حـوله ، وكان يسوق لهم الأحاديث : من كل واد عصـا ، فوقفت عليه لأسمع كلامه ، فرأيته يقبح

---

(١) الظهور جمع الظهر ؛ والحوار بالضم وقد يكسر : ولد الناقة ساعة تضعه ، أو الى أن يفصل من أمه ؛ ومعناه في البيت : ولد الناقة قبل أن يولد .

العذر لآدم عليه السلام ، ويهوّن ذنبه ، ولكنه ينحي باللائمة كلها على حواء ، ويقول : إنهـا هي التي حملت آدم على أكل الشجرة ، ويبيّن أسباباً لايليق ذكرهـا ، بعبارات بذيئة ؛ والناس يضحكون من حديثه ويستزيدونه . فقلت في نفسي : سبحان الله ! هذا رجل أمي عـامي حشاش تصدى إلى مبحث وقف دونه العلماء ، إما أدباً منهم ، وإما أنهم لم يروا لحواء ذنباً ، فبعث الله هذا الرجل لينال من حواء ويذكرهـا بمالا تستحقه .

وقوله في داود (عليه السلام) .

وَلَـنْ تُصِيبُوا مِنَ الدُّنْيَا سِوَى صَبِرٍ
حَتَّى تَـكُونُوا عَلى أَحْدَاثِهَا صُبُرَا[1]

دَرْجُهَا وهْيَ مُذْ كانتْ مُحَبَّبَةٌ
أَقَامَ دَاوُدَ يَتْلُـو لَيْلَهُ الزُّبُرَا

. . .

إنَّ ابْنَ اسَّى مَضَى ولَـكِنْ
دَلَّ عَلى فَضْلِهِ الزَّبُورُ[2]

وهذه طائفة من كلامه في الشرائع ، منها قوله :

وَلاَ تُطِيعَنَّ قَوْماً مَادِيَانَتُهُمْ
إلا احْتِيَالٌ عَلَى أَخْذِ الأَتَاوَاتِ[3]

وَإنَّمَا حَمَّلَ التَّوْرَاةَ قَارِئَهَـا
كَسْبُ الفَوَائِدِ لاَ حُبُّ التِّلاوَاتِ

إنَّ الشَّرَائِعَ أَلْقَتْ بَيْنَنَا إِحَنًا
وَأَوْدَعَتْنَا[4] أَفَانِينَ العَدَاوَاتِ

---

(١) اللزوميات ٥ ص ١٤٠ .
(٢) اللزوميات ٥ ص ١٢٥ .
(٣) اللزوميات ٥ ص ٦٧ والاتاوة : الخراج والرشوة .
(٤) في يالوت : « وأورثتنا » . (ج)

وَهَلْ أُبِيحَتْ نِسَاءُ القَوْمِ (١) عَنْ عُرُضٍ لِلْعُرْبِ إلاَّ بِأَحْكَامِ النُّبُوَّاتِ

وظاهر هذه الأبيات اجتراء على الشرائع ، وافتراء على أصحابها ، ويمكن أن يقال في تأويلها : إنه يريد أن أصحاب الشريعة السابقة إذا جاءتهم شريعة تنسخ الأولى ، كلها أو بعضها ، تمرد فريق منهم ، وعتوا عن أمر ربهم فما قبلوا الشريعة الجديدة ، فيضطر أصحابها إلى مقاتلتهم حتى ينقادوا إلى الحق ويثوبوا إلى الرشد . وإن أصحاب الشريعة الواحدة ليسوا سواء في تقبلها ؛ وإنما فيهم المؤمن المنقاد ، والمتمرد ، والزنديق والمستخف ، والمارق ، والمنافق ، والعاصي ، والفاسق . وقد يقع بين كل واحد من هؤلاء وبين غيره إحن وأحقاد بسبب الشريعة في الظاهر ، مع أن الشريعة إنما جاءت لتؤلف بين قلوبهم ، وتجمع كلمتهم ، وتنزع ما في صدورهم من غل ، وليس الذنب في ذلك ذنب الشريعة ؛ وهذه سنة الكون منذ القديم .

وإذا صح هذا الوجه فليس في كلامه ما يوجب القدح في دينه . بل هو قريب من قوله تعالى في (سورة البقرة آية ٢١٣) ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الكِتَابَ بِالحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ البَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللهُ الذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ .

ويمكن تأويل قوله : « ما ديانتهم إلا احتيال ... » بأن يقال : إنهم يتظاهرون بالديانة ، ويأخذون الإتاوات باسمها ؛ وهم في الحقيقة غير مخلصين في ديانتهم ، وإنما جعلوها واسطة لأخذ الأموال ؛ كما يقال : ما صلاة فلان

---

(٣) في طبقات النحاة واللغويين : « وهل أبيح نساء الروم » وفي ياقوت « وما أبيحت » (ج) والعرض : الناحية ، وفي القاموس : يضربون الناس عن عرض لا يبالون من ضربوا .

إلا رياء ، ولا ورعه إلا خديعة . وهذا هو الواقع ، وفي الماضي والحاضر أدلة وشواهد لا يدركها حصر .

وقوله :

وَالعَقْلُ يَعْجَبُ لِلشُّرُوعِ تَمَجُّسٍ ... وَتَحَنُّفٍ وَتَهَوُّدٍ وَتَنَصُّرِ (١)

فَاحْذَرْ وَلاَ تَدَعِ الأُمُورَ مُضَاعَةً ... وَانْظُرْ بِقَلْبٍ مُفَكِّرٍ مُتَبَصِّرِ

وقوله :

وَالعَقْلُ يَعْجَبُ وَالشَّرَائِعُ كُلُّهَا ... خَبَرٌ يُقَلَّدُ لَمْ يَقِسْهُ قَائِسُ (٢)

مُتَمَجِّسُونَ وَمُسْلِمُونَ وَمَعْشَرٌ ... مُتَنَصِّرُونَ وَهَائِدُونَ وَسَائِسُ

. . . .

فَالصَّابِئُونَ يُعَظِّمُونَ كَوَاكِباً ... وَطِبَاعُ كُلٍّ فِي الشُّرُورِ حَبَائِسُ

أَنَّى يَنَالُ أَخُو الدِّيَانَةِ سُؤْدَداً ... وَمَآرِبُ الرَّجُلِ الشَّرِيفِ خَسَائِسُ

والبيتان الأولان ليس فيهما ما يدل دلالة صريحة على إلحاد أو كفر ؛ وإنما هما إخبار بحقيقة الواقع ، وحض على التفكر والتبصر . فإن العقل يعجب من اختلاف هذه الفرق ، وعدم اتفاقها على الحق ، بعد أن وضح لها الطريق ، وأسفر الصبح لذي عينين . ولذلك يجب على المرء أن ينظر بقلب مفكر متبصر فيها . وكذلك الأبيات الخمسة التي بعدهما ، فإن كثيراً من أمور الشرائع لا تتفق مع القياس والرأي ؛ إما لخفاء الحكمة فيها ، وإما لقصور الناس عن إدراكها على حقيقتها . وقد نقل عن بعض الأئمة أنه قال : لو كان الدين بالرأي ، لكان باطن الخف أولى بالمسح من ظاهره . وإن المسلمين كانوا يجهلون الحكمة الحقيقية في كثير من الأحكام ، كتحريم

---

(١) اللزوميات ﻫ س ١٥٨ . والشروع : جمع شرع .

(٢) اللزوميات ﻫ س ٢٩٥ وفيها : والصابئون يعظمون .

الخمر ، ولحم الخنزير ، والزنى ، ويذكرون لذلك أسبابا وعللا ، منها ما هو مقبول ، ومنها ما هو أدنى منه ، ومنها ما لا يصلح وحده لأن يكون علة للحكم وما يترتب عليه من حد . فلما ارتقى العلم وكشف عن كثير من الحقائق الغامضة ، أدرك الناس من مسلمين وغيرهم حكمة الشارع في التحريم والحدود ، ورأوها ضرورية لحفظ الصحة والنسل وسلامة المجتمع . وبقية الأبيات ليس فيها ما يوجب الحكم بإلحاده .

وقوله :

فِكَرٌ حَسَّنَتْ لِقَوْمٍ أُموراً فَاسْتَجَازُوا التَّهْوِيدَ والتَّمْجِيسَا[1]
مَعْشَرٌ صَيَّرُوا الْمُدَامَةَ قُرْبا نًا وَنَاسٌ أَلْقَوْا بِهَا التَّنْجِيسَا

بيان لأمرين :

الأول : أن من دان باليهودية أو المجوسية لم يكن ذلك منه عن اعتقاد بصحة ما دان به أو بحسنه . وإنما عرضت له فكرة زينت له ذلك لما يترتب عليه من الفوائد العاجلة .

والثاني : أن أصحاب النحل متباينون في الأحكام ، ففريق يحل شيئاً وآخر يحرمه ، وفريق يجعله طاهراً وآخر يجعله نجساً . بل يتفاوتون في التناقض إلى حد أبعد من ذلك ، ففريق يجعل الخمر مقربة إلى الله وآخر يجعلها نجسة .

وكذلك قوله :

وَجَدْنَا اخْتِلاَفاً بَيْنَنَا فِي إلهِنَا وَفِي غَيْرِهِ عَزَّ الذي جَلَّ وَاتَّحَدْ[2]
لَنَا جُمْعَةٌ والسَّبْتُ يُدْعَى لأُمَّةٍ أَطَافَتْ بِمُوسَى وَالنَّصَارَى لَهَا الأَحَدْ

(١) اللزوميات ﻫ ص ٢٩٧ .
(٢) اللزوميات ﻫ ص ١١٥ .

فَهَلْ لِبَوَاقِي السَّبْعَةِ[1] الزُّهْرِ مَعْشَرٌ يُجِلُّونَهَا مِمَّنْ تَنَسَّكَ أَوْ جَحَدْ
تَقَرَّبَ نَاسٌ بِالْمُدَامِ وَعِنْدَنَا عَلَى كُلِّ حَالٍ أَنَّ شَارِبَهَا يُجَدْ

فإنه بيان لحقيقة الواقع ، فإن الناس لم تتفق على إله واحد ، ولا على استحسان شيء واحد ، واستقباح شيء واحد . وإنما اختلفوا في ذات الإله ، ووحدانيته ، وصفاته ؛ كما اختلفوا في أصناف العبادة والأيام التي يجلونها ، والأمور التي يحرمونها ويحلونها . فمنهم فريق يعبد الله وحده ، وينزهه عن الوالد والولد والشريك . ومنهم من لا ينزهه . ومنهم من يعبد غيره . ومنهم من يحل الخمر ويجعلها قربانا لله . ومنهم من يجد شاربها . وهذا ليس فيه شيء وإنما هو من نوع قوله :

وَكَيْفَ يَصِحُّ إِجْمَاعُ الْبَرَايَا وَهُمْ لاَ يُجْمِعُونَ عَلَى إِلٰهِ[2]

ومثل قوله :

وَلَيْسَ يُوَافِقُ ابْنُ أَبٍ وَأُمٍّ أَخَاهُ فَكَيْفَ تَتَّفِقُ الشُّرُوعُ[3]

• • •

مَا أَسْلَمَ الْمُسْلِمُونَ شَرَّهُمُ وَلاَ يَهُودٌ لِتَوْبَةٍ هَادُوا[4]
وَلاَ النَّصَارَى لِدِينِهِمْ نَصَرُوا وَكُلُّهُمْ لِي بِذَاكَ أَشْهَادُ

ليس فيه ما يقدح في الأديان والشرائع ، وإنما يطعن في المتدينين بها لمخالفتهم إياها ، وتقصيرهم عن تأييدها والعمل بما تقتضيه . وعلى هذا الوجه العادل يمكن أن يحمل قوله :

---

(١) السبعة الزهر : أيام الجمعة .

(٢) اللزوميات ه ص ٣٤١ ، وقبلها « ... على الإله » .

(٣) اللزوميات ه ص ٢٨٤ .

(٤) اللزوميات ه ص ١٠٠ .

تَوَافقتِ اليَهُودُ مَعَ النصَارَى عَلى قَتْلِ المسيحِ بلاَ اخْتِلافِ[1]
وَمَا اصْطَلَحُوا عَلى تَرْكِ الدَّنَايَا بَلْ اصْطَلَحُوا على شُرْبِ السُّلاَف
تَلاَفَيْنَاهُمُ بِالقَوْلِ فِيهِ فَجَاءَهُمُ التَّلاَفي بالتَّلاَفِ

وقوله :

غَدَتْ أَهْلُ الشَّرَائعِ في اخْتِلافٍ تُقَضُّ بِهِ الْمَضَاجِعُ والْمُهودُ ...

إلى آخر الأبيات[2] . وقوله :

مَجُوسِيَّةٌ وَحَنِيفِيَّةٌ وَنَصْرَانَةٌ وَيَهودِيَّهْ

إلى آخر الأبيات[3] . وقوله :

أَتَتْنِيَ أَنْبَاءٌ كَثيرٌ شُجُونُهَا لَهَا طُرُقٌ أَعْيَا عَلى النَّاسِ خُبْرُهَا

---

(١) اللزوميات هـ ص ٢٩٦ ، والتلاف : لعل معناها : الحاف ، وانظر بشأنها الجزء ١ من هذا الكتاب ص ٦٢٠ ـ ٢١ .

(٢) تمامها : فقد كذبت على عيسى النصارى كما كذبت على موسى اليهود
ولم تستحدث الأيام خلقاً ولا حالت من الزمن العهود
اللزوميات هـ ص ٩٧ ورواية البيت الأول فيها : « غدا أهل الشرائع ... »

(٣) تمامها : مجوس تخالف أديانها وليست من الموت تفديه
تراقب مهديها ان يقوم فتلقى الى الحق مهديه
فيا سعد كم خرجت ظبية ترود بخضراء سعديه
فتضحي من الرد مردية وتمسي من الردى مرديه
لقد كان أبدى اليها الزما ن ثم هي الان مبديه
ويا هند ما عصمت أهلها قواضب في الضرب هنديه
ولا ورد غاب له حلة من الدم في النيل ورديه
تشبه بعض ببعض فما تزال القبائل فرديه
لقد امتزج العالم الآدمي نفورية مع مجديه
وأم النميري تركية وأم القبيلي صغديه
وزوج الكلابية الكاسكي وعرس الكلابي كرديه
اللزوميات هـ ص ٣٤٦ .

إلى آخر الأبيات (١) وقوله :

وَأَعُدْ قَصَّ الظُّفْرِ شِيمَةَ نَاسِكٍ وَالهِنْدُ بَعْدُ مُطِيلَةٌ أَظْفَارَهَا

الأبيات (٢) .

(١) تمامها : هفا دونها قس النصارى وموبذ الـ ـمجوس وديان اليهود وحبرها

وخطوا أحاديثاً لهم في صحائف لقد ضاعت الأوراق فيها وحبرها

تخالفت الأشياع في عقب الردى وتلك بحار ليس يدرك عبرها

وقيل نفوس الناس تسطيع فعلها وقال رجال بل تبين جبرها

ولو خلقت أجسادنا من حجارة لقل على كر الحوادث صبرها

يجيئك شهرا ناجر بعد قرها وسنبرها بعد المقيظ ووبرها

وما أحرزت نفس المدجج ذا الوغى مضبرة يستأسر الوحش ضبرها

أو النثرة الحصداء فورب نسجها لما حلق حال الأسنة عبرها

إذا أودعتها جثة وتعرضت لبيض الظبا لم يمكن السيف هبرها

وأودت بنو وبر وبير فما حي عزيز ولا شم لوقل وبرها

وقد سمي المرء الهزبر تفاؤلاً وليس يباقي في الزمان هزبرها

نوائب ألقت في النفوس حرائباً عصى كل آس في البرية سبرها

لي القوت فليغمر سرندب حظها من الدر أو يكثر بغانة تبرها

اللزوميات ٥ ص ١٢١ .

(٢) تمامها : ملل غدت فرقاً وكل شريعة تبدي لمضمر غيرها إكفارها

والرملة البيضاء غودر أهلها بعد الرفاغة يأكلون افارها

والعرب خالفت الحضارة واتقت سكنى الفلاة ورعلها وصفارها

كانت إماؤهم زوافر مورد فالآن أثقل نضرها أزنارها

أهلت بها الأمصار فهي ضوارب عمد المهالك لا تريد قفارها

لم يبق إلا أن تؤم جيادهم رمحاً لتقطع رملها وجفارها

عبروا الفوارس بالصوارم والقنا والملك في مصر يعثر فارها

جعلوا الذفار هوادياً لتنونة سرهاء تكحل بالدجى أشفارها

لكبوا زناد النادحين وعامر بالشام تقدح مرخها وعفارها

وإذا الذنوب طمت فأخلص توبة لله يلف بفضله غفارها

اللزوميات ٥ ص ١٤٣ ـ ١٤٤ .

فهذه الأبيات وأشباهها ، لا توجب كفراً ولا زندقة ؛ بل ليس فيها طعن في دين ولا شريعة . وإنما يشير بعضها إلى اختلاف الشرائع في الأمر الواحد ؛ كما يشير إلى اختلاف الناس فيما يعتقدون في الإله ، وبعض الأشياء والأمور ، وهذا يعود إلى المتدينين لا إلى الديانات .

ما وقع في كلامه في الشرائع والأنبياء مما يصعب تأويله :

وردت في كلام أبي العلاء أبيات يصعب حملها على وجه حسن ، منها قوله من قصيدة يقول فيها :

وَيَنْشَأُ نَاشِئُ الفِتْيَانِ مِنَّا ... عَلَى مَا كَانَ عَوَّدَهُ أَبُوهُ[1]
وَمَا دَانَ الفَتَى بِحِجًى وَلَكِنْ ... يُعَلِّمُهُ التَّدَيُّنَ أَقْرَبُوهُ

(١) المراد بالفتى : الشاب الحدث ، بدليل قوله « ناشئ الفتيان » ، وهذه الأبيات الثلاثة ليس فيها شيء ، بل مستمدة من الحديث الشريف « كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » . وهذا الحديث رواه ابن عدي والطبراني ، والبيهقي ، ورواه البخاري ، ومسلم ، بألفاظ متقاربة . وقد بسط هذا الرأي في (رسالة الغفران) ص ١٥٤ حيث قال : « ومن الناس من يتظاهر بالمذهب ولا يعتقده يتوصل به الى الدنيا الفانية ... وقد نجد الرجل حاذقاً في الصناعة بليغاً في النظر والحجة ، فإذا رجع الى الديانة ألفي كأنه غير منتاد . وإنما يتبع ما اعتاد . ويلقن الطفل الناشئ ما سمعه من الأكابر ، فيلبث معه في الدهر الغابر . والذين يسكنون الصوامع ، والمتعبدون في الجوامع ، يأخذون ما هم عليه ، كنقل الخبر عن المخبر ، لا يميزون الصدق من الكذب » . الى آخر كلامه ، وهو كلام مفيد ، قلما يظفر به الانسان في غير هذا الكتاب (ج) . انظر اللزوميات ٥ ص ٣٣٢ـ٣٣ ، ورسالة الغفران تحقيق بنت الشاطئ ط ١ ص ٣٩٩ - ٤٠٣ .

وَطِفلُ الفَارِسِيِّ لَهُ وُلاَةٌ بأفعَالِ التَمَجُّسِ دَرَّبُوهُ

. . . .

وَجَاءتنَا شَرَائِعُ كُلِّ قَومٍ عَلى آثَارِ شَيءٍ رَتَّبُوهُ
وَغَيَّرَ بَعضُهُمْ أقوالَ بَعضٍ وَأبطَلَتِ النُّهَى مَا أوجَبُوهُ

. . . .

إذَا أصحَابُ دِينٍ أحكَمُوهُ أذَالُوا مَا سِوَاهُ وَعَيَّبُوهُ
وَقَدْ شَهِدَ النَّصَارَى أنَّ عِيسَى تَوَخَّتْهُ اليَهُودُ لِيَصلِبُوهُ
وَمَا أبِهُوا وَقَدْ جَعَلُوهُ رَبّاً لِئَلاَّ يَنقُصُوهُ وَيَجْدِبُوهُ(١)
تَمُجُّ قُلُوبُهُمْ مَا أُودِعَتهُ لِسُوءٍ في الغَرَائِزِ أُشرِبُوهُ

. . . .

وَنُبِّيءَ في بَنِي يَعقُوبَ مُوسَى بِشَرْعٍ مَا تَخَلَّصَ مُتعِبُوهُ

فإن قوله :

وَجَاءتنَا شَرَائِعُ . . . عَلَى آثَارِ شَيءٍ رَتَّبُوهُ

إذا أريد به أن كل قوم يرتبون شريعة لأنفسهم فهذا باطل وافتراء ، أما إذا أريد به أن أصحاب كل شريعة رتبوها على وفق ما أرادوا ، ثم حملوا الناس على ذلك بعد وفاة صاحبها ، فهذا لاشبهة فيه بالنسبة لأكثر الشرائع القديمة . وبقية الأبيات لاشيء فيها .

---

(١) الجدب : العيب .

ومنها قوله :

وَلاَ تَحْسَبْ مَقَالَ الرُّسْلِ حَقًّا   وَلَكِنْ قَوْلُ زُورٍ سَطَّرُوهُ
وَكَانَ النَّاسُ في عَيْشٍ رَغِيدٍ   فَجَاؤُوا بِالْمُحَالِ فَكَدَّرُوهُ

وهذان البيتان لم يردا في شيء من كتبه التي رأيناها وإنما رواهما ياقوت في (إرشاد الأريب ج ١ ص ١٩٣) وإذا صحت نسبتها إليه ، فلا يمكن تأويلها تأويلا صالحاً ، ونسبة الباطل والزور إلى الرسل كفر بلا ارتياب .

ومنها قوله في اللزوم :

قَدْ تَرَامَتْ إلَى الفَسَادِ البَرَايَا   واسْتَوَتْ في الضَّلاَلَةِ الأدْيَانُ(١)

فإن أراد أن الأديان كلها ضالة ، كما يدل عليه ظاهر اللفظ ، فهو من جنس البيتين السابقين موجب للكفر ، وإن أراد أن أصحاب الأديان كلها خالفوهـا ، وفسقوا عن أمر ربهم ؛ فكلهم متساوون في ذلك . فلكلامه وجه ، لأن المتأمل قلما يجد أصحاب دين كلهم متمسكون بكل ما أمرهم به دينهم في عصر المعري والذي قبله وبعده . فيكون المراد بالأديان أصحابها .

ومنها قوله :

يُهَوِّدُ بَاغِي الحَاجِ واللَّيْلُ مُسْلِمٌ   عَلَى كُفْرِهِ والأرْضُ في زِيِّ رَاهِبِ(٢)
تَأَلَّفَ غَيُّ النَّاسِ شَرْقاً وَمَغْرِباً   تَكَامَلَ فِيهِمْ باخْتِلاَفِ المَذَاهِبِ

---

(١) اللزوميات ٥ ص ٢٦٢ .

(٢) اللزوميات ٥ ص ٤٧ . ويهود : من التهويد وهو مشي ضعيف . والليل مسلم : من قولك : أسلم من الشيء إذا تركه وهنا لنز . والكفر ها هنا : ستره الأشياء .

ورّى بالبيت الأول عن اليهود ، والبغاة ، والمسلمين ، والكفار ، والرهبان . واختلاف هؤلاء بالمذاهب كان سبباً في تكامل الغي في البشر . ولم يقل : إن كل مذهب منها سبب للغي أو مكمل له ؛ وإنما نشأ ذلك من الاختلاف . فلا سبيل إلى تكفيره بهذا البيت .

ومنها قوله :

إذَا رَجعَ الحَصِيفُ إلى حِجَاهُ ... تَهَاوَنَ بِالمَذَاهِبِ وازْدَرَاهَا[1]
فَخُذْ مِنها بِمَا أدّاهُ لُبٌّ ... وَلاَ يَغمِسنْكَ جَهْلٌ في صرَاهَا
وَهَتْ أدْيانُهُمْ مِنْ كُلّ وَجْهٍ ... فَهَلْ عَقْلٌ يُشَدُّ بِهَا عُرَاهَا

المذاهب : جمع مذهب ، وقد جاء لمعانٍ ، منها : المعتقد الذي يذهب إليه ، سواء كان في الدين ، كما يقال : مذهب الشافعي ، والأشعري ، والمعتزلة . أم في غير الدين كما يقال : مذهب البصريين ، ومذهب الكوفيين ومذهب الخليل . ومنها : الطريقة ، يقال : ذهب فلان مذهباً حسناً ، أي طريقة حسنة . ومنها : الرأي ، يقال : ذهب في كذا مذهباً ، أي رأى رأياً . وأحياناً يكون صالحاً لأكثر من معنى واحد .

وقد جاء في كلام أبي العلاء بمعنى المعتقد كقوله :

زَكُّوا عَلى مَذْهَبِ الكُوفيِّ أرْضَكُمُ
وَخَالِفُوا رَأْيَهُ في مُنْكَرٍ طَبِخَا[2]

---

(١) اللزوميات ﻫ ص ٣٣٨ ورواية البيت الثالث فيها :

« . . . فهل عقل يشد به عراها » . والصرى : ما اجتمع من الماء واللبن ،

(٢) أراد بالكوفي أبا حنيفة رحمه الله ، ومذهبه أن الزكاة تجب في كل ما تنبته الأرض ما عدا الحشيش والحطب والقصب . انظر اللزوميات ﻫ ص ٨٧ .

وقوله :

وإنْ سألوا عن مذهبي فهو خشيةٌ ... مِنَ اللهِ لاَ طوقاً أُبتُ ولاَ جبرا[١]

وبمعنى الطريقة كقوله :

مِنْ مذهبي أنْ لا أشدَّ بفضّةٍ ... قدحي ولاأُصغي لشربٍ مُعوّجِ[٢]

وقوله :

وَلِي مذهبٌ في هجريَ الإنسَ نافعٌ

إذَا القومُ خاضُوا في اختيارِ المذاهبِ[٣]

مع احتمال أن يكون بمعنى الرأي بضرب من التأويل .

وبمعنى الرأي كقوله :

ومذهبي في البرايا كونُهُمْ شيعاً ... كالثلجِ والقارِ منهُ الجونُ والحلكُ[٤]

ويحتمل أن يكون بمعنى المعتقد .

ولا أذكر أني رأيت المذهب بمعنى الدين أو الشريعة في كلامه ، ولا في كلام غيره من العلماء والفصحاء ؛ وإنما يطلقونه على مايذهب إليه رجل تكون له منزلة في علم الدين ، ثم يتابعه في أقواله وآرائه جماعة ، فيقال : مذهب المعتزلة ، ومذهب الحنفية ، والمالكية .. ومذهب داود ، والأوزاعي . . وهكذا .

وقد ذكر أبو العلاء أن الناس يرتجون أن يقوم إمام . ثم قال :

(١) انظر ما سبق ص ١٣٢٠ .

(٢) اللزوميات ﻫ ص ٧٨ .وأصغي : أميل . ومعوج : يقال إناء معوج أي ركب فيه العاج .

(٣) اللزوميات ﻫ ص٤٦٠ .

(٤) اللزوميات ﻫ ص ١٨٣ ، والجون : الأبيض ، والحلك : السواد .

إنما هـذِهِ المَذَاهِبُ أسْبَا بٌ لِجَذْبِ الدُّنْيَا إلى الرُّؤَسَاء [1]

ثم قال :

كَالذي قَامَ يَجْمَعُ الزِّنْجَ بِالبَصْـرَةِ والقِرْمِطِيِّ بالاحْسَاء

ولم يتقدم في هذه القصيدة ذكر لمذهب إلا ماذكره من قران المشتري زحلا ، فإن أراد بالمذاهب هذا فليس فيه مايوجب التكفير ولكنه بعيد .

وإذا أراد بالمذاهب ماذكرناه أخيراً ، فليس في الأبيات مايكفره . لأن الإنسان يرى عند كل أهل مذهب شيئاً لايرتضيه العقل . ولذلك حض على أن يأخذ منهـا بما أدّاه إليه اللب ، ويجوز أن نحمل عليه قوله السابق .

. . . . تَكَامَلَ فِيهِمْ باخْتِلافِ المَذَاهِبِ

فلا يكون فيه شيء .

وهذه الأبيات من قصيدة عدد أبياتها (٤٣) بيتاً [2] . وقد روى أبياتاً

---

(١) اللزوميات ص ٢٦ .

(٢) رأينا أن نثبت فيا يلي اللزومية كاملة حسب ترتيبها في اللزوميات ط (عزيز زند) ٢ / ٤١٥ ـ ١٨ وهي التي اعتمدها المؤلف رحمه الله ، وفي ط بومبي في الهند ص ٣٣٨ ـ ٩ وليس ثمة اختلاف بين الطبعتين وذلك لنتبين ماانتقه بعض الرواة .

١ قران المشتري زحلاً يرجى لإيقاظ النواظر من كراها

٢ وهيهات البرية في ضلال وقد فطن اللبيب لما اعتراها

٣ وكم رأت الفراقد والثريا قبائل ثم أضحت في ثراها

٤ تقضى الناس جيلاً بعد جيل وخلفت النجوم كما تراها

٥ تراه الوحش وهي مسومات بربات المعاطف من قراها

منها جماعة كثيرون . واختار كل فريق جملة منها ، وقدم بعض الأبيات على بعض ، وحرّف بعض الكلمات ؛ ليتكون من مجمـــوع ذلك صورة

---

٦ وما ظلم الشبر ولا قراه ظليم المقفرات ولا قراهـا
٧ إذا رجع الحصيف لل حجاه تهـاون بالمذاهب وازدراهـا
٨ فخـذ منهـا بمـا أداه لب ولا يغمسك جهل في صراهـا
٩ وهت أديانهم من كل وجه فهل عقل يشد به عراها
١٠ أتعلم جارسات في جبـال أراها قبلهـا سلف أراهـا
١١ بما فيه المسافر من فساد توارى في الجوانح أو وراهـا
١٢ قضاه من إلهك مستمر غـدت منه المعاطس في براها
١٣ يحط إلى الفوادر كلّ حين منيات الفوادر من ذراهـا
١٤ وما تبقى الأراقم في حماها ولا الأسـد الضراغم في شراهـــا
١٥ تقدم صاحب التوراة موسى وأوقع في الخسار من اقتراهـا
١٦ وقال رجاله وحي أتاه وقال الظالمون بل افتراها
١٧ اعبريٌّ تهوك في حديث فباع المشكلات كما اشتراها
١٨ وغايات بسطن إلى أمور جراها الآخرون كمن جراها
١٩ ارى أم القرى خصت بهجر وسارت غل مكة عن قراها
٢٠ وكم سرت الرفاق الى صلاح فارست العدائد في سراها
٢١ يوافون البنية كل عام ليلقوا المخزيات على قراها
٢٢ ضيوف ما قراها الله عفواً ولكن من نوائبها قراها
٢٣ وما سيري إلى أحجار بيت كؤوس الخمر تشرب في ذَرَاها
٢٤ ولم تزل الأباطح منذ كانت يدنس من فواجرها براها
٢٥ وبين يدي جميع الناس خطب له نسيت مولة تغرّاها
٢٦ مهالك إن أجزت الحرق منها فأنت سليكها أو شنفراها
٢٧ بعث كرة كأن الوقت لاه بها عز المهيمن إذ كراها
٢٨ تبارك من أدار بنات نعش ومن برأ النائم في حراها
٢٩ تمارى القوم في الدعوى وهبوا الى الدنيا لمكلهم مراها

مشوهة توجب الطعن في عقيدة أبي العلاء . فذكر في (المنتظم)[١] البيت « ٢ و ١٥ و ١٦ و ٢٣ و ٧ » على هذا الوجه .

وَهَيهاتَ البَرِيَّةُ في ضَلالٍ وَقَدْ نَظَرَ اللَّبِيبُ لِمَا اعْتَرَاهَا

. . . .

تَقَدَّمَ صَاحِبُ التَّوْرَاةِ مُوسَى وَأَوْقَعَ في الخَسَارِ مَنِ افْتَرَاهَا

. . . .

فَقَالَ رِجَالُهُ وَحْيٌ أَتَاهُ وَقَالَ النَّاظِرُونَ بَلِ افْتَرَاهَا

. . . .

---

٣٠ وكم جمع النفائس رب مال فلما جد مرتحلاً ذراها

٣١ تظل عيون هذا الدهر خزراً ضد الماشيات وخوزراها

٣٢ كتائب منصراها الليل يتلى بصبح كيف يؤمن يمن سراها

٣٣ وأدواء ثوى بقراط ميتاً وجالينوس فاد وما دراها

٣٤ وما اهلك الزمان بغير جرم طوائفه تطيع من ادّراها

٣٥ أمنهي الدار ملك لابن أرض بها رام المقام أم اكتراها

٣٦ على كره تيممها فألقى بها رحلاً ومن سخط شراها

٣٧ وما برح الوجيف على المطايا وتلك نفوسنا حتى براها

٣٨ إذا ما حرة هربت وسيفت فمن ساف الإماء ومن هراها

٣٩ ونحن كأننا عمل بجدب عراة لا تمكن من عراها

٤٠ شبابك مثل جنح الليل فانظر أعاد الى الشبيبة من سراها

٤١ وما نال المجين من المعالي لذا خطب الكريمة واستراها

٤٢ أترهب هذه الغبراء ناراً تطبق مثل ما تهوى سراها

٤٣ فإن الله غير ملوم فعل إذا أورى الوقود على وراها

(١) انظر تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٢٢ عن المنتظم في أخبار الأمم لابن الجوزي .

وَمَا حَجِّي إلى أحجَارِ بَيتٍ   كُؤوسُ الخَمرِ تُشرَبُ في ذرَاهَا

. . . .

إذَا رَجَعَ الحَلِيمُ إلى حِجَاهُ   تَهاوَنَ بالمَذَاهِبِ وَازدَرَاهَا

وذكـر القفطي [١] البيت « ١ و ٢ و ٤ و ١٥ و ١٦ و ٢٣ و ٧ » وفي روايته : « وقد فَطِنَ اللّبيبُ » ، « في الخَسَارِ مَنِ افتَرَاها » « وقال الآخرون بل افتراها » . « إذا رَجَعَ الحكيمُ » .

وذكر كل من ياقوت ، وصاحب (مرآة الزمان) والذهبي ، وابن حجر ، والعيني [٢] ، وغيرهم ابياتاً منها . وقد اختلفوا في أعيان الأبيات وأعدادها ؛ كما اختلفوا في روايتها . فمنهم من روى : « البريّةَ في ظِلالٍ .. » « وبالخَسَارِ مَنِ افتَرَاهَا » و « قَالَ الناظرونَ » و « رجعَ الحَلِيمُ ، والحكيم » « تَهاوَنَ بالشّرائع » وغير ذلك من الاختلاف .

والذي يهم من اختيار هذه الأبيات من هذه القصيدة ، وترتيبها على وفق ما أراده كل واحد منهم ، أنهم يريدون تكفير أبي العلاء بما فيها ؛ وهو يكاد ينحصر في قوله : « البرية في ضَلال » وقوله : « وأوقَعَ في الخَسَارِ مَن افتَرَاها » . وقوله : « وما حَجّي إلى أحجارٍ .. » وقوله : « إذَا رَجَعَ الحكيمُ .. » .

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥٧ عن انباه الرواة على أنباه النحاة للقفطي .

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء الصفحات ١١٤ ، ١٤٦ ، ١٩٣ ، ٣١٧ ، ٣٢٣ ، عن إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب لياقوت ، ومرآة الزمان لسبط ابن الجوزي ، وتاريخ الإسلام للذهبي ، ولسان الميزان لابن حجر ، وعقد الجمان للعيني .

وإذا تأمل المنصف هذه القصيدة على ترتيبها في (لزوم ما لا يلزم) لا يجد فيها ما يؤاخذ به أبو العلاء ، لأنه يقول في الأبيات الأربعة الأولى منها : إن قران المشتري زحلا يرجى منه إيقاظ النـــاس من غفلتهم في دنياهم . وهذا أمر بعيد لأنهم في ضلال ، وقد فطن اللبيب لما أصابهم . وطالما شاهد الفرقدان والثريا أجيالاً انقضى بعضها إثر بعض ، وغيب في الثرى ، والنجوم باقية كما تراها .

وليس فيها شيء يوجب الكفر ، لأنه لا يريد الضلال في الدين ، إذ لا ذكر للدين في كلامه ، ولا قرينة في الكلام تدل على حصر الضلال في الدين ، بل الأصل فيه الغَيْبَة . وقد جاء لمعانٍ : نقيض الهدى والرشاد ، والنسيان ، والضياع ، وغيرها . ويقال الضلال لكل عدول عن الحق عمداً كان أو سهواً ، يسيراً كان أو كثيراً . ولذا صح أن يستعمل لفظه فيمن يكون منه خطأ مّا . ولذلك نسب إلى الأنبياء ، وإلى الكفار ، وإن كان بين الضلالين بون بعيد ، ألا ترى قول الله تعالى في النبي ﷺ : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى ﴾[١] أي غير مهتد لما سبق اليك من النبوة — في قول — . وقال في يعقوب عليه السلام : ﴿ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ القَدِيمِ ﴾[٢] وقال أولاده : ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ ﴾[٣] وقال عن موسى عليه السلام : ﴿ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴾[٤] تنبيها على أن ذلك سهو منه . فقوله : « البرية في ضلال » يجوز أن يكون معناه في نسيان وغفلة ، ويجوز أن يكون معناه في عدول عن طريق

---

(١) سورة الضحى الآية ٧ .

(٢) « يوسف « ٩٥ .

(٣) « يوسف « ٨ .

(٤) « الشعراء « ٢٠ .

الحق ؛ وكلاهما لا يوجب التكفير . لأن اللبيب فطن لما اعتراها فليس في ضلال ؛ فيكون المراد بعض البرية لا كلها .

وإذا تأملنا وجدنا أن المذاهب إسلامية وغير إسلامية ، وأكثر المذاهب الإسلامية متفقه في الأصول مختلفة في بعض الفروع . والاختلاف في الفروع لا يوجب الكفر إذا كان عن دليل ، بل يسوغ فيه الاجتهاد . وأبو العلاء لم ينكر من العقائد أمراً معلوماً من الدين بالضرورة ؛ وإنما أنكر الاختلاف في القسم الذي يخالف العقل من الفروع . وهذا لا يوجب الكفر . وكلام ابن الهمام في (المسايرة) يدل على أن ما كان من الأصول المعلومة من الدين ضرورة يكفر المخالف فيه بالاتفاق . كالقول بقدم العالم ، ونفي حشر الأجساد ؛ وما لم يكن من الأصول المعلومة من الدين ضرورة فقد اختلف فيـه ؛ فذهب جماعة إلى تكفير المخالف فيه . وظاهر قول الشافعي وأبي حنيفة أنه لا يكفر أحداً منهم . وقال للكمال ابن أبي شريف في (المسامرة) : « وهذا هو المنقول عن جمهور المتكلمين والفقهاء » .

وأما قوله : « وأوقعَ بالخَسارِ مَن افترانا ... » فحكاية حال واقعة ؛ لأن قوم موسى لم يؤمنوا كلهم بالتوراة كلها ، وإنما تابعه فريق ، وتمرد فريق آخر . والذين تابعوه حرّفوا وبدلوا على حسب أهوائهم وأطماعهم ، فكانوا في خسار . والذين خالفوه قالوا : إنها من عند موسى وليست من عند الله . وليس في نقل كلام الفريقين أو تصوير حالتيهما ما يوجب التكفير .

وأما قوله : « وما حَجّي إلى أحجارِ بَيْتٍ ... » فهو بيان لحالة أهل مكة في اقترافهم المنكرات ، واستباحتهم ما لا يحل ، لاكتساب الأموال في بيت الله الحرام . وهو بيان وتصوير لحالة واقعة في القديم والحديث أيضاً . أما كونه لم يحج فلأنه لا يجب عليه الحج .

ويتبين بما ذكرنا أن هؤلاء النقلة قدموا قوله : « وما حَجي إلى أحجار بيت » وغيره من الأبيات على قوله : « إذا رجع الحصيف إلى حِجَاه » . وخالفوا ترتيب الأبيات ليوهموا أن المراد بالمذاهب مذاهب المسلمين ، وأنه يزدري الحج والبيت وغيرهما . وهذا منكر في الدين ومورث للشبهة في كل ما ينقلونه .

وقد وقع في كلامه مايسهل تأويله ، أو الحكم بأنه لايوجب تكفيراً ولا زندقة ، ومنه قوله :

لَوْ يَتْرُكُونَ وَهَذا اللّبُّ مَا قَبِلوا ... مَيْناً يُقالُ وَلَكِنْ شَالتِ الجِذَمُ(١)

أَتوهُمُ بأَحادِيثٍ وَقِيلَ لَهُمْ ... قُولوا صَدَقْنا وإلاّ أُرْوِيَ الخِذَمُ(٢)

وَأَرْهَبتْهمْ جُفُونٌ مِلْؤُهَا نُوَبٌ ... وَأَرْغَبتْهمْ جِفَانٌ لِلنَّدَى رُذُمُ(٣)

وهو لم يعين في هـذه الأبيات القائلين ، ولم يبين القول لهم . فلا يمكن الحكم عليه بشيء قبل معرفة الآتي والقائل والمقول له .

ومنه قوله :

أَتوْكُمْ بإِقْبَالِهِمْ والحُسَامِ ... فَشَدَّ بِهِ زَاعِمٌ مَا زَعَمْ(٤)

تَلَوْا بَاطِلاً وَجَلَوْا صَارِماً ... وَقَالُوا صَدَقْنَا فَقُلْتُمْ نَعَمْ

---

(١) الجذم : جمع جذمة ، السوط (ج) اللزوميات هـ ص ٢٣٣ .

(٢) الخذم . السيف القاطع . (ج)

(٣) رذم : جمع رذوم أي ملأى . (ج) والجفون : مفردها جفن وهو غمد السيف .

(٤) اللزوميات هـ ص ٢٥٨ .

أَفِيقُــوا فَإِنَّ أَحَادِيثَهُمْ ضِعَــافُ القَوَاعِدِ والْمُدَّعَمْ
زَخَارِفُ مَا ثَبَتَتْ فِي العُقُو لِ عَمَّى عَلَيْكُم بِهِنَّ الْمُعَمّ

فهذه الأبيات لايصح أن يحكم عليه بسببها بكفر ولا غيره ، لأنه لم يبين الآتي ، ولا المأتي ، ولا المأتي به .

ومنه الأبيات السابقة التي يقول فيها :

وَقَوْمٍ أَتَوْا مِنْ أَقَاصِي البِلادِ لِرَمْيِ الجِمَارِ وَلَثْمِ الحَجَرْ[1]

وهذه الأبيات لم ترد في كتبه التي وصلت إلينا ؛ وإنما أوردها أبو الفداء في (تاريخه ج ٢ ص ١٧٦) مثالاً من شعر أبي العلاء المؤذن بفساد عقيدته . ولا يبعد أن تكون مقولة على لسان المعري . وعلى تقدير أنها له فليس فيها مايقدح في الإسلام لأن رمي الجمار ولثم الحجر مما جاء به الإسلام . وقوله : « فواعجبا .. » يصح تأويله وحمله على أنه تعجب من مقالات أولئك الفرق . ولم يذكر مقالة للمسلمين ، وإنما ذكر عملا لهم . والحكم بالتكفير إنما يكون لإنكار أمر معلوم من الدين بالضرورة ، بشرط أن لايكون الكلام محتملا لوجه آخر لايوجب التكفير .

---

(١) الأبيات :

عجبت لكسرى وأشياعه وغسل الوجوه ببول البقر
وقول النصارى إله يضام ويظلم حياً ولا ينصر
وقول اليهود إله يحب رسيس الدماء وريح القتر
. . . .
فواعجباً من ضلالاتهم أيعمى عن الحق كل البشر

انظر تعريف القدماء بأبي العلاء ص ١٨٧ عن المختصر في أخبار البشر .

وأورد أبو الفداء لأبي العلاء من شعره الدال على فساد عقيدته قوله :

زَعَمُوا أنني سَأُبعَثُ حَيًّا بَعْدَ طُولِ المُقَامِ في الأرْمَاسِ[١]

وقد تقدمت هذه الأبيات وهي ليست في (لزوم مالا يلزم) ، ولم نرها في شيء من كتبه ، ولا رأينا من ذكرها غير أبي الفداء . وأظن أنها محرفة عن قوله في (لزوم مالا يلزم) :

زَعَمُوا أنَّني سَأرْجِعُ شَرْخاً كَيفَ لي كَيفَ لي وَذَاكَ الـتَّمَاسي[٢]

وَأزُورُ الجِنَانَ أُخبَرُ فِيهَا بَعْدَ طُولِ الهُمُودِ في الأرْمَاسِ

وَتَزُولُ العُيُونُ عَنِّي إذَا خُـــمَ بِعَيْنِ الحَيَـاةِ ثُمَّ انْغِمَاسِي

أيُّما طَارِقٍ أصَابَكَ يَا طَا رِقُ حَتى مَسَاكَ لِلْغَيِّ مَاسِ

ضَاعَ دِينُ الدَّاعِي فَرُحتَ تَرُومُ الدْ دِينَ عِنْدَ القِسِّيسِ والشَّمَّاسِ

أتَهُدُّ الإنجِيلَ في يوم كَنْسٍ بَعْدَ حِفْظِ الأسْبَاعِ والأخْمَاسِ

هَاهُنَا مَا تُرِيدُ قَدْ ظَهَرَ الأمْــــرُ الذي كَانَ قَبْلُ في الدِّيمَاسِ

وهذه الأبيات ليس فيها مايوجب الكفر أو الإلحاد ، لأنه يؤنب فيها رجلاً اسمه طارق تنصر من بعد ثلاثين حجة ، وطلب الدين عند القس

---

(١) تمام الأبيات :

وأجوز الجنان أرتع فيها بين حور وولدة أكياس

أي شيء أصاب عقلك يامسكين حتى رميت بالوسواس

تعريف القدماء بأبي العلاء ص ١٨٧ عن المختصر في أخبار البشر .

(٢) اللزوميات ٥ ص ٣٢٥ .

والشماس ، بعد ما كان يحفظ الأسباع والأخماس من القرآن الكريم . وقد ذكر قصته في (لزوم مالا يلزم ج ٢ ص ١٣٤)[١] بقصيدة أولها :

أَلاَ هَلْ أَتى قَبْرَ الفَقِيرَةِ طَارِقٌ يُخَبِّرُهَا بالغَيْبِ عَنْ فِعْلِ طَارِقِ

والقصيدة تدل على أن طارقاً تنصر ، وأبو العلاء يؤنبه على عمله ويتهكم به .

وأما كلمة « زعموا » في الأبيات السينية فلا تفيد معنى سيئا ، لأن « زعم » تكون بمعنى « قال » وبمعنى « اعتقد » وغيرهما ، ودليلنا على أنه لاينكر رجوعه قوله : « وذاك التمامي » وقوله قبله :

يقدرُ اللهُ أنْ تَرَى كَفَرطَاب حَوْلَهَا العَاصي أو المِيماسِ

وإذا استقرينا أقوال أبي العلاء في هذا الغرض ، وأقوال الذين حكموا عليه بالكفر أو الزندقة تبين لنا أنه ينكر كل مايخالف العقل ؛ وأن كثيراً من العلماء كان يكفره بالشبهة أو البيت المحرف . ومنهم من يكفره تقليداً لغيره من غير أن يرى في كلامه مايوجب تكفيره .

المزاعم :

وهناك أمور يعتقدها الناس كلهم أو بعضهم من ملة واحدة أو ملل مختلفة . وقد عدها أبو العلاء من المزاعم ، وبين رأيه في طائفة منها ، وتلقى شيئاً منها بالسخرية ، من ذلك قوله :

وَقَدْ كَذَبُوا حَتّى عَلى الشَّمْسِ أَنَّها تُهانُ إذا حَانَ الشُّرُوقُ وَتُضْرَبُ[٢]

---

(١) اللزوميات ط عزيز زند وانظر اللزوميات هـ ص ٣٠٩ .

(٢) اللزوميات هـ ص ٣١ .

وقوله :

زَعَمُوا رِجَالاً كَالنَّخِيلِ جُسُومُهُمْ ... وَمَعَاشِرٌ أَمْثَالُهُمْ أَشْبَارُ (١)

إِنْ يَصْغُرُوا أَوْ يَعْظُمُوا فَبِقُدْرَةٍ ... وَلِرَبِّنَا الإِعْظَامُ وَالإِكْبَارُ

لعل هؤلاء يأجوج ومأجوج ، فقد قيل : هم ثلاثة أصناف : صنف منهم أمثال الأرز بالشام ، طوله عشرون ومائة ذراع في السماء ، وصنف منهم عرضه وطوله سواء ، عشرون ومائة ذراع ، وصنف منهم يفترش أحدهم أذنه ويلتحف الأخرى . وقيل : منهم من طوله شبر . وفيهم أقوال كثيرة منقولة عن وهب بن منبه وأمثاله ومنها طائفة مذكورة في (ص ٢٤٤ من الجزء ٣ من تفسير الخازن) وفي (ص ٤٩ من الجزء الثالث من حاشية الجمل على الجلالين) .

وقوله :

وَقَدِ ادَّعَى مَنْ لَيْسَ يَثْبُتُ قَوْلُهُ ... عِظَمَ الجُسُومِ وَبَسْطَةَ الأَعْمَارِ (٢)

مَا كَابِرٌ إِلاَّ كَآخَرَ غَابِرٍ ... وَالحَقُّ يُعْلَمُ وَجْهُهُ بِأَمَارِ

وقوله :

وَادَّعَوْا لِلمُعَمَّرِينَ أُمُوراً ... لَسْتُ أَدْرِي مَا هُنَّ فِي المَشْهُورِ (٣)

كُلَّمَا لاَحَ لِلعُيُونِ هِلاَلٌ ... كَانَ حَوْلاً لَدَيْهِمُ فِي الدُّهُورِ

---

(١) اللزوميات هـ ص ١٢٩ .

(٢) « « ص ١٦٠ .

(٣) « « ص ١٦٦ .

أتُراهُمْ فيما تَقضَّى مِنَ الأيـــامِ عَدُّوا سنِيَّهِمْ بالشُّهورِ

. . . .

هكَذا يَنبَغِي وإلاَّ فإنَّ الـــعَقْلَ يَثنِي في حالَةِ المَبهُورِ

وذكر بعض العلماء أن يأجوج أمة ، ومأجوج أمة ، وكل أمة أربعة آلاف أمة ، لايموت الرجل منهم حتى ينظر ألف ذكر من صلبه ، كلهم قد حمل السلاح . لكن قالوا : إن أجسامهم صغيرة . وكذلك نقل الناس من أخبار العمالقة ، أنهم كانوا عظام الأجسام ، طوال الأعمار . وذكروا من المعمرين أسماء كثير من الأنبياء ؛ وأسماء جماعة من العرب ، منهم زهير بن جناب عاش ٢٥٠ سنة ، وقس بن ساعدة عاش ٧٠٠ سنة وأبو الطمحان القيني ٢٠٠ [سنة] وعامر بن الظرب ٣٠٠ [سنة] . وأبو العلاء لايقبل شيئاً من هذا النوع . ومنه قوله :

تَقولُ الغُوَاةُ الخِضرُ حيٌّ عَلَيهِمُ عَفاءٌ. نَعَمْ لَيلٌ مِنَ الفِتَنِ اخْضَرَّا[1]

ولَوْصَدَقُوا مَا انفَكَّ في شرِّ حالَةٍ يُعاني بِها الأسفارَ أشعَثَ مُغبَرَّا

الخضر : اختلف في اسمه ، فقيل : « بَلْيا » وقيل : « خضرون » وقيل غير ذلك ، وكنيته : أبو العباس . قيل : إنه نبي أو رسول أو ولي أو ملك . ورجح جماعة الأوّل . وقيل : إنه حي باق إلى يوم القيامة وقيل : إنه توفي . وتفصيل ذلك في (شرحي القسطلاني والأنصاري على البخاري ج ١ ص ٣٢٤) وفي (حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ٣٧) وفي (شرح العيني على البخاري ج ١ ص ٤٤٥) وأبو العلاء ذهب مذهب القائلين بوفاته .

---

(١) اللزوميات هـ ص ١٣٧ .

وقد قدمنا قوله في القمر ، وما يزعمه الزاعمون فيه :

. . . . حَتَّى لَظَنُّوا عَجُوزاً تَحْلِبُ القَمَرا[١]

ومنه قوله :

زَعَمَ الفَلاَسِفَةُ الذينَ تَنَطَّسُوا أنَّ المَنِيَّةَ كَسْرُها لاَ يُجبرُ[٢]
قَالوا وَآدَمُ مِثْلُ أوْبَرَ والوَرَى كَبَنَاتِهِ جَهِلَ امْرُؤٌ مَا أوْبَرُ

وهو يخالفهم في ذلك ، لأنه يقول بعد هذا :

كُلُّ الذي تَحْكُونَ عَنْ مَوْلاكُمُ كَذِبٌ أتاكُمْ عَنْ يَهودٍ يُحْبَرُ
رَامَتْ بِهِ الأحْبَارُ نَيْلَ مَعِيشَةٍ في الدَّهْرِ والعَمَلُ القَبِيحُ يُتَبَّرُ

ومنه قوله :

غَسَلَ المَلِيكُ بِلادَهُ مِنْ أهْلِهَا بِالماءِ إذْ جَاؤُا بِسُوءِ شَنَارِ[٣]
وَيُقَالُ إنَّ اللهَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ يَوْماً يُطَهِّرُ أرْضَهُ بِالنَّارِ
كَمْ مُسْلِمٍ عَبَدَ الهَوَى فَوَجَدْتَهُ فِيمَا يُحِلُّ كَعَاقِدِ الزُّنَّارِ

ولعله يريد بالماء الذي غسل المليكُ به بلاده طوفان نوح ، وبالنار النار التي تخرج من اليمن أو الحجاز ، فقد جاء في (صحيح البخاري) عن النبي ﷺ أنه قال : « أول أشراط الساعة نار تحشر الناس من المشرق

---

(١) عجز بيت صدره : « لقد صدق الناس ما الألباب تبطله ... » انظر ما سبق ١٣٠٥.
(٢) اللزوميات « ص ١٢٧ .
(٣) « « ص ١٦٢ .

إلى المغرب[١] » . وجاء فيه أيضاً : « لاتقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببُصْرى » . وقد خرجت نار بالحجاز شرقي المدينة سنة ٦٥٤ هـ رؤيت من مكة ومن جبال بصرى . وقد ذكر العيني تفصيلها في (شرحه على البخاري ج ١١ ص ٣٦٦) وليس في هذه الأبيات مايوجب مؤاخذة ولا تكفيراً .

ومنه قوله في الإمام المنتظر :

رَجَوْا إمَاماً بِحَقٍّ أنْ يَقومَ لَهُمْ   هَيهَاتَ لاَ بَلْ حُلُولٌ ثُمَّ مُرْتَحَلُ[٢]
وَلَنْ يَزالُوا بِشرٍّ في زَمَانِهِمُ   مَا دَامَ فَوْقَهُمُ المِرِّيخُ أوْ زُحَلُ

وقوله :

أرَادُوا الشَّرَّ وانْتَظَرُوا إمَاماً   يَقُومُ بِطيٍّ مَا نَشَرَ النَّبِيءُ[٣]
فَإنْ يَكُ مَا يُؤمِّلُهُ رِجَالٌ   فَقَدْ يُبْدي لَكَ العَجَبَ الخَبِيءُ

وقوله :

يَرْتَجي النَّاسُ أنْ يَقُومَ إمَامٌ   نَاطِقٌ في الكَتِيبَةِ الخَرْسَاء[٤]
كَذَبَ الظَّنُّ لاَ إمَامَ سِوَى العَقْلِ   مُشيرٌ في صُبْحِهِ والمَسَاء

---

(١) قال ابن المنير : يريد انها تخرج من اليمن حتى تؤديهم الى بيت المقدس (ج) .
(٢) اللزوميات هـ ص ١٩٦ .
(٣) « « ص ٣٤٣ .
(٤) « « ص ٢٦ . وفيها : « ... العقل مشيراً ... » .
والكتيبة الخرساء : التي لا يسمع لها صوت ، وقال الأصمعي : قيل لها خرساء لقلة كلامهم .

يُقالُ أنْ سوفَ يَأتي بعدَنا عُصُرٌ   يُرضى فتَضبِطُ أُسدَ الغابَةِ الخُطُمُ[١]
هَيْهاتَ هَيْهاتَ هذا مَنْطِقٌ كَذِبٌ   في كُلِّ عَصْرٍ زَمانٍ كائِنٌ قَطَمُ

ونحو ذلك من الأبيات التي تتعلق بالإمام المنتظر ؛ وهو لايقر بذلك .

أما الحاكم بأمر الله[٢] فقد تقدم قوله فيه :

مَضى قَيْـلُ مِصْرَ إلى رَبِّهِ   وَخَلّى السِّياسَةَ لِلْخائِلِ[٣]

ومثله قوله فيه :

يَعودُ فَقيداً المُلْكِ إنْ عادَ جَدُّهُ   مَعَدٌّ إليكُمْ أوْ أبوهُ نِزارُ[٤]
وَما صَحَّ للمَرْءِ المُحَصِّلِ أنَّهُ   بِكوفانَ قَبْرٌ لِلإمامِ يُزارُ

ومنه قوله في التشاؤم من العطاس :

تَشاءَمَ بالعَواطِسِ أهْلُ جَهْلٍ   وأهْوِنْ إنْ خَفَتْنَ وإنْ عَطَسْنَه[٥]

---

(١) اللزوميات هـ ص ٢٣٤ . والخطم : مفردها خطام وهو حبل يشد على أنف البعير . والقطم : شهوة اللحم .

(٢) هو أبو علي منصور بن نزار (العزيز بالله) ابن معد (المعز لدين الله) ابن اسماعيل بن محمد المهدي الفاطمي من خلفاء الدولة الفاطمية متأله ولد بالقاهرة سنة ٣٧٥ هـ وسلم عليه بالخلافة في مدينة بلبيس سنة ٣٨٦ هـ بعد وفاة أبيه ، وأعلنت الدعوة الى تأليهه سنة ٤٠٧ هـ وتحول الحبه الى الحاكم بأمره ، ثم أصاب الناس منه شر شديد الى أن فقد في احدى الليالي سنة ٤١١ هـ ، انظر الزركلي الأعلام ٨ / ٢٤٦ ـ ٧ .

(٣) اللزوميات هـ ص ٢٢٤ .

(٤) « « ص ١٢١ . وكوفان : الكوفة .

(٥) « « ص ٢٦٩ .

كان أهل الجاهلية يتشاءمون من العطاس ، وإذا عطس من يحبونه قالوا له : عمراً وشباباً . وإذا عطس من يبغضونه قالوا له : وريا وقحاباً . فلما جاء الإسلام جعل مكان الدعاء على العاطس الدعاء له بالرحمة . وأمر العاطس أن يحمد الله .

وقالوا : الدعاء بالرحمة نعمة لايستحقها من لم يحمد الله ويشكره ، ويتأسى بأبيه آدم . فإنه لما نفخت فيه الروح إلى الخياشيم عطس فألهمه الله أن قال : الحمد لله ، فقال الله سبحانه : يرحمك الله ياآدم . فصارت تلك سنة العطاس (١) .

ومنه قوله فيه أيضاً :

خَرَصُوا فَقَالوا إنَّ عَالَمَ آدَمٍ ... قَدْ كَانَ يَلْفِظُ أَنْفُساً إذْ يَعْطِسُ (٢)

فَلِذَاكَ صَارَ الحَمْدُ عِنْدَ عُطَاسِهِمْ ... خُلُقاً لَهُمْ وأَخُو الحِجَى مُتَنَطِّسُ

ومنه قوله في الشيب :

مَا أَقْبَحَ المَيْنَ قُلْتُمْ لَمْ يَشِبْ أَحَدٌ ... حَتَّى أَتَى الشَّيْبُ إبْراهِيمَ عَنْ أَمَمِ (٣)

كَذَبْتُمُ وَنُجُومُ اللَّيْلِ شَاهِدَةٌ ... أَنَّ المَشِيبَ قَدِيماً حَلَّ في اللِّمَمِ

هَذَا البَيَاضُ رَسُولُ المَوْتِ يَبْعَثُهُ ... في كُلِّ عَصْرٍ إلى الأَجْيَالِ والأُمَمِ

---

(١) مفتاح دار السعادة لابن القيم ج ٢ ص ٢٧٦ وزاد المعاد له . (ع) .

(٢) اللزوميات ﻫ ص ٢٩٤ .

(٣) « « ص ٢٤٨ ، والأمم : القرب .

فهؤلاء يزعمون أن الشيب لم يعرف قبل إبراهيم . وأبو العلاء يجعله رسولا للموت إلى الناس ، فهو قديم مع الناس ويبقى رسولا مابقي الناس .

ومنه قوله في المشي فوق صفحة الماء ، والطيران في الهواء :

زَعَمَ النَّاسُ أنَّ قَوْماً مِنَ الأبْـــرَارِ عولوا في الجوِّ بالطَّيَرَانِ (١)
وَمَشَوْا فَوْقَ صَفْحَةِ المَاءِ هذا الـْـــإِفْكُ هَيْهَاتَ مَا جَرَى العَصْرَانِ
مَا مَشَى فَوْقَ لُجَّةِ المَاءِ لاَ السَّعْـــدَانِ فِيما مَضَى وَلاَ العُمَرَانِ

وقد اختلفت كلمة العلماء في كرامات الأولياء . فالجمهور من الأشاعرة يقولون بجوازها ووقوعها . والمعتزلة ينكرونها ، ووافقهم الأستاذ أبو إسحاق ، كما ذكر ذلك الإمام الرازي في (الأربعين) وتجد ذلك مبسوطاً في (شرح المواقف) للسيد الشريف الجرجاني (ج ٨ ص ٢٨٨) في المقصد التاسع . وأبو العلاء جرى في هذه الأبيات على مذهب المنكرين ، ولا يمكن الحكم عليه بالكفر بسبب ذلك لأنه لم ينكر أمراً مجمعاً عليه .

ومنه قوله في الغراب والديك الأفرق :

زُجِرَ الغُرَابُ تَطَيُّراً وَنَقِيضُهُ دِيكٌ لأَهْلِ الدَّارِ أَبْيَضُ أَفْرَقُ (٢)
هَذَا السَّفَاهُ كَأَنَّنَا حَمْضِيَّةٌ أَوْ خِيطُ بَلْقَعَةٍ غَذَاهَا العِشْرِقُ

---

(١) اللزوميات ه ص ٢٨٢ .

(٢) » » ص ٣٠١ ، وفيها : « غذاه . . . » . وحمضية : يقال : حمضت الإبل تحمض رعت الحمض ، وإبل حمضية إذا كانت مقيمة في الحمض ترعاه ، والخيط : النعام . وبلقعة وبلقع : الأرض القفر ، والعشرق : نبت .

والعرب يتطيرون من الغراب ، ويزعمون أنه يخبر بالفـراق ؛ وكانوا يسمونه حاتماً لأنه يحتم بالفراق على زعمهم أي يوجبه بنماقه . وقد أشار أبو العلاء إلى ذلك بقوله :

يَدْعُو الغُرَابَ أُنَاسٌ حَاتِماً سَفَهاً   لِأَنَّـهُ بِفِرَاقٍ عِنْدَهُمْ حَتَمَا[1]

هَذَا التَّكَذُّبُ مَا لِلجُونِ مَعْرِفَةٌ   وَلَا يُبَالِي أَنَالَ المَدْحَ أَمْ شُتِمَا

والديك الأفرق : قيل هو الأبيض ويقال : ديك أفرق بيّن الفرق ذو عرفين : للذي عرفه مفروق ؛ وذلك لانفراج مابينهما . وقيل : أفرق انفرقت فنزعته . وقد رووا أحاديث في الديك الأبيض الأفرق ، تفيد أنه صديق النبي ﷺ وصديق صديقه ، وعدو عدوه . . وأنه يحرس دار صاحبه وسبع دور ، ويروى تسع دور حولها ، ويروى ستة عشر بيتا . وأن من اتخذ ديكا أبيض حفظه من شر كل شيطـــان وساحر وكاهن ؛ ورويت له مناقب كثيرة . ولكن في هذه الأحاديث ماهو منكر وماهو موضوع . وفي الجملة أخبار الديك كلهـــا فيها ركة ، ولا رونق لها كما قال السخاوي .

وأبو العلاء أنكر التطير بالغراب ، والتيمن بالديك الأفرق ؛ وليس في إنكارهما مايوجب التكفير .

ومنه قوله :

تَوَرَّعُوا يَا بَنِي حَوَّاءَ عَنْ كَذِبٍ   فَمَا لَكُمْ عِنْدَ رَبٍّ صَاغَكُمْ خَطَرُ[2]

لَمْ تُجْدِبُوا القَبِيحِ مِنْ فَعَالِكُمُ   وَلَمْ يَجِئْكُمْ لِحُسْنِ التَّوْبَةِ المَطَرُ

---

(١) اللزوميات ﻫ ص ٢٤١ . والجون : بضم فسكون السود ، مفردها جون بفتح فسكون .
(٢) اللزوميات ٥ ص ١٢٢ .

وقوله المتقدم :

لم ينقكم ربكم عن حسن فعلكم
ولا حماكم غماماً سوء أعمال[1]

وقوله المتقدم :

قضى الله في وقت مضى أن عامكم
يقل حياه أو يزيد به السجم[2]

هذه الأبيات وأمثالها تفيد أن الناس أو بعضهم يزعمون أن الناس إذا حسنت أعمالهم أغاثهم الله بالمطر ، وإذا ساءت أعمالهم ابتلاهم الله بالجدب وقلة المطر . وقد أنكر هذا أبو العلاء ، وادعى أن المطر وعدمه أقدار مرتبة لمصلحة الكون ، لاعلاقة لها بإساءة العمل ولا حسنه . واستدل على ذلك بأن الحر التقي محتاج إلى مايسد به رمقه ، وغيره يملك القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، ويمكن أن يقال : إن الكفار والفجار أكثر خلق الله على وجه البسيطة ، وأكثر الأغنياء وأصحاب القرى والمزارع منهم ، وأكثر ماتجود السماء مايزرعه هؤلاء ، وهم يزيدون ثروة بقدر مايزيد الأحرار والنساك فاقة وفقرا .

فإذاً لانجد في هذه الأبيات وأشباهها مايوجب تكفير أبي العلاء .

---

(١) اللزوميات ﻫ ص ٢١٥ .

(٢) » » ص ٢٢٨ . والحيا : الغيث . وسجم الدمع وغيره سجوماً وسجاماً : سال وأرض مسجومة أي ممطورة .

ومنه قوله :

وَقَدْ يُشْبِهُ الإِنْسَانُ جَاءَ لِرِشْدَةٍ ... بَعِيداً وَيَعْدُو شِبْهُهُ الخَالَ وَالعَمَّا[1]

وَلَسْتُ أَرَى فِي مَوْلِدٍ حُكْمَ قَائِفٍ ... وَكَمْ مِنْ نَوَاةٍ أَنْبَتَتْ سُحُقاً عُمَّا

يقال : « ولد لرِشدة » إذا كان لنكاح صحيح ، وهو نقيض « زَنية » ويقال : « هو لرشدة ولزنية » ويعدو : يجاوز . والقائف : من يتتبع الآثار ويعرفها ، ويعرف شبه الرجل بأخيه وأبيه ، وقد اختلف العلماء في العمل بقول القائف ، فأثبته الشافعي . والمشهـور عن مالك إثباته في الإماء ونفيه في الحرائر . ونفاه أبو حنيفة مطلقاً ، كما ذكر ذلك العيني في (شرحه على البخاري ج ٧ سنة ٥٢٣) . وأبو العلاء وافق القائلين بعدم إثباته الحكم ، وبيّنَ شاهداً لذلك أن النواة وهي صغيرة قصيرة يابسة تنبت سحقاً جمع « سَحوق » وهي النخلة الطويلة . عُمّا : جمع عميمة أي طويلة أو التامة في طولها والتفافها . يريد أبو العلاء أن الولد قد يخـالف أباه في اللون ، والطول ، وأكثر الأعراض والصفات . ومن الصعب أن يجد الإنسان علائم وخصائص بينها توجب الجزم بأن هذا ابن ذاك ولذلك لايرى حكمه .

ومنه قوله :

وَمَذْهَبِي فِي البَرَايَا كَوْنُهُمْ شِيَعاً ... كَالثَّلْجِ وَالقَارِ مِنْهُ الجَوْنُ وَالحَلَكُ[2]

مَا اسْوَدَّ حَامٌ لِذَنْبٍ كَانَ أَحْدَثَهُ ... لَكِنْ غَرِيزَةُ لَوْنٍ خَطَّهُ المَلِكُ

(١) اللزوميات هـ ص ٢٣٩ .

(٢) انظر ما سبق ص ١٣٦٩ .

زعم بعضهم أن نوحاً ـ عليه السلام ـ ولد له ثلاثة أولاد ، كلهم بيض ؛ وأن حاماً اقترف ذنباً فاسود لذلك . وأبو العلاء ينفي ذلك ، ويعتقد أن اللون غريزي بتقدير الله ، اقتضته طبيعة الإقليم ؛ وأن الناس شيع ؛ منهم الأبيض كالثلج ومنهم الأسود كالحلك . وكما أن بياض الثلج وسواد الحلك أمران طبيعيان ، كذلك بياض الأبيض من الناس ، وسواد الأسود منهم أمر يرجع إلى ماتقتضيه الغريزة والبيئة .

الكتب

تعرض أبو العلاء في كلامه إلى الكتب السماوية وغيرها؛ فذكر القرآن الكريم ، والتوراة ، والإنجيل ، والزبور .

القرآن

أما القرآن فقد كان يعظمه ويجلّه ، ويقرأ آيات منه ويبكي كما تقدم . وقد وصفه في (رسالة الغفران) وصف عالم مؤمن ، وذلك حيث قال في (ص ١٥٨)[١] .

« وَأَجمعَ مُلحِدٌ ومهتدٍ ، وناكِبٌ عَنِ المَحَجَّةِ ومُقْتدٍ ، أن هذا الكتابَ الذي جاء به محمدٌ صلّى الله عليه . كتابٌ بَهرَ بالإعجاز ، ولَقِيَ عَدُوَّهُ بالارْجاز . ما حُذِيَ على مِثال ، ولا أشْبَهَ غَريبَ الأمْثال ، ما هُوَ مِنَ القَصيدِ المَوْزُون ، ولا الرَّجزِ من سَهْلٍ وحُزون . ولا شاكَلَ خِطابَةَ العَرَبِ ، ولا سَجْعَ الكَهَنَةِ ذوي الأرَب . وجاء كالشَّمْسِ اللائحَة ، نوراً لِلمُسِرَّةِ والبائحَة . لو فهِمَهُ الهَضْبُ الراكِدُ لَتَصَدَّعَ ، أو الوُعُولُ المعصِمهُ لَراقَ

---

(١) الغفران ط أمين هندية وانظر الغفران تحقيق/بنت الشاطيء ط ١ ص ٤١٣ ـ ١٤ .

الفَادِرَةَ [١] وَالصَّدَع [٢] . ﴿ وتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضرِبُها لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتفَكَّرُونْ ﴾ [٣] وإنَّ الآيَةَ مِنْهُ ، أوْ بعضَ الآية ، لتَعْتَرِضُ في أفصح كَلِم يَقدرُ عَلَيهِ المَخلوقون ، فيكُونُ فِيهِ كالشِّهابِ المَتلألئ في جُنحِ غَسَقٍ ، والزَّهرَة البَادِيَة في جُدُوبٍ ذَاتِ نَسَق . فتبارَكَ اللهُ أحسَنُ الخَالِقِين » .

وذكره في مواطن من (لزوم مالا يلزم) منها قوله :

بَنَتِ النَّصَارَى لِلمَسِيحِ كَنَائِساً ... كَادَتْ تَعِيبُ الفِعْلَ مِنْ مُنْتَابِها [٤]
وَمَتَى ذَكَرْتُ مُحَمَّداً وَكِتَابَهُ ... جَاءَتْ يَهُودُ بِجَحْدِهَا وَكِتَابِها
أَفَمِلَّةَ الإِسْلامِ يُنْكِرُ مُنْكِرٌ ... وَقَضَاهُ رَبُّكَ صَاغَهَا وأَتَى بها

وقوله :

تَسَوَّقَ النَّاسُ بِفُرْقَانِهِمْ ... وانْتَبَلُوا جَهْلاً فَلَمْ يَنْبُلُوا [٥]
وَلَيْسَ مَا يُنْقَلُ عَنْ عَاصِمٍ ... كَمَا رَوَى عَنْ شَيْخِهِ قُنْبُلُ [٦]

---

(١) الفادر : الوعل الناقل في الجبل ، وهو المسن أو الشاب التام من الوعول والفادرة أيضاً : الصخرة الصماء في رأس الجبل .

(٢) الصدع من الظباء والوعول : الفتى القوي .

(٣) سورة الحشر من الآية (٢١)

(٤) اللزوميات ١ ص ٥٢ .

(٥) اللزوميات ٢ ص ٢٠٠ وعاصم : هو عاصم بن أبي النجود الكوفي أحد القراء السبعة توفي سنة ١٢٧ .

(٦) قنبل : هو محمد بن عبد الرحمن بن محمد المكي المخزومي أحد رواة ابن كثير وأحد القراء توفي سنة ٢٩١ ه

وقوله :

وَكَمْ مِنْ فَقِيهٍ خَابِطٍ فِي ضَلاَلَةٍ   وَحُجَّتُهُ فِيهَا الكِتَابُ المُنَزَّلُ[1]

وَقَارِئُكُمْ يَرْجُو بِتَطْرِيبِهِ الغِنَى   فَآضَ كَمَا غَنَّى لِيكْسِبَ زُلْزُلُ

يَرَى الخُلْدَ عَيْناً والزَّبَابَةَ مِسْمَعاً   وَيَقْزِلُ فِي التَّنْمِيسِ والذِّئْبُ أَقْزَلُ

وقوله :

عُمْيَانُكُمْ قَرَأَتْ عَلَى أَجْدَاثِكُمْ   وَأَتَوْا لَكُمْ بِالبِرِّ مَنْ آتَاكُمْ[2]

أَحْيَاؤُكُمْ بَخِلَتْ عَلَيْهِمْ بِالنَّدَى   فَبَغَوْهُ بِالفُرْقَانِ مِنْ مَوْتَاكُمْ

والأبيات الأولى ليس فيها شيء يؤاخذ به . والبيتان اللذان بعدها ذمٌّ للقراء ، لجعلهم القرآن سلعة يتجر بها ، وبيان لاختلاف الأئمة في وجوه القراءة ، والأبيات الثلاثة التي بعدهما بيان للواقع من الفقهاء والقراء والبيتان الأخيران ذم للعميان لقراءتهم على القبور ، وللناس الذين أحوجوهم إلى ذلك ، وكله أمر واقع مطابق للحقيقة .

ومنها قوله :

أُمُورٌ تَسْتَخِفُّ بِهَا حُلُومٌ   وَمَا يَدْرِي الفَتَى لِمَنِ الثُّبُورُ[3]

---

(١) اللزوميات هـ ص ١٩٥ . والزلزل : كهدهد الطبال الحاذق ، والخلد : فأرة عمياء . والزبابة : فأرة صماء ، والقزل : أسوأ العرج ويوصف به مشي الذئب . والتنميس : التلبيس .

(٢) اللزوميات هـ ص ٢٣٢ .

(٣) اللزوميات هـ ص ١٢٥ .

كِتَابُ مُحَمَّدٍ وَكِتَابُ مُوسَى ‏ ‏ ‏ ‏ وَإِنْجِيلُ ابنِ مَرْيَمَ والزَّبُورُ
نَهَتْ أُمماً فَمَا قَبِلَتْ وَبَارَتْ ‏ ‏ ‏ ‏ نَصِيحَتُهَا فَكُلُّ القَوْمِ بُورُ

وقد روى ياقوت[١] البيت الأول هكذا :

عُقُولٌ يَسْتَخِفُّ بِها سُطُورُ ‏ ‏ ‏ ‏ وَلاَ يَدْرِي . . . . .

ومن الناس من كفره بهذه الأبيات . ولا يظهر عند التأمل أن فيها مايوجب التكفير ؛ لأنه يقول : إن هذه الكتب الأربعة نهت أمماً عن المنكرات ، ونصحتها لما قبلت نصيحتها ، وكسدت نصيحتها ، وكانت عاقبة تلك الأمم البوار . وهي حقيقة طابقت الواقع ، فلا يمكن تكذيبها وليس فيها شيء يوجب الطعن في أبي العلاء سواء أكانت الرواية « أمور تستخف بها حلوم » أم كانت : « عقول يستخف بها سطور » لأن الأمور على الرواية الأولى لم تعين ماهي . وعلى الرواية الثانية السطور هي التي تستخف بالعقول ؛ ولم يبين السبب الذي تستخف بها من أجله ولا نوع ذلك الاستخفاف . وربما استخفت السطور بالعقول ، لأنها لم تقبل مافيها أو لم تعمل بما تقتضيه ، وليس في ذلك ما يوجب المؤاخذة وقد كفره قوم ببعض الأبيات السابقة ، وآخرون بقوله :

بَيْنَ الغَرِيزَةِ والرَّشَادِ نِفَــارُ ‏ ‏ ‏ ‏ وَعَلَى الزَّخَارِفِ ضُمَّتِ الأسْفَارُ[٢]

---

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ١١٥ عن إرشاد الأريب لياقوت .

(٢) اللزوميات هـ ص ١٣٠ .

وآخرون بقوله :

فَعَظِّمْ أَخَا النُّسْكِ التَّقِيَّ لِدِينِهِ ... وَنَفْسَكَ فَاحْقِرْ نَافِعٌ لَكَ حَقْرُهَا[١]

وَلَا تَقْرَإِ الْكُتُبَ الْمُضَلِّلَ دَرْسُهَا ... وَقَدْ وَضَحَتْ طُرْقُ الْهِدَايَةِ فَاقْرُهَا

وليس فيه مايوجب التكفير ، لأنه لادليل على أنه يريد بالأسفار في البيت الأول القرآن أو غيره من الكتب السماوية ؛ ولأنه لم يبين لنا ما هو نوع الزخارف ، إذ منها ما لا يكفر . وفي البيت الثالث نهى عن قراءة الكتب التي يضلل درسها . وهـذا الوصف لا ينطبق على القرآن الكريم لأن درسه لا يضلل .

وكفره قوم بقوله :

دِينٌ وَكُفْرٌ وَأَنْبَاءٌ تُقَصُّ وَفُرْ ... قَانٌ يُنَصُّ وَتَوْرَاةٌ وَإِنْجِيلُ[٢]

فِي كُلِّ جِيلٍ أَبَاطِيلٌ يُدَانُ بِهَا ... فَهَلْ تَفَرَّدَ يَوْماً بِالْهُدَى جِيلُ

وردّ عليه النواري أو النواوي أو النووي بقوله :

نَعَمْ أَبُو الْقَاسِمِ الْهَادِي وَأُمَّتُهُ ... فَزَادَكَ اللهُ ذُلّاً يَا دُجَيْجِيلُ[٣]

الجيل : الصنف من الناس ، فالترك جيل ، والصين جيل ، والعرب جيل وهكذا . وقيل : الجيل : الأمة . وإنما يريد أبو العلاء أن كل صنف من الناس أو أمة من الأمم لا يخلو من أباطيل يدين بها بعضهم ، ولو كانت لديهم

---

(١) اللزوميات ﻫ ص ١٢١ ، اقرها : أي اتبعها .

(٢) اللزوميات ﻫ ص ١٩٧ .

(٣) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ١٩٤ عن تاريخ الاسلام للذهبي و ص ٣٤٣ من معاهد التنصيص — للعباسي .

كتب منزلة . ثم يستفهم ، هل تفرد جيل كله بالهدى ، ولم يدن بعضه بأباطيل ؟ وليس في هذا ما يفضي الى كفر أو فسوق ؛ لأن التاريخ لم يحدثنا أن جيلا كله كان على هدى ؛ ففي كل من الروم والصين والفرس وغيرهم فريق يدين بالأباطيل . وفي العرب أيضاً فريق كذلك حتى في عهد النبوة . فقد كان فريق من المشركين وغيرهم يدينون بالأباطيل في عهد النبي (ﷺ) وبعده . ولا نستطيع أن نسمي كل ما يدينون به هدى ، لأن فيهم مشركين ،ومنافقين وصابئة ، ويهوداً ، ونصارى وغيرهم . وبهذا يتبين أن الاعتراض والرد على أبي العلاء في هذين البيتين ناشىء عن عدم فهم مراده ؛ وسبب ذلك التشدد بغير دليل ، ويمكن أن تقاس أبياته التي هي من هذا النوع بهذه الأبيات وتحتذى على مثالها في التأويل والرد إذا أمكن ذلك .

وقد زعم صاحب (الذكرى) في (تجديده ص ٢٨٩) أن أبا العلاء كان منكراً للنبوات، جاحداً لصحتها . وقد نص على ذلك في (اللزوميات)صراحة غير مرة ، فطوراً يثبت أنها زور ، وطوراً يجعلها مصدر الشرور ، وافتن في ذلك افتناناً عجيباً ، فلم يكتف بإنكار النبوات حتى أنكر الديانات عامة ، وزعم أنها للعقل مخالفة ، وعن شرعته صادفة . واستشهد على ذلك بأقواله :

إنَّ الشَّرائِعَ أَلْـقَتْ . . . . [1]

. . .

هَفَتِ الحَنِيفَةُ والنَّصَارَى . . . . [2]

. . .

وَلاَ تَحْسَبْ مَقَالَ الرُّسْلِ . . . . [3]

---

(١) تمامه : «... بيننا إحناً وأودعتنا أفانين العداوات » اللزوميات ﻫ ص ٦٧ .

(٢) « : « . . . ما اهتدت ويهود حارت والمجوس مضلة » . « ﻫ ص ٢٠٦ .

(٣) « : «... حقاً ولكن قول زور سطروه » . انظر ما سبق ص ١٣٦٧

أَتَى عِيسَى فَأَبطَلَ دِينَ مُوسَى . . . . (١)

. . . .

إِذَا رَجَعَ الحصيفُ إلى حِجَاهُ . . . . (٢)

وقال : انه يقول في التعريض بالإسلام خاصة :

تَلَوْا بَاطِلاً وَجَلَوْا . . . . (٣)

وإنه يقول في التعريض بالنبي (ﷺ) خاصة :

وَلَسْتُ أَقُولُ إِنَّ الشُّهْبَ . . . . (٤)

وإنه يقول معرضاً بقصة خيبر :

وَمُحَمَّدٌ وَهُوَ المُنَبَّأُ يَشْتَكِي . . . . (٥)

وأورد أبياتاً قدمنا أكثرها ، وبينا المراد منها ؛ وكثير منها لا يصلح للاستشهاد لما أراده ، كقوله : « ولست أقول إن الشهب .. » . فليس في هذا تعريض بالنبي (ﷺ) ، وإنما هو نفي لأن تكون الشهب جعلت رجوماً لبعث النبي (ﷺ) ، وقد تقدم الكلام في ذلك . ولم نر سخرية في قوله :

أَفَمِلَّةَ الإِسْلَامِ يُنْكِرُ مُنْكِرٌ . . . . (٦)

وخلاصة قوله : إن روح الرجل لم يكن روح مؤمن بالنبوات ، ولا مصدق للأنبياء ؛ وقد رأيت وسترى ما يبطل ذلك .

---

(١) تمامه : « ... وجاء محمد بصلاة خمس » . اللزوميات « ص ٣٠١ .
(٢) « : « ... تهاون بالمذاهب وازدراها » . انظر ما سبق ص ١٣٧٠ .
(٣) « : « ... صارماً وقالوا صدقنا فقلتم نعم » . اللزوميات « ص ٢٥٨ .
(٤) « : « . يوماً لبعث محمد جعلت رجوماً » انظر ما سبق ص ١٣٠٥ .
(٥) « : « ... لمكان أكلته اقتطاع الأبهر » . اللزوميات « ص ١٥٧ .
(٦) « : « . وقضاه ربك صاغها وأتى بها » انظر ما سبق ص ١٣٩٢ .

الأديان

أو الملل والنحل والمذاهب

لا شك أن أبا العلاء ألم بكثير من الشرائع ، والملل ، والمذاهب من طريق الكتب التي درسها ، وبما سمعه من الناس ؛ وليس لدينا دليل يدل على أنها قرأها في غير المعرة ، بل يدل قوله : « منذُ فارقت العشرين من العمر ما حدثت نفسي باجتداء شيء من العلم »(١) على أنه درس كل ما درسه في المعرة . وما زعمه بعض الأدباء من أنه قرأ شيئاً في أنطاكية ، أو اللاذقية ، أو العراق أو غيرها لايخرج عن كونه ظناً لايغني من الحق شيئاً . ويجد الباحث المتأمل في كلامه مايدل على أنه درس تلك المذاهب درساً دقيقاً وافياً ، استطاع بسببه أن يعترض عليها ، وينتقد كثيراً من مزاعم أهلها . وهذه جملة من أقواله :

المجوس :

هذه طائفة من أقواله تدل على أنه وقف على جملة من عاداتهم ، ومعتقداتهم ، ومواضعاتهم . قال في (سقط الزند) يجيب تلميذه :

وَقَدْ تَفَرَّسْتُ فِيكَ الفَهْمَ مُلْتَهِباً
مِنْ كُلِّ وَجْهٍ كَنَارِ الفُرْسِ في السَّذَقِ (٢)

---

(١) انظر ما سبق ص ١٨٣ .

(٢) من قصيدة أجاب بها بعض الشعراء أولها :

ارقد هنيئاً فاني دائم الأرق ولا تعقني وغيري سالياً فعق

شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٦٧٥ .

السذق : عيد للعجم يوقدون فيه النيران ، وهو اليوم العاشر من بهمن ماه .

وقال في (اللزوم) :

أقرّوا بالإلهِ وأثبتوهُ وقالوا لا نبيّ ولا كتابُ[1]
ووطء بناتنا حِلٌّ مُباحٌ رُوَيدَكُمُ فقد بَطَلَ العتابُ

• • •

بَنَاتُ العَمِّ تَأْبَاهَا النَّصَارَى وَبِالأَخَوَاتِ أعْرَسَتِ المَجُوسُ[2]

ومن المجوس الزرادشتية صنف يقال لهم : السيسانية ، والبهافريدية ، ورئيسهم يقال له : خواق ، خرج أيام أبي مسلم . وكان زمزمياً يعبد النيران ، ثم ترك ذلك ، ودعا المجوس إلى ترك الزمزمة ، ورفض عبادة النار ، ووضع لهم كتاباً أمرهم فيه بإرسال الشعور ، وحرم الأمهات والبنات والأخوات والخمر ؛ وأمرهم باستقبال الشمس عند السجود على ركبة واحدة ، وهؤلاء يتبـاذلون الأموال ، ولا يأكلون الميتة ، ولا يذبحون الحيوان حتى يهرم ، ولعل أبا العلاء أشار إليهم بقوله :

سَأَلْنَا مَجُوساً عَنْ حَقِيقَةِ دِينِهَا فَقَالَتْ نَعَمْ لاَ نَنْكِحُ الأَخَوَاتِ[3]
وَذَلِكَ في أَصْلِ التَّمَجُّسِ جَائِزٌ وَلَكِنْ عَدَدْنَاهُ مِنَ الهَفَوَاتِ

---

(١) اللزوميات هـ ص ٣٤ .
(٢) اللزوميات هـ ص ٢٩٤ .
(٣) اللزوميات هـ ص ٦٥ ـ ٦٦ والآتن : جمع أتان وهي الحمارة .

وَنَأْبى قَطِيعَاتِ الأُمورِ وَنَبْتَغي سُجُوداً لِنُورِ الشمْسِ في الغَدَواتِ
وَأَعذَرُ مِنْ نِسْوانِكمْ في احْتِمالِها فُضُوحَ الرِّزَايا آتُنُ الفَلَواتِ

ومن المجوس فرقة يقال لهم : الكيومرثية أصحاب المقدم الأول كيومرث . وهؤلاء أثبتوا أصلين : يزدان وأهرمن وقالوا : يزدان أزلي قديم ، وأهْرِمنْ محدث مخلوق . وزعموا أن يزدان فكر في نفسه أنه لو كان لي منازع كيف يكون وهذه الفكرة رديئة غير مناسبة لطبيعة النور ؟ فحدث الظلام من هذه الفكرة ، وسمي أهرمن ، وكان مطبوعاً على الشر والفتنة والفساد والضرر والإضرار ، فخرج على النور وخالفه طبيعة وقولاً ، وجرت محاربة بين عسكر النور وعسكر الظلام . ثم إن الملائكة توسطوا ، فصالحوا على أن يكون العالم السفلي خالصاً لأهرمن سبعة آلاف سنة ثم يخلّي العالم ويسلمه إلى النور . والذين كانوا في الدنيا قبل الصلح أبادهم وأهلكهم ، ثم بدأ برجل يقال له : كيومرث وحيوان يقال له : ثور ، فقتلها فنبت من مسقط ذلك الرجل ريباس ، وخرج من أصل ريباس رجل يسمى ميشه ، وامرأة اسمها ميشانه ، وهما أبوا البشر . ونبت من مسقط الثور الأنعام وسائر الحيوان . وزعموا أن النّور خيَّر الناس وهم أرواح بلا أجساد بين أن يرفعهم عن مواضع أهرمن ، وبين أن تلبسهم الأجساد فيحاربون أهرمن ؟ على أن تكون لهم النصرة من عند النور ، والظفر بجنود أهرمن وحسن العاقبة ، وعند الظفر به وإهلاك جنوده تكون القيامة . وقد أشار أبو العلاء إلى قول الكيومرثية بقوله :

قَالَ أُنَاسٌ بَاطِــلٌ زَعْمُهُمْ فَرَاقِبُوا اللهَ وَلاَ تَزْعُمُنْ[1]

فَكَّرَ يَزْدَانُ عَلَى غِرَّةٍ فَصِيغَ مِنْ تَفْكِيرِهِ أَهْرُمُنْ

ولبعض الفرق الأخرى من المجوس أقوال في يزدان وأهرمن ، ذكر بعضها في (الملل والنحل ص ١٣٨) فما بعدها . وأشار أبو العلاء إلى كثير من نحل المجوس وعقائدهم كقوله :

عَمَدْتُمْ لِرَأْيِ الْمَثْنَوِيَّةِ بَعْدَمَا جَرَتْ لَذَّةُ التَّوْحِيدِ فِي اللَّهَوَاتِ[2]

مذاهب الهند

يدل كلام أبي العلاء على اطلاعه على كثير من عقائد الهند ، ومزاعمهم ، وعاداتهم ، ومواضعاتهم . ومنشأ هذا الاطلاع أمران : أحدهما : السماع من أفواه الرجال ، والثاني : الدراسة ، فإن كتب الكلام تصدت لكثير من المذاهب . وقد ذكر في (رسالة الغفران ص ١٥٣)[3] أن رجلا من الهند من جند محمود بلغ امرأته أنه هلك ، فأوقدت ناراً وألقت بنفسها فيها ، وكان الخبر باطلا . فلما قدم الزوج وأخبر بأمر امرأته ، أوقد ناراً ورمى بنفسه فيها ... كما تقدم . وفي (ص ١٩٤)[4] إن الهند لا يملكون عليهم رجلا يشرب مسكراً ، ويقولون : يجوز أن يحدث في المملكة نبأ والملك سكران .

---

(١) اللزوميات ﻫ ص ٢٨٥

(٢) اللزوميات ﻫ ص ٦٥ .

(٣) الغفران ط أمين هندية وانظر الغفران تحقيق بنت الشاطئ ط ١ ص ٢٩٨ـ٩ .

(٤) وانظر الغفران تحقيق بنت الشاطئ ط ١ ص ٥١٩ .

وأشار في (اللزوم) إلى شيء من عقائدهم ، وارتضى منها حرق الميت ، وفضله على الكافور في قوله السابق :

فَاعْجَبْ لِتَحْرِيقِ أَهْلِ الْهِنْدِ مَيْتَهُمُ . . . .[1]

وقوله :

والنَّارُ أَطْيَبُ مِنْ كَافُورِ مَيِّتِنَا . . . .[2]

أما تحريق الإنسان نفسه فيراه تكليفاً شاقاً يتجشمه ، كما يدل عليه قوله :

يُحَرِّقُ نَفْسَهُ الهِنْدِيُّ خَوْفاً ... وَيَقْصُرُ دُونَ مَا صَنَعَ الجِهَادُ[3]
وَمَا فَعَلَتْهُ عُبَّادُ النَّصَارَى ... وَلاَ شَرْعِيَّةٌ صَبَئُوا وَهَادُوا
يُقَرِّبُ جِسْمَهُ لِلنَّارِ عَمْداً ... وَذَلِكَ مِنْهُ دِينٌ وَاجْتِهَادُ

وهو تارة يرى في إحراق الميت إراحة من زورته في البكور والرواح ، واستراحة من ضغطة القبر ، وسؤال منكر ونكير ؛ كأنه جازم بذلك فيقول :

حَرَّقَ الهِنْدُ مَنْ يَمُوتُ فَمَا زَا ... رُوهُ فِي رَوْحَةٍ وَلاَ تَبْكِيرِ[4]
وَاسْتَرَاحُوا مِنْ ضَغْطَةِ القَبْرِ مَيْتاً ... وَسُؤَالِ لِمُنْكَرٍ وَنَكِيرِ

---

(١) وتمام البيت : « وذاك أروح من طول التباريح » اللزوميات هـ ص ٨٥ .
(٢) صدر بيت عجزه : «غبّاً وأذهب للنكراء والريح » . للمصدر السابق .
(٣) اللزوميات هـ ص ٩٦ .
(٤) اللزوميات هـ ص ١٦٧ .

لاَ ذُكُورٌ وَلاَ إناث مِنَ العَا لَمِ يهْدَى لِلرُّشْدِ بِالتذْكِيرِ

وتارة يستفهم عن سؤال الملكين ، وضغطة القبر ، سؤال شاك أو منكر فيقول :

إذَا حرّقَ الهِنْدِيُّ بالنَّارِ نَفْسَهُ فَلَمْ يبْقَ نَحْضٌ للتُّرَابِ وَلاَ عَظْمُ[١]

فَهَلْ هُوَ خَاشٍ مِنْ نَكِيرٍ ومُنْكَرٍ وَضَغْطَةِ قَبْرٍ لاَ يَقُومُ لَهَا نَظْمُ

وذكر شيئاً من مزاعم الهند في آدم عليه السلام :

تَقُولُ الهِنْدُ آدَمُ كَانَ قِنّاً لَنَا فَسَرَى إلَيْهِ مُخَبِّبُوهُ[٢]

وتقدم قوله :

. . . . والهِنْدُ بَعْدُ مُطِيلَةٌ أظْفَارَهَا[٣]

وهو يدل على أن إطالة الأظفار من النسك عندهم .

* * *

(١) اللزوميات ه ص ٢٢٨ ، والنحض : اللحم المكتنز .

(٢) اللزوميات ص ٣٣٣ . والقن : العبد ، وخببه : خدعه وغشه وأفسده .

(٣) عجز بيت صدره : « وأعد قص الظفر شيمة ناسك » .
اللزوميات ه ص ١٤٣ .

اليهودية واليهود

يمكن أن يلخص رأي أبي العلاء في اليهود بأنه يعتقد أن التوراة كتاب موسى ، وأن اليهود حرّفوها وبدّلوا منها ما شاؤا ؛ حتى صارت كلها كذبا من العلماء والأحبار . ولذلك لا يقبل حكماً منها ، وأن الأحبار افترت ما افترته لأمور تافهة ، منها : نيل المعيشة الطيبة ، وكسب الأموال ، وإصباء النساء . وهم لا يألون جهداً في الافتراء والتحيل لامتراء الأموال . وأن اليهود يعتقدون أن المسيح لم يأت بعد ، ولكنه لا بد أن يأتي . وأن فريقاً منهم اتخذوا من حليهم المصوغ عجلا ، وفريقاً يقول : إن عيسى ليس مقرباً عند الله . وقد نقم أبو العلاء على اليهود أشد نقمة ، لكثرة تحيلهم في دينهم وتشددهم وادخالهم فيه ما ليس منه . وهذه جملة من كلماته تدل على اعتقاده في اليهود والتوراة والأحبار ؛ منها قوله :

تَقَدَّمَ صَاحِبُ التَّوْرَاةِ مُوسَى وَأَوْقَعَ بِالخسارِ مَنِ افْتَرَاهَا[1]
فَقَالَ رِجَالُهُ وَحْيٌ أَتَاهُ وَقَالَ الآخَرُونَ بَلِ افْتَرَاهَا

وقوله :

وَلاَ تَقْبَلْ مِنَ التَّوْرَاةِ حُكْماً فَإِنَّ الحَقَّ عَنْهَا فِي تَوَارِ[2]

---

(١) انظر ما سبق ص ١٣٧٠ .

(٢) اللزوميات ﻫ ص ١٥٦ .

وقوله :

ضَلَّتْ يَهُودُ وَإِنَّمَا تَوْرَاتُهَا كَذِبٌ مِنَ العُلَمَاءِ والأَحْبَارِ (١)

وقوله :

ضَلُّوا بِعِجْلٍ مَصُوغٍ مِنْ شُنُوفِهِمُ فَاسْتَنْكَرُوا مِسْمَعاً لِلشَّنْفِ مَثْقُوبَا (٢)
وَلَنْ يَقُومَ مَسِيحٌ يَجْمَعُونَ لَهُ وَخِلْتُ وَاعِدَهُمْ مِ الخُلْفِ عُرْقُوبَا

وقوله :

أَجَلَّتْ سَبْتَهَا أَشْيَاعُ مُوسَى أَسَبْتُ القَطْعِ ذَاكَ أَمِ السُّبَاتُ (٣)

وقوله :

وآلُ إِسْرَالَ غَادَوْا فِي مَدَارِسِهِمْ تِلاوَةً وَمُحَالٌ كُلُّ مَا دَرَسُوا (٤)

وقوله :

تَرْجُو اليَهُودُ المَسِيحَ يَأْتِي وَتَأْمُلُ الدَّهْرَ أَنْ يَهُودَا (٥)
وَكَيْفَ تُرْعَى لَهُمْ عُهُودٌ مِنْ بَعْدِ مَا ضَيَّعُوا العُهُودَا

---

(١) اللزوميات هـ ص ١٦٣ .

(٢) اللزوميات هـ ص ٤٠ والشنف : القرط يعلق بالأذن ، وعرقوب : رجل من العمالق يضرب به المثل في خلف الوعد .

(٣) اللازوميات هـ ص ٥٩ ، والسبت : مصدر سبت أي قطع العنق . والسبات : النوم .

(٤) اللزوميات هـ ص ٢٩٢ هـ .

(٥) اللزوميات هـ ص ١٠٣ ، وهاد يهود : يرجع ويتوب .

وقوله :

عَجِبْتُ لِرِقٍّ ضُمِّنَ المَيْنَ بَعْدَمَا ... تَخَيَّرَهُ قَوْمٌ لِتَوْرَاتِهِمْ سِفْرَا[١]

وقوله :

وَلَيْسَ الذي قَالَ اليَهُودِيُّ ثَابِتاً ... سِوَى أَنَّهُ بالخَطِّ أُثْبِتَ في السِّفْرِ[٢]

وقوله :

آلَيْتُ مَا تَوْرَاتُكُمْ بِمُنِيرَةٍ ... إنْ أُلْفِيَتْ فِيهَا الكُمَيْتُ مُحَالَهُ[٣]

وقوله :

يَا آلَ يعقُوبَ خُذُوا حِذْرَكُمْ ... في الدَّهْرِ مِنْ حَبْرٍ وَدَيَّانِ[٤]

يَزْعُمُ نَارٌ مِنْ سَمَاهُ هَوَتْ ... تَأْكُلُ ذَا إفْكٍ وطُغْيَانِ

لَوْ كُنْتَ فِيمَا قُلْتَهُ صَادِقاً ... لَمْ تَعْدُ لِلشَّرِّ بِهِمْيَانِ

وقوله :

إنَّ اليَهُودِيَّ خَلَّى جَهْلُهُ امْرَأَةً ... كَانَتْ عَقِيماً وَخَيْرُ النِّسْوَةِ العُقُمُ[٥]

مَاذَا أَرَادَ لَحَاهُ اللهُ مِنْ وَلَدٍ ... يَلْقَى مِنَ الدَّهْرِ مَا يُرْدِي وَمَا يَقِمُ

---

(١) اللزوميات هـ ص ١٣٧ . والمين : الكذب .

(٢) اللزوميات هـ ص ١٤٧ .

(٣) اللزوميات هـ ص ٢٠٦ ، وآليت : أي حلفت ، والكميت : الخمر .

(٤) اللزوميات هـ ص ٢٨١ والهميان : ما يجعل فيه الدراهم .

(٥) اللزوميات هـ ص ٢٣٣ ، ويردي : يهلك . ويقم : من الوقم وهو الذل ، يقال : وقم الله العدو أي أذلّه .

وقوله :

وَقَالَ أُناسٌ لَيسَ عِيسَى مُقرّباً ‏ ‏ فقِيلَ ولاَ مُوسَاكُمُ بِكَلِيمِ [(١)]

وقوله :

يَاآلَ إِسْرَالَ هَلْ يُرْجَى مَسِيحُكُمُ ‏ ‏ هَيْهَاتَ قَدْ مَيَّزَ الأَشْيَاءَ مَنْ خَلَبَا [(٢)]

قُلْنَا أَتَانَا وَلَمْ يُصلَبْ وَقَوْلُكُمُ ‏ ‏ مَاجَاءَ بَعْدُ وَقَالَتْ أُمَّةٌ صُلِبَا

جَلَبْتُمْ بَاطِلَ التَّوْرَاةِ عَنْ شَحَطٍ ‏ ‏ وَرُبَّ شَرٍّ بَعِيدٍ لِلْفَتَى جُلِبَا

وقوله :

يَاآلَ يَعْقُوبَ مَاتَوْرَاتُكُمْ نَبَأٌ ‏ ‏ مِنْ وَرْيِ زَنْدٍ وَلَكِنْ وَرْيِ أَكْبَادِ [(٣)]

إِنْ كَانَ لَمْ يَبْدُ لِلأَغْمَارِ سِرُّكُمُ ‏ ‏ فَإِنَّهُ لِيَ فِي أَكْنَافِهِ بَادِ

لَقَدْ أَكَلْتُمْ بِأَمْرٍ كُلُّهُ كَذِبٌ ‏ ‏ عَلَى تَقَادُمِ أَزْمَانٍ وَآبَادِ

وقوله :

يُبْدِي التَّدَيُّنَ مُحْتَالاً ضَمَائِرُهُ ‏ ‏ غَيْرُ الجَمِيلِ إِذَا مَاجِنْتَهُ ضَمَرَا [(٤)]

يَشْدُو مَزَامِيرَ دَاوُدٍ وَيَفْضُلُهُ ‏ ‏ فِي النُّسْكِ نَافِخُ مِزْمَارٍ لَهُ زَمَرَا

---

(١) اللزوميات هـ ص ٢٤٦ .

(٢) اللزوميات هـ ص ٣٩ . والشحط : البعد .

(٣) اللزوميات هـ ص ١١٠ . وورى الزند : خروج شراره واضاءته ، وورى الأكباد : داء شديد يجاء منه القيح والدم .

(٤) اللزوميات هـ ص ١٣٩ .

وقوله :

كُلُّ الذي تَحْكُونَ عَنْ مَوْلاكُمُ كَذِبٌ أَتَاكُمْ عَنْ يَهودَ يُحَبَّرُ (١)
رَامَتْ بِهِ الأَحْبَارُ نَيْلَ مَعِيشَةٍ في الدَّهْرِ والعَمَلُ القَبِيحُ يُتَبَّرُ

وقوله :

يَتْلُونَ أَسْفَارَهُمْ والحَقُّ يُخْبِرُني بِأَنَّ آخِرَهَا مَيْنٌ وأَوَّلُهَا (٢)
صَدَقْتَ يَاعَقْلُ فَلْيَبْعَدْ أُخُوسَفَهٍ صَاغَ الأَحَادِيثَ إِفْكاً أَوْتَأَوَّلَهَا
وَلَيْسَ حَبْرٌ بِبِدْعٍ في صَحَابَتِهِ إِنْ سَامَ نَفْعاً بِأَخْبَارٍ تَقَوَّلَهَا
وَإِنَّمَا رَامَ نِسْوَاناً تَزَوَّجَهَا بِمَا افْتَرَاهُ وأَمْوَالاً تَمَوَّلَهَا

وهذا القدر كافٍ في الدلالة على اطلاعه على اليهودية واليهود ، ومعرفته الكثير من معتقداتهم وعاداتهم ، واحتيال الأحبار على أمتهم ، وعبثهم بالتوراة ، ونحو ذلك مما تشعر به الأبيات المتقدم ذكرها . وقد بين كثيراً من أعمال الأحبار بقوله من قصيدة (٣) :

وَالحَبْرِ اليَهُودِ في دَرْسِهِ التَّوْ رَاةَ فَنٌّ وَالهَمُّ في التَّذْبِيلِ (٤)

---

(١) اللزوميات هـ ص ١٢٧ .

(٢) اللزوميات هـ ص ٢٠٤ والحبر : بفتح الحاء عالم اليهود .

(٣) من لزومية مطلعها :

سل سبيل الحياة عن سلسبيل لا تخبر عن غير ورد وبيل

اللزوميات هـ ص ٢٢٣ .

(٤) التذبيل : من ذبل الشفة أي كبرها .

رَبَلَتْهُ أَسْفَارُهَا وَحَتَّتْهُ طُولَ أَسْفَارِهِ مِنَ التَّرْبِيلِ(١)
حَسَّنَ القَوْلَ يَبْتَغِي نَضْرَةَ العَيْـشِ بِغِشِّ الإِدْوَاءِ والتَّذْبِيلِ(٢)

. . . .

قَدْ أَرَاكُمْ تَلَطُّفاً وَهْوَ فِي الغِلْظَةِ مِنْ جُرْهُمٍ وَآلِ عَبِيلِ(٣)
مُوعِدٌ بِالأَجْرَامِ يُوعِدُ أُمَّ النَّسْلِ فِيهِ بِالثُّكْلِ والتَّهْبِيلِ(٤)

. . . .

يُطْلِقُ الخَمْسَ فِي الحَرَامِ وَأَمَّا اللَّفْظُ مِنْهُ فَدَائِمُ التَّكْبِيلِ
كَذِبٌ لاَ يَزَالُ يُطْعِمُ خُبْزاً نُصَّ عَنْ آدَمٍ وَعَنْ قَابِيلِ

ومما تقدم يتضح أن أبا العلاء لا يثق بالتوراة ، ولا بالأحبار ، ولا الوعاظ ، والخطباء . من اليهود ؛ ولا يرى فيهم من يعمل عملا مخلصاً لله فيه ؛ وإنما كل أعمالهم قائمة على حب المنفعة العاجلة ، واللذة الشهوانية .

★ ★ ★

---

(١) ربل القوم : كثروا أو كثر أموالهم وأولادهم ، والأسفار : مفردها سفر وهو الكتاب. والأسفار الثانية : الترحل . وتربل فلان : تصيد .
(٢) التذبيل : جعل الشيء ذابلا أي ضامراً .
(٣) آل عبيل : قبيلة من العرب البائدة انقرضوا .
(٤) الثكل : فقدان الولد والتهبيل في معناه .

النّصرانية والنصارى

درس أبو العلاء النصرانية في المعرة درساً دقيقاً ، واطلع من أحوال النصارى الذين كانوا فيها ، ومن الكتب التي قرأها على معتقداتهم وعاداتهم في ذلك العصر وما قبله . وقد أعجبه دأب الرهبـــان في اعتزالهم عن الناس وتقشفهم ؛ ولكن أنكر عليهم أمرين :

أحدهما : أكل الحيوان وما تولد منه ، وأكل أموال النـاس بغير عمل ، لأنه يريد أن لا يكون المرء كَلاًّ على غيره ، وهذا ما أراده بقــوله :

وَيُعْجِبُنِي دَأْبُ الذينَ تَرَهَّبُوا ... سِوى أَكْلِهِمْ كَدَّ النُّفُوسِ الشَّحَائِحِ (١)
وَأَطْيَبُ مِنْهُمْ مَطْعَمًا في حَيَاتِهِ ... سُعَاةُ حَلال بَيْنَ غَادٍ وَرَائِحِ

والثاني : سجنهم أنفسهم للتعبد ، لأن ذلك برأيه مخالف لما كان عليه عيسى (ص) :

فَمَا حَبَسَ النَّفْسَ المَسِيحُ تَعَبُّداً
وَلَكِنْ مَشَى في الأَرْضِ مَشْيَةَ سَائِحِ (١)

ويعتقد أن الراهب غير مخلص فيما يظهره من النسـك ، بل هو خداع كالذئب فيقول :

---

(١) اللزوميات ﻫ س ٨٤ .

أوَى دَيْرَ نَصْرَانِيَّةٍ مُتَظَاهِرٌ ‏ ‏ ‏ بِنُسْكٍ ألاَ إنَّ الذِّئابَ أوَادِي[١]

وأنه موله في حب الدنيا متخرص بتأله :

الرَّاهِبُ المَسْجُونُ فَرْطَ عِبَادَةٍ ‏ ‏ ‏ مِنْ حُبِّ دُنْيَاهُ الكَذُوبِ مُوَلَّهُ[٢]

أعَرَفْتُمُ أصْحَابَكُمْ بِحَقِيقَةٍ ‏ ‏ ‏ أمْ كُلُّكُمْ عَنْهُمْ غَبِيٌّ أبْلَهُ

ذُكِرَ التَّأَلُّهُ فَادَّعَوْهُ تَخَرُّصاً ‏ ‏ ‏ مَا هَذِهِ أفْعَالُ مَنْ يَتَأَلَّهُ

وليست هذه حال واحد منهم ، بل كلهم في ذلك سواء :

إذَا كَشَفْتَ عَنِ الرُّهْبَانِ حَالَهُمُ ‏ ‏ ‏ فَكُلُّهُمْ يَتَوَخَّى التِّبْرَ والوَرِقَا[٣]

وأبو العلاء يرى المتعبد الذي يعيش من كسب يده أفضل من المتعبد الذي يعيش من كسب غيره ، وأن الخشن من الثياب مع العفة وطهارة الذيل أفضل من اللباس الفاخر والأثاث الوثير ، وهذا مايرمي اليه في قوله :

صَلاَةُ الأمِيرِ الكَاسِيِّ[٤] بِمَسْجِدٍ ‏ ‏ ‏ أبَرُّ وَأزْكَى مِنْ صَلاَةِ البَطَارِقِ[٥]

---

(١) اللزوميات هـ ص ١٠٧ ، وأواد : مفردها آدية أي خاتلة ويقال : أدا السبع للغزال يأدو ختله ليأكله .

(٢) اللزوميات هـ ص ٣٣٤

(٣) اللزوميات هـ ص ٣٠٤ . والتبر : الذهب غير المضروب ، والورق : الفضة أوالدراهم .

(٤) هكذا في الديوان (ع) .

(٥) اللزوميات هـ ص ٣٠٦ والبطارق : مفردها بطريق وهو عظيم النصارى ، والنمار : مفردها نمرة وهي بردة من صوف يلبسها الأعراب . والنمارق : مفردها نمرقة ، وهي الوسادة الصغيرة .

مَخَارِيقُ تَبْدُو في الكَنَائسِ مِنْهُمُ   بِلَحْنٍ لَهُمْ يَحْكِي غِنَاءَ مُخَارِقِ

وَإِنَّ حِجَازِيَّ النَّهارِ وَلُبْسَهَا   لأشْرَفُ مِنْ دِيبَاجِهِمْ والنَّمارِقِ

ولا فرق عنده بين أن يكون المتعبد معتزلاً عن الناس ، أم غير معتزل ، ما دام كل منهما يعيش من كد غيره ، وهذا ما أراده بقوله :

فَإِنِّي أرَى البِطْرِيقَ والراهِبَ الذي   بِقُلَّتِهِ سَارَا مَعــاً بِطَرِيقِ[1]

وأنكر تعظيم الصليب في مثل قوله :

قَدَرٌ نَازِلٌ مِنَ الجَوِّ نَادَى   بِالنَّصَارَى حَتَّى أجَلُّوا الصَّلِيبَا[2]

• • •

وَمَا أرَى كُلَّ قَوْمٍ ضلَّ رُشْدُهُمُ   إلاَّ نَظِيرَ النَّصَارَى عَظَّمُوا الصُّلُبَا[3]

كما أنكر السجود له وعدَّه عاراً في مثل قوله :

وَحَسْبُكَ مِنْ عَارٍ تَشِبُّ وَقُودَهُ   سُجُودُكَ لِلصُّلْبَانِ في كُلِّ شَارِقِ[4]

ولم يُرضه غدوُّ النساء إلى الكنائس والأديار ، واختلاطهن بالرجال ، خشية الفتنة ، كما يشير إلى ذلك قوله :

هَلْ قَبِلَتْ مِنْ نَاصِحٍ أُمَّةٌ   تَغْدُو إلى الفِصْحِ بِصُلْبَانِهَا[5]

---

(١) اللزوميات ﻫ س ٣٠٦ ، والبطريق : القائد بلغة أهل الشام والروم وقيل عربي (ج)
(٢) اللزوميات ﻫ س ٤٣ .
(٣) اللزوميات ﻫ س ٣٩ وفيها : « ... أعظموا الصلبا » .
(٤) اللزوميات ﻫ س ٣٠٦ وفيها : « ... يشب وقوده » .
(٥) اللزوميات ﻫ س ٢٨٠ وفيها : « بجربانها » وجربّان القميص : جيبه .

كَنَائِسُ يَجْمَعُهَا وُصْلَةٌ بَيْنَ غَوَانِيهَا وَشُبَّانِهَا
مَا بَالُهَا عَذْرَاءُ أو ثَيِّباً كَوَرْدَةِ الجَانِي بِإِبَّانِهَا
رَاحَتْ إِلَى القِسِّ بِتَقْرِيبِها وَبَيْتُهَا أَوْلَى بِقُرْبَانِهَا
قَدْ جَرَّبَتْ مِنْ فِعْلِهِ سَيِّئاً وَالطِّيبُ جَارٍ فِي جُرُبَّانِهَا
وَرُبَّمَا تُسْخِطُ بَلْ زَوْجَهَا الـبَائِسَ فِي طَاعَةِ رُبَّانِهَا
وَزَارَتِ الدَّيْرَ وَأَثْوَابُهَا ضَامِنَةٌ فِتْنَةَ رُهْبَانِهَا

ويرى أن البيعة يجب أن تهجر إذا كانت تزار لغي :

إِذَا مَا بِيعَةٌ زِيرَتْ لِغَيٍّ فَأَعْطِ لِهَجْرِهَا أَيْمَانَ بَيْعَهْ[1]
وَلاَ تَجْعَلْكَ لِلأَيَّامِ كَلْباً ظِبَاءٌ مِنْ ذُوَيْبَةَ أَوْ سُبَيْعَهْ

وقد انتقد في شعره ما يعتقده النصارى في عيسى (ص) من الربوبية أو أنه ابن الله ، وأمعن في هذا الموضوع ، وناقشه مناقشة عليم مدقق وحكيم موفق من ذلك قوله :

وَقَدْ شَهِدَ النَّصَارَى أَنَّ عِيسَى تَوَخَّتْهُ اليَهُودُ لِيَصْلُبُوهُ[2]
وَمَا أَبِهُوا وَقَدْ جَعَلُوهُ رَبّاً لِئَلاَّ يُنْقِصُوهُ وَيَجْدِبُوهُ

وأورد في (لزوم ما لا يلزم) مناظرة رائعة في ترتيبها ، ساحرة بأسلوبها ، وذلك حيث يقول :

---

(١) اللزوميات ﻫ ص ٢٨٦ وذؤيبة وسبيعة : قبيلتان .
(٢) انظر ما سبق ص ١٣٦٦ .

أَشْهَبَ النَّاسُ فِي المَقَالِ وَمَا يَظْـــفَرُ إلاَّ بِزَلَّةٍ مُنْهِبُوهُ[1]
عَجَباً لِلْمَسِيحِ بَيْنَ أُنَاسٍ وَإِلَى اللهِ وَالِدٍ نَسَبُوهُ
أَسْلَمَتْهُ إِلى اليَهُودِ النَّصَارَى وَأَقَرُّوا بِأَنَّهُمْ صَلَبُوهُ
يُشْفِقُ الحَازِمُ اللَّبِيبُ عَلَى الطِّفْـــلِ إِذَا مَا لِدَاتُهُ ضَرَبُوهُ
وَإِذَا كَانَ مَا يَقُولُونَ فِي عِيـــسَى صَحِيحاً فَأَيْنَ كَانَ أَبُوهُ
كَيْفَ خَلَّى وَلِيدَهُ لِلأَعَادِي أَمْ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ غَلَبُوهُ
وَإِذَا مَا سَأَلْتَ أَصْحَابَ دِينٍ غَيَّرُوا بِالقِيَاسِ مَا رَتَّبُوهُ
لاَ يَدِينُونَ بِالعُقُولِ وَلَكِنْ بِأَبَاطِيلِ زُخْرُفٍ كَذَّبُوهُ

وقد رأيت في (شرح لامية العجم للصفدي) بعد قوله : « فأين كان أبوه » هذين البيتين :

وإِذَا كَانَ رَاضِياً بِقَضَاهُمْ فَاشْكُرُوهُمْ لِأَجْلِ مَا عَذَّبُوهُ
وَإِذَا كَانَ سَاخِطاً بِأَذَاهُمْ فَاعْبُدُوهُمْ لِأَنَّهُمْ غَلَبُوهُ

وإذا صح أنهما من هذه القصيدة ففي البيت الذي بعدهما إيطاء بتكرار كلمة « غلبوه » وهو من عيوب القافية ، وبعيد من أبي العلاء أن يقع الإيطاء في كلامه . فلعل في الرواية تحريفاً ، أو البيتين ليسا لأبي العلاء .

---

(١) اللزوميات ٥ ص ٣٣٤ : ونبهاء وإلى خير والد نسبوه » •

وأبو العلاء — كما علمنا — يسير في آرائه واعتقاده على ماتقتضيه الحكمة والعقل ؛ ولا يطغى على عقله التعصب ، فهو يجل كل نبي مرسل ، وإن كان متبعاً لنبي واحد وهو محمد (ﷺ) ، ولا يرى في أحد من الأنبياء نقصاً ، وعلى هذا قوله :

لاَ تَبْدَأُونِي بالعَدَاوَةِ مِنْكُمُ فَمَسِيحُكُمْ عِنْدِي نَظِيرُ مُحَمَّدِ[١]

ولا يمنعه من عمل البر وإسداء الجميل إلى إنسان أن يكون على غير دينه ، يدل على ذلك قوله :

أكْرِمْ عجُوزَكَ إنْ كَانَتْ مُوَحِّدَةً عَلى التَّحَنُّفِ أوْ كَانَتْ بِزُنَّارِ[٢]

والزنار كتفاح : شيء يشده النصراني على وسطه .

ثم إن هناك فرقاً مختلفة من أهل النحل ، منهم من يقول بقدم العالم وعدم فنائه ؛ ومنهم من ينكر الحشر ، ومنهم من يثبته للإنسان دون الحيوان ، ومنهم ومنهم . . .

وأبو العلاء تعرض في كلامه إلى بعض الأقوال ، فنقل بعضاً منها ، ولم يبين رأيه فيها ؛ ورد على بعض آخر ، ووافق ظاهر قوله شيئاً منها ، وهذه أمثلة مجملة من ذلك وهي :

قوله :

وَدَانَ أُنَاسٌ بِالجَزَاءِ وَكَوْنِهِ وَقَالَ رِجَالٌ إنَّمَا أَنْتُمُ بَقْلُ[٣]

وقوله :

تَلاَوَمَ النَّاسُ وَافْتَنَّتْ ظُنُونُهُمُ وَأَرْجَأَ النَّاشِيءُ البَاغِي أوِ اعْتَزَلاَ[٤]

---

(١) اللزوميات هـ ص ١١٣ .
(٢) « « ص ١٥٢ .
(٣) « « ص ١٩٥ .
(٤) « « ص ٢٠٤ . ورمّ : بلي . وأزل : حبس .

وَقيلَ لاَ بعثَ يُرْجَى لِلثّوابِ وَمَا ... سَمِعْتَ فِي ذَاكَ دَعْوَى مُبْطِلٍ هزَلاَ
وَكَيْفَ لِلجِسْمِ أنْ يُدْعَى إلى رَغَدٍ ... مِنْ بَعْدِمَا رُمَّ فِي الغَبْرَاءِ أوْ أُزِلاَ

وقوله :

وأقوالُ سُكَّانِ البِلاَدِ ثَلاثَةٌ ... تَوَالَى عَلَيْها عَانِدٌ ومُلاَئِمُ[1]
فَقَوْلٌ جَزَاءٌ مَا وَقَوْلٌ تَهاوُنٌ ... وآخَرُ يُجْزَى إنْسُهُ لاَ البَهَائِمُ

وقوله :

إذَا قِيلَ غَالَ الدَّهْرُ شَيْئاً فَإنَّمَا ... يُرَادُ إلهُ الدَّهْرِ والدَّهْرُ خَادِمُ[2]

وقوله في (السقط) :

ضَلَّ الَّذِي قَالَ البِلاَدُ قَدِيمَةٌ ... بِالطَّبْعِ كَانَتْ والأنَامُ كَنَبْتِها[3]

وقوله في (اللزوم) :

إنَّ العُقُولَ تَقُولُ مُؤْلِيَةً ... لَيْسَ الأنَامُ كَنَابِتِ البَقْلِ[4]

وهذا ردٌّ على الدهريين الذين يقولون : إن العالم قديم بالطبع ، لم يزل كذلك ولم يحدث بإحداث محدث ، والناس كالنبات ، ينبتون ويعودون بالموت هشيما .

★ ★ ★

(١) اللزوميات هـ ص ٢٣٠ .
(٢) انظر ما سبق ص ١٢٧٩
(٣) شروح سقط الزند ، ق ٣ ص ١٠٣٤ .
(٤) اللزوميات هـ ص ٢٢٢ ، ومؤلية : أي حالفة من الألية وهي اليمين .

الإسلام والمسلمون

لا شك أن أبا العلاء مسلم ، مؤمن ، متق ، ناسك ، زاهد ، يؤثر الإسلام على سائر الأديان ؛ ويعتقد بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله واليوم الآخر ما يعتقده المؤمن المخلص ؛ كما تقدمت الإشارة إلى ذلك في مواطن مختلفة ، وكما سيأتي تتمة ذلك في المباحث الآتية .

وقد وقع في كلامه أمور ظاهرها أنه أنكرها ؛ إما لمخالفتها العقل في رأيه ، وإما لعدم إدراكه حكمة الشارع فيها ، وإما لخطإٍ منه في الاجتهاد والرأي ، وإما لسبب آخر . وقد سبقت الإشارة إلى شيء من ذلك . وهذا النوع ، إن كانت خصومه وضعته على لسانه أو حرفت كلماته إليه ، فهو بريء من تبعته ؛ وإن كان تعمّده فذلك لأن عقله لم يقبله . وكثيراً ما يقصر فهم المخلوق عن إدراك حكمة الخالق ، وقد يجوز أن يكون معتقداً للشيء عالماً بحكمته ، ولكنه يريد التعريض أو التهكم بخصومه أو غيرهم .

وقد تصدى في شعره إلى مناظرة أصحاب النحل من مجوس ، وفلاسفة ، ويهود ، ونصارى ، وصابئة وغيرهم ؛ وصرح بما لم يرتضه من عقائدهم ، وتلقى بعضها بالإنكار ، وبعضاً آخر بالاستخفاف والتهكم .

كما تصدى إلى كثير من الفرق التي تنتمي إلى الإسلام ، وبيّن ما في عقائدهم ، وتناول في كلامه ما لم يقبله عقله من عقائد أهل السنة . وقد ذكرنا طرفاً من أقواله في المجوس ، والصابئة ، واليهود ، والنصارى ، وشيئاً من شعره في البحث في علم الكلام . وهنا نذكر شيئاً من أقواله في الإسلام والفرق المسلمة ، ثم نتبعه بأقواله في السنة .

أقواله وآراؤه في الإسلام

ما ذكر أبو العلاء الإسلام مرة في شعره إلا وقد قرنه بما يدل على تعظيمه وتفضيله على غيره ، والاعتصام بحبله . وله مواطن كثيرة يتبرأ فيها من مذاهب وآراء وأقوال تخالف أصل الإسلام ؛ كما ان له مواقف كثيرة يحض بها على التمسك بما أمر به الإسلام من قول وعمل ، وهذه طائفة من كلامه في هذا الباب :

لعجبه ممن ينكر الإسلام : تقدمت أبيات يقول فيها :

أَفِمِلَّةَ الإِسْلامِ يُنْكِرُ مُنْكِرٌ وَقَضَاءُ رَبِّكَ صَاغَهَا وَأَتَى بِهَا [١]

قول المسلمين هو الثابت الذي يجب أن يعول عليه :

ثَلاثَةُ أَيَّامٍ لأَهْلِ تَنَافُرٍ وَلَكِنَّ قَوْلَ المُسْلِمِينَ هُوَ الثَّبْتُ [٢]
يَرَى الأَحَدَ النَّصْرِيُّ عِيداً لأَهْلِهِ وَجُمْعَتُنَا عِيدٌ لَنَا وَلَكَ السَّبْتُ

اتباع الشرع حزم :

وَجَدْنَا اتِّبَاعَ الشَّرْعِ حَزْماً لِذِي النُّهَى
وَمَنْ جَرَّبَ الأَيَّامَ لَمْ يُنْكِرِ النَّسْخَا [٣]
فَمَا بَالُ هَذَا العَصْرِ مَا فِيهِ آيَةٌ مِنَ المَسْخِ إِنْ كَانَتْ يَهُودُ رَأَتْ مَسْخَا

---

(١) انظر ما سبق ص ١٣٩٢ .
(٢) اللزوميات ﻫ ص ٥٨ .
(٣) » » ص ٨٧ .

الشرع الإسلامي ثابت لا يُنسخ :

أُحسِنْ بِهذَا الشرْعِ مِنْ مِلَّةٍ ... يَثْبُتُ لا يُنْسَخُ فِيما نُسِخْ[١]

الاسلام ليس له مثل :

وَإن لَحِقَ الإسلاَمَ خَطبٌ يَغضُّهُ ... فَماوَجدتَ مِثْلاً لَهُ نَفسُ وَاجِدِ[٢]

رأيه في النبي محمد ﷺ :

ماأعلم أن أبا العلاء ذكر النبي محمداً ﷺ في نثر ولا في نظم بما يشعر بطعن ، أو غمز ، أو تنقص أو نحو ذلك ؛ بل لا يذكره في موضع إلا وقد قرن ذكره بالصلاة عليه أو نحوها ، بما يدل على تعظيمه . وقد ذكره في (لزوم ما لا يلزم) بقوله :

وَالمرْءُ يَغشَاهُ الأذَى مِنْ حَيثُ لاَ
يَخْشَاهُ فَاعجَبْ مِنْ صُرُوفِ الأدْهُرِ[٣]
وَمُحَمَّدٌ وَهُوَ المُنبّأُ يَشتَكِي ... لِمَكَانِ أُكلَتِهِ انقِطَاعَ الأبْهَرِ

يشير إلى حادثة وقعت لما فتحت خيبر ، خلاصتها أن امرأة يهودية سألت : أي عضو من الشاة أحب إلى رسول الله ﷺ ؟ فقيل لها : الذراع . فأخذت شاة فوضعت فيها سماً وأكثرت منه في الذراع ؛ ثم

(١) اللزوميات ٥ ص ٨٩ .
(٢) « « ص ١٠٥ .
(٣) انظر ما سبق ص ١٣٩٧ والأبهر : عرق متصل بالقلب فإذا انقطع لم تبق معه حياة .

أهدتها إلى النبي - ﷺ - فلما تناول الذراع لاكَ منها مضغة ولم يسغها ، وقال لأصحابه : أمسكوا فإنها مسمومة . وكان بشر بن البراء أكل منها وأساغ لقمته فمات منها . ثم ورد عنه - ﷺ - أنه قال : « ما زالت أكلة خيبر تعادّني في كل عام حتى كان هذا أوانَ قطع أبهري » . والحديث روي بروايات متعددة في (البخاري) و (مسلم) و (النسائي) وغيرهم . والقصة مطابقة للبيت الأول تمام المطابقة ؛ وليس في البيتين تعريض ، خلافاً لما ذكره صاحب (الذكرى) .

وذكره بقوله المتقدم :

وَمَتى ذَكَرْتُ مُحَمَّداً وَكِتَابَهُ . . . . (١)

وقوله السابق :

وَلَسْتُ أَقُولُ إِنَّ الشُّهْبَ يَوْماً لِبَعْثِ مُحَمَّدٍ جُعِلَتْ رُجُوماً (٢)

وذكره في أبيات امتدحه بها أولها :

دَعَاكُمْ إِلى خَيْرِ الأُمورِ مُحَمَّدٌ وَلَيْسَ العَوَالِي فِي القَنَا كَالسَّوَافِلِ (٣)

---

(١) تمامه : « جاءتْ يهودُ بجحدها وكتابها » انظر ما سبق ص ١٣٩٢ .

(٢) انظر ما سبق ص ١٣٩٧ .

(٣) تمام الأبيات :

حداكم على تعظيم من خلق الضحى ... وشهب الدجى من طالعات وأفل
وألزمكم مـا ليس يعجز حمله ... أخا الضعف من فرض له ونوافل
وحث على تطهير جسم وملبس ... وعاقب في قذف النساء الغوافل
وحرم خمراً خلت ألباب شَربها ... من الطيش ألباب النعام الجوافل
يجرون ثوب الملك جراً وآنس ... لدى البدو أقيال النواقي الرواقل

انظر اللزوميات ٥ ص ٢١٢ .

وآخرها :

فَصَلَّى عَلَيْهِ اللهُ مَاذَرَّ شَارِقٌ وَمَا فَتَّ مِسْكاً ذِكْرُهُ في المَحَافِلِ

ما أنكر عليه من كلام ونسب بسببه إلى الكفر أو الإلحاد

في كلام أبي العلاء كثير من الأبيات التي توجب مؤاخذته ، إن صحت نسبتها إليه ، وقد قدمنا بعضاً منها . وفيه أبيات لاتوجب الحكم بكفره ؛ ولكن فريقاً من العلماء يستسهلون التكفير ولو بالشبهة ، وبعضهم خفي عليه مراد أبي العلاء فكفره على حسب ما فهم وأراد ، وبعضهم . وبعضهم ... وهذه طائفة من الأبيات التي كفّر أو فسّق بسببها .

منها قوله :

تَنَاقُضٌ مَالَنَا إلاَّ السُّكُوتُ لَهُ وَأَنْ نَعُوذَ بِمَوْلاَنَا مِنَ النَّارِ (١)

يَدٌ بِخَمْسِ مِئِينَ عَسْجَدٍ فُدِيَتْ مَا بَالُهَا قُطِعَتْ في رُبْعِ دِينَارِ

وليس في البيت الأول شيء ، بل فيه إقرار بالإله وبالنار ، واستعاذة به منها ، وتسليم لأحكامه ، أما التناقض ففي البيت الثاني في رأي الشاعر ، لأنه خفي عليه حكمة هذا الحكم . وقد قدمنا الكلام في هذا ، ونقلنا عن التبريزي أنه سأله عن معنى قوله هذا ، فقال : هذا مثل قول الفقهاء : عبادة لايعقل معناها . وإذا فرضنا أنه اعترض على القطع بربع دينار ، فذلك لايوجب تكفيره ؛ لأنه لم يعترض على القطع فقط ، بل على كونه بربع دينار ، وهذا غير مجمع عليه ، لأن من الفقهاء من جعل القطع

(١) اللزوميات هـ ص ١٥٢ .

بعشرة دراهم . فنصاب القطع ثابت بطريق الآحاد ، وإنكاره أو الاعتراض عليه لايوجب الكفر ، كما سبق القول في ذلك .

ومنها قوله :

تِلْكَ اليَهُودُ فَهَلْ مِنْ هَائِدٍ لَهُمُ والصَّابِئُونَ وَكُلُّ جَاهِلٍ صَابِي(١)

وَالإِنْسُ مَا بَيْنَ إِكْثَارٍ إِلى عَدَمٍ كَالوَحْشِ مَا بَيْنَ إِمْحَالٍ وَإِخْصَابِ

لَمْ يُثْبِتُوا بِقِيَاسٍ أَصْلَ دِينِهِمُ فَيَحْكُمُوا بَيْنَ رَفَّاضٍ وَنُصَّابِ

مَا الرُّكْنُ في قَوْلِ نَاسٍ لَسْتُ أَذْكُرُهُمْ إلاَّ بَقِيَّةُ أَوْثَانٍ وأَنْصَابِ

والبيت الأخير يحتمل أن يكون معناه : الركن بقية أوثان وأنصاب في قول أناس لست أذكرهم . فهو حكاية لقول أولئك الناس ولعله أراد بهم القرامطة ، لأن بعضهم قال : إن القرمطي أخذ الركن ليعبده ويعظمه ، لأنه بلغه أنه يد الصنم الذي جعل على خلق زحل . وسيأتي ذلك في الكلام على القرامطة . وعلى هذا الاحتمال لايكون في كلامه شيء . ويحتمل أن يكون معناه : الركن الذي يعتقده ناس .. هو بقية أوثان . فيكون ذلك قوله . والظاهر أن المراد بالركن الحجر الأسود وقد وقع تسميته بالركن في مواطن متعددة من (صحيح البخاري) وغيره . منها مارواه البخاري أن عمر بن الخطاب ـ ض ـ قال للركن : أما والله إني لأعلم

---

(١) اللزوميات هـ س ٤٨ .

أنك حجر لاتضر ولا تنفع ، ولولا أني رأيت النبي - ﷺ - استلمك مااستلمتك فاستلمه . وقد فسر الركن بالحجر .

ومنها مارواه أيضاً : طاف النبي ﷺ في حجة الوداع على بعير يستلم الركن بمحجن . وقد روى الخمسة : ولولا أني رأيت النبي ﷺ يقبلك ماقبلتك . وقد كان عمر — ض — يحب البحث عن الأشياء ، وعن معانيها ، وعن حكمتها ، فرأى أن الحجر يستلم ، ولا يظهر للحس فيه سبب يوجب ذلك ، ولا يتبين للعقل فيه رأي يوجب التعظيم فقال ماقال . ولكنه رأى أن في الاتباع حكمة وحزماً فاتبع واستلم أو قبل .

وأبو العلاء — على الاحتمال الثاني — رأى أن الحجر لايضر ولا ينفع ، وهو مع ذلك يعظم بالتقبيل والاستلام ؛ فرأى ذلك مشابهاً لما كان يفعله أهل الأوثان والأنصاب ، وقد خفيت عليه حكمة الشرع والاتباع . وأن كثيراً من الأمور المتعبد بها تخفى حكمتها على كثير من الناس . وكيفما تأولنا قول أبي العلاء لانستطيع أن نبرئه من إساءة الأدب وإساءة التعبير ، ولكننا لانستطيع أن نكفره ، لما في قوله من الاحتمال الأول الذي ذكرناه . على أنه اعترف بالتقليد في تقبيله واستلامه في قوله :

أَيُنْكِرُ التَّقْلِيدَ مُسْتَبْصِرٌ قَبَّلَ رُكْنَ البَيْتِ ثُمَّ اسْتَلَمْ(١)

ونسب ذلك إلى الحظوة والسعادة حيث قال :

وَقَدْ تَغْشَى السَّعَادَةُ غَيْرَ نَدْبٍ فَيَشْرُقُ بِالسُّعُودِ إِذَا وَدَسْنَهُ(٢)

---

(١) اللزوميات ٥ س ٥٥٨ .

(٢) » » س ٢٦٩ . وفيها : « فيعرف » .

والندب : الخفيف في الحاجة النجيب الظريف . ودس الشيء : أخفاه وغطاه . ——

وَتَقْسَمُ حُظْوَةً حَتَّى صُخُورٌ ... يُزَرْنَ فَيُسْتَلَمْنَ وَيُلْتَمَسْنَهْ
كَذَاتِ القُدْسِ أَوْ رُكْنَيْ قُرَيْشٍ ... وَأَمْرُهُنَّ أَحْجَارٌ لُطِسْنَهْ
يَحُجُّ مَقَامَ إِبْرَاهِيمَ وَفْدٌ ... وَكَمْ أَمْثَالِ مَوْقِفِهِ وُطِسْنَهْ

ومنها قوله :

قَالَ افْتِكَارٌ فِي الحَوَادِثِ صَادِقٌ ... جَعَلَ الصِّعَابَ مِنَ الأُمُورِ مُذَلَّلَهْ[1]
هَفَتِ الحَنِيفَةُ وَالنَّصَارَى مَا اهْتَدَتْ ... وَيَهُودُ حَارَتْ وَالمَجُوسُ مُضَلَّلَهْ
اثْنَانِ أَهْلُ الأَرْضِ ذُو عَقْلٍ بِلَا ... دِينٍ وَآخَرُ دَيِّنٌ لَا عَقْلَ لَهْ

يقال : « هفا » إذا أسرع وخف ، و « هفا » إذا سقط وزل . والظاهر أنه في البيت من الثاني . والمراد بالحنيفة : المسلمون . والمراد بأهل الأرض : أهلها في عصره حتى يكون الحكم على موجود . والمراد بالعقل : العقل الكامل ، وما يلزمه من دهاء وحذق في أمور الدنيا ولعل أبا العلاء يريد أن الأمر الغالب في الناس ، إما أن يكون الإنسان عاقلاً فيصرف عقله في أمور دنياه ، ويهمل مايوجبه عليه الدين . وإما أن يكون ديناً فيصرف عقله في أمور دينه ويغفل عن غيرها . وهذا القول قول شاعر ينتقد المجتمع ، وليس بقول عالم يقرر حكماً شرعياً ، أو عقيدة دينية في كتاب فقه أو توحيد ، وإذا استقرينا أحوال أهل هذا العصر ، رأينا أكثر المتدينين تغلب عليهم الغفلة . وقلما رأينا متديناً

— و اللطس : الضرب بالشيء العريض يقال : لطسه البعير بخفه .
والوطس : الضرب الشديد بالخف وقيل بغيره .

(١) اللزوميات ﻫ ص ٢٠٦ وفيها : « ... جعل الصعاب من الحذار مذلله » .

غير غافل ؛ والنادر لاحكم له . وقد ورد في حديث « أكثر اهل الجنة البله » . فظن معظم المتدينين أنه صحيح ، فمن لم يكن منهم أبله حقيقة تباله ليري الناس أنه من أهل الجنة . وهذا أيضاً من البله . والحديث المذكور ضعفه جماعة ، وقال ابن عدي : إنه منكر . وقد قال الغزالي : « الأبله البليد في أمور الدنيا ، لأن قوة العقل لاتفي بعلوم الدنيا والآخرة جميعاً ؛ وهما علمان متنافيان . فمن صرف عنايته إلى أحدهما قصرت بصيرته عن الأخرى على الأكثر . . . ولذلك ترى الأكياس في علم الدنيا ، وفي علم الطب ، والهندسة ، والحساب ، والفلسفة ، جهالا في أمور الآخرة . والأكياس في دقائق علوم الآخرة جهالا بعلوم الدنيا غالباً لعدم وفاء قوة العقل . فيكون أحدهما مانعاً من الكمال في الثاني . ولذلك قال الحسن : أدركنا أقواماً لو رأيتموهم لقلتم : مجانين ، ولو رأوكم لقالوا : شياطين . فمهما سمعت أمراً غريباً من أمور الدين جحده أهل الكياسة ، أو في سائر العلوم فلا ينفرنك جحودهم عن قبولها إذ من المحال أن يظفر سالك طريق الشرق بما يوجد في الغرب . فكذا مجرى أمر الآخرة . فالجمع بين كمال الاستبصار في مصالح الدنيا والدين لايكاد يتيسر إلا لمن سخره الله لتدبير عباده في معاشهم ومعادهم ، وهم الأنبياء المؤيدون بروح القدس ، أما قلوب غيرهم فإذا اشتغلت بأمر الدنيا انصرفت عن الآخرة وعكسه » اهـ .

وأبو العلاء في هذه الأبيات نسب الهفوة إلى الحنيفة ؛ وقسم أهل الأرض إلى قسمين . أما نسبة الهفوة فلا توجب التكفير ، لأنه لم يبين أنها في أي شيء ليعلم حكمه . وأما تقسيم الناس على ما ذكرنا ، فلا يوجب التكفير أيضا ؛ لأنه لا دليل لدينا يدل على أنه يريد بالورى ما يشمل الماضي والحاضر حتى يدخل الأنبياء فيهم . وقد قلنا : إن المراد بالورى أغلبهم ، والنادر لا حكم له . وفي هذه من روعة التقسيم ، وجمال الأسلوب ، وطلاوة

الديباجة ما لا يعرفه إلا الراسخون في علم الأدب . وفيها من مطابقة الواقع ما لا يستطيع إنكاره إلا مكابر . وأظن أن أبا العلاء لو كان حياً ورأى طائفة من أبناء هذا العصر لزاد قسماً ثالثاً ، وهو الذي لا دين فيه ولا عقل له .

ومنها قوله :

طَأْ بِالحَوَافِرِ قَتْلَى في مَصَارِعِهَا فالجِسْمُ بَعْدَ فِراقِ الرُّوحِ كَالمَدَرِ (١)

وقوله :

لَوْ شُكَّ بِالطَّعْنِ مَيْتٌ لَمْ يَجِدْ أَلَمَاً
فَالرُّمْحُ فِيهِ كَإِشْفَى الخَرْزِ في الأَدَمِ (٢)

إلى آخر الأبيات المتقدمة ، وأشباهها من الأبيات الدالة على أن الجسم يفقد الحس بعد مفارقة الروح . وقد استدل بعض المتشددين بهذه الأبيات وأشباهها على أن أبا العلاء ينكر سؤال الملكين ، وما يكون في القبر من لذة وألم ونعيم وعذاب . وهذا الاستدلال باطل لأمرين .

الأول : أن أبا العلاء صرح بسؤال الملكين في مواضع من شعره كقوله في (اللزوم) :

خَلِّصِيني مِنْ ضَنْكِ مَا أَنَا فِيهِ وَاطْرَحِيني لِمُنْكَرٍ وَنَكِيرِ (٣)

وقوله :

وَاسْتَرَاحُوا مِنْ ضَغْطَةِ القَبْرِ مَيْتاً وَسُؤَالٍ لِمُنْكَرٍ وَنَكِيرِ (٤)

وغيرهما مما تقدم ذكره ومما لم يذكر .

---

(١) انظر ما تقدم ص ١٣٣٢ .
(٢) انظر ما تقدم ص ١٣٣٠ .
(٣) اللزوميات هـ ص ١٦٦ .
(٤) انظر ما سبق ص ١٤٠٢ .

الثاني : أن كلمة الجمهور من المسلمين متفقة على فناء الجسم إلا بعضاً منه منصوصاً عليه . وأن الروح تفارق الجسم ، والحياة عرض يلازم وجوده في البدن تعلق الروح به . فإذا فارقته الروح فارقته الحياة ، ولا يخفى أن اللذة والألم فرع الحياة ؛ ولذلك أنكر سؤال القبر وعذابه ونعيمه جماعة من المعتزلة وغيرهم . قالوا : لأن ذلك يقتضي إعادة الحياة إلى البدن ، لفهم الخطاب ،والجواب ، وإدراك اللذة والألم ، وهذا منتف بالمشاهدة .

وأجاب بعض أهل السنة أنه يقتضي إعادة الحياة إلى الجزء الذي به فهم الخطاب ، ورد الجواب ؛ وهذه المسألة فيها اختلاف مبسوط في كتب التوحيد . وكلها ظنية ليس فيها دليل قاطع . وأبو العلاء قال بفناء الأجسام وذهاب الحس منها بعد مفارقة الروح ، ولم يتعرض إلى ما بعد ذلك . ولا يلزمه أن لا تعود الروح عند الحاجة للخطاب أو غيره إلى البدن كله أو بعضه ، لأنها لو عادت لا تكون مفارقته فيسعه ما يسع المتنبي في قوله :

. . . . مَا لِجُرْحٍ بِمَيِّتٍ إِيلاَمُ [1]

ومنها قوله :

وَأَعْطِ أَبَاكَ النِّصْفَ حَيًّا وَمَيِّتاً وَفَضِّلْ عَلَيْهِ مِنْ كَرَامَتِهَا الأُمَّا [2]

ونحوه من الأبيات المتعلقة ببر الوالدين ، وتفضيل الوالدة على الوالد ، فقد زعم فريق أنه اعترض على الشريعة في أحكام الميراث من وجهين : إعطاء النصف ، وتفضيل الأم على الأب . ومن البديهي أن أبا العلاء في هذه الأبيات لا يريد سن قانون للميراث ، وإنما يريد أن يبين للولد ما يجب عليه من الحقوق

---

(١) صدره : « من يهن يسهل الهوان عليه ... » ديوانه ص ١٦٤ من طبعة بيروت .

(٢) اللزوميات ٥ ص ٢٣٨ .

لوالديه في حياته وبعد مماته . وأنه يجب عليه أن لا يقتصر في البر على القدر الذي خصصه الشارع لكل منهما بعد وفاة الولد ، ولا يريد مناقضة الشرع ، ولو أراد ذلك لحصر القول في الميراث بعد الموت . وأما سبب تفضيل الأم فقد بينه بقوله بعد البيت المتقدم :

أَقَلَّكَ خِفًّا إذْ أَقَلَّتْكَ مُثْقِلاً ... وَأَرْضَعتِ الحَوْلَيْنِ وَاحْتَمَلَتْ تِمَّا[1]

وَأَلْقَتْكَ عَنْ جَهْدٍ وَأَلْقَاكَ لَذَّةً ... وَضمَّتْ وَشَمَّتْ مِثْلَمَا ضَمَّ أَوْ شَمَّا

وبقوله من قصيدة أخرى .

العَيْشُ مَاضٍ فَأَكْرِمْ وَالِدَيْكَ بِهِ ... وَالأُمُّ أَوْلَى بِإِكْرَامٍ وَإِحْسَانِ[2]

وَحَسْبُهَا الحَمْلُ وَالإِرْضَاعُ تُدْمِنُهُ ... أَمْرَانِ بِالفَضْلِ نَالا كُلَّ إِنْسَانِ

وقد جاءت الشريعة الإسلامية بالحض على بر الوالدين ، وإيثار الأم على الأب . من ذلك قوله ﷺ : « لايجزي ولد والداً إلا أن يجده مملوكاً فيشتريه ويعتقه » . وهذا الحديث صحيح ، رواه البخاري في الأدب ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذي . ومنه قوله ﷺ لرجل قال له : يارسول الله من أبرُّ ؟ فقال : أمك ، ثم أمك ، ثم أمك ، ثم أباك ، ثم الأقرب فالأقرب . وهذا حديث صحيح رواه أحمد ، وأبو داود ، والترمذي ، والحاكم ، وابن ماجة . وقد قال بعض العلماء : كرره للتأكيد وإشعاراً بأن لها ثلاثة أمثال ما للأب من البر لما تكابده من المشاق والمتاعب في الحمل والفصال في تلك المدة المتطاولة ، فهو إيجاب للتوصية بالوالدة خصوصاً ، وتذكير لحقها العظيم مفرداً . إذ لها من الحقوق مالا يقام به كيف ، وبطنها له

---

(١) اللزوميات ﻫ س ٢٣٨ .

(٢) « « س ٢٧٦ .

وعاء ، وحجرها له حواء ، وثديها له سقاء . وورد في حديث آخر : « الجنة تحت أقدام الأمهات » ، وهذا الحديث أخرجه النسائي ، وابن ماجة ، وأحمد ، والحاكم ، وصححه . وكتب السنة طافحة بمثل هذا الحض والإيثار . وأبو العلاء طبع على غرار السنّة في قوله ؛ ولم يُرد مناقضة للشرع ولا اعتراضاً عليه .

ومنها قوله :

حَيْرَانُ أَنْتَ فَأَيَّ النَّاسِ تَتَّبِعُ
تَجْرِي الْحُظُوظُ وَكُلُّ حَادِثٍ طَبَعُ[1]

وَالأُمُّ بِالسُّدْسِ عَادَتْ وَهْيَ أَرْأَفُ مِنْ
بِنْتٍ لَهَا النِّصْفُ أَوْ عِرْسٍ لَهَا الرُّبُعُ

الأم ترث السدس مع الولد أو ولده ؛ أو مع أخوين أو أختين فصاعدا . والبنت تأخذ النصف إذا لم يكن لها أخ أو أخت فأكثر . والزوجة تأخذ الربع عند عدم الولد أو ولد الابن . وأبو العلاء علم ماتقاسيه الأم من العناء في حمل الطفل وتربيته إلى أن يبلغ أشدّه ، وعلم أن الزوجة والبنت لاتقاسيان معشار ماتحتمله الأم ، وهي مع ذلك أرأف به منهما ، وأحرص على سلامته وراحته منهما . ورأى الميراث لايجري على قدر التعب والرأفة ولم يفطن إلى حكمة الشارع في ذلك فأضافه إلى الحظ . وكثيراً مايضيف الرفعة والسعادة إلى الحظ . وليس في ذلك مايوجب الكفر ، وإن كان

---

(١) اللزوميات ح ص ٢٨٢ وفيها : « . . . وكل جاهل طبع » ورجل طبع : ذو خلق دنيء .

ظاهره اعتراضاً على الشرع ، لأنه إخبار بالواقع ، ولكنه لم يفقه الحكمة فيه .

ومنها قوله :

كمْ صَرَفَ المَوْلودُ عَنْ وَالِدٍ خَيْراً وكَمْ أُمٍّ لَهُ لَمْ يَمُنْ[1]
الرُّبعُ للزَّوْجَةِ إنْ لَمْ يَكُنْ نَسْلٌ فإنْ كَانَ غدَتْ بالثُّمُنْ
والزَّوْجُ يَزْوِي النِّصْفَ أبْنَاؤُهُ عَنْهُ وفي الدَّهْرِ خُطُوبٌ كُمُنْ

وهذا ليس فيه شيء ، بل هو مطابق للحقيقة والواقع . وقد أراد أبو العلاء أن يستنبط منها أن الولد يصرف الخير عن أبيه ، ليؤيد بذلك مذهبه في كراهة النسل والتنفير منه .

ومنها قوله :

صَرْفُ الزَّمانِ مُفَرِّقُ الإلْفَيْنِ فَاحْكُمْ إلهي بَيْنَ ذَاكَ وَبَيْنِي
أنَهَيْتَ عَنْ قَتْلِ النُّفُوسِ تَعَمُّداً وَبَعَثْتَ تَقْبِضُهَا مَعَ المَلَكَيْنِ
وَزَعَمْتَ أنَّ لَهَا مَعَاداً ثَانِياً مَا كَانَ أغْنَاهَا عَنِ الحَالَيْنِ

وهذه الأبيات ليست في شيء من كتبه التي وصلت إلينا ، وإنما نقلها العلماء بروايات مختلفة . فرواها الصفدي في (الوافي) على هذا الوجه . وفي (نكت الهميان) . « وَبَعَثْتَ تَأخُذُهَا .. » وفي الذهبي ، والقفطي ، والعَيْني : « وبعثت أنْتَ لقَبْضِها .. » . وفي

---

(١) اللزوميات ٥ ص ٢٨٢ . ولم يمن : من مانه يمونه موناً إذا احتمل مؤونته وقام بكفايته . وزوى الشيء يزويه : إذا قبضه ومنعه ، وكمن : أي مستترة .

(مرآة الزمان) و (البداية والنهاية) : « وبعثت تقبضها . . » وفي ياقوت : « وبعثت أنت اقتلها . . » وفي (المنتظم) : « وبعثت أنت لأهلها . . »[١] ورواها غيرهم على مثل هذه الوجوه ، واستدلوا بها على كفره وإنكاره الحشر ، وإذا تأملت الأبيات على رواية « وبعثت تقبضها » ، أو « اقبضها » أو « تأخذها » لاتجد فيها شيئاً يوجب الكفر ، لأن فيها اعترافاً بالإله ، وطلباً لحكمه ، ورضى به ، وإثباتاً للملك والمعاد ، لأنه أحد الحالين . وإنما فيها إساءة تعبير بقوله : « أنهيت . وزعمت » وتزيد على رواية : « وبعثت أنت لقتلها » الإساءة بالتعبير بلفظ القتل ، هذا إذا صحت نسبة الأبيات إليه . وإذا استشهدنا أسلوب الأبيات يشهد بأن أبا العلاء لاعلم له بها . وسيأتي القول فيها في الحشر .

* * *

---

(١) انظر تعريف القدماء بأبي العلاء الصفحات : ٢٨٣ و ٢٩١ و ١٩٣ و ٥٦ ـ ٥٧ و ٣٢٥ و ١٤٥ و ٣٠٦ و ١١٨ و ٢٥ . عن الوافي بالوفيات ـ للصفدي ونكت الهميان ـ له ، وتاريخ الإسلام ـ للذهبي ، وإنباه الرواة على أنباه النحاة ـ للقفطي ، وعقد الجمان ـ للعيني ، ومرآة الزمان ـ لسبط ابن الجوزي ، والبداية والنهاية ـ لابن كثير ، وإرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ـ لياقوت ، والمنتظم ـ لابن الجوزي .

الفرق المسلمة

بعد أن افترقت كلمة المسلمين في السياسة تشعبت آراؤهم في الدين ، وتعددت بذلك الفرق ؛ وصدق قول النبي ﷺ في حديث صحيح رواه أبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجة ، والحاكم وهو : « افترقتِ اليهودُ على إحدى وسبعينَ فرقةً ، وتفرقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة ، وتفرقت أمتي على ثلاث وسبعين فرقة » وجاء في رواية : « كلها في النار إلا واحدة هي ما أنا عليه اليوم وأصحابي » وقد اختلف في أصول هذه الفرق . وليس من غرضنا إيضاح الأصول والفروع ؛ واستيفاء الكلام فيها ، وإنما غرضنا أن نذكر الفرق التي تصدى أبو العلاء في كلامه إلى ذكرها ، أو انتقدها في بعض آرائه . من هذه الفرق :

المعتزلة :

هم أصحاب واصل بن عطاء ، اعتزل عن مجلس الحسن البصري ؛ وأخذ يقرر على جماعة أن مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن ولا كافر ؛ ويثبت له المنزلة بين المنزلتين . فقال الحسن : اعتزل عنا واصل . فلذلك سمي هو وأصحابه « معتزلة » ، وقد لقبوا أنفسهم بأصحاب العدل والتوحيد . وقد اتفقوا على أشياء ، وخالف بعضهم بعضاً في أشياء ؛ فتعددت فرقهم . وقد ذكرها الشهرستاني في (الملل والنحل) والقاضي عضد الدين الإيجي في كتاب (المواقف ج ٧ ص ٣٧٧) .

وقد اشتهرت عنهم أمور ، منها : أنهم يقولون : إن للفعل في نفسه حُسْناً وقُبْحاً ذاتيين ، أي تقتضيها ذات الفعل . وإن العقل قد يستقل

بدركها ، فيعلم حكم الله فيه باعتبارهما . وقد لايستقل ، فلا يحكم بشيء حتى يرد الشرع فيكشف عن ذلك الحسن والقبح . وبنوا على إثبات الحُسْنِ والقُبْح للفعل أشياء أوجبوها على الله ، منها وجوب الأصلح ، ووجوب الرزق ، ووجوب الثواب على الطاعة ، والعقاب على المعصية ، ووجوب العوض في إيلام الأطفال والبهائم . وتفرع على ذلك إيجابهم على الله أن يقتص لبعض الحيوان من بعض . واختلفوا في وجه ذلك ، فقيل : إن الله يحشرها يوم القيامة ، ويجازيها إما في الموقف أو في الجنة ، أو في جنة تخصها . ولهم أشياء أخر مبسوطة في كتب الكلام . وقد خالفتهم الأشاعرة في كل ذلك . ولبعض فرق المعتزلة آراء سخيفة ، منهم الحائطية من أصحاب النظّام ، فإنهم قالوا : للعالم إلهان : قديم ومحدث . ومنهم الحدثية ، وافقوا الحائطية ، وزادوا عليهم التناسخ ، وأن كل حيوان مكلف .

أبو العلاء والمعتزلة

يخالف أبو العلاء المعتزلة في كثير من آرائهم ، وإن كان يوافقهم في التعويل على العقل ، وبسط آرائه في ذلك يحتاج إلى إطالة ، فنجتزىء بإيراد أقواله الدالة على رأيه فيهم وفي اعتقادهم تصريحاً أو تلميحاً . قال في (رسالة الغفران ص ١٥٥)[١] : « كم متظاهر باعتزال ، وهو مع المخالف في نزال ، يزعم أن ربه على الذرة يُخلد في النار ، بلهَ الدرهم . . . والدينار ، وما ينفك يحتقب من المآثم عظائم . . ينهمك على العهار والفِسق . . . يقنت على رهط الإجبار ، ويُسنِد إلى عبد الجبار . . .

---

(١) انظر الغفران ط أمين هندية ص ١٥٥ — ١٥٦ وانظر الغفران تحقيق بنت الشاطىء ط ١ ص ٤٠٥ — ٤٠٦ .

ويضمر أن شيخ المعتزلة غير طاهر الرُّدن ولا الذيل ، قد صير الجدل مصيدة . . . وحدثت عن شيخ لهم يوقر ويتبع ، كان إذا جلس في الشراب ... وجاءه القدح شربته فاستوفاه وأشهد من حضره على التوبة لما اقتفاه ... » .

وقال في (لزوم مالا يلزم) :

وَمُعْتَزِلِيٍّ لَمْ أُوَافِقْهُ سَاعَةً أَقُولُ لَهُ فِي اللَّفْظِ دِينُكَ أَجْزَلُ[1]
أُرِيدُ بِهِ مِنْ جُزْلَةِ الظَّهْرِ لَمْ أُرِدْ مِنَ الْجَزْلِ فِي الأَقْوَالِ تَلْوِى وَتُجْزَلُ

وقال :

إِلَهٌ قَادِرٌ وَعَبِيدُ سُوءٍ وَجَبْرٌ فِي الْمَذَاهِبِ وَاعْتِزَالُ[2]

وقال :

أَرْجُوا أَوِ اعْتَزِلُوا فَإِنِّي عَنْ مَقَامِكُمُ بِمَعْزِلْ[3]

ومثل قوله :

فَإِنَّ جَنَّةَ عَدْنٍ لاَ يُجَادُ بِهَا إِلاَّ لِصَاحِبِ دِينٍ فِي أَذَى عَدَنَا[4]

يشعر ظاهره أنه يقول بوجوب الثواب والعقاب ، كما هو مذهب المعتزلة .

---

(١) اللزوميات ﻫ ص ١٩٥ . جزلة الظهر : الجزل محركة أن ينطع القتب غارب البعير . والجزل : بسكون الزاي خلاف الركيك من الألفاظ .

(٢) اللزوميات ﻫ ص ١٩٨ .

(٣) تتمة القول في هذا ، وترجمة هؤلاء الرجال في الكلام على اعتراضه على أهل الكلام والعقائد وما رآه فيهم (ج) وانظر ما سبق ص ١٣١٩ .

(٤) اللزوميات ﻫ ص ٢٦٥ ، وعدن بالمكان : أقام .

الشيعة

هم طائفة من المسلمين شايعوا علياً ــ رض ــ على الخصوص ، وقالوا بإمامته وخلافته نصاً ووصاية . واعتقدوا أن الإمامة لاتخرج من أولاده . وإن خرجت فبظلم يكون من غيره ، أو بتَقيّةٍ من عنده . وهم فرق : يميل بعضهم في الأصول إلى الاعتزال ، وبعضهم إلى السنة ، وبعضهم الى التشبيه . على ماقاله في (الملل والنحل) . فمنهم : الكيسانية ، والإمامية والإسماعيلية ، وهم الباطنية ، ولهم ألقاب كثيرة . فبالعراق يسمون الباطنية ، والقرامطة ، والمزدكية . وبخراسان : التعليمية ، والملحدة ؛ وهم يقولون : نحن إسماعيلية . (الملل والنحل ج ٢ ص ٢٩) .

وقد ذكر أبو العلاء طائفة منهم ، وروى طرفاً من أخبارهم وعقائدهم في (رسالة الغفران) و (لزوم ما لا يلزم) .

منها في (رسالة الغفران ص ١٤٠)[١] قصة رجل دعا أصدقاء له من المتشيعة ، فجاء صديق له زنديق وأنشده هذا البيت :

أَصْبَحْتُ جَمَّ بَلابِلِ الصَّدْرِ مُتَقَسَّمَ الأَشْجَانِ وِالفِكَرِ[١]

وفي (ص ١٤٩) ادعاء من يدعي أن علياً ــ ض ــ قال : تهلك البصرة بالزنج ، فصحفه أهل الحديث[٢] بالريح . ومنها قوله في (ص١٥٢) عند كلامه في الحلاج ومذهب الحلولية ... : « وتؤدي هذه النحلة إلى التناسخ ، وهو مذهب عتيق يقول به أهل الهند . وقد كثر في جماعة من الشيعة »[٣]

---

(١) الغفران ط أمين هندية وانظر الغفران تحقيق بنت الشاطئ ط ١ ص ٣٦٧ .
(٢) وانظر الغفران تحقيق بنت الشاطئ ط ١ ص ٣٨٧ .
(٣) « « « « « ط ١ ص ٣٩٧ .

ثم إنشاده أبياتاً للنصيرية في التناسخ . وقوله (ص ١٥٥) : « ... والإمامية تقربوا بالتعفير فعده بعض المتدينة ذنباً ليس بغفير »[١] ، والإمامية هم القائلون بإمامة علي ـ ض ـ بعد النبي ﷺ ، ولم يثبتوا بعد الحسن والحسين وعلي بن الحسين على رأي واحد . بل كان اختلافهم أكثر من اختلاف الفرق كلها ، حتى قال بعضهم : إن نيفاً وسبعين فرقة من الفرق المذكورة في الخبر هو في الشيعة خاصة . ومن عداهم فهم خارجون عن الأمة .

وقوله في (ص ١٥٦) : « والشيعة يزعمون أن عبد الله بن ميمون القداح ، وهو من باهلة ، كان من علية أصحاب جعفر بن محمد ثم ارتد بعد ذلك »[٢] وروى له أبياتا ...

وقوله (ص ١٦٧)[٣] : « أما الذين يدعون في علي ـ ض ـ مايدعون فتلك ضلالة قديمة ، ودية من الغواية تتصل بها ديمة . وقد روي أنه حرق عبد الله بن سبأ ، لما جاهر بذلك النبأ » .

---

(١) وانظر الغفران تحقيق بنت الشاطىء ط ١ ص ٤٠٤ .

(٢) « « « « « ط ص ٤٠٧ ـ ٨ .

والأبيات :

هات اسقني الخمرة يا سنبر ... فليس عندي أنني أنشر

أما ترى الشيعة في فتنة ... يغرهـا من دينها جعفر

قد كنت مغروراً بـه برهة ... ثم بدا لي خبر يستر

ومما نسب اليه :

مشيت إلى جعفر حقبة ... فألفيته خادعاً يخلب

يجر العلاء إلى نفسه ... وكل إلى حبله يجذب

فلو كان أمركم صادقاً ... لما ظل مقتولكم يسحب

ولا غض منكم عتيق ولا ... عما عمر فوقكم يخطب

(٣) وانظر الغفران تحقيق بنت الشاطىء ط ١ ص ٤٣٩ .

وقال في (ص ١٦٨)[١] : « واعتقاد الكيسانية في محمد بن الحنفية عجيب ، لايصدق بمثله نجيب . . وعليّ له سابقة ،ومحاسن كثيرة رائقة ، وكذلك جعفر بن محمد ، ليس شرفه بالثمد » .

والكيسانية أصحاب كيسان مولى علي - ض - وقيل تلميذ محمد ابن الحنفية ، يعتقدون فيه الإحاطة بالعلوم ، والاقتباس من السيدين الأسرار بجملتها .

وقوله في (ص ١٦٩)[٢] : « وبعض الشيعة يحدث أن سلمان الفارسي في نفر معه جاءوا يطلبون علي بن أبي طالب - سلام الله عليه - فلم يجدوه في منزله ؛ فبينا هم كذلك جاءت بارقة تتبعها راعدة ، وإذا علي قد نزل على إجّار البيت ، في يده سيف مخضوب بالدم . فقال : وقع بين فئتين من الملائكة فصعدتُ الى السماء لأصلح بينها . والذين يقولون هذه المقالة يعتقدون أن الحسن والحسين ليسا من ولده ، فحاق بهم العذاب الأليم . أفلا يرى الى هذه الأمة كيف افتنّت في الضلالة كافتنان الربيع في إخراج الأكلاء ، والوحش الراتعة في تربيب الأطلاء . والكذب سوق ليست للصدق ، تجعل الأسد من أبناء الفِرْق . . . »

وفي (لزوم ما لا يلزم) كثير من الأبيات التي تتعلق بمذاهب الشيعة وآرائها ، وهو يبين رأيه في كثير من مَتنازعها ، فهو ينكر أن يكون قبر الامام بكوفان أي الكوفة حيث يقول :

وَمَا صَحَّ لِلْمَرْءِ المُحَصَّلِ أنهُ   بِكُوفَانَ قَبْرٌ لِلإمَامِ يُزَارُ[٣]

---

(١) وانظر الغفران تحقيق بنت الشاطئ ص ٤٤٠ .

(٢) « « « « « « ص ٤٤٥ - ٨ .

(٣) اللزوميات ه ص ١٢١ .

ولا ينكر الجفر وما زعموه فيه ، فيقول :

لَقَدْ عَجِبُوا لِأَهْلِ البَيْتِ لَمَّا ... أَتَاهُمْ عِلْمُهُمْ فِي مَسْكِ جَفْرِ (١)

وَمِرْآةُ المُنَجِّمِ وَهْيَ صُغْرَى ... أَرَتْهُ كُلَّ عَامِرَةٍ وَقَفْرِ

ويقول مرة أخرى :

يَقُولُونَ مَسْكُ الجَفْرِ أَوْدِعَ حِكْمَةً

إِذَا كُتِبَتْ أَطْرَاسُهَا مَلَأَتْ جَفْرَا (٢)

ولا يميل مع من يتعصب لأبي بكر أو لعلي – ض – فيقول :

ضَمِنْتُ فُؤَادِي لِلْمَعَاشِرِ كُلِّهِمْ

وَأَمْسَكْتُ لَمَّا عَظَّمُوا الغَارَ أَوْ خُمَّا (٣)

---

(١) المسك : الجلد . والجفر : ولد المعزى إذا بلغ أربعة أشهر وفصل عن أمه وأخذ في الرعي . وقد تقدم معنى الجفر في الكلام على دينه . (ج)
وانظر اللزوميات هـ ص ١٥٤ .

(٢) اللزوميات هـ ص ١٣٦

(٣) المراد بالغار هنا : غار في جبل ثور بمكة أوى اليه النبي صلى الله عليه وسلم إذ أخرجه قومه فخرج هو وأبو بكر – ض – وقد جاء في القرآن الكريم في الآية ٤٣ من سورة براءة : « إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم » . وخم : موضع فيه غدير وعين وبينهما مسجد للنبي صلى الله عليه وسلم خطب فيه النبي صلى الله عليه وسلم وقال : من كنت مولاه فعلي مولاه ، أي وليه –

ويقول أيضاً :

شِيَعٌ أجلَّتْ يومَ خُمٍّ وانثنتْ أُخرى تُعارِضُها بيومِ الغارِ (١)

وهذا يدل على أنه غير راض عن تفرق الكلمة والأهواء ، وأدل من هذا على عدم رضاه بالتفرقة بين المسلمين قوله :

لَعَمْرُكَ مَا أُسَرُّ بيومِ فِطْرٍ ولاَ أضحى ولاَ بغديرِ خُمِّ

وكَمْ أبدى تشيُّعَهُ غويٌّ لأجلِ تنسُّبٍ ببلادِ قُمِّ (٢)

فالشيعة تحتج لتفضيل عليّ على أبي بكر بيوم خم . وأهل السنة يحتجون لتفضيل أبي بكر على عليّ بيوم الغار ؛ لأن المشركين طلعوا فوق الغار فأشفق أبو بكر على النبي ﷺ فقال له : ماظنك باثنين الله ثالثهما ؟

وأبو العلاء ضمن قلبه للفريقين ، وأمسك عن القول لمّا تعارض الفريقان ، ولم يفرح بيوم خم الذي اتخذه الشيعة عيداً ، كما لم يفرح بيومي الفطر والأضحى اللذين اتخذهما المسلمون عيدين ، لأن الحياة كلها تعب ، وأيامها كلها بؤس وحزن باعتبار مايقع فيها من المحزنات ، وما يعقبها من الأكدار والأهوال المخيفة . وظاهر قوله أنه لايتعصب لفريق دون آخر .

ـ وناصره . وهذا الحديث رواه الإمام أحمد وابن ماجة والترمذي والنسائي والضياء المقدسي . قال الهيثمي : رجال أحمد ثقات ، وقال في موضع آخر : رجاله رجال الصحيح (ع) . وانظر اللزوميات ٥ ص٢٣٩ .

(١) اللزوميات ٥ ص ١٦٤ .

(٢) قم : بلدة بين ساوة وقاشان افتتحها أبو موسى الأشعري بعد انصرافه من نهاوند إلى الأهواز سنة ٢٣هـ وبدأ تمصيرها في أيام الحجاج سنة ٨٣ هـ وكان عبد الله بن سعد ابن مالك بن عامر الأشعري امامياً ربي بالكوفة فانتقل إلى قم ونقل التشيع إلى أهلها فلهس فيها سني فلعل أبا العلاء أراد هذا (ع) . انظر اللزوميات ٥ ص ٢٥١ .

وينكر مجيء الإمام المنتظر ، كما تقدم في الأبيات التي يقول فيها :

يَرْتَجِي النَّاسُ أنْ يَقُومَ إمَامٌ ... نَاطِقٌ في الكَتِيبَةِ الخَرساء[1]

إلى آخر الأبيات . وكما يدل عليه قوله :

رَجَوْا إمَاماً بِحَقٍّ أنْ يَقُومَ لَهُمْ ... هَيْهَاتَ لاَ بَلْ حُلُولٌ ثم مُرْتَحَلُ[2]

وَلَنْ يَزَالُوا بِشَرٍّ في زَمَانِهِمُ ... مَا دَامَ فَوْقَهُمُ المَرِّيخُ أوْ زُحَلُ

ويعتقد فريق من الإثني عشرية أن الإمام القائم المنتظر غاب وسيجيء فلما طال الأمد قالوا : إن الغيبة امتدت مائتين ونيفاً وخمسين سنة . وصاحبنا قال : إن خرج القائم وقد طعن في الأربعين فليس بصاحبكم ، ولسنا ندري كيف تنقضي مائتان وخمسون سنة في أربعين ؟ وإذا سئل القوم عن مدة الغيبة كيف تتصور قالوا : أليس الخضر وإلياس يعيشان في الدنيا من آلاف سنة . لايحتاجان إلى طعام وشراب . فَلِمَ لا يجوز

---

(١) تمامها :

كذب الظن لا إمام سوى العقـــل مشيراً في صبحه والمساء

فإذا ما أطعته جلب الرحـــمة عند المسير والإرساء

إنما هذه المذاهب أسبا ... ب لجذب الدنيا إلى الرؤساء

غرض القوم متعة لا يرقو ... ن لدمع الشماء والخنساء

كالذي قام يجمع الزنج بالبصـــرة والقرمطي بالأحساء

فانفرد ما استطعت فالقائل الصا ... دق يضحي ثقلاً على الجلساء

انظر اللزوميات ١ ص ٢٦ .

(٢) اللزوميات ٢ ص ١٩٦ .

ذلك في أحد من أهل البيت ؟ وقد رد عليهم أهل السنة . راجع تفصيل ذلك في (الملل والنحل ج ٢ ص ٩) . وقد أشار أبو العلاء إلى هذا بأبيات يقول فيها :

أَلاَ تَتَّقُونَ اللهَ رَهْطَ مُسَلّمٍ ... فَقَدْ جُرْتُمُ في طَاعَةِ الشَّهَوَاتِ[1]

. . . .

عَمَدْتُمْ لِرَأْيِ المَثْنَوِيَّةِ بَعْدَ مَا ... جَرَتْ لَذَّةُ التَّوْحِيدِ في اللَّهَوَاتِ

. . . .

جَعَلْتُمْ عَلِيّاً جُنةً وَهْوَ لَمْ يَزَلْ ... يُعَاقِبُ مِنْ خَمْرٍ عَلى حَسَوَاتِ

. . . .

وَأَعْذَرُ مِنْ نِسْوَانِكُمْ في احْتِمَالِهَا ... فُضُوحَ الرَّزَايَا آتُنُ الفَلَوَاتِ

. . . .

تَهَاوَنْتُمْ بالذِّكْرِ لَمَّا أَتَاكُمُ ... وَلَمْ تَحْفِلُوا بالصَّوْمِ والصَّلَوَاتِ

رَجَوْتُمْ إمَاماً في القِرانِ مُضَلَّلاً ... فَلَمَّا مَضَى قُلْتُمْ إلى سَنَوَاتِ

كَذَاكَ بَنُو حَوَّاءَ بَرٌّ وَفَاجِرٌ ... وَلاَ بُدَّ لِلأَيَّامِ مِنْ هَنَوَاتِ

صاحب الزنج

هو رجل أصله من عبد القيس ، جاء البحرين سنة ٢٤٩ هـ ، وزعم أنه علي بن محمد بن أحمد بن علي بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي ابن أبي طالب رضي الله عنه .

ودعا الناس إلى طاعته ، فتبعه قوم دون آخرين . وحدثت فتنة بسبب ذلك ؛ فانتقل إلى حي من تميم ، وعظم أمره ، وجبوا له الخراج . ثم تحوّل إلى البادية ، ومعه جماعة من أهل البحرين ، منهم مولى لبني حنظلة أسود

---

(١) اللزوميات ٥ ص ٦٥ ـ ٦٦ .

يقال له : سليمان بن جامع وهو قائد جيشه . ثم أقام حولاً في بغـداد يستميل الناس . ثم رحل إلى البصرة سنة ٢٥٥ هـ وأغوى العبيد الذين يعملون في تلك النواحي ، ووعدهم إن ساعدوه أن يجعل منهم القواد والرؤساء ، ويملكهم الأموال والمنازل ، وأخذ يعيث في تلك الجهات . ثم أحرق مدينة الأُبُلّة ، واستولى على عبادان والأهواز . ثم أوقع بالبصرة سنة ٢٥٧ هـ ، فقتل كثيراً من أهلها ، وخرب أكثرها ؛ وحاربه الخليفة غير مرة ثم قتله سنة ٢٧٠ هـ . وكان يقول : أوتيتُ في تلك الأيام بالبادية آيات من آيات إمامتي ظاهرة للناس . منها أني لقنت سوراً من القرآن ، فجرى بها لساني في ساعة ، وحفظتها في دفعة واحدة منها « سبحان » و« الكهف » و « ص » ، ومنها أني فكرت في الموضع الذي أقصده حيث نبت بي البلاد ، فأظلتني غمامة ، وخوطبت منها فقيل لي : اقصد البصرة .

وزعم وهو في بغداد أنه ظهرت له آيات عرف بها ما في ضمائر أصحابه ، وما يفعل كل واحد منهم . وقد ذكره أبو العلاء في (رسالة الغفران ص ١٤٧)[1] وذكر أن اسمه كان أحمد ، فلما خرج تسمى علياً . وروى له أبياتاً ، وأشار إليه في (لزوم ما لا يلزم) بأبيات تقدمت ، منها قوله :

كَالذي قَامَ يَجمَعُ الزِّنجَ بِالبَصْـــرَةِ والقِرمِطيُّ بالأَحسَاءِ[2]

★ ★ ★

(١) الغفران ط أمين هندية ؛ وانظر الغفران تحقيق بنت الشاطئ ط ١ ص ٣٨٥ .
(٢) انظر ما تقدم ص ١٤٤٠ .

القرامطة[1]

في سنة ٢٧٨ هـ ظهر في سواد الكوفة قوم يعرفون بالقرامطة . وكان أول رجل منهم قدم من ناحية خوزستان إلى سواد الكوفة ، فكان في موضع يقال له « النهرين » يظهر الزهد والتقشف ، ويكثر الصلاة ؛ فإذا قعد إليه رجل ذكّره أمر الدين ، وزهّده في الدنيا ففشا أمره . وقال : إنه يدعو إلى إمام من آل بيت الرسول ، فاستجاب له جمع كثير . ثم مرض فحمله إلى منزله رجل من أهل القرية ، أحمر العينين يقال له « كرميتة » لحمرة عينيه ، وهو بالنبطية أحمر العين ، فأقام عنده حتى برىء ، ودعا أهل تلك الناحية إلى مذهبه فأجابوه . وكان يأخذ من كل رجل أجابه ديناراً يزعم أنه للإمام ، واتخذ منهم اثني عشر نقيباً ، أمرهم أن يدعوا الناس إلى مذهبهم ؛ فاشتغل أهل الناحية عن أعمالهم بما رسم لهم من الصلوات . وكان لرجل يقال له « الهيصم » ضياع في تلك الناحية ، فرأى تقصير الأكرة في عمارتها ، فبحث عن السبب فأخبر بخبر الرجل فحبسه في بيت وأغلق بابه ، وجعل المفتاح تحت رأسه ، فأشفقت عليه جارية للهيصم ، ففتحت له الباب وأخرجته وأعادت المفتاح إلى محله فلما أصبح الهيصم لم يجده ، وشاع ذلك فافتتن الناس به وقالوا : رفع . ثم ظهر في ناحية أخرى وقال للناس : لا يمكن لأحد من الناس أن ينالني بسوء . ثم خرج إلى الشام فلم يوقف له على خبر .

وسمي باسم الرجل الذي كان في داره « كرميتة » ثم خفف فقيل : « قرمط » .

---

(١) ملخص عن ابن الأثير وأبي الفداء (ج) .

اجتماع قرمط بصاحب الزنج

سار قرمط إلى صاحب الزنج ، وقال له : إني على مذهب ورأي ، ومعي مائة ألف ضارب بسيف ، فتناظرني فإن اتفقنا على المذهب ملت إليك بمن معي . وإن تكن الأخرى انصرفتُ عنك ، فتناظرا فاختلفت آراؤهما فانصرف قرمط عنه .

ويحكى عن القرامطة أنهم جاؤا بكتاب فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، يقول الفرج بن عثمان ، وهو من قرية يقال لها نصرانة : إنه داعية المسيح ، وهو عيسى ، وهو الكلمة ، وهو المهدي ، وهو أحمد بن محمد بن الحنفية ، وهو جبريل ، وأن المسيح تصور له في جسم إنسان ، وقال له : إنك الداعية ، وإنك الحجة ، وإنك الناقة ، وإنك الدابة ، وإنك يحيى بن زكريا ، وإنك روح القدس . وعرّفه أن الصلاة أربع ركعات ، ركعتان قبل طلوع الشمس ، وركعتان بعد غروبها ، وأن الأذان في كل صلاة أن يقول المؤذن :

الله أكبر الله أكبر الله أكبر . أشهد أن لا إله إلا الله ، مرتين . أشهد أن آدم رسول الله . أشهد أن نوحاً رسول الله . أشهد أن ابراهيم رسول الله . أشهد أن موسى رسول الله . أشهد أن عيسى رسول الله . أشهد أن محمداً رسول الله . أشهد أن أحمد بن محمد بن الحنفية رسول الله .

وأن يقرأ في كل ركعة الاستفتاح ؛ وهي من المنزل على أحمد بن الحنفية . والقبلة إلى بيت المقدس . وأن الجمعة يوم الاثنين ، لا يعمل فيه شيء . والسورة : « الحمد لله بكلمته ، وتعالى باسمه ، المنجد لأوليائه ، قل إن الأهلة مواقيت للناس ، ظاهرها ليعلم عدد السنين والحساب والشهور والأيام ، وباطنها لأوليائي الذين عرّفوا عبادي سبيلي . واتقوني يا أولي الألباب . وأنا الذي لا أسأل عما أفعل . وأنا العليم الحكيم . وانا الذي أبلو

عبادي . وامتحن خلقي . فمن صبر على بلائي ، ومحنتي واختباري ، ألقيته في جنتي ، وأخلدته في نعيمي . ومن زال عن أمري ، وكذّب رسلي ، أخلدته مهاناً في عذابي ، وأتممت أجلي ، وأظهرت أمري على ألسنة رسلي . وأنا الذي لم يعلُ عليّ جبار إلا وضعته ، ولا عزيز إلا أذللته . وبئس الذي أصرّ على أمره ، ودام على جهالته . وقال : لن نبرح عليه عاكفين وبه موقنين . أولئك هم الكافرون . ثم يركع ويقول في ركوعه : سبحان ربي رب العزة ، وتعالى عما يصف الظالمون . يقولها مرتين . فإذا سجد قال : الله أعلى ، الله أعلى ، الله أعلى ، الله أعظم ، الله أعظم .

ومن شريعته أن يصوم يومين في السنة ، وهما المهرجان والنيروز . وأن النبيذ حرام ، والخمر حلال . ولا غسل من جنابة ، لكن الوضوء كوضوء الصلاة . وأن من حاربه وجب قتله . ومن لم يحاربه ممن يخالفه أخذ منه الجزية . ولا يؤكل كل ذي ناب ، ولا كل ذي مخلب .

ابتداء أمر القرامطة

كان ابتداء أمر القرامطة في ناحية البحرين أن رجلا يعرف بيحيى ابن المهدي قصد القطيف ، فنزل على رجل يعرف بعلي بن المعلى بن حمدان مولى الزياديين ؛ وكان يغالي في التشيّع ، فأظهر له يحيى أنه رسول المهدي ، وكان ذلك سنة ٢٨١ هـ . وذكر أنه خرج الى شيعته في البلاد يدعوهم إلى أمره ، وأن ظهوره قد قرب . فوجه علي بن المعلى إلى الشيعة من أهل القطيف فجمعهم وأقرأهم الكتاب الذي مع يحيى بن المهدي ؛ فأجابوه أنهم خارجون معه إذا ظهر أمره . ووجه إلى سائر قرى البحرين بمثل ذلك فأجابوه ؛ وكان فيمن أجابه أبو سعيد الجنابي[1]

(١) وهو الحسن بن بهرام من أهل جنابة قرية بفارس (ج) .

وكان يحيى يتردد على القبائل ، وجاءهم بكتاب يزعم أنه من المهدي ، يأمرهم فيه بأن يدفع كل واحد ستة دنانير وثلثين ، فدفعوا . ثم جاء بكتاب آخر يأمرهم بدفع الخمس إليه ، ففعلوا

ثم عظم أمر أبي سعيد الجنابي في البحرين ، فقتل من حوله من أهل القرى ، وسار إلى القطيف ، فقتل بها خلقاً كثيراً . ثم أغار على نواحي هجر ، وتغلب على جيش الخليفة ، ثم دخل هجر وذلك نحو سنة ٢٨٧ هـ .

وقد قتل أبو سعيد الجنابي سنة ٣٠١ هـ بعد أن استولى على هجر والأحسا والقطيف وسائر بلاد البحرين ، قتله خادم له صقلبي . وعهد إلى ابنه الأكبر سعيد ، فعجز عن الأمر ، وغلبه أخوه الأصغر أبو طاهر سليمان .

وأبو طاهر هذا دهم الحُجّاج في مكة يوم التروية[١] سنة ٣١٧ هـ فنهب أموالهم وقتلهم في المسجد الحرام ، وطرح قسماً من القتلى في زمزم ، ودفن الباقين في المسجد ، وقلع الحجر الأسود وأنفذه إلى هجر ، وقسم كسوة الكعبة بين أصحابه ، ونهب دور مكة ، ومات بالجدري سنة ٣٣٢ هـ. وأعاد القرامطة الحجر إلى مكة سنة ٣٣٩ هـ .

وقد أكثر هؤلاء من القتل والسلب والنهب ، وملأوا الأرض فساداً وطغياناً ، واستطار شرهم من العراق الى الشام ومصر ، حتى ان صاحب الشامة ، أحد رؤسائهم ، سار إلى معرة النعمان ، وحماة ، وسلمية ، وبعلبك ، فقتل الرجال والنساء والصبيان . فحاربهم الخليفة المكتفي وظفر بهم في بعض قرى المعرة ، فقتل خلقاً كثيراً منهم . ثم قتل صاحب الشامة ثم تناولتهم السيوف في كل مكان ، حتى خضدت شوكتهم .

---

(١) يوم التروية : هو اليوم الثامن من ذي الحجة ، وفيه يتوجه الحاج الى منى ، وسمي بذلك لأن الحجاج يرتوون فيه من الماء لما بعد، أو لأن الإمام يروي للناس مناسكهم فيه ، أو لأن ابراهيم عليه السلام كان يتروى ويتفكر في رؤياه فيه .

أبو العلاء والقرامطة

تصدى أبو العلاء إلى القرامطة في مواطن من نثره ونظمه ، منها قوله في (رسالة الغفران في ص ١٤٥)(١) : « وحُكي لي أنّ للقَرامِطَةِ بالأحساءِ بيتاً يزعمونَ أنّ إمامَهُم يَخرُجُ منه ، ويُقيمونَ على بابِ ذلكَ البيتِ فرساً بسَرْجٍ ولجام . ويقولون لِلْهَمَجِ والطَّغَامِ : هذا الفَرسُ لِرِكابِ المَهْدي ، يركَبُــه متى ظهرَ بِحَقٍّ بَدِيٌّ . وإنما غَرَضُهُم بذلكَ خَدْعٌ وتَعْليل ، وتوَصُّل الى المملكَةِ وتضليل .

ومِنْ أعجَبِ ما سَمِعتُ أن بعضَ رؤساءِ القَرَامطة في الدّهْرِ القديم ؛ لما حضرتهُ المنيّةُ جمعَ أصحابَه ، وجعل يقول لهم لما أحسّ بالموت : إني قد عَزَمْتُ على النُّقْلَةِ ، وقد كنتُ بعثتُ موسى وعيسى ومحمــداً ولا بدّ لي أنْ أبعثَ غيرَ هؤلاء . فعليهِ اللّعْنَةُ ، لقد كفرَ أعظَمَ الكُفْرِ في الساعة التي يجبُ أن يؤمنَ فيهــا الـكافرُ ، ويؤوب إلى آخرته المسافر » .

وقوله في (ص ١٤٧)(٢) : « وأما الجنَّــابي فلو عوقب بلدٌ بمن يَسكنُه ، جازَ أن تؤخذ به جَنَّابَة ، ولا تقبلَ لها إنابَة . ولكنَّ حكمَ الكتابِ المنزَلِ أجدر وأحرى أنْ لا تَزِر وازرة وزْرَ أخرى .

وقد اختُلِفَ في حديث الرُّكنِ ممه ، فزعم من يدعي الخِبرَةَ [به] أنه أخذه ليعبُدَه ويُعظِّمَه . لأنه بَلغَهُ أنَّهُ يدُ الصنم الذي جُعِلَ على خَلْقِ زُحَل . وقيل : جَعَلَه موطئاً في مُرْتَفَق ، وهذا تناقض في الحديث . وأيّ ذلك كان فعليه اللعنة ما رَسَا ثبير وَهمى صَبير » .

ومنها قوله في (لزوم ما لا يلزم) :

---

(١) وانظر الغفران تحقيق بنت الشاطئ ط ١ ص ٣٧٨ .

(٢) « « « « « ط ١ ص ٣٨٤ ، وفيها : « .. لجاز أن تؤخذ » . و « ... ولا يقبل ... » .

تَمَنَّتْ شِيعَةَ الهَجَرِيِّ نَصْراً ... لعَلَّ الدَّهرَ يسْهُلُ فِيهِ حَزْنُ[١]
وقَدْ أضحتْ جَمَاعتهم شَرِيداً ... فَلاَ يَفْنَى لَهُمْ أَسَفٌ وحزْنُ
وَقَالُوا : إنَّها سَتَعُودُ يَوْماً ... فتثبتِ مَا سَقَى الآفاقَ مُزْنُ
وَبَيْتُ الشِّعْرِ قُصِّعَ لاَ لِعَيْبٍ ... ولَكِنْ عَنْ تَصْحِيحٍ وَوَزْنُ

وقوله فيه :

وَدِينُ مَكَّةَ طَاوَعَنا أَئِمَّتهُ . ... عَصْراً فَمَا بَالُ دِينٍ جَاءَ مِنْ هَجَرَا[٢]

وقوله فيه :

مَا لِلْمَذَاهِبِ قَدْ أمْسَتْ مُغَيَّرَةً ... لَهَا انْتِسَابٌ إلى القَدَّاحِ أوْ هَجَرِ[٣]
قَالُوا: البَرِيَّةُ فَوْضَى لاَ حِسَابَ لَهَا ... وَإنَّمَا هِيَ مِثْلُ النَّبْتِ والشَّجَرِ
فَالجَاهِلِيَّةُ خَيْرٌ مِنْ إبَاحَتِهِمْ ... سَجِيَّةَ الحَارِثِ الحَرَّابِ أوْ حُجُرِ[٤]
فَمَا أفَادُوا سِوَى إحْلاَلِ نِسْوَتِهِمْ ... مُعَرَّضَاتٍ لأهْلِ البَاطِلِ الفُجُرِ
وإنَّ أحسَنَ مِنْ تَعْظِيمِهِمْ رَجُلاً ... صِفْراً مِنَ الحُكْمِ التَّعْظِيمُ لِلْحَجَرِ
وَهَلْ ثَعَالِبُ طَيٍّ فِي مَنَازِلِهَا ... إلاَّ ثَعَالِبُ وَحْشٍ بِتْنَ فِي الوُجُرِ

---

(١) الهجري : نسبة إلى هجر قاعدة بلاد البحرين ، ومقر القرامطة . (ج) وانظر اللزوميات ﻫ ص ٢٦٢ .

(٢) اللزوميات ﻫ ص ١٤٠ .

(٣) في رسالة الغفران ص ١٥٦ أن القداح عبد الله بن ميمون من باهلة ، كان من أصحاب جعفر بن محمد ثم ارتد بعد ذلك (ج) وانظر الغفران تحقيق بنت الشاطىء ط ١ ص ٤٠٧ — ٨ واللزوميات ﻫ ص ١٥١ .

(٤) الحارث الحراب بن معاوية بن ثور ملك كندة . وحجر : والد امرىء القيس وجده الأعلى . وحجر أيضاً ابن النعمان بن الحارث بن أبي شمر الغساني وحجر ابن ربيعة بن وائل الحضرمي الكندي والد وائل ملك حضرموت (ج) .

وقوله فيه :

عُكِسَ الأنَامُ بِحِكْمَةٍ مِنْ رَبِّهِ ... فَتَحَكَّمَ الهَجَرِيُّ فِيهِ وَسَنْبَرْ (١)

وقوله فيه :

ومَخْرِ الغَادِرِ الهَجَرِيِّ أرْضاً ... لِهَتْكِ أوَانِسٍ كَبَنَاتِ مَخْرِ (٢)

وقوله :

وَكَمْ مَضَى هَجَرِيٌّ أومُشَاكِلُهُ ... مِنَ المَقَاوِلِ سَرُّوا النَّاسَ أمْ سَاءُوا (٣)

تَتْوَى المُلُوكُ وَمِصْرٌ في تَغَيُّرِهِمْ ... مِصْرٌ عَلَى العَهْدِ والأحْسَاءُ أحْسَاءُ

★ ★ ★

---

(١) قالوا : ابن سنبر : من خواص أبي سعيد الجنابي المطلعين على سره . كان له عدو من القرامطة اسمه أبو حفص الشريك ، فعمد ابن سنبر الى رجل من أصبهان وقال له : إذا ملكتك أمر القرامطة أريد منك أن تقتل عدوي أبا حفص . فأجابه إلى ذلك ، وعاهده عليه ، فأطلعه على أسرار أبي سعيد وعلامات كان يذكر أنها في صاحبهم الذي يدعون إليه . فحضر عند أولاد أبي سعيد وذكر لهم ذلك فقال أبو طاهر : هذا هو الذي يدعو إليه . فأطاعوه حتى كان يأمر الرجل بقتل أخيه فيقتله . وكان إذا كره رجلاً يقول : إنه مريض ، يعني أنه قد شك في دينه ويأمر بقتله ، وبلغ أبا طاهر أن الأصبهاني يريد قتله لينفرد بالملك ، فقال لإخوته : لقد أخطأنا في هذا الرجل ، وسأكشف حاله . فقال له : إن لنا مريضاً فانظر إليه ليبرأ . فحضروا وأضجعوا والدته وغطوها بإزار فلما رآها قال : ان هذا المريض لا يبرأ فاقتلوه فقالوا له : كذبت هذه والدته ثم قتلوه . وكان قد قتل خلقاً كثيراً من عظمائهم . وكان هذا سبب تمكنهم بهجر ، وترك قصد البلاد والإفساد فيها (ج) وانظر اللزوميات ص ١٢٧ .

(٢) اللزوميات ه ص ١٥٤ ، ومخرت السفينة مخراً ومخوراً : إذا استقبلت الريح ، ويقال : المواخر السفن المقبلة والمدبرة بريح واحدة . وبنات مخر : سحائب يخرجن في أوائل الصيف .

(٣) اللزوميات ه ص ٢١ ، وتوى كرضي : هلك .

المرجئة

المرجئة طائفة من المسلمين ، قيل : إنهم كانوا يقولون : الإيمان قول بلا عمل ، كأنهم قدموا القول وأرجئوا العمل أي أخروه . وقيل : إنهم كانوا يؤخرون العمل عن النية والعقد . وقيل : إنهم كانوا يقولون : لا تضر مع الإيمان معصية ، كما لا تنفع مع الكفر طاعة . وقيل : الإرجاء تأخير حكم صاحب الكبيرة إلى يوم القيامة ، فلا يقضى عليه بحكم ما في الدنيا من كونه من أهل الجنة أو من أهل النار . وقيل غير ذلك .

وهم أصناف أربعة : مرجئة الخوارج . ومرجئة القدرية . ومرجئة الجبرية . والمرجئة الخالصة . والكلام فيهم مبسوط في كتاب (الملل والنحل ص ٧٨)

وقد ذكرهم أبو العلاء وأشار إلى مذهبهم في مواطن من (لزوم ما لا يلزم) كقوله :

أرْجُوا أوْ اعْتَزِلُوا فإنِّي عَنْ مُقَامِكُمْ بِمَعْزِلِ [(١)]

وقوله :

تَلاوَمَ النَّاس وافْتَنَّتْ ظُنُونُهُمُ وأرْجَأَ النَّاشِئُ البَاغِي أوِ اعْتَزَلا [(٢)]

وقوله :

وَجَدْتُ النَّاسَ في هَرْجٍ وَمَرْجٍ غُوَاةً بَيْنَ مُعْتَزِلٍ وَمُرْجِ [(٣)]

★ ★ ★

(١) انظر ما سبق ص ١٣١٩ .
(٢) » » » ص ١٤١٥ .
(٣) اللزوميات » ص ٧٨ .

الرافضة

فرقة من شيعة الكوفة بايعوا زيد بن علي ، وهو ممن يقول بجواز إمامة المفضول مع قيام الفاضل . ثم قالوا له : تبرأ من الشيخين فأبى وقال : كانا وزيري جدي . فتركوه ورفضوه وارفضوا عنه . وقد ذكرهم أبو العلاء بقوله :

لَمْ يُثْبِتُوا بِقِيَاسٍ أَصْلَ دِينِهِمْ فَيَحْكُمُوا بينَ رُفاضٍ وَنُصَّابِ [1]

النواصب والناصبية وأهل النصب

المتدينون ببغضة علي بن أبي طالب — ض — . وهم طائفة من الخوارج ، سموا بذلك لأنهم نصبوا له أي عادوه وأظهروا له الخلاف . فالنصب يقال لمذهب هو بغض علي — ض — ، وهو طرف النقيض من الرفض .

الشراة

الشراة هم الخوارج . سموا بذلك لأنهم غضبوا ولجوا فهو من شري : كرضي إذا غضب . وقيل : لأنهم قالوا : إنا شرينا أنفسنا في الطاعة ، أي بعناها بالجنة ، حين فارقنا الأمة الجائرة .

والخوارج قوم خرجوا على علي بن أبي طالب — ض — ممن كانوا معه في حرب صِفّين ؛ وهم فرق ذكرهم في (الملل والنحل ١ ص ٦٦) .

وقد أشار أبو العلاء إلى الفرقتين بما يدل على اعتقاده بهما حيث يقول :

وَالنَّاسُ في ضِدِّ الهُدَى مُتَشَيِّعٌ لَزِمَ الغُلُوَّ وَنَاصِبِيٌّ شَارِ [2]

---

(١) اللزوميات هـ ص ٤٨ .

(٢) » » ص ١٦٢ .

النشر والحشر

النشر : إحياء الخلق بعد موتهم . والحشر : سوقهم إلى موقف الحساب ، ثم إلى الجنة أو النار .

والفلاسفة الإلهية من اليونان ينكرون نشر الأجسام ، ويثبتون خلود الروح وانتقالها بعد الموت إلى العالم العقلي ، فتشقى أو تسعد بتذكر ما صنعته في الحياة ، وتعود إلى صفائها بعد المحنة .

والمسلمون متفقون على وجوب وقوعها . ولكن اختلفوا في السبب الموجب . فالمعتزلة يقولون : يجب وقوعها عقلاً ؛ بناء على اعتقادهم أن الله يجب عليه إثابة المطيع ، ومعاقبة العاصي . وأهل السنة يقولون : يجب وقوعها ، لأن الله تعالى أخبر بها في كتبه على ألسنة رسله لا لإيجاب العقل وقوعها . واختلفوا أيضاً في كيفية الاعادة ، فقال بعض الكرامية [1] : إن الأجزاء التي يتألف منها البدن لا تعدم ، بل تتفرق وتختلط بغيرها ، ثم يجمعها الله ويؤلفها على الصفة التي كانت عليها . وقال المحققون من أهل السنة : تعدم كلها إلا عَجْب الذنب للنص عليه ، والإعادة إحداث كالإبداع الأول . واختلفوا أيضاً في الشيء المعاد ، فقيل : إنه الجسم فقط . وإلى هذا ذهب القائلون : إن الروح جسم لطيف سار في البدن كالنار في الفحم . وهذا مذهب أكثر المتكلمين كما تقدم . وقيل : إنه الجسم والروح معاً ؛ وإليه ذهب من يقول : إن الروح جوهر مجرد ليس بجسم ، لا يفنى بفناء

(١) أصحاب أبي عبد الله محمد بن كرام ، وهم طوائف منهم : العابدية ، والنونية ، والزرينية ، والاسحاقية ، والواحدية ، والهيصمية ، راجع الملل والنحل ج ١ ص ٦١ . (ج)

البدن ، فيرجع إلى التعلق به كما كان . وهـذا رأي كثير من الصوفية والشيعة ، وليس هذا من التناسخ ، لأن أهل التناسخ يقولون : إن الأرواح قديمة ؛ وترد إلى الأبدان في الدنيا . وينكرون الآخرة والجنة والنار . والإمام الغزالي [١] ، وأبو منصور الماتريدي [٢] وغيرهما ، يرون الرأي الثاني أي إن المعاد روحاني وجسماني . وهذه المسألة ظنية ليس فيها دليل قاطع .

أبو العلاء والنشر والحشر :

يرى أبو العلاء أن المعاد أمر واقع لا بد منه ، وأنه روحاني جسماني . وقد ذكره في مواطن شتى في جميع أطوار حياته . وذكر مـا فيه من حساب ، وجنة ، ونار وصراط ، وشفاعة . وذكر ما في القبر من سؤال وغيره . وليس في كلامه كله ما يدل دلالة قاطعة على شك فيه أو إنكار له . وقد زعم بعض المتقدمين والمتأخرين أنه كان يشك في المعاد وينكره ، واستدلوا على ذلك بقوله :

ضَحِكْنَا وَكَانَ الضِّحْكُ مِنَّا سَفَاهَةً وَحُقَّ لِسُكَّانِ البَسِيطَةِ أَنْ يَبْكُوا
يُحَطِّمُنَا رَيْبُ الزَّمَانِ كَأَنَّنَا زُجَاجٌ وَلَكِنْ لَا يُعَادُ لَنَا سَبْكُ [٣]

---

(١) هو زين الدين حجة الاسلام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي حكيم متكلم فقيه أصولي صوفي ، ولد بالطابران سنة ٤٥٠ هـ وتوفي بها سنة ٥٠٥ هـ ، ومن أشهر كتبه احياء علوم الدين ، وتهافت الفلاسفة .

(٢) هو محمد بن محمد بن محمود الماتريدي السمرقندي ، متكلم أصولي توفي بسمرقند سنة ٣٣٣ هـ .

(٣) في ياقوت : « يحطمنا صرف الزمان . . . » وفي المنتظم :

« تحطمنا الأيام حتى كأننا زجاج ولكن لا يعاد لنا السبك »

وفي القفطي وياقوت « لا يعاد لنا سبك » وفي الديوان ومرآة الزمان « لا يعاد له سبك » وفي الذهبي « لا يعاد له السبك . . . » (ج) انظر اللزوميات ٢ ص ١٨٢ وتعريف القدماء بأبي العلاء الصفحات : ٧٨ ، ٢٣ ، ٥٨ ، ١٤٧ ، ١٩٣ ، عن إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب لياقوت ، والمنتظم لابن الجوزي ، وإنباه الرواة للقفطي ، ومرآة الزمان لسبط ابن الجوزي ، وتاريخ الإسلام للذهبي .

وقوله من أبيات تقدمت :

وَزَعَمْتَ أنَّ لَهَا مَعَاداً ثَانِياً ... مَا كَانَ أغْنَاهَا عَنِ الحَالَيْنِ (١)

وهذه الأبيات الأخيرة المتقدمة نسبها له القفطي ، وصاحب (نكت الهميان) ، وذكر ياقوت البيتين الأخيرين : « أنهيت عن قتل النفوس ... » « وزعمت أن لها معادا ... » وطابع على غرارهم صاحب (الذكرى) وزاد بيتاً آخر للاستدلال على الشك وهو قوله :

يَا مَرْحَباً بِالمَوْتِ مِنْ مُتَنَظَّرٍ ... إنْ كَانَ ثَمَّ تَعَارُفٌ وَتَلاقِ (٢)

وجمله تارة يشك وتارة بجزم ، وتارة يشايع أفلاطون ، وتارة وتارة . وإذا تأمل المنصف العاقل البيت الأول : « يحطمنا ريبُ الزمان ... » وحكّم العقلَ والعلم ، لا يرى له علاقة بالحشر والنشر ، ولا فيه دلالة على إثباتها أو إنكارهما . وإنما جرت عادة البلغاء من العرب أن يجعلوا الزجاج مثلاً أعلى في الضعف وسرعة التكسر وفي عدم الجبر .

ومن الأول الحديث الشريف : « رويدكَ رِفْقاً بالقوارير » . أراد النساء ، وشبههن بالقوارير من الزجاج لأنها يسرع إليها الكسر . ومن الثاني قول حسان :

وَأمَانَةُ المُرِّيِّ حَيْثُ لَقِيتَهُ ... مِثْلُ الزُّجَاجَةِ صَدْعُهَا لا يُجْبَرِ (٣)

---

(١) وروي : « وزعمت أن لنا معاداً ... » (ج) . انظر تعريف القدماء بأبي العلاء الصفحات : ٢٥ ، ٥٦ ، ١١٦ ، ١٤٥ ، ١٩٣ ، ٢٨٣ ، ٢٩١ ، ٣٠٦ ، ٣٢٥ . عن المنتظم لابن الجوزي ، وإنباه الرواة للقفطي ، وإرشاد الأريب لياقوت ، ومرآة الزمان لسبط ابن الجوزي . وتاريخ الإسلام للذهبي . والوافي بالوفيات للصفدي ، ونكت الهميان له ، والبداية والنهاية لابن كثير ، وعقد الجمان للعيني .

(٢) ذكرى أبي العلاء لطه حسين ط ٢ ص ٣٦٨ وانظر اللزوميات هـ ص ٣٠٨ .

(٣) ديوانه بشرح البرقوقي ط التجارية القاهرة سنة ١٩٢٩ ، ص ٢١١ وفيه : لم يجبر ، والبيت من مقطعة مكسورة الراء يهجو حسان بها الحارث بن عوف المري .

وقد جرى ابو العلاء على هذه الطريقة . فشبه الناس بالزجاج في سرعة التحطم ، والعجز عن المقاومة والجلد . ثم ذكر أن بيننا وبين الزجاج فرقا ، وهو أن الزجاج يمكن أن يسبك في هذه الدنيا فيعود إلى حالته الأولى ، والإنسان لا يمكن أن يجبر فيها إذا حطمه الموت . هذا ما يدل عليه لفظ البيت المحكم والأسلوب البليغ . ومن الواضح أن الزجاج لا يسبك في الآخرة ، وأن أبا العلاء لا يريد هذا المعنى الذي فرضوه على كلامه فرضا . وليس في الكلام ما يدل على الآخرة أو يتعلق بها ، وإنما هو تحذير من الدنيا . فتعين أن يكون المراد : أن ليس لنا سبك في الدنيا يعيدنا إلى حالتنا الأولى ، وهذا حق لا ريب فيه . ونظير قول أبي العلاء هذا قول علي ابن أبي طالب (ض) : « فبادروا العمل وخافوا بغتة الأجل ، فإنه لا يرجى من رجعة العمر ما يرجى من رجعة الرزق . . . » . وقوله : « أو لم تروا إلى الماضين منكم لا يرجعون . . . » . فإن المراد الرجعة في هذه الدنيا ، وإلا كان علي (ض) منكراً للحشر . وقد استعمل أبو العلاء سبك الزجاج في مواطن من شعره منها قوله :

وَلِلسَّبْكِ رُدَّ كَسِيرُ الزُّجَاجِ وَلاَ يُسْبَكُ الدُّرُّ إِنْ يَنْكَسِرْ (١)

وقوله :

إِنَّ الزُّجَاجَةَ لَمَّا حُطِّمَتْ سُبِكَتْ وَكَمْ تَكَسَّرَ مِنْ دُرٍّ فَمَا سُبِكَا (٢)

وقوله :

يَسْبُكُ الصَّائِغُ الزُّجَاجَ وَلاَ يَسْـــتَطِيعُ سَبْكاً لِلدُّرِّ أَنْ يَتَشَظَّى (٣)

---

(١) اللزوميات ﻫ س ١٧١ .
(٢) « « س ١٨٦ .
(٣) « « س ١٨١ .

وهو في هذه الأبيات وأشباهها يشير إلى أن النفس إذا كسر لا يجبر بخلاف غيره . ومن البيّن أنه لا يريد كسراً ولا جبراً في الآخرة .

وأما الأبيات النونية التي يقول فيها . « وزعمت أن لها معاداً ثانيا.. » فإن سخافة تأليفها تدل على أنهـا مصنوعة على لسانه ، إذ من البعيد عن أدب أبي العلاء أن يقول : « فاحكم إلهي .. » ثم يقول له : « أنهيت .. وبعثت .. وزعمت » وإذا قيست إلى أبيـاته في هذا الغرض ، تبين أنها ليست من سنخ شعره . وإذا سلمنا أنها منه ، فإنها تدل على اثبات الحشر لا على نفيه . لأن قوله : « ما كان أغناها عن الحالين » صريح في أنه يثبت لها الحالين ، وأحدهما المعاد الثاني وهو الحشر ، وقد سبق القول في هذا .

وأما قوله :

يَا مَرْحباً بِالَموْتِ مِنْ مُتَنَظَّرٍ[1] . . . .

فإنه من قصيدة يقول فيها :

أَمَّا الحقِيقَةُ فَهْيَ أَنِّي ذَاهِبٌ وَاللهُ يَعْلَمُ بِالذِي أَنَا لاَقِ

ثم أشار إلى نفر عهدهم بالكرخ ثم قال :

سَيَمُوتُ مَحْمُودٌ وَيَهْلِكُ آلِكٌ وَيَدُومُ وَجْهُ الوَاحِدِ الخَلاَّقِ
يَا مَرْحَباً بِالَموْتِ مِنْ مُتَنَظَّرٍ إِنْ كَانَ ثَمَّ تَعَارُفٌ وَتَلاَقِ

وليس في البيت أو في أبيات القصيدة تصريح بإنكار الحشر أو الشك فيه . وإنما الشك في التعارف والتلاقي وهما غير الحشر ، بل مترتبان عليه . ولا يلزم من الشك فيهما الشك فيه . ألا ترى قول النابغة :

---

(١) انظر ما سبق ص ١٤٥٤ .

لاَ مَرْحباً بِغَدٍ وَلاَ أَهلاً بِهِ ... إنْ كَانَ تَفْرِيقُ الاحِبّةِ في غَدِ

فإنه يفيد الشك في تفريق الأحبة لا في غيره . . وبعد هذا فإن بيت أبي العلاء مسوق للترحيب بالموت ، إن كان هناك تعارف وتلاق . ومفهوم هذا أنه إذا لم يكن تعارف وتلاقٍ فإنه لا يرحب به . وهذا لا يستلزم الشك في البعث ولا في غيره ، بل يستلزم إثباته ، فهو من جنس قول الشاعر :

تَقَدَّمَ النّاسُ فَيَا شَوْقَنَــا ... إلى اتِّبَاعِ الأَهْلِ وَالأَصْدِقَاءْ

مَا أَطْيَبَ الْموْتَ لِشرّابِــهِ ... إنْ صَحَّ لِلأَمْوَاتِ وَشْكُ التِقَاءْ

وإذا أمعنت النظر في قوله : « أما الحَقِيقَةُ فهي أني ذاهِبٌ ... » تبين لك أنه يصرح فيه بأنه سيلقى شيئاً بعد ذهابه أي موته . وهذا الشيء لا يعلمه إلا الله . ولا يكون لقاؤه إلا بعد البعث لأن المعدوم لا يلقى شيئا . وبهذا يتبين أن ليس في جميع الأبيات ما يفيد الشك في البعث أو الإنكار له ، وأن جميع ما تكلفه صاحب (الذكرى) لجعل أبي العلاء منكراً للحشر أو شاكًا فيه ، لا تساعده عليه الأدلة التي أوردها .

على أنه جنح إلى الصواب في قوله بعد : « ومهما يكنْ مِنْ شكْ أبي العلاء ، أو انتحاله الشكّ في البعث ؟ فإنه لا يرتاب في قدرة الله عليه »[1] وقد تكلف بعضهم فجعل « أن » في قوله : « إن كان ثم تعارف . . » بمعنى « إذ » ليسلم البيت من الشك . ولا حاجة إلى ذلك لأن البيت سالم من الشك بدون هذا التكلف .

---

(١) ذكرى أبي العلاء ط ٢ ص ٣٦٩ .

ولقد فتشت في شعر أبي العلاء الذي اطلعت عليه في جميع أطوار حياته ، فلم أر فيه ما يدل دلالة صريحة على شك في النشر والحشر ، أو إنكار للمعاد . وإنما رأيت له مئات من الأبيات يصرح فيها بالبعث ، والحشر ، والقيامة ، وما يكون فيها من حساب وجنة ونار ، وما يتعلق بذلك . وإليك طائفة من كلامه في كل كتاب :

سقط الزند

قال في مرثية أبيه (ج ١ ص ١٩٤) (١) :

فَيَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ يَخِفُّ وَقَارُهُ ... إِذَا صَارَ أُحْدٌ فِي القِيَامَةِ كَالعِهْنِ

وَهَلْ يَرِدُ الحَوْضَ الرَّوِيَّ مُبَادِراً ... مَعَ النَّاسِ أَمْ يَأْبَى الزِّحَامَ فَيَسْتَأْنِي

. . . .

وَمَا اسْتَعْذَبَتْهُ رُوحُ مُوسَى وَآدَمٍ ... وَقَدْ وُعِدَا مِنْ بَعْدِهِ جَنَّتَيْ عَدْنِ

وقال في مرثية الشريف محمد (ج ١ ص ٢٠٨) (٢) :

وَلَا تَنْسَنِي فِي الحَشْرِ وَالحَوْضُ حَوْلَهُ ... عَصَائِبُ شَتَّى بَيْنَ غُرٍّ إِلَى بُهْمِ

. . . . .

لَعَلَّكَ فِي يَوْمِ القِيَامَةِ ذَاكِرِي ... فَتَسْأَلَ رَبِّي أَنْ يُخَفِّفَ مِنْ إِثْمِي

---

(١) شرح التنوير على سقط الزند ط دار السعادة بالقاهرة سنة ١٢٨٦ هـ وانظر شروح سقط الزند ، ق ٢ ص ٩١١ — ٩٢٢ .

(٢) التنوير على السقط ، وانظر شروح سقط الزند ، ق ٣ ص ٩٧٠ والشريف محمد : هو أبو ابراهيم العلوي ، وقال أبو العلاء قصيدته هذه يرثيه ويخاطب بها أولاده .

وقال في مرثية أبي حمزة [الفقيه] (ج ١ ص ١٥٨)(١) :

غَيْرُ مُجْدٍ فِي مِلَّتِي وَاعْتِقَادِي ...

خُلِقَ النَّاسُ لِلْبَقَاءِ فَضَلَّتْ أُمَّةٌ يَحْسَبُونَهُمْ لِلنَّفَادِ
إِنَّمَا يُنْقَلُونَ مِنْ دَارِ أَعْمَا لٍ إِلَى دَارِ شِقْوَةٍ أَوْ رَشَادِ

وقد ذكر في هذه القصيدة قوله :

وَالَّذِي حَارَتِ الْبَرِيَّةُ فِيهِ حَيَوَانٌ مُسْتَحْدَثٌ مِنْ جَمَادِ(١)

وهذا البيت يستشهد به علماء البيان والبلاغة على تقديم المسند إليه على المسند ، ليتمكن الخبر في ذهن السامع ؛ لأن في المبتدأ تشويقاً إليه ، أي إلى الخبر .

وقد اختلف العلماء في المراد « بالحيوان المستحدث » . فقيل : الإنسان . والحيرة الواقعة به من قبيل اتصال النفس بالجسم إذ النفس جوهرية ، والجسم عرضي . فلذلك يعدم الجسم الحياة إذا فارقته النفس ، والحيرة الواقعة في نياطها به .

وقيل : المراد باستحداث الحيوان من الجماد « البعث والمعاد » للأجسام الحيوانية يوم القيامة ، ويدل على أن المراد هذا قوله :

بَانَ أَمْرُ الإِلٰهِ(٢) . . . . .

مع ما تقدم وتأخر عنه . وقيل : المراد بالحيوان المذكور ثعبان موسى . وقيل : ناقة صالح . وقيل : آدم عليه السلام . لأنه خلق من التراب وهو

---

(١) التنوير على سقط الزند . وانظر شروح سقط الزند ، ق ٣ ص ٩٧٨ ـ ١٠٠٤ .
(٢) تمامه : « . . . . واختلف النا س فداعٍ إلى ضلال وهاد » .

جاد . وقيل : طائر بالهند يعيش طويلا ، فإذا انتهى أجله دخل عشاً ونفخ فيه فتحدث في العش أصوات مطربة ، فيحترق العش بنار تحدث حينئذ ، ويحترق ذلك الطائر في العش حتى يصير رماداً ، ثم يخلق الله تعالى من ذلك الرماد ذلك الطائر مرة أخرى ، ثم اذا انتهى أجله فعل مثل ما فعل أولاً وهلم جرا .

وهذا الطائر يقال له : « القفنس[١] » يضرب به المثل في البياض ، له منقار طويل فيه ثلثمائة وستون ثقبة على عدد أيام السنة ، يخرج من كل واحدة منها صوت حسن يعيش ألف سنة . . . وتجد خبر هذا الطائر في (حياة الحيوان للدميري) وفي (تاج العروس ج ٤ ص ٢١٠) وفي (حاشية الدسوقي على مختصر السعد ج ١ ص ٢٩٣) و (مواهب الفتاح لابن يعقوب ج ١ ص ٢٩٢) .

وذهب جمهور من المحققين إلى أن المراد بالحيوان المذكور أي المستحدث من جاد بنو آدم ، بدليل أن البيت من قصيدة يرثي بها فقيهاً حنفياً توفي . ومن البعيد أن يكون المراد بالحيوان غير الآدميين . وهذا يعيّن أن يكون الذي وقعت فيه الحيرة معاده ونشوره .

والمراد بقوله « حارت » : اختلفت فيه البرية ، فأطلق الملزوم وأراد اللازم ، لأن الحيرة في الشيء يلزمها الاختلاف .

وقد رجح ابن يعقوب هذا الوجه ، أي كون المراد بالحيوان بني آدم ، وقال : إن الاحتمالات غيره ضعيفة .

---

(١) لعل الكلمة محرفة عن « الفنقس » بتقديم النون على القاف . والفنقس Phoinix عند اليونان القدامى طائر خرافي جميل الريش والصوت يعيش قروناً متطاولة في بلاد ذكروها منها الهند ومصر وجزيرة العرب . . وتشبه أوصافه بعض ما ينسبه العرب للرخ والعنقاء والسندل والنول . ويذكرون أن النار لما اضرمت حول الفنقس هلك فيها ثم خرج حياً تارة أخرى من رمادها . . .

وقال في مرثية أخرى (ج ٢ ص ١٢) [١] :

جَازَاكَ رَبُّكَ بِالجِنَانِ فَهَذِهِ ... دَارٌ وَإِنْ حَسُنَتْ تَغُرُّ بِسُحْتِهَا

وأمَامَنَا يَوْمٌ تَقُومُ هُجُودُهُ ... مِنْ بَعْدِ إبْلاءِ العِظَامِ وَرَفْتِهَا

وقال من قصيدة يهنىء فيها رجلا ببرئه (ج ١ ص ١٤٠) [٢] :

فَلَوْ زَارَ أهْلَ الخُلْدِ عَتْبُكَ زَوْرَةً ... لَأوْهَمَهُمْ أنَّ الجِنَانَ جَحِيمُ

وقال في مرثية الشريف أبي أحمد الموسوي (ج ٢ ص ٦٠) [٣] :

نُبِذَتْ مَفَاتِيحُ الجِنَانِ وَإنَّمَا ... رِضْوَانُ بَيْنَ يَدَيْهِ لِلإتْحَافِ

وقال في قصيدة قالها في بغداد (ج ٢ ص ٥٤) [٤] :

فَيَا وَطَنِي إنْ فَاتَنِي بِكَ سَابِقٌ ... مِنَ الدَّهْرِ فَلْيَنْعَمْ لِسَاكِنِكَ البَالُ

فَإنْ أسْتَطِعْ في الحَشْرِ آتِكَ زَائِراً ... وَهَيْهَاتَ لِي يَوْمَ القِيَامَةِ أشْغَالُ

وقال في مرثية أمه (ج ٢ ص ٨٩) [٥] :

سَألْتُ مَتَى اللِّقَاءُ فَقِيلَ حَتَّى ... يَقُومَ الهَامِدُونَ مِنَ الرِّجَامِ

. . . .

فَلَيْتَ أذِينَ يَوْمِ الحَشْرِ نَادَى ... فَأجْهَشَتِ الرِّمَامُ إلى الرِّمَامِ

وقال في قصيدة أرسلها إلى القاضي التنوخي (ج ٢ ص ١٢٠) [٦] :

فَإنْ لَقِيتُ وَلِيداً وَالنَّوَى قُذُفٌ ... يَوْمَ القِيَامَةِ لَمْ أُعْدِمْهُ تَبْكِيتَا

---

(١) التنوير على سقط الزند . وانظر شروح سقط الزند ، ق ٣ ص ١٠٣٤ . وجاء فيها : قال يخاطب بعض إخوانه وكان أصيب ببعض أهله فتأخر عن تعزيته ثم اعتذر إليه بهذا الشعر .

(٢) التنوير على السقط وانظر شروح سقط الزند ، ق ٢ ص ٦٦٦ .

(٣) التنوير على السقط وانظر شروح سقط الزند ، ق ٣ ص ١٢٨٩ .

(٤) التنوير على السقط وانظر شروح سقط الزند ، ق ٣ ص ١٢٥٨ .

(٥) التنوير على السقط وانظر شروح سقط الزند ، ق ٤ ص ١٤٦٨ — ١٤٧١ .

(٦) التنوير على السقط وانظر شروح سقط الزند ، ق ٤ ص ١٦١٢ .

وقال في قصيدة :

يَكَادُ مُحَيَّنٌ لاَقَى المَنَايَا ... بِسَيْفِكَ لاَ يَكُونُ لَهُ مَعَادُ (١)

وقال في قصيدة :

وَلَوْ أنِّي حُبِيتُ الخُلْدَ فَرْداً ... لَمَا أَحْبَبْتُ بِالخُلْدِ انْفِرَادَا (٢)

لزوم مالا يلزم :

يزعم جل الناس ، إن لم يكن كلهم ، أن (لزوم مالا يلزم) جامع كفر أبي العلاء ، ومجمع إلحاده ، وعش زندقته ، ومعدن شكه وإنكاره ، وخزانة فسوقه ومروقه . وهو — مع مازعموا — طافح بالأدلة الناصعة ، والحجج القاطعة ، الدالة على أن صاحبه مؤمن بالآخرة ، موقن بالنشر وما يتعلق به من بعد موت الإنسان ، إلى أن يصل إلى دار القرار ، إما في الجنة وإما في النار ، على وفق ماجاء به الإسلام الصحيح حذوَ القُذَّةِ بالقذة (٣) . وهذه جملة من كلامه في ذلك :

قدرة الله على البعث والحشر :

وَقُدْرَةُ اللهِ حَقٌّ لَيْسَ يُعْجِزُهَا ... حَشْرٌ لِجِسْمٍ وَلاَ بَعْثٌ لأَمْوَاتِ (٤)

• • •

(١) من قصيدة قالها يمدح بعض الأمراء وكان قد تشكى من علة ، انظر شروح سقط الزند ق ١ ص ٣٢٦ والمحيَّن : الذي حان حينه أي حتفه .

(٢) شروح سقط الزند ، ق ٢ ص ٥٦٤ .

(٣) القذة : بالضم ريش السهم جمعها : قذذ .

(٤) اللزوميات هـ ص ٦٧ وفيها : « حشر لخلق ... » .

إِذَا مَا أَعظُمِي كَانَتْ هَبَاءً   فَإِنَّ اللهَ لاَ يُعْيِيهِ جَمْعِي[1]

• • •

بِحِكْمَةِ خَالِقِي طَيِّي وَنَشْرِي   وَلَيْسَ بِمُعْجِزِ الخَلَّاقِ حَشْرِي[2]

القبر وما فيه :

خَلِّصِينِي مِنْ ضَنْكِ مَا أَنَا فِيهِ   وَاطْرَحِينِي لِمُنْكَرٍ وَنَكِيرِ[3]

• • •

فَهَلْ هُوَ خَاشٍ مِنْ نَكِيرٍ وَمُنْكَرٍ   وَضَغْطَةِ قَبْرٍ لاَ يَقُومُ لَهَا نَظْمُ[4]

البعث والنشر :

إِنْ شَاءَ مَنْ خَلَقَ السَّمَا   كَ أَعَاشَنِي فَنَهَضْتُ أَغْبَرْ[5]
عَجْلاَنَ أَنْفُضُ لِمَّتِي   لِتُحَدَّ أَعْمَالِي وَتُسْبَرْ

• • •

وَمَتَى شَاءَ الذي صَوَّرَنَا   أَشْعَرَ المَيْتَ نُشُوراً فَنُشِرْ[6]
فَافْعَلِ الخَيْرَ وَأَمِّلْ غِبَّهُ   فَهُوَ الذُّخْرُ إِذَا اللهُ حَشَرْ

---

(١) اللزوميات ﻫ ص ٢٨٨ .

(٢) اللزوميات ﻫ ص ١٥٥ .

(٣) اللزوميات ﻫ ص ١٦٦ . وانظر ما سبق ص ١٤٢٦

(٤) انظر ما سبق ص ١٣٥٢ .

(٥) اللزوميات ﻫ ص ١٦٨ .

(٦) المصدر السابق .

الصور والنداء :

مَضَتْ قُرُونٌ وتَمْضِي بَعْدَنا أُمَمٌ ... والسِّرُّ خَافٍ إلى أنْ يُنْفَخَ الصُّورُ (١)

. . .

وَأعْجَبُ مَا تَخْشَاهُ دَعْوَةُ هَاتِفٍ ... أُتِيتُمْ فَهُبُّوا يَا نِيَامُ مِنَ الحَشْرِ (٢)

الصحائف :

فَيَالَيْتَنِي هَامِدٌ لاَ أقُومُ ... إذَا نَهَضُوا يَنْفُضُونَ اللِّمَمْ (٣)

وَنَادَى المُنَادِي عَلى غَفْلَةٍ ... فَلَمْ يَبْقَ في أذُنٍ [مِنْ] صَمَمْ

وَجَاءَتْ صَحَائِفُ قَدْ ضُمِّنَتْ ... كَبَائِرَ آثَامِهِمْ وَاللَّمَمْ

الجزاء :

لَا يَيْأسَنَّ مِنَ الثَوَابِ مُرَاقِبٌ ... لِلَّهِ في الإيرَادِ والإصْدَارِ (٤)

فَتَرَى بَدَائِعَ أنْبأتْ مُتَحَسِّساً ... أنَّ الجَزَاءَ بِغَيْرِ هٰذِي الدَّارِ

. . .

وَالبَخْتُ في الاولىٰ أنَالَ العُلَى ... وَلَيْسَ في آخِرَةٍ بَخْتُ (٥)

(١) اللزوميات هـ س ١٢٣ .
(٢) اللزوميات هـ س ١٣٢ .
(٣) اللزوميات هـ س ٢٥٩ .
(٤) اللزوميات هـ س ١٦٤ .
(٥) اللزوميات هـ س ٦٢ .

الحساب :

وَرَاعَني لِلْحِسَابِ ذِكْرٌ وَغَرَّني أَنَّهُ بَعِيدُ (١)

• • •

لَوْلَا حِذَارِي أَنَّ اللهَ يَسْأَلُنِي عَمَّا فَعَلْتُ لَقَامَتْ عِنْدِيَ الكُلَفُ (٢)

• • •

وَاحْذَرْ مَجِيئَكَ فِي الحِسَابِ بِزَائِفٍ فَاللهُ رَبُّكَ أَنْقَدُ النُّقَّادِ (٣)

شهادة الجوارح :

يَقُومُ الفَتَى مِنْ قَبْرِهِ إِنْ دَعَوْتَهُ وَمَاجَرَّ مَخْطُوطٌ لَهُ فِي الرَّوَاجِبِ (٤)

الصراط :

وَكَأَنَّ هَذَا الخَلْقَ أَهْلُ جَهَنَّمٍ وَلَهُمْ مِنَ المَوْتِ الزُّؤَامِ صِرَاطُ (٥)

الميزان :

أَكَذَبَ القَوْمُ بِالمِيزَانِ أَنْ سَمِعُوا أَنَّ القِيَامَةَ فِيهَا عَادِلٌ يَزِنُ (٦)

---

(١) اللزوميات هـ ص ٩٦ .
(٢) » » ص ٢٩١ .
(٣) » » ص ١١٤ .
(٤) » » ص ٤٥ وجر : من الجريرة وهو مايجر الإنسان لنفسه من الأعمال القبيحة التي يطالب عليها . وما : هاهنا اسم موصول . والرواجب : مفاصل أصول الأصابع أو بواطن مفاصلها .
(٥) اللزوميات هـ ص ١٧٧ .
(٦) » » ص ٢٦١ .

وَقَدْ وَجَدْنَا مَقَالَ النَّاسِ ذَا زِنَةٍ   فَكَيْفَ يُنْكَرُ أَنَّ الفِعْلَ يَتَّزِنُ

ورد في القرآن الكريم ، والأحاديث الشريفة وزنُ الأعمال وموازينها في يوم القيامة ، ووصفها بالثقل والخفة . فلا يخفى أن الأعمال التي يعملها الناس أعراض تعدم ولا تدوم ، وأن الثقل والخفة من صفات الأجسام والجواهر . وبهذا السبب اختلفت كلمة العلماء في كيفية الموزون والميزان .

فأنكر فريق الوزن ، وقالوا : المراد من الميزان القضاء بالعدل على سبيل الكناية ، بأن يقال : ذكر وزن الأعمال وأريد به القضاء بالعدل في أمر المجازاة ؛ وعبّر عن القضاء بالعدل بالميزان ، لكون الميزان طريقاً لظهور العدل .

أو على سبيل الاستعارة بأن يقال : شبه ذلك الموصوف بالخفة والثقل بمعنى القلة والكثرة . وقد ذهب إلى ذلك جماعة من المتقدمين ، منهم مجاهد (١) والضحاك (٢) والأعمش (٣) .

وأنكر ذلك أيضاً المعتزلة جميعاً ؛ وانقسموا إلى قسمين : قسم أحاله عقلا ، وقسم جوّزه ، ولم يثبته ، كالعلاف (٤) وابن المعتمر (٥) وقالوا :

---

(١) هو مجاهد بن جبر ، أبو الحجاج المكي ، تابعي مفسر من أهل مكة أخذ عن ابن عباس . مولده سنة ٢١ هـ وتوفي سنة ١٠٤ هـ .

(٢) هو الضحاك بن مزاحم البلخي الهلالي الخراساني أبو القاسم ، مفسّر محدث ، توفي سنة ١٥٠ هـ وله كتاب في التفسير .

(٣) هو سليمان بن مهران الأسدي أبو محمد الملقب بالأعمش ، تابعي مشهور أصله من بلاد الري ، كان عالماً بالقرآن والحديث والفرائض توفي بالكوفة سنة ١٤٨ هـ الاعلام ١٩٨/٣ .

(٤) هو محمد بن الهذيل بن عبد الله بن مكحول العبدي — أبو الهذيل العلاف — من أئمة المعتزلة ولد في البصرة سنة ١٣٥ هـ واشتهر بالكلام وتوفي بسامرا سنة ٢٣٥ هـ الأعلام ٣٥٥/٧ هـ .

(٥) بشر بن المعتمر البغدادي ، أبو سهل ، فقيه معتزلي من أهل الكوفة توفي سنة ٢١٠ هـ انظر الأعلام ٢٨/٢ .

يجب حمل ما ورد في القرآن من الوزن والميزان على رعاية العدل والإنصاف لا على آلة الوزن الحقيقي .

وأما أهل السنة فقد أثبت الجمهور منهم الميزان وقالوا : إنه حقيقة بمعناه المعروف ، وأن له لساناً وكفتين وعموداً ، ومكانه بين الجنة والنار .

وقد اختلفت كلمتهم في الموزون ، فقال فريق : إن الأعمال نفسها تجسم وتجسد وتوزن .

وقال فريق آخر : توزن صحائف الأعمال التي كتبت فيها الحسنات والسيئات ، فيحدث الله فيها ثقلا وخفة .

وقال فريق آخر : إن الموزون هو الأشخاص العاملون أنفسهم ، فيخف بعضهم ويثقل آخر باعتبار عمله . وروي عن ابن عباس أنه قال : « يؤتى بالأعمال الحسنة على صور حسنة ، وبالأعمال السيئة على صور قبيحة فتوضع في الميزان » . فعلى قوله هذا تصور الأعمال صوراً ، وتوضع تلك الصور في الميزان ، ويخلق الله تعالى فيها ثقلا وخفة .

وقال الحكيم المجريطي[1] في (الرسالة الجامعة ج ٢ ص ٥١) : « إن كثيراً من الناس إذا سمع بذكر الوزن يوم القيامة ونصب الموازين يظن أن الأعمال تصير في ذلك اليوم أشياء تجتمع فتصير أجساما ، وتوضع في الميزان ، وتجعل بين يديها مثاقيل توزن بها . . . كما يشاهدون من أمور الدنيا ، ووزن الذهب ، والفضة ، والأمتعة . . . وغير ذلك .

---

(١) هو مسلمة بن أحمد بن قاسم بن عبد الله المجريطي ، أبو القاسم ، فيلسوف رياضي فلكي ، ولد بمجريط (مدريد) وتوفي فيها سنة ٣٩٨ هـ .
وألف بعض الكتب في الحكمة والرياضيات ، وإليه تنسب (الرسالة الجامعة) وقد عني بنشرها .وتحقيقها جميل صليبا ونشرها المجمع العلمي العربي في جزئين (دمشق ١٩٤٨ — ١٩٥١) .

وهذا يتخيله الصبيان والنساء ، ومن لا عقول لهم من الرجال ، مثل البله ، والمجانين ، والمتخلفين عن اتباع الرسل والأئمة . . . .

وأما أهل العلم والحكمة الذين وقفوا على أسرار كتب الأنبياء الصادقين ، والحكماء الراشدين ، فيعلمون أن الموازين المنصوبة ليوم القيامة التي توزن بها أعمال العباد من الخير والشر ، إنما هي صور نفسانية صافية شفافة ، تتراءى فيها الأعمال لأصحابها . فينظر العاقل فيها إلى عمله إنْ خيراً فخير وإن شراً فشر . . . وهذه الكتب هي التي بأيدي الملائكة الحفظة الذين يكتبون أعمال بني آدم وهم أصحاب الوزن يوم القيامة . . . .

وأما أمثال هذه الموازين في الدنيا فهي التي توزن بها الأشكال والمقادير التي لا تجتمع كاجتماع الأجزاء في الموازين المركبة ، وهي كالاسطرلاب وأمثاله من الآلات التي يعرف بها الزمان بالنظر والعيان ، وكم مضى من الليل والنهار ، والباقي منها بالزيادة والنقصان ، والمسطرة في الاستواء والاعوجاج ، والذراع الذي يعرف به الطول والعرض . . . . » .

وهذا البحث مبسوط في كتب العقائد والتفسير [١] .

أما أبو العلاء فقد ذكر في (لزوم ما لا يلزم) هذين البيتين [٢] :

أَكَذَّبَ القومُ بالمِيزَانِ أنْ سَمِعُوا . . . .

---

(١) منها (المواقف) للعضد وشرحه للسيد الجرجاني ج ٨ ص ٣٢١ . ومنها التفسير المسمى (بالبحر المحيط) لأبي حيان ج ٤ ص ٢٧٠ . والتفسير المسمى (بالجامع لأحكام القرآن) للقرطبي ج ٧ ص ١٦٥ . و (تفسير فخر الدين الرازي) ج ٤ ص ١٨٠ و (حاشية الخفاجي على تفسير البيضاوي) ج ٤ ص ١٥١ . و (حاشية شيخ زادة على البيضاوي) تكملة ج ١ ص ٢٢٠ . و (حاشية الجمل على الجلالين) ج ٢ ص ١٢٨ . و (تفسير ابن جرير الطبري) (ج) .

(٢) راجعهما فيما سبق ص ١٤٦٥ — ١٤٦٦ .

فأثبت فيها الوزن للأفعال كما أثبته للأقوال ، ولكنه لم يصرح بكيفية الوزن التي يعتقدها ؛ ولا بنوع الميزان الذي يريده . وقال في (اللزوم) أيضا :

لَا تَعْرِفُ الوَزْنَ كَفِّي بَلْ غَدَتْ أُذُنِي ... وَزَّانَةً وَلِبَعْضِ القَوْلِ مِيزَانُ[1]

وقال فيه أيضا :

سَتُرْعَى إِذَا أُلْفِيتَ لِلَّفْظِ خَازِناً ... وَتَدْهَى إِذَا أَحْسَنْتَ لِلذَّهَبِ الخَزْنَا[2]

فَأَنْفِقْ بِمِيزَانٍ مَقَالَكَ وَابْتَعِثْ ... يَدَيْكَ بِمَا أُوتِيتَ وَزْناً وَلَا وَزْنَا

وقد أراد بقوله : « فانفق بميزان مقالك . . » تكلم بالحق والصدق ، ولا تزد عليه ولا تنقص ، كأنك تزنه بميزان . وأما يداك فلا تقيدهما في الإعطاء بشيء ؛ بل أعط بوزن أو بغير وزن .

وظاهر كلامه في هذا الموضوع ، أنه يثبت للأقوال في الدنيا وزناً وميزاناً ويثبت للأفعال في الآخرة وزناً وميزاناً ، قياساً على الأقوال ؛ ولكنه لم يصرح بكيفية الوزن ولا الميزان .

ونحن إذا تأملنا الأقوال ، وجدناها أقساماً كثيرة ولها موازين مختلفة ؛ منها ما يوزن بمقابلة الحركات والسكنات لمطابقة الوزن ، كالعروض للشعر . . ومنها ما يوزن بمطابقته لقواعد العلم ، كعلوم اللسان من نحو وصرف وبلاغة ونحوها .

ومنها ما يوزن بالذوق كالنظم والنثر فإن الجيد والرديء منها يعرف بالذوق . ومنها ما يوزن بمطابقة الحقيقة والواقع كالأخبار وما أشبهها .

---

(١) اللزوميات هـ ص ٢٦٢ .

(٢) » » ص ٢٦٥ .

وهناك أقسام كثيرة غير ما ذكر ، ولكل منها ميزان تعارف الناس على الوزن به .

وقد تجتمع في النص الواحد وجوه متعددة ؛ ويكون لكل وجه منها ميزان خاص يوزن به ذلك النص إذا نظر إليه من ذلك الوجه . وذلك كالأبيات من الشعر ، توزن بميزان العروض لمعرفة صحة وزنها أو عدمها . وتوزن بقواعد النحو والصرف والبلاغة لمعرفة صحة تأليفها مفردة ومركبة ، ومطابقتها لمقتضى الحال وعدمها . ويوزن بالذوق جمال انسجامها ، ورشاقة أسلوبها ، وروعة خيالها . ويوزن ما فيها من الأخبار والأحكام بمطابقتها الحقيقة وعدمها .

فهذا نص واحد اجتمعت فيه وجوه متعددة ، ولكل وجه ميزان يوزن به هذا القول كما ذكر .

ثم إن الأقوال توصف بالقلة والكثرة ، واللين والشدة ، والصحة والبطلان ؛ ونحو ذلك من صفات الأعراض . وكذلك الأفعال تتصف بمثل هذه الصفات .

وأبو العلاء أجاز في الأفعال كل ما يجوز في الأقوال ؛ واثبت الوزن للأذن لأنها تزن ما تسمعه وتقضي عليه بالعدل أنه حق أو باطل . وهو لم يبين ما يعتقده في الوزن والميزان . والمعروف من مذهبه أنه يحكم العقل في كل شيء ، والعقل يجوز في أكثر المواطن أن يجعل وزن الأعمال كناية عن القضاء بالعدل . ولذلك رأينا أن نحمل وزن الأقوال والأفعال في كلامه على القضاء بالعدل ، كما حمل وزن الأعمال عليه في كلام غيره . ويكون بذلك موافقاً للأعمش ومجاهد والضحاك والمعتزلة[1] .

رضوان :

وَإِنْ كَفَتْنِي عَذَابَ اللهِ مَغْفِرَةٌ فَمَا أُحَاوِلُ مِنْهَا فَوْزَ رِضْوَانِ[2]

(١) انظر ما سبق ص ١٤٦٦ .

(٢) الزوميات ٥ ص ٢٧٦ وفيها : « ... عذاب الله آخرة ... » .

مالك :

يَا رِضْوَ لَا أرْجُو لِقَا ءَكَ بَلْ أخَافُ لِقَاءَ مَالِكْ(١)

طوبى :

فَإِنْ خَرَجْتُ إلى بُؤْسَى فَوَاحَرَجِي وَإنْ نُقِلْتُ إلى نُعْمَى فَطُوبى لي(٢)

جنة الخلد :

وَمَا أظُنُّ جِنَانَ الْخُلْدِ يُدْرِكُهَا إلاّ مَعَاشِرُ كَانُوا في التُّقَى جُهُدَا(٣)

جنة عدن :

فَإنَّ جَنَّةَ عَدْنٍ لَا يُجَادُ بِهَا إلاّ لِصَاحِبِ دِينٍ فِي أذَى عَدَنَا(٤)

جنة النعيم :

وَمَا سَرَّنِي أنِّي أُصِبْتُ مَعَاشِراً بِظُلْمٍ وَأنِّي في النَّعِيمِ مُخَلَّدُ(٥)

النار :

وَهِيَ الْحَيَاةُ فَعِفَّةٌ أوْ فِتْنَةٌ ثُمَّ الْمَمَاتُ فَجَنَّةٌ أوْ نَارُ(٦)

---

(١) انظر ما سبق ص ١٣١٦ .
(٢) اللزوميات ﻫ ص ٢١٦ .
(٣) اللزوميات ﻫ ص ١٠٢ .
(٤) اللزوميات ﻫ ص ٢٦٥ ، وعدن بالمكان : أقام .
(٥) اللزوميات ﻫ ص ٨٩ .
(٦) اللزوميات ﻫ ص ١٣٢ .

سقر :

إنْ عُوِّضُوا عَنْ ذُنُوبٍ أُسْلِفَتْ سَقَراً فَلَمْ تَرِمْهُمْ عَلى عِلاَّتِها سَقَرُ[1]

السعير :

أَتُرَجِّينَ مِن إِلٰهِكِ عَفْواً وَتَخَافِينَ في الحِسَابِ السَّعِيرا[2]

جهنم :

تَغْشَى جَهَنَّمَ دَمْعَةٌ مِنْ تَائِبٍ فَتَبُوخُ وَهْيَ شَدِيدَةُ الإِيقَادِ[3]

الهاوية :

هَاوِيَةٌ نَفْسُكَ مَا سَاءَهَا فَلْتَخْشَ أَنْ تُلْقَى إلى الهَاوِيَهْ[4]

الغسلين والحميم :

إنْ أَدْخُلِ النَّارَ فَلِي خَالِقٌ يَحْمِلُ عَنِّي مُثْقَلاتِ العَذَابْ[5]

يَقْدِرُ أَنْ يُسْكِنَنِي رَوْضَةً فِيها تَرَامَى بالمِيَاهِ العِذَابْ

لاَ أُطْعَمُ الغِسْلِينَ في قَعْرِها وَلاَ أُغَادَى بِالحَمِيمِ المُذَابْ

---

(١) اللزوميات « ص ١٢٢ . وفيها « ان عوضوا بذنوب ... » .

(٢) اللزوميات « ص ١٤٥ .

(٣) اللزوميات « ص ١١٤ .

(٤) اللزوميات « ص ٣٤٦ .

(٥) اللزوميات « ص ٥٦ .

لَقَدْ فزْتَ إنْ كُنْتَ تُعطَى الجِنَانَ ... بِمكَّةَ إذْ زُرْتَها أوْ مِنَى[١]

وَإنْ أُعفَ بَعْدَا المَوْتِ مِمَّا يَرِيبُنِي ... فَمَا حَظِّيَ الأذَى وَلا يَدِيَ الخُسْرَى[٢]

نُفُوسٌ لِلقِيَامَةِ تَشْرَئِبُّ ... وَغَيٌّ في البَطَالَةِ مُتْلَئِبُّ[٣]

وَإنْ غَيَّرَ الإثْمُ الوُجُوهَ فَمَا تَرَى ... لَدَى الحَشْرِ إلاَّ كُلَّ أسْوَدَ شَاحِبِ[٤]

وَمَا يُدْرِيكِ بَاكِيَتِي لَعَلِّي ... لِسُكْنَى الفَوْزِ في الأخْرَى انْتُقِيتُ[٥]

كَيْفَ لِي أنْ أكُونَ في دَارِيَ الأخْرَى مُعَافَىً مِنْ شِقْوَةٍ مُسْتَرِيحَا[٦]

عُودِي يَخَافُ مِنَ الإحْرَاقِ صَاحِبُهُ ... إنْ قَالَ رَبِّي لأجْسَامِ البِلَى عُودِي[٧]

---

(١) الزوميات هـ ص ٣٠ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) الزوميات هـ ص ٣٢ . واشرأب الشيء اشرئباباً : مد عنقه لينظر بتشوق ، واتلأب الأمر : استقام وانتصب .

(٤) الزوميات هـ ص ٤٥ .

(٥) الزوميات هـ ص ٦١ .

(٦) الزوميات هـ ص ٨٤ .

(٧) الزوميات هـ ص ١١٠ ، وعودي في أول البيت : جسمي ، وفي آخره : ارجعي .

تَخشى السَّعيرَ وَدُنيا نَاوِ إنْ عَشِقَتْ ... مِثْلُ الوَطِيسِ تَلَظَّى مِلْؤهُ سُعُرُ[١]

. . .

نَفْسٌ تُحِسُّ بِأَمْرٍ أُخرَى هَذِهِ ... جِسْرٌ إِلَيْهَا بِالمَخَاوِفِ يُعْبَرُ[٢]

. . .

قَالُوا جَهَنَّمُ قُلْتُ إِنَّ شَرَارَهَا ... وَلَهِيبَهَا يَصْلاَهُمَا المُتَشَرِّرُ[٣]

. . .

يَكُرُّ مَوْتَانَا إِلَى الحَشْرِ إِنْ ... قَالَ لَهُمْ بَارِئُهُمْ كُرُّوا[٤]

. . .

فَيَا لَيْتَنِي لاَ أَشْهَدُ الحَشْرَ فِيهِمُ ... إِذَا بُعِثُوا شُعْثاً رُؤُوسُهُمُ غُبْرَا[٥]

. . .

بَيْنِي وَبَيْنَ البَعْثِ طُولُ البِلَى ... وَمَنْ لِهَذِي النَّفْسِ أَنْ تَطْفِرَهْ[٦]

. . .

مَتَى أَلْقَ مِنْ بَعْدِ المَنِيَّةِ أُسْرَتِي ... أُخَبِّرْهُمُ أَنِّي خَلَصْتُ مِنَ الأَسْرِ[٧]

. . .

---

(١) الزوميات ﻫ س ١٢٢ .
(٢) الزوميات ﻫ س ١٢٦ .
(٣) المصدر السابق .
(٤) الزوميات ﻫ س ١٣٤ .
(٥) الزوميات ﻫ س ١٣٦ .
(٦) الزوميات ﻫ س ١٤٤ ، وطفر : وثب .
(٧) اللزوميات ﻫ س ١٤٦ .

فَيَا لَيْتَنَا عِشْنَا حَيَاةً بِلاَ رَدًى مَدَى الدَّهْرِ أَوْ مُتْنَا مَمَاتاً بِلاَ نَشْرِ (١)

. . .

وَاللهُ يَنْشُرُ أَرْوَاحاً بِقُدْرَتِهِ وَيَبْعَثُ الغَيْثَ فِي أَرْوَاحِهِ النُّشُرِ (٢)

. . .

وَمَا أَلُومُ أَخَا الإِلْحَادِ بَلْ رَجُلاً يَخْشَى السَّعِيرَ وَمَا يَنْفَكُّ فِي سُعُرِ (٣)

. . .

جَنَوْا كَبَائِرَ آثَامٍ وَقَدْ زَعَمُوا أَنَّ الصَّغَائِرَ تُجْنِي الخُلْدَ فِي النَّارِ (٤)

. . .

تَنَاقُضٌ مَا لَنَا إِلاَّ السُّكُوتُ لَهُ وَأَنْ نَعُوذَ بِمَوْلاَنَا مِنَ النَّارِ (٥)

. . .

أُؤَمِّلُ جَنَّةً رَحُبَتْ وَرَاحَتْ وَتَعْجِزُ قُدْرَتِي عَنْ نَيْلِ فِتْرِ (٦)

. .

تَخَالَسُوا لَذَّةً مِنْهَا مُعَجَّلَةً وَلَمْ يُبَالُوا بِمَا يَلْقَوْنَ مِنْ سَقَرِ (٧)

. . .

---

(١) اللزوميات ﻫ س ١٤٧ . وفيها : « . . . يد الدهر . . » .

(٢) اللزوميات ﻫ س ١٥٠ .

(٣) اللزوميات ﻫ س ١٥١ ، وفيها : « ولا ألوم . . . » .

(٤) اللزوميات ﻫ س ١٥٢ .

(٥) انظر ما سبق س ١٤٢١ .

(٦) اللزوميات ﻫ س ١٥٣ .

(٧) اللزوميات ﻫ س ١٤٩ .

وَمَوْتٌ لا تُؤَخِّرُ عَنْهُ نَفْسٌ تُهَدِّدُ بَعْدَهُ بِصَلاَهُ جَزْرِ [١]

. . .

شَرَّفَني اللهُ وَلاَ آمُلُ الـ ـجَنَّةَ بَلْ عِتْقًا مِنَ النَّارِ [٢]

. .

تَرَكَ الآجِلَ لَمْ يَحْفِلْ بِهِ وَمِنَ العَاجِلِ لَمْ يَقْضِ الوَطَرْ [٣]

. . .

إنْ تَعُدْ في الجِسْمِ يَوْماً رُوحُهُ فَهْوَ كَالرَّبْعِ خَلاَ ثُمَّ عَمَرْ [٤]

. . .

وَلَيْتَهَا لَمْ يَكُ مِنْ بَعْدِهَا خَوْفُ حِسَابٍ وَعِقَابٌ بِنَارْ [٥]

. . .

فَيَا لَيْتَني في الثَّرى لا أقُومُ إنِ اللهُ نَادَاكُمْ أوْ حَشَرْ [٦]

. . .

يا رَبِّ أخرِجْني إلى دَارِ الرِّضى عَجِلاً فَهَذَا عَالَمٌ مَنْكُوسُ [٧]

. . .

---

(١) اللزوميات ﻫ ص ١٥٣ .

(٢) اللزوميات ﻫ ص ١٦٥ .

(٣) اللزوميات ﻫ ص ١٦٨ .

(٤) اللزوميات ﻫ ص ١٦٨ .

(٥) اللزوميات ﻫ ص ١٦٩ .

(٦) اللزوميات ﻫ ص ١٧٠ .

(٧) اللزوميات ﻫ ص ٢٠٥ .

إنْ شَاءَ رَبُّكَ جَازَاهُمْ بِفِعْلِهِمُ ... وَاللُّفْظِ حِينَ تُثَارُ الأَقْبُرُ اللُّفُظُ(١)

. . .

أَضَاعَ دَارَيْكَ مِنْ دُنْيَا وَآخِرَةٍ ... لاَ الحَيَّ أَغْنَى وَلاَ فِي هَالِكٍ شَفَعَا(٢)

. . .

وَاذْخَرْ جَمِيلاً لِلاَدْنَى القُوتِ تُدْرِكُهُ ... وَلِلْقِيَامَةِ تَعْرِفْ ذَاكَ أَجْمَعَهُ(٣)

. . .

لاَ خَيْرَ لِلْمَرْءِ إلاَّ خَيْرُ آخِرَةٍ ... يَبْقَى عَلَيْهِ فَذَاكَ العِزُّ وَالشَّرَفُ(٤)

. . .

نَرْجُو السَّلاَمَةَ فِي العُقْبَى وَمَا حَسُنَتْ ... أَعْمَالُنَا فَيُرَجَّى الفَوْزُ وَالغُرَفُ(٥)

. . .

إذَا كُنْتَ فِي دَارِ الشَّقَاءِ مُصَلِّياً ... فَإنَّكَ فِي دَارِ السَّعَادَةِ سَابِقُ(٦)

. . .

اِعْمَلْ لأُخْرَاكَ شَرْوَى مَنْ يَمُوتُ غَداً ... وَادْأَبْ لِدُنْيَاكَ فِعْلَ الغَابِرِ البَاقِي(٧)

. . .

---

(١) اللزوميات هـ ص ١٨٠ . واللُّفُظ : مفردها لافظ وهو الذي يلفظ ما فيه أي يلقيه ويطرحه .

(٢) اللزوميات هـ ص ٢٨٥ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) اللزوميات هـ ص ٢٩١ .

(٥) المصدر السابق .

(٦) اللزوميات هـ ص ٢٩٨ . وأراد بالمصلي : القائم بفرض الصلاة ، والنز بقوله : « سابق » كأنه يريد المصلي من الخيل وهو الذي يلي السابق .

(٧) اللزوميات هـ ص ٣٠٦ . وشروى الشيء : مثله .

وَتَعجِزُ دُنْيَاكَ القَوِيَّ يَرُومُهَا   وَيَطْلُبُ أُخْرَاهُ الضَّعِيفُ فَيُدْرِكُ(١)

. . .

لِلَّهِ دَارَانِ فَالأُولى وثانِيَةٌ   أُخْرَى مَتى شَاءَ فِي سُلْطَانِهِ تَمَلَكْ(٢)

. . .

نَحْنُ فِي هذِهِ البَسِيطَةِ أَضْيَا   فُ لَنَا فِي ذَرَا المَلِيكِ نُزُولُ(٣)

. . .

وَيَكُونُ غَيْرَ مُصَدِّقٍ بِقِيَامَةٍ   أَمْسَى يُمَثِّلُ فِي النُّفُوسِ ذُهُولَهَا(٤)

. . .

أَوْجَالُ نَفْسِيَ فِي الدُّنْيَا مُضَاعَفَةٌ   وَلَا أَزَالُ مِنَ الأُخْرَى عَلَى وَجَلِ(٥)

. . . .

إِنْ كَانَ نَقْلِي عَنِ الدُّنْيَا يَكُونُ إِلَى   خَيْرٍ وَأَرْحَبَ فَانْقُلْنِي عَلَى عَجَلِ

وَإِنْ عَلِمْتَ مَآلِي عِنْدَ آخِرَتِي   شَرّاً وَأَضْيَقَ فَانْسَأْ رَبِّ فِي الأَجَلِ

. . .

فَأَمِّلُوا اللهَ وَارْجُوا مِنْهُ عَاقِبَةً   فَلَيْسَ دُنْيَاكُمُ أَهْلاً لِآمَالِ(٦)

. . .

---

(١) اللزوميات ﻫ ص ١٨٣ .

(٢) « « ص ١٩١ .

(٣) « « ص ٢٠١ .

(٤) « « ص ٢٠٧ .

(٥) « « ص ٢١٤ . وانسأ : اخر .

(٦) « « ص ٢١٥ .

واللهُ يغفِرُ في الحِسَابِ لِنِسْوَةٍ   جَاهَدْنَ إذْ فُقِدَ الحَيَا بِمَغَازِلِ(١)

. . .

خَيرَ الذِي بَاعَ الخُلودَ وَعَيْشَهُ   بِنَعِيمِ أيَّامٍ تُعَدُّ قَلاَئِلِ(٢)

. . .

دُنْيَاكَ أرْزَاقٌ تُذَكِّرُ بَعْدَهَا   أُخرَى تُنَالُ بِصَالِحِ الأعْمالِ(٣)

. . .

فَهَلْ تَرِدَنْ حَوْضَ الحَيَاةِ مُبَادِراً   إذَا حُلِّئَتْ عَنْهُ النفُوسُ الحَوَائِمُ(٤)
وَتَرْتَعُ مَا بَيْنَ النَّبِيينَ نَاعِماً   بِعِيشَةِ خُلْدٍ لَمْ تَنَلْهَا السَّمَائِمُ

. . .

وَكَأنَّمَا الاخْرَى تَيَقُّظُ نَائِمٍ   وَكَأنَّمَا الأولى مَنَامٌ يُحْلَمُ(٥)

. . .

جِنَانٌ وَرِضْوَانُ الذِي هُوَ مَالِكٌ   لَهَا عَنْكَ يَنْفِي مَالِكاً وَجَهَنَّمَا(٦)

. . .

---

(١) الزوميات ﻫ ص ٢٢٠ .
(٢) « « ص ٢٢١ .
(٣) « « ص ٢٢٢ .
(٤) الزوميات ﻫ ص ٢٣٠ ، وحلأه عن الماء : طرده ومنعه . والسائم : مفردها سموم وهي الريح الحارة تكون غالباً بالنهار .
(٥) الزوميات ﻫ ص ٢٣٥ .
(٦) الزوميات ﻫ ص ٢٤٠ .

النَّاسُ إنْ لَمْ تُنَبِّهْهُمْ قِيَامَتُهُمْ أوْ نُبِّهُوا فَتُرَابٌ مَا لَهُمْ قِيَمُ[1]

. . .

قَالَ المُنَجِّمُ والطَّبِيبُ كِلاَهُمَا لاَ تُحْشَرُ الأجْسَادُ قُلْتُ إلَيْكُمَا[2]

إنْ صَحَّ قَوْلُكُمَا فَلَسْتُ بِخَاسِرٍ أوْ صَحَّ قَوْلِي فَالْخَسَارُ عَلَيْكُمَا

وهذان البيتان من أبيات لأبي العلاء المعري في (لزوم ما لا يلزم) وقد زعم بعضهم أنهما من نظم علي بن أبي طالب - ض -، وزعم بعضهم أن لعلي - ض - كلاماً يشبه معنى البيتين على سبيل التقريب. قال الخفاجي في (حاشيته على البيضاوي ج ٤ ص ٤٧): قال ابن السيد في شرحه: هذا منظوم مما روي عن علي - ض - أنه قال لبعض من تشكك في البعث والآخرة: إن كان الأمر كما تقول من أنه لا قيامة، فقد تخلصنا جميعاً؛ وإن لم يكن الأمر كما تقول فقد تخلصنا وهلكت. فذكروا أنه ألزمه فرجع عن اعتقاده. وهذا الكلام، وإن خرج مخرج الشك، فإنما هو تقرير للمخاطب على خطابه وقلة أخذه بالنظر والاحتياط لنفسه مع أن المناظر على ثقة من أمره، وهو نوع من أنواع الجدل. وقوله: «إليكما» كلمة يراد بها الردع والزجر، ومعناها: كفّا عما تقولان. وحقيقته قولكما مصروف لكما لا حاجة لي به.

ثم قال: هذا النوع يسمى استدراجاً. قال في (المثل السائر[3]): الاستدراج نوع من البلاغة، استخرجته من كتاب الله تعالى وهو من مخادعات الأقوال التي تقوم مقام مخادعات الأعمال، يستدرج الخصم حتى

---

(١) اللزوميات هـ ص ٢٣٤.
(٢) اللزوميات هـ ص ٢٤٣.
(٣) لابن الأثير الجزري ص ١٩٠.

ينقاد ويذعن ، وهو قريب من المغالطة وليس منها ، كقوله تعالى : ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أنْ يقولَ ربيَ اللهُ وقد جاءكُمْ بالبيناتِ من ربكُمْ وإن يكُ كاذباً فعليهِ كذبُه وإن يكُ صادقاً يُصبكم بعض الذي يَعِدُكُمْ إنّ الله لايهدي من هو مُسرف كذّاب[1] ﴾ . ألا ترى لطف احتجاجه على طريقة التقسيم ، بقوله : إن يك كاذباً فكذبه عائد عليه ، وإن يصدق يصبكم بعض ماوعدكم به . ففيه من الإنصاف والأدب مالا يخفى فإنه نبي صادق . فلا بد أن يصيبهم كل ماوعد به لا بعضه . لكنه أتى بما هو أذعن لتسليمهم وتصديقهم لما فيه من الملاطفة في النصح بكلام منصف غير مشتط ولا مشدّد . أراهم أنه لم يعطه حقه ، ولم يتعصب له ولم يحام عنه حتى لاينفروا عنه . ولذا قدم قوله : « كاذباً » ثم ختم بقوله : « إن الله لايهدي » الخ . . يعني أنه نبي على الهدى ولو لم يكن كذلك ماآتاه الله النبوة وعضده . وفيه من خداع الخصم واستدراجه مالا يخفى .

وقد نقل قول صاحب (المثل السائر) بالمعنى ، واختصره واقتصر على مثال واحد مما أورده فإن شئت الرجوع إلى المثل فقد ذكر هذا في (ص ١٩٠) .

. . .

وَنَخْشَى عَذَاباً في المَمَاتِ وَإِنَّنَا ... لَأَهْلُ عَذَابٍ في الحَيَاةِ أَلِيمِ[2] .

. . .

مَتَى أنَا لِلدَّارِ المُرِيحَةِ ظَاعِنٌ ... فَقَدْ طَالَ في دَارِ العَنَاءِ مُقَامِي[3]

. . .

(١) سورة المؤمن ٤٠ الآية ٢٨ .

(٢) اللزوميات هـ ص ٢٤٦ . وفيها : « ويخفى ... » .

(٣) « « « ص ٢٤٧ وظاعن : مرتحل .

وَيْحَ جِيلِيَ وَالأَجْيَالِ إِنْ بُعِثُوا ... إِلى حِسَابٍ قَدِيمِ اللُّطْفِ عَلاَّمِ (١)

. . .

رَبِّ اكْفِنِي حَسْرَةَ النَّدَامَةِ فِي الْـ ... ـعُقْبَى فَإِنِّي مُحَالِفُ النَّدَمِ (٢)

. . .

إِنْ تَثْوِ فِي دَارِ الجِنَانِ فَإِنَّمَا ... فَارَقْتَ مِنْ دُنْيَاكَ نَاراً تَحْتَدِمْ (٣)

. . .

قَدْ يُمْكِنُ البَعْثُ إِنْ نَادَى الْمَلِيكُ بِهِ ... وَلَيْسَ مِنَّا لِدَفْعِ الشَّرِّ إِمْكَانُ (٤)

. . .

وَأَسْأَلُ الخَالِقَ مِنْ عِزِّهِ ... مَا لَمْ يَكُنْ إِلاَّ لَهُ يُمْكِنُ (٥)
سَيْراً إِلى المَوْتِ وَعَفْواً إِذَا ... مُتُّ فَفِي الآخِرَةِ المَوْكِنُ

. . .

حَيَاةٌ وَمَوْتٌ وَانْتِظَارُ قِيَامَةٍ ... ثَلاَثٌ أَفَادَتْنَا ثَلاَثَ مَعَانِ (٦)

. . .

---

(١) اللزوميات هـ ص ٢٥٠ .
(٢) « « ص ٢٥٥ .
(٣) « « ص ٢٥٦ .
(٤) « « ص ٢٦١ .
(٥) « « ص ٢٦٣ . والموكن : عش الطائر .
(٦) اللزوميات هـ ص ٢٧٤ .. ونيها : « ... ثلاث أفادتنا ألوف معان » .

حَسْبِي مِنَ الجَهْلِ عِلْمِي أنَّ آخِرَتِي ... هِيَ المَآلُ وأنِّي لا أُرَاعِيهَا[1]

وأنَّ دُنْيَايَ دَارٌ لاَ قَرَارَ بِهَا ... وَمَا أزَالُ مُعَنًّى في مَسَاعِيهَا

. . .

سَعَوْا لِدُنْيَاهُمْ بِآخِرَةٍ ... فَبِئْسَ مَا حَاوَلُوا غَدَاةَ سَعَوْا[2]

فهذه مائة بيت من (لزوم مالا يلزم) وحده ، وهي كلها ، كما ترى ، صريحة بذكر الآخرة ، والقيامة ، والبعث والنشر ، وغيرهما مما يتعلق بالحياة الثانية . وكلها صادرة عن اعتقاد جازم ويقين لايخامره شك . وفي (اللزوم) كثير لم نذكره مما يدل على ذلك بطريق التصريح أو الإشارة . ولكننا اجتزأنا بهذا القدر ومما تقدم من أقواله . وغايتنا أن نبين أن بعض العلماء عمُوا أو تعاموا عن أكثر من مائة بيت صريح في إثبات الحشر أو مافيه ؛ وتشبثوا ببيت واحد ، وقد قدمنا بطلانه .

★ ★ ★

(١) اللزوميات ﻫ ص ٣٣٦ .

(٢) اللزوميات ﻫ ص ٣٤٢ .

الحشر في نثر أبي العلاء

وأما نثر أبي العلاء فقلما خلا كتاب أو رسالة مطوّلة له من ذكر الآخرة ، أو ماله اتصال بالآخرة . من ذلك :

رسالة الغفران :

وهذه الرسالة قائمة على إثبات الحشر والآخرة ؛ وكلها براهين وأدلة على إثباتها ، وعلى إقراره بالبعث ، والجنة والنار وغيرهما مما يكون في الآخرة .

رسالة الملائكة :

وأما (رسالة الملائكة) فقد تصدى فيها لذكر القبر والملائكة ، والجنة والنار ، ومايكون فيها . من ذلك قوله (ص ٧) : « أم تراني أداريه منكراً ونكيراً ... »[١] وقوله (ص ١٦) : « قصرت أعمالهم عَنْ دُخول الجنة »[٢] وقوله (ص ١٧) : « فيقول رضوان ... »[٣]

وذكر ماء الحيوان ، والنعيم المقيم ، والفردوس ، والغسلين ، وجهنم ، وسقر وما يأكل منه أهل الجنة ، وما يلبسونه ، والحور العين ، والولدان المخلدين .

رسالة المنيح :

قال فيها في (ص ٩) : « فَبلْدَتْنا جنان .. أم نشروا بعدما قبروا . أم جزوا الغرفة بما صبروا .. »[٤] .

---

(١) رسالة الملائكة تحقيق عبد العزيز الميمني . وانظر الرسالة تحقيق المؤلف ـ ر ح ـ طبعة المجمع العلمي العربي ص ٩ وقد حققها المؤلف ونشرها بعد أن فرغ ، فيما يظهر ، من تأليف الجامع أو من هذا الفصل منه على الأقل ، بدليل استشهاده بطبعة الميمني السابقة وهي أوجز وأقصر .

(٢) وانظر رسالة الملائكة تحقيق المؤلف ص ٢٥ .

(٣) المصدر السابق ص ٢٦ ـ ٣٤ .

(٤) رسائل أبي العلاء المعري شرح شاهين عطية .

رسائله إلى خاله :

قال فيها في (ص ٦٧)[١] : « وترجج في الحشر وزنا .. » . وقال في الرسالة الثانية(ص٦٩)[١] : « وحزني لفقدها كنعيم أهل الجنة كلما نفد تجدد » .

رسالته إلى أبي عثمان النكتي :

قال فيها في (ص ١٥٢)[١] : « فقد ورد مع الحور العين كأساً كان مزاجُها كافورا ... جاور ربه في دار الحيوان تلك الدار الآخرة » .

رسالته إلى داعي الدعاة بمصر :

في ياقوت [٢] : « وهو يستحي من حضرة تاج الأمراء أن ينظر إليه بعين من رغب في العاجلة بعد ماذهب . وهو رضي أن يلقى الله ـ جلت قدرته ـ وهو لايطالب إلا بما فعل من اجتناب اللحم .. وتعوذ بالله وتبرأ من قول صاحب أبيات أنكر صاحبُها القيامة » . ولعن الوليدَ بن يزيد لقوله أبياتا ينكر فيها البعث والجنة . وهــذه الابيات في (معجم الأدباء لياقوت ج ١ ص ٢٠٠) .

ملقى السبيل :

وهذا الكتاب على صغر حجمه فيه كثير من ذكر الآخرة ، والحشر والجزاء ، والأجر ، في النظم والنثر من ذلك قوله :

نِمتَ عَنِ الأُخرَى فَلَم تَنتَبِهْ   وَفي سِوَى الدِّينِ هَجَرْتَ الكَرَى [٣]

وقوله : « والعين للحذر تدمع ، والسحب بالأقضية همّع ، وفي الآخرة يكون المجمع »[٤] .

---

(١) انظر مظان هذه النقول في رسائل أبي العلاء المعري شرح شاهين عطية .

(٢) معجم الأدباء . ج ١ ص ٢٠٨ . (ج) .

(٣) ملقى السبيل ط كامل كيلاني ص ٣٢٨ .

(٤) المصدر السابق ص ٣٤٣ .

وقوله : « والمرءُ بالعارِفة يُملَكْ ، والنهجُ للآخرة يُسْلَكْ » .[١]

وقوله :

لِتَقْرَعِ السِّنَّ غَـداً نَادِماً إنْ كُنْتَ ضَيَّعْتَ جَمِيلَ السُّنَنْ[٢]

وقوله : « طوامُ القدر فانطوَوا ، ولاقَتْهمُ الآخرة بما نوَوا[٣] » .

وقوله :

فَلْتَحْسُنِ النِّيَّةُ مِنْ بَعْدِهِمْ فَالنَّاسُ يُجْزَوْنَ عَلَى مَا نَوَوْا[٤]

الفصول والغايات :

وهذا الكتاب طافح بما يدل على الآخرة وما فيها كقوله : « لله الغلب وإليه المنقلب ، لايعجزه الطلب ، بيده السالب والسلب » .

وقوله : « ولله نظر في العالم دقيق ، لايمتنع أن يكون جسد الصالح إذا قبر في نعيم ، وجسد الكافر في عذاب أليم » .

وقوله : « وتارك الصلاة من صلاة السعير » .

وقوله : « كفيتني رب شقاء الدنيا ، فاكفني شقاء الآخرة » .

وقوله : « والشقي مَن حضر عرصات القيامة ... والسعيد من ورد كالخيري يستشفع بما في الكتاب » .

وقوله : « واجد ثوباً للآخرة تكتسبه » .

---

(١) ملقى السبيل ط كامل كيلاني ص ٣٤٥ .
(٢) « « « ص ٣٤٧ .
(٣) « « « ص ٣٤٨ .
(٤) « « « ص ٣٤٩ .

وقد أطلت القول في هذا الغرض ، ومن الحق أن أطيل فيه ، لأني رأيت كثيراً ممن نسب إنكار الحشر إلى أبي العلاء وليس له مستند إلا الأبيات التي بيّنا أنها تدل على إثبات الحشر لا على نفيه . وقد عمي هؤلاء كلهم عما في كلامه من التصريح بالحشر وما يتصل به ؛ وكانوا كالدمى يتبع بعضهم بعضاً على غير هدى . وسيمر بك شيء آخر من أقواله المتعلقة بهذا الغرض .

★ ★ ★

الفلسفة العملية

طرق أبو العلاء في شعره ونثره كثيراً من الأنواع التي ترجع إلى هذا الأصل . وصرح برأيه في كثير منها ؛ ووقف موقف الشاك في بعض المواطن . وهذه أعظم الأنواع التي تناولها :

أصل الانسان ، آدم :

قلنا غير مرة : إن أبا العلاء كان يعرض كل شيء على محك العقل فما ارتضاه قبله ، وما لا فلا . ولذلك نراه يشك في كثير من الأخبار التي كانت تتصل به من طريق الرواية أو الكتب ، لأنه يعتقد أن أكثر الكتب جمع لاكتساب منزلة أو اجتذاب منفعة كما سيتضح ذلك .

وقد ذكر علماء المسلمين وغيرهم أن البشر يرجع إلى أب واحد وهو آدم . وأبو العلاء جوّز أن يكون آدم هذا مسبوقاً بأوادم كثيرة ، حيث يقول :

جَائِزٌ أنْ يكُونَ آدَمَ هَذا قَبْلَهُ آدَمٌ عَلى إثْرِ آدَمْ[1]

ثم جزم بالتعدد فقال :

وَمَا آدَمٌ فِي مَذْهَبِ العَقْلِ وَاحِداً وَلَكِنَّهُ عِنْدَ القِيَاسِ أوَادِمُ[2]

وقال :

وأوَادِمُ الزَّمَنِ الطَّوِيلِ كَثِيرَةٌ وَأوَادِمُ الطَّعْمِ الشَّهِيِّ أوَادِي[3]

(١) اللزوميات ه‍ ص ٢٥٨ .

(٢) اللزوميات ه‍ ص ٢٣١ .

(٣) يقال أدم الخبز : خلطه بالإدام ، وأدم القوم : أدم لهم خبزهم . وأدا يأدو : ختل ، وقيل : من آده إذا أثقله فهو مقلوب (ج) . وانظر اللزوميات ه‍ ص ١١٤ .

ولم يبيّن لنا السببَ الذي حمله على هذا الحكم . ولعله نظر إلى مانقل عن بعض الكتب السماوية من أن بدء الإنسان منذ سبعة آلاف سنة تقريباً ، فاستكثر أن يكون جميع هذا النسل من شخص واحد في هذه المدة ؛ واعتقد أن هناك أوادم قبله . ومن مجموعها تألف هذا البشر الذي عمر الأرض منذ ألوف السنين . فقد دلت الآثار التي عثر عليها المنقبون في هذا العصر ، والحوادث الطبيعية في الأرض أن مبدأ البشر قبل ذلك التاريخ بألوف السنين .

أو لعله رأى مابين الناس من اختلاف في اللغات ، والعادات ، والأخلاق والأشكال ؛ فاستبعد أن يكونوا من أصل واحد على مافيهم من التباين ، أو لعله علم أن الفرس الأولى كانوا يعتقدون أن جيومرت كلشاه هو أبو البشر أو أصل النسل . أو لعله فهم من قوله تعالى : ﴿ إني جاعلٌ في الأرْضِ خَليفَةً ﴾[١] أن الخالف يكون من جنس المخلوف في الغالب ، فيكون آدم مسبوقاً بمثله أو أمثاله . وللمفسرين أقوال في قوله تعالى : ﴿ وإذ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إنِّي جَاعِلٌ في الأرْضِ خَلِيفة ... ﴾ وقوله : ﴿ وقلنا يا آدمُ اسْكُنْ أنْتَ وَزَوْجُكَ الجَنَّةَ .. ﴾[٢] وغيرهما من الآيات الدالة على أن آدم وزوجه كانا في الجنة ، ثم أخرجا منها لأكلها الشجرة . فقد ذكر بعضهم أن هذه الجنة ليست جنة الخلد ، وإنما هي جنة كانت بأرض الهند أي بستان[٣] . وقد نقل أبو العلاء عن الهند أنهم يزعمون أن آدم كان قِنّاً لَهُمْ ، فهرّبه جماعة من بلادهم كما يدل عليه قوله :

تَقُولُ الهِنْدُ آدَمُ كَانَ قِنًّا لَنَا فَسَرَى إلَيْهِ مُخَبِّبُوهُ[٤]

---

(١) سورة البقرة الآية ٣٠ .

(٢) سورة البقرة الآية ٣٥ .

(٣) راجع مفتاح السعادة لابن القيم (ج ١ ص ١٤) . (ج) .

(٤) التخبيب : افساد الرجل عبداً أو أمة لغيره (ج) . وانظر ما سبق ص ١٤٠٣ .

وهذه كلها احتمالات لاتستند إلى دليل يفيد اليقين . ومهما يكن من أقوال أبي العلاء في اعتقاد تعدد آدم أو الشك فيه فإنه يُثبت وجود آدم ولا ينكره . لقد رد على من أنكر وجوده ، وادعى أنه اسم لا حقيقة له ، وأن نسبة البشر إليه كنسبة بنات عرس إلى عرس ، وبنات أوبر إلى أوبر وليس في الحقيقة كائن يسمى عرساً أو أوبر . وذلك حيث يقول في الأول:

قَالَ قَوْمٌ وَلاَ أَدِينُ بِمَا قَا لوهُ إنَّ ابْنَ آدَمَ كَابْنِ عِرْسِ (١)
جَهِلَ النَّاسُ مَا أَبُوهُ عَلَى الدَّهْـرِ وَلَكِنَّهُ مُسَمًّى بِحَرْسِ
فِي حَدِيثٍ رَوَاهُ قَوْمٌ لِقَوْمٍ وَهْنَ طِرْسٍ مُسْتَنْسَخٍ بَعْدَ طِرْسِ

ويقول في الثاني :

زَعَمَ الفَلاَسِفَةُ الذِينَ تَنَطَّسُوا أَنَّ المَنِيَّةَ كَسْرُهَا لا يُجْبَرُ (٢)
قَالُوا وَآدَمُ مِثْلُ أَوْبَرَ والوَرَى كَبَنَاتِهِ جَهِلَ امْرُؤٌ مَا أَوْبَرُ

فهو يصرح بالتبرؤ من القول الأول ، ويجعل القول الثاني زعماً . وبهذا يتبين بُطلان ماذكره صاحب (الذكرى) من جعل الأبيات الأُوَل دليلاً على شك أبي العلاء ، وظنه أن آدم شخص من أشخاص الأساطير ، وزعمه أن التقيّة أنطقت أبا العلاء بقوله : « ولا أدينُ بما قالوه » . وكيف يتأتى أن ينسب إليه الشك في آدم ، وكتبه طافحة بذكره وأخباره .

فقد ذكره في رسالته التي عزّى بها خاله بأخيه فقال في (ص ١٦٠) :

---

(١) اللزوميات ﻫ ص ٣٢٥ .
(٢) اللزوميات ﻫ ص ١٢٧ . وبنات اوبر : كمأة صغار مزغبة على لون التراب .

« توفي آدم – ص – بعد ما رأى الجنة وسكنها »[(١)] . وفي (ص ١٩٦)[(٢)] . و (ص ١٥٨)[(٣)] .

وذكره في مرثية أبيه مرتين . بقوله :

رآهَا سَلِيلُ الطِّينِ والشَّيْبُ شَامِلٌ . . . .[(٤)]

وقوله :

وَمَا اسْتَعْذَبَتْهُ رُوحُ مُوسَى وَآدَمٍ . . . .

وذكره في (اللزوم) في مواطن كثيرة منها :

قوله :

دَعْ آدَماً لا شَفَاه اللهُ مِنْ هَبَلٍ . . . .[(٥)]

وقوله :

أَكَانَ أَبُوكُمْ آدَمٌ في الذي أتى نجيبا . . . .[(٦)]

---

(١) انظر رسائل أبي العلاء شرح شاهين عطية .

(٢) حيث يقول في ص (١٩٦) : « فهو آدم وعرسه حواء ... » .

(٣) يقول فيها : « ... كل من عليها فان ، وإنما ابن آدم شبح مقتول .. » .

(٤) صدر بيت عجزه : « ... لها بالثريا والسماكين والوزن » وسليل الطين : آدم عليه السلام ، والوزن : من النجوم ، ويجوز أن يكون يعني به الميزان . وعجز البيت الثاني : « ... وقد وعدا من بعده جنتي عدن » . انظر شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٩١٣ و ٩٢٢ .

(٥) عجزه : « .. يبكي على نجله المقتول هابيلا » انظر ما سبق ص١٣٥٥ .

(٦) تمامه : « . فترجون النجابة للنسل » انظر ما سبق ص ١٣٥٦ .

وقوله :

أَنْتَ يا آدَ آدَمُ السِّرْبِ . . . .[١]

وقوله :

واللهُ حق وابنُ آدمَ جاهِلٌ . . . .[٢]

وقوله :

وَمَا أَعْجَبَتْنِي لابْنِ آدمَ شِيمَةٌ . . . .[٣]

وقوله :

فَنْلٌ أبو عالَمِنَا آدَمٌ . . . .[٤]

وقوله :

تَواصَلَ حَبْلُ النَّسْلِ مَا بَيْنَ آدَمٍ . . . .[٥]

وقوله :

يُنَافِي ابنُ آدَمَ حالَ الغُصُونِ . . . .[٦]

---

(١) تمامه : « .. حوّا ذُك فيه حواء أو أدماء » اللزوميات هـ س ٢٤ ، وآد : منادى مرخم . وآدم : من أدمت الظباء أشرب لونها بياضاً . والسرب : القطيع . وحواء : من خالط بياضها سواد . وأدماء : من خالط سوادها بياض .

(٢) عجزه : « .. من شأنه التفريط والتكذيب» اللزوميات هـ س ٣٦ .

(٣) عجزه : « .. على كل حال من مسود وسائد » اللزوميات هـ س ١٠٥ .

(٤) عجزه : « .. ونحن من والدنا أفسلُ » انظر ما سبق س ١٣٥٦ .

(٥) عجزه : « وبيني ولم يوصل بلامي باء » اللزوميات هـ س ٢٠ .

(٦) عجزه : « فهاتيك إجنت وهذا جنى » اللزوميات هـ س ٣٠

وقوله :

فَمِلْ عَنْ بَنِي حَوَّاءَ مِنْ نَسْلِ آدَمٍ . . . .(١)

وقوله :

رأسُ ابنِ آدَمَ أصلُهُ وَفُرُوعُهُ . . . .(٢)

ومن العجب أن ينسب إليه إنكار لآدم أو شك فيه بعد ما صرح باسمه في مواضع كثيرة ، ودعا عليه وأثبت له أحكاماً إيجابية . والقاعدة العامة أن ثبوت شيء لشيء فرع عن وجود المثبت له .

غرائز الانسان

كان أبو العلاء — كما أسلفنا — حصيف العقل ، سليم الذوق ، دقيق الحس ، كثير النزوع إلى البحث والاستقصاء ؛ وكان لايذهب عن نفسه شيء مر بها .

فنظر في القرآن الكريم إلى قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾(٣) وإلى قول الحكماء : الحيوان جنس تحته أنواع ، منها الإنسان . وقد ذكروا له فصلاً يميزه من بقية الأنواع فقالوا : إنه حيوان ناطق . فلم يكتف بهذا الفصل وحده ، وأراد أن يتخذ له من حياته العملية مايميزه من أنواع الحيوان ، ويبين وجه تكريمه ؛ فبحث في صفاته وأحواله الباطنة ، فرآه يشارك الحيوان في كثير منها . وربما كان بعضها في الحيوان أكمل منه في الإنسان قبل أن يستحصف عقله . وإليك مثلاً يوضح هذا :

(١) عجزه : لتنزل بين الحو والأدم والعفر » . والحو : السمر مفردها أحوى وحواء . والأدم : ظباء بيض البطون حمر الظهور . والعفر : ظباء يعلو بياضها حمرة . انظر اللزوميات « س ١٤٧ .

(٢) عجزه : « . . قدماء عند النبت والاشجار » انظر اللزوميات « س ١٦٠

(٣) سورة الإسراء الآية ٧٠ .

وهو أنك إذا تأملت كل فرد من أفراد الحيوان ، إنساناً كان أم غيره ، وجدته مفطوراً على حب الحياة ، حريصاً على وقايتها ، جاهداً لإبقائها ، وإعداد الوسائل التي تدعو إلى صيانتها من كل عادية ، متهافتاً على ملاذه وشهواته . وإذا نظرت إلى كل من الإنسان والحيوان في عنفوان حياته وجدت هذه الأمور في الإنسان أقل منها في غيره من أنواع الحيوان . فإنّ فرخ الدجاج متى خرج من بيضته أخذ يسعى لكسب القوت ، وإذا دُل عليه مرة بعد أخرى التمسه بنفسه من غير دليل . ولا ترى مثل ذلك في طفل الإنسان . والهر الصغير متى خرج من بطن أمه التمس أطْبَاءَها للرضاع ، وطفل الإنسان يبلغ الشهور من عمره ، ولا يعرف كيف يتناول ثدي أمه حتى تدخل حلمته في فيه . وأدلّ من هذا على ماذكرنا أن الهر الصغير إذا رأى حية تنفّج وابتعد عنها . وإذا رأى ناراً أو هوة تأخر عنها . أما طفل الإنسان فربما وضع يده في فم الحية ، وألقى نفسه في الهوة أو الهاوية . وهذا وأشباهه يدل على أن الشعور الفطري بحب الحياة ومايتعلق بها يكون في الحيوان أتم منه في الإنسان قبل أن ينمو إدراكه بالكسب . ولذلك لم يفرق أبو العلاء بين البرغوث وبين الجون ملك كندة كما سيأتي .

وإذا كان الإنسان وبقية أنواع الحيوان متساويين بهذا الشعور الباطني أو كان الإنسان أقل نصيباً من غيره فيه ، فالعقل يقضي بالتماس صفات أخرى تميزه من أفراد جنسه .

وقد نقب أبو العلاء في صفات الإنسان الظاهرة ، فرآه أيضاً يشارك غيره في كثير منها ، ثم أرشده البحث إلى أنّ في الإنسان خاصة ليست في غيره ، وهي العقل الذي يفرق به بين النفع والضر ، ويميز الخبيث

من الطبيب . وقد جهزه الله بهذه العدة ، وزاد عليها بأن أرسل له رسلا توضح له المنهاج . ثم أطلعه على مافي الطبيعة من أسرار ، وسخر له مافيها من قوى . وأرشده إلى طرق التصرف بها ، ومهد له السبيل . ولم يجعل لبقية أفراد الحيوان شيئاً من هذا وبذلك كرّمه على بقية خلقه .

وهذه النعم الجسام توجب على الإنسان شكر المنعم بها ، وأن يكون إنساناً كاملاً في أقواله وأعمـــاله وأخلاقه ؛ وأن يسخر تلك القوى فيما وضعت لأجله من المثل العليا ؛ ويسلك السبيل الذي دلت عليه الرسل .

وقد بحث أبو العلاء في غرائز الإنسان ، وصرف عنايته إلى مايتصل بالأخلاق منها ؛ فدرسهـا درساً عميقاً دقيقاً لم يبلغه غيره ، وقضى شطراً عظيماً من حياته يتقرى فيه أحوال الناس في عصره ، وينقب عن الإنسان الكامل . فرأى ماهاله من فساد الطوية ، وسوء السيرة ، والانهماك في الغدر والخيانة والكذب والنفاق وما شاكل ذلك من الأخلاق الذميمة ، ومن الابتعاد عن مكارم الأخلاق . وكان يتخذ من كل حادث عظة ، ومن كل واقع عبرة ؛ وكلما ازداد استقراء وإمعاناً في البحث ازداد اطلاعاً على المساوىء الكامنة في الصدور ، والمخازي المخبوءة تحت حنايا الضلوع .

فلما أيس من الحصول على ذلك الإنسان في عصره ، انتقل إلى البحث عنه في الأجيال الغابرة ، والأمم الخالية ؛ فانتهى به البحث إلى أن الناس متساوون في السجايا السيئة ، وأن الطبع في كل جيل طبع ملأمة ؛ إلا ماندر ، والنادر لاحكم له .

وإذا تتبعت أقواله في هـذا الباب خيل إليك أن أبا العلاء صنف الناس أصنافاً بحسب أعمالهم وخصائصهم ، ثم اعترضهم صنفــاً صنفــاً ، وطبقة طبقة ، كما يعترض القائد الجند . ثم أخــذ أعمال كل صنف ، فوضعها في مخبر كما يفعل الطبيب إذا أراد أن يفحص دم المريض ، ثم عرض أعمال كل على محك العقل ؛ ثم سجل خلاصة مارآه .

غير أن الطبيب قد يعثر في فحصه على شيء يسر المريض ، ولكن أبا العلاء لم تتفق له نتيجة ترضي أحداً من الناس ، ولذلك قل شاكروه وكثر شاكوه ؛ وتناولته الألسن والأقلام كما سيأتي . وهذه صور يخبرنا فيها عما دله عليه الفحص ، وأيدته التجربة في كل صنف .

الملوك والأمراء والوزراء والولاة والرؤساء ومن لف لفهم :

مُلُوكُنَا الصَّالِحُونَ كُلُّهُمُ زِيرُ نِساءٍ يَهَشُّ لِلزِّيَرَهْ (١)

. . .

هَلِ الأُمَرَاءُ إلاَّ في خَسَارٍ أَوِ الوُزَرَاءُ إلاَّ أَهْلُ وِزْرِ (٢)

وُلاةُ العَالَمِينَ ذِئَابُ خَتْلٍ تَكُونُ مِنَ الشَّقَاءِ رُعَاةَ فِزْرِ (٣)

. . .

بِكُلِّ أرضٍ أَمِيرُ سُوءٍ يَضْرِبُ للنَّاسِ شَرَّ سِكَّهْ (٤)

وقد تقدم قوله :

ظَلَمُوا الرَّعِيَّةَ واسْتَجَازُوا كَيْدَهَا . . . . . (٥)

---

(١) زير نساء : يحب زيارتهن ومحادثتهن ومجالستهن والزيرة : جمع زير . (ج) . وانظر اللزوميات هـ ص ١٤٤ .

(٢) اللزوميات هـ ص ١٥٤ .

(٣) الفِزْر : القطيع من الغنم ، والجدي (ج) .

(٤) اللزوميات هـ ص ١٨٧ .

(٥) عجزه : « فعدوا مصالحها وهم أجراؤها » اللزوميات هـ ص ٢٣ .

وقوله :

تَساسَ البِلادَ شَيَاطِينٌ مُسلَّطَةٌ . . . . . . (١)

وقوله :

يَسُوسُونَ الأُمورَ بِغَيْرِ عَقْلٍ . . . . . . (٢)

وقوله :

وَأرَى مُلُوكاً لا تَحُوطُ رَعِيَّةً . . . . . . (٣)

وغير ذلك مما ذكر في بحث السياسة .

وخلاصة مايراه فيهم أنهم غواة ، طغاة ، ظلاّم ، لاهمّ لهم إلا نهب مال حرام ، واستحلال فرج . وأنهم يسوسون الأمور بغير عقل .

القضاة والعدول :

وَأيُّ امْرِىءٍ فِي النَّاسِ أُلفِيَ قَاضِياً فَلَمْ يُمْضِ أَحْكَاماً لِحُكْمِ سَدُومٍ (٤)

• • •

وَرُبَّ شَهَادَةٍ وَرَدَتْ بِزُورٍ أَقَامَ لِنَصِّهَا القَاضِي عُدُولَهْ (٥)

وَمِنْ شَرِّ البَرِيَّةِ رَبُّ مُلْكٍ يُرِيدُ رَعِيَّةً أَنْ يَسْجُدُوا لَهْ

(١) عجزه : « في كل مصر من الوالين شيطان » انظر ماسبق ص ٤١٣ .

(٢) عجزه : « فينفذ أمرهم ويقال ساسه » اللزوميات هـ ص ٢٩٦

(٣) عجزه : « فلام تؤخذ جزية ومكوس » الزوميات هـ ص ٢٩٥

(٤) قيل : سذوم بالذال المعجمة أيضاً : وهي مدينة من مدائن قوم لوط ، وقيل : مدينة بحمص . وقيل : هي سرمين من أعمال حلب ، ويضرب المثل بقاضيها فيقال : أجور من قاضي سدوم . وقيل : سدوم هو القاضي . وقيل : ملك من بقايا اليونانية غشوم كان في سرمين (ج) . وانظر اللزوميات هـ ص ٢٤٥ .

(٥) اللزوميات هـ ص ٢٠٦ .

وَكُلُّ مَنْ فَوْقَ الثَّرَى خَائِنٌ حَتَى عُدُولُ الِمصْرِ مِثْلُ اللُّصُوصْ[1]

• • •

عُدُولٌ لَهُمْ ظُلْمُ الضَّعِيفِ سَجِيَّةٌ يُسَمَّونَ أَعْرَابَ القُرَى وَالجَوَامِعِ[2]

• • •

حَكَمَ النَّـاسَ غُوَاةٌ مِثْلَمَا حَكَمَتْ قَبْلُ حَصَاةٌ وَزُلَمْ[3]

• • •

---

(١) اللزوميات ﻫ س ٢٨٨ .

(٢) اللزوميات ﻫ س ٢٨٧ .

(٣) الحصاة : الحجر الصغير . وكانت عند العرب حصاة القسم ، ويسمونها « المقلة » : فكانوا إذا قل الماء في السفر يضعون هذه الحصاة في الإناء ، ثم يصبون عليها من الماء ما يغمرها ، فيعطونها كل رجل منهم حتى لا يزيد أحد على آخر في الماء . وكان عندهم نوع من البيع يسمى بيع الحصاة ، وذلك أن يقول المشتري أو البائع : إذا نبذت إليك الحصاة فقد وجب البيع . وأن يقول : بعتك من السلع ما تقع عليه حصاتك إذا رميت بها . وأن يقول : بعتك من الأرض إلى حيث تنتهي حصاتك . وهذه الأنواع من بيوع الجاهلية ، وقد أبطلها الإسلام لما فيها من الجهالة .

والزلم : بضم الزاي وفتحها مع فتح اللام ، السهم والقدح ، وجمعه أزلام . وكانت الأزلام لقريش في الجاهلية يضعونها في الكعبة . وقد كتب على أحدها : « افعل » وعلى الثاني « لا تفعل » والثالث غفل . فاذا أراد رجل سفراً ، أو نكاحاً ، أو حاجة أتى السادن فقال : أخرج زلماً ، فيخرجه ، فان خرج سهم الأمر مضى فيما عزم عليه ، وان خرج سهم النهي قعد عما أراده . فالحصاة في القسم والبيع والزلم كلاهما حكم الناس وكان حكمه ماضيا وهو لا يفقه شيئا ولا يعرف عدلاً ولا جورا (ج) . وانظر اللزوميات ﻫ س ٢٠٦ .

أَمَا وَاللهِ لَوْ أَنِّي تَقِـيٌّ   لَمَا آخَيْتُ مِثْلَكَ وَهْوَ قَاضٍ[١]
وَلَكِنْ بِتُّ شَرّاً مِنْكَ فِعْلاً   فَأَغْنَيْتُ الوِدَادَ عَنِ التَّقَاضِي

وخلاصة مايراه فيهم أن القضاة أجور من سدوم ، وأجهل من حصاة وزلم بمعرفة الحق والشعور بالعدل ، وأن العدول شرّ أداة يتذرع بها لجعل الحق باطلا والباطل حقاً .

القصّاص

أَلاَ يَكْشِفُ القُصَّاصَ وَالٍ فَإِنْ هُمُ   أَتَوْا بِيَقِينٍ فَلْيَقُصُّوا لِيَنْفَعُوا[٢]
وَإِنْ خَرَصُوا مَيْناً بِغَيْرِ تَحَرُّجٍ   فَأَوْجَبُ شَيْءٍ أَنْ يُهَانُوا وَيُصْفَعُوا
وَمَنْ جَاءَ مِنْهُمْ وَاثِقاً بِشَفَاعَةٍ   فَكَمْ شَافِعٍ فِي هَيِّنٍ لاَ يُشَفَّعُ
سَعَوْا لِفَسَادِ الدِّينِ فِي كُلِّ مَسْجِدٍ   فَمَا بَالُهُمْ لَمْ يُسْتَضَامُوا وَيُدْفَعُوا

وغاية ما رآه في هذه الطائفة أنها تتجر بالكذب لتستميل الناس ، أو ترضي الرؤساء ، وأنها تسعى لفساد الدين فحقها أن تصفع ، وتدفع عن المساجد .

المنجمون وأشباههم ممن يدعي علم الغيب

درس أبو العلاء أحوال هذه الفئة ، وكشف كثيراً من دخائلها ، فتبين له أنها تتجر بالكذب ، وتحتال على النساء ومن في حكمهن من

---

(١) اللزوميات هـ ص ٢٨٩ .
(٢) اللزوميات هـ ص ٢٨١ .

الرجال . وهي على منازع مختلفة ، وأهواء متعددة ؛ ففريق منها همه كسب المال ، وآخر همه صاحبة الجمال ، وثالث يسعى لكلا الأمرين ، فيفتنون في الكذب ، وينسبون مزاعمهم إلى الكواكب تارة ، وإلى الجن أخرى. ويشاركهم في ذلك العرّافون ، والمعزمون ، والكهان ، وكتّاب الأحراز والحزاة ومن لف لفهم . ولما كانت هذه الشراذم متقاربة في المبادىء والغايات ، متشابهة في بعض الطرق ؛ ذكر أحوالهم ، تارة على انفراد كل واحدة على حدة ، وتارة جمع بين متعددين منهم ؛ وذلك حيث يقول من أبيات :

لَوْ كَانَ لِي أَمْرٌ يُطَاوَعُ لَمْ يَشِنْ ... ظَهْرَ الطَّرِيقِ يَدَ الحَيَاةِ مُنَجِّمُ (١)

. . . .

يَغْدُو بِزُخْرُفِهِ يُحَاوِلُ مَكْسَبًا ... فَيُدِيرُ أَسْطُرْلاَبَهُ وَيُرَجِّمُ

. . . .

يُولِي بِأَنَّ الجِنَّ تَطْرُقُ بَيْتَهُ ... وَلَهُ يَدِينُ فَصِيحُهَا وَالأَعْجَمُ

وَالمَرْءُ يَكْدَحُ فِي البِلاَدِ وَعِرْسُهُ ... فِي المِصْرِ تَأْكُلُ مِنْ طَعَامٍ يُوْجِمُ

* * *

لَقَدْ بَكَرَتْ فِي خُفِّهَا وَإِزَارِهَا ... لِتَسْأَلَ بِالأَمْرِ الضَّرِيرَ المُنَجِّمَا (٢)

وَمَا عِنْدَهُ عِلْمٌ فَيُخْبِرَهَا بِهِ ... وَلاَ هُوَ مِنْ أَهْلِ الحِجَى فَيُرَجِّمَا

---

(١) اللزوميات ﻫ ص ٢٣٥ ويؤجم : من أجم الطعام يأجمه ، كرهه .

(٢) اللزوميات ﻫ ص ٢٤٠ ، ويرجم : يظن ويحدس . والديمة : المطر الدائم مع سكون ليس فيه رعد . وسجم المطر والدمع : صبّا وتابعا سيلانهما . وأرم : أمسك عن الكلام . وجمجم في الكلام : لم يبن أو يفصح .

يَقُولُ غَداً أَوْ بَعْدَهُ وَقْعُ دِيمَةٍ ... يَكُونُ غِياثاً أَنْ تَجُودَ وَتَسْجُمَا

. . . .

وَلَوْ سَأَلُوهُ بِالذي فَوْقَ صَدْرِهِ ... لَجاءَ بِمَيْنٍ أَوْ أَرَمَّ وَجَمْجَمَا

• • •

أَمَا لِلأَمِيرِ هَـذَا المِصْرِ عَقْلٌ ... يُقِيمُ عَنِ الطَّرِيقِ ذَوِي النُّجُومِ (١)

فَكَمْ قَطَعُوا السَّبِيلَ عَلَى ضَعِيفٍ ... وَلَمْ يَعْفُوا النِّسَاءَ مِنَ الهُجُومِ

. . . .

إِذَا افْتَكَرَ اللَّبِيبُ رَأَى أُمُوراً ... تَرُدُّ الضَّاحِكَاتِ إِلَى الوُجُومِ

• • •

قَطَعَ الطَّرِيقَ بِمَهْمَهٍ وَنَظِيرُهُ ... فِي المِصْرِ فِعْلُ مُنَجِّمٍ وَمُعَزِّمِ (٢)

• • •

مُتَكَهِّنٌ وَمُنَجِّمٌ وَمُعَـزِّمٌ ... وَجَمِيعُ ذَاكَ تَحَيُّلٌ لِمَعَاشِ (٣)

• • •

لاَ تُصْغِيَنَّ إِلَى حَازٍ لِتَسْمَعَهُ ... فَمَا يُطِيقُ لِمَا أَخْفَيْتَ إِبْرَازَا (٤)

أَرَادَ إِحْرَازَ قُوتٍ كَيْفَ أَمْكَنَهُ ... فَظَلَّ يَكْتُبُ لِلنِّسْوَانِ أَحْرَازَا

• • •

---

(١) اللزوميات هـ ص ٢٥٢ ، والوجوم : الحزن والغم .

(٢) المصدر السابق ، والمهمه : المفازة البعيدة أو البلد القفر . والمعزم : هو الذي يقرأ العزائم أو الرقى أو هي آيات من القرآن تقرأ على ذوي الآفات رجاء البرء .

(٣) اللزوميات هـ ص ٣٢٨ .

(٤) اللزوميات هـ ص ١٧٣ ، والحازي : الكاهن .

كَمْ غَرَّ صَاحِبَــةَ الجَها   لِ مُنَجِّمٌ بِحِسَابِ جُمَّـــلْ[1]

. . .

يُنَجِّمُونَ وَمَا يَدْرُونَ لَوْ سُئِلُوا   عَنِ البَعُوضَةِ أَنَّى مِنْهُمُ تَقِفُ[2]

. . .

أَسطُرٌ لاَبَ حَوْلَهُنَّ جَهُولٌ   فَهْوَ يَرْجُوهَذْياً بِاسْطُرْلاَبِ[3]

ولقد أكثر القول فيهم ، فترى في (اللزوم) أبياتاً كثيرة ، منها في (ج ١ ص ٢٧٨ و ص ٣٩٩) وفي (ج ٢ ص ٣٦ و ص ٤٨ و ص ٢٨٩ و ص ٣٣٠)[4] وذكر كثيراً من مزاعمهم واحتيالهم لأخذ الأموال وإغواء النساء ، وأن في النساء من تشوق العراف إلى أن يراها ونحو ذلك .

الصوفية

تغلغل أبو العلاء في أعماق قلوب هذه الفئة ؛ وأماط النقاب عن كثير من دخائل نفوسهم ، فقال يصف ماسمع وما علم :

---

(١) اللزوميات هـ ص ٢٢٤ . وحساب الجُمَّل :طريقة رياضية عرفها المتقدمون من العرب وغيرهم وتقوم الحروف فيها مقام الأرقام ويعطى كل حرف من حروف الأبجدية قيمة عددية (فالألف واحد والباء اثنان ... والياء عشرة . والغين ألف) ومن حساب قيم حروف الكلمة يستخرج بعض العلماء والصوفيين معاني لهذه الكلمة تعبر عنها كلمات أخرى تساوي حروفها قيم حروف هذه الكلمة ويعدون النسب بين هذه المعاني ويضمنون اللفظة الواحدة دلالات ألفاظ أخرى لا تحملها ولا يربطها بها إلا تساوي قيمة الحروف فيها جميعا .

(٢) اللزوميات هـ ص ٢٩٠ .

(٣) اللزوميات هـ ص ٥٤ ، ولاب : طاف .

(٤) انظر اللزوميات طبعة عزيز زند ويقابلها في اللزوميات هـ الصفحات : ١٠٥ و ١١٥ و ٣٠١ و ٣٢٧ و ٢٤٢ و ٢٥٦ .

صُوفِيَّةٌ مَا رَضُوا لِلصُّوفِ نِسْبَتَهُمْ ... حَتَّى ادَّعَوْا أَنَّهُمْ مِنْ طَاعَةٍ صُوفُوا[١]
تَبَارَكَ اللهُ دَهْرٌ حَشْوُهُ كَذِبٌ ... فَالْمَرْءُ مِنَّا بِغَيْرِ الْحَقِّ مَوْصُوفُ

• • •

رُوَيْدَكِ يَا سَحَابَةُ لَا تَجُودِي ... عَلَى السَّبَخَاتِ مِنْ جَهْلٍ هَمَيْتِ[٢]
طَلَبْتِ دِيَانَةً بَيْنَ الْبَرَايَا ... لَقَدْ أَشْوَتْ سِهَامُكِ إِذْ رَمَيْتِ
تَزَيَّوْا بِالتَّصَوُّفِ عَنْ خِدَاعٍ ... فَهَلْ زُرْتِ[٣] الرِّجَالَ أَوِ اعْتَمَيْتِ
وَقَامُوا فِي تَوَاجُدِهِمْ فَدَارُوا ... كَأَنَّهُمُ ثُمَالٌ مِنْ كُمَيْتِ
وَمَا رَقَصُوا حِذَاراً مِنْ إِلٰهٍ ... وَمَا[٤] يَبْغُونَ إِلَّا مَا خَمَيْتِ

• • •

آلَيْتُ أُثْنِي عَلَى قَوْمٍ بِنُسْكِهِمُ ... وَقَدْ تَكَشَّفَ سَهْلُ الْأَرْضِ عَنْ غَدَرِ[٥]
إِنْ قُلْتُ صُفُّوا بِأَلْغَازٍ فَمُعْتَمَدِي ... صُفُّوا مِنَ الصَّفِّ لَا صُفُّوا مِنَ الْكَدَرِ

• • •

لَوْ كُنْتُمُ أَهْلَ صَفْوٍ قَالَ نَاسِبُكُمْ ... صَفْوِيَّةٌ فَأَتَى بِاللَّفْظِ مَا قُلِبَا[٦]
جُنْدٌ لِإِبْلِيسَ فِي بِدْلِيسَ آوِنَةً ... وَتَارَةً يَحْلُبُونَ الْعَيْشَ فِي حَلَبَا
طَلَبْتُمُ الزَّادَ فِي الْآفَاقِ مِنْ طَمَعٍ ... وَاللهُ يُوجَدُ حَقّاً أَيْنَمَا طُلِبَا

---

(١) اللزوميات هـ ص ٢٩٢ .
(٢) اللزوميات هـ ص ٧٠ ، وهمى الماء والدمع : اذا سال . وأشوى : رمى فأخطأ . واعتميت الشيء : أي اخترته . والثال من ثمل فلان : اذا سكر وأخذ فيه الشراب . والكميت من أسماء الخمر
(٣) كذا في الديوان ولعل الصواب : «رزت» من راز الرجل اذا اختبره وجربه ما عنده (ج) .
(٤) في اللزوميات هـ « ولا يبغون » .
(٥) اللزوميات هـ ص ١٤٩ . والغدر : موضع يصعب للمشي فيه لكثرة الحجارة وشقوق الأرض .
(٦) اللزوميات هـ ص ٣٩ .

وَلَسْتُ أَعْنِي بِهذَا غَيْرَ فَاجِرِكُمْ   إِنَّ التَّقِيَّ إِذَا زَاحَمْتَهُ غَلَبَا

• • •

نَحْنُ قُطْنِيَّةٌ وَصُوفِيَّةٌ أَنْـــــتُمْ فَقَطْنِي مِنَ التَّجَمُّلِ قَطْنِي(١)

تَقْطَعُونَ البِلَادَ بَطْنًا لِظَهْرٍ   إِنَّمَا سَعْيُكُمْ لِفَرْجٍ وَبَطْنِ

• • •

صُوفِيَّةٌ شَهِدَتْ لِلعَقْلِ نِسْبَتُهُمْ   بِأَنَّهُمْ ضَأْنُ صُوفٍ نَطْحُهَا يَقِصُ(٢)

. . . .

تَوَاجَدَ القَوْمُ مِنْ نُسْكٍ بِزَعْمِهِمُ   وَاللهُ يَشْهَدُ مَا زَادُوا وَلَا نَقَصُوا

• • •

رَأَيْتُ بَنِي الدَّهْرِ فِي غَفْلَةٍ   وَلَيْسَتْ جَهَالَتُهُمْ بِالأَمَمْ(٣)

فَنُسْكُ أُنَاسٍ لِضَعْفِ العُقُولِ   وَنُسْكُ أُنَاسٍ لِبُعْدِ الهِمَمْ

وخلاصة ما تبين له من اختبارهم ، والبحث عن أسرارهم ، أنهم يتزيون بالتصوف خداعاً ومكراً ، وأنهم في الحقيقة يسعون لقضاء شهوتي البطن والفرج . ويرقصون ويتواجدون للتوصل إلى ذلك ، فهم بعيدون عن الصفاء والإخلاص .

---

(١) اللزوميات هـ ص ٢٨١ وفيها : « ... بطناً وظهراً .. » .وقطني الأولى مفتوحة القاف : اسم فعل مع نون الوقاية ، بمعنى حسبي .

(٢) اللزوميات هـ ص ٢٨٦ وفي الأصل : « ... ضأن صوف عنتها يقص » .
ورواية اللزوميات هـ : ما زادوا كما نقصوا » . والوقص : دق العنق .

(٣) اللزوميات هـ ص ٢٥٩ .

الزّهاد

وهؤلاء غير مخلصين في زهدهم ، وإنما اتخذوا الزهد وسيلة للربح ، فلا يجدر بالعاقل أن ينخدع بهم :

وَرَغِبُوا فَأَزْهَدُ مَنْ تَرَى فَوْقَ الثَّرَى ... يَبْغُونَ عِنْدَ اللهِ رِبْحَ تِجَارِ (١)

وقد كشف له البحث ، فتبين أن ليس في الناس زاهد حقيقة من أي صنف كان :

لَعَمْرُكَ مَا فِي عَالَمِ الأَرْضِ زَاهِدٌ ... يَقِيناً وَلاَ الرُّهْبَانُ أَهْلُ الصَّوَامِعِ (٢)

الوعّاظ

نقّب عن أحوال هؤلاء ، فتكشفوا له عن مخاز تندي الجبين ؛ لأنهم يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم ، ويحضون على المعروف ولا يفعلون ، وينهون عن المنكر ولا ينتهون عنه . وإنما غرضهم من أعمالهم تنفير الناس من الدنيا حتى تخلص لهم ، ويستقلوا بمتعها ونعيمها . وهذا من قوله فيهم :

بِخِيفَةِ اللهِ تَعَبَّدْتَنَا ... وَأَنْتَ عَيْنُ الظَّالِمِ اللاَّهِي (٣)

تَأْمُرُنَا بِالزُّهْدِ في هذه الـ ... ـدُّنْيَا وَمَا هَمُّكَ إِلاَّ هِي

• • •

(١) اللزوميات هـ س ١٦٠ .

(٢) اللزوميات هـ س ٢٨٧ .

(٣) اللزوميات هـ س ٣٤١ .

رُوَيْدَكَ قَدْ غُرِرْتَ وأنتَ حُرٌّ(١) بِصَاحِبِ حِيلَةٍ يَعِظُ النِّسَاءَ
يُحَرِّمُ فيكُمُ الصَّهْبَاءَ صُبْحاً وَيَشْرَبُهَــا على عَمْدٍ مَسَاءَ
. . . .
يَقُولُ لَكُمْ غَدَوْتُ بِلاَ كِسَاءٍ وَفي لَذَّاتِهَا رَهَنَ الكِسَاءَ
إذَا فَعَلَ الفَتَى مَا عَنْهُ يَنْهَى فَمِنْ جِهَتَيْنِ لا جِهَةٍ أَسَاءَ

وارجع إلى الأبيات التي يقول فيها :

يُمَاحِلُ في الدُّنيَا الخَؤونِ وإنَّما يُؤَمِّلُ نَزْراً فَانِياً بِمُحَالِهِ(٢)

الفسّاك

أمعن في البحث عن هؤلاء ، وتقرّى أحوالهم وأخبارهم ، فرآهم فريقين : الفريق الأول منهم عباد لله في الظاهر ، عبيد للشهوات في الباطن . لا ينهاك أحد منهم عن مطمع يعرض له ؛ ولا يبالي به سواء كان حلالاً

---

(١) هكذا روي في ديوانه ، ورواه التبريزي :

« رويدك قد خدعت وأنت كهل » (ج)

انظر اللزوميات ﻫ ص ٢٥ .

(٢) الأبيات :

تق الله واحذر أن يغرك ناسك عما هو فيه من تغير حاله
فما أخس الأقوام إلا توابع لقائل زور مفرط في محاله
نهيتنا الذي في صومه وصلاته كذاك الذي في حله وارتحاله
فكذب زعماً قال لي دين فما دينه إلا ضعيف انتحاله
يماحل . . . .
ومن يكتحل بالسهد في طلب العلا يجز أن يرى منهاجها باكتحاله

اللزوميات ﻫ ص ٢١٢ .

أم حراماً . والفريق الثاني تنسك ليقال إنه ناسك فيأتي بالمندوب ويترك الواجب إذا كان في الأول شهرة وسمعة . وإذا عرضت له فريسة خفية لايتورع عنها ، وإن خشي الفضيحة أمسك عنها . وإليك شيئاً من قوله فيهم :

سَبِّحْ وَصلِّ وطُفْ بِمكَّةَ زَائِراً سَبْعِينَ لا سَبْعاً فَلَسْتَ بِنَاسِكِ(١)
جَهِلَ الدِّيانَةَ مَنْ إذا عَرَضَتْ لَهُ أطْمَاعُهُ لَمْ يُلْفَ بالْمُتَمَاسِكِ

• • •

قَدِ ادَّعَى النُّسْكَ أقوامٌ بِزَعْمِهِمُ وَكَيْفَ نُسْكُ غَوِيٍّ رُمْحُهُ وَرِسُ(٢)
وَقَدْ جَنَى الإِثْمَ تَغْشَاهُ صِحَابَتُهُ والنَّبْلُ والسَّيْفُ والخَطِّيُّ والفَرَسُ

وقد قدمنا الأبيات التي يقول فيها :

مَا دَامَتِ الوَحْشُ والأنعامُ خَائِفَةً فَرْساً فَمَاصَحَّ أمْرُ النُّسْكِ للأَسَدِ(٣)

• • •

وَمِنَ الرَّزِيَّةِ عَاهِرٌ مُتَوَهِّمٌ فِي النَّاسِكِينَ وَنَاسِكٌ فِي العُهَّرِ(٤)

• • •

يَبْغِي الطَّهَارَةَ نَاسِكٌ وَمَحَلُّهُ فِي مُومِسٍ بَرِئَتْ مِنَ الإِطْهَارِ(٥)

• • •

---

(١) اللزوميات هـ س ١٨٩ .
(٢) اللزوميات هـ س ٣٩٢ . ورمح ورس : أي مصفر بلون الورس من أثر الدم .
(٣) اللزوميات هـ س ١٠٩ . والفرس : مصدر فرسه يفرسه إذا دق عنقه .
(٤) « « س ١٥٧ .
(٥) « « س ١٠٦ .

تَقِ اللهَ واحذَرْ أن يغُرَّكَ نَاسِكٌ … بِمَا هُوَ فِيهِ مِنْ تَغَيُّرِ حَالِهِ[1]

• • •

تَوَهَّمْتَ يا مَغْرُورُ أنكَ دَيِّنٌ … عَلَيَّ يَمِينُ اللهِ مَالَكَ دِينُ[2]

تَسِيرُ إلى البَيْتِ الحَرَامِ تَنَسُّكاً … وَيَشْكُوكَ جَارٌ بَائِسٌ وَخَدِينُ

وقد تبين له بعد البحث الطويل أن النسك الحقيقي مفقود في الناس وإنما هو كالعنقاء اسم بلا مسمى :

والنُّسْكُ لا نُسْكَ مَوْجُودٌ فَتَبْغِيَهُ … فَعَدِّ عَنْ فُقَهَاءِ اللَّفْظِ مُرَّاقِ[3]

القرّاء

سبر أغوار القراء ، وتقصّى أخبارهم ؟ فلم يجد فيهم من يقرأ القرآن للتدبر أو التذكر أو التقرب لله . وإنما رأى فريقاً منهم يتسوق بالقرآن ، وآخر يقامر به ، وثالثا يكاثر به ويفاخر . وهكذا كل قارىء محترف يلتمس بالقرآن حظوة ورزقا . ورأى اختلافاً بين القراء في الروايات ، وهذه طائفة من كلامه فيهم :

تَسَوَّقَ النَّـــاسُ بِفُرْقَانِهِمْ … وَانْتَبَلُوا جَهْلاً فَلَمْ يَنْبُلُوا[4]

وَلَيْسَ مَا يُنْقَلُ عَنْ عَاصِمٍ … كَمَا روى عَنْ شَيْخِهِ قُنْبُلُ

• • •

(١) انظر ما سبق ص ١٥٠٦ .

(٢) اللزوميات هـ ص ٢٦١ .

(٣) « « ص ٣٠٧ .

(٤) انظر ما سبق ص ١٣٩٢ .

تلاوتُكم ليستْ لرُشدٍ ولا هُدًى ... ولكنْ لكمْ فيها التكاثُرُ والكِبْرُ[1]
بعَشْرِ رواياتٍ قرأتُ وصاحبي ... بعشرينَ ما فيها ادّغامٌ ولا نَبْرُ

• • •

فلا يغُرّنك مِنْ قُرّائِنا زُمَرٌ ... يتلُونَ في الظُّلَمِ الفُرقانَ والزُّمَرا[2]
يُقامِرُونَ بما أُوتُوهُ مِنْ حِكَمٍ ... وصاحبُ الظُّلْمِ مقمورٌ إذا قَمَرا

• • •

وقارئُكمْ يرْجُو بتطريبه الغِنَى ... فآضَ كما غَنّى ليكسِبَ زُلْزُلُ[3]

• • •

صارَ الكتابُ مزاميرَ الغُواةِ لهُمْ ... بهِ أغانيُّ في حم والزُّمَرِ[4]
صلّوا بهِ ثمّ صلّوا في مظالمِهمْ ... مِثلَ السُّيُوفِ على المُستأنِسِ القَمِرِ

وإذا أعجز أحدهم التكسب بالقرآن من الأحياء التمسه من الأموات :

عُمْيانُكُمْ قرأتْ على أجداثِكُمْ ... وأتوا لكمْ بالبِرِّ مِنْ آتاكُمُ[5]
أحياؤكُمْ بخِلُوا عليهِم بالنّدى ... فبغَوْهُ بالفُرْقانِ مِنْ موْتاكُمُ

وقد عجب من تأخر العذاب عن قوم يتكسبون بالقرآن فقال :

فما لِلعذابِ فوقَكُمْ لا يعُمُّكُمْ ... وما بالُ أرضٍ تحتَكم لا تُزَلْزَلُ[6]

---

(١) الزوميات ﻫ ص ١١٨ .

(٢) الزوميات ﻫ ص ١٣٩ ، والزمر الأولى : مفردها زمرة وهي الجماعة . والثانية احدى سور القرآن . وقمر : راهن ولعب في القمار . وقمره : غلبه في القمار .

(٣) انظر ما سبق ص ١٣٩٣ .

(٤) الزوميات ﻫ ص ١٥٠ .

(٥) انظر ما سبق ص ١٣٩٣ .

(٦) الزوميات ﻫ ص ١٩٥ .

ولم يقصر أقواله على قراء المسلمين بل رأى في غيرهم كثيراً ممن :

يُبْدِي التَّدَيُّنَ مُخْتَالاً ضَمَائِرُهُ غَيْرُ الجَمِيلِ إِذَا مَا جِسْمُهُ ضَمُرا[1]

يَشْدُو مَزَامِيرَ دَاوُدٍ وَيَفْضُلُهُ في النُّسْكِ نَافِخُ مِزْمَارٍ لَهُ زَمَرا

الخطباء :

قلب هذه الطائفة ظهراً لبطن ؛ ودرس أحوالها درس العالم الخبير فتبين له أن الخطباء يتخذون الدين وسيلة الدنيا ، فيمدحون الملوك في المساجد التي خصصت لذكر الله وما والاه على المنابر التي خصصت لإرشاد الناس إلى سبل الهدى . وليتهم كانوا يمدحونهم بما هو فيهم ، ولكنهم يفترون لهم أعمالاً لاحقيقة لها ، ويسكتون عن مساوىء لهم تقشعر منها الجلود ؛ ويعظمون الصغير من أمرهم تزلفاً لهم . واسمع قوله فيهم :

مَا أَجْهَلَ الأُمَمَ الذِينَ عَرَفْتُهُمْ وَلَعَلَّ سَالِفَهُمْ أَضَلُّ وَأَتْبَرُ[2]

وذلك لأنهم :

يَدْعُونَ في جُمُعَاتِهِمْ بِسَفَاهَةٍ لِمَلِيكِهِمْ فَيَكَادُ يَبْكِي المِنْبَرُ[3]

مع أن كل :

مَا قِيلَ في عِظَمِ المَلِيكِ وَعِزِّهِ فَاللهُ أَعْظَمُ في القِيَاسِ وَأَكْبَرُ

(١) انظر ما سبق ص ١٤٠٧ .

(٢) اللزوميات هـ ص ١٢٦ .

(٣) في اللزوميات هـ : « لأميرهم . . . » .

وقد عجب كيف لاتخسف بهم الأرض ، ولا تميد المنابر لكثرة مايفترون عليها :

كَذِبٌ يُقَالُ عَلى المَنَابِرِ دَائِماً ... أَفَلاَ يَمِيدُ لِمَا يُقَالُ المِنْبَرُ (١)

وقد حذر الناس من أن يخدعهم الخطباء بالخطب المحبرة ، والعظات المزورة ؛ لأنها خارجة من قلب ليس للإخلاص فيه أثر . وإنما هي حيلة أو أحبولة :

لاَ يَخْدَعَنَّكَ دَاعٍ قَامَ فِي مَلإٍ ... بِخُطْبَةٍ زَانَ مَعْنَاهَا وَطَوَّلَهَا (٢)

فَمَا العِظَاتُ وإنْ رَاعَتْ سِوَى حِيَلٍ ... مِنْ ذِي مَقَالٍ عَلَى نَاسٍ تَقَوَّلَها

وحذر الخطباء أن لايخدعهم مايرونه من إصغاء الناس إلى أقوالهم ، فانهم يعظون أسداً لاتبالي ماتصنع إذا عرضت لها أطماعها ، أو حمراً تتبلد إذا دعيت لعمل صالح :

يوفي عَلَى المِنْبَرِ العَالِي خَطِيبُهُمُ ... وَإِنَّمَا يَعِظُ الآسَادَ والنُّمُرا (٣)

هُمَ السِّبَاعُ إذَا عَنَّتْ فَرَائِسُها ... وَإِنْ دَعَوْتَ لِخَيْرٍ حُوِّلُوا حُمُرا

• • •

أَرَى عَالِماً يَشْكُو إلى اللهِ جَهْلَهُ ... وَكَمْ مِنْ بَرًى يَعْلُو فَيَخْطُبُ مِنْبَرا (٤)

---

(١) اللزوميات هـ ص ١٢٧ .

(٢) اللزوميات هـ ص ٢٠٤ .

(٣) اللزوميات هـ ص ١٣٩ .

(٤) اللزوميات هـ ص ١٣٧ ، والبرى : التراب .

ولعله خص خطباء المسلمين بما ذكره ، أما غيرهم فقد قال فيهم :

يَتلُونَ أسفارَهُمْ والحَقُّ يُخبِرُني ... بأنَّ آخِرَها مَينٌ وأوَّلَهَا[1]

صَدَقتَ يا عَقلُ فَليَبعُدْ أخو سَفَه ... صَاغَ الأحاديثَ إفكاً أو تَأوَّلَها

وَلَيسَ حَبْرٌ بِبِدْعٍ في صَحَابَتِهِ ... إنْ سَامَ نَفعاً بأخبارٍ تقوَّلَها

وإنَّما رَامَ نِسوَاناً تَزَوَّجَها ... بِمَا افترَاهُ وأموالاً تَمَوَّلَها

طَالَ العَنَاءُ بِكَونِ الشَّخصِ في أُمَمٍ ... تَعُدُّ فِريَةَ غَاوِيهَا مُعَوَّلَها

العلماء :

دله البحث أن ليس في أيامه علماء حقيقيون ؟ وإنما هم غفلة إمعة ، يتبع اللاحق السابق منهم من غير تمحيص ولا تثبت ، ولا ينفعهم علمهم شيئاً . وهذه جملة من أقواله فيهم :

فُقِدَتْ في أيامِكَ العُلَمَاءُ ... وادلَهَمَّتْ عَلَيهِمُ الظَّلمَاءُ[2]

وتَغَشَّى دَهْمَاءَنا الغَيُّ لَمَّا ... عُطِّلَتْ مِنْ وُضُوحِهَا الدَّهْمَاءُ

• • •

أفِيقُوا أفِيقُوا يَاغُوَاةُ فَإنَّما ... دِيَانَاتُكُمْ مَكرٌ مِنَ القُدَمَاءِ[3]

أرَادُوا بِهَا جَمعَ الحُطَامِ فأدرَكُوا ... وَبَادُوا وَمَاتَتْ سُنَّةُ اللُّؤَمَاءِ

• • •

(١) انظر ماسبق ص ١٤٠٨ .

(٢) اللزوميات ١ ص ٢٣ .

(٣) اللزوميات ١ ص ٢٦ .

إذا كَانَ عِلْمُ المَرْءِ لَيْسَ بِنافِعٍ وَلاَ دَافِعٍ فَالخُسْرُ لِلْعُلَمَاءِ[(١)]

الفقهاء :

ورائه من الفقهاء خاصة أنّ فريقاً يجيز مالا يجيزه آخر . وفريقاً يخبط في ضلاله ويحتج بالقرآن على تصويب أعماله . وإليك جملة من كلامه تفصح عما أظهره له الاختبار :

أَجازَ الشّافِعِيُّ فَعَالَ شَيْءٍ وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ لا يَجُوزُ[(٢)]

. . . .

لَقَدْ نَزَلَ الفَقِيهُ بِدَارِ قَوْمٍ فَكَانَ لأَمْرِهِ فِيهِمْ نُجُوزُ

وَلَمْ آمَنْ عَلَى الفُقَهَاءِ حَبْساً إذَا مَا قِيلَ لِلأُمَنَاءِ جُوزُوا

. . .

وَكَمْ مِنْ فَقِيهٍ خَابِطٍ في ضَلاَلَةٍ وَحُجَّتُهُ فِيهَا الكِتَابُ المُنَزَّلُ[(٣)]

وزعم أن الفقهاء لم تختلف إلا لأجل الدنيا . كما أن القراء لم تتقرأ إلا لأجلها :

وَتَجَادَلَتْ مِنْ حُبِّهَا فُقَهَاؤُهَا وَتَقَرَّأَتْ لِتَنَالَهَا قُرَّاؤُهَا[(٤)]

---

(١) اللزوميات هـ ص ٢٥ .
(٢) « « ص ١٧٣ .
(٣) « « ص ١٩٥ .
(٤) اللزوميات هـ ص ٢٣ وفيها : « وتجادلت فقهاؤها من حبها .. » وتقرأ : تنقه .

وقد أنكر عليه تصديه إلى الفقهاء بمثل قوله :

زَكُّوا عَلَى مَذْهَبِ الكُوفِيِّ أَرْضَكُمُ   وَخَالِفُوا رَأْيَهُ فِي مُسْكِرٍ طُبِخَا(١)

• • •

تَطَهَّرَتْ بِنَبِيذِ التَّمْرِ طَائِفَةٌ   وَقَدْ أَجَازُوا اطَّهُوراً بِالدَّمِ الجَسِدِ(٢)

• • •

وَيَنْفِرُ عَقْلِي مُغْضَباً إِنْ تَرَكْتُهُ   سُدًى وَاتَّبَعْتُ الشَّافِعِيَّ وَمَالِكَا(٣)

• • •

وَقَالُوا فَقِيهٌ وَالفَقِيهُ مُمَوِّهٌ   وَحِلْفُ جِدَالٍ وَالكَلَامُ كُلُومُ(٤)
أَتَوْكَ بِأَصْنَافِ المُحَالِ وَإِنَّمَا   لَهُمْ غَرَضٌ فِي أَنْ يُقَالَ عُلُومُ

• • •

تَفَقَّهْتَ فِي الدُّنْيَا فَلَمْ تُلْفَ طَائِلاً   وَلَا خَيْرَ فِي كَسْبٍ أَتَاكَ مِنَ الفِقْهِ(٥)

أهل الكلام والعقائد :

بحث طويلا عن أخبارهم ، ودرس كثيراً من آثارهم ؛ فاتضح له أنهم إنما يعملون للتنافس ، ويهزلون بأصحابهم ، ويقودون عمياً إلى أهوائهم . وهذه جملة من كلامه فيهم :

---

(١) اللزوميات ﻫ ص ٨٧ وفيها : « وجانبوا رأيه .. » .
(٢) اللزوميات ﻫ ص ١٠٩ والدم الجسد : ما يبس منه .
(٣) انظر ما سبق ص ١٢٦٥ .
(٤) اللزوميات ﻫ ص ٢٣٢ .
(٥) « « ص ٢٣٩ .

لَوْلاَ التَّنَافُسُ فِي الدُّنْيَا لَمَا وُضِعَتْ ... كُتْبُ التَّنَاظُرِ لاَ الْمُغْنِي وَلاَ الْعُمَدُ (١)
قَدْ بَالَغُوا فِي كَلاَمٍ بَانَ زُخْرُفُهُ ... يُوهِي الْعُيُونَ وَلَمْ تَثْبُتْ لَهُ عُمَدُ
وَمَا يَزَالُونَ فِي شَامٍ وَفِي يَمَنٍ ... يَسْتَنْبِطُونَ قِيَاساً مَا لَهُ أَمَدُ
فَذَرْهُمُ وَدَنَايَاهُمْ فَقَدْ شُغِلُوا ... بِهَا وَيَكْفِيكَ فِيهَا الْقَادِرُ الصَّمَدُ

• • •

جَهِلْتُ أَقَاضِي الرَّيِّ أَكْثَرُ مَأْثَماً ... بِمَا نَصَّهُ أَمْ شَاعِرٌ يَتَغَزَّلُ (٢)
وَأَعْلَمُ أَنَّ ابْنَ الْمُعَلِّمِ هَازِلٌ ... بِأَصْحَابِهِ وَالْبَاقِلاَنِيُّ أَهْزَلُ (٣)

• • •

اِسْتَغْفِرِ اللهَ وَاتْرُكْ مَا حَكَى لَهُمُ ... أَبُو الْهُذَيْلِ وَمَا قَالَ ابْنُ كُلاَّبِ (٤)

• • •

---

(١) المغني : اسم لكتاب قيل انه لعبد الجبار . والعمد : اسم الكتاب وضعه أبو الحسن الأشعري (ج) . وانظر ما سبق ص ٥٨٥ .

(٢) قاضي الري : هو علي بن عبد العزيز أبو الحسن الجرجاني المتوفى سنة ٣٦٦ هـ ، وفي النجوم الزاهرة سنة ٣٩٢ هـ وله (الوساطة بين المتنبي وخصومه) (ج) . وانظر ما سبق ص ١٣٢٠ .

(٣) ابن المعلم : محمد بن محمد بن النعمان ، إليه انتهت رياسة أصحابه من الشيعة الإمامية في الفقه والكلام والآثار ، ولد سنة ٣٣٨ هـ ، فهرست ٢٥٢ ، ٢٧٩ . والباقلاني : محمد بن الطيب من أئمة علم الكلام إليه انتهت الرياسة في مذهب الأشاعرة ، ولد في البصرة وتوفي ببغداد سنة ٤٠٣ هـ وفيات وشذرات . (ج) .

(٤) أبو الهذيل : محمد بن الهذيل المعروف بالعلاف ، شيخ البصريين في الاعتزال . له مقالات ومناظرات في مجالس . توفي سنة ٢٣٥ هـ ، وفيات ، فهرست .
وابن كلاب : هو عبد الله بن محمد بن كُلاَّب القطان من بابية الحشوية ، له مناظرات مع عباد بن سليمان وله كتاب خلق الأفعال وغيرهما . فهرست ٢٥٥ (ج) . وانظر اللزوميات هـ ص ٤٨ .

وأصحابُ الشّريفِ ولاَ تَساوِ كأصحابِ ابنِ زُرْعَةَ وابنِ سَمْحِ (١)

• • •

مَا لِلأَنامِ وَجَدْتُهُمْ مِنْ جَهْلِهِمْ بالدِّينِ أشباهَ النَّعامِ أوِ النَّعَمْ (٢)
فَمُجادِلٌ وَصَلَ الجِدالَ وَقَدْ دَرَى أنَّ الحَقيقَةَ فِيهِ لَيْسَ كَما زَعَمْ
عَلِمَ الفَتَى النَّظَّارُ أنَّ بَصائِراً عَمِيَتْ فَكَمْ يَخْفَى اليَقِينُ وكَمْ يَعُمْ
لَوْ قالَ سَيِّدُهُمْ غَضاً بُعِثْتُ بِمِلَّةٍ مِنْ عِنْدِ رَبِّي قالَ بَعْضُهُمْ نَعَمْ

الأُدباء :

نقم أبو العلاء على الأدباء ، ويريد بهم الشعراء غالباً ؛ لأن كل مارآه فيهم أنهم دعاة إلى الكذب ، تجار بأقوالهم ، سرّاق للأموال والأقوال . وقد رأى الشعراء شر فريق من الناس ، لأنهم يبذلون ماء وجوههم ، ويمتهنون قرائحهم بامتداح من لايستحق المدح ، لينالوا خبساً من المال . ولو ترفعوا عن التكسب بأشعارهم لصانوا كرامة الشعر وكرامة أنفسهم . وإليك طرفاً مما قاله فيهم :

(١) الشريف : لعله أبو القاسم علي بن الحسن العلوي الشريف المعروف بابن الأعلم كان يجري علم الكلام في العراق توفي سنة ٣٧٥ هـ .
ابن زرعة : عيسى بن اسحاق بن زرعة أحد المتقدمين في المنطق والفلسفة والنقلة المجودين مولده ببغداد سنة ٣٣١ هـ أخبار الحكماء ص ١٠٧ .
وأبو علي بن السمح : المنطقي العراقي كان فاضلاً في صناعة المنطق توفي سنة ٤١٨ هـ أخبار الحكماء ص ٢٦٨ (ج) . وانظر اللزوميات هـ ص ٨٥ .

(٢) انظر ماسبق ص ١٣٤٦ .

وَمَا أَدَبَ الأَقْوَامَ في كُلِّ بَلْدَةٍ ... إلى المَيْنِ إلا مَعْشَرٌ أَدَبَاءُ[1]

• • •

بَنِي الآدَابِ غَرَّتْكُمْ قَدِيماً ... زَخَارِفُ مِثْلُ زَمْزَمَةِ الذُّبَابِ

وَمَا شُعَرَاؤُكُمْ إلاَّ ذِئَابٌ ... تَلَصَّصُ في المَدَائِحِ والسِّبَابِ

أَضَرُّ لِمَنْ تَوَدُّ مِنَ الأَعَادِي ... وأَسْرَقُ لِلمَقَالِ مِنَ الزَّبَابِ[2]

• • •

فِرَقاً شَعَرْتُ بِأَنَّها لا تَقْتَنِي ... خَيْراً وَأَنَّ شِرَارَهَا شُعَرَاؤُهَا[3]

• • •

تَكَسَّبَ النَّاسُ بِالأَجْسَامِ فَامْتَهَنُوا ... أَرْوَاحَهُمْ بِالرَّزَايَا في الصِّنَاعَاتِ[4]

وَحَاوَلُوا الرِّزْقَ بِالأَفْوَاهِ فَاجْتَهَدُوا ... في جَذْبِ نَفْعٍ بِنَظْمٍ أَوْ سَجَاعَاتِ

• • •

عُفَاةُ القَوَافي كَالذي وَلُمَاتِهَا ... إذَا هُنَّ لَمْ يُوصَلْنَ فَاللَّفْظُ فَاسِدُ[5]

• • •

وَمُغْرَمٌ بِالمَخَازِي طَالِبٌ صِلَةً ... مُغْرىً بِتَنْفِيقِ أَشْعَارٍ لَهُ كُسُدِ[6]

---

(١) اللزوميات هـ ص ٢٠ .

(٢) جمع زبابة : وهي فأرة عظيمة حمراء ، أو فأرة صماء يضرب بها المثل فيقال : أسرق من زبابة . (ج) . وانظر اللزوميات هـ ص ٥١ .

(٣) اللزوميات هـ ص ٢٣ .

(٤) « « « ٦٦ .

(٥) لماتها : جمع لُمَة وهي الجماعة من الناس ، والمثل والشكل ، والمتوافقون من الرجال ؛ والمراد هنا . أمثال الذي من أسماء الموصول التي تحتاج إلى صلة وعائد . (ج) . وانظر اللزوميات هـ ص ٨٩ .

(٦) اللزوميات هـ ص ١٠٨ .

النحاة واللغويون :

قدمنا في الكلام على ثقافته في النحو والصرف أنه كان ينظر إلى بعض مسائل هذا العلم ورجاله نظر ازدراء ومقت . وهنا نبين أنه ظهر له بعد الإمعان والتحقيق أن النحاة أجهدوا نفوسهم في أمور لم تعد عليهم بغير الخسيس ، ولم تدفع عنهم عاديات الدهر ، فكأنهم لم يصنعوا شيئاً غير التنازع في الأباطيل . وإليك شيئاً من قوله :

أَصَابَ الأَخْفَشَيْنِ بَصِيرُ خَطْبٍ   أَعَادَ الأَعْشَيَيْنِ بِلاَ جِوَارِ [1]

وَغِيلَ المَازِنِيُّ مِنَ اللَّيَالِي   بِزَنْدٍ مِنْ خُطُوبِ الدَّهْرِ وَارِ [2]

وَلِلْجَرْمِيِّ مَا اجْتَرَمَتْ يَدَاهُ   وَحَسْبُكَ مِنْ فَلاحٍ أَوْ بَوَارِ [3]

---

(١) الأخافش : أحد عشر شخصاً ، أشهرهم ثلاثة : الأخفش الأكبر : عبد الحميد مولى قيس بن ثعلبة ، وهو أول من فسر الشعر تحت كل بيت ، وكان الناس قبله يفسرون القصيدة إذا فرغوا منها ، توفي سنة ١٧٧ هـ . والأوسط : سعيد بن مسعدة المجاشعي أخذ عن سيبويه ، وصنف كتباً كثيرة ؛ وزاد على الخليل بحر المتدارك ، توفي سنة ٢١٥ هـ . والأصغر : علي بن سليمان له شرح سيبويه وغيره ، وكان ابن الرومي يهجوه سنة ٣١٥ هـ ولعل المراد الآخران منهم ، والأعشي : سبعة عشر رجلاً ، أربعة منهم جاهليون ، والباقون مسلمون ، أشهرهم أعشى قيس ميمون بن قيس (ج) . وانظر اللزوميات هـ ص ١٥٧ .

(٢) المازني : أبو عثمان بكر بن محمد من مازن إمام في النحو وله كتب توفي سنة ٢٤٩ هـ (ج)

(٣) الجرمي : أبو عمرو صالح بن إسحق الجرمي ، كان فقيهاً عالماً بالنحو واللغة . له كتاب جيد في النحو يقال له الفرخ ، ومعناه : فرخ كتاب سيبويه ، وله غيره ، ولم يلق سيبويه ؛ وكان أثبت الناس في كتابه ، توفي سنة ٢٢٥ هـ (ج)

فَأَمَّا فَرْخُهُ فَبِـلاَ جَنَاحٍ يَطِيرُ بِحَمْلِ أَقْلاَمٍ جَوَارِ

. . . .

وَمَا تَقَعَ الْمُبَرِّدُ مِنْ حَمِيمٍ وَصَادَتْ ثَعْلَباً نُوَبٌ ضَوَارِ(١)

. . .

حَبَسْتَ كِتَابَ الْعَيْنِ فِي كُلِّ وُجْهَةٍ فَخُذْ حَذَراً مِنْ تَرْجُمَانِ الْمُفَجَّعِ(٢)

. . .

تَوَلَّى سِيبَوَيْهِ وَجَاشَ شَيْبٌ مِنَ الأَيَّامِ فَاخْتَلَّ الْخَلِيلُ(٣)

وَيُونُسُ أَوْحَشَتْ مِنْهُ الْمَغَانِي وَغَيْرُ مُصَابِهِ النَّبَأُ الْجَلِيلُ(٤)

أَتَتْ عِلَلُ الْمَنُونِ فَمَا بَكَاهُمْ مِنَ اللَّفْظِ الصَّحِيحُ وَلا الْعَلِيلُ

. . .

---

(١) المبرد : محمد بن يزيد الثمالي الأزدي ، إمام العربية له كتب كثيرة ، منها (الكامل) و (المقتضب) توفي سنة ٢٨٦ هـ . وثعلب : هو أبو العباس أحمد بن يحيى الشيباني ، إمام الكوفيين في النحو واللغة له كتب كثيرة ، منها (الفصيح) و (معاني القرآن) و (معاني الشعر) وغيرها . توفي سنة ٢٩١ هـ (ج)

(٢) العين : كتاب في اللغة للخليل بن أحمد الفراهيدي المتوفى سنة ١٧٥ هـ ، وهو أصل الكتب في اللغة ؛ وللناس فيه كلام كثير . والترجمان : كتاب صنفه محمد ابن أحمد البصري النحوي سماه (كتاب الترجمان في الشعر ومعانيه) توفي سنة ٣٢٠ هـ (ج) انظر اللزوميات هـ ص ٢٨٧ .

(٣) سيبويه : أبو بشر عمرو بن عثمان ، إمام النحاة . وله (الكتاب) المشهور في النحو توفي سنة ١٨٠ هـ . والخليل هو ابن أحمد الفراهيدي ، تقدم ذكره (ج) .

(٤) يونس بن حبيب الضبي : إمام نحاة البصرة أخذ عن سيبويه والكسائي والفراء وغيرهم ، وله كتب منها : (معاني القرآن) و (واللغات والنوادر) و (الأمثال) توفي سنة ١٨٢ هـ (ج) وانظر اللزوميات هـ ص ١٩٨ .

أَرَى ابنَ أَبي إِسحَقَ أَسحَقَهُ الرَّدَى ... وَأَدرَكَ عُمرُ الدَّهرِ نَفسَ أَبي عَمرِو (١)

تَبَاهَوْا بِأَمرٍ صَيَّرُوهُ مَكَاسِبًا ... فَعَادَ عَلَيهِم بِالخَسِيسِ مِنَ الأَمرِ

بِكُسْوَةِ بُرْدٍ أَوْ بِإِعطَاءِ بُلْغَةٍ ... مِنَ العَيشِ لاَ جَمِّ العَطَاءِ وَلاَ غَمرِ

وَلَمْ يَصنَعُوا شَيئًا وَلَكِن تَنَازَعُوا ... أَبَاطِيلَ تُضحِي مِثلَ هَامِدَةِ الجَمرِ

فَلاَ يُضِعِ اللهُ المَسَاعِيَ فِي التُّقَى ... فَمَن يَسعَ فِيهَا لاَ يَخَفْ غَبَنَ القَمرِ

أَمَا قَالَهُ الكُوفِيُّ فِي الزُّهدِ مِثلُ مَا ... تَغَنَّى بِهِ البَصرِيُّ فِي صِفَةِ الخَمرِ (٢)

. . .

تَوَخَّ نَقلَ أَبي زَيدٍ وَكُتْبَ أَبي ... عَمرٍو وَخَلِّ كَلاَمًا فِي أَبي عُمَرِ (٣)

---

(١) ابن أبي اسحق : هو عبد الله بن زيد بن الحارث الحضرمي البصري ، أحد الأئمة في القراءة والعربية ؛ وهو أول من علل النحـو توفي سنة ١١٧ هـ وقيل سنة ١٢٧ هـ .
وأبو عمرو بن العلاء المازني النحوي : أحد القراء السبعة المشهورين ، واعلم الناس بالقراءات ، والعربية وأيام العرب ، توفي سنة ١٥٤ هـ وعنه أخذ يونس ، والخليل ، وعلي بن المبـارك ، وأبو عبيدة والأصمعي وغيرهم (ج). وانظر اللزوميات هـ ص ١٤٦ .

(٢) الكوفي هنا : أبو العتاهية ، إسماعيل بن القاسم العنزي الشـاعر المشهور ، نشأ في الكوفة وأكثر في شعره من الزهد توفي سنـة ٢١١ هـ . والبصري هنا : أبو نواس ، الحسن بن هانىء الحكمي ، نشا بالبصرة واشتهر بشعره في صفة الخمر وهو من الشعراء الفحول توفي سنة ١٩٨ هـ (ج)

(٣) أبو زيد : هو سعيد بن أوس بن ثابت الأنصاري البصري ، أحد أئمة اللغة والأدب وثقات اللغويين . كان سيبويه إذا قال : « سمعت الثقة » عنى أبا زيد . له كتاب (النوادر) ، (والهمز) ، (والمطر) وغيرها . توفي سنة ٢١٥ هـ
وأبو عمر : هو محمد بن عبد الواحد الزاهد المطرز اللغوي ، صحب ثعلب حتى قيل له غلام ثعلب . كان كثير الحفظ . ولسعة حفظه نسب إلى الكذب ، وأهل اللغة يطعنون عليـه ويقولون : لو طار طائر في الجو قال : حدثنا ثعلب عن ابن الأنباري ، ويذكر في ذلك شيئاً ، وله كتب كثيرة منهـا (اليواقيت) و (شرح الفصيـح) و (فائت الفصيـح) و (فائت العين) و (فائت الجمهرة) وغيرها . توفي سنة ٣٤٥ هـ ،(ج) وانظر اللزوميات هـ ص ١٥٢ .

رؤساء الأمم غير المسلمة :

رؤساء النصارى :

بيّن له البحث عن أحوالهم ودخائل نفوسهم أنهم كغيرهم لا يتورعون في سبيل شهواتهم ، وقد أشار إلى ذلك في أبيات تقدمت ، منها قوله :

رَاحَتْ إلى القَسِّ بتَقْرِيبها وَبَيْتُها أوْلى بِقُرْبَانِهَا[١]
قَدْ جَرَّبَتْ مِنْ فِعْلِهِ سَيّئاً والطّيبُ جَارٍ في جُرُبَّانِهَا

وأبيات أخر ، منها قوله :

الرّاهِبُ المَسْجُونُ فَرْطَ عِبَادَةٍ مِنْ حُبّ دُنْيَاهُ الكَذُوبِ مُوَلَّهُ[٢]

وغير ذلك من الأبيات التي سبق ذكر بعضها .

رؤساء اليهود :

وهؤلاء كشف له التنقيب عن أحوالهم ، فظهر له أنهم يأكلون بأمر كله كذب ، ويفترون للناس مزاعم يغوونهم بها ؛ وقد أشار إلى ما رآه فيهم ، في أبيات منها قوله :

لَقَدْ أكَلْتُمْ بِأمْرٍ كُلُّهُ كَذِبٌ عَلى تَقَادُمِ أزْمَانٍ وَآبَادِ[٣]
وَرَابَني أنّ أحْبَاراً لَكُمْ رَسَخُوا في العِلْمِ لَيْسُوا عَلى حَالٍ بِعُبّادِ

(١) انظر ما سبق ص ١٤١٣ .

(٢) اللزوميات ٥ ص ٣٣٤ .

(٣) الأبيات :

يا آل يعقوب ما توراتكم نبأ من وري زند ولكن وري أكباد
ان كان لم يبد للأغمار سركم فإنه لي في أسكانه باد
لقد أكلتم . . . .

وانظر ما سبق ص ١٤٠٧ .

وأبيات أخر منها قوله :

يَا آلَ يَعْقُوبَ خُذُوا حِذْرَكُمْ في الدَّهْرِ مِنْ حَبْرٍ وَدَيَّانِ (١)

وغير ذلك من الأبيات التي تقدم بعضها .

رؤساء المجوس وغيرهم من أرباب النحل :

عرض هؤلاء على الخبر أولاً ، ثم على الحك ثانيا ؛ فرآهم ينكرون النبوات ، ويبيحون وطء البنات ، ويسجدون للشمس ، ويقترفون ما تأباه الشرائع والعقول من الترهات ، فوصف ما علم وما رأى منهم في أبيات تقدم بعضها منها قوله :

أَقَرُّوا بِالإِلٰهِ وَأَثْبَتُوهُ وَقَالُوا لاَ نَبِيَّ وَلاَ كِتَابُ (٢)

وَوَطْءُ بَنَاتِنَا حِلٌّ مُبَاحٌ رُوَيْدَكُمُ فَقَدْ بَطَلَ العِتَابُ

. . .

(١) انظر ماسبق ص ١٤٠٦ .

(٢) تمامها : تمادوا في الضلال ولم يتوبوا ولو سمعوا صليل السيف تابوا

وقد ذهب طه حسين والأبياري في الجزء الأول من شرحهما للزوميات إلى أن أبا العلاء يشير بهذين البيتين إلى ما عليه غلاة الخوارج من انكار النبوات والكتب السماوية ...الخ وذهب الدكتور عبد الوهاب عزام إلى أن المعري يشير بها إلى الباطنية ووجه كلام طه حسين والأبياري إلى أنهما يريدان بالخوارج الخارجين على الدين لا الفرقة المعروفة . أما المؤلف فقد ترجح لديه أن المعري يعني المجوس (انظر ما جاء أعلاه وما سبق ص ١٣٩٩) .

وللاستاذ محمد أحمد دهمان رأي وجيه في هذين البيتين (مجلة المجمع العلمي العربي ج ٢ المجلد ٣١ ص ٣٤١ سنة ١٩٥٦) خلاصته أن المعري يريد أن يقول في البيت الأول ان هؤلاء يقرون بالإله ويعتقدون أن « لا نبي بعد نبينا ولا كتاب مع قرآننا » ولكنهم يجيزون مع ذلك وطء البنت إذا ولدت من سفاح لأنها في هذه الحالة غريبة عن أبيها فيحل له التزوج بها ، على خلاف فقهاء آخرين كثيرين يرون أن وطء الأمهات يحرم البنات مهما يكن شكل الوطء حلالاً أو حراما .

وأشار الأستاذ دهمان إلى أن الزمخشري يعني في قصيدة له أن الذين يأخذون بهذا الرأي هم فريق من الشافعية حيث يقول :

وإن شافعياً قلت قالوا بأنني أبيح نكاح البنت والبنت تحرم

سَأَلْنَا مَجُوساً عَنْ حَقِيقَةِ دِينِهَا ... فَقَالُوا نَعَمْ لَا نَنْكِحُ الأَخَوَاتِ (١)

إلى غير ذلك مما قدمنا بعضاً منه ، وأغفلنا بعضاً آخر .

التجار :

وتقصّى أحوال التجار ، وجرب ما جُرب من أعمالهم ؟ وأضاف إلى ذلك ما سمع ، فاتضح له أنهم قطاع طريق يسلبون الناس أموالهم في الأسواق ، ويشاركهم في ذلك العدول الذين يسلبون أموال الناس في المساجد فقال :

يَا تَاجِرَ المِصْرِ مَا أَنْصَفْتَ سَائِمَةً ... كَذَبْتَ فِي حَدِيثٍ مِنْكَ مَنْسُوقِ (٢)

إِنْ تَشْكُ قُطْعَ طَرِيقٍ بِالفَلَاةِ فَكَمْ ... قَطَعْتَ مِنْ قَبْلُ طُرْقَ النَّاسِ فِي السُّوقِ

. . .

فِي البَدْوِ خُرَّابُ أَذْوَادٍ مُسَوَّمَةٍ ... وَفِي الجَوَامِعِ وَالأَسْوَاقِ خُرَّابُ (٣)

فَهَؤُلَاءِ تَسَمَّوْا بِالعُدُولِ أَوِ التُّـ ... ـجَّارِ وَاسْمُ أُولَاكَ القَوْمِ أَعْرَابُ

ثم ما زال يعترض الناس صنفاً صنفا ، حتى انتهى وخرج من ذلك وهو مملوء الوطاب من معرفة الناس وما تكنه صدورهم من شر وغش ومكر وغل وما شاكل ذلك من النقص .

وكان خلال عمله هذا ينقش عن صفات الكمال والسجايا الفاضلة لعله يجد لها أثرا . وظاهر كلامه يدل على أنه لم يعثر لها على أثر ، فحكم

(١) انظر ماسبق ص ١٣٩٩ .

(٢) اللزوميات هـ ص ٣٠٧ .

(٣) اللزوميات هـ ص ٣٣ .

على الناس أحكاماً عامة ، لم يختص بها صنفاً واحداً ولا طبقة معينة . ويمكن أن نستنبط منها أن السجايا الفاضلة والخلال الكاملة ليس في الناس منها إلا الاسم . وإليك شيئاً مما قاله :

الأحكام العامة على الناس :

أجهد أبو العلاء نفسه كثيراً ليرى في الناس من يتصف بصفة يستحق أن يحمد عليها فلم يجد ، ولكنه رأى من أضداد ذلك كثيرا .

بحث ونقب وفتش وتلو فلم يجد وليًّا لله :

لاَ يَكْذِبَنْ امْرُؤٌ جَهُولٌ   مَا فِيكَ لله أَوْلِيَاءُ [1]

ولا تقيا :

فَصَمْتاً إنْ أرَدْتُمْ أوْ مَقَالاً   فَمَا في هَذِهِ الدُّنْيَا تَقِيُّ [2]

بل كلهم أشقياء :

إذَا قَضَى اللهُ بالمَخَازِي   فَكُلُّ أهْلِيكِ أشْقِيَاءُ [3]

ولا زاهدا :

لَعَمْرُكَ مافي عَالَمِ الأرْضِ زَاهِدٌ   يَقِيناً وَلا الرُّهْبَانُ أهْلُ الصَّوَامِعِ [4]

---

(١) اللزوميات ه ص ٢٢ .
(٢) » » ص ٣٤٣ .
(٣) » » ص ٢٢ .
(٤) » » ص ٢٨٧ .

ولا غنيا بل كلهم فقراء :

مَا فِي بَنِي آدَمٍ غَنِيٌّ بَلْ كُلُّهُمْ مُعْدِمٌ فَقِيرُ (١)

. . .

وَجَدْتُ النَّاسَ كُلُّهُمُ فَقِيرٌ وَيُعْدَمُ فِي الأَنَامِ الأَغْنِيَاءُ (٢)

ولا كريماً :

وَيُقَالُ الكِرَامُ قَوْلاً وَمَا فِي الـدَّهْرِ إِلاَّ الشُّخُوصُ والأَسْمَاءُ (٣)

وإنما هم بخلاء :

عِشْ بَخِيلاً كَأَهْلِ عَصْرِكَ هَذَا وَتَبَالَهْ فَإِنَّ دَهْرَكَ أَبْلَهْ (٤)

ولا وفياً :

والغَـدْرُ فِي الآدَمِيِّ طَبْعٌ فَاحْتَرِزِي قَبْلَ أَنْ تَنَامِي (٥)

ولا يكون الإنسان وفياً فكل :

مَنِ ادَّعَى أَنَّهُ وَفِيٌّ فَلْيَنْتَسِبْ فِي سِوَى الأَنَامِ (٦)

وكلهم ظالم :

وَكُلُّ حَيٍّ فَوْقَهَا ظَالِمٌ وَمَا بِهَا أَظْلَمُ مِنْ نَاسِهَا (٧)

(١) لم نعثر على هذا البيت في الراء المضمومة مع القاف . وقد ورد في الميم مع الدال وروايته : « . . . بل كلهم مقتر عديم » انظر اللزوميات ص ١٣٤ .

(٢) انظر ما سبق ص ١٢٠٤ .

(٣) « « ص ١٢٠٤ .

(٤) اللزوميات « ص ٢٠٩ .

(٥) « « ص ٢٥١ .

(٦) المصدر السابق .

(٧) اللزوميات « ص ٣٢٤ .

وليس فيهم طاهر :

وَكَذَاكَ يُدْعَى طَاهِراً مَنْ كُلُّهُ نَجَسٌ وَيُفْقَدُ فِي الأَنَامِ الطَّاهِرُ (١)

ولا حر وإنما :

نُطَالِبُ الدَّهْرَ بِالأَحْرَارِ وَهْوَ لَنَا مُبِينُ عُذْرَيْنِ إِفْلاَسٍ وَتَفْلِيسِ (٢)

ولا صادق وإنما :

جَرَى المَيْنُ فِيهِمْ كَابِراً بَعْدَ كَابِرٍ عَنِ الخُبْرِ يَحْكِي لاَ عَنِ السَّلَفِ الحِبْرِ (٣)

. . .

غَلَبَ المَيْنُ مُنْذُ كَانَ عَلَى الخَلْـــقِ وَمَاتَتْ بِغَيْظِهَا الحُكَمَاءُ (٤)

. . .

وَمِنَ البَلِيَّةِ أَنْ يُسَمَّى صَادِقاً مَنْ وَصْفُهُ الأَوْلَى كَذُوبٌ فَارِ (٥)

. . .

وشأنهم النفاق :

أُنَافِقُ فِي الحَيَاةِ كَفِعْلِ غَيْرِي وَكُلُّ النَّاسِ شَأْنُهُمُ النِّفَاقُ (٦)

. . .

إِنَّمَا عِشْرَةُ الأَنَامِ نِفَــاقٌ وَتَبَاهٍ فِي بَاطِلٍ وَتَجَــازِ (٧)

---

(١) اللزوميات ٥ ص ١٢٧ .
(٢) « « ص ٣٠٠ .
(٣) « « ص ١١٨ .
(٤) « « ص ٢٤ .
(٥) « « ص ١٦٢ ، وفار : اسم فاعل من فرى الكذب أي اختلقه .
(٦) « « ص ٣٠٠ .
(٧) « « ص ١٧٥ .

ودينهم رياء :

أُرَائِيكَ فَلْيَغْفِرْ لِيَ اللهُ زَلَّتِي ... بِذَاكَ وَدِينُ العَالَمِينَ رِيَاءُ (١)

وليس فيهم بر :

وَمِنْ شِيَمِ الإِنْسِ العُقُوقُ وجَاهِلٌ ... مُحَاوِلُ بِرٍّ عِنْدَ مَنْ أَكَلَ البُرَّا (٢)

ولا فاضل :

وأعْوَزَتِ الفَضِيلَةُ كُلَّ حَيٍّ ... فَمَا هُوَ غَيْرُ دَعْوَى وانْتِحَالِ (٣)

. . .

وَخِلُّكَ أَفْضَلُ مِنْ غَيْرِهِ ... وَمَا في الوَرَى كُلِّهِمْ فَاضِلُ (٤)

. . .

ولا جيّد :

قَالُوا فُلانٌ جَيِّدٌ فَأَجَبْتُهُمْ ... لا يَكْذِبُوا مَا في البَرِيَّةِ جَيِّدُ (٥)

فَأَمِيرُهُمْ نَالَ الإِمَارَةَ بِالخَنَا ... وَتَقِيُّهُمْ بِصَلاَتِهِ يَتَصَيَّدُ

ولا ناصح وإنما هم :

يَجُرُّونَ الذُّيُولَ عَلى المَخَازِي ... وَقَدْ مُلِئَتْ مِنَ الغِشِّ الجُيُوبُ (٦)

---

(١) اللزوميات هـ س ٢١ .

(٢) » » س ١٣٢ . والبر : بضم الباء الحنطة .

(٣) » » س ٢١٧ .

(٤) » » س ٢٠٣ .

(٥) » » س ٩٧ وفيها : « متصيد » .

(٦) » » س ٣٥ .

ولا محسن عادل مصلح :

جُرْ يا غُرَابُ وأفْسِدْ لَنْ تَرَى أحداً إلاَّ مُسِيئاً وأيُّ الخَلْقِ لمْ يَجُرِ (١)

ولا مهتد :

لَقَدْ ضَلَّ حِلْمُ النَّاسِ مِنْ عَهْدِ آدَمٍ فَهَلْ هُوَ مِنْ ذَاكَ الضَّلالِ نَشِيدُ (٢)

ولا من يختار لخير :

أَلَيْتُ مَا في جِيلِنَا أحَدٌ يُخْتَارُ لا زَيْدٌ ولاَ عَمْرُو (٣)

ولا جاز على الحسنى ولا شكور على النعمى :

وَمَا فِيكُمْ عَلى الإحْسَانِ جَازٍ وَلاَ مِنْكُمْ عَلى النُّعْمَى شَكُورُ (٤)

ولا خليل صادق في خلته وقد :

ضَلَّ امْرُؤٌ قَالَ خِلّي أسْتَعِينُ بِهِ وَأيُّ خِلٍّ نَأى عَنْ وُدِّهِ خَلَلُ (٥)

• • •

وَمَا عَاشَرْتَ في الدُّنْيَا خَلِيلاً يُرِيكَ مَوَدَّةً إلاَّ لِقَمْرِ (٦)

ولا نقي العرض :

نَقَاءُ لِبَاسِنَا فِيهَا كَثِيرٌ وَلَيْسَ لأهْلِهَا عِرْضٌ نَقِيُّ (٧)

---

(١) اللزوميات ه ص ١٠٢ .
(٢) « « ص ٩١ .
(٣) « « ص ١٣٢ .
(٤) « « ص ١٢٥ .
(٥) « « ص ١٩٦ ، والخلل : الفساد .
(٦) « « ص ١٥٣ ، والقمر : الغلبة في المراهنة واللعب بالقمار .
(٧) « « ص ٢١٣ .

ولا من يستحق المدح :

وَسَكْنُ الأَرْضِ كُلُّهُمُ ذَمِيمٌ صَرِيحُهُمُ المُهَذَّبُ والسَّنِيُّ[١]

ولا ماجد :

وَالمَجْدُ لِلّهِ لاَ خَلْقٌ يُشَارِكُهُ وَآلُ حَوّاءَ مَا طَابُوا وَلاَ مَجُدُوا[٢]

. . .

فَلاَ تُقِرَّ بِمَجْدٍ لامْرِىءٍ أَبَداً إِنْ كُنْتَ بِاللهِ رَبِّ النَّيِّرَاتِ تُقِرُّ[٣]

ولا مؤمن حقا :

تَعَلَّمَ الكُفْرَ أُولاَهُمْ وآخِرُهُمْ فَكُلُّ أَرْضٍ بِهَا جَمْعٌ وَمِدْرَاسُ[٤]

ولا أهل تأنس :

أَنَا جَاهِلٌ إِلاَّ بِأَمْرٍ وَاحِدٍ مَا عَالَمِي هَذَا بِأَهْلِ تَأَنُّسِ[٥]

ولا خليل موافق :

فُؤَادُكَ خَفَّاقٌ وَبَرْقُكَ خَافِقٌ وَأَعْيَاكَ فِي الدُّنْيَا خَلِيلٌ مُوَافِقُ[٦]

بل لا يمكن أن يظفر بخليل موافق :

وَمَا تُحْسِنُ الأَيَّامُ أَنْ تَرْزُقَ الفَتَى وَإِنْ كَانَ ذَا حَظٍّ صَدِيقاً يُوَافِقُهْ[٧]

---

(١) الزوميات هـ ص ٣٤٣ ، والسكن : بسكون الكاف ، السكان .

(٢) « « ص ٩٣ .

(٣) « « ص ١٦٧ .

(٤) « « ص ٢٩٤ ، وجمع : المزدلفة من مناسك الحج . للدراس : للوضع يقرأ فيه القرآن ومنه مدراس اليهود .

(٥) « « ص ٣٠٣ .

(٦) « « ص ٢٩٩ .

(٧) المصدر السابق .

وكلهم خسيس :

وَمَا حَمْدِي لِآدَمَ أَوْ بَنِيهِ ... وَأَشْهَدُ أَنَّ كُلَّهُمُ خَسِيسُ[١]

وحقود ماكر :

عَرَفْتُكُمُ بَنِي حَوَّاءَ قِدْماً ... فَكُلُّكُمُ أَخُو ضِغْنٍ مَكُورُ[٢]

وسفيه :

نُضْحِي وَنُمْسِي كَبَنِي آدَمٍ ... وَمَا عَلَى الغَبْرَاءِ إِلاَّ سَفِيهْ[٣]

وخائن :

وَكُلُّ مَنْ فَوْقَ الثَّرَى خَائِنٌ ... حَتَّى عُدُولُ المِصْرِ مِثْلُ اللُّصُوصْ[٤]

وليس فيهم رابح :

مَا فِي جَمِيعِ النَّاسِ إِلا خَاسِرٌ ... فَإِلَيْهِمُ رَجَعَ القَبِيحُ وَحَاقَا[٥]

ولا خيّر :

فَمَا فِيكُمُ مِنْ خَيِّرٍ يُدَّعَى بِهِ ... يُفَرِّجُ عَنِّي بِالمَضِيقِ المَسَالِكَا[٦]

---

(١) اللزوميات ﻫ ص ٢٩٤.

(٢) « « ص ١٢٥ .

(٣) « « ص ٣٤١ .

(٤) « « ص ٢٨٨ .

(٥) « « ص ٣٠٥ . وحاق به : أحاط .

(٦) اللزوميات ﻫ ص ١٨٥ .

ولا رشيد :

إلى اللهِ أشكو مُهْجَةً لا تُطِيعُني وَعَالَمَ سُوءٍ لَيْسَ فِيهِ رَشِيدُ[١]

وقد لخص ما رآه من أحوالهم بعد الاختبار بأبيات منها قوله :

لَوْ نَطَقَ الدَّهْرُ في تَصَرُّفِهِ لَعَدَّنَا كُلَّنَا مِنَ التَّفَثِ[٢]

وقوله :

لَوْ غُرْبِلَ النَّاسُ كَيْمَا يَعْدَمُوا سَقَطاً لَمَا تَحَصَّلَ شَيْءٌ في الغَرَابِيلِ[٣]

ولما يئس من الظفر بالإنسان الكامل في الأحياء بعد الجهد والتنقيب ، التمسه في الأموات ، وعرض أعمالهم على الاختبار كما فعل بالأحياء . فرأى الناس متساوين في الشيم ، وإن كانوا متفاوتين في الزمن . وفي كلامه أبيات تدل على أن جبلة البشر واحدة ، وخلائقهم متقاربة أو متحدة ، منها قوله :

مَا كَانَ في هَذِهِ الدُّنْيَا أَخُو رَشَدٍ وَلاَ يَكُونُ وَلاَ في الدَّهْرِ إِحْسَانُ[٤]

. . .

مَا كَانَ في الأَرْضِ مِنْ خَيْرٍ وَلاَ كَرَمٍ فَضْلٌ مَنْ قَالَ إِنَّ الأَكْرَمِينَ فَنُوا[٥]

. . .

---

(١) اللزوميات ﻫ ص ٩١ .

(٢) الأبيات :

لو نطق . . .

قال لنا إنني أحج إلى الـله وأنتم من أتبع الرفث

فشتكم مرة على غلط مني فهل تعذرون في التفث

والتفث : ما كان من نحو قص الأظفار والشارب وحلق الرأس وغير ذلك من المناسك . اللزوميات ﻫ ص ٧٢ .

(٣) اللزوميات ﻫ ص ٢١٦ .

(٤) « « ص ٢٦١ .

(٥) المصدر السابق .

وَأَحْلِفُ مَا الدُّنْيَا بِدَارِ كَرَامَةٍ   وَلَا عَمَرَتْ مِنْ أَهْلِهَا بِكَرِيمِ (١)

. . .

بَنِي الأَرْضِ مَا فَوْقَ التُّرَابِ مُوَفَّقٌ   لِرُشْدٍ وَلَا تَحْتَ التُّرَابِ سِوَى فَسْلِ (٢)

. . .

نَحْسُ الحَيَاةِ عَلَى الأَحْيَاءِ مُشْتَمِلٌ   وَسَاكِنُو الأَرْضِ مِنْ لُؤْمٍ بِلَا كَرَمِ (٣)

. . .

وَلَمْ يَأْتِ فِي الدُّنْيَا القَدِيمَةِ مُنْصِفٌ   وَلَا هُوَ آتٍ بَلْ تَظَالُمُ المَنَاجِزُمْ (٤)

. . .

هَلْ سَارَ فِي النَّاسِ أَوَّلٌ بِتُقًى   فَيَتْبَعَ النَّاسُ بَعْدَهُ سِيَرَهْ (٥)

. . .

محاولة إصلاح الناس وإخفاقه فيها :

لما عجز عن العثور على ذلك الإنسان المفقود في الأموات ، ويئس من الظفر به في الأحياء ، فكر هل يمكن أن يعالج هذا الإنسان الموجود فيقوّم أوده ، ويصلح فاسده ، حتى يكون إنساناً كاملاً حسبما تقتضيه الإنسانية ؟ ثم حاول ذلك كما قال :

---

(١) اللزوميات ه ص ٢٤٦ .

(٢) « « ص ٢١٠ وفيها :

« بني الأرض ما تحت التراب موفق   لرشد ولا فوق التراب سوى فسل »

(٣) اللزوميات ه ص ٢٤٧ .

(٤) اللزوميات ه ص ٢٢٨ .

(٥) « « ص ١٤٤ .

أُحَاوِلُ مِنْ بَنِي الدُّنْيَا صَلاَحاً ... وَتَأْبَى أَنْ تُجِيبَ نُفُوسُ غُثْرِ[1]

ثم تذكر أن الأنبياء ـ صلوات الله عليهم ـ لم يألوا جهداً في النصح والإرشاد والتهذيب ؛ فتمرد عليهم فريق من الناس ، وناهضهم فريق آخر ، واتبعتهم طائفة من أممهم في حياتهم . فلما لحقوا بالرفيق الأعلى ، فرق أتباعهم دينهم ، وصاروا شيعاً ، وغيروا وبدلوا وتأولوا ؛ ثم تنازعوا واقتتلوا ، حتى آل أمرهم إلى الدمار والبوار . وهذا ما أراده بقوله :

أُمُورٌ تَسْتَخِفُّ بِهَا حُلُومٌ ... وَمَا يَدْرِي الفَتَى لِمَنِ الثُّبُورُ[2]

كِتَابُ مُحَمَّدٍ وكِتَابُ مُوسَى ... وَإِنْجِيلُ ابْنِ مَرْيَمَ والزَّبُورُ

نَهَتْ أُمَماً فَمَا قَبِلَتْ وَبَارَتْ ... نَصِيحَتُهَا فَكُلُّ القَوْمِ بُورُ

أسباب اخفاقه في محاولته :

فلما بلغ إلى هذا الحد من العجز والقنوط ، أخذ يبحث عن الأسباب التي حملت الإنسان على اجتناب كل خير ، واقتراف كل شر ، ومخالفة الناصح الصادق ، واتباع الغاش الكاذب . فأرشده البحث إلى أن الإنسان مصوغ من طينة سيئة ؛ وأن جبلته فاسدة في أصل التركيب ، وليس الفساد فيه أمراً طارئاً ؛ ومن فطر على شيء تعسر أو تعذر انسلاخه عنه . وكانت محاولة إصلاحه نوعاً من الضلال وطلباً للمحال . وإذا أصلح يوماً عاد إلى طبيعته ، لأن كل إنسان راجع إلى شيمته ، وإن تخلق بغيرها حيناً من الدهر . وإليك جملة من كلامه في ذلك :

---

(١) اللزوميات ٥ ص ١٥٤ وغثر : جمع أغثر ، الأحمق والجاهل وسفلة الناس (ج)

(٢) » » ص ١٢٥ ، وبور : أي هلكى .

وَنَحْنُ في عَالَمٍ صِيغَتْ أوَائِلُهُ عَلى الفَسَادِ فَفِي قَوْلنَا فَسَدُوا[١]

. . .

وَأرَى المعَاشِرَ في غَرَائِزِهِمْ سُوءُ الطِّبَاعِ الخَتْلُ والقَمْرُ[٢]

. . .

سَجَايَا كُلُّهَا غَدْرٌ وَخُبْثٌ تَوارَثَها أُنَاسٌ عَنْ أُنَاسِ[٣]

. . .

في طَبْعِنَا الزَّيغُ والفَسَادُ وَهَـــذَا اللَّيلُ طَبْعٌ لِجنْحِهِ الخَدَرُ[٤]

. . .

جِبِلَّةٌ بِالفَسَادِ وَاشِجَـةٌ إنْ لاَمَها المَرْءُ لاَمَ جَابِلَهَا[٥]

. . .

وَجِبِلَّةُ النَّاسِ الفَسَادُ فَضَلَّ مَنْ يَسْعَى بِحِكْمَتِهِ إلى تَهْذِيبِهَا[٦]

. . .

وَمِنَ الرَّزِيَّةِ أنْ تَبِيتَ مُكَلَّفاً إصْلاحَ مَنْ صَحِبَ الغَرِيزَةَ فَاسِدَا[٧]

. . .

---

(١) اللزوميات ﻫ ص ٩٢ .
(٢) « « ص ١٣٢ .
(٣) « « ص ٣٠٢ .
(٤) « « ص ١٣٥ وقبلها : « لو أصلنا الزيغ . . . » . والجنح من الليل : الطائفة . والخدر : ظلمة الليل .
(٥) اللزوميات ﻫ ص ٢٠٩ .
(٦) « « ص ٥١ وقبلها : « . . . فضل من يسمو بحكمته . . . » .
(٧) « « ص ١٠٤ .

وَكَيفَ يَطلُبُ عَدلاً مَنْ غَرِيزَتُهُ   تَولُّدُ الظُّلْمِ تَثْمِيراً وَتَفْرِيعَا[١]

. . .

لَمْ يَقْدِرِ اللهُ تَهْذِيباً لِعَالَمِنَا   فَلاَ تَرُومَنَّ لِلأَقْوامِ تَهْذِيبَا[٢]

. . .

والنَّاسُ لاَ يَصْلُحُونَ مَا طَلَعَتْ   شَمْسٌ وَمَا أَرْسَلَ الدُّجَى سُدُلَه[٣]

. . .

وَغَضِبْنَا مِنْ قَوْلِ زَاعِمِ حَقٍّ   أَنَّنَـــا في أُصولِنَا لُؤَمَاءُ[٤]

. . .

حُكْمٌ جَرَى لِلْمَلِيكِ فِينَا   وَنَحْنُ في الأَصْلِ أَغْبِيَاءُ[٥]

تفاوت الناس وتساويهم

في كلام أبي العلاء صور مختلفة ، تدل بمجموعها على أنه لا يعتقد أن البشر متساورن في كل شيء ، ولا متفاوتون في كل شيء . وقد توهم بعض الأدباء أن في كلامه شيئاً من التناقض . والذي يظهر لمن أمعن النظر فيه ، أنه حكم عليهم بالتساوي في مواطن يرجع أكثرها إلى سوء الغريزة ، ومساوىء الأخلاق ، والصفات الدنيئة ، والأعمال الذميمة . كما حكم عليهم بذلك بالنسبة إلى جريان القضاء عليهم ، وبالنسبة إلى ما يؤول إليه أمر

(١) اللزوميات ج ص ٢٨٦ .
(٢) « « ص ٤١ .
(٣) « « ص ٢٠٨ .
(٤) « « ص ٢٤ .
(٥) « « ص ٢٢ .

كل منهم بعد الحياة ، ونحو ذلك . وحكم عليهم بالتفاوت في مواطن أخرى ؟ وأنه نظر إلى الغالب من أحوالهم فحكم عليهم جميعاً بما حكم .

وأما المواطن التي حكم عليهم فيها بالتفاوت ففي مثل قوله :

مُلَّ الْمَقَامُ فَكَمْ أُعَاشِرُ أُمَّةً أَمَرَتْ بِغَيْرِ صَلاَحِها أُمَرَاؤُهَا[(١)]

وقوله :

رُئِسَ النَّاسُ بِالدَّهَاءِ فَمَا يَنْـ ـفَكُّ جِيلٌ يَنْقَادُ طَوْعَ دُهَاتِهْ[(٢)]

وقوله :

مِنْ أَنْكَرِ النُّكْرِ سُودَانٌ شَرَاحِيَةٌ يَكُونُ أَبْنَاؤُهَا بِيضاً تَنَابِيلاَ[(٣)]

وقوله :

أَفْضَلُ مِنْ أَفْضَلِهِمْ صَخْرَةٌ لاَ تَظْلِمُ النَّاسَ وَلاَ تَكْذِبُ[(٤)]

وقوله :

وَقَدْ يُرْزَقُ الْمَجْدُودُ أَقْوَاتَ أُمَّةٍ وَيُحْرَمُ قُوتاً وَاحِدٌ وَهْوَ أَحْوَجُ[(٥)]

---

(١) الزوميات ، ص ٢٣ .

(٢) « « ص ٧٠ .

(٣) « « ص ٢٠٥ ، وفيها : « تكون . . . » والشرمح والشرمحي : الطويل ، والتنابل : مفردها تنبال وهو القصير .

(٤) الزوميات ، ص ٣٦ .

(٥) « « ص ٧٣ .

وقوله :

اثنان أهلُ الأرضِ ذُو عقلٍ بلا ... دينٍ وآخرُ دَيِّنٌ لا عقلَ لَهْ[1]

وقوله :

فأَوْدِعَنْ فاتِكاً حصَــاةً ... وأوْدِعَنْ ناسِكاً جُمانَهْ[2]

وقوله :

وَعَالَمٌ فيهِ أضدادٌ مُقَابَلَةٌ ... غنيّ وفقرٌ ومكروبٌ ومَقْرُورُ[3]

فقد جعل الناس في هذه الأبيات أصنافاً متفاوتة بين رعاة ورعية ، ورؤساء ومرؤوسين ، وسود وبيض ، وطوال وتنابيل ، وأفضل ومفضول ، وظالم ومظلوم ، ومجدود ومحدود ، وعاقل ومجنون ، وفاتك وناسك ، وغني وفقير . . . وهكذا سبيله فيما يشبه هذه الأبيات .

وأما المواطن التي حكم عليهم فيها بالتساوي ففي مثل قوله :

لاَ يَفْخَرَنَّ الهاشِمِيُّ على امرِىءٍ مِنْ آلِ بَرْبَرْ[4]

فالحَقُّ يحلِفُ ما عليٌّ عِنْدَهُ إلاَّ كَقَنْبَرْ

وقوله :

وَلَقَدْ تشَابَهَ في الظّواهِرِ مَوْلِدٌ ... حِلُّ النّكاحِ ومَوْلِدٌ بِعِهَارِ[5]

---

(١) اللزوميات هـ ص ٢٠٦ .

(٢) « « ص ٢٦٧ .

(٣) « « ص ١٢٣ .

(٤) « « ص ١٦٨ وعلي : هو علي بن أبي طالب ـ رض ـ . وقنبر : مولى علي بن أبي طالب ـ رض ـ .

(٥) اللزوميات هـ ص ١٦٠ .

وقوله :

فَلاَ تَعذُلِينَا كُلُّنا ابنُ لَئِيمَةٍ ... وَهَلْ تَعْذُبُ الأثمارُ إنْ لُؤُمَ الغَرْسُ(١)

وقوله :

تَفَرَّعَ النَّاسُ عنْ أَصْلٍ بِهِ دَرَنٌ ... فالعَالَمُونَ إذَا مَيَّزْتَهُمْ شَرَعُ(٢)

وَالجَدُّ آدَمُ وَالمَثْوَى أدِيمُ ثَرًى ... وَإنْ تَخَالَفَتِ الأَهْوَاءُ والشِّرَعُ

وقوله :

والنَّاسُ ضَأنٌ تَسَاوَتْ في غَرائِزِهَا ... يُلْقَوْنَ بالأَرْضِ كَفًّا كُلَّمَا افْتَرَعُوا(٣)

وقوله :

إنْ مَازَتِ النَّاسَ أَخْلَاقٌ يُعَاشُ بِهَا ... فإنَّهُمْ عِنْدَ سُوءِ الطَّبْعِ أَسْوَاءُ(٤)

وقوله :

وَيَا بِلاداً مَشَى عَلَيْهَا ... أُولُو افْتِقَارٍ وأَغْنِيَاءُ(٥)

إذَا قَضَى اللهُ بالمَخَازِي ... فَكُلُّ أَهْلِيكِ أَشْقِيَاءُ

وقوله :

مَا بَيْنَ مُوسَى وَلاَ فِرْعَوْنَ تَفْرِقَةٌ ... عِنْدَ المَنُونِ بِإكْبَارٍ وَإصْغَارِ(٦)

---

(١) اللزوميات ﻫ ص ٣٠٩ .

(٢) « « ص ٢٨٣ . وشرع في البيت الأول : محركة : أي سواء . والشرع في الثاني : مفردها شرعة وهي المستقيم من المذاهب .

(٣) اللزوميات ﻫ ص ٢٨٢ .

(٤) « « ص ٢١ ، وأسواء : جمع سواء .

(٥) « «ص ٢٢ .

(٦) « « ص ١٥٢ .

وقوله :

إذَا كَانَ هَذَا التُّرْبُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا   فَأهْلُ الرَّزَايا مِثْلُ أهْلِ الْمَمَالِكِ[١]

فقد جعل في هذه الأبيات الفاضل والمفضول سواء عند الحق ، ومولد الحل مشابهاً لمولد العهر في الظاهر ، لأن الطبيعة لم تجعل فرقاً بين المولدين . وجعل الناس متساوين في لؤم الأم ، ودرن الجد ، وفي الغريزة ، وسوء الطبع ، وفي الشقاء ، وإن تفاوتوا في الفقر والغنى ، وجعل البَرَّ التقي مساوياً للكافر في أمر الموت . كما جعل أهل الرزايا مساوين لأهل الممالك في المصير إلى التراب . وعلى هذا النمط يتمشى من أقواله ما يشبه هذه .

وصفوة القول انه لم يجعل الناس متساوين في كل شيء ، ولا متباينين في كل شيء . وإنما جعل لكل واحد منهما موضعاً بحسب اجتهاده واعتقاده .

وهذه طائفة لطيفة من أقواله ، بيّن فيها بعض المواطن التي يتساوى فيها الناس ، أو يشبه بعضهم بعضاً فيها أو يقاربه :

وَسَاوٍ لَدَيْكَ أَتْرَابَ النَّصَارَى   وَعِيناً مِنْ يَهُودَ وَمُسْلِمَاتِ[٢]

وَمَنْ جَاوَرْتَ مِنْ حُنُفٍ وَسِرْبٍ   صَوَابِيءٍ فَلْيَبِتْنَ مُكَرَّمَاتِ

فَإِنَّ النَّاسَ كُلُّهُمُ سَوَاءٌ   وَإِنْ ذَكَتِ الْحُرُوبُ مُضَرَّمَاتِ

. . .

---

(١) اللزوميات ﻫ ص ١٨٨ .

(٢) « « ص ٦٩ وفيها : « . . . صوابيء فليبنَّ مكرمات » .

لاأستقيلُ زَماني عَثْرَةً أبداً   مَاشاءَ فَلْيَأتِ إنّ الشُّهْدَ كالصَّابِ (١)

. . .

وَمَا العُلَماءُ والجُهّالُ إلاّ   قَرِيبٌ حِينَ تَنْظُرُ مِنْ قَرِيبِ (٢)

. . .

لاَ تَبدَأُوني بالعَدَاوَةِ مِنْكُمُ   فَمَسِيحُكُمْ عِنْدي نَظِيرُ مُحَمَّدِ (٣)

. . .

قَدْ تَرَامَتْ إلى الفَسَادِ البَرَايا   واسْتَوَتْ في الضَّلاَلةِ الأدْيَانُ (٤)

. . .

وَسِيَّانِ مَلْكَا مَعْشَرٍ في سَنَاهُمَا   وَعِلْجَانِ في الشَّعْرَاءِ والعَلَجَانِ (٥)

. . .

وَالنَّدْبُ في حُكْمِ الهِدَانِ وَذُو الصِّبَا   كأخِي النُّهَى والذِّمْرُ كَالعُوَّارِ (٦)

. . .

---

(١) اللزوميات ﻫ ص ٤٨ .

(٢) » » ص ٥٥ .

(٣) انظر ما سبق ص ١٤١٥ .

(٤) » » » ص ١٣٦٧ .

(٥) اللزوميات ﻫ ص ٢٧٥ ، وعلجان : مفردها العلج وهو العير وحمار الوحش . والشعراء : الشجر الكثير . والعلجان : بفتح العين واللام نبت .

(٦) اللزوميات ﻫ ص ١٥٩ ، والندب من الرجال : الخفيف للماضي في الحاجة . والهدان : الرجل الضعيف . والذمر : الشجاع . والعوار : الجبان .

لاَ ذُكُورٌ وَلاَ إنَاثٌ مِنَ العَا ... لَمِ يُهْدَى لِلرُّشْدِ بالتَّذْكِيرِ [١]

. . .

مَسَاجِدُكُمْ وَمَوَاخِيرُكُمْ ... سَوَاءٌ فَبُعْداً لكُمْ مِنْ بَشَرْ [٢]
وَمَا أنتُمُ بِالنَّبَاتِ الحَمِيدِ ... وَلاَ بِالنَّخِيلِ وَلاَ بِالعُشَرْ

. . .

ظُلْمُ الحَمَامَةِ فِي الدُّنْيَا وإنْ حُسِبَتْ ... فِي الصَّالِحاتِ كَظُلْمِ الصَّقْرِ والبَازِي [٣]

. . .

كُنْ مِنَ التُّرْكِ أوْ مِنَ الرُّومِ أوْ سَا ... بِحَ أوْ فَارِسٍ أوِ الإِنجَازِ [٤]
صُورَةٌ خُبِّرَتْ بِأنَّكَ تَجْنُبُو ... لٌ عَلَى الشَّرِّ والمُهَيْمِنُ خَازِ
وَاخْتِلافٌ مِنْ مَنْصِبٍ وَبِلادٍ ... وَاتِّفَاقٌ عَلَى رِضىً بِالمَخَازِي

ماذا كانت النتيجة بعد اليأس من الإصلاح :

لما انتهى به البحث إلى اليأس من إصلاح الناس ، والقنوط من صلاحهم لما أسلفنا ذكره من الأسباب والعلل ، انهال عليهم بضروب من اللوم ، ونعتهم بنعوت مختلفة من الخسة واللؤم ، وأتى في أضعاف كلامه بصورة رائعة ، فتارة يشك في وجود الطاهر فيهم ، وتارة يجزم بعدمه ، وأحياناً يعدّهم من الأدناس والتفث ، وأحياناً من الأقذار . ويتمثل ذلك في قوله :

---

(١) اللزوميات ه ص ١٦٧ .
(٢) » » ص ١٧٠ . والعشر : شجر له صمغ وهو من العضاه .
(٣) » » ص ١٧٤ .
(٤) » » ص ١٧٥ . وفيها : « ... من الروم أو من الترك ... » .

أَيُوجَدُ في الوَرَى نَفَرٌ طَهَارَى أَمِ الأَقْوَامُ كُلُّهُمُ رُجُوسُ[١]

. . .

نَبْغِي الطَّهَارَةَ في الحَيَاةِ وإِنَّمَا أَجْسَادُنَا جُمَلٌ مِنَ الأَدْنَاسِ[٢]

. . .

إِنَّا بِعِلْمِ إِلَهِي كُلُّنَا دَنَسٌ فَكَيْفَ نَخْلُو مِنَ الأَقْذَارِ والدَّنَسِ[٣]

وفي أشباه ذلك من كلامه . ولقد كوّن هذا الإخفاق واليأس في نفسه أمرين : أحدهما يتعلق بالماضي . والثاني يتعلق بالحاضر والمستقبل .

أما الأوّل : فهو أنه تمنّى لآدم أن لم يخلق هو ولا بنوه ، لأن ذلك خير له ولهم :

خَيْرٌ لِآدَمَ والخَلْقِ الذي خَرَجُوا مِنْ ظَهْرِهِ أَنْ يَكُونُوا قَبْلُ مَا خُلِقُوا[٤]

وتمنّى لحواء أن تكون عقيما ، كما تمنّى لآدم ولشيث ولأعقابه أن يثكلوا بنيهم :

فَلَيْتَ حَوَّاءَ عَقِيمٌ غَدَتْ لاَ تَلِدُ النَّاسَ ولاَ تَحْبَلُ[٥]

وَلَيْتَ شِيثاً وَأَبَانَا الذي جَاءَ بِنَا أَهْبَلَهُ المُهْبِلُ

(١) اللزوميات « ص ٢٩٤ .
(٢) « « ص ٣٠٣ .
(٣) « « ص ٣٠٠ .
(٤) « « ص ٣٠٠ .
(٥) انظر ما سبق ص ١٣٥٦ .

وتمنى أن يكون آدم طلّق حواء ، أو ظاهر منها ، لئلا تلد هؤلاء :

يَا لَيْتَ آدَمَ كَانَ طَلَّقَ أُمَّهُمْ   أَوْ كَانَ حَرَّمَهَا عَلَيْهِ ظِهَارُ (١)

وَلَدَتْهُمُ فِي غَيْرِ طُهْرٍ عَارِكاً   فَلِذَاكَ تُفْقَدُ فِيهِمُ الأَطْهَارُ

وتمنّى أن يأتي طوفان يغسل الأرض ويطهرها من البشر :

هَلْ يَغْسِلُ النَّاسَ عَنْ وَجْهِ الثَّرَى مَطَرٌ .

فَمَا بَقُوا لَمْ يُفَارِقْ وَجْهَهَا دَنَسٌ (٢)

وَالأَرْضُ لَيْسَ بِمَرْجُوٍّ طَهَارَتُهَا   إِلاَّ إِذَا زَالَ عَنْ آفَاقِهَا الأَنَسُ

. . . .

وَالأَرْضُ لِلطُّوفَانِ مُشْتَاقَةٌ (٣)   لَعَلَّهَا مِنْ دَرَنٍ تُغْسَلُ

وعلى هذا النحو تحمل أبياته الباقية التي تشتمل على مثل ما تشتمل عليه هذه الأبيات .

وأما الثاني : فهو ما يتعلق بالزواج والمرأة والنسل .

كان أبو العلاء شديد الحرص على تقويم الإنسان وتهذيبه كما ذكرنا . ولكنه رأى في سبيل ذلك عقباتٍ لا يمكن ارتقاؤها ، وصعاباً يستحيل تذليلها ؛ أقلها مغالبة الطبيعة ، ومحاربة الفطرة . ففكر ملياً فيما يصنع ، فرأى خير وسيلة لإصلاح هذا البشر إبادته ، واستئصال شأفته ، وتطهير الأرض من أدناسه . وهذا لا يتأتّى إلا بأحد أمرين : إما قوة تفوق

---

(١) اللزوميات هـ ص ١٣١ ، وعركت المرأة تعرك : حاضت (ج) . والظهار : أن يقول الرجل لامرأته أنتِ عليّ كظهر أمي ، فتحرم عليه .
(٢) اللزوميات هـ ص ٢٩٢ وفيها : « . . . فما بقوا لم يبارح وجهه دنس » .
(٣) « « ص ٢٠١ .

قوة البشر وتتغلب عليهم ؛ وهذا لا سبيل إليه ، لأنه ضعيف عاجز . وإما قطع النسل المؤدي إلى انقراض البشر ومحوه من صحيفة الوجود . وهذا أيضاً ليس بالسهل ، وإن ظن أنه سهل ؛ لأنه يتوقف على كره المرأة والنسل ، وكلاهما جبلت النفوس على حبه ؛ لأن المرأة أفضل متعة للنفوس الحيوانية وزهرة الحياة . والولد ثمرة الحياة وفلذة الكبد ، وقلما يجد الإنسان نفساً تزهد في أحدهما أو في كليهما .

ولكن أبا العلاء حاول الوصول إلى غايته هذه ، وسلك إليها سبلاً مختلفة ؛ أبان فيها عن براعة فائقة ، وعبقرية فذة ، وقدرة على التصرف في فنون القول ، وفي أساليبه الساحرة .

المرأة :

وأول ما عمد إليه من ذلك ، التحذير من المرأة ، والتنفير منها ، وتعداد مثالبها ومصائبها ، والتحذير من كيدها وفتنتها . ولقد أسرف في سوء الظن بها إلى أبعد غاية ، وافتنّ في تشبيهها بما ينفر منها ؛ فجعلها مرة أفعى في مثل قوله :

عَرُوسُكَ أَفْعَى فَهَبْ قُرْبَهَا وَخَفْ مِنْ سَلِيلِكَ فَهْوَ الحَنَشْ[1]

• • •

وَإِنَّمَا الخَوْدُ في مَسَارِبِهَا كَرُبَّةِ السُّمِّ في تَسَرُّبِهَا[2]

---

(١) اللزوميات ٥ ص ٣٢٩ . وهب : فعل أمر من هابه أي خافه .

(٢) « » ص ٥٣ . والخود : المرأة الناعمة ، وربة السم : الأفعى .

وجعلها ثانيةً أسداً فاتكاً في مثل قوله :

تَوَقَّوْا سَبِيلَ الغَانِيَاتِ فَإِنَّهَا ... كَلَيْثِ الشَّرَى والطِّيبُ فِيهَا فَرَانِقُ[١]

• • •

خِدْرُ العَرُوسِ وإِنْ كَانَتْ مُحَبَّبَةً ... أَدْهَى وأَفْتَكُ مِنْ عِرِّيسَةِ الأَسَدِ[٢]

وجعلها ثالثةً مضيعة للشرف في مثل قوله :

أَلاَ إِنَّ النِّسَاءَ حِبَالُ غَيٍّ ... بِهِنَّ يُضَيَّعُ الشَّرَفُ التَّلِيدُ[٣]

وجعلها رابعةً علم ضلال ، وفارس فتنة في مثل قوله :

فَوَارِسُ فِتْنَةٍ أَعْلاَمُ غَيٍّ ... لَقِينَكَ بِالأَسَاوِرِ مُعْلَمَاتِ[٤]

وهكذا نعتها بنعوت من شأنها أن تنفر منهـا ، وتحمل على الخوف عليها ومنها .

افراطه في الغيرة على المرأة ، سبب افراطه في سوء الظن بها :

كان أبو العلاء مفرطاً في الغيرة على المرأة ، بقدر ما كان مفرطاً في سوء الظن بها والريبة في أمرها ، لما كان يسمعه ويعلمه من حالها وحال الرجل في عصره ؛ حتى حمله ذلك على أن يعتقد أن بعض الفروض الدينية لا تجب عليها ،

---

(١) اللزوميات هـ ص ٢٩٩ وفيها « ... الثانيات فـكلها .. » . والفرانق : سبع يصحبه ابن آوى يقال له الوصوع يصيح بين يدي الأسد كأنه ينذر الناس به (ج)

(٢) اللزوميات هـ ص ١٠٩ . وعريسة الأسد : مأواه .

(٣) « « ص ٩٧ .

(٤) « « ص ٦٨ .

وبعض السنن لا تطلب منها ، لما يترتب على ذلك من الفتن . فهو لا يرى الحج فرضاً عليها ، حذراً من أشرار مكة فيقول :

أَقِيمِي لاَ أُعِدُّ الحَجَّ فَرْضاً   عَلى عُجُزِ النِّسَاءِ وَلاَ العَذَارَى[(١)]
فَفِي بَطْحَاءِ مَكَّةَ شَرُّ قَوْمٍ   وَلَيْسُوا بِالحُمَاةِ وَلاَ الغَيَارَى

ويقول :

وَلَكِنْ جَاءَاتِ الجَمَرَاتِ تَرْمِي   وَأَبْصَارُ الغُوَاةِ إِلَى يَدَيْهَا[(٢)]
وَلَيْسَ مُحَمَّدٌ فِيمَا أَتَتْهُ   وَلاَ اللهُ القَدِيرُ بِمُحْمِدَيْهَا

ويرى صلاة المرأة في بيتها أفضل من صلاتها في المسجد ، لخلوه من الريبة والتعرض لأهل الريبة ، فيقول :

إِذَا مَا رَامَتِ الصَّلَوَاتِ خَوْدٌ   فَكِنُّ البَيْتِ أَفْضَلُ مَسْجِدَيْهَا[(٢)]

وليس الرجل في اعتقاده أحسن حالاً من المرأة ؛ بل هما غصنا شجرة ، وجناحا طائر ، وفرسا رهان يتباريان في الفتنة والشر ؛ فهو يخاف من الرجل على المرأة ، بقدر ما يخاف على الرجل منها ؛ لأن الطينة واحدة ، والطبع واحد ، فهي تغويه كما يغويها ، كما يشعر بذلك قوله :

إِذَا أُمِنْتَ عَلَى مَالٍ أَخَا ثِقَةٍ   فَاحْذَرْ أَخَاكَ وَلاَ تَأْمَنْ عَلَى الحُرَمِ[(٣)]
فَالطَّبْعُ فِي كُلِّ جِيلٍ طَبْعُ مَلاَمَةٍ   وَلَيْسَ فِي الطَّبْعِ مَجْبُولٌ عَلَى الكَرَمِ

---

(١) اللزوميات هـ ص ٢٨ .
(٢) « « ص ٣٣٩ .
(٣) « « ص ٢٤٩

وقوله :

إذَا بَلَغَ الوَلِيدُ لَدَيْكَ عَشْراً … فَلاَ يَدْخُلْ عَلَى الحُرَمِ الوَلِيدُ[١]

فَإِنْ خَالَفْتَنِي وَعَصَيْتَ نُصْحِي … فَأَنْتَ وَإِنْ رُزِقْتَ غِنًى بَلِيدُ

أَلاَ إِنَّ النِّسَاءَ حِبَالُ غَيٍّ … بِهِنَّ يُضَيَّعُ الشَّرَفُ التَّلِيدُ

وعلى هذه القاعدة نهى عن ذهابها إلى الحمام ، لأنها ربما استأذنت في الخروج إليها :

وَهَمُّهَا فِي أُمُورٍ لَوْ يُطَاوِعُهَا … كِسْرَى عَلَيْهَا لَشِينَ المُلْكُ وَالتَّاجُ[٢]

وأمر بضربها إذا خرجت إلى العرّاف أو المنجم ، وأبدت زينتها حيث قال :

إذَا ابْتَكَرَتْ إلَى العَرَّافِ فَاعْرِفْ … مَكَانَ عَصاً تَصُكُّ بِهَا قَرَاهَا[٣]

وَسَاوِرْهَا إذَا أَبْدَتْ سِوَاراً … وَبَارِئْهَا مَتَى كَشَفَتْ بُرَاهَا

وَحَذِّرْهَا الْمُنَجِّمَ فَهْوَ ذِئْبٌ … تُشَوِّقُهُ الضَّوَائِنُ أَنْ يَرَاهَا

فَإِنْ هِيَ لَمْ تُجِبْهُ إلَى قَبِيحٍ … تَحَلَّبَهَا الْمَنَافِعَ وَامْتَرَاهَا

---

(١) اللزوميات ٥ ص ٩٧ وفيها : « فإن خالفتني وأضعت نصحي . . . »

(٢) « « ص ٧٤ .

(٣) اللزوميات ٥ ص ٣٣٧ . ، وفي الأصل : « .. تصك به » .. وصك : ضرب ضرباً شديداً . القرى : الظهر . ساوره : واثبه . وبارأ المرأة : فارقها . والبرى : مفردها بُرَة وهو الخلخال . والضوائن : الغنم ، وامترى : الناقة : احلبها .

وآثر تعليمها الغزل والنسج ، على تعليمها القراءة والكتابة :

عَلّمُوهُنّ الغَزْلَ والنسْجَ والرّدْ نَ وَخلُّوا كِتَابَةً وَقِرَاءه[(1)]
فَصَلاةُ الفَتَاةِ بِالحَمْدِ والإخْـــلاصِ تُغْني عَنْ يُونُسٍ وَبَرَاءه

والسبب في ذلك التشدد فيما يراه أن المرأة بطبيعتها كالسهم القاتل ، والتعليم كالسم لها ، لأنه يبصّرها بما لم تكن تراه ؛ ويدلها على ما لم تكن تعلمه من طرق الشر وأبواب الفتن . كما يشير إليه قوله :

وَلاَ تَحْمَدْ حِسَانَكَ إنْ تَوَافَتْ بِأيدٍ لِلسُّطُورِ مُقَوِّمَاتِ[(2)]
فَحَمْلُ مَغَازِلِ النّسْوَانِ أوْلَى بِهِنّ مِنَ اليَرَاعِ مُقَلَّمَاتِ
سِهَامٌ إنْ عَرَفْنَ كِتَابَ لِسْنٍ رَجَعْنَ بِمَا يَسُوءُ مُسَمَّمَاتِ

وإذا لم يكن بد من تعليم الفتاة التلاوة ، فليكن تعليمها من عجوز هرمة تقية ، لا من فتاة فتنتها فتية ، ولا من رجل شاب ، أو كهل أو شيخ فيه بقية تخشى معرتها وإن كان أعمى ، لأن الطبيعة بصيرة ؛ إلا إذا بلغ من الكبر عتيًا . وهذا ما أشار إليه بقوله :

لِيَأْخُذْنَ التّلاوَةَ عَنْ عَجُوزٍ مِنَ اللاّئِي فَغَرْنَ مُهَتَّمَاتِ[(3)]
يُسَبّحْنَ المَلِيكَ بِكُلّ جُنْحٍ وَيَرْكَعْنَ الضّحَى مُتَأثِّمَاتِ

---

(١) اللزوميات ﻫ ص ٢٥ . والردن بسكون ثانيه : نضد المتاع ، وردنت المرأة : غزلت على المردن وهو المغزل .

(٢) اللزوميات ﻫ ص ٦٩ واللسن بكسر فسكون : الكلام واللغة .

(٣) المصدر السابق . ومهتمات : من هتم فاه أي ألقى مقدم أسنانه .

فَمَا عَيْبٌ عَلَى الفَتَيَاتِ لَحْنٌ   إذَا قُلْنَ المُرَادَ مُتَرْجِمَاتِ
وَلَا يُدْنَيْنَ مِنْ رَجُلٍ ضَرِيرٍ   يُلَقِّنُهُنَّ آياً مُحْكَمَاتِ
سِوَى مَنْ كَانَ مُرْتَعِشاً يَدَاهُ   وَلِمَّتُـــــهُ مِنَ المُتَثَغِّمَاتِ(١)

وقد أتى في هذه القصيدة التي منها هذه الأبيات بما لم يأت به غيره . ووصف حال المرأة وصفاً وافيا ، واستشف ما كمن في نفسها من الأهواء والنزعات ، وبيّن المواطن التي يخاف منها أن تنفصم عرى العفاف ، وتكون المرأة عرضة للخطر ؛ وذكر أثر التسليم عليها وتزينها ، وأثر الخمرة ، والجارات ، والذهاب إلى المصلى ، وإتيان المنجم ، والمزمّم ، وشهود الأعراس ، وأثر الشباب والغنى في نفسها . وبيّن ضرورة تزويجها ، وما يترتب على تعدد الزوجات ، وزواج الشيخ المقلّ بالشابة . ونحو ذلك مما يدل على أنه درس أحوال المرأة في عصره درساً متقنا ، واستقرى من أخلاقها وطباعها شيئاً كثيراً كما قال فيها :

فَهَذَا قَوْلُ مُخْتَبِرٍ شَفِيقٍ   وَنُصْحٌ لِلْحَيَـــاةِ وللْمَمَاتِ(٢)

ويمكن أن يلخص رأيه في المرأة بهذه الأبيات :

بَدْءُ السَّعَادَةِ أنْ لَمْ تُخْلَقِ امْرَأَةٌ   فَهَلْ تَوَدُّ جُمَادَى أنَّهَا رَجَبُ(٣)

• • •

---

(١) متثغمات : من الثغام وهو نبت أبيض يشبه به الشيب .

(٢) اللزوميات ﻫ ص ٦٩ .

(٣) » » ص ٣٢ . وقريب من قول المعري مايقوله اليهودي الاشكنازي في صلاة الصباح كل يوم : حمداً لك أيها الرب . . الذي لم يخلقني امرأة . أما اليهودية فتقول : حمداً لك أيها الرب . . . . الذي خلقني وفق مشيئته .

وَمَا الغَوَانِي الغَوَادِي في مَلاعِبِها إلاّ خَيالاتُ وَقتٍ أشْبَهَتْ لُعَبا[1]

. . .

إنْ صَحَّ عَقْلُكَ فَالتَّفَرُّدُ نِعْمَةٌ وَنَوى الأوَانِسِ غَايَةُ الإينَاسِ[2]

النسل

كُرْه أبي العلاء المرأةَ والنسل ، وافتنانه في ذمها والتنفير منها ، أظهر لنا صوراً رائعة ، ومعانيَ مبتكرة ، سد بها ثلمة في الأدب العربي لم يستطع المتقدمون قبله أن يسدوها ، ولا عرف للحكماء والأدباء مثلها .

فهو يعتقد أن الانسان يقدم على الزواج بدافع طبيعي ، تزينه له العادة ، ولم يسُقه إليه العقل ، كما يتثاءب الإنسان من غير قصد ولا اختيار إذا رأى غيره يتثاءب . أما هو فقد استطاع أن يغلب عقله على طبيعته ، فلم يتأثر بتلك العدوى كما يشعر بذلك قوله :

تَوَاصَلَ حَبْلُ النَّسْلِ مَا بَيْنَ آدَمٍ وَبَيْني وَلَمْ يُوصَلْ بِلامِي بَاءُ[3]

تَثَاءبَ عَمْرٌو إذْ تَثَاءبَ خَالِدٌ بِعَدْوَى فَمَا أعْدَتْنِيَ الثُّوبَاءُ

ويعتقد أن الناس لو نظروا إلى الدنيا بعين العقل كما نظر إليها ، لأعرضوا عما فيها من زينة البنين والنساء وغيرهما .

لَوَ انّ كُلَّ نُفُوسِ النَّاسِ رَائِيَةٌ كَرَأْيِ نَفْسِي تَنَاءتْ عَنْ خَزَايَاهَا[4]

وَعَطَّلُوا هَذِهِ الدُّنْيَا فَمَا وَلَدُوا وَلا اقْتَنَوْا وَاسْتَرَاحُوا مِنْ رَزَايَاهَا

---

(١) اللزوميات هـ ص ٢٩ .

(٢) « « ص ٣٠٢ ، والنوى : البعد .

(٣) « « ص ٢٠ .

(٤) « « ص ٣٣٧ .

والعاقل يفكر قبل الإقدام على الشيء فيما يجلبه من خير وشر ، وفيما يترتب عليه من نفع وضر .

والأب لو فكر قبل النسل فيما يحتوش وليده من خطوب وأوصاب تلازمه من المهد إلى اللحد ، ولا يردها عنه العرافون ولا النذور ، ولا يدفعها الأطباء ولا الراقون ؛ وهو لا يستطيع أن يجلب له نفعا ، ولا أن يدفع عنه ضرا ، لأمسك عن النسل ، وكفى نفسه مؤونة السهر ، وعناء التربية والمداواة ، ومضض الألم إذا شكا ولده . ثم هو بعد ذلك كله ينشئه للأسقام والآلام ، ويربيه للموت ، وإلى هذا يشير قوله :

أَلاَ تَفَكَّرْتَ قَبْلَ النَّسْلِ فِي زَمَنٍ ... بِهِ حَلَلْتَ فَتَدْرِي أَيْنَ تُلْقِيهِ(١)

تَرْجُو لَهُ مِنْ نَعِيمِ الدَّهْرِ مُمْتَنِعاً ... وَمَا عَلِمْتَ بِأَنَّ العَيْشَ يُشْقِيهِ

شَكَا الأَذَى فَسَهِرْتَ اللَّيْلَ وَابْتَكَرَتْ ... بِهِ الفَتَاةُ إِلَى شَمْطَاءَ تَرْقِيهِ

وَأُمُّهُ تَسْأَلُ العَرَّافَ قَاضِيَةً ... عَنْهُ النُّذُورَ لَعَلَّ اللهَ يُبْقِيهِ

وَأَنْتَ أَرْشَدُ مِنْهَا حِينَ تَحْمِلُهُ ... إِلَى الطَّبِيبِ يُدَاوِيهِ وَيَسْقِيهِ

وَلَوْ رَقَى الطِّفْلَ عِيسَى أَوْ أُعِيدَ لَهُ ... بُقْرَاطُ مَا كَانَ مِنْ مَوْتٍ يُوَقِّيهِ

ولو تفكر العاقل فيما يجلبه الأبناء لآبائهم من الشر ، وما يضمرونه لهم من الخديعة والحسد ، هان عليه بنوه ورغب عن النسل ؛ إذ يتبين له

---

(١) اللزوميات ٥ ص ٣٤٠ .

أن الولد حَنَتَشٌ يفتك بوالديه ، ونار تحرق العود الذي خرجت منه ، وعبء ثقيل على أبيه ، وأعدى عدو له ، ومجلبة للحزن والبخل والعار ، وليس الذكر خيراً من الأنثى في شيء من هذا كله . وهذه جملة من كلامه تشير إلى بعض ما ذكرناه ، وسيأتي ما يشير إلى الباقي :

أرَى وَلَدَ الفَتَى عِبْئاً عَلَيْهِ ... لَقَدْ سَعِدَ الذي أمْسَى عَقِيما(١)

أمَا شَاهَدْتَ كُلَّ أبي وَلِيدٍ ... يَؤُمُّ طَرِيقَ حَتْفٍ مُسْتَقِيما

فَإمّا أن يُرَبّيَهُ عَــدُوّاً ... وَإمّا أنْ يُخَلِّفَهُ سَقِيما

• • •

أعْدَى عَدُوٍّ لابْنِ آدَمَ نَفْسُهُ ... ثُمَّ ابْنُهُ وافَاهُ يَهْدِمُ مَا بَنَى(٢)

هَاتِيكَ تَأمُرُهُ بِكُلِّ قَبِيحَةٍ ... وَدَعَاهُ ذَاكَ لأنْ يَضِنَّ وَيَجْبُنَا

يشير إلى الحديث الشريف : « الولد ثمرة القلب ، وانه مجبنة مبخلة محزنة (٣) » وقد جاء في القرآن الكريم : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوّاً لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾(٤) وجاء فيه أيضا : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾(٥) وجاء في الحديث الشريف : « ليس عدوك الذي إن قتلته كانَ لك نوراً وإن قتلكَ دخلتَ

---

(١) اللزوميات ٢ ص ٢٤٢ ـ ٣ وفي الأصل : « . . . وإما أن يريه سليا » .

(٢) « « ص ٢٦٩ .

(٣) رواه عبد الرزاق والبزار وأحد رواته ضعيف (ج) .

(٤) سورة التغابن ٦٤ آية ١٤ (ج) .

(٥) سورة التغابن ٦٤ آية ١٥ (ج) .

الجنة ، ولكن أعدى عدوٍّ لك ولدك الذي خرج من صُلْبِك ثم أعدى عدوٍّ لك مالك الذي ملكت يمينك »[١] . وفي هذا يقول أبو العلاء :

أَعدَى عَدُوٍّ لِابنِ آدَمَ خِلْتُهُ ... وَلَدٌ يَكُونُ خُرُوجُهُ مِنْ ظَهْرِهِ[٢]

تكريم الأولاد

إذا أعمل الإنسان فكره ، وأمعن في استقراء أحوال الإنسان في هذه الدنيا ، تبين له أن الإنسان يصاحب في حياته كلها أنواعاً من البلاء والشقاء ، وأصنافاً من المحن والمهانة والعناء ؛ فلا يكاد يخلص من واحدة منها حتى يلم به مثلها أو أشد منها . والعاقل يعلم أن بنيه يكابدون من تلك المحن ما يكابده غيرهم . فإذا أراد كرامة أبنائه وإراحتهم من هذا العناء المنتهي بالفناء ، فعليه أن لا يخرجهم إلى هذا الوجود المحفوف بالشقاء والمكاره . وهذا ما يريده أبو العلاء بقوله :

وَإِذَا أَرَدْتُمْ لِلْبَنِينَ كَرَامَةً ... فَالحَزْمُ أَجْمَعُ تَرْكُهُمْ فِي الأَظْهُرِ[٣]

حض على النسل

وأبو العلاء على تشدده في منع النسل والابتعاد عن أسبابه ، لا يرى به بأساً إذا كان الإنسان يحرص على أن يخلد ذكراً من بعده ، أو يريد أن

---

(١) رواه الطبراني وأحد رواته ضعيف (ج) .
(٢) اللزوميات ﻫ ص ١٥٨ .
(٣) « « ص ١٥٧ .

يستعين بأحدهم على قضاء حقوقه . بل يرى النسل أولى بذلك من غيره ، بشرط أن يسلك في تحصيله سبيل العقل . وهذا ما يريده بقوله :

دُنْيَاكَ دَارٌ كُلُّ سَاكِنِهَا مُتَوَقِّعٌ سَبَباً مِنَ النَّقْلِ(١)
وَالنَّسْلُ أَفْضَلُ مَا فَعَلْتَ بِهَا فَإِذَا سَعَيْتَ لَهُ فَعَنْ عَقْلِ

وليس هذا من باب المناقضة لأقواله وآرائه في النسل ، وإنما هو من باب : « الضرورات تبيح المحظورات » أو من باب : « تداوي شارب السم بالسم » .

رأيه في الزواج

كره أبو العلاء المرأة ، وكرّهها إلى الناس . وزهد في النسل وزهّد فيه كما رأينا ، وكما سنرى في أقواله . ومن كانت هذه سبيله ، فمن الطبيعي أن يكره الزواج ، لأنه قائم على المرأة لا يكون إلا بها . وقد يكون مُفْضياً إلى النسل ، فهو حلقة واصلة بين مكروهين . ولذلك كرهه أبو العلاء ، وفضل الخصاء على زواج الحرة فضلاً عن غيرها . وجعل صحيفة المهر مثل صحيفة المتلمّس في شؤمها . وذلك حيث يقول :

خِصَاؤُكَ خَيْرٌ مِنْ زَوَاجِكَ حُرَّةً فَكَيْفَ إِذَا أَصْبَحْتَ زَوْجاً لِمُومِسِ(٢)
وَإِنَّ كِتَابَ الْمَهْرِ فِيمَا تَمَسَّنَهُ نَظِيرُ كِتَابِ الشَّاعِرِ الْمُتَلَمِّسِ(٣)

---

(١) اللزوميات ﻫ ص ٢٢٢ وفي الأصل : « والنسل أفضل ما فعلت به . . . » .

(٢) اللزوميات ﻫ ص ٢٩٨ . والموس : الفاجرة (ج) .

(٣) المتلمس : جرير بن عبد الله من ضبيعة بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان ، شاعر جاهلي مقل مفلق . كان هو وابن أخته طرفة بن العبد ينادمان عمرو بن هند ملك الحيرة ، ثم هجواه فكتب لهما كتابين إلى عامل البحرين يأمره بقتلهما ، وقال —

فَلاَ تُشْهِدَنْ فِيهِ الشُّهُودَ وأَلْـقِهِ إِلَـيْهِمْ وَعُدْ كَالعَائِرِ الْمُتَشَمِّسِ

ويعتقد أن الرجل أو المرأة لو كانا موفقين لم يجمع بينهما الزواج :

لَوْ وُفِّقَ المَرْءُ لَمْ يَنْهَضْ إِلى امْرَأَةٍ أَوِ الغَرِيرَةُ لَمْ تُزْفَفْ إِلى رَجُلِ (١)

وقد تفنن في التنفير من العروس ، ونعتها بنعوت مختلفة ، فجعلها مرة أفعى كما تقدم ، ومرة جعلها مساوية للسعلاة :

سَعَى لِي والِدَايَ بِغَيْرِ لُبٍّ وَسِيَّانِ العَرَائِسُ والسَّعالِي (٢)

ولا فرق عنده بين البكر والأيم :

تَوَقَّ النِّسَاءَ عَلَى عِفَّــةٍ لِيَجْزِيَكَ الوَاحِــدُ القَيِّمُ (٣)

فَأَبْكَارُهُنَّ ابْتِكَارُ البَلاَ وَأَيِّمُهُــنَّ هِيَ الأَيِّمُ

— لها : إني كتبت لكما بصلة فاذهبا لتقبضاها . فلما كانا ببعض الطريق ، رأى المتلمس غلاما ، فدفع صحيفته إليه وقال له : اقرأها فقرأها ، فإذا فيها يأمر عامله بقطع يدي المتلمس ورجليه ودفنه حيا ، فقال لطرفة : إن لي صحيفتك مثلها في صحيفتي ، فأبى أن يقرأها وذهب الى العامل فقتله . أما المتلمس فقد هرب إلى بني جفنة ملوك الشام ، وهجا عمرو بن هند ، وصارت صحيفته مثلاً لمن يحصل له الضرر من جهة النفع قال الفرزدق :

ألقِ الصحيفةَ يافرزدقُ لا تكن نكداءَ مثلَ صحيفةِ المتلمس (ج)

(١) اللزوميات ﻫ ص ٢١٤ ، ونهض إليه : ارتاح وخف . والغر والغرير : الشاب الذي لم يجرب الأمور .

(٢) اللزوميات ﻫ ص ٢١٧ ، والسعالي : مفردها السعلاة والسعلاء بكسر أولهما : الغول أو ساحرة الجن .

(٣) اللزوميات ﻫ ص ٢٣٧ .

الأيم في الأصل : التي لا زوج لها ، بكراً كانت أو ثيّبا . والمراد هنا الثيب ، كما في الحديث الشريف « الأيم أحق بنفسها » والأيم الثانية : هي الحية الأبيض أو كل حية ، ولذلك ينهى عن الزواج مطلقاً وعن الإيلام له :

وَلاَ يَدْنُوَنَّ الفَتَى لِعِرْسٍ وَلاَ يُومِ[1]
فإنْ ظَهَرَتْ زَلّتي فَقُلْ لِرَفِيقِي لُمِ

ويرى العرس كالمأتم :

ونحنُ في غيرِ شيءٍ والبقاءُ جرى مجرى الرّدى ونظيرُ المأتمِ العُرُسُ[2]

والموتَ خيراً للمرأة من العرس :

إنّ العرائسَ أنْ تَزُورَ قُبورَها خيرٌ لها مِنْ أنْ يُقالَ عرائسُ[3]
كَمْ نَالَ قبلَكَ في طعامِكَ مِن يدٍ نَصَبٌ إلى أنْ لاسَ قُوتَكَ لائسُ

اللوس : الذوق والأكل القليل .

وكثيراً ما صرح بالنهي عن الزواج في مثل قوله :

أيا سارحاً في الجَوّ دُنياكَ مَعْدِنٌ يَفُورُ بشرٍّ فابغِ في غيرِها وَكْرا[4]
فإنْ أنتَ لم تَمْلِكْ وَشيكَ فِراقِها فَعِفَّ ولا تَنْكِحْ عَواناً ولا بِكْرا
وألْقاكَ فيها والِداكَ فلا تَضَعْ بها ولداً يَلْقَى الشدائدَ والنُّكْرا

---

(١) اللزوميات هـ ص ٢٥٦ . وأولم يولم ايلاماً : أقام وليمة .
(٢) « « ص ٢٩٣ .
(٣) « « ص ٢٩٥ .
(٤) « « ص ١٣٥ .

نسبة المزدكية اليه وميله الى الاشتراكية في النساء :

قال صاحب الذكرى : « وذلك ـ أي رأيه في الزواج أو نهيه عنه أو كلاهما ـ جاءه من سوء ظنه بالنساء ، واعتقاده أن العفة والإحصان فيهن نادرة . ولعل هذا الرأي هو المزدكية التي أشار إليها الذهبي في ترجمة أبي العلاء ، ونسب شيئاً منها إلى (رسالة الغفران) لاشتمال هذه الرسالة على ألوان من إباحة القرامطة ، يرويها رواية الساخط عليها . وفي (اللزوميات) ما يؤيد ميل أبي العلاء في بعض أطواره إلى الاشتراكية في النساء ، فهو لا يفرق في حكم العقل بين ابن الحرة وابن الزانية . فيقول :

وَسِيَّــانِ مَنْ أُمُّهُ حُرَّةٌ حَصَانٌ وَمَنْ أُمُّهُ زَانِيَهْ[1]

ويقول :

مَا مَيَّزَ الأَطْفَالَ في أَشْبَاحِهَا لِلْعَيْنِ حِلٌّ وِلاَدَةٍ وعِهَارُ[2]

وسترى أن مذهب أبي العلاء في الأخلاق لا ينافي هذا الرأي » . . . الى آخر كلامه في (تجديده ص ٣٠١) .[3] وهذا كلام غريب جدا ، لأن مذهب المزدكية يأمر بتناول اللذات ، والعكوف على الشهوات ، ويبيح الاشتراك في النساء والأموال ، وإذا أضافوا الإنسان لم يمنعوه من شيء يلتمسه كائناً ما كان [4] . وأبو العلاء يخالف في ذلك كله ، فإنه يزهد في اللذات ،

---

(١) لم يعثر على هذا البيت في لزوميات المعري . وانظر ما بعد ص ١٥٦٠ .

(٢) اللزوميات هـ ص ١٣١ .

(٣) وانظر ذكرى أبي العلاء ـ طه حسين ـ ط ٢ ص ٣٧٦ .

(٤) راجع الفهرست ص ١٧٩ ، والملل والنحل ص ١٤٦ (ج) .

ويحض على التشدد في حجاب المرأة ، ويحظر عليها الخروج إلى الحج والصلاة والحمام والمنجم ، ونحو ذلك مما لم يبلغ معشاره أعظم متشدد أو ذو غيرة ؟ فهل يكون من المعقول بعد هذا أن يبيح المرأة فيما لا يحل ، وهو يحرم عليها الجلوس مع ابن زوجها وختنها حيث يقول :

لا تَجلِسَنْ حُرَّةٌ مُوَفَّقَةٌ مَعَ ابْنِ زَوْجٍ لَهَا وَلاَ خَتَنِ[1]
فَذَاكَ خَيْرٌ لَهَا وأَسْلَمُ لِلْـــإِنْسَانِ إِنَّ الفَتَى مَعَ الفِتَنِ
وَدُمْ عَلَى غِيرَةِ الصِّبَا أَبَداً وَلاَ تَعُدْ في الشَّرَابِ ثُمَّ تَنِي

وينهى عن دخول الوليد على الحرم متى بلغ العشر كما تقدم في قوله :

إِذَا بَلَغَ الوَلِيدُ لَدَيْكَ عَشْراً فَلاَ يَدْخُلْ عَلَى الحُرَمِ الوَلِيدُ[2]

ويكره أن يغني الندامى في بيت فيه زوجة فيقول :

لَعَمْرُكَ مَا زَوْجُ الفَتَاةِ بِحَازِمٍ إِذَا مَا النَّدَامَى في مَحَلَّتِهِ غَنَّوْا[3]
أَتَى بَيْتَهُ بِالرَّاحِ وَالشَّرْبِ لاَهِياً فَإِمَّا رَنَوْا نَحْوَ الظَّعِينَةِ أَوْ زَنَّوْا

وكيف يتأتى ممن يخاف أن يرنو أصحابه إلى الظعينة أن يأمرهم باستباحة عرضها ؟ . أو كيف يتصور العقل ممن يتشدد في كل ما يخاف منه الفتنة أن يأمر بالفتنة نفسها ؟ ولو أن أبا العلاء يذهب إلى الإباحة والاشتراك في المرأة ، ما ضيق عليها الخناق إلى هذا الحد .

---

(١) اللزوميات هـ ص ٢٨١ وفيها : « .. ولا تعد في العباب ثم تني » .

(٢) انظر ماسبق ص ١٥٤٧ .

(٣) زنى : بتشديد النون بمعنى زنى بتخفيفها (ج) وانظر اللزوميات هـ ص ٣٤٢ .

النساء المشاعات

ومن استقرى كلامه في المرأة يجد فيه تصريحاً بذم النساء المشاعات . كما ترى ذلك في قوله :

شَرُّ النِّسَاءِ مُشَاعَاتٌ غَدَوْنَ سُدًى   كَالأَرْضِ يَحْمِلْنَ أَوْلاَداً مَشَاعِينَا (١)

النساء اللاتي ليس لهن مهور والمومس

وعدّ من اضمحلال الدين وتغيير آياته أن يعتاض قوم النكاح الحلال بنسوة مالها مهور ، كما قال من أبيات تقدمت :

وَاعْتَاضَ حِلَّ النِّكَاحِ قَوْمٌ   بِنِسْوَةٍ مَالَهَا مُهُورُ (٢)

وانظر كيف شبه المومس ومن يرتادها في مثل قوله :

مُومِسٌ كَالإِنَاءِ دَنَّسَهُ الشُّرْ   بُ وَوَغْدٌ كَأَنَّهُ الكَلْبُ وَالِغْ (٣)

دفع المرأة المهر

وإذا كان أبو العلاء يعد من انقلاب الزمان أن تدفع المرأة مهراً للزوج ، لأنه مخالف للمألوف فيقول :

قُلِبَ الزَّمَانُ فَرُبَّ خَوْدٍ تَبْتَغِي   زَوْجاً وَتَبْذُلُ غَالِياً مِنْ مَهْرِهِ (٤)

---

(١) اللزوميات ﻫ ص ٢٦٦ .
(٢) انظر ما سبق ص ١٣٢ .
(٣) اللزوميات ﻫ ص ٢٩٠ .
(٤) « « ص ١٥٨ .

وليس في ذلك مخالفة للعقل ، فهل يعقل أن يبيح المرأة ، وهـذا يخالف الدين والعقل ، ولا يتفق مع ما نعرفه في أبي العلاء من الغيرة المفرطة ؟ إن هذا لشيء عجاب . وبعد هذا فكل ما في كلامي القفطي ، وصاحب (الذكرى) خطأ ناشىء عن عدم استقراء كلام المعري ، وإمعان النظر في معانيه . أما ما يتعلق بالقرامطة ، فقد بينا بطلانه في الكلام على الأديان ، وعلى معتقده ودينه .

والبيت الأول :

وَسِـيَّانِ مَنْ أُمُّهُ حُرَّةٌ . . . .

لم أجده في (لزوم ما لا يلزم) . وأما البيت الثاني ، فقد ذكره من أبيات وقبله :

وَالنَّاسُ مِثْلُ النَّبْتِ يُظْهِرُهُ الحَيَا   وَيَكُونُ أَوَّلَ هُلْكِهِ الإِظْهَارُ[1]

تَرْعَاهُ رَاعِيَةٌ وَتَهْتِكُ بُرْدَهُ   أُخْرَى وَمِنْهُ شَقَائِقٌ وَبَهَارُ

مَا مَيَّزَ الأَطْفَالَ . . . .

وأعاد هذا المعنى بقوله :

وَلَقَدْ تَشَابَهَ فِي الظَّوَاهِرِ مَوْلِدٌ   حِلُّ النِّكَاحِ وَمَوْلِدٌ بِعِهَارِ[2]

وهو في كلا الموضعين لا يريد الإباحة ، وإنما يقول : إن الولد إذا كان لرشدة ، لا تهبه الطبيعة سمة ظاهرة تميزه من الولد إذا كان لزنية . وكذلك العكس . ولعل في قوله المتقدم :

---

(١) انظر ما سبق ص ١٥٥٧ .

(٢) انظر ما سبق ص ١٥٣٢ .

بَرِئْتُ إلى الخَلَّاقِ مِن أَهلِ مَذْهَبٍ يَرَوْنَ مِنَ الحَقِّ الإباحَةَ لِلأَهلِ [١]

برهاناً على براءته من الإباحه كما قلنا ؛ ودليلا على أن صاحب (الذكرى) حكم بغير استقراء ولا تتبع .

التناقض في أقواله في الزواج

يبدو للناظر في كلامه في الزواج أن فيه تناقضا ؛ لأنه تارة يحض عليه ، ويبين الطريق الحسن فيه ؛ وتارة ينفر منه ويزهد فيه ، ويرى الخِصاء خيراً منه ، ويمكن التوفيق بين الطرفين ، بأن يقال : إنه نفّر منه قبل وقوعه إذا لم يترتب على تركه مفسدة ؛ وحثّ عليه فيما عدا ذلك ، مراعاة للأصلح في كل حال .

عطفه على المرأة المتزوجة

عطف أبو العلاء على المرأة المتزوجة ، بقدر ما سخط عليها ، وحض على مجاملتها ومراعاة السن بينها وبين زوجها ، حتى لا تضيع الحكمة المقصودة من الزواج التي منها أو من أعظمها الإحصان والإعفاف . ونهى عن مضارّتها . وأرشد إلى من تصلح أن تكون زوجاً أكثر من غيرها . وهذه طائفة من كلامه تبين رأيه في المرأة التي يراها أهلا للزواج :

تَزَوَّجْ إنْ أرَدْتَ فَتَاةَ صِدْقٍ كَمُضْمَرِ نِعْمَ دَامَ عَلى الضَّمِيرِ [٢]

(١) اللزوميات هـ ص ٢١١ .

(٢) انظر ما سبق ص ٥٩٢ .

إذَا اطَّلَعَ الأَوَانِسُ لَمْ تَطَلَّعْ ... إلى عِرْسٍ يَمُرُّ وَلاَ أَمِيرِ

. . .

وَخَيْرُ النِّسَاءِ الحَامِيَاتُ نُفُوسَهَا ... مِنَ العَارِ قَبْلَ الخَيْلِ تَحْمِي ذِمَارَهَا[١]

. . .

إذَا شِئْتَ يَوْماً أَنْ تُقَارِنَ حُرَّةً ... مِنَ النَّاسِ فَاخْتَرْ قَوْمَهَا وَنِجَارَهَا[٢]

ويظهر من كلامه أنه يؤثر الجمال الباطني على الجمال الظاهر ، فيفضل الحرة العفيفة الصادقة القاصرة الطرف الكريمة ، وإن لم تكن جميلة الرواء ، حسنة المنظر ، معنة مفنة ، على ذات الجمال التي لم تتوفر فيهـا هذه الصفات ، حتى يقول :

سُقْياً لِشَوْهَاءَ مَا هَمَّتْ بِفَاحِشَةٍ ... غَدَتْ عَلَى الغَزْلِ لَيْسَتْ تَعْرِفُ الغَزَلا[٣]

وَتَجْهَلُ العُودَ إلاَّ عُودَ مِغْزَلِهَا ... وَلاَ تَرَاحُ إذَا مَا عَاتِقٌ بُزِلاَ

لأن هذه هي التي تحوط نفسها ، وتحوط زوجها كما يحوطها من كل خطب وعيب .

اختيار الأصهار

ورد في حديث رواه ابن ماجة والحاكم والبيهقي : « تخيروا لنطفكم فانكحوا الأكفاء وانكحوا إليهم » . وعلى هذا يرى أبو العلاء أن الرجل

---

(١) اللزوميات ٥ ص ١٣٩ .

(٢) المصدر السابق . والنجار : الأصل .

(٣) الشوهاء : الحسنة الرائعة والقبيحة فهو من الأضداد . (ج) وانظر اللزوميات ٥ ص ٢٠٤ . وراح للشيء يَراحُ : خف إليه وفرح . والعاتق : الخمر . وبزل الخمر والشراب : صفاه .

إذا كانت له بنت بلغت سن الزواج ، يجب عليه أن يطلب لها زوجاً يراعيها في حياتها ، ويرعى عفافها . لأن إبقاءهـا عانساً يعرضها للعار والأخطار ، وعارها يلتصق به دون غيره . أما إذا كان له ولد ذكر فيجب عليه أن يخوفه من التزويج والنسل ، حتى يأمن عليه غائلتها . وليس في إبقاء الولد بغير تزويج ما في إبقاء الأنثى من الخطر . وهـذا ما يريده بقوله :

وَاطْلُبْ لِبِنْتِكَ زَوْجاً كَيْ يُرَاعِيَهَا ... وَخَوِّفِ ابْنَكَ مِنْ نَسْلٍ وَتَزْوِيجِ (١)

ثم إنه نظر في موضع آخر ، فرأى أن الناس كلهم من طينة واحدة ، وأن طباعهم واحدة ، وأنهم أسواء في سوء الطبع . فإذا كان الأمر كذلك كان تخير الأحماء والأصهار جهلاً أو طيشاً ، لأنه لايجدي نفعاً . وأظن أنه أراد هذا بقوله :

لَوْلاَ السَّفَاهَةُ مَا تَعَلَّلَ جَاهِلٌ ... بِتَخَيُّرِ الأَحْمَاءِ وَالأَصْهَارِ (٢)

التقارب في السن مابين الزوجين

علم أبو العلاء أن من أعظم المقاصد التي شُرِع الزواج من أجلهـا إحصان الزوجين وإعفافهما ؛ وأن التفاوت الشديد بينهما في السن قد يضيع هذه الفائدة . ولذلك بالغ في الحض على التقارب ، وبيّن المفاسد التي تنجم عن التفاوت في العمر . وأورد صوراً تدل على أنه درس هذا الموضوع

(١) اللزوميات هـ ص ٧٨ .
(٢) اللزوميات هـ ص ١٦٠ .

درساً وافياً ، حتى استطاع أن يطلع على خبايا النفس في الرجل والمرأة . فالشاب إذا تزوج عجوزاً كانت حياته كلها شديدة ثقيلة مكروهة كما قال :

إِذَا أَنتَ زُوِّجتَ العَجُوزَ عَلى الصِّبَا فَأَيَّامُهَا صِنٌّ عَلَيْكَ وَصِنَّبْرُ[١]

صن ، وصنبر : هما من أيام العجوز الشديدة البرد في الشتاء .

والشابة إذا تزوجها الشيخ فهي في مأتم دائم ، وتعب مستمر ، وأقصى أمانيها أن تخلص منه ؛ لأنه لايغني غناء الشاب في الحياة الزوجية . فاسمع كيف يخبرك بما في نفس شابة منيت بشيخ ، كأنما تغلغل في نفسها وفهم نبضات قلبها :

تَزَوَّجَ الشَّيْخُ فَالْفَتَــاةُ كَأَنَّهُ مُثقِلٌ إِبْلٍ وَحِلْ[٢]
وَعِرْسُــهُ فِي تَعَبٍ دَائِمٍ لا تَخْضِبُ الكَفَّ وَلاَ تَكْتَحِلْ
مَلَّتْ وَإِنْ أَحسَنَ أَيَّامَهُ تَقُولُ فِي النَّفْسِ مَتَى يَرْتَحِلْ
لَوْ مَاتَ لاَسْتَبْدَلْتُ مِنْهُ فَتًى إِنِّي أَرَاهُ مُحْرِماً لا يُحِلْ

وهذه صورة ثانية يحدث فيها بما يجيش به صدر الشابة التي ابتليت بشيخ وإن ألجمها الحياء عن إبانته :

بَدَا شَيْبُهُ مِثْلَ النَّهَارِ وَلَمْ يَكُنْ يُشَابِهُ فَجْراً أَوْ نُجُومَ ظَلاَمِ[٣]

---

(١) اللزوميات هـ ص ١١٨ .

(٢) « « ص ٢٢٥ وفي الأصل : « كأنه مثل ابل وحل » . ووحل : أي وقع في الوحل .

(٣) اللزوميات هـ ص ٢٤٧ .

يُحَدِّثُها مَا لا تُرِيدُ اسْتِمَاعَهُ ... وَلَمْ يَبْقَ عِنْدَ الشَّيْخِ غَيْرُ كَلَامِ
تَقُولُ لَهُ فِي النفسِ غَيْرَ مُبِينَةٍ ... خُذِ المَهْرَ مِنِّي وَانْصَرِفْ بِسَلَامِ
تَوَدُّ لَوَ انَّ اللهَ أعطَاهُ حَتْفَهُ ... وَكَيفَ لَهَا مِنْ بَعْدِهِ بِغُلَامِ

وله كثير من الأبيات ، يبين فيها أن الشيخ لم يرضه أهله ، ولم يرض في أفعاله أهله ، وأبيات أخر تبين أن الشابة تؤثر في الزوج الشباب مع الفقر على الهرم مع الغنى ؛ لأن قدرة من بلغ الستين لا تساوي قدرة الشاب السائر في طريق الستين . وهي أحوج إلى شاب تباعله وتلاعبه منها إلى شيخ موسر كثر ثراؤه وقل غناؤه . منها قوله :

إذَا خَطَبَ الزَّهْرَاءَ كَهْلٌ وَنَاشِئٌ ... فَإِنَّ الصِّبَا فِيهَا شَفِيعٌ مُشَفَّعُ[(١)]
وَلاَ يُزْهِدَنَّهَا عُدْمُهُ إنْ مُدَّهُ ... لأبْرَكُ مِنْ صَاعِ الكَبِيرِ وأنْفَعُ
وَمَا لأخي سِتِّينَ قُدْرَةُ سَائِرٍ ... إليْها وَلَكِنْ عَجْزُهُ لَيسَ يدْفَعُ

وقوله :

إذَا خَطَبَ الزَّهْرَاءَ شَيْخٌ لَهُ غِنًى ... وَنَاشِئُ قَوْمٍ آثَرَتْ مَن تُعَانِقُ[(٢)]
وَقَلَّ غَنَاءٌ عَنْ فَتَاةٍ وزَوْجُها ... أخُو هَرَمٍ أحجَالُهَا والمَخَانِقُ

. . . .

---

(١) اللزوميات ه ص ٢٨١ .

(٢) « « ص ٢٩٩ وفيها : « وناهيء عدم آثرت من تعانق » . والزهراء : الشابة البيضاء المشرقة الوجه . الخرانق : الشاب التام الأبيض .

وَمَا تَسْتَوِي الأَخْدَانُ قِيمٌ هَذِهِ ... مُسِنٌ وَلِلأُخْرَى وَلِيٌّ غُرَانِق

وقوله :

كَأَنَّكَ بَعْدَ خَمْسِينَ اسْتَقَلَّتْ ... لِمَوْلِدِكَ البِنَاءُ دَنَا لِيَهْوِي

وَإِنَّكَ إِنْ تَزَوَّجْ بِنْتَ عَشْرٍ ... لأَخْيَبُ صَفْقَةً مِنْ شَيْخِ مَهْوِ (١)

وإذا كان زوج الشابة شيخاً فقيراً كانت البلية أعظم . كما يشعر بذلك قوله :

وَلا يَتَأَهَّلَنْ شَيْخٌ مُقِلٌّ ... بِمُعْصِرَةٍ مِنَ المُتَنَعِّمَاتِ (٢)

فَإِنَّ الفَقْرَ عَيْبٌ إِنْ أُضِيفَتْ ... إِلَيْهِ السِّنُّ جَاءَ بِمُعْظِمَاتِ

إلى أن قال :

وَيَغْتَفِرُ الغِنَى وَخَطاً بِرَأْسٍ ... إِذَا كَانَتْ قُوَاكَ مُسَلَّمَاتِ

---

(١) كان المَهْو لقب حي من العرب ، فجاء رجل منهم ببردي حبرة إلى سوق عكاظ فقال : من يشتري منا المهو بهذين البردين ؟ فقام شيخ من مَهْو يقال له عبد الله ابن بيذرة ، فارتدى بأحدهما وأتزر بالآخر ، وهو مشتري الفسو ببردي حبرة ، وضرب به المثل فقيل : أخيب صفقة من شيخ مهو . وأنشد :

يامن رأى كصفقة ابن بيذره ... من صفقة خاسرة مخسره

المشتري الفسو ببردي حبره (ج)

وانظر اللزوميات ﻫ ص ٣٤٢ .

(٢) اللزوميات ﻫ ص ٦٩ .

المضارّة

اشتد أبو العلاء في القسوة على المرأة من بعض الجهات ، واشتد في العطف عليها من بعض جهات أخرى . ومن الثانية مضارّتها : فقد شدد في النكير عليها ، وندد بتعداد الزوجات ، وبين مايترتب عليه من شر وضر في مثل قوله :

مَتَى تَشْرَكْ مَعَ امْرَأَةٍ سِوَاهَا   فَقَدْ أَخْطَأْتَ في الرَّأْيِ التَّرِيكِ[1]
فَلَوْ يُرْجَى مَعَ الشُّرَكَاءِ خَيْرٌ   لَمَا كَانَ الإِلٰهُ بِلا شَرِيكِ

وقوله :

وَمَنْ جَمَعَ الضَّرَّاتِ يَطْلُبُ لَذَّةً   فَقَدْ بَاتَ بالإِضْرَارِ غَيْرَ سَدِيدِ[2]

وقوله :

وَوَاحِدَةٌ كَفَتْكَ فَلاَ تَجَاوَزْ   إِلى أُخْرَى تَجِيءُ بِمُؤْلِمَاتِ[3]

ولقد أجاد وأحسن في بيان ما تقتضيه المضارة من المضار للرجل والمرأة ؛ فإنه إذا التمس امرأة جديدة لا يأمن منها ابتغاء جديد ، وروُّع بما يكره ؛ لأن النساء كالزجاج سريعات التكسر . والمرأة الواحدة عدوٌ واحد ، فإذا تعددت تعددت أعداؤه . وإليك جملة من كلامه في ذلك :

وَإِنْ أَرْغَمْتَ صَاحِبَةً بِضَرٍّ   فَأَجْدِرْ أَنْ تُرَوعَ بِمُغْرِمَاتِ[4]

---

(١) اللزوميات ه ص ١٨٩ والتريك : المتروك .

(٢) « « ص ١٠٦ وفيها : « فقد بات في الاضرار » .

(٣) اللزوميات ه ص ٦٩ .

(٤) المصدر السابق . والمرام : العدة والأذى .

زُجاجٌ إنْ رَفقتَ بِهِ وَإلاّ ... رَأيتَ ضُرُوبَهُ مُتقصّماتِ

. . .

إذا كُنتَ ذا اثنتَينِ فاغدُ مُحارباً ... عَدوَّينِ وَاحذَرْ مِنْ ثَلاثِ ضَرائِرِ (١)

وَإنْ هُنَّ أبدَينَ المَوَدَّةَ والرِّضا ... فكَمْ مِنْ حُقودٍ غُيِّبتْ في السَّرائِرِ

قِرانُكَ ما بَينَ النِّساءِ أذِيّةٌ ... لهُنَّ فَلا تَحْمِلْ أذاةَ الحَرائِرِ

وإنْ كُنتَ غِرّاً بالزّمانِ وأهلِهِ ... فتَكفيكَ إحدى الآنِساتِ الغَرائِرِ

وكان لا يريد استبدال زوج بزوج أخرى ولو كانت عجوزا :

إذَا كَانَتْ لَكَ امرَأةٌ عَجوزٌ ... فَلاَ تَأخُذْ بِها أبداً كَعَابا (٢)

فَإنْ كَانَتْ أقَلَّ بَهاءِ وَجْهٍ ... فَأجدِرْ أنْ تَكُونَ أقَلَّ عابا

وفي كلامه ما يشبه أن يكون دعوة للمرأة إلى أن تثور على زوجها ؛ من ذلك قوله :

تَزَوَّجَ بَعدَ وَاحِدَةٍ ثَلاثاً ... وَقَالَ لِعِرْسِهِ يَكفِيكِ رُبعِي (٣)

فَيُرضِيهَا إذَا قَنِعَتْ بِقُوتٍ ... وَيَرْجُمُهَا إذَا مَالَتْ لِتَبْعِ

وَمَنْ جَمعَ اثنتَينِ فَمَا تَوَخّى ... سَبيلَ الحَقِّ في خُمسٍ ورُبعِ

---

(١) اللزوميات ھ ص ١٤٨ .

(٢) اللزوميات ھ ص ٤١ .

(٣) اللزوميات ھ ص ٢٨٨ .

هو والزواج

من المعقول أن لايدنو من النساء بعد أن أرصى غيره بمثل قوله :

لاَ تَدْنُوَنَّ مِنَ النِّسَا ۞ فَإِنَّ غِبَّ الأَرْيِ مُرُّ (١)

والبَاهُ مِثْلُ البَاهِ تَخْـــفِضُ لِلدَّنَاءَةِ أَوْ تَجُرُّ

وبعد أن قال :

خِصَاؤُكَ خَيْرٌ مِنْ زَوَاجِكَ (٢) ... .

ونحوه من الأبيات التي تقدم بعضها . وقد بقي صَرُورَةً مدة حياته :

وَصَرُورَةٌ بِالمَغْنَيَيْنِ لِأَنَّنِي مُذْ كُنْتُ لَمْ أَحْجُجْ وَلَمْ أَتَزَوَّجِ (٣)

وقطع حبل النسل الذي كان متصلا بينه وبين آدم — ص — :

تَوَاصَلَ حَبْلُ النَّسْلِ مَا بَيْنَ آدَمٍ وَبَيْنِي وَلَمْ يُوصَلْ بِلاَمِيَ بَاءُ (٤)

وأعجبه دأب الرهبان في ابتعادهم عن الزواج . ولكنه كره منهم أكل الحيوان وما تولد منه ، وأكل أموال الفقراء الذين يجمعون لهم الأموال :

وَيُعْجِبُنِي دَأْبُ الذِينَ تَرَهَّبُوا سِوَى أَكْلِهِمْ كَدَّ النُّفُوسِ الشَّحَائِحِ (٥)

---

(١) اللزوميات هـ ص ١٣٣ ، والأري : العسل الأبيض . والباه الأولى : النكاح ، والباه الثاني : حرف الجر .

(٢) تمامه : « . . . . . حرة فكيف لذا أصبحت زوجاً لموس » . انظر ماسبق ص ١٥٥٤ .

(٣) اللزوميات هـ ص ٧٨ . وفيها : « وصرورة لي شيعين لأنني ... » .

(٤) انظر ماسبق ص ١٤٩٢ .

(٥) اللزوميات هـ ص ٨٤ . .

وإصراره على ضرورته بعد الأربعين أمر طبيعي له ، لأنه يعتقد أن قربان المرأة بعدها معين الموت :

إِذَا مَا الأَرْبَعُونَ مَضَتْ كِمَالاً فَمَا لِلْمَرْءِ مِنْ أَرَبٍ بِعِينِ (١)
وَغِشْيَانُ النِّسَاءِ إِذَا تَقَضَّتْ لِسُلْطَانِ المَنِيَّةِ كَالْمُعِينِ

نسله

وليس من الغريب أن نرى أبا العلاء يكره النسل لنفسه بعد أن كرهه لغيره ، فإن من طبيعة الحي مهما كان نوعه أن يشفق على ولده ، وفلذة كبده من عوادي الدهر وصروفه ، بما لا يستطيع تحمله ولا رده . ولذلك حرص أبو العلاء على إبقاء بنيه في راحة العدم ، وإراحتهم من عناء الوجود . وقد سمعناه يقول : إنه قطع حبل النسل المتواصل بينه وبين آدم . ولنسمعه الآن يبين إشفاقه على بنيه لو وجدوا :

لَوَ انِّيَ كَلْبٌ لاَعْتَرَتْنِي حَمِيَّةٌ لِجَرْوِيَ أَنْ يَلْقَى كَمَا لَقِيَ الإِنْسُ (٢)

ويفصح عن رغبته عن النسل وسببها :

لَوَ أَنَّ بَنِيَّ أَفْضَلُ أَهْلِ عَصْرِي لَمَا آثَرْتُ أَنْ أَحْظَى بِنَسْلِ (٣)
فَكَيْفَ وَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ مِثْلِي خَسِيسٌ لاَ يَجِيءُ بِغَيْرِ فَسْلِ

---

(١) اللزوميات هـ ص ٢٧٩ . والعين : مفردها عيناء وهي المرأة الجميلة العينين .

(٢) اللزوميات هـ ص ٣٠٩ .

(٣) انظر ما سبق ص ١٢٠٢ . والفسل : الرذل .

ويعرب عن حرصه على إراحة أبنائه من العناء والأذى ، واستراحته بسبب ذلك :

وَأَرَحْتُ أَوْلاَدِي فَهُمْ فِي نِعْمَةِ الْـــعَدَمِ الَّتِي فَضَلَتْ نَعِيمَ العَاجِلِ (١)
وَلَوَ انَّهُمْ ظَهَرُوا لَعَانَوْا شِدَّةً تَرْمِيهِمُ فِي مُتْلِفَاتٍ هَوَاجِلِ

• • •

وَأَصْبَحْتُ فِي الدُّنْيَا غَبِيناً مُرَزَّأً فَأَعْفَيْتُ نَسْلِي مِنْ أَذَاةٍ وَمِنْ غَبْنِ (٢)
فَلَسْتَ تَرَانِي حَافِراً مِثْلَ ضَبِّهَا وَلاَ لِفِرَاخِي مِثْلَ طَائِرِهَا أَبْنِي
فَإِنْ تَحْكُمِي بِالْجَوْرِ فِيَّ وَفِي أَبِي فَلَنْ تَحْكُمِيهِ فِي بَنَاتِي وَلاَ فِي ابْنِي

العدم

نظر أبو العلاء في الدنيا نظر ناقد بصير ، واستقرى ما فيها من ضروب الخير والشر ، فرأى الغلبة للشر ، وتقصّى أحوال الإنسان وأعماله وأطواره ، فأسفر له البحث والاستقراء عن أن الإنسان جُبل على الفساد ؛ وليس في الإمكان تقويمه ولا تهذيبه ، وأنّ الله — عز وجل — أرسل إليه رسلًا كثيرة في أزمان مختلفة ، وشرائع متنوعة ؛ فلم يغنوا شيئاً ، وظل الناس على فسادهم . وكذلك تبين له أن الدنيا لا يمكن أن تكون في يوم واحد خالية من المصائب والآلام ؛ فتكوّن في نفسه مزاج مؤلف من ثلاثة عناصر :

(١) اللزوميات ‍ﻫ ص ٢٢١ ، والهواجل : مفردها هوجل ، وهي للفازة البعيدة لاعَلمَ بها .
(٢) اللزوميات ‍ﻫ ص ٢٢١ .

الأول : ذم الدنيا ، والإعراض عنها ، وعما فيها من الملاذ .

الثاني : تمني الهلاك لهذا البشر ، لأنه رجس لا يمكن تطهيره ولا يستطاع تهذيبه .

الثالث : السعي لقطع النسل . وقد فصل في (لزوم ما لا يلزم) الأسباب التي حملته على هذه العقيدة والأدلة التي زينتها في نفسه ، حتى جعل الإنسال جناية من الوالد على الولد . مثل قوله الآتي :

عَلى الوَلَدِ يَجْني وَالِدٌ وَلَوَ انَّهُمْ ... وُلاةٌ عَلى أمْصَارِهِمْ خُطَبَاءُ(١)

وستأتي أمثلة من هذا . والولد الصغير لم يقدم إلى هذه الدنيا باختياره ، ولم يصدر عنه من الأعمال ما يوجب السخط عليه ؛ وإنما هو ضعيف بريء لا يستحق إلا الرحمة والعطف . ولقد غالى أبو العلاء في الإشفاق عليه ، وآثر العدم على الوجود ، وتمنى للناس أن لا يكونوا خلقوا ، رحمة بهم مما يعانون في هذه الحياة كما يشعر به مثل قوله :

خَيْرٌ لِآدَمَ وَالخَلْقِ الذي خَرَجُوا ... مِنْ ظَهْرِهِ أنْ يَكُونُوا قَبْلُ مَا خُلِقُوا(٢)

فَهَلْ أحَسَّ وَبَالِي جِسْمِهِ رِمَمٌ ... بِمَا رَآهُ بَنُوهُ مِنْ أذًى وَلَقُوا

وتمنى للوليد الموت ساعة يولد ، حتى لا يشعر بما في الحياة فقال :

وَلَيْتَ وَلِيداً مَاتَ سَاعَةَ وَضْعِهِ ... وَلَمْ يَرْتَضِعْ مِنْ أُمِّهِ النُّفَسَاءُ(٣)

وأشار إلى أن سبب هذا التمني هو الإشفاق على الأم ، وعلى الولد الذي :

---

(١) اللزوميات ﻫ ص ٢٠ .

(٢) انظر ما سبق ص ١٥٤٢ .

(٣) اللزوميات ﻫ ص ٢٥ .

يَقُولُ لَهَا مِنْ قَبْلِ نُطْقِ لِسَانِهِ   تُفِيدِينَ بِي أَنْ تُنْكَبِي وَتُسَائِي[١]

وما قوله :

لِيَذْمُمْ وَالِداً وَلَدٌ وَيَعْتِبْ   عَلَيْهِ فَبِئْسَ عَمْرِي مَا سَعَى لَهْ[٢]

إلى آخر الأبيات الآتية وأشباهها إلا دليل واضح على أن تمنيه العدم منشؤه الرحمة والإشفاق على الولد مما يكتنفه من صروف الدهر في حياته، وكذلك قوله في النساء :

صَحِبْنَكَ فَاسْتَفَدْتَ بِهِنَّ وَلْداً   أَصَابَكَ مِنْ أَذَاتِكَ بِالسِّمَاتِ[٣]

وَمَنْ رُزِقَ الْبَنِينَ فَغَيْرُ نَاءٍ   بِذَلِكَ عَنْ نَوَائِبَ مُسْقِمَاتِ

فَمِنْ ثُكْلٍ يُهَابُ وَمِنْ عُقُوقٍ   وَأَرْزَاءٍ يَجِئْنَ مُصَمِّمَاتِ

وَإِنْ تُعْطَ الْبَنَاتِ[٤] فَأَيُّ بُؤْسٍ   تَبَيَّنَ فِي وُجُوهٍ مُقَسَّمَاتِ

يُرِدْنَ بُعُولَةً وَيُرِدْنَ حَلْياً   وَيَلْقَيْنَ الْخُطُوبَ مُلَوَّمَاتِ

وَلَسْنَ بِدَافِعَاتٍ يَوْمَ حَرْبٍ   وَلاَ فِي غَارَةٍ مُتَغَشِّمَاتِ

وَدَفْنٌ وَالْحَوَادِثُ فَاجِعَاتٌ   لإِحْدَاهُنَّ إِحْدَى الْمَكْرُمَاتِ

وَقَدْ يَفْقِدْنَ أَزْوَاجاً كِرَاماً   فَيَا لِلنِّسْوَةِ الْمُتَأَيِّمَاتِ

---

(١) اللزوميات هـ س ٢٥ .

(٢) « « س ٢٠٦ .

(٣) « « س ٦٨ .

(٤) في اللزوميات هـ : « ... تعط الإناث ... » .

وأد البنات

قال صاحب (الذكرى) بعد أن ذكر هذه الأبيات : « فانظر كيف بالغ في ذلك ، حتى استحسن من وأد البنات ماحرم الله ونهى عنه الدين »[١] اه . وهذا غير صحيح ، لأن أبا العلاء لم يذكر الوأد ؛ وإنما قال : « دفن » وليس الدفن والوأد مترادفين . وقد زعم بعضهم أنه ورد في الحديث الشريف : « دفن البنات من المكرمات » ، أي من الخصال التي يكرم الله بها آباءهن . وهذا الكلام يخرج مخرج التعزية للنفس ؛ لأن البنت عورة ضعيفة كثيرة المؤونة ، وقد تجلب العار ، وتجر العدو إلى الدار . وقد ماتت امرأة لرجل ، فقال لمن يعزيه : عورة سترت ، ومؤونة كفيت ، وأجر ساقه الله . وعلى نحو هذا قولهم : نعم الصهر القبر . وهذا الحديث حكم ابن الجوزي بوضعه ، وأقره عليه الذهبي وغيره . وقد أعاد أبو العلاء هذا المعنى فقال :

وَدَفْنُ الغَانِيَاتِ لَهُنَّ أَوْفَى   مِنَ الكِلَلِ المَنِيعَةِ والسُّتُورِ[٢]

أما الوأد فقد نهى عنه بقوله :

لاَ تُولِدُوا وَإِذَا أَبَى طَبْعٌ فَلاَ   تَئِدُوا وأَكْرِمْ بِالتُّرَابِ مُصَاهِرا[٣]

على أنه هنأ الموؤدة لخلاصها من شرور الحياة فقال :

طُوبَى لِمَوْؤُدَةٍ في حَالِ مَوْلِدِهَا   ظُلْماً فَلَيْتَ أَبَاهَا الفَظَّ مَوْؤُدُ[٤]

---

(١) ذكرى أبي العلاء ط ٢ ص ٢٧٤ — ٥ .

(٢) اللزوميات هـ ص ١٥٥ ، ونبها ولى ط عزيز زند : « . المنية والخدور » .

(٣) « » ص ١٤٣ .

(٤) « » ص ٩٤ .

وعد موت الولد راحة له :

قَدِمَ الفَتى وَمَضى بِغَيْرِ تَثَبُّتٍ … كَهِلالِ أَوَّلِ لَيْلَةٍ مِنْ شَهْرِهِ[1]
لَقَدِ اسْتَراحَ مِنَ الحَياةِ مُعَجَّلٌ … لَوْ عاشَ كابَدَ شِدَّةً في دَهْرِهِ

ويفهم من أقواله المذكورة وغيرها ، أنه يؤثر العدم على الوجود ، لأنه مصدر الشقاء والألم ؛ ويعد النسل جناية على الولد وشقاء للوالدين ، وأنه حض على قطع النسل ليتوصل بذلك إلى العدم ، وأنه لم يكره النسل إلا رحمة به ، وأنه لم يستحسن الوأد .

وهذا لا ينافي ما تقدم من أنه يريد قطع النسل للخلاص منه ، لأنه لا يمكن إصلاحه ولا تهذيبه . لأن الشيء الواحد قد يكون له أسباب متعددة ، وعلل مختلفة بحسب الجهة التي ينظر إليه منها ؛ ولأن العدم يجمع بين تطهير الأرض وإراحة أهلها ، على أنه جعل كلامه الأخير في الولد الصغير البريء من الجرائم والمآثم .

الوالدان

نظر أبو العلاء إلى الوالدين فرأى ما يعانيانه من الشقاء والعناء لإسعاد الولد وإراحته ، ورأى أن مجيء الولد لم يكن على اختيار منهما ، كما أن سعادته وشقاءه كذلك . فحض الولد على إكرام الأب ومساعدته بمثل قوله :

تَحَمَّلْ عَنْ أَبِيكَ الثِّقْلَ يَوْماً … فَإِنَّ الشَّيْخَ قَدْ ضَعُفَتْ قُواهُ[2]
أَتى بِكَ عَنْ قَضاءٍ لَمْ يُرِدْهُ … وَآثَرَ أَنْ تَفُوزَ بِما حَواهُ

---

(١) اللزوميات هـ ص ١٠٩ ، والثبة : اللبث والتمكث .

(٢) اللزوميات هـ ص ٣٣٤ وفيها : « .. قضاء لم ترده » .

وحثّ على إكرام الوالدين ، وعلى أن يكون حظ الأم من البر والإكرام أكثر من حظ الأب ؛ لأن نصيبها من العناء أوفر ، وأوضح ذلك في قوله السابق :

العَيْشُ مَاضٍ فأكْرِمْ وَالِدَيْكَ بِهِ والأُمُّ أوْلَى بإِكْرَامٍ وإحْسَانِ (١)

وقوله المتقدم :

وأعْطِ أباكَ النِّصْفَ حَيًّا وَمَيِّتاً وَفَضِّلْ عَلَيْهِ مِنْ كَرَامَتِها الأُمّا (٢)

ونظر إليهما فرأى أنهما هما اللذان جاءا بالولد إلى هذا الوجود ، وألقياه بين مخالب النوائب ، وأنياب الأوصاب ، فعد ذلك جناية على الولد ، كما بين ذلك في أبيات تقدم بعضها وأبيات سيأتي ذكرها .

تحريض الآباء على الأبناء ، والأبناء على الآباء

قذف أبو العلاء منذ ألف سنة تقريباً في المجتمع البشري قذيفتين ، انفجرتا في هذا العصر ، فكان لهما من الأثر السيء ما كان .

الأولى منها : تذكير الوالد بما يعانيه في تربية الولد ، وتحذيره من شر ولده ، وتنبيهه إلى ما يجب له على الولد من البر والإكرام .

والثانية منها : إثارة الأبناء على آبائهم . لأنهم من أجل شهواتهم ألقوهم في هذه الدنيا الطافحة بالبلاء والمكاره والشقاء .

ومن البيّن أن الشيء الواحد قد تكون له جهات مختلفة ، فيختلف الحكم عليه بحسب تلك الجهات ؛ حتى يشبه أن يكون الحكم عليه نقيضاً لحكم آخر ؛ ولا يعد ذلك من التناقض في شيء بحسب الحقيقة ، فالماء

---

(١) انظر ما سبق ص ١٤٢٨ .

(٢) « « ص ١٤٢٧ .

الذي جعل الله منه كل شيء حي ، إذا نظرتَ إليه من جهة أنه يطفىء النار المحرقة ، ويطفىء الغلة ، ويزيل الغصة ، وينبت الزرع ، ويغسل الأدران وما أشبه ذلك ، حكمت عليه بأنه نافع ؛ وربما توسعت فحكمت عليه بأنه كله نفع . وإذا نظرت إليه من جهة أنه يُغْرِق الإنسان والحيوان ، ويهدم البنيان ، ويفسد الزرع ، ويزيد بعض العلل ، وما شاكل ذلك ، حكمت عليه بأنه ضار ؛ وربما توسعت فحكمت بأنه كله ضرر .

فهذا شيء واحد حكمت عليه بأمرين متناقضين بحسب الظاهر ، لاختلاف جهة الحكم وسببه . على أن كثيراً من الأحكام تتبدل بتبدل الأزمان ، وتتغير بحسب الخواص في الأمكنة والأشخاص ، فإن نكاح الأخوات تبدل بمقتضى الزمان ، وأكل الميتة يتغير بحسب حالة الآكل .

وقد نظر الناس في القديم والحديث ، في الولد ، والوالد ، والوالدة ، والسلطان ، وغيره ممن له مكانة عالية في المجتمع من بعض الجهات ؛ وحكموا على كل منهم بحسب ما تقتضيه تلك الجهة . فمنهم من قصر نظره على جهات الخير . ومنهم من قصره على جهات الشر . ومنهم من جمع قليلاً من النوعين .

أما أبو العلاء ، فقد نظر إلى كل واحد من هؤلاء من أكثر من جهة ، وحكم عليه بما تقتضيه تلك الجهة ، فتوهم بعض الأدباء أنه يناقض نفسه في أحكامه . ومنشأ هذا التوهم إمّا عدم التنبه لما ذكرناه ، وإما التقليد الأعمى في الحكم . وهذا الداء مستفيض في أكثر الكتاب والأدباء . ونحن نبين رأي المعري في كل واحد ممن تقدم ذكره .

إيثار الأولاد على الآباء

يعتقد أبو العلاء أن هذه الدنيا دار بلاء ومحن ، وأن صفوها قليل بالنسبة إلى كدرها ، وأنها إذا سرّت ساعة ساءت ساعات ، والعاقل فيها

معذب شقي . ومن علق في أشراكِ الحياة شقّ عليه تحمل آلامها ، وصعب عليه مفارقتها ، وهو لا يعلم بعد ذلك إلى أيّ شيء يصير ، بعد أن يصبح تراباً مهيناً مهاناً تطؤه الأرجل والحوافر .

وأن الأب من أجل قضاء شهوته ، يلقي ولده في حبائل من الأكدار ، لا يستطيع التخلص منها إلا بالموت ، والموت أمر شيء عليه وأكرهه لديه ، وما بعده أشد منه . فلهذه الأسباب وأشباهها عد النسل جناية من الوالد على الولد ، وإن كان نبيلاً نجيبا ، فقال :

عَلى الوُلْدِ يَجْني وَالِدٌ ولوَ انُهمْ   وُلاةٌ عَلى أمْصَارِهِمْ خُطَبَاءُ[1]

وذلك لأنهم :

يَرَوْنَ أباً ألْقَاهُمُ في مُؤَرَّبٍ   مِنَ العَقْدِ ضَلَّتْ حلهُ الأرْبَاءُ[2]

والضبة تعدو على أولادها فتقتلها وتأكلها . والإنسان يعرض أولاده المرزايا والقتل . فهو باعتبار النتيجة كالضب سبب لأذى الولد :

أبُوكَ جَنَى شرّاً عَلَيْكَ وإنَّما   هُوَ الضَّبُّ إذْ يُسْدِي العُقُوقَ إلى الحِسْلِ[3]

وإذا تأمل العاقل ما يحيط بالإنسان من الفواجع في حياته ، هاله ذلك ، وأنكر على الأب أن يلقي فلذة كبده ضعيفاً بين أعداء أقوياء ، يسعى كل منهم ليقتنص حياته ، ويذيقه أنواعاً من العذاب ، ثم لا يستطيع هو أن يدفع عن ولده ضرا ، ولو كان أشجع من أسد ، وأروغ من ثعلب . فالعاقل إذا رأى ذلك عتب على الأب وشارك أبا العلاء في قوله :

---

(١) اللزوميات ﻫ س ٢ .
(٢) المصدر السابق . والمؤرب : محكم العقد .
(٣) » » س ٢١١ . والحسل : ولد الضب .

لِيَذْمُمْ وَالِداً وَلَدٌ وَيَعْتَبْ ... عَلَيْهِ فَبِئْسَ عَمْرِي مَا سَعَى لَهْ[١]
أَتَدْرِي وَالحَيَاةُ لَهَا صُرُوفٌ ... بِمَا يَلْقَاهُ جِرْوُكَ يَا ثُعَالَهْ
فَمِنْ ضَارٍ يُمَزِّقُ مِنْهُ شِلْواً ... وَيُعْطِي فَضْلَ أَكْرُعِهِ جِعَالَهْ[٢]
وَمِنْ صَقْرٍ يَقُولُ لَهُ رُوَيْداً ... وَمِنْ شَرَكٍ يَصِيحُ بِهِ تَعَالَهْ

والعقل يقضي على الأب قبل أن ينسل أن يسبر أحوال الحياة ، وينظر فيما فيها من العظات والعبر ، وفيما يكتنفها من المحن والبلايا ، وفيما يؤول إليه أمر الأحياء . فإن رأى بيئة حسنة ألقى فيها ولده ، وإن رأى غير ذلك أشفق على ولده وتركه في نعمة العدم :

أَلاَ تَفَكَّرْتَ قَبْلَ النَّسْلِ فِي زَمَنٍ ... بِهِ حَلَلْتَ فَتَدْرِي أَيْنَ تُلْقِيهِ[٣]
تَرْجُو لَهُ مِنْ نَعِيمِ الدَّهْرِ مُمْتَنِعاً ... وَمَا عَلِمْتَ بِأَنَّ العَيْشَ يُشْقِيهِ

إلى آخر الأبيات . ولكن الأب الغر أعمته شهواته الحيوانية ، ودفعته طبيعته الدنيئة ؛ فلم يفكر في شيء ، وأقدم على الزواج بغير تبصر ولا تفكير في أمر نفسه وأمر ولده . واحتذى على مثال غيره في الزواج بغير شعور ، بل بطريق العدوى كما قلنا ، فإذا عق الولد أباه ، فإنما جزى سيئة بسيئة ، وكافأ جريمة بمثلها ، كما قال :

جَنَى أَبٌ وَضَعَ ابْناً لِلرَّدَى غَرَضاً ... إِنْ عَقَّ فَهْوَ عَلَى جُرْمٍ يُكَافِيهِ[٤]

---

(١) انظر ما سبق ص ١٥٧٣ . وثعالة : الأنثى من الثعالب .
(٢) في اللزوميات هـ . « فمن ضار يمزق عنه شلواً ... » . والشلو : الجلد والجسد من كل شيء .
(٣) اللزوميات هـ ص ٣٤٠ .
(٤) المصدر السابق .

وأبو العلاء لا يحمد أبا على عطفه على ولده ، ولا يلوم ولداً على تجافيه عن أبيه :

وَمَا حَمِدْتُ كَبِيراً في تَحَدُّبِهِ وَلاَ عَذَلْتُ صَغِيراً في تَجَافِيهِ[1]

لأن عطف الأب لا يكفر جريمة الإيلاد ؛ ولأن تجافي الصغير مكافأة سوء بسوء .

إبارة الآباء على الأولاد

ورأى فريقاً من الأبناء لا يرعون حق الأبوة ، ولا يقومون بما يجب عليهم من البر والتكرمة لآبائهم ، حتى إن فريقاً منهم كان يمتهن أباه ويسخره في أعماله . ومنهم من كان يركب فرسه ويمشي أبوه خلفه ، حتى إذا انتهى إلى المكان الذي يريد زيارة صاحبه ، أمسك أبوه بعنان فرسه ، وانتظره على الباب حتى يخرج ، ومنهم ، ومنهم .

سمع بعضاً من هذه الصور الوحشية فأنكرها . ونبه الآباء إلى أنهم إنما يربّون أعداء ، بل إنه يرى أن :

أَعْدَى عَدُوٍّ لاِبْنِ آدَمَ خِلْتُهُ وَلَدٌ يَكُونُ خُرُوجُهُ مِنْ ظَهْرِهِ[2]

وأن الولد حنش فيجب أن يحذره .

. . . . وَخَفْ مِنْ سَلِيلِكَ فَهْوَ الْحَنَشْ[3]

---

(١) اللزوميات ٥ ص ٣٤٠ .

(٢) انظر ما سبق ص ١٥٥٣ .

(٣) عجز بيت ، صدره : « عروسك أفعى فهب قربها » . انظر ما سبق ص ١٥٤٤ .

بل هو نار إذا أصابته أحرقته :

اِحْذَرْ سَلِيلَكَ فَالنَّارُ الَّتِي خَرَجَتْ مِنْ زَنْدِهَا إِنْ أَصَابَتْ عُودَهُ احْتَرَقَا(١)

ولو وفقت الأم لم تحمل به ولم تلده تاماً :

أَحَاضِنَةَ الغُلَامِ ذَمَمْتِ مِنْهُ أَذَاهُ فَأَرْضِعِي حَنَشاً وَضُمِّي(٢)
فَلَوْ وُفِّقْتِ لَمْ تَسْقِي جَنِيناً وَلَمْ تَضَعِي الوَلِيدَ وَلَمْ تُهِمِّي
لَهَانَ عَلَى أَقَارِبِكِ الأَدَانِي قِيَامُكِ عَنْ خَدِيجٍ غَيْرِ تَمِّ

ولو تتبع الناس أحوال الأولاد ، وما يجلبونه من الويل لآبائهم لرغبوا عن النسل بل :

لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا أَبْنَاؤُهُمْ جَلَبُوا وَبِيعَ بِالْفِلْسِ أَلْفٌ مِنْهُمُ كَسَدُوا(٣)
فَوَيْحَهُمْ بِئْسَمَا رَبُّوا وَمَا حَضَنُوا فَهُوَ الْخَدِيعَةُ وَالأَضْغَانُ وَالْحَسَدُ

ولو علموا ما يلقاه الآباء من أبنائهم من كفران النعم ، ومقابلة الحسن بالقبيح ونحو ذلك لحرّقوا الأرّم على النسل ، وتمنوا العقم والعقر أو الثكل :

فَكَمْ وَلَدٍ لِلْوَالِدَيْنِ مُضَيِّعٍ يُجَازِيهِمَا بُخْلاً بِمَا نَجَلَاهُ(٤)
طَوَى عَنْهُمَا القُوتَ الزَّهِيدَ نَفَاسَةً وَجَرَّاهُ سَارَا الحُزْنَ وَارْتَحَلَاهُ

إلى آخر هذه الأبيات . وفي كلامه صور مختلفة من هذا النوع .

---

(١) اللزوميات هـ ٣٠٣ .

(٢) اللزوميات هـ ص ٢٠١ ، وفيها : « ... أذاك فارضعي .. » . والخديج : الناقص الخلق . يقال : خدجت الناقة وأخدجت إذا ألقت ولدها قبل استتام خلقه .

(٣) اللزوميات هـ ص ٩٣ وفيها : « لو يعلم الناس ... » و « فهي الخديعة ... » .

(٤) « « ص ٣٣٠ . وجراه : أي من أجله .

إثارة كل من الزوجين على الآخر

وفي أبياته السابقة ، وما يشبهها من الأبيات التي ذكر فيها زواج الشاب عجوزاً ، وما تكنه المرأة في صدرها للرجل ، وتحذير الرجل من ذهاب المرأة إلى العراف ، والمنجم ، والحمام ، والحج ، وتعلمها القراءة والكتابة ، ومجالسة الختن ، ودخول من بلغ العشر [١] ، وما شاكل ذلك أيقظ في قلب الرجل شيئاً كثيراً من أنواع الريبة في المرأة . وفي ذلك إثارة للرجل عليها ؛ لأنه ملأ قلبه ريبة فيها وظنوناً سيئة .

وفي أبياته التي ذكر فيها زواج الشابة كهلا أو شيخاً ، ومضارة المرأة بتعدد الزوجات [٢] ، وما أشبه هذا شيء من إثارة المرأة على الرجل ؛ لأنه أفعم قلبها كرهاً له ، ودلها على المواطن التي تثير غيظها وحقدها على الرجل .

وقد ذكرنا في غير هذا الموضع إثارته الرعية على رعاتها . والفقراء على الأغنياء الذين يمنعونهم حقوقهم المشروعة لهم . وقد يقال : إن فلسفة أبي العلاء هذه هدّامة تفضي إلى هدم المجتمع . والجواب : إن هدم هذا المجتمع من هذه الناحية من أقصى أمانيه ، وأسمى غاياته ؛ لأنه ملّ من فساده ، ويئس من إصلاحه كما تقدم .

حبه الرفق بكل حي

قلنا غير مرة : إنّ أبا العلاء كان قاسي القلب والحكم على المرأة ؛ لأنها مزرعة النسل ، والعماد الذي يقوم عليه ، وموضع العار ؛ وعلى الرجل ، لأنه سبب الولد الذي سيكون أداة شر في المستقبل ، وسبباً للنسل ، فهو قاس عليهما إذا نظر اليهما من هذه الجهات وما يتصل بها . أما إذا نظر إليهما من حيث إن كلاًّ منهما حي يحرص على حياته ويحبها ويشعر بالآلام

---

(١) انظر ما سبق ص ١٥٤٧ .

(٢) انظر ما سبق ص ١٩٦٣ ـ ١٩٦٩ .

ويكرهها ، وإنه ضعيف ورد إلى هذه الدنيا بغير اختيار ولا رغبة ، وإنه يعاني فيها شقاء وآلاما بغير رضا ولا طلب ؛ فإنه يوليها من العطف ما مر بك بعضه ، وسيجيء بعض آخر منه . ولم يقتصر عطفه على الإنسان ، بل تعداه إلى كل ذي روح يشعر بالألم ، وقد تمكنت هذه الرأفة من نفسه ، فكان من آثارها ما نراه في شعره من صور الرفق المختلفة الدالة على قلب رقيق ، وعطف صادق ، ويمكن إرجاع كلامه في ذلك إلى أمرين :

الأول : الرفق بالإنسان .

والثاني : الرفق بالحيوان .

الرفق بالانسان

قلنا : إن أبا العلاء درس أحوال الناس وأطوارهم ، وقتلهم علماً واختبارا . فكان مما رآه فيهم أن فريقاً منهم قضت عليه الأيام أن يكون أسيراً في يد غيره ، أو فقيراً يضطر إلى أن يمتهن نفسه ليسد رمقه ، أو ضعيفاً لا يستطيع أن يذود عن حوضه ، أو مبتلى بعاهة لا يستطيع معها أن يجاري غيره في مضمار الحياة ، أو نكد الحظ فلا ينال ما يناله المجدود في حياته ، وان كان سعيه أضعاف سعي ذاك ، أو يتيما لا يجد له ناصرا . أو نحو ذلك من البلايا التي تجعل صاحبها مقصراً عن غيره في إدراك ما يبتغيه من الرزق والسعادة ، أو عاجزاً عن دفع ما يعتريه من المحن والرزايا .

وان السالمين من هذه العلل قد نزع الله الرحمة من قلوبهم ؛ فلا يرقون لشاك ، ولا يرأفون بباك . فحض في مواطن من شعره على الرأفة بهؤلاء ، وحذر من عاقبة الجور عليهم . وهذه أمثلة من كلامه في ذلك :

الرفق بالعبيد والخدم

إذا كَسَرَ العَبْدُ الإناءَ فَعُدَّهُ   أذاةً لهُ إنّ الإناءَ إلى كَسْرِ [١]
رَقِيقُكَ أَسْرَى في يَدَيْكَ فلا تَكُنْ   غَلِيظاً عَلَيْهِمْ واتّقِ اللهَ في الأَسْرِ

• • •

أَسَأْتَ بِعَبْدِكَ في عَسْفِهِ   وحَمّلْتَ غيرَكَ مَا لَمْ يُطِقْ [٢]
وَسَوْفَ يُجازِيكَ رَبُّ السَّماءِ   فَشَمّرْ لِأَحْكَامِهِ وانْتَطِقْ

• • •

وَلا تَكُ مِمّنْ قَرّبَ العَبْدَ شَارِخاً   وَضَيّعَهُ إذْ صَارَ مِنْ كِبَرٍ هِمّا [٣]

• • •

وَارْدُدْ عَصَاكَ عَنِ السَّوْداءِ مَاهِنَةً   وَارْفُقْ بِعَبْدِكَ في المُصْطَافِ والقَرَسِ [٤]

الرفق بالفقير :

وَانْبِذْ إلى مَنْ تَشَكّى قِرّةً سَمَلاً   مِنَ الثّيَابِ وأَوْرِدْ ظَامِئاً سَمَلَكْ [٥]

• • •

---

(١) اللزوميات ﻫ ص ١٤٨ .
(٢) اللزوميات ﻫ ص ٣٠٨ .
(٣) » » ص ٢٣٨ .
(٤) » » ص ٢٩٩ وماهنة : خادمة ، والقرس : البرد الشديد .
(٥) السَّمَل : الخلق من الثياب ، والسَّمَل : جمع سملة الماء القليل يبقى في الإناء وغيره (ج) .
وانظر اللزوميات ﻫ ص ١٩٠ .

فَرِشْ مُعْدِماً إنْ كَانَ يُمكِنُ رَيْشُهُ ... وَلاَ تَفْخَرَنْ بينَ الأنَامِ بِمارِشْتَا(١)

• • •

فاجْبُرْ فَقِيراً بِعَطَاءٍ لَهُ ... إنْ كَانَ في طَوْلِكَ أنْ تَجْبُرَهْ(٢)

الرفق بالضعيف :

فَامْنَحْ ضَعِيفَكَ إنْ عَرَاكَ وَلَوْ ... نَزْراً وَلاَ تَصْرِفْهُ بالكَهْرِ(٣)

وَارْفَعْ لَهُ شَقْرَاءَ تَرْمَحُ في ... دَهْمَاءَ مِثْلَ تَأَرُّنِ المُهْرِ

• • •

أكْرِمْ ضَعِيفَكَ والآفاقُ مُجْدِبَةٌ ... وَلاَ تُهِنْهُ وَلَوْ أعْطَيْتَهُ القُوتَا(٤)

• • •

إذَا كُنْتَ في نَخْلٍ جَنَاهُ مُيَسَّرٌ ... لِكَفِّكَ فَاهْتِفْ بالضَّعِيفِ إلى النَّخْلِ(٥)

الرفق بالمعتر :

إذَا أُوتِيتَ مِلْءَ يَدٍ طَعَاماً ... فَأطْعِمْ مَنْ عَرَاكَ وَلَوْ كَظُفْرِ(٦)

---

(١) راشه : من باب باع قام بمصلحته أو أناله خيراً (ج) . وانظر اللزوميات ﻫ ص ٦٣ .

(٢) اللزوميات ﻫ ص ١٤٤ .

(٣) » » ص ١٦٥ . والكهر: الانتهار واستقبال الإنسان بوجه عابس تهاوناً به ، والشقراء : النار . والدهماء : الظلمة ؛ وتأرن : لعلها من الأرن وهو النشاط .

(٤) اللزوميات ﻫ ص ٦٣ .

(٥) » » ص ٢١٠ .

(٦) » » ص ١٥٥ .

الرفق باليتيم :

أَنْصِفْ يَتِيمَكَ في التُّرَاثِ وَلاَ تَأْخُذْهُ بالإِعْنَاتِ وَالقَهْرِ[١]

الرفق بالأعمى :

إِذَا مَرَّ أَعْمَى فَارْحَمُوهُ وأَيْقِنُوا وَإِنْ لَمْ تُكَفُّوا أَنَّ كُلَّكُمُ أَعْمَى[٢]

الرفق به وبالأصم :

تَصَدَّقْ عَلَى الأَعْمَى وَخُذْ بِيَمِينِهِ لِتَهْدِيَهُ وامْنُنْ بِإِفْهَامِكَ الصُّمَّا[٣]

الرفق بالمؤمن :

أَنْجِدْ أَخَاكَ عَلَى خَيْرٍ يَهُمُّ بِهِ فَالمُؤْمِنُونَ لَدَى الخَيْرَاتِ أَنْجَادُ[٤]

ترك الحروب والنهي عنها

ولشدة حبه الرأفة بالإنسان ، والرفق به ، كره الحروب لما فيها من إراقة دماء ، وتمزيق أشلاء ، وتعذيب نفوس ، وعدّ ذلك كله من السفه والجهل والظلم ؟ ونهى عن شهر الحسام ، وحض على التماس الرزق من طريق العمل والجد ، لا من طريق الأسنة والسيوف ، وقد أكثر من التصدي لهذا الموضوع في (اللزوم) وأورد صوراً مختلفة منه ، منها قوله :

---

(١) اللزوميات ج س ١٦٠ . وفي الأصل : « وانصف يتيمك .. » .
(٢) « « س ٢٣٩ .
(٣) « « س ٢٣٨ . وفيها : « ... على الأعمى بأخذ يمينه ... »
(٤) « « س ٩٥ .

فإنْ تَرْشُدُوا لاَ تَخْضِبُوا السَّيْفَ مِنْ دَمٍ
وَلا تُلْزِمُوا الأَمْيَالَ سَبْرَ الجَرَائِحِ [(١)]

. . .

وَمَا اقْتَتَلَ الحَيَّانِ إلاَّ سَفَاهَةً وَلَوْ صَحَّ وُدِّي لِلمُحَارِبِ حَيَّانِي [(٢)]

. . .

وَالظُّلْمُ عِنْدِي قَبِيحٌ لا أُجَوِّزُهُ وَلَوْ أُطِعْتُ لَمَا فَاهُوا بِأَجْلابِ [(٣)]

. . .

وَلَوْ صَفَا العَقْلُ أَلْقَى الثِّقْلَ حَامِلُهُ عَنْهُ وَلَمْ تَرَ فِي الهَيْجَاءِ مُعْتَرِكاً [(٤)]

. . .

وَلاَ تَشِيمَنْ حُسَاماً كَيْ تُرِيقَ دَماً كَفَاكَ سَيْفٌ لِهَذَا الدَّهْرِ مَا غُمِدا [(٥)]

. . .

وَلَوَ انَّ الأَنَامَ خَافُوا مِنَ العُقْـ ـبَى لَمَا جَارَتِ المِيَاهَ الدِّمَاءُ [(٦)]

. . .

فَعَلاَمَ تَجْتَلِبُ الحِمَامَ بِجَهْلِهَا مُهَجٌ تُطَاعِنُ فِي الوَغَى وَتُجَالِدُ [(٧)]

. . .

---

(١) اللزوميات « س ٨٤ .
(٢) « « س ٢٧٢ .
(٣) « « س ٤٨ .
(٤) « « س ١٨٦ .
(٥) « « س ١٠٢ .
(٦) « « س ٢٤ .
(٧) « « س ٩٩ . وفي الأصل : « تجتنب ... » .

وَاطْلُبِ الرِّزْقَ بِالمُرُورِ مِنَ الشَّجْرَاءِ لَا مِنْ أَسِنَّةٍ وَمَنَاصِلِ[1]

. . .

لَا تُحْدِثِ القَطْعَ فِي كَفٍّ وَلَا قَدَمٍ   وَلَا تَعَرَّضْ مَدَى الدُّنْيَا لِسَفْكِ دَمِ[2]
وَخَلِّ مَنْ صَوَّرَ الأَشْبَاحَ مُقْتَدِراً   يَحُلُّهَا فَهْوَ رَبُّ الدَّهْرِ وَالقِدَمِ

الاشتراك

ومن آثار محبته الرفق والرأفة اعتقاده أن للفقير حقاً في مال الغني ، ولكنه لم يجر على طريقة الاشتراكيين في هذا العصر ، وإنما كان معتدلاً في رأيه ، بعيداً عن الغلو والشطط ، ومصدر هذا الرأي أمران : أحدهما : الإسلام . والثاني : رقة القلب والرحمة للضعيف والمعدم .

أما الإسلام : فقد أوجب الشارع الزكاة ، وحض القرآن الكريم على الصدقات والإنفاق في مواطن كثيرة . وأمر المسلمين بالإحسان للوالدين ، وذي القربى واليتامى والمساكين ، والجار ذي القربى ، والجار الجنب ، والصاحب بالجنب ، وابن السبيل ، وما ملكت أيمانهم . وقد قال بعض العلماء : يشمل المملوك من الآدمي والحيوان . ورغّب في الإحسان ، وجعل من صفات المتقين أنّ في أموالهم حقّاً معلوما للسائل والمحروم ، أي المتعفف عن السؤال ، من غير أن يعين صنفاً بعينه .

---

(١) اللزوميات هـ ص ٢٢٦ . والمرور : للمهاجـمـ ـمر بالفتح وهي المسحاة . والشجراء : الأرض الكثيرة الشجر . والأسنة : الرماح . ومناصل : مفردها منصل وهو السيف .

(٢) اللزوميات هـ ص ٢٤٧ .

وقد جاء كثير من الأحاديث في الحض على البر والترغيب فيه ؛ وبيان ما يترتب عليه من الفوائد في الدنيا والآخرة .

وأما رقة القلب : فقد أسلفنا طائفة من أقواله الدالة عليها ، وسنذكر طائفة أخرى منها . وأكثر كلامه مغمور بالشعور الإسلامي ؛ فهو يجعل حق المعدم من باب الزكاة تارة ، ومن باب الصدقة تارة أخرى . وهذه أمثلة من كلامه :

إِذَا وَهَبَ اللهُ لِي نِعْمَـةً أَفَدْتُ المَسَاكِينَ مِمَّا وَهَبْ[١]
جَعَلْتُ لَهُمْ عُشْرَ سَقْيِ الغَمَامِ وأَعْطَيْتُهُمْ رُبْعَ عُشْرِ الذَّهَبْ

. . .

وَأَحْسِبُ النَّاسَ لَوْ أَدَّوْا زَكَاتَهُمُ لَمَا رَأَيْتَ بَنِي الإِعْدَامِ شَاكِينَا[٢]
فَإِنْ تَعِشْ تُبْصِرِ البَاكِينَ قَدْ ضَحِكُوا والضَّاحِكِينَ لِفَرْطِ الجَهْلِ بَاكِينَا

. . .

إِذَا طَرَقَ المِسْكِينُ دَارَكَ فَاحْبُهُ قَلِيلاً وَلَوْ مِقْدَارَ حَبَّةِ خَرْدَلِ[٣]
وَلَا تَحْتَقِرْ شَيْئاً تُسَاعِفُهُ بِهِ فَكَمْ مِنْ حَصَاةٍ أَيَّدَتْ ظَهْرَ مِجْدَلِ

. . .

---

(١) اللزوميات « ص ٥٧ .
(٢) « « ٢٦٦ . وفيها : « ... الناس لو أعطوا زكاتهم » .
(٣) « « ص ٢١١ . والمجدل كمنبر : القصر .

وَقَدْ رَفَقَ الذي أوْصَى أُناساً   بِعُشْرٍ في الزَّكَاةِ وَنِصْفِ عُشْرِ (١)

فهو في هذه الأبيات يحتذي على مثال الشرع الإسلامي ، ولا يتعدى حدوده في الواجبات . وفي أبياته المتقدمة في الرفق بالفقير والضعيف يدل على أن حق الضعيف من باب الصدقة والبر ، وليس فيه تحديد للقدر الذي يجب أن يعطى . وفي (لزوم ما لا يلزم) أبيات تشير إلى إشراك الضعيف ومشاطرته المال كقوله :

كَيْفَ لا يُشْرِكُ المُضِيقِينَ في النِّعْـــمَةِ قَوْمٌ عَلَيْهِمُ النَّعْمَاءُ (٢)

* * *

شَاطِرْ ضَعِيفَكَ مَا أُوتِيتَ مِنْ نَشَبٍ   وَعَدِّ ذِكْرَكَ أُخْتَ الجِيرَةِ الشُّطُرِ (٣)

وقوله :

زَعَمَ الزَّاعِمونَ والقَوْلُ مِنْ مَيْـــنٍ وصِدْقٍ يُرْوَى فَعَالي وَعِيفِي (٤)
إنَّ شِقًّا يَلُوحُ في بَاطِنِ التَّمْـــرَةِ قَسْمٌ بَيْني وَبَيْنَ الضَّعِيفِ

---

(١) مذهب الإمام أبي حنيفة (ض) يجب العشر فيما سقته السماء أو السيح ، بلا شرط نصاب ولا حولان ، حول من كل ما قصد به استغلال الأرض . ويجب نصف العشر فيما سقي بدلو او دالية أي دولاب . وقال صاحباه : لا يجب الا فيما له ثمرة باقية حولاً بشرط أن يبلغ خمسة أوسق على التفصيل المبسوط في كتب الفقه وعند الشافعي (ض) : لا زكاة في شيء من النابت إلا في رطب وعنب وما صلح للخبز من الحبوب . بخلاف ما يؤكل على وجه التفكه كالتفاح والتين ونحوهما ، ويجب العشر فيما سقي بلا مؤونة ، ونصفه فيما سقي بمؤونة . بشرط أن يبلغ خمسة أوسق وأن يزرعه مالكه أو نائبه . وكلام أبي العلاء مطلق يدل على أنه جرى على مذهب أبي حنيفة (ج) . وانظر اللزوميات هـ ص ١٥٥ .

(٢) اللزوميات هـ ص ٢٤ وفيها : « قوم عليهم نعماء » والمضيق : من ذهب ماله وضاقت حاله .

(٣) » » ص ١٥١ .

(٤) » » ص ٢٩٧ . وفيها : « في باطن البرة قسم .. » .

وقد توهّم بعض الأدباء ، فظن أن أبا العلاء يرى مذهب الاشتراكية في هذا العصر ، والحق ما ذكرناه هنا وفي الكلام على المال أنه يريد أن يكون للفقير حظ في مال الغني ، على سبيل الزكاة أو البر والمعروف . ولفظ « يشرك » و « شاطر .. » لا يريد بهما تحديد قدر معين ؛ لأن أبا العلاء كان كريماً يحب الكرم ويحض عليه ، ويعتقد أن الموسر إن أمسك ماله كان خازناً للوارث ، وإن أنفقه كان وكيلا للبرية كما قال :

إذا أعملَ الفِكْرَ الفَتَى وَجدَ الغِنَى ... بدُنْيَاهُ فَقْراً والسُّرُورَ بها حُزْنَا[١]

يَكُونُ وَكِيلاً لِلْبَرِيّةِ بَاذِلاً ... وَلِلْوارِثِيهِ إنْ أرَادَ لَهُ خَزْنَا

ولذلك حض على تفريقه وإنفاقه حيث قال :

لاَ تَجْمَعوا المَالَ واحْبُوهُ مَوَالِيَهُ ... فَالْمُمْسِكُونَ تُرَاثٌ كُلُّ مَا جَمَعُوا[٢]

• • •

إنْ حَبَاكَ القَدِيرُ كَالنِّيلِ تِبْراً ... فَلْيَغِضْهُ العَطَاءُ والتَّنْوِيلُ[٣]

لَا تُعَوِّلْ عَلى اخْتِزَانٍ فَمَا لِلْـ ... ـبَدْرِ الصُّفْرِ إثْرَ مَيْتٍ عَوِيلُ

الرفق بالحيوان

ويرى الناظر في كلامه صوراً مختلفة من الحض على الرفق بالحيوان ، ودفع الأذى عنه ، من ذلك قوله في العَوْد ، وهو الجمل المسن :

---

(١) اللزوميات ﻫ ص ٣٦٤ . وفيها : « .. الفتى جعل الغنى من المال فقراً .. » .
(٢) « » ص ٢٨١ .
(٣) « » ص ٢٠٢ . وغاض العطاء المال : نقصه .

يا ضاربَ العَوْدِ البَطِيءِ وظَهْرِهِ لا وِزْرَ يَحْمِلُهُ كَوِزْرِ الضاربِ[1]
ارْفُقْ بهِ فشَهِدتُ أنكَ ظالمٌ في ظالمينَ أباعِدٍ وأقاربِ

وقوله في العير وهو الحمار :

ألَمْ تَرَ أن الخَيرَ يَكسِبُه الحِجى طَرِيفاً وأنَّ الشرَّ في الطبْعِ مُتْلَدُ[2]
لَقَدْ رَابَني مَغْدَى الفَقيرِ بجَهْلِهِ على العَيْرِ ضَرْباً ساءَ ما يَتَقَلَّدُ
يُحَمِّلُهُ ما لا يُطيقُ فإنْ وَنَى أحالَ على ذِي فَتْرَةٍ يَتَجَلَّدُ
يَظَلُّ كَزَانٍ مُفْتَرٍ غيرِ مُحْصَنٍ يُقامُ عليهِ الحَدُّ شَفْعاً فيُجْلَدُ
تَظاهَرُ أنْدَادُ[3] الرَّزَايا بِظَهْرِهِ وكَشْحَيْهِ فاعْذِرْ عاجزاً يَتَبَلَّدُ

وقوله في الناقة والفرس :

أحْسِنْ إلى النَّاقةِ الوَجْنَاءِ تَبْعَثُها فيما تَشاءُ وأكْرِمْ عشْرَةَ الفَرَسِ[4]

وقوله في الطير :

تَصَدَّقْ على الطَيْرِ العَوادِي بشَرْبَةٍ مِنَ الماءِ واعْدُدْها أحَقَّ مِنَ الإِنْسِ
فما جِنْسُها جانٍ عليكَ أذِيَّةً بحالٍ إذا ما خِفْتَ مِنْ ذلكَ الجِنْسِ

• • •

---

(١) اللزوميات هـ ص ٥٣ .
(٢) » » ص ٨٩ . والفترة : الانكسار والضعف .
(٣) جمع نَدَب : وهو الأثر (ج) .
(٤) اللزوميات هـ ص ٢٩٩ .
(٥) » » ص ٢٩٧ .

لَا تَرُعِ الطَّائِرَ يَغْذُو بُجَّهْ ... يَلْتَقِطُ الحَبَّ لِكَيْ يَمُجَّهْ (١)

وقوله في البرغوث :

تَسْرِيحُ كَفِّيَ بُرْغُوثاً ظَفِرْتُ بِهِ ... أَبرُّ مِنْ دِرْهَمٍ تُعْطِيهِ مُحْتَاجَا (٢)

لاَ فَرْقَ بَيْنَ الأَسَكِّ الجَوْنِ أُطْلِقُهُ ... وَجَوْنِ كِنْدَةَ أَمْسَى يَعْقِدُ التَّاجَا

كِلاهُمَا يَتَوَقَّى وَالحَيَاةُ لَه ... حَبِيبَةٌ وَيَرُومُ العَيْشَ مُهْتَاجَا

وقد قدمنا أبياتاً تدل على نهيه عن ذبح الحيوان ، وإخراجه من الماء ، وفجع الطير في أوكارها ، وأكل ما تدخره النحل لنفسها ، ونحو ذلك من الأعمال التي تؤذي الحيوان وتؤلمه .

وقد بين في بعض الأبيات الأسباب التي حملته على الرفق ، لأن الحيوان كالإنسان يحب الحياة ، ويحرص على سلامتها ، ويشعر بالأذى والآلام ، وإن الإنسان ظالم قاسي القلب ، قد يحمّل الحيوان ما لا يطيق ، ويضربه لغير سبب ، ويفجعه بأفراخه وأفولته ، ولا يدع باباً من أبواب الأذى إلا فتحه عليه . وفي كلامه الباقي صور تمثل ذلك .

ذبح الحيوان

علمنا أن أبا العلاء امتنع عن أكل الحيوان ، لأنه لا يُوصل إلى أكله إلا بإيلامه ، بذبح أو نحوه . وعلى هذا لا ننكر عليه أن ينهى عن قتل الحيوان كما نهى عن قتل الإنسان فيقول :

(١) الزوميات ﻫ ص ٧٦ والبجّ . فرخ الحمام ، ومج الشي من فيه : إذا ألقاه وطرحه .

(٢) الأسك : الصغير الأذن . والجون : الأسود والمراد به البرغوث والجون الثاني : لقب معاوية بن حجر بن عمرو .. من ثور بن كندة وهو أبو بطن منهم (ج) وانظر الزوميات ﻫ ص ٧٦ .

فَلاَ تُرْهِفْ مُدًى لِعَبِيطِ نَحْضٍ   وَلاَ تَشْهَرْ عَلَى قِرْنٍ صَقِيلاَ[1]

• • •

فَلاَ تُبْكِرَنْ يَوماً بِكَفِّكَ مُدْيَةٌ   لِتُهْلِكَ فَرْخاً في مَوَاطِنِهِ دَجَّا[2]

ولا ننكر عليه أن يعد التذكية ظلماً وغواية وابتعاداً عن الذكاء :

وَلَوْلَا أَنَّكُمْ ظُلْمٌ غُوَاةٌ   لَصَدَّكُمُ الذَّكَاءُ فَلَمْ تُذَكُّوا[3]

وقد علم أن الناس لا يطيعونه في عـدم الذبح ، وأحب أن يعامل الحيوان بالرفق في حياته وعند مماته ، فأوصى أن يريح الذابح ذبيحته ؛ وإراحتها تكون بأن يُحِدَّ آلة الذبح ، ولا يصرع الذبيحة بعنف ، ولا يجرها بشدة ، وأن يسرع بذبحها ، ويتركها حتى تبرد . ولا يذبحها بحضور غيرها مذبوحاً كان أم مراداً ذبحه . ونحو ذلك مما يقتضيه الرفق والإحسان ، وهذا ما يشير اليه قوله :

رَوِّحْ ذَبِيحَكَ لَا تُعْجِلْهُ مِيتَتَهُ   فَتَأْخُذَ النَّحْضَ مِنْهُ وَهُوَ يَخْتَلِجُ[4]

وهذا يشير إلى حديث صحيح رواه أحمد ومسلم وغيرهما عن النبي - ﷺ - أنه قال : « إنَّ الله تعالى كَتَبَ الإحْسَانَ على كلِّ شيء فإذا قتلتم فأحْسِنوا القِتْلَة ، وإذا ذبحتم فأحْسِنوا الذِّبْحَة ، وليُحِدَّ أحدكم شفرَتَه ، وليُرِح ذَبِيحَتَه » .

وقد قدمنا في الكلام على طعامه شيئاً يتعلق بهذا الغرض .

---

(١) اللزوميات ﻫ ص ٢٠٦ . وفيها : « ولا ترهف ... » . والعبيط : الطري . والنحض : اللحم ، والقطعة منه نحضة .

(٢) اللزوميات ﻫ ص ٧٠ . بكر وأبكر : عجل وأسرع ، ودجَّ : دب في السير .

(٣) « « ص ١٨٤ .

(٤) « « ص ٧٤ .

الأخلاق

تناول أبو العلاء هذه الناحية بكثير من العناية والاستقراء، حتى لا تكاد تجد قصيدة له خلوا منها، ولم يدع ناحية إلا وألم بطارف منها. وقد نبهه اضطراب الحياة السياسية، والاجتماعية، والدينية إلى ما انطوى عليه الناس من الأخلاق الذميمة، حتى أصبح لا يثق بشيء من أقوالهم ولا أعمالهم، ولا يصدق شيئاً من مظاهرهم الحسنة. وفي كلامه صور رائعة تمثل للقارىء اعتقاده في الناس بعد اختباره لهم. وإليك طرفاً منها :

وَمَنْ يَفْتَقِدْ حَالَ الزَّمَانِ وَأَهْلِهِ ... يَذُمَّ بِهِمْ غَرْباً مِنَ الأَرْضِ أَوْ شَرْقَا[1]

يَجِدْ قَوْلَهُمْ مَيْناً وَوُدَّهُمُ قِلًى ... وَخَيْرَهُمُ شَرّاً وَصُنْعَهُمُ خُرْقَا

وَبِشْرَهُمُ خَدْعاً وَفَقْرَهُمُ غِنًى ... وَعِلْمَهُمُ جَهْلاً وَحِكْمَتَهُمْ زَرْقَا

ومنها :

مَتَى كَشَّفْتَ أَخْلَاقَ البَرَايَا ... تَجِدْ مَا شِئْتَ مِنْ ظُلْمٍ وَحَرْجٍ[2]

ضَغَائِنُ لَمْ تَزَلْ مِنْ قَبْلِ نُوحٍ ... عَلَى مَا هَانَ مِنْ فِرْزٍ وَعَرْجٍ

. . . .

وَأَشْرَفُ مَنْ تَرَى فِي الأَرْضِ قَدْراً ... يَعِيشُ الدَّهْرَ عَبْدَ فَمٍ وَفَرْجٍ

---

(١) اللزوميات ٥ ص ٣٠٢ .

(٢) « « ص ٧٨ . والفرز من الضأن : ما بين العشرة إلى الأربعين . والعرج : نحو خمسمائة من الابل .

ومنها :

أمسى النّفاق دروعاً يستجنُّ بها ... من الأذى ويقوّي سردها الحلفُ[1]

ومنها :

وبيعتْ بالفلوس لكلّ خزي ... وجوهٌ كالدّنانير الحسانِ[2]

وقد بلغ به سوء الظن في الناس إلى أن لا يثق بنسبة الولد إلى أبيه ، لكثرة ما رأى وسمع من الكذب والشر والخداع في الوالدين ، كما قال في أبيات تقدمت ، منها قوله :

ولحبُّ الصّحيح آثرت الرّو ... مُ انتساب الفتى إلى أمّهاتهْ[3]

ولكثرة ما علم في أهل عصره ومن تقدمهم من الأخلاق الذميمة ، والأفعال اللئيمة ، شك فيهم هل هم من نسل ابليس أم نسل حواء ؟ فقال :

أنسلُ إبليسَ أم حوّاء ويحكمُ ... هذا الأنامُ ففي أفعاله دلسُ[4]

إنْ يؤمنوا لا يؤدّوا أو يكن لهمُ ... عزٌّ يضيموا وإنْ أعياهمُ اختلسوا

وشك مرة أخرى في أنهم جن أم إنس في مثل قوله :

وتفكّرت نفس اللبيب وقد رأت ... أشخوص جنٍّ أم شخوص أناسِ[5]

. . . .

---

(١) اللزوميات هـ ص ٢٩٢ .

(٢) « « ص ٢٧٩ .

(٣) اللزوميات هـ ص ٧٠ .

(٤) اللزوميات هـ ص ٢٩٢ وفيها : « . . . في أفعالهم دلس » .

(٥) « « ص ٣٠٣ .

عُربٌ وَعُجمٌ دَائلُونَ وَكُلُّنَا ... في الظُّلمِ أهلُ تَشابُهٍ وَجِناسِ

وأكبر أن تصدر أفعالهم من الجن ، لأنهم عقلاء ، فشبههم بأنواع من البهائم في مثل قوله :

فَنَحْنُ كَأَيْمِ الضَّالِ أوْلَى بِرَاسِهُ ... بِمَا كَانَ يَغْوِي الآخِرَ المُتَقَدِّمُ(١)

• • •

والنَّاسُ مِثْلُ سَوَامٍ لا حُلومَ لَهُمْ ... يَسُوقُهُ لِلمَنَايَا سَائِقٌ حُطَمُ(٢)

• • •

مَا أشْبَهَ النَّاسَ بِالأنعَامِ ضَمُّهُمُ ... إلى البَسِيطَةِ مُضطَافٌ وَمُرْتَبَعُ(٣)

• • •

وأكثَرُ النَّاسِ مِثْلُ الذِّئبِ تَصْحَبُهُ ... إذَا تَبَيَّنَ مِنكَ الضَّعفَ أطمَعَهُ(٤)

• • •

وَلَيْسَ أخُوكَ إلا لَيْثَ غَابٍ ... يَسُورُ إلى افتِرَاسِكَ بافتِرَاصِ(٥)

• • •

---

(١) اللزوميات ﻫ ص ٢٣٠ .

(٢) « « ص ٢٣٣ . والحطم : الذي يلف كل شيء .

(٣) « « ص ٢٨٣ .

(٤) « « ص ٢٨٦ وفيها : « وأكثر الإنس . . . » .

(٥) « « ص ٢٨٨ ، ويسور : يثب ؛ والافتراس : دق العنق ، وفرصت الجلد بالحديد : اذا شققته ، أو لعلها من افترص الفرصة إذا انتهزها .

وَكَأَنَّ أَبْنَاءَ الذينَ هُمُ الذُّرَا ... أَعْفَاءُ أَهْلٍ لا أَقُولُ مِهَارُ (١)

. . .

والشرُّ في حَيَوانِ الأرْضِ مُفْتَرِقٌ ... وَالإِنسُ كَالوَحْشِ مِنْ ضَارٍ ومُبْتَقِلِ (٢)

وكأنه استقل عليهم التشبيه بالحيوان ، لأن التشبيه يدل على أن الصفة التي يراد التشبيه بها تكون في المشبه أقل منها في المشبه به . ولذلك جعلهم حيواناً بغير تشبيه في مواضع متعددة منها قوله :

وَهُمُ البِهَامُ قَصِيرَةٌ آجَالُهُمْ ... وَيُؤَمِّلُونَ أَطَاوِلَ الأَعْمَارِ (٣)

وقوله :

وَالبَهْمُ يُرْبَقُ وَالأَنَامُ بَهَائِمٌ ... أَبَداً تُقَيَّدُ بِالقَضَاءِ وَتُرْبَقُ (٤)

وقوله :

لاَ تَحْفِلَنَّ هَجْوَهُمْ وَمَدْحَهُمْ ... فَإِنَّمَا القَوْمُ أَكْلُبٌ نُبُحُ (٥)

وقوله :

هُمُ السِّبَاعُ إِذَا عَنَّتْ فَرَائِسُهَا ... وَإِنْ دَعَوْتَ لِخَيْرٍ حُوِّلُوا حُمُرَا (٦)

---

(١) الزوميات ﻫ ص ١٣١ ، والأعفاء : مفردها عفو وهو ولد الحمار ، والمهار : مفردها مهر وهو ولد الفرس .

(٢) الزوميات ﻫ ص ٢١٤ . ومبتقل : آكل البقل .

(٣) لم نعثر على هذا البيت في قافية الراء المكسورة مع الميم من الزوميات . والبهام والبَهْم جمع البَهْمة وهي أولاد الضأن والمعز والبقر .

(٤) اللزوميات ﻫ ص ٣٠١ ، وتربق : أي تشد بالربق وهو حبل فيه عدة عرى يشد به البهم .

(٥) اللزوميات ﻫ ص ٨٣ .

(٦) » » ص ١٤٩ ، عرى يعقد به البهم .

وجعلهم مرة أخرى مساوين للحيوان صراحة كقوله :

دَعَوْا إلى اللهِ كَيْ يُجِيبَهُمُ   سِيَّانِ هُمْ والخَوَاسِيءُ النُّبُحُ[١]

وربما رأى أن بعض الصفات الذميمة موجودة فيهم أكثر مما هي في الحيوان فشبهه بهم ، كما ترى ذلك في قوله :

إنَّ البَهَائِمَ مِثْلُ الإنْسِ غَافِلَةٌ   وَإنَّمَا نَحْنُ بَهْمٌ ذَاتُ أرْبَاقِ[٢]

وجعل الحيوان خيراً منهم في مثل قوله :

وَالوَحْشُ في الفَلَوَاتِ أحْسَنُ عِشْرَةً   لِلْمَرْءِ مِنْ أهْلِيهِ في الأمْصَارِ[٣]

وصرح في بعض كلامه بأن الحيوان يستقبح أفعالهم كقوله :

فَمَا اسْتَحْسَنَتْ هَذِي البَهَائِمُ فِعْلَكُمْ   مِنَ الغَيِّ في الأمَّاتِ وَالحَمَوَاتِ[٤]

وجعل الجماد أفضل من أفضلهم في قوله :

أفْضَلُ مِنْ أفْضَلِهِمْ صَخْرَةٌ   لا تَظْلِمُ النَّاسَ وَلاَ تَكْذِبُ[٥]

* * *

(١) اللزوميات ‹ ص ٨٣ ، وخسأت الكلب : إذا طردته ومنها الخواسيء وهي الكلاب .
(٢) « « ص ٣٠٧ . والأرباق : مفردها ربق وقد تقدم تفسيره ص ١٠٩٨ .
(٣) اللزوميات ‹ ص ١٦١ وفيها : « والوحش بالفلوات أجمل عشرة . . . » .
(٤) « « ص ٦٥ .
(٥) « « ص ٣٦ .

العزلة

جرّب أبو العلاء دهره وأهليه . وخبَر من أخلاقهم وأحوالهم ما خبر . مما تبين في أقواله السابق ذكرها ، وأقواله التي تأتي ، فرأى قربهم داء يستعصي إبراؤه ، ولا سبيل إلى النجاة من شرهم إلا باعتزالهم .

متى عزم على العزلة ؟

ربما كان يدور في خلده العزم على العزلة وهو في بلده حين كان يخالط أهلها ومن يمر بها . وربما كان يظن أن في البلاد الأخرى صنفاً من الناس يفضلون من رآهم في الأخلاق ، كما يَفْضُلونهم في العلم والمنزلة ، فلما رحل إلى بغداد ، وجرب من جرب من الناس ، رأى أنهم كلهم من طينة واحدة ، وطبيعة واحدة . فقال وهو في العراق :

جرَّبتُ دَهْرِي وأَهْلِيهِ فَمَا تَرَكَتْ لِيَ التَّجارِبُ في وُدِّ امْرِىءٍ غَرَضا[1]

ثم قال :

بُعْدِي عَنِ النَّاسِ بُرْءٌ مِنْ سَقَامِهِمُ وَقُرْبُهُمْ لِلحِجَى والدِّينِ أَدْوَاءُ[2]

---

(١) شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٦٥٦ .

(٢) اللزوميات هـ ص ٢٢ ونيا : « بعدي من الناس .... » والحجى : العقل والفطنة ؛ والأدواء : جمع داء .

وبيّن سبب إيثاره العزلة على المخالطة في مثل قوله :

وَجَانِبِ النَّاسَ تَأْمَنْ مِنْ سَقَامِهِمُ ... وَأَنْ تَكُونَ لَدَى الجُلَّاسِ مَمْقُوتَا (١)
لَابُدَّ مِنْ أَنْ يَذُمُّوا كُلَّ مَنْ صَحِبُوا ... وَلَوْ أَرَاهُمْ حَصَى المَعْزَاءِ يَاقُوتَا

وقوله :

تَخَيَّرْ فَإِمَّا وَحْدَةٌ مِثْلُ مِيتَةٍ ... وإِمَّا جَلِيسٌ فِي الحَيَاةِ مُنَافِقُ (٢)

وقوله :

أَمَّا الأَنَامُ فَقَدْ صَاحَبْتُهُمْ زَمَناً ... فَمَا رَضِيتُ مِنَ الخُلَّانِ مَصْحُوبَا (٣)

وقوله :

وَأَيُّ بَنِي الأَقْوَامِ يُحْمَدُ قَائِلٌ ... وَمَنْ جَرَّبَ الأَقْوَامَ أَوْسَعَهُمْ ثَلْبَا (٤)

وهو لم يجرب العرب فقط حتى يكون ذمه مقصوراً عليهم ، بل خبر العجم أيضاً . فلم يجد في كلا الفريقين من يستحق المدح كما يدل عليه قوله :

لَعَمْرِي لَقَدْ شَاهَدْتُ عُجْماً كَثِيرَةً ... وَعُرْباً فَلَا عُجْماً حَمِدْتُ وَلَا عُرْبَا (٥)

وقد عرفنا أنه وحشي الغريزة إنسي الولادة ، وهذه الغريزة ما زالت تنمى فيه وتزداد كلما ازداد مخالطة للناس واختبارا ، حتى رأى هجر الناس مذهباً نافعا :

---

(١) اللزوميات ﻫ ص ٦٣ وفيها : « وجانب الناس تأمن سوء فعلهم . . . » . والمعزاء : الأرض ذات الحصى الكثير .
(٢) اللزوميات ﻫ ص ٢٩٩ .
(٣) « « ص ٤٠ .
(٤) « « ص ٣٨ وفيها : « وأي بني لأيام . . . » والثلب : الذم .
(٥) « « ص ٣٨ .

وَلِي مَذْهَبٌ فِي هَجْرِيَ الإِنْسَ نَافِعٌ إِذَا القَوْمُ خَاضُوا فِي اخْتِيَارِ المَذَاهِبِ (١)

ورأى صدود الأنيس إيناسا :

جَزَى اللهُ عَنِّي مُؤْنِسِي بِصُدُودِهِ جَمِيلاً فَفِي الإِيحَاشِ مَا هُوَ إِينَاسُ (٢)

ولم يحب اقتراب الجليس ومعاشرته :

جَلِيسِي مَا هَوِيتُ لَكَ اقْتِرَاباً وَصُنْتُكَ عَنْ مُعَاشَرَتِي فَصُنِّي (٣)

وزاد على هذا ، فعد القرب من الناس مجلبة للوحشة والهموم ، والبعد عنهم طهارة وأنسا :

إِذَا حَضَرَتْ عِنْدِي الجَمَاعَةُ أَوْحَشَتْ فَمَا وَحْدَتِي إِلاَّ صَحِيفَةُ إِينَاسِي (٤)

طَهَارَةُ مِثْلِي فِي التَّبَاعُدِ عَنْكُمُ وَقُرْبُكُمُ يَجْنِي هُمُومِي وَأَدْنَاسِي

لأنه يعتقد أن ليس في أهل زمنه من يستحق إلا القطيعة والهجر :

هَذَا زَمَانٌ لَيْسَ فِي أَهْلِهِ إِلاَّ لِأَنْ تَهْجُرَهُ أَهْلُ (٥)

وقد تقدم أنه أخفق في طلب العزلة التي أرادها . وأن الناس غلبوه على أمره . ولكنه كان يقتصر على مخالطة الطلاب والزوار . وفي كلامه ما يدل على تذمره من تلك المخالطة ، وأنه كان غير مختار فيها .

---

(١) اللزوميات ﻫ ص ٤٦ .
(٢) « « ص ٣٠٩
(٣) « « ص ٢٧٨ .
(٤) « « ص ٢٩٨ .
(٥) « « ص ٢٠١ .

السياسة

لا أذكر أني رأيت في كلام أبي العلاء ما يدل على مذهبه الصريح في الملك . هل يكون بالوراثة ، أو البيعة ، أو الشورى ، أو التغلب ، أو الدهاء ، أو غير ذلك ؟ وقد يشير في بعض كلامه إلى شيء من هذه الصور . ويمكن أن يلخص كلامه في أمرين :

الأول : حق الرعية على الراعي .

والثاني : حق الراعي على الرعية .

حق الرعية على الراعي

أما الأول ، فإنه يعتقد أن المَلِكَ أو الأمير خادم للرعية ؛ فيجب عليه أن يقوم بما يعود عليها بالعوائد الحسنة بصدق وإخلاص :

إِذَا مَا تَبَيَّنَّا الأُمورَ تَكَشَّفَتْ لَنَا وَأَمِيرُ القَوْمِ لِلقَوْمِ خَادِمُ[1] .

وليس له أن يستعمل ما استمده منها من القوة والسلطان في مصالح نفسه وخلصانه ، ولا أن يتعدى الحدود التي أقامها له الشارع أو اختطتها له الرعية . وعلى هذا الأساس نقم على أمراء زمانه لما جاوزوا تلك الحدود ، واستجازوا كيد الأمة ، ورغبوا عن مصلحتها إلى مصلحتهم ، وتوهموا أن الأمة ملك لهم يتصرفون بها تصرف المالك بالحيوان أو السلعة .

---

(١) اللزوميات ﻫ ص ٢٣١ .

ولعله أول شاعر استثار سخط الأمة على أمرائها ، وعرّفها أن الأمراء أجراء ؛ والأجير يجب أن يعمل لمصلحة مستأجره ؛ فإذا أخل بذلك استحق العزل والطرد . ولم أر شاعراً اجترأ على ملوك زمانه وأماط النقاب عن مخازيهم مثل أبي العلاء ، وقد يتراءى ذلك في مثل قوله :

مُلَّ الْمُقَامُ فَكَمْ أُعَاشِرُ أُمَّةً أَمَرَتْ بِغَيْرِ صَلاحِهَا أُمَرَاؤُهَا[1]
ظَلَمُوا الرَّعِيَّةَ وَاسْتَجَازُوا كَيْدَهَا فَعَدَوْا مَصَالِحَهَا وَهُمْ أُجَرَاؤُهَا

وقد ذكرنا فيما سبق أن الحياة السياسية في عهده كانت سيئة ، وأن المتمردين على السلطان والخارجين عن طاعته كانوا يسومون الناس ضروباً من الظلم والعسف ولا يصدون أنفسهم عن منكر أو خزي ، وأن السلطان وخلصانه وأعوانه كانوا لا يألون جهداً في ذلك . ولذلك لا يكاد يصف الملوك في عهده إلا بما يوجب النقمة عليهم كقوله :

فَإِنِّي أَرَى الآفَاقَ دَانَتْ لِظَالِمٍ يَغُرُّ بَغَايَاهَا وَيَشْرَبُ خَمْرَهَا[2]

وكان يرى في الملوك السابقين من عرب ومن عجم ، من لا يقل شره عن الملوك الذين كانوا في عصره يدل على ذلك مثل قوله :

وَهَلْ خَلَتْ قَبْلُ مِنْ جَوْرٍ وَمَظْلِمَةٍ مُلُوكُ فَارِسَ أَوْ أَرْبَابُ غَسَّانِ[3]

وأبو العلاء درس أحوال الملوك ، والرؤساء ، والأمراء ، والزعماء ، والوزراء ، والولاة في عصره درساً متقناً ؛ وألمّ من أخبارهم وأحوالهم بما

---

(١) اللزوميات « ص ٢٣ .
(٢) « « ص ١٣٨ .
(٣) « « ص ٢٧٦ .

تقشعر منه الجلود . وقد صور لنا بعض ذلك في شعره ؛ وهو يعبر عمن ولي أمر الناس بالرؤساء تارة ، وبالملوك ثانية ، وبالأمراء ثالثة ، وبالولاة رابعة ونحو ذلك . والمراد بكل واحد من هؤلاء من يتولى أمر الناس وسياستهم .

الرؤساء

أما الرؤساء فإنهم تولوا الرآسة بالمكر والدهاء ، لا بالكفاءة والإخلاص :

رَئِيسَ النَّاسُ بِالدَّهَاءِ فَمَا يَنْـ ـفَكُّ جِيلٌ يَنْقَادُ طَوْعَ دُهَاتِهِ[(١)]

الملوك

وأما الملوك فإنهم :

مَلَكُوا فَمَا سَلَكُوا سَبِيلَ الرُّشْدِ بَلْ مَلَأُوا الدِّيَارَ ضَوَارِباً وَمَزَاهِرَا[(٢)]

وهم عبيد لشهواتهم ، ومن اقترب منهم لا ينجو من أذاهم ، أو منّ منهم عليه بغير إحسان ولا منة :

أَتَعْجَبُ مِنْ مُلُوكِ الأَرْضِ أَمْسَوْا لِلَذَّاتِ النُّفُوسِ عَبِيدَ قِنٍّ[(٣)]

فَإِنْ دَانَيْتَهُمْ لَمْ تَعْدُ ظُلْماً وَمَنّاً في الأُمُورِ بِغَيْرِ مَنٍّ

---

(١) اللزوميات هـ ص ٧٠ .

(٢) » » ص ١٤٣ .

(٣) » » ص ٢٧٨ . والقنّ بالكسر : عبد ملك هو وأبواه . جا (٢٤)

وقد استنزفوا أموال الناس ، وثمروها وكنزوها ؛ وهم لا يسمحون بشيء منها . وإن أمهم فقير عاد بالخيبة والإخفاق :

وَأَمْلاكٌ تَبَحَّرُ فِي غِنَاهَا وَإِنْ وَرَدَ العُفَاةُ فَهُمْ سَرَابُ[١]

وقلما غشي منازلهم أحد من أهل الفضل ، أو هشوا للقاء أهل الفضل بل :

مُلُوكُنَا الصَّالِحُونَ كُلُّهُمُ زِيرُ نِسَاءٍ يَهِشُّ لِلزِّيَرَهْ[٢]

لأن شبيه الشيء منجذب اليه .

وأكثرهم كحمر الوحش لا تعرف ولا تألف إلا أتنها :

غَنِيْنَا مِنْ عَفَافِ النَّفْسِ أَفْقَرُنَا وَقَيْلُنَا عِلْجُ وَحْشٍ يَألفُ الأُتُنَا[٣]

وقد تقاسموا الأعمال الجائرة والمخزية بينهم وبين عمالهم :

فَشَأْنُ مُلُوكِهِمْ عَزْفٌ وَنَزْفٌ وَأَصْحَابُ الأُمُورِ جُبَاةُ خَرْجِ[٤]
وَهَمُّ زَعِيمِهِمْ إِنْهَابُ مَالٍ حَرَامِ النَّهْبِ أَوْ إِحْلالُ فَرْجِ

الأمراء

وأما الأمراء ، فقد قدر الله على الناس أن يكون لهم :

بِكُلِّ أَرْضٍ أَمِيرُ سُوءٍ يَضْرِبُ لِلنَّاسِ شَرَّ سِكَّهْ[٥]

---

(١) اللزوميات هـ ص ٣٤ .
(٢) » » ص ١٤٤ والزير : الذي يكثر زيارة النساء . والزيرة : مفردها زير وهو زير العود .
(٣) اللزوميات هـ ص ٢٦٥ . والأتن : مفردها أتان وهي أنثى الحمار
(٤) » » ص ٧٨ . والنزف : السكر ، ومن معاني النزيف : السكران والخرج : الإتاوة .
(٥) اللزوميات هـ ص ١٨٧ .

ولم ينل أحد منهم الإمارة من طريق شريف ؛ ولا عن عمل محمود . بل الأمر بالعكس :

فأَمِيرُهُمْ نَالَ الإِمَارَةَ بالخَنَا ... وَتَقِيُّهُمْ بِصَلاَتِهِ يَتَصَيَّدُ[1]

ولم يوفق أحد منهم إلى عمل يربح به ثواباً من الله ، أو ثناء من الناس :

هَلِ الأُمَرَاءُ إلاَّ في خَسَارٍ ... أوِ الوُزَرَاءُ إلاَّ أهْلُ وِزْرِ[2]

ولعل السبب في ذلك أن الملوك ، ومن في حكمهم ، لم يتولوا أمور الناس عن إجماع ورضى ، ولا عن جدارة وفضل ، ولم يكونوا من ذوي الحسب التالد والشرف القديم ، ولا من ذوي النفوس العظيمة . وإنما دار الزمان دورته حتى :

غَدَا العُصْفُورُ للْبَازِي أمِيراً ... وَأصْبَحَ ثَعْلباً ضِرْغَامُ تَرْجِ[3]

وجبن الناس عن الذود عن حياضهم بأيديهم ، وأقفرت البلاد من رؤساء يكبحون جماح هذه الفئة الطاغية العاتية حتى :

عَاثَتْ ذِئابٌ فَلَمْ يَزْجُرْ مَعَرَّتَها ... مُسْتَضْعَفُونَ لِفُقْدَانِ السَّنَانِيرِ[4]

---

(١) اللزوميات هـ ص ٩٧ . وفيها : « . . . بصلاته متصيد » .

(٢) « « ص ١٥٤ .

(٣) ترْج : جبل بالحجاز كثير الأسْد أو قرية أو واد (ج) وانظر اللزوميات هـ ص ٧٨ .

(٤) السنانير : رؤساء كل قبيلة جمع سِنَّور (ج) وانظر اللزوميات هـ ص ١٥٢ .

الولاة

وأما الولاة فإنهم ذئاب مسلطة على رعية أذل من النَقَد ، وأصبر على الضيم من الوتد :

وُلاَةُ العَالَمِينَ ذِئابُ خَتْلٍ   تَكُونُ مِنَ الشَّقَاءِ رُعَاةَ فِزْرِ [(١)]

بل هم شياطين مسلطون على مستضعفين لا يهمهم إلا أن يملأوا بطونهم من الشهوات ، وإن كان الناس في أقصى دركات الشقاء فقد :

سَاسَ البِلاَدَ شَيَاطِينٌ مُسَلَّطَةٌ   في كُلِّ مِصْرٍ مِنَ الوَالِينَ شَيْطَانُ [(٢)]
مَنْ لَيسَ يَحْفِلُ خُمْصَ النَّاسِ كُلِّهِمُ   إنْ بَاتَ يَشْرَبُ خَمْراً وَهوَ مِبْطَانُ

. . .

وَمَا فَتِئَتْ وُلاَةُ الأَمْرِ فِيهَا   عَلَى الصَّفْرَاءِ تُصْرَفُ أَوْ تُشَجُّ [(٣)]

وصفوة القول : أنه لم ير في ولاة الأمر من ملوك وأمراء ووزراء ونحوهم من يستحق أن يحمد . وإنما هم بين زير نساء ، وعبد فرج ، وجابي خرج ، وذئب خاتل ، وشيطان مسلط . استباحوا من أموال الناس وأعراضهم ما حرم الله . ولم تعرف قلوبهم الرحمة ولا الخشية من الخالق ، ولا الحياء من المخلوق . وهم فوق ذلك :

---

(١) الفزر : الجدي . والقطيع من الغنم (ج) وانظر اللزوميات هـ ص ١٥٤ .

(٢) اللزوميات هـ ص ٢٦٢ . وفيها : « ساس الأنام ... » وخمص : مفردها خميص وهو ضامر الحشا من الجوع . والمبطان : الذي لا يزال ضخم البطن من كثرة الأكل .

(٣) اللزوميات هـ ص ٧٥ . والصفراء : الخمر . وتصرف : أي لم تمزج وتشرب صرفا ، وتشج : تمزج .

يَسُوسُونَ الأُمُورَ بِغَيْرِ عَقْلٍ ... فَيَنْفُذُ أَمْرُهُمْ وَيُقَالُ سَاسَهْ(١)

ورئيس القوم إذا لم يعتصم في سياسته بحبل العقل أخطأ الصواب وخبط خبط عشواء :

وَإِذَا الرَّآسَةُ لَمْ تُعَنْ بِسِيَاسَةٍ ... عَقْلِيَّةٍ خَطِئَ الصَّوَابَ السَّائِسُ(٢)

وإذا كانت الرعاة على ما وصفنا من الجور والانهماك في الملاذ ، والرعية على ما أسلفنا من الضعف والاستكانة :

فَأُفٍّ مِنَ الزَّمَانِ وَأُفٍّ مِنِّي ... وَمِنْ زَمَنٍ رَآسَتُهُ خَسَاسَهْ(٣)

والسلطان في جملته كالنار تحرق ما دنا منها :

وَسُلْطَانُهَا كَالنَّارِ إِنْ هِيَ لُومِسَتْ ... تُحَرِّقُ مَا يَدْنُو لَهَا وَيُلَامِسُ(٤)

هذا اعتقاد أبي العلاء في أولي الأمر ، وقد أيده الاختبار ، ونماه الاستقراء لأحوالهم . فكره الإمارة والولاية في كل شيء . حتى في إمامة الصلاة ، ولم يرتضها لأقاربه وأصدقائه ، بل حذر منها بمثل قوله :

أَنْهَاكَ أَنْ تَلِيَ الحُكُومَةَ أَوْ تُرَى ... حِلْفَ الخَطَابَةِ أَوْ إِمَامَ المَسْجِدِ(٥)

وَذَرِ الإِمَارَةَ وَاتِّخَاذَكَ دِرَّةً ... فِي المِصْرِ تَحْسِبُهَا حُسَامَ المُنْجِدِ

تِلْكَ الأُمُورُ كَرِهْتُهَا لِأَقَارِبٍ ... وَأَصَادِقٍ فَانْجُلْ بِنَفْسِكَ أَوْجِدِ

---

(١) اللزوميات ﻫ س ٢٩٦ .

(٢) « « ص ٢٩٥ . وفيها : « وإذا الرئاسة ... » .

(٣) « « ص ٢٩٦ . وفيها « فأف من الحياة وأف مني ومن زمن رئاسته خساسة » .

(٤) « « ص ٣١٠ .

(٥) « « ص ١١٢ . والدِرّة بالكسر : السوط يضرب به .

ولم يختر لقومه أن يلوا القضاء ، أو شهادة العدل لما فيها من الولاية :

يَقُولُونَ في المِصْرِ العُدُولُ وَإِنَّمَا   حَقِيقَةُ مَا قَالُوا العُدُولُ عَنِ الحَقِّ[1]

وَلَسْتُ بِمُخْتَارٍ لِقَوْمِي كَوْنَهُمْ   قُضَاةً وَلاَ وَضْعَ الشَّهَادَةِ فِي الرَّقِّ

وقد قدمنا أنه استعفى من الفتيا ، ولم يرض لابن أخيه الذي كان يتعهده أن يلي القضاء .

ومن مجموع أقوال أبي العلاء ، يتبين أنه لم يكن ناقماً على المُلْك ، ولا ساخطاً على كل ملِك لأنه ملك . ولا متمرداً على كل ذي سلطان . وإنما كان يكره الملك الذي يستصفي أموال الناس ، ويستبيح أعراضهم ، ويسلط أعوانه عليهم ، ويسومهم أنواعاً من الخسف والعسف ، ثم لا يدفع عنهم شرا ، ولا يحوطهم من الأشرار ، كالملوك الذين وصفهم بقوله :

وَأَرَى مُلُوكاً لاَ تَحُوطُ رَعِيَّةً   فَعَلاَمَ تُؤْخَذُ جِزْيَةٌ وَمُكُوسُ[2]

وكذلك لم يكن نزّاعاً إلى عدم الملك ، وترك الناس هملا ليس لهم رادع ولا وازع ، بل كان يعتقد أن الملك للأرض كالمطر ، وأنه ينفع وإن ضر . لأن الناس محتاجون إلى من يجمع كلمتهم ، ويحمي حوزتهم ، يدل على هذا مثل قوله :

فَاخْشَ المُلُوكَ وَيَاسِرْهَا بِطَاعَتِهَا   فَالمُلْكُ لِلأَرْضِ مِثْلُ المَاطِرِ السَّانِي[3]

---

(١) اللزوميات هـ ص ٣٠٥ . وفيها : « ... الشهادة في رقّ » . والرق بالفتح وبكسر : الصحيفة البيضاء .

(٢) « « ص ٢٩٥ . والجزية : ما يؤخذ من أهل الذمة . والمكوس : مفردها مكس وهو جباية العشار .

(٣) اللزوميات هـ ص ٢٧٦ . وفيها : « واخش الملوك ... » . والساني : المطر من سنا الأرض يسنوها أو يسنيها .

إنْ يَظْلِمُوا فَلَهُمْ نَفْعٌ يُعَاشُ بِهِ ... وَكَمْ حَمَوْكَ بِرَجْلٍ أَوْ بِفُرْسَانِ

وكان يتمنى أن يقوم في الناس إمام عادل ، يملأ الأرض عدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً ، حتى أصبحت لا تعرف ما هو العدل :

مَتَى يَقُومُ إمَامٌ يَسْتَقِيدُ لَنَا ... فَتَعْرِفَ العَدْلَ أَجْبَالٌ وَغِيطَانُ(١)

يريد أن الظلم لم يقتصر على الأمصار والقرى والسهول ، بل عم الأرض كلها : أجبالها وغيطانها . وكان يجب أن يكون المجتمع الإنساني على غاية من الكمال ، وأن يتمتع كل إنسان بنصيب وافر من الراحة والهناء ، ليتمكن من أداء ما يجب عليه في الحياة .

ويعتقد أن النوع الإنساني كالجسم الواحد ، وكل فرد منه بمنزلة عضو من ذلك الجسم ، له وظيفة يجب أن يقوم بها . فمصالح هذا الجسم مشتركة بين أعضائه ، وكل عضو يخدم نفسه بما يخدم به غيره ، ولا يسد غيره مسده فيه :

وَالنَّاسُ بِالنَّاسِ مِنْ حَضْرٍ وبَادِيَةٍ ... بَعْضٌ لِبَعْضٍ وَإِنْ لَمْ يَشْعُرُوا خَدَمُ(٢)

وَكُلُّ عُضْوٍ لِأَمْرٍ مَا يُمَارِسُهُ ... لَا مَشْيَ لِلْكَفِّ بَلْ تَمْشِي بِكَ القَدَمُ

ولا يستطيع كل عضو أن يقوم بما يجب عليه حق القيام إلا إذا سلم من كل آفة تعرقه عنه . فاحتيج إلى السلطان ليتعهد هذه الأعضاء ، ويدفع عنها كل شر يؤدي إلى الإخلال بسيرها ، ويشد ازر الضعيف منها حتى لا يضمحل أو يفنى ، ويوزع على كل منها ما به قوام حياته . فإن قام

---

(١) اللزوميات هـ ص ٢٦٢ . ويستقيد له : ينقاد له .

(٢) » » ص ٢٣٣ .

بذلك على وجه عادل سلمت الأعضاء وسلم الجسم . وإن جار وحابى أفضى ذلك إلى الخلل والفوضى ، ثم إلى الهلاك . وقد علمنا فيما سبق أن أبا العلاء يكره المحاباة والأثرة بالنعيم من قوله :

فَلاَ هَطَلَتْ عَلَيَّ وَلاَ بِأَرْضِي ... سَحَائِبُ لَيْسَ تَنْتَظِمُ البِلاَدَا (١)

ويكره الظلم ولو نال به أقصى ما ينال :

وَمَا سَرَّنِي أَنِّي أَصَبْتُ مَعَاشِراً ... بِظُلْمٍ وَأَنِّي فِي النَّعِيمِ مُخَلَّدُ (٢)

ورأى أبو العلاء أصناف الملوك وأولي الأمر قد ركب كل منهم مطية الغرور والزهو ؛ وانخدع بمدح المنافقين ونفاق المتزلفين . فأماط لهم اللثام عن حقيقة ما هم فيه ، وعن عاقبة أمرهم . وبين لهم أنهم فقراء على غناهم ، ضعفاء على قوتهم ؛ ليكبحوا جماح أنفسهم ، ويقللوا من غلوائهم ، ويحاسبوا نفوسهم قبل أن يحاسبهم الدهر . فقال يبين أنهم أفقر الناس الأحياء :

وَأَفْقَرُ النَّاسِ فِي دُنْيَاهُمُ مَلِكٌ ... يُضْحِي إِلَى اللَّجِبِ الجَرَّارِ مُحْتَاجَا (٣)

وزاد فقال : إنهم أفقر من الموتى :

لَكَوْنُ خِلِّكَ فِي رَمْسٍ أَعَزُّ لَهُ ... مِنْ أَنْ يَكُونَ مَلِيكاً عَاقِدَ التَّاجِ (٤)

أَلْمَلْكُ يَحْتَاجُ آلافاً لِتَنْصُرَهُ ... وَالمَيْتُ لَيْسَ إِلَى خَلْقٍ بِمُحْتَاجِ

---

(١) شروح سقط الزند ، ق ٢ ص ٥٦٤ .

(٢) اللزوميات ٥ ص ٨٩ .

(٣) « « ص ٧٦ .

(٤) « « ص ٧٧ . والآلاف : العدد المعروف وجمع الإلف أي الأليف .

وهوّن أمرهم حتى جعل الحطّاب مساوياً للملك :

مَاعَاقِدُا لحبْلِ يَبْغِي بِالضُّحى عَضَداً إلّا كَصَاحِبِ مُلْكٍ عَاقِدِ التَّاجِ (١)

وقال يشير إلى ما يؤول إليه أمر كل منهم :

إذَا كَانَ هَذَا التُّرْبُ يَجْمَعُ بيْنَنَا فَأهْلُ الرَّزَايَا مِثْلُ أهْلِ المَمَالِكِ (٢)

. . .

مَا يَفعَلُ الرَّأسُ بِالتِّيجانِ يَعْقِدُهَا وإنّما هُوَ بَعْدَ المَوْتِ جُلْمُودُ (٣)

. . .

وَكَمْ نَزَلَ القَيْلُ عَنْ مِنْبَرٍ فَعَادَ إلى عُنْصُرٍ في الثَّرَى (٤)

وَأُخْرِجَ مِنْ مُلْكِهِ عَارِياً وَخَلَّفَ مَمْلَكَةً بِالعَرَا

وقال فيمن يمدح الملوك على المنبر :

مَا أجْهَلَ الأُمَمَ . . . .

يَدْعُونَ في جُمُعَاتِهِمْ بِسَفَاهَةٍ لِمَلِيكِهِمْ فَيَكَادُ يَبْكِي المِنْبَرُ (٥)

★ ★ ★

---

(١) اللزوميات ص ٧٧ والعضد : من عضد الشجر إذا قطعه ، والعضد بفتحتين ما قطع من الشجر .

(٢) اللزوميات « ص ١٨٨ .

(٣) اللزوميات « ص ٩٤ . وفيها : « ما يصنع الرأس . . . » . والجلمود : الصخر .

(٤) « « ص ٢٩ . وفيها « . . . « أخرج من ملكه عادياً . . . » .

(٥) اللزوميات « ص ١٢٦ . وتمام البيت الأول : . . . الذين عرفتهم
ولعل سالفهم أضل وأكبر

الدنيا

أصل هذه الكلمة : « فعلى » مؤنث « أفعل » من الدنو وهو القرب ، وقد يعبر بالأدنى أو الدنيا تارة عن الأصغر ، فيقابل بالأكبر ، مثل ﴿ العَذَاب الأدْنَى دُونَ العَذَاب الأكْبَرِ (١) ﴾ . وتارة عن الأقل ، فيقابل بالأكثر ، مثل : ﴿ ولا أدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أكْثَر (٢) ﴾ . وتارة عن الأرذل ، فيقابل بالخير ، مثل : ﴿ أتَسْتَبْدِلُونَ الذي هوَ أدْنَى بالذي هُوَ خير (٣) ﴾ . وتارة عن الأول ، فيقابل بالآخر ؛ مثل : ﴿ خَسِرَ الدنْيَا والآخرة (٤) ﴾ وتارة عن الأقرب ، فيقابل بالأقصى ؛ مثل : ﴿ إذْ أنتمْ بالعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بالعُدْوَةِ القُصْوَى (٥) ﴾ .

اشتقاق الدنيا وسبب تسميتها

والدنيا مشتقة من « الدنو » بمعنى القرب ، قال الجوهري : « وسميت الدنيا لدنوها » .

ما هي الدنيا

اختلفت كلمة العلماء في تعريف الدنيا ، فقال ابن الأثير : « الدنيا : اسم لهذه الحياة لبعد الآخرة عنها » . وقال أبو البقاء : « الدنيا اسم لما تحت فلك القمر » . وقال غيره : « الدنيا ما على الأرض إلى قيام الساعة » . وقال آخر : « الدنيا كل موجود قبل الحشر » . ورجحه النووي . وقال

---

(١) سورة السجدة الآية ٢١ .
(٢) » المجادلة » ٧ .
(٣) » البقرة » ٦١ .
(٤) » الحج » ١١ .
(٥) » الأنفال » ٤٢ .

آخر : « الدنيا ما أدرك حساً » ، والآخرة ما أدرك عقلاً » . ورجح هذا بعض المحققين . وقال آخر : « الدنيا ما فيه شهوة للنفس » .

الدنيا والشريعة الإسلامية

ذم القرآن الكريم الدنيا ، وحذر منها ، وصغر شأنها ، ونهى عن الاغترار بها ، وحقر أمر من آثرها على الآخرة . في مثل قوله :

﴿ وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا إلاّ مَتَاعُ الغُرُورِ ﴾ (١) ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيل ﴾ (٢) ﴿ وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا إلاّ لَعِبٌ وَلَهْو ﴾ (٣) ﴿ إنَّمَا مَثَلُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أنزَلْنَاهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأرْضِ مِمَّا يَأكُلُ النَّاسُ والأنْعَامُ حَتَّى إذا أخَذَتِ الأرْضُ زُخْرُفَهَا وازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أهْلُهَا أنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أتَاهَا أمْرُنَا لَيْلاً أو نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأنْ لَمْ تَغْنَ بالأمْسِ . وكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآياتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُون ﴾ (٤) ﴿ فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ (٥) . ﴿ ذَلِكَ بِأنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ ﴾ (٦) ﴿ فَأمَّا مَنْ طَغَى وآثَرَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإنَّ الجَحِيمَ هِيَ

(١) سورة آل عمران آية ١٨٥ .
(٢) سورة النساء آية ٧٧ .
(٣) سورة الأنعام آية ٣٢ .
(٤) سورة يونس آية ٢٤ .
(٥) سورة فاطر آية ٥ .
(٦) سورة النحل آية ١٠٧ .

المَأوى ﴾ (١) ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا والآخِرَةُ خَيْرٌ وأبْقَى ﴾ (٢) .

وجاءت أحاديث كثيرة في ذمها ولعنها والتحذير منها وتحقيرها . مثل قوله (ﷺ) : « الدنيا حلوة خضرة ، وإن اللهَ مستخلِفُكم فيها فناظرٌ كيفَ تعمَلُون فاتقوا الدنيـــا واتقوا النساء » . رواه مسلم . وقوله : « الدُّنْيَا دارُ مَنْ لا دَارَ له ، ومَالُ من لا مالَ له ، ولها يجمعُ من لا عقل له » رواه أحمد والبيهقي . وقوله : « الدنْيَا سجنُ المؤمِنِ ، وَجَنّةُ الكافِرِ » رواه أحمد ، ومسلم ، والترمذي ، وابن ماجة ، والطبراني ، والحاكم . وقوله : « الدنيا ملعونَةٌ ، ملعونٌ ما فيهـــا ، إلا ما كانَ منها لِلهِ عزّ وجل » رواه أبو نعيم ، والضياء . وروي بروايات أخرى .

الدنيا وأبو العلاء

نظر أبو العلاء إلى الناس بمنظار قاتم أسود . ونظر إلى الدنيا بمنظار أشد سواداً وقتمة منه . فقد استنزل أشد سخطه وغضبه عليها . وكثيراً ما كان يدعوها أم دَفْر ـ والدفر : النتن ، وأم دَفْر : الداهية . وأم دفر : كنية الدنيا ، قيل : سميت أم دفر لما فيها من الآفات والدواهي ـ وقد أوسعها سبّاً وشتماً وذمّاً ولوماً ، وعرض ذمها بصور مختلفة . وحض على اجتنابها وزهد فيها ، وشغل حيزاً كبيراً من شعره فيها ، فهي تشابه جيفة وأهلها كلاب :

---

(١) سورة النازعات آية ٢٨ .
(٢) سورة الأعلى آية ١٦ .

أَصَاحِ هِيَ الدُّنْيَا تُشَابِهُ مَيْتَةً ... وَنَحْنُ حَوَالَيْهَا الكِلَابُ النَّوَابِحُ (١)

فَمَنْ ظَلَّ مِنْهَا آكِلاً فَهْوَ خَاسِرٌ ... وَمَنْ عَادَ عَنْهَا سَاغِباً فَهْوَ رَابِحُ

وهي تشبه إناء خبيثاً ، وأهلها كلاب والغة :

وَدُنْيَاكَ مِثْلُ الإِنَاءِ الخَبِيثِ ... وَصَاحِبُهَا مِثْلُ كَلْبٍ وَلَغْ (٢)

وهي حائضٌ ليس لها طهر :

تَقَنَّعْ مِنَ الدُّنْيَا بِلَمْحٍ فَإِنَّهَا ... لَدَى كُلِّ زَوْجٍ حَائِضٌ مَا لَهَا طُهْرُ (٣)

وهي دار شرور وكدر :

دُنْيَاكَ دَارُ شُرُورٍ لَا سُرُورَ بِهَا ... وَلَيْسَ يَدْرِي أَخُوهَا كَيْفَ يَحْتَرِسُ (٤)

ولو كانت من الإنس لم تكن إلا فاجرة عاهرة :

وَلَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا مِنَ الإِنْسِ لَمْ تَكُنْ

سِوَى مُومِسٍ أَفْنَتْ بِمَا سَاءَ عُمْرَهَا (٥)

ومن فجورها وجورها أنها :

تَدِينُ لِمَجْدُودٍ وَإِنْ بَاتَ غَيْرُهُ ... يُهَزُّ لَهَا بِيضَ الحُرُوبِ وَسُمْرَهَا (٥)

---

(١) اللزوميات هـ ص ٨١ . والساغب : الجائع .

(٢) اللزوميات هـ ص ٢٩٠ . وولغ الكلب في الإناء : شرب بطرف لسانه .

(٣) اللزوميات هـ ص ١١٨ .

(٤) اللزوميات هـ ص ٢٩٢ .

(٥) اللزوميات هـ ص ١٣٨ .

فلا يغرك منها منظر حسن ، ورواء مستحسن ، ولطف خادع ؛ فإنها باب ظاهره الرحمة وباطنه العذاب . بل إنها :

هِيَ العَرُوسُ أبانتْ عنْ سَمَاجتِهَا فلاَ تَغُرَّنْكَ فِيهَا لَيْلَةُ العُرُسِ[1]

وإذا أنشبت أظفارها في إنسان لا يستطيع النجاة منها :

يا أمَّ دَفْرٍ لَحَاكِ اللهُ وَالِدَةً مِنْكِ الإضَاعَةُ والتَّفْرِيطُ والسَّرَفُ[2]

لوْ أنَّكِ العِرْسُ أوقَعتُ الطَّلاقَ بِها لَكنَّكِ الأمُّ هَلْ لِي عَنْكِ مُنْصَرَفُ

وقد :

خَبِثْتِ يَا أُمَّنَا الدُّنْيَا فأفٍّ لَنَا بَنُو الخَبِيثَةِ أوْبَاشٌ أخِسَّاءُ[3]

. . . .

إذَا تَعَطَّفْتِ يَوْماً كُنْتِ قَاسِيَةً وَإنْ نَظَرْتِ بِعَيْنٍ فَهْيَ شَوْسَاءُ

ومن الإطالة المملة أن نستقصي كل ما قاله فيها ؛ ولكننا ذكرنا شيئاً منه في هذا المقام ، وشيئاً آخر في غيره نستدل بها على أنه أبرع الشعراء في هذا الغرض ، وأن هذا الغرض من أبرز النواحي التي اشتهر بها أبو العلاء ، وصاحبها من فاتحة حياته إلى منتهاها . . لأن الدنيا ابتدأته بالإساءة إليه ، منذ أخذت كريمتيه وهو ابن أربع سنوات ، ثم فجعته بأبيه الذي كان يحدب عليه . ثم لم يزل أذاها متتابعاً عليه حتى فارقها . وقوله في مرثية أبيه :

---

(١) اللزوميات هـ ص ٢٩٩ .

(٢) اللزوميات هـ ص ٢٩٠ .

(٣) اللزوميات هـ ص ٢١ .

عَلى أُمِّ دَفْرٍ غَضْبَةُ اللهِ إِنَّهَا ... لَأَجْدَرُ أُنثَى أَنْ تَخُونَ وَأَنْ تُخْنِي[1]

. . . .

كَأَنَّ بَنِيها يُولَدُونَ وَمَا لَهَا ... حَلِيلٌ فَتَخْشَى العَارَ إِنْ سَمَحَتْ بِابْنِ

يدل على أن قلبه يكاد يتميز من الغيظ من الدنيا وأحكامها الجائرة .

وهو على كثرة ذمه إياها ، ووصفها بالشر والخداع وغيرهما من الصفات ، لا يعتقد خلوها من الخير ، ولا ينكر وجود الخير فيها كما قدمنا ذلك . وإنما يعتقد انه قليل فيها بالنسبة إلى الشر . كما يشير إلى ذلك قوله :

تَسَمَّى سُرُوراً جَاهِلٌ مُتَخَرِّصٌ ... بِفِيهِ البَرَى هَلْ فِي الزَّمَانِ سُرُورُ[2]

نَعَمْ ثَمَّ جُزْءٌ مِنْ أُلُوفٍ كَثِيرَةٍ ... مِنَ الخَيْرِ والأَجْزَاءُ بَعْدُ شُرُورُ

والجزء الواحد بالنسبة إلى الألوف قليل نادر ، والنادر لا حكم له .

★ ★ ★

---

(١) شروح سقط الزند : ق ٢ ص ٩١٢ ، ٩١٥ ، أخنى : أفحش . والحليل : الزوج .

(٢) اللزوميات هـ ص ١٢١ . والمتخرص : الكذاب . والبرى : التراب .

البخت والحظ

البخت : الجَد ، قيل : إنه عربي ، وقيل : معرب . والجد : هو الحظ ، وهو ما جعل الله للإنسان من الحظوظ الدنيوية . والجد : السعادة والغنى . والحظ : الجد والنصيب من الفضل والخير . والسعد : اليمن ، وهو خلاف النحس . وقال بعض العلماء : السعد والسعادة معاونة الأمور الإلهية للإنسان على نيل الخير ، ويضاده الشقاوة .

هذه معاني هذه الكلمات الأربع فيما ذكره أهل اللغة .

وفريق من الناس يتسامحون فيها ، فيجعلونها كأنها مترادفة ؛ ويضعون كل واحدة منها موضع الأخرى ؛ ويريدون بالبخت أو الجد أو الحظ ، في غالب الأحيان ، كل معونة أو توفيق أو نعمة تحصل للإنسان بغير سعي أو بغير جدارة . وأبو العلاء استعمل كل هذه الألفاظ في مواطن من شعره كقوله :

وَالبَخْتُ فِي الأُولَى أَنَالَ العُلا   وَلَيْسَ فِي الآخِرَةِ بَخْتُ[1]

وقوله :

وَبِالجَدِّ زَارَ اللاّتَ أَهْلُ ضَلاَلَةٍ   وَعُظِّمَتِ العُزَّى وَأُكْرِمَ بَاجِرُ[2]

---

(١) هكذا في اللزوميات ط عزيز زند . أما في اللزوميات ﻫ : ص ٦٢ ففيها « وليس في آخرة بخت » .

(٢) اللات : صنم لثقيف . والعزى : شجرة لغطفان يعبدونها . وباجر : صنم للأزد ومن جاورهم من طيء . (ج) . وانظر اللزوميات ﻫ ص ١٢١

وقوله :

وَبِالحَظِّ يُدْعَى تابِعُ القَوْمِ سَيِّداً ... وَمَا كُلُّ آسَادِ العَرِينِ الهَجَارِسُ[١]

وقوله :

وَالسَّعْدُ يُدْرِكُ أَقْوَاماً فَيَرْفَعُهُمْ ... وَقَدْ يَنَالُ إِلى أَنْ تَعْبُدَ الحَجَرا[٢]

وقد استقرى أبو العلاء كثيراً من حوادث الكون ، فرأى عزة ، وبهجة ، وتوفيقا ، وفضيلة ، ونحو ذلك من الصفات العالية ، والأمور المرغوب فيها فيمن لا يستحقها بحسب الظاهر ، أو لم يوجف عليها بخَيْل ولا ركاب ، أو فيمن لا يعلم سببها فيه . فأضاف ذلك كله الى الحظ وما يرادفه أو يقاربه .

ولم يكن محصوراً في الإنسان ، وإنما يكون فيه وفي الحيوان الأعجم ، والنبات ، والجماد . وليس منحصراً في أمر دون أمر ، أو حالة دون حالة ؛ وإنما هو يظهر في كل شيء وفي كل حالة . وهذه أمثلة من كلامه فيه :

الحظ في الإنسان

يرى أبو العلاء أن الحظ يورث الإنسان بهجة وعزة :

مَنْ يُؤْتَ حَظّاً يَبْتَهِجْ وَيَكُنْ لَهُ ... عِزٌّ فَتَرْهَبَ ضَأْنَهُ الآسَادُ[٣]

وَلَوِ ادَّعَى ظَبْيُ الفَلاةِ وَلاءَهُ ... لَغَدَاهُ مِنْ قُنَّاصِهِ الإيسَاد

(١) الهجرس : الثعلب والقرد (ج) . وانظر اللزوميات هـ س ٣١٠ .

(٢) اللزوميات هـ س ١٤٠ . وقاله كذا : جعله يناله .

(٣) أوسد الكلب : أغراه بالصيد ، وأوسد الأسد في السير : أغذ وأسرع (ج) . وانظر اللزوميات هـ س ٩٦ .

ويكسبه رغداً ودعة ، ويوليه معالي الأمور :

إِذَا رُزِقَ الفَتَى في المَحْلِ جَدّاً رَعَى مَا شَاءَ مِنْ ثَعْدٍ وَمَعْدِ [١]
وَمَا نَالَتْ خِلافَتَهَا قُرَيْشٌ وَأُرْغِمَ سَعْدُهَا إلاّ بِسَعْدِ

ويأتيه برزقه بغير سعي ، ويجلب إليه مال عدوه :

إِذَا سَعِدَ البَازِي البَعِيدُ مَغَارُهُ تَأَدَّى إِلَيْهِ رِزْقُهُ وَهُوَ فِي الوَكْرِ [٢]
وَيَحْوِي الفَتَى بِالجَدِّ مَالَ عَدُوِّهِ عَلَى رَغْمِهِ مِنْ غَيْرِ حِرْصٍ وَلا مَكْرِ
وَلَوْ نَحُسَتْ طَيٌّ لَأُلْحِقَ حَاتِمٌ بِحَيٍّ سِوَاهَا مِثْلِ تَغْلِبَ أَوْ بَكْرِ

ويردُّ الضعيفَ قوياً :

وَالسَّعْدُ يَثْنِي المُسْتَضَامَ كَغَالِبٍ سَهَكَ الجِبَالَ مِنَ الأَنَامِ بِفِهْرِهِ [٣]
وَالنَّحْسُ يَعْتَادُ البَصِيرَ وَلُبُّهُ حَتَّى يُقِيمَ عِشَاءَهُ فِي ظُهْرِهِ

---

(١) الثعد : ما لان من البسر ، ويقال : بقل ثعد معد أي غض رطب رخص ، ومعد : إتباع لثعد لا يفرد عنه ، وبعضهم يفرده . ويقال : ماله ثعد ولا معد أي قليل ولا كثير (ج) . وانظر اللزوميات هـ ص ١١١ . وسعدها : أي سعد بن عبادة ، وكان طلب الرئاسة يوم سقيفة بني ساعدة . والسعد الثانية : الجد أو الحظ .

(٢) اللزوميات هـ ص ١٤٧ . وغار : ذهب في الأرض .

(٣) اللزوميات هـ ص ١٥٩ . والمستضام : المظلوم ، والغالب : ضد المظلوم وأوهم أبو العلاء به غالب بن فهر بن مالك . وسهك : لغة في سحق . والفهر : حجر ملء الكف .

ويجعل اللئيم كريماً :

وَالحَظُّ يسْرِي فَيَغشَى مَعشراً حُسِبُوا … مِنَ اللِّئَامِ وتُقْصَى دُونَهُ المُجُدُ (١)

ويجعل غير النجيب نجيباً :

وَقَدْ تَغْشَى السَّعَادَةُ غَيْرَ نَدْبٍ … فَيَشْرُقُ بِالسُّعُودِ إِذَا وَدَسْنَهُ (٢)

ويبلغ بصاحبه المكارم وإن لم يكن شجاعاً :

وأرَى الفَتَى بَلَغَ المَكَارِمَ والعُلَى … بِالحَظِّ لَا بِسِنَانِهِ والمُنْصُلِ (٣)

ويجعل هذا بليغاً ذكياً ، وذاك حصراً عيياً :

وَلَا فَضْلَ فِينَا وَلَكِنَّهَا … حُظُوظٌ مِنَ الفَلَكِ الصَّاقِلِ (٤)

فَهَذَا كَسَحْبَانَ لَمَّا احْتَبَى … وَذَلِكَ فِي سِمَلَيْ بَاقِلِ

ويقرب من الأمور ما لا ينال بشد الرحال :

وَالجَدُّ يأْتِيكَ بِالأَشْيَاءِ مُمْكِنَةً … وَلَا تُنَالُ بِإِشْآمٍ وَإِعْرَاقِ (٥)

حتى إن الإرث يجري على قدر الحظوظ ، لا على قدر الرأفة بالميت والعناية به قبل موته :

---

(١) اللزوميات ﻫ ص ٩٢ . والمجد : مفردها مجيد وهو كريم الآباء .

(٢) انظر ما سبق ص ١٤٢٣ .

(٣) اللزوميات ﻫ ص ٢٢٠ .

(٤) اللزوميات ﻫ ص ٢٢٤ . وسحبان : رجل من وائل كان لسناً بليغاً يضرب به المثل بالبيان . وباقل : رجل من العرب يضرب به المثل بفهاهته وعيه .

(٥) اللزوميات ﻫ ص ٣٠٧ . والإشآم : السفر إلى الشام ، والإعراق : السفر إلى العراق .

حَيَرَانُ أَنْتَ فأيَّ الناسِ تَتْبَعُ ... تَجْرِي الحُظُوظُ وكُلٌّ جاهِلٌ طَبِعُ[(١)]

والأُمُّ بِالسُّدْسِ عَادَتْ وَهْيَ أَرْأَفُ مِنْ

بِنْتٍ لَهَا النِّصْفُ أوْ عِرْسٍ لَهَا الرُّبُعُ

وإذا صدق الحظ مع إنسان نسب إليه الناس من المكارم ما لا يصدقه الظن :

إذَا صَدَقَ الجدُّ افْتَرَى العَمُّ لِلْفَتَى ... مَكَارِمَ لا تُكْرِي وإنْ كَذَبَ الخَالُ[(٢)]

ومن تتبع حوادث الدهر والخلق تبين له أن الحظ لا يكون في الغالب إلا لدنيء الهمة بل :

لا حَظَّ في الدُّنْيَا لِعَالِي هِمَّةٍ ... وَالوَحْشُ أَفْضَلُ صَيْدِهَا الأَعْيَارُ[(٣)]

الحظ في الحيوان

وقد يدرك الحظ الحيوانَ فيجعل الصغير منه كبيراً :

السَّعْدُ يَجْعَلُ ذَرِّيَّ الدَّبى نَعَمًا ... وَالنَّحْسُ يُهْلِكُ مَالَ المَرْءِ مِنْ أَمَرِ[(٤)]

---

(١) انظر ما سبق ص ١٣٢٩ .

(٢) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١٢٦٢ ، والجد : الحظ ، والعم : الجماعة ، وتكري : تنقص . والخال : المخيلة والظن ، وألغز بهذا البيت عن الجد والعمّ والخال .

(٣) اللزوميات ﻫ ص ١٣١ . والأعيار : الحمر ، مفردها : عير .

(٤) اللزوميات ﻫ ص ١٥٠ . والذري : من الذر وهو صغار النمل ويريد منه الصغير جداً من الجراد . الدبى : أصغر الجراد . والنعم : الإبل والأَمَر : من أمِر الرجل : كثرت ماشيته ، وأمره الله : كثر نسله وماشيته ، والأمر : الصغير من أولاد الضأن .

ويجعل العزيز ذليلاً مأسوراً ، والذليل حراً مطلقاً :

هُوَ الحَظُّ عَيْرُ البِيدِ سَافَ بِأَنْفِهِ خُزَامَى وَأَنْفُ العَوْدِ بالذُّلِّ يُخْزَمُ (١)

الحظ في النبات

وقد يدرك الحظ النبات فيجعله إلهاً معبوداً :

والسَّعْدُ يُدْرِكُ أَقْوَاماً فَيَرْفَعُهُمْ وَقَدْ يَنَالُ إِلى أَنْ تَعْبُدَ الحَجَرا (٢)

وَشَرَّفَتْ ذَاتَ أَنْوَاطٍ قَبَائِلُها فَلَمْ تُبَايِنْ عَلى عِلاَّتِها الشَّجَرَا

الحظ في الجماد

وكذلك الجماد قد يغشاه الحظ ، حتى يعبده الناس كما تقدم في قوله :

. . . . وَقَدْ يَنَالُ إِلى أَنْ تَعْبُدَ الحَجَرَا

وقد يكون لبعضه مزية على بعضه الآخر ، وقد لا تدرك الحكمة في ذلك :

وَهْيَ السَّعَادَةُ لِلْحِجْرَيْنِ مَائِزَةٌ مَغْنَى ثَمُودَ وَحِجْرِ البَيْتِ وَالحَرَمِ (٣)

• • •

---

(١) اللزوميات ٥ ص ٢٢٨ . والعير : الحمار الوحشي . وساف يسوف : شمّ ، والخزامي : نبت زهره أطيب الأزهار نفحة . والعود : الجمل المسن . ويخزم : يشد بالخزامة وهي حلقة من شعر تكون في أنف البعير .

(٢) انظر ما سبق ص ١٦٢١. ورواية البيت الثاني في اللزوميات ه « ولم تباين على .. » وذات أنواط : شجرة كانت تعبد في الجاهلية ، وفي الحديث : (اجعل لنا ذات أنواط) قال ابن الأثير : هي اسم سمرة بعينها كانت للمشركين ينوطون بها سلاحهم أي يعلقونه بها ويعكفون حولها فسألوه أن يجعل لهم مثلها فنهاهم عن ذلك ، وأنواط : جمع نوط وهو مصدر ، سمي به ماعلق . (اللسان)

(٣) اللزوميات ه ص ٢٤٧ . والحجران : أحدهما هو ديار ثمود ، قال الله تعالى : « ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين » وهي ناحية بالشام عند وادي القرى . والحجر الثاني : حجر الكعبة .

وَتُقسَمُ حُظْوَةٌ حتى صُخورٌ يُزُرْنَ فيُستَلَمنَ ويُلتَمَسْنَهْ[1]
كَذاتِ القُدْسِ أو رُكْنَيْ قُرَيْشٍ وأُسْرَتُهُنَّ أحجارٌ لِطِسْنَهْ

وقد يدركه الحظ فينبه بعد خمول ، ويشرف بعد خسة ، ويرغب فيه بعد الرغبة عنه :

والسَّهبُ تَغْشاهُ السُّعودُ فَيَنْثَني مُتَقَسَّماً في السُّكْنِ بالأشْبارِ[2]

الحظ في البلاد

الديار كأهلها تشقى وتسعد ، وقد يدرك الحظ بعضها فتفيض فيه الأنهار ، وتجري العيون ، وترى غيره أفضل منه ، ولكن أهله يكادون يموتون من العطش :

أرى كَفرَطابَ أعجزَ الماءَ حفرُها وبَالِسَ أغناها الفُراتُ عن الحَفرِ[3]
كَذَلِكَ مَجْرى الرِّزقِ وادٍ بلا نَدىً ووادٍ بِهِ فَيضٌ وآخَرُ ذو جَفرِ

★ ★ ★

---

(١) انظر ما سبق ص ١٤٢٣.

(٢) اللزوميات هـ ص ١٦٣ . والسهب بالفتح : الفلاة ، وبالضم : المستوي من الأرض في سهولة.

(٣) » » ص ١٤٧ . والجفر : البئر الواسعة غير المطوية .

الصمت والنطق

يرى أبو العلاء أن الصمت منقبة يأمن بها الإنسان غائلة الإنس والجن :

اسْكُتْ فَإنَّ السُّكُوتَ مَنْقَبَةٌ تَأْمَنُ بِهِ أُنْسَهَا وَخَابِلَهَا (١)

وتجارة إن لم تربح لا تخسر :

رَأَيتُ سُكُوتِي مَتْجَراً فَلَزِمْتُهُ إذَا لَمْ يُفِدْ رِبحاً فَلَسْتُ بِخَاسِرِ (٢)

وأن النطق كالماء ، يضر كثيره دون قليله :

الزَمِ الصَّمْتَ إنْ أرَدْتَ نَجَاةً لَيسَ ضَحْضَاحُ مَنْطِقٍ مِثْلَ غَمْرِ (٣)

وأن الزيادة فيه مظنة للتزيّد والكذب :

وَاصْمُتْ فَمَا كَثُرَ الكَلَامُ مِنَ امْرِئٍ إلاَّ وَظُنَّ بِأَنَّهُ مُتَزَيِّدُ (٤)

وهو مدعاة إلى تكثير الخصوم ؛ وقد يدرك بالصمت ما لا يدرك بالنطق :

إذَا سَكَتَ الإنْسَانُ قَلَّتْ خُصُومُهُ

وَإنْ أضْجَعَتْهُ الحَادِثَاتُ لِجَنْبِهِ (٥)

---

(١) اللزوميات ﻫ ص ٢٠٨ . والخابل : الجان . وقد خبّله وخبله واختبله أي أفسد عقله .

(٢) « « ص ١٤٨ .

(٣) « « ص ١٦٦ . الضحضاح : الماء القليل . والغمر : الماء الكثير .

(٤) « « ص ٩٧ .

(٥) « ؟ ص ٤٨ . والطامر : البرغوث ، من الطمور وهو شبه الوثوب في السماء .

حَسَا طَامِرٌ في صَمْتِهِ مِنْ دَمِ الفتى ... فَصَغَّرَ ذَاكَ الصَّمْتُ مُعْظَمَ ذَنْبِهِ

وَلَمْ يَكُ في حَالِ البَعُوضِ إذَا شَدَا ... لَهُ نَغَمٌ عَالٍ وَأَنْتَ أَذٍ بِهِ

وإن الإنسان خلقت له أذنان ولسان واحد ، لينطق بنصف ما سمع ؛ وإن تجاوز هـذا القدر تجاوز السداد :

أُصْمُتْ وإنْ تَأْبَ فَانْطِقْ نِصْفَ مَا سَمِعَتْ

أُذْنَاكَ فَالفَمُ نِصْفُ اثْنَيْنِ في العَدَدِ[1]

وَاجْعَلْهُ غَايَةَ مَا يَأْتِي اللِّسَانُ بِهِ ... وَإِنْ تَجَاوَزَ لَمْ يَقْرُبْ مِنَ السَّدَدِ

والبلاء موكل بالمنطق فربما جر الكلام إلى صاحبه الحمام :

وَاصْمُتْ فَإِنَّ كَلَامَ المَرْءِ يُهْلِكُهُ ... وَإِنْ نَطَقْتَ فَإِفْصَاحٌ وإِيجَازُ[2]

★ ★ ★

(١) اللزوميات ه س ١٠٩ .
(٢) « « ص ١٧٢ .

الحسد

قدمنا أن أبا العلاء كان محسوداً على ما آتاه الله من فضله :

فَأَصْبَحْتُ مَحْسُوداً لِفَضْلِي وَحْدَهُ   عَلَى بُعْدِ أَنْصَارِي وَقِلَّةِ مَالِي[١]

وأن حساده تكلموا فيه بما هو بعيد عن السداد :

تَكَلَّمَ بِالْقَوْلِ الْمُضَلَّلِ حَاسِدٌ   وَكُلُّ كَلَامِ الْحَاسِدِينَ هُرَاءُ[٢]

وقد لقي الأمرين من حساده ، ولذلك تصدى للحسد وذمه في مواطن من شعره ، فجعله تارة عاراً يجب اجتنابه :

فَلَا تَحْسُدَنْ يَوْماً عَلَى فَضْلِ نِعْمَةٍ   فَحَسْبُكَ عَاراً أَنْ يُقَالَ حَسُودُ[٣]

وتارة يجعله مناقضاً لخوف الله ، لا يجتمع معه في قلب واحد :

إِنْ كَانَ قَلْبُكَ فِيهِ خَوْفُ بَارِئِهِ   فَلَا تُجَاوِرْ حِذَارَ اللهِ بِالْحَسَدِ[٤]

هُمَا نَقِيضَانِ لَا يَسْتَجْمِعَانِ بِهِ   وَالظَّبْيُ غَيْرُ مُقِيمٍ فِي ذُرَى الأُسُدِ

وأحياناً يجعل الخير كله في تطهير القلب من الغل والحسد ، لا في العبادة الظاهرة والتقشف الظاهر :

---

(١) شروح سقط الزند : ق ٣ ص ١٢٠٧ وفيها : « ... محسوداً بفضلي ... » .
(٢) شروح سقط الزند : ق ١ ص ٣٩٤ . والمراد من القول : الذي لا نظام له .
(٣) اللزوميات هـ ص ٩٠ .
(٤) « « ص ١٠٨ . والذرى : فناء الدار ونواحيها والملجأ والكنف .

مَا الخَيْرُ صَوْمٌ يَذُوبُ الصَّائِمُونَ لَهُ ... وَلاَ صَلاَةٌ وَلاَ صُوفٌ عَلَى الجَسَدِ(١)

وَإِنَّمَا هُوَ تَرْكُ الشَّرِّ مُطَّرَحاً ... وَنَفْضُكَ الصَّدْرَ مِنْ غِلٍّ وَمِنْ حَسَدِ

وأحياناً يجعل نية الخير كالطير في الإنسان ، والحسد صائداً يحاول أخذها :

وَنِيَّةُ الخَيْرِ مِثْلُ الطَّيْرِ آبِيَةٌ ... صَدْرَ الفَتَى فَلْيُحَاذِرْ صَائِدَ الحَسَدِ(٢)

والحسد خصلة مذمومة تشين صاحبها ، ولكنها غريزة في الإنسان ينقاد إليها:

والطَّبْعُ يَهْوِي إلى مَا شَانَ يَطْلُبُهُ ... لَكِنْ يُجَرُّ إلى مَا زَانَ بِالمَسَدِ(٣)

وَفِي الغَرَائِزِ أَخْلاقٌ مُذَمَّمَةٌ ... فَهَلْ تُلامُ عَلَى النَّكْرَاءِ والحَسَدِ

ومن أمعن النظر تبين له أن هذه الخصلة لا يخلو منها أحد ، حتى كأنها ملازمة للحياة ؛ فلا يخلو منها حي حتى الحيوان الأعجم ، ولذلك شك أبو العلاء في وجودها فيه في بعض المواطن كقوله :

هَلْ تَعْرِفُ الحَسَدَ الجِيَادُ كَغَيْرِهَا ... فَالبُهْمُ تَحْسُدُ بَيْنَهَا غُرَّاؤُهَا(٤)

• • •

فِينَا التَّحَاسُدُ مَعْرُوفٌ فَهَلْ حَسَدَتْ ... مُجْتَرَّةَ الإِبْلِ أُخْرَى مَا لَهَا جِرَرُ(٥)

---

(١) اللزوميات ‍ﻫ ص ١٠٩ ، والغل بالكسر : الحقد والغش .

(٢) المصدر السابق .

(٣) اللزوميات ‍ﻫ ص ١٠٨ . والمسد : حبل من ليف .

(٤) « » ص ٢٣ .

(٥) « » ص ١٢١ . والجرر : مفردها جرة وهي ما يفيض به البعير فيأكله ثانية .

ثم جزم بذلك في بعض المواطن كقوله :

وَالشَّرُّ في عَالَمٍ شَاهَدْتُهُ خُلُقٌ ... مَا صَدَّهُ عَنْ أَذَاهُ الحَرُّ وَالخَصَرُ[1]

فَالصُّمُّ مِنْ عُنْصُرِ الإِفْسَادِ حَاسِدَةٌ ... لِصِحَّةِ السَّمْعِ خُلْداً مَا لَهُ بَصَرُ

وقوله :

وَلاَ يُرَى حَيَوانٌ لا يَكُونُ لَهُ ... فَوْقَ البَسِيطَةِ أَعْدَاءٌ وَحُسَّادُ[2]

ثم نقل ما زعمه بعض الناس من أن النجوم لها عقول ، وأن بعضها يحسد بعضا :

وَقَدْ زَعَمُوا بِأَنَّ لَهَا عُقُولاً ... وَأَقْضِيَةُ المَلِيكِ مُؤَكَّدَاتُ[3]

وَأَنَّ لِبَعْضِهَا لَفْظاً وَفِيهَا ... حَوَاسِدُ مِثْلُنَا وَمُحَسَّدَاتُ

* * *

(١) اللزوميات هـ س ١٢٢ . والخصر : البرد .

(٢) « « ص ٩٥ .

(٣) انظر ما سبق ص ١٢٩٨ .

المال

علمنا مما تقدم ما كان لأبي العلاء من المال في السنة ، وما كان يعطي خادمه منه . وأنه كان يحب أن يتسع ماله ليوسع على نفسه في حاجاته وفي هباته ، وأنه كان يتذمر من ضيق ذات يده ، وأن ذلك أحد العاملين اللذين أزعجاه من بغداد ، وأن الناس كانوا يتهمونه بالمال ، ويكلفونه ما يقتضيه التمويل من بر وصلة وهبة . ولعل من أقوى الأسباب لتذمره من قلة المال ما كان يعلمه ويسمعه من تعظيم الناس لذوي المال .

المال في نظر الناس

كان الناس في عهد أبي العلاء يعظمون الرجل لماله ، ويبالغون في تعظيمه على قدر ماله . وكان المال يرفع الوضيع ، ويجعل الدنيء سيداً ، وكثيراً ما :

قَالَ الدنِيُّ لِمَالٍ كَانَ سَادَ بِهِ ... لَأُكْرِمَنَّكَ لَوْلَاكَ لَمْ أُسَدِ[1]

والمال يسوّد صاحبه ، وإن كان غير كريم النسب :

كُنْ مَنْ تَشَاءُ مُهَجَّناً أَوْ خَالِصاً ... وَإِذَا رُزِقْتَ غِنًى فَأَنْتَ السَّيِّدُ[2]

والمال يسكت المحقّ فلا يجد له نصيرا ؟ وينطق المبطل فيتشيع الناس لنصرته وتأييده :

---

(١) اللزوميات ج ص ١٠٨ .

(٢) « « ص ٩٧ . والمهجن والمجين : العربي ولد من أمة أو من كان أبوه خيراً من أمه .

الْمَالُ يُسْكِتُ عَنْ حَقٍّ وَيُنْطِقُ فِي ... بُطْلٍ وَتُجْمَعُ إِجْلالاً لَهُ الشِّيَعُ[١]

والمال يحمل الإنسان يغضي على ما لا يرضى :

وَجِزْيَةُ الْقَوْمِ صَدَّتْ عَنْهُمُ فَغَدَتْ ... مَسَاجِدُ الْقَوْمِ مَقْرُوناً بِهَا الْبِيَعُ[١]

هـــذا هو المال في نظر الناس ، وهذا أثره فيما بينهم .

المال في نظر أبي العلاء

وأما أبو العلاء فيرى أن المال على اختلاف أنواعه مجلبة للأذاة ، والهموم ، والهلاك ؛ ولذلك وضع لكل نوع منه اسماً مأخوذاً من مادة تشعر بما يترتب عليه من أنواع الضرر والأذى ، كما بيّن ذلك بقوله :

مَا فِضَّةُ الإِنْسَانِ إِلاَّ فِضَّةٌ ... وَالتِّبْرُ تَتْبِيرٌ وَجَدُّكَ ظَاهِرُ[٢]

وَالدُّرُّ دَرٌّ لِلْهُمُـــومِ تُثِيرُهُ ... إِنَّ الْجَوَاهِرَ بِالأَذَاةِ جَوَاهِرُ

وكثرة المال تجلب البطر لصاحبه فيجر له الضرر :

وَكَثْرَةُ الْمَالِ سَاقَتْ لِلْفَتَى أَشَراً ... كَالذَّيْلِ عَثَّرَ عِنْدَ الْمَشْيِ ضَافِيهِ[٣]

وإذا فكر العاقل ، وجد أن الإنفاق يزين المال ، ويعوض صاحبه خلفاً مما أنفق ، وأن الشح يشينه :

---

(١) اللزوميات ه ص ٢٨٢ . ورواية البيت الأول فيها : « .. وتجمع إكراماً له الشيع »

(٢) اللزوميات ه ص ١٢٧ . والفضة الأولى : للمعدن المعروف . والفضة الثانية من فض الشيء : كسره وفرقه . والتبر : ما كان من الذهب غير مضروب ، والتتبير : الإهلاك والتدمير . والجد : الحظ . والجواهر الثانية في البيت الثاني : من الجهر ضد الهمس .

(٣) اللزوميات ه ص ٣٤٠ . والأشر : البطر .

أَنْفِقْ لِتُرْزَقَ فَالثَّرَاءُ الظُّفْرُ إِنْ ... يُتْرَكْ يَشِنْ وَيَعُودُ حِينَ يُقَلَّمُ[1]

وأن الفقر خير من الغنى ، لأن الغني يجهد نفسه في جمع المال ثم :

يَكُونُ وَكِيلاً لِلْبَرِيَّةِ بَاذِلاً ... وَلِلْوَارِثِيهِ إِنْ أَرَادَ لَهُ خَزْنَا[2]

وأن الوارثين ينتظرون موته ، ليأخذوا ما جمعه لهم :

فَهَنِىءَ وُلَاةَ الْمَيْتِ يَوْمَ رَحِيلِهِ ... أَصَابُوا تُرَاثًا وَاسْتَرَاحَ الَّذِي مَضَى[3]

★ ★ ★

(١) اللزوميات ﻫ ص ٢٣٦ .

(٢) « « ص ٢٦٤ .

(٣) « « ص ٢٨ .

الخمر

لم يحدثنا التاريخ أن أبا العلاء شرب خمراً ، أو ما هو في معنى الخمر ، ولا حضر مجلساً فيه شراب ، ولا دعا إلى شربها ، ولا حدثته نفسه بشربها . . وإنما كان يمقتها مقتاً شديدا ، وينعي على شرّابها . وقوله وهو في بغداد :

تَمَنَّيْتُ أنَّ الخَمْرَ حَلَّتْ لِنَشْوَةٍ . . . .[1]

لا يدل على أنه أحبها أو أراد أو حاول شربها حقيقة ، لأن التمني تقدير شيء في النفس وتصويره فيها ، وأكثر التمني تصور ما لا حقيقة له كما قال الراغب ؛ وإنما أراد أن نفسه ضاقت لما طرأ عليها من الأحوال ، فتمنى أن تكون حلالاً ليشربها ، فيفقد شعوره بما يطرأ عليه من الأمور التي ضاق صدره عن احتمالها . ويحتمل أن يقال : إنه جعل شربها أمراً عظيما ، فتمنى شربها على فظاعتها ليتخلص مما هو فيه ، كما يتمنى الإنسان الموت ، ليستريح مما هو فيه من العناء ، ومثل ذلك يكون كناية عن شدة الحال التي هو فيها . ويرجح هذا أنه صرح في مواطن كثيرة بأنه لا يشربها ولو كانت حلالاً ، منها قوله :

لَوْ كَانَتِ الخَمْرُ حِلاًّ مَا سَمَحْتُ بِهَا   لِنَفْسِيَ الدَّهْرَ لَا سِرًّا وَلَا عَلَنَا[2]

---

(١) عجزه « تجهلني كيف اطمأنت بي الحال » انظر شروح سقط الزند : ق ٣ س ١٢٥١ .

(٢) اللزوميات ٥ س ٢٦٥ .

لأنها إذا خففت أحزانه ، خففت في الحلم ميزانه :

لَا أشْرَبُ الرَّاحَ وَلَوْ ضُمِّنَتْ ذَهَابَ لَوْعَاتِي وَأحْزَانِي[١]
مُخَفِّفاً مِيزَانَ حِلْمِي بِهَا كَأنَّنِي مَا خَفَّ مِيزَانِي

• • •

وَهَيْهَاتَ لَوْ حَلَّتْ لَمَا كُنْتُ شَارِباً مُخَفِّفَةً فِي الحِلْمِ كِفَّةَ مِيزَانِي[٢]

والسبب في ذلك أن شاربها يشتري نشوتها بعقله . والعقل عند أبي العلاء أفضل الأعوان والأنصار :

لَا أشْرَبُ الرَّاحَ أشْرِي طِيبَ نَشْوَتِهَا بِالعَقْلِ أفْضَلِ أنْصَارِي وَأعْوَانِي[٣]

وإنه ليعجب ممن لا يشرب الخمر ويسقي زوجته منها ، فيزيدها ضعفاً في عقلها ، وعيًّا في منطقها :

عَجِبْتُ لِلْمَرْءِ إذْ يَسْقِي حَلِيلَتَهُ سُلَافَةً وَهْوَ مِنْهَا تَائِبٌ صَاحِ[٤]
كَأنَّهَا إذْ تَحَسَّتْ ثُمَّ أرْبَعَةً أوْ خَمْسَةً شَرَدَتْ عَنْهُ بِصَحْصَاحِ
كَانَتْ ضَعِيفَةَ عَقْلٍ فَاسْتَزَادَ لَهَا فِي ضَعْفِهِ ضِدُّ عُذَّالٍ وَنُصَّاحِ
وَكَانَ فِي لَفْظِهَا عِيٌّ فَأيَّدَهُ فَلَمْ تُخَبِّرْهُ عَنْ شَيْءٍ بِإفْصَاحِ

---

(١) اللزوميات ح ٢ ص ٢٨٠ .
(٢) « « ص ٢٧٢ .
(٣) « « ص ٢٧٦ .
(٤) « « ص ٨٥ . وتحست : شربت . والصحصاح : المستوي من الأرض .

ويتعوذ بالله من سفهاء يعكفون على الرّاح ؛ وفيهم غانيـــة تأتي بما لا ترتضيه المروءة وتحتج بالمزاح :

أُعوذُ باللهِ مِنْ أولي سَفَهٍ　　إنْ يَعرِفُوا عِلَّةَ الضَّلالِ تُرِحْ[1]
يُسقَوْنَ رَاحاً لَهُمْ مُعَتَّقَةً　　لَوْ أَنَّها مِنْ قَلِيبِهِمْ انْتَزِحْ
بَيْنَهُمْ كَالغَمَــامِ شَادِيَةٌ　　تُومِضُ في مَلْبَسٍ كَقَوْسِ قُزَحْ
تَجِدُ في وَصْلِهَــا مُلاَعِبَها　　وَهْيَ لِجُلاَّسِهَا تَقُولُ مَزَحْ

وينعي على الرجل أن يجعل بيته مركزاً للشرب ؛ لأنه يعرض حرمه لما لا يرضاه العاقل :

لَعَمْرُكَ مَا زَوْجُ الفَتَاةِ بِحازِمٍ　　إذَا مَا النَّدَامَى في مَحَلَّتِهِ غَنَّوْا[2]
أَتَى بَيْتَهُ بِالرَّاحِ وَالشَّرْبِ لَاهِياً　　فَإِمَّا رَنَوْا نَحْوَ الظَّعِينَةِ أَوْ زَنَوْا

وفي وسع الإنسان أن يقول : إن أبا العلاء ذم الخمر وحرض على الابتعاد عنها ، وافتنّ بذمها أكثر مما افتن أبو نواس في مدحها والحض على شربها ؛ وأكثر من التنفير عنها ، وذكر ما تجلبه من شر وتعقبه من ضر ، فهي خالبة غالبة :

إيَّاكَ والخَمْرَ فَهْيَ خَالِبَــةٌ　　غَالِبَةٌ خَابَ ذَلِكَ الغَلَبُ[3]

وهي :

---

(١) اللزوميات « س ٨٦ . وفيها : « يجد في وصلها ملاعبها » . والقليب : البئر .
(٢) « « س ٣٤٣ . وانظر ما سبق ص ١٠٠٨ .
(٣) « « ص٣٦ .

أَشْأَمُ مِنْ نَاقَةِ البَسُوسِ عَلى النَّـــاسِ وَإِنْ يُنَلْ عِنْدَهَا الطَّلَب

بل هي كاسم :

كَأَنَّ الَّتي في الكَأْسِ يَطْفُو حَبَابُهَا ... سِمَامُ حُبَابٍ بَيْنَ مُرْتَشِفِيهَا[1]

ومن تفكر فيما تفعله في النفس والعقل لا يشك في أن :

حُمَّى ثَلاَثٍ في حُمَيَّا عِلَّةٍ ... خَيْرٌ لِنَفْسِكَ مِنْ ثَلاثَةِ أَكْؤُسِ[2]

وقد أطال في هذا الباب وأجاد . ونحن نجتزىء بإيراد بعض أبياته ، ليرجع القارىء إلى بقيتها في ديوانه . فالخمر في اعتقاده :

تُحَيِّي وُجُوهَ الشَّرْبِ فِعْلَ مُسَامِ ... يُضَاحِكُهُ وَالكَيْدُ كَيْدُ مُحَارِبِ[3]

إِذَا قُتِلَتْ خَافَ الرَّشَادُ جِنَايَةً ... فَكَانَ مِنَ الفِتْيَانِ أَوَّلَ هَارِبِ

. . . .

فَمَا أَبْعَدَتْ إِلَّا أَجَلَّ مُقَارِنٍ ... وَلَا بَلَغَتْ إِلَّا أَخَسَّ المَآرِبِ

وطالما :

جَرَتْ مُلاحَاةَ الصَّدِيقِ وَهَجْرَهُ ... وَأَذَى النَّدِيمِ وَفُرْقَةَ الأَحْبَابِ[4]

. . . .

هَتَكَتْ حِجَابَ المُحْصَنَاتِ وَجَشَّمَتْ ... مِهَنَ العَبِيدِ تَهَضُّمَ الأَرْبَابِ

---

(١) اللزوميات هـ س ٣٣٥ . والحباب : بفتح الحاء الفقاقيع التي تعلو الخمر ، وسمام : جمع سم والحباب : بضم الحاء الذكر من الحيات .

(٢) هكذا بتأنيث ثلاثة (ج) وانظر اللزوميات هـ س ٣٢٤ .

(٣) اللزوميات هـ س ٤٦ ـ ٤٧ وفيها : « ولا بلغت إلا خسيس المآرب » .

(٤) اللزوميات هـ س ٥٣ .

وشر ما فيها أنها :

تُذِيعُ السِّرَّ مِنْ حُرٍّ وَعَبْدٍ   وَتُعْرِبُ عَنْ كَنَائِزَ مُعْجَمَاتِ[١]
وَيَنْفُضُ إلفُهَا الرَّاحَاتِ حَتَّى   تعودُ من النَّفَائِسِ مُعْدَمَاتِ

وأنها تذهب بوقار الرجل وحلمه ، كما تذهب بشعوره وعقله . حتى إن شاربها :

لَوْ كَانَ قُدْساً ثُمَّ هَبَّتْ رِيحُهَا   بِهِضَابِهِ لَمْ يَبْقَ فِيهِ وَقَارُ[٢]

بل :

لَوْ يَحْمِلُ الشَّرْبُ الرَّوَاسِيَ أَوْهَمُوا   أَنْ لَيْسَ فَوْقَ ظُهُورِهِمْ أَوْقَارُ[٢]

وتجد شيئاً من أقواله في الخمر في (لزوم ما لا يلزم) في الجزء الأول[٣] في « ص ١٢٥ و ١٣٥ و ١٤٤ و ١٤٦ و ١٥٠ و ١٥١ و ١٥٦ و ١٧٨ و ١٨١ و ١٩٠ و ١٩٥ و ٢١٥ و ٢٢٣ و ٢٢٨ و ٢٢٩ و ٢٣٤ و ٢٣٦ و ٢٣٧ و ٢٤٠ و ٢٩٢ و ٣١٨ و ٣٤٠ و ٣٤٩ و ٣٥٣ و ٣٥٦ و ٣٦١ و ٣٨٠ و ٣٩٣ » .

وفي الجزء الثاني في : « ص ٣٩ و ١٥٢ و ١٦١ و ١٨٨ و ١٩٢ و ٢٤٦ و ٢٥٥ و ٢٩٨ و ٣١٢ و ٣١٧ و ٣٢٩ و ٣٣١ و ٣٣٢ و ٣٤٤ و ٣٦٠ و ٣٦١ و ٣٨٤ و ٤١١ و ٤٢٥ » . وغيرها .

---

(١) اللزوميات هـ ص ٦٨ .
(٢) « « ص ١٣١ والقدس : جبل . وأوقار : مفردها وقر وهو الثقل .
(٣) هذه الأرقام تشير إلى « طبعة عزيز زند » ويقابلها في « طبعة هـ » الأرقام التالية :
« ٤٦ و ٥٠ و ٥٣ و ٥٣ و ٥١ و ٥٥ و ٥٧ و ٦٤ و ٦٥ و ٦٨ و ٧٠ و ٧٧ و ٨٠ و ٨٢ و ٨٣ و ٨٥ و ٨٦ و ٨٦ و ٨٧ و ١١٢ و ١٢٢ و ١٣١ و ١٣٥ و ١٣٧ و ١٣٨ و ١٤١ و ١٤٩ و ١٥٦ و ١٨٦ و ١٩٠ و ٢٠١ و ٢٠٣ و ٢٢٥ و ٢٢٩ و ٢٤٦ و ٢٥٢ و ٢٥٤ و ٢٦٩ و ٢٦٠ و ٢٦٠ و ٢٦٥ و ٢٧٢ و ٢٧٢ و ٢٨١ و ٣٣٥ و ٣٤٢ .

الخاتمة

تناول أبو العلاء في كلامه كثيراً من عادات النـــاس، ومزاعمهم، ومعتقداتهم، وأخلاقهم، وأعمالهم، ومواضعاتهم. سواء أكانوا في المعرة أم في غيرها، وانتقد منها ما انتقد تصريحاً أو تلميحاً.

والواقف على كل كلامه يستطيع أن يستخلص منه صورة تمثل له حياة الأمة السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والعقلية، والدينية.

وقد كنت عزمت على استخراج صورة جامعة لأنواع الحيوات المذكورة، ليقف القارىء على صورة تامة لحالة ذلك العصر، ولكن ثنى عزمي عن ذلك أمور:

أحدها: أنني توقعت أن بعض أرباب الهمم الفاترة من القراء سيعولون على ما أذكره فقط، طلباً للاختصار والراحة. وأنا أوردت كثيراً من كلام أبي العلاء بنصه، ليأخذ القارىء معانيه منه لا مما أذكره. وفي ذلك من اللذة والفائدة ما لا يحصل من أخذ ذلك المعنى من غير كلامه.

الا ترى أن الصائد إذا اصطاد الطير من أوكارها وبجاثمها، والوحش من معاقلها ووجرها، وجد فيها من اللذة ما لا يجده لو اصطادها غيره، وسلمها اليه بغير عناء.

ثانيها: أن سرد جميع ما تقدم في كلامه فيه تكرير مملّ، وأكثر النفوس مجبولة على معاداة المعادات.

ثالثها: أن البيت أو الأبيات قد يشتمل على نكت متعددة؛ فإذا لخصنا منه معنى واحداً، لاستخراج حالة منه، فقد قصرنا فائدته على ذلك المعنى الواحد. وإذا أوردناه بنفسه، نبهنا القارىء إلى كل ما فيه. وربما اطلع على معنى جديد لم يره من قبل. أو ذكر بمعنى كان ينغب عنه. أو اهتدى إلى ما لم نهتد إليه من النكت والفوائد. وهذه الأمور وأشباهها حملتني على أن أجتزىء بالإشارة إلى بعض المواطن في كل حياة، ليقيس القارىء به غيرها عليها، ويعود إلى كلام أبي العلاء فيأخذ ما يروي غلته من مورده الأصلي.

* * *

الحياة السياسية

يصور أبو العلاء في كلامه أولي الأمر في عصره والعصر الذي قبله بصور مختلفة؛ تتلخص جملتها في أن الغالب في ذلك العهد أن يكون الملك، أو الوالي، أو الأمير، أو من شاكله وحشا ضاريا، متهالكا في سبيل شهواته الحيوانية؛ فهو عبد فم وفرج، لا يهمه من أمر الدنيا شيء، إلا أن يشبع نهمة بطنه وفرجه من أية جهة كانت، وبأية وسيلة كانت. وأنه يجد في الحرام من اللذة ما لا يجده في الحلال.

وفي هؤلاء من يعدّ حلالاً كل ما استطاع الوصول إليه. ويستحل أن يسخر الناس في حاجاته، ويستبيح ما حرم الله من أموالهم وأعراضهم؛ ويثقل كواهلهم بالمكوس والجزى والضرائب والمغارم الباطلة والتجنيات المفتراة. وهو مع ذلك لا يحوطهم من العوادي، ولا يحمي ذمارهم من الأعادي. بل هو في الحقيقة من أشد أعدائهم نقمة عليهم. وأكثرهم أذاة لهم وإضراراً بهم.

وأن المناصب العالية في الدول لم تنل بالشرف الطريف، والحسب التليد، والعمل الجيد، والكفاءة والجدارة. وإنما تنال بطريق التغلب والاحتيال. ولطالما رئس الناس بالدهاء، ونيلت الإمارة بالخنا.

ولمثل هذه الأسباب كانت نيران الفتن تتقد بين الطامعين في الرآسة والمدافعين عنها، فتلتهم الأخضر واليابس، وتقوّض كل عامر، وتعل كل صحيح، وتفقر كل غني، وتذل كل عزيز، وتفضح كل مستور.

وقد يقع في الملك أعظم الفظائع والمنكرات، ويراق دماء الأبرياء وتهتك أعراض المخدّرات، وتسلب أموال الضعفاء. والأمير أو الرئيس،

يلهو بجارية يغتصبها نفسها ، وبخمرة يحسو كأسها . ومنهم من كان يسره أن يرى النار تلتهم الناس ، والمنازل ، والأثاث ، والمعاهد ، والحوانيت وغيرها . وأن يرى هامات الرجال وأشلاءها تطير في الفضاء ، وتكون طعمة للنار . وأن يرى جنده وبطانته تسبي النساء والأطفال ، فيخرج على حمار فيرى ذلك ساعة ثم يعود إلى مقره . وقد أحاط بكل واحد من الأمراء طائفة من المنافقين والمحتالين ، أقاموا حوله سياجاً من التعظيم الباطل ، والثناء الكاذب ، والمداهنة والنفاق ؛ فجعلوه كأنه في قفص ، واستقلوا بالأعمال وتصريفها على حسب أهوائهم . وهم يوجهون الحوادث والأوامر إلى ما يلائم رغباتهم ومنافعهم .

والأمير أو الرئيس لا يشعر بما يقع خارج الغرفة التي هو فيها ؛ ولا بما يحدث في بيته الذي يأوي إليه .



الحياة الاجتماعية

يصور أبو العلاء في كلامه الحياة الاجتماعية في عصره صورة مستفظعة مستبشعة ، بحيث لا ينتهي القارىء من كلامه فيها حتى يعتقد أن الإنسان في ذلك العهد شيطان في مسلاخ إنسان . ولا يكاد المستقري لأحوال أكثر أهل ذلك العصر يجد في الناس أثراً للمروءة والحياء ، ولا للشمم والإباء ، ولا للشرف والعفاف ، ولا للصدق والوفاء ، ولا للتقوى والنسك ، ولا للرحمة والإحسان ، ولا للعدل والحق . ولا لغير ذلك من الصفات الحسنة والأخلاق المستحسنة . وأن كثيراً منهم يشبه الحيوان في سجاياه الذميمة . ومنهم من تكون الصفات القبيحة فيه أتم مما هي في الحيوان وأوفر .

فإن فيهم من هو آكل من السوس ، وأبخل من كلب ، وأجهل من حمار ، وأحمق من نعامة ، وأحول من أبي براقش ، وأخف من فراشة ، وأروغ من ثعلب ، وأزنى من قرد ، وأسرق من زبابة ، وأسفد من ديك ، وأظلم من حية ، وأعبث من قرد ، وأفسد من الجراد ، وألح من الخنفساء ، وألوط من نغر ، وأعدى من ذئب ، وأخبط من عشواء ، وأذل من حمار ...

وقد يرى الإنسان كثيراً من هذه الخلائق السافلة مجتمعة في شخص واحد . كما يرى كثيراً من الحيوان خيراً من الإنسان ؛ لأنه أقل شراً منه ، وأقل ضرراً لأبناء نوعه وجنسه .

وفيهم من إذا عرضت له أطماعه أقدم عليها كالأسد ، وإذا دعي لخير تبلد كالحمار . ومن يعظ الناس منهم ويرشدهم إلى سبل الهدى أحق بالوعظ وأحوج إلى الإرشاد من غيره .

وإن جبلة الإنسان فاسدة ، ومحاولة تهذيبه وإصلاحه نوع من العبث والضلال ، لأن الرسل — صلوات الله عليهم — جاءوا وبشروا وأنذروا وبينوا فلم يغن ذلك فتيلا ، وإنما تبعهم النزر اليسير من المستضعفين ، وتمرد عليهم غيرهم من الطغاة والجبابرة ، ثم لم يلبث فريق من أتباعهم أن فرقوا دينهم ، وكانوا شيعا ، يقاتل بعضهم بعضا ، ويستحل كل فريق منهم مال أخيه وعرضه باسم الدين ، كما وقع بين السنية والشيعة ، وبين الشافعية والحنابلة ، وبين الفرق من غيرهم من أرباب النحل والمذاهب .

ووصف أبو العلاء المرأة ، وصورها في أقبح صورة ، حيث جعلها متهالكة في سبيل شهواتها ، خداعة ، خلابة ، محتالة ، كذابة ، قليلة الأمانة ، كثيرة الخيانة . وأفرط في الريبة فيها ، حتى خاف عليها من الخروج إلى الحج ، والمسجد ، والحمام ، والعراف ، والمنجم ، وسطح الدار ، ومعاشرة الوليد ، والختن ، وتعلم القراءة والكتابة .

ويرى بعض المتحذلقين من شبان هذا العصر وشوابّه أن ذلك تشدد من أبي العلاء ، وإسراف في الارتياب في المرأة لا محل له . وقد حملوا عليه حملات منكرة . ويظهر عند التأمل أن تحاملهم عليه ناشىء عن عدم فهمهم مرامي أقواله وأغراضها . وأنهم رأوه ينفر عن المرأة ويسيء إليها ، وهم يحبون غير ذلك . ويظهر عند التأمل أنهم هم مخطئون ، وبيان هذا :

١ً — أن أبا العلاء وصف في كلامه المرأة التي كانت في عصره بالحالة التي كان عليها كثير من النساء في ذلك العهد . فهو وصف للحالة الواقعة والحقيقة المؤلمة . ولم يصف المرأة في الأجيال السابقة أو اللاحقة . ولا وصف امرأة تصوّرها في خياله . وقد كانت المرأة في عهده كما وصف وفوق ما وصف . وهذا التاريخ ينطق بما وقع . والأحوال والصفات التي ذم

بها المرأة ما كانت متخيلة ، وإنما كانت واقعة . وكلامه في بعض المواطن يدل على وجود امرأة صالحة في ذلك العهد تحفظ نفسها ، وزوجها ، وأولادها ؛ وتقوم بخدمة زوجها وفرنسة بيتها ، وكل ما تقوم به المرأة العفيفة الشريفة الحصيفة الرأي كما يأتي في قوله قريباً .

ومن استقرى في التاريخ ما كانت تفعله الجواري ، والوصائف ، والسبايا ، والهدايا التي عجت بهـا قصور الخلفاء ، والملوك ، والأمراء ، والوزراء ، وبيوت الأغنياء ، والعمال ، وحوانيت النخاسين وغيرهم ، وما كان لهؤلاء وللنسـاء الأعجميات وللنساء الشاعات من الأثر السيء في الأخلاق ، وفي تربية الأولاد ، وتوجيه الأزواج إلى ما يردن ، لا ينكر على أبي العلاء أقواله في هذه الأنواع ، ولا يراه مسرفاً إلا إذا حمل كلامه على عامة النساء . وهذا لا يريده أبو العلاء .

٣ ـ أن وصف المرأة بالصفات السيئة التي وصفها بهـا لا يعني منه تخصيصها بتلك الخصال الذميمة ، بل إنه وصف الرجل في مواطن أخرى بصفات أكثر عدداً وأشد ذماً . وكل خصلة ذميمة نقد بها المرأة فهي — في الوقت نفسه — نعت للرجل ، لأن الرجل أحد ركني الفساد الذي تأتي به المرأة . بل هو الجزء المتمم للفساد ، إذ لا يتأتى فسادها إلا بالرجل . فذمّ المرأة بهذه الأخلاق ذمّ للرجل معها . وإذا تأملت مثل قوله : لا أعد الحج فرضاً على العجائز والعذارى ، ثم تبيينه سبب ذلك بقوله :

فَفِي بَطْحَاءِ مَكَّةَ شَرُّ قَوْمٍ ... وَلَيْسُوا بِالْحُمَاةِ ولا الغَيَارَى(١)

ومثل قوله :

وَلَكِنْ جَاءَتِ الْجَمَرَاتِ تَرْمِي ... وَأَبْصَارُ الغُوَاةِ إِلَى يَدَيْهَا(٢)

---

(١) اللزوميات ﻫ ص ٢٨ .
(٢) « « ص ٣٣٩ .

وقوله :

رَاحتْ إلىْ القَسِّ بتَقْرِيبِهـا وَبَيْتُها أوْلىْ بِقُرْبَانِهـا[1]
قَدْ جَرَّبَتْ مِنْ فِعْلِهِ سَيِّئاً والطيِّبُ تَجار بجُرُبّانِهَا

وقوله

وَلَيسَ حِبْرٌ بِبِدْعٍ فِي صَحَابَتِهِ إنْ سَامَ نَفْعاً بِأخْبَارٍ تَقَوَّلَهَا[2]
وَإنَّمَا رَامَ نِسْوَاناً تَزَوَّجَهَـا بِمَا افْتَرَاهُ وأمْوَالاً تَمَوَّلَهَا

تبيّن لك أنه إنما يخاف على المرأة من الرجل . ولو كان الرجل مأمون الغائلة ، محمود السجايا في نظره واعتقاده ، لما حذر منه وأنذر ونبه إلى مواطن كيده واحتياله لإغراء المرأة .

٣ ـ أن أبا العلاء ذم المرأة التي كانت في عهده على نحو ما وصفها . ولا يلزم من ذلك أن يكون ذلك ذمًا للمرأة في كل عصر ، ولا أن يكون ذمًا لكل امرأة في عصره . فإن المرأة التي تتصف بما ذكره من الصفات الذميمة داخلة في كلامه ، والتي استطاعت أن تطهر أخلاقها وتحتفظ بآدابها وعفافها لا يتناولها كلامه ، سواء كانت في عصره أم في العصور التي قبله أو بعده ، يدلنا على ذلك مثل قوله :

رَعَى اللهُ قَوماً مَضَى دَهْرُهُمْ وَمَا فِيهِمُ أحَـدٌ يَهْزِلُ[3]
تُضَاهِي العَنَاكِبَ نِسْوَانُهُمْ فَتَنْسِجُ لِلنَّفعِ أوْ تَغْزِلُ

---

(١) انظر ما سبق ص ١٤١٣ .
(٢) « « ص ١٤٠٨ .
(٣) اللزوميات ٥ ص ٢٠٢ .

وَمَا عَزَفَتْ مِزْهَراً في الحَيَاةِ ... وَلَا الدَّنُّ يُفْتَحُ أَوْ يُبْزَلْ
جَهِلْنَ الغِنَاءَ وصَوتاً يُقَـــا ... لُ غَنَّاهُ دَحْمَانُ أَوْ زَلْزَلُ[1]

وقوله :

سُقْياً لِشَوْهَاءَ مَا هَمَّتْ بِفَاحِشَةٍ ... غَدَتْ عَلى الغَزْلِ لَيْسَتْ تَعْرِفُ الغَزَلا[2]
وَتَجْهَلُ العُودَ إلا عُودَ مِغْزَلِها ... وَلَا تَرَاحُ إذَا مَا عَاتِقٌ بَزَلا

فإنه مدح المرأة التي عكفت على الغَزْل ، وابتعدت عن الغَزَل ؛ وجهلت الغناء وأدواته . وأمثال هذا كثير في شعره . وقد سبق إلى بعض الأذهان أن أبا العلاء عدوّ للمرأة في كل أحوالها ، ناقم عليها في جميع أطوارها . وقد أشرنا في غير موضع إلى أن ذلك غير صحيح ، وأن نقمته عليها من حيث إنها مزرعة للنسل ، ومن حيث إنها موضع العار والشنار أكثر من الرجل ؛ لأن النفوس البشرية قد تكره الشيء الواحد من الذكر والأنثى ، ولكن كراهتها في أحدهما أشد منها في الثانية . فالجبن مثلاً مذموم مستقبح في الرجل والمرأة ، ولكنه في الرجل أشد وأقبح . وكذلك الزنى مستقبح في المرأة والرجل ، ولكنه في المرأة أقبح وأنكر ، لأنها موضع العار بحسب ما رسخ في النفوس بتأثير العادات أو المعتقدات .

وعلى هذا فإن ما في كلام أبي العلاء في حق المرأة ليس لأنها أنثى ، وإنما جاءها ذلك بسبب ما يكتنفها من الأسباب والعلل والموجبات .

★ ★ ★

---

(١) دحمان : هو دحمان الأشقر المغني واسمه عبد الرحمن ودحمان لقب له وكان من رواة معبد المغني وتلامذته . زلزل : بفتح وسكون ثم فتح ، المغني . وكهدهد الطبال الحاذق .

(٢) اللزوميات ﻫ ص ٢٠٤ . وانظر ما سبق ص ١٥٦٢ .

الحياة الاقتصادية

رأينا في كلام أبي العلاء كثيراً من الإشارات إلى ما انتاب الأمة في عهده من الحوادث والكوارث، وذكرنا عند الكلام على الأحداث في عهده طائفة مما ألم بها من الحروب الطاحنة والفتن المدمرة بين الملوك والأمراء، وأصحاب المذاهب والمتغلبين من الفاتحين والجند وغيرهم .

ورأينا أن اضطراب الحياة السياسية ، وضعف الوازع الديني والمدني فسح المجال للعيارين والشطار وأرباب الدعارة ؛ فكانوا يتطاولون على الناس ويروّعونهم حتى لا يكاد الإنسان يجد رجلاً واحداً آمناً في سربه .

ومن شأن هذه الأمور أن ينجم خلالها أو يعقبها ذهاب الأنفس العامة وهلاك الأموال ، ما بين إحراق وإغراق وهدم ونهب ، وما شاكل ذلك من المصائب التي تفقد الأمة أسباب الراحة والدعة ، وترد غناها إلى فقر ، ويسرها إلى عسر ، فيقف دولاب العمل ، وتنتشر البطالة ، ويطغى البؤس والشقاء فيعم القاصية والدانية . ومن تتبع التاريخ وجد أن كثيراً مما عمر من المصانع والضياع ، وشق من الأنهار ، وغرس من الأشجار ، هدمه المتحاربون وأحرقوه ودمروه ، ليضعفوا خصومهم ، وليضيقوا عليهم ويزعجوهم عن ديارهم . وحسبك دليلاً على هذا ما وقع من النهب والإحراق والتدمير وقتل النفوس في الفتن التي حدثت في بغداد بين جيوش المتغلبين وأهل البلاد ؛ وبين أهل البلاد أنفسهم بسبب الخلاف بين الحنابلة وغيرهم . وما وقع في حلب ودمشق والرملة وغيرها من بلاد الشام ، من طيء وعامر والروم وغيرهم . وما وقع في مصر ، من مثل ذلك في عهد الحاكم ، مما سبق ذكر شيء منه . وإذا

أضيف إلى هذا محاربة الطبيعة ، وضنّ السماء والأرض بخيراتها في كثير من الأحيان ، وصعوبة المواصلات والتنقل بين البلدان ، وقطع العيارين وأمثالهم الطرق ، واستيلاؤهم على كل صادر ووارد ، لا نستفظع بعد ذلك أن نرى الناس يأكلون موتاهم وجيف الحيوان على اختلاف أنواعه من الجوع . وإذا فسدت حالة الأمة الاقتصادية ، واشتد فيها الفقر والجوع والحاجة ، اختلت فيها نظم الحياة كلها ، وعمت الفوضى كل شيء ، وأخذت الأمة تتدهور في دركات الشقاء ، وترجع إلى الوراء .

وقد عرض أبو العلاء في كلامه تصريحاً وتلميحاً صوراً مختلفة من فساد الحياة السياسية وغيرها الناشىء عن فساد الحياة الاقتصادية . كما عرض صوراً من فساد الحيـــاة الاقتصادية الناشىء عن فساد الحياة السياسية والدينية وغيرها . وقد ذكرنا منها ما يقنع المرتاب .

★ ★ ★

الحياة الدينية

يتراءى لنا من أقوال أبي العلاء التي انتهت الينا أن جُلّ الناس في عهده كانوا لا يتجاهرون بالإخلال بشيء من الواجبات الدينية ، كالصلاة والصوم والحج ونحوها مما يعود إلى العبادات . وإن كانت أعمالهم مشوبة بالرياء ، منبعثة عن الأغراض النفسية التي كانوا يتخذون الدين وسيلة إلى بلوغها .

وأما في المعاملات فكانت الأقوياء تستبيح كل ما تطول إليه أيديهم من أموال غيرهم وأعراضهم ودمائهم . وكانت قوانين الدين وأحكامه تطبق على بعض الضعفاء الذين لا يجدون رجالاً تنصرهم ، وأموالاً تذود عنهم .

وأن أصحاب الملل والنحل من غير المسلمين كانوا أحراراً في نشر عقائدهم ، وكانوا لا يألون جهداً في دس مزاعمهم بين أصناف الأمة .

وأن المسلمين كانوا أحراراً في إظهار آرائهم ومعتقداتهم ومعارضاتهم ، وأن فيهم فرقاً مختلفة تكفر كل واحدة منهن غيرها ممن لا يوافقها على عقيدتها أو تفسقها أو تجهلها .

وأن باب الجدل والمناظرة كان مفتوحاً على مصراعيه بين المسلمين أنفسهم ، وبينهم وبين غيرهم من أرباب الأديان الأخرى ، وبين كل من أرباب الأديان المذكورة أنفسهم ، وبينهم وبين غيرهم من أرباب الملل المخالفة لهم .

وأن الزنادقة والملحدين كانوا يستفرغون مجهودهم في بث مزاعمهم بين ضعفاء العقل والعلم ، لإغوائهم وتشكيكهم في دينهم .

وأن معظم الحكام في ذلك العهد كانوا مشغولين عن نصرة الدين وتقوية دعائمه ببسط سلطانهم وتأييد أركانه ونصرة أعوانه . وإنما كانوا يلجئون

إلى الدين إذا كانوا يجتنون من وراء ذلك فائدة ، فيتخذون نصرته والغيرة عليه ذريعة لقتل معاند لهم ، أو خارج عن طاعتهم ، أو معارض لسياستهم ؛ أو يتخذون منه وسيلة لاستصفاء مال من ينقمون عليه ، أو ما شابه هذا من الأمور التي تعود عليهم بالمنافع الخاصة .

ومع هذا كله كان في الأمة أفراد أفذاذ في العلم ، والتقى ، والزهد ، والإخلاص في العمل ، والنصح ، وعمل البر ، ونصرة الحق ، والإرشاد . ولكنهم كانوا قليلين بالنسبة لغيرهم .

ولم أر في كلام أبي العلاء أن فرقة من المسلمين أو مدينة من مدنهم عطلت شيئاً من شعائر الإسلام ، وإن ارتكب فريق منهم أعمالاً لا تتفق مع الإسلام .

الحياة العقلية

قلنا غير مرة : إن أنواع الحياة في العهد الذي أظل أبا العلاء كانت كلها قلقة مضطربة ، سائرة نحو الدمار والبوار . ما عدا الحياة العقلية ، فإنها كانت آخذة في النمو والتقدم .

وحسبك دليلاً على هذا ، أن المعرة لم تكن عاصمة للخلافة ، ولا مقرّاً للملك ، ولا من أمهات المدن الكبيرة في بلاد الشام . وإنما كانت إحدى مدنها المتوسطة في مركزها السياسي والعسكري والجغرافي . وقد أخرجت في ذلك العهد جماعات كثيرة من العلماء الأعلام في كل علم ، وأنبتت أفذاذاً في الشعر والأدب ، تخرج ببعضهم أبو العلاء في ثقافته الواسعة وخرج بعضاً آخرين كما تقدم .

طرق التعليم والتعلم

استظهرنا من حالة أبي العلاء أنه شرع وهو صغير السن في التعلم والدراسة في الكتاب والمسجد . إذ لم يكن في عهده مدارس مخصصة بتعليم الأطفال العلوم لا في المعرة ولا في غيرها .

وأنه تعلم القراءة بالحروف النافرة التي يقرؤها العميان باللمس .

كتب العلم والدراسة

ويتضح للمتأمل أن ذلك العهد كان عهد تنافس في التأليف والتدوين . وأن الكتب المؤلفة في العلوم ـ بحسب الغالب ـ أربعة أنواع :

١ — المتن : وهو الكتاب الجامع للقواعد الكلية ، والضوابط العامة ، والأقسام من علم واحد .

٢ — الشرح : وهو الكتاب الذي يوضح ما في المتن ، ويشرح قواعده وشواهده بصورة تقريبية . وربما زاد على المتن ما ينقصه من شروط وأركان وأقوال مناقضة ، وغير ذلك . إلا أنه بصورة مختصرة .

٣ — شرح الشواهد : وهو أن يعمد المؤلف إلى ما أورده صاحب المتن من أبيات الشعر شاهداً على حكم ، فيفسر المغلق من ألفاظه . وقد يذكر ما قبله أو بعده ويبين قائله ويذكر مولده ووفاته ، وطرفاً من أخباره وآثاره . ويتكلم على شيء من آثاره ومواطن عبقريته . ويبين محل الاستشهاد به ، وما فيه من نكت علمية وأدبية ، ونحو ذلك مما تدعو اليه الحاجة . وهذا النوع عند أهل عصرنا أتم وأجمع مما عرفه المتقدمون ، لأنه يتناول البحث عن حياة الشاعر وبيئته ، ومصادر ثقافته ، وعن نفسيته . كما يتناول الموازنة بينه وبين غيره ممن شاركه في بعض معانيه وألفاظه ونحو ذلك .

٤ — الامالي : وهي عبارة عن مباحث يتخيرها المملي لتحقيقها وتوضيحها . وليست لها وحدة تجمعها بل فيها من كل واد عصاً ، ومن كل شجرة زهرة .

وقد حدث عند المتأخرين عن هذا العهد نوعان ، يسمى أحدهما : الحاشية . والثاني : التقرير أو التقريرات .

أما الحاشية : فهي الكتاب الذي يبين ويشرح ويوضح ما أهمله المتن والشرح ، أو ما غمض في أحدهما أو كليهما ، ويتمم ما نقص ، ويذكر ما في المسألة من أقوال ، ويرجح بعضها على بعض . وقد يناقش المتن والشرح ، ويدحض حججهما ، ويذكر للمسألة أدلة وأشباها ، ويتعرض في الغالب لأكثر ما في المتن والشرح .

وأما التقريرات أو التقرير : فهي أن يعمد المؤلف إلى بعض المسائل التي في المتن أو الشرح أو فيهما فيشبعها بحثاً وتدقيقاً وتحليلاً ، ويرجّح فيها قولاً على قول ، ووجهاً على وجه ، وهو في الجملة عبارة عن حاشية موجزة .

مثال ذلك كتاب (تلخيص المفتاح) ألفه جلال الدين القزويني . ثم شرحه سعد الدين التفتازاني شرحاً مختصرا . ثم وضع عليه الشيخ مصطفى البناني حاشية ، ووضع عليه الشيخ الإنبابي تقريرا ووضع العثماني شرحاً لشواهده سماه (معاهد التنصيص) .

وقد يكون الكتاب خالياً من الشواهد ، فيكون له شرح وحاشية . وذلك مثل كتاب (جمع الجوامع) في علم الأصول ، ألف المتن تاج الدين عبد الوهاب بن السبكي ، وشرحه جلال الدين المحلي . ووضع عليه حواشي جماعة ؛ منهم البناني ، والشيخ حسن العطار . ووضع عليه تقريراً الشيخ عبد الرحمن الشربيني .

وقد رأيت في الكتب المدونة في عهد أبي العلاء متونا وشروحاً ، وشروحاً للشواهد ، وأمالي ولكني لم أر حاشية أو تقريرا .

على أن كتاب (عبث الوليد) لأبي العلاء يشبه التقرير ، من حيث إنه يشتمل على تحقيق للألفاظ ، وضبط للرواية ، وتفسير للمبهم ، وتبيين للخطأ ، وما شاكل ذلك . وهو لم يتناول مباحث الكتاب كله (١) .

☆ ★ ★

---

(١) هذا آخر ما كتبه المرحوم الأستاذ سليم الجندي ولا ندري أكان ينوي إضافة بحث يختم به الكتاب فلم يفسح له ذلك أم اكتفى بما صنف .

فهارس الجامع

الجزء الأول

١ ــ موضوعات الكتاب

المقالة الثالثة

الجزء الثاني

الصفحة

الصفحة

الجزء الثالث

※※※※※

فهرس الأعلام

(أ)

• • •

• • •

(ت)

★ ★ ★

(ث)

. . .

. . .

★ ★ ★

(ج)

★ ★ ★

(س)

★ ★ ★

(ص)

• • •

• • •

• • •

• • •

* * *

(ك)

* * *

(ي)



فهرس

الأمم والقبائل والأرهاط والطوائف والدول

★ ★ ★

(ب)

★ ★ ★

(ق)

* * *

١٢ / ١٤٥٢ : ٤ / ١٤٦٠ : ح /
١٤٩٧ : ح

. . .

اليهود ١٩٧ : ٨ / ٤١٣ : ٩ / ٤١٤ : ٩ /
٤٢٢ : ح / ٥١٤ : ٨ / ٥٢٧ : ١١ /
٥٢٨ : ٦ ، ح / ٥٣٥ : ح / ١٠٣٨ :
٨ / ١١٦٠ : ٧ / ١٢٥٤ : ١٠ /
١٣٥٧ : ٩ / ١٣٦٠ : ٨ / ١٣٦٢ :
١٣ / ١٣٦٣ : ١ ، ٧ ، ح / ١٣٦٤ :
ح / ١٣٦٦ : ٥ ، ٨ / ١٣٦٨ : ١ /
١٣٧٧ : ح / ١٣٨٢ : ٧ / ١٣٩٢ :
٨ / ١٣٩٦ : ٧ ، ح / ١٤٠٤ : ١ ،
٢ ، ٣ ، ٧ ، ٩ ، ١١ / ١٤٠٥ : ٢ ،
٧ ، ٩ ، ١١ / ١٤٠٦ : ٨ / ١٤٠٨ :
٢ ، ٩ ، ١٣ ، ح / ١٤٠٩ : ٨ /
١٤١٣ : ١٣ / ١٤١٤ : ٣ / ١٤١٧ :
١٥ ، ١٩ / ١٤٢٠ : ح / ١٤٢٢ :
٤ / ١٤٢٤ : ٦ / ١٤٣٢ : ٥ / ١٥٢١ :
١٠ ، ح / ١٥٢٢ : ٢ / ١٥٣٩ : ح

يهود خيبر ٥٢٤ : ٦

* * *

الملائكة والجن

(ب)

* * *

(ج)

* * *

(ح)

* * *

(ز)

* * *

(ش)

* * *

(م)

البلدان والأماكن والمياه

★ ★ ★

★ ★ ★

(د)

. . .

. . .

★ ★ ★

(ص)

المالية ٢٧٣ : ح / ١٣٢٤ : ح
عانة ٧٧ : ١٣ ، ١٥ / ٧٩ : ١ ، ١٢ / ٢٣٧ : ٥ / ٦١٠ : ١٥ / ٨٧١ : ح / ٩٧٣ : ١٣ ، ١٥

. . .

عبادان ١٤٤٢ : ٥

. . .

المذيب ٢٧٨ : ٦ ، ح

. . .

العراق ٢٩ : ١٣ / ٦٢ : ١٥ / ٦٣ : ٧ / ١٠١ : ٢ ، ٤ / ١٠٢ : ٩ ، ٢١ / ١٠٥ : ٢١ / ١٠٦ : ٢ ، ٣ ، ٥ ، ٦ / ١١٠ : ٥ ، ٨ / ١١١ : ٩ / ١١٢ : ٦ ، ٩ / ١١٣ : ١٤ ، ١٧ ، ٢٠ / ١١٥ : ٥ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٦ ، ٢٢ / ١١٦ : ٦ ، ٨ ، ١٢ / ١١٨ : ٧ / ١٢١ : ٦ / ١٢٣ : ١ ، ١٠ / ١٢٩ : ٢٣ / ٢١٢ : ٥ ، ١٦ / ٢١٣ : ٥ / ٢١٤ : ١١ / ٢١٥ : ٢ ، ٣ / ٢٢٣ : ٢ ، ٥ / ٢٢٦ : ١٦ ، ١٧ / ٢٣٠ : ٥ / ٢٤١ : ١١ / ٢٤٧ : ١٣ / ٢٥١ : ١٣ ، ١٤ / ٢٦٥ : ٩ / ٢٦٧ : ٩ ، ١٢ / ٢٦٩ : ٢ / ٢٧٩ : ٩ ، ١٧ / ٢٨٢ : ١٠ / ٢٨٣ : ٢ ، ٩ / ٢٨٧ : ٦ / ٢٨٨ : ٥ / ٢٩٠ : ٦ / ٢٩٢ : ١ ، ٢ / ٣٠٣ : ١٨ / ٣١٧ : ٥ / ٣٥٠ : ٣ / ٤٥٥ : ١١ / ٤٦٢ : ٦ / ٤٦٥ : ١٢ / ٤٧٤ : ١٦ / ٤٨٥ : ٦ / ٤٩٥ : ٣ ، ٤ / ٥٠٦ : ٧ / ٥٥١ : ٧ / ٥٥٦ : ١ / ٥٥٩ : ١٣ / ٥٩٤ : ١٩ / ٥٩٦ : ٩ / ٦٤٥ : ٣ / ٧٣٦ : ٧ / ٧٣٧ : ٥ / ٨٢٤ : ٢ ، ح / ٨٦١ : ٣ / ٩٦١ : ٤ ، ٥ / ٩٧١ : ٤ / ٩٧٥ : ٩ / ٩٧٦ : ٤ ، ١٠ / ١٠٥٧ : ٦ / ١٠٦٨ : ٦ / ١٠٨٧ : ٩ / ١٢٠٦ : ٢ ، ٣ / ١٢٥٤ : ح / ١٢٦٨ : ح / ١٣٤٠ : ح / ١٣٩٨ : ٨ / ١٤٣٥ : ٧ / ١٤٤٦ : ١٦ / ١٦٠٠ : ١٠ / ١٦٢٣ : ح

العروض ٧١٧ : ح
عريتنات ٨٥١ : ح / ١١٣٨ : ١٤
العريش ٨٢ : ٢ / ٩٧٨ : ٧

. . .

عزاز ٧٨ : ح

. . .

★ ★ ★

(ل)

* * *

(ي)

* * *

النجوم والكواكب والأفلاك

(أ)

الأفلاك ١ : ١٣٠٤

الأقمار ٧ : ١٢٩٩

* * *

(ب)

البدر ٥٩ : ١٨ / ٦٤٣ : ٩ / ٩١٧ : ح /
٩٣٨ : ٣ / ١٠٠٤ : ٧ / ١٠٢٠ :
٢ / ١٠٢٤ : ح / ١٠٢٨ : ح /
١٠٤٧ : ح / ١٠٦٦ : ١٧ / ١٠٦٧ :
١٣ / ١٠٦٨ : ١٥ / ١٠٧٢ : ٢ /
١٠٩٥ : ٨ / ١١٠٢ : ٨ / ١١١٨ :
٣ / ١١٣٠ : ٤ / ١١٣٥ : ١٧ /
١١٣٦ : ٢ / ١٢١٠ : ١١ / ١٢١١ :
١٢ / ١٢١٢ : ٩ / ١٢٩٤ : ٦
(وانظر أيضاً القمر والهلال والزبرقان)

. . .

البطين ٨١٥ : ١٤

. . .

بنات نعش ١٢٩٣ : ١٠ / ١٣٧١ : ح

* * *

(ث)

الثريا ٢٣٣ : ١٢ / ٢٤١ : ٨ / ٨١٤ : ١ /
٨١٥ : ١٣ / ١٠٦٢ : ٢ / ١٠٦٦ :
١٣ / ١٠٦٨ : ٦ / ١٠٧١ : ٨ /
١٠٧٥ : ١٣ / ١٠٩٨ : ١١ / ١١١٤ :
٨ ، ١٣ / ١٢٩٣ : ١٢ / ١٣٧٠ :
ح / ١٣٧٤ : ٥ / ١٤٩١ : ح

* * *

(ج)

الجبهة ٨١٥ : ١١

. . .

جدي الفرقد ٣٥ : ٢٠

. . .

الجوزاء ٥٩ : ١٨ / ٤٨١ : ١٠ / ٨١٥ :
١١ / ٩١٧ : ح / ١٠٢٤ : ح /

* * *

(ح)

* * *

(ر)

* * *

(ز)

* * *

(س)

★ ★ ★

(ش)

★ ★ ★

(ط)

★ ★ ★

* * *

(م)

* * *

(ن)

* * *

* * *

الأديان والمذاهب

(أ)

• • •

★ ★ ★

الكتب

* * *

(ح)

* * *

ح/ ١٠١٧ : ح/ ١٠١٨ : ح/
١٠١٩ : ح/ ١٠٢٠ : ح/ ١٠٢١ :
ح/ ١٠٢٢ : ح/ ١٠٢٣ : ح/
١٠٢٤ : ح/ ١٠٢٥ : ح/ ١٠٢٦ :
ح/ ١٠٢٧ : ح/ ١٠٢٨ : ح/
١٠٢٩ : ح/ ١٠٣٠ : ح/ ١٠٣١ :
ح/ ١٠٣٢ : ح/ ١٠٣٣ : ح/
١٠٣٤ : ح/ ١٠٣٥ : ح/ ١٠٣٦ :
ح/ ١٠٣٧ : ح/ ١٠٣٨ : ح/
١٠٣٩ : ح/ ١٠٤٠ : ح/ ١٠٤٦ :
ح/ ١٠٤٧ : ح/ ١٠٤٨ : ح :
١٠٤٩ : ح/ ١٠٥٠ : ح/ ١٠٥١ :
ح/ ١٠٥٢ : ح/ ١٠٥٥ : ح/
١٠٥٦ : ح/ ١٠٥٧ : ح/ ١٠٥٨ :
ح/ ١٠٥٩ : ح/ ١٠٦٠ : ح/
١٠٦١ : ح/ ١٠٦٢ : ح/ ١٠٦٣ :
ح/ ١٠٦٤ : ح/ ١٠٦٥ : ح/
١٠٦٦ : ح/ ١٠٦٧ : ح/ ١٠٦٨ :
ح/ ١٠٦٩ : ح/ ١٠٧٠ : ح/
١٠٧١ : ح/ ١٠٧٢ : ح/ ١٠٧٣ :
ح/ ١٠٧٧ : ح/ ١٠٧٨ : ح/
١٠٧٩ : ح/ ١٠٨١ : ح/ ١٠٨٣ :

ح/ ١٠٨٥ : ح/ ١٠٨٦ : ح/
١٠٨٨ : ح/ ١٠٩٠ : ح/ ١٠٩١ :
ح/ ١٠٩٢ : ح/ ١٠٩٣ : ح/
١٠٩٥ : ح/ ١٠٩٦ : ح/ ١٠٩٧ :
ح/ ١١٠٠ : ح/ ١١٠١ : ح/
١١٠٣ : ح/ ١١٠٤ : ح/ ١١٠٥ :
ح/ ١١٠٦ : ح/ ١١٠٧ : ح/
١١٠٨ : ح/ ١١٠٩ : ح/ ١١١٠ :
ح/ ١١١١ : ح/ ١١١٢ : ح/
١١١٣ : ح/ ١١١٤ : ح/ ١١١٥ :
ح/ ١١١٦ : ح/ ١١١٧ : ح/
١١١٨ : ح/ ١١١٩ : ح/ ١١٢٠ :
ح/ ١١٢١ : ح/ ١١٢٢ . ح/
١١٢٣ : ح/ ١١٢٤ : ح/ ١١٢٥ :
ح/ ١١٢٦ : ح/ ١١٢٧ : ح/
١١٢٨ : ح/ ١١٢٩ : ح/ ١١٣٠ /
ح/ ١١٣١ : ح/ ١١٣٢ : ح/
١١٣٣ : ح/ ١١٣٤ : ح/ ١١٣٥ /
ح/ ١١٣٦ : ح/ ١١٥١ : ح/
١١٥٢ : ح/ ١١٧٠ : ح/ ١٢١٠ :
ح/ ١٢١٢ : ح/ ١٢١٣ : ح/
١٢١٤ : ح/ ١٢١٥ : ح/ ١٢١٦ :

. . .

. . .

* * *

(ظ)

★ ★ ★

(ع)

. . .

. . .

. . .

* * *

(غ)

* * *

(ق)

١٥١٢ : ح/ ١٥١٣ : ح/ ١٥١٤ :
ح/ ١٥١٥ : ح/ ١٥١٦ : ح/
١٥١٧ : ح/ ١٥١٨ : ح/ ١٥١٩ :
ح/ ١٥٢٠ : ح/ ١٥٢١ : ح/
١٥٢٢ : ح/ ١٥٢٣ : ح/ ١٥٢٤ :
ح/ ١٥٢٥ : ح/ ١٥٢٦ : ح/
١٥٢٧ : ح/ ١٥٢٨ : ح/ ١٥٢٩ /
ح/ ١٥٣٠ : ح/ ١٥٣١ : ح/
١٥٣٢ : ح/ ١٥٣٣ : ح/ ١٥٣٤ :
ح/ ١٥٣٥ : ح/ ١٥٣٦ : ح/
١٥٣٧ : ح/ ١٥٣٨ : ح/ ١٥٣٩ :
ح/ ١٥٤٠ : ح/ ١٥٤١ : ح/
١٥٤٢ : ح/ ١٥٤٣ : ح/ ١٥٤٤ :
ح/ ١٥٤٥ : ح/ ١٥٤٦ : ح/
١٥٤٧ : ح/ ١٥٤٨ : ح/ ١٥٤٩ :
ح/ ١٥٥٠ : ح/ ١٥٥١ : ح/
١٥٥٢ : ح/ ١٥٥٣ : ح/ ١٥٥٤ :
ح/ ١٥٥٥ : ح/ ١٥٥٦ : ح/
١٥٥٧ : ٦، ح/ ١٥٥٨ : ح/ ١٥٥٩ :
ح/ ١٥٦٠ : ٩/ ١٥٦١ : ح/
١٥٦٢ : ح/ ١٥٦٣ : ح/ ١٥٦٤ :
ح/ ١٥٦٥ : ح/ ١٥٦٦ : ح/
١٥٦٧ : ح/ ١٥٦٨ : ح/ ١٥٦٩ :

ح/ ١٥٧٠ : ح/ ١٥٧١ : ح/
١٥٧٢ : ٣، ح/ ١٥٧٣ : ح/ ١٥٧٤ :
ح/ ١٥٧٥ : ح/ ١٥٧٨ : ح/
١٥٧٩ : ح/ ١٥٨٠ : ح/ ١٥٨٤ :
ح/ ١٥٨٥ : ح/ ١٥٨٦ : ١٤،
ح/ ١٥٨٧ : ح/ ١٥٨٨ : ح/
١٥٨٩ : ح/ ١٥٩٠ : ٥، ح/
١٥٩١ : ح/ ١٥٩٢ : ح/ ١٥٩٣ :
ح/ ١٥٩٤ : ح/ ١٥٩٥ : ح/
١٥٩٦ : ح/ ١٥٩٧ : ح/ ١٥٩٨ :
ح/ ١٥٩٩ : ح/ ١٦٠٠ : ح/
١٦٠١ : ح/ ١٦٠٢ : ح/ ١٦٠٣ :
ح/ ١٦٠٤ : ح/ ١٦٠٥ : ح/
١٦٠٦ : ح/ ١٦٠٧ : ح/ ١٦٠٨ :
ح/ ١٦٠٩ : ح/ ١٦١٠ : ح/
١٦١١ : ح/ ١٦١٢ : ح/ ١٦١٣ :
ح/ ١٦١٧ : ح/ ١٦١٨ : ح/
١٦١٩ : ح/ ١٦٢٠ : ح/ ١٦٢١ :
ح/ ١٦٢٢ : ح/ ١٦٢٣ : ح/
١٦٢٤ : ح/ ١٦٢٥ : ح/ ١٦٢٦ :
ح/ ١٦٢٧ : ح/ ١٦٢٨ : ح/
١٦٢٩ : ح/ ١٦٣٠ : ح/ ١٦٣١ :
ح/ ١٦٣٢ : ح/ ١٦٣٣ : ح/

(م)

• • •

(و)

(هـ)

(ي)

* * *

فهرس القوافي (١)

(العلائيات)(٢)

(قافية الهمزة)

القافية	البحر	الصفحة
غرباء	الطويل	٢٠ ، ٢٨
الكبراء	»	٣٢٥ ، ١٠٢٣
رثاء	»	٣٧٥
برءاء	»	٣٢٥ ، ١٣٠٧
ووراء /٢/	»	٧٠٢
شقاء	»	٧٢٤
صباء	»	٩٨١
القرباء	»	٩٨١ح، ١١٦٢، ١٧١٣
شقاء	»	٩٨٧
سواء	»	٩٨٩
الشعراء	»	١٠٢٩
هراء	»	١٠٣٣ ، ١٦٢٩
ثناء /٦/	الطويل	١١٠١
إباء	»	١١٧٨
سباء	»	١٣٢٩
هباء	»	١٣٣١
أدباء	»	١٥١٧
رياء	»	١٥٢٧
بلامي باء /٢/	»	١٥٥٠ ، ١٥٦٩
خطباء	»	١٥٧٢ ، ١٥٧٨
أرباء	»	١٥٧٨
ونصدأ	»	١٣٢٤
إلواء	البسيط	٦١٥
إقواء	»	٦٣٤ ، ٩٤٠ ، ١٢١٨
ساءوا /٢/	»	١٤٤٩

(١) رتبت القوافي على البحور والحركات : الضم ثم الفتح ثم الكسر ثم السكون . والرقم الذي يتلو القافية يدل على عدد الأبيات التالية .

(٢) هذا الفهرس يشتمل على ما ورد في الكتاب من أبيات أبي العلاء .

(قافية الحاء)

(قافية الخاء)

(قافية الدال)

(قافية الغين)

. . .

(قافية الفاء)

(قافية الكاف)

(قافية اللام)

(قافية الياء)

★ ★ ★

أنصاف الابيات الملائية

(الصدور)

(الأعجاز)

★ ★ ★

(قافية الراء)

(قافية الكاف)

(قافية اللام)

(قافية النون)

★ ★ ★

أنصاف الابيات غير العلائية

الصدور

* * *

(الأعجاز)

* * *

فهرس النصوص النثرية العلائية(*)

الأدعية والتمجيد :

خطبة الفصيح :

ذكرى حبيب :

رسائل أبي العلاء إلى داعي الدعاة :

(*) ذكرنا عقب عنوان الكتاب ملخصات عن موضوعات النصوص التي انتحلها المؤلف واستشهد بها ، وقدمنا رقم الصفحة على رقم السطر . فاذا استغرق الشاهد صفحتين متتاليتين أو أكثر وضعنا بين الرقمين خطاً ـ .

رسالة الإغريض :

رسالة الى أحمد بن عثمان النامي :

رسالة الى أبي عمرو الاستراباذي :

رسالة الى خاله علي بن سبيكة :

رسالته الى خادم المشرف بن سبيكة :

رسالته الى صدقة بن يوسف الفلاحي :

رسالته الى القاضي أبي الطيب الطبري :

رسالة الى صديق له يسأله أن ينقصه في ترتيب الملائكة :

رسالة الى بعض العلويين :

رسالة الى أهل المعرة :

رسالة الى محمد بن سنان الخفاجي :

رسالة الضبعي :

الطائف :

مقدمة ثبت كتبه :

* * *


الناشر